الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر

إفريقيا

لمارمول كربخال

الجزء الأول

ترجمة عن الفرنسية

محمد حجي محمد زنيبر محمد الأخضر

أحمد التوفيق أحمد بنجلون

مكتبة المعارف
للنشر والتوزيع
ص. ب: 239 - الرباط.
الهاتف: 265.24

الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر



إفريقيا

لمارمول كرفجال

الجزء الأول

ترجمه عن الفرنسية

محمد حجي محمد زنيبر محمد الأخضر
أحمد التوفيق أحمد بنجلون



طبع هذا الكتاب بمطابع المعارف الجديدة
سنة 1404 موافق 1984

رقم الايداع القانوني 117 — 1984

بسم الله الرحمن الرحيـــــم

تقديـــــم

كتاب إفريقيا لمارمول كرفجال يُعدُّ من المؤلفات المهمة التي كتبت في القرن السادس عشر عن افريقيا عامة، وشمالها خاصة، والمغرب الأقصى بصفة أخص، ويحتل الدرجة الثانية بعد **وصف إفريقيا** للحسن الوزان أو جان ليون الافريقي. وقد تعاصر هذان المؤلفان ولم يفصل بين كتابتهما غير نحو أربعين سنة كما سنرى.

وقد ارتأت الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، بعد أن ترجمت ونشرت كتاب **وصف إفريقيا** للحسن الوزان، أن تعززه بترجمة ونشر كتاب مارمول، لاتحاد موضوعهما وتشابه نظرتهما وطريقتهما في الكتابة، وتكاملهما بحيث تجدهما كثيرا ما يتحدثان عن نفس الموضوع، ويذكر أحدهما ما أغفله صاحبه، أو يحدد ويضبط ويوضح ما بقي عند الآخر عاما أو غفلا أو مبهما. بل لا تكاد تجد مؤرخا أو جغرافيا ممن أتى بعدهما رجع إلى أحد الكتابين على انفراد للاسباب التي ذكرنا.

وإذا كان كتاب الحسن الوزان لا يثير أي إشكال من حيث محتواه، لكفاية الرجل العلمية ونزاهته الفكرية والدينية رغما على ظروف الأسر الدقيقة التي ألف فيها هذا الكتاب، فإن كتاب مارمول ـــ على العكس من ذلك ـــ أثار أمامنا مصاعب شتى جعلتنا نتوقف طويلا ونتردد قبل أن نقدم على الترجمة، ونجتمع أكثر من مرة أثناءها للتشاور في بعض الجزئيات والعبارات أو الكلمات المحرجة. ذلك أن مارمول كتب ما كتب متعصبا للمسيحية ضد الاسلام، وخصص الجزء الأول من مؤلَّفه لتاريخ الاسلام العام في الشرق والغرب وهو به جاهل، إلّا ما استقاه من مكتبات الأديرة، وحوليات القساوسة، وهي مليئة

بالأساطير طافحة بالكراهية والحقد والتحامل، حتى إن مارمول لايتصور تاريخ القرون العشرة التي تحدث عنها سوى سلسلة من المعارك والحروب المتلاحقة التي لم تتوقف ولم تنقطع بين المسلمين والمسيحيين منذ محمد عليه السلام إلى عهد العثمانيين والشرفاء السعديين في عصره. بالاضافة إلى الروح الملحمية الأسطورية السائدة عنده، فالنصر غالب في جانب النصارى، والهزيمة لا تكاد تنفك عن المسلمين حتى في الوقائع الخالدة الشهيرة كالزلاقة، وما يفقده المسلمون من قتلى وأسرى ولو في الاشتباكات البسيطة لا يعدُّ إلّا بالآلاف وعشرات الآلاف، الأمر الذي جعلنا نفكر أولاً في أن نضرب صفحاً عن بعض أقسام الكتاب، لكننا رأينا أن ذلك سيبتره وأن نقله كله لا يخلو من فوائد، منها التعرف على مدى جهل المسيحيين بتاريخ الاسلام حتى مشارف العصر الحديث، والتصدي بالتصحيح والتعليق على ما فيه من أخطاء صارخة كيلاً يضلَّ بها الأغرار من ذوي النيات الحسنة، بالاضافة إلى الوقوف على روايات الجانب الآخر ووثائقه، ولا سيما فيما يتعلق بالامبراطورية الرومانية، وشبه الجزيرة الايبيرية، وما وراء جبال البرانس من البلاد التي وطئتها أقدام الجيوش العربية الاسلامية.

مارمــــول

لا نعرف عنه إلا ما ذكره في مقدمة كتابه **افريقيا**، وهو ما اكتفت بنقله **الموسوعة الاسبانية** (1) في الترجمة القصيرة التي خصصتها لمارمول ، فقد ولد بغرناطة في أوائل القرن السادس عشر، وخرج من مسقط رأسه وهو حديث السن، فسار في جيش الامبراطور شارلكان الذي غزا تونس سنة 942 هـ / 1535 م، وحضر احتلال هذه المدينة وما جرى فيها من أعمال السلب والنهب وهتك الأعراض وتدنيس الحرمات حقا من طرف المرتزقة الصليبيين، وبعد مغادرة الأسطول الامبراطوري لتونس، بقي مارمول في شمال إفريقيا يقوم بمهمة كلّفه بها شرلكان، وطال مقامه في هذه البلاد نحو اثنتين وعشرين سنة، أسر خلالها من طرف الشرفاء السعديين، وبقي عندهم أسيرا بسبعة أعوام وثمانية أشهر، يسير في ركابهم أين ساروا عبر بلاد سوس الأقصى والصحراء، أو في منطقتي فاس وتلمسان

---

(1) ENCICLOPEDIA UNIVERSAL ILUSTRADA EUROPEO AMERICANA , MADRID - BARCELONA , T XXX 111 , P 261 .

وغير ذلك من الجهات التي تقلبوا فيها ؛ وعاصر مارمول ثلاثة من ملوكهم : أحمد الاعرج، ومحمد المهدي الشيخ، وعبد الله الغالب، ووصف عن مشاهدة حربهم وسلمهم، وخلافهم ووفاقهم، وأفراحهم وأتراحهم، وبخاصة علاقاتهم بمنافسيهم من الوطاسيين ملوك فاس، وأتراك الجزائر. وذلك ما يجعلنا نُقدِّر أن أسرهُ بالمغرب كان في آخر فترة مقامه بإفريقيا، أي من سنة 959 هـ / 1552 م إلى سنة 966 هـ / 1559 م.

وإذا كان مارمول لم يُفصح عن المهمة التي كلفه بها الامبراطور في إفريقيا، فإن مقامه الطويل فيها، وتنقله الدائب، وتطلعه الكثير، وتعلمه اللغة العربية والبربرية إلى ما تعرض له من سجن وأسر، كل ذلك يدلّ بصريح العبارة على أن الامر يتعلق بالجاسوسية واستخبار أحوال البلاد الاسلامية في هذه المنطقة للتعرف على مواطن الضعف فيها، وتسهيل مامورية جيش الامبراطور الذي كان يُبيِّتُ لسائر أقطار شمال إفريقيا ما صبّح به تونس، لتحقيق أمنية بطانته الكنسية في الاجهاز على الاسلام بالضفة الجنوبية للبحر المتوسط، وإحلال المسيحية محله. ويعزز افتراض التجسس عند مارمول ما جاء عند الراهب الاسباني فيرناندو دي كونطريراس (2) في رحلته الثانية إلى فاس سنة 946 ـــ 947 هـ / 1539 ـــ 1540 م من أن مكانة هذا الراهب قد ازدادت لدى السلطان أحمد الوطاسي بسبب ما قدَّم إليه من معلومات حول الأخوين السعديين أحمد الاعرج ومحمد المهدي الشيخ وفشل حصار الشرفاء لمدينة آسفي، حتى إن السلطان الوطاسي سمح له بافتداء الأسرى دون أن يؤدي ثمنهم في الحين. ومن أين يا ترى كان لهذا الراهب القادم من داخل شبه جزيرة إيبيريا أن يحصل على أسرار اقصى جنوب المغرب إن لم يكن من مارمول ومَنْ على شاكلته من العيون المنبثة في عين المكان ؟ وهناك أكثر من دليل يؤكد نشاط الجاسوسية الاسبانية بالمغرب في هذه الفترة، من ذلك ما كتبه راهب ايبريّ آخر يُدعى نيكولا كليناردا (3) وهو مستعرب أيضا أقام سنتين بفاس 947 ـــ 948 هـ / 1540 ـــ 1541 م، وغرضه الظاهر ـــ كما جاء في إحدى رسائله ـــ أن يتضلع في اللغة العربية ويقتني كتب المتكلمين وأهل التوحيد

---

(2) Ricard (R) , Les deux voyages du P.Fernando de Contreras (1535 - 1536 et 1539 - 1540) Hespéris , 1934 , T.XIX , Fas. 1 et 2 pp . 39 - 44

(3) Le Tourneau (R) , Notes sur les lettres latines de Nicolas Clénard , relatant son séjour dans Royaume de Fes (1540 - 1541) Hespéris . 1934 , T.XIX, Fas . 1 et 2 pp 45 - 63 .

ليستطيع الرد على المسلمين ومحاجتهم بلغتهم ويؤلف في ذلك بنفس القدرة التي يرد عليهم باللسان اللاتيني. ومن بين رسائله الخمس عشرة التي وقف عليها لوطورنو رسالة وجهها كليناردو إلى شارلكان أواخر سنة 1541 أو أوائل سنة 1542 بعد رجوعه من الرحلة المغربية، الأمر الذي يدل على وقوف رجال الكنيسة صفاً واحداً وراء الامبراطور الكاثوليكي. ولا يخامرنا شك في أن مارمول كان على شاكلة هؤلاء الرهبان المُسيَّسين، راهبا صريحا أو ناشئا في أديرتهم متشبعا بعقليتهم وكراهيتهم للاسلام.

وقد ألف مارمول — زيادة على كتاب **افريقيا** —

— **ثورة الموريسكين بغرناطة** ومالقوا من عقوبات، وقد نشر بغرناطة سنة 1600 ويعتبر هذا الكتاب تفسيرا وتكملة لكتاب مندوس في نفس الموضوع.

وترجم كتاب :

— **الهام الجيش المقدس،** كما ذيّل كتاب

— **صلوات القسيسين الرومان.**

كتاب إفريقيـــا

ألف مارمول كتاب **إفريقا** أوأتمه على الاصح بعد سنة 979 هـ / 1571 م بعد ان اطلع على كتاب **وصف إفريقيا** للحسن الوزان، ونسج على منواله، بل اقتفى أثره حذو النعل بالنعل، ونقل منه فصولا كثيرة حرفا بحرف. ومعلوم أن الحسن الوزان أنهى تأليف **وصف إفريقيا** بمدينة روما عام 933 هـ / 1526 م، وطُبع لأول مرة بمدينة البندقية عام 956 ه / 1550 م، وأعيد طبعه بعد أربع سنوات، ثم مرات وكرات، الأمر الذي يدل على مدى إقبال الأوربيين عليه كمادة جديدة لاعلم لهم بها من قبل. غير أننا نفترض أن مارمول لم يطلع على **وصف افريقيا** المطبوع فحسب، بل اطلع على المخطوط الأصلي أيضا لما كان له من صلة وثيقة بالبلاطين الامبراطوري والبابوي. ذلك أن كتاب الوزان المطبوع بالبندقية — وهو الذي ترجم إلى كثير من اللغات الاوربية ونقل أخيرا إلى العربية — مبتور أُسقط منه القسم الأول المتعلق بتاريخ الاسلام الذي أحال عليه المؤلف كثيرا في

الأقسام الباقية. ونسير في افتراضنا قُدما فنقول إنه ربما كان لمرمول يدٌ في بتر كتاب الوزان، وإخفاء قسم تاريخ الاسلام منه وإعدامه. لأننا إذا قسنا القسم التاريخي المفقود للوزان على الأقسام الجغرافية الباقية منهجا وروحا وموضوعية، فإن ذلك لا يروق طبعا وقطعا في أعين الصليبيين المتعصبين، ولا أيسر على مارمول وهو يسلخ كتاب الوزان ــ بدون حياء ــ أن يستأثر بالقسم المتعلق بتاريخ الاسلام ويحوره بما يلائم أهواء قومه ويقحم فيه من الخرافات والأباطيل ما لا يقره منطق ولا واقع.

ومهما يكن من أمر، فإن كتاب **إفريقيا** لمارمول يبقى مع ذلك مفيدا للباحثين في جغرافية إفريقيا وتاريخها في القرن السادس عشر، كذيل مكمِّلٍ لكاتب الحسن الوزان، مُتَفَرِّدٌ بما سَجَّلَ عِينَةً من أحداث ووَصَفَ من مواقع لم يقف عليها غيره.

عملنا في الترجمة

نقلنا هذا الكتاب عن الترجمة الفرنسية التي قام بها نيكولا بيرو دابلانكور (1606 ــ 1664)، ونشرت في باريز بعد موته سنة 1667، في ثلاثة مجلدات وقد تفضل الزميل السيد الحسين بوزنيب أستاذ اللغة الاسبانية بكلية الآداب بالرباط بمراجعة ما نتوقف أحيانا على مقابلته بالنسخة الاسبانية الأصلية المنشورة باسبانيا كذلك في ثلاثة أجزاء، الاول والثاني بغرناطة سنة 1573 ، والثالث بمالقة سنة 1599. وقد حافظنا على نقل النص الفونسي على حاله ، ولم نحذف منه سوى كلمات القذف ، والفصل المتعلق بحياة محمد عليه السلام مع فقرات من فصل الخلفاء الراشدين لما فيها من معلومات خاطئة وعبارات نابية، وترجمنا كذلك الهوامش على حالها أو علقنا عليها حسب الاقتضاء، وأضفنا هوامش أخرى ميزناها عن الأصلية بإضافة كلمة « مترجم ».

الرباط، في فاتح جمادى الآخرة 1403 / 16 مارس 1983

المترجمون

« مقدمــة مارمــول »

ترجمها إلى الفرنسية : ب. ريشولي

إذا رجعنا إلى أبعد تواريخ عصرنا أدركنا أن سلطة القوط، والقرطاجنيين، والرومان، لم تفق قطعا سلطة العرب. فقد خرج هؤلاء (البرابرة)من بلادهم بقيادة نبيهم محمد(1) ، وأبي بكر، وعمر، وعلي، وعثمان، وآخرين من رؤساء ملتهم، فتغلبوا على عدد لا يكاد يعدُّ من الشعوب، أرغموهم على انتحال عاداتهم واعتناق دياناتهم. انتزعوا أولاً من يد الرومان المناطق الثلاث في الجزيرة العربية، ثم فتحوا بلاد الشام، وفارس، والهند، عاصفين بعالم الآداب الذي كان مزدهرا فيها، فقتلوا وأحرقوا كل شيء وغمروا أقطار آسيا وإفريقيا وأروبا مآسي، أضف إلى هذه الفتن تخريب المعابد وتدنيس الحرمات، وتضليل الامم(2)، ثم إن طموح هؤلاء المسلمين(3) قد تزايد، ورأوا أن إحراز نصر سيفتح أمامهم السبيل إلى نصر آخر، وسيحطمون بالتالي عقيدة المسيح، ويقيمون عقائدهم في العالم النصراني، لذلك وجهوا أسلحتهم ضد اليونان، وإيطاليا، وإسبانيا، وفرنسا، فهاجموها بحراً وبراً ونشروا أصداء شجاعتهم بكيفية جعلتهم يحملون الرعب إلى القلوب في كل مكان، وترتجف منهم فرائص جميع ملوك الأرض.

ودام ملك العرب ثلاثة قرون كاملة، ولم يضعف إلا بسبب ما أصابهم من الطموح والفتنة . ورغم ذلك فإن الدول الكاثوليكية لم تكن أكثر إطمئنانا، لأن الأتراك الذين يؤمنون بنفس الدين (الاسلامي) والذين لم يحتلوا مكانتهم إلا بقوة السلاح، أوقعوا الكنيسة في اضطرابات جديدة، غير أنه لما بدأت آسيا تتنفس

---

(1) من هنا يبتدىء تحامل مارمول على الاسلام ونبيه الكريم ، فينبزه بألقاب جارحة لم نر بدّا من حذفها .

(2) هذا أيضا يبين تعصب مارمول المسيحي الضيق الافق ضد الدولة العربية الاسلامية ، وقد تركنا مهاتراته على حالها دون تعليق ــ في أغلب الأحيان ــ لأنها مكشوفة تحمل في طيها تكذيبها والرد عليها .

(3) عندما يتحدث مارمول عن المسلمين يعبر عنهم بالكفار ، لذلك أثبتنا في الترجمة كلها كلمة « المسلمين » التي تعبر – لغويا واصطلاحيا – عن مقصوده بالكفار .

الصعداء، وأخذت شوكة العرب تضعف فيها، انتقل هؤلاء المسلمون إلى إفريقيا وإسبانيا أيام رودريق وانضموا إلى الأفارقة الذين سبق لهم أن اعتنقوا دينهم فعملوا جميعا على تخريب أوربا بكاملها. ودامت هذه الحرب في إسبانياسبعمائة وثمانية وسبعين عاما (4) كانت الحرب خلالها سِجالًا بين الطرفين، إلى أن أمد الله بعونه فيرناندو وايزابيلا فطردا هؤلاء الطغاة من الأراضي التي سلبوها وملؤوها رعبا طوال هذه المدة المديدة من الزمن. لكنه من الأكيد أن إسبانيا لم تُصَبْ بهذا القدر من الفجائع إلا من أجل جوارها لافريقيا، التي تفردت أقاليمها بإراقة دم عدد لايحصى من الشهداء. وبالرغم من ذلك لم يكتب أحد لحد الآن تاريخ هذا الجزء من العالم. وإن كان من صالحنا أن تكون لنا معرفة تامة به، سواء للسلم من أجل التجارة، أو للحرب حتى نقوم بها بفعالية. حقا إن علاقات عوائدنا، وديننا،ولغتنا بلغة إفريقياودينها وعوائدها قليلة جدا، وإن خير مؤلفينا لا تربطهم غير صلة ضعيفة بهؤلاء البرابرة، فلا يستغرب والحالة هذه إذا لم تكن لنا بعدُ معهم علاقات خاصة. أما أنا فقد خرجت من مسقط رأسي غرناطة وأنا ما أزال في ميعة الشباب، لكنني لم أغادرها إلّا لِإشارك في الحملة الحربية الكبرى التي قام بها شارل الخامس ضد مدينة تونس، ولما سقطت هذه المدينة المحصنة بقيت أعمل تحت راية الامبراطور في أقطار إفريقيا كلها مدة عشرين سنة، متعرضا لكل ما جرى من أحداث عظيمة تستحق الذكر. لكن الحظ أوقعني في أيدي الأعداء الذين أخذوني أسيرا طوال سبع سنين وثمانية أشهر في مملكة مراكش، وترودانت، وتلمسان، وفاس، وتونس. وفي ذلك الوقت سرت في ركاب محمد (5) عبر صحراء ليبيا حتى وصل إلى المكان المسمى بالساقية الحمراء على تخوم غينيا، وقد استولى هذا الشريف على الأقاليم الغربية لافريقيا متنقلا من نصر إلى آخر. وقمت بأسفار أخرى في البحر وفي البر، كنت أثناءها تارة حرا وتارة أسيرا. فجبت بلاد البربر كلها ومصر، حيث شاهدت أشياء كثيرة هائلة، بدا لي أن الناس المحترمين بإسبانيا سيروقهم الاطلاع عليها، بالاضافة إلى أنني بسبب ميلي طول الحياة إلى كتابة التاريخ، نظرت بإمعان طويل فيما لدينا من مؤلفات وافية مستقصية

(4) هكذا لا يرى مرمول في الدولة الاسلامية بالاندلس سوى سلسلة حروب متواصلة ، ضاربا عرض الحائط بالحضارة العربية الاندلسية التي كانت ملء سمع الزمان وبصره ، وما زالت آثارها ومآثرها قائمة حتى اليوم (إنّها لا تعمى الابصارُ ولكن تَعْمَى القلوبُ التي في الصّدور) .

(5) يقصد محمد المهدي الشيخ ثالث الملوك السعديين .

للموضوع، سواء منها الافريقية أو اللاتينية أو الاسبانيةأو كتب الدول المجاورة، واستخرجت من هذه الآثار الشهيرة ما رأيته أكثر ملاءمة لغرضي، أضف إلى ذلك أن معرفتي الدقيقة إلى حد ما باللغتين العربية والافريقية اللتين لا علاقة قوية بينهما، ساعدني على أن أقرأ بتمعن كبير كل ما ألفه كتابهم عن بلادهم. وبعد ذلك قمت بوصف عام لافريقيا، في اثني عشر كتابا، قسمتها إلى قسمين :

القسم الاول سيحتوي على ستة كتب في مجلدين لكونه أوسع وأطول، ويتضمن الكتاب الاول نظرة عامة على هذا الوصف كله حيث سأتحدث عن إفريقيا، وممالكها، وأقاليمها، ومدنها، ومختلف قبائلها، وأذكر عوائد السكان، وطبائع العرب وأصلهم ودخولهم إلى هذه البلاد، وأصف فيه أغرب الحيوانات، وأشهر الأنهر، وباختصار كل ما يوجد في إفريقيا مما هو جدير بالذكر. ويشتمل الكتاب الثاني على خبر الحروب بين المسيحيين والمسلمين، والخلافات التي قامت بين هؤلاء، منذ أن أنشأ محمد دينه الذي يتحدث هذا الكتاب أيضا عن بدايته.....

وإذا اعتبرنا تواريخ أقدم الممالك، وجدنا أن الامراء الذين ازدهر عهدهم مدة طويلة لم يثبتوا عروشهم إلا على حب رعاياهم والتكيف مع عاداتهم، وأنه فيما عدا ذلك لم يحظ أحد بشرف لقب ملك إلا نظريا، وأنه كان من مصلحة الشعوب أن يحكمها ملك تضفي عليه خاصية التعظيم والتوقير. وهكذا قضى الصالح العام على الأمم أن تختار ملوكا، لأنه عندما لم يكن أحد ينزجر احتراما للدين، ولم تُعرف بعد القوانين الكفيلة بجعل الناس في درجة معقولة من المساواة، وكان الطمع يدفع المرء إلى استعمال قواته ضد العقل لأغراضه الشخصية، نُصب ملوك من شأنهم أن يأخذوا الناس بالطاعة ويفرضوا العيش المتمدن بعض الشيء على أقوام يتيهون في الأدغال كالوحوش. لكن هؤلاء لم يخضعوهم إلا بالحكمة والعدالة، وبالأفضال التي أغدقوها عليهم كسبوا تقديرهم ومحبتهم وحملوهم بعد ذلك على أن يتحدوا على الصفاء ويسعوا جاهدين في طلب ماهو نافع ولائق بهم. وأترك جانبا أنه، بفضل هذه المبادىء تبوأ ساتورن، وهو أول من وضع أساس حصن روما، عرش أرمينا لأول مرة، وفتح مملكة جديدة بإيطاليا بالرغم على عراقيل البابليين وقوات جوبيتير ؛ وبهذا السلوك أصبح رومولوس، المؤسس الثاني لروما ملكا بعد أن كان من الرعاة ؛ واعتلى كذلك العرش نومابومبيليوس وتاركينيوس

بريسكوس، وكانا غريبين من أرومة وضيعة، ولم يخضع الاسكندرُ آسيا إلا بمحبة المقدونيين. وطالما لم تمزق الحروب الأهلية امبراطوريات الاغريق، والقرطاجنيين، والرومان فإن مجدهم العظيم قد ازداد حتى نالوا لقب سادة العالم. وهكذا فإن محمدا الذي اقتدى بهذه الأمثلة، بهر العرب بمظاهر قداسته ... وملك قلوبهم تماما، فأعزُّوه كأمير عظيم، وأجَلُّوهُ كشخصية ذات حياة صالحة وفعلا، فإن هذه الأمم التي قادها ونشطها هذا النبي، صارت قوية جدا بعدما كانت ضعيفة، واستولت تقريبا على جميع الاقطار التي كانت خاضعة للرومان. حقا إن الفتنة تسربت إلى صفوف هؤلاء المسلمين، فقسا بعضهم على بعض، وإن حبهم للحكم الذي افتتنوا به رد ضراوتهم في نحورهم وسقطوا أخيرا في ربقة أعدائهم. وهكذا فإن الشقاق اجتاح أقوى الممالك، ودمر أكثر الجمهوريات ازدهارا وأقواها أسسا، وحوّل امبراطورية الكلدانيين إلى الآشوريين، والآشوريين إلى الميديين، والميديين إلى الفرس، والفرس إلى المقدونيين، وخرب ممالك الاسكندر ذي القرنين، وسلَّط عَقِبَهُ فأذاق بعضهم بأس بعض من أجل الاستئثار بالمملكة بدلا من أن يكتفوا بالتقسيم الذي جعلوه لها. هل أقول إن الشقاق زعزع قوة الاغريق، وحطم جمهورية القرطاجنيين، وقضى على سيطرة الرومان، وإنه عندما سلم القسطنطينية إلى البرابرة، تمكن من الاجهاز على أمبراطورية اليونان ؟ وأخيرا ساد الخلاف بين العرب خلفاء محمد الذين يتحدث هذا الكتاب عن تاريخهم بكيفية خاصة، ونقل الملك من يدهم إلى الأتراك المستبدين اليوم بالحكم بهذا القدر من القساوة. لكننا نأمل أن تستجيب السماء لدعواتنا، وتقضي عما قريب على كبرياء هؤلاء البرابرة. وهذا الحلف المقدس الذي دخل فيها أمراء عظماء ألا يبشر بأننا سنسترجع بيت المقدس ، والقسطنطينية مع بلاد اليونان بأسرها، واننا سنحرر مرة ثانية هذه الشعوب التي تئن تحت عبودية أليمة ؟ ولم يقل حماس المسيحيين المتأثرين بالشفقة والمتحمسين قدوة بملوكهم، لهذه الغزوة الشهيرة، عما كانوا عليه قديما عندما شهروا السلاح، بإيعاز من بطرس الزاهد، وعددهم ثلاثمائة ألف رجل، من بينهم عدد من النبلاء. فزحفوا إلى الشرق وبالغوا المجهود في تقتيل أعداء المسيحية [6]

(6) يشير إلى الحروب الصليبية ، ويتشفى في المسلمين الذين كانوا ضحية وحشية الغزاة الاوربيين في المراحل الاولى ، لكنه يضرب صفحا عن صلاح الدين .

وأما الكتب الأربعة الأخرى من هذا القسم الأول فإنها تتعلق بممالك مراكش، وتلمسان، وفاس، وتونس، مع وصف دقيق جدا للمدن، والحصون والانهار، ومختلف الشعوب التي توجد بها. وسنذكر في كل كتاب منها المعارك الدامية التي جرت فيها، والانتصارات الباهرة التي حصلت في كل من هذه الممالك. وإن كان يبدو من الاليق التحدث عن هذه الحروب في الكتاب الثاني الذي يشمل حوليات البلاد، إلا أنني رأيت أن سردها في المكان الذي جرت فيه يزيد موضوعي تماسكا. ولم يكن لي قصد في تأليف هذا التاريخ كله إطلاقا إلا تشجيع الدول الكاثوليكية على حمل السلاح ضد هؤلاء المسلمين الذين يكتسحون بوقاحة مجد المسيحية ولا يفتؤون يحاربوننا ويتحينون الفرص لتحطيمنا. لكن سيسهل علينا إهلاكهم أكثر من أن نسترجع منهم الارض المقدس، لاننا نعرف الآن قواتهم، وأن الكبرياء الذي يهيجهم والابتهاج الذي يغمرهم من آلامنا، بالاضافة إلى الشره يدفعهم إلى الاثراء من غنائمنا، كل ذلك يؤدي بهم إلى شن غارات دائمة على أراضينا، وتسليم أنفسهم لأسلحتنا.

وسيكون للقسم الثاني ستة كتب، أدرج فيها كل ما لايوجد في القسم الأول، أي نوميديا، وليبيا، ومصر، واثيوبيا السفلى والعليا، مع الجزر المحيطة بإفريقيا والتابعة لها[7]، وقد وصفتها وصفا دقيقا حسب الترتيب الذي اتبعته في القسم الأول، مما يتعلق بالحروب والأحداث الكبرى. ومع ذلك أرجو من الذين سيقرؤون هذا الكتاب أن يفكروا فيما لقيت من عناء في تأليفه، وإن كنت لسوء الحظ قد أخللت بالتاريخ، فإني أرجو أن يغضوا الطرف عن ذلك بلطف، اعترافا منهم بما أنجزته لصالح إسبانيا كافة، ولخير المسيحية.

(7) علق في الهامش بأن كتاب الجزر غير موجود .

افريقيا
لمارمول

الكتاب الاول

وصف عام لافريقيا، ولممالكها واماراتها والشعوب التي سكنتها وكل ما فيها من أشياء تستحق الذكر.

الفـــصـــل الأول

سبب اطلاق اسم افريقيا عليها، وكيف كانت تسمى من قبل

★ ★ ★ ★ ★ ★ ★ ★

اقتبس اسم جزء العالم المسمى بافريقيا من أحد اقاليمه حيث كانت قرطاجنة قديما. ويسميها بطليموس ليبيا باسم احد اقاليمها الأخرى المتاخم لمصر من جانب الصحراء. وكان العرب قديما قد أطلقوا اسم «البرّ» على جميع هذه الصحاري. ومعناه : الأرض المقسمة . ويقول ابن الرقيق، وهو مؤلف افريقي قديم، في كتابه **شجرة انساب الافارقة**[1] ، إن افريقيا اطلق عليها اسم أحد ملوك اليمن وهو مالك الافريقي[2] ويحكى أن هذا الامير هُزم قرب النيل من لدن شعوب ايثيوبيا العليا، وأنه اجتاز هذا النهر لما رأى انهم تمكنوا من الممرات التي كان لابد أن يعود منها، ولم يكن أي سبيل آخر من دونها. فقطع صحاري ليبيا انطلاقا من هناك الى أن وصل الى الجزء الشرقي من بلاد البربر حيث اقام بأرض خصبة ذات مراع كثيرة، وأطلق عليها اسم إفريقية كما يسميها الاهالي حتى الآن، لكن الأجانب يقلبون الكسرة فتحة فتصير أفريقيا. ولهذا فان الجغرافيين الأفارقة لا يدرجون تحت هذا الاسم سوى مملكة تونس، ولا يدخلون في افريقية الا الجزء الشرقي منها.

---

(1) المعروف — اسما — تاريخ ابن الرقيق . انظر عبد السلام ابن سودة، دليل مؤرخ المغرب الأقصى ، 134:1 (طبعة الدار البيضاء) .

(2) يريد افريقيس بن صيفي بن سبا بن يشجب بن يعرب بن قحطان مخطط افريقية . انظر ياقوت ، معجم البلدان ، 300:1 وما بعدها .

ويعتقد بعض المؤلفين من الأهالي ان اسم افريقيا محرف ومشتق من «فرق» التي تعني باللغة العربية الشيء المقسوم أو المفصول، لأنها جزء من التراب يفصله البحر عن اوربا، كما يفصله عن آسيا خليج الجزيرة العربية والمضيق الموجود بين البحر الأحمر والبحر المتوسط. ويثبت يوسف في كتاب **الآثار القديمة** ان لفظة افريقيا مشتقة من عفر بن مندنيس الذي جاء من اليمن ليقيم بليبيا. ويرى غيره أنها مشتقة من أفريجية بمعنى شيء آمن[3]. لكن الاشتقاق الاول هو الأفضل في رأيي. فندرج تحت اسم افريقيا جميع البلاد الواقعة بين البحر المتوسط والمحيط، والبحر الاحمر، وساعد النيل الاكبر المتجه نحو الشرق الذي يصب في البحر المتوسط امام جزيرة قبرص.

(3) معنى هذه الكلمة « أرض التوابل » في اللغة البونيقية وهو اشتقاقها الحقيقي . (بوشار) .

الفصـــل الثانـي

وصف افريقيا كما يراها بطليموس

يقسم بطليموس افريقيا الى اثني عشر جزءا أو إقليما تكون البلدان الآتية، ابتداء من المغرب : الموريطانيتان (4) ، نوميديا الجديدة، اقليم افريقية، ليبيا السرينيكية، مرمريك، مصر السفلى، ثيبابيد، ليبيا الداخلية ، الاثيوبيتان. ويظهر جليا في الخريطة الرابعة لليبيا، وأكثر من ذلك في كتابه الرابع، أن آخر جزء يضعه وراء خط الاستواء جنوبا يقع قرب الدرجة الخامسة عشرة من خطوط الطول، حيث يجعل رأس براس أبريزا مزنبيق على بعد ثماني درجات من الخط. أما الباقي، انطلاقا من هذا الرأس صوب الجنوب، الذي يشمل نحو خمس عشرة أو ست عشرة درجة، فكان بطليموس يجهل معظمه، كما يقوله هو نفسه في آخر الكتاب، حيث يبرز أنه ابتداء من جنوب الأرض الآهلة الى القطب الانطرتيكي تمتد أراض مجهولة على طول ثلاث وسبعين درجة وسبع عشرة دقيقة. وقد اكتشف البرتغاليون هذه البلاد في عصرنا الحاضر وأطلقوا عليها اسم افريقيا الجديدة، وذلك من الدرجة السادسة عشرة للخط الى رأس الرجاء الصالح، كما يشاهد في خرائط بطليموس الجديد. ولم تكن للجغرافيين الأفارقة معلومات عن إفريقيا، إذ يعطونها الحدود التي سأذكرها.

---

(4) القيصريّة والطنجيّة .

الفصل الثالث

وصف افريقيا كما يراها المؤلفون الافارقة

يتجلى من خلال الوصف العام للبلاد عند الجغرافيين الأفارقة والعرب، ومن جملتهم المسعودي والبكري، (5) أنه لم تكن لهم معلومات أكثر مما كان عند بطليموس، بل يدلون بمعلومات أقل اتساعا، إذ أنهم لا يدخلون في افريقيا لا مصر ولا كل الاراضي الموجودة بين النيل والبحر الاحمر والمحيط، قائلين إن مصر جزء من آسيا لا من افريقيا. بالاضافة الى انهم يطلقون على الاقاليم والخلجان والرؤوس أسماء مخالفة تماما للأسماء التي يطلقها عليها بطليموس، غير متفقين على تقدير الدرجات التي يقوم به بعض الفلكيين، مما هو ناتج عن التغيير الذي طرأ على الاسماء في هذه الأماكن عند مجيء العرب الى افريقيا، لأن هؤلاء غيّروا معظم الأسماء لطمس ذكريات السكان الاوّلين.

ولما انحطت امبراطورية العرب ثار عليهم الأفارقة واسترجعوا منهم أغلب بلدانهم الأصلية، لكنهم اقتدوا بهم في الأسماء، فلا غرابة إذن أن تضمحلّ الأسماء القديمة مع مرور الأزمنة وتغيّر الأشخاص. ومن جهة أخرى، فقد أقفرت عدّة أقاليم وخرّبت عدّة مدن طمس ذكرها، وأسّست مدن أخرى منذ عهد بطليموس تحمل الآن الاسماء التي سماها بها البربر والعرب، لأن الافارقة يعيشون كلهم مجتمعين في أماكن تستمدّ أسماءها منهم، كما يفعل الأعراب في البوادي التي يتنقّلون فيها. وأخيرا فان جميع المؤلفين الافارقة لايبدؤون في وصفهم لهذا الجزء من العالم إلا بأقصى بلاد النوبة، والذراع الأول للنيل في اثيوبيا القريبة من مصر، ثم يتبعون النهر منحدرين حتى البحر المتوسط، على بعد خمسة عشر فرسخا من

---

(5) في النص الفرنسي : وأبو بكر .

الاسكندرية نحو الشرق. ومن هناك ينطلقون مسامتين نفس البحر إلى خليج جبل طارق، ثم يقتحمون المحيط الغربي[6]. ويصعدون الى أن يصلوا الى رأس نون، حيث يتمّ العزل بين الافارقة البيض والافارقة السود. وبعد ذلك يتابعون طريقهم محاذين الشاطىء حتى مصبّ نهر الزايير الذي ينبع من بحيرة في صحراء كَواكَة ويصب في بحر مملكة مانيكنغو، ومن هناك يتبعون نفس النهر صعودا، ويعودون الى هذه البحيرة، ثم الي النيل فمملكة النوبة. تلك هي الحدود التي يحدّون بها افريقيا، دون أن يُدخلوا اثيوبيا العليا الواقعة وراء النيل، ولا حتى بلاد القبط التي يسمونها مصر كما تسميها العبرية مصريم، وتسمى القبطية بلغة البلاد.

(6) سماه في الهامش (بحر المغرب) .

الفصل الرابع

وصف افريقيا كما يراها المؤلف

وها هي دائرة افريقيا بما تشتمل عليه، انطلاقا من أقصى الغرب حيث يبدأ إقليم سوس باتجاه الجنوب دون أن ننسى اي شيء من اليابسة. فمن جبل أيت واكل الذي يسميه بطليموس الاطلس الكبير نسير الى مدينة ماسّة في اقليم سوس، ومن ورائها إلى راس إغير (7) ثم الى رأس نون، فنهر سينيكا الذي يسميه الاهالي سينيدك، والعرب واد نيشر أو النهر الاسود. والذي يفصل بين البيض والزنوج. ونصل بعد ذلك الى جينيوا التي كان أول سكانها على طول الشاطىء هم بنوعيس الذين كان لون بشرتهم اسود أكثر منه زيتونيا. ومن هناك ندخل في اقليم الجيلوف الذي يمتدّ بعيدا 'جدّا على طول شاطىء المحيط، ثم نمرّ بأرض البربسين أو البربر كما يسميهم المؤلفون العرب. وتسكن هذه الشعوب اقليم موصالة الذي يخترقه نهر كبير ينتهي الى البحر من مصبين يمكنان من التوغّل في البلاد. ونصادف بعد ذلك إقليم كامبيا أو كامبو الذي يسميه بطليموس استكريس والذي يرويه نهر آخر عميق تسير نحو عاليته السفن بأكثر من ثلاثمائة فرسخ إلى أن تصل الى اقليم كنطور حيث يتّجرون مع الزنوج ويأتون بالذهب الى البرتغال. ويزعم اهل البلاد أن هذا النهر هو السنكا ذاته وأنه احد أذرع النيجر. وبعد اقليم كامبيا ياتي اقليم كافامانسي حيث يمر الرّها، وهو نهر آخر كبير صالح للملاحة، ويسكن الزنوج في كلتي ضفتيه. وبعيدا عن هناك يسيل نهر سان دومينيك، كما يسميه البرتغاليون، حيث لا يزالون يتّجرون مع الزنوج، على مسافة أكثر من ثمانين فرسخا داخل البلاد. ويتلوه اقليم بّابّييس حيث ينحدر نهر آخر كبير يسمونه الجزيرات بسبب

---

(7) إيغير – بالشلحية – هو المَنْكِب ، ويوجد رأس ايغير في موقع مدينة أكادير التي سميت عند تأسيسها سنة 947ْ% 1541 (حصن المنكب) بالعربية ، و (أكادير إيغير) بالشلحية ، والمعنى واحد . وغلب عليها أخيرا اسم (أكادير) . ويلاحظ أن المؤلف يخلط هنا فيجعل رأس إيغير جنوبي ماسة وهو في شمالها. (مترجم).

وجود جزيرتين صغيرتين آهلتين بالزنوج تلتقيان في مصبّه. واذا توغّلنا اكثر في البحر وجدنا جزر بيجيوهُس وهي مسكونة أيضا، ورغم أن لكل واحدة منها اميرها الخاص الا انها تخضع جميعها لملك الجزيرة المسماة هرموسة (8). ويأتي بعد ذلك اقليم بيافار حيث ينبع كذلك نهر كبير آخر يسيل صوب البحر ويسمى ريو گراندي، لأنه أكبر الأنهار كلها، ويتلقى عدة أنهار صالحة للملاحة. وبعد قطع اقليم بيافار ندخل اقليم المَلوس الذين يسكنون ضفتي نهر دوني لوي، وبعيدا عنه نهر نونيوتريستان. ويسمى هذا الاقليم اقليم الكوكولي ولو أنه يسكنه الملوس. ثم يأتي اقليم الفاك الذين يقطنون على طول النهر الذي يحمل نفس الاسم، ويسمى كذلك بثابث. ويسير البرتغاليون نحو عاليته بعدة فراسخ داخل البلاد. ويمتد فيما وراء هذه المنازل بلاد سابي من حيث ينحدر نهران كبيران : يسمى الأول كلوز والثاني دي كسريس، حيث يذهب سكان (جزر) كناري ليتجروا مع الزنوج. ويوجد أيضا أبعد من هنالك إلى الأمام نهر آخر يسمى ماريف والسييراليونا (9) التي كان يسميها القدماء عربة الآهلة. ويقع بعيدا من هناك المنجم الذي ينقل منه الذهب بكثرة الى البرتغال، حيث بنى البرتغاليون قلعة تحمل هذا الاسم لتسهيل التجارة. وفيما وراءها شاطىء مالاكيط (10) الذي يمتد حتى مملكة منيكونغو، حيث يمر نهر زايير حاملا معه الى البحر ستة أنهر ضخمة (11) معروفة بعض الشيء بواسطة شعوب هذه المناطق الذين اعتنقوا الديانة المسيحية منذ مائة سنة، كما سنذكر ذلك في محله.

وتوجد انطلاقا من هذه المملكة الى رأس الرجاء الصالح صحاري كبيرة ورأسان آخران هما : الرأس الأسود ، ورأس بيرون. وبعد اجتياز رأس الرجاء الصالح الذي يسميه السكان زانكَباي (12) يصادف الشاطىء الذي يحمل نفس الاسم من جهة الشرق، حيث توجد منازل عديدة للمسلمين. وأول أرض تقع فيه هو رأس الايكي، ثم يأتي نهر فوموس، واقليم ألاكَوا، ونهر سانت إسبري ، ورأس الكرانط

---

(8) أي الجميلة .
(9) أي جبل اللبؤة .
(10) تجعلها الخرائط دونها .
(11) وهي بَنْكار ، فامبا ، كُويلا ، مانْيا وزَنْكُولو .
(12) أي خليج زنجبار .

والأرض العالية، ورأس سان سباستيان في اقليم بني مُطاشة. وأبعد من هناك توحد سفالة[14] التي يسكنها الوثنيون ، وهي إقليم طويل يحيط به نهر كبير[15] ينقسم الى دراعين ويجعله كجزيرة. ويسمى هذا النهر زامبير ، يسيرون نحو عاليته من أحد ذراعيه على طول أكثر من خمسين ومائتي فرسخ، وهو يأخذ معه ستة أنهر أخرى شهيرة [16] تنحدر كلها من مملكة بني مطاشة. وليس الذراع الاخر بكبير جدا. ويأتي بعد سفالة اقليم أو مملكة آنكوس، ثم رأس الموزامبيق الذي يسميه بطليموس رعن براس، وهو الرأس الأخضر باللغة الفرنسية. وقد اتخذ البرتغاليون هناك قلعة لترسو فيها السفن الذاهبة الى بلاد الهند الشرقية. وبعد قطع بلاد الموزامبيق ندخل في اقليم كيلُوَا ثم في موماباز وميلنْد حيث يصب في البحر الكبير أوبيي الذي يسميه بطليموس رابّط، وسكان البلاد المسلمون بويلمانسي. وهذا الشاطىء كله آهل بالعرب المسلمين، من مصب هذا النهر الى رأس الكرانط، ويسمى شاطىء زنكاباي. ويقع الى الأمام اقليم موكادوشو، ثم اقليما أدبيا وأديل ورأس كَواردا فوني[17]، وهو جزء افريقيا الاكثر اتجاها الى الشرق. ثم يأتي اقليم دوباس، ومصب مضيق البحر الأحمر [18] وطول هذا الشاطىء حتى السواقين مائة وعشرون فرسخا، وهو جزء من مملكة الحبشة المشتملة على برناكاص وغيرها من الاقاليم التي يملكها هذا الامبراطور. ويستمر امتداد الشاطىء الى ما وراء السويس، وهو آخر ثغر في هذا الخليج، ويحاذي بلاد مصر من ذاك الجانب. ثم نجتاز برزخ أو مضيق الجزيرة العربية،ومسافته ستون فرسخا [19] تقريبا بين داخل هذا الخليج والبحر المتوسط. ومن هناك ننحدر مع النيل حتى نصل الى مدينة دمياط حيث يصب هذا النهر في البحر، ثم نعود متجهين نحو الغرب متبعين بحر الاسكندرية وساحل صحراء برقة، فنصل الى رأس ميزوراط فطرابلس الغرب وما وراء ذلك الى جربة وقَرْقَنَة، وهي جزر تتصل باليابسة قبالة المهراز (كذا) ومدينة قابس وخليجها، وصفاقص،

---

(13) دي لوس كوريانطيس .
(14) أو سِفالة .
(15) يسميها البعض كُوَامة عند مصبه .
(16) وهي : بّا مُفسيس ، لُوَانكو ، أَرُويا ، مانيباوُو ، لاديِر ، زُوبنيا .
(17) أوكَواردفو .
(18) بحر القُلزم باللغة العربية .
(19) ويقول آخرون 30 أو 40 فرسخا .

والمهدية التي يسميها المحدثون افريقية، وطبُلبو (20) والمنستير، وسوسة ، واقليبية، والحمامات، وبابل ولا كولات (حلق الواراد)، وقرطاجنة التي يسميها بعض المؤلفين الافارقة برفاق، وأوتيك المسماة بالعامية مرسى الدقيق ، وبنزرت، وعنابة، وتستور، والقالة، وكلها في مملكة تونس. ونسير بعيدا من هناك فنجد جيجل وبجاية، وتدلّس، ورأس مطافوز (21) والجزائر، وآثار سبفاري التي يسميها البعض غلطا قبر الرومية، وشرشال، وبريسكار، وتَنسَ، ومستغانم، وأرزيو، ووهران ، والمرسي الكبير، وأون (22) وغيساسة مليلية، وكلها أماكن شاطئية بمملكة تلمسان. ويوجد بعد ذلك يليز (كذا) وفيليز دي كومير أو بالأحرى : البّنيون (23) الواقع في البحر، فتطوان، وسبتة ، والقصر الصغير أو قصر مصمودة ، وهي داخل مضيق جبل طارق . ثم نعود الى المحيط حيث انطلقنا فنجد مدن طنجة، وأصيلا، والعرائش، والمعمورة، وسلا والرباط، وآنفا أو أنافى، والميناء في مرسى فضالة وأبصة (كذا) ، وكلها على شاطىء مملكة فاس. ومن هناك نسير وشاطىء مراكش حيث نجد آزمور، ومازكان التي يسميها العرب البريجة، وتيط، وقنط (24) ، وهما مدينتان خربتان. ثم آسفي، وتفتان (كذا) وماسة، ومنها بدأنا وصفنا الذي يشتمل هكذا على دائرة افريقيا كلها وسنتعرض الآن لتفاصيل الممالك والاقاليم والامارات التي تحتوي عليها.

---

(20) هناك قريتان تسمى إحداهما طُبُولُبُو والأخرى طُبُولْبَا .

(21) (كذا) يظهر أنه يقصد رأس البرج البحري الواقع الى الشرق من مدينة الجزائر .

(22) (كذا) ولعله يقصد هنين .

(23) أي الصخرة ، ويقصد حجرة بادس .

(24) تقع في المكان المسمى اليوم رأس كنطان على بعد 34 كلم شمال آسفي .

الفصل الخامس

الوصف العام لافريقيا حيث تذكر سلسلتان من الجبال تسميان الاطلس الكبير والاطلس الصغير.

تنقسم افريقيا التي بيّنّا حدودها إلى ستة أقسام، وهي بلاد البربر، وبلاد الجريد ، والصحراء، وايثيوبيا السفلى التي هي بلاد السود (25)، ومصر، وايثوبيا العليا. وتضمّ بلاد البربر، وهي أرض خصبة جدا مدنا كثيرة آهلة جدا بالسكان وتشتمل على الموريطانيتين (26) ونوميديا الجديدة ، وإقليم افريقية ، وليبيا المرمريكية . وأما بلاد الجريد أو بلاد التمر فأطلق عليها الاقدمون اسم جيتولي أو نوميدي، أي بلاد الرحل أو الرعاة (27) ، لأن هؤلاء القوم يجوبون البادية دائما وراء قطعانهم، ويسكن جلهم في أكواخ مصنوعة من أغصان الاشجار يسميها الاقدمون ماباليا، والصحراء التي تدل على القفر هي قسم من ليبيا الداخلية اقل اتساعا من غيرها. ويدخل بطليموس فيها أيضا بلاد العبيد التي هي بلاد الزنوج أو ايثيوبيا السفلى. وتحتوي ايثيوبيا العليا على مملكة الحبشة وجميع الاقاليم التي تنتهي الى بحر الجزيرة العربية والبحر الأحمر، مع ايثيوبيا الواقعة تحت مصر حيث مملكة نوبيا أو النوبة (28) وتكتنف مصر ضفتي النيل من هذه المملكة وفي البحر المتوسط، ولها عدة مدن شهيرة جدا.

---

(25) وبعبارة أخرى بلاد العبيد أو كناوة .

(26) الطنجية والقيصرية .

(27) يسمي بطليموس قسم نوميديا الموغل في جهة الشرق ليبيا السيرومايكية أو البنطابوليسية لاشتماله على خمس مدن كبرى .

(28) هكذا يجعل ثلاث اثيوبيات العليا ، السفلى ، والتي تحت مصر ، لكنه يدخل هذه الأخيرة في الأولى .

وتفصل بلاد البربر على بلاد الجريد سلسلة طويلة من الجبال تسمى الجبال الكبيرة بلغة البلاد ، تمتد من الشرق الى الغرب ؛ ورغم أنها تنقطع في عدة أماكن الا أنها تتواصل من جبل ميس الواقع في طرف جبال الساحل ، ومن شاطىء مَزْرة الواقع على بعد ثمانين فرسخا من الاسكندرية من جهة الغرب ، الى الرأس الداخل في البحر المحيط الغربي قرب مدينة ماسّة . ويطلق أهل البلاد اسم آيدوَاكَال [29] على هذه السلسلة ، ويسميها بطليموس الأطلس الكبير محددا موقعها في الدرجة الثامنة من خط الطول والدرجة السادسة والعشرين والنصف من خط العرض .

والأطلس الصغير سلسلة جبال أخرى تسمى الريف ، تبتدىء من ساحل البحر المتوسط وتمتد من مضيق جبل طارق الى قرب عنابة ولما كان من الضروري عند التعرض للوصف الخاص للممالك والأقاليم أن نتكلم عن سكان هذه الجبال وكثير من غيرها الموجودة في افريقيا كلها ، فعلى القارىء أن يفهم من الأطلس الكبير الجبال الممتدة بين جبال البربر ونوميديا من ميّس الى آيدواكال، ومن الأطلس الصغير جبال الريف التي تبتدىء من مضيق جبل طارق الى ما فوق عنابة على طول البحر ، لكننا لن نهمل ذكر الاسم الخاص بكل واحد منها ، والقبائل التي تسكنها ، غير ناسين أي شيء جدير بالذكر .

---

(29) لعله تحريف لاسم (إيداوبَعْقيل) أو بعقيلة التي تُكوّن مع رسموكة وسملالة بلاد جزولة أو الأطلس الصغير ، لأن المؤلف على ما يظهر يعتبر الأطلس الصغير والمتوسط والكبير سلسلة واحدة (مترجم)

الفصل السادس

وصف بلاد البربر، وهو القسم الأول من افريقيا

تبتدىء بلاد البربر من جهة الغرب عند جبل آيدواكال، وتشمل مدينة ماسة وسائر اقليم سوس. ومن هناك تسير وشاطىء المحيط الغربي إلى أعمدة هرقل، ثم تمر بهذا المضيق إلى البحر المتوسط ممتدة الى تخوم الاسكندرية. وتحدها شرقا صحاري برقة تجاه مصر، وجنوبا طرف الأطلس الكبير المواجه للشمال.

يقول ابن الرقيق إن اسم بلاد البربر مشتق من البر الذي أطلقه العرب على البلاد قبل أن تكون آهلة، ومن ثم سموا سكانها برابر. لكن الرأي الشائع أكثر عند الافارقة أنها سميت هكذا باسم بعض السكان الذين كانوا يدعون بربر ويملكون حتى الآن عدة أراض في جينيوا والزنك حيث تقع مدينة بربرة، ويعتقد البعض الآخر أن الرومان، عندما احتلوا افريقيا، أطلقوا هذا الاسم على هؤلاء القوم بسبب عجمة لسانهم، فبقوا يعرفون به منذ ذلك العهد.

هذا الجزء هو أشرف أجزاء افريقيا في الوقت الراهن، لأن فهي أربع ممالك كبيرة تحتوي على اقاليم عديدة ومدن غنية جدا. وأول مملكة وأقصاها موقعا نحو الغرب هي مملكة مراكش، ثم مملكة فاس، وكلاهما في موريطانيا الطنجية. وبعدهما في جهة الشرق مملكة تلمسان، في موريطانيا القيصرية. وأما مملكة تونس فهي أقصاها من جهة الشرق، وتضم البلاد التي كانت تسمى بالذات افريقية.

تشتمل مملكة مراكش على سبعة اقاليم هي، ابتداء من الغرب حاحا وعاصمتها تَدْنِسْتْ؛ وسوس، وقاعدتها ترودانت التي جدد بناءها وجعل منها مدينة شهيرة والد مولاي عبد الله الملك الحالي لمراكش وفاس(30)، لكنه ليس هو مؤسسها كما يتوهم البعض؛ وجزولةأو جتولة، حيث لا توجد أية مدينة أو قرية

(30) يقصد محمد المهدي الشيخ والد عبد الله الغالب (مترجم)

مسورة؛ واقليم مراكش الذي كان يسمى قديما بوكانوإيميرو، وكانت أغمات عاصمته قبل أن يؤسس اللمتونيون مراكش؛ ودكالة، وكانت مدينتها الرئيسية تيط التي سميت هكذا – على ما يقال – باسم حفيد نوح الذي صحب معه (31) الى موريطانيا القبائل المسماة باسمه التيطيين. إلا أن البعض يريدون أن يكون مؤسسها مع المدن الساحلية الأخرى هو حانون عندما أرسله القرطاجنيون على رأس ستين سفينة شراعية ذات خمسين مجذافا ليعمروا مدن ليبيا الفينيقية، غير أن هذه المدينة دمرت مع آزمور، فأصبحت الآن آسفي هي عاصمة الاقليم؛ وهسكورة أو دمنات، وعاصمتها المدينة (32)، وآخر الأقاليم تادلا ، وعاصمتها تفزة.

وتضم مملكة فاس أيضا سبعة أقاليم، أولها وأقصاها موقعا نحو الغرب تامسنا (33) وكانت عاصمتها في القديم آنافا أو أنفا الواقعة على ساحل المحيط، ولكنها خربت مع باقي المدن الاخرى؛ وثانيها إقليم فاس الذي كان القدماء يسمونه (فوليبيل) وليلي، وكانت عاصمتها تيوليت الواقعة في أعلى جبل زرهون أو زرهنون، ولكن منذ أن دمرت، أصبحت العاصمة هي مدينة فاس الشهيرة التي أسسها ادريس؛ وثالثها هو أزغار، وعاصمته القصر الكبير الذي بناه يعقوب المنصور (34)، وكانت العاصمة من قبل هي العرائش، ورابعها هو الهبط، وعاصمته طنجة أو طنشة التي أطلق اسمها على (موريطانيا) الطنجية، مع أن بعضهم يقولون إن هذا الشرف كان لسبتة في مدة من الزمن. وهاتان المدينتان يملكهما الآن ملك البرتغال ويقيم فيهما حرسا قويا، وخامسها هو الريف، وعاصمته فيليزدي كومير (حجرة بادس)؛ وسادسها هو كرط، وأعظم مدنه مليلية التي احتلها فليب الثاني، لكن الأفارقة منحوا هذه الرتبة لتزوطة؛ وسابعها هو الحوز (35)، وعاصمته تازا، رغم أن بني مرين جعلوا من دبدو مدينة عظيمة أخرى.

---

(31) لاحاجة إلى هذا التأويل ، إذ (تيط) كلمة بربرية معناها عين الماء الجارية . وهناك مواقع كثيرة تدعى (تيط) باسم العيون الجارية فيها (مترجم)

(32) أومدين بحذف أل العربية . وقد ذكر الحسن الوزان في وصف افريقيا – 130:1 – (المْدينْ) هذه ووصفها ، الا أنه جعل عاصمة هسكورة (المدينة) وهي أخرى على بعد أربعة أميال من المدين (مترجم)

(33) كتبت في الاصل الفرنسي (تيميسين) وهو تحريف بيّن (مترجم)

(34) يقصد يعقوب المنصور الموحدي ، وهذا ما عند الحسن الوزان ايضا . انظر كتابه وصف افريقيا ، 234:1 هامش 92 (مترجم)

(35) كتب في الاصل الفرنسي (كوز) بدل (الحوز) و (تزار) بدل (تازا) ، وهو تحريف ظاهر (مترجم)

وتضم مملكة تلمسان أربعة أقاليم : الأول هو اقليم تلمسان، واسمه القديم تميفي (36) وكانت عاصمته هَرَفغول التي دمرت على الساحل، وأما الآن فالعاصمة هي ترمسان أو تلمسان، كما يسميها الأفارقة؛ والثاني هو اقليم تَنَس المسمى باسم العاصمة ؛ والثالث اقليم الجزائر الذي كان يسمى سيفاري وكذلك باسم العاصمة التي دمرت على الساحل، حيث مازالت تشاهد قبة يسميها المحدثون قبر الرومية، قرب ميناء الكشين (كذا). لكن العاصمة الآن هي مدينة الجزائر التي يسميها الأفارقة جزائربني مزغنة؛ والرابع اقليم بجاية الذي تحمل عاصمته نفس الاسم. ويجعل بعضهم هذا الاقليم في عداد مملكة تونس، غير أننا نجعله في اقليم تلمسان على نحو ما فعله بطليموس وغيره من المؤلفين المعتبرين، ولو أنه في الواقع كان خاضعا لملوك تونس وأمراء القيروان في فترة من الزمان.

وتوجد كذلك أربعة أقاليم في مملكة تونس : الأول اقليم قسنطينة (37) الذي يسميه بطليموس نوميديا الجديدة، وتحمل عاصمته اسم قسطنطين، أو قسنطينة حسب الافارقة؛ والثاني اقليم تونس، وكان اقليم قرطاجنة قديما سمي باسم هذه المدينة الشهيرة التي خربها الرومان في قديم الزمان، وهي محطمة الآن كما يقول بطراك بعد أن أعيد بناؤها ثلاث مرات؛ والثالث اقليم طرابلس الغرب الذي يحمل هو الآخر اسم العاصمة؛ والرابع اقليم الزاب، ويشكل قسما من نوميديا القديمة ومن ليبيا المرمريكية أو بنطابوليس، وكانت به من قبل خمس مدن جميلة هي بيرينيس وأرفينو، وبطوليميس، وأبوللني، وسيرين، وقد خربت كلها. ولنتكلم الآن عن صفات البلاد مبتدئين ببلاد البربر.

---

(36) (كذا) والذي عند أحمد توفيق المدني (كتاب الجزائر ، ص 202) أن أصل مدينة تلمسان قرية (ادغادير) ثم قرية (تاقرارت) فانضمت القريتان وأصبحتا تلمسان (مترجم)

(37) كتب في الاصل الفرنسي (قنسطنطين) .

الفصل السابع

الوصف العام لبلاد البربر

إن كل ساحل بلاد البربر المواجه للمحيط، بما فيه السهول الواقعة بين البحر المتوسط والأطلس الكبير، لبتداء من القسم الأخير لاقليم سوس الأكثر إيغالًا نحو الجنوب الى مضيق جبل طارق كله بلاد خصبة جداً، كثيرة القمح والشعير والماشية . فيها اجمل حقول افرقيا باقاليمها الأربعة : سوس، ودكالة، وتامسنا، وازغار، حيت جميع الأراضي مستوية، معتدلة المناخ، تسقيها عدة أنهار جميلة تنحدر من الأطلس الكبير لتصب في المحيط . والساحل الآخر المواجه للبحر المتوسط، من مضيق جبل طارق الى نهاية اقليم طرابلس الغرب، بلاد عالية ـــ منحدرة، مليئة بعدد كثير من الجبال الكبيرة، تمتد في عدة أماكن الى بعد ثلاثين وأربعين فرسخا داخل الأراضي . وبين هذه الجبال وجبال الأطلس الكبير سهول فسيحة في بعض الأماكن، وتلال صغيرة أو هضاب، وكلها كثيرة المزارع والمراعي . وهناك أيضا عدة عيون وجداول تنحدر من الجبال وتسير الى البحر لتصب فيه، راسمة منعرجات جميلة ذات ضفاف هادئة شيقة مليئة بالغياض والخضرة التي تحتفظ بالبرودة، لا سيما في ضواحي مدينة القيروان، لأن الأرض هناك قحلة رملية . وفيما وراء هذه السهول في اتجاه الجنوب، ترتفع البلاد وكأنها تتدرج حتى جبال الأطلس الكبير . وعلى هذه المرتفعات في أماكن مختلفة غابات عظيمة يعيش في داخلها عدد كثير من الوحوش، لكن الأرض لا تنتج كثيراً من القمح . فساحل بلاد البربر المسمى بالريف، حيت تنتهي جبال الأطلس الصغير يعطي الرطوبة اكثر من الحرارة، فلا يحصل بسبب ذلك قمح كثير، ولكن بالمقابل ينتج كمية من الشعير تتغذى بها هذه القبائل . و في كل هذه الجبال غابات كبيرة فيها كثير من القردة والأسد وغيرها من الوحوش . والأرض صالحة جدا لرعى الماشية، لأن الكلأ ينبت فيها بغزارة . وهناك أيضا عدة أماكن للوقاية من

حرارة الشمس في الصيف، لكن الثلج يسقط فيها أثناء الشتاء بمقدار عظيم حتى إن القطعان تموت أحيانا من جراء ذلك إن لم تسحب باكراً إلى السهول.

والأطلس الكبير غير صالح للسكن في بعض المواضع لشدة البرودة أو الصلابة والوعورة، أو لكثافة الغابات وعلوها في شعاب مظلمة عميقة، حيث منابع أكبر أنهار البلاد، لكنه في مواضع أخرى أكثر ليونة واعتدالا، حيث توجد قرى كبيرة آهلة بالبرابرة الافارقة . وجبال الأطلس الكبير الأكثر وعورة والأصعب مسالك تتاخم اقليم تامسنا، والأكثر برودة تتخام اقليم مراكش، لذلك فان القطعان تساق اليهافي الصيف، من أجل الكلا الكثير الذي ينبت بها . الا أن هذه القطعان تخرج منها قبل تساقط الثلوج، لأن برد الرياح يكون إذ ذاك قارساً الى حد انها يتسبب في هلاك الماشية وحتى رعاتها . ويوجد في هذه الجبال مضيق قرب مدينة أغمات يمر منه النوميديون كل سنة الى بلاد البربر في شهر أكتوبر بجمالهم المحملة بالتمر، لكن الثلج يسقط فيه أحيانا بغزارة فيصل الى علو رمح في ليلة واحدة، ويغمر الرجال والبهائم . أما الجبال المتاخمة لمملكتي تلمسان وتونس، فإنها أقل صلابة. وتعطي شيئا من القمح . وفي بعض الأماكن منها أيضا كمية من القطعان، والأرض أكثر اعتدالا، كما سنرى ذلك في الوصف الذي سنخصصه لها.

الفصل الثامن

فصول السنة وخاصياتها في بلاد البربر

تبتدىء الأمطار ببلاد البربر في آخر شهر أكتوبر، لكن البرد يستمر حتى آخر يناير، غير أنه أخف من برد مملكتي قشتالة وغرناطة، اذ لايكون البرد الا في الصباح، ولا يُلجأ الى التسخين بعد الزوال. ويبدأ البرد يخف في شهر فبراير، ويتغير الطقس ثلاث مرات أو أربعا في اليوم. وفي مارس تنتشر الرياح الغربية والشمالية في أوائل أبريل، فتحيى الأرض وتزهر الأشجار، بحيث إن الفواكه تكاد تكون كلها مكوّنة. وفي مملكة فاس وتلمسان وتونس، وبعض الأماكن من مملكة مراكش ، ينضج الكرز (حب الملوك) في آخر أبريل ، وباكور التين في منتصف ماي، ويبدأ العنب ينضج في أواخر يونيو. وفي بداية يوليوز يوجد الاجاص والتفاح والخوخ والمشمش وسائر الفواكه التي تأتي في نفس الفصل. وينضج التين منذ بداية غشت وعند دخول شهر شتنبر تكون جميع أصناف الفواكه ناضجة. وحينئذ يجفف الأفارقة العنب، إلا أنه اذا سقط المطر أو كان ضباب او ندى كثير، كما يحدث ذلك غالبا، فان العنب لا يجف كما ينبغي فيجعلون منه دبسا او خمرا مطبوخة (صامتا) تصلح عادة كشراب لبربر الأطلس الصغير. ويجنون الزيتون في شهر نونبر، لكن أشجار الزيتون بموريطانيا أضخم وأعلى من التي توجد في مملكة تونس،ولها سنة جسنة وسنة سيئة بالتوالي، كما هو الشأن بأروبا.

يبدأ الربيع ببلاد البربر في الخامس عشر من فبراير، وينتهي في الثامن عشر من ماي. وهذان الشهران معتدلان دائما، ويكون الهواء فيهما لطيفا. وان لم يسقط المطر في تلك البلاد من خامس وعشري أبريل الى خامس ماي تكون المجاعة، اذ تعتبر هذه الفترة كمفتاح للسنة.

ويبدأ الصيف في التاسع عشر من ماي، وينتهي في السادس عشر من غشت، وتكون الحرارة قوية جدا أثناء هذه المدة، لكن التي لا تحتمل أكثر هي

حرارة شهري يونيو ويوليوز حيث يكون الظل غير خطير. وتسبب أمطار يوليوز وغشت عدة أمراض خصوصا الحمى الوبائية.

ويبدأ الخريف في سابع عشر غشت، وينتهي في سادس عشر نونبر، غير أن الحرارة تأخذ في الانخفاض منذ شهري غشت وشتنبر.

ويبدأ فصل الشتاء في شابع عشر نونبر وينتهي في رابع عشر فبراير، بمجرد دخول شهر نونبر يشرع الفلاحون في زرع الاراضي في السهول، إلا أنهم في الجبال يزرعون منذ شهر أكتوبر.

يعد الأفارقة في السنة أربعين يوما من البرد القارس، وأربعين يوما من الحر الشديد. يدوم البرد القارس من ثاني عشر دجنبر الى العشرين من يناير، والحر الشديد من ثاني عشر يونيو الى الواحد والعشرين من يوليوز. ويحسبون الاعتدالين في سادس عشر مارس، وسادس عشر شتنبر، والانقلاب الصيفي في سادس عشر يونيو، والشتوي في سادس عشر دجنبر، وعلى ذلك ينظمون فلاحتهم وملاحتهم.

وهناك عدد كبير من هؤلاء القوم أميون، سواء من الأفارقة أو العرب، لا يحسنون القراءة ولا الكتابة، لكنهم يدلون بمبررات كافية في شأن الحرث بواسطة قواعد الفلك، ويستخرجون هذه القواعد من كتاب **كنز الفلاحة** الذي ترجم من اللاتنية الى العربية في مدينة قرطبة على عهد يعقوب المنصور ملك مراكش وخليفتها. يحتوي هذا الكتاب على شهور السنة الاثني عشر باللاتنية، ويتبعونها بما يخص الحرث، لكنهم يتبعون الشهور القمرية في أعيادهم وصيامهم، كالعرب الذين تتكون سنتهم من ثلاثمائة وأربعة وخمسين يوما، أي بنقصان أحد عشر يوما من سنتنا (الشمسية). ولهذا النسبب فان هذه الأعياد تتغير دائما ولاتأتي أبدا في نفس الوقت. وعندما ينتهي الخريف، وفي أوائل الربيع وأثناء الشتاء كلها تنزل أمطار غزيرة مصحوبة بالرعد والبرق، وتسقط الصواعق في عدة أماكن كما يسقط الثلج والبرد، وتهب في بلاد البربر ثلاثة أصناف من الرياح الخطيرة جدا، وهي الشرقية، والجنوبية، والجنوبية الشرقية، وبالأخص في شهر ماي ويونيو، حيث تيبس جميع المحصولات وتحول دون نضج الثمار. ويكثر أيضا الضباب في تلك الفترة ويكون خطيرا، وليس للسنة في جبال الأطلس الكبير سوى فصلين اثنين، اذ يدوم فصل الشتاء من شهر أكتوبر الى شهر أبريل، وتسقط الثلوج بكثرة الى حد أن السكان يضطرون كل صباح الى ازالتها من امام أبواب بيوتهم ليتمكنوا من الدخول

والخروج. ومن أبريل الى شتنبر تكون أشهر الصيف الستة. لكن قمم الجبال تظل مغطاة بالثلوج طوال السنة، لاسيما في موريطانيا. وينبت القمح تحت الثلج في كثير من الأماكن، وكلما ذاب الثلج بدأت تظهر السيقان، وتجنى في جميع هذه الجبال كمية من الشعير، لأن السكان رغم كون الأراضي وعرة حجرية، يتخذون سطوحا من الحدور التي يزرعونها بعد دعم الأرض بالجدران . ومحصول الشعير فيها جيد جدا وغليظ ، رغم أنه حامض بعض الشيء يزعج أضراس الخيل .

الفصل التاسع
أشهر أنهار بلاد البربر

واد سوس

اتخذ اقليم سوس اسمه من نهر هو أكبر أنهار بلاد البربر في جهة الغرب، ويدعي بعضهم أنه هو الجزيرة التي كان بها قصر آنطي وحدائق هسبريد. ويبدو مع ذلك أنه هو أونة بطليموس التي يجعلها في الدرجة الثامنة طولا، وفي الثامنة والعشرين وثلاثين دقيقة عرضا . يخرج هذا النهر من الأطلس الكبير، بين هذا الاقليم واقليم حاحا . ثم يخترق سهول سوس متجها نحو الجنوب الى ان يصب في المحيط قرب كَرسطن (كذا) . ويسقي أكثر البلاد خصبا وسكانا في تلك المنطقة : ويتخذ منه السكان جداول يسقون بها حقول قصب السكر . ويفيض في الشتاء حتى لا يعبر من اي مكان الا أنه في الصيف يمكن عبوره من كل جهة .

وادتنسيفت

وهناك نهر كبير آخر يسمى تنسيفت، يخرج أيضا من الأطلس الكبير قرب مدينة أنماي في أقليم مراكش، فيخترق اقليم دكالة ويذهب ليصب في المحيط قرب آسفي، بعد أن يكون قد تلقى أنهارا عديدة من هذه الجبال . وأهمها أسيف المال الذي ينبع من جبل سيكسيوا (38) فوق مراكش ، وواد نفوسة الذي يخرج كذلك من الأطلس الكبير في أعلى مراكش، وأغمات الاتي من بحيرة قرب المدينة التي تحمل نفس الاسم وكانت من قبل عاصمة لهذا الاقليم–كما ذكرنا–وتقع في نفس الأطلس . تنحدر هذه الأنهر من الجبال ، وبعد أن تخترق السهول الخصبة الفسيحة لهذين الاقليمين تسير الى أن تنضم الى تنسيفت الذي يمكن رغم عمقه

---

(38) أوسيكْسِنِيوَا .

عبوره في بعض المواضع صيفا، سواء على الأقدام أو ركوبا على الخيل . ويوجد بالقرب من مراكش جسر مبني بالحجر مركب من خمس عشرة حنية، وهو أحد البيانات الجميلة بافريقيا، بناه -على ما يقال- يعقوب المنصور ملك مراكش وخليفتها، لكن أبا دبوس آخر الملوك الموحدين أمر بهدم ثلاث حنايا منها أثناء حربه مع يعقوب أول ملوك بني مرين، ليمنع بذلك حصار مراكش، غير أن عمله هذا ذهب سدىً لأن خصمه مر من مكان آخر وعزله عن ملكه . ولم يعد بعد ذلك بناء هذه الحنايا الثلاث . يطلق بطليموس على مصب هذا النهر اسم أسمة، ويجعله في الدرجة السابعة طولا، والثانية والثلاثين عرضا

واد تِساوين

تساوين : نهران ينبعان من عينين نضاختين، تبعد إحداهما عن الاخرى بمسافة فرسخ في جبل غجدامة الذي هو جزء من الأطلس الكبير، وبعد أن يخترقا سهول .قليم هسكورة يصبان في واد العبيد، كما يدعوه أهل البلاد . ويسمى كل من هذين النهرين تاساوت، ويسميان معا مجتمعين تساوين، ومعناها باللغة الافريقية الاطراف او التخوم . ويسقيان السهول التي يمران بها بواسطة جداول تستخرج منها، فينتج عن ذلك كمّيّة من القمح والشعير والدخن والكندي (كذا) وكثير من الخضر .

واد العبيد :

واد العبيد، معناه نهر الزنوج أو الرقيق بلغة البلاد، ينبع أيضا من أحد جبال الأطلس الكبير المسمى أنماي بين اقليمي هسكورة وتادلا، وبعد أن يمر بصخور وعرة وشعاب عميقة مظلمة يتوجه نحو الشمال حافرا مجراه بكيفية لا تسمح بأخذ أي ماء منه لسقي الحقول . وانطلاقا من هناك بعد أن يتضخم بمياه تساوين وأنهار أخرى صغيرة يصب في أم الربيع، قرب معبر عريض وآمن جدا -يسميه الأفارقة مشرع الصفا، أي المعبر المنبسط . وترتفع مياه هذا النهر الى أقصى حد، بصفة خاصة في شهر ماي حيث تذوب الثلوج في الجبال .

أم الربيع

وأم الربيع نهر ضخم ينبع من أحد جبال الأطلس الكبير، بين اقليم تادلا ومملكة فاس ، حيث يجري بين سهول أدكسوم (39) ، ثم بعد توغله في واد ضيق

(39) (كذا) ولعله تحريف لاسم أدخسان (مترجم)

يتجمع بحيث يعبر على جسر جميل بناه أبو الحسن رابع ملوك بني مرين[40] . وانطلاقا من هناك في اتجاه الجنوب يخترق سهولاً تفصل اقليم تامسنا عن اقليمي تادلا ودكالة، ثم يسير ليصب في المحيط قرب آزمور آخذا معه واد العبيد، ونهرا آخر يدعى درنة ينحدر هو الآخر من هذه الجبال . نهر أم الربيع غير صالح للعبور ماعدا في الصيف وفي الاماكن التي يتسع فيها في السهول خاصة، والا فيعبره السكان عوْما على حزم من القصب مرفوعة على جلود منفوخة، وذلك لعدم وجود أي جسر . وهذا النهر مليء بالشابل إلى حدّ أنه تُزوّد به مدينة مراكش والأقاليم المجاورة، فصلًا عما يحمل منه بمقادير كبيرة أيضا الى بلاد الاندلس والبرتغال . ويصطاد عادةً في أواسط ماي، وكان ملك الرتغال يحصل منه على فوائد كبيرة عند ما كان يملك مدينة آزمور، لكن الشريف (السعدي) يمنح الآن هذا الحق لتجار مسيحيين . يسمي بطليموس هذا النهر روسييد، ويجعل مصبه في الدرجة السادسة واربعين دقيقة طولا، وفي الدرجة الثانية والثلاثين وثلاثين دقيقة عرضا . وهذا المصب صعب جدا، الأمر الذي من أجله تخلى ملك البرتغال عن هذه المدينة بعد أن احتلها.

أبو رقراق :

أبو رقراق نهر كبير يخرج كذلك من أحد جبال الأطلس الكبير في مملكة فاس، و يبدأ الجريان في أودية عميقة جداً بين جبال شاهقة، ثم بعد مروره بين تلال صغيرة يسير في سهول، ومن هناك الى المحيط ليصب فيه بين سلا والرباط اللتين لاميناء لهما سوى مصبه . ويسميها بطليموس سلا ويجعلها في الدرجة السادسة وعشر دقائق طولا، وفي الدرجة الرابعة والثلاثين وعشر دقائق عرضا . ومصب أبي رقراق كثير الأخطار على السفن، حتى إن السكان يستعملونه كوسيلة دفاع ضد النصارى.

واد بَهْت :

بهت وبهيت نهران ينبعان أيضا في جبال الأطلس الكبير بمملكة فاس، حيث يجمعان كمّيّة من المياه، ويندفعان من هناك كالسيول في البداية من جبال

---

(40) ليس ابو الحسن رابع ملوك بني مرين ، وانما هو الحادي عشر منهم (مترجم)

عالية، ثم ينحدران شيئا الى جبال أخرى آقل ارتفاعا، ويصلان الى سهول ازغار حيث يتحولان الى بحيرات مليئة بكمية وافرة من السمك . يسكن حول هذه البحيرات عدد كثير من اعراب الخُلْط وبني مالك سُفيان، حيث يرعون قطعانهم ويحصلون على الكثير من السمن والسمك، إلى حد أن إفراطهم في أكلها يتسبب لهم في مرض شبيه بالجذام . وماء هذين النهرين ممتاز ضد الحصى، الشيء الذي يجلب اليه العديد من الناس سواء من فاس ومكناس أو غيرهما من الأماكن . ويسيل هذان النهران متقاربين بعض الشيء، ويمكن عبورهما طوال السنة، ماعدا أيام الشتاء أو عند ذوبان الثلوج في الجبال.

واد سبو :

سبو هو أحد الانهار الكبرى ببلاد البربر . ينبع في سِلِيكَو أحد جبال الأطلس الكبير باقليم الحوز، ويخرج من واد عميق مظلم ليسير من هناك بين جبال عالية ثم بين تلال، منحدرا الى سهول، مارا على بعد فرسخ ونصف من فاس، وبعد أن يفصل بين إقليم الهبط وأزغار يصب في المحيط قرب مدينة المعمورة. وتصب في سبو أنهار عديدة، مثل ورغة وأَوْدُورْ اللذين ينحدران من جبال غمارة أو الريف . وقال بعضهم — خطأ — إن عيونه آتية من جبال غياتة وزرهون كما لوسحب معه هذه الأنهر وغيرها على حدّ سواء من إمارة تازا ومملكة فاس، مع نهر آخر يسمى إِنَّاوْنْ خَلْوَان الذي ينبع في أعلى فاس . وعلى الرغم من عظمة سبو، فانه يمكن عبوره في بعض الأماكن، باستثناء فصل الشتاء أو الربيع حيث يعبر فيهما على الزوارق . ويكثر السمك في هذا النهر، وخصوصا الشابل الجيّد، فتتزود منه مدينة فاس وعدة مدن أخرى بالاقليم بثمن بخس . ويتسع سبو في المصب إلى درجة أنه يستطيع اقتبال سفن كبيرة . ويمكن السفر على متنه الى فاس لو كان سكان هذه المناطق عقلاء، لأن ذلك سيجعلهم لا يشترون القمح المحمول اليهم بَرًّا من ازغار بضعف ثمنه . ويسمى بطليموس هذا النهر سبُور، ويجعل مصبه في الذرجة العاشرة وعشرين دقيقة طولا، وفي الدرجة الرابعة والثلاثين وثماني عشرة دقيقة عرضا.

واد لُكُوسْ

لكوس نهر كبير ينبع في جبال غمارة، ثم يتجه نحو المغرب مخترقا إقليمي أزغار والهبط، ومن هناك يمر قرب القصر الكبير مكوّنا بحيرات كبيرة كثيرة

السمك، ثم يسير حيث ترسو بعض السفن المسيحية المحملة بالبضائع الاروبية، إلا أن مدخله صعب جدًا لدرجة أن الربّان يتعرض للهلاك ان لم تكن له حنكة كبيرة . يسمى بطليموس هذا النهر ليس، ويجعل مصبه في الدرجة السادسة وعشرين دقيقة طولا، وفي الدرجة الخامسة والثلاثين وخمس عشرة دقيقة عرضا .

واد أمْلَالُو :

أمْلَالّو(*) نهر آخر كبير يخرج من أحد جبال الأطلس الكبير، بين مدينتي تازا ود بدو ، لكنه أقرب الى هذه الأخيرة منه الى الأولى ، فيخترق المفازات الجافة الوعرة بترايست (كذا) وتَفْرَطة ، ويسير ليرتمي في ملوكان .

واد ملوكان (ملوية ؟)

ملـــوكان (40م) نهر كبير ينبع أيضا في الأطلس الكبير، على بعد تسعة فراسخ من كرسلوين في اقليم الحوز، ثمّ ينحدر مخترفا مفازات وعرة قاحلة، متوغلا في أخرى (41) أكثر وعورة وقحولة، فيسقي سفوح جبال بني يزناسن، ثمّ يمر مسرعا كالنبل غرب مدينة تساسة (كذا) ليرتمي قريبا منها في البحر، حاملًا معه أملالو وغيره من الأنهر المنحدرة من نفس الجبال . ورغم كونه عريضا جدا فانه لا يخلو من معابر في عدة أماكن تجعل عبوره سهلا في الصيف، واعتاد المسيحيون أن يسيروا فيه بزوارقهم متسترين بأوراق الاشجار والاغصان ليفاجئوا المسلمين الذين يذهبون للصيد أو لمزاولة أعمالهم، لأن النهر كثير السمك عند المصب، وسمكه جيد . ويسميه بطليموس مولوكار، ويجعله في الدرجة العاشرة وخمس وأربعين دقيقة طولا ، وفي الدرجة الرابعة والثلاثين وخمس وأربعين دقيقة عرضا .

واد زيز وواد الهبرة :

زيز (41م) والهبرة نهران يلتقيان في سهل سراط في مكان يعرف باسم شَمُرَّة . ينبع الاول من الاطلس الكبير، منحدرا من أحد جوانب مفازة أنكَاد بين

(*) كتب في الأصل الفرنسي « ملولو » . وما أثبتناه هو المطابق لنطق السكان الآن (مترجم)

(40م) لعله تحريف « ملُوكيين سيدي عبد الله » بأعلى ملوية على بعد نحو عشرة كيلو مترات من كرسيف ، في اتجاه منبع ملوية . ولكن الظاهر أنه يقصد « واد ملوية » الكبير (مترجم)

(41) هى مفازات أنكَاد وكرط .

(41م) خطأ واضح ، لأن زيز من الأنهر التي تندثر في الصحراء ، ولعل مارمول يقصد واد إيسلي الذي يصب في واد تافنة . أما الهبرة فقبيلة عربية من فروع بني مالك تقطن على ضفاف واد الشلف (مترجم)

مملكتي فاس وتلمسان، وهو لا يفيض في أغلب الأحيان، لكنه كثير العمق دائما، ومع أنه مليء بالسمك الا أن الاصطياد فيه يصعب جدا من أجل شدة صفاء مائه . وينبع الثاني قرب معسكر في امارة بني راشد او بني عراش بمملكة تلمسان، وبعد انضمامه الى الاول يصبان معا في البحر المتوسط قرب أطلال أرزيو القديمة، ويسميان سراط باسم السهل الذي يمران به . وعلى ضفافه يقطن أعراب أقوياء يدعون بني عامر، كثيرا ما يشنون الغارات (من ثم) الى وهران .

واد تافْنة

تافنة نهر صغير يخرج من جبال الأطلس قرب نوميديا القديمة، فيجري نحو الشمال مخترقا مفازة أنكاد ليصب في البحر المتوسط ، على بعد سبعة فراسخ من وهران الى جهة الغرب . وهو قليل السمك، ويسمى نهر أرسكول . ويسميه بطليموس سگة، ويجعل مصبه في الدرجة الحادية والعشرين طولا، وفي الدرجة الرابعة والثلاثين وأربعين دقيقة عرضا .

واد مِينا :

ونهر مينا كبير بعض الشيء، ينحدر من نفس الجبال ثم يمر في سهول وعرة قاحلة، حيث تقع مدينة بطاحة، ويجري نحو الشمال الى البحر المتوسط قرب أرزيو ويسميه المغاربة منذ عهد قريب سينا، باسم أحد الأولياء الذي أعاد بناء بطاحة بعد أن خربها بنو مرين . ويسمي بطليموس هذا النهر قلماط، ويجعل مصبه في الدرجة الثالثة عشرة طولا والرابعة والثلاثين عرضا .

واد الشّلَف

الشلف نهر كبير ينبع من جبال ونشريس ، ثم ينحدر مارا بسهول خالية بين تنس وتلمسان، ويذهب ليصب في البحر المتوسط قرب مستغانم من جهة الشرق . وصيد السمك طيب جدا في مصبه الذي يجعله بطليموس في الدرجة الرابعة عشرة وخمس عشرة دقيقة عرضا، ويسميه كرطين، ويسكن على ضفافه اعراب أثرياءشجعان يسمون اولاد سعيد، يفوق عدد الراجلين منهم ثلاثين ألفا، والفرسان ألفين .

واد سلف

سلف (42) نهر ضخم يخرج من الأطلس الكبير فيحاذي سهول متيجة من أحد جوانبها، ثم يسير ليصب في البحر المتوسط، على بعد خمسة فراسخ من الجزائر العاصمة الى جهة الغرب . ويكسوه من كلا الجانبين كمّيّة كبيرة من الأشجار ذات الظلال الظليلة ويحمل اسم مازفران (43) قرب مصبه، حيث يسميه بطليموس قِنَلاف ، ويجعله في الدرجة السادسة عشرة وأربعين دقيقة طوالا، وفي الدرجة الثالثة والثلاثين وعشرين دقيقة عرضا .

واد سِفاية :

ينبع سفاية من الأطلس الكبير، وبعد أن يخترق سهول متيجة يصب في البحر المتوسط شرقي مدينة الجزائر، قريبا قليلا من أنقاض ميتافوس التي كان الأفارقة يسمونها تَمَنْدفوست . وبين هذه المدينة ومدينة الجزائر يصب في بحر نهران آخران (44) ينحدران من نفس الجبال ويفيضان قليلا في الشتاء، لكنهما ينقصان في الصيف . ويسميه بطليموس سفاية صاف، ويجعل مصبه في الدرجة الثامنة عشرة وعشر دقائق طولا، والدرجة الثالثة والثلاثين وعشرين دقيقة عرضا .

واد يَسِّر :

واد يسر نهر ضخم ينبع في الأطلس الكبير على حدود نوميديا، ثم يسيل نحو الشمال ويصب في البحر المتوسط، شرقي أنقاض مدينة ميتافوس، قرب قرية بني عبد الله في دلس(45) حيث تصطاد كمية من السمك . يسميه بطليموس سربت، ويجعل مصبه في الدرجة التاسعة عشرة وثلاثين دقيقة طولا، وفي الدرجة الثانية والثلاثين وخمسين دقيقة عرضا .

الواد الكبير :

الواد الكبير ينبع هو الآخر من الأطلس الكبير في جهة اقليم الزاب، ويمر بين جبال شاهقة ثم يسير ليصب في البحر المتوسط، قرب بجاية(46) ويرتفع كثيرا

---

(42) بعله يقصد وادي الشّفة المنحدر من جبال الاطلس المتيجي (مترجم)

(43) كتب في الاصل الفرنسي : أصفران .

(44) هما واد الحراش ، وواد الحميز .

(45) بل يصب قرب مندورة غربي رأس جينيت ، بعيدا نسبيا عن دلس .

(46) بل قرب جيجل .

عندما تنزل الأمطار وتذوب الثلوج، لأنه يتلقى عدة جداول تنحدر من هذه الجبال . وهو مليء بالأسماك لكن سكان هذه المدينة لايولونها كبير اهتمام ، لأنهم يفضلون عليها اسماك البحر . يسمي النصارى هذا النهر زنكنور، ويسميه بطليموس نافاووقنا،ويجعل مصبه في الدرجة الثانية والثلاثين ونصف درجة عرضا .

واد سوف غمار :

واد سوف غمار(47) نهر كبير آخر ينبع من نواحي جبل أوراس باقليم بجاية، ثم ينحدر مارا بسهول يابسة قحلة، فيسقي أسوار قسطنطينية، حيث يلتقي بالرافد مرزوخ ويتابع سيلانه تجاه الشمال مخترقا جبال وعرة جدا ليصب في البحر المتوسط . ويفصل هذا النهر أراضي القل عن أراضي جشار،أي يفصل موريطانيا القيصرية عن اقليم إفريقية . ويسميه بطليموس امبساك، جاعلا مصبه في الدرجة السادسة والعشرين وخمس عشرة دقيقة طولا ، والدرجة الواحدة والثلاثين وخمس وأربعين دقيقة عرضا .

واد يدوش :

وينبع يدوش (48) أيضا من الأطلس الكبير قرب قسنطينة، ثم يسيل مسرعا منذ خروجه من منبعه بين الجبال، منحدرا الى سهول، الى أن يصبب في البحر المتوسط على بعد فرسخ من عنابة الى جهة الشرق . وعلى بعد فرسخ من أعلى مصبه مازالت تشاهد بعض بقايا هِبّون التي كان أسقفها هوسان أوغوستان، ويجعلها بطليموس في الدرجة الثلاثين وعشرين دقيقة طولا،وفي الثانية والثلاثين وخمس وعشرين دقيقة عرضا .

واد البربر :

واد البربر(49) هو نهر آخر كبير، ينبع أيضا من الأطلس الكبير قرب مدينة لوربوس، في مملكة تونس، وله منعطفات ومنعرجات كثيرة في هذه الجبال الى حد

---

(47) يقصد – ولا شك – أحد أصول أو روافد واد القبلي الحالي . وسوف ربما كانت تحريفا لكلمة « أسيف » البربرية بمعنى النهر . (مترجم)

(48) لعله يقصد واد سيبوس الحالي .

(49) لعله المسمى اليوم واد الزوارة .

أن المسافرين من عنابة الى تونس يعبرونه خمسا وعشرين مرة، دون أن يوجد أي جسر أو زوزرق أثناء مثل هذا المجرى الطويل . ويصب أخيرا في البحر قرب ميناء تيورك، على بعد ستة فراسخ من مدينة باجة . يسميه بطليموس روبريكات، ويجعل مصبه في الدرجة الثلاثين وخمس وأربعين دقيقة طولا، وفي الدرجة الخامسة والثلاثين وعشرين دقيقة عرضا، وتستخرج كمية كبيرة من العقيق من جوانبه الى مدينة عنابة (49م) .

واد مُجَرْدة :

مجردة نهر أكبر من سابقيه، ينبع من نفس الجبال في المكان الذي يتاخم اقليم الزاب، غيز بعيد من مدينة تبسة، يتجه نحو الشمال في منعرجات كبيرة، ثم يدور في اتجاه البحر، على بعد فرسخين من تونس، فيتابع سيره قاطعا ثلاثة عشر فرسخا(50) الى جهة الغرب، ثم يصب في البحر . يرتفع ماؤه كثيرا عندما تسقط الأمطار، فيتوقف المسافرون أحيانا خمسة أيام أو ستة، لعدم وجود جسر أو سفينة، ويسميه بطليموس براگادة، ويجعل مصبه في الدرجة الثامنة والثلاثين وأربعين دقيقة طولا ، وفي الدرجة الثلاثين وخمس وأربعين دقيقة عرضا .

واد قابس :

ينبع نهر قابس من جبل باخليف في مفازات ليبيا، ويسيل في رمال ناعمة متجها نحو البحر حيث يصب قرب مدينة قابس . وماؤه ملح وحار جدا عندما يستقى حتى إنه لابد من تركه يبرد في الهواء الطلق ساعة قبل أن يشرب . يسميه بطليموس تريتون، ويجعل مصبه في الدرجة الثامنة والثلاثين وأربعين دقيقة طولا، وفي الدرجة الثلاثين وخمس وأربعين دقيقة عرضا .

واد ماجرو :

ماجرو نهر آخر ينحدر من الأطلس الكبير، قرب جبل ميِّس، ثم يصب في البحر قرب طرابلس الغرب مخترقا الرمال الناعمة لهذه المفازات . يسميه بطليموس سينف، ويجعل مصبه في الدرجة الثانية والأربعين وخمس وعشرين دقيقة طولا، وفي الدرجة الواحدة والثلاثين وثلاثين دقيقة عرضا .

(49م) يتبع مارمول – على عادته – الحسن الوزان وينقل ما في كتابه **وصف إفريقيا** على علاته . انظر التعليقين رقم 18 و 19 من ترجمتنا لكتاب الوزان ، 2|253 .

(50) في غار الملح .

الفصل العاشر

بلاد الجريد التي كان القدماء يسمونها نوميديا أو حيتولا

يحدّ المحيط بلاد الجريد من جهة الغرب، من مدينة ماسّة في اقليم سوس الى رأس نون، وهو ما يطلق عليه الأفارقة اسم السوس الأقصى، لكنها تمتد من جهة الشرق الى مدينة الواحات التي تقع على بعد ثلاثين فرسخا من مصر. وتحدّها شمالا جبال الأطلس الكبير التي تفصلها عن بلاد البربر، وجنوبا مفازات ليبيا أو الصحراء. وهذا القسم من افريقيا أقلّ اعتبارا من بلاد البربر، لأنه يشتمل على مفازات كبيرة جدا وأماكن قاحلة، وحتى المسكونة منها يبعد كثيرا بعضها عن بعض، لا سيما في اتجاه الصحراء حيث يقلّ الماء ولا يكاد يوجد. وكثيرا ما يتحدث الكتاب الأفارقة عن هذه المناطق، لأنه خرج منها عدّة مرات قبائل محاربة حكمت افريقيا في مختلف العصور، وخصوصا منهم المرابطين الذين دخلوا الى بلاد البربر وهم في غاية القوة، الا أن هؤلاء الكتاب لم يطلقوا اسم مملكة على أية واحدة من هذه المناطق. وهاهي أهمّ إمارات نوميديا :

سجلماسة : المتاخمة للموريطانيتين ؛

والزاب الذي ينتهي عند جبال بجاية وقسنطينة ؛

وبلاد الجريد الصغرى الممتدة الى الأطلس الكبير، في المكان الذي يتاخم فيه مملكة تونس، من قسنطينة الى طرف جبل ميس وتسمى جميع هذه المساحات الشاسعة بلاد التمر(50م) بسبب الكمية الهائلة التي تجنى منه هناك. وقد بسط ملوك بلاد البربر نفوذهم عليها مرارا ، ويملك معظمها حتى الآن ملوك مراكش وفاس وتونس ، بينما يملك الأتراك تلمسان. لكنّ أغلب هذه الشعوب خاضعة لحكم أشراف بلادهم، ولهم شيوخهم أو أمراؤهم الخاصون. وهم شديدو البأس كثيرو العدد. ولو كان جهازهم الحربي يناسب قيمتهم، كما هو الحال بأوربا، لحقّقوا أعمالا حربية عظيمة.

(50م) وهذا هو معنى كلمة بلاد الجريد .

وليس في سجلماسة إلا مدينة واحدة تحمل نفس الاسم، وتحكم الاقليم كلّه. وفي الزاب أيضا خمس مدن، أهمّها بسكرة التي يحتلّها الآن أتراك الجزائر، اذ استوى عليها حسن أغا أثناء حكمه. وباقي المدن هي بورجيو، ونفطة، وتُلْغَة، ودَوْسَن. ويشتمل الاقليم المسمّى بلاد الجريد بالذات على خمس مدن كذلك، عاصمتها توزر، بينما الأخرى هي قفصة، ونفزاوة، وتوركو، ولستيتن. وحتى لا أطيل في الوصف العام، سأقتصر هنا ذكر المدن العظمى التي يعيش أكثرها في نظام جماعي. وهذه المدن هي تشيت، ودان، وإفران، وأقّا، ودرعة، وتفوست (كذا)، وكنانة (كذا) ومضغرة، وتفيلت (كذا) والرّتّبْ، وتبَلْبَت، وتُدغة، وفَرْكْلَة، وتَزَرين، وبني كَومي، ومزالق، وأبوعنان، والقصيّر، وبني بصري، وواحدي (51)، وفيكِيكَ، وتيكَرارين، ومزاب، ووركَلة : وهي مدينة كثيرة السكان قريبة من أكَدَز بإقليم اثيوبيا السفلى.

(51) كذا في الأصل الفرنسي، وهو « وكدة » حسب التسلسل عند الحسن الوزان في وصف افريقيا. (مترجم).

الفصل الحادي عشر

حالة البلاد

هذا القسم من افريقيا أشد حرارة من بلاد البربر، لانه يقع جنوب جبل الأطلس، لذلك فانه يكاد يكون كله مجدبا، وينقصه الماء ولو أن بعض الأنهر ترويه بعد خروجها من هذه الجبال متجها بعضها نحو الجنوب وبعضها الآخر نحو الغرب، ثم تتحول الى بحيرات كبيرة في وسط الرمال، كلها محاطة بالنخيل الذي يحمل كمّيّة هائلة من التمر، حتى إنها تغمر بلاد البربر ويعلف بها السكان خيلهم بدل الشعير. ذلك لأن التمر يشكل ثروتهم الرئيسية، فيترفهون به على طريقتهم وبما يستخرجون من قطعانهم. ويوجد على الأرض الواقعة بين هذا النخيل بقرب المياه أشجار مثمرة وخضر، لكنها أقل خصبا وفائدة من التي في بلاد البربر لأنهم لا يحسنون فلاحتها. أما القمح والشعير فيستخرج منهما نزرٌ يسيرٌ ، لكن المراعي بالمقابل جيدة للغاية، خصوصا في منحدرات الأطلس الكبير المواجهة للجنوب، حيث تكثر أيضا الوحوش المفترسة. وتضمّ هذه الجبال منازل كبيرة وجماعات عظيمة للبربر، لكن لا يوجد شيء من ذلك في الجانب الآخر على حدود ليبيا، لأن التربة هناك في غاية الجدب والقحط لا ينبت فيها سوى العليق والشوك ويصلان الى علو كبير.

وبالجملة فبجوار ليبيا أو الصحراء لا توجد عين ولا جدول، وكل المياه التي يمكن الحصول عليها تأتي من آبار ماؤها ملح أجاج، ويصعب العثور عليها لوقوعها في أماكن متطرفة. وتكثر في هذه الفلوات العقارب والأفاعي وغيرها من الحيوانات السامة التي تقتل الناس والبهائم. وتأتي الغلة مبكرة في بلاد الجريد قبل بلاد البربر، حيث يحصد القمح فيها ابتداء من شهر ماي، ويجنى التمر في اكتوبر. ولا كروم هناك غير بعض الشجيرات التي يموت عنبها مبكرا بحيث لا يبقى شيء منه بعد آخر يونيو. ولا برودة هناك ماعدا في جبل الأطلس، بسبب سقوط الثلوج فيه

لكن البرد القارس يبتدئ في منتصف شتنبر ويستمر الى آخر يناير. واذا نزل المطر في شهر شتنبر فان محصول التمر يكون سيئا، لأن الرطوبة تفسده ؛ واذا نزل المطر في أكتوبر وأبريل كان محصول القمح كثيرا، لأن الأنهر عندما تفيض تخصب السهول التي تكون بدونها قحلة عقيمة، الا أن التمر بالمقابل يكون محصوله جيدا جدا عندما لا ينزل المطر، وهذا ما يفضله أهل البلاد، إذا مهما كان محصول القمح في السنة كثيرا فانه لا يكفي لأكثر من ستة أشهر، بينما تُمكّن وفرة التمر من المبادلة مع بلاد البربر والحصول منها على الكمية المرغوب فيها من القمح والشعير. وتجنى في الاقليم خمسة أنواع من التمر يختلف بعضها عن بعض من حيث الطعم واللون، حتى يظن أنها ليست نفس التمار، ولا تتشابه إلا في الشكل والنواة ، يسمى أجودها بوسكري، وأقل منه جودةً بوزيار، وذلك ما يُصدَّر عادة الى اسبانيا، لأن الأخرى ربما فسدت على متن البحر لشدة رطوبتها. وتوضع الأنواع الثلاثة الأخرى في سلال لكونها في غاية الرخاوة، ةتصبر هكذا طويلا في مكانها الى أن تنقل عبر بلاد البربر.

الفصــل الثــانــى عشــر
أهــم الأنهــار المــوجــودة بهــا

درعة

أول نهر سنتحدث عنه هنا هو **درعة** وهو كبير جدا، ينبع من جبال الأطلس الكبير التي تحد اقليم هسكورة، ثم يتجه نحو الجنوب مخترقا اقليم درعة المسمى باسمه . ويحيط به من الجانبين عدد كثير من النخيل الطويل، ذي الظل الظليل، إلا أنه يتوغل من هناك في مفازات الصحراء حيث ينتشر في الرمال الدقيقة مكونا بحيرات كبيرة، ينتجع حولها النوميديون في فصل الربيع مع مواشيهم ، لأن جمالهم تجد هناك كمّيّة من الكلأ الطيب . ويجفّ هذا النهر في الصيف الى درجة أنه يُعبر دون أن تبلّ الأرجل في كثير من المواضيع ، لكنه يفيض عند نزول المطر بحيث لا يمكن عبوره لا للراجل ولا للفارس ، ومجراه منحدر الى درجة أنه يستحيل عبوره بالزورق ، بالاضافة الى أنه مجوّف وغير مستوٍ ، ويصير ماؤه مراً ملحاً أيام القيظ .

زيــــز :

زيز نهر كبير أيضا يأتي من نفس الجبال ، حيث يقطن قسم من جماعات السّينيك (كذا) وينحدر نحو الجنوب جاريا بين الجبال شاهقة ، ثم يمرّ قرب كَرْسِلْوين[52] مخترقا إمارات كنانة ومطغرة والرّتب ، فإقليم سجلماسة . ويدخل في مفازات الصحراء حيث يسيل بين النخيل ، ويخرج منها قرب مدينة سكَيهلة ليتجه ثانيا نحو الجنوب ، ويكوّن بحيرة في وسط رمال لا يسكن حولها أحد ، إلا أن الصيد الكثير يقتات منها .

---

(52) مدينة في مملكة فاس .

كـيـر :

كِير هو الآخر نهر كبير من جبل الأطلس ، يتجه نحو الجنوب مارّا بالمفازات ، ثم يدخل في إمارات بني كُومي ، ومنها في رمال ليبيا أو الصحراء حيث يتحول الى بحيرة يجول حولها عدد من جماعات الأعراب والأفارقة بقطعانهم . وهذه الأنهر الثلاثة هي أهم أنهر بلاد الجريد التي هي جيتوليا أو نوميديا القديمة .

الفصل الثالث عشر

القسم الثالث من افريقيا المسمّى الصحراء والقبائل التي تعيش فيه

الصحراء هي أصغر قسم في افريقيا كلها . تبتدىء من جهة الغرب عند ساحل المحيط حيث منازل نون، وتمتدّ من هناك على طول نفس الساحل حتى تصل الى نهر السنغال ، وتسير من جهة الشرق الى تخوم مدينة الواحات ومملكة كاوكة . ويحدّها شمالا مفازات بلاد الجريد ، وجنوبا بلاد السود ،وهي ليبيا الداخلية التي يصفها بطليموس، ويُدخل فيها ايضا نوميديا واثيوبيا السفلى، ويجعلها متاخمة في الشمال للموريطانيتين ولافريقية بالذات وسيرانكة، ويحدها شرقا بجزء من المزمبيق واثيوبيا القريبة من مصر، وجنوبا باثيوبيا الداخلية في اقليم أجسيمبة، وغربا بالمحيط، من الخليج الهينبري أو الغربي الى طنجة التى هي طرف موريطانيا الطنجية . لكن المحدثين يجعلون لهذه الأقاليم حدودا أخرى، ولا يدمجون فيها سوى الصحراء التي هي أرض في غاية الجدب والفقر، ليس فيها الا مفازات جافة رملية غير صالحة للسكنى في أغلب الأحيان، ويقطع الانسان فيها أحيانا مائة فرسخ أو مائتين دون العثور على قطرة ماء . فالمنازل إذن بها نادرة، ومتباعدة جدا بعضها عن بعض في المواضع التى توجد فيها بحيرات أوغدران، حيث الهواء أكثر اعتدالا . والسكان القاطنون بالصحراء خشنون جدا، وهم أقرب الى الحيوان منهم الى الانسان، لا يفكرون في الخروج من هذه الفلوات ليختاروا مساكن أحسن من مساكنهم . وأعظم سكان البلاد يوجدون في القسم الغربي بالقرب من المحيط والنيجر ونون والسنغال، وهو شعب قوي حكم اثيوبيا وخرج منه بعض ملوك السود الذين يحكمون حتى الان ونزيكة، وتركة، ولمطة، وبرداوة، وتغازة حيث توجد معادن الملح ومنها يحمل الى الزنوج، وأوجلة، وسرت، وبرداوة . وفي بعضها أماكن مسورة بالطوب . وكان سكان هذا القسم الغربي من الصحراء يسمون قديما بالسبائين، من سبأ بن قوس الذي سكنها، ويسمى سكان القسم الشرقي فوتيين، من فوت بن سام . ولهذا أطلق القدامى اسم فوتية على قسم افرقيا الذي سمي منذ ذلك العهد ليبيا السرنيكية . هذا ما يمكن أن يقال إجمالا عن سكان الصحراء الذين سنقدم لهم وصفا خاصا في مكان آخر.

الفصل الرابع عشر

خاصية البلاد

الصحراء بلاد حارة جدا وجافة، لا أنهار فيها ولا عيون، ولا ماء غير ماء البحيرات إلتي تحدثنا عنها أو بعض الابار المالحة النادرة، بحيث إن التجار الذاهبين من نوميديا الى بلاد السود يأخذون معهم جمالا لاتستعمل إلا لحمل الماء، زيادة على التي تحمل البضائع . ويحدث هذا على الخصوص عندما يريدون التوجه من مملكة فاس الى تنبكتو ، أو من مملكة تلمسان الى أكدز، أو عندما يقصدون القاهرة عن طريق تخترق كل هذه المفازات وتمر على طول بحيرة كبيرة يسكن على ضفافها زنوج صاوُوكَرهان الذين هم من اثيوبيا السفلى . وفي هذه الطريق، لا سيما المؤدية الى جينيوا وتنبكتو ، توجد بعض الآبار المحفورة في الصحراء : وخوفا من أن يطمسها الرمل تسور من داخلها بعظام الابل بسبب افتقاد الحجر، ثم تغطي بجلودها، إذ تهب في الصيف ريح شرقية تحمل الرمال من مكان الى آخر وتغطي هذه الآبار . ويكون الاعصار شديدا أحيانا الى درجة ان الرجال والجمال يتعبون من أجله وتغمرهم الرمال التي تصل الى علو رمح . ويقال إن الموميات تصنع من هذه الأجساد، ولو أن أغلب الظن أنها تصنع في حي البربر الذي سنتكلم عنه في الفصل التالي . وعندما يصل الناس — للأسف الشديد — الى مواقع هذه الآبار، لا يستطعون أحيانا العثور عليها بسبب الرمال التي تغطيها، فيموتون عطشا . لكن بعض حداة الابل لهم من الخبرة مايجعلهم يهتدون اليها دائما مهما كانت مستورة، غير أن مهارتهم لا تفيدهم شيئا في بعض الاحيان حين تكون هذه الآبار مردومة لدرجة أنه لايمكن الوصول الى الماء رغم التعب المبذول في حفرها (54) ، الامر الذي يجعل عملهم يذهب سدى، ويضطرون الى قتل جمالهم لشرب الماء الموجود في بطونها، لأن الجمل عندما يشرب يأخذ من الماء ما يكفي لمدة اثني عشر أو خمسة عشر يوما، ولولا ذلك لكان هذا السفر

(54) بسبب عمقها .

مستحيلا، فيستدركون بعض الوقت عند افتقاد الماء بهذه الحيلة الى أن يصلوا الى الأماكن التي يوجد فيها، ان لم يموتوا في الطريق .

وأما الفصول فليست متشابهة في كل الأعوام، لأنه اذا نزل المطر منذ منتصف غشت الى فبراير، نما الكلأ بغزارة في كل مكان وأفاد القطعان التي ترعى على طول البحيرات، وكذلك التجار عندما يسافرون يجدون عَدَدًا من البحيرات وكثيرا من اللبن والسمن بثمن رخيص . لكن إذا انحبس المطر في ذلك الوقت ـــ وغالبا مايحدث ذلك ـــ تأذي التجار كثيرا وكذلك أهل البلاد، بالاضافة الى ان هذا الجفاف يكون مصحوبا دائما برياح عاتية تحمل معها جبالا من الرمال . والمحصول الزراعي قليل جدا في الصحراء، اذ لا يزرع فيها سوى الشعير وحتى ذلك ليس في كل مكان ، فيكون القوت العادي إذن من التمر واللبن والسمن واللحم ، بحيث إن المعيشة هناك ضنك بعض الشيء ، كما سنبينه عندما نتحدث عن هذه القبائل .

الفصل الخامس عشر

وصف بلاد العبيد، أو بلاد السود، وهو القسم الرابع من افرقيا وما فيها من ممالك وأقاليم

إن بلاد السود التي يسميها الأفارقة كَنَاوَة، والزنج، والنوبة، هي اثيوبيا السفلى (55) التي يدمجها بطليموس في ليبيا الداخلية . يحدها المحيط غربا ، ومفازات الصحراء شمالا، واثيوبيا العليا جنوبا، حيث توجد بلاد الحبشة، واثيوبيا القريبة من مصر شرقا . وهذا الجزء من افرقيا اكبر من جميع الأجزاء الثلاثة السابقة، ويحتوي على عدة قبائل، وأنهار عظيمة تصب في المحيط، وأرضه منخفضة الى درجة أن مد البحر يدخل الى البلاد على مسافة عدة أميال . والقبائل الأكثر ثراء والمحكومة بطريقة معقولة بعض الشيء هي التي يسميها العرب كَناوة، وتقطن على ضفاف النيجر، لأن هذه الطريق هي التي يسكلها التجار الذاهبون الى الشرق، ويقصدها عدد من أهل بلاد البربر ونوميديا وغيرهما . والسكان الذين يقطنون على طول الساحل هم كذلك متحضرون بعض الشيء، منذ أن أخذ البرتغاليون يتجرون معهم ، لا سيما سكان منيكنغو الذين اعتنقوا الديانة المسيحية . ويوجد كذلك بعض المتحضرين من بين الذين يسكنون في الجهة الشرقية نحو بلاد النوبة ويتاخمون الحبشة، لكن الساكنين بداخل البلاد الذين يسميهم العرب قبائل الزنج، حيث توجد جبال الأرض وكين فانهم قوم متوحشون ليس لهم سوى وجه الانسان، ولا يتعامل معظمهم مع الأجانب بأية تجارة ولا يطيقون حتى النظر إليهم . شغلهم الرئيسي هو تعاطي الفتك والسرقة بحيث انهم يتحاربون فيما بينهم على الدوام . يقول أحد المؤرخين (56) : إنه يوجد من بين هذه

(55) أو بلاد العبيد .

(56) هو المسعودي .

القبائل قبيلة شديدة البأس تُدعى بربر باسم العاصمة (57) وهي شجاعة لكنها بالغة القساوة، تحارب بالنبال سواء منها الرجال والنساء، ويضيف أنهم يعلمون وجوههم بجراح عديدة ليتميزوا بها في ميادين الحرب . لكنهم رغم حذقهم ومكرهم فانهم على درجة من الخشونة لا تسمح لهم بالاتجار ولو مع بعض جيرانهم . يرتدون الجلود ويتكاثر عددهم إلى حد أنهم ربما يُغطون الأرض كلها في النهاية لولا أن ريحا (58) تهب في هذه الأحياء كل ستين سنة فتغمرهم بالرمال ، بالاضافة الى أنها مؤذية لدرجة أنها تجفف مياه البحيرات والآبار وتهلك الحيوانات . وليس لهذه الريح نفس الخطورة في اتجاه المحيط ولا في جهة النيل أو بلاد كُناوة ، إلا أنه تهبّ بشدة في وسط اثيوبيا السفلى الكثيرة الرمال كالصحراء ، فتهلك السكان .

يقتتل هؤلاء السود دومًا، كما يقتتل الذين يوجدون في حدود ليبيا والمحيط، بسبب أحقاد قديمة بينهم . وجميع من وقع في أيديهم من أعدائهم رجالا كانوا أو نساء أو أطفالا، باعوهم الى الافارقة والأعراب والبرتغاليين الذين يتجرون عادة في ساحلهم وعلى طول أنهرهم، ويأخذون منهم في مقابل ذلك الخيل والجوخ والقماش والزيت والخمر وغيرها من البضائع المستوردة من أوربا . وأول اقليم يلاقيه المرء في جهة الغرب هو اقليم بني عيس، فاقليم الجيلوف ، وفي داخل البلاد ممالك ولاتة أو كَناتة، وغينيا، وجيني أو كَناوة، ومالي، وتنبكتو أو إزة، وكَاغو، وكَوبر، واكَدز، وكَانو، وكنينة، وبرزيكَريك، وزنفرة، وونكَرة، وبرنو، وكَاوكَا، ونوبة أو النوبة، ومدينتهما الرئيسية سرفاك الواقعة على النيل من جهة الغرب، لكن اذا تابعنا السير على طول الساحل وصلنا الى آخر مملكة منكنغو . وتوجد في قلب البلاد عدة اقاليم للزنج والجبال الارض والكين، معظمها مجهول، ولا يتجر سكانها البتة فيما بينهم، ويتحاربون دوما بسبب اختلاف نحلهم ومللهم . وهناك أقاليم أخرى يعرفها التجار، مثل بِثو، وتمين، ومدية، وكَرهان ومندِنكا، وسنتحدث عنها باسهاب في القسم الثاني من هذا الكتاب .

---

(57) بربرة . (لعل المقصود ما يسمى بلسان عامة أهل المغرب . بَامْبَارَة) (مترجم) .
(58) ريح الفويدة .

الفصل السادس عشر

خصائص بلاد السود

هذه البلاد حارة، وفيها بعض الرطوبة بسبب مجاورة النيجر وغيره. من الأنهار الكثيرة التي تخترق هذا القطر، لا سيما على طول النجير في اتجاه حدود الصحراء حيث لا توجد ربى ولا جبال، لكن بحيرات عظيمة في كل مكان، تتكون من فيصان الأنهر، وتحيط بها أدغال تكثر فيها الفيلة وغيرها من الوحوش . وتوجد على طول المياه مراع جيدة وأراض تزرع فيها كمية وافرة من الدخن الدقيق والغليظ ولو أن القوت الرئيسي للسود هو جذور النباتات التي يسمونها «كُنام» ولا تُنبت أرضهم فواكه كما هو الشأن في بلاد البربر، إلّا أنّ لهم أنواعا من الأشجار السامقة تحمل ثمارا تشبه القسطل ويسمونها «كُور» . ولا يزرع فيها قمح ولا شعير، لأن التربة حارة جدا والمطر لا يسقط إلا ثلاثة أشهر في السنة (59) فلا ينمو فيها شيء من هذه الحبوب ، لكن فيها الجلبان ، والفول ، والحمص، والثوم القصبي، والخيار، والقرع، والبطيخ، ونبات الخصر، والترمس

والفول عندهم في حجم متناه في الكبر، الأول مثل البندق الغليظ مبرقش بمختلف الألوان، والآخر عريض أحمر قان لامع ولو أن بعضه أبيض . يزرعون الذرة في يوليوز ويحصدونها في شتنبر، لأن المطر ينزل اذ ذلك بكثرة ويتسبب في فيضان الأنهار . ولا ينفع المطر البلاد ولا يضرها، لأن ماء الأنهار كاف لانبات ما يزرع في الأراضي المنخفضة، لا سيما التي يمكن أن يصل اليها النيجر، لأنه يفيض مثل النيل، يرتفع وينخفض في آن واحد معه، بحيث إن عمليات الزرع والحرث والحصاد تتم في ظرف ثلاثة أشهر، لكن هؤلاء القرم كسالى الى درجة أنهم لايزرعون إلا ما يكفيهم لمؤنهم، ولا يهمهم أن يفضل لهم شيء لادّخاره أوبيعه . وعندما يريدون حرث أراضيهم يجتمعون رباع أوخماس ويرفعون التراب رفعا خفيفا أمامهم بالجوارف أو المناقش، ويرمون فيه بذورهم التي تجعلها مياه الفيضان تثمر

(59) في يوليوز وغشت وشتنبر .

بغزارة . لاوجود للكروم في البلاد كلها، ويصنع الخمر عندهم من السائل[60] الذي يقطر من بعض النخيل ويكون له لون الخمر الفاتح. وللحصول على ذلك يضربون جذع النخلة بالفأس مرتين أو ثلاثا ويضعون تحته قرعا يجتمع فيه السائل ويعطي كل جذع ثلاثة أكيال (البنتة)[61] أو أربعة في ظرف أربع وعشرين ساعة، ويشربون من هذه الخمرة اللذيذة التي تسكر إن لم تمزج بالماء . وهي حلوة الطعم في اليوم الأول التي تستخرج فيه، لكنها تكون أفضل وأسلم بعد ثلاثة أيام أو أربعة ولو أنها تفقد حلاوتها التي تتناقص، واذا احتفظ بها مدة طويلة صارة كالخل .

(60) ويسمى ميكول .
(61) البنتة : كيل للسوائل سَعَتُه نحو نصف لتر .

الفصل السابع عشر

نهر النيجر

يقول بعضهم إن النيجر والنيل ذراعان لنهر (الجيون) الذي ينحدر من الفردوس الأرضي، وإن الأول اتخذ اسمه من السود الذين يمرّ بأرضهم، لكن العرب يعتقدون أنه جزء من النيل يسيل تحت الأرض الى بحيرة النّوبة في صحراء ساوة، ويتجه من هناك لحو الغرب مكونا أيضا بحيرة أخرى كبيرة يسمونها نيجرطا، حيث يتضخم بمياه عدّة أنهر ويسير في منعرجات كبيرة ليصب في المحيط الغربي، بواسطة قناتين عريضتين، تدعى إحداهما سينكّال والأخرى كامبا . وتفصل الأولى الصحراء عن السود من جهة الغرب . والغريب أن الرجال فيما وراء ذلك شطر الجنوب، شديدو السواد اقوياء معتدلو الأجسام، والأرض خصبة مكسوة بالأشجار والظلال .وأما في جهة الشمال فالرجال قصار القامة هُجناء، لكن بعضهم بيض خائرو القوى، والأرض مجدبة يابسة، بحيث لا ترى غير الرمال في كل مكان . وعرض مصب الذراع الأول المسمى سينيكّال نصف فرسخ كبير، وهو عميق جدا، لكن الذراع الآخر أقل منه . ويكون هذان الذراعان جزيرة تمتد أمامها كوم رملية كبيرة داخلة في البحر بمسافة فرسخ ، وبما أن المدّ يرتفع وينخفض كل ست ساعات، فانّ البحر يتوغل بأكثر من خمسة وعشرين فرسخا داخل البلاد، ولابد من انتظار ارتفاع المدّ للدخول الى الجزيرة، لأنه يغطي حينئذ الكوم الرملية فيسهل دخول السفن اليها . ويوجد على ضفاف هذا النهر وروافده أشهر السكان من بين السود .

وبما أن النيجر يفيض ويتراجع في آن واحد النيل وبنفس الكيفية ، فانه يغمر سطح الأراضي كلها، بما فيها من سهول ووديان، فتمتلىء به، وينتقل السود من طرف الى طرف بواسطة زوارق ليست حسنة الصنع ولا مأمونة أكثر من التي في مصر . يبتدىء فيضانه في منتصف يونيو ويدوم ثمانين يوما، سواء في الارتفاع أو الانخفاض . ولبطليموس معلومات قليلة عن منبع النيل — وان كان له إلمام

بجبال القمر ـــ اذ يقول في الكتاب الرابع ان الثلوج تأتي من هذه الجبال فتذوب وتنصب في بحيرات كبيرة فيخرج منها النيل ؛ لكن ليست هذه الثلوج وحدها هي التي تكونه ، بل كذاك العيون الموجودة في هذه البحيرات كما سنبيّن ذلك عندما سنتعرض له خصيصا . ويقول بطليموس أيضا إن النيجر يكون بحيرة نيجرطا مضافةً إلى مَنْدر وثَلَمانت، وينقسم شمالا الى ذراعين يتوجهان نحو جبال أورفكُّول وساكابول، ثم الى ثالث يتوجه نحو الشرق، فوق بحيرة ليبيا(62) . إلا أن ليون الافريقي يقول عكس ذلك، ويؤيد نظرَةُ التجارُ الذين يذهبون من ولاتة والجلوف الى القاهرة الكبرى صعودا مع النهر . لأنهم يثبتون أن النيجر ليس له أي ذراع يتجه نحو الشرق، بل انها كلها تذهب الى الغرب، وهذا مما لايجهلونه، اذ يرجعون مع هذا النهر منحدرين من تنبكتو الى غينيا ومالي والمحيط .

ويسقي بلاد السود عدّة أنهر أخرى يعرف معظمها معرفة جيدة الملاحون البرتغاليون الذين يصعدون معها الى داخل البلاد قصد التجارة على مسافة مائتين وثلاثمائة فرسخ . وقد تكلمنا عن هذه الأنهر في الفصل الرابع، وسنتحدث عنها أيضا بإسهاب، عندما سنتعرض لوصف الأماكن والسكان الموجودين على طول ضفاف هذا النهر .

---

(62) لهذه البحيرة 35 درجة طولا ، وست عشرة درجة وثلاثون دقيقة عرضا .

الفصل الثامن عشر

وصف بلاد مصر ومافيها من مدن مهمة وأقاليم

يضيف بطليموس مصر الى مَرْمَريكة في وصفه لها، لكن الكورموغرافيين اللاتينيين يضعونهما في خريطتين منفصلتين، والمؤلفون الأفارقة لا يدمجونها في افريقيا، وعلى الأقل قسمها الشرقي. وظن بعضهم أن البحر غمر هذه البلاد كلها في البداية، وأنه عندما تراجع شيئا فشيئا، كما فعل في أماكن أخرى، استمر فيضان النيل زمنا طويلا وجرف من اثيوبيا التراب والطمي بكثرة حتى تكونت منهما تلك السهول الجميلة الخصبة التي يسميها العرب مصر، واليهود مصريم، وأهل البلاد القبط. يحدها الأفارقة غربا بمفازات برقة وليبيا والمرمريك، وشرقا بآسيا، وشمالا بالبحر المتوسط، وجنوبا بأراضي ومنازل البُجَة أو النوبة (63) . وفي كل مكان عدد كبير من القرى والمدن الجميلة الغنية، ويخترق النيل هذه المنطقة من طرف الى طرف آخر، من اثيوبيا العليا الى البحر المتوسط، محيطا بعدة جزر في مجراه، منقسما إلى عدة أذرع.

يقسم بطليموس مصر كلها الى قسمين، العليا والسفلى، ويسمى اللاتينيون هذه الأخيرة أودين، واليونانيون الدلتا، لانها تشكل مثلثا على صورة هذا الحرف. ويدع بعضهم هذا القسم من بين الجزر، اذ هو أيضا جزيرة بالفعل. ومصر العليا هي اقليم طيبس المسمى باسم مدينة طيوة ذات الشهرة العظيمة عند هوميروس (64) التي كان لها مائة باب، وعشرون ألف حارس من الجنود (65) دون المشاة، وكانت مقر بلاط ملوك مصر فحولوه منذ العهد الى ممفيس ثم الى الاسكندرية . وكان الملوك الأوائل يُسمون فراعنة كما كان أباطرة الرومان يسمون

---

(63) في اثيوبيا المحادية لمصر .

(64) في الفصل التاسع من الالياذة .

(65) مائتان في كل باب .

قياصرة ، وهو لقب تشريفي ، وسمي أواخرهم بطالسة . وكانت بابيلون مصر واقعة على رأس الدلتا، وأبعد منها الى الأمام بابل طوم - أوطون حسب العرب - حيث كان العبرانيون مستعبدين إلى أن حرّرهم موسى وأجازهم البحر الأحمر ثم الاردن ليدخلوا أرض الميعاد . وكانت قاعدة آخر ملوك مصر - كما ذكرت - هي الاسكندرية التي أنجبت بطليموس، وأسسها الاسكندر، وامتدحها القيصر وجمهور كبير من الكتاب . ومازالت كذاك شهيرة بتوافد التجار عليها من أجل الاتجار فيها، وذلك أعظم مافي الشرق . ويقسم الافارقة المحدثون مصر الى ثلاثة أقسام : الريف، والصعيد، والبحيرة، ويشمل القسم الأول الجبال وكل الساحل الذي تقع فيه مدينتا الاسكندرية ورشيد مع مافيه نحو النيل صعوداً حتى القاهرة، ويمتد القسم الثاني من القاهرة الى منازل النّجّة حيث كان أشراف مصر يقطنون في القديم، ويواجه القسم الثالث الذارع الاخر للنيل الذي يسير الى مدينتي دمياط وتنيس اللتين سنتحدث عنهما وعن سائر مدن هذا الاقليم باسهاب في غير هذا الموضع .

الفصل التاسع عشر

خاصية البلاد

مصر بلاد شديدة الحرارة قليلة الامطار، يفسد الغيث هواءها ويتسبب في الطاعون والامراض الخطيرة . والحرارة في مصر شديدة في الصيف الى درجة ان التراب يحرق كالنار . ولما كانت الحرارة تتسرب الى المنازل فانهم يشيدون بروجا عالية ضيقة فيها منافذ كلها حتى يستطيع الهواء المرتفع الذي هو أكثر برودة أن يضفي بعض الرطوبة على الغرف السفلى بواسطة المدرج . والطاعون كثير الانتشار في القاهرة، حيث يموت أحيانا عشرة آلاف أو اثنا عشر ألف شخص في اليوم الواحد، كما تكثر فيها الاصابة بالجذري والقرع . وتأتي الفصول في مصر مبكرة جدا، اذ يحصد القمح منذ بداية ابريل ويدرس ويخزن في العشرين من ماي، لأن النيل يأخذ في الارتفاع والفيضان حوالي منتصف يونيو، مرتفعا ومنخفضا مدة ثمانين يوما(66) وفي هذه المدة كلها تتحول المدن والقرى في مصر الى جزر، ولا يمكن التنقل في البلاد كلها الا بالزوارق .

غير أن ذلك يساعد السكان على نقل القمح والمواشي في زوارق كبيرة يسمونها برشية، تحمل سبعة آلاف أو ثمانية آلاف صاع من القمح، وعدة آلاف من الغنم، الامر الذي لا يستطيعون انجازه لولا فيضان النهر . وجميع أقسام مصر الثلاثة خصبة، لكن الذي يسمى الصعيد أكثرها قمحا وشعيرا وخضرا وغنما ودجاجا وكتّانا .

والريف منطقة وعرة لكنها كثيرة الفواكه والأرز في الوديان . وتنتج البحيرة ــ ومعنها ساحل البحر ــ كمية من قصب السكر والقطن والثمار . وسكان القسمين الأخيرين أكثر تحضرا من غيرهم بسبب الاتصال بالتجار الوافدين من كل جهة(67) بينما الأولون، وكذا القاطنون داخل البلاد، لا يتجرون إلا مع عدد قليل من تجار إثيوبيا، وليسوا في جملتهم غير فلاحين أو أصحاب حقول .

---

(66) 40 يوما في الارتفاع و 40 يوما في الانخفاض .

(67) يعنى أوربا وآسيا وبلاد البربر .

الفصــــل العشـــرون

وصف إثيوبيا العليا والامارات التي تشتمل عليها .

وصف إثيوبيا العليا التي توجد فيها مملكة الحبشة عند مصب البحر الأحمر ، وتمتد جنوبا إلى جبال تلمي التي تسمى أيضا جبال الذهب ، الواقعة تحت الخط (68) وطول ساحلها (69) من هذا الجانب الى السواكن مائة وعشرون فرسخا ، حيث يوجد بالجبال بعض المسلمين الذين لا يعترفون بهذه المملكة ، وهم شجعان أبطال يحاربون بالأسلحة هم وخيلهم ، ويستعملون النبال على الطريقة الفارسية . وهم في حرب دائمة مع ملكي برناكاس وتكرماهون الذين توجد مملكتاهما بين النيل والبحر ، ويخضعان لامبراطور الحبشة الذي تمتد مملكته غربا إلى سود إثيوبيا السفلى المسمين الزنج ، وأغلبهم وثنيون يؤدون له إتاوة ذهبا، اذ توجد بتلك الجهة عدة مناجم ، سواء في الجبال أو السهول ، حيث يأتي الذهب الى سفالى، حسب قول البرتغاليين الذين يترددون على هذه المنطقة . ويحدها النيل شمالا من النوبة الى أسفل جزء من جينيووفا وأبعد من ذلك غربا . وفي كل هذا المتسع توجد أقاليم عديدة وممالك وإمارات يختلف جدا أمراؤها من حيث الديانة واللغة والعادات ولون البشرة ، إلا أنهم يعترفون كلهم بامبراطور الحبشة ويؤدون له الخراج ويخدمونه في الحرب كعاهل لهم . وسنذكر فيما بعد أسماء الممالك ضمن ألقاب هذا الامبراطور الذي اتخذ صيفا مقرا عاديا له، لأن الأرض فيها خصبة جدا، والطقس معتدل . تحتوي هذه الممالك على دائرة(70) تزيد على سبعمائة فرسخ ، وهو ما يعادل تقريبا مساحة اسبانيا كلها وبلاد الغال الى نهر الرين حيث جعل القيصر حدودها ، وبسبب اتساع

(68) يضيف المؤلف : على حدود بلاد النوبة ، لكن هذه تقع شمالا .

(69) وهو ساحل أبيكس ، على طول البحر الأحمر .

(70) بل يلزم القول على الطول ، لأن لها دائرة 2.500 فرسخ .

هذه الامبراطورية واختلاف الفرق الدينية (71) فيها، تقوم حرب دائمة بين هؤلاء القوم الذين يثورون غالبا ضد أميرهم حتى اذا انبرم الصلح بينه وبينهم كان لديه دائما ما يناقش فيه جيرانه الذين يوجد من بينهم بعض الأقوياء جدا . ولذلك فانه يظل دائما في البادية تحت خيام تنقل من هنا الى هناك حسب توفر المياه والمراعي ، إذ يبحث في فصل الصيف عن الاماكن الرطبة والطقس الأكثر اعتدالا. ومن الأشياء العجيبة مشاهدة محلته وخيامه التي تنشر على أكثر من ثلاثة فراسخ في كل جهة، مع مساحة كبيرة في الوسط، وأخريات أقل منها سعة في مواضع مختلفة لا تتغير أبدا، ذلك لأن جميع الأزقة والمساكن والساحات منظمة بكيفية تمكن من التعرف على موقع خيام الضباط الكبار في أي مكان أقيم المخيم. وهناك ثلاث عشرة كنيسة تحت قباب كبيرة يتحتم على الرهبان أن يحضروا فيها القداس والتبشير. ويوجد في المخيم أكثر من مائتي ألف رجل من المحاربين والخدم. وحيث إن الأمير في تنقل مستمر فلا وجود لعاصمة ولا لمدن يزيد عدد سكانها على ألفي نسمة، وهي غير مسورة كما يجب، ولا يعمرها سوى الرهبان والفلاحين والتجار وغيرهم من الناس الذين لا يذهبون أبدا إلى الحرب. والدور مبنية بالطين ولوح الخشب المحكم الالتصاق، لكن الكنائس والأديرة الكبيرة فخمة، وهي (72) مبنية بأحجار ملصقة بالجير. وفي كل مكان من هذه المملكة عدد من الجبال، بعضها مرتفع وعر المسالك إلى درجة أنه لا يمكن الوصول الى المدن والقرى إلا بمنعرجات ومسالك ضيقة جدا يكفي باب واحد أن يمنع المرور منها. إلا أنه توجد بأعلى هذه الجبال سهول كبيرة وجداول عديدة تجعلها خصبة جدا قمحا وماشية كما هو الشأن في معظم أجزاء البلاد. وجميع الامارات الخاضعة لهذا العاهل بعيدة عن الساحل، ومع كونه ذا سيطرة مطلقة في البر فإنه ضعيف جدا في البحر، لانه لا يملك سفنا حربية ولا ما يلزم لصناعتها من خشب، اللهم إلا بعض المراسي الصغيرة البعيدة عن شاطىء البحر . ويخترق النيل البلاد كلها ، وفيها يوجد منبعه وفيضاناته، كما سنذكر ذلك فيما بعد. وقد وصلت عظمة هذا الامبراطور إلى درجة أنه يبدو إلها أكثر منه إنسانا منذ مائة وعشرين سنة ، بحيث إن الكثير من

---

(71) من إسلامية ووثنية ومسيحية .

(72) أو بالآجر .

الملوك والأمراء الخاضعين له لم يكونوا يرونه إلا صدفة، وكان من الشرف العظيم لهم إذا ذهبوا لمخاطبته أن يريهم رجلا أو يدا من خلال ستور رواقه، لكنه كان يخاطبهم دائما بلسان غيره. إلا أنه، منذ أن خسر الامبراطور داود بعض المعارك، أصبح حكيما من جراء الهزيمة وبدأ يظهر للناس، وخصوصا منذ أن تعلم من البرتغاليين أن تلك هي عادة ملوك أوربا. وأما الالقاب التي يتحلى بها فهي : داوود حبيب الله، عماد الدين، من دم يهودا وسلالته، ابن داوود، ابن سليمان، آبن عماد صهيون، ولد نطفة يعقوب، ابن يدمريم، ابن نوح من اللحم، امبراطور إثيوبيا العظمى والعليا وجميع الممالك والدول التابعة لها، ملك كُوا وسفالة ، وفتكًا، وأنكوس، وبارو، وبعلكنسية، وآديا، وفانج، وكشان، ومارة، وفيكيميدري، ودمباية، وأمباية،وتكريماهون، وسباين، وبرنكاس، الحاكم حتى الى النوبة إلخ ... وهو في حرب دائمة مع العرب الذين يجتازون مضيق البحر الأحمر (المندب) ويفتحون الأراضي الواقعة بين النيل والبحر، حيث يوجد إقليما بارناكَاس وتكَريماهون. وهؤلاء القوم كلهم فرسان يحارب معظمهم بالنبال كالفرس. وتتكون قوات هذا الامبراطور من فرسان اعتادو أن يذهبوا إلى القتال مسلحين بالخوذ العالية والزرود مع تروس ورماح مسننة بالحديد في طرفيها، وخيلهم أيضا مسلحة كخيل رجال الدرك بأوربا. ويحارب الرجالة بالنبال والسهام، وكثير منهم بالمقاليع، وغالبا ما يكونون في بروج خشبية تحملها الفيلة، ومنها يقذفون العدو. ذلك لانهم لم يعرفوا المدفعية ولا الاسلحة النارية إلا منذ مجيء البرتغاليين الذين تركوها لهم. والاتاوات التي تؤدى لهذا الامبراطور من الذهب الخالص غير المسكوك، ومن معادن أخرى. ويعطيه بعضهم ماشية أو حريرا أو قماشا من القطن، ويعطيه آخرون الملح والتوابل، لكن الذين يسكنون قرب جبال بهت يؤدون إتاواتهم أسودا ونمورا وغيرها من الحيوانات المفترسة، فيضعها في ملاعب للتفرج عليها. ويعطيه بعضهم جلود حيوانات مهيأة أو غير مهيئة. ولا تسك النقود في إماراته، لكن الذهب والفضة يتخذان فيها بالوزن. وهناك سكة خفيفة جدا وذهب ردىء يصنعهما العرب الذين يسمون صرافين و«بردليس» ويسميها بعض المؤلفين «بريط جان» غلطا أو تحريفا للاسم، لأن الأحباش يقولون «بيوك جان»، أي يوحنا المحترم، والكلدانيون «جان إنكون»، أي يوحنا الثمين والعظيم، لكن « بريط جان» الحقيقي هو أمير تترِيّ .

الفصل الواحد والعشرون
خاصية البلاد والأشياء العجيبة فيها

إن معظم إثيوبيا العليا منتج للماشية الكبيرة والصغيرة، وللقمح والشعير وجميع أنواع الخضر كأوربا. وباقي الزرع عاليا بحيث إنه يُخفي الرجل راكبا على فرسه، وخاصة الذرة. وفي بعض الأماكن كروم مرسلة وأخرى معروشة تنتج عنبا في غاية الجودة يعصر منه الخمر، لكنهم يشربون عادة نبيذا من تفاح الغابة، كما يفعل سكان جبال أسبانيا وبسكاية، وفي بعض الأماكن يشربون نبيذ العسل[73] كما يفعل سكان موسكو وليفونيه وليتوانية. وهذا الشراب لذيذ جدا وقوي كالخمر المالفوازي (اليوناني) الذي له نفس المذاق. ينشطهم هذا المشروب ويُصحّ أجسامهم حتى إنهم لا يعرفون طبيبا ولا صيدليا. يحصدون الزرع ثلاث مرات في السنة، لأنهم بمجرد ما يجمعون الحبوب يزرعون أخرى حيث إن الأرض ينقصها الماء من جراء الأنهر الخارجة من بحيرات النيل. والهواء معتدل بها طوال السنة مثل الخريف هنا، لكن الأمطار غزيرة في دسمبر ويناير وفبراير، وتسقط حينئذ الثلوج في الجبال ويكون البرد قارسا جدا وبالاخص في جهة الغرب. ويدوم الصيف أربعة أشهر تكون خلالها الأرض شديدة الحرارة والساحل كله مليئا بريح معدية بسبب البحيرات والغدران المتكونة من المياه العذبة المختلطة بالمياه المالحة. والخريف[74] معتدل جدا في الجبال رغم الحرارة المفرطة في السهول. وفي كل أنحاء البلاد أشجار مثمرة مثلما يوجد في أوربا، وكثير من الخضر والبقول والجلبان والفول موجودة في الشهور كلها. ويربى فيها عدد من الماشية الكبيرة والصغيرة، وتتخذ مرابط للنوق والحجور والأتن، ولاسيما للبغال التي هي الأكثر استعمالا عندهم. والحاصل أنها بلاد كثيرة الخصب فيها كمية من معادن الذهب والفضة والقصدير والنحاس وغيرها من المعادن، إلا أن سكانها متكاسلون لدرجة أنهم يفضلون التنقل من هنا إلى هناك وحمل السلاح على العمل.

(73) يسمونه ميد

(74) يبدو أن هذا متناقض مع ما قاله سابقا .

الفصل الثاني والعشرون

في نهر النيل وماله من عجائب

إن النيل الذي يسمى هكذا في إفرقيا وأوربا على حد سواء هو أكبر الأنهار كلها، ولذلك فإن شعوب إثيوبيا العليا يطلقون عليه اسم ابنهي، أي أبي الأنهار . واعتقد القدماء أنه أحد أذرع جيحون المنحدر من الفردوس الأرضيّ، كما توجد بعض الاشارات إلى ذلك عند مختلف المؤلفين، وخصوصا منهم لوكان[75] الذي يجعل قسيسي مصر يتحدثون عنه بإسهاب أثناء الغداء لدى صلاة صغار . لكن يبدو أن القدامى لم يطلعوا جيدا على أصله، لان بعضهم يقول إن البحيرات التي يخرج منها إنما تتكون من مياه الثلوج التي تسقط من جبال القمر، ويؤكد غيرهم خلافا لذلك أن منبعه في الصحراء حيث تتكون هذه البحيرات متباعدة جدا بعضها عن بعض، لكن البعض الاخر يزعمون أن في هذه الجبال شبه بداية نهر وأن هذه المياه تنحدر بقوة إلى أسفل الصخور بحيث تفتح الارض وتتسرب الى هذه البحيرات من حفر باطنية، إلا أن جميع هذه الآراء مرفوضة اليوم بفضل التجربة، إذ اكتشف أن المياه الخارجة من جبال القمر هي منابع النيل الحقيقية، وأن الثلوج والامطار هي المتسببة في فيضاناته . وتسمى الآن هذه الجبال جبال بهت ومعناه : مجمع المياه ، وهي عبارة عن سلسلة من الصخور تمتد مما وراء الخط الى مملكة إيصيفا عبر مملكة كوجيان ، وكلتاهما في إثيوبيا العليا . وهذه الجبال أعلى من جميع جبال إفريقيا وأوربا ، وهي مكسوة دائما بالثلوج والجليد ، ونظرا لكونها تحت مدار الجدي فإنه عندما يحين القيظ وترسل الشمس أشعتها عليها عموديا تذوب كل هذه الثلوج وهذا الجليد كما هو الحال هنا، وتسقط بقوة في البحيرات، بحيث إن النيل يفيض بسبب هذه المياه ومياه الأمطار المتهاطلة بغزارة في إيثيوبيا العليا أثناء شهر ماي . لكن ارتفاع النيل لا يبدأ في مصر إلا في منتصف يونيو، إذ لابد من هذه الفترة كلها ـــ حسب قول الاحباش ـــ لتستطيع المياه أن تنحدر من هذا البعد الشاسع . وسألت يوما تجاراً

---

(75) الكتاب 10

إيثيوبيين كانوا يتجرون في النوبة ومصر عن سبب عدم المعرفة الحقيقة لموقع منابع هذا النهر، فأجابوا أن في سفح جبال بهت وفي الضواحي أدغالًا كبيرة كثيفة ومغارات مليئة بالوحوش، لا يجرؤ أحد على أن يقترب منها دون أن يتعرض للهلاك، وأنَّ مياهه تسير من هناك نحو الجنوب وهي تتضخم باستمرار فتكون بحيرة عظيمة يبدو أن ليس لها أي مجرى، إلا أن عدة أنهار تخرج منها من جهة الجنوب وتسيل نحو أماكن مختلفة، بعضها الى الشرق وبعضها الى الغرب، متبعة منعرجات طويلة ومكونة عددا من البحيرات حتى إنه ليعسر على المرء أن يعلم من أين يمكن أن تاتي كل هذه المياه . وأضاف هؤلاء التجار أنه كثيرا مايقع للايثيوبيين التائهين في هذه الفلوات، والاعراب الذين ينشدون جمالهم الابقة بسبب النزو فيقتفون أثرها أحيانا الى مسافة مائتين أو ثلاثمائة فرسخ الى الجنوب، أنهم يرون بدون انقطاع مياه هذا النهر على نفس الشكل مكونة بحيرات كبيرة وأذرعا عديدة . ويصادفون أيضا جبالا كبيرة خالية جدباء . ويؤكد المسعودي أن هناك يوجد أثمن الزمرد الذي يسمونه دبنيس، ويشاهد أيضا رجال متوحشون يهربون من التحدث مع غيرهم . وأول بحيرة يكونها النيل وأكبرها تسمى صافي، يحدها شرقا إقليما كَوجيان وبيكَيميدري، وغربا إقليم دامباي وأزيد من عشرين جزيرة آهلة بالاحباش الخاضعين لامبراطور إثيوبيا . يخرج النيل من هذه البحيرة هادئا، ثم يخترق بسرعة بلاد هذا الامبراطور مكونا عدة منعطفات، ويحاذي بحيرة الزنوج دون أن يضيق في مجراه، الى أن يصل بين جبال فيها شلالات أو دور مصر التي يسميها القدماء كاطادوب . ويسكن على ضفتيه عدد من شعوب السود ، وتزرع على طول الشاطىء بذور البنك التي تسمى عادة بذور النيل ، ويسميها العرب بلاذر . تسمى البلاد الواقعة شرقي النيل الحبشة بالعربية ، والواقعة غربيه بلاد النوبة والزنج وجينيووفا ، النوبة في جهة مصر ، والزنج وسط البلاد ، وجينيووفا في جهتي الغرب والشمال على طول النيجر والمحيط . وانطلاقا من الشلالات انحدارا يتوسع النيل ويسيل على مهل مكونا منعطفات كبيرة دون أن يكون سهل العبور ولا صالحا للملاحة ولو في مكان واحد، وذلك إلى جزيرة ميرووي التي يسميها المصريون «ناولباب» أي بحر المراسى الطيبة ، وأهل بلاد النوبة والاحباش يدعونها سبأ التي كانت تحكمها ــ على ما يقولون ــ ملكة سبأ أوما جدة التي ذهبت لزيارة الملك سليمان، وكانت ملكة كنداس هي الاخرى تحكم هذه البلاد

فأرسلت خصيها لحمل الهدايا إلى بيت المقدس حيث عمَّده سان فيليب . ويشك بعض المؤلفين في اسم هذه الملكة بدعوى أن النساء لا يملكن إطلاقا في إثيوبيا[76] بموجب قانون صادر عن سليمان، على ما يقال . إلا أن الجواب عن هذا هو أن المرأة كان في استطاعتها أن تصبح ملكة بالزواج لا بالوراثة، وان كانت تحمل اللقب بفضل علمها وشجاعتها، كما يقول الاحباش .

وهذه الجزيرة في غاية الكبر، وتشمل الان ثلاث ممالك مميزة بعضها عن بعض، وملوكها مختلفون في الديانات والعادات، متحاربون أحيانا الى درجة الابادة . أولهم وأشدهم بأسا في غرب الجزيرة، وهو مسلم . والثاني الذي توجد ممالكة في جهة الشمال من جنس السود، وهو وثني . والثالث في الجنوب، وهو حبشي مسيحي من رعايا إمبراطور إثيوبيا . ومن هذه الجزيرة انحدارا يصير النيل صالحًا للملاحة، وتصل الزوارق في ظرف خمسة عشر يوما الى مدينة الجزيرة التي كان القدماء يسمونها سيان حيث تسقط أشعة الشمس عموديا، حسب أقوال الشعراء، وينعدم فيها الظل عند الزوال، وهذا أول موقع مصري على حدود مملكة النوبة، ومنه الى أسفل يسير المسافرون على متن النيل بكل أمان . وضفافه من جميع الجهات آهلة جدا بالمصريين والغرب، وريفه خصب بسبب فيضانه . وتصب جميع مياهه — كما قلنا — في البحر المتوسط بواسطة قنوات مختلفة قبالة جزيرة قبرص .

يبدأ فيضان النيل في مصر حوالي الخامس عشر من يونيو ويدوم تضخمه أربعين يوما، وتراجعه أربعين يوما، وبذلك يعرف غنى السنة التالية أو فقرها وما عسى أن يكون سعر الزرع فيها، ذلك أنهم وضعوا في جزيرة مقابلة للفسطاط تسمى المقياس — أي وسيلة القياس — غلامات من ذراع إلى ذراع على عمود منصوب في وسط بركة علوه ثمانية عشر ذراعا، فيدخل النيل من إحدى القنوات في السابع عشر من يونيو، وهو التاريخ الذي تاخذ فيه المياه في الارتفاع بهذه المناطق، فترتفع في بعض الايام بأصبعين وفي بعضها بثلاثة أصابع، وفي أخرى بأربعة أصابيع . ويذهب كل يوم من القاهرة نواب لمشاهدة هذا العمود، إذ توجد

(76) فهي ليست من هناك ، بل من الجزيرة العربية التي تسمى تسمى أيضا إثيوبيا في الكتاب المقدس ، ولذلك سميت زوجة موسى إثيوبية .

البركة في مكان لا يدخله أحد إلا برخصة من العامل. وبعد أن يشاهد النواب مقدار ارتفاع النيل، يطلعون عليه أطفالا صغارا يضعون طاقية صفراء على رؤوسهم ليتميزوا بها، فيتجولون عبر المدينة كلها وفي ضواحيها[77] معلنين العلو الذي حققه النهر كل يوم . وتكرر هذه العملية ما دام النيل في ارتفاع، ويناولهم أهل الدور شيئا جزاء أتعابهم . وإذا بلغ ارتفاع النيل خمسة عشر ذراعا، فتلك علامة الرخاء، والى حدود اثنى عشر ذراعا فان السنة مازالت معقولة، لكن من هذا القدر الى عشرة أذرع تكون المجاعة . أما وصل الى ثمانية عشر ذراعا فتكون السنة جيدة جدا، غير أن ذلك يكون نذيرا بخطر ناتج عن تكاثر المياه . وتكون الحالة أسوأ إذ زاد الارتفاع على ثمانية عشر ذراعاً، لأن البلاد كلها تكون مهددة بأن تغمرها المياه، ويضطر الضباط الى إعلان ذلك عبر الأزقة ويذهب هؤلاء الأطفال الصغار صائحين بأنه يخاف من غضب الله، لأن فيضان النيل وصل الى أعلى السدود إذاك يهرع السكان الى المساجد للدعاء والصلاة ويتصدقون . ويرتفع النيل هكذا أربعين يوما ويتناقص في مدة مماثلة . وبما أن الزاد ينفدوقتذاك فيكون لكل فرد الحرية ليبيع ما عنده من قوت كيفما شاء ، غير أن المواد تخضع للمكس عند انقضاء هذه المدة وخصوصا الخبز الذي يدوم سعره السنة كلها . فبحسب مقدار الفيضان يعلم النواب والضباط مسبقا الأراضي التي سقاها النيل ، وما سقي منها أكثر من اللازم أو أقل بحسب علوها، وبناء على ذلك يسعرون القمح والشعير . وتقام اثر ذلك في القاهرة احتفالات كبيرة حتى ليظن أنه حدث انقلاب كلي . يغطي السكان زوارقهم بالقماش والزرابي الخفيفة ، ويذهبون لتناول العشاء على سطح الماء تحت ضوء عدة مشاعل، ويذهب العامل نفسه مصحوبا بأعيان المدينة وضباط العدل الى القناة الكبيرة المسدودة بجدار متين عندما يشرع النيل في الارتفاع فيتناولون المعاول ويهدمون الجدار بأيديهم في حبور عظيم فيتدفق النيل من هذه الثلمة وينتشر في أزقة المدينة كلها ومن الضواحي ، وتكون القاهرة ذلك اليوم شبيهة بمدينة البندقية لان الناس يقطعون الازقة راجلين أو على الزوارق . ويستمر الحفل سبعة أيام وسبع ليال بالولائم والموسيقى ، وهذا أحد احتفالات مصر التي مازالت تقام الى يومنا هذا .

---

(77) أو قرى النواحي تكون بمثابة ضواحي القاهرة .

ذلك ما وجدناه من أصح الأخبار المتعلقة بالنيل ، بعد أن استخبرنا بكامل العناية أهل البلاد والاثيوبيين الذين ياتون اليها للاتجار ، وخاصة منها ما يتعلق بفيضان هذا النهر الذي يشاهد اليوم بدقة أكثر مما كان يشاهد من قبل.

الفصل الثالث والعشرون

الحيوانات الموجودة بافريقيا وهي مخالفة لحيوانات أوربا وباقي خاصيات البلاد

الجمل

البعير الذي يسميه العرب جملا ، أي ثروة السماء ، حيوان داجن وديع جدا ، ويوجد منه عدد وافر في افريقيا كلها ، وخصوصا في بلاد البربر وصحاري جيتولي وليبيا . وليس للاعراب ثروة أغلى من الجمل ، ولا مال يفيدهم أكثر منه ، بحيث إنهم إذا تحدثوا عن رجل غني قالوا انه يملك كذا من آلاف الجمال ، دون أن يذكروا له غيرها . و كل الذين يملكون عددا كبيرا من الابل هم سادة لاسلطة لأحد عليهم ، لأنهم يجوبون المفازات حيث لايمكن الوصول إليهم لمهاجمتهم بسبب فقدان الماء . والجمال موجودة أيضا في آسيا ،(78) ويستعملها الترك في أوربا لحمل الامتعة ، كما يفعل في افريقيا جميع الاعراب والافارقة الذين يعيشون في الفلوات (79) وكذلك ملوك البربر . وجمال إفريقيا أفضل من غيرها إذ تصبر عن الشعير لمدة أربعين أو خمسين يوما ، وإذا وضعت عنها الاحمال سيقت لترعى في البراري حيث تأكل الاعشاب والشوك وعروش الاشجار ، ويجتر طول النهار ما أكلته في الليل . ولا بد عند الشروع في السفر أن تكون الابل سمينة ، إذ دلت التجربة على أن هذا الحيوان اذا مشى اربعين أو خمسين يوما دون ان يأكل الشعير أخذ شحم سنامه ينقص ، ثم شحم بطنه ، واخيرا شحم قوائمه ، فلا يستطيع بعد ذلك أن يحمل ثقلا . وجمال آسيا غير قادرة علي هذا التعب ، فيضطرون الى اعطائها يوميا حصتها ، بحيث إن كل جمل محمل بالبضاعة له جمل آخر يحمل الحبوب المعدة له ولنفسه ، فتسير دائما محملة دون ان تفقد سمنها . لكن قوافل إفريقيا التي تذهب الى إثيوبيا لا تكترث بالرجوع لأنها لا تجيء بشيء ثقيل ، وعندما تصل الى

(78) وذلك عند التتر والفرس والتركمان .

(79) في الصحراء وبلاد الجريد .

هنالك تباع الجمال الهزيلة وتشترى أخرى سمينة توضع عليها المؤن وقليل من الذهب وبعض السلع الخفيفة في الاياب .

والابل ثلاث أصناف ، منها ما يسمى هجينا ، وهي أضخمها وأكبرها وتحمل الى حدود ألف (رطل) لكنها تحمل الاثقال قبل ان تبلغ ثلاث سنوات أو أربع ، واذا أرادوا وضع الحمل عليها اكتفوا بمس ركبتها وعنقها بقضيب ، فتبرك حينئذ وتبقى هكذا تجترهم يضعون عليها الأثقال ، واذا كانت صغيرة فإنها تصيح . واذا شعرت أنها محملة وأن حارسها أزاح الحلقة الموثوق بها الحبل ليقودها به كاللجام ، نهضت لحينها بحملها .

إن الافارقة وكل الذين يريدون أن تكون لهم جمال جيدة لحمل الاثقال يخصونها ، ماعدا واحدا منها يحتفظون به لعشر إناث . وهناك جمال أخرى تسمى بختا لها سنامان يحمل على كليهما ، وهي صالحة أكثر للركوب ، إلا أنها لاتوجد سوى في آسيا . والصنف الثالث يسمى ركاهل أو مهاري أي وحيدة السنام ، وهي أصغر وأدق من الأولى ، ولكنها لا تصلح لغير الركوب وتسرع في الجري بحيث ان البعض منها تقطع خمسة وثلاثين أو أربعين فرسخا في اليوم الواحد وتتابع سيرها في المفازات هكذا ثمانية أيام أو عشرة لا تأكل غير القليل. ويستعملها جميع أمراء نوميديا الاعراب وأفارقة ليبيا بمثابة خيل البريد إن سنحت الفرصة لقطع مرحلة طويلة ، كما أنهم يمتطونها في القتال . والفحول المعدة للانجاب يعتريها النزوفي أوائل يناير ، فتكف اذذاك عن الاكل والشرب الا قليلا ، غير أنها تهيج الى درجة أنها لاتتقاتل بينها فحسب ولكنها تكون خطيرة على سائقيها ، لأنها تتذكر حينئذ أدنى أذى لحقها منهم فتأخد بأسنانها من أمكنها لحصول عليه ثم تتركه يسقط على الارض فترفسه بأخفافها حتى يصير عجينا . وتتصارع أيضا مع حيوانات أخرى مسددة لها ضربات بالاخفاف والاسنان ، وشوهد منها ما هاجم الاسود . ولايدوم النزو سوى أربعين يوما، ترجع بعدها الى ليونتها العادية.

يتحمل الجمل الجوع والعطش بصبر ولا يشرب عادة إلا مرة (80) في ظرف خمسة عشر يوما أو عشرة أيام على الأكثر، وان أعطي الماء لِأَقَلَّ من ذلك أضرَّ به. وهو لين الجانب بطبعه، وله شيء من الانسانية بحيث إنهم إذا أرادوا إلزامه قطع

(80) يورد كل ثلاثة أيام .

مراحل أطول من العادية لم يعاملوه بالعنف بل أخذوا يغنون حوله لتشجيعه إذا لاحظوا أنه يتوقف ويمتنع من متابعة السير، وإذ ذاك يأتي بأكثر مما يرتجى منه ويسرع أكثر من الفرس بالمهماز.

يسمى العرب هذه الحيوانات جمالا على العموم، ويدعون المجموعة منها إبلا، ويقتاتون في معظم السنة بلبانها مع التمر، ولحمها عديم الطعم، ولاسيما السنام الذي يشبه طعمه طعم ضرع بقرة سمينة . يملأ الافارقة والاعراب آنية ودنانا من لحوم الجمال يقلونها مع الشحم ويدخرونها هكذا السنة كلها لغذائهم العادي. والحاصل أن الجمل من بين جميع الدواب هو الأقل كلفة لصاحبه والاكثر فائدة له. تصير الابل جميلة جدا في البلاد الحارة، وتموت في البلاد الباردة عندما يسقط الثلج وتضطر الى قضاء الشتاء هناك. لذلك يتخذونها دائما في السهول ورمال إفريقيا، اللهم إلا إذا سيقت محملة من نوميديا الى بلاد البربر، فتقضي يومين أو ثلاثة أيام لاجتياز جبال الأطلس.
ويشاهد عدد منها في إسبانيا يرسله إليها عمال مراكز الحدود، لكنها لا تعيش فيها طويلا لكون البلاد شديدة البرد بالنسبة لها.

الفــرس

تسمى خيول بلاد البربر في أوربا «بارب» ، لكن هناك نوعا آخر منها يسمى خيولا عربية ، وهي من نسل الخيول الوحشية الموجودة في صحاري الجزيرة العربية . يقول الأفارقة إنه بدأ ترويضها وجمعها في الاصطبلات في عهد الشيخ إسماعيل ، غير أنها تكاثرت منذ ذلك العهد حتى ملأت آسيا وافريقيا . وما زال البعض متوحشا في صحاري الجزيرة العربية وليبيا . هذه الخيول خفيفة جدا تظهر سرعتها في صيد اللمث والنعام عندما تجري ورائها وتمسكها ، فتبلغ قيمتها إذ ذاك ألف أوقية ذهبا أو مائة بعير لكنها نادرة في بلاد البربر . ويربي أعراب الصحراء وسكان ليبيا العديد منها للقنص لا يستعملونها للسفر ولا للقتال ، ولايطعمونها إلا التمر ولبن النوق في المساء وفي الصباح ، الشيء الذي يقويها ويجعلها خفيفة هزيلة أكثر منها سمينة ، وهذا ما يليق بها ، غير أنهم يرسلونها في المراعي عندما يوجد الكلأ . وأما «البارب» التي يربيها كبار بلاد البربر فليست شديدة السرعة ولا تصبر على الركض ،إلا أنها أجمل من الأولى ، اذ يعتنون بها أكثر ويطعمونها الشعير

. ولا يبقى الأمراء بدون تربية بعض الخيول العربية ليتمكنوا من الفرار إذا اقتضت الضرورة . وكان للشريف محمد وهو ملك المغرب وقتئذ فرس من هذه الخيول خلصه من مخاطر كبيرة بسرعته المتناهية ، عندما كان أخوه يستنهض القبائل ليستولي على البلاد . وكان يعلفه في الاصطبل دون ان يعمل أي شيئ، ولا يقبل أن يمتطيه أحد ، ويعتني به كثيرا ، وكان لونه كميتا فاستحال الى بياض ناصع من الشيخوخة ، وكان هذا الأمير يقول إنه سيبني له قبرا كما فعل الاسكندر ذو القرنين بفرسه .

الفـرس الـوحشـي

الخيول الوحشية نادرة الوجود ، تعيش كما قلت في صحاري الجزيرة العربية وليبيا يحسبها العرب وحوشا فياكلونها ، ويقال ان لحمها لذيذ جدا في صغرها . لكنها سريعة الجري بحيث يستحيل أن تلحقها الخيل أو الكلاب ، فينصبون لها أشراكا (81) في الاماكن التي تقصدها للشرب ويقبضونها بهذه الكيفية . وهي أصغر من الأخرى رمادية اللون ، ويوجد من بينها بيضاء ، إلا أن شعر أعرافها وأذنا بها قصير جدا ومنتفش .

الفـرس البحـري

والفرس إلبحري حيوان عظيم يعيش في الماء ، وتوجد كمية منه في النيجر والنيل ، يشبه وجهه وجه الفرس ولونه لون الفهد (82) شعره قصير جدا وعرفه صغير ، وذنبه مغطى بالشعر من كل جهة ، إلا أن وسطه وأردافه خالية من الشعر تماما ، له أسنان وأنياب في غاية الكبر ، يذهب بها البرتغاليون الذين يتجرون مع السود الى بلادهم ليصنعوا منها حلقات ، يعتقدون أنها تداوي البواسير. وتخرج الافراس البحرية من الماء ليلا لترعى وتعود اليه قبل النهار ، وتشكل خطرا كبيرا على الذين يسافرون على متن هذه الأنهر ، اذ غالبا ما تهاجم السفن وتقلبها . وهي خفيفة في اليابسة تجري بسرعة الريح . ويصيدها بعض السود

(81) تخبأ الاشراك في الرمال .

(82) أوهورمادي أسمر ووجهه وجه الفرس

وهي ما تزال صغيرة فيربونها ، إلا أنه لا ينبغي أن تترك لتقترب من الماء ، لأنها بمجرد ما تراه اذا كان عميقا قليلا تغوص فيه . وللحصول عليها عندما تخرج من الماء يحفر الاهالي حفرا كبيرة في جانب الزروع والمروج التي تأتي اليها لترعى ، ثم يغطونها بالأعشاب وبعض الأغصان وينسحبون بعد ذلك الى أن يروها آتية ، فيصيحون عليها ويحدثون ضوضاء من كل جهة ليرعبوها ، فتسقط في هذه الأشراك عندما تحاول الرجوع الى النهر . وفي نفس الوقت يقتلها الرجال المسلحون المعدون لذلك ، ولا يتركون حيا منها سوى المهار والاناث . لحمها طيب جدا ، وجلدها يصلح لأشياء كثيرة لأنه غليظ صلب كجلد الجاموس .

اللمـت

«الدانت» الذي يسميه الأفارقة لمثا له شكل ثور صغير ، غير أن قوائمه صغيرة وعنقه طويل جدا . وتشبه أذناه أذني الماعز ، وله قرن أسود في وسط الرأس مستدير كحلقة مصوغة . وهذا الحيوان لونه مائل الى البياض وأظلافه شديدة السواد مفلوحة . وهو سريع الجري الى درجة أن أي حيوان لا يمكن ان يدركه ماعدا (البارب) . وتصاد هذه الحيونات بسهولة في الصيف ، عندما توهن أظلافها على الرمال الملتهبة من كثرة الجري ، فيوقفها الألم على الفور كما يفعل بأيول هذه الصحاري وظبائها . وتكثر هذه الحيوانات في صحراء نوميديا وليبيا ، وخصوصا في اراضي المرابطين ، وتصنع من جلودها تروس جميلة ، لاتؤثر النبال في أجودها ، وذلك ما يجعلها غالية الثمن ، ويبيضونها باللبن الحامض . ولحم هذا الحيوان جيد جدا ، ويدخره المغاربة مملحا في الآنية ، وله طعم لحم الثور إلا أنه أطيب مه قليلا .

البقر الوحشي

الوحش الذي يسميه نصارى افريقيا البقر الوحشي لونه لون القسطل القاتم وهو أصغر قليلا من العجل، ذو قرنين شديدي السواد والحدة، ويشاهد كثير منه في بلاد البربر يسير في قطعان من مائة ومائتي رأس، وخاصة في إقليمي دكالة

وتلمسان وفي صحراء نوميديا وأماكن أخرى . جريه سريع كالايول، ولحمه طيب، وجلده تصنع منه الاحذية إذا دُبغ .

الغزال

الغزال له قامة الايل الاسمر ولونه، قرناه أسودان قائمان على شكل قرني الماعزة، غير أنهما مستديران وحادّان جدا . توجد الغزلان في نفس الاماكن التي يكون فيها البقر الوحشي، وتشاهد قطعان منها بدكالة وتلمسان . بطن هذا الحيوان أبيض ولاينام إلا في أماكن نقية نظيفة، ولحمه لذيذ، يسرع كثيرا في جريه، ولا يأمن على نفسه في المكان المكشوف إن لم يكن على أحد المرتفعات أو السهول . فإذا رأى رجلا آتيا على فرسه أو كلبا هرب بكل ماله من قوة وسبقهما في العدو . ومهما كان صيده صعبا فإن الاعراب لايفتؤون يقتلون منه الكثير .

الثور البحري

الثور البحري الذي يسميه العرب هكذا يعيش في الماء، وتوجد منه كمية وافرة في النيجر والنيل . يشبه الثور تمام الشبه وله قامة عجلة بنت ستة أشهر، وجلده صلب جدا يعيش أياما كاملة بل أشهراً في اليابسة ولو أنه عادة لا يخرج من الماء أبدا. يصاد منه الكثير، وتوجد منه كمية في القاهرة وغيرها من مدن مصر وبلاد السود . يهتم به الصيادون كثيرا لأن لحمه جيد جدا .

حمار الوحش

حمار الوحش رمادي اللون، توجد منه كمية في صحراء نوميديا وليبيا، وفي البلدان المجاورة . وهذا الحيوان سريع الجري لاتدركه سوى الخيول «البارب» وبمجرد ما يُبصِرُ إنسانا يقف بعد أن يصيح ثم يرفس بقوائمه وياخذ في الجري عندما يقترب منه . يُصاد بالاشراك وغيرها من الوسائل المبتكرة . تذهب حُمُرُ الوحش جماعات للمراعي والموارد، ولحمها جيد جدا، غير أنه لابد من تركه يومين حتى يبرد بعد طهيه وإلا كانت رائحته كريهة أشبه ماتكون بشحم الايل . وقد شاهدنا العديد من هذه الحيوانات في سردينيا لكنها أصغر منها .

الاسد

والاسد الذي يسميه العرب هكذا هو أقوى الحيوانات المفترسة كلها وأكثرها شجاعة وشراسة، لانه يفترسها جميعا سواء كانت وحشية أو أهلية، ويمزق القطعان كما يمزق الانسان في كثير من الاحيان ويأكله ، وربما هاجم أحيانا مائتي فارس، خاصة إذا كان قرب مأوى يمكن اللجوء اليه وفي مكان يتعذر محاصرته فيه . وإذا علم الاعراب أهل البلاد بوجود أحد هذه الاسود الضارية في البادية احتشدوا جماعات كما لو أرادوا شنَّ حرب، وأخذو الدفوف والنفير والأبواق، ثم امتطوا خيولهم وذهبوا اللبحث عنه في عرينه مع بعض الرماة، لانه لا يسير أبدا في النهار، ويخرج في الليل للبحث عن فريسته . فإذا وصلوا إليه طوقوه من كل جهة وأطلقوا عليه السهام والنبال من بعد استدراجه الى الخلاء المكشوف، فيقصده بمجرد ما يحس بالجروح، ويرتمي على الخيل والرجال وهو يزأر. عند ذلك يأخذون في الضرب والنفخ في الآلات التي ذكرتها ليزعجوه ، ولولا الخطر الكبير الذي يتعرضون له لكان ذلك من أجمل الصيد في العالم، لكن الاسديحدث دائما مجزرة كبرى لاسيما في الخيل .

وفي عام ألف وخمسمائة وأربعة وأربعين، عندما كان الشريف محمد ملك المغرب(83) متوجها بجيشه الى تلمسان، شاهدنا أسدا يتحارب مع رجاله في أجمة قرب جدول ماء، واستمر القتال أزيد من ساعتين جرح أثناءهما السبعُ أحد عشر فرسا وقتل ثلاثة رجال، وكان في استطاعته أن يفعل أكثر من ذلك لولا أن أصابوه من بعيد بالنبال وأطلقوا عليه أزيد من ستين طلقة نارية . إنه كان حقا من أكبر وأشرس ما شوهد من الأسدفي افرقيا منذ عهد طويل .

يُهاجم هذا الحيوان قطيع الغنم فيأخذ منه ما يعجبه الى الجبال تارة والى العرين الذى فيه أشباله تارة أخرى، وغالبا ما يدخل أكواخ الرعاة، فإذا وجد أحدهم نائما فعل به مثل ذلك، لكنه يفر اذا ما واجهوه . ويحكي الأسرى الفارون

(83) يقصد محمد المهدي الشيخ ثالث الملوك السعديين (986 – 964 / 1491 – 1557) . ونشير إلى أن غزو محمد المهدي الشيخ لتلمسان في هذه السنة التي ذكرها مرمول ، الموافقة لعام 951 هـ لم تتحدث عنها المصادر المغربية ، وإنما المعروف فيها أن أول زحف لجيش الملك السعدي على أتراك تلمسان كان إثر فتحه مدينة فاس عام 956هـ / 1549 . وقد تكون رواية مرمول صحيحة – وهو يتحدث عن مشاهدة – اعتبارا لكون محمد المهدي الشيخ كان في هذه السنة (951 هـ / 1544 م) قد توج انتصاراته على البرتغاليين بدخوله الى مراكش ومبايعتها له (مترجم)

من بلاد البربر السازون ليلا عبر الجبال للتوجه نحو الساحل الذي هو بيد المسحيين، أنه إذا صادف أحدهم أسداً ليلا وتابع طريقه بهدوء دون أن يلتفت، فإن الأسد لايهاجمه إطلاقا، بل يغض الطرف عند ملاقاته، لكن إذا صدرت منه أدنى علامة للخوف وثب عليه في الحين ومزقه . وقد حدث مرارا أن تبع أسد أسيراً في الطريق وفي الممرات، فإذا لاحظ الخوف لا يعتريه لم يجسر على مهاجمته، إلا أنه لا يفتأ يتبعه آملا أن يفاجئه وهو نائم أو غافل . ويحسب بعضهم أنه يساير هكذا هؤلاء الاسرى المسحيين ليدلهم على الطريق ويشيعهم، لكنه يفعل ذلك لياكلهم إن استطاع، الامر الذي لا يتجرأ على القيام به إذا رأى أنهم ثابتون، وكذلك مع الحيوانات المفترسة الاخرى .

يوجد العديد من الأسود في إفريقيا، وما يوجد منها في الجبال الباردة ليس بجريء مثل الأخرى ولا يؤذي كثيرا خصوصا الانسان . أما ما يوجد منها في اقليمي تلمسان وفاس ، او في مفازات أنكاد قرب تلمسان ، وبين عنابة وتونس فهو أعنف وأشرس من سائرها . وفي فصل الشتاء عند النزو تتحارب الاسود حتى الموت ، واذا صادفت في طريقها رجلا أو حيوانافمن النادر الغريب أن ينجو ، لأنها تسير مجتمعة ثمان أو عشار فتفترس ما تصادفه في الطريق . وقوة هذا الحيوان عظيمة الى درجة أن كل ما يمسكه بأسنانه يذهب به ولو كان بعيرا ، إلا أنه رغم كل شجاعته يخشى النار . فاذا قضى الأعراب ليلة في أحد الأماكن المكشوفة، أوقدوا ناراً كبيرة لمنعه من الاقتراب منهم، واذا أبصروا أسدا رموا الى جهته مشاعل حامية فأوقفوه حالا بهذه الطريقة . ونادرا ما يأتي الاسد دون ان يُرى ، لأن بعض الحيوانات وهي أكبر قليلا من الثعالب ولها نفس الشكل ، من عاداتها أن تتبعه لتأكل فضلاته ، وتنبح كالكلاب ، بحيث يدل صياحها على أن الاسد غير بعيد فيتوقون منه . يكره الأسد هذه الحيوانات كرها شديدا ويمزق كل ما يصادف منها، لكنها ماكرة الى درجة أنها تحتاط ولا تقترب منه حتى يشبع ويترك فريسته .

وفي مدينة فاس يلاعبون الأسود مثل ما يفعلون بالثيران في اسبانيا ، وهناك مكان معدلها محصن باسوار عالية محاط بحُجيرات لا تتسع أبوابها إلا لدخول رجل واحد وتقفل بالمتارس (84) وبمجرد ما يقتحم الأسد الساحة يخرج كل الذين

(84) أو بأقفال قوية

يوجدون داخل الحجيرات في آن واحد ، ويتوجهون نحوه وهم يطلقون صيحات عظيمة ويثيرون غضبه برميه بالسهام ، فيسرع اليهم من جميع الجهات (85) ولا يسعهم في هذه الملاقاة إلا الفرار الى أجحارهم عندما يقترب منهم واغلاق الباب دونه . فيحاول الاسد ما استطاع أن يفتح الباب بمخالبه واسنانه ، واذا أمسكهم قبل يلجوا الجحر — وقد يحدث ذلك — فانه يمزقهم . واذا أغضبوه كثيرا وسمعوه يزأر أدخلوا ثورا يصارعه ، فيكون المشهد جميلا ، لأنهما يقتتلان قتالا عنيفا داميا لابد أن يهلك فيه أحدهما ، وغالبا ما يكون الاسد هو الهالك . لكن اذا حدث ان قتل الاسد الثور خرج الرجال فورا من مخابئهم ليحاربوه ، وبيد كل واحد منهم رمح قصير (86) إن عدد الذين يصاولون الاسد عادة اثنا عشر رجلا ، فاذا رأوا أن عددهم أكثر من اللازم سحبوا بعضهم ، لكن إذا كان عددهم غير كاف فإن الملك وأعضاء حاشيته يرمون الاسد بالقسي الى أن يقتلوه . والذين يصارعون الاسود من بربر جبل زلاغ يعطون عشر أوقيات عن هذا الاحتفال الذي غالبا ما يفقدون فيه حياتهم .

وهناك نوع آخر من السباع يسمونها نمورا (87) وهي كذلك قوية شرسة ، لكنها لا تؤذي إطلاقا إن لم يلحقها أذى ، ولاتعتدي على الغنم ، غير أنها عدو لدود للكلاب فتفترسها . ويوجد منها العديد في اقليم قسنطينة . ويصطادها الافارقة وهم راكبون على الخيول لأنها تفر من القوم ، لكنها إذا ضيق عليها صمدت بقوة . وتكثر النمور أيضا في إثيوبيا العليا ، خصوصا في جبال بهت وآكرض وكوين .

الضبـــع

والضبع (88) له قامة الذئب ونفس الشكل تقريبا ، لكنَّ له رجلين ويدين كالانسان . لا يؤذي الحيوانات أبدا لأنه جبان قليل الحيلة ، غير أنه يخرج الجثث

---

(85) أو من طرق الميدان الى الطرف الآخر
(86) أو حـــربـــة
(87) الاراقـــط
(88) الضبع بالعربية واليفاف باللغة الافريقية .

من المقابر ويأكلها ، وهذا أمر سهل لأن الأفارقة يدفنون موتاهم في الحقول . واذا عثر الصيادون على جحر الضبع قصدوه وهم يغنون على نغم الدفوف ، فيذهل او ينشط بحيث لا يغادر مكانه ، فيعمد أحدهم على مهل الى رجله ويوثقها بحبل ثم يجره الى الخارج فيقتلونه دون ان يأكلوا لحمه ، لأن المغاربة يكرهونه بالاضافة الى أنه لا يساوي شيئا .

سنــور الزبــاد

والسنور الذي يسميه العرب الزباد حيوان وحشي بطبيعة الحال ، يعيش في جبال إثيوبيا . ويصدر كثير من هذه السنانير الى أوربا ، لأنها تصاد صغيرة وتربى في اقفاص من خشب متينة جدا ، ويغذونها باللبن والدقيق والقمح المطبوخ أو الارز ، وأحيانا باللحم . لونها رمادي مائل الى البياض مخطط بالأسود كالقطط الرومانية ، لكنها أكبر منها وأقوى . وما الزباد سوى العرق الذي يرشح من أجسادها ، ولاستخلاصه يهيّجونها بقضيب ليحثوها على الانتقال من جهة الى أخرى في القفص حتى تعرق ، فيستخرجون الزباد من بين قوائمها ومن حول عنقها وذنبها ، يفعلون ذلك مرتين او ثلاث مرات في اليوم .

القــردة

هناك عدة أصناف من القردة ، بعضها في لون القطط الوحشية ، بذنب طويل وخطم أبيض أو أسود ، تسمى عموما في اسبانيا «كاطوس باوليس» وتأتي من بلاد السود . ومنها غينون التي تسمى في افريقيا بابوان لاذنب لها . ويوجد كثير منها في جبال موريطانيا وبجاية وقسنطينية . ولهذه وتلك أرجل وأيد وحتى وجوه تشبه الانسان إن صح التعبير ، مع ذهن ثاقب ودهاء كثير . تأكل القردة الكلأ والقمح وكل انواع الفواكه ، وتذهب جماعات لاختلاسها من الحدائق أو الحقول . لكن قبل ان تخرج من ملاجئها يصعد أحد القردة الى مرتفع يشرف منه على السهل كله ، فاذا لم ير أحدا صاح بهم ليخرجوا ثم لايتحرك من هناك ما دامت هي في الخارج . وبمجرد ما يرى أحدا قادما يضيح صيحات كبيرة ،

فتاخد القردة كلها في القفز من شجرة الى شجزة هاربة الى الجبال . انه لمشهد عجيب عندما تفر ، اذ تحمل الاناث على ظهزها أربعة أو خمسة من صغارها ولا يمنعها ذلك من القيام بقفزات واسعة من غصن الى آخر . ويصطاد عدد كثير منها بحيل مختلفة بالرغم على قوة حذقها . وتعض إذا كانت متوحشة ، لكنها تربى بسهولة عندما تصانع قليلا . وتلحق أضرارا كبيرة بالفواكه والزروع ، إذ لاشغل لها إلا قطفها ورميها على الأرض ، كانت ناضجة أولا ، فتفسد منها أكثر مما تأكله وتأخذه . والقردة المعلمة تأتي بالعجائب ، مقلدة الانسان في كل ما تشاهده .

الفيـــل

الفيل الذي يسميه الافارقة هكذا حيوان وحشي ذو قامة وحجم في غاية الضخامة ، ليس لأرجله مفاصل وولا كعاب ، شعره كشعر الثور . علوه عشرة أقدام، ولا عنق له بكل المعنى ، اذ يبدو رأسه الضخم وكأنه ملتصق بكتفيه . وأذناه كأنهما ترسان ، وفمه في حلقه مغطى بخرطوم يتناول به أكله ويحك به جسمه ويرفع به كل ما يأخذه الى وزن مائتي رطل يحمله على كتفيه . واحيانا عند ما يدخل في الماء يأخذ منه قدر 150 رطلا بخرطومه ويقذف به في الفضاء بعلو رمح . يسرع كثيرا ، واذا ما حث في سيره قطع في يوم واحد مسافة ستة أيام وهو يحفظ ويسمع كل ما يقال له ، لأن له شيئا من الادراك . يوجد العديد من الفيلة في بلاد السوس ، وخصوصا في الجبال الواقعة على طول النجير وفي إثيوبيا العليا . تسير الفيلة جماعات ، وإذا صادفت أحدا ابتعدت عنه وتركته الى حال سبيله . ولكن اذا اراد أن يسيء اليها رفعته بخرطومها ثم القت به على الارض ورفسته بارجلها الى أن يموت . ورغم كل هذا الحيوان ووحشيته فانهم يصطادون الكثير منه في اثيوبيا بالطريقة التي سنذكرها : يبنون في الأدغال الكثيفة التي يقضي بها الليل حظيرة بالأوتاد المشتبكة بالاغصان الغليظة ، تاركين فيها ممرا له باب ملقى على الأرض . وبمجرد ما يدخل الفيل الحظيرة يجذبون الباب بحبل إلى أعلى من فوق شجرة فيصبح سجينا ، ثم ينزلون ويقتلونه بالنبال لكن إذا حدث أن أخطؤوه وخرج من الحظيرة قتل كل من وجد في طريقه . وفي الهند وإثيوبيا العليا يصطادون الفيلة بكيفة أخرى ، فضلا عن أنهم ياخدون الصغيرة منها ويربونها .

وتشاهد في أوربا فيلة صغيرة وأخرى كبيرة جدا يصعب اطلاعها الى المركب

وعندما يذهب الاثيوبيون الى الحرب يضعون على ظهور الفيلة بروجا من خشب فيها عشرة أو اثنا عشر محاربا يقذفون بالنبال والحجر والسهام . ويتخذ العاج من عظام هذا الحيوان وأنيابه ، ويشكل احدى التجارات الرئيسية للبرتغاليين مع السود .

الدّمّان

الدمان حيوان أنيس جدا يشبه الخروف إلا أنه في حجم العجل المتوسط ، له أذنان طويلتان متدليتان ، والانثى وحد ها هي التي لها قرنان . ويشكل الدمان كل ما في ليبيا من ماشية تزود السكان بكمية وافرة من السمن والجبن . وصوفه لينة جيدا ولو أن فيها شيئا من القصر . وهذا الحيوان هادئٌ جدا يسمح للأطفال بالركوب عليه ويحملهم على ظهره الى مسافة فرسخ فأكثر . يوجد الدمان بكثرة في صحاري ليبيا ، إلا أنه نادرا ما يشاهد في نوميديا وبلاد البربر ، إذ لا وجود له هناك .

خروف خمسة أرباع

لايختلف خروف خمسة أرباع عن خروفنا إلا بالقرون والذنب العريض المستدير الذي يزداد طولا كلما ازداد الحيوان سمنا حتى يبلغ وزن بعض هذه الأذناب خمسة عشرة أو عشرين رطلا ، وهو الذي يعلف في البادية . ففي مصر يربون الكثير منه في د ورهم بالنخالة والشعير ، فيكون له ذنب كبير لا يستطيع سحبه فيربطون الذنب الى مدرجة صغيرة مشدودة في قرون الخروف . وتزن أذناب الكثير منها ثمانين رطلا ، والحاصل أن شحم هذا الحيوان كله في الذنب ، وله أربعة أو ستة قرون ، وأحيانا أكثر أو أقل من ذلك ، بعضها معقوف الى أعلى وبعضها الى أسفل كما هو الحال في أوربا . وهو قليل ما عدا في تونس ومصر وخرفان مصر أكبرها .

التمساح

التمساح حيوان جريء لكنه حذر ، توجد منه كمية وافرة في النيجر والنيل يزيد طوله على عشرة أذرع ، وعلوه ذراع ونصف ذراع ، دون الذنب الذي طوله مقدار طول الجسم . له أربعة أرجل كأبي بريص ، وجلد صلب لا تستطيع القذيفة أن تخترقه . وعندما ياكل التمساح يحرك فكه الاعلى بخلاف عادة سائر الحيوانات ، لان عظم الفك الأسفل وعظم الصدر يُكوِّنان عنده قطعة واحدة ، غير أن هذا من حكمة الطبيعة ، اذ يتضايق بتحريك الفك الاسفل ، لان قوائمه قصيرة جدا . ويختلف كبر التماسيح بحسب سنها . يقتات الكثير منها بالسمك ، مع ان البعض الآخر يأكل الناس والحيوان كلما تمكن منهما . ولهذا الغرض فإن التماسيح تختبىء بمهارة في الماء ملتصقة بجانب الضفة ، فإذا رأت احدا رمت بذنبها خارج الماء وسحبته داخله . ومن حسن الحظ أنها ليست كلها على هذا الشكل ، والا لما استطاع أحد الاقتراب من الانهر التي تسكنها . وغالبا ما يحدث أنها تقترب ليلا من جانب الزوارق فتقلب رجلا بذنبها وتأكله في جوف الماء .

وتخرج أحيانا للتجول تحت أشعة الشمس في بعض جزر النهر فتفتح أفواهها ثم تاتي بعض الطيور البيض من حجم السُّمُنة فتدخل فيها لنقب فضلات اللحم الباقية بين أسنانها والتي تولد ديدانا تزعجها كثيرا . تدخل هذه الطيور وتخرج من أفواهها بكل اطمئنان ، لأن التمساح لو أراد غلق فمه لما استطاع، إذزودت الطبيعة هذه الطيور بشوكة على رأسها تخزبها أعلى حنك التمساح فترغمه على فتح فمه . وتضع التماسيح بيضها في الارض وتغطيه بالرمل، غير أن أفراخها ترتمي في النهر بمجرد ما تولد . ويضل بعضها فياخذ طريق الصحراء فيكون ساما بخلاف التي تعيش في النهر فإنها ليست بسامة . ياكل العديد من المصريين لحم التماسيح ويجدون طعمه لذيذا، ويباع شحمها بثمن غال لانه ناجع في علاج القرحة والسرطان. وإذا أراد الصيادون أخذها ربطوا حبلا غليظا طوله خمسة وعشرون أو ثلاثون باعا الى شجرة ضخمة أو أعمدة غرسوها في جانب الماء لهذا الغرض، وشدوا في الطرف الآخر للحبل كلابا في غلظ الأصبع وطول قدم ونصف مربوط فيه خروف أو ماعزة، فيخرج التمساح فوراً الى اليابسة عندما يسمع صياح هذا الحيوان فيبتلعه هو والكلّاب، حينئذ يأخذ الصيادون في إرخاء

الحبل شيئا فشيئا وجره من حين لآخر . يقفز التمساح في هذه الأثناء ويتخبط ثم يتعب بعد أن يتألم وتنهك قواه فيسقط كالميت، ويسرع الصيادون الى شق حلقه وأسفل بطنه وبين أرجله حيث الجلد ناعم، لأن جلد ظهره من الصلابة والغلظ بحيث لا تكاد تخترقه رصاصة تطلق عليه من بندقية، بالاضافة الى أن فمه كبير جدا بحيث يسع بقرة، وأنيابه في غاية الحدة، وإذا قتل الصيادون تمساحًا وضعوا رأسه فوق أسوار المدينة كتذكار . يقول السكان القاطنون على طول النيل إن التماسيح لم تكن خطيرة أيام ملوك مصر والرومان كما أصبحت عليه بعد ذلك . وذكر المسعودي في كتابه عن عجائب الدنيا أن عثمان بن طولون لما كان واليا على مصر تحت حكم خلفاء بغداد عام 875 (89) كان تمثال من الرصاص في حجم تمساح منقوش عليه حروف مصرية في أسس معبد للوثنيين بمدينة تحمل اسم هذا الحيوان، وكان يبدو أن هذا التمثال صنع تحت بروج نجوم رصداً لمقاومته، وأن عثمان سارع الى تحطيمه، فأصبحت التماسيح منذ ذلك الحين تؤذي كثيرا . والغريب أن التماسيح الموجودة فيما بين القاهرة الى البحر انحداراً لا تؤذي أحدا، بينما التي توجد من نفس المدينة صعودا تقتل وتأكل من تمكنت من الحصول عليه . ويظهر أن هذه الحيوانات كلما انحدرت واقتربت من البحر وجدت كثيرا من السمك تقتات به، وإذا صعدت قل ماتجده من السمك .

السلحفاة العملاقة

السلحفاة حيوان مشوه يزحف عبر المفازات (90). ويوجد في الصحراء كثير من السلاحيف العملاقة في حجم برميل خمر كبير . وذكر البكري الجغرافي الافريقي في الكتاب الذي ألفه حول ممالك ومسالك افرقيا أن رجلا وجد نفسه ليلا في هذه الصحاري وهو متعب بالطريق، فنام سلحفاة ظانا أنها صخرة، ولشد ما كان استغرابه عندما استيقظ في الصباح فوجد نفسه قد ابتعد بنحو فرسخ عن المكان الذي نام فيه، واندهش لما علم أنها سلحفاة . لاتتحرك هذه الحيوانات من مكانها في النهار، لكنها تتجول ليلا ببطء حتى يظن أنها لاتسير . وتباع قشرتها في بلاد البربر بكثرة وهي كبيرة كالترس صلبة الى درجة أن قديفة لا تستطيع

(89) « سنة 270 هجرية » . هكذا في هامش الترجمة الفرنسية . والصواب أن السنة الهجرية 261 هي الموافقة للسنة الميلادية 875م . وقد عبر المؤلف بخلفاء بابلون عن العباسيين ملوك بغداد كعادته (مترجم)

(90) مفازات ليبيا

اختراقها . وقد رأينا واحدة منها في دار السلاح للشريف (91) بمدينة تارودانت . ويعتقد الافارقة أن لحم السلحفاة مفيد في مرض الجذام شريطة أن يتناوله المريض سبعة أيام متوالية وألا يتعدى عمر السلحفاة سبع سنوات .

التّـيـن

التنين (92) حيوان سام قاتل إذا لمس أو لسع . يوجد كثير من التنانين في كهوف الاطلس الكبير، إلا أنها ثقيلة قبيحة الشكل بحيث لا تتحرك إلا بصعوبة، لأن أجسامها في غاية الغلظ من جهة البطن، وسائرها مرتخ . للتنين رأس وجناحان كالطائر، وذنب وجلد كالحية، وهو مرقط بمختلف الالوان، ورجلاه كرجلي الذئب، وليست له قوة لرفع جفنيه . ويعتقد مؤرخو افرقيا أنه يتولد من النسر والذئبة، وأن هذه الاخيرة تنتفخ به لدى حملها حتى تنشق فتضع هذا الوحش . ويكثر جدا في إثيوبيا العليا في جبال بهت (93) .

الهـــدرة

الهدرة أفعى صغيرة طويلة العنق والذنب جدا تكثر في مفازات ليبيا، وهي سامة، إذا لسعت كان أنجع الدواء هو قطع الموضع الملسوع قبل أن يعدي السم باقي الأطراف .

الضّـب

يشبه الضب السام الأبرص الذي توجد منها كمية في البُّوي ومملكة نابولي، الا أنه أكبر منه قليلا، طوله قدم ونصف، وعرضه أربعة أصابع . يولد في صحراء ليبيا ولايشرب الماء أبدا، بل يقال إن الماء يقتله . يشبه بيضُهُ بيض السلحفاة، وهو غير سامّ، يأكله الاعراب مشويا، وطعم لحمه كطعم لحم الضفدعة . وهو في غاية الاستعداد والثبات بحيث إذا دخل جحرا وبقي ذنبه خارجه لايمكن إخراجه منه

---

(91) محمد (المهدي الشيخ السعدي) .

(92) يشك الكثير في وجود هذا الحيوان

(93) أو جبال القمـر

مهما بُذل في ذلك من جهد . لكن الصيادين يوسعون الجحر بمعول ويخرجونه . وإذا مرت ثلاثة أيام على قتله ووضع قرب النار تحرّك كما لو كان حديث عهد بالقتل .

الــــوَرل

الورل كثير الشبه بالضب، غير أنه أكبر منه قليلا، ويولد أيضا في صحاري ليبيا، وياكله الاعراب بعد أن يقطعوا رأسه وذنبه حيث يكمن السم .

الحِرْبــــاء

الحرباء كالسامّ الابرص العاديّ في الكبر، لكنها مشوهة عديمة القوة . لها ذنب طويل مثل الخَلد، تسير ببطء وتتغذى بالهواء وأشعة الشمس التي تتقبلها فاتحة فاها ودائرة دوما الى جهتها . ليس لها شعر بل شامات على الجلد، تتحول الى لون المكان الموجودة فيه . ويحكي أهل البلاد عنها أشياء غريبة، من جملتها أنها تكره الحيات، فإذا أبصرت حية نائمة تحت شجرة، صعدت الى الغصون ووقفت مستقيمة على رأسها وتركت لعابها يسيل مثلما تفعل الضفدعة، وفي طرفه نقطة كالدرة من خاصيتها أنها تقتل الحية بمجرد ما تلمسها . ويقول بعضهم إنها عندما تتعرض للشمس تخرج لسانها فينزل عليه الذباب وتقتات منه ، إلا أنني لا أشاطرهم هذا الرأي رغم أنني شاهدت منها الكثير في بلاد البربر وخاصة في مملكة المغرب .

النعــامــة

تشبه النعامة الاوزة قليلا الا أنها أكبر منها بكثير . ولها ساقان طويلتان جدا ، وطول عنقها أربعة أشبار أو ستة ، ويتكون ذنبها وجناحاها من ريش طويل أسود وأبيض ، وأظفار أحيانا ، يغطي جسمها الضخم ، لأن الريش لا يصلح لها للطيران ولكن للجري ، إذ تحركه لتحث نفسها وهي تجري ، وتنخز نفسها أيضا بظفر أو شوكة لتتقوى أكثر ، ولذلك فهي سريعة الجري . وتولد النعامة في الصحاري بين الرمال الجافة القاحلة ، وهناك تضع عشر بيضات أو اثنتي عشرة بيضة ، بعضها في حجم كرة غليظة وبعضها أقل من ذلك . ويقول أهل البلاد

إنها ضعيفة الذاكرة بحيث تنسى موقع بيضها ، لكن اناث النعام تجري هنا وهناك فتحضن البيض في الاماكن التي تصادفها فيها . وبمجرد ما تنقف الافراخ البيضة تنطلق مسرعة الى درجة أنه يتعذر إدراكها . وهذا الطائر من البساطة والصمم بحيث لا يسمع شيئا . يأكل كل ما يجده ولو كان حديدا حاميا ، يبتلعه ويهضمه . لحمه منتن لَزِجٌ ، لاسيما لحم الساقين ، الا أن جميع سكان نوميديا ياكلونه . وإذا أخذوا أفراخ النعام ربوها وسمنوها ، ثم ساقوها الى المراعي قطعا فترعى في الفلاة ، وعندما تصبح سمينة جدا يذبحونها ويملحونها . واذا قتل الاعراب بعض هذه الطيور أزالوا ريشها كله وذهبوا به الى الحدود لبيعه الى تجار أوربا ، فيسويه هؤلاء ويصبغونه بمختلف الألوان ثم يبيعونه للمتطرفين الذين يزدانون به ويحملونه على رؤوسهم بكبرياء . ويوجد كثير من النعام في سهول أونزار وسدرة بين مراكش وسلا ، وكذا في سهول يوفت ، ومسون ، بين فاس وتلمسان .

الببغـاء

الببغاء التي تكثر في جبال إثيوبيا مختلفة الألوان ، تقلد كلام الانسان وصوت سائر الحيوان ، إلا أن الخضراء منها تتعلم بسهولة أكثر . بعضها في حجم الحمام البري وبعضها أصغر منه ، تشاهد منها أنواع جميلة جدا ذات ذنب طويل بقدر قدم ونصف أو أكثر ، إلا أن هذه لا تتعلم الكلام أبدا ، ولها بالمقابل صوت رخم جدا ، بينما أصوات الأخرى منكرة .

وحيـد القـرن

يوجد وحيد القرن في جبال بهت بإثيوبيا العليا ، وهو رمادي اللون ، يشبه مهرا ابن سنتين ، إلا أن له لحية التيس ، في وسط جبهته قرن طوله ثلاثة أقدام مصقول أبيض كالعاج ، به خطوط صفراء من الاعلى الى الأسفل يستعمل كترياق ، ويقال ان الحيوانات الاخرى تنتظره قبل أن تشرب حتى يغمس قرنه في الماء ليطهره. . وهذا الحيوان شديد الحذق سريع الجري حتى إنهم لايستطيعون قتله ولا أخذه ، لكنه يترك غابته كما يفعل الأيل فيعثر عليه الصيادون في الصحاري . ويقول

بعضهم إن«المونوصيبيرو» (94) لايشبهه، وإن قرنه ليست له القوة الكافية لمقاومة السم ، رغم أن إيليان أسهب في ذكر خاصيته .

العنقــاء

العنقاء (95) التي يسميها بعضهم خطأ الزرافة ــ وهي حيوان آخر ــ مازالت موجودة في جبال إثيوبيا العليا ، وخصوصا منها جبال بهت ، ويسميها الاعراب العفريت ، وهي مطابقة للشكل المرسوم على الزرابي .

الزرافــة

أما الزرافة فتوجد في بلاد النوبة بأعلى مصر ، وهي في حجم عجل كبير . طول عنقها طول الرمح، ولها رأس التيس الجبلي وأذناه ، بطنها لامع ، ورجلاها الخلفيتان قصيرتان جدا ، والاماميتان طويلتان ، ولون شعرها بين الأسود والأبيض يشبه شعر الثور . تسير برصانة دون أن تستغرب أو تتحرك لاي شيء . يقول الأفارقة إنها تتولد من حيوانات مختلفة الانواع . وتبتعد عن سائر الحيوانات في الادغال وتفر من الانسان . تصطاد الزرافات صغيرة في الاماكن التي تختلف اليها أمهاتها .

الماعــز الوحشــي

يوجد في مملكة الحبشة قرب النيل باتجاه الشرق كثير من الماعز الوحشي الذي يبلغ الذكر منه حجم العجل الكبير ، ويطول شعر هذا الحيوان حتى يسحب على الأرض ، لكنه غليظ خشن كشعر عرف الفرس . توجد منه جلود معتبرة تدبغ بجذور شجرة الحناء التي توجد جيدة كثيرة في هذه البلاد . يقول ابن الجزار إن في إمكان ستة رجال أن يقيموا في أغصان هذه الشجرة بدون أن يستطيع أحدهم الإمساك بيد الآخر .

---

(94) كلمة يونانية تعني وحيد القرن

(95) يشك كثير في وجود هذا الحيوان وما قبله.

وتوجد في نفس البلاد بقرات كبيرة ليس لها شعر ، وذنبها طويل يسحب على الارض ، وعنقها مبرقش بمختلف الألوان . ويسميها المصريون ضمنيات أي كثيرة أو خصبة .

ويجنى في إثيونيا العليا عقار (96) ذو خاصية كبيرة يشبه الحلبة ويحمل الى مصر حيث يستعمله الاطباء ضد البلغم .

وهناك حارة في جينيووفا تسمى ليمس في شرق الصحراء الى جهة النيل بين مدينتي رفين وكوكو ، اذا وضع فيها القطران او الزفت تحول الى بلسم في ظرف بضعة ايام وأعطى رائحة أطيب ومفعولا أكثر . ويحدث نفس الشيء للصمغ الذي يحملونه الى ذلك المكان لهذا الغرض .

حجـر السحـر

توجد في هذه البلاد أيضا أحجار إنسانا بالعربية حسب قول ابن الجزار حجر السحر ، لها شكل أعضاء تسمى وتناسبها ، بعضها يشبه الارجل ، وبعضها الآخر السواعد أو الرأس أو القلب، فضلا عن التى تشبه إنسانا كاملا. يقول إنهم يتعاطون السحر كثيرا هناك ، ومن كسب منهم حجرا كاملا حظي باعتبار كبير لأنهم يعتقدون أن من حمل منه شيئا مكّنه من اكتساب رضى الملوك والعظماء ، وبالتالي رضى كل من يتحدث معه (97) .

العصي المطربـة

ويذكر نفس المؤلف أنه يوجد بهذه البلاد شجرة تسمى عود التصويت تنتج عِصيا كالخيرزان ، إذا أمسكت باليد وحركت أحدثت نغمات بديعة، وذلك دون أن تنكسر أو تفقد صوتها ولو ضربت بها على الاكتاف عدة ضربات .

---

(96) اسمه العلمي كولوفانيـا Culuphania

(97) كم أود لو تخلى المؤلف عن ذكر أساطير منقولة عن الغير .

يقول المسعودي إنه توجد في جبال الارض والكون بين الزنج والنوبة أحجار تدعى أحجار العجائب ، وباللغة العربية أحجار البهت ، من خاصياتها أن من نظر إليها أصبح أخرس . ويضيف الى هذه الخرافة أخرى أكثر إثارة للسخرية ، وهي أن قصر الاعجاب الذي أمر الاسكندر ذو القرنين بتشييده كان مبنيا بهذه الاحجار ، وانه استشار أستاذه أرسطا طاليس في اقتلاعها ، فأشار عليه أن يبعث برجال وجوههم مغطاة على أن يقود كل واحد منهم عبدلا ستر على وجهه ، حتى اذا شعروا بأن العبيد صاروا خرسا أمروهم بتغطية الحجر دون أن يروه ، ويترتب هكذا بعضه بعد بعض ثم يضعونه في صناديق مقفلة . وبهذه الوسيلة ـــ يقول المسعودي ـــ جمعوا عددا كافيا من الأحجار لتشييد هذا القصر الجميل .

الفصـــل الرابـــع والعشـــرون

في أقدم سكان إفريقيا ، وأصل شعوب بلاد البربر

كانت مصر منذ الطوفان أول قطر في إفريقيا كلها سكنه مصرائيم ابن سام وحفيد نوح . وعمَّر إثيوبيا ابن آخر لسام (98) وحكمها ، واستوطن ابن ثالث (99) ليبيا التي كانت تسمى قديما فتحية باسمه ، والتي تسمى حاليا بلاد السود ، حيث توجد النوبة ، والزنج وجينيووفا (100) في طرف موريطانيا الطنجية . وآلت الى سبشا ابن شوس في قسمته المفازات الواقعة بين هده البلاد ونوميديا . وأما توت ، وهو حفيد آخر لشام ، فحمل معه الى موريطانيا الطنجية الشعوب المسماة بالتوتيين .

يؤكد المؤلفون الافارقة أن الجزء الشرقي من بلاد البربر ونوميديا كان غير مأهول مدة طويلة من الزمن ، ويتنازعون فيما بينهم فيمن يرجع اليهم حق الاستيطان ، فيعزو بعضهم ذالك الحق الى قبائل من آسيا طردها العدو فلم تامن في اليونان الذي التجأت اليه ، واجتازت الى بلاد البربر فوجدتها بلادا خصبة خالية فعمرتها . وينسب البعض الآخر ذلك الحق الى قبائل من فينيقيا وفلسطين كانت في حروب ضارية ضد الآشوريين عند تأسيس مملكتهم (101) فطردت من بلادها ، وأن أهل مصر رفضوا استقبالهم فاجتازوا الى صحاري افريقيا حيث بدأوا يستقرون . لكن أشهر المؤلفين الافريقيين يؤكدون أن أول سكان بلاد البربر ونوميديا الذين يسمون حاليا البربر كانوا خمس جاليات أو قبائل من السبئيين جاؤوا مع مالك الافريقي ملك اليمن الذي تكلمنا عنه في الفصل الاول ، وما زالوا يحملون أسماءهم ويسمون صنهاجة ، ومصمودة ، وزناتة ، وغمارة ، وهوارة ، ومنهم

---

(98) هو شـوس
(99) هو فتــح
(100) أو جينيفـا
(101) أو لدى ملكهم .

خرجت ستمائة سلالة من البرابرة ، واليهم يرجع أكبر أهل افريقيا كلها . عمروا في البداية الجزء الشرقي من بلاد البربر ، ثم تفرقوا منه في مختلف الاماكن حتى أصبحوا سادة وأمراء أكبر قسم من افريقيا . ويسمون عادة برابرة لأن موطنهم الاول كان في بلاد البربر ، بينما الذين كانوا من قبل في موريطانيا الطنجية ونوميديا وليبيا يسمون شلوحـــا . (102) .

ولما ألفت هذه الشعوب إفريقيا بعد مدة طويلة من الزمان استقرت كلها في البادية تعيش جماعات تحت الخيام ، لأنها كانت غنية بالمواشي . لكن مع مرور الزمان لم تستطع التوافق بينها ، فنشبت بينها حروب كبيرة بقي المنتصرون فيها مالكين للسهول ، بينما اضطر الآخرون الى اللجوء الى الجبال بدون المواشي حيث اختلطوا بالافارقة القدامى الشلوح والجيتول ، وبنوا مثلهم دورا يتقون بها رداءة الطقس ، فأصبحوا خاضعين لمن كانوا ينتمون اليهم . وهذا هو السبب الذي من أجله يوجد بإفريقيا برابرة يسكنون تحت الخيام ، وآخرون يسكنون في الديار ، رغم كونهم جميعا من سلالة القبائل الخمس التي ذكرتها . الا ان الذين يجوبون البادية كالاعراب هم أشهرهم وأكثرهم ثروة وأشدهم بأسا . وهؤلاء وأولئك غيورون متشبثون بعاداتهم وعراقه أصولهم ، وهم مشهورون جدا بين سائر الافارقة . ومواطنهم الرئيسية المنتشرة كثيرا عبر بلاد البربر ونوميديا . ومواطنهم الرئيسية المنتشرة كثيرا عبر بلاد البربر ونوميديا وليبيا معروفة الى حدما ، اذ بها توجد قوة كل جماعة أو قبيلة .

تحتل مصمودة اقصى الجزء الغربي من مريطانيا الطنجية ، ويقطنون جبال الاطلس الكبير ، من الرأس المسمى إدواكال المتوغل في المحيط الى اقليم هسكورة أو دومنيط ، بتلاله وسهوله من كل جهة ، على امتداد أربعة أقاليم هي حاحا ، وسوس ، وجزولة ، ومراكش ، وكانت عاصمتها أغمات .

وما زال لزناتة مساكنها القديمة في سهول تامسنا التي هي آخر أقاليم مملكة فاس وأوغلها الى جهة الغرب ، وكانوا أكثر القبائل قوة ، إلا أنهم فقدوا هذه القوة ، ويسمون الشاوية . وبقي بعضهم من الابطال الشجان مقيمين في جبال الأطلس الكبير المحاذية لولايتي فاس وتلمسان ، وهم في حرب دائمة ضد الاتراك

(102) ابن الرقيق في كتاب نسب الافارقة .

الذين استولوا على هذه المملكة الأخيرة . ويوجد بعضهم في إقليمي قسنطينة وتونس منهم من يعيش في البادية كالاعراب ، ومنهم من يعيش في المنازل . لكن أكثرهم بسالة وحرية هم القاطنون بنوميديا وليبيا . واختلط بقبيلة زناتة هذه قبيلة هوارة الخاضعة لها . وتشغل صنهاجة من جبال برقة الى جبال نفوسة وونشريس ، وبعضهم يرحلون مع زناتة .

وتستقر غمارة في جبال الاطلس الصغير (الريف) الواقعة على ساحل البحر المتوسط ، وتشغل من حدود سبتة الى ذلك الطرف من موريطانيا الطنجية الذي يتاخم موريطانيا القيصرية . وحكم من بين هذه القبائل الخمس زناتة ، ومصمودة ، وصنهاجة عبر مختلف الأزمنة بلاد البربر ونوميديا وليبيا عند انحطاط إمبراطورية العرب ، إذ لم يكونوا خاضعين من قبل سوى للرؤساء او الشيوخ لكل جماعة تسمى قبيلة ، بعدما هزموا في مختلف الازمنة من طرف الشعوب الاجنبية التي لن نتكلم عنها في هذا التاريخ . إلا أنه ، خلال حكم آل إدريس مؤسس مدينة فاس ، اغتصب الحكم المكناسيون الزناتيون في الوقت الذي بدأ آل عبد الرحمان (الامويون) يحكمون اسبانيا (103). ثم إن فرقة أخرى من زناتة نوميديا تسمى مغراوة انتزعت من آل عبد الرحمان عدة أقاليم كانت قد استولت عليها في افريقيا ، فانتصرت في آن واحد عليهم وعلى المكناسيين ، وأسست ولايات مختلفة في بلاد البربر لا في نوميديا ولو أنها كانت تملك أغلبها ، لكن طردها اللمتونيون من قبيلة صنهاجة الذين يسميهم مؤرخونا المرابطين ، لأنهم صحبوا معهم عددا كبيرا من سكان حدود جينيووفا الذين يسمون بافرقيا المرابطين اعتبارا لكونهم أول من اعتنقوا الاسلام أيام هشام بن عبد الملك .

وثار بعد ذلك أحد فقهاء هذه الفرقة المسمى المهدي ضد المرابطين وحاربهم بشدة بمساعدة بعض الافارقة (104) ، فملك خلفاؤه افريقيا كلها تحت اسم الموحدين ، لأنهم كانوا يتبعون فرقة تسمى هكذا ، أي قانون الاتحاد ا. وظهر عليهم بعد ذلك بنو مرين ، وهم أيضا من زناتة ، فطردوا الموحدين ، ثم طردوا بدورهم من طرف قبائل أخرى من سلالتهم تسمى بني وطاس الذين سلبهم الحكم الشرفاء الحاكمون حاليا (السعديون) في موريطانيا الطنجية .

---

(103) في قرطبة .

(104) الموحدين

وانحدر أيضا من هذه القبائل الخمس ملوك تونس وتلمسان ، لأن بني زيان الذين كانوا يدعون أولا بني عبد الواد هم من قبيلة صنهاجة ومن سلالة مغراوة ، حكموا تلمسان الى أن استولى الاتراك عليها ، وملك آخرون [105] تونس ، من هنتاتة من قبيلة مصمودة . وأما القبيلتان الاخريان غمارة وهوارة فإنهما استولتا على بعض الاقاليم وإن لم يكن لهما ملك ، بحيث يظهر جليا أن جميع الملوك الذين حكموا إفريقيا منذ انحطاط الدولة العربية كانوا من هذه القبائل الخمس [106] . وسنذكر الاسماء الحديثة للسلالات المنحدرة من كل واحدة منها عندما سنتعرض لوصف الاماكن والجبال التي تقطنها .

---

(105) بنو حفص

(106) تنتسب هذه القبائل الخمس الى الجزيرة العربية ، لكن لا حظ لها في امبراطورية خلفاء محمد .

الفصل الخامس والعشـــرون

أصل زواوة ، وهم شعوب افريقيا ، وسكناهم ومنازلهم

زوارة منتشرون في أقاليم بلاد البربر ونوميديا ، ومعظمهم رعاة ولو أن من بينهم صناعا ينسجون القماش والجوخ . وهم في الغالب خاضعون للملوك أو الأعراب على فقرهم المدقع ، ويعيشون في الجبال و التلال ، ويقيمون داخل حفر . يقول المؤلفون الأفارقة إنهم جاؤوا من فينيقيا بعد أن طردهم منها يوشع بن نون ورفض المصريون اقتبالهم ، فاجتازوا الى ليبيا حيث أسسوا قرطاج قبل ميلاد المسيح بألف ومائتين وستين سنة . وبعد ذلك بكثير ـــ يقول ابن الرقيق ـــ عثر على حجر كبير في إحدى العيون منقوش عليه هذه الكلمات باللغة البونيقية : ((هربنا الى هنا من وجود ذلك الطاغية يوشع ابن نون)) وقبل مجيء هذه الشعوب ، كان أسكليبيوس وهرقل قد حكما افريقيا (107) ولكن منذ خراب قرطاج الاول وقبل أن تعيد بناء هاديدون ، عبرت هذه الشعوب الى القسم الغربي من بلاد البربر تحت قيادة رئيسهم نون ، وأسسوا فيه مدينتي ليبيا الفينيقيتين حيث كانوا يقيمون عندما جاء الرومان الى افريقيا . ويقال ان البلاد سميت موريطانيا من أجلهم ، لأنهم كانوا يدعون مورأو موروفور . ومهما كان الامر فان زواوة قوم محاربون ذوو نشاط كبير كانوا في القديم أقوياء جدا ، وحتى بعد مرور بعض الوقت بقي منهم من يعيشون أحرارا يتكلمون لغة البرابرة والعربية أيضا ، خصوصا منهم الذين يجوبون في ضواحي مدينة لربوس الواقعة على حدود تونس ، لأنهم يتاجرون دوما مع سكانها ، ومقرهم الرئيسي في اقليمي تلمسان وفاس . لكن اقواهم يقطنون بين مملكة تونس وبلاد الجريد ، ومن هناك كثيرا ما يجرؤون على مهاجمة ملوك تونس ، وقد هزموا

(107)عام 1693 قبل الميلاد . وحكما أيضا اسبانيا .

منذ عهد قريب (108) والي قسنطينة الذي أراد أن يخضعهم لسلطته (109) وأكسبهم هذا الانتصار شهرة كبيرة جعلت كثيرا من أنصار الملك يتجهون نحوهم ، واصبح رئيسهم (110) أحد أمراء إفريقيا المرموقين . ويدعى الان سلطان كوكو، وهو في حرب دائمة ضدّ الأتراك(111)، تفتخر هذه الشعوب بكونها من أصل مسيحي، وحتى يتميزوا عن سائر الأفارقة والعرب فانهم لايحلقون لحاهم ولايقصون شعر رأسهم من كل جهة كما يفعل المسلمون . وهم بالاضافة الى ذلك أعداء ألداء للعرب ولسائر شعوب افرقيا . ومن جهة أخرى، فانهم حسب عادة قديمة، يشمون بالحديد صلبيا أزرق على خدهم أو يدهم، ولاسبب لذلك في اعتقادهم سوى بيان أصلهم، غير أن السبب هو أن الرومان والقوط عندما كانوا يحكمون بلاد البربر ونوميديا أعفوا المسحيين من كل اتاوة، بحيث إن كل واحد كان يدعي أنه مسيحي عند مجيء الجباة . ولتفادي هذه الخدعة أمروا المسيحين الحقيقيين أن يتخذوا صلبيا منقوشا على الوجه أو اليد . ففعل ذلك هؤلاء الزواوة لهذا الغرض، وتمسكوا بمسيحيتهم الى أن جاء العرب . ومازال بعض الأفارقة الآخرين يحملون صلبانا لنفس الغرض، لكن مع مرور الزمان اتخذوا عوض الصلبان علامات أخرى حفاظا على ذكرى عراقتهم وشرف أرومتهم . وتستوشم بنات الأعراب أيضا ليكنّ أكثر أناقة، فيرسمن بواسطة مبضع على أثدائهن وأيديهن وسواعدهن وأرجلهن مختلف الصور باللون الأزرق، لكن هذه الصور تختلف عن صور زواوة .

---

(108)(عام 1500 ، الموافق لسنة 897 هجرية) . هكذا في هامش الترجمة الفرنسية ، وسنة 1500 توافقها 905 هـ (مترجم) .

(109) وهو مولاي ناصر بن محمد ملك تونس . وقد قتل في هذه المعركة مع 200 من الخيل . هكذا في هامش الترجمة الفرنسية ، ولا يعرف من ملوك تونس الحفصيين من اسمه ناصر ، بل محمد المنتصر ، وهذا لم يطل ملكه الا نحو سنتين 836 – 837هـ / 1432 – 1433م . (مترجم) .

(110)الشيخ

(111)سلطنة كوكو كانت لآل ابن القاضي الغبرينيين ببلاد زواوة شرقي الجزائر (لا بين تونس وبلاد الجريد) . وتقع قرية كوكو على بعد 18 كلم جنوب شرقي مدينة أربعاء بني راثن . (انظر أ.ت. المدني ، حرب ثلاثة مائة سنة ، ص 211) (مترجم) .

الفصل السادس والعشرين .

سائر الأفارقة الذين يعيشون في صحاري ليبيا .

لقد ذكرنا كيف استقرسطة بن شوس وحفيدُ نوح في صحاري ليبيا الداخلية، ومنه انحدر سكان السنغال (112) وزوانزيكة(113) وتركة ولمطة، وبردوة الذين هم السكان الرئيسيون لهذه الصحاري التي كان شعوبها يدعون قديما سبطيين من أجل ذلك ، بالاضافة إلى وجود أقوام آخرين ليسوا أكثر شهرة ولا عددا، تعيش قبائلهم الفقيرة دون نظام ولاتهذيب في أماكن وعرة قاحلة يتاخم جلها بلاد السود، وأطلق عليهم اليونانيون آسم رُحَّل (نوماد) واللاتنيون آسم «نوميد» ويعيشون تحت الخيام كالأعراب ويجوبون البلاد هنا وهناك وراء إبلهم .

يقطن سكان السنغال على ساحل المحيط الغربي، منحدرين من هناك شرقا الى ممالح تغازى، وشمالا الى حدود السوس، وحاحا، وذرعة، التي يسميها العرب السوس الأقصى . ويتاخمون جنوبا بلاد كَناوة (114)حيث توجد مملكتا ولاتة وتمبكتو وتبتدىء مواطن الونزريس أو الزوانزيك في جهة الغرب عند حدود تغازى منتشرة شرقا الى صحراء أير، وشمالا الى أقاليم سجلماسة، وتبلبة، وبني كَراي، وجنوبا الى صحراء كَير المفضية الى مملكة كَير في بلاد السود .

وتبتدىء مواطن تركَة في صحراء أير، وتمتد شرقا الى صحراء اكَيد، وشمالا الى صحراء توات واقليمي تكَورارين وميزاب، وجنوبا الى صحراء أكَدز .

وتبتدئ مواطن لمطة عند صحراء إكَيدي، وتمتد شرقا الى صحراء بردوة، وشمالا الى أقاليم تكَورت، ووركَلان، وغدامس(115) ، وجنوبا إلى صحراء كَانو التي هي إحدى ممالك بلاد السود .

---

(112)تكتب في الترجمة الفرنسية (سينغا) بدون لام .

(113)هي وانــزري .

(114)هي بــلاد الســود .

(115)والمرابطون بينهم وبين سجلماسة .

وتأتي شرقيّهم مواطن بردوة تمتد الى حدود أوجلة، ويتاخمون من جهة الشمال صحراء فاس وبرقة، ومن جهة الجنوب صحارى بورنو التي هي الأخرى إحدى ممالك السود .

وأوجلة، وسرت، والواقد هي مواطن أخرى موغلة في جهة الشرق ومجاورة لمصر وسنتحدث عنها في محلها، ويوجد في بعض تواريخ افريقيا أن سكان السنغال حكموا بلاد السود وخصوصا ممالك مالي، وتنبكتو، وأكَدر، وان أحفادهم مازالوا يحكمونها. ولكل موطن شيخُه أو حاكمه الذي يخضعون له ويحترمونه كأمير، والغريب أنهم لايتحاربون بينهم البتة، ولايتنازعون على الأراضي التي يملكها كلّ منهم

الفصل السابع والعشرون

العرب الذين يسكنون في المدن ويسميهم الأفارقة - تبكيتاً - حضراً أي كيسين

اجتاز العرب المسلمون الى افرقيا عام653، في خلافة عثمان ثالث الخلفاء الراشدين، الذي أرسل اليها جيشا مؤلفا من أزيد من ثمانين ألف محارب بقيادة عقبة بن نافع(116)وبعد أن انتصر هذا القائد في بعض المعارك ضد الرومان، بني مدينة القيروان التي يسمونها تحريفا قروان، على بعد ثلاثين فرسخا من تونس نحو الشرق . يقول المؤلفون الأفارقة إن معظم هؤلاء العرب عادوا الى الجزيرة العربية محملين بالغنائم، بعد أن نهبوا البلاد كلها، وان الذين استقروا في بلاد البربر شيدوا فيها مدنا وقصورا أخرى غير القيروان ليتحصنوا فيها، وعبروا من حين لآخر الى بعض الأماكن الافرقية فاختلطوا بصنهاجة وبرغواطة والسنغال، الذين يطلق عليهم عادة اسم شعوب بلاد البربر الذين كانوا يتكلمون لغةً لاتينيةً فاسدة بعد أن حكمهم الرومان مدة طويلة حتى نسوا لغتهم الاصلية بحكم طول مخاطبتهم لهؤلاء الحكام .

يسمى العرب القاطنون في مدن افرقيا عادة حضراً، أي كيسين، ويتعاطى جلهم التجارة، وان كان من بينهم من يدرسون ومن يلازمون بلاط الملوك . لكنهم لايتمتعون بالتقدير الذي يتمتع به العرب الآخرون القاطنون في البوادي بسبب مصاهرتهم لشعوب أخرى . ويسمى المؤلفون القدماء عادة العرب الذين يجوبون موريطانيا الطنجية غربيين، وأقاليم مملكة فاس غربًا، لكونهم يسكنون الغرب ، كما يسمون الذين يجوبون البلاد الواقعة جهة الشرق شرقيين .

---

(116)دخل العرب الى افريقية قبل عقبة بن نافع في خلافة عثمان بقيادة عبد الله بن سرح عام 26 هـ / 647 م انظر تفاصيل ذلك عند أ الناصري الاستقصا 1 : 66 وما بعدها (مترجم)

الفصل الثامن والعشرون

أصل العرب كلهم عامة والذين يعيشون منهم في البادية تحت الخيام

تنقسم الجزيرة العربية التي أتى منها جميع العرب، سواء من منهم بافرقيا أو بغيرها، الى ثلاثة أقسام : بيطري، واليمن ، والخالية ، سكنها أولا ثلاثة إخوة هم عرب وسبأ، وبيطر بنو قريش أحفاد سام، فعمّر بيطري هذا الأخير، وفيه مدينة بيطرة القديمة، وعمّر اليمن سبأ فأطلق عليه اسمه سابىء أي حامل المبخرة بسبب البخور الموجودة فيه، ثم الخالية حيث تقع المدينة القديمة إسين أو إسيرناتة التي يسكنها العرب الذين أطلق اسمهم على الجزيرة(117)ويسمى أهل البلاد هذا العربي يعرب بن قحطان ويجعلونه مخترع اللغة العربية . وأتى بعد هؤلاء إسماعيل بن ابراهيم وهاجر فانحدر منهما الهاجريون الذين أطلق اسمهم على البلاد وعلى مدينة هجر نوم التي يسميها سطرلبون هجرينة وسميت بيطري نبطية من نبطي، والسكان سدريين من سدر، وكلاهما من أبناء اسماعيل، والشعوب الثالثة التي عمرت هذه المنطقة هم أعقاب شتورة الزوجة الثانية لابراهيم، استقروا في جزء كبير من اليمن وعلى طول ساحل البحر الأحمر، ومنه عبروا الى ليبيا مع عفر بن مندنيس حفيد ابراهيم وشتورة، ومنه أخذ يوسف اسم افرقيا . وتنحدر الشعوب الرابعة من يسوع ابن اسحاق الذي عمر عقبه جُزْءَ بيطري من الجزيرة العربية المتاخم لأرض الميعاد . ويسمى بلين وبطليموس هؤلاء (السارية) لأن يسوع بن اسحاق حفيد ابراهم وسارة، اتخذ أعقابهُ اسم الزوجة الشرعية . وتسمى جميع هذه الشعوب الأربعة اليوم عربا، غير أن سنّيي صحراء بلاد العرب كانوا يعتبرون دائما أكثرهم سيطرة لكونهم أكثر عدداً وأشد بأسا، ولهذا استعملهم أباطرة الرومان في عدة حروب، وتتبع سائر شعوب الجزيرة العربية عاداتهم وقوانهم، حسب قول هيرودوت وديودور، وها هو أصل كل من يسمون الآن عربا .

---

(117) معظم هذه الاصول خاطئة ، والاسماء المذكورة مأخوذة من العبرية . انظر بوشمار في كتابة فيليغ .

يقول ابن الرفيق : انه في عام999،الموافق سنة400 للهجرة(118) عبر ثلاثة شعوب من العرب الى افرقيا بأسرهم باذن من خليفة القيروان بالقاهرة، ذلك أن خلفاء افرقيا منعوهم من العبور الى ذلك التاريخ، وكذلك خلفاء مصر، منذ أن زالت سلطة خلفاء دمشق وبغداد، كما سنذكر ذلك في محله . وكان من جملة هذه الشعوب الثلاثة شعبان من صحراء الجزيرة هما بنو هلال وبنو سليم، والثالث الذي اسمه معقل من اليمن . وكانوا جميعا يكونون نحو خمسين ألف محارب انتشروا في كل مكان بشرق بلاد البربر، ثم صاروا يملكون عدة أقاليم من افرقيا مع مرور الزمان . ومنهم تناسل الأعراب الذين يعيشون في البادية تحت الخيام . ويطلق الأفارقة ثلاثة أسماء مختلفة على العرب، فالذين عمروا الجزيرة العربية قبل ميلاد إسماعيل عربا عاربة لكونهم ينتمون الى عارب، ويقولون إنهم عرب أصيلون، والذين ينتمون الى اسماعيل يسمونهم عربا مستعربة، ومعناه العرب الذين تعربوا، لأنهم اتخذوا اللغة العربية ولم يولدوا عربا، ويسمون الصنف الثالث الذين أتو الى افرقيا عربا مستعجمة أي العرب الذين اختلطوا بشعوب بلاد البربر .

(118)(كذا) ويقابل عام 400 هـ 1009 – 1010 م .

الفصل التاسع والعشرون

مواطن أعراب افريقيا وجماعاتهم ، وعددهم وفي مقدمتهم قبيلتهم الرئيسية المسماة (السكاكين)

ان السلالة الرئيسية لقبيلة (السكاكين) [119] تسمى أولاد (حداج) وأشرفهم الذين أتى بهم مولاي يعقوب المنصور رابع خلفاء الموحدين وأمير المسلمين من مملكة تونس ، وأسكنهم في اقليم دكالة بمملكة مراكش وفي قسم من اقليم تادلا ، فكانوا دائما ميّالين للحرب . ومنذ مائة سنة اضطهدوا من طرف ملوك البرتغال وأحيانا من طرف ملوك فاس . ويطلق عليهم عادة اسم شراكة لأنهم جاؤوا من الشرق الى هذه البلاد حيث كان أعراب آخرون . وتتفرع هذه السلالة الى ست عمائر أخرى تسمى عائلة أو جماعة ، يعيشون في دواوير أو قرى [120] مؤلفة من مائة أو مائة وخمسين خيمة منصوبة كلها على شكل دائرة يترك وسطها خاليا مستديرا تحبس فيه الماشية ليلا . وهذه الخيام التي يبلغ عددها أحيانا مائتين مصنوعة من نسيج أسود من الصوف وشعر الماعز وغيرها ، وكذلك من نسيج سعف النخل [121] ويكوّن كل ذلك مجموعا هذا النسيج الخشن المتراص جدا بحيث يقاوم المطر وحرارة الشمس القويين في هذه المناطق ، وتتراص الخيام بعضها مع بعض حتى كأنها حائط لايخترقه سوى ممرين أحدهما لدخول قطعان الماشية لآخر لخروجها ، ويغلق هذان الممران ليلا بالشوك لمنع دخول السباع . وهذه اسماء هؤلاء الأعراب وعددهم .

أولاد عمران (لطالي) وعددهم ألف وخمسمائة فارس وثلاثون ألف راجل كلهم

---

(119) اسم (السكاكين) محرف ولا شك ، وكذلك أسماء أخرى آتية وضعناها بين قوسين . أما القبائل الأربعة التي ذكر المؤرخون أنها انتقلت الى افريقية والمغرب بنو سليم ، وبنو جشم ، وبنو هلال — ثلاثتهم من مصر — وبنو الحرث من قبائل كهلان القحطانية . انظر أ. الناصري ، **الاستقصا** ، 2 : 146 (مترجم) .

(120) قرى تُنقل لأنها لا تتكون من خيام .

(121) نوع من اللبد .

من أحسن الجنود . يفتخر الفرسان بحذقهم وبسالتهم ، ويعتبرون في غاية النبل والنباهة .

أولاد عمران (دفتاني) عددهم ألف ومائتا فارس وخمسة وعشرون ألف راجل في مائة قرية .

أولاد عقو عددهم تسعمائة فارس وخمسة عشر ألف راجل ، متفرقون في ثمانين دوّارا .

أولاد سبيطة ، عددهم خمسمائة فارس وتسعة آلاف راجل ، موزعون على أربعة وستين دوّارا.

وأولاد بوعزيز ، عددهم ثمانمائة فارس وأكثر من خمسة عشر ألف راجل ، موزعون على أربعة وسبعين دوّارا . وأما أولاد فرج فعددهم خمسمائة فارس وستة آلاف راجل في أربعة وخمسين دوارا .

وكان هؤلاء الآعراب جميعا أقوياء قبل أن يحتل البرتغاليون مدينتي آسفي وآزمور ويخضعوا لهم مدنا أخرى تدعى غربية السكة كان سكانها أقل عددا ، وللانتقام من هذه الاهانة ، انضم الأعراب الى البرتغاليين فأصبحوا بوسائلهم أقوى من الشرقيين وحاربوهم بضراوة مدة من الزمان .

وتؤلف غربية السكة مائتين وخمسين قرية أو دوارا ، بها ستة آلاف فارس وخمسون ألف راجل . وهناك أيضا في اقليم دكالة رهط من البربر يعيشون في الدواوير كالأعراب ويدعون أولاد الشياظمة . ويمتد موطنهم من نهر أكوز الى صور في اتجاه الجنوب ، ويفوق عددهم خمسين ألفا من أحسن المقاتلين .

ويقطن الاعراب المنتمون الى سميت – وهو فرع آخر من (السكاكين) – هذا الجزء من ليبيا الشرقية المتاخم لمفازات طرابلس ، وقلما يأتون الى بلاد البربر ، إذ ليس لهم فيها تراث ولا أي شيء يملكونه ، بحيث إنهم يستقرون دوما في الصحاري مع قطعانهم وعددهم ثمانون ألف محارب جلهم راجلون ، موزعون على ثلاثمائة قرية .

وهناك آخرون يسمون أولاد سويد يرحلون في البوادي بين تونس والقيروان ويصلون الى مفازات برقة ، مكونين عددا لا يحصى من الدواوير ، يعيشون أحرارا ويملكون جزءا هاما من ليبيا المرمريكية ، ويسيطرون على قبائل أخرى ، يسالمون

الملوك أو يحاربونهم كما يشاؤون ، ويخدمونهم مقابل أجور . ويقوم بعضهم بأسفار في صحاري ليبيا للاتجار في مملكة وركلة ببلاد السود . ولهم عدد وافر من الجمال والبقر وغيرها من المواشي ، حتى إنهم يزودون باللحوم جميع جيرانهم ، ويذهبون في الصيف الى المعارض والأسواق التي تقام في المدن والقرى ، إلا أنهم لايبتعدون في الشتاء عن صحاراهم ، وينيف عددهم على خمسين ألف محارب يكادون يكونون جميعا راجلين .

وأما الأعراب الذين يسمون دلاج ، وهم فرع آخر من أولاد اثبج الآنفي الذكر ، فانهم ينتقلون في غالب الأحيان بين الجزائر وبجاية ، ويقضون باقي الأوقات على حدود مملكة فاس ، مقيمين في السهول البحرية لمملكة تلمسان . وكان الذين يقطنون بين جبال الأطلس الكبير يؤدون الاتاوة إلى ملك تلمسان ، إلا أنهم تخلّوا عنها الآن ويعيشون في حرية . فاذا أراد الأتراك المسيطرون على هذه الدولة أن يستعملوهم لخدمتهم فعليهم أن يؤدوا لهم أجرة غالية .

ويقطن أولاد المنتفق — وهم فرع آخر من أولاد اثبج — سهول اقليم أزغار بمملكة فاس ، ويسمون الآن الخلط ، يؤدون الاتاوة الى ملوك فاس ، ويزيد عددهم على ثمانية آلاف فارس مجهزين أحسن تجهيز ، وأكثر من خمسين ألف راجل . ويعيش الفرع الآخر المسمى أولاد صبيح على حدود تلمسان وفي نوميديا حيث يملكون أراضي كثيرة وعددهم ثلاثة آلاف من أحسن الفرسان ، وأكثر من عشرين ألف راجل ، من بينهم عدد من حاملي القاذفات النارية ، لاسيما منذ أن انتخبوا شيخا لهم أحد الاسبانيين الذين اعتنقوا الاسلام ، كان مدربا في بجاية فأسره الترك عندما فتح صالح رايس هذه المدينة .

يقضي هؤلاء الأعراب عادة الشتاء في الصحراء (122) لاحتياجهم الى مراع رعاها إبلهم ومواشيهم الكثيرة ، بينما يعيش بعضهم في السهول الواقعة بين سلا ومكناس ، حيث يملكون كمية من القطعان والاراضي الصالحة للحرث . ويؤدون كذلك الاتاوة الى ملك فاس ، وعددهم ثمانية آلاف فارس وأربعون ألف راجل ، ويسمون حاليا بني مالك سفيان . وحيث إنهم جيران للخلط فانهم يعيشون معهم مجتمعين ، ويشكّلون أفضل فرسان لملك فاس الذي يوليهم أكثر اهتمام .

(122) ذلك لأن الكلأ يوجد فيها في هذا الفصل .

الفصــل الثلاثــون

في عرب بني هلال ومواطنهم ومنازلهــم

انحدر من قبيلة هلال — التي هي القبيلة الثانية — إحدى عشرة عمارة :
أولاها بنو عامر القاطنون بين تلمسان ووهران الذين يعمرون سهول كرط كلها الى جبال بني راشد ، وينتشرون نحو ليبيا الى صحراء تكوراين . ويسمون حاليا المليانيّين أو شرفاء مليانة ، وينقسمون الى خمسة بطون (123) يمكن ان يصل عددهم الى ستة آلاف فارس من أحسن الفرسان وخمسين ألف راجل . وهم أثرياء مسيطرون على برابرة الحقول . واذا ما أغضبهم الاتراك لم يتردّدوا في الدفاع عن أنفسهم ، وان لم يجسروا على ذالك خوفا من أسلحتهم النارية ونبالهم انسحبوا الى الصحارى .

وثانيتها أولاد عروة القاطنون على حدود مستغانم . وهم قوم متوحشون من كبار اللصوص يعيشون في اضطراب دائم ، ولا يبتعدون أبدا في الصحاري ، اذ ليس لهم أي ملجأ أمين ولا يجدون أحدا يرغب في استجارهم . عددهم ألف وخمسمائة فارس وأزيد من خمسة عشر ألف راجل غير مسلحين كما يجب . وأسوأ من ذلك لباسهم الرديء .

وتسمى العمارة الثالثة عقبة ويقطنون على حدود مليانة ويساعد هؤلاء القوم أحيانا ملوك تونس ، مع أنهم لصوص قساة كالآخرين . وعددهم ألف وخمسمائة فارس وعشرة آلاف راجل .

وتسكن العمارة الرابعة المسماة أولاد هبرة في السهول بين وهران ومستغانم ، وهم فلاحون يؤدون الاتاوة لملك تلمسان وأحيانا لوالي وهران إن لم يستطيعوا غير ذلك ، ويناهز عددهم مائة وخمسين فارسا وألفي راجل .

والعمارة الخامسة تسمى مسلم ويعيشون في مفازات مزيلة ، وتمتد مساكنهم

---

(123) وهم : أولاد عمرو ، وأولاد سليمان ، وأولاد موسى ، وأولاد عتيق ، وأولاد عبد الله .

الى مملكة بجاية . وهم أيضا لصوص كبار ، يستخلصون الاتاوة من برابرة مسيلة وغيرها في الاراضي المجاورة .

والسادسة أولاد رياح الذين آلت اليهم في التقسيم مفازات ليبيا المقابلة لقسنطينة ، وهم قوم أشداء يسيطرون على جزء من نوميديا ، وينقسمون الى ستة بطون ، هي بلال ، وآوو ، وشيفة ، ويعقوب ، وحنيشة ، ويحي ؛ وكلهم نبلاء شجعان مجهزون أحسن تجهيز ، يقتسم معهم ملك تونس موارده . ويعيش أولاد بلال في السهول الواقعة بين تونس وبجاية ، وأولاد آوو في السهول الداخلية المملوءة عيونا وأنهارا جارية في سهول جميلة ممتدة الى مدينة لوربوس ؛ ويحتل أولاد شيفة السهول الممتدة من هذه المدينة إلى حدود نوميديا حيث يقطن أولاد يعقوب ، وينتجع أولاد حنيشة في بوادي قسنطينة وعنابة ، وهم أشجع الناس وأغناهم في مملكة تونس كلها ، ويخضع لهم البربر الشاوية وغيرهم كثير ممن يسكنون في الدواوير ويتكلمون اللغة البربرية ، ويبلغ عددهم جميعا أكثر من خمسين ألف فارس ، بما فيهم أولاد يحيى الذين يعيشون معهم . ولهم كلهم رؤساء أو شيوخ يحكمونهم ، لكنهم لا يبتون في القضايا الجنائية ولا يمكنهم أن يتخذوا عقوبة شرعية ، لأن نفوذهم ينحصر فقط في مسائل السلم والحرب . فاذا قتل أعرابي آخر شهر أولياء الميت في الحين السلاح ضد القاتل وقضوا على كل من عثروا عليه ثأرا للضحية ، إلا أن الشيخ يتدخل في نزاعهم ويصلح ذات بينهم لاخماد هذه الفتن .

والعمارة السابعة وهم أولاد سويد المقيمون في الصحراء بين اقليم تنس ونوميديا ، ولهم شهرة كبيرة وسيطرة على البربر لأنهم شجعان حاذقون ، سواء كانوا راجلين أو راكبين ، يسيرون دائما مسلحين كما يجب ، ومرتدين ملابس حسنة . يناهز عددهم ثلاثة آلاف فارس وخمسة عشر ألف راجل ، يستعين بهم عادة ملوك تلمسان في الحرب ويؤدون لهم الأجور .

والثامنة أولاد أشجع المنتشرون في أماكن مختلفة والخاضعون لأعراب آخرين . ويعيش أغلبهم في اقليم كرط بمملكة فاس ، ويختلطون بغيرهم ، بعضهم مع أولاد عمران ، وبعضهم مع أعراب دكالة الذين ينتجعون في ضواحي آسفي .

والعمارة التاسعة وهم أولاد الحارث القاطنون في سهول هلين باقليم حاحا بمملكة مراكش ، يرتبطون بأولاد (سديمة) .ورغم أنهم اعتادوا استخلاص الاتاوة من برابرة هذا الاقليم فانهم فقراء ناقصو التسليح ، ولهم مع ذلك أربعة آلاف فارس وثلاثون ألف راجل موزعون في مائتي قرية ، بما فيهم أولاد النضر ، العمارة العاشرة لهذه القبيلة .

أما الحادية عشرة والأخيرة فهم اولاد كرفة المنتشرون أيضا في أماكن مختلفة ، وليس لهم رئيس ولا شيخ خاص بهم ، بحيث إنهم مختلطون مع آخرين ، وخصوصا مع أولاد منبه وأولاد عمران . وأكثر تجارتهم في التمر الذي يأتون به من اقليم سجلماسة بنوميدا ليبيعوه بفاس ويستبدلوا به القمح وبضائع أخرى ، لأن هؤلاء القوم يربّون عددا كبيرا من الابل التي تحمل البضائع . ويتفرع عن هذه العمارة عدة بطون يطول سردها ويكاد يستحيل حصرها . وعلى من يرغب في اطلاع أوفى أن يقرأ يوحنادي ليون (الافريقي) الذي فصل القول في هذه الشعوب [124].

(124)انظر الحسن الوزان (ليون الافريقي) ، وصف افريقيا (طبعة الرباط 1980) ، 1:41 – 47 .

الفصل الواحد والثلاثـــون

في أعراب قبيلة معقل ومواطنهم

لقبيلة معقل – وهي ثالثة القبائل – ثلاثة وعشرون عمارة :

أولها وهي الرئيسية أولاد مختار الذين تفرع عنهم أولاد روحة وأولاد سليم . ويعيش أولاد روحة في حدود مفازات دادس وفركلة نوميديا ، وليسوا أغنياء ، ولا يملكون الا قليلا من الأرض ، لكنهم معروفون بالشجاعة حتى إن الراجل منهم لا يخشى مهاجمة فارسين ، لشدة مهاراتهم واستعدادهم ، وعددهم ستمائة فارس وثمانية آلاف من أحسن الراجلين .

ويقيم أولاد سليم قرب نهر درعة على نفس الحدود (125) وينتقلون في غالب الأوقات عبر الصحارى ، ولهم حظ من غنى ، لأنهم يذهبون كل عام ببضاعتهم الى مملكة تنبكتو ، ولهم في درعة بالسوس الأقصى ممتلكات عديدة وكثير من الابل . وعددهم ثلاثة آلاف فارس وعشرون ألف راجل ، كلهم جنود ممتازون .

والعمارة الثانية ، وتعد من الفروع الرئيسية ، هم أولاد عثمان الذين ينحدر منهم أولاد حسين وأولاد كنانة . يقطن أولاد حسين قرب المحيط . على تخوم ماسة بمملكة مراكش في اقليم سوس . وهم نحو خمسمائة فارس وعشرة آلاف راجل ، نظامهم غير محكم . إن الذين يقطنون في الصحارى مع قطعانهم يعيشون أحرارا ، ولكن بعض من يقيمون في اقليم أزغار بمملكة فاس مختلطين ببني مالك سفيان يؤدون الاتاوة الى ملك فاس ؛ وكذا أولاد كنانة الذين يعيشون بين أظهر الخلط . وعددهم ثلاثة آلاف فارس وأزيد من عشرين ألف راجل ، وكلهم جنود نشطون ومسلحون كما يجب حسب عاداتهم .

وتسمى العمارة الثالثة أولاد حسان ، ولهم ثلاثة بطون : أولاد حسن ، وأولاد منصور ، وأولاد عبيد الله . وانحدر من اولاد حسن سبعة أفخاذ اخرى وهي دليم ،

---

(125) أي حدود نوميديا .

وبرابش ، والأوداية ، والرحامنة ، واحمر ، وذوي منصور ، وذي عبيد الله . يعيش دليم في صحارى ليبيا مع الصنهاجين الأفارقة ، وحيث انهم لا يملكون شيئا خاصا بهم ولا يمكنهم الحصول على أي اتاوة من احد ، لذلك فانهم يعيشون عيشة بائسة كلصوص أشرار . يأتي هؤلاء الأعراب عادة الى إقليم درعة ليبادلوا المواشي بالتمر مرتدين لباسا رديئا ، ويبلغ عددهم خمسمائة فارس وتسعة آلاف وخمسمائة راجل ، يقيم البرابش كذلك في صحاري ليبيا باتجاه سوس الأقصى الواقع في طرف مملكة مراكش وهم عديدون ولكنهم فقراء ولو أنهم يملكون كمية وافرة من الابل . وكانوا في القديم سادة مدينة نوميديا ، الا أن ما كانوا يستخرجون منها لم يكن يكفي حتى ليبطرة خيولهم . وهذه المدينة الآن في ملك الشريف ، وهم في فاقة شديدة رغم أن عددهم يفوق خمسين ألف محارب من بينهم سبعمائة فارس ، ويقطن الأوداية في الصحارى بين ودان وولاته (126) وهم سادة ودان ، ولحد الآن فان ملك ولاتة يؤدي لهم . وكان الرحامنة يعيشون في صحراء أقا ولهم أراضي كثيرة ، ويأتون في الشتاء الى تشيت وكان عددهم قديما يفوق عشرة آلاف محارب من بينهم سبعمائة فارس . لكن الشريف (محمد المهدي الشيخ) الذي ساعدوه في الاستيلاء على تشيت ونواحيها كافأهم بنقلهم الى بلاد البرب مع كل من كانوا معهم وأسكنهم اقليم تامسنا بمملكة فاس ، حيث هلكوا جميعا في واقعة ضد أبي حسون الوطاسي عندما أعاده صالح رايس ملكا على فاس . ويعيش أولاد أحمد في صحاري تكاوست بنوميديا منتجعين عبر اقليم السوس الأقصى حتى رأس نون . وعددهم ثمانية آلاف محارب، من بينهم حوالي ثلاثمائة فارس غير منظمين .

وينحدر من ذوي منصور أربع فصائل هم أولاد عمران، النبهي، وأولاد حسين، وأولاد أبي الحسين .

يعيش أولاد عمران في نفس الصحاري المقابلة لسجلماسة ويتنقلون في صحراء ليبيا كلها الى إكيدي . وكانوا في القديم أقوياء أشداء يجبون الخراج من أقاليم سجلماسة تدغة وتبلبلة ودرعة التي هي الان في ملك الشريف، غير أن أهميتهم تضاءلت ولوأنهم حافظوا دوما على حريتهم، ومهما استطاعوا أخذوا الاتاوة من البربر، وهم أغنياء جداً لوفرة التمور في مناطقهم، معدودن في خيرة الشجعان

(126) كتبت (كناتة) في الترجمة الفرنسية (مترجم)

يبلغ عددهم ثلاثة الاف فارس وأزيد من خمسة آلاف راجل، إلا أن من بينهم أعرابا آخرين مملقين يعيشون كرعايا لهم، ويملكون بعض الخيل والماشية يسمون أولاد كرفة وأولاد أشجع وأولاد عمران فرقة أخرى تمتلك أماكن مختلفة في نوميديا تمتد الى اقليم فكيك، ويؤدي اليهم الاتاوة جميع برابرة هذه المناطق . يأتون في الصيف الى كرط بمملكة فاس منتجعين عبر حدود موريطانيا الطنجية كلها من جهة الشرق . وهم نبلاء نابهون يسعى ملوك فاس للحصول على صداقتهم ومحالفقهم .

ويقيم أولاد المنبهي في نفس الصحراء، وهم سادة مطغره والرتب من أقاليم نوميديا . وهم كذلك في غاية النباهة والشجاعة، يصل عددهم الى ألفي فارس وعشرين ألف راجل، بحيث إن سكان سجلماسة يؤدون اليهم الاتاوة .

ويعيش أولاد حسين في جبال الاطلس الكبير، وكانوا قديما يخضعون لسيطرتهم عددا من جبال البربر وبعض المدن والقرى التي أقطعهم اياها بنو مرين مكافأة لهم على ماساعدوهم عليه من الاستيلاء على بلاد البربر . وموطن هؤلاء الأعراب بين مملكة فاس واقليم سجلماسة، وكان شيخهم يقيم بمدينة كرسلوين التي هي الان في يد ملك فاس . وهم قوم أثرياء أشداد يجبون الخراج من عدة مناطق، وعددهم ستة الاف فارس وأزيد من خمسين ألف راجل . ينتجون أيضا عبر اقليم الظهرة مع أعراب آخرين كأتباع لهم .

وينقسم أولاد أبي الحسين الى قسمين، بعضهم يعيشون في مفازات الظهرة حيث لاسلطة لهم تذكر، وبعضهم أصيبوا بضعف لدرجة أنهم لم يستطيعوا المُقام بهذه الأماكن، فرحلوا الى ليبيا حيث بنوا مساكن حقيرة وعاشوا في بؤس يُؤدون الاتارة الى الأعراب الآخرين .

وانحدر من ذوي عبيد الله أربع عمائر أخرى رئيسية، هم أولاد خراج، وأولاد هدج، وأولاد ثعالبة، وأولاد جعوان .

يعيش الأولون وهم الاكثر عددا في صحاري بني كَومي وفجيج بنوميديا، ويملكون أراضي شاسعة ومراعي لقطعانهم . يتلقون عادة اعانات مالية من تلمسان . لكن منذ أن استولى الأتراك على هذه المملكة أزعجوهم كثيرا لامتناعهم من الخضوع لهم ، ويفوق عددهم أربعة الآف فارس وثلاثين ألف

راجل ، يتجولون كثيرا ولايحصلون على معاشهم الامن اللصوصية . وفي فصل الشتاء لايبرحون مفازاتهم، أما في فصل الصيف فيذهبون الى جهة تلمسان .

ويقيم أولاد هداج قريبا من هناك في صحراء أنكاد . وهم قوم بؤساء لايعشون كغيرهم إلا بما اختلسوه لجيرانهم، فانهم يهيمون دائما على وجوههم، واذا همَّ أعداؤهم بمتابعتهم فروا الى الفلوات .

ويقطن أولاد ثعالبة في اقليم الجزائر، بينما يعيش أكثرهم نبلًا في سهول متيجة وينتجعون في مفازات نوميديا الى تكدنت . وكان الذين يسمونهم من بينهم بني تومي سادة الجزائر وتدلس عندما فتح بربروس هاتين الامارتين، وقضى على هذه السلالة التي كانت من الشجاعة والمجد بمكان، وكان عددهاينيف على أربعة الآف فارس وأربعين ألف راجل . ومن بقي منهم خضع للترك واختلط بأعراب آخرين .

ويقطن بين مستغانم ونهر شليف فرع آخر من هذه السلالة يدعون أولاد سويد، ويملكون كمية وافرة من القمح والماشية، فيهم أزيد من ألفين من أحسن الفرسان، وعدد كبير من الراجلين، وكثيراً مايتحاربون مع بني عامر وأتراك الجزائر، غير أنهم اذا وقع الضغط عليهم من طرف هؤلاء التفوا جميعا لمقاومتهم، ويذهبون للانتجاع في مفازات ليبيا . وأما أولاد جعوان فإنهم متفرقون في عدة أماكن، بعضهم مع أولاد خراج، وبعضهم مع أولاد هدج، وهم بمثابة رعايا لهم .

ذللكم هو إحصاء الأعزاب المنتشرين في افريقيا الذين يعيشون في الدواوير (127) ولنتحدث الآن عن عاداتهم وسيرتهم وكيفية محاربتهم .

(127) قرى متنقلة .

الفصل الثاني والثلاثون

في حياة أعراب افرقيا وعادتهم وأسلوب قتالهـــم

تختلف عيشة أعراب افرقيا باختلاف الأماكن التي يقيمون فيها . فأعراب نوميديا وليبيا فقراء بؤساء كأهل هذه البلاد، إلا أنهم يمتازون عنهم بمزيد من الشجاعة(128)، إذ بالاضافة الى أنهم يتجرون في الابل مع السود فانهم يملكون كمية وافرة من الخيل ويذهبون دوما لطراد الأيول وغيرها من الوحوش التي تكثر في هذه البقاع . ومن جهة أخرى فانهم يتعاطون كثيرا للفلسفة الطبيعية بقدرما يتعاطون للفصاحة والشعر، فينظمون قصائد مقفاة موزونة يصفون فيها كما هو الحال بأروبا حروبهم وصيدهم وحبهم، ويتغنون بها بلطافة على أنغام الدف والعود والكمان كما يحدث في بعض الرقصات البرتغالية. وكثير منهم يغنون ويعزفون وينظمون في آن واحد . وهم صرحاء بطبعهم، محافظون على سمعتهم، إلا إنهم فقراء لايملكون شيئا يعطونه، واذا نزل بهم غريب أحسنوا معاملته وأطعموه، ولا يستطيعون أن يفعلوا أكثر من ذلك. يرتدون لباسا شبيها بلباس النوميديين، غير أن نساء هم يتزيَّنَّ أحسن .

وكانت صحاراهم في القديم موطنا للجيتول والنوميد لكنهم طردوا هؤلاء الشعوب إلى تخوم بلاد السود، وأصبحوا يملكون البلاد بكل أمان . واذا بقي من النوميد أحد خضع لهم. والأعراب المقيمون في بلاد البربر بين الأطلس الكبير والبحر المتوسط أكثر غنى وشهرة، فضلا عن كونهم يرتدون لباسا أفضل . خيامهم أكبر وأحسن صنعاً، وخيولهم أجمل وأكثر زينة ولوأنها أقل خفة . يحرثون أراضيهم ويحصدون الشعير والقمح بكثرة، ويملكون كمية وافرة من المواشي الكبيرة والصغيرة، بحيث إنهم لايستقرون بمكان واحد منتجعين المراعي هنا وهناك ، ليسوا شجعانا كأعراب الصحراء، وهم أقل تمدنا وأكثر بخلا، لكنهم لايتخلون عن ايواء

(128)أو من النبل

الغرباء واكرامهم مجانا . والمقيمون منهم في إمارات ملك فاس يؤدون اليه الخراج، لكن الذين يقيمون بمراكش وخصوصا باقليم دكالة كانوا يعيشون أحرارا قبل أن يستولي ملك البرتغال على مدينتي آسفي وأزمور . غير انهم انقسموا على أنفسهم وتسببوا في خرابهم، إذ كان ملك فاس يهاجمهم من جهة وملك البرتغال من جهة أخرى، فضلا عما أصابهم من الطاعون والمجاعة، فاضطروا الى تسليم أنفسهم للبرتغاليين كعبيد، وبيع نسائهم وأولادهم لهم للحصول على قوتهم . فأصبح جلهم بذلك رعايا للبرتغاليين ، وانسحب الباقون الى الداخل منضوين تحت لواء الشريف الذي أخد يسترجع البلاد قدما فقدما الى أن تمكن أخيرا من السيطرة على الاقليم، وخضع له الآن جميع سكانه كسكان الأقاليم المجاورة . وأما الأعراب المقيمون بالصحراء على حدود تلمسان وتونس، فانهم يعيشون كالأمراء، يتعهدهم ملكا تلمسان وتونس وينفقان عليهم ، يعولهم هذان الملكان اللذان يستعملانهم ويستخدمانهم في الحرب . ولهم دائما عُدة حسنة وخيول جياد وخيام جميلة، يذهبون صيفا الى تونس لتسلم السلاح وأجورهم ، ويتزودون في الخريف بالميرة والملابس والعدة لقضاء الشتاء في الصحراء مع قطعانهم (129) وفي فصل الربيع يقبلون على صيد الطيور والحيوانات الوحشية، ولذلك اتخدوا كلابا وصقورا جيدة . وهم ظرفاء أدباء يفتخرون بالشعر، ويقرضون بالفعل أشعارا جزلة بلغتهم . لكن نظرًا لبُخلهم وغدرهم فانه لايحسن الركون اليهم . ترتدي نساؤهم لباسا حسنًا بالنسبة للبلاد، قمصانا سودًا عريضة الأكام جدا، فوقها قماش أزرق أو أسود يتدثرن به ويثنين طرفًا منه بشكتين من فضة في موضع الثدي، ويقلبن الطرف الآخر على رؤوسهن. يضعن في آذانهن أقراطا وحلقات فضية، وفي سواعدهن وسيقانهن أساور وخلاخل حسب زي البلاد، بالاضافة الى خمار من نسيج أبيض ناصع على رؤوسهن يتلثمن به عندما يرين غريبا ويرفعنه عندما يكن في خيامهن . يصحبهن أزواجهن معهم على الابل في هودج صغير شبيهٍ بسلة مصنوعة من أغصان الصفصاف لايسع غير شخص واحد، ومغطى ببساط . يَصْحَبْنَهم سواء في السفر أو الحرب ليشجعنهم بحضورهن وحتى لايقلقن من غيابهم . وعندما يكن طفلات يتجملن عادة بوشم عدة أرقام ورسوم مليحة باللون الأزرق على الجسم كله (130) بحد مبضع ومادة الزاج، وتحذو حذوهن

(129) لوجود الكلأ فيها آنذاك .

(130) في الذقن ، والعنق ، والثدي ، والذراعين ، واليدين ، والرجلين ، والساقين .

الافرقيات، باستثناء اللواتي يقمن بالمدن فانهم يحتفظن ببياض وجوههن على الخلقة التي ولدن عليها . وتشم بعضهن فقط زهرة صغيرة أو صورة ثدي على الحدين والجبهة والذقن بدخان العفص والزعفران الذي يترك علامة سوداء قاتمة، ويسودن حواجبهن كذلك، ويمدح الشعراء كثيرا هذه الأنواع من التسويد ويعتبرها النبلاء من الأناقة، لكنها لاتدوم أكثر من يومين أو ثلاثة، واذا تزينت السيدات هكذا لم يبدين زينتهن إلا لأهل بيتهن متوهمات أنهن سيحظين هكذا بجمالٍ أوفر وحب أقوى من أزواجهن .

والأعراب الذين يعيشون في صحاري برقة بين بلاد البربر ومصر فقراء بؤساء ، لأن البلاد جافة قاحلة لاتستطيع إعالتهم ، وهي قليلة الكلأ لا تنتج أي نوع من الزرع . حقا إن هناك بعض الأماكن الصغيرة التي يسكنها أهل البلاد يجود بها بعض النخل الرديء الذي ينتج القليل من التمر ، ويزرع فيها اليسير من القمح حول البيوت ، بالاضافة الى أنهم في معركة دائمة مع الأعراب للحفاظ عليه ، ويستبدلونه أحيانا معهم بالابل والغنم . لكن عدد هؤلاء الأعراب كثير بحيث إنه لا يكفي لقوتهم ، وتصيبهم المجاعة حتى يضطروا الى تسليم أبنائهم للتجار المسيحيين الذين يأتون اليهم بالقمح من صقيلة ، ويشترطون عليهم ان لم يفكوهم بأداء الدَّين في وقت معين أن يبقى هؤلاء الأطفال عبيدا . وقد رأينا الكثير منهم في هذه الجزيرة متنصرين . وهؤلاء القوم هم أكبر لصوص العالم ، لأنهم يسلبون كل من تمكنوا منهم ويجعلونهم عبيدا لهم ، فلا يجسر المسلمون على أن يمروا بهم آحادا أو جماعات ، خصوصا على طول الساحل حيث ينتشرون في كل مكان . ومن أجل هذا فإن القوافل المتجهة الى مصر تسير على بعد مائتي فرسخ من البحر تقريبا ، وهو بدون شك الطريق الذي اتبعه كاتون حسبما أرى ، لكثرة الوحوش والحيات التي تصادف فيه . وبالتالي فانهم أسوأ شعوب افريقيا، ويبدو عليهم الهزال والشحوب من قلة التغذية ، وتراهم دائما وسخين مرتدين أقبح لباس .

وجميع الأعراب القاطنين في جهة الغرب ، حيث توجد مملكتا فاس ومراكش ، يحملون عادة رماحا طولها خمسة وعشرون شبرا . وهي مصنوعة من شجر المُرّان ، بخلاف التي هي من شجر الدردار المستوردة من أوربا التي يستحسنونها كثيرا حتى إنها تباع بعشرين دينارا إن كانت من قلب الخشب .

ويستعملون كذلك تروسا من جلد صنف من الجاموس ، ولهم منها كمية وافرة .

يرغب الملوك في اتخاد مخازن للسلاح يوجد بها الكثير من الزرود والخود . ويقتنون سيوفهم في الغالب من بلاد النصارى ، وهي غالية الثمن اذا كانت جيدة ، لأن التي تصنع في البلاد ليس جيدا فولاذها ولا مسقاها لانعدام الماء اللائق لذلك .

ومنهم فرسان يحملون القسي ويستعملونها بمهارة ، لكنهم لايستعملون القاذفات النارية ولا يحبونها أصلا . فإذا أرادوا التناوش أزالوا الغطاء عن سروج خيولهم ليكونوا أكثر حرية ولا تزعجهم الريح في حركاتهم . ويتباهون بامتلاك أنفس العُدد ولا يذهبون بدونها. وهناك من الفرسان من يحمل ست حراب أو سبع ، ومنهم المهرة الذين يستطعون اصابة قعر صحن من بعد أربعين قدما . وهم يجرون بأقصى سرعة ، وتدور خيولهم بحذاقة لا تتصور .

وأما الأعراب القاطنون جهة الشرق من مملكة تلمسان الى صحاري برقة ، فانهم يحملون حرابا طولها أربعون أو خمسون شبرا ، وطرفاها مصفحان بالحديد لتضرب من أمام ومن خلف . وأخطر طعناتهم التي يصيبون بها العدو عند انسحابهم ، لأنهم عندما يرون عدوا يلاحقهم عن قرب يحولون الحربة الى الذراع الأيسر ويطعنونه من بعيد وهم هاربون بحيث لا يشك في اصابته أدنى شك . وقد حذقوا هذا التمرين حتى إن منهم من لا يتصنع أبدا من مهاجمة عشرة فرسان أو اثني عشر فارسا بمفرده في السهل ، ويجعلهم يدافعون عن انفسهم بكل حرج . لقد سبق أن قلت إن هذه الحراب ليست من المران ، وان بعضها من الدردار . وأجودها تصنع من جذور نبات يستورد من صحارى ليبيا ، وهي من خشب اسود صلب ثقيل ، إذ كلما ثقل الخشب كانت الحربة أجود إذا حسن استعمالها . وليس للذين يحملون مثل هذه الحراب تروس ، لكن لهم بعض الرماح التي ذكرت ، ولا يهتمون كذلك بالخود والزرود لأنها تمنعهم من الدوران بسهولة ، فلا يحملها الا الذين يستعملون الرماح . ويحمل بعضهم قسيا لكونهم لا يستعملون الأسلحة النارية ، لاسيما اذا كانوا راكبين .

ويمتاز سكان تلمسان وفاس عن غيرهم بزينة خيلهم وبقيمتهم ، والموغلون منهم أكثر الى جهة الغرب أحسن استعدادا وأكثر نبلا وعظمة ، والراجلون منهم

لا يكاد يُنتفع بهم لأنهم لا يتحاربون الا على الخيل ، إلا أنهم منذ زمن قليل أخذ بعض الشيوخ يملكون أسلحة نارية وخصوصا منهم سكان مملكة تلمسان ، لكنهم لايستعملونها إلا لارهاب الأعراب الآخرين الذين يخشون النار بكيفية غريبة . إنهم لا يحسنون استعمال هذه الأسلحة ويحاربون بها في اضطراب . وفعلا فإن طريقة محاربة هؤلاء الشعوب تختلف كثيرا بالنسبة لسائر الأمم ، اذ لا يحاربون مجتمعين بل متفرقين في كل جهة ، فاذا اكتشفوا موطن ضعف حملوا عليه وتعجلوا منه الانتصار ما أمكنهم ذلك ، لكن اذا هوجموا أولا تراجعوا في الحين ولو كانوا أضخم عددا ، ثم أعادوا الكرة من كل جهة مرات مختلفة محاولين زحزحة عدوهم . وباختصار إنهم على قدر كبير من المهارة والاستعداد ، حتى إنهم يقتحمون الكتائب دائما ويتراجعون أو يتقدمون بسرعة كبيرة مالم توجدْ أسلحة نارية . وإذا حاربوا المسيحين بذلوا كل ما في وسعهم لجرح خيولهم أو قتلها ، لأنهم يعلمون أنهم مسلحون كما يجب لا تمكن إصابتهم بسهولة ، فعلى الذين يواجهونهم أن يحذروا من هذا . ولن أزيد على هذا لأختصر حديثي ، وان كان هناك كثير مما يقال في هذا الموضوع .

الفصل الثالث والثلاثون

في لغة الأفارقة

ان الأفارقة القدماء الذين يسمون شلوحا أو برابرة ، ولو أنهم مشتتون عبر افريقيا كلها ، فانهم مع ذلك يكتبون ويتكلمون كلهم لغة واحدة تسمى لغة أبي مالك مخترع النحو العربي (؟) ولا يمنعهم من التكلم أيضا بلغة البلاد التي تختلف كثيرا عن غيرها من اللغات ولو أنها تحتوي على بعض الكلمات العربية التي أدخلت فيها بواسطة هؤلاء الشعوب الذين جاؤوا الى افريقيا في مختلف العصور. وتقول السلالات الخمس (131) التي تحدثنا عنها في الفصل الحادي والعشرين لتأييد كونها أتت من اليمن إن لغتها الأم هي العربية ، وإنها فسدت بتعاقب العهود منذ انتقالها الى افريقيا حيث كانت مضطرة الى التعامل مع امم أجنبية ، لكن المفردات العربية التي رسخت فيها لدليلٌ كافٍ على أصلهم . واللغة التي يتكلمون بها حاليا مكونة من العربية والعبرية ، واللاتنية ، واليونانية ، والافريقية القديمة التي كانوا يستعملونها لدى مجيئهم الى البلاد ، لأنه لاأحد يخالف في وجود لغة طبيعية خاصة بافريقيا مختلفة عن لغة العرب . وتحمل اللغة التي يتكلمون بها الآن ثلاثة أسماء (132) تكاد تدل على نفس الشيء ، مع أن البرابرة الأقحاح يختلفون في النطق وفي مدلول كثير من الكلمات . فأقربهم جورا للعرب وأكثرهم اتصالا بهم يمزجون كلامهم بالعديد من كلمات لغة أبي مالك (العربية) التي هي أشرف اللغات ؛ ويمزج الأعراب كلامهم كذلك بعدد كبير من الكلمات الافريقية . ويتكلم أهل غمارة وهوارة الذين يعيشون في جبال الأطلس الصغير (133) لغة عربية فاسدة ، وكذلك

---

(131) وهي التي يطلق عليها اسم برابرة بالذات .

(132) وهي الشلحة ، وتامازيغت ، والزناتية .

(133) يقصد جبال الريف (مترجم) .

جميع سكان مدن بلاد البربر المقيمين بين الأطلس الكبير والبحر . لكن سكان مراكش وجميع أقاليم هذه المملكة ، سواء منهم النوميديون والجيتول المقيمون بجهة الغرب ، يتكلمون اللغة الافريقية الصافية المسماة الشلحة وتامازيغت ، وهما اسمان قديمان جدا ، أما سائر الافارقة البرابرة القاطنين في الجهة الشرقية المتاخمة لمملكة تونس وطرابلس الغرب الى صحارى برقة ، فانهم يتكلمون جميعا لغة عربية فاسدة ، وكذلك الذين يعيشون بين جبال الأطلس الكبير والبحر ، سواء كانت لهم منازل قارة أم لا ، بالاضافة الى زواوة ولو أن لغتهم الرئيسية هي الزناتية ، بحيث إن الذين يتكلمون اللغة العربية الفصحى بافريقيا قليلون ، لكنهم جميعا يستعملون في كتابتهم الأصلية لغة أبي مالك التي تقرأ وتكتب عادة في كل بلاد البربر ونوميديا وليبيا . وهاتان اللغتان مختلطتان عند السود ،لأن الأقاليم القريبة من السنيغال والبلدان الأخرى العربية الاسلامية فيها عدد كبير من الكلمات العربية والافريقية ، ففي جيلوف ، وجينيووفا ، وتنبكتو ، ومالي، وكَاغو،وكَناطي يتكلمون لغة سونغاي ، وفي كَوبر وكَانو وكيسينا وبرزكَرك ، ووانكَرا يتكلمون لغة كَوبر ، وهي لغة أخرى ، وفي بورنا وكَوكَا يتكلمون لغة ثالثة تشبهها بعض الشيء ، وفي النوبة يتكلمون لغة رابعة مختلطة بالعربية والكلدانية والمصرية .

وتفضي هذه الأقاليم كلها الى النيجر . ولكن الأقاليم الأخرى الأكثر توغلا في الجنوب مازالت فيها لغات مختلطة ، وأهمها الزنجية والحبشية . وفي بعض المناطق يسمع صفير عوض الكلام ، يصفرون أكثر مما يتكلون (134) . وهناك شعوب في غاية من التوحش حتى إنهم لايتكلمون ولا يتواصلون مع غيرهم ولا يظهرون لأحد ، فاذا أخذ منهم أسير ترك نفسه يموت جوعا من شدة الغيظ . وسنذكر في سم الثاني من هذا التاريخ عدة أشياء حقيقية واقعة تتعلق بشراسة هذه الأمم ، سنتحدث عن امبراطور الحبشة وممالكه . ولما فتح العرب المسلمون بلاد مصر أخذ المصريون لغتهم ، ثم أخذوا اللغة التركية التي يستعملونها للتظرف ، ولم يحتفظ باللغة المصرية الاصيلة التي كانت موحدة ومشتركة في البلاد كلها إلا أولئك الذين تمسكوا بالديانة المسيحية ، مع أن هذه اللغة ممزوجة بالعربية والحبشية في بعض المناطق ، وكثير من العبرانية في سائر البلاد.

---

(134) كل لغة لا نعرفها يبدو لنا عند سماعها أنها صفير .

الفصل الرابع والثلاثـــون

في الحروف القديمة للأفارقة التي يستعملونها اليوم

يعتقد أشهر المؤرخين العرب أن الأفارقة لم يكونوا يستعملون سوى الحروف اللاتينية عندما فتح المسلمون بلاد البربر التي كانت ومازالت موطن نبلاء افريقيا . الا أنهم لا يمارون في أنهم كانوا يتكلمون لغة أخرى غير اللاتينية ولو أن هذه كانت أكثر تدوالا ، لذلك فإن جميع كتب التاريخ التي تركها لهم الآريون مترجمة عن اللاتينية ومقتصرة على أسماء النبلاء والأمراء ، وتتعلق بعهود ملوك فارس ، وآشور ، واسرائيل ، أو بالتقويم القيصري ، لكنه ينبغي الاعتراف بأنهم لم يتوفروا منها إلا على القليل النادر ، لأن الخلفاء الخوارج أمروا عندما كانوا يحكمون افريقيا بإحراق جميع الكتب التاريخية والعلمية حتى لا تقرأ سوى مؤلفات نحلتهم . ويقول بعضهم إن الأفارقة كانت لهم حروف غير اللاتينية ، لكن اليونانين والرومانين والقوط أرغموهم على تركها ، مثلما فعل العرب بالفرس حيث أمر الخلفاء باحراق كتبهم ظانين أنهم لن يكونوا أبدا مسلمين مخلصين مادام بين أيديهم وسائل إذكاء وثنيتهم . بالاضافة الى أنهم منعوهم من دراسة العلوم ، وكذا في افريقيا [135] لذلك فإن جميع الآثار المكتوبة الموجودة قديما عبر افريقيا كلها قبل مجيء العرب لاتنية أو قوطية ، والحديثة منها عربية .

يقول ابن الرقيق : إن الرومان طمسوا العناوين والحروف القديمة التي وجدوها في افريقيا عندما احتلوها، ووضعوا مكانها عناوينهم وحروفهم حتى يخلدوا وحدهم ، الأمر الذي هو معهود عند الفاتحين . ومن ثم لم يبق أي أثر للحرف

(135) لا حاجة الى دحض هذا التحامل السافر ، فالعالم كله يعرف حض الاسلام على العلم والمشاركة الفعالة للفرس المسلمين في مختلف ميادين المعرفة حتى إنهم فاقوا العرب في ذلك .

الايفريقي . وليس من الغريب إذن أن يكون الأفارقة الأقدمون فقدوا حروفهم بعدما مرت عليهم عدة قرون تحت نير مختلف الأمم المتباينة الأديان ، وأن المتأخرين منهم لم تكن لهم سوى حروف عربية منقوطة غير مشكولة مع علامات تحل محل الشكل. وكما هو الحال في اللغتين الكلدانية والعبرية اللتين تشبههما اللغة العربية كثيرا حيث إنها تكتب كلها بعكس اللاتنية ؛. فالنحو العربي لذلك صعب جدا ، ولا يحسن القراءة والكتابة إلا المتضلعون فيه لأن العربية تكتب بعدة علامات ، ورسمها أعسر من اللاتنية لأن الالتباس في الكلمات كثير ، فرب كلمة واحدة إذا كتبت بشكلين مختلفين دلت على معنيين متباينين ، كما أن الشدة وهي مضاعفة الحرف ، لها عدة دلالات لنفس الشيء ولنفس الكلمة .

الفصل الخامس والثلاثـــون

في العادات القديمة والاعتقادات الباطلة لشعوب افريقيا

كان أفارقة بلاد البربر الأقدمون يعبدون الشمس والنار ويقيمون لهما معابد فخمة يحتفظون فيها بالنار بكل عناية ، كما كان يفعل الفرس أو الرومان في معبد فيسطا . واستمروا في وثنيتهم الى سنة 349 وحتى تعديل تقويم قيصر عام 387 ، حيث اعتنقوا الديانة المسيحية . غير أنهم لم يكونوا كلهم كاثوليكين أو أورطودكسيين بسبب التأثر السيء الذي كان يلحقهم من مختلف البدع السائدة آنذاك، فشن العرب الحرب عليهم مدة طويلة وانتصروا بعد معارك متعددة . وكان سكان نوميديا [136] وليبيا يعبدون الكواكب ويقربون لها القرابين . وأما زنوج إثيوبيا السفلى فلم يتفقوا في عبادة الآلهة، فعبد بعضهم الشمس وآخرون القمر ، وعبد هؤلاء النجوم وأولائك الماء أو النار وقليل منهم عبدوا أول شيء حيّ صادفوه لدى مغادرة سكناهم ، وكان سكان إثيوبيا العليا يعبدون إله السماء باسم كيكيمو ، دون أن يرشدهم الى ذلك أي فقيه أو خطيب . ثم اعتنقوا الديانة اليهودية بايعاز من ملكة سبا أو ماجدة التي علمت ـــ على ما يقولون ـــ بحكمة سليمان البالغة ، فذهبت اليه وتعلمت منه قانون موسى واطلعت على أحوال الرسل . وتهوّد أيضا بعض شعوب اتيوبيا السفلى وتمسكوا جميعا بهذه الديانة الى مجيء خصي [137] ملكة كنداس الذي عمّده سان فيليب ، فدعاهم الى الدين المسيحي ودخل فيه عدد منهم . لكن لما كانت سنة 1067 الموافقة لعام 469 للهجرة ودخل يحيى بن أبي بكر الى إثيوبيا السفلى وعلمهم بعض الفقهاء المسلمين مبادئ دينهم ، وخصوصا منهم سكان النوبة وجينيووفا المتخامتين لصحراء ليبيا وبلاد مصر ،

---

(136) يعتبر نوميديا هي جيتوليا كعادته .

(137) وهويهوديكـــة .

حيث يوجد لحد الآن عدد كبير من الفقهاء والقراء . وعبر بعد ذلك آخرون بجيشهم لفتح اسبانيا ومصر ، فرجعوا منها منتصرين بعد ان أعدوا جل هذه الشعوب بدينهم . لكن سكان اثيوبيا العليا ظلوا محتفظين بايمانهم بالرغم على أن لهم عدة اعتقادات باطلة يهودية بسبب مكوث اليهود الطويل بين أظهرهم على قلة عددهم ، إلا أنهم اضمحلوا أخيرا . وسكان اثيوبيا السفلى الموجودون في بلاد الزنج أو على ساحل المحيط كلهم وثنيون ، ومعظمهم جفاة بحيث يستحقون لقب وحوش أكثر من أناس . ومنذ أن أخذ البرتغاليون يجرون على طول هذا الساحل ، اعتنق البعض منهم الديانة المسيحية ، كما سنذكر ذلك فيما بعد . وكان المصريون كذلك وثنين ، ثم مسيحين ، ومن ثم انتقلوا الى دين محمد ، وان بقي كثير منهم متمسكين بالديانة المسيحية .

الفصل السادس والثلاثـــون

كيف بدأ أمير البرتغال دون هنري اكتشاف الشواطئ الغربية لافريقيا والهند ، والابحار اليهــا

كان الأمير دون هنري بن الملك دون يوحنا الأول عاهل البرتغال ، يُحِبُّ كثيرا علم الفلك والكوزموغرافيا ، ولكي يتفرغ الى تعاطيهما بحرية ذهب إلى رأس سان فانسان في الغرب ليقيم به ، بعد أن حمى سبتة ضد المغاربة الذين حاصروها سنة 1419 ، وشيد به مدينة مازالت تحمل اسمه وهي مدينة الأمير (138) وحيث إنه كان مرتاحا بهذا المكان ، قرر إرسال سفن على طول الساحل الغربي لافريقيا ليتسنى له السير من هناك الى الهند الشرقية ، كما كانوا يفعلون في القديم . وكان قد تعلم ذلك من خلال قراءة كتب القدامى التي كان متبحرا فيها ، لا بوحي إلهي كما يعتقد البعض ، إذ لو كان ذلك صحيحا لأتم الاكتشاف ظاهرا عوض أن يشرع فيه فقط . إلا أنه بفضل مطالعته ودراساته الدائبة افترض افتراضات طبيعية ليست يقينية دائما أن ذلك يمكن أن يكون . لأنه بقطع النظر عن مينيلوص الذي يقال إنه دار حول ساحل افريقيا كلها مرورا من مضيق جبل طارق ووصل الى البحر الأحمر ، ومن هنا الى الهند ، فإن حانون القائد القرطجاني أرسل بأمر من القرطاجيين على رأس ستين مركبا لتأسيس مدن (139) خارج مضيق جبل طارق ، على طول ساحل إفريقيا ، فأوغل في إبحاره على طول هذا الساحل حتى كاد يصل تحت الخط ، ثم وضع عند رجوعه في معبد ساتورن الرحلة التي كتبها بيده . ويظهر جليا من خلالها ومن الملاحظات المتعلقة بسفره أنه اجتاز رأس سيرا ليونا التي يسميها بطليموس مركب الآهة (140) . وقرأ أيضا في **تاريخ هيرودوت** الذي يطلق عليه سيسيرون لقب أبي التاريخ ما قاله عن الابحار الذي

(138) وهي طيرسا نافال .

(139) وهي التي سميت ليبيفينيقية .

(140) جبل ليون .

أمر به نيكو ملك مصر بعض الفنيقيين الذين كانوا مهرة في شؤون البحرية ، فركبوا السفن في البحر الأحمر وذهبوا الى أن وصلوا الى المحيط ، وبعد أن داروا حول افريقيا كلها عادوا الى البحر المتوسط من مضيق جبل طارق ، ثم وصلوا الى مصر بعد سنتين . وربما قرأ لنفس المؤلف أيضا أن كسيرسيس أمر ساطاسبٌ بالابحار في المحيط الى رأس افريقيا ، لكنه تعب من هذا السفر الطويل ونفد زاده فاضطر الى الرجوع الى مصر . ويذكر سطرابون أن الشاب قيصر بن أغسطس صادف على بحر بلاد العرب بقايا بعض المراكب الاسبانية التي ألقت بها العاصفة على طول الساحل ، كما أن بلين ، وكُرنيليوس نِبيُّوس ، وبو ميُّو نيوس ميلا تحدثوا مثلا عن أسفار أودوكس في هذه المناطق . واعتمادا على هذه الشهادات وغيرها ، مع الرحلات التي كان يتوصل بها يوميا من الأفارقة الذين هم أعلم منه بهذه الأمور ، عزم الدون هنري على القيام بهذا الاكتشاف الذي لم يعد أحد يتحدث عنه ، فأرسل لهذا الغرض مرتين من يحققون ساحل المحيط بمراكب توغلت سبعين فرسخا وراء رأس نون الذي يسمي هكذا ، لأن الذين كانوا يمرون به لايعودون اليه أبدا . ولما رجعت هذه المراكب سلّح مركبا آخر جعل قيادته ليوحنا كونساليز ، لكن العاصفة عاكسته كثيرا حتى لم يستطع إدراك ساحل افريقيا ، فسار بدون شراع الى أن وصل الى جزيرة صغيرة قاحلة سماها بّورطوسانطو (141) . ولما عاد وروى قصة سفره ، فان برطولومي بّيريس تربو الذي أسند إليه حكم هذه الجزيرة أمر بتعميرها بصحبة يوحنا كونسا ليزراركو ، وتريستان فازتيشيرا لجودة تربتها ونقاء هوائها وعذوبة مائها . ولما وصلوا الى هذه الجزيرة سار هذان الأخيران في زورق لاستكشاف أشجار تبدو قريبة ، فإذا هي جزيرة أخرى أكبر من الأولى بكثير سمياها ماضير بسبب الجبال المكسوة بالغابات التي تغطي الجزيرة كلها . ولما عادا وأسند إليهما حكم الجزيرة آل أمر المنطقة المسماة مونشال (142) الى يوحنا كونساليز ، ومنطقة مادريكو الى تريستان فاز ، وبدءا في تعميرهما عام 1420 دون أن يقع اكتشاف جديد إلا بعد ثلاث سنوات . وفي عام 1423 اكتشف جيل يانييز ، وهو خادم آخر للأمير ، رأس بوجادور ، ورجع اليه في السنة التالية مع ألونصو كونساليز بالدايا . فبعد أن تجاوزوا الرأس وصلا الى انكَرادى لوس

---

(141) الميناء المقدس .

(142) يعني النهائي .

ريوس (143) المسي هكذا لوفرة هذا النوع من السمك فيه ، غير أنهما اظطرًا الى الرجوع الى الأمير بعد أن أخذت مؤنهما تقل دون أن يصادفا أحدا يخاطبانه هناك . وانما ابصر آثار أخفاف الجمال على الرمال وآثار قافلة ، ثم عادا اليه عام 1435 بأمر من الأمير وتجاوزاه الى أن وصلا الى خليج صغير أنزلا به فارسين ليتقدما فيه ويستطلعا من هنالك ، فلقي هذان الفارسان تسعة عشر مغربيا مسلحين بالحراب والرماح ، وهاجماهم للقبض على أحدهم ، إلا أن هؤلاء تصدوا لهما وأصابوا آحد الفارسين بجُروج ، فاضطرا الى الالتحاق بالمركب الذي حملهما الى البرتغال بعد أن أطلقا على هذا المكان اسم شاطئ الفارسين.

ولم يحدث أي اكتشاف منذ هذه السنة حتى سنة 1440 ، لا لموت الملك دون دُوارت الذي ترك كولي ولي عهده مايزال طفلا صغيرا فحسب ، ولكن أيضا لعلمهم بوجود محاربين مسلحين عارفين بأمور الحرب ، فاتضح أنه من الضروري ارسال عدد أكبر من الرجال والسفن . وهكذا أرسل الأمير عام 1441 اثنين من رجاله هما أنطوان كونساليز ، ونونيوتريستان في مركبين . فسبق هذا الأخير الى اكتشاف الرأس الأبيض المسمى هكذا لأن أرضه بيضاء رملية ، بينما اكتشف الآخر رأس الفارس الذي سماه هكذا لأنه سبي وهو راكب فرسه بعض الزنزج الذين كانوا أول من حُملوا الى لشبونة . ولما عاد هاذان القائدان الى البرتغال فرح الأمير فرحا شديدا بهذا السبي إذ رأى أنه بدأ يجني ثمار عمله ، وعند انتشار هذا النبأ استأذنه بعض سكان طافيلا بالغرب في الذهاب للمشاركة في هذه المغامرات ، فسلحوا في العام التالي ست سفن كرافيل وشرعوا في سفرهم بقيادة لانصيرو ، خادم الأمير . فوصل هذا القائد يوم عيد القربان المقدس الى جزيرة لاس كَاسكاس التي سميت هكذا لكثرة ما لقوه فيها من طيور البلشون فكانت لهم طعاما طريا . ثم عبروا الى جزيرة نار ، والى جزر قريبة أخرى اختطفوا منها عدة زنوج . وفي العام الثاني أرسل الأمير على متن سفينة حربية فانسان دي لاكَوس مع لويس كادا موست أحد نبلاء البندقية ، فذهبا الى جزيرة بويرطوسانطو الواقعة على مسافة مائتي فرسخ وراء رأس سان فانسان ، ثم الى مضير التي ليست بعيدة عنها إلا بثلاثة عشر فرسخا ، ومن هنالك الى جزر

(143) أي خليج السمك الأحمر

كاناري البعيدة بنحو مائة فرسخ ، وانطلقا من جزيرة لأبالم فوصلا الى الرأس الأبيض الواقع على بعد نحو ثلاثمائة فرسخ ، ثم الى نهر كَامبرا . وفي هذه السنة وصل الى جزر إركين قائد إحدى سفن الأمير المسمى كونزاليس دي سينترا ، فقتله مغاربة إقليم السوس الأقصى مع بعض رجاله .

ويقول بعضهم إن الملك دون ألفونسو أرسل سنة 1461 صويرو مينديز لتشييد قلعة في هذه الجزيرة، إلا أنهم أخطؤوا حسب دليل سفر كَادَا مُوسْت الذي صادف عددًا كبيرًا من العمال يبنون القلعة في هذه الجزيرة عندما قام بهذا السفر سنة 1445 رفقة فانسان دِيَازْدي لاكَوس، لكن يمكن أن يكون الملك دون ألفونسو أرسل هذا الرجل ليتمم بناء الحصن لا لانشائه، فالأمير دون هانري هو لامحالة مشيد هذا الحصن، لان كادا موست يقول إن البرتغاليين كانوا في ذلك الوقت قد اكتشفوا نهر سينيكَال (144) بعد مرور عام على اكتشاف الرأس الأخضر، خلافا للقائلين إنه لم يكتشف إلا عام 1445 من طرف ديونيزيو هرنانديز خادم الملك دون يوحنا الذي أسر أول زنوج سيقوا إلى البرتغال .

نرى من هنا أن هذا الرأس إن كان قد اكتشفه هذا البرتغالي فان ذلك كان عام 1443 أو 1444 لا عام 1445، حيث كان يوجد عدد كثير من الزنوج في البرتغال حملهم اليه من قاموا منهم باكتشافات أخرى . وفي هذه الأثناء صادف لويس دي كاداموست وهو يبحر نحو نهر كَامبرا أنطوان دي نول الجنوي الذي وجهه الأمير لنفس الغرض، فانضما إلى بعضهما ووصلا الى هذا النهر ثم رجعا منه الى البرتغال دون أن يتعدياه . وعادا اليه في السنة الموالية على متن سفينة جهزها لهما الأمير، فاكتشفا جزر الرأس الأخضر، وكان ذلك عام 1445، لاعام 1460، كما يقول بعضهم خطأً، لأن الأمير مات تلك السنة في ثالث نونبر، وكان ابن أخيه الملك ألفونسو الخامس قد أقطع هذه الجزر وجزر طرسيريس لأخيه الأمير دون فرناند، فوصل هاذان الغربيان إلى جزر الرأس الأخضر بعد ثلاثة عشر يومًا من مغادرتهما البرتغال، وأطلقا اسم بوينا فيستا على الجزيرة الأولى التي وصلا إليها، واسم جاك وسان فليب على الثانية لأنهما اكتشفاها ذلك اليوم، واسم ماي على الثالثة اعتباراً للشهر واليوم الذين اكتشفت فيهما . ومن هناك ذهبا حتى

---

(144) هو سينيدبك بلغة البلاد .

وصلا إلى نهرها الذي يسمى الآن كارامانصا باسم أمير البلاد، ثم تابعا طريقهما إلى الرأس الأحمر، ومنه عادا الى البرتغال .

ولنرجع الى موضوعنا، فإن أنطوان كونصاليس اكتشف سنة 1445 في مركب الأمير وادي الذهب، ووصل لانسيرو إلى الرأس الأخضر بعد عدة أتعاب ومخاطر، لكن بعض سفنه من نوع الكرافيل عادت لعدم استطاعتها متابعة السفر، فجاء إلى جزيرة تِيدِرْ بمركبين فقط، وعاد من هناك إلى البرتغال حاملًا معه ستين زنجيًا استولى عليهم . وفي عام 1446، سار نونيو تريستان إلى الوادي الكبير البعيد عن الرأس الأخضر بأكثر من ستين فرسخا، واقتحم نهراً آخر على بعد أكثر من عشرين فرسخا، حيث كان مضطراً إلى مقاومة أهل البلاد الذين هاجموهم بثلاثة عشر زورقا محملة بالمحاربين يرمونهم بالحراب والنبال المسمومة، فقتلوه هو وثمانية عشر من أصحابه . والتحق الباقون بالبرتغال بعد إطلاق اسم قائدهم المقتول على هذا النهر .

واكتشف ألفارو هِرناندير في نفس السنة رأس موست، وجاوز الرأس الأخضر بمائة فرسخ، فنزل إلى اليابسة وحارب أمير الاقليم وقتله بيده . ثم سار الى مصبّ نهر تابت البعيد عن رأس نونيو تريستان، ومنه عاد الى البرتغال . ومنذ ذلك الوقت الى سنة 1455 لم يحدث أي اكتشاف ملحوظ، اللهم إلّا ماكان من جزر الآصور التي سبق أن اكتُشفت على ضوء مزية منحها الملك ألفونسو الخامس لسكان جزيرة سان ميشيل (145) والتي أعفاهم بمقتضاها من الأداء عن كل ما يحملونه الى البرتغال . وكان الملك ألفونسو هذا شجاعا كبيرا، لأنّه واصل الحملة على افرقيا وأخذ من المغاربة مدن القصر الصغير، وأصيلا، وطنجة، وخلفه الملك دون مانويل فأتم حرفيا اكتشاف افرقيا والهند، حيث حدثت عدة أشياء شهيرة وصفها بتفصيل المؤرخ البرتغالي كَوميز يانيير ويوحنادي بارّوس المفوض لدى الغرفة التجارية للهندفي كتابه حول آسيا . وبما أن هذا ليس من موضوعنا فلن نتكلم عليه هنا، مكتفين بالالمام بشيء منه في القسم الثاني من هذا التاريخ فيما يتعلق بافرقيا .

---

(145) كان ذلك عام 1447 .

الفصل السابع والثلاثون

رسالة من هيلين ملكة الحبشة إلى دون مانويل ملك البرتغال

باسم الأب والابن والروح القدس، أشخاص ثلاثة في إله واحد (146) والسلام والفضل لسيدنا ومنقذنا المسيح بن مريم العذراء المولود ببيت لحم، وبركته المقدسة على أخينا الحبيب المسيحي المخلص الملك دون مانويل، سيد البحار وقامع المسلمين والجاحدين ، رحمكم سيدنا المسيح ونصركم على أعدائكم، ووسع حدود إمبراطوريتكم بجاه رسله الانجيليين الأربعة يوحنا، ولوقا، ومارك، وماتيو، وحفت بكم قداستهم وصلواتهم. نحيطكم علما، أيها الأخ العزيز، أنه وصل الى هنا من قصركم العالي الشامخ مبعوثان، أحدهما عامي والآخر قسيس، وكلاهما يدعى يوحنا، وقد أطلعانا على عدة أشياء لحملنا على أن نسلم اليهما المؤن والرجال . لكن حرصاً منا على أن يتم ذلك على الوجه الأكمل، أرسلنا اليكم أحد رجالنا سفيراً وهو أخونا ماتيو بإذن من البطريق مارك الذي يمنحنا البركة، ويرسل الكهنوتيين الى بيت القدس، هو أبونا وأبو دولتنا كلها، وعمدة الايمان بالمسيح والثالوث المقدس الذي بعث أيضا برسل الى أحد موانئكم بالهند بأمر منا للمحادثة مع رجالكم وتزويدهم بالمؤن وعدد الجنود المطلوبة، واطلاعهم على خبر تجهيز أمير القاهرة أسطولا حربيا مكونا من كذا وكذا من الزوارق المستديرة والسفن الحربية لارسالها ضد جيوشكم، على أننا سنزودكم لمقاومته بعدد هام من الجنود الموجودين في مضيق مكة، وبال، والمندب لتوفدوهم إلى الهند أو الى الطور لابادة هؤلاء الكفار ومحوهم من الدنيا، بينما سنزحف نحن في البر الذي نتحكم فيه تحكمكم في البحر، حتى نحرم الكلاب من أكل القرابين المقدمة لقبر المسيح . وها هو الوقت الذي نبأ به المسيح أمه مريم العذراء المقدسة بظهور ملك من الافرنج يستأصل الكفار . إنه

---

(146) نقلنا هذه الرسالة حرفيا على ما فيها من عبارات منكرة ، لتحصيل الفائدة التاريخية ، ولما علم من أن حاكي الكفر ليس بكافر .

الوقت ذاته الذي تنبأ به . فتقبّلوا إذن كُلَّ ماسيقوله لكم سفيرنا عنا وكأننا نحن الذين نخاطبكم وضعوا ثقتكم فيه لأنه أقْدرُ من أمكن أن يقع عليه اختيارنا لهذا الغرض، ولو وجدنا من هو أذكى منه لأوفدناه إليكم . وكان بودنا أن نعرب لكم عما سنقوله لكم بواسطة مبعوثيكم، لكنا خشينا ألا يعبِّروا عنه كما نحب . وبالتالي فاننا نرسل اليكم معه صليبا من الخشب الذي صلب عليه سيدنا المسيح ببيت القدس، وقد حُمل الينا من نفس المدينة، ونحتفظ بمثله تماما من الخشب الأسود له حلقة صغيرة من الفضة ، وكان في استطاعتنا أن نرسل اليكم كمية من الذهب، لكننا أحجمنا عن ذلك خشية أن يستولي عليها الكفار في أي مكان نضطر الى المرور به . وكم تكون سعادتنا كبيرة لو رضيتم بتزويج بناتكم بأبنائنا وإرسالهن الى هنا، وتزويج بناتنا بأبنائكم فنرسلهن اليكم مع كميات هائلة من الذهب والفضة مهوراً لهن . والسلامُ والفضل من منقذنا المسيح ومريم العذراء المقدسة يعمّان ممالككم وأبناءكم وسائر أفراد أسرتكم آمين :!

كما نخبركم أننا إن ذهبنا الى الحرب فسنزعج كثيرا الكفار أعداء عقيدتنا المقدسة، لكن مما لكنا ليست على الساحل، وليس فيها غابات يستخرج منها الخشب لصناعة السفن، اللهم إلَّا ماكان منها بعيداً جداً عن مراسينا، بالاضافة إلى ضيق هذه المراسي وصغرها . هذا مايجعلنا عاجزين على البحر، حيث تستطعون عمل الكثير . حفظكم المسيح دوما، لأن ماعملتوه في الهند يعدّ حقا من المعجزات، إلا أنه عندما تسلحون ألف سفينة فاننا نزودها بالمؤن ونمدّ الذين يقصدوننا بكل الضروريات .

وفي استطاعتي أن أُقدِّم لكم أكثر من هذا عن هؤلاء الأحباش، لكنني أحتفظ به للقسم الثاني من هذا التاريخ .

الفصل الثامن والثلاثـــون

براءة من ملك مانيكونغو إلى الأمراء جيران مملكته ، عندما اعتنق الديانة المسيحية

نحن دون ألفونسو ، بفضله المقدس ، ملك مانيكونغو وأمير الأمبود ، فاننا لكي يتمكن الجميع في الحاضر والمستقبل من الاطلاع على المنن والنعم التي أولانا إياها مولانا الاله القادر ، على كل شيء ، نحيط الجميع علما ، الحاضرين واللاحقين ، الأهالي والأجانب ، آن ممالكنا وإماراتنا كان اكتشفها فيما سبق رجال ممالك وإمارات البرتغال ، في حياة يوحنا الثاني ، وبعده على عهد الملك الأعظم الأفخم دون ما نويل ، الحاكم حاليا ، وأن هؤلاء الأمراء أرسلوا ، بالهام إلهي ، رهبانا وقسيسين وغيرهم من رجال الدين ليهدوا الملك والدي الى طريق الخلاص ويعلموه الايمان المقدس الكاتوليكي الذي يعيش عليه هؤلاء الأمراء ورعاياهم ، وذلك أملا في الأشياء الحاضرة وتنمية للايمان الحقيقي الذي ثبته في هذه البلاد فضل الله الذي لاينتهي ليكون العمل مطابقا للمحبة التي أوصاهم بها الرب . وينفذوا وصاياه بصفتهم كاثوليكين وأوفياء حقيقين ، فإنهم جدوا واجتهدوا بحيث إن الملك والدي استمع الى المذهب المسيحي ، وأظهر في هذه الأوائل استعدادا كبيرا لتلقيه ، رغم أنه صرف عنه طول حياته بوسوسة الشيطان عدو الصليب ، فلم يؤثر لذلك فضل الله في نفسه . إلا أننا ، وبالرغم على أننا كنا آنذاك صغارا جدا ، فاننا كنا متنورين بالروح القدس منةً غريبة ولطفا خاصاً حبانا بهما الثالوث المقدس، الأب والابن والروح القدس، ثلاثة أشخاص في إله واحد (147) الذي نؤمن ونعترف به بقوة ، فقد قبلنا المذهب المسيحي، بحيث أصبح هذا المذهب يزداد رسوخا وثباتاً في قلوبنا برحمة من الله ساعة بعد أخرى ويوما بعد يوم . ولما ابتعدنا عن كل ضلالات الوثنية التي عاش فيها أسلافنا لحدّ الآن، فتوصلنا الى معرفة حقيقية، ألا وهي أن سيدنا المسيح هو

(147) نقلنا هذه الرسالة كذلك – على مافيها – لنعرف مدى رفض الأفارقة السود للمسيحية ، وإلحاح المبشرين ومموليهم طوال أجيال لنشر المسيحية عن طريق الترغيب والترهيب .

الاله الحق والانسان الحق، وأنه نزل من السماء الى الأرض ليتكون جسما بشريا في بطن العذراء لفداء البشر الذي كان تحت سيطرة الشيطان بسبب خطيئة أبينا آدم، فقاسي ألم الموت والعذاب على خشب الصليب بمدينة القدس، ودفن ثم بعث في اليوم الثالث ليقوم بالنبوآت، ووقع خلاصنا جميعا بفضل هذا الموت . وبسبب هذا التصديق الحقيقي الذي كان هؤلاء الرهبان المسيحيون يلقنوننا إياه باستمرار سخط علينا والدنا الملك ورعاياه كبيرهم وصغيرهم، واحتقرنا فنفانا إلى بلاد نائية أقمنا فيها زمنا طويلا محرومين من رؤيته ونعمه . ومع ذلك فإننا لم نتحمل المشاق بدون ارتياح في سبيل الايمان بسيدنا المسيح وبكامل الثقة التي حبتنا بها رحمته دائما لنتحمل البلاء أكثر فأكثر عند الاقتضاء، آملين مطمئنين إلى أنه سيعيننا ويمنحنا رضاه حتى لاتذهب على الأقل أعمالنا وإيماننا القوي سُدىً لخصوص خلاص أرواحنا . وبعد أن قضينا منفانا هكذا أُخبرنا باحتضار أبينا، وأن أخانا الطريد يطمح بدون أي حق في أن يصبح سيد البلاد بإعانة ومساعدة من الأعيان والشعب كله الذي كان يكرهنا لأننا اعتنقنا دين السيد المسيح، لكن الله الذي لايخذل ولن يخذل أبدا الذين يخدمونه ويتوسلون اليه أعاننا على الذهاب الى مقر أبينا . فوصلنا بعد موته بقليل، ووجدنا أخانا قد استولى على المملكة وهو مسلح محاط بعدد لا يحصى من الرجال، فتظاهرنا بالتعب لننجو بأنفسنا، وذات يوم توجهنا مع ثُلَّة من الأصحاب لم يكن عددهم يزيد على ستة وثلاثين رجلا، الى ساحة المدينة التي مات فيها والدنا، وكان جمهور غفير من الشعب يحيط بأخينا، فاستغثنا بالسيد المسيح وبدأنا نحارب أعداءنا بشجاعة وصاح رجالنا بإلهام إلهي لنحْمل، لنحْمل ! فهربوا . نعم أخدوا يفرون لحينهم معترفين منذ ذلك الحين بأنهم كانوا يرون صليبا أبيض في الهواء والحواري السعيد سان جاك في عدد كبير من الفرسان المسلحين المُرْتَدِين لباساً أبيض يطاردون المهزومين ويقتلونهم . وأخيراً كانت المذبحة عظيمة بقدر ماكانت الهزيمة شنيعة، وأُسر أخونا في المعركة وحُكم عليه بالاعدام لكونه ثار علينا، وأصبحت مقاليد الأمور بيدنا وحكمنا البلاد كلها باطمئنان كما نحن عليه اليوم . وقد رأينا من المناسب أن نطلع الملك دون مانويل على المعجزة التي حبانا بها المسيح، إذ إليه يرجع الفضل في تنويرنا وتمكيننا من التمتع بهذه الثروات الطائلة، فأوفدنا اليه سفيراً ابن عمنا دون بِيدْرُو أحد الستة والثلاثين الذين آزرونا، فبواسطته وبواسطة الرسائل التي وافانا بها دون مانويل عرفنا الأعمال الجليلة التي قدمت الى الله شكراً له على ما أسبغ علينا من ظاهر النعم .

ولما رأى هذا الأمير أنه عمل لاتنقطع ذكراه جدير بأن يفيد كثيرا أينما عرف، أرسل إلينا في جملة ماأرسل للمزيد من تنمية عقيدتنا المقدسة الكاثوليكية وإرضائنا بواسطة دون بيدرو، وسيمون دى سيلفا، من أعيان مملكته، أسلحة مرسومة في رسالة بعث بها إلينا لنثبتها على نقودنا كما اعتاد أن يفعله مع الملوك والأمراء المسيحيين ليعرف من هم ومن أين أتوا ويتميزوا فيها بينهم، وهي تمثل الصليب الذي ظهر في الفضاء والحواري سان جاك مع سائر الحواريين الذي كانوا يحاربون معنا في صحبته، والذين ساعدونا على الانتصار باعانة مولانا الاله . هذه الأسلحة مشتملة على الأسلحة المرسلة من عند الله بواسطة أحد الملائكة إلى أول ملك للبرتغال في معركة ضد المغاربة انتصر عليهم فيها، فتسلمناها إذن كهدية من الله وكمنة خاصة أولانا إياها ملك البرتغال، بحيث إننا نعتبر هذه الهدية فضلا عظيما من أخ حقيقي في يسوع، ومن صديق وفي سنظل معترفين له بالجميل مدى الأزمان وبكل قوانا . وبهذه الصفة نصرح أننا نقدم حياتنا خدمة له ولذويه، لشدة امتناننا له، لافيما يتعلق بالأمور الدنيوية فحسب، ولكن أيضا بالأمور الروحانية، وسلام كثير من الناس الذين نجوا بواسطته، متمنين أن يتكرر ذلك آستقبالًا، لأنه هو الذي هدانا الى ذلك بأعماله وعلى حسابه، وسيجازيه مولانا إذ فعل ذلك لوجهه خدمةً له . فنأمر إذن جميع أعقابنا بحمل هذه الأسلحة إلى قيام الساعة، وإلا لحقهم السخط . وليتذكروا المعارك التي سيخوضونها ماذا تعني والطريقة التي اكتسبناها بها، وأنها أرسلت من ملك البرتغال، لأننا نرجو من رحمة الله أنهم إذا حملوها انتصروا دائما على أعدائهم واحتفظوا بدولتهم . لكن حيث إن من الانصاف أن من يخلصون في خدمة ملكهم يجزون عن عملهم ويتمتعون ببعض المزايا، حتى لاينسى إحسانهم، فانه أرسل إلينا مرة أخرى عشرين شعاراً من مختلف الأسلحة، على غرار ما يقدم عادة للنبلاء والفرسان الذي يخدمون بإخلاص الملوك والأمراء المسيحيين لنهديها إلى جميع الرجال الستة والثلاثين الذين قاتلوا معنا عندما انتصرنا في المعركة، أي الى مَنْ كانوا أعلى انتسابا وأكثر شجاعة لتخليد ذكراهم ومكافأتهم على ماأسدوه الينا من خدمات، ولحمل الآخرين على خدمة ملكهم وأميرهم باخلاص وتفان . لذلك فإننا ندعو السيد المسيح الذي أبى بواسع حلمه ورحمته الا أن يتحمل العذاب والموت من أجلنا، أن يذكرنا ويعفو عن سيأتنا ويحفظنا في إيمانه المقدس الكاثوليكي الرسولي الروماني، نحن وأبناءنا وشعوبنا، وان يختم لهم هذه الحياة بما يعلم أنهم راغبون فيه . وحررت الخ...

ذلك هو مضمون الرسالة التي بعث بها ألفونسو ملك مانيكونغو إلى كافة أمراء ونبلاء ممالكه سنة 1512، وأوفد في نفس الوقت دون بيدرو ابن عمه الى رومة ليبلغ طاعته الى قداسة البابا وأرسل بنفس الوسيلة إلى الملك ذون مانويل هدية تحتوي على تحف من بلاده منها كمية من العاج، وعدة حزم من جلود السمامير، وسنانير الزباد، والذئاب، والفهود، وغيرها من الحيوانات، مع كمية من النسيج النباتي، بعضه أسود، وبعضه أبيض، وبعضه مصنوع بكثير من الدقة والألوان الزاهية حتى ليظن أنه من الحرير . وأرسل أيضا مع ابن عمه اثني عشر من أبناء النبلاء ليتعلموا مبادىء الدّين ويطلعوا على عادات المسيحيين، فوزعهم الملك مانويل على الأديرة .

ورغم أن هذه الرسالة كان يجب أن تُدرج في القسم الثاني من هذا الكتاب ، حيث سنتعرض لوصف مملكة مانيكونغو ، إلا أنني لم أرد فصلها عن رسالة ملكة اثيوبيا لأنها من نفس النوع ، وأضفت اليها الرسالة التي وجهها ملك مانيكونغو هذا الى البابا بواسطة ابنه دون هانري وابن عمه دون بيدرو ، الأمر الذي لن يَمَلّهُ ــ فيما أعتقد ــ القارىءُ الذي سيرتاح بالعكس للاطلاع من ثم على أخبار أمير بعيد جدا كان أول من اعتنق الديانة المسيحية في تلك الأقطار كلها وتمسك بها .

الفصل التاسع والثلاثون

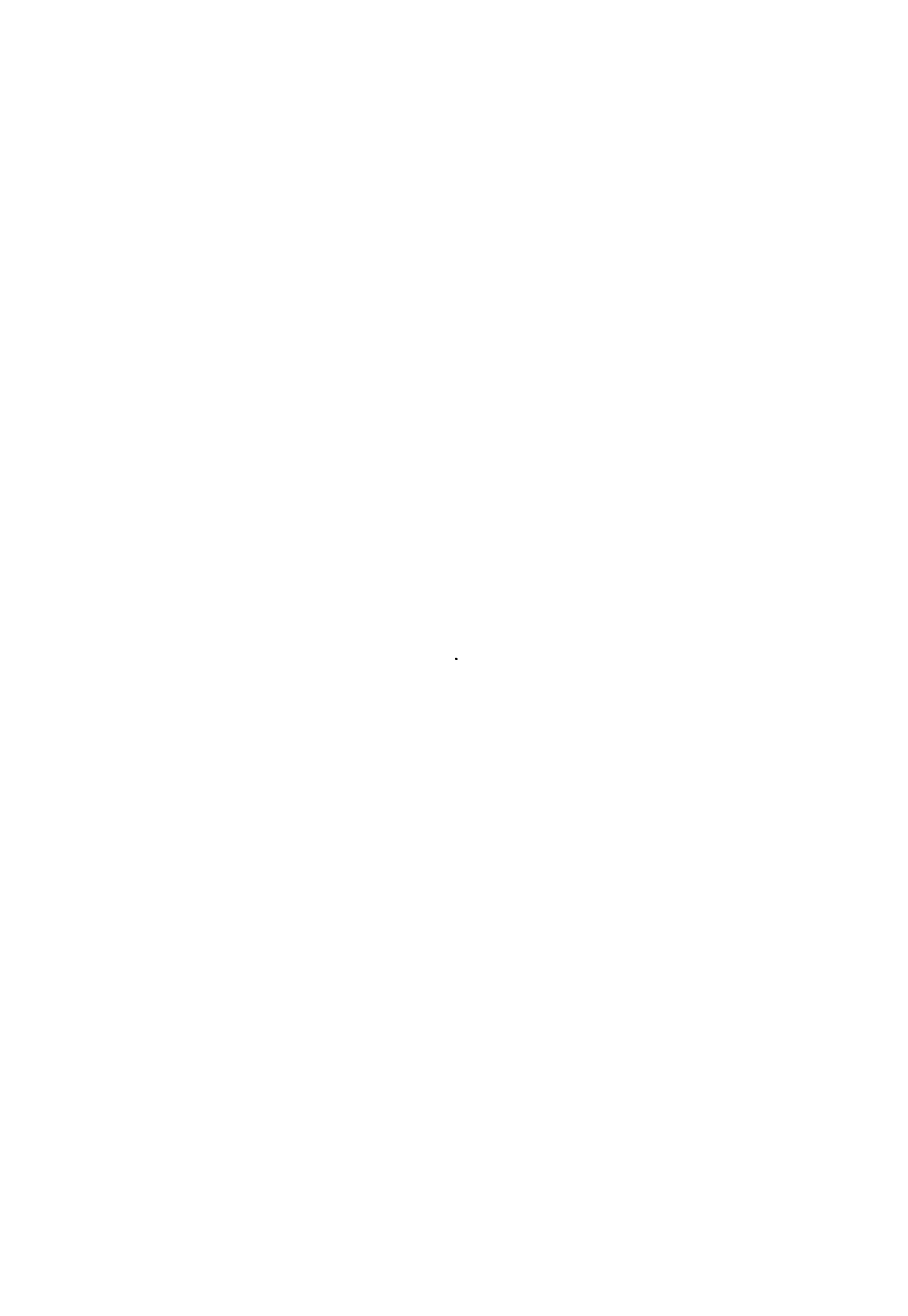
براءة من ملك مانيكونغو الى البابـــا

الى القديس السعيد أبينا في يسوع، سيدنا بولس الثاني الحبر الأعظم بالعناية الربانية . إن ولدكم الحقير دون ألفونس بمنّ الله، ملك مانيكونغو وأمير الأمبود بفضل الله يُرسل من يقبل أرجلكم المقدسة بكل خشوع، ونظن، أبانا السعيد، أن قداستكم سبق أن عرفتم كيف أوفد يوحنا الثاني ملك البرتغال ثم خلفه الملك الكاثوليكي دون مانويل إلى أقطارنا بتكاليف باهظة وبكل عناية وعناء رهباناً صرفونا عن عبادة الأصنام الى مذهبهم، وخلّصونا من تلك العبودية العظمى فاعتنقنا ديانة سيدنا المسيح، وتلقينا ماء التعميد المقدس الذي غسلنا وطهرنا من الشر، وخلّصنا من أخطاء الوثنية التي كانت لاصقة بنا الى ذلك الحين، وأبعد عنا كل غوائل الشيطان وفتنه . لأننا تقبلنا بمعجزة الايمان بسيدنا المسيح من كل قلبنا بعد أن تلقينا المبادىء المتعلقة به، كما علمنا أنه كان من عادة الملوك المسيحيين أن يقدّموا طاعتهم وإذعانهم الى قداستكم بصفتكم النائب الحقيقي للمسيح والراعي لرعاياه . ورغبة منا في تقليدهم في عادة ربانية مقدسة لأن ذلك من المعقول، حيث إن الله الرحمن القدير أراد أن يؤلف بيننا في نفس الايمان، فاننا نوفد إلى قداستكم سفراءنا ليقدموا إليكم من لدنّا الطاعة الواجبة لكم بالكيفية التي اعتاد الملوك المسيحيون الآخرون أن يقدمُوها لكم . أحد هؤلاء المبعوثين هو عزيزنا وحبيبنا آبننا دون هنري الذي تكفل أخونا الأعز الملك دون مانويل بتعليمه في ممالكه، سواء في الكتاب المقدس، أو فيما يتعلق بالدين الكاثوليكي، والآخر هو دون بيدرو دي صوفا ابن عمنا الأعز. وكلفناهما معا، بالاضافة الى تقديم الطاعة الواجبة لكم منا، ببعض التعليمات الخاصّة لاطلاع قداستكم عليها، والتي نرجوكم بكل خضوع أن تتفضلوا بالاصغاء إليها وتلقيها وإعارتها كل ثقة كما لوفهنا بها أمام قداستكم التي نرجو الله أن يحفظها برحمته لخدمته المقدسة .

وحرر بمدينة مانيكونغو عام ألف وخمسمائة واثني عشر للميلاد .

وقد حظيت رسالة الاعتماد والطاعة هذه بعناية البابا ومجمع الكرادلة الذين لم يلبثوا أن سلموا الجواب عنها للسفراء الذين ارتاحو كثيراً للشرف والاقتبال الحسن الذين خصُّوا بهما، فخرجوا من رومة بهذه الرسائل، وذهبوا إلى البرتغال، ومن ثم رجعوا الى مملكة مانيكونغو، فخصص لهم الملك ألفونسو اقتبالاً حسنا وهو الذي استمر على ديانة المسيح وكذلك جميع عقبه الى يومنا هذا . ذلك ماكان يمكن أن يقال بصفة عامة عن الأفارقة ودينهم وعاداتهم . وسنتحدث في الكتاب التالي عن محمد وأصل ملته وما أثارث من حروب في آسيا وإفريقيا وأوربا .

نهاية الكتاب الأول



الكتاب الثاني

في ملة محمد، وانتشار خلفائه في أوربا، وآسيا، وافرقيا

الفصل الأول

في نسب محمد وأصل ملتـــه (1)

(1) حذفنا هذا الفصل لما اشتمل عليه من معلومات غير موضوعية .

الفصل الثاني

في اختلاف العرب بعد وفاة محمد وكيف عينوا أبا بكر خليفة له .

لما احتضر محمد عين خليفة له صهره عليًا زوج فاطمة، قائلا عنه إنه ولي صالح من سلالة الأنبياء . معترفاً بأن أبا بكر وعمر وعثمان ليسوا أقل منه في شيء، إلّا أن الملك أمره بجعل علي وفاطمة حاميين للدين وتعيين علي بعد موته للحفاظ عليه، وأن يجتمع القادة والفقهاء للنظر في هذا الأمر (2) لكن صهره أبا بكر الذي كان حاضرا وأقوى منهم جميعا انتخب باجتهاد من عمر وعثمان اللذين كان لهما نفس الحقوق، ووطّدا بذلك أملهما في الحصول على انتخابهما كذلك، بالاضافة الى أنه كان متقدما في السن وعليّ في ريعان الشباب . فلما حُرم علي مما كان ينتظره، أخذ ولديه وانصرف الى داخل الجزيرة العربية حيث كان جيشه مرابطا في هذا الجزء الذي آل اليه حسب التقسيم الذي وضعه محمد كما آلت بلاد الفرس لعمر، ومصر وإفرقية لعثمان، وسوريا وسائر اقليم الامبراطورية لأبي بكر . وعندما وصل علي الى الجزيرة العربية أخذ يشتم الخليفة الجديد (3) ويتهمه بأنه سمَّ محمداً ولم يحتفظ بمبادئه . وبناء على ذلك سن شرائع جديدة أباح فيها عدة أشياء حرمها الآخرون ووضع المذهب الامامي الذي جلب اليه كثيرا من المتبربرين، وشهر حربا دائمة ضد خلفاء محمد .

ومن جهة أخرى، حشد أبوبكر جميع قواته لمتابعة الحرب ضد الامبراطورية، فدخل الى فلسطين وأخذ يجتاحها . ولما وصل هذا الخبر إلى تيودور بوكير أسرع اليها قادماً من القيصرية، إلا أنه عندما أراد تحويل الخلاف الى معركة غلب عام ستمائة وثلاثة وثلاثين، وهو العام الحادي والعشرون للهجرة، وترك في

---

(2) كل ما ذكر مرمول ، ومعظم ما سيذكره في هذا الفصل ، خطأ لا أساس له من الصحة ، أثبتناه للتدليل على مدى بطلان معلومات المسيحيين عن الاسلام والمسلمين حتى مطلع العصر الحديث . والثابت الذي لا جدال فيه أن النبي عليه السلام لم يوص بالخلافة لأحد ، إلا اشارة في قوله : مُروا أبا بكر فَلْيُصَلِّ بِالنّاس . (مترجم)

(3) يعني أبا بكر (كذا في هامش الترجمة الفرنسية ، والظاهر أنه يقصد معاوية بن أبي سفيان – مترجم –) .

ميدان المعركة عدداً كثيرا من القتلى والأسرى . يقول بّول دياك : إنه حدث ذلك العام زلزال عنيف في بلاد اليهود، وظهر نجم مذنب يتجه ذنبه نحو الجنوب إشارة لسيادة المسلمين، ودام ظهوره ثلاثين يوما في نفس المكان والاتجاه من الجنوب الى الشمال . ومات بعد ذلك أبو بكر مشكوكا في أنه سمَّ عندما كان يعتزم القيام بمشاريع أكثر أهمية، ودفن في المدينة عند ضريح محمد، وخلفه رفيقه عمر الملقب بالخطيب .و ناسب هنا أن نتكلم عن المذاهب الأربعة ...وعن عقائد المسلمين المتشددة قبل أن نتعرض لذكر عمر وما جرى من أحداث في خلافته (4) .

(4) حذفنا بقية هذا الفصل لنفس السبب السابق .

الفصــل الثالــث

في اختلاف الفرق الاسلاميــة وأصلهـا (4م)

... ومن هناك جاءت طائفة المرابطين الذين يعيشون في الصحاري كالرهبان منعزلين أو مجتمعين مؤمنين بالفلسفة الأخلاقية متبعين عدة مبادئ تخالف مذهب الأشعري وينكرها الفقهاء . لكن الشعب يجلهم كأولياء لكونهم يعيشون بحرية أكثر . وقد بدأ مذهبهم كما قلت عام سبعمائة ، إلا أن واضعه لم يطلع عليه تلامذته إلا شفويا دون كتابة . وبعد مرور قرن ، قام عربي آخر (5) من العراق بوضع شروح ضخمة لهذا المذهب أحدثت اظطرابات كثيرة في بلاد الفرس ، لأن الخليفة أمر بمنعها بعض الوقت ، الى أن جاء عربي آخر (6) معنى اسمه في لغتنا موزع الجواهر ، فأعادها الى النور . وتبعته عدة شعوب ، ونشر مذهبه عبر افريقيا كلها ، وأرسل مريديه يدعون اليها في آسيا وأوربا ، لكن خليفة العراق جمع الفقهاء فمنعوه مرة ثانية وحُكم على المرابطين بالاعدام . ومع ذلك فإن المؤلف الذي سجن وسيق الى الخليفة محمد ألح عليه حتى أذن له في مناظرة الفقهاء الذين منعوا مذهبه ، شريطة أن يعدم إن أخفق ، وإن نجح خلصه من محنته . ولما انتصر اعتنق الخليفة مذهبه وأقره عليه ، ثمّ أمر بتشييد رباطات ومدارس للمرابطين في افريقيا وآسيا . واستمر هذا المذهب مائة سنة أخرى ، الى أن جاء الامبراطورية ملك شاه التركي من آسيا فاظطهد هم حتى اضطر بعضهم الى الفرار الى مصر ، والبعض الآخر الى الجزيرة العربية ، حيث أقاموا وكأنهم في المنفى مدة عشرين سنة . ولما آلت الامبراطورية الى خلفه كسلشاه ، عمل أحد مستشاريه المسمّى نظام الملك على إعادة المذهب، بحيث إنه، بواسطة مرابط آخر (7) ألف مجلدا يحتوي على سبعة كتب، تمَّ الوفاق بين علماء الشريعة والمرابطين،

(4م) حدفنا القسم الاول من هذا الفصل المجافي للتواتر التاريخي ، حيث ينسب المؤلف وضع المذاهب الاربعة الشهيرة : المالكية والحنبلية والشافعية والحنفية للخلفاء الراشدين الأربعة ، والامامية لعلي بن أبي طالب !.

(5) أبو يزيد (؟)

(6) أبو جوهرة (؟)

(7) الجـزولـي . (كذا) !

على أن يحمل الأولون أسماء الفقهاء وحفظة الشريعة، ويُدعى الآخرون علماء الحقيقية والمصلحين . ودام هذا الاتفاق الى أن خرَّب التَّترُ مدينة بغداد عام ألف ومائتين وثمانية وخمسين، فأبادوا هؤلاء الخلفاء، الأمر الذي تسبب في انشقاقات كبرى بين أتباع محمد . غير أن هذا لم يتمكن من إيقاف انتشار هذا المذهب الذي قد غمر آسيا وافرقيا، وأخذ الفقهاء يدافعون عنه بحماس ضد علماء الشريعة . إلا أنه أخذ يتناقص منذ ذلك العهد إلى درجة أن المرابطين عدلوا عن معظم عقائدهم للتوفيق مع خصومهم، دون أن يتخلوا مع ذلك عن ملذات الحياة، اذ لم يفتأوا يرقصون ويغنون ويطربون وينشدون القصائد الغرامية بالموسيقى، مما يخالف الشريعة المحمدية . ويحضر هؤلاء المرابطون في الأعياد والولائم التي يقيمها الأعيان، وهم ينشدون أشعاراً في مدح عليّ وبنيه، وبعد أن يأكلوا ويشربوا جيدا، يغنون ويرقصون بأناشيد غرامية، وينشطون في الخلاعة إلى أن يتجردوا من ثيابهم، حتى إذا لم يطيقوا أكثر من ذلك سقطوا على الأرض شاهقين باكين . ويقال عندئذ إنهم اكتووا بالحب الالهي . ويعتبر من عذّب نفسه أكثر أعظمهم ولاية . ثم يأتي أحداث مرد يقودونهم وراء هم كتلامذة لهم فيرفعونهم ويعانقونهم ويقبلونهم عدة مرات، وأخيرا يرجعونهم الى زواياهم . وهناك عدد كبير من هؤلاء القوم في بلاد البربر وخاصة في مملكة فاس يفدون من هذه المناطق ومن نوميديا والظهرة، حيث يمارسون هذا المذهب أكثر من غيره .

وتوجد كذلك طائفة أخرى لهذا المذهب في تركيا مكونة من أعضاء نشيطين أيضا يعيشون في مرح ويسميهم الأتراك دراويش، يرتدون جلود غنم ناشقة في الشمس واحداً من أمام وآخر من خلف، ويترك ماسوى ذلك من أجسامهم عاريا . يحلقون شعرهم كله، بحيث لاتبقى لهم لحية ولاشعر على رأسهم، يأخدون بأيديهم عكاكيز غليظة معقدة تميزهم عن الآخرين، ويتحلون بأقراط من ذهب أو فضة مرصعة بالجوهر والماس، لايعيشون إلا بالتسول ويُجلون كثيراً ضريح عربي اسمه الفارس الصنديد (8) لأنه – حسب قولهم – كان السبب في استيلاء طائفته على معظم آسيا، وهو مدْفون في أحد رباطات الأناضول، وعليه بناء في وسط سهل يقيمون فيه مجلسهم العام بحفاوة كبيرة وأفراح . ويزيد عددهم أحيانا على ثمانية آلاف مريد، ولكن لايبقى منهم عادةً أكثر من خمسمائة . يسمى

---

(8) هو سيدي عبد الله البطل (؟)

مقدمهم حسن بابا، أو الأب المشترك، تخليدا لذكرى الحسن أو محيي الدّين مؤسس الطائفة .. يذكرون في هذا المجلس أبرز ماشهدوه من حوادث مع أوهام كثيرة، ويتلون معجزات علي وبنيه، مدونين كل ذلك في كتاب يثبتون فيه أسماء كل قائل، ويقيمون في أول يوم جمعة وليمة كبرى في وسط البادية، يتناولون على إثرها الحشيش، وهو نبات منشّط يُغيب العقل . ثم يأخذون في قراءة هذه الحكايات، وبعد ذلك يعودون الى الخانقاة، فيجلسون حول رئيسهم أو مقدمهم، مُشيدين بمذهبهم . وبينما يتحدث بعضهم مع بعض، يرسم آخرون على أيديهم وسواعدهم وسيقانهم قلوباً دامية مختلطة بعروش وأوراق وفواكه، ذاكراً كل واحد منهم اسم السيدة التي يتناول من أجلها كل هذه الأسرار . ترسم هذه الأرقام برأس مفصد، ثم يوضع فحم مسحوق على الجرح فيبقى الرسم ثابتا على الدوام . يعتقدون كقاعدة لاتنخرم أنهم يكسبون طبيعة الملائكة بالصيام والصدقة، وأن روحهم تطهر لدرجة أن الله لايعود ينظر الى ذنوبهم، غير أنه لابد للسالك من قطع خمسين مرحلة ليصل الى هذه الدرجة . لذلك يخصصون البداية لأذكار طويلة وصيام كثير على غرار ما فعله أبناء علي، ويستسلمون بعد ذلك لجميع أنواع الخلاعة . ولهم ديوان شعر في أربعة أجزاء، من نظم سيدي الوردي، وزاد فيه ابن طارق قصائد رقيقة حتى ليظن أنها لاتتكلم الا عن الحب . وشرحها مسلم آخر اسمه الفرغاني، مستخرجا منها درجات الطريقة الخمسين، والأناشيد التي يغنون بها حينما يذهبون الى الولائم، خاصة في افرقية ومصر . وعندما يختمون حزب الأناطولي يفترقون جميعا ليعود كل واحد منهم الى رباطه أو خانقاته، سائلين الصدقة لدى عودتهم في كل مكان مروا به . يعيش أكثرهم منعزلين مع حيوان وحشي يربونه ليظهروا أنهم منقطعون عن العالم حتى يقطعوا الدرجات الضرورية للوصول الى الكمال . ويوجد في كل رباط لحاف أخضر مبسوط على الأرض مع شمعدان من النحاس الأصفر بدون شمعة، وسيف مكسور للتذكير بآثار علي، اذ يقولون إنه قتل به عشرة آلاف مسيحي بضربة واحدة، وإنه كان ينشره في المعارك على العدو من مسافة مائة ذراع ويخترق به الجبال .

يدعي بعض هؤلاء المرابطين (9) أن السماوات والكواكب والعناصر انما تكون مجتمعة إلها واحدا، وأن الديانات كلها حسنة لأن الجميع يعتقدون مخلصين

(9) هذا رأي بَليـن

أنهم يعبدون من هو أهل للعبادة، ويقولون أكثر من هذا، إن العلم الالهي كامنٌ في رأس قائد هم الذي يدعونه القطب، كما لوقيل عنه ولي الأولياء . يختارونه من بين الأربعين الأكبر سنا الذين يطلقون عليهم اسم الأبدال، ثم ينتخبون سبعين آخرين من بين سبعمائة وخمسة وسبعين، وهم أدنى درجةً عندهم، فيفرض على هؤلاء جميعا أن يسيحوا في الأرض عدداً معلوما من السنين كمساكين فقراء، ويتجول عدد لايحصى منهم على امتداد الأقطار التي تنتشر فيها طريقتهم عراةً حفاة مكشوفي العورات، ويتظاهر الكثير منهم بالجنون، ويقومون بأعمال اغتصاب كبيرة، فيطؤون أحياناً في وسط الأزقة والساحات العمومية النساء والفتيات أو الحيوانات، ويُعتبرون مع ذلك أولياء، وأغرب من هذا جهل الناس الذين يأتون، بعد الفراغ من هذه الأعمال، ليلثموا ثوب المرأة أو ينتفوا شعر البهيمة التي اغتصبوها، أو يأخذوا قطعة من لباس المرأة محتفظين بها كذخيرة، قائلين إن الحب الالهي تمكن من هؤلاء الأولياء الى درجة أنهم لايبالون بما يفعلون .

ويوجد الكثير من هؤلاء النساك في مصر وافرقيا، وقد شيد مولاي محمد والد الحسين ملك تونس، رباطا ممتازا لأحدهم (10) ومنح جميع أهله عطايا جزيلة من أجله . أتذكَّرُ أنني عندما كنت بمدينة الجزائر رأيت أحدهم يمتطي دائما عصاً لها رأس فرس مصنوع من جلد باللّجام والعنان، وكان يقول للجمهور إنه يقطع على هذا الفرس مسافة مائة فرسخ في ليلة واحدة، وإن فرسه يعلف كيلا من الشعير كل يوم، وكان الأتراك والمغاربة يكرمونه ويقدمون العطايا له ولفرسه . ورأيت آخر بالمغرب كان الشريف على وشك ان يلقي عليه القبض ويعاقبه لأنه اغتصب بكراً لدى خروجها من الحمام . لكن الزوج والأهل تدخّلوا لصالحه حتى أنقذوه، ثم أرسلوه الى تونس بعد أن أقاموا له وليمة .

ومنهم آخرون، من نفس المذهب، يجوبون الأزقة وهم يرقصون في هياج شديد، حاملين كتباً من الأغاني الغرامية، متمنطقين بأحزمة صوفية طويلة جدا في طرفها عدد من الأجراس، فاذا لقوا غلاما جميلا أخدوا يرقصون حوله، محركين هذه الأجراس وكأنهم يلاطفونه . وهناك آخرون كثيرون يرتدون جلود الأسد أو النمر وغيرهما من الوحوش، ويمشون مُسدلين شعوراً طويلة كالنصارى، واضعين أذرعهم على أكتافهم، لايأكلون ولا يشربون إلا بعد مرور عدة أيام، ولا يتزوجون أبداً، لكن

(10) هو سيدي الدّاهـي .

يسمح لهم أن يصطحبوا معهم غلمانا صغارا يغتصبونهم، كما يوجد عدد آخر منهم بتركيا يقيمون في المدن والقرى لايتسولون إطلاقا، وانما يقتاتون بما يعطى لهم عند مرورهم، يعيشون منعزلين عن الآخرين حماقة منهم أكثر منها عبادة، ويعتبرون أولياء . يقولون إن الذين فقدوا حسّهم فقدوه بسبب جذب الاله لهم، وبذلك يختارون المعتوهين من بينهم على أساس هذا الاعتقاد ويكرمونهم . وهناك آخرون يُدعون (كلندير) يعيشون جماعات في رباطات (11) يكتبون على أبوابها : من أراد الدخول في هذه الطريق فعليه أن يكون حصورا يعيش بعفاف. ويرتدي هؤلاء المتدينون لباسا خشناً من الصوف وشعر الخيل . يحلقون شعرهم كله . ويضعُون على رؤوسهم قلانس كبيرة مع خيوط من الشعر المفتول، ويتحلون بأقراط في آذانهم، وقلائد في أعناقهم وأساور من حديد في أذرعهم، مع حلقة من الفضة تمر وسط عوراتهم، يسيرون دائما وهم ينشدون أبياتاً من نظم مؤسس طريقتهم (12) الذي سلخه العرب حيّاً لأنه قال شيئا ضد محمد (13) لكن هذا لم يمنع مذهبه من البقاء، بل ازداد توسعا . ولو أنهم يخفون العديد من الرذائل تحت معطف العفاف . ولشيعة عليّ اعتقاداتٌ أخرى باطلة لاتقل عن هذه خشونة، لكننا نتحدث الآن عن اعتقادات المسلمين عامة .

وهناك طائفة أخرى (14) لاتدين إلّا بنوع من السحر، يصومون كثيراً ولايأكلون مافيه حياة، ساعاتهم كلها منظمة، في النهار والليل، لجميع وظائف الحياة (15) يعرفونها بواسطة أرقام أو صور أو حروف يحملونها معهم في شبه يوميات (16) يقولون إن أرواحاً سماوية تظهر لهم وتُطلعهم تماما على شؤون الدنيا . لذلك يهابهم الناس ويُجلونهم كثيرا في افرقيا لكونهم سحرة كباراً . واضع مذهبهم يسمى البُوني (17) ويدعوه العرب أبا الرقى والسحر، ألف كتبيا في كيفية استعمال هذه الاطارات أو الجداول . ولهم كذلك ثلاثة كتب أخرى، أولها وأهمها يسمى اللمحات المتنورات ويتضمن صيامهم وأذكارهم، والثاني شمس المعارف في كيفية

(11) تسمى [illegible] باللغة العربية ، وتكايا باللغة التركية .
(12) نـرامـي (؟)
(13) في هجارينة أو هجرانيـة .
(14) سيدي الحرف .
(15) كالأكل ، والشرب ، والصلاة ، واللباس ، الخ ...
(16) أو إطارات فحسـب .
(17) أحمد بن علي البوني (المتوفى عام 622هـ / 1225م) المتصوف المغربي صاحب التصانيف الكثيرة في أسرار الحروف ، وأشهرها شمس المعارف الكبرى المطبوع مرارا . (مترجم) .

صنع الجداول وفائدتها، والثالث في سر أسماء الله الحسنى يبين فضائل أسماء الله التسعين .[18]

وللعرب والمغاربة بافرقيا مذهب آخر، يقضي أتباعه حياتهم في الغابات والخلوات كالزهاد، لايقتاتون إلا ببقول الحقول والفواكه البرية، دون أن يعرف أحد حقيقية عقيدتهم لأنهم يفرون من التحدث الى الناس . فاذا لقي بعضهم بعضا لايتكلمون إطلاقا . وقد شاهدت في عام ألف وخمسمائة واثنين وأربعين أحدهم بمراكش أمر الشريف [19] بإحضاره من الجبل الأخضر [20] حيث كان يُزار ويُتبركُ به كولي، لمعرفة المذهب الذي يتبعه، لكنه امتنع تماما من الاجابة عن أسئلته ولم ينبس ببنبت شفه مكتفيا بكتابة الجواب على الأرض بأصعبه . فقال له الشريف مرتين أو ثلاثا، تكلّم إذ يمكنك أن تتكلم معي أنا الفقيه الشريف . ولما رأى أنه امتنع عن ذلك قال له بغضب : لم ترد إذن أنَ تتكلم، فاعلم أن الله منحني خاصية أستطيع به أن أرغم البُكم على الكلام ! ثم أمر فوراً بشد يديه وجلده بضراوة . لكن كله لم يجد نفعا . وعند ذلك أمر بإلقائه في السجن الذي يحشر فيه المسيحيون كل ليلة، فأخذ يتحدث إليهم طوال الليل باحثاً عن أشياء كثيرة تتعلق بديننا، وعلمنا منه أنه من شيعة محمد محيي الدين بن الحسين، وأنه كان يجتاز الدرجات الخمسين لهذا المذهب . ولما أطلق الشريف سراحه وتوجه الى محاربة مدينة فاس، خرج من كهف كان يسكنه [21] وطفق يحشد الجنود ويحث الناس على الثورة فبلغ الشريف ذلك وأمر بأخذه وضرب عنقه في الحين .

إنه من العجيب مشاهدة الزهد الذي يتصنعه هؤلاء البؤساء عبيد الشيطان ليخدعُوا الناس بطهارة مزعومة ثم يستغنون بعد ذلك .

ولهم مذهب يسمى القدرية أو الداودية ، باسم داوود الذي يقول بأن كل واحد خاضع للقدر ومحكوم عليه مسبقا دون اختيار . لهذا امتنع العرب، اعتبارا لهذه القاعدة، من الذهاب الى الحرب فكان ذلك سبب إنكاره ومنعه في المملكة الاسلامية كلها . ويوجد في القاهرة ومدن بلاد البربر عدد كثير من الناس المتنقلين الذين يتنبّؤون بالغيب بثلاث طرق : الأولى بفنٍّ سحري ورسم بعض

---

(18) لله تعالى 99 اسما (مترجم) .
(19) مولاي محمد (المهدي الشيخ) .
(20) باقليم دكالة .
(21) بمراكش .

الصور، والثانية بملء إناء من الطين بالماء وإلقاء قطرة زيت فيه تعود صافية جدا فيشاهد فيها ـــ حسب قولهم ـــ جنود من الشياطين كالجيوش، بعضهم يزحف بحرا وبعضهم براً . وبمجرد مايتوقفون يطلب منهم مايراد معرفته فيجيبون بإشارات من أعينهم وأيديهم . غير أنه لابد من حضور أطفال صغار لتحقق هذه العملية السحرية، لأن الكبار يقولون إنهم لايرون شيئا . ينظر الأطفال في الزيت ويُسألون هل يرون إشارات الشياطين فيجيبون بنعم، ويحظون بالثقة التامة ويرحون بهذه الوسيلة أموالا طائلة . يسمونهم في موريطانيا سحرة (22) لأنهم يفتخرون بكونهم يسحرون العفاريت بأقوالهم .

والطريقة الثالثة لهؤلاء المتنقلين تتمثل في نساء يوهمن أنهن يتحدثن مع الجن، بعضهم أبيض وبعضهم أحمر أو أسود . وعندما يردن التكهن يتبخرن بالكبريت وغيره من الروائح الكريهة، فيتقمصهن العفريت – حسب قولهن – ويتغير صوتهن كما لوكان يتكلم بأفواههن، فيقترب منهن حينئذ الراغبون في استشارتهن ويطلبون بتذلل كبير مايريدون، ثم ينصرفون بعد أن يجابوا عن سؤالهم تاركين هدية في دار الساحرة . لكن الحذاق من الناس يسخرون من هذه الحماقات ويرمون هؤلاء الخبيثات بكونهن يضاجع بعضهن بعضا (23) على خلاف نظام الطبيعة . فاذا أتتهن فتاة جميلة قصد الاستشارة طلبن منها الاستمتاع بها عوض الأجرة، وترغب الكثيرات من الفاجرات في هذا العمل، فيطلبن من هؤلاء الساحرات أن يخبرن أزواجهن بأنهن مسحورات ليسمحوا لهن بالانخراط في سلكهن . ويوم يتم قبولهن يُقمن حفلة كبيرة، كما لو دخلن في دير للبنات .

وهناك أيضا (البومصيليون)، وهم بلاشك سحرة كبار، يحاربون العفاريت – حسب قولهم – ويشكلون مشهدا مروعا بأجسادهم المتخنة بالجراح، وكثيراً مايمثلون في وسط الهاجرة معركة أمام جميع الناس تدوم ساعتين أو ثلاث ساعات بالحراب والمزاريق، إلى أن يَخِرّوا محطمين من تلقي الضربات، لكنهم يسترجعون وعيهم بعد فترة من الاستراحة، ويتجولون . إنني لم أتمكن بعد من التعرف على طريقتهم، غير أنهم يعتبرونهم متدينين . ويوجد آخرون في بلاد البربر

---

(22) مطلسمين .

(23) مساحقات .

يسمون معزمين يفتخرون بانهم يطردون العفاريت، فان لم يوفقوا الى ذلك قالوا إن الروحاني كافر أو إن الأمر يتعلق بروح سماوية . يرسمون أدواراً يكتبون عليها بعض الحروف ويضعون علامات على يد الممسوس أو وجهه، ثم يطلقون عليه بخوراً كريهة الرائحة ويرقونه، سائلين الروحاني كيف دخل الى هذا الجسد، ومن أين هو، وما اسمه، وأخيرا يأمرونه بالخروج .

ويتنبأ آخرون (24) بسحر له مساس بسحر اليهود، غير أنهم لايستخرجونه من الكتاب، قائلين إنه علم طبيعي، لكن ممارسته تتطلب أن يكون المرء فلكيا ضليعاً . وكان الشريف محمد عارفاً به، لكن عندما كان يريد تطبيقه يستغرق يوماً كاملا لوضع صورة الوسط بمساعدة فقيهين آخرين . فكان يرسم سبع دوائر، بعضها داخل بعض، ويرسم في أصغرها (25) صليبا يضع في أركانه الأربعة ما يمثل الرياح الأربع، وفي ملتقى أذرع الصليب القطبين . ويرسم خارج الدائرة العناصر الأربعة ويقسمها أربعة أرباع وكذلك يفعل بالدائرة التالية فيقسمها أربعة أرباع أخرى، وكل قسم يقسمه إلى سبعة أقسام، جاعلا في كل واحد منها حروفاً عربية كبيرة، فيتكون من ذلك ثمانية وعشرين حرفاً في كل عنصر، وفي الدائرة الثالثة يثبت الكواكب السبعة، وفي الرابعة البروج الاثني عشر، وفي الخامسة الأشهر الاثني عشر بالأسماء اللاتنية، وفي السادسة منازل القمر الثمانية والعشرين، وفي الأخيرة أيام السنة الثلاثمائة والخمسة والستين، وخارجها الرياح الأربع الرئسية . ثم يأخذ حرفا من كلمة الشيء المطلوب ويضربه في كل الأشياء معدودة إلى أن يرى العدد الذي أعطاه الحرف، ثم يقسمه بطريقة خاصة ويضعه في بعض الأقسام حسب نوع الحرف والعنصر الذي فيه . وبعد عمليات الضرب والقسمة والجمع ، كان يرى ماهو الحرف الذي يناسب العدد الباقي، فيصنع بالحرف أو العدد الذي وجده ماصنع بالأول، وهكذا دواليك حتى يستنتج ثمانية وعشرين قسما أو حرفا عربيا، فيؤلف منها مثلا، ومن المثل حكمة تكون هي جواب الوسيط، وتركب دائما في بيت شعر من وزن أول بحور الشعر العربي وهو الطويل الذي يسمى هكذا لامتداده واشتماله على ثمانية أوتاد واثني عشر سببا، وكان الاقتراح يسبق دائما الجواب . ويوجد بافرقيا قليل من الناس يعرفون هذا السر، رغم وجود كتابين،

---

(24) الزايجية .

(25) وهي الدائرة التي في داخل الدوائر كلها .

أحدهما للمرجاني التونسي والآخر لأحد المؤرخين[26]، ويحظى الذين يعرفون هذا الفن بتقدير عظيم ، إلا أن جميع التنبؤات بالغيب محرمة في الشريعة المحمدية ، ولا أحد يُقدم استعمالها ماعدا الملوك وكبار الأمراء . ذالكم كل ماكان يمكن الكلام عنه بايجاز بخصوص الطوائف والمذاهب والاعتقادات عند المسلمين . وعلى من يرغب في التعرف أكثر من ذلك أن يقرأ الأكفاني الذي يعد اثنتين وسبعين فرقة مختلفة تماما بعضها عن بعض .

(26) هو ابن خلدون .

الفصل الرابع .

في عصر الخليفة الثاني لمحمد، والأشياء التي حدثت في عهده .

لما مات الخليفة الأول أبو بكر خلفه رفيقه عمر بن الخطاب في أواخر سنة ستمائة وأربع وثلاثين، فحارب أولاً علياً، وبعد هزمه استولى على مدينة البصرة وعدة أماكن أخرى في الجزيرة العربية . ثم وجهّ أسلحته ضد المسيحيين فدخل إلى الشام بجيش عرمرم وقام فيها بأعمال إتلاف كبرى، عندئذ تصدّى له تيودور أخو الامبراطور هرقل بجميع قواته، فانهزم قرب (كَباطة)، ويقول بعضهم إنه هلك في المعركة، بينما يقول آخرون إنه انسحب الى (ايديس)، وعاد عمر منتصراً الى الجزيرة العربية بعد استيلائه على بعض الحصون . وعندما بلغ الامبراطور خبر الهزيمة أرسل جيشا آخر بقيادة يوناني [27] ركز جنوده في ضواحي حصن إيميس وأوقف في الحين تقدم الأعداء وردهم بشدة حتى طردهم من اقليم دمشق، لكنهم انتشروا على طول نهر بردنيس وأحدثوا فيه اضطراباً كبيراً اضطرَّ معه أهل البلاد الى تركه . إلا أن الامبراطور الذي لم يغادر بيت المقدس منذ انتهاء حرب فارس محترسا من كبار رجال الدولة، خشيه أن يتعرض لبعض الاخفاق لو أقام في الاقليم مدة أطول، أخذ أنفس مافي المعبد من ذخائر وتحف خوفا من أن يستولي عليها العدو وعاد الى القسطنطينية، تاركا باهام وتيودور [28] في تلك المناطق .

وفي العام الموالي [29] حشد عمر جنوده وقصد دمشق، فعلم باهام بذلك [30] وأرسل الى تيودور متوسلًا لينضم اليه، لكن العرب اعترضوا طريقه وهزموه قبل الالتحاق به، فنادى الجيش بباهام امبراطوراً لشجاعته، وانزوى بقايا جند

---

(27) هـو بـاهـام .

(28) تيـودور ساسيـلاتيـو .

(29) سنـة 635

(30) في اليوم الذي كانت ستقع فيه .

تيودور في مدينة كَابار، رغبة في الحفاظ على ولائهم لهر قل . ولما بلغت العرب هذه الأخبار توجهوا نحو باهام الذي أغراه لقبهُ الجديد فقبل المعركة ظانا أنه سينتصر، إلا أنه ما شبَّ القتال حتى ثارت ريح جنوبية قذفت بغبار ورمل هذه الأرض الجافة الرملية في أعين الرومان، وألجأتهم الى الانسحاب عاجلا الى ممرضيق لنهر إرموا ستان، عبر مسالك وعرة صلبة انهزموا فيها، وغرق الباقي في النهر . فانتصر عمر وذهب لمهاجمة مدينة دمشق فاستولى عليها عام ستمائة وستة وثلاثين، ثم على سائـر بلاد فينيقيا . وحمل السكان على اعتناق دينه بتعسف كثير .[31]

وفي العام التالي [32] حشد عمر جنده لارساله إلى مصر، ولما علم بذلك الرومان المقيمون بالبلاد اختاروا قائداً لهم سيروس أسقف الاسكندرية الذي خشي بطشة المنتصر، فأرسل اليه بعض الأشخاص يطلب هدنة لمدة ثـلاث سنوات، على أن يؤدي له مائتي ألف بيزان [33] ذهبا سنويا، الأمر الذي خلص مصر هذه المرة لكن عند انصرام مدة المهلة اعتبر الامبراطور هذه الجزية إهانة له، فاستدعي سيروس إلى القسطنطينية وعيّن مكانه مانويل الأرميني الذي كان قائدا مُحنكاً، فرفض الجزية وعرض نفسه للدفاع بالسلاح بدلًا مما أعطي بدناءة دون استشارة الامبراطور. فاغتاظ عمر من هذا الجواب وأرسل ضده جيشا قويا بقيادة معاوية [34] الذي لم أقل منه خبرة بالسلاح ، فأرغم مانويل على الانسحاب من مدينة الاسكندرية لعدم توفره على القوة الكافية للصمود . اعترف الامبراطور حينئذ بخطئه وأوفد سيروس لاستئناف الهدنة، لكن العرب ذكّروه بما عامل به معاوية، وأنه يستحيل عليهم مغادرة مصر بقدر مايستحيل عليه أن يجر أسطوانة من رخام كانت هناك، فليرجع إذن الى هرقل ليخبره أن الوسيلة الوحيدة لانقاذ نفسه هي أن يؤدي اليهم الجزية، فرجع سيروس بهذا الجواب، وتابع العرب تقدمهم إلى أن ملكوا مصر كلها في ظرف أربع سنوات وطردوا منها حاميات الامبراطور [35] . وفي هذه الأثناء توجه عمر نفسه بجيش قوي لمهاجمة مدينة بيت لحم التي يسميها

(31) لا حاجة الى التنبيه على ما في هذا الفصل من أخطاء وتحامل ، فعمر لم يحارب قط عليا ، ولم يدخل الى الشام الا بعد انتصار المسلمين لأخذ مفاتيح بيت المقدس ، ولم يرغم أحدا على اعتناق الاسلام ، بل تصرفاته في احترام الديانات الأخرى شهيرة ثابتة في كتب التاريخ . (مترجم)

(32) عام 637 .

(33) البيزان هو الجزء الخمسون من المارك ، وهو ربع أوقية تقريبا .

(34) أحد فواد محمد (كذا) بالأصل والهامش ، وهو خطأ ، لأن قائد فتح مصر هو عمرو بن العاص . (مترجم) .

(35) في أوائل سنة ستمائة وسبع وثلاثين .

العرب القدس المبارك أي مكان البركة، وبعد حصار دام سنتين اثنتين سلمها الأسقف سوفرونبوس حين رأى نفسه لم يعد قادراً على الدفاع عنها، شريطة ألّا يحدث أي تشويش في فلسطين ملزماً عمر الاقسامَ على ذلك . وتنقسم هذه البلاد التي يسميها العرب فلسطين إلى ثلاثة أقسام تحمل كلها اسم فلسطين وتقع في الشام . وقد دخل عمر الى المدينة المقدسة عام ستمائة وثمانية وثلاثين مرتديا ثياباً خشنة (36) فقصد تواً معبد سليمان حيث أدّى الصلاة، وأمر بأن يغسل المذبح وجميع حجرات المعبد والأسوار بالماء العطر، وذلك ما أدىّ بالأسقف سوفرونيوس الى أن يقول : إنه الحادث البغيض الذي تنبأ به دانيال قبل أن يلفظ أنفاسه، بعد أن دافع باستمرار عن الديانة الكاثوليكية ضد أخطاء هرقل والمعتقدين طبيعة التوحيد في المسيح ، محتفظا أمدا طويلا بطهارة كنيسته . ثم أخضع عمر جميع بلاد اليهود . ومن ثم ملك المسلمون بيت المقدس مدة أربعمائة وستين سنة ، منها ثلاثمائة واثنتان وسبعون سنة من لدن العرب ، وثمانية وثمانون من لدن الأتراك ، الى أن استولى عليها كود فَرْوَادِي بُويُون سنة ألف وتسع وتسعين بعدما أجلى العرب الأتراك عنها بتسعة شهور .

وفي سنة ستمائة وتسع وثلاثين أرسل عمر قسما كبيرا من جيشه الى بلاد ما بين النهرين تحت إمرة أسد الله (39) لكن الخليفة الامبراطور (40) الذي كان مقيما آنذاك بأوزروين أبرم هدنة معه على أن يؤدي له جزية قدرها مائة ألف بوزان ذهبا ، شريطة ألا يدخل الى الاقليم أبدا ، فانتقل الى إدريس وأرسل اليه جزية السنة الأولى . لكن الامبراطور (41) اغتاظ لكون هذا الاتفاق أبرم بدون استشارته ، فنفاه وأرسل القائد العام فرسانه ليتولى القيادة مكانه ، ولم تكن خسارة فسخ هذه الهدنة بأقل من التي وقعت في مصر ، اذ أن أسد الله الذي كان قائدا كبيرا عبر الفرات فورا وحاصر مدينة إد يس وفتحها ، ثم توجه منها الى قنسطانس ، وبارة ، وأخضع بلاد ما بين النهرين في ظرف ثلاث سنوات . وفي هذه الأثناء شيد عمر قلعة في مصر بجوار أطلال منف ليضمن عبور النيل ، وبنى العرب حولها عدة

(36) مصنوعة من الصوف والوبر .

(39) لا شك أنه تحريف لسيف الله الذي هو لقب خالدين الوليد . وقد قاد خالد فعلا جيش المسلمين بالعراق لكن أيام أبي بكر ثم أرسل الى الشام . والقائد الذي أَمَّرَهُ عمر على جيش فتح فارس هو سعد بن أبي وقاص (مترجم) .

(40) يوحنا كيط .

(41) بطليموس .

منازل نظرا لوجود مسجد عمر الذي يضم قبر إحدى حفيدات [42] محمد التي يعظمها كثيرا سكان المناطق المجاورة . وسميت هذه المدينة منذ ذلك العهد القاهرة [43] ، وهي اليوم أكبر مدينة في العالم . يقول بعضهم إن معاوية هو الذي شيَّد هذه القلعة ، ويقول آخرون إنه عمرو بن معاد [44] وكان أيضا من قواد عمر . والواقع أنها شيدت تحت حكم معاوية أثناء خلافته .

وفي عام ستمائة وثلاثة وأربعين أرسل عمر جيشه ضد الفرس لما رأى من ضعف قواتهم بسبب الحروب السالفة، ذلك أن سيريك – كما قلنا – سلم أباه وأخاه للامبراطور، ولم يتول الحكم مدة سنة عقابا له، فترك الامبراطورية لابنه الذي قتل كذلك غدرا، حتى إن هذه الشعوب انتخبت مكانه أرنوميسة ليصلح شؤونها، لكنه هلك في واقعة ضد عمر وهو يفكر في صد بطشه، وبذلك خضع الفرس لسيطرة العرب الذين استولوا على اسمهم وامبراطوريتهم . وحيث إن عمر أصبح سيد جميع الدول التابعة له ، فإنه جعل مقر اقامته ببيت القدس حيث بنى مسجدا فخما تكريما لمحمد إلا أن فارسيا[45] من غلمانه قتله بعد أن تولى الحكم مدة عشر سنوات، وكان عمر أميرا قاسيا شجاعا، لكن عدله لم يكن أقل من شجاعته، لأنه انتصر في معارك عديدة وأخضع دولًا كبيرة، فلم يمنعه ذلك من جلد ابنه حتى الموت لكونه انتهك حرمة فتاة، وأسس مذهب الخليفة [46] وأمر بجمع قرآن محمد الذي كان أميا لايعرف القراءة ولا الكتابة، ولكنه كان كلما خطر بباله شيء أملاه على أحد كتابه حتى كان يملي نفس الشيء عدة مرات عند فقدان ذاكرته [47] وأمر عمر باقامة الصلوات في شهر شتنبر (!) بجميع المساجد وأن يتلى بعد ذلك قرآنه عموميا (؟!) كان عمر رجلا قصير القامة أصلع أسمر اللون ذا لحية بيضاء كثيفة [48] ولما أحس بالموت من جراء الطعنة التي تلقاها عين خلفا له عثمان الذي كان من كبار صحابة محمد وأيده بقوة وصاهره مرتين .

(42) نفيسة بنت زين العابدين ، حفيد علي .
(43) بل الفسطاط ، ولم تأخذ اسم القاهرة الا مع جوهر الصقلي قائد الفاطميين في القرن الرابع للهجرة (مترجم) .
(44) بل عمرو بن العاص .(مترجم) .
(45) المغيرة . (كذا بالهامش) ، والصواب أن القاتل فيروز الملقب أبا لؤلؤة ، وكان غلاما للمغيرة بن شعبة (مترجم) .
(46) ياله من بهتان !
(47) بل كان يكتب نفس الخطبة لمختلف الجماعات في مختلف الأماكن . (كذا) وأبلغ رد على هذه التقولات قول الله تعالى : إن هو إلا حيٌّ يوحى . (مترجم) .
(48) وهو مدفون قرب محمد .

الفصـل الخـامـس .

في عثمان ثالث الخلفاء ، وما حدث في عهده .

لما احتضر عمر استولى عثمان على جميع ذخائره بحذاقة كبيرة ، وفرق المال على المحاربين وأهل بيته ، مستجلبا أفئدة الرؤساء والجنود ، فانتخب ثالث الخلفاء وأرسل سبعمائة سفينة حربية الى قبرص بقيادة معاوية والي مصر ، فحاصر مدينة قسطانس ، ودمر معظم الجزيرة بعد أن فتحها ، لكنه منها عند اقتراب أسطول الامبراطور . وبعد أن هاجم بدون جدوى فاما كوست (49) وأرض ذهب الى مشتاه في فنيقيا ، وكان اذ ذاك امبراطور القسطنطينية هو قنسطانس حفيد هرقل شرسا مثله ، فأرسل عثمان معاوية لفتح قبرص (50) بقوات أكثر بحيث إنه أخذ مدينة أراض عنوة ثم مدينة نيقوسية التي دمرها تدميرا كاملا ، وأخذ معه جميع سكان الجزيرة وتركها قاعا صفصفا . وفي نفس السنة جمع عثمان كل أحاديث الدين المحمدي ورتبها فصولا ووضع ما سمي بالشافعية (51) وبعد عودة معاوية منتصرا من حرب قبرص ، أرسل عثمان جيشه البري لمهاجمة كابَّادوس (52) ، حيث أسر أزيد من خمسة آلاف مسيحي ، ثم ذهب إلى الشام بعد أن اجتاحها . وفي العام التالي (53) أرسل عثمان عقبة بجيش قوي إلى افريقيا التي كانت مضطربة بسبب انقسام الامبراطورية . ذلك أن البطريق كَريكَوار ، لما مات هرقل (54) ، ثار في بلاد البربر حيث كان القوط قد استولوا على عدة حصون باعانة الافارقة ، بحيث كانت البلاد كلها في حالة استنفار . ولتتميم خرابها فان عقبة بعد أن دخل من جهة ضحاري برقة بثمانين ألف مقاتل ، نهب الجانب الشرقي كله من بلاد البربر ، وقتل أو شتت جل جنود كَريكَوار قرب الموقع الحالي لمدينة القيروان . وفر كَريكَوار إلى إيطاليا تاركا إفريقيا للعرب الذين أخضعوا قسما كبيرا منها . ثم عاد معظم

---

(49) عام 648 م .
(50) عام 648 م .
(51) يا للجهـالـة !
(52) تحت إمارة أبي بغينة بن هراشة (؟) .
(53) عـام 651 .
(54) ابن نـافـع .

جيشهم إلى الشرق محملا بالغنائم النفيسة ، بينما مكث عقبة في افريقيا مع باقي جنده . وبأمر من الخليفة الذي كان يمنعه من أن يألف الأماكن البحرية ، ترك الساحل كله للرومان وفق المعاهدة التي أبرمها مع الامبراطور قسطنطين ، وبنى مدينة على بعد خمسة وثلاثين فرسخا من تونس الى جهة الشرق في المكان الذي انتصر فيه على كريكوار ، وسماها القاهرة ، أي النصر (!) لكنا سميت منذ ذلك العهد القيروان ، أي النصرين بسبب انتصار آخر أحرزه العرب في نفس المكان ، كما سنذكر ذلك في غير هذا المحل . ثم عمَّر أماكن أخرى وأمر بتشييد حصون في المواقع التي لا توجد فيها ، مازجا العرب بأهل البلاد لتكوين أمة واحدة ، ويقول ابن الرقيق إنهم أول عرب غرسوا الدين المحمدي بإفريقيا .

ولما رأى قسطنطين أن العرب بلغوا هذا المبلغ من القوة طلب الهدنة من معاوية فلم يجبه إلى ذلك وقام باستعدادات عظيمة في طرابلس الشام للزحف إليه . وفي هذه الأثناء قام أخوان من تلك المدينة ، متأثرين بالبؤس السائد في البلاد فحطما السجون التي كانت تضم أزيد من سبعة آلاف مسيحي فحرراهم وحملوا السلاح ضد العرب . وبعد أن قتلوا بعضهم وألجؤوا الباقين إلى الفرار، اسرعوا إلى الميناء وأخذوا السفن اللازمة لفرارهم وأحرقوا الباقي منها، ثم انسحبوا إلى طراس، ولم يجرؤوا على البقاء في البلاد . فلم يعبأ معاوية بالخسائر وكوّن من جديد جيشا آخر ونهض بنفسه إلى مدينة القيصرية، بينما كان عبد الله عبد المطلب (؟) وأبو الخطار يكتسحان شواطىء فينيقيا وليسيا بأمر منه، لمواجهة الامبراطور الذي كان يمخر عباب هذا البحر بألف سفينة . ولما التقى هذان الجيشان البحريان نشبت معركة طاحنة – على ما يروي بول دياكر – حتى كُسي البحر كله دما وأجساداً ميته، فأراد الله أن ينتصر المسلمون بسبب الذنوب التي ارتكبها الامبراطور أو بسبب آخر، وكاد يقتل الامبراطور لولا أن أغاثه أحد الشجعان من خدامه الأوفياء، فتبادل معه اللباس عندما رأى مركبه على وشك الغرق وحمله إلى مركب آخر، ثم اختلط بالأعداء الذين لم يستطعوا القبض عليه حياً فأحاطوا به وقتلوه . وهكذا نجا الامبراطور خلافا لما كان يظن أصحابه، وذهب إلى القسطنطينية مثقلا بالخزي، بينما توجه العرب إلى فينيقيا منتصرين مكللين بالفخار والغنيمة مصممين على مهاجمة القسطنطينية في السنة الموالية . لكنهم غيروا خطتهم لأن معاوية ذهب لحصار جزيرة رودس فاستولى عليها وحطم التمثال العظيم الذي كان بأرضها بعد

أن بقي قائما بها طوال ألف و ثلاثمائة وسبعين عاما . وكان هذا التمثال (55) من نحاس، علوه مائة وسبعة وعشرون قدما، ولو أن بْلين يذكر أن علوه لا يتجاوز سبعين ذراعا (56) ، إذ تطلب صنعه اثني عشر عاما وأخيرا كسره العرب وباعوا المعدن ليهودي حمله على تسعمائة بعير . وفي نفس السنة ثار فَارَانْي القائد العسكري الارميني ضد الامبراطور، وأرسل أولاده إلى معاوية كرهائن ووعده أن يسلم له أرمينيا كلها . فأرسل إليهامعاوية جيشا آخر بقيادة أبي الاسد فانضمّ إليه واجتاح جزءا كبيرا من البلاد، متوغلا فيها إلى أن وصل إلى جبل القوقاز، محرقا ومذبحا . وفي سنة ستمائة وست وخمسين أحدث معاوية خسائر جسمية على طول شواطىء بحر إيجي، وفي جزر سيكلاد . وبعد أن رجع إلى رودس أرسل جيشا إلى صقلية فنهب الجزيرة كلها بعدما استولى على مدينة صاراكوسة، لكن الأسقف أولامب الذي كان واليا عليها من قبل الامبراطور (57) سارع إليها في الحين وطرد منها العرب بعد أن انتصر عليهم في معركة دامية، إلا أنه أجهد نفسه كثيرا فمرض ومات متعبا بعد أيام قليلة .

وفي نفس الوقت ذهب معاوية بجيشه البري لحصار مدينة القيصرية عاصمة كابّادوس ، لكنه علم بنبإ وفاة عثمان قبل أن يستطيع القيام بأي عمل ، فرجع لحينه الى دمشق على أمل أن يخلفه . ودام حكم عثمان اثني عشر عاما . وكان علي قد اتخذ لقب خليفة، وحكم داخل الجزيرة العربية وكأنه متربص في كمين، فأرسل عددا كبيرا من أنصاره ليقتلوا عثمان رغم أن بعضهم يزعم أنه قتل نفسه عندما رآهم يستولون على قصره وخشي أن يقع بين أيديهم، وفقد خاتم محمد الذي كان الخلفاء السابقون يحملونه ، فصنع اخر على شكله من الفضة ونقشت عليه هذه الكلمات : «أيها المكابرون ! أيها التائبون ! » . لم يكن لون بشرة عثمان كغيره من العرب ، بل كان أبيض اللون ، ربع القامة مهيبا طويل الحية كثّها . وكان تاجرا ثريا عندما جاء محمد بدينه ، فضلا عن كونه ذا سخاء كبير تجاه المحاربين ، عاش سبعة وثمانين عاما ، ودفن بدون احتفال سنة ستمائة وثمان وخمسين الموافق للعام السادس والأربعين للهجرة (58) .

---

(55) هو تمثال الشمس .

(56) يساوي الذراع قدما واحدا ونصفا .

(57) هي أرض تابعة للحاكم الايطالي .

(58) بل قتل عثمان عام 35هـ / 656م . ولم نر فائدة في التنبيه على ما في هذا الفصل – كغيره – من خلط وتخامل يدركهما القارىء بديهة (مترجم)

الفصل السادس

في علي ومعاوية الذين حكما في نفس الوقت ، وكيف انفرد هذا الاخير بالملك بعد وفاة علي وأصبح رابع الخلفاء ، والأشياء التي حدثت في عهده

لما مات عثمان سنة ستمائة وثمان وخمسين — كما ذكرنا — وقع نزاع كبير حول انتخاب خلف له بين عليّ ومحمد بن عثمان ، وابن أمية الملقب بسيف الطلى أو سيف القرن (!) وبعد أن انتصر علي على محمد بن عثمان بايعه جميع الأنصار والمهاجرين خليفة ما عدا معاوية الذي عارضه بصفته قائدا للجيش واتهمه بالعمل على قتل عثمان . وحيث إنه كان قائدا عسكريا محنكا فإنه عبر الفرات وتحصن جهة أمنين وبابلون حتى لا يضطر إلى القتال . فأصبح عليٌّ في عوز كبير من الماء الذي هو نادر الوجود جدا في البلاد . وأخيرا وبعبد أحد عشر شهرا اتفق الفقهاء على الاصلاح بينهما ، فسلموا قضيتهما الى حكمين عين كل واحد منهما أحد الفريقين (59) لكنهما لم يتفقا وأراد كل واحد منهما أن يعطي الحكم لصاحبه . فاستؤنف القتال وجرت معارك كبيرة سالت فيها الدماء بغزارة ، وخربت هذه الأقاليم عن آخرها ، إلى أن عمل معاوية في اغتيال علي بينما كان في مسجد مدينة البصرة . ويقول بعضهم إن قاتله يهودي . وسميت المدينة التي قتل فيها مشهد علي من أجل هذا القتل . وكان علي قصير القامة ، مكسو الذراعين والبطن بالشعر ، طويل اللحية ، يخفض بصره دائما حتى لا يراه أحد ، وكان يبدو عابسا . ويحمل خاتما نقش عليه هذا الشعار «أعبد الله ربي بقلب مخلص» . ومات عام ستمائة وتسعة وخمسين الموافق للعام السادس والاربعين للهجرة (60)

وبعد موته بايع أهل الكوفة والعراق الحسن بالخلافة ، وهو أكبر أولاد علي ، وكان كثير الشبه بجده محمد . فنهض لحينه ضد معاوية ، لكن عندما أوشك الجيشان أن يلتقيا خشي معاوية سوء العاقبة إذ كان أقل منه مودة عند الناس وأكثر

(59) الاشعري والعاصي (أبو موسى الاشعري وعمرو بن العاص – مترجم –)

(60) بل قتل علي عام 40هـ / 661م بمسجد الكوفة على يد عبد الرحمان بن ملجم الخارجي ، والأخطاء التاريخية الأخرى هنا أيضا واضحة . (مترجم) .

ضعفا ، فقال إنه ليس من الانصاف أن يراق الدم من أجله فتخلى عن الحكم وذهبا معا إلى الكوفة ليأخذ بيت المال ، ثم الى المدينة بالجزيرة العربية حيث وضع معاوية بيديه التاج على رأس الحسن وسلم عليه بالخلافة والامارة ، إلا انه بفضل هذه الطاعة المزعومة كان من الأسهل عليه أن يسمه ، فأصبح المالك بكل اطمئنان . وكان الحسن يحمل خاتما نقش عليه «لا غالب إلا الله».

ولما تخلص معاوية من خصمه صوب سلاحه ضد الرومان ونهب أقاليمهم . فطلب منه الأمير قنسطاس الهدنة ، وقبلها معاوية شريطة أن يؤدي له يوميا علي سبيل الاعتراف به عشرة بيازين من الذهب مع عبد وفرس جيد . وبعد ذلك شن معاوية الحرب على الفرس بسبب شقاق كبير حدث في الدّين المحمدي نتيجة الخلافات فيما كتبه أتباع ملته ، حيث كان الفرس منقسمين بين آراء عمر وعلي ، فاضطر معاوية إلى محاربتهم وإرغامهم على اتباع عقائد الشام (61) . وبعد أن مهد البلاد عاد إلى دمشق عاصمة المملكة آنذاك . وهو أول من ترك اسم الخليفة وتلقب بلقب ملك وامبراطور (62) ، لأن الآخرين كانوا يكتفون بأن يسودوا روحيا ودنيويا دون هذا اللقب الفارغ ، يعاقبون ويجازون ، ويحاربون أو يسالمون كيفما شاؤوا . وقليلا ما كانوا يحضرون بأنفسهم مع الجيوش ، ولهم وزير تحت إمرتهم كما كان يوسف تحت إمرة فرعون يحكم ويتولى جميع الأمور باسمهم .

وحدث أن اغتيل الامبراطور قسطانس من طرف رعاياه ، تاركا امبراطوريته إلى إبنه قسطنطين (63) وهو ما يزال صغيرا ، إلا أن سابور عامل أندرينوبل ثار عليه وطلب من معاوية ن يساعده على أن يصير امبراطورا على أن يتنازل له عن رومانيا كلها ، وتوسل إليه قسطنطين من جهته ألا يساعد أحد الرعية الثائر ضد ملكه ، وأن يقر الهدنة التي أبرمها مع أبيه . ولكن معاوية الذي زها بانتصارات عظيمة لم يستجب له وقال إنه سيعين من يؤدي له مالا أكثر ، الأمر الذي أغاظ سفير الامبراطور (64) فأجاب بأن قسطنطين سيدافع عن نفسه بشجاعة ضد كل منهما ويحقق النصر بعون الله . وبمجرد ما خرج السفير أبرم معاوية معاهدة مع رسول

---

(61) لم يكن آنذاك من خلاف ديني إلا خلاف شيعة علي والخوارج الخارجين عليه . (مترجم) .
(62) كان ذلك سنة 660 الموافق لعام خمسين للهجرة .
(63) قسطنطين الرابع .
(64) أندري .

سابور وصرفه على أمل أن ينجده في الحين ، لكن هذا الرسول وقع في كمين نصبه له سفير قسطنطين عند عودته فأمر بشنقه وبعث بمعاهدة معاوية الى الامبراطور.

ولما وصلت هذه الأخبار إلى معاوية أرسل قواده الحربيين إلى سابور مع طائفة من الجيش ، لكن قبل وصولهم زحف البطريق نيسيفور إلى آندرينوبل بأمر من الامبراطور ، وعندما اقترب من المدينة أراد سابور أن يخرج منها لمحاربته ، إلا أن فرسه جمح لدى مروره تحت الباب فدقّ عقد القبة رأسه ومات . وعندما تفرق أنصاره بسبب موته هدّأ نيسيفور الاقليم وأعاده إلى طاعة الامبراطور . ولم يجرؤ قائد معاوية الذي كان في إكَزابولي على ترك مكانه ، فأخبر سيده الذي أمده بابنه البكر [65] ليعزه في كالْسيدْوان . وبعد أن اجتاحا معا البادية كلها ذهبا لمهاجمة إحدى مدن فريجيا [66] فاستوليا عليها ونهباها وتركا فيها حامية من خمسة آلاف عربي ، ثم عادا لقضاء فصل الشتاء في الشام . لكن بعد خروجهما بعث الامبراطور إليها آندرييا ليسترجعها . فوصل إليها في منتصف الليل والبلاد كلها مغطاة بالثلج ، والعرب منزوون في دورهم من شدة البرد ، فوضع السلاليم واستولى على الشوارع والأبواب التي حاول العرب أن يخرجوا منها عند الشعور بالخطر ، لكن جنود الروم انقضوا عليهم وقتلوهم . وهكذا أخذت المدينة وكسرت الحامية بأسرها وعوضت بأخرى لحماية المدينة .

وفي هذه الأثناء لم يُخلد معاوية إلى الراحة ، بل حشد سرا أسطولا بحريا قويا في الاسكندرية ، تأهبا لمهاجمة بلاد اليونان وطراس ، ولما علم أن كل ما جمع الامبراطور قسطانس من الغنيمة في إيطاليا يوجد بسيرا قوسه في صقلية ، وجه إليها جيشه . وعندما حضر العرب على حين بغتة ألفوا المدينة بغير حرس فاستولوا عليها بسهولة ، لكنهم نظرا لعدم اطمئنانهم بجوار إيطاليا حملوا كل الغنيمة على ظهر سفنهم وقفلوا راجعين إلى بلاد الكنانة . ويقول بعضهم إن قسطنطين عندما وصله نعي أبيه [67] أخذ كل الذخائر من سيرا قوسة وحملها إلى القسطنطينية .

---

(65) يـزيد .

(66) أموتيوم .

(67) سنة 672 .

وبينما كانت هذه الأحداث تقع في أوربا وآسيا ، كان البرطيق كَريكَوار الذي فر من إفريقيا — كما قلنا — قد عاد إلى قرطاج مع ما أمكن من فلول الجند ، فهزم عقبة في بعض المعارك واسترجع جل حصونه . ولما علم معاوية بالأمر ، جهز جيشين عظيمين في مصر ، أحدهما في البحر والثاني في البر ، فأدخل هذا الأخير في مفازات برقة بقيادة محمد بن نصر الذي انضم الى عقبة وانتصرا معا على كَريكَوار وأرغماه على الفرار إلى قرطاج ، ومن هنالك إلى إيطاليا ، بعد أن قتلا العديد من رجاله ، واسترجعا كل الحصون المفقودة . ظن هذا القائد أنه أنهى الحرب فعاد إلى مصر ومعه ثمانون ألفا من الاسرى العبيد ، وتخلف عقبة بالقيروان ، وكان ذلك سنة ستمائة واثنتين وستين وهو العام التاسع والأربعون من الهجرة .

وفي سنة ستمائة وسبعين الذي هو العام الثاني عشر من حكم معاوية ، جهز جيشا عرمرما في الشام (68) وبعث الى سيليسيا وكرمانيا فقام بإتلافات جسمية . ثم جهز في العام التالي جيشين بحرا وبرا بقيادة ابنه يزيد للاستيلاء على القسطنطينية . لكن الامبراطور قسطنطين دافع عنها باستماته طوال ستة أشهر دام فيها الحصار . ومن هناك أخذوا سيزيك عنوة وقضوا بها فصل الشتاء ، ثم عادوا في فصل الربيع الى القسطنطينية ، بحرارة شديدة ، واستمرت الحرب سبع سنوات كاملة حول القسطنطينية ، وأخيرا أراد الله أن ينتصر المسيحيون ويضطر العرب الى الانسحاب بخسائر كبيرة سواء في السفن أو في الجنود ، ولما كان انسحابهم في فصل الشتاء (69) فقد أدركتهم العاصفة في بحر ايجي ، وفقدوا أكثر ما بقي لهم من الجنود والسفن .

وبعد عامين بعث معاوية مرة أخرى بجيشين قويين (70) ضد المسيحين ، فهزمهما رجال الامبراطور ، إذ كان القدر ما زال يساعد المسيحين ، بحيث إن العرب فقدوا أكثر من ثلاثمائة ألف رجل في جميع هذه الحروب . ونظرا لهذه الخسائر الجسمية طلب معاوية الهدنة من الامبراطور ، فقبلها لمدة ثلاثين سنة ، على أن يؤدي له سنويا ثلاثة آلاف بوزين من الذهب ، وثمانين من الرقيق وجياد

(68) تحت إمرة ابن نصر وسويد بن غلافة الغياهفي (؟)
(69) عام 676 م وهو الثالث والستون للهجرة .
(70) تحت إمارة إسحاق بن سفيان بن عوف والقاسم والفضل (؟)

الخيل ، ويطلق سراح خمسين أسيرا مسيحيا يختارهم . ولما انتشر خبر هذه الهدنة في كل مكان ، أسرع موسى القائم بغزة وغيره من ولاة الاقاليم البعيدة - وكانوا خصوصا لمعاوية - بأداة الاتاوة للامبراطور حتى تشملهم الهدنة ، وهكذا أبرم السلم وعمت العافية جميع أقاليم الشرق .

وفي هذه الأثناء قام أحد القواد العرب من جيش البحر بالشام بإحراق جميع سفنه ، لما رآى من غلبة جانب الامبراطور وفر الى القسطنطينية . وفي نفس السنة انتشر الوباء في مصر إلى درجة أن كاد يهلك فيها جميع جنس العرب . وبخصوص الهدنة فإنها كانت مضرة بالمسيحين بقدر ما كانت مفيدة للعرب ، لأن الامبراطور الذي دبر إهلاك المحاصرين في عاصمته ، فتح مسالك جبل القوقاز أي الأبواب الكسبينية ، الشيء الذي لم يوافق عليه قط الاسكندر ذو القرنين - حسب ما قيل - خوفا من أهل الشام . فإن المردويت الذين كانوا دائما محصورين في هذه الصخور انتشروا إلى إن وصلوا إلى لبنان الذي يشكل حاجزا متينا للعرب ، لأن المسيحين الذين لم يستطيعوا الاتفاق مع العرب ، انضموا إليهم وصاروا يشنون غارات كبيرة من هذه الجبال على السهول ، يحطمون من كبرياء العرب الذين لم يبق لهم سوى جيش الفضل والقاسم اللذين كانا يدمران ميناء هرقلية ، حتى إن الامبراطورية بدتوكأنها تستعيد رونقها القديم ، غير أن الامبراطور قسطنطين الذي كان يفضل الطمأنينة العاجلة على الآجلة ، أبرم الهدنة مع العرب ووجه قواته ضد المردويت فطردهم من الجبال التي احتلوها ، تاركا الأرض حرة لأعدائه .

وفي هذه الأثناء عندما رأى معاوية نفسه في سلمن مع المسيحين عمل على تهدئة الخلافات الواقعة في ملته التي أنتجب عدة فرق ، فجمع الناس بمدينة دمشق ، وأمر كل من كان لديه مكتوب لمحمد (عليه السلام) أو خلفائه أن يأتي به اليه. لكن تضارب الآراء أدى الى خلق نزاعات بين الفقهاء لم يستطيعوا الفصل في أي شيء منها ، فاختار هو ستة من بين أفقههم، وعزلهم في دار وأمر كل واحد منهم أن يختار على حدة ما يراه أفضل ، وألف من ذلك ستة كتب سميت بالقرآن ، أي المجموع أو مضمون الشريعة، وقذف بالباقي في النهر، ثم أعلن أنه لا يقدم أحد على الايمان او القول أو العمل بما يخالف ما كتب في هذا السفر إلا عرض نفسه للزندقة ، وبعد ذلك قام عربي يدعي الأشعري فجمع هذه الكتب في

مجلد واحد يحمل اسم مؤلفه .(70)

ثم إن معاوية الذي سبق أن قاد الجيوش في أيام عمر وعثمان ، وفتح عدة أقاليم ، وكان شبه مصلح لشريعة محمد ، مات عام ستمائة واثنين وثمانين ودفن بدمشق التي اتخذها حاضرة ملكه لخصبها وجودة هوائها . وكان قصير القامة أبيض اللون ضخم الجسم ، أسود اللحية ، وكان يحافظ على سوادها في شيخوخته بالخضاب أشهل العينين . عاش سبعا وسبعين سنة ، حكم منها أربعا وعشرين . وكان منقوشا على خاتمه : «رب اغفر لي » وكان أميا لا يحسن القراءة ولا الكتابة ولا الحساب . وبما أنه كان مقداما سديد الرأي ، فإن محمدا كان يدعو له أحيانا على المائدة :« إلهي ، علمه هذه الأشياء واحفظه من المهالك !» ليبين أنه لو كان عالما لا ستُفيد منه كثيرا . (71)

(70م) اختلط على مرمول أمر القرآن الكريم بكتب الحديث الصحاح الستة ، وخلط – كعادته – تاريخ جمع القرآن الذي تم في عهد عثمان ، بتاريخ جمع صحاح الحديث الذي لم يتم إلا بعد اكثر من قرنين على وفاة معاوية ، وبلغ قمة الجهل بتاريخ الاسلام في زعمه أن الأشعري (ولا شك أنه يخلط كذلك بين أبي موسى وأبي الحسن) جمع الكتب الستة في واحد نسبه إلى نفسه !. (مترجم)

(71) جهل مرمول أن معاوية كان من كتّاب الوحي ومات في رجب عام 60 / أبريل 680 م ، واختلط عليه امر دعاء النبي صلى الله عليه وسلم لمعاوية ، فقد دعا له وهو يردفه على راحلة – لا على مائدة الطعام كما وهم – بعد أن سأله عليه السلام عما يليه منه ، قال معاوية : بطني ، فقال عليه السلام ما معناه : اللهم املأه علما وحكمة (مترجم).

الفصـــل السابـــع

في يزيد بن معاوية خامس الخلفاء ، وما حدث في عهده

ما كاد يموت معاوية حتى بايع العرب بالخلافة ابنه يزيد الذي لم يرث شيئا من خصال أبيه ، لشغفه بالأمور التافهة ، وقضاء وقته في نظم الأشعار الغرامية والاقبال عليها ، فكان يكره كل علم آخر حتى الدين . وكانت أخته نفسها من بين حظاياه (!) وأقر الهدنة التي كان أبوه قد أبرمها مع الامبراطور قسطنطين ليعيش رعاياه في سلام ، لكن أهل الكوفة (في العام الثاني من حكمه) انتخبوا خليفة لهم أصغر أبناء علي المسمى الحسين ، فاستنفر يزيد جيشا عظيما لمحاربته بقيادة أخيه عبد الله الذي أمر بقتل الحسين غيلة بينما كانوا يستعدون للمعركة في سهول كربلاء بضواحي الكوفة ، فأقبر في نفس المكان الذي قتل فيه ، وبنى العرب فيه بعد ذلك مدينة تكريما له تحمل اسم السهل. ثم إنّ يزيد امتحن جميع أبناء علي وقتل عددا كبيرا من أشراف الجزيرة العربية ، الامر الذي جعله مكروها لدى كل القبائل . واتفق أن أحد أفراد أسرته ، وهو المختار ، أثار ضده جميع بلاد الفرس مدعيا الخلافة ومصرحا بأن يزيد أقدر على الشعر منه على الملك . وهلك يزيد في العام الثالث من حكمه وعمره أربعون سنة . وكان يحمل خاتما كتب حوله « الله ربي » . وخلفه ابنه معاوية فلم يحكم سوى ستة أشهر ، وأبرم الصلح مع إمبراطور القسطنطينية ثم مات بعد ذلك . وفي العام الأخير من حكم يزيد عبر العرب الى إسبانيا بأسطول يقدر بمائتين وسبعين سفينة جمعوها من الاسكندرية ، ولما نزلوا بمملكة بلنسية ، حاربهم الملك بامبا وهزمهم ، فسقط العديد منهم في ساحة القتال ، فضلا عن الأسرى الكثيرين ، وعاد الناجون إلى مصر . وفي نفس السنة دخل هذا الأمير الطيب أحد الاديرة وارتدى لباس الرهبان .

الفصل الثامن

في عبد الله ، سادس الخلفاء ، والأشياء التي حدثت في عهده

خلف يزيد بعد موته أخوه عبد الله ، لكن الناس كانوا يكرهون أهل هذا البيت . فعزم العرب على إعادة عقب علي إلى العرش لانتسابهم إلى محمد (عليه السلام) بواسطة كبرى بناته فاطمة ، الأمر الذي تسبب في حروب كثيرة ، فأهل الشام بايعوا مروان بالخلافة ، بينما بايع عرب آخرون (القاوقاو) وابن عمر أي (ديداكو) (71م) بالاضافة الى القائم المختار الذي كان خليفة في بلاد الفرس ، فتحاربوا فيما بينهم . فزحف عبد الله بجيشه ضد مروان وحاربه فغلبه وقتله في الشهر التاسع من حكمه . لكن العرب نصبوا مكانه ابنه عبد الملك الذي استنفر لحينه جيشين ، أرسل أحدهما ضد عبد الله تحت قيادة جعفر بن ابي طالب والآخر ضد (ديداكو) ،والتقى جعفر وعبد الله على ضفاف الفرات حيث كسر عبد الله واضطر إلى الفرار إلى دمشق تاركا عددا كبيرا من القتلى في جنده . لكن السكان الذين كانوا يكرهونه من أجل قتله مروان امتنعوا من اقتباله ، فتوجه الى القاهرة فامتنع السكان كذلك من اقتباله . ولما رأى نفسه مهجورا من الجميع ، أبحر خفية مع أحد خدمه ليعبر الى اليونان ، ورمت به العاصفة في إحدى الجزر ، فعرفه الناس وقتلوه . وكان قد حكم عاما فقط وبقي عبد الملك ، بعد موت عبد الله ، منفردا بالحكم في اطمئنان ، واعترف له بالخلافة في كل مكان ما عدا في بلاد الفرس .

(71م) هذه الأسماء محرفة كالحقائق التاريخية . والمعروف أن عرب الشام انقسموا بعد موت معاوية بن يزيد ، فست كلب الى بني أمية ، فرقة مالت الى خالد بن يزيد بن معاوية ، وأخرى الى مروان ابن الحكم ، بينما مالت قيس الى عبد الله بن الزبير . انظر تفاصيل ذلك عند حسن ابراهيم حسن ، **تاريخ الاسلام السياسي** 1 : 314.312 . (مترجم) .

الفصل التاسع

في عبد الملك، سابع الخلفاء، والأشياء التي حدثت في عهده

وبعد هزيمة عبد الله، فتحت دمشق أبوابها للمنتصر عليه الذي نبش قبر يزيد وأخرج جثته فأحرقها وألقى رمادها في النهر، انتقاما لموت مروان . وحتى لا يترك أيَّ أثر لآل هذا البيت «السفياني» اضطهد بضراوة كل من كانوا ينتمون إليه وألقى بهم إلى الوحوش المفترسة، غير أن أحدهم، وكان غنيا قويا، يدعى ابن طعمون (72)، هرب إلى افرقيا مع بعض ذويه وأصدقائه، تخلصا من جنونه، واختفى إلى أن وصل إلى أقصى موريطانيا الطنجية . ولما عرف السكان أنه من سلالة خلفاء دمشق خضعوا له كأمير نظراً لشهامته وفضله، فشن حروبا عظيمة ضد الرومان والقوط الذين كانوا يحتلون ساحل بلاد البربر . وبعد انتصارات عديدة تكاثر أنصاره فتلقب بلقب أمير المسلمين احتقاراً لخلفاء الجزيرة العربية . يقول بعضهم إنه كان ابناً لمعاوية وانه بنى مدينة مراكش الواقعة في سفح جبل الاطلس قرب أغمات . لكن المؤلفين العرب ينسبون تأسيسها بتحقيق أكثر، إلى ملوك لمتونة أو المرابطين الذين يسيمهم مؤرخونا «المورافيد» .

ووجد ابن طعمون سهولة كبيرة لاثبات نفوده، لأن عبد الملك الذي لم يستطع الصمود أمام (ديداكو) الذي هزم جنوده واحتل دمشق، لم يتمكن من إرسال جيش لمحاربته . ولم يتمتع طويلا بانتصاره إذ هلك بالطاعون الذي اجتاح الشام كله مع المجاعة، في الوقت الذي اتخذ فيه لقب خليفة دمشق .

ومن جهة أخرى فإن المردويين الذين أحرزوا على انتصارات في منطقة جبل لبنان ومدوا نفوذهم إلى بيت المقدس، نكثوا عهد العرب بعد أن علموا بموت الامبراطور قسطنطين، واضطهدوهم لدرجة أنهم لم يجرؤوا على الظهور في أي مكان، من (موبسويست) إلى أرمينيا الرابعة . وعندما استولى المختار هو الآخر على

(72) لعله يقصد حسان بن النعمان ، عامل الامويين على مصر ، الذي بعث به عبد الملك بن مروان واليا على المغرب بعد استشهاد زهير بن قيس البلوي ، وهو الذي كان له البلاء الحسن ضد الفرنج ومن حالفهم من البربر ، لكن أخبار مارمول – كالعادة – تختلط فيها الحقائق بالاباطيل والتحريفات والاوهام الكثيرة . (مترجم) .

بلاد فارس طمح إلى حكم جميع العرب، بحيث إن عبد الملك الذي أثقلت كاهلة رزايا عظيمة وخشي أخرى أعظم منها إذا ما قاومه جوستنيان الذي لم يكن عمره آنذاك يجاوز ستة عشر عاما، أرسل إليه يطلب منه المحافظة على الهدنة التي أبرمها والده قسطنطين مع جده معاوية . ويعتقد بعضهم أن معاوية لم يكن هو الذي أبرم الهدنة، وإنما عقدها مروان، لكن الأول هو الأصح، وانما تبعه الآخرون، لأن يزيد ومروان طلباها من قسطنطين وطلبها عبد الملك من جوستنيان الذي منحه إياها بنفس الشروط . وإذا كان لزاما عليه بهذا العهد ان يطرد المردويين من لبنان، فإن عبد الملك أعطاه نصف مدخول أقاليم أرمينيا وقبرص وإفريقيا . وبعد إتمام الهدنة أمر جوستنيان أن تشيد للعرب الأفارقة بعض المحلات على طول الساحل ليسكنوها . وحيث إن المدويين امتنعوا من وضع السلاح، أرسل الامبراطور ضدهم جيشا طردهم من المواقع التي كانوا قد احتلوها، وبعد أن أسر وقتل كثيرا منهم، ترك البلاد حرة للعرب . ولما تخلص عبد الملك من هؤلاء المتوحشين أرسل جيشا باسلا ضد المختار، فهزمه هذا الأخير بقوات الفرس واكتسب شهرة كبيرة بفضل هذا الانتصار، حتى إن عبد الملك اضطر إلى أن يذهب بنفسه إلى بلاد ما بين النهرين . وفي هذه الاثناء ثار عليه أسد (!) ومعه آخرون عديدون فاضطر عبد الملك إلى أن يصرف قواته ضده، وحيره بوجوده إلى أن ألزمه الا ستسلام وطلب العفو منه، فعفا عنه في الحين ولكنه أمر بقتله بعد ذلك .

غير أن عبد الله بن الزبير حرض السنيين، واتخذ لقب خليفة في بلاد ما بين النهرين، فأرسل جيشا قويا ضد المختار بقيادة أخيه . ودارت بين الفريقين معركة دامية قتل فيها المختار ونتج عن هزيمته فتح بلاد فارس كلها . لكنه لم يتمتع طويلا بانتصاره لأن عبد الملك أتى لقتاله على ضفاف الفرات، وبعد أن قتله وهزمه استولى على جميع البلاد التي كان فتحها . ولما علم عبد الله بهذا الخبر خشي من خوض المعركة، فانزوى في مكة حيث أرسل عبد الملك (كيان) (73) لمحاصرته، فأخذ المدينة وأحرق المسجد الذي كان هناك . وبهذه الانتصارات أصبح عبد الملك منفردا بحكم الجزيرة العربية باطمئنان، وكذا بلاد فارس، وما بين النهرين،

---

(73) (كذا) والمعروف أن الحجاج بن يوسف الثقفي هو الذي حاصر عبد الله بن الزبير في مكة وقضى عليه . (مترجم)

وأرمينيا والعراق التي كانت قد ثارت كلها، جاعلا هكذا حدا للحروب الأهلية . لكن الامبراطور جوستنيان الذي سول له شبابه أن يفسخ الهدنة أبى إلا أن تضرب النقود التي كانت تؤدي له كإتاوة بسكة الامبراطور، وقد أرسل إليه عبد الملك يطلب منه ألا يفسخ المعاهدة لسبب تافه كهذا، إذ أن النقود المذكورة لها الوزن والقيمة القانونيان، مضيفا أن العرب لن يرضوا أبدا أن تحمل سكتهم سلاح وشعار المسيحيين . وتوهم الامبراطور أن ما صدر عن عبد الملك إنما صدر عن تخوف، فأهمله واستنفر جيشا خفيفا جدا مؤلفا من ثلاثين ألفا من العبيد بقيادة نيبولون الذي كان من نفس المنطقة، إذ كان قد أخضعهُم إلى طاعته منذ عهد قريب . وقاد الجيش البطريق ليونس واسترجع في فترة قصيرة أقاليم هيبيريا وألبانيا وهركانيا وميديا التي انتزعها العرب من الامبراطورية، ثم زحف الامبراطور نفسه بفرسانه وعبيده لمحاصرة سيباستوبول ولما كان عبد الملك قد تخلص من المردويين والثوار، فإنه حشد جنوده وأرسل إلى محمد خليفته يستعطفه لاغاثة هذا الحصن . فبعث محمد إلى الامبراطور يستعطفه للمرة الثانية ألا يفسخ هدنة أبرمت بكيفية رسمية ومذكراً بعقاب الله الذي وقع الاقسام به لالتزام العهد، والأيمان الكثيرة التي حلف بها حتى لاُينقض، لكنه عندما رأى عدم اكتراث الامبراطور بذلك، أخذ وثيقة العهد فجعلها في رأس رمح بشكل راية وتقدم لمحاربته . وقبل أن يأذن بالقتال بعث أيضا برسولين آخرين ليتوسلا إلى جوستنيان ألا ينقض الصلح، وأعطاهما كيسا كبيرا من الذهب يحملانه سرا إلى نيبولون ويَعِدانِهِ بمبلغ أكبر إن هو ترك فريق الامبراطور والتحق بفريق المسلمين، فاغتر نيبولون بأمل باطل وقبل الهدية والتحق بالعرب ومعه عشرون ألفا من العبيد . وقد اندهش الامبراطور قبيل بدء المعركة لهذا الحدث الغير المنتظر، فأمر بانسحاب جنوده، ولم ينج هو مع قليل من جنده إلا بمشقة عظيمة . ولما وصل إلى صخرة لوكاط المشرفة على البحر في تخوم نيكوميديا أمر يقدف من أعلى إلى أسفل بجميع العبيد الباقين في جيشه وبكل نساء وأولاد الذين التحقوا بصفوف الاعداء ، وأن ترمي الجثث في البحر .

وقد استرجع العرب المنتصرون كافة الاقاليم التي كان استولى عليها ليونس، وتراجع جوستنيان يجر أذيال الخيبة إلى القسطنطينية، غير أن البطريق سيبا ستيان حاكم أرمينيا حشد جيشا قويا وانقض على العرب فطردهم من ولايته، الشيء الذي لم يمنعهم من تخريب سائر الاقاليم الشرقية . فاستولى كاجان على كل هذا الجزء من

بلاد فارس الذي كان يعترف بالامبراطورية الرومانية وقام القائد محمد مع عبيده المتمردين بإحراق طراسة وذبح أهلها، غير أن الدولة المسيحية كانت ممزقة بسبب الحروب الأهلية بحيث لم يصمد أحد أمام تقدم العرب . ذلك أنَّ البطريق ليونس الذي استولى على الامبراطورية أبعد جوستينيان إلى الكيرفونيز، وحيث إنه كان في تخوف دائم من جراء جريمته لم يجرؤ على إنجاز أي مشروع . وبخصوص إفرقيا فبمجرد ما عين امبراطورا أرسل البطريق يوحنا بأسطوله الحربي ليطرد العرب من الحصون التي كانوا يحتلونها على طول شاطىء البحر المتوسط والتي منحتهم إياها المعاهدة الأخيرة . فانتصر عليهم في مختلف المعارك وطردهم منها . لكنه نظراً لكونه لم تكن له القوة اللازمة لاخضاع الاقليم، فإنه ترك قسما كبيرا من الجيش تحت قيادة أبسيمار، ورجع إلى القسطنطينية ليطلب المزيد من القوات من الامبراطور الذي لم يبد الحماس الكافي للقيام بهذه المهمة العظيمة . ومن جهة أخرى فإن عبد الملك الذي لم يتحمل هذا العار جهز أسطولا بالاسكندرية وأرسله إلى إفرقيا بقيادة عبد الله بن محمد الذي رأى نفسه أقوى من العدو، فهاجم طرابلس الغرب، ثم قابس، فاستولى عليهما وخربهما، وانتقل إلى قرطاج بينما كان الرومان يبحرون شطر أوربا ليعودوا منها بقوات كثيرة، إلا أنهم لما وصلوا إلى جزيرة كاندي، وكان رؤساء الجيش مغتاظين من ذهابهم وإهمال الامبراطور وتهاونه، فعزلوه واختاروا مكانه أبسيمار، ثم توجهوا إلى القسطنطينية وقبضوا على ليونس، وبعد أن جدعوا أنفه ألقوا به في غيابات السجن . وهكذا تُركت إفرقيا للعرب، فاستولوا على قرطاج ودمروها بقايدة (زقالة) (؟) وتقدموا إلى أن وصلوا إلى عاصمة القسطنطينية مطاردين القوط والرومان، ومن ثم التحقوا بموريطانيا، وتحصنوا ضد القوط الذين كانوا يستولون على ساحل المحيط مع بعض المُدن والأقاليم في الداخل . ولما رأى أبسيمار هدوء بقية الامبراطورية، أرسل مددا إلى المراكز التي بقيت له في افرقيا والتي كانت تتناقص باستمرار بقدر ما كان العرب يستولون عليها .

وإذا رجعنا الى آسيا ، فإن أبسيمار ما كاد يعلم بانتخابه حاكما حتى سرح جيشا قويا إلى العرب بقيادة أخيه هرقل ، فسار مسرعا ينتقل من نصر إلى آخر في بلاد الشام كلها ، ومزق أشلاء أكثر من مائتي ألف من العرب ، ومن ثم انتقل إلى (ساموساط) ، فخرب كثيرا من المدن وزرع الرعب في كل مكان ،

وزحف بعد ذلك إلى الطاغية القائم (أبيبسا) ؟ فهزمه بعد أن قتل الكثير ممن معه ولما وصلت هذه الأخبار إلى أمراء أرمينية الذين كانوا يعترفون بسلطة عبد الملك اغتالوا جميع العرب الذين كانوا في أقاليمهم ، وأسرعوا إلى الأمبراطور الذي وضع على الفور حاميات في جميع حصونهم . لكن عبد الملك أرسل إليها في الحين جيشا قويا بقيادة محمد الذي فتح أرمينية وقبض على أعيان البلاد فأحرقهم جميعا في ساحة كبرى كان قد حبسهم فيها . ثم دخل إلى سيليسيا التي قتل هرقل فيها عددا كثيرا من رجاله وأسر الكثير منهم وأرسلهم إلى الامبراطور . وفي نفس الوقت مات عبد الملك بعد حكم دام واحدا وعشرين عاما ، فخلفه ابنه الوليد .

الفصل العاشر

الخالد أبو الوليد(74) بن عبد الملك بن مروان ثامن الخلفاء، وما جرى في عهده من أحداث

بعد موت عبد الملك عين العرب خليفة له ابنه الوليد الذي يسميه الكتاب العرب سيف الله(75) ورئيس المزهوّين (؟) وتولى الحكم عام سبعمائة وثمانية (76) ولم يطل عهده سوى تسع سنوات كانت مؤذية جدا للمسيحية . فبمجرد ما تربع على العرش نزع للمسيحين كنيسة دمشق الكبرى التي كانت أجمل معبد في العالم سواء من حيث جمالها أو من حيث هيكلها فحولها إلى مسجد . ولكن ، ليظهر الكره الذي كان عنده للمسيحين منع استعمال اللغة اليونانية التي كانوا يتعاملون بها في إمبراطوريته كلها . وثار الأرمينيون للمرة الثانية في عهده ودخلوا تحت إمرة الامبراطور . ومن جهة أخرى فانه أرسل جيشه لينهب الأقاليم الرومانية فاستولى على مدينة مسطان وعدة حصون أخرى صغيرة ، وعاد العرب بعد ذلك إلى الشام محملين بالغنائم . ثم عبروا إلى كالاتيا فنهبوها كلها من أقصاها إلى أقصاها بعد أن هزموا حامية الاقليم .

ثم إن ملك البلغار(77) أعاد جوستنيان إلى الحكم ،فاغتنم العرب الفرصة للتوسع بسبب الفتن التي حدثت في المسيحية، وحشدوا جيشا عرمرما دخلوا به الى افريقيا ففتحوها حتى المحيط . وثار الأفارقة(78) بسبب موت عبد الملك فشهروا السلاح ضد العرب وهزموهم . وأراد الوليد أن يغيث قومه، فكوّن جيشا قويا في مصر، وأرسله بقيادة موسى بن نصير إلى إفريقيا فدخلها عبر مفازات برقة ،

(74) لا يعرف لهذا الخليفة إلا اسم الوليد .
(75) اختلط على مرمول اسم هذا الخليفة الأموي باسم الصحابي خالد بن الوليد .
(76) بل ولي الوليد الملك بعد وفاة أبيه في منتصف شوال عام 86هـ / أكتوبر 705
(77) وهو تريبيليوس .
(78) من بلاد البربر ونوميديا وليبيا .

ومكث بعض الوقت للاستراحة في القيروان التي تسلم حكمها من ابن أخي عقبة أو حفيده ، ثم تابع سيره وفتح قسنطينة عنوة ، وانتقم شر انتقام من الذين قتلوا الوالي . ثم سار نحو الموريطانيتين اللتين أخضعهما بجيش مؤلف من مائة ألف مقاتل ، ويقال إنه سار إلى أن وصل (تفتان) (79) الواقعة في طرف إفريقيا من تلك الجهة ، وإنه عندما رأى أن لا وجود لليابسة وراءها أدخل قوائم فرسه في المحيط كتحدٍّ لكونه لم تبق أية أرض لم يفتحها (80) ورجع من هناك عبر نوميديا وليبيا وفتح جميع البلاد الممتدة بين النيجر والبحر الابيض المتوسط، ماعدا بعض الحصون (81) في اتجاه جبل طارق التي كان يحتلها القوط. وبعد كل هذه الانتصارات عاد الى القيروان بعد أن استخلف على موريطانيا الطنجية محاربا شجاعا يدعي طارقا .

كان القوط يحكمون اسبانيا منذ ثلاثمائة سنة خلت بعد أن طردوا منها الرومان ، وكان كل ما هو واقع بين البحر المتوسط ، وأعمدة هرقل ، وجبال البرانس ، والبحر المحيط ، خاضعا للملك رودريق الذي كان يملك علاوة على ذلك منطقة « لنكَدوك» إلى نهر الرون (82) وكن يوليان واليا من قبله على حصون إفريقيا ، يجعله بعضهم أمير سبتة وآخرون أمير إسبارتين .وقد رأيت بطليطلة قديما مكتوبا على الرق عنوانه **كتاب الملوك** يدعي فيه يوليان ابن أخي الملك ، ويقال إنه كان ذا سلطة واسعة وأموال طائلة بإسبانيا وإفريقيا بالاضافة إلى مرتبة عاية . ويروي المؤلفون القدماء أنه كانت له ابنة اسمها كابا لم يكن جمالها أقل خطرا على اسبانيا مما كانت عليه هيلين على طروادة . ذلك أن الملك اغتصبها وهي تعيش في كنف الملكة (83) فأخبرت أباها في الحين ، وكان يوجد إذ ذاك في اسبانيا مع زوجته . فاغتاط الأمير لهذه الفضيحة ، وكان رجلا شهما ، فسكت عنها بضعة أيام ، ثم تعلل بمحاربة العرب في افريقيا وطلب من الملك أن يأذن له بالرجاع إلى ولايته. ولما تسلم الاذن على أمل أن حضوره سيوقف تقدم الاعداء، ركب البحر مع

---

(79) المدينة التي تتحدث عنها المصادر العربية هي أسفي .
(80) اختلط مارمول هنا أيضا أمر موسى بن نصير بأمر عقبة .
(81) من سبتة وطنجة وأصيلا الخ ...
(82) يؤول المؤلف نفسه أسفله بلاد الغال القوطية ، أو الأكيتين . (وكثيرا ما يكتب العرب اسم هذا الملك باللام « لذريق » . (مترجم) .
(83) هذه عادة قديمة مازالت مستمرة ، وهي تربية الفتيات الشريفات في حجر الملكات .

زوجته حاملا معه أعز ما يملك من النفائس وعبر إلى سبتة . وبعد مدة تظاهر بأن امرأته مريضة محتضرة ، وطلب من الملك أن يأذن لابنته بأن تأتي لتودعها الوداع الأخير . وبمجرد ما دخلت تحت سلطته أطلع موسى على السبب الحقيقي لغضبه ووعده بأن لا يسلمه الحصون التي يحكمها فحسب ، بل بأن يمكنه من إسبانيا كلها إذا أعطاه القوات الكافية لفتحها . فأخبر موسى الوليد باقتراح الكونط يوليان ، فأبدى ترددا كبيرا لهذا المشروع ، نظرا للخطر الذي قد ينجم عن الثقة بالعدو ، فضلا عن أن قوات القوط إذذاك رهيبة . فاكتفى موسى حينئذ بإعطائه بعض الفرق العسكرية واعدا إياه بأكثر منها إذا نجح . وكان الكونط يلح كثيرا ويعد بفتح إسبانيا عن طريق حصون ولايته ، مؤكدا أنهم سيتبعهم عدد كبير من الأشراف لما يكنونه من حقد للدون رودريق ، ومن بينهم أبناء الملك فيتيز الذين اغتصب منهم التاج ، فضلا عن العديد من الحانقين الذين لم يكونوا ينتظرون سوى فرصة الثورة التي تسهل عليهم النزول . وكان يقول إنه لا خوف إطلاقا من أشراف القوط المنغمسين في الترف والملذات الذين فقدوا حماسهم الأول ، وإن الشعب مجرد من السلاح ، وإن العديد من الحصون مكشوف ، ولا أحد يقاوم إذا رأى الكونط على رأس الحملة ، إذ كانت بيده القوات الرئيسية للدولة . إلا أن موسى لم يجرؤ على مخالفة أمر الخليفة ولم يرسل سوى مائة فارس وأربعمائة راجل تحت قيادة طارق حتى يرى ماذا سيفعل . فنزل الكونط بهذا العدد القليل من الجنود بالجزيرة الخضراء الواقعة في خط سبتة والقصر ، فجمع هناك كل أقاربه وأصدقائه ، مبينا لهم ما أسداه من خدمات للدون رودريق وما تلقاه منه من عقوق ، وكيف هتك عرض ابنته ، وتسلط على الدولة وتجبر على الرعية ، متوسلا إليهم بأن يساعدوه في مهمة بهذا القدر من الانصاف ، وأن يعززوه بقواتهم عند مجيئه في العام الموالي بجيش أكثر عددا لتحقيق غرضه . فوعدوه بأنهم لن يتأخروا عن نصرته عندما تحين الفرصة ، وعلى هذا العزم عاد كل واحد إلى موطنه . وكان ذلك سرحكم إلهي سخّر غضب الكونط لمعاقبة القوط المنغمسين في ذنوبهم ، حتى إن الملك فتيشة كان قد تزوج عدة نساء واتخذ عدة فتيات حظايا ، ولم يكتف بهذا بل أباح لرعاياه أن يسلكوا نفس السلوك ، وللرهبان أن يتزوجوا ويتسروا ما شاؤوا ، وأدّى به الأمر أن خلع طاعة الكرسي البابوي . ولتعجيل الانتقام منه أراد الله أن يأمر الملك بتحطيم جميع أسوار المدن والحصون ويحظر حمل السلاح ، حتى إن

بعضهم ذهب إلى القول بأنه أمر بكسر السلاح ليكون أكثر اطمئنانا . ولما أراد الكونط أن يشهر الحرب ويجرب رجاله ، نزل بقادس مع أكثر عدد ممكن من الجنود، واستولى على المدينة فأحرق كل ما فيها وذبح أهلها وأسر الكثير من الناس. ثم أخذ يجوب الشاطىء كله وقام بإتلافات جسمية ، ورجع الى سبتة محملا بالغنائم . ولما رأى موسى هذه البدايات الحسنة أعطاه في السنة الموالية اثني عشر ألف رجل تحت إمرة نفس القائد الذي عبر مضيق جبل طارق (84) حيث يوجد ميناء ممتاز ، ثم إلى ميلارية أو الجزيرة الخضراء ، وطريفة ، وهي إحدى مدن البيتيك السفلى . وعندما انتشر خبر مجيء الكونط في اسبانيا كلها جمع أهله وأصدقاؤه أكثر ما استطاعوا من الرجال بدعوى أنهم سيعترضون العدو ، وانضموا إليه ، بحيث إنهم أتلفوا جميعا جزءا كبيرا من الأندلس . ولما بلغ الدون رودريق هذه الأخبار جمع بكل ما استطاع من السرعة جيشا بقيادة ابن أخيه إنيينو صانشيز ، وكان من أشجع رجال عصره ، لكنه للأسف قتل في معركة مع جميع من كان معه ، فجزع الملك لذلك كثيرا ، لأنه كان قد أعده ليكون خليفة له . وتسارع العرب وتكاثروا لما بلغهم خبر هذا الانتصار ، وأحدثوا إتلافات كبيرة في كل مكان ، ولما علموا أن الملك زاحف اليهم بجيش عرمرم تراجعوا إلى الحصون التي كانوا قد احتلوها (85) ومعهم العديد من الأسرى والكثير من الغنائم.

لم يكن دخول العرب إلى إسبانيا ، الذي يسميه مؤلفوهم فتح الأندلس ، عام اثني عشر وسبعمائة ، بل عام اثنين وسبعمائة حسب رواية مؤرخيهم ، أي في العام الثاني والتسعين للهجرة (86) بحيث إنه إما أن يكون وقع خطأ في عدة سنوات خلافة الوليد ، أو يكون حدث ذلك في عهد أبيه عبد الملك (87) لكنني أكتفي بما يقوله مؤرخونا لقلة التوافق بين المؤرخين القدماء .

---

(84) باللغة العربية جبل الفتح ، وكان يسمى قديما كالبي . « وقد تغاضى مرمول عن اسم جبل طارق !!. ولو أنه يتحدث عن القائد طارق ، ويسمي المضيق مضيق جبل طارق (مترجم) » .

(85) وهي جبل طارق ، والجزيرة الخضراء ، وطريفة التي كانت تسمى قديما كارطيفية .

(86) تقول الرواية العربية إن عبور طارق الى الأندلس كان في شعبان عام 92هـ / ماي – يونيو 711 . (مترجم) .

(87) يبدو أن الغلط ناتج عن كونه جعل موت محمد (عليه السلام) في العام العشرين للهجرة ، بينما كان في العاشر حسب ما يبين .

(والواقع أن وفاة الرسول – عليه السلام – كانت يوم الاثنين 13 ربيع الأول عام 11هـ / 8 يونيه 632) (مترجم) .

ولما حشد الملك رودريق جيشه عزم على السير بنفسه لمواجهة العرب رغم تقدم سنه ، فاستدعى جميع الأساقفة والنبلاء بطليطلة وذهب مسرعا إلى إشبيلية ، دون أن ينتظر وصول الجنود القادمة من الجبال وما وراء البرانس ، بعد أن ترك لهم أمرا بالالتحاق به فور وصولهم . وأخبر هناك بأن موسى يستعد للحاق بطارق في قوات هائلة ، وأن طليعة العرب قد وصلت إلى خيريس دي لافرونطيرا التي كانت تدعى قديما قديما صادوينة ، بحيث إنه تصدى لهم بأزيد من مائة ألف رجل . فالتقى الجمعان عند نهر وادي الليطى ، العرب من جهة طريفة والمسيحيون من جهة إشبيلية قرب غدائر ملح ، حسب قول عبد الملك . وبدأ الاشتباك يوم الأحد عند ممر النهر ، ثاني يوم من شهر سبتمر ودام ثمانية أيام سقط خلالها عدد كبير من القتلى من كلا الطرفين . وكانت إسبانيا قد أصيبت منذ عامين بالمجاعة والطاعون ، كما كانت قليلة الدربة على السلاح لعدم قيامها بأي حرب منذ مائة وأربعين سنة ، فضلا عن كون معظمهم قد جردوا من السلاح ، الأمر الذي جعلهم يقاتلون بشجاعة أكثر مما يقاتلون بقوة . وأخيرا في التاسع من نفس الشهر ، لقي ابنا الملك غيطشة (88) طارقا ليلا ووعدهما بتنصيبهما في مملكة أبيهما . فتحولا إلى جهته بأزيد من مائتي ألف رجل ، وبذلك رجحت كفته . ولما رأى الملك رودريق ــــ وكان طاعنا في السن ــــ أنه هوجم من طرفهما ، نزل من عربته واختلط بالأعداء ممتطيا فرسا له (89) ، لكنه عندما رأى جنده يفرون من كل جهة تجرد من الثياب والحلي التي كان يرتديها ملوك القوط في الحرب ــــ حسب قول بعضهم ــــ وتبع الجم الغفير حتى وصل إلى إحدى مفازات البرتغال حيث قضي بقية حياته في صحبة أحد الزهاد . ويضيفون أن هذا الرجل الزاهد سجنه في حجرة مع حية ذات رأسين ظلت تقرضه يومين كاملين (90) إلا أن هذه الرواية ينبغي أن تؤول بتبكيت ضميره . ويقول المؤلفون اللاتينيون إنه مات بفيزيو ، وإنه عثر على كتابة على قبره هذا نصها «رودريق مدفون هنا ، تبا لغضب يوليان الأثيم الذي تسبب في موت ملكه وخراب بلاده ، بالرغم على أمر ربه ودينه ، وستبقى ذكراه بغيضة » لكن عبد الملك وغيره من العرب يقولون إنه مات في المعركة هو

---

(88) وهما سيسبير وإيفازيي

(89) كان هذا الفرس يسمى أوريليا .

(90) كما حدث لاوريست .

وكافة أشراف القوط ، وإن بعض العرب حملوا حليه إلى موسى[91] فلما سألهم عن مصير الملك أجابوه بأنهم لم يعثروا عليه ، وإنما وجدوا سلبه في بحيرة غرقت فيها خيول كثيرة واختلطت . وعلى إثر هذه الواقعة التي لم يحضرها يوليان ، لأنه كان قد ذهب ، التجأ الهاربون إلى أستيجي[92] حيث التحق بهم الآتون من قشتالة ومن وراء الجبال الذين لم يستطيعوا الحضور في المعركة . فعادوا بهذه القوات لمهاجمة العدو وتضييق الخناق عليه في الوقت الذي وصل الكونط يوليان لا غاثته وهو مرتاح ، فحمل على جيس النصارى وقتل أو أسر جلهم . وفي نفس الوقت ذهب طارق لمحاصرة أستيجي ، ولما احتلها قسم جيشه إلى أربعة أقسام ، باقتراح من الكونط ، ليسيطر على جميع الحصون قبل أن يتمكنوا من حشد قوات جديدة .

وكان أبناء الملك غيطشة مع أسقف إشبيلية[93] خالهما في جهة مالقة ، وبعد أن احتلا هذه المدينة عبرا إلى اللبيري[94] وهي مدينة قديمة تشاهد أطلالها بجبل إلفير ، على بعد فرسخين من غرناطة في طريق قرطبة . واحتلت جميع الحصون المجاورة في آن واحد مخلفة عددا كبيرا من القتلى . وذهب أحد المرتدين ، واسمه ماجيطار ، بجيش آخر لحصار مدينة قرطبة حيث كانت له بعض المواطأة . وقد مكن بعض السكان رجاله من الدخول ليلا بالقرب من باب الفارون من نقب فتسلقوا بحبال صنعوها من نسيج عمائمهم التي قطعوها لفائف ، ثم فتحوا الأبواب وأدخلوا ما جيطار الذي أحرق كل شيء وذبح ، وعمد بعض أعيان المدينة إلى انتخاب أحد قوادهم الحربيين للدفاع عنهم فصمدوا في كنيسة سان جورج طوال ثلاثة أشهر ، إلى أن ركب يوما رئيسهم وذهب للبحث عن إغاثة فأخذ ثم أخذت الكنيسة عنوة ، وقتل أو أسر كل من كان فيها . ولهذا فإنها مازالت تسمى إلى يومنا سان جورج الأسرى

وتوجه تدمير ، وهو مرتد آخر ، بالقسم الثالث من الجيش رأسا إلى مملكة مرسية ، فسلم سكانها أنفسهم حسب قول المؤرخ العربي ، ثم حارب أهل

---

(91) عبارة عن جبة وخفين وخيزران وتاج .
(92) هي الآن إيسيشا .
(93) وهو أولبـاس .
(94) كانت تدعى قديما مالاسي أو ماليسي .

بلنسية في سهول سانكونار وانتصر عليهم بعد أن قتل عددا كثيرا منهم ، وتوجه طارق بباقي الجيش إلى طليطلة فأدخله إليها سرا اليهود القاطنون بالحي الواقع إلى جهة السهل (95) فنهبها وحمل معه كمية من الذخائر . ويقول عبد الملك إنهم وجدوا في الكنيسة الكبرى مائدة مرصعة بالذهب والماس تبلغ قيمتها خمسمائة ألف دينار ، ويقال إنها التي تناول عليها المسيح العشاء مع حوارييه ، أو هي مائدة سليمان حسب ابن راشد . ومن هناك عرج إلى وادي الحزا ومدينسيلي التي يسميها العرب مدينة المائدة ، لأنهم وجدوا مائدة لها ثلاثة أرجل مصنوعة من زمردة واحدة ، من ذلك الزمرد الذي يدعى دوبين ، وهو أعلاها قدرا وقيمته (96) .

وبعد أن ظل طارق يتمتع بالانتصارات في اسبانيا ، لحق به موسى وقد حسده على مجده ، وبمجرد وصوله إلى طليطلة طالبه بحساب دقيق لجميع الغنائم . وهناك انقسم الجيش إلى فريقين ، توجه أحدهما نحو إشبيلية بقيادة موسى ، فأقام الحصار في طريقه على كرمونة ، حيث إن بعض رجال الكونط يليان الذين دخلوا على حين غرة فتحوا الأبواب ليلا للعرب ، فتصرفوا فيها بالنهب والتخريب . وعرجوا من هناك على اشبيلية . لكن السكان بعد أن هزموا الكثير منهم أثناء خروج لهم أرغموا موسى على الانصراف ، خشية أن يسرع إلى نجدتهم أهل الغرب والاستريمادور حسبما كان يروج من أخبار . فقصد مدينة ماردة لحصارها ، فتلقاه أهلها على بعد ميل من ساحتها لكنهم هزموا وتراجعوا إلى المدينة ، فحاصرها موسى طيلة أيام عديدة حتى إن المحاصرين لم يستطيعوا مقاومة الجوع وآلات الحرب فسلموا أنفسهم اضطرارا . ويرجع تأسيس هذه المدينة إلى قيصر وإتمامها إلى أغسطس، لكن جميع الأباطرة بعدهما عملوا على تزيينها ببعض المباني الفاخرة . ويقال إن العرب وجدوا فيها جرة مصنوعة من جوهرة (97) كان أحد ملوك إسبانيا قد جاء بها هناك . وكانت قد استخرجت قديما من معبد بيت المقدس عندما خربه نابوكودونوسور . وبعد أن حُملت هذه القطعة النفيسة إلى دمشق ، وضعها سليمان الذي خلف الوليد في المسجد الأعظم .

---

(95) هو ما يسمى اليوم بكرانتشة .
(96) يبدو أنها كانت من الزمرد الأخضر .
(97) ربما كانت من الصدف .

ولنعد الى تاريخنا فنذكر أن موسى توجه الى الاستريمادور بعد أن ترك حامية في قلعة ماردة ، لكن سكان إشبيلية وبعض جيرانهم (98) هاجموا ماردة أثناء غيبته ودخلوها عنوة وقتلوا كل من كان بها من العرب . ولما علم موسى بذلك عاد فورا بجنوده ، فتراجع المسيحيون لعدم تجرئتهم على انتظاره ، تاركين المدينة فارغة ، وفتحت له الأبواب واعتذر أهلها عن قلة مقاومتهم الناتجة عن ضعفهم . وفي هذه الأثناء دخل طارق منتصرا الى الاقليم القوطي (99) الذي كان حاكمه مانيوزا يقيم في حصن شيشون ، فسلم هذا الحصن الى طارق وانضم اليه ، وتبعه كذلك مونيوز والي سردانيا . وقد ارتكب هذان الرئيسان القوطيان هذه الفعلة ليحتفظا بحكمهما ، فساعدا العرب وألحقا أضرارا جسمية بالمسيحيين . ومن ماردة التي كان يقيم بها موسى ، أرسل ابنه عبد العزيز إلى مملكة بلنسية حيث حارب أهل أوركَيلا (100) وبلنسية وأليكانط ودانية ، فهزمهم جميعا ، واستسلمت له المدن شريطة أن يقيم بها من يرغب في ذلك من المسيحيين . وتوسل إليه البلنسيون أن يترك لهم جميعا كنيسة سان برتيلمي التي كانت تدعى قبل ذلك معهد سان بازيل ، لكن سائر المعابد حولت إلى مساجد ، باستثناء المعبد الواقع في الساحة التي عذب فيها سان فنسان ، الذي استعمل بعد كمستشفى . ومن هناك انطلق العرب منتصرين عبر أقاليم سوكَورب ولاردة وطرشوشة وسرقسطة التي سقطت في أيديهم ، فدمروا بشراسة أجمل ما كان يوجد بها من مبان ، وقتلوا من وجدوا من المسيحيين . ومن هناك ساروا إلى طاراكونا فدخلوها عنوة لأن سكانها لم يقبلوا تسليم أنفسهم ، وبعد أن نهبوا كل ما كان فيها خربوا المدينة التي بقيت على هذه الحال إلى أن أعاد بنائها بيرنار مطران طليطلة عام ألف وتسعين بأمر من البابا ايربان الثاني . ولما استولى عبد العزيز على مملكة بلنسية ترك الحرس في كل مكان ، ووجه قواته ضد إشبيلية التي فتحها بعد مقاومة عنيفة من السكان ، ومن هناك دخل إلى الغرب في البرتغال ، واستولى على يورط التي كانت إذ ذاك عاصمة لوزيتانيا . ثم عاد إلى الاستريمادور ففتحها ودخل إلى قشتالة عن طريق مضيق زيبرير ، فوصل إلى مدينة الكامبو ، وفايادوليد وبركَوس ، محتلا جميع الحصون الواقعة في طريقه ومطاردا المسيحين المساكين الذين

---

(98) من فيزة ونييبلة .

(99) وهو اللانكدوك أو الاكيتين مع بعض الحصون التي لم تكن بها .

(100) أوريبلا قديما .

كانوا يفرون إلى الجبال والصخور الوعرة ، لأنه عندما لم يعد لهم رئيس أخذ كل واحد يفكر في خلاصه الشخصي ، سواء بالمسالمة أو بالفرار . وكان جلهم يلجؤون إلى هذه الوسائل بإقناع من أولياس ومن الكونط يوليان وابني غيطشة وغيرهم من الخونة الذين كانوا يقودون العرب ويوهمون الناس بأنهم سيعودون عما قريب إلى إفرقيا ويتركون التاج ألى ورثة الملك الشرعيين .

والحاصل أنهم تصرفوا بكيفية جعلت العرب يُخضعون في ظرف أربعة عشر شهراً معظم إسبانيا، وذلك بقدر من الهيجان لم يعرف مثله قط لا للرومان ولا للقوط ولا لأية أمة أخرى، لأنهم استأصلوا جنسهم وملكهم . يقول عبد الملك إن هذه الجيوش الأربعة انتصرت في ثلاثين معركة بأراض مكشوفة، وانتشرت أنباء هذه الانتصارات في إفرقيا فجذبت إلى إسبانيا عددا وافرا من العرب والبربر حتى إنهم ملؤوا جميع المدن والقرى . وبما أنهم لم يأتوا ليحاربوا بل ليعمروا، فقد صحبوا معهم زوجاتهم وأولادهم . وفي ثورة بهذا الحجم من الضخامة حدث تغيير في الأخلاق والعادات واللهجات، وضاعت أسماءالمدن والجبال والأنهار والسهول، وذهب الكثير من المسيحيين إلى فرنسا وإيطاليا وانكلترا واليونان يطلبون النجدة من الأمراء المسيحيين، والتجأ عدد كبير من أشرافهم إلى جبال البرانس التي يبدوا أن الطبيعة جعلتها كسور لاسبانيا من جهة الشمال . وفعلا فقد أتاها خلاصها من هذا المكان، لأن الذين انزووا فيه لم يكتفوا بالصمود ضد العرب، لكنهم بدأوا ينتشرون من هناك وينتصرون عليهم . فهنالك احتُفظ بالايمان وباللغة القوطية القديمة التي يقول بعضهم إنها لغة أرمينية فاسدة . ومن جهة أخرى فإن هذين الخائنين منيوزا ومنيوز اللذين انضما إلى العرب بعدد كبير من الرجال، وهما يعرفان البلاد، جعلا يضطهدان بشراسة من كانوا يفرون من وجه العرب ويلتجؤون إلى الجبال والأماكن الوعرة في أستوريا، وألابة، وكَيبوسكوا والبرانس . وقد أخضع منيوز كل البلاد الواقعة في سفح هذه المرتفعات من سالسي إلى وادي أرانة، مع اللامبوردان، والبوسردان، والروسيون، وأودية كَوبيان، وفييلس، وارتكب فيها أعمالا وحشية فظيعة . ولم يتعد هذه الأماكن، لأن النصارى دافعوا عن أنفسهم في الخوانق وبعض القصور القديمة الخربة التي رمموها، فضلا عن المعالق التي شيدوها من جديد في بلاد سوبارب، وأيوسة، وقشتالة، وليون، وغيرها من الأماكن، حيث انتخبوا من بعد كَارسي راميرز ملكا لهم .

وفيما وراء جبال البرانس قرب المحيط (101) حيث توجد أودية سالازار ورونسفو وسان يوحنابيي دي بور، لم يحسوا كذلك بشدة العرب لوعورة الصخور التي صمدت أيضا في وجه طموح الرومان، ودخل منيوزا بجيش آخر إلى كاليسيا، والأستوريا، وأفييدو، وسانتيان، وبسكاي، حيث قام أيضا بأعمال إتلاف جسيمة في السهول والأودية، لكن الجبال سلمت كلها من قهر العرب . فإلى هناك انسحبت قوات إسبانيا وصمدت صمودا كبيرا . وحيث إن هؤلاء القوم لم يكن لهم أمير يسوسهم فقد هيأ الله لهم بيلاج بن فافلة، وهو فارس قوطي كان الملك غيطشة قد أمر بقتله لينكح امرأته التي كانت فائقة الجمال، فخشي بيلاج أن يصيبه سوء، والتجأ إلى مدينة كانطابُري (102) التي هي الآن خربة، حيث عَاشَ مع أخته الحسناء عندما انتصر العرب في المعركة، إلا أنه لما شاهد شدتهم في تخريب مملكة القوط ومحو اسمهم، وظن أنه غير آمن في ذلك المكان، ذهب إلى شيشون (103) التي كان منيوزا واليا عليها . وبالرغم على أن هذا الخائن ضد رأي الجميع انضم إلى العرب وسلم لهم البلاد، فإنه مكث معه بضعة أيام أصبح خلالها منيوزا عاشقـــا لأخت بيلاج، فأرسله إلى قرطبة للتفاوض مع العرب حتى يستمتع بها في غيابه، وكذلك فعل واعدا أن يتزوج بها . وبما أنه لم يف بوعده وكان يستهزىء بها فإنها شكت ذلك إلى أخيها بعد أيام، فالتجأ مَعها إلى الصخور تجنبا لما هو أسوأ . فاغتاظ عاشقها من ذلك إلى درجة أنه أوهم طارقا بأنه يجند الجنود ضده وأنه لابد من التخلص منه . وعملا بهذا الرأي أرسل طارق جندا من المتطوعين ليقضوا عليه، لكن عند وصولهم إلى بريتيد حيث كان بيلاج مقيما، رق لحاله أحد المسيحيين من الجند فنبهه، ففر مسرعا وعبر نهر بيوني الذي كان في غاية المد وحال دون مطاردته ممن كانوا يتبعونه، فدخل وهو حزين جدا إلى وادي كانكَاس، وشاء الله أن يلتقي بعدد من نبلاء أستوريا، وبيسكاي، وجيرانهم الذين وفدوا بتفويض من قومهم ليخضعوا إلى سيطرة العرب . ولما علم بسبب سفرهم عاتبهم بحدة وألقى عليهم خطابا من هذا القبيل جاء فيه (104) : «إنه من

(101) أي في سفح الجبال التي يمرون بها .
(102) قرب لوكَروني .
(103) أو كَيشون .
(104) ليس من المناسب أن يسرد خطاب في ملخص تاريخ ، ولهذا فإنني لم أذكر منه سوى اللب .

الخطير جدا التفاوض مع هؤلاء المسلمين(104م) الذين دنسوا المعابد واعتدوا على أقدس الأشياء، إنهم يلقنون الأطفال دينهم ويضطهدون الناس لارغامهم على اعتناقه. فعار على قوم صمدوا في وجه المسيطرين على العالم كله ودافعوا عن أنفسهم ضد القوط والرومان أن يخضعوا لنير العرب ، فالبنسبة إليهم لم يهزموا مع الآخرين وما زالت قواتهم كاملة، فَلأَنْ يعانوا الموت خير لهم من أن يخضعوا الى قساوتهم واذا كان أضعف الحيوانات تتعرض للموت لانقاذ صغارها، فماذا عسى أن يفعل أناس شجعان في مثل هذه المناسبة ؟ وبما أن نساء المسيحيين الأولين وأطفالهم ضحوا في سبيل دينهم، فمن العار عليهم أن يخونوا هذا الدين لتسليم أنفسهم إلى سلطة البرابرة . فلا ينبغي الاطمئنان إلى وعودهم، وبالاحرى وعود الذين تنكّروا لايمانهم وسلموا وطنهم إلى المسلمين . لَأَنْ يموتوا بكرامة خيرٌ لهم من أن يتحملوا كل ما عاناه الآخرون على حساب ما عاهدوا به، وإن الكثرة لا تغني شيئا في المكان الذي هم فيه إذ يمكن الدفاع بقليل من الرجال ضد قوات كبيرة، وإنهم قد اعتادوا العمل والشقاء، وإن العديد من المسيحيين سيسارعون إليهم بمجرد ما يرون أنهم يقاومون ، فوراءهم فرنسا أمّ شبيبة شجاعة لن تطيق تحمل أعداء خشنين كهؤلاء على أبوابها لمدة طويلة، وسيكون الله في عونهم إذا دعوه لانقاذهم، وسيعطيهم القوة الكافية للصمود».

بهذه العبارات وأمثالها أذكى بيلاج حماسهم، حتى إنهم رجعوا إلى بلادهم دون أن يتقدموا أكثر ولا أن يقوموا بمهمتهم، فاستدعوا هناك القبائل وأخبرهم أنهم لقوا شخصا كبيرا قديسا صرفهم عن الخطأ الذي كانوا على وشك ارتكابه . فانتخبه أهل بيسكاي واستوريا رئيسا عسكريا (105)، وصعد لحينه إلى جبل أوزيب حيث جعلوا يحاربون بانتظام أكثر من ذي قبل . ولما انتشرت هذه الأخبار انضم إليه كل الذين أمكنهم الانفصال عن العرب، وظل الذين لم يستطيعوا ذلك ينتظرون الفرصة . وقد أطلق عليه العرب سخريةً لقبَ ملك الجبال . ولم يطق طارق تحمل هذا العار فسرح له جيشا قويا بقيادة إبراهيم بن علقمة بصحبة أسقف إشبيلية وحاكم شيشون (106) .ولما رأى بيلاج أنه أضعف من خصمة وضع

(104م) عبر عنهم – كعادته – بالكفار .
(105) عـام 717 .
(106) وهما أولباس ابن الملك انجيبته ومنيوسة .

معظم رجاله في كمين في الجبال، وأقام هو مع ألف من الرجال الأكثر خفة في السلاح معسكراً في الدروب ليحمي منافذها .

واختار لهذا الغرض كهفا كبيرا (107) يصعب الصعود اليه يوجد في فوهة أستوريات أوفييدو، فحاصره العرب هناك . وحاول أسقف إشبيلية أن يقنعه بتسليم نفسه بدعوى أن القوط لم يستطيعوا المقاومة بكل فرسانهم، واعداً إياه بجميع أنواع المعاملة الحسنة في هذه الحالة . لكن بيلاج غضب من هذا الكلام ورده ردا قبيحاً، فرجع الاسقف ساخطا ونصح رجاله بالهجوم على الكهف . يقول البطريق دوم رودريك إن الله حقق ذلك اليوم معجزات لصالح المسيحيين، وأعانهم في محاربة أعدائهم الذين كانت الأحجار والنبال والسهام تتحول ضدهم، حتى إن بعضهم أقام في مكانه لم يبرحه ونجا الباقي منهم فرارا. وبعد أن حمد بيلاج الله على مثل هذه الاغاثة الغير المتوقعة، طارد فجأة الأعداء وأجلاهم عن هذه الجبال . وفقد العرب عشرين ألف رجل بينما لم يقتل ولو مسيحي واحد ! ولجأ الذين خلصوا من المعركة إلى جبل يقال إنه ذاب تحتهم فعرقوا جميعا في نهر يْوان المار بسفحه (108) وأخد الخائنان أولباس ومنيوزة اللذان لم يستطيعا تسلق الجبال وقتل هذا الاخير، أما الأول فلم يعرف مصيره ولم يذكره بعد المؤرخون

ولما علم موسى بذلك ظن أن المسيحيين المنضمين إلى فئته قد دبروا المؤامرة ضد العرب، فضرب عنق الكونط يوليان وابني غيطشة جزاء خيانتهم ، لكن ذلك تسبّب في أن النبلاء المتحالفين مع العرب أو جسوا منهم خيفة وانضموا إلى استوريا، وتبعهم في ذلك كثيرون، والذين لم يكونوا من قبل آمنين في الجبال خرجوا ناشرين البنود لمهاجمة العرب في السهول، وانتصروا عليهم في عدة اشتباكات، واسترجعوا منهم مدن ليون، ورويدة، ومانسيلا، وكاكا، وسائر مراكز المنطقة . غير أن الوليد لم يكن عاطلا في آسيا، فأرسل لدعم انتصارات طارق وموسى ثلاثة جيوش قوية في المملكة بقيادة ثلاثة رؤساء شجعان هم مروان، والعباس، والمختار، فجاسوا

---

(107) كهف أنيا أوسانت ماري .

(108) في مكان يدعى أولاكلياص .
ولم نر فائدة في التعليق على تحامل مارمول على العرب والمسلمين وإغراقه في التحيز للمسيحيين حتى بحشد الأوهاه والخرافات .(مترجم) .

خلال ديار رومانيا وسيليسيا، واستولوا على عدد كبير من المـــدن والحصون، ثم عادوا إلى دمشق محملين بالغنائم بعد ما هزموا حاكم أرمينيا [109] . ولم يقف الوليد عند هذا الحد، بل جهز ثانيا جيشا أقوى مما سبق ليقيم الحصار أمام القسطنطينية، ولم يقبل إطلاقا الهدنة التي طلبها منه أنسطار الثاني وخلفه تيودور الثالث .

وفي هذه الاثناء شبت الفتنة بإسبانيا بين القائدين، إذ أساء موسى معاملة طارق إلى أن ضربه ــ على ما قيل ــ ، الامر من أجله عاد طارق إلى دمشق بصحبة رفيقين له هما ماجيطار وتدمير، واتهم موسى أمام الخليفة باختلاس المال وغير ذلك من الجرائم . وقاد موسى من جهته نصف جيش إسبانيا تاركا النصف الآخر لابنه عبد العزيز، وعبر إلى بلاد البربر ليرجع إلى الطاعة بعض الأفارقة الثائرين، لكنه توصل أثناء سيره بأمر من الخليفة بالعودة إلى دمشق . فحث السير ودخل إلى نوميديـــا حيث قام بأعمال قاسية ضد المغلوبين، وبعد أن دخل بلاد السود رجع إلى القيروان من الجانب الشرقي لليبيا محملا بالغنائم، ثم أخذ طريق دمشق حاملا معه جميع ذخائره . وعندما وصل إلى الاسكندرية أرسل إليه سليمان أخو الخليفة يأمره بألا يسرع، لأن الوليد محتضر، وربما استولوا على ذخائره، فلم يعبأ موسى بذلك ووصل قبل موت الوليد بخمسة أيام، فغضب سليمان وعزله عن حكم إسبانيا في خلافته، كما سنذكره في محله . ومات الوليد عام 718، بينما كان ليون إيزور [110] امبراطورا بالقسطنطنية . لكن المؤلفين العرب ــ كما أسلفنا ــ غير متفقين مـــع مؤرخينا، إذ يجعلون تاريخ فتح إسبانيا عام اثنين وسبعمائة ، والآخرون يجعلونه عام اثني عشر وسبعمائة .

---

(109) وهو أباسيوس .

(110) مات الوليد في منتصف جمادى الآخرة 96هـ / فبراير 715م . أما الامبراطور ليون ايزوريان فلم يستلم الحكم إلا سنة 717 ، وظل امبراطورا الى سنة 741م . (مترجم) .

الفصل الحادي عشر

في سليمان (الحفصي) [111] تاسع الخلفاء وما وقع في خلافته من أحداث تستحق الذكر

تولى سليمان (الحفصي) خلافة العرب عام ثمانية عشر وسبعمائة، ولم يحكم سوى ثلاث سنوات، وسار على نهج أخيع الرامي إلى مهاجمة القسطنطنية، فجهز أسطولا حربيا بكل ماكان يحتاج اليه للقيام بهذه المهمة . ولما وصلت هذه الأخبار إلى الامبراطور استعد للمقاومة وأمر السكان بادخار قوت ثلاث سنوات، وبخروج من لم تتوفر لديهم الوسائل لذلك من المدينة مع ذويهم . ثم أمر بتجهيز عدة مراكب في الميناء، وادخر كمية من النيران الصناعية (الاغرقية) وغيرها من الآت الحرب في انتظار مجيء العرب . وفي هذه الأثناء غضب سليمان على موسى – كما أسلفنا – وعزله عن ولاية إفرقيا وإسبانيا، وأرسل مكانه يزيد [112] وبقي موسى منكوبا إلى أن مات غيظاً .

وبعد أن استولى سليمان على أباسيا وليسيا وإيبيريا أمر مروان بن محمد [113] بالدخول إلى طراس بجيش قوي ومحاصرة القسطنطينية برا، بينما يهاجمها هو بحرا . فامتثل مروان ودخل إلى طراس وهو ينهب ويكتسح كل شيء إلى أن عسكر أمام المدينة، وأمر بحفر خندق من بحر إلى آخر محصن بسور متين يمنع كل خروج من المدينة، وخيم منتظرا سليمان الذي كان قادما بألف وخمسمائة سفينة، بعضها محمل بالآت الحرب، فكان البحر مغطى بها من مانيافي إلى سيكلوبيوم [114] حتى إنهم أوقعوا الرغب في الامبراطور والسكان الذين رأوا أنفسهم محاصرين بحرا وبرا وقد سدت أبواب النجدة في وجوههم . لكن ثارت زوبعة خطيرة أرغمت الجيش

(111) لا معنى لكلمة (الحفصي) هنا ، فنسب سليمان بن عبد الملك بن مروان صريح في بني أمية . (مترجم) .

(112) بل محمد بن يزيد مولى قريش أو مولى الأنصار هو الذي حل محل عبد الله بن موسى بن نصير في القيروان عام 97 ، واستمر واليا على افريقيا والاندلس الى وفاة سليمان بن عبد الملك . (مترجم) .

(113) بل أمير الحملة على القسطنطينية هو سلمة بن عبد الملك بن مروان ، أخو الخليفة . (مترجم)

(114) بضواحي القسطنطينية .

البحري على الارساء في شواطئ طراس ، ولما كانت السفن الكبرى لا تستطيع أن تحمي نفسها فقد أرسل الامبراطور في الحين مراكبه ضدها محملة بالنيران الاغريقية فأحرق جلها وأغرق ، وتحطم الباقي قرب أسوار القسطنطينية ، ومات سليمان أسفا على هذه الخسارة(115) ورغم قيام بعض الخلاف بين العرب لتعيين خلف له ، فإنهم لم يبرحوا أن عينوا عمر حتى لا ينقطع الحصار .

---

(115) لم يقد سليمان بن عبد الملك الحملة البحرية بنفسه ولا مات أسفا على فشلها ، ولا اختير عبد العزيز من أجل متابعة الحصار . (مترجم)

الفصل الثاني عشـــر

في عمـر الثـانـي اسما ، عاشـر الخلفـاء
وما حدث في أيامــه مما يستحـق الذكـــر

بعد موت سليمان خلفه ابن عمه عمر بن (عبد العزيز)(116) حفيد عبد الملك ، في أوائل سنة إحدى وعشرين وسبعمائة (117) بينما كان الحصار أمام القسطنطينة . ولقب أسد الله . وعين أهل الشام مكانه يزيد أخاه البكر (118) إلا أن هذا الاخير خشي أن يثور الجيش فبعث لحينه إلى عمر يبايعه ، وقام عمر من جهته بأسرع ما يتصور من الاجراءات لجمع المراكب في مصر وإفرقيا وأوربا ، وحشد الجنود والمؤن والعدد وغيرها من الأشياء اللازمة للحصار الذي تابعة مروان بصعوبة كبيرة طوال فصل الشتاء كله . ذلك أنه سقطت الأمطار والثلوج بغزارة فهلك عدد كثير من الناس والدواب . وعند قدوم فصل الربيع جاء الضحاك بن سفيان بن عروف (؟) بأربعمائة سفينة من مصر . غير أنه لما وصل قرب القسطنطينية وأخذ ينزل من الزوارق والقوارب المؤن والعدد لحملها إلى الجيش البري ، واغتنم الاسرى المسيحيون هذه الفرصة للذهاب الى المدينة وإخبار الامبراطور بأن الجيش البحري لم يجرؤ على الدنو من مانيافيا خوفا من النيران الاغريقية وأنه أرسى بميناء كرطان . وفي غداة الغد ذهب الامبراطور مبكرا لمهاجمته بالنيران الاغريقية ، ولم يرجع إلا وقد أحرق أو شتت قسما كبيرا منه . ومن جهة أخرى فإن مروان عندما أرسل جزءا من الجيش إلى نيسي ونكوميدي لاجتلاب الميرة انقض عليهم بغتة أمراء بلغاريا وطراس الذين كانوا قد لجؤوا إلى الجبال مع رعاياهم ، وقتلوا منهم نحو ثلاثين ألف رجل . ورغم كل هذه الخسائر تابع مروان الحصار بشجاعة كبيرة إلى أن حضر يزيد بأسطول مؤلف من ثلاثمائة وستين سفينة جمعها في إفرقيا ، لكنه خشي أن يحرق أسطوله إذا اقترب من القسطنطينة ، فمر

(116) في الأصل عمر بن معاذ ، وقد أصلحنا ليستقيم السياق . (مترجم)
(117) بل بويع عمر بن عبد العزيز يوم مات سليمان في 20 صفر 99هـ / 2 أكتوبر 717م . (مترجم)
(118) لا يعرف هذا تاريخيا .(مترجم)

بالقرب من شواطئ بيتيني واجتاح البلاد كلها بعد أن نزل رجاله إلى البر ، واضطر أخيرا إلى الانسحاب بعدما هزمته جنود الاقليم التي تجمعت لمقاومته . وفي هذه الاثناء كانت القسطنطينية ، تُقْذَف بجميع الاختراعات والآلات التي اخترعها الانسان للاستيلاء على المدن ، لكن المحاصَرين كانوا يدافعون عن أنفسهم بأكثر من ذلك ، وتمكن الأسطول الامبراطوري بواسطة النيران الاغريقية من الاستيلاء على الخليج وتمكين الزوارق الحاملة للمؤن من المرور إلى القسطنطينية . ولم تكن الحالة كذلك في المحلة ، إذ كانوا مضطرين إلى أكل الخيل والجمال بسبب افتقاد المؤن ، وحتى الموتى ـــ حسب قول بعضهم ـــ والبراز الذي كان تذرى عليه النخالة أو الدقيق . وانتهت الطامة بظهور الطاعون في الجيش فأتلف ثلثه ولم تسلم منه القسطنطينية ، إذ هلك به فيها ما يفوق مائة ألف نسمة . وعندما أخبر عمر بهذه الرزايا عزاها إلى غضب الله وأمر مروان برفع الحصار ، لكن هذا الأخير ما كاد يخرج من قناة القسطنطينة حتى أغرقت زوبعة رهيبة معظم سفنه وأحرقت نار السماء جزءا آخر منها ، فكان البحر يشاهد وهو يغلي فيذوب قار البواخر ، حتى لم ينجح من ثلاثة آلاف مركب إلا خمسة عشر أسر منها المسيحيون خمسة ، وذهب الباقي ليحمل إلى الخليفة عمر نبأ الكارثة .

ولما تخلص الامبراطور من هذا الخطر حمد الله على المعجزات الظاهرة للعيان التي أنعم بها عليه ، لكن عمر الذي عزا غضب الله إلى سماحه للمسيحين بالقيام بأشياء مخالفة للدين المحمدي ، ألزم كل من كان أبوه أو أمه مسلما بأن يعتنق الاسلام فورا وإلا قُتل ، وأمر بألا يسمح لأحد بأكل لحم الخنزير أو عصر الخمر أو شربه في مملكته بأسرها . وأعفى بهذه البراءة من جميع أنواع الاتاوات والخراج المسيحيين الذين يعتنقون الاسلام ، وأثقل كاهل الآخرين . كما أمر ألا يقبل حلف المسيحيين إذا كانت لهم قضايا مع المسلمين ، و(وسوس له الشيطان) فطلب من الامبراطور (119) أن يعتنق الاسلام وأرسل إليه أحد الاسلاميين ليلقنه إياه (120) .

---

(119) ليـون (ايزوريان) .

(120) من أعظم حسنات عمر بن عبد العزيز رفعه الجزية عمن أسلم من أهل الذمة ، وقد أضر ذلك كثيرا بدخل بيت المال ، وضج الولاة بالشكوى ، وكتب إليه أحدهم مستأذنا في أن يفرضها على من أسلم لكثرة الداخلين في الاسلام ، فأجابه عمر برسالته المشهورة : « فضع الجزية عمن أسلم ، قبح الله رأيك ، فإن الله إنما بعث محمدا صلى الله عليه وسلم هاديا ، ولم يبعثه جابيا ، ولعمري لعمرُ أشقى من أن يدخل الناس كلهم في الاسلام على يديه » . فأين هذا مما يدعيه من إرغام المسيحيين على اعتناق الاسلام وتهديدهم بالموت ؟!. (مترجم)

ثم إن عبد العزيز بن موسى (بن نصير) الذي تركه أبوه بإسبانيا ليخلفه أثناء غيابه ، ذهب ليقيم بإشبيلية التي أطلق عليها اسم مدينة حمص بسبب تشابه تجارتها وميناتها بمدينة الشام التي تحمل نفس الاسم . ولما علم بموت أبيه كتب إلى أحبابه وأنصاره بإفرقيا أن يلحقوا به ووعدهم بأنه سيعطيهم المال والتُّراث ، فجلب ذلك إلى إسبانيا قوات كبيرة تمكن بواسطتها من أن يُعترف به في كل مكان . وبذل كل ما ما استطاع من جهد لطرد المسيحين من البلاد ، وتزوج — حسب قول بعضهم —[121] أرملة الملك رودريق، وكانت امرأة افريقية جميلة نبيلة[122] . وهي التي أوصته بأن يُدعى ملكا ووضعت على رأسه تاجا من ذهب عندما كانا منفردين في غرفتهما ، مُوهمة إياه أن ذلك يليق به كثيرا ، ويقال أيضا إنها هي التي أمرت باتخاذ باب المشور الذي كانوا يدخلون منه للتحدث إليه منخفضا كثيرا ليكونوا مضطرين إلى الانحاء إلى الارض تعبيرا عن احترامه الكبير . وحدث أن رآه عربيان[123] من الأشراف وعلى رأسه التاج ، فكرها ذلك الحلي الذي يحرمه الاسلام وطعناه بخنجر في أحد المساجد وهو يصلي ، ثم فعلا مثل ذلك بزوجته ، وعيَّنا مكانه أيوب بن حبيب (اللخمي) الذي لم يحكم سوى ستة أشهر ، وخلفه الحر بن عبد الرحمان (الثقفي) الذي حكم عامين اثنين . وعندما قويت شوكة بيلاج استرجع من أيدي العرب عدة حصون سواء بالقوة أو بالحيلة . وبانضمام الفونسو ابن دوم بيدري ، دوق بسكاي وقريب الملك روديق بالزواج من ابنته[124] انتصرا معا على العرب في عدة معارك . ومات الخليفة عمر في بداية السنة بعدما حكم عامين اثنين ، وخلفه أخوه يزيد[125] .

(122) وهي إيجيلون أوفيلينت .

(123) السيد وحبيب (؟)

(124) أوريفيند

(125) ليس يزيد بن عبد الملك أخا لعمر بن عبد العزيز وإنما هو ابن عمه . (مترجم) .

الفصل الثالث عشر

في يزيد الثاني اسما ، حادي عشر الخلفاء وما وقع من أحداث تستحق الذكر في خلافته

وتولى الحكم يزيد الثاني اسما عام ثلاثة وعشرين وسبعمائة ، ولم يدم حكمه إلا ثلاث سنوات ونصفا . وفي العام الأول من خلافته بويع يزيد آخر (126) في بلاد فارس ، وزحف إلى دمشق بجيش عرمرم . لكن الخليفة الحقيقي أرسل لاعتراضه جيشا أقوى بقيادة مروان (127) الذي هزمه وقتله ثم أعاد بلاد فارس إلى طاعة يزيد (بن عبد الملك) ومكنه بذلك من ناصية الامبراطورية العربية كلها . وفي العام الثاني أغراه أحد يهود فينقيا بأن يأمر بنزع جميع التماثيل من معابد المسيحيين ، لكن معظم المدن امتنعت عن ذلك فمات دون أن ينفذ هذا الأمر ، غير أن الأمبراطور ليون باغراء من ذلك الاسلامي الذي تحدثنا عنه (128) اعتنق هذه البدعة التي تسببت في أضرار كبيرة للمسيحية جمعاء . ذلك أن الامبراطور تصلب في رأيه بضرورة تحطيم التماثل ، بينما عارضه بشدة البابا كَريكَوار الثالث قائلا : إنه ليس له أي حق في التدخل في شؤون العقيدة ولا في في خرق عادات الكنيسة التي أقرها البابوات ، ولما لم يتمكن من صرف الامبراطور عن خطئه ، أعلن البابا حرمانه ومروقه ، وأوقف في إيطاليا جميع موارد الامبراطورية .

وفي عام أربعة وعشرين وسبعمائة زحف إبراهيم بن عبد الملك (129) الذي خلف الحر في ولاية إسبانيا بجيش قوي ضد بيلاج الذي جعل كرسي إمارته في مملكة ليون ، فحاربه قرب دالهِيُور وقتل بها مع معظم رجاله ، وإن كان ابن راشد

(126) أي المهلب بن أبي صفرة (كذا) . والصواب : يزيد بن المهلب (مترجم) .

(127) بل بقيادة مسلمة بن عبد الملك أخي الخليفة . (مترجم) .

(128) بيكَيت .

(129) الذي خلف الحر بن عبد الرحمان الثقفي هو السمح بن مالك الخولاني ، ولم يتول إمارة الأندلس قط أي أموي قبل عبد الرحمان الداخل . انظر أحمد المقري ،نفح الطيب ، I : 299 . (مترجم) .

يقول بأنه قُتل بطرطوشة . فاختار أهل قرطبة فورا ملكا عليهم عبد الرحمان بن عبد الله (الغافقي) الذي لم يدم حكمه سوى تسعة عسر شهرا . وفي هذه الفترة هزم كل من بيلاج وصهره ألفونسو العرب في عدة معارك ، واسترجعا عدة حصون عمراها وحصناها . وأخيرا مات يزيد عام سبعة وعشرين وسبعمائة في شهر فبراير (130) وخلفه ابنه الوليد الثاني (131) .

(130) مات يزيد بن عبد الملك يوم 25 شعبان عام 105 /28 يناير سنة 724م . (مترجم) .
(131) قفز مرمول على ملك هشام بن عبد الملك الذي خلف يزيد بن عبد الملك ، ودام حكمه من عام 105 الى عام 120هـ /724 – 743 ، وسيذكر في الفصل 16 هشام بن يزيد – خطأ – مكان إبراهيم بن الوليد بن عبد الملك ! (مترجم) .

الفصل الرابـع عشـر

في الوليد الثاني اسما ، ثاني عشر الخلفاء وما وقع في خلافته من أحداث تستحق الذكر

بعدما شارك الوليد في الامبراطورية عمه حسن (؟) لصغر سنه ، دامت خلافته تسعة عشر عاما . ولما كان مسالما أكثر منه محاربا ، فإنه شيد في السنوات الأولى من حكمه مساجد وقصورا فاخرة في دمشق وغيرها من المدن الكبرى ، كما غرس عدة بساتين وجلب إليها الماء بواسطة قنوات لتزيين المدن وسقي الحدائق . غير أن القواد العسكريين لم يبرحوا يحاربون ، وهكذا فقد استولى مروان (132) على مدينة قيصرية بعد توغله في الكابادوس (133) . وفي نفس الوقت حدث شيء غريب في شاطئ آسيا حيث شوهدت الأرض تحترق من قاع البحر ، وخرج منه شبه سيل من اللهب والدخان قذف إلى السماء بأحجار الجبال والصخور لشدة يبسها من كثرة الاحتراق ، حتى كانت تطفو على سطح الماء . ويضيفون أنها كانت كثيرة جدا لدرجة أنها غطت الجبال (134) وتكونت منها جزيرة . واغتنم الوليد وجود الحروب الأهلية لمحاربة الامبراطورية ، فأرسل ابن عمار ومعاوية على رأس جيش يتألف من تسعين ألف رجل لمهاجمة مدينة نيسي في بيتينيا ، لكن المسيحين صمدوا بشجاعة حتى إنهما اضطرا إلى التراجع بخسارة في جنودهما وسمعتهما ، ولو أنهما استوليا على مدينة طي التي كانت قوية ونهبا جميع الأماكن غير المحروسة ، ثم عادا إلى الشام.

وبعد ذلك شن كفان أمير كازاري ابن ملك البلغار الحرب ضد العرب في جهة أرمينيا ، فغلب وقتل كَرداك والي هذا الاقليم وإقليم ميدي وأخضعهما معا إلى

(132) بل أسد بن عبد الله القسري عامل على خراسان . (مترجم) .

(133) عـام 729 .

(134) في ليسبوس وأبيدي وآسيا الصغرى وما سيدونيا .

الامبراطورية الرومانية (135) . ومن جهة أخرى أبرم مروان الهدنة مع كايان ، وقاد جيشا قويا ضد أتراك جبل القوقاز (136) الذين يقطنون في أماكن منيعة قرب أبواب (الكاسبيان) ، فكانت له معهم معركة دامت يوما كاملا هلك فيه العديد من الرجال من كلا الفرقين دون أن يتم النصر لأحدهما . وبما أنه كان محبا للحرب فقد وجه سلاحه من هناك ضد الامبراطورية الرومانية ، فذخل الكابادوس ، واستولى على قلعة كُرفيان بسبب خيانة بعض المسيحين المزيفين الذين سلموا له القلعة . وعاد في السنة الموالية لمحاربة الأتراك بجيش أقوى ، إلا أنه عندما وصل إلى ميدان القتال ظن أن العدو حامل عليه بقوات عظيمة ، فانسحب دون أن يقوم بأي شيء .

هذا وكان الغلب في اسبانيا لبيلاج وألفونسو ، وكذا للنافاريين والتيراكَونيين ، وذلك بعد أن انتخبوا ملكا لهم كَارسي راميريز في سان يوحنا بيي دي بورط . وأخيرا مات بيلاج عام اثنين وثلاثين وسبعمائة بعد أن حكم أربعة عشر عاما ، وإن كان مطران طليطلة قد زاد سنتين في مدة هذا الحكم ، وتوفي هو الآخر بعد ذلك بمدة ، وخلف بيلاج ابنُه فافيلا (137) فلم يبق في الحكم غير عامين حتى قتله دب أثناء الصيد . واتخذ هؤلاءالأمراء مدينة ليون كقاعدة لملكهم ، واختاروا كشعار (138) لهم أسدا في مجال من فضة ، لا ليكونوا ملوكا لهذا المجال ولكن لأنهم حاربوا كالأسود دفاعا عن وطنهم .

فـــرنســـا

وفي أثناء حكم فافيلا ، وبينما كان عبد الرحمان (الغافقي) واليا بإسبانيا ، دخل العرب إلى فرنسا بجيش قوي من جانب اللانكَدوك ، وهذا ما يدعونا إلى التحدث عن هذه البلاد وأصل الفرنسيين . كانت بلاد الغال (أو الكَول) التي نسميها الآن فرنسا تحت حكم الألمان ، وهم شعب محب للحرب أتى من الفرانكوني . ذلك أنه في عام أربعمائة تقريبا خصص لهم البطريق الروماني أيتيوس الذي كان واليا على بلاد الغال ، كمنطقة لسكناهم حارة السكوانيين الواقعة قرب

(135) عـام 730 .
(136) وهم الاودين والطوطاسيون و الوثنيون .
(137) في كايكـاس .
(138) في الأصل : كسلاح ، لكن السياق يقتضي الشعر (مترجم) .

ألمانيا (139) وذلك ليستعمل قواتهم ضد الهُون الذين كانوا يجتاحون أوربابقيادة أتِّيلا . وانتشر هؤلاء القوم في مدة وجيزة حتى استولوا على هذه الدولة وطار صيتهم في كل مكان . ومنذ ذلك العهد انهمك أمراؤهم في الملذات فأصبحوا كسالى وفقدوا شهامتهم الأولى ، وتركوا عبء تدبير الشعوب لوازرائهم الذين صار كل شيء تحت سيطرتهم . وأول هؤلاء الوزراء الذي اكتسب شهرة في بلاد الغال ضد الثوار الذين ظهروا في الاقليم بسبب ضعف الملك هو بِّيبِّان بن أرنولف ، دوق بافيير ، وبعده ابنه الثاني شارل مارتيل (140) الذي كان شجاعا مقداما قويا لدرجة أن الفرنسين كانوا يعتبرونه أميرا لهم . وفي ذلك الوقت فان أُود ، دوق الاكتين والأمير القوطي عندما رأى شارل مارتيل مشتغلا في محاربة الثوار ، اجتاح الحدود حتى أرغم شارل على أن يوجه قواته ضده ، في حين اجتاز العرب جبال البرانس ودخلوا مدينة ناربون عنوة وقاموا فيها بأعمال قاسية ليبثوا الرعب في باقي المدن ، ولما هوجم أُود من طرف عدوين بهذا القدر من القوة ، تواطأ مع العرب بواسطة صهره مونيُوزة أمير سردانية ، وألحق بفرنسا أضرارا كبيرة بفضل قواتهم التي أعاروه إياها . لكن عندما رآى أنهم يحتلون جميع القلاع لأنفسهم دون أن يخبروه بذلك ، وقد استولوا على مدينتي نيم وأفينيون (141) مع كل الأماكن المجاورة عزم على طردهم . فجهز لهذا الغرض جيشين قويين وحاربهم فغلبهم وقتل جلهم . لكن سام (؟) الذي كان يقودهم هرب الى إسبانيا وشكا ذلك إلى عبد الرحمان كما لو أن مونيوزة خدعهم ، فلم يطلب عبد الرحمان مزيدا من الايضاح ، وزحف بجيشه محاصرا في قلعة سردانية ، ففر ليلا لافتقاره إلى الماء ، وعندما توجه إلى جبال البرانس ليعبر إلى الاكيتين فاجأه العرب وضربواعنقه وبعثوا برأسه وبزوجته إلى عبد الرحمان ليكون انتقامهم تاما من الذين خدعوا اسبانيا . ولما تخلص عبد الرحمن من عدو كان في استطاعته أن يغدره من خلف لو اجتاز إلى فرنسا ، حشد ما يُربي على خمسمائة ألف رجل ودخل إلى هذه المملكة ، حيث أخذ بالتقتيل منذ عبوره نهر الرون حتى كان لا يشاهد فيها بعد ذلك بزمن طويل سوى أكداس من العظام . ودخل اليها في السنة الموالية بقوات أكثر . استورد قسما منها من إفريقيا ،

(139) حسب رأي بعضهم .

(140) تحت حكم تيودوريك .

(141) ويضيف المؤلف : وكذا جبل تيلوز بكامله .

وفي عزمه السيطرة على فرنسا فحاصر مدينة تولوز وإن كانت حصينة متوفرة على كل ما تحتاج اليه للدفاع . لكنه هاجمها بشدة حتى ملكها ، وأتبعها بوردو فاستولى على كل شيء فيها ودمر حتى المعابد وانتقل من هناك عبر منطقة البيريكور الواقعة في الجانب الآخر من نهر الكارون ، إلى سانطونج ولانكوموا وليموزان ، وأتى إلى بواتيي وقد انتصر على أود في معركتين قتل فيهما عددا لايحصى من رجاله . ومن هناك انطلق إلى تور التي احتلها عنوة ودمرها وأحرق كنيسة سان مارتان والقصر الملكي(142) فأفزعت كل هذه الانتصارات أود لدرجة أنه ندم على ما فعل ، وتصالح مع شارل مارتيل ليصمدا جميعا في وجه عدوهما المشترك .

رأى شارل أنه لايمكن مقاومة هذا السيل إلا بقوات كبيرة، فحشد لهذا الغرض جميع قوات فرنسا، واستنجد بالألمان والبوركينيين، ومع الثقة في رحمة الله شرع في محاربة العدو . ويقال إن الحرب دامت ستة أيام، كانوا يحاربون من الصباح إلى المساء، وإن عبد الرحمان في ليلة اليوم السادس عندما رأى أنه فقد ستين وثلاثمائة وخمسة عشر ألف عربي دون أن يفقد المسيحيون أكثر من ألف وخمسمائة، لم يرد انتظار نصر اليوم السابع ، فترك جميع خيامه منصوبة بما فيها من الذخائر وهرب إلى إسبانيا مع من كان قادرا على اتباعه . لكن النفاريين الذين احتلوا ممر الجبال قتلوه ومن معه . ولما أراد شارل في الغد الرجوع إلى المعركة ولم ير أحدا قادمًا إليه عرف أن العدو قد انسحب، فدخل إلى معسكره ووجد الأموال الطائلة، وقد خلص هذا النصر البلاد من كارثة عظمى، وفرنسا من الفزع والعبودية التي كانت إسبانيا تئن منهما . وبعد موت عبد الرحمان انتُخب خلفًا له عمر بن سعد(143) الذي حكم عامين وثلاثة أشهر، ثم تلاه ابن قاسم الذي لم يحكم سوى شهرين وسبعة أيام، فأيوب لمدة سنتين، فجعفر لمدة ستة أشهر وثلاثة أيام إذ خنقه رجاله . وخلفه محمد(144) الذي لم يحكم سوى شهرين، وتبعه عبد الرحمان الفقيه الذي حكم ثمانية عشر شهرا والذي قتله رجاله غدرا، وخلفه عبد الملك(145) الذي

(142) بل احتل بواتيي لاتور ودمر الكنيسة سان هيليرلاسان مارتان .

(143) جميع أسماء الولاة من عمر بن سعد هذا الى ابن الشيخ ، بل وفي الصفحات التالية كلها خيالية خاطئة ، باستثناء محمد وعبد الملك . وقد خلف عبد الرحمان الغافقي بالتتابع : عنبسة بن سحيم الكلبي ، ثم عذرة بن عبد الله الفهري ، ثم يحيى بن سلمة الكلبي ، ثم عثمان الخثعمي ، ثم حذيفة بن الاحوص ، ثم الهيثم بن عدي ، ثم محمد بن عبد الله الاشجعي ، ثم عبد الملك بن قطن الفهري الخ ... انظر أحمد المقري ، **نفح الطيب** ، 299:1 . (مترجم) .

(144) محمد بن عبد الله .

(145) ابن حسن (كذا) . والصواب : ابن قطن (مترجم) .

دام حكمه عامين أحرز المسيحيون خلالهما بعض الانتصارات على العرب واسترجعوا عدة حصون بمناسبة هذه التغيرات . وأخيرا لما مات عبد الملك انتخبوا ملكا عليهم ابن الشيخ، أو أتينيو، الذي أمر فوراً بذبح جميع الذين انتخبوه خوفا من أن يعاملوه بمثل ما عاملوا الآخرين . وكان شجاعا جدا فاستولى على كاليسيا كلها، وأخذ عنوة مدينة بامْبلونة، وملك إقليم نافار كله .

ولما مات أُود استولى شارل مارتيل على جزء من إماراته . لكن ابني الاول هونولْدْ كَايْفر شهرا الحرب ضده بإعانة أهل ناربون، فعبرا نهـر الرون واجتاحا كل شيء تاركين عددا كبيرا من المقتلى . ذلك أنهما لما دخلا إلى أقليم ألّوبْرُوج، الذي يسمى الآن دوفيني، خرباه قبل أن يتمكن شارل من حمايته . غير أنهما بمجرد ما علما باقترابه منهما انسحبا، وبعدما أكدا مع أتينيو العقد الذي أبرمه أبوهما مع عبد الرحمن، سلما له بعض الرهائن واستقدما عددا كبيرا من العرب إلى فرنسا، فلم يدخلوها على الحالة التي كان عليها سلفهم كأناس ملتقطين من مختلف الأعمار، بل كانوا شبيبة مقدامة بقيادة أُتينيو الذي أخذ أولًا مدينة ناربون، ثم مدينة أفينيون التي سلمها لهم الكونط موريس . وعندما كان العرب يجوبون هكذا الاقليم كله وهم منتصرون، أرسل شارل لمحاربتهم شيلدبْراند [146] ملك لومباردي بجنود مسلحين بأسلحة خفيفة جدا، فحاصرهم في هذا الحصن الأخير ونظرا لموقعه على نهر الرون ولكون أُتينيو حصنه لم يخطر بباله أن الفرنسيين سيقدرون على التمكن منه، وكان يصدهم أحيانا في هجمات شجاعة . وأما شارل الذي لم يكن له إذ ذاك عدو آخر، فإنه وصل إليها بكافة جنوده واستطلع الحصن وقوات العدو، وأعد كل ما كان ضروريا للحملة الأخيرة . قسم محاربيه إلى ثلاث فرق سلم قيادة الاولى إلى ابنه بِيّبَّان [147]، والأخرى إلى شِيلدِبْرَانْد، واحتفظ بالثالثة لنفسه . وهوجم الحصن بشدة من ثلاثة مواقع مختلفة . وكانوا إذ ذاك يستعملون في الهجوم أبراجا من خشب محمولة على عجلات كبيرة يديرها الذين في داخلها بواسطة طاقات دون أن تمكن مهاجمتهم، ومنها كانوا يقذفون ضد المدافعين عن السور . وعندما كانوا يقتربون من الحصن، ينزلون جسرا على الحائط ويدخلون إليه من هناك، لكن المدافع جعلت كل هذه الحيل باطلة . وقد دافع الأعداء أولا عن

---

(146) الدوق شيلدبراند ، عم شارل .

(147) ورد في النص اسم شارلمان .

أنفسهم بشجاعة برمي النبال وقذف الأحجار والرماح المشتعلة المطلية بالقار، كانوا يقذفون بها المهاجمين، بينما كان أتينيو يتحرك في كل مكان قائما بمهمة الجندي والقائد معاً، فاتكاً فتكا ذريعا بالمتسلقين . لكن الغلبة كانت للمحاربين الموجودين في أعلى الأبراج، وعندما وقع الاشتباك بالايدي بعد مدّ الجسور، لم يستطع المحاصَرون مقاومة جهودهم . فركب أتينيو مع الاعيان في مراكب كانوا قد أعدوها جاهزة، وفر إلى ناربون حيث كان قد ترك قسما من جنوده، لأنها كانت حصنا قادرا على الدفاع وعلى تلقي الاغاثة من البحر . وبعد أن احتل شارل أفينيون وأسر جميع من كان فيها من العرب، أسرع إلى تلك الجهة وحاصر عدوه في المدينة حتى لايترك لــه الوقت للتحصن بها . ودافع أتينيو عن نفسه فيها جيدا كما فعل في أفينيون، وعندما أخبر شارل بمجيء عمرو (148) من إسبانيا بقوات كبيرة قصده لمحاربته قبل انضمامهما، تاركا ولده حول الحصن مع قسم من الجند . والتقى الجيشان قرب كوليور حيث قتل شارل عمراً بيده وهزم عددا كبيرا من جنده ، حتى لم يكد يبقى منهم من يحمل نبأ الهزيمة . عندئذ ترك أتينيو ناربون وركب البحر مع أكثر عدد ممكن من رجاله عائدا إلى قرطاجنة ومنها إلى قرطبة . وكان ذلك عام سبعة وثلاثين وسبعمائة، أو خمسة وثلاثين وسبعمائة – حسب قول بعضهم – في عهد ألفونسو الكاثوليكي، صهر بيلاج، الذي اغتنم هذه الفرصة ليضطهد العرب اضطهادا كبيرا ويسترجع منهم عدة حصون .

آسيــا

ولنرجع الآن إلى قضايا آسيا فنقول :

وفي عام تسعة وثلاثين وسبعمائة أرسل الوليد جيشا قويا إلى أقاليم الامبراطورية، فقام بأعمال إتلاف جسمية في طراس، ثم انسحب عندما لــم يتمكن من الامدادات . وبعد زمن قليل حرض الامبراطور ليون ضد البابا، وقام بأعمال وحشية في صفوف الكاثوليكيين، ثم أرسل جيشه البحري بقيادة مانيس (149) الذي كان مثله مارقا، فنهب جميع شواطىء طراس، وكاندي وبُوي وكالابْر وصقلية، فارضاً إتاوات ثقلية في كل مكان، ومستصفيا أموال الكنائسيين . ولما رآه الوليد مشتغلا بهذه الحَرب، أدخل سليمان (150) إلى أرمينيا التي كانت تحت

(148) هو الذي كان يحكم اسبانيا مكان أتينيوس .

(149) أو مــانيــت .

(150) ابن مروان .

سيطرة الامبراطور، ولما لم يجد أحداً يقاومه أفرد خمسة عشر ألف رجل بقيادة ابن مالك وأبي عبد الله البطل، فزحفا في اتجاه أكرونيوم، إلا أنهما كانا يسيران بدون نظام، ففاجأهما فرسان الامبراطور وقتلوا الرئيسين ومزقوا الباقي كل ممزق، باستثناء ثمانمائة جندي .

إسبانيا

وبمجرد هزيمة عمرو ثار أحد العرب المسمى المسمسي (؟) بمدينة سرقسطة . وخضع لملك فرنسا ليستفيد من إعانته ، لكن أُتينيو بادر بإرسال عبد الرحمان لمحاصرة الحصن، فاستسلم لعدم نجدته بسبب موت شارل . ودام حكم أتينيو هذا ست سنوات، ومات أثناء حصار مدينة طنجة . ولما كان عبد الرحمان قويا في إسبانيا، فإن الخليفة الوليد خشي أن يتمرد عليه، فاستدعاه وأرسل عربيا آخر يسمى عبد الملك ليتولى الحكم مكان أتينيو، فاستولى عبد الملك بدون قتال على جميع ماكان بأيدي العرب في إسبانيا، ثم عبر إلى إفرقيا وتابع محاصرة طنجة إلى أن تمكن منها، فأسر جل السكان وأخضع عدة حصون كانت خارجة عن طاعة مغاربة إسبانيا . وفي أثناء وجود عبد الملك بإفرقيا انتخب أهل قرطبة ملكا عليهم عباسي (؟) الذي ألحق أضرارا كبيرة بالبلاد وتلقب بأمير المسلمين، فكان ذلك سبب الحرب بين كبار إسبانيا، لأن كل النبلاء شاركوا في هذه الحرب. ولما علم عبد الملك بالنبأ قفل راجعا وحارب عباسي فغلبه وقتله ، وصحب معه عددا كثيرا من الاعراب أتي بهم من إفرقيا فألفوا إسبانيا وبنوا فيها عدة حصون ورمموا أخرى كانت قد خربت . ثم توجه لحصار قرطاجنة التي كانت ما تزال تابعة للمسيحيين، وبعد الاستيلاء عليها أراد أن يعود إلى قرطبة لكنه مات في الطريق . وانتخب العرب مكانه القطران (؟) الذي كان متنسكا جداً، يعظم الأجانب كثيرا وخاصة أهل دمشق . فحنق عليه عرب إسبانيا لذلك وثاروا عليه، لكنه غلبهم قرب طليطلة بسبب وجود عدد كبير من الأجانب في جنده . ولما رأى أن عدد الأهالي أخذ ينقص منذ ذلك الوقت، وأن الأجانب أصبحوا في غاية القوة، قام بطرد أهل دمشق من قرطبة، فذهبوا إلى أفيلا وحشدوا خلقا كثيرا وعادوا لمحاصرته في قلعة قرطبة، وقتلوا بها كل أصحابه وشنقوه في شرفات أحد الأبراج، وعينوا في نفس الوقت أحدهم ملكا اسمه ابن الحاج . ولما علم أبناء القطران بموت أبيهم، وكانوا يومئذ بناربون، جاؤوا بجيش لمحاصرة قرطبة، لكن ابن الحاج ذهب

لملاقاتهم فهزمهم ورجع إلى المدينة فمات بعد سبعة عشر يوما، ودام حكمه ستة أشهر . يقول بعضهم إنه مات تعباً لأنه حارب بشجاعة، ويقول آخرون إنه مات مسموما . وبايع أهل قرطبة مكانه ملكا عليهم عبد السلام بالرغم على أهل دمشق الذين عينوا بدورهم قاسم بن قرار . ومن أجل هذا طلب القرطبيون من الخليفة أن يرسل ملكا إلى اسبانيا، وإلا فسيضيع كل شيء، فأرسل في نفس السنة الزبير بن سالم بقوات كبيرة فقبله القرطبيون ملكا . وهو الذي أصلح بفضل حكمته بين عرب إسبانيا وأدخل جنوده إلى قرطبة، وشريش، والبيرة، وإشبيلية، وجيان، وإلى ثغور الاندلس كلها، ونزع من رعاياه المسيحيين ثلث أموالهم وأعطاها لرجاله، الأمر الذي جعله محبوبا من البعض مرهوبا من الآخرين . وجهز جيشا باسلًا للعبور إلى فرنسا، إلا انه قبل وصوله إلى جبال البرانس انتصر عليه الملك بِيبّان الذي خلف شارل، وصده ثانيا إلى ما وراء نهر الابرو . وفي نفس الوقت فإن تِوان، وهو قائد عربي آخر كان واليا على قشتالة من طرف الزبير، تنازع مع الملك ألفونسو فهزمه قرب مدينته وقتله هو وجل عرب دمشق الذين كانوا قد تبعوه .
وبعد هذا الانتصار جند هذا الامير جيشا قويا ونزل إلى السهل غازيا جميع البلاد الممتدة بين إسطيلة، وقريون، وبِيسْوِيركَة، وذْوِيرو، ومن هناك دخل إلى البرتغال فاستولى على مدن بورتي، وبراكَيس، وفيزيو، ثم ليِدِسمة، وسلمانكا، وساموِرا، وسيمانكا، وسالدينيا، وميراندا، وسيكَوفيا، وأفيلا، وأوسما، وسبولفيدا، ومدن أخرى بقشتالة . ومن ثم توجه إلى نافار، وسار منتصرا إلى جبال البرانس، حيث أرجع المسيحيين إلى الأماكن التي خرجوا منها فرارا من العرب، وقام بتعميرها وتحصينها من جديد . ثم رم الكنائس وزينها وزودها بكل ماهو ضروري للخدمة الدينية . واندهش العرب لهذه الانتصارات لدرجة أن معظمهم ثاروا على الزبير، فاضطر الوليد إلى إرسال عقبة ليحكم مكانه، وقد دام حكم الزبير ثلاث سنين .
لكن عقبة (151) تجبر وطغي فثارث عليه عدة مدن وخاصة منها قرطبة، متبوعة بأخرى في الاندلس . ولما رأى نفسه غير قادر على المواجهة عبر إلى إفرقيا وجاء منها بعدد كبير من العرب والأفارقة أخمد بهم جميع هذه الاضطرابات وأعاد قرطبة إلى طاعته . ومات بعد ذلك بقليل من مرض أصابه . وقبل أن يوفد الخليفة من

(151) لقد شيد أوقة قرب لازة ، بين برفيسكة وبركَوس .

يقوم مقامه بويع مكانه عبد الرحمان الذي كان واليا على لارا . غير أن الوليد سرعان ما أرسل أبابكر بقوات جديدة، لكن ولاة إسبانيا رفضوه وحشدوا جنود قرطبة، وطليطلة، وأراكون ، وبلنسية، وحاربوه فقتل . وصمموا العزم بعد ذلك على التخلص من طاعة خلفاء دمشق . ولما علم الوليد بالخبر جهز جيشا قويا بمصر وآخر بإفريقية، وأرسلهما إلى إسبانيا بقيادة رضوان، وهو قائد كبير تمكن من إخماد هذه الاضطرابات دون إراقة دم، وأرجع القوم إلى ما يجب عليهم من الطاعة .

إفرقيا وإسبانيا

ومات يزيد بالقيروان، وكان قد تولى حكم إفريقيا واشتهر أمره بها منذ خلافة عمر . وتسبب موته في اضطرابات كبيرة في هذا الاقليم، حيث إن أبا الحجاج (152) النائب السابق لعبد الملك أثار القبائل وسيطر على معظم البلاد ، وخاصة موريطانيا الطنجية ، وقاوم الوليد بشجاعة وتلقب بأمير المسلمين ، لكنه لم يستطع الاستيلاء على القيروان حيث كان الحكم فيها بيد بعض أقارب يزيد . وما كاد نبأ ثورة أبي الحجاج ينتشر بإسبانيا حتى ثار فيها شخص يدعى عبد الملك الذي ساعد بعض المسيحين المولّدين وتغلب على رضوان منتحلا لقب ملك وخليفة . إلا أن نفوذه لم يمتد على غير طليطلة وقشتالة وأراكون ، لأن رضوان ثبت في قرطبة وسائر أمصار الأندلس ، ولما لم ير رضوان أملا في الحصول على نجدة من جهة إفريقيا أرسل جميع جنوده إلى الحصون الواقعة على الثغور ، ثم أبحر إلى الاسكندرية ومنها ذهب إلى دمشق على أمل أن يأتي بقوات جديدة . وما إن ذهب حتى حاصر عبد الملك قرطبة فأوفدت لحينها إلى أبي الحجاج تطلب منه النجدة وتعده بالطاعة خوفا من أن تقع تحت سيطرة عبد الملك ، فجمع حينئذ أبو الحجاج جيشاً قويا في بلاد البربر التي كان قد استولى عليها وعبر إلى إسبانيا ، وبعد أن استقبله القوم بقرطبة وبجميع حصون الأندلس الأخرى ، زحف إلى عبد الملك الذي كان قد انسحب إلى طليطلة . وما برح عبد الملك يتقدم نحوه

(152) لعله يقصد يوسف بن عبد الرحمان الفهري ، إلا أن هذا كان اخر ولاة الاندلس قبل مجيء عبد الرحمان الداخل .(مترجم)

بجميع قوات المولدين ويحاربه على ضفاف واديان حيث غلب أبو الحجاج وانزوى إلى قرطبة . وبما أنه فقد عددا كثيرا من الجند فإنه لم يجرؤ على انتظار عدوه بها ، وذهب مرة ثانية إلى جبل طارق حيث كان قد ترك أسطوله ، ومن هناك إلى إفريقيا واعداً في أي مكان مرَّ به أنه سيعود بقوات أكثر عددا . وفي هذه الأثناء تمكن عبد الملك من الدخول إلى قرطبة والحصون المجاورة لها ، حيث قام بأعمال وحشية فظيعة ضد الذين امتنعوا من طاعته . ومن جهة أخرى لم يكد أبو الحجاج يصل إلى بلاد البربر حتى جمع جيشا قويا سلم قيادته لعبد الرحمان الذي استُقبل استقبالا حسنا بمالقه والبيرة ، وزحف نحو قرطبة التي تحصن بها عبد الملك عندما شعر أنه غير قادر على خوض المعركة . لكن عبد الرحمان أرغمه على القتال وقضى عليه ، ثم سار إلى طليطلة فسلمت نفسها عن طواعية ، وجال في جميع الأقاليم وأعادها إلى طاعة أبي الحجاج .

وبينما كانت هذه الأشياء تقع في اسبانيا ، وصل رضوان إلى دمشق وأطلع الخليفة على كل شيء . فارتأى الخليفة البدء باخماد الثورة بإفريقيا ، وجند لذلك جيشين قويين ، أحدهما بحري والآخر بري ، وجعل قيادة الأول المعسكر بالاسكندرية لرضوان والثاني ليوسف ، على أن يسيرا إلى بلاد البربر ، ومن هناك إلى إسبانيا . ولما علم أبو الحجاج بهذا النبأ زحف إلى الجيش الذي كان آتيا من البر ، وأرسل باقي جنوده لحراسة الثغور البحرية ضد الأسطول الوافد ، والتقى الجيشان البريان في سهول تاجورة على بعد ثلاثة فراسخ من طرابلس الغرب ، فغُلب أبو الحجاج وقتل بعد معركة دامية ، وهرب ابنه (153) صوب موريطانيا ببقاياالعسكر . واستولى المنتصر على طرابلس وقابس والقيروان وسائر الأقاليم الشرقية لأفريقيا (154) ،وردها كلها إلى طاعة الوليد .

آسيـــا

ولنرجع إلى الشرق فنذكر أن الامبراطور ليون مات عام اثنين وأربعين وسبعمائة ، فخلفه ابنه قسطنطين كوبرونيم الذي دام حكمه خمسا وثلاثين سنة ، ولم يكن أقل مروقا وفسوقا وعداء للديانة الكاثوليكية من أبيه ، ونازع ألطوباز في الحكم وغالبه ، وأثناء هذه الحرب ألحق الوليد أضرارا جسمية بأقاليم الامبراطورية ،

(153) عبد الهادي .
(154) أي افريقيا الرومان التي لم تكن تمتد إلا الى ليبيا .

واضطهد عددا كثيرا من المسيحين لارغامهم على التخلي عن دينهم . وفي ذلك العهد مات الشهيد السعيد أُوتريك بن البطريق ماريانوس ، وكان محترما جدا في بلاد ما بين النهرين ، يقال إن عدة معجزات حدثت عند موته . وأخيرا مات الوليد عام ستة وأربعين وسبعمائة (155) وخلفه يزيد (الجليد ؟)

(155) خلط مارمول في هذه الترجمة – كما أشرنا اليه سابقا – بين هشام بن عبد الملك وابن أخيه الوليد بن يزيد بن عبد الملك ، وطالت خلافة هشام نحو عشرين سنة ، بينما لم تزد مدة الوليد على سنة وشهرين واثنين وعشرين يوما ، إذ مات في 28 جمادى الآخرة عام 126هـ/17 أبريل 744م . (مترجم) .

الفصل الخامس عشر

في يزيد (الجليد؟)[156] ثالث عشر الخلفاء
وما حدث من أشياء في خلافته تستحق الذكر

أخذ يزيد الملقب (بالناقص) زمام الحكم لأنه كان جميلا (!) عام سبعة وأربعين وسبعمائة ، ولم يحكم إلا عاما استولى فيه على جزيرة قبرص ، أثناء حروب قسطنطين وألطوباز ، ثم خربها وحمل جميع السكان إلى الشام . يقول بُول دْياكر : إن كوسم بطريق الاسكندرية أنكر ضلالات القائلين بوحدة الطبيعة والمشيئة في المسيح التي أدخلها البطريق سيروس إلى مصر في عهد امبراطورية هرقل ، واعتنق الديانة الكاثوليكية مع جميع هذه الشعوب وكان في ذلك الوقت عدد كبير من الشهداء . فقد أمر يزيد بقطع لسان بطريق دمشق الذي كان يخطب علَناً ضد مذهب المانويين والعرب ، ثم نفاه إلى اليمن حيث قاسى العذاب المهين عقابا له على ما قاله ضد محمد ، وكذلك مات سان بيير لنفس السبب إذ كان يعلن أن محمدا دجال وأن كل الذين يؤمنون به مقضي عليهم بالهلاك الأبدي ، وأنه لابد من الايمان بالأب والابن والروح القدس المجموعين بحسب وحدة الجوهر ، والدخول في حمى الكنيسة . فقتله هؤلاء (المسلمون)[157] وأسلم الروح الى خالقه . وبعد ذلك بقليل قُتل يزيد غيلة من طرف بعض المسلمين ، وخلفه ابنه هشام[158] .

---

(156) لايعرف يزيد بن الوليد بهذه الصفة ، وانما يوصف بالناقص لأنه نقص في أعطيات الناس التي كان الوليد زادها ، وردّ العطاء إلى ماكان عليه أيام هشام . (مترجم) .

(157) دعاهم خدام الشيطان . (مترجم) .

(158) لم يُقتل يزيد ولم يُخلِّف ولدا يدعى هشاما ، وانما مات بعدما أوصى بالخلافة لأخيه إبراهيم بن الوليد ، ومن بعده لعبد العزيز بن الحجاج . (مترجم) .

الفصل السادس عشر
في (هشام)[159] رابع عشر الخلفاء
وما حدث في خلافته مما يستحق الذكر

بدأ (هشام بن ألس!) يحكم عام ثمانية وأربعين وسبعمائة ، وما إن تربع على العرش حتى انتخب بعض المسلمين خليفة لهم مروان الذي كان إذ ذاك واليا بمصر ، فتسبب ذلك في اضطرابات كبيرة ، حيث إن الشاميين كانوا يفضلون هشاما بينما يفضل المصريون والحجازيون مروان . وقد أبرم هذا الاخير الهدنة مع الامبراطور قسطنطين على أن يؤدي له كل سنة ثلاثمائة غلام ، وأن يسلم إليه كل ما كان احتله العرب في طراس . وفي مقابل ذلك وعده الامبراطور بمساعدته ، وذلك ما فعل ، إذ حصل مروان بهذه الوسيلة على انتصاره على هشام ، فقتله هو وأولاده وجميع آل بيت الوليد الذين كانوا يريبونه. وبعدما تمكن من الشام أمر بهدم أسوار إليوبوليس ، وبيت المقدس ، ودمشق ، وقتل شر قتلة جميع كبار الدولة الذين ساعدوا فريق هشام . لكن هذا لم يمكن من إخماد الاضطرابات كما سنراه في محله .

(159) لعله يقصد ابراهيم بن الوليد الذي بويع بعد موت أخيه يزيد ، لكن مع ذلك يبقى معظم ما في هذا الفصل من نسج الخيال . (مترجم) .

الفصل السابع عشر

في مروان ، الثاني اسما ، خامس عشر الخلفاء وما حدث في خلافته مما يستحق الذكر

بويع مروان بن محمد خليفة للعرب بعد موت (هشام) حوالي سنة ثمان وأربعين وسبعمائة ، ولم يدم حكمه ست سنوات (كاملة) . وفي هذه الأثناء بعد ان انتهى يوسف ورضوان من حرب إفريقيا وتركا فيها أحد أبناء يزيد والياً على القيروان ، جازا إلى إسبانيا بجيش قوي ليطردا منها عبد الرحمان الذي قاوم[160] بشجاعة بمساندة المولّدين . وأرسل مروان جيشا عرمرما[161] إلى إسبانيا نزل بقرطاجنة، وانضم إلى جيش الأندلس ، فأدخل يوسف الرعب إلى قلب عبد الرحمن الذي جاز إلى إفرقيا دون أن يجرؤ على انتظاره ، ومكث بضعة أيام في نوميديا يطلب العون من العرب والأفارقة الذين لم يعترفوا بخليفة دمشق ، وبالأخص أبناء أبي الحجاج الذين كان لهم بعض النفوذ . ثم إن رؤساء جيش مروان بإسبانيا عندما لم يجدوا عدوا يقاتلونه وجهوا سلاحهم ضد الفرنسيين ، فقطعوا البرانس وجابوا منطقة ناربون كلها . لكن بيبّان بن شارل مارتيل جمع جنوده . وفاجأهم وهم غير منظمين ، فقتل عددا كبيرا منهم وأرغم الباقين على الفرار دون أن يجرؤوا على العودة طوال بقية حكمه .. واكتسب هذا الأمير شهرة كبيرة بهذا النصر لدرجة أن الفرنسيين عزلوا الملك شيلدريك وبايعوه مكانه ، في عهد البابا زكريا ، وعينوا ابنه شارل ولياً لعهده ، فلقب منذ ذلك الحين بشارلمان ، وان اعتقد بعضهم أنه كان أخاه .

وفي هذه الأثناء ثار ثلاثة من العرب ، هم ثابت (بن نعيم) و(الضحاك بن قيس الشيباني)[162] ، وسليمان (بن هشام) الذي يسميه الآخرون (ذا السمن)

---

(160) عام 751 .
(161) كان قد جُمع بالاسكندرية بقيادة رؤبة .
(162) في الأصل : ضبط ، وهو بدون شك تحريف للضحاك الثائر الخارجي المشهور . (مترجم) .

ثاروا في الشرق على مروان الذي طاردهم بقوة السلاح ، فتمكن من ثابت وقتله ، وقتل الضحاك أيضا الذي كان قد هزم ابنه وقتله ، ثم أرغم سليمان على الفرار إلى بلاد فارس . واغتنم الامبراطور قنسطانس هذه الفرصة ليفسخ الهدنة ، فذخل إلى الشام واحتل حصونا منها ، لكن مروان بعد أن انتصر على (الضحاك) توجه إلى الامبراطور قنسطانس فاسترجع منه بعض تلك الحصون مكبدا المسيحيين خسائر جسمية في الأرواح ، ثم عبر إلى إيميس فحاصرها واستولى عليها في ظرف أربعة أشهر .

وكان قد وقع قبل ذلك بقليل زلزال كبير في فلسطين ، دمر عدة مدن ، وامتد إلى طراس ، واليونان ، وإيطاليا . وتلته فتن الفرس ، حيث جدد (سليمان بن هشام) مذهب المختار الذي يزعم أن عليا كان نبيا أكبر من محمد ، ثم إنه بإيعاز من أحد العرب المسمى (كثبان)[163] الذي تلقب بأمير المسلمين . وأثار العبيد ضد أسيادهم ، فكان ذلك بداية فرق (السَّبَئِيَّة والكيسانية)[164] الذين كان بعضهم يتبع مذهبا وبعضهم مذهبا آخر . وكان هو رئيسا للأولين فجند والي الاقليم[165] مائة ألف جندي لمحاربتهم فقاتلوا وانتصروا رغم عددهم القليل ، لأنهم يعتقدون أن رئيسهم وليّ صالح . وقد دفعهم هذا الانتصار إلى الزحف ضد مروان الذي كان على رأس جيش مؤلف من ثلاثمائة ألف رجل ، وقتلوا معظمهم قرب نهر زبان ، وفر مروان على جسر كان قد ترك به حرسا حتى لا يتبعه العدو ، وصحب معه نساءه وأولاده وانسحب إلى مصر مع أربعة آلاف فارس . فأتبعه سليمان ابنه (سالم)[166] لمطاردته بقسم من الجيش . وفي السنة الموالية دارت بينهما معركة دامية غلب فيها مروان وأخذ أسيرا . فضرب سالم عنقه ، ثم قتل كل من وقع في يده من آل هذا البيت . أما الباقون ففروا إلى إسبانيا وموريطانيا حيث أسسوا عدة ممالك ، كما سنذكر ذلك في مكانه .

وانحدر من (ذي السمن) هذا أو سليمان ، موسى الكاظم الذي نصب من جديد آل محمد على العرش ، ومنه انحدر الصوفية الذين يحكمون بلاد الفرس

---

(163) لعله تحريف لاسم أحد دعاة العباسيين . (مترجم) .

(164) في الأصل كلمتان غير مفهومتين ربما كانا ما أثبتناه ، وذلك ما يقويه السياق . (مترجم) .

(165) (ابلين) عامل مروان .

(166) لاشك أنه يقصد أبا مسلم الخراساني ، وقد جعله ـ خطأ ـ ابنا لسليمان بن هشام ، كما اختلطت عليه أحداث نهاية الدولة الأموية ، انظرها مفصلة عند حسن إبراهيم حسن ، تاريخ الاسلام السياسي، 1:361 - 370 . (مترجم) .

(167) وكان مروان صديقاً كبيرا للمسيحيين ، يعطف على العلماء ، وقبل أن يسمى تيوفيلاكت بطريقاً لانتيوش ، اعتبارا لعلمه وقدره ، وقتل شر قتلة العباس الذي كان يظهد المسيحيين كثيرا.

إسبانيـا

ولنعد إلى الأحداث المتعلقة بإسبانيا . بعد انسحاب العرب من فرنسا حشد ألفونسو ملك ليون جنوده واستولى على بعض حصون نافار ، فجاء يوسف لملاقاته قرب كالاهور على ضفاف نهر الابرو ، فغُلب واحتُلَّتْ جميع البلاد حتى سرقسطة . وقد عمل هذا الانتصار على إثارة بلنسية وبرشلونة وغيرهما من الحصون ضد يوسف الذي انسحب إلى طليطلة في اضطراب وتابع ألفونسو تقدمه إلا أنه أدركته الوفاة بعد أن حكم ثمانية عشر عاما ، تاركا ابنه (168) خلفاً له . فقاتل هذا الأخير منذ سنته الأولى يوسف الذي دخل إلى كَاليسيا بجميع قوات العرب بمجرد ما وصله نبأ هذا الموت ، وقتل ابن عمه وأكثر من خمسين ألف رجل (169) ، وانضم إليه أهل كَاليسيا الذين أغراهم هذا الانتصار ، بينما ثار العرب على يوسف مستنجدين بعبد الرحمان (170) الذي كان بإفريقيا . فجاز حينا إلى إسبانيا مع بعض العرب والأفارقة ، وبعد أن نزل بمالقة استُقبل استقبالا فخما في قرطبة التي أراح بها جنده ، وأضاف إلى جيشه حاميات الأندلس ، ثم زحف إلى طليطلة . ولما تلقى يوسف هذه الأخبار خرج ليحاربه بجميع ماتمكن من جمعه ، لكن عبد الرحمان عبر مضايق سييرَامُرينَة بأسرع ما يمكن وعسكر بواديان . وعندما التقى الجيشان وقع اشتباك أسفر عن انهزام يوسف وانسحابه الى طليطلة، فلم يُقم بها إلا قليلا وترك حكمها لابن أخيه جعفر ، والتحق مسرعا بمدينة الليبيري ، بينما دخل عبد الرحمان قرطبة منتصرا. وبعد أن حشد يوسف قوات جديدة توجه يبحث عن عدوه لسوء حظه ، لأنه غُلب وقُتل قرب قرطبة . وهكذا فإن عبد الرحمن من بني أمية انفرد بحكم الأندلس ، وخلع طاعة خلفاء دمشق ،

---

(167) هـــراء !

(168) فرْويلة .

(169) عـــام 674 .

(170) عدو يوسف وآل العباس (يقصد عبد الرحمان بن معاوية الأموي المعروف بالداخل . (مترجم) .

وتلقب بملك قرطبة (171) ، وانحدر من سلالته خلفاً عن سلف ثمانية ملوك (172) حكموا أزيد من مائتين وخمسين سنة بما فيها حكمه ، إلى أن أُخذ محمد المهدي آخر حاكم بقرطبة ، كما سنذكر ذلك فيما بعد .

(171) وأمير المسلمين .
(172) هم : ابنه هشام الرضى ، فالحكم بن هشام ، فعبد الرحمن الاوسط ، فابنه محمد ، فابنهُ المنذر ، فأخوه عبد الله بن محمد ، فعبد الرحمن الناصر ، فابنه الحكم المستنصر ، فهشام بن الحكم ، فالمهدي ، فالمستعين سليمان بن الحكم . (مترجم) .

الفصل الثامن عشر

في أبي العباس (السفاح)[173] سادس عشر الخلفاء وما وقع في خلافته

انقسمت الامبراطورية بعد موت مروان ، فبايع الفرس الامير سلمان (؟) والشاميون أبا العباس بن محمد ، وأهل إسبانيا عبد الرحمن بن معاوية[174] وأهل الجزيرة العربية عبد الله بن محمد ، والمصريون سليمان الاعرج بن سليمان الذي كان أول سلاطين مصر وجعل مقر مملكته في القاهرة . وكان جميع هؤلاء من سلالة علي ، والعباس عم محمد ، فاجتمعوا بالكوفة لاقصاء باقي الخلفاء عن وراثة الملك . واقتسموا هكذا الخلافة باستثناء إسبانيا ، الشيء الذي لم يمنعهم من الاعتراف بأبي العباس كخليفة أعظم ، وعينوا خلفا له أخاه عبد الله وبعده هشام بن موسى[175]

إسبانيا

وكانت إسبانيا إذ ذاك في غاية الاضطراب بسبب حروب عبد الرحمان ، وقدم جعفر أمير طليطلة وبعض الرؤساء الآخرين إتاوة لفرويلة وبيبان ليظاهراهم على عبد الرحمان . ولما أبرم هذا التحالف أرسل بيبان ابنه شارل مع عدد كبير من نبلاء الفرنسيين لينضم إليهم والي فرويلة ، فساروا إلى طليطلة حيث خصص لهم جعفر استقبالا حسنا جدا وحققوا انتصارات باهرة ضد عبد الرحمان. ولما عسكر شارل بضواحي طليطلة عشق ــ حسب ما يقال ــ غيلانة بنت جعفر ووعدها بالزواج شريطة أن تتنصَّر ، فرضي أبوها بذلك آملا أن يستعيد ملكه ، وشيد

(173) في الأصل : أبو بابا ، وهو تحريف لأبي العباس . (مترجم) .

(174) في الأصل : عبد الرحمن بن أمية ، وهو تحريف ظاهر . (مترجم) .

(175) كل ما في هذه الفقرة باطل مما يتعلق بتقسيم الامبراطورية الاسلامية بين هذه الاسماء التكرات التي لا وجود لها إلا في مخيلة مارمول ، ولا أدل على سخافته من جعله إمارة مصر في القاهرة ، وهي لم تؤسس الا بعد نحو قرنين من هذا التاريخ ! لذلك فإننا لا نتتبع أخطاء الكتاب المكشوفة ، ولا نعلق إلا عندما نخشى اللبس . (مترجم) .

قصرا في البساتين التي كان شارل مخيما بها ، لتقام فيه حفلات الزفاف ، وما زال يسمى حتى الآن قصر غيلانة ، وقد فعل ذلك ـــ على ما يبدو ـــ خوفا من أن تدخل جموع المسيحين إلى المدينة فيملكوها . لكن هذه الحرب لم تنجح كما كانوا يؤملون ، لأن عبد الرحمان أبرم هدنة مع بيبان لتفريق أعدائه . وحينما علم شارل بذلك وبمناورات أخيه الأصغر الذي كان يطمح إلى الملك ، أخذ غيلانة والتجأ إلى بوردو . ويقول بعض المؤلفين العرب وخاصة ابن الجزار في كتابه **نوادر المدن** إنه كان بقصر غيلانة غدير يعلو ماؤه وينخفض حسب مسيرة القمر ، بفن سحري ، وإذا ما ارتفع سال إلى المدينة من فوق الجسر . ويروي آخرون حكاية غيلانة بكيفية أخرى قائلين إن شارل تخاصم مع بيّبان فذهب مع عدد من النبلاء إلى طليطلة جيث خصص له جعفر استقبالا حسنا ، فعينه قائدا لجيشه وأرسله ليحارب ملك قرطبة ، وفي أثناء مُقامه بطليطلة ، جاء أحد أشراف العرب الأقوياء اسمه برامانت (؟) فطلب الزواج بغيلانة ، لكنه لم يفز بمرغوبه وأقام الحصار على طليطلة ، فحاربه شارل وقتله بيده ، وخرجت غيلانة بعد ذلك لتتسلى في بستانها التي كانت تستحم فيها أحيانا ، فخطفها شارل وهرب بها عبر الطريق التي تسمى طريق غيلانة ، وذخل فرنسا وتزوج بها في بوردو . ورغم عدم اتفاق المؤرخين لا في التاريخ ولا في الظروف ، فمن المؤكد أن شارل تزوج بهذه الأميرة ولم تنجب له أي ولد .

آسيـــا وإفريقيــا

ولنرجع إلى حوادث آسيا . ففي أول سنة من حكم (أبي العباس السفاح) دارت حرب دامية بين العرب بسبب خبر عدم وفاة مروان ، فكان لابد من إبراز جثمانه المدفون لتهدئتهم . وفي نفس السنة حمل السلاح أهل بلاد البربر الأفارق والليبيون ضد العرب بمساعدة عبد الهادي بن أبي الحجاج وثائرين على الشريعة المحمدية ، فقتلوا والي قسطنطينة وجميع الفقهاء الذين صادفوهم . ولما علم سالم (؟) بهذه الفتن وهو بمصر ، جهز جيشا مؤلفا من عشرين ألف فارس وخمسين ألف راجل ، ودخل به بلاد البربر مخترقا مفازات برقة ، فأخمد الثورة وقتل عبد الهادي . ثم إن الأفارقة الزناتيين أصحاب الثورة انسحبوا في اضطراب إلى مفازات نوميديا . وبعد ذلك مات (أبو العباس) في أوائل سنة ستين وسبعمائة (176) وخلفه أخوه عبد الله الذي أنجز أشياء كثيرة ، كما سنراه في الفصل التالي .

(176) توفي أبو العباس السفاح في 13 ذي الحجة عام 136هـ /8 يونيه 754م . (مترجم)

الفصل التاسع عشر

في عبد الله بن محمد (أبي جعفر المنصور) سابع عشر الخلفاء وما حدث في خلافته

لما أخذ عبد الله زمام الحكم ، كما اتُّفق عليه في جمع الكوفة ، حيث عُين خليفة ، علم بمكة أن شخصا آخر يدعى عبد الله بن علي قد بويع بالخلافة في الشام ؛ فطلب من ملك الفرس أن يحتفظ له بالمنصب السياسي الذي آل إليه بموت أبي العباس ، معربا عن تعظيمه لآل بيت علي ، ومقدما له وعودا كبيرة للحصول على رغبته . ومن جهة أخرى جند عبد الله بن علي المنتمي إلى بني أمية جيشا باسلامن العرب والفلسطينيين والعبيد والانتيوشيين أعداء فريق الفرس (177) السائد ، وأقام الحصار أمام بلدك (178) إلا أن أمير المسلمين الذي كان جيشه على أهبة القتال ، حاربه قرب نصيبين والجأه إلى الفرار إلى دمشق بقليل من الجند ، إذ كان الباقي قد هُزم ، فانتشى بهذا الانتصار ولم يعبأ بعبد الله الآخر الذي كان الخليفة الشرعي، غير مهتم إلا بالاستيلاء على الامبراطورية كلها. لكن المغلوب عندما فر إلى دمشق ثار جميع الشاميين وعرب المنطقة لصالحه ، ولم يكتفوا بمنع المنتصر من الدخول إلى البلاد ، بل استرجعوا منه الحصون التي احتلها منذ واقعة نصيبين . وحشد عبد بن محمد من جهته قوات الجزيرة العربية وتصدى للأمير ، ولكي يهزم هذا الأخير بسهولة ، صالح عبد الله الآخر ووعده أن يدعه يتمتع وحده بملك الشام . ولما علم الأمير بهذه الأخبار ترك طرفا من رجاله يحرسون الحصون التي استولى عليها لئلا يحارب عَدُوَّيْنِ قويين معا . ثم لجأ إلى بلاد الفرس بما تبقى له من جيشه ، جازما كل الجزم أن عدويه لن يطول اتفاقهما ، وعازما على أن يطيل الحرب . وفعلا فإن عبد الله بن محمد الذي استدعى الآخر بدعوى التشاور معه ، استقبله بحفاوة كبيرة ، غير أنه أنزله في بيت كان قد أمر بنقض أساسه ، فسقط عليه ليلا وسحقه . ثم إنه عند تصوره الصعوبة التي سيجدها في

---

(177) المـوروفـور .

(178) علق عليه بأنه بابلون . وذلك ما يدل على أن (بلدك) تحريف لبغداد لانه سيعبر فيما بعد عن بغداد ببابلون ، وواضح أن بغداد لم تؤسس بعد في الفترة التي يتحدث عنها هنا . (مترجم)

التغلب على الأمير الذي كان يملك بلاد الفرس كلها ، أرسل إليه ليبايعه بالخلافة وسلم إليه سيف محمد ونعاله ، وهما علامة هذا المنصب . فأتى إليه الآخر بخمسة آلاف فارس وانفردا على حدة للتحدث ، فطعنه عبد الله بخنجر ، ثم ركب فرسا وانقضّ فجأة بمساعدة أصحابه على فرسان الفرس وألجأهم إلى الفرار . وبعد ذلك قاد جيشه إلى بلاد فارس فاستولى عليها بكاملها بعد أن قتل كثبان داعية الأمير ، وأصبح بهذه الوسيلة منفردا بالحكم لا يعارضه أحد فيه (179) .

إسبانيا

وفي نفس الوقت اجتاح عبد الرحمان ملك قرطبة قشتالة كلها بعدما توصل بإمداد قوي من إفرقيا (إذ كانوا يقدرون جيشه بثلاثين ألف فارس ومائتي ألف راجل)، واسترجع في فترة وجيزة كل ما أخذه المسيحيون للعرب من حصون، حيث إن ملك ليون لم تكن لديه قوة كافية لمقاومته . وبعد أن استولى على ممالك قشتالة، وأراكون ونافار، والبرتغال، باستثناء الجزء الشمالي لاسبانيا الذي تركه حراً لانه كان محصنا من لدن الطبيعة، ذهب لمحاصرة جعفر في طليطلة . إلا أنه اضطر إلى رفع الحصار، ليتركب جيشه في الثغور المجاورة تحرسها باستمرار، وعاد إلى قرطبة لقضاء فصل الشتاء بها بعد أن ألحق أضرارا بجسمية أثناء هذا الغزو حتى إن المؤلفين يعدونه ثاني مخرب لاسبانيا .

آسيـــا

ولنعد الآن إلى شؤون آسيا . فبمجرد ما تمكن عبد الله (المنصور) من الحكم وجه غضبه نحو رعاياه المسيحيين، فضاعف إتاواتهم وأرغم حتى الرهبان والراهبات على أدائها. ثم أمر ببيع جميع ممتلكات الكنيسة جهاراً ونزع الصور والصلبان والنواقيس من جميع الكنائس، ناهيا الرهبان عن الاحتفال بالديانة المسيحية أو تلقينها . ومنع سلطان مصر (180) هو الآخر من صنع الصلبان وبناء

---

(179) خلط مارمول – كعادته – في سرد أحداث بداية خلافة أبي جعفر المنصور، ولم تختلط عليه الأسماء فحسب، بل الوقائع نفسها أيضا، وحتى لا نتتبع كل ذلك بالتأويل والتصحيح، نشير فقط الى أن عبد الله بن علي الذي بويع بالشام فعلا هو عم أبي جعفر المنصور ، وليس أمويا ، وأنه لم يكن آنذاك للفرس ملك ، وإنما كانت بلادهم تابعة للخلافة العباسية . والشخصية الأخرى التي يدعوها «الأمير» يظهر أن المقصود بها هو أبو مسلم الخراساني ، وهو نفس المدعو «كثبان داعية الأمير». وقصة قتل أبي مسلم الخراساني مشهورة لا

(180) علق عليه بأنه سالم . ولا يعرف من بين ولاة مصر في عهد أبي جعفر المنصور من اسمه سالم ، وإنما المعروف محمد بن الاشعث ، وحميد بن قحطبة . (مترجم)

كنيسة أو دير، ومن مجادلة المسلمين في الدين، وإلا قتل فاعل ذلك . هكذا كان التعسف الذي كان يعاني منه المسيحيون رعايا الملوك العرب (181) .

إسبانيا

ولما قُتل الملك فرويل من طرف أتباعه، نُصب مكانه أخوه أو ابن عمه أوريليو . وفي نفس الوقت عاد الملك عبد الرحمان لمحاصرة طليطلة، فاستغاث جعفر بهذا الامير وبشار لمان الذي كان قد أصبح ملك فرنسا على إثر وفاة أبيه بيبّان . ولما رأى أن أحدا لم يُنجده، وأن شارل كان مشتغلا في بلاده وأوريليو ليست له قوة كافية للذود عن نفسه، سلم نفسه وخضع لعبد الرحمان الذي دخل إلى طليطلة وترك فيها ابنه سليمان واليا عليها . وتبعه في ذلك أميرا كالاهور وكوردوفية اللذان امتنعا حتى ذلك الوقت من الخضوع إليه . ومن هناك ذهب عبد الرحمن إلى سرقسطة لمحاربة أحد العرب الذي استولى عليها . لكن هذا الاخير لم يجرؤ على انتظاره فترك المدينة ودخلها عبد الرحمن دون مقاومة، ثم عاد إلى قرطبة .

وفي عام سبعة وستين وسبعمائة اجتاز الأتراك جبل القوقاز ثم عادوا إلى بلادهم بعد ما اجتاحوا أرمينيا . وفي العام الموالي مرض هشام بن موسى (182) بزكام شديد في رأسه، فسمه عبد الرحمن (؟) الذي أراد إقصاءه من الملك بواسطة طبيب يهودي أعطاه سفة زعم أنها ستنظف دماغه . فما إن تناولها حتى ذهبت بوظائف عقله ولسانه، فعين العرب مكانه ابن الخليفة عبد الله المسمى محمداً والملقب بالمهدي أي المقدم (؟) ولم يكتف الخليفة بهذا بل حرص على ضمان الخلافة في عقبه واضطهد بضراوة جميع أقارب الخلفاء الآخرين وآل علي جميعا . فهرب منهم إلى بلاد الهند الشرقية والمناطق الأخرى النائية من استطاعوا التخلص من يديه تفاديا للاضطهاد . ولم يبق منهم إلا واحد بالمدينة أهمل لشيخوخته، غير أنهم ضربوا عنق أحد ابنيه وفر الآخر واسمه إدريس، إلى موريطانيا الطنجية، حيث استقر بوليلي (183) ونال تقدير البربر لفصاحته وعلمه، حتى إنهم بايعوه ملكا، وأسس ابنه مدينة فاس، كما سنذكر ذلك في محله .

(181) كتب التاريخ الصحيح كلها شاهدة بحسن معاملة ملوك المسلمين لرعاياهم من أهل الذمة ، سواء بالمشرق أو بالمغرب . (مترجم)

(182) بل عيسى بن موسى العباسي . (مترجم)

(183) بجبل زرهون وفي الأصل « تيوليت » وهو تحريف ظاهر . (مترجم)

افريقيا

وفي عام سبعين وسبعمائة ثار الأفارقة من قبائل زناتة وهوارة مرة أخرى ضد عرب إفريقيا وقاتلوهم، فاحتلوا عدة أقاليم من بلاد البربر بعد أن اجتازوا جبال الأطلس الكبير بجيش قوي، إذ لم تكن للعرب قوة كافية للدفاع عن أنفسهم، فانسحبوا إلى مفازات القيروان. لكنهم عادوا لمحاربتهم بعد أن وصلهم المدد من مصر، ودبَّر والي القيروان شؤونه بأسلوب حسن حتى أبرم الصلح دون إراقة دم أحد.

آسيـــــا

وفي نفس الوقت تصدى عبد الله للمسيحيين بعد أن أرسى قواعد ملكه، وأرسل جيوشه إلى رومانيا والكابادوس حيث قامت بأعمال إتلاف ضخمة، بعد أن خلف ليون قسطنطين كوبرونيم. إلا أنه ذهب إلى بيت المقدس وألزم المسيحيين واليهود أن يضعوا علامة على أيديهم يميزون بها، ومن عثر عليه منهم بدون هذه العلامة أصبح رقيقا، وذلك ما حمل الكثير منهم على مغادرة بيوتهم واللجوء إلى مكان آخر.

ولنرجع إلى إسبانا. لما شاهد أوريليو انتصارات عبد الرحمن أبرم معه الهدنة على أن يقدم له مائة فتاة كل سنة من بنات النبلاء وبنات العامة، بالاضافة إلى عدة شروط أخرى قاسية، ومات في نفس السنة. وثبت ابنه سيلو (184) الهدنة مع عبد الرحمن، ولم يدم حكمه سوى ثمانية أعوام، بحيث لم يقع شيء غير ذلك يستحق الذكر في عهده.

وفي عام ثمانية وسبعين وسبعمائة ذهب أبو العرب إلى فرنسا وتقدم إلى شارلمان ليكون أحد أتباعه إلى أن يعود ثانيا إلى دولته، وقد قطع هذا الامير الجبال بجيش قوي ودخل إلى نافار فحاصر بامبلونة وسلم له العرب الحصن بعد معارك دامية. وقصد من هناك سرقسطة فاستسلمت لحينها، وبعد أن أعاد إليها المسيحيين الذين طردوا منها وضعها تحت حكم أبي العرب. ودخل بعد ذلك إلى قطالونيا

---

(184) هو الذي ترك سرقسطة .

(185) هما أبو داوود وأبو الحافظ (؟)

التي سلمها إليه عدوان (185) لابي العرب كانا يحكمانها، وأخيرا عاد إلى فرنسا. يقول بعض المؤلفين الفرنسيين إن عبد الرحمن حارب شارل في العام الموالي (186) بعد أن جاءة مدد من إفريقيا، وجمع ما استطاع جمعه من جند إسبانيا، وإن معارك عدة دارت بينهما في ضواحي بايون، حيث لقي مصرعه ما يربو علىأربعين ألف فرنسي، وكان أوجي والد رولان من بين القتلى، لكن شارلمان ساعده عدد كبير من نبلاء إيطاليا وألمانيا، فاضطر عبد الرحمان إلى الانسحاب. وحاصر شارلمان بايون (187) سبعة أشهر، فغلب عبد الرحمان الذي لم يكن قد قطع الجبال بعد تقهقر إلى اسبانيا، وتبعه شارلمان بجيش للمسيحيين لم ير قط مثله في اسبانيا، وانتصر عليه في عدة معارك وأخضع اسبانيا كلها. لكن هذا القول صادر عن المطران توربان وهو غير ثقة كغيرة من الذين يقولون إن شارلمان بعد ما احتل بامبلونة وغيرها من حصون هذه المنطقة، قصد سرقسطة حيث حاربه (188) عبد الرحمان فغلب وفقد ثلاثين ألف عربي، وأن شارلمان بعد هذا الانتصار مر بموقع آخر (189) فاحتله عنوة، ثم رجع إلى سرقسطة فاستسلمت له طوعا وسلمها إلى أبي العرب كما أسلفنا، بعد ذلك عاد إلى فرنسا لاخماد ثورة، لكن الكاسكونيين تمردوا في الطريق ونهبوا الامتعة، الشيء الذي سمح به أبو العرب لأنه لم يرض أن يرى سلب جميع ذخائر إسبانيا. لكن الذين يقولون هذا لم يذكروا أن عبد الرحمن ذهب إلى فرنسا ولا أن شارلمان قتله، وهذا هو الأصح كما سيتضح فيما بعد (190).

آسيـــا

ولنعد إلى آسيا. ففي عام ثمانين وسبعمائة، أيام حكم عبد الله (أبي جعفر المنصور) عبر الأتراك مضايق جبل القوقاز، أي أبواب الكاسبيين، بعدد كبير كالمرة الأولى، وحاربوا المسلمين ثم انسحبوا محملين بالغنائم بعد أن لحقت خسائر كبيرة بالطرفين. ومات عبد الله في العام الموالي (781) بعد أن حكم واحدا وعشرين عاما (191) وخلفه ابنه المهدي.

---

(187) كانت تدعى قديما كينوم .

(188) عام 779 أو 775 .

(189) نشطـة .

(190) الاسطورة واضحة في حكايات انتصارات شارلمان ويتناقض ذلك مع انهزامه الساحق في عقر داره واستنجاده بنبلاء ايطاليا وألمانيا ، والفرنسيون يدعون عصر شرلمان العصر الاسطوري ، وأنشودة رولان الفرنسية القديمة شهيرة في أدبهم . (مترجم)

(191) مات أبو جعفر المنصور في 6 ذي الحجة عام 158 /7 أكتوبر سنة 775م ودامت خلافته اثنتين وعشرين سنة . (مترجم)

الفصل العشرون

في محمد المهدي، ثامن عشر الخلفاء وما حدث في خلافته

أخذ محمد المهدي زمام الحكم عام واحد وثمانين وسبعمائة، وحكم تسع سنين (192) وقد قام أولا بجولة في الأقاليم الرومانية بامبراطورية ليون الرابع (193) فحشد هذا الأخير جميع قواته لمقاومته، وجعل قيادتها لقائد من **العبيد** (194) فدخل إلى أرمينيا (195) بجيش ينيف على مائة ألف رجل فانتصر على ابن محمد (196) في معركة منتظمة، وتوجه منتصرا إلى دمشق التي التجأ إليها المنهزم مع فلول جنده وحاصره هناك. ولما رأى هذا الامير أن المدينة في شدة الضيق وأن السكان أخذوا يفكرون في الاستسلام، اتفق مع القائد العبد وأعطاه أموالا كثيرة لرفع الحصار. وقد اخترق هذا القائد بلاد الشام، وجمع كل اليعاقبه (197) وردهم إلى طراس، ثم عاد منتصرا محملا بالغنائم.

ولما وصلت هذه الانباء إلى محمد (المهدي). جمع كل قواته وذهب إلى بيت المقدس حيث قسم جيشه ثلاثة أقسام، وأرسله إلى أقاليم الامبراطورية، فدخل ابنه (الرشيد) إلى رومانيا ومعه الفرس والكوراكسانيون الموروفور، وابن الازور إلى إيديس، وابن الزبير إلى أرمينيا، وقد أمرهم الخليفة جميعا بهدم جميع الكنائس وذبح كل من يرفضون اعتناق الاسلام (198) لكن ابن الازور أعلن لدى وصوله إلى إيديس أنه لن يرغم أحدا على ترك دينه إن لم يسبق له أن كان مسلما،

---

(192) بل ولي الخلافة في نفس اليوم الذي توفي فيه أبوه ، ودام حكمه عشر سنين وشهرا . (مترجم)

(193) كوبرونيم .

(194) لاكانة .

(195) دراكون أحد أقاليم الفرات .

(196) علق عليه بأن المراد « إسبال » وهو تحريف لهارون الرشيد الذي اشتهر بالنيابة عن والده المهدي في غزو بلاد الروم .(مترجم) .

(197) المارفين .

(198) لا أبلغ في الرد على هذه الترهات من قول الله تعالى « لَآ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ » . ويظهر أن الأمر كان يتعلق بالمرتدين الذين اعتنقوا الاسلام ثم عادوا الى الكفر طوعا أو كرها ، وهؤلاء لهم حكمهم في الاسلام .

الامر الذي اضطر من أجله الكثيرون إلى أن يفضحوا انفسهم، فقتلهم بعدما أذاقهم عذابا قاسيا. ولم يقم الرشيد بأقل من ذلك في رومانيا حيث أمر بقتل عدد كبير من المسيحيين وتهديم الكنائس في كل مكان، ثم عاد محملا بالغنائم. أما ابن الزبير الذي قام بنفس الأعمال في أرمينيا فقد هزم من قبل جنود الامبراطور وهرب إلى الشام بعد أن فقد اثني عشر ألف عربي.

إفريقيـــا

وفي عام تسعة وثمانين وسبعمائة شهر أهل البلاد الأفارقة السلاح في وجه العرب وقتلوا عددا من الفقهاء وحملة الشريعة، إلا أن والي القيروان أسرع إلى نجدتهم ورفع الحصار عن قسنطينة، وعاقب الثوار بشدة. فانسحب إلى مفازات ليبيا من قدر منهم على التخلص من قبضته. ولما مات ليون الرابع في السنة التالية، تولت الامبراطورة إيرين الحكم نيابة عن ابنها الصغير قسطنطين، وخشيت قوات العرب التي كانت تجتاح أقاليم الامبراطورية، فأبرمت هدنة مع محمد (المهدي) مقابل إتاوات أدتها إليه كل سنة.

إسبانيـــا

ولنعد إلى إسبانيا حيث مات الملك سيلو عام ثمانين وسبعمائة، وخلفه ألفونسو ابن فرويل، لكنَّ موركا، وهو ابن غير شرعي لألفونسو الكاثوليكي سلبه التاج بمساعدة قوات عبد الرحمن، ومات بعد خمس سنوات من توليه الحكم مكروها من كافة المسيحيين، لأنه كان يقدم لهذا الأمير المسلم كل سنة مائة فتاة، بالاضافة إلى عدة فضائح أخرى. ولما خلفه ابن أخيه فيماران أرجع المملكة منذ ذلك العهد إلى دوم ألفونسو وامتنع من التزام ما التزمه سلفه، فأرسل إليه عبد الرحمن جيشا قويا بقيادة موسى، فقتل هذا الاخير في معركة قرب أليد مع ستين ألف عربي فضلا عن الاسرى، فاضطر عبد الرحمن إلى إبرام هدنة بشروط معقولة. ولما لم يبق لعبد الرحمان نزاع لامعَ المسيحيين ولا مع عرب إسبانيا، أمر ببناء جامع قرطبة[199] ومات قبل إتمامه، بعد أن حكم خمسين عاما وثمانية أشهر وأربعة أيام[200]

---

(199) سنة 790 في 23 أبريل .

(200)بل مات عبد الرحمان بن معاوية عام 172هـ / 789 – 989م ، بعد أن ملك 33 سنة . (مترجم)

وخلفه ابنه عثمان [201] الذي كان أكبر أبنائه الاثنى عشر وبناته التسع . ومات أيضا في تلك السنة ابن العربي أمير سرقسطة، واستسلمت المدنية إلى شارلمان. وفي نفس الوقت مات الخليفة محمد المهدي بعد حكم دام تسع سنوات [202] تاركا ابنه خلفا له موسى (الهادي) فلم يحكم سوى عامين. أكد خلالهما الهدنة التي كان أبوه قد أبرمها مع الامبراطورة إيرين دون أن يقوم بعمل يستحق الذكر أثناء خلافته، ثم خلفه ابن عمه [203] هارون الرشيد الذي كان بطلا كبيرا.

---

(201) بل الذي خلف عبد الرحمن بوصية منه هو ابنه هشام ، ولم يكن أكبر إخوته ، وإنما كان أبوه يتوسم فيه الشهامة . (مترجم)

(202) مات محمد المهدي في 22 محرم 169هـ /4 غشت 785م بعد أن حكم عشر سنين وشهرا . (مترجم)

(203) بل أخوه .

الفصل الواحد والعشرون

في هارون الرشيد، تاسع عشر الخلفاء وما حدث في خلافته

لما مات محمد المهدي وابنه. (موسى الهادي) بايع العرب خليفة لهم هارون الرشيد الذي دام حكمه ثلاثا وعشرين سنة، فاضطهد المسيحيين كثيرا. وما إن بويع [204] حتى نقض الهدنة مع الامبراطورة إيرين، وأرسل جيشا قويا إلى جزيرة قبرص التي لجأ إليها عدد كبير من القراصنة المسيحيين فجعلها تحت سيطرته. وأرسل برا جنودا لا يقلون عددا إلى أقاليم الامبراطورية بقيادة عبد الملك الذي دخل منتصرا إلى رومانيا بعد أن خرب كالاسيا والكابادوس وتابع سيره إلى مالاكيا حيث هزم فرسان الامبراطور ثم عاد إلى بيت المقدس محملا بالغنائم.

وظهر في العام الموالي ببلاد الفرس انشقاق كبير في مذهب المرابطين الذي ينكره الفقراء التابعون للازهري (؟). ولما عزم هارون على التوجه إلى تلك المنطقة، أجاب الأنبراطور نيسيفور بقبول الهدنة بالشروط التي كان قد اتفق عليها مع إيرين، ودخل إلى بلاد الفرس وقضى على جميع الفتن، وترك الحرية لكل واحد في أن يتبع المذهب الذي يختار، ثم عاد الى بيت المقدس.

وفي عام واحد وثمانمائة حشد هارون ما يزيد على ثلاثمائة ألف رجل من الفرس [205] والشاميين والعرب، وبعد أن فسخ الهدنة مع الامبراطور دخل إلى رومانيا فانتهبها واجتاحها كلها، ولما وصل إلى تيان شيد فيها مسجدا فخما للمسلمين. واحتل عدة حصون [206] حتى وصل إلى أنسيردون أن يلقى أية مقاومة. وكان نيسيفور قد استولى على الحكم بعد أن خلعت الامبراطورة ابنها وفقأت عينيه من أجل خلاعته، فأشفق لحال المسيحيين التعساء وقواته التي لا يمكن الاعتماد عليها، وأراد أن يهدىء الرشيد فكتب إليه أنه مندهش لكونه شهر السلاح في وجهه وهو لم يغضبه في شيء، ونقض الهدنة المؤكدة بكثير من الايمان،

---

(204) في منتصف ربيع الأول عام 170هـ /سبتمبر 786م . (مترجم)

(205) الفرس الموروفـور .

(206) وهي هيراكلي ، ومالوز ، وآندروز ، وطبزة .

فلا داعي للتعلة باختلاف الديانات، إذ كان محمد يوصي بحب المسيحيين كإخوة له، والله لا يرضى بإراقة الدم، ولم يقبل محمد مثل هذه التضحيات، فإذا كان محتاجا إلى المال ـــ وهذا لا يظن من أمير بهذا القدر من الشجاعة والسطوة ـــ أعطاه إياه، أما إذا أراد سلبه، فالله في عليائه ساهر لاحقاق الحق، فليس من الانصاف أن تكون للبشر الذي لا يدوم ضغائن دائمة كحال الشياطين ! فكان لهذه المواعظ مفعولها لدرجة أن الرشيد أرسل إلى نيسيفور هدية من الأشياء التي أخذها، ومنحه الهدنة على أن يؤدي له كل سنة ثلاثين ألف بيزان ذهبا، فضلا عن ستة آلاف كجزية عن الامبراطور وابنه. وبعد أن تسلم إتاوة عام رجع منتصرا إلى بيت المقدس مفتخرا بكونه أخضع نيسيفور وابنه للجزية. وبعد ذلك أمر بتحطيم الحصون دون أن يسمح للامبراطور بإعادة بنائها، لكن إيمان ووعد الطاغية (207) داما أكثر من إيمان ووعد المسيحيين ، إذ بمجرد ما انسحب الرشيد، أعاد نيسيفور بناء الحصون وحشد جيشا استرجع به كل ما كان قد فقده. ولما علم الرشيد بذلك، أرسل ابن الزبير إلى رومانيا فاحتل مدينة طبزة وجاس خلال الديار، وأمر بتحطيم جميع كنائس المسيحيين، ثم عاد منتصرا إلى بيت المقدس.

وفي العام التالي (208) أرسل الرشيد جيشه إلى قبرص بقيادة سميت فخرب الجزيرة كلها، وأمر بهدم الكنائس، وذهب في فصل الربيع الموالي لمحاصرة رودس التي دافعت عن نفسها ببطولة حتى اضطر إلى رفع الحصار بعد أن دمر البلاد، ورجع إلى الشام، لكن معظم جيشه هلك بسبب هبوب زوبعة أثناء رجوعه.

إفريقيـــــا

وبينما كانت هذه الأشياء تحدث بآسيا، دخل زناتة إلى بلاد البربر، وهم قوم شجعان ينتقلون عبر صحاري نوميديا والظهرة كأنهم منفيون ، فتمكنوا من قسنطينة وقتلوا الوالي الذي أقامه بها حاكم القيروان، ثم طردوا العرب من الاقلم واستولوا عليه (209).

(207) بهذا يعبر مارمول المتعصب عن الخليفة المتسامح الذي عفا عند المقدرة ، وكان باستطاعته أن يقضي نهائيا على الامبراطورية المسيحية .

(208) عـام 803 .

(209) عام 795 .

وحتى نعود إلى إسبانيا نذكر أن دوم فيرمود، الذي كان دائما يعترف بأنه يحتفظ بالمملكة لانفونسو، بعد أن مات عبد الرحمن عام تسعين وسبعمائة، طلب من ابنه (هشام) (210) مواصلة الهدنة التي لم يقبلها هذا الأخير إلا بشرط تسليم مائة فتاة كالعادة. لكن فيرمود لم يرض بهذا الشرط قائلا إنه لم يتعود فعل مثل هذه الرذائل، راجيا من الله أن يؤيده. ثم إن سليمان أخا (هشام) ثار ضده بطليطلة وتلقب بملك إسبانيا. بمساعدة بعض الثوار، فاضطر (هشام) إلى إبرام هدنة مع فيرمود دون قيد ولا شرط. ولم تنته الحرب المستعرة بين الاخوين إلا بانسحاب سليمان والتجائه إلى مدينة مرسية بعد أن انهزم في عدة معارك، وخاصة بالقرب من فيلش، ولم يغادر مرسية إلا عندما اضطر إلى الهروب إلى بلاد البربر. يقول ابن راشد إنه سمح له بالخروج منها شريطة أن يعبر إلى تلك البلاد، وبعد ذلك تمكن أخوه من طليطلة ومن سائر معاقله الأخرى. ومات فيرمود عام اثنين وتسعين وسبعمائة وخلفه ألفونسو (211) الملقب بالعفيف، وإن كان بعضهم يقولون إنه تزوج إحدى أخوات شارلمان. ودام حكمه إحدى وأربعين سنة، واحتفظ في بعض الوقت بالهدنة المبرمة مع الملك المسلم. ولما انتهت حرب سليمان استسلم عرب سرقسطة إلى (هشام) الذي عين مالكا حاكما لهم، ثم ألّف جيشا قويا سلم له قيادته ليتوجه إلى أكيتين ويجوس خلال ديارها، فاحتل ناربون وعدة حصون أخرى، وكانت الغنيمة التي أحرز عليها عظيمة حتى قال بعضهم إن خمسها فقط (212) الذي بعث به إلى (هشام) استعمل لتتميم المسجد الفخم الذي كان أبوه قد شرع في بنائه بقرطبة. بالاضافة إلى أنه حصل على عدد كثير من الأسرى بحيث إن الاحجار التي أمرهم بحملها على أكتافهم من ناربون إلى قرطبة كانت كافية لبناء مسجد داخل القصر، تخليدا لذكرى هذا الانتصار. وكان (هشام) أول ملك مسلم بإسبانيا جهز أسطولا أرسله من ألمرية ليسير في البحر بقيادة محمد ويغير على جزر ميورقة ومنورقة ويابسة وسردانية، وقام كذلك بإتلافات جسيمة في شواطئ فرنسا وإيطاليا (213).

(210) في الأصل عثمان .

(211) ابن فرويل .

(212) وقدره خمسة وسبعون ألف دينار ذهبا .

(213) عام 797 .

وفي نفس الوقت ثار سعد (214) وهو قائد عربي كان مقيما بمدينةبرشلونة ومعترفا بالخليفة، فاحتل (هشام) المدنية وألجأه إلى الفرار إلى فرنسا، حيث وعد شارلمان بالخضوع له وإعانته على احتلال كاطالونيا بسهولة إن استطاع هو أن يعيده إلى منصبه. فقطع شارلمان جبال البرانس عام سبعة وتسعين وسبعمائة، وبعد أن احتل برشلونة أسند حكمها إلى سعد بالاضافة إلى كيسكار وسرقسطة وحصون إخرى، ثم عاد ظافرا إلى فرنسا. لكن سعدا امتنع من الوفاء بما وعد ومن أداء الاتاوة إلى شارلمان، فسرح اليه ابنه لويس الدبونير (دمث الاخلاق) (215) لارغامه على ذلك. ولما أحس سعد بدنوه مع عدد من النبلاء حصن قلعته أوثق تحصين، واحتمى بها ليدافع عنها أحسن دفاع ، إلا انه اضطر إلى الاستسلام بعد حصار دام سنتين، والخروج مع زوجته وأولاده، وسلم لويس الحصن إلى العربي لولو (؟) الذي ساعده كثيرا في هذه الحرب، ثم عاد إلى فرنسا. ولولو هذا أزعج كثيرا العرب الخاضعين (لهشام)، وذلك بواسطة الجنود الذين كان يأتي بهم من فرنسا، فوسع جدا إمارته وساعده في ذلك أيضا موت (هشام)، فلم يعد يقاومه أحد في هذا التغيير.

ولما مات (هشام) كان ولده البكر عمر قد ذهب إلى بلاد البربر ليقوم فيها ببعض الفتوحات، فنصب أهل قرطبة مكانه أخاه الثاني (الحكم) (216) وما إن سمع بهذا الخبر حتى عاد إلى إسبانيا وشن عليه عدة غارات لقي حتفه فيها أخيرا. وبعد موته ذهب الحكم إلى إشبيلية وأقام فيها طوال حكمه الذي دام ستة وعشرين عاما وتسعة أشهر وخمسة أيام (217) وأنشأ أسطولا عظيما عام واحد وثمانمائة، وأرسله يجوس خلال شواطئ إيطاليا، ويعمر جزيرتي ميورقة ومنورقة بالسكان، ويستولي

(214) تذكر المصادر العربية الوثيقة ان سعيد بن الحسين الأنصاري ثار بطرسوسة من شرق الاندلس واعصوصبت عليه اليمانية ، لكنه لم يلبث أن قتل على يد أنصار هشام ، ولا ذكر لشارلمان ولا لابنه ، ولا لولو ! أما الثائر ببرشلونة فهو مطروح بن سليمان بن يقظان ، وملك أيضا سرقسطة ووشقة ، وكان مآله القتل أيضا على يد بعض أصحابه .(مترجم)

(215) عـم 799 .

(216) في الأصل (علينتان) ولا معنى له . وقد مات هشام بن عبد الرحمان عام 180هـ /796م بعد أن ملك سبع سنين وسبعة أشهر وأياما . فخلفه – بعهد منه – ولده الحكم بن هشام ، ولا أصل لمن سماه مارمول (أخا عمر) ولا لذيوله . نعم خرج على الحكم في أول ولايته عماه عبد الله وسليمان ــ وكانا بالمغرب الأقصى – فحاربهما الحكم وكانت عاقبة سليمان القتل ، وأخلد عبد الله إلى السكون .

(217) بل ظلت قرطبة عاصمة الخلافة الأموية وعاش فيها الحكم بن هشام طوال ملكه إلى أن مات بها آخر سنة 206هـ /822م ، بعد أن ملك 27 سنة .

وفي أيامه كانت وقعة الربض المشهورة (189 – 202هـ) حيث حاول الفقهاء خلعه لسوء سيرته الدينية ، فحاربهم وخرب ديارهم وألجأهم إلى الخروج الى مدينة فاس . انظر أحمد المقري ، **نفح الطيب** 339:1 ، والهامش رقم 3 .

على جزيرتي الكرس وسردانية. ولما علم شارلمان بهذه الانباء، وكان قد اتخذ لقب امبراطور، أرسل أسطولا حربيا أدرك أسطول الحكم في شواطئ سردانية، فدارت بينهما معركة شديدة انتصر أخيرا فيها الفرنسيون، بعد أن أغرقوا أحد عشر مركبا للأعداء وساروا من هناك إلى ميورقة وطردوا العرب من هذه الجزر. ثم إن سليمان الذي كان يحارب (الحكم) وهرب إلى بلاد البربر، رجع مرة أخرى إلى اسبانيا بجيش مؤلف من العرب والأفارقة، وانضم إلى عبد الله أحد إخوته، وتمكن من مملكة بلنسية، وحث طليطلة على الثورة وذبح حاميتها، لكن (الحكم) غلبه وأمر بذبحه، فانقاد عبد الله للمنتصر بعد ما رأى أخاه ميتا، لكن دون أن يسلمه طليطلة التي استمرت متمتعة بالحرية أكثر من ثماني سنوات. وقد دخل (الحكم) – بعد انتصاره – الى أركون، واحتل سرقسطة التي كانت خاضعة لشارلمان، ثم جاب الاقليم كله مارا ببرشلونة وأرغم لولو على الخضوع له. وإذ ذاك جهز شارلمان جيشا قويا وأرسله عاجلا إلى الفونسو يطلب منه المدد في هذه العملية. ورغم الهدنة التي أبرمها مع (الحكم) فإنه بعث إليه يقول إنه لم يعد يرغب في إيقاء السلم بينهما ما دام يشن الحرب على الامراء المسيحيين، وبعد أن انضم جيشا فرنسا وإسبانيا إلى بعضهما، دخلا إلى أراضي العدو واحتلا بها عدة مراكز في فترة وجيزة من الزمن .

وفي سنة ثلاث وثمانمائة (218) حاصرا مدينة لشبونة بالبرتغال وأخذاها عنوة، ثم رجع كل واحد منهما إلى بلاده محملا بالغنائم، دون أن يعترض أحد طريقهما، لأن (الحكم) كان مشتغلا بحرب قطالونيا بجميع قواته. وأخيرا تخلى عن هذه المهمة لينتقم من عدوه. ولما وصل إلى قرطبة أرسل إلى ملوك موريطانيا وإلى شيوخ العرب يستنجدهم ضد الامراء المسيحيين. وعندما وصله المدد في فصل الربيع من السنة الموالية، دخل إلى قشتالة بجيش عرمرم، وأخذ يخرب أراضي المسيحيين، فحشد الملك ألفونسو جنوده وانضم إلى الجيش الذي أرسله إليه شارلمان، وشرع في الحرب ضد (الحكم) قرب أليد حيث مات ستون ألف عربي، وترك الغنيمة للفرنسيين الذين أبلوا البلاء الكثير وردهم إلى بلادهم فرحين مغتبطين. وفي نفس السنة (219) ثار على (الحكم) أميران (220) من حاشيته وحارباه طوال سنتين قبل أن

---

(218) أو 800 .

(219) 803 .

(220) علق على ذلك بأنهما بجل وغراد ، ولا معنى لذلك إذ الثائران هما بهلول بن مرزوق المعروف بأبي الحجاج الذي ملك سرقسطة ، وعبيدة بن حميد المتسلط على طليطلة . (مترجم) .

يستطيع إرجاعهما إلى طاعته، لأنهما كانا معززين من طرف دوم ألفونسو، واغتنم شارلمان هذه الفرصة فأرسل لويس الديبونير على رأس جيش إلى قاطالونيا فاحتل طرطوشة وبرشلونة ولاردة. وأرسل الحكم من جهته فقهاءه إلى إفريقيا ليحملوا المغاربة على إعانته ضد المسيحيين، وبذلك حشد جيشا قويا بمساعدة الافارقة والعرب ودخل إلى قطلونيا واسترجع جميع الحصون التي كان الفرنسيون قد احتلوها في السنة الماضية. وأعاد شارلمان الكرة فأرسل لويس ديبونير لكن (الحكم) لم يجرؤ على انتظاره وانسحب إلى قرطبة، فاستولى الفرنسيون للمرة الثانية على البلاد، ثم عادوا إلى فرنسا ليقضوا بها فصل الشتاء. وهناك يقال إن رولان حقق العجائب مع بعض الفرسان الفرنسيين الآخرين. فأبرم (الحكم) مع شارلمان هدنة لم تدم سوى عامين، لأن مسيل الذي كان يحكم سرقسطة من قبل الحكم، نقض الهدنة مع الفرنسيين وشن عليهم حربا عوانا في قطلونيا، حتى اضطرت برشلونة إلى الاستسلام. لكن لويس الديبونير أسرع إليها واسترجعها طوعا (221) وطرد العرب كلهم من المدينة. وبعد أن عمرها من جديد بالمسيحيين ترك أزنار يحكمها ثم عاد إلى فرنسا. وجعل أزنار هذا من هذه المدينة عاصمة قطلونيا واحتل في أراكون كيسكار التي كان يحكمها عبد الله باسم شارلمان، فشكاه عبد الله إلى شارلمان فأمر بإرجاعها إليه. غير أن أزنار ظل يعمل ضده حتى ثار عليه السكان وبايعوه ملكا، فأصبح بذلك سيد هذه الامارة لمدة طويلة.

وفي هذا الوقت توجه عمروس (222) الذي كان حاكم مدينة كيسكار بضاحية باصة، إلى طليطلة، بأمر من (الحكم) يطلب من أهلها الرجوع إلى الطاعة ويعدهم بالعفو، فسمح له هؤلاء القوم لشدة سذاجتهم بالدخول إلى مدينتهم، ولعبد الرحمن ابن (الحكم) الابن الاكبر للخليفة، الذي ما إن دخل اليها حتى أمر بتذبيح ستة آلاف من السكان. وفي نفس السنة (223) عندما رأى الملك ألفونسو العفيف نفسه بدون أولاد، وأنه في حاجة إلى قوات أخرى ليقاوم العرب، أرسل خفية إلى شارلمان الذي كان يعرف قدره طالبا منه أن يمده بالاعانة على أن يتخلى له عن تاج الملك. فقبل شارلمان هذا الشرط وجهز جيشا قويا أرسله عبر

(221) عام 806 .
(222) هو كمروس بن يوسف المعروف بالمُولَّد . (مترجم)
(223) 809 .

الجبال (224) للدخول إلى نافار، كما فعل ذلك من قبل، لكن ألفونسو عندما علم بخبر مجيئه، استدعى إمارته ليطلعها على ما اعتزمه. ولما لم تذعن لارادته أرسل إلى هذا الأمير يحذره ويطلب منه أن يقف ولا يتقدم أكثر، في انتظار فرصة مواتية. غضب شارلمان إذ رأى نفسه محروما من آماله ومن المصاريف التي أنفقها، إضافة إلى العناء الذي كابده، فتوغل في ممر رونسوفو مع عدد كبير من الامراء المسيحيين الذين كانوا في حاشيته، واغتاط ألفونسو لهذا وأمر جيمع رعاياه بأخذ السلاح، وتحالف مع (الحكم)، ثم أسند قيادة جيشه إلى ابن أخته دوم برنار (225) وأمر الحكم من جهته والي سرقسطة بحشد أكثر عدد ممكن من الناس والانضمام إليه لمنع الفرنسيين من الدخول إلى إسبانيا، وتوجهوا جميعا نحو رونسوفو لمنعهم من المرور. وكان عدد الفرنسيين مائة وأربعة وثلاثين ألف محارب بقيادة رولان وأوليفيي وأسطولف، وكل منهم برتبة كونط القصر، وهي رتبة كان لها نفس السلطة التي للملك في الشؤون الحربية. وكان الجيش معسكرا في وادي أوسبيتة بجانب جبال البرانس المطلة على فرنسا، والجيش الاسباني في الجانب الآخر (226) ومنه أرسل برنار من يحتلون الممرات وقمم الجبال ليمنعوا الفرنسيين من المرور. وكان شارلمان مصحوبا بأرسطان ملك بروطاني، وكونديبو ملك فريز، وكايفر دوق كيين، وياصون دوق بوركوني، وعدد آخر من الأمراء والنبلاء المرموقين الذين كانوا — فيما يظهر — يحتقرون قوات إسبانيا. فقسم جيشه إلى ثلاث فرق، وإن قيل إن ذلك كان حيلة من كانولون. الفرقة الاولى التي كانت بمثابة الطليعة قادها رولان وأوليفيي مع جميع نبلاء فرنسا، والثانية قادها لويس الديبونير مصحوبا بجميع الامراء، أما الثالثة فاحتفظ بها شارلمان مع الكونط كانولون. وكان الجيش الاسباني مقسوما إلى فرقتين، إحداهما مؤلفة من المسيحيين بقيادة برنار، والاخرى مؤلفة من المسلمين بقيادة ماسيل، فضلا عن الجنود المنفردين المنتشرين هنا وهناك على قمم الجبال، وعندما شرعت الطليعة في الصعود وهي مثقلة بالاسلحة متعبة بالسير انقض عليها الاسبانيون من كل جهة وهزموها بسهولة. فقتل أوليفيي ورولان، واضطر الباقون إلى التخلص بالفرار. ولم يكن الذين ماتوا في المعركة بأشقى ممن لم يموتوا فيها، لان

---

(224) عام 809 حسب تواريخ كَاسكونيا ، أو 800 .

(225) ابن دونية شيمينة أخت الملك الكونط سانشوديازدي سالدانيا .

(226) في وادي كارلو .

هؤلاء هربوا إلى الصخور والجرفة فلقوا كثيرا من العنت وماتوا شر ميتة. وبعد انهزام الطليعة لم تستطع المعركة التالية أن تقاوم أكثر، فتابع برنار انتصاره إلى أن اقترب من معسكر شارلمان الذي انسحب إلى تولوز مع حاميته بعد أن شاهد ذلك الاضطراب، وعاد الاسبانيون والعرب إلى اسبانيا منتصرين.

وفي السنة الموالية (227) لما رأى الحكم الخلاف قائما تبين ملك فرنسا وملك اسبانيا قطع العلاقات مع الاسبانيين، فأرسل ملكهم في الحين يستنجد بشارلمان، معتذرا له بأسلوب لطيف حتى أبرم الصلح معه. وقسم الحكم جيشه إلى تجريدتين، إحداهما بقيادة أبي العباس، والأخرى بقيادة مالك، فأرسل الأولى الى كاليسيا، والثانية إلى قشتالة. وقسم ألفونسو جيشه كذلك إلى تجريدتين أسند إحداهما إلى برنار الذي غلب أبا العباس وقتله في نارون، وهزم هو مالكا قرب نهر سيفا الذي غرق فيه القائد المسلم، وفقد الخليفة في هتين المعركتين معظم العرب .

وفي سنة إحدى عشرة وثمانمائة، دخل عمر الذي كان يحكم ماردة في الاسترامادور إلى أراضي ألفونسو وحاصر مدينة بينيفانت، لكن برنار أسرع لاغاثتها وقتل عمر بيده وحقق ذلك النهار أعمالا بطولية بحيث لم ينج إلا القليل من العرب. وفي نفس السنة دخل الحكم إلى البرتغال بجيش عرمرم وحاصر مدينة لشبونة التي احتلها طوعا، واسترجع عدة حصون لدى عودته من يد دوم ألفونسو، لكن عندما كان يحاصر ليديسم، أسرع الملك لنجدتها ونازله في معركة قتل فيها عدد كبير من الجهتين دون أن تسفر عن غالب ومغلوب، فانسحب ألفونسو إلى جهته وعاد الحكم إلى قرطبة بعدما كلف ألكاما بحراسة الحصون التي احتلها (228) ، وأرسل أيضا أسطوله إلى شواطئ إيطاليا، فنهب قسم منه جزيرة سردانية في طريقه، ونهب القسم الآخر جزيرة ميروقة، غير أن برنار ملك إيطاليا تعرض للأولين وقتل جلهم.

وفي سنة اثنتي عشر وثمانمائة حاصر ألكاما مدينة سامور بعد أن حشد جمهورا كبيرا من العرب في باداشوس ـــ التي يسميها العرب بلاد العيش، أي بلاد الحياة ـــ فانتصر عليه فيها برنار وقتله، ثم استمر في انتصاره تاركا القليل من

---

(227) 810 .

(228) عـام 811 .

الاعداء يتمتعون بالحياة. وفي نفس السنة، حينما رأى الحكم أن أموره لا تسير على الوجه المطلوب، طلب المدد من أمراء إفريقيا، فأرسلوا إليه جيشين في فصل الربيع من السنة الموالية (229)، دخلا معا إلى أراضي دوم ألفونسو الذي قسم هو الآخر جنوده قسمين لمقاومتها. فانتصر برنار على أحدهما عند حدود البرتغال في مكان يسمى فالديمور، وانتصر الملك على الآخر بالقرب من نهر أورنيس حيث قتل عدد لا يحصى من العرب، واسترجعت عدة حصون من يد العدو. ولما أهين الحكم هكذا أبرم الهدنة مع شارلمان ودوم ألفونسو، وأعلن برنار أثناء ذلك الحرب على الملك دوم الفونسو وسلبه مدينة كاربيو الواقعة بين سلامنكا وألفادي طورم ليزغمه على أن يرد إليه أباه الكونت سانشودياز ديمالدان الذي كان سجينا عنده. ووقع الاتفاق أخيرا على أن يرد برنار مدينة كاربيو إلى الملك، ويرد الملك إليه أباه. وعندما سلم برنار المدينة استلم أباه ميتا، فغضب ورجع إلى فرنسا حيث عينه الملك قائدا عاما لجيوشه.

آسيـــا

لقد ذكرنا في الفصل الثامن عشر كيف اضطهد عبد الله بن محمد آل علي ليقيم دولته ويسلمها لابنه محمد المهدي، حتى إن أحدهم (230) هرب إلى موريطانيا الطنجية واستقر بوليلي (231) في جبل زرهون. وبما أنه كان من آل بيت محمد (عليه السلام) لين الجانب، فقد ملك قلوب هذه القبائل حتى إنهم أجلوه كصالح وأطاعوه كأمير لهم، فكان أول من غرس بها هذا الدين، وكان كثيرا ما يرسل جنودا إلى إسبانيا لشن الغارة على المسيحيين، فأكسبه ذلك الكثير من التقدير والمال والشهرة. ولم يعقب إلا ولدا من جارية مسيحية من سلالة القوط (232) وإن كان يعتقد أنه لم يولد إلا بعد وفاته. فربي هذا الوليد بكامل العناية، وعهد بتربيته إلى أحد موالي أبيه القدماء اسمه راشد، إذ لم يقبل الشعب ملكا آخر غيره. فأصبح هذا الامير الذي يسمى إدريس ــ كأبيه ــ أحد ملوك إفريقيا الأكثر سلطة، وأحرز على انتصارات عديدة في شبابه. وهو الذي أسس مدينة فاس على

---

(229) 813 .

(230) وهو إدريـس .

(231) في الأصل أيضا : تيوليت .

(232) بل هي كنزة البربرية المسلمة .(مترجم)

النهر الذي يحمل اسمها سنة ثلاث وتسعين وسبعمائة، أي عام خمسة وثمانين ومائة للهجرة (233) ودام ملك هذه الدولة في موريطانيا كلها — أو في جزء منها — مائة وخمسين سنة، إلى أن أبادتها دولة مكناسة، ثم دولة محيي الدين (كذا) أحد خلفاء القيروان الخارجيين.

وفي سنة أربع عشرة وثمانمائة (234) مات هارون الرشيد في بلاد فارس بينما كان يستعد لمحاربة الامبراطور بشدة ، تاركا خلفا له ابنه محمد الذي ظهرت في خلافته شيعة بغداد (235) وحدث الانشقاق في مملكة العرب، كما سنذكر ذلك في الفصل التالي .

(233) المشهور أن المولى إدريس بن ادريس شرع في بنائها يوم الخميس فاتح ربيع الأول عام 192 /4 يناير 808 . انظر ابن أبي زرع ، **القرطاس** ص 38 . (مترجم)

(234) مات هارون الرشيد بمدينة طوس من أعمال خراسان ، في 3 جمادى الآخرة عام 193 /24 مارس سنة 809 بعد أن حكم 23 سنة وشهرين ، وأوصى بالخلافة من بعده لابنه الأمين ، وللمامون من بعده ، وللمؤتمن من بعده .(مترجم) .

(235) سماها مارمول — كعادته — بابلون . (مترجم)

الفصل الثاني والعشــــرون

محمد الخليفة العشرون وماجرى في عهده

ما إن تولى محمد [1] مقاليد الدولة حتى جرت بينه وبين أخيه عبد الله [2] عدة حروب انسحب أثناءها المسيحيون المظلومون من البلاد واستقروا في جهات أخرى. وكانت مدينة القدس أكثرها تعرضا للاضطهاد. فقد وقع استهانة بالاماكن المقدسة، وتركت الكنائس والأديرة وحصل اضطهاد لعدد من القساوسة ورجال الدين، فاضطر الآخرون للالتجاء الى قبرص والى القسطنطينية وسط المزيد من المحنة والخطر. ورأى الاخوان في النهاية أن نزاعهما سيسبب خراب الدولة فاتفقا على أن يحملا كلاهما لقب الخليفة ، ونقل محمد مقره من دمشق إلى بلدك أو بغداد التي بناها على أنقاض بابل القديمة (أو بالاحرى على انقاض سلوقية الواقعة على يوم من بابل) وهذا الانقسام نشأت عنه عدة ثورات. فكان هنالك خمس خلفاء : اثنان بإفريقية وواحد باسبانيا والآخران ببغداد والقاهرة [3].

ففي أفريقية كان واحد منهم يتولى الملك بفاس والثاني بالقيروان، حيث كان هنالك سيد عربي يدعى الأغلب أو الغالب حكمت أسرته أزيد من مائة وستين سنة الى أن خلع من لدن المهدي الشيعي الذي كان أول خليفة بافريقية، أصله من الشرق، مثل إدريس بالنسبة للغرب، وكلاهما من أصلين مختلفين ومذهبين متغايرين. فالمهدي كان من بيت العباس، عم محمد، وادريس من بيت علي صهره. ولم يكن هنالك اعتراف بخليفة بغداد لامن جهة افريقيا ولا من جهة اسبانيا، ذلك أن الحكام فيهما، وبخاصة في القيروان أصبحوا جد أقوياء، اذ أنهم

---

(1) المراد به محمد الأمين ابن هارون الرشيد (مترجم) .

(2) عبد الله هو اسم الخليفة المامون (مترجم) .

(3) كل هذا يخالف وقائع التاريخ (مترجم) .

امتدوا بسيطرتهم الى بلاد الزنوج واستولوا على صقلية وعلى جزء من طوسكانيا ومن مملكة نابولي. وعظمت حاشيتهم الى درجة أن القيروان ضاقت بهم فتحولوا الى رقادة القريبة منها وزينوها بكثير من البناءات حتى غدت تضاهي بغداد. وزيادة على الامير والاشراف الذين كانوا يقطنون بالقيروان فان معظم سكانها كان يوجد من بينهم عدد من الفقهاء لا يقل عما كان يوجد بالبصرة. وقد اتسعت القاهرة بكثرة منذ أن استقر بها السلاطين،(4)، بحيث أصبحت تعتبر اليوم كأكبر مدينة في العالم.(5) وأما خلفاء الشرق، فقد ظلت حاضرة ملكهم هي بغداد حتى خربها التتار في سنة ألف ومائتين وثمانية وثمانين، وكانت هي آخر سنة في ملك أولئك الخلفاء

وفي تلك الاثناء، رأى محمد انتعاش فرقة المرابطين (الدعاة) بفضل دعوة المسمى جوهر الذي كان يوجه دعاته في كل مكان، فعقد جمعا في بغداد ندد فيه بتلك الفرقة وطارد أتباعها الى الحكم عليهم بالقتل. ولكن جوهر دافع عنها أحسن دفاع ضدا على فقهاء الاشعرية، مما جعل الخليفة ينضم اليها.

وفي ذلك الوقت قام الامبراطور ميخائيل، صهر نقفور بحرب كبيرة سأتحدث عنها هنا، لانها كانت في قسم منها مع القوات العربية وكان هنالك رجل يدعى طوماس يتصف بشجاعة كبيرة لكنه من أصل وضيع وكان في خدمة أحد شيوخ القسطنطينية. فحلت به مصيبة حملته على الالتجاء عند العرب ونال شهرة كبيرة وحصل على ثقة الخلفاء في مدة عشرين سنة حتى انهم، بعد أن دخل في دينهم، وجهوه على رأس جيش لمحاربة الامبراطورية وكان قد وعدهم بادخالها تحت طاعتهم. ويقول الآخرون بأنه كان تركيا، من سلالة بردان وأنه بسبب صداقته مع ليون أراد أن يأخذ الثأر من قاتله.(6) فحشد جيشا كبيرا من الفرس والميديين والكلدانيين والعرب والايبيريين وغيرهم من أمم أخرى، وساروا وراءه إما بدافع المحبة أو بدافع المصلحة أو بالقوة بالنسبة للبعض منهم، وانضم إليه كذلك عدد من النبلاء المسيحيين الذين ساندوه بسبب كراهيتهم لميخائيل على ما يتصف به

(4) يستعمل المؤلف كلمة سودان، وهو لفظ استعمله المؤلفون الأوربيون في معنى سلطان، وكانوا يقصدون به في الغالب ملوك مصر في عهد الاسلام. (مترجم).

(5) بإدخال عدد من الأماكن المجاورة التي كانت بمثابة أرباض منفصلة.

(6) ميخائيل.

من رذائل. واستطاع بهذا الجيش أن يسيطر على كل أقاليم الشرق (7)، وخرب عددا من المدن في آسيا من التي كانت تريد أن تظل على وفائها للامبراطور. ولم يبق اذن، من بين قادة الامبراطورية الا اثنان، كراسيلا وأولفيان، هذا في أرمينية والآخر في غيرها (8)، وقد اعترف الامبراطور منذ ذلك الحين أجمل اعتراف بخدمتهما. وعظم شأن طوماس بما ناله من انتصارات، فتخلى امبراطور وتوج نفسه على يد أيوب، أسقف انطاكيا، الذي جعل منه شريكا في الامبراطورية. وجمع الامبراطور(9) بعض الجنود لدى سماع هاته الاخبار، واستطاع الآخر أن يهزمهم بسهولة لانه كان اقوى. فقد كان لديه ثمانون ألف رجل وبما أنه كان مسيطرا على الجيش البحري فقد بلغ بانتصاره الى أبيه، محرقا ومحطما كل شيء. ومن هناك انتقل الى تراقيا مستورا بليل حالك مظلم، وكان عدد من الطرف الآخر يستسلمون له كل يوم، دون أن يستطيع أورفيان ولا كراسيلا، اللذان أتى بهما الامبراطور أن يقاوماه، ثم أخذ في مهاجمة القسطنطينية برا وبحرا فكسر السلسلة التي كانت تغلق الميناء ولم يستطع أن يستولي على المكان بالقوة ، فخيم حوله بقسم من الجيش، بينما كان القسم الآخر يخضع بقية تراقيا. وبينما كان يراوده الأمل في الاستيلاء على المدنية، جاءت عاصفة أبعدت سفنه وأرغمته على الانسحاب الى آسيا، لأن فصل الشتاء كان قريبا. وما أن عاد الربيع حتى جدد الحصار بجنود أكثر من ذي قبل .

ولكن الامبراطور كان قادرا على الدفاع، فخرج من جميع الأبواب وقتل فريقا منهم وبث الفوضى في البقية. وهجم جيش الامبراطور البحري في نفس الوقت على جيش العدو فهزمه. وعلى اثر ذلك، قام أحد اقرباء ليون من الذين ساندوا طوماس وكان مغضوبا عليه من الامبراطور، فاغتنم الفرصة ليحصل على رضا أميره. وبما أنه كان على رأس فيالق كثيرة، فقد هجم على الجيش من المؤخرة. وثار طوماس لهذا الغدر وكان لديه من القوات ما يساعده على الاحتفاظ بمعسكره، فهجم عليه بقوة وغلبه وقتله. ثم إنه أخفى هزيمته وكتب الى كل مكان بأنه هو الذي هزم الامبراطور وأنه يحاصره داخل العاصمة. ووجه الامبراطور أثناء ذلك سفنه ليلا الى الجيش البحري الموجود في باروط فأثار لديه رعبا كبيرا بما أطلقه من نيران

---

(7) في الأصل كلمة غرب .
(8) في أوسيسيـان .
(8) ميخاييل .

اصطناعية حتى أحرق منه جزءا ودمر الجزء الآخر، باستثناء ما أخذوا منه الى القسطنطينية، وانضم الفار منها الى الجيش البري، فانتشر صدى هذا الانتصار في كل مكان وأعلن ملك البلغار، (10) بدافع الرغبة في الغنائم، وكذلك من أجل تأكيد المهادنة التي كان أبرمها مع ليون، عداءه لطوماس فجاء لملاقاته قريبا من القسطنطينية (11) وأنشب معه الحرب وألحق به الهزيمة،ورجع مثقلا بالأسرى والغنائم ولما انتشر الخبر انضمَّ من بقوا في المعسكر الى الامبراطور والتحق طوماس بجنوده وخيم بمكان يستطيع منه أن يروع السكان وأن يتلقى بعض النجدات عن طريق البحر. ولكن الامبراطور الذي عظم جيشه بفلول جنده هاجمه في حصنه وأجبره على الفرار، فالتجأ الى اندرينوبل مع معظم من استطاع ان يضمهم اليه، وقد شاهد أن الآخرين تخلوا عنه، وكذلك فعل ولده أنستازي الذي تبناه في قصر بيزي. وعلى إثر ذلك هب الامبراطور لمنازلة أندرينويل وحاصرها وشدد عليها الخناق حتى خلت منها الاقوات. فأرسل السكان سرا اليه يلتمسون عفوه وسلموا اليه طوماس. فبطحه على الأرض ومر على جسده وهو يدوسه باقدامه، ثم طوّفه محمولا على حمار بعد أن قطع يديه ورجليه والشقي يصيح يا الاه، أنت الملك الحقيقي، فكن رحيما بي. وأراد الامبراطور أن يعلم منه اسم شركائه ، لكنه لم يسم أحدا، ومات في العذاب دون أن يتنازل . وأما أنستازي الذي التجأ الى بيزي ، فقد وقع تسليمه وجرى عليه العقاب بنفس الشدة .

اسبانيـــــا

ولنرجع الى الغرب الذي لم يكن أقل تعرضا للحروب بعد أن هزم الفونس وبرنارد الجيشين الموجهين من الحكم في عام ثمانمائة وثلاثة عشر وأجريا معه الهدنة ومات شارلمان في السنة التالية بعد أن تملك على فرنسا طوال سبع وأربعين سنة، قضى منها اربع عشرة سنة وهو امبراطور. وخلفه ولده لويس الطيب، مما حرك آمال المسلمين . وفي تلك الاثناء ثار عامل بلنسية عبد الله على الحكم وحاربه

---

(10) مونتـاف .

(11) في مكان يسمى سيدوكت .

طوال أربع سنوات وثار في نفس المدة عامل ماردة محمد، وهو يظن أن النجدة ستأتيه من ألفونسو. ولكن هاته الثورة قمعت بمجرد نشوبها. ذلك أن عبد الرحمن ابن الحكم قضى عليه واحتل البلد. وقد استطاع ان يضم اليه بعض الجنود ويذهب الى الفونسو الذي أحسن استقباله ووجهه الى غاليسيا ضد بعض الشعوب التي انتقضت بتحريض من فارس اسمه دون ريموند .وبعد سنوات عمل محمد مع دون الفونس نفس ما عمله مع الحكم ، فتحالف مع ريموند وقام الاثنان بغارات في بلاده مع حشود من العرب تمكنا من اجتذابهم الى جهتهم وقاد ألفونس جيشه على الفور وسار في طريق غاليسيا وما ان رآه ريموند حتي تخلى عن محمد وتزوج بابنة أخيه . ووجد محمد نفسه معزولا ، فالتجأ الى قصر سانت كريستين حيث حاصره الملك. ولما أدرك أن لا منجاة له، قرر أن يقوم بآخر مجهوه أو أن يدبر أمر فراره، لكنه غلب ووقع في الاسر ثم قطعوا رأسه. وبعد أن هدأ دون الفونس هاته الثورة واسترجع كل الاماكن التي أخذت منه، رجع الى ليون في سنة ثمانمائة وعشر وعقد الحكم معه الهدنة ، ثم دخل الى قطلونية على رأس جيش قوي فحاصر العاصمة (12) التي دافع عنها بشجاعة برنارد ديل كامبيو قائد فرنسا، أو شخص آخر يحمل نفس الاسم، بحيث انه ما بلغ خبر وصول لويس الطيب حتى رفع الحصار وابرم الهدنة لمدة ثلاث سنوات بعد أن أهلك قسما من جنده في الهجوم. وبعد انتهاء الهدنة، التي لم يحدث أثناءها شيء يذكر، جمع جيشا آخر من العرب الأفارقة وقصد برشلونة (13).لكن الحمى أصابته في الطريق وانتهت مشاريعه مع نهاية حياته. وتوفى الملك الفونس بعد سنة ثمانمائة وأربع وعشرين (14) وأوصى بالتاج لدون رامير (15)، الذي تهادن مع عبد الرحمان لمدة طويلة.

استلاء العرب على جزيرة اقريطش

في تلك الاثناء، طلب العرب المستقرون بمملكة بلنسية والذين ساندوا عبد الله ضدا على الحكم، من عبد الرحمان الاذن بالذهاب للاستقرار في مكان ببلاد

---

(12) برشلـونة .
(13) 819 .
(14) 824 .
(15) ابن الملك .

النصراينة، وقد شاهدوا أن ملكي فرنسا واسبانيا في سلم مع بعضهما. فجمعوا عددا من السفن التي أعطاهم اياها ومن التي جاءتهم من افريقية وذهبوا للنزول في جزيرة كورسيكا تحت قيادة مومن عبد يمر (16) ولما استولوا على قسم من الجزيرة جاء إليهم جيش من ايطاليا وهجم عليهم وطردهم بعد أن قتل رئيسهم فانتخبوا كراكيكس (17) مكانه ويسميه الغير أشعب. وبما أن اقاليم الامبراطورية كانت في حالة ضعف بسبب الحروب السابقة، فقد ساروا بحرا الى جهة اليونان وعاشوا في عدد من الجزر وجدوها بدون حماية. وتيقنوا أن جزيرة اقريطش ستكون هي أيضا غير محمية مثل الاخرى، وأدركوا أنها أحسن مكان للاستيطان، بسبب خصب البلد وحسن موقعه، فقرروا الرجوع الى اسبانيا للتزود بكل ماهو ضروري لانجاز مشروع كبير كهذا، وعاد كراككس في السنة التالية الى اليونان باربعين سفينة محملة بأناس رغبتهم في النهب أكثر من رغبتهم في الاستيطان. ولكن هذا القائد ما ان نزل إلى الأرض حتى وجه قسما من الرجال للقيام بخدمات وأحرق السفن، اذ كانت له نوايا أخرى. ولما اشتكوا له من عمله، ذكرهم بأنهم طلبوا منه منزلا أحسن من بلنسية، وأنه ماكان ليجد لهم أحسن مما هم فيه ولا مكانا أفضل للحصول على الغنى، ولما عبر البعض عن قلقهم من غياب نسائهم وأولادهم، بدَّدَ تخوفهم قائلا إنهم سيجدون غيرهم في الجزيرة فساندوه بقوة في المكان الذي نزل به وسموه قنداق (18). ولما علم الامبراطور (19) بهذا الحدث، ولم يكن له شي يعمله في بلده، وجه لهم حاكم أقاليم الشرق مع جنود وقائد شجاع اسمه داميان. ولكن العرب غلبوهم وطردوهم، وقتل القائد أثناء ذلك، وحينئذاك أتى اليهم راهب كان يسكن بالجبال وقال لهم ان المكان الذي اختاروه للاستيطان لم يكن صالحا مثل الذي دلهم عليه. فاستقروا هنالك ووضعوا الأسس الاولى لمدينة كانديا، ومن هنالك استولوا على كل الجزيرة وأصبح السكان حوالتهم تابعين لهم.

ومن جهة أخرى، خرجت مجموعة من العرب من ألمرية باسبانيا وذهبوا للاستقرار بكورسيكا وسردانيا، ولكن الايطاليين طردوهم من هنالك بقيادة شارل كونت بوكاريد، وقتل خمسة آلاف من العرب، وجاءت بعد ذلك فرصة الحرب التي أثارها بيبين ملك ايطاليا على البندقيين، فرجعوا وبعد أن نهبوا جزءا من جزيرة

---

(16) كذا بالاصل . وهي محرفة عن اسم أبي حفص عمر المعروف بالبلوطي الذي خرج بجماعة من الربضيين من الاندلس وذهب في خبر طويل ، لفتح جزيرة اقريطش (المترجم) .

(17) لعلها تحريف عن الاقريطشي الذي عرف به عمر البلوطي .

(18) لم نهتد لمعنى هاته الكلمة المحرفة عن أصل عربي ، ولا شك (مترجم) .

(19) ميخائيل .

سردانيا وقتلوا كثيرا من سكانها أخذوا منها مجموعة كبيرة وعددا من الاسرى الى كورسيكا.

واراد الامبراطور ان يطهر الجزيرة من أولئك العرب، فوجه اليها سبعين سفينة كبيرة وعددا من السفن الصغرى مع كثير من الجنود، تحت قيادة رجل اسمه كراتير الذي ماأن وصل الى الجزيرة حتى أنشب الحرب مع العرب ودامت من الصباح الى وسط النهار مع تكافؤ المعسكرين. وفي الاخير أحرز النصر فأخذ في تقتيل الأعداء بشدة، وفر الباقون الى مدينة كانديا، متسترين بالليل، لكن الغالب دخلته نشوة الانتصار، فملأ بطنه خمرا ولحما، دون أن يضع حراسة ولا خفيرا، فهب العرب الذين لم يخلدوا الى النوم في نفس الليلة، وهجموا على القوم وذبحوهم دون أن يفلت واحد منهم وفر القائد في سفينة، متظاهرا بأنه تاجر، فوجهوا وراءه رجالا أرجعوه، فوضعه كراككس في المشنقة . ولما بلغ الخبر الامبراطور وجّه قائدا أكثر رزانة (20) وتجربة ، فقام بالقرصنة حول الشاطىء، وقتل وأسر عددا من العرب مما جعلهم يفقدون كبرياءهم.

صقليـــــة

في عام ثمانمائة وثمانية وعشرين، قام آوفيم الذي كان يقود كتيبة في صقلية باختطاف راهبة من ديرها، فاشتكى اخوتها الى الامبراطور، فامر الوالي بأن يجدع انفه، فعلم الضابط بالامر فتآمر عليه وانتقل الى افريقية ووعدا عبد الله (21) ، ملك القيروان، من اسرة الاغالبة، الذي كان آنذاك قويا، أن يسهل عليه الاستيلاء على صقيلية ثم على الامبراطورية، وبناء على ذلك حشد عبد الله جيشا كبيراووجهه تحت قيادة اخيه علقمة الذي طرد رجال الامبراطورية من الجزيرة (22) وبني حصنا أسماه باسمه من الجهة المطلة على افريقية وهي التي تسمى الآن علقمة، وانتشر النبأ عن ذلك باروبا فهب المسيحيون من كل جهة وقاموا بالحصار، ولكن عبد الله وجه القائد أسدا على رأس جند استطاعوا ان يفكوا الحصار والتحقوا بالاخرين فطردوا النصارى من الجزيرة وأصبحوا أسيادا عليها في عهد البابا غريغوريوس الرابع.

---

(20) أوريفـــان .

(21) خطأ في إسم الأمير الأغلبي المعني بهاته الأحداث ، وهو زيادة الله الذي حكم في فترة 201 – 223هـ 816 – 837 . وأما عبد الله فقد حكم قبل ذلك التاريخ في فترة 196 – 201 / 812 – 816 (المترجم) .

(22) كانت في ملكية الامبراطور

ثم ان الغالبين تقاسموا الاراضي ومداخل الدولة وضربوا سكة رأيتها، في جهة منها حروف عربية وفي الاخرى حروف وشعارات مسيحية. وتلقى أوفيم جزاء خيانته على الفور في سرقسطة [23] اذ قتله السكان هنالك وهو يحمل شارات الامبراطورية. وما ان سيطر العرب على صقلية حتى دمروا كلبرية والاقاليم الايطالية الاخرى وبنوا حصونا في جزر مالطة وجوز وبانطانلي لتكون ملاجيء للجيوش البحرية وتتلقى الامدادات الموجهة اليها من افريقية.

وفي سنة ثمانمائة وسبعين أنشب قائد الجيش البحري الايطالي ارمانجفر المعركة قرب جزيرتي كورسيكا وسردانية فاستولى على عدد من السفن وخلص خمسمائة عبد مسيحي. ومن جهة أخرى كان عرب صقلية يعرفون ان البندقيين يتسلحون بكثرة لفائدة الامبراطور، الذي تدخل تلك الجزيرة في ممتلكاته، فانسحبوا اليها محملين بالغنائم التي جمعوها من كل السواحل. وكان هؤلاء المسلمون يسيطرون هنالك على مدينة بالرمة، ولم يكن هنالك من يعترض عليهم. ولما جاء بونيفاس، كونت كورسيكا، ومعه البندقيون وبعض النبلاء من رومانيا الى افريقية وكانوا يشكلون جيشا عظيما واستقروا ما بين أوتيكا وقرطاج، وانتصروا على العرب في اربع معارك وهزموا عددا كبيرا منهم. مما اجبر المقيمين منهم بصقلية على التخلي عن الجزيرة لنجدة بيوتهم واسرهم. وهكذا حرر بونيفاس صقلية من اولئك اللصوص ورجع الى ايطاليا مثقلا بالغنائم.

اسبانيا

اذا رجعنا الى الحديث عن اسبانيا ، فان عبد الرحمن ملك قرطبة [24] قطع الهدنة مع دون رامير في نفس السنة . بتحريض من ملك فاس وغيره من أمراء افريقية الذين قدموا له مساعدتهم . وهكذا اجتاز الى اسبانيا عدد من العرب والافارقة حتى امتلأت بهم الأرض كالجراد ، فتوغلوا في أراضي دون رامير وألحقوا بها أضرارا كبيرة. وكان دخول تلك الفيالق وقطع الهدنة مفاجأة

---

(23) سراكوزة .

(24) 834 .

كبيرة لدون رامير ، الذي لم يكن مستعدا لمجابهتهم بعد احدى عشرة سنة من السلم ، حتى انه وجه الى عبد الرحمن يترجاه أن يحافظ على الهدنة اذ لا داعي لالغائها . ولكن هذا الأمير الذي دخلته الكبرياء بما كان لديه من قوات رد على السفراء بأنه لن يمنح الهدنة الا مقابل مائة من البنات كجزية سنوية ، طبقا لما جرت عليه العادة مع اسلافه . غضب ذلك الملكُ الطيب لهاته الوقاحة ، وعاوده الأمل في الانتصار وجمع كل قواته على عجل وذهب لملاقاة اعدائه الذين كانوا يتحركون حول فطنار ، يحرقون ويخربون كل شيء وكانت المعركة دامية واستمرت النهار بأكمله مع تكافؤ الخصمين (25) . لكن الملك وقد رأى دنو الليل وضعف رجاله ، انسحب الى جبل (26) وظل طول الليل يتهجد ويتوسل الى الله أن يهب له النصر ، وأثناء دعواته أخذته سنة من النوم فرأى الحوارى القديس يعقوب يقول له بأن الدفاع عن اسبانيا قد طوق به كشريك له ، وأن عليه أن يكون شجاعا ، وأنه سينتصر بعون الله

وان عددا من ذويه سيموتون في المعركة وأن الدليل على ما يقوله هو أن الناس سيشاهدونه على جواد ابيض عند اشتداد القتال وأن عليه بمجرد بزوغ النهار هو وجيشه بكامله أن يعترفوا بخطاياهم وأن يتلقوا سر القربان المقدس

وبعد ذلك يتقدم بشجاعة نحو العدو. ودعا الملك الاساقفة والمرشدين وكل النبلاء في الحين واخبرهم برؤياه، ثم دعاهم هم وكل الجنود الى الاعتراف وتناول القربان واستانف القتال وشاهد الحواري يضرب الاعداء كما يؤكده المؤرخون ويذكره هو في الامتياز الذي منحه الى دار الحواري السعيد، بما نذر كبراء المملكة بان يسموه باسم القديس يعقوب. واخيرا، غلب العرب بنجدة من السماء وذكر بانه مات منهم سبعون الفا، عدا عددا كبيرا من الاسرى وفرّ عبد الرحمن الى قرطبة . واحتفاء بهذا الانتصار، أسس دون رامير جماعة فرسان القديس يعقوب وقد جرت هاته المعركة في سنة ثمانمائة واربع وثلاثين وفي رواية اخرى سنة ثمانمائة وخمس وثلاثين، في بداية عهد هذا الامير فكانت من بين اعظم الانتصارات التي استطاع الاسبان ان يحرزوها على العرب، وفيها هلك نخبة الاشراف الافارقة، مما جعل عبد الرحمن يلتمس الهدنة من دون رامير.

---

(25) في مكان اسمه كلافيشو بأرض أونيل .

(26) أوتيرود لجاميتو .

من جهة اخرى رأى عرب افريقية أن الامبراطور منهمك في البطالة بالقسطنطينية، وان الامراء النصارى كانوا متنازعين فيما بينهم فهجموا على ايطاليا هجوما لم يسبق له مثيل واستولوا على سيفيتا فيشيا، وتقدموا نحو روما ودخلوا في حي الفاتيكان الذي لم يكن مقفلا آنذاك ونهبوا وأحرقوا كنيسة القديس بطرس، وانتزعوا الابواب التي كانت من الفضة ووضعوا البابا (27) في الحصار وفي نيتهم ان يستولوا على المدينة وأن يضعوا النار في كل شيء ويريقوا الدماء. ولكن لما وافاهم النبأ أن مركيز لومبارديا آت لانقاذ مركز البابوية على رأس جيش كبير، لم يجرؤوا على انتظاره وانسحبوا محرقين ومخربين كل ما صادفوه في طريقهم. ومن هناك تراجعوا مع الطريق اللاتينية بعد ان نهبوا كنيسة القديس بولس التي كانت في طريق اوستي، فأحرقوا كنيسة القديس جرمان ودير القديس بونوا في قمة كاسينو، وأخذوا من هناك تحفاثمينة. وبعد أن الحقوا الضرر بمنطقة روما وضعوا غنائمهم على ظهر السفن في نهر كارسيلان ورجعوا الى افريقية. وجاء جيش عربي آخر في نفس السنة الى ايطاليا واستولى على مدينة اوترونت بكلبرية وهنالك بنى حصنا دون ان تظهر مقاومة لذلك اثناء انقسام الامراء المسيحيين، وازدادوا قوة بعد موت الامبراطور (29) الذي كان متحالفا مع البندقيين من اجل طردهم من الجزيرة، وكان قد أعد جيشا خاصا لهذه الغاية، وفي نفس السنة مات الخليفة محمد وحل محله ولده امبراييل (30).

(27) كْريكْوريوس الثاني .
(28) كْيـدو .
(29) ميخائيل .
(30) 834 . وسيكون لنا تعليق على هذا الاسم الغريب في بداية الفصل التالي . (مُترجم)

الفصل الثالث والعشرون

امبراييل الخليفة الواحد والعشرون وما جرى في عهده

تولى امبراييل (1) الخلافة ببغداد سنة 834. ولما كان شابا شجاعا وكان يكره النصارى، حشد كل جيوشه وتوغل في الاقاليم الرومانية. ولما وصل الخبر الى تيوفلس الذي خلف أباه ميخائيل خرج للقتال بجيشه، وباشارة من محاربين مقدامين تيوفيب ومانويل تقدم الى المعركة، مع أن عدد جنوده كان اقل بكثير من جنود العدو، الا أن امبراييل، إما بدافع الخوف من الأحداث أو استصغارا لجيشه ترك قائده العام (2) على رأس جيش قوامه ثمانون الف جندي لمحاربة العدو، ورجع الى سوريا مع باقي الجيش. وبعد معركة طويلة انهزم الرومان، وكاد الامبراطور ان يسقط في الاسر لولا نجدة تيوفيب الذي انقذه ومعه الفان من الفرس وكل نبلاء البلاط. ولكن العرب طاردوه وحاصروه في احد النجود. فامر تيوفيب بالنفخ في النفير وباطلاق صيحات الفرح وكأنهم تلقوا نجدات . بحيث ان العرب انسحبوا وجمع الامبراطور فلول جيوشه وعاد الى القسطنطينية . وفي السنة التالية تقدم تيوفيب لحربهم بأمر من الامير وغلبهم بالقرب من كرسيان ، (3) حيث اخذ ازيد من خمسة وعشرين الف أسير. وتشجع الامبراطور بهذا الانتصار، فاراد ان يلاقي العدو بنفسه في السنة الموالية. ولكنه لما دخل في المعركة، لم يصادف الا ما يسوءه وكاد ان يقع في الاسر لولا نجدة مانويل الذي شاهده مطوقا من كل جهة فاستطاع ان يحدث ثغرة وسط الفيالق التي كانت محيطة به، ووجده في حالة اندهاش، خارجا عن الطور، فرفع يديه وقال له اما ان يفر او يقتله حتى لا يترك للبربار الافتخار باخذ الامبراطور كاسير. ولما عاد الى القسطنطينية افاض من كرمه

(1) هذا اسم غريب . ولا شك أن المراد به الخليفة المعتصم الذي تولى الخلافة في سنة 833 لا 834 . ولعله محرف عن إبراهيم ، لأن المعتصم يُكنّى أبا إسحاق (مترجم) .

(2) زكريـاء .

(3) 836 .

الواسع على مانويل مكافأة له. الا انه بعد مرور مدة من الزمان، أراد ان يلقي عليه القبض ويفقأ عينيه، لما بلغه من اتهامات حقيقية أو مزورة، وعلم مانويل بما عزم عليه، فانتقل الى امبراييل الذي قابله بملاطفة كبيرة وعينه على قيادة جيش لمحاربة الفرس، اذ نال عدة انتصارات وحصل على شهرة كبيرة ثم عاد الى خدمة الامبراطور بطلب منه، وفي سنة ثمانمائة وثلاثين حشد تيوفلس جيشا، مرة اخرى، واستصحب تيوفيب ودخل الى اقاليم سوريا. ولكن العدو لم يخرج للحرب، بحيث ان الامبراطور عاد الى القسطنطينية دون القيام باي عمل. ولكن في السنة التالية، لما بلغه ان امبراييل قد وجه جيشه لمحاربة الفرس، سار في طريق سوريا والحق اضرارا بتلك الاقاليم وبمدينة زبطرة نفسها التي كانت مسقط رأس امبراييل، برغم كون هذا الاخير رجا منه أن يتخلى عنها. ثم قفل الى القسطنطينية وترك قيادة الجيش لتيوفيب، الذي نادى به الجنود كامبراطور، وقد ثاروا لعدم توصلهم بارزاقهم. لكنه رفض هذا الشرف ووجه يعتذر للامبراطور، مظهرا ان ماحدث كان مخالفا لارادته.

من جهة اخرى غضب امبراييل من تيوفلس لأنه لم يحترم مسقط رأسه، فجمع جيشا ضخما ليقوم بهجوم مماثل على مدينة عمورية في فريجية، التي ازداد الامبراطور بها، ولما علم الامبراطور بذلك وجه النجدة تحت قيادة تيودور كراتير وجمع كل القوات ليجابه العرب. وما بلغت الانباء الى امبراييل حتى وجه زكريا مع عشرة آلاف من الخيل التركية وكل الارمينيين لملاقاة الامبراطور الذي اخذ يتقدم في طريق سوريا. وعندما وصل زكريا الى طراز يمن تقدم تيوفلس الى المكان المسمى انزي ووجه مانويل للتعرف على العدو وشاهدهم هذا الاخير من اعلى جبل فنصح الامبراطور الا يغامر بالمعركة مع رجال اقوى منه، ولكن هذا العاهل خشي ان تاتيهم امداد جديدة فقرر المناجزة وحصل على بعض النجاح في البداية لكن النصارى تضرروا في النهاية من كثرة السهام التركية، فاخذوا في الفرار تاركين الامبراطور مع قواده وسط الاعداء. وجاء المطر على الاثر فابطل مفعول السهام التركية وتشجع المغلوبون، فالزموا العدو بالانسحاب. وفي الليلة الموالية قام مانويل بدورية في مجموع المعسكر فاكتشف ان الفرس الذين كانوا من جهتهم امسوا يتفاوضون مع العرب والزم الامبراطور بالانسحاب عند بزوغ الفجر، ثم انسحب هو بنفسه مع بقية الجيش. واتصل زكريا من بعد بامبراييل فقاموا بحصار عمورية.

وطال بهم الحصار حتى غدوا يفكرون في الانسحاب واذا بخائن (4) مدفوع بالمال أو بنقمة شخصية يفتح لهم باب المدنية فخربوها راسا على عقب، رغم انها كانت اجمل مدن آسيا، ووضعوا يدهم على كل من كان يقدر على الدفاع واخذوا البقية اسارى. وكان عدد من قادة الجيش من جملتهم (5) واتي بهم امام امبراييل الذي سر من هذا الفتح، اذ انتقم شر انتقام ممّا حدث بزبطرة من اضرار. ولدى بلوغ هاته الانباء الى تيوفلس وجه السفراء اليه بالهدايا، واجيا منه ان يطلق سراح اولئك القادة وان يقدم له كفدية مائتين وخمسين الفا قطعة ذهبية لكنه اجاب ان هذا الشيء قليل وان هاته الحرب كلفته اكثر من ذلك. فحصل للامبراطور من ذلك قلق كبير حتى مات .

فاذا رجعنا الى اخبار اوربا، فان امراء ايطاليا المسيحيين كانوا في نزاع مع بعضهم (6) فاتفق ملوك موريطانيا والقيروان فيما بينهم ووجهوا جيشا ضخما الى صقلية تحت قيادة سبا الشجاع، الذي نزل بمنطقة البوى وحاصر طاونطا. ولما علم الأمبراطور تيوفلس بذلك وجه لمحابهته تيودوس مع جيش بحري للالتحاق بستين سفينة حربية في ملك البندقيين الذين كانوا احلافهم. وتظاهر سبا بالخوف لدى سماع هاته الانباء ورفع الحصار وفي نيته ان يهاجم جيش الامبراطور قبل ان يتصل بالبندقيين. وبما انه دبر الامر بمهارة، فقد صادف الجيش على غير نظام فهزمه واستولى على عدد من السفن واغرق الاخرى ومن هناك هاجم البندقيين . وبعد معركة كبرى قضى على جميع سفنهم الحربية، وتشجع بهذا الانتصار فدخل في خليجهم وساير شواطئهم واستولى بالقرب من مدينتهم على بعض سفنهم المشحونة ببضائع من الشرق. وعندما وصل الى انكون تملك الذعر اكثر سكانها فخرجوا منها، فاستولى عليها وبعد ان نهبها اشعل فيها النار من كل جهة، ومن هنالك عاد لحصار طاوانط وضيق عليها الخناق حتى استولى عليها بالقوة ثم عاد الى صقلية محملا بالغنائم. وفي سنة ثمانمائة وسبع واربعين في عهد البابا ليون الرابع بينما كان يجري منتصرا في كل البحر المتوسط ويرجع الى افريقية بكمية من الغنائم والاسرى، فاجاته عاصفة شديدة حتى وجد صعوبة في اللجوء الى اوتيكا مع اربع من السفن في حالة رديئة ، وغرق الباقي وهذا ما جعل النصارى يعرفون شيئا من الاستراحة.

---

(4) بـوتيتيـس .

(5) ، كاليست ، قسطنطين ، كراتير ، تيودور ، باتريس الخ ....

آسيـــــــا

بينما كانت هاته الاحداث جارية بايطاليا، كانت آسيا مسرحا لتحركات العرب اثر وفاة تيوفلس الذي ترك من بعده كخلف له ميخائيل الذي كان ما يزال طفلا تحت حضانة امه تيودورا. وقد انتزع هذا الامير الحكم من يدها، واول ما فعله هو انه حشد جيشا قويا ودخل الى البلاد حيث اراق الدماء واشعل النيران في كل مكان وذهب ليحاصر سميساط (6) التي كانت مشهورة بتحصيناتها وثرواتها. وتظاهر المحاصرون بالخوف فاقفلوا ابوابهم. ورأوا المهاجمين لهم قد مالوا الى التراخي وتفرقوا من اجل النهب واهملوا الحراسة. فلما جاء اليوم الثالث من الحصار وكان يوم احد وقد اجتمع الناس للقداس، آنذاك خرجوا عليهم من كل مكان باندفاع قوي وقد تعززوا بعدد كبير من العرب، وبعد ما قتلوا طائفة من اعدائهم الجاوا البقية الى الفرار. ومما زاد الطين بلة ان بعض الهراطقة (7) طاردوهم مع العرب واسروا عددا من القواد النبلاء وباعوهم لاعدائهم وافلت الامبراطور من المصيبة بسبب سرعة فرسه. وفي السنة التالية وجه امبراييل جيشا لمحاربة الامبراطورية قوامه ثلاثون الف رجل، فذهب الامبراطور للقائهم على رأس اربعين الفا واخذهم من تراقيا ومقدونيا وتركه العرب يمر ثم رجعوا عليه بالهجوم وكادوا ياسرونه لولا مانويل الذي انقذه من بينهم لكنهم الجاوا جيشه للفرار.

أفريقيـــــا

رجع الى افريقيا، فقد اثرى ملك فاس مما سلبه من البلاد ومن اسبانيا وبنى في سنة ثمانمئة واربعين القسم الذي يوجد غرب الوادي وبدا بمسجد القرويين اكبر مساجد افريقيا وافخمها. وكان السلم مخيما على مجموع اسبانيا بينما كان عبد الرحمن منهمكا في تحصين المدن الخاضعة له وتزيينها جالبا اليها المياه، ومشيدا بها المساجد، واستقدم الصناع من دمشق ليقيموا بها معامل الحرير (8). وكان هو اول من سك اسمه في النقود العربية. واثناء ملكه، جاء الانجليز لا سبانيا (9) لمساعدة النصارى، وحاصروا مدينة لشبونة، حيث أحدثوا خسائر عظيمة حواليها، وهدموا

(6) مدينة الفرات .
(7) بولينيين ومانويين .
(8) 846 حسب بعض الروايت .
(9) 840 .

سورها من جهة البحر، وبما ان السكان كان يضيع منهم ماء السقايات الموجودة هنالك، فقد رفعوا الماء الى كل جهات المدينة بواسطة الآلات والقنوات. ورأى الانجليز حينئذ ان مجهودهم كله لا يجدي نفعا، فرفعوا الحصار وذهبوا لأخذ قادس، ثم انضموا الى بعض السفن المسيحية ودخلوا اشبيلية، ولكن بما انهم كانوا منهمكين في حصار شريش، فان عبد الرحمن فك الحصار وبعد ان قتل عددا كبيرا من الانجليز وأحرق كثيرا من سفنهم استرد اشبيلية وقادس [10] ومات بعد ذلك بقليل، تاركا العرش لمحمد أكبر اولاده البالغ عددهم اثنين وأربعين. وقاد محمد الحرب ضد عربي اسمه عمر بن قاسم وغلبه وقتله واستمر في مهادنة دون رامير، الذي بعد ان دام في الملك ستا وعشرين سنة، ترك العرش لولده دون اوردونيو، الذي كان شجاعا ونال عدة انتصارات على العرب. وفي نفس الوقت مات امبراييل وخلفه ولده المامون.

---

(10) ابن رشد في تاريخه .

الفـصـل الرابع والعشـرون

المامون (11) الخليفة الثاني والعشرون وما جرى في عهده

ما ان تولى المامون مقاليد الامبراطورية حتى بدت منه ميول الى الفضيلة والعلوم. ولما علم ان الفيلسوف ليون اسقف تيسالونيكي جاء الى القسطنطينية حيث التجأ بعد ان طرد من كنيسته بسبب الخلاف الذي كان قائما بين الاغريق واللاتينيين، فيما يخص تقديس الصور، اذ لم يبق يعيش الا بما كان تلاميذته يمنحونه اياه، كتب اليه بواسطة مملوك مسيحي سبق ان كان تلميذا له. وكان رياضيا كبيرا، وقد علم ان استاذ هذا التلميذ العالم لا يحظى باعتراف الامبراطور، ولا يعامل حسب قيمته، كتب اليه يرجوه ان يقدم اليه ليتعلم على يده هو وكل العرب، واعدا اياه بان يجعل منه اغنى الفلاسفة. وكلف حامل الرسالة بان يبذل كل جهده ليأتي به معه. لكن الخبر شاع في القسطنطينية فمنعه الامبراطور من الخروج وبنى له اكاديمية. ولما حرم المامون من تحقيق مشروعة، وجه اليه طالبا منه حل بعض القضايا الهندسية، فلما ارضيت رغبته مع مزيد من الفوائد الجديدة، قال ان من يحظى بمحادثة شخص من هاته الاهمية لهو رجل سعيد، ووجه سفارة الى الامبراطور مع هدايا سنية ورسالة هذا نصها :

« من المامون أمير المؤمنين وملك العرب الى امبراطور النصارى . كان في نيتي ان أذهب لزيارتك كصديق ، ولكن اتساع امبراطوريتي وطبيعة شعوبي لايسمحان لي بالحظوة بمثل هذا الشرف ، فاني أرجوكم أن توجهوا الي العالم الكبير الفيلسوف ليون ، حتى استفيد من مذهبه الذي أشعر نحوه بشغف كبير . ولا تنظروا الى اختلاف الدّين فانا أطلبه كصديق . واعتبارا لذلك فسأحافظ معك على سلم دائم وأوجه لك ألف مثقال ذهبي لأساعدك على تعويض مصاريف

---

(11) هنا نجد خطأ من أخطاء المؤلف الفادحة ، إذ يجعل المامون بعد المعتصم ، مع أن الخليفة الذي حل محل هذا الأخير هو ولده الواثق (المترجم) .

الحرب الأخيرة » . لكن الامبراطور لم يعبأ بطلب المامون ، بدعوى أنه لا ينبغي تلقين العلوم للمسلمين ، حتى لا يساهم ذلك في مضاعفة قوتهم . ولكنه بدأ يحب الاداب واقتدى بذلك الخليفة الكبير ، فأحسن الى ليون وأرجعه بعد ذلك بقليل الى اسقفيته في تيسا لونيكي .

ايطاليا

وفي عهد هذا الامبراطور وتحت بابوية ليون الرابع ، استأنف عرب افريقيا القتال مع النصارى واخذوا طريقهم الى روما على رأس جيش ضخم. وحينما وصل ذلك الجيش الى اوستى أثار ذعرا شديدا في المدينة، وحتى اضطر البابا الى جمع كل الاشراف وحثهم على ان يكونوا جديرين باجدادهم، ثم تقدم اليهم ووراءه الشعب بكامله. ويروي البعض ان شارل الاصلع ملك فرنسا جاء لنجدته وشارك في المعركة . ولكن الرأي السائد هو أن النّجدة لم تأته من أي جهة . ولما صار وجها لوجه مع العدوّ ، جثا على ركبتيه قبل الدخول في المعركة وتوسل الى الله الذي نصر جيديون على الكفار والذي لم يتخل قط عن شعبه ان يستجيب لدعواته ببركة المسيح الذي أراق دمه في سبيل نجاتنا وان يسعفه بالدفاع عنه من أعداء شريعته. ثم اتجه الى عيسى الذي خلص القديس بطرس من أمواج البحر، والقديس بولس من غرقه الثالث، فتوسل اليه ان ينجيه من هاته العاصفة وان ينصره على اعداء النصارى حتى ينال اسمه المقدس كل تهليل وتمجيد. وبعد ذلك امر بالحرب ، وهذا ما تبادر اليه الرومان بحماس كبير، يحدوهم الأمل الوطيد في الانتصار، حتى انهم ما سبق لهم ان بذلوا مجهودا أكبر من ذلك بحيث ان العرب بعد ان قاوموا في البداية ، غلبوا في النهاية وقتل أو أسر أكثرهم بينما فر الباقي في السفن حيث اتمت العاصفة هزيمتهم. ورجع البابا منتصرا الى روما حيث قوبل في ابهة كبيرة واحتفال واستخدم أسراهُ في اغلاق حي الفاتيكان الذي سمي باسمه المدينة الليونية، والتي جعلها مسكنا للكورسيكيين الذين هاجروا من جزيرتهم فرارا من وجه العرب.

آسيا

بينما كانت هاته الاحداث جارية بايطاليا، توغل الخليفة المامون في اقاليم الامبراطورية، ولما علم الامبراطور بذلك وجه لملاقاته عمه بيترونيوس، الذي كان واليا على تراقيا، مع كل قوات الدولة ولما تقابل الجيشان، كان المامون متخوفا على

مصير المعركة، فسأل احد الاسرى عن اسم المكان الذي يوجدون به، فاجابه النصراني ان المكان يسمى لالنسيون، واسم ميدان القتال ابتوسانت والنهر هير. فتشائم من ذلك لان لنسيون معناه حزن الشعب وابتوسانت محدوفين وهير مدوسا تحت اقدام العدو. ولم يتوان عن اثارة الحرب مع بترونيوس، الذي كان يتراجع اكثر ما يمكن، وفي الغد رتب صفوف جنده للمعركة، وهجم على بترونيوس وفي التحام القتال وجد نفسه مطوقا من كل جهة وقام بعدة محاولات ليفتح ثغرة في صفوف اعدائه، لكن جهوده ذهبت سدى فعاد الى المعركة أكثر حمية، فقتل وهزم جيشه بكامله (12) ، وحاول احد اولاده ان ينقذ فلوله في مليتان، ولكن النصارى كانوا مترصدين للهاربين في ممر كاريسان فاسروه وقادوه الى بترونيوس الذي وجهه الى الامبراطور مع جثة والده.

اسبـانيـــا

ولم تكن اسبانيا آنذاك اقل تمرسا بالحرب، ومع ان دون اوردونيو وشارل الاصلع كانا يعيشان في هدنة مع محمد ملك قرطبة، (13) فان سكان طليطلة (14) انتقضوا تحت قيادة موسى بن قاسم (15) وكان هذا القائد من كبار الشجعان ويحظى بعطف العرب الذين كبر عليهم ان يدوم السلم مدة طويلة. فحشد قوات كثيرة بدعوى مهاجمة النصارى وترك ولده لوطا في طليطلة (14) ودخل الى ارغون واستولى على مدن سرقسطة وكسكار ومن هنالك قاد الحرب على المسيحيين المستقرين في تلك النواحي . وتحول الى قطلونية فهزم دون يوفر في المعركة وحاصر برشلونة (16) ولكن بعد ايام من الحصار تحقق انه لا يستطيع اخذها فخرب كل البلاد المحيطة بها ودخل الى فرنسا فتسمى بالخليفة في كل مكان وبملك اسبانيا واتخذ معسكره الشتوي بمدينة أربونة التي استولى عليها، ثم هزم الفرنسيين في معركة واسر جنرالين منهم (17) . ويقول بعض المؤرخين إن شارل الاصلع لم يكن في امكانه الحضور في تلك المعركة ولذلك مال الى التفاهم مغه ومنحه المال ليجلو عن بلاده، ولكن

---

(12) رواية تخالف ، بالطبع ، الحقيقة التاريخية ، إذ مات المأمون في فراشه إثر مرض ألم به (مترجم) .

(13) الذي كان ملكا على قرطبة في تلك الآونة هو عبد الرحمن بن الحكم الذي لم يمت إلا في سنة 238هـ /852م وليس ولده محمد.. (مترجم) .

(14) يخطيء المؤلف هنا ، وإنما المراد تطيلة (مترجم) .

(15) الصواب موسى بن موسى بن قسي الذي كان وليا على تطيلة (مترجم) .

(16) 852 .

(17) سانشوويطرس .

آخرين يقولون، وروايتهم أرجح، انه سار نحوه وطارده الى جبال البرانس واجرى معه المعركة في مكان يدعى فال كارولو فهزمه وقتل كثيرا من العرب الذين كانوا معه، وفي السنة التالية عقد هذا العربي الصلح مع محمد ملك قرطبة(18) الذي أثبته سيدا على البلاد الخاضعة له في مقابل ان يعترف به ملكا عليه. ثم حشد موسى جيشا كبيرا، ودخل الى بلاد دون اوردونيو وخرب كل شيء الى مكان اسمه البيض أو البانيا، وقد رآه صالحا لبناء حصن به. فبناه وترك به حامية ثم عاد الى بلده، وعلى اثر ذلك جاء اوردونيو بقصد محاصرة الحصن الجديد، ولكن موسى رجع لنجدته وعسكر في جبل (19). فوزع الملك جيشه الى فرقتين عند قدومه، وترك واحدة منهما امام الحصن وتقدم اليه بالاخرى ودخل معه في القتال وهزمه، واصيب العربي بثلاثة جراح فمات بعد ذلك بقليل في سرقسطة. وقتل ايضا صهره اسد الذي كان ينوب عنه في قيادة الجند، ويقال انه بقيت في الساحة اثنا عشر الفا من الخيل وعدد كبير من المشاة. وبعد هذا الانتصار التحق الملك اوردونيو بجنده المحاصر للحصن، الذي لم يصمد الا سبعة أيام، ثم وقع الاستيلاء عليه عنوة، واخذ كل ما كان موجودا به، ماعدا النساء والاولاد الذين اخذوا كاسرى . وامر الملك بعد ذلك بهدم الحصن، ثم رجع الى ليون . واثناء وقوع هاته الاحداث، وجد ملك قرطبة (20) فرصة للقطيعة مع اوردونيو بدعوى نجدة تابعه. ولكن لما علم بالفوز في المعركة، ادار سلاحه الى لوط وحاصر مدينة طليطلة (14) التي دافعت عن نفسها بشجاعة، بحيث انه رفع الحصار وهب ليستولى على مدن سرقسطة وبلنسية اللتين كانتا في حوزة موسى. وبما ان لوطاً كان يسعى في نفس الوقت للحصول على نجدة اوردونيو، فانه دخل في تبيعته، وتلقى فريقا من جنده في طليطلة (14) وفي السنة التالية تحرك اردونيو نحو مدينة قورية التي كانت في قبضة احد العرب (21) وجاء لملاقاته وهزم، وبعد ذلك استولى الملك على المدينة وعمرها بالنصارى ثم اتجه الى شلمنقة وهزم في السهل حاكمها (22) ودخل المدينة عنوة، وحول سكانها الى

---

(18) 854 .
(19) جبل كواتدوش .
(20) محمد .
(21) سيت الكاتب . هكذا ورد في هامش الأصل .
(22) مسعودي . هكذا ورد في هامش الأصل .

عبيد ثم رجع الى ليون. ولما شاهد ملك قرطبة تقدمات اوردونيو تصالح مع لوط على اساس ان يعبر له عن الخضوع وان يؤدي له كل سنة اتاوة كعربون عن اعترافه[23]، في مقابل ذلك يترك له لقب الملك ويجعله في حمايته . وفيما كان هذا الصلح يعقد أمام طليطلة ، هب ملك ليون نحو سرقسطة بقصد الاستيلاء عليها وعلى غيرها من المراكز المجاورة . وفي السنة التالية [24] وجه ملك قرطبة يطلب النجدة من خلفاء فاس والقيروان وقد وجهوا له عددا من الفرسان والمشاة اتى البعض منهم عن طريق جبل طارق والبعض الاخر عن طريق مملكة بلنسية، والتقى الجميع بقرطبة في سنة ثمانمائة وتسع وخمسين. وطلب الملك اوردونيو من جهته النجدة من ملوك فرنسا ونافاريا فوجهوا اليه جيشا متكونا من الجسكون والبروفنسيين والنافاريين، وحصل اللقاء على نهر تاجة، وجرى قتال كبير وهزم النصارى وقتل عدد من النبلاء أواسروا. ومات من العرب أكثر، وتابع محمد انتصاره فدخل في بلاد النصارى حيث جعل كل شيء رهن الاحراق والقتل واستولى على مدينتي سمورة وشلمنقة، ونهب السهول، ومن هناك دخل الى نافاريا وواصل انتصاراته الى طلوزة. لكن بينما كان يفكر في الرجوع عن طريق الجبال ليأخذ استراحة الشتاء في الاندلس، كان ملك نافاريا سانشوغرسية، ينتظره في الممر، فهزم فريقا من جنده، ولدى انتشار هاته الانباء، تحالف لوط مع بعض الامراء العرب من جيرانه [25] وتلقوا مساعدات من دون اوردونيو، واجروا حربا طويلة مع ملك قرطبة . وفي تلك الاثناء قام الملك اوردونيو بعدة غارات على الأعداء، واستولى على عدد من مراكزهم وبنى مدينة اراندادودويرو في سنة ثمانمائة وإحدى وستين . وفي السنة التالية استولى على لارة واوكا مع كل الجهات المجاورة لها، ومن جهة اخرى، واصل محمد حربه مع لوط [26] ، وبعد ان اخضع بعض الرؤساء الذين ثاروا عليه، ذهب ليهجم على مدينة طليطلة. ولما علم لوط بذلك، طلب النجدة من دون اوردونيو الذي لبى طلبه. ولما اقترب محمد من طليطلة، وضع قسما من جيشه في كمين وتقدم بالقسم الآخر مستدرجا الاعداء خارج الاسوار بسبب جنده القليل. وبعد ان تعارك قليل معهم، انهزم وجعلهم يقعون في الكمين

(23) 857 .
(24) 858 .
(25) ضدا على محمد .
(26) الصواب لب بن موسى .

حيث جرى القضاء عليهم، وقتل في هاته الموقعة الف وخمسمائة من النصارى واكثر من ثلاثة الاف من جنود لوط، الذي رجع بسرعة الى المدينة، وجاء محمد ليعسكر امامها، ووجه لملوك المغرب، من قبيل المباهاة، بقايا اهم النصارى الذين قتلوا في المعركة، ولما رأى ان حصار المدينة سيطول، قفل الى قرطبة، وفي سنة ثمانمائة واربع وستين، مات الملك اوردونيو في اوفيدو بعد ان بقي في الملك ثماني عشرة سنة، وترك كخلف له ولده الفونس الذي لقب الكبير، وكانت لهذا الاخير حرب مع رعاياه طول عشر سنوات ونال انتصارات على العرب بعد ذلك، ولما توفى المامون كما ذكرنا تولى بعده عثمان (27) كما نشير الى ذلك في الفصل التالي.

---

(27) 865 .

الفصل الخامس والعشرون

عثمان (1) الخليفة الثالث والعشرون وما جرى في ملكه

بعد وفاة المامون حدث انقسام بين العرب ، بعد تعيينهم كخلف له على رأس الامبراطورية عثمان. فقد ثار الفرس عليه، ولكنه ضبط شؤونه بمهارة حتى انه تمكن من اعادة الامن الى نصابه دون اراقة دم كثير. ومن جهة اخرى، راى عرب اقريطش كيف ان امبراطورية القسطنطينية كانت تمزقها الحروب المدنية ، اذ قتل باسيل ميخائيل وجعل نفسه امبراطورا ، فهاجموا كل الشواطىء وجزر اليونان، ثم اتجهوا الى خليج البندقية، فاستولوا على مدينة كراد، التي كانت في حوزة تلك الجمهورية. ولدى هاته الانباء، راى باسيل من مصلحة الامبراطورية وان ينتقم من اولئك المتوحشين وان يسترجع تلك البلدة، فوجه اليهم جيشا بحريا ليطردهم من المكان الا انه خسر المعركة اذ كاد يتعرض للوقوع في الاسر وترك عددا من القتلى والاسرى، ولما رجع الى القسطنطينية، حاول ان يعوض خساراته، فوجه جيشا بحريا ثانيا الى كاتديا. وتقدم هو بنفسه لمواجهة عثمان . فأما القائد (2) الذي وجهه للعرب في اقريطش، فقد قمع جبروتهم في معركة انتصر فيها، وبعد ان توغل في سوريا استولى على عدد من المدن والقصور ووصل الى مدينة تفريكة التي حاصرها. ولكن الحصار طال ويئس من أخذها فانتقل الى الفرات حيث استولى على عدد من الأماكن في الضفة الأخرى، البعض منها عنوة والبعض صلحا. وفرض الجزية في كل مكان، ثم عاد يقضي الشتاء في القسطنطينية. وسار الى سوريا في السنة التالية بمجرد حلول الربيع ولم يستطع اخذ الحدث التي احرق ارباضها فلام جنوده على جبنهم لان السكان لم يظهروا مقاومة كبيرة فاجابه شيخ بأن الاستيلاء على تلك المدينة سيجرى على يد شخص اسمه قسطنطين سيكون ولده، وأن الذي

(1) يسير المؤلف في خلطه وخطئه فيجعل بعد المأمون خليفة اسمه عثمان ويشير إلى أحداث وهمية (مترجم) .
(2) كريستوفل .

يحمل هذا الاسم حاليا ليس هو ذلك الشخص . وبعد ان قام الامبراطور بمحاولات يائسة ضد هذه القلعة قتل جميع الأسرى الذين كانوا في معسكره وعاد الى القسطنطينية.

وفي نفس الوقت دخل عرب افريقيا الى إيليريا بجيش بحري وهاجموا احدى القلاع (3) فوجه الامبراطور لانقاذها اسطولا من مائة سفينة ألزمهم بايقاف الحصار والرجوع الى ايطاليا حيث التقوا مع عرب جبل كركانو، فأجروا عدة تحريات على طول الشاطىء ثم حاصروا مدينة باري (4) ولما استولوا عليها لم يكتفوا بالعيث في أرض بوى بل تحركوا في كل شواطىء ايطاليا حيث استولوا على عدة قلاع.

وفي نفس الوقت دخل الامير حاكم طرسوس الى اقاليم الامبراطورية على رأس جيش من العرب ارتكبوا عدة تعسفات، وكان يسمى نفسه خليفة مثل صاحب بغداد. وحاول والي الشرق (5) ان يتعرض لحملتهم الجنونية فوجه الامير يقول له انه دخل في القتال وان ابن مريم لن ينقذه من أيديهم . ولم يبق هذا السب بدون عقاب . ففي يوم القتال ، أخذ الوالي رسالة ذلك المتوحش، وربطها على صورة للسيدة مريم لتكون كلواء وهزم الأعداء واثخن في قتلهم ، وقطع رأس الامير الذي اسر مع آخرين ولكنه اتهم منذ ذلك الحين بأنه تخلى عن اخذ طرسوس فعزل واسندت ولايته الى شخص آخر (6) تمكن العرب من ان يباغتوه في معسكره ويهزموه ويجبروه على ان يبحث عن سلامته في الفرار.

وفي عهد بابوية البابا يوحنا الثامن عانت ايطاليا من غارات العرب المتكررة، ولم يكن لها امل في نجدة ملوك اروبا الذين كانوا يحاربون بعضهم البعض، فاستنجدت بامبراطور القسطنطينية الذي وجه جيشا، وترجى من ملك فرنسا ان يعززه بقواته بحيث امكن بفضل هذين الجيشين الانتصار على سلطان ملك العرب واسره وقتل الكثير من رجاله، ويقول المؤرخون بان شارل الاصلع امسك هذا السلطان اسيرا في كانو طوال سنتين، ولم ير ضاحكا فيهما الا مرة واحدة وذلك حين شاهد عربة تمر في الطريق فذكره ذلك بحظ الكبراء وتقلب الأيام التي

---

(3) ارسكوسة .
(4) قاعدة بوي .
(5) أندريه سايز .
(6) ستيبيوت .

تضعهم تارة فوق عجلتها وطورا تحتها، ونصح الملك ان يطرد النبلاء من مدينتي كابو وبينيفان (7) اذا كان يرغب في الاحتفاظ بهما. ثم انه ابلغ النبلاء في نفس الوقت بهذا المشروع فاقفلوا الابواب لما ذهب الملك للصيد وحرروا السلطان الذي أبلغهم الخبر. وسرعان ما اخذوا ثمن ثورتهم. ذلك ان السلطان جمع العرب من كل جهة من البوى (8) ومن افريقية ومن صقيلية ثم جاء ليحاصر كابو التي وجدت نفسها مضطرة لتوجيه الاعتذار الى شارل الاصلع لتحصل على اغاثته ولكنهم لما رأوا انه مسرور من مصيبتهم بدل ان ينجدهم، وجهوا لامبراطور القسطنطينية الذي وعدهم بمساعدته الكاملة، بيد ان العرب قبضوا على رسولهم واخذوه الى السلطان. ولما عرف هذا الاخير فحوى مهمته ألزمه اذا اراد ان ينقذ حياته بان يقترب من اسوار القلعة ويقول للسكان أن لا امل لهم في نجدة الامبراطور. ويقال انه لما مر قريبا من الابواب قال لهم بصوت منخفض بان يصمدوا. وعلم السلطان بذلك فقتله، ورأى ان لا مطمع له في الاستيلاء على المكان فرفع الحصار. ولكي يرجع عثمان الى آسيا هجم على جزيرة قبرص، وهنالك تلقى ضربة اثناء حصار فما جوست (9) ومات من جرائها، بعد أن أقام في الملك ثماني (10) سنوات فخلفه القائم آدم .

---

(7) Capoue , Bénevent (مترجم) .

(8) كتب هكذا بالفرنسية : Pouille

(9) Famagoste

(10) 873 هكذا في الأصل . ومن المعلوم أنه لم يمت أي خليفة في تلك السنة التي تدخل في عهد الخليفة المعتمد 256 - 279هـ / 870 — 892م .

الفصل السادس والعشرون

القائم آدم [1] الخليفة الرابع والعشرون وما حدث في ايامه

لما تولى القائم آدم [2] مقاليد الامبراطورية، جرت له حروب مع الفرس وفي نفس الوقت مع امير العرب في كانديا [3] فوجه الحملات الى جزر اليونان وشواطئها. ولكن رجاله تكبدوا الهزيمة على يد الجيش البحري الموجه من لدن الامبراطور [4] الذي أخذ أو أحرق عددا من سفنهم، وجمعت البقية بعض السفن القرصانية فذهبت للعيث في البلوبونيز والجزر المجاورة. وقام نسطاس الذي كان قائدا لاسطول الامبراطور، لما بلغته هاته الانباء لمطاردتهم. وكان يعرف انهم لابد ان يصلوا الى سوطون اوبيل أوباطراس ، فدفع سفنه الى ما وراء خليج كورانت [5] وباغتهم فاحرق الكثير من سفنهم، وأغرقت الاخرى الى عمق البحر ، وقتل قائدهم [6] في المعركة، بحيث حطم اسطولهم بكامله.

وبينما كانت هاته الأحداث جارية، كان الخليفة يحارب الفرس الذين بسبب ما وقع عليهم من ضغط استنجدوا بالاتراك، وقد اصبح هؤلاء، في الأخير جد اقوياء، بحيث خلفوا العرب في الحكم . فاذا عدنا الى احداث الغرب، نجد الفونس الكبير منهمكا في الحرب مع النصارى، فدخل العرب الى بلاده، وتسببوا في أضرار طوال السنوات الست التي دامت فيها الحرب. ولربما كان ضررهم افظع لو لم يدب

---

(1) لا يوجد أي خليفة عباسي بهذا الاسم في هاته الفترة ، وهنالك القائم بالله العباسي الذي تولى الخلافة في سنة 422هـ أي 1031م وهو تاريخ يبعد بـ 158 سنة عن التاريخ المشار إليه في النص . ولا يمكن أن يكون القائم الفاطمي الذي حكم بعد ذلك . ثم إن اسم آدم يزيد في اللبس والارتباك . ومجمل القول أن المؤلف خبط عشواء في هذا الموضوع (المترجم) .

(2) سنه 874 .

(3) – سويتو أبوكابا – هكذا ورد اسمه في الهامش .

(4) باسيل .

(5) على جرارات .

(6) بوتيك .

الانقسام بينهم، وفي نفس الوقت خرج من قرطاجة اسطول من ستين سفينة كبيرة مجهزة احسن تجهيز، فتحرك في بحار الشرق والحق أضرارا كبيرة بجزر زانت وصيفا لونيا الى أن وجه اليهم الامبراطور جيشه البحري، فاغرق أكثرها واخذ عددا من الاسرى، ثم قام من هنالك بتحركات في كل ذلك البحر، مشيعا الارهاب، وهاجم صقلية وعاد مثقلا بالغنيمة الى القسطنطينية. وذهب العرب الموجودون آنذاك حول مسينا ليضربوا شواطىء فينيقيا وسوريا حيث احدثوا اضرارا كبيرة. ذلك ان الامبراطور اخذ كل رجال البحرية من سفنه ليشغلهم في المعابد التي كان يبنيها بالقسطنطينية ولما وجه لهم جيشا بحريا للأخذ بالتأر هزموه. لكن نقفور فوكاس وهو القائد الشجاع المحنك وجه لهم جيشا جديدا، فكانت له عدة انتصارات عليهم.

وفي ذلك الوقت توفى امبراطور باسيل، تاركا ولده ليون الفيلسوف خلفا له ، وقد حكم هذا الأخير الامبراطورية طوال خمس وعشرين سنة وكان كأبيه صاحب بناءات كبيرة. واستولى العرب في تلك الاثناء على جزيرة لمنوس حيث قتلوا عددا من النصارى، ثم رجعوا محملين بالغنيمة، واستراحوا مدة أثناء الحروب المدنية بافريقية.

اسبانيا

ولنرجع الى الأقاليم الاخرى. ففي عهد الملك الفونس الكبير، حشد محمد ملك قرطبة جيشين (7) ووجههما لنهب مملكة الفونس تحت قيادة المنظري (8) وأبي القاسم، ودخل هذا الاخير الى قشتالة والأول الى ربع ليون وحشد الملك الفونس جيشا التقى فيه عدد من النفريين والكاسكون وسار اليهم وألزم هذا الأخير بالانسحاب تاركا وراءه خسائر كبيرة. ولكن المنظري الذي كان يعيث في جهة شلمنكة انسحب بدون أن يقوم بشيء يذكر لما علم بهزيمة أبي القاسم وبتوجه الفونس نحوه، ولما فشل ملك قرطبة في تلك الجهة ادار قواته نحو طليطلة، وترك ولده المنذر في طلبيرة وتجاوزها، وأخضع عددا من القلاع في تلك الدولة . ولما راى لوط (9) ملك طليطلة، (10) ، جيش اعدائه موزعا توجه لحرب المنذر، ولكنه غلب

(7) سنة 872 .

(8) لعله يقصد المنذر بن محمد (مترجم) .

(9) لب (مترجم) .

(10) تطيلة .

بمحاربة الثائر العربي عمر، ولم يشأ ان يتراجع عنها حتى يقتل المتمرد، ثم رجع الى قرطبة. وبعد أن بويع ملكا(11) ، أكد الهدنة مع الفونس وتوفي بعد سنتين دون ان يقوم بشيء يذكر. وخلفه اخوه عبد الله الذي ظل في الملك خمسا وعشرين سنة وأكد نفس الهدنة. ولكن في سنة ثمانمائة وخمس وثمانين (12) رأى ان الفونس خلافا للعقد اخذ يحصن سمورة وفازو وغيرها من المعاقل التي كانت خربت اثناء الحرب، فوجه فقهاءه (13) يطلبون النجدة من افريقيا، وجمع عددا من العرب فدخل الى قشتالة وخربها الى شلمنقة التي استولى عليها قبل ان يهب الفونس لنجدتها، ثم انسحب الى قرطبة، ومن جهة اخرى، دخل الفونس الى مملكة طليطلة وخرب الجهة الخاضعة لعبد الله (14) ثم رجع الى أوبيط. وفي السنة الموالية جمع عبد الله قواته، وبفضل النجدات التي أتته من افريقيا انتزع من يد الفونس مدينتي نشارة وأوقة، ومن هناك دخل الى نافاريا فقام بحصار بنبلونة حيث اعتصم الملك دون سانشو مع وجوه دولته . وبعد مناوشات مات فيها عدد من الرجال من الجانبين، استولى عبد الله عنوة على المدينة، وقتل فيها الملك دون سانشو مع معظم النبلاء. وعاد العرب على الفور مثقلين بالغنائم والأسرى، وهب الملك الفونس لنجدة ملك نافاريا، فاقتفى آثارهم ودخل لمملكة طليطلة واستولى صلحا على مدينة وادي الحجارة، ثم انجلى الجنود من الجهتين وابرمت الهدنة لست سنوات.

لما وضع خليفة بابل (15) حدّاً للحرب مع الفونس وارجعهم الى الطاعة بعد ان الحق ضررا بالغا بتلك الاقاليم، وجه قواته ضد الامبراطور (16) ودخل بلاده وأكره على الانسحاب في فوضى، ولما علم بهزيمته توجه لمحاصرته في طليطلة التي قطع عنها كل أبواب الأمل ، بعد أن هدم الجسر، بحيث اضطر لوط أن يسلم له بالبيعة . وبينما كان محمد منهمكا في هذه الأحداث، أغار الفونس على بلاده واجبره على المهادنة، على شرط ان لا يعود احد منهما الى بناء الحصون التي خربت اثناء الحروب . ودامت الهدنة ست سنين الى وفاة محمد الذي ترك خلفا له المنذر، الولد الأكبر من بين اربعة وثلاثين من اولاده. وكان هذا الأمير منشغلا آنذاك

(11) سنة 880 . والحقيقة أن المنذر تولى سنة 886 (مترجم) .
(12) 885 . لم يتول عبد الله إلا في سنة 888 (مترجم) .
(13) علماء في الشريعة المحمدية .
(14) سنة 886 .
(15) هذا مثال من جهل المؤلف بتاريخ الاسلام ، إذ يذكر بابل وهي المدينة التي كانت في حكم الانقراض والتي حلت محلها بغداد . وفي هامش الأصل تكرار لاسم القائم آدم (مترجم) .
(16) ليون الفيلسوف .

بجيش قوي وارتكب فيها الوانا من السفك، لكن الامبراطور توجه اليه بعد ان جمع كتائبه وغلبه في سوريا. وفي نفس الوقت هزم قائد [17] جيشه البحري اسطول الاسكندرية، واثخن في قتل الأعداء، وأخذ عددا كبيرا من الأسرى ، وخفضت الهزيمتان من قوات العرب ومن كبريائهم، وهكذا استمتع النصارى بشيء من الراحة الى أن تولى مقاليد الامبراطورية قسطنطين ولد ليون الذي كان الوصي عليه أثناء صغره رومانوس لكابينوس. وأثناء حكم هذا الاخير، حصل قائدان [18] للامبراطور انتصارات في عدة معارك واستوليا على عدة مدن بسوريا ، وعلم الامبراطور، بعد هاته البدايات السعيدة ، ان عرب كانديا كانوا يعبثون في شواطىء الامبراطورية ، فوجه لهم جيشا بحريا تكبد هزيمة بسبب جهل القائد . وقتل معظم النصارى أو وقعوا في الأسر إلا ان فوكاس [19] قائد جيوش الشرق سير الحرب مع الخليفة بمهارة بحيث استولى على عدة مدن وخرب جزءا من سوريا. وبينما كانت هاته الاحداث جارية ، ذهب فوكاس آخر [20] الى عرب كانديا وحاربهم بدون هوادة طوال سبعة اشهر. وبعد ان انتصر عليهم في عدة معارك وخرب مدينة كانداس، استولى على عدد من القصور واسر قائدهم [21]. ولولا انه استدعي الى القسطنطينية لتم له الاستيلاء على كل الجزيرة، وسار قائد الاقاليم الشرقية ليون لمحاربة الخليفة الذي كان قد توغل في الامبراطورية على رأس جيش كبير واسترجع الحصون التي كان الرومان استولوا عليها، وفتح معه المعركة، فهزمه وقتل اواسر اكبر قسم من العرب وعاد الى القسطنطينية منتصرا. وفي السنة الموالية علم الامبراطور ان الخليفة عاد بجيش جديد، فوجه اليه نقفور فوكاس في الشرق وجاز هذا القائد الى سوريا فدخل معه في المعركة وغلبه بعد قتال شديد ثم استولى على مدينة بيروى ونهبها [22] ماعدا القصر. وبالاضافة الى الثروات التي وجد بها، حرر عددا من الاسرى المسيحيين واخذ معه عددا منهم ورجع منتصرا الى القسطنطينية حاملا معه بقصد التبرك قسما من ثياب القديس يوحنا، وحل

---

(17) هيميت .
(18) كوربها وتيوفيلوس .
(19) باردو فوكاس أو فوكاس المزور .
(20) نقفور فوكاس .
(21) كوراب .
(22) سنة 891 .

فوكاس بعد ذلك محل رومانوس فوجه اليه عرب صقلية يطالبون بالمال الذي وعدوا به، حسب زعمهم، من لدن اسلافه ، فغضب لذلك لانه لم يرض ان يقال انه في عصره كانت الامبراطورية تؤدي الجزية. فوجه لهم جيشا تحت قيادة البطريق مانويل وكانت تنقص هذا الأخير الحنكة فترك جنوده يتفرقون عند نزولهم الى الأرض بحيث تمكن العرب من الانقضاض عليهم وقتلوا مانوليل وسحقوا او اسروا معظمهم ولم يتمكن من الفرار الا القليل من السفن.

وكان حظ سيميسا احسن فقد وجه الى كيليكيا وحقق انتصارا كاملا على العرب بالقرب من مدينة أدنة وتصرف في امره احسن تصرف حتى ان الامبراطور في السنة الموالية اصبح سيدا على معظم الاقليم واستولى على عدد من حصونه ، ولكنه لم يهاجم لاطرسوس ولا لموبسويست، بسبب قدوم الشتاء، وعاد للاستراحة العسكرية في كابدوسيا، وما أن عاد الربيع، حتى سار الى كيليكيا ووجه أخاه ليون مع قسم من الجيش يقصد حصار طرسوس ، بينما هاجم هو موبسويست التي يقسمها نهر سار من الوسط. ولما رأى العرب ان النصارى تملكوا احد الشطرين ، أشعلوا فيه النار وانسحبوا الى الآخر. ولكن وقعت مطاردتهم بشدة بحيث تم الاستلاء على الحصن الذي استؤصل كل سكانه أو أخذوا أسارى، واستسلمت مدينة طرسوس عندما وصلها الخبر، وبعد ثلاثة ايام وصل جيش الاسكندرية البحري، وكان الخليفة قد وجهه لنجده المسلمين. ولكن لم يستطع أن يقرب من البرّ ، فاضطر للبقاء في عرض البحر، حيث وجد نفسه وجها لوجه مع بحرية الامبراطور، التي أغرقت جزءا منه، بينما ذهب الباقي في العاصفة. وعاد الامبراطور منتصرا الى القسطنطينية وأخذ معه ابواب طرسوس وموپسوپست التي كانت من البرونيز المصنوعة بمهارة وجعلها في قصره بعضها تجاه الشرق والآخر تجاه الغرب. وقد أرجع هذا الامبراطور، أيضا جزيرة قبرص الى الامبراطورية بعد أن ظلت في حوزة العرب مدة طويلة. واستولى على عدد من المدن حوالي لبنان وعلى الشاطىء الذي خرب أكبر جزء منه. ثم انتقل الى انطاكية الواقعة على نهر العاصي فحاصرها. ولكن الاقوات قلت لديه، بعد طول الحصار، بسبب تهاطل الامطار بدون انقطاع مما ادى الى فساد الطرق فبنى قصرا في جبل طورروس (24) لمضايقة

(23) أنا فارطا ، روسو ، أدانه .

(24) اليوم موروس .

السكان ورجع الى القسطنطينية، تاركا امر الجيش الى قائد محنك ليجعله في طور الاستراحة الشتوية. وما أن ذهب الامبراطور (25) الى حال سبيله، حتى حاول ميخائيل بوج الذي كان يتولى القيادة في هذا القصر المشيد حديثا، مرات متعددة الاستيلاء على انطاكية، وفي ذات يوم استولى على رأس احد الابراج الواقع على باب من ابواب المدينة. فنصب السلاليم ليلا، وكان الطقس شديدا، فصعد مع ثلاثمائة من الجند وذبح جماعة الحراس النائمين، وتحصن هناك. ثم طلب النجدة من الجنرال الذي رفض ان يسمع اي شيء من البداية للسبب الذي ساذكره من بعد، وهاجم السكان في تلك الاثناء بورج بكل قواهم ولكنه دافع جيدا عن نفسه وأتته في النهاية النجدة من الجيش بكامله، فاستولى علي البلد، ولما علم الامبراطور بالامر، كان قلقا اكثر منه راضيا، لأن المتنبئين اخبروه أنه سيموت عند الاستيلاء عليه، وهكذا عامل الرؤساء معاملة سيئة، وعزلهم من مناصبهم في السنة السادسة والاخيرة من ملكه.

اسبانيـــــا

وأما في الغرب، فبعد انقضاء الهدنة بين الملك الفونس وعبد الله ملك قرطبة، ضم هذا الاخير جيشه الى جيش لوط، ملك طليطلة (26) وقام بغارات كبيرة على أراضي النصارى، وذلك اثر النزاع الذي قام بين اولاد الملك الفونس، والذي من أجل انهائه اعطى ولاية ليون لدون غرسيه وولاية غاليس لدون اوردنيو، بينما انسحب هو الى اوبيدو. وهزم اوردونيو مرتين جيش عبد الله في سنة ثمانمائة وثمان وتسعين (27) وتسعمائة . ولدى عودة دون الفونس من زيارته لكنيسة القديس يعقوب، امر غرسية بجمع جنده لعزمه على محاربة العرب، وهكذا عاث في أرضهم بجيش كبير، ثم عاد ليقضي الشتاء في سمورة ومن هنالك الى اوبيدو، ومنذ ذلك العهد الى سنة تسعمائة وسبع ، لم تزد الحرب الا اشتعالاً في اسبانيا، حيث جاء عدد من الناس من افريقيا لنجدة الامير عبد الله الذي كان مهاجما من كل مكان. وبعد ذلك توفي (28) تاركا العرش لعبد الرحمن الذي لقب بنصير الشرع (29)

---

(25) بطرس الخصي .
(26) نذكر مرة أخرى أن لوط يدل على اسم لب وطليطلة على تطيلة
(27) ـــ ٨٩٨ .
(28) سنة 907 .
(29) ناصر الدين .

وفضل على أخيه الاكبر بتاثير من ملك افريقيا. ومات الفونس بعد ذلك بسنتين، وان كان البعض يروون وفاته بمجرد عودته الى سموة، ودفن باوبيدو مع زوجته شيمين، وترك وليا لعهده بمملكة ليون ولده دون غرسية، ومات خليفة سوريا (30) ايضا وهو شيخ، بعد ان قضى في الملك اربعا وأربعين سنة، وتسببت وفاته في انشقاقات داخل الامبراطورية العربية، اذ ادعى أربعة اشخاص انهم أولياء لعهده، في نفس الوقت، ونصب احد منهم نفسه كخليفة ببغداد ، والآخر بايونيا، والثالث بفارس والرابع بمصر (31) هذا بغض النظر عن عمال المدن والاقاليم الذين كانوا يختلفون في ولائهم ويحارب بعضهم بعضا. هاته الانقسامات التي لم يبق لنا من اخبارها الا القليل اضعفت الامبراطورية العربية كثيرا.

(30) القائم ادم .

(31) هنا يسرح المؤلف بالطبع مع خياله ويأتي بأخبار ملفقة لا علاقة لها بالتاريخ ، وإنما القصد منها لمز العرب والطعن في الاسلام (مترجم) .

الفصل السابع والعشرون

قصدار [1]، الخليفة الخامس والعشرون وما جرى في عصره

بعد وفاة قائم آدام، الذي لم يكن موفقا في حروبه مع امبراطور القسطنطينية قام خمسة خلفاء بالشرق، وبما أن خليفة بغداد هو الذي اعتبر شرعيا والآخرون غاصبون، فلن نذكر الا إياه في مقام الخلفاء. كان اسمه قصدار، وبذل كل ما في المستطاع ليجمع اليه الآخرين حتى يحاربوا كلهم المسيحيين، ويعيدوا الامبراطورية العربية كما كانت، وبما أن الامبراطور فوكاس كان قد مات وأن زيميسكا هو الذي حل مكانه، فقد عول على مهاجمته، ليبدأ عهده بعمل عظيم، ثم تحالف مع الامراء العرب الآخرين وجمع جيشا قويا، شارك فيه حتى أهل القيروان وحاصر أنطاكيا [2] ولكنها أحسنت الدفاع عن نفسها بفضل فيالق ميزوبوتاميا، حتى ان العرب برغم تفوقهم من حيث العدد هزموا، واكرهوا على الفرار للنجاة بأنفسهم وتراجع قصدار الى بغداد بما بقي له من جنود، ثم انه بعد ذلك استولى على فارس بمساعدة مصر وافريقية.

اسبانيا

فاذا عدنا الى الحديث عن اسبانيا، فان دون غرسية بعد ان حل مكان ابيه، واصل الحرب ضدا على ملك قرطبة، ودخل الى بلده فاستولى على عدد من المدن والقصور، وهزم والي طلبيرة [3] مثخنا في جيشه ومطاردا الهاربين الى مدنهم. وهكذا رجع مثقلا بالغنائم، مع الولي الذي أخذه اسيرا. الا ان حراسه تركوه يفر

---

(1) اسم غريب لا يذكر بأي خليفة من الخلفاء ، وهو من قبيل التلفيقات والخرافيات التي تضمنها الكتاب فيما يخص تاريخ الخلفاء والاسلام ، بوجه عام (مترجم) .

(2) أنطاكية على نهر العاصي .

(3) — أيولا أو يحيى — كذا في هامش الأصل ، ولعله يقصد يحيى بن هاشم الذي كان واليا على لاردة، وعرف هو وأخوه محمد بعداء الامويين .

خطأ منهم. ومات في السنة الثالثة من توليه الملك بمدينة سمورة، ومن هناك حمل جثمانه الى اويبدو. وخلفه أخوه دون اوردونيو. (4) وانتصر هذا الأخير في عدد من المعارك مع العرب وفي السنة الأولى من عهده دخل الى بلادهم وجال فيها بدون مقاومة، ثم رجع الى قشتالة. وفعل نفس الشيء في السنوات الموالية. وفي سنة تسعمائة واربعة عشر حاصر طلبيرة وهزم عبد الرحمن الذي هب لنجدتها واكرهه على الانسحاب الى قرطبة ، وبعد ذلك استولى على القاعدة بالقوة وأحرقها وأراق دماء اهلها وعاد منتصرا من هنالك الى سمورة حاملا معه الوالي كاسير. وتذكر بعض الروايات ان هاته المعركة جرت في عهد أخيه دون غرسية. وقلق عبد الرحمن لما تكبده من خسائر، وغار من توسع عدوه فوجه الى افريقيا يطلب المدد من امراء البيت الادريسي وأمراء مكناسة الذين كانوا يحكمون الموريطانيتين. فاجتاز محمد المطرف، أمير سبتة، مع عدد من رؤساء موريطانيا الطنجية على رأس جيش قوامه ثمانون ألف رجل ولحقوا بعبد الرحمن حوالي قرطبة. وحاصروا في عام تسعمائة وستة عشر كلهم مدينة أسما التي كان اردونيو قد حصنها ليجعل منها حاجزا دون العرب. وما علم اردونيو بالخبر حتى بادر الى المكان وهزمهم، ولكن نظرا لكثرة عددهم، فقد تمكن عبد الرحمن في الحين من ان يؤلف منهم جيشا جديدا الا ان فصل الشتاء كان على الأبواب، فانسحب الى قرطبة بعد ان وزع الجنود على الحدود، ورجع الأفارقة الى بلاد البربر ، بعد ضياع كثير من رجالهم. ولما علم اوردونيو في السنة التالية بذهابهم، دخل الى استرامدورة حيث اصاب الكل بالاحراق واراقة الدماء واصبح سكان ماردة وبطليوس تحت ذمته. ثم رجع بعد ذلك منتصرا الى ليون ومحملا بالغنائم. وفي نفس السنة عقد عبد الرحمن معه هدنة لثلاث سنوات، ثم منع ماردة من اداء اي جزية واعدا اياها بالنجدة.

ولدى هاته الانباء، دخل اوردونيو الى استرامدورة، فنهبها والحق بها اضرارا ثم تجاوزها فحاصر طلبيرة، وبرغم كون عبد الرحمن حصنها من جديد وزودها بكل ماهو ضروري لمواجهة الحصار، فانه سار اليها وتكبد هزيمة، وفقد اكثر من خمسة وعشرين الفا من العرب واضطر للتراجع الى قرطبة . وبعد ذهابه، استولى اوردونيو، وقد اصبح سيدا على الاقليم، عليها عنوة (5) وخربها، ثم ذهب ليقضي الشتاء في

(4) 910 .
(5) سنة 910 .

سمورة. وما ان عاد عبد الرحمن الى قرطبة حتى وجه فقهاءه الى افريقيا ليحصل منها على النجدة، بحيث انه بمجرد حلول فصل الربيع في السنة التالية جاء اثنان من كبار الرؤساء في طنجيطانيا واجتازا الى اسبانيا مع عدد كبير من الفرسان والرجالة ثم التحقوا به وذهبوا لمحاصرة مدينة سانت اثيان دوكرمان. وبما ان اوردونيو لم يكن يتوفر على قوة كافية لاجراء المعركة معهم، فانه هاجمهم ليلا على بغتة، فأثار فيهم الاضطراب وطردهم الى قرطبة ، واجتهد عبد الرحمن في الاحتفاظ بالافارقة طوال الشتاء، والزمهم بان يستقدموا جنودا آخرين . وفي السنة التالية، دخل الى غاليسيا وحاصر بويرتو، حيث توجه اوردونيو متبوعا بكل النبلاء وبجيش قوي. وجرت المعركة بين الطرفين دون التمكن من معرفة المنتصر. وفي سنة تسعمائة وثلاث وعشرين دخل عبد الرحمن الى نافاريا لحصار كنتبرية. (6) فوجه سكانها الى الملك أوردونيو طالبين الاغاثة، واعدين إياه بأن يصبحوا من اتباعه. ولما علم عبد الرحمن بذلك، ترك قسما من جيشه في معسكره، وفتح المعركة معه بالقسم الآخر، قريبا من يوتكيرا، وهزمه حسب بعض لأقوال ، وأسر اسقفي توى وشلمنكة، بينما تقول بعض الروايات ان اوردونيو رفع الحصار وتابع عبد الرحمن واستولى على نخارة ونهب كل البلاد المحيطة بها. (7) ومات في السنة الموالية وتولى مكانه في الملك اخوه دون فرويل، الذي لم يتمم السنتين، بحيث ان التاج انتقل الى دون الفونس الرابع ابن اخيه الملك أوردونيو ، وما ان مات الملك اوردونيو حتى وجه عبد الرحمان الى افريقيا للحصول منها على النجدة حتى يفوز بطائل اثناء هذا التغيير. وفي سنة تسعمائة وخمس وعشرين عاد الى اسبانيا سيد سبتة محمد مطرف على رأس زعماء افارقة آخرين ومعهم خمسة عشر ألف فارس وأربعون ألفا من الرجالة ، والتحقوا بعبد الرحمن الذي دخل الى قشتالة وامعن في القتل والاحراق. ثم قام بحصار سان اتيان دوگرماز، واستولى عليها بعد عدة هجمات ثم قطع الدويرة، فأخذ بنبلونة ورجع الى قرطبة، دون ان يعترضه شيء في طريقه، لأن الامراء المسيحيين كانوا منهمكين في الحرب المدنية فيما بينهم، وفي السنة التالية لم يترك عبد الرحمن فرصة التوسع تمر، ودخل الى أراكون وأثار الرعب في كل مكان، وكان قائد جيشه ضابطا عربيا شجاعا استحق لقب الحبيب المنصور (8). أي

(6) قريبا من لوكرون .

(7) سنة 914 .

(8) اسم لم نجد له أثرا في المصادر العربية (مترجم) .

المحبوب من الله والمنصور من قبله لما حققه من انتصارات على نصارى الشرق. وبما ان البلاد بكاملها كانت في حالة خوف لعدم وجود رئيس بها، فقد اجتمع نبلاء أراكَون وانتخبوا ملكا عليهم دون اينيجو الذي بشجاعته وسيرته استطاع ان يدبر بسرعة ماهو ضروري للدفاع ووجه الى ملك ليون (9) بقصد التحالف معه. ولكن هذا العاهل الذي كان في سن الصغر ولم يكن معه من يشير عليه بالرأي السديد، تصرف ببطء في هاته القضية، حتى كادت اسبانيا بأسرها ان ترجع الى قبضة المسلمين . ولكن الله لا يتخلّى عن ذويه في ساعة المحنة، اذ بعث فرناندكونساليز قند قشتالة (10) وقد سبق لهذا الاخير ان تمرس على قتال العرب في معارك مختلفة، ورأي في الاخير ان المنصور جاء ليهاجمه بجيش من مائة الف جندي، فتصدى له بجنود جمعهم من كَاسكونيا، وبروفنسا ونافارا وأراكَون وقشتالة وهزمه قرب نهر ارلانصا، حيث سقط في المكان ثلاثون الف افريقي زيادة على عرب اسبانيا (11) واضطر للفرار الى قرطبة. الأمر الذي بالاضافة الى مصائب اخرى، جعل العرب يخفضون من كبريائهم. وفي بعض الروايات جرت هاته المعركة في سنة تسعمائة وخمس عشرة، ولكن ابن الحاج المؤلف الافريقي، الذي كان يعيش في العصر الذي نعتمد عليه في حساب السنين ، يقول انها كانت في سنة ثمانمائة وسبع وعشرين من الهجرة الموافقة لسنة تسعمائة وثلاثين من ميلاد سيدنا (المسيح) . ومنذ ذلك التاريخ الى سنة تسعمائة وخمس وثلاثين لم يحدث شيء يذكر باسبانيا .

ايطاليا

في ايطاليا انتقضت اقاليم بوى وكلبرية على يان سيميسكا، امبراطور القسطنطينية. فغضب لهاته الثورة وجلب العرب لتلك الأقاليم، فكادوا يصبحون مسيطرين على مملكة نابولي برمتها ووصلوا الى قريب من روما. وما ان راى البابا يوحنا العاشر (12) هذا العدو القوي على ابوابه، حتى طلب النجدة من اخيه البرت، ماركيس توسكانيا (13) فجمع قواته مع قوات الرومانيين ومشى نحو العرب.

---

(9) ألفونسو الرابع .
(10) سنة 930 .
(11) في منطقة حسينيس .
(12) أو الحادي عشر .
(13) نورد هنا أسماء الأعلام الايطالية الغربية بالكتابة اللاتينية :
TIBRE , Golfe de SIPONTEN GARGANO , LABOUR , POUILLE , TOSCANE BENEVENT , cap d'OTRANTE , TULES , PESCARE .

فكانت معركة كبيرة غلب العرب فيها[14] واضطروا للرجوع الى بوى[13] والتخلي عن كل الحصون التي امتلكوها. ولكن بعد ذلك بمدة تجمعوا بفضل وصول بعض الفياليق من إفريقيا وصقلية وانهزموا في معركة ثانية بارض لابور[13]، وأجبروا على الفرار منها الى حصن جبل كركانو، [13]، الذي كانوا بنوه بفوهة [15] خليج سيبونتي [13]. وبما انهم لم يكونوا في حالة استعجال، بسبب كون الأمراء الايطاليين منقسمين على انفسهم فقد وجدوا ما يكفي من الوقت لترميم قوتهم، والقيام بغارات هنا وهناك من نهر تبر الى نهر بسكارا ومن تولس الى رأس اوترانتي [13]. بل انهم استولوا على مدنية بنيفانتو ومحقوها ملحقين اضرارا بالبلاد كلها. مما اضطر سكان تلك الاقاليم للخضوع لسيطرتهم خوفا من الاسر والنهب. فكان ذلك سببا في ترسيخ سلطة العرب بايطاليا.

إفريـقـيـــــا

وكانت افريقيا هي أيضا مضطربة بانقساماتها، اذ في سنة تسعمائة وست وعشرين ثار أهل البلاد على العرب ودخلوا في حرب طويلة الامد، شديدة القساوة. وانطلقت من موريطانيا الطنجية التي كان الملك فيها بيد الادارسة. ذلك ان فريقا من قبيل زناتة اسمه مكناسة اعلن العصيان واستولى على عدد من اقاليمها وبوأ مدينة مكناسة منزلة شريفة، وهنالك وضع حدود حكمه على بعد اثني عشر فرسخا من فاس. وفي تلك الاثناء، قام احد الدعاة المرابطين [16] وكان له حرمة بدعوى ولايته، فأقنع سكان اقليم تامسنا على حدود مراكش ان لا يطيعوا بيت ادريس ولا يؤدوا ضريبة، لانه لم يكن قائما بالعدل وكان يظلم الأهالي [17]. وتمكن من اقناعهم بأنه نبي وانه جاء عنوة لتخليصهم من الطغيان، ومارس عليهم سلطة دنيوية وروحية وجمع قوات الاقليم [18] التي كانت من الكثرة الى حد انه استطاع ان يجمع من اربعين مدينة وثلاثمائة قرية مسورة ثمانيين الف فارس ومائتي الف من

---

(14) في بادية روما .
(15) حيث توجد الآن قمة سانت آنج .

(16) في هامش الأصل : كومين بن منال . ولا وجود لهذا الاسم في المصادر (مترجم) .
(17) إقليم تامسنا كان خاضعا في تلك الآونة لدولة برغواطة (مترجم .
(18) تـامسنا .

الرجالة. وهكذا اعلن الحرب على ملك فاس الذي كان منشغلا بمجابهة انتقاض زناتة واضطر لابرام الصلح معه وتثبيته فيما تولاه عن طريق الاغتصاب حيث تولى الملك طوال ثلاثين حولا وتتابع خلفاؤه من بعده طوال مائة سنة الى أن تولى يوسف بن تاشفين الملك، وبعد ان بنى مدينة مراكش، خرب ذلك الاقليم كما سنشير الى ذلك في مكانه. بعد ذلك. في سنة تسعمائة وأربع وثلاثين، جاء من بلاد العرب مشعوذ آخر بلباس الحجاج، مدعيا انه نبي من سلالة العباس الذي منه خلفاء العرب، وكذا سادة القيروان من اسرة بني الاغلب. فأقبل عليه الناس في مملكة تونس وعظموه تعظيم الأولياء حتى ان عبد الله آخر الامراء الأفارقة كان يكرمه مثل أبيه، ولا يفعل شيئا دون موافقته، وسمى نفسه يمام الموحدين ، بسبب نقاء اخلاقه ومذهبه وقال عنه الذين كتبوا تاريخه، وخاصة من اهل تونس، انه يهودي الاصل وسموه معابدين الشيعي (20) . وتذرع بكون الأدارسة ملوك فاس خارجين عن الدين، فأثار عليهم البلاد لصالح الزناتيين، وبعد ان خرب عدة مدن بموريطانيا (21)، استولى على اقليم الهبط الذي توجد به سبتة وطنجة واصيلا. وكانت موريطانيا الطنجية مقسمة آنذاك الى عشرة اقسام بسبب كون ادريس الملك الثاني لفاس قسمها عل اولاده العشرة بالسوية. لكن بما انهم لم يكونوا متفاهمين مع بعضهم، فلم يكن في مستطاعهم ان يقاوموا عدوا يبلغ مثل هاته القوة. وطلب اميران من هاته الاسرة الاغاثة من عبد الرحمن ملك قرطبة، اذ كانوا ساعدوه مرارا في حرب النصارى، ولكن المهدي والمكناسيين اسرعوا في خطتهم بحيث انه لما وصلت النجدة، كان هؤلاء الأمراء قد وقع قتلهم وخربت اقاليمهم، وبعد الانتصار تسمى المهدي خليفة، وبنى لنفسه قصرا على غرار خلفاء بغداد وعين سودان (22) أوقائدا عاما على رأس جيوشه، وبعد ان رتب الامور حسب رغبته سار الى جبل الاطلس، ليأخد الجبايات وحصل على بيعة كل شعوب نوميديا، (23) ولكن حينما

---

(19) الاشارة في هذا الكلام لابن تومرت ، لكن المؤلف يخلط بين اسم إمام ويمام ، وما ذكرت المصادر أن المهدي تسمى يمام الموحدين (مترجم) .

(20) كذا في الأصل . ولعله يقصد أبا عبيد الله الشيعي أو المهدي الشيعي ، الخليفة الفاطمي الأول . ومهما يكن ، فالمؤلف يخلط خلطا فاحشا بين الفاطميين والموحدين (مترجم) .

(21) أرشقول ، المزمة الخ....

(22) سودان من الأسماءالغريبة التي أطلقها الاوربيون في العصر الوسيط على أمراء المسلمين . بمعنى سلطان (مترجم) .

(23) الاسم الذي كان يطلقه الرومان على جزء كبير من الجزائر الحالية .

وصل الى سجلماسة، الواقعة على بعد اربعمائة فرسخ من القيروان في اتجاه الغرب، قام حاكمها (24) في الاقليم كله، فرفض الخضوع له واثار عليه السكان بدعوى انه كذاب وهزمه ووضعه في الاسر ولكنه اشفق عليه في الاخير، وبعد ان تركه مدة طويلة في الاسر اطلق سراحه، تقديرا لفكره وعلمه، بالاضافة الى كونه كان يدعى انه من نسل محمد. وفي الوقت الذي كان فيه اسيرا بسجلماسة، قام الحبيب المنصور (25)، قائد الخليفة هشام ملك قرطبة، فأتى بجيش الى افريقيا لمساعدة ادريس، ودخل الموريطانيين وامتلك اكثر اقاليمهما. وليسهل انتقال الجيوش حصن مدينة ارشقول في موريطانيا القيصرية واصيلا في موريطانيا الطنجية ووضع فيهما حامية استقرت مدة طويلة تحت سلطة ملوك قرطبة. ولكن المرابطين طردوهم في الاخير بعد ان استولوا على البلاد وخربوا تلك الحصون وغيرها كما سيأتي الحديث عن ذلك. واما المهدي الشيعي فانه لكي يجازي شيخ سجلماسة على اطلاق سراحه تآمر عليه مع بعض المرابطين والفقهاء في الاقليم، وجاء اليه كما هي العادة بدعوى الزيارة، وأغمد فيه خنجره وهو يسلم عليه. وهزم جنوده وأصبح سيدا على ذلك الاقليم وما يجاوره من الاقاليم. وصدرت منه مظالم كثيرة حتى اصبح ممقوتا لدى الجميع وثارت عليه شعوب نوميديا وليبيا للقضاء عليه، وانسحب الى الجزء الشرقي من بلاد البربر حيث بنى هنالك مدينة على الساحل قرب مدينة القيروان. وحصنها بقدر ما كان ضروريا للاطمئنان على امنه وسماها مهدية لكن النصارى سموها افريقية.

ايطاليـا

وبالنسبة لايطاليا، نجد عبد الله في نفس الوقت الذي كان وهو حاكم على القيروان، يوجه فيه الجيوش الى ايطاليا واسبانيا، كان يوجه جيشا لمحاربة نصارى الشرق، (26) وانضاف الى سفن صقيلية، التي كانت تحت حكم العرب آنذاك، فجاء ليحاصر جنوة واستولى عليها بعد مقاومة طويلة. وسلب كل من كان قادرا

(24) زناتي إفريقي من بيت عبد الواد – كذا بهامش الاصل ، ولا نحتاج إلى أن نشير الى ما في ذلك من خطأ فادح . (مترجم) .

(25) لعله يقصد بهذا الاسم المنصور بن أبي عامر الذي كان مع هشام المؤيد ، ولعل لقب الحبيب هو تحريف للقب الحاجب (مترجم) .

(26) سنة 935 .

(67) DANDALO

على حمل السلاح وأخذ الباقي الى افريقية مع كل الثروات الموجودة في المكان. وبعد ذلك بزمان، تدخل دندالو (27) احد اشراف البندقية، لدى احد الاعداء بكل ما يستطيع حتى ردوا الاسرى الى جنوة، لكن المؤلفين لا يذكرون كيف تمَّ ذلك.

اسبانيـــــا

وفي نفس السنة، ذهب الملك اينبجو مع فرناند كونزليس ليحاصر مدينة بنبلونة، التي استسلمت صلحا، بحيث انهما اخرجا منها العرب وأحلا النصارى محلهم. ولدى هاته الانباء، وجه عبد الرحمن أبا يحيى على رأس جيش لمحاصرة سرقسطة. ولكنه لم يحصل على طائل كبير . وفي تلك الاثناء استولى الملك اينييجيو والكونت فرناند كونزاليس على نافاريتا ونشار ولوجرون (28) وعدد من الحصون الصغيرة الصالحة لتكون وقاية من العرب. ولكن الاول مات في نشار، تاركا الملك لولده دون غرسية ينييجز (29)، وفي نفس السنة، ترهب الملك الفونس في دير سانت فيكوند (30)، تاركا التاج لأخيه دون رامير. ولكنه ندم من بعد على ذلك واراد ان يسترجع الملك. مما الزم رامير الذي كان له جيش على اهبة الاستعداد لمهاجمة العرب، بمحاصرته في مدينة ليون، حيث قبض عليه بعد سنتين من الحصار ووضعه في السجن مع اولاد الملك فرويل الثائرين الذين كان سمل اعينهم. وتوفى الفونس بعد سنتين (31) ودفن في دير سان بولس بمدينة ليون، تاركا دون رامير على رأس الدولة دون منازع. واوقف هذا الاخير العمل بالهدنة التي كان دون الفونس امضاها مع عبد الرحمن، ودخل على رأس جيش قوي الى مملكة طليطلة واستولى على مدينة مدريد، ثم رجع ليقضي الشتاء في ليون، بعد ان نهب البلاد. ولدى هاته الانباء، طلب عبد الرحمن النجدة من افريقيا، ووجه له المنصور ثلاثين الف رجل تحت قيادة سيفال ابن اخيه الذي التحق بعبد الرحمن في قرطبة ورافقه في السنة التالية لمحاصرة مدينة اوسما. (32) وهب اليهما فرناند كونز ليس مسرعا

(28) NAVARRETTE , NACHARE , LDGROGNE

(29) DON GARCIA IGNIGUEZ

(30) S.' FECOND

(31) سنة 942 م.

(32) هنالك خلط بين الأسماء والتواريخ . فالمنصور لم يكن في عهد عبد الرحمان الناصر ، واسم سيفال لم نتبينه في اللغة العربية ، والوقائع نفسها غير مضبوطة . (مترجم) .

فغلبهم وأكرههم على الرجوع الى قرطبة. وعلم ابن يحيى (33) بهزيمة عبد الرحمن فثار عليه مما ادخل الفرقة في صفوف العرب، واعطى الفرصة لامراء النصارى لجمع قواتهم (34) والدخول الى بلد العدو، حيث استولى على قلهرة وتطيلة وغيرها من حصون ابن يحيى، الذي اصبح تابعا لدون رامير، ولكنه ثار بعد ذلك بزمن. وفي نفس السنة طلب عبد الرحمن، مرة اخرى الجنود من المنصور الذي اعلن نوعا من الحرب المقدسة على المسيحيين، واسند قيادة عدد هائل من الافارقة والعرب للبطل ابي العابد، (35) والتحق هذا بعد الرحمن في سنة تسعمائة وخمس واربعين، وتوغل في قشتالة وحاصر سيمانكا. ولما علم رامير بالخبر، جمع كل النبلاء والتحق بدون فرناند، وذهب لمهاجمة الاعداء، برغم تفوقهم عليه، (36) وظلت نتيجة المعركة غير واضحة زمانا طويلا، ولكن الشجاعة غلبت الكثرة، في الاخير، فأسر ابن يحيى بعد ان خسر ثمانين الف رجل. ويسمي العرب هذا اليوم، الذي كان هو السادس من اغسطس، يوم برانكو. (37) وبعد ذلك خلص عبد الرحمن فلول جيشه في قصر الهونديك على نهر التاج حيث جاء دون رامير لحصاره، ولكنه انسحب ليلا وافلت نحو قرطبة. ولما استولى النصارى على ميدان المعركة استغنوا بما غنموه من معسكر العدو ، واستولى دون رامير على القصر، ثم عاد منتصرا الى ليون. وفي الامتياز الذي وهبه الكونت كونزاليس الى سانت ميلان، قال بان الحوارى القديس يعقوب رئي في ذلك اليوم وهو يحارب العرب . ونظرا لتأثير السن والخسارات على عبد الرحمن، فانه طلب الهدنة من دون رامير، واستمتع بها طوال حياته.

إفريقيـــــــــا

وفي تلك الاثناء قامت بإفريقيا قبيلة مغراوة، التي هي فرع من زناتة، فاشهرت السلاح على مكناسة وعلى عبد الرحمن، وبما انها تالبت مع قبيلة صنهاجة فقد حاربتهم محاربة قاسية طوال بضع سنوات. وفي سنة تسعمائة وست واربعين،

---

(33) حاكم سرقسطة .

(34) سنة 944 .

(35) اسم لم نجد له أثرا في المصادر العربية (مترجم) .

(36) كان لديهم خمسون ألف فارس ومائة وخمسون ألف راجل .

(37) أو الفوندرييت – ولكن المصادر العربية لا تذكر هذين الاسمين . (مترجم) .

ظهر في الجهة الشرقية من افريقيا فقيه اسمه ابو يزيد، فتبعه عدد كبير من السكان لكراهيتهم للمهدي بسبب مظالمه. فجمع حوله أكثر من اربعين الف رجل وقال عنه انه مارق من الدين . ودعي من قبيل السخرية فارس الحمار، لأنه كان من عادته ان يركب الحمار ويضع لثاما على وجهه. ولما كان المهدي غيرقادر على مجابهته، فقد تحصن داخل مهدية حيث جاء ابو يزيد لمحاصرته. لكن عبد الرحمن ملك قرطبة أسعفه باربعين سفينة. فحارب ابا يزيد، وغلبه هو وولده الذي كان قائدا عاما للجنود والذي قتل هنالك. وبعد هذا الانتصار، استولى المهدي على القيروان وعلى بني الأغلب، واخضع كل السكان، اما صلحا واما عنوة بحيث ظل ملكا على شرق افريقيا بدون منازع وعلى جزء من الغرب وكان اول الخلفاء الخارجين على السنة الذي حكم بالقيروان هو وابناؤه من بعده.

اسبانيا

في اسبانيا اعتبر عبد الرحمن ان سبب خسائره راجع لتساهله مع النصارى القاطنين بمملكته (38) وللمسلمين في الاذن لهم بالتصاهر فيما بينهم. فأراد ان يفرض على النصارى المتصاهرين مع المسلمين ان يدخلوا هم واولادهم في دين محمد. مما ادى الى ان يموت كثير منهم شهداء. (39) وقبل موته، استقدم من افريقيا جيشا لمحاربة النصارى، ولكن توفي اثناء العزم على هذا المشروع عام تسعمائة وثمانية وخمسين، بعد ان ظل في الملك ازيد من خمسين سنة، وترك كخلف له ولده هشاماً، وبسبب صغر سنه، جعل المنصور وصيا عليه(40) وكان هذا هو الذي أتى بجيش افريقيا. وفي هذا الاقليم، مات المهدي عام تسعمائة وواحد وخمسين، تاركا كخليفة له ولده عبد الله الذي لم يكن اقل منه سطوة. ذلك أنه في اول سني ملكه، وجه جيشا قويا الى ايطاليا فاعاد بناء قصور مالطة وبانطلاريا (41) التي كان الجيش الامبراطوري قد خربها. وانزل عددا من الجنود بصقيلية ودخل الى كلبرية التي نهبها كلها مع بوى وباسيليكا، وبنى حصنا في ريشول قبالة مسينا وآخر في

---

(38) سنة 951 .
(39) آلوديا ، ونونيلون ، والأخوات كريكَوار ، وناتال ، وليليوزة ، وفيكتور ، وبيلاج الخ ....
(40) هذا مثال من أخطاء المؤلف . (مترجم) .
(41) جرى آنذاك اضطهاد كبير بإسبانيا .

اواترانت (42) بحيث انه اذا اضيف اليهما حصن جبل كركانو، الذي بناه المهدي، اصبح العرب يتوفرون على ثلاثة حصون عند تراجعهم وقد استطاعوا ان يلحقوا منها أضرارا كبيرة بدولة النصارى طوال ثمانية عشر عاما .

آسيـــــا

فاذا رجعنا لآسيا، نجد ان باسيل بورفيروجينيت (43) واخاه قسطنطين كانا يحكمان الامبراطورية اثر وفاة زيميسكا. وفي عهدهما ثار سكليز (44) وسمى نفسه امبراطورا، ولكنه غلب امام فوكاس الذي كان يقود جيوش الشرق وفر الى كوسدار. ووجه باسيل الى الخليفة يرجوه ان لا يشمل بحمايته خائنا، ولكن بما انه كتب الى سكليز بواسطة نفس الرسول ، بأنه سيعفو عنه اذا عاد الى واجبه، فقد تمكن كوسدار من اكتشاف الرسائل وألقى القبض على الجميع ومن بينهم الرسول .

وفي نفس الوقت ثار إنارك بفارس وتذرع بالدّين، فحشد جيشا كبيرا وحرر البلاد من سيطرة العرب، وبعد ان تكبد كوسدار عدة هزائم حرر سكليز من السجن واسند اليه قيادة جيشه. ولكنه لم يقبل الا قيادة النصارى الثلاثة الالآف الذين كانوا اسارى معه، وهزم بمساعداتهم انارك ثم انسحب الى بلاد الروم لئلا يقع تحت غطرسة كوسدار الذي كان قد وجه وراءه جيشا، ولكنه لم يستطع منعه من الانسحاب، ومات إنارك آنذاك، تاركا كخلف له ولده محمدا الذي استنجد بالاتراك ليدافع بهم البابليين والهنديين، ومات كوسدار، ايضا في هاته السنة، (45) تاركا خلفا له ولده البساسير، وهو الخليفة ما قبل الأخير الذي سنتحدث عنه في هذا التاريخ.

---

(42) أسماء الاعلام الواردة هنا بالحروف اللاتينية :
CALABRE , POUILLE , BASILICATE , RICHOLES , MÈSSINE , OTRENTE

(43) BASILE PORPHYROGENETE .

(44) SCLERE

(45) سنة 958 .

الفصل الثامن والعشرون

أصل الترك، وبداية سيطرتهم تحت البساسير (1) الخليفة السادس والعشرين

تولى البساسير الحكم في امبراطورية بغداد في الوقت الذي كان فيه العرب يجتازون من الانحطاط بسبب انقساماتهم ، بحيث لم يبق في الملك شخص من جنس محمد . فقد خرج الاتراك من الشمال ، وأصبح محمد ملكا في فارس ، وعبد الله في القيروان ، ودابر بمصر ، وكثير غيرهم في أماكن أخرى (2) . وهؤلاء الشعوب أسسوا ملكا جديدا بقوتهم الخاصة ، بدون التعلل بالدين ، وأقاموه على أسس وثيقة بحيث لم يمكن زعزعته منذ ذلك الحين . وعرف بالعكس ، نموا اما عن طريق الحيلة أو عن طريق القوة . وغطى أو دفن ملك العرب ، وكانت له فتوحات في بلاد النصارى، فاباطرة القسطنطينية ما قصروا في الدفاع عن انفسهم ضدا على الغير ، وحققوا انتصارات مختلفة . ولكن قوة الاتراك نمت في مدى ستمائة سنة حتى انهم ما وطئوا مكانا بقدمهم إلا تعذر اخراجهم منه . وكان دون جان النمساوي ولد الامبراطور الذي لا يغلب شارلكانت ، وأخو فيليب الثاني ، هو الوحيد الذي عكر انتصاراتهم وأوقف تقدمهم ، بفضل معركة ليبانت كما سنذكر ذلك في مكانه . ولنرجع الآن الى موضوعنا التاريخي . لقد استدعاهم محمد لنجدته ضدا على خليفة بغداد ، فخرجوا من بلادهم كما فعلوا ذلك بناء على دعوة من العرب الذين أقنعوهم بالدخول في دينهم . وكانت هاته الشعوب تقطن حوالي جبال القوقاز وتمتد من ورائه الى الشمال . ويسميهم بلينوس الهون التوتاسيت ويقسمهم الى اربعة : التوساجيت ، الترك ، والموسكوفيين ، والاودين، ولكن المؤلفين الاغريق يدعونهم باسم واحد لأنهم يقطنون نفس البلد .

وبدون ان نخالف بلينوس، فان السيت الذين يقطنون من وراء جبل طوروس ويمتدون (3) على طول البحر الشمالي الى اقصى الشرق، كانوا منقسمين منذ أقدم الأزمنة الى عدة شعوب وقبائل، كما هو شأنهم اليوم. وهاته الشعوب الأربعة

(1) هل المراد به البساسيري ؟......

(2) أسماء غريبة راجعة لجهل المؤلف بتاريخ الاسلام الحقيقي . (مترجم) .

(3) التتـار .

الذين ذكرنا اسمهم منذ قليل يدخلون في ضمنهم. ونظرا لخصالهم الحربية، فقد أسسوا مملكتهم بقوة السلاح، ودعوا باسماء مختلفة من لدن المؤرخين، فتارة الهون، وطورا الموسكوفيين، وآخر الترك، وآخر التوساجيت. ولكن الهون الذين كانوا يوجدون اقرب الى البحر السيتي في سكناهم عرفوا باسمهم قبل ذلك منذ زمان بعيد على يد اتيلا، ودفعوا جيرانهم الى ان يفعلوا مثل ذلك. فالموسكوفيون ألفوا البلاد واعطوها اسمهم. ويسميهم سيدرونيس وزونار (4) وغيرهم من المؤلفين الاغريق الاتراك ثم الهون. ويقول بيروز بان الهون ينحدرون من هون ابن تيسكون، وان تلك الشعوب كانت مقسمة الى عدة امم تحمل كل واحدة منها اسم من يحكمها. ولم يشأ الهون ان يتخلوا عن اسم مؤسسهم. وهو الاسم الذي يخلع ايضا على الذين بقوا منهم في ارضهم الاصلية، ولم يتخلوا عن فنهم السحري الذي يعرف اقبالا كبيرا لدى تلك الشعوب. ولذلك فان البعض يقولون انهم ينحدرون من الفونيس. (5)

فالترك اذن، أو التوساجيت، الذين ينحدر منهم اولئك الذين نخشى اليوم قوتهم، ينتسبون لتلك الشعوب التي كانت تستوطن الجزء الشمالي من القوقاز، برغم اختلافهم معهم في الاخلاق والعادات، لكنهم مع ذاك متشابهون في اشخاصهم، ومتصادقون مع بعضهم حتى انهم يعتبرون كجنس واحد. ولعلهم كذلك. كما ان الأرمن جيرانهم يسمون المكلفين بالدين عندهم الحكماء اي القديسين، وهم الذين يسميهم الأتراك التوتاسيت اي ما يكون معناه اصحاب القربان. ويقول بروكوب بانهم لم يكونوا جيران الهون الآخرين، ولم تكن لهم اتصالات بهم، ولم يكونوا رعاة مثل السيتيين، ولكنهم كانوا مستقرين بشمال فارس في اتجاه أرمينيا، وكانوا يحتلون اجود الاراضي الواقعة بين تلك الجبال. وهم بيض البشرة حسان الوجوه وليسوا مثل الهون الآخرين مخضري البشرة، ذميمي الخلقة كالمتوحشين. ويضيف ان حكومتهم كانت على احسن تنظيم حتى انها لم تكن تقل في شيء عن حكومة اليونان والرومان، وان اميرهم الذي كان من جنسهم كان قصره بمدينة كوركا، حيث كان يساعده عشرون من اعيان البلد بمشورتهم. ويقول مؤلفون آخرون بان الترك ينحدرون من قبائل اسرائيل العشر، الذين وقع

---

(4) Cédrenus , Zonare

(5) Faunes

ترحيلهم الى ميديا ، بينما يذكر آخرون انهم ينحدرون من ياجوج وماجوج المذكورين في الكتب المقدسة، والذين ينسب اليهم آخرون جنس القوط والتتار ، وينسبهم البعض الى الطروادين، وليس من الصعب اقامة الدليل على عكس ذلك، ولكن بدون ان نفند أو نحبذ الآن احد هذه الآراء، نقول ان الاتراك اتوا لنجدة محمد تحت قيادة الشجاع المقدام تنكروليبكس موكاليت (6) الذي حارب البساسير خليفة بغداد والهنود الذين هزمهم بكثرة مارماهم به من السهام. واراد محمد ان يمنعهم من الرجوع الى بلادهم، ليستفيد منهم في حروبه، فقطع ممر الرس بحيث اضطروا للانسحاب الى مكان خال (7) لانهم لن يكن لديهم من القوة ما يمكنهم من محاربته، (8) ومن ثم بدؤووا يغيرون على العرب ليحصلوا على قوتهم، ووجه لهم محمد جيشا قوامه ثلاثون الف رجل. فتوغل متهورا داخل تلك الصحراء، دون ان يتزود بالماء والطعام، فتكبد الهزيمة ذات ليلة اثر هجوم فجائي. واضطر الى تخليص نفسه بالفرار. وجمع الاتراك غنائم كثيرة اثر الانتصار من السلاح والخيل. فلم يسغ لهم ان يظلوا منزوين بالصحراء مثل قطاع الطرق. واتشروا في البرارى حيث التحق بهم من كل جهة اناس ليعيشوا على التلصص فكونوا جيشا من اربعين الف رجل، وكان محمد نفسه سببا في تزايد عدده بسبب القساوة التي كان يعامل بها القادة والجنود الذين افلتوا من الهزيمة. بحيث ان عددا من هؤلاء التحقوا بذلك الجيش، اما بدافع الانتقام او الخوف. ولما راى طنكووليبكس نفسه على جانب من القوة، مشى لحرب محمد، قرب الباكان، ومع جيش يتجاوز عدده خمسين الف رجل (9) ومائة من الافيال المحملة بالأبراج، وكانت المعركة قاسية وطويلة حتى ان محمدا وقع من الفرس لأنه كان يجري من هنا الى هنالك لتشجيع ذويه فمات من جراء وقوعه. فحيى جيشه في الحين طنكروليبكس ملكا، ففتح بدون ابطاء ممر وادي الرس، واصبح سيداً على كل تلك الامبراطورية. ثم هزم العرب واستولى على اقليم الحجاز، الواقع داخل الجزيرة العربية، وانصاع له الهجريون. فجعل على البلاد ولاة من الاتراك بدلا من ابنائها.

---

(6) Tangrolipix Mucalet

(7) كاربونيتدن .

(8) لم يكونوا إلا ثلاثة آلاف .

(9) فرس ، عرب ، كبريون (؟) ، خراسانيون .

(10) سنة 958 .

ولنرجع الآن الى قضايا المغرب. علم دون رامير بموت عبد الرحمن وبصغر ولده، فدخل الى مملكة طليطلة وحاصر مدينة طلبيرة التي خربها، بعد استيلائه عليها. ومن ثم اجتاز الى قلعة رباح، التي حاصرها كذلك. ولكن المنصور هب لنجدتها، فجرت المعركة وغلب العرب ورجع الملك منتصرا الى ليون. وعقدت بعد ذلك هدنة بطلب من المنصور لمدة ثلاث سنوات. ومات دون رامير على التو ودفن بعاصمته بدير سان سوفور، الذي كان امر ببنائه من اجل ابنته، ولم يعش خلفه دون اوردونيو كثيرا بعده، ومات سنة تسعمائة وتسع وخمسين، تاركا التاج لدون سانشو، اول حامل لهذا الاسم، واخوه الذي دعى السمين وكانت له عدة قضايا تتطلب التسوية مع دون اوردونيو، ابن دون الفونس الرابع الذي طرده اخيرا من دولته واكرهه على الانسحاب الى قرطبة وذلك سواء ليحصل على نجدة من اميرها او ليتلقى العلاج من بعض اطبائها المشهورين الذين بفضل بعض العشب الطبية خففوا من الشحم الذي كا يضايقه. وفي السنة الموالية خرج مع المنصور على راس جيش (11) واسترجع دولته دون ان يحمل السيف في يده، لأن دون أوردونيو لم يجرؤ على الظهور في الميدان. ولكن لم يطلب شيئا من الكونت فرناند كونزاليس، الذي كان يحكم قشتالة، لأن ذلك لم يكن داخلا في نيته، ومنذ ذلك الحين لم يعترف هذا الاقليم بمملكة ليون، ولكن بما انه لم يكن محسوبا في الهدنة، فانه دخل في حرب ضروس مع أهل طليطلة وأكرهه المنصور على الخروج اليه وحصار سبيولفد التي انجدها الجيش من الاراغونيين والنافاريين والبروفانسيين والكاسكونيين (12)، وبعد ذلك قتل خمسة عشر الفا من الأعداء، ورجع منتصرا الى قشتالة. واستولى في السنة التالية على مدينة تارانس، وبما ان المنصور هب لنجدتها، فقد قتل له عشرين الف رجل وأكرهه على المهادنة لمدة ثلاث سنوات مات خلالها الكونت. ومات دون سانشو أيضا، تاركا كخلف له ولده دون رامير، (13). الثالث بهذا الاسم الذي كان لم يتجاوز الطفولة بعد، فكان تحت سلطة بعض الاوصياء

(11) سنة 963 .
(12) سنة 965 .
(13) سنة 970 .

الذين أكدوا الهدنة مع ملك قرطبة. (14) ومنذ تلك السنة الى سنة تسعمائة وثمانين لم يحدث شيء يذكر ضد العرب. ولكن جرت حروب كبيرة بين اصحاب ليون وقشتالة وتلقى الكونت غرسي فرنانديز النجدة من ملك نافاريا ومن جيوش كاسكونيا وبرفنسا (15) .

آســـــيا

فاذا رجعنا الى آسيا، نجد الامبراطور باسيل بورفيروجينيت بعد ان هدأ ثورات سكلير وفوكاس، دخل الى سوريا، وكانت له مناوشات مع العرب الذين استولوا على طرابلس ودمشق وصور في فترة تدهور ملكهم ،ومن هناك بدأوا يغيرون على انطاكية. وبعد ان حاربهم الامبراطور وغلبهم فرض الجزية على تلك المدن، ثم رجع منتصرا الى القسطنطينية، مع بعض السكان كرهائن ، وبعد موت باسيل وتولي اخيه قسطنطين الامبراطورية، وقطع خليفة مصر (16) الهدنة وكان قد وضع نفسه تحت جزية الامبراطورية وخرب قبر المسيح وجميع الاماكن المقدسة ووجه جيشا بحريا قويا الى جزر كيكلادوس. ولكنه تكبد الهزيمة على يد أميرال الامبراطورية الذي عاد منتصرا الى القسطنطينية مع اثنتي عشرة سفينة مع ذلك الاسطول بعد ان أغرق البقية في قعر اليم، وفي عهد الامبراطور أرجيروبوليتان، استرجع العرب مدنية فينيقية وسوريا، التي كان الأباطرة السابقون فتحوها وأسروا كل رجال الحرب الموجودين بها. وفي تلك الأثناء نهب امير حلب اويبروى اراضي انطاكية والجزء السوري الذي كان تابعا للامبراطور، وكان قسطنطين لا يزال على قيد الحياة، فهزم قائد تلك القاعدة ، الذي سلك سلوك الجبناء في المعركة. وغضب الامبراطور لهاته الخسارة، فاراد ان يسير بنفسه. ولكن خليفة مصر وجه له هدايا بقصد تطييب خاطره آمرا بأن تقدم له الجزية، ورغم كون رؤساء جيشه أشاروا عليه بأن يقبل هاته العروض، فقد تخطى نصيحتهم آملا ان يحقق النصر، وجاء ليخيم أمام حلب التي كانت محصنة أحسن تحصين. ولكن العرب، وهم اصحاب جرأة، أقاموا كمائن حول معسكره، وقتلوا أو اسروا كل اولئك الذين ينفردون ليذهبوا للغابة او الى الماء او الى حشيش الرعي في انتظار ان تتجمع

(14) هشـام .

(15) دون سانشو أباركا .

(16) الظـاهر .

قواهم ليدخلوا في المعركة. وأخيرا جاءوا من كل مكان لمهاجمة المعسكر حيث اصاب الذعر رجاله فلجأوا للفرار. وكان من الممكن ان يقع الامبراطور في الأسر، لو لم يقم احد رجاله باغاثته، ولم يشأ العرب ان يطاردوه مخافة ان يقعوا في مفاجأة واكتفوا بنهب المعسكر وباسر بعض الناس الذين أصابوهم فيه، ثم رجعوا مثقلين بالغنائم، وانسحب الامبراطور الى انطاكية مع فلول جيشه، ومن هنالك الى القسطنطينية. وأمضى مع امير حلب هدنة لعدة سنوات. (17)

من جهة اخرى، دخل عرب ايقونيا الى ميزوبوتاميا (بلاد الرافدين) ووجه خليفة مصر جيشه البحري لنهب شواطئ صقلية ولكن جيش الامبراطور هزمه واحرق قسما من سفنه، بينما كسرت العاصفة الباقي في بحر صقلية. وفي نفس الوقت تقريبا، وجه خليفة القيروان (18) اسطولا من الف سفينة لنهب شواطئ ايطاليا وجزر البحر المتوسط ولكن بما انها تشتتت بسبب عددها الكبير، فقد هزم أسطول الامبراطور قسما منها ورجع بعدد كبير من الاسرى الى القسطنطينية ولكن الذي كان يتولى القيادة باسم الامبراطور (19) على ضفاف الفرات استولى بالقوة على مدينة الرها ووجه رسالة الى الامبراطور كان قد عثر عليها بسميساط وقيل انها بخط يد السيد المسيح بنفسه. وحاصر العرب الرها، ولكن قسطنطين وجه اليها النجدات، وهو حاكم انطاكية واخو الامبراطور ميخائيل باليولوج.

وفي نفس الوقت مات الظاهر (20) خليفة مصر، تاركا التاج لولد مازال طفلا (21) تحت وصاية والدته التي كانت نصرانية، والتي ابرمت الهدنة مع الامبراطور لمدة ثلاثين سنة، مع الالتزام باعادة بناء معبد القدس وغيره من الاماكن المقدسة التي كان الظاهر (20) قد خربها، واغتنم العرب في تلك الاثناء فرصة الحرب القائمة بين البابا يوحنا الثالث عشر والامبراطور اوتون الأول والامراء النصارى الآخرين (22)، فقاموا بعدة غارات في بوى وكالبريا واستولوا على مدينة كوسنزة وخربوها وأثاروا

---

(17) ابن عمار .

(18) عبد الله .

(19) جورج مانياس .

(20) في الأصل : دابر ، ولا شك أنه تحريف عن الظاهر الذي لم يكن في الوقت الذي يتحدث عنه المؤلف (مترجم) .

(21) عـامر .

(22) سنة 972 .

الرعب في كابوا. وقد انضم اليهم عرب كركانو إلى اخرين من افريقيا وصقلية، ولكن السلافيين الذين كانوا اعتنقوا دين النصرانية منذ عهد ادريان الثاني، جاؤوا اليهم على اثر ذلك في بوى ونالوا من غطرستهم بهزائم متعددة، وقام الهنغاريون بنفس العمل بعد ذلك بقليل وطردوهم من بوى التي باعوها منذ ذلك الحين الى امبراطور القسطنطينية الذي ابرم الصلح مع عرب كلابريا. ولكن امبراطور المانيا اوطون اتم طردهم من ايطاليا ، ومن بقى منهم بها خضعوا لسلطانه.

صقليـــة

وفي نفس الوقت كان هنالك اخوان منصور وعبد الله في نزاع فيما بينهما بصقلية، واستنجد الأخير بالامبراطور الذي وجه له جيشا بحريا، تحت قيادة البطريق جورج مانياس. ولكن قبل دخوله الى الجزيرة، ادرك الاخوان خطأهما فتصالحا، وضمّا قواتهما لصد هجومه، ولكنهما رايا ان لا قبل لهما بمنعه من الدخول، فاستقدما النجدة من افريقيا، ولكن النصارى كانوا سادة الموقف، فبعد ان هزموا العرب في عدة مواقع، وخربوا مذن كطافيا ومسينة وسراكوزة، وغيرها فرضوا على الجزيرة جزية الأمبراطور.

آسيـــــا

من جهة اخرى، تحالف البساسير، خليفة سوريا مع السودان الآخرين من اجل الاستيلاء على مدينة الرها. فارادوا ان يدخلوا اليها بالمباغتة متظاهرين بانهم يريدون توجيه هدايا الى الامبراطور. فحملوا الف رجل في سلال على ظهر خمسمائة جمل، وتوجهوا نحو تلك المدينة ظانين انهم يتركونهم يدخلون، ولكن الحاكم لم يأذن بالدخول الا للرؤساء، وعددهم اثنا عشر، مع خدامهم. وفي تلك الاثناء، سمع متسول وهو يطلب الصدقة من سائقي الجمال أحدا داخل السلال يسأل عن المكان الذي يوجدون به، فذهب ليبلغ الخبر للحاكم في الحين فاعتقل الرؤساء داخل المدنية، وخرج مع جنود، وكلما فتح سلة ذبح من فيها، ثم عاد الى الحصن فقام بنفس العمل مع الرؤساء، باستثناء واحد منهم طرده بعد ان قسا في التمثيل به.

وعلم خليفة القيروان (23) في تلك الاثناء بهزيمة ذويه في صقلية، فجمع جيشا لحرب مانياس، وانزل العرب في القامة التي كانت ما تزال بايديهم فقام بغارات داخل الجزيرة برمتها. ولم يرض مانياس بتلك المذلة، فجمع جنودا من كل الحاميات، وطلب من البطريق اتيان، الذي كان يقود الجيش البحري، ان يحرس كل الشواطئ حتى لا يمكنهم الهروب في اي مكان. ثم دخل معهم في المعركة وهزمهم. ولما راى الخليفة عبد الله ذويه في حال سيئة، نزل في فلك صغير وفر الى قرطاجنة، مخترقا خطوط العدو، وعلم بذلك مانياس، فرفع يده على البطريق اتيان، الذي انتقم من هاته الخسارة بان اتهمه بالنية على الاستيلاء على الجزيرة، ولما علم الامبراطور بالنبا، قبض عليه، واتى به الى القسطنطينية، واسند حكم الجزيرة الى اتيان الذي ترك العرب يعودون الى الاستيلاء على الجزيرة، ذلك ان عبد الله ماعتم ان عاد الى افريقية حتى جمع جيشا من الافارقة والمصريين لينتقم من الخسارة التي لحقت به ، وتواطأ مع المنصور احد الاخوين المتآمرين على الجزيرة ، كما ذكرنا، فاستولى عليها في وقت قصير ، باستثناء مسينة التي كان يوجد بها حاكم شجاع (24) .

اسبانيـــــا

فإذا عدنا الى اسبانيا نجد المنصور، نائب ملك قرطبة يساعد الكونت دون فيلا، الذي استنجد به، والذي كان سلب من امارته من لدن كونزاليس، أبي كارسي فرنانديز، فوجه اليه قسما من جيشه تحت قيادة القبطان رضوان الذي دخل الى قشتالة في سنة تسعمائة وثمانين، وقام هنالك بنهب كبير، لكنه غلب من لدن كارسي فرنانديز ودون سانشو أبارية، ملك نافاريا، ورجع الى قرطبة، وتوجه فرنانديز ضدا على ليون. فلما راى المنصور تقدمات الكونت، من اجل ان ينهي في دفعة واحدة تلك الحرب، وجه لولده المظفر، الذي كان يحكم موريطانيا، بأن يتهادن مع خليفة القيروان، وان يقدم الى اسبانيا بعد ان يترك حامية على الحدود، وكتب نفس الشيء الى شيوخ زناتة وغيرهم من رؤساء افريقيا الذين كانوا

---

(23) عبد الله .

(24) كطاكلون أمبوست .

منحاشين الى جانبه، ثم انه دعا الى حرب مقدسة، على نمطه، (25) ضدا على النصارى فجلب اليه جموعا من العرب الى اسبانيا، ونزل فريق منهم بمالقة وآخر بجبل طارق وبغيره من موانئ ذلك الشاطئ وساروا جيمعا نحو قرطبة، حيث كان المنصور ينتظرهم بجيشه، ومن ثم دخلوا الى قشتالة، واستولوا على سانت اتيان دي كرمدس التي عمرها بالعرب بعد ان قتلوا كل من كان فيها، وبما ان الحصار استمر اكبر مدة من الصيف فقد رجعوا ليأخذوا استراحتهم في ضواحي قرطبة. وفي السنة التالية عادوا لحصار سيمانكاس (26)، في ملكة ليون، فاستولوا عليها . وبرغم كون الاوصياء على الملك الصغير دون رامير، اشتكوا من قطع الهدنة، وان هشام امر المنصور بالحفاظ عليها، فانه لم يرد المدينة وبعد ان حصنها عمرها بالعرب، وفي تلك الاثناء، راى الامبراطور باسيل وقد استولى على اقاليمه بايطاليا، (27) ، فاجتاز الى بوى مع جيش من اليونان والعرب، وانشب الحرب معه، وغلبه واسره، (28) واتى به الى صقلية، وكان السكان هنالك قد افسدتهم الوعود، فأطلقوا سراحه . ومن جهة اخرى استولى المنصور على سيبولفيدا، (29) وبعد ان حصنها، ملأها بالعرب وفي السنة التالية (30) وجه جيشه تلبية لطلب عاملي سرقسطة وطرطوشة من اجل حرب دون سانشوا باركا، ملك نافاريا الذي كان يقم بغارات في كل البلاد، وبما ان الجيش قد انشطر شطرين، فان حاكم سرقسطة قام بغارات في كل نافاريا، وفعل مثله حاكم طرطوشة في قطلونيا حيث حارب دون بوريل كونت برشلونة قرب مونكادا وغلبه بعد معركة كبيرة. وانسحب الكونت الى مدينته، فحاصره العرب فيها واستولوا عليها يوم السادس من يوليو، بعد ان فر في الليل، ومن هنالك رجعوا الى طرطوشة محملين بالغنائم بعد ان خربوا المدينة واخذوا كل سكانها، ولم يكن الحظ مع حاكم سرقسطة اذ اضطر الى الانسحاب من نافاريا بعد ان تكبد خسائر وبدون ان يستولى على اي مكان ذي اهمية.

---

(25) يسمي العرب هاته الحروب غزوات .
(26) سنة 982 . وكانت تسمى قديما سيتانكا .
(27) سنة 983 .
(28) يوم بازونيل في كالابريا .
(29) المسماة قديما سيتبولفيكا .
(30) سنة 985 .

ومع فصل الربيع، (31) عاد حاكم طرطوشة الى قطلونية وأتم اخضاع هذا الاقليم لسيطرة العرب، باستثناء قلعتين : سربلون ومونكادا. وفي نفس السنة، حارب اهل غارسيا أهل ليون، فكانت خسائر من الجهتين واغتنم المنصور الفرصة للدخول الى البلاد وفتح قلمرية وبويرتووبراكا مع البلاد المجاورة، ثم مدينة بروطونيا التي خربها وسيطر على بلاد البرتغال من ليما لى مونديكا ورجع منتصرا الى قرطبة، وفي نفس السنة مات دون رامير بمدينة ليون تاركا كخلف له اخاه برمود الذي واصل الحرب مع قشتالة واخضع اشتوريا. وفي سنة تسعمائة وثمانٍ وثمانين عاد الكونت بوريل بقصد تعمير برشلونة بالسكان، وكان العرب قد خربوها. وجرت له معه حروبٌ حصل فيها على بعض النصر. ولكن المنصور استمر في مشروعه فدخل الى قشتالة وحاصر مدينة اتيانسا طول الصيف ثم استولى عليها وخربها وعاد ليقضي الشتاء في قرطبة، ولما رأى الملك برمود العرب يتوسعون يوما اثر يوم، وجه الى ملك قرطبة من اجل تأكيد الهدنة التي كانت له مع اخيه. ولكن بدلا من ذلك وجه المنصور ليحاصر مدينة سمورة ويستولى عليها ويخربها، ثم يعود مثقلا بالغنائم الى قرطبة، وفعل نفس الشيء في السنة التالية في اوسما (32) ، وبعد سنتين دخل الى منطقة كامبوس، فنهب كل ما كان في طريقه واستولى على مدينة بلنسية صلحا بعد حصار طويل. ومن هناك توجه لحصار ليون. ولكن دون برمود جمع جنوده الذين انضمّ اليهم عدد من الفرنسيين والبروفانسيين مع الكاسكون فدخلوا معه في المعركة، وتوجس المنصور الشر، فرمى بثيابه نحو الاعداء، وتلك عادة جارية عند العرب من اجل اثارة شجاعتهم وهجم في نفس الوقت فحصل على الانتصار، بحيث اضطر دون برمود الى الهروب للجبال . وفي تلك الاثناء واصل المنصور بعد انتصاره حصار ليون وكاد يستولى عليها لولا الامطار المتوالية التي الزمته بالتراجع نحو قرطبة، (33) ولكنه عاد في السنة التالية ليعيد الحصار الذي واصله الى ربيع السنة الموالية حيث هجم عليها بقوة بلغت من الشدة حتى انه استولى عليها عنوة، برغم جهود كيلان كونزليس حاكم غاليسيا الذي ادخله الملك اليها للدفاع عنها. ذلك انه كان مريضا في الفراش وعلم ان

---

(31) سنة 987 .

(32) سنة990 .

(33) سنة 994 .

المدينة كانت مفتوحة من جهتين، فتسلح بكل سلاح وذهب ليواجه المهاجمين ودافع ثلاثة ايام، وفي اليوم الرابع اخذ بالقوة واستولى العرب على المدينة وخربوا كل ما فيها، تاركين فيها برجا كعلامة للذكرى، ثم استولوا على البلاد وعادوا الى قرطبة. وفي سنة تسعمائة وخمس وتسعين، دخل المنصور الى البرتغال حيث استولى على مدينة توى وخربها، مع غيرها من مدن الاقليم، ثم انتقل الى كومبوستيلا فحاصرها واستولى عليها وانتهك حرمة كنيسة سانت ياقب، ووضع ابوابها في مسجد قرطبة. ولم يغادرها حتى كان الطاعون قد تسرب الى معسكره، وأهلك قسما كبيرا من جنوده. وفي تلك الاثناء، استرجع النصارى شجاعتهم بعد ان اشرفوا على الهلاك وعاد السلام بين دون برمود والكونت غرسي فرنانديز، (34) بواسطة بعض رجال الدين. فدخلوا الى مملكة طليطلة مع دون سانشو من نافاريا وحاصروا حصن قلعة النسور بين الدويرو والتاجو، وفي الحين خرج المنصور من غالسيا ليواجه الموقف واجتاز مضيق زبريروس ودخل الى مملكة ليون، وكانت المعركة حامية ولكن النصارى انتصروا في الاخير واجبروا المنصور على الفرار مع قليل من رجاله، فانتقل الى بوردى كريتشه بين برلانك وقلعة النسور واصابه المرض ومات من الكمد في غرفة حيث اقفل على نفسه رافضا ان يتناول الطعام او الشراب وحمل من هنالك ونقل الى مدينة سالم حيث دفن، وقد سرت الاشاعة انه يوم هزيمته قبل وصول النبأ الى قرطبة، سمع صوت في السماء فوق النهر (35) يقول انه فقد طبله في قلعة النسور وحظه، واسف العرب لذلك الحدث الذي اعتبروه كاكبر خسارة وقعت لهم باسبانيا وذكروا سبعين ألفا من المشاة وأربعين الفا من الفرسان الذين ماتوا هنالك واشادوا بأحد ابطالهم شعرا ونثرا على غرار ما وقع لرولان(36) . ومات دون سانشواباكا، ملك نافاريا في السنة التالية (37) تاركا وراءه ولدين، فتولى مكانه اكبرهما دون غرسية الرعديد، بينما اصبح الآخر، دون كونزال ملكا على ارغون. ولم يحدث شيء يستحق الذكر لا في تلك السنة ولا في التي بعدها، فقد كان ملك قرطبة يسترجع انفاسه والامراء النصارى يؤمنون حدودهم، وفي سنة تسعمائة وثمانٍ

(34) في رواية أن الكونت لم يحضر بنفسه ، وإنما اكتفى بتوجيه بعض رجاله .
(35) الوادي الكبير .
(36) لصك بن بهلول أو قاسم الماحري، وأصله من جبال غمارة - كذا في الهامش ولم نتبين المقصود من ذلك (مترجم) .
(37) سنة 996 .

وتسعين، بويع عبد الملك ابن المنصور مكان ابيه ليقود الجيش، فحاصر آبلة حيث جاء الكونت فرنانديز مسرعا، وهزم مع مقتلة كبيرة. وجرح، فاخذ وحمل الى قرطبة حيث توفى يوم التاسع والعشرين من يوليو، بعد ان حكم قشتالة ثمانية وعشرين عاما، (38) وتولى مكانه سانشوغرسية ولده وافتدى أباه بثمن كبير، ودفنه في قبر جده، واصدر قوانين جد صالحة. وفي السنة التالية مات عبد الملك في قرطبة وحل محله اخوه عبد الرحمن، لكنه كان مستهترا حتى انه اهمل شؤون الحرب. فثار عليه عرب اسبانيا وانقسموا الى فريقين الافارقة من جهة تحت قيادة سليمان، والأندلسيون من جهة أخرى تحت قيادة محمد. ودخل هذا الأخير الى قصر قرطبة عن طريق المباغتة، واعتقل الخليفة الذي كان هو الأخير من سلالة عبد الرحمن، ولم ينبس احد بكلمة، بسبب رذائله وجبنه، ولكي يصدق الناس بموته امر بذبح احد النصارى في مكانه ثم تسمى بعد ذلك ملكا وخليفة، واستولى على المدينة، ولدى هذه الانباء شهر عليه سليمان حربا ضروسا كما لو كان يحارب طاغية أو مغتصبا. وفي تلك الاثناء، دخل دون سانشو من قشتالة الى مملكة طليطلة، حيث قام بنهب كبير، دون ان يقاومه احد، لأن الكل كانوا في حالة ثورة . ومن جهة أخرى ، وجه خليفة القيروان الذي كان هو اقوى امير بافريقيا كلها جيشه الى موريطانيا بطلب من هاته الشعوب التي كانت تريد ان تخلص نفسها من ظلم مغراوة والامويين الذين اضاعوا بتلك الطريقة سيادتهم على تلك البلاد. والتجأ المظفر ابن المنصور، الذي رجع من اسبانيا اثر وفاة والده الى مدينة ارشقول، فاخذ عنوة وقتل هو وآل عبد الرحمن الذين كانوا معه، وهذا هو الاسم الذي كان يطلقه اهل افريقيا على عرب اسبانيا، (39) ولكن بعد تراجع جنود عبد الله، ثار مغراوة وصنهاجة الذين منهم ملوك تلمسان ، المدعوون بنو عبد الواد. واقتدى بهم غمارة وهوارة، الذين يقطنون بجبال الاطلس الصغير، قرب البحر المتوسط، وانقسموا الى دويلات صغيرة، كل واحدة تحت رئيس قبيلته، بقصد المحافظة على حقوقهم وامتيازاتهم، بحيث ان عرب الاندلس لم تسند لهم منذ ذلك الوقت اي قيادة بافريقيا، وفي سنة تسعمائة وست وثمانين، مات الخليفة عبد الله،

---

(38) سنة 1000.

(39) هكذا يقول المؤلف ولا نجد أثرا لذلك في المصادر العربية (مترجم) .

فخلفه القائم بامر الله الذي ادعى انه الوارث الشرعي لأسرة العباس [40] وبمساعدة العرب اصبح في وقت قصير سيدا على كل شرق افريقيا ، ومن هناك امتد الى المغرب ، فنهب اقاليم الهبط والريف وغيرها من أقاليم مملكة فاس ، وبفضل ضابط من الصقالبة ، اصبح سيدا على كل بلاد البربر ونوميديا وليبيا وجمع ثروات كبيرة من القيروان وأصبح اقوى امير حكم بافريقيا الى ذلك الوقت [41] .

آسيـــــا

واما في آسيا ، فان طانجروليبيكس نصب نفسه ملكا على الفرس واخضع تلك الاقاليم وتوجه بقواته لحرب ملك بغداد[42] ،وغلبه في عدة معارك ووضع حدا لامبراطورية خلفاء بغداد الذين كانوا يدعون انهم الخلفاء الشرعيون لمحمد .. ورغم انه استمر البعض منهم منذ ذلك الوقت يعملون في الميدان الروحي ، ولم تكن لهم قوة ولا سلطة مستقلة ، ولكن احد اولاد البساسير ، اسمه الفير ، فرَّ الى مصر ، وحكم بها مدة كما سنذكر ذلك .

بقي الاتراك اذن على دين الاسلام ، فحافظوا على الحكم والسلطة الدنيوية ولم يتركوا للخلفاء الا صفة الاساقفة ورجال الدين ، وحينما يموتون يحل محلهم شريف مثل سنجل اليونان مع البطارقة . ومن ثم اصبح كل الفقهاء والعلماء الطامحين الى هذا المنصب يتسمون بالشرفاء الذين هم مثل الصوفية بفارس ، وهؤلاء الشرفاء [43] لهم اعتبار كبير بافريقيا ومصر وسوريا مثل الآخرين بفارس ، وارمينيا لانهم ينظر اليهم كآل محمد .

---

(40) أبو يزيد بن عبد الملك بن مروان — هكذا في الهامش وهو خلط واضح (مترجم) .
(41) جوهر الكاتب .
(42) البساسيري – قد أشرنا فيما سبق الى خطأ المهمش (مترجم) .
(43) لا نحتاج الى التنبيه على ما في هذا الكلام من جهل (مترجم) .

الفصل التاسع والعشرون

الفير (1) الخليفة السابع والعشرون وما جرى في عصره

جاء الفير الى مصر ، فاستقبل كملك مقدس من لدن ملك البلاد ، وجمع المصريون كل قواتهم ليقاوموا الاغتصاب وحاربوه طوال سنتين . ولما رأى ان كل العرب يثورون من اجل خليفتهم ، فكّر في حيلة لتصفية الجو ، وهي أن يوجه من أجل مبايعة الفير في كل ما يخص الميدان الروحي، على ان يأخذ منه السيف والحذاء للدلالة على منزلته وان يرجعه الى مقامه ببغداد (2)،شريطة ان يظل السيد المطلق في كل ما يخص السلطة الدنيوية . وجرى الوفاق على هذا الاساس ، وادار التركي اسلحته ضدا على أمير من جزيرة العرب كان يسمي نفسه خليفة ووجه له جيشا تحت قيادة قتلم (3) ابن اخيه ، وهزم الاتراك وجرت عليهم مقتلة عظيمة ، ولدى هاته الانباء ، عزم ان يمشي بنفسه الى الحرب ووجه للبطريق اتيان ، حاكم ميديا باسم الامبراطور (4) ، ليترك له حق الجواز فقابل طلبه بالرفض ، فهزمه في معركة وأسره بواسطة ولد أخيه وأراد هذا الامير ان يقنع عمه بفتح ميديا، بسبب خصب البلاد ، وسهولة الاستيلاء عليها ، فرفض كلامه وتولى بنفسه قيادة جيشه، بسبب الهزيمة التي وقعت له سابقا . ولما رأى الامير مدى احتقار عمه له خشي أن يصادف معاملة أكثر سوءا، وفرّ مع جنوده الى مدينة بيسار التي استولى عليها ، ولم يأبه له عمه في الحين ، وسار الى ذلك العربي (5) الذي كان هزم ابن اخيه ، فاضاع المعركة الثانية مع مقتلة كبيرة من الاتراك والفرس ، ثم عاد

---

(1) حاولت أن تحقق من اسم الفير هل هو الأمير الفاطمي الذي كان في عصر البساسيري أم هو شخص آخر ؟ ولا أحتاج الى التنبيه على الخلط الكبير الموجود في هذا الفصل (مترجم) .

(2) كما أشرت من قبل كان المؤرخون الاوروبيون يجهلون وجود بغداد ويذكرون بابل التي كانت في حكم الانقراض (مترجم) .

(3) هل هو تحريف لاسم قطلغ خان (619هـ / 632) الذي كان في أتابكية كرمان ؟ مهما كان الجواب فالفارق التاريخي كبير جدا (مترجم) .

(4) قسطنطين المبارز أو الراهب .

(5) في خراسان .

الى بغداد، وفي السنة التالية ، ذهب ليهاجم ابن اخيه قتلم ، في المدينة التي انحاز اليها. لكنه وجه اثناء الحصار ابنا آخر لاخيه اسمه عفان الأصم مع عشرين ألفا من الرجال لنهب ميديا. ولكن لم يعد من الجميع اكثر من الفين، فقد قتل الباقي أواسر مع ابن اخيه. وكاد يموت من الغيظ لما وصلته الانباء، ووجه الى هنالك جيشا قوامه مائة الف جندي تحت قيادة اخيه عالم ابراهيم، ولما علم الوالي بذلك طلب النجدة من الامبراطور وفرق جنوده على المدن في الانتظار وذلك حتى لا يفتح المعركة قبل ان تصله النجدات، ولما رأى عالم انه لا يستطيع اجتذابه الى المعركة، (6) هاجم قرية ارفى التي لم تكن مطوقة باسوار، ولكن بما انه كان يوجد بها عدد من التجار الاغنياء، فقد تحصنوا في الازقة بالقناطر واكياس الصوف، وقتلوا له عددا كبيرا من الرجال بالحجارة، والسهام المقذوفة من الابواب والنوافذ الى درجة انهم ابطلوا مفعول جهوده طول ستة ايام. ولكنه وضع النار في الدور القريبة فانتشرت شيئا فشيئا نحو الاخرى، واكره السكان على التخلي عن المكان، حيث اكتشفت عدة ثروات كبيرة من الذهب والفضة واشياء اخرى لم تحرقها النار. وعلى اثر ذلك وصل والي ايبيريا (7) بالنجدة فجرت المعركة منذ الفجر بشجاعة حتى فر الاتراك الى احد الجناحين ووقعت متابعتهم الى اقصى من ذلك في الليل، بدون ان يتوقف القتل والضرب ولكن والى ايبيريا اخذ في الجناح الآخر، دون ان يعلم به اصحابه ولا ان يغيثوه، وكاد يسري الاعتقاد بانه في عداد الموتى، لولا وصول الخبر بان الاعداء اسروه، الشيء الذي نقص من فرح الانتصار، ولدى هاته الانباء، وجه الامبراطور في الحال سفراء من اجل فديته مع قدر كبير من الهدايا وطلب هدنة. وتاثر السلطان من ذلك فرد له الأسير مع المال والهدايا، راجيا منه ان لا يعود الى محاربة الاتراك. وبعد ذلك بقليل جاء من قبله شريف الى القسطنطينية، في هيئة عظيمة، مطالبا بالجزية، فثارت ثائرة الامبراطور من هاته الجسارة، ورده خائبا. فاستشاط السلطان عضبا حتى انه دخل في حرب مع النصارى وتوغل في ايبيريا على راس جيش كبير، (8) لكن السكان التجأوا الى القصور والحصون بكل ما كانوا يملكون من نفائس، وتجمع الجيش الامبراطوري في

---

(6) بعثكان ـــ كذا بالهامش !

(7) ليباريت ـــ من دون شك أنه لا يقصد إيبيريا حيث توجد إسبانيا .

(8) حتى مدينة كوم ـــ هل المراد مدينة قم الموجودة داخل إيران ؟ (مترجم) .

قيصرية، فدخل هو الى ميديا وقرر في الاخير، ان يقوم بحصار الأماكن لما راى الناس يختبئون في القلاع فهاجم اذن مدينة منزيكرت، المحاطة بثلاثة اسوار والمزودة كما يجب بالماء وبكل ما كان ضروريا للدفاع بحيث انه بعد ثلاثين يوما من الحصار كان مكرها على الانسحاب مع خسارة رجاله وسمعته، وعلى اثر ذلك شعر عمه عالم ابراهيم بكبر السن، فاراد ان يعين خلفا له احد أبناء اخيه، (9) على حسابه فاتصل بابن اخيه الآخر، الذي كان قد ثار عليه (10) وحاربه قرب بازار حيث غلب ابراهيم وقتل، ولكن ولد اخيه فر مع ستة آلاف من الرجال بصحبة مالك ابن عالم، ووجه لقسطنطين دوكا الذي كان يحكم القسطنطينية ليحصل منه على نجدة ضدا على السلطان. وظل ينتظر الجواب في مدينة كرصي، فاشعر بان السلطان آت لمهاجمته ففر الى بلاد العرب السعيدة، لكن السلطان نهب ايبيريا، وعلم ان ميخائيل آت اليه بالجيش الامبراطوري فانسحب الى بلاده، وكأنه لم يرض ان يحارب بنفسه، احد قواد الامبراطور، وترك فقط ثلاثة آلاف من الرجال تحت قيادة ضابط محنك لالحاق خسائر بالاقليم، وخرج بعد ذلك للحرب في عهد الامبراطور رومانوس ديوجينوس، ولما رأى الامبراطور سائرا نحوه، قسم جيشه الى فرقتين، وجه احداهما الى الجنوب والاخرى الى الشمال واكتفى بالحاق الاضرار. وبعد ان نهب مدينة قيصرية الجديدة عاد جنوده محملين بالغنائم ، لكن الامبراطور أخذ الأمر بحزم كبير ، فاغلق الممرات بصفوة جنوده ، مما اضطرهم الى التخلي عن كل شيىء والفرار من اجل انقاذ انفسهم، ولم يكن عدد القتلى كثيرا لان الجيش النصراني كان مرهقا بطول المشي، فلم يستطع ان يطاردهم واكتفى باسترجاع الغنائم وتحرير عدد من النصارى الذين كانو يحملون معهم. ودخل الامبراطور بعد ذلك الى سوريا ووجه جيشا إلى مليتى، الذي قام بغارات في كل البلاد، واخذ الى حلب عددا كبيرا من الرجال والقطعان بعد ان استولى على مدينة هبرابوليس (منبج السورية) صلحا . وفي نفس الوقت جهز الاتراك جيوشهم من جديد . وبما ان قسما من الجيش الامبراطوري كان متحركا في كل الجهات، فانهم وثبوا عليه واكرهوه على الفرار، وكاد الضرر يكون قويا لولا ان

---

(9) أران .

(10) قتلـم .

الامبراطور لم يات بسرعة من منبج. واعتقد حاكم حلب لدى وصول هاته الانباء ان جيش الامبراطور باسره حاقت به الهزيمة، فانحاز الى جهة الاتراك . وبما انهم كانوا مسيطرين على البادية، وكانوا يطوقون معسكر الامبراطور من كل جهة، باغتهم هذا الملك بان اخرج جيشه سرا من تحصيناته وهاجمهم فجأة فأثار الاضطراب في صفوفهم، ولكنه لم يتم انتصاره لانه طاردهم بتراخ. ومع ذلك فقد اعتقد انه انتزع الرعب الذي كان مسيطرا على رجاله من جهة الاتراك، فبنى قلعة بمنبج، واستولى على عدد من الحصون في تلك الحدود، وانسحب الى اقليم اذنة حيث وضع جنوده في حال الاستراحة الشتوية، نظرا لما كان هنالك من توافر الاقوات. ومات السلطان بسبب الشيخوخة تاركا وراءه نزاعات بين الاتراك حول من يتولى مكانه وان كان اوصى بالعهد لابن اخيه اكسان. (11)

اسبانيـــــا

فلنعد الآن الى افريقيا واروبا. لقد كان العرب منقسمين على انفسهم باسبانيا، مما جعل الامراء النصارى لا يفكرون الا في تحصين حدودهم (12) والاستيلاء على ما فيه فائدة لهم. فاشعل دون سانشو الحرب بقوة على مملكة طليطلة. ودخل كونت برشلونة (13) الى بلاد ملك طرطوشة، وقتل له عددا كبيرا من الرجال في معركة، وفعل مثل ذلك من جهتهما، ملكا اراغون ونافاريا فاحرزا عدة انتصارات على العرب المجاورين لهم. ولكن هاته الشعوب رات ان كل مصائبها آتية من انقسامها، فاتحدوا كلهم تحت امرة محمد، ملك قرطبة الذي وزع جيشه الى فرقتين : وجه احداهما الى طليطلة تحت قيادة عبد الله ، وقاد الاخرى بنفسه الى مدينة سالم. ومات في تلك الاثناء دون برمود (14) تاركا كخلف له ولده الفونس الخامس ممن حمل هذا الاسم. ولم يحالف التوفيق محمدا فيما عزم عليه، فان عبد الله بعد ان استولى على طليطلة ثار عليه، وعقد هدنة مع دون الفونس وتزوج اخته (15) وقدم لها هدايا سرية، واستقبلها احسن استقبال وجعل في خدمتها عددا

(11) حسن أم أرسلان أم اسم آخر ؟ (مترجم) .
(12)
(13) ريموند بوريل .
(14) سنة 1009 .
(15) دوناتيريزا .

من النصارى من الجنسين، ولكن بما ان كل هذا لم يكن يقع الا باعتبار مصلحة الدولة، فانه لم يستمتع بذلك الا بالقوة ثم طردها الى ليون حيث دخلت الى احد الأديرة، ومات عبد الله بعد ذلك بمديدة، ولدى وصول النبأ، انتقل سليمان الى طليطلة حيث دخل بدون مقاومة، وعقد هدنة مع دون سانشو صاحب قشتالة، وتخلى له عن عدد من الحصون حتى يحصل على مساعدته ضد ملك قرطبة. وجمع هذان الاميران بين قواتهما، واتجها صوب قرطبة، واكرها محمدا على التخلي عن محاربته للأراغونيين ليواجههما. وكانت المعركة دامية من الجهتين. الا ان محمدا غلب وفقد اكثر من ثلاثين الف رجل بحيث انه لم يجرؤ على الانسحاب الى قرطبة، وسار في طريق مدينة سالم، ولكنه علم ان الكونت وسليمان متجهان في طريق قرطبة، فكتب الى الوالي ان يخرج هشاما من السجن، وان يظهر للناس حتى يحول دون استقبالهما هنالك، ودافع الشعب عن بلده بحماس لما راى هذا المشهد الذي كان يتجاوز أمانيه، ولكن الكونت ضغط عليهم بشدة حتى اضطروا الى الاستسلام، ووضعوا المدنية بين يدي سليمان، فعاد منتصرا إلى قشتالة. وفي تلك الاثناء جمع محمد عددا كبيرا من الافارقة والعرب باسم هشام ورجع الى الاندلس حيث علم بان سليمان كان يعيش في غفلة بين الملذات. فتحالف مع القطلانيين على ان يرد لهم حصونهم التي كانت في يد بعض القادة من حزبه وان يسيروا جميعا لمحاربة سليمان، فانضم اليه، اذن، كونت برشلونة (16) مع كونت اورجيل (17) وغيرهما من الأساقفة والفرسان، وحينما احتشد كل الجنود، اتجهوا في طريق قرطبة وخرج اليهم سليمان منها، وجاء ليقابلهم على تسعة فراسخ منها في ارض منبسطة، وكانت المعركة دامية، برغم انتصار المسيحيين فيها. (18) وقد مات فيها اساقفة برشلونة وجيرون واكشونبة مع عدد من النبلاء الشجعان. (19). ثم تقدم محمد امام قرطبة بدعوى اعادة هشام الى عرشه. ففتح له السكان الأبواب، وذهب كونت اورجيل لياخذ استراحته الشتوية في برشلونة التي تولى الحكم فيها، وفي السنة التالية توفى دون غرسية ملك نافاريا (20) تاركا وراءه ولده الاكبر دون

---

(16) ريمـوند .
(17) أرمنجـو .
(18) سنة 1010 .
(19) سنة 1012 .
(20) هرطال بكار ـــ كذا ولم نهتد للمراد منها (مترجم) .

سانشو كخلف له، وبويع الخليفة هشام للمرة الثانية ملكا على قرطبة. وانسحب سليمان الى قصر الصفراء. ولم يطمئن على وجوده هنالك، فانتقل الى بلاد البربرصحبة بعض الافارقة الذين تبعوه في تلك الحرب. ويسمى العرب المكان الذي يوجد به ذلك القصر صفر بسبب سوق يقام به كل سنة في شهر صفر، يأتي اليه عدد كبير من قطعان الماشية والسلع.(21) واشتهر محمد بذلك الانتصار حتى انضم اليه عدد من الناس، وما هو الا ان حشد جنودا كثيرين، فاخذ طريق المرية وانتزعها عنوة من يد عربي كان ثائرا وقطع راسه، واستولى كذلك على جيان وبياسة وارجونة مع عدد من الاماكن الثائرة التي وضعها كلها في طاعة الخليفة ، ثم مات بعد ذلك، فبايع اهل طليطلة مكانه اخاه الاكبر عبد الله ولكنه لم يقبل ان يكون تحت طاعة هشام، مقتديا بأبيه، وهاجمه بقواته، فانشب المعركة مع اهل قرطبة، وقتل . ولما رأى سكان صليطلة موت ملكهم بايعوا في الحين آخر من اسرة بنى أمية، اسمه خير،(22) وفي تلك الاثناء اراد عرب البلاد البربرية الموجودون باسبانيا ان يساعدوا قائدا شجاعا من قوادهم اسمه علي، فحملوا السلاح على الخليفة هشام الذي مات في ذلك الظرف مما جعلهم يسيطرون بسهولة على قرطبة وفسح هذا الموت المجال الى آخرين من البيت الاموي وغيرهم من الكبراء أن يثوروا في المدن التي كانوا ولاة عليها ويحملوا لقب الملوك وثار على علي أثار(23) وقامت حروب عديدة فيما بينهما، مستعملين فيها كلاهما عرب افريقيا، لكن مدينة جيان استسلمت لعلي، فتواطأ على أثار مع بعض السكان عن طريق الرشوة فقتلوه غدرا . وكان لهذا العمل الشنيع ما احقد عليه الاندلس باسرها حيث لم يعد يعترف به كملك. وبايع اهل قرطبة اخا المقتول قاسما على الخلافة. فرأى علي آثار ان خيانته لم تعد عليه بفائدة، فحاول ان يقنع عبد الرحمن ابن اخي هشام الخليفة، بحمل السلاح ضدا على هذا الخليفة الجديد ، متعهدا بمساعدته بالسلاح و بكل ما يستطيع، واجتذب الى هذا الحلف ابن الحق(24) الذي ثار في سرقسطة وعاملي بلنسية وطرطوشة الذين دخلوا كلهم في الحرب مع قاسم لانه كان

---

(21) والمراد به الشهر الثالث من سنتهم القمرية المقترنة مع شهر يوليوز ـــ هذا مثال آخر من جهل المؤلف بشؤون الاسلام (مترجم) .

(22) لعله يقصد ابن خيران العامري الفتى الصقلبي الذي كان في خدمة العامريين ، ومن ثم يظهر جهل المؤلف حتى بأحداث الاندلس ورجالها (مترجم) وفي الهامش : أمية .

(23) لم نهتد لحقيقة هذا الاسم . ولعله يدل على أحد زعماء الصقالبة الذين كانوا ملتفين حول راية المرتضى في جيان لمجابهة علي بن حمود . وإذا صح ذلك ، فالاسم ، على أي ، محرف (مترجم) .

(24) اسم محرف عن أبي يحيى التجيبي الذي كان واليا على سرقسطة والثغر الاعلى . (مترجم).

يستعين بعرب بلاد البربر. واجتمع كل هؤلاء الرؤساء وذهب عبد الرحمان الى جيان حيث وصل جزولة من المغرب منذ قريب ، وبعدما حاصرهم تغلب عيهم بعد شيء من المقاومة ، ونهب اكثر ما كان لديه من الحامية. ثم حاصر مرسية واستولى عليها ووضع كل الاقليم تحت طاعته. (25) وفي السنة التالية ذهب ليهاجم غرناطة (26) التي لم تكن آنذاك آهلة بالسكان، وكان العرب يسمونها حصن الرومان او مدينة الحب. وكان عليها رئيس شجاع اصله من جبال غمارة. (27) ولما حاصرها عبد الرحمن حصارا شديدا حتى استحال الدخول اليها خشي السكان انتصارا يتلوه شر، فتفاوضوا معه بواسطة فقيه، لكن الذي كان متوليا عليها استطاع ان يوضح لهم المصائب التي ستحيق به تحت حكم طاغية كان عدوا لدودا لعرب افريقيا، حتى عزموا على الدفاع عن انفسهم. فأخذ ثلاثمائة فارس والفين من الرجالة من بين اللاجئين من الاماكن المجاورة وخرج الى شعب باير (28) حيث يوجد الآن مستشفى سانت لازار على مرمى منجنيق من المدينة، فباغت الاعداء بسبب الاتفاق وقتل منهم عددا كبيرا حتى ظل الشعب مدة طويلة مغطى باجساد القتلى، ثم انتقل الى خيام عبد الرحمن فنهبها. (29) ولما وصل اليها، قتله مع عدد من قواده وكبراء حاشيته. ومازالت ذكرى هذه الوقعة حية في غرناطة بقصر المنتصر، حيث يشاهد في اعلى السطح فارس على جواد من البرونز رافعا يده اليمنى بحربة محددة من الطرفين(30)، وفي يده اليسرى ترس كتب فيه هاته الكلمات، يقول بادس بن حبوس : يجب المحافظة على الاندلس بهاته الطريقة . وهذا الجواد موضوع على سن من حديد بمهارة حتى إن أقل ريح يديره ، ولهذا سمي الديك اذ اتخذ كرفرف لمعرفة اتجاه الريح. (31) وبعد هذا الانتصار، وجه الهدايا الى قاسم الخليفة، الذي اقره على امارة غرناطة والبيرة، وتولاها خلفاؤه من بعده طوال سنوات عديدة، وبعد ذلك بسنة مات قاسم بقرطبة. (32) فبايع عرب بلاد البربر، الذين

(25) سنة 1013 .
(26) سنة 1014 .
(27) باديس عن حبوس .
(28) جبل سركو أو البشرات .
(29) قرب الطرف .
(30) سلاح عربي .
(31) ديك الريح .
(32) 1015 .

كانوا يحملون اسم الغزاة او حماة الشرع، يحيى برغم انف اهل قرطبة، الذين لم يرضوا بهاته البيعة التي تستضيمهم ، فوجهوا سرا الى بادس، حينما خرج يحيى من قرطبة ليهاجم مالقة، فأرسل إليهم قائدين (33) مع عدد من الجنود ، ودخل هؤلاء بغتة ، فذبحوا كل الفئة المناوئة واستولوا على القصر وحرروا المدنية من سيطرة يحيى الذي قتله احد رجاله بمالقة بعد مضي احد عشر شهرا على توليه. فبايع اهل مالقة احدا غيره (34) لم يعش الا سبعة واربيعن يوما، وبعده ولده محمدا، وفي نفس السنة مات دون سانشودي غرسية كونت قشتالة، وبعض الروايات تزيده اثنتي عشرة سنة. فخلفه دون غرسية سانشيز، الذي كان اميرا شجاعا وانتصر في عدد من المعارك على العرب.

وفي سنة 1016 قتل محمد غدرا، قتله أهل مالقة، وادريس أمير سبتة لأخذ الثأر من مقتل يحيى، فاجتاز الى جبل طارق مع عدد من الأفارقة، وتقدم لمحاصرة مالقة، وبعد أن استولى عليها، وانتقم شر انتقام من اولئك الذين قتلوا قريبه، وإن كان لا يظهر أن السكان كانت لهم يد في ذلك القتل. ثم نصب نفسه ملكا على مالقة. لكن أهل إشبيلية يايعوا هشام بن محمد ملكا عليهم، وكانوا طامحين الى السيادة على قرطبة وغرناطة. فهجم عليهم باديس وادريس مجتمعين وتسلطا بالسفك والاحراق على كل مافي طريقهم. وخشي أهل اشبيلية من الوقوع في قبضة بادس، فسلموا أنفسهم لادريس، وكذا فعل سكان القلعة وقرمونة وغيرها من الاماكن. ولما رأى هشام نفسه مكروها باشبيلية، انسحب الى قرطبة حيث بقي شهورا الى أن خلعه رعاياه أنفسهم من الملك. ونظرا لما عرفه الوضع من الفوضى، تقدم أحد العرب من الاسرة الاموية اسمه المنظري، فطلب من الشعب أن يبايعه كملك. فنصحه أصحابه بأن يعيش في بيته بسلام، فأجابهم أنه لا يخشى الموت شريطة ان يستمتع بالملك ولو يوما واحدا، ولكنه قتل في الحين. وطارد السكان هشاما ونفوا كل أفراد الاسرة الاموية. وعلموا أنه كان يطلب المساعدة من كل جهة، فوجهوا للقبض عيه وسجنوه ثم بايعوا كملك عليهم جهور، (35) الذي كان من الغرب. ومات آنذاك ادريس. وطالب جهور بخلافته. فرفض أهل اشبيلية

---

(33) خير والجيد . كذا في الهامش . .

(34) اسماعيل . كذا بالاصل ولعله يشير الى بن عباد (مترجم) .

(35) سنة 1017 .

الاعتراف به وبايعوا كملك عليهم على ابن قاسم الشجاع، الذي لم يعترف هو أيضا بحكام قرطبة ولأحفاده من بعده الذين خلعهم المرابطون من الملك بعد دخولهم الى إسبانيا.

وفيما كانت هاته الاحداث جارية بالاندلس، كان الملك دون الفونس يمارس الحرب بالبرتغال وبعد أن نال عدة انتصارات على العرب وطرد أكثرهم من الاقليم، أصابه سهم أثناء حصار بازو وهو يتقدم للتعرف على الاسوار ومات بعد ذلك في مدينة بويرتو، وبذلك انتهى الحصار. وخلفه ولده دون برمود. وكانت له عدة حروب مع القشتاليين ومات في الاخيرة منها في يورني دي طامرون (36) من غير أن يحدث شيء يستحق الذكر. وحل محله دون فرناندو وتزوج بأخت برمود، (37) وكان أيضا ملكا علي نافاريا لانه ابن لدون سانشو الكبير. فكان أول ملك لقشتالة، من جهة وفاة أمه الملكة إلفيرة، ابنة دون غرسية. وكانت له، أيضا مملكة أراغون من جهة أخيه دون رامير ودام في الملك أزيد من أربعين سنة. وكان أقوى الملوك بإسبانيا منذ القوط. ولذلك لقب الكبير وشاهد اضطرابات باسبانيا أثناء ملكه. وكان يحكم بطليطلة حفيد لخير، اسمه على ميمون. فأشهرعليه الحرب بعد أن نهب بلاده، (38) وأكرهه على أن يكون تحت تبعيته. ويذكر أن سانتا كافيلد المدفونة في إقليم بوريبة، كانت بنته وأن ابن راجل الذي ألف في التنجيم الشرعي ، وعليا أبا الهاشم مع عدد من العلماء كانوا من مفاخر طليطلة آنذاك .

إفريقيـــــا

وفي تلك الاثناء، كانت إفريقيا هي أيضا مسرحا للحروب مثل إسبانيا بسبب طموح خليفة القيروان الذي بعد أن استولى على عدد من الاقاليم بفضل أحد القادة الصقالبة، (39) أصبح يفكر في مشاريع أكبر ، فغزم علي توجيهه الى فتح مصر وسوريا والفرس، وكلها بلاد كانت تحت حكم ملوك لم يكونوا مثله من اسرة محمد. وواعده هذا القائد الشجاع بأن يجعله ملكا على كل تلك البلاد وأن يمكنه

(36) قرب نهر قريون .
(37) دونا سانتشا .
(38) وادي الحجارة والقلعة ومجريط .
(39) جوهر الكاتب .

من إقامة عاصمة في بغداد ، حيث حكم أسلافه، وأن يثأر له من كل المظالم التي أصابتهم من بنى أمية، فارتكز على هذه الآمال، ووضع تحت تصرفه جيشا قوامه ثمانون ألف رجل، مع كل ماهو ضروري لمشروع كبير من هذا الحجم، ووجهه عن طريق صحارى برقة ال الاستيلاء على مصر. وأظهر من الفظاظة لدى دخوله الى ذلك الاقليم ما جعل والى الاسكندرية باسم الخليفة، (40) يفر حتى لا يقع في يده لانه لم يكن يأمل أي مساعدة من الاتراك الذين كانوا منشغلين بالحرب في آسيا . وهكذا أصبح سيدا على مجموع مصر في ظرف قصير من الزمان ، غير أنه منذ ذلك الحين، فكر في امكان عودة الجيوش من اسيا، معززة بقوات الخليفة، فانسحب الى القاهرة وحصنها بالاسوار والابراج، سواء لمنع العدو من اجتياز النيل أو للتمركز بالمكان ريثما تصل النجدة من إفريقية. وامتلات تلك الارض التي أحاطها بالأسوار من السكان الى أن أدركت من الشهرة ما جعلها تدعى القاهرة العظمىبعد أن كانت شيئا تافها من قبل. ولما رأى أن لا شيء يتحرك، وأن الاتراك لم يأتوا، وجه الى خليفة القيروان يعلمه ويدعوه للقدوم لأخذ زمام ممتلكاته مع التأكيد على أن كل السكان سيبايعونه، لأنهم مبتهجون للتخلي من غطرسة الاتراك وخلفاء البيت الاموي. فحشد جيشا من خمسين ألف رجل وسارالى مصر (41) في نفس الطريق التي سلكها قائدة، بعد أن ترك على ولاية القيروان أبا الحاج ابن باديس، الافريقى الأصل من قبيلة صنهاجة.(42) وكان له أفخم استقبال في الاسكندرية ، ومن ثم سار الى القاهرة ، حيث قدم له قائده بيانا عن كل ما قام به، ومكنه من كل كنوز القاهرة. وبينما كان يفكر في الاستيلاء على بغداد، بلغه أن ابا الحاج ابن باديس أثار كل البلاد في غيبته ووجه الى الخليفة إلفير (43) ليعترف به وليثبته على ملك افريقية كما كان. وأوقف النبأ مشروع بغداد، وجعل القائم يسب حملة مصر. ولما رآه الصقليي في تلك الحال، أشار عليه، كي يهدئه ويسهل عليه الانتقام من عدوه بأن يفتح باب افريقية

---

(40) الفير ابن أمية — كذا في الهامش — .

(41) 998 أي 397 للهجرة — كذا بهامش الأصل . والصحيح أن دخول المعز الفاطمي كان في سنة 973 م الموافق لـ 362 هـ (مترجم) .

(42) تحريف لاسم المعز بن بادس وسيتكرر فيما بعد (مترجم) .

(43) الخليفة العباسي الذي خطب باسمه المعز بن بادس هو القائم[422 — 467] (مترجم) .

للعرب، التي كان أسلافه أقفلوها من قبل ومن ثم يتسنى له أن يكسب المال والشهرة ويحقق الهدف من مشروعه. استحسن الخليفة هذا الرأي، وإن كان تخوف من أن يستولي أولئك الذين يوجههم على افريقية، لكن بما أنه رأى نفسه محروما من تلك البلاد، فقد غض طرفه عن أي اعتبار آخر، وأطلق الاعلان في كل بلاد العرب، (44) بأن الاذن ممنوح لكل من أراد أن يرحل الى افريقية بمركوبهم وجهازهم مقابل دينار لكل واحد عند الخروج من مصر، حيث يمكن الحصول على الزاد وكل لوازم السفر، بشرط القسم على محاربة أبي الحاج . وما أن أذيع الخبر حتى كانت ثلاث قبائل عربية من الرحل تلبي النداء. وكان عددهم مليونا، على ما يذكر ابن الرقيق، (45) المعاصر لتلك الاحداث، وإن كان عدد المحاربين ينحصر في خمسين ألفا. فدخلوا الى بلاد البربر (46) مخترقين صحاري برقة وخربوا طرابلس وقابس وغيرها من أماكن افريقية الشرقية. ومن هناك اجتازوا الى القيروان حيث التجأ أبو الحاج واستولوا عليها بعد حصار دام ثمانية أشهر، وقتلوه بعدما اذاقوه ألوانا فظيعة من العذاب. وفر أولاده، البعض منهم الى تونس والآخرون الى بجاية حيث تولوا الملك ومن بعدهم ذريتهم طوال سنين عديدة. وخربت القيروات بعد ثلاثمائة وسبعة وأربعين عاما من تأسيسها، ومائتي سنة بعدما بنى بنو الأغلب رقادة وظلت مدة طويلة على تلك الحال . واقتسم العرب المنتصرون البلاد فيما بينهم وفرضوا غرامات باهضة على جيرانهم، برغم اعترافهم بالقائم كخليفة مادام على قيد الحياة. ولكن بعد مماته أصبحوا أسيادا مطلقين، وظلت القيروان قاعا صفصفاً الى عهد الموحدين ، اذ اجتاز عبد المومن من تلك المناطق وانتزع مدينة افريقية من يد النصارى وغيرها من المدن التي كانوا احتلوها منذ تخريب القيروان وأعاد بناء هاته الاخيرة (47) على هذه الصورة التي توجد عليها اليوم . وظل القائم ، في تلك الاثناء ، حاكما بمصر هو وخلفاؤه الذين تولوا الملك بعده طوال مائتي سنة الى الخليفة الاخير العاضد الذي قتله صلاح الدين أول سلطان على مصر . وبنى اولئك العرب مساكنهم بالبوادي الافريقية كما ذكرنا ذلك في الكتاب الاول (48) ،

---

(44) الصحراء والبتراء والسعيدة .

(45) انظر الكتاب 1 في الفصل 28 .

(46) سنة 1001 أي 400 من الهجرة .

(47) لا يوجد بها إلا قسم واحد مسكون .

(48) الفصل 18 .

فكانت لهم حروب كبيرة مع زناتة ومع خلفاء أبي الحاج، وتسببوا في متاعب لمغراوة وهوارة المتملكين لموريطانيا آنذاك، أو على الأقل، لأكبر جزء منها الذي انتقصوا منه شيئا فشيئا. مما مكن لمتونة (49) من الاستيلاء على كل البلاد والانتقال الى اسبانيا حيث قاموا بنهبها من جديد كما سنذكر ذلك في مكان آخر.

آسيـــــا

بالنسبة لآسيا، كان الامبراطور ديوجين قد بنى قلفة منبج كما ذكرنا واستولى على عدد من الحصون التي كانت في يد الاتراك. وفي الربيع، جاء الى قيصرية وعلم أن الاتراك يقومون بغارات في البلاد، فقدم أمامه قسما من جيشه وتبعهم في حسن نظام فقتل منهم عددا كبيرا وأسر الكثير من الرجال. ثم انتقل الى الفرات بحيث ترك قسما من جيشه تحت قيادة فيلاريت الذي كان من جنس البراكميين، وعاد الى الشمال. ولكن الاتراك تجمعوا بعد ذهابه، فقتلوا عددا كبيرا من الناس، واستولوا على أمتعتهم ونهبوا بعد ذلك إقليم كابادوص الى ايقونية المدينة الشهيرة سواء بتجارتها أو بطيب أرضها فأداروا عليها الحصار. ولما سمع الامبراطور النبأ، وكان آنذاك في سبسطا، أخذ الطريق اليهم لمهاجمتهم. وعلم، وهو في الطريق إليهم لمهاجمتهم، بأنهم استولوا على ايقونيا، وأنهم انسحبوا لما علموا بمجيئه بعدما خربوها. فرأى حينئذ أن سفره عديم الفائدة فطلب من حاكم أنطاكية (50) أن يذهب الى مبسويستا مع قسم من الجيش ليحاصر الممرات التي سيجتاز منها الاتراك. ولكن الاتراك حينما وصلوا الى سهول طرسوس، وجدوا الارمن قد تجمعوا لهم هنالك من كل مكان وسلبوهم غنائمهم. وعلموا بالكمين الذي نصب لهم في مبسيويستا، فهربوا ليلا من طريق أخرى. وغضب الامبراطور من نجاحهم في التخلص، وعاد الى القسطنطينية. وجاء الاتراك، مرة أخرى، في السنة التالية للقيام بغارات في الامبراطورية ابتداء من الربيع. فوجه لهم ميخائيل كومنين (51) الذي لم

---

(49) فرع الصنهاجيين المستقرين بنوميديا.
(50) كطاكوتو.
(51) قائد جيوش الشرق.

تكن له شعرة واحدة في ذقنه والذي كانت له عدة انتصارات عليهم حتى إن الامبراطور غار من المجد الذي ادركه، فأخذ له قسما من جيشه ونحاه الى سوريا. ولكن، لما وصل الى سبسط، هاجمه الاتراك الذين تظاهروا في أول القتال بالفرار ثم كرُّوا عليه وهو يطاردهم في غير نظام فأسروه مع آخرين معه وقتلوا معظم جنوده ونهبوا معسكره. ولدى هاته الانباء قرر الامبراطور أن يذهب بنفسه لمهاجمتهم. وبينما هو يتهيأ، وصل كومنين الى القسطنطينية مع الشخص الذي كان أوقعه في الاسر، ذلك أن هذا التركي (52) علم أن السلطان يريد القبض عليه بتهمة الاجرام، ففر الى الامبراطور، الذي أسند اليه وظيفة مشرفة، (53) بسبب كفاءته وحنكته. وفي السنة التالية، تابع الامبراطور مشروعه، برغم بعض أسباب التشاؤم فجاء في الربيع الى قيصرية، وتحصن في مكان منيع، (54) في انتظار العدو. وعلى إثر ذلك، كان جيش من السكوتيين الذين كانوا في خدمته يريد أن ينسحب ولكنه طارده وأرجعه وأعاده الى القيام بالواجب. وغير خطته لما علم أن الاعداء لم يكونوا على استعداد للقتال، (55) فأمر جنوده أن يتزودوا لمدة شهرين نظرا لكونه ملزما بأن يقطع صحاري شاسعة. فقسم جيشه (56) إلى ثلاث فرق وجه إحداها لمهاجمة سلياطا، والاخرى إلى مانسيسرت، واحتفظ بالثالثة معه. وتخلى الاتراك عن مانسيسرت، فاستسلم سكانها. ولكن الجنود الذين تركوا فيها كانوا مرهقين من كثرة تحركهم، فوجهت لهم النجدة تحت قيادة نقفور بريان، الذي وجد نفسه مازال ضعيفا فوجه في طلب النجدة من الامبراطور، الذي أرسل إليه نقفور آخر، المسمى باسيلاس، معاتبا إياه على جبنه. والتقي باسيلاس مع بريان فحاربا الاتراك مدة طويلة، ولكنه لم يجد عند بريان ماكان يأمله من العون، فقام بآخر مجهود وطردهم الى معسكرهم. على إثر ذلك سقط فرسه بسبب جروحه، فلم يستطع أن يقوم لثقل أسلحته، فأخذه الاتراك وحملوه الى السلطان (57) الذي أحسن معاملته بسبب شجاعته. وخرج الامبراطور من تحصيناته مع فيالقه ليجرب قدرة الاعداء، وهل

(52) حسن .
(53) جعل منه رئيسا .
(54) في كريابيكا .
(55) في تيودزوبيل .
(56) تحت قيادة روسل اللاتيني أو الروماني .
(57) حسن .

لديهم الشجاعة للقتال. ولكنهم ظلوا في معسكرهم الى حلول المساء حيث انقضوا على جنوده بصياح عظيم وهم يتراجعون، وجعلوهم في حال استنفار طوال الليل. و في الغد انحاش فيلق من البربار، الذين كانوا في خدمة الامبراطور، الى جهة الاتراك فخشي أن يقتدي بهم الآخرون. فوجه في طلب فيالق سلياط. ولكن نظرا لابطائهم، ولانسحابهم لما حصل لهم من الرعب، قرر أن يجرب حظه في الحرب. فوجه له السلطان رجالا يدعونه إلى التفاوض فكان جوابه أن هذا لا يمكن أن يكون إلا إذا سحب السلطان جنده حتى يتمكن من التخييم بذلك المكان، وبدون أن ينتظر الجواب تقدم لمجالدته وتظاهر السلطان بأنه خائف وانسحب شيئا فشيئا وهو يجابهه من حين لآخر. ولكن بما أن الوقت كان متأخرا، فإن الامبراطور بدأ يتراجع نحو معسكره وكان قد تركه بدون حامية. ولما بدأ لواؤه يتمايل في الرجوع، ظن جنوده الواقعون في الصفوف البعيدة أنه يفر، فأداروا ظهرهم والتحقوا بمعسكرهم وهم يجرون. ووقف الامبراطور ليحاول إيقافهم، ولكن بدون جدوى . فاغتنم الاتراك الفرصة، فاضطر لمواجهتهم، وبذل كل ما كان ينتظر من شجاعته الى أن جرح هو وفرسه ولم يعد قادرا لا على الهروب ولا على الدفاع عن نفسه فأسر وحمل الى السلطان. (58) فعامله المتوحش باحترام وهو لا يصدق أنه هو في البداية. ولكن شاهد السفراء يعترفون بأنه هو، وكذلك باسيلاس الذي وقع في الاسر، يرتمي على ركبتيه باكيا، (59) فنزل له من عرشه وصبره وهو يقبله، ونصب له خيمة فيها جهاز ملوكي. ودعاه للجلوس على مائدته، وحرر كل ما طلب من الاسرى. وبعد أن أمسكه مدة، أبرم الصلح معه وحرره مصحوبا بخفير دون أن يطلب منه أي شيء.وبعد عودته أقام بعض الوقت في تيودوسبيل. لمداواة جروحه، ثم أخذ طريق القسطنطينية مع رجال السلطان، ولكنه لم يجد الامور على ما يرام من أجل استقباله. ذلك أن يوحنا قيصر، ومن يسير معه في حزبه الذين كانوا، على ما يقال، سببا في خسران المعركة، كانوا يكرهونه. فعملوا على تعيين ميخائيل دوقا مكانه وتمكنوا من شخصه فسملوا عينيه بقساوة لاتقاس مع ما أظهره البرابرة من شفقة عليه أثناء المحنة (60) وغضب السلطان لما بلغته هاته الانباء فوجه جيشه

(58) حسن .

(59) يذكر المؤلف أنه وضع رجله على بطنه ، تبعا للتقاليد .

(60) ومات على هذه الحال محروما من الامبراطورية ومن النظر .

الى الامبراطورية، لامن أجل القيام بغارات، ولكن من أجل الاستيلاء عليها، لأن الأمر أصبح سهلا، مادام لم يكن هنالك شخص لمقاومته. ولكن الامبراطور الجديد، بعد إقرار الاوضاع في القسطنطينية، وجه له جيشا تحت قيادة اسحاق كومنين والمسمى روسل، الذي ثار في مدينة ايقونيا، فحارب تارة الاتراك، وطورا رعايا الامبراطور. وأما كومنين الذي كان يقود بقية الجيش، فقد هزم وأسره الاتراك، وفدى نفسه منهم فيما بعد بالمال. ووجه الامبراطور، لدى هاته الانباء، عمه يوحنا قيصر لمحاربة روسل . ولكن المتمرد استولى على مضيق القسطنطينية وخيم قبالته، [61] ولم يقبل أي تفاهم ثم ناشبه المعركة ، فهزمه وأسره مع جماعة كبيرة من النبلاء. وبعد ذلك أقام الحصار على القسطنطينية. ولما رأى أن الامبراطور يستنجد بالاتراك، لم يجد نفسه قادرا على مجابهة الاول والثاني وأخرج قيصر من السجن ونادى به امبراطورا. ثم دخل مع الاتراك في القتال، فهزمهم. ولكن بما أنه وقيصر معه كان يسعيان الى النصر بتهور، فقد قبض عليهما، لانهما ابتعدا كثيرا عن رجالهما. ووقع افتداؤهما في الحين، الاول من لدن زوجته والثاني من لدن الامبراطور. وما أن استرجع روسيل حريته حتى التحق بأرمينية حيث كان مسكنه في زمان سابق. وتحالف مع الاتراك، ولم يكف عن محاربة الامبراطور. فوجه له هذا الأخير اليكسيس كومنين، الذي ما أن وصل الى أماسيا، حتى أخذ يتفاهم سرا مع الاتراك الذين سلموا إليه روسيل مقابل قدر كبير من المال. وهكذا رجع به الى القسطنطينية حيث أودع في سجن ببرج. وبينما كانت هاته الاحداث جارية في الامبراطورية، كان قوت لومو ابن أخي السلطان الأسبق [62] ساخطا على السلطان الجديد الذي اختير مكانه. فتهيأ لمحاربته، الا أن الخليفة البير، الذي كان يتمتع بسلطة كبيرة، خاف من أن يؤدي الانقسام الى اضمحلال مملكة الاتراك، كما حدث بالنسبة لدولة العرب، فتدخل في الخلاف. وجاء اليهما، برغم كونه لم يخرج للناس منذ زمان طويل فهدأ من نزاعهما بمحضره، وأقام السلم على هذه الشروط وهي أن السلطان [63] يحتفظ بالمملكة ويترك كاباضوسا لقوت لومو، [64] حيث يساعده على التوسع في ارض الروم. وبعد هذا

(61) استولى على سانجوريوم .

(62) طنجروليبكس .

(63) ـــ أكسان أو كاسيان ـــ ولعله أرسلان من أمراء السلاجقة (مترجم) .

(64) لعله قطلمش عم السلطان السلجوقي ألب أرسلان (1062 – 1072) .

الصلح، استولى الاتراك على ميديا والاقاليم الشرقية الأخرى ووجهوا جيشا بحريا استولى على جزر شيو وليزبوس وساموس ورودس وكانديا وقبرص. ولكن الامبراطور استرجعها بعد ذلك. ثم استقر السلطان بالفرس، واسند حكومة دمشق وما كان يملك في مصر [65] لابن أخ له يدعى دوكاط، وذلك ليقاوم المصريين مثلما كان قوت لومو يقاوم الاغريق. فقد أصبح الخليفة القائم سيدا على مصر وسوريا الى اللاذقية وأعطى حلب لسوموكو، الذي تكلمنا عنه من قبل، وحصل على مبايعة كل هؤلاء الحكام بوصفه سلطانا. وترك لقوت لومز وحده أن يتسمى « سودان » .

إيطاليـــا

اذا عدنا الى الغرب، وجدنا أن العرب الذين كانوا يمتلكون صقيلية أوقدوا نار الحرب في بلاد يوى وكلا بريا ضدا على نائب الامبراطور هنالك فانتزعوا منه عدة أماكن أثناء الانقسامات التي كانت تعاني منها إيطاليا. وعلى إثر ذلك ظهر قائد نور ماندي، اسمه غليوم برافور أوفوربرا، في إيطاليا حيث استقر مع بعض أصحابه. فتحالف مع أمراء كابواوسالرن وأعلن حربا ضروسا على العرب، مستعينا بنائب الامبراطور (الاكساركوس)[66]، بحيث إنه بعد ما ألب عليهم كل القوات طردهم، في الاخير، من صقلية. ولكن بما أنهم كانوا يريدون أن يتقاسموها فيما بينهم، فإن نائب الامبراطور الذي كان هو الاقوى فيهم، نحى الآخرين. وحينما رأى النورماندي هذا السلوك القبيح، أسرها في نفسه آنذاك، وافترق مع الاميرين المتحالفين، وكان أحدهما قد انسحب الى كابوا والاخر الى سالبرن، ودخل بجنوده الى بوى وكلابريا واستولى على ملف وغيرها من المراكز . وتوجه الاكساركوس لدى هاته الانباء من صقيلية لمحاربته. فهزم وترك النورماندي يمتلك بدون منازع بوى. ولما استرجع الامبراطور قسما منها منذ ذلك الحين، فإن دراكون أخا غليوم تحارب مع جيشه ثلاث مرات في يوم واحد فغلبهم وطرد الاغريق من البلاد. وعلى إثر ذلك اجتاز عرب افريقية الى ايطاليا في جيش عرمرم ، فحاصروا في نفس الوقت كابوا وباري، ولكن غريغوريوس الذي كان يقود جيش

---

(65) أو ، بالاحرى ، في سوريا .

(66) EXARQUE هكذا كان يسمى القائد المعين بإيطاليا باسم الامبراطور

الامبراطور البحري، انضم الى البندقيين ورفع الحصار عن باري، بينما تلقت كابوا الاغاثة من امبراطور ألمانيا، (68) الذي كان يوجد آنذاك بروما، فمشى نحو العرب وهزمهم لكن بوبجان الذي حل محل ملوك (69) في النيابة عن الامبراطور بإيطاليا، ساعد عرب بوى وكلابريا على النصارى. فغضب أمبراطور ألمانيا عليه وأدار أسلحته ضده وحاربه مدة طويلة. ومن جهة أخرى، فإن العرب الذين ألفوا صقلية، تلقوا مساعدة من خليفة مصر، واسترجعوا من الجزيرة القسم الذي كان ينظر الى الجنوب. عن طريق علقمة (70) التي كانت أقوى مركز آنذاك بالجزيرة ففتحوها كلها. ولكن روجرورويرت نورمانس استوليا عليها منذ ذلك الحين بواسطة الوالي على صقيلية من لدن خليفة مصر ، وثار السكان على العرب وعلى اليونان المقيمين بها. (71) واسترجعوا، أولا، مدينة مسينة، وثانيا المراكز الاخرى. بحيث إن روجر لما طرد الاعداء من مجموع الجزيرة، انتخب كونت على صقلية، حيث تولى اخفاده من بعده الملك هنالك، بدون أن يعود للعرب أي سلطان فيها. بل على العكس من ذلك ، كان ملوك تونس يؤدون الجزية لهاته الدولة (72).

سننتهي هنا من الحديث عن خلفاء بغداد ، لأن حكم العرب انتهى بالكلية في آسيا، ولانه لم يبق الاخلفاء مصر(73) وهم الذين كانوا يحاربون الاتراك ثم النصارى الذين ذهبوا للاستيلاء عل القدس. وبما أننا لن نتحدث عن تاريخ آسيا الا بصورة عابرة، بسبب خلفاء محمد الذين حكموا هنالك، وأن غايتنا الجوهرية هي تاريخ أفريقيا، فسنتحدث الآن عن الافارقة ، الذين اقاموا سلطانهم في هذا القسم من العالم، في إطار تدهور الدولة العربية، ومن هنالك نقلوا الحرب الى إسبانيا، ولن نسميهم عربا بعد هذا، بل مغاربة (المور) ، لأنهم أقاموا امبراطوريتهم في مراكش وفاس وهما عاصمتا موريطانيا الطنجية أو ترمسان (تلمسان) عاصمة موريطانيا القيصرية ، ولأنهم بفضل هذا الشعب المحارب أخضعوا العرب الذين سبقوهم الى ذلك الفتح والذي حكموا مدة طويلة في أفريقيا.

(67) هو المتكبر ذو الذراع الوارد ذكره في رواياتنا .

(68) هنـري .

(69) MOLOQUE

(70) أو أركامو .

(71) بتيمين ، أميرال بلكافر .

(72) راجع التاريخ .

(73) خلفاء القائم .

فإذا عدنا إلى اسبانيا، (74) وجدنا دون غرسية، ابن دون سانشو الأكبر، ملك نافاريا، يهزم العرب وينتزع منهم قلهرة وتطيلة، ويفرض الجزية على حكام سرقسطة ووشقه، وكان في مستطاعه أن يقوم بفتوح أخرى لو لم يحدث الانقسام بين أمراء النصرانية ويفرض عليه ذلك أن يتخلى عن الأمر.

(74) سنة 1039

الفصل الثلاثون

أبو تاشفين (1) ، أول ملوك إفريقيا وما جرى في عهده

كانت غطرسة العرب الجدد بافريقيا وطموحهم القوى سببا في إثارة البلاد عليهم، (2) سيما وأنه لم يكن هنالك ملك معترف بسلطته، وأن الخليفة القائم كان قد استقر بمصر، وانشغل في سوريا بحروب أكثر أهمية. فثار أحد الافارقة، وهو مرابط، من قبيلة صنهاجة، من الفرع المدعو لمتونة، اسمه أبو تاشفين، من مواليد كركلا، في القسم الجنوبي من أفريقيا حيث تقع أقاليم نوميديا وليبيا. ذلك أنه، لما كان يحكم في تلك الاصقاع، حيث انسحب فرارا من سيطرة العرب، فقد جذب إليه عددا لا يحصى من الشعوب، بدعوى التحرر والانعتاق من الظلم، سواء ظلم أهل البلاد البربرية، أو أهل إسبانيا. (3) وأول ما فعله أنه وجه بعض المرابطين ينادون بالحرية في الاقاليم، ورأى أن الشعب كان يستمع إليهم، فحشد جيشا قويا من الافارقة يحتوى على صنهاجيين وعلى زناتيين وغيرهم من أبناء نوميديا. وقطع جبال الاطلس الكبير، قرب مدنية أغمات، فأصبح سيدا على إقليم مراكش. ومن ثَمَّ أخضع العرب ومغراوة الذي كانوا يمتلكون جزءا من موريطانيا الطنجية. وجعل مقر حكمه في أغمات وتسمى بأمير المؤمنين، (4) أو ملك السنيين، مدعيا أن هذا الاسم من حقه بسبب المذهب الذي كان يعتنقه، والذي يصل الى طريق الكمال عن طريق الدرجات الخمسين من الطاعة. (5) وبما أن كل هؤلاء الرؤساء كانوا مرابطين، فإن المؤلفين الافارقة كانوا يدعونهم بهذا الاسم، كما يفعل الآن سكان الاقليم الذي خرجوا منه. ويسميهم مؤرخونا المرافطين مضيفين أداة التعريف،

---

(1) هذا تحريف من المؤلف لاسم يوسف بن تاشفين (مترجم) .

(2) سنة 1051 .

(3) بديهي ما في هذه المعلومات من خرافات (مترجم) .

(4) لقب المرابطين كان هو أمير المسلمين (مترجم) .

(5) خلط واحد ، ولعل رقم خمسين هو تحريف لأركان الاسلام الخمس (مترجم) .

حسب عادة العرب ومعوضين الباء بالفاء تبعا للنطق الاسباني. فهم الذين تحدث عنهم المؤلفون الاسبانيون أكثر من غيرهم، لانهم أصبحوا أقوياء ودخلوا الى إسبانيا على رأس جيوش جرارة وبينما كان أبو تاشفين ينتصر بافريقيا، كان عرب اسبانيا يتقاتلون فيما بينهم ، ويمنحون الفرصة لملوك النصارى من أجل الاستفادة من انقساماتهم، لانهم كانوا مقسمين الى عدة ملوك لم يكونوا كلهم أقوياء. كان الملك دون فرناندو قد هزم أخاه دون غرسية في يوم أطابويركاس، فاستولى على مملكة نافاريا، (6) وانتصر في عدة معارك على العرب. وبعد ثلاث سنوات من ذلك، جمع جيشا قويا وتقدم الى ماردة وبطليوس ودخل الى البرتغال حيث استولى على عدد من الحصون. وقام واليا ماردة وبطليوس، ومعهما المدد من ملك اشبيلية، بمحاربته، وغلب العرب فكانت فيهم مقتلة كبيرة. (7) وواصل هذا الملك انتصاره فحاصر بازو حيث جرح الملك دون الفونس، فخربها بعد أن استولى عليها انتقاما لموته، وقتل شر قتلة ذلك الذي كان سببا في الحدث . ومن ثم انتقل الى لاميجو التي استولى عليها مع عدد من الاماكن الاخرى المجاورة، ثم عاد منتصرا إلى ليون. وجمع جيشه في البسنة التالية، ورجع الى البرتغال فحاصر مدينة قلمرية، واستولى عليها وحصنها. ويقول البعض إن الحصار دام سبع سنوات، وبعدها قبلت الاستسلام صلحا. وفي سنة ألف وتسع وخمسين، رجع الى العرب وأخذ منهم مدن كورماس وبرلاكا بتفاهم معهم وأكيلرا وقصر سانت يوست عنوة. وبعد أن خرب كل إقليم طركونة تصدى لمدينة سالم، وفعل مثل ذلك بالمنطقة كلها. وفي نفس السنة استولى عنوة على قصر مونتمور بالبرتغال، فمنه كانت تقع مضايقات لرعاياه، ثم قام بنهب الغرب واتجه الى اشبيلية، وجعل ملكها (8) تابعا له. ومن ثم سار الى إعادة بناء سمورة، التي كان وقع تخريبها في عهد المنصور، فهنالك وجه اليه ملك سرقسطة (9) يقدم له السلام بواسطة سفيره . وفي السنة التالية دخل الى مملكة طليطلة (10) التي وضع ملكها نفسه تابعا له، وانتقل معه الى بلنسية حيث عمل

---

(6) سنة 1054 .

(7) أبو خالد بن قاسم ـــ كذا في الهامش .

(8) أبو عابد الغالب المنصور ـــ كذا بالهامش والظاهر أنه يريد ابن عباد (مترجم) .

(9) الفلجيل ـــ لم نتبين حقيقة هذا الاسم الوارد في الهامش. لكن المتولي على سرقسطة في تلك الآونة كان هو. المؤتمن ابن هود وولده المستعين من بعده (مترجم) .

(10) سنة 1060 .

معه نفس الشيء، وبعد ذلك انسحب منتصرا الى ليون لقضاء الشتاء بها. وكل هؤلاء الامراء بعدما اعترفوا بسيادته عليهم ، وجه لهم أبو تاشفين يحثهم على الثورة عليه بحيث إنه شاهد بأن لا سبيل لوضع الثقة في اولئك المسلمين ، فجمع جيشا قويا لمحاربتهم. (11) وجاء إليه ملكا سرقسطة وطليطلة ليقدما له الجزية ويعداه بمرافقته. وبما أنه كان قد استعد استعدادا كبيرا، فإنه دخل الى مملكة بلنسية فأشعل النار واراق الدماء في كل مكان ولكنه لم يستطع أخذ المدينة، فرجع الى ليون لقضاء الشتاء ومات هنالك في سنة ألف وثلاث وستين. وخلف ثلاثة أولاد، دون سانشو الذي كان ملكا في قشتالة ، ودون ألفونس بليون، ودون غرسية بغاليسيا والبرتغال. فأما دون سانشو فإنه منذ السنة الاولى من ملكه ذهب لحصار بلنسية، وفرض على الملك أن يقدم له الولاء، وسار بعد ذلك الى ملك سرقسطة الذي كان تابعا للملك أبيه. والذي كان محتميا بملك نافاريا ليرفض تقديم الطاعة له. وبما أنه لم يكن قادرا على الصمود أمام حصار طويل، فإنه استنجد بملك نافاريا. ولكن دون سانشو ضغط عليه بقوة حتى وجد نفسه مضطرا الى الاستسلام قبل أن تأتيه النجدة، وفي سنة ألف وسبع وستين مات ملك نافاريا، ومنذ ذلك الحين الى سنة ألف واثنتين وسبعين وأولاد دون فرناندو في حرب فيما بينهم. (12) ولكن الملك دون سانشو غلب الملك دون ألفونس وسجنه ثم أعاد له حريته، بشرط مغادرة البلاد. ومن ثم انسحب الى طليطلة التي أقام بها مدة (13) ، وقطع في نفس الوقت على ميمون (14) ملك طليطلة الهدنة التي كانت له مع دون سانشو ملك قشتالة، فذهب لحصار شقوبية التي استولى عليها صلحا. وبعد ذلك مات دون سانشو وهو يحاصر سمورة التي كانت في ملك أخته فراكة. وعلم أخوه الملك دون الفونس ، الذي كان انتزع منه مملكة ليون بموته وهو في طليطلة، حيث كان ملتجأ، فتحالف معه على ميمون، ثم تقدم الى سمورة فجاءته البيعة بصفته ملكا على ليون وقشتالة. (15) وفي نفس السنة توفي أبن عباد، ملك اشبيلية، وثار عرب قرطبة على ولده، الذي كان آنذاك بالمدينة. ولكن ملك طليطلة ذهب الى أبعد من ذلك. فقد شهر عليه الحرب وبمساعدة الملك دون الفونس نهب إقليم

---

(12) في كولبيير .

(13) على نهر بيفركوس .

(14) لا شك أنه يقصد المأمون بن ذي النون الذي كان ملكا على طليطلة وناحيتها (مترجم) .

(15) كان سادس من يحمل هذا الاسم .

اشبيلية. وفي سنة ألف وأربع وسبعين، حشد الملك دون ألفونس جيشا كبيرا، فدخل الى إسترا مادوره واجتاز الى مٻاردة فحارب الامراء التابعين لابن عباد، الذي عجز عن مواجهة هذا العدو القوي، فأبرم معه الهدنة على أساس أن يؤدي له نفس الجزية التي كان يؤديها أبوه لدون سانشو، وفي نفس الوقت، ثارث مدينة قرطبة ومدن أخرى من الاندلس على ابن عباد، (16) فطلب النجدة من دون ألفونس وجمع جيشا قويا وذهب لمحاصرة قرطبة واستولى عليها. ولكن أهل غرناطة وجيان حيث كان يحكم المظفر، (17) دافعوا بشجاعة عن أنفسهم، فطلب ابن عباد الاغاثة من دون ألفونسو، الذي وجهها اليه تحت قيادة السيد، (18) الذي اشتهر اسمه في التاريخ. وحظى المظفر، من جهته بمساعدة أمراء نصارى آخرين ساندوه في هاته الحرب. فدخل الى أراضي اشبيلية وحاصر قبرة في سنة ألف وست وسبعين. وما بلغ ابن عباد هذا النبأ حتى تخلى عن حصار جيان، وذهب للنجدة برفقة السيد . فغلب المظفر وقتل كونت برشلونة الذي كان يرافقه . وفي نفس السنة، دخل ألفونسو الى مملكة أرگون، فنهب كل شيء الى سرقسطة، التي ذهب ملكها لحصار مدينة كورماس ليشغله بها، ولكن السيد بعد أن عاد من حرب غرناطة سار لنجدتها وأجبره على الانسحاب الى مملكة طليطلة متكبدا خسائر. وقد أصاب تلك البلاد بأضرار، برغم الهدنة المبرمة بين دون ألفونسو وهذا الامير.(19) ولذلك فقد تلقى الأمر من دون ألفونسو برد جميع المراكز، وكذلك كل الغنيمة التي حصل عليها. وبما أنه رفض الطاعة، فقد طرد، وثارت ثائرته لهاته الاهانة، فأخذ ثلاثمائة من الخيل وأربعة آلاف من الرجالة من الذين تطوعوا للسير معه وأخذ للعرب قصر كاسترخون ونهب منطقة وادي الحجارة الى درجة أن على ميمون اضطر، ليحصل على السلم، أن يؤدي أرزاق جنوده، على شرط أن يذهب لمحاربة ملك بلنسية الذي كان عدوا له. وأثناء رحلته، استولى السيد على قصرالقوصر، وحصنه لنفسه مع المدنية. لكن، لما علم ملك بلنسية بالنبأ، ذهب لمحاصرته. وعندها خرج السيد في وقت غير معتاد من المركز وأثار الرعب في المحاصرين، فهزم منهم أزيد من ثلاثين ألفا، ثم تابع انتصاره فنهب البلاد. وفي سنة

---

(16) ملك اشبيلية .

(17) ابن أو حفيد البادسي — هذا الاسم غير مستعمل في أسرة بادس بن حبوس على ما يظهر (مترجم)

(18) رودريگودياز .

(19) على ميمون .

ألف وستين، حارب دون ريموند أخاه دون سانشو، ملك نافاريا، وقتله، وظن أنه سيظل بذلك مسيطرا على المملكة بدون منازع. ولكن الملك دون ألفونسو، جرده من الملك. وفي نفس السنة، خرج السيد من القوصر بجيش كان يتضخم يوما عن يوم لدى سماع أنباء انتصاراته، فذهب لينهب ضواحي سرقسطة، وأكره ملك العرب [20] على أن يعطيه أجرا وأن يجعله في خدمته. وبعد دخوله للمكان، مات الملك ، تاركا ولدين أكبرهما سليمان الذي ظل في سرقسطة، بينما الآخر عبد الحق، [21]، انسحب الى دانية منازعا أخاه على إرث العرش. وكان السيد من حزب الاكبر، بينما كان دون ريموند كونت برشلونة من جهة الاصغر. وانتهت الامور الى قيام المعركة. وانتصر السيد فيها، وأسر الكونت ريموند، ثم انتقل الى مونسون التي كانت مع عبد الحق، فجعلها في حوزة سليمان. ثم حرر الكونت دون فدية وعاد ليقضي الشتاء في سرقسطة. وتلاقى الكونت مع عبد الحق فخسر معركة أخرى مع السيد في سنة ألف وثمان وسبعين. وفي السنة التالية، مات علي ميمون، ملك طليطلة، تاركا ولده الاكبر هشاما ليخلفه ولم يدم في الملك الاسنة، فحل محله أخوه يحيى. ولكنه كان قبيحا ومستهترا الى درجة أن السكان ثاروا عليه، وبالاخص في بلنسية، التي كان واليها أبو بكر يسير بهواه مع ملك بطليوس. وكذلك كان شأن سكان طليطلة. الشيء الذي دفع يحيى الى الالتجاء الى الملك ألفونسو، فأمده بجيوش كثيرة تحت قيادة دون ألفار، [21]، الذي عندما وصل الى بلنسية صادف استقبالا من السكان بدون صعوبة. ومن جهة أخرى، غضب الملك ألفونسو من المعاملة التي عامل بها أهل طليطلة ملكهم اذ رفضوا استقباله كما ترجى منهم فدخل الى البلد واستولى على مدينة هويطة وحصنها، ثم أقام الحصار أمام طليطلة. لكنه رأى أنه يصعب عليه الاستيلاء عليها بالقوة وأن سكانها لم يكونوا يقبلون الاستسلام، فقام بإتلافات داخل البلد وانسحب الى هويطة، واستولى على كل المراكز الموجودة بين هاته وسيكانسا ،ثم ذهب ليقضي الشتاء في نحارة. وعاد في السنة التالية لمحاربة العرب وأخذ منهم كليار، وأرفالة وغيرها من حصون المنطقة، ثم انتقل الى آبلة، فحاصر اسكالون، فاستولى عليها ونهبها، ومن هنالك وصل الى طليطلة، فوضع الجزية على البلاد بعد أن دخل الى مجريط ، وعاد ليقضي الشتاء

---

(20) الفويجل ــ كذا ، والصحيح كما ورد من قبل أن اسمه المؤتمن (مترجم) .

(21) فانييزمينيايا .

في قشتالة . وفي نفس السنة حارب ملك اشبيلية (22) أهل طليطلة بأمر من الفونسو إذ كان تابعا له ، ودخل من جهة وادي يانا فانتزع قلعة رباح من يد العرب ، وفيلشيس وكونسويكرا وغيرها من الحصون المجاورة . وفي السنة التالية، (23) دخل الملك ألفونسو من جهةسيبولفيدا من جهة مضايق سوموسيرا (24) وعمر هيتا بالسكان وقد كان العرب تخلوا عنها، واستولى على أماكن أخرى، ثم على وادي الحجارة وقلعة هناريس وذهب كل البلاد، ثم رجع ليقضي الشتاء في قشتالة. ولكي لا يضيع الوقت في بداية السنة الموالية، (25) عاد عن طريق ربريروس واستولى على مدنية مكادة ، ومن ثم انتقل الى طليطلة فخرب كل البلاد وعاد منتصرا الى بلده. وفي السنة التالية، عاد لمحاصرة طليطلة بقوات عظيمة فنهب وأتلف ضفتي نهر التاج . ومن جهة أخرى، استولى ملك اشبيلية على سوريطا، وعاد هو أيضا منتصرا إلى بلده. وفي سنة ألف وثلاث وثمانين، وجه ابن فلك، التابع لملك سرقسطة، وحاكم قصر بويصة، الى الملك ألفونسو يقول له بأنه اذا أراد أن يأتي بنفسه، سلم له المكان. ولكن المستشارين عارضوا في ذلك، فاكتفى بأن وجه دون راميرء ولي عهد نافاريا والكونت دون كونزالو سالفادور، صهره مع أكثر من الف فارس. فما وصلوا الى المكان حتى قتلوا أو أسروا. وقد ظلت ذكرى هذا الغدر حية في قصر أونيا حيث دفن أكثر من قتل هنالك. وفي نفس السنة، دخل الملك الفونسو الى مملكة طليطلة، محرقا ومتلفا كل شيء ، وخرب عدة أماكن ثم عاد الى قشتالة.

وعاد في سنة ألف وخمس وثمانين، وخيم تحت أسوار طليطلة، وكان السكان قد أعوزتهم الأقوات، فاستسلموا بشروط. وهكذا عادت هاته المدينة الى حكم النصارى يوم خامس وعشري مايو، (26) بعد أن حكمها العرب طوال ثلاثمائة واثنتين وسبعين سنة. وإليها نقل الملك ألفونسو بلاطه، وتسمى أمبراطور إسبانيا. وكان أبوتاشفين (27) في نفس الوقت يمارس حربا ضروسا ضد عرب إفريقيا وغيرهم

---

(22) ابن عبـاد .

(23) سنة 1081 .

(24) مونسوم .

(25) سنة 1081 .

(26) يوم الأحد ، يوم القديس أوربان .

(27) الظاهر أن المؤلف يعتقد أن يوسف بن تاشفين ورث الملك عن أبيه (مترجم) .

من الرؤساء. وهزمهم في عدة معارك وطردهم من القسم الغربي من موريطانيا الطنجية، بفضل الجيوش اللمتونية المنتصرة، أي من الأرض التي توجد بها حاليا مملكة مراكش. وتوفي على إثر ذلك، (28) تاركا كخلف له ولده يوسف الذي كان من كبار الشجعان.

---

(28) سنة 1086 . كما أن هذا التاريخ غريب لا يقترن مع وفاة أي أمير مرابطي . (مترجم) .

الفصل الواحد والثلاثون

يوسف بن تاشفين، الملك الثاني لافريقيا من جنس المرابطين

بعد وفاة أبي تاشفين بايع الافارقة من قبيلة صنهاجة ولده يوسف الذي ملأ الدنيا بصليل الاسلحة. وما أن تولى الملك، حتى استهان بأغمات الواقعة في الجبال، وبنى مراكش، أو حسب رواية أخرى ، أتمها بعد أن كان أبوه شرع في تشييدها. وهنالك جعل مقر مملكته. وبعض الاسبانيين المتأخرين ينسبون بناءها الى ابن تامون [1] الذي فر من موريطانيا الطنجية في أيام الخليفة عبد الملك. ولكن الرأي السائد، والمؤكد من لدن المؤلفين من أبناء البلد،[2] ومن عدة كتابات، هو أن أبا تاشفين كان أول مؤسس لها. وتحفل كتب التاريخ العربية والافريقية بذكر ولده وحفيده الذين وليا الملك بعده، وما قام به كل واحد منهما. والشخص الذي نتكلم عنه الآن أفسد وخرب كليا إقليم تامسنا في سنة ألف وإحدى وسبعين ، أي عام اثنين وسبعين وأربعمائة من الهجرة . ولما كان على درجة كبيرة من القوة في موريطانيا الطنجية وفي نوميديا، فإنه وجه الى بلاد تمسان (تامسنا) سفراء مع بعض المرابطين، داعيا السكان للتخلي عن مذهب (قمين) الذي تمكن منهم، كما ذكرنا ذلك. ولكن السكان وثقوا بقواتهم، واستهانوا بقوات يوسف وتهديدات المرابطين، فاجتمعوا بمدينة آنفا التي كانت عاصمة الاقليم، وبدون أعتبار أي شيء آخر، سفكوا دم المرابطين والسفراء. فكان جوابهم الوحيد قرارهم بتكوين جيش من خمسين ألفا للقضاء عليه ، وغضب يوسف لهذه الجسارة، فلم يترك لهم الوقت ليهجموا عليه. ولكنه باغتهم في أرضهم بعد أن اجتار وادي أم الربيع، وحاربهم حربا شديدة قبل أن يتمكنوا من الاتصال بقواتهم. وفوجىء زناته واندهشوا، ولم يقدروا على قتاله وتخلوا عن البلاد وانسحبوا مع أميرهم الى جهة

---

(1) المشهور بابن درامون : لا يوجد في المصادر ولا في التاريخ المتداول أثر لهذا الاسم ولا لهاته الرواية (مترجم) .
(2) يوحنا ليون وغيره .

فاس (3) ليحصلوا من هنالك على النجدة. ولما انتصر يوسف، هدم كل الحصون وذبح حتى الأطفال، لينتقم من المصاب الذي حل بسفرائه، دون أن يجد أية مقاومة. لأن أهل فاس، بدلا من نجدتهم، قاموا بمطاردتهم وكأنهم رعايا ثائرون عليهم. ثم التقوا بهم على وادي أبي رقراق، بأمتعتهم وعائلاتهم، مجهدين، يكادون يموتون من الجوع، فأثخنوا فيهم، ولم يفلت من يديهم الا من غرق، أو من قفز الى أسفل الصخور. تلك هي الصورة التي هلك بها ذلك الشعب الابي الذي لم يجد من يرشده والذي يبلغ تعداده مليون نسمة من كل جنس وكل سن. وبعد هذا الانتصار، رجع يوسف الى مراكش وترك الاقليم للحيوانات المتوحشة. وبعد ذلك بمدة، ذهب لمحاربة أهل فاس، الذين كانوا تحت حكم أميرين. فغلبهما قرب جبل هونكي (4) على بعد تسعة فراسخ من مكناس، وأصبح سيدا على البلاد دون مقاومة. ومن هنالك اجتاز الى مملكة تلمسان، فطرد من بجاية خلفاء أبي الحاج . (5) وعفا عنهم منذ ذلك الحين كآفارقة من قبيلته. وأرجعهم الى امارتهم حيث ظلوا هنالك باستمرار طوال عهد المرابطين. وفعل مثل ذلك مع أهل الجزية، ثم عاد منتصرا الى مراكش، فحمل مثل أبيه لقب أمير المؤمنين. (6) وفي عهده استولى الايطاليون على مدينة مهدية بافريقيا، التي احتفظوا بها سنوات عديدة الى أن استرجعها عبد المومن، الملك الثاني للموحدين. ولكن مؤرخ فاس (7) لا يقول بأن الذين استولوا عليها كانوا نصارى، وإن كانوا حسب نظرى نصارى من صقلية.

إسبانيــــا

وفي تلك الأثناء ، ذهل عرب اسبانيا من سقوط طليطلة ، ومن تقدّم الملك ألفونس، فوجهوا الى افريقيا لدى يوسف والامراء الاخرين، ليبلغوا حالة البؤس التي كانت فيها البلاد، وما سببته من تضحيات بالدماء من لدن أسلافهم، وما كانوا فيه من عجز عن تلافي التدهور بأنفسهم نظرا لضعفهم، وتشتت كلمتهم. وتأثر يوسف من شكواهم، ووعدهم بتجنيد جيش في دولته، بحيث

(3) في ظرف ثمانية اشهر .
(4) اسم لم نجد ما يقابله في المصادر العربية (مترجم) .
(5) كما ذكرنا من قبل ، يقصد بهذا الاسم المحرف ابن باديس المعز (مترجم) .
(6) بيّن في الهامش كيف وقع تحريف هذا الاسم الى أميرالومين في الاسبانية . ومن المعلوم أن يوسف بن تاشفين لم يتلقب إلا بأمير المسلمين (مترجم) .
(7) الشريف . كذا بالهامش . فهل يقصد الشريف الادريسي مثلا ؟ (مترجم) .

حشد أربعين ألفا من رجال الحرب، تحت قيادة علي بن عايش، (8) الذي انضم الى ملك بطليوس وغيره من الملوك المتحالفين، ودخلوا جميعا الى قشتالة. وجمع الملك ألفونس جنوده وسار لملاقاتهم، بينما كانوا ينهبون إقليم آبلة وهزمهم في يوم سكاليا، (9) اذ قتل منهم عددا كبيرا وأكره الآخرين على الانسحاب. وفي نفس السنة، ثار أهل بلنسية على أميرهم وانضموا الى ملك طرطوشة. (10) وكان دون رامير، ملك آراغون في الوقت ذاته على خلاف مع عبد الرحمان ملك كيسكار، (11) وبعد أن قام بتخريب بلاده، دخل معه في المعركة وغلبه. ولكن العربي جمع جنوده بمساعدة السيد ودون الفونسو وأجرى معركة ثانية، وغلب مرة أخرى مع السيد، ووجد نفسه مضطرا ليدخل في تبعيته .

وفي سنة ألف وثمان وثمانين، ذهب ألفونسو ليحاصر قصر الرويضة، (12) لينتقم من مقتل ولي العهد. (13) ولكنه لم يستطع أن يستولى عليه طوال الصيف، ورأى الشتاء يقترب، والعرب يستعدون لنجدته، فرفع الحصار بعد أن تلقى مراسيم الطاعة من ملك سرقسطة. وجاء إليه، في نفس السنة، ملك أشبيلية، (14) ليتفق معه على مصالحة ملك بطليوس الذي أصبح تابعا له. ومن جهة أخرى، فإن يحيى بعد أن طرد من بلنسية حاصر شاطبة التي كانت قد ثارت عليه. فاستولى عليها، ثم هزم ملك طرطوشة أخاه (15) الذي ذهب لينقض على بلنسية، مستجيبا لدعوة أهل المدينة. وواصل ملك أراغون في السنة التالية (16) الحرب ضدا على عبد الرحمن، ملك كيسكار، فاستولى صلحا على مدينة مونصون، (17) وأجبره

(8) القائد الذي وجهه يوسف على رأس أول جيش مرابطي الى الأندلس اسمه داود ابن عائشة وليس عليا (مترجم) .

(9) يجعل البعض هاته المعركة في السنة السابقة — هكذا ذكر في الهامش ، وهو الصواب ، لأن معركة الزلاقة ، التي يسميها المؤلف سكاليا ، جرت في يوم الجمعة 12 رجب سنة 479 الموافق لتاريخ 23 أكتوبر سنة 1086 . ولا أدل على تحامل المؤلف وتشويهه للتاريخ من كونه يحول هاته المعركة إلى انتصار للنصارى ، مع أن المصادر تجمع كلها على أنها كانت انتصارا كبيرا ليوسف ابن تاشفين (مترجم) .

(10) يحيى .

(11) قرب تطيلة .

(12) قرب موريل .

(13) دون رامير .

(14) ابن عباد .

(15) ابن الحاج — وهو القائد المرابطي الذي كان واليا على بلنسية . إلا أن تاريخ الأحداث عند المؤلف ينطوي على أخطاء .

(16) سنة 1089 .

(17) دون سانشورامير .

على أن يصبح تحت تبعيته. وفي تلك الاثناء، قامت الحرب بين عرب اسبانيا وأمرائها. فاستعاد يحيى بلنسية، (18) ودخل ملك سرقسطة في الحرب مع ملك طرطوشة، بمساعدة السيد ودون الفونسو، في حين كان ملك أراغون (19) وكونت برشلونة في جانب خصمه. وبنى الملك دون سانشو راميرو قصر كاستلار على نهر إبره، على بعد خمسة فراسخ من سرقسطة. ومن ثم استولى على مدن شانتا اوليلي، والمنار، ونافار، ودولون، حيث حدد الحدود وألحق أضرارا كبيرة بأراضي سرقسطة. ومن جهة أخرى، دخل ملك بطليوس الى البرتغال، (20) وإن كان تابعا للملك ألفونسو، الذي حشد جيشه واستولى صلحا على الاشبونة، ثم عاد الى قشتالة، بعد أن تملك كل البلاد التي مرَّ بها . ولكن ملك اشبيلية (21) تدخل في الصلح بينهما على شرط أن يؤدي ملك بطليوس الجزية التي كان مدينا له بها وزف ملك اشبيلية بنته (22) زوجا للملك الفونسو الذي كان أرملا، مع عدد من المدن (23) من مملكة طليطلة كمهر ملكها إياه ، وهذه السيدة التي عمدت قبل العرس، وسميت ايزابلا أو، حسب البعض، مارية ولدت له دون سانشو الذي قتله العرب في معركة وهو ما يزال طفلا. وكانت هاته المدن تؤوى عددا من العرب الذي أصبحوا تابعين للملك مدجنين، حسب الاسم الذي أطلق على العرب الذين أصبحوا من رعايا الامراء النصارى، دون أن يتخلوا عن دينهم، وليس على اليهود كما يظن البعض. وبينما كانت هاته الاحداث جارية بقشتالة، كان ملك أراغون في حرب مع عبد الرحمن، (24) وجاء ليحاصر كيسكار بنجدة من الفرنسيين والكاسكون. لكنه جرح بسهم في أسفل ذراعه، وهو يتعرف على السور ومات يوم رابع يونيو تاركا عرشه لولده دون بيدرو الذي واصل الحصار طول تلك السنة والتي تلتها مع أخيه دون ألفونسو. واستنجد عبد الرحمن بملك سرقسطة الجديد، (25) الذي جاء مسرعا إليه

(18) سنة 1090 .

(19) دون ريموند .

(20) سنة 1093 .

(21) ابن عباد .

(22) زايدة ــ وهنا أيضا اختلاف ودس من المؤلف ، فزايدة لم تكن بنتا لابن عباد ، وانما كانت زوجا للفتح ابن المعتمد بن عباد فرضت عليها ظروف قاسية أن تخضع لالفونسو ، ولم تتزوجه برضى المعتمد ومقابل حلف الفونسو (مترجم) .

(23) قونكة ، سوريتا ، أوكانيا ، كونسويكرة ، الماكرو ، قلعة رباح .

(24) سنة 1094 .

(25) عبد الله المقابل ولد سليمان (كذا) .

مع الكونت دون غرسية دونشار ونصارى آخرين. ولكن الملك دون بيدرو ذهب للقائهم قرب ألكوراس حيث قتل أزيد من ثلاثين ألفا من العرب وأسر الكونت. وقيل إن القديس جورج شوهد في جيش الاراغون، وهو يحارب من أجلهم،(26) ومنذ ذلك الحين اتخذوه وليا لهم. واستسلمت مدينة كيسكار دون إبطاء الى دون بيدرو وانسحب الملك عبد الرحمن مع كل السكان، بعد سنتين من الحصار. وفي السنة التالية ذهب ملك سرقسطة لحصار كيسكار بعد أن انسحب منها دون بيدرو وسرح جنوده ، لكن هذا الملك هب في الحين لنجدتها ودخل بغتة الى معسكرهم وهزمهم وحرر المدينة من الخوف الذي كان ينتابها من الوقوع مرة ثانية في أيدي المسلمين .

وفي نفس الوقت حاصر ملك طرطوشة بلنسية، التي وجه ملكها يطلب في الحين النجدة من الملك الفونسو الذي لم يكن في مستطاعه أن ينجده بالسرعة المطلوبة لأن جيشه كان في خدمة ملك إشبيلية صهره ضدّ ملك غرناطة ، فالتجأ هذا الأخير إلى الملك دون بيدرو والى السيد الذي سطا على عدد من المراكز التي كانت بيد العرب . وبينما كانا يتهيئان لتقديم النجدة، وقع الصلح بينه وبين ملك طرطوشة، بحيث إنهما لما وصلا، وجدا الحصار قد رفع، وظلا اياما يستريحان في ضواحي المدينة. وبينما كانا هنالك، اتفق ملك بلنسية (27) مع السيد ليتلقى عونه ضدا على العرب. ولكن ما أن انسحب النصارى حتى استولى ملك طرطوشة بمساعدة كونت برشلونة (28) على قصر مونفيدرو ورجع لحصار بلنسية التي اضطر للانسحاب عنها عند قدوم السيد. واستولى هذا الأخير على عدد من حصون (29) هذا الامير مما أدى الى قيام المعركة بينهما. وهزم فيها كونت برشلونة الذي هب لنجدة أمير طرطوشة، وقتل أو أسر عدد من أتباعه. وأدت هاته الهزيمة الى موت أمير طرطوشة، (30) من الكمد، وحصل رعاياه بعد وفاته على حماية السيد، مؤدين له نفس الجزية التي كانوا يؤدونها لكونت برشلونة. وكانت الحرب مستعرة جدا

---

(26) سنة 1096 .

(27) يحيى .

(28) دون ريموند .

(29) دانية وغيرها .

(30) ابن الحاج .

بين ملكي اشبيلية وغرناطة، حيث كان جيش ألفونسو ينتصر تحت قيادة دون ألفارو الذي اضطر هذا الامير الى طلب النجدة من افريقيا. وفي تلك الاثناء، ذهب دون ألفونسو بنفسه ليحاصر مدينة أبذة، وبما أنه لم يتمكن من فتحها، فقد رجع ليقضي الشتاء في قشتالة.

بينما كانت هاته الاحداث جارية لم تكن افريقيا أقل تعرضا للحرب من اسبانيا بسبب طموح يوسف، الذي بعد أن سيطر على فاس، وجعل ملوك تلمسان وتونس تحت تبعيته، صار يواصل حربا مستمرة ضدا على العرب المنزوين في جبال وصحاري نوميديا وليبيا. وكانوا يقومون بغارات في بلده، ويضايقون كثيرا سكان البلاد الاصليين. يضاف الى ذلك وجود أماكن منيعة ومدن حصينة في تلك الجبال، كان أسيادها لا يريدون الاعتراف بسلطانه. ولكنه ما أن أتم بناء مدينة مراكش، (31) وقضى عليهم طوعا أو كرها، حتى عزم على الجواز الى اسبانيا، تلبية لطلب ملك غرناطة، الذي اتفق مع غيره من ملوك العرب في البلاد للاعتراف به ملكا عليهم، آملين أن يستعيدوا سطوتهم بمساعدته، وهكذا قبل يوسف عروضهم واجتاز بوغاز جبل طارق، (32) وضم قواته الى قواتهم وتصدى لمحاصرة طليطلة. وما علم الملك ألفونسو بذلك حتى جمع كل النبلاء باستثناء السيد، الذي كان يحارب ملك سرقسطة ليعوقه عن الانضمام الى الامراء العرب الآخرين. وذهب لفك الحصار. إلا أن يوسف لم يجرؤ على انتظاره وانسحب الى غرناطة قبل وصوله، ومن ثم الى المرية دون أن يقوم بشيء يذكر.

ولما رأى ملك سرقسطة ضعف موقفه، وجه الى ألفونسو للاعراب عن احتراماته، ولكنه لم يشأ أن يستقبله ووجه للسيد بأن يواصل الحرب. وبعد انسحاب ألفونسو، توجه يوسف لمهاجمة مدينة مرسية التي كانت في قبضة أمير عربي تابع لملك قشتالة واستولى عليها صلحا، فوجه ولده مع أنشط الجنود لتطويق دون ألفونسو في كونسويكرا بسرعة فائقة الى حد أنه وجد نفسه محاصرا قبل أن يعلم بوصوله. ولدى هاته الانباء هب دون ألفارو مع كل ما أمكنه جمعه من الرجال ورفع الحصار. إلا أن يوسف رأى بعد انسحاب النصارى أن عرب

---

(31) سنة 1097 .
(32) سنة 1098 .

الاندلس ندموا على استدعائه، فاستولى على ممالك مرسية وغرناطة وقرطبة وجيان وعلى قسم من مملكة بلنسية وعاد مع ولده الى إفريقيا، بعد أن ترك ابن أخيه محمد واليا في غيابه مع جزء من الجيش. وفي السنة التالية، دخل الملك دون الفونسو يتبعه ملك اشبيلية العربي والسيد ومعهم عدد من نبلاء النصارى من بادومورادال ونهب أقاليم أندة وباجة وجيان وكل سهل غرناطة. ومن ثم أراد أن يسير الى قرطبة فرغب إليه السكان في أن يعين ملك اشبيلية أميرا عليهم، وكان له ذلك من قبل، وهكذا ملكه قرطبة وغيرها من مدن الاقليم، ورجع منتصرا الى طليطلة.

وفي نفس الوقت جاء جيش بحري من الجنوبيين مشتمل على أربعين سفينة، وهجم على مدينة طرطوشة من جهة البحر، بينما كان ملك أراغون وكونت برشلونة يحاصرانها من البر.ولكنهم تراجعوا كلهم دون أن يقوموا بشيء. ومن جهة أخرى، كان ملك سرقسطة يتخوف من جيش السيد، فجعل نفسه في تبعية دون ألفونسو واقتدى صاحب ركينة بمثاله وكذلك جميع عرب المنطقة.

ما ان عاد يوسف الى إفريقيا، حتى نادى بالجهاد الذي هو بمثابة حرب مقدسة عند المسلمين. ولما جمع عددا كبيرا من الجنود ركب البحر من سبتة ونزل في مالقة، ومن هنالك انتقل الى مدينة غرناطة ثم الى الاندلس حيث التقى بمحمد وذهبوا جميعا لمحاصرة طليطلة بعد أن نهبوا وخربوا. ولما علم دون ألفونسو بالنبأ، وكان آنذاك في نشارة، بادر مسرعا لرفع الحصار. ولكن يوسف لم يجرؤ على انتظاره واستولى على كونسويكرا وحصنها، ومن ثم تراجع الى قرطبة ووجه محمدا مع قسم من الجيش لمحاصرة بلنسية التي استولى عليها وقتل ملكها. (33) ورأى ألفونسو، في تلك الاثناء، أن العدو انسحب الى طليطلة، فقام بنهب كل منطقة أبذة وباجة وجيان ليجتذب يوسف الى القتال، ولكنه انسحب الى بلاد البربر ، بعد أن جعل جيوشه في حالة استراحة شتوية في مواقع الحدود وحاصر دون ألفونسو كونسويكرا، لكنه لم يستطع الاستيلاء عليها وانسحب الى طليطلة. وفي نفس الوقت طرد المقابل، (34) ملك سرقسطة، التابع لالفونسو، السيد من بلده، فسار الى يوبلة واستولى على المنطقة وأخذ كوككلية ثم استصحب عددا من الرجال

(33) يحيى بن علي ميمون ــ لا شك أنه يريد يحيى القادر بن يحيى المامون ، ولكنه كان قبل ذلك التاريخ بعشرين سنة (مترجم) .

(34) اسم محرف إما عن المقتدر بن هود ، والملك الذي كان في التاريخ المشار اليه هو حفيده أحمد المستعين (مترجم) .

المنضمين اليه، فذهب لنجدة يوسف ابن يحيى ملك بلنسية ضدا على المرابطين، الذين كانوا قتلوا والد هذا الملك واستولوا على مدينته. وظهرت منه أفانين من الشجاعة في تلك الحرب حتى طردهم من بلنسية. وبعد أن استخلص من هاته المدينة الجزية مقابل حمايتها، ترك فيها يوسف ملكا عليها وعاد الى يوبلا. ولكن ما أن تم انسحابه ورأى أهل بلنسية أنفسهم أحرارا حتى طردوا يوسف وولوا عليهم أبا القاسم ملكا. فلم علم السيد بثورتهم، رجع اليهم في الحين وحاصر المدينة طوال تسعه أشهر(34) ، مما جعل العرب ينسحبون منها في نهايتها صبيحة عيد القديس يوحنا، فدخل إليها بجنوده ووجه هدايا الى الملك ألفونسو حتى يأذن لرعاياه بالسكنى فيها. فحصلت الموافقة على هاته الرغبة. وفي السنة الموالية، (35) اجتاز جيش قوي للمرابطين من إفريقيا الى اسبانيا وذهب ليحاصر بلنسية مع رؤساء آخرين من البلاد. وكان الهجوم شرسا الى درجة أن السيد وجد نفسه مضطرا للاستنجاد بملك أراغون دون بيدرو فهب هذا الاخير للمكان، وخرج السيد خرجة ضارية الى معسكر العرب فاجبرهم على الفرار. مما اعتبر من قبيل المعجزات لانه كان يحارب بنسبة واحد على مائة. وفي نفس السنة دخل الملك ألفونسو وصهره ملك اشبيلية الى استرامادورة فانتزعا أراضي كثيرة لملك بطليوس سلمها ألفونسو للملك العربي. (36) وفي السنة التالية أراد أن يقطع الطريق على نجدات إفريقيا فتهادن مع يوسف ملتزما بأن يمنحه مدن جبل طارق والجزيرة وطريفة. ولكن ما أن تملكها حتى فسخ الهدنة وانتقل الى اسبانيا بقوات كبيرة وهاجم مملكة أشبيلية. وذهب الملك في الحين لمجابهته مع ملك بطليوس وبعض جنود دون ألفونسو وأجروا معه المعركة قرب شريس على الحدود. فقتل ابن عباد وأسر أولاده مع ملك بطليوس. (37) واستولى يوسف بعد انتصاره على مدن شريس وإستجة واشبيلية وقرطبة وما يتبعها. فأصبح سيدا على الاندلس وعلى مملكة غرناطة الى مرسية ، وبعد ذلك بث جنوده على الحدود وعين ولاته على القلاع وعاد ليقضي الشتاء في بلاد البربر . ولما علم الملك ألفونسو بمجيئه، جمع جنوده لنجدة صهره لكن لما بلغه نبأ مقتله وعودة يوسف الى إفريقيا، دخل الى أرض

---

(34) سنة 1100 .
(35) سنة 1101 .
(36) سنة 1102 .
(37) مرة أخرى نشاهد في مثل هاته الرواية مبلغ جهل المؤلف بالاحداث التاريخية (مترجم) .

العدو واستولى على مدينة سالم ليتخذ منها حصنا واقيا من جهته، ثم عاث في تلك الاراضي وعاد للاستراحة الشتوية في طليطلة. وكان السيد قد مات آنذاك، فدخل المرابطون إلى مملكة بلنسية ، واستولوا على كل المدن ما عدا العاصمة التي لم يكن في طوق ألفونسو نجدتها مما جعل شيمين أرملة السيد تتخلى عنها وهي فارغة من السكان، وتلتجئ هي وأولادها الى قشتالة ولكن ملك سرقسطة [38] استولى عليها وعمرها بالعرب. وفي سنة ألف ومائة وأربع جاء الملك ألفونسو من جهته ، وملك أرغون دون بيدرو من جهته، فعاثا في بلاد هذا الأمير، ثم استولى ألفونسو على لصون وسيكانسا وعاد منتصرا الى قتشالة. وفي نفس السنة مات دون بيدرو صاحب أرغون وترك خلفا له أخاه ألفونسو، بحيث كان هنالك ملكان نصرانيان يحملان هذا الاسم بإسبانيا. وللتمييز بينهما، كان يدعى صاحب قشتالة امبراطورا، وحارب سرقسطة طوال ثلاث سنوات إلى أن أطبق عليها بالحصار بعد أن استولى على تطيلة وطركَونة والقلعة وأيود مع كل الأماكن المجاورة. وفي نفس السنة [39] عبر يوسف الى اسبانيا. ولما كان ملك قشتالة عالما بأنه لابد من أن يجتاز من مضيق مرادل ليصل الى طليطلة، وجه ختنه [40] دون هنرى دوق البرتغال ليحول دون اجتيازه مع قسم من الجيش. ولكنه غلب في سهل قلعة رباح. مما جعل يوسف بهذا الانتصار سيدا على كل البلاد الى قونكة التي استولى عنوة على قصرها، وذهب من بعد لحصار طليطلة، ولدى هاته الأنباء تخلى الفونسو عن حاضرة سرقسطة وجاء لنجدتها فطارد يوسف، الذي كان قد غادر طليطلة واتجه نحو استراعادورة. والتقى الجيشان بين قورية وبطليوس وهزم النصارى لكن ليس بصورة تامة، وان كان ألفونسو جرح ومعسكره أخذ، وانسحب ألفونسو الى قورية بقصد العلاج، فذهب يوسف لحصار بطليوس وحاربها بشدة حتى ألجأها إلى الاستسلام وأصبح سيدا على تلك الدولة بكاملها. وعاد الفونسو على اثر ذلك الى طليطلة، وحاصر يوسف قورية التي استسلمت له صلحا، وكذلك استولى على الاشبونة. ولما كان الشتاء قريبا، فانه رجع الى قرطبة ومن هناك الى بلاد البربر . وحينئذ جمع الفونسو جيوشه وجيوش الأمراء النصارى الآخرين وذهب الى

---

(38) المقابل — كذا في الهامش .

(39) سنة 1107 .

(40) في النص أخوه ، ولكن وقع تصحيحه .

كونسويكرا حيث كان الملك عبد الله يحكم. ولم يجرؤ هذا على انتظاره وانسحب الى قرطبة، حيث تبعه الملك دون ألفونسو وحاصر المدنية، ودخل معه عبد الله في القتال، فغلب وأسر مع الرؤساء الآخرين الذين قام الفونسو بشنقهم. ثم دخل الى المدينة التي انقادت له صلحا، فأخذ عهد الولاء على السكان (41) وفي سنة ألف ومائة وثمان عاد يوسف الى اسبانيا واستولى على قرطبة، ثم رجع الى افريقيا، ولكن ما أن انصرف حتى عاد الفونسو الى الاندلس بجيش قوي وأجبر مدينتي قرطبة واشبيلية أن يكون ملكا عليهما ولدان لابن عباد،(42) ومدينتي غرناطة وجيان على أن تكونا تابعتين له. وفي نفس الوقت ذهب ملك اشبيلية الذي كان صهرا لالفونسو لتطويق مدينتي الجزيرة الخضراء وجبل طارق، وكانتا في حيازة يوسف، فاستولى عليهما. ومن جهة أخرى، حشد الفونسو جيشا بحريا وسار نحو بلاد البربر والتقى بيوسف في عرض البحر مع جيشه، فأغرق له عشر سفن، ولما وصل الى الشاطىء، وجه إليه يوسف يطلب منه المهادنة، فأجابه بأنه قابل، اذن، لأداء الجزية. فاستشاط يوسف غضبا ووجه له رسالة يتحداه وأقسم بأنه سيخرب كل بلاد النصارى. وعاد الفونسو الى اسبانيا دون أن يقوم بشيء يذكر. وجمع يوسف جيشه ودخل الى اسبانيا في سنة ألف ومائة وتسع . ولدى هاته الانباء، جمع الفونسو بقلعة رباح كل الرؤساء العرب الموالين له، وأصدر أوامره بكل ما كان يقتضيه المقام وذهب لقضاء الشتاء في طليطلة. وفي تلك الاثناء، نزل يوسف بمالقه وذهب ليحاصر قرطبة، وباتصالات سرية موفقة مع العرب الحاكمين في مدن الاندلس، استطاع أن يصل الى قلعة رباح ويذهب لحصار طليطلة قبل أن يجمع الفونسو جيشه. وحينئذ اجتمع الامراء النصارى (43) تحت قيادة دون سانشو، ولده الاوحد لنجدتها. ولما علم يوسف بذلك بدأ يتراجع، ولكنهم تابعوه بإلحاح حتى اظطر لاجراء القتال معهم، فغلبوا وقتل الامير دون سانشو (44) ومعه مربيه الكونت دوم غرسية دوگرينيون، وستة كونتات آخرين، (45) بالاضافة الى عدد آخر من ذوي الحيثيات. وسميت هاته الواقعة معركة الكونتات السبعة، ويذكر طارق المؤرخ

---

(41) الذين أصبحوا تابعين له .

(42) ابن عباد وقاسم .

(43) أمراء إسبانيا .

(44) قرب أوديسي في 39 مايو .

(45) الكونت كارسي فرنانديز ، الكونت مارتان ، الكونت كومير ، الكونت دون سانشو ، حفيد السيد الخ ....

العربي المشهور أنها جرت في جبل الزلاقة وأنه مات فيها خمسة وثلاثون ألفا من النصارى، مما أحزن الفونسو حزنا كبيرا حتى مات كمدا قبل نهاية السنة، (46) وبعد وفاته، تولى العرش دون الفونسو، ملك أراغون، الذي كان تزوج ابنته. ويسمى المؤرخون العرب الذين تحدثوا عن هذا الموضوع النصارى الالفونسيين، تذكيرا بأولئك الأمراء الشجعان. وبعد أن ورثت دونافراكا العرش إثر وفاة أبيها، سواء أكان تزوجها الفونسو من قبل أو في ذلك الظرف بالذات، فقد وقعت اضطرابات كبيرة باسبانيا، ومات يوسف إثر المرض في تلك الاثناء بمراكش التي عاد اليها بعد المعركة، وتولى مكانه ولده علي (47).

الاستيلاء على الارض المقدسة :

واذا عدنا إلى آسيا، ذكرنا كيف أن السلطان أكسان (48) بسبب الصلح الذي أبرمه مع قوت لوم (49) ، تخلى له عن كباد وسيا وغيرها من الاقاليم الراجعة الى القسطنطينية مع لقب سلطان، وكيف احتفظ لنفسه بمملكة الفرس وبابل مع لقب ملك وجعل دوكات (50) في دمشق لمحاربة خليفة مصر الذي كان يعتبره ضالا، وأعطى لسنكين (51) مدينة حلب ، ولسليمان نيقية، ولاشيان، (52) أنطاكية، وكلهم أولاد أخيه. وكان لسلطان كباد وسيا عدة حروب مع النصارى، فاستولى حاكم حلب على مملكة دمشق، وترك ولده نور الدين خلفا له، فكانت له عدة صراعات مع ملوك القدس. وكانت المدينة المقدسة آنذاك في ملكية الأتراك (53)، وكان النصارى القاطنون بها وبغيرها من الأماكن الخاضعة للأتراك يعاملون معاملة أسوأ مما كان عليه الحال مع العرب، فجاء متنسك مسيحي فرنسي مر من هنالك الى البابا أوربان الثاني وتشكى له من ذلك فجمع البابا مجمعا كنسيا في كليرمون بأوفيرن، وحض المسيحيين على المشاركة في عمل مقدس وأعلن الحرب الصليبية

---

(46) 11 شهرا ، اخرها يونيو .

(47) سنه 1110 .

(48) لعله يقصد أرسلان السلجوقي (مترجم) .

(49) لعله يقصد قتلمش جد سلاجقة الأناضول (مترجم) .

(50) المقصود ، ولا شك ، دقاق بن تتش الذي ينتمي لسلاجقة الشام (مترجم) .

(51) يقصد عماد الدين زنكى (مترجم) .

(52) لم نهتد لحقيقة هذا الاسم . فهل يقصد أرسلان ؟ (مترجم)

(53) ظلوا بها 87 سنة .

على مملكة سوريا (54)، وبدأ النصارى يتحركون من كل الجهات تجاه آسيا، تحت قيادة كودفروادو بويون، وأوستاش، وبودوان، وإخوته رمد ريموند، وورربت، وكونتي فلاندر، وهوج الملقب بالكبير، أخي فليبب ملك فرنسا، واتيان دوفالوا، كونت شارتر، وجوتيي دوسان سيفران، أسقف بُو (55) وبطرس المتنسك المتسبب في هاته الحملة، ويقال إنهم كانوا خمسمائة ألف رجل دخلوا أراضي المسلمين، فكانت لهم عدة معارك مع أتراك آسيا وعرب مصر. وسار قسم منهم إلى تيقيا، مدينة بيتنيا، وآخر إلى أنطاكية على نهر العاصي، (56) حيث كان القديس بطرس جعل مقره قبل أن يقدم الى روما، وكان القديس لوقا كتب انجيله، وكانت على أربعة فراسخ من البحر وتحت سيطرة الاتراك منذ أربع عشرة سنة. وذهب قسم ثالث إلى القدس حيث اسسوا مملكة نصرانية بعد إراقة دماء كثيرة، وذهب الباقي إلى أماكن أخرى. وكان اليكسيس هو امبراطور القسطنطينية، وكان في حالة مهادنة مع بلكيوراك (57) الذي كان على رأس مملكة الفرس بعد وفاة أكسان، وسليمان صاحب كباد وسيا ومايتبعها من أقاليم (58) فكان سلطان الغرب، كما كان الآخر سلطان الشرق. وما أن وصل الجيش المسيحي إلى آسيا حتى هزم الاتراك الكونت ريموند الذي تهور في الدخول الى أراضي نيقية، وأجبروه على الفرار الى مكان خال، (59) حيث طوقوه من كل جهة فاظطر الى الاستسلام مع ما بقي له من جنود، وكان عددهم قليلا، فقد هلك الباقي في معارك مختلفة، وجزء منه مات من الجوع أو أخذ وذبح بدون رحمة. وذهب قسم من الجيش، أولا، إلى نيكومديا (60) ومن هنالك جاز إلى نيقية وبدأ في حربها فجاء سليمان بغتة ليهاجمه من جهة منطقة اسقف بيي، ولكن ذلك لم يفده شيئا ، لأن الفرنسيين قاوموه بشجاعة وأكرهوه على الانسجاب بحيث إن المدينة لم تتلق أي نجدة وأخذت. وبعد ذلك جرى القتال الظافر على بعد أربعة أيام من هنالك مع سليمان الذي كان جر كل قوات

(54) سنة 1096 أو 1090 حسب بعض الروايات .
(55) أوبيي .
(56) سابقا ريلاطا .
(57) بركيارق بن ملكشاة الملك السلجوقي (مترجم) .
(58) أوتنيسمان .
(59) ايفورك .
(60) مدينة في بيثينيا .

الشرق لنجدته. فأخذت ايقونية (61) قرب جبل طوروس، وكانت هي العاصمة، وعاصمة أمراء فريجيا وهرقل (62). ومن هنالك توزع الجيش إلى ثلاثة أقسام، فدخل بودوان الى كليكية واستولى عل طرسوس والرها ومانوس. وجعل قسم آخر من الجيش الأرمني بالمير سيدا على ارمينية، ثم استولوا على عبدوسية وقيصرية وسرووجية وسورة في مضيق جبل طوروس. وما أن قطع الاتراك هذا الجبل حتى وجدوا أنفسهم في الجهة الاخرى من السهل وهزموا. وبعد ذلك وقع السير قدما إلى أنطاكيه (63) التي استسلمت صلحا، ولكن بعد هزيمة الأتراك الذين هبوا لانقاذها وفقدوا أربعين ألف رجل وخمسة عشر ألف نجيب. ومن جهة أخرى جاء البندقيون باسطول من مائتي سفينة واستولوا على إزمير في شاطىء إيونيا (64). وبعد أن استولى اللاتينيون على أنطاكية أخذوا روجيا والباية حيث قضوا الشتاء، وما أن أقبل الربيع حتى عادوا إلى التحرك فهاجموا طرطوز ثم طرابلس الشام (65)، ودافعت إحداهما بشجاعة عن نفسها، بينما قبلت الأخرى دفع الجزية. وبعد ذلك اجتازوا انهار زبول وزباروبراي، فوصلوا الى بيروت عن طرق صعبة وخطيرة والى ساجت من بيروت. ومن هناك وصلوا في ظرف عشرة أيام الى قيصرية، ومن هناك الى رامة ثم الى القدس التي حاصروها، ثم أخذوها عنوة(66)، بعد مقاومة شديدة، وكان كود فروا دوبويون أول من دخل إليها فنودى به ملكا عليها. وأثار هذا الفتح الرعب في قلوب المسلمين حتى إن الاتراك والمصريين تحالفوا جميعا على استرجاعها. ولكن كود فوروا هزمهم قرب عسقلان وقتل منهم أزيد من خمسين ألف رجل (67). وكانت بحرية البندقية في تلك الأثناء تهاجم شواطى ليسيا وبامغيليا وكيليكيا وسوريا، وبعد أن نزل جندها في يوب أويافا التي كان النصارى قد أخذوها لتسهيل الحصول على النجدة والمؤن استولوا على عسقلان وبوفيريا وطبرية، وكلها مدن بحرية، وعلى إثر ذلك توفي كود فروا، مما تسبب في انسحاب عدد من أمراء النصارى لاستيائهم من انتخاب أخيه بودوان (68) الذي استولى من بعد على

(66) سنة 1099 أو 1100 . ويؤرخ مخطوط اسباني لذلك بسنة 1091 .
(67) عرب مصر .
(68) سنة 1101 .
(61) أسمها اليوم قونية .
(62) كورمانيا ، اليوم .
(63) مدينة فينيقية على نهر العاصي .
(64) مات بها أربعون ألف جمل .
(65) مدينة بحرية .

بطليمويد، بمساعدة البندقيين والجنويين وبويموند الذي كان يسمى نفسه ملك أنطاكيه. فاستولى أيضا على صيدا وبيروت بفينيقيا. وبعد ذلك مات بويموند، فتولى مكانه أخوه طانكريد. وانضم الاتراك إلى خليفة مصر وزحفوا نحو القدس، إلا أن بودوان ناشبهم المعركة بمعاونة طانكريد، فهزم وتكبد خسارة كبيرة، واستولى الأتراك على جبل سيناء. ومات بعد ذلك بقليل، فانتخب مكانه بود وان آخر ملكا. وخشي هذا الأخير من قوة المسلمين فطلب النجدة من الأمراء النصارى. ولم تكن مساعدة امبراطور القسطنطينية في المستوى. إلا أن كيوم دوق أكيتانيا (69) وهوك أخا الملك فليبب، وإتيان كونت شارتر، وإتيان غيره كونت بوركون وتولوزة تسارعوا إليه بمشقة، وعند صولهم وجدوا أن المعركة جرت مع الأتراك، وأن بودوان غلب وأخذ أسيرا ثم افتدي بالمال. وفي تلك الاثناء ناشب البندقيون المعركة في البحر مع خليفة مصر، فأخذوا منه سبعمائة سفينة من مرسى يافا، ثم حاصروا صور. ويقال إنه أثناء ذلك الحصار قبض الجند على حمامة كانت تطير فوق رؤوسهم وفي عنقها بطاقة مربوطة (70) وهي عبارة عن كتاب من ملك دمشق يَعِدُ أهل صور بالنجدة ويحثهم على الصمود، فوضع الجندي مكانها أخرى تقول العكس. فكان ذلك سببا في استسلام المدينة. وعلى إثر ذلك خرج بويموند ملك بوي من إيطالياوركب البحر مع جيشه ووصل إلى القسطنطينية فاستحلفه الامبراطور بأنه لا يحمل السلاح عليه، إلا أنه رجع عن قسمه بعد ذلك، وخشي أن يقبض عليه، فأمر بأن يوخذ في صندوق من الخشب على شكل تابوت، كانه ميت ، وهكذا فر إلى بلده. ومنذ ذلك الحين عاد بجيشه وحاصر مدينة دورازوا، ولما لم يستطع الاستيلاء عليها، تصالح معها وفي آخر عهد الامبراطور «ألكسيس» جمع الأتراك، وقد انتصروا على بودوان، جيشا قويا ليدخلو إلى أقاليم الامبراطورية. فوجه لهم الامبراطور «أوستاش كانيز» فلحقت به الهزيمة وأسر فاظطر الامبراطور الى أن يسير إليهم بنفسه ، لكن الأعداء كانوا قد انسحبوا . وبعد ذلك بقليل خرج في جيشه بقصد مطاردتهم فاستولى على فيلومليا التي كانوا تخلوا عنها عندما علموا بمجيئه ، وأخذ أماكن أخرى، ثم عاد الى القسطنطينية، حيث جاء اليه سلطان الغرب، (71) وعقد الهدنة معه.

(69) أوكوين .

(70) يقال انهم أسقطوها بسهامهم .

(71) سلطان كباضوسيا أو ايقونية .

وكان يوجد آنذاك فيما بين العرب والأتراك جنس أوأمة أو مذهب للحشاشين، وهكذا كان اسمهم، لأنهم كانوا يرتكبون كثيرا من القتل وضروبا من السلب والنهب، وكان مؤسس نحلتهم عربيا يدعى علاء الدين أو مصلح الشريعة (72)، وكان يقطن بطرف الفرس من جهة الهند في سفح جبل القوقاز، ويذكر أريان شعوبا (73) بهذا الاسم في تاريخ الاسكندر، ويجعل موقعهم بين نهر الأندوس والكوف. وفي هذا البلد، على ما يقال، نقلت قبائل إسرائيل العشر، وفيه شيد علاء الدين المذكور قصرا فخما في واد جميل محصنا بالطبيعة والفن، ووفر فيه بكثرة كل أنواع الملذات الحسية حتى يوهم شعوب تلك الأصقاع أنه قادر على أن يرفعهم الى السعادة الابدية (74). وكان يأخذ من هنالك كل الأفراد الذين يرغب في تسخيرهم في مشاريعه الكبرى. وكان هؤلاء أجمل الشبان. وبعد أن ينفق عليهم زمانا في الملذات، يخدرهم بمشروب يتناولونه، ثم يحملهم وهم في حال غيبوبة الى الخارج ويعلمهم أنهم كانوا قبل ذلك في جنة محمد، وأنهم سيعودون إليها حينما يموتون في طاعة أوامره، فكان ذلك سببا في جعلهم يستهينون بكل مخاطر الحياة، فيذهبون لقتل كل من أمرهم بقتله دون خوف. وبلغت هاته الفرقة من القوة حتى تكاثر أعضاؤها بسوريا فصار عددهم ستين ألفا وكأنهم فرقة تنتمي للفروسية . وكان رئيسهم الأكبر هنالك يدعى سكسمونسيوس (75) ويقطن بدمسق في دير فخم. وكان هنالك كثير غيرهم في أماكن مختلفة وجنتهم تدعى تيكاد (76). وقد هاجم هؤلاء العفاريت النصارى في كل آسيا ، و تسببوا في سرقتهم وغدرهم، لأن كل نشاطهم كان موجها ضدا على النصارى، إلا أن التتار قضوا عليهم، وهدمت الاماكن التي كانوا يأوون اليها، وكذلك القلعة التي كانوا يقيمون بها مستمعين بالملاذ. ذلك هو تاريخ الذين دعوا غلطا باسم الارزاسيين، والذين يسميهم العرب بالغزاة ولم يبق لهم أي أثر. ولنرجع الآن إلى تاريخنا.

---

(72) هذا هو الاسم الذي كان يطلق على شيخ هاته الطائفة حسب ماركوبولو ، وهو يقصد به داعي الدعاة في الموت ، وإلا فإن مؤسس الطريقة هو الحسن الصباح الحميدي (مترجم) .

(73) الساسانيون قرب أريان ، واسمها اليوم ملهر — كذا في الهامش .

(74) اجملت هنا في كلمة ما ذكره المؤلف باطناب من الغرائب .

(75) لا شك أن الكلمة ترجمة للفظة شيخ الجبل التي أطلقها الصليبيون على رئيس الدعوة النزارية بسوريا (مترجم) .

(76) اسم لم نهتد إلى حقيقته (مترجم) .

الفصل الثاني والثلاثون

علي بن يوسف، ثالث ملوك المغرب المرابطين
وما جرى عهـــــده

بمجرد أن تولى علي بن يوسف الملك (1) أمر ببناء المسجد الأعظم بمراكش وغيره من البناءات البديعة. وفي تلك الأثناء كان ألفونسو ملك أراغون يحاصر بلنسية التي استسلمت اليه ونال عدة انتصارات على عرب اسبانيا. وبعد أن استولى على عدد من المدن (2)، هزم ملك سرقسطة وأجبر المسلمين في كل تلك الأقاليم على الاعتراف به ملكا عليهم. ولكن الانقسام دب في الحين بين الأمراء النصارى، ووجد فيها العرب فرصة سانحة للاستنجاد بعلي الذي جاء بنفسه على رأس جيش قوي (3) ودخل الى مملكة طليطلة مصحوبا بعرب إسبانيا، وحاصر مونصانت، واستولى على اوريشة عنوة. لكن الفونسو هب لنجدة مونصانت، مما جعله ينسحب إلى قرطبة ومن هنالك الى بلاد البربر ، دون القيام بشيء يذكر. واجتاز في السنة التالية إلى اسبانيا، فوجد الحرب على أشدها بين الأمراء النصارى، فحاصر مدينة طليطلة، وهاجم أرباضها، وعاث في كل البلاد المحيطة بها ورجع من هنالك بالأسرى (4)

وعلى إثر ذلك، استولى أصحاب بيزة وجنوة، وكانوا أقوياء في البحر، بمساعدة القطلانيين على جزيرتي ميورقة ومينورقة، وبعد أن قتلوا ملك الأولى، أخذوا زوجته وولده الذي اعتنق المسيحية وأصبح منذ ذلك شماسا في بيزة، ثم أعيد بعد ذلك على رأس مملكة أبيه. وبينما كان كونت برشلونة منشغلا بهاته الحرب، ثار

---

(1) سنة 1110 .
(2) طرسونة ، قلعة أيوب ، تطيلة .
(3) سنة 1113 .
(4) بسيناس ، كفافياس ، ماجان ، أماكن سكّرا .

رعاياه من العرب وانضموا إلى علي. ولما علم بذلك، رجع الى برشلونة فجمع جنده وشهر عليهم الحرب ، ولم يظهر بوضوح من تحقق له النصر فيها. وكان علي في تلك الأثناء محاصرالطليطلة، ولما رأى بعد تكرار الهجمات عليها أنه لا يستطيع التغلب عليها، رفع الحصار وعاد لقضاء الشتاء بقرطبة. وبينما كان يتهيأ ليعود إليها في الربيع، حصل الفونسو من البابا (5) على حملة صليبية، فدخل بجيش قوي الى بلاد العرب واستولى عنوة على مدينة موريلا، فجاء إليه بعد ذلك علي بكل قوات الأندلس، وناشبه المعركة، فغلب وقتل مع أكثر من ثلاثين الفا من العرب. ومن استطاع منهم الافلات عادوا الى بلاد البربر، حيث بايعوا ولده إبراهيم ملكا عليهم، وكان الملك ماقبل الأخير من المرابطين (6) .

آســـيـــا

وفي تلك الآونة، كان الملك على القسطنطينية هو يوحنا ابن ألكسيس، الذي حقق انتصارات عديدة على أتراك الفرس، واستولى على مدينة اللاذقية بفريجية وحصنها. ومن هنالك انتقل الى سوزبولي (7) التي كانت محصنة محروسة جدا، فوجه اليها من يناوش حاميتها واستدرجها الى كمين، فباشر فيها مقتلة كبيرة ودخل المدينة، واستولى بعد ذلك على القصر الذي كان يسمى رأس العقاب، واستسلمت معه عدة مدن مجاورة، وبعد ذلك، توغل في بيثينيا وبفلاكونية، واستولى في الحين على مدينة قسطمون حيث كان يحكم شريف فارسي فذهب لطلب النجدة من سلطان كبادوسيا، واسترجعها حينما انسحب الامبراطور الى القسطنطينية. ولكنه عاد اليها عند بزوغ ربيع السنة التالية، فعلم بأن الشريف مات (8) وأن الذي أصبح ملكا محله كان عدوا لمسعود الحاكم في ايقونية، فاتفق مع هذا الأخير وضم اليه قواته للقيام بمحاربته، ولكن سلطان كباد وسيا شعر بضعفه فتصالح مع مسعود، شريطة أن ينفصل عن الامبراطور، ففعل ذلك . فما كان من الامبراطور إلا ان هاجم السلطان، بقواته وحدها، بعد أن سحب رجاله، فاستولى على مدينة قسطمون، ومن هنالك اجتاز الى زنجر من أجمل مدن البونت ودخل

(5) باسكال الثاني .
(6) هذا بالطبع خطأ فادح من مارمول ، إذ طل عليٌّ في الملك إلى سنة 1143 . والذي خلفه هو تاشفين لا إبراهيم (مترجم) .
(7) من مدن بمفيلية .
(8) محمد خلف سليمان أو تنيسمان ـــ كذا بالهامش .

أولا إلى أرباضها، ثم استولى عليها صلحا بعد هجمات متكررة، وترك فيها ألفين من الجنود كحامية لها وعاد الى القسطنطينية، ولكنها لم تبق طويلا في يده. فما أن غادرها حتى جاء الاتراك وحاصروها وأخذوها بالتجويع، بينما كان هو مشتغلا في جهة أخرى. وانتقل الإمبراطور بعد ذلك إلى كيليكية، وانتزع من يد الأعداء أدنة وطرسوس وأنابرس وقلعة باكا. ثم انضم الى رجال ريموند الذي كان بأنطاكية (9) فواصل طريقه في سوريا الفنيقية التي كانت بيد العرب . ولما وصل إل الفرات هاجم مدينة بيز (10) التي دافعت عن نفسها جيدا، ولكنه ضيق عليها كثيرا حتى أرغمها على الاستسلام صلحا، شريطة أن يذهب عنها السكان إلى حيث شاؤوا. ومن هنالك قطع الفرات، فخرب الأماكن التي كانت موجودة بالضفة الأخرى من النهر. وقام بتخريبات في كل الجهات، ثم ترك مدينة بيز لكونت الرها، واجتاز من بنيزو ذاهبا لمهاجمة حلب ولكن قبل أن يصل اليها، اجرى الأعداء معه الحرب فغلبوا وطوردوا الى المدينة . وفي الحين جاء الامبراطور ليحاصرها ونظرا لمناعة المكان ولصعوبة التفكير في أخذها بالقوة، لأنها كانت مدججة بعدد كبير من الجنود، ولكونه لم يكن مزودا بما يكفي من الماء والخشب والأقوات، فقد رفع الحصار واجتاز الى فاراب، فاستولى عليها كلية وسلمها إلى ريموند ومن ثم تقدم إلى كفرد (11) من أهم حصون الاقليم، فاستولى عليه، وزحف الى إيستريا القريبة من زيزرى الملاى بكل الخيرات، فتركها نهبا للسيت الذين استولوا عليها. ثم اجتاز بعذ ذلك إلى زيزرى فوجد كل الأتراك والعرب في تلك النواحي، اجتمعوا لنجدتها، وأن السكان أدخلوا جملة كبيرة من الخيل إلى المدينة. وعليها قطعوا النهر ليحولوا دون اجتياز النصارى ولكن، بما أنهم غلبوا، فانهم انسحبوا دون أن يحاولوا البروز إلا من وراء سور حصين ما كان ليفيدهم من حماية ما حوله من الاحراق، وأراد الامبراطور أن يمنع عليهم الخروج. فقسم جيشه الى أربع فرق (12) ليتم التعاون فيما بينها، الشيء الذي أدخل الرعب في قلوب الأعداء وجعلهم يتجنبون الخروج من المدينة ويقبعون في وسطها. وعلم الامبراطور على إثر ذلك بأن اتراك الفرس كانو

(9) أنطاكية على نهر العصي .

(13) ولدا اتاكبة وسوموك الذي كان يحكم حلب (كذا) بالهامش ، ولعله يقصد ولد أحد الاتابكة الذين كانوا حاكمين بالمدينة ، وأما الاسم الثاني فمن الصعب التعرف عليه : هل يقصد أحد بني سلدق الذين كانوا بأرض روم ، أو عز الدين سلوق بن علي الذي ينتمي لنفس الاسرة ؟ ومهما يكن ، فالخلط بين في مثل هذا الكلام (مترجم) .

(14) مسعـود .

يحاصرون مدينة الرها وأنها على وشك السقوط إذا لم تقع نجدتها. فأزعجه هذا النبأ المصحوب بالهدايا الموجهة اليه من لدن المحاصرين، ومن بينها صليب ثمين كان يملكه الامبراطور ديوجين، إلى رفع الحصار والتوجه في طريق انطاكية. وهاجم الأتراك مؤخرته إلا انهم هزموا وتركو رئيسين لهم في الأسر (13) ولما وصل الامبراطور الى انطاكية، سلك الطريق نحو القسطنطينية بعدما وجه فريقا من جنده لمحاربة سلطان ايقونية (14) الذي كان قام بعمليات نهب كبيرة في سوريا أثناء غيابه، وبفضل انهزامه رفع الحصار عن الرها، بحيث ظل النصارى هم سادة الموقف، بفضل السلوك الحسن لهذا الامبراطور، الذي سنتحدث عن فتوحه فيما بعد.

---

(10) لست أدري هل هي مدينة بيسان الواقعة بين بيت المقدس وياف . ولكن المدينة التي يتحدث عنها توجد على نهر الفرات ولعله يقصد بيش الواقعة ببلاد الروم (مترجم) .

(11) لعلها كفرتوتا التي هي من كور نصيبين بديار ربيعة . (مترجم) .

(12) واحدة من المقدونيين ، والثانية من السيت ، والثالثة من اليونان واللاتينيين ، والرابعة من الفرس .

الفصل الثالث والثلاثون

ابراهيم بن علي، آخر ملوك مراكش، من دولة المرابطين وما جرى في عهده

إفريقيا : تولى ابراهيم مملكة أبيه وجده وأكّد الولاية لمن كانوا يحكمون باسمه أقاليم افريقية الشرقية ونوميديا، وبويع كملك بلقب آمير المومنين (15). وكان عرب تونس في تلك الآونة متضايقين من جيش للنصارى قدم من ايطاليا إلى مدينة مهدية التي كانت في حوزة الايطاليين، وإن كان مؤرخونا يسكتون عن ذلك ولكن عبد الملك يقول في أخبار المغرب بأن الروم ــ هكذا يسمى الكتاب العرب نصارى إيطاليا، كما يسمون نصارى قشتالة فونسيس (16) ونصارى البرتغال شموريس، ونصارى اليونان النصارى أو القيصريين (17) والفرنسيين الفرنج - لما نزلوا بمهدية قاموا باتلافات كثيرة على طول الساحل، ومن هنالك ذهبوا إلى القيروان تحت قيادة فقيه وعدهم بأن يسلم المدينة اليهم، على شرط أن يتركوا له الولاية عليها. ولم يسيروا أكثر من يومين حتى وجدوا العرب على أهبة الحرب، وانضم الفقيه اليهم. وانقضوا بجمعهم على النصارى فقتلوا منهم سبعة آلاف ثم حاصروا بعد ذلك مهدية حيث التجأ الهاربون . ولكن بما أنهم لم يستطيعوا الاستيلاء عليها ، رفعوا الحصار عنها . وازداد الفقيه (18) سطوة بهذا الانتصار . فشهر الحرب على المرابطين ولكنه هزم واضطر للهرب الى نوميديا ، وقبض عليه الشيخ في بسكرة ، وكان من أسرة ابراهيم فسمل عينه ووضعه في مطبق حيث مات . وهذا أهم ما حدث بافريقيا .

---

(15) انه يخلط بين هذا اللقب ولقب أمير المسلمين ، وكلاهما يفيدان شيئا واحدا (مترجم) .

(16) لعدد من تسمى ألفونسو من ملوكهم ــ كذا بالهامش والأصل . ولا أعرف مصدرا عربيا استعمل هاته التسمية (مترجم) .

(17) بسبب الامبراطورية التي كان على رأسها قيصر .

(18) عبد الغني .

إسبانيا :

وفي اسبانيا لما بلغت الأنباء بوفاة علي (19) وضع الملك الفونسو الحصار علي كاستيلار، وجاء ملك سرقسطة لنجدتها فهزم وحوصرت بعد ذلك سرقسطة واستسلمت في شهر دجنبر، وتسمى ولاة الأندلس كلهم ملوكا وأمراء. وقام ابن حميده (20) مع ممالك غرناطة وجيان والمرية ومرسية، ولما علم أن الفونسو قد استولى على سرقسطة، هب ليحاصر تلك المدينة مع ملوك آخرين من العرب، ولكن الفونسو ناشبه القتال وغلبه (21) بحيث إنه فقد عددا من أشراف قومه وولده، واستولى الغالب على عدد من المدن (22) وفي السنة الموالية، توغل في أقاليم لارده وطرطوشة فاستنجدتا بابن حميدة الذي جاء مع أحد عشر ملكا عربيا وتكبد الهزيمة (23) واستولى الفونسو، بعد انتصاره على مدينة أرانصويل صلحا، ثم عدا الى سرقسطة حيث وجه اليه ملكا لاردة وطرطوشة يطلبان منه المهادنة التي منحهم إياها لمدة ثلاث سنوات مقابل أداء جزية. ولما انتهت فترة الهدنة، دخل الفونسو على رأس جيش كبير إلى مملكة مرسية (24) التي استسلمت عاصمتها بعد الاستيلاء على بينيا كادييلا، ثم انتقل الى المرية حيث دخل معه ابن حميدة في القتال وغلب، واتجه بعد ذلك إلى قرطبة فخرج لملاقاته لوط الذي كان تولى الملك فيها، وقبل أن يدخل في تبعيته وعاد منتصرا الى طليطلة. وماتت زوجته (25) على إثر تلك الأحداث، فاظطر لأن يتخلى عن ممالك قشتالة وليون إلى ولده الفونسو الثامن الذي دعي الامبراطور. ومنذ ذلك الحين والى سنة ألف ومائة واثنيتن وثلاثين جرت حروب كبرى بين المسيحيين (26) ولكن بما أن المسلمين لم يكونوا متفقين فيما بينهم، فإنهم لم يستطيعوا استغلال تلك الخلافات ولم يستنكفوا عن قتل الأسقف إتيان والفيكونت دون كَاسكون (27). وفي سنة ألف ومائة واثنتين وثلاثين

---

(19) سنة 1118 .
(20) أو ابن كامة — كذا بالأصل والهامش ، والظاهر أنه تحريف لاسم ابن حمدين القاضي . (مترجم)
(21) قرب دروقة .
(22) حارثة ، دروقة ، طركونة ، قلعة أيوب ، تطيلة ، سورية .
(23) سنة 1121 .
(24) 1125 .
(25) دونا فراكا ، وريثة تلك البلاد .
(26) سنة 1127 .
(27) اصطفـان .

وجه دون ألفونسو جيشه ضد أصحاب بطليوس واشبيلية بقيادة كونز الى دي لارا الذي ناشبهم المعركة وغلبهم، ولما كان راجعا مثقلا بالغنائم، هاجمه ملك بطليوس الذي كان جمع جنوده، ولكن هذا الملك هزم وقتل، بينما عاد كونزالي مكللا بالنصر الى قشتالة[28]. وفي نفس الوقت، قام سيفادال ابن لوط[29] ملك قرطبة، المؤيد من لدن ألفونسو، بمحاربة ابن حميدة، وانتزع من يده غرناطة. ولكن ابن حميدة والامراء الأندلسيين الآخرين بعثوا إلى إبراهيم بإفريقية يطلبون منه النجدة، وحصلوا عليها بشرط أن يؤدُّوا ثمنها. واستأسد ابن حميدة بسبب تلك النجدة، فشهر الحرب على سيفادال، الذي أصبح سيدا على جيان، وأخذ له قرطبة وأماكن أخرى من مملكتها. ولما رأى سيفادال ما حصل له، التجأ الى الفونسو الذي انضم اليه بحيث إنهما هجما في السنة التالية على ابن حميدة وأتلفا بلاده. ولكنه واعد سيفادال أن يرد له ما كان أخذ منه، بشرط أن لا يمد الفونسو بالتموين والعتاد. واظطر الفونسو بسبب ذلك للعودة إلى طليطلة. وفي الحين اتفق الملوك العرب باسبانيا على تكوين عصبة فيما بينهم، وأدخل فيها ملك لاردة وغيره من الملوك التابعين لألفونسو ملك أراغون. ولما رأى هذا الأخير ما حدث، جمع جيشه في سرقسطة ودخل الى كورة لاردة، فاستولى على مكناس وغيرها من الحصون[30] وحاصر فراغة التي لم يتمكن من إخضاعها. ولكن عاد إليها في السنة التالية.[31] ولكي يصرفه عنها جمع ابن حميدة جيوش العصبة والمرابطين، وبمساعدة سكان بلنسية، استولى على القصر ومشى نحو فراغة، وخاض المعركة ضد دون ألفونسو الذي غلب بسبب قلة جيشه بالقياس إلى جيش العدو. ومات في المعركة[32]. وبعد موته تولى خلفا له ألفونسو الثامن، ملك قشتالة، الشيء الذي أدى إلى عدد من الحروب وإلى انقسامات بين النصارى، لم يسلم منها حتى العرب أنفسهم، ذلك أن ابن حميدة دخله الغرور من انتصاره فأراد من أقرانه أن يسلموا له

---

(28) عمـر.

(29) لاشك أنه يقصد سيف الدولة بن هود الذي تسميه الرواية اللاتينية « سفا دولا » Zafadola . وأما لوط ، فهو تحريف لكلمة هود ، ويخطىء المؤلف عندما يقول إنه كان ملكا على قرطبة ، في حين كانت دولته بشرق الاندلس (مترجم) .

(30) سنة 1136 .

(31) 1137 .

(32) 7 يوليو 1137 .

بالسيادة عليهم ويحلوه بلقب أمير المسلمين. ولكن فراقي عبدلي (33) ثار بقرطبة مع كل جيرانه وجعل نفسه تابعا لدون ألفونسو، حتى يبقى في منصبه، الشي الذي تسبب في طول مدة الحرب. وعمد عربي آخر اسمه إسماعيل إلى ملك بطليوس فقتله (34) فأهاج تلك الدولة، ودخل إلى البرتغال مع عرب آخرين. ولكن الدوق ألفونسو هنريك غلبه (35) وطرد إلى بطليوس. ويقول بعض المؤلفين إن ذلك اليوم هو الذي وقع فيه المناداة بذلك الأمير الشجاع ملكا على البرتغال. وبعد ذلك، شهر دوم ريموند، كونت. برشلونة، الذي كان يدعى أمير أراغون ، حربا ضروسا على العرب ، على طول سنكا (36) ، وأخذ منهم عدة حصون. (37) واستولى الملك ألفونسو، من جهة أخرى على مدينة قورية صلحا، وحصنها حماية لحدوده. ولكنه ذهب ذات يوم للصيد، فجرحه خنزير برى في ساقه، فانسحب إلى طليطة من أجل علاجه. (38) وفي تلك الأثناء دخل قائده العام (39) إلى بلاد العرب. ومن هناك أتى بأكثر من عشرة آلاف أسير. وفي السنة التالية جهز الملك جيشه، وما أن دخل إلى استرامادورة (40) حتى استسلمت له مدن كاسبرس، وتروخيو، والقنطرة، مع كل الأماكن التابعة لها. وبعد أن أخضع كل العرب القاطنين في تلك النواحي واستولى على حصونهم، جاز إلى إشبيلية فنهب الشرف وكل المنطقة، ثم رجع منتصرا إلى طليطلة، حيث عاد نونيو ألونسو ببقايا الزبير وابن زيد اللذين قتلهما بيده في معركة قرب وادي أدور. ولكن لما دخل في المعركة ضد ألفاش. (41) قرب مورا، قتل، وحملت رأسه مع أحد ذراعيه إلى قرطبة، وفي نفس الوقت كان سيفادال، ملك غرناطة ثار ومعه مدينة جيان للاستيلاء على قرطبة، فكانت له

---

(33) لم نهتد إلى التحقق من هوية هذا الشخص واسمه. فالذي أخرج ابن حمدين من قرطبة كان هو ابن هود، ثم عاد اليها وبقي حاكما لها أحد عشر شهرا ثم انتزعها منه ثانية ابن غانية الذي دعاه فريق من أهل قرطبة لانقاذهم من تعسف القاضي . والظاهر أن هنالك خلطا في الأحداث عند المؤلف بالاضافة الى تحريف الاسم ولعله يشير — وهذا افتراض — إلى فلوج العلج الذي ولاه ابن غانية على قرطبة (مترجم) .

(34) 1139 .

(35) في سهل أوريكا قرب كاستروفردي .

(36) سنة 1141 .

(37) أنكدى مكانانى .

(38) سنة 1142 .

(39) رودريكوفرنانديز .

(40) سنة 1143 .

(41) في رواية نصرانية أخرى اسمه فرج . وواضح أن الاسم الذي أورده المؤلف محرف (مترجم) .

مقابلة مع ملكها الفاكس عبدلي. (42) وأغمد فيه الخنجر في أحد المساجد. ولكن بما أنه كان يريد أن يصير سيدا على المدينة، بمساعدة بعض الافراد من حزبه فقد هجم عليه الآخرون بالسيوف وطردوه منها، وأكرهوه على الفرار إلى جيان، واختاروا ابن حدو (43) ملكا عليهم. وكان هذا الغدر بداية حرب قاسية بين ملوك جيان وغرناطة وقرطبة استفاد النصارى منها كثيرا. وهكذا فإن الملك ألفونسو بعد أن دخل إلى أراضي هذا الاخير تقدم حتى وصل إلى اشبيلية، حيث واعده سيفادال بتزويده بكل المؤونة من أجل حصار قرطبة ، ولكنه لم يف بوعده مما اضطر ألفونسو إلى رفع الحصار. (44) إلا أنه أخذ معه عددا كبيرا من الأسرى وقطعان الماشية لدى عودته إلى طليطلة .

وفي نفس السنة كان ابن حميدة وجه جيشا بحريا للتحرك على طول شواطىء إيطاليا، فتصدى له أسطول الجنويين وطارده إلى ألمرية، وكان عدده اثنتين وعشرين سفينة دخلت فجأة إلى الميناء، ووجدته مجردا من الحماية الحربية، فأثارت الخوف في نفس ابن حميدة حتى إنه بذل أموالا كثيرة ليحصل على انسحابها. وقد وبخ البابا الاسطول الجنوى على قبوله لذلك المال. وفي السنة التالية تقاطع سيفادال، ملك غرناطة وجيان مع دون ألفونسو، دون أن يعلمه بذلك، وجمع جيوش العرب الاخرى، وقام بالعيث في مملكة طليطلة. (45) ولكن دون مانديك دى لارا بادره بالحرب فقتل سيفادال ومعظم رجاله. وبعد وفاته بايع أهل غرناطة وجيان ابن حميدة، الذي أصبح سيدا على قرطبة بعد ذهاب الجنويين. (46) وقد سلم له ابن حدو المدينة دون أن يجرؤ على الدخول معه في معركة، ولكنه وجه إلى دون ألفونسو يعلمه بأنه اذا أراد أن يذهب الى قرطبة، فإنه يمنحه الجواز في أراضيه. وقبل الامير هاته العروض ودخل في منطقة قلعة رباح التي استسلم إليه سكانها، ماعدا أهل المدينة الذين كانوا متعلقين بابن حميدة. الشيء الذي جعله يسير في طريق أخرى ويجتاز إلى المدورديل كامبو التي استولى عليها. ثم إنه قطع

(42) هل هو فرج أو فلوج ؟ (مترجم) .

(43) لعله تحريف لاسم ابن هود (مترجم) .

(44) سنة 1044 كذا بالهامش ، ولعله يقصد 1144 .

(45) سنة 1145 .

(46) سنة 1146 .

سييرا مورينا وتقدم إلى منتور التي استولى عليها أيضا وحصنها. وبعد ذلك جاء لمحاصرة قرطبة. ووافاه ابن حدو، فاستسلمت له المدينة في شهر مايو، عل شرط أن تكون تابعة لدون ألفونسو لا لابن حدو. وعلى ذلك الاساس دخل الملك إليها، فحصن القصر. وحينذاك، جاء ابن حميدة إليه وقبل يده وأعلن نفسه تابعا له، ومكنه من قلعة رباح التي كانت مدينة محصنة. وبعد ذلك عاد الملك منتصرا إلى طليطلة، تاركا قرطبة تحت حكم ابن حميدة. لكن هذا الأخير علم بأن جيشا إيطاليا جاء ليغزو شواطئه (47) انتقاما من غارات العرب البحرية، فطلب النجدة من الفونسو الذي أجابه بأنه لا يستطيع أن ينجده ضد جيش البابا، فقلق العربي لذلك وبدأ يحاربه. وكان البابا أوجين الثالث قد أخذ هذا الجيش (48) في خدمته ليستأصل مدنية ألمرية، حيث كانت تتجلى ثمانون سفينة للقراصنة، وأسند قيادته إلى أنفالدو دوريا قنصل مجلس الشيوخ بجنوة. (49) وما أن علم دون ألفونسو بأن الجيش أقلع في البحر حتى سحب جنوده من الحاميات طبقا لاتفاقه مع البابا، وسارفي اتجاه ألمرية حيث علم لدى وصوله أن جيش الجنويين غُلب عند نزوله وانسحب إلى رأس كاطا. وعند وصوله، وقع الهجوم على المدينة بحرا وبرا وأخدت بعد عدة هجمات، وقُتل أكثر من ثلاثين ألفا من العرب. وانسحب ابن حميدة إلى القلعة ودافع عن نفسه هنالك بشجاعة . وبما أنه لم يكن في مستطاعه أن يصمد، سلمها بشرط أن يخرج بنفسه ويخرج الخواتم سالمة ويعطي ثلاثين ألف دينار ذهبا للملك ويظل تابعا له. وأما الجنويون فقد اكتفوا، على ماقيل، بزمردة ثمينة، احتفظوا بها لنفاستها. ولما انسحبوا، وضع الملك حامية بالمدنية. وفي نفس الوقت وقع خلاف كبير بين دون ريموند كونت برشلونة، الذي صار منذ ذلك الوقت ملك أرغون ودون رامير، المدعو الراهب، من أجل مدينة طرطوشة. وبعد أن استولى عليها بمساعدة الجنويين، ترك القلعة في يدهم طوال أربعين يوما. ولكن المدينة بقيت في يده وأقطعها إلى ريموند دي مونكاد، الذي عمرها بالنصارى.

---

(47) ألمرية .
(48) كان من الجنويين .
(49) سنة 1147 .

إفريقيـــــا :

وفي إفريقيا، جرت ثورة كبيرة بدأتَ في القسم الغربي من موريطانيا الطنجية على يد بربري من جبال الأطلس الكبير، هو مؤسس دولة الموحدين أي أصحاب التوحيد (50) وهذا هو الاسم الذي أخذ بدل اسم عبد الله الذي كان يسمى به سابقا. (51) ونال تقديرا كبيرا على خطبه، وبالخصوص من الأفارقة المنتمين لقبيلة مصمودة التي هو منها. (52) وبعد أن جمع الجموع حوله بكثرة، تجرأ على مهاجمة ملك المغرب الذي لم يشأ أن يقضي على هذا العفريت وهو في مهده، ولا أن يخرج قوته ضد رجل غير ذي قيمة، وظل يتعاطي لملذاته ويثقل شعبه بالضرائب لارضاء خلاعته لكنه لاحظ في الأخير، أنه دخل إلى بلاده، وأنه تحت شعار الحرية أخذ يلحق أضرارا بأقاليمه. فخرج إليه، لكن بعد فوات الأوان، وبعدد من الجنود أقل مما كان يقتضيه الموقف، فناشبه المعركة فغلب وانهزم جيشه. (53) وكان الليل يقترب فوجه المنتصر عبد الله أسرع رجاله للاستيلاء على الممرات حتى لا يرجع إلى المدينة، فاضطر إلى الانسحاب إلى الجبل، ليلتجى إلى مكان حصين يجمع فيه فلول جيشه. لكن عبد الله علم بذلك، فوجه عبد المومن (54) بسرعة ليطارده مع قسم من قواته، وطوق مدينة مراكش بواسطة البقية. وطارده عبد المومن مطاردة دقيقة حتى إنه لم يترك له أي مجال ليتحصن في أي مكان، فوجد نفسه مضطرا في الأخير، والضغط يجرى عليه من كل مكان، إلى اللحاق بفاس، حيث رفض أهلها أن يستقبلوه، (55) وفضلوا أن يستقبلوا عدوه . فلم يجد لنفسه إذن أي ملجأ الا في مدينة وهران، التي كانت آنذاك آهلة بالسكان، فاستقبل فيها مع البقية القليلة التي رافقته. ولكن عبد المومن حاصره في الحين وهاجم المكان بشدة حتى إن السكان خافوا على أنفسهم وأرعبوا من تهديداته بالقضاء عليهم إحراقا وتقتيلا، فطلبوا من الأمير المسكين أن ينسحب من بلدهم

---

(50) أهل الموحدين .

(51) سنة 1140 .

(52) من جبل تينمل الموجود بإقليم مراكش ومن قبيلة هرغة .

(53) على منحدرات الأطلس قرب مراكش في مكان اسمه القاهرة أي مكان المصائب ـــ كذا في الهامش ، وفيه تحريف لاسم البحيرة التي جرت بها المعركة المشهورة بين الموحدين والمرابطين (مترجم) .

(54) في رواية أنه ولده .

(55) كان مكروها لأنه نقل العاصمة من فاس .

لأنهم غير قادرين على حمايته. فخرج في ليلة مظلمة وخلفه إحدى نسائه التي كانت ترافقه دائما. ولكنه أدرك أن الحرس شعروا به وكذلك دوريات العسس، فهمز جواده غضبا فقذف به إلى أسفل صخر حيث تمزق جسده اربا إربا. وكان يفضل أن يموت هكذا على أن يقع في يد الأعداء .

وفي الغد فتح سكان المدينة الأبواب لعبد المومن، فبحث عن خصمه في كل مكان، ووجد الجثة الممزقة فرجه بقاياها إلى عبد الله. ومن ثم انطلق منتصرا يجوس خلال ديار مملكة تلمسان، ثم عاد إلى مراكش حاملا معه الغرامات التي فرضت على تلك الأقاليم. ووجد لدى عودته عبد الله قد مات فعقد كل الرؤساء اجتماعا وبايعوه ملكا بهذا اللقب : أمير المؤمنين أبا محمد عبد المومن بن عبد الله ابن علي. (56) وكان الهالك أمر وهو حي بتنظيم مجلس من أربعين عضوا على مذهبه، مع ستة عشر آخرين يقومون بوظيفة الكتاب. وكان أولئك يبتون في القضايا ويخرجون إلى البادية كلما اقتضى الامر القيام بالدعوة لمذهبهم والتعريف به، لأنهم كانوا كلهم دعاة. وكان أتباع المذهب يسمون الموحدين انتسابا لمؤسسهم، والمؤلفون العرب يسمونهم الدعاة بينما يسميهم الاسبان الموهاد مدخلين ال التعريف على الكلمة التي حرفوها. وقد حمل الملوك المنتسبون لهاته الدولة لقب أمير المؤمنين وكانت لهم سطوة كبيرة بإفريقيا واسبانيا. وما أن بويع عبد المومن حتى هجم على مراكش من كل الجهات (57) . ولما رأى أن السكان رفضوا الاستسلام ، أقسم أن لا يغادر المدينة حتى يحتلها ويخربها، واستولى عليها عنوة فقبض على ولد ابراهيم (58) وخنقه بيده. وبموته انقرض بيت المرابطين، الذين يسميهم المؤرخون الأفارقة اللمتونيين أو المرابطين، والذين أسسوا مدينة مراكش الجميلة. ولكي يبر عبد المومن بقسمه حول المدينة إلى تراب وأمر أكثره من الغربال. بل إنه أمر بتخريب قصور الملوك والمساجد، وبالأخص الجامع الكبير لعلى، حتى لا يترك أي ذكر للمؤسسين. وبعد ذلك شيد بناءات عظيمة باسمه. ولكنه لم يستطيع أن يمحو من ذاكرة الناس مامحاه من الأحجار، وسمع الناس في حياته يسمون الأشياء

(56) لا نحتاج الى التذكير بما في هاته الرواية من أخطاء وخلط وتحريف (مترجم) .

(57) سنة 1148 .

(58) اسحاق .

باسمائها القديمة، واضطهد بعد ذلك كل من ينتمي للبيت المرابطي، بحيث لم يبق ولا واحد في مجموع إفريقيا ممن علم به أو علم به ولاته، مما يدل على حرصه على تقوية سلطانه.

أســيـــا :

وأما في آسيا فقد كانت حرب الأتراك ما تزال مستمرة، وكان محمد ملك قيصرية قد جمع أموالا كثيرة وأصبح قويا بفضل ما جمعه من غنائم من النصارى، فاستولى على إبيبر وعلى عدد من حصون العراق، وكان يدعى أنه من نسل الارساكيين أو التانيسمانيين، وكانت للامبراطورية معه حروب كللت بالنجاح. ومر الامبراطور يوحنا من فريجية على رأس جيش كبير، فوقف عند مدينة أطال ليصدر أوامره العسكرية من هنالك. ذلك أن عددا من الأماكن في تلك البلاد كانت في قبضة الأعداء وسكان بحيرة بسوس حيث كانت توجد جزر آهلة بالنصارى أصبحوا بسبب مجاورة الأتراك والتجارة معهم أعداء للنصارى الآخرين حتى إنهم نقضوا سيطرة الامبراطورية. وما أن وصل الامبراطور إلى بسوس حتى طلب من أولئك الجزريين أن يحصنوا تلك البحيرة وأن ينسحبوا إلى فارس. ولما رآهم رافضين أمر بصنع سفن ذات قعر مسطح وأطواف لحمل الآلات، وبها هاجم قلاع البحيرة واستولى عليها، متكبدا في ذلك خسائر من رجاله. فقد هاجَتْ عاصفة غمرت عددا من السفن بالماء وابتلعت الأمواج من كانوا على ظهرها. ومن هنالك انتقل إلى إيزوري، حيث أصدر الأوامر الضرورية، معلنا أنه يريد إرجاع الارمن إلى صوابهم فيجبر ملك (59) طرابزون الثائر على الرجوع الى الطاعة مع بقية البلاد. لقد كان يريد أن يوحد أنطاكية مع القسطنطينية وأن يقوم بنفس الشيء بعد ذلك بالنسبة للقدس. فوجه البعض من ذويه للتعرف على رغبة السكان فوجدهم على استعداد للتفاهم (60) ولكن لما اقترب منهم وجد الأمر بخلاف ذلك ، وحتى فالكون نفسه ملك القدس لم يشأ أن يتركه يدخل مع جنوده لزيارة الأماكن المقدسة ، وقال بأن المكان ليس فيه من الخصب ما

---

(59) كبـرا .

(60) كان المكان في قبضة نصارى الغرب .

يمكنه من استقبال ذلك العدد الضخم من الناس ، وأنه لا يمكنه أن يدخل على الأكثر إلا بعشرة آلاف من الرجال. ولما رأى الامبراطور أنه لا يستطيع أن يحصل على شيء من تلك الجهة، رجع إلى كيليكية وخرب كل شيء في طريقه، وإن كان يتظاهر بأن كل ما حدث كان مخالفا لأوامره. وبينما كان مخيما بين الجبال في كمكان يدعى عش الغربان، اشتهى أن يقوم بصيد الدب، فجرح نفسه بسهم مسموم مات منه، وخلفه مانويل كومنين على رأس الامبراطورية بدلا من أخيه إزاك الذي كان هو الأكبر، والذي حاربه بسبب ذلك. لكنهما تصالحا في الاخير، فقاد مانويل جيشه لمحاربة العرب، الذين كانوا يعيثون في تراقيا تحت سلطان إيقونيا. (61) فتقابل معهم في فيلومليا، حيث أصابه سهم في رجله وجرحه، ولكنه حصل على الانتصار في إيقونيا، وتفوق على السلطان إثر بعض المعارك. ولما رأى، في الأخير، أن عدد الأتراك يزداد ساعة بعد أخرى، وأنه يأتي منهم أكثر ممن قتل، انسحب بمشقة كبيرة إلى القسطنطينية. واعتبر هذا العاهل المصاريف الكبرى التي لم يكن بدٌّ منها، فأراد أن يجمع جيشه البحري في مكان حصين. ولكنه اعترف بالخطأ الذي ارتكب، لأن القراصنة الترك والعرب نهبوا شواطئه بدون منازع .

وفي تلك الاثناء، كان النصارى المحتلون لأنطاكية والقدس وغيرها من بلدان سورية قلقين من جهة الأتراك، فقام أمراء أوروبا بحملة عسكرية ثالثة بقيادة الامبراطور كونراد الذي يدعوه البعض دوق فرانكونيا. وكانوا قد امتلكوا الأرض المقدسة وما يحيط بها (62) أزيد من خمس وأربعين سنة، مع حروب متواصلة. وفي ذات يوم، حينما أصبح فولك، صهر بودوان الثاني ،ملكا على القدس، قام النزاع بينهم وبين الامبراطور يوحنا، كما ذكرنا. وانضاف ذلك إلى الفتنة التي نشبت بين مانويل وايزاك من أجل العرش الامبراطوري، فكانت فرصة لكي يسترجع المسلمون قوتهم. وهكذا جاء الأتراك من الفرس بجيش قوي لمحاصرة أنطاكية. ولما علم فولك بذلك تقدم إليهم وقتل منهم أزيد من ثلاثة آلاف في معركة. ولكن آلاب (63) الذي كان ملكا على الفرس آنذاك، جمع كل قواه وجاء لحصار مدينة

---

(61) مسعود .

(62) زونار ، بلنديس ، بلاتين .

(63) هل يقصد السلطان السلجوقي ألب أرسلان الذي كان بالشام ؟ (مترجم) .

الرها (64) التي كانت مزدهرة آنذاك. وبعد أن حاربها بشدة، استولى عليها عنوة وعاملها بكامل القساوة العسكرية. وعلى إثر ذلك، ذهب فولك إلى الصيد حوالي القدس فسقط به فرسه وهو يجري وراء أرنب وقتله، وترك من بعده ولده بودوان خلفا له. وهذا التغيير خول الأتراك فرصة ليتوسعوا أثناء عهد أمير مازال في طور الشباب. وحزن النصارى لهاته الأنباء، وخصوصا لضياع الرها. وتكلف القديس برنارد(65) بأن يقنع الأمراء النصارى بهاته الحرب المقدسة والعادلة جدا(!) وبدأ هذا العمل في عهد البابا إينوسانت الثاني وخلفه سيليستان وَوَاصَلَهُ في عهد أوجين. وقد ألزمت رسائل هذا البابا وحجج هذا القديس الكبير لويس لوجون ملك فرنسا بالانخراط في سلك الصليبيين مع عدد كبير من النبلاء. وفي أثناء ذلك ذهب سان برنارد إلى المانيا يطلب من الامبراطور كونراد أن يقوم بنفس العمل. فكان جوابه بالقبول المعزز بالحماس. ولما كان من غير الممكن أن يذهب عاهلان كبيران في آن واحد بكل قواتهما، فقد تقرر أن يذهب الامبراطور هو الأول. وهكذا تحرك بجيشه في سنة ألف ومائة وست وأربعين. (66) مصحوبا بدوقات صواب ولورين وكونتات فلاندرة وفريز، ومركيزات النمسا وكلف الذي تصالح معه في المناسبة، وغير هؤلاء من الأمراء والنبلاء الذين رغبوا في المشاركة في هذا الأمر. وكان جيشه متركبا من ستين ألفا من الخيل ومن نفس العد من المشاة. فاجتاز معهم من النمسا إلى هنغاريا ومن ثم إلى القسطنطينية حيث طلب من الامبراطور مانويل السماح له بالمرور وتزويده بالأقوات مقابل المال. فاستقبله بمظاهر الفرح الكبرى، مشيدا بمشروع مقدس كهذا ومظهرا إعجابه بالنخوة التي ظهرت في هذا الجمع الكبير. ثم وزع الجيش على القرى وواعد بأن يعطي أوامره من أجل توفير الأقوات، وأن يكون من كل شيء ما يفوق الحاجة، بشرط أن لا يحدث أي اضطراب. وبعد ذلك أتى بالأقوات. ولكنه كان متخوفا من أن تكون هنالك مؤامرة سرية. فأتى بالجنود إلى القسطنطينية وشحن بهم المدن المجاورة، لأنه كان يعرف أن ملك صقيلية آت بجيش ليحاربه. ولما غادر الألمان جهات القسطنطينية،

---

(64) أورحان التي يقال انها اعتنقت الدين على يد يهودا تادى .

(65) قس كليرفو .

(66) أو 1147 .

تقدموا نحو مدينة فيليب، مخفورين بجنود الامبراطور اتقاء للاضطرابات. ولما خرجوا منها، اشتبكت مؤخرتهم مع طليعة الاغريق، وكاد القتال أن ينشب لولا حكمة بطريق إيطالي (67) هدّأ الكل. ذلك أن الامبراطور كونراد عزم على الدخول في المعركة . فواصل إذن طريقه. ولما بلغ أندرينوبل تجاوزها مع جيشه، بعد أن ترك في المدينة أحد أقربائه أصيب بمرض، ولكن بعض الفتانين الذين كانوا غاضبين، أشعلوا النار في البيت الذي كان فيه وأحرقوه. ولدى هاته الأنباء، طلب من فريديريك ابن أخيه ، دوق صواب ، أن يأخذ الثأر من هاته الجريمة . وبما أن هذا الأمير كان فظا ومندفعا، فقد أحرق الدير الذي أحرق فيه المريض، وقتل كل اليونانيين الذين لقيهم، واسترجع كل المال الذي ضاع. وكان في ذلك تحريك للفتنة بالبلد، وكاد الشر أن يستفحل لولا رزانة أحدالأعيان من السكان (68) الذي أقنع فريديرك بالهدوء وأرجعه عن نواياه السيئة، ثم تابع الجيش سيره كما كان الامر من ذي قبل. وبعد ذلك وصل إلى السهل (69) الذي يجري فيه نهر ميلا، الذي ليس بواسع ولا عميق، ولكنه يغمر كل تلك الأراضي بالأخاديد التي تتفرع منه، والتي تمتلىء من مياه الأمطار في الشتاء، بحيث يلوح السهل كالبحر، ولا يمكن السير فيه آنذاك الا في المراكب، بل هنالك أوقات يستحيل فيها اجتيازه بسبب الريح. وارتفع النهر بغتة في الليل، في الوقت الذي كان فيه الالمان مخيمين في السهل، فغمره بالماء. وكانوا غافلين عن ذلك في الوقت الذي طفحت القنوات بالمياه التي دخلت إلى الخيام وحملت كل ما لم يكن قادرا على الرسوب في القعر. فمات كثير وهم نائمون. (70) واعتبر هذا المنظر المرعب كعلامة على غضب السماء على هذا الجيش العظيم. وحاول كل واحد أن يفر بعد ضياع جهازه، وحزن الامبراطور كونراد لهاته الكارثة العظمى وغادر المكان في الحين. ولما اقترب من القسطنطينية اجتاز إلى آسيا بكل جيوشه على ظهر سفن وجهها إليه الامبراطور مانويل ، وفي تلك الأثناء بدأت تُعوزه الأقوات ، برغم كون مانويل تظاهر ببذل كل جهوده لتزويده بها طبقا لوعوده. ولكنه كان يرجع بها سريا من الطريق، ويضع رجالا في كمين يقتلون كل من كان منعزلا. وكان الاغريق يسدون أبوابهم في وجه الجنود ويرفضون

(67) ميشيل .

(68) بروسوك .

(69) شيروباكي .

(70) رجال ، دواب ، أمتعة .

استقبالهم ويقتصرون على إنزال ما يطلبونه من أعلى السور، بعد أن يتسلموا المال منهم. وفي بعض الأحيان يقبضونه دون أن يعطوهم شيئا في مقابله أو يضعون الجبس والجير وسط الخبز لتسميمهم. بل إن الامبراطور سك نقودا مزيفة ليسلمها لهم مقابل الصحيحة. وأخيرا عاملهم بأسوإ المعاملات مما لا يخطر على بال، وذلك ليمنع غيره في المستقبل من القيام بمثل هذا المشروع. بل إنه حرض عليهم قائدا كبيرا (71) من قواد الأعداء فهزمهم قرب مدينة بطجى، وقتل منهم عددا كبيرا. وبرغم كل ذلك، وصلوا إلى نهر مياندر حيث شاهدوا الأتراك مخيمين في الصفة الأخرى ليمنعوهم من العبور. فإن ذلك النهر لا يمكن قطعه خوضا في أي فصل، وكان مرتفعا آنذاك بمياه الأمطار. وفي هاته المناسبة برهن الألمان على مبلغ عزيمتهم، مبينين أنهم إن لم يقوموا بشيء ضد الاغريق، فلم يكن عن جبن، ولكن بدافع الشهامة. ذلك أن الامبراطور كونراد حينما وصل إلى ضفة النهر ورأى الاعداء مصطفين في الضفة الأخرى وهم يجرحون طليعته بالسهام، فإنه سحبها بعيدا عن إصابتهم وأمرها بالاستراحة لركوب الخيل في الغد والدخول مع العدو في المعركة عند الفجر. وفي الغد صفف رجاله على أحسن نظام، ولما رأى الأعداء من الجهة الأخرى وعلى رأسهم الرماة مستعدين لمدافعة الخيالة عند الجواز جمع الرؤساء حوله وذكرهم بالمصائب التي تحملوها حتى يصلوا إلى هناك، وكيف تخلوا عن راحتهم وملذاتهم من أجل مجد منقذهم، وأن عليهم أن يتغلبوا على هذا الحاجز الذي يعترض مشاريعهم، وبعد هذا سيصبح كل شيء سهلا بالنسبة لهم، وأن السيد المسيح (71م) أقدر على أن يحقق لهم النصر، وأنهم على أي حال، حينما يموتون من أجله، متأكدون من أنهم سيعيشون في الخلود، وأن عليهم أن يأخذوا الثأر من أولئك المسلمين الذين ذبحوا أقرباءهم وأصدقاءهم. وأنهم لن يجدوا قضية أحسن من هذه يموتون من أجلها، إذ سيحررون قبر السيد المسيح، وأنه قد فكر في حيلة لاجتياز هذا النهر الذي يخاض، وذلك بأن يتحركوا متزاحمين في فيالق كبيرة لدفع تيارالماء، فيمكنوا المشاة من المرور من تحت (72). وبعد ذلك أعطى إشارة الشروع في القتال، وهمز جواده ودخل في الماء توا تتبعه كل الخيالة

---

(71) بنبلان ـــ كذا في الهامش ـــ ولعله تحريف لاسم بلبان عزالدين (مترجم) .

(71م) قارنت عبارة الامبراطور بين النبيئين محمد وعيسى – عليهما السلام – بما يليق فحذفنا الكلمتين. (مترجم) .

(72) [illegible]

على الشكل الذي ذكر، مما سهل على المشاة أن يقطعوا النهر، نظرا لكثرة عدد الخيل. وجرى القتال بشدة داخل الماء ، وكأنه قتال على اليابسة، إلى حد أن العدو لم يستطع أن يصمد لشجاعة الألمان فاضطر إلى التراجع، وتراجع البعض منهم هاربين، بينا انسحب البعض الآخر وهو يقاتل، وكسيت الارض بجثث الأموات وجرى الدم في الاودية. ولم يمت عدد كثير من جهة النصارى، ولكن جرح منهم عدد بالنبال. (73) وبعد هذا الانتصار واصلوا طريقهم مستهينين بقوات العدو، متجهين إلى القدس عن طريق فريجية العليا وكليكية وبيزدية، التي كان البرابرة يحتلونها بسبب تهاون أباطرة القسطنطينية. ويقول البعض إن الامبراطور كونراد هُزم أمام الترك وأنه فر إلى القسطنطينية، حيث جمع فلول جيشه وسار الى القدس على ظهر سفن أعاره إياها الامبراطور . وبعد ذلك بزمان وصل الملك لويس أيضا، بعد أن عانى مصاعب من جراء بعض الاشغال الكبيرة وبعض المعاكسات أثناء السفر. ووجد استقبالا حسنا من لدن الامبراطور ومن لدن ملك القدس. (74) واجتمع كل أولئك الملوك وذهبوا لحصار مدينة دمشق التي كان يتضايق منها نصارى سوريا والقدس أكثر من المدن الاخرى مجتمعة. ولكن الأقوات بدأت تنفد، بينما المحاصرون كانوا يدافعون عن أنفسهم بشجاعة . فاضطروا إلى الانسحاب بعد أيام من الحصار. وهنالك من المؤرخين من يقولون إنهم أخذوا المدينة، ولكن بسبب خلاف حدث بينهم تفرقوا وذهب كل فريق إلى حيث شاء. وانسحب كونراد إلى القسطنطينية ومن هنالك إلى المانيا ليحول دون كلفون، الذي سبقه في الطريق، من الاستيلاء على الامبراطورية. وكذلك فعل لويس بعده بشيء قليل من الوقت. ودامت الحرب أربع سنوات دون أن تأتي بنتيجة تذكر، وتركت الاعداء أقوى مما كانوا في البداية.

إفريقيــــا :

وفي غضون هاته الاحداث اجتاز (75) روجر ملك صقلية الذي كان حارب امبراطور القسطنطينية إلى إفريقيا بجيش عظيم ، ونزل في مهدية وجاس خلال الشواطىء والسهول بمساعدة العرب الذين كانوا يظنون أنهم يستولون على البلد مع

(73) نسطاس قونياطس الذي واصل رونار وكويون الكتاب الثالث .

(74) بودوان .

(75) سنة 1146 أو 1147 .

انحطاط الدولة المرابطية. ولكن الملك المغربي الذي كان حاكما هنالك رأى نفسه في وضع غير ثابت، فعقد الصلح مع روجر، مقابل إتاوة تعهد هو ومن يخلفه باداثها كل سنة، على آن يقدم لهم المساعدة عند الاحتياج. ومنذ ذلك الحين نزلت حامية من الصقليين بتونس، على نفقة المدينة. ويقول مؤرخ فاس [76] في **مختصر التواريخ** إن هاته الاتاوة ظلت تُسَدَّدُ إلى أن أصبح عبد المومن ملكا على تونس وأخذ مدينة المهدية من النصارى وطردهم منها فجعل هذا الملك يؤدي له الجزية، ومن جهة أخرى ، تحرك روجر الى أراضي مانويل بنفس الجيش الذي ذهب به الى افريقية واستولى على عاصمة جزيرة كورفو التي سلمه إياها أهل الجزيرة، واستولى على كورانت في البلوبونيز أوموريا، وعلى طيبة في بيوسيا ونكروبنت. ثم انتقل إلى شاطىء آسيا بقصد مساعدة النصارى الذاهبين إلى القدس، والتقى جيش الاتراك البحرى وكان قد أسر الملك لويس أثناء مروره بميناء القديس سمعون بانطاكية في طريقه إلى الأرض المقدسة، ولكنه انتزعه من يدهم بعد معركة ناجحة وأنزله في ميناء يافا. ومن هنالك ذهب إلى القدس، على مايرويه كولنس في **مختصر تاريخ نابولي**. وبعد ذهاب النصارى، تقاتل سلطان إيقونية وسوريا [77] مع ريموند ملك انطاكية، فغلبه وعاث في كل البلاد، ما عدا العاصمة التي ظلت محمية بصعوبة كبيرة من لدن ملك القدس .

---

(76) الشريف ــ كذا في الهامش ، فهل يعني الشريف الادريسي ؟ (مترجم) .

(77) مسعــود .

الفصل الرابع والثلاثون

خبر عبد المومن ملك مراكش وما حدث في عهد من الوقائع

لما قام الموحدون في إفريقيا وتولى الملك بعد مؤسس دولتهم خليفته عبد المومن قسا قسوة شديدة على كبراء دولة المرابطين في مراكش واصطلى الجميع في إفريقيا بنار تلك الحرب . وكان المرابطون قد كسروا شوكة العرب النازلين بنوميديا (المغرب الاوسط) وغربوهم الى قفار الصحراء حيث اقتصروا على الاشتغال بفلح الاراضي ورعي السائمة ، ولما تأتت لهم الفرصة بسبب هذه النزاعات اهتبلوها فدخلوا بلاد البربر واستولوا على جهات مدينة تونس وجهات تلمسان وأخضعوا لسطوتهم سكان تلك المناطق من البربر الذين كانوا ضمن امبراطورية العرب منذ عهد الخلفاء . ولم يجعلوا حكمهم إلى نظر حاكم وحيد بل قام فيهم عدد من الامراء لان كل جماعة من أولئك الاعراب كانت تغزو لحسابها . ثم إن ولاة المرابطين على المدن والأعمال قد ثاروا على الموحدين ورفضوا الدخول في طاعتهم فنالت الناس معرة من قيامهم ، ولقد قام متأمرون في طرابلس والقيروان وفي تونس وبجاية ومدينة الجزائر وتنس وتلمسان و في أماكن أخرى . وكذلك كان للافارقة المستوطنين في الجبال حكام خاصون بهم ، وما أن تمكن عبد المومن من فتح مراكش وفاس حتى تيسر له في وقت قليل الاستيلاء على مجموع موريطانيا الطنجية (شمالي المغرب الاقصى) . ولقد تعزز بقبيلة مصمودة وخاصة منهم قومه فرع بني ورياكل فأخضع النوميديين وجزولة الغرب وتقدم متدرجا في فتح إمارة تونس وإمارة تلمسان حتى دان له معظمها طوعا أو كرها ثم انتزع من النصارى مدينة **إفريقية** (1) وعددا غيرها من المدن التي كانوا قد احتلوها على الساحل ولكن الاعراب دام لهم الظهور في إمارة تونس إلى أن أخضعهم يعقوب المنصور رابع ملوك الموحدين .

---

(1) يقصد بها مدينة المهدية (المترجم) .

أما في إسبانيا فقد استفاد أمراء النصارى من هذه الانقسامات فكسبوا عدة معارك ضد المسلمين . كان الامير ابن حميدة(2) قد أسلم حصن المرية للدون ألفونس ثم بعث اليه رسولا يبلغه استعداده لتمكينه من مدينة جيان إذا ما وصله من عند الفونس أحد كبراء رجاله ليتسلمها، وما أن وصل الكونت ما نريش دي لارا بعساكره حتى تقبض عليه الناكث واتخذ طريقه إلى قرطبة وجعله يتخلى عن المدينة. وعلى إثر هذه الخيانة دخل ألفونس أرض الاندلس بجيوشه بقصد الثأر فأفسد في جهات جيان وحاصر بياسة وفي تلك الاثناء مات وسرح أهل قرطبة الكونت مانريق والذين معه ووجهوهم إلى ألفونس وولوا عليهم ابن حدو بعد استرضائه. ثم إن أهل بياسة وأهل أبذة الذين حاصرهم الفونس وكذلك أهل غرناطة وأهل جيان شنعوا صنيع أهل قرطبة ولم يريدوا اتباعهم في فعلهم فاستنجدوا بعبد المومن، ولما كان هذا الامير منشغلا بغيرهم فقد اكتفى بأن أذن لهم في جمع العساكر من جبال غمارة فاجازوا إلى الاندلس عشرين ألفا كان يقودهم عبد العزيز، ولكن الملك ألفونس تربص لهم في طريق المرور فهزمهم وتشتت من نجا منهم في بلاد الاندلس. فأقام الفونس على حصار بياسة غير واجل ولا خائف وشدد عليها الخناق حتى استسلمت في السنة ذاتها. ثم إن الدون ريمند بيرانجر قد انتزع لاردة من المسلمين (3) وبعد ذلك استسلمت له أفراغة ومكناسة، وقام الفونس انريكي (ابن الرنق) من جهته وهو ملك البرتغال بحصار مدينة لشبونة يعززه جيش من الاجانب كانوا في طريقهم إلى الارض المقدسة قصد فتحها، فأخذها وعمرها بالنصارى. وفي السنة الموالية استولى صاحب غرناطة وصاحب جيان على قرطبة بفضل الجيوش التي وصلت اليهما من إفريقيا فحملوا ابن حدو على طلب النجدة من الدون ألفونس، فدخل الوفنس بلاد الاندلس وأفسد كثيرا من جهات جيان وأندوجار وأرجونة وأخذ مدينة منتور التي كان المسلمون قد استولوا عليها. وبعد أن حصنها مر إلى قرطبة (4) ولما استجمع المسلمون قواهم في تلك البلاد حاربوا ألفونس فانتصر عليهم ثم عاد إلى قرطبة فاستسلمت له وجعلها إلى نظر ابن حدو وكان حاضرا في ذلك الحصار.

(2) ورد هذا الاسم مكتوبا هكذا : Aben Guméda (المترجم) .

(3) في يوم القديس كريبان .

(4) في هذه المدة انتزعت الاقفال الكبرى من باب جامع قرطبة وحملت إلى بلد الوليد حيث ما تزال على الأبواب القديمة لكنيسة العذراء .

ولما شعر مسلمو اسبانيا بما هم عليه من الضعف الذي لا يقدرون معه على الصمود أمام المسيحيين أرسلوا رسلهم بالطاعة إلى عبد المومن الذي حقق انتصارات في إفريقيا. فأرسل اليهم ثلاثين ألفا من الرجال انضموا إلى صاحب غرناطة وصاحب جيان فاستؤنفت الحرب ضد ابن حدو [5] صاحب قرطبة فكان منه أن استنجد بالملك ألفونس فسار هو والدون ريمند بيرانجر للقاء المسلمين عند حصار قرطبة فهزمهم. ثم سار لحصار مدينة جيان ولما امتنع عليه الظفر بها عاث فسادا في تلك البلاد وعاد إلى قشتالة.

لكن الموحدين الذين نجوا من القتال ضد ألفونس التحقوا بعسكر غرناطة وساروا معهم لحصار مرسية وكان أميرها [6] من الموالين للدون ريمند، ولما علم بزحفهم اليه طلب النجدة من الدون ألفونس.

ولما علم الموحدون بذلك زحفوا إليهم والتحم الفريقان فانهزموا ثانية وخرجوا بخسارة فادحة من معركة ضارية.

ولما بلغ الخبر إلى عبد المومن أرسل جيشا ثانيا استأنف حربا دامت أكثر من ستين سنة.

وقد سلب الاميران النصرانيان المبرزان عددا من الحواضر التي كانت بأيدي المسلمين. فقد استولى ألفونس على وادي آش وبياسة عام ألف واثنين وخمسين . وفي العام الموالي حاصر مدينة أندوجار وفي حصارها مات فليكس إيبانيز التطيلي. وبعد أن أخذها صلحا سار إلى جيان ولما أشفق أهلها من تدميرها أخرجوا منها الموحدين وقدموا عليهم ابن حدو ووافق على ذلك ألفونس ورجع منتصرا إلى تطيلة . ثم إن الدون ريمند الذي تلقب بأمير أرغون (الثغر الاعلى) قد احتل جبال براديس إلى جهة نهر إبرة بين سرقسطة وطرطوشة واستولى على حصن شيفرانا وحصن مرابط وفي عام ألف ومائة وخمسة وخمسين توغل الملك ألفونس في بلاد المسلمين وطردهم من جهات قلعة رباح واخذ فحص كركوي وحصن المدور وجميع جهاتهما. ومن هنالك تجهز وزحف فاخذ حصن البطروج عنوة وأخذ سانتوسيم صلحا وبعد ما حصن تلك المواقع عاد إلى طليطلة. وفي العام الذي بعد

---

(5) لعله يقصد ابن مردنيش (المترجم) .

(6) سماه في الحاشية لوطا

هذا كمل لعبد المومن الاستيلاء على معظم بلاد البربر فعزم عل الجواز إلى اسبانيا بجيش عظيم. ولكن الموت أدركه قبل أ يحقق نيته وواصل ذلك التصميم ولده يوسف الذي صار إليه الأمر من بعده.

ومن جهة أخرى مات السلطان **مسعود** (7)، صاحب الاعمال والامارات التي كانت تابعة للاتراك في بلاد المشرق وقد خلف من الاولاد ثلاثة ذكور اقتسموا ولاياته فكان من نصيب ابنه البكر ياكوبسان (يعقوب أرسلان) آماسيا وأقر وقابادوش التي تسمى بالسعيدة كما صارت إليه جميع أنظارها. أما ذو النون فقد كان من نصيبه قيصرية وسيواس، وأما قلج أرسلان فقد كان من نصيبه قونية. ولما لم يكونوا متمسكين بالوحدة ولا راضين بالقسمة فقد حارب بعضهم بعضا مدفوعين من الامبراطور **مانويل** الذي كان يحرض كل واحد منهم ضد الآخر بواسطة رسل سريين من عنده. ولما كان منحازا لياكوبسان فقد أرسل إليه هدايا عظيمة وعرض عليه معونته نكاية في أخيه قلج أرسلان الذي كان يضمر له عداء شديدا لان هذا الامير كان يضطهد النصارى ويضطهد إخوانه في آن واحد. فكانت الحرب أول قيامها بين قلج وأخيه وأسفرت بعد معارك عديدة عن غلبة ياكوبسان فكانت النتيجة أن ألقى المهزوم بأمره بين يدي مانويل الذي رحب به أعظم ترحيب لما علم أن انقياده له سيفيده في حروبه بآسيا. ولما استدرجه إلى القسطنطينية أمر بإقامة الاعياد والمسرات احتفاء به واحتفالا. ثم ودعه محملا بهدايا عظيمة ووعده وعودا جميلة إذا هو مكنه من سيواس. وبعد انصرافه بعث إليه الامبراطور بأنواع السلاح وبطرف وأشياء باهظة الثمن حتى يحمله على الوفاء بوعده قبل أن يدركه الندم. لكن قلج أرسلان قلب إليه ظهر المجن بعد عودته إلى إيقونيا وآذنه بالحرب واستولى على عدة حواضر من ممتلكات الامبراطور، وقام بعد ذلك بالزحف على أخيه ذي النون وانتزع منه قيصرية ثم بذل كل ما في وسعه للقضاء على ياكوبسان لكن هذا الاخير مات وأخوه على وشك الخروج لقتاله، وبعد موت ياكوبسان تسلل قلج ارسلان إلى آماسيه فاستولى على منطقتها وعلى قابادوش ومضى فيما صمم عليه من التوسع في تلك الجهات التي قضى معظم

(7) الذي مات في هذا التاريخ (ديسمبر 1141) هو الأمير محمد بن غازي الدانشمند وكان أقوى الأمراء المسلمين في آسيا الصغرى وهو الذي أدى نشوب الحرب بين أبنائه وإخوته إلى انقسام الامارة ثلاثة أقسام . أما مسعود فهو سلطان السلاجقة بقونية وقد هيأ له التقسيم المذكور الفرصة لتوطيد سيطرته على الترك ببلاد الاناضول ولعل أمر الرجلين قد اختلط على المؤلف (المترجم) .

ولاتها أو هلكوا في الحرب. ومن هنالك توجه بقصد قتال الامبراطور ولم يكف مع ذلك عت تسميته «أبي» بينما كان هو الآخر يسميه «ابني» وكلما هم الامبراطور بقتاله أزعج اليه السفراء محملين بالهدايا معتذرا له عما يحدثه الاتراك من الاضطرابات. ومع ذلك فقد قام هو بإفساد كثير في أرض لاوديقيا وقتل مطرانها (8) وارتكب غير ذلك من الشرور ، وكان يقول ساخرا إنه بقدر ما يسيء إلى الامبراطور بقدر ما ينال من إحسانه إذ كان هذا الاخير يبعث اليه بالهدايا كلما حقق عليه انتصارا حتى يثنيه عن المضي في توسعه. ولما عيل صبر الامبراطور أرسل لقتاله جيشا يقوده البازيلوس. ولما أبى الخروج للنزال اقتحم الجنود معسكره ليلا وقاموا بمذبحة عظيمة.ولما تفطن الاتراك لكلام النصارى أوقفوا تقدمهم في الظلام واسفر الفجر عن خسارة عظيمة في الجانبين ثم عاد البازيلوس إلى القسطنطينية .

---

(8) سليمـان .

الفصل الخامس والثلاثون

ذكر يوسف ثاني من تسمى بهذا الاسم من ملوك المغرب وما وقع في عهده

لما تملك يوسف بعد موت أبيه عبد المومن أظهر إقداما وعداء شديدا للنصارى. فبعد أن قام بتهدين بعض الفتن وإقرار ولاته في تونس وبجاية جاز إلى إسبانيا في بداية العام ومعه ستون ألفا من الفرسان وما يزيد عن مائة إلف من الراجلة وذلك بقصد إنجاد الامراء المسلمين الذين قدموا له الطاعة ليتخلصوا من نير النصارى. وما أن وصل حتى بادروا للقائه وتقديم فروض الولاء والطاعة إليه، ولم يتأخر عن ذلك ابن حدو ولا غيره بالرغم مما تعهدوا به للدون ألفونس ولم يبق على عهده لهذا الملك سوى **لوط** صاحب مرسية وبلنسية. ولما بلغت هذه الأخبار الى الملك ألفونس جمع جيوشه وكان قد زود حواضر الثغور بما تحتاج اليه لما سمع بقدوم عدو بمثل هذه القوة والعدة، وأرسل مستنجدا بالبابا وبملك فرنسا. وأثناء ذلك كان المسلمون يستولون على ثغور الاندلس ولما حاصروا ألمرية هب ألفونس لنجدتها فأدركه المرض في بياسة وأسلم قيادة الجيش هنالك إلى ابنه وعاد إلى طليطلة. ولما كان يخترق جبال الشارات اشتد عليه الألم في مضيق المورادال (9) حتى اضطره الى الاتكاء على شجرة بلوط ومات هنالك تاركا ملك قشتالة لابنه البكر الدون شانجه الملقب بالمحبوب وترك ملك ليون لفيرناندة. وتألمت إسبانيا لفقده تألما عظيما، ذلك بأن جيشه الذي غاب عنه قد تراجع وترك المسلمين يستولون على ألمرية ووادي آش ثم على مدينة أندوجار، وبعد ذلك حاصر العدو مدينة بياسة ومدينة منتور وكان الكونت الدون مانريش دي لارا صاحب بياسة قد استنجد بالدون شانجه فأجابه بأن حاله لا تسمح له بذلك فاضطر إلى تسليم المدينة، وفعل أهل منتور مثل فعله، ولما أخذها يوسف مضى إلى حصن البطروج، ولما كان يوالي زحفه كان الدون شانجه يستعد للقائه بعد ان عزز عساكره بمن وصلوا إليه من

---

(9) في مرج فرينيد يوم 11 غشت .

الانجاد الاجانب لكنه سقط مريضا في طليطلة ومات (10) . ولما كان قد انضم لجيشه عددٌ من شجعان النبلاء الذين هبوا من كل مكان على العادة في نصرة الصليب فإنه لم يقع التخلف عن الزحف لمقابلة العدو الذي كان يتقدم نحو إشبيلية، بل ناجزوه في حرب انهزم فيها وهلك عدد من رؤسائه وشجعان فرسانه من بينهم الرئيسان الأكبران بوجيم واد الجار. وبعد انهزام يوسف تراجع نحو إشبيلية وتراجع النصارى إلى طليطلة حيث ألقوا السلاح ورجع كل واحد إلى اهله بالنصر والغنيمة. وكان الدون الفونس قد تولى الملك في قشتالة بعد وفاة أبيه الدون شانجة. وهو ألفونس التاسع ولما كان عمره لا يتعدى ثلاث سنوات فقد كان الوصي عليه هو الدون جوتيير هيزنانديزدي كاسترو وقد فضل والده شانجه توليته ولم يول أخاه فرديناند صاحب ليون وكان هذا القرار سببا في أهوال عظيمة. أما يوسف فقد هادن النصارى حتى يفرغ لحرب الذين استدعوه من أمراء المسلمين في الاندلس فاشتغل بقتالهم حتى ساد على جميع إماراتهم. وقد بدأ بقتال لــــوط صاحب مرسية وبلنسية وكان يؤدي الجزية لريمون كونت برشلونة وكان يؤديها من قبل لدون ألفونس ملك قشتالة. وبعد قتال لوط مضى يوسف لقتال أبي الحجاج صاحب ماردة حتى دان له بالطاعة والولاء وقد تعزز بكتائب من جيشه وأرسل جيشا آخر إلى قشتالة بعد أن أمّر عليه ولديه (11) فعادا محملين بالغنائم إلى طلبيرة. وبعد أن عاثا فسادا في جهات بلنسية وآبلة هاجمهما شانجه وقومس خيمني وهزماهما (12) واستعادا منهما كل ما حملاه من الغنائم. ثم إن الحرب اشتعلت نارها بين يوسف ولوط، وقد استنجد هذا الاخير بالنصارى واستطاع أن يستولى على غرناطة ثم فقدها ثم استعادها. وفي سنة ألف ومائة واثنتين وستين انتزع ملك البرتغال الدون ألفونس هنريكيز مدينة باجة من المسلمين وقام شانجه خيميني مع أخيه بشن غارة على حي شيرينا وعادا بغنيمة عظيمة من الماشية. ولما هب المسلمون لاسترجاعها أو قعابهم الهزيمة وعادا إلى آبلة محملين بالغنائم. وكان الخلاف قد زاد حدة بين قشتالة وليون. وكان الدون فرناند رويزدي كاسترو ابن أخي الوصي على العرش وحاكم عدد من الحواضر كان غائبا بطليطلة. وقد دخل الموحدون بلاده

---

(10) في متم غشت 1158 .

(11) فضالة وعمر .

(12) في مكان يدعى « سبعة أودية » .

وافسدوا فيها كثيرا ولما كانوا في طريقهم إلى الاندلس كمن لهم في الطريق وقاتلهم على مقربة من قلعة رباح ولكن المعركة لم تسفر عن تغلب احد الجانبين، وعاد كل فريق من حيث أتى، ومن جهة أخرى أخذ الدون ألفونس هنريكيز مدينة سمورة وحاصر قلمالة. ولما هب أمير بطليوس المسلم لنجدتها ومعه خمس عشرة مائة من الخيل وستون ألفا من الرجل ناجزه هنريكيز الحرب وهزمه وبقي على حصار قلمالة حتى فتحها صلحا. بيد أن ألفونسو ملك أراكون قد انتزع من المسلمين جميع العمائر الواقعة على ضفاف نهر إبره ونهر قلندشون حتى كانتا فييشا أعانه على ذلك **فرسان الداوية وفرسان القديس يوليان وفرسان قلعة رباح** وعدد من الفرنسيين والاسبانيين الذين جاءوا لنجدته. ومن جهة أخرى استولى [13] الملك الفونسو صاحب قشتالة على عدد من حواضر مملكة طليطلة التي كانت بيد فرناندو رويز دي كاسترو وكان هذا قد مال إلى حزب ملك ليون وتخلى له في الاخير على العاصمة والتجأ إلى يوسف وقد قوبل عند يوسف بالترحيب ومعه عدد من النصارى الذين اتبعوه. وأرسل لقتال ملك غرناطة الذي تصدى له بمعونة الدون ألفونسو. وأثناء ذلك كان يوسف بإشبيلة يقاتل الفونسو **ابن الرنق** أمير البرتغال الذي بعث بجيش لمحاربته يقوده ولده الدون **شانجه** ومعه شجعان من المتطوعة الذين هبوا لنجدته كما يهبون لحرب الصليب، وقاتل الدون شانجه المسلمين وطاردهم حتى أبواب إشبيلية وبعد ذلك حاصر **لبلة** ، وكان قد قام بهدم حصن الشرف. ولما بلغه الخبر بأن المسلمين حاصروا باجه، قام عن لبلة ولقيهم في الطريق وهزمهم وعاد منتصرا إلى البرتغال. وفي السنة التي بعدها بلغه أن جيش أمير بطليوس كان يعيث فسادا في البلاد التي بين **مونديج ونهر تاجه** فهب للقائه وهزمه في مقتله عظيمة محققا عدة انتصارات أخرى على المسلمين .

وأثناء وقوع هذه الوقائع علم يوسف بأن اقواما من الزناتيين قد ثاروا بإمارة تلمسان وأن غيابه جعل قبائل العرب تصول وتعتو على غيرها، فجاز إلى إفريقيا وقد خلف حربا ضروسا بالاندلس بين لوط أمير غرناطة معززا بالدون ألفونسو وبين **فرناندة رويزديكاسترو** والمسلمين من حزبه. ولما قام يوسف بتهدين الثورات التي وقعت بإفريقيا عاد إلى الاندلس ومعه عساكر لا تحصى عازما على إنهاء تلك

(13) عام 1166 في يوم 26 غشت .

الخلافات.وما علم ولاة ألفونسو بقدومه حتى عمروا الثغور وطلبوا النجدة من البابا فقام هذا الاخير بإصدار مرسوم صليبي وبعث إلى ألفونسو قسيسا من عنده ومعه عددمن صكوك الغفران. وهكذا قدم من فرنسا ومن ايطاليا عدد من المحاربين وعقد أمراء إسبانيا الصلح بينهم لما أوجسوا خيفة من جيوش المسلمين. واسترجع ألفونسو عددا من المدن الواقعة على امتداد ضفاف نهر إبره ونهر قلندة وفي مواقع أخرى. وقاتل يوسف لوطا طوال السنة دون أن يلحق به ضررا كبيرا بسبب التعزيز الذي كان يمده به الدون ألفونسو، غير أن لوطا قد مات من مرضه واستسلم سهل غرناطة ليوسف فساد على جملة حصون هذه الامارة وعلى مدينة جيان. ومر من هنالك على ألمرية واخضع هذه البلاد مخترقا إمارة مرسية واصلا الى قونقة، وحاصر ومعه ولده المنصور مدينة وبذة وكانت على وشك الاستسلام لعدم الماء لولا أن وقع إعصار في يوم القديس جوست جاء بوابل غزير أطاح بخيام أمير المسلمين. ثم إن عددا من أهل بيارن وأهل كاسكونيا وغيرهم من الاجانب قد هبوا لنجدة هذه المدينة مما جعل يوسف يتراجع إلى مملكة مرسية فاستكمل فتحها.
وفي السنة التي بعدها خرج من قرطبة معززا بعساكر وصلت إليه من إفريقيا ومعه ثلاثة عشر من الامراء المسلمين فدخل الى البرتغال على طريق إمارة بطليوس. ففتح هناك مدينة حصينة(14)وأفسد كثيرا في البلاد. ولما علم الدون ألفونسو ابن الرنق بقدومه حصن لشبونة. وترك فيها الامير الدون شانجه، ومر إلى قلمرية وعمر كل هذه الاحياء بالرجال والعتاد وعاد إلى شنترين، وهنالك زحف اليه يوسف محاربا فدام الحصار خمسة أيام وخمس ليال بدون انقطاع، ثم إن ألفونسو ملك قشتالة أرسل اليها الانجاد وفعل أمراء أراكون وليون مثل فعله، وكان القس الذي انتدبه البابا من جهته قد جمع عددا كبيرا من أهل كاسكونيا وبروفانسيا وبيارن ودعاهم لنصرة الصليب كما جمع الفرسان المنضوين تحت ألوية جميع العصب والطوائف، ولما علم يوسف أن كل شيء قد تهيأ لانجاد تلك المدينة ضاعف جهوده لاخذها وبينما هو يحاول ذلك إذ أصابه سهم فمات من إصابته. فمن قائل إن أحد رجاله قد أقدم على طعنه، ومن قائل إن الذي أصابه رجل من البرتغال. ومهما يكن فان المسلمين قد رفعوا الحصار وعاد القادمون من افريقيا إلى بلاد البربر.

---

(14) Torresnovas

وقد تولى من بعد ولده يعقوب المنصور فتسمى مثله بأمير المسلمين أما الدون ريمند بيرنجار كونت برشلونة، فقد مات وتولى من بعده ابنه الدون ألفونسو فصار ملكا لا راكون.

أما في آسيا فقد تعصب سلطان قونية وسلطان (15) مصر مجتمعين لشن الحرب على النصارى وجمع الامبراطور مانويل أسطولا مكونا من مائتي سفينة تحت إمرة اندرونيق قصد التصدي لهم في البحر بينما كان يهاجمهم برا بواسطة نصارى **الضفة الغربية** لنهر الاردن لكي ينتزع منهم مدينة دمياط. ولما أبلغ ما اغترمه لأميريك ملك بيت المقدس الذي أبدى استعداده للذهاب إلى دمياط شخصيا، أعلمه بأنه واصل اليها في الحين ومعه ما يلزم من المال لرواتب الفرسان الذين سيقدم بهم اليه. وبعد ذلك بمدة قليلة وصل أندرونيق الى ميليبوط حيث وجد الامبراطور قد جاء اليها ليشهد جنود البحر ويدبر ما يلزم من الاوامر. ولما لبث هناك يومين (16) توجه إلى ميناء سيست وعبيد حيث شحن السفن بعدد من المحاربين ثم اتجه إلى قبرص، ولما لقي في طريقه ست سفن مصرية جاءت لغاية الاستكشاف أسر اثنتين منها وفرت الاخرى. ولما بلغ قبرص أعلم بوصوله ملك بيت القدس. وكان قد ندم على ما كان تقرّر من الخطة فأجل تنفيذها، وأعلمه أنه قادم عليه للمذاكرة في تلك الشؤون. ولما وصل أندرونيق إليه ووقف على ما يتعلل به من الصعاب طلب منه ألا يتأخر عن مثل ذلك المرام العزيز. وفي الاخير استقر امر الملك على أن يقدم على خطته برا بواسطة الاستيلاء على قريتين (17) واقعتين في سهل خصيب صالحتين لاراحة الجنود وانتعاشهم. سيما وأن سكانهما من النصارى وإن كانو ممن يدينون بالطاعة لملك مصر. وتوجه بتلك النية وما أن وصل حتى استسلم اليه السكان. ومن هنالك توجه الى دمياط حيث وجد جند البحر وكانوا قد قاتلوا العدو ودخلوا بسفنهم في النيل لمحاصرة المدينة من جميع الجهات، ولما أثلموا السور في عدة مواقع أمر بالاقتحام ولما أبلى اهلها في الدفاع عنها تحتم أن يجرى معهم اتفاق عرضت شروطه على الامبراطور فقبلها وعقد معهم السلم على ما يفيدهم أكثر مما يشرف النصارى حتى إن اندرونيق قد رجع مغضبا

(15) قلج أرسلان وعمر العاضد .

(16) في مرسى Célé

(17) هما تيني وتينيبي .

إلى القسطنطينية، وعاد الملك إلى بيت المقدس. وبعد ذلك سار مانويل لحرب سلطان قونية الذي لم يتوقف بالرغم من انعقاد الهدنة عن القيام بغزو أراضي الامبراطورية. وانتقل الامبراطور الى دوريليو عازما على تحصينها. ولما علم السلجوقي بذلك أرسل اليه يسأله لماذا هو مصر على حربه فأجابه بان سبب ذلك ما يعلمه من أفعال، فبادر إلى تحصين المدينة وحفر الآبار لان المياه تنعدم فيها. ولما رأى الاتراك أنه لم يكن تحصنها إلا ليطردهم من تلك الجهات حيث كانوا يرعون أغنامهم وحيث كانوا ينطلقون لغزو النصارى تفرقوا إلى مجموعات متعددة وجاءوا من جهات مختلفة لكي يمنعوا أشغال التحصين. فصاروا يقتلون أو يأسرون العملة الذين يجلبون الحجارة أو الماء، لكن الامبراطور عاد بنفسه ومعه الفرسان لنجدة العملة . وبعد أن حصن دوريليه وثغرا آخر (18) عاد إلى القسطنطينية. وفي السنة التي بعد هذه جمع جيشا أكبر قوة كان فيه إيطاليون (19) وتاتار ممن يسكنون على امتداد نهر الدانوب وعدد آخر من الاجناس واتخذ طريقه إلى فريجيا ولاوديقيا، ولما وصل إلى قونية دخل معبد القديس ميخاييل الشهير ومن قونية واصل طريقه إلى لا مبى وبلغ سيلينا حيث منابع نهر مياندر، ويقال إن هذا المكان هو الذي أقدم فيه أبولون على سلخ مارسياس الذي أراد أن يتحداه في ميدان الموسيقى. ومنها انتقل إلى قم ثم إلى حصن قديم مهجور يسمى **ميريوكيفالوس** بسبب كثرة عدد رؤوس النصارى التي قطعها الاتراك على مقربة منه. وتابع طريقه متقدما بقدر ما يسمح بها ازدحام العربات وثقل العتاد، وهو حريص على تحصين اماكن نزول جيشه دون أي تفريط. ولقد تعثر سيره بسبب غزوات الاتراك ومناوشاتهم إذ كانوا يسممون المياه ويحولون بينه وبين أسباب التموين . وأثناء ذلك قام سلطان إيقونيا ، بالرغم من كونه قد جمع أجناداً كثيرة من الفرس ومما بين النهرين وغيرهما ، بإرسال وفد لطلب الصلح مع الامبراطور ، وكان ذلك الطلب مما لا يتردد عن قبوله أكثر القواد تجربة ، لأن السلجوقي كان متحكما في معظم الممرات والثغور الحصينة التي لابد لجيش الامبراطور من المرور بها . ولكن الامبراطور قد أصغى الى الاغرار الذين يجهلون كل شيء عن فنون الحرب فرد السفراء دون عقد أي اتفاق وقد أرسل السلجوقي بعثة جديدة بدون جدوى . وبعدما أرسل

(18) سوبليه .
(19) مدينة بالاس .

رجاله ليكمنوا في ممرات جبال طوروس وأمرهم بطرد المسيحيين منها اذا كانوا قد استولوا عليها . يوجد في هذه الجهة واد فسيح [20] يمتد نحو أعالي الجبال ثم يتجه الى جهة الشمال قليلا عن الساحل . ثم يتفرع الى أودية أخرى أكثر عراء . وهو محصن من الجهة الاخرى بصخور وعرة الانحدار . ولما كان على الامبراطور أن يمر من هنا بجيوشه فانه قد غابت عنه نباهته المعهودة وهو أشد ما يكون محتاجا إليها فلم يقم بالتعرف على الممرات ولا باستكشافها ولم يفصل العدة والمتاع عن الجيش حتى لا تعيقه في حالة القتال . بل إنه تقدم بهذا الترتيب: فالمقدمة كان عليها جان وأندرونيق [21] وقلب الجيش كان عليه قسطنطين ولا باردا وقد ترتبت فيالقهم على هيئة هلال ميمنته عليها بودوان ملك بيت المقدس وميسرته عليها تيودور ، وبعد هذا تأتي الامتعة ثم الامبراطور ومعه السواد الاعظم من الجيش. وكان أمير البحر أندرونيق على حراسة المؤخرة. هكذا كان ترتيب الجيش عند دخوله لهذه الاودية. ولما وصل إلى المضايق كذلك بلا خطر حيث يتعذر الانبساط تجمع الجناحان وانطبقا على من كان من الاعداء من الجانبين بقصد منع المرور وكان بإمكان بقية الجيش آن تمر كذلك بلا خطر لو رتبت على جنبات الممر سرايا لاخراج الاعداء من أعالي الجبال، ولو أنها أقامت الذرع المعروف في ذلك العهد لاتقاء رماح الاتراك وإبعادهم. ولما لم يفعلوا شيئا من ذلك فقد انقض عليهم الاعداء من كل جهة وهم يصيحون بأصوات عالية فخلقوا الاضطراب في صفوف النصارى وقتلوا منهم عددا كبيرا، وفر الجناح الذي كان عليه بدوان. وفي هذه الحالة جمع هذا الامير المقدام كتيبة من الفرسان وقاتل وسط الاتراك حتى قتل وهلك معه كل من اتبعه. ولما اعجب التركي بنصره عمل حتى قطع مقدمة الجيش عن وسطه وتمكن من الممرات التي تدافع اليها المسيحيون في ازدحام شديد فقتل بعضهم دون أن يستطيعوا دفاعا عن أنفسهم ودون أن يتمكن الامبراطور من إنجادهم بسبب عائق الامتعة، سيما وانهم كانوا محاطين من كل جهة بالصخور الشديدة الانحدار. وكان عدد من قتل من المسيحيين بسهام الاتراك كبيرا حتى إن الاودية التي امتلأت بجثث الموتى قد جرت فيها جداول من الدماء. وحينئذ، رفع الاتراك رأس ابن أخت الامبراطور [22] على سنان رمح وكان خاله ارسله على رأس

(20) يدعى كنيسور أو كلوس .

(21) ابن الملك قسطنطين .

(22) أندرونيق باتاك .

كتائب بفلا ــ كونيا لقتال الأرمينيين، ثم هاجموا مانويل من جميع الجهات، باذلين في ذلك جهدا جهيدا لما علموا ان النصر رهين بالقضاء عليه وهذا ما جعله يضاعف من قواته ويشجع رجاله على فتح ممر ينفد منه بحد السيف.(23) ولما التحم بمن بقي له من الجند خرج من بين جم كثيف جاء يحيط به وحارب بضراوة، فأثخن بالجراح وتلقى بدرعه ثلاثين سهما وتبعجت خودته حتى تعذر رفع غطائها. ومع ذلك لم يتوقف الاتراك عن القتل والضرب، أما الذين ظنوا أنهم سيفرون مارين على جثث رفاقهم فقد ذبحهم الاتراك المنتشرون هنا وهناك في الجبال. ذلك لان المكان الذي نتحدث عنه ينقسم إلى سبعة أودية عميقة قريب بعضها من بعض، وحتى إذا اتسع الممر في بدايته فإنه يضيق شيئا فشيئا حتى لا يكاد يتسع في بعض الاماكن لاكثر من ثلاثة فرسان في وقت واحد. وبما أن الاتراك قد استحوذوا على تلك الامكنة فانه ما كاد يمر طابور واحد حتى أحيط به من كل جانب، ومما زاد الطين بلة هبوب ريح شديدة غطت الميدان بالغبار والرمال حتى تعذر على المحارب أن يرى غيره فكان على المقاتل أن يتعرف على مقاتله فكان أن سقط رجال من الفريقين ومع ذلك لم يسقط من الاتراك مثل العدد الذي سقط من المسيحيين ولم يفقدوا مثل من فقدوه من الشجعان. لان هؤلاء هم الذين صمدوا وحدهم للقتال. وعندئذ بقي الامبراطور بدون حراس ولم يبق معه سوى نبيل واحد في خدمته، آوى إلى جذع شجرة كمثرى ليسترجع أنفاسه ولما كان خادمه يصلح له الاسلحة التي كانت قد تحطمت برز تركي فألقى يده على لجام فرسه ليوقفه ولكنه ضربه بقطعة من رمحه فأرداه قتيلا. ولما تسابق إليه اخرون ليقبضوا عليه أخذ الحربة من حامل سلاحه فقتل الاول بينما ضرب خادمه عنق الثاني بسيفه. وأثناء ذلك وصل عشرة من فرسانه فجعلوه في وسطهم وساروا معه إلى كتيبة كانت في المقدمة. ولم يخل ذلك من مخاطرة لان الاعداء اعترضوا طريقه عدة مرات. ولما اجتاز هذه المضايق حيث كان عليه أن يمشي مدة طويلة على جثث الموتى وان يقطع نهرا يجري في وسطه لحق بكتيبة من رجاله وهاجم الاعداء. فقتل **جان كنتاكوزين**(24) ووقع الهجوم على الامبراطور بعد

---

(23) جاء ضمن الهوامش ما يلي: « ينسب له المؤلف هنا خطبة ألقاها في جنوده، بيد أن الموقف لم يكن ليسعفه بإلقاء مثل تلك الخطبة ».

(24) كان قد تزوج بـ[illegible] حي الملك أو [illegible] حته.

ذلك ولكنه قاتل باستماتة حتى تمكن من الافلات فلحق بمؤخرة الحراس الذين كانو ينتظرونه في معسكرة حيث كان بعض الفرق ما تزال منضوية تحت طاعته. فأمر بإقامة الحراسة طول الليل. وفي الغد وبينما كان الاتراك يستعدون لمهاجمته اشفق عليه السلجوقي فارسل اليه بعض لوازم الراحة وعقد معه الهدنة على شرط أن يهدم القلاع التي كان أعاد بناءها في سوبليه ودوريليه ولما رأى الامبراطور أنه قد ابتعد عن الخطر رفض أن يهدم تلك الحصون مما حمل السلجوقي على أن يجدد معه القتال فأرسل عليه أشجع فرسانه وأمرهم بأن يحطموا كل المواقع التي يمرون عليها وياتوا اليه بالماء والرمل من البحر، فدخلوا ولا يات الامبراطورية وخربوا مدن فريجيا ومدن نهر مياندر ولكنهم وقعوا على غرة في كمين عندما أرادوا اجتياز هذا الوادي ففقدوا عددا من رجالهم وغنائمهم.

وأثناء ذلك وقعت في مصر حروب كبرى بين سلاطينها وقام صلاح الدين ابن أخي شيركوه بقتل الخليفة العاضد (25) وساد على مجموع البلاد ولكي نتجنب قطع تسلسل أخبارنا فسنتعرض لهذه الأمور عند حديثنا عن المماليك .

---

(25) هذا من افتراءات المؤلف إذ أن صلاح الدين لم يقتل العاضد (المترجم) .

الفصل السادس والثلاثون

خبر أبي يعقوب ولد يوسف ملك المغرب
وما حدث في عهده من الوقائع

بعد موت يوسف وقعت فتن عظمى في إفريقيا حيث ثارت معظم المدن والبوادي ولكن أبا يعقوب [26] الذي يسمى عادة بيعقوب المنصور أخذ زمام الملك وأجبر جميعها على الخضوع طوعا أوكرها. وما لبث أن بويع في فاس. ولما استنكف أمراء تلمسان وتونس بادىء الأمر من الدخول في الطاعة، وكانوا يدفعون بالعرب خيفة لاقامة الفتنة، أظهر لهم يعقوب الصلح وحرض عليهم هذه القبائل. ولما رأى أن الحرب قد استحكمت بينهم جمع جيشا في جهات طنجة، واظهر أنه يريد تخليصهم من نير الأعراب. ولما وصل إلى تلمسان انضمّ إلى أعدائهم فانتصر على أمراء تلك الجهات ونزعهم من الحكم. ولما كان حريصا على أن ينتتب السلم في تلك البلاد وعلى ان يخلصها من عسف العرب فقد استجلب هؤلاء متعللا بكونه أراد أن يخرجهم من قفارهم وان يعطيهم بلدا خصبا يستوطنونه فجعل أعظم قبائلهم شوكة في دكالة وتلمسان وأزغار، وأرسل الآخرين إلى نوميديا وليبيا لكي يضعفهم بتفريقهم. أما الذين بقوا في موريطانيا الطنجية (المغرب الاقصى) فقد صاروا من أتباعه لأن هذه القبائل إذا ابتعدت عن قفارها ابتعدت عن بيئتها الطبيعية فتفقد قوتها وبأسها. وكان بإمكانهم الرجوع اليها لو استطاعوا اختراق المضايق التي يسكنها السكان الأصليون والبوادي التي استوطنها العرب القدماء من رعية الملك. وهكذا تخلوا عن عزتهم الأصيلة ليشتغلوا بالزراعة ورعي السائمة .
أما الذين استوطنوا أزغاز فقد كانوا يؤدون الجزية أول الأمر، وأما اللذين نزلوا دكالة وتلمسان فلما كانوا أكثر عددا وأكثر وفاقا فقد أعفوا أنفسهم من أدائها. بل إنهم انتهوا بمرور الأيام إلى ان استخلصوها لانفسهم من سكان البلاد الاصليين مقابل كف

(26) كنيته أبو يوسف وليست أبا يعقوب (المترجم) .

يد التخريب عن أراضيهم ما داموا معتزين بكثرتهم وقوتهم . أما الذين أرسلوا إلى نوميديا وليبيا فلم تنفعهم تلك البلاد فأطاعوا أهلها لبعض الوقت ثم انتهى بهم الامر إلى ان اصبحوا سادتها، فعادوا الى بسط سلطانهم على ما جاورهم من الجهات غير معترفين بما عدا سلطة اشياخهم ورؤسائهم . أما الذين بقوا منهم في إمارة تونس ولم يتأت نقلهم لشدة شغبهم وتعذر إخضاعهم فانهم ثاروا إثر وفاة المنصور وسادوا على تلك البلاد. ودامت سيادتهم عليها إلى عهد بني مرين الذين أقطعوا تلك الامارة لقائد من فرسان زناتة (27) ظل عقبه من الذكور يحكمون تونس واحدا تلو الآخر إلى عهد حميدة الذي انتزع منه السيادة حاكم مدينة الجزائر (28) لحساب ملك الاتراك ؛ فقد ظل ذلك الفارس يسود على المدن والقرى متنازلاً عن نصف جبايته للعرب. ولما كان عدد هؤلاء يزداد مع الايام فإن العطاء قد اقتصر على من كانوا يوالون الدولة ويذودون عن البلاد. بيد أن الآخرين كانوا يقومون بغزوات في أماكن متفرقة واعمالهم تشبه أعمال اللصوصية حتى كان السفر في تلك البلاد متعذرا دون توصية من مكان إلى آخر، وكان ذلك يتم على الصورة التي نبينها : عندما يصل المسافرون الى مكان ما يكتب شيخ ذلك البلد سجلا بأسماء المسافرين ويرسل معهم رجلا يتقدمهم حاملا معه مزراقا وراية عليها شعار معلوم. حتى إذا بلغوا بلدا آخر تجدد خفرهم على تلك الصورة. وكان يؤدى عن كل رأس قدر معلوم وعن كل حمل قدر معلوم يستوي في ذلك اليهود والمسلمون. ومن لم يفعل ذلك تعرض للقتل أو للنهب . هذا ما كان يتعين فعله على من يريد أمن نفسه في هذه الاحياء التي كان يسكنها العرب.

رجع الخبر. لما ملك يعقوب المنصور بلاد البربر قام بغزو النوميديين (29) وأخضع من بها من ماسة إلى طرابلس بما في ذلك مملكة مراكش وفاس وتلمسان وتونس على مسافة يتعدى طولها اثنتي عشرة مائة فرسخ، وعرضها مائة وثمانون فرسخا ما بين البحر المتوسط ورمال صحراء ليبيا. ثم إن مسلمي إسبانيا كانوا يعترفون به ملكا لهم ، وكان يقوم في الأندلس بغزوات ضد المسيحيين حتى إنه كان أعظم ملك حكم في إفريقيا منذ عهد الخلفاء. وقد بنى مدينة الرباط بقرب

---

(27) أبو حفص .

(28) غلوش أو علي الفتاشي .

(29) يقصد سكان المغربين الاوسط والادنى .

سلا (30) بالاضافة إلى بنائه المنصورة والقصرالكبير والقصر الصغير بسبب ما اقتضاه مرور الجيوش إلى اسبانيا، كما بنى عددا آخر من المدن سنذكرها عندما نتحدث عن أمره بتفصيل، وهذا ما جعله يلقب بالمنصور ولم يكن اسمه الاصلي.

وإذا رجعنا إلى اسبانيا نجد أنه بعد وفاة لوط ملك بلنسية توزع ولاء رعاياه بين أبنائه وبين الموحدين ، كل فريق يوالي سيدا من الاسياد. وقد اغتنم الفونسو ملك أراگون هذه الفرصة ليحاصر المدينة بعد أن أفسد جهاتها. ولكن القائد المرابطي الذي كان على المدينة عرض عليه الولاء على ان يتركه عليها. وكذلك كان. ومن ثمة انطلق ألفونسو لمحاصرة شاطبة التي كانت لابن لوط. ولم يغادر حصارها حتى أعلن هذا الأمير عن ولائه له، إلا أن ملك نبرة كان يجول في طول بلاده وعرضها .

وفي السنة التي بعدها جاز يعقوب المنصور إلى الاندلس وكان قد هدّن إفريقيا وتلقب بالمنصور وبأمير المسلمين. وقد دخل على رأس جيش جرار إلى قرطبة. ثم عاد إلى افريقيا دون أن يقوم بشيء لما بلغه أن بعض العمال قد خرجوا عن طاعته. فترك الدون فرنانده رويز دي كاسترو قائدا عاما ومعه فرق من جيشه ولو أنه مسيحي. وما أن رحل يعقوب حتى قام فرديناند باستنفار المسلمين الآخرين فدخل البرتغال وحاصر مدينة اذريق بعد أن عاث في البلاد. ولما علم الدون فرناندة ملك ليون بذلك هب لانجاد المدينة. فقاتله (32) وهو أقل منه قوة ، فغلبه دون أن يهلك الجم الغفير من المسيحيين الذين كانوا تحت لوائه لانه لم يكن يرغب في الاثخان فيهم، ثم إنه عمل خيرا بان بعث اليه رسله يعده بالاصهار اليه بأخته وبالتخلي عن محالفة المسلمين والدخول في حزبه. ثم انضم اليه أهل بطليوس وأهل ماردة وأهل الجهات المجاورة. وبعد هذه الحوادث وقعت الحرب بين ملك قشتالة وملك نبرة فأخمدت نارها مؤقتا بتدخل رسول البابا، ولكن ألفونس ملك قشتالة ذهب في السنة الموالية يحاصر قونقة ومعه ملك أرغون . ولما انشغل أهلها انسحب فرناندة رويز دي كاسترو وكان قد جاء معه ثم تخلى عنه بأمر من ملك ليون، وذهب ليستولي على عدة مدن في قشتالة كانت لاسلافه (33). ولما وقع ذلك

(30) في الهامش إشارة الى أن المقصود هو رباط المهدية ، والمهدية قريبة من سلا الى جهة الشمال وإن كان باني مدينة الرباط هو يعقوب المنصور نفسه .

(32) في المكان المسمى بالقديس جاك .

(33) كاسترو وشريش ودو يجناس الخ ...

ترك ملك قشتالة الحصار لملك أرغون وسار يريد استرجاع تلك المدن وقتال ذلك الامير. وحينئذ اجتمع مسلمو الاندلس لنجدة قونقة، ولما لم يقدروا على مناجزة ملك أرغون وكان قويا وأمره على غاية الاحكام والتدبير ذهبوا يفسدون أحياء طليطلة، ولما خرج أهلها وقعت عليهم الهزيمة وهلك اثنان من شجعان فرسانها. (34) وبعد ذلك رجع المسلمون الى الاندلس ورجع ملك قشتالة إلى حصار قونقة التي استسلمت في الاخير بعد عقد صلح مع أهلها ، وقام هذا الملك بإعادة تعميرها وتحصينها. ثم إن ملك أرغون قد دخل مملكة بلنسية (35) وفرض الجزية على جميع المرابطين في هذه الجهات ثم عاد منتصرا إلى بلاده. وفي سنة ألف ومائة وثماني وسبعين وقعت الحرب بين ملك ليون وملك قشتالة. وفي السنة التي بعدها قسم ملك قشتالة وملك أرغون البلاد التي أنهيا غزوها، فصارت مملكة بلنسية لملك أرغون وصارت مملكة مرسية لملك قشتالة، وبعد ذلك تمردت عليه. وفي سنة ألف ومائة وثمانين دخل المسلمون من أهل بطليوس إلى ماردة ودخل آخرون من هذه الاحياء الى البرتغال فحاصروا شنتاريو وشلب، ولكن الملك ليون الذي كانوا يدينون له بالولاء قد أمرهم برفع الحصار فأطاعوه. وبعد ذلك بسنتين انتقل ملك قشتالة من قلعة رباح إلى بلاد المسلمين ومعه جيش جرار فأخذ حصن شنتفيلة في أرض كونسو يكرا (36) وبعد أن ترك فيها حمية قوية مر إلى جهات مونتيل والكرس في أرض أبدة فحطمها تحطيما كليا وعاد منتصرا إلى قشتالة. وفي سنة ألف وثلاث وثمانين أخذ طريق بلش وعلرقون وقطع نهر شكر وقام بغزوات في كل أنحاء مملكة مرسية ثم رجع إلى طليطلة محملا بالغنائم. وفي السنة التي بعدها عاد إلى مملكة مرسية وأخذ صلحا حصن علرقون (37) ثم عاد منتصرا إلى قشتالة. وفي سنة ألف ومائة وخمس وثمانين، أخذ طريق طلبيرة فقطع نهر تاجه ودخل في بلاد ترجالة وعاث فسادا في شيرينة ومر منها إلى إشبيلية ثم جاء يحاصر حصن ركانه . ولما تمكن منه عاد إلى طليطلة محملا بالغنائم. وفي نفس العام مات الدون ألفونسو بن الرنق أمير البرتغال وتولى بعده ابنه الدون شانجه . وفي العام الذي بعده اخذ ملك ليون إينيشته.

(34) الدون كوديال والدون بيطرة وهما أخوان .

(35) في شهر أكتوبر .

(36) Consuégra

(37) على ضفة نهر شقر .

وفي نفس العام طلب البابا من ملك قشتالة أن يسير إلى الأرض المقدسة صحبة الامبراطور فريديريك وملكي فرنسا وانكلترا لحرب صلاح الدين الذي بسط ملكه على معظم بلاد الشام وبلاد العرب بعد أن تخلص من آخر خلفاء مصر من أسرة القائم (38) وغدا يهدد بيت المقدس. وقد أجاب الملك بأنه لا يستطيع أن يتخلى عن الحرب التي بدأها ضد المسلمين في إسبانيا. ولما اشتد الخلاف بين فريدريك وبين اولئك الملوك الآخرين أبطلت الرحلة.

وفي سنة ألف ومائة وتسع وثمانين عقد فيليب ملك فرنسا السلم مع ريتشارد ملك انكلترا تمهيداً لتلك العملية. وقد انضمَّ اليهما كيوم ملك صقلية وعدد آخرون من أمراء المسيحيين. ولكن أمراء إسبانيا لم يتمكنوا من المشاركة فيها بسبب الحروب التي كانت بينهم وبسبب الحروب بينهم وبين المسلمين. وفي السنة التي بعدها دخل ملك قشتالة وملك أراغون في جهات عدة إلى منطقة استرمادور واقتحما حصن مغازل وباغنوس وعددا اخر من المدن ، ومنها توغلوا حتى الوادي الكبير مدمرين كل تلك الاحياء. وقد عادوا في نفس العام إلى استرامادور ودمروا ما تبقى في بلاد صاحب ماردة ثم مرا عبر جبال فريجنال إلى الشرق (39) وتوغلا حتى بلغا البحر وهما يحطمان كل شيء في طريقهما واستوليا بعد ذلك على قالاشبار وعادا الى بلديهما محملين بالغنائم. وفي هذه الأثناء وصل الى لشبونة محاربون من الأنجليز كانوا في طريقهم لفتح الارض المقدسة فألح عليهم الدون شانجه ملك البرتغال في أن يعينوه على أخذ شلب من العرب ووعدهم بغنائم كبيرة فأجابوه لما طلب. فهاجمها الملك برا والانجليز بحرا حتى اضطر أهلها للاستسلام . وفي العام الذي بعد هذا استأنف ملك قشتالة وملك أرغون الحرب التي ابتدآها فاجتمعت لهما الجيوش ودمرا بلاد إشبيلية وقرطبة ثم عاثا في جهات مرسية وبلنسية وعادا منها محملين بالغنائم. وفي اثناء ذلك جاز بيرو هير ناندر دي كسترو ابن امير ليون إلى إفريقيا للدخول في خدمة يعقوب المنصور فاحتفى به احتفاء وعين له وفق رغبته راتبا على أراضي قرطبة وإشبيلية ثم بعثه ليتفقد حواضر الاندلس ويرتب أمورها حتى حين التحاقه به لانه كان يعد العدة للرحيل برسم غزو الاندلس. وهكذا قام بيروهيرناندز ابتداء من ربيع عام ألف ومائة وأربعة وتسعين باستنهاض جميع

(38) يقصد العاضد الفاطمي (المترجم) .

(39) وهو من أحياء إشبيلية .

المسلمين الموالين للمنصور ودخل بهم إلى البرتغال حيث أتلف كثيرا فيما بين نهر تاجو ووادي أنّه ثم أخذ أبرانت. ولما كان راجعا بالغنائم قام ضابط برتغالي بترويع معسكر المسلمين وقتل منهم عددا كبيرا. وفي نفس العام مات الدون شانجه الحكيم ملك نبره وكان شديد البأس على المسلمين ، أخذ منهم عددا من المدن (40) في النواحي المجاورة لمملكته .

وبعدما قضى المنصور على الفتن التي كانت في إفريقيا وأخضع ولايات شرق مملكته ونقل العرب إلى الغرب أعلن الجهاد الذي هو عند المسلمين بمثابة حرب الصليب عند النصارى. لان من غزا في الجهاد من المسلمين اعتقد أنه قد غُفر له ما ارتكب من ذنوبه وضمن الجنة إذا مات أو قتل نصرانيا، وهذا ما يجعلهم يسارعون إلى الدخول في جند الجهاد أفواجا دون أن يتلقوا على ذلك أجرا. وبعد أن جمع المنصور بهذه الوسيلة أربعمائة ألف من بينهم مائة ألف فارس جاز إلى الاندلس، ووصل إلى قرطبة حيث قدم للقائه بيرو هيرناندز على رأس الجند الذين كانوا تحت إمرته. ولما تم الاستعداد اتجها نحو طليطلة. وما أن سمع ألفونسو ملك قشتالة بخبر هذا الجيش العظيم حتى أرسل في طلب إنجاد امراء المسيحية في إسبانيا . ولما استبطأ وصولهم قام لمقابلة العدو بعد أن استأجر فرقا من كَاسكونيا وبروفانسيا. وجرت المعركة في يوم أربعاء على مقربة من مدينة الارك في التاسع عشر من يوليوز، وسالت فيها دماء كثيرة. ولما رأى ألفونسو أن رجاله قد دب فيهم الوهن قاتل العدو بنفسه حتى جرح بطعنة رمح في ساقه. فأبعده رجاله من المعركة وواصلوا القتال. ولما قهرهم الأعداء بكثرتهم انهزموا وتحقق النصر للمسلمين ، والتجأ قواد النصارى إلى الارك يحاولون الدفاع عن أنفسهم من وراء جدرانها ، وتمكنوا من النجاة بأنفسهم بفضل تدخل بيرو هيرناندز وبعد خروجهم وقع تدمير المدينة. وانتقل المنصور من هنالك إلى قلعة رباح فضيق عليها وأخذها عنوة. وفي حصارها مات الدون نونة دي فوينتس وهو ثالث سادة العصبة. ولما حصن المسلمون هذه المدينة عادوا الى قرطبة. وفي السنة التي بعدها مات ألفونسو ملك أرغون، وقام خلفه الدون بيدره بحروب شديدة ضد المسلمين وانتزع منهم فيها عدة حواضر (41) وألحق خسائر كبيرة بمملكة بلنسية. ولكن المنصور خرج حينئذ من

---

(40) منها : القلعة الجديدة وأليدو ولوشة وأرمايو وأرشيديو وبيجنادي وأرامون .

(41) حصن أداموس وفيك وسيرفيرا .

قرطبة ودخل بجيشة في استرامادور وفتح مدينة فرسان المعبد (42) عنوة ثم خربها. ومر بعد ذلك الى ترجالة ودخلها صلحا وحصنها ، وبعد ذلك فتح بلاسانسيا وكذا جميع المدن الواقعة على امتداد نهر تاجو إلى طلبيرة . لكن هذه المدينة الأخيرة امتنعت عليه . وبعد ذلك دمر تلك الضاحية وذهب يحاصر ترجالة ففتحها عنوة وفتح عسقلونة بعد مقاومة شديدة ثم ذهب لحصار طليطلة. وبعد أن لبث هنالك عشرة أيام تبين له امتناعها وأفسد في ضاحياتها وذهب لقتال مقودة ولكنه لم يتمكن من فتحها وعزم على التحرك إلى آبلة عبر قدم زيبريروس ولكنه علم بتحصنها وبنزول ملك قشتالة بجيشه فيها فدخل مملكة طليطلة ولكنه لم يتمكن هذه المرة أيضا من أخذها بسبب المقاومة الشديدة التي أظهرها فرسان قلعة رباح فجاء لاقامة الحصار أمام طليطلة . ولما تبين له أن حصار المدينة غير مجد اكتفى بإتلاف ما في بساتينها وعاد الى قلعة رباح بعد أن قضى هنالك أياما من شهر يونيه . بيد أن ملك ليون وملك نبرة قد قاما من جهتهما بشن الحرب على قشتالة، وكاد هذا الفعل يؤدي إلى خسران إسبانيا خسرانا كاملا. ذلك لان المنصور قد عاد لحصار طليطلة في السنة الموالية ، ولما أن جهوده ذهبت سدى رجع الى جهة مدريد فامتنع عليه أخذها كما امتنعت عليه قلعة هنارش لان الملك الفونس لما رأى أنه مضطر للتخلي عن حملته أصدر أوامره للذب عن هذه المدن، ومن ثمة مر المنصور بأوريشا وبلش وويده وقونقه وعلرقون وهو ممعن في الافساد والتدمير دون طائل، ثم عاد إلى الاندلس ولم يعترض أحد طريقه بسبب ما كان من الشقاق بين أمراء النصارى. وقد سعى البابا (43) لانهاء تلك الخلافات فأرسل مندوبه إليهم ، ولكن سعيه لم ينجح ، ثم دعا إلى حرب صليبية. ولكن ملك قشالة طلب من المنصور أن يعقد معه هدنة فاستجاب له بسهولة نظرا للفتن الواقعة في افريقيا حيث ثارث عدة قبائل في غيابه. وكان العهد بينهما يقتضي أن يبقى كل واحد على ماكان بيده من المواقع مع إمكان القيام بتحصينه. وبعد ذلك عاد المنصور إلى بلاد البربر تاركا بيروهيرناندس دي كاسترو نائبا عنه في قيادة الجيش . وبعد رحيله تقاتل ملك قشتالة وملك ليون بضراوة أنستهما التفكير في المسلمين إلا أن ملك ليون قد ضاق في النهاية فانحاز

---

(42) Sainte Croix des Templiers

(43) سيليستان الثالث .

اليه بيروهيرنادس دي كاسترو ومعه ألف من حملة الرماح وعدد من الرؤساء المسلمين من أصدقائه وتعاهد معهم لمدة طويلة .

رجع إلى خبر إفريقيا. لما غاب المنصور ثلاث سنين في الحرب بالاندلس اغتنم عامله على مراكش فرصة غيابه لتحريف القبائل الموالية . ولما استمال العرب المقيمين في الجهات المجاورة دفع بالبلاد إلى الثورة. وحين علم المنصور بخبر هذه الفتنة عاد إلى إفريقيا بجيش عظيم ولم يجرؤ الثوار على لقائه بظاهر المدينة فتحصنوا بأسوارها. فحاصرها المنصور عاما كاملا بدون جدوى. ولما رأى ان الوهن أخذ يدب إلى جنوده استدعى قواده فحرضهم وأمر بإحضار سلاليم على قدر ارتفاع السور، وفي غده كانوا قد أحضروا منها أربعة آلاف (44). ولما جاء اليوم الموعود أمر باقتحام المدينة من كل جهة ، وتقدم أصحابه وهو يقول لهم إنهم حاربوا من قبل لاجل النصر والآن يقاتلون من أجل الثأر ومن أجل تخليص نسائهم وأولادهم من أيدي الغاصبين، واستمر الاقتحام ثلاثة أيام وثلاث ليال مع الاسترواح والاستمداد الدائمين. فلما أجهد الذين بداخل المدينة لجأوا إلى القصبة وبادر المنصور بدخول المدينة وأتى على كل ما وقع عليه، وهدد بالقتل كل من قام بدفن جثة من الجثث المسجاة في الازقة، ولما ذكروا له مغبة تعفن تلك الاجسام خرج من قصره وغطس بنفسه كم سترته في الدم وأدناه من أنفه قائلا : ليس أزكى من رائحة موت العدو ولا سيما إذا كان خائنا، ومنع إبعاد الجثث حتى تضمحل اضمحلالا تاما وبعد ذلك أمر بدق عظامها .

وكان العامل الذي اعتصم بالقصبة ومعه خليط من الرجال والنساء والاطفال قد قلت أقواته فاستشفع بمرابط ذائع الصيت. وكان المنصور قد أقسم أن يدخل من فوق الاسوار ، فبُينت له محلة فوق الباب فدخل منها. ولما كان في قصره جاء الناكث للسلام عليه يصحبه المرابط المذكور وعدد من شركائه في الفتنة. فارتمى على قدميه يقبلهما وهو يطلب الصفح، فلم يملك المنصور غضبه، فضربه بحذائه على رأسه، وأمر بضرب عنقه في الحين، وضرب أعناق من اتبعوه. ولما ذكره المرابط بالعهد الذي قطعه على نفسه، أجاب بأن لا عهد لمن لا عهد له (45) هذا ما وقع في هذه الثورة حسبما يذكره المؤرخ العربي الذي تحدثنا عنه. وقد أضاف

---

(44) حسب رواية المؤرخ المراكشي عبد الملك .

(45) ذلك لأنه عهد إليه بالتولي مدة غيابه .

بأن المنصورقد اشتد ندمه على نكث ذلك العهد فخرج سائحا هائما على وجهه حتى مات خبازا بالاسكندرية. يحكي أهل إفريقيا أخبارا أخرى عن هذا الملك سأذكرها عند ذكر وصف مدينة تونس. أما أهل مراكش فإنهم لما افتقدوا ملكهم الذي كانوا يكنون له محبة خاصة، وظنوا أنه رحل لزيارة قبر محمد بايعوا أخاه إبراهيم لينوب عنه مدة غيابه، ولما انقضى عام كامل دون ان يظهر له خبر بايعوا محمد الناصر ملكا عليهم وهو الذي انهزم في معركة العقاب.

وبينما كانت تقع هذه الحوادث في إفريقيا وفي إسبانيا كانت تجري في إيطاليا اضطرابات لا تقل عنها هولا بسبب الخلافات الناشئة بين الامبراطور والبابا. أما أمبراطور القسطنطينية فبعدما لحقت به الهزيمة النكراء التي ذكرناها، اغتنم الاتراك الفرصة لغزو سوريا والدخول في ولايات الامبراطورية. ولما رأى البابا ما كانت تسببه هذه الخلافات من الضرر للمسيحية سعى إلى الاصلاح، فانتقل إلى البندقية وعقد السلم مع الامبراطور الذي قبل قدميه وأعلن له الولاء. ثم عمل البابا هدنة لمدة خمس عشرة سنة بين فريدريك وملك صقلية. وتقررت هذه الهدنة في لومبارديا وتم توقيعها لما كان لوشيوس الثالث على كرسي البابوية. وأثناء ذلك مات امبراطور القسطنطينية (46) بعد أن قضى في الملك سبعا وثلاثين سنة، وخلفه ولده أليكسيس، وكان صغير السن ، لذلك كان الحاكم الحقيقي هو أندرونيق أحد أفراد أسرته ، وكانت له أطماع خبيثة في الحكم دفعته إلى قتل اليكسيس وقتل عدد من الكبراء الموالين له. وجرؤ على ارتكاب جرائم وأعمال فظيعة أدت بكيوم ملك صقيلية وبأمراء آخرين من النصارى إلى مجاهرته بالحرب، فأخذوا عددا من حواضره، بل إن أهل قسطنطينية قد تآمروا عليه وبايعوا إسحاق أحد أقارب مانويل أمبراطورا فحارب أندرونيق حتى تقبض عليه وقتله شر قتلة، وبقي يملك الامبراطورية في أمن وأمان .

أما في آسيا فإن صلاح الدين الذي ملك مصر، وعددا من مدن سوريا وأرمينيا وليقيه وما بين النهرين كان يهاجم من جميع الجهات الملك بودوان الرابع ملك بيت المقدس ويهدد أمراء أنطاكية وطرابلس وكل تلك البلاد. فهو قد استرد عددا من المدن كان بودوان يملكها في مصر وأعفى مملكة بيت المقدس من الجزية

---

(46) مانويل .

(47) دمشق وحلب .

التي كانت تؤديها لسلفه، (48) وضيق عليها، ولم يبق لها سوى الدفاع، وبينما كان البابا (49) يعمل ما في وسعه لتحريض أمراء النصارى على هذه الحرب إذ أدركه الموت في فيرون وخلفه أوربان الثالث فتابع مسعاه في التحريض ضد صلاح الدين.
وبينما هم كذلك إذا ببودوان يسقط مريضا بالجذام في الناصرة فنقل إلى القدس تاركا الحكم لكي لوزيجنان وهو زوج أخته التي كان مات عنها كيوم دون مونتفيرات. وقد أغضب هذا الاختيار الامراء وقواد الجيش في سوريا (50) لانه مكن صلاح الدين من توسيع فتوحه. ذلك بأنه دخل البلاد بجيش عظيم فأخذ عددا من المدن وكان كي عاجزا عن توقيف زحفه. فاضطر بودوان إلى أن يضع الملك بين يدي أحد إخوانه ويسمى بودوان (51) هو الآخر، وقد عين حاجبا له ريمند كونت طرابلس إذ كان بودوان ما يزال طفلا صغيرا. ولكن كي لوزيجنان كان قد استحوذ على بعض الايالات، فما أمكن إخراجه منها. ثم إن بودوان العم وابن أخيه بودوان الصغير قد ماتا في تلك السنة. فتفاوض كي لوزيجنان مع بطريق بيت المقدس وكبرائها فاعترفوا به ملكا لان زوجته هي أخت الامبراطور الراحل. وتغيظ لذلك ريمند فحطم ما بقي من معالم الدولة وذلك أنه عقد السلم مع صلاح الدين ووعده بعدم إنجاد ملك بيت المقدس، وهذا ما جعل صلاح الدين يبادر بالهجوم كما قام بإرسال فريق من جنده لقتال أمير أنطاكية حتى يشغله عن إنجاد ملك بيت المقدس. ولما تبين لريمند أن المسلمين أخذوا يتمكنون يوما عن يوم من الأرض المقدسة اعترف بذنبه، لانه يعلم أن دوره آت بمجرد تحطيم مملكة بيت المقدس. فعقد السلم مع كي لوزيجنان وبعث جيشه لإنجاد عكا، واضطر لذلك صلاح الدين إلى رفع الحصار وإظهار نقمته على ريمند بحصار طبرية التي كانت في ملكه. وعندئذ قام ملك بيت المقدس وكونتات أنطاكية وطرابلس وكبار فرسان الاسبتارية وفرسان الداوية وبقية أسياد البلد بالانضمام إلى بطارقة القدس والاسكندية وغيرهم من الاساقفة فجمعوا جيشا بلغ تعداده حتى ثلاثين ألفا من الفرسان وأربعين ألفا من المشاة بقصد فك الحصار، وبلغ الخبر إلى صلاح الدين

---

(48) إيمري .
(49) لوش الثالث .
(50) بويمند صاحب أنطاكية وريمند كونت طرابلس والجليل وطبرية الخ ...
(51) بودوان ابن سيبيلا والماركي دومو نتفيرات .

فزحف للقائهم وقد عولوا على النزول بموقع موات لقربه من مجرى مائي صغير، ولكن صلاح الدين سبقهم إليه فخاب أملهم فأنهكهم العطش والتعب، ولما يئسوا من زحزحته عن معسكره الذي سبق إليه نزلوا في بادية قاحلة. فما كان منه إلا أن ناجزهم القتال في غده وهم على غاية التعب ففعل فيهم مذبحة عظيمة، وكان جيشه أكثر عددا من جيوشهم وأسر ملك بيت المقدس في المعركة وتمكن ريمند من الفرار من أسره ولكنه مات فجأة بعد ذلك، أما بويمند فقد وقع في الاسر وقتل هو وفرسان الاسبتارية من أهل بيت المقدس الذين وقعوا في أيدي العدو، وكذلك كان مصير عشرين ألفا من النصارى، ولما انتصر صلاح الدين عاد لحصار عكا وأخذ برزية وعددا من المدن الاخرى وكان سكانها يبادرون إلى الاستسلام لما رأوا من معاملته الحسنة لهم، ويئسوا من انتظار النجدة ، وقد انتقل صلاح الدين إلى بيت المقدس وحاصره ودامت المقاومة شهرا كاملا ثم دخله صلحا. (52) وكان النصارى قد ملكوا فيه أربعا وثمانين سنة حكم فيها تسعة من الملوك. (53) ومنذ هذا العهد خرج من حكمهم وإن ظلوا زهاء قرن من الزمن يحكمون عددا من المدن في سوريا. صحيح أن الامبراطور فريدريك قد استعاد بين المقدس، ولكنه لم يلبث فيه إلا زمنا يسيرا كما سنذكر فيما بعد . ثم إن أنطاكية وصور وصيدا وطرابلس والمدن الأخرى كانت مهددة بالوقوع تحت نير المسلمين(54) لان صلاح الدين قد استولى على جميع مدن الضفة الغربية لنهر الاردن. ثم ان فريدريك آلمانيا، وكان طاعنا في السن منهوكا بما خاضه من حروب قد عزم بحماس كبير على أن يبذل كل قواه لاستعادة الأرض المقدسة. وحذا حذوه في ذلك المسعى العزيز ملك فرنسا وملك انكلترا وعدة أمراء آخرين من أمراء النصرانية. وكان البابا أوربان قد مات وخلفه گريگوار الثامن ، فلم يبق على كرسي البابوية سوى سبعة وخمسين يوما . ولما رأى خلفه كليمان الثالث أن صلاح الدين قد تقدم بعد احتلال بيت المقدس مستوليا في إمارة انطاكية على خمس وعشرين مدينة قام بتحريض جميع أمراء النصرانية لكي يجتمعوا لحربه، وبادر عدد منهم الى الاشتراك في حملة صليبية، وكان السبق للامبراطور فريديريك الذي حشد جيشا عظيما من الفرسان والمشاة

---

(52) في 2 أكتوبر 1187 .

(53) گودفروا وبودوان الأول وبودوان الثاني وفولك وبودوان الثالث وإيمري وبودوان الرابع وبودوان الخامس وگي دولوزيجنان .

(54) عبّر عنهم كذلك بالكفار .

فتوجه الى القسطنطينية عن طريق البحر وبلغاريا وطراقيا يرافقه فريديريك دوق صواب وولده برتراند دوق مورافيا وأخوه الماركي دوباد وعددآخرون من الدوقات والكونتات وعدد من الاساقفة والمطارنة. ثم تبعه فيليب ملك فرنسا وريتشارد ملك انكلترا وأوطون دوق بوركونيا ومولوية البندقية وبيزة وكان في هذا العهد يتوفر على قوة بحرية معتبرة . ثم ان كونراد ماركي مونتفيرات وهنري كونت شامبانيا وعدد آخر من سادة إيطاليا وفرنسا وإسبانيا قد أبدوا رغبتهم في المشاركة في هذه الحملة. وقد انطلقت من فريز والدانمارك خمسون سفينة. (55) وجهز كونت فلاندرا اثنتي عشرة سفينة وجهز كيوم ملك صقيلية ونابولي أربعين من القوادس بجميع أنواع عدة الحرب والأقوات وذلك لخفر الصليبيين وتأمينهم في البحر من القراصنة. وأثناء ذلك مات سلطان قونية (56) وكان قد دخل فريجية بجيش عظيم واستولى فيها على عدة مدن عنوة أو صلحا وقد خلفه ابنه بعده (57) ولما وصل الامبراطور فريديريك إلى القسطنطينية علم بأن كي لوزيجنان قد هرب من السجن وأنه استطاع جمع شرذمة من الجند وقطع متعجلا نهر هيليوبت وبعد أن عقد السلم مع امبراطور القسطنطينية دخل آسيا الصغرى وقطع أرض الامبراطورية دون أن يعترض طريقه معترض. ولما وصل أرض خسروه عقد معه السلم وتعهد بالمرور دون أن يحدث فتنة إذا ما قدم إليه ما هو بحاجة إليه من الزاد ولكن خسروه نكث عهده وفعل ما في وسعه للقضاء على ذلك الجيش، فجمع العساكر واستولى على الممرات. هكذا بدأه الامبراطور بالحرب ولكنه لم يصل إلى قيليقيو إلا بصعوبة بسبب استيلاء المسلمين على المضايق ولما وصل الى السهل(58) قاتل السلجوقي وهزمه وأسر أخاه ثم تمكن بعد ذلك من الاستيلاء على قونية ومعظم جهاتها . وتحكى عن فارس (59) ألماني من جيشه غرائب من قبيل الخيال لولا أن الذي ذكرها هو مصنف معاصر، (60) فقد كان يتبعه على قدميه وزمام فرسه بيده وكان في غاية التعب عندما هاجمه خمسة من الجنود الاتراك، وفي رباطة جأش ضرب أول الجنود ضربة

---

(55) في الهامش : يقول المؤلف إنها زوارق .

(56) قلج أرسلان .

(57) خسروه .

(58) قرب قونية .

(59) Copatin

(60) Nicétas Coniate

على رأسه فشقه إلى سرجه . ولما شاهد الآخرون ذلك ذهلوا ولم يحركوا ساكنا. وقد رفع انتصار الامبراطور معنوية النصارى وفت في عزم المسلمين(61)، ثم ان كي لوزيجنان، وأخاه إيمري اللذين لجآ إلى طرابلس وصور مع عساكرهما قد ذهبا لحصار عكا حتى يمهدا لنزول أمراء النصارى وخاصة جيوش فرنسا وجيوش انكلترا. وأثناء ذلك وقع أن الامبراطور فريديريك أراد الاسترواح في يوم قائظ فنزل إلى نهر (62) فغرق فيه ومات (63) قبل أن يدركه أصحابه فكان ذلك حدا لامجاده، وتشتت جيوشه. ولما كانت المصائب لا تأتي إلا مجتمعة فان سيبيلا زوجة كي لوزيجنان قد ماتت بنزيف دموي أثناء الحصار. ولما كان لها أربعة أولاد فقد وقع النزاع بين أمراء النصرانية على خلافتها لان هيرفرند الذي كان قد تزوج أخت إزابيلا أراد أن يعلن نفسه ملكا. ولكن ماركي مونتفيرات (64) انتزع منه زوجته مدعيا أن زواجه بها لم يكن شرعيا. ولما تزوجها هو صار يطالب بالعرش لنفسه. ولما كان على صور فإن كي قد أخفى هذه الفعلة . ثم إن جيش الامبراطور (65) الذي اختار ولده لخلافته قد اتخذ الطريق إلى سوريا بقيادة اثنين من كبار الفرسان كان الملك كي قد بعث بهما إليه. ولكنه لم يصل إلى أنطاكية حتى ذهب الطاعون بمعظم جيشه. وقد ركب البحر مع الباقين ، فلما وصل إلى صور ترك هنالك جثمان أبيه وذهب لحصار عكا التي وصل إليها فيما بعد ملك فرنسا وملك انجلترا. وطال الحصار عامين، ومات الملك أثناءه واستمات أهل المدينة في الدفاع قبل أن يستسلموا لانهم كانوا يتوفرون على كل ما هم في حاجة إليه. وقد انهزم صلاح الدين في عدة جولات، ولما تبين له أنه غير قادر على الاحتفاظ بجميع المدن قام باخلاء قيصرية وعسقلون وغزة ويورفيريا وعدد من المدن الاخرى . وكان على وشك تسليم بيت المقدس مقابل الهدنة لمدة معينة لو لم يدب الخلاف بين ملك فرنسا وملك انكلترا، مما اضطر الاول إلى الرجوع تاركا شطرا كبيرا من جيشه لدوق بوركونيا. وبغيابه استعاد صلاح الدين آماله وإن كان الملك ريتشارد المطاع من قبل الجميع قد استمات في مقاومته حصن يافا باسترداد عدد من المدن الاخرى

---

(61) يعبر عنهم دائما بالكفار .

(62) قرب سيتيا .

(63) في 10 يونيه 1190 .

(64) كونراد .

(65) فريديريك .

التي تخلى عنها، وأثناء ذلك قام الاسرى الاتراك الذين كانوا في صور بقتل ماركي مونتفيرات الذي كان قد سمي باسم ملك بيت المقدس ، وتزوجت أرملته بأحد أقارب ملك فرنسا يسمى هنرى حملت إليه في صداقها إمارة صور وحقوقها المزعومة في بيت المقدس . ثم إن ريتشارد قد كافأ كي لوزيجنان بإعطائه جزيرة قبرص التي كان قد فتحها قبل التخلي عن مملكة بيت المقدس، وقد استلم تلك الجزيرة وظل عقبه يحكمونها بعده إلى أن ساد عليها البنادقة بعد وفاة امرأة تنتمي إليهم كانت أميرة الجزيرة وماتت دون أن تخلف ولدا وتركتهم ورثة لها. وقد ملكوها مائة عام ثم فتحها الاتراك كما سنذكر ذلك في موضعه . وأثناء ذلك كان صلاح الدين قد حشد جنوده وقاتل النصارى فانهزم واضطر إلى الانسحاب إلى دمشق ومنها بعث يطلب السلم من ريتشارد على أن يسلم له بيت المقدس. وفي أثناء ذلك وقع أن دخل ملك فرنسا إلى نورمانديا، وكانت تابعة للملك الأنجليز، ووقع أيضا أن انسحب أسطول بيزة والبندقية بسبب تذمر رجاله، فاضطر ريتشارد إلى التعاقد مع صلاح الدين تعاقد الند للند، فاتفقا على هدنة تدوم خمس سنوات . وبعد أن ترك ريتشارد حاميات في المدن المحصنة تحت إمرة أوطون دوق بوركَورنيا وهنري صاحب صور وفرسان الدواية وفرسان الاسبتارية المنتمين إلى بيت المقدس ركب البحر إلى انكلترا. ولكنه وقع في طريقه في قبضة دوق النمسا. وتعرض لنكبات أخرى لن نذكرها لانها ليست من موضوعنا.

وبينما كانت تجري هذه الحوادث في سوريا كان الاتراك يعانون هم أيضا من الخلافات بعد موت قلج أرسلان سلطان قونية الذي تقاسم الملك أولاده الأربعة. لانه ترك لابنه مسعود مدن أماسية وأنقيرة ودوريليه وعددا آخر من مدن المجاز ، وترك لقوباطين مدن ميليتين وقيصرية وكولون وهي اليوم تعرف بتوشار. وترك لروقراطين مدن ميسية ودوقيه ومدنا أخرى على طول الساحل، وترك للشاه خسروه مدن قونية وليفاونية وبامفيليا وجميع جهاتها حتى قوتيان، وقد رأينا أن الامبراطور فريديريك انتزع من هذا الاخير مدينة قونية ولما مات قوباتين ثار نزاع كبير بين إخوته على توزيع ولاياته. وبلغ الامر بمسعود الى التقاتل مع روقراتين وانهزم الاول وفقد أملاكه، ولكن روقراتين الذي انتصر عليه طمع في الاستيلاء على قونية عاصمة

(66) إزابيلا .

الامبراطورية فاعلن الحرب على خسروه الذي دخل إلى هذه المدينة بعد موت فريديريك، فقد كان روقراطين يدعي أن خسروه لا يجوز له أن يتولى الملك لان أمه نصرانية. وهذا ما جعل خسروه يلجأ الى أمبراطور القسطنطينية، ولما لم ينل منه عناية خاصة دخل قونية واعتصم بها، ولكن ما كاد يدخلها حتى جاء أخوه وحاصره. ولما لم يكن ينتظر منه القيام بأمر ذي بال بسبب ضعفه فإنه قد فر إلى ليبان في أرمينيا، فلم يستطع الحصول هنالك على ما طلبه من النجدة واختفى في القسطنطينية حيث غاش مغمورا إلى أن مات.

وأثناء ذلك مات صلاح الدين في بيت المقدس وقد ترك امبراطوريته لخمسة أبناء كما وقع للسلجوقي. وكان من نصيب علاء الدين وهو ابنه البكر مصر ودمشق وحكم الاخرون سوريا وبلاد العرب. وكانوا كلهم يعترفون بالولاء المعنوي للخليفة في بغداد، لان صلاح الدين وإن كان قد قتل خليفة مصر لم ينكر الاعتراف بسلطة خليفة بغداد باعتباره خليفة لمحمد، وقد بقي أبناؤه على الاقتداء به في ذلك بعد موته، معتمدين في حكمهم على ميليشيا من المماليك كان أسسها صلاح الدين كما سنذكر فيما بعد .

وفي عهد امبراطور الغرب هنري السادس قام البابا سيليستين يريد أداء واجبه في حماية المسيحية، فحض أمراء أوربا على التجهيز لقتال المسلمين. وهو واجب على الامبراطور بصفة خاصة اعتبارا أن الهدنة قد بطل العمل بها بموت صلاح الدين. وبما أن امبراطوريته قد تجزأت إلى عدة أطراف فقد كان من الايسر استعادة بيت المقدس . ولما تعذر على الامبراطور الذهاب شخصيا إلى هذه الحرب لانه كان يخاف أن يؤدي غيابه إلى وقوع اضطرابات في ولاياته حيث لم تتوطد سلطته بعد، أرسل إليها جيشا قويا يقوده **مطران** مايانس يساعده مطران راتشبونه وبيرنار دوق الساكس وكونراد مستشار الامبراطرية وليوبولد دون إيستريا ولانجراف وتورانجيا ودوق برابان وعدد آخرون من الماركيات والكونتات ومن نبلاء السادة وكلهم شدوا الرحال بتقوى لارياء فيها، وبعد أن قاسوا من الشدائد ما لا يحصى في البر والبحر ساعدهم إسحاق أمبراطور القسطنطينية ووصلوا إلى سواحل فلسطين ونزلوا في مرسى صور ومرسى عكا حيث أخذوا يستعدون لخوض الحرب . ولما مات كي لوزيجنان ولم يخلف ابنا وارثا من الذكور خلفه أخوه في إمارة قبرص . ولما مات هنري صاحب عكا الذي تزوج زابيلا بنت بودوان وكان

يطالب بإمارة بيت المقدس، فإن إيمري قد تزوج أرملته واتخذ لقب أمير قبرص وبيت المقدس . وقد انضم رجال الامبراطور إلى رجاله وإلى فرسان الاسبتارية وفرسان الداوية، فانتزعوا بعض المدن من الاعداء(67)وكسروا شوكة المسلمين. وبعد أن أعادوا بذلك الامل لنفوس المسيحيين ورتبوا أمور مملكة الشرق تركوا حكمها لايمري وعادوا إلى بلادهم . ولكن تخاذله وعجزه عن الحكم جعل قواد جيشه يخلعونه ويولون مكانه جان دوبريني الشجاع الذي كان قد تزوج إحدى بنات زابيلا فأتت به من فرنسا لهذا القصد.

وبينما كان يحدث ذلك وقع من أليكسيس أن تنكر لاخيه إسحاق أمبراطور القسطنطينية الذي كان ينعم عليه بإحسانه فتآمر ضده مع عدد من الثوار وتقبض عليه وسمل عينيه واتخذ لقب الامبراطور. ولكن اليكسيس ابن أخيه إسحاق قد فر من طغيان عمه ولجأ الى حضرة أمبراطور ألمانيا(68) الذي كان قد تزوج أخته، ولكنه لم يحصل منه على عون بسبب الاضطرابات التي وقعت في الامبراطورية ، فما كان منه إلا أن سار إلى البندقية فوجد هنالك بودوان كونت فلاندرا وأخاه هنرى وبونيفاس ماركي مونتفيرات ولدي كونت سافوا وعددا آخرين من الأمراء والنبلاء . وقد جاءوا بعدد كبير من الجيوش استجابة لنداء البابا إنوسونت قصد فتح بيت المقدس. فاتفقوا جميعا ومعهم البنادقة على أن يعينوه وأن يعيدوه إلى كرسي الامبراطورية، فعاد إليها وحكم بمعية أبيه الأعمى. ولم يمض سوى وقت قليل حتى مات إسحاق فقام أولئك المنجدون لقتال ابنه اليكسيس مدعين أنه لم يف بوعده. وقام ميرتيل الذي كان إسحاق قد انتزع منه أملاكه بقتل الامبراطور أليكسيس غدرا ، ولم يمض عليه في الانفراد بالحكم سوى شهر واحد، ولما هاجم الامبراطور قام إليه أولئك المنتصرون وهزموه وطردوه. وبعدما أخذوا القسطنطينية وجميع جهاتها ورأى أن ليس هنالك من خلف شرعي قاموا بمبايعة بودوان كونت فلا ندرا امبراطورا . وما لبث البابا أن بارك ذلك الاختيار. وبعد ذلك قسموا بينهم حكم الاقاليم فأعطيت جزيرة كاندي وجزيرة نيگروبون للبنادقة أما بونيفاس ماركي مونتفيرات فكان من نصيبه إقليم تيساليا، وقد تلقب بالملك . أما الكبراء الاخرون فكانت من نصيبهم مناطق أخرى. ولكن اليونانيين لم يرضوا

(67) أخذ بيرزيت واستعيدت يافا .

(68) فيليب إيرين .

بذلك الانتخاب فاختاروا تيودور لاسكاريس أمبراطورا وهو صهر أليكسيس الغاصب فأقام عاصمته في مدينة أدرنة ، ولم يكتف بامتلاك بيثينيا وجهاتها . بل جاز إلى الضفة الاخرى جهة الشمال حتى بلغ بحر قاليقيا ومنطقة قابادوشيا فاستقر في نيقيا بيد أن يودوان قد وضع الحصار أمام أدرنة ومات وهو محاصر لها (69) وترك أخاه خلفا له، بينما ذهب الطاغية أليكستيس في بحر إيجه متنكرا في ثياب الحجاج ليطلب من السلجوقي مساعدته على العودة إلى أمبراطوريته بمقتضى التحالف الذي كان بين أجداده وبين أباطرة اليونان . وقد جعلته أوهامه المشفوعة بالوعود المعسولة التي تلقاها يطلب من الامبراطور ثيودور التنازل له عن الامبراطورية. ولما أجابه بالرفض ذهب لحصار مدينة أنطاكية على نهر مياندر، وقام تيودور من جهته بجمع جيوشه وقد اطمأن لقدرتها وتجربتها لانها ضمت قدماء الجنود المحنكين فجاز مضيق جبل أولمب الذي يمتد من بيثينيا من جهة الشمال إلى حد فريجيا جهة الجنوب، ولما قطع نهر قنستر وجد نفسه في اليوم الحادي عشر وهو يواجه الاعداء، وكانوا يسيرون في غير نظام وهم غافلون عندما أخذوا على غرة، فانهزموا قبل أن يستبينوا أمرهم، وهلك معظم جيشهم في ذلك اللقاء ، وأقدم الامبراطور على قتل السلجوقي بيديه، وقبض على أليكسيس دون أن يؤذيه أو يسجنه. وبذلك انكسرت شوكة الاتراك لمدة من الزمن .

---

(69) بقي بودوان وخلفاؤه على الامبراطورية ستين عاما .

الفصل السابع والثلاثون

أخبار محمد الناصر ملك مراكش من نسب الموحدين
وما حدث في عهده من الوقائع

لما تولى محمد الناصر محل أبيه أقر أمير تلمسان وأمير تونس في إمارتيهما وكذلك فعل مع عامل نوميديا وعامل ليبيا (70). ولما كان محبا للحرب فإنه رغب في وقف تقدم ملك قشتالة (71) الذي كان قد انتزع من المسلمين عددا من المدن، فخرق الهدنة التي عقدها معه والده. وهكذا جاز إلى إسبانيا ومعه ستة وعشرون ألفا من الفرسان وثلاثمائة ألف من الراجلة، وهذا عدد لا يصدق لولا أن كل المؤرخين من عرب وإسبان متفقون عليه. وقد صحبه كبار من المسلمين. وقد انطلق بهذا الجيش الرهيب من قرطبة في شهر يونيه ودخل إلى قرى قلعة رباح وحاصر شلبطرة وكان سكنها فرسان عصبة قلعة رباح الذين انتزعوها قبل وقت قصير من المسلمين. وقد طال حصار هذه المدينة الحصينة وحصار حصن مجاور لها (72)، وكان سيطول مدة أكبر لولا أن مات كبير سادتها (73) وعدد من الفرسان الشجعان، وبعد ذلك وقعت مداهمة المدينة وخربت عن آخرها. وقد ادعى العرب ان كبير فرسانها قد وافق على تسليم المدنية إذا لم تصله النجدة في أجل من الزمن. ولما أعلم الملك بذلك وكان في الحرب بجليقية أجاب بأنه لا يستطيع إنجاده فأسلم المدينة وعاد المنتصر إلى قرطبة. وبعد ذلك قدم الملك ألفونس إلى طليطلة بعد عقد الصلح مع أهل جليقية. ولما رأى أن محمدا قد انسحب أرسل ولده الدون فرديناند وطائفة من جنوده ليعيثوا فسادا في جهات ترجاله ومنقانجش ومنها كان

---

(70) يقصد المغربين الاوسط والادنى (المترجم) .

(71) ألفونس .

(72) Castille de Dios

(73) الدون مارتين .

(74) في جبل القديس فانسان

رجوعه إلى طليطلة فأصابه المرض، ومات بعد ستة أسابيع ومات أيضا الدون شانجه ملك البرتغال وترك خلفا له الدون ألفونسو الثاني الملقب بالبدين.

وحينئذ دعا البابا إلى حملة صليبية ضد المسلمين وجمع لها عددا كبيرا من أهل طليطلة وفرنسا وإسبانيا وإيطاليا وبروفانسيا وغيرهم. ثم إن ملك قشتالة ومعه أهل مجريط ووادي الحجارة وويذة وقونقة وبلش وكبراء المملكة قد استولى على عدد من الحواضر (75) التي كانت بأيدي المسلمين . ولما رأى أنه قد تجمع بطليطلة عدد كبير من الاجانب عاد إليها لترتيب أمورها. وكان بعد استيلائه على شلبطرة قد أرسل كبير أساقفة طليطلة إلى فرنسا وألمانيا وإيطاليا لطلب الانجاد ضد محمد (الناصر) الذي كان قد أقسم ليهلكن المسيحيين. ثم إن البابا أعلن في كل مكان عن صكوك غفران كثيرة لكل من يذهبون إلى تلك الحرب، فكان أن تقاطر إليها المتطوعة من كل فج عميق ووقعت فتنة بالمدينة يوم الاحد من أيام الزفر وهلك فيها عدد من اليهود والاجانب. وكاد يستفحل أمر الاضطراب والشغب لولا أن ملك قشتالة وملك أرغون قد دخلا المدينة في يوم الرفات واستعملا الحكمة والهيبة في تهدين تلك الروعة. بيد أن الصليبيين الجدد الذين كانوا يصلون كل يوم قد أطالوا المكوث في طليطلة وجهاتها حيث أكثروا فيها الفساد قبل أن يتلقوا الامر بما كان عليهم أن يفعلوه. وأخيرا قام الامراء بدق الطبول في الثاني عشر من يونيه وساروا قاصدين الاستيلاء على مدينة كانت بأيدي المسلمين (76) ونهبوا كل ما كان فيها ، ومنها انتقلوا إلى قلعة رباح وشددوا عليها الحصار حتى استسلمت لهم، ثم أخذوا الارك وبينفونت وبيدرا بوينا وحصن كركوي ومنها جازوا عبر مضيق المورادال فهجموا على كاستل فيرات وأخذوها وهنالك شغَّب الاجانب لان الملك أمر بكف يد النهب عن قلعة رباح، وعاد فريق منهم إلى طليطلة بقصد نهبها، فأغلق سكانها الابواب دونهم كما لو كانوا من الخونة . وكان ذهابهم شديدا على ملك قشتاله وملك أرغون وتسببا في إضعاف قواتهما لان عدد المنسحبين لا يقل عن ألف فارس وخمسين ألفا من الراجلة ومع ذلك لم يتوان الملكان في مسيرتهما سيما وأن الدون شانجه ملك نافار قد التحق بهما في الارك ومعه عدد من جنوده الكفاة. ولما بلغ خبر هذا الاستعداد العظيم لمحمد الناصر أرسل في طلب مقاتلين آخرين من

(75) Iorquéra , Las Guévas , Alcala

(76) Malgon

افريقيا فاجتمع له جيش لم ير مثله قط في إسبانيا. ولما وصل إلى بياسة علم أن الاجانب قد انسحبوا من الحملة الصليبية، واقترب من سفح المورادال وهو مغتبط اغتباطا شديدا، فاستولى على ممرات اللوشا الواقعة في واد شديد العمق غير بعيد عن وسط هذه الجبال حتى يتسنى له في ذلك الموقع التفوق في قتال النصارى. ولما وصل الملوك إلى ذلك المكان وراوا أن المسلمين قد استولوا عليه اندهشوا أيما اندهاش وعقدوا العزم في النهاية على أن يمروا عن طريق سهول طولون فقاتلهم المسلمون أربعة أيام كاملة لصدهم عن المرور. وفي الصباح الباكر من أحد أيام الاثنين دفع أمراء النصارى بجيوشهم إلى المعركة. وكان في الصدارة الدون دييغولوبيز دي هارو ومعه الدون روي دياز دي كانتانس وجمع الفرسان والاحبار من الممالك الخمس ، وكان ملك نبرة في الميمنة وملك أرغون في الميسرة وملك قشتالة في القلب وكل كان مع جنود بلده . وعلى هذا النظام تقدموا غير آبهين لملاقاة المسلمين (77) الذين كانوا كامنين في انتظارهم بنية الصمود والمقاومة. وبدأ الدون دييغولوبيز دي هارو بالقتال وكاد ينكسر بدفعة شجاعة من المسلمين لو لم يدركه بالانجاد أمير نبرة . كان هذا الملك على وشك الاضطرار إلى التقهقر في الاخير هو وكبير أساقفة طليطلة والحشد الاعظم من الجيش. وحمي الوطيس وأسفر عن انهزام المسلمين، ويقال إن عدد من هلك من الراجلة أكثر من مئة وخمسين ألفا وهلك معهم خمسة وثلاثون ألفا من الفرسان، ولاذ محمد الناصر بالفرار ومعه عدد من رجاله، ووقع ماكان بمعسكره من المتاع والعدة بأيدي الغالبين، وكانت خسارتهم قليلة وغنيمتهم كبيرة، وجرى تعقب المسلمين حتى أبذة (78) وقد التجأ إليها أهل بياسة وأهل باغنوش والمدن والحصون التي تخلى عنها المسلمون وحوصرت وبذة وفتحت وأخذ منها أكثر من خمسين ألف أسير. وتركت تلك المدن خالية واقتصر ألفونسو على تعمير القنشة وباغنوش وطولوز، وفيرات، وكانت هذه المعركة **عام أحد عشر ومائتين وألف الموافق لعام سبعة عشر وستمائة للهجرة وإن كان بعض المؤرخين العرب نصوا على أن وقوعها كان عام تسعة وستمائة** (79). ولكنهم متفقون على القول بان عدد من سقطوا فيها من المسلمين ستون ألفا وفيهم قائد الجيش وكان أشجع أهل زمانه من بين الافارقة .

(77) يعبر عنهم كذلك بالكفار .
(78) سماها المسلمون كذلك بسبب نصر عظيم حققوه فيها عند فتح الاندلس .
(79) الذي عليه جل المؤرخين أنها وقعت في الرابع عشر من صفر عام تسعة وستمائة هجرية ويوافق السادس عشر من يوليوز عام اثني عشر ومائتين وألف . وحتى على فرض أنها وقعت سنة 1211م . فموافقه عام 610هـ (المترجم) .

الفصل الثامن والثلاثون

ذكر نهاية عهد الموحدين وبداية عهد بني مرين الذين تلقبوا بملوك فاس وذكر الحروب التي وقعت منذ ذلك العهد وحتى عام ألف وأربع مائة وواحد وسبعين

لم يطل مقام محمد الناصر في اسبانيا بل إنه عاد إلى بلاد البربر تاركا إمارة الجيش لأخيه أبي سعد (80) الذي سمي منذئذ بملك بلنسية . وقد عاش الناصر بعد رجوعه الى بلاده في غم شديد وسط مقت رعاياه الذين كانوا يرون أنه قد جر الهزيمة بجبنه وتصرفه الشائن . ولما مات ترك العرش للسعيد بن الرشيد (81) وهو من أحفاده، فثار ضده جميع عمال الولايات ولاسيما عمال تلمسان وفاس وتونس. وأول ثوار إفريقية من قبيلة زناتة يسمى يغمراسن بن زيان من بني عبد الواد الذين سبق لهم ملك تلمسان وكان قد دان بالطاعة للموحدين، وقام بإثارة المملكة كلها. ولما عجز عن مقاومة السعيد لجأ عند مجيئه إلى قلعة وتحصن بها، ولما أشرف على الهلاك أرسل أحد أبناء عمومته إلى السعيد وتظاهر له بالشقاق مع يغمراسن وعرض عليه أن يدله على مكان يسهل منه اقتحام القلعة ودخولها ولما تبعه السعيد ليقف على ذلك المكان تمكن منه وقتله وفر إلى القلعة . ويذهب بعضهم إلى القول بأن ذلك كان بتآمر مع بعض عمال الولايات الذين بيتوا نية الانتقاض ، وماج الجيش بموته واضطرب حتى إن يغمراسن قد تمكن من هزمه والانتصاب على إمارة تلمسان حتى وفاته وأوصى بأن يتسمى خلفاؤه من بعده ببني زيان بعد أن كانوا يدعون ببني عبد الواد . وبعد موت السعيد قدم الموحدون عمه عبد القادر (82)

---

(80) يقصد السعيد (المترجم) .

(81) الذي تولى بعد محمد الناصر أخوه يوسف المنتصر ثم ابنه عبد الواحد ثم عبد الله العادل بن المنصور ثم المأمون ابن المنصور ثم ابنه عبد الواحد الملقب بالرشيد ثم أخوه السعيد وهو المقصود هنا، لأن يغمراسن ثار في عهده (المترجم) .

(82) الذي تولى بعد السعيد هو أبو حفص عمر بن ابراهيم ويلقب بالمرتضى ولم يخلص له الملك إذ خرج عليه أبو العلاء إدريس المعروف بأبي دبوس الملقب بالواثق .

ولكنه كان ضعيفا فشاركه كثير من الادعياء من أسرته في الملك وظهر عدد من الامراء الصغار. فقد ظهر عبد الحق عامل الموحدين على فاس وكان من قبيلة زناتة من فرع بني مرين وصارت له شوكة وقوة ، واستحوذ أخوه يعقوب على مدينتي الرباط وأنفا بإقليم تامسنا وهزم الموحدين في معركة بين فاس ومكناس ففروا إلى مراكش، بذلك الانتصار زاد ظهور بني مرين وقوتهم، ذلك لان الملك قد صار بعد موت عبد الحق إلى ابنه، وكان عمه وصيا عليه. (83) ولما مات هذا الولد ظل العم سيد الدولة وتلقب بملك فاس **وسمي بمولاي الشيخ أو الملك القديم** كما كان يسميه رعاياه لانه كان حتى في حياه ابن أخيه يحكم الدولة بصفته أميرا على مكناس. واسم مولاي هذا يعني" السيد ولا يُعطى إلا للملوك والامراء من النسب فهو مرادف لسلطان الذي يعني الملك وهم يستعملون هذا وذلك بدون تمييز. وبالاضافة إلى من ذكر ثار محمد بودبوس وهو عم السعيد بمنطقتي تادلا ودمنات وتحزب مع ملك فاس بإعطائه المنطقة الاولى ليستنجد به في قتال ضد عبد القادر. ولما علم سلطان مراكش بذلك الاتفاق وبزحف جيوشهما اليه لم يطق البقاء في عاصمته فكان ان استولى عليها أبودبوس وأرسل في أثره أحد قواده فلحق به وقتله في سجلماسة. ولما تحقق النصر لابي دبوس نكث عهد أبي يوسف وأعلن الحرب عليه باسم الموحدين قصد إخراجه من إمارة فاس التي كان قد انتزعها منهم. وكان ذلك سبب حرب ضروس انتهت بانهزام ابي دبوس وموته ثم فتح أبو يوسف مدينة مراكش. وبذلك صار لبني مرين ملك المغرب الاقصى (موريطانيا الطنجية) بصفة دائمة وسادوا في فترات مختلفة على مملكة تونس ومملكة تلمسان. وكان من عمال الموحدين من أبقوا على ما بأيديهم مقابل الاعتراف بسلطان فاس. فمنهم من كانوا في جبال الأطلس الكبير. وفي بعض الاماكن من إمارة مراكش، مواطن قبيلة مصمودة العظيمة مهد الموحدين وأصل الهنتاتيين الذين كانوا أمراء تونس .

رجع الخبر إلى إسبانيا. فبعد أن خسر محمد الناصر المعركة التي جرت في سفح جبال المودارال (84) وهي التي تحيي الكنيسة ذكراها كل سنة في السادس عشر من يوليوز، وبعد أن رجع الملك الفونسو منتصرا إلى طليطلة ضم المسلمون

---

(83) المتولي بعد عبد الحق بن محيو المريني هو ولده أبو سعيد عثمان ولم يذكر أنه كان محجورا (المترجم)

(84) أو سهول طولوزا .

في جيان وغرناطة وقرطبة قواتهم إلى ماتبقى من جيوش إفريقيا وذهبوا لغزو حصن باغنوش وحصن طولوزا وحصن فيرات . ولما تعذر عليهم أخذ أي منها حاصروا حصن القنشرة وقاتلوا أهله مدة اثنى عشر يوما، ولما أرسل إليه الملك الفونسو طرفا من جيشه [85] تحت إمرة مارتين نونه غنصالة لم يطيقوا لقاءه ففكوا الحصار وقام ذلك الجيش بأعمال الفساد في جهات جيان وغرناطة وعاد محملا بالغنائم إلى طليطلة في آخر شهر شتنبر. وأما المسلمون [86] فقد تجمعوا في مدينة لوشه التي كانوا يسمونها حصن لوشه، وانتلقوا منها لغزو قلعة بني سعيد وهي اليوم قلعة الملك، فتم لهم أخذها . وفي العام الذي بعده جمع الملك ألفونسو جيوشه واستعادها. وقد أخذ حصن لوقوبين في شهر فبراير. ومنه تابع غزوه بحصار قلعة الاله ومعه نبلاء قشتالة وفرسان الطوائف الدينية. وقد انضموا إلى عساكر طليطلة ومقودة وعسقلونة . ولما أخذها [87] وأخذ حصن ابن الجوهر انتقل إلى مدينة الكرن وهلك قبل التمكن منها ألفان من النصارى بما استمات أهلها في الدفاع . وبعد ذلك ذهب لحصار بياسة وكانت بيد أبي محمد ابن عم محمد الناصر. ولما امتنع عليه أخذها عقد الهدنة مع هذا الامير الذي تسمى بملك قرطبة وطليطلة. وكان يوالي الموحدين. وبعد ذلك أخذ ألفونس مدينة القنطرة وعاد منتصرا إلى طليطلة. بيد أن البرتغاليين لم يبقوا مكتوفي الايدي. بل ان الدون مارتين كبير أساقفة لشبونة قد انتزع من المسلمين قصر أبي دانس مستعملا بعض الفرق الاجنبية التي حلت بالبرتغال في طريقها الى الأرض المقدسة وأثناء ذلك مات ألفونس ملك قشتالة في قرية من جهات آبلة وترك خلفا له هنري الاول. ولم يقع في عهده ما يستحق الذكرين النصارى والمسلمين. وبعد موته تولى ملك قشتالة الدون فرديناد الثالث ابن الدون الفونس ملك ليون، وكان يلقب بالقديس .

---

(85) الفرسان والمشاة من تطيلة ومجريط وويذة .
(86) من مجريط ووادي الحجارة وويذة وقونقة وبلش .
(87) في منتصف شهر مارس .

وفي عهد فريديريك الثاني ملك ألمانيا وقعت مبادرة جديدة لفتح الارض المقدسة، إذ تجمع عدد من المسيحيين وساروا لحصار دمياط واستولوا عليها بالرغم من كون العدو قد حصنها، ولكنه استعادها في العام الذي بعد هذا، وانسحب النصارى إلى صور وعكا.

وفي عام ألف ومائتين وثلاثة وعشرين مات ألفونس ملك البرتغال وخلفه من بعده ابنه الدون شانجه، وفي نفس العام تجمع سكان قونقة وويذة وألاركون ومويا وجميع الجهات المجاورة تحت إمرة الملك الدون فرديناند، وأتلفوا كثيرا في أراضي مملكة بلنسية، بينما دخل الملك بجيش عظيم إلى الاندلس حيث استولى على قيجاطة وأرغم عامل بياسة وعامل بلنسية على أن يؤدوا له الجزية. وفي العام الذي بعده عاد ثانية إلى الاندلس وأخذ مدينة أندوجار ومدينة مارطوش وكانت على غاية التحصين ثم تابع تقدمه في العام الذي بعد هذا فأخذ مدينة يودار ومدينة بلمار وأفسد كثيرا في أراضي جيان. ومن هناك جاز على شانت إتيان المرسى وأخذ حصن الطرف ومواقع أخرى من هذه الاحياء ثم باجة ومنها مر على لوشة إلى سهل غرناطة وعاث فسادا في البلاد، وأرغم أهل غرناطة على تسريح ألف وثلاثمائة من الأسرى المسيحيين، وحملهم على أن يؤدوا له الجزية. وفي هذا العام تامر سعد الله بن فارس وهو ابن عم لمحمد الناصر على استجه وشريش وقرمونة وجميع مسلمي هذه الجهات، وسار لأخذ مرسية. ولكن نصارى هذه الأحياء هزموه وقتلوا عشرين ألفا من رجاله. ولما بلغ خبر ذلك لأبي محمد أمير بياسة وطد الهدنة مع الملك الدون فرديناند ومكنه لاتقاء شره من مدينة قابيا ومدينة شلبطرة وأعاد إليه قلعة بياسة فأمر بالدخول إليها كبير سادة (88) قلعة رباح بحشود من العسكر ثم وقع تمكينه من شلبطرة على إثر ذلك. ولما امتنعت المدينة الاخرى سار لحصارها الدون فيرنانده وأجبرها على الاستسلام، واستنكر المسلمون من أهل قرطبة تلك الممالأة فتآمروا ضد محمد فقتلوه، وبعثوا برأسه إلى ملك إشبيلية. ولكنه فعل بمن حملوه إليه مثل ذلك الفعل، حيث قطع رؤوسهم وألقى بها إلى الكلاب. ولما علم المسلمون من أهل بياسة بموت ملكهم حاصروا كبير السادة في القلعة. ولكن الدون فرنانده هب لنجدته، فسقط في أيديهم وأخلوا المدينة ورحلوا إلى غرناطة

(88) غنصالة إيبانيز .

وسكنوها. وقام الدون فرنانده بإعادة تعميرها بالنصارى في نفس العام . وبينما كانت تجرى هذه الوقائع في إسباينا سار الامبراطور فريديريك إلى سوريا وقاتل الأتراك في عدة معارك، وعقد الهدنة مع سلطان مصر، ودخل بيت المقدس وتتوج بها ملكا، وبينما كان الدون فرنانده ينتصر على المسلمين في إسبانيا كان الدون خايمي ملك أراگون يقاتل في جزيرة مايوركا، فاستولى على حاضرتها وأسر أميرها (89). ولكن سكان تلك الجزيرة لاذوا بالجبال متربصين بوصول الانجاد. ولما استبطأوا وصولها استسلموا للغالب ، وكانوا قد أمروا عليهم غيره. ولما ملك خايمي تلك الجزيرة سار في نفس العام إلى مينورقا ولكن أمير تونس جاء بقصد استردادها منه، غير انه عجز عن ذلك لأن الملك الدون خايمي قد هب لنجدتها.

وأثناء ذلك قام ابن هود وهو مسلم متضلع في العلم من رؤساء هذه البلاد بجمع عدد من الناس حوله مدعيا الولاية والصلاح، واستولى على بعض حواضر مملكة غرناطة، وتسمى بالمصلح المجدد لدين محمد، وحمل في وعظه على الموحدين، حتى استطاع أن يهزمهم وينتزع منهم ألمرية وغرناطة وقرطبة واستجه وعددا من المواقع الأخرى، وما ألقى السلاح حتى أخرجهم من هذه البلدان. وفي نفس العام استولى المسلمون من غرناطة على مدينة قيجاطة وحاصرها كبير أساقفة طليطلة (90) واستردها. وفي عام ألف ومائتين واثنين وثلاثين انتزع الدون خايمي ملك أراگون شبه جزيرة بوريش ومواقع اخرى على امتداد نهر شقر، كما أخذ برج مونقاد ومواقع مجاورة أخرى. وتمكن بذلك من الشروع في غزو مملكة بلنسية التي كانت بأيدي عدد من الأمراء الصغار. وفي العام الذي بعده قام الدون بيدرو إنفنت البرتغال وهو ما يزال على خلاف معوالده (91) بانتزاع جزر يابسة وفورمونتيره وقونشيرة وكابريره من المسلمين، واشتهر بعدد آخر من الاعمال الحربية. وفي غمرة القتال ضد ملك غرناطة قام الدون فرنانده من قشتالة بمحاصرة مدينة أبدة. ولما أخذها بعد أيام من الحصار أعاد تعميرها بالنصارى. وكان الملك الدون خايمي أثناء ذلك يقاتل أمير (92) بلنسية. وفي العام الموالي قام ابن هود أمير غرناطة بحشد

---

(89) أبو الحبيب .
(90) رودريق خيمينش .
(91) الدون شانجه .
(92) أبو زيان .

عساكره لقتال خايمي ولكنه ما أن وصل إلى ألمرية حتى اغتيل على يد أحد رجاله. وكان ذلك سببا في استفحال الفرقة بين مسلمي إسبانيا. وفي نفس العام توجه جيش من النصارى لغزو الأرض المقدسة فهزمه الأتراك في مكان بين غزة وعكا . ولم يكن للمسلمين [93] في اسبانيا مثل ذلك السعد، لان الدون برناردين قيم الذي قاد جيش ملك أراگون قد هزم أمير بلنسية، كما تمكن سكان ثغور قشتالة تحت إمرة ألفارو كولودرو وبينيتو باغنوس من تسلق برج من أبراج قرطبة. ولما استوليا على المدينة عجل لهم الدون فرناند بالتعزيز، فأجبروها على الاستسلام [94]. وكان سقوط هذه المدينة بيد النصارى سببا في إثارة اضطرابات عظيمة بين المسلمين ووقوع صدامات متعددة بين حكامهم : أبي زيان وزيدان بن سعيد في بلنسية وأبي الحجاج وابن هذيل في مرسية، وآخر في لبلة [95] وفي الغرب. وقد توسل أهل اشبيلية إلى جعفر لكي يتأمر عليهم، وطلب أهل أرجونة من محمد بن سعيد [96] أن يتولى عليهم، وكان أقوى أمراء المسلمين جميعا، تأمر بغرناطة وساد فيها بنوه بعده أكثر من مائتين وخمسين سنة، وعرفوا ببني الأحمر، حتى نزع ملكهم فرديناند وإزابيلا كما سنذكر ذلك في موضعه. وأما ذكره وذكر إمارته فإن أصله من أرجونه، وقد تولى عليها، وكان ثريا قويا ذائع الصيت بين المسلمين، أصله من الحجاز، ولم يكن من العرب الأصليين وإنما هو ممن ألحق بهم واعتنق نحلتهم. وقد ذكر الجوهري في قاموسه عند حرف الحاء قبيلة تسمى حمير، استولت على الكوفة، على البحر الاحمر [97]، ومنها دخل عدد كبير من رجالها في خدمة خلفاء دمشق عند فتوح إفريقيا والأندلس وضموا إليهم المنحدرين من نسب بني الأحمر، ولم يكونوا حمرا، وإنما كان اسما لأسرتهم، ويثبت ذلك ما وقفنا عليه من رسوم التنافيذ التي أصدرها الحكام، يضاف اليها عدد من الكتابات العربية التي ما تزال منقوشة في أماكن مختلفة من مدينة غرناطة ومن القصور [98] التي شيدوها فيها وزينوها برفيع البنيان. ولنذكر كيف تدرجوا للوصول إلى الملك. لما انفصلت الأندلس عن حكم الخلفاء ظل فيها عدد من كبراء بني جلدتهم متقلدين المناصب والاحكام ولا سيما

---

(93) يعبر عنهم بالكفار

(94) في 29 يونيه 1236 .

(95) عبد الله بن عزون ؟

(96) من بني الأحمر .

(97) في الهامش ما يفيد أن التسمية في الاصل الاسباني هي : البحر الأعظم .

في أرجونة التي دامت لهم طويلا، ولما رأى ابن الأحمر استبداد الولاة كل بما كان بيده عند أفول أمر الموحدين وتيقن بما له من القبول عند أهل ولايته أراد أن يحذو حذو المنتزين، فادعى أنه رأى في نومه فرقا من النحل وسربا من الطير قد حطا على سقف داره . وقد وجد مرابطا (99) يتمتع بواسع التقدير والتبجيل فعبّر له تلك الرؤيا وبشره بالملك. ولما ذاع ذلك القول في المدينة قام العامة بتقديم ابن الاحمر أميرا عليهم وهم يتشوقون إلى ما يحدثه في المدينة من أمور، وتعهد بجمع كلمة المسلمين والذوذ عنهم، وكان قد شاع أنه المرشح لهذا الأمر. وقد تبعهم في هذا التقديم أهل جيان وأهل وادي آش وأهل بياسة ومدن أخرى. ثم تبعه أهل غرناطة. ولما دانت له هذه الحواضر والأقطار انتهى به المقام إلى غرناطة وتلقب بالملك محمد السعيد من بني الأحمر بن عبد الله بن الناصر (100) وقد تولى الملك من هذا النسب واحد وعشرون أميرا كان الأربعة الأول منهم هو وابنه واثنان من أحفاده. ثم انتقل الملك إلى ابن إحدى حفيداته وكان زوجها عاملا على مالقة (101) نسبه من نفس نسب بني الأحمر، ثم حكم ابنه البكر، ثم اثنان من أبنائه. أما ابنه الأصغر فهو أبو الوليد ومنه انحدر آخر ملوك غرناطة (102) الذي خلفه الملكان الكاتوليكيان. فالذين ملكوا من نسب بني الأحمر، عشرة، وغيرهم من أقاربهم أو من الغصاب كما سنرى في تسلسل حوادث التاريخ فقد دأب الملوك المسلمون إسوة بالعبرانيين على أن يجعلوا في ألقابهم الممالك والولايات التي يسودون عليها. فقد تسمى كل واحد منهم، تشريفا بأمير المسلمين على مثال أمراء مراكش وفاس وخلفاء بلاد العرب وسوريا وغيرهم من الأمراء المحمديين، وذلك على غرار تلقيب ملك روما بقيصر وملك مصر بفرعون. وقد اعتادوا أيضا على وضع اسم محمد قبل أسمائهم في جميع مكاتيبهم، وكثير من الناس يحملون ذلك الاسم على سبيل التعظيم لان محمدا هو مؤسس ملتهم وصاحب شرعها.

رجع لخبرنا. في العام الذي قام فيه محمد أبو سعيد ملكا على غرناطة، دخل الدون فرناند بلاد جيان وأخذ مدينة أندوجار وحصن مارطوش ثم عاد منتصرا إلى قشتالة. ومن جهة أخرى دخل الدون خايمي ملك أرغون مملكة

(98) تسمت بالحمراء نسبة إليهم
(99) سيديهم المفتي .
(100) مولاي محمد ، آبو سعيد بن عبد الله بن ناصر
(101) فـرج .
(102) أبو عبد الله .

بلنسية، وبعد أن استولى على عدة مدن حاصر حاضرتها : وأثناء ذلك وصل أسطول للمسلمين عدته اثنا عشر من القوادس وستة من القوارب بعث به ملك تونس لنجدة أبي زيان الذي كان أميرها. ومع ذلك تمكن المحاصرون من منع دخول النجدة إلى المدينة واضطر القادمون بها للتراجع . غير أن أبا زيان الذي تقلصت ولايته إلى أقصى حدها قد اضطر في العام الموالي إلى الاستسلام شريطة أن يخلى سبيله في الخروج بجيشه وعدته هو ومن أراد الخروج معه وأن تُترك لمن يبقون في المدينة حريتهم، على أن يؤدوا الطاعة للمتغلب. هكذا دخل ملك أرغون مدينة بلنسية في الثامن من شتنبر من عام ألف ومائتين وثمانية وثلاثين. وبعد ذلك خرج لقتال ساكس، وفيه قتل المسلمون الدون أرطل سيد ألقون.

بينما كانت تجري هذه الحوادث في إسبانيا شبت نار حرب ضروس في آسيا. ذلك أن التتار الذين يسكنون جبال ريفيس جهة المحيط الشمالي قد انتشروا في مجموع آسيا وشنوا الحرب على الأتراك. وهؤلاء هم آخر شعوب الشمال الذين قال عنهم هوميروس إنهم أعدل شعوب الأرض قاطبة لا يتخاصمون ولا يتنازعون ولا يعرفون المال ولا الشهوات، يعيشون في سكينة بلا كتاب ولا شرائع. لا يهتدون إلا بالعقل الطبيعي. به يحكمون أمتهم ويستديمون حريتهم. يسكنون أرضا غير ذات خصب ولا زرع ولا حقول ولا كروم، قوتهم نبات الأرض وثمار أشجار البر وما يتأتى لهم من الصيد، ولباسهم بسيط من الجلود، لا يقيمون أعيادا ولا مشاهد، كانت هذه البلاد معينا بشريا لا ينضب، اندفعت منه في عصور مختلفة أمم لا يُحصى عددها عُرفت بكونها مبرزة في القتال. وقد كان هؤلاء الذين نتحدث عنهم يخضعون قبل انطلاقهم لامراء جيورجيا أو لبعض الأمراء الآخرين. وكانوا منقسمين إلى سبع قبائل (103) تكاثر نسلها وتكاثرت مواشيها حتى ضاقت بهم أرضهم، فعزموا على الخروج منها باحثين عن أرض أخرى، وكان يعسوب هذا الخروج شيخ من قبيلة تارتار يسمى كانجي من نسب وضيع، له شهرة كبيرة بالصلاح. فقد دعاهم، كما لو كان ذلك عن أمر إلهي، إلى أن يخرجوا للبحث عن أرض أكثر اتساعا وخصبا من أرضهم، تقع محصورة بين البحر المحيط وبحر قزوين. ولم يكن يفضي لها سوى ممر واحد محصور بين الجبال وبين البحر، وقد خرجوا من هذا الممر بقيادته، وظل اسم هذه القبيلة يطلق على جميع هذه الشعوب التي يرد

(103) تارتار وطانگور وقونات وطالاي وسينيك ومونگلي وتيبيت .

البعض أصلها وكذا أصل الاتراك إلى قبائل بني إسرائيل العشر، وإن كان اصلها في الحقيقة يمتد إلى ماجوج بن يافت الوارد ذكره في عدة مواضع من الكتاب المقدس، زد على ذلك أن القبائل العشر قد نقلت إلى بلاد الميديين وليس إلى بلاد الشيتيين. أما هؤلاء التتار فقد قادهم هذا الشيخ الصالح وكانوا يسمونه تشريفا باسم قام، وهو الأمبراطور أو الملك. فهبطوا في اتجاه بحر قزوين، وهنالك مات شيخهم هذا، فقدموا خلفا له أكبر ولديه، إذ كان له من الولد اثنان. وكان هذا المتولي يدعى أوقات. وكان حكيما نبيها. وكان أول من اجتاز منهم مضيق بحر قزوين وقطع أرض سوقديان والنهر المسمى بهذا الاسم حتى اتخذ مشتاه على جبل طوروس في بلد رائق كثير الخصب أتاح لهذه القبائل أقواتا وافرة بالاضافة إلى ما كانوا قد سطوا عليه أثناء الطريق. فجبل طوروس هو أعظم الجبال المعروفة. يبدأ من جهة مغرب الشمس عند بحر إيجة ، ويمتد في سلسلة طويلة من الجبال حتى بحر المشرق، ويقسم آسيا إلى قسمين، وبعدما قضى أوقات فصل الشتاء في تلك المنازل قام منها عند بداية فصل الربيع متسلقا تلك الصخور حتى أمكن له الانقضاض على السكان الذين كانوا يعيشون على السفح الآخر. وبعد أن دمر كل تلك الجهات انتشر قومه على ضفتي نهر الهندوس. وهنالك أسس قامبالو ليتخذها عاصمة لأمبراطوريته، وتتميز هذه المدينة باكتظاظها الشديد وبأنها أجمل بلدان آسيا. ولما استقر به المقام بعث الجيوش إلى جميع جهات الدنيا فغزا أراقوزيا وكارامانيا وعدة جهات أخرى، وانتهى إلى بلاد فارس، وطرد منها الأتراك، ثم استولى على سوريا وعلى بلاد ما بين النهرين وبلاد العرب وهدم مدينة بغداد الشهيرة وفيها كانت عاصمة الخلفاء، وبعد هذه الوقائع استولى التتار على أرمينيا الكبرى ومنها جازوا إلى إيبريا وفولشيديا يبثون الرعب في كل مكان. ولولا أن مفاتن بلاد الهند قد قعدت بقائدهم في قامبالو لوسعوا فتوحهم إلى أبعد مما وصلوا إليه. ولكن هذا القائد قد اكتفى انطلاقا من عاصمته بحكم الاقاليم بواسطة رجال من أهله وأصحابه الذين اتخذوا عوائد الفرس والكلدانيين والاشوريين وسموا كبيرهم بالراهب يوحنا . وقد اسسوا امبراطورية جديدة ذات قوة عظيمة.

ولما كان الاستطراد بذكر بعض التفاصيل من فتوحهم لا يخلو من المتعة فسأذكر أن أول ما فعلوه بعد اختراق الجبال هو فتح مدينة الاسكندرية وهي مبنية

(104) في عام 1258 الموافق لـ 618 للهجرة .

على المضيق المسمى بباب الحديد [105] وكان ذلك مبعث خوف شديد من قبل الاتراك حتى إن عزالدين حاكم سلطان قونية قد بادر لكي يستطيع التصدي للتيار، بعقد هدنة مع إمبراطور القسطنطينية لمدة سنين طويلة. وقد تساهل الامبراطور في الموافقة على رغبة عز الدين وقصده أن يكون حاجزا بينه وبين التتار الذين كانوا يهددون آسيا بالتدمير ، وكان نصارى الشرق إذ ذاك قد أنهكتهم الحروب المستمرة، فتركوا الحرث والعناية بالمواشي حتى اشتد احتياجهم واستنفد الامبراطور جميع كنوز مذخراته. ولما تبين له أن تلك الهدنة تجعله فارغا من المشاغل، فقد عزم على إصلاح الأرياف فطلب من رعاياه أن يعودوا إلى الاهتمام بالزراعة وأراد أن يكون القدوة في ذلك فاتخذ لنفسه حيا كان من الاحياء الخالية فغرس فيه الكروم وأشجار الزيتون وكان يأخذ نفقته من ريعها ويقوم بتوزيع ما فضل على القائمين بشئون الدين وعلى أماكن الاستشفاء. ثم أمر بأن تكون لكل مدينة مخازن للحبوب وغيرها لتوزيع القمح على السكان عند الحاجة، وبهذا استعادت البلاد جلالها الأول. ويذكر المؤرخون أن هذا الامبراطور الطيب عني بهذه الأشياء عناية كبيرة، ويذكرون أن ما كانت تربيه الامبراطورة من إناث الدجاج وحدها كان يقوم بحاجة دارها من البيض والفراخ وأنها استطاعت أن تصنع من المال الفاضل الذي يدره هذا الدجاج تاجا من الذهب مرصعا بالجواهر والأحجار النفيسة سمي بتاج البيض حيث كانت به أشكال تمثل البيض وحيث إنه معمول من مال مصدره البيض . ولم يدرك الامبراطور بهذه العناية إعالة شعبه فحسب بل أغناه بها، ذلك أن الترك الذين كانوا في حروب مستمرة مع التتار كانوا يعدمون الاقوات فيشترونها بالثمن الباهظ من النصارى باذلين فيها أنفس ما كان بأيديهم.

رجع إلى خبر التتار. ماأن استولوا على مدينة الاسكندرية حتى زحفت طليعتهم على الأتراك بقيادة قابوسابا، وقد ترصده سلطان قونية وهو عزالدين في بوصدرة بأرمينيا الكبرى ومعه جيش من الترك والعرب واليونانيين والايطاليين والالمانيين والفرنسيين وقد اجتمعوا كلهم ليتصدوا لعدوهم المشترك، فأما جان ليفيداند أو باليولوج كما يسمى، وهو صاحب قبرص وكان مغضوبا عليه من طرف الامبراطور، فكان على رأس اليونانيين، وأما بونيفاشيو مولينيو وهو من نبلاء

---

(105) مضيق بحر قزوين .

البندقية فكان يقود اللاتان الذين كانوا في خدمة السلجوقي. ولما رأى التتار مثل هذا الجيش العظيم المتكون من الأجناس المتعددة ظنوا أن أمدادا كبيرة قد وصلت إلى السلجوقي فأرادوا أن يولوا الأدبار. وأثناء ذلك وقع أن أحد أقارب السلجوقي قد تضيم والتجأ إلى التتار بمن معه من الجيش وأفهمهم أن كثرة أجناس العساكر التي مع السلجوقي مبعث للضعف أكثر مما هي سبب من أسباب القوة، فثناهم ذلك عن الانصراف، فباشروا القتال وألحقوا الهزيمة بالسلجوقي، وبعد ذلك عبروا نهر الفرات وأخضعوا الشام وبلاد العرب وفرضوا الجزية على تلك البلاد، وعادوا إلى الشرق محملين بالغنائم(106) . وفي العام الذي بعد هذا عادوا وقطعوا في زحف هائج نهر الفرات في جهته الشمالية في مكان غير بعيد من منابعه. ووصلوا إلى قابادوشيا وإلى نهر تيرمودون، واستولوا على قونية عاصمة هذه الامبراطورية. ولما أيقن السلجوقي بهلاكه صحب معه أخاه وذهب إلى امبراطور باليولوج الحاكم إذ ذاك، مستأنسا بما كان بينهما من ود قديم، وهو يطلب إنجاده ضد الاتراك أو إعطاءه بعض المضارب متربصا بماله وأهله. فما أجابه لاي من المطلبين، لانه أشفق من تقسيم جيشه، ولم يرد أن يعطي لأمير بهذه القوة كان له من سالف المجد ماكان، ملجأ يلتحق به فيه قواده وعساكره لمافي ذلك من خطر بتدمير البلاد نظرا لما هم فيه من الاحتياج عليه من القدرة على العدوان. ولما رأى السلجوقي أن الامبراطور يماطله دون جدوى سار مع أخيه إلى إقليم المجاز مستعينا ببعض الشيتيين(107) الاروبيين، ومثل بين يدي قام شيخ التتار فأعاده إلى إمارته على أن يؤدي له بعض الجزية. ولم يستمتع طويلا بذلك الانعام، إذ أعلن عليه أحد ولاة فارس (108) الحرب واضطره إلى الانسحاب حتى هرقلية بمملكة المجاز، ولبث هنالك إلى أن أعاده التتار إلى حكمه ثم قتل غيلة بعد ذلك. وبموته اضمحلت أمبراطورية الترك وانتقلوا من السعادة القصوى إلى البؤس المدقع بما وقع بينهم من الشقاق، الأمر الذي أسلمهم غنيمة لعدد من صغار الطغاة حتى شاع بينهم النهب والغضب لا من طرف السادة النبلاء فحسب، بل حتى من طرف العامة الذين نزلوا من الجبال لاسلاح لهم سوى قسيهم وسهامهم فجعلوا يقومون بأعمال القرصنة على

---

(106) لان زعيمهم ظل في بلاد سلطان المغول

(107) أوقات .

(108) عمار .

الطرقات الرئيسة وفي الاماكن التي لا تحميها حامية مدمرين كل ماجاورهم من البلاد. وعانى النصارى أكثر من غيرهم من هذا الضرر لان الامبراطور أراد تقليل نفقاته فأبطل حاميات المدن، فتقاطر عليها الترك للاحتماء من التتار، فكانوا ينهبون أهلها، ولربما وقعت مشادات بالايدي إذا وجدوا من يقاومهم. وقد أراد الامبراطور أن يقضي على هذه الفتنة، فلما علم أن جيشا من الاتراك قد التجأ إلى بافلاكونيا ذهب لمنازلته، وهزمه ولكن جنوده أبعدوا في تعقب الترك فانقلبوا عليهم وقتلوا منهم تلة على ضفاف وادي سانجار، ولم يفلت الامبراطور بنفسه إلا بمشقة كبيرة. وبعد هذا النصر قطعوا النهر وانتشروا ما بين بحر المجاز وغالاسيا وبين بحر ليقيا ونهر أوريمدون حيث تجمعوا للزحف ضد التتار .

تاريخ المماليك

في هذا العهد ازدهر حكم مماليك مصر وحققوا مثل ما حققه التتار، فقد استولوا على كثير من الاقاليم وحكموها مدة طويلة ومدوا حدودهم إلى بلاد بعيدة بعد أن كانت بدايتهم على نحو ما سأذكره. لقد فقد الخلفاء بمصر ذلك العز الأول وذلك الانجاد الذي حقق لهم ماكانوا عليه من المجد وانغمسوا في شهواتهم حتى أفسدتهم البطالة ولم يعد الطامع في دولتهم يحتاج من أجل غزوها إلى جيش كبير، مع العلم بأن هذه الدولة كانت على درجة من الازدهار. وهذا ماجعل بلدوين أمير بيت المقدس يتجه بجيوشه إليهم ويحقق عددا من الانتصارات حتى استطاع أن يفرض عليهم الجزية. ولما أظهروا الامتناع عن أداء ما كانوا يؤدونه قام خلف بلدوين في الملك وهو أخوه إيمري فجمع جيشا هزم به السلطان درغان في الصحراء الواقعة بين يهودا ومصر، وكان بإمكانه أن يتوسع في انتصاراته إلى أبعد مما وصل إليه لولا أن السكان فتحوا عرم السواقي وسدود الأنهار فأغرقوا البلاد بالماء (109) حتى كاد جيش النصارى يهلك من جراء ذلك واضطر إلى الرجوع إلى الضفة الغربية. وقام سنار (110) الذي كان درغان قد انتزع منه الامارة باللجوء إلى أعراب قبيلته فاغتنم فرصة هذه الهزيمة، فلجأ إلى نور الدين أمير دمشق وطلب منه أن يعينه على استعادة الملك الذي انتزعه منه درغان، وقد ارتاح لذلك الطلب لانه كان يأمل أن

(109) لأن النيل كان فائضا .

(110) كان المماليك رؤساء الجند عند الخلفاء .

يتسنى له الاستيلاء على مصر (111) إذا هو تمكن من الدخول إليها، وهكذا بعث إليها بجيش يقوده شيركوه وهو من أصل وضيع ولكنه قائد عظيم شغوف بتحقيق الانتصارات. واتجها نحو مصر واشتد خوف المملوكي منهما حتى إنه التمس إنجاد ملك بيت المقدس متعهدا بأن يؤدي له الخراج الذي كان الخلفاء يؤدونه لأسلافه. وبينما هو كذلك إذ اقترب منه العدو فاضطر إلى أن يزحف في اتجاهه مع تفادي منازلته في انتظار أن ينعقد العهد بينه وبين ملك بيت المقدس. وبينما هو كذلك إذ قتله أحد رجاله غدرا. وبعد سنار صار الترك سادة مجموع البلادالمصرية لان الخليفة قد احتجب في قصره وانغمس في لذاته ولم يكن يهمه أن يكون قائد الجيش هذا أو ذاك مادام معترفا بملكه. وأثناء ذلك استولى شيركوه على مدينة بيبليس التي كانت تسمى قديما بيلوز وأراد الاختصاص بها ضدا على سنار، فغضب لذلك وبعث يطلب من إيمري ملك بيت المقدس أن يقدم إليه ماكان يعتزم تقديمه لسلفه. ولما انعقد العهد بينهما حاصرا المدينة معا وضيقا عليها حتى اضطر شيركوه إلى تسليمها. ولما تبين لهذا الأخير أنه غير قادر على الوقوف في وجه عدوين لهما مثل هذه القوة وبأن نورالدين كانت له مشاغل في سوريا ضد المسيحيين تغنيه عن شؤون مصر التجأ إلى خليفة بغداد وفتح بصره على الفوائد المرتقبة من السيادة على بلد مثل ذلك البلد الغني، وأقنعه بأن يقدم على هذا الأمر الذي طالما تطلع إليه، وزين له ذلك حتى يتمكن من منافسه، وهكذا جمع جيشا من العرب والفرس والاشوريين والاتراك الذين هم تحت طاعته وجعل عليه شيركوه وأعطاه أزوادا عظيمة يقطع بها الصحراء ويتوجه إلى مصر. ولما سمع إيمري بخبر قدومه جمع جيشه وزحف إليه ونازله في الصحراء وانتصر عليه بعد قتال طويل، وطرده الى سوريا، فعاد الى بيت المقدس يحمل الغنائم. وبعد فترة من الزمن جمع إيمري جيشه وحاصر مدينة بيبليس فأحرق وأسال الدماء. وبعد أن بلغه أن سنارا يتآمر مع نورالدين لشن الحرب عليه، وإن كان البعض يدعي أن ذلك إنما كان تعلة لقيامه لغزو مصر. ولما علم سنار مافعله إيمري لجأ ثانية إلى نور الدين فأرسل إليه شيركوه ولكن تخوف سنار من أطماعه جعله يقرر استرضاء إيمري بمبالغ كبيرة وزحف توا إلى القاهرة. ولما خرج لاستقباله قبض عليه وحز رأسه. وبعد ذلك دخل المدينة وقدم التحية للخليفة فعينه مملوكا في مكان الهالك. وبعد فترة

(111) كان خلفاء بغداد في تنافس مع ملوك مصر .

من الزمن مات شيركوه من مرض أودى به وترك حلفا له ابن أخيه صلاح الدين. وكان كالاسكندر شجاعة ويقظة وكرما وتسامحا، وهو الذي قتل الخليفة [112]، وقتل كل من تقبض عليه من أهله فوضع بذلك نهاية للخلفاء من نسب القائم الذي كان قد انتقل من افريقية إلى مصر كما سبق أن ذكرنا فانتصب ملكا في شؤون الدين والدنيا. ولما رأى ما عليه المصريون من الضعف والانغماس في الشهوات وإهمال شؤون الحرب حتى كانوا يستنجدون بالغير عند الضرورة، عزم على تكوين جيش من الرجال البواسل للدفاع عن البلاد. ولما كانت شعوب الشمال أكثر استعدادا للحرب من شعوب الجنوب. فقد تحالف مع الشراكسة [113]، الذين يسكنون قريبا من البحر الاسود ومن بالوس ميوتيد، وشرط عليهم أن يقدموا له كل سنة غلمانا أصحاء الأبدان مقابل قدر من المال، فكان يربيهم على ممارسة السلاح ولا يباشر الحرب غيرهم في مجموع البلاد. وكان يولي النبهاء منهم المناصب الكبيرة. فهؤلاء متأصلون من أقوام لهم طبيعة متوحشة اعتادوا منذ نعومة أظفارهم على الاشتغال والمشقة، وعلى الصبر على الجوع والعطش لا يسكنون الحواضر قط، ينتشرون على ضفتي نهر فاز على حدود منطقة كولشيد قريبا من باب تانيس بمالا يزيد عن خمسين فرسخا. [114]، وهم وإن كانوا على دين المسيحية يمارسون عددا من الطقوس الغريبة: فإذا ولد لديهم وليد ذهبوا به إلى نهر وغسلوه فيه. ومعظمهم أقوياء ضخام الابدان، يتميزون ببياض اللون وحسن المظهر. تكثر على طول بلادهم وعرضها البحيرات، وفيها ينبت القصب الذي به يبنون أكواخهم. وهم في حروب مستمرة ضد التتار وغيرهم من الشعوب المجاورة. لا يخلع نبلاؤهم الدروع المزرودة ولا يسمحون لعامتهم باتخاذ الخيل والسلاح ولا يسمحون لهم بالاشتغال بغير الحرث، يعيشون طلقاء، لا ملوك لهم. ولا يعرفون القراءة ولا الكتابة، إذ ليس لهم أبجدية خاصة. لذلك فشرائعهم غير مكتوبة. يسوون نزاعاتهم بالاحتكام إلى السلاح أو بالمصالحة. يكرمون الغريب إكراما كبيرا. يعيشون من الصيد وقطع الطرق، ويمتازون على غيرهم في الرماية. كان صلاح الدين يبعث إليهم كل سنة من يشتري منهم الفتيان الذين يأسرونهم في الحرب أو الذين يضطر آباؤهم لبيعهم

(112) العاضد الفاطمي ، وقد سبق التنبيه على أن صلاح الدين قد نحاه ولم يقتله .

(113) أو الرح .

(114) يقصد بذلك المسافة بين تانايس ونهر الفولكا .

بدافع الفقر. فكان يربيهم على الكيفية التي ذكرناها. وكانوا يسمونهم بالمماليك أي العبيد. فبفضل هؤلاء ملك دمشق بعد وفاة نور الدين، وبهم طرد المسيحيين من سوريا ومن الضفة الغربية، واستولى في الأخير على الجزء الشرقي من افريقيا. ففي عهده لم يكن للأتراك سوى ثلاثة ملوك كبار: هو وملك الفرس وسلطان قابادوقيا. وقد حكم خلفاؤه في مصر مدة مائة وخمسين عاما، وكانت لهم سلطة مطلقة في شؤون الدين والدنيا. وكان الواحد منهم يلقب بالسلطان ولم يفلت من تغريم امبراطورية التتار سواهم، وذلك بفضل بسالة المماليك والتحالف مع الشراكسة. فكلما قام التتار يحاربون المماليك كان الشاركسة يدخلون بلاد التتار فيضطرونهم بذلك إلى الانصراف. يضاف إلى ذلك أن فرسان المماليك كانوا متفوقين على فرسانهم. فلما انقرض عقب صلاح الدين سار المماليك على تقاليد بلادهم، فلم يكونوا يقبلون أن يتخذ المصريون خيلا أو سلاحا. وقد اختاروا رئيسا عليهم السلطان الشهم بيبرس وكان من سلكهم، وشرطوا عليه عدم تفويت الملك بالتوريث وعدم مراعاة النسب في اختيار الملك. وكانت عشيرة الملك لا يمتازون في عيشهم عن المماليك المجلوبين من بلاد الشاركسة. ولم يكونوا يرثون من آبائهم، بل كانوا كغيرهم يرتقون حسب الاستحقاق وليس باعتبار النسب. وقد بدأت هذه المملكة في مصر حوالي سنة ألف وثلاثمائة وإن كانوا قد وجدوا قبل ذلك بكثير كما ذكرنا. وقد استمروا حتى قضي على ملكهم الأمبراطور سليم امبراطور الترك. وقد رأينا من المناسب للمقام أن نتعرض لتاريخهم لأنه تاريخ يستحق الذكر، ولأنه يوضح عددا من الاشياء التي سنذكرها بصورة أكثر تفصيلا في القسم الثاني من حديثنا عن إفريقيا عندما نذكر وصف مصر.

ولنرجع إلى إسبانيا. كان أبو سعيد ملك غرناطة قد عمل هدنة مع الدون فرناند ولكنه ما لبث أن خرقها وهزم ألفونس أمير ليون وهو أخو الملك. ولكن الدون فرناند جمع جيشا وأخذ أركونة وهو مسقط رأس أبي سعيد، وأخذ معها بعض القلاع. (115) وبعد أن جال في البلاد أنهى جولته بحصار غرناطة. غير أن جزولة (116) الذين كانوا في جيان قد حاصروا مارتش قصد إلهاء النصارى. بيد أن الملك قد أرسل أخاه لنجدة المحاصرين، ولكن انسحب دون جدوى. وفي العام

(115) سيبالاخار وكامبوتيخار وموتينحار.

(116) من جزولة المغرب.

الذي بعده رأى أبو سعيد أن فرناند يجمع الجيوش قصد العودة إلى حصار غرناطة فعقد الهدنة معه وبمقتضى هذا العقد أعاد إليه مدينة جيان وأقر له بملك غرناطة وتنازل له عن نصف إيرادها، ومقابل ذلك قدم إليه الدون فرناند عساكر يستعين بها على رد بعض عمال المدن إلى الطاعة. وبعد أن فرغ من أمرهم وحيث إنه قد أمن جهة الدون فرناند، قام بشن الحرب على ملك إشبيلية. ولما دخل بلاده عاث فسادا في جهات قرمونية وأسلم مدينة القلعة (117) للنصارى. وبعد عامين من ذلك دخل الدون فرناند بجيش عظيم بلاد المسلمين بعدما تيقن ان لاخوف عليه من جهة غرناطة. فحاصر قرمونة، فما لبثت أن استسلمت وصار سكانها من أتباعه. واتبعتها في ذلك عدة حواضر أخرى (118). ثم إنه حاصر قلعة الملك وأخذها. وحوالي شهر غشت من السنة الموالية حاصر مدينة إشبيلية، ومعه ملك غرناطة.

وفي نفس العام اجتمع الاتراك والعرب وانتصروا في معركة ضد نصارى سوريا وانتزعوا منهم بيت المقدس وفعلوا بأهلها الافاعيل. ومن جهة أخرى قام لويس ملك فرنسا برحلة إلى الارض المقدسة سعيا في كسب الخير للنصارى، وبعد أن استراح مدة من الزمن في جزيرة قبرص سار لحصار دمياط في مصر فأخذها عنوة وبعد عامين وقع في الاسر هو وأخواه شارل وألفونس وعدد من النبلاء. ولكن الاعداء سرحوهم فيما بعد مقابل تسليم مدينة دمياط. ثم قاموا بتدميرها. وأثناء ذلك حمل السلاح خمسة آلاف من القساوسة والفتيان يريدون افتكاك الملك. ولما علموا بتسريحه عدلوا عن قصدهم.

وكان الدون فرناند يحاصر إشبيلية، ودام على حصارها أربعة عشر شهرا وثمانية عشر يوما، وبعدها استسلمت، فخرج منها المسلمون بأثاثهم وعدتهم ودخلها الملك في العاشر من دجنبر ومعه ملك غرناطة، وكان قد آوى عنده ملك إشبيلية وعين له بعض التركات ليعيش منها وهي الاراضي التي يوجد بها اليوم دير رهبان الشارترية القديم، وما يزال يسمى بمواريث عبيد. وفي شهر مايو من عام الف ومائتين واثنين وخمسين مات بإشبيلية الدون فرناند الملقب بالقديس، وخلفه ابنه

---

(117) قلعة وادي الدايرة .

(118) قسطنطينة ورينه ولورا وجيانه .

الدون الفونس الحكيم، وقام في بداية توليته بقتال ملك أرغون. وأثناء ذلك انتقض المسلمون في بلنسية بإيعاز من الملك ألفونس، ودام انتقاضهم بعض الوقت، وأذعنوا بعد ذلك مقابل شروط لملك أرغون الذي كانت له المدينة، ثم قام بإهدائها لولده الدون ألفونس. وفي السنة التي بعدها قام الدون الفونس الحكيم بخرق الهدنة مع ملك غرناطة وانتزع منه تقيدة وحواضر أخرى من تلك الجهات، وعاد منتصرا إلى قشتالة. وبعد عامين استأنف الحرب، وحاصر مدينة شريش الفرنتيرة. وقام أهلها بطرد جزولة، واستسلموا وصاروا من أتباعه. وتبعهم في مثل ذلك سكان أركش ولبريشة. وفي عام ألف ومائتين وسبعة وخمسين دخل منطقة العرب وأخذ من المسلمين لبلة، وكان قد لجأ إليها أحد أولاده الذي كان يلقب بصـحب الغرب ثم تابع توسعه فأخذ عددا من المدن والحصون (119) التي كانت للامراء المسلمين ودخل أصحابها في تبعيته. وبعد ذلك قام بتشييد مدينة الملك. وفي ذلك العام مات الدون شانجة ملك البرتغال وترك من بعده خليفة أخاه الفونس.

كان المستعصم بالله الذي سبق ذكره هو الخليفة عندما قام التتار بغزو بلاد الفرس، ثم جاءوا للانقضاض على بغداد يقودهم قلاوون الشجاع. ولما تم لهم الاستيلاء عليها بلا مقاومة قبضوا على الخليفة وسجنوه في بيت ماله حتى مات جوعا جزاء له على عدم تجييش الجيش بخلا بتلك الاموال. وظل المسلمون بلا خليفة زهاء قرنين. ولكن مماليك مصر قد اتخذوا ذلك اللقب، وكانوا يجرون على مقتضيات ذلك المنصب في المراسيم والشرائع. أما في بلاد فارس فقد تولى الحكم منذئذ رجل عربي من سلالة علي وإليه ينتسب الصفويون ، وقد كان يحظى منهم بتعظيم كبير.

ومن جهة أخرى توجس ملك غرناطة وأمراء المسلمين في مرسية وبلاد العرب خيفة مما كان يحققه ملك قشتالة من تقدم. فبعثوا رسلهم سرا إلى ملك فاس وكان حينذاك على قوة كبيرة، وقد دان له مجموع المغرب الاقصى، وأغروا مسلمي إشبيلية بقتل الدون ألفونس وزوجته وبالانتفاض بعد ذلك. ولكن سعيهم كان بدون جدوى. إلا أن عددا كبيرا من المسلمين قد جازوا من إفريقيا وألقوا إسبانيا في غم كبير بأخذ عدد من الحواضر (120) وحمل جيمع المسلمين الذين كانوا

---

(119) جبيراكون وجيلفا وسيربا ومورا وألقابين وكاستروماتين وطبيرة ولولا .

(120) شريش الفرنتيرة وأركش وليبريشة وشذونة الخ...

تحت طاعة الدون إلفونس على الانتفاض. ولكن هذا الأمير أراد أن يشغلهم عن أنفسهم فأرسل أسطولا إلى إفريقيا، فأخذ مدينة سلا، ولكنه لم يستطع الاحتفاظ بها سوى عشرة أيام عاد بعدها إلى إسبانيا .

أثناء ذلك وقع تنازع كبير بين المسيحيين في سوريا. وكانت البداية بين أهل البندقية وأهل جنوة. وتقاتل أهل صور وأهل عكا قتالا عظيما. ومن جهة أخرى قام مانْفُروا وهو ابن غير شرعي للأمبراطور فريدريك بالاستيلاء على مملكة صقلية على عهد البابا الاسكندر الرابع، وجلب من إفريقيا عددا من العرب وأرسلهم إلى مملكة نابولي قصد اغتصاب أراضي الكنيسة، وقد انضم هؤلاء إلى عرب لوشيريا وتوغلوا في جهات روما على عهد البابا أوربان الرابع وأفسدوا كل شيء حتى وصلوا إلى فروسالون. وأعلن عليهم أوربان حربا صليبية وطلب الانجاد من القديس لويس، فأرسل إليه جيشا تحت قيادة كَي قس أوكسير وريشارد كونت فاندوم وروبير ابن كونت فلاندرا وصهر أخي سان لوي إلى جهات روما. فطردوا منها الأعداء[121] دون استعمال السلاح. ولكنهم لم يستطيعوا طردهم من مملكة نابولي لانهم بعدما قطعوا إمارة نهر غاريان تحصنوا وراءه ومنعوا المرور على غيرهم. وقام البابا ضدا على مانفروا بتقليد ملك نابولي وملك صقلية شارل دوق أنجو، فوصل هذا الأخير الى إيطاليا . وتوج سان جان دولاتران في يوم الملوك من طرف البابا كليمان الرابع الذي خلف أوربان. وبعد ذلك قاتل مانفروا الملك فهزمه. وبعد شهر نازل عدوه بسهل شانت ماري دولاكَراديل، وهنالك سقط العرب ما بين قتيل وأسير، فاستولى على تلك البلاد وكان أول ملك تسمى بذلك الاسم.

فلنعد إلى خبر إسبانيا. في عام ألف ومائتين وثلاثة وستين دخل أمراء المسلمين الذين ثاروا على ألفونس أعماله وحاصروا أطريرة. ولما وصلت إليه النجدة تراجعوا عنها. غير أن المسلمين الذين جاؤوا من إفريقيا لانجاد ملك غرناطة كانوا يؤذون الناس من أهل تلك البلاد حتى إن أهل وادي آش وأهل مالقة قد ثاروا ضد ملك غرناطة وصاروا من أتباع ألفونس، فارسل إليهم ألفا من حملة الرماح تحت قيادة نونه دي لارا. وقد اعترف ملك غرناطة بذنبه وطلب من الدون إلفونس،

---

(121) يقصد المسلمين .

ألا يمنح حمايته لرعاياه، وعقد معه في مدينة القلعة التي تسمى اليوم بقلعة الملك. وكانت أهم بنود ذلك العقد تنص على أن يتخلى ملك غرناطة عن موالاة ملك مرسية (122) وأن يوالي الدون ألفونس وأن يمكنه من غزو هذه الامارة. (123) وما أن سار ألفونس لقتال ملك مرسية حتى جاء هذا الاخير لاستقباله، (124) وقد رأى أن أمير غرناطة قد تخلى عنه، فقبل يده ودخل في تبعيته. وانتقلوا جميعا من هنالك ودخلوا مرسية. وأعطاها ألفونس لاحد رؤساء المسلمين وكان أخا لابن هود (125) وشرط عليه أن يمده بثلث مجباها كل عام، وتخلى عن مواقع أخرى للملك مرسية ليسكنها، وينفق من إيرادها. ويذكر البعض أن الدون خايمي ملك أرغون قد استولى عليها سنة ألف ومائتين وأربع وستين لحساب الدون ألفونس وبأنه فتح مجموع هذه الامارة، غير أن هذين الاميرين قد سبق لهما أن اقتسما فتوحاتهما واتفقا على أن تبقى مملكة بلنسية للملك أرغون ومملكة مرسية للملك قشتالة (126). وقد غضب ملك غرناطة من هذا الغزو الذي انخرقت به السلم، فاتصل سرا بملك فاس، واتفق معه على أن ينجده مقابل اعتراف جميع مسلمي إسبانيا بملكه. وقد عمل أمير فاس (127) على تجميع جيوشه دون أن يثير حفيظة الدون ألفونس فأعلن أن قصده هو رد عامل سبتة إلى الطاعة. وزاد في إخفاء نيته بأن تعاقد مع ملك أرغون على ان يمده بجيشه البحري قصد حصار سبتة من جهة البحر ومن جهة البر وأعطاه مقابل ذلك مائة ألف بيسطوليس زيادة على أجور الجيش. ولكن الدون الفونس الذي ارتاب في أمر تلك الخديعة لم يكف عن تعزيز حدوده. وهكذا دخل أبو يوسف، ملك فاس الذي يسميه بعضهم بمولاي الشيخ، دخل إلى إسبانيا من مضيق جبل طارق ومعه سبعة عشر ألف فارس وأكثر من خمسين ألفا من الراجلة. وما أن دخلها حتى أسلم إليه أمير غرناطة (128) حصن الجزيرة وحصن طريف حيث انزل حامية ثم مر إلى مالقة لامضاء الصلح بين عاملها وعامل وادي آش وبين أمير غرناطة. ولما أن اجتمعت له جيمع عساكر هؤلاء سار لافساد بلاد إشبيلية

---

(122) محمد بن حامد .
(123) وادي آش ومالقة .
(124) في حصن الطرف ..
(125) هو محمد بن هود .
(126) جاء في الهامش : مخالف لما ذكره من قبل .
(127) ابو يوسف .
(128) فـرج .

وقرطبة. ولما امتنع عليه أخذ بعض الحصون البالغة التعزيز عاد إلى افريقيا، وبقيت بيده طريف والجزيرة. إلا أن الانفانت الدون شانجة قد دخل بلاد المسلمين بطرف من جيش أبيه فهزم قائدا (132) كبيرا من قواد المسلمين قرب وادي لكه حيث وقع العديد من القتلى والأسرى ثم عاد بعد ذلك إلى إشبيلية.

وبينما كانت تجري هذه الحوادث كان الترك (129) والعرب ينتصرون في سوريا. وقد قام السلطان بيكيدير (130) بهزم النصارى وأخذ عدد من مدنهم ثم حاصر أنطاكية وبعد عدة معارك فتحها عنوة وهدمها بعد أن قتل عددا من النصارى الذين كانوا بها وأسر عددا آخرين. وفي شهر يوليوز من عام ألف ومائتين وسبعين أبحر سان لويس (131) من إيك مورت بجيش عظيم وجاز إلى بلاد البربر وتغلب على المسلمين وغزا مدينة تونس التي كان أهلها يعتدون كثيرا على حجاج الاراضي المقدسة. وبعد أن نزل شاكي السلاح واستولى على مدينة المرسى التي بنيت على أنقاض قرطاجة، أقام معسكره على ربوة قريبة من البحر. وبعد شهر من الحصار تفشى الطاعون في معسكره وأودى بحياته وحياة أحد أبنائه وحياة المبعوث البابوي وبعدد كبير من جنوده. ولكن أخاه شارل ملك صقيلية وصل لانجاده فتابع الحصار وأرغم ملك مدينة تونس (133) على دفع الاتاوة لملوك صقلية. وعلى السماح لتجار النصارى بحرية الاتجار في ولاياته دون أن يؤدوا شيئا، وعلى أن يزود المتوجهين إلى الارض المقدسة بالاقوات وغيرها من الامور التي يحتاجون إليها، كما أرغمه على تسريح من كانوا عنده من الاسارى .

وفي نفس العام قام عثمان أخو ملك فاس بالجواز إلى إسبانيا ومعه عدد من المحاربين قصد تعزيز ملك غرناطة، ثم إن الانفت الدون فيليب أخا الملك ألفونس والدون نونه غنصالة دي لارا وكذا الدون لوب دياس دي هارو قد انضموا إلى المسلمين فعاثوا فسادا في كثير من بلاد النصارى، ثم عادوا إلى غرناطة بالغنائم، وما لبثوا أن خرجوا منها بقصد حمل عامل وادي آش على الطاعة. وفي أثناء ذلك مات ملك غرناطة وترك ابنه عبد الله خليفة، وقد أدى ذلك إلى اضطراب عظيم

(129) يقصد المماليك .

(130) يقصد البندقداري وهو سلطان مصر من المماليك الظاهر ركن الدين بيبرس الذي تولى من 1260 الى 1279م.

(131) لويس التاسع ملك فرنسا .

(132) ابن عقبة .

(133) مولاي عمر المستنصر .

في هذه الامارة فقد رغب بعض أهلها في تقديم أخيه يوسف بينما أراد آخرون تتويج عامل مالقة أو عامل وادي آش، ولكن الانفت الدون فيليب ومن كان معه من نبلاء النصارى في غرناطة قد فرضوا طاعة عبد الله، وفي السنة التي بعدها عادوا لخدمة الدون ألفونس، وقد عقد معه عبد الله السلم وصار من أتباعه. وبعد ذلك بيسير خرق الهدنة وانحاش لملك فاس ثم جاز هذا الاخير إلى الاندلس ومعه جيش عظيم. ولما علم بذلك نونه غنصالة دي لارا وكان انصرف لخدمة ألفونس وتولى على عمل قرطبة، زحف للقاء ملك فاس وأقدم على منازلته بعدد أقل من عدد جيوشه. وبعد مقاومة طويلة قتل نونة وتمت الهزيمة على أصحابه. ومات من هؤلاء مائتان من الفرسان وأربعة آلاف من الراجلة ولجأ الباقون إلى استجة. أما الجيش الآخر، وكان قد اتخذ طريقه إلى جيان، فقد لقي جيش الدون شانجة وكبير قساوسة طليطلة وابن ملك أرغون وكان فيه أهل طليطلة وأهل مدريد وأهل وادي الحجارة وأهل طلبيرة وكانوا قد خرجوا لاعتراض طريقهم. وتقاتل الفريقان وهلك النصارى عن آخرهم، وأسر هنالك الانفت وكان أسره شؤما على المتغلب، ذلك أن مسلمي إفريقيا ومسلمي إسبانيا هموا بالتقاتل في شأنه حيث ادعى كل فريق أن أسره وقع على يده. ولما رأى مسلم منهم أنهم على وشك الاقتتال القى بالانفت أرضا وطعنه برمح وحز رأسه وقطع يده التي كانت بها أختامه، وبذلك أعاد السكينة إلى صفوفهم. وأثناء ذلك سار الدون ألفونس بقصد تملك امبراطورية ألمانيا التي كان قد انتخب فيها، وترك حكم ولاياته لابنه الدون فرناند دي لاسيرد. ثم إن المسلمين أهل بلنسية الذين كانوا في تبعية ملك أرغون قد ثاروا ضده. وفي السنة التي بعد هذه مات الدون فرناند دي لاسيرد وقام أخوه الدون شانجه بتولي الحكم في غياب أبيه وثار ضده بعد أن كان عقد الهدنة لمدة عامين مع أمراء المسلمين.

وأثناء ذلك وقع نزاع كبير في إفريقيا بين ولدي عمر أمير تونس وكان قد أعطاهما عمل بجاية وعمل قسنطينة. فقد بذل كل منهما الجهد لانتزاع ما بيد الآخر حتى استجار صاحب قسنطينة بملك أرغون مقابل الدخول في تبعيته. وكان هذا الأمير شجاعا جريئا، فقبل ما عرضه عليه وجمع جيشا، وأبحر في الثالث من شهر يونيه ونزل في جزيرة منورقة للاستراحة، ومن هنالك أرسل سفينة ذات صاريين إلى قسنطينة للاعلام بقدومه والخفوف لاستقباله والتمهيد لنزوله، وغضب

المسلمون لذلك وثاروا ضد أميرهم وتقبضوا عليه في قصره وقتلوه وأسلموا أمرهم لاخيه. ويدعي بعض المؤرخين، وان كان الرأي السابق هو السائد، أن السكان لم يقتلوه وإنما قتله أخوه بالذات، وكان قد أتيح له دخول المدينة سرا. وقد هلك مع المقتول أكثر من مائتين من النصارى كانوا في خدمته. بيد أن ذلك لم يثن ملك أرغون عن رحلته. فقد أبحر من ميناء ماون وكان في غاية الاتساع والامان، ونزل بميناء القلة بين عنابة وبجاية فأقام هنالك مدة يسيرة.(134) وأثناء ذلك كان بعض جنوده يقومون بغزو بعض القرى في تلك الجهات، وكان فرسانه يجوسون خلال تلك الديار مع بعض الراجلة. وقد كانت لهم عدة مناوشات مع العرب وأفارقة البوادي الذين كانوا يهبون من كل حدب وصوب بقصد دفعهم. وأثناء ذلك وقعت في صقلية فتن دعته إلى الرجوع، وكان يتنصر في إفريقيا لبعض السادة المسلمين الذين اتبعوه من اصحاب أمير قسنطينة. ثم إن مدة الهدنة بين الانفت الدون شانجه وبين المسلمين قد انقضت، فدخل هذا الأمير بكامل قواته إلى الاندلس وأقام الحصار أمام الجزيرة من جهة البحر ومن جهة البر. وقد حمل ذلك أمير فاس على التوجه إلى طنجة ومنها أرسل جيشا لقتال النصارى فأدىٰ الامر إلى انهزامهم ورفع الحصار. ووصل الخبر إلى أمير فاس بأن عامل مالقة قد دخل في حرب الدون شانجه وصار من أتباعه، فجاز إلى الاندلس، إذ كان يخشى أن يتبعه غيره من رؤساء المسلمين في الانحراف. ولما اطمأن إليهم انعقدت الهدنة، لكن أمير غرناطة أبى أن يدخل فيها واشتمر في تحصين مواقعه. ولم يخل ذلك دون رجوع الدون شانجه إلى بلده في العام الموالي، وفيه مات كبير فرسان القديس جاك في كمين نصب له، وهلك معه أزيد من ألفين من الرجال. ولكن الانفت لم ينفك يتابع مسعاه. ولما أفسد في سهل غرناطة عاد إلى جيان، ومنها عاد إلى قرطبة وكان قد استولى على مجموع بلاد أبيه الدون ألفونس. وكان لا يتوانى عن قتال المسلمين سعيا منه في استبقاء جيشه على حال الاستعداد. ولما دخل ثانية في العلم الذي بعده إلى هذا البسيط قصد تدميره جنح للصلح مرغما لكي تتسنىٰ له مواجهة أبيه، وكان أبوه قد استجار بملك فاس لما أن رأى أن ولده قد انتزع منه كل أراضيه، فجاز مع ملك فاس إلى إسبانيا ومعه جيش عظيم. وقام الانفنت، وكان قد تلقب بملك قشتالة وليون، يبث عساكره على الحدود وعلى مواقعه الاخرى

(134) كان السكان قد أخلوا تلك المدينة .

وهو غير راغب في المنازلة. ولما تبين لملك فاس ضالة ما يحققه من التقدم، عاد إلى بلاد البربر. ثم إن الانفنت أراد أن يوطد الهدنة مع ملك غرناطة فأعاد إليه حصن أريناس الذي كان أبوه قد استولى عليه. وفي عام ألف ومائتين وثلاثة وثمانين عاد ملك فاس إلى اسبانيا في أوائل الربيع، عازما على قتال أمير غرناطة الذي كان منحاشا للدون شانجه، ولكنه لم يفعل خيرا مما فعل في جوازه السابق، وما لبث أن عاد إلى بلاد البربر. وأثناء ذلك مات بإشبيلية الدون ألفونس الملقب بالحكيم وقد ترك الدون شانجه سيدا غير منازع على مملكة قشتالة ومملكة ليون التي تملك معظم أراضيهما. وعاد ملك فاس إلى إسبانيا بجيش لم يجز بمثله من قبل. وحاصر شريش الفرنتيرة. غير أن الملك الدون شانجه ومعه عبد الله قد اضطراه إلى رفع ذلك الحصار وإلى العودة إلى إفريقيا بعد أن عقد الهدنة مع أولهما. ولما أمن أمير غرناطة، اشتغل ببناء قصر الحمراء وبناء عدد من الحصون الأخرى. ومات أمير فاس تاركا لخلافته ابنه أبا سعيد، فوطد الهدنة مع الدون شانجه ودامت إلى سنة ألف ومائتين وأربع وتسعين .

وأثناء ذلك، كان النصاى في سوريا مضطهدين غاية الاضطهاد. فقد انتزع منهم سلطان مصر عددا من المدن منها طرابلس وصيدا وصور وبيروت وعكا، وفي العام الذي بعد هذا فتح روجي دي لوري مدينة طولومينت عنوة. ولكن سلطان مصر قد استردها في نفس العام، ولما قام بهدم مدينتي طرابلس وعكا رحل النصارى الذين كانوا فيها عن طريق البحر قاصدين كاندي وقد هلك جميعهم في الطريق بسبب هيجان البحر.

ولما انصرفت مدة الهدنة بين أبي سعيد وبين الملك الدون شانجه جاز أبو سعيد إلى إسبانيا وحاصر مدينة باجه، ولما ورد إليه الخبر بأن الدون شانجه قام لادراكها بعد أن عقد السلم مع ملك غرناطة رفع عنها الحصار وعاد إلى إفريقيا. وحينئذ دنا الدون شانجه من طريف حيث كانت حامية أبي سعيد، وأخذها عنوة، وولى عليها الفونسو بيريز قزمان، وعاد إلى قرطبة. ثم إن الدون جان وهو أخو الدون شانجه قد استاء لبعض الامور فجاز إلى بلاد البربر واحتفى به أمير فاس وأمده بجيش ليستعيد به مدينة طريف. وجاء يحاصر المدينة، ولما امتنع عليه أخذها هدد قزمان بقطع رأس ولده إذا هو لم يسلمها إليه. ولم يؤد هذا التهديد إلى

انذهال قزمان، بل إنه ألقى إلى مهدده بخنجر من فوق السور وكأنما هو يدعوه لتنفيد خطته، ثم ناداه بما يفهم منه أن الارهاب لن يجدي أبدا في حمله على ترك طاعة الله وطاعة ملكه. ولما لم يتراجع عن تمرده رفع المسلمون الحصار ، وتبين لملك فاس أنه لم يفلح في حروب إسبانيا تخلى عنها وأعاد الجزيرة لملك غرناطة. وفي العام الذي بعده تولى الدون فرناند على مملكة قشتالة ومملكة ليون خلفا لأبيه الذي كان موته سببا في فتن عظيمة بإسبانيا، وذلك لأن الانفنت الدون الفونس دي لاسيرد وهو ولد الانفنت الدون فيرديناد دي لاسيردا كان يؤيده أمراء فرنسا وأرغون. وقد تلقب بملك ليون وقشتالة. وكان في ذلك سبب قيام ملك غرناطة بنقض الهدنة مع الدون شانجه وإلحاق أضرار جسمية بالبلاد. وفي أثناء ذلك قتل المسلمون الدون رودريق كبير سادة قلعة رباح وهو يهم بدخول إحدى مدنهم، كما هزموا الانفت الدون إنريق وقتلوه في معركة وقعت بمكان بين جيان وأرجونة. ولما اعتز ملك غرناطة بما أحرزه من النصر حاصر مدينة القبداق وفتحها عنوة وتابع انتصاراته في وقت كان فيه أمراء النصارى يتناحرون فيما بينهم. وما أن حل فصل الربيع من السنة الموالية حتى خرج للغزو، فحاصر جيان وقتل عند دخول أرباضها هنريق بيريز دي أرانا الذي كان عاملا عليها للدون فرنانده، ولكن عبد الله ما لبث أن رفع عنها الحصار لما تيقن من امتناعها عليه، وتم فتح قيجاطة عنوة، وعامل أهلها معاملة قاسية.

وفي عام ألف وثلاثمائة وواحد ظهر بالأناضول رجل من الأتراك يدعى عثمان. وكان في ظهوره عقاب للمسيحيين. أصله من قرية تسمى بنفس الاسم. كان فلاحا غنيا ثم تمرس بالبحر حتى قويت شوكته بسبب ما كان من الفتن في تلك البلاد، وبلغ به الأمر أن غزا معظم بيثينيا ومدن البحر الاسود وتلقب بالسلطان ووضع أسس أمبراطورية العثمانيين التي قامت على أنقاض العالم المسيحي. ولم تكن إسبانيا أقل اضطرابا من آسيا بسبب غفلة الأمراء المسيحيين الذين أتاحوا لأمير غرناطة أن يحدث فسادا كبيرا في الأندلس، ولولا أن الموت قد وضع نهاية لفتوحه لكان إضراره أبلغ مما كان وأدهي. وقد ترك خليفة له ولده مولاي محمد الملقب بالأعمى، ولما علم هذا المتولي أن أمير فاس قد مات وبأن أحوال الدولة مضطربة أرسل صهره عامل مالقة للاستيلاء على مدينة سبتة وغزو جهات أخرى.وقد عاد إلى إسبانيا بعد أن ترك حاميته بتلك المدينة. ثم إنه خشي

من وقوع بعض الفتن في دولته فطلب إبرام الهدنة مع الدون فرناند، وكانت شوكته قد قويت، فوافقه عليها وشرط عليه التبعية وبعض الاتاوة، ودامت تلك الهدنة أربعة أعوام.

وبينما كانت تجري هذه الوقائع في إسبانيا قام فرسان القديس يوحنا ببيت المقدس بغزو جزيرة رودس التي كانت بأيدي الأتراك. ولما استولوا عليها يوم عيد صعود العذراء أقاموا بها وحصنوها بقصد التحكم في الجزر المجاورة لها وجعلها الدرع الواقي لأراضي المسيحية.

وفي هذا العام تحالف الدون فرديناند ملك قشتالة مع ملك أرغون. وبعد أن حصل من البابا على إذن القيام بحملة صليبية نقض الهدنة مع صاحب غرناطة وحاصر الجزيرة الخضراء، بينما كان حليفه يحاصر ألمرية ، وقد دام حصار المدينتين مدة طويلة. وفي أثناء الحصار الأخير أراد ملك فاس أن يسترد مدينة سبتة، فطلب من ملك أرغون أن يمده بجفانه الحربية ووعده مقابل عونه بأن يتنازل للنصارى عن الغنائم وألا يعقد مع صاحب غرناطة سلما ولا يشن حربا على أرغون. ولقد بعث إليه ببعض السفن تحت إمرة قومت قسطلونة، فأمكن التضييق على تلك المدينة من جهة البر ومن جهة البحر حتى استسلمت في أواخر يوليوز من عام ألف وثلاثمائة وعشرة، وفي أثناء ذلك ذهب ملك غرناطة لانجاده فهزمه ملك أرغون وبسبب ذلك لم تسقط المدينة. وفي أثناء حصار الجزيرة بعث ملك قشتالة بجيش عليه الدون قزمان بقصد أخذ جبل طارق. وأدى ذلك إلى حمل ملك غرناطة على عقد الهدنة معه والتخلي له عن مدينتين (135) واعطائه مائة ألف قطعة ذهبية لكي يرفع الحصار. ولكن أخا ملك غرناطة استنكر ذلك الاتفاق فتآمر ضد أخيه مع بعض كبراء أصحابه فقتله وتقدم للتولي مكانه. ولما انخرمت الهدنة بموت صاحب غرناطة دخل الانفنت الدون بيطرة أخو الملك الدون فرناند أراضي المسلمين. وبعد أن عاث فيها فسادا حاصر مدينة القبداق ودخلها صلحا غير أن فرج (135م) عامل مالقة قد جيش عساكر ضد ملك غرناطة الجديد. ولما رأى هذا الامير أن العدو قد جاءه من كل جهة، دخل في تبعية الدون فرناند طمعا في انجاده .

---

(135) بلمار وقيجاطة .

(135م) هو ابن عمّ ابن الاحمر الرئيس أبو سعيد فرج بن إسماعيل صاحب مالقة (المترجم) .

ولكن فرناند مات في العام الموالي وترك خلفا له الدون ألفونس الحادي عشر وهو الذي أسس عصبة فرسان الوشاح. وأثناء ذلك قام إسماعيل وهو ابن فرج من أخت ملك غرناطة، معضدا بعسكر ملك فاس فجرد عمه من الملك واضطره إلى ترك المدينة واللجوء إلى وادي آش. فكان هذا القائم أول من وصل إلى الملك من نسب امرأة، وإن كان أبوه من هذا البيت المالك. وقد طال القتال بين هذا العم وابن أخيه، وكان الاول معززا بعساكر الدون ألفونس والآخر معضدا بعساكر بلاد البربر. ولما شبت بينهما نيران الحرب دخل الانفنت الدون بيطره إلى سهل غرناطة وأعلن الحرب على قائد جيوش إسماعيل فهزمه وقتله وقتل معه عددا من علية قومه، ثم رجع من طريق أخرى، واستولى على مدينتين، ثم رجع منتصرا إلى إشبيلية. وفي العام الذي بعده دخل سهل غرناطة. ولما كان عائدا بعد إفساد كبير في معظم جهاته بلغ الخبر بأن إسماعيل قد توجه لغزو جبل طارق، فرجع من حينه يقصد تعزيز تلك المدينة. ولكن إسماعيل انسحب إلى غرناطة. فتعقبه وعاث ثانية في هذا السهل، وأخذ بعض المدن الصغيرة دون أن يجرؤ الأمير المسلم على منازلته. ولما أحس إسماعيل بعجزه عن الصمود أسلم عددا من المدن لملك فاس طمعا في إنجاده وجاز إلى الاندلس عدد من المغاربة لتملك تلك المدن، وألحقوا أضرارا بجهات إشبيلية. وفي العام الذي بعده توغل الانفنت الدون بيطره في أراضي إسماعيل، وبعد أن فتح عنوة مدينة تشقار، دخل حصنها صلحا ثم رجع منتصرا إلى إشبيلية دون أن يتمكن مسلمو إفريقيا من منازلته. وفي شهر يونيه من عام ألف وثلاثمائة وعشرين توغل الانفنت الدون بيطره وعمه الانفت الدون جان في سهل غرناطة. وفي غداة يوم عيد القديس يوحنا بلغا أبواب المدينة وأمعنا في تحطيم كل شيء. ولكن قائد (136) جيوش إسماعيل خرج إليهم ومعه عدد من الفرسان والراجلة، وهاجم مؤخرة الجيش حين انسحابه، وهب الانفتان، وكانا من الامراء الشجعان، لانجاد الجيش المهاجم، ودخلا في وطيس حام أجهدا فيه النفس بين لم صفوف الجيش ورد الفلول وبين مباشرة قتال العدو حتى سقط كلا هما من شدة الحر وفرط التعب. وكان أول الهالكين هو الدون بيطرة، ثم سقط بعده عمه. وزعم بعضهم أنهما ماتا غما وحسرة. وقد انسحب جيشهما بلا خسارة أخرى غير هذا الرزء العظيم، ولما بلغ الخبر إلى إسماعيل جدد قواته مستعينا بملك فاس، فأخذ

(136) عثمان.

عدداً من المدن هي : تشقار، وأورش، وغالير، ومارطوش، وكانت هذه الاخيرة شديدة التحصين. ثم أمضى الهدنة مع ملك قشتالة تحسبا لعداء أمراء فاس. ولم يخطيءظنه فيهم حيث إن عثمان ابن عم ملك فاس كان يتآمر سرا مع بعض الرؤساء من مسلمي الأندلس لكي يتخلصوا منه ويستبدلوه بغيره، تضايقا منه بما أدرك من العلو والاستكبار. وكذلك دخلوا قصره بعد العشاء ذات ليلة وانتقلوا من حجرة إلى حجرة وعملوا ما في وسعهم حتى قبضوا عليه وكانوا على وشك أن يتخنوا فيه بسيوفهم لولا أن أدركه أحد أصحابه فنافح عنه طويلا حتى وقع القبض على الخائنين وقطعت رؤوسهم. ثم نزل أصحابه إلى المدينة فقتلوا كل من اشتبهوا في تآمرهم. ولكنهم لم يمسوا ابن عثمان بأذى لانه كان مستظهرا بجيوش إفريقيا، بل وقعت به الاستعانة في إنزال العقاب بالمجرمين. وما لبث إسماعيل أن مات مثخنا بجروحه. وبعد موته بويع ابنه أبو الحجاج ملكا. ثم تلقب بأمير المسلمين إسوة بأبيه، وكان سادس الملوك من بني الاحمر. وفي عام ألف وثلاثمائة وخمسة وعشرين مات دوني ملك البرتغال في مدينة شنترين وترك لخلافته ولده ألفونس الذي لقب بالمعتز أو بالقاسي. ولما انتقضت الهدنة بموت إسماعيل قام ابن عثمان، رغبة في الظهور، بغزوة داخل مملكة قشتالة، فحاصر مدينة روطة، ولكن الدون مانويل عامل الأندلس قام بمنازلته بين قرطبة وانتقيرة، وقاتله حتى أهلك الصناديد من عساكره واضطر الباقون إلى أن يولوا الادبار. وفي نفس العام قدم أحد أبناء هذا القائد (137) إلى بلاط ملك قشتالة ومعه عدد من النبلاء بسبب ضيم لحقه من الملك. ولجأ الدون مانويل لعلة مماثلة إلى المسلمين، وفي العام الذي بعده ذهب الملك ألفونس لحصار مدينة أولفيره. ولما علم بأن المسلمين في إيمونت وفي عدد من المدن المجاورة بدأوا يخرجون نساءهم وأطفالهم تحسبا للحصار، أرسل لقتالهم جيوش إشبيلية فانهزمت وأخذ علمها. وقد غضب ألفونس لهذه الخسارة فضيق على المحاصرين حتى استسلموا صلحا بوساطة ابن عثمان الذي كان في خدمة الملك. ومن هنالك قام هذا الامير متوجها إلى إيمونت فأخذها وأخذ عددا من المدن الصغيرة في هذه الجهات. وفي نفس العام مات عثمان أمبراطور الترك وخلفه ابنه أورخان.

---

(137) وهو إبراهيم .

وفي أثناء ذلك قام أسطول أرغون بمهاجة أسطول فاس وأرغمه على الفرار بعد أن أغرق أربعا من سفنه وأسر ثلاثا، وأسر اثنتي عشرة مائة من المسلمين. ومن جهة أخرى قام الدون مانويل بقتال الملك ألفونس وذلك بمساعدة أرغون. وكانت قد وقعت بينه وبين سيده ذاك نفرة لجأ بسببها إلى ملك غرناطة. وما لبث أن تصالح معه وعاد إلى خدمته. وفي نفس العام حاصر آلفونس مدينة تيبة ، وقد أعد عثمان العدة لاغاثتها ولكنه لم يقدر على الدنو من المحاصرين تهيبا للنزال حتى استسلمت المدينة في شهر غشت، وبعد ذلك أخذ مدنا أخرى. وقد تخوف أبو الحجاج من غزو ألفونس فدخل في تبعيته وتعهد له باثنى عشر ألفا من قطع الذهب إتاوة كل عام. ولكن العهد بينهما انخرم في العام الموالي، وقد عاد الدون مانويل إلى خدمة ملك غرناطة، ولمَّ المسلمون جيوشهم، ودخلوا مملكة مرسية حيث استولوا على حصن وادي الرملة وعاثوا فسادا في مجموع سهل أورجيلة وسائر تلك الجهات.

ولما مات يعقوب بن يوسف ملك فاس تقاتل على خلافته في الملك ولداه أبو الحسن وسعيد، (138) فانهزم سعيد وبويع أبوالحسن ملكا. وذهب سعيد مستجيرا بملك غرناطة فوعده بالامداد. وأوغر عليه بذلك صدر أبي الحسن، ولكن ملك غرناطة جاز إلى بلاد البربر إما بسبب عجزه عن الصمود للدون ألفونس أو بسبب رغبته في التكفير عما فعله في حق ملك فاس باحتضان أخيه. وقد صدر منه من الثناء في حق ملك فاس ما سكنت به روعة هذا الأخير، وتلقى منه الوعد بتعزيزه في قتال ملك قشتالة. وفي العام الذي بعد هذا أرسل إليه ملك فاس ولده عبد الملك ومعه ثمانية آلاف من الفرسان وعدد من الراجلة فنزلوا بالجزيرة. وما لبث عبد الملك أن حمل لقب أمير الجزيرة. وبادر إلى غزو جبل طارق فأخذها وأخذ الجبل المشرف عليها، ومكنه عاملها من القلعة. ولكنه خشي سوء المعاملة من أميره ففر إلى بلاد البربر. وفي أثناء ذلك دخل صاحب غرناطة إلى مملكة قرطبة وبعد أن استولى على مدينة كاستروديلريو دمر القلعة بعد أن أخذها صلحا ثم عاد إلى غرناطة منتصرا. وما أن علم الملك ألفونس بالاستيلاء على جبل طارق حتى هب لحصاره. غير أن ملك غرناطة أراد أن يصرفه عن تلك الوجهة

(138) الصحيح هو وقوع النزاع بين أبي الحسن وأخيه أبي علي بعد وفاة أبيهما أبي سعيد عثمان بن يعقوب . وقد وقع للمؤلف هنا خلط في الأسماء والوقائع (المترجم) .

فدخل بلاده وأخذ مدينة بني مشيش ومنها انصرف إلى قرطبة. وعاث فسادا في تلك البلاد حتى اضطر ألفونس إلى رفع الحصار بعد أن وقع بين جيشين يقطعان عنه الازواد. وفي نفس العام قام هاشم ولد عثمان وأخ له باغتيال ملك غرناطة للاستحواذ على الملك، غير أنه وقع ما يخالف ذلك حيث إن أهل غرناطة اختاروا للامارة أحد أولاد الفقيد ودخل هذا الامير توا تحت حماية ملك فاس فنال منه التعزيز والتأييد وإن كان أصغر أولاد صاحب غرناطة سنا. ولقد كان أميرا شهما حكم عشرين عاما، وهو الذي بنى قصر الحمراء الفاخر، وبنى قصر قمارش وهو إحدى النفائس التي تزين هذا القصر، كما بنى مدخله الفخم ونقش عليه بالحروف العربية على مرمر مصقول : «أمر ببناء هذا الباب المسمى باب الشريعة أسعد الله به شريعة الاسلام كما جعله فخرا باقيا على الايام، مولانا أمير المسلمين السلطان المجاهد العادل أبو الحجاج يوسف بن مولانا أمير المسلمين السلطان المجاهد المقدس أبي الوليد بن نصر كافى الله في الاسلام صنائعه الزاكية وتقبل أعماله الجهادية» (139) وقد تم بناء هذا الصرح في السابع والعشرين من شهر المولد عام سبعة وأربعين وسبعمائة. فسنوات التاريخ الهجري سنوات قمرية كما سبق أن ذكرنا وهي تقل بأحد عشر يوما عن شهورنا . لذلك وجب إنقاص اثنتين وعشرين سنة من هذا العدد. ولقد تكنى كل أمير من أمراء غرناطة بأبي عبد الله محمد، ووهم بسبب ذلك بعضهم أنهم تسموا جميعا بهذا الاسم، والحق أنها كنية حملوها تعظيما وتبركا.

رجع إلى خبرنا. دخل ملك فاس في حرب شعواء ضد صاحب تلمسان، ولذلك استدعى ولده عبد الملك من الأندلس فرجع إليه بجيوشه بعد أن عقد هدنة مدتها أربع سنين مع ملك قشتالة وأدرج فيها صاحب غرناطة الذي أرسل هو أيضا عساكره لملك فاس . وقد دامت تلك الحرب ثلاث سنوات انهزم فيها صاحب تلمسان وضيع ملكه وضيع سجلماسة وهي متاخمة للمغرب الاوسط (نوميديا). وقد تابع ملك فاس فتوحه حتى استولى على تونس وصار من أقوى الأمراء الذين سادوا في إفريقيا منذ انحطاط امبراطورية الخلفاء . وبعد هذه الانتصارات وجه همته لغزو إسبانيا فأرسل عددا من الاسلحة وعدة الحرب إلى

---

(139) النص الأصلي مأخوذ للترجمة من كتاب عبد الله عنان : « نهاية الاندلس » .

الجزيرة الخضراء وجبل طارق وماربلة ومالقة وهو يعتزم أن يشهد الحرب بنفسه. وبينما كان منهمكا في الاستعداد لتلك الأمور العظام أرسل ولده أبا مالك على رأس جيش عظيم ضاربا عرض الحائط بالهدنة التي لم تنصرم مدتها بعد. ثم إن ملك غرناطة قد جمع جيوشه وحاصر سيلوس. ولكن رئيس الغزاة الدون ألفونس دوقزمان قد هب لنجدتها فانهزم المسلمون وأجبر الملك على الانسحاب بعد ما تكبده من الخسارة. ولما رأى ملك قشتالة وملك أرغون ما اشتغل به ملك فاس من الاستعداد الكبير لحربهما وما ظهر من ذلك عندما استولى على جبل طارق مستعملا أربعين سفينة مأجورة من جنوة وسبعين سفينة أخرى من سفنه وسفن أتباعه، اشتد خوفهما من هذا الفاتح العظيم فأخذا في تجهيز الاساطيل والجيوش وتزويد الثغور بما تشتد إليه حاجتها ويضمن به صونها. وكان خوف أحدهما على إشبيلية وقرطبة وخوف الآخر على بلنسية. وفي أثناء ذلك كان أبو مالك يضر ما وسعه الاضرار بأهل مدينة ابن السليم وأهل شريش، وكان قد أرسل جيوشه لاراضي ليبريشة وأراضي أركش فعادت محملة منها بالغنائم. ولكن عمال تلك البلاد جمعوا قواتهم وهزموا تلك الجيوش واستعادوا ما حملته من الاسلاب. ثم إن أبا مالك قد توجه إلى قلعة جزولة فاجتمع له نبلاء ثغر شريش الفرنتيرة وجهات أخرى مجاورة، وهاجموا معسكره على حين غرة فقتلوا عددا من رجاله من بينهم أحد أبناء عمومته كان يدعى علودان (140) وفاجأه الهجوم ولم يتسن له ركوب فرسه وفر على رجليه هاربا. ولكنه لم يستطع الابتعاد بالسرعة اللازمة، وخاف أن ينكشف أمره، فآوى إلى غيضة أشواك هنالك. ولما رأى أنها لا تستره استلقى على الارض كمن فارق الحياة. ومر به أحد النصارى فطعنه بالرمح طعنتين وتركه. ولما لم يعد يرى أحدا تابع طريقه. وبعد حين لقي مسلما فأمره بإعلام أصحابه بحاله. غير أن جراحه قد نزفت كثيرا فكان لا يتقدم خطوة حتى تخور قواه ويتهاوى إلى الأرض، فاضطجع قرب مسيل ماء وأسلم الروح هنالك. ولما وصل المسلمون اخرجوا جثته من المسيل وحملوها بألم عظيم إلى الجزيرة، ومن هنالك تم نقلها إلى بلاد البربر. وقد عجل موته برحيل أبيه قصد الانتقام له، ولم يكتف بما جمعه من الجيوش بل دعا إلى الجهاد في مجموع بلاد إفريقيا. وفي تلك الاثناء قتل المسلمون

(140) ورد مكتوبا هكذا : Aliatan

في جبل طارق قائد أسطول ارغون. وكان ذلك سببا في عودة قواته البحرية التي كانت تحرس المضيق، وإن كان بعضهم يزعمون أن رجوع تلك القوات كان على إثر وصول خبر الهجوم على مملكة بلنسية. وبعد أن أتم ملك فاس تدبير الاستعداد وحشد مائتين وستين سفينة لحراسة المضيق خرج من فاس متوجها إلى سبتة وهو يتوعد بقتال أمراء النصارى . وما أن بلغ خبر ذلك الزحف حتى انفرط عقد النصارى وتبددت عساكرهم وأسلحتهم وأفراسهم وعدتهم، ولم يستطع قائد أسطول الملك ألفونس بسفنه السبع والعشرين أن يحول دون الانفراط. ولما فشت الاخبار بتلك الحال صمم على أن يلقي بنفسه إلى الهلاك وذلك بمنازلة سبعين سفينة حربية كبرى بجانبها عدد من القوارب، فلقي حتفه وهلكت معه خمس وعشرون من سفنه. ومنذئذ جاز المسلنون بلا خوف ولا وجل. ولما دخل في اعتقادهم أنه لا شيء يستطيع أن يقف في طريقهم جاءوا بنسائهم وأولادهم لتعمير البلاد. وخلال أربعة أشهر جاز إلى الجزيرة الخضراء وجبل طارق ومالقه وماربلة وغيرها من الحواضر أناس من جميع الاجناس والاعمار، ويعتقد أن عددهم ينيف عن سبعين ألفا من الفرسان وأربعمائة ألف من الراجلين .

وبعد أن جاز السواد الاعظم جاز الملك. ومعه رجال بلاطه وحاشيته. وسرعان ما انتشر الخبر بأنه عازم على حصار طريف ليمر من هنالك إلى إشبيلية. وفي السابع والعشرين من شتنبر عسكر أمام هذه المدينة وحاصرها من كل الجهات، وشدد في الحصار برصد العساكر بين المدينة وبين البحر حيث لم يمكنه إعمال الخنادق وذلك للحيلولة دون دخول أي شيء أو خروجه. وزاد على ذلك بأن خندق على المدينة من جهة البر لمنع وصول النجدة. وقد كان في هذه المدينة جان ألفونس دي بينابيديس وروي غوميس دي كاستانيدا وجان فرنانديس كورنيل وفرناند كاريو وبيدروكاريو وشانجه مارتينز ومنكيل لوبيز دي هاروسكو، وغيرهم من الرؤساء الشجعان والسادة النبلاء. وقد سعى الملك ألفونس إلى مساعدتهم فأرسل فرناند رودريكيز إمام دير القديس يوحنا ومعه خمسة عشر من القوادس الشراعية واثنتا عشرة سفينة قصد إغلاق المضيق ومنع المرور منه، لأن طائفة من بحارة العدو كانت قد عادت إلى بلاد البربر وطائفة أخرى تجوب سواحل بلنسية حيث كانت تأسر السفن المحملة بالأقوات والعدة إلى المعسكر ولكن الرياح عصفت بتسعة من تلك القوادس. فهلك عدد من الرجال ورجع

آخرون إلى القنت. وظل المسلمون يعبرون المضيق دون منازع. وفي أثناء ذلك توجه ملك غرناطة إلى المعسكر ومعه سبعة آلاف من الفرسان وأكثر من خمسين ألفا من الراجلة تتبعه عددمن العربات المحملة بالأقوات. وعظمت بلية النصارى بما استحكم بين ملك قشتالة وملك البرتغال من النفرة ولقد أرسل ملك قشتالة زوجته إلى أبيها ملك الرتغال بقصد التوسط لديه في عقد السلم بينهما، ولكنها أخفقت في التوصل إلى أي اتفاق، وعادت بغمة شديدة. ولما كانت في طريقها بين أوليفانشا وبطليوس جاءها الخبر بوقوع الصلح بين الملكين، فأمرت بأن تبنى كنيسة في هذا المكان مازالت تسمى بكنيسة العذراء. ولقد توجه الملكان المذكوران بجيشهما إلى إشبيلية بقصد الزحف لانجاد طريف. فعسكرا قرب نهر سالادو على فرسخ من شريش، ولقد توجه إلى شريس قائد أسطول أرغون ومعه جيش من جنود البحر، ثم توصل بالأوامر لمراقبة المرور عبر المضيق، فعسكر قرب طريف وهو ينتظر أسطول جيش البرتغال. ولما رأى أمراء المسلمين ما أبرمه النصارى قرروا أن يعسكروا على سفح الجبل دون رفع الحصار، وكان النصارى على سفح آخر يدعى بحجرة الأيل. وبدأ التناوش بين الفريقين وأرسل أمراء النصارى ألف فارس وأربعة آلاف من الراجلة إلى جهة طريف لقتال ولد ملك فاس الذي كان يحرس الممر بألفين من الفرسان، فاخترقوا صفوفه وقتلوا عددا من رجاله وتمكنوا من إيصال نجدة إلى المدينة. وبعد ذلك أمروا بالدخول في المعركة ومنازلة العدو. أما ملك قشتالة فقد تصدى لملك فاس وكان قد رتب صفوفه في السهل جهة البحر. أما ملك البرتغال فقد نازل صاحب غرناطة وكان على سفح الجبل. ولما تمكن النصارى من المرور بين البحر والصخرة وكانوا معسكرين عليها، بدأوا معركة دامية أظهر المسلمون في أولها دفاعا مستميتا، ولكن الارتباك دب إلى تلك الجموع الكثيرة، فلاذوا بالفرار حتى بلغوا الجزيرة، ومنها جاز ملك فاس إلى سبتة ومر صاحب غرناطة إلى ماربلة، وتحقق النصر التام للنصارى. وقد أجمع كل المؤرخين على القول بأن عدد من هلكوا فيها من المسلمين مائتا ألف وأن من هلكوا من النصارى عدد كثير. ولما عاد المنتصرون إلى بلدانهم أقيمت المسرات الحافلة والمواكب الشاملة شكرا على هذا النصر العظيم.

وما أن حل العام الموالي حتى قام الدون ألفونس صاحب قشتالة بمتابعة زحفه فدخل مملكة غرناطة حيث استولى على قلعة بني سعيد الحصينة التي تدعى

بالقلعة الملكية. تم استولى كذلك على حصن لقبين وعلى مدن قرطبة وباغة وروطة وبني مشيش وعلى عدد آخر من مدن هذه الجهة وقام قائد أسطوله بقتال أسطول صاحب فاس وأغرق منه ستة وثلاثين من القوادس، وأسر اثنين وعشرين. وفي نفس العام أمر الملك ألفونس بحصار جبل طارق وقاتل أهله قتالا عنيفا، ولكنه لم يتمكن من أخذه. وقد توجه من هنالك إلى الجزيرة مصحوبا بملك نبرة. ولما هب المسلمون لنجدتها قاتلهم قائد أسطول أرغون وأخذ اثنى عشر من قوادسهم.

وبينما كانت تجري هذه الحوادث في إسبانيا كانت آسيا تعاني بدورها من الانقسامات. فقد استغل الاتراك الخلاف بين دعيين متنازعين على الامبراطورية ليتوسعوا على حسابهما. فقد كان الطامح من أسرة باليولوج البيزنطية يشن الحرب على الطامح من أسرة كانتاكوزين وكان الامبراطور التركي أورخان قد استولى على بورصة وطفق يحقق انتصارات في كل مكان، وكان قد أصهر إلى الدعي من أسرة كانتاكوزين فتظاهر بقصد إنجاده فاستولى على مجموع بلاد قارامانيا، وبعد أن قتل واحدا من أولاد كانتاكوزين جرد والده من معظم ولاياته. وبالرغم من أن الامراء المسيحيين كانوا يرون بوضوح أن قوة السلطان التركي كانت تعظم على حساب قوة النصرانية، وبالرغم من أنهم كانوا يتمنون من قلوبهم أن لو كانوا صفا واحدا في وجهه، فإنهم لم يفعلوا شيئا إذا استثنيا أهل البندقية الذين أرسلوا قوة بحرية تجوب سواحل سوريا بدون جدوى أضف إلى هذه الحال أن البابا قد أدركه الموت في الوقت الذي أصدر فيه نداء للقيام بحملة صليبية.

ومن جهة أخرى قام ملك فاس بعد عودته إلى إفريقيا على إثر انهزامه بالدعوة إلى الجهاد في جيمع البلاد. وأقبل على تكثيف الاستعداد بقصد الجواز ثانية إلى إسبانيا. ولكن ما أن وصل إلى سبتة لانفاذ ما يتعين من الاوامر حتى ثار ضده أحد أبنائه (141) واتبعه أهل مكناسة ومدن أخرى. فأنفذ إليه السلطان أحد كبار الفقهاء قصد استرضائه، وبعد أن جرده من السلاح دبر في السر اغتياله. ثم إنه بعث أحد أبنائه لانجاد الجزيرة ومعه ستون من القوادس المحملة بالعساكر، وأمره بالانضمام فور وصوله إلى ملك غرناطة الذي دخل مملكة قشتالة بقصد صرف النصارى وإلهائهم ، وقد دمر بعض المدن وعاث فسادا في عدد من الجهات

---

(141) عبد الرحمن .

ولكن الدون ألفونس كان يزيد من التضييق على الجزيرة ويضاعف هجماته غير مصغ إلى عروض الصلح والاتفاق. ثم إن فرناند غنصالة داغويلار وآخرين من ولاة الثغور قد اجتمعوا للتصدي لملك غرناطة فهزموا طائفة من رجاله قرب نهر المروج وهم عائدون بعدد من الماشية والاسرى فجردوهم من كل غنائمهم. وفي تلك الاثناء انضمت جيوش ملك غرناطة وتوجه الجميع إلى الجزيرة بنية إنجادها أو القتال دونها. ولكن الدون الفونس لم يتزحزح عن خنادقه، ولما رأى المسلمون أنهم لا يقدرون على مهاجمته تقهقروا في اتجاه جبل طارق عازمين على مضايقته بعمليات قرصنية لأنه كان يرفض كل اتفاق. ولما رأوا أن المدينة قد سقط معظمها تفاوضوا على تسليمها لأن ابنا آخر من أبناء ملك فاس قد ثار على أبيه وانتزع منه منذئذ جميع ولاياته. وعلى إثر ذلك وقع تسليم الجزيرة مقابل هدنة تدوم مدتها عشر سنين وإتاوة يؤديها صاحب غرناطة مقدارها اثنا عشر ألف قطعة ذهبية. وبعد ذلك وقع تسليم مدينة الجزيرة فدخلها ألفونس في الثالث والعشرين من مارس عام ألف وثلاثمائة وأربعة وأربعين. وبقي بيد ملك فاس جبل طارق ورندة وماربلة وحصن الصفراء وإشتبونه وقسطلار بما في ذلك الحصون التابعة لها .

لما انتزع أبو عنان ولد صاحب فاس الملك من أبيه أراد القيام بمبادرة ضد النصارى تمكينا لسلطانه، فجمع لذلك عددا عظيما من الجيوش في سبتة وغيرها من المدن البحرية. لكن والده الذي كان قد التجأ إلى جهات سجلماسة قد استعاد عددا من حواضر مملكة فاس بفضل تعزيز أهل نوميديا (أهل المغرب الاوسط) فاضطر بذلك ابنه إلى صرف قواته إلى هذه الناحية .

وكان الدون ألفونس قد جمع قواته للتصدي لمسعاه، ولكنه لما علم بتغيير وجهته تقدم لحصار جبل طارق، غير أن الطاعون تفشى في معسكره وهلك فيه في السابع والعشرين من مارس وترك العرش لولده الدون بيطرة الذي لقب بالقاسي. ولقد ترتب عن موته رفع الحصار وإن كان هنالك من يرى أن الحصار استمر أربع سنوات أخرى .

وبينما كانت هذه الحوادث تجرى في اسبانيا استطاع التتار الذين كانوا يجوبون مجموع بلاد آسيا وهم يجرون ذيول النصر، استطاعوا أن يهزموا أورخان ويقتلوه ويقتلوا معه أكثر من خمسين ألفا من الاتراك . ولكن ولده مرادا قد أخذ منهم الثأر في بعض المعارك واستولى منذئذ على جزء من أقاليم الأمبراطورية الاغريقية . ذلك دفع بالامبراطور كانتاكوزين إلى اليأس حتى إنه تنسك وترك العرش للأمبراطور من أسرة باليولوج . ولكن هذا الأخير أشرك ابن كانتاكوزين المسمى ماتيو في شئون الأمبراطورية . ثم إن كَي ملك قرطبة لما رأى توسع مراد ، وكان قد استولى منذ وقت قليل على كاليبولي قد طلب النجدة من البابا ، فبادر هذا الأخير إلى النداء بقيام حملة صليبية . ولكن وفاة البابا والخلافات بين الأمراء النصارى بددت هذه المساعي .

وفي العام الذي بعد هذا استعان ملك فاس بالدون بيطرة صاحب قشتالة فهزم والده في إقليم قوس ، وبذلك الانتصار صارت له جميع ولاياته ، ومنذئذ تم له تغريم مملكة تلمسان ومملكة تونس . وقد زين هذا الأمير مدينة فاس بالمباني الفاخرة ، منها مدرسة تحمل اسمه ، ولقد فاقت غيرها من مباني هذا العصر سواء في تصميمها أو في غناها ومواردها .

وفي نفس العام وقع اغتيال صاحب غرناطة من طرف أحد رعاياه ، وترك الملك لعمه أبي الوليد الذي تكنى بأبي عبد الله . وفي عام ألف وثلاثمائة وسبعة وخمسين مات الفونس ملك البرتغال ، وترك من بعده على الملك ابنه الدون بيطره الذي لقب بالعادل . وبعد عامين من تتويج أبي الوليد استولى أحد أهل بيته ، وهو محمد ، على الحمراء وطرد أبا الوليد بمساعدة إدريس بن عثمان وآخرين من رؤساء غرناطة ، وبعد ذلك استولى على مدن المملكة وحصونها ، واضطر أبو الوليد على اثر ذلك للفرار إلى رندة لعله يحصل على بعض العون من صاحب فاس ومن صاحب قشتالة على السواء ، وكان هذا الأخير آنئذ بإشبيلية . ولكن محمدا عقد الهدنة مع ملك أرغون ضد أبي الوليد ، كما أرسل سُفراءه في نفس الموضوع الى ملك قشتالة ، ولكن هذا الأخير لم يقبل أن يتعاقد معه حتى قطع علاقاته مع ملك أرغون ، ولكن هذا الارتباط لم يمنع الأمير المسلم الذي كان يخاف أن تضيع منه إمارته من عقد معاهدة سرية مع ملك أرغون وملك فاس ضد الدون بيطرة، ذلك لأن ملك أرغون وملك قشتالة كانا يتحاربان . ولكن ملك فاس الذي

كان صديقا للدون بيطرة قد بادر بإعلامه بتلك المعاهدة فما كان منه إلا أن عقد الصلح مع ملك أرغون نكاية في الناكث . ومع ذلك فقد أرسل في طلب أبي الوليد وتعاهد معه في اشبيلية وذهبا معا لحصار مدينة انتقيرة ، ولما امتنع اخذها ذهبا إلى سهل غرناطة بقصد القيام ببعض التحركات المثيرة في المدينة استجابة لرغبة ملكهما ، ولكن بدون طائل ، فعادا إلى اشبيلية . وبعد انسحابهما قام المسلمونَ من غرناطة ووادي آش بالتسرب من عمل كازورلا ونهبوا حصن بيال دي بيسيرو وعادوا من هنالك مسرعين بعدد من الأسرى والغنائم . ولكن الدون دييكوغارسيا كبير سادة قلعة رباح والدون هنريق هنريقيز عامل الثغر وميندو رود ريقيزدي بييدما الذي كان يقود رجال أسقف جيان تصدوا لهم وهزموهم وقتلوا منهم عددا كبيرا ، واستعادوا منهم ما أخذوه من الغنائم . وفي العام الذي بعد هذا دخلوا أرض المسلمين و كمنت لهم كتيبة من الفرسان كانت آوت إلى المدينة فهزمتهم بعد أن دافعوا عن أنفسهم دفاعا مستميتا . وقد قبض كبير سادة قلعة رباح بينما قتل معظم الباقين أو أسروا . ولقد قام صاحب غرناطة بتسريح السيد المقبوض عليه تطييبا لخاطر ملك قشتالة وطمعا في أن يَقبله في تبعيته ولكن مبادرته ذهبت سدى حيث إن ملك قشتالة دخل في نفس العام إلى مملكة غرناطة واستولى على بعض الحواضر وعاد إلى إشبيلية محملا بالغنائم . صحيح أن الأمير المسلم[142] مالبث أن استرد بعض هذه المدن ولكنه ماكاد يولي ظهره حتى استولى أبو الوليد من جهة والدون بيطرة من جهة أخرى على حواضر جديدة . ولما تبين للأمير المسلم أنه لن يصمد طويلا سار في أربعمائة من الفرسان ومائتين من الراجلة للقاء الدون بيطرة في إشبيلية ليحكمه في الخلاف الذي كان بينه وبين أبي الوليد وليعرض عليه الدخول في تبعيته بمثل الشروط التي انعقد عليها الصلح مع أسلافه . وأظهر الملك الحفاوة به ووعده بالاستجابة لطلبه ، ولما كان الغد من يوم وصوله استدعاه لطعام العشاء . ولما كان على مائدته أمر بالقبض عليه ، وكان يواخذه بقتل أبي الحجاج وبما ارتكبه من الطغيان ، فأركبه على حمار وسار من خلفه خمسة وثلاثون من كبار أهل حاشيته وأمر بأن يتقدم مناد يذكر في الطرقات بأعلى صوته السبب الذي عامله من أجله تلك المعاملة . وفي النهاية أمر باقتياده إلى الساحة المعروفة بساحة طابلادا ، وشهد قتله وقتل جميع الذين كانوا بمعيته . ومن الناس من يذهب الى القول بأن بيطره طعنه بحربة وهو يقول له إن ذلك جزاء

---

(142) عبر عنه بالكافر .

حمله على إمضاء عهد مع أمير أرغون كان سبب ضياع حصن حريزة ولكن الأمير المسلم رد عليه قائلا : يا له من عمل باهر تقوم به اليوم يا دون بيطره وعلى اثر ذلك قطع رأسه . وما أن علم أبو الوليد بموته حتى قدم غرناطة وأجمع أهلها على الدخول فى طاعته وسمى بمولاي الشيخ بسبب تقدمه في السن وما سبق من توليته ، وحينئذ أرسل إليه الدون بيطره رأس محمد وجزاء على ذلك قام هو بتسريح جميع اسرى هزيمة قادس وأقر له بالتبعية .

وأثناء ذلك تابع مراد فتوحه فانتزع من النصارى مدينة فيليبوس ومدينة أدرنة . وقام الجنويون طمعا في المال بحمله والجواز به إلى أوربا مع ما في ذلك من الاضرار الفادح بالنصرانية . ومن جهة أخرى قام الدون بيطره صاحب قشتالة يعززه ملك غرناطة بتجديد الحرب ضد ملك أرغون ودامت تلك الحرب إلى قيام حرب مدنية بينه وبين أخيه كونت ترانستاماتار الذي أعانه بعض كبار النبلاء من قشتالة وأرغون وفرنسا في الاستيلاء على مدينة قالاهور . ولكن ملك غرناطة اغتنم فرصة تلك النزاعات فاستولى على حصن عشر . ولما آلت مقاليد الدولة شيئا فشيئا إلى كونت ترانستامار دخل صاحب غرناطة في تبعيته ، بينما لجأ الدون بيطرة إلى بايون ..

وأثناء ذلك مات الدون بيطرة ملك البرتغال وترك خلفا له فرناند . وفي نفس العام طلب ملك غرناطة من ملك أرغون أن يعقد معه الهدنة فاستجاب له بعد أن أخذ منه العهود المشفوعة بالأيمان على ألا ينجد الدون بيطرة وألا يبرم معه هدنة ولا سلما . ومع ذلك فما أن عاد الدون بيطرة وتمكن من التغلب على أخيه حتى بادر صاحب غرناطة إلى مسالمته ، ولما عاد قومت ترانستامار بعد ذلك معززا بجيش من الفرنسيين داخل أراضي قشتالة ، وقام صاحب غرناطة مؤيدا لصديقه بيطرة فأدركه بسبعة آلاف من الفرسان وثمانين ألفا من الراجلة ، وحاصر معه قرطبة التي كانت موالية لقومت ترانستامار، ولما تعذر أخذها عاد إلى قرطبة . وفي نفس العام زحف لقتال جيان فاستولى عليها ونهبها ولكنه لم يتمكن من أخذ قلعتها . ثم انتقل منها إلى بلد وبذة . فدخلها عنوة وأعمل قرصنة في أراضي مرشانة وأطريرة ثم عاد الى غرناطة بما زاد عن اثنى عشر ألف أسير ولم يسرح جيوشه حتى استرد عددا من الحواضر الصغيرة التي كان قد انتزعها الدون بيطره

من المسلمين قبل ذلك بمده يسيرة . وبعد ذلك حاصر كونت ترانستامار مدينة طليطلة فطلب الدون بيطرة النجدة من صاحب غرناطة بقصد رفع الحصار . فأرسل إليه عددا من الفرسان ، ولما خسر الدون بيطرة تلك المعركة عاد المسلمون إلى غرناطة وانسحب المهزوم إلى حصن مونتيل واعتصم هنالك حتى قتله أخوه فخلص له بتلك الوسيلة ملك قشتالة وليون . ولما زحف ملك البرتغال بقصد القتال في أراضي ترانستامار اهتبل صاحب غرناطة تلك الفرصة فانقض على الجزيرة وجعلها دكا ، ولم تقم لها قائمة بعد ذلك . وفي نفس العام عقد ملك أرغون هدنة لمدة خمس سنوات مع صاحب غرناطة وصاحب فاس . وقد أراد هذا الأخير أن يعيد تعمير الجزيرة الخضراء لكن قائد أسطول قشتالة أسر جميع سفنه والسفن التي كانت في عرض الجزيرة . وبعد ذلك انتهز صاحب غرناطة فرصة النزاعات بين النصارى فأتلف كثيرا في جهات الأندلس بدعوى تعضيد من كان في قرمونة من أبناء الدون بطرة . ولم تدم الحال على ذلك مدة طويلة ، ذلك أنه ما لبث أن عقد الهدنة مع ملك قشتالة الذي دخل في نزاع طويل مع كل من ملك نبرة وملك البرتغال .

أما في آسيا، فقد استولى مراد على طرف من أقاليم الامبراطوية بعد أن قتل عددا من النصارى وهزم طاغية سرفيا واستولى على البلاد التي كانت تحت إمرته ثم أمر بقتله . ولما دخل بعد ذلك إلى ميزيا العليا طعنه أحد خدام الطاغية المذكور انتقاما لسيده المقتول . وبعد موته آل أمر امبراطورية الاتراك إلى بايزيد . ولما هزمه قام بمقتله عظيمة في رجاله . وبعد ذلك عاث فسادا في أقاليم البوسنة وكرواتيا وإسكلافونيا وألبانيا وفلاشيا حيث سقط آلاف النصارى ما بين قتيل وأسير ، وكان ذلك مبعث رعب عمَّ أمم النصرانية .

أما في إسبانيا فقد مات ملك قشتالة في شهر مايو من عام ألف وثلاثمائة وتسعة وسبعين، اغتاله مسلم من غرناطة جاء متظاهرا بالدخول في خدمته، فأهدى إليه، فيما أهدي، حذاء مسموما ما إن انتعله حتى مات منه تاركا ولده الدون جان خلفا له في الملك . ومات أيضا ملك غرناطة وترك ملكه لولده أبي الحجاج ولقي قبولا عاما ، وعقد السلم مع الدون جان ولم ينقضها مدة حياته . ولما لم يكن مشغولا بالحروب فقد انكب على تدعيم مملكته فأقام في غرناطة كثيرا من المباني الجميلة وقربه ذلك من قلوب رعاياه ، ولم يحدث في عهده ما يستحق الذكر بين

النصارى والمسلمين . وفي عام ألف وثلاثمائة وخمسة وثمانين مات الدون فرنانند ملك البرتغال تاركا العرش للدون جان الملقب بالمذكر . ومات ملك قشتالة هو أيضا بعد أن خاض حروبا شديدة ضد دوق لانكلاستر وضد آخرين من أمراء النصرانية. وترك الملك لابنه هنري، كما خلف أبو عبد الله ابن ملك غرناطة والده، فكان الملك الحادي عشر من هذه الأسرة وكان صديقا حميما للنصارى . قد كانت له حروب مع ولده مولاي محمد الذي أراد أن يخلعه من العرش معتضدا بابن أمية وبأمراء آخرين من المسلمين، ولكنه اضطر في النهاية الى مصالحة أبيه.وبما أن ملك غرناطة كان يعيش في سلام مع ملك قشتالة فقد قام كبير فرسان القنطرة ، وكان برتغاليا ، يتحداه بأن يبعث مائة من رجاله للقاء مائتين من رجال صاحب غرناطة أو يبعث خمسمائة للقاء ألف ليبين للناس أن دين يسوع المسيح أفضل الأديان . ولم يستطع حتى الملك أن يثنيه عن المضي في هذا التحدي لأنه لم يكن ينقاد إلا لنصيحة ناسك كان يملي عليه هذا المصير . ولما اجتمع له عدد من العساكر توجه إلى غرناطة وعسكر على مقربة من نهر آصور دون اعتبار للهدنة المعقودة . ولكن ملك غرناطة جاء وانقض عليه بغتة بعدد من الفرسان والراجلة . وقضى على فرسان ذلك السيد إلا قليلا منهم وقتل أكثر من ألف ومائتين من الراجلة ، وفر معه من نجا منهم إلى قلعة الملك . ولم تنتقض الهدنة بهذه الهزيمة لأن تلك المغامرة كانت بدون موافقة قشتالة . وبعد عامين دبر ملك فاس قتل ملك غرناطة لانه كان يكن له كراهية شديدة وكان ذلك بأن أرسل إليه سترة مسمومة في عدد الهدايا . وبعد مضي شهرين من ارتدائه تلك السترة قضى نحبه بعد أن تساقط لحم بدنه إربا . وقد خلفه ولده محمد واستدام السلم في عهده مدة طويلة مع ملك قشتالة .

وفي نفس العام تابع بايزيد حروبه ضد الأمبراطورية ، وانطلق لحصار القسطنطينية بجيش عظيم ، ولما بلغه الخبر بأن فرنسا وانكلترا وبولونيا قد أرسلت لقتاله قوات عظيمة زحف للقاء تلك القوات في نيكوبوليس. كان الجيش النصراني عشرين ألفا من الراجلة. ووقعت معركة دامية كانت الغلبة فيها للمسلم (143) وإن كانت خسائره فيها أعظم من خسائر النصارى. أما فرسان فرنسا الذين

---

(143) عبر عنهم كذلك بالكفار .

كانوا في مقدمة الجيش فقد سقطوا جميعا في القتال أو في الاسر . وأما الملك سيجيسموند فقد فر بمشقة إلى ساحل البحر حيث وجد سفينة نصرانية على وشك الاقلاع ، فجاز إلى جزيرة روديس ومنها عاد إلى المجر ، وكان أهلها قد أقاموا عليه المآتم . وقد فسر البعض هذه الخسارة الكبرى بالانقسام في صفوف المسيحيين حيث كان الفرنسيون يريدون أن تكون لهم الصدارة على المجريين ، فكانت النتيجة عدم التعاون بين الفريقين . وكان أن بدأ أهل فلاشيا ثم أهل ترانسيلفانيا بالانسحاب وراء إتيان لوفايفود وبذلك تمكن المسلمون من الانتصار . ولما حقق بايزيد ذلك النصر عاد إلى حصار القسطنطينية . ولكنه مالبث أن اضطر لفك الحصار بقصد التوجه للقاء تيمورلنك الذي دخل أراضيه وعاث فيها فسادا . وكان هذا القائد قد بلغ من القوة شأنا عظيما ، فبعد أن كان ملكا للتتار وحدهم صار أمبراطورا للأتراك ومالكا للجزء الاعظم من شيتيا الاوربية وسيد إيبيريا وفارس وألبانيا وميديا وأرمينيا وما بين النهرين وآسيا الصغرى ومصر وسوريا . وقد بلغ عدد عساكره اثنتى عشرة مائة ألف محارب كان نصف عددهم من الفرسان ، وكان يطعم في بلاطه اثنتى عشرة مائة من السادة . ويذكر بعض المؤرخين أن بايزيد لقي تيمورلنك بجيش لا يقل عن جيشه ، وأن المعركة بينهما كانت على الحدود بين بيثينيا وغاليسيا حيث سقط مائتا ألف من الأتراك . ولما وقع بايزيد في الأسر هو وعدد من كبار السادة جيء به حتى مثل أمام تايمورلنك فأهانه وأمر بأن يقيد بسلسلة من الذهب ويوضع في قفص من حديد ، وكلما جلس للطعام أمر بوضعه تحت مائدته فكان يلقي إليه باللحم كما يلقي بها للكلاب . كما كان يستعمله مرقاة لامتطاء فرسه . وكذلك ظل يعامله بازدراء أثناء تنقله في أرجاء آسيا دون أن يطلق سراحه . ولقد تحقق له بهذا الانتصار أن يملك مجموع البلاد الواقعة بين ثانايس وبين النيل . كما استولى على قفة التي كانت مستعمرة لاهل جنوة في جهات جبال طوروس . وبعد أن أخضع مجموع بلاد آسيا في بلده سمرقند ومعنى اسمها في لغة ذلك « مختلف الأمم » لأنه عمرها بجميع أسراه من الأمم المختلفة وأغناها بما سلبه من جميع المدن التي دمرها . وتحكى أمور كثيرة عن صلابته أو بالأحرى عن قسوته ، ومما يذكر عنه أن مضاربه كانت

بثلاثة ألوان ، فأول ما يقيم في الخيمة البيضاء عند حصار مدينة مّا ليعلن عن استعداده للرأفة إذا جاء أهلها مستسلمين ، ثم يقيم في الحمراء ليظهر أن المحاصَرين سيؤدون بدمائهم ثمن عنادهم . وبعد ذلك يبني خيمة سوداء إعلانا بان الأمان لم يعد له مجال ، ولقد تسمى بسوط الله أوبلاء الله ، ولو طال ملكه أكثر مما دام لدمر العالم ، لكن ملكه زال بموته بسبب ما دب من الخلاف بين ولديه ، فضاعت جميع فتوحه ، ولم يعد يذكر من عظائم الأمور التي قام بها الا القليل .

أما سيجيسموند فقد ثار عليه في نفس العام أهالي أقاليم فلاشيا وطرانسيلفانيا ومولدافيا وما وراء الدانوب، وولوا عليهم إتيان الفودي وقد اتبعه الاتراك مما يبين أنه كان السبب في الهزيمة . ومع ذلك فبعد هلاك بايزيد ولى الاتراك ولده سلطانا عليهم، فجمع مابقي من جيشه، ولكنه لم يقم بشيء يستحق الذكر، ومات بعد ثلاث سنوات وترك ولدين هما أورخان ومحمد، وقدم أكبرهما أمبراطورا وكان له قتال مع أخيه، ثم قتل غدرا على يد أحد أعمامه في المعركة، وبعد ذلك خلص أمر الامبراطورية لمحمد فملك في أمان وهو الذي حقق تقدما عظيما على النصارى .

وفي نفس العام نقض محمد صاحب غرناطة الهدنة مع صاحب قشتالة . فلما رأى أنه مشغول بالحرب ضد ملك البرتغال انتزع منه مدينة إيامنتي، وفي العام الذي بعد هذا دخل بلاد النصارى وأحرق مدينة قيجاطه وخرج إليه بيدور مانريق دي بينا فيديس ودييكو شانجة، خرجا مع الدون ألفونس سيد أفالوش واتبعهم سكان أبدة وقهرمان بياسة ومعه فرسان آخرون . وكان مجموعهم اثنتي عشرة مائة رجل ما بين فارس وراجل، ولحقوا بالمسلمين في بسيط من الأرض، فكانت المعركة دامية هلك فيها من جانب النصارى القاضي المذكور والدون ألفونس سيد أفالوش والدون مارتين*لويس من سادة أفالوش وغيرهم من مشاهير النبلاء، ومقابل مائة من الهالكين في صفوف النصارى هلك ألفان من المسلمين . وقد انسحب النصارى إلى أعلى جبل دون أن تتشتت جموعهم بينما كان الأعداء ينهبون محلتهم . وفي ذلك الابان مات ملك قشتالة في مدينة طليطلة في العشرين من دجنبر تاركا في خلافته ولده الدون جان، ولم يكن له من العمر سوى عشرين شهرا، وترك وصيا عليه عمه الانفنت فرناند وكان محاربا شرسا . ففي العام الاول من وصايته دخل بلاد المسلمين واستولى على مدينة الزهراء ومدينة أوديتة . ولما

كان محاصرا لسيتينل بادر ملك غرناطة إلى جهة جيان بقصد صرف الانفنت عن ذلك الحصار، ولكن الانفنت لم يرفع الحصار إلا في شهر أكتوبر بسبب المقاومة المستميتة لسكان المدينة . غير أن النصارى قد استرجعوا في نفس الوقت عددا من المدن الصغيرة التي كانوا قد استولوا عليها في عهد أبي الوليد . ولما رأى ملك غرناطة مقدار الضرر الذي كان الانفنت الدون فرنانذ يلحقه ببلاده ذهب لحصار مدينة القبذاق بسبعة الآف فارس وستة وعشرين ألف راجل في شهر فبراير. ولما تيقن من تعذر دخولها عقد هدنة مع الدون فرنانذ وعاد إلى بلاده . وكان الملك على هذا العهد بفاس مولاي أبو سعيد، وكان عاكفا على لذاته عزوفا عن الحرب، فأغرى ذلك ملك البرتغال الدون جيان بمهاجمة سبتة، ولما أبطأ إنجادها سقطت في يد مهاجمها . وزاد أبو سعيد في أعين رعاياه بغضا بهذا التخاذل، وكانوا يكرهونه لخلاعته، فأدى بهم الأمر إلى التآمر ضده وقتله كما سنذكر ذلك في مكان آخر . ولنعد الآن إلى خبر ملك غرناطة، فقد ألم به المرض في نفس العام، ولما كان محتضرا أزعج أحد قواد جيوشه إلى أخيه، وكان سجنه لقيامه ضده، وأمر مبعوثه أن يقطع رأس السجين حتى يضمن الامارة بعده لولده . ولما وصل ذلك الضابط وجده يلعب الشطرنج مع أحد الفقهاء . ولما أبلغه أمر الملك، طلب منه السجين أن يمهله ساعتين يعد فيهما عدته، ولما رفض إمهاله توسل إليه أن يمهله إلى حين إتمام الدور الذي بدأه في اللعب، ووافقه على ذلك . وما أنهى لعبته حتى وصل كتاب من غرناطة فيه نعي محمد وفيه الخبر بأن أهلها اختاروا ذلك السجين للامارة عليهم، فعدل الضابط عن تنفيذ ما أرسل إليه، وقام عوض ذلك بمرافقة الأمير الجديد إلى غرناطة ليتسلم مقاليد الملك . وكان الثالث عشر من ملوك بني الأحمر . وقد بادر بتأكيد ما أمضاه أخوه من الهدنة مع النصارى، ولكن الانفت الدون فيرناند نقض الهدنة بعد سبعة أشهر لما تبين له أن الفرصة سانحة لقتال المسلمين، فجمع جيوشه ودخل مملكة غرناطة وفيها حاصر انتقيرة وكانت من المواقع الحصينة، صالحة لتكون ثغرا من الثغور لوقوعها بين رندة وغرناطة . ولما علم أبو الحجاج بذلك أرسل نجدة تتكون من أربعة آلاف فارس وخمسين ألف راجل يقودها اثنان من إخوته، ووقعت المعركة في السادس من شهر مايو وانهزمت فيها جيوش أبي الحجاج وهلك منهم فيها اثنا عشر ألفا من الرجال، وبعد ذلك عاد الانفت إلى حصار المدينة ودخلها وترك بها حامية . ولما رأى أهل المدن الأندلسية التي كانت تابعة لمسلمي إفرقيا أنهم لم يعودوا قادرين على مدافعة

العدو بإمكاناته ، الخاصة وأن أبا سعيد قد تخلى عنهم ، قاموا بالانضمام إلى مملكة غرناطة وموالاة أميرها . أما سكان جبل طارق فإنهم كانوا غير راضين عن ملك غرناطة، ولذلك ثاروا عليه وبعثوا إلى ملك فاس (144) يطلبون منه النجدة باعتبار روابط التبعية القديمة بينهم وبينه، وقد كان لامير فاس أخ شديد الاقدام ذو حُظوة عند الناس، فأراد الملك، أن يغتنم الفرصة المواتية لابعاده، فبعثه إلى إسبانيا ومعه ألف من الفرسان وألفان من الراجلة، وأمره بدخول تلك المعمعة في محاولة استعادة جميع المدن التي كانت لملك فاس . واستقبله الناس بترحيب في جبل طارق وفي ماربلة وفي عدد من المدن الأخرى في هذه الجهات . ولما بلغ الخبر إلى ملك غرناطة عقد الهدنة مع الأوصياء على الدون جان ومضى لحصار جبل طارق . وقد أرسل سعيد من هناك إلى أخيه يطلب النجدة، فلم يبعث له سوى عدد قليل من السفن الرديئة التجهيز ، وما لبثت أن سقطت في يد ملك غرناطة، ولا يستبعد أن يكون صاحب فاس أخبره بأمر تلك السفن تدبيرا لهلاك أخيه . وقد سقطت المدينة وأسر سعيد واقتيد إلى غرناطة وسُجن مدة طويلة في برج من أبراج قصر الحمراء . ولطالما التمس ملك فاس من صاحب غرناطة أن يقتله، ووعده، إن فعل، بالمال الكثير والتحالف المستديم وبالتعزيز ضد النصارى، ولكن صاحب غرناطة لم يقبل شيئا من ذلك مؤملا أن يستفيد من هذا السجين إذا اضطربت أمور إفرقيا .

أما في آسيا فقد استتب أمر الامبراطورية لمحمد بعد مقتل أخيه، فزحف لقتال سيجيسموند ملك بولونيا وهزمه في جهات فيلاديلفيا حيث هلك عدة آلاف من النصارى وسقط عدد آخرون في الأسر . ولما كان هو أول من قطع نهر الدانوب من ملوك بني عثمان، فقد غزا مقدونيا وتابع فتوحه الظافرة حتى وصل الى بحر اليونان، وكان في ذلك خسارة كبرى للنصرانية .

ومن جهة أخرى تآمر المسلمون في مملكة فاس على أميرهم فقتله وزيره بطعنات خنجر، وقتل الذكور من أولاده وعددهم ستة . وقد نجم عن موته وقوع اضطرابات عظيمة، وبقي أهل فاس ثمان سنوات لايملكهم أحد، وفيها أطلق ملك غرناطة سراح سعيد وأرسله إلى بلاد البربر على رأس جيش من عنده بقصد التمكن من ملك أبيه . فوقعت بينه وبين أخيه يعقوب وقائع عظيمة، وقد دمر عددا

---

(144) أبو سعيد .

من المدن التي رفضت الاعتراف به . وأثناء ذلك أرسل ملك غرناطة ولده ومعه أسطول بقصد استعادة مدينة سبتة التي كانت بيد ملك البرتغال، فحاصرها من جهة البحر بينما كان سعيد يحاصرها من جهة البر، ولكن الانفنت الدون هنري قد دافع عنها ببسالة، فاضطر المسلمون إلى الانسحاب خاسرين . وبعد أن ظلت مملكة فاس بدون ملك لمدة ثمان سنوات ظهر أحد أبناء أبي سعيد اسمه عبد الحق كانت أمه نصرانية إسبانية هربت به إلى تونس . واحتفى السكان بقدومه، وبايعوه ملكا، ولم يتخلف عن بيعته حتى أعمامه وقواد الجيش . إلا أنه تحول إلى طاغية ممقوت فتآمر ضده الخاصة من أتباعه، فاغتاله أحد سكان فاس كما سنذكر ذلك في موضعه .

وفي هذه المدة لم يقع بين النصارى وبين المسلمين ما يستحق الاشارة، لان ملك غرناطة ظل يقر بالولاء الواجب له نحو صاحب قشتالة، بينما كان هذا الأمير من جهته باقيا على الهدنة المعقودة . وفي عام ألف وأربعمائة وثلاثة وعشرين مات ملك غرناطة وترك خلفا له ابنه محمدا العسري وكان معروفا عند النصارى بالأيسر لانه كان كذلك . ولم يقع في عهده ما يستحق الذكر بين المسلمين والنصارى لان الهدنة استمرت بين الطرفين . وكانت لكل طرف مشاغله الخاصة .

وفي عام ألف وأربعمائة وأربعة وعشرين مات محمد امبراطور الترك وترك ولدين قامت بينهما منازعة كبيرة على الامبراطورية . ولما مات مصطفى خلا الجو لمراد . فهو الذي اسس الانكشارية أو أولاد السلطان الاعظم الذين كانت مهمتهم مقصورة على حماية شخص الأمبراطور . وبعد عامين جمع جيشا عظيما ضد طاغية سيربيا (145) وحاصر مدينتين دام صمودهما أربع سنين، وخلال تلك المدة عانت مدينتان أخريان عناء شديدا، ولما تقبض على ولدين من أولاد الطاغية أخصاهما وسمل أعينهما وتزوج أختهما بعد أسرها . ومن جهة أخرى خرج صاحب غرناطة من إمارته طرده ابن عمه محمد الصغير الذي كان يؤيده الشعب، فقام الأمير المخلوع باللجوء إلى بلاد البربر يطلب النجدة من ملك تونس الذي كان يجوب بلاد إفرقيا ويحقق انتصارات ساد بها على مملكة تلمسان وعلى جزء من مملكة فاس ومراكش عند استفحال الخلافات بين أمراء هذه البلاد . وأثناء ذلك

---

(145) أو روسيـا .

بلغه أن يوسف بن سراج آحد أعيان بلده قد طلب من ملك قشتالة أن يستنفر من يعود به من تونس . وهكذا غادر تونس يصحبه ابن سراج ومعه ثلاثة آلاف رجل أمده بهم ملك تونس، فنزل في ألمرية فاستقبله المسلمون القاطنون بتلك الجهات ثم استقبله أهل غرناطة فقام بمحاصرة الذي اغتصب منه الملك في قلعة الحمراء، فقبض عليه وقطع رأسه . وأرسل الجزية إلى الدون جان . غير أن الهدنة بينهما لم تدم طويلا، إذ بعد عامين رفض ملك غرناطة دفع الجزية المعهودة بتحريض من المسلمين في بلاد البربر . فنجم عن ذلك أن استولى الماريشال بيرو غارسيا دي هيرا على مدينة خيمنيش، تسلق أسوارها ليلا . كما خرج الدون ألبارودي لونا قائد جيوش قشتالة إلى سهل غرناطة وعاث فسادا في طرف منه . ولكن حاكم كازورلا الذي دخل أراضي غرناطة من جهة غير هذه، قد انهزم ورجع بخسارة كبرى . بيد أن الملك الدون جان قد جمع جيشا يزيد تعداده عن ثمانين ألف رجل ودخل سهل غرناطة حوالي شهر يونيه، واصطحب معه حفيد الملك المسلم الذي كان الدون بيدرو قد قتله في إشبيلية . وخرج ملك غرناطة من جهته للقائه ومعه خمسة آلاف من الفرسان وعدد من الراجلين، ولكنه انهزم وهلك كثير من رجاله . ولو تابع ملك قشتالة تقدمه لسقطت غرناطة ولكنه عاد بالنصر والغنائم بعد أن أفسد تلك البلاد . ومن الناس من يقول إن قائد العساكر قد وقع إرشاؤه بأموال أرسلت إليه في قفاف من التين والعنب المجفف لحمله على رفع الحصار . وبعد ذلك أمد ملك قشتالة هذا الأمير الشاب المسلم الذي اصطحبه معه بعساكر فاستولى على مدينة مونتي فريو على مسافة سبعة أميال من غرناطة، ثم استولى بعد ذلك على مدن لوشة مع حصنها ثم خضعت له غرناطة التي فر ملكها إلى مالقة . ولكي يعترف هذا المنتصر بأنه مدين بتاجه لملك قشتالة أرسل إليه الجزية المعهودة ومعها عدد من الهدايا، وأطلق سراح اثنتى عشرة مائة من العبيد النصارى، ولكنه مات بعد ستة أشهر من ذلك، فنودي على الملك الذي لجأ إلى مالقة .

ولما بلغ خبر موته الى ملك قشتالة أرسل الدون ألفايز التطيلي بعساكر الثغور للقيام بغزوات في بلاد غرناطة حيث استولى على بعض الحصون (146) وعلى عدد من الغنائم من بلاد باقا . وفي نفس العام مات ملك البرتغال وترك في خلافته

(146) حصن بني سلامة وحصن بني موريل

ولده أدوارد وأثناء ذلك كان الدون دييكَودي ريبيرا يجوب بلاد العدو ويحاصر مدينة لـور فقتل بسهم من أعلى الاسوار ، ولكن الدون روديق مانريق أخذ مدينة أشقر بتسلق أسوارها ليلا . ثم أخذ قلعتها صلحا . ومن جهة أخرى خرج كبير فرسان مدينة القنطرة للغزو في أراضي أرشدونة فسقط في كمين لم يخرج منه إلا بمائة رجل من جملة اثنتي عشرة مائة من جنوده . وفي العام الموالي قام الدون ألفاريز التطيلي بعمليات غزو في أراضي قادس بجيش تعداده ستة آلاف من الراجلين وألف من الفرسان، وهزم خمس عشرة مائة من الفرسان وأربعين ألفا من الراجلين الذين تم جمعهم من المدينة ومن الجبال المجاورة . وخرج الدون فرناند فاشيردو من جهته للاستيلاء على مدينة بلش البيضاء ومدينة بلش الحسناء فاستسلم حصناهما صلحا وظل سكانهما على ولاء للملك . فكانت عاقبة ذلك ماحققه النصارى من المكاسب الحربية على المسلمين إذ كانوا في كل يوم ينتزعون منهم موقعا من المواقع .

أما في آسيا فقد انتزع الامبراطور مراد مدينة تيسالونيق الشهيرة من البنادقة وارتكب فيها كل أوزار الحرب . وفي نفس العام تابع تقدمه ودخل إلى المجر وحاصر بلغراد، ولكنه اضطر إلى التراجع بعد سبعة أشهر من الحصار وقد هلك في المعارك خمسة عشر ألفا من رجاله وطارده في تقهقره جان هونياد قائد جيش ملك المجر، فحقق عليه نصرا تاما .

وفي أثناء ذلك تابع القشتاليون الحرب في إسبانيا فحاصروا مدينة جبل طارق بحرا وبرا، ولكن المسلمين استماتوا في الدفاع حتى اضطروا القشتاليين إلى رفع الحصار خاسرين . فقد وقع إغراق الدون هنري وتراجع ابنه دون أن يفعل شيئا يذكر . وكان النصارى أسعد حظا بانتزاع مدينة قلمالة من المسلمين، ولكن الدون ردريق دي بيريرا دخل بلاد المسلمين فهزمه ابن سراج ولم ينج من الهلاك سوى عشرين رجلا من أربع عشرة مائة رجل كانوا معه، ومات في القتال هو وقائد جيوش العدو ، وفي نفس العام مات ملك البرتغال كذلك، وترك في خلافته ابنه ألفونس .

أما المجر فقد دخل إليه ملك الترك في عهد لاديسلاس ملك بولونيا . وكان قائد جيوشه جان هونياد . فهزم مرادا مرة ثانية واضطره لطلب الهدنة . لكن

الهدنة لم تدم طويلا لان المجريين نقضوها بإيعاز من البابا أوجين فكان ذلك الغدر سببا في بلايا عظيمة حلت بالنصرانية، كانت أولاها ضياع سبعين من السفن الفخمة في مضيق القسطنطينية، ولما اضطر لاديسلاس لقتال مراد هلك ثلاثون ألفا من رجاله بحد السيف أو بالغرق في بحيرة مجاورة لمكان المعركة . وهلك في القتال رسول البابا الذي جاء لتكريس نقض الهدنة، كما هلك فيه الملك لاديسلاس نفسه . ولم يفلت جان هونياد إلا بمشقة عظيمة، إذ هرب في المقاتلين من أهل طرانسيلفانيا . ويلقي المؤرخون تبعة هذه الخسارة على الجنويين الذين نقلوا بسفنهم عبر مضيق البوسفور جميع جنود مراد مقابل فلس واحد عن كل رأس .

أما في إسبانيا فإن ملك غرناطة تعرض لمحن كثيرة حيث فقد ملكه، فانتزعه منه ابن أخيه (147) ، أعانه على ذلك بعض الكبراء حين قبضوا على الملك في قصره بعد أن استولوا على المدينة ، غير أنه كان في خدمة ملك قشتالة إنفنت آخر من المسلمين هو ولد ابن مولاي كان يطلب الملك فقام يقاتل الملك الجديد فرفده الدون جان حتى استولى على عدد من الحصون .

وفي نفس العام تابع مراد انتصاراته على أمبراطور القسطنطينية، فاستولى على مضيق كورانت وانتصر في إحدى المعارك على أخي الامبراطور ودمر جميع تلك البلاد . ثم قام لقتاله ملك بولونيا فهزمه، ولكنه ما لبث أن جمع جيشه فدخل في معركة أخرى مات فيها أكثر من ثمانين ألفا من الجانبين . وعدد قتلى النصارى أقل من عدد قتلى الأتراك . وفقد مراد ابنه في القتال بينما فقد ملك بولونيا قائد جيوشه .

وبينما كانت تجري هذه الوقائع في المجر عقد ابن عثمان صاحب غرناطة السلم مع الدون جان ملك نبرة، وأعلن الحرب على ملك قشتالة الذي يؤيد عدوه إسماعيل ، فلما دخل أراضيه استولى على قلعة بني موريل وقلعة ابن سلامة قرب بسطة وفي العام الموالي استولى على مدينة أريناس وعلى أشقر وعلى بلش البيضاء وبلش الحسناء وأفسد كثيرا في أرجاء تلك البلاد بما قام به من الغزو بنجدة ملك نبرة حتى عام ألف وأربع مائة وتسعة وأربعين .

---

(147) مولاي محمد بن أبي عثمان .

وفي عام ألف وأربع مائة وثمانية وأربعين قام أهل المجر وأهل طرانسيلفانيا بجمع جيش بلغ تعداده ستمائة ألف رجل فدخلوا بلاد الترك يقودهم جان هونياد فنازل مرادا ولم يحالفه الحظ في بداية المعركة ولكنه استجمع قواه في نهايتها وأظهر رباطة جأشه فكبد المسلمين مقتلة عظيمة. وفي العام الموالي اتجه مراد بجيشه لقتال سكانديربيرك فحاصره في مدينة كروى ولكنه استمات في الدفاع عدة شهور حتى اضطر التركي إلى الانسحاب بعد أن هلك معظم جيشه . وبعد ذلك مات مراد وترك في خلافته ابنه محمدا فكان ثامن الأباطرة العثمانيين وأمه بنت طاغية سيبريا الذي سبق ذكره ، وما أن مات أبوه حتى أقدم على قتل أخيه وأودعه مع أبيه في قبر واحد . وكان أول من قاتله هو سكاندرييرك ، حاصره في عاصمته كما فعل والده ، ولكنه ما لبث أن اضطر بدوره لفك الحصار . وفي العام الموالي حاصر مدينة أثينا فاقتحمها ودك بنيانها .

وفي أثناء ذلك كانت الحروب بين غرناطة وقشتالة يشتد أوراها فكان كل جانب يقوم بغزوات في أراضي الجانب الآخر . كما وقعت الحرب بين مسلمي غرناطة حيث قام أحد أقارب الملك بخلع قريبه وملك في مكانه مدة طويلة في أمن وسلام .

فتح القسطنطينية

ولما أن استولى محمد على مدينة أثينا أقام الحصار أمام مدينة القسطنطينية في التاسع من شهر أبريل عام ألف وأربعمائة وثلاثة وخمسين وكان امبراطورها حينئذ هو قسطنطين باليولوج ، وقد أرسل إلى كل الجهات يطلب النجدة من الأمراء النصارى ولكن بدون جدوى ، وقد كان الاتراك يحاصرون في آن واحد بيرا والقسطنطينية وكانوا يتقدمون خطوة خطوة ، وبذلوا جهدا كبيرا حتى تمكنوا من تدمير جانب كبير من الأسوار ولما لم يدافع ضدهم سوى ستة آلاف من اليونانيين فقد استطاعوا اقتحام المدينة عنوة في التاسع من شهر مايو بعد شهر من الحصار ، وارتكبوا فيها جميع أوزار الحرب . وكان البنادقة وبعض الامراء الآخرين من أمراء النصرانية يتأهبون في تلك الاثناء لانجادها بطلب من البابا ، ولكنها سقطت قبل وصول تلك النجدة . ومات الأمبراطور غما وحسرة ، وأمر محمد بجز رأسه وجره في أزقة المدينة نكاية وزراية . ثم أمر بهدم جميع الكنائس ما عدا كنيسة سانت صوفيا . وبعد ثلاثة أيام أقام الملك مأدبة لقواد عسكره وفي ختامها

أمر باحضار من كان في سجنه من نبلاء النصارى وقطعت رؤوسهم . ولما راى أهل بيرا ما حققه من الفتح استسلموا ، ولكن ذلك لم يشفع لهم حيث تعرضوا لمثل ما تعرض له أهل القسطنطينية من المعاملة القاسية . وهكذا ضاعت عاصمة الشرق المسيحي بعد أن كانت مقرا للأمبراطورية لمدة ألف ومائة وواحد وتسعين عاما . وكما أن الذي أسسها كان اسمه قسطنطين وكان اسم أمه هيلينا فإن الذي أضاعها كان اسمه قسطنطين وكان اسم أمه هيلينا . ومما يدعو الى العجب أن الفيلسوف الاغريقي الذي تحدثنا عنه في الفصل المخصص للخليفة المأمون لما رأى أسطوانة قديمة من البرونز معمولة من خانات الشطرنج الصغيرة وقد كتب على أول خانة منها قسطنطين الاكبر وعلى الخانة الثانية اسم البطريق كَريكوار ثم أسماء الأباطرة والبطارقة الآخرين حسب ترتيبهم ، . قال للأمبراطور ميشيل : عندما تمتليء الخانات ستنتهي الامبراطورية . ثم كتب بيده على الاسطوانة :« قسطنطين أقامني وقسطنطين يضيعني » وكذلك كان ، فقد كان اسم البطريق عند السقوط مماثلا لاسم البطريق عند التأسيس . وكان تمام امتلاء الخانات بنهاية سقوط المدينة . والقسطنطينية إلى حد هذه الساعة مقر للامبراطورية العثمانية .

وأما في إسبانيا فقد مات ملك.قشتالة في العشرين من يوليوز عام ألف وأربعمائة وخمسين ، وخلفه ابنه الدون هنري ، فبادر لقتال المسلمين وقد دخل بجيش قوامه أربعة عشر ألف فارس وخمسون ألفا من الراجلين إلى سهل غرناطة وأفسد معظم جهاته وقام في العام الموالي بقصد إكراه المدينة على الاستسلام بقهر الجوع .

وفي أثناء ذلك قام الامبراطور العثماني محمد وقد انتشى بفتحه الجديد لغزو بلغراد بجيش قوامه مائة وخمسون ألف رجل ، ولما علم البابا كالخت بذلك أرسل مندوبه لانجاد المدينة بعد أن دعا إلى حملة صليبية . ذلك أن التركي كان يذكر أنه سيقوم بغزو النمسا بعد فتح المجر وبأنه سيمر إلى إيطاليا عن طريق ألمانيا ، ولكن شاء الله أن يكتب النصر للنصارى . كان في المجر في ذلك الوقت راهب فرانسسكاني يدعى جان كستيران ممتليء حماسا وفضيلة ، قام قبل وصول الرسول البابوي يحرض الناس على الحرب بقيادة جان هونياد الذي برز لحرب الاتراك فقتل منهم أكثر من أربعين ألفا واستولى على معسكرهم بما فيه من عدة وعتاد ، وأصيب محمد بسهم ، وفر إلى القسطنطينية حيث لبث مدة طويلة لا يخرج للناس ، ومن

فضل هذا النصر أن قام البابا بإحداث عيد التمتل أو عيد المخلص ويتم إحياؤه في السادس من شهر غشت من كل عام ، ويكون فيه من الغفران ما يكون في السر المقدس . وفي العام الموالي شن محمد الحرب على أوزون حسن ملك الفرس وقاتله في معركتين انهزم في إحداهما وانتصر في الأخرى . ويذهب البعض إلى القول بأن أوزون حسن كان من التتار وكانوا أولي بأس في آسيا . وبعد ذلك قام محمد بشن الحرب على امبراطور اطريبيزوند ، ولكن هذا الأخير جبن عن لقائه فاعتصم بمكان مكين . لكن محمدا انقض على بافلاكونيا ، ولما أخذها مر إلى طربيزوند فما لبث أن استولى عليها وقبض على الامبراطور وعلى زوجته . وبعد أن تم له الاستيلاء على على مجموع أراضي الامبراطورية ترك الحامية في المواقع الحصينةوعاد منصورا ودخل إلى القسطنطينية وأمر بقطع رؤوس المساجين . وهكذا لم يقض في فتح الامبراطوريتين سوى أربع سنيين .

أما في إسبانيا فقد تابع ملك قشتالة حربه على المسلمين وقد عاث فسادا في سهل غرناطة وهنالك مات كارسيلاسو دي فيكا بعد أن خرج للقتال في غير طائفته ، ولكن الملك ما لبث أن فتح مدينة خيمنس وأخذ حصنها ، وبعد ذلك انعقد الصلح ، ودخل ملك غرناطة في ولائه ، ولم تدخل جيان في الصلح . وفي نفس العام انهزم فيها القمت دي كاستانيدا وأُسر المسلمون ، فكان ذلك سببا في تعميم الهدنة على أن تؤدي للملك جزية قدرها في كل سنة اثنا عشر ألفا من قطع الذهب .

تابع الأمبراطور التركي محمد فتوحه بأخد مدينة كورانت من البنادقة ، وفي العام الموالي شن الحرب على ملك ميسيا ، ولما قتله استولى على مملكته . ولكن أوزون حسن ، معززا بالبابا كاليخت ، قد أعلن عليه الحرب في آسيا ، فكان في ذلك تفريج كبير على بلاد النصرانية .

ومن جهة أخرى كان ابن ملك غرناطة على خلاف مع أبيه ، فكان أن دخل مملكة قشتالة والصلح منعقد ، فأسر وغنم ، ولكن الدون روديق بونس دي ليون وعامل أشونة كمنا له في طريق العودة فهزماه بعدد أقل من العدد الذي كان معه، فاستعادا منه الغنائم وأخذا أعلامه وطبوله . ولما كان الصلح قد انتقض قام جان دي قزمان قمت لبلة بعد عامين بأخذ جبل طارق من المسلمين ، وفي العام

الموالي قام الدون جان باتشيرو سيد حصن بليانة بأخذ مدينة أرشونة ، ثم تلت ذلك مكاسب أخرى .

وبينما كانت تجري تلك الوقائع في إسبانيا كان الامبراطور التركي يتابع فتوحاته لبلاد النصارى فأخذ جزيرة ميتلين . وفي العام الموالي أرسل البنادقة أسطولهم على طول الساحل قصد استرداد كولانت ولكن بدون جدوى . ومن جهة أخرى استولى المجريون على جيرسة من بلاد البوسنة.ولما جاء التركي لحصارها هب ملك المجر لنجدتها مما اضطره إلى الانسحاب في عجالة حتى إنه ألقى بأربع آليات مدفعية في النهر تخفيفا لأحماله وإسراعا في سيره ، وفي أثناء ذلك مات جان دولوزيجنان ملك قبرص ، ولم يخلف وارثا فصار الملك لأخيه الطبيعي يعقوب بتأييد من ملك مصر . ولما مات المتولي دون عقب ولا وارث صار الملك إلى زوجته ، وكان أصلها من البندقية . فاسلمت الأمر للبنادقة ، وظل بأيديهم إلى عهد سليم أمبراطور الترك . وفي العام الموالي أظهر الأمبراطور التركي محمد الصلح لملك ميسيا حتى حضر عنده فقتله خنقا وقبض على أخيه وأخته وقادهما منتصرا إلى القسطنطينية . وفي عام ألف وأربعمائة وخمسة وستين أمر ببناء حصن عظيم في إيبير ليكون حاجزا بينه وبين النصارى ومكان لاستعراض العساكر . وتم بناؤه في ثلاثين يوما ، وإن كان قد بني على هيئة مدينة . وفي نفس العام أخذ البنادقة مدينة أثينا وحاصروا باتروس ، ولكنهم انهزموا في حصارها أمام الاتراك . وقد كانت هذه الحرب سجالا بين الطرفين عدة أعوام ، ولكن النصر كان للترك في النهاية.

وبينما كانت تجرى هذه الوقائع في المشرق ، مات ملك غرناطة في شهر مارس في مدينة ألمرية وترك في خلافته ولدا من أولاده دخل في نزاع وحروب دائمة مع عامل مالقة . وكان هذا العامل يجد العون عند ملك قشتالة ، وكان لملك قشتالة نفسه نزاع مع عدد من كبراء مملكته ، ولذلك لم يقع شيء يستحق الاعتبار بين النصارى والمسلمين في عهد هذا الملك .

وفي نفس العام جقق سكانديربيرك ملك إيبير نصرا عظيما على الأتراك وكانوا قد دخلوا بلاده فطردهم منها في عام ألف وأربعمائة وثمانية وستين إلى مصر وسوريا وكانتا تحت سلطة المماليك . ولما ستولى على عدد من المدن أضرم فيها النيران ونهب سكانها وخص النبلاء من الرجال والنساء بأقسى أنواع العذاب ، كما

عقد السلم مع ملك بلاد الهند ، وبعث إليه امرأة جميلة من حريمه يتزوجها وزفها إليه في حاشية كما تُزف الاميرات ومعها عدد من الهدايا النفيسة ، وكل ذلك بقصد حمله على قتال ملك الفرس ، ولكن بدون جدوى . ذلك لأن أُوزون حسن قد شن عليه الحرب وقتل عددا من رجاله في مختلف المعارك . وفي نفس العام قام قائد أسطول البندقية بمطاردة أسطول الأتراك وكان هؤلاء قد ألحقوا أضرارا كبيرة بالنصارى في جهات مختلفة من بلاد اليونان . وفي عام ألف وأربعمائة وسبعين أرسل أمبراطور الترك ستة وعشرين ألفا من رجال الحرب على ظهر أربعمائة سفينة يقودهم الرئيس عمر بقصد النزول في جزيرة نيكَروبون ، فاستولى عليها بعد أن هلك أربعة آلاف من رجاله ورفع على الخازوق كل من كان في تلك الجزيرة من الجنود الايطاليين ، وأذاق أهلها من ويلات الحرب . وفي نفس العام دخل جيش تركي آخر إلى المجر فنهب وأتلف كل شيء في طريقه حتى وصل إلى زغرب ، ثم عاد محملا بالغنائم وبما يزيد على خمسة عشر ألفا من الأسرى . وفي نفس الوقت دخل الأتراك إلى دالماسيا وستيريا وفريول وعاثوا فسادا في هذه البلاد ورجعوا بعدد من الرجال وقطعان الماشية .

وفي عام ألف وأربعمائة وواحد وسبعين شن الدون ألفونس ملك البرتغال الحرب على المسلمين في بلاد البربر وأخذ منهم مدينة أصيلا ومدينة طنجة . وسنتعرض لذكر ذلك في الوصف المخصص لهذه المدن حتى تكون رواية تلك الاحداث أكثر إمتاعا . ولم يبق سوى أن نأتي هنا على ذكر نهاية ملك بني مرين وبداية عهد بني وطاس وما وقع من بداية عهدهم إلى عهد الشرفاء .

الفصل التاسع والثلاثـون

نهاية ملك بني مرين وبداية بني وطاس وما وقع حتى نهاية ملكهـــــم

شبت بين سكان المغرب الأقصى فتن وحروب لأن أحد سكان فاس يدعى الشريف قد اغتال عبد الحق آخر ملوك بني مرين ، وقد حمد الناس عمله لما عانوا من طغيان ذلك الهالك . ولكن الشريف قام بتولي الملك محله ، فقام ضده كبراء هذه الأسرة ولاسيما سعيد الوطاسي وكان يدعى أيضا بمولاي الشيخ ، ثم قام في أصيلا وأعلن الحرب على المتولي وأعانه عرب هذه المنطقة (148) وعرب أزغار . وكاد الوطاسي يدخل فاس ، ولكنه انهزم أمام هذا الشريف وانسحب بفلول رجاله إلى منطقة نفوذه . ولما علم أن عساكر المنتزي قد خرجت بقصد إعادة أهل تامسنا إلى الطاعة ، وكانوا قد ثاروا في تلك الفترة ، جمع ثمانية آلاف فارس من العرب ومن عشيرته فحاصر مدينة فاس حيث انحبس الملك الجديد دون أن يستطيع الخروج منها . ولما علم الوطاسي أن ملك البرتغال قد حاصر مدينة أصيلا ، وقد ترك فيها زوجته وأولاده ،قام عن حصار فاس وبادر لنجدتها ، ولما وجد أنها قد سقطت عقد الهدنة مع ملك البرتغال ، وعاد لحصار فاس حتى دخلها صلحا ، وهرب المنتزي بأهله إلى مملكة تونس . وهذا الداخل إلى فاس هو أول ملوك بني وطاس الذين انتزع منهم الملك الشرفاء الحسينيون في وقتنا هذا كما نذكر ذلك في محله . وبنو وطاس زناتيون مثل بني مرين ، ولكن فرعهم أقل قوة من فرع بني مرين وهم لم يحكموا سوى فاس بينما قام في مراكش والاقاليم (149) الأخرى أمراء صغار لا يعترفون بهم . وفي عهد هذا السلطان المريني ضاع من المسلمين ما بقي في اسبانيا على عهد فرناندو وازابيلا .

---

(148) الخلط وسفيان .

(149) سوس وسجلماسة .

أما في آسيا فقد حقق أوزون حسن ملك الفرس انتصارات على الاتراك وأخذ منهم عددا من المدن فذاع لذلك صيته في مجموع بلاد المشرق . ومن جهة أخرى انضم قائد جيش البنادقة إلى جيش ملك فارس فكبدوا الاتراك عددا من المعارك القاسية ، ولكن ذلك لم يمنع الاتراك من ارتكاب أعمال فظيعة في المجر .

وفي هذه الأثناء مات الدون هنري ملك قشتالة وترك الملك لاخته إزابيلا التي تزوجت بفرديناند ابن ملك أرغون . ففي البداية كانت لهم حرب مع ملك البرتغال الذي سعى إلى الاستحواذ على قشتالة بتأييد من بعض كبرائها بدعوى المطالبة بحق جان Jeanne التي كانت تدعي أنها ابنة الملك الراحل ، ولكن الجو صفا لفرديناند وإزابيلا بعد ذلك ليقضيا على ملك المسلمين في إسبانيا وإن كانا في أول أمرهما قد عقدا الصلح مع ملك غرناطة .

وفي نفس العام تقاتل محمد التركي مع أوزون حسن قرب نهر الفرات حيث انهزم هذا الأخير بينما رجع أمبراطور الترك منتصرا إلى القسطنطينية ومعه ستة آلاف وثمان مائة من أسرى النصارى. وكلما قام للرحيل من محلة في طريقه قتل منهم خمسمائة أسير، فخلف وراءه على طول أرمينيا مشاهد من الرعب والمذابح. وفي العام الموالي دخل الأتراك الى فلاشيا ومولدافيا فقاتلهم حاكمها إتيان بالاتيان وأحرز عليهم نصرا تاما ، كما حقق عليهم ماتياس كورفان ملك المجر بعض المكاسب وأخذ منهم قلعة حصينية على مقربة من نهر الساف . ومن جهة أخرى استولى الاتراك بالحيلة على مدينة قوسا التي كانت بيد الجنويين في منطقة طوروس

وفي عام ألف وأربعمائة وسبعة وسبعين مات ملك الفرس بعد أن ملك البارتيين والميديين وساد على معظم بلاد المشرق ، وترك خلفا له ابنه البكر فقتل جميع إخوته ليخلص له الملك . وفي هذا العام نزل الأتراك بجيشهم البحري في قبرص ، وعادوا بعدد من الأسرى بعد أن أفسدوا كثيرا ودمروا معظم مدينة نيقوزيا وفي تلك الأثناء انكسر جيش تركي عظيم في ميزيا فاغتنم الفرصة لعقد هدنه مع السلطان الاعظم الذي انتزع منهم مدينتين ، فصالحوه على ثمانية آلاف دوكا في العام مقابل السماح لسفنهم بالملاحة في البحر الاسود . وبفضل هذه الهدنة جهز السلطان الاعظم جيشا بحريا عظيما فبعثه إلى بوي بينما دخل بنفسه إلى المجر وعاد بعدد كبير من الأسرى ، وكذلك فعل في مملكة نابولي ،وبعد ذلك استولى

على عدد من الجزر في مدخل مضيق البندقية ملحقا أضرارا بالغة في كل مكان مر به من بلاد النصرانية .

كان بين الملكين الكاثولكيين وبين ملك غرناطة هدنة منعقدة . وخلال ذلك كان المسلمون من أهل بسطة ووادي آش يغزون بلاد النصارى بغير إذن أميرهم ، فقام إليهم عامل كازورلا وقتل منهم خمس عشرة ماثة واستولى على ثلاثين من أعلامهم وأسر منهم كثيرا ، ولم يهلك من رجاله إلا محارب واحد .

ولما أخضع السلطان الاعظم هذه البلاد الكثيرة وهو يتدرج من فتح إلى فتح أكبر منه جمع جيشا عظيما لغزو الاسكندرية بينما كان يجهز جيشا آخر لغزو روديس، ولما لم تنجح تلك الحملة الأولى جهز حملة ثانية فهجم على هذه الجزيرة وهاجم المدينة كذلك من أربع جهات بأربعة حشود متفرقة ولكن الفرسان استماتوا في الدفاع واستبسل منهم على الخصوص أوبوسون كبير فرسان طائفة القديس يوحنا، فكان ذلك سببا في انسحاب قائد (150) جيش الترك بعد تسعة وثمانين يوما من الحصار، وقد قتل من رجاله خمسة عشر ألفا وجرح منهم عدد كبير .

وفي نفس العام نزل أقومات بجيش آخر في بوي وفتح عنوة مدينة أوترانت ونهب النصارى من أهلها ورتب فيها حامية جيدة . ولم يحالف الاتراك مثل هذا السعد في موريا حيث اجتمع اليونانيون وهزموهم وقتلوا منهم ستة آلاف .

الصفويون وأصلهم :

ولنذكر الآن أصل الصفويين لأن معرفة أخبارهم لن تكون أقل متعة من معرفة أخبار الكثيرين ممن أدرجناهم في هذا التاريخ . كان جد هذه الاسرة يدعي أنه منحدر أبا عن جد من الحسين الابن الثاني لعلي وفاطمة بنت محمد . وبما أن أحفاد محمد من الفرع الآخر يكنون بالشرفاء فإن ابناء علي يتسمون بالصوفية كما لو أنك قلت حكماء أو عرفاء، وهم يحظون في فارس بما يحظى به الشرفاء من التبجيل لان ذكرهم لعلي لايقل عن ذكرهم لمحمد . ويشتق بعضهم معنى هذا الاسم من كلمة صوف العربية لانهم بمقتضى شرعتهم لايلبسون ذهبا ولا حريرا وإنما يلبسون قبعات من اللبد .

---

(150) مـازك .

وكان اسم هذا المؤسس هو الشاه إسماعيل . وكان أول من اشتهر من عائلته بالتقوى هو موسى القاسم عندما مات آخر خلفاء بغداد(151) فلما رأى أن امبراطورية الخلفاء قد اضمحلت بدأ يدعو لنحلة علي بحرية أكبر . ولما ساد على منطقة صغيرة تُدعى أردبيل دُعي أتباعه بالأردبليين وسماهم آخرون بالاثني عشرية إحياء لذكر اثني عشر من أبناء الحسين . ولكي يتميزوا عن غيرهم من أتباع محمد كانوا يجعلون في قبعاتهم اثنتى عشرة ثنية، ستا في جانب وستا في الجانب الآخر وقد دُعوا أيضا بالكسيلية أو الرؤوس الحمر بسبب حمرة عمائمهم . وبعد موت موسى القاسم اشتهر ابنه كَينيس (152) بالصلاح والولاية اشتهارا عظيما حتى إن تيمورلنك عندما وصل إلى بلاد فارس عند غزوه لآسيا قام بزيارته وأهدى إليه ثلاثين ألف أسير طلبهم منه لكي ينشر فيهم دعوته، وبهم قاتل ولده الشيخ حيدر أهل جورجيا بقصد حملهم على الدخول في نحلته . وكان يحكم بلاد فارس في هذه المدة تركي يدعى أميرا وكان يقاتل أوزون حسن ملك أرمينيا الكبرى الذي كان تركيا مسلما مثله ساد على بلاد فارس بعد موت أمير . ولما كان أوزون حسن من نسب متواضع فقد أصهر بابنته وهي حفيدة امبراطور طربييزوند الى الصفوي لكي يدعم بهذا الزواج تأسيس ملكه، وهذا هو السبب في كون ملوك فارس يميلون إلى النصارى . وبعد موت أوزون حسن قام ولده بدافع الخوف من زوج أخته أو بدافع احتقاره، بإرسال إمداد سري إلى أهل جيورجيا حتى يتمكنوا من القضاء عليه في هذه الحرب . ولما مات الشيخ حيدر ترك ولدين صغيرين هما إسماعيل وسليمان فقام هذا الامير بإبعادهما إلى مدينة شيراز وأمر عاملهما بأن يودعهما قلعة حصينة محروسة إلى أن يرد له أمر في شأنهما، ولكن هذا العامل اشفق من حالهما حيث لم يكن عمر الولد الاكبر يتعدى ثمان سنوات، وتعظيما لنسب الولدين أبقاهما لديه وعاملهما بالتكريم ورباهما مع أولاده، ولما لزمه مرض عضال زودهما بالمال والعدة وأرسلهما محروسين إلى إقليم جيلان على مقربة من بحر قزوين وجازا من هناك إلى بلاد التتار حيث بقي عدد من أصحاب والدهما وثلة من أتباع نحلته . لقد خشي العامل المذكور أن يقوم ولده بعد موته بتسليم الولدين للحسين الذي خلف والده في الملك، وبقي الولدان ما يقارب ثمان سنوات في عاصمة هذا الاقليم الذي تُجلب منه إلى البندقية كميات كبيرة من الزرابي

---

(151) المستعظم بالله الذي قتله التتار .

(152)

الحريرية وأنواع أخرى من الجوخ، ويقال إن الولد الأكبر لم يكن يعيش في ماكله وملبسه طيلة تلك المدة إلا مما كان يأتيه من الصدقات وإن كان أمير البلد يكن لهما محبة شديدة، وكان يقدم ما يفضل عن حاجته إلى الفقراء .

ووقع أن مات يعقوب باشا ابن أوزون حسن الذي قتل الشيخ حيدر واستولى على بلاده ، فخلفه ابنه حسين ووقعت في عهده اضطرابات بسبب قيام إخوانه عليه . وكان من نتائج ذلك أن تعاقب على ملك تلك البلاد خمسة متولين في ظرف عامين. وكان قد كبر سنا وشأنا ، وقد التحق به عدد من أقاربه ومن أصحاب أبيه، فوقع أن عاد الى أردبيل فتلقاه أهلها وقدموه عليهم وسموه صفويا. ولما قضى بضعة أيام في هذه البلاد دفعه ليعلن أنه يريد الذهاب للأخذ بثأر أبيه، وهكذا توجه معه ما يقارب ثلاثمائة من الفرسان وما يزيد قليلا عن هذا العدد من الراجلين فباغت مدينة سينياق وأضرم فيها النيران وأراق الدماء. ولما سمع الناس بهذا النصر جاءوا للالتحاق به وصدعوا بأنه النبي الجديد(153) الذي سيأتي لينشر العدل ويقضي على جميع المذاهب ماعدامذهب علي. لان أتباع محمد يذهبون إلى القول بأن فرقة واحدة من اثنتين وسبعين فرقة في دينهم هي الفرقة النّاجية وأن ما عداها في النار، ولذلك يحاول كل واحد أن يظهر أن فرقته أفضل الفرق . وعلى هذا الأساس كان شيعة علي يدعون أن إسماعيل رسول من الله جاء مبشرا من عنده، (153) فهب إليه الناس كما يهبون للجهاد لولا أن قوة عاتية حالت دون ذلك وهي قوة الأتراك الذين هم أعداء ألداء للصفويين . وعلى إثر هذا النجاح الأولي تزايد عدد جيشه حتى بلغ ألفين فوجد من نفسه الجرأة على التوجه إلى طوريس وكانت مدينة كبيرة شهيرة . وفي عام ألف وخمسمائة هاجم الملك ألفانتي الذي كان يحكم في هذا التاريخ، فهزمه بالرغم من أن جيشه كان يتكون من خمسة الآف من الفرسان وعدد كبير من الراجلين . ولما استولى على طوريس إثر هذا الانتصار اضطهد كثيرا رجال الحرب من أعدائه دون اعتبار للسن ولا للجنس . ولكي ينتقم من عدوه الملك يعقوب أمر بنبش قبره وإحراق رفاته وألقى برماده في مهب الرياح حتى لا يبقى منه شيء يذكر . وقد أرادت أمه وهي أخت يعقوب أن تثنيه عن فعله فدخل عليها وقد تملكه غضب شديد فقتلها أو أمر بقتلها حسب اختلاف الروايات . لقد استتبع الاستيلاء على طوريس خضوع ضواحيها طوعا أو

(153) لعله يقصد بذلك « الامام » على مذهب الشيعة وإلا فهذا من افتراءات الكاتب وتحامله (المترجم)

كرها . أما الملك ألفانتي فقد شرع في تجميع جيش جديد بمساعدة كبراء من فارس ، وبعد ذلك توجه إلى طوريس ، ولمادنا منها بعث بالجيش ليبارز في فضاء خال لان من عوائد الفرس القديمة ألا يقاتلوا وسط الزروع . ولكنه انهزم وقتل وانتصر الصفوي وإن كان عدد رجاله أقل من عدد جيوش الهالك، وعاد إلى طوريس وقد فقد قليلا وغنم كثيرا . وقد كان هذا الانتصار مبعث إعجاب كبير حتى إن التركمان، وهم المحاربون الاشداء في هذه البلاد، صاروا يفرون إذا ذكر اسم الصفوي . وقد أتى إليه الناس أفواجا فازداد جيشه عددا وعظم شأنا . كان للملك الفانتي ابن عم هو مراد . وكان مراد هذا عاملا على شيراز وهي بلد البسط الجميلة المصنوعة من الحرير . وفيها تصنع أيضا كل أنواع الاسلحة التي يستعملها المحاربون سواء منهم الراجلون أو الفرسان لان الفرسان في بلاد فارس يحملون الأسلحة كما يحملها السادة الفرنسيون، وكانت الأسلحة المصنوعة في شيراز تفوق نوعا مّا تلك التي تصنع في ميلانو . لقد كان من المفروض أن يؤول حكم مدينة طوريس إلى عامل شيراز، لكنه لما علم بموت عمه ألفانتي وبغزو إسماعيل لها وبما صاحب ذلك من ارتكاب الأعمال الفظيعة جمع جيشا قوامه اثنا عشر ألف فارس وما يناسب هذا العدد في الراجلين وذلك بقصد إيقاف تقدم إسماعيل واستخلاص عرش فارس لنفسه . وبعث بذلك الجيش لقتال الصفوي ولكن هذا الاخير لم يبق في طوريس لانتظاره وإنما خرج للقائه في شيراز التي تبعد عنها بما يقارب مسافة عشرين يوما، ولما التقى الجمعان في منتصف الطريق على وجه التقريب استعدا للتقال فبادر الصفوي بالهجوم.فهلك عدد من رجاله ولكن من بقوا منهم أظهروا استماتة عظيمة، كما لو أنهم يدافعون عن الملة، ومالبثوا أن داسوا جثث الذين سقطوا من أصحابهم وأثخنوا في العدو وأحدثوا فيه مقتلة عظيمة، فهلك معظم الرجال والأطفال لأنهم كالفرس تتبعهم عائلاتهم عند الخروج للحرب، أما النساء فقد اقتسمهن الجنود وتزوجوا بهن وفر مراد نحو بغداد بمن نجا من أصحابه . وبعد أن انتصر الصفوي توجه إلى شيراز ودخلها دون أن يلقى مقاومة تذكر . ولما كانت هذه المدينة زاخرة بما يحتاج إليه الجنود أثناء الراحة والاستجمام فقد أمضى فيها عدة شهور فعزز جيشه حتى كان عند خروجه يتكون من خمسين ألفا من المحاربين المجهزين وخمسة عشر ألفا من حملة السلاح، ولما تجمع له هذا الجيش العظيم قرر أن يهاجم سبعة من القلاع الشديدة التحصين

لم يسبق لأحد من ملوك الفرس أن استولى عليها قبل أوزون حسن ، ولكنه بقي في حصارها مدة عامين ، وفقد كثيرا من رجاله بمن فيهم قائد جيوشه . ولما استولى عليها عاد منتصرا إلى شيراز، ثم استولى على عدد آخر من كبريات مدن فارس وميديا ومن بينها إير وكانت كثيرة السكان . ومنها توجه إلى كورانيان، وفي طريقه أخذ قلعة حصينة كان بعض التركمان قد لجأوا إليها . وكان ينطلق منها للقيام بغارات على طريق طوريس . وقد وجدوا فيها عددا من الزرابي الحريرية كانوا جمعوها من عمليات النهب التي قاموابها . وبعد ذلك قام بغزو عدد من الأقاليم وصار من القوة بحيث استطاع في عام ألف وخمسمائة وثمانية أن يقضي قضاء مبرما على التركمان . وبلغ عدد جيوشه أربعمائة ألف جندي من بينهم مائة ألف فارس من الخيالة الخفيفة وغيرها . وبعد تحقيق هذه الانتصارات طمح إلى تحقيق ما هو أعظم منها، فقسم ولايات سلطان مصر وولايات السلطان العثماني على كبار ضباط جيشه كما لو أنه قد تم له فتحها، فقرر أن ينطلق لغزو بغداد حتى يدخل الى ما بين النهرين ثم الى أرمينيا بعد ذلك فتكون حدوده هي حدود سلطان مصر من جهة وحدود العثماني وملك الاناضول من جهة أخرى، فيتسنى له أن يتوجه حيث يشاء، وقد بث بذلك الرعب في قلوب كبار الأمراء في آسيا وإفريقيا وأوربا . كان قصير القامة مائلا إلى السمنة بشوشا شديد التمسك بالعدل . إذا بلغه أن عاملا من عماله يسيىء معاملة رعاياه بطش به . ثم إنه كان طموحا متسامحا ولكنه من النخوة بحيث لم يكن يُرى إلا من وراء حجاب . وكان محبا للآداب والفنون، وإذا أُهديت له تحفة نادرة جازى عليها بضعف قيمتها، وما انصرف أحد قط من مجلسه إلا راضيا . وقد جعلته عفته وتمسكه بدينه لايتزوج إلا زواجا شرعيا . وكان يكن لليهود كراهية شديدة حتى إنه كان يسمل أعينهم، وكان يقول انه يفعل ذلك ليطمس أبصارهم كما طُمست بصائرهم . أما الأتراك فكان يقتل من وقع منهم بين يديه قتلا ذريعا، وكان يذهب في القساوة عليهم إلى حد تدمير معابدهم ومساجدهم كما يُفعل بالمارقين . وبالعكس من ذلك كان يظهر تسامحا مع النصارى ولا يمس قط كنائسهم حتى إنه اصطحب معه بطريق أرمينيا ومعه عدد من الأساقفة ورجال الدين عندما خرج يريد تحطيم أمبراطورية السلطان التركي . وقد طلب من النصارى أن يشنوا الحرب على سلطان الترك في أوربا بينما يقوم هو بشن الحرب عليه في آسيا . وقد تقبض السلطان التركي على سفير من سفرائه

وأمر بقتله تحت التعذيب . أما السفراء الآخرون فقد اعتقلهم البنادقة، وبسبب فعلهم هذا أنحى عليهم باللوم السيد لويس هالفن دوفيرساي في الخطاب الذي بلّغه من ملك فرنسا إلى الأمبراطور مكسيميليان في عام ألف وخمسمائة وسبعة . وأخيرا أقدم الصفوي إسماعيل على مابيته من إهلاك السلطان التركي بشن هجومات عليه فأخذ إزمين في تركيا فحصنها وكان أمير كارمانيا قد مكنه من المرور بأرضه . وقد سعي بايزيد إلى عقد السلم معه فقدم اليه مليونين من قطع الذهب، كما أعطاه إمبراطورية طريبيزوند، ولكنه رفض ذلك وقال مثل ماقاله الاسكندر لداريوس : إنه لايريد أن يترك الكل مقابل الجزء . وقد توصل إلى مبتغاه حتى إنه قام قبل عام ألف وخمسمائة وعشرة بحصار مدينة حلب وهي لاتبعد سوى مسافة ثلاثة أيام عن خليج لاياس وبأقل من ذلك عن بيت المقدس . وقد بعث في نفس العام بسفارة إلى البندقية لكي يطلب قدوم أسطول البنادقة لحصار بيروت بينما يقوم هو بمهاجمة السلطان برا . وقد ترتب عن ذلك حدوث عدد من المغامرات سأضرب عنها صفحاً تجنبا للتطويل. وفي هذا كفاية لما توخيناه من بيان الكيفية التي استتب بها الأمر لخلفاء محمد في فارس حيث مايزالون إلى وقتنا هذا . ثم إننا ذكرنا كل ذلك بالتتابع حتى لا نقطع تسلسل الأحداث .

ولكي نرجع الآن الى تتابع السنوات فسنذكر أشياء وقعت من قبل . فقد توفي الدون جان ملك البرتغال في يوم الأحد ثامن أكتوبر من عام ألف وأربعمائة وواحد وثمانين وترك في خلافته ابن عمه الدون مانويل وكذلك مات محمد بعد أن انتزع من النصارى امبراطورية القسطنطينية وأمبراطورية طريبيزوند وعشر ممالك ومائتي مدينة ، وبعد أن مارس القساوة في كل مكان . وبموته وقع بين أولاده نزاع على الملك . وكانت الغلبة لبايزيد فخلص له الملك في عام ألف وأربعمائة . وفي نفس العام انتزع فيرديناند ملك نابولي مدينة أوترانت حررها على يد ولده ألفونس. أما جان كاستريو ولد سكَانديريك فقد استعاد منهم مملكة أبيه. وأما ماتياس كورفان ملك المجر والملك الفودي فقد استوليا على ميسيا العليا التي تسمى اليوم بالبوسنة وحققا على الأتراك عدة انتصارات .

ولنذكر الآن ماكان من غزو مملكة غرناطة على يد فيرديناند وإزابيلا . كان أبو الحسن ملك غرناطة هو الأمير التاسع عشر من بيت بني الأحمر وقد صار أقوى من تولوا هذه الامارة منذ انقراض خلفاء عبد الرحمان . وقد تأتي له ذلك

بسبب ما وقع بين الأمراء النصارى من النزاعات . فقد كانت إمارته غنية وكثيرة السكان بعد أن لجأ إليها المسلمون من جهات إسبانيا ليكونوا رعية لأمير من أمتهم وكان يتوفر على مدافع وذخيرة بالاضافة الى جيشه من الفرسان والراجلة المجهزين بالبنادق ، وقد سارعت إليه العساكر من كل بلاد البربر ولا سيما من المناطق القريبة مثل جبال غمارة ، وكان عطاء هؤلاء المحاربين يزيد على عطاء غيرهم لأنهم كانوا ألداء للنصارى . فلما كان فرديناند وإيزابيلا مشغولين بالحرب ضد ملك البرتغال قام صاحب غرناطة بأعمال تدمير كبيرة في الأندلس وفي مملكة مرسية وحتى اضطر فرديناند وإزابيلا الى عقد الهدنة معه . لكن الأمير المسلم عندما علم أن قلعة الزهراء قد خفت حراستها بسبب اطمئنان النصارى إلى الهدنة هاجمها ليلا بتسلق أسوارها فقتل حاكمها وأسر جميع من كانوا بداخلها.وقد تأثر فرديناند و إزابيلا لهذا الغدر وهذه الخسارة تأثرا عميقا ، فما كان منهما إلا أن هبا لانجاد تلك الثغور فقررا مواصلة السعي حتى يستكملا فتح هذه المملكة التي كانت عرقلة مستمرة في طريق استكمال أهدافهما ويقضيا على أتباع محمد في إسبانيا . ولذلك قاما في نفس العام بحصار مدينة الحمراء التي كان المسلمون يسمونها بسور غرناطة . وكان الملك المسلم يحاول استعادتها باستعجال ، لكن جهوده كانت غير مثمرة لان الملك فريناند أغاثها في الوقت المناسب . ولقد تابع فرديناند غارته فدخل سهل غرناطة وأفسد فيه مرتين ورجع منتصرا إلى قرطبة بعد أن عمر الثغور وشحن حصونها بالحامية .

ووقع أن المسلمين نشب بينهم الخلاف في وقت كانوا أحوج ما يكونون الى الاتحاد . كان ملك غرناطة قد بلغ من الكبر عتيا ، وقد كف بصره وكان شغف بامرأة نصرانية أسلمت ، فقام بقطع رؤوس أولاده من امرأة مطلقة حتى يرثه في الملك أبناؤه الآخرون، وأمر بتنفيذ ذلك القتل في قصر الحمراء في القاعة المسماه ببهو الأسود . ولكن أمهم المطلقة وهي من بنات عمومته قد أنقذت أصغر أولئك الأولاد بإنزاله ليلا من أعلى برج قمارش مستعملة لذلك حبلا معمولا من خُمُر وصيفاتها ومن شعر رؤوسهن . ومن هنالك نقله بنو سراج إلى وادي آش لأنهم كانوا مسخطين بسبب إقدام الملك على قتل بعض أهليهم بدعوى أن أحدهم قد أخرج أخته من البلاط . ولكن الملك إنما فعل ذلك لأنه أوجس خيفة من بني سراج الذين كانوا يظاهرون أولاد المرأة التي طلقها . ولما أقدم

على هذه الفعلة الأخيرة صار مذموما محقرا في أعين كبراء الدولة، مما دفعهم إلى استقدام ذلك الأمير الصغير من وادي آش، ولما كان السلطان ذات يوم في أجنته خارج المدينة نادوا بنصرة ذلك الطفل وأغلقوا أبواب الحمراء لمنع الملك من الدخول وعيَّروه بقتل أبنائه . وحينئذ هرب عن طريق وادي لكرين إلى حصن موندوشار، وقام من هنالك يوجه لغزو الأمير الفتي أحد إخوانه (153) المشهورين بالحنكة والاقدام، وقد هلك في هذه الحرب عدد من كبراء الدولة من الفريقين على غير توقع منهم لذلك الدمار، فما توصلوا إلى صلح ولا استنجدو بالملكين الكاثوليكيين . وفي أثناء ذلك قام صاحب قادس ومعه نُبلاء من النصارى بغزوة في شرقي مالقة، (154) ولكن المسلمين اجتمعوا لحربهم فهزموهم وقتلوا ثلاثة من إخوة السيد المذكور واثنين من أبناء أخيه وعددا من أهله وخدمه وأسروا كونت سيفوينتس وأخاه الدون بيطره وعددا من الكبراء الآخرين وأثخنوا فيهم حتى هلك معظم النصارى أو وقعوا في الأسر . وقد اعتز ملك غرناطة الجديد بهذا النصر اعتزازا عظيما فأراد أن يغزو بنفسه أرض الأندلس وهو يظن أنه لن يلقى فيها مدافعا بعد تلك الهزيمة التي لحقت بالنصارى فبادر بجمع من استطاع جمعهم من المحاربين الفرسان والراجلين واصطحب معه عامل لوشة وعددا من النبلاء فحاصر قلعة اللشانة وهي مدينةتقع في حكم الدونزيليين ...

ويروى بعض شيوخ العرب في غرناطة، أن عصا الراية التي كان يحملها الامير ارتطمت بقوس باب الغيرة، وهو يغادر المدينة لمحاربة النصارى، وانكسرت عندها، فتطير بعض رفقائه من الحادث ونصحوه بالعدول عن خوض المعركة التي خرج من أجلها، لكنه لم يبال بنصيحتهم .

وصل الامير الى ضفاف سيل القايرا، فإذا بثعلب يخترق صفوف جنوده دون أن يتمكن أحد من النيل منه، فتشاءم الجنود وداعبتهم الرغبة في عدم مواصلة زحفهم، معلنين أن المعركة ستكون وخيمة العواقب عليهم، الا أن قائدهم حثهم على الاعتصام بحبل التعقل، وواصل بهم السير حتى أشرفوا على بلدة لوسيانة المسيحية، فحاصرها وغنم كثيرا من محصولات مزروعاتها .

---

(154) يكنى أبا عبد الله هو أيضا .

(155) في شهر مايو من عام 1483 .

بلغ الى علم كونت مدينة كابرا الذي كان وقتئذ في فاينا، ماتعرضت له لوسيانة، فشكل على جناح السرعة جيشا وقاده نحو المدينة المحاصرة، ليعزز به قوات حاكم دونزوليس . ولما رأى ملك العرب ما رآه من تكتل النصارى، رفع الحصار عن لوسيانة وتوجه الى لوشة بعدد كبير من الأسرى وغنائم هامة، فتعقبه المسيحيون، وهم مسلحون بايمانهم مع قلة عددهم بالنسبة للعرب، وهاجموهم عند مم جدول يبعد بفرسخ ونصف عن لويسانة وهزموهم باذن الله . وخلال المعركة، لقي الوالي العطار حتفه مع كثير من الجنود، من بينهم الاشراف، ووقع الأمير أبو عبد الله في قبضة النصارى الذين غنموا أيضا غنائم هامة من بينها تسع رايات. بعد ذلك عادت قوات النصارى منتصرة الى قواعدها .

وقعت هذه الأحداث، في نفس الوقت الذي فتح فيه السلطان العثماني بايزيد، فالونيا باليونان ويصادف نقل أخيه الذي كان أسيرا بمدينة رودس اليونانية الى روما، حيث توفي مسموما . الا أنه لم يكن لغزو النصارى مملكة غرناطة أي تأثير على المملكة التركية.وأشير الى أن فردناند، الملك الكاثوليكي دخل بجيشه الى سهل غرناطة، حيث قام بعمليات إتلاف فظيعة، وهاجم موقعي اللورة ومونتيفريوز وحاصر تشارة، فاستولى عليها ثم حطمها عن آخرها وعاد الى قرطبة .

أما الذين أسروا الأمير أبا عبد الله، فانهم قادوه الى قرطبة، حيث تفاوض مع الملكين النصرانيين ــ فردناند وزوجته ايزبيلا ــ بواسطة بعض الشخصيات ووعد أن يكون تابعاً لهما مقابل تخلية سبيله . فقبل عرضه، لكنه احتجّ على سياسة النصارى الرامية الى التفرقة وتجزئه الدولة . ولم يكتف المسيحيون بتحريره بل اشترطوا عليه أن يقبل مساعدتهم العسكرية لشنها حربا على أبيه وعلى المدن الموالية له .

لما عاد أبو عبد الله الى غرناطة، استقبله أهلها بالجفاء، بسبب المعاهدة المخزية التي أبرمها مع النصارى، فتحالف أنصاره السابقون ضده، وتضامنوا مع عمه أبي عبد الله، الذي كان من حزب أبيه المولى الحسن، فلقبوه بأبي عبد الله الباسل، تمييزا لابن أخيه الذي لقبوه بأبي عبد الله المشؤوم .

بعد انتشار خبر تواطيء الامير السابق مع النصارى، زحف خمسة عشر واليا عربيا من ولاة مملكة غرناطة، الى حدود الأراضي الواقعة تحت سلطان

النصارى، ونهبوا منها مانهبوا، وأتلفوا ما شاؤوا مدّعين بأن ملكا أسيراً لايمكنه أن يعطي أي أمر .

تصدى لهؤلاء الولاة وجنودهم، حاكم مدينة بالما، وهزمهم ثم استولى على خمس عشرة راية، وأسر العديد منهم ومن قوادهم، ولاذ الباقي بالفرار .

لكن حاكم مدينة قادس اعترض سبيلهم، وقتل منهم عددا، وأسر منهم ما استطاع، ثم هاجم مدينة الزاهرة، واحتلها وقتل حاكمها ثم استولى على حاميتها وشرّد أهلها، وبعد ذلك حصنها وعمرها بالنصارى .

تضاعف، من أجل ذلك، حقد أهل غرناطة على أبي عبد الله المشؤوم، فاستولى عليه الرعب، وسرى فيه الجزع، وفقد الاطمئنان على نفسه وعلى حياة أفراد أسرته، فرحل رفقة زوجته وأبنائه، الى مدينة المرية .

على اثر ذلك، نصب أهل غرناطة ملكا عليهم، المولى حسن، أبا الامير المنحوس، فنشبت بين الأب والابن سلسلة من المعارك الفتاكة .

وحّد النصارى صفوفهم ووطّدوا العزم على مواصلة زحفهم لتصفية الوجود العربي من اسبانيا . وفي هذا النطاق، توجه الملك فردناند الى ضواحي مدينة مالقة ونهب حقولها وبساتينها . ولما احتل بلدة اللورة، استسلم له كل من الحصين وستنيل . بعد ذلك، أوقف فردناند العمليات الحربية وذهب الى اشبيلية لقضاء فصل الشتاء .

وفي العام الموالي، أي في سنة 1485، استأنف فردناند نهب القرى وضواحيها، ولما استولى على عدد من الحصون، مثل قرطامة وشور وغيرهما، شن هجوما عنيفا على مدينة رندة، انتهى باستسلامها، بعد مقاومة عنيفة من لدن سكانها وحماتها،دامت عدة أيام .

كان فردناند يعرض على العرب الذين يستسلمون لسلطانه، ضمان الأمن على حياتهم وممتلكاتهم وحرية ممارسة شعائرهم الدينية، والنظر في قضاياهم من طرف قضاتهم وطبقا لاحكام شريعتهم ودينهم، مقابل قبولهم الولاء والوفاء التام والخالص للملكين النصرانيين . ورخص فردناند، من جهة أخرى للموالي العرب، ممارسة التجارة مع كافة المدن الاسبانية، على أساس ألا يدخلوا هذه المدن أو

يقيموا فيها بعد غروب الشمس، الا باذن خاص من الملكين أو ممن يمثلهما في تلك المدن، كما عرض على الذين يرفضون هذه الشروط بيع ممتلكاتهم والرحيل مع أسرهم الى افرقيا الشمالية، على متن سفن وضعت تحت تصرفهم، وقد أعطيت الأوامر لضباط وحراس الحدود بأن يعاملوا المهاجرين معاملة حسنة .

وخلال العام الموالي، استولى النصارى بالتتابع على تسع عشرة قرية واقعة في جبال الثلج، وسبع عشرة في جبال الغوفان وسائر مواقع جبال فلالونكا . ثم دخلوا الى مدن مربيلا ومونيميور والكورتوس وغيرها من المدن المجاورة . وأضاف الملك فردناند الى ذلك، قبل أن يلتحق هذه المرة بقرطبة لقضاء فصل الشتاء، تدمير عدة حصون والاستيلاء على أخرى مع تعيين حكام عليها .

لم تضعف العمليات الحربية مع ذلك، لأن الملكين الكاثوليكيين كانا يصران على إثارة الفتن والتفرقة في صفوف العرب. فذهبا يغدقان المال والعتاد على أبي عبد الله المشؤوم، المقيم بالمرية، ويعطيان التعليمات الى ضباطهما المقيمين بالمدن، لمده بكل ما يحتاج اليه من مساعدات، ليحارب إخوانه الذين عكفوا على مقاومة النصارى .

لما لمس عرب غرناطة عجز ملكهم عن ممارسة الحكم، وقد بلغ من الكبر عتيا، وأصابه العمى، بايعوا أخاه أبا عبد الله الباسل، معتبرين أن أبا عبد الله المشؤوم، فقد كل أهلية للعرش، بسبب اتخاذه النصارى أولياء . ثم وضعوا الملك الهرم وأسرته في الاقامة الاجبارية بقلعة موندخار، وكان ذلك سبب هلاكهم التام، لأن الأمير الجديد أجرى اتصالات مع بعض فقهاء المرية، ليساعدوه على الدخول ليلا الى المدينة، حتى يتمكن من إلقاء القبض على أبي عبد الله أو قتله .

لما علم أبو عبد الله المشؤوم بنوايا عمه، فرّ من المرية ليلا والتجأ لدى النصارى، ولما دخل أمير غرناطة الجديد الى المرية واستولى على الحصن، توجه تواً الى البلاط لالقاء القبض على ابن أخيه، لكنه لم يجد فيه الا أخاه الصغير الذي كان أبو عبد الله المشؤوم قد نقله معه الى المرية حتى لا يقتله أبوه، فقتل أبو عبد الله ابن أخيه الصغير، وقتل كل الذين تواطئوا مع أبي عبد الله المشؤوم . استفظع هذا الأخير ما حل بأخيه وأنصاره، وهاله الأمر حتى إنه أقسم أن لن يتصالح مع عمه مهما كانت الأحوال، ورغم الظروف العديدة التي سنحت من بعد، ليمحو آثار الخصام بينهما .

لم يبق المولى حسن محبوسا في قلعته إلا أياما معدودة حتى قضى نحبه، فانضمت جميع الهيآت والقوى في الدولة لملك غرناطة الجديد، الذي نظم صفوفه وشرع يحارب النصارى، فكان النصر حليفه في عدة معارك، نذكر من بينها، انتصاره على حاكم بلدة كابرة وقتل أخيه، في حين كان فردناند يزحف بفلول قواته، نحو مدينة موكلين .

انتقلت الى فردناند أنباء تحركات ملك غرناطة المظفرة، فتراجع عن خطته وانطلق يهاجم مواقع كمبيل وحرابل التي كان العرب يتحصنون بها في توجيه ضرباتهم الى مدينة جيان .

كانت هجومات فردناند على كمبيل وحرابل عنيفة، فأخلاها سكانها، والتجأ قائدهما العربي بحاميته الى غرناطة .

في خضمّ هذه الاحداث، تمكّن أحد فرسان القنطرة الذي كان مرابطا بحدود الحامية، من تسلق أسوار بلدة سالية والاستيلاء عليها . بعد هذا أمر فردناند بتحصين المواقع التي احتلها، وعاد الى طليطلة .

هاجم الملك النصراني، عام 1486، مدينة لوشة، بجيش عرمرم، لكن جهاز الدفاع صمم على الصمود، فحاصرها الملك أمدا طويلا، توصل بعده الى التفاوض مع أهلها، فسلّموه مفاتيحها . على اثر ذلك، استسلمت له القرى المجاورة، مثل اللورة وموكلان، وغيرهما، وعين عليها حكاما، الا أن سكان لوشة العرب هاجروها والتجأوا الى غرناطة .

اشتغل العرب خلال هذه الحروب، بنزاعات مسلحة فيما بينهم، إذ كان أبو عبد الله المشؤوم، لايكتفي بعرقلة تحركات عمه، بل يهاجم قواته، واصطدمت فيالق الجيوش العربية، في معركة ضارية بقرية بليزبلانكو، وكانت قوات النصارى تحارب الى جانب أمير غرناطة السابق .

أصبحت مملكة غرناطة والقلع المحصنة الواقعة في تخومها، خاضعة لحكم أبي عبد الله الباسل، لكن هذا الأخير طغى في البلاد، واستعمل السيف في رقاب معارضيه من العرب، فغضب رعايا مملكته وثارت ثائرتهم، وبلغ صدى سخطهم عليه الى فرناند الذي اتخذها مناسبة لتوسيع الشقة بين العرب والاستفادة من خلافاتهم .

كانت القوات الموالية لأبي عبد الله المشؤوم تنهزم كلما اصطدمت بقوات أبي عبيد الله الباسل . لذا قرر الامير السابق أن يواصل محاربة عمه حتى يسترجع عرشه . لكنه فكر في سلوك منهج آخر نظرا لضعف قواته .

اختفى من ميدان المواجهة حينا، لكنه سرى عبر طرق ملتوية، واخترق المسالك الجبلية الوعرة . ولما دنا من بلدة البيازين المحاربة لغرناطة، ترك جنوده واصطحب معه خمسة من رفقائه، واستطاع إرشاء أحد حراس أبواب البلدة، ففسحوا له المجال ولما دخل الى البيازين ليلا، صار يقرع أبواب المنازل بيتا بيتا يلتمس من أصحابها النصرة والمنعة، ضد عمه .

عندما أصبح ، تنوقلت عبر البلدة أنباء دخول أبي عبد الله إليها سرًّاوراجت أخبار دعوته الى استعادة العرش، وأخذ سكان البلدة يحصنون الأزقة، ويشددون الحراسة على الممرات التى قد تستعملها قوات ملك غرناطة اذا ما دخلت الى بلدتهم وفعلا، شن أبو عبد الله الباسل هجوما على أنصار ابن أخيه بالبيازين، وجرت بين الفريقين معركة عنيفة بالأسلحة وحتى بالأيدي، وسقط على إثرها عدد كبير من القتلى، من الجانبين ، وتمكن ملك غرناطة من السيطرة على الموقف، ووضع في البلدة قوات للحراسة. اما ابن أخيه فإنه لم يجد مفرا من الاعتصام بقلعته ودامت المعركة خمسين يوما دون أن يتوصل أحد الفريقين إلى القضاء على الآخر.

الا أن أبا عبد الله المشؤوم تيقن أنه لن يقوى على الصمود طويلا، فاستنجد بالملكين النصرانيين، فلم يتهاودا في إعطاء الاوامر الى حاكم الحدود، ليمدّه بالمساعدة، فأرسل الى البيازين قوات تتألف من خمسمائة من الرماة، لتعزز جنود أبي عبد الله المشؤوم، فكان الفوز حليف القوات المتكتلة ضد ملك غرناطة.

بينما كانت الأسلحة تتقارع في هذه الجبهة، اغتنمها فردناند فرصة لحصار بليز مالقة، عندها، اهتزت مشاعر الفقهاء والشيوخ في غرناطة للتصدّع الواقع في صفوف العرب والذي يستفيد منه المسيحيون، فصعدوا الى القصر وقدموا ملتمسا الى الملك، يلاحظون فيه أن النصارى يحاصرون بليز، وبفقدان هذا الموقع، ستسقط مالقة لا محالة ، كما سيضيع الباقي ، وان ابن أخيه تحصنَّ في البيازين ولن يستطيع أحد أن يزحزحه عن موقعه ، لأنه يعتمد على قوات العدو ، وكل هذه الأحداث

تجري ، في حين أن النصارى لم يلبثوا يتقدمون ، وطلبوا منه أن يتمسّك بجانب الحكمة ، فينظر بعطف الى مصلحة الدولة ، ويبرم صلحا أو هدنة مع ابن أخيه ، ولو كان ذلك على حساب حقوقه ، حتى يتسنىَّ له ردَّ النصارى على أعقابهم خاسرين .

تأثر الملك بتدخل أصحاب الملتمس ، فأوفدهم الى ابن أخيه ، لعلّه يهتدي الى الرّشد ، ولكن هذا الأخير لم يستجب لمسعاهم ، ولم يثق بنوايا عمه ، لسبب خذلانه السابق ومن أجل المعاملة القاسية التي تعرض لها أنصاره على يده ، ولو أنه الى حد التنازل له عن العرش .

وطال حصار بليز ، ووجد أبو عبد الله الباسل نفسه في موقف لا يحسد عليه ، خصوصا وان الفقهاء وأعيان غرناطة الحو عليه في نجدة الموقع المهدد بالسقوط ، وهو يوجد في أقصى الجنوب ، فما كان منه إلا أن عزز حامية قصر الحمراء ، وقوى الكتائب التي ترابط بالبيازين ، ثم قاد جيشا يتألف من بعض الفرسان من المشاة ، وسار به عبر الطريق المقطوعة والثانوية ، ليهاجم بغتة النصارى الذين يحاصرون بليز .

إلا أن القوات المعادية كانت على علم بتحركاته ، فتصدّت له بطريقة محكمة ولم يجد مناصا من الانسحاب ، مخلفا ، وراءه عددا من القتلى والأسرى . دخل أبو عبد الله الى الموجنيكار ، لكن لم يلبث الا قليلا حتى غادرها في اتجاه المرية ، ومن ثم الى قادش .

تلقي أهل غرناطة بامتعاض ، نبأ انهزام ملكهم أمام بليز ، فخلعوه ونصبوا مكانه ابن أخيه ، وسلموا له مفاتيح قصر الحمراء ، وما في المملكة من حصون .

اعتلى أبو عبد الله العرش ، ودشّن حكمه بأن أمر بقطع رؤوس أربعة أشخاص من وزراء عمه الذين عارضوه سابقا ، وأوفد رسولا الى الملك النصراني فرناند يطلعه على تطور الحالة ، ملتمسا منه تأمين سلامة رعايا مملكة غرناطة والحفاظ على المواقع التابعة لها ، كما التمس منه اعطاء الاوامر الى حكام المناطق والمواقع الخاضعة له ، كي يجتنبوا القيام بكل ما من شأنه أن يسيء الى علاقتهما ، مع احترام حقوق المواطنين العرب ، وحرية تنقلهم عبر البلاد ، وعدم مضايقاتهم في تجارتهم ، مقابل ذلك ، أكّد أبو عبد الله وفاءه بالعهد الذي قطعه على نفسه

والقاضي بولائه للملك فرناند وإخلاصه له ، من الموافقة على تسليم غرناطة الى الملكين النصرانيين في حالة ما اذا أفلحا في غزو الميرية وبياسة وقادس ، مذكّرا بأنه في هذه الظروف ، لن يطالب عند انسحابه من غرناطة ، الا أن يمنح مكانا يقضي فيه بقية أيام حياته .

لبّى الملكان رغبة أبي عبد الله وابلغا المواطنين العرب في المدن والقرى التي لم تدخل بعد تحت سلطانهما إن هم رفضوا أبا عبد الله ملكا ، فسوف يحتلّان مدنهم وقراهم ، وأعطياهم مهلة ستة أشهر لاتخاذ قرار في الموضوع .

لم تمض إلا أيام معدودات حتى أعلن سكان بليز العزّل ، عن استسلامهم الى فردناند ، فدخل الملك النصراني البلدة يوم الجمعة 27 أبريل ، وحذا حذوهم سكان قرى ومدن أخرى ، بنفس الشروط ، ونذكر من بين هذه المدن رندة وماربيلة .

كلما احتل فرناند بلدة أو مدينة عين عليها حاكما ، وكلما تسلّم مفاتيح قلعة أو حصن نصّب فيها قائدا . وفتح احتلال بليز ، لفردناند ، طريق اقامة الحصار حول مدينة مالقة ، التي تبعد عن بليز بخمسة فراسخ .

أظهر سكان المدينة بسالة كبرى ، إذ صمدوا مدة طويلة في وجه جيوش النصارى ، لكنهم اضطرّوا للاستسلام ، بعدما ظلت المدينة عربية طيلة سبعمائة وسبعين عاما . ودخلها الملكان النصرانيان ، يوم 8 غشت 1984 .

كان لسقوط مالقة في أيدي النصارى صدى كبير في البلاد ، وأثر عميق في باقي مواقع المنطقة الجنوبية الغربية ، اذ أخذت القرى تعلن عن اذعانها للأمر الواقع ، بدون مقاومة .

قبل أن يعود الملكان النصرانيان الى قرطبة ، أسكنا العديد من المسيحيين بمالقة ، وعيّنا حكاما عل جميع المواقع التي امست منضوية تحت لوائهم .

كانت قوات النصارى تحتل مملكة غرناطة من جهتها الغربية ، فدخل فردناند هذه المرّة الى المملكة من جهتها الشرقية حيث تقع مدن بيرة و موخكار وجفكار والميرية وباسا وقادس ، التي كانت كلها تدين بالولاء للملك ابي عبد الله المخلوع ، وبما أن هذا الاخير لم يقو على الظهور في البوادي ، فان بلدتي بيرة وموخكار أعلنتا عن استسلامهما وكذلك كان الشأن بالنسبة للمدن الأخرى ،

التي أصبح سكانها قاطبة رعايا وموالي الملكين-النصرانيين ينطبق عليهم ماينطبق على الذين سبقوهم فى الانضواء تحت لواء المسيحيين .

دخل فردناند بعد ذلك الى المرية في زيارة استطلاعية ، ثم ولّى نحو باسا وقرى أخرى كانت في طريقه ، والتي أعلنت بدورها عن طاعتها ، ثم توجه توا الى بلدة باسا التي كان يقيم بها الملك المخلوع .

جرت معركة حامية الوطيس أمام باسا ، اذ قتل خلالها صاحب مونتيفا الاكبر ، وحاصر بعد ذلك فردناند بلدة كفكار ، فاستسلمت كغيرها ، ثم عيّن عليها الملك حاكما قبل أن يقصد طليطلة لقضاء فصل الشتاء.

في الوقت المناسب ، أعطى الملكان النصريان تعليماتهما الى حكومتهما بخصوص الحرب التي قررا مواصلتها ضد العرب ، وانصرفا الى جيان ، وذلك خلال عام 1489 .

تجمّعت قوات الملكين النصرانيين بمدينتي أبيدة وبايسة وفي بطاح كاسورلا التي وقع عليها اختيارهم لجلب جيوش غرناطة اليها . وعندما تمّت الاستعدادات للقتال ، ذهب فردناند الى باسا ، وفي الطريق ، استولى على قلعة كولار بعد معركة عنيفة كما استولى على قصور استراتيجية لضمان أمن معسكره .

حاصر باسا لمدة ستة أشهر وعشرين يوما ، لأن أصحابها أظهروا من الشجاعةوالاستماتة ما لم يكن في حسبان النصارى .واستشهد الكثير من العرب ، ومات العديد من جنود فردناند ، لكن الملك لم يفقد الأمل في غزو المدينة ، لأن منافذ نجدتها كانت منعدمة . ويوم 4 دجنبر من نفس السنة ، دخلت إليها فلول النصارى ، مع الحاكم الذي عين عليها مسبقا . ولم يجد الملك أية صعوبة للاستيلاء على باقي المواقع الصغيرة المبثوثة في المنطقة وعلى ضفاف نهري المنصورة والميرية وبالجبال المجاورة .

لما علم الملك المخلوع والمقيم بقادش ، بالكارثة التي حلت بالمسلمين ، فضّل أن يسلم غرناطة الى النصارى بدون قتال بدلا من أن يراها خاضعة لسلطان ابن أخيه. واعترافا له بالجميل خصص له الملكان مكانا ومعاشا ، ثم اصطحباه معهما لمشاهدة دخولهما الى غرناطة ، وكان حاكم باسا وأسرته ، ضمن الموكب الملكي — الا أن أبا عبد الله استأذن الملكين النصرانيين فى السماح له بالرحيل الى إفريقيا الشمالية لأنه تحاشى الحياة في الارض التي لم يبق عليها ملكا .

كانت مدينة غرناطة وما حولها من القرى التي استطاعت الحفاظ على سلامتها ، خارجة من سلطان النصارى ، إذ لم يتم بعد الاسترداد الشامل . وعرض الملكان النصرانيان على مولاهما أبي عبد الله ، الذي اختاره العرب ملكا عليهم مكان عمه ، مبالغ هامة من المال وبلدة اندراش ليستقر بها .

لكن أمير غرناطة نقض عهده ، إذ ندم على تواطئه مع النصارى ، فرفض العرض ، مبررا عدم انصياعه اليهما بتضخّم عدد سكان غرناطة الساخطين على ما حدث من تغيرات في المنطقة ، غير قابلين للاستسلام دون الدفاع عن كرامتهم وشرفهم . ثم صرّح بأنه من الصعب عليه جداً أن يستجيب لكل مطالبهما في وقت وجيز .

سلك الملكان النصرانيان مسلك المساومة ، فضاعفا من المبالغ المالية التي عرضاها على أبي عبد الله ، لكن أمير غرناطة أصرّ على الرفض وأمر بالجهاد ، فدعا سكان ما بقي تحت سلطانه من رقعة المملكة ، الى قتال الغزاة.

كان لدعوة الامير أثر إيجابي لدى العرب ، فتجنّدوا وخرجوا وراء أميرهم للقتال ، واسترجعوا بعض المواقع ، من بينها قلعة بادول ، دون أن يتمكن فردناند من أن يحول دون ذلك ، لأنه كان يوجد جهة قادس ، وبعدما عزز فرناند المواقع الجنوبية بالجنود والعتاد ، برح الميدان وراح الى قرطبة لقضاء فصل الشتاء .

خلال السنة التي أعقبت هذه الأحداث توغل الملكان في سهل غرناطة وكان يوجد من بين أعضاء حاشيتهما ، الملك الخلوع أبو عبد الله ، وحاكم باسا ونفر من الشخصيات السامية .

بدأ فردناند العمليات الحربية ، باعطاء الامر الى جنوده ، باتلاف كل ما يمكن اتلافه في السهل . وأوشكت عمليات التخريب أن تصل الى أبواب المدينة ، الامر الذي حفز السكان على القيام بمقاومة عدوهم إذ كانوا يخرجون عدة مرات من المدينة لمحاولة ردّ النصارى على أعقابهم .

لقي ماركي فليانه ، حتفه أثناء احدى المجابهات ، كما قتل بعض الشخصيات السامية التي رافقت الملكين النصرانيين ، وأصيب فردناند بجروح في دراعه ، فغادر الميدان موليا الى قرطبة ، وقد أمر بتعزيز القوات المكلّفة بالدفاع عن الحدود .

تمكّن ملك غرناطة عندئذ ، بتنظيم الحصار حول قلعة الهندين التي لا تبعد عن المدينة الا بمسافة فرسخ ونصف ، وكانت في القلعة حامية قوية مدجّجة بالاسلحة فهاجمها الملك وأمطرها بوابل من الحجارة التي كانت تقذفها آليات خاصّة ، كالمنجنيق .

ولما تبيّن للحاكم المسيحي ألّا سبيل له الى الخلاص ، وقد تصدّعت جدران القلعة وأتلفت تحصيناتها ، وأصبحت كلها على وشك الانهيار ، استسلم للملك ، والنيران تشتعل في أجنحة القلعة ، أمر وقتئذ أبو عبد الله بتحطيم القلعة عن آخرها ، وعاد الى غرناطة وقد سبى حاكم القلعة و من نجا من حامياتها .

شاع خبر هذه الانتصارات في مختلف الجهات ، وخلّف اثرا طيّبا في نفوس المسلمين ، فكان انطلاقة لتذكية حبّ الجهاد في أوساطهم ، فثار عرب المناطق الجبلية ووادي البشارى على حكامهم النصارى ، وقاد ملك غرناطة بنفسه عمليات حربية ضدّ مدن مرشان وبيلودوي والميرية وقادش ، فدخلها مظفّرا اذ لم تستطع حامياتها أن تصمد أمام جيشه .

عندما كنت أُؤرّخ لهذه الأحداث ، روى لي شيخ عربي غرناطي كان يقيم آنذاك في البيازين ، أن كافة المواقع التي توجد في منطقة البشرات ، ثارت على النظام النصراني ، ومن بين جميع القلع التي أعلنت عن ثورتها ، لم تصمد أمام السكان العرب ، الا حامية حصن مندخار .

الا أن الانتفاضة العربية كانت محدودة ولم تعمّر الا قليلا ، لأن العرب كانوا يفتقدون الثغور ، للتوصّل بالامدادات الحربية والبشرية من المغرب ومع ذلك فان العرب راحوا يدهنون حكام مدينة سالوبريني ، الموالين للنصارى كي يسلموا لهم ميناء المدينة التي رابطوا حولها . لكن جيوش فردناند هبّت لنجدتها

تراجع أبو عبد الله ، فطارده فردناند وقام بالحاق خسائر جسمية بسهل غرناطة ، ثم ولّى عائدا الى قرطبة .

تلقى فردناند أنباء مفادها أن عرب باسا وقادش والميرية ، يجرون مباحثات سرية مع ملك غرناطة ، قصد مدّهم بالمساعدات الضرورية لقلب الأوضاع ، فذهب الملك النصراني على جناح السرعة الى قادش ، وأمر بطرد جميع العرب من المدن الخاضعة لسلطانه ، مع تمكينهم من التسهيلات لبيع ممتلكاتهم والهجرة الى شمال افريقيا ، وتهديدهم ، في حالة رفضهم ، بالتجريد من كل ما يمتلكونه .

بعد أن أعاد فردناند الامن الى نصابه ، رجع الى قرطبة ، مع عزمه غزو غرناطة في السنة الموالية .

خلال أبريل من عام 1491 ، دخل فردناند مرّة أخرى الى سهل غرناطة بجيش يتألف من ثلاثة آلاف فارس ، وعشرة آلاف من المشاة ، يقوده ماركي فلاينة . وكان من وراء هذه الكتائب ، كتائب أخرى كثيرة العدد ، مستعدة للتدخل في كل وقت وحين ، لتعزيز السريات الاولى ، وأعطيت لقوات النصارى تعليمات بتحطيم كل المواقع العسكرية العربية والقرى التي ثار سكانها ضد سلطان النصارى في منطقة لكران.

لما نفذ ماركي فلاينة جميع العمليات المدمرة التي أسندت الى سرياته ، ولّى راجعا الى بادول ليقدم الى فردناند جموع الأسرى الذين سلبهم والغنائم الهامة التي اغتنمها فأمره فردناند بمواصلة مهامه قصد إضعاف العرب قبل أن يقوم هو بحصار غرناطة .

علم ملك غرناطة بما يخططه فردناند ، فأرسل قوات للمرابطة بالطرق الجبلية التي سيمرّ بها فردناند ، لكن النصارى فاجئوا العرب وهاجموهم بأسفل التبلار مارين بالقنطرة ، إذ طردوا الحمية التي كانت بها وأخرجوابعد ذلك الجنود العرب من مخابئهم الجبلية ، ثم عاد فردناند الى الأنخرون ، حيث أقام الى ان تم القضاء على جميع الطلائع العربية وتم تخريب كافة الاماكن الاستراتيجية التي كانت تحيط بغرناطة .

أتلفت جيوش النصارى المواقع الغرناطية المتقدمة ، وأفسدت مزارعها عن آخرها ، ثم رابطت على بعد فرسخين من غرناطة ، عازمة على الّا تبرح مواقعها حتى يتم غزو المدينة .

استغرق حصار غرناطة ثمانية أشهر وعشرة أيام ، أي من 25 أبريل عام 1491 حتى اليوم الثاني من يناير 1492

قاوم المسلمون بكل قواهم محاولات فردناند ، لكنهم لم يستطيعوا أن يزحزحوه عن معسكره ، وشارك في المعارك البطولية الخواص والعوام من الجانبين ، اذ كان كل فريق متشبعا بروح النضال ، عازما على تحقيق المآثر والمعجزات .

التحقت الملكة إيزابيلا بميدان الوغى ، رفقه ابنها الأمير دون خوان واحدى الاميرات من البلاط . وخلال إحدى الليالي لمس لهيب قنديل ، خيمة من خيام معسكر النصارى ، فانتشرت فيه النيران وأصيبت الملكة ، وعدد من أفراد حاشياتها بحروق .

لهذا السبب ، أمر فردناند ببناء معسكر من الحجر والآجرّ ، على شكل مدينة ، وخطط فيها الممرّات والمسالك وقسمه الى أجنحة ، ووضع حوله الأبراج وعزز تحصينه ، ثم أحاطه بسلسلة من الخنادق ، وصار كالمدينة المغلقة ، فأطلقت عليها الملكة إيزابيلا ، اسم « سانت فوى »أي « الايمان المقدس » .

أخذ اليأس ينال من عزيمة سكان غرناطة ، ونفذت المذخرات من المواد الغذائية ، ولم يبق أمل يذكر في الانتفاضات العربية أو النجدة من الخارج . اذ ذاك ، اتصل بأبي عبد الله وفد يتألف من بعض وجهاء المدينة والقضاة والفقهاء ، والتمسوا منه فتح مفاوضات مع الملكين النصرانيين .

استجاب الملك لطلب علية قومه ، إذ أوفد الى الملكين النصرانيين بعثة تتألف من اثنى عشر شخصا ومعهم ابنه ، وأعطاها كامل الصلاحيات للتفاوض .

على اثر هذا الاتصال ، منح الملكان لأمير غرناطة مهلة سبعين يوما ثم أرسلا ابن الأمير وعددا من أعضاء البعثة ، الى مكان أمين ، بصفتهم رهائن .

بدأت المفاوضات بين الجانبين يوم 5أكتوبر ، وانتهت يوم 25 نونبر الموالي ، فحددت شروط استسلام المدينة وسكانها كما يالي :

« بمقتضى الاتفاق ، يتعين على شعب المدينة وسكان البيازين والضواحي وعلى ملك غرناطة والضباط والوجهاء أن يسلموا الى الملكين النصرانيين أو الى ممثليهما ، قصر الحمراء والقصور الأخرى والحصون والأبراج والأبواب ، وقصور البيازين ، بدون مخادعة ، في أجل أقصاه أربعون يوما ، كما يتعين على كل هؤلاء بعد انقضاء هذا الأجل ، أن يعتبروا أنفسهم رعايا للملكين النصرانيين ، يدينون لهما بالوفاء والولاء والاخلاص ، وفي اطار تنفيذ مقتضيات الاتفاق ، يجب على العرب ، قبل استسلامهم بيوم ، أن يسلّموا الى النصارى خمسمائة أشخاص يكون على رأسهم الوزير يوسف ابن قميحَة ، ومن بينهم الأطفال وأفراد من أسر قادة المملكة

المنهارة ومن بين سكان البيازين ، بصفتهم رهائن موضوعين تحت تصرف الملكين النصرانيين لمدة عشرة أيام ، أي الفترة التي تستغرقها تصفية استسلام المملكة وتنصيب القوات المسيحية في مواقعها : ونصت الاتفاقية كذلك على التزام الملكين وابنهما الامير دون خوان باعتبار العرب من رعاياهم مع المحافظة على سلامتهم ومصالحهم وممتلكاتهم ، من الملك الى آخر طفل ، سواء كانوا من المدينة أو من أهل الأرياف ، وحمايتهم من أي سوء أو اذى ، ولن يعاملوا الا في إطار القانون والعدل ، شأنهم شأن كافة الرعايا والموالي ، وللذين لا يطيقون الحياة في ظل النظام الجديد ، كامل الحرية لبيع أمتعتهم وممتلكاتهم ، والهجرة الى إفريقيا الشمالية ، على متن سفن ستوضع تحت تصرفهم » .

وجاء اليوم المعلوم، فأقبل الكاردنال مندوس بمعية أربعين من أعيان النصارى ليتسلموا قصر الحمراء والمواقع المحصنة، وطبقا لما نص عليه الاتفاق، وجب عليهم ألا يظهروا بشوارع المدينة، اتقاء لاستفزاز السكان .

تقدم أحد المهندسين النصارى وسار في الطريق التى تمر اليوم بكنيسة القديس الشيخ أنطوان وبمنسك الشهداء الذي شيدته الملكة ايزابيلا مكان سجن أسرى النصارى الى أن وصل قصر الحمراء .

ما كاد الموكب الذي يتقدمه الكاردنال ينطلق نحو المدينة، تحت حراسة كتيبة من جيش النصارى، حتى انطلق معه فردناند، على رأس عدة فيالق من جيشه، فاخترق سهل غرناطة ثم استوقف موكبه في مكان لايبعد عن المدينة الا بنحو فرسخ ونصف .

عندما بلغ الكاردنال أمام سجن النصارى، وجد في انتظاره أبا عبد الله، الذي نزل من الحمراء مشيا على القدمين. حياه الكاردنال ونطق بكلمات ما، فرد عليه أبو عبد الله بأنه سيسلمه غداته مفاتيح القصور والمواقع المحصنة، التي أراد الله أن ينزعها من العرب، جزاء لهم على ما قدمت أيديهم .

عاد أبو عبد الله نحو قصر الحمراء، رفقة الكاردنال ومن معه، دخل النصارى الى قصر الحمراء في جو أثقله الهدوء، ولما استخلصوا لأنفسهم مجموع مرافقه، صعد الكاردنال الى أحد الابراج بالقصر ونصب فوقه صلبيا كبيرا من فضة، ولواء الملكية المسيحية . وقد أصبح يسمى هذا البرج برج الناقوس، وكان يطل

على سهل غرناطة ويمكن منه، مشاهدة معسكر فردناند .

وما أبصرت المملكة الصليب منصوبا فوق قصر الحمراء، حتى انحنت نحو الارض، واقفة على ركبتيها وهي تصلي وتوجه الشكر الى ربها . أثار المشهد الحماس في نفوس أعضاء حاشيتها فعكفوا يرتلون الاناشيد الدينية .

عند ذلك بدأ فردناند وبعض علية القوم وأعيانهم يزحفون نحو غرناطة، ولما دخلوها، تقدم نحوه أبو عبد الله، ممتطيا جواده، ولما دنا من فردناند، تهيأ للنزول عن صهوته ليقدم التحية الى الملك النصراني، لكن هذا الاخير أومأ اليه ألا يفعل، شفقة عليه. فقبل أبو عبد الله مع ذلك ذراع فردناند اليمنى وقدم اليه مفاتيح القصر، فتناولها الملك النصراني وسلمها الى كونت تنديلا الذي أصبح أول حاكم نصراني على غرناطة .

قصد فردناند قصر الحمراء، عابرا الطريق الذي سلكه الكاردنال من قبله، ويروي بعض سكان المدينة أن أبا عبد الله، ترك فردناند والتحق على الفور بأحد المنازل حيث كانت أسرته في انتظاره . لكن الذين عاينوا الوقائع، رووا لي أن أبا عبد الله برح المدينة في اتجاه البشرات حيث آوى هو وحاشيته، الى بيوت كانت معدة اليه من قبل . وأضاف هؤلاء، قائلين إنه لما بلغ مكانا على مقربة من بادول، تتراءى منه أسوار غرناطة وقصورها، وقف واستوقف، وبكى واستبكى، متحسرا على ما فاته وضاع منه والى ما آل اليه . فنادته أمه قائلة : «أو تبكي يابني، كامرأة، على ما لم تفلح في الدفاع عنه كالرجال !» أرجّح مصداقية هذا القول لان العرب يسمّون هذا المكان : «عين الله العظيم» .

استقبل سكان غرناطة الملكين النصرانيين بالتحيات والاحترام، وأعربوا لهم عن رضاهم، ولما رأى أهل القرى المجاورة والمناطق الجبلية أن اخوانهم بغرناطة لم يتعرضوا لأي سوء ، طفقوا يسلمون بالامر الواقع، وقد كانوا إلى الأمس القريب أشد عداوة للنصارى وأكثر وفاء لأبي عبد الله .

مع سقوط غرناطة، أصبح جميع التراب الاسباني خاضعا لسلطان النصارى، بعد ما لبث عربيا اسلاميا طيلة سبعمائة وثمانية وسبعين عاما. ومع انهيار الكيان العربي في اسبانيا، بدأت تحركات القوات العثمانية في أروبا الشرقية وشمال البحر المتوسط تثير الانتباه، اذ تمكن بايزيد السلطان العثماني، من غزو

منطقة الايبر، باليونان، والتي دامت مستقلة حرّة الى حين، واسترجع، في نفس الوقت، ماتياس كوبان ملك المجر، مدينة سبات التي استولى عليها الاتراك، ثم نصب فيها حامية مدججة بالسلاح، لضمان سلامة مملكته .

وما مضى عام على انسحاب الاتراك من المدينة الستراتيجية المجرية، حتى أرسلوا، وذلك عام 1493، جيشا قويا ومنظما، يقوده الضابط قادوم باشا، لمقاتله المجريين، فهاجمهم، وقتل منهم سبعة الآف جندي، وأرسل قادوم باشا رؤوسهم الى السلطان العثماني بإصطنبول، دليلا على انتصاراته .

لكن الجيش التركي انهزم عام 1494، في اقليم قرواطة، بيوغسلافيا، أمام جنود الامبراطور ماكسيمليان، وفي عام 1498، قاد السلطان بايزيد بنفسه معركة ضد اقليم البندقية . ولما دخل الى اقليم الدلماتية، بالبلقان، قام باتلاف العديد من المنشآت وغنم غنائم هامة وسبى أعدادا كبيرة من المسيحيين . وعندما كان في طريق العودة الى بلده مرّ باقليم الفريول، فقتل من سكانه أربعة آلاف مسيحي وأمر باغراق المآت من الاسرى الذين بدؤوا يعرقلون عملية الرجوع، عند اجتياز أحد الانهار .

بعد ذلك بسنة، استولى بايزيد على مدينتي قرون ومضون اليونانيتين، ولما دخلت جيوشه مدينة مطون، أمرهم بقطع رأس أسقفها وقتل كافة سكانها المسيحيين، ثم شفع ذلك باحراقها وتدميرها .

انتزع السلطان العثماني عام 1500، من نفوذ جمهورية البندقية، مدينتي لوباندرة ودوراس وبث الرعب بين سكانهما، فاستنجد حكّام البندقية بالبابا الذي كان جيشه وقتئذ يحاصر مدينة نوبيليا باليونان . وكان الاتراك يخططون لفتحها وفتح البندقية التي كانت تعتبر يومها حصنا متقدما للدفاع عن أمن روما وبقية الاقاليم الايطالية .

أوفد البابا كبير ضباط جيشه للالتحاق ببحرية البندقية، بعدما كان على رأس القوات التي طردت قوات الاحتلال الفرنسي من مدينة نوبيليا . دمّر ذلك الضابط مواقع جزر بحر الايجي، ثم التحق بجزر لوكاد وسيفالونيا ونيريتا التي أصبحت تسمى كلها جزر سانت مور، ثم أمر بعد ذلك برفع الحصار عن نوبيليا .

أما في بلاد الفرس، فقد ادعى أحد العرب هناك،واسمه الياس، النبوة، فآمن به مائة وخمسون ألف شخص أو يزيدون، خصصوا أموالهم لخدمة الفقراء وتمويل الجهاد .

علم بايزيد أن عددا من أنصار الياس يوجدون من بين الاتراك في اصطنبول، فاقتفى أثرهم باحراق منازلهم بمن فيها من الاحياء، ثم أعدم عددا آخر، حتى لايتفشى في البلد أمر الياس .

وفي نفس السنة، جنح السلطان بايزيد الى السلم، فعقد صلحا مع ملك المجر ومع حاكم البندقية، حتى يتفرغ لاخماد نار الفتنة في بلاده، لكنه انهزم في معركة ضد الفرس، فعدل عن الحروب حينا من الدهر .

وفي عام 1510 أو عام 1508، حسب بعض الرواة، قام حاكم الدونز ليس الاسباني بعمليات حربية لغزو ميناء المرسى الكبير . وتوجد تفاصيل هذه المعارك في الجزء الخامس من هذا الكتاب .

الفصل الأخيـر

نهاية حكم بني وطاس وبداية عهد الشرفاء ومختصر ما وقع من أحداث في تلك الحقبة من الزمان

كان في المغرب ، في هذه الفترة من الزمان عدة أمراء ، يتقاسمون السيادة ذلك ما جعل الكثير من الحواضر تنفرد باستقلالها ، ولم يكن حينئذ لملوك بني وطاس ما يلزم من السلطة لبسط نفوذهم على مجموع تراب موريطانيا الطنجية .

ظل مانويل ، ملك البرتغال ، مصمّما على نشر العقيدة المسيحية ، وتوسيع حدود مملكته ، فراح يواصل الحروب التي كان يشنّها سلفه ، ولم يكتف باحتلال الثغور المغربية ، بل طفق يحصنها ويشيّد القلاع ، فكانت قواته تحتل سبتة وطنجة وأصيلا والقصر الصغير والعرائش وأزمور والجديدة وأسفي وأكَدير وقلعة أكّوز[1] .أما الحديث عن هذه الغزوات ، فسيأتي في الوقت المناسب .

كانت الحاميات الرتغالية هائلة ، ولم يستطع أي أحد من الأمراء المتحكمين في المغرب ، من أن ينال منها أو يتغلّب عليها ، وكان مانويل وحده ، مثارا للخوف ، وبات جيشه يضم ، زيادة على الوحدات المسيحية ، ستة عشر ألف فارس وأكثر من مائة ألف من المشاة ، كلهم من العناصر العربية أو البربرية ، كانوا يخوضون تحت لوائه ، القتال ضد أعدائه العرب[2] وسيأتي وصف هذه المعارك في حينه .

ظهر في وادي درعة ، وبالأخص في زاوية تكَمدارت ، شيخ له باع طويل في العلم وخبرة واسعة بشؤون الدين والدنيا ، يدعى محمد بن أحمد[3] ، أو الشريف الحسني ، والذي يزعم أنه سليل النبي محمد ، وزعم فريق من الناس أنه سليل أبي الحاجكس (؟) الذي ثار على السلطة في القيروان ، في حين ذهب آخرون الى أنه من أحفاد الشريف الذي اغتال بفاس آخر ملوك بني مرين .

(1) يسمى اليوم هذا الموقع، « الصويرة » ، ويقع على مقربة من مصب نهر تانسيفت . (المترجم) .

(2) عرب معقل (المترجم) .

(3) بل هو محمد بن عبد الرحمن الزيداني المعروف بأبي عبد القائم بأمر الله . (المترجم) .

صار شريف درعة ينهج نهج أسلافه الذين اكتسبوا الشهرة والمجد ، وعلا شأنهم بين الناس بما حققوه من مأثورات دينية وبما ادعوه لأنفسهم من قداسة وشرف ، فكانت حروب البرتغال في المغرب ، وعجز الملوك فيه عن وضع حد لشوكتهم ، مدعاة ليقوم أبو عبد الله محمد بوضع اللبنات الاولى لامبراطورية سيتم انجازها على يد أبنائه .

كان لأبي عبد الله محمد ثلاثة أولاد وهم عبدالكبير وأحمد (4) ومحمد (5) ، بعثهم لأداء فريضة الحج وليتعرف عليهم أهل الحجاز ، ولما رجعوا من الحرمين ، أشاعوا بين الناس أنهم ينذرون أنفسهم للرحمن ، فاعترف لهم البرابرة وغيرهم بالشرف ، وكانوا ينتقلون وهم يذكرون اسم الله ، خاشعة قلوبهم ، لا يسعون الى مال ولا جاه ، ولا يرغبون في العيش الا من الصدقات ، فكان الناس يتقاطرون عليهم أينما حلوا وارتحلوا ، للتبرّك بطلعتهم ولتقبيل ملابسهم .

كانوا في المكر خبراء ، وباللسان فصحاء ، فأقنعوا الناس بأنهم شرفاء من سلالة النبي محمد ، وأنهم حسنيون بالضبط . ثم لم يلبثوا الا أياما حتى التحقوا بأبيهم الذي كان يرابط بزاوية تكَمادّارت ، وهي المعروفة بزاوية الشرفاء .

كان الأخوان أحمد ومحمد ، متفوقين على أخيهم الأكبر في المعرفة والعلم ، والفصاحة ، والرجاحة فأرسلهما أبوهما الى فاس ، وترتب أحمد في مجلس القرويين لتدريس العلم ، وتقرّب محمد الى السلطان مولاي الشيخ (6) فعينه مؤدبا لأولاده .

تلكم هي الظروف التي جعلت الأخوين يستوطنان فاس ، فمال الناس الى حبّهما واكتسبا جاها وشهرة في المدينة بفضل علمهما الواسع . كانت لأبيهما أفكار سامية ومقاصد خفية ، فأعمل فيها مكره . أثار ذات يوم انتباه ولديه الى المتاعب التي يتسبب فيها للمغرب تألب العرْب والبرابرة على السلطة ، بمساندة من ملك البرتغال ، ثم دعاهما الى استئذان ملك فاس ، في التنقل عبر البلاد ، حاملين طبلا ولواء ، ليحضا الناس على الجهاد ضد النصارى ، دفاعا عن الشريعة الاسلامية ، وبين لهما أن لا أحد أولى منهما بالقيام بهذا الدور، وهما من طينة الشرفاء .

---

(4) المعروف بأحمد الأعرج .

(5) المعروف بمحمد الشيخ (المترجم) .

(6) هو محمد البرتغالي ، ويدعى بالبرتغالي لأنه قضى سنوات عديدة من شبابه في البرتغال بصفته رهينة . (المترجم) .

عرض الاخوان على الملك محمد البرتغالي فكرة الجهاد في سبيل الله ، لتأمين سلامة مناطق سوس وحاحا ودكّالة وتامسنا ، وطلبا منه أن ينتدبهما لهذه المهمة ، فاستحسن الملك رأيهما ، لكن أخاه مولاي ناصر الذي كان له اطّلاع كبير على تواريخ قطره وعوائد مواطينه وأخلاقهم وطبائعهم ، نصحه بالاعراض عن هذا الرأي وحذره مما يتظاهر به الاخوان من الصفات ، ومما قد يبيّتانه من دسائس للدولة ، وما مثل الادارسة والمغراويين والمرابطين والموحدين ، بخاف على الناس .

لكن الملك لم يحفل بتحذير أخيه ، معتبرا أنه لن يخشى منهما سوءا ما دام نفوذه منعدما في الجهات التي سيئومّانها ، واعتبارا لما لهما من تقدير وما يحظيان به من جاه لدى رعاياه . نزل محمد البرتغالي عند رغبتهما وأمر لهما بعشرين فارسا لمرافقتهما ثم زوّدهما بالمال والمؤونة وبرسائل توصية لدى أصدقائه من العرب والبربر.

حلّ الاخوان بدكالة . هنالك اجتمع الناس حولهما وأقاموا المحافل تكريما لهما ، فنادوا بوجوب الجهاد ، لطرد النصارى الغزاة ، ومن ثم زحف موكبهما الى حدود أسفي وخطبا في المحافل ، فتحركت مشاعر الناس ، وراح سكان البوادي والمداشر يغدقون عليهما العطاء ، لكن لم يكن الاخوان يرغبان في الثروة بقدر ما كانت لهما رغبة في المجد ، ثم شدّ الاخوان الرحال الى سوس وقد انضم الى موكبهما في الطريق ، جمهور من الفقهاء والاصدقاء والأقارب ، فتضخّم الموكب ، وكان الاخوان يعظان الجماهير ويستنفرانهم لاجلاء النصارى من ربوع البلاد ، وشاع في المغرب أن الجالس على العرش بفاس ، انتدبهما لقيادة الجهاد ، فبايعهما العديد من الناس ، والتحق بصفوفهما الاعداد من العرب والبربر ، الذين لم يكونوا منضوين تحت لواء أي سلطة ، فمضوا يشنون الغارات على القبائل العربية المتحالفة مع البرتغال .

فكّر الشريفان في القيام بعمليات حربية ، وعرضا على القوم ما يعترض ذلك من مشاكل ، فأسرع الناس الى امدادهما بزكواتهم وأعشارهم ، بعدما أمسكوا عن دفعهما ، وهم يحيون أحرارا مستقلين ، نظرا لانعدام وجود السلطة المركزية في أوساطهم. وكان أهل درعة هم الذين بادروا الى تمويل مشاريعهما بالزكوات.

كادت ترودانت خالية من السكان نظرا لعمليات النهب التي كانت تمارسها فيها قبائل العرب ، ولم تكن فيها سلطة نظامية ، ولم يكن في المنطقة لبني وطّاس أي شأن ، فوجدها الشريفان لقمة سائغة ، فاستوليا على المدينة وحصّناها ثم استوليا على تيدسي ، الواقعة في أرباضها

بايع سكان ترودانت وتيدسي، الشيخ الشريف أبا عبد الله محمد القائم بامر الله، وقدموا له زكواتهم لتهيء جيش يتألف من خمسمائة فارس، مهمته الجهاد ضد النصارى المحتلين لأكدير .

أصبح للشريف شأن يذكر وأخذ يحظى بالاحترام في هذه المناطق، ولما استقر بترودانت، دعا لتشييد قصر على بعد فرسخ ونصف منها، فأوى اليه، ليكون أمره مسموعا مطاعا بين اهل سوس، كما كان الشأن لبنى مرين من قبل . وفعلا كانت كافة فئات السكان تخشاه، الاغنياء منهم والفقراء، فاستتب أمره بينهم، لامن الناحية الدينية فحسب، بل وحتى من الناحية الدنيوية، لان قصده كان هو الجهاد ضد النصارى وتحرير البلد من قبضتهم .

تضاعفت شوكة النصارى على ضوء تواطيء بعض قبائل سوس معهم، فراح يقاتل المزواريين منهم الذين ظلوا يتحكمون في حواضر درعة ويتعاونون مع النصارى، وهزمهم بعد معارك عديدة ثم أخضعهم لنفوذه .

كانت حاحا ودكالة وتامسنا تتعرض دوما لأعمال النهب والسبي ، من طرف البرتغاليين المرابطين بأسفي، فتحالف الشريف مع مسلم جنوى نصب نفسه أميرا على أهالي تاغزوت في جنوب سوس .

لم يمانع المسلم العلج في أن يمر الشريف أبو عبد الله محمد، بتاغزوت ليزحف على حاحا. وهناك ذهب الشريف يحض البربر على مناصرته ويدعوهم الى الانضمام اليه، حتى يتمكن من تخليصهم من الكابوس المسلط عليهم من لدن النصارى وحلفائهم العرب، فباركوا مسعاه وأجمعوا على بيعته ليفتح أبصارهم على دينهم وليحمي شؤونهم في دنياهم، وقرروا أن يدفعوا اليه الزكوات عن محصولاتهم الزراعية وعن انعامهم، فأمر بانفاقها على فلول الانصار الذين امسوا يتقاطرون على معسكره من سائر الآفاق .

أصبح الشريف يلقب بأمير حاحا ففتح تزنيت، وطاب له المقام بها حينا من الدهر، وقد جعلها بمثابة عاصمة اقليمية وقاعدة عسكرية تنطلق منها الهجمات على أسفي وعلى قبائل عبدة، من العرب والبربر الذين استحبوا الولاء لملك البرتغال . الا أن قواته فشلت في النيل من جيش الحاكم البرتغالي (7) الذي كان يرابط بالمدينة - ولنا عودة الى هذا الموضوع في مقام آخر — فاستقر رأي الشريف الذي أنهكه الكِبر ، على الرحيل الى جهة أخرى في حاحا، فوافاه الاجل بعد قليل .

حمل أولاده الثلاثة مشعل الجهاد، ورغبة الهيمنة تتأجج في صدورهم فكانت كلمتهم نافذة ودعوتهم مسموعة وأعرب لهم الناس عن الولاء والطاعة، ولم يمانعوا في تسليمهم الزكوات والأعشار .

كان الاقبال عليهم منقطع النظير، فأخذت الشهرة طريقها اليهم بكيفية مطردة سواء بين أهالي سوس أو من بين أهالي درعة: مقدّمين طاعتهم لهم عن رضى منهم واصفاق ، فحاصروا بلدة الجدّ (8) التي كانت فيها السيادة على السكان لشيخ بربري خاضع لنفوذ ملك البرتغال يدعى سيدي بوجيمة، فاستولوا عليها ثم أقاموا فيها التحصينات ونصبوا فيها حامية . ولما لبثوا فيها أياما وأحسوا بتعرضهم للخطر بجوار النصارى، رحلوا الى قصر في شمال المنطقة أي بالضبط على بعد خمسة وعشرين فرسخا من أسفي، فرمّموا القصر المذكور وحصّنوه واتخذوه بيتا لهم، وصاروا ينطلقون منه لتوجيه ضربات مظفرة الى البرتغاليين وسأعود الى الحديث عنها فيما بعد .

مال اليهم سكان القبائل العربية وأهل الحواضر، فذهبوا يؤدون اليهم الزكاة والاعشار، فاجتمعت لديهم أموال مكنتهم من الانفاق على كتائبهم وعلى أنفسهم .

ورداً على تدخلات قوات الشرفاء، قام قائد حامية أسفي القبطان لوبيز بريكة، بحصار مدينة آنكة . ولما علموا بذلك، هبوا لنجدة المدينة، فبغتت قواتهم قوات البرتغاليين وقتلوا منهم عددا كبيرا وأسروا قائد الحامية والعديد من ضباطه وذوي المراتب الممتازة في صفوفه . لكن أخاهم الاكبر، عبد الكبير، قتل في هذه

(7) المسمى بنتيو فردناند أتايد .

(8) هكذا وردت في النص .

المعركة التي استبسل فيها البرتغاليون، وعاد الاخوان أحمد ومحمد مظفرين الى قصرهما، وقد ازدادا شهرة، لأن القائد البرتغالي الذي انتصرا عليه، كان يثير الرعب في أوساط سكان المنطقة وبين أهالي الجهات الاخرى .

كان في هذا العهد، ناصر بوشنتوف احد البرابر المنتسبين الى قبيلة هنتاتة، يستبد بحكم مراكش التي هاجرها السواد الاعظم من سكانها، وعلى احوازها، بينما ظلت الجهات الاخرى بالمنطقة منضوية تحت لواء اقطاعيين يدينون بالولاء لقواد من الأعراب .

أصبح احتلال مراكش حلما يلاحق الشريفيين ، لاسيما وان تحقيقه أضحى في نظرها عملية عسكرية هامة من شأنها أن ترفع من شهرة جيشهما وتفسح لهما المجال لبسط نفوذهما على أقاليم أخرى . من أجل ذلك، بادرا الى ابرام تحالف مع ناصر بوشنتوف، وعرضا عليه خدماتهما ثم أهدياه بعض الجياد وبعض الاسرى النصارى، فأعجب بمنجزاتها واستقبلهما بحفاوة بالغة في مراكش، وأغدق عليهما العطاء، وخصص لهما نصيبا من الزكاة لتمويل العمليات العسكرية .

كان بوشنتوف مولعا بالصيد، فراحا يرافقانه الى الصيد، بين الفينة والاخرى . وذات مرّة تزوّدا من جملة ما تزودا به الى الصيد، بحلويات يابسة، وقد دسّا السم في بعضها وأمرا أحد رجالهما بالسهر على الحلوى المسمومة، وتقديمها الى بوشنتوف عندما يريد أن يشرب ماء .

وذلك ما تم، حيث تناول بوشنتوف الحلويات المسمومة، فتوفي بعد ستة أيام .

بقي أحمد في المدينة، بينما ذهب أخوه محمد الى قصر الشرفاء بسوس لتعبئة الجنود والقدوم بهم الى مراكش . واستغل أحمد الظروف التي خلفتها وفاة بوشنتوف، فخطب في الناس واستقطب اهتمام الشخصيات التي تحيط ببوشنتوف، فأجمعوا على بيعته دون سواه، باعتباره حفيدا للنبي محمد، وأهلا ليكون وارث العرش ، واستطاع أحمد أن يستميل المعارضين، فاعترف به السكان قاطبة، مع رجائهم في حكم أفضل، من طرف الشرفاء .

صارت مدينة مراكش وأحوازها تحت هيمنة أحمد، فقرب اليه ابناء الهالك وأسند اليهم مسؤوليات أكبر مما كانت لديهم من قبل، وراح يستميل القبائل

العربية المجاورة لاستتباب الأمن في المنطقة ، ثم أوفد رسولا الى فاس لاطلاع الوطاسي على ماجريات الاحداث، مؤكدا له بأن أهالي المنطقة بايعوه بعد وفاة بوشنتوف وأنه تولّى دفة تسيير الامور باسمه وتحت سلطته، وأنه على استعداد لارسال الجبايات الى فاس واشفاعها بالهدايا التي سترضيه .

أصبح الشريفان يسودان في البلد، واشتدت شوكتهما في كثير من الجهات، وأخذ القلق ينتاب حاكم أسفي (9) وحلفاءه من العرب والبربر، بشأن الجبايات، لأن الشريفين باتا يحضان العرب على التخلص من نفود ملك نصراني . واذا ما صادفتهما صعوبات في اقناع الاهالي لجؤوا الى إثارة الخلافات بينهم .

وهكذا، نشبت معركة بين قبائل دكالة التي انقسمت الى فريقين، كل فريق يعتمد على مساندة الشريفين . لكن الاخوين لم يتدخلا . ولما قتل وجرح عدد من المتحاربيين من الجانبين، وسرى العياء فيما بقي من أحيائهم هاجمهم الشريفان وهزماهم بكل سهولة، ثم عادا محملين بالغنائم المختلفة، من اسلحة وجياد وأنعام، لاسيما وأنهما نهبا المداشر والدواوير .

تزايد عدد أنصار الشريفين خصوصا وأنهما انطلقا يوزّعان الأسلحة والجياد على الذين كانوا يفتقرون اليها، ثم بدآ لايعيران أي اعتبار الى ملك فاس، وبدلا من موافاته بخمس الغنائم، لم يبعثا اليه الا بستة من الجياد، ومن الابل بستة، فأعرب لهما عن سخطه من جراء ذلك .

ولما توفي ملك فاس ، أخفى ابنه (10) ، وهو من المؤيدين لدعوة الشرفاء، نبأ وفاة أبيه عن الناس، ثم اعترف للشريفين بالامارة على المناطق التي استوليا عليها، مقابل استلامه بعض الجبايات .

تضاعفت قواتهما بسبب موت ملك فاس، وتحالفا مع بعض قواد المناطق الجبلية الذين كانوا يضمرون العداء لأمير فاس، فأخذا يعرضان عن موافاته بنصيبة من الجبايات وبلغاه بأنهما يمثلان الخليفة الشرعي للنبي محمد وأن لهما في المغرب حقوقا أكثر من غيرهما، وأنهما سيعتبرانه صديقا اذا بادلهما المودة ، أما اذا عارضهما في الجهاد ضد النصارى، فانهما لن يقصرّا في الدفاع عن أنفسهما

---

(9) المسمى نينيو فرنانديس .

(10) أبو العباس أحمد (المترجم) .

وسيبتدئان به، أمام الله والرسول .

كان محمد (11) وهو أصغر الشرفاء ، يقيم عادة في هذا الوقت بترودانت، فحصنّها وجمّلها بكل ما لديه من امكانات، ثم أخذ يدبر لقتال النصارى المقيمين بأكَدير، فنظم جيشا يتكون من عناصر عربية وبربرية، وذهب لحصار الموقع العسكري البرتغالي . لكن جهوده تحطمت أمام تحصينات المدينة، وفقد العديد من الجنود، فولى عائدا الى ترودانت، بينما صفت لأخيه أحمد الاعرج السلطة على المناطق المتاخمة لاقليم مراكش، وذلك بفضل مساعدة بعض الولاة والشيوخ من أصدقائه . وراح أحمد من جهة ومحمد من جهة أخرى، يستخلصان الزكوات، إذ لم يبق لهما ما يطالبان به البربر سوى ذلك .

لما رأى أبو العباس أحمد، ملك فاس، أن قوات الشريفين مضت تزداد عددا وعتادا مع الايام وعلم أن الاخوين اتخذا لنفسهما لقب الملك بدون خجل، ساءه الامر واغتاظ ، ثم سعى الى استدارك الأمر ولو بعد فوات الأوان ، فقرر أن يضع حدا للحالة التي تسود البلاد، وذلك باعلان الحرب على الاخوين فقاد جيشا بنفسه قوي العدد والعتاد، مجهزا ببعض وحدات المدفعية .

حاصر ملك فاس مراكش عدة أيام، ثم أخذت مدفعيته تقصف جهة السور القريبة من ضريح سيدي بلعباس الذي يحظى بعناية كبرى من طرف السكان . ولما أخذت قذائف المدفعية تهدد بانهيار البرج القريب من باب المدينة، اذا بالشريف محمد يقدم من ترودانت على حين غرة، ويدخل المدينة على رأس ثلاثة آلاف فارس، وأقسم للملأ أن الحصار لن يزيد يوما واحدا ، ثم خرج بعد ذلك لتعزيز صفوف أخيه، فلم يستطع جيش ملك فاس الصمود أمام الأخوين، وقد أصيب بخسائر فادحة في الارواح والعتاد، وتراكمت الأشلاء بجوار مخيم الملك .

في ليلة ذلك اليوم، أتى رسول (12) من فاس ليخبر الملك الوطاسي أن أخاه استولى على فاس الجديد بتواطيء بعض سكانه . عندها رفع الملك الحصار عن مراكش وهرع الى قاعدة ملكه، وهو يطوي المراحل بسرعة غير عادية، وذلك ما زاد في شهرة الشريفين .

---

(11) محمد الشيخ .
(12) هو مولاي مسعود .

أخذت قوات الأخوين أحمد ومحمد تطارد جيش الملك حتى وصلا إلى أعمال هسكورة، ثم عرجا على تادلا، وهناك، أمدّهما السكانِ بالمساعدات، ولو أن أكثرهم ظلوا الى حين يدينون بالولاءِ للوطاسيين .

بعدما قضى الملك على الفتنة في المدينة، فكر من جديد في وضع حدّ لعصيان الشريفين ، لذا قرر العودة الى مراكش لاستئناف القتال ضدّهما . لكن الاخوين كانا على جانب كبير من اليقظة، فقرّرا أن يتربصا له بوادي العبيد، رغم قلّة عدد جنودهما التي لم يكن فيهم من الفرسان الا سبعة آلاف، ومن الرماة الا مائتان، في حين كانت قوات الملك الوطاسي تضم تسعة عشر ألف فارس، وألفين من الرماة وسبعة عشر مدفعا .

وادي العبيد، نهر عميق، وكان كل من الجيشين المتحاربين يترقب من سيبادر بعبوره لينقض على الآخر، أما مجرى النهر، فانه كان يلتوي هنا وهناك، تعلوه بين الفينة والاخرى تلال وجبال، وقد حطّ كل جيش فيِ أرض بطحاء . وبدأ التراشق بينهما، واستمر ثلاثة أيام .

لما تبين للملك فاس أن أعداءه يهدفون الى منعه من عبور النهر، قرّر أن يتحدّاهم . لذا، قسم جيشه الى ثلاثة فيالق وعقد قيادة أولِها لابنه، وهو فيلق الرماة، وكان يساعد الامير في هذه القيادة، أبو عبد الله، ملك غرناطة المخلوع الذي التجأ الى بلاط فاس، بعد نكبته التي وصفناها في الفصل الذي قبل هذا . أما قيادة الفيلق الثاني، فانها كانت من نصيب صهره مولاي ادريس بمعية الوالي العطّار، بينما احتفظ الملك لنفسه بقيادة الفيلق الثالث، يساعده عدد من الشيوخ وكبار المسؤولين .

قام أبو عبد الله، ملك غرناطة السابق، باجتياز النهر، على رأس عناصر من الجيش الوطاسي، وتوغل في الجهة المجاورة لمعسكر الشرفاء، ثم أرسل بعض الرماة لمهاجمة أعدائه عساهم ينشغلون عن مراقبة مواقع ملك فاس، ومع رجائه بأن بقية الجيش ستتمكن من العبور . الا أن أبا عبد الله أخطأ في مخططه لأنه أغفل ردود فعل الشرفاء .

كان جيش الاخوين الشريفين يتألف من فرقتين، فرقة الرماة التي يقودها محمد الشيخ وفرقة المشاة التي كان يقودها أخوه أحمد الاعرج، ملك مراكش . ولما

شاهد الاخوان أن رحي المعركة تدور فوق مجاز النهر، في مكان منحدر، انقضّا على العناصر التي تجرّأت على العبور، وقتلا ابن ملك فاس وعددا من قواد الجيش، فارتبكت قوات الوطاسيين وبدأت عناصرها تفرّ، فاصطدموا بالقادمين لنجدتهم واختلط الحابل بالنابل، فأصيب بعضهم بجروح، وغرق منهم عدد آخر وهم على جيادهم، وقتل أبو عبد الله وهو يدافع عن عرش أجنبي بعدما تخلّى عن التضحية بحياته دفاعا عن مملكته .

شهد الملك الوطاسي الكارثة التي حلّت بجنوده ، وهو لم يعبر النهر بعد ، واتّضح له عجزه التام عن مجابهة الشرفاء ، فترك ابنه قتيلا والجنود الذين كانوا معه، وتخلى عن حريمه وعن أمتعته ، ثم لاذ بالفرار الى تادلا ومنها الى فاس .

على اثر هذا النصر الذي كتب للشرفاء هبّ سكان المنطقة لمبايعتهم ، ودفعوا اليهم المعونة والزكاة . وفي السنة التي تلت هذه الأحداث ، اجتاز الشرفاء الأطلس الكبير على رأس قوات أكثر عددا ، وأهم عتادا مما مضى ، وراحوا يحاصرون مواقع تفيلالت ، مستخدمين في قصفهم لها المدافع التي غنموها في معركة وادي العبيد .

واستسلم للشرفاء والي تفيلالت ، فأقطعوه أرضا في الغربة ، ثم حملوه معهم الى مراكش بعدما تركوا حامية بالمنطقة ، وفتح لهم هذا الفوز طريق الهيمنة على كافة اعمال تفيلالت ، اذ خضع السكان لسلطانهم طوعا أو كرها .

عجز ملك فاس عن التوجه الى تفيلالت ليطرد منها الشرفاء ، ولكنه تظاهر بالاهتمام بأمرهم ، فأوفد عناصر من جيشه للمنطقة لاستخلاص الامدادات المالية من سكان تخوم المنطقة . هنالك تصدى لهم محمد ، ملك سوس ، وهزمهم فولّوا على أعقابهم خاسرين ورجع محمد الى مراكش ، وقد ترك وحدات من جيشه بتادلا، وبعد ذلك دخل الى ترودانت مظفّرا سالكا سلوك الملوك .

اهتم محمد الشيخ بأمن ترودانت ، فأقبل على تدعيم تحصيناتها ، ثم أرسل جيوشا الى تفيلالت والى ليبيا (13) وقد أمر الجنود بقتل كل من يرفض الولاء لهم ونهب ممتلكاتهم . كان نتيجة ذلك أن صفت لهم كثير من الامصار التي كان أهلها من البربر يعيشون مما تنتجه الأرض ، شأنهم في ذلك شأن القبائل العربية .

---

(13) كذا في النص .

لم يفت ملك سوس أن أكَدير باتت مستعمرة برتغالية ، غير بعيدة من ترودانت . فجمع الجموع ، وشكّل جيشا مجهّزا بالمدافع التي غنم بعضها أثناء المعارك التي خاضها ضد ملك فاس . وقد اقتنى البعض الآخر بواسطة أحد المسلمين العلوج .

حاصر الملك أكَدير أياما عديدة ، فاستسلمت له حامياتها ، وسبى كل البرتغاليين الذين كانوا يتواجدون فيها ، وسأتحدث عن هذا في الفصل الثالث من هذا الكتاب .

حقق الشرفاء نصرا مبينا بقضائهم على البرتغاليين في أكَدير ، ورفعهم هذا النصر الى المقام المرموق الذي وصلوا إليه اليوم . أما أخبار الحرب والمغانم الكثيرة التي وقعت بين أيديهم ، والأسرى الذين عادوا بهم من أكَدير ، والاصداء التي خلفتها الوقعة في الداخل والخارج ، كل ذلك تظافر لحمل البرابرة وأهالي المدن والامصار ، على الاعراب لهم عن الولاء والوفاء ، زد على هذا أن القبائل العربية التي كانت تتعاون مع البرتغاليين أعرضت عنهم وأصبحت تأتمر بأوامر الشرفاء ، فعظمت شوكة هؤلاء ، الى درجة رأى معها ملك البرتغال أن مستعمراته بالمغرب أصبحت تكلفه كثيرا ، فقرّر الجلاء عن بعضها ، وأخص بالذكر أصيلا والقصر الصغير وأزمور وأسفي ، مع تهديم بعض تحصيناتها . أما الجيوش التي كانت ترابط بها ، فانها التحقت بالمواقع الباقية .

كان لهذا العمل انعكاس كبير على الوضعية السياسية في البلاد ، لأن الشرفاء استفادوا منه . وقد تضاعف في مختلف الأوساط المحلية ما كان لهم من شهرة .

يقول المثل ان الخلاف وليد الطموح ، وقد صدق المثل مرة أخرى في الخلاف بين الأخوين ، أحمد الأعرج الذي ظل يبسط نفوذه على مراكش وأعمالها ، بينما كان محمد الشيخ يبسط سلطانه على كافة أعمال سوس ، نيابة عن أخيه أحمد الأكبر منه سنا

لكن محمدًا الشيخ كان يمتاز عن أخيه بعدة صفات ، منها البسالة والحكمة وطيب الخاطر والليونة ، فأحبّه الناس أكثر من أخيه ، لا لأنه حرّر منطقة سوس من الاستعمار البرتغالي فحسب ، ولكن أيضا لانه كان دائما يتقدّم قواته في معاركها ، وكانت له فصاحة في اللسان وموهبة في الكلام والخطابة .

بعد فوزه على البرتغاليين ، لم يرسل لأخيه أحمد الأعرج سوى بعض الاسرى ، ذكورا واناثا ، من بينهم حاكم موقع أكدير ، بينما احتفظ بالعدد الكثير منهم الجنود المحنّكون والصنّاع الذين يصهرون الحديد فيصنعون منه الأسلحة ، لكن أخاه ألحّ عليه في أن يوافيه بخمس الغنائم وبالمدفعية والرماة وبأربعمائة من الأسرى البرتغاليين .

رفض محمد الشيخ تلبية مطالب أخيه ولم يفلح الوسطاء في اقناعه بالاستجابة لما يريده أمير مراكش ، فراح أحمد الاعرج يُكره السكان الموالين لاخيه حتى يُحوّلوا اليه زكواتهم وامداداتهم ، وكان محمد الشيخ يستخلصها منهم مع ذلك ، وفضّل استنزاف الأموال من الشعب ، بدلا من قطع العلاقات مع أخيه .

طلب أحمد الأعرج من أخيه تحديد موعد لمعالجة الخلاف القائم بينهما ، لكن محمد الشيخ رفض اللقاء ، مدّعيا أن مشاغله لاتسمح له بذلك ، وبيّن له بالمناسبة أنه لا يخشاه ، ثم استفسره أحمد عن الاسباب التى صدّته عن الاعتراف له بحق خلافة أبيهما ، وقد حقّقا معا انتصارات باهرة مؤكدا ضرورة التمسك بالوحدة بينهما ، ثم بنصيبه من الأموال التي تركها أبوهما في خزائن ترودانت ، والأموال التي غنماها معا في المدن والامصار لهما شؤونها ، وكذلك من الغنائم التي حصلا عليها في المعارك التي خاضاها ضد ملك فاس ، وأنه ليس من العدل أن يكون عرض نفسه لأخطار جسمية والا يستفيد الا قليلا من الغنائم . فكان ردّ محمدان طالب من أخيه أن يعترف له بابنه الاكبر محمد الحرّان ، وليا للعهد على البلاد ، تنفيذا لِوصية أبيهما الذي قال وهو يحتضر ، بأن من يولد له ولد أول من الأخوين سيتولى ولاية العهد .

اغتاظ أحمد لمطالب أخيه ، فأمر ضباطه بالاستيلاء على جميع المدن التابعة لنفوذ محمد . هنالك ، تدخل رجل صالح يدعى سيدي رحال (14) ، ودعا أحمد للتمسك بجانب الحكمة تلافيا لقطع العلاقات مع أخيه ، ثم عرض وساطته على الاخوين ، فنظم لقاء بينهما ، على ضفاف نهر ايسل ، حيث حضر كل منهما ومعه خمسمائة فارس .

تقابل المعسكران في السهل ، وكان كل منهما في حالة استنفار وتأهب ، وراح الفقيه سيدي رحال ، ينتقل من معسكر الى آخر ، ساهرا على ترتيبات

(14) سيدي رحال الزمراني ، الموجود ضريحه غير بعيد من تاساوت (المترجم) .

اللقاء بين الأخوين .

بدأ الاخوان يتجه أحدهما نحو الآخر ، وأخذا يتقاربان ، وكل منهما مستعّد للطوارئ،ولما دنا محمد من أخيه ، انحنى احتراما له ، ثم تصافحا وتعانقا بشدة حتى كاد أحمد يرمي أخاه على الأرض .

كان محمد أقوى من أحمد ، فانسلّ من بين يديه ووكزه دون أن يضربه ثم آخذه على خذلانه ، قائلا بأنه يعرفه جيدا ويعرف مكره وانه لن ينخدع بأعماله ، فأجابه أحمد قائلا :« أعرف أنك تسعى الى هلاكي ، لكني سأحطم كبرياءك ».

ثم امتطى كل واحد منهما فرسه وعاد الى معسكره راحلا الى ممالكه. ولما وصل أحمد الى مراكش، جهّز جيشا أوفده تحت قيادة ابنه الاكبر، مولاي زيدان الى درعة، ليأتيه بالجبايات. وأرسل محمد قوات تتألف من ثلاثة آلاف فارس للدفاع عن سكان أعماله ، تحت قيادة مومن بلعيش ، ابن العلج الايطالي الذي أسلم ، لكن جنوده انهزموا واعتصم بلعيش بأحد القصور في انتظار النجدات ، لكنه اضطر الى الاستسلام لعدم توفره على الماء،وقد أمنه زيدان كما أمن من معه من الجنود . ولما استسلم جنود بلعيش ، تراجع مولاي زيدان عن وعده ، وأمر بقطع رؤوس كل ضباط خصمه ، ثم أرسل بلعيش أسيرا الى مراكش ، حيث لبث أمدا طويلا سجينا ومكبّلا بالاصفاد .

اشتدت ضراوة النزاعات المسلحة بين الاخوين ، اذ أن محمداً أرسل الى حاحا لجمع التبرّعات جيشا آخر يتألف من العناصر المستبقاة من القوات المنهزمة ومن عناصر فتية . لما بلغ هذا الى علم أخيه ، أرسل بدوره وحدات للمرابطة على ضفاف نهر نفيس ، يقودها ابنه لمحاربة قوات محمد الشيخ ، فهزمها وعاد مظفّرا الى مرّاكش .

دفعت هذه الانتصارات أحمد الأعرج الى الظن بأن صفوف أخيه قد تضعضعت فعبأ قوات هامة للقضاء عليها نهائيا . لكن محمد الشيخ لم يركن الى الاستسلام، فدعا جميع ولاة أعماله الى تجمع ضخم حضره شيوخ القبائل والفقهاء الذين تعهدوا بمناصرته ، فخطب فيهم بفصاحته التي تأخذ بالألباب مبرزا طغيان أخيه ، ثم طالبهم بمساعدته بكل ما لديهم من امكانات فوعدوه بمواصلة دعمهم

له و بوفائهم التام ، فشكرهم على عبارات ولائهم له وقبض لحيته بيده حسب العادة المحلية وأكد لهم بأنهم إذا ظلوا أوفياء لوعودهم فإنه سينتصر على أخيه وسيأتي به أسيرا الى ترودانت .

استنفر محمد الناس فلبى دعوته جموع هامة من المتطوعين وعلم أن أخاه شرع في الاستعدادات لغزو منطقة سوس ، فقرر أن يفاجئه بهجوم محكم ، بأحد الممرات عبر الأطلس الواقعة بين مراكش وترودانت وأرسل فريقا من الرماة يقوده محمد العلج ، وهو من أصل برتغالي ، وفرقة من المدفعية لترابط بمخابىء ومغاور الممر الجبلي .

وفعلا ، وصلت هذه الجموع الى مواقعها تحت ستار ظلام الليل ، يقودها في الخلاء والمنعرجات الوعرة عناصر من البربر . وقد أخذت ، قبل ذلك ، قوات قادمة من مراكش تزحف نحو المكان ذاته المعروف بمعسكرتن ، تسعى لاحتلاله .

بعد ذلك بيوم وصلت محلة محمد الشيخ بدورها الى عين المكان، ثم حطت في سهل غير بعيد، تحميه المدفعية المستترة في مخابئها . الا أن أحمد الاعرج لما أبلغه أحد الفارين من معسكر أخيه أن قوات ملك سوس وصلت الى معسكرتن، غير اتجاهه واختار ممرا آخر غير بعيد عن معسكر قوات أخيه، ليكون في مأمن من قصف المدفعية، ثم قسّم جيشه الى أربعة فيالق، تضم في مجموعها أربعة عشر ألف فارس .

كان ابنه الثاني يقود قوات الطلعية، وأمره بأن يتمهل في الزحف نحو مقصده، عبر الممر الضيق الخطير . وكان أحمد يمشي وراءه، وبمعيته ابنه أبو عصام . في حين كان ابنه الاكبر، مولاي زيدان يسير خلفه مع القوات الخلفية، كل واحد منهما على رأس أربعة آلاف فارس، وبقي اثنان آخران من أبنائه، قائمين على حراسة الذخائر والامتعة ، تحت إشراف ابنه مولاي القائد .

لما علم محمد الشيخ بأن أخاه انحرف عن الطريق التي كان ينتظره بها، ترك في مقر القيادة بعض العناصر من جيشه، ثم أرسل ابنه محمد الحرّان على رأس ثلاثة آلاف فارس للتعرّض الى ملك مراكش، ولحقه هو على رأس بقية الجيوش .

وبالفعل اصطدم ابنه محمد الحران بوحدات الطليعة التابعة لجيش مراكش باحد السهول، ونشبت معركة بدون سابق اعلان، دامت زهاء ساعة، مات خلالها

عدد من الضباط من الطرفين ــ اذ كان يريد اظهار بطولته وشجاعته ــ وتميّز خلال الاشتباك رجال الرماية الذين اضحوا يفتكون بالعدو من مواقعهم، لايخافون أية اصابة. وقتل ضابط لامع (15)، من قوات أحمد الاعرج، التي أخذت بعد ذلك تضطرب وأحست ببوادر الانهزام .

في هذا الظرف الدقيق تدخّل محمد الشيخ، وأمر بتضييق الخناق على قوات أخيه، فما زادها ذلك الا اضطرابا وفوضى، فتزحزحت عن موقعها . وراح عناصرها يفرون من الميدان، طالبين النجاة من أعلى الجبال، فاصطدموا بعضهم بالبعض، وأخذ الفرسان منهم يتساقطون على الارض في المسالك الضيقة، فكنت ترى الجياد تتكبكب على منحدرات الجبال لانها لم تضع قوائمها على أرض ثابتة، وصار الفرسان يتركون خيلهم مفضلين الفرار على الاقدام، لكن اعدائهم تعقبوهم واحدا واحدا، وتصدى لهم البربر من حيث لم يحتسبوا، فقتلوا منهم ما لايحصى، وغنموا من أمتعتهم مغانم كثيرة .

تخلّى أحمد الاعرج وابنه أبو عصام كذلك عن مطيتيهما، وسارا يمشيان على الاقدام، لايعرفان أين يتجهان ، فضلّا الطريق، ووقعا في الاسر، في جملة عدد كبير من ذوي المراتب العليا . وتبين أنهما الوحيدان اللذان نَجَوَا من الهلاك، من بين ثمانية آلاف فارس كانوا معهما .

رجع ملك سوس الى ترودانت بعد انتصاره الساحق، ومعه العديد من الاسرى، من بينهم أخوه وأبو عصام . أما مولاي زيدان فقد تمكّن من الفرار وعاد الى مراكش رفقة الفلول من جنود أبيه .

كان مولاي زيدان أميرا عظيما، وكان يعطف على النصارى، فلم يرض بأن يكون أبوه أسيرا وعمه يرفل في العز، فسعى الى التحالف مع الامبراطور الاسباني كارلوس الخامس ومع ملك البرتغال . لذا فاتح في الموضوع بعض النصارى من أسرى الحرب المعتقلين بمراكش، وكنت أنا من بينهم . وقد قبل بعض الاسرى النصارى خدمة مولاي زيدان، مقابل مكافآت عن ذلك . لكن، لما أخذ مولاي زيدان يفكّر في تسليح النصارى وإدماجهم في قواته، نصحه أحد أولياء مراكش، الفقيه الجيهاني، وفقهاء آخرون، بالعدول عن مشروعه، خشية اثاره

(15) يدعى أحمد بن فارس .

فتنة كبرى عبر البلاد، ورأوا من الأليق، بدلا من ذلك، أن يوفد زوجته مريم وهي ابنة عمه محمد ملك سوس، لتتفاوض مع أبيها بشأن ابرام اتفاقية حول تحرير الاسرى . كللّت مساعي المرأة بالنجاح، فوافق أبوها على اخلاء سبيل أخيه وابرام صلح بينهما على شرط أن يتقاسما السيادة على المدن والامصار التي صفت لهما شؤونها، وذلك بالشكل التالي : الاعتراف لمحمد بالسيادة على منطقة سوس والجهات الواقعة جنوب الاطلس ، والمناطق الصحراوية الواقعة في أقصى جنوب سوس، ويحتفظ أحمد بالسيادة على الاقاليم الواقعة شمال الاطلس الكبير، مع أعمال تافيلالت المتآخمة لمملكة فاس ، على أن يتقاسما تركة أبيهما مناصفة، مع الاعتراف بمحمد الحرّان الابن الاكبر لمحمد الشيخ بولاية العهد على المملكتين معا، وأن يليه على عرش البلاد مولاي زيدان، الابن الأكبر لأحمد الاعرج، وأن يتم تحرير جميع الاسرى من الجانبين بدون فدية، وأنه يتعين قبل ذلك، على مراكش وأبنائه وضباطه الذين وقعوا في الاسر، أن يقسموا بأنهم لن يخالفوا أي فصل من فصول الاتفاق وألا يعودوا مرّة أخرى الى محاربة ملك سوس . وجاء في الاتفاق أيضا أن كلا من ملك مراكش وأخيه سيحصلان على أخماس الغنائم التي قد يشتركان في الحصول عليها استقبالا، وأنه عندما يتم توحيد الجيشين ، سيقع الاعتراف بملك مراكش عاهلا على البلاد .

تلكم هي الشروط الواردة في معاهدة الصلح المبرمة بين الأخوين . لكن ما كاد أحمد الاعرج يصل الى مراكش، حتى أعلن عن رفضه تطبيق بنود المعاهدة بدعوى أنه كان مرغما على قبول فحواها وهو أسير، وأنه لن يتخلّى عن حقوق ابنه مولاي زيدان في ولاية العهد، لأن المشروعية قائمة بجانبه، فأعاد تنظيم جيشه وأعلن الحرب على أخيه، وجرت هذه الاحداث سنة 1545 .

علم محمد الشيخ ما بيته أخوه ضده، فقام بالزحف نحو مراكش على رأس قواته، وأمر أبناءه بأن يلتحقوا به مع بقية القوات . وقد عبر محمد الشيخ ممرات الاطلس في أيام قلائل ، حتى اذا وصل الى مكان لا يبعد عن مراكش الا بسبعة فراسخ، التقى بجيش أخيه، فانطلقت شرارة الحرب بينهما، وكان الجو يومئذ معتدلا، لاتهب فيه ريح ولا تثقله حرارة رغم كثرة الضياء التي أضحت تبهر الكون . ووقع شيء غريب يثير الاندهاش، ألا وهو أن لواء ملك مراكش، ارتطم بسدرة فقبضته أشواكها، وانكبّ مرافقو الملك مدة خمس عشرة دقيقة لفكّه من

السدرة، فاستغل ملك سوس اشتغالهم بأمر اللواء، ووجه الى خصمه ضربات خاطفة مفاجئة، كان لها انعكاس حاسم على سير المعركة، اذ تضعضع جيش مراكش وأخذ يتقهقر الى أن جنّ الليل واستمرت المعركة طرفا منه، وصار الجنود يفرّون من القتال تتعقّبهم عساكر جيش محمد حتى أبواب المدينة . هنالك أخذ ملك سوس يوجه النداء الى أهل مراكش، يشرح لهم الموقف ويدعوهم ليستسلموا، ثم هددهم بقصف المدينة بالمدافع والاستيلاء على ممتلكاتهم إن هم امتنعوا .

اندهش حاكم المدينة وظن أن الملك أحمد هلك أو أسر، فلم يجرؤ على المقاومة، وفضل السعي وراء كسب عطف الذي كُتب النصر للوائه، فأعلن للسكان أن مملكة سوس ومملكة مراكش تشكلان دولة واحدة، وهكذا فُتحت أبواب المدينة وقيل : «يحيا الملك» .

دخل الملك بعد ذلك الى القصبة، ومنها توجه الى قصر أخيه . فوجد النساء والفتيات في حالة ارتباك لا مثيل لها، وقد أخفين ما لديهن من نفائس، تاركات كنوز الملك معرضة للنهب، فأمنهن على أنفسهن وأمتعتهن، ووضع ثروات أخيه في مكان أمين، ثم ذهب الى خزائن الأسلحة ليتفقّدها .

وعند بزوع الفجر تقدم أحمد وجماعة من الفرسان إلى المدخل الخلفي للقصر، وقد لحق بهم نفر آخر منهم باتوا يبحثون عن أثره بعد ما ضل السبيل في الليل، فقرع أحمد الباب بشدة، لكن ناداه منادٍ من اعلى السور ونصحه بالفرار، لأن أخاه أصبح سيد القصر، فانطلق غاضبا ، ملتجئا إلى حمى زاوية الولي الصالح سيدي عبد الله بن الصافي .

أوفد أحمد من ملجئه ابنيه الكبيرين الى فاس يطلبان النجدة من الملك الوطاسي فوعدهما بارسال الامدادات الى أبيهما ، لكن الجنود الذين كانوا يحاربون الى جانبه لفظوه في ساعة بؤسه والتحقوا بمراكش ، فأحسن محمد استقبالهم ووزع عليهم النقود والهبات وأدمجهم في قواته . كان محمد حكيما يعنى عناية كبرى بكل شيء . لما علم أن ملك فاس أحسن وفادة ابني أخيه، فكّر في الامر، وأو عز إلى فقهاء المدينة أن ينظموا لقاء بينه وبين أخيه، على بعد فرسخين من مراكش .

وفي يوم اللقاء، أقبل محمد وحطّ محتله بجانب النهر على ربوة صغيرة، كانت خيمته مستديرة، تظهر للمشاهد من بعيد، وستائرها كلها مرفوعة يحيط بها

الضباط والحراس . كان محمد يرتدي قميصا من الزرد تحت لباس مصنوع من الحديد وقد جلس وسط الخيمة على أريكة منبسطة، لكن مجلسه كان محصنًا لا يراه أحد ولايمكن أن توجّه له أية ضربة الا من الأمام، وكان يقبض على سيفه، والجيش في حالة تأهب يحيط بالمحلّة، في حين وقف بعض الجنود في الوسط، يظهرون للعيان من بعيد .

تقدم للتحية على محمد، أبناء أخيه الصغار، وتبعهم الكبار، ثم كبيرهم، فراحوا يقبلون يده أو ركبتيه، فقبل رؤوسهم، بعد ذلك أخلوا المكان والتحقوا بكبار شخصيات البلاط الذين كانوا واقفين بجانب الخيمة . ثم وصل الشريف أحمد هو الأخير، محفوفا بفقيهين والولي الصالح الذي توسط لاصلاح ذات البين بين الاخوين .

لما رأى محمد أخاه قادما، قام واستقبله بمدخل الخيمة، فتعانقا وبكيا، ثم جلسا على نفس المنصة، ومضى كل منهما ينظر الى الآخر، ويتنفسان الصعداء دُون أن يستطيعا النطق بشيء . قطع محمد الصمت قائلا لأخيه :

«نقضت العهد، وخنت الوعد، ضعف الايمان مستقبح في الملوك أكثر من غيرهم . ان الله لم يرجيء انتقامه من الخونة، ولولا فضله وعونه لما تمكنت من فتح مراكش وانتزاع السلطان منك، خيانتك وضعتك في مرتبة لا تحسد عليها، حتى إن رعاياك وأهلك وذويك يستفظعون ما أقدمت عليه . انك أكبر منّي سنّا، ووضعتك في مقام أبينا، ودمت على طاعتك، واني مستعد لأبقى كما كنت، اذا تفضّلت وقبلت أن تعتبرني بمثابة ابنك، كما اني مستعد للاعتراف بك ملك البلاد، وأنا خليفتك، وسأمتثل لأوامرك وأدعو الناس ليعربوا لك عن ولائهم، لكن سكان مراكش طلبوا مني ألا أسمح لك بالعودة الى مدينتهم لانهم يخشون أن تصب عليهم سوط غضبك، واني وعدتهم باحترام رغبتهم . لذا فاني أرى أنه من الافضل أن ترحل الى تافيلالت للاقامة بها حينا من الدهر . أملي أن تكون الانتصارات التي حققناها معا فاتحة عهد لآمال كبرى وانتصارات أخرى ، وقد يتم ذلك بعون الله ونبيه محمد ، وسأعين أبناءك في أعمال يتولون شؤونها وأغدق عليهم العطاء بيدي .

أصغى أحمد الى العتاب ودافع عن برائته بكل هدوء والتمس من أخيه أن يصفح عما صدر عنه من أخطاء ، وأوصاه برعاية مصالحه . وبعدما قضى الليل

بعين المكان وهو آمن ، برحه صبيحة اليوم الثاني ، متوجها الى تافيلالت ، رفقة عياله وبعض قواد البربر الذين آثروا الانضمام الى حاشيته .

لما رجع محمد الى مراكش ، قام أهلها بتنظيم حفلات كبرى احتفاء بالسلم ، غير أنه لم يهدأ لمحمد بال ولم تغمض له عين ، وهو يرى أن على عرش فاس ملكا استقبل ابني أخيه وتواطأ معهما ضده . لذلك قطع كل العلاقات مع الملك الوطاسي وطالبه بالتنازل عن ولاية تادلا ، بدعوى أنها تابعة لمملكة مراكش ، وأمر ابنه الثاني عبد القادر بأن يلتحق بالقوات التي أرسلها الى المنطقة ، تحت قيادة بلعيش (16) وكانت مهمة هذه الجيوش هي استخلاص الاتاوات من سكان الاقليم ، والاستلاء على قلعة محصنة (17) كان ينزل بها ملوك مراكش وفاس أثناء مرورهم بولاية تادلا .

تم الربط بين قوات بلعيش وبعثة عبد القادر بتفزة ، وبعدما جمعت قوات محمد الشيخ التبرعات قامت بحصار القلعة ، لكن حاكمها كان مستعداً للطوارئ ، اذ سهر على اذّخار كميات كبيرة من المواد الغدائية ، ومنح المأوى فيها لأكثر ما يمكن من الناس ، وتحصن بها للدفاع .

كان عبد القادر واثقا من نفسه ومن تفوقه على خصمه ، وهو يقود فرقة تتألف من المرتزقة الاتراك ومن المغاربة والعلوج الذين انخرطوا في جيش أبيه ، وكان عدد جنود الفرقة ألفا أو يزيدون، ومعهم الفرسان ووحدتان من المدفعية.

أوى هؤلاء الجنود الى البيوت التي أخلاها أصحابها ، والواقعة شرق القلعة . لكن عبد القادر لمس استحالة استخدام المدفعية من هذا الموقع الصعب المسالك ، فانتقل الى الجهة الغربية السهلة العبور والتي يتيسّر منها توجيه القذائف الى برج واقع خارج القلعة يشرف على عين ماء توجد أسفل واد عميق . وكان الناس يهبطون الى العين ، وهم يلتمسون الاحتماء من جدار محصّن ، فأدرك عبد القادر أهمية هذا الموقع وتبيّن له أنه اذا استولى على البرج سيتحكم في الطريق المؤدية الى العين ، وسيستحيل بذلك على السكان المحاصرين أن يتزودوا بالماء وعندئذ لن يبقى أمامهم سوى الاستسلام

---

(16) ابن العلج الجنوي الذي اعتنق الاسلام .

(17) قلعة فشتالة .

بعد ذلك نصب الامير مدفعا على مرمى من البرج ، وبدأ القصف ، لكن البرج كان منحدرا بالنسبة لفوهة المدفع ، لذا كانت القذائف تخطيء مرماها ، فترتطم بتحصينات الجدار أو تضيع في الطبيعة . اذ ذاك أمر الامير بشن غارة على الموقع ، فصار الاتراك والعلوج يتسلقون السلاليم وهم متحمسون ، وأظهر أصحاب البرج بسالة كبرى في الدفاع عنه ، حيث استطاعوا أن يخرجوا من باب خفي يطل على الخندق المحيط بالبرج ، وأخذوا يوجهون ضربات قاضية الى المهاجمين الذين استعملوا السلاليم . عند ذلك تأكد الامير من عدم جدوى المدفعية ، فوضع متفجّرات بالقرب من البنايات السكنية ، لكن أصحاب القلعة علموا بالمخطط الجديد بفضل حيلة أحد الأفراد الذين كلفوا بوضع المتفجرات والذي راح يردّد أثناء عمله قائلا :« حذار حذار أيها البئيس ، الجرذان أخذت تقوّض كساءك من الاسفل » أدرك حاكم القصر مغزى التحذير فبادر الى إتلاف المتفجرات .

علم عبد القادر أن الملك الوطاسي غادر قاعدة ملكه لنجدة القلعة ، فرفع الحصار عنها وولى عائدا الى مراكش ، وقد كلف مومن بمهمة مراقبة التخوم .

عبّأ الشريف محمد جميع الفرسان الموجودين في مراكش وفي سوس ، وانطلق بهم لقتال قوات ملك فاس ، وقد أضاف اليهم تعزيزات أخرى متركبة من ثمانية عشر مدفعا وكميات هامّة من الذخائر ، والتحقت قواته بالقوات التي كان مومن بلعيش على رأسها .

كانت قوات الوطاسيين تتألف من ثلاثين ألف فارس ، وهم خير مافي المملكة من فرسان فاس وبلش غمارة ودبدو ومن العرب ، ومعهم ثمانمائة من الرماة الأتراك أو مسلمي العلوج ، تحت قيادة ضابط أصله فارسي (18) قدم من الجزائر ومعه أربعمائة من الاتراك . علاوة على هذا ، كان الجيش يضم ألفا من الرماة المسلحين بالبندقيات ، وأربعة وثمانين مدفعا من النحاس . أما محمد ، فقد كان له ثمانية عشر ألف فارس ، وثلاثمائة من الرماة الاتراك ، وأكثر من ألف من البندقيين العلوج وغيرهم ، زيادة على ما ذكر من المدفعية .

---

(18) اسمه سفيـان .

اجتازت قوات ملك مراكش وادي العبيد ، وهي تتمهّل في زحفها نحو الميدان ، وفي غاية النظام ، مع رجائها أن تملّ القوات المعادية الانتظار وأفرادها بعيدون عن أهليهم وذويهم ، وقد يهجرون الميدان اذا أصابهم الملل، وكان محمد وهو عازم على محاربة عدوه يتظاهر بعدم رغبته في القتال .

حطّ ملك فاس محلته بسهل على ضفاف نهر درنة ، في موقع استراتيجي ، يحده النهر من جهة ، والجبل من جهة أخرى . تأخر موعد المجابهة بكثير ، ولما رأى الشريف السعدي أن جنود ملك فاس أصابهم العياء ، أخذ يزحف نحوهم رويدا رويدا . ابتهج ملك فاس بانطلاق عدوه ، خوفا على جيشه من شدة الملل ، فأعلن حالة الطوارئ في قواته ، وقسم الجيش الى خمسة فيالق ، اذ نصب مولاي أبا حسّون [19] على الفيلق الذي وضعه عن يمينه، ونصب أخاه أبا خسون على الفيلق الذي وضعه عن يساره ، وكان يساعد كلا منهما اثنان من أبنائه [20] جعلهما على الفيلقين الثالث والرابع ، في حين احتفظ لنفسه بقيادة الفيلق الخامس وهو أهم الفيالق . وكان أحد أبنائه الآخرين يساعده في القيادة .

وضع ملك فاس ، فرقة المدفعية في مكان استراتيجي ، بمهبط الجبل ، وكان الضابط الفارسي الذي تحدثت عنه أعلاه يقود هذه الفرقة الى جانب طابور الاتراك والعلوج وفريق الرماة الوطاسيين ، وراح ينتظر عدوه .

قبل ذلك بيوم ، اجتمع الشريف السعدي بالقواد وبأبنائه ، على مقربة من خيمته ، واستعرض الجيش وألقى فيه خطابا طويلا ركّز فيه على أهمية المعركة التي كانوا عليها مقبلين ، وعلى أبعاد النصر الذي سيحققونه ، مثيرا انتباههم الى نائجه ، اذ سيمكّنهم جميعا من مغانم كثيرة ، وسيفتح لهم الطريق المؤدية الى فاس وسيجعل الشواطئ البحرية تحت هيمنتهم ، ثم نهض من مقعده وبقي الآخرون جالسين ، وعرض على المتشكّكين من الجنود أن ينسحبوا فورا دون خشية عقاب ان فعلوا وذكرهم أن الملاهي والملذات التي ينغمس فيها أهل فاس ، تقوّض العزائم ، ولذا ، لا يمكن للمترفين أن يصمدوا أمام شجاعة الجنود الأشاوس الذين تربّوا منذ نعومة أظفارهم على استعمال الاسلحة وقاموا بفتوحات عظيمة ، وأضاف قائلا بأنه يعقد عليهم الآمال ليرفعوا عرشه بعد أيام

---

(19) حاكم غمارة .

(20) وهو بوزكري ، وحاكم دبدو .

قلائل ، الى أسمى مقام بافريقيا ، وبذلك سيكللون أعمالهم بالمجد الخالد ، وطلب منهم بعد ذلك أن يستعدوا للقتال ، وأن يعربوا عن حاجياتهم ان كانت لهم مطالب ، ثم اختتم خطابه قائلا « أيها الناس ، ليس لي ما أضيفه لكلامي سوى أن الباب مفتوح لمن أراد أن يتخلّى عنّا ، أما الذين عزموا على خوض غمار المعركة ، فينبغي لهم أن يقدموا الدليل على قدراتهم ، مع الامتثال لتعليمات رؤسائهم ، ولهم في القتال حياة » ثم أخبر الضباط أن المنجمين والعرافين تنبؤوا بأنه لن يستشهد من جنوده الا فرد واحد ، وهو زنجي ، وأن ملك فاس سيقع في أسره .

لما فرغ الملك من القاء خطابه ، هتف الجنود قاطبة للاعراب عن حماسهم ، ولتأكيد التحام صفوفهم ، ثم التحق كل واحد منهم بالوحدة التي ينتمي اليها . وعند فجر اليوم الموالي ، بدأت قوات السعديين تزحف ببطء نحو ميدان الوغى، وهي مقسمة الى خمس فرق ، مركبة على شكل هلال يقود طرفه الايمن بلعيش ، ويقود طرفه الايسر أحد أبنائه (21) ، بمساعدة اثنين آخرين ، على طرفي الهلال .

أما محمد الشيخ وأبناؤه ، فانهم كانوا يقودون الوحدات المرتبة وسط الهلال ، المؤلفة من خمسة آلاف من أجود الفرسان وخير الجياد . وكان الفرسان واضعين الخودات على رؤوسهم مرتدين أقمصة من الزرد ، يحمل كل واحد منهم رمحا ودرعا بينما كانت تتقدم الملك فرقة من الرماة على جيادهم ، من خلفها فرقة المدفعية وبعض المدافع الخفيفة المنصوبة على ظهور البغال ، يقوم على كلّ قطعة منها جنديان أحدهما على اليمين والآخر على الشمال ، وكان بجانب كل مدفع كمّيات من البارود ، والكور ، يمكن استعمالها في كل حين ، مع تصويبها الى أي جهة .

كانت قوات المعسكرين ، تعتمد على الفرسان ، اذ لم تكن متعودة على المشي ولم يكن بينها مشاة ، وبماأن الجنود كانوا في سهل ليس فيه شجر ، كنت أرى كل ما يتحرك فيه . وكان الملك يرى للعيان وهو ينتقل من جهة الى جهة ، يحرّض الجنود على الشجاعة والثبات ، والانضباط ، حتى لا يشرعوا في القتال قبل أن يتلقوا منه الاشارة .

---

(21) مولاي مسعود .

أضحى الجيشان في حالة تأهب قصوى ، ومضى كل واحد منهما يراقب الآخر مدة طويلة تحت شمس محرقة . ولمّا بدأت الشمس تميل الى الزوال ولّاها جنود محمد الشيخ ظهورهم بينما كانت تعمي أبصار جنود جيش فاس ، عندئذ رفع محمد علما أبيض عليه كتابة بحروف ذهبية ، كان يحمله دائما معه،ثم تناول ثلاثة قضبان ، وأمر أحد حاملي التروس أن يتقدم أمامه ، ودفع بجواده ، ورمى القضبان الى الأرض ، واحدا تلو الآخر ، ثم همز فرسه ، وعلى الفور أمر الجنود بالانطلاقة وراء العلم ، فكانت اشارة بدء القتال رصاصة في الفضاء ، عند ذلك أخذت الفيالق تتحرّك وغادر الرماة مكانهم والتحقوا بالجناحين ، لتتمكن المدفعية من القيام بعملها . لكن الاشتباك بدأ بالأيادي والكلام دون أن يشكل خطرا على حياة المتحاربين ، و ذلك لأن جنود فاس لم تكن لهم رغبة في القتال رغم تدخلات أبي حسون وتحريضهم عليه . وما هي الا لحظات ، حتى أخذ محمد يشتت صفوفهم وهم يفرون ، فاندهشنا نحن الذين نشاهد أطوار المعركة ، لم يمت خلالها الا فرد واحد من قوات الشريف ، مقابل أربعين من الجانب الفاسي .

لما شهد ملك فاس حالة جنوده ، سعى الى اجتياز النهر ليلحق بهم ، لكن جواده تعثر بين الحجارة ورمى به الى الماء ، وفي الحين ، انقضّ عليه خادم زنجي لأحد أبناء الشريف ، ووجّه اليه ضربتين بسيفه على الرأس وهمّ بقتله لولا أن حاجب الامير صدّه عنه قائلا إنه الملك ، حينئذ ، أسرع اليه سيده ، الأمير مولاي أبو بكر ، وانتشله منه بمساعدة أحد أبنائه الذي كان يرافقه دوما . على اثر ذلك ، تشتّت جيش فاس عن أكمله ، وانسحب أبو حسون في نظام بمعية بعض الجنود ، وقد بذل قصارى الجهود لكي لا يصيبه أذى . الا أن الفارسي الذي كان على رأس حرس المعسكر ، لما شهد الهزيمة التي لحقت بقوات فاس ، أمر الأتراك والعلوج وجميع الموالي أن يتخلوا عن خيولهم ، ثم شرعوا يحصنون موقعهم ، بربط المدافع بحبال ، لكي لا يستطيع عدوهم الهجوم عليهم وقتلهم . ولبثوا وقتا طويلا في موقعهم دون أن يهاجموا ، فأوفد اليهم ملك مراكش رسلا يدعونهم الى الانضمام الى قواته بنفس الشروط التي كانوا يعملون بها في قوات ملك فاس ، مع السماح لمن أراد منهم أن يعود من حيث أتى . لكن الفارسي لم يؤمن بهذه الوفادة ، وصرّح بانه اذا كان الملك يرغب في استخدامهم ، فإنه ينبغي أن يبعث اليهم أحد أبنائه للتفاوض معهم .

استحسن محمد الاقتراح ، ودعا ابنه مولاي القائد الى التوجه لدى الفارسي ، وفعلا انضم الفارسي وكثير ممن كانوا معه الى قوات الملك ، واستسلم كل الرجال الذين كان لهم أهل وأبناء بفاس، وانسحبوا من الميدان .

ولما تم الاستيلاء على معسكر ملك فاس ، وعلى ما كان فيه من دخائر ، مع خيام الملك ، دخل محمد الى احدى الخيام ، رفقة بعض أفراد حاشيته والضباط ، ثم قال للملك الأسير :« اسمع يا أحمد الوطاسي ، ان الله غضب عليك وأنزل عليك اللعنة من جراء الذنوب التي اقترفتها والاعمال الشنيعة التي كنت ترتكبها كل يوم بفاس ، وما أسرك اليوم الا تجسيد لارادة الله وعظمة نبيه محمد ، لاتخف ، فاني لن أعاقبك على مساندتك لأخي وابنه ضدّي ، انك لست في قبضة ملك نصراني ، ولكنك بين يدي مسلم مثلك ، سوف تعود الى عرشك اذا كان سلوكك حسنا» فرفع الأسير رأسه وهو يتألم من الجروح التي أصيب بها ، وقال :« ارادة الله نافذة ، وأعمال الرجال محك أقوالهم ، لا يستطيع أحد من الملوك أن يمحو العيوب والخطايا المنتشرة في الأرض منذ أن خلقها الله ، ولا أظن أن هذه المثالب تبرر محاربتك لي وأنا لم اقترف أية اساءة اليك من قبل . لعلك تتذكر أني أحطتك ، أنت وأخاك بعناية كبرى ، قبل أن يصبح لكما شأن عظيم . ألا تذكر أنني وأبي لم نتهاون قط في تلبية رغباتكما ؟ الله وحده يعلم هل ما ألقاه الآن جزاء لما كسبت أيدينا . لا يحسن بك أن تؤاخذني على الحفاوة التي استقبلت بها أبناء أخيك ، اذ لو كنت أنت الوافد عليّ للقيت مني تكريما مماثلا ».

ابتسم محمد على اثر هذه العبارات. ومضى يواسي ملك فاس ، ثم أمر له بجناح خاص ودعا اليه طبيبا يهوديا لعلاج جروحه ، وفي نفس اليوم ، تقدم اليه حاكم القصر الذي سبق الحديث عنه ، فأحسن إستقباله ، وتسلم منه مفاتيح القصر ، وحذا حذوه ولاة مملكة فاس كلهم .

بعد مضي يومين ، رحل محمد وقواته في اتجاه فاس ، ومعه الملك الوطاسي وابنه أسيرين ، وقد وعد ملك فاس بالتنازل عن ولاية مكناس لفائدة محمد ، الّا أن الامور بفاس جرت على غير ما كان يتوقعه ، اذ أن أبا حسون ، لما وصل الى فاس ، رفقة بعض الجنود ، أبى أن يترك بها فراغا سياسيا ، ورفض تنصيب أخي

الملك[22] في غياب الملك ، فاستدعى كبار المملكة ورؤساء القبائل وأعلن لهم أن الله اختار مولاي القصري ليكون خلفا لأبيه على عرش فاس ، ثم انحنى وقبّل قدمي الامير ، وتبعه في ذلك جميع الحاضرين على شرط أن يرد مقاليد الامور الى أبيه بمجرّد ما يفرج عنه ملك مراكش .

عيّن مولاي القصري أبا حسون خليفة له وأضفى عليه صبغة الأمير ، ثم أمره بالسهر على مصالح الدولة ، وجعل بقاءه في هذا المنصب مرهونا بسلامة العرش .

كانت أم القصري نصرانية من قرطبة ، ولما أصبح ابنها ملكا ، قال له الفقهاء بأن الله عاقب أباه لأنه كان يبيح للنصارى عصر الخمر بفاس ويبيعها للمسلمين ، وكان يربّي الأُسُد ، وتقديرا لهؤلاء الفقهاء ، أمر القصري بتحطيم الجرات التي كانت الخمور تدّخر فيها ، وأمر أيضا بقتل جميع الاسد .

كان الشريف يسرع الخطى نحو فاس، واجتاز ممرا يبعد عن المدينة غربا بنحو اربعة عشر فرسخا، حيث لا يقوى سكانه القليلو العدد على أن يمنعوا جيشا بأكمله من اجتيازه، ثم تقدم حتى بلغ موقعا لا يبعد عن المدينة الا باربعة فراسخ .فأراح فيه محلته . ومن هناك حمل فارس من الملك الأسير رسائل الى زوجته أم القصرى، والى ابنه والى أبي حسنون، يلتمس منهم تسليم مكناسة الى الشريف الذي وعد بتحريره واعادته الى عرشه، وهو أمر لا ينبغي الاستهانة به في مثل هذه الظروف . وعلاوة على ذلك، بعث الشريف رسائل الى عدد من الشرفاء والى بعض اصدقائه بفاس ، يستحثهم على تنفيد مطالبه طوعا بدلا من تنفيذها وهم كارهون .

استقبل أبو حسون سفراء الشريف بحفاوة، وحدثهم بما جعلهم يأملون في تلبية رغبة الشريف، وهو يعلم أن قوات ملك مراكش لن تستطيع البقاء طويلا في معسكرها دون مؤونة ، متعمدا التسويف .

وذات ليلة، استدعى ابو حسون وجهاء المدينة وممثلي سكان جميع الحرف ثم خرج على رأس ثمانية الاف من الرماة، وفرقة من الفرسان ليهاجم عدوه، في حين تلقى أهل مكناس الامر باغلاق ممر الخنق . وعقابا لأهل فاس، أمر الشريف

(22) المسمى بوزكري .

قواته بإتلاف كل اثار العمران التي توجد في المسافة الفاصلة بين معسكره ومدينة فاس، ثم وقف على قطع رؤوس اكثر من مائتين من الاسرى، ووصل الى ممر الخنق في ظرف يوم وليلة قبل أن يقطع عليه ، عائدا الى مراكش، وملك فاس وابنه مكبلان بالأغلال .

وما كادت تمر سنة على ذلك، أي عام 1545، حتى علم ملك مراكش أن خلافات كبيرة تصدع صفوف أعدائه، فشكل جيشا قويا يتألف من جميع فرسان سوس ومراكش، ومدعّما بأربعة وعشرين مدفعا، وعدد من الجمال تحمل الذخائر والمؤن، ونصّب على رأس الجيش ابنيه محمد الحران وعبد القادر، وأمرهما بالزحف نحو فاس عبر القصر الكبير . وفعلا، انضم الى قوات ملك مراكش، أمير عربي من ولاية القصر الكبير، فأصبحت لهما السيطرة المطلقة على المنطقة وعلى مكناسة . وتلقى ملك مراكش خطابين، أحدهما من والي تطوان والثاني من والي الشاون،يعلنان فيهما عن ولائهما واستعدادهما لمساعدته على الاستيلاء على فاس، وأعربا عن مناوأتهما لأحمد القصرى .

لما علم أمير فاس بذلك، أرسل أبا حسون الى تطوان على رأس جيش، لكنه عجز عن الدخول الى المدينة نظرًا لتحصيناتها المنيعة، وعاد الى فاس حيث مضى يعزّز القوات التي أعطيت لها الاوامر للتصدي الى جيش محمد الشيخ المرابط بالقرب من المدينة، وقد استمال محمد الشيخ ولاة القصر الكبير والعرائش والغرب، فاقتنعوا بالانضمام اليه مع القبائل العربية . وأمام تدهور الأحوال اجتمع أبو حسون بكبار المسؤولين، فلم يستطع أن يكظم غيظه فوجّه اليهم عتابا شديدا لأنهم لم ينفذوا تعليماته ثم امتطى فرسه واختفى .

ولما رجع أحمد القصري الى فاس أوفد أخا له الى حاكمي الشاون وتطوان ، يطلب منها اللحاق به مع قواتهما – وقد أراد بذلك أن يمتحنهما – لكن المبعوث فشل في مهمته ، وعجّل بالعودة الى فاس قبل أن يقع في الأسر . إذّاك أوفد القصري ابنه رفقة مربيه لدى أبي حسون يطلبان منه نسيان ما حدث ، ويذكرانه بما عليه من واجبات تجاه الدولة بصفته أميرا ، فتأثر أبو حسون باستعطاف الرسول ورجع الى فاس حيث خصّص له استقبال رسمي بوصفه خليفة الملك .

دخل ولدا محمد الشيخ في هذه الفترة من الزمان الى القصر الكبير، وأخذا يستوليان على القصبات والمواقع المجاورة، وهي خالية من المدافعين عنها . وتدخل

الفقهاء في الامر، لاصلاح ذات البين بين الشرفاء والوطاسيين ، فأبرم الصلح بين الجانبين على أساس أن تسلّم مكناسة الى الشرفاء، مقابل الافراج عن الملك الأسير، وتم تنفيد الاتفاق .

قبل أن يبرح الشريف المكان أهدي اليه ملك فاس فرسين من أجودِ ما في رباطه، فتسلمهما الشريف شاكرا، لكنه نبّه ملك فاس الى أنه مستاء جدا من سلوك القصري واخوته، وأنه يريد أن تسلّم له فاس بمجرد ما يطالب بها، فوعده الملك بتلبية رغبته .

لما دخل الملك الوطاسي الى فاس، تسلم من ابنه مقاليد الحكم، ولم يمض شهران على ذلك حتى كان الشريف يرابط بالقرب من المدينة ويلح على الملك بالوفاء بوعده .

لم يكن للملك فاس جيش يستطيع المجابهة، فرد على محمد الشيخ بأن ابنه وسكان المدينة يرفضون الاستسلام ، ولا يقدر على ارغامهم لما يريده الشرفاء . اغتاظ الشر يف الى درجة أنه أمر بقطع رأس مبعوث الملك(23) ، وهو من علماء فاس، ثم أشار الى أربعة آلاف من الفرسان بقتل ونهب كل من يجدونه خارج أسوار المدينة . وبدأت المعارك، وانهزم الفرسان ذات مرّة، ووقع في صفوفهم ضحايا كثيرون . عندئذ رحل الشريف مسرعا الى مكناس وأرسل في طلب جميع القوات، مع ابنيه عبد الله وعبد الرحمن . فوصلت الامدادات من مراكش ومن سوس .

بعد ذلك، انطلق الشريف بجيشه نحو القصر الكبير، وعرّج على ولاية اسغر ثم أتى نهر سبو ، وحط غير بعيد من فاس .

لكن مولاي زيدان، الذي قدم من تافيلالت لتعزيز قوات الملك الوطاسي، كان بالمرصاد، ومنعه من عبور النهر، فوقعت معركة حامية بينهما حتى على الممر الذي يسمح بالعبور ، سقط خلالها عدد كبير من جنود الجانبين، ولم تتوقف الا بعد مغيب الشمس .

مرض أبو حسون بعد أيام، ورأى مولاي زيدان أن الامور لا تسير حسب ما يرضيه فولى مدبرا الى تافيلالت، اذ ذاك اجتاز الشريف النهر، وقد هزم قوات الملك، ثم عسكر على مسافة فرسخين من فاس، عند عين الجدول الذي ينساب

(23) لا تذكر المصادر العربية رسولا من الفقهاء .

خلال منازل المدينة، وأمر ابنه عبد الرحمن باقامة حصار على الجدول، بغية تضييق الخناق على السكان .

بدأت الاسواق في المدينة تفتقر الى المواد الغذائية، فأمر الملك خليفته أبا حسون بأن يحاول فك الحصار عن المدينة . الا أن بعض العناصر المتواطئة مع الشرفاء أطلعت محمد الشريف على ما يبيته الملك، فأرسل التعزيزات الى ابنه عبد الرحمن . ولما خرج أبو حسون على رأس جميع الفرسان، لفك الحصار، وقع في فخّين، لكنه نجا بحياته ولم يرجع معه الى المدينة الا اثنا عشر من فرسانه الذين نجوا، فطلبوا الذهاب الى غمارة .

اتخذها أهل المدينة فرصة للجهر بما يكابدونه من معاناة، مدة سنتين، وشكلوا مظاهرات للاعراب عن تأييدهم وولائهم للشريف، وبلغ أصداء الانتفاضة الشعبية الى محمد، فرحّب بهم، ودنا من أسوار المدينة وفتح مفاوضات سرية مع أهلها .

وذات ليلة، فتحت قوات الشرفاء ثغرة في السور المحيط بفاس البالي، ودخل محمد المدينة والوطاسيون عن ذلك غافلون . ولما بلغ الخبر الى الملك بقصره، تلقّى الجنود الا وامر بصدّ المهاجمين وجرى قتال عنيف في الأزقة بين الطرفين، وكاد النصر يكون حليف ملك فاس، لولا أن السكان، وخاصة النساء منهم، لما سمعوا البعض يهتف بحياة الشريف، والبعض يهتف بحياة المريني (24) ، انطلقوا يهَتفون بحياة من ينقذهم من الجوع، ثم شرعوا يقذفون جنود الملك بوابل من الحجارة من سطوح منازلهم .

انسحب الملك على اثر ما وقع تحت سمعه وبصره، وعاد الى القصر . أما الشريف، فانه استولى على فاس البالي وقصرها، وترك فيهما حامية بقيادة حمّو بن داود، ورجع الى معسكره . خلال الليلة ذاتها، نصح أبو حسون الملك بمصاحبته الى بلش، حيث يستنجد بقوات النصارى ويستأنف القتال، لكن الملك أجابه بأنه لا يستطيع أن يترك أمه وأهله تحت رحمة عدوه، بل يفضل مفاوضة الشريف في مصير أسرته .

---

(24) يعني الوطاسي .

برح أبو حسون فاسا على صهوة جواده، وخرج من باب خفي . ولما أصبح اليوم التالي، اتصلت أم الملك بالشريف، تستعطفه باكية، ليترك لابنها السيادة على بعض الولايات يقضي بها ما بقي من عمره، فوعدها الشريف بذلك، على أن يجلو ابنها عن المدينة حاملاً أمتعته في أجل أقصاه ثلاثة أيام . وتمّت مشيئة الشريف، فدخل المدينة واستولى على القصر، وغرب الملك المنهزم الى مراكش، بينما نفي ابنيه أحمد القصري وأبا ناصر الى ترودانت في انتظار اتخاذ قرار آخر في شأنهما (24م) .

بعد أيام قلائل دخل محمد باحدى بنات الملك السابق، وأقام حفلات فاخرة بالمناسبة وبذلك صفت له شؤون المدينة وأعمالها . ثم بعث برسول الى أخيه مولاي أحمد يأمره بمغادرة تافيلالت والاستيطان بتيغوريث في الصحراء، عقابا له ايفاد ابنه مولاي زيدان الى قتاله . فردّ أخوه على ذلك بأن أرسل اليه جميع ابنائه ليعملوا تحت أوامره، لكن مولاي محمد ألحّ على أخيه بأن يذهب الى منفاه الجديد رفقة ابنيه زيدان وناصر، في حين زوّج الصغيرين (25) من أبناء أخيه باثنتين من بناته .

لما استقرّ أحمد بمنفاه الجديد، اغتنمها عبد الرحمن فرصة للسطو على أعمال تافيلالت . لكن أحمد استحبّ الفساد وطغى في البلاد، فلم يصبر الأهالي على الظلم وجنحوا الى العصيان، واستنجد أحمد بأخيه الملك، فتعصّب له اخوه لانقاده وتأهّب لارسال وحدات الى الصحراء، الا أن مولاي عمر، أحد أقارب الملك الوطاسي المخلوع، والذي كان واليا على بعض أعمال فاس، حرّك مشاعر رعاياه، فأوقدوا نار الفتنة ، الأمر الذي جعل الملك يضع الامر في مقدمة اهتماماته، ويعدل عن تقديم العون الى أخيه .

سعى ملك فاس الى اسقدام مولاي عمر لتقديم التهاني والولاء كسائر الولاة، لكنه اعتذر عن الحضور، وأناب عنه ابنه للقيام بهذه المهمة، وفهم محمد أن الوالي يتهرب من لقائه، فأمر بتغريب ابنه الى مليلية . وبعدما قضى بها مدة، تمكن من الاتصال هناك بأبي حسون، فاتفق الرجلان على مناهضة ملك فاس .

(24م) هذا خلاف المتواتر عند المؤرخين من أن محمد الشيخ قتل كل الوطاسيين إلا أبا حسون الذي تمكن من الفرار إلى الاسبان ثم إلى أتراك الجزائر .

(25) أبو حسون والمنصور .

على اثر تقلّص نظام الدولة الوطاسية، اتجه أبو حسون الى موقع بادس على شاطئ البحر المتوسط . ومن هناك، أوفد بعثة عسكرية على متن زورق حربي الى اسبانيا، لطلب الحماية من الامبراطور كارلوس الخامس، مقابل التنازل له عن موقع بادس، كما التمس منه العمل على الاطاحة بالشرفاء السعديين، وطلب منه أيضا أن يرسل اليه سفنا لتقلّه هو ومن معه الى اسبانيا .

في نفس الوقت، كان أبو حسون يخادع محمد الشريف بايهامه بأنه وفي له وأنه يضع مواقعه وقواعده تحت تصرفه . ولم يحفل كارلوس الخامس بطلبات أبي حسون ولا بعروضه، فأراد أبو حسون سبق الاحداث ، وأعلن للاسرى النصارى الذين كانوا في قبضته أنه قرّر خلاصهم، وجهّز سفينتين ودعاهم الى الابحار به الى اسبانيا .

لم يكتم الاهالي ما يدبّره أبو حسون، فأرسلوا بعثة الى ملك فاس لاطلاعه على مجرى الاحداث . غضب محمد الشيخ، وألّح في طلب أبي حسون لاطلاعه على أمر هام . لكن أبا حسون أرسل ابنه الناصر لدى الملك ليعتذر له عن عدم الحضور، مدعيا أنه مريض لا يقوى على التنقل . لم يقتنع الملك بذلك، وشدد في طلب أبي حسون، مبرزا أن الأمر هام جدا ولا يمكن الفصل فيه الا معه. إلى جانب ذلك تباحث الملك مع أعضاء وفد السكان مبنيا لهم ضرورة القاء القبض على الخائن .

علم أبو حسون بما يبيته له الملك ، فتوجه الى بادس لكن حاكمها(26) منعه من الدخول اليها كما رفض أن يسلم الموقع الى الشريف . عندئذ ذهب أبو حسون على جواده الى ضواحي بادس واستنفر الجنود لمرافقته الى فاس، وهو يخفي نواياه الحقيقية .

اضطرب جنوده أمام الأحداث، فطمأنهم بإعلان حالة التعبئة والاستعجال، ثم قصد مكانا يبعد بأربعة فراسخ عن بادس ليقضي به الليل . وبعدما انتصف الليل، انسل من مرقده والناس نيام، ورافقه أربعة وعشرون من أسراه النصارى، فركبوا سفينة صياد وتوجّهوا الى مليلية ، وقد ترك أبو حسون فرسه بالقرب من الشاطئ .

---

(26) يدعى الزرهوني .

وفي أثناء هذه الاحداث، كان الشريف يواصل فتوحاته، ودخل ثلاثة من أبنائه، وهم الحران وعبد الله وعبد القادر ، الى تلمسان بدون قتال ، لأن القائد التركي الذي كان يرابط بها سلمها اليهم . ونصب الحران أخاه عبد الله قائدا على المدينة ، ثم توجه نحو وهران لحصارها وقد أرسل بعض الوحدات لقتال حاميتها ، لكنه ولى عائدا الى فاس وهو مريض ، فوافته المنية بها .

علم الشريف أن قوات تركية هائلة غادرت مدينة الجزائر قاصدة تلمسان ، فأرسل ابنه عبد القادر بتعزيزات الى أخيه عبد الله ، وبما أن الوحدات السعدية تعبت من جراء حروبها الأخيرة قرر محمد الشيخ ارسال إمدادات أخرى لنجدة ابنه تتألف من أربعة آلاف فارس من قواته الخاصة ، وأمر ابنه عبد الرحمن الذي كان يرابط بتافيلالت ، بالالتحاق به في أربعة الآف فارس آخرين ، كانوا في أحسن الاحوال بعدما استراحوا كثيرا.

كان الاميران الفتيان ، عبد الرحمن وعبد القادر ، أخوين من أبيهما ، فلم يحصل الاتفاق والوفاق بينهما ، وكان خلافهما سببا للنكبة التي أصابتهما في تلمسان ، اذ طلب عبد القادر من أخيه عبد الرحمن استبدال ألفين من الفرسان القادمين من تافيلالت ، بمثلهما من الفرسان الذين كانوا معه ، وقد أنهكتهم المعارك ، فرفض عبد الرحمن بادئ الامر ثم وافق على طلب أخيه ، ورفض أيضا أن يخوض الى جانب عبد الله المعركة ضد الاتراك ، تلك المعركة التي قتل فيها أحد أقاربه (27) وجرح فيها آخر في ذراعه . ولما دخل الى المعركة أحد أبناء عمه ، ضربه عبد الرحمن بسيفه على ذراعه ، فاشتكى منه الى الشريف . ويظن بعض الناس أن الشريف أمر بتسميمه ، فمات بعد شهر .

في خضم هذه الاحداث ، تمرّد برابرة جبل درن الواقع شرق ترودانت ، واعتقد الشريف ان عصيانهم يعود الى تحرشات الملك الوطاسي السابق والى أبنائه الذين كان بعضهم مغرّبين بمراكش ، وآخرون بترودانت ، فبعث اليهم عملاءه فذبحوهم كافة . ثم قاد عبد الله وحدات من الجيش ، تتألف من ثلاثة آلاف من الرماة الأتراك والعلوج المسلمين ، لقتال المتمردين . ولما بلغوا أسفل الجبل ، أمر عبد الله قائد العلوج بتسلقه مع رجاله ، وتجاهل الجبليون وجودهم اذ

---

(27) يدعى البهامسي (؟)

تركوهم يتسلقون الجبل، لكن لما كادوا يصلون الى أعاليه ، أغاروا عليهم فجأة وأمطروهم بكميات هائلة من الحجارة أودت بحياة معظمهم، ولم ينج منهم الا ثلاثون .وغداة الحادث أمر عبد الله الجنود الاتراك الذين اشتهروا ببسالتهم بأن يتسلّقوا الجبل ، ثم وجّه توبيخا شديد اللهجة للعلوج الذين وصفهم بالجبناء . لكن حظ الاتراك لم يكن أحسن من حظ العلوج ، اذ تكبّدوا خسائر جسيمة في الارواح عندما حاولوا تسلّق الجبل ، ولم ينج من فريقهم الا خمسون .

اغتاظ الشريف الى حدّ كبير بسبب الخسائر التي منيت بها قواتُه ، فاستدعى ابنه وقرّر أن يجابه بنفسه أولئك البرابر ، ظانا أن حضوره كفيل بالتأثير عليهم ، فقاد جيشا نحو جبل درن ، لكنه بعدما نهب القرى والمواقع المتواجدة حواليه ، لم يستطع الوصول الى قمة الجبل واضطرّ الى العودة .

قلت سابقا إن أبا حسون ذهب الى مليلية ، وفعلا ، طرق هناك أبواب الامير ماكسيمليان، حاكم اسبانيا بالنيابة عن امبراطورها كارلوس الخامس ، فوعده بتسليمه بادس كما وعده بالاعلان عن ولائه التام الى الامبراطور كارلوس اذا ما ساعده هذا الأخير على استرداد العرش بفاس . فجهّز الامير الاسباني اسطولا يتألف من ست عشرة سفينة حربية كان أبو حسون على متن احداها ، وأوفد قائد البحرية الاسبانية للاستيلاء على بادس ، لكن حاكم الموقع صدّ المهاجمين على أعقابهم ، ورفض أن يستسلم للاسبان ، وأمام تعنتهم ، رماهم بالقذائف ، فولوا على أدبارهم ، وتوجه القائد الاسباني رفقة أبي حسون الى مالقة .

ومن هناك رحل أبو حسون الى مدينة الوليد لمواصلة محادثاته مع ماكسيمليان ، ووقعت هذه الأحداث سنة 1545 . لم يكن ماكسيمليان مؤهلا للفصل في قضايا من هذه الخطورة والأهمية ، لذا ، التحق بكارلوس الخامس الذي كان وقتئذ في شغل شاغل بأوسبورغ ، ولم يكن له مناص من إرجاء استقبال ماكسيميليان من يوم لآخر ، حتى ملّ ماكسيمليان الانتظار وولّى راجعا الى اسبانيا ، رفقة الامير فليب ، نجل الامبراطور .

ولما تأكد أبو حسون أنه لن يجني في الوقت الراهن من مساعيه لدى الامبراطور الاسباني ما يشفي غليله ، التجأ الى رحاب البلاط البرتغالي بلشنونة . وخلال اقامته بالعاصمة البرتغالية ، حمل اليه مولاي أبو بكر رسائل من بعض سكان فاس ، يلتمس منه أصحابها أن يعود الى فاس لتسيير دفة الحكم ، ووعدوه

باخلاصهم وولائهم ضد محمد الشيخ .

اهتم عاهل البرتغال الى حدّ كبير بالشروح التي قدمها له أبو حسون ، فمنح أبا حسون مبالغ مالية ، ثم وضع تحت تصرفه فرقة من الجيش تتألف من خمسمائة جندي . وأبحر أبو حسون مع الجنود على متن خمس سفن ، ثم نزل بميناء الحسيمة ، وهو لا يبعد عن بادس الا بنحو سبعة فراسخ ، وكان يرافقه أيضا بعض النبلاء البرتغاليين . ولم يلبث الا قليلا حتى أقبلت عليه أفواج من سكان الجبال ، لتعلن الولاء له .

كانت السفن البرتغالية راسية بالميناء ، فأبصرها صالح رايس حاكم مدينة الجزائر ، وهو عائد من جبل طارق على رأس أسطول يتألف من ثماني عشرة سفينة حربية . ولما تبيّن له أنها سفن مسيحية ، أقام حصارا حولها ثم هاجمها . دامت المعركة بين الاسطولين الى صبيحة اليوم التالي ، ثم استسلم الاسطول البرتغالي الى القائد التركي ، رغم تدخل أبي حسون الذي لم يجد بدّا من المثول أمام صالح رايس في محاولة لاقناعه بالافراج عن السفن البرتغالية ، بدعوى أنها تتعاون معه للاطاحة بعدوهما المشترك ، الا أن القائد التركي وجّه اليه توبيخا شديد اللهجة ، واتهمه بالخيانة العظمى ، لأنه سعى الى الاستنجاد بالنصارى ولم يفكر في طلب المساعدات من القوات التركية .

لما عاد صالح رايس الى الجزائر ، أحس أبو حسون بعدم قدرته على البقاء بالحسيمة ، فهرع الى الحاكم التركي ، والتقى به في جهة ما بالمناطق الجبلية القريبة من تلمسان، وهناك، قدم له اعتذاراته عن تهوره، في مقابل هدية بسيطة استعاد أبو حسون الجنود البرتغاليين الخمسمائة والسفن الخمس ، ثم عرض عليه الحاكم توحيد جهودهما للاطاحة بالجالس على عرش المغرب .

استحسن أبو حسون العرض التركي ووعد صالح رايس بأن يعطي للجنود الاتراك أجرا يوميا قدره ألف بستول كما وعده وعدا قاطعا بأنه سيتنازل له عن النفائس والكنوز التي توجد بقصور فاس ، بعدما يسترجع العرش .

وتنفيدا للاتفاق المبرم بين الجانبين ، غادر رايس مدينة الجزائر وقصد تلمسان على رأس قوات تتألف من أربعة آلاف جندي تركي مجهزة بعتاد حربي ومعززة باثنى عشر مدفعا ، واستنفر عدادا آخر من الجنود في الطريق .

والتحق بأبي حسون كذلك ، مولاي عمّار قائد دبدو الذي سبق له أن لجأ الى مليلية. وقد استعاد بعد ذلك السيادة على اقليمه .

في هذه الأثناء ، كان محمد الشيخ يقيم بمراكش ومنها يشرف على العمليات الحربية ضد برابرة جبل درن . لما علم من نوايا أعدائه . رحل الى فاس على رأس ما كان له من جنود وفرسان . ثم تحرك نحو تازة ، وأنزل محلته هنالك في انتظار الاتراك القادمين من تلمسان ، الا أن صالح رايس كان يزحف ببطء ، وهو يستنفر أكثر ما يمكن من المقاتلين ، فاضطر محمد الشيخ الى الرجوع الى فاس ، لأن المؤونة كانت تنقصه ، ولأن أبناء أبي حسون كانوا يتربصون في معاقلهم بالجبال ، الى القوافل المحملة اليه ويحجزون حمولاتها.

لم يمض على مغادرة محمد تازة الا أيام قلائل حتى دخلها صالح رايس ، واستسلم له السكان بعدما قبل أن يسمح لجنود الحامية ، وعددهم مائتان ، بان يبرحوا الموقع. بعد ذلك زحف القائد التركي نحو فاس عبر ممرات ممتازة تقيه ضربات القوات المعادية التي ظلت تترصد له بالسهول ، بخيولها وفرسانها .

وذات يوم ، وقع عبد الله بن محمد الشيخ ، وهو يقود الفرق الخلفية ، في كمين نصبه له الاتراك ، فهزموه وغنموا كل ما كان لديه من مؤونة وعتاد حربي . ولم ينج عبد الله الا بالفرار . واضطر الى المشي ليلا ونهارا حتى وصل الى فاس .

بعد ذلك بأيام ، حطّ صالح رايس باحدى ضفتي نهر سبو ، ذلك ما أرغم الشريف على الخروج اليه ، لأن العرف جعل فاس تمتاز بكونها تحتم على كل من يتولى الملك فيها ان يخرج لقتال العدو اذا كان يرابط على مقربة من المدينة . ولم يكن أهل فاس ليرضوا بأن تلحق بالمدينة خسائر ، من جرّاء تشبثهم بولاء لا خير من ورائه ، خصوصا اذا كان الجالس على العرش لا يستطيع الدفاع عنها .

من أجل ذلك ، اجتمع الشريف بمجلسه ، ووافق الجمع على ان يشن غارة مفاجئة على العدو الذي يكون التعب قد أضناه بسبب المشي طوال أيام عديدة . فأرسل الشريف ثمانية آلاف فارس لقتال الأتراك، ثم نصحه قائد حرسه قارة علي ، وهو تركي ، بأن يكاتب القائد صالح رايس ، ففعل . لكن الشريف أمر بقطع رأسه ، وخرج بعد ذلك من فاس على رأس جيش منظم وحطّ بمحتله على الطريق المؤدية الى دبدو ، سعيا وراء قطع السبيل على الأعداء ، أو على

الاقل ، لمقاتلتهم في مكان استراتيجي مناسب ، كما تقدم له أن فعل ضد الملك الوطاسي .

كان جيش محمد الشيخ يتألف من ثمانين ألف جندي ، أكثرهم من الفرسان ، زيادة على الفرسان الذين ذكرتهم أعلاه ، وذلك لأن أهالي سوس ، ودرعة ومراكش وفاس ، هبّوا لتعزيز الجيش .

رابط محمد الشيخ غير بعيد من الاتراك ولم يكن يفصله عن معسكرهم الا النهر . ولما رأى صالح رايس ذلك، فهم أن محمد الشيخ أراد أن يمنعه من عبور النهر . اذ ذاك، نصب مدافعه الاثنى عشر على طول النهر، وأمر باطلاق النار، ثم أمر كل فارس أن يحمل معه راميا على جواده . عندئذ انسحب جيش محمد الشيخ من مكانه، فرارا من القذائف، واستطاع صالح رايس وجنوده عبور النهر . وعندما مرّ الرماة كلهم ليشكلو جدارا أمام الخيالة ، مستعينين بدروعهم، وأبلى الاتراك بلاء حسنا، اذ أن فرسان محمد الشيخ لم يتمكّنوا من النيل منهم، وقطع النهر جميع الوحدات التابعة للقوات التركية، خلال عشية واحدة .

اتخذ صالح رايس معسكره بين النهر وجدول عميق يمر بالقرب من فاس، وقضى الليل يقظا وسط السلاح . وفي غداة الغد قسم محمد الشيخ جيشه الى ثلاثة أقسام ، فوضع ابنه عبد الله على رأس قسم وأمره بالتمركز على جانب الطريق الرئيسية، ببلدة دار الدباغ، وأمر القسم الثاني بالمرابطة في السهل، والقسم الثالث بالتمركز في منتصف الطريق التي كان بها موقع محصن يتوفر على اثني عشر مدفعا .

لما شهد صالح رايس نظام جيش محمد الشيخ، قسم جيشه الى فرقتين، تتألف كل واحدة منهما من ستة آلاف جندي على وجه التقريب، أغلبيتهم مسلحون بالبندقيات أو السهام ، ثم جعل أبا حسون على رأس فرقة، وأمير دبدو على رأس الفرقة الاخرى، ليزحفا معا نحو بلدة صفرو، قصد اثارة انتباه العدو واستجلابه نحو صفرو لكي يجلو عن مواقعه ويترك طريق دار الدباغ مفتوحة .

ان السيطرة على دار الدباغ الواقعة على ربوة صغيرة، تفسح المجال نحو التقدم الى فاس عبر طريق وعر مُستوٍ لايُمكن لخيول العدو أن تركض فيه . وهكذا نجح مخطط صالح رايس، اذ بمجرد ما أوهم كل من أبي حسون وأمير دبدو أعدائهما بأنهما يتّجهان نحو صفرو، تقدم فرسان سوس، وعددهم ثمانية آلاف،

للدفاع عنه ، وذلك لأن خزائن المؤونة كانت فيه ، بينما توجه صالح رايس نحو دار الذباغ فأجلى عنها حرّاسها واستولى عليها . لكن الفرسان السوسيين أدركوا الخدعة وتراجعوا، فاشتبكوا مع القوات الخلفية لصالح رايس، وقتلوا من جنوده عددا كبيرا وغنموا ثلاثة مدافع . فاستعاد الاتراك هذه المدافع، ثم ضاعت منهم مرّة أخرى، وأخيرا استرجعوهـــا .

أمام هذه الأحداث، أعطى الشريف الاشارة ببداية القتال، لكنه لما رأى أن المرتزقة الاتراك لا يطلقون النار على جنود صالح رايس، وهم يقتربون منهم، أدرك أن هناك خدعة، فأمرهم بالتوقف ، كما أمر العلوج بالتقدم نحو الطليعة، غير أن فعالية هذا الاجراء أضحت بدون جدوى، لأن تغيير الخطة جاء بعد فوات الاوان، اذ أن قائد الحرس التركي أسقط لواء الشريف وأمر المرتزقة بالهجوم على العلوج، فقتلوا منهم الكثير، ودفعوا آخرين الى الفرار . عندئذ أمر صالح رايس المدفعية باطلاق النار على أعدائه الذين كانوا يرابطون في الطريق، في حين أغار عليهم الاتراك الذين استولوا على الهضبة، وكبّدوهم خسائر فادحة ، وذلك ما دفع الشريف الى دعوة ما بقي من قواته الى التراجع، اتقاء هزيمة نكراء وقضاء مبرم على الجيش .

توجّه الشريف نحو فاس الجديد، على رأس عناصر الجيش التي أقبلت من سوس ومراكش، لأن العناصر الفاسية تخلّت عنه برمّتها ولجؤوا كلهم الى فاس البالي .

أما الاتراك، فانهم واصلوا زحفهم بانتظام نحو المدينة حتى بلغوا باب فتوح، وهناك رابطوا، واتصل بأبي حسون العديد من أصدقائه . أمر محمد الشيخ ابنه عبد الله بالتوجه الى فاس البالي مع الفرسان، ففعل ، ثم أخذ يقصف بمدفعين معسكر الاتراك من باب فتوح. اغتاظ صالح رايس وأرسل في طلب أبي حسون وعاتبه على ما وعد به، إذ تقدم له أن صرح لصالح رايس أن سكان فاس سيستسلمون بدون مقاومة، فطلب أبو حسون من صالح رايس أن يمده بخمسمائة من العساكر الاتراك (الانكشارية) الذين كسروا أبواب المدينة العتيقة، واقتحموها دون أن يعترض سبيلهم أي أحد من الأهالي .

استنتج عبد الله من ذلك أنه لايمكنه الثقة بأهل فاس البالي، فخرج مسرعا من أحد الابواب الخفية والتحق بفاس الجديد، مارّا بالمرس، وأطلع أباه على

ما حدث . في الحين، أمر الشريف أحد قواد الجيش، ويدعى علي بن أبي بكر، بأن يعبئ الجنود أمام أبواب فاس الجديد، وكأنه في حالة الدفاع عنها، بينما ينسحب هو ــ محمد الشيخ ــ بحاشيته . بعد ذلك، دخل الى قصره، ودعا كل واحدة من نساء حريمه أن تبحث لنفسها عن وسيلة للنجاة، إما على فرس أو على جمل، وتنطلق نحو مرّاكش . ثم امتطى فرسا، وخرج راكضا من الباب السري، وسيفه بيده .

خرجت النساء من القصر بدون حرس، مثنى مثنى على مطية، فوقع معظمهن في شباك أهالي ضواحي المدينة، وفرت الاخريات الباقيات، كل منهن حسب وسائلها. ووقعت على الأرض من مطيتهما اثنتان من بنات الشريف، فتوجهتا الى القصر وطلبتا من المسيحيين الذين كانوا فيه، أن يقوموا بحمايتهما الى أن يقدم صالح رايس أو أبو حسون، فقبلوا وأوصدوا الابواب .

قبل أن يبرح الشريف القصر، ترك أبواب خزائنه مفتوحة، فتناول منها حشمه وخدمه، كل حسب استطاعته، فأصبح بعض حاشيته أثرياء، وأعداؤه أصبحوا أكثر ثراء منهم، بحيث لم يبق من نفائس محمد الشيخ الا القليل . ولما تأكد علي بن أبي بكر أن الشريف في مأمن على حياته، فاوض الاتراك في خروجه بأسلحته وأمتعته وخيوله، فسمحوا له بذلك، وأهداه صالح رايس سيفا من الفضة، ثم غادر المدينة .

لما أمسى صالح رايس سيد المدينة، نصحه بعض مساعديه الأقربين الذين كانوا يضمرون العداء لابي حسون، ألا ينصّبه ملكا على البلاد، نظرا لتعاطفه مع النصارى وإعراضه عن الجهات الاسلامية، فأمر رايس بالقاء القبض عليه، ونصّب ملكا مولاي أبا بكر الوطاسي ابن الملك الراحل وولي عهده . فكان ردّ فعل السكان قاطبة أن تمرّدوا على الاتراك، فاضطر هؤلاء الى اطلاق سراحه، سعيا وراء إخماد الفتنة، ثم عرضوا أبا حسون على الجمهور خلف نوافذ الحصن، الا أن الناس ضاعفوا من هتافاتهم المعادية، غير قانعين برؤيته وراء الشبابيك، مطالبين بتسريحه (27م).

ولما تزايد غضب الجمهور، لم يجد الاتراك بدّا من اخلاء سبيله، وخرج أبو حسون من السجن، لكنه وعد حلفاءه الأتراك بأنه لن يتواني في الوفاء لهم وانه لن يلبث الا قليلا حتى يعود اليهم .

(27م) لا أثر لهذه الأحداث في المصادر المغربية ، ولعلها من نسج خيال مارمول. (مترجم) .

دخل أبو حسون الى جامع القرويين، وأخذ يشتكي من معاملة الاتراك الذين حبسوه وأوشكوا أن يقطعوا رأسه، ورفض أن يعود الى القيادة التركية الا اذا رافقة أحد الضبّاط، فكان له ما شاء . وعندما مثل أمام صالح رايس، استقبله بحفاوة ثم نادى به ملكا، وقضى أن يدفع كل بيت أوقية من الفضة غرامة على تمرد السكان ضد الاتراك .

لم يقلع صالح رايس عن الشعور بالحقد على أبي حسون، لكنه قبل أن يبرح المدينة، أعطى تعليماته الى مولاي أبي بكر لكي يتوجّه الى مراكش ويعرض على محمد الشيخ قبول التبادل بين بنات الشريف اللواتي بقين في فاس على اثر نكبة أبيهن، وبنات أبي حسون اللواتي تم تغريبهن الى ترودانت، ويطلعه أيضا بأن صالح رايس لا يمانع في عودة الشريف الى فاس لشنّ غارة عليها واسترداد العرش متى شاء، اذ أنه قرّر أن يكف عن امداد أبي حسون بأية مساعدة عسكرية.

استجمع صالح رايس بعد ذلك عرباته وقواته ورجع الى الجزائر التي وصل اليها بعد أربعين يوما من المشي، محملا بمغانم كثيرة، من بينها كنوز ملك فاس .

عندما جلس أبو حسون على اريكة العرش بفاس، قام حاكم بادس بتسليم هذا الموقع الى ابن الملك الجديد . فاغتاظ صالح رايس لهذا النبأ، وأوفد مبعوثا الى أبي حسون يطالبه بالحاح أن يسلّم بادس الى قائد اسطول تركي يتألف من خمس عشرة قطعة كانت حينئذ راسية في عرض بادس . لكن أبا حسون اعتذر عن عدم تلبية رغبة القائد التركي بدعوى أن الحاكم الجديد الذي تولّى السيادة على المدينة لا يرغب في التنازل عنها . أمام هذا الرفض أمر صالح رايس قائد الاسطول المرابط عرض شواطىء المغرب بأن يستولي على بادس مهما كان الثمن .

وفعلا، قام القائد البحري التركي بالتحايل على محمد بن ابي حسون، وأفلح في ابعاده عن مركز القيادة، ثم أكرهه على ارسال خاتمه الى خليفته يطلب منه أن يسلم بادس الى أحد القراصنة الاتراك، وهكذا نجحت المؤامرة وأصبحت بادس خاضعة للنفوذ التركي[28] .

أما محمد الشيخ، فانه كاتب ابنه الذي يتولّى السلطة بمكناس وأمره بالجلاء عن المكان والالتحاق فورا بمراكش . وعلى إثر ذلك، دخلت مكناس بدورها تحت سلطة أبي حسون .

---

(28) [illegible] الأتراك على بادس (مترجم)

في خضمّ هذه الاحداث، قام أحمد الاعرج بتحركات في منفاه بتفيلالت، اذ طفق يستنفر ويعبئ كل من يمكن تعبئته من الاشخاص، وأخذ يتنقّل بين القرى والمداشر في المنطقة، وراح الناس يستقبلونه بالحفاوة والتكريم، اينما حلّ وارتحل، ولم يكن من يقف هناك ضده ويمنعه من التحرك، اذ كانت المنطقة خالية من أية حامية .

ومعالجة لهذه الاوضاع، عمل محمد الشيخ على اعادة تنظيم الجيش، فجعل قواته شطرين، شطرا تحت قيادة ابنه عبد الله، وأمره بالزحف نحو فاس لقتال أبي حسون، وشطرا جعله من نصيبه وزحف به تجاه تفيلالت .

كان الجيش الذي انطلق نحو فاس، يتألف من آلاف الفرسان والجنود المحنكين من بين أجود قبائل عرب الرحامنة . ولما علم أبو حسون بالقوات التي تزحف نحو فاس، أمر ابنيه مولاي ناصر ومولاي محمد بالتصدّي لها .

كانت أم مولاي ناصر جارية ولم يعترف به أبوه بعد، بينما كان أخوه مولاي محمد من فراش شرعي . ولما اقترب الاخوان من صفوف قوات العدو، نصح بعض الضباط مولاي محمد أنه سيعمل عملا صالحا اذا انفصل عن أخيه، وتصدى وحده لعبد الله حتى ينفرد بشرف النصر، فاستجاب للنصيحة .

تسرّبت الى علم عبد الله تفاصيل الخطة، فنصب كمينا لمولاي محمد، فوقع فيه وانهزم . ولما رأى مولاي ناصر جنود أخيه مقبلين وهم يطلقون الأعنّة نحو السماء، خشي أن يكون الامر ناتجا عن خيانته، فولّى عائدا الى قاعدته .

تقّبل أبو حسون باستياء كبير الفشل الذريع الذي مني به ابناه، فراح يجمع الحشود من الجنود، وقادهم بنفسه لخوض القتال، فأمسى النصر حليفه، واضطرّ عبد الله الى العودة الى مراكش . ترتّب عن هذه المعركة اندحار كافة العناصر العربية القادمة من سوس والتي كان الشرفاء يعلّقون عليها آمالا كبيرة، خصوصا انهم كانوا يشكلون العمود الفقرى العتيد للجيش الذي رابط ردحا من الزمان في تلمسان، بعدما فتحتها قوات محمد الشيخ .

أما في منطقة تفيلالت، فان محمد الشيخ قام بحصار شديد للموقع الذي تحصّن به أخوه أحمد وابناؤه . لكن لما بلغه تقهقر الجيش الذي زحف نحو فاس، اذاع في ربوع تفيلالت انباء معاكسة . كان لها أثر سيء على معنوية أخيه وانصاره .

فما كان من أحمد الا أن دعا اليه ابنيه وأعرب لهما عن حزنه لما وصل اليه من سوء الحال، وأخبرهما بأن كل الآمال التي كان يعقدها على أبي حسون ذهبت أدراج الرياح، ثم دعاهما الى الارتماء على قدمي عمّهما واستعطافه عساه أن يغفر لهما زلتهما .

لبّى ولدا أحمد أمر أبيهما، واستأمنا الشريف، فأمنهما على نفسيهما، لكن محمد الشيخ تنكّر لذلك، اذ أنه خشي أن يكتشف ولدا أخيه حقيقة مصير جيش عبد الله، فيندما على ما صنعاه. وتلافيا لذلك، أمر حرّاسه بالقاء القبض عليهما بمجرّد ما يبرحان خباءه، ثم حكم على أخيه بالمُقام الاجباري باحدى الزوايا، وضم جيش أحمد الى جيشه، وقاد الكل الى فاس، فلما دنا من مشارفها أمر بقتل ابني أخيه زيدان وناصر، اتقاء كل تمرّد محتمل .

استنفر أبو حسون كل قواته، وعززها بعناصر عربية استقدمها من الاقاليم التي كان له نفود عليها، وخرج لقتال الشريف . كانت المعركة حامية الوطيس، سالت فيها الدماء أنهارا. وبالفعل، فان محمد، نجل أبي حسون، كان على رأس الفرسان الذين يشكلون الجناح الايمن لجيش أبيه، فتغلّب على الكتائب الاولى التي طلعت في الميدان وقتل عددا لا يحصى من جنودها . هذا من جهة ومن جهة أخرى ، كان محمد الشيخ يقود دائرة الحرب بنفسه ويخوض المعمعة بدون هوادة ، فتمكن من البطش بعدوه الذي فقد الكثير في ساحة الوغى ، بين جرحى وقتلى ، حتى إن مَن بقي من جيش عدوه أخذ يتراجع فارا من الميدان عائدا نحو المدينة. وأثناء العمليات الحربية التي استبسل فيها أبوحسون وابنه، أصيب أبوحسون بضربة أودت بحياته، فاكتملت الطامّة على جيشه، وجلا عن الميدان في فوضى لا مثيل لها، فشرع محمد الشيخ يطارد الفارين حتى بلغوا أبواب المدينة، ولاذ محمد نجل أبي حسون بالفرار طالبا الاحتماء وراء الجبال . ولما تمكّن من العودة الى المدينة، لقي من سكانها استقبالا باردا، اذ أعرض الناس عنه ونأوا بجانبهم فأدرك أنه فقد مكانته في نفوسهم،وتشاور مع أخيه الناصر، فاتفقا معا على اللجوء الى مكناس، ومن تم رحلا الى سلا حيث أبحرا الى اسبانيا على متن سفينة تجارية أوربية، لكن قراصنة بريطانيين تعرضوا للسفينة التي كانت تقلهما، وسبوا جميع ركابها .

أما أبو بكر، فانه لم يقو على البقاء بعد الهزيمة النكراء التي مني بها جيش أبي حسون، وبعد مقتل هذا الأخير، فلاذ بالفرار الى تلمسان، ومنها رحل الى

مدينة الجزائر ، لكنه لم يلبث الا قليلا حتى كان من جملة الموتى الذين عبث بهم وباء الطاعون الذي اجتاح المنطقة .

دخل محمد الشيخ ثانية الى فاس، وهو يحمل لواء النصر، وفي ظرف وجيز، أصبحت له السلطة بدُون منازع على جميع تراب المملكة، لكن باله لم يرتح لتمرّد أهالي جبال درن بالاطلس الكبير، فأراد أن يعالج الموضوع بالحكمة . لذا ترك نجله عبد الله بفاس، يسيّر دفة الحكم ، وقفل عائدا الى مراكش . وهناك عقد الصلح مع بربر درن، ثم استقدم من تفيلالت أخاه أحمد وبقية أبنائه، وزّج بهم جميعا في غيابات السجن . بعد ذلك، رحل الى ترودانت، وتزوّج احدى الحسناوات، اذ كانت عادته أن يتزوج مرّة كل سنة .

لما فرغ محمد الشيخ من غمرة أفراحه وحفلاته، حشد الحشود والّف جيشا عرمرما من الفرسان، ومن ألف ومائتين من المرتزقة الاتراك الذين كانوا يشكلون حرسه الخاص، ثم زحف نحو جنوب سوس .

وما أن بلغ الجيش الى موقع يسمى بأكلكال ، بين جبال الاطلس الكبير في الطريق المؤدية من مراكش الى ترودانت حتى أعلن الاتراك رفضهم لمواصلة السير، وامتدّت أيديهم الى الملك فاغتالوه . وبما أن هذا الحدث يكتسي أهمية كبرى ويسترعي الاهتمام، بات من الضروري أن أتعرّض اليه بالتدقيق .

كان يومئذ بالجزائر، ضابط كبير سفّاك للدماء، يدعى حفصي، وهو بالضبط حفصي باشا، أبوه هو المكنّى «بربروس» وقد عرض هذا الضابط خدمته على حاكم الجزائر، لكي ينفذ عملية اغتيال محمد الشيخ الذي يعده عدوا لدُودا . استحسن الحاكم الاقتراح ووعد السفاك بمكافأة هامّة ان هو نفذ العملية بنجاح وعاد سالما، أما اذا اغتال الشريف ووقع عليه القبض وقتل، فان المكافأة ستسلم الى أهله وأنجاله .

وتسلم حفصي قسطا مسبّقا من المكافأة قبل أن يبرح الجزائر رفقة عشرين من المرتزقة الاتراك، ولما وصلوا الى المغرب وحلّوا بفاس ، أخذوا يوهمون الناس بأنهم فرّوا من بطش الحاكم الجزائري وطغيانه، وبعدما استمالوا القلوب وهوت اليهم الافئدة، عرضوا خدماتهم على الامير عبد الله، لكنه رفض قائلا بأنه في غنى عنهم ولاثقة له بالاتراك . ومع ذلك، فانه أمر لهم ببعض المساعدات وحملهم على الرحيل الى

مرّاكش للاتصال بأبيه .

استطاع حفصي دخول القصر بمراكش فأدانه الشريف منه وأكرم مثواه ثم عينه قائدا على حرسه . وفي رحلة المحلة نحو ترودانت، غضب الحرس بأكمله، وتمّرد على الشريف ورفض أن يواصل الطريق، لأن الشريف لم يؤد لهم رواتبهم منذ سنة نظرا لقيامهم بعمليات النهب التي كانوا يمارسونها بين الفينة والاخرى، ضد سكان الحواضر والبوادي .

رأى حفصي أنها المناسبة لتنفيد مشروعه، فعرض على بعض زملائه الاتراك أحد أمرين : اما اختطاف الشريف ونقله الى تلمسان عبر الصحراء، واما اغتياله، مع الاستيلاء على أمتعته وأمواله في كلتا الحالتين .

ونفذ العملية بأسهل ما كان يتوقعه ضباط من الحرس التركي. وذلك ما يحدث في تنفيذ المآمرات اذا أحكم المتآمرون خطّتهم . وفعلا، كان الشريف يوما جالسا داخل خبائه، فادعّى أفراد الجماعة التركية رغبتهم في الاستعراض أمامه، لذا، حملوا سيوفهم وركبوا خيولهم. وتقدم نحو الشريف قائدهم حفصي محفوفا بأربعة من رفاقه، لتحية الملك . ولما دنا حفصي منه وأخرج سيفه، اذا بأمين المال وعلج من أصل برتغالي، يصيحان وهما يدعوان الشريف الى الفرار حتى لايذهب ضحية الخيانة . نهض الشريف من مكانه وسعي الى الهروب، لكن رجليه ارتطمتا بحبل يشد الخيمة الى الأوتاد وهو مُوَلّ ظهره الى حفصي ، فوقع على بطنه ، وانقض عليه التركي بسيفه فنزل كالصاعقة على رجليه، فقطع احداهما، في حين تولّى الآخرون طعنه حتى لفظ أنفاسه . وهرول نحوهم بقية الاتراك، وفرّ أمين المال وكذلك الجنود العرب الذين كانوا حاضرين، ولم ينهض لمقاومة الخونة الا العلج الذي لقى مصرعه دفاعا عن سيده .

اجتمع الاتراك على اثر تنفيد عمليتهم الجريئة، وجهروا بوفاة الشريف، معترفين بأنه لقي على أيديهم مصيره المحتوم، لأنه كان طاغية . بعد ذلك قاموا بنهب خيام المحلّة وسطوا على كنوز القتيل وسبوا اثنتين من بناته . ثم أعلن حفصي لكافة عناصر العسكر، أنهم أحرار يمكنهم أن يذهبوا أين شاؤوا، لكنه عرض على الذين يرغبون في البقاء أن ينضموا الى حزبه، مقابل تسلّمهم ما كان لهم من حقوق مالية لم تصرف اليهم بعد .

شكّل حفصي قوّة من الاتراك وبعض العرب والعلوج الذين انضمّوا الى صفوفه، ودخل الى اقليم سوس، وأخذ ينتقل بين ربوعه بكل حرية، الى أن دخل الى مدينة ترودانت التي كان بها أحد أبناء الشريف، وقد غادرها مكرها، فاستولى حفصي على القصر وعلى ما كان فيه من كنوز .

كان يقطن بترودانت، في هذه الاثناء، يهودي أعلن اسلامه ، يدعى القاضي موسى ، وكانت مهمّته الاشراف على مصانع السكر التي أنشأها الشريف في الاقليم، وكان موسى وقتها في السجن، لعدم أداء ديونه . كان هذا الاسلامي داهية، فلما علم حفصي بامره أطلق سراحه وعينه قاضي القضاة في المدينة .

بعدما تولى موسى القاضي هذا المنصب، نصح حفصي بالاعتصام بالمدينة حتى تصل اليه النجدات من الجزائر . لكن حفصي لم يثق بنصائح موسى وظن أنه يريد بذلك أن يجعله في موقف حرج مع الشريف، في انتظار وحدات النجدة التي قد تأتي من فاس ومراكش، لذلك قرر ان ينسحب، لأنه نفّذ المهمة التي أقبل من أجلها الى المغرب.، ولأنه أصبح غنّيا. وبعد ما أقام في ترودانت عشرين يوما، برحها في اتجاه تلمسان، عبر الصحراء .

عندئذ، اتخذها اليهودي فرصة للتدليل عن إخلاصه للشريف، وأشعر ابنه عثمان برحيل بربروس، فاستنفر ابن الشريف القوات المتواجدة بالمنطقة، وحشد شيوخ القبائل العربية والبربرية، وحرضّهم على ملاحقة حفصي الذي قال عنه إنه فرّ بكنوز المملكة .

أخذت القوات التي شكلها ابن الشريف، تلاحق الاتراك وتطاردهم في ترحالهم، الى أن أبادتهم ولم يبق منهم الا خمسة وقعوا في الأسر . وبعد أن استرجع عثمان كنوز أبيه وحرّر أختيه، عاد الى ترودانت لتسيير دفة الحكم . الا أن حاكم مراكش، المسمى علي بن أبي بكر، خشي وقوع تمرّد بها وأن ينادي السكان المتهورون بأحمد ملكا على البلاد دون انتظار أمر الأمير الجديد، فأمر بقتل أحمد وأبنائه وأحفاده .

الغريب في هذه المذبحة التي ذهب الشرفاء ضحاياها، أن الاخوين، محمدا وأحمد، اللذين ظلا يتطاحنان بدون هوادة من أجل انفراد كل منهما بالحكم، لقيا حتفهما بالعنف . أما مولاي عبد الله الذي أخذ يسود البلاد طولا وعرضا، فانه كان ملكا وديعا بالمقارنة بهما .

ومن بين الضحايا الذين زهقت أرواحهم على يد حاكم مراكش، ولدان لمولاي زيدان، انجبتهما زوجته مريم بنت محمد الشيخ . وفي أعقاب الكارثة التي أفجعت مريم التحقت ببلاط أخيها بفاس وصدرها يغلي نقمة على حاكم مراكش . لذا راحت تبيت ما تبيت لخلق الظروف الملائمة للثأر . وتمكّنت من اشفاء غليلها بعد زمان، اذ نصبت فخّا لحاكم مراكش، فوقع فيه وقطع رأسه . لكن ما هي الظروف والملابسات التي أودت بحياة مولاي أبي بكر ؟

بعدما أصبح مولاي عبد الله ملكا على البلاد، استقدم الى فاس مولاي أبا بكر ورقاه الى مرتبة ضابط سامٍ وألحقه ببلاطه . كان يحظى أكثر من غيره برضى وعطف الملك، وذلك يرجع لانتمائه الى أشهر القبائل في اتقان فنون الحرب والاستماتة في القتال والولاء والوفاء للشرفاء ، وهي قبيلة زرقانة . من أجل ذلك رفعه مولاي عبد الله الى درجة ولي الدولة ، وهي الرتبة المقابلة لرتبة رئيس الوزراء في بلدان أخرى، أو رئيس الحكومة، ويدخل في اختصاصاته تعيين خلف للملك بعد وفاته .

كان للشريف ولد، وهو ولي العهد بالطبع، لكنه كان صبيا، وعملت مريم أن القوم لا يزكّون تنصيبه في محل أبيه، فأخبرت أخاها بما يتردد في الاوساط الشعبية، وطلبت منه استفتاء ولي الدولة في الموضوع، لانها كانت تعلم بأنه يميل الى راي الجمهور ويناصر أخا الملك .

مرض الملك ولازم الفراش وانقطع عن الناس، وأخذ مولاي أبو بكر يتردد كثيرا على البلاط ليتفقّد أحوال الملك، لكنه لم يظفر بالدخول عليه، فساوره الريب فيما حدث، وذهب به الظن الى أن الملك قد هلك، وألح على أخت الملك في أن تكشف له عن الحقيقة، لأن شؤون الدولة باتت معلقة، ولم تصدر أوامر لتسييرها وتنفيد ما يجب تنفيذه .

رأت الاميرة مريم أن الوقت حان لتوريط مولاي أبي بكر والانتقام منه، فأبلغت أخاها المريض ما يجري في رأس الوزير، ثم اسدلت غطاء أبيض عليه بعدما اتفقت معه على اختبار الوزير . بعد ذلك، دعت الوزير الى الدخول الى غرفة أخيها وقالت : «ان الملك قضى نحبه، ويجب أن تنادى بابنه خلفا له» . فأجاب مولاي أبو بكر «ولي العهد ما زال صبيا، وحالة الدولة تستلزم أن يتبوّأ

العرش رجل قوي راشد، وللملك أخ تتوفّر فيه هذه الشروط»، ثم برح الغرفة . عندئذ، نهض الملك من فراشه وارتمى على الارض لأن المرض أنهكه، ثم تناول عكازا واستعان به للوصول الى باب الغرفة بشيء من السرعة، وصاح قائلا لوزيره انه يشكره على اخلاصه وعلى نواياه الرامية الى تجريد ابنه من حقوقه المشروعة ، وتفويتها الى أخيه، ثم أكّد له بأنه لم يمت،وذكّره بأنه لازال قادرا على تحمل أعباء الملك .

أحس الوزير باضطراب كبير لدى سماعه ردّ فعل الملك، وأحس بالعي في لسانه فهرول نحو بيته خائفا . هناك تنكّر في زّي النساء وقصد زاوية خارج المدينة ليعتصم بها ريثما يأتيه أحد خدامه بحصان مجهّز للسفر الى أحد المواقع الشاطئية التي يحتلها النصارى، وبينما كان قابعا تحت شجرة زيتونة، اذا بقنّاصة راجعين من الصيد يرمقونه، فحسبوه امرأة، فدنوا منها وكشفوا عن وجهها، فاستغربوا أمر الشخص المقنّع وتعرّفوا على حقيقته بعد حين، فأرغموه على مرافقتهم، وسلّموه الى مولاي عبد الله الذي لم يلبث أن أنزل به عقوبة الاعدام . هكذا انتقم الشريف لأخته دون أن يأخذ بعين الاعتبار ما قدمه له مولاي أبو بكر من خدمات .

بعد مصرع الوزير بأيام، أمر الشريف بقتل محمد ابن أخيه الاكبر عبد القادر أمير مكناس، وذلك لأنه خشي أن يتوصّل الى العرش، خصوصا وأنه كان يحظى بعطف الناس وحبهم، نظرا لخصاله الحميدة . وتجدر الاشارة الى أن محمداً كان قد تزوج السيدة صوفية بنت أخت مولاي عبد الله . وهكذا صفا الجو للملك الذي عظمت شوكته، فأصبح أقوى وأعظم ملوك إفريقيا آنذاك، اذ أن حدود مملكته كانت تتاخم جنوبا بلاد السودان، وتطل شمالا على مضيق جبل طارق، وتحاذي تلمسان شرقا ، ويحدها المحيط الاطلسي غربا . وبذلك كانت المملكة السعدية تضم أربع عشرة ولاية، من مراكش الى فاس، علاوة على ولايات أخرى تقع في الصحراء الوسطى والكبرى . وفعلا، فقد كانت لها في الصحراء، تخوم تصل الى تداغوست، التي تبعد بمسافة ثمانية أيام عن آخر حدود السوس الاقصى، وتمتد الى الساقية الحمراء المجاورة لغينيا، وهي المناطق والامصار التي توجد فيها شعوب وقبائل ميالة الى الحروب ومحبة للقتال .

كان جيش مولاي عبد الله يضمّ وحدات يبلغ تعدادها ستين ألف نسمة، كلهم فرسان مستعدون للمجابهات المسلحة، يرابط منهم خمسة عشر ألفا بدرعة

وسوس، وخمسة وعشرون الفا بمراكش، وعشرون الفا بفاس، من بينهم خمسة آلاف يشكلون حرس الملك . الى جانب هذه الاعداد، كان يوجد في الجيش الفان من الرماة العلوج منضوون تحت لواء المشاة وخمسمائة من الفرسان، وكذلك ألف من الرماة المنتمين الى أهل سوس، وقد أنيطت بهؤلاء السوسيين مهمّة السهر على استتباب الأمن بفاس الجديد ، لأن الملك قد اختار أن يكون مُقامه فيه .

كان هؤلاء الجنود قاطبة يتقاضون رواتبهم بانتظام، سواء كانوا في حالة حرب أم في حالة سلم، وظلت أجورهم تدفع لهم دفعة واحدة، كلّ أربعة أشهر، مشفوعة بنصيب من القمح والشعير . كان الملك يستدعي الى جانبه شيوخ القبائل العربية وأعيان المدينة ورؤساء القبائل البربرية ليتشاور معهم قبل أن يتخذ أي قرار هام له مساس بمصير الدولة . ولم يكن من عادته أن يطيل البقاء بينهم ، إذ بمجرد ما ينفض الاجتماع يخلي سبيلهم .

تلكم كانت أخبار الشرفاء السعديين باختصار، وقد شملهم حديث واحد لأعطي القارئ نظرة عامّة عن الموضوع حتى يبرز في خطوطه الكبرى . أما الآن ، فإنّي أعود الى بقية الحديث عن تاريخ افرقيا .

* * *

عندما بدأت شوكة الشرفاء السعديين تشتدّ وتعظم في افرقيا، قام الكاردينال جيمنيس، أسقف طليطلة وحاكم مملكة قشتالة، عام 1509، بشن غارات متتالية وعنيفة على وهران، آلت الى احتلال المدينة من طرف النصارى، وسنعود الى هذا الموضوع بتفصيل، في الباب الخامس من كتابنا .

وفي عام 1510، تمكن دون بيدرو، حاكم مملكة نافار، من احتلال مدينة بجاية . وخلال مجرى هذه الاحداث، شكّل فرسان جزيرة رودس – وهم الذين يعدّون العمود الفقري للقوات المسيحية – اسطولا لمناهضة أهداف الخليفة التركي بايازيد وحليفه أبي ناصر، سلطان المماليك الذين كانوا يحكمون مصر، وقد تحالفا على محاربة النصارى، وفي اعتقادهما أن الصلح المبرم معهم انما هو لفترة مؤقته، يجوز نقضه عندما تكون الفرصة ملائمة لمهاجمتهم .

قلت : إن المسلمين (28) راحوا يبيتّون للسطو على رودس، وفي هذا الاطار، أوفد بايزيد ابنه قرقوط في مهمة لدى حاكم مصر، على رأس جيش مدجّج بالسلاح متوفّر على كميات هامّة من الذخائر والمؤن، تكفي لتجهيز مائة سفينه حربية، تعهّد أبو ناصر بابحارها . لكن مصر كانت تفتقر الى الخشب الصالح لبناء السفن، فذهب أبو ناصر يستورده من سوريا التي كانت فيها مساحات غابوية هامّة .

أخذ بايزيد، بعين الاعتبار، الهدنة التي ابرمها مع عاهل رودس، لذ أراد أن يجتنب اثارة تخوفاته عندما قرر أن يرسل تحت غطاء الكتمان والتستّر خمس عشرة سفينة ، وزوارق، وألفا من الجنود التركيين والمماليك، بقياده قرقوط .

كانت الزوارق تحمل المنتجات القطنية والقلوع والحبال، بينما كانت المراكب الاخرى تحمل المعدات الصالحة لتجهيز السفن الحربية . توجّهت هذه الوحدات كلها الى ميناء حيفا . ورغم غطاء السرية التي أبى الاتراك الا أن يضعوه على هذه العملية، فان خبرها وصل الى علم حاكم رودس الذي كان رد فعله الغاء معاهدة الهدنة، بدعوى أن ما قام به الاتراك عمل عدائي لا محالة، فهاجم فجأة تلك السفن وهي راسية في ميناء حيفا، وتمكّن جنوده من الاستيلاء عليها بعد معركة حامية الوطيس .

لقي القائد البحرى المصري حتفه اثناء القتال، ولاذ قرقوط بالفرار داخل الاراضي الفلسطينية، ومني مشروع الاتراك بالفشل . استنكر السلطان أبو ناصر ما أقدم عليه عاهل رودس، وانفجر غضبه ضد النصارى المتواجدين يومئذ بمصر وسوريا، فزجّ بهم في غيابات السجون، وامتدّ غضبة أيضا الى الرهبان الذين يباشرون شؤون كنيسة القيامة، فأمر بسجنهم وهدّد بتدمير كنيستهم، الا أنه عدل عن تنفيد تهديده، اعتبارا للعلاقات الوديّة القائمة بينه وبين عاهل فرنسا، وتشفّع لديه قنصل فرنسا بالقاهرة، فيليب دوبارس، في النصاري، فاكتفى أبو ناصر بمنعهم من التجوّل، ثم تراجع عن قراره بعد أيام، وسمح لهم بالتنقل بكامل الحرية، وأفرج عن كافة المعتقلين المسيحيين، وكان ذلك عام 1511 .

خلال نفس السنة، علم سليم، الابن الثاني لبايزيد، أن والده يفكّر جديّا في التنازل عن الخلافة لابنه حكمت، فلم يتقبّل سليم نوايا أبيه بطيب خاطر،

(28) سماهم مارمول ــ كعادته ــ كفّارا

وراح يتدبّر الامر لابعاد أخيه عن الخلافة ، والتمس من أمير التتار مساندته فلقي التفهّم في رحابه وحصل على تأييده المطلق بعد ما تزوّج احدى بناته .

نشبت خلافات في البلاط التركي، وتحيّز الاكنشاريون لجانب سليم، فرجّحوا كفته ضد أخيه علانية، حتى إن البعض من الملاحظين في البلاد، مالوا الى الظن انهم كانوا وراء الأيدي الأثيمة التي امتدّت الى بايزيد، فدسّت اليه السم وصرعت ابنيه حكمت وقرقوط وأنجالهما .

ما أن تولى سليم الخلافة حتى أعلن عن رغبته في تمديد صلاحية معاهدة السلم التي سبق لأبيه ابرامها مع المجريين والبندقيين، لكنه شن هجوما على قوات الصفوي شاه اسماعيل وهزمها بسهول الجلدران بأرمينيا، ثم دخل منتصرا الى تبريز عاصمة البلاد ، غير أنه لم يقم بين جدرانها إلا مدّة قصيرة، اذ أرغمه اسماعيل على الجلاء عنها، فقصد مسرعا مدينة أوماسية، وقد تكبّدت قواته في سعيها إلى عبور نهر الفرات خسائر فادحة في الارواح والعتاد .

وفي السنة التي تلت هذه الاحداث، أعلن سليم لقومه أن جيشه منكب على الترتيبات لغزو أرمينيا من جديد، فاستنفر الناس وحشد الحشود . لكنه أمر الجيش باختراق حدود ولاية كابادوسا لمحاربة حاكمها الذي ضايقه سنة من قبل، عندما كان معرّجا على الممرّات الجبلية، وانتصر سليم وذبح الحاكم وبعث برأسه الى والي البندقية، ثم توجّه الى مصر لاشهار الحرب عليها، وانتصر سليم أيضا على أبي ناصر الذي لقي حتفه اثناء تقهقر جنوده . وجرت هذه المعركة عام 1516.

واصل سليم حروبه مدة عامين ضد المماليك في مصر وسوريا . واستولى على القاهرة والاسكندرية ودمشق، وأسر سلطان مصر الجديد، طومان باي فأمر بقتله شنقاً، ثم ذبح في يوم واحد كل الاسرى من المماليك الذين وقعوا تحت يديه، فصفت له بعد ذلك شؤون البلاد وأصبح سيدها المطلق، كما هو الشأن اليوم .

واذا ما رجعنا الى الحديث عن اسبانيا، نجد أن الامبراطور فيردناند الذي استكمل اعادتها الى نفود المسيحيين، وافاه الاجل في نفس السنة، بعدما قامت جيوشه بغزو مملكة نابولي، وخلفه على عرش مملكتي قشتالة وليون صهره فيليب، ابن الامبراطور ماكسيمليان الذي تولى الملك في المملكتين بعد وفاة الملكة ايزابيلا، اذ سلمه مقاليد الحكم عليهما صهره، لان حفيد هذا الاخير وولي عهده

كان وقتئذ ما يزال صبيّا . لهذه الاسباب، كان فيليب يساهم في تسيير دفّة الحكم، الى جانب الملكة جان أمّ ولى العهد، قبل أن يصبح امبراطورا على المانيا باسم جديد، وهو شارل الخامس .

وكان عام 1520 مشؤوما على الامبراطور سليم ، اذ لقي فيه حتفه على اثر عملية اغتيال ، وهكذا يكون الله قد أرسل من انتقم منه لأبيه بايزيد ؛ وقد ترددت بين جوانب العالم ، قبل وفاته ، أصداء غزواته وحروبه . وتولى الخلافة بعده ابنه سليمان ، يوم 23 من شهر دجنبر . وتوفي كذلك في نفس السنة دون مانويل حاكم البرتغال ، وخلفه ابنه دون خوان الذي أمر قوات الاحتلال التابعة له بالجلاء عن مواقعها بأسفي وأصيلا والقصر الصغير .

وفي نفس السنة ، اجتاحت جنود سليمان أراضي المجر ، واحتلت بلغراد ، ونهبت العديد من القرى والمدن ، وعاد سليمان مظفرا الى استنبول . وبعد ذلك بسنة، ولم يمر على هذا الغزو عام ، حتى أرسل الخليفة العثماني في شهر يونيو أسطولا يتألف من أربعمائة مركب لمهاجمة جزيرة رودس، فلقي البحارون الاتراك، مقاومة عنيفة من لدن فرسان الجزيرة ، الا أنهم استطاعوا أن ينتصروا عليهم ودخلوا تراب الجزيرة يوم الاحتفال بذكرى ميلاد المسيح ، واضطر الفرسان الى الهجرة ، قاصدين جزيرة صقلية التي استوطنوها مؤقتا الى أن وضع الامبراطور كارلوس الخامس ، تحت تصرفهم ، جزيرة مالطة للاقامة بها نهائيا .

وفي عام 1526 ، دعا الملك لويس ، حاكم المجر ، الى حشد أكثر ما يمكن من الجنود لصد الاتراك الذين اجتازوا حدود بلاده ، ونشبت معركة بين الجانبين ، انهزم خلالها حاكم المجر، ومات غرقا في احدى البحيرات أثناء فراره ، كما غرق معه عدد كبير من أفراد حاشيته ، فدخل سليمان مظفرا الى مدينة بودا ، والحق بها وبسكانها خسائر فادحة ، وأمر باحراق المكتبة القيمة التي كان يملكها ماتياس كوربان ، كما ألحق أضرارا جسيمة بربوع البلاد .

زد على هذا أن وفاة عاهل البلاد ، تسبّب للمجر في متاعب جمّة وفي خسائر كانت أكثر جسامة مما ترتّب مباشرة عن الغزو التركي ، ذلك أن مشكلة خلافة العاهل الراحل طغت على جميع المشاكل ، وأدّت الى اشتباكات عنيفة بين أنصار فردناند ، شقيق شارل الخامس ، وأنصار خوان سيبوص الذي بات يحظى

بتأييد البابا . ودامت المعركة بين الجانبين أمدا طويلا .

لكن في عام 1529 ، قام سليمان مرّة أخرى باجتياز حدود المجر ، واستولى على حصون بودا بعد اجراء مفاوضات مع أهلها ، ثم شرع يمارس أعمال التخريب والنهب عبر البلاد ، وشن سلسلة من الغارات على فيينا ، وأقام حولها حصارا استغرق اثنين وعشرين يوما ، وانطلقت بعض عناصر قواته تبطش بالأهالي في مختلف جهات البلاد ، وتسبي منهم الكثير . غير أن سكان فيينا لم يستسلموا للاتراك ، ولو أن أسوار المدينة لم تكن عالية جدا ، فاضطرّ سليمان الى رفع الحصار عنها ، ورجع الى بلاده ، بعدما رجّح كفّة خوان سيبوص وساعده على اعتلاء كرسي الملك في بودا.

فقد سليمان في هذه العمليات ، أكثر من ثمانين ألف جندي منهم من لقوا حتفهم في الوغى ، ومنهم من مات جوعا ، وآخرون ماتوا من شدّة البرد ، وفقدت الوحدات الاسبانية العديد من رجالها وعلى رأسهم لويس دافلوس قائدهم الذي لقي مصرعه بعدما اخترق سيف أحد الأتراك جسده ، ودفن في مقبرة الأمراء باحدى الكنائس.

استأنف سليمان الحرب ضد المجر ، فتميز غزوه الثالث لها بالغارات المتتالية العديدة التي شنّها على موقع غونفي المحصن ، بقوات تتألف من مائتي ألف جندي ، وقد صمد نيكولا جيريس ، قائد الموقع ، في وجه الهجمات التركية ، بطريقة تثير الاعجاب ، الا أنه اضطر الى الاستسلام في النهاية ، ولكن بشروط.

لم يرض كارلوس الخامس بهزيمة أخيه ، فعبّأ جيشا من الاسبان والالمان والطاليان ودخل بهم الى المجر ، وكان عددهم تسعين ألفا من المشاة ، وثلاثين ألفا من الفرسان المجريين ، غير أن سليمان عدل عن مجابهتهم ، وولّى عائدا الى استنبول ، بمغانم كثيرة وأسرى عديدين ، معرجاً على المناطق الجبلية الواقعة بولاية بافاريا.

وفي عام 1534 قام سليمان بتحرّشات ضد جان زابوليا ، أمير ترانسيلفانيا ، ودفع بلويس غريت ابن حاكم البندقية الى شن حرب عليه . وفعلا تحرّك لويس غريت يقاتل قوات ترانسيلفانيا ، ودخل الى مدينة مدفيز منتصرا ،

غير قريب من قواعده . لكن جان زابوليا اغتنم هذه الظروف وشن هجوما مضادا على عدوه ، فاستطاع أن يلحق بجنوده هزيمة نكراء ، وقبض على البندقي وأبنائه ، فقتلهم أمام أبيهم ، ثم أمر بذبحه.

وفي نفس السنة ، تلقى سليمان طلبا من خير الدين بروبروس ، يحثه فيه على ارسال الامدادات العسكرية الى الرّشيد ، أحد اخوة ملك تونس ، والذي اضطر الى الهجرة الى استانبول ، فاستجاب له سليمان ، وأرسل وحدات بحرية لقصف مدينة تونس واعادة الرشيد الى عرش البلاد ، وتمكن خير الدين بذلك من الاستلاء على المدينة ، بالتعامل مع بعض الخونة ، وأقصى عن العرش الرشيد ومحمد بن أبي حفص.

التمس أهل تونس العون من كارلوس الخامس ، فهبّ لنجدتهم ، ودخل تونس بمعية الملك المخلوع ، بعدما استولى عليها وأقصى عنها وعن شواطئها عساكر خير الدين ، وسلم مقاليد الحكم فيها الى محمد بن أبي حفص ، ووضع تحت تصرفه حامية اسبانية ترابط بحلق الواد . ولنا عودة الى هذا الموضوع في فصل آخر.

كان ترويل أحد الامراء الايطاليين يتعامل مع الخليفة التركي ويؤيد مطامحه فدعاه الى غزو ايطاليا . لذا ، أعد سليمان جيشا بحريا يتألف من مائة وخمسين مركبا كبيرا ، وثمانين سفينة متوسطة ، وستين زورقا ، ووضعه تحت قيادة كل من خير الدين بروبروس ولوسرين باي . واعتقد الناس جميعا أن الوحدات البحرية قصدت المجر . .

رابط المشاة ، وعددهم يتجاوز مائتي ألف ، على مقربة من منطقة فالونيا ، المواجهة لسواحل مقدونيا ، وعندما مرّ البحارة الآخرون ببحر الأيوني ، نهبوا جزيرتي زانتة ، وسيفالونيا ، ولما دخلوا ميناء كورفو ، رحّبت بهم القوات البندقية ، اعتبارا للسلم القائم بين الطرفين .

أثارت تحرّكات الاسطول التركي تخوّفات الامبراطور كارلوس الخامس ، فعهد الى اندري دوري قائد أسطوله بتفقد أحوال اعدائه الاتراك ، فتوجّه اندري دوري الى مياه البحر الايوني ، بأسطول يتألف من خمسة وعشرين مركبا ، ومن ثم انتقل الى جزيرة زانتة ، وجزيرة سيفالونيا ، ليرى هل يستطيع أن يهاجم بعض السفن التركية التي ربما تكون بعيدة ومنفصلة عن بقية اسطولها . وبالفعل ، فانه

صادف ثلاث عشرة سفينة كبيرة محملة بالمؤونة والذخائر ، بعيدة عن الاسطول التركي ، في طريقها الى فالونيا ، فاستولى عليها ، وبعدما غنم القسط الاكبر من حمولتها ، أحرقها . وبما أن البحر كان غاصاً بسفن الاتراك ، وجب على أندري أن يسرع حتى لا يقع في اصطدام معها . وعلم من الاتراك الذين أسرهم ، أن الجيش ينتظر وصول اثنتي عشرة سفينة ، على متنها جنود أتراك ولفيف من الجزائريين ، فقرر أن يطاردها ، لكنه صادف سفينتين تركيتين فارغتين أمرهما القائد البندقي بالارساء بأحد الموانيء ، لأن ربانيهما تخلّفا عن تحياته ، ثم عاد الى كورفو.

هنالك علم أن اثنتي عشرة سفينة توجد في طريقها نحو فالونيا ، وعرف أيضا متى غادرت قاعدتها ، والطريق التي تمخر فيها عباب البحر ، فمر برأس كورفو ، وما ان اكتشفها بجزر مرلاية ، حتى رفع على أعمدة سفنه لواء القديس مارك ليغالطها ، فاتجهت نحوه مطمئنة ، ظانة أنها ستلتقي بالأصدقاء . رأى رئيس كل سفينة تركية انه من الواجب المبادرة بالتحية بواسطة الطلقات المدفعية ، حسب العرف الجاري به العمل في مثل هذه المناسبات ، لذا أبعد الرؤساء القذائف الحربية عن المدافع وعوّضوها بما يصلح للتحية ، وهكذا حيوا جميعا ما ظنّوا أنه اسطول القديس مارك . لكن اندوري فاجأهم عندما ردّ على التحية بقصف مدافع بوراجه . عندما اكتشف الاتراك الخدعة التي ذهبوا ضحيتها ، راحوا ينظمون دفاعهم وهم في بلبلة من الأمر ، ودارت بينهم وبين الاسطول المعادي معركة ضارية ، قتل خلالها جميع الجنود الاتراك واللفيف الجزائري ، كما قتل أربعمائة من النصارى وجلّهم من الاسبان ، وعاد على اثرها اندري دوري الى ميناء ميسين ، يجرّ السفن التي غنمها.

كانت هذه المعركة سببا لقطع العلاقات بين الباب العالي ومملكة البندقية لأن الخليفة العثماني ظن أنها لم تقع دون علم العاهل البندقي ، غير أن أغلبية وحدات الجيش التركي الذي كان يرابط في فالونيا ، انتقلت الى ايطاليا ، بعشرة آلاف من المشاة وألفين من الفرسان ، واستولت على قصر كاسترو الواقع على بعد فرسخين ونصف من مدينة أوترانتة ، وألحق عناصرها اضرارا بليغة بمنشآت توجد على الشواطيء . لكن حاكم المنطقة ردّهم عن أعقابهم بعد مقاومة عنيفة ، وقتل منهم عددا كبيرا ، ثم استرجع القصر .

بلغت هذه الاخبار الى سليمان ، فأمر بالرحيل عن فالونيا للقتال مع البندقيين ، ثم استدعى باربروس الذي كان آنذاك بشواطىء بريا ، وأمره بالتوجه الى كورفو.

أما قائد القوات البندقيه ، فانه رأى من الضروري استدعاء بعض جنود بحريته لتعزيز الدفاع عن قصري الجزيرة ، ثم التحق بباقي القوات البحرية التي كانت متواجدة بخليج البندقية .

تبيّن للاتراك ، أنهم لن يستطيعوا الاستيلاء على كورفو ، فرفعوا عنها الحصار ، وقد استغرق عشرة أيام ، ثم انسحبوا ، لكنهم تركوا ضواحي مواقعها طعمة للنار ، واتلفوا منشآت بواديهاوأسروا ستة عشر ألفا من سكان المنطقة ، قتل سليمان معظمهم . وفي طريق العودة الى استنبول ، مرّت القوات البحرية بجزيرتي زانتة وسيتيرا ، ونهبت ما فيهما، ودمّرت مدينة ايزين عن كاملها ، واستولت على باري وناكسة .

في هذه الاثناء ، تم الربط بين عناصر القوات البندقية ، فدخلت الى خليج دالماتيا واستولت عنوة على مدينة اسكاردون ودمّرتها تدميرا حتى لا يقع منها شيء في أيدي الاتراك . بعد ذلك ، قامت البندقية بنشاط واسع ، هدفت من ورائه الى تشكيل جبهة مؤلفة من الملوك المسيحيين أعلن عن ميلادها بروما في اليوم الثامن من شهر فبراير 1538 . ساهم البابا في قوات التكتّل المسيحي بستّ وثلاثين بارجة، وامبراطور اسبانيا باثنتين وثمانين بارجة ، والبندقيون بمثلها ، وذلك ما يجعل عدد البوارج مائتين . وتم تعيين بطريق أكيليا قائد للقوات التابعة للبابا ، واندري دوري قائدا للقوات الاسبانية ، وفانسا كابيل قائدا للقوات البندقية ، مع جعل هذه القوات كلها تحت الرآسة العليا لفردناند غونزاغي ، خليفة ملك صقلّية في حالة ما اذا نزلت هذه القوات بالبرّ.

لما علم سليمان بميلاد التحالف المسيحي ضده وتشكيل قوات لمحاربته ، أمر بابروس باستعجال قواته ، ومغادرة خليج جليبولي ، لاصابة البندقيين بأكثر ما يمكن من الدّمار والخراب .

قام خير الدين باربروس بشن غارة على موقع كاينة بجزيرة كانديا ، لكنه لم يتمكن من الاستيلاء عليه رغم حصار طويل ، ورفع الحصار مسرعا بعدما فقد

العديد من الجنود منهم من لقوا مصرعهم ، ومنهم ألف أسروا ، فذبحهم أهل كانديا

ثم مر بموقع سودة في خليج أمفيمالينا ، ولم يستطع أن يقوم هناك بأي عمل ، فرحل الى بلد ريتينيو ، الا أن الأهالي منعوه من النزول بأراضيهم اذ أخذوا يقصفونه ، فأرغموه على مغادرة الشواطىء .

وعندما أصبحت جيوش التكتل المسيحي على أتم الاستعداد ، والقوات البندقية مرابطة أمام جزيرة كورفو ، أبحر كل من أندري دوري وفرناند غونزاغي من ميناء ميسين على رأس القوات البحرية الامبراطورية المتألفة من قدماء الجنود الاسبان ، ومن فيالق نابولي وصقلية وولاية لومباردية .

لم يستطع باربوس مهاجمة القوات المسيحية ، فدخل الى خليج لارثة ، وشيّدت وحداته ، موقعين محصنين عند مصبّه ، ونصب فيهما مدافع كثيرة . وشيّد قائد الوحدات البحرية البابوية ، الجنرال غريمانس ، هو أيضا موقع لبريقيس الذي لا يبعد عن تحصينات خليج لارثة ، ونزل به ، غير أن الاتراك أسرعوا وأغاروا على الوحدات البابوية ، وقتلوا وجرحوا منها العديد ، ولاذ الباقي منهم بالفرار على متن بوارجهم ، ثم التحقوا بحلفائهم ودخلوا جميعا الى ميناء فونتي ريغلو ، ومنه توجهوا الى خليج ليبارنتة ، مصممين العزم على محاربة باربروس اذا ما تجرأ على الخروج من تحصيناته ، لانه كان يتوفّر على مائتي سفينة حربية شراعية .

لما علم باربروس بأن قوات التكتل المسيحي تتجه نحو جزيرة سانت مور ، غادر الخليج بقوات تتألف من سبع وثمانين سفينة ، وثلاثين بارجة وزوارق صغيرة ، اذ أن مجموع الوحدات كان يقدّر بمائة وستين ، واختار مكان المعركة حيث تكون وحداته في مأمن من قصف مدافع التكتل المسيحي . الا أن اندري دوري لم يبتعد عن قواعده ، وسعي الى جلب باربروس اليه ، فلم ينخدع القائد التركي . وأمام هذا الموقف ، رأى أندري دوري أن يحمل المشاة الاسبان على متن السفن البندقية ، وأن يتجه بهم لمحاربة باربروس . لكن قائد الجنود الاسبان رفض هذا المخطط ، بدعوى أنه لم يتلق الأوامر بتنفيذه ، وان السفن الاخرى غاصة بجنود البحرية الكفيلة بمواجهة الاتراك ، واشترط أن تؤمّن له النجدات قوات خلفية ، اذا ما اتفق الجميع على خوض المعركة ، وهو يأمل أن يتحقق النصر .

ترتّب عن هذا الموقف تباين في الرأي وخلافات جمّة بين كبار ضباط التحالف المسيحي ، لذا ، أعلن اندري دوري عن عزمه على خوض المعركة ولو

بمفرده فأمر الوحدات التابعة له بالاقلاع نحو كورفو ، وبعد شيء من التردد تبعته بقية الوحدات المسيحية في غير نظام ولا خطة موحّدة .

تصدى الاتراك للسفن المسيحية ، وبالأخص التي كانت في المقدمة تحت قيادة أندري دوري ، لكنهم فقدوا كثيرا من جنودهم ، لأن الاسبان تفوّقوا عليهم في القتال الذي استبسل فيه خاصة جنود سفينتين كان يقودهما ضباط اسبانيون محنّكون ، وفقدت القوات المسيحية في هذه المعركة ثلاث بوارج كبيرة أغرقت ، كان على متن احداها الضابط المشهور لويس دوفيغيروي وفريقه ، وسفينتين كانتا مشحونتين بالمؤن والذخائر ، فضلاً عن سفينتين تابعتين للأسطول البندقي ، ولم يستطع المسيحيون الصمود أمام الأتراك ، وراح باربروس يطاردهم ولم تنج بقية وحداتهم الا بفضل الظلام الذي جعلها تحتجب عن الابصار ، فقرّر بربروس أن يرابط بسفنه في شواطىء جزيرة صغيرة تقع على بعد ثلاثة فراسخ من جزيرة كورفو شرقا ، مترصّدا للنصارى .

كان المسيحيون يؤمنون بضرورة القتال ضد الاتراك ، لكن عدم الثقة فيما بينهم ، جعلهم يتماطلون في اتخاذ موقف موحّد ونهج خطة واحدة ، ذلك ما حمل خير الدين بربروس على الاعتقاد بأن النصارى عاجزون عن مجابهته ، فولّى راجعا الى خليج لارثة ، وتوجّهت بعده قوات النصارى الى خليج كتار ، حيث أغارت على موقع كستلنوفا الذي كان مواليا للأتراك ، وتعاقبت الغارات عليه حتى استسلم بعد ثلاثة أيام من القتال .

عاد أندري دوري الى ايطاليا بعد النصر الذي حققه المسيحيون ، خصوصا أن فصل الشتاء كان على الأبواب ، وترك في الموقع حامية اسبانية يترأسها فرنسيسكو سارميانتو ، رغم ارادة الجنود البندقيين الذين ودّوا أن يتسلموا مقاليد الموقع .

أدرك البندقيون بعد ذلك أنه لا ترجى أية فائدة من وراء التحالف المسيحي ، فنقضوا عهدهم ، وجدّدوا ميثاقهم مع الاتراك ، عام 1539 ، مقابل التنازل لهم عن موقعين في حدودهم مع مقدونيا ، وحصنين من دلمسيا ، وثلاثة آلف سوكين (28)

(28م) السوكين : وحدة نقدية (مترجم) .

وفي عام 1540 ، قام باربروس بتعزيز قواته البحرية ، اذ استنفر وحدات جديدة من المدفعية والسفن الحربية وسفن شحن الذخائر والمؤن ، ثم شن غارة على موقع كستلنوفا ، فاسترجعه بعد قتال عنيف ، لكنه فقد في المعركة كثيرا من جنوده ، وقتل فرانسيسكو سارميانتو حاكم الموقع وعدد كبير من جنود الحامية . وبعد هذه الكارثة وجّه المسيحيون اللوم الى البندقيين الذين لم يعربوا بجد عن تأسفهم لفقدان الموقع ، ويفسر موقفهم ببعد الامبراطور الاسباني عن بلدهم .

غادرت ميناء الجزائر ، في نفس السنة ، خلال شهر شتنبر ، قوات بحرية تتألف من ست عشرة بارجة ، تحمل ألفا وستمائة جندي ، تحت قيادة الشاب قارة مامي والقرصان الهرم علي أحمد ، قصد مهاجمة السفن الاسبانية ، حسب ما رواه أسرى المعركة . لكن القوات التركية لم تعثر على السفن الاسبانية في شواطيء جزر مايورقة ، وقررت اجتياز مضيق جبل طارق والغارة على بعض المواقع الاسبانية

واتفق أن فرّ بعض السجناء الاتراك من سجنهم بقرطجنة ، على متن سفينة ، وبما أنهم كانوا يعرفون جيّدا الشواطيء الاسبانية ، وقد ذهبوا مرارا الى جبل طارق ، قالوا لقارة مامي أنه إذا وصل الى الجبل عند الفجر ، من جهة كنيسة نوتردام أوربّا ، يمكنه بسهولة الاستيلاء على المدينة اذ أن لها ثغرة من هذه الجهة ، والناس يكونون في الصباح منشغلين بجني العنب .

أعجب قارة بالمعلومات واستحسن الرأي ، فأمر بانزال الجنود في ثغرة المدينة، ورأى حارس البرج الواقع بالمدينة الذي كان يكنّي بالتركي، الجنود وهم ينزلون الى البرّ، سأل عن هويتهم، فأجابه أحد الاسلاميين بأن السفن تحمل قوات اسبانية، ومع ذلك شك في أمرهم لما رآهم يسرعون في الانزال وتبين له أنهم أعداء، فراح ينذر الناس في كل مكان ، لكن لم يحفل به أحد ، ولو أن الناس أخذوا يطلون من النوافذ ، واعتبروه سكران . وعلى ضوء لامبالاتهم ، أنزل العدو تسعمائة رجل توجه منهم خمسمائة نحو القلعة بالجبل ليحولوا دون فرار السكان ، أما الباقون فانهم دخلوا المدينة وتوغلوا فيها الى أن وصلوا دير الشراطين وهم ينهبون ما يجدون .

اضطرب القوم اضطرابا كبيرا عندما شاهدوا الاتراك في الأزقة ، وبينما كانت النساء مع أطفالهن يهرولن نحو القلعة ، كانت طوائف أخرى من السكان

تعلن تأييدها للاتراك ، فاستردّوا بذلك بعض أمتعتهم ، ولو آنه قتل وجرح الكثير منهم .

أسر الاتراك العديد من الأشخاص الذين كانوا موجودين بالأزقة المؤدية الى القلعة ، ولولا مهارة أحد الرماة الاسبان الذي كان محصنا بالبرج ، لكانت الحالة أسوأ ، اذ أنه راح يسدد سهامه نحو الأتراك ، فأصابت حامل لوائهم وذلك ما حملهم على التراجع والانسحاب من الباب الذي تجمعت النساء أمامه دون أن يستطيعوا الاحتماء وراء أسوار القلعة ، لأن حاكم الموقع أغلق الباب حتى لا يتسرب منه الأتراك مع جملة الفارّين من السكان .

الى جانب ذلك ، هرع سكان البادية الى نجدة إخوانهم بعدما طرق مسامعهم اعلان الخطر ، فانقضوا على الاتراك بكل شجاعة ، وأرغموهم على إخلاء المكان ، فانسحبوا بانتظام بأسراهم ومغانمهم ، وأضرموا النار في بعض المنازل .

بعدما أبحر الأتراك ، بدؤوا يتنقلون على طول الشواطيء ، وينزلون في بعض الأمكنة منها ، فينهبونها بكامل الحرية ، لأن أهلها انصرفوا لتعزيز صفوف أهل المدينة ، لكن فرسان شيريزا اعترضوا سبيلهم ، ونشب بين الجانبين اشتباك عنيف ، فقد خلاله الأتراك عددا من القتلى ، واضطر الباقي منهم الى الجلاء .

كانت يومئذ ترسو بميناء جبل طارق سفينة حربية بدون أجهزة الحرب ، وهمَّ الاتراك بالاستلاء عليها ، فبعثوا بحارين على متن زورقين لجرها نحوهم ، لكن البحارة أثناء العملية دنوا جدا من الاسوار ، ابتغاء الاحتماء من قصف مدفعية القلعة ، فاحترقت السفينة وغرقت . بعد ذلك ، رحلوا الى المغرب قاصدين تطوان حيث باعوا في أسواقها غنائمهم وسباياهم ، ثم توجهوا الى بادس ، لتطهير سفنهم .

تناهى في تلك الاثناء الى علم دون لويس هوتادو ، حاكم غرناطة ، خبر محاولة غزو الاتراك جبل طارق ، فاستنفر القوات الموجودة في المدينة وفي القلعة ، وأسرع لنجدة جبل طارق ، لكن لما بلغ بلدة عنتقيرة ، علم أنهم برحوا الجبل ، فاتجه نحو مالقة ، ومن هناك أوفد رسولاً الى أخيه برندان المندوسي قائد البحرية الاسبانية ليطلعه على ما حدث .

على اثر ذلك ، توجه برندان المندوسي نحو قرطاجنة ، ودخل ميناءها بالمجاذيف ،وشحن السفن بالمؤن والذخائر ، وأضاف الى أسطوله سفينتين أخريين كانتا راسيتين ، وأبحر نحو الشواطئ المغربية ، فتنقل طولها الى أن وصل الى مصب نهر المنصور(؟) وهو يتسقط أخبار أعدائه ، لكنه لم يعثر على أثر ، فاعتقد انهم التحقوا بمدينة الجزائر ، معتبرا أن ذلك ضروري لهم . لذا مر أسطول برندان المندوسي بميناء الغزوات ، ومكث فيه حينا من الوقت ، فلم يعلم شيئا عن الاتراك ، وغادر الميناء ثم دخل وهران ذات يوم جمعة ، ولم يستطع أن يفعل أكثر مما طلبه منه أخوه . وفي عشية نفس اليوم ، غادر وهران مارا بشواطئ المغرب في طريقه نحو جبل طارق ، ووصل الى رأس بين الفلك ، ومن ثم أرسل رسولا الى مليلية لاستيقاء الاخبار .

علم قائد البحرية الاسبانية أين يوجد الاتراك وقتئذ ، ولم يشك في أنه يتحتم عليهم اذا ارادوا الرجوع الى قواعدهم أن يمروا بالطريق التي سلكها هو عندما توجه الى الجزائر . لذا ، هيأ السفن ، وشحن في كل واحدة بما تستطيع حمله من الاحجار التي أخذها من جدول قريب ليتولى أمرها في المعركة المسيحيون المحكوم عليهم بعقوبة التجذيف . ثم نصب حارسين في رأس بين الفلك ، بينما تستر الاسطول خلف الرأس وبعث بعض رجاله الى البر ليتعلموا لغة أهل البلد ، بعد ذلك ، علم من مواطن مغربي اختطفه أن الاتراك يرابطون في بادس حيث انكبوا على اصلاح سفنهم ، فصدقه وأطلق سراحه ، ثم أعطاه ثلاث أوقيات من الزمرد ، وثمان قطع من الذهب ، وطلب منه أن يتجسس على الاتراك ليأتيه بخبرهم في ظرف ثلاثة أيام ووعده بمكافأة أهم ، فقبل الرجل العرض .

لم ينتظر قائد الاسطول أن يعود اليه جاسوسه ، بل انساق وراء نصيحة أحد مساعديه ، فأبحر نحو جزيرة عربلان التي تشرف على اسبانيا والمغرب ، وقضى بها ليلة الخميس .

باتت كلاب البحر تزمجر طوال الليل ، فتطير بعض الجنود منها ولو أن الأمر عاد ولاخوف منه ، لان المنطقة تعج بتلك الاسماك . وما أن طلعت الشمس حتى أقلع برندان المندوسي ، وما هي الا لحظات حتى اشعره أحد البحارة الذي كان يترقب السفن من المرصد ، أن الاتراك يوجدون على مسافة ثلاثة فراسخ من الجزيرة

وبالفعل ، فان قارة مامي كان قد برح أمس ذلك اليوم ، موقع بادس ، بغية شن غارة على ادّرة ، قصد نهبها ، لكن البحر كان هائجا ، فحول اتجاهه نحو الجزيرة المذكورة . ولما أشرف عليها رأى أمامها عشر سفن بدأت تمخر عباب البحر ، غير أن القائد الاسباني أمرها حينا بالرجوع الى الجزيرة .

عندئذ ، استدعى قارة مامي علي أحمد والرؤساء الاخرين للتشاور ، فنصحه معظمهم بالعدول عن المغامرة نظرا لعدم تكافؤ القوى . لكن علي أحمد كان على رأي مخالف ، اذ ظن الا وجود لسفن حربية أخرى غير العشر التي عثروا عليها ، والتي ظنها أدبرت خوفا من الاشتباك مع الاتراك ، وأكد بأنه لاينبغي لهم أن يتركوا الفرصة تضيع لتحقيق النصر المؤكد ، ثم أعاد الى ذاكرتهم حادثة بورتاندة وما ترتب عنها من مجد لبربروس ، وأضاف بأنه مستعد لمحاربة الاسبان بأربع سفن فقط ، اذا ما تخلف الآخرون عن القتال ، وأنه لن يندم أبدا على ما سيقدم عليه . أمام هذا التعنت ، لم يجد قارة مناصا من اللجوء الى الأزلام جريا على عادة القراصنة الاتراك قبل الشروع في أية مغامرة ، وكانت الازلام ايجابية ثلاث مرات متتالية ، الامر الذي أثار التفاؤل في نفوس جميع القراصنة .

بعدما حصل الاتفاق على المعركة ، قام القادة يدعون ربهم ويصلون ، جريا على عادتهم قبل البدء في القتال ، ثم نظموا سفنهم على شكل هلال تتوسطه سفينة قائد الاسطول وأخذوا يزحفون رويدا رويدا ، تحت رنين الصواري ، والاعلام ترفرف فوق أعمدة السفن .

أما القائد الاسباني ، دون برندان المندوسي ، فانه رتب كل شيء ، استعدادا للمجابهة ، ثم شكر ربه الذي قرب اليه أعداءه لينتقم منهم على الخسائر التي ألحقوها بجبل طارق وسكانه ، وراح يحرض الجنود على الاستماتة في القتال ، وحرر السجناء المسيحيين من الاغلال ، وزودهم بالاحجار والعصي . وأخيرا وعدهم بأنه سيطلق سراحهم اذا ما قاموا بواجبهم أحسن قيام . بعد كل هذا ، وضع برندان المندوسي البساط الخشبي الذي يساعد على الانتقال الى سفن العدو ، ورفع الأولوية واللافتات ، ورتب الجنود في الاماكن المناسبة ، ثم توجه توا نحو الاعداء وسط رنين المزامير والابواق .

كانت سفن برناداان تتحرك في شكل ثلاث فرق ، وكان على متن احـد
سفن الوسط ، تحيط بها ست بارجات ركبها عدد كبير من الرماة وبحارة جنّدهم المندوسي في مدينة موتريل ، ولكي يكون قصف مدفعيته مصيبا أمر القائمين على المدافع ألا يشرعوا في القصف الا اذا أشار اليهم بذلك .

لما اقتربت سفن المسيحيين من أهداف مدفعية الاتراك ، أخذ هؤلاء يقصفونها ، فأصيبت سفينة برندان وأخذ الماء يتسرب اليها ، لكن من حسن الحظ أن كانت على متنها امرأة ، فانتبهت الى الثقب وأغلقته ببعض ملابسها وبفراش . أما باقي الكور ، فانه كان يضيع في البحر أو يمر فوق السفن دون أن يلحق بها خسائر تذكر . ثم دنت سفينة القائد التركي من سفينة القائد الاسباني ، وكان قصف المسيحيين مركزا ومصيبا ، فقتلوا الكثير من اعدائهم وألحقوا بأسطولهم أضرارا جسيمة .

كان ستار من الدخان الكثيف يحجب هذا عن ذاك ، ولم يكن المرء يسمع الا الصياح . وما ان انقشع الجو ، حتى بدأ الاشتباك بالايادي بين الجانبين ، وكان الاتراك يصلون على نبيهم ويستصرخونه ، والنصارى ينادون بعيسى ومريم العذراء والقديس جاك . ودام النصر يتأرجح بدون استقرار بين هذا الجانب وذلك ، اذ كان التفوق تارة لصالح الاتراك ، وتارة لصالح النصارى . والواقع أن الاتراك كانوا يتقنون فنون القتال ، كما أن الحجارة التي كانت تنهال عليهم من لدن أسرى النصارى أدت مفعولها . الا أن لواء النصر انتهى لجانب برندان المندوسي ، وذلك بسبب ثريثه وكفائته ، وهو يحارب بلسانه وبيده ، وكان بجانبه رام يستخدم قوسين ، يسدد نبالهما الى الشجعان من الاعداء فقتل بعضهم .

أحست سفينة القيادة التركية بضغط كبير ، فاستنجدت بعلى أحمد ، فزودها بعناصر جديدة اقتحمت سفينة القيادة المسيحية وحققت فيها انتصارات .

غير أن المندوسي ، كان يعلم علم اليقين ، أن النصر النهائي سيتحقق بتفوق احدى سفينتي القيادة على الاخرى ، فتقدم الى المعركة بجانب طائفة من جنوده ، رغم إصابته بجراح في رأسه من جراء سهم ثقب خودته ، ثم إنه تلقى هو الاخر تعزيزات من مركب يسمى « النصر » صعدت اليه من سلم المؤخرة ؛ ومن مركب يسمى « سان مارك » الذي دمر قاعدة الاسلحة الواقعة في سفينة قيادة

العدو ، وذلك بطلقة مدفعية واحدة .

بدأ الاتراك يحسون بالهزيمة ، وبدأ النصارى يتأكدون من الانتصار ، فاقتحموا سفينة قيادة عدوهم ووجهوا ضربات قاضية لمحاربيها ، واستولوا على لوائها . قتل قارة مامي ، فأحدث مصرعه اضطرابا في صفوف الاتراك ، والقى بعضهم بانفسهم في البحر لكي لايقعوا في الاسر . وأراد علي أحمد أن يفر فارتمى بنفسه في البحر وأخذ يسبح حتى وصل الى سفينة صغيرة سريعة لكن مركبا تابعا لأسطول النصارى طارده واسره .

دامت المعركة ساعة على وجه التقريب قتل خلالها سبعمائة جندي تركي وأسر من الباقين خمسمائة ، في حين لم يفقد النصارى سوى مائتين من جنودهم ، لكن خمسمائة منهم أصيبوا بجروح متفاوتة الخطورة ، ومات خلال العمليات ، أربع قواد أشاوس مع أبرز جنودهم .

فر الى الجزائر من نجا من الاتراك ، وقد فقدوا تسعة مراكب شراعية ومركبا مجذافيا ، كانت من نصيب الاسرى الذين استرجعوا حريتهم . وغنم النصارى كميات هامة من الفضة والاحجار الكريمة والثياب الحريرية ، ولو أن الاتراك ألقوا بأكياس منها الى البحر عندما تأكدوا من انهزامهم ، لكن النصارى انتشلوها كما أنقذوا بعض الاتراك من الغرق .

توجه أفراد الاسطول النصراني بالشكر الى ربهم على ما حققوه من نصر ، ثم انطلقوا نحو شاطىء موتريل، ومنه أرسل القائد العام للاسطول البشري الى حاكم غرناطة الذي أسرع الى تنظيم استعراضات شعبية واحتفالات في الاندلس كلها ، ثم توجه الى مالقة فرافق القائد العام للأسطول في زيارته الى كاتدرائية المدينة ، في موكب يضم الضباط والجنود والاسرى الذين استرجعوا حريتهم ، وكلهم يحملون الشموع . وبعد الصلوات ، وزعت الصدقات وأعلن للاسرى النصارى المحكوم عليهم سابقا بعقوبة التجذيف أنهم أصبحوا أحرارا وحل محلهم الاسرى الاتراك .

بعد هذا العرض نرجع للحديث عن أحداث المجر . سبق لي أن قلت إن سليمان ساعد يوحنا سيبوس على اعتلاء عرش المجر . وفي عام 1541 ، توفي العاهل المجري ، مخلفا ولدا اسمه ايتيان وليا لعهده .

كان ايتيان يحظى بعناية كبرى من لدن أوصيائه ، وخاصة منهم مطران فارادان . ذهب هؤلاء الأوصياء يلتمسون الدعم المادي والمعنوي من سليمان ، ضد الملك فرناند الذي يسعى لاقصاء ايتيان عن عرش البلاد .

قبل سليمان ملتمس أوصياء العرش في المجر ، فرابط على رأس قوات هامة ، قرب العاصمة بودا ، واستقدم الامير ايتيان للتعرف عليه ، ثم أعاده الى أمه ، وجرد أفراد حامية العاصمة من أسلحتهم ، واستولى على بودا بدون قتال ، ومن ثم ، ذهب الى بستة واستريغونيا ، وألبا ، ودمر مدينة الكنائس الخمس ، فمكنته هذه الاعمال من السيطرة على معظم أجزاء بلاد المجر .

وفي نفس السنة ، سعى الامبراطور كارلوس الخامس الى تأمين سلامة بحر بونانت ضد القراصنة الاتراك الموجودين بالجزائر ، الذين كانوا في كل حين ولحظة يهاجمون سفن النصارى ، لذا ، توجه بجيش عرمرم الى بحر بونانت الذي كان خاضعا لهيمنة أحد الايطاليين الاسلاميين المدعو أغا حفص ، ووقع اشتباك عنيف بين قوات كارلوس الخامس والبحارة الاتراك والعرب ، وكان التفوق لجانب النصارى ، الا أن هبوب عاصفة هوجاء فاجأتهم وشتت شملهم ، واتلفت العديد من سفنهم ، الامر الذي اضطر معه كارلوس الى الانسحاب باستعجال وطلب اللجوء الى موقع رأس ميتافوس البعيد شيئا ما عن مدينة بجاية. وسيأتي الحديث بتفصيل عن هذه الوقعة ، في الجزء الخامس من الكتاب ، في الفصل المتعلق بوصف بجاية .

لما استولى سليمان على مدينة بودا وهيمن على معظم التراب المجري ، أسس ملوك النصارى عصبة ضده ، متحيزين لجانب الامبراطور كارلوس الخامس ، وشكلوا جيشا قويا تحت قيادة جوهاشيم ، دوق براندبورغ ، الذي اجتاز به المجر ، لكن وباء تسلط على الجنود النصارى وأودى بحياة معظمهم ، دون أن يتمكنوا من استرداد بودا التي دافع عنها الاتراك بشجاعة فائقة لامثيل لها .

وفي السنة الموالية ، اتفق المجريون والاتراك على الهدنة ، لأن كلا من الجانبين اشمأزّ من الحرب ، وفي عام 1546 ، أرسل سيجيموند ، عاهل بولونيا ، قوات دمرت موقعا عسكريا كان الاتراك قد أقاموه على حدود بلاده. وفي عام 1547 ، سعى مصطفى بن سليمان وحاكم أماسية ، الى الاستيلاء على مقاليد الحكم في

تركيا ، ملتمسا العون من المصريين والفرس . لكن سليمان دخل في الحرب مع الصفوي تولشا ، فتكبد خسائر هامة في الارواح ، كما انهزم حلفاؤه التتار على يد الفرس ، في محاولتهم تعزيز صفوفه ، وعاد سليمان الى استنبول بعدما فقد رجاله وسمعته .

في نفس السنة ، قام القرصان التركي ، الرئيس درْغوت ــ الذي سنتعرض للحديث عنه في الجزء السادس – بحملة على طول شواطىء نابولي وصقيلية ، فاستولى على موقع كاستيل – أعمار ، وغنم كثيرا من الغنائم ، لان سكان المنطقة لم يكونوا مستعدين للدفاع عن أنفسهم وأمتعتهم .

أما سليمان ، فانه لم يلبث يفكر في الانتقام من الصفوي تولشا . لذا ، عمل على تأمين الهدنة والصلح مع الملوك النصارى ، فجدد معهم العهود ، ثم حشد جيشا كبيرا بفضل المكافآت التي راح يعطيها للجنود ، وبعدما ترك في البحر مائة سفينة بحرية للدفاع عن استنبول ، غادر عاصمته ، الا أن الجوع ووباء الطاعون فتكا بجنوده ، وهلك في العاصمة وحدها سبعون ألف نسمة .

انتقل القرصان درغوت الى افريقيا ، واستولى على مدينتي سوسة والمنستير وعلى مواقع أخرى ، إلا أن ضباط الامبراطور كارلوس الخامس التابعين للقوات البحرية التي كان يرأسها أندري دوري ، وللقوات البرية التي كان يقودها خليفة ملك صقيلية ، استطاعوا طرد درْغوت عن سوسة والمنستير وغيرهما من المواقع الافريقية ، وستأتي تفاصيل هذه الاحداث في الجزء السادس من الكتاب .

غضب سليمان على إثر تدخلات كارلوس الخامس في افريقيا ، واعتبرها غير مشروعة باعتبار أنها أتت أثناء الهدنة من جهة ، ولأنها مست مواقع كانت تحت اشراف الاتراك من جهة أخرى. من أجل ذلك ، أعلن بدوره عن نقض المعاهدة مع النصارى ، وارسل وحدات بحرية عديدة تحت قيادة أمير البحر سنان ، يرافقه كل من صالح رايس ودرغوت وغيرهما من القراصنة الأبطال ، فنبهوا شواطئ ايطاليا ، والحقوا أضرار كبيرة بصقيلية وبجزيرتي كورسيكا ومالطة ، ثم عرجوا على شمال افريقيا واستولوا على مدينة طرابلس التي كانت تحت نفود كهباري ، وهو الرئيس الفرنسي للطائفة الدينية المدعورة « بطريقية مالطة » ، وجرت هذه الاحداث ، عام 1551 .

وخلال عام 1553 ، قام بعض الوسطاء والوجهاء في تركيا باصلاح ذات البين بين سليمان وابنه مصطفى ، وتم الصلح بينهما . الا أن سليمان لم يطمئن على نفسه ، فأمر بالقاء القبض على ولده وتعذيبه حتى الموت ، ذلك مادفع جانشير ، أحد اخوته الى الانتحار ، احتجاجا على قسوة أبيه . وكان سليمان يحب جانشير بقدر ما كان يكره مصطفى .

قام صالح رايس عام 1555 ـــ وليس هو نفس الشخص الذي تحدثنا عنه في عرضنا لتاريخ السعديين ـــ حاكم الجزائر ، بحصار مدينة بجاية ، بعدما نصحه بذلك أحد الفقهاء . كان الجيش الموجه لهذه الغاية يتألف من عشرين مركبا بالمجاذيف وأكثر من اربعين ألفا من المشاة . أغار صالح رايس على القلاع ، فاستولى على القلعة الشاطئية ، وعلى قلعة أخرى جلا عنها النصارى ، ثم على قلعة ثالثة تدعى « القلعة الملكية » ، وسنعود الى الحديث عنها في الجزء الخامس .

وفي السنة ذاتها ، بعدما استولى صالح رايس على بجاية وعاد منتصرا الى الجزائر ، التمس من حكومة تركيا تزويده بجيش بحري يهاجم به مدينة وهران . وبلغه الخبر أن القائد الأعظم سيوافيه باسطول يتألف من أربعين سفينة حربية تحت قيادة مامي رايس ، وكان عليه أن يتسلم مقاليد هذه الوحدات بميناء عنَّابة ، لكنه أصيب بداء الطاعون في رأس ميتافوس ، فولى راجعا الى الجزائر حيث قضى نحبه بعد ثلاثة أيام .

بعد وفاة صالح رايس ، اتفق ابنه محمد باي والقواد الاتراك ، على الزحف نحو وهران ، لكن النصارى دافعوا عنها بشجاعة كبرى ، تحت قيادة القرطبي دون مارتان ، فاضطر الاتراك الى الانسحاب بعدما فقدوا كثيرا من رجالهم . وإنما أتعرض لهذه الاحداث بايجاز ، اذ سأذكرها بتفصيل في مقام آخر ، عند وصفي لكل موقع .

وفي عام 1556 ، استولى سليمان على بعض المواقع في استيريا ، بعد فشله أمام تحصينات سجيته، وأضرم النيران في كثير من هذه المواقع [29] ، وانسحب . وفي هذا العام كذلك ، انسلخ الامبراطور كارلوس الخامس عن أمور

---

(29) المواقع التي أحرقها سليمان هي : كوبا ، كابنيسفار وبابوزا ، سان مارتان ، سيليا ، سان لوران كاليانج ، وغيرها.

الدنيا وترهب ، فحل محله ابنه فيليب الثاني ، الذي كان ملكا على انكلترا . وفي يوم الجمعة 11يوليوز من نفس السنة ، توفي يوحنا عاهل البرتغال ، فخلفه حفيده دون سيباستيان (30) ، الذي كان يرعاه عمه وزوجته الملكة كاترين ، وذلك لأنه كان ما يزال صبيا عند وفاة جده ، لكنه تبوأ عرش البرتغال عام 1557 ، يوم 20 من شهر يناير ، وعمره اذ ذاك أربع عشرة سنة ، وقد وافق هذا اليوم يوم ميلاده .

لما رفع الاتراك الحصار عن وهران ، رحل دون مارتان القرطبي الى اسبانيا لتحضير غزو مستغانم ، فحصل في اسبانيا على ستة آلاف جندي ، ثم عاد الى وهران ومنها انطلق للهجوم على مستغانم ، فأصيب بهزيمة نكراء (31) ، وفقد جيشه برمته ، بما فيه فرق المدفعية ، كما سنرى في الجزء الخامس ، الفصل الثامن والعشرون .

بعد مضي عامين (32) جهز فيليب الثاني جيشا بحريا بصقيلية ، جعل على رأسه دوق ميريناسيلي ، وكلفه بمهمة طرد التركي درغوت عن جزيرة جيلفا فاستولى النصارى على القلعة ، وراحوا يشيدون قلعة أخرى لايواء المشاة الاسبان المرابطين بالموقع . وفي هذه الاثناء ، وصلت قوات بحرية بقيادة أبي علي باشا فأغرقت عشرين سفينة من أسطول النصارى وسبعة عشر مركبا ، أما الباقي من وحداتهم ، فانه لاذ بالفرار نحو صقيلية (33) ، للاحتماء بالقلعة التي يشرف على أمرها ألفار دوساند ، والتي استولى عليها الاتراك بعد هجوم واسع النطاق في معركة خلفت كثيرا من القتلى ، وأحرقت السفن والمراكب أثناءها كما سنرى فيما بعد .

وفي نفس العام ، استولى الخليفة العثماني على قلعة فيليك في المجر ، وتصالح مع الامبراطور فرناند الذي اعترف له بالسيادة على القلعة الى الابد .

بعد انهزام دون مارتان أمام مستغانم ، حشد حفص باشا حاكم الجزائر ، جيشا يتألف من العرب والبربر والأتراك زحف به برا وبحرا على المرسى الكبير الحصين الذي كان دون مارتان القرطبي يستبسل في الدفاع عنها .

(30) والده هو دون خوان وامه هي بنت كارلوس الخامس .

(31) عام 1558 .

(32) عام 1560 .

(33) الجزء السادس ، الفصل 41 .

وما كاد الاتراك يستولون على قلعة سان ميشال الواقعة على جبل غير بعيد ويأخذون في قصف المدينة، حتى أقبلت سفن إسبانية لنجدة النصارى المحاصرين بها، ودارت بين الجانبين معركة طاحنة أسفرت عن مصرع خيرة عناصر الاتراك ، سواء منهم الانكشاريون أو البربر والعرب ، وانسحب من بقي من الاتراك منهزمين . وسيأتي الحديث عن هذا الموقع في مقام آخر[34] .

وبعد مرور سنة استولى ماكسيمليان ملك بوهيميا الذي خلف فرناند على رأس الامبراطورية على موقع كان خاضعا لنفوذ فايفود ، تحت حراسة حامية تركية على اثر هذا العمل ، أرسل سليمان جيشا لاحتلال مالطة ، لكن فرسان الجزيرة دافعوا عنها أيما دفاع ، خصوصا أنهم تلقوا تعزيزات في الوقت المناسب . من طرف الملك المسيحي ، فاضطر الاتراك الى الجلاء عن المكان ، بعدما فقدوا شرفهم وأغلبية جنودهم .

فنام سليمان ، عام 1566 ، باجيير حدود بلاد الامبراطور ماكسيمليان ، واستولى بالقوة على قلعة سيجات ، ثم حاصر مدينة جول ، لكن مرضا ألم به أثناء الحصار ، فمات على اثره قبل دخول قواته الى المدينة بعشرة أيام ، وبقيت وفاة الامبراطور في طي الكتمان الى أن اعلن أهل مدينة جول عن استسلامهم للاتراك ، ونودي بسليم بن سليمان امبراطورا ، فترك حامية في كل من المواقع التي تم احتلالها ، وعاد الى استنبول .

ولم تمر سنتان على هده الأحداث ــــ أي عام 1568 ــــ حتى شهدت مدينة غرناطة انتفاضة كبرى من لدن سكانها العرب الذين اعتنقوا المسيحية كرها وأرادت السلطات الحاكمة أن ترغمهم على عدم الكلام باللغة العربية ، والانسلاخ عن تقاليدهم وتغيير ملابسهم . جاءت الانتفاضة الاولى على أيدي عرب مدينة بشرة الذين هاجموا القساوسة والمسيحيين ، وأضرموا النار في الكنائس ، وقتلوا عددا من روادها وانتهكوا حرمة القيم الدينية النصرانية ، مستنجدين بالاتراك وبعرب المغرب ، وهم يصلون على محمد وينادونه . لكن دون يوحنا النمساوي أخا الملك قضى على العصاة قضاء مبرما وأهلكهم عن آخرهم ،

(34) الجزء الخامس ، الفصل 28 .

(35) تولي في المعركة ، دراغوست ، وعلوش علي الاسكندري .

وسنرى هذا في الكتاب الذي ألفناه ، ونراجعه من أجل النشر بعون الله .

بينما كانت هذه الأحداث تجري في اسبانيا ، كان سليم امبراطور الأتراك يجمع الحشود لتشكيل قوات عظيمة هدفها إبادة النصارى ، وكان يسعى أيضا للقيام بعمل لاسترداد المجد الذي فقده أبوه بفقدان جزيرة مالطة . من أجل ذلك أرسل مبعوثا الى البنادقة يطالبهم بتسليمه جزيرة قبرص ، باعتبارها تابعة لدولتي سوريا ومصر .

استقبل المبعوث التركي في البندقية حسب الاعراف الدبلوماسية المعهودة ، وتقدم الى مجلس الشيوخ ، وبعدما ألقي خطابا طويلا ، عرض على الاعضاء الرسالة التي حملها اليهم من طرف السلطان الاعظم وهي تحمل خاتمه وجاء في الرسالة ما يلي :

« السلطان سليم ، امبراطور استنبول وبلاد الروم وافريقيا ، وآسيا ، وتريبزوند ، ملك بونت وبيتينيا وأشاي وأركانيا وأرمينيا ، ملك بلاد التتار الكبرى والصغرى وجميع أقاليمهما ، ملك الجزيرة العربية وتركيا وروسيا وصاحب السيادة على مجموع الاراضي التي تمر بها الروافد السبع لنهر الغانج ، وبصفة عامة صاحب السلطان على كل الأراضي التي تغطيها السماء وتضيؤها الشمس ، المنحدر من شجرة التقديس العليا ، ابن سليمان الاعظم مدمّر الشعوب النصرانية وقاهر ما في الكون ، اليكم معشر الظالمين المسيطرين على الجهات التي يجب أن تكون تحت نفوذي وسلطاني ، لانهامن حقي ، أبعث لكم بسفيري لتتفقوا معه على الطرق السلمية لتنفيذ مايتحتم على أن أقوم به ضدكم وضد المدافعين عنكم من اراقة دمائكم بواسطة سيفي المظفر . انكم لن تجدوا ما يحميكم من بأس سيفي ، ولن تنفعكم القوى والاموال اذا امتنعتم أن تسلموا الي حالا مملكة قبرص التي تحتفظون بها ظلما وعدوانا منذ عدة سنين ، وهي تدخل بالطبع في ملكي ، بوصفي صاحب السيادة على سوريا ومصر . سأنقض عليكم براً وبحرا ، على شاكلة عاصفة هوجاء ، لتدمير قواكم وتقتيلكم تقتيلا شنيعا ، متّبعا في ذلك ما وعد به النبي محمد . ان السفير الذي بعثته لديكم مؤهل ليشرح لكم الاسباب التي تحملني على القيام بهذا العمل النبيل ، وليعلن لكم عن حالة الحرب بيننا اذا ما رفضتم الاستجابة الى طلبي . وكتبت هذه الرسالة بتاريخ السنة الرابعة على تربعنا العرش في قاعدة ملكنا استنبول التي تمت فيها ابادة اسلافكم ، لانهم أبوا

الاستسلام الى أسلافي ، وستلقون نفس المصير » .

أجاب عاهل البندقية على هده الرسالة ، بعدما اطلع عليها واستمع الى السفير التركي ، وجاء في جوابه : « ان الاسباب التي من أجلها يرغب الامبراطور العثماني أن تسلم اليه جزيرة قبرص ، ليس لها ما يبررها حتى يتم له التنازل عن مكان نحن اصحابه الشرعيون منذ القدم ، وانه اذا ما طاب للامبراطور أن يغتصب متاع الغير ، دون اعتبار العدل ، فلربما لن يتحقق له ما يريد بالسهولة التي يظن ، لاننا لا نفتقر الى الارادة ولا الى القوة للدفاع غن أنفسنا ومصالحنا .

بعد ذلك ، ردّ البنادقة السفير على أعقابه ، وقد أعلن لهم عن حالة الحرب في حينه ، ثم قرروا اذخار المؤن والاسلحة وحشد الحشود وكل ما يحتاجون اليه للدفاع عن جزيرة قبرص .

لما رجع السفير الى استنبول، أطلع الامبراطور على نتيجة مهمته ، فأمر سليم باعداد قوات بحرية تتألف من ثلاثمائة سفينة حربية شراعية وعدد من المراكب والزوارق والبوارج الضخمة، وارسلها الى قبرص تحت قيادة أبي علي باشا وعلي باشا، وهما أميرا البحر، بمعية مصطفى باشا والى مصر الذي أسندت له مهام قيادة القوات البرية، وبرحوا جميعا استنبول في شهر مايو سنة 1569، وعرجوا على رأس فينيقيا لحمل الفرسان، ومن تم قصدوا قبرص وأنزلوا فيها جيوشهم لحصار نيقوسيا.

نيقوسيا مدينة كبيرة كان يرابط فيها فلول من الايطاليين، أرادوا تنظيم الدفاع عن المدينة، لكن السكان نصحوهم بالعدول عن ذلك، لانهم لن يستطيعوا الصمود، ونشبت خلافات في هذا الموضوع بينهم وبين الايطاليين، الأمر الذي استفاد منه الاتراك ، اذ استطاعوا أن يدخلوا المدينة منتصرين بعد عشرين يوما من حصارها، وأسروا كل أفراد الحامية الذين كانوا فيها، وعددا كبيرا من وجهائها الذين مالوا الى ارغام السكان على مناهضة الاتراك، فنكلوا بهم وتركوهم يموتون ألما.

بعد دلك، ترك اميرا البحر التركيان حامية بالقلعة، وجنودا لتعمير المدينة، ثم برحاها، وقد صحبا معهما بعض الاسرى الفتيان لخدمتهما، وغلمانا وفتيات لتقديمهم هدية إلى الخليفة العثماني. توجه أميرا البحر الى فاماغوستا، وحاصرا

موقعها المنيع بثمانين ألف جندي ووحدات من المدفعية. لكن قبل بداية المعركة، بعث أبو علي باشا الى سكان فاماغوستا بالخطاب التالي :

« من أبي علي باشا ، القائد العالم لهذا الجيش العظيم ، وضابط الباب العالي السعيد ، الى حكام فاماغوستا ووجهائها وسكانها ، أنهى الى علمكم اني حللت بهذه الديار لأستلم مقاليد شؤون الجزيرة التي استولى عليها البنادقة جورا، وبما اني ألاحظ ميلكم نحو مقاومة جيش لا يقهر ، فاني أنصحكم بالتمسك بجانب الحكمة والتبصر وأن تلقوا اسلحتكم وتستسلموا ، مقابل حفاظكم على أرواحكم وأمتعتكم وممتلكاتكم وأزواجكم وأطفالكم ، مع أداء الجزية ، ولن تكون وضعيتكم سيئة بالمقارنة مع وضعية بقية رعايا الخليفة الأعظم . أما اذا رفضتم هذا العرض ، فستلقون الدمار لا محالة ، الا أني أكره أن يكتسح الدمار والخراب ربوع هذه الجزيرة قبل أن أنذركم ، ولو أنكم اقتحمتم هدنة فانها لن تنفعكم شيئا ، لذا فاني أدعوكم لاتخاذ قرار عاجل ، والا يغرنكم حكامكم بوعود كاذبة . اني أؤكد للجنود المتواجدين في المدينة ، ولأعيانكم ، أنه يمكنهم أن يتنقلوا بكامل الحرية ، وان يذهبوا أينما يشاؤون ، كما أنه سيكون من حق الأهالي الذين يرغبون في البقاء في المدينة ، أن يحتفظوا على ممتلكاتهم وصبغة الحكم التي ارتضوها ، على شرط أن يؤدوا الى الباب العالي ما كانوا يؤدونه الى البنادقة . وأخيرا ، أدعوكم أن تسلموا جوابكم الى حامل رسالتي ، دون اهانته أو القيام بما من شأنه أن يقلقه ، واني أقسم بالله العظيم الذي به أومن ، وبالسيف الذي أحمله ، أني لن أترك أحدا منكم على قيد الحياة . امضاء : أبو علي باشا ، من الجيش السعيد للامبراطور الأعظم . » (36)

بعد اطلاع الحكام على هذه الرسالة ، وتلاوتها على السكان ليردوا عليها ، أكد الجميع للسفير تعلقهم وتشبثهم بالوفاء لمجلس شيوخ البندقية ، معلنين أنهم لا يرون ما يدفعهم للندم على ذلك ، اعتبارا لرفق حكومة البندقية بهم ورعايتها لمصالحهم . أما فيما يتعلق بطلبه استلام مقاليد شؤون الجزيرة ، فانهم أعربوا له عن رجائهم في الله لكي يخيب مسعى أولئك الذين يريدون اغتصاب حقوق الغير ، وأنهم لا يثقون بوعوده في أن يعاملهم معاملة حسنة ، لأن الاتراك الذين

---

(36) يقول المؤلف إنه لم يذكر فحوى الرسالة بكاملها بل انه اقتصر على مجمل مضمونها .

نقضوا عدة مرات وعودهم وعهودهم للامبراطوريات القوية لن يمتنعوا عن نقض وعودهم لأهال عزل يسكنون جزيرة ، وليكن في علم الاتراك انهم اذا ما أساؤوا الينا فانما يسيؤون لانفسهم ، وان تهديداتهم الجوفاء ليست كفيلة بتجريد البنادقة عن حقوقهم ، واننا لن نكون أسوأ حظا اذا أبرمنا معكم هدنة ، وان حكامنا لا يخادعوننا ، وأنهم لو ولدتهم امهاتهم في كنف الباب العالي لكانوا له أوفياء مثل وفائهم للبنادقة ، وأضافوا قائلين بأنهم يفضلون ارجاء الحديث عن المعاملة الطيبة التي وعدهم بها الى النهاية التي لم يصلوا لها بعد ، ولربما كان من المستحسن أن يفكر الاتراك في مصيرهم قبل أن يفكروا في مصير الآخرين ، وان أهل قبرص سعداء في ظل حكومة البندقية ، ولن تكون سعادتهم أفضل حتى لو كانوا مستقلين . ولهذا ، فانهم لا ينخدعون عندما تعرض عليهم وعود بالحياة في حرية مزيفة . زيادة على ذلك ، فلا ينبغي للخليفة العثماني أن يثق بصدقهم اذا هم خانوا الميثاق الذي يربطهم بالبنادقة الذين ظلوا دائما يرعون شؤونهم ، ويبذلون قصارى الجهود للذوذ عنهم . واختتم أهل فاماغوستا ردهم قائلين بأنهم صمّموا العزم على ألا يعيروا أي اهتمام لوعود الاتراك ولا لتهديداتهم ، وأنهم ينصحونهم بالعدول استقبالا ، عن عرض مماثل .

لم يكن هذا الجواب ليسر أبا علي ، وهو يعلم أن الموقع لن يستسلم بسهولة ، لانه مشيد على صخرة بجانب البحر ، ولا يمكن الاشراف عليه من اي جهة . اذ ذاك ،أناط مصطفى باشا بمهمة قيادة الجيش البري ، وكلف أتابهات حاكم رودس بمهمة مراقبة الجزيرة بخمسة عشر مركبا وخمس سفن ، لمنع الامدادات من الوصول اليها ، ثم رجع الى استنبول مع بقية الوحدات .

انتهت ترتيبات الابحار ، واستعدت الوحدات لمبارحة المكان ، ولم ينتظر الربابنة الا الاشارة من ابي علي باشا ، وقد حشد قواد الجيش قبل ذلك اسراهم من وجهاء نيقوسيا الفتيان ذكورا واناثا على متن سفينة كانت تحمل من جملة بضائعها شحنات من المتفجرات . ولما رأى أحد الرجال الاسرى جنديا دنا من احدى بنتيه الشابتين ،وأخد يكرهها على عرضها ، تناول جذوة من النار ورماها على برميل مليء بالبارود ، فتفجرت السفينة في حينها ، وعلى ظهرها ألفان من الركاب او يزيدون ، وتطايرت اشلاؤها المشتعلة وتساقط بعضها على سفينتين كانتا على مقربة من مكان الحادث ، فالتهمتهما النيران بدورهما

شهد أهالي فاماغوستا من موقعهم ماحدث للسفن الثلاث ، فعمتهم الفرحة وهم يجهلون أن من بين الضحايا يوجد عدد هام من النصارى كلهم من خيرة شباب نيقوسيا وأكثرهم جمالا وشرفا .

ذهب الجيش البحري قاصدا رودس من أجل قسط من الراحة ، معرجا على جزيرة كيو ، حيث أرسى فيها قرابة عشرين سفينة ، وتوجه الباقي من الوحدات ، الى استنبول . أما السفن التي بقيت في كيو فانها انتقلت الى داتان للتزود بالمواد الغذائية ، ثم عادت الى كيو لقضاء الشتاء .

ما كاد قائدا جيش قبرص يصلان الى استنبول ، حتى شاع خبر مفاده أن البنادقة اغتنموافرصة اجلائهما عن المياه القبرصية ، لارسال اثني عشر مركبا وبوارج تحمل الذخائر والجنود لتعزيز حامية فاماغوستا ، فامر الامبراطور السفن العشرين التي ورد ذكرها بمطاردة الوحدات البندقية واحتجازها . من أجل ذلك ، اتجه نحو قبرص والى الاسكندرية الذي يقود تلك الوحدات ، وهو ضابط ماهر في القوات البحرية . الا أن السفن البندقية برحت المياه القبرصية بعدما انجزت مهمتها، وقد ظن حاكم رودس أن عددها كبير، فالتجأ الى طرابلس، وهبت عاصفة أوشكت معها جميع السفن التركية على الغرق، واحترقت اثنتان منها على مقربة من فاماغوستا ، وعادت السفن الاخرى الى استنبول وقد ذهبت رحلتها عبثا .

في بداية الربيع ، حمل علي باشا الذخائر والمؤن ، الى القوات المرابطة بقبرص ، على متن ثمانين مركبا ، وأضاف الى أسطوله الوحدات التي كانت راسية برودس والاسكندرية ، ثم قام بجمع الاحجار طوال الشواطئ لتحصين معسكره . وذهب الى كاستيل — روصو لنقل فارطا باشا الذي يرابط بالارخبيل ، والتحق به بعين المكان والي الجزائر على رأس القوات البحرية الغربية . وهكذا فان الاسطول التركي أمسى يتألف من مجموعه من ثلاثمائة واربعة عشر مركبا.

توجه الاسطول ، من كاستيل — روصو الى جزيرة كانديا ، وكان أبو علي باشا يظن أنه سيجد هناك مائة سفينة بندقية ، ولكنها انسحبت قبل وصول الاتراك ، فنزل هؤلاء بالمنطقة ونهبوا ما فيها ، كما استولوا على برج شيده البنادقة ، وعلى عشرين مدفعا ، وأحرقوا سفينتين كانتا في ورش الحوض البحري . بعد ذلك ، مروا بقلعة كانديا ، ونهبوا ما حولها . لكن رياحا مهولة هبت واتلفت أربعة

مراكب تركية . ولما أشرقت الشمس ، توجه الجيش نحو استريق التابعة للسيادة البندقية .

غير أن الاتراك لم يتمكنوا من الاستيلاء على القلعة المنيعة ، فانزلوا قواتهم برأس الماين ، وهو عبارة عن مجموعة من الصخور المتوغلة في البحر ، أعاليها مبثوثة بالكهوف والمغامرات ، تُؤوي قوما من اللصوص المحترفين ، يعيشون بريع نبالهم وأقواسهم . ولما توغل الاتراك في المنطقة ، تصدى اليهم أولئك اللصوص وقتلوا منهم أكثر من سبعمائة جندي وأرغموهم على الرجوع الى مراكبهم .

اتجه الاسطول التركي الى جزيرتي قورون وموضون للتوقف بهما هنيهة ، ثم انطلق نحو زانته ، وأغار على القلعة بدون التمكن من زحزحة وسائلها الدفاعية ، فقام الاتراك اذ ذلك باضرام النار في المنازل التيّ توجد في ضواحيها ، وتوجهوا الى سيفالونيا ، وهي تابعة لنفوذ البنادقة ، حيث سبوا أكثر من ثلاثمائة امرأة وطفل ، وهاجموا قلعة الجزيرة لكن بدون جدوى ، اذ أن حاميتها صمدت أمامهم وكبدتهم خسائر هامة في الارواح .

تراءت للاتراك اثنتا عشرة سفينة بندقية قادمة للاستطلاع ، فاسرعوا نحوها وتمكنوا من الاستيلاء على إحداها وعلموا من ربابنتها الاسرى أن الملك والامراء النصارى تحالفوا لتشكيل قوات بحرية عظيمة لاسعاف البنادقة . عندئذ ، ارسل علي باشا مبعوثا ليخبر السلطان العثماني بما جد في الامر .

وفعلا ، فقد أراد البابا بي الخامس ، أن يجنب المسيحية عواقب العاصفة التي هزت أركانها والتي أمست تهدد كيانها ، فاوفد حاجبه (37) لدى فيليب الثاني يستعطفه،ولدى باقي الملوك النصارى الكاثوليك يسترحمهم ويبين لهم أبعاد الخطر الذي يحدق به هو أيضا ، ويدعوهم لتوحيد الصفوف والجهود لمجابهة الظروف السيئة ، والا فان المسيحية لن تلبث الا قليلا حتى تذهب في مهب الرياح ، إذ لايستطيع أي أحد من الملوك المسيحيين أن يصمد وحده ، ولكن قد ينتصرون اذا تكتلوا . وأوضح الحاجب للملك فيليب الثاني ، بصفته أكثر حماسا وأشد بأسا من الآخرين بانه يتعين عليه أن ينضم الى التكتل المزمع تشكيله بكل ثقله وامكاناته ، وان البابا يعده بالانضمام اليه باسلحته الروحية والمادية ،وأنه اذا ما

---

(37) يدعى الاستاذ طريس .

رسّى الاسطول الاسباني بصقيلية ، فسيكون ذلك العمل رادعا للاعداء ، وسيحول دون تمكنهم من القيام بأي هجوم على النصارى ،وفي حالة تعرض أبناء المسيحية الى هجوم من جهة أخرى ، فان الاسبان سيهبّون للذوذ عنهم .

اقتنع فيليب الثاني بالعرض الذي ألقاه أمامه الحاجب البابوي ، وأرسل على الفور تعليماته الى الكاردينالين باشيكو وجرانفيلو والى دون جيان السنيوجي سفيره ، للاعراب الى البابا عن موافقته على الانضمام الى الحلف المسيحي الى جانبه والى جانب حكومة البندقية . وأعطى البنادقة نفس التعليمات الى سفرائهم ، فبدأت المحادثات مع ممثلي البابا ، وتم الاتفاق في وقت وجيز على تشكيل التحالف المسيحي الذي عيّن على رأسه برتبة قائد أعلى ، دون جيان النمساوي ، وهو أخ غير شرعي لفيليب الثاني ، وقد أسندت إليه مهمة الاشراف على عمليات قمع الانتفاضة العربية بغرناطة. وبعدما قضي عليها أبحر الى ميسين، وهو المقر الذي اختاره البابا لتجمع القوات البحرية المسيحية .

على اثر هذه الاحداث ، تحرك الأسطول التركي نحو كورفو التي كانت خاضعة للنفود البندقي ، لكن الاتراك لم يستطيعوا أن ينزلوا بها ، فقصدوا ميناء بسكارة الذي كان يقابلها ، فرسوا به بضعة أيام ، غنموا خلالها ثلاث سفن كانت متوجهة الى كورفو ، وبارجة كانت قادمة من ميسين في مهمة استطلاعية ، فأخبرهم ركابها أن دون جيان يوجد بميسين مع أسطول التحالف المسيحي . وبالفعل ، فان هذا الامير الشجاع استعجل الالتحاق بمقر التجمع المسيحي ، تحسبا لاقلاع الاتراك الى استنبول وضياع فرصة مقاتلتهم .

لما علم علي باشا أن أسطول المسيحيين يوجد بميسين ، أمر بالهجوم على قلعة بندقية [38] كان وراء اسوارها مائتان من الجنود الايطاليين ، فاستولى عليها بعد غارة خاطفة ، وبطش بالحامية بطشا . واستولى الاتراك أيضا بمقربة من القلعة على سفينة بندقية كبيرة كانت متجهة الى كورفو ، وتحمل على متنها الجنود والذخائر ، فأكد لهم ربابنتها خبر الاستعدادات المسيحية لقتالهم .

إبتهج علي باشا لما تلقاه من أخبار ، فأمر الاسطول بالتوجه نحو خليج البندقية . وفي الطريق احتجز الاتراك سفينة بندقية أخرى محملة بالجنود والذخائر

---

(38) تدعى قلعة شومارة .

كانت متجهة الى كورفو . بعد ذلك آنزل الاسطول بعض الوحدات من الجيش بالبرية ، فاحتلوا موقعي دوليسن وبوديا وقلعتين أخريين كان يرابط بهما جنود بنادقة، فحطموهما تحطيما ، ثم انتقل الاسطول الى ميناء بيسكار حيث قام بحمل ثمانمائة حصان نهب بها الفرسان جزيرة كورفو بكاملها ، لانهم لم يستطيعوا الاستيلاء على قلعتها ، ثم عادوا الى بسكار . ومن هناك ، أمر علي باشا القرصان قارة فوشة بالذهاب الى صقيلية للتجسس على المسيحيين ، وبعد أيام قلائل عاد قارة من صقيلية ، واطلع علي باشا على تحرك أسطول النصارى نحو كورفو . وبالفعل ، فان دون جيان النمساوي برح ميسين يوم 17 شتنبر لمجابهة الاتراك ، ووصل هو الاول الى ميناء سان جيان ، ثم التحق بجزيرة فانو ، وهي مكان تجمع وحدات التكتل المسيحي . ولما وصل اسطول النصارى الى كورفو ، كان يتألف من ثمان ومائتي سفينة ضخمة ، وست بوارج وخمسة وعشرين مركبا ، ثم عاد النصارى الى سان جيان ، وقد أشفقوا مما تعرضت اليه كورفو من عمليات تخريبية لكن بعض الجنود المسيحيين تخلفوا عن وحداتهم، فألقى اليونانيون القبض عليهم وباعوهم لقارة فوشة الذي كان يراقب تحركات النصارى عن كثب وراء الصخور ، على متن سفينة صغيرة لا ساري لها . ولما استنطقهم قارة فوشا ، أطلعوه على اسرار النصارى . وعلم دون جيان من جهته ، على لسان أحد جواسيسه ، أن الاتراك يشكلون اسطولا متماسكا ويتجمعون كلهم بجزيرة ليبانتة .

استدعى دون جيان قادة اسطول التكتل المسيحي ، وناقشوا مسألة الحرب ، فأجمعوا على قتال الاتراك ، وتحركوا نحو سيفالونيا .

ارتأيت ان اترك الحديث عن هذا التحرك ، والعودة الى فاماغوستا ، ليكون كل شيً موضوعا في اطار منسق .

أخذ مصطفى باشا يشدد الخناق على فاماغوستا التي كانت حاميتها تتألف من عشرة آلاف جندي ، منهم الايطاليون والالبانيون والقبرصيون الذين صمدوا في وجه الاتراك ، وكان مصطفى باشا قد تلقى تعزيزات من بينها ثمانون مركبا محملة بالجنود والذخائر والمؤن ، والخشب الصالح لقواعد المدفعية ، والصوف والملابس وكل ما يحتاج اليه جنوده .

أنزل مصطفى باشا بعض الوحدات خلف فاماغوستا ، وسار يقترب تدريجيا من الاسوار عبر الخنادق التي حفرها الجنود ، في حين كانت القوات

الدفاعية تحصن مواقعها هي الاخرى ، خصوصا في الجهات التي أضحى من المتوقع ان يشن عليها الاتراك غاراتهم . وقد تميز في هذه العمليات ، كل من براغدان والي الموقع ، واستور بايون وطائفة من الضباط المحنكين والجنود الذين تقاسموا مهام الدفاع والصمود حسب مايلي : كلف آندري برادغان بالدفاع عن القصر ، من جهة البحر ومن جهة مستودع السلاح ، وكان عليه أيضا أن يقوم بالدفاع عن برج أندوزي . أما آستور بايون ، فكان مكلفا بالدفاع عن برج سانت ناب ، واستندت الى الضابط تسبيل مهمة الدفاع عن برج كامبو سانتو . وأما لوي مارتينانك وستة ضباط آخرون ، فكانوا مكلفين بالأسلحة الثقيلة، وكل واحد من هؤلاء كان قائما على باب من ابواب الموقع ، يساعده فريق من الجنود اليونانيين . وكان الضابط فرانسيك بوغون قائما على برج مستودع السلاح ، وبييتروكونتي على جدار بين البرجين ، والفارس دي فوت كلف بالدفاع عن برج الكامبو سانتو . وكان لوي مرتينانك مكلفا أيضا بحماية مصف المدافع وبمد المساعدة الى أندروزي وحراس السور الممتد الى برج سانت ناب . أما كونت هرقل مارتينانك ، فكان عليه أن يحمي مرصد سانت ناب .

تكلف فريق آخر من الضباط بمهام مختلفة ، اذ وزعت عليهم المسؤوليات بدقة بالغة لم يغفل منها أي شيء ، حتى ان المدافعين عن المدينة ، كانوا بين الفينة والاخرى ، يقبضون على طلائع الاتراك ويفتكون بهم فتكا .

دنا الاتراك من أسوار المدينة ، بعدما حصنوا مواقعهم ورتبوا رواجم المدافع ، ثم أخذوا يقصفون فاماغوستا ، يوم 19 ماي ، وكانوا يتوفرون على سبعين مدفعا ضخما وأربعة قواعد للقصف ، وكانت المدافع مرتبة على عشر رواجم ، تقصف في آن واحد خمس جهات من المدينة ، أي من باب ليميسي الى مستودع السلاح . وتعرض للقصف المكثّف المستودع ذاته ، والسور ، وبرج اندروزي ، وبرج سانت ناب،وباب ليميسي مع تحصيناته المجاورة .

انصرف الاتراك في البداية التي بث الرعب في نفوس السكان ، اذقصفوا منازلهم وجعلوهم يفرون من بيوتهم ويلجؤون الى الكنائس ، ثم حولوا القصف نحو المدفعية المعادية التي كانت تضايقهم . لكن المسيحيين ظلوا على حذر باستمرار، ليلهم كنهارهم ، ملتزمين مواقعهم ، بدون هوادة على قصف الاتراك ، وتمكنوا من تدمير خمسة عشر من أجود المدافع التركية . وقتلوا أكثر من عشرين ألفا من

أعدائهم ، ولم يتركوا لهم المجال للقيام بعمل فاصل .

بدأت كميات البارود ، تقتل عند المدافعين عن المدينة ، وقد تأخر وصول الامدادات ، فقرروا تقنين استعمال البارود ، وأمروا بالاقتصار على ثلاثين قصفة في اليوم لكل مدفع ، مع تسديد القصفات بدقة الى أهدافها ، وبحضور كل مسؤول عن موقعه حتى لا يخالف أحد هذه التعليمات الحكيمة ، لتلافي الكارثة .

في يوم 29 من شهر ماي ، وصلت فرقاطة من كانديا ، نقل أصحابها الى أهل فاماغوستا ان كل الاجراءات اتخذت لتصريف الامدادات نحو الجزيرة ، فأذكى الخبر معنوية المحاصرين وضاعف من شجاعتهم وقدرتهم على الصمود . غير أن الاتراك حالوا دون انسياق المدافعين الى الغبطة والسرور ، واستولوا بعد بذل جهود كثيرة ، على جدار غير بعيد من أحد الخنادق وملؤوا الخندق بالتراب من الجهة التي توجد بها الرواجم . لكن أصحاب القلعة استرجعوا الموقع والثغرات التي أحدثها الاتراك في الجدار . وأقام الاتراك فوق الخندق عوارض خشبية ، وواصلوا هجماتهم ، فاصيب المهندس المسؤول بسهام ، وأصيب معه آخرون فقتلوا كلهم ، واتم الاتراك ملء الخندق بالتراب حتى سوى مع مستوى الجدار الذي كان يخفيه ، وأحدثوا ثغرات في الجدار نفسه ، وتزودوا بأكياس من الصوف ، ثم ظهروا على العوارض التي كانت تؤدي الى مواقع النصارى ، وشرعوا يضعون المتفجرات لنسف الجدار الهلالي وأبراج سانت ناب واندروز وكابو سانتو ومخزن السلاح . وكان المسيحيون يطلقون عليهم من فوق الاسوار وابلا من النار ، وخرج اليهم عدد من الشجعان وخاصة الرماة منهم ، فاشتبكوا معهم وجردوهم من أكياس الصوف ومن دروعهم ، ثم أخذوا يتلفون الالغام ، ولم يعثروا الا على تلك التي كانت موضوعه لتدمير برج سانت ناب ، رغم الحركة الدائبة التي كانت تشهدها تحصينات القلعة بقيادة استوربايون

أشعل الاتراك فتائل ألغام مخزن السلاح فتحطم،وأحدث الانفجار ثغرة واسعة في السور ، ودمر جزءا هاما من جدار الحصن . وماهي الا لحظات حتى قام والي الاسكندرية بغارة على الموقع ، وتبعه فيلق من الاتراك صعد الى السور ، ورفع فوقه الراية التركية .

كان النقيب بيتروكونتي المكلف بالدفاع عن هذا الجناح على مقربة منه ، وبما أن الالغام ألحقت أضرارا بالسور ، هب كل من أستورباين ولوي مارتينانك الى مساعدة النقيب ، وقاتلوا جميعا بشجاعة كبرى ، وطردوا الاتراك وقتلوا منهم عددا هاما . ونادى قائدهم على خمسة أفواج متتالية من جنود لم يقاتلوا بعد ، لكن النصارى ردوهم على أعقابهم بعد أن كبدوهم خسائر فادحة في الارواح . ولما علم مصطفى باشا أنه فقد في المعركة ألفا وخمسمائة جندي أمر بالتراجع ، ولم يفقد النصارى في الاشتباك الذي دام خمس ساعات سوى مائة جندي ما بين قتيل وجريح . وقد لقي حتفه في القتال كل من الكونت جيان ، وفرانسوا غوري والنقيب برندان الغوبي ، كما جرح هرقل ما لا تستة، وبييتر، وكونتي وغيرهما .

عندما جن الليل ، رست سفينة قادمة من كانديا ، وأبلغت أصحاب القلعة أنباء رفعت من معنويتهم وقوّت عزيمتهم . عندئذ ، قام نقيبان بوضع العوارض في مكان الرواجم . وفي الجهات التي كان من المتوقع أن يضع الاتراك فيها الالغام ، نصبت الحواجز وهي تتشكل من صناديق وفرش وأكياس مملوءة بالصوف وبالتراب المبلل ، وشرعت النساء في صنع هذه الاكياس من مختلف أنواع الاغطية والزرابي وملئها بالتراب المبلل ، لتقيهن من قذائف القصف التركي ، وظل القوم يصلحون نهارا ما يفسده الاتراك ليلا ، وعكف الاهالي على شغل بدون توقف ، لأن الأتراك لم يتيحوا لهم فرصة للراحة ، سعيا وراء ارهاقهم ، وتحطيم معنويتهم .

في يوم 28 من شهر يونيو ، فجر الاتراك الالغام التي زرعوها تحت جدار دفاعي شكله شكل هلال ، من بين تحصينات المدينة ، كان مشيدا في الصخرة فاحدث فيه الانفجار ثغرة كبيرة ، تسرب منها بسرعة ، عدد من جنود الاتراك ، بحضور الباشا ، وتسلقوا السور بجهالة . لكن فرقة الكونت مارتينانك تصدت لهم وصمدت في وجههم وردتهم على أعقابهم بعد أن كبدتهم خسائر جسيمة ، في حين ، لقي مصرعه في صفوف النصارى ، نقيبان ، وملازم أول ، وأصيب ثلاثة أفراد بجراح . وأغار الاتراك على مخزن السلاح ، معرضين أنفسهم لخطر أشد من الذي كان يشكله هجومهم على النصارى ، الذين لم يفقدوا الا نقيبا واحدا لقي مصرعه ، وجريحين اثنين . دامت المعركة ست ساعات ، ولم ينصرف خلالها المطران الميشي الى اغلاق الثغرة ، لانه راح يحرض قومه على الصمود وهو يحمل

صليبيا. وخاض المعركة ، الى جانب الرجال ، عدد من النساء كن يحملن الحجارة ويصببن الماء على الجدران .

أمام صمود الاهالي ، شن الاتراك هجوما شاملا على المدينة ، وشيدوا ست قواعد حول الاسوار التي أخذوا يقصفونها بشدة ، مستخدمين في ذلك ، ثمانين مدفعا ضخما ، فدمروا الاسوار ومواقع دفاع القلعة ، ولم يبق للمقاومين ما يحميهم من القصف ، فقتل منهم الكثير ، وتحطم الجدار الهلالي ، وفر المدافعون عنه . وفي اليوم التاسع من يوليوز ، قام الاتراك بهجوم آخر ، على أبراج سانت ناب واندروزي ومخزن السلاح ، لكنهم لم يتمكنوا من إسكات أسلحة المدافعين ولو أنهم سيطروا على موقع الجدار الهلالي ، وتكبد الجانبان المتحاربان خسائر هامة ، سببها الانفجارات المتوالية التي كانت تعصف بهؤلاء وأولئك ، وأفقد النصارى عددا من ضباطهم .

وقام الاتراك بهجوم آخر على الموقع يوم 14 يوليوز ، فاستولوا على باب ليميشي ، وحاولوا التقدم ، لكن لغما قويا انفجر تحت أقدامهم ، فأودى بحياة أربعمائة منهم ، وانسحب الآخرون .

وقام الباشا في الغد بتفجير ألغام وضعها في الاسوار الامامية لكنها لم تأت بما كان يريد ، فامر بتشييد تحصينات بجانب السور ، وأقام معسكرا فيها ، ووضع ست رواجم للمدفعية فوق السور ، وشرع جنوده في اتلاف أجهزة دفاع النصارى ، وهم مستترون بجلود البقر ، لكن أفراد الحامية كانوا يطلقون عليهم النيران من كل جهة ، كما أن النار كانت تلتهم بعض تحصينات المدينة . وانكبت النساء في هذه المرة أيضا على اخماد النار .

ولما استحال على الباشا اعادة الاستيلاء على باب ليميشي ، أمر بصب القار وغيره من المواد المحرقة ، على المدافعين ، فشب حريق مهول في الموقع ، وعجز عن اطفائه ، ودامت النيران مشتعلة طيلة أربعة ايام ، تنبعث منها حرارة تشوي الوجوه ، وروائح كريهة تزكم الانوف حملت المدافعين على الفرار ، وقد انهكهم التعب ، ونال منهم العياء ، وفقدوا العديد من القواد والضباط ، ونضبت مخازن مؤنهم ، وراحوا يتغذون بلحوم الحمير والبغال ، ولم تبق لهم خمور ، فذهبوا يشوبون الماء بالخل ويشربونه ، بينما ازداد الاتراك عزيمة ، وصاروا يكثفون هجماتهم على القلعة ، واستطاعوا بناء ربوة تعلو سور المدينة ، مكنتهم من اقتحام بعض المواقع

الاستراتيجية والاستيلاء عليها . ولم يبق في المدينة واقفا على الأقدام الا زهاء ستمائة جندي ايطالي ، لكنهم لم يكونوا في الحالة التي تسمح لهم بالاستمرار في الصمود ، لأن عناصر الكتائب اليونانية والالبانية والقبرصية الذين هبوا للدفاع عن فاماغوستا ، لقوا مصرعهم في معظمهم أو أصيبوا بجروح بليغة أقعدتهم عن كل نشاط .

أمام هذه الاوضاع ، طلب ممثلو الأهالي من حاكم المدينة أن يشرع في التفاوض مع الاتراك من أجل الاستسلام ، حفاظا على ما بقي سالما وعلى حرمة النساء والأطفال ، وذلك لأن الاسعافات لم تصلهم بعد . لكن الحاكم طلب منهم الصبر والمزيد من الصمود،وأرسل في الحين سفينة الى كانديا لتطلع المسؤولين فيها على حقيقة الاحوال بفاماغوستا . وفي هذه الأثناء ، فجر الاتراك ألغاما بالقرب من باب ليميشي ، فانهار ، كما انهار برج مخزن السلاح ، وقتل كل عناصر فرقة حراسته ، ثم شنوا هجوما على رواجم المدافع ، ودامت المعركة من منتصف النهار الى حيث اظطروا الى إخلاء المكان ، وقد فقدوا بدورهم في هذه الهجمات ، ما يزيد عن ثلاثة آلاف جندي بين قتيل وجريح ، مقابل مائتي قتيل في صفوف النصارى .

وفي غداة ذلك اليوم ، استأنف مصطفى باشا غاراته على المدينة ، لكنها كانت أقل شراسة من التي سبقتها ، ولو أن مراكب عريمات قصفت المنازل والحقت بها أضرارا . والجدير بالذكر ، أن هذا الضابط البحري التحق بالمعسكر تركي وهو يحمل عددا كبيرا من ألوية النصارى الذين انتصر عليهم جنود علي اشا . ولما شهد سكان المدينة والمدافعون عنها تلك الرايات ، دب الفشل في صفوفهم ، وأعلنوا استسلامهم ، ورفعوا راية بيضاء يوم فاتح غشت ، وسلموا رهائن الى الاتراك ، من بينهم الكونت هرقل دومارتينانك وماتيوغولفي وأحد وجهاء المدينة . وكان يمثل الاتراك في المفاوضات نائب القائد مصطفى باشا ونقيب الانكشاريين . أما من الجانب الاخر ، فان أستور بايون هو الذي كان الناطق باسم أهل فاماغوستا ، حيث قبل الاستسلام مشترطا أن تنسحب حامية القلعة بأسلحتها وأمتعتها وخمسة مدافع وثلاثة أحصنة ، وأن يؤمن لها الأتراك الوصول بسلامة على متن السفن الى جزيرة كانيا ، مع السماح للسكان الراغبين في الهجرة معهم بمغادرة المدينة صحبة أزواجهم وأولادهم وأن يأخذوا أمتعتهم ، كما

يجب أن يعامل الذين يرغبون في البقاء معاملة حسنة ، مع احتفاظهم بممتلكاتهم وعقيدتهم .

قبل مصطفى باشا هذه الشروط لأنه انتظر طويلا الاستيلاء على المدينة ، وأرسل سفنا الى الميناء لنقل المهاجرين وأمتعتهم ، وكان ذلك يوم 15 غشت . ولما ركب المهاجرون السفن رأى رؤساؤهم أنه من الأليق أن يسلموا على مصطفى باشا ويودعوه، واتفقوا على أن يبعثوا اليه بخطاب يحمله بيتروكونتي ، ويخبره بأنهم سيزورونه في الليلة ذاتها ، ليقبلوا يده ويقدموا له الجنود الاتراك الذين أسروا في المعارك ، ويستعطفوه في أن يأمر بعدم الاساءة الى أهل فاماغوستا ، وأن نقيبا بقي في القصر للسهر على تطبيق بنود وثيقة الاستسلام .

دخل الاتراك الى المدينة ، ولم يضايقوا أهلها في أعمالهم ، الأمر الذي جعل النصارى يطمئنون على سلامتهم . ورد مصطفى باشا على الخطاب الذي تلقاه من القادة السابقين للمدينة معلنا استعداده لاستقبال ممثليهم متى شاؤوا ، وأنه سيكون مسرورا باستقبال القواد الابطال اذا جاؤوا للمدينة ، وطمأنهم على سلامتهم وإخوانهم الذين آثروا البقاء .

وبالفعل ، تقدم خلال الليل لتحية مصطفى باشا كل من أستور بايون ، ولوي مارتنانك وأنطونيوكيريني بمعية ضباط آخرين وعدد من أعيان المدينة ، فاستقبلهم الباشا بحفاوة ، لكنه أخذ على برغدان قائد الحامية كونه قتل بعض الأسرى الاتراك اثناء الهدنة . فأنكر مخاطبه أن يكون فعل ذلك ، ولم يقتنع الباشا ، وأمر باعتقال جميع أعضاء وفد النصارى ، واعدامهم واحدا واحدا بحضوره . ولما أتى دور برغدان ، تقدم اليه الباشا ، وأمر بأن تقطع أذناه أولا ، ثم وضع رجله على بطنه وقال له : .

«كلب، أين مسيحك ؟ اطلبه لينقذك !» ولم يرد عليه برغدان . وا[illegible] تمكن أحد خدام الباشا من اخفاء لوري دوماتينانك ، واتخذه خادما له .

بعد ذلك ، أطلق مصطفى باشا سراح اليونانيين والقبرصيين كافة ، وأمر باعدام مائتين من النصارى الأجانب الذين خرجوا من معاقلهم على اثر الهدنة ثم ولى اهتمامه الى الذين مكثوا على متن السفن ، فحجز أمتعتهم واعتقلهم

ما كاد يدخل مصطفى باشا بدوره الى فاماغوستا ، يوم 16 غشت ، حتى أمر باعدام النقيب تيبيولوشنقا ، ثم أمر بتطويف الحاكم برغدان من راجمة لاخرى ، ومن موقع لآخر ، وهو يحمل سلة على كتفيه مليئة بالتراب ، وسلة اخرى بيده ، وكلما مر بهذه الجهات أرغم على تقبيل الأرض . وبعد انتهاء الطواف نقله جلاده نحو سفينة ، وأصعدوه الى مقعد الحراسة بقمة أحد الصواري ، لكي يراه أهل المدينة ويشاهده الأسرى ، ثم أرجعوه الى الساحة العمومية بالمدينة حيث سلخوا جلده حيا . ذلكم ضرب من ضروب قسوة المسلين [39] وصورة عن خيانتهم للثقة التي وضعها فيهم حاكم شهم ، ذنبه أنه قاوم عدوه ، معتمدا على المسيح وعلى أمه العذراء . ولما قضى بردغان نحبه ، ملأ الجلادون جلده بالتبن وبعثوا به الى سائر المواقع الشاطئية الشامية .

شاعت أنباء عن القوات التركية الغازية مفادها أن الجيش لم يكن يتألف سوى من مائتي ألف جندي ، من بينهم ثمانون ألف مقاتل ، بغض النظر عن الجنود الانكشاريين وعددهم أربعة عشر ألفا ، سواء منهم التابعون للباب العالي أو غيرهم ، لكن كان من بين الجنود ستون ألف مرتزق انضموا إلى الجيش التركي على اثر ما بلغهم عن كنوز فاماغوستا الباهضة ، أما الباقي ، فكانوا أسرى أو عبيدا .

دامت معارك فاماغوستا خمسة وسبعين يوما ، أطلق خلالها مائة وخمسون ألف طلقة مدفعية . وكان كبار قواد الجيش التركي هم : مصطفى وهو القائد العام ، وحاكم ميبو ، وحاكم ناتوليا ، وحاكم كرامانيا ، ونقيب الانكشاريين ، وحاكم طرابلس الشام ، ووالي اليونان ، والوالي سيفاس ، وثلاثة ولاة من الجزيرة العربية ، ومصطفى باي الذي كان قائدا على فرق المرتزقة ، ووالي مالاسيا .

وفي هذه المعارك ، لقي مصرعه كل من والي ناتوليا ، والقائد العام لفرق المرتزقة ووالي ملاسيا وحاكم طرابلس الشام والجزيرة العربية ، وعدد آخر من كبار الضباط والجنود ، فضلا عن ثمانين ألفا من المقاتلين من مختلف الاوطان ، حسب ما ورد في تقرير الباشا . أما من جانب النصارى ، فقد مات أكثر من خمسة آلاف جندي ، واثنان وعشرون نقيبا ، وستة وثلاثون أسيرا .

---

(39) عبّر عنهم كذلك بالكفـار .

هذه حصيلة حصار فاماغوستا الشهير ، وقد وقفنا عنده طويلا لأنه حديث بالنسبة لباقي الأحداث ، ولأننا أردنا أن نبين قدرات هذا الجبار الذي يهدد المسيحية في كل حين .

بعد تقديم هذا العرض الضافي عن الاحداث التي كانت فاماغوستا مسرحا لها ، أعود لألقي نظرة على الوحدات البحرية ، مشيرا في البداية الى أن دون جيان النمساوي ، الذي كان يرابط بجزيرة سيفولونيا ، تحرّق شوقا الى قتال الاتراك وتلقينهم درسا ، لما بلغه نبأ سقوط فاماغوستا ، لذلك أبحر في الليلة الموالية من الميناء الذي يسميه النصارى بوادي الاسكندرية ،.والذي يبعد بنحو ثلاثة عشر فرسخا عن خليج ليبانتة .

وما أن علم علي باشا بأن اسطول النصارى يتحرك حول كورفو ، حتى خلع معطفا ثمينا كان يرتديه ، وأهداه لبحار حمل اليه خبر التكتل المسيحي ، ثم أمره بالعودة الى التجسس على النصارى . واشتغل الاتراك طيلة ثلاثة أيام ، باقامة الافراح والحفلات واطلاق الطلقات المدفعية في الفضاء ، احتفاء بالنصر الذي حققوه . ولما انتهت الافراح أعاد علي باشا ترتيب المدفعية والبنادق ، ووزع الرصاص على الرماة والنبال على أصحاب الأقواس ، كما ضاعف حصة كل واحد من الخشب ، ومنع علوش من الرحيل الى تونس ، ولو أنه طلب منه الاذن من أجل ذلك ، ثم بعث برسول الى استنبول ليطلع الامبراطور على تحرك أسطول النصارى نحو قبرص ، وقبل أن يبرح خليج ليبانته ، بلغه أن الجيش النصراني يوجد بسيفالونيا ، وهي نقطة غير بعيدة من قبرص ، عندئذ أمر بركوب الفرسان بأسلحتهم ، وبعدما حشد أكثر من سبعة آلاف جندي ، غادر خليج ليبانته ، ونزل بالقلعة الواقعة على بعد بضعة فراسخ من مواقع جيش النصارى .

عندما أظلم الكون ، أتى قارة فوشة ليخبر علي باشا بأن النصارى اقتربوا من مواقع الاتراك فاعلن علي باشا حالة الطوارىء في صفوفه ودعا الجنود للاستعداد للقتال .

أما دون جيان النمساوي ، فانه أعلن بدوره حالة الطوارىء ، وأعطى التعليمات لضباطه ، وعين لهم الأماكن التي ينبغي أن يحاربوا فيها . كان أسطوله يتألف من خمسة عشر مركبا اسبانيا ، وثلاثين تابعة لمملكة نابولي ، وعشرة

لصقلية ، وأحد عشر لأندري دوري وثلاثة لمملكة جين ، وأربعة لولاية لوملان ، وأربعة لنغرون ، واثنين لجورج غريمالدي ، واثنين لاتيان دي مار ، وثلاثة لمالطة ، ومائة وتسعة للبندقية ، إضافة الى عدد كبير من الزوارق السريعة وأربعة فراقط

كان الجيش البحري المسيحي مقسما الى أربع فرق ، رئاسة الفرقة اليمنى منها الى أندري دوري ، وهي تتشكل من خمسين وحدة ، يتقدمها مركبان شراعيان ضخمان ، وكان زعيم البنادقة يترأس وحدات الجناح الأيسر البالغ عددها خمسين مصحوبة بمركبين شراعيين كذلك . الى جانب هذه المهمة ، أسندت اليه رئاسة الفرقة الوسطى ، وعدد وحداتها ستون سفينة ومركبان شراعيان ، أما الفرقة الرابعة فكانت فرقة احتياطية من نصيب الماركي دي سانت كروة ، وهو القائد العام لبحرية نابولي ، وعدد وحدات هذه الفرقة احدى وثلاثون سفينة .

صعد دون جيان النمساوي بعد ذلك الى سفن القيادة وتفقدها بدقة ، وقد كلّف دون لوي دي روكيسانس الحاكم العام لقشتالة بتفقد باقي الوحدات ، ثم ولى عائدا الى مقر قيادته .

في نفس الليلة ، وفي نفس الساعة التي برح فيها اسطول النصارى ميناء وادي الاسكندرية ، غادر الاسطول التركي المواقع التي تركناه فيها ، وفي يوم الاحد 7 أكتوبر ، تمّت المواجهة بين الاسطولين ، على مقربة من موقع اسكور شلارس . عندها أطلق قارة فوشا الذي كان موجودا بين الاسطولين على متن زورق الاستطلاع طلقة مدفعية لانذار علي باشا . فصعد الجنود الاتراك الى الصواري لمشاهدة السفن المسيحية وترتيبها .

كانت فرقة أندري تتقدم الاسطول ، وهي التي تقرر لها أن تأخذ مكانها في عرض البحر ، بينما استترت الوحدات الاخرى وراء الجبال ، وقام النصارى باستكشاف ما في البحر بدورهم ، فانكشف لهم زورق قارة فوشة ، وصعدوا هم كذلك الى الصواري ، فرأوا اسطول العدو منتشرا في البحر ، وأشير الى أن اسطول الاتراك كان يتألف من مائتين وسبع وثلاثين سفينة عظيمة ، وخمسة وأربعين مركبا شراعيا .

لما رأى دون جيان النمساوي هذه الوحدات ، حمد ربّه وشكره على الفرصة التي منحها اياه ، ثم أمر بطلقة مدفعية ، اشارة الى قادة الفرق لكي يستعدوا ، كما

أمر برفع لواء الحرب وأعطى الاشارة لبداية المعركة .

ركب أحد الضباط فرقاطة حاملا صليبا بيده ، وصار يطوف على الوحدات يحثهم على الصبر والثبات والاستماتة في القتال ، ويعدهم بالنصر المبين ان وضعوا ثقتهم في عيسى وفي العذراء ، وهما يشكلان السبب الذي يقاتلون من أجله ، هدفهم الدفاع عن الشرف وتحقيق المجد ، مع القيام بالواجب على الوجه الأكمل .

كان الجنود والضباط يلقونه بالهتافات ، وهم يعدونه بالكفاح حتى الموت ، ثم ولّى ذلك الضابط الى مقر قيادته لمواصلة مهمته القيادية ، في حين بدأ اسطول الأتراك يدنو من أسطول النصارى .

رفعت القيادات ألوية المسيح وألوية التكتل الصليبي ، وكان مرقوما على الالوية الاولى الصليب ، وعلى الالوية الثانية رموز أسلحة البابا والسلطان الكاثوليكي وملوك البندقية . ولما رفعت هذه الالوية حياها حشود البحرية في جو مليء بالخشوع ، وكانت تتقدم فئات من الرهبان أوفدهم البابا خصيصا اليهم ليساندوهم معنويا بصلواتهم ودعواتهم ، حتى لم يبق جندي واحد يخشى الموت أو يرفضه ، وكلهم اعربوا عن رغبتهم في الموت ابتغاء الحياة الدائمة في الآخرة .

ومن غريب الصدف ، أن الرياح انحبست ، فلم ير الاتراك مندوحة من استعمال المجاذيف ، ذلك ما أتاح للوحدات النصرانية امكانية التجمع وأخذ مواقعها في أحسن الظروف .

كان يوجد على يمين مركب دون جيان النمساوي سفينة القيادة التابعة للبابا، وعلى متنها مارك أنطوان ، وميكائيل الاسكندر حفيد البابا ، دوق موندراغون ، وبومبي كولون ، ورومغان ، مع كثير من النبلاء ؛ وعلى يساره كانت توجد سفينة القيادة البندقية . كانت سفينة دوق الصافوى تحاذي سفينة البابا ، وعلى متنها أمير ايربان ، بينما كانت سفينة البندقيين تحاذي سفينة جين التي كان على متنها أمير بارمة ، وعلى مقربة من هذه السفن كانت وحدات مالطة بقيادة الضابط بيدرو جيستينيان .

كانت المراكب الشراعية الضخمة ، محملة بكميات كبيرة من البارود ومدجّجة بالمدافع ، وهي تتقدم الوحدات كلها ، تهدف الى اثارة الرعب والفوضى

في صفوف العدو ، عندما تبدأ العمليات الحربية .

كانت القوات المسيحية تضم في صفوفها سبعة آلاف جندي اسباني ، واثني عشر ألف ايطالي ،وثلاثة آلاف من المتطوعين من مختلف الاجناس ، دون الاسرى والسجناء المحكوم عليهم بعقوبة التجذيف ، وثلاثة من المشاة الألمان .

كان جيش العدو منظما في شكل هلال ، .رأسه الايمن موجه نحو اليابسة، تحت قيادة محمد باي والي نيغربونت ، وسيروكوباي والي الاسكندرية ، وكان هذا الجناح يتألف من ستين مركبا شراعيا ، في حين كان الرأس الأيسر تحت قيادة قلوش علي والي الجزائر ، ويتألف من ستين مركبا شراعيا . كان علي باشا يتوسط الهلال ، وهو مكلف بقيادة مائة سفينة عظمى ، وعلى يمينها تجاه اليابسة ، كان فرطة باشا ، ويواجه البحر اثنان من أولاده على متن سفينة قيادية . وكان محمد باي أحد أحفاد باربروس يدعم الوحدات التركية ، على رأس فرقة تتألف من أربعين سفينة ، أما شعبان الشرايبي حاكم طرابلس الغرب ، فانه كان يترأس الجناح الأيمن ، ويقود فرقة تضم اثنتين وعشرين سفينة .

كلما اقترب الاسطولان أحدهما من الاخر ، كان رئيساهما يحثان سفنهما على التمسك بالوحدة ، حتى لا تعبث بها القوات المعادية . وامر علي باشا بإزالة الاغلال التي كانت تقيد أسيرين اسبانيين في سفينته ، وأمرهما بالصعود الى أعلى الصاري ليدلاه على سفينة دون جيان ، فتعرفا عليها بما يحيط بها من سفن ، وبالأولوية العديدة المرفوعة فوق أعمدتها . اذ ذاك أمر علي باشا بالهجوم عليها ، ولما علم أن السفينتين اللتين تقومان بمساندتها اسبانيتان ، لأنهما لا تتوفران على سطح في أعلى الصاري ، قال لأصحابه بأن الوقت حان ليظهروا كفاءتهم واقتدارهم وان النصر سيكلفهم ثمنا باهضا .

وأما دون جيان، فأنه هو الآخر أمر وحداته بالتوجه نحو سفينة الباشا، كما أمر الفراقط التي كانت في سياجه أن تبتعد لكي لا يعتمد على مخرج من المعركة سوى النصر ، ثم أمر بقطع الأخشاب التي تتقدم المراكب ، لتتمكن المدفعية من إصابة أهدافها بدقة .

أمر الباشا بعدم استعمال المدافع قبل أن يبدأ الاشتباك ، لكن دون جيان سبقه الى اطلاق النار ، وكان القصف مكثفا فاجأ الأتراك الذين أفلتت المبادرة

من أيديهم .

بدأت المعركة حوالي الساعة الحادية عشرة، وكان دوي المدافع يزمرج بشدة الى درجة لم تحكها الرعود أو البروق أو الزلازل ، وما هي الا لحظة حتى كان ستار كثيف من الدخان يغشي الجيشين المتحاربين .

كانت سفن الجناح الايسر هي الأولى التي اشتبكت مع العدو ، وتلتها في ذلك سفينة دون جيان التي هاجمت سفينة الباشا من الأمام ، فكان الاشتباك عنيفا من الجانبين لم يسبق له مثيل في المعارك البحرية ، لأن الباشا كان محاطا في سفينته بأربعمائة من أجود الرماة ، تسانده ثمانية مراكب لتزويده بالمقاتلين الاحتياطيين ، كما كان مع دون جيان زهرة جنود فيالق اسبانيا ، وكان مدير ديوانه العسكري يحرس مقدمة السفينة بمائة جندي ، ودون بيدرو يحرس الأفران ، على رأس خمسمائة جندي ، بينما كان لويس كاريو ،قائد الحراس ، على رأس نفس العدد من الجنود ، يسهر على سلامة السفينة . أما باقي المقاتلين فانهم كانوا موزعين على مختلف أجنحتها ومرافئها . وكان عدد من سامي الضباط يحيطون بدون جيان ، في حين كان اخرون مكلفين بالسهر على العمليات الحربية وتنسيقها في نقط مختلفة من السفينة القيادية .

اشتدت المعركة بين الجانبين ، واستطاع المسيحيون اقتحام سفينة الباشا مرتين ، لكن الأتراك ردّوهم عن أعقابهم في كل مرّة ، حتى انهم شعروا بالخوف وظنوا بدورهم أن الاتراك سيحتلون سفينة القيادة المسيحية ، وسقط في المعركة عدد كبير من القتلى والجرحى من الجانبين ، وقتل ضباط مسيحيون . وتدخل الرماة الذين كانوا على الأفران ، وتبعهم الجنود الاسبان ، فقتلوا كثيرا من الاتراك ، ومن جملتهم علي باشا الذي أصابته رصاصة في رأسه ، فاقتحم المسيحيون سفينته واستولوا عليها .

شكر دون جيان ربّه هلى هذا النصر وأمر بنقل الخبر الى الوحدات الأخرى التي لا زالت تحارب الاعداء ، ورفعت الرايات المسيحية على أعمدة السفن التركية التي استسلمت ، وبقيت المعركة تعرف أشواطا أخرى استبسل فيها كل الضباط والقواد الذين كانوا يرأسون التكتّل الصليبي ، وقد هلك منهم البعض في هذه المعركة الضارية . وأذكر من بين الوحدات التي تعرضت لمحنة كبرى ، الوحدات

المالطية والصقلية التي هاجمها القائد التركي علوش علي ، وتفوق كثيرا على جنودها فقتلهم جميعا ، وغنم لواء التكتّل المسيحي ، لكنه اضطر للفرار مع طائفة من جنوده ، على اثر تدخل سفن مسيحية عديدة في المواقع الذي كان يحارب فيه . ولاننسى أن نذكر أندري دوري الذي برهن على عبقرية كبرى اذ استطاع أن يجلب الى عرض البحر بعض السفن التركية ، وتمكن من الانتصار في الاشتباك معها ، وأهلك ملاحيها وجنودها .

بعدما أنهى دون جيان معركته مع فرقة الباشا ، هبّ لنجدة الفريق الصقّلي الذي كان في محنة كبرى ، ورافقه في ذلك الحاكم السامي لمملكة قشتالة على متن سفينته . ولما رآهما الأتراك متجهين نحوهم لاذوا بالفرار . وبما أن الحاكم السامي كان يستولي على كل سفينة وجدها ، عثر على احدى سفن القيادة التركية التي كانت تقل أبناء الباشا ، فاستولى عليها بعد معركة عنيفة .

بعد ذلك ، قرر أندري دوري وجماعة من كبار الضباط أن يتوجهوا الى رأس قريب للنزول به ولمنع الاتراك الفارين من اللجوء اليه ، وقد كانوا مرغمين على التماس النجاة من اليابسة ، ولم يسلم من المعركة البحرية الكبرى الا قلوش علي ، ومعه أربعة مراكب وبعض الزوارق . وقتل من الجانب المسيحي عدد من الضباط بمختلف الرتب ، كما قتل قواد بعض الوحدات ، مثل القائد البندقي ، ولقي أكثر من ستة آلاف جندي حتفهم ، ما بين اسبانيين وايطاليين .

أما من الجانب التركي فقد هلك أكثر من ثلاثين ألف جندي وأسر ألف ومائتان ، وغنم النصارى خمسة وثمانين مركبا ، وأغرقوا ثلاثين من مراكب العدو ، وحرروا ألفا وخمسمائة أسير نصراني من مختلف الجنسيات . ونذكر من بين القتلى في صفوف الاتراك ثلاثين واليا ، ومائة وستين نقيبا وبايا ، أشهرهم علي باشا القائد العام للجيش ، وهويدر باي والي كيو ، وقارة باي يوك ، وجعفر الشلبي حاكم ولاية السبال، وبردو آغا المسؤول الكبير عن خزائن السلاح باستنبول، ومصطفى شلبي وزير المالية ، والقائد شلبي حاكم ولاية سميترة ، وقائد ولاية غالبويا وسيروكوباي كبير الربابنة في القوات البحرية ، وعدد آخر من سامي الضباط والشخصيات العسكرية والمدنية .

وعلى اثر انتهاء المعركة ، أخذ دون جيان والحاكم السامي لمملكة قشتالة، يتفقدان أحوال الجرحى ويعالجانهم . ولما دنت الشمس من المغيب ، لجأ الاسطول

المسيحي الى ميناء باتيلا لقضاء الليل ، ثم أبحر في صبيحة اليوم التالي نحو ليبانتة .

ولم يلبث فيها الاسطول الا يوما أو بعض يوم ، حتى قرر دون جيان الرحيل نظرا لقرب حلول فصل الشتاء ، وعاد الى خليج البندقية ، ومنها ذهب الى ميناء ميسين حيث استقبل بالهتافات والتصفيقات ، واقيمت الحفلات بالمناسبة ، وشكر المسيحيون ربّهم على عنايته وعلى النصر الذي حققوه بفضله ...

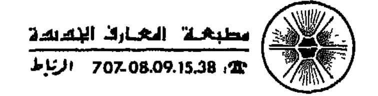
انتهى الكتاب الثاني

تم الجزء الأول ، ويليه الجزء الثاني
وأوله : الكتاب الثالث عن أقاليم
المغرب ومدنه وقراه وسكانه .

فهـــرس
موضـوعـات الجـزء الأول

الكتـــاب الثانـــي
في ملة محمد وانتشار خلفائه في أوربا وآسيا وافريقيا

رقم الايداع القانوني
1984 — 117



مطبعة المعارف الجديدة
الرباط 707-08.09.15.38 ☎

رقم الايداع القانوني 117 — 1984

quinientos y cincuenta y dos años.

YO EL REY.

Por mandado de su Magestad
Antonio de Erasso.

الثمن 50 درهم

الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر



الجزء الثاني

ترجمه عن الفرنسية

محمد حجي محمد زنيبر محمد الأخضر
أحمد التوفيق أحمد بنجلون



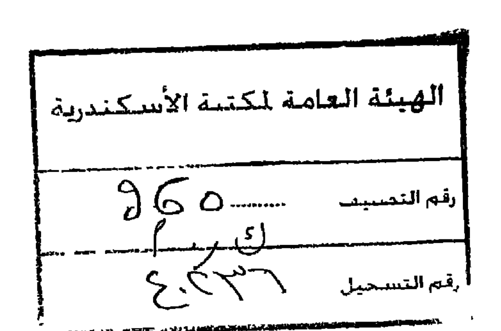
الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر

إفريقيا

لمارمول كربخال

الجزء الثاني

ترجمة عن الفرنسية
محمد حجي محمد زنيبر محمد الأخضر
أحمد التوفيق أحمد بنجلون





طبع هذا الكتاب بمطابع المعارف الجديدة

1408 ــ 1409 هـ

1988 ــ 1989 م

رقم الايداع القانوني 117 ــ 1984

الكتاب الثالث

يتضمن الأقاليم، والمدن، والقرى لمملكة مراكش، مع السكان الذين في الجبال، وكذا أهم الانتصارات الحربية التي وقعت فيها وأشياء أخرى جديرة بالذكر.

* * *

الفصل الأول

امتداد مملكة مراكش

تشتمل مملكة مراكش على الجزء الغربي الواقع في أقصى بلاد البربر ويحدها من جهة الغروب المحيط الغربي، ووادي سوس جنوباً، وجبل الأطلس شرقاً، ونهر أم الربيع شمالاً. وتدخل في هذه الدائرة سبعة أقاليم، هي: حاحا، وسوس، وجزولة، ومراكش، ودكالة، وهسكورة، وتادلا. وتمتد على طول الساحل، من منازل ماسة ومصب نهر سوس، الذي كان القدامى يسمونه سوريكَة، إلى مدينة أزمور، حيث يصب نهر أم الربيع[1] في البحر، مكوناً المصب الذي يسميه العصريون مصب نهر أزمور. وينحدر هذا النهر من جبل الاطلس الكبير، الذي يسمى دادس، ويفصل هذه المملكة عن مملكة فاس.

الفصل الثاني

إقليم حاحا

إقليم حاحا هو الجزء الواقع في أقصى غرب مملكة مراكش، ولذلك فهو أول ما سنصفه، حيث إن ترتيبها يمتد من الغرب إلى الشرق. هذا الإقليم يحتل جميع رأس الأطلس الكبير، الذي يسميه الأفارقة تبقال[2] ويحده من الغرب والشمال المحيط، ومن الجنوب جبال الأطلس الكبير المتاخمة لإقليم سوس، ومن الشرق نهر أسيف المال[3] الذي يفصله عن إقليم مراكش. ينبع هذا النهر من جبل هنتاتة، ثم يسيل في السهل إلى أن يلتقي بنهر تانسيفت، الذي يفصل هذا الإقليم عن إقليم دكالة. وتوجد في هذه المساحة كلها جبال عظيمة وعرة شاهقة جداً، وصخور مغطاة بالأشجار، تنبع فيها جداول تسقى بها أودية صغيرة. وفي جميع هذه الأماكن قطعان كثيرة من الماعز، والحمير لخدمة السكان، لكن غيرها قليل بسبب وعورة الجبال. ينمو فيها الشعير بكثرة، لكن القمح لا ينبت فيها أصلاً. وتجارة النحل بها رائجة، كتجارة الماعز، بسبب الكمية الهائلة من الشمع التي

---

(1) كان يسمى قديماً كوفة.

(2) كتب في الترجمة الفرنسية إيتواكال.

(3) ترجماه حرفياً، ولو أن أسيف بالبربرية يعني النهر، فيكون فيه تكرار.

تستخرج منها وتباع مع الجلود بآسفي، حيث ياتون من أوربا لشرائها. وسكان هذا الإقليم يحبون الحرب، لكنهم شرسون يعيشون بدون رادع ولا شرطة، ولا يزرعون كروماً ولا بساتين، وإن كان بالإمكان أن توجد منها أصناف جيدة في الشعاب، بسبب العيون والجداول التي تسيل فيها. كما أنهم لا يغرسون شجر الزيتون، ويستخرج الزيت[4] الذي يستهلكونه من نواة بعض الأثمار التي تحملها أشجار شائكة تسمى أركَان. وهذا الثمر بحجم البرقوق الغليظ، وأحياناً أكبر، وليس له سوى نواة مغطاة بقشرة، تلمع في الليل كالنجم، عندما تكون ناضجة، تاكل الماعز هذا الثمر ثم يجمع الأفارقة النواة من زريباتها لأنها صلبة لا تستطيع الماعز أن تكسرها فتفرزها كاملة تماماً، ويصنعون من لوزها الزيت الذي ذكرت والذي له رائحة كريهة وطعم رديء.

لا يعتز هؤلاء القوم بالتعلم، ولا يعرف أحد منهم القراءة باستثناء بعض الفقهاء، ولا يوجد عندهم أطباء، ولا جراحون، ولا صيدليون، ولا بقالون، ويتداوون من الأمراض بالحمية، أو بكي العضو المصاب، فليس هناك إذن سوى بعض الحلاقين لختن الأطفال وحلق الشعر. ورغم كونهم جميعاً مسلمين، فإنهم لا يعرفون مَن هو محمد (عليه السلام) وما هي شريعته، لكنهم يعملون ويقولون دائماً ما يسمعون من أقوال الفقهاء وما يشاهدون من أعمالهم. ولباسهم العادي نوع من ثياب الصوف الغير الملبد يلتوون بها، وهي لا تقل خشونة عن غطاء الفراش إلا بقليل، لكنهم يضعون على جلدهم إزاراً من نفس الثوب يغطيهم من الحزام إلى نصف الساق، ولا يضعون على رؤوسهم قبعات ولا طاقيات وإنما يلفون عليها عمامات من صوف عرضها نحو نصف قدم، يلفونها خمس مرات أو ست حول رؤوسهم، كعمائم، وأجملها ما كان من قماش القطن المُعْلَم بالحمرة، مع جديلات تتدلى من الجانبين على شكل هدب أو قزعة. ويتميز الفقهاء بقلنسوات حمر تُحمل إليهم من طليطلة وقرطبة، أو بعمائم صغيرة من القماش الغليظ. لا يرتدون القميص أبدا، لانعدام الكتان عندهم، وإن استطاع أحدهم أن يكسبه فإنهم يستحسنونه كثيراً، إذ لا يملكه إلا النبلاء الذين سبق لهم أن عاشوا في بلاط الملك، أو النساء الظريفات اللائي يستوردنه من مراكش أو آسفي. كما أنهم يرتدون شبه قميص من نسيج مصنوع من صوف خشن[5]. ويحلق الشبان رؤوسهم

(4) هو ريت أركَان.
(5) هكيفة (؟).

ولحاهم إلى أن يتزوجوا، وعندئذ يُعفون شعر اللحية ويتركون ذؤابة في أعلى رأسهم، سيعرف بها المسلمون يوم القيامة[6] حسب قول العرب. وأما سكان المدن، فلباسهم أكثر تحضراً إذ يرتدون صدريات من نسيج الملف الملون ذات أذيال عريضة، ونصف أكمام ذات أزرار كبيرة من قُدام، يلبسون فوقها شبه قميص أكثر رشاقة شيئاً ما.

وللنساء سترات أو عباءات، يسمينها (حُيَّاك) وهي شبيهة بالسترات التي يرتديها الأتراك أو المغاربة فوق ثيابهم، ولو أنها أقل لطافة، وشبه قمصان من القماش طويلة وعريضة جدا. وتتدثر النساء النبيلات داخل المنازل بقماش مخطط بالحرير مربوط في صدورهن بمشبك من الفضة أو الصفر، على غرار الإبزيمات التي تجعل على صدر الحصان، لكنهن يحملن في أذرعهن أساور كبيرة من فضة، وخلاخل ضخمة فوق كعاب أرجلهن. واللواتي لا يستطعن أن يقتنين هذه الحُلِي من فضة، يتحلين بها من حديد أو صفر، كما أنهن يعلقن بآذانهن ثلاثة أقراط أو أربعة من ذهب أو فضة أو حديد، كل واحدة حسب وضعيتها، تنظم فيها حبات من زجاج ملون، مبثوثة فيها لآلىء صغيرة.

والفُرُش العادية للنبلاء هي تلك البُسط ذات الشعر الطويل التي ترى هنا وتاتي من افريقيا، يضعونها تحتهم بعد أن يطووها عدة طيات، تاركين قسماً كبيراً منها متدلياً يستعملونه كغطاء، ويتخذون (الحياك) عوض أغطية السرير. وفي رأس السرير وسادات طويلة ضيقة مصنوعة من صوف أو من قماش غليظ. وليس للعامة سرير سوى حصير من أسل، أو جلود الضأن أو الماعز، ويتغطون بقمصان أو سترات.

النساء جميلات، بشراتهن ناعمة بيضاء، والرجال أقوياء شديدو الغيرة، يلجؤون إلى العنف والبطش إذا رأو منهن خيانة، لأنهن ميالات إلى الغرام بطبعهن. وطعامهم المعتاد في الغالب دقيق الشعير الذي يعالجونه بكيفيتين : يصنع منه بعضهم رغيفاً يخبز في الفرن، كما في أوربا، ويصنع منه آخرون فطائر خفيفة جدا تطهى بالنار على آنية من خزف أو على بقايا جرار مكسورة، فتؤكل هكذا ساخنة بالسمن أو العسل، أو بذلك الزيت الذي ذكرنا، وأحياناً بلحوم الماعز المطبوخة المقطعة، إذ ليس عندهم بقر، والغنم نادر جداً يصعب رعيه في هذه الجبال. ولهم

---

(6) أو فقط يجب أن يعرفوا بها.

أطعمة أخرى عادية أكثر، كالعصيدة التي تصنع بقطعة من العجين المطبوخ بالماء والملح، يصب هذا الماء وهذا العجين المطبوخ في إناء من خزف ثم يجعل ثقب في الوسط ويملأ سمناً أو زيتاً، ذلك هو المرق الذي تغمس فيه الأطراف، ثم يشرب عندما يكون الجميع قد أكل. وهناك أيضاً الحلوى(7) المصنوعة من دقيق الشعير المطبوخ في اللبن أو الزبد الطري، يأكلونها بنفس الكيفية. لكن الطعام الذي يتناوله الأفارقة والعرب بكثرة هو الكسكسو. ياكلون لحم الماعز أو النعجة أكثر مما ياكلون لحم الضأن أو البقر، لأنهم يقولون إنه مريء أكثر، لكنني أظن أن سبب ذلك هو أنه أرخص ثمناً. ولهم كمية كبيرة من البيض، فالدجاجة لا تساوي إلا ثمانية أو عشرة مرابطي(8)، ومجموعة اثنتي عشر بيضة تساوي حوالي نصف ذلك الثمن. وإذا أرادوا الأكل، جلسوا على الأرض، نساء ورجالاً. وإذا وضعت القصعة وسطهم، أخذ كل واحد منها بيده مما يليه أعني اليد اليمنى، معتقدين أن الأكل باليسرى خطيئة قاتلة لأنهم يستعملونها عندما يستنجون، ولا يسمح لهم دينهم أن ياكلوا بالملاعق(9) وإذا ما انتهوا من الأكل لحسوا أصابعهم، وفركوا أيديهم الواحدة بالأخرى، أو حول السواعد، وهكذا ينشفون أيديهم، لأنهم لا يستعملون سماطات ولا فوطاً ولا حتى مناديل. وعندما يغسلون أيديهم لا يمسحونها، وإنما يتركونها في الهواء حتى تجف. وهم غلاظ لدرجة أنهم، رغم الجداول الكثيرة التي تسيل من الجبال إلى الشعاب ويمكنهم أن يجعلوا عليها طاحونات، يكلفون نساءهم بطحن ما يحتاجون إليه يومياً من الدقيق بسواعدهن في أرحاء صغيرة من حجر تُدار بيد واحدة. وليس عندهم صابون، ولا يعرفون ما هو، لكنهم يغسلون ثيابهم بنوع من النبات يسمونه غاسول(10).

هذا الإقليم كله كثير السكان، يحتوي على قرى كبيرة ومدن ضخمة، يعمرها قوم مشاغبون، كانوا يتحاربون دائماً قبل قيام إمبراطورية الشرفاء، لأنهم يعيشون حسب أهوائهم، لا يراعون فيما بينهم شريعة ولا عدالة، غير قابلين تحمُّل أية سلطة تقمعهم. سلاحهم سلاح قوم متوحشين، يحملون في أيديهم ثلاثة سهام

(7) نوع من العجين المبرم، لا أعلم هل يكون ما يسمى في شامبانيا «بتورتولي» وهو عجين خفيف جدا مطبوخ في الماء أو اللبن.

(8) يساوي المرابطي نحو (الدويلي) الواحد.

(9) من المعلوم أن الاسلام لا يحرم هذا (مترجم).

(10) الغاسول طين معروف يعالج ويعطر فتغسل به النساء شعورهن. والنبات الذي تغسل به الثياب والصوف يدعى «تيغشت» (مترجم).

أو أربعة، رؤوسها فولاذية حادة قاطعة، وخناجر مقوسة على شكل المنجل، تقطع من الداخل، وأسنَّتها في غاية الدقة والحدة. ويتخذون مقلاعين أو ثلاثة يتوشحون بها، ولا يعرفون البندقيات والقذافات الا منذ بضع سنوات، عندما كانوا مضطرين إلى مساعدة الشريف في حروبه. وقد تدرب بعضهم عليها، وامتلكوا شيئاً منها، لكن بترتيب سيِّىء. كما أن لهم قليلا من الخيل، مع أنها قصيرة، فهي خفيفة لدرجة أنها تتسلق الجبال كالماعز ولو كانت غير مصفحة. يحمل فرسانهم رماحا مع درق صغيرة من جلد، وسكاكين على شكل خناجر، ولهم سروج ذات ركابات قصيرة(11) لعدم وجود غيرها في إفريقيا كلها، يحاربون وهو متفرقون، يهجم كل واحد حيثما شاء، ويلتحقون دائماً بأعلى الجبال وأصعب المسالك، فيقذفون منها بالحجر والحصى التي تزعج الصاعدين وتضايقهم، يهاجمون بصرخات هائلة، بحيث يُظن أنهم كثيرو العدد، ويفزع أحياناً مَن لا يعرفونهم. وحيث إن البلاد وعرة صعبة، وليس لهم بغال ولا بقر، فإنهم يحرثون أراضيهم بالحمير التي هي قوية وإن كانت قصيرة. وتوجد في جميع الاقليم كمية وافرة من وحش الأيل، واليحمور والخنزير البري، وأكبر الأرانب في بلاد البربر كلها. ذلك كل ما يمكن أن يقال باختصار عن أخلاق أهل حاحا وطرق معيشتهم، وسائر شعوب بلاد البربر الذين يعيشون في الجبال بصفة عامة، لأن الفرق بينهم قليل، وإن كان منهم من هم أكثر توحشاً، كما سنرى ذلك في الوصف الذي سنخصصه لهم.

الفصل الثالث

تَدْنِسْتْ

أهم مدينة بإقليم حاحا، أسسها الأفارقة القدامى من قبيلة مصمودة، وهي مسيدة في مد حل سهل جميل ينيف عدد مساكنها على ثلاثة آلاف(12)، أسوارها من خشب وآجر ملصق بالجص يجعلها حواجز قوية جداً، والدور مبنية بنفس الطريقة، ويكتنفها نهر لا يبعد منبعه كثيراً من هناك، ضفافه مليئة بالأشجار المثمرة وبكل أنواع الخضر. معظم السكان رعاة وحارثون، يذهبون إلى العمل في الحقول ويسوقون إليها قطعان مواشيهم. وهناك أيضاً بعض الحرفيين كالإسكافيين،

(11) وهي سروج تطرز

(12) ذكر الحسن الوزان (98:1) أن في تدنست خمسمائة كانون فأكثر (مترجم).

والخياطين، والحدادين، والنجارين وعدد من الصاغة اليهود، والتجار الذين لا يبيعون سوى أقمشة خشنة مصنوعة في البلاد، أو يتجرون في أقمشة مستوردة من آسفي، حيث ياتي بها النصارى فيستبدلون بها الشمع والجلود. إن تحضّر هذه المدينة أقل مما هو عليه في سائر مدن بلاد البربر، إذ لا توجد بها حمامات، ولا فنادق، ولا مستشفيات، ولا مدارس. فإذا جاء غريب إليها ولم يكن له صديق يستضيفه اتصل بالحاكم والأعيان فسلموا له بالقرعة بطاقة لإيوائه وإطعامه مجاناً عند أحد أعيان البلد، فيمتثل هذا الأخير عن طيب خاطر، لأنهم كرماء جداً وخاصة تجاه الأجانب، ويعتبرون من الإهانة أن يُقدَّم لهم مالٌ في مقابل ذلك. وهناك ملجأ للفقراء من أبناء السبيل يطعمون فيه يومياً من صدقات الخواص. وفي وسط المدينة مسجد كبير بناه يعقوب بن يوسف، ملك المغرب، من المرابطين[13] لكن هناك أيضاً مساجد أخرى أصغر لها كلّها مواردها الخاصة، سواء لصيانة البناء أو (لأجور) الفقهاء. وتوجد أكثر من مائتي دار لليهود في حي منعزل، يعيشون فيه وفق شريعتهم، ويؤدون للعامل مثقالا عن كل رأس، فضلا عن الجبايات الاستثنائية التي يؤدي بموجبها كل واحد أكثر مما يؤديه عشرة من أغنى سكان المدينة، ومع ذلك فلا يسمح لهم بأن يملكوا منازل ولا تراثاً ولا أي عقار آخر مهما كان. وقد دمرت هذه المدينة عدة مرات، وخاصة عندما استولى الموحدون على المملكة المغربية، وحاصرها عبد المومن لأنها لما امتنعت عن الاستسلام ودخلها عنوة أوقع بها حتى أصبحت لا تصلح بعد إلا كمأوى للوحوش. ولكن نظراً لكون البلاد خصبة ولطيفة، أُعيد فوراً بناؤها وتعميرها. وأضحت منذ أربعين سنة مشهورة جدا بفضل الشرفاء. لأنها إحدى المدن الأولى التي نصرتهم. وسنذكر في الوقت المناسب، كيف استولى عليها ملك البرتغال واحتفظ بها بعض الوقت، وكيف استرجعها الشرفاء[14].

وفي سنة 1514 عندما استولى الشريف محمد وابناه اللذان كانا ملكين بالمنطقة الطنجية على إقليم حاحا، اتخذ الأب مدينة تدنيست دار مقام له، وشيد بها قصراً فخماً محاطاً بعدة بساتين وخزانات الماء للسقي وكان هذا القصر بمثابة حصنه ضد نصارى آسفي وأزمور، الذين كانوا يجوبون كل هذه الأقاليم بقيادة

(13) يعقوب بن يوسف من ملوك الموحدين لا المرابطين ولم يعين الحسن الوزان باني الجامع وإنما قال إنه «عتيق شيد في الوقت الذي كانت البلاد خاضعة لسلطة ملوك مراكش». (مترجم).

(14) كا أن نونيو فرنانديس دي إطايدي، قائد جيش ملك البرتغال، أخذ مدينة تدنست من أيدي المغاربة.

رئيس افريقي[15] من أتباع ملك البرتغال، كان تحت سيطرته جلّ أعراب الغرب والأفارقة الأهلون، وربما كان معه خمسة آلاف فارس ومائة ألف راجل. وكان عدوا لدودا للشرفاء وصديقاً حميماً لفارس برتغالي يحكم أسفي ويدعى نونيو فيرنانديس ديطايدي، من أشجع قادة بلاد البربر في وقته. وعندما علم هذان القائدان بوجود الشريف في مدينة تدنست مع ابنيه، ونخبة من جنوده، عزما على محاصرته أو قتاله إذا خرج منها حتى يقضيا على تأثيره وسمعته. فصحبا معهما أربعمائة فارس مسيحي، وثلاثة آلاف فارس مغربي، وثمانمائة راجل من أعراب دكالة، وزحفا على تدنست، لكن ذلك لم يقع بطريقة سرية حتى لا يعلم الشريف بها، فخرج فوراً للقائهما في أربعة آلاف فارس. ولما كان في سهل مكشوف، على بعد أربعة فراسخ من تدنست وثمانية عشر فرسخاً من آسفي، التقى بالطليعة التي كان يقودها الرئيس الافريقي الآنف الذكر، فحاربه ولو أن الوقت كان متأخراً، لكنه غُلب قبل أن يصل نونيو فيرنانديس مع مؤخرة الجيش، وطورد حتى أظلم الليل وتحمل خسارة عظيمة. وتدخل المسيحيون فاستولوا على أكثر من مائتي أسير، وقتل في المعركة ثمانمائة رجل من الأعداء، ولم يفقد القائد الإفريقي سوى مائة واثني عشر رجلا، ولم يهلك من النصارى أحد. كانت الغنيمة ضخمة تشتمل على أزيد من ثلاثمائة ألف رأس من الماشية الكبيرة (البقر) والماشية الصغيرة (الغنم) مع كمية من الخيل والإبل والبغال بعد أن فرّ الشريف بسرعة مع ابنيه. وعلى إثر هذا الانتصار، تقدم المنتصرون إلى مدينة تدنست واستولوا عليها بدون مقاومة، لأن الشريف لم يكن مستعداً لتحمل الحصار، ولأن معظم السكان انسحبوا مثله إلى الجبال. فاقام بها نونيو فرينانديس بعض الوقت، وهو يتفاوض مع أهل الناحية الذين كانوا ياتون مستسلمين اليه. وفي هذه الاثناء، وصل دوم يوحنا دي مينيسيس حاكم أزمور في ستمائة فارس وألف راجل ليشارك في العملية، فنهبوا جميعا أراضي المغاربة الذين رفضوا التفاوض، وتراجعوا هم وحلفاؤهم، بعد أن أسروا وقتلوا عدداً كبيراً من المغاربة. وهكذا فإن تدنست وعدة أماكن من الناحية بقيت في يد ملك البرتغال حتى أعد الشريف جيشاً أغار به على المدينة فأصبحت منذ ذلك الوقت في ملكه أو في ملك ابنيه. كما هي عليه اليوم.

---

(15) هو يحيى بن تعفوفت.

الفصل الرابع

أكَوبيل

هي مدينة صغيرة، لكنها محصنة، أسسها وعمّرها أفارقة من قبيلة مصمودة، تقع على جبل عال في موقع ملائم جدا، لكنها لا تحتوي إلا على ثلاثمائة دار مبنية بطريقة غير مناسبة. وفي السفح واد كبير توجد به الأراضي الصالحة للحرث، مع حدائق وبساتين تسقى من ماء نهر صغير، تكونه عيون تنحدر من الجبل. وقد ارتبطت هذه المدينة دائماً بمصير تدنست، فملكها الشريف العجوز الذي لم يتخذ قط سوى لقب أمير حاحا، وبعد أن استولى حاكم أسفي على مدينة تدنست كما ذكرناه آنفاً أرسل لمهاجمتها لوبي باريكًا مع مائة وعشرين من المسلحين المسيحيين، وثمانمائة من حلفائه المغاربة، فأخذها بعد أن تسورها أثناء الهجيرة، صعد هو الأول على السور على طول رمحه، ثم تناول درعه وشهر سيفه وفتح الطريق للآخرين، وهو يقتل أو يجرح طائفة من الذين تصدوا له. وأخيراً وبفضل شجاعته التي أثارت إعجاب أصحابه، والفزع الذي أثاره في الأعداء، هزم المغاربة واستولى المسيحيون على الحصن. وأسروا نحو مائة وعشرين رجلا، بينما لاذ الباقون بالفرار أثناء الهجوم، فأحرق الدور حتى اشتعلت المدينة كلها، وعاد منتصراً إلى أسفي حاملا معه غنيمة كبيرة. وبقيت المدينة خالية من السكان لمدّة طويلة خوفاً من المسيحيين إلى أن عمرها الشرفاء من جديد وأقاموا بها حامية.

الفصل الخامس

الكَيل

هذه المدينة محتطا بالاسوار، ومشيدة مثل السابقة على جبل وعر المسالك، تجاوره جبال أخرى أكثر وعورة، ولذلك أسستها نفس القبائل. يسيل في السفح جدولان صغيران ينحدران من الجبال المجاورة، وتوجد بالأراضي المحيطة بالمدينة بساتين فيها أشجار التين والجوز والكرم. يسكنها فلاحون مع قوم آخرين من البدو يربّون عدداً لا يحصى من الماعز، ويكسبون منها أكبر ثرواتهم. ولما كان نونيو فرينانديس بأسفي، كانت مدينة الكَيل في ملك مغربي[16] من قبيلة مصمودة كان

---

(16) سيدي برجمعة.

حليفا لملك البرتغال عدواً للشرفاء. لكن هؤلاء أثّروا على السكان قائلين لهم إنه لا ينبغي لهم أن يعترفوا بالإمارة لأحد أتباع ملك البرتغال الذي يحمي المسيحيين ويساعدهم ضد المسلمين، إلى أن سلّموا إليهم المدينة، فاتخذوها مقراً لهم منذ مدة من الزمان، إذ كانوا غير آمنين في مدينة تدنست، مجنِّدين رجالهم على الحدود لمقاومة المسيحيين الذين كانوا يغيرون على الأراضي المجاورة بصحبة حلفائهم، فكانوا يخربون أحياناً المدن والقرى التابعة لرعايا ملك البرتغال. ولما كان نونيو فيرنانديس يتلقى يومياً شكايات سواء من المسيحيين أو من حلفائهم، وعلم بوجود الشرفاء في الحصن، عزم على محاصرته[17] فخرج من أسفي مصحوباً بالأمراء والأعراب المذكورين[18] لكن خطته لم تفلح، لأنه بعد أن قطع أكثر من نصف الطريق، عاد إلى أسفي، إذ أخبر بأن الشريف أحمد الذي بلغه خبر قدومه خرج من المدينة مع جميع محاربيه تاركاً بها أخاه محمداً مع عشرين فارساً فقط. بعد أن أمرهم بأن ينسحبوا إلى سوس عند اقتراب المسيحيين منهم، إلا أنه عندما كان راجعاً آسفاً لكونه لم يستطع القيام بأي شيء، أرسل لوبي باريكًا للهجوم على مائة بير، وهي مدينة صغيرة بجانب الطريق، التجأ إليها عدد كبير من أهل البلاد والأعراب التابعين للشرفاء. هذه المدينة مشيدة في مكان ملائم وعر، فيه عدة منازل منحوتة في الصخر. وحيث ان المغاربة دافعوا جيداً عن أنفسهم فإن لوبي باريكًا لم يحرز على نفس الانتصار كذي قبل، واضطر الى الانسحاب متكبداً خسارة كبيرة، راجعاً إلى نونيو فرناندس في اضطراب، وعادا بمشقة عظيمة إلى أسفي، بسبب ما تكبداه من الخسائر. وبعد ثلاثة أيام علم نونيو فيرنانديس برجوع الشريف إلى الكَيل بجيوشه، فأمر لوبي باريكًا بأن يذهب لمحاصرته فيها، برفقة بعض حلفائه المقيمين بأسفي، ومائة وثلاثين من المسلحين المسيحيين، وأمره أيضاً بأن يستولي في طريقه على المدينة التي غلب فيها قبل حين. وأعطاه فضلاً عن هؤلاء القوم، مائة من الرماة الراجلين البرتغاليين، وثمانمائة فارس من الغربية، وأربعمائة جندي وبعض الأهالي من أتباع سيدي بوجمعة. ولما صارت هذه الجنود كلها على مقربة من مائة بير، عسكر بها معتزماً مداهمتها عند حلول المساء، لكن فيما هو يستشير رجاله حول وسائل الهجوم، سمع الحرس ضجيجاً أحدثه قوم يفرون من أعلى الجبل إلى أسفله، فأمر فوراً بالركوب على الخيل بواسطة البوق،

---

17) سنة 1516.

18) يحيى بن تعفوفت وسيدي بوجمعة.

وذهب مع المسلحين المسيحيين للاطلاع على جلية الأمر تاركاً باقي الجيش لسيدي بوجمعة، ولما وصل إلى سفح الجبل تبين له أنهم من رعايا الشريف قدموا ليتفاوضوا مع رهط يحيى، واضطروا الى الفرار لأن مائة من فرسان الشريف كانوا يطاردونهم لينهبوهم، فحمل لوبي باريكا حيناً على هؤلاء الفرسان وهزمهم بعد قتال طويل، وطاردهم مسافة تزيد على ثلاثة فراسخ الى الكَيل ممعناً في قتلهم وجرحهم. لكن أهل المدينة حين رأوهم قادمين هكذا في اضطراب، خرجوا بكثرة لنجدتهم، فداروا معهم، وطوقوا من كانوا قريبين منهم وقتلوا منهم خمسة عشر في الحين وأخذ لوبي باريكا أسيرا بعد أن جرح ومات فرسه تحته، ولولا وجود بعض المغاربة المتحالفين مع المسيحيين وإغاثتهم إياهم لَمُزّقوا عن آخرهم. وقد قام لوبي ذلك اليوم بأمور خارقة للعادة، إذ رغم أنه جُرح وأسر، نزع الرمح من يد أحد المغاربة الذين كانوا يسوقونه فقتله وأجلى الآخرين، ثم امتطى فرس المغربي ولاذ بالفرار بمعونة بعض رجاله الذين أسرعوا إليه، فجمع شتاتهم وانضم إلى بوجمعة. وفي يوم الغد قصد الكَيل مع جميع رجاله، دون أن يخاطر بمهاجمة مائة بير، ونهب في طريقه بعض الضيعات الصغيرة، ثم أمر بنصب أخبئته على مقربة من المدينة. وانتظر هنالك ثلاثة أيام ليرى هل سيخرج الشرفاء حتى يتحقق من عدد محاربيهم. وأخيرا خرج منهم مائتا فارس فحاربهم إلى أن أرغموا على الانسحاب إلى المدينة وإغلاق الأبواب بعد أن فقدوا ثمانية من كبرائهم، وخمسة وعشرين فارساً، دون أن يقتل أي مسيحي. وفي اليوم التالي تقدم لوبي فعسكر

قرب الحصن لدرجة أنه لم يبق بينهما سوى جبل صغير وجدول ماء. وبما أنه كان عازماً على شن الهجوم، اكتشف الحرس لواء مع بعض الفرسان منحدرين من الجبل، الأمر الذي هرب من أجله حلفاء لوبي ظانّين أنه الشريف. لكن البرتغاليين، وهم بعيدون كل البعد عن أن يقلدوهم، امتطوا خيولهم جميعا، وقاتلوا هؤلاء الفرسان إلى أن حال الليل بينهم. ولما رأى المسيحيون أن حلفاءهم تركوهم، أخذوا الخيام التي خلفوها من شدة الفزع، وانسحبوا بكل ما استطاعوا إلى آسفي. وقد خجل حلفاؤهم كثيراً عندما علموا أن ذلك اللواء إنما هو جماعة من مائة فارس كانوا يصحبون مولاي إدريس الهنتاتي أمير أمماي، وليس الشريف كما توهموا ذلك. وهذه الروايات وإن كانت قليلة الأهمية، فإنه لا يفوتني أن أحكيها حتى أسلي القارىء، وأبين السلطة التي كانت للبرتغاليين إذ ذاك في بلاد البربر، وما كانوا قادرين على إنجازه لو تابعوا غزو إفريقيا.

الفصل السادس

تكَوليت

أسس هذه المدينة كذلك رجال من مصمودة، وهي تضم أكثر من ألف وخمسمائة ساكن.[19] وتقع على منحدر جبل، لها ميناء صغير قريب جدا، وقصر عتيق يسمى أكَوز[20] حيث يوجد مصب الديور[21] الذي يجعله بطليموس على سبع درجات وعشرين دقيقة طولا، وإحدى وثلاثين درجة وأربعين دقيقة عرضا. ليست المدينة محصنة، والأسوار إنما هي من تراب وقد أحدث فيها الزمان ثلمات عديدة. والدور مبنية بنفس الكيفية ودون أي تنسيق. وهناك بعض المباني القديمة المشيدة بالحجر والجير، ومسجد كبير في غاية الجمال من الخارج ومن الداخل، يجتمع فيه معظم الشعب. خرب هذه المدينة عبد المومن الموحدي وبقيت زمنا طويلا خالية. وفي عام الف وخمسمائة وأربعة عشر، نهبها نونيو فيرنانديس مع يحيى بن تعفوفت، وأرسل إلى البرتغال عدداً كبيراً من الرقيق ذكوراً وإناثاً. ثم عمرها الشرفاء من جديد بعد ذلك، وردوا إليها السكان الذين كانوا هربوا إلى الجبال، وقوماً آخرين من شتى الأماكن، ويمر بقربها نهر يحمل نفس الاسم، ويصب في البحر قرب قصر أكَوز وضفتاه مكسوتان بالبساتين والحدائق حيث تكثر أشجار الجوز، والتين والخوخ، والكروم ذات العنب الغليظ الذي قشره في غاية الدقة وطعمه بالغ الجودة. وتوجد في المدينة آبار ماؤها معين بارد ممتاز جداً لدرجة أنهم يفضلونه على ماء النهر[22]. يعامل السكان الغرباءَ معاملة جد حسنة، وهم أغنى من سكان تدنست، لأن البلاد أفضل، وفيها سهول خصبة جدا أسفل المدينة. ويوجد عدد كثير من خلايا النحل على طول منحدر الجبل، يستخرجون منها كمية وافرة من الشمع يبيعونه لتجار أوربا. وفي أحد جوانب المدينة بيعة لليهود يحيط بها أزيد من مائتي دار للتجار والصناع. وهم أغنى من يهود تدنست ويعاملون أحسن منهم. وقلعة المدينة عبارة عن برج عتيق ملتصق بالسور في المكان الأعلى حيث يشرف على المدينة كلها. وهناك، كما هو الشأن في المسجد

---

(19) عند الحسن الوزان (1:100) فيها نحو ألف كانون (مترجم).

(20) هي الصويرة القديمة. انظر كتاب الحسن الوزان، (1:100)، الهامش 4. (مترجم).

(21) يقصد نهر تنسيفت (مترجم).

(22) يجدر القول بأنهم في هذه البلاد يهتمون بماء النهر أكثر مما يهم به هنا.

أيضاً، كان السكان يلجأون عند حدوث الأخطار، وكأنهم يكونون في مأمن ضد القتال باليد.

الفصل السابع
أدِيكِيس (أو حديكيس)

هي مدينة صغيرة محاطة بأسوار شاهقة وأبراج مشيدة بالحير والدبش، يقال إنها أسست من طرف أهل البلاد. وتقع في سهل، على بعد ثلاثة فراسخ[23] من تكوليت جنوباً، وتضم ما يزيد عن ألف دار[24] جيدة البناء، يمر في وسطها نهر صغير ينحدر من تلك الجبال وتحفه بعض الاشجار المثمرة والكروم. ويوجد بأحد أطراف المدينة حي لليهود يشتمل على أزيد من مائة وخمسين داراً، سواء منهم التجار والصناع، وهم أحرار في معتقدهم.

يقام بهذه المدينة كل عام سوق يدوم خمسة عشر يوماً ويقصده جميع الجبليين من الضواحي حاملين معهم الصوف، والسمن، والزيت[25] والشمع والأقمشة الخشنة وأشياء أخرى مماثلة.

ليس في الإقليم مكان فيه نساء أكثر جمالاً وبياضاً وأناقة، أو أكثر ظرفاً ودلالا مما في أدِيكيس. لكنهن يحببن الأجانب كثيراً، وأزواجهن غيورون جداً. ومع أنهم نظيفون حسب طريقتهم، وأن بعضهم يسيرون ممتطين الخيول، إلا أنهم قساة جداً، يتقاتلون لأتفه سبب. احتل نونيو فيرنانديس داطايدي مع يحيى هذه المدينة عنوة سنة **1514**، وأرسل أجمل نساء وجدن منذ عهد طويل إماءً إلى البرتغال، وعمَّرها الشرفاء من بعد ذلك. وسكانها الآن أغنياء شرفاء، لأنهم لم يعودوا مضايقين بغارات المسيحيين منذ أن غادر ملك البرتغال مدينة أسفي، يحرثون ويحصدون بكل اطمئنان. والدليل هو أنه لا وجود لقلعة ولا لأي مبنى حصين في المدينة بكاملها.

---

(23) ثمانية أميال عند الحسن الوزان.
(24) فيها نحو 700 كانون حسب الوزان (مترجم).
(25) زيت أرگان.

الفصل الثامن

إدَاوْ إزْكْواغَن

مدينة حصينة تقع على بعد ثلاثة فراسخ من مدينة أدِيكيس نحو الجنوب. أسسها أهل البلاد، وهي قديمة جداً، وموقعها ملائم حيث شيدت على جبل شاهق يمر في سفحه جدول يصلح كثيراً لفلاحة البساتين، لكن السكان لا يهتمون بذلك لشدة توحشهم. يقتاتون من دقيق الشعير، وزيت أركَان ولحم الماعز. يمشي الرجال والنساء بدون نعال، وبأرجلهم شقوق تصل حتى العظم، يتحاربون دائماً مع جيرانهم ويقتتلون لأتفه الأسباب، بدون قانون ولا عدالة، كمن لا يخشى الله ولا يحب أخاه وإن ادّعوا بأنهم مسلمون، لكن ليس هناك قضاة ولا فقهاء في هذا الجبل كله، حيث توجد بعض القرى المأهولة بنفس الرهط من الناس. تجارتهم عبارة عن العسل والشمع يبيعونها للتجار المسيحيين، وقد كانوا لا يعرفون قيمة الشمع قبل مجيء البرتغاليين فيرمونه. لا شرف لهم ولا معرفة بالإحسان، ولا يفكرون إلا في الانتقام من أعدائهم وقتلهم غدراً إن أمكنهم ذلك، وهي الطريقة المفضلة عندهم. وأخيراً فإنهم أكثر سكان بلاد البربر كلها قسوة وخشونة، ومن لم يقتل اثني عشر أو خمسة عشر رجلاً لا يعتبر شجاعاً. ونظراً لوعورة جبلهم الذي لا يسلك الإنسان فيه إلا راجلاً فإنهم كانوا لا يخشون غارات البرتغاليين. ولذلك ليس لهم خيل ولا بقر ولا ماشية أخرى غير الماعز، وعدد محاربيهم يفوق ثلاثة آلاف، ولو أن المدينة لا تضم أكثر من خمسمائة دار.(26).

الفصل التاسع

تِيُّــوت(27)

مدينة قديمة ذات أسوار من آجر، أسسها أهل البلاد. وقد شيدت في سهل تكتنفه جبال على بعد أربعة فراسخ(28) من إدَاوْإزْكَوَاغَن إلى جهة الغرب.

---

(26) لم يكن بها في عهد الوزان سوى 400 كانون. (مترجم).

(27) كتب في النص الفرنسي: تيشويت.

(28) عشرة أميال عند الوزان.

سكانها أغنياء، ولهم أراض كثيرة يزرعونها شعيراً ويربون فيها الماشية. وتحيط بالمدينة عدة بساتين تنتج كمية كبيرة من الخوخ، والجوز، والتين الذي يجفف. ويعامل السكانُ الأجانبَ معاملة في غاية اللياقة، وتعيش بين ظهرانهم ثلاثون عائلة من الصناع اليهود الذين يتمتعون بكامل الحرية. واستولى البرتغاليون على هذه المدينة سنة 1514 فبعد تدنست ومجيء دوم يوحنا مينيسيِّس حاكم أزمور، التحقوا بمشقة عظيمة بقمة جبل في غاية الوعورة، حتى لا يبصرهم السكان، ومن هناك انقضوا على المدينة، لكن مسيرتهم لم تكن من السرية بحيث لا يشعر بها السكان الذين خرجوا فارين بنسائهم وأولادهم، ومع ذلك أُسر منهم أكثر من خمسين أثناء فرارهم. وأوقد المسيحيون النار في المدينة بعد أن نهبوها، وعادوا إلى الدواوير التي يسكنها يحيى بن تعفوفت، ثم أعيد تعمير المدينة على الفور. ويعيش فيها الناس في هناء أكثر منذ أن غادر البرتغاليون أسفي.

الفصل العاشر

تَسَكْدَلْت

هذه المدينة قديمة جداً، شيَّدها أهل البلاد في رأس جبل شاهق على بعد أربعة فراسخ[29] من تِيُّوت. تكتنفها صخرة وعرة تجعلها منيعة، وتضم أكثر من ألف كانون، ويمر بسفحها نهر تيوت الذي تنمو على ضفافه أشجار عديدة، ومنبع النهر غير بعيد. السكان أغنياء يملكون خيولاً قصيرة لا تصفح أبداً، وتتسلق هذه الصخور كأنها أيول. وقد دافعوا عن أنفسهم بشجاعة الأعرابَ والمسيحيين، أثناء حروب البرتغاليين، بفضل موقعهم الحصين لكن تَعِلَّة الدين جعلتهم يخضعون للشريف الذي اهتم بهم كثيراً بسبب قوة الحصن وشجاعتهم. وهم متحضرون جداً، يقتبلون الأجانب اقتبالا حسناً، ويخدمونهم ويعاملونهم معاملة جيدة. في وسط المدينة مسجد جميل يعمره عدد كثير من الفقهاء الذين يقضون بين الناس في أمور الدنيا والدين. لكن هناك عامل من قبل الشريف يحرس هذا المكان كمفتاح للبلاد، وهو مكلف بجباية موارد الإقليم والسهر على القضاء الذي هو من اختصاصه. يحصل على كمية كبيرة من الشعير، والثمار، والزيت[30] وهنا عدد

(29) على بعد 12 ميلا عند الوزان.

(30) زيت المرجان أو أرگان.

وفير من الماعز، لكن المواشي الاخرى قليلة لأنه يصعب عليهم رعيها في تلك الصخور الوعرة.

الفصل الحادي عشر

تاكْتَسَّة

هي كذلك مدينة قديمة من بناء الأفارقة من قبيلة مصمودة، تقع على قمة جبل وعر لِدَرَجة أنه لا يمكن الصعود إليه إلا بالدوران في مسلك ضيق وعال، حتى إن الصعود يكون في بعض الأماكن بواسطة درج منحوتة. يبعد هذا الحصن عن السابق بخمسة فراسخ[31] في اتجاه الجنوب، وليس فيه ماء سوى نهر يمر في سفح الجبل ويبدو كأنه قريب من المدينة، مع أنها تبعد عنه بأزيد من فرسخين. تنزل إليه النساء وكأنهن يستعملن سلماً ليغسلن ويستقين الماء، لأنها درج صغيرة حفرت بالمطرقة. وهؤلاء السكان أعظم أهل البلاد أَنَفَةً وأكثرُهم سرقةً، لا يعبأون بالمحالفة مع جيرانهم، إذ لا يمكن التسلق إليهم، ما دامت قطعانهم ومزارعهم في أعلى الجبل. وبالتالي فهم قوم محاربون أشداء يقيمون في حصن منيع، ليس لهم خيول لأنهم لا يحتاجون إليها. وكان الشريف يقول إنهم أذاقوه الأمرين أكثر من سائر سكان البلاد، لأنهم كانوا إذ ذاك أحراراً يفرضون الإتاوة على الأعراب المارين من هنالك، أو يسلبونهم.

الفصل الثاني عشر

أيت داود

هذه المدينة قديمة كالسالفتين، شيدها أهل البلاد، على بعد خمسة فراسخ[32] من تاكَتسة في اتجاه الجنوب. تقع في سهل جميل على رأس جبل وعر جدا، ويحيط بها نهران وصخرتان وعرتان. وهناك عدة عيون ماؤها في غاية البرودة،

---

(31) على بعد 14 ميلا عند الوران.

(32) على بعد 15 ميلا عند الوزان.

ينحدر من صخور مكسوة بغابة من شجر الجوز، وأشجار مثمرة أخرى. يقول بعض المؤلفين الأفارقة إن مؤسسها يهودي من قبيلة يهودا، عندما كان دين موسى منتشرا بإفريقيا، واستمر بها إلى مجيء العرب الذين أرغموها على اعتناق الإسلام. وهناك مدارس للصغار والكبار مليئة بفقهاء عارفين بأمور شريعتهم، يقصدها الناس من كل ناحية لفض نزاعاتهم والقيام بالاتصالات والمعاملات. إذ هناك قضاة ومحامون، ووكلاء، وعدول موثقون. أرضها هزيلة جداً، لا تنتج القمح أبداً، بحيث إنهم يعيشون بدقيق الشعير ولحم الماعز. وإذا قُدِم لهم الضأن ودقيق البر اعتبروا ذلك وليمة. النساء هناك جميلات بيض ناعمات البشرة، الأمر الذي جعل أزواجهن غيورين جدا. والرجال يقظون أقوياء، يتعاملون بصراحة وسخاء. يمتطي الفقهاء متون الخيل التي يأتون بها من مكان آخر لعدم وجودها في البلاد. وهناك تجار وصناع من اليهود يقطنون في حي منعزل، وبعض الصباغين للأقمشة المصنوعة في البلاد. يعامل الشرفاء هذه المدينة معاملة جيدة لأنها انحازت إليهم في بداية أمرهم، وساعدت على إقامة دولتهم.

الفصل الثالث عشر

قليعة المريدين

تقع على بعد ستة فراسخ[33] من المدينة التي تحدثنا عنها منذ قليل، في اتجاه الشمال، وهي عبارة عن حصن منيع على جبل شاهق تحيط به جبال أخرى، ويصعد إليه عبر مسلك ضيق وعر جداً، ينطلق وهو يدور، ولا منفذ آخر له من جهة الشمال. وإنما ينفذون إليه من الجنوب عبر جبل تَسكدَلت الذي يمتد إلى مسافة نصف فرسخ. شيِّد هذه المدينة منذ مائة سنة مغربي من تسكَدلت يدعى عمرواً[34]. فاشتهر بتدينه إلى أن استولى بمساعدة شيعته على الإقليم تقريباً، وبنى هذه المدينة لتكون ملجأ لهم ينطلقون منها للقيام بدعوتهم الجديدة، لكن امرأته قتلته في السنة الثانية عشرة، لأنها وجدته يداعب بنتاً كانت لها من زوجها الأول. وعند انتشار هذا الخبر، أخذ الشعب السلاح، وقتل جميع مريديه باعتبارهم

---

(33) على بعد 18 ميلا عند الوزان. (مترجم)

(34) انظر الحسن الوزان، وصف افريقيا ــ الطبعة الثانية ــ (107:1) والهامش 11 (مترجم).

مخادعين. ولم يبق سوى أحد أحفاده الذي تحصن في هذه المدينة وحماها ضد كل سكان الإقليم الذين حاصروها طوال سنة، وبذلك بقي يحكمها. وخلفه في ذلك أحد أبنائه من بعده إلى أن فتح الشرفاء هذا الإقليم، فتفاوض معهم هذا الحفيد وسلمها إليهم، لأنه كان من المستحيل إرغامه، نظراً لمناعة المدينة ووعورة الصخور المحيطة بها. سكانها بربر من أهل البلاد يملكون كمية وافرة من الماعز، وقليلا من غيرها من المواشي، بحيث إن شغلهم الشاغل هو نهب المارة، الأمر الذي من أجله كان أمير المنطقة يستأجر بعض الرماة والفرسان. وكان سلوكهم هذا مثار غضب سائر الأفارقة والأعراب، إلى حدٍّ أنهم كانوا يقتلونهم ويحرقونهم حيث وجدوهم، ويجتاحون ضواحي مدينتهم حتى إنهم لم يكونوا يتجرّأون على الزراعة ولا على رعي قطعانهم في السهل. يوجد ضريح هذا الماكر داخل المدينة حيث أسس حفيده موسماً ما زال العمل جارياً به حتى الآن، ولشدة جهالة هؤلاء القوم، يتعبدون في ضريح رجل قُتل من أجل رذائله ويقدسون رفاته.

الفصل الرابع عشر

إيغيلينْغيغيل

موقع هذه المدينة ملائم، على بعد فرسخين(35) من أيت داود في اتجاه الجنوب، شيدها أهل البلاد على قمة جبل وعر بحيث لا يسلك إليها على دابة إلا بمشقة عظمت. يوجد فيها كثير من الصناع، حتى إن جميع أفارقة هذه الجبال ياتون إليها لشراء الأحذية والأقفال وسائر ما يحتاجون إليه. هؤلاء القوم شجعان يعتزون ببطولتهم، ولذلك كانوا يعيشون أحراراً قبل أن يستولي الشرفاء على الإقليم، ويحاربون باستمرار الأعراب الذين كانوا تابعين لملك البرتغال فلا يستفيدون منه شئاً، لا سيما عندما كانوا يشنون الغارات على جبلهم الشاهق الذي يستطيع رجل واحد أن يحارب فيه ألف رجل في بعض المسالك. وتُصنع بها عدة أوان من خشب في غاية الحسن تباع في شتى الأماكن، وتصلح سواء للشرب أو لسائر الأشغال المنزلية. ذلك لأنها تروق جدا النبلاء المسلمين الذين لا يشربون في أقداح من الذهب أو الفضة أو الزجاج لأنها محرمة عليهم. وفي الجبل كله كمية وافرة من خلايا النحل يستخرج منها كثير من العسل والشمع فيباع للتجار المسيحيين.

---

(35) تبعد نحو 6 أميال عند الوزان. (مترجم)

الفصل الخامس عشر

تَفَتْنَة

هذه مدينة صغيرة تقع على شاطىء المحيط، في طرف الرأس الذي يكوِّنه جبل الاطلس. وهي على بعد أربعة عشر فرسخاً(36) من المدينة السابقة إلى جهة الغرب، ولها ميناء جيد ترسو فيه المراكب الصغيرة وينزل إليه التجار الأوربيون. كان يدعى قديماً ميناء هرقل، ويضعه بطليموس في الدرجة السابعة وثلاثين دقيقة طولا، والدرجة الثلاثين عرضاً. أسس هذه المدينة أهل البلاد، وأسوارها وبروجها من الآجر والحجر المنحوت. يجري قريباً منها نهر يصب في البحر، وهناك تحتمي المراكب أثناء هبوب العواصف في البحر. وهي مطوقة بجبال شاهقة، ترعى فيها قطعان الماشية، ويزرع الشعير. كانت في القديم جمهورية بها جمرك يأخذ عشرة في المائة عن كل البضائع الداخلة والخارجة منها، وتشحن منها كمية من الشمع، والجلود، والنيلة، لصباغة الصوف، فكان في ذلك وفاء بحاجيات الحامية. وهي الآن في قبضة الشريف الذي نصب بها عاملا مع بعض رماة البنادق. والسكان شديدو بياض البشرة يكنون صداقة كبيرة للأجانب ويكرمونهم أكثر من أهل البلاد، ويسكنونهم في منازل ويعاملونهم بسخاء، ولا تضم المدينة أكثر من سبعمائة كانون. وفيها كمية وافرة من الماعز ومحلات كثيرة لخلايا النحل.

الفصل السادس عشر

أماكور

تضم هذه المدينة ثمانمائة كانون، فقد شيدها أفارقة قدامى من قبيلة مصمودة، على جبل عال وعر جدا، تحيط به صخرتان عظيمتان ونهران كبيران. يوجد بها حصن طبيعي حوله عدة قرى، ويسكنها نفس القوم، لأن الجبل في غاية الامتداد. يحصد السكان كمية وفيرة من الشعير، ويملكون عددا كبيرا من الماعز وبعض الخيل، لكنهم قوم متوحشون سفهاء، وهم أول من استمالهم الشرفاء

---

(36) على بعد 40 ميلا عند الوزان. (مترجم)

بتأنيباتهم، بحيث إنهم أقاموا بها منازلهم مدة من الزمان لكنهم تعرضوا فيها لنهب المسيحيين، كما سنذكر ذلك. وفعلا فإن نونيو فرنانديس حاكم أسفي، عندما علم، عام ألف وخمسمائة، أن الشريف مولاي أحمد مقيم هنالك منذ مدة مع جنوده، أمر خليفته لوبي باريكا، الذي تعاهد منذ قليل هو وحاكم أزمور مع بعض الأعراب والبربر الذين أصبحوا من أتباع ملك البرتغال. أقول أمره بمهاجمة هذا الحصن وبأن يحاول التمكن من هذا المغربي الذي يقلق البلاد. ونظراً لقلة الجند الذين كانوا مع لوبي باريكا فإنه أوفد إليه ابن أخيه مينديس سيرفيرا مع بعض الفرسان والرجالة، فنهض بهذا الجند مع أعراب بادية موراديس، ليس معه في المجموع سوى مائتين من فرسان البرتغاليين، وخمسين من الرماة الراجلين، مع ألف فارس من الأعراب بقيادة شيخهم سيدي بوجمعة فخرج من الدواوير، أو مساكن أولاد الشياظمة، ووصل الى تازمور وما وراءها إلى قرية فسيفيز، على بعد فرسخ واحد من تفتنة، وثمانية فراسخ من قصر سانت ـــ كروا براس إكير. لكنه وجد هذه الأماكن خالية من السكان، فذهب للتخييم أمام اماكور حيث وصل قبل ساعتين من حلول الليل. فخرج منها بعض الفرسان الذين ناوشوا أعراب سيدي بوجمعة وحاربوا ببسالة حتى إن لوبي باريكا اضطر إلى نجدتهم، فأرغم المغاربة على الانسحاب. ولشدة تخوفهم من النصارى هموا بمغادرة المدينة والفرار إلى الجبال، لولا أن الشريف دافع عنها معرضاً حياته للخطر فكان ذلك سبباً في هلاكهم. إذ أنه ما إن خرج ليلا مع جنوده حتى تبعه جلهم، لأنهم رأوا أنفسهم بدون وسائل الدفاع. ولما علم لوبي باريكا بذلك أسرع اليهم، وهزم بعض الفرسان الذين صادفهم ومائتي راجل كان الشريف قد تركهم لمساعدته على الانسحاب، وطارد الهاربين. وفي هذه الأثناء، عندما شاهد السكان انتصار المسيحيين ارتموا إلى أسفل الاسوار ليلوذوا بالفرار، وانحدروا عبر بعض الهوات الواقعة جهة الجنوب، لكن بتسرع واضطراب حتى هلك منهم أزيد من ثمانمائة شخص. فتسلق المسيحيون السور على رماحهم، وبعد أن هزموا نحو مائتي مقاتل كانوا قد تصلدوا لهم، نهبوا المدينة وحصلوا على غنيمة كبيرة، إذ كان بها كل أمتعة السكان، وعُثر يوم الغد في هذه الهوات التي التي فر منها القوم على عدة نساء وأطفال معلقين بالأشجار وبين الصخور، وعدد كبير من الخيول الميتة وهي مسرجة وملجمة، قذف بها العدو عمداً لئلا يستعملها المسيحيون. ونجا الشريف ذلك اليوم بفضل خفة فرس مغربي كان يمتطيه. وكان يقول، وهو ملك مراكش، إنه لم يجد نفسه قط في خطر أكبر من ذلك، وإن

المسيحيين لو اقتفوا أثره بدلا من أن يدخلوا المدينة لهلك، لأنه ضل بين صخور في واد مكث به أربع ساعات، واضطر في الأخير إلى الخروج من حيث دخل. وفي هذه الأثناء، مر بعض المغاربة المتحالفين مع البرتغاليين، فتبعوه على مسافة تفوق فرسخا كبيرا، لكن فرسه كان سريعا يستحيل اللحاق به، إلا بالتوغل بين الصخور.

وقد استولى المسيحيون على أربعمائة أسير من بينهم عم الشريف الذي كان خليفة له بالمدينة، وأخذوا له طبوله مع مائة وأربعة وثمانين فرساً مسرجة ملجمة، وعدد من الأثاث؛ فحمل المسيحيون كل ذلك معهم إلى أسفي، وكانت حصة حلفائهم المغاربة من الغنيمة عدداً من قطعان الماشية مع كمية وافرة من المواد الغذائية[37] ودام نهب المدينة ثلاثة أيام، عاد بعدها المغاربة إلى مساكنهم، والمسيحيون الى أسفي وأزمور، حيث اقتبلوا بحفاوة كبيرة. ونظرا لعدم وجود أية مدينة أخرى في هذا الإقليم غير التي ذكرناها، فسنتحدث الآن عن المساكن الموجودة في الجبال.

الفصل السابع عشر

إدَاوْعَاقَل

يعيش معظم بربر هذا الاقليم في الجبال، ويتخذون بها منازلهم. فالجبل الأول الواقع في أقصى الغرب هو الذي يسميه بطليموس الاطلس الكبير، والأفارقة إدَا وْعاقل[38] باسمَ القبائل التي تقطنه. ينعطف هذا الجبل الى المحيط، ويمتد شرقاً حتى جبل إيغيلينغيغيل، وتفصل جوانبه الجنوبية هذا الاقليم عن إقليم سوس، وتقع على رأس هذا الجبل مدينة تفتنة، وميناء هرقل الى جهة الشمال.

الجبل كله مأهول بسكان كثيرين، والدور مبنية بالخشب والطوب، ومسقفة بالأردواز أو بغصون الشجر. وهناك عدة قرى، بعضها كبيرة جدا ولو أن السكان يرحلون عنها في معظم السنة مع قطعانهم بحثاً عن الكلإ، آخذين معهم آنذاك مساكن من خشب وأسل كالتي عند الأفارقة الأقدمين. وإذا أرادوا أن يقيموا بعض الوقت في نفس المكان حشوها وغطوها بالتبن أو ورق الشجر.

---

(37) قمح، وشعير، وسمن، وعسل الخ.

(38) أو أيت عاقل.

ومورِدُهُم الرئيسي من قطعان الماعز التي يملكون منها كمية وافرة، ويستخرجون من أرضهم كثيراً من الشعير والعسل، والشمع الذي يبيعونه للمسيحيين التجار في أسفي وتفتنة ورأس أكَير، لا يرتدي هؤلاء القوم أي لباس مخيط، فليس من بينهم رجل ولا امرأة يحسن الخياطة، وليس عندهم قضاة ولا فقهاء ولا مساجد، ولا يهتمون كثيراً بالمسائل الروحية. إنهم متوحشون على العموم، وبخلاء وقساة، وأعداء ألداء للأجانب. عدد مقاتليهم عشرون ألفا بالضبط، يبلون البلاء الحسن في هذه الجبال التي يعرفون جميع مضايقها وسبلها، لكنهم فيما عدا ذلك أفقر جنود إفريقيا كلها. فإذا أراد الشريف أن يقوم بعملية حربية، صحب معه الكثير منهم يوزعهم في مجموعات لسحب المدافع وحمل المؤن والعتاد. الشيء الذي يحسنونه جيدا لتعودهم على القيام بأعمال شاقة. وتفضي مدينة أكَوبل التي نهبت كما أسلفنا من طرف البرتغاليين. إلى هذا الجبل الذي ليس له حصن حصين غيرها.

الفصل الثامن عشر

تائزيرا

هذا الجبل يتاخم السابق، ويمتد على مسافة اثنين وعشرين فرسخاً في اتجاه الشرق، الى جبل نفيفة الذي يشكل حدود مراكش، ويفصل جانبه الجنوبي هذا الإقليم عن إقليم سوس مثل الآخر الذي تحدثنا عنه آنفاً. وتمر الطريق الرئيسية من مراكش إلى تارودانت بين هذين الجبلين، ولها مضيق في مكان يدعى مسقرطان، منيع الموقع جدا ومشهور بالمعركة التي دارت فيه بين الشريفين، عندما أخذ مولاي مَحمد أخاه البكر وابن أخيه، كما شرحنا ذلك في الكتاب الثاني من هذا المؤلف.

يتخذ بربر هذا الجبل مساكن لهم في أماكن عالية وعرة ولكنها ــ على كبرها ــ مسورة، يربُّون بعض الخيول لأن البلاد يكثر فيها الشعير والدُّخن الذي هو بمثابة الفند. تنبع من هذه الجبال عدة عيون تسقي اراضي الشعاب، وتسيل بجهة الشمال، إلى نهر صفاي الذي يسمى شيشاوة، باسم المدينة التي يمر بها، عندما يصل إلى السهل حيث يصب في نهر تانسيفت.

هؤلاء البربر أغنى من برابر الجبال الأخرى لأن لهم، بالإضافة إلى الشعير والعسل والشمع وقطعان الماشية، مناجم جيدة للحديد لا يصنعون منه قضباناً كما يفعل مَن قبلهم، بل كوراً يسوقونها عبر المنطقة كلها. كما أنهم أحذق من غيرهم،

وأحسن معاملة فيما بينهم، وأجمل لباساً، لأنهم يتجرون أكثر مع الأجانب. ويوجد من بينهم عدد كبير من التجار والصناع اليهود الذين ولدوا في هذه البلاد، لا من الذين طردهم الملكان الكاثوليكيان من إسبانيا والتجأوا إلى أهم بلاد البربر. هذا الجبل كله مكسو بغابات عظيمة من شجر البقس والمصطكا الشاهقة جدا، مع نوع من الأرز ذي الرائحة الطيبة والنفع الكبير، وكذا شجر الجوز الباسق الذي يجنى منه الجوز بكثرة لدرجة أنهم يصنعون منه ومن نواة الهرجان زيتا، فضلا عما يأكلون منه ويُصدِّرون. وهناك ما يزيد على عشرين ألف مقاتل، سواء منهم الراجلون أو الفرسان، وهم أفضل من مقاتلي الجبل السابق. واكتشف فيه سنة الف وخمسمائة وتسع وثلاثين منجم للنحاس نقل قطعة قطعة إلى مراكش ليصنع منه سلاح المدفعية. وأول سلاح سُبك منه كان من عمل موريسكي ولد في مجريط[39] الذي صنع مدفعاً طوله ستة عشر قدماً تقريباً وعدداً من قطع أخرى صغيرة، بالإضافة إلى قذافات وسيوف ورؤوس رماح وأسلحة أخرى جيدة. وفي نفس الوقت اكتشف مغربي سوسي في إقليم جزولة السرَّ في سبك الحديد، فكان يصنع منه كور المدافع، الشيء الذي لم يكن معروفاً قبله في افريقيا.

الفصل التاسع عشر
جبل الحديد

يبتدىء هذا الجبل من المحيط جهة الشمال، ويمتد شطر الجنوب على طول تانسيفت، فاصلا هذا الإقليم عن إقليم دكالة، ثم عن إقليم مراكش. ومع أنه واقع في إقليم حاحا، فإنه ليس جزءاً من جبل الاطلس. ويسكنه قوم من جنس قديم من أفارقة قبيلة مصمودة يسمون ركراكة. وفي كل مكان منه غابات صغيرة كثيفة من الأشجار المثمرة، وعيون غزيرة. ويتجر أهله بالعسل والشمع مع زيت الهرجان .وبعض الماعز. يُحصد فيه قليل من القمح، لكنه لا يُفتقد فيه لوجوده بكثرة في إقليم دكالة المجاورة. إنهم قوم فقراء ناسكون متدينون، منهم عدد من الزهاد المنقطعين في أبشع الصخور حيث يعيشون كالوحوش على الكلإ والفواكه البرية. والناس مهذبون يصدِّقون بسهولة ما يقال لهم شريطة أن يؤيد بالدليل. ولدى

(39) هو المعلم موسى

مقامي هناك، سنة ألف وخمسمائة واثنتين وأربعين، تبيَّن لي أنهم يُسَرُّون جدا بالاستماع الى الاحاديث الدينية، فحدثتهم عن رهباننا، وعندما تعرضت إلى حياة الطوباوي سان فرانسوا وزهده اندهشوا جدا، وصرح الفقهاء بأنه ولي كبير، وأنه لا يمكن اغتياب رجل بهذا القدر من التقى دون التعرض إلى الإثم. حقّاً لم أجد أناساً مثلهم أقل تعصباً لدينهم، ولا أكثر مرونة طوال إقامتي بإفريقيا. ويفوق عددهم اثني عشر الف مقاتل، الأمر الذي لم يمنعهم في نفس الوقت من أداء الإتاوة إلى ملكي فاس ومراكش، وأحياناً حتى إلى ملك البرتغال، لحماية أنفسهم من الأعراب الخاضعين للتاج البرتغالي. وهم الآن في راحة أكثر منذ أصبحت أسفي في أيدي المغاربة، تابعون للشريف، وليس بهذا الإقليم جبال اخرى يمكننا أن نتحدث عنها.

الفصل العشرون

إقليم سوس

وهو الثاني في مملكة مراكش، ابتداء من الغرب

يحد هذا الاقليم البحر المحيط غرباً، وجبال الاطلس شمالا، حيث يتصل بإقليم حاحا، ورمال نوميديا جنوباً[40] ونهر سوس الكبير شرقا الذي يفصله عن إقليم جزولة. يشتمل اقليم سوس على أكبر جزء من مملكة مراكش إذا أدرجنا فيه درعة والسوس الاقصى، وأهم قسم في هذا الاقليم بلاد عامرة، ترويها مياه هذا النهر في قنوات وسواق وتحيط بضفتيه أحسن مساكن البلاد. يكثر فيه القمح والمواشي وحتى مطاحن السكر منذ جاءت دولة الشرفاء، فصارت أفضل تجارة في مملكة مراكش كلها، بالإضافة إلى وجود حدائق وبساتين كبيرة وعدد كثير من النخيل وإن كان تمْرُه أقل جودة من تمْر نوميديا. السكان كلهم بربر[41] من قبيلة مصمودة، وهم أكثر شهرة من بربر حاحا، لأنهم أغنى منهم ويتعاملون بكيفية أحسن فيما بينهم، خاصة منهم سكان المدن الذين يستخدمون في معامل السكر وفي أعمال الحرث. وعندما غزا الشرفاء موريطانيا الطنجية، أعطى الأخ البكر ثانيَ إخوته هذا الاقليم بعد التقسيم، وتلقب هذا الاخير بملك سوس. لكنه كان يعترف

(40) أو جيتوليا

(41) يسمون ركَراكَة، وهسكورة، وهنتاتة.

بالولاء لأخيه. ودام ذلك مدة من الزمن أعاد فيها بناء تارودانت وأقام بها حاشيته، ثم استرجع رأس أكَير من ملك البرتغال، وحقق انتصارات عديدة اخرى استجلب بها قلوب هذه القبائل. وفي الأخير وجه سلاحه ضد أخيه، ففتح مملكة مراكش ثم مملكة فاس وصار ملكا لموريطانيا الطنجية كلها ولعدة أقاليم أخرى في نوميديا وليبيا، كما ذكرنا ذلك في الكتاب الثاني.

تُستخرج من سوس النيلة الجيدة التي يستعملها الصباغون، وأحسن معدن الصفر الذي يسمى صوفي، فضلا عن وجود رقيق جنيوة وتبر الذهب الذي يسميه الزنوج نَكْناكي، والذي تذهب القوافل لجلبه من هناك كل سنة.

الفصل الواحد والعشرون

مدينة ماسة[42]

مدينة أزلية أسسها الأفارقة عند قدم جبل الأطلس على ساحل المحيط. كانت تسمى من قبل تاماست، وكانت إذ ذاك مشهورة جدا، لكن خربها العرب المسلمون عند فتحهم السوس. وهي مؤلفة من ثلاث مدن تشكل مثلثا، تبعد الواحدة عن الأخرى بربع فرسخ وتحيط بكل واحدة منها أسوار متينة. يمر نهر سوس[43] بين اثنتين منها، ويسيل ليصب في البحر قرب مساكن كَير — تيفن. يحرث السكان في آخر شتنبر، ويحصدون في آخر أبريل وفي ماي، لكن إذا حدث أن النهر لم يفض أثناء هذين الشهرين ليسقي أراضيهم، فلا يكون أي حصاد. تكتنف هذه المدينة غابات كبيرة من النخيل الذي هو في ملك السكان، وعندما يقل القمح يكثر التمر، لكنه ليس جيدا كتمر نوميديا، ويفسد إذا احتُفظ به طوال السنة. لا تربَّى فيها المواشي بكثرة، لأنها كلها رمال قليلة الكلأ. السكان محبون للحرب، ولوجودهم على الساحل فإنهم يتجرون كثيراً مع الأجانب، إذ لا ميناء هناك، ولأن الساحل كله عبارة عن شاطىء مكشوف. ويوجد فيه عدد كثير من حوت (البالين) الميت يجنح هناك أثناء العاصفة فيصطدم بصخور حادة تقع على بعد ميل أو نحوه من اليابسة. كما أنهم يصادفون في هذا الساحل كثيرا من العنبر

---

(42) أو مكان الدعاء.

(43) نهر ماسة لا نهر سوس، انظر **وصف افريقيا**، (1:113) والهامش 17. (مترجم).

يسلمه أهل البلاد بثمن بخس للأوربيين الذين يتجرون هناك. وفي هذا الساحل مسجد هيكله كله مصنوع من أضلاع سمك (البالين) الكبيرة، يقدسه الشعب الجاهل لاعتقاده أن (البالين) لَفِظ (النبي) يونس في هذا المكان، ومن ثم فإن هذا المسجد يتسبب في هلاك كل (البالين) الذي يمر من هناك. وانه سيخرج منه رجل (المهدي المنتظر) يدعو لدين محمد (عليه السلام) ولذلك يحجون إليه من جميع النواحي. يقول بعض الأفارقة إن (البالين) ليس هو الذي يفرز العنبر، ولكن حوت آخر يدعى عنبرقان، عظيم الحجم، لا يبصره الناس إلا إذا رمى به البحر على الشاطىء ميتاً، له رأس صلب كالحجارة، وطوله يزيد عن اثنتي عشرة قالة. ويدعي اخرون بأن العنبر إنما هو مني ذكر (البالين) وربما كان الأصح أنه برازه.

الفصل الثاني والعشرون

تِيـُوت (أو تشييت)

أسس هذه المدينة الأفارقة القدامى في سهل جميل، وهي ــ كسابقتها ــ مقسمة إلى ثلاث مدن. يجري نهر سوس الكبير بقربها، ويخترق ضواحيها. فيها أزيد من أربعة آلاف كانون، وسكانها أغنياء لكثرة القمح والشعير والخضر التي تنتجها المنطقة. هناك مغارس عظيمة لقصب السكر وعدد عديد من مطاحنه، يقصدها التجار من جميع الأنحاء، من فاس ومراكش وبلاد السوس، لأن السكر بها في غاية الصفاء منذ أن أقام بها يهودي أسلم طواحين بمساعدة الأسرى الذين أخذهم الشريف في رأس أكَير.وينتج البلد أيضاً الكثير من التمر مثل تمر ماسة، لكن ليس هناك فواكه غير التين والعنب والخوخ، كما أنه ليس هناك شجر الزيتون ولا تلك الثمار التي يصنع الزيت من نواتها وإنما يستعملون الزيت المستورد من إقليم حاحا. وهناك تُحضَّر الجلود الجيدة التي تحمل إلى فاس ومراكش وأماكن أخرى. البلاد كبيرة جدا، وتوجد في اتجاه جبل الاطلس عدة قرى للبربر، كما توجد في أنحاء الجنوب سهول فسيحة يرتع فيها كثير من الأعراب ومن أفارقة قبيلة مصمودة، يكسبون كمية من الجمال والمواشي. وفي وسط المدينة جامع كبير حسن البناء يخترقه أحد سواقي النهر. وسكان المدينة أفارقة بربر، كانوا دائماً في صراع وتفرقة عندما كانوا يعيشون أحرارا لأنهم متكبرون جداً، لكن بعضهم اغتصبوا الحكم

منذ مائة سنة. ولما بدأ استقرار الشرفاء كان الحاكم آنذاك يدعى شوهان، ولم تكن عنده سوى ابنة جميلة زوجها من جنوي كان يتجر في البلاد واعتنق الاسلام[45]. وكان هذا التاجر محبوباً عند السكان لدرجة أنه خَلف أبا زوجته في الحكم لما مات. وبما أنه كان صديقا للشرفاء فقد منحهم المرور عبر منطقة نفوذه للالتحاق بإقليم حاحا. وخلفه ابنه ـ البكر[46] وكان أشجع المغاربة الذين خدموا الشرفاء، وأكثر ثقة عندهم، وحفيده الآن أمير شيشاوة. هؤلاء الأمراء هم الذين زينوا هذه المدينة التي أصبح سكانها الآن أغنياء، يعيشون في رخاء دون أن بقوموا بأي عمل. ولكن من بينهم ما يزيد عن مائتي تاجر أو صانع يهودي.

الفصل الثالث والعشرون

الكَارض

مدينة أسسها الشريف عبد الله الحاكم حالياً، تقع في سهل على بعد ميل من تاساوت، عند عين جدول يروي قصب السكر قرب الطواحين التي بناها الشريف لهذا الغرض. يدير هذا الجدول نفسه ست طواحين للقمح ثم يسيل ليصب في نهر سوس الذي يسمى تييوت في هذا المكان. شيدت المدينة لحماية هذه الطواحين، وتحيط بها عدة أراض صالحة للحرث تسقى بواسطة هذا الجدول. السكان فلاحون وأصحاب حقول، يعملون في طواحين السكر مع بعض الأرقاء المسيحيين، ويقيم عادة بالمدينة عامل مع ثلاثمائة فارس، يسكنون في القرى المجاورة.

الفصل الرابع والعشرون

ترودانت

إن ترودانت التي يسميها المغاربة تورانت، أسسها الأفارقة القدماء على بعد اثني عشر فرسخا من تييوت في اتجاه الشرق، وعلى بعد فرسخين من الاطلس الكبير، في اتجاه الجنوب. وهي وإن كانت أقل سكانا من غيرها، فإنها ليست أقل تجارة وبهاء. كانت حرة في القديم ثم حكمها بنو مرين عندما استولوا

(45) إشاية أو محمد العلج.

(46) مومن بن العلج.

على موريطانيا الطنجية، وجعلوها عاصمة الإقليم والمناطق المجاورة، وحسنوها كثيراً. ذلك لأن العامل أو خليفة الملك كان يتخذها قاعدة من أجل الاتجار برقيق الزنوج، فشيدوا بها قلعة تحتوي على منازل جميلة. ثم استعادت المدينة حريتها بانحطاط المرينيين، وتولى حكمها أربعة من أعيان السكان الذين كانوا يستبدلون كل ستة أشهر. وكانت هذه الحالة عندما استولى عليها الشرفاء بدعوى محاربة نصارى رأس أكَير. سكان ترودانت خيِّرون، يلبسون الجوخ والقماش مثل سكان مراكش، ويوجد من بينهم عدد كبير من التجار والصناع. إقليم المدينة كبير، وتوجد بجهة جبل الأطلس قرى كبيرة لبربر مصمودة، وبجهة الجنوب عدة دواوير أو مساكن الأعراب، مع جماعة من البربر يعيشون في الخيام. وهم أغنياء مقاتلون يفوق عددهم خمسة آلاف فارس(47) وأهم معسكر لهم يقع على بعد أربعة فراسخ من ترودانت في تخوم إفران التي بالسوس الأقصى. كان رؤساؤهم أول من ساعدوا الشرفاء وتبعوهم في جميع حروبهم، ولهذا قلدوهم أهم المناصب. كان من جملتهم علي بن بكار الذي ذبح مولاي أحمد وأحفاده بمراكش عندما علم بموت الشريف. إن جانب هذا الاقليم كله المواجه لليبيا في ملك هؤلاء القوم، وإذا أراد السكان أن يزرعوه. وجب عليهم أن يؤدوا اليهم إتاوة. وفي سنة 1511 عندما حصل الشرفاء من سكان ترودانت على أن يجهزوا لهم خمسمائة فارس لإيقاف غارات نصارى رأس أكَير وحلفائهم(48) بمساعدة هؤلاء الجنود وأولاد زرقان وغيرهم من جماعات حزبهم تمكنوا من المدينة بعد استمالة أهم عناصر السكان، ثم تمكنوا من جميع الأقاليم المجاورة. ومنذ أن بويع الشريف مَحمد ملكا على سوس، أصلح أسوار المدينة والقصر، وشيد فيها قلاعاً جديدة عمرها بعدد من التجار والصناع، إلى أن أصبحت اليوم إحدى المدن الرئيسية بإفريقيا، يملك فيها الشريف مخزناً للعتاد، وداراً لصناعة السلاح، وفيها معظم ذخائره، كأكثر مكان آمن في دولته. وقد استولى التركي(49) الذي اغتال الشريف محمدا، كما أسلفنا،(50) على هذه المدينة(51) التي ينسب بعضهم تأسيسها إلى الشرفاء، لكن قدم أسوارها وبناءاتها ورواية المؤرخين تشهد بعكس ذلك.

---

(47) أولاد زرقان.

(48) سيدي مالك، وسيدي بوعكاز ومروار درعة.

(49) حسان.

(50) الكتاب الثاني.

(51) سنة 1557.

الفصل الخامس والعشرون

فريشة

مدينة صغيرة على بعد فرسخ ونصف من ترودانت، أعاد بناءها الشريف محمد قبل أن يبايع ملكا على مراكش، ولابنه عبد الله الملك الحالي عامل يقيم بها عادة مع ثلاثمائة فارس في الأماكن المجاورة، للسهر على الأمن في هذه البوادي التي يملك جزءاً منها ملكا خاصا. وتلوح قريباً منها آثار مدينة عتيقة[52] كانت آهلة بالسكان أثناء عهد ازدهار المصامدة، لكن الأعراب خربوها.

الفصل السادس والعشرون

رأس أكَير[53] (أكَدير)

هذه المدينة حديثة البناء، تقع في سفح رأس صغير لجبل الاطلس، بين مدينتي ماسة وتفتنة، وكان يسمى قديماً الرأس الصغير، ويجعل بطليموس موقعه في سبع درجات وثلاثين دقيقة طولا، وتسع وعشرين درجة وخمس عشرة دقيقة عرضاً، وهناك ميناء لا بأس به للمراكب المتعددة السطوح. ويرجع أصل هذا المكان إلى نبيل برتغالي[53م] شيد فيه على نفقته قصرا من خشب لتامين صيد المورة وغيرها من السمك الذي يصطاد بوفرة في هذا الشاطىء، وسماه قصر سانت كروا (الصليب المقدس) وسماه المغاربة الدار الرومية، اي دار المسيحي ولكن الملك دون مانويل اشتراه لما رأى من أهمية هذه المحطة للسير في هذه البحار، ولغزو افريقيا فوسعه وأحاط به أسوارا وحصونا من حجارة كمدينة قوية، ثم أقام به فارسا برتغاليا يحميه مع عدد من الجنود والمدفعيين. ومن هناك كان البرتغاليون يشنون الغارات على كل مكان، بصحبة بعض الأعراب والأفارقة الذين أصبحوا تابعين لهم. ولولا اكتشاف الهند التي كانت في رأيهم اكثر ربحا لاستولوا على البلاد. وقد أسهم هذا الأمر كثيرا في عظمة الشرفاء الذين كانوا يلاقون أكبر عناء في إقامة دولتهم لو تابع البرتغاليون غزواتهم.

---

(52) افتتال. (كذا)

(53) كذا في الترجمة الفرنسية وهو تحريف لكلمة إغير الشلحية التي تعني المنكب بالعربية وتسمى المدينة أكَدير إغير. وقد تركناه كاب أكَير كما ورد عند مارمول.

أنظر م. السوسي، إيليغ،ص. 166—167، والهامش 383

(53م) دييكَو لويس دي سكَويرا.

بعض الخلافات التي حدثت بين البرتغاليين المجاورين لرأس أكَير مع الشرفاء :

عندما كان النبيل البرتغالي دُم فرانسيسكو دي كاسترو عاملا على رأس أكَير، نشبت بين مسيحيي هذه المناطق وبين الشرفاء بعض الحروب بمساعدة قائدين مغربيين، هما سيدي بوعكاز وسيدي مالك، وكذا مزوار درعة الذي حسد الشرفاء على ازدهارهم. وقد أغار مولاي أحمد على أراضي أتباع ملك البرتغال وأحرق حصيدهم. لكن سيدي بوعكاز تصدى له بجنوده[54]، وقتل ثلاثين فارساً من جنده وأرغمه على الفرار، حتى إنه استغاث بأخيه الذي كان قد بقي في المؤخرة مع معظم الجيش، فطاردا العدو معا وحارباه وهزماه. ثم وصلا وهما يطاردان الى حصن منيع[55] كان لسيدي بوعكاز فهاجماه وأخذاه عنوة. كان هذا الحصن في القديم في غاية الغنى والعمران، إذ كان يوجد به منجم يصدر منه الكثير من النحاس والصفر الى أوربا، الامر الذي تسبب مرارا في خرابه.

ولنرجع الى حكايتنا فنقول إن دم فردنـاند كاسترو لم يكن إذ ذاك بإفريقيا، ولكن بالبرتغال، فأستحضر منه مائتي رجل مسلح مع بعض المدفعيين. ولما علم لدى عودته بما جرى لصديقه وحتى لا يترك الشرفاء يتمتعون طويلا بابتهاج انتصارهم، جمع كل الحلفاء سواء منهم الأعراب والأفارقة، وضم اليهم جنوده وهاجم مدينة للشرفاء كان بها حرس دائم يشنون غارات على رعايا البرتغال وخاصة على دواوير سيدي مالك. فهاجمها عند مطلع الفجر فجأة وأخذها برمتها ونهبها، بعد أن قتل أو أسر كل من فيها. وكان هناك عدد من التجار الجنويين وغيرهم بجواز مرور من الشرفاء قصد الاتجار في الشمع والجلود فأسروا مع المغاربة، وأراد الجنود أن يتخذوهم أرقاء اعتبارا لكونهم أخذوا من بين الأعداء يتجرون بأشياء ممنوعة. ولكن ملك البرتغال أطلق سراحهم في الأخير بعد أن حبسهم طويلا. وقد انتقم الحلفاء ذلك اليوم شر انتقام مما أصابهم به الشريف، فعادوا الى دواويرهم محملين بالغنائم. وكان لهؤلاء القوم معارك اخرى ضد الشرفاء بانتصارات مختلفة، الى أن استولى الشريف محمد على رأس أكَير، كما سنذكر ذلك.

(54) سنة 1517، في شهر ماي.

(55) وهوتل.

إستيلاء الشرفاء على رأس أكَير :

بعد أن انتصر الشرفاء على مولاي أحمد(56) في معركة بوعقبة، وأخذوا إقليمي درعة وتافيلالت من المزوارين الذين كانت بأيديهم، استولوا على عدة أقاليم أخرى، كما ذكرنا ذلك في الكتاب الثاني. وإن مولاي أحمد(57) الذي كان هو الاصغر، والأشجع، والذي اتخذ لقب ملك سوس، شق عليه أن يستولي المسيحيون على هذه القلعة على مرأى منه(58) ويقوموا من هناك كل يوم بغارات على المغاربة، فعزم على مهاجمتها لتأمين الحدود والزيادة في سمعته. ولما انتشر خبر هذه العملية الحربية، حشد جيشاً مؤلفاً من خمسين ألف مقاتل، بقيادة أخيه البكر(59) وذهب ليحاصر رأس أكَير من جانب البحر إلى الجانب الآخر (60) ولما علم بهذا الخبر دون كَوتييري دي مونروي الذي كان قائد الحصن آنذاك، عين لكل واحد موقعا قصد حمايته، ثم شرع في الاستعداد. لكنه لم يكن يخشى العدو حتى إنه كتب إلى ملك البرتغال يخبره بأن النبأ ينتشر بمجيء الشريف لحصاره، ولكن جنوده فضلا عن كونهم جدداً لا خبرة لهم بالحرب، كانت تنقصهم أشياء ضرورية للهجوم. وذهب به الاستخفاف إلى أنه بعث اليه بعدة برابر مصورين بالألوان على قماش وهم عارون تماماً، ممسكون بأيديهم بسهمين أو ثلاثة، ليظهر أنه لا شيء يخشى من قوم كهؤلاء، طالبا فقط الزاد والعدة، وضامنا الباقي. ولما وصل الشريف أمام الحصن، أمر العلوج بتصويب المدفعية نحوه، وبدأ يهاجم بحمية قوية حتى إنه أمر بعدة غارات قبل أن تكون ثلمة مهمة، مؤملا أخذه وتفادي إغاثة البرتغال، لكن المحاصرين دافعوا عن أنفسهم جيدا الى درجة أنهم قتلوا أكثر من سبعة آلاف مغربي. ولما رأى الشريف قومه ينفرون من القتال بحيث لا يمكن سوقهم بالعصا، وأنه من العبث مهاجمة المدينة ما لم تحتل ربوة صغيرة كانت تتحكم فيها ويشرف منها على داخل جميع الاسوار ومن كانوا يدافعون بها، معتبرا من جهة أخرى أنه لا يمكن الاستيلاء عليها الا بغتة. ولما كان لا بد قبل ذلك من تشييد برج في أعلى الربوة، لحماية الجنود الذين قد يكونون فيها، فإنه طلب من الحاكم هدنة لمدة شهرين، فقبل الحاكم هذه

---

(56) يقصد أحمد الوطاسي. (مترجم).

(57) كذا في النص الفرنسي. والصواب : مَحمد. (المترجم).

(58) كان بلاطه في ترودانت.

(59) محمد الحران.

(60) 21 غشت، وكان يوم سانت كلير.

الهدنة، لأنه كان محتاجاً إلى توقيف حتى يصلح الثلمات ويقوم ببعض التحصينات الجديدة التي يراها ضرورية لحماية الحصن، إلا أنه اشترط أن كل واحد يستطيع أن يعمل من جهته ويفعل ما يشاء. فسحب الشريف حينا جيشه وبدأ يشيد برجاً في أعلى الربوة، وأمر بإذابة قطعة من المدفع. ولما انتهى العمل وانقضى أمد الهدنة، جعل في البرج ثلاثمائة من رماة البنادق وبعض قطع المدفعية الصغيرة من البرونز، واستأنف الهجوم بحمية أكثر، لأنه كان بقوم أحيانا بثلاث أو أربع غارات في اليوم. وكان المسيحيون يدافعون عن أنفسهم دفاعاً مستميتا، لكن الضرر الذي يلحقهم من المدفعية ورماة البنادق كان كبيرا لدرجة أنهم لم يكونوا في وقاية الا تحت الاسوار، حيث كانوا يشتبكون ليل نهار مع العدو : لأن أسلحة الرماة كانت مسددة بكيفية مضبوطة، فلا يكاد يلوح رجل في الزقاق، أو النوافذ أو فوق السور، الا سقط على الارض. ودام الحصار سبعة أشهر تقريباً على هذا المنوال، بينما كان معسكر الشريف يجدد يومياً الجنود والمؤن والعدد التي كانت تاتي من ترودانت وغيرها. فأرغمت هذه الوضعية الحاكم، وقد بدأ ينقصه كل شيء، على الاستغاثة بملك البرتغال، فجند هذا الأخير على الفور سبع سفن من نوع الكرافيل وأرسلها بسرعة وهي محملة بالرجال والعدد. أنزلت النجدة في جهة البحر بحي لم يكن تضرر كثيرا من ضربات الأعداء، إلا أن صراخ البربر كان قوياً عندما كانوا يغيرون، إلى حد أنه كان بإمكانه أن يفزع أكثر المسيحيين إقداماً. وفي هذه الأثناء، أمر الشريف بالهجوم العام(61)، لكن بعد أن فقد أزيد من ستة آلاف رجل. أصبح الباقون مذعورين بحيث لا يمكن حملهم على التقدم إلى الأمام. فغضب إذ ذاك من جبنهم وصار على رأسهم ورمى بعمامته في الأرض ودحرجها إلى السور وجعل يتبعها وكان على وشك أن يقتل بطلقة بندقية لولا أن تعرض لها أحد ضباطه وتلقى الضربة. وحينئذ أراد أحد مدفعيي المدينة أن يتناول برميلا من البارود تحت الحصن، فأضرم النار في البارود بدون أن يشعر بذلك، بفتيل موقد كان بيده، بحيث إنه تسبب في انفجار الحصن وهلاك أزيد من ستين جندياً كانوا يحمونه. وبالتالي كان الانفجار قويا لدرجة أنه حطم قسما من جدار بين استحكامين، محدثاً ثلمة أكثر بكثير من التي أحدثتها مدفعية العدو وتسبب هذا الحادث في فقدان الحصن، لأنه أعاد الشجاعة إلى المغاربة الذين تكتلوا تحت إمرة

(61) 21 غشت، وكان يوم سانت كلير

ابن الشريف وحملوا قبل أن يتمكن البرتغاليون من سد الثلمة. لكن نظراً لكون هذا المكان هو الأهم، فإن كل من كان في الحصن من الجنود الشجعان، أسرعوا إليه بأعداد كثيرة حتى إن بعضهم تعرضوا لضربات أصحاب البرج، وذلك لأنهم لم يستطيعوا جميعاً أن يكونوا محميين. وعندما انسحبوا في الوقت ذاته الذي أعاد المغاربة الكرة، فإن القادمين الجدد، وقد رأوا قومهم يفرون، وسمعوا صراخ العدو ظنوا أن المدينة سقطت، فجعلوا يرتمون إلى أسفل السور ليلتحقوا بمراكب الكرافيل. بدأ بالفرار أكثرهم جزعاً وتبعهم الآخرون بعد ذلك، بحيث إن المدينة أصبحت مهجورة من تلك الجهة، بينما كان القتال على أشده في جهات أخرى. ولكنهم في الأخير، وقد جرح بعضهم وقتل البعض الآخر، أرغمهم التعب على الانسحاب الى بعض الأبراج وأماكن أخرى حصينة. فدخل إذ ذاك الأعداء إلى المدينة بحمية كبيرة حتى إنهم لم يرحموا لا سنا ولا جنسا، فاقتفوا أثر الوافدين الجدد الفارين نحو السفن وقتلوا منهم حتى داخل البحر، وتحصن الحاكم في البرج الرئيسي، ثم سلم نفسه بالتفاوض، هو وأولاده وبعض كبرائه. وقد أبلى دُم يان دي كارفال ذلك اليوم بلاء عظيماً، فقتل بسيف أمسكه بكلتا يديه ثلاثين مغربياً وهو يدافع عن أحد الأبراج، وأصيب أخيراً في ساقيه فقاتل على ركبتيه، إلى أن قتل من بعيد برمي نبال، لأن أحداً لم يجرؤ على الاقتراب منه. وأول ضابط للشريف[62] دخل إلى الحصن، كان ابن ذلك التاجر الجنوي الآنف الذكر، نأخذ العامل وأولاده وخلص العديد من الموت بانتزاعهم من أيدي هؤلاء الجلادين الذين كانوا يقتلون حتى النساء ويتركون أجسادهن عارية في وسط الأزقة، ويلقون عليها كلاباً ميتة.

دخل الشريف بعد ذلك فأمر بجمع الأسرى، والمدفعية والأسلحة، وحمل الكل إلى ترودانت، التي توجه إليها بنفسه، واستقبل بحفاوة كبرى، بعد أن ترك في الحصن المفتوح عاملا وحرساً قوياً. وما زال ابنه مولاي عبد الله يتخذ به حرساً حتى الآن، نظراً لأهميته، بالإضافة إلى أنه مضر كثيرا بالبرتغاليين المتوجهين إلى غينيا والهند، لأنهم يتعرضون أثناء مرورهم به لهجوم عدد من السفن الفرنسية والانجليزية التي تكمن في هذا الميناء، وتزود هؤلاء المسلمين[63] بالاسلحة والمدفعية والعدد، الأمر الذي يسبب ضررا كبيرا للمسيحية.

---

(62) موسى بن العلج.

(63) عبر عنهم المؤلف ـــ كعادته ـــ بالكفار.

ولنقل الآن شيئاً عن ابنة الحاكم(64) فإنها كانت متزوجة بدوم يان دي كارفَال، ذلك البرتغالي الشجاع الآنف الذكر. ولما قُدمت إلى المنتصر مع أبيها وابنها، من طرف الذي أخذها، عشقها الشريف لأول نظرة لجمالها وحسن مظهرها، فأراد أن يرضي شهوته فوراً. ولما امتنعت هددها بإرغامها بواسطة زنجيين كريهين، إما لإرهابها أو لمعاقبتها. فأمر أن تحبس معهما في الحمام. وعندئذ استسلمت شريطة أن يتزوجها وتبقى مسيحية، فلبّى رغبتها. وقد عاينت كيف كان يتركها تاكل وتعيش مثل المسيحيين، الأمر الذي كان المغاربة يتذمرون منه، إذ كان يقال بأنها حولته شيئاً مّا إلى دينها. لذلك عندما وصل الى ترودانت وهو يسوق أخاه البكر أسيراً، بعد إيابه من هزيمته، طلب منها أن تتظاهر بأنها أسلمت. وبما أنها كانت حاملا فإنها لم ترد أن تعاكسه فوضعت بعد ذلك ولدا وسمتها نساء الشريف الأخريات ــ على ما يروى ــ مع ابنها، حسداً منهن، ولكنها استدعت قبل موتها بعض الاسرى المسيحيين وصرحت أمامهم بأنها تموت مسيحية، كما كانت دائماً، إلا أنها لم تستطع أن تعارض الشريف بالتظاهر بعكس ذلك لاعتبارات مفيدة للمسيحيين، وخاصة لأبيها الذي كان أسيراً، طالبة منهم أن يعلنوا ذلك في كل مكان. فأطلق الشريف سراح أبي زوجته حينئذ، عندما استولى على مراكش، حيث كان قد أوفده عند أخيه، بعد أخذ رأس كَير وبعث به إلى البرتغال مع بعض الاسرى المسيحيين، والخيل والمال والعدة، ولو أن ابنته كانت قد توفيت.

الفصل السابع والعشرون

تِيدْسِي

هي مدينة يزيد سكانها على خمسة آلاف نسمة، أسسها الأفارقة القدامى في سهل، تحيط بها أسوار قديمة ذات أبراج، وتبعد عن ترودانت بنحو إثني عشر فرسخا الى جهة الشرق، وبنحو عشرين فرسخا من البحر في الجهة الأخرى، وبسبعة فراسخ من الأطلس الكبير نحو الجنوب(65) أرضها واسعة، وفيها الكثير من القمح والمواشي، تنبت كمية من قصب السكر على ضفاف نهر سوس الذي يمر

(64) دنيا ماسيا.

(65) انظر عن هذه الأبعاد **وصف افريقيا** (1:119) والهامش 28. (مترجم).

على بعد فرسخ من المدينة، وفيها مطاحن لمعالحته، هذا هو سبب وجود عدة تجار من بلاد البربر وبلاد الزنوج عادة في المدينة. سكانها في غاية اللطف والصراحة، يعيشون على غرار سكان ترودانت. وهناك حي كبير للتجار والصناع اليهود الأثرياء، لأنه يقام بها سوق كل اثنين يقصده أعراب هذه المناطق وبربرها بالماشية، والصوف، والجلود والسمن، فيشترون بدل ذلك الحوخ، والقماش، والأحذية، والأدوات الحديدية ولوازم إسراج الخيل وكل ما يحتاجون إليه. وفي وسط المدينة جامع كبير يعمُره عادة عدد من الفقهاء، ومنهم رئيسهم الذي هو أعلمُهم، والذي يفصل في المسائل التي يعجز عنها الآخرون، ويُتخذ كحكم في الخلافات المتعلقة بدينهم.

كانت المدينة حرة قبل أن يستولي عليها بنو مرين، ثم استرجعت حريتها عند انحطاط مملكتهم، ولم تكن تؤدي العشر إلا لأعراب البادية عن الحبوب والخضر، وكان يدير شؤونها ستة من أكابر السكان، يبدلون كل ستة أشهر. وقد خضعت طوعاً لحكم الشرفاء[66] فاشتهر أمرها بهم اشتهارا غظيماً، وأقاموا بها محكمة مؤلفة من قضاة ومحامين وعدولٍ ووكلاء للفصل في الخلافات القائمة في البلاد، كما اعتادوا أن يقيموا بها عاملاً معه أربعمائة فارس. وبالتالي فهي من أهم وأغنى المدن التي توجد في ذلك الجانب من جبل الاطلس صوب الجنوب.

الفصل الثامن والعشرون

تكاووسْت

هذه أعظم مدينة بإقليم سوس، ويقال إن السوسيين هم الذين أسسوها. تحيط بها أسوار قديمة مبنية بالجير والطوب، وتقع في سهلٍ على بعد عشرين فرسخاً من جبل الاطلس الى الجنوب. وفيها اكثر من ثمانية آلاف منزل، منها ما يزيد على ثلاثمائة لليهود الصناع والتجار، الذين يعيشون في حي منعزل. يمر نهر سوس على بعد ثلاثة فراسخ من المدينة[68] والبلاد كلها غنية بالقمح والماشية. كان لها نفس المزية التي لسابقتها، ونفس الطريقة في حكم نفسها عندما كانت

---

(66) عام 1511.

(67) المحيط.

(68) انظر كتاب الحسن الوران (120:1) والهامش 30 (مترجم).

حرة. لكن سكانها كانوا متعجرفين إلى حد أنهم لم يخلدوا قط إلى الراحة، وكانوا يتحاربون دائماً منقسمين إلى ثلاث فرق تستنجد كل واحدة منها بالأعراب، بحيث إنهم كانوا مضطرين إلى أن يبقوا دائماً على أهبة القتال، إلى أن استولى الشرفاء على المدينة كما ذكرنا ذلك في تاريخهم. يقام سوقان بالمدينة كل أسبوع، يقصدهما أعراب المنطقة وبربرها، كما هو الشأن بتيدسي، ويأتي إليهما التجار من بلاد الزنوج ليشتروا ثياباً غليظة من صنع أهل البلاد، وهي ضيقة جدا. السكان سمر إلى سواد لأنهم غالبا ما يمتزجون بالزنوج لمجاورتهم لهم، يتعاملون فيما بينهم مثلما يتعامل سكان ترودانت. النساء بها لطيفات جدا، وإن كن نساء سمراوات لكن بكيفية تشتهيها الأنفس وتلذ لها الأعين، ويحببن الأجانب كثيراً. كانت البوادي من ناحية نوميديا آهلة في القديم بأعراب أقوياء أشدّاء[69] منضمين إلى الشرفاء، لكن محمدا (المهدي الشيخ) عندما بويع ملكاً على عرش مراكش رحّلهم بمواشيهم وأهليهم إلى تامسنا، إما ليكافئهم على خدمتهم، أو حتى لا يكونوا قريبين منه بهذا الحد، فأعطاهم بلاداً جيدة يسكنونها. ولكنهم عندما هزم أبو حسون ابن الشريف، مزقهم أهل فاس كل ممزق حتى لم يبق شيء من ذلك القبيل الباسل المقدام.

الفصل التاسع والعشرون

الجبال وسكانها

جبل هنكيسة

لا يوجد بهذا الإقليم إلا فرعان للاطلس الكبير، آهلان كلاهما بجماعات من برابر قبيلة مصمودة. وهو الأول من جهة الغرب، ويحتل عند قدم مدينة ماسة على الشاطىء، ومن جهة الشروق إلى الغروب، اثنى عشر فرسخاً. سكانها أفضل من سكان حاحا، لأنهم أوسع حرية وأكثر شجاعة، وفيهم بعض رماة البنادق، لكنهم متكبرون جدا ولو أنهم فقراء مملقون، ليس لهم قمح وإنما لهم شيء يسير من الشعير. حقاً إنهم يملكون كمية من العسل والشمع وقطعان الماعز. ينزل الثلج في معظم السنة على هذا الجبل، وقد تعود أهله ذلك حتى إنهم لا يرتدون في الشتاء لباسا مخالفاً للباسهم في الصيف، وتسير النساء عاريات تقريباً

---

(69) أولاد الرحامنة.

وبدون نعال، وكذلك الرجال. كانوا يعيشون أحراراً في القديم على غرار غيرهم من سكان الإقليم، لأن الجبل وعر صعب. وعانى الشرفاء كثيراً في إخضاعهم، وإن كان ذلك طوعاً أكثر منه عنوة. وهلك من جملة خمسة آلاف منهم ذهبوا إلى رأس أكير أزيد من النصف، حسب ما علمنا بمراكش.

الفصل الثلاثـون

عَلَم جَزولَة(70)

هو أحد جبال جيتوليا، وهو معتدل جداً يحتفظ باسم البلاد القديم مع أنه محرف قليلاً. يحده غرباً جبل هنكيسة، وشرقاً الإقليم الذي يحمل اسمه. وجنوباً سهول سوس، وشمالا الاطلس الكبير. يسكنه برابر من قبيلة مصمودة يعتزون بشرف قديم جعلهم مؤمنين بمحالفة الشعوب الأخرى أكثر من سائر شعوب قومهم. علاوة على ذلك فهم أغنى من غيرهم أرضاً ومواشي، ويملكون عدداً كبيراً من الخيل. ورغم ذلك فإنهم لا يختلفون إطلاقاً عن غيرهم لا في الزي ولا في العوائد، وإن كانوا يتعاملون أحسن فيما بينهم. لهم منجم فضة، طالما أذكى التفرقة بينهم. فقد كانوا يعيشون أحراراً قبل الشرفاء على غرار سائر قبائل الإقليم. وكان لكل فرع شيخُهُ الذي يدبر شؤونه، لكنهم كانوا كلهم يدعون أحقية المنجم. وتوجد مناجم أخرى من النحاس والصفر في هذاا لجبل، تستخرج منها كمية من المعدن، وقد كان بالإمكان أن يستخرج منه أكثر لو أقبلوا على العمل والتنقيب أكثر مما يفعلون، لكنهم يفضلون الحرث على الحفر، لأن البلاد جيدة تنتج الكثير من القمح والشعير. ويملكون بالإضافة إلى ذلك كمية من العسل والشمع وعدة قطعان من كبار الماشية وصغارها تشكل موردهم الرئيسي. عدد محاربيهم ستة آلاف، من بينهم عدد كبير من الفرسان ورماة البنادق. إن الجزوليين الذين يحرسون أبواب فاس، ومراكش وترودانت، والذين اتخذهم الشريف لحراسته الشخصية ينتمون الى هذا الجبل، لأنه كأبيه يضع فيهم ثقته أكثر من أي أحد آخر.

هنا تنتهي مساكن سوس، وعندما سنتعرض لنوميديا وجيتوليا، في القسم الثاني من هذا التاريخ، سنتحدث عن سجلماسة، وتفوست وغيرهما من المدن الواقعة في السوس الاقصى، وكذا عن الجماعات حيث تستخرج النيلة الرفيعة.

(70) هو جبل إيلالن عند الحسن الوزان. انظر **وصف افريقيا** (1:121). (مترجم).

الفصل الواحد والثلاثون

إقليم مراكش

يحمل ثالث أقاليم مراكش اسم مملكة، وكان يدعى قديماً بوكانو إيميرو، وعاصمته القديمة هي مدينة أغمات، ومنها أتى لمتونة أو المرابطون ليؤسسوا أولا في البلاد (دولة) ويشيدوا من بعد مدينة مراكش لتكون قاعدة مملكتهم وعاصمة ليس للاقليم فقط، ولكن لكافة غرب موريطانيا الطنجية، يمتد هذا الاقليم من الغرب إلى الشرق من جبل نفيس إلى جبل أنماي، فينحدر نحو الشمال عند نهر تانسيفت إلى المكان الذي يلتقي فيه بأسيف المال، متخذاً هكذا شكلا مستطيلا في وسط خمسة أقاليم أخرى(1). كل ما هو خارج عن جبال الاطلس الكبير بلاد مستوية، كثيرة القمح والبقول والشعير والدخن، وجميع أنواع الفواكه والخضر والبقول. يسقيها عدد كثير من الجداول والعيون التي تنحدر من هذه الصخور وتروي البراري. وهي مكتنفة بالبساتين والحدائق وعدد من النخيل الذي يؤكل تمرها بلحاً، إذ أنه لا يكون جيداً إذا يبس مثل تمر نوميديا. الجبال وعرة بكيفية غريبة لا تنبت إلا القليل من الشعير الذي ينمو تحت الثلج. ولكن بدلا من ذلك توجد كمية وافرة من الكلإ للمواشي التي تاتي إلى هنا في الصيف من أجل المراعي. غير أنه من الضروري سحبها في الوقت المناسب، أو حبسها في الحظائر لأن الثلوج تاتي فجأة، فتمكث أحياناً في مخابئها خمسة عشر يوماً دون أن تخرج، ويغذونها بأغصان الأشجار أو الحشيش المذخر. إن سكان المدن والقرى في هذا الإقليم ماهرون يمارسون جيدا تجارتهم الصغيرة ويرتدون لباسا حسنا في الجملة حسب زيهم، وعندهم عدد كثير من الفرسان ورماة البنادق والقذافين الراجلين، ولكن سكان الجبال مثل سكان حاحا، ومن نفس القبيل(2). ولنتحدث الآن عن المدن الكبرى في هذه المنطقة.

---

(1) هي : حاحا وسوس وجزولة وهسكورة ودكالة.

(2) مصمودة.

الفصل الثاني والثلاثون

الجمعة

هي مدينة قديمة أسسها الأفارقة، على ما يقال. تقع في سهل على ضفة نهر[3] بعيدة بفرسخين عن جبل الاطلس من جهة الشمال. كانت مزدهرة أيام الموحدين تشتمل على أزيد من ستة آلاف دار، لكن دمرها بنو مرين وعاملها المشاط، ولم يتركها أعراب هذه النواحي تسترجع عمرانها منذ ذلك الوقت ليتمكنوا من استغلال أراضيها في أمان. وما زالت تلوح آثار الأسوار والمباني التي لا يسكنها اليوم إلا قوم مساكين، يستعملهم الأعراب لحراسة حصادهم. البلاد المجاورة للجمعة ممتازة، لكن الأعراب لا يحرثون منها سوى القدر الذي يكفيهم في السنة، ويستعملون الباقي لرعي مواشيهم، لأن التربة خصبة بحيث كان عشر دخلها قديماً يساوي أكثر من مائة ألف مثقال.

الفصل الثالث والثلاثون

إيمَنْجيَاجَن

هو حصن واقع في أعلى أحد جبال الاطلس الكبير على بعد ثمانية فراسخ من المدينة السابقة الى جهة الجنوب، وفي موقع حصين آمن لا يحتاج إلى أسوار، لذلك كان يستعمل في القديم كقلعة وملجإ لنبلاء قبيلة مصمودة. يذكره المؤرخون الأهلون كثيراً قائلين بأن الأفارقة هم الذين شيدوه، وأنه كان عامراً بالسكان في القديم. ولما ظهر عمر، الذي تحدثنا عنه في الفصل الثاني عشر من هذا الكتاب، في هذه الجبال، وبنى بها مدينته (قلعة المريدين) هاجم هذه المدينة التي كانت تعارضه. ولما احتلها بعد حصار طويل[5] قام فيها بأعمال في غاية الفظاعة وبقيت بذلك خالية من السكان إلى عام ألف وخمسمائة وخمسة عشر، حيث استقر بها بعض الأهالي بعد هلاك هذا الطاغية. وبما أن الأعراب هم سادة البادية، فإن السكان لا يحرثون غير منحدر الجبل، الذي يستخرجون منه كمية من القمح

---

(3) شيشاوة

(4) كتب في الأصل : أوبجياك.

(5) عام 1495.

والشعير، وترعى فيه مواشيهم. وإذا أرادوا النزول إلى السهل، فلا بد لهم من أداء شيء إلى الأعراب في مقابل الأراضي التي يحرثونها.

الفصل الرابع والثلاثون

تازاروت(6)

مدينة صغيرة على بعد خمسة فراسخ من مراكش، وسبعة فراسخ من جبل الأطلس شمالا. ليست محصنة لا بالطبيعة ولا بالصنعة، وتمتد كقرية في واد على ضفاف نهر(7) . ضواحيها صالحة جداً للقمح والمواشي، وضفاف النهر مكسوة بأشجار مثمرة. لهذا فإن جميع السكان يشتغلون في البساتين والحقول. لكن عملهم جميعاً يجرفه أحياناً فيضان النهر الذي ياتي حتى على الاشجار. خضعت هذه المدينة لملك البرتغال مدة طويلة وهناك استقر الشرفاء أولا، وفيها مات أبوهم(8). ولما كان أعراب أولاد عمران تابعين آنذاك لملك البرتغال، فإن المدينة كانت تؤدي إتاوات لعامل آسفي حتى استولى عليها الشرفاء حين أصبحوا أقوياء، وحرروها من هذا الخراج.

الفصل الخامس والثلاثون

تِينيزّا

هي مدينة صغيرة في موقع ملائم، بناها الأفارقة القدامى على منحدر أحد جبال الاطلس الكبير(9) على بعد ثلاثة فراسخ من أسيف المال إلى جهة الشرق، كل البلاد الممتدة بينها وبين النهر عبارة عن سهل، يمدهم بكمية من القمح والشعير، وكذلك منحدرات الجبال. يربون عددا كثيراً من الماشية الكبيرة والصغيرة، لذا فالمدينة آهلة جداً بالمزارعين وأصحاب الحقول، وهم شجعان وأعداء ألدّاء للأعراب، بسبب الحروب السابقة، إذ كانوا يشنون عليهم غارات بصحبة البرتغاليين، فيقتلونهم أو يأسرونهم.

---

(6) لم يذكرها الحسن الوران. (مترجم)

(7) أسيف المال.

(8) مولاي محمد بن عبد الرحمن (القائم بأمر الله).

(9) كدميوا.

الفصل السادس والثلاثون

الجمعة الجديدة

هو حصن مشيد على جبل شاهق[10] تحيط به جبال اخرى مجاورة. أسسه الهنتاتيون من قبيلة مصمودة واستقروا به منذ نحو مائتي عام. ينبع نهر (أسيف المال) في سفح المدينة، متخذا هكذا اسماً افريقياً معناه الضجيج، لأنه يرتمي من أعلى جبل بصخب عظيم، فيكوّن غديراً واسعاً عميقاً يسيل منه بهدوء في السهل. وما زال الهنتاتيون يملكون المدينة. ولما بدأ حكم الشرفاء كان مولاي إدريس سيدها وسيد تامّلت حاملاً لقب ملك الجبل، لأن قسماً كبيراً منه كان تابعاً له، لهذا كان يطمح في تاج افريقيا لانتمائه إلى الموحدين. وتحالف مع الشرفاء الذين كان يهاب قوتهم، لكنه لما رأى أنهم احتلوا مدينة مراكش واستولوا على الملك بعد موت الملك ناصر بوشنتوف الذي كان هنتاتياً مثله، تحالف مع ملك البرتغال بواسطة نونيو ماسكارينياس حاكم آسفي. غير أنه حدث أن هذا الحاكم بعث برسالة من سيده الملك إلى مولاي إدريس، بواسطة يهودي كان يتجر بمراكش عندما كان مولاي أحمد يحكمها. وقد توقف هذا التاجر بعض الوقت بمراكش ليرتب أموره ثم انطلق إلى الجبل، فقصد ذلك الامير وسلم إليه الرسالة التي كان قد خاطها بين نعلي حذائه. فسأله مولاي إدريس متى خرج من أسفي وأين كان منذئذ، ولما علم أنه توقف بعض الوقت بمراكش وتحادث مع الشريف، أرجع الرسالة إلى هذا الامير دون أن يطلع عليها، وكتب له أن يحترس في أمره لأن المسيحيين يكيدون له كيداً، لشدة ما كان يخشى أن يَفتضح أمر هذه المناورة. فشكره الشريف جزيل الشكر وأمر باستنطاق اليهودي للحصول على بعض المعلومات منه، لكنه عندما رأى أنه لا يعترف بأي شيء، أمر بربطه بأذناب أربعة أفراس فبترت أعضاؤه. إن أمراء آل إدريس أنصاف مغاربة، ولونهم لون السفرجل المطبوخ، لكنهم يعتبرون أنفسهم أشرف الأفارقة، وينتسبون إلى الموحدين الذين هم محل إجلال كبير.

يتجاوز عدد القاطنين بالمدينة ألفاً ومائة ساكن، كلهم طيبون محبوبون من طرف أميرهم كجميع بربر الجبل. يرتدون لباساً أنيقاً حسب زيهم، وأحياؤهم ودكاكينهم منظمة جيداً، مع حي لليهود يقطنه عدد من التجار والصناع.

---

(10) سكسيوة

توجد في الشعاب المحيطة حدائق جميلة تجنى منها جميع أنواع الثمار، كما هو الشأن في أوربا، وأراض كثيرة تنتج الشعير، والكتان، والقنب، والدخن، بواسطة الجداول التي تسقى بها، كما توجد بها عدة قطعان من الماعز في الجبل، وهي من أغنى مساكن جبل الاطلس، تؤدي سنويا هي وقراها ثلاثين ألف (بسطول) كإتاوة لأميرها. ومعظم السكان تجار أو صناع متحضرون شيئاً ما بسبب جوارهم لمراكش، ولهم قاض، وفقيه، وعدول. النساء بها جميلات، والرجال غيورون جدا. يجند هذا الامير ثلاثة آلاف فارس وأربعين ألف راجل من بينهم رماة عديدون.

الفصل السابع والثلاثون

تِمَلْتْ (أو تِينْمَلْ)(11)

مدينة صغيرة بناها على جبل شامخ يحمل نفس الاسم أفارقة قبيلة مصمودة. وهي حصينة آهلة بالسكان، لها جامع كبير يخترقه نهر صغير ينحدر من الجبل. وتجل القبائل هذا الجامع جدا، لأنهم يعتقدون أن المهدي مدفون فيه مع تلميذه عبد المومن، وهما أوّلا ملوك الموحدين ومؤسسا نِحلتهم. كانت هذه المدينة تابعة لمولاي إدريس، وهي مبنية على شكل قرية كبيرة، وإن كانت حصينة بسبب وعورة الجبل. يقيم عادة بالجامع فقيه غني ومحترم جدا. السكان فقراء يرتدون لباساً رديئاً، ويعيشون بدون قانون كالحيوانات، لأن الاجانب لا يختلطون بهم أبداً. غذاؤهم العادي دقيق الشعير والزيت ولحم الماعز، ولهم بساتين كبيرة مسورة بأشجار الصنوبر، وعدد من أشجار الجوز وقطعان الماشية. هؤلاء القوم خبثاء يدَّعون العلم لانتمائهم إلى مذهب هؤلاء الملحدين، ويحبون الجدل في أمور الدين مع الأجانب. يسمي بعضهم هذه المدينة المهدية لكونها أسست من لدن مهدي الموحدين. وهي الآن خاضعة للشريف.

الفصل الثامن والثلاثون

أَمَزْمِيز

مدينة قديمة أسسها الأفارقة على منحدر جبل كَديميوة من جهة الشرق، بالقرب من الطريق الكبرى التي تخترق جبل الأطلس للذهاب من مراكش إلى إقليم

---

(11) لم يذكرها الحسن الوزان.

جزولة[12] هذه الطريق مغطاة دائما بالثلج وتسمى لذلك باريكَس. وفي جهة الشمال سهل تفوق مساحته اثني عشر فرسخاً ويمتد حتى مدينة مراكش، حيث ينمو أجود ما في بلاد البربر من القمح والشعير والدخن، كل ذلك بكثرة عظيمة لدرجة أنه يكفي للاقليم كله لو زرعت الأرض بكيفية جيدة. وقبل أن يحتل الشرفاء مراكش، كانت هذه المدينة شبه مهجورة بسبب غارات الأعراب عليها، وإن كانت في ملك مولاي إدريس، وهي الآن آهلة جدا ويعامل سكانها معاملة حسنة من أجل ولي صالح اسمه سيدي كانون كان منها وأخذه البرتغاليون بأزمور منذ أن خرجوا من هذه المدينة وتركوها للمغاربة.

الفصل التاسع والثلاثون

تُومَكْلاسْتْ[13]

وهي من مساكن البربر في نفس الإقليم

عبارة عن ثلاث مدن مسورة في سهل على بعد خمسة فراسخ من الأطلس الكبير من جهة الشمال، تكتنفها الكروم وأماكن مغروسة فيها نخيل وأشجار مثمرة أخرى، مع بادية جميلة تنتج كمية من القمح. ولما كان البرتغاليون يحكمون هذه المناطق، كان السكان يؤدون لهم الخراج، وبعضهم كان يؤديه أيضاً حتى لملك فاس وللأعراب، فاضطروا أخيراً إلى ترك البلاد، إذ كانوا يعاملون معاملة سيئة جدا، لكنهم رجعوا إلى ديارهم منذ أن أصبح الشرفاء سادة هناك. البلاد غنية بالقمح والماشية، بعيدة بنحو تسعة فراسخ عن مراكش من جهة الغرب.

الفصل الأربعون

مراكش

عاصمة المملكة

مدينة عظيمة تقع في أحسن موقع بإفريقيا كلها على بعد خمسة فراسخ أو ستة من جبل الاطلس، وتحيط بها أجود أقاليم موريطانيا الطنجية بأسرها. أسسها

(12) على بعد خمسة فراسخ من الجمعة الحديدة.

(13) كتب في الأصل الفرنسي تمديكَست. (مترجم)

ابن تاشفين، أول ملك مرابطي أو لمتوني، حوالي عام ألف واثنين وخمسين (للميلاد) حسب ما رواه عبد الملك[14] مؤرخ مراكش. ويرجع بعضهم أصل تأسيسها إلى أقدم من ذلك فينسبونه لأبي درامون ابن معاوية[15] الذي أراد بها أن يعارض ويضاد أبا جعفر، خليفة الجزيرة العربية الذي أسس آنذاك مدينة بغداد. لكن عبد الملك ينسب تأسيسها للأمير الذي ذكرت، وتحسينها لابنه يوسف[16] الذي أحرز على انتصارات كبيرة ضد مسيحيي إسبانيا. وقد استعمل في ذلك ثلاثين الف أسير لينهي تشييدها في أقرب وقت، ويتخذها مقراً له. وما زالت تشاهد لحد الآن كتابات عربية على لوحات من المرمر في بعض المباني القديمة تفيد أنها شيدت من طرف دولة لمتونة، أيام يوسف بن تاشفين. ولا تبعد عنها كثيراً مدينة أغمات التي كانت الحاضرة القديمة للمصامدة والممر المؤدي من بلاد البربر إلى نوميديا عبر الأطلس الكبير. ومن هناك دخل لمتونة عندما استولوا على الدولة.

مدينة مراكش مسورة بأسوار متينة، مبنية بالجير والرمل الممزوجين بتراب جيد يجعل الخليط صلباً لدرجة أنه إذا أصيب بضربة معول، تطاير منه الرشاش كأنه صخر، ورغم كون المدينة تعرضت للنهب مراراً فإنه لا توجد بالسور ولو ثُلْمَة واحدة، وهذا شيء غريب، نظراً لأن تخطيطها عجيب وكذلك إنجازها. لها أربعة وعشرون باباً، وتستطيع أن تضم مائة ألف نسمة، وكان ذلك العدد في دولة علي بن يوسف، حسب قول عبد الملك. ويقول جميع المؤلفين الأفارقة الذين كتبوا عنها في ذلك العهد وبعده إنها كانت أعظم وأغنى مدينة بإفريقيا كلها، أيام اللمتونيين والموحدين. ولقد شاهدت قطعة من المرمر في علو قامة رجل، منصوبة على ضريح قديم خارج باب الطبول مكتوب عليها هذه الكلمات بالعربية : «هذا قبر علي بن عطية، الذي كان يقودمائة ألف رجل، ويملك عشرة آلاف فرس، وأمر بحفر مائة بئر وواحد في يوم واحد لتَرِدَهَا خيله. وتزوج ثلاثمائة فتاة. وكان وفياً منصوراً، وأحد قواد يعقوب المنصور الأربعة والعشرين. قضيت نحبي في سن

(14) ظننا في البداية أن مارمول يقصد اس عبد الملك المراكشي صاحب الذيل والتكملة، لكن تبين لنا بالاستقراء أنه يقصد به الحسن الوزان ويحرف اسمه هكذا جهلاً أو تجاهلاً. وقد ذكر الوزان أن تأسيس مراكش عام 424 هـ. وهي توافق سنة 1031 م. وقد نبهنا هناك (1 : 129 هامش 37) أن المشهور في تأسيس مراكش هو عام 454 هـ/ 1062 م. (مترجم).

(15) هذا من أوهام المؤلف، فلا يعرف شخص بهذا الاسم في المغرب، وهو يقصد بلا شك أحد الأمويين، ولم يكن هؤلاء آنذاك في المغرب بل كانوا في الاندلس. (مترجم).

(16) يوسف ابن تاشفين شخص واحد كما هو معروف، لا شخصان كما توهم المؤلف، نعم الذي بنى أسوار مراكش هو علي بن يوسف بن تاشفين. (مترجم).

الأربعين. من يقرأ هذا، فليطلب من الله أن يغفر لي». الامر الذي يبرر، إن صح ذلك، ما كتبه المؤرخون عن قوة هؤلاء الملوك الدين عبروا مرات عديدة لغزو إسبانيا بجيوش عظيمة جداً، إذ يقول قائد واحد إنه كان تحت إمرته رجال وأفراس بهذا العدد.

وتوجد في جهة الجنوب قصبة جميلة كبيرة تستطيع أن تضم أكثر من أربعة آلاف دار، مسورة بأسوار متينة وأبراج وخندق ونهر صغير، ليس فيها سوى بابين، أحدهما في جهة الجنوب ويفضي إلى البادية، والآخر في جهة الشمال نحو المدينة، حيث يقيم عادة حرس من جزولة، يراقبون الداخلين والخارجين، ويمنعون الاسرى المسيحيين من الخروج إلا مع حرسهم. وعندما يدخل المرء من الباب الأول من جانب الوادي يجد ساحة صغيرة فيها عدة مخازن أو أهراء، كان الملوك القدامى يخزنون فيها حبوبهم. ويقع الباب الثاني في زقاق مستقيم، يفضي إلى ساحة كبيرة، فيها جامع عبد المومن ملك الموحدين، وهو بناء ضخم جميل من الداخل والخارج. يقول المؤرخون إن يعقوب المنصور، حفيد هذا الملك، زاد فيه خمسين ذراعاً في العلو، لأنه كان منحدراً جداً، وإنه بنى صومعته التي هي شبيهة تماماً بصومعتي إشبيلية ومدينة الرباط. ولذا يقال بأنها جميعاً من صنع يد واحدة. وعلاوة على ذلك، فإنه زين الجامع بعدة أعمدة من رخام أمر بنقلها من إسبانيا، مضيفاً كشعار لانتصاره أبواب الكنيسة الكبرى بإشبيلية، وما زالت تشاهد حتى اليوم وهي مرصعة بقطع من البرونز مع أقفال كبيرة من نفس المعدن[17] وهي موضوعة بالباب الشمالي الموصل إلى البوابة القديمة بالقرب من المدرسة، وتتميز بالكتابات اللاتينية. كما وضع في هذا الجامع ناقوسين أخذهما من إسبانيا، وهما معلقان مقلوبين[18] في جناح الجامع بسلاسل غليظة، يمكن أن يراهما كل داخل أو خارج. وفي أعلى الصومعة على قمة البرج، أربع تفاحات من الذهب الخالص[19] مشدودة الواحدة فوق الأخرى إلى قضيب غليظ من حديد، أسفلها وهي الكبرى تسع ثمانية أمداد من القمح، والثانية أربعة، والباقي بالتناسب[20]. هيكل التفاحة من النحاس، مموه بصفيحة غليظة من الذهب الخالص. يقول

(17) أو مزلاجات.

(18) دلك لأن المعاربة لا يستعملون النواقيس.

(19) عند الوزان ثلاث تفاحات من فصة. (مترحم).

(20) مد أو مد ونصف لكل واحدة. وربما أكثر.

المؤرخون الأفارقة إن إحدى نساء يعقوب المنصور باعت جواهرها لتصنع هذه التفاحات. لكن الشعب يظن أنها وضعت هنا برصد سحري لبعض الارواح منع عددا من الملوك من أن ينتفعوا بها في ضرورات تسيير شؤونهم. وعندما كنت في هذه المدينة قال لي فقهاء الجامع إن الملك ناصر بوشنتوف أراد أن يقلع هذه التفاحات ليؤدي الأجور لجنده عندما كان يزعجه مولاي إدريس[21] والأعراب من جهة، والبرتغاليون ويحيى وملك فاس الذي أراد أن يسلبه هذه المدينة من جهة أخرى. لكن السكان عارضوه قائلين إنهم يفضلون أن يبيعهم وأبناءهم على أن يزيل شرف مدينتهم. وعندما كنت أسيرا بمراكش فإن الشريف مولاي أحمد الذي كان أكثر منه تدينا أزال التفاحة العليا مع القضيب الحديدي الذي كان بينها وبين ما قبل الأخيرة، وأمر صائغاً يهودياً بتذويبها، فإذا هي ليست كلها من ذهب ، وداخلها من نحاس، ومع ذلك فإنها لم تساو أقل من خمسة وعشرين الف (بستول) من الذهب الخالص، وعندما تذمر الشعب من ذلك أمر بتذهيب النحاس وإعادة التفاحة إلى مكانها. وبعد ذلك بقليل شوهد اليهودي مشنوقاً ذات يوم بأعلى البرج، فقال الفقهاء إن الأرواح المرصودة لحراسة الكرة هي التي اختطفته ليلاً ووضعته هناك. لكن الشريف قد فعل ذلك لإرضائهم، أو حتى لا يقوم آخر بمثل ذلك. وحيث إن هذا الامير فَقَدَ منذ ذلك الحين الحياة والتاج، كما ذكرنا ذلك في الكتاب الثاني، فإن الشعب نسب مصيبته لهذا العمل، بحيث لم يُقدِم أحد بعدُ على مسها.

توجد قرب هذا الجامع مدرسة عتيقة تدعى أيضاً مطرقة العلوم (كذا) بناها أيضاً عبد المومن كان فيها قديماً عدد كبير من الطلبة، مع أساتذة كثيرين. بالفنون الفلَك والتنجيم مع فنون أخرى وعلوم طبيعية كما كانت ندرس بها العربية والشريعة الاسلامية، سواء منها ما يتعلق بالمعاملات أو بالعبادات. كانوا يعيشون عن نفقة المدرسة الغنية جداً، لأن أفضل ممتلكات المدينة كانت لها. ولكنها أصبحت كلا شيء، خاصة منذ أن أسس الشريف الحاكم حالياً مدرسة أخرى أكثر جمالاً في أسفل المدينة، كما سنذكر فيما بعد. وتوجد في هذه المدرسة العتيقة بالقصبة قاعة كبيرة مزخرفة كلها بالفسيفساء، وصحن كبير في المقدمة مبلط بمربعات كبيرة من المرمر، في وسطه حوض قصير جداً حسب طراز البلاد، مصنوع من حجر واحد، لا مثيل له كبراً في بلاد البربر بأسرها. وكل الفضاء الممتد بين

(21) ملك الجبل

الجامع الرئيسي والسور من جهة الشرق حتى القصر العتيق، حيث كان بسكن الملوك القدامى، هو اليوم البستان الملكي الكثير الأشجار المثمرة الظليلة ، وفي الجانب الآخر من جهة الغرب يوجد اثنا عشر مخزناً بناها الشريف الحالي لخزن حبوبه، كلها مقببة، وأبوابها متجهة شطر الجنوب. وكان هنالك في القديم، بين هذه الأهراء والساحة المقابلة للجامع، قصران كبيران، بسكنهما المسيحيون المستعربون، الذين تستعملهم ملوك مراكش في الحرب، ومعهم نساؤهم وأولادهم. أتى بهم يعقوب المنصور من إسبانيا لحراسته الشخصية، وكانوا عادة خمسمائة فارس، يتقاضون أجرة حسنة جداً، ويمارسون شعائر دينهم، بحيث كانت لهم كنيسة في نفس الحي، يذهبون إليها للاستماع إلى القداس. وقد اتخذوا هكذا لمدة طويلة إلى أن استرجعهم دوم يوحنا الاول، ملك قشتالة إلى إسبانيا وأعطاهم أموالاً كثيرة وخصهم بمزايا عظيمة، كما هو الشأن بالنسبة لفرفانيس القوط بالاندلس، وغيرهم كثيرين ممن يأتون منها يسميهم اللاتينيون مستعربة، والعرب مستعربين، لا لكونهم صاروا يعملون في خدمة موسى (بن نصير) بعد هزيمة رودريق، ولكن لأنهم كانوا يعرفون اللغة العربية، ولأن لفظ «عرب» في هذه اللغة معناه «رجل عربي». حقاً إنه كان من بينهم بعض النبلاء ينتمون إلى حاشية أبناء الملك غطيشة والكونت يوليان مما قد يكون سبباً في تسميتهم هكذا. وما زال هذا الاسم ثابتاً في سبع كنائس خورنية بمدينة طليطلة[22] حيث يقام لقداس المتعرب. بالطقوس القوطية، كما كان ذلك جارياً في سائر كنائس نفس المدينة، قبل إقامة القداس الروماني بها.

ولنرجع إلى روايتنا فنقول : في أحد هذين القصرين للمستعربين بقصبة مراكش، مات الكونت دم فيرناندو، الذي كان قد انضم إلى المغاربة، لأن الملك فرناندو، الذي احتل اشبيلية، سلبه ملكه، لذلك خصص له ملك مراكش اقتبالاً حسناً جداً، ورتب له جرايات واسعة. وفي عام ألف ومائتين وتسعة عشر، أتى سان بيلار وخمسة من أصحابه إلى مراكش ليقوموا بالتبشير في هذا المكان، فقتلهم المغاربة لأنهم أخذوا يهاجمون ملة محمد، غير أن دم بيدري، ابن ملك البرتغال، الذي كان إذ ذاك بمراكش حمل رفاتهم إلى كويمبرا، ومنذ ذلك العهد، ألح المستعربون على الملك حتى أذن لهم بإقامة دير للرهبان الفرنسيسكانيين هناك.

(22) هي سان لوك، وسان سيبستيان، وسانت جوست، وسان أنطوان وسان مارك، وسانت أولاي، ومصلى الكنيسة الكبرى الذي يسمى باسم الكارديال جيمينيس مطران طليطلة.

ولما وصل ذلك الخبر إلى إسبانيا توجه إليه العديد من هذه الطائفة الرهبانية للتبشير بالدين المسيحي فذاقوا الأمرين بسبب غيرة الفقهاء[23]ومن جملتهم دانيال وستة من أصحابه الذين ماتوا بها عام ألف ومائتين وسبعة وعشرين. وبنى الشريف الحالي هنالك الآن مخازنه، حيث تصنع ستة وأربعون قنطاراً من البارود في الشهر مع عدة أسلحة، لكن عندما ثار مستعربو غرناطة[24] أحرقتها صاعقة أضرمت النار في البارود، ودمرت معها عدة قصور ودور مجاورة لكن المارقين الاندلسيين[25] وشوا إلى الملك بأن المسيحيين هم الذين تسببوا في ذلك[26] فأمر بإعدامهم. لكنه ندم لحينه بعدما علم بالحقيقة، وأمر بتوقيف الإعدام بعد أن قتل منهم ثلاثمائة.

وبعد الساحة الموجودة أمام الجامع من جهة الجنوب هناك فتحة في جدار من ناحية الغرب إلى ناحية الشرق، حيث باب الطبول، وسوق اخرى تباع فيها المؤن، ثم يسير الزقاق رأساً إلى الملعب الشعبي، وهو ساحة كبرى تقام فيها الأفراح في مختلف الأعياد، ويوجد قصر الملك أمامها. وبعد الدخول من باب الطبول هناك على اليسار بناءات قديمة مبنية بالجير والرمل متصلة بسور القصبة كانت في القديم أهراء ذات طابقين[27] يخزن فيها القمح، وتحتها قباب كثيرة يخزن فيها التبن، مع سلم خارجي واسع جدا بدون درجات، تصعد عليه الدواب المحملة بالقمح، فيكال في أعلى السطح الذي كان مبلطاً ثم يقذف به الى الداخل من ثقوب، ولسحبه كان في أسفلها بويبات مصنوعة على شكل ثقوب الطواحن، ما ان كانت تفتح حتى يسيل القمح إلى الخارج تلقائياً. هذه أجود مخازن بلاد البربر كلها حيث كان القمح يحفظ اثني عشر عاماً دون أن يتعفن أو ياكله السوس، بينما يتعفن بسبب الرطوبة في الأهراء الاخرى التي بناها الملك الحالي. هذه الأهراء القديمة المقببة هي التي يحبس فيها اليوم الاسرى المسيحيون، ذلك لأنهم في المكان الذي كانوا يحبسون فيه قديماً خلف اصطبلات القصر، كانوا ينقبون السور ويتدلون بحبال من هناك إلى الخندق ويهربون. ويوجد أمام السجن الحالي

---

(23) وصفهم مارمول بأنهم أعداء الله وكلمته، جرياً على عادته في كراهة الإسلام والمسلمين. (مترجم)

(24) سنة 1569

(25) يقصد المهاجرين الاندلسيين المستقرين بمراكش. (مترجم)

(26) مكيدة البارود هذه تدبير المسيحيين المقيمين في قصبة مراكش ثابتة تاريخياً برواية معايرة، انظر الناصري **الاستقصا**، 52:5. (مترجم)

(27) كانت تسع 12.000 كيلٍ من القمح في كل كيل أربعة أمداد.

للمسيحيين، فيما وراء الزقاق، قصر كبير(28) يسمى قصر النصر، يصهر فيه سلاح المدفعية، وتصنع فيه الاسلحة والذخيرة الحربية. وفي الداخل مصاهر الملك، يعمل فيها الاسرى المسيحيون باستمرار، ورغم أن معظم الرؤساء من الاتراك أو العلوج الذين اعتنقوا الاسلام، فإن ذلك لا يمنع من وجود عمال مسيحيين يخدمون تحت إمرتهم. وكان أمام هذا القصر قصر آخر أكبر منه يقيم فيه رماة الحرس وهم من الأفارقة على الإجمال، لكن الآن توجد عدة دور ودكاكين داخله.
عندما يكون المرء في ساحة الملعب الشعبي يرى من كل جهة عدة قصور على الطراز القديم. ويقع أهمها جهة الجنوب بجانب القصر الملكي ويسكنه القائد العام للجيوش، وبقربه اصطبلان كبيران مبنيان حسب طرازنا، لكنهما غير مستعملين الآن لان المغاربة يعتقدون أن الخيول تكون أصح وأقوى في الهواء الطلق، ولذلك يبنون اصطبلات مكشوفة ويضعون علف الخيل في الأرض، أو في أكياس صغيرة.
وإلى يسار الملعب الشعبي، في الجانب الآخر للقصر الملكي، بناية أخرى عظيمة على الطراز القديم كانت تستعمل كمدرسة لأبناء الملك وأكابر الأمراء، فيها قاعة كبيرة جميلة مربعة تحيط بها من كل جانب رفوف أو خزانات لحفظ الكتب.
الأبواب كلها من خشب الأرز المزخرف بالعاج المحبوك بالذهب، وبألوان زاهية لدرجة أنه قد يظن أنها صنعت منذ قليل. وهناك أيضاً عدة قاعات جميلة وكبيرة في هذا الجانب، وصحن تكتنفه بوابات واسعة، مدعمة بأعمدة سميكة من مرمر مختلف الالوان مع زخارف من الفسيفساء على الجدران التي هي بالإضافة إلى ذلك مهيأة بمربعات صغيرة، والسقف مذهب ومزخرف بعدة ألوان. كان الابن البكر للشريف محمد يسكن في هذا القصر، من أجل جماله وكبره، فضلاً عن أنه أجمل قاعة في بلاد البربر كلها. وكان بين هذا القصر وقصر الملك سقائف يقيم بها الحرس الشخصي الذي يتولى السهر على القصر ليلا. إن الملك الحالي سوَّر جميع هذه البنايات، مع الدار الملكية وضمها إلى قصره الجديد الذي يبتدىء على طول سور القصبة، من القصر القديم الواقع خلف الجامع المذكور، إلى القصر الملكي الذي يفضي إلى الملعب الشعبي. ويضم هذا المكان المسور عدة أفنية واسعة (مشاور) ومساكن رائعة، لنسائه وسراريه، يملكن فيه مقاصير معزولاً بعضها عن بعض، فضلا عن مساكنه الخاصة، حيث تخزن الذخائر والأسلحة. وفي إحدى زوايا هذا القصر، ثلاث قاعات قصيرة بقبابها المذهبة، وفي القاعة الوسطى ثلاث

(28) دار الصناعة.

سقايات وبابان يفضيان إلى حديقتين جميلتين مغروستني بالياسمين، والرند والآس، وبعدد من الأزهار العطرة، مع عرائش الكروم والاشجار المثمرة على طول الممرات المسيَّجة بخُشب [29] في أعلاها أسنة من حديد. وفي إحدى هذه الحدائق صهريج طوله مائة قدم، وعرضه خمسة وعشرون، مبلط[30] بمربعات صغيرة يسبح فيه الملك صيفاً. وكان هذا الصهريج عميقاً لدرجة أن الأمير الحالي أوشك أن يغرق فيه وهو ثمل. لذلك أمر بأن ينقص من عمقه، بحيث إنه يمكن الدخول فيه دون أن يغطي الظهر بالماء. وفي هذا القصر أيضاً قبتان غنيتان تسميان مشورين[31] يجلس بهما الملك إذا أراد أن يستقبل الناس، يمكن للجميع أن يراه في إحداهما، ولكن الاخرى لا يجتمع فيها إلا أكابر الحاشية للتداول في مهمات الامور وكلتاهما صممتا بحيث إذا رفعت بعض الشبابيك أو الأبواب المحيطة بها، لم يبق الا درابزين مذهب، يتكىء عليه الجمهور ليستمع الى الفصل في قضاياه، لكن لا يمكن ولوجهما الا من بابين صغيرين يقف عليهما البوابون والحراس، وتحيط بهما فوارات جميلة، مع كثير من أشجار البرتقال، والآس والليمون الحامض، في ساحات كبيرة، يتجول فيها الجمهور يوم الاستقبال. وبأحد جوانب القصر الملكي أماكن خاصة بالعملة والجمرك، حيث توضع البضائع الموجهة الى أوربا ليأخذ الملك عشرها. إن التجار الذين يتسلمونها إسبانيون، وإنجليز، وفرنسيون وفلمنديون، ياتون في مقابلها بسيوف، وقاذفات نارية وأشياء غيرها من البضائع المهربة[32] لإرضاء الشريف. وفي القصر حمام فخم للملك وحمامات اخرى لنسائه. وفي الجانب المؤدي إلى ساحة الملعب الشعبي جامع بصومعته المحتوية على ثلاث تفاحات من نحاس مموهة بالذهب كالتي تحدثنا عنها، لكنها أصغر منها حجما. وأخيراً توجد في جميع جهات هذه القصبة بناءات جميلة ومنازل مبنية حسب الطراز الحديث : وقد زين عبد الله الحاكم حالياً مدينة مراكش حتى أصبحت الآن من أجمل مدن افريقيا. وحيث إنه يحب العمران فإن الناس يتنافسون في البنيان اقتداء به.

---

(29) أو قضبان.

(30) أو مرقش.

(31) اي قاعتي المجلس.

(32) وصف البضائع بأنها مهربة اعتبارا لقرار البابا الذي حرم على التجار المسيحيين تزويد المغرب بالسلاح حتى لا يهاجم به الثغور التي يحتلها المسيحيون في أرضه كسبتة وأصيلا ومازغان. لكن البروتستانتيين وغيرهم من المسيحيين المتحررين لم يكونوا يعتبرون ذلك القرار، ويزودون المغرب بالاسلحة التي ذكرها المؤلف. (مترجم).

ولنعد إلى المدينة فنقول : إن بها عدة مساجد جميلة، قديمة وحديثة، ومن أشهرها في بلاد البربر ذلك الذي يسمى بجامع الكتبيين ويدعى باسمه الحقيقي جامع علي بن يوسف، لأنه هو الذي شيده. ويقال إن عبد المومن، ثاني ملوك الموحدين، هدمه ما عدا الصومعة، ثم أعاد بناءه، للقضاء على ذكر مؤسسه، ومع ذلك فإنه لم يستطع أن يمحو اسمه من ذاكرة الناس. شكله عجيب وصومعته أعلى صومعة في إفريقيا بأسرها. سمك جدرانها اثنا عشر قدماً، ويستطيع ثلاثة فرسان أن يصعدوا جنباً إلى جنب حتى أعلاها، لشدة استواء مدرجها وسعة عرضه، مع نوافذ عديدة من مسافة لأخرى لإعطاء المزيد من الإنارة. وفي أعلى قمة الصومعة ثلاث تفاحات من فضة منضدة في عمود غليظ من فولاذ، مثل التفاحات الذهبية المذكورة، يقال إن كبراها تسع اثني عشر كيلا من القمح، والثانية ثمانية أكيال، والثالثة أربعة. يقول عبد الملك إن علي بن يوسف وضعها هناك تذكاراً لانتصار كبير له على النصارى بإسبانيا، وإن هذه الفضة هي عشر خمس الغنيمة التي كانت من نصيبه. عندما يكون الجو صحواً يلوح من أعلى الصومعة جبل أسفي، الواقع على بعد أربعين فرسخاً. حقاً إنه شاهق جداً وإن سهلاً واحداً فقط يفصل بينهما. ولما كنا متوجهين من إقليم دكالة إلى مراكش أبصرنا تفاحات هذه الصومعة منذ الجبل الأخضر، الواقع على بعد ثمانية عشر فرسخاً. وبالتالي فإنه بناء شديد الارتفاع عجيب الصنع، يعزو الشعب إنجازه إلى العمالقة. أضف إلى ذلك أنه سمِّي بالكتبين، أي جامع الكتَّاب لأنه ـــ عندما كان يشيد ـــ كانت تحيط به دكاكين صغيرة يقيم فيها الذين كانوا يسجلون الاعمال التي تنجز فيه[33] وفي المدينة مسجد آخر يدعى الحامع الكبير، وهو أقدم المساجد كلها. بناه يوسف بن تاشفين، ترفع عليه أول راية عند مبايعة ملك جديد، وفيه تبدو سائر علامات الابتهاج أيام الاستبشار العام. أعاد الملك الحالي بناءه وزينه بمبانٍ جديدة فخمة[34]، وبقربه مدرسة كبيرة تحتوي على أربعمائة حجرة للطلبة بصحونها، وبمراتها، معزول بعضها عن بعض (ومبلطة) كلها بمربعات صغيرة كأنها مرصعة، مع قاعات كبيرة للدروس وأروقة كبيرة للتفسح فيها. ينفق

---

(33) عد الوزان · مائة دكان لباعة الكتب، وهو الأقرب والأنسب للاسم الذي ذكره مارمول نفسه وقد اختلط عليه حامع الكتبيين وجامع علي بن يوسف فجعلها حامعا واحدا، خلافا لما في الأصل الذي نقل عنه وهو كتاب الحسن الوزان. (مترجم).

(34) يقصد جامع الأشراف بالمواسين. (مترجم).

على الطلبة والاساتذة من موارد المدرسة التي تاتي من أفضل أملاك المدينة. وقد أسس نحوار المدرسة مسجد (مخزن) تحفظ فيه موارد جميع مساجد المملكة.

كان حي اليهود قديماً في وسط المدينة، في مكان يضم أزيد من ثلاثة آلاف منزل، لكن الملك الحالي نقله إلى أحد الأطراف بالقرب من باب أغمات، حتى يكون اليهود مفصولين عن المسلمين. تحيط بهذا الحي أسوار من جميع جهاته، وليس له سوى باب يفضي إلى المدينة، وآخر صغير يؤدي إلى مقبرتهم. وبنيت داخل الاسوار عدة ديار وبيَع. معظم هؤلاء اليهود صاغة، يصنعون رؤوس لُجُم فضية جميلة وغيرها من زينة الخيل مع مهاميز وركابات في غاية الزخرفة. ومنهم تجار عاديون، وآخرون يتجرون بكيفية غير مشروعة، لكن أكثرهم ثراء هم الذين يدبرون ممتلكات أبناء الملك والعمال. لان هذا الرهط يفضل أن يكل أمر تدبير أمواله إلى اليهود، ويجد في ذلك مصلحته. يؤدي جميع اليهود جزية قدرها درهم عن كل رأس، فضلا عن الضرائب العادية.

وتوجد بالقرب من المنطقة القديمة الساحة الكبرى التي في وسطها كومة من التراب أعلى من الدكاكين والدور المحيطة بها، وفيها يقع إعدام الأشرار، وتشاهد بها دائماً مشنقات، يعلق فيها بعضهم من أرجلهم ثم يذبحون، ويعلق آخرون هكذا دون أن يذبحوا حتى يموتوا على هذه الحاله، ويعلق بعضهم من الذراع والبطن مفتوح حتى يموتوا بهذه الكيفية. لكنهم لا يربطون أحداً أبداً إلى مشنقة وذراعاه مبسوطتان. هكذا يعامل المجرمون عند انعدام الخصم، ولكن، إذا كان هناك خصم[35] فإليه ترجع العدالة، فيخنق المجرمين ويذبحهم، أو يطعنهم بالرماح أو الخناجر، أو يبيعهم كعبيد، أو يساعدهم على فداء أنفسهم بالمال. في هذه الساحة عدة دكاكين لصانعي الأقفال والإسكافين والنجارين ولكل أصناف التجار الذين يبيعون أشياء صالحة للأكل. وفي أحد الجوانب مكان يباع فيه الحرير وأقمشة الكتان، والقطن، والصوف الرقيق أو الغليظ، الملتوية وغير الملتوية. وهنا محل الجمرك، حيث يقيم التجار المسيحيون الاوربيون بسلعهم، ويقام كل يوم خميس بهذه الساحة سوق يقصد من جميع النواحي، لشراء وبيع كل أنواع الماشية والمؤن، وإن كان السوق الاكبر هو الذي يقام بالضاحية، قرب باب دكالة، حيث يحضر

(35) يقصد والي المقتول الذي قال الله تعالى فيه : «ومن قُتِل مظلوماً فقد جعلنا لوليه سلطانا فلا يسرف في القتل إنه كان منصورا». الآية 33 من سورة الاسراء (مترجم).

كل يوم ثلاثاء أعراب وبربر كثيرون، فيتزود الناس بالقمح، والشعير، والسمن، والزيت، والتمر، وغيره.

ومن أغرب الاشياء بالمدينة مبنى رائع لتجميع المياه، الامر الذي يدل حقاً على ما كان عليه هؤلاء المسلمون[36] من قوة في القديم. ذلك لأنه يدخل إلى المدينة أربعمائة قناة أو ساقية ماء آتية من الجنوب، وهي عميقة جدا في الأرض. يقول بعضهم إن هذا الماء ياتي من بعد ستة فراسخ من نهر ينبع من جبل الاطلس، كانت قناته المغطاة حتى المدينة تحول دون اكتشاف مصدر الماء ومجراه. وللتأكد من ذلك، أمر بعض الملوك رجالاً بأن يدخلوا إلى هذه القنوات ومعهم فوانيس وزاد يكفيهم لمدة يومين أو ثلاثة، ويذهبوا حتى يصلوا الى العين، لكنهم لم ياتوا بشيء ثابت، متعللين جميعا بموانع مختلفة ، يذكر بعضهم أنهم صادفوا، بعد قطع مسافة فرسخين، هواء في غاية البرودة بحيث أطفأ النور، ويزعم بعضهم أنهم وجدوا القناة مغلقة بالحجر أو التراب، بحيث لم يتسطيعوا متابعة مسيرهم، ويقول آخرون إن القنوات كانت مثقوبة، مكونة مستنقعات في بعض الاماكن يستحيل عبورها، وأن طلاسم سحرية كانت منعتهم من متابعة السير، لكن الشريف الذي يحكم حالياً شرع منذ قليل في حفر آبار كبيرة في تلك الجهة، على بعد فرسخين أو ثلاثة من المدينة، حيث تاخذ الارض في الارتفاع، وبعد أن جمع الماء كله في خزان ساقه عبر قناة الى المدينة، ثم أمر بإغلاق جميع الآبار والثقوب بحيث لا يعرف من اين ياتي الماء ولا اين هي القناة. وذلك ما يحمل على الاعتقاد بأن (القنوات الاخرى) كلها صنعت بهذه الكيفية، حتى إذا ما حوصرت المدينة لم يمكن قطع الماء عنها بتاتاً إن لمعظم هذه القنوات فتحات داخل المدينة، لا في الحقول، يقول المؤرخون العرب إن عشرين الف اسير مسيحي هم الذين حفروا هذه القنوات، ويوجد على بعد فرسخين من المدينة الى جهة الشرق، نهر تنسيفت الذي يسقي المنطقة كلها. لكن الشريف الذي يحكم اليوم جلب منذ أمد قريب من تلك الجهة قناة كبيرة من جبل أغمات الى مراكش، تدير ما يزيد على خمسين طاحونة في السهل، الواحدة تلو الاخرى، وتسقى عدة بساتين غرسها مسلمو الاندلس على ضفاف القناة، ذلك ان الشريف وزع عليهم قطعاً أرضية في هذه المناطق وخصص لهم أجراً كالجنود. ومن هناك ياتون الى سلا وفي المراكب الموجودة عادة في هذا النهر (أبي رقراق) يقومون بمهاجمة شواطىء اسبانيا. قائدهم مسلم من

(36) يعبر عنهم المؤلف ــ كعادته ــ بالكفار (مترجم)

الاندلس يدعى الدغالي، أي الحداع وهم يقيمون في مراكش بحي يسمى الآن أورخيبا الحديدة، لان أول من سكنها منهم جاءوا اليها من تلك المدينة.

سكان مراكش متكبرون، يتباهون بالشجاعة وبأنهم ألد أعداء المسيحيين. يتكلمون بلغة البربر، ويرتدون جبات من جوخ ملونة تصل إلى الأرجل، وقطعاً صغيرة مفصلة على شكل القرن كأنصاف سترات من فوق من شملة رقيقة أو من خيوط الحرير والصوف، ولهم قمصان وسراويل من قماش أبيض، وقلنسوات قرمزية مع عمامات صغيرة. يرتدي الأعيان سترات قرمزية، أو من الحرير الملون، أو من قماش (كامبري) الرفيع، ولباس العامة كذلك، ولكن بأثمان أقل. وللعديد منهم دثارات مخصرة ملونة لها اربعة أذيال، ونصف أكمام ضيقة جدا، والكل مزين بأزرار وفوقه شبه سترات أو معاطف من ثوب خشن.

والنساء متحضرات أنيقات يمشين وهن متزينات بعدد من الأساور الملولبة والمنبسطة من الذهب والفضة، وبكمية من الدرر والجواهر في العنق والرأس والأذنين. لباسهن من الحرير أو القماش الرفيع يسترهن حتى الاقدام، وليس لهن سراويل كالفاسيات. لا تخرج السيدات من منازلهن إلا للقيام بزيارة، أو للذهاب إلى المسجد. وإذا خرجن إلى الحمام حجبن وجوههن جيدا ليختفين عن الانظار، لكنهن ظريفات وأنيقات وبعولتهن غيورون عليهن جدا.

يتعامل السكان فيما بينهم بالحسنى، وينفقون على تغذيتهم اكثر من أهل سوس، لأن لهم فضلا عن وفرة القمح واللحم والسمن والتمر، كمية من لحم الصيد وشحمه وجميع أصناف الحلويات مثل أوربا. المدينة اليوم آهلة جدا بالسكان وتتحسن كل يوم بفضل الملك.

لقد تحدثنا في الكتاب الثاني عن الحروب التي جرت بهذه المدينة، وسنذكر هنا كيف جاء القواد البرتغاليون بجنودهم، حتى وصلوا إلى أبواب المدينة، وذلك لإبراز الفرصة الثمينة التي ضيعناها للانتقام من إهانات هؤلاء المسلمين والقيام بهذا الغزو، لو كان الملوك المسيحيون أرادوا الإسهام في غاية شريفة بهذا القدر.

كيف وصل القادة البرتغاليون إلى أبواب مراكش

لما انتصر دم مانويل ملك البرتغال بإفريقيا، سنحت له فرصة ثمينة للاستيلاء على قسم كبير من موريطانيا الطنجية، التي كانت فيها حروب أهلية ويحكمها عدد من الأمراء الصغار، لم يكونوا كلهم أقوياء.

كان مولاي إدريس يسيطر على جبال الاطلس الكبير، وابن حدو وأخوه مولاي فارس على الجبل الاخضر وقسم من اقليم دكالة، وكان هذا الاخير يحتل بعض المواقع على نهر أم الربيع. ولم يفكر الشرفاء بعد استيلائهم على إقليم سوس وبعض مناطق إقليم حاحا إلا في التوسع بدعوى الجهاد. كان محمد الوطاسي ملك فاس قبل الاخير لهذه الدولة يملك إقليمي هسكورة وتادلا، مع قسم من إقليم دكالة، ولم يكن لمولاي الناصر بوشنتوف سوى حكم مراكش، وهو يعاني الكثير للاستمرار في الحكم، لأن الأعراب كانوا سادة البادية يجوبون البلاد كلها. كان إذ ذاك نونيو فرنانديس دي اطايدي حاكماً بأسفي، ومعه في خدمة ملك البرتغال أكثر من خمسة عشر ألف فارس من الأعراب وجماعات إقليمي دكالة وحاحا، بقيادة يحيى بن تعفوفت، بحيث إنه كان يجوب جميع أراضي مراكش ويفرض على السكان إتاوات يؤدونها طوعاً أو كرهاً. وكان له بالإضافة إلى الحلفاء، ثمانمائة فارس برتغالي وعدد من المشاة بأسفي، تمكن بهم من إحراز بعض الانتصارات على ملك مراكش، وهزم مرارا الشرفاء وعمال ملك فاس بمساعدة هذا الافريقي يحيى الذي خدم ملك البرتغال بوفاء إلى أن مات.

وسنذكر كيف جاء لخدمة هذا الأمير عندما نتعرض لوصف أسفي. كانت الأمور على هذه الحال بإفريقيا، وكان في استطاعة البرتغاليين أن يفتحوا مملكة مراكش، لولا اهتمامهم باكتشاف الهند، وإسهامهم بذلك في الرفع من قدر الشريف. إلا أن نونيو فرنانديس وهو يفكر في غزو مراكش الذي لم يستطع تحقيقه حتى ذلك الحين لاعتبارات شتى، أخبر يحيى، وسيدي ميمون، وهو قائد افريقي آخر كان أيضاً في خدمة ملك البرتغال، أن يتأهبا مع الحلفاء للقيام بعملية حربية مهمة. كما أخبر دم بيدرو دي صوفا حاكم أزمور آنذاك ليلتحق به في الوقت المناسب في ملاحات دكالة. فامتثلوا كلهم بحمية، وقد أطلعهم نونيو فرنانديس بعد انضمامهم إليه على نيته، فأظهروا ابتهاجاً كبيراً. وانطلقوا كلهم من المكان المذكور، عام ألف وخمسمائة وخمسة عشر في اليوم الخامس والعشرين من ابريل، مع ثلاثمائة فارس مسيحي من أسفي، ومائتين من أزمور، ومائة من رماة البنادق المشاة، وألفين وأربعمائة مغربي[37] وذهبوا ذلك اليوم إلى قرية بوسدان للميرة، واصطفوا للقتال، فكان شراقة وعبدة في الميمنة، وأهل الغربية في الميسرة، والمسيحيون

---

(37) ستمائة من عبدة، وألف من الغربية، وثمانمائة من شراقة، على بعد ميلين من الملاحات.

في الوسط، فاخترقوا هكذا سهلا كبيرا حتى مسقاروطان، حيث تبردوا بقليل من ماء غدير وجدوه هناك، ثم عقدوا مجلسا لمعرفة الجهة التي سيهاجمون منها مراكش، واختلفت الآراء. فبعضهم أرادوا أن ينطلق الهجوم من باب سيدي أبي العباس، معتقدين بأن الانسحاب سيكون أسهل، وعارض آخرون بأن الطريق مقطوعة بعدة خنادق وقنوات، من شأنها أن تؤخر السير، مؤيدين الرأي القائل إنه لا بد من الدخول من باب فاس الذي هو أقرب طريق وأسهل. وأخيرا قر الرأي على أن تتوجه الطليعة إلى الأمام مع بعض الحلفاء لاستطلاع الطريق، وعلى هذا الاساس انطلقوا يوم الغد من مسقاروطان، وعبروا نهر شيشاوة، فلاحت لهم من أعلى ربوة في وضح النهار التفاحات الذهبية بجامع القصبة، فاصطفوا للقتال، فكوّن حاكم أزمور جيشين من رجاله، ووقف في ميمنة نونيو فرنانديس، وسار عبدة وأهل الغربية في المقدمة، ووقف شراقة في ميسرة المسيحيين. وساروا هكذا في سهل مليء بالأدغال، يتقدمهم جنود الطليعة، مع بعض ضباط المشاة لاستطلاع البلاد. ولما وصل هؤلاء إلى الجامع القديم المسمى سيدي أبا العباس السبتي، الواقع قرب الأسوار، أشاروا إلى نونيو فرنانديس بأن الطريق غير صالحة، بسبب العديد من القنوات والمستنقعات التي يجب اجتيازها، فقرروا الدخول من باب فاس. ولما نفخ في الابواق انطلق المغاربة بكل سرعة في سفح جبل قريب من الاسوار، وانتشروا في كل مكان حتى يظن أن عددهم كثير. فأمر نونيو فرنانديس العدائين من أهل الغربية أن يذهبوا حتى الابواب ليروا هل سيخرج أحد، وكان بعضهم قد ضرب الباب برمحه مرة، ولحق به الباقون ، بينما سار المسيحيون في الطريق، والقمح الذي يسقى بماء القنوات المكشوفة في ذلك المكان بسبب انحدار الارض، وحيث انها كانت مكسورة في شتى المواضيع كان من المستحيل أن يسير أكثر من فارسين أو ثلاثة مجتمعين. ولما خرجوا من هذه المسالك، وقفوا كلهم على مسافة نحو مَجْرَيَيْن للخيل من باب فاس، واتفق أن حاكم أزمور كان هو الأقرب لأنه كان في الطريق الكبير بحيث يسهل عليه الاقتراب. ووصل شراقة الذين كانوا في ميسرة فرناندو إلى باب الدباغين، وأهل الغربية إلى سيدي أبي العباس، وعبدة إلى باب الرب، حيث أزعجوا شيئاً مّا السكان الخارجين منه. كان الشرفاء ذلك اليوم في مراكش، مع أحد نواب ملك فاس وعدد كثير من الجنود الذين خرجوا عندما سمعوا الضجة من باب فاس، وحملوا على العدائين الذين كانوا غير منظمين بحمية كبيرة، فتصدوا لهم بمشقة عظيمة وجرح سيدي ميمون قائد عبدة في إحدى ساقيه

وسقط لوبي باريكَا حاكم أسفي، وكاد يهلك لولا أن أعانه ابن أخيه بيدرو باريكَا وأهل الغربية. ودامت المعركة أكثر من أربع ساعات، أسفرت عن عدد عديد من القتلى والجرحى من الجانبين. وأخيراً خرج من جميع الأبواب أقوام كثيرون راجلون وراكبون، فعزم المسيحيون على الانسحاب من إحدى مجازات واد تانسيفت إلا أنهم لم يتمكنوا من ذلك دون أن يقتل ويجرح العديد من الرجال والخيل أثناء الانسحاب. ولما وصلوا إلى المجاز الذي لا يستطيع أن يمر فيه سوى فارسين أو ثلاثة معاً، ضيَّق أهل المدينة الخناق على عدوّهم إلى حد أن دُمْ فرناندو اضطُرَّ إلى الوقوف في المؤخرة مع جنده حتى يجتاز الآخرون، ومع ذلك فقد وجد مشقة عظيمة في مقاومة حمية المغاربة. ولما اجتاز المغاربة التابعون له اجتاز هو مع المسحيين دون أن يفقدوا واحداً منهم، لكن الآخرين كان من بينهم عدد كثير من القتلى والجرحى. وبعد قطع المجازة، انضموا إلى بعضهم ليسيروا مجتمعين، لكن أهل المدينة عبروا المجازة في أثرهم، عازمين على الانقضاض عليهم بجميع قواتهم، وقد ساءهم أن يروا المسيحيين يجرؤون على مهاجمتهم وهم أكثر عدداً. غير أن المغاربة التابعين لدُمْ فرناندو، بعد أن ابتعدوا بنصف فرسخ عن النهر، كروا عليهم مع بعض المسيحيين الذين انفصلوا عن معظم الجيش، وصدوهم حتى النهر، بعد أن هلك بعض الاعداء، وقد قتل فرس نائب ملك فاس وهو راكب عليه. ثم عادوا ليلتحقوا بجيشهم الذي توقف في انتظارهم، وباتوا تلك الليلة في عين الحبن بعدما اجتاحوا البلاد وأفسدوها. وفي يوم الغد باتوا في حكَوسدن، ومن هناك إلى تازروت، حيث خصص لهم أعراب أولاد عمران استقبالاً حسناً جدا وأرسلوا إليهم قِرىً ومرطبات. ثم قصدوا المدينة وافترقوا هناك. التحق المسيحيون بأسفي وأزمور، والمغاربة بدواويرهم. إلا أن جرأة هذه العملية العسكرية زادت في سمعة البرتغاليين لكونهم جاءوا يهاجمون مدينة شهيرة، طالما أشاد المؤرخون بعجائبها، سواء منهم القدامى والمحدثون.

الفصل الواحد والاربعون

أغْمــاتْ

في إقليم مراكش

هذه المدينة البعيدة عن مراكش بثمانية فراسخ، الواقعة على منحدر أحد جبال الأطلس الكبير كانت في القديم عامرة جدا ومحاطة بأسوار عالية مع قصبة

جيدة، لذا كانت حاضرة الامبراطورية قبل أن تبنى مراكش. وينسب تأسيسها إلى الأفارقة الأقدمين، يقال إن المرابطين عندما انتقلوا من نوميديا إلى بلاد البربر مع ابن تاشفين، كان بأغمات أزيد من سبعة آلاف دار كما كانت عاصمة الإقليم، لكنها نقصت شيئاً فشيئاً، منذ تأسيس مراكش، إلى أن أصبحت خالية تقريباً. وقد عمرها الموحدون بعد دولة المرابطين، وأصلحوا من شأنها بحيث إنها غدت تدعى مراكش الثانية، لكن بني مرين دمروها وثلموا الأسوار في أماكن عديدة، وخربوا الدور، وتركوها مأوى للوحوش. موقعها جيد تكتنفه بساتين وكروم، مع نهر[38] في أسفلها يخرج من بحيرة كبيرة، ويسيل في سهول خصبة فسيحة، إلى أن يصب في تنسيفت. إن البادية الممتدة بين هذين النهرين تنتج غلة وافرة، بحيث إن صاعاً واحداً يعطي خمسين أو ستين صاعاً؛ وكانوا يشتكون من ضعف المحاصيل إن لم ينتج سوى نصف ذلك العدد. لقد أخذت قناة مراكش من هذا النهر، ويمر في أسفل المدينة الطريق الكبير المؤدي من بلاد البربر إلى إقليم جزولة عبر جبل الاطلس حيث يوجد ممر صعب جداً دخل منه المرابطون. يسكن القصر عُبّاد من قبيلة مصمودة، يعيشون عيشة الزهاد، ومن أجل ذلك بقي بعض السكان في المدينة، نظراً لما يكنّون لهم من احترام، لا يزعجهم سكان مراكش ولا الأعراب، ويعمل معظمهم في البساتين أو صنع الفخار أو حرث الحقول، وقد ألفوا ذلك المكان منذ حكم الشرفاء. يسمي بطليموس أغمات (يميري) في خريطة ليبيا، ويجعلها في الدرجة التاسعة وعشرين دقيقة طولا والدرجة العشرين[39] وثلاثين دقيقة عرضاً. لغة السكان هي البربرية، وقبيلتهم مصمودة. ومن أعجب ما في هذا المكان البحيرة التي تتجمع فيها كل مياه الجبل، وهي مقعرة في جهة ومرعبة بكبرها وعمقها اللذين يجعلانها معرضة كثيراً للزوابع.

الفصل الثاني والاربعون

أئـمّـاي أو أنيـم

هي مدينة صغيرة سكانها بربر من قبيلة مصمودة، بناها الأفارقة القدامى على منحدر أحد جبال الأطلس الكبير المسمى أئماي، في اتجاه الشمال، على بعد

(38) واد أغمات

(39) تقرأ : الدرجة التاسعة والعشرين بدلا من العشرين.

ثلاثة عشر فرسخاً من مراكش شرقيها على طريق فاس المحاذي للتل. يمر واد أغمات على بعد خمسة فراسخ من هناك، ويمتد بينه وبين المدينة سهل كبير ينتج كمية من القمح، وكثيراً من الكلأ للقطعان. وفي عام ألف وخمسمائة وثلاثة عشر استولى عليها شاب افريقي شجاع مقدام من نفس القبيلة، بعد أن قتل عمه، وأعاد إلى الطاعة مناطق كثيرة كانت ثائرة. وانتصر حتى على البرتغاليين الذين أغاروا على البلاد بصحبة الأعراب وغامروا دون أن ياخذوا طبيعة الأرض بعين الاعتبار، فلم ينج من ثلاثمائة برتغالي ولو واحد. وقد حمَّسه هذا الانتصار كثيراً حتى إنه امتنع عن أداء الخراج لملك فاس، فأرسل هذا الأخير لمحاربته عدداً وافراً من الفرسان ورماة البنادق المشاة فقتلوه في إحدى المعارك، ثم استسلمت المدينة وأصبحت تابعة لهذا الملك كذي قبل(40) وظلت منذ ذلك الوقت خاضعة لملك فاس إلى دولة الشرفاء. وليست هذه المدينة محصنة، اصطناعياً ولا طبيعياً، إذ يشرف عليها الجبل وليست لها سوى أسوار سيئة. ينبع وادي تانسيفت بالقرب من هناك، ويسيل نحو الشمال ثم يدور نحو الغرب دائماً عبر السهول إلى أن يصب في المحيط بناحية أسفي.

ولا وجود لمدن أخرى في إقليم مراكش، والأماكن الواقعة حول المدينة في منطقة الحوز، حيث يكثر الإنتاج ويزود المدينة بكل ما تحتاج إليه، هي الآتية : الحوز، أسطار، أزكيندن، سور الجوهرة، كرة التبن، تركَين، الحارة، سور الفقراء. وتوجد بالقرب من مراكش قرية أو مدينة صغيرة، تسمى مرامر تحيط بها سهول كبيرة، بها هذه الاشجار التي يصنع منها زيت الهرجان (أركَان). وهناك مدينة أخرى على بعد خمسة فراسخ من مراكش إلى جهة الشمال تسمى شيشاوة، باسم نهر يمر بالقرب منها. وقد حصنها الشريف، عندما كان يدافع عن نفسه ضد مراكش وآسفي، وأحاطها بأسوار عالية من الطوب، وهي الآن مهدمة، ولم يبق إلا أن نتحدث عن ثمانية جبال بهذا الاقليم، كثيرة السكان جداً.

---

(40) سنة 1515.

الفصل الثالث والاربعون

الجبال وسكانها

نفوسة المسماة الآن أدْرَارْ ــ نْ ــ دْرن(41)

هذا فرع من الاطلس الكبير، المحاذي لفرع تنزير من جهة الغرب، في إقليم حاحا. يسقط فيه الثلج عادة، لأنه شاهق، لكنِ ذلك لا يمنع من أن يحصد فيه الكثير من الشعير. سكانه من مجموعات رَكَراكَة، وهسكورة، ونفوسة، وغيرهم من برابرة قبيلة مصمودة، وهي قبائل شجاعة، كثيرة العدد، متغطرسة، لكنها من جهة أخرى في غاية البساطة والسذاجة بحيث تصدق كل ما يقال لها في أمور الدين، وإذا لقوا رجلاً من سكان المدن جعلوا يتعجبون من سلوكه ولباسه، لهم كمية من قطعان الماعز، وكثير من العسل والشمع، وتلك الثمار التي يصنع منها الزيت. يعيشون ويعاملون الأجانب على غرار أخبث قوم في العالم. ليس لهم مدينة مسورة، ودورهم مبنية بحجارة صماء(42) أو بمربعات رديئة من طين، ومغطاة بشبه أردواز، أو عروش أشجار، وهي مبعثرة هنا وهناك عبر الجبل. ولا تتعدى أهم مجموعة سكنية عندهم خمسين داراً، ولا تشتمل جلها إلا على ثمانية مساكن أو عشرة، توجد في الأعماق بأعلى الجبال. وفي سنة ألف وخمسمائة وثلاث وأربعين أيام كان الشريف محمد ملكاً بمراكش، ظهر بهذا الجبل سيدي عبد الله، الفقيه أو الخطيب المرابط من رهط الموحدين وحشد عدداً من البربر، لكن الشريف أرسل في الحين لقتاله سبعمائة من رماة البنادق الأتراك وأربعة آلاف من الفرسان المغاربة، بقيادة فارسي(43) فتسلق الأتراك الجبل، تاركين خيولهم في السفح. ونظراً لكونه قائماً جداً ومحتوياً على أماكن في غاية الوعورة، فإنهم تسلقوا شيئاً فشيئاً إلى القمة بكل عناء وخطر، لأن هؤلاء البربر كانوا يجتازون من جبل إلى آخر، دون أن يكترثوا بطلقات البنادق. وعلى مرأى من العدو، وفي المضايق والمنعطفات، يدحرجون على خصومهم قطعاً كبيرة من الصخر، فيهاجمونه من الجنب، ويهزمونه بصيحاتهم وصراخهم، فقتلوا العديد من الأتراك سواء بالنهار أو بالليل، ورغم هذا

---

(41) أدرار تعني بالبربرية جبال. ودَرَن علم على مرتفعات الاطلس الكبير، وتتوسط الكلمتين نون الاضافة ــ في التركيب البربري ــ فتصير : أدْرَارْنْ دَرَن، وقد كتبت في الأصل الفرنسي بدون همزة. (مترجم)

(42) دون ربط بعضها ببعض.

(43) تاجر.

كله فإن الأتراك اتبعوا نظاماً حسناً فأخذت كل فصيلة تساند بأخرى في الأماكن الأكثر وعورة، إلى أن وصلوا إلى قمة الجبل، التي كان الملجأ الأخير للبربر، فأخذوها عنوة، وانسحب عبد الله إلى أعلى مكان. لكن نظرا لكون الجبال المجاورة تابعة للشريف، ولانه يئس من الإغاثة من أية جهة، فقد استسلم على شرط أن ينسحب إلى مملكة فاس، مع أولاده وحاشيته، لكن الشريف عمل بِمَثَل يعقوب المنصور، الذي يقول إنه ليس من الضروري أن يُؤَمَّن الخائن، فأمر بقطع رأسه أمامه حين وصوله إلى مراكش. فقد كان ساحرا كبيرا، أو متظاهراً بالسحر. ذلك أنه عندما أراد أن يثور، جمع بربراً آخرين من جبل شيشاوة، وقال لهم إنه سيقضي بسهولة على أعدائه بفضل حكمته، بحيث إن جنود الشريف كانوا يصادفون في الطريق لدى وصولهم إلى الجبل، أكباشاً مذبوحة صوفها محروقة، وأرجلها مقطوعة وموضوعة في أعينها، مع تمائم مؤذية في الممرات الصعبة، الأمر الذي كان يفزعهم ويخيفهم من وقوع مكروه، لكن الفارسي الذي كان يترأسهم، ساق بعض المسيحيين الذي كانوا معه، وأمر بإحراق كل هذه التمائم، ومن أجل ذلك قال عبد الله إن المسيحيين هم الذين غلبوه، لأن المغاربة هم الذين نصب سحره ضدهم لا ضد الآخرين. وكانت هناك أجمل فتاة في الإقليم يرغب فيها الناس أكثر من غيرها، فلما رأت هؤلاء الجبليين يفرون، فكّت شعرها الجميل الذي كان مضفوراً وطويلاً جداً، وأمسكت سهمين في يدها، وجعلت تنادي الشباب قائلة : «تمسكوا بالشجاعة، وليَتبعني من يحبني! ولا ترضوا أن يتمتع الغير بما تحبون ولا أن أقع في يد هؤلاء اللصوص!» ولما جمعت حولها زمرة وافرة، اخترقت صفوف العدو، ولولا أنها قتلت بطلقة بندقية، لأذاقتهم الأمرين بعدما قتلت واحداً منهم بيدها. وقتل معها بعض عشاقها، ثم أخذ المكان عنوة ودمر بدون شفقة ولا رحمة. وبذلك أرغم المرابط ــ كما أسلفنا ــ على الاستسلام مع أتباعه، وبقي الشريف سيد الجبل الذي لم يتخل عن الثورة عدة مرات منذ ذلك التاريخ، وما زال ثائراً حتى اليوم. وهناك ينبع نهر نفوسة، الذي يلتحق بتنسيفت فيما بعد.

الصفل الرابع والاربعون

سَمِـد

هو أيضاً فرع من الأطلس الكبير، طوله سبعة فراسخ من الشرق إلى الغرب، ابتداءً من الفرع السابق الذي لا يفصل بينهما إلا نهر شيشاوة، وينتهي

إلى فرع كَدميوة. يسكنه قوم فقراء من قبيلة مصمودة، وقمته مكسوة دائما بالثلج، لكن هذا لا يمنع من أن يستخرج منه كثير من الشعير وتلك الثمار التي يصنع منها الزيت. وهناك عدة قطعان من الماعز وعدد من العيون، لكن السكان لا يبغون بديلاً ببلادهم لشدة خشونتهم، ظانين أنه لا يوجد أفضل منها. كان عبد الله قد ضم إليه أيضاً هذه القبائل فقتل منهم الكثير، حتى إن الجبل لم يسكنه أحد تلك السنة.

الفصل الخامس والأربعون

شيشاوة

يقع هذا الجبل جنوب الجبل السابق وملحقات الأطلس الكبير، وينبع فيه نهر يحمل نفس الاسم[44] ويسكنه بربر من نفس القبيلة، يحبون الحرب ويتقاتلون دائماً مع جيرانهم، جلهم مسلحون بالمقاليع يقذفون بها أحجاراً غليظة بدقة لدرجة أنهم يقتلون بها الطيور، وذلك هو مِرانهم الرئيسي. هذا الجبل شديد البرودة مكسو دائماً بالثلج في القمة، لكن هذا لا يمنع من أن يكثر فيه الشعير، والعسل والشمع والماشية الصغيرة، لأن البقر فيه قليل، والخيل غير جيدة. هناك بعض البنائين، وصانعي الأقفال من اليهود، لكن هؤلاء قليلو العمل بالنسبة للحرفة الاولى، لأن الجدران مبنية بالحجر الجاف أو المملط من خارج فقط[45] والسقوف مغطاة بالقش أو الأردواز، لأنهم لا يستعملون القرميد ولا الآجر ولا الجير. ولا يوجد بناء آخر في هذا الجبل ما عدا شبه برج قديم أو مسجد.

الفصل السادس والأربعون

سَكْسيوَة

جبل شاهق شديد البرودة، يقع شمال جبل شيشاوة وتخرج من شعابه عدة عيون، وفيه ينبع أسيف المال. قمة الجبل مكسوة دائماً بالثلج، وفي كل مكان منه صخور كبيرة وعرة، وكهوف تحفظ فيها المواشي في الشتاءِ خوفا من البرد[46]

(44) واد شيشاوة.

(45) أو بالحجر والتراب الجيد.

(46) ذلك لأن الثلج يسقط بغزارة.

وتعلف بالحشيش وأغصان الأشجار. لا يحصد السكان قمحا ولا شعيرا ولا حبوباً أخرى، لأن الأرض باردة جداً، ويأتون بذلك من مكان آخر، لكن لهم كمية من اللبن والسمن والجبن، خلال الربيع والصيف، ولا ينقصهم اللحم طوال السنة. يعيشون كالمتوحشين بصحة جيدة، بحيث انهم عندما يبلغون من العمر مائة وستاً وعشرين سنة لا يظهرون مسنين، ولا يشتغلون بشيء آخر طوال حياتهم سوى رعي قطعانهم. ومن العجب كيف يرتلون ملابس قليلة يتقون بها هذا البرد الشديد، إذ ليس لهم سوى عباءة تلفهم وأحذية نصفية من الجلد الطري، وخرق يلفونها حول أقدامهم. ولشدة نخوتهم يتحاربون دوماً مع جيرانهم، ويقتتلون لأتفه الأسباب. لا يتردد إليهم قاض ولا فقيه، ولا حضري من أهل المدينة، لأنهم ليسوا على الطريق المستقيم، ولذا فليس لهم قانون ولا قاعدة، ويعيشون كالحيوانات بين هذه الصخور.

الصفل السابع والاربعون

تينمل(47)

هذا الجبل أيضاً شاهق شديد البرودة، يسكنه بربر من قبيلة مصمودة. وتوجد في قمته مدينة تينمل التي دفن ملوك الموحدين الاولون(48) كما أسلفنا. وهم قوم خبثاء يتباهون بالعقيدة لكونهم درسوا مذهب المهدي الذي كان في بلادهم. لباسهم رديء، لأن التجار لا يمرون من هناك إطلاقاً، لكن عندهم جميع أنواع المواشي، وكثير من الشعير، وكمية من أشجار الجوز والصنوبر، ويعصرون زيت الزيتون. لما استولى الشريف على مراكش، كان سيد هذا الجبل وما جاوره هو مولاي إدريس الآنف الذكر، الذي كان يدَّعي بأنه من سلالة الموحدين، وبما أنه أيَّد الشريف، فقد أُقِرَّ في إمارته هو وعقبه في مقابل إتاوة يؤدونها له.

الفصل الثامن والاربعون

كَدميوة

يبتدىء هذا الجبل عند جبل سمد من جهة الغرب، وينتهي عند مدينة أمزميز في جهة الشرق، ويقع في جنوبه جبل تينمل. سكانه بربر من قبيلة مصمودة

(47) كتب في الاصل . تملت.

(48) المهدي وعبد المومن

وسلالة هنتاتة، يعيشون في فقر مذقع، تابعين للأعراب، لأنهم يقطنون قرب السهل على منحدر الجبل المواجه للجنوب، حيث توجد مدينتا أمزميز وتينيزاً. منحدر الجبل كله مكسو بالزيتون، أو أراض صالحة للحرث، يزرعون فيها الشعير. وهناك غابات من الصنوبر والجوز. وتنحدر من القمة جداول صغيرة عديدة، تسقي بعض القطع الارضية في السهل. السكان مهذبون أكثر من سكان الجبال الاخرى، لاتصالهم بالأجانب : لأن هذا ممر بلاد البربر إلى نوميديا، كما ذكرنا ذلك في وصف أمزميز(49).

الفصل التاسع والأربعون

هنتاتة

هذا أعلى جبال الاطلس الكبير، يبتدىء غرباً من جبل كَدميوة، ويمتد نحو الشرق إلى جبل أنماي، على مسافة ستة عشر فرسخاً(50) سكانه بربر من فرع هنتاتة المنتمين لقبيلة مصمودة، وهم قوم أثرياء محبون للحرب، يدعون أنهم أشرف سكان إفريقيا، لهم عدد عديد من الفرسان، وحصن حصين بناه أكابر القبيلة منذ زمن قريب، ومنه كانوا يحاربون الشرفاء قبل أن يستولوا على مراكش. لكن مولاي إدريس اتفق مع هؤلاء (الأشراف) منذ ذلك العهد، وأقروه في حكمه، كما أسلفنا. ويوجد في هذا الجبل عدد كثير من الصناع اليهود يعتبرهم اليهود الآخرون زنادقة لانتمائهم إلى فرقة القراء (يعتمدون نصوص التوراة وحدها).

قمة هذا الجبل مغطاة بالثلج طوال معظم السنة، بحيث إنه لا وجود لشجر ولا نبات من شدة البرد، وتشاهد في كل مكان أعمدة كبيرة وأحواض من الرخام الابيض الرفيع جدا لسقايات يبدو أنها صنعت أيام ازدهار مدينة مراكش، إذ توجد في الضواحي عدة مقالع من هذه الأحجار، لكن الحروب حالت دون أهداف الملوك فبقيت هنا بدون استعمال بسبب همجية السكان.

(49) الكتاب 3، الفصل 37.

(50) عند الوزان : يمتد على مسافة نحو 45 ميلا إلى جبل اديمي. (مترجم).

الفصل الخمسون

أَنْـمَـايْ

وهذا أيضاً أحد جبال الأطلس الكبير الشاهقة، يحده الجبل السابق من جهة الغروب، وجبل تسيوين من ناحية الشرق. يسكنه نفس القوم، وتقع مدينة أنماي في المنحدر، كما أسلفنا[51]. تكثر في أرجائه أشجار الجوز، والزيتون، والسفرجل، والتفاح، وغيرها من الاشجار المثمرة، وهو آهل بعدد كثير من السكان الذين يتباهون بالشجاعة، ويملكون كمية وافرة من الخيل، وقطعان المواشي الكبيرة والصغيرة، بسبب كثرة الكلإ واعتدال الهواء. يحصدون القمح والشعير والدخن في أراضي المنحدر والأودية التي يسقونها بالعيون المتفجرة بين هذه الصخور فتُكوِّن فيما بعد النهرين اللذين تحدثنا عنهما سابقاً، المسميين تساوين. وحيث انه لا وجود لمساكن اخرى عظيمة في هذا الاقليم، فسننتقل إلى إقليم جزولة الواقع جنوب الاطلس الكبير.

(51) الفصل 40، الكتاب 3.

الفصل الواحد والخمسون

إقليم جزولة، بمملكة مراكش

جزولة بلاد آهلة بكثير من السكان البربر من قبيلة مصمودة، يحدها إقليم درعـة شرقاً، وجبل العلم غرباً بإقليم سوس، وتمتد شمالاً إلى سفح جبل الاطلس تقريباً. يعتبر السكان أنفسهم أقدم شعوب افريقيا كلها لكونهم احتفظوا باسم جيتول، ولا يكسبون كثيراً من المال ولا من القمح، ولكن يملكون الشعير والمواشي بكميات كبيرة. وفي جبالهم عدد من مناجم الحديد والنحاس، وأغلب السكان نحاسون، يذهبون الى الحدود لمبادلة بضائعهم (1)بأشياء أخرى فضلا عن النحاس الذي ينقل من هناك إلى مراكش وترودانت لصنع سلاح المدفعية. لا وجود لأية مدينة ولا قصبة مسورة في الإقليم كله، بل ما هي إلا قرى كبيرة تضم ألف نسمة وأزيد. وكانوا في القديم يدبرون شؤونهم بنظام شبه جمهوري، بدون أي أمير ولا شيخ، لذلك كانوا يتحاربون دائماً فيما بينهم، لكنهم كانوا يقررون هدنة للتجارة ثلاثة أيام في الأسبوع ثم يقتتلون بعدها. كان هذا النظام قد أحدثه بينهم أحد الأولياء الذي يقدسونه كثيراً، فاحتفظوا به منذ ذلك العهد دون أن يخرقوه. يقام بالإقليم كل سنة سوق يدوم شهرين، وأثناء هذه المدة كلها يطعمون الغرباء الوافدين عليه مجاناً، ويحرس مكان التجمع ليل نهار جنود تحت إمرة قائدين، لمنع السرقات وغيرها من الجرائم. والعقوبة المطبقة على المجرمين، وخاصة اللصوص الذين يُفاجأون متلبسين بجريمتهم، هي القتل بطعنهم بالرمح ورمي جثثهم إلى الكلاب. يعين كل فريق أحد هؤلاء القواد عندما يحين وقت السوق الذي يقام في سهل بين الجبال، وتبقى الهدنة قائمة ما دام السوق. يوزع التجار على أروقة مختلفة، حسب اختلاف البضائع، فيقيم في أحد الجوانب باعة الجوخ أو القماش، والبزازون وباعة الخردوات في جانب آخر، وباعة المواشي في مكان، والمؤن في أماكن اخرى، فتكون الدكاكين منظمة حسب الترتيب والأزقة، وهذا شيء عجيب لا سيما وأن عشرة آلاف تاجر أجنبي ياتون إلى هذا السوق، سواء من بلاد الزنوج أو غيرها، فيطعمون على حساب الجمهور مع دوابهم(2) ما طالت إقامتهم به، وياكلون في ظلال أشجار قريبة من أخبية كبيرة، تعد بها المؤن من لدن أناس

(1) ثياب، وتوابل، وخيول.
(2) دواب العربات.

انتدبوا لهذا الغرض، لكنهم يربحون في بضاعتهم ضعف ما ينفقون، مهما كلفهم ذلك من نفقات. ومن الغريب مشاهدة النظام العجيب السائد في هذا السوق، وكيف يسير الكل بدون ضوضاء، مع أن هذه الشعوب هي الأكثر فظاظة وطيشاً في افريقيا بكاملها.

يبدأ السوق يوم المولد النبوي، الذي يقع في ثالث الشهور العربية الذي يسمى المولد أو ربيع[3] ويدوم شهرين كما أسلفا. يحظى الجزوليون بمعاملة حسنة، منذ حكم الشرفاء مراكش، لأنهم يستخدمونهم كحرس راجلين حاملين البندقيات، ولأنهم وجدوهم دائماً أوفياء، فضلا عن كونهم كانوا يؤدون خدمات جلى للشريف محمد، عندما كان ملك ترودانت. يوجد من بينهم حدادون ماهرون، وهم أول من أحسنوا تذويب الحديد وصنعوا منه كورا، عندما كان الشريف أحمد ملكاً بمراكش وكان هذا السر مجهولا لدى الأفارقة.

واللباس العادي لهؤلاء القوم عبارة عن معاطف صغيرة أو قمصان من صوف ضيقة جدا، لاصقة بالبشرة، قصيرة لا تصل إلا إلى الركبتين، وليس لها أكام ولا أطواق. يضعون فوقها سترة من القماش الخشن، مثل المسح، ويتقلدون خناجر طويلة على شكل مناجل، حادة من كلا الجانبين دقيقة الرأس جداً. ويشبهون أهل حاحا تقريباً في سائر الاشياء الأخرى.

الفصل الثاني والخمسون

إقليم دكالة

يبتدىء هذا الاقليم من جهة الغرب، عند نهر تنسيفت على حدود حاحا ويمتد نحو الشمال حتى المحيط. يقع إقليم مراكش في جنوبه، ونهر أم الربيع في شرقه فاصلا إياه عن إقليم تامسنا ثم يصب في المحيط قرب مدينة أزمور. يغطي الاقليم من الشرق إلى الغرب أزيد من ثلاثين فرسخاً، ومن الجنوب إلى الشمال أزيد من أربعة وعشرين. يكثر فيه القمح وقطعان الماشية، ويتكون معظمه من سهول، يجوب فيه أعراب كثيرون[4]، ويقطنه بربر كثيرون، يجوب بعضهم كذلك عبر البادية ويسكن البعض الآخر في منازل وأماكن مسورة.

---

(3) كتب في الاصل : جعمر.

(4) شراكة، وعدة، وغربية.

الفصل الثالث والخمسون

المـــــدن

أسفـــــي

يعتقد بعضهم أن هذه المدينة، التي يسميها الأفارقة أسفي والبرتغاليون أسافيي، إحدى المدن التي شيدها حانون قائد القرطاجنيين في ليبيا بأمر من مجلس الشيوخ، وسميت من أجل ذلك ليبي ـــ فنيقية[5] ولذلك فإنها قد أسست قديماً، وبناها الأهلون، على ما يقال. تقع على شاطىء المحيط، في طرف إقليم دكالة، ولها أسوار متينة عليها سبعة وثمانون برجاً، ودائرتها ألف وثلاثمائة وسبعون مقياساً زراعياً[6]. وفي اتجاه الغرب يوجد قصر مرتفع قليلاً يطل على جرف صغير، فيه صخور كثيرة، وليست محصنة إلا من جهة الشمال. تضم أربعة آلاف دار، وهي غير حصينة بسبب أبواب عدة تتحكم فيها. الأراضي المحيطة بها غنية بالقمح والمواشي ولو أن السكان لا يهتمون الا ببساتينهم المحيطة بالمدينة. والتجارة في أسفي لا بأس بها منذ أن تركها ملك البرتغال، لأن العديد من اليهود يلجأون إليها. لكن رواجها كان أكثر بكثير قبل أن تسقط في أيدي البرتغاليين، لان تجار اسبانيا كانوا يحملون إليها في كل آن الجوخ، والقماش، وبضائع اخرى، يستبدلون بها الجلود، والشمع والنيلة، والصمغ عند أفول نجم بني مرين، لكن سرعان ما استولى عليها بعد ذلك مباشرة أحد أكابر المدينة، الأمر الذي أدى إلى حروب أهلية وجعلهم فريسة للبرتغاليين لما استنجدوا بهم.

كيف استولى الملك دُم مانويل البرتغالي على مدينة أسفي :

إن هذه المدينة وإقليم دكالة بأسره كانا تابعين لمملكة مراكش، خاضعين دائماً لملوكها، لكن عندما أفل نجم بني مرين، بقي مولاي ناصر بوشنتوف مسيطراً على هذه المملكة، فثار عليه أقوام كثيرون بسبب ضعفه، ومن جملتهم سكان أسفي، بواسطة بني فرحون، وهم مواطنون نبلاء جعلوا من أسفي جمهورية تحت سلطتهم. لكن أحدهم اسمه احمادوش كان يدبر شؤونها فقتل من طرف أحد أبناء أخيه المدعو عبد الرحمن الذي استمال الشعب بثقته وحذقه وصار أميراً.

---

(5) دلك لأن قرطاجنة كان يسكنها الفنيقيون.

(6) أداة لمسح الاراضي (في القديم).

وبعد أن حكم طويلاً قتل بدوره في وقت كان فيه اقل تفكيرا في الموت، إذ كانت له ابنة جميلة يعشقها شاب من أكابر المدينة اسمه علي بن وشيمن، تمكن من وطئها بواسطة أمها نفسها وخادمة. ولما بلغه الخبر، عزم على أن يثأر منه، لكن المرأة وابنتها فطنتا بذلك فأخبرتا العاشق، وعزم هذا الاخير على أن يسبقه. ولما اطلع على سره أحد أصدقائه(7) الذي كان أيضاً من أكابر المدينة، اتفقا معاً على تنفيذ مشروعهما في أقرب وقت ممكن. وفي هذه الأثناء، كان عبد الرحمن يفكر في الانتقام فأرسل إلى علي في يوم عيد أن ياتي إلى المسجد ومنه سيذهبان للتفسح، لأنه يرغب في أن يطلعه على أحد المشاريع الكبرى. شك علي في الأمر، وأخذ معه المدعو يحيى وعشرة شبان(8) آخرين من أصحابهم، وتوجهوا إلى المسجد الذي كان غاصاً بالناس من أجل العيد. فأفسحوا لهم الطريق مثلما يفعلون بالنسبة للوجهاء، ولما وصلوا إلى حيث كان عبد الرحمن يصلي بجانب الإمام تقدم يحيى إلى الأمام بينما طعنه علي من خلف بخنجر، ثم دار الآخر وأجهزا عليه. وعندما أراد الحرس أن يتحركوا، شهر باقي المتآمرين السلاح وأوقفوهم، فظنوا أن ذلك كان مؤامرة عامة، وخرجوا من المسجد، والجمهور كله معهم. ولما أيقن المتآمرون من إفلاتهم من الخطر انطلقوا إلى وسط الساحة مع العديد من الأقرباء والأصدقاء، وهم يصيحون بأنهم قتلوا الطاغية الذي أراد أن يفتك بهم ليتمتع بطغيانه أكثر، فوافق الشعب على عملهم وانتخب علياً ويحيى حاكمين بصفتهما القائمين بتحريره. وكان اذ ذاك في أسفي ثلاثة عشر مسيحياً أسيراً، تمكنوا في غمرة هذا الاضطراب من الفرار على زورق إلى قصر كان ملك البرتغال قد بناه على الشاطىء في السنة الفارطة. وبعد أن أخبر علي الحاكم(9) بما جرى، أتاه بعد يومين، وطلب منه باسم يحيى واسمه أن ياتي مع بعض أصحابه لنصرتهم على أهل الميت، واعدين إياه أن يكونا تابعين للملك، فاقتنع الحاكم بهذه المبررات وذهب مع اثني عشر برتغالياً إلى أسفي، حيث كان فيه عدد من المسيحيين مقيمين من أجل الاتجار. لكنه، بعدما قضى هنالك ثمانية أيام، ورأى أن الأمور لا تدبر حسب مشيئته، وخشي غدر المغاربة، عاد أدراجه مع علي وثلاثة من الوجهاء، تاركاً يحيى عاملاً على المدينة. لكن علياً والثلاثة الآخرين تبعوه إلى البرتغال وقدموا أنفسهم كأتباع للملك لينجدهم. ومن جملة ما وقع عليه الاتفاق، أنهم سيهبون للبرتغاليين

(7) يحيى بن تعفوفت.

(8) عند الوزان : 20 شاباً.

(9) دييگو دازامبوك.

داراً مطلة على البحر تستعمل لحساب التجار المسيحيين، وأحد الأبراج الرئيسية لأمنهم. وعندما رأى ملك البرتغال أنه قادر على التمكن من هذه المدينة، صرف عامل القصر، دييكَو دازامبوك، مزوِّداً إياه بتعليمات، وأمر كَارسيا دي ميلو، الذي كان قائد سفن الكرافيل للأسطول البحري في المضيق أن يساعده في كل ما يحتاج إليه. فانطلق لحينه إلى آسفي، قبل مجيء أزامبوك، ووجد السكان مسلحين، بعيدين كل البعد عما قاله علي وأصحابه. وبعد ذلك بقليل[10] وصل أزامبوك مع علي الذي حضر لتنفيذ وعده، لكن سرعان ما صرفه عن ذلك الفقهاء الذين أفادوه بأنه من الأولى والأحسن للمغاربة أن يقتتلوا من أن يطيعوا المسيحيين. ولما رأى البرتغاليون أنه بدأ يندم، عزموا على بث الريبة بينه وبين يحي. أما كَارسيا دي ميلو، فبواسطة طبيب يهودي كان يزوره لأنه كان عليلاً، أرسل بطاقات صادرة عنه وعن أزامبوك على حد سواء إلى قائدي المغاربة[11] لإذكاء ريبتهما، وحمل كلٌّ منهما على الظن بأن الآخر يريد قتله. كان الطبيب اليهودي يتناول البطاقات من يد كَارسيا دي ميلو وهو يجس نبضه في السرير، ويرد إليه الجواب بنفس الطريقة. وكان المغربيان، في هذه الأثناء، يقدمان اقتراحات هامة للبرتغاليين حتى يستعين بهم كل منهما ضد خصمه، فساعداهم على الدخول الى المدينة مع خمسين جندياً. ومن أجل ذلك منحاهم منزلاً كبيرا في تلك الجهة، كان يملكه عبد الرحمن ويطل على البحر. لم يطل ندمهما، إذ لم يفت البرتغاليين، مهما كانت ريبتهم، أن يحملوا الاسلحة والعدد إلى منزلهم في براميل وصناديق. ومن جهة أخرى أرسل ملك البرتغال وقد علم بذلك في بداية السنة[12] كَونزالي مينديس[13] بأربع كرافيلات ليستولي على المدينة، على أمل أن يحتل بعد ذلك مملكة مراكش بأسرها. ولما وصل كَونزالي إلى أسفي مع مائتين من رماة البنادق أو القذافين وعدد من المتطوعين وجد البرتغاليين في غاية القلق من مناورات المغاربة، واتفق معهم على أنهم سيصرحون ليحيى وعلي بأنه لا بد من الاتفاق، تلافياً للتفرقة، وأن يتقلد أحدهما حكم المدينة تحت سلطة البرتغال. فكان كل واحد منهما يؤثر صاحبه نخوة، لكن الحكم آل أخيراً إلى يحيى الذي منع فوراً أن يحمل الحجر والجير والرمل إلى منزل البرتغاليين لتحصينه. وفي الحين أشار دييكَو دازامبوك على علي بأن

(10) 1507.

(11) علي ويحيى.

(12) 1508

(13) كونزالي مينديس دي سكوط.

يذهب ليلا مع أهله وأصدقائه ليقتلوا يحيي في داره، واعداً إياه أن يبقى عاملاً، فنفذ علي هذا المشروع وأرغم يحيى على أن يفر في وسط الليل ويلجأ إلى منزل المسيحيين الذين كان يجهل أنهم شركاء في هذه المؤامرة. وذهب أحدهم[14] ولم يكن أزامبوك قد أطلعه على ذلك، إلى أن خصص له اقتبالاً حسناً وأواه ثمانية أيام في مسكنه، فأدلى أثناءها بمبررات مقبولة لما قام به، حتى إن أزامبوك أرسله إلى البرتغال ليتبرأ إلى الملك، فأرجعه هذا الأخير إلى أسفي وأنعم عليه وعلى عشرين من الفرسان المغاربة، ومنحه لقب قائد البادية، نظرا لمعرفته للبلاد. وقد أدى من ذلك الحين خدمات جلى للملك البرتغال برفقة الأعراب والبربر من شيعته، فلم يهزم الشرفاء الحاكمين بسوس وحاحا وحدهم، بل تغلب حتى على جنود مراكش وفاس، جاعلاً جميع سكان دكالة و قسماً من سكان حاحا ومراكش تابعين للبرتغال. إلا أن دييكَو دازامبوك سلم في غيبته حكم آسفي إلى خصمه ظاناً أنه سيساعد على تقوية البرتغاليين لكنه تعرض لذلك بكل سلطته مع عقوبات وامتناعات. ولم يلبث الحصن يرتفع شيئاً فشيئاً، واجتناباً لكل ريبة، كانوا يغلقون من الخارج ويبلطون من الداخل الثقب ومرامي المدافع، حتى يظن أنه مجرد سكن يلجأ إليه. وعندما هيء البناء للدفاع، فتحوا في الليل السور المجاور للساحل لجعل باب فيه، وأقاموا حاجزين في الماء ليسيروا عليهما من مسكنهم في مأمن كما لو كانوا يجتازون رواقاً. ثم إن أزامبوك عزم على قطع العلاقات جهراً مع علي، ملاحظاً عليه عدم احترام كلمته في أنه يتركه يتم التحصين، فأجابه أنه يستغرب من تكبر لبرتغاليين، الذين يعتبرون أنفسهم سادة بينما هم ما يزالون خاضعين لسلطته، ولا يستطيعون العيش بدونه، إذ كان يحضر لهم المؤن يومياً، فأجابه أزامبوك قائلا إنهم سيتغذون من دم المغاربة ومن لحمهم. فعض علي أصبعه عندما سمع هذه الكلمات دون أن ينطق بكلمة، الامر الذي ينبيء عن تهديد كبير عند المغاربة. لكن دييكَو دي أزامبوك عزم على مهاجمته قبل أن يحشد الجنود ويتحصن. وحتى لا يظن أنه تسبب هو في قطع العلاقات اغتنم فرصة صفع أحد أتباعه من جراء نزاع حدث له في شأن لحم مع جزار فأمره أن يقتل المغربي الذي صفعه، وعين أحد أصحابه ليحضر معه كي ينجز ذلك بسهولة. وعندما وصل الجزار إلى الساحة، جاءوه من خلف وضربوه بالسيف، لكنهم لم يستطيعوا أن يشفعوا الضربة بأخرى، لأن الناس أسرعوا إليه ولأنه ارتمى في دكان تاجر كان قريباً من هنالك. فتراجعوا بصعوبة كبيرة

(14) دييكَو ديمبراندا.

إلى مسكنهم، وسرعان ما طوقه جمهور غفير من المغاربة برماحهم ودروعهم وبعضهم بالبنادق والقذافات، لكن، لما شاهدوا أنهم لا يستطيعون الاقتحام في هذه الحالة، ذهبوا يبحثون عن مدافع قديمة كانت في القصر، أخرجوا منها طلقات بصيحات وصرخات هائلة، وفي غداة الغد تناول البرتغاليون أسلحتهم بعدما استمعوا إلى القداس، وحملوا عليهم بشدة، ففاجؤوهم غير منتظمين وساقوهم بالضرب إلى المسجد، حيث استؤنف القتال وهلك فيه مغاربة كثيرون. وفي الأخير عندما لم يستطيعوا أن يقاوموا البرتغاليين، ولا أن يصمدوا أمام طلقات بندقياتهم، غادروا المسجد، ولجأ الأعيان إلى القصر المطل على البحر، ومن هناك قتلوا بعض المسيحيين بطلقات المدفع، لكن المدفع الذي كانوا يضربون به حطم بقذفة من الكرافيلات، بحيث إنهم لم يعودوا يستطيعون استعماله. فلما رأوا أن دفاعهم غير مجد، طلبوا السلم من أزامبوك فأراد هذا الأخير أن يأخذ مفاتيح القصر والأبواب، فسلموها إليه مرغمين، وصاروا أتباعاً للملك البرتغال. لكن الكثير منهم خرجوا بنسائهم وأولادهم أنفةً من الخضوع للمسيحيين، ولجأوا إلى جبل بني ماكر وغيره من الأماكن. والتحق علي بمدينة تاركة[15] مع أهله وأصدقائه وجميع أفراد أسرته، فأقام بها إلى أن دخل أخو ملك فاس[16] إلى إقليم دكالة، بدعوى أنه سيخلصه من نير البرتغاليين، فأخذه معه إلى مملكة فاس. وهكذا استولى ملك البرتغال على أسفي، حيث أقام منذئذ حامية قوية إلى أن رأى أن يغادرها[17] لأسباب أشرنا إليها في مكان آخر، وأرجع إلى البرتغال الجنود المقيمين بها، بعد أن حطم قسماً من الأبراج والأسوار، لكن الشريف[18] ما عتم أن عمرها بالمغاربة وأقام لحراستها والمحافظة على الأمن بها عاملاً مع مائتين من رماة البنادق، بحيث إنه يوجد بها جمرك ويقصدها التجار من كل جهة. ولنتحدث الآن عن أعظم ما تم إنجازه في أسفي تحت حكم ملك البرتغال.

كيف حاصر المغاربة مدينة أسفي :

لما استولى البرتغاليون على أسفي بالكيفية التي ذكرناها، أرسل اليها نونيو فرنانديس دي أطايدي كحاكم مع جنود من الفرسان والمشاة، وكمية من السلاح والمدفعية، والذخيرة الحربية، فأخذ في الحين يشن الغارات في جميع الجهات،

(15) على بعد عشرة فراسخ من أزمور.

(16) هو مولاي ناصر، أخو محمد الوطاسي.

(17) سنة 1541.

(18) هو مولاي أحمد (الأعرج).

وحصل على عدد من الأسرى والغنائم حتى إن السكان خضعوا لملك البرتغال في دائرة تبلغ مسافتها خمسة أو ستة فراسخ، إلا أنهم أتوا لمحاصرة المدينة مع مغاربة آخرين، وذلك بتحريض من الفقهاء الذين استنكفوا عن أداء الخراج للمسيحيين. وكان أكابر هذه الفئة أعراب أزمور[19] والغربية مع آخرين، وكافة البربر المقيمين بين أزمور والمدينة إلى نهر كوز الواقع غربي أسفي، وعددهم خمسة آلاف فارس ومائة ألف راجل. فعسكر البربر مع قسم من أعراب أولاد سبيط[20] من باب كافس إلى القصر، وأولاد عمران مع باقي أولاد سبيط، وبعض البربر من الشياظمة، من القصر الى البحر. فطوقوا المدينة هكذا من بحر إلى آخر، بعدة حصون ومعاقل، وبدأوا يحطمون السور بقذائف المدفعية من الحديد والبرونز. وعندما أخبر الحاكم بمجيئهم أطلَع ملكَ البرتغال على ذلك بواسطة بعض التجار المسيحيين بحيث إنه وصلته النجدة من قشتالة والبرتغال، ومن جزيرة مادير نفسها، التي أوفد إليها رسولا في هذا الصدد. فحدد لكل واحد مركزه منذ بداية الحصار، وسلح اليهود بقيادة رئيسين منهم[21]. وبعد أن قام ببعض الترتيبات والأشغال التي يقتضيها الدفاع، عزم على انتظار الهجوم. وبعد مرور سبعة عشر يوماً من الحصار، ومقتل ستة آلاف مغربي في هجومين، انسحب المحاصِرون بخسارة كبيرة، وقد رأوا أنهم غير قادرين على أي شيء أمام صمود المحاصَرين. فحمل الحاكم على المؤخرة بأربعمائة فارس، ومائة من رماة البنادق، ثم انسحب وهو خجل من قلة عدد جنوده بعد أن قتل وأسر عدداً من خصومه، ولولا ذلك لكانت الهزيمة أكبر.

وفي هذه الأثناء خضع عدد من الأعراب والبربر لملك البرتغال. ووقع الفتك بالذين امتنعوا من الإذعان : ذلك لأن الحاكم، الذي استحضر يحيى من البرتغال، اغتنم الوقت والمناسبة فنهب عدة قرى للبربر، وعدة دواوير للأعراب، ثم أرسل عدداً من الأسرى ليباعوا في البرتغال، من إقليم دكالة والأماكن المجاورة. وبالتالي فقد نال هذان القائدان انتصارات على المغاربة، لدرجة أن سكان إقليم دكالة، والأماكن الواقعة على طول نهر أم الربيع، أو على طول الساحل، وكذا سكان داخل البلاد إلى جبل الأطلس، وعلى بعد أكثر من خمسة عشر ميلا من جهة مراكش، كانوا يؤدون الإتاوة[22].

(19) أولاد عمران، وأولاد يعقوب، وأولاد بوعزيز، وأولاد سبيط.

(20) في 13 دسمبر 1510.

(21) هما إسحاق بن زمرة وإسماعيل.

(22) القمح والشعير والماشية.

غارة كبرى شنها المسيحيون من أسفي على بلاد المغاربة سنة 1511 :

عندما علم حاكم أسفي أن خمسة وعشرين دواراً رحلوا إلى مكان يبعد بنحو فرسخين من المدينة بعث أربعة من فرسانه من ذوي التجربة الكبيرة لاستطلاع الخبر. ولدى وصولهم إلى ربوة استطاعوا من أعلاها أن يكتشفوا الدواوير ويقفوا على وضعية البلاد، عادوا إلى أسفي دون أن يتجاوزوا ذلك المكان لئلا يعرفوا بأثر خيولهم، لأن حوافر أفراس المسيحيين لها ثمانية مسامير، وأفراس المغاربة له ستة فقط، فأطلعوا الحاكم ليلا على وضعية المكان الذي يعسكر فيه الأعراب، والطريق الذي يمكن الوصول منه إليهم في أمان. وفي غداة الغد عند الفجر، أمر الحاكم بألا يخرج مغربي ولا يهودي، وأعلن بالبوق الركوب على الخيل، وانطلق مع أربعمائة فارس وخمسمائة من رماة البنادق والقرابينات، تاركاً حراسة المدينة لنونيو كَاطو والثكنات مزودة بأحسن زاد، إذ كان بالمدينة حينئذ تسعمائة فارس وألف راجل. وكان الأعراب معسكرين في سهل قرب البحر، محتلين أزيد من نصف فرسخ على طول أحد الوديان، وما أن أبصرهم الحاكم عند بزوغ الشمس حتى أمر الفاري أطايدي، ولوبي باريكا نائبه على المدينة بالهجوم من أحد الجوانب مع مائتين وخمسين فارساً، بينما توقف هو على أعلى الربوة مع باقي الجنود، فدهم العدو فجأة وبشدة قوية بحيث لم يتمكن من الصمود كثيراً، وتفرق هنا وهناك، تاركاً أكثر من ثلاثمائة قتيل في عين المكان، وأسر خمسمائة وسبعة وستون شخصاً، سواء من الصغار أو الكبار، وغنمت خمسة آلاف رأس من الماشية الصغيرة، وألف ثور أو بقرة، وثلاثمائة جمل، مع عدد من الخيل والدواب، وعادوا بها الى أسفي منتصرين. كانت الغنيمة كبيرة تغطي أزيد من نصف فرسخ من الأرض، فخشي الحاكم أن يكر العدو فيهزم جيشه أثناء عودته، لأنه كان مضطراً إلى السير وهو متفرق ليضم القطعان، فترك الإبل وجميع الماشية الصغيرة، لأنه كان عليه أن يقطع ثمانية فراسخ في طريق وعرة، فوصل ليلا إلى أسفي بسير منتظم مع ما بقي من الغنيمة، دون أن يجسر على مهاجمته ثلاثمائة فارس مغربي من المدينة كانوا يتبعونه. ولم يفقد سوى ابن أخ له كان تركه لحراسة المدينة(23)، فاختلط مع الأعداء حتى إنهم لم يستطيعوا إغاثته. وفي غداة الغد ذهب قائد(24) أعراب الغربية وقواد آخرون ليسلموا عليه

---

(23) هو نونيو كَاطو.

(24) هو عيسى أبو بكر.

ويقدموا له الولاء باسم قبائلهم، وقد كانوا مقيمين بأسفي عندما خرج منه فرنانديس وأخذوا منذ ذلك العهد يؤدّون الإتاوة، وحذا حذوهم أعراب وبربر آخرون من الإقليم : بحيث إن البرتغاليين بدأوا يشتهرون في هذه المناطق. كان ملك البرتغال يجبي موردا كبيراً من الإتاوات، ومن دخول البضائع الواردة إلى أسفي، فكان المسيحيون واليهود والمغاربة يحصلون على أرباح طائلة على حد سواء. وها هي الإتاوات التي كان المغاربة يؤدونها إلى حاكم أسفي باسم ملك البرتغال في ذلك العهد. كان أهل عبدة، وهم أهم أعراب الإقليم، يدفعون حِمْلَ ألف جمل في السنة، نصفها من القمح، ونصفها من الشعير، على أن حملين من الشعير كانا يعادلان حِمْلاً من القمح. ويعادل حمل جمل عشرين كيلا[25] من الشعير أو اثنى عشر من القمح بالاضافة إلى أنهم كانوا يقدمون كهدية ستة من الخيول الفارهة وأربعة صقور. وكان أهل الغربية[26] وهم أيضاً من أكابر الاقليم، خاضعين لنفس الضريبة، وكذلك أولاد عمران الذين هم أيضا في غاية القوة والغنى، وأولاد عمران الافكاني من نفس القبيلة؛ وأولاد الشياظمة، وهم جماعات من البربر يعيشون في الدواوير كالأعراب، أقوياء جداً؛ وأولاد مطاع مع سكان المدينة، وهم بربر. وعلاوة على هذا، كانت إتاوة القمح التي يحملها الأعراب إلى المدينة تساوي أكثر من خمسين ألف كيل قمحاً، ومائة ألف كيل شعيراً. وكان أهل مدن أكوز، وأكَير، ونمر، وهم خاضعون لنفس المقدار، يؤدون أيضاً إتاوتهم كالآخرين، مع اربع صقور إناث. ذلك كان دخل أسفي قبل أن تحتل مدينة أزمور، بقطع النظر عن الجمرك والحقوق الأخرى المفروضة على البضائع الواردة إليها. وزيادة على هذا، كان البرتغاليون يشنون غارات على داخل البلاد بصحبة حلفائهم، ويجبون الخراج من الأقاليم المجاورة أو ينهبونها ويأسرون السكان. وقد فعلوا ذلك مراراً متعددة، كما سنراه في هذا التاريخ.

كيف هزم قائد أزمور كوبي باريكًا الشريف :

عندما كان الشريف يحكم حاحا، ورأى أن حاكم أسفي ويحيى توغلا في السنة الماضية داخل البلاد بأزيد من خمسة وعشرين فرسخاً، مع مسيحيي المدينة والأعراب الخاضعين لملك البرتغال، وأنهم جاءوا إلى ضواحي مدينة البرج الواقعة

(25) هاتيكا، وهو كيل باريس أو نحوه.
(26) غربية اسيتشا.

على منحدر الأطلس الكبير، حيث نهبوا خمسين دواراً، وقتلوا أو أسروا عدداً من الأشخاص، وحملوا إلى أسفي أكثر من عشرين ألف رأس من الماشية، وأربعمائة جمل، دون أن يجدوا أحداً يجرؤ على مواجهتهم، بالإضافة إلى أنهم احتلوا مدينة تدنست التي كانت مقر إقامته : حشد الشريف ما استطاع من الناس، كما يفعل من يدعي الصلاح ويعلن الجهاد ضد المسيحيين وحلفائهم من المغاربة، فاقتحم معسكر أولاد الشياظمة وكبّد أتباع ملك البرتغال أضراراً جسيمة لجأوا على إثرها إلى حاكم أسفي[27] وعندما علموا أن الشريف خرج إليهم، اجتمعوا وذهبوا لانتظاره في مسكريس، شرقي جبل الخروب، مع خمسين فارساً، كان هذا الحاكم قد أرسلهم إليهم بقيادة نائبه لوبّي باريكا. كان فرسان الشريف قد وصلوا إلى أحد دواوير الشياظمة، وقتلوا بعضهم، ولما كانوا مشتغلين بنهب الخيام، حملوا عليهم فجأة، وشتتوهم واقتفوا أثرهم الليل كله، ثم عادوا منتصرين إلى دواوير الشياظمة، بعد أن قتلوا منهم عدداً كثيراً وأسروا بعضهم، لكن لوبي باريكا، الذي كان شجاعاً مقداماً، أرسل إلى الحاكم يطلب منه النجدة ليذهب إلى أبعد، وقد ظن أنه لم يقم بأعمال كافية، وعندما وصل إليه ثانياً خمسون فارساً بقيادة جورج منديس دي أطايدي عزم على الزحف ضد الشريف،الذي كان آتياً بألف وستمائة من الرماة، ليحاربه بجيشه وحلفائه. ولما تقابل مع الأعداء، كون كتيبتين من ستمائة رام، سلم إحداهما إلى جورج مينديس وإلى بيدرو باريكا ابن أخيه، واتخذ الأخرى لنفسه. كما كون كتيبتين من المغاربة الذين كانوا معه وجعلهما بجانبه، وأمرهما بما ستقومان به. زحف الشريف بثلاث كتائب، الأولى مؤلفة من سبعمائة فارس بقيادة ابنه البكر عبد الكبير، والثانية من ثلاثمائة بقيادته هو، والأخيرة من ستمائة بقيادة ابنه أحمد، كانت هاتان الكتيبتان في الميمنة والميسرة، والأخرى في القلب. ولما طوقت الاولى كتيبة جورج مينديس وضغطت عليها بشدة، أسرع إليها لوبي باريكا بكتيبة فهاجم العدو من خلف، مفسحاً الطريق بقتاله حتى التحق بجورج مينيديس، الذي كان يدافع عن نفسه بشجاعة، وعندئذ هاجم الحلفاء الكتيبتين ودام القتال أكثر من ساعتين، دون أن ترجح كفة أحد الفريقين. وأخيراً أسقط بيدرو باريكا عبد الكبير عن مطيته بضربة رمح، فأعاده إليها قومه بأقصى جهد ممكن، لأنه كان مصابا بجروح بليغة وتفرقت كتيبته. ولما رأى لوبي باريكا أن كتيبة الشريف ما زالت صامدة حشد ما أمكنه من الناس وحمل عليه مع بعض

---

(27) نونيو فيرنانديس.

الحلفاء، وهزمه فكسر حيناً باقي الجيش، واقتفى المسيحيون أثره مع حلفائهم، وقتلوا نحو مائة رجل، كان من بينهم عدة شيوخ وحكام، ومن جملتهم المدعو ابن تاكوجين مع ابنه، الذي كان له شأن كبير، فقتلهما لوبي باريكا معاً، لإغاثة حامل سلاح[28] كان الأول قد جَنْدَلَه بضربة رمح فنجا الشريف هارباً، بعد أن فقد رايتين وطبلا، وعاد المسيحيون إلى أسفي، دون أن يفقدوا أحداً منهم، ولم يصب منهم سوى أربعة بجراح.

هجوم نونيو فرنانديس على بلاد المغاربة حيث قتل وهزم قومه :

وفي السنة الموالية ذهبت جماعات من أولاد مطاع التابعين لملك البرتغال، إلى حاكم أسفي يشتكون له من أعراب أولاد عمران، الذين كانوا يغيرون على بلادهم ويأخذون قطعانهم، طالبين منه النجدة. كان يحيى إذ ذاك في البرتغال، وهؤلاء الأعراب الذين كانوا يحبون القتال ويوجد من بينهم نبلاء شجعان، لم يطيقوا ملامة المغاربة الآخرين، الذين كانوا يسمونهم عبيد المسيحين، فثاروا لذلك، وبعد أن أوغلوا في البلاد بقطعانهم، رَعَوا جميع كلإ حدود هسكورة، على بعد أزيد من أربعة عشر فرسخاً من مدينة مراكش الى جهة الشرق، وحاربوا بعنف الأعراب والبربر الخاضعين لملك البرتغال. ولما كان حاكم أسفي يبحث عن الفرصة لإظهار نفسه، وعلم أنهم اقتربوا من الأطلس الكبير، أراد أن يصيبهم بضربة، وانطلق من أسفي في أربعمائة وخمسين فارساً برتغالياً، وستين من رماة البنادق أو القذافين الراجلين[29] الواقعة على بعد ثمانية فراسخ من أسفي، شرقي جبل بني ماكَر. أخذ ثلاثة آلاف وخمسمائة فارس سواء منهم أو من الغربية، موهماً إياهم أنه سيجتاح مراكش، فسار الليل كله، وانقض في الصباح الباكر على أحد دواوير أولاد عمران فإذا برئيسه، وهو أرحّو بن شحموط يمتطي فورا فرسه مع بعض الاعراب الذين كانت خيولهم مسرجة ملجمة، حسب عادتهم متى كانوا في مكان خطير، وخاصة من منتصف الليل الى الصباح. إلا أن البرتغاليين خربوا الدوار وانقلبوا راجعين إلى أسفي مع عدد من النساء والاطفال والشيوخ ساقوهم أسرى. ولما وصلوا بعد الظهر إلى شريس الواقعة غربي مراكش، ليقيلوا بها من حرارة النهار. أقبل ابن شحموط مع مائة فارس وقد تأهبوا للمسير، فصاح من بعيد على مغاربة

---

(28) هو بايو روير.

(29) في شهر ماي.

هو ألفونسو دي فارو.

الفئة المضادة، أن الوقت حان للانتقام من المسيحيين الذين طالما ألحقوا بهم أضرارا، وهو لايفتأ يناوش حولهم كرجل يائس. وأخيراً لمح من بين الأسيرات أعز نسائه إليه، وكانت بارعة الجمال من بنات عمه، فناداها بأعلى صوته ألَّا تَهِن ولا تحزن لأنه يامل بعون الله أن يخلصها ذلك اليوم. فأجابته بشدة، بعد أن استأذنت الجنود : «خلصني من الاسر، أو مت كمداً، إن لم تكن نسيتني أيها الفارس الهمام، فطالما أعربت لي عن شدة محبتك لي. فسوف أصحبك، سواء في الحياة أو في الممات، لكنني أخشى أن تكون الكلمات التي خاطبتني بها مجرد هواء!» إذ ذاك شهر ابن شحموط رمحه وقال : «يطّو ــ وكان ذلك اسمها ــ لم أقل شيئاً لم أعمل به، وسأحبك دائماً طول حياتي. فالنهار طويل وشجاعتي عظيمة، والقوة في ساعدي، والنصر بيد الله!». فتناولت حفنة من التراب ورمت بها في السماء، وقالت : «هكذا هو كلامك، ارجع في سلام، واذهب لتتسلى مع التي بقيت لك، فيطو لم تعد لك». لكن المغربي نزع حذاءه من شدة الغيظ ورمى به إليها كعربون لوعده، فالتفت إلى قومه، وجعل يشجعهم على القتال، مذكراً إياهم بالإهانات التي تلقوها من المسيحيين. وطلب منهم إن كانوا لايتألمون لرؤية نسائهم وأطفالهم وهم يساقون على مرأى منهم ليذيقوهم إهانات أسوأ من الموت : فحمل على المؤخرة التي كانت تحت قيادة صهر فرنانديس[30] وأوقفها بعض الوقت بمناوشات، فاضطر فرنانديس من أجل ذلك أن يمنع من أن يقوم أي أحد بمناوشة الأعداء وأن يخلف صهره في مكانه ويصرفه إلى المقدمة، ثم ساق الكتيبة متراصة، وأقام هو في المؤخرة، إلا أن ابن شحموط كان يتنقل في كل الجهات، حتى حكَّ الرمح في كتيبة المسيحيين، وضايقهم من قريب فاضطر بعضهم إلى الالتفات إليه، فتقاتلوا فعلا. كانت الحرارة مفرطة لدرجة أن فرنانديس اضطر إلى فك طوق الرقبة من الزرد الذي كان يضعه على درعه، ثم اختلط بالعدو واقترب من ابن شحموط الذي أصابه في حنجرته بضربة وأرداه قتيلا. وبعد أن حملوا جثة القائد، أرادوا أن يختاروا آخر مكانه قبل متابعة السير، فنشأ عن ذلك نزاعات إلى أن اشتبكوا فيما بينهم. حينئذ رأى المغاربة من شيعتهم الفرصة سانحة، فانقضوا عليهم دون ان ينتظروا أوامر رؤسائهم فقتلوا قسماً كبيراً منهم وأقصوا الباقين. لكن الذين نجوا منهم لم يكونوا أحسن حظاً من الآخرين، لأنهم قتلوا كلهم أو أسروا عندما ظنوا أنهم فروا عند أعراب آخرين من شيعتهم، ولم يفلت منهم سوى خمسين فارساً

---

(30) هو الفونسو دي فارو.

وبعض المشاة. وعاد ابن شحموط منتصراً إلى معسكره مع زوجته والغنيمة كلها. وهلك في هذه الوقعة نونيو فرنانديس وصهره وعمه الذين كانوا يتنافسون في الحكم، وكذا أخو زوجته وعدد كبير من النبلاء[31]. وأسر لوبي باريكًا، مع دُوم هانريكي دي سا، وجورج دي بريتي، ودُم أنطونيو كارنيرو، وعدة أشخاص اخرين من ذوي الوجاهة، بلغ عددهم خمسة وثلاثين. جميع هؤلاء الأسرى وقعوا تحت سلطة الشريف، وعندما حمل لوبي باريكًا إلى مراكش، أسرع الناس من كل جهة ليروه، لشدة شهرته وذيوع صيته، ومن جملتهم مغربي مقدام من تلمسان، دخل إلى إسطبل الشريف حيث كان لوبي باريكًا سجيناً مكبل الرجلين بالحديد، فقال له متحدياً إياه : أأنت ذلك المسيحي الذي يتحدث عنه كثيراً؟ أود لو كنت طليقاً حتى أنتف لحيتك». وشفع القول بالعمل، فلم يطق لوبي ذلك وضربه بعصا على رأسه ضربة قوية فأرداه بين رجليه قتيلاً، وكاد يفعل نفس الشيء باثنين آخرين كانا يتبعانه، لولا أن التحقا بأعلى المكان. ولما علم الشريف بذلك أحضره بين يديه، فأمر بأن يضرب على كتفيه ضرباً كثيراً حتى مزق قميصه على لحمه، دون أن ينبس ببنت شفة، وبعث لوبي بعد بضعة أيام بقميصه الممزق الملطخ بالدم إلى ملك البرتغال، ليثير شفقته ويحمله على افتدائه، ففعل ذلك، ولكن، بعد ذلك بقليل وكان قد شن غارة على المغاربة الذين كانوا يهاجمون ضواحي أسفي، فعندما كان يخترق طريقاً ضيقة متعرجة تؤدي من باب المدينة إلى الخنادق، أصابه طفل صغير بضربة حربة في حنجرته، في نفس المكان الذي أصيب فيه نونيو فرنانديس وأرداه قتيلاً مثله. وأعجب من هذا أن ابن شحموط مات بعد ذلك بقليل بنفس الكيفية، وهو يقاتل مغاربة من فاس. ولما حمل جثمانه إلى زوجته، امتنعت من كل شراب وأكل إلى أن هلكت، فدفنت معه، هذه هي نهاية ثلاثة قواد كبار ملؤوا افريقيا كلها بأخبار بسالتهم.

كيف قتل المغاربة يحيى والمسيحيين الذين كانوا معه وكيف هُزموا بعد ذلك من طرف حاكم أسفي ؟

بعد مقتل فرنانديس أُرسل دُم نونيو ماسْكارينيَاس حاكماً لآسفي، ولما وَجَدَ المغاربة شيعةَ البرتغاليين ثائرين عمل ما أمكنه ليردهم إلى الطاعة واعداً إياهم أن ينسى الماضي، فرد بهذه الطريقة أعراب عبدة، ومعظم أهل الغربية، لكنه لم

(31) هم ألونسو دي فاطو، والفارو دي أطايدي، والفارو دي فاطو.

يستطع إطلاقاً أن يستميل بني عمران، الأمر الذي اضطر من أجله إلى شن غارات عليهم إلى بُعد خمسة عشر أو عشرين فرسخاً داخل البلاد، فأعادهم إلى الخضوع الى ملك البرتغال. وكان يحيى قد عاد إذ ذاك بصفته قائداً على جميع أتباع الملك، فاستمر في مهمته، وهو يشن الغارات على جميع الأقاليم المجاورة، ويلزم الجماعات البربرية بأداء الإتاوات، مصطحباً معه أحياناً حتى خمسة عشر الف فارس مغربي، وخمسمائة مسيحي. وأخيراً عندما حشد جنوده لمحاربة الشريف(32) أرسل إلى أسفي يطلب أربعمائة من المقاتلين بالرماح وقطعتين من المدفعية، إذ كان في عزمه الذهاب حتى إلى مراكش ومهاجمتها، لكن الحاكم الذي لم تكن علاقاته حسنة معه، نصحه بعضهم بعدم تلبية طلبه، خوفاً من خيانته، بحيث إن كل ما أمكنه أن يحصل عليه هو خمسون فارساً، بواسطة من يعرفون وفاءه. فذهب إلى الملاحات، مع هؤلاء الخمسين من أصحاب الرماح، ومغاربة عبدة والغربية، ومن ثم نادى بني عمران الذين عادوا إلى الطاعة، كما أسلفنا. وبينما هو مقيم هناك بضعة أيام في انتظار قرارهم، بلغه أن مولاي إدريس حاكم الجبل هجم على دواوير أولاد مطاع، مع فرسان كانوا قد انحدروا من إقليمي هسكورة وتادلا، بمساعدة ملك مراكش، وقتلوا خمسين فارساً وقائدهم المدعو إبراهيم، أخا أحد أشياخ عبدة الذي كان يقدره يحيى كثيراً ويعتبره صديقه الحميم. وبما أن المغاربة كان من عادتهم أن يزوروا بعضهم بعضاً في مثل هذه المناسبة، فإنه ظن أن من واجبه أن يذهب إلى الشيخ ليقدم له تعازيه، وكان صديقاً له، لا سيما أنه لم يكن بعيداً عن دواويره سوى برمية سهم. فانطلق مع أربعة أشياخ من الغربية، أخذهم وحدهم معه. وبينما كانوا يتناولون الطعام جميعاً حضر فجأة شيخان من بني عمران وطعناه غيلة دون أن يتمكن الذين جاءوا معه من إغاثته، فشهر الأربعة كلهم سيوفهم وقتلوا معه. وبعد ذلك ذهب الخونة لنهب الدواوير، حيث كان يقيم الفرسان المسيحيون الخمسون، الذين امتطوا خيولهم وفروا على التوّ إلى جهة أسفي مع أعراب الغربية. ولما قطعوا مسافة فرسخ تقريباً، دون أن يتبعهم أحد، عزم الأعراب الذين كانوا يصحبونهم على اغتيالهم لياخذوا أسلحتهم وأفراسهم. وبعد أن توقفوا فترة بسبب لوم رؤسائهم، حملوا عليهم في الاخير وقتلوهم أو أسروهم جميعاً. وعندما وصل نبأ ذلك إلى أسفي خرج الحاكم في الحين في مائة وخمسين فارساً للانتقام من هذه الخيانة، فاقتفى أثر الخونة وأدركهم على بعد فرسخين ونصف من

---

(32) سنة 1519.

المدينة، وقتل منهم مائة وخمسين وأسر ستمائة[33] وعاد منتصراً. واتهمه الكثير بقتل يحيى، لأن المغربي كان قد سبق له أن اشتكى إلى ملك البرتغال أن الحاكم كان يهدده بالقتل. وسرعان ما أسف لموته المسيحيون وشيعتهم من المغاربة الذين أخذ عددهم منذ ذلك العهد ينخفض شيئاً فشيئاً، لأن الشرفاء زادت شوكتهم قوة بسبب خضد شوكته، ومع أن حرس أسفي كان يحصل كل يوم على غنائم، فإن منطقة النفوذ كانت تضيق يوماً بعد يوم، إلى درجة أن ملك البرتغال، بعد فقدان رأس أكَير وتقوي الشرفاء، تخلى عن هذه المدينة التي كانت تتحكم فيها الجبال المجاورة، ولا يمكن إنجادها بفعالية من البحر، لرداءة مينائها، بالإضافة إلى أنها كانت تتطلب نفقات أكثر من قيمتها.

الفصل الرابع والخمسون

قَـنْـط[34]

أسس هذه المدينة — حسب قول المؤرخين — القوط عندما كانوا مسيطرين على موريطانيا الطنجية. تقع على شاطىء البحر، بعيدة عن أسفي بسبعة فراسخ في اتجاه الشرق، وكانت في القديم آهلة بالسكان لأنها كانت مركزا تجارياً عظيماً. لكن العرب خربوها أيام حكم طارق الذي عبر البوغاز لغزو إسبانيا، وأتم البرتغاليون تخريبها بعد ذلك العهد. ما زالت تشاهد بعض أنقاض الأسوار العتيقة، ويملك أعراب الغربية، الذين يجوبون إقليم دكالة، هذه المنطقة. وتُكَوِّن الأرض قريباً من هناك رأساً يسميه بطلموس رأس كونطي[35] ويجعله في ست درجات طولاً، وخمس وثلاثين درجة وست وخمسين دقيقة عرضاً. ويجعل بعضهم هذه المدينة من بين المدن التي أسسها حانون بأمر من مجلس شيوخ قرطاجنة.

---

(33) صغارا وكبارا

(34) حرف اسم هذه المدينة في الأصل فكتبت «كوبطى» انظر الحسن الوزان، **وصف افريقيا**، (152:1) والهامش 60م. (مترجم).

(35) هو رأس إسباط حالياً.

الفصل الخامس والخمسون

تيـــط

مدينة قديمة، تلوح الآن أنقاضها على شاطىء البحر[36] على بعد أربعة فراسخ من مازغان (البريجة) في اتجاه الغرب. ويرجع تأسيسها ــ على ما يقال ــ إلى سكان افريقيا الأولين. وكانت آهلة بالسكان في القديم، لأن الضواحي المجاورة لها خصبة جدا. وعندما استولى البرتغاليون على مدينة أزمور، استسلمت عن طريق التفاوض، وأصبحت خاضعة لملك البرتغال مدة من الزمن، لكن مولاي الناصر، أخا محمد الوطاسي ملك فاس، لما ذهب إلى هذا الإقليم لتحرير المسلمين من نير المسيحيين، ولم يتمكن الا من شنق أمين بيت مال ملك البرتغال، مع يهودي كان يساعده على تحصيل الإتاوات أخذ جميع سكانها، ونقلوا إلى قرية صغيرة كانت خالية على بعد ثلاثة فراسخ من فاس، ولم تُعمِّر هذه المدينة بعد ذلك إطلاقاً، وما زالت ديار المدينة وأبراجها قائمة، لكن الأعراب يحرثون الأرض مع اعتراضات كثيرة من حرس مازغان. كانت هذه المدينة تدعى طوط[37] في القديم، حسب يوسف، باسم طوط حفيد نوح، الذي ساق الطوطيين إلى موريطانيا الطنجية. وتقع حسب بطليموس في الدرجة السابعة وثلاثين دقيقة طولاً، والدرجة الثلاثين وثلاثين دقيقة عرضاً، وتعد من بين المدن الليبية ــ الفنيقية.

الفصل السادس والخمسون

مازغان (الجديدة)

مدينة حصينة بناها ملك البرتغال على هذه الحدود، وزادها تحصيناً منذ أن تخلى عن مدينتي آسفي وأزمور. ببعد عن هذه الأخيرة بثلاثة فراسخ، وتقع في سهل على شاطىء المحيط حيث كان يوجد قديماً برج عتيق[38] لميناء المدينة القديم، وقرية هي الآن خربة تسمى دار الفارس. أسوار مازغان مشيدة على الطراز العصري، بأحجار ملصقة بالجير، وفيها عدد كثير من المدفعية والذخيرة الحربية، مع حامية قوية، ذلك أن ملك البرتغال لما عزم على ترك المدن الأخرى أراد أن يحصن

---

(36) المحيط.

(37) كذا بالاصل.

(38) هو البريجة.

هذه المدينة ويجعلها منيعة بقدر الأمكان. يحرسها المحيط من جهة وخندق عريض عميق من جهة أخرى يرتفع ماؤه مع البحر. وفي داخلها بئر ماؤه عذب يحيط به سور من حجر في غاية الارتفاع والنتوء. تاتي إليها السفن لتتزود بالماء العذب. وكانت لهذه المدينة عدة مجابهات مع المغاربة، منذ أن قويت شوكة الشرفاء وتمكن لويس دي لوريرو حاكم مازاغان من إحراز انتصارات مختلفة على الشرفاء ما عدا في المرتين الأخيرتين اللتين هاجمهم فيها. ذلك أنه عندما ذهب فئة من جنده، بصحبة مائة فارس وأربعمائة راجل، لقي طائفة الشريف مؤلفة من ثلاثة آلاف فارس، ولما أخذ ينسحب أمامهم في كتيبة متراصة، محاطة من جانب بفرسانه، إذ خرج أحد جنوده من الصف، وجرح برمية بندقية قائد العدو في ساقه وهو يقوم بدوريات حوله. فأثارت هذه الضربة غيظه وحمل مع جنوده على الفرسان المسيحيين الذين دافعوا عن انفسهم دفاعاً مستميتاً ثم أرادوا الالتحاق بمشاتهم والمرور على طول الجانب ليساعدوهم على إطلاق النيران قبل أن يعودوا للاشتباك، لكنهم لم يكفهم الوقت لذلك ووقعوا في ارتباك جعل المغاربة يختلطون بهم اختلاط الحابل بالنابل ويستولون عليهم جميعاً. ولما رأى الحاكم أنه أحيط به من كل جهة، احتمى بترسه وخفض رمحه، فحمل على وسط الاعداء، حيث تلقى عدة طعنات بالرماح والسيوف قطعت إبهامه من جرائها، لكنه تمكن من الفرار مع سبعة آخرين، بينما قتل الباقي أو أسر. وبعد الانتصار، قطع المغاربة رؤوس جميع القتلى، فحملوها على إبل إلى مراكش، وساقوا إليها كذلك الاسرى ليتباهوا بهم. ومن أجل هذه الهزيمة عزل ملك البرتغال لوريرو وعين مكانه الفاري دي كارفال[40] وحاصر الشريف بعد ذلك هذه المدينة بأزيد من مائتي الف جندي وقصفها بشدة، ثم ردم الخندق بجبل من الرمال، وحطم قسماً كبيراً من السور بالمدافع. لكن المحاصرين قاوموا بشجاعة وقتلوا بالمتفجرات والاسهم النارية عدداً كبيرا من المغاربة وأبعدوهم عن المدينة. وعندما رأى الشريف أنه لا يتقدم كثيراً ولا يستطيع قطع المَدَدِ من جهة البحر، انسحب متحملا خسائر جسيمة[41]، فبقي المسيحيون منتصرين،

(40) سنة 1562.

(41) ذكرت المصادر العربية هذه المعركة، وأن عبد الله الغالب اغتمَّ عدما لم يتمكن جيشه من تحرير البريجة بعد طول حصار ــ إلى أن أنشده الشيخ محمد بن ابراهيم التمارتي ــ وكان من المجاهدين المتطوعين في هذه المعركة ــ بيت امرىء القيس :

وَما جَبُنَتْ خَيْلي ولكن تَذَكَّرتْ   مَرَابطَهَا من بَرْبَعيصَ وَمَيْسَرَ

أنظر الاستقصا 5 : 42ــ46 وكتابنا **الحركة الفكرية**، 2 : 618.

وتبرىء هذه الشهادة المسيحية ساحة الغالب الذي اتهم ــ ظلماً ــ بأنه تخلى عن البريجة بعد أن تمكن منها. (مترجم).

وإن كانوا قد فقدوا العديد من شجعان الجنود والضباط. يوجد على الحدود ميناء صغير يسمى روسيبيد، يجعله بطليموس في ست درجات وأربعين دقيقة طولاً، واثنتين وثلاين درجة وثلاثين دقيقة عرضاً. والشاطىء مكشوف كله من هناك إلى أزمور.

الفصل السابع والخمسون

أزمُّـــــور

مدينة قديمة، أسسها الأفارقة على شاطىء المحيط(42)، عند مصب نهر أم الربيع الذي كان يسمى كوفة في القديم، ويجعله بطليموس في ست درجات وأربعين دقيقة طولاً، وفي اثنتين وثلاثين درجة وخمس وأربعين دقيقة عرضاً(43). تقع أزمور في سهل رملي على بعد ثلاثة فراسخ من مازغان (البريجة) في اتجاه الشرق، وكانت آهلة جداً بالسكان عندما استولى عليها البرتغاليون، لأن صيد الشابل، والتون، وغيرهما من أصناف السمك، كان يجلب اليها عدداً كبيراً من تجار أوربا. وكانت تحتوي على ما يفوق ألف كانون(44)، من بينها أربعمائة لليهود. كان السكان ماهرين جداً، يبنون منازلهم على الطراز العصري، بسبب الاتجار مع اوربا وكانوا موسرين يدبرون شؤونهم بنظام أحسن من الافارقة الآخرين. وقد تحرروا عند سقوط مملكة بني مرين، وكان واجب صيد السمك المؤدى لهم ينيف على ثمانية آلاف مثقال، ويدوم من بداية اكتوبر إلى نهاية أبريل. وكانت تصطاد فيها كمية عظيمة من السمك تزود به جميع الأقاليم المجاورة، ومدينة مراكش، فضلاً عما كان يحمل إلى أوربا.

الأراضي المجاورة لأزمور كثيرة الخصب قمحاً ومرعى، لان إقليم تامسنا يقع شرقي النهر، وإقليم دكالة غربيه، وكلاهما كثير الكلأ والغلة. ومع أن السكان كانوا منقسمين إلى فئتين، لم يكن هناك خلاف أصلاً فيما يخص الحرية، لكن، إليكم كيف آلت هذه المدينة إلى حكم ملك البرتغال، وكيف تخلى عنها بعد ذلك.

---

(42) في جهة العرب.

(43) يعدها بعضهم من جملة المدن الليبية ـــ الفنيقية.

(44) عند الوزان : خمسة آلاف كانون.

كيف هاجم دُم يوحنا مينيزيس مدينة أزمور وهُزم :

عندما أطْلَعَ التجار البرتغاليون المقيمون بأزمور ملكهم على سهولة احتلال المدينة، ووفرة إيراد صيد السمك بها، أمر الملك حاكم أصيلا، دُم يوحنا دي مينيزيس بالذهاب مع ثلاث كرافيلات وسفينة اخرى لسبر غور مصب نهر أزمور، وأنهار المعمورة، وسلا والعرائش، الواقعة على هذا الساحل، وأن يصحب معه رساماً لتخطيط تصميم أزمور والمدن الأخرى المذكورة. وعندما قدم تقريره[45] تلقى الأمر بمحاصرتها[46]. وكان في البرتغال آنذاك فارس مغربي يدعى مولاي زيدان[47] الملقب بالبرتغالي، لأنه كان قد أسر وهو ما يزال طفلاً، ونشأ في البرتغال : كان ابن عم شقيقا لملك فاس، وكان مولاي محمد قد تزوج بأخته التي كانت ابنة مولاي الشيخ أول ملوك فاس من بني وطاس، فاغتاظ هذا الاخير من ملك فاس لأنه سلبه مملكة مكناس وأعطاها أخاه، ولجأ إلى مراكش ظاناً أنه سيقتبل بها كعاهل، بسبب ما كان يتمتع به من تقدير، إلا أنه خاب أمله، فذهب إلى البرتغال وتعهد إلى الملك بأنه سيمكنه من تلك المدينة بقليل من الجنود[48] فقرر الملك ومجلس شُورَاهُ بأن يرسل هذا المغربي مع أسطول بحري صغير، لم يكن كافيا لعملية كبرى كهذه، بقيادة دم يوحنا دي مينيزيس، الذي صحب معه أربعمائة فارس بعضهم مدرعون، وألفين من الجنود الوصفان، منهم رماة بنادق قذافون، مع كثير من المتطوعين. وخرج من لشبونة في العشرين من يوليوز، وأرسى في الجرف الرملي لأزمور،[49] حيث قضى بضعة أيام في جمع الأسطول، ثم صعد النهر عشية ثاني عشر غشت، بينما كانت المياه مرتفعة، وعسكر أمام المدينة. وفي غداة الغد بدأ يقصفها، بعد أن أنزل «مولاي زيدان» ليتولى حشد أصدقائه بها ويحاصرها من جهة البر. فقام السكان بالتصدي للمهاجمين وهم يطلقون عليهم نيران مدافعهم، ويصيحون صياحا مهولا في وجه الاسطول المسيحي ليعربوا عن مدى احتقارهم لهم. كما ألقوا في الماء حزما كبيرة من الأغصان لتسير على طول النهر مختلطة بالتبن ملفوفة في خرق الكتان والقطن

(45) سنة 1506.

(46) سنة 1508.

(47) بل اسمه محمد بن محمد الوطاسي. (مترجم).

(48) كل هذه الاخبار حيالات وأوهام. إذ تسجل الوثائق التاريخية المتواترة في كتب المغاربة والبرتغاليين الطريقة التي رجع بها محمد البرتغالي إلى فاس، وتسنمه العرش بعد والده، وقيامه بأعمال مشهورة، منها مراسلات ومعاهدات كثيرة. انظر أ. الناصر، **الاستقصا**، 4 : 140ـــ143 (مترجم).

(49) وهو مصب النهر.

المطلية بلقار، لإحراق السفن التي عانت الكثير من مقاومة النيران. إلا أن دم يوحنا، الذي كان ينتظر أن يبذل مولاي زيدان بعض المجهود، رأى أنه يزوده بأقوال، وانه تحالف مع سكان المدينة، بعد أن حشد خمسة عشر ألفا من الأعراب، ووعدهم بأنه سيدافع عنهم إذا بايعوه كملك، نزل دم يوحنا إلى الأرض رغم الأعداء الذين كانوا يتصدون لنزوله، وساقهم بالضرب إلى الاسوار، مكبدا إياهم خسائر كبيرة في الأرواح، بحيث إن السكان خشوا أن يدخل إلى المدينة، فاختلط حابلهم بنابلهم وأغلقوا الأبواب تاركين قسما كبيرا من أصحابهم خارجها. وفي أثناء ذلك وصل الأعراب وأفارقة مولاي زيدان فانقضوا على البرتغاليين بشدة وطاردوهم حتى سفنهم بعد أن مزقوهم كل ممزق. فأمر دم يوحنا بالإبحار وساروا في عرض البحر وهم في أشد الاضطراب بسبب خطأ الربابنة، فضلا عن أن البحر كان في حالة جزر، فهلكت بعض السفن، وأحرق المغاربة سفينة جنحت وساخت في الرمل، وقتلوا جميع ركابها وهكذا انسحب دم يوحنا بما أمكنه من السفن، متجها نحو جبل طارق، وأرسى بأصيلا في وقت مناسب كما سنذكر ذلك عندما سنتعرض لوصف هذه المدينة.

كيف استولى دوق دي براكَانس على مدينة أزمور :

دخل مولاي زيدان إلى المدينة بعد انسحاب دُم يوحنا مينيزيس، فاقتبل بها كعاهل، لكن السكان احتموا بملك البرتغال، بواسطة أحد اليهود، شريطة أن يدافع عنهم كرعاياه ومكنوه من اتخاذ دار حصينة له في المدينة، أمكن للتجار المسيحيين أن يلتجؤوا إليها ببضائعهم، ثم التزموا في عقد بأن يؤدوا له كل سنة عشرة آلاف من الشابل كإتاوة، ويعفوا السفن المسيحية من كل واجب عن الارساء، والبضائع المسيحية من جميع أنواع رسوم الدخول. قبل مولاي زيدان كل ذلك لربح ثقة السكان الذين كرهوه بسبب تعسفاته، وحتى يسترجع ثقة ملك البرتغال، بعد أن خدعه من قبل، أوفد إليه سفارة يعتذر عما فرط منه، ويقترح عليه البنود التالية : أن تكون المدينة خاضعة له على الدوام، وفية بما وعدته به، وأن الملك من جهته لن يقوم بعملية عسكرية ضدها، ويدافع عنها بكل قواه. وباختصار انهم سيبرمون تحالفاً هجومياً ودفاعياً. وأبرمت الهدنة لمدة عشرين سنة بهذه الشروط، لكن مولاي زيدان نقضها بعد ذلك خلافاً لإرادة معظم السكان والأعيان، الامر الذي اضطر من اجله المسيحيون المقيمون بها إلى الرجوع إلى البرتغال، وإطلاع الملك على الوسائل اللازمة لاحتلال المدينة. فأرسل(50) ابن أخيه دوق دي براكَانس(51) مع أربعمائة سفينة شراعية، من بين صغيرة وكبيرة، تحمل على متنها ثمانية آلاف راجل وألفين وخمسمائة فارس، منهم خمسمائة من رعايا الدوق، والباقي من رعايا التاج، ومن بينهم مائتان وخمسون مدرعون بزرود الحديد إضافة الى عدد كبير من النبلاء العريقين، وكمية من المدفعية والذخيرة وسائر الأجهزة الحربية. انطلق هذا الاسطول من نوطردام دي بيلين في سابع عشر غشت. وبعد أن وصل الى خليج فرعون، بمملكة فاس، مكث فيه بعض الوقت لتتجمع قطع الاسطول، ثم تابع سيره منه في الثالث والعشرين وجاء ليرسو في الثامن والعشرين بالجرف الرملي

(50) سنة 1513.
(51) دُم جايمس.

لأزمور، لكن نظرا للرياح المعاكسة توقّف الاسطول بيمناء مازاغان (البريجة)، بحيث نزلوا بدون أية عرقلة. وهناك مكثوا ثلاثة أيام قضوها في إصدار الأوامر لمهاجمة المدينة. وفي خلال هذه الأيام اقبل عدد من المتطوعين من أمزور (كذا) ليقاوموا المسيحيين، فقَتَلوا أو جَرَحوا بعضهم ممن كانوا قد ابتعدوا كثيراً. وغنموا كذلك عدة خيول في كائن نصبوها لها ليلا، ثم حملوا في الصباح من جميع الجهات على خصومهم الذين كانوا غير منتظمين، لكن السكان الذين كانوا يتوجسون خيفة من تلك القوة العظيمة، أخرجوا من المدينة جميع العيال، وبمجرد ما علموا بإقامة أسطول بالبرتغال، تزودوا بكل ما يحتاجون اليه من أجل الدفاع عن مدينتهم، فلما وصل الجيش، كان في المدينة عدد كثير من المحاربين، وعدد من الأعراب يشنون الغارات مع مولاي زيدان وابنيه. ذلك لأنه لم يرد أن يبقى سجيناً في المدينة، وترك حاكماً بها سيدي منصور الذي كان يتمتع بتقدير كبير، بصحبة بعض النبلاء وأمير تاركَا[52] الذي كان يعد من أشجع الناس وأكثرهم خبرة بالحروب، فصف هؤلاء القواد رجالهم، وعينوا لكل فئة معسكرها مقدِّمين التعليمات في كل شيء. غادر الدوق مازاغان في فاتح سبتمبر مع جنوده المستعدين للقتال، وأدخل الاسطول إلى النهر مع بضعة مراكب محملة بالمدفعية لإحراق حزمات القصب، والتبن، والخشب اليابس، المدهونة بالقطران، التي كان الأعداء قد أعدوها ليقذفوها في اليم عندما تقترب سفن البرتغاليين. وقد أنجز الاسطول بنجاح ما أمر به، ولو أنه قوبل لدى مروره قرب المدينة بطلقات المدفعية وبعض الشهب النارية، بالإضافة إلى أنهم وضعوا على بعض سفن الكرافيل مدافع للتهيؤ والاستعداد مع ما يلزم من الذخيرة والجنود الذين أمروا بالدخول في النهر والاستقرار أمام المدينة، ففعلوا. وكان قد أرسل بقصد الاستطلاع فرساناً مجهزين أحسن تجهيز[53] فهوجموا من طرف المغاربة بعنف حتى اضطرت طليعة الجيش إلى الإسراع لنجدتهم، وتلاهم جميع الفرسان حتى الدوق نفسه الذي قاوم الأعداء بشجاعة مع معظم المشاة، بالرغم عن أنه هوجم من جميع الجهات حتى الليل. وقد لحقت خسائر بالجانبين وفقد الاعداء نبيلاً شجاعا كان يقودهم[54]، وكان قبل ذلك في خدمة ملك البرتغال.

---

(52) هو علي س كيرتيس.
(53) مع المدعو فرانسيسكو دي بيدروسا، قائد الحرس، أو ضابط آخر.
(54) هو سيدي عفو.

ولما وصل الجيش إلى أزمور في خضم معارك ومناوشات مستمرة، عسكر الى جانب النهر قريباً جداً من سفنه. وفي غداة الغد أنزلوا المدفعية الثقيلة والذخيرة التي كانت على متن الكرافيلات، لقصف المدينة. وفي هذه الأثناء أخذ المغاربة الذين كانوا يقومون بغارات حتى على مازاغان، وآخرون كثيرون التحقوا بهم، يصطفون في ثلاثة صفوف كبيرة على مرمى المدفع، كأنهم يستعدون للقتال، لكن الدوق منع جنده من الخروج من المعسكر، وصوب ضد المغاربة بعض قطع المدفعية، وأعطى الأمر اللازم لقصف المدينة، بحيث إن المغاربة تراجعوا، وقد أزعجتهم المدفعية ورأوا أن أعداءهم لا يريدون أن يقاتلوهم. عند ذلك اقترب (البرتغاليون) من السور لنقبه تحت غطاءات نقالة، فدافع السكان عن أنفسهم بشجاعة، وجرحوا المسيحيين بفنابل يدوية وبجميع أنواع الاسهم النارية التي كانوا يقذفون بها إلى أسفل السور على القائمين بنقبه. وقد قتل أو جرح كثير منهم. وبعد مضي أربع ساعات على القتال، دون أن يظهر على السكان أي ضعف، وقد قتل الحاكم[55] برمية مدفع، تعالى صراخ كبير من المدينة، التي أخذ السكان يغادرونها في الحين يائسين، وبتسارع كبير إلى الابواب حتى إن ثمانين شخصاً اختنقوا في الازدحام. إلا أن يهودياً[56] من الذين طردوا من إسبانيا، أشار من أعلى السور إلى المسيحيين، طالباً أن يسمح له بالمرور ليقابل القائد، وبعد أن سمح له بالمرور التمس من القائد أن يؤمن قومه على أملاكهم وحياتهم، مقابل البشرى التي حملها اليه من أن المغاربة قد غادروا المدينة، فلبى الدوق رغبته بعد أن حمد الله. وما كادت تطلع الشمس من الغد حتى أدخل إلى المدينة كتائب من الجند لحماية دور اليهود من النهب، وبعد أن رفعت رايات البرتغال على الأبراج علامة للانتصار، دخل الدوق إلى المدينة مع باقي جنوده، وبدأ بتحويل المسجد إلى كنيسة باسم حماية الروح القدس، وعثر فيه على ناقوسين كانا به منذ عهد القوط أو حملا إليه من إسبانيا من طرف المغاربة. وحيث إن السكان لم يستطيعوا حمل كل شيء في انسحابهم السريع فإن الغنيمة كانت عظيمة. وتبع احتلال هذه المدينة احتلال تيط والمدينة اللتين غادرهما المغاربة عندما بلغهم هذا الخبر، بحيث إن الدوق أرسل اليهما رجاله ليحتلوهما باسم ملك البرتغال. وأمر إذ ذاك نونيو فرنانديس دي أكايدي، الذي كان قد ذهب إلى أسفي بجنوده، أن يستولي على

---

(55) سيدي منصور.

(56) هو يعقوب أديف.

المدينة، متعجباً من ذعر المغاربة الذين لم يجرؤوا على المكوث بها، مع كونهم حلفاء للبرتغال. فأسند حكمها إلى يحيى (ابن تعففت). وبعد أن تلقى منه اليمين، أذن لجميع المغاربة بالرجوع إلى منازلهم. وليتأكد أكثر من ذلك هدم جانبين من السور، أحدهما من جهة أزمور، والآخر من جهة أسفي، حتى يمنعهم من أن يتحصنوا أثناء ثورة محتملة، وبعد ذلك عمرت المدينة من جديد وصارت أغنى مما كانت عليه من قبل، واقتدى بها سكان تيط، فأصبحوا كذلك رعايا لملك البرتغال. وبعد أن سهر الدوق على ما يلزم لحماية فتوحاته الجديدة، واقتبل جميع الذين جاءوا مستسلمين، سواء منهم الثوار أو غيرهم، ترك حرساً قوياً في المدينة مزوداً بكمية من المدفعية والذخيرة، ثم عاد بكل أسطوله إلى البرتغال حيث اقتبله الملك وأكابر قومه بما يستحقه.

بعض أعمال حامية أزمور :

بعد انصراف الدوق دي براكَانس، عزم دُم يوحنا دي مينيزيس وروي بارِّيطي، اللذين مكثا بأزمور، أن يقوما بشن غارات على المغاربة، ويهاجما بعض المراكز الصغيرة الواقعة على بعد خمسة عشر فرسخاً من هناك على ضفاف نهر أم الربيع، فانطلقا ذات مساء مع الف ومائتين من الفرسان، وألف من رماة البنادق أو القذائف واستراحا في الصباح بعد أن قطعا مسافة سبعة فراسخ، ثم استأنفا سيرهما من منتصف النهار الى غروب الشمس فوصلا إلى الجبل الأخضر، حيث قضيا الليل كله.(57). وفي غادة الغد عند طلوع الشمس هجما على بني اقفيز (كذا) القاطنين على بعد فرسخين في مرتفع مستدير تحيط به أسوار عالية. وقد دافع المغاربة عن أنفسهم ما استطاعوا، لكنهم أُخذوا عنوة بعد أن هلك بعضهم دون أن يقتل أي مسيحي، ولم يؤخذ منهم أسرى سوى مائة وتسعين نفراً، لأن جل الناس فروا أثناء المعركة وانحدروا عبر الصخور المفضية إلى النهر، فغرق الكثير منهم، وهم يحاولون اجتيازه سباحة، في حين كانت المدينة تنهب وتحرق. ومن جهة أخرى، فإن دم بيرنار إيمانويل، الذي كان قد انفصل قبلُ مع قسم من الجنود ليحمل في نفس الوقت على تعفوفت، لم يستطع أن يصل حتى طلع النهار، لأن الطريق كان وعراً جداً، وكان لا بد من الاستراحة، فوجد المدينة مهجورة، وانحدر جنوده على

(57) في شهر فبراير 1514

طول الجبل إلى النهر، فصادفوا عدداً من المغاربة مع نسائهم وأولادهم، وهم يحاولون النجاة سباحة إلى الضفة الأخرى للنهر، وعند ذاك اقبل جمع كبير من السكان لمهاجمته، فقاتلوا قتالاً مستميتاً لكنهم استسلموا في الأخير بعد أن فقدوا البعض منهم، ثم عادوا إلى المدينة ينهبون ويحرقون. وبعد الانضمام إلى الفريق الآخر من الجند استؤنف السير إلى أزمور مع مائتي أسير، وكمية من الماشية الكبيرة والصغيرة، وبعض الخيل والجمال، دون مصادفة أي حاجز، كما كان ذلك في الذهاب.

كيف انتصر دُم يوحنا دي مينيزيس ونونيو فرنانديس على قائدين لملك فاس :

لقد سبق لنا، عندما وصفنا مدينة تدنست، أن ذكرنا كيف هزم حاكم أسفي وحلفاؤه الشريف، واحتل هذه المدينة، وكيف التحق به حاكم أزمور ونهبا معاً بعض المواقع الجبلية، ثم عاد كل واحد منهما إلى مقر حكمه مع عدد كبير من الأسرى، لكن حاكم أزمور، لما علم قبل وصوله إلى مقر حكمه بأن ملك فاس وأخاه قادمان بجيش عرمرم لمهاجمة مدينته، قفل راجعاً بسرعة، وإن كان لا بد له من قضاء ثلاثة أيام في اجتياز نهر أكَوز، الذي كان حاملاً بفيضان عظيم، وهناك بلغه خبر الحصار، فجد السير وقطع جبل بني ماكَر[58] حيث أُنذِر بالإسراع كيلا يلقاه ألفا فارس أرسلهم ملك فاس أمامه. وكتب على الفور إلى أسفي أن يقدم بعض الفرسان الذين قد تركهم عند الحاكم[59] بسرعة إلى مدينة صغيرة بين أسفي وأزمور، وأن يبعث إليه معهم بشيء من البسكويت والبارود والرصاص حتى يستطيع أن يدافع عن نفسه عند الاقتضاء. ولما تم ذلك توجه من هنالك إلى أزمور دون أن يعترضه أي عائق، وبمجرد ما وصل علم بأن قائدين لملك فاس[60] يوجدان بحصن على نهر أم الربيع لإغاثة سكان هذا الإقليم، وأنهما ينتظران هناك أخا الملك الذي كان يحشد عدداً كبيراً من الفرسان والمشاة في إقليم تامسنا لياتي بهم إلى محاصرته، وقد ظن عندما بلغه الخبر أن من المناسب محاربة هذين القائدين قبل أن يلتحقا بأخي الملك، وطلب من نونيو فرنانديس ويحيى بن تعفوفت أن يشهدا هذه الوقعة. والتقى جميعهم في مدينة صغيرة على ستة فراسخ من المغاربة. وعلماً منهم بأن هؤلاء لن يتخلوا عن المعركة، فإنهم أقاموا معسكرهم في سهل لا

(58) الاطلس الكبير.

(59) في أواخر مارس 1514.

(60) هما العطار ولوطت.

يبعد عن هذه المدينة بسوى أربعة فراسخ، قصده جميع الجنود. وعزموا هنالك على أن يخرجوا عند النوبة الرابعة لحراسة الليل، ليصلوا في الصباح الباكر إلى المكان الذي يوجد فيه العدو، حتى إذا كانوا قريبين منه اصطفوا استعدادا للقتال. وجعل دُم يوحنا من الثمانمائة فارس الذين جاء بهم ثلاث كتائب، سلم إحداها الى روي بارِّيطي، والأخرى إلى يوحنا كونزاليس، واحتفظ بالثالثة لنفسه. أما نونيو فرنانديس فلم يؤلف من الخمسمائة فارس من أسفي الذين كانوا معه إلا كتيبة واحدة، ووقف يحيى (بن تعفوفت) في جهة اخرى مع ألف وخمسمائة فارس من الأعراب. وتبع هذه الكتائب الخمس سريتان من المشاة، مع الأمتعة في الوسط. كان على رأسها بعض قطع البادية، وقريباً منها جداً كتيبة دُم يوحنا برايتها. فساروا هكذا إلى أن لاقوا العدو وقد طلعت الشمس، وما أن ظهروا للعيان حتى جعل المغاربة يجمعون أمتعتهم لينسحبوا من السهل إلى الجبل. فحمل دُم يوحنا عليهم وهاجمهم قبل أن ينسحبوا بعد أن أمر المشاة بالالتحاق بأسرع ما يمكن بميدان المعركة. كان عدد المغاربة يزيد على أربعة آلاف فارس مع جماعة من المشاة. ولما رأوا أنهم لا يستطيعون التراجع دون خطر بمرأى من العدو إذ كان لا بد من اجتياز مضيق[61] عزموا على القتال، واصطفوا أربعة صفوف، ثلاثة من الفرسان، وواحد من المشاة جعلوه في المقدمة. وزحفوا هكذا ضد دُم يوحنا، الذي تصدى لهم بكتائبه الثلاث المتراصة، وحمل عليهم بشدة، بعد أن حاد قليلاً لتجنب طلقات رماة البنادق والقذائف، فلاذ المغاربة بالفرار غير قادرين على مقاومته، وتبعهم حتى المضيق دون أن يجتازوه، خوفاً من أن ينتظم العدو فيكرَّ عليهم من خلف. أما نونيو فرنانديس الذي أمر بمهاجمة جماعة كبيرة من العدو فلم يستطع ذلك لأنهم كانوا قد تفرقوا فكرَّ على مشاتهم الذين كانوا نحو ثمانمائة من رماة البنادق والقذائف، ومر على بطونهم بحيث لم ينج منهم سوى حوالي اثني عشر. لكن قواد البرتغاليين لم يستطيعوا ردع هيجان رجالهم، الذين عبروا المضيق، وعندما التقى ابن أخي دُم يوحنا، الذي ذهب لإرجاعهم، بآرّيَاس طيلْيسْ الذي كان يقتفي أثر المغاربة عبر الجبل، وبلغه أمر عمه، أجابه بأن الوقت ليس وقت انسحاب بل وقت مطاردة العدو. وبعيداً إذن من أن يتوقفوا، فإن الذين كانوا يتبعون ابن اخي دُم يوحنا صاروا في مؤخرة الآخرين بقيادة طيلْيس الذي كان شجاعاً كبيراً، فاضطر إلى الاقتداء به، وشاركهم في ذلك أيضاً حامل راية دُم

(61) كان ذلك المضيق سهرا.

يوحنا. ولما أوغلوا كثيراً في الجبل، ورأى المغاربة أنهم قليلو العدد وغير منتظمين كرُّوا عليهم وهزموهم. ولما شاهد دُم يوحنا ذلك ورأى أن رايته في خطر عبر المضيق بسرعة وأوقف ما وراءه بكتيبة ليسهل الانسحاب بعد ما أمر المشاة بأن يتبعوه. وبذلك لم يكن الضرر كبيراً جداً. وتوقف نونيو فرنانديس هو الآخر بكتيبته، وقد رأى الجنود يَعلُونَ غير منتظمين، ولكن على جانب المضيق. ولم يستطع يحيى حشد رجاله الذين تفرقوا هنا وهناك وهم مشتغلون بالنهب، وكان الفارون الواصلون إلى المضيق ينضمون إلى كتيبة دُم يوحنا، أو يتجاوزونها إلى كتيبة فرنانديس، لكن المغاربة طاردوهم بشدة إلى درجة أنهم حملوا على كتيبة دُم يوحنا وأرغموها على التقهقر إلى ما وراء المضيق. وقد قتل وجرح الكثير من الجانبين، لأن المعركة دامت أزيد من ثلاث ساعات، وبعد أن التحق دُم يوحنا بنونيو فرنانديس تراجعا خطوة خطوة في نظام محكم، تاركين خمسين فارساً مسيحياً قتيلاً في عين المكان، معظمهم من النبلاء. فقد قتل هناك دم كارسيا دي مينيزيس، ابن كونت دي كانطا نييدي، ودُم فرنانديّ مينيزيس، ودُم رودريكي دي مينيزيس، وآرياس طليس دي مينزيس، ابن روي طليس، ودُم فرانسيسكو ديها ابن دُم يوحنا ديها، وعدد كثير من الفرسان الآخرين. وقتل القليل من المشاة لكن جرح منهم ما يفوق المائة، ومن جملتهم دم رودريكي دي كاسترو، مع فقدان حاملي رايتين(62) كل ذلك بسبب اندفاعهم في مطاردة العدو خلافاً لأوامر قوادهم. وفقد المغاربة أكثر من ألف وستمائة فارس وراجل، وأحد قائديهم، بينما فر الآخر راجلا وهو جريح بعدما ترك فرسه، ورمحه وترسه. كما هلك سبعة من شيوخ أعراب شراكة. ونهب المسيحيون المعسكر، وأسروا فيه خمسمائة وثمانين رجلاً وجميع النساء والأطفال والشيوخ الذين عثر عليهم بالمعركة. فكان الأسرى من نصيب المسيحيين، والغنيمة من نصيب الحلفاء. وإثر هذه المعركة وبعد هذا الانتصار وإن كان دامياً، ذهب البرتغاليون لقضاء الليل في مكان على ثلاثة فراسخ من هنالك فافترقوا يوم الغد، فعاد بعضهم إلى أسفي، وبعضهم إلى أزمور، حيث خصص لهم اقتبال حار، إلا أن أخا ملك فاس الذي كان قد غادر إقليم تامسنا ليلتحق بهؤلاء الجنود قَصْدَ محاصرة أزمور، عندما وصل إلى أحد مشارع نهر أم الربيع قضى سبعة أيام في عبور النهر إذ كان معه مائة ألف مقاتل، ولما وصله هناك خبر المعركة بين المغاربة والمسيحيين أغذّ السير للأخذ بالثأر.

(62) هما القارودي كارفاللّو، وخوان دي سيلفا

ولما علم أن دُم يوحنا دي مينيزيس كان قد طلب المدد من البرتغال، وأنه مزود بكل ما يلزم للدفاع، غير رأيه وتوجه لمهاجمة المدن الأخرى بالإقليم المعترفة بملك البرتغال، وللقضاء على عدوه يحيى (بن تعففت)، وذلك لعدم قدرته على القيام بعملية عسكرية كبرى كهذه. وكان عدد رجاله كثيراً حتى إنه كان يجتاح كل ما يعترض طريقه، دون أن يجرؤ أحد على التعرض له. وعندما وصل إلى «المدينة» احتلها بدون مقاومة تذكر وذبح ثلاثة من أعيانها كانوا قد مكثوا للتصدي مع بعض الجنود. ذلك أن علي ميمون الذي كان يحكمها تراجع إلى أسفي بحاشيته وأسرته، لعدم تجرئه على ملاقاة خصمه. ومن جهة أخرى، فإن يحيى الذي لم يستطع أن يجند من أسفي سوى عشرين فارساً، لأنهم كانوا يخشون الحصار، ذهب إلى سرنو ليلتجىء فيها بجميع جنده وحاشيته، لكن عندما أراد أن يطمس أو يسمم الآبار الواقعة في الضواحي على مسافة ثلاثة فراسخ، أقبل العدو وقتل بعض فرسانه وأحد شيوخ الأعراب الرئيسيين بالغربية يدعى ابن عمير، وهلك معه خمسون فارساً، وشيخ كان هو القائد العام لجميع الفرسان. وقد أبلى يحيى ذلك اليوم بلاء حسناً إلى درجة أنه أثار إعجاب رجاله ودهشة أعدائه، وبعد أن قاوم مجهودهم جاء إلى أسوار أسفي ليحتمي بها، فانقلب العدو نحو سرنو الواقعة على بعد ثلاثة أميال من هناك، فاحتلها ودمرها. ومكث بها بضعة أيام وهو فاقد الماء تماماً، لأن جميع الآبار كانت مطموسة أو مسمومة. وكان لا بد من حفر آبار جديدة، الأمر الذي دفع يحيى إلى مداهمة هذه المدينة ليلا بصحبة بعض المسيحيين الراغبين في الظهور، لكنه رحل فجأة عندما بلغه الخبر، وتوجه نحو تادلا عائدا إلى فاس إلا أن أعراب شراكة المرافقين له، عندما رأوا أنه لم يجرؤ على مهاجمة أية مدينة للعدو، كما كان قد وعدهم بذلك ليدفعهم إلى نقض العهد مع ملك البرتغال، شهروا السلاح في وجهه، بإيعاز من الشرفاء الموجودين إذ ذاك بمراكش، وهزموه قرب تازاروت، حيث قتلوا من رجاله أو أسروا أكثر من عشرة آلاف مقاتل مع ثمانمائة فارس، وساقوا معظم القطعان والغنائم التي كانت معه، ونجا هو بشق النفس إلى الجبل مع بعض جنود فاس، ثم عاد إلى مكناس وقد فقد رجاله وسمعته، آخذاً معه بعض سكان دكالة والمدن الواقعة على طول نهر أم الربيع، بدعوى تخليصهم من الرق ووزعهم في شتى الأماكن المهجورة بإقليم فاس. وقد استولى الشرفاء على أكبر جزء من ذخائره، لأن الأعراب الذين ساءت علاقاتهم مع كل من البرتغاليين وملك فاس ويحيى (بن تعففت) اضطروا إلى أن يخضعوا له. لكن شوكة المسيحيين قويت أكثر فأكثر وأحرزوا على انتصارات عظيمة، كما ذكرنا

ذلك عند وصفنا للاماكن التي وقعت بها[63] إلى أن قتل المغاربة نونيو فرنانديس ويحيى، فكان ذلك بداية عظمة الشرفاء.

كيف غادر ملك البرتغال مدينة أزمور، التي أعاد المغاربة تعميرها ثم نهبها سكان مازاغان (البريجة).

ظلت مدينة أزمور في قبضة ملك البرتغال مدة اثنتين وثلاثين سنة، ثم تركها بعد ذلك، لأنها كانت عبئاً عليه أكثر من أي شيء آخر، فضلاً عن ان الدفاع عنها لم يكن يتحقق إلا بشق الانفس ضد الشرفاء الذين أصبحوا ملوك مراكش، ولأنها كانت تشرف عليها ربوة تتحكم فيها، بالإضافة إلى أن الدخول إلى النهر خطير جداً على المراكب. وبالمقابل حصّن مدينة مازاغان (البريجة) بالجنود والمدفعية والمؤن التي استخرجها من أزمور. وما أن غادرها حتى احتلها الشريف، ولكي يعود تعميرها بسرعة، ذهب فقيهان شهيران بصلاحهما ليسكناها[64]. وعندما علم حاكم مازاغان بهذا الخبر هاجم أزمور ليلاً، وأسر وقتل جميع المغاربة الموجودين فيها. وسيق الفقيهان والحاكم إلى البرتغال، حيث مكثوا طويلاً في اصطبل الملك وقد قيدت أرجلهم بالحديد، إلى أن فدوا بأسرى آخرين[65] . فلم يعد المغاربة يجرؤون على إعادة تعمير المدينة وأصبحت مأوى للوحوش. إن الشريف الذي يحكم حالياً يكري صيد الشابل في أزمور بثمن مرتفع للتجار المسيحيين، وترسو السفن المسيحية فيها بجواز لكنهم ليسوا في مأمن خارج مراكبهم، ولا يدخلون بتاتاً إلى المدينة التي لا يقطن بها أحد.

الفصل الثامن والخمسون
مرامر

هذه المدينة الواقعة على بعد خمسة فراسخ[66] في اتجاه الشرق أسسها القوط ــ على ما يقال ــ، وهي محاطة بأسوار عتيقة، ولو أنها غير محصنة لا

---

(63) عند وصف أسفي

(64) سيدي عبد الله بن ساسي وسيدي كانون.

كتب اسم عبد الله بن ساسي مصححا في هامش النسخة الفرنسية هكذا ابن صافي. والآخر حسب رواية النزهة هو عبد الله الكوش. انظر الناصري. **الاستقصا**، 5 : 20 (مترجم)

(65) الذي في **النزهة** وغيرها أن الشيخين الصالحين فديا بمال قدره ألفان ومائتا ريال. وأيضا طلا مسيحيين بأزمور لم ينقلا إلى ماراغان. (مترجم).

(66) عند الوزان . على بعد 14 ميلا، وربما كان الأصل 44 ميلا، وتبع مارمول ــ كعادته ــ الوزان حتى في هذا الخطأ محولا الاميال إلى فراسخ، إذ تبعد عنها في الواقع بنحو 70 كيلومتر، انظر الوزان، **وصف افريقيا**، 1 : 158، والهامش 76 (مترجم).

بكيفية اصطناعية ولا طبيعية، غير أن المنطقة غنية بالقمح والزيت والماشية. ينيف عدد سكانها على أربعمائة نسمة، وهم تابعون لأسفي، وقد فروا عندما استولى البرتغاليون على المدينة، ثم عادوا إليها بعد أكثر من سنة، حين استحضرهم نونيو فرنانديس من جديد ووعدهم بالأمان التام على أن يؤدوا الإتاوة إلى ملك البرتغال، وقد فعلوا ذلك إلى أن غادر أسفي. فأسرعوا إليها من جميع الجهات. وهي الآن خاضعة للشريف الذي نصب بها حاكما.

الفصل التاسع والخمسون

سائر مدن هذا الاقليم وقصوره التابعة لأسفي التي هُجر معظمها ودمرها البرتغاليون عندما استولوا على هذه المدينة

سـرنـو

مدينة صغيرة مسورة، كانت تابعة ليحيى (بن تعفغت) ودمرها أخو ملك فاس، كما أشرنا إلى ذلك منذ قليل،(67) عندما قدم إلى دكالة. وهي واقعة على بعد ثلاثة فراسخ من أسفي، في موقع مناسب، وعمرت مرة ثانية بعد أن أخلى المسيحيون اسفي، لأن البلاد جيدة كثيرة القمح والمراعي.

أكَـوز

مدينة أخرى خَرِبَةٌ على ضفاف نهر يحمل اسمها ويصب في البحر على بعد فرسخين من اسفي،حيث ما زالت تشاهد أطلال قصر كان يسمى أكَوز. إقليمها شاسع جدا وخصيب، بقطنه بربر أولاد الشياظمة.

وتوجد على بعد خمسة فراسخ من أسفي، على حدود جبل بني ماكَر الذي تسكنه نفس القبائل، مدينتان صغيرتان مسورتان(68)، بالإضافة إلى مدن عديدة أخرى في هذه البقاع، بعضها مسكون، وبعضها مهجور لكونها دمرت خلال الحروب البرتغالية، لكنها كثيرة القمح والزيت والمرعى. وقد أعيد تعمير معظمها منذ أن غادر المسيحيون أسفي، إذ لم يجرؤ أحد من قبل أن يقيم بها إلا بجواز مرور من الحاكم، وبأداء الإتاوة.

---

(67) الفصل 56.

(68) تيلمس وأومز

الفصل الستون

مائة بير

هي مدينة واسعة جداً، دورها متفرقة على غرار قرية، واقعة على جبل خفيف الانحدار. يبدو أن مؤسسيها هم أهل البلاد، وكانت خاضعة لحاكم أسفي عندما كان يحتلها البرتغاليون. سكانها من البربر الذين ليسوا رحلا كالأعراب، لكن من بينهم بعض يهود بلاد البربر، وهم فقراء تعساء. هذه المدينة عجيبة لكونها محاطة بآبار (مطامير) عديدة منحوتة في الصخر يخزن فيها السكان وأعراب دكالة قمحهم. ولهذا سميت مائة بير. ويقال إنه يحفظ فيها القمح عدة سنوات دون أن يفسد، وأنه عثر عليه بعد ثمانين سنة وهو جاف جيد كأنه وضع فيها منذ قليل. ولما قدم أخو ملك فاس إلى إقليم دكالة، ورحّل بعض سكانه، أبى هؤلاء الانتقال وهربوا إلى أسفي، فنهب مدينتهم. بلادهم غنية بالقمح والمرعى، ينتقل فيها أعراب الغربية بمواشيهم، لكنهم خاضعون للشريف، كالبربر الذين يسكنون مثلهم في الدواوير(69) على حد سواء، تابعون للحاكم الذي نصبه في أسفي.

الفصل الواحد والستون

المدينة(70)

هي مدينة أسسها الأفارقة القدامى، في سهل جميل، بين أسفي وأزمور(71) تحيط بها أسوار عتيقة وأبراج. كانت في القديم غنية مأهولة، عاصمة للإقليم، إذ لا يوجد في مملكة مراكش كلها بلاد أخصب منها قمحاً ومرعى. وحيث إنها كانت خاضعة مدة طويلة لملك البرتغال، فإن أخا ملك فاس دمرها أثناء رحلته إلى الإقليم، لكنها عمرت مرة ثانية بعد ذلك، غير أن السكان لم يطيقوا صبراً أمام اتساع نفوذ الشرفاء والمجاعة الكبرى لسنة ألف وخمسمائة وإحدى وعشرين، فباع جلهم انفسهم وأبناءهم لكسب الخبز(72) بحيث أمست الآن مقفرة.

---

(69) تمييز للآخرين الذين هم حضر.

(70) أضاف إليها أداة التعريف العربية، إذ كان ينبغي أن يقال : «مدينة»

(71) على بعد عشرة فراسخ من آسفي.

(72) كانت المجاعة من الفرص التي يستغلها البرتغاليون لاسترقاق سكان المناطق المحتلة (مترجم)

إن أعراب عبدة وبعض أعراب الغربية يتنقلون اليوم عبر هذه البوادي، وينعمون فيها جيداً بحيث لا يقبلون أن يعاد تعميرها، ولا يريدون أن يقطنوا بها، لأنهم لا يحبون أن يسجنوا في منازل. ومنذ أن هجرت أسفي وأزمور وهم في حرب دائمة مع سكان مازاغان، أغاروا عليها مرارا حتى وصلوا إلى أبوابها، وأسروا أو قتلوا عددا من البرتغاليين، لأن هؤلاء الأعراب شجعان ومن بينهم عدد عديد من الفرسان. إن القلب ليرقّ لرؤية مدينة بهذا القدر من الجمال في موقع حسن تكتنفها البساتين وهي الآن خربة وأسوارها كلها مثلومة لأن الأعراب أنفسهم ليسوا آمنين في خيامهم، بسبب وجود مسيحيي مازاغان.

الفصل الثاني والستون

السبيّت

مدينة صغيرة أسسها الأفارقة القدامى على ضفة نهر أم الربيع. موقعها مناسب جدا، ومنطقتها كثيرة القمح والمرعى. تحيط بها أسوار وبروج عتيقة، وكانت كثيرة السكان فيما مضى، وهم مرتاحون لأداء الإتاوة إلى المسيحيين عندما غزوا أزمور التي هي تابعة لها، لكن أخا ملك فاس[73] الذي تحدثنا عنه نقلهم إلى بلاده بدعوى تحريرهم. إن أعراب شراكَة، الذين يسمون أولاد سبيط، يتنقلون الآن عبر هذه البوادي والمنطقة كلها. يوجد النحل بكثرة في تجويف الاشجار وشقق الصخور، ولاكتشاف خلاياه يتمددون على الارض، وعندما يبصرون نحلة محملة تمر يتبعونها حتى يروها وهي تدخل في غارها، فيحفرون ويكتشفون الخلية التي يستخرجون منها العسل بعد تبخيرها. وهكذا فإن أهل البلاد يقومون بتجارة كبرى في العسل والشمع، سواء في مراكش أو غيرها حيث يشتري تجار أوربا الشمع ويستخرج أحياناً أكثر من مائة وخمسين رطلا عسلا من تجويف واحد، لم يكن يُظَنُّ أنه فيه.

---

(73) مولاي الناصر.

الفصل الثالث والستون

تمْرَّاكْشت

مدينة عتيقة أسسها الأفارقة على نهر أم الربيع، محاطة بأسوار وأبراج على الشكل القديم. يقول بعض المؤرخين إن ابن تاشفين هو الذي بناها عندما أسس مراكش، ومن ثَـمَّ اتخذت اسمها. وهي تابعة لأزمور، ولما احتلها الدوق دي براكَانس، تركها السكان والتجأوا إلى المدينة، التي لم يكونوا فيها أقل انزعاجاً، ولم تعمر منذ ذلك العهد.

يتنقّل الآن أعراب شراكَة عبر بواديها التي هي غنية جداً قمحاً ومرعى، ويبدو أنها كانت كثيرة السكان وأن البنايات من عمل البربر . لذلك فإن اسمها بربري كسائر الأماكن التي تبدأ (بِتَـ) مثل تَدْنست، وتَزاروت، وتَنْزُولين، وما شاكَلَها. ونظراً لموقعها بين إقليمي دكالة وتامسنا، وإقليمي سكورة، وتادلا، التي هي أراض خصبة كثيرة القمح والمرعى، يبدو أنها مراكش القديمة، التي يذكرها التاريخ الروماني : لأن مراكش الحالية أسسها (يوسف بن) تاشفين ولمتونة بعد عهد الرومان بكثير وبعد مجيء العرب.

الفصل الرابع والستون

تَـرْكَـا

تبعد هذه المدينة عن أزمور بعشرة فراسخ، وتقع على ضفاف نهر أم الربيع. وهي من تأسيس الأفارقة القدامى الذين أحاطوها بأسوار وأبراج. موقعها مناسب جداً، وكانت في القديم تابعة لأعراب شراكَة، لكن عندما غزا البرتغاليون آسفي، سكنها علي الذي قتل عبد الرحمن بصحبة يحيى، كما أسلفنا، مدة من الزمان مع عدد من المحاربين الذين تبعوه. واصطحبه أخو ملك فاس معه عندما رحَّلَ قسماً من هذه القبائل، فبقيت المدينة خالية دون أن يعاد تعميرها منذ ذلك العهد، بسبب مختلف آفات الحرب والطاعون والمجاعة التي أصابت البلاد. إن البوادي المجاورة لتَرْكَا ممتازة، يتنقل فيها أعراب شراكَة بماشيتهم.

الفصل الخامس والستون

بُولَعْوَان

هي مدينة حسنة على نهر أم الربيع، تحيط بها أسوار وأبراج قديمة في موقع مناسب، أسسها عبد المومن، ملك مراكش، من دولة الموحدين. تضم اكثر من خمسمائة دار، وسكانها أغنياء لوجودهم في الطريق الرابط بين فاس ومراكش عبر السهل، وكلهم حراثون وفلاحون، يكسبون أراضي كثيرة للحرث وكمية هائلة من الماشية في أراضي صالحة للرعي. وقريباً من هناك دارت المعركة بين حاكم أزمور[74] وقائدي ملك فاس. وقد بلغ فزع السكان من ذلك مبلغاً أدى بهم إلى الالتجاء إلى جبال تادلا، تخلصاً من النهب وتحرراً من سيطرة البرتغاليين. ثم عادوا إلى مدينتهم بعد اضمحلال سلطة البرتغاليين وتقوِّي الشرفاء، وهم اليوم يملكون كثيرا من القمح وقطعان الماشية كسائر أعراب هذه المناطق الدين يعترفون كلهم بالشريف.

الفصل السادس والستون

بني قفيز

تقع هذه المدينة على بعد خمسة عشر فرسخاً من أزمور، وفرسخين من الجبل الأخضر من جهة الشرق، على ضفة أم الربيع، فوق ربوة مرتفعة مستديرة تماماً، وتحيط بها أسوار وأبراج قديمة، لكونها عتيقة أزلية.

ينتقل أعراب شراكَة في السهول التي تكتنفها، وهي جميلة للغاية. كانت في القديم آهلة جداً بالبربر، لكن البرتغاليين نهبوها وقرية بجوارها على إثر غزو أزمور وأحرقوهما معاً. ولم يفكر أحد في تعميرهما من جديد منذ ذلك العهد، بسبب الطاعون والمجاعة، بحيث بقيتا خاليتين مع عدة أماكن أخرى. وهذه المناطق الآن في حوزة أعراب شراكَة.

وتوجد أيضاً بعض المساكن الأخرى في هذه النواحي، لا نذكرها لقلة أهميتها. أما كَيليز، وترَّار، وسيا، التي كان لها بعض الاعتبار، فهي الآن خالية من

---

(74) دُم يوحنَّا دي مينيزيس.

السكان، وأراضيها في حوزة الأعراب. ولنتحدث الان عن جبال هذا الاقليم، مبتدئين منها بالقريب من أسفي.

الفصل السابع والستون

الجبال وسكانها

بني ماڭر

يقع هذا الجبل الذي كان الأقدمون يسمونه جبل الشمس على بعد أربعة فراسخ من أسفي[75] في اتجاه الشرق، ويجعله بطليموس في الدرجة السادسة وخمس وأربعين دقيقة طولا، والدرجة الواحدة والثلاثين وخمس عشرة دقيقة عرضاً. وهو وإن كان شاهقاً جداً فإنه ليس شديد الوعورة، وفيه قرى يقطنها البربر، وقصر يحمل اسمه، لكنه ليس حصيناً لا بالصناعة ولا بالطبيعة. وعندما كانت أسفي في قبضة البرتغاليين، كان يقيم به حاكم مغربي[76] مع ثلاثمائة فارس يحتفظ بهم في الضواحي ويجمعهم إذا أراد أن يشن غارات على المسيحيين.

الجبل غني بالقمح، وشجر الزيتون، والمواشي، من ملحقات أسفي. لذلك عندما استولى المسيحيون على هذه المدينة، التجأ السكان إلى هذا الجبل للدفاع عن أنفسهم، لكنهم أرغموا على الخضوع والتبعية لملك البرتغال. وكانوا كذلك عندما قدم أخو ملك فاس إلى هذه البلاد، فأخذ بعضَهم معه وانحاز الباقون إلى البرتغاليين، حتى لا يتركوا امتعتهم. وحيث إنهم كانوا يشنون الغارات على المغاربة الآخرين، أرسل الشريف[77] وهو إذ ذاك ملك مراكش، إلى تلك المنطقة حاكماً يحميها. ومنذ أن رجعت أسفي إلى سلطة المغاربة، فإن الجبل وجميع سكانه أصبحوا كذي قبل تابعين لحاكم هذه المدينة، والقرى فيه آهلة بالبربر من قبيلة أولاد الشياظمة. لكن أعراب الغربية وعبدة يجوبون في السهول المجاورة حيث تكثر المراعي.

---

(75) عند الوزان : على بعد 12 ميلا. (مترجم)

(76) هو بودبرة.

(77) أحمد (الأعرج).

الفصل الثامن والستون

الجبل الأخضر

هذا الجبل الذي يسميه المغاربة الجبل الاخضر يحده شرقاً نهر أم الربيع وغرباً جبل هسكورة الذي يفصل هذين الإقليمين عن قسم من إقليم تادلا. وفي كل مكان منه غابات كثيفة من الصنوبر والأرز، وعُنَّاب السدر، يقطنها عدد من النساك لا يعيشون إلا على الكلإ والثمار البرية بعيدين عادة عن المنازل المسكونة بعشرة فراسخ أو اثني عشر فرسخا. كان هذا الجبل آهلاً جداً بالسكان أيام الموحدين، لكن بني مرين دمروا جميع منازله. وما زالت فيه عدة بنايات عتيقة، ومناسك وصوامع فيها أماكن مرتفعة بشكل قباب على عادة المسلمين، كان النساك يبيتون فيها، ويحج إليها أعراب المنطقة وبربرها.

نكوِّن كثرة العيون النابعة من هذه الصخور في السفح بحيرة كبيرة تكثر فيها أسماك النون، والتونة، والبوري، مع سمك ضخم ابيض يدعى «بوغ» لذيذ الطعم جدا. ومن العجيب مشاهدة الطيور الكثيرة المختلفة على هذا الجبل، وكذا وفرة الطرائد والخنازير البرية(78) بحيث إنه لا يوجد مكان أحسن منه للصيد في افريقيا كلها.

ولما استولى البرتغاليون على أسفي وأزمور، كان ابن حلو الذي يملك هذا الجبل يقيم في هذه الأدغال كناسك، حتى إنه بمساعدة بعض أعراب شراكَة التابعين له وأخيه مولاي فارس، اتخذ لقب ملك، وحدثت له عدة خلافات مع بوشنتوف ملك مراكش، ومع الشرفاء لكنه اضطر اخيراً هو وأخوه إلى الاعتراف بالشريف احمد كملك.

ويوجد حول البحيرة كثير من نبات الخلنج، وتشاهد فيها أسراب عديدة من طيور السماني، والحمام فيها ضخم بحجم الوَرَشان. وأخيراً فإن جميع الأماكن هناك مليئة بالطرائد لأنه قلما يُصاد فيها. ولا بوجد في إقليم دكالة أماكن أعظم من التي ذكرناها لكن كثيراً من الأعراب والبربر يتنقلون عبر الحقول.

---

(78) من أصناف الخنزير والإيل واليحمور، والإيل الأسمر والبقر الوحشي والعزال والاور الوحشي وما إلى دلك.

الفصل التاسع والستون

إقليم هسكورة

هذا الإقليم كان يسمى قديماً دمنات،وهو سادس أقاليم مملكة مراكش، حسب الترتيب الذي وضعناه(1). يبتدىء شمالاً عند الجبل الأخضر على حدود دكالة حيث ينتهي عند نهر تانسيفت، ويمتد غرباً قرب نهر أنماي، ويصل شرقاً إلى وادي العبيد الذي يفصله عن إقليم تادلا، ثم إلى وادي أم الربيع. وفي جنوبه بعض جبال الأطلس الكبير، التي تشتمل عليها دائرته، وهي مليئة بالكروم وشجر الزيتون وسائر أصناف الفواكه التي تزود بها بغزارة مدينة مراكش الواقعة منها على بعد عشرين فرسخاً إلى جهة الغرب.

سكان هذا الإقليم أفارقة حضريون(2) من أحد فروع قبيلة مصمودة التي سميت بها هسكورة. وهم أغنى من سكان دكالة لأنهم أقل تعرضاً لإزعاج الأعراب، يزرعون بلاداً خصبة يكثر فيها القمح والماشية الكبيرة والصغيرة. وهناك يعالج جلد الماعز الجميل الذي تصنع منه الأحذية النصفية، وأغطية السروج المطرزة، وسائر أنواع الأحذية الجميلة. كما تصنع في هذا الاقليم عدة أقمشة رفيعة، لكنها ليست بمثل جمال أقمشة أوربا. ويقصد هذا الاقليم من جميع الجهات من جل التجارة. يشبه سكان المدن تقريباً سكان مراكش في الزي والعادات وأساليب العيش، لكن الجبليين منهم غلاظ يعيشون كالقرويين. ويوجد من بينهم عدد من الصناع والتجار اليهود، يحملون الاسلحة كبرابرة الجبال الاخرى في حاحا، وقد أصبحوا يملكون منذ قليل الاسلحة النارية من قذافات وبندقيات، على غرار المغاربة الآخرين منذ عهد الشرفاء ولا يعتد بشيخ لا تكون معه بندقيات لمدافعة الأعراب.

---

(1) من الغرب إلى الشرق.

(2) خلافاً للبدو مثل الاعراب.

الفصل السبعون

الـمــــدن

المدينــة

هذه المدينة قديمة أسسها أهل البلاد، كمدينة إقليم دكالة، على منحدر أحد جبال الاطلس الكبير، بعيدة بثلاثين فرسخا من مراكش في جهة الشرق. وهي مسورة بأسوار عتيقة ذات ابراج، عامرة بالصناع والتجار، من بينهم عدد من اليهود. الضواحي كلها مغطاة بالكروم وأشجار الزيتون، وبكمية هائلة من أشجار الجوز وغيرها من الاشجار المثمرة حتى ليخيل للمرء أنها غابة. كان السكان في القديم أعداء ألداء لسكان المدين، فكانوا يتقاتلون بشراسة لدرجة أنهم لم يكونوا يجرؤون على الخروج لزراعة أراضيهم[3] وان التجار كانوا مضطرين إلى أن يصحبوا معهم من مكان إلى آخر مسلحين بالبنادق والقذافات النارية، يعطونهم اثني عشر أو خمسة عشر مثقالا في الشهر، غير أن عداوتهم لم تمتد الى النساء والأطفال والعبيد الذين كانوا يذهبون إلى الحقول ليعملوا بكل حرية، لكن الشرفاء وضعوا حدا لجميع هذه الخلافات، عندما أصبحت مقاليد أمور البلاد بأيديهم.

يزرع أهل المدينة أراضي جيدة في السهول الواقعة إلى جهتي الشرق والجنوب، مقابل مبلغ يؤدونه للأعراب الذين يملكون هذه الأراضي. وهم قوم محاربون، يفتخرون بنبلهم ومروءتهم. نساؤهم بيضاوات جميلات، يعشقن الغرباء جدا. وفيهم بعض العلماء بشريعتهم ويدبرون شؤونهم بكيفية معقولة. ليست المدينة محصنة لا بكيفية اصطناعية ولا طبيعية، إلا أن لها وسائل الهجوم والدفاع، نظراً لكثرة السكان.

الفصل الواحد والسبعون

الـمْـدِيـن

تحتوي هذه المدينة على ألف ومائتي كانون، وتقع على بعد فرسخ ونصف من المدينة السابقة إلى جهة الغرب، في شعب تكتنفه أربعة جبال شاهقة، الأمر الذي يجعل البرد فيها قارساً. أسسها الأفارقة الأقدمون وأحاطوها بأسوار متينة

(3) سنذكر المسافة بين المدينتين فيما يأتي.

مزودة بأبراج مشيدة عالية. سكانها بربر من أحد فروع قبيلة مصمودة[4] وهم شجعان يدّعون النبل، ويوجد من بينهم عدد كثير من التجار والصناع.

المنطقة واسعة جداً يكثر فيها القمح والزيت والماشية. والمْدِين ليست محصنة بذاتها، وإن كانت محمية بالصخور المجاورة. وفي عام ألف وخمسمائة وستة عشر خضعت لملك فاس كسابقتها، بعدما كانت كلتاهما جمهوريتين منذ انحطاط الامبراطورية المرينية. وإليكم كيف فقدتا حريتهما : كان بهذه المدينة تاجر غني من فاس عشق فتاة ذات حسب وجاه فحصل عليها كزوجة له، لكنه لما كان يوم الزفاف، اختطفها أحد الأعيان البرجوازيين، الذي كان رئيس عصابة ودخل بها. فكتم التاجر هذا العار وطلب بعد مرور بعض الوقت من الحاكم أن يأذن له في الذهاب إلى فاس، ولما حصل على الإذن حمل إلى ملك فاس بعض الهدايا من طُرف البلاد، وحكى له ما أصابه من غم. ثم التمس منه أن يعطيه ثلاثمائة فارس وخمسمائة راجل على أن يتحمل نفقتهم ويستولي بهم على المدين التي سيجعلها تابعة للملك ويؤدي له سبعة آلاف مثقال كل سنة. فلبى الملك رغبته، مقدراً أهمية هذه المدينة في تحقيق الغارة التي ينوي شنها على مراكش، لكنه لم يجعله يتحمل سوى نفقة مائة من رماة القرابينات النارية، وأما الباقون فأمر عامل تادلا المقيم بفستلة بالانفاق عليهم. ولما رأى السكان أنهم محاصرون، وأن أصحاب المدين يساعدون أعداءهم، قالوا للمختطف إنه ليس من الإنصاف أن يكون سبباً في تخريب المدينة، وأنه يجب عليه أن ينصرف لأنهم يريدون أن يستسلموا لملك فاس الذي تم حصارهم باسمه. فخرج المختطِف متنكرا في زي مسكين، لكنه عُرف من لدن بعض المغاربة، فأُخِذ وسيق إلى التاجر الذي سلم له السكان مفاتيح المدينة وأعلنوا خضوعهم لملك فاس، فجاءه أهل الفتاة يعتذرون عما حدث ويقولون إن هو إلا إكراه لم يقبلوه. فتزوج بهذه السيدة في احتفال عظيم، وحكم على مختطفها كغاصب وزانٍ بالرجم. ونُفذ القصاص في نفس اليوم. وبقي التاجر منذ ذلك الحين عاملاً على المدين وأحسن التصرف فيها وصالح سكانها مع أهل المدينة، وأخضع المدينتين معا إلى طاعة ملك فاس، فكان يؤدي له سنوياً ما وعده به، إلى أن استولى الشرفاء على الاقليم كله.

---

(4) من فرع هسكورة.

الفصل الثاني والسبعون

تكَوداسْتْ (5)

مدينة قديمة أسسها الأفارقة على قمة جبل شاهق تحيط بها أربعة جبال أخرى، بينها وبين الأنهار التي تمر قرب المدينة عدة أشجار مثمرة وأدغال، تجنى منها جميع أنواع الفواكه الجيدة مثل ما هو عليه الحال بأوربا. وتزحف على الاشجار دُوالٍ كبيرة تحمل عنباً أسود تسمى حبوبه بيض الدجاج لكبر حجمها. كما توجد كمية وافرة من أشجار الزيتون عبر المنطقة كلها تعطي زيتاً كثيراً، وعدد عديد من خلايا النحل يستخرج منها كثيرٍ من العسلٍ والشمع فيحملان إلى المدن المجاورة لبيعهما. عسلها مرغوب فيه جداً، لأنه فضلاً عن بياضه إذا احتفظ به أزيد من سنة صار مثل قواليب السكر(6).

معظم السكان أغنياء بحرثهم وتدبيرهم، ولهم تجارة رابحة مع سكان نوميديا وجتولة، المقيمين على الجانب الآخر لجبل الاطلس. كما يتجرون أيضاً في مدن فاس ومكناس، ومراكش، حيث يحملون العسل والشمع والزيت لبيعها، وياتون بأقمشة من الصوف، والكتان، والحرير، مع مصنوعات من الفضة، وأشياء أخرى يبيعونها لجيرانهم ولبربر المنطقة. نساء تكَوداست جميلات يتزين كثيراً على عادة البلاد، ويحملن حلياً كثيراً من الذهب والفضة في سواعدهن، وآذانهن، وأعناقهن، وصدورهن. والرجال ليسوا غيورين إذا قورنوا بسائر سكان هذه الجبال. والمدينة متحضرة شيئاً ما لوجود بعض الفقهاء فيها.

تنبع فيها عدة عيون يدير ماؤها الأرحاء بالسافلة ويسقي البساتين والأراضي التي تكوِّن سهلا يمتد على ثلاثة فراسخ أمام المدينة، حيث يستخرج الكثير من القمح والشعير والخضر. وهناك أيضاً قطعان كثيرة من الماشية الصغيرة تسرح في هذه الجبال التي يوجد بها الكلأ والمرعى بكثرة، حتى إن بعض السكان يملكون ما يربو على ثلاثين أو أربعين ألف رأس من الماشية الصغيرة، ويحصد البعض الآخر عشرين أو ثلاثين ألف كيل من القمح سنوياً. وأخيراً فإن اللبن والسمن فيها لا قيمة لهما بحيث لا يستفيدون سوى من الصوف والجلد، ولا يساوي خروف سمين

---

(5) كتبت في الاصل الفرنسي بما يشبه «إيفاكاسب» والتصحيح من كتاب الحسن الوران، لأن مارمول ناقل عنه.

(6) يصير صلباً مثل قالب السكر. (مترجم)

غير ريالين. يؤدي الذين يحرثون السهل شيئاً[7] للأعراب الذين يزعمون أنهم مالكوه.

هناك كثير من النبلاء كانوا يعيشون أحراراً على إثر انحلال امبراطورية بني مرين، لكنهم يخضعون الآن للشريف. وكذلك عدد من القضاة والفقهاء الذين يشرفون على الأمور الدنيوية والدينية. ولما استولى الشريف على هذه المدينة كان حاكمها افريقياً[8] من أحد فروع قبيلة مصمودة[9] لكنه لم يستطع أن يفعل شيئاً دون استشارة مجلس الاعيان، الذين كانوا بمثابة مجلس الشيوخ. كانت هناك فرق كثيرة، لكنه أحسن التصرف حتى تخلص من رؤساء الفريق المعارض، وتصالح مع الباقي، بحيث إنهم أصبحوا خاضعين له عن طواعية.

هؤلاء السكان صرحاء مهذبون، يحبون إسكان الأجانب عندهم، ويعاملونهم معاملات حسنة دون أن يطلبوا منهم شيئاً. يقولون إنهم يفعلون ذلك لوجه الله، وللاقتداء بعادات أسلافهم التي هي شبيهة بعادات سكان مراكش وفاس من حيث الزي وأسلوب العيش. ليست المدينة محصنة لا بكيفية اصطناعية ولا طبيعية، وتضم نحو ألف من السكان، أغلبهم تجار وصناع، ومن بينهم يهود يتمتعون بحرية الاعتقاد.

الفصل الثالث والسبعون

الجمعة

مدينة صغيرة تضم حوالي خمسمائة كانون، أسسها منذ زمن قريب أهل البلاد على جبل في الاطلس الكبير، تكتنفه جبال أخرى وعرة جداً، لكن هناك عدة قرى فيما بينها تنبع فيها شتى الجداول وينحدر ماؤها إلى السهل. تحيط بها بساتين وحدائق، تجنى منها كمية وافرة من الفواكه، وخاصة الجوز في أشجار غاية في الارتفاع والضخامة.

جميع تلال هذه الجبال، والربوات مليئة بأشجار الزيتون والكروم، ومعظم السكان يشتغلون بالجلد ويصنعون سروجاً جميلة مطرزة. يوجد في أحد هذه

---

(7) خمسة عشر فلساً من عملتنا الحالية.

(8) ابن عمرو.

(9) هسكورة.

الجبال منجم حديد وعدة مصانع لمعالجة هذا المعدن، ومنها يُحمل لبيعه قضباناً صغيرة في الاقليم كله. كما تصنع في هذه المدينة درق من جلد الجاموس(10) الذي يوجد بكثرة في نوميديا وليبيا.

أسس هذه المدينة سكان المدينة السابقة(11) الذين لاحظوا اختلاف الاعيان ولم يتحملوا طغيانهم، فالتمسوا من ملك فاس أن يأذن لهم في توسيع قرية كان فيها مسجد عتيق شهير، فساعدهم على ذلك. وتركوا نبلاءهم، وعاشوا بضع سنوات أحراراً تحت حكم شيخ لم يكن يفعل شيئاً دون استشارة لأعيان، ما دام الشرفاء قد ملكوها.

تقع المدينة على صخرة وعرة جداً، على بعد نحو فرسخين من المدينة السابقة في اتجاه الشرق، لكنها غير محصنة البتة. السكان صرحاء مهذبون لكنهم ليسوا أغنياء بقدر ما هم عليه جيرانهم.

الفصل الرابع والسبعون

ابْــــزُو

هي مدينة قديمة تضم أزيد من ألف وخمسمائة ساكن، في موقع لائق ملائم على جبل شاهق من جبال الأطلس الكبير. تحيط بها أسوار وبروج مشيدة بالحجر الموثق بالجير، على بعد سبعة فراسخ من المدينة السابقة في اتجاه الشرق. تربتها في غاية الخصب تنتج القمح والزيت، ويرعى فيها العديد من القطعان. تكتنفها حدائق وبساتين تسقى من جداول منحدرة من الجبل، ويمر وادي العبيد على بعد فرسخ من هناك من جهة الشرق، تاركاً بينهما سهلاً كبيراً حيث توجد معظم البساتين، ويكثر العنب والتين لدرجة أنهم يجففونهما ويبيعونهما للمناطق المجاورة، فيحصلون من ذلك على فوائد جمة، وكذلك الجوز كثير هناك.

السكان أغنياء مهذبون، يحبون الغرباء كثيراً. لباسهم أنيق بالنسبة للبلاد، يتكون من قماش ونسيج رقيق، كسكان مراكش، وهم بربر من قبيلة مصمودة، نساؤهم بيض جميلات أنيقات. وفي المدينة مسجد جميل، يخترقه جدول ماء

---

(10) الانط، وهو نوع من الجاموس.
(11) تكَوداست.

ويخرج منه إلى الساحة، ثم ينحدر الى السهل، فيسقي في طريقه البساتين الموجودة في الحدور.

ليس في هذا الاقليم مدن اخرى، لكن هناك ثلاث قرى مسورة[12] آهلة بنفس القوم، مع عدة قرى أخرى في الشعاب. وفيما يخص الجبال سنتحدث عنها في الفصل التالي.

الفصل الخامس والسبعون

الجبال وسكانها

تاناندز[13]

هو جبل كبير بالاطلس، يطل على الجنوب، الشيء الذي من أجله لا يدرجه بعضهم في هذا الاقليم، لكن آخرين يجعلونه منه لأنه من بلاد البربر، يسكنه كثير منهم، وهم جفاة لكنهم شجعان، يدّعون الشرف ويملكون العديد من الخيل القصيرة القامة والسريعة الخفيفة القوية. لا تنتج البلاد أي شيء من القمح، لكنها تعطي كمية من الشعير، ويكسب السكان عدداً كثيراً من الماشية الكبيرة والصغيرة. وقمة أعالي الجبال مكسوة بالثلج طوال السنة.

هناك عدد من النبلاء يترأسهم شيخ من أتباع الشريف (السعدي)، وكانت مداخيل الإقليم تخص فيما قبل للحروب التي كانوا يشنونها عادة على سكان جبل تنزيت، الذين يحدونهم من جهة الشرق ويكوّنون أكثر من خمسة آلاف فارس، وخمسين ألف راجل، دون رماة القرابين والقذافين. وسلاحهم كسلاح سائر بربر حاحا.

ليس في الجبل كله مدينة ولا بلدة مسورة، ولكن عدة قرى آهلة بالسكان. ذلك لأن البلاد وإن كانت باردة فهي كثيرة المرعى، وتقوم وعورة الجبل الشديدة مقام الدفاع. والمسافة من هناك الى إقليم درعة الواقع في نوميديا هي خمسة وثلاثون فرسخا. كان أمراء هذا الجبل وجبل تنزيت وكذا أمراء درعة كلهم من أسرة

---

(12) درعة اتّنديكّ، وابن زمر، وبوهلي.

(13) سمي هذا الجبل عند الحسن الوزان، «تينواوز» ويدل الموقع على أن المقصود حل أيت واوزكّيت (انظر **وصف افريقيا**، الطبعة الثانية، 1 : 170 والهامش 87) (مترجم).

واحدة، ويسمون مزوارة، لكن خلافاتهم سمحت بدخول الشريف الذي كانوا قادرين على التصدي له لو كانوا متفقين. وما زالوا يذيقونه الأمرين بثوراتهم المتكررة.

الفصل السادس والسبعون

تنزيت

هذا جزء آخر من الاطلس الكبير، يحده الجبل السابق من جهة الغرب ويصل الى جبل دادس في إقليم تادلا من جهة الشرق، ويحده من الجنوب صحراء درعة، وينتهي شمالا الى سائر جبال الاطلس الكبير. يجعله بعض المؤرخين على رأس اقليم درعة، من جهة السوس الأقصى، لأنه كان دائماً للمزوارين، دون أن يكون تابعاً لإقليم هسكورة، لكن القدامى يدرجونه فيه، لأنه من بلاد البربر، غير واضعين في نوميديا إلا جزء الاطلس الكبير الذي يطل على الجنوب.

إنها بلاد آهلة بالسكان، يسقيها نهر درعة[14] الذي تقع على طول ضفافه خمسون بلدة كلها محاطة بأسوار من طين، وتبعد عن النهر بفرسخ وأكثر. كان يحكم هذه البلاد مزوار من الذين تحدثنا عنهم، يدعى ابن عمرو، وكان معه ألفا فارس عندما استولى الشريف على مراكش. لكن بعد مقاومة طويلة، كان الشقاق الذي حدث بينه وبين أمير تدسي ودرعة سبب هلاكه. ذلك لانهما، رغم قرابتهما الوثيقة وانتمائهما الى نفس القبيلة، كانا يتحاربان بضراوة، ويستنجدان ببرتغاليي رأس كير فجعلت عداوتهما الشريف ينتصر ويخضع له ابن عمرو.

المطر في هذه الجبال نزر قليل، لأنها تنظر إلى الجنوب، وتمتد عبر رمال ليبيا، بحيث إن البلاد شديدة الحرارة، لا يستخرج منها قمح البتة، وإنما تاتي بالكثير من الشعير. القطعان فيها قليلة جدا، لكن النهر تكتنفه من جميع جهاته حقول كثيرة من النخيل تنتج أجود ما يوجد في إفريقيا كلها من التمر[15]، وهو رفيع الى درجة أن أدنى رطوبة تذيبه «كالسكر»، لذلك يصدر القليل منه إلى أوربا بعد أن يجفف جيدا قبل أن يحمل اليها، ويوضع في قفف صغيرة مغطاة بجلود

---

(14) الذي ينبع في إقليم هسكورة.

(15) بسوقيرس.

الضأن، لاتقاء الرطوبة[16]. ويوجد النخل بكثرة على طول هذا النهر، حتى إنهم بسيرون تحت ظله مسافة عدة فراسخ، دون أن يتضرروا من حرارة الشمس.

السكان سمر البشرات بدينو الأجسام، والنساء يتجملن بالخضاب، ويسرن سافرات الوجوه دائماً، ولهذا فإنهن يحببن الأجانب كثيراً. يتعاطى هؤلاء القوم التجارة بدرعة، وسائر أقاليم نوميديا وليبيا، حتى بلاد الزنوج[17]، حيث يقوم العديد منهم بتجارة كبرى، الامر الذي يجعلهم يعيشون عيشة راضية، ويملكون كمية وافرة من تبر الذهب.

الفصل السابع والسبعون

غجدامة

يتاخم هذا الجبل جبل تنزيت، وليس آهلاً إلا من جهة الشمال، لأن الجزء المطل على الصحراء كله قفر. يقول المؤرخون إن هذا الجبل اجتاحته الحروب، عندما استولى الموحدون على الحكم من يد المرابطين، لأن السكان آووا ابراهيم بن علي عندما فر أمام عبد المومن، فغضب المنتصر لذلك وحرق كل شيء، دون أن برحم سنا ولا جنسا، بحيث إن الذين جاءوا يسكنونه منذ ذلك العهد وهم فقراء ضعفاء، لم يعمروا إلا الجانب الشمالي الأجود المطل على بلاد البربر. يربى في هذا الجبل عدداً كثيراً من الماعز، والبغال، والأفراس التي مع صغر قامتها. لا تنقصها القوة ولا السرعة. هذا الجانب من الجبل كله مكسو بشجر الزيتون الذي تحمل كمية من زيته إلى نوميديا. وينتج كذلك كمية من الشعير الذي يقتاته هؤلاء القوم، لندرة القمح عندهم. لقد عاشوا مدة طويلة وهم أحرار، بسبب وعورة الجبل الكثير التصلب والانحدار، لكنهم استسلموا للشرفاء منذ أن استولوا على فستالة. يقيمون في قرى وضياع صغيرة مبعثرة في الشعاب، الدور مبنية بالطين ومسقفة بالتبن أو الأغصان. تنبع في الجبل عينان نضاختان تبعد الواحدة عن الاخرى بنحو فرسخ، حيث يتكون نهرا تيسوين اللذان يخترقان الاقليم، ثم يصبان في أم الربيع. وبسمى كل واحد منهما على حدة تساوت، وعندما يلتقيان يدعيان نيسوبن، أي حواش.

(16) سمى في اسبانيا تمراً، وفي غيرها بوصير
(17) المكان الذي ياتي منه ذهب الزنوج الجيد، وهو مسحوق.

الفصل الثامن والسبعون

تيساوين

إنهما جبلان يتماسان، يبدآن عند الجبل السابق غرباً، وينتهيان في جبل تكَوداست. سكانهما معا من برابر قبيلة مصمودة، لكنهم لا يقتاتون الا الشعير وشيئاً من الدخن، تخرج عدة عيون من شعاب الجبل الظليلة المظلمة، وتكوِّن جميعها نهراً يخترق سهول هسكورة، ثم يصب في أم الربيع. يزرع السكان بعض الاراضي في السهل، ويؤدون عنها إتاوة إلى أعراب من أتباع الشريف[18] الذي تخضع له جميع هذه الجبال موزعة بين قواده لتمرين الجنود الذين فرض عليهم القيام بهم، فينزعج السكان منهم كثيراً بحيث لا يرجون الا تغيير الوضع.

---

(18) بي حابر.

الفصل التاسع والسبعون

إقليم تـادلا

هذا آخر أقاليم هذه المملكة وأكثرها اتجاهاً نحو الشرق، وبالرغم من صغره فإنه كثير القمح والزيت والقطعان، وأهله أغنياء. سكان الجبال بربر من قبيلة مصمودة، لكن السهول آهلة بسلالتين من الأعراب[1] لكل واحدة منهما أزيد من تسعة آلاف فارس، يرحلون إلى الأقاليم المجاورة. يبدأ هذا الاقليم عند وادي العبيد غرباً، وينتهي من جهة الشرق عند أم الربيع. ويحتل في الجنوب جبال الاطلس الكبير، بينما يكوّن في اتجاه الشمال رأساً يلتقي فيه هذان النهران. شكله مثلث، ويضم جميع البوادي الممتدة بين النهرين قبل التقائهما. لأنهما يفصلان بعد ذلك إقليم دكالة عن إقليم نامسنا، إلى أن يصبا في البحر تحت اسم نهر أزمور. هذا الإقليم جزء من مملكة مراكش، ولو أنه سبق أن كان بعض الوقت تابعا لملوك فاس. كان بنو مرين يملكونه عندما كانوا مسيطرين على موريطانيا الطنجية كلها، لكن لما انقرضت امبراطوريتهم وانفصلت مملكتا فاس ومراكش[2] استولى عليه عدد من المتسلطين الصغار فأعطوا الفرصة بنزاعاتهم لملوك فاس ليحتلوا أهم المدن، وكان إقليم تادلا في ملكهم عندما تغلب الشرفاء على هذه المناطق. يحكمه بالتوالي الزرنجي، والعطار، وولده ابن دراعو، وابن عنزار، فسلمه هذا الاخير بعد أن هُزم الشريف الكبير من طرف اخيه الأصغر[3] ذلك لأن جميع حصون الإقليم استسلمت إذ ذاك[4] فبقي سالماً للمنتصر. وهذه أهم مدن الاقليم :

الفصل الثمانون

تفزة[5] حاضرة هذا الإقليم

يقول المؤرخون القدامى إن أهل البلاد هو الذين أسسوها، وهي على بعد فرسخين من السهل في منحدر الأطلس الكبير المتجه نحو الشمال. وفضلاً عن

(1) أولاد رعير وبني حابر.
(2) مع بني وطاس.
(3) سنة 1544.
(4) في اليوم المعروف بيوم درن.
(5) كتب في النص الفرنسي بالهاء (ـة).(مترجم)

موقعها المناسب، فإنها محاطة بأسوار متينة مزودة ببروج جيدة، ولها في السفح سهول فسيحة تدعى بادية فستالة. السكان أغنياء بما يملكون من قمح ومواش، ويتجرون في الصوف الرفيع الذي تصنع منه زرابي كزرابي تركيا، وبرانس جيدة للبادية. تجتذب هذه البضاعة التجار من جميع النواحي، ويتعامل السكان معاملة حسنة حسب عادتهم، وهم أشداء في الحرب. وهناك نحو مائتي دار لليهود، وهم الذين يقصدهم التجار بالخصوص.

كانت هذه المدينة وجميع مدن الإقليم خاضعة لملوك فاس، خاصة على عهد بني مرين، عندما كان نفوذهم يمتد إلى السوس الأقصى. ومنذ أن انقرضت دولتهم، ثار أهم الرؤساء أثناء خلافاتهم، مع المدن وغيرها من الأماكن الهامة، وتمكنوا من احتلالها. وقد تحرر بعضها، ومن جملتها هذه، لكن المدينة التي انقسمت الى فرقتين في شأن الحكم، جعلت الفرقة القوية تطرد الضعيفة، فلجأت هذه الى ملك فاس[6] واعدة إياه أن تبايعه، شريطة أن يرجعها إلى مكانتها. فأرسل اليهم الفي فارس، مع خمسمائة من رماة القرابين، ومائتي قذاف، وأعطى الأمر لأربعة آلاف فارس من الأعراب أن يلتحقوا بهم. ولما وصل هؤلاء الجنود الى تفزة، بقيادة الزرانكي بآلات الحرب لذلك الوقت، تصدي لها المحاصرون بعض الوقت ثم استنجدوا بعد ذلك بأعراب من حلفائهم[7] فأنجدوهم بخمسمائة فارس، وقاتلوا المحاصرين في السهول الواقعة أسفل المدينة، وهلك كثير من الجانبين. لكن رماة فاس وقذافيها قاموا في الأخير بطلقات مكثفة حتى هزموهم، ففتح سكان المدينة الأبواب للمنتصر وجعلوا أنفسهم رعايا خاضعين لملك فاس. لكن الزرانكي بعدما دخل الى المدينة واستولى على القصر الذي كان حصيناً جدا، عاقبهم بالمال، وألزمهم زيادة على ذلك بأداء خمسة وعشرين الف مثقال كل سنة[8] غير أنه قتل أثناء غارة ضد الأعراب[9] إما من طرف أصحابه أو أعدائه، فاسترجعت المدينة حريتها، واحتفظت بها إلى عهد الشرفاء. وبعد أن قاسى السكان كثيرا من آلام الحروب التي كانت لهم ضد ملك فاس، استسلمت المدينة لأحد قواد الشرفاء[10].

(6) هو مولاي محمد، آخر ملوك بني وطاس

(7) هم بنو جابر.

(8) حضر الحسن الوزان دخول قائد الوطاسيين هذه المدينة، ووصف بأسلوب قصصي شيق مكر هذا القائد وتحايله في استصفاء أموال السكان. **وصف افريقيا**، 1 : 178ــ183. (مترجم)

(9) بنو جابر.

(10) وهو مومن بلعيش.

الفصل الواحد والثمانون

أفْزَا (11) أو فستالة(12)

تضم هذه المدينة سبعمائة كانون، أسسها الأفارقة الأقدمون على ربوة عالية إلى جهة الشمال من الأطلس الكبير، على بعد فرسخين من تفزة في اتجاه الشرق. ولها من ناحية الجنوب حصن يحيط به سوران قويان مشيدان بالحجر والجير، يبعد الواحد منهما عن الآخر بخمسين قدماً، وتحيط به من جميع الجهات أبراج وحواجز، وشِعْبٌ منخفض من خارج. وليست المدينة مسوَّرة، لكنها حصينة بموقعها، إذ لايمكن حمل المدفعية إليها بسبب المستنقعات، فضلاً عن وعورة الربوة. يشرف على القصر جبلٌ شاهق، في قمته برج شيد ــ على ما يبدو ــ لحمايته. يقول السكان إن عاملاً لملك فاس[13] هو الذي بناه أو رممه، لكن الأسس وجزءا من الأسوار التي ما زالت قائمة تدل على أن العمل أقدم من ذلك. وهذا البرج واقع بحيث لا يمكن حصار القصر إلا بمشقة عظيمة وخطر إن لم تحتل. ويوجد برج آخر في غاية المناعة بجهة الغرب، يصله بالبرج الرئيسي للقصر شق جدار بحاجز مزدوج، للتمكن من سقي الماء في مأمن من عين قريبة من هنالك واقعة في شعب، وهذا البرج منحدر لدرجة أنه يستحيل قصفه من أية جهة، وتكاد شرفاته لا ترى. لكنه محروس على الدوام لأن حفظه مرتبط بحفظ القصر والمدينة اللذين ليس لهما ماء دونه.

السكان أغنياء يزرعون السهل، ولهم حدائق جميلة وكروم على الربوة الواقعة فوق المدينة. يتجر بعضهم بالصوف الرفيع الذي تصنع منه أقمصة ثمينة وزرابي، لأن النساء يتقن غزله. إنهم قوم محاربون وإن كانت محادثتهم عذبة شيقة، والنساء جميلات يتزين بالحلي ويفتخرن به كثيراً.

يمر بين هذه المدينة والسابقة نهر درنة، الذي ينحدر من الاطلس الكبير ويسيل بين جبال وتلال، حيث تزين ضفافه بساتين وحدائق، ومن ثَم يمضي في

---

(11) وردت عند مارمول : تفزة. مع أن هذه المدينة سبق له الكلام عنها قبل مباشرة، ونقل باختصار ما ذكره عنها الوزان عن مشاهدة. وإنما هذه أفْزَا كما جاءت عند الوزان. (مترجم).

(12) تسمى فستالة باسم البربر الذين يسكنونها.

(13) هو الزرانكي.

السهل ليصب في أم الربيع نحو الشمال. لقد اعتادت هذه المدينة أن تعيش حرة ومتحدة أكثر من سائر مدن الإقليم، لكن جنود ملك فاس عندما استولوا على تفزة، مكروا بالسكان مكرا شديدا حتى أرغموهم على الخضوع والطاعة. وعندما ثار الشرفاء كانوا ما يزالون تحت سلطة ملوك فاس، لكن، منذ أن احتلوا مراكش واتجهت أنظارهم إلى مملكة فاس، حاولوا بكل الوسائل الاستيلاء على هذه المدينة الواقعة في الممر، فأرسل[14] محمد لمحاربتها أحد أبنائه مع مومن بلعيش وجميع جنود حرسه، فضلاً عن عشرة آلاف فارس من الأعراب، فحاصرها وقصف بمدفعين عظيمين البرج الذي يحمي الماء كما قلت. وبعد أن أسقط الحواجز وأحدث ثقباً صغيراً، أمر بالهجوم العام، لكن العامل تصدى له بقوة إلى أن أرغمه على الانسحاب سريعاً تاركاً عدداً كبيراً من القتلى من بين الأتراك والمغاربة حرس الشريف. وفي هذه الأثناء وصل نبأ قدوم ملك فاس، فرفع ابن الشريف الحصار وانسحب إلى مراكش، تاركاً قسماً من جنوده مع مومن في تفزة. وبعد ذلك بقليل، توجه ملك فاس إلى تادلا بجيشه، فخرج الشريف من مراكش والتحق بجنود تفزة. وحاربه على ضفاف نهر درنة، فأسر ملك فاس وهُزِم جيشه، واستسلم قصر فستالة في اليوم نفسه، فأصبح جميع الاقليم خاضعاً للشريف، كما هو عليه الحال حتى اليوم. سكان هذه المدينة أغنياء يصنعون فيها أقمصة جميلة وثياباً أخرى تسمى فستالة، تحمل إلى فاس ومراكش. وفي المدينة أزيد من مائة دار لليهود.

الفصل الثاني والثمانون

أيتْ عْتَاب[15]

مدينة صغيرة لكنها محصنة، تقع على بعد ثلاثة فراسخ من السابقة في اتجاه الشرق[16] يقول المؤرخون إن أهل البلاد من قبيلة مصمودة هم الذين أسسوها. تقع على قمة جبل، ويسكنها قوم هادئون أغنياء ، يتعاملون معاملة حسنة، لأن لهم

---

(14) سنة 1543

(15) كتب في الترجمة الفرنسية · سيتيتاب

(16) عند الوزان : عشرة أميال. والصواب أنها على بعد 40 ميلا من مدينة أفزا في الجنوب العربي منها. انظر **وصف افريقيا**، 1 : 184 والهامش 96. (مترجم)

أراضي كبيرة تنتج الكثير من القمح، وجبالاً ملائمة للقطعان. جميع الشعاب والتلال المحيطة بها مكسوة بالكروم والأشجار المثمرة التي تعطي كمية من الفواكه الجيدة. يقوم السكان بتجارة واسعة في الصوف، ويصنعون زرابي وأقمصة ثمينة، كما يفعلون في فستالة. وحيث إنهم رجال حرب أشاوس، فإنهم دافعوا عن أنفسهم بشجاعة ضد ملك فاس[17] دون أن يجنحوا للاستسلام كغيرهم، وعرَّضوه لخطر الهلاك، بفضل بطولة أحد السكان الذي كان يدافع عن البلاد على رأس ألفي فارس. لكن الملك، عندما رأى أنه لا يستطيع القضاء عليه بالقوة، سمَّـه بواسطة طبيب يهودي كان في المدينة، ثم استسلمت المدينة وبقيت خاضعة لملوك فاس، إلى وقعة درن[18] حيث رجعت لطاعة المنتصر مع سائر مدن الإقليم.

الفصل الثالث والثمانون

أيت عياض

هو حصن واقع على ربوة صغيرة من الربى المنحدرة من الأطلس الكبير، أسسه رجال قبيلة مصمودة كسائر مدن هذه المناطق. يضم نحو ثلاثمائة نسمة، وتحيط به أسوار عالية من جهة الجبل، وليس له بها حاجة من جهة أخرى، لأنه تكتنفه صخور وعرة وجرف. بين هذا الحصن والمدينة السابقة أربعة فراسخ من الجبال، ويسقيها نهر صغير ينحدر من هذه الصخور ويخترقها. ومن السكان تجار وصناع يهود، وهم يتجرون في الصوف ويملكون كمية من القطعان.

وتوجد في المدينة عدة عيون، تصب كلها في نهر درنة، مكونة جداول كبيرة، تسقي هذه التلال والشعاب، وتكتنفها حدائق وبساتين فيها كثير من شجر الزيتون. ويحصد الشعير بوفرة في الجبل، والقمح الجيد في السهل، لأن البلاد خصبة جداً. وقد اجتاحتها عدة حروب في مختلف العصور، وعند قيام الشرفاء كانت تحت سيطرة متسلط قتله السكان بعد أن حكم عدة سنوات واستسلموا لملك فاس إلى أن غُلب على أمره فخضعوا للشريف.

(17) محمد الوطاسي
(18) سنة 1510.

الفصل الرابع والثمانون

سْكِيمْ

يبتدىء هذا الجبل غرباً عند جبل تيساوين، وينتهي شرقاً إلى جبل مغران. يحده في الجنوب جبل دادس، وفي الشمال بادية فستالة، ويسكنه بربر من قبيلة زناكَة سراع أقوياء يدّعون المروءة ويسيرون دائماً مسلحين بدبابيس أو رماح أو خناجر أو سيوف مثل سكان حاحا. وقد ملكوا منذ زمن قليل بعض البندقيات، فضلا عن المقاليع التي يستعملونها ببراعة. كانوا في القديم يعيشون أحرارا، ويتحاربون دائماً مع جيرانهم. تتباعد منازلهم الصغيرة بعضها عن بعض، بحيث لا تتجاور منها سوى أربعة فقط، ويتجرون بالماعز والبغال التي يربونها ويبيعونها للأجانب. توجد في البلاد عيون كثيرة، وكمية من الشعير الذي يشكل الغذاء الرئيسي للسكان. والجبل وعر جدا ذو مسالك صعبة بحيث لا يكادون يخشون العدو. ولما غزا قائد ملك فاس[19] تفزة، قصدهم بألفي فارس، وعدد كثير من المشاة، لكنهم عندما تجمعوا نصبوا له كميناً قرب أحد المضايق، فلما اجتازه هجموا عليه من كل جانب بالدبابيس والحجر، بحيث إن جنود فاس الذين لم يستطيعوا التقدم ولا التراجع، أخذ ينقلب بعضهم على بعض، وسقط العديد منهم، سواء الراجلون أو الفرسان، إلى أسفل الصخور، فهلك جلهم أو أسروا، بينما فر القائد على رجليه بمشقة عظيمة. وكان حظ الأسرى أسوأ من حظ الموتى، بسبب شراسة هؤلاء المتوحشين الذين سلموهم لنسائهم، فألحقن بهم أضراراً كثيرة حتى جعلنهم في النهاية خصيانا. ثم تفاوضوا مع عامل ملك فاس[20] الذي خلف هذا الأخير، وعادوا إلى حريتهم القديمة عندما سمعوا بقدوم الشرفاء إلى أن أخضعهم هؤلاء بعد أن بسطوا نفوذهم على إقليمي درعة وتفيلالت. لكنهم لا يخضعون إلا إذا شاءوا، لأنهم لا يخشون شيئاً في جبلهم، ولا يستطيع أحد أن يهاجمهم ما داموا يتحكمون في المسالك.

---

(19) الزرانكي.
(20) هو العطار.

الفلص الخامس والثمانون

مَغُـــران

يحد هذا الجبل غرباً الجبل السابق، ويمتد في ذلك الجانب من جبل الاطلس الكبير المطل على إقليم فركلة جهة الجنوب[21] إلى جبل دادس، والبلاد شديدة البرودة حيث إن الثلج يكسو قمم الجبال طوال السنة. ليس للسكان منازل قارة، وإنما يقطنون في أكواخ من لحاء الشجر يبدلونها من حين لآخر، بحثاً عن المراعي، لأنهم يكسبون عدداً كبيراً من قطعان الماشية الكبيرة والصغيرة. وهكذا فإنهم يرحلون الصيف كله عبر هذه الجبال، بنسائهم وأطفالهم، ويقيمون في مكان يقضون فيه فصل الشتاء، جاعلين أكواخهم منخفضة جدا بسبب البرد. لكونها غير مغطاة إلا بأغصان يوقدون حولها نيراناً قوية خوفاً على الماشية من البرد تاركين فتحتين أو ثلاث فتحات للفرار عند وقوع حادث. هذا الجبل مليء بالأسود التي لا تهاجم الماشية فقط، ولكنها تهاجم الناس كذلك.

ليس هؤلاء القوم على كثرتهم بشجعان مثل زناكَة رغم أنهم عاشوا أحراراً في القديم يسمون عادة مغراوة. وكان يحكمهم قديماً شيخ يخضعون لأوامره، بحيث إنهم صدوا عدة مرات أعداءهم بمساعدة النوميديين. وقد استولى عليهم الشريف أحمد في أول وقعة تافيلالت، وأصبحوا منذ ذلك الحين رعايا لأخيه، وما زالوا خاضعين لابن أخيه الذي يحكم حالياً.

الفصل الأخيـر

دَادَس، ومدينة دوراق القديمة التي كانت فيه

دادس جبل شاهق بارد تكسوه غابات عالية كثيفة تنبع فيها عيون كثيرة، ويكتنفه من جهة جبل مغران، ومن جهة اخرى جبل أدَخْسان[22] الذي يفضي إلى مملكة فاس[23]، وتحده جنوباً سهول تدغة التابعة لنوميديا أو جيتوليا.يزيد طوله على ثلاثين فرسخاً من الشرق إلى الغرب، وتظهر في أعلاه أنقاض مدينة عتيقة،

(21) على مشارف مفارات ليبيا.
(22) كتب في الترجمة الفرنسية : ادران
(23) من الغرب إلى الشرق

الاسوار الباقية منها سميكة جدا مبنية بالحجر المنحوت. وهناك بعض الألواح من الرخام فيها حروف قوطية ممحوة جزئياً. يقول بعضهم إنها من عمل الرومان، وإنها دوراق التي تحدث عنها بطليموس في خريطة ليبيا الأولى. وقد خربها الموحدون فلم تعمر بعدهم.

يذكر الشريف الصقلي، مؤرخ افريقيا، مدينة تيدسي، الواقعة بين اقليمي سجلماسة ودرعة، الأمر الذي يجعل بعضهم يظن أنها هي هذه، لوجودها في نفس الارتفاع، ولعدم وجود أية مدينة أخرى بهذه المناطق، بحيث إن المحدثين يدعونها هكذا، لكنهم مخطئون، لأنه لا يجعل قطعاً مدينة تيدسي في جبل دادس، وهي التي وضعناها في إقليم سوس[24]، لكن هذه هي دوراق بطليموس التي يجعلها على تسع درجات طولا، وإحدى وثلاثين درجة وخمس عشرة دقيقة عرضاً.

سكان هذا الجبل فقراء بؤساء ليس لهم إيراد آخر غير قطعانهم، التي يرحلون معها مثل سكان مغران، ويسكنون في كهوف، لا في أكواخ كالآخرين. قوتهم من الشعير واللبن، ولهم قليل من الزيت، وكثير من السمن، لكن ليس لهم أي شيء من القمح، لأنه لا ينبت في البلاد. يدخلون قطعانهم ليلاً في كهوفهم، حيث يكثر ملح البارود، لكنهم يجهلونه، لباسهم رديء جداً، ينتعلون شبه نعال من جلد الحمير وتفوح منهم رائحة التيوس بقوة، لأنهم يشتغلون ليل نهار بقطعانهم يملك بعض كبرائهم وأغنيائهم دورا صغيرا مبنية بالحجر الصلد ومسقفة بالاردواز الموجود في هذه الجبال، إنهم لصوص كبار، لا يعرفون عقلاً ولا عدلاً، ولا يتحدثون مع الأجانب إطلاقاً، ولذلك لا يوجد أحد منهم في هذه البلاد وإذا مروا بها سلبوهم. النساء قبيحات المنظر، قذرات منتنات، وهن كأزواجهن أكثر سكان افريقيا كلها توحشاً. كانوا دائما رعايا للذين يحكمون تادلا، كما أنهم ما يزالون خاضعين للشريف.

هنا تنتهي أقاليم ومساكن مملكة مراكش، التي لها أهمية في بلاد البربر. وسنتحدث في مكان آخر عن أقاليم ومساكن درعة وغيرها من بلاد نوميديا، الخاضعة للشرفاء.

(24) هناك قريتان تدعى كل منهما تيدسي، إحداهما بدرعة والثانية بسوس (مترجم)

الكتاب الرابع

ويشتمل على وصف الأقاليم، والمدن والقرى بمملكة فاس، والمساكن الجبلية، مع الحروب، ومسائل أخرى تستحق الذكر

الحدود

تمثل مملكة فاس القسم الثاني من موريطانيا الطنجية المواجه للشرق، ويفصله عن القسم السابق نهر أم الربيع من جهة إقليمي دكالة وتادلا. ويحده شرقاً نهر ملوية الذي يميزه عن إقليم تلمسان أو موريطانيا القيصرية، وشمالاً مضيق جبل طارق وبحر إسبانيا، وجنوباً قمة جبال الأطلس الكبير التي تحتوي عليها في بعض الأماكن، ثم تمتد إلى نوميديا أو جيتوليا[1] وقد سمى القدامى جبالها الواقعة على الشاطىء «أمبولوز» بسبب الكروم، وخاصة منها كروم (عبيلة)[2] التي هي أحد أعمدة هرقل. ولهذه المملكة سبعة أقاليم، أولها إقليم تامسنا من ناحية الغرب، الذي سنتحدث عنه في الفصول التالية.

---

(1) من أرمور إلى ملوية وعساسة

(2) أو العودية.

الفصل الأول

إقليم تامسنا

هذا الإقليم هو أقصى أقاليم مملكة فاس من ناحية الغرب، يبتدئ عند أم الربيع، ويمتد نحو الشرق إلى إقليم أبي رقراق، الذي يصب في البحر بين سلا والرباط. تحده جنوباً تلال الأطلس الكبير، وشمالاً بحر جبل طارق في اتجاه المحيط. طول الشاطىء ثلاثون فرسخاً من أم الربيع إلى أبي رقراق، وعرضه عشرون فرسخاً، وأحياناً أكثر من ذلك. كل هذه المساحة ليست سوى أرض خصبة كانت في القديم زهرة بلاد البربر كلها، تضم ما يزيد عن أربعين مدينة أو قرية يقطنها قوم محاربون شجعان، بحيث إنها مشهورة في كتب المؤرخين المغاربة. وخربها ثاني ملوك المرابطين(3)، لأنها كانت تحت سيطرة خلفاء أحد الطغاة(4) الذي تحدثنا عنه في الفصل الثلاثين من الكتاب الثاني(5)، وبقيت خالية مائة وثمانين سنة، إلى أن أعاد تعميرها يعقوب المنصور ببعض أعراب مملكة تونس، الذين ملكوها طوال حكم الموحدين(6). ثم طردهم بنو مرين منها وعوضوهم بزناتة وهوارة، جزاءً للخدمات التي قدموها لهم عند توطيد ملكهم. ومنذ ذلك التاريخ وهي في ملك هذه القبائل التي تدعى الشاوية(7) وهم يرحلون بخيامهم مثل الاعراب، ويتكلمون بعربية فاسدة، ولو أنهم أفارقة (بربر). كانوا في القديم أقوياء جداً، وحاربوا بني وطاس حتى كادوا يخلعونهم من الملك، إذ كانوا يجندون خمسين ألف فارس وثلاثة أضعاف هذا العدد من المشاة. قيل إنهم في إحدى المعارك المشهورة بفاس، أظهروا عجرفة كبيرة إلى حد أنهم وعدوا ملك فاس(8) الذي كانوا يحاربونه، بأنهم لن يقاتلوا على خيول ينيف عمرها على ثلاث سنوات، ووعد ملك فاس بنفس الشيء إلا أنه أَمَرَ بقطع أعراض خيله وأذنابها حتى تظهر كأنها أمهار، وهزمهم بهذه الوسيلة، لأن الآخرين لم يستطيعوا في المعركة أن يتحكموا في خيلهم. وقد انحط هؤلاء القوم منذ ذلك العهد من جراء الحروب المتواصلة التي كانت لهم

---

(3) هو يوسف بن تاشفين.

(4) هو قتين بن ملال. (يقصد أمراء [برغواطة] (مترجم).

(5)الكتاب الثاني، الفصل 35.

(6) أي ما ينيف عن خمسين سنة. [بل طال حكم الدولة الموحدية أكثر من 150 سنة.] (مترجم).

(7) يسمي البرتغاليون الاقليم شاوية باسمهم.

(8) مولاي الشيخ الوطاسي.

ضد ملوك فاس ومراكش والبرتغاليين، فضلا عن ثلاث سنوات من الطاعون والمجاعة، إلى درجة أنهم لا يستطيعون الآن أن يعبؤوا أكثر من ثمانية آلاف فارس وخمسين ألف راجل. وهم خاضعون لحكم الشريف، فرسانهم في غاية الجودة، لكن عدد مشاتهم قليل، وإن كانوا متعجرفين بحيث إنهم لا يطيقون تحمل الخضوع، ويثورون في كل المناسبات متنقلين من مملكة إلى أخرى بخيامهم وقطعانهم، فإن لم يستطيعوا القيام بشيء آخر كانوا يستعينون بمسيحيي أزمور ضد خصومهم من الأفارقة والأعراب. نساؤهم بيض يتدللن بجمالهن وزينتهن، ويتحلين بحلي عديدة من الذهب والفضة والجوهر والعقيق الاحمر، يضعنها في الذراع والعنق والأذن.

البلاد خصبة ملائمة للحبوب والمواشي، وبالإمكان أن تجتنى منها كمية وافرة من القمح والشعير لو زرعت جميع الأراضي، لكن هؤلاء الناس لا يحرثون إلا ما يحيط بمساكنهم. وهناك كلأ[9] في الحقول يسمن الخيل والماشية في أقل من اثني عشر أو خمسة عشر يوماً. لكن إذا أخرج سنبلة صغيرة ملتحية، منعوا دوابهم من أكلها، لأنها تخنقها وتقتلها. لم يبق من المدن القديمة سوى الاسوار دون أية مبان يخيم فيها هؤلاء القوم شتاء، ولا يفوتنا أن نذكر ما كانت عليه في القديم، والأطلال التي شاهدناها بها.

الفصل الثاني

المــــدن

أنفا أو أنافي[10]، التي كانت قاعدة هذا الإقليم في القديم

كانت مدينة أنفا عامرة آهلة بالسكان بين الرباط وأزمور على شاطىء المحيط، بعيدة عن الاطلس الكبير باثنين وعشرين فرسخاً، وعن أزمور بعشرين، وعن الرباط بثلاثة عشر فرسخا. يجعل منها بعضهم إحدى تلك المدن الليبية ـــ الفنيقية التي أسسها حانون بأمر من مجلس شيوخ قرطاجنة[11] وتوجد في أجمل

---

(9) هو البهيمة. (كذا).

(10) أو أبصا.

(11) يعزو بعضهم تأسيسها إلى الرومان.

مكان بإفريقيا. البحر من جهة، والسهول الكبرى من جهة أخرى حيث ترعى قطعان عديدة. ويبدو أنها كانت في القديم مُحكمة البناء متمدنة متحضرة بسبب تجارة المسيحيين. وكان فيها ميناء صغير يقصده تجار أوربا، لذلك كان المكان الوحيد الذي أعيد بناؤه في هذا الاقليم بعد تدميره العام. لكن ثراء الميناء ورفاهيته تسببا مرة ثانية في خرابه، لأن السكان جهزوا سفناً للقيام بالقرصنة في الشواطىء المسيحية، وأحدثوا فيها اتلافات كبيرة حتى إن الفونسو ملك البرتغال أرسل إليها أخاه دم فرناندو في عشرة آلاف جندي(12)، فأحرقوها ودمروها دون أية مقاومة، لان السكان ما أن شاهدوا الاسطول الحربي حتى تركوا المدينة ولم يعودوا إليها. وما تزال تشاهد فيها أنقاض الأسوار التي كانت في غاية المتانة، وبعض بقايا المساجد. وقد عزم ملك البرتغال عام ألف وخمسمائة وخمسة عشر على تشييد قلعة فيها، وأخرى على نهر المعمورة، لكن عندما كانوا مشتغلين في بناء هذه الأخيرة، أتى ملك فاس مسرعاً وطرد منها المسيحيين، كما سنذكر ذلك في محله. لم يذكر بطليموس إطلاقاً هذه المدينة، وذلك لأنه ربما لم يكن يعرفها(13).

الفصل الثالث

المنصورة

مدينة صغيرة أسسها يعقوب المنصور بين أنفا والرباط، وما زالت بعض أنقاضها ماثلة للعيان. تقع في سهل جميل على بعد نصف فرسخ من شاطىء المحيط، على ضفاف كَبر الذي يسميه القدامى دُورُو، والذي يجعله بطليموس على طول ست درجات وعشر دقائق، وعلى عرض ثلاث وثلاثين درجة وعشرين دقيقة. وحولها شبه غابة من الأشجار المثمرة، التي صارت برية لأنها لم تشذّب منذ عهد طويل(14). كانت هناك تجارة كبيرة، لوجود القمح بكثرة، وكانت ترعى فيها عدة قطعان من الماشية، والارض صالحة لها جدا. وقد فر السكان إلى الرباط بجميع أثاثهم عندما شن ملك البرتغال الغارة على أنفا، ولم يعودوا إليها قط. ما زالت الاسوار قائمة ولو أن جميع المنازل هدمت، وكان السكان قد أحدثوا في الاسوار ثُلماً، لأنهم لا يحبون أن يحبسوا أنفسهم في المدن.

(12) سنة 1468.
(13) بل سبق له أن بين موقعها.
(14) ذلك لأنها تنبت من جديد من جذرها.

الفصل الرابع

عين الخَلُّوف

تلوح في سهول المنصورة أنقاض مدينة كان الرومان قد أسسوها، حسب قول مؤرخي البلاد، وحولها غابات كبيرة من شجر أركان. وهو شجر ارتفاعه كارتفاع العُنَّاب، وشوكه أكثر، لا يصلح ثمره الجميل المر الا لعلف الماعز، وإن كان يصنع الزيت من نواته. تحيط بالمدينة عدة مستنقعات مليئة بسلاحف عظيمة، وتكتنفها أدغال كثيفة، تعيش فيها الأسود وجميع أنواع حيوانات الصيد[15]. لم تعد العمارة قط إلى المدينة منذ الاجتياح العام للإقليم على يد الملك يوسف اللمتوني.

الفصل الخامس

الرباط

تقع على شلطىء المحيط، في مصب نهر أبي رقراق[16] بجهة الغرب، مدينة الرباط الكبيرة التي أسسها يعقوب المنصور ـــ حسب قول عبد الملك ـــ وإن كان بعضهم ينسب تأسيسها إلى عبد المومن الذي أسماها المهدية[17] لهذه المدينة قصبة حصينة يكتنفها البحر من جهة، والنهر من جهة أخرى، وهي تشبه مراكش من حيث مبانيها وإن كانت أصغر منها بكثير. أسسها هذا الأمير ليقيم بها في الصيف حتى يكون أقرب إلى الجيوش التي يرسلها إلى إسبانيا، حيث إن مدينة مراكش نائية جداً عنها. ولأن إقامته بسبتة الواقعة في المضيق لم تكن مريحة له، لأن الارض هناك غير خصبة بمقدار هذه البلاد التي توفر الكثير من المؤن، وهي دار مقام الأعراب الذين كان يستعملهم في حروب إسبانيا، لكونهم ألدُّ أعداء المسيحيين. سميت الرباط، كما لو سميت الربض[18]، وشيدت في مدة وجيزة ولو أن فيها قصوراً كبيرة ومساجد عظيمة، مع عدة مبان اخرى، تستعمل لتزيين المدينة

(15) مثل الوعول، وبقر الوحش، والغزلان، والخنازير الخ.

(16) أو سلا، أو أسمير... [هكذا علق عليها في الهامش. وهو يقصد أن النهر يدعى أيضاً نهر سلا أو نهر أسمير. واسمير اسم لعين جارية في ضاحية سلا المعروفة اليوم بـ (الولجة) وكان المؤرخ محمد بن علي الدكالي السلوي يعتقد أن التلال المحيطة بعين اسمير تغطي أطلال سلا القديمة (مترجم)

(17) هناك القصبة الموحدية المعروفة اليوم باسم (قصبة الاوداية) التي أشار إليها المؤلف بعد هذا وهي ـــ كما قال ـــ من تأسيس عبد المومن بن علي الموحدي. (مترجم)

(18) خفي معنى «الرباط» الديني على المؤلف فلم يعرف أنه دار مقام المجاهدين (مترجم)

أو لتسيير شؤون حكمها. وقد اعتنى بزخرفتها حتى إنها لم تنحط عن مدينة مراكش في أي شيء. فالصومعة الرئيسية للجامع (حسان) شبيهة تماماً بصومعة مراكش (الكتبية) والكنيسة الكبرى بإشبيلية، (الخيرالدة)، وكأنها من عمل صانع واحد، وإن كان مدرج صومعة حسان أوسع من مدرج الآخرين بحيث يمكن أن يصعد فيه أربعة فرسان معاً جنباً إلى جنب حتى يصلوا إلى أعلاها. ويقال إنها أعلى صومعة بإفريقيا كلها[19]، لأنهم يكتشفون منها السفن على بعد عشرين فرسخاً. ولما انتهى بناء المدينة، جلب إليها يعقوب المنصور جميع أنواع الصناع، والتجار والفقهاء، وتكفل بالإنفاق عليهم، ولذلك قصدها كثير من الناس من جميع الجهات، إلى درجة أنها أصبحت من أجمل مدن افريقيا، وكان يقيم فيها من بداية ابريل الى آخر شتنبر. وبما أن ماء الآبار والنهر يعكره مد المحيط، فإنه جلب إليها ماء عين على أقواس من بعد أربعة فراسخ، ووزعه على الساحات، والمساجد والقصور. ظلت المدينة في نمو مستمر، طوال حياة هذا الامير، لكن الحروب التي نشبت بعد موته بين الموحدين والمرينيين، والتي دمرت عدة مدن اخرى، لم تُبقِ فيها الا عُشر السكان. لقد حطمت الاقواس الآنفة الذكر، ودمرت عدة مساجد وقصور. ولا يوجد فيها الآن أزيد من ستمائة كانون. في ثلاثة أحياء قرب القصر (القصبة). وقد تحول كل ما بقي إلى زرائب وبساتين. يملك الشاوية جميع البلاد المحيطة بالرباط ويمتدون إلى البوادي الواقعة شرقي النهر، حيث المراعي الجميلة. وقد أقام ملك فاس حامية عسكرية في القصبة يرأسها عامل المدينة. وهذه القصبة يمكن الدفاع عنها ضد أي هجوم مفاجىء، لكنها لا تستطيع أن تعمل شيئاً ضد المدفعية لانعدام الأسوار. يبعد ميناء المدينة بنصف فرسخ في الأعلى على طول النهر، وتقع إلى جهة الشرق مدينة أخرى تسمى سلا، وسنتحدث عنها عند وصفنا لإقليم فاس الذي لا يفصله عنها سوى هذا النهر.

الفصل السادس

المنزلة (شالّة)

هناك مدينة صغيرة أخرى على ضفة نهر أبي رقراق، على بعد نصف فرسخ من الرباط، تبدو ــ نظرا لشكل الاسوار ــ كأنها من عمل الرومان. وقد دمرها

---

(19) ذلك لأنها تقع على ربوة، بالإضافة إلى علو بنائها.

الملك يوسف أثناء التخريب العام للإقليم. لكن يعقوب المنصور أعاد تعميرها عندما أسس المدينة الآنفة الذكر، وشيد فيها مستشفى كبيراً للجرحى والمرضى. كما شيد في الجامع الكبير قبة للصلاة كلها من المرمر والزليج لتكون ضريحاً له وأحاطها بنوافذ من زجاج من كل جهة. يقول أهل البلاد إنه مدفون هناك، وإن على رأسه ورجليه لوحتين كبيرتين من المرمر، ذكرت فيهما انتصاراته ومرثياته. كما أقبر فيها جميع من خلفه من أسرته، وبعض ملوك بني مرين، بحيث إنه يوجد فيها ما يزيد على ثلاثين من قبور الملوك، عليها رخامات من المرمر، كما ذكرت، كتب فيها اسمهم ومدة حكمهم وموجز اعمالهم. لكن الكثير يؤكدون بأن يعقوب المنصور توفي بالإسكندرية وأقبر فيها، ويضيفون بأن الذي هنا هو ملك آخر يحمل نفس الاسم من بني مرين، كان أيضاً ملك فاس ومراكش، وإن لم يكن هذا رأي عبد الملك[20].

الفصل السابع

التخيلة

ما زالت تشاهد في وسط هذا الاقليم آثار أسوار مدينة شيدها أهل البلاد. كان يسكنها قوم شجعان، لا سيما عندما كانت تحت حكم قمام[21] وأعقابه، وكان يقام فيها سوق كبير في كل أسبوع. ياتي إليه سكان الإقليم بمختلف البضائع، لكنها لم تعمر بعد التخريب العام الذي أصاب البلاد. وما زالت صومعة الجامع الكبير قائمة، تحيط بها غابة كثيفة من الاشجار المثمرة التي صارت برية بسبب إهمال الزراعة[22]. يتردد أهل الشاوية كثيراً على هذه الأماكن لوجود الماء والمرعى، فضلا عن الحرث الجيد فيها، ومن أجل ذلك فإن المدينة بسببهم وبسبب الأعراب لم تعمر من جديد، لأن ذلك من شأنه أن يسلبهم حرية التجول في الضواحي مع قطعانهم. وهذا هو السبب الذي من أجله صارت معظم المدن الاخرى بهذا الاقليم خالية، ولو أن هذه البلاد أغنى.وأجود بلدان البربر بأسرها، التي يمكن العيش فيها بأكثر حظ من الرفاهية.

(20) يقصد الحسن الوزان كما أشرنا الى ذلك آنفاً. (مترجم).
(21) يقصد ـ ولا شك ـ حد البرغواطيين.
(22) ذلك لأن النباتات الطفيلية تسمو وتقتل الغلة.

الفصل الثامن

أدَنْــــدون

توجد على بعد سبعة فراسخ من المدينة السابقة من جهة الجنوب، وعلى بعد خمسة فراسخ من الأطلس الكبير، أطلال مدينة صغيرة يقال إن الرومان هم الذين أسسوها. الاراضي المجاورة كلها صالحة لزراعة الحبوب، وتغذية المواشي، وبالقرب من المدينة عين عظيمة ينبىء طعمها ولون ترابها عن وجود معادن كثيرة في هذه الأماكن. ولم يُعَد تعميرها مثل ما هي عليه المدن الأخرى، منذ التخريب العام الذي أصاب الإقليم، وليس فيها أي بناء قائم. يجوب الشاوية ضواحيها بقطعانهم بسبب وفرة الماء.

الفصل التاسع

تيكَيكَيلت (تكّيـت)

هناك على ضفة أم الربيع بالقرب من جبل الأطلس مجموعة سكنية بشكل قرية، في المكان الذي شيدت فيه تيكَيكَيلت قديماً، في منتصف الطريق بين إقليم تادلا ومدينة فاس. يقول المؤرخون إنها كانت غاية في الغنى والعمران، وإنها كانت مرتين في السنة مقصد القادمين من جيتوليا وليبيا، بسبب قرب ممر لجبل الاطلس، وذلك لمبادلة التمر بالقمح والبضائع. بقيت خالية مدة طويلة منذ تدميرها، لكن قوماً فقراء سكنوها منذئذ، وهم يخزنون قمح الشاوية في حفر كبيرة، مقابل مكافآت وقطع أرضية يسمحون لهم بحرثها في الضواحي.

الفصل العاشر

معدن عـوام

تقع هذه المدينة على بعد ثلاثة فراسخ من الأطلس الكبير، على ضفة أبي رقراق من جهة الشمال، أسسها ثاني ملوك مراكش من دولة الموحدين[23] وذلك لوجود بعض مناجم الحديد بالضواحي، وتوجد غيضات كبيرة مليئة بالأسد بين المدينة والجبل. كانت آهلة بالسكان أيام هذا الأمير، وفيها قصور ومساجد، لكن عندما دمرها بنو مرين في حربهم ضد الموحدين، انتقل أهلها إلى سكنى مدينة سلا. وما زالت الاسوار قائمة لكن أحدثت فيها ثُلم، وبقيت بعض الضومعات،

(23) هو عبد المومن

واضمحل كل ما عداها. يتردد الشاوية كثيراً على هذه الاماكن في الصيف، بسبب وجود الماء والمرعى.

الفصل الحادي عشر

تاغيـة

تقع بين الجبال المجاورة للأطلس الكبير، مدينة صغيرة أسسها الافارقة في أرض وعرة مجدبة مكسوة بغابات كبيرة كثيفة مليئة بالأسد. وبما أن البلاد باردة، فإن القمح ياتي فيها قليلا جداً، لكن الماعز فيها كثير، وكذلك العسل والشمع بمقدار يغني السكان. يقطن أهلها في دور رديئة مبنية بالطين أو الحجر الجاف، ومسقفة بالتبن أو بأغصان الشجر. وهناك ضريح ولي[24] كان يربي الأسد، على ما يقال، بحيث إن ضريحه محل تقديس عظيم، يحج إليه أهل فاس ومراكش في أعيادهم الكبرى[25]. ويكثر عددهم أحياناً لدرجة أن المدينة لا تستطيع استيعابهم، فتغطى بهم الجبال المجاورة، حتي ليخيل للرائي من بعيد أنهم جيش، لكثرة الخيام، وتبعد مدينة فاس عن تاغيا بأربعين فرسخاً.

الفصل الثاني عشر

أزرفـــة

تُشاهد في ملتقى هذا الاقليم بإقليم فاس آثار مدينة قديمة أسسها أهل البلاد، في سهل جميل فسيح، ترويه عدة أنهار صغيرة تنحدر عيونها من جبال الأطلس، وقد دُمِّرت كغيرها أثناء الاجتياح العام الذي أصاب الاقليم، ولم يُعد تعميرها قطّ بعد ذلك. توجد حوالي هذه الانقاض أشجار مثمرة عديدة مهملة تماماً، لكن الشاوية وبعض الاعراب الاقوياء[26] الذين لايهتمون بالبساتين ولا بالديار يترددون عليها، ويتركون كل شيء يضيع مكتفين بالحرث وإنتاج قطعانهم. وفيما عدا ذلك فإن البلاد في غاية الخصب لدرجة أن صاعا من القمح يعطي خمسين أو ستين[27] صاعا. كما أن هناك عدة مدن أخرى أو قرى في هذا الاقليم لا يذكرها المؤرخون إلا نادراً، أو لا يذكرونها البتة، لكن بعض الذكريات ما زالت قائمة عن المواقع التي كانت توجد فيها، دون التمكن من ذكر أسمائها.

(24) هو مولاي بوعزة. [كتب في الأصل : ديدا بوعزة].

(25) لعله يقصد عيد الأضحى.

(26) بني مالك من سفيان

(27) تنتج 50 أو 60 صاعا لكل صاع زرع فيها.

الفصل الثالث عشر
إقليم فاس

يحمل الاقليم الثاني لفاس اسم مملكة[1]، ويحده من جهة الغرب نهر أبي رقراق الذي يفصله عن إقليم تامسنا، ومن الشرق نهر آخر يسمى إناون حلوان، ومن الشمال نهر سبو[2] وقسم المحيط الواقع بين سلا والمعمورة، ومن الجنوب مرتفعات الاطلس الكبير. كل هذه البلاد غنية بالقمح والمراعي بسبب رطوبتها، ولذلك توجد فيها كمية من الماشية الكبيرة والصغيرة، وتكثر فيها الحدائق المنتجة لجميع أنواع الفواكه، كما هو الحال بأوربا.

يقطن البربر والخلوط في الجبال وجميع السهول الواقعة بين فاس ومكناس، وهم خليط من الأفارقة والأعراب، فضلا عن أعراب آخرين أشداء أقوياء[3] يملكون كل السهول الواقعة بين فاس والبحر، ويرحلون بقطعانهم عبر المراعي الجيدة. وليست البلاد الممتدة بين فاس والاطلس الكبير بعامرة، وإنما يسكنها أعراب فقراء[4] في أكواخ بين البربر، ويؤدون شيئا لملك فاس ولسكانها من أجل الاراضي التي يستغلونها. وسنذكر في الفصول التالية المساكن الموجودة في هذا الاقليم، منطلقين دائما من الغرب إلى الشرق حسب منهجنا.

الفصل الرابع عشر
المدن
سلا (أو سيلي)

مدينة عتيقة أسسها الرومان، أو حانون القرطاجني على الضفة الشرقية قرب مصب نهر أبي رقراق، على بعد أكثر من نصف فرسخ بقليل من مدينة الرباط.

(1) كانت تسمى قديماً بوليبلا.

(2) أو سوبرو.

(3) هم غمارة، وصنهاجة، وكتامة، ولواتة، الخ .....
يخلط المؤلف بين القبائل العربية والبربرية. (مترجم)

(4) بني مالك سفيان.

كانت سلا عاصمة هذا الاقليم عندما كان القوط يحكمون افريقيا، لكن مدينة فاس تفوقت على سائر المدن منذ تأسيسها. إن بنية الاسوار والدّيار والمساجد جميلة جدا، والمدينة محصنة بقصبة على النهر. المنازل لها أفنية وممرات مسقوفة على الطراز المحلي، مزدانة بعدة سوارٍ، ولوحات من الأحجار الملونة والمرمز. ساحات المدينة وأزقتها المصفوفة بانتظام تبين بكفاية التنسيق الجميل الذي كانت عليه. يوجد بمصب النهر ميناء لا بأس به ولو أنه صغير، ترسو فيه سفن البضائع الأوربية. وهناك تجهز سفن حربية للقيام بالقرصنة في الشواطىء المسيحية، منذ أن التجأ إليها موريسكي من غرناطة[5]. لكن هذه السفن تعود لقضاء الشتاء في الميناء الذي مدخله صعب جدا. كانت هذه المدينة ثرية مزدهرة آهلة بالسكان، ويقول أحد المؤرخين الأفارقة إن الأضرار التي كانت تسلط منها على المسيحية تفاقمت إلى درجة أن الفونس الحكيم، ملك قشتالة، هجم عليها واحتلها[6] لكنه لم يقم بها طويلا، لأن أول ملك بفاس من دولة بني مرين[7]، الذي كان في حرب مع مملكة تلمسان أبرم هدنة مع عدوه[8] لينجد سلا، ففاجأ الاسبانيين وفتحها وقتل أو أسر جل من وجد منهم فيها، بينما فر الباقون على السفن عائدين إلى قشتالة. فكان هذا الاحتلال وهذا الاسترجاع مفاجئين عنيفين بحيث إن المدينة أصبحت منذ يومئذ في حالة لم تسمح لها قط بأن تتجدد ولا بأن تستعيد ازدهارها القديم. تحرث بعض الأراضي في ضواحي سلا. وأما الباقي فهو رمل يزرع فيه القطن ويجتنى، فيصنع منه معظم السكان أقمشة وملابس.

كانت سلا في القديم تاخذ عن البضائع الواردة واجب الجمرك الذي يؤدّى الآن إلى فاس. وفي سلا عامل فقط مع ثلاثمائة فارس وبعض رماة البنادق لحفظ أمن المدينة.

---

(5) هو الدغالي.
(6) سنة 1263 = 670 هـ.
(7) هو يعقوب.
(8) يغمراسن بن ريان.

الفصل الخامس عشر

تفنزارة (أو فنزارة)

ما زالت آثار هذه المدينة ظاهرة في سهل جميل كبير على بعد ثلاثة فراسخ من سلا في داخل البلاد. كانت تسمى قديماً بأنارة أو بلنسية، حسب بلين الذي يجعلها على ست درجات وثلاثين دقيقة طولاً، وأربع وثلاثين درجة وعشرين دقيقة عرضاً. لكن عبد الملك يقول إن تأسيسها يعود إلى أحد الملوك الموحدين[9]، وتوسيعها إلى آخر من ملوك بني مرين[10]، كما أن تخريبها كان على يد سعيد أثناء حربه ضد عمه،[11] دون أن يعاد تعميرها إطلاقاً منذ ذلك العهد. الاراضي في ضاحيتها جميلة صالحة للحرث والماشية، يجوبها أعراب بني مالك من سفيان، وبعض الشاوية الذين أقطعهم سعيد إياها مكافأة على الخدمات التي أدوها له في هذه الحرب.

الفصل السادس عشر

المعمورة

هناك مدينة أخرى خربة على بعد أربعة فراسخ من سلا الى جهة الشرق، ونصف فرسخ من شاطىء المحيط قرب مصب نهر سبو[12]. يقال إن يعقوب المنصور أسسها لحماية مدخل هذا النهر، لكن سعيداً دمرها كما دمر عدة مدن أخرى بهذا الاقليم، ولم يبق منها سوى الأنقاض. الأراضي المحيطة بها رمال قاحلة، ما عدا قرب النهر، حيث الاراضي الجيدة التي يملكها الأعراب الذين تحدثنا عنهم انفا[13]. أراد ملك البرتغال أن يشيد قلعة في مصب سبو — كما سنذكر ذلك — لكن لم يتيسر له الامر.

(9) هو عبد المومن.

[الذي عند حسن الوزان (1·209) أن في خارج المدينة بقرب الاسوار سقايات جميلة من عمل ابي الحسن المريني (مترجم).

(10) يعمراسن بن زيان [كذا وقع التعليق في الهامش] (مترجم).

(11) هو ابو سعيد [أنظر الحسن الوزان، 1·210 والهامش 22] (مترجم).

(12) أو سوبور.

13) بني مالك من سفيان.

انهزام دُم أنطوان دي نورانيا

قائد الملك دُم مانويل

في عام ألف وخمسمائة وخمسة عشر، عندما كان البرتغاليون منتصرين في افريقيا، أرسل دُم مانويل أسطولاً حربياً ليشيد قلعة في مصب نهر سبو، حيث توجد أطلال المدينة الآنفة الذكر. كان أنطونيو دي نورانيا من نبلاء البرتغاليين قد أصبح منذ ذلك العهد كونت دي لينار وهو قائد الجيش، فتلقى الأمر أنه بعد تشييد القلعة يسلم ثلاثة آلاف محارب مع سفن لنونيو ماسكارينياس ليشيد قلعة أخرى بمدينة أنفا، الشيء الذي يساعد على غزو مملكة فاس. كان الاسطول البحري مؤلفاً من ألف ومائتي مركب بين كبير وصغير، وبعض الكراكات[14] مع ثمانئة آلاف مقاتل، دون البحارة والصناع وبعض الناس لتعمير القلعة. وصل الاسطول ليلة عيد سان بوحنا[15]، ولم يتوغل في النهر لأن الوقت كان متأخراً. فأرسل القائد لحينه سفينة كارافيل لترسو في المكان الذي أرادوا تشييد الحصن فيه، وبعد ذلك دخلت السفن الأخرى مع السفن الحاملة للمدفعية والمقاتلين، ولم تبق سوى الكراكات المذكورة التي لم تستطع الدخول لكبرها. لكنهم بعد أن تعرفوا على المكان المعين ارتأوا أن يشيدوا حصناً في مكان أقرب إلى المصب، يسهل النزول فيه أكثر وتوجد فيه بعض العيون. فأنزلت المدفعية فوراً إلى الأرض، وأقاموا حصناً من خشب كانوا قد حملوه معهم، ثم إنهم عملوا بسرعة متناهية في بناء البرج، فأعدوه تقريباً للدفاع في ظرف أيام قلائل وأحاطوه بخندق من تسعة أقدام[17] في عرض عشرين قدماً. وفي هذه الأثناء حشد ملك فاس[18] جنوده، وبعث إلى أخيه[19] حاكم مدينة مكناس على بعد عشرين فرسخاً من المعمورة ليتوجه نحو المعمورة مع أكثر عدد ممكن من الناس، وست قطع من المدفعية، واعداً إياه بأن يتبعه مع باقي الجنود. فتوجه الأخ إلى المعمورة بثلاثة آلاف فارس، وثلاثين ألف راجل، ولم يلبث أن لحق به الملك في عدد لا يحصى من الفرسان والمشاة، والتقيا على بعد أربعة

---

(14) هي سفن صخمة من قشتالة.

(15) في 24 يونيو

(16) وهو نهر المعمورة.

(17) أي أربعة عشر شبراً.

(18) هو محمد الوطاسي

(19) هو مولاي الناصر

فراسخ من الحصن. ومن هنالك أرسلا فرسانهما لإيقاف الاشغال حتى لا يتركوها تستمر، ويضعوا حدا لها. كان بإمكان البرتغاليين أن يحموا الحصن ضد قوة المغاربة كلها لو لم يفكروا إلا في ذلك. لكن القائد عندما علم بأن قطع المدفعية الست كانت على بعد نصف فرسخ من الحصن مع قليل من الناس لحراستها، ظن أنه يسهل الاستيلاء عليها مقدِّراً ما لها من أهمية، فأرسل ألفا ومائتي جندي لأخذها. وكاد ينجح هذا المخطط لولا أن ثبطت العزيمة، لأن البرتغاليين وصلوا قبل الفجر إلى مكان المدفعية، فوجدوا الحرس نائمين وسحبوها على مسافة أزيد من رميتي قذافة قبل أن يشعر المغاربة بذلك. لكنهم اكتشفوا اخيراً، فَدُقَّ ناقوس الانذار في كل جهة، وحمل عليهم أحو الملك خميع فرسانه، وكان البرتغاليون يسيرون بنظام حسن ولو أن العدو كان يحمل عليهم من كل جهة لتأخر سيرهم في انتظار مجيء مشاته، فكانوا يفتحون الطريق بالقوة، ومعهم قطع المدفعية الست محاطة داخل كتيبتهم. لكنهم عندما اقتربوا من القلعة ورأوا الارض كلها مغطاة بالمغاربة على مسافة فرسخين استولى عليهم الهلع، فغادر أكثرهم حيناً الصفوف وأسرعوا في الفرار عند مجيء العدو الذي صاح عندما رأى ذلك : لنحمل عليهم : فناداهم حيناً عدد من الاسلاميين والاندلسيين بلغتهم أن استسلموا لتنجوا بأعماركم، فعمل بعضهم بهذا النداء وألقوا السلاح فاتحين بذلك ثلمة في الكتيبة دخل منها المغاربة واستولوا عليها، ولم ينج من البرتغاليين سوى خمسة عشر تقريباً اتخذهم بعض ضباط ملك فاس أسرى عندهم، ثم اقترب المنتصرون من الحصن. ولما رأوا انفسهم مضايقين بالمدفعية التي كانت على ظهر السفن تحصنوا في مصب النهر وصوبوا إليه مدفعيتهم لحماية انفسهم ولمنع السفن المحملة بالمؤن من الدخول في آن واحد. وعندئذ أمر قائد البرتغالين بشحن سفينة ضخمة بالركائز وأكياس القطن والصوف ووضعها عرضاً في مصب النهر مع ثلاث كارافيلات لحمايتها، حتى يكون الذهاب والإياب بدون إزعاج من مدفعية الأعداء. لكن المغاربة أغرقوا فوراً هذه السفينة. وعندما رأى قائد البرتغاليين أن المؤن والعدد بدأت تنقص، وأن الدفاع عن القلعة بين هذا القدر من الموتى والجرحى سيكون عبثاً، فضلا عن عدد المرضى المرتفع، عزم على الانسحاب باتفاق مع الضباط، وقيل إنه توصل بأمر من الملك. فانطلق[20] بتسرع كبير حتى إن

(20) في 10 غشت

معظم الجنود هلكوا عند الطلوع إلى المراكب، إما بالغرق أو بالسلاح، وفقد ما يزيد عن مائة سفينة بمدفعيتها كاملة. ذلك لأن مدفعية الأعداء المصوبة إلى مصب النهر من جهة الشرق، كانت ترغم السفن البرتغالية، للابتعاد عنها، على السير بالقرب من الشاطىء في الجانب الآخر، حيث كانت تصطدم بأرصفة رملية، فيقتلهم المغاربة. أما الذين ظنوا أنهم سينجون عوماً للالتحاق بالسفن التي كانت خارج الحاجز الرملي، فإنهم لم يستطيعوا مقاومة صدمات الأمواج، فغرقوا أو أبيدوا عند نزولهم، وهم يحاولون الفرار براً. وهلك أزيد من أربعة آلاف رجل دون الأسرى، مع عدد من المؤن والعدد. وبعد ذلك استخرج المغاربة من الماء المدفعية التي كانت على متن الكارافيلات التي غرقت في اليم، وأخذوها إلى فاس. ذلك كان الاضطراب الذي أحدثه خوف بعض الجنود. لقد لوحظ في حروب إفريقيا أنه إذا بقيت كتيبة مسيحية متكثفة دون أن تتزعزع أو تتشتت، فإنها تقاوم جيدا المغاربة الذين يفرون بمجرد ما يجدون مقاومة، لكنها سرعان ما تتفكك إذا حدثت فيها أدنى ثلمة. ولما سألت بفاس بعض المسيحيين الذين أسروا في هذه المعركة، لماذا لم يفسدوا مدفعية المغاربة عندما رأوا أنهم على وشك أن يفقدوها، قالوا إنهم لم يكن لديهم ما يساعدهم على القيام بذلك، وإنهم لم يفكروا فيه وهم قريبون جداً من المعسكر عندما هزموا.

الفصل السابع عشر

تِفَلْفَلْت(21)

توجد على بعد خمسة فراسخ من المدينة السابقة وأربعة فراسخ من المحيط، خرائب المدينة العتيقة تاميفيد التي تسمى اليوم تفلفلت والتي يجعلها بطليموس في الدرجة السابعة طولاً، والرابعة والثلاثين وخمس عشرة دقيقة عرضاً. يقال إن مؤسسيها هم أفارقة من قبيلة صنهاجة. وهي محاطة برمال دقيقة، لكن يمر بالقرب منها نهر(22) تكتنف ضفافه غابات مليئة بأسود جريئة جداً، تهجم على المارين وخاصة في الليل. لكنهم بنوا في وسط الطريق داراً منبسطة السقف تصلح كملجإ للمسافرين ضد شراسة هذه السباع. وقد دمر سعيد هذه المدينة أثناء

(21) انظر الحسن الوزان وصف افريقيا، 1 : 213، الهامش 27. (مترجم).
(22) زيلي.

الحرب المذكورة آنفا، ولم يعد تعميرها منذ ذلك العهد، لأن الأعراب[23] الذين يتنقلون عبر هذه السهول لم يسمحوا بذلك، ليتمتعوا بها بكامل الحرية.

الفصل الثامن عشر

مكناس

توجد مكناس على بعد سبعة عشر فرسخاً من سلا، وعشرين فرسخاً من المعمورة، غير بعيدة من جبال الاطلس[24] وهي مدينة كبيرة تضم أكثر من ثمانية آلاف نسمة، يجعلها بطليموس في الدرجة السابعة وخمسين دقيقة طولاً، والدرجة الرابعة والثلاثين وخمس عشرة دقيقة عرضاً، تحت اسم سيلدة الذي غير منذ ذلك العهد إلى مكناس بسبب فرع من زناتة كان يحمل هذا الاسم[25]، وطرد أبناء إدريس من مملكة فاس بمساعدة خليفة القيروان الشيعي. يقول ابن الرقيق[26] إن هؤلاء المكناسيين كانوا يعيشون قديماً في الخيام مثل الاعراب، لكنهم انقسموا على أنفسهم عندما استغنوا فطرد الأقوياء منهم الضعفاء الذين ألفوا هذا المكان، وكانت فيه بعض المساكن، فتكاثرت إلى أن أصبحت اليوم من أهم مدن موريطانيا الطنجية، وهي مع ذلك حسنة البناء، في سهل جميل على ضفة نهر لطيف[27] لا يبعد عن منبعه سوى بنصف فرسخ. الاراضي المجاورة غنية بالقمح والكتان والزيت، وترعى فيها جميع أنواع الماشية الصغيرة والكبيرة. تكتنفها بساتين تنتج عدة ثمار في غاية الجودة. وتحيط بها أسوار متينة محصنة ببروج مشيدة على الشكل العتيق. جميع الحمامات والقصور والمساجد مبنية على طراز أهل البلاد، ويقام بها يوم الاثنين سوق خارج المدينة، يقصده جميع أعراب المنطقة وبربرها ليبيعوا فيه صوفهم، وجلودهم، وسمنهم، وشمعهم، وسائر بضائعهم؛ ويشتروا ما هو ضروري من معداتهم الصغيرة ومعدات خيلهم. من عادة ملوك فاس أن يعطوا هذه المدينة اقطاعاً إلى من يخلفهم، سواء كان ابناً، أو أخاً، أو قريباً كأهم مدينة بعد العاصمة، الشيء الذي لم يكن دائماً لصالحهم. ذلك أن محمداً الوطاسي،

(23) بني مالك سفيان.

(24) على مسافة خمسة فراسخ من الجبال.

(25) بني مكناسة [يقصد آل موسى بن ابي العافية المكناسي] (مترجم).

(26) في شجرة نسب الأفارقة.

(27) كتاب ابن غانم

عندما أهداها الى ابن عمه [28]، الذي كان حاكماً لأزمور منذ ذلك العهد، أوشك هذا الاخير أن يستولي على مدينة فاس عندما كان الملك يحارب ملك تلمسان. لكن محمداً قفل راجعاً لحينه. فخيم أمام مكناس، وضايق البلد كله طوال شهرين، حتى إن السكان فتحوا له باباً بدون علم الأمير الذي ألقي عليه القبض بعد ذلك وأرسل أسيراً إلى فاس، حيث مكث طويلاً وهو مسجون في أحد البروج. لكن الملك أطلق سراحه في الأخير وسلّم المدينة إلى أخيه مولاي الناصر، الذي هزم جيش البرتغال على نهر المعمورة كما أسلفنا.

ولنعد إلى مكناس فنقول إنها مدينة ذات أسوار متينة، وأزقة كبيرة فسيحة لطيفة، مع سقاية جميلة في وسط الساحة، يجلب إليها الماء على أقواس من جبل قريب[29]. كما يوجد هناك حصن منيع متقن البناء فيه قصر الامير، وعلى بعد نصف فرسخ من هناك عدد من الطاحونات على طول النهر. المكناسيون شجعان متكبرون، لكنهم أعداء لأهل فاس من قديم. يفتخرون بكونهم أتوا من مكة، وجلهم يشتغل بالتجارة. تغزل النساء الصوف الرقيق جداً، ويصنعن أقمشة جميلة من الحرير والقطن، وأخرى من القطن والصوف تحمل اسم البلد وهي معتبرة جدا في افريقيا، لنعومتها وحسن صنعها. الرجال غيورون جدا، لا يسمحون للنساء بأن يقمن بزيارات، ولا أن يخرجن من المنزل إلا للذهاب إلى الحمام، ومع ذلك فإنهن محجبات بخمارات من الصوف الابيض الدقيق جدا، لدرجة أن وجوههن لا ترى. يجوب أعراب[30] هذه المملكة الأكثر ثراء البوادي المجاورة، وقد أقطع الشريف الذي يحكم اليوم إبنه الثاني هذه المدينة.

الفصل التاسع عشر

جمعة الحمام[31]

تشاهد على بعد خمسة فراسخ من مكناس، في سهل كبير توجد فيه حامة، أطلال مدينة قديمة على المحجة المؤدية من تادلا إلى فاس. وقد دمرت المدينة

---

(28) مولاي زيدان.

(29) بني نازل.

(30) بني مالك سفيان

(31) قرأناها عند الوزان حامع الحمام. ولعل الصواب ما هنا (مترجم)

أثناء حروب سعيد ولم يعد تعميرها قط منذ ذلك العهد. جميع المباني فيها منهارة، ولم يبق قائماً سوى الأسوار والأبراج. يقام سوق[32] كل يوم أحد على بعد نصف فرسخ من المدينة، يحمل إليه جميع أعراب المنطقة وبربرها حبوبهم ومواشيهم ليبيعوها فيه مع السمن والصوف، والشمع، وسائر الأشياء المحلية. ذلك لأن جميع البوادي المجاورة يملكها أعراب أقوياء[33]، لا يقبلون أن يعاد بناؤها، ويكتم ملك فاس استنكاره لذلك حتى لا يغضبهم، وإن كان من صالحه أكثر أن تستعيد عمرانها. يسمي بطليموس هذه المدينة كونتيان حسب اللوحات العصرية، ويجعلها في الدرجة السابعة وخمسين دقيقة طولاً، وفي الرابعة والثلاثين وخمس عشرة دقيقة عرضاً، لكن مؤرخي البلاد ينسبون تأسيسها إلى أحد الملوك الموحدين[34].

الفصل العشرون

خميس مطغرة[35]

تقع بين المدينة الآنفة الذكر ومدينة فاس، على بعد خمسة فراسخ من كل منهما، خرائبُ مدينة دمرت أثناء حروب سعيد. لكن ملوك فاس سلموها لبعض موريسكي غرناطة منذ ذلك العهد من أجل أن يعمروها، فغرسوا بساتين تحيط بها من كل جانب على مسافة اكثر من فرسخين. يربون فيها دود القز، ويغرسون كمية من قصب السكر، لكنهم عوملوا معاملة سيئة جدا في حروب الشرفاء[36]. ذلك أن محمداً الذي خيم قرب هذه المدينة أتلف فلاحتها، وأمر بذبح معظم السكان بمحضره حتى يُرعب أهل فاس[37] كما أن هذه المدينة تضررت من مرور الجيش أثناء حروب ابي حسون ملك بادس لوجودها على المحجة المؤدية من فاس إلى مراكش. يقام بها سوق كل يوم خميس، ومنه اتخذت اسمها. يقول ابن الرقيق إن مؤسسيها هم الافارقة القدامى. وفي أسوارها ثلم كبيرة، ولو أنها رممت في بعض الاماكن من طرف الغرناطيين، لكن الموقع ليس بجيد، وخُرِّب قصر صغير بكامله كان هناك.

(32) هو سوق أحد ربة

(33) بني مالك سفيان.

(34) عبد المومن.

(35) أو سوق الخميس.

(36) عندما أسر الاخ الاصغر (محمد الشيخ) الاخ البكر (أحمد الأعرج) في معركة درن.

(37) كان ذلك سنة 1544.

الفصل الواحد والعشرون

بني بـازل

مدينة صغيرة أسسها صنهاجة بين فاس ومكناس، على مسافة تكاد تكون متساوية من كليهما، وعلى جدول[38] لا يبعد منبعه[39] عنها الا بنصف فرسخ. دمرت أثناء حروب سعيد، وبقيت خالية طويلاً، إلى أن عاد مولاي الناصر، أمير مكناس، من إقليم دكالة[40] فأعاد تعميرها ببعض السكان الذين جاء بهم من هذه النواحي[41] ليحررهم من نير البرتغاليين. كانت في القديم تابعة لمملكة فاس، وهي اليوم خاضعة لمكناس منذ إعادة تعميرها، لكن السكان ندموا أكثر من مرة على مغادرة بلادهم ليسكنوا في هذا المكان الذي لم يملكوا فيه أي شيء، وهم مرغمون على أن يؤدوا للاعراب[42] خراج الأراضي التي يزرعونها. ليس الموقع جيداً، والسكان كلهم تقريباً نساجون، لأنه تزرع كمية من الكتان والقنب في سهل رطب يوجد أمام المدينة. كما أنه ينتج الشعير وجميع أنواع الخضر، ولكن لا ينبت فيه القمح إطلاقاً، بسبب الرطوبة المفرطة. وقريباً من هناك جبل بني بازل الذي يمتد إلى جهة مكناس، ويجلب منه الماء إلى المدينة عبر قنوات.

(38) هو واد السحا.
(39) عين زرق.
(40) سنة 1514.
(41) أي نواحي أزمور.
(42) بني ملك سفيان.

الفصل الثاني والعشرون

فـــــاس

عاصمة المملكة وبلاط الغرب، إذ تسمى هكذا خلافاً للقسطنطينية

فاس أكبر وأجمل مدينة بإفريقيا كلها، فيها مدارس الملة المحمدية(1) وتنقسم إلى ثلاثة أقسام، أو بالأحرى هي ثلاث مدن جمعت في واحدة، وتحمل نفس الاسم. وقد أسست في تواريخ مختلفة، أقدمها مدينة البليدة الواقعة شرقي النهر، حيث بساتين وعيون الزنجفور، تضم حوالي أربعة آلاف نسمة. أسسها ادريس(2)، ذلك الإمام الشهير الذي تحدثنا عنه في الفصل العشرين من الكتاب الثاني. والمدينة الاخرى، المسماة فاس البالي أو عين علّو تقع غربي النهر، وتضم ثمانين الف نسمة. أسسها حفيد هذا الامام(3)، وفيها جامع القرويين العظيم. يقول عبد الملك إن هاتين المدينتين كانتا في القديم لأميرين مختلفين من هذه الأسرة، يتحاربان على الدوام وإن لم يكن يفصل بينهما سوى النهر والزقاق . لكن ثاني ملوك المرابطين(4)، بعد أن اجتاح إقليم تامسنا، هاجمهما لكونهما زنديقين يختلف مذهبهما عن مذهب سائر المسلمين، فأخذهما وقتلهما، وجعل من المدينتين مدينة واحدة ببناء قنطرة فوق النهر، وهدم السور الذي كان يفصل بينهما(5)، وسماها فاسا باسم النهر الذي كان يسمى قديماً وادي الجواهر ويسمى الآن وادي فاس، اي وادي الذهب، لأنه مكتنف بحدائق، ولان المنطقة غنية جدا، والمدينة الثالثة هي فاس الجديد، التي تضم أكثر من ثمانية آلاف نسمة، وتقع منعزلة شيئاً ما. بناها يعقوب المنصور ملك بني مرين، على شكل قصبة ليقيم بها مع حاشيته، وسماها المدينة البيضاء، لكنها تسمى الآن فاس الجديد، لتشييدها بعد الأخريين، وإن كانت كلها لا تحمل الا اسماً واحداً. وتوجد أقدمها في نفس المكان الذي كان يسمى قديماً وليلي(6)، التي يجعلها بطليموس في الدرجة الثامنة وخمس عشرة دقيقة طولاً، والثالثة والثلاثين وأربعين دقيقة عرضاً. يحملني هذا على الظن بأنه كانت هناك بعض المنازل أسس عليها ادريس مدينته، لأنني رأيت أن الارتفاع

(1) سيذكر الباقي أثناء وصفها.

(2) سنة 798 = 185 هـ.

(3) هو حسن (كذا) [تبع مارمول في هذا الخطأ الحسن الوزان وراده تعقيداً. انظر **وصف افريقيا**، 1 . 220، والهامش 38] (مترجم).

(4) هو يوسف اللمتوني.

(5) كان لازماً أن يكون ذلك في مكان آخر من غير جهة النهر.

(6) هذا حلط، إذ وليلي في جبل زرهون مقر الادارسة قبل تأسيس مدينة فاس. (مترجم).

يوخذ في نفس المدينة من أعلى جبل تاورتين، حيث توجد الكهوف المذكورة. لكن العرب الذين اعتادوا أن ينسبوا إلى أنفسهم أغرب الأشياء، يجعلون من إدريس أول مؤسس، ويقولون إن المدينة الواقعة غربيّ النهر أسست منذ ذلك العهد، وهي التي سنتحدث عنها بالخصوص، لأنها أهم مدن إفريقيا كلها.

فاس البالي الواقع غربيّ النهر

يقع فاس البالي الشهير على تلال وفي شعاب، وتحيط به أسوار قديمة، محصنة ببروج من صنع جيد، لها سبعة أبواب، الاول يسمى باب الغدر (كذا) والثاني باب المحروق، والثالث باب الجيسة، والرابع باب الحديد، والخامس باب الرب، والسادس باب فتوح، والسابع باب المرحومين.

تنقسم هذه المدينة إلى اثني عشر حياً، لكل واحد حاكم من الأعيان، يحرص، مثل عقيد جيش، على أن تكون الأسلحة متوفرة بكفاية، ويسلمها لمن ليست عندهم من مخزن الملك، ولكن على نفقتهم. كما أنه يهتم بشؤون الشرطة، على غرار ضباط (ريجيلور) بإسبانيا. يجندون عند الاقتضاء نحو ثلاثين ألف محارب[7]. أشجعهم موريسكيو إسبانيا، الذين نزحوا إلى فاس من غرناطة والاندلس، لأن الآخرين إنما هم أناس تسلية مترفهون، لا يذهبون إلى الحرب إلا مكرهين. ويتمتعون بتلك المزية الشهيرة التي ذكرناها، والتي منحهم إياها الملوك الأولون، وهي أنهم ليسوا ملزمين بالدفاع عن أنفسهم إن لم يستطع الملك أن يمسك البادية، بحيث إنهم يستسلمون للمنتصر إذا اقترب من المدينة بنصف فرسخ دون أن يتهموا بالجبن ولا بالخيانة، ذلك ما جعل عاصمة كهذه تتلافى التخريب لو كانت تتظاهر بوفاء باطل وخطير لأمير لا يستطيع الدفاع عنها. كان هؤلاء الملوك إذن أقوياء بفرسانهم، حتى يتحكموا في البادية، وإن كان السكان قد تحملوا حصارات طويلة من أجل بعض ملوكهم الذين أحبوهم كثيراً، كما فعلوا أثناء الحرب ضد سعيد.

الدور مبنية بالآجر أو الطوب الملصق بالجير أو الاسمنت، وهي جميلة في الداخل أكثر منها في الخارج، لأن فيها غرفاً جميلة مبيضة ومزلجة بمربعات صغيرة مرصوصة شديدة الصفاء. وتوجد عادة في حجر الدور البهية خزانات داخل الجدران وأقواس من جبس شديدة البياض مزخرف (بصور) أرقام وأوراق شجر ملونة بشتى الالوان. الدور مغطاة بسقوف من طين مخلوط بالجير والرمل،

(7) مسلحون بالبنادق أو القذافات.

والاسمنت، ولها كلها أفنية محاطة بممرات وأروقة فيها خزانات مصنوعة من خشب طيب الرائحة[8] كما توجد في الدور أحواض كبيرة من الآجر مبلطة مرصعة، وحمامات أو برك من المرمر. يوجد في المدينة خمسون جامعاً كبيراً، في كل واحد منها سقاية من الماء الجاري، مع أحواض كبيرة من المرمر أو اليشت، وعدد من السواري لدعم القبة، فضلا عن ستمائة مسجد آخر ليس بناؤها جيدا كثيرا. والسقوف كلها مغطاة بخشب الأرز المزخرف بعدة نحوت ونقوش، ولها صوامع عالية، مثل أبراج الأجراس، يصعد إليها المؤذن الذي هو بمثابة خادم الكنيسة، لينادي إلى الصلاة أربع مرات[9] في النهار، من الصباح إلى المساء. وليس في كل مسجد إلا فقيه واحد يلقي الخطبة في الساعات المعينة، وأهمها جامع القرويين الذي هو أبهى وأعظم جامع في افريقيا كلها. يقع وسط المدينة، في مكان منبسط سوي، ودائرته نحو نصف فرسخ. له ستة أبواب رئيسية متصلة بستة من الأزقة المهمة. وكل الأبواب مغشاة بقطع صغيرة من نحاس، تشكل شتى الأحرف والتشبيكات بشكل لطيف جدا، مع أقفال ضخمة مصنوعة بنفس الطراز، مثلما يشاهد في الكنيسة العظمى بإشبيلية. وبجامع القرويين سبعة عشر قوساً أو قبة كبيرة عرضاً على مائة وعشرين طولاً، مرفوعة على عشرة آلاف وخمسمائة سارية ضخمة من الرخام الابيض. وفي القبة الرئيسية حيث منبر الخطيب، الذي يصعد إليه ليلقي الخطبة، ثريا عظيمة من النحاس، يحيط بها مائة وخمسون مصباحاً أقل كِبراً، فضلا عن الثريات المعلقة في الأقواس، في كل واحد منها ثريا من نفس المعدن بحيث يمكن أن توقد فيه ألف وخمسمائة مصباح في آن واحد. يقول السكان إن هذه الثريات كلها مصنوعة من نواقيس أخذها هؤلاء المسلمون[10] من كنائس إسبانيا، ووضعت كأنصاب تذكارية.

في داخل هذا الجامع مدرسة[11]، يلقن فيها علم اللاهوت عندهم مع سائر الفنون والعلوم، وأفقه البلاد كلها الرئيس الذي هو كالأسقف، يتلقى منه الامرَ جميعُ الفقهاء الآخرين، ويحل جميع مشاكلهم[12] ويسمونه المفتي. هو الذي يتصرف في موارد الجامع التي تزيد عن ثمانين ألف أوقية. لكن الشريف الذي يحكم الآن ياخذ كل الإيراد ولا يدفع له إلا ما يحتاج إليه هو وسائر الفقهاء

(8) هو نوع من الارز.
(9) بل خمس مرات في اليوم والليلة. (مترجم).
(10) عبر عنهم بالكفار كعادته (مترجم).
(11) ليس في داخل القرويين مدرسة، وإنما الجامع كله مكان دراسة. (مترجم).
(12) أو مشاكل الغير.

وسدنة الجامع. وهناك مدارس أخرى بفاس يدرس فيها النحو[13] والبلاغة، والعقائد، والفلسفة، والرسم، والحساب وغيرها من العلوم. وكانت تلقن فيها قديماً المقامات ولكنهم لا يجرؤون على ذلك علانية منذ عدة سنوات.

وأهم هذه المؤسسات تسمى مدرسة، وهي من أجمل بنايات افريقيا كلها، من حيث أفنيتها الكبيرة وأروقتها وغرفها العديدة الملبسة بالطلاء الجيد أرضيتها مزلجة والكرسي الذي تلقى منه الدروس، مرصع بالأبنوس والعاج. كان هناك قديماً طلبة داخليون في هذه المدرسة وفي غيرها، ينفق عليهم مثلما هو الشأن في أوربا، لكن الملوك أخذوا حالياً هذه الموارد الباهظة، ولم يتركوا إلا ما هو ضروري للاساتذة، فلم يبق للطلبة سوى الغرفة والدروس. يوجد في مدينة فاس ما يزيد عن مائتي مدرسة[14] لتعليم القراءة، وإن كان الخط والنحو العربي يلقنان عادة في الجامعات.

هل سأتحدث عن المستشفيات التي لا تقل حسناً ولا سعة عن المدارس؟ فهناك كان يحبس المجانين والمرضى، ويطعم المساكين طيلة ثلاثة أيام، لكنها الآن خالية، لأن الملوك استولوا على مواردها. بل هناك فقط مستشفى في الربض[15]، معد للمرضى الغرباء، لكن يجب أن يعالجوا أنفسهم على نفقتهم، إذ يكتفون بخدمتهم وتغذيتهم، لأن المستشفى أفقر من أن يزودهم بالباقي.

وهناك أيضاً عدة حمامات، تشكل أهم تسليات المدينة. يذهب اليها النساء والرجال للاستحمام، هؤلاء في الصباح وأولئك في المساء، ويترددون اليها كثيرا من اجل النظافة ــ على ما يقولون ــ لكن ذلك يحدث اضطرابات كثيرة، وقد تعودوا عليها حتى إنهم يدفعون من المال للحمَّام أكثر مما ينفقون على أنفسهم.

وهناك ما يربو عن مائتي فندق للغرباء مثلما هو عليه الحال بأوربا، وهي كبيرة حسنة البناء، فيها عدة غرف بأعلاها وأسفلها، مع ما هو ضروري. ويوجد أهمها قرب الجامع الكبير، وسائر الفنادق الاخرى ملاجىء للشياطين، ترتكب فيها آلاف المعاصي، بكامل الاباحة وبدون عقاب، لدرجة أنه يسمح لأصحاب الفنادق بالخروج بزي النساء، محلقين اللحى متمنطقين كالنساء، مرققين صوتهم عند الكلام ومقلدين النساء لتحريض الرجال على فسق بشع. ويباح لهم اتخاذ

(13) النحو العربي.

(14) يقصد بالمدرسة الكتاب (مترجم)

(15) المارستان.

وسطاء عموميين، وبيع الخمر، وإيواء النساء والصبيان، كما هو جار في المواخير المخصصة للفجور. وأغرب من ذلك أن ممثلي العدالة لا يجرؤون على الذهاب اليها، وأن الشرطة لا يلقون القبض على اي أحد هناك، بحيث إنها أصبحت ملجأ اللصوص والقوادين والقتلة وجميع فجار المدينة. يؤدي اصحاب هذه الفنادق الذين يدعون باديس من أجل ذلك مبلغاً كبيرا الى العامل كل سنة، ويلزمون كلما تحرك الجيش مع الملك أو الأمير بإرسال بعضهم لخدمة ضباط الحاشية وطهي طعامهم، لكنهم يُمنعون من الدخول إلى الحمامات والمساجد، والتحدث الى التجار، وكراء الفنادق القريبة من الجامع الكبير.

وعندما حارب أبو الشريف[16] الذي يحكم حالياً ملك فاس وعاتبه الفقهاء على محاربته لملك يدين مثله بدين الاسلام، أجابهم بأنه يفعل ذلك عقاباً له على المناكر البشعة التي يبيح ارتكابها علانية محاربة لله ورسوله، بحيث إنه مثَّل بهؤلاء الفقهاء بمجرد ما أصبح سيداً، وكان معه قاض[17] أخذ في ذبح كل من استطاع إمساكه، ومنع أن يدفنوا حتى أكلتهم الكلاب. الأمر لم يطل، إذ ما كاد يرجع عنهم حتى استأنفوا عاداتهم الكريهة، وإن كان ذلك بجرأة أقل من السابق.

إن النهر الذي يخترق فاسا يدير فيها أربعمائة طاحونة، لكل واحدة منها أربع أو خمس عجلات، وأحياناً ست، بعضها مخصص لطحن قمح المنازل والبعض الآخر يملكه طحانون أو خبازون، يبيعون الدقيق بالتقسيط [illegible] الصناع وغيرهم الذين ليس لهم وسيلة لشراء القمح، والباقي يطحن للسكان في مقابل مال أو [illegible]قيق، لكن الملك ياخذ نصف ريال أو نحوه عن كل كيل قمح ولو أن [illegible]طاحونات ليست في ملكه، ولا يطحن قمحه بها أصلا هو ولا حاشيته، بل [illegible]طحن بفاس الجديد، حيث يملك خمس عشرة طاحونة، والباقي منها للخواص والمدارس والمساجد، لكنه يزعم أن مِلك الماء يرجع إليه.

وفي وسط المدينة مكان مسور يدعى القيصرية، حيث دكاكين التجار وجميع ثروات فاس. لها اثنا عشر باباً كبيراً. بسلاسل غليظة من الحديد تستعمل كحواجز لمنع دخول المرء إليها راكباً. وتضم خمسة عشر زقاقاً للدكاكين. أهمها زقاقا الاسكافيين الذين يصنعون أحذية مطرزة بالذهب والحرير، وبعدهما زقاقا

(16) هو محمد المهدي الشيخ.
(17) هو سيدي موسى.

القطانين الذين يصنعون اشرطة وشُرّابات تعلق بالركابات وعلى صدور الخيل مع عُدة السروج من نفس المادة. وهناك أيضاً أزيد من مائة دكان للتجار الذين يبيعون جميع أنواع النسيج من الحرير وأخرى بجوارها تباع فيها النُّطُق من الحرير والصوف للنساء، منسوجة على وشاحات غليظة من الخيط بأهداب طويلة في أطرافها. تدار هذه النطق مرتين، ثم تسدل في الأمام على شكل قنزعات، مما يعتبر زينة كبرى في تلك البلاد، وتتمنطق بها جميع النساء العربيات. كما أنه توجد في نفس المكان عدة دكاكين، تباع فيها أقمشة رقيقة من الصوف، وربطات من الحرير الخام، جل هؤلاء التجار من مسلمي الأندلس وبلنسية. وفي دكاكين أخرى تباع الفُرُش والوسائد من قماش الحرير أو الكتان، وزرابي من الجلد المزركش بالذهب والحرير، تستعمل هناك كسماطات تفرش على الارض لتناول الطعام، وللجلوس عليها في الصيف. ويوجد قريباً من هناك الجُباة الذين يقبضون واجب كل ما يباع في القيصرية[18].

ويوجد أيضاً زقاق آخر للدلالين، يسمونه (كواكَوا سادور) ـــ كذا ـــ يقيدون فيه كل ما كان يباع. يحمل الدلالون السلعة من دكان إلى دكان، ولا يسلمونها إلا للتاجر الذي اعطى فيها اعلى ثمن، لكن يسمح لساكن المدينة أو الغريب عنها أن يشتريها في الحين بنفس الثمن. عدد هؤلاء الدلالين سبعون دلالا، ياخذون فلساً واحداً[19] تقريباً عن كل درهم من مبيعاتهم وكل شيء يمر بين ايديهم كما اسلفت.

وهناك أيضاً في نفس المكان عدة دكاكين اخرى للخياطين والقصارين، وأغناها التي تباع فيها أقمصة وأحذية وزينة رأس النساء، وهي من الحرير والقماش المطرز، لان تجارتها نافقة أكثر من سائر البضائع[20]، ويقيم الرثاثون بائعو الملابس المستعملة في زقاق آخر، حيث تباع البسة كل من الرجال والنساء سواء من الحرير أو القماش المطرز، كانت بالية أم جديدة. وفي المساء تباع فيه بالمزاد عدة أمتعة عتيقة، وهناك زقاق آخر مقابل لهذا الزقاق، يباع فيه القماش البالي، وأغطية وزرابي فخمة من جميع الأنواع. كما أن هناك عدة دكاكين تباع فيها ضفائر وأزرار. كل ذلك مسور في المكان الذي ذكرته، والذي يغلقه كل ليلة رجل مكلف بذلك.

(18) أو ما يحمل إليها قصد البيع.
(19) اي ما يعادل ثمانية مرابطية على وجه التقريب.
(20) أو لأنها تتطلب عملا اكثر . الخ

وبالتالي، فإن هـذا المكان[21] سمي باسم قيصر، لأن المؤرخين يقولون إنه عندما كان الرومان يحكمون افريقيا كانت لهم في كل مدينة دار جمرك تحفظ فيها السلع وأشياء أخرى يملكونها. وبما أن هذه الدار غالباً ما كانت تتعرض للنهب أثناء الفتن، أمر أحد القياصرة أن يكون في كل مدينة مكان مسور تحفظ فيه البضائع التي يمكن أن تكون للامبراطور، مع سلع التجار، حتى يهتم السكان الذين لهم مصلحة فيه اهتماماً أكثر بمنع نهبه. ومن ثم جاء اسم قيصرية، وحرف إلى القيصرية بإضافة أداة التعريف العربية. وما زال الكثير منها في أهم مدن إسبانيا محتفظاً بهذا الاسم.

وعند الخروج من القيصرية من جهة الباب المفضي إلى الشمال، زقاق جميل يسمى العطارين، ويشتمل على مائة وسبعين دكاناً في كلا الجانبين. له مدخلان يغلقان كل ليلة، فضلاً عن إقامة الحراسة عليه، وإن كان جمرك التجار المسيحيين قد نقل من هناك إلى فاس الجديد للمزيد من الامن. ومن بين هذه الدكاكين عدة دكاكين للعشابين، يبيعون مراهِمَ وأدوية لهؤلاء القوم الذين ليس من عادتهم أن يتناولوا المسهلات، ولا أن يتعالجوا بالطب، وإنما يتداوون بالنار، أو الحِمية، أو بعض العقاقير. هذا الزقاق أجمل أزقة فاس، لأن الدكاكين فيه كبيرة ومستضيئة جدا، والصناديق أو العلب منضدة بنظام دقيق يبهج الناظر ويسره.

لجميع الصناع والبزازين حي منعزل، ويوجد حول الجامع الكبير ثمانون مكتباً للعدول[22] يجلس في كل واحد منها عدلان أمام منضدتين لتحرير جميع أنواع العقود، سواء منها المتعلقة بالمدينة أو بالبادية، يوقعها بعد ذلك القاضي، وإلا فليس لها اي اعتبار.

وبالقرب من ثم ثلاثون دكاناً للكتبيين، وأزيد من مائتي إسكاف يبيعون الاحذية للرجال والنساء على السواء. وأمام الباب الآخر للجامع المتجه نحو الغرب، ساحة كبرى تباع فيها الفواكه، وقريباً منها جداً أربعون دكاناً للبزازين والشماعين[23] وعدد آخر من الدكاكين لباقات الزهر التي اعتاد كل واحد منهم أن يحملها في يده، كما يباع فيها الليمون الحلو والحامض، وجميع أنواع المشروبات،

---

(21) القيصرية.
(22) أو كتاب التوثيق.
(23) ربقة الشماعين.

وتقابلها دكاكين اخرى مليئة بقلل كبيرة مغلقة باتقان يباع فيها اللبن الطري، واللبن الحامض والزبدة الطرية، وأكثر من ثلاثين اخرى، يباع فيها القطن المغزول وغير المغزول.

وعن اليمين زقاق آخر يباع فيه القنب، وفيه عدة دكاكين للسراجين والحصريين. وقبالتها عدة دكاكين اخرى تباع فيها أكياس النقود وأحزمة من الجلد مزخرفة بالحرير الملون، ونوع من الأزِمَّة المذهبة لقيادة الخيل باليد دون لجام، وقريباً من هنالك يوجد صانعو اللجم، واللبانات، وسيور الركاب، وغيرها من زينة الخيل. وتوجد غير بعيد من ثم دكاكين يباع فيها الملح والجبص بالتقسيط، وأكثر من مائة دكان للزجاجين. وبجوارها ما يزيد عن تسعين دكاناً للسراجين[24]، فساحة الحمالين التي يتردد إليها يومياً أزيد من ثلاثمائة من الحمالين وسائقي العجلات لنقل البضائع، ولا يمكن أن تزاول هذه المهنة بدون رخصة من العامل ودفع كفالة، وتعفى من القضاء وكل إعانة مالية، لأن لهم أميناً يفصل في نزاعاتهم، ويكوِّنون فيما بينهم جمعية أو طائفة، ولهم صندوق مشترك[25] يضعون فيه يومياً بعض ما كسبوه لسد حاجياتهم والانفاق بمناسبة زفافهم أو جنازتهم.

وعلى بعد يسير من هناك ساحة اخرى[26] يقيم فيها المحتسب[27] الذي يسعر الاطعمة، ويراقب الموازين والمكاييل. له محكمته الصغيرة على حدة يصدر فيها أحكامه، ويُختار أعظم شخصية في المدينة للقيام بهذه المهمة، ولهذا فإنه يشتغل أكثر من العامل.

وفي وسط هذه الساحة مكان مسور تباع فيه جميع أنواع الاعشاب والخضر وحوله اكثر من مائة دكان يباع فيها حلوى العسل والاسفنج، وأزيد من ستين دكاناً آخر للشوائين، بجوارها عدة دكاكين يباع فيها اللحم والسمك المطبوخ، وحلويات وفطائر بالسمن، تطهى في إناء من خزف وتؤكل مع هذه اللحوم، وأمامها أكثر من خمسين دكاناً يباع فيها الزيت، والسمن والعسل، والجبن، والزيتون، والكبار وما أشبه ذلك. وقريباً من هناك أربعون دكاناً للجزارين يباع فيها

(24) أي صانعي اللحامات، والأحزمة، ورؤوس الحامات والسروج.
(25) أو علبة نقود.
(26) عين علُو.
(27) ابن المواز.

اللحم بالوزن لدى خروجه من المجزرة الواقعة على النهر. لكنه يُعرض قبل ذلك على المحتسب الذي يسعِّره ويسلِّم بطاقة بخط يده يُلزم الجزار بإلصاقها في أعلى الباب ما دام يبيع اللحم، حتى لا يقع أدنى غش.

وبعد تجاوز الجزارين نصل إلى زقاق آخر يدعى (اللوسى) ــ كذا ــ تباع فيه الزرابي، والقمصان وأقمشة الصوف من صنع محلي في أكثر من ثمانين دكاناً. وبعيداً من هناك توجد حارة صقالي الاسلحة الذين يبيعون السيوف، والخناجر والرماح[28] ثم دكاكين يباع فيها حوت طري يصطاد من وادي فاس ونهر سبو الكبير، الذي يكثر فيه الشابل حتى لا تساوي الواحدة منها أحياناً فلساً. يُكري الملك صيد الحوت في النهر بأكثر من عشرين ألف مثقال، ويستمر من بداية اكتوبر الى منتصف ابريل. وقريباً من هناك ساحة[29] يوجد فيها صهريج حسن حوله اربعون دكاناً تصنع فيها أقفاص كبيرة من قصب لتربية الدجاج. وبعدها مباشرة سوق الصابون فيه أزيد من خمسين دكاناً يباع فيها الصابون الاسود، لأنه لا يوجد غيره بإفريقيا.

ويوجد عدد آخر من الدكاكين المتفرقة عبر المدينة كلها، يباع فيها بالتقسيط الزيت، والسعل، والسمن، والتوابل والصابون. وأمام الساحة المذكورة آنفاً ساحة اخرى[30] يباع فيها القمح، والشعير، والتبن، والشمع بالجملة وبالتقسيط.

وقريباً جداً من هناك ساحة الملابس الداخلية على شكل رواق كبير ذي أربعة أبواب، تباع فيها المشاقة، والخيط والقماش. يقام فيها يومياً سوق يستمر من الزوال إلى الساعة الثانية يزدحم فيها جمهور من النساء اللاتي ياتين لبيع أو شراء القماش، حتى لا يستطيع المرء أن يدور فيها، وغالباً ما يتضاربن وينتف بعضهن شعور البعض.

وهناك زقاق آخر يبتدىء من الباب الغربي للجامع الكبير، ويؤودي الى باب المدينة المفضي الى فاس الجديد[31]. وهذا الزقاق مليء بساحات ودكاكين تهيأ فيها قِرب الماء من جلود الماعز. كما أن هناك اكثر من خمسين[32] سلالا وحدادا

(28) أو الحراب
(29) قبيب النقاش.
(30) ساحة الشعير.
(31) باب المحروق.
(32) 50 دكانا.

يصقلون ركاب الخيل وغيرها من المصنوعات الحديدية، وقبالتهم صانعو التروس، وهي درق جميلة من الجلد، ونحو خمسة وعشرين دكانا للذين يغسلون الثياب في أحواض كبيرة حتى تصير بيضاء كالثلج، لكن يوجد منهم ايضاً اكثر من مائتين موزعين على المدينة كلها، وبعدهم صانعو قرابيس السروج.

وقريباً جدا من هناك توجد المدرسة(33)، وتحيط بها عدة دكاكين للذين يموهون الركابات، والمهامز واللبانات واللجم بالذهب ويزخرفونها، وأشياء اخرى من الحديد بكامل الاتقان، وإن كانت تصنع أحسن منها في تلمسان. وأمام هذا الزقاق زقاق آخر(34) فيه ما يزيد عن ثمانين دكاناً لصانعي اغطية السروج من هذه الجلود المغربية المخيطة بدقة متناهية.

وقريباً من هناك القصبة المشتملة من كلا الجانبين على رواقين جميلين، يمتد احدهما إلى أحد أبواب المدينة(35)، والآخر الى قصر كبير(36) يقيم فيه عادة أخو الملك أو أقرب الناس إليه. ويوجد زقاق آخر من جهة الشرق قريب جدا من العطارين، فيه أكثر من اربعين دكاناً لصانعي الإبر(37)، وخمسة عشر أخرى تصنع فيها المشط، ثم ياتي الخراطون، ولو ان كثيرا غيرهم متفرقون عبر المدينة كلها. وعلى بعد يسير من هذا المكان ساحة صغيرة فيها عدة دكاكين متماسة يباع فيها الدقيق، والصابون، والمكنسات، وأشياء اخرى للاشغال المنزلية. وتتصل هذه الساحة(38) بقاعة الكتان التي تحدثنا عنها. وبالقرب من الدكاكين التي يباع فيها القطن زقاق صغير عارض، تباع فيه الخيام وسراديق البادية(39). وقريباً جداً من هناك يوجد ستة عشر دكاناً تباع فيها طيور حية تجعل في الاقفاص، وأخرى مذبوحة توكل. وفي هذا المكان منزل كبير يباع فيه الزنوج من الجنسين في كل مساء(40) وقريباً من هناك صانعو الاخفاف والنعال المزخرفة المغشاة بالجلد أو الحرير، ينتعلها السكان عادة عندما تمطر السماء أو يكون الوحل في الطريق، منها ما هو غال جدا يساوي عشرة

---

(33) أسسها الملك أبو عنان.
(34) رنقة الاشين.
(35) باب الغدر.
(36) بيت الحوط
(37) اللبارين
(38) الرحبة
(39) البرصة.
(40) أو بعد الظهر.

أو اثني عشر مثقالا. وأمام هذه الدكاكين اثنا عشر دكانا لموريسكيين من غرناطة أو بلنسية يصنعون أسلحة نارية، وبعدها خمسون دكانا لا يصنع فيها سوى المكانس من سعف النخل وتباع في المدينة كلها، فتبدل بالرماد، والنخالة والاحذية البالية. وبجوارها عشرون دكانا اخر لصانعي المسامير، فضلا عن التي تصنع فيها دِنان، ومكاييل خشبية للقمح. وغيره مما يباع كذلك، لان جل الاشياء التي تباع في فاس توزن أو تُكال.

وفيما وراء ذلك زقاق عارض[41] يباع فيه صوف جلود الضأن، التي تطرى وتصنع منها الجلود الناعمة. وبجانبها الذين يطرون جلود البقر، وكذلك جلد الماعز المدبوغ الملون. ثم تاتي دكاكين تصنع فيها قبعات من التبن أو سعف النخل، وسلال صغيرة متقنة الصنع كذلك، وأشياء اخرى مماثلة[42] ويفضي هذا الزقاق الى الصفارين، لكن إذا عدنا الى المكان الذي تصنع فيه الدنان، وجدنا زقاقا عارضاً فيه عدة دكاكين تصنع فيها ممشقات وأمشاط من الحديد حادة جدا لإصلاح الكتان ونفش الصوف.

وبعيدا من هناك، توجد ساحة كبيرة مليئة بدكاكين، تصقل فيها المهاميز، والركابات، واللبانات، وغيرها من المصنوعات الحديدية الدقيقة. ثم ياتي النجارون الذي يصنعون المحاريث وعجلات العربات، وأخرى كبيرة للطاحونات، أو لرفع الماء، وبعدهم مباشرة الصباغون الذين يغسلون في سقاية جميلة الحرير الذي يريدون صبغه. ووراءهم صانعو الرماح الطويلة في ساحة كبرى[43] تكون جد باردة في الصيف، بسبب الظل الظليل الذي تضفيه عليها اشجار التوت. ويأتي بعد ذلك البيطريون وأمامهم مباشرة صانعو حبال القذافات، والحراب أو السهام. وبعيدا من هناك عدد كبير من الدكاكين، لا تصنع فيها سوى حلوات الخيل والبغال، وقريباً منها جداً الذين يغسلون القماش. تلك هي أهم أزقة فاس البالي وساحاته وسنتحدث الآن عن قسم المدينة الواقع وراء النهر في اتجاه الشرق[44].

(41) هو رقاق المتوفين.
(42) الحلفاويين.
(43) هي ساحة باب السلسلة.
(44) وقد سبق القول عن البالي أعلاه.

وصف قسم مدينة فاس
المسمى البليدة

هذا أول قسم أسس في المدينة ولو أنه غير عامر جدا، يضم مباني جميلة عتيقة، سواء منها القصور، أو الحمامات، أو المساجد، أو المدارس، لكن لا وجود فيه لتجارة الحرير والاقمشة الرفيعة، مثلما هو الحال في القسم الآخر، وليس فيه صناع كثيرون، وإنما فيه زقاق جميل يضم ثلاثين دكاناً[45]. وجله خال خاصة ما يلي الاسوار، حيث يصنع الآجر والزجاج. لكن هناك مسجدا كبيرا يسمى جامع الاندلس، أمامه ساحة مبلطة بالآجر، فيها عدد من الصناع والبزازين، وهناك ساحات عديدة متفرقة في المدينة كلها، تباع فيها المؤن. وأعظم شيء فيها هو صناعة النسيج من الكتان والحرير، يشتغل فيها عادة عشرون ألف عامل، علاوة على خمسين وخمسمائة دار، ذات طابقين أو ثلاث طبقات، كلها مليئة بالأقمشة والثياب الحريرية الموضوعة على النول، فضلا عن مائة وخمسين مسكناً، معظمها على النهر، حيث لا عمل لساكنيها الا الخياطة أو تبييض الخيط وصبغ الحرير. كما أن هناك ساحات كبرى ينشر فيه الاسرى المسيحيون الخشب طوال الاسبوع، ما عدا يوم الجمعة، من الزوال الى المساء، وسبعة ايام أو ثمانية من الاعياد التي يحتفى بها على مدى السنة. ويظهر في ناحية الشمال جبل[46] يحفظ فيه القمح مدة طويلة جدا، في تجويفات ارضية، يحرسه سكان الحي[47]، مقابل شيء يعطيه إياهم من يملكون القمح. وهناك بساتين وعيون الزنجفور، التي سنتحدث عنها في الفصل الذي نتعرض فيه لهذه الاشياء.

فاس الجديد

يقع فاس الجديد في سهل على ضفة النهر بعيدا بأكثر من الف قدم من فاس البالي، بين الغرب والجنوب، وله سور مزدوج متقن الصنع، ومحصن ببروج، على شكل قلعة يسكنه اكثر من ثمانية آلاف نسمة. وقد أسس هذه المدينة ثاني ملوك فاس من بني مرين، الذي استولى على مملكة مراكش من يد آخر ملوك الموحدين، ونقل عاصمة الامبراطورية من مراكش الى فاس، ليكون اقرب من ملك

---

(45) للخياطين، والاسكافين، الخ...
(46) جبل تاورتين.
(47) حارة مغراوة.

تلمسان الذي كان معه في حرب دائمة. وأسماها المدبنة البيضاء، لكن اطلق عليها اسم فاس الحديد، وهو منقسم الى ثلاثة احياء.

يوجد في الاول قصر الملك، وقصر أبنائه وإخوانه، وفيه ديار جميلة بالبساتين، والحمامات، والسقايات، لتسليته، وقريباً منه جدا جامع كبير فائق الحسن.

وتوجد في الحي الثاني اصطبلات الملك، وعدة فنادق لكبار النبلاء، مع زقاق ممتد من الشرق الى الغرب على مسافة أريد من ربع ميل فيه دكاكين التجار والصناع، والساحات والجزارون، وفي هذا المكان الفسيح عدد من الحمامات والمساجد الممتازة التي انفقت أموال عظيمة في تشييدها.

وفي الحي الثالث، حيث كان يقطن قديما حرس الامير، وهم أجانب يتقاضون اجورا باهظة، توجد الآن الجماعة المحلية من اليهود التي كانت من قبل في فاس البالي : ولما كانت تتعرض للنهب عند وفاة الملوك، نقلت إلى هنالك لضمان امنها، مقابل جزية مضاعفة. وفي هذا الحي ساحة كبيرة محاطة بدكاكين وبِيَع وديار حسنة البناء، يعيش اليهود فيها وكأنهم في مدينة على حدة، وينيف عددهم على عشرة آلاف، إذ يضم كل منزل أربع أو خمس أسر، معظمهم ممن طردوا من اسبانيا من طرف الملكين الكاثوليكيين، ويوجد من بينهم بعض الاغنياء. يدير شؤونهم شيخ او عامل، يفصل في أمورهم، ويجبي منهم ما يؤدى للامير، وحتى لا يتعرضوا للتعذيب، يقبض المغارم والضرائب المفروضة على معاملهم وبضائعهم، لأنهم يؤدون واجباً عن كل ما يصنعون ويبيعون، ولان هذا الرهط يعامل معاملة سيئة في افريقيا. يبصقون عليهم في الأزقة، ويضربونهم، ولا يسمح لهم بانتعال الاحذية، ما عدا بعضهم المقربين من الملك وأكابر القوم، أما الباقون فليس لهم سوى احذية من أسل، يرغمون على نزعها إذا دخلوا عند الامير ويضعون على رؤوسهم عمامات سودا، وعلى العمامة أو الطاقية خرقة ملونة، وحتى على ملابسهم تمييزهم عن غيرهم. وإذا كان أحدهم غنيا، سلبه الملك ماله، وأحياناً حتى روحه، لكنهم يحسنون التصرف، ويظهرون ذكاء كبيرا في العمليات التجارية، حتى إن الملوك وكبراء القوم يكلون اليهم تدبير مواردهم، لان أشراف المغاربة لا يعتنون بالادخار، ولا يفقهون شيئا في هذه الدقائق الصغيرة، بحيث إن لكل واحد منهم يهوديا كمقتصد، الشيء الذي يجعلهم يحتفظون بهم، فيكون ذلك في صالحهم.

وبجوار القصر دار السكة حيث يقيم المشرف عليها، وبالقرب منها دار الصباغة، والصراف الذي يملك حقَّ السَّكِّ ويزن النقود ويضع عليها السعر، اذ لا يمكن التصرف في فاس بالذهب ولا بالفضة إن لم يكن ذلك مسجلا من قبل، ثم يتداول كعملة بالوزن. جل اليهود صاغة، يعملون في فاس الجديد، حيث توجد دكاكينهم ويذهبون الى فاس البالي لبيع مصنوعاتهم في ساحة قريبة من العطارين، لأنه لا يمكن صياغة الذهب والفضة في فاس البالي. إن المغاربة لا يهتمون بهذا الفن، وإذا كان من بينهم بعض الصاغة، فإنهم لا يصنعون سوى خواتم، وأقراط، وحبات سبحة لنساء الأعراب والقرويين. وأخيراً، فإن الامير الذي بَنَى هذه المدينة الجديدة جهزها بكل ما كان ضرورياً لمكان جيد، حتى يستطيع أن يعيش فيه في أمن وراحة هو وجميع عقبه، ويدبِّر أمر فاس البالي من هنالك، حيث أحدث طريقاً تحت الارض تؤدي الى القصبة، وهي عريضة لدرجة أن ثلاثة فرسان يمكنهم المرور بها معا جنباً الى جنب. الامر الذي كان هيناً عليه عندما كانت دولة بني مرين في أوج قوتها. لكن الباحث جيدا في هذه البنايات بإفريقيا يجد أن أشهر مدن موريطانيا الطنجية[48] شيدت وزينت من الثروات التي حملها اليها هؤلاء المسلمون[49] من اسبانيا.

يوجد بفاس الجديد فندق كبير[50] كان من عادة الاسرى المسيحيين أن يصنعوا فيه أدوات من الحديد وأشياء اخرى، تحت إمرة إسلاميين من غرناطة والأندلس وغيرهما، كانوا يصنعون الاسلحة والذخيرة[51] لكن الشريف الذي يحكم حاليا سلم هذه الدار لليهود أصحاب دكاكين الصياغة، وصار المسيحيون يعملون في أماكن اخرى مختلفة.

وكان هنالك قديماً حي يعيش فيه عدد من المسيحيين الاحرار، وحتى بعض العبيد منهم الذين كانوا عمالاً مهرة، يعاملهم الملك معاملة حسنة، ويسمح لهم بالإقامة هناك مع نسائهم وأطفالهم. وما زال عدد منهم حتى الآن بفاس ومراكش.

---

(48) فاس، مراكش، الرباط، المنصورة، القصر الكبير، الخ

[هذا خطأ وتحامل : إذ فاس بنيت قبل أن يكون للادارسة اي صلة بالاندلس، وكذلك الامر بالنسبة للمرابطين في مراكش. أما الموحدون فكانت موارد امبراطوريتهم في المغرب الكبير الممتد الى حدود مصر أضعاف أضعاف ما يفيدون من الاندلس. وإنما كانوا يصنعون ثريات المساجد العظيمة من نحاس نواقيس الكنائس وشبه ذلك]. (مترجم).

(49) عبر عنهم ــ كعادته ــ بالكفار. (مترجم)

(50) دار الصناعة

(51) سيوف، وبنادق مختلفة، ومسحوق البارود، ومدافع الخ..

وسائر سكان المدينة الجديدة اناس لا يعتبرون كثيرا، لأن جميع الاشخاص الاغنياء ودوي البيوتات برتاحون جدا الى أن بكونوا غير معروفين من طرف البلاط، حتى يطمئنوا اكثر، ولا يحبون حتى أن يسكنوا معهم أعضاء الحاشية، ولا أن يزوجوا بناتهم منهم.

للمدينة الجديدة بابان رئيسيان(52) أحدهما بفضي الى المدينة القديمة، والآحر يوحد فيه السقيفة وحرس الملك. وهناك باب ثالث(53) في الداخل اكثر، يسير بين حواجز السورين، ولكن الحرس في كل مكان. يكون مع الملك دائماً في فاس الجديد ألف وخمسمائة فارس مجهزون أحسن تجهيز، وألفان من رماة البنادق الراجلين، وكثير من المدفعية والعدد تزود بها المراكز الاخرى.

ثم إن قوة الدولة كلها ترتكز على هذه المدينة، التي لن تحسن جيدا الدفاع عن نفسها مع ذلك إن حوصرت اليوم، ليس فحسب لأنه يمكن قصفها ومهاجمتها من شتى الأماكن ومن قريب جدا، ولكن ايضا لعدم وجود حصون مناسبة ومسطحات تصف فيها المدفعية والمقاتلون الذين يحسنون استعمالها، ولوجود عدد كثير من السكان الذين لا فائدة فيهم وإنما يعجلون فيها المجاعة، خاصة اذا احتل فاس البالي، كما يمكن أن يحدث إن أراد الله اتحاد الامراء المسيحيين وقيامهم بهذه العملية(54).

انهار مدينة فاس وعيونها

يمر في وسط فاس البالي نهر ينبع على بعد ثلاثة فراسخ من هناك، قرب محل صغير يسمى عين الخميس(55)، وبعد أن يخترق سهلاً كبيرا يسيل بين تلال، ومن هناك يصل الى البساتين الواقعة أمام باب الجديد(56) وينقسم هناك الى فرعين يدخلان إلى المدينة من موضعين، أحدهما قرب هذا الباب المفضي إلى الصفارين القريبين من قنطرة الرصيف(57)، والآخر عبر باب الفتوح، ومنه يلتحق بالأول عند

(52) هما باب السبع، وباب عيون صنهاجة.
(53) هو باب الجيف
(54) هكذا يتجلى حقد المؤلف المتعصب ضد الإسلام والمسلمين خانت أمانيه. (مترجم).

(55) كذا، ولعله عين عمير. (مترجم)
(56) حرف القنطرة.
(57) قنطرة الصاعين.

قنطرة الصباغين، ثم يخترقان المدينة معاً، ويخرجان إلى باب الغدر، حيث تكتنفهما بساتين جميلة على مسافة أكثر من فرسخ، وبعد ذلك يصبان في نهر سبو الكبير، على بعد ميل ونصف من المدينة، ويديران في المدينة أربعمائة وعشرين طاحونة. وهناك نهر آخر يسمى واد فاس، ياتي من بعد ثلاثة فراسخ من هناك، من عين كبيرة(58) قرب قصر يقيم فيه ملوك فاس حرساً مؤلفاً من خمسين رجلاً، فينحدر عبر سهل جميل ويدخل الى فاس الجديد من الباب(59) المؤدي الى فاس البالي عندما يمر بين السورين، يسيل في البساتين الواقعة أمام باب الحديد، ويرتمي من هناك خارج المدينة عبر حدائق جميلة إلى أن يصب في نهر سبو. ويدير خمس عشرة طاحونة فيما بين سوري فاس الجديد الذي يمر منه، بالإضافة الى انه توجد بفاس الجديد عدة سقايات أصلها من نبع واحد غير بعيد من هناك، حيث يجلب الماء بواسطة قنوات تحت الارض الى قصر الملك، ويوزع من هناك على باقي القصور وعبر المدينة كلها(60). كما توجد عدة سقايات في فاس البالي، ماؤها بارد جداً، ومنبعها كلها بين الأسوار ومن شتى الانابيب والقنوات التي تحمل ماء النهر الى المساجد والمدارس والحمامات وأهم المنازل، مع آبار كثيرة عبر المدينة كلها، التي يوجد الماء قريباً من سطحها بحيث يستقى في عدة أماكن بالسطل في اليد. ذلك لأن عيناً كبيرة(61) تنبع على بعد أربعة فراسخ ونصف من هناك، وبعد أن تسيل على مسافة فرسخ ونصف وهي مكشوفة، تختفي جزئياً في بحيرة كبيرة(62). ويقول أهل فاس إن القسم الذي يختفي منها يدخل إلى المدينة، التي تهتز في غالب الأحيان، لأنها مجوفة كثيراً ومحمولة على المياه. وفي البليدة الواقعة أمام النهر، ستمائة عين، كلها مسورة ومغلقة بالاقفال، لأن الماء يسيل منها إلى فاس البالي عبر مجار، وهو شديد البرودة في الصيف. ياتي جل هذه العيون من ناحيتي الغرب والجنوب من ساحة فسيحة ذات بساتين جميلة جدا وأشجار مثمرة، كالليمون الحلو والحامض والصبر، والرند والياسمين، مع ورود وأزهار عطرة اخرى تعطر الهواء في الصيف حتى يخيل للمرء أنها جنة على وجه الارض، والكل تسقيه عدة سواق مجلوبة من هذه العيون.

(58) رأس الماء.
(59) باب السبع.
(60) دار الدبيبغ.
(61) عين أغبال.
(62) تيملوين.

في كل هذه الأماكن منازل رطبة باردة، يقيم فيها الاعيان وطلاب التسلية في الصيف، من بداية ابريل الى آخر شتنبر، وكل هذه الأماكن تسمى بساتين الزنجفور، لان لون ترابها كلون الذهب، وهذا هو معنى الكلمة بالعربية، وفي خارج أسوار فاس الجديد، يرفع ماء النهر بواسطة عجلات(63) تحمل الماء فوق الاسوار، ويوزع من هناك على قصور، وحمامات، وبساتين المدينة كلها. ويوجد مثل ذلك في سهل طليطلة، حيث يرفع ماء نهر الطاج لسقي البساتين(64) يقال إن أسيراً من طليطلة هو الذي أتى بهذا الاختراع إلى بلاد البربر، لأن أهل فاس كانوا في القديم يجلبون ماء العين التي تسيل الآن تحت الأرض عبر قنوات قد خربت. وهذه العجلات التي ترفع الماء موضوعة على جانب النهر، في قناة ضيقة جدا، ليديرها الماء الذي يدخل بقوة في القواديس المحيطة بها بسرعة أكثر، وعندما تكون في الأعلى، تصب الماء لدى نزولها، لكنها تقضي ساعة كاملة لإتمام دورة واحدة.

أرباض فاس البالي

يقع خارج المدينة القديمة، في جهة الغرب، ربض المرس، الذي تربو الديار فيه على ثلاثمائة، وفيه ساحة تفضي الى باب الغدر، ويشتمل على عدة كهوف منحوتة في الصخر، كان ملوك فاس قديماً يخزنون فيها القمح ويقام في هذه الساحة سوق كل يوم من الصباح الى منتصف النهار. وليس في هذا الربض سوى دور قبيحة، يلتجيء إليها جميع اللصوص والمحتالين والمتسكعين في المدينة، يتخذونها أماكن للفساد والعهارة، ويتعاطون فيها لعب الورق والقمار ومعاقرة الخمر، دون أن تستطيع العدالة أن تلقي عليهم القبض، لأن هذه الديار قائمة على جانب النهر. فبمجرد ما يحضر قاض يقطعون النهر إلى الضفة الأخرى ويلتجؤون الى غابة كثيفة من الاشجار المثمرة، حيث يستحيل العثور عليهم. ويحفظ القمح الآن في فاس الجديد، حيث يكون في أمن أكثر.

كما يوجد في نفس الجانب ربض يضم نحو ستين داراً، فيه مستشفى للمجذومين(65) يقبض مديره الدخل، فيطعمهم منه ويعولهم، وكذا الصدقات، ولا

---

(63) تسمى ناعورات.

(64) تسمى أصوداس.

(65) يسمى هذا المرض مارستان. [احتلط الامر هنا على المؤلف، فظن أن المارستان (المستشفى) الذي يقيم فيه هؤلاء المرضى هو اسم للمرض، وإنما هو الجذام كما ورد عند الحسن الوزان في هذا الموضع]. (مترجم).

يسمح لهم بالتجول عبر المدينة كسائر المصابين بمرض عضال في مدينة فاس. وحتى لو أراد رجل أن يعالج من ذوي البيوتات الكبرى في منزله، فإنه لا يقبل منه ذلك، بل يحمل إلى المستشفى الذي يرث نصف ماله إذا توفي، ويترك الباقي لورثته، وبذلك أصبح مستشفى الجذمى يملك ثروة طائلة.

ويوجد ربض آخر(66) أمامه يسكنه مائة وخمسون نسمة، يعيشون في كهوف تحت الارض، وكلهم بغالون أو فخارون أو بناؤون أو حطابون أو عمال يدويون، وأبعد من هناك في اتجاه الغرب دائماً يوجد ايضاً ربض آخر(67) يضم أزيد من خمسمائة دار، يقطنها عمال فقراء، ويتصل به مباشرة سهل يتجاوز عرضه نصف فرسخ، بين الدور والنهر، وطوله اكثر من فرسخ، يقام فيه سوق كل يوم خميس، ويفد عليه الفلاحون بالماشية والصوف، والشمع، والسمن، ومواد أخرى يحملونها من الحقول، وياتي التجار والصناع من فاس اليه، فينصبون دكاكينهم في نظام حسن حول زاوية هناك. وفي أعلى هذا الربض مقطع حجر كبير يستخرج منه كل الحجر الذي يصنع منه الجير، وبالقرب منه أفران عديدة لشَيِّهِ، وهي كبيرة لدرجة أنهم يشوون فيها خمسة وعشرين الف صاع دفعة واحدة.

وهناك ربض آخر(68) في نفس الجانب من النهر، يشتمل على أكثر من مائة وعشرين سكنا للقصارين الذي يغسلون القماش في مرج جميل مشمس يسقونه من حين لآخر بماء النهر، فيكون مكسواً بالعشب طوال السنة وخاصة في الصيف، عندما تنشر الأقمشة، وتتلألأ فيه جميع أنواع الأزهار، فيكون منظرها جميلاً رائقاً لا سيما وأن ماء النهر يبدو إذ ذاك كالبلور، حتى يمكن عدّ كل ما في قعره من حصى.

وفي خارج المدينة من جهة الشمال قصر مشيد على جبل شامخ، أقبر فيه ملوك فاس من بني مرين، فيه لوحات كبيرة من المرمر عند أرجلهم ورؤوسهم، نقشت فيها بأحرف ذهبية مشوبة بحمرة، أسماؤهم، وتاريخ وفياتهم، وبعض الأبيات في مدحهم. وتوجد عدة قبور اخرى عبر البادية، إذ لا بد لكل مسلم من أن يكون له قبر مستقل.

(66) الكيفان.
(67) سوق الخميس في الطريق الكبرى الرابطة بين فاس ومكناس والقصر الكبير.
(68) القصارين.

بساتين فاس البالي

يكتنف فاس البالي، سواء من الجنوب أو من الشرق أو الشمال، بساتين مليئة بأشجار كبيرة تنتج كمية من الفواكه الجيدة، وتحيط بها عدة سواق تؤخذ من النهر. تشكل هذه الأشجار غابة كثيفة من جميع الجوانب لا يستطيع الخروج منها إلا من له تجربة وخبرة. ولا تسقى جذوع هذه الاشجار الا في شهر ماي، وهو إبان الكشف عن جذورها وحرثها، لكن البساتين تسقى كل يوم. يوجد بفاس سوق للخضر تنزل فيه جميع الفواكه المحمولة الى المدينة، فتباع فيه بالمزاد في سلال بواسطة هؤلاء الدلالين الذين تحدثت عنهم. وبعد أن يتزود منها الخواص، يشتري الباقي البائعون بالتقسيط، ولا يمكنهم أن يشتروا شيئاً الا بعد الساعة العاشرة صباحاً. ومن اشرى قبل ذلك الوقت شيئاً منها ليبيعه أو حمل الفاكهة الى مكان غير سوق الخضر لا يؤدي المكوس، حكم عليه بغرامة كبيرة، لأن المزارعين حاضرون.

ويوجد في اتجاه الغرب حقول واسعة طولها عشرة فراسخ وعرضها خمسة، تجنى فيها كمية من الكتان والقنب، وعدد كبير من الخضر والبقول[69]، بسبب تعدد السواقي والعيون فيها، حتى إنها تكفي للمدينة كلها. لكن هواءها غير صحي بحيث تكون ألوان سكانها دائماً شاحبة وقواهم منهوكة، ويموت الكثير منهم بالاستسقاء. وهناك مسجد في أحد أحياء فاس[70] مغروس بالاشجار أقبر فيه مغربي تحكى عنه هذه القصة، وهي أنه كان كفيفا واتفق له أن نام تحت سور دفن فيه جثمان دُم فرناندو أمير البرتغال، الذي مات وهو أسير بفاس، فتقاطر منه شيء على عينيه أعاد له بصره، فانطلق يجري في كل مكان وهو يصيح بأن دين هذا الرجل هو الأفضل، وأنه يومن به، فرجمه المغاربة وأسموه سيدي الكافر، وما زالوا يزرورن ضريحه بكل خشوع.

يوجد بفاس البالي والٍ يسمى قائد الاسقيف، يقيم عادة في القصر، ويتولى القضاء وحراسة المدينة معا، لأنه قاض مطلق سواء في المسائل المدنية والجنحية وقبض المغارم، لكن المجرمين لا يحكم عليهم الا بالموت أو الجلد. ويقوم خليفته الذي هو بمثابة قائد الشرطة بدوريات ليل نهار يلقي القبض على المجرمين

(69) كالبطيخ، والخيار من جميع الانواع، واللفت، والجزر، والكرنب، والخس، والبصل، والثوم، الخ ....
(70) هو رواغة.

ويعدمهم. إن رئيس فقهاء الجامع الكبير، وهو بمثابة الاسقف، يبت بحرية في المسائل الدينية، وفي بعض الحالات التي يتعلق الأمر فيها بالموت، يثبت سائر القضاة حيثيات حكمهم في الاحكام التي يقضون بها ليطلع عليها المفتي[71] الذي ترفع اليه ـــ وهكذا يسمى ـــ ليرى هل أصابوا أم لا، وهو وحده الذي لا معقب لحكمه.

وللعامل حاكم آخر تحت أمره، يدعى القاضي، وهو مطلع على عاداتهم، يفصل في النزاع بين الخواص، وحتى فيما يهم الزواج، وباختصار فإنه يتصرف في كل ما يدخل في اختصاصه، سواء في الشؤون المدنية أو الجنحية وإذا أرادوا اعدام رجل ولم يكن من ذوي الحيثيات ساقوه عبر الأزقة وهو مكتوف اليدين، إلى مكان الإعدام، وهو دائماً مكان مطروق بكثرة في المدينة. ويذكر هو نفسه بأعلى صوته السبب الذي من أجله حكم عليه بالإعدام، قائلا : «هذا ما يستحق من ارتكب مثل هذه الجريمة!» ثم يعلق من رجليه في مشنقة. ويذبح، ويترك هناك يوماً أو يومين. لكن، إذا كان من ذوي البيوتات يذبح في السجن، ويساق عبر الازقة محمولا معكوسا على دابة، وهم يصيحون بنفس الشيء، وإن كان ذلك لجريمة خيانة ذبح من خلف، أي من القفا، وأحياناً يشق بطنه شقاً معكوساً ويترك هكذا إلى أن يموت. ومنهم من يخنقون في السجن، أو يُشنقون علناً، ويقولون إنها عادة أدخلها القوط إلى افريقيا حتى لا يعذبوا كثيرا في الموت. وإذا ارتكب أحدهم جريمة قتل وكان له خصم، سيق إلى المكان المذكور، بعد اعترافه، ووضع بين يدي أقرب الناس إلى الميت، ليفعل به مايشاء. فيقتله بالخنجر أوالرمح أو يستحييه أحيانا مقابل فدية مالية. ذلك لأنه إذا رضي الخصم فإن العدالة لا تتجاوز ذلك. وإنما نقوم بترجمتها إن لم يكن شيء من ذلك. وإذا أنكر المتهم الجريمة، سيق أمام القاضي، فيأمر بجلده بالسوط بين يديه عدة جلدات، حسب قيمة الحجج، محترساً الا يصيب الضرب جنبيه أو جوفه حتى لا يموت : لأنهم يجلدون بقساوة، بشرائط مضفورة من جلد البعير، وقد يفقد الرجل الكلام في الضربة الثانية. ثم يطلق سراحه بعد التكفير عن الجريمة، لكن القاضي يامر بضربات سوط لحقه ولحق كاتبه إن لم يفتد بالمال. وإذا جلد أحد من أجل السرقة، أو جريمة اخرى اعترف بها، سيق أولا أمام القاضي، ثم طافوا به عبر الأزقة عرياناً وهو مغلول العنق بسلسلة مأتزر بمئزر

---

(71) يقال عن المفتي ما يقال عن الوزير

صغير، ويذكر هو نفسه بأعلى صوته سبب العقوبة التي يعانيها. ترجع مصادرة أموال المجرمين الى الملك، إن لم يكن هناك خصم، لكن إذا كان هناك خصم وقبض على المجرم فلا تصادر أمواله قطعاً. ويأخذ القاضي لنفسه من الذين تصادر أموالهم ما يقل قليلاً عن خمسة عشر ريالاً[72]، لكن إن لم يكن للمجرم ما يؤدي به حق القاضي كما اسلفت، فمن حق القاضي أن يجلده من أجل الأداء، اللهم إلا إذا عفا عنه تفضلا منه أو شفقة عليه.

إن عامل فاس ملزم بالإنفاق على ثلاثمائة فارس مجهزين أحسن تجهيز لحراسة المدينة، فيأخذ لهذا الغرض ريع ارض تساوي سبعة آلاف أو ثمانية آلاف مثقال[73] ولا يأخذ المفتي وسائر القضاة الشرعيين لا حقاً ولا اجرة عن حكمهم، لأن الدين الاسلامي يحرم عليهم ذلك، لكن القاضي يتسلم مرتباً ضئيلا من العامل، أما الباقون، وهم فقهاء المساجد، فلهم كراسي في الجامع الكبير، أو المدارس، تضمن لهم ما يتعيشون به.

يوجد بفاس سجنان، أحدهما للمدني، والآخر للجنحي، وأربعة مسؤولين من الحرس[74] يتجولون دائماً عبر المدينة ليل نهار، مع عدد من الرماة ولا مرتب لهم غير ما يحق لهم على كل شخص قبضوه، مع قسط من المغارم. يتخذ هؤلاء الرماة حانة ويتحرون في أعراض النساء والفتيات، الامر الذي يقاسي منه الناس في جملة أشياء اخرى، لان هذه المهنة شائنة سواء في افريقيا أو أوربا. وإذا طرحت على العامل قضية ليست مهمة ولا رئيسية فصلها في الحين، دون مشاركة قاض ولا كاتب، ولا يكون عليه فيها نقض لان له السلطة المطلقة، وتدوم وظيفته طالما شاء الملك، لأنها تزاول بالتفويض.

وهناك قاض آخر بفاس[75]، مكلف باستخلاص جميع موارد الملك، ويسلم له شيئاً من ذلك كل يوم[76] يحرس الابواب والمدينة كلها لاستخلاص الضرائب، ويقضي في السلع وسلع التهريب. لكنه لا يعاقب بكامل الشدة، ويكتفي بإلزام الذين تحايلوا على الواجبات بأدائها مضاعفة، أو بجلد من اشتراها أو

(72) يساوي ريالا 15 فلسا من عملتنا الحالية.

(73) يساوي المثقال (الدوكة) الآن 4 ليرات و10 فلوس من عملتنا.

(74) هم شبه عمداء الشرطة.

(75) هو الوالي.

(76) هو شبه مقتصد.

باعها، والحكم عليه بدفع نصف قيمتها. ويأخذ الملك عادة كواجب الدخول أو الخروج، اثنين بالمائة من سكان المدينة، وعشرة بالمائة من الغرباء، لكن لا يؤخذ شيء عن القمح، والشعير، والبقر، والدجاج، وسائر الاشياء الصالحة للأكل.

يأخذ الملك ثمانية (فلوس) عن كل خروف ذبح، وللمحتسب نصف ذلك، ويتبعه دائماً اثنا عشر أو خمسة عشر من الرماة،فيطوف على جميع الساحات والدكاكين، آمراً بوزن الخبز بين يديه، وفاحصاً في كل مكان الموازين والمكاييل. وإذا وجد فيها أدنى عيب أمر في الحين بضرب المجرم عدة ضربات بالعصا أو السوط، دون أي اجراء آخر، ثم حجز السلعة وأرسلها الى المستشفى. لذلك كانت هذه أهم وظيفة بالمدينة. ويطبق نفس النظام في جميع مدن بلاد البربر تقريباً، ولهذا أردنا أن نفصل القول فيها هنا تفصيلا، حتى لا نكون مضطرين الى تكراره في مكان آخر.

الشرطة الاضافية بفاس والمحاربون الذين يعولهم الملك

كان ملوك فاس دائماً أقوياء، وعبد الله الذي يحكم الآن أقوى من أي ملك آخر في افريقيا، لأنه يملك موريطانيا الطنجية كلها، مع قسم من نوميديا أو جيتوليا. ودار ملكه منذ وفاة ابيه غالباً هي مدينة فاس، بسبب حدود أتراك تلمسان، لكنه يقيم حالياً بمراكش، ويترك أخاه الاكبر بفاس. وكان له عادة عندما يقيم بفاس الجديد ألف وخمسمائة فارس، وألفان من رماة البنادق يحرسونه، وكلهم جنود قدامى، إسلاميون أو جزوليون (سوسيون) ومن بينهم بعض الزنوج. وكان ينفق بفاس البالي على الف ومائة فارس، علاوة على الثلاثمائة التي للعامل، لكنه أخذ الآن جلهم معه إلى مراكش. وسائر الجنود الآخرين موزعون في الأقاليم ومراكز الحدود، تحت سلطة العمال : لانه يمنح لجميع أبنائه أو إخوانه، وجميع الشيوخ وغيرهم ممن لهم سلطة على جمهور الشعب، حكم المدن، مع الوسائل اللازمة للنفقة على الجنود، مخصصاً عدداً معيناً من السكان للقيام بشؤون كل فارس، دون أن يشتغل الامير بشيء آخر أكثر من أن يبلغهم أوامره، ويلزمهم بالقدوم اليه ليؤدوا اليه الخدمة إذا احتاج اليهم. وهم الذين يقدرون مواردهم، ويتسلمونها قمحاً، وشعيرا، وسمنا، وغنما، ودجاجا، ونقودا، وأشياء اخرى يدخرونها في مخازنهم، ويدفعونها بعد ذلك الى ضباطهم، حسب منزلة كل واحد منهم،

والنفقة التي تلزمه، ودلك ما يؤدي كل شهر. كما يزودونهم بملابس من الجوخ أو الحرير، جاهزة في غالب الاحيان، وبقماش مخيط ويعطونهم الاسلحة[77] والخيل، إذ يرتاح كل واحد منهم أن يكون رحاله مجهزين كما ينبغي، لأن ذلك من علامة الشرف. يعجبون كثيراً بالسيوف المسيحية، والرماح الطويلة والقصيرة المصنوعة من شجر المران، ومن استطاع الحصول على خوذه وزرد اعتبر كثيرا، وإن كان يوجد منها اليوم بإفريقيا بقدرما يوجد بأوربا، إذ لا يفوتهم أن يزودوهم بها، ولأن التجار (الأوربيين) يخبؤونها في السفن، ويدسونها في حزم السلع. وبالنسبة للفرسان، فبعضهم يجعلون خيلهم في منازلهم، ويذهبون كل مساء الى قوادهم للحصول على الشعير. وآخرون يجعلونها عند قوادهم أنفسهم، حيث يخدمها أسارى مسيحيون، ويعتبر أولئك كأنهم من دارهم، فيأكلون عندهم. يتقاضون كلهم خمسة وعشرين أو ثلاثين ديناراً (اسكوس) في السنة، تؤدى لهم مقسطة كل اربعة أشهر.

هؤلاء هم الفرسان الذين يعتبرهم الملك اعتبارا فائقاً بعد كتيبته التي هي بمثابة النبلاء، يمتطون خيولاً مطهمة مسرجة بفخامة، مذهبة اللجامات والركابات والمهاميز، بينما رؤوس اللجم[78] من الذهب الرفيع. ولبعضهم حتى صفائح من الذهب أو الفضة في ركاباتهم، ولجميعهم أشرطة جميلة مطرزة بالذهب والحرير، ولآلىء معلقة في سروج ثمينة مغطاة بتلك الجلود الجميلة القرمزية والبرتقالية اللون، وفي طرفها شرابات من شتى الألوان، تسدل على الركابات فتغطيها كلها. وأكثرهم اعتناء يزيحون اغطية سروج أفراسهم عند القتال، مدعين بأن الريح المندفعة فيه تحول بينهم وبين العدو. ملابسهم من المخمل، والدمقس، والاطلس، أو الحرير الصقيل من مختلف الالوان، ومقابض السيوف والخناجر عند معظمهم مموهة بالذهب أو الفضة، وسيوف بعضهم مقابضها وأغمادها من الفضة أو الذهب، بحمائل مغشاة بصفائح من الذهب أو الفضة، أو منسوجة بالحرير والذهب، مع شرابتين كبيرتين معلقتين في السيف أو الخنجر. ويحملون في الجانب الآخر كتميمة، علبة من ذهب أو فضة، يجعل فيها بعض الاوراق التي تتضمن أذكاراً أو رُقى وتعلق في حمالة أخرى فاخرة كذلك، تتقاطع مع حمالة السيف، وكلاهما مشدودتان بحزام عريض له صفائح كبيرة من الذهب أو الفضة. ويحملون يوم

---

(77) مثل الرماح، والتروس، والسيوف، والزرد، والخوذات، والقدافات والسدقيات.

(78) سلاح الرأس

الاستعراض أو المعركة زروداً فخمة، وخوذات لامعة براقة مزدانة من كل جهة، سواء في الذروة أو في الزينة، بصفائح من ذهب وفضة مرصعة. إضافة إلى أنهم يحملون رماحاً من شجر المران طولها ستة عشر قدماً، ودرقاً من جلود الظباء ناصعة البياض، مزينة بشرابات فخمة من الذهب والحرير تروق الناظر.

ويشاهد عادة ثلاثة آلاف فارس مجهزون على هذا الشكل، وإن كانت الكوكبة الملكية مؤلفة من ستة آلاف كلهم ممتطون جياداً مغربية جميلة. وتحفظ عادة هذه الاجهزة الفاخرة في مخزن الملك الى يوم الاستعراض، لان لهم أخرى أقل قيمة يستعملونها يومياً. إن المؤونة التي يقدمها لهم الملك قمحاً، وشعيراً، وسمناً وزيتا وغنما سواء لهم ولنسائهم، وأبنائهم وخدمهم، أهم من التي يعطيها العمال، وأجرتهم مائتان أو ثلاثمائة ليرة، وأحياناً اكثر، لكن إذا جاء بعض الأجانب الى خدمته، غمرهم بكل ما يحتاجون اليه، وأعطاهم حتى سريات وجواري من قصره، بحيث يردهم وهم فرحون جذلون.

إن الشريف الحالي له زهاء خمسة آلاف من الرماة الفرسان، يزودهم بالاسلحة، والخيل، والملابس والمال، وجلهم جزوليون أو زنوج من مملكتي مراكش وسوس. وله علاوة عن ذلك ستمائة إسلامي، يصحبهم دائما معه، لكن ليس في حرسه أتراك أصلا، بسبب خيانتهم لأبيه. كما أنه يستعمل الأعراب لكن في المناسبات فقط، إذ يقيمون في دواويرهم ويعرفون أين يجب الالتحاق عند الحاجة. ولهم كذلك خيول، ويعفون من كل مؤونة، ولا يؤدون اي شيء عن حرثهم ولا علف مواشيهم، لكن تجهيز معظمهم سيء جدا، سواء من حيث الخيول أو من حيث الاسلحة والازياء، باستثناء بعض الخواص الذين يعتزون أكثر بالشرف. وهم لصوص كبار يعيثون فساداً في اي مكان مروا به. وحيث إنهم لا يتقاضون أي أجر فإنهم يعودون الى منازلهم ويتركون الجيش إذا طالت الحرب أو تضرروا بأي شيء مهما قل. وهم مستعدون بالأحرى للنهب والفرار أكثر من القتال، ولا يهجمون إلا على الساقطين على الارض كما تفعل الكلاب. وأكثرهم ثروة هم الخلط وبني مالك سفيان، الذين يُلزمون بإمداد الملك بأحد عشر الف فارس عند الاقتضاء، لكنهم لا يُقَدِّمون إطلاقا اكثر من ثمانية أو تسعة آلاف، ومع ذلك فلا بد من أن يرسلوا من يشتري لهم الخيل من فاس ومكناس أو من مكان آخر لإتمام هذا العدد، إذ ليس لهم عادة سوى اربعة أو خمسة آلاف فرس.

لجميع عمال وقواد مملكة فاس رئيس بمثابة قائد عام يدعى والي الولاة، ويرجع اليه وإلى الوزير الذي هو كالنائب العام للعرش، جميع حكومة المملكة، لذا فإن وظيفة وزير يتقلدها عادة ولي عهد الامبراطورية. وإن كان هذا أصغر من أن يقوم بهذا المنصب الكبير، منحه الملك للمفضل عنده، لأن الوزير يمكنه أن يُنَصِّب من شاء في العرش، لكونه يملك بين يديه قوات الدولة والحكومة، لهذا وجبت طاعته مثل الملك عند انعدام خلف شرعي.

يرث الملك جميع العمال والمحاربين الذين يستأجرهم، ويستحوذ على أموالهم عند وفاتهم، فياخذ الأسلحة والخيل، والاجهزة، وجميع المنقولات، لكنه يردها على أبنائهم إن كانوا قادرين على استعمالها، وإن كانوا صغاراً عالهم حتى يدركوا السن اللازم، والبنات إلى أن يتزوجن. ويتيح له هذا الحق الفرصة ليقلد تاجرا أو شخصاً آخر من الاغنياء حكما أو وظيفة في قصره، وتجري عليه جرايات حتى إذا مات ورثه. ولهذا السبب فإن الكثير منهم يجتنبون أن يكونوا في خدمة الملك، وإن كان لديهم مال ستروه، بالرغم على أنه كان يعذبهم أحياناً لياخذ مالهم. وحيث إن هؤلاء الأمراء ظلمة فإنهم يعيشون دائماً خائفين، لكنهم يُرغمون الناس على طاعتهم قسراً، ويتخذون عيونا يخبرونهم بكل ما يجري. وبمجرد ما يصلهم تقرير عن خيانة أو ثورة، يامرون بقتل المتهم دون مزيد من البحث والتثبت، يفعلون مثل ذلك بالمائة كما يفعلونه بالواحد. لكن المتهِمين ليسوا في أمان أكثر من المتهَمين، إذ يُقتلون بالظنة، حتى إنهم ليكونون دائماً في حالة حذر مهما بلغت الألفة معهم.

ويستعمل هؤلاء الأمراء أيضاً جنوداً آخرين عند المناسبة، كتعبئة عامة، وهم سكان المدن والقرى، وبربر الجبال الذين لا يحصى عددهم، وإن كان لا يُعبأ بهم كثيراً، ما عدا في الحروب ضد المسيحيين. ويخشى حتى من حَشدهم خوفاً من أن يعرفوا قواتهم ويروا أنفسهم مسلحين فينتقموا من طغيان هؤلاء الأمراء ووزرائهم. فإذا عزموا على ذلك، ففي الأماكن الأقل خطرا، ويستعملون الآخرين لحمل الأمتعة والمؤن، لأن كل الرعية ملزمة بإرسال أناس من أجل ذلك على نفقتها عند أول نداء، لكن الحملة لا تدوم أبداً الا ثلاثة أو أربعة اشهر، مهما كانت أهمية الحرب.

وإذا اراد الشريف أن يستخرج المال من أغنياء فاس، جمع مقدمي الأحياء كلها وأمرهم أن يصلحوا حالة الجنود في أحيائهم، عند ذلك فإن الأغنياء والتجار الذين لا يستطيعون مفارقة منازلهم يعرضون بأنفسهم أن يجهزوا جنوداً عوضاً

عنهم أو أن يقدموا ما يلزم لذلك، فيحصل بهذه الوسيلة على مبلغ طائل بحيث يتلقى من المال أكثر مما ينفق أحياناً في الحرب. وقد لجأ الحاكم الحالي عدة مرات الى هذه الحيلة، الشيء الذي جعله مكروهاً جدا، لكنه مهيب لدرجة أنهم لا يجرؤون على عصيانه. إذا قام هؤلاء الأمراء بعملية عسكرية ضد المسيحيين أسرع كل الناس للمشاركة فيها، سواء منهم أعيان المدن أو غيرهم، لأنهم يعتقدون أنهم يذهبون تواً إلى الجنة، سواء ماتوا في هذه الحرب، أو قتلوا فيها مسيحياً. ويخرج الى هذه الحرب المقدسة حتى النساء اللاتي بلغن من العمر ثمانين أو مائة سنة، وبأيديهن العصيّ فقط، ليقتلن ويكسبن ذلك الغفران طالما أثرت هذه الخرافات في أذهان هذه الشعوب، التي يغذونها عمدا بكره متناه للمسيحيين، حتى لا يتركوهم يصحون ويؤمنون بدينهم[79].

للشريف أيضاً في فاس ومراكش وترودانت دور للسلاح مليئة بالمدفعية، يصهر منها متى شاء بواسطة انجليزيين وفرنسيين مهرة اعتنقوا الاسلام، يصنعون البارود والكور، ويديرونها بواسطة اسارى مسيحيين آخرين وبعض الأتراك، لأن المغاربة لا يفقهون شيئاً في ذلك . كل قوة هؤلاء الأمراء مركزة على الفرسان الذين يبتعدون ما أمكن من المدفع إذا أرادوا القتال، ويتركونه عادة في ساحة المعارك، وللشريف بعض المدفعية في الحصون والثغور، لكن ذلك نزر قليل وفي حالة سيئة جدّاً.

خلافة هؤلاء الأمراء وضباطهم

إن ملوك موريطانيا وافريقيا كلهم جبابرة، كما أسلفنا، حيث تكون الخلافة في الملك أباً عن جدّ بحكم القرابة، لأن الدين الإسلامي لا يعترف بالشرعية إلا للخلفاء[80]. فإذا أراد هؤلاء الأمراء أن يخلفهم أحد أبنائهم بعد وفاتهم، عينوه في حياتهم وزيراً أو منفذاً، وهما أهم مناصب الدولة، وإن لم يكن في السن اللازمة لتقلدهما، أخذوا العهود والمواثيق من أكابر الحاشية، وخاصة من والي الولاة وكاتب الدولة الذين لهما حق الاختيار، على أن ينتخبوه بعد وفاتهم، ويكون كل ذلك بدون جدوى، إن لم يعهدوا لغيره. ذلك لأنهم غالباً ما ينتخبون بعد موت الملك

---

(79) عميت بصيرة المؤلف فلم ير عظمة إيمان المسلمين والمسلمات، وأولها ـــ كعادته ـــ مما أوحى إليه شيطان الحقد والتعصب. (مترجم).

(80) حفدة محمد (عليه السلام) [لا حاجة إلى التعقيب على ما في هذا الكلام من جهل وتعصب]. (مترجم).

من شاءوا، شريطة أن يكون من الأسرة الملكية. وبمجرد ما ينتخب الأمير يقبّلون يده ويبايعونه، فتقدم له هدايا فاخرة، ويحاول أن يستميل إليه رجال الحرب، حتى يتمكن من الأمر جيدا. إن الذين لهم أهم قسط في حكم مملكة فاس، هم أولا الوزير الذي يملك تحت سلطته القسم الثالث من الفرسان ويقبض المال اللازم لذلك. وكاتب الدولة الذي يزاول مهمة كاتب ناظر المالية والسيد الكبير. والمزوار الذي هو بمثابة خليفة الوزير، ويقوم مقام أمير البحر في غالب الأحيان. ثم العمال الرئيسيون، ومن جملتهم أبناء الملك وإخوانه وأهله، وهم الذين يسوسون الجنود القائمين بالحفاظ على الدولة، إضافة إلى عدد معين من القضاة أو الوكلاء، وهم بمثابة نظار الأقاليم، يذهبون لفصل قضايا الأعراب والبربر وفق قوانينهم وأعرافهم. وهناك أيضاً مكلفون بقبض موارد الأمير، سواء منها العادية أو الاستثنائية، ولا تفوتهم سلطة قضائية بشأن وظيفتهم، علاوة على عدد من الفرسان أو النبلاء العاديين الذين لهم ولايات للقيام بشؤونهم، دون أن يكونوا ملزمين بالإنفاق على أي أحد من الجند، اللهم إلا أن يصحبوا الملك مع الجيش. وهؤلاء أهم من أصحاب الكوكبة الملكية، لأنهم يترقون بذلك فيصبحون قوادا للفرسان(81) ومشرفين ملكيين(82).

وللملك قائد حرس، يستطيع أن يامر القضاة بالقبض على الأشخاص أو إعدامهم أو حجزهم، ويحجز أموال المجرمين الذين لا يراد أن يسمع عنهم عامة الناس. وإذا كان لا بد من إلقاء القبض على عامل أو شخص ذي منزلة، فإن قائد الحرس هو الذي يرسله الملك لذلك وينفذ أوامره السرية. كما أن هناك شبه مستشار عنده الخاتم.، يحرر الرسائل ويختمها زيادة على رئيس التشريفات الذي يقف بين يدي الملك لدى الاستقبالات، وإذا حضر العمال الى المجلس عين لكل واحد منهم مقعده حسب أقدميته أو رتبته، لأن كل واحد يتناول الكلمة حسب ترتيبه في المجلس. ويكلف آخر بالخدام المكلفين بإدخال المدعوين، والذين يحملون أطباق الطعام الى الخوان الملكي، ويذهبون لإحضار من يستدعيهم الملك. وحتى إذا أمر بتنفيذ الإعدام بحضرته كلف هؤلاء الخدم بذلك. يسيرون أمامه إذا امتطى صهوة جواده، يحمل احدهم رمحاً يرفعه عالياً، ويقف بجانب ركابه، ويمسك الآخر

(81) أو قواد الجيش.

(82) يسمى هؤلاء المشرفون الملكيون مستشارين، لأنه يطلق على مجلسهم اسم محكمة أو دائرة اختصاص.
[لعله يقصد مجلس المظالم الذي ينظر في شكايات الرعية] (مترجم).

برسَنٍ مذهبٍ أو مطرز يقاد به فرسه باليد إذا نزل على الأرض، ويحمل ثالث خفه أو حذاءه.

وهناك أيضاً ضابط مكلف بإبل الملك، وهي كثيرة جداً، يقدم كل ما يلزم للمكلفين بها، ويعين لهم الأماكن التي ترعى فيها، ويطالبهم بإحضارها إذا عزم الملك على السير.

وهناك مموِّن أو مندوب عام مكلف بتوفير وحفظ وتوزيع جميع مؤن قصر الملك والجيش كله، إذا خرج الأمير إلى الحرب. وله عدة كتاب تحت إمرته، واثنتا عشرة أو خمس عشرة خيمة كبيرة في المعسكر يخزن فيها المؤونة، وتفد عليها الإبل دوماً لإنزالها، هناك توجد جميع مؤن المعسكر ويخضع له رؤساء الخدم وطباخو القصر.

كما أن هناك كبير حاملي السلاح، له اتصال وثيق بالأمير، وتفويض عام في شؤون الفرسان، يقدم لهم الشعير والتبن والعلف أو الكلأ، كما يقدم ذلك لجميع عربات الجيش. وتحت أوامره كتاب يضعون بياناً لذلك حتى يعرضه على السيد الكبير.

وللملك أيضاً خمسون مرافقاً تحت إمرة قائد، يحملون الأوامر من الملك إلى العمال وضباط الجيش سواء في المعسكر أو في المدينة، ويسيرون حول الكتائب حاملين عصيّاً طويلة في أيديهم لتصفيف الجنود وتحريضهم على القتال. وإذا هرب أحد أو انفصل عن الكتيبة حقَّ لهم أن يقتلوه. وهناك ايضاً قائد المحلة المكلف بنقل خيام الملك والكتيبة الملكية أو العلم الأبيض، ونصبها ورفعها. وتحمل البغال خيام الملك، والإبل سائر الخيام الأخرى.

وهناك كثير من حاملي الرايات أو الأعلام وهي مطوية، لا ينشرون إلا واحداً منها في الطليعة. وجميع الرايات مصنوعة من التفتة الغليظة المبطنة مع شريط من الحروف العربية المكتوبة عرضاً من طرف إلى آخر. ومعظم هذه الرايات مربعة، والذين يحملونها يستعملون كرواد لأنهم يعرفون الطرق جيداً بما لهم من خبرة كبيرة بالبلاد وجميع المضايق ومعابر الأنهار.

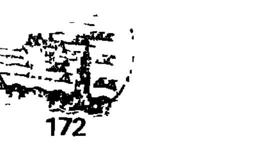
وهناك أيضاً طبالون عديدون بطبول كبيرة من نحاس، عريضة من أعلى ضيقة من أسفل، ومغشاة بجلد البقر، بأحزمة غليظة محبوكة حولها لشدها. يمتطي هؤلاء الطبالون أفراساً قصيرة، لكنها سريعة جداً، لا يحمل الواحد منها سوى طبل، مع عِدل من رصاص في الجانب الآخر، لكن دويّها مرعب لدرجة أن الشِّعاب تردد صداه. فترتعد منه فرائص الناس والخيل. هؤلاء الطبالون وحاملو الرايات هم احسن الجند تجهيزاً، إذ يكون من العار عليهم أن يفقد أحدهم الطبل أو الراية. ويوجد أيضاً في الحاشية العديد من الابواق والمزامير، وغيرها من الآلات التي تستعمل في السلم والحرب، وهي على حساب المدن التي تلزم بتقديمها.

لا يخدم الملك في غرفته إلا نساءٌ هُنَّ إما زنجيات، أو سُمْرٌ من بينهن بعض المسيحيات، لكن يخدمه في الخارج غلمان(83) من أبناء الأعيان أو من المسيحيين. ولا يتزوج إلا نساء بيضاً من بنات كبار الأمراء تخدمهن اللواتي ذكرناهن قبل قليل وغيرهن. وكلهن تحت حراسة خصيان سود أو سمر في الأغلب. لا يمكن لأي مسلم أن يدخل إلى مقاصير النساء، إن لم يكن خصيّاً، لكن الأسرى المسيحيين وكذلك اليهود يدخلون إليها لخدمة الدار. وبما أن سيدات البلاد في غاية الشبق، فإن الشريف اكتشف في وقته بعض المغامرات الغرامية، جعلته يمنع الدخول إليها على جميع المسيحيين. وإذا كان لا بد من خدمة لا يمكن الاستغناء عنهم فيها، مشى أمامهم خصي وهو يصيح بالنساء أن يبتعدن، الأمر الذي لم يكن معمولاً به أيام أبيه ولا عمه ولا في عهد سائر الملوك، ظناً منهم أن المسيحيين لا يقومون بعمل فاحش، وأن نساء البلاد لا يقبلن ذلك إذا ما رغبوا فيه.

أبهة ملوك فاس وبذخهم، وتنظيمهم لمعسكراتهم
وما ينفقون على الجيش مع بيان مواردهم

إن ملوك فاس، كغيرهم من ملوك افريقيا، لا يخرجون بأبهة في غالب الأحيان، إلا في مناسبة الأعياد الرسمية، ويوم الجمعة حيث يذهبون الى المسجد، أو إذا عزموا على السفر. إذ ذاك يخبر رئيس التشريفات العمال والأعيان بأن

(83 مغاربة هجناء.



يصحبوه. فيجتمعون في زينة فاخرة أمام القصر الملكي وفي الشوارع، ويقوم الضباط المخصصون لذلك بصف جميع الجنود في نظام حولهم، ويعيِّنون لكل واحد مكانه حسب خاصيته ومنزلته. وإذا أراد الخروج من المدينة، تبعه كبير حاملي السلاح مع ضباطه، ثم الممون الكبير مع رجاله. وبعد ذلك يتحرك الأعيان العاديون، ويتبعهم رئيس التشريفات والكتاب والقضاة، وخلفهم جميعاً والي الولاة. ثم يأتي الملك مصحوباً بالوزير، يتقدمه أهله وأبناؤه على مسافة قريبة. ويسير أمامه مباشرة بعض الأعيان وهم يحملون سيفه وترسه وقذافته، وحوله خدمه المسلحون، وفي جملتهم واحد يرفع رمحه عالياً ولا يفارق إطلاقاً الركاب الأيمن، بينما يمسك آخر بعنان جواده، وغطاء سرجه، ويحمل ثالث خفين فاخرين يأخذهما الملوك معهم للزينة فقط، لأنهم لا يستعملونهما أبداً. وإذا قطع وادياً اصطف من حوله جميع خدمه المقربين والمسلحين فيغطون رجليه بمعاطفهم وستراتهم، حتى لا يصيبه بلل ويتبعه كبير خدم قصره متلوًّا بالخصيان وخدام حجرته، ثم حرسه الشخصي. أما رماة الأسلحة النارية وسائر الفرسان فيجيئون في المؤخرة.

يرتدي الملك لباساً بسيطاً جداً، حتى إنه لا يُظَن أنه هو الملك، لأن الذين يرافقونه يرتدون لباساً أفخر من لباسه. لا يضع أي ملك مسلم تاجاً على رأسه لأنه غير مباح لهم شرعاً. وإذا صدقنا فقهاءهم فإنهم جميعاً مغتصبون متجبرون، لأن آل محمد وحدهم الذين ينتمي إليهم الخلفاء، هم الذين يحق لهم الحكم.

كم يروق منظر خيام الملك المنصوبة، ومحلته عموماً، فخيمته وحدها تظهر كأنها مدينة تحيط بها أسوار بشرفاتها في دقة متناهية، ولو أنها ليست إلا من قماش حتى ليظن أنها قلعة مربعة ذات أبراج في زواياها الأربع، وتيجان أعمدة عالية، وتفافيح مذهبة، ورايات صغيرة متعددة الألوان، تلوح من كل جوانب المعسكر. وهناك أربعة أبواب يحرسها خصيان لا يسمحون بالدخول منها لا لمغربي ولا لأعرابي، وإنما يدخلها الخصيان أمثالهم والمسيحيون. وفي الوسط حجرات مختلفة للملك ولنسائه وجواريه. ولهذه الخيمة سوران يبعد أحدهما عن الآخر باثني عشر قدماً حيث يقوم الحرس بدوريات طوال الليل، ويلقون القبض على كل من عثروا عليه ممن لم يؤذن له بذلك. وتوجد حول قصر الملك خيام وأروقة ضباطه والمقربين إليه. وبعيداً من هنالك خيام الأعيان، وهي كبيرة كخيام الأعراب، مصنوعة مثلها من الصوف الخشن الذي يشبه اللبد. وفي وسط كل ذلك بيت

المؤونة، والمطبخ، وقاعة العموم. وبالقرب من ذلك خيام الحرس الخاص بجوار الاصطبل الملكي. ويوجد أمام خيمة الملك باستمرار اثنان أو ثلاثة من الجياد المسرجة، واللجام على قربوس السرج، لاستعمالها عند الحاجة. كل هذه الخيام تشبه مدينة جميلة منسقة أحسن تنسيق، لأن خيام الأعيان متصلة بعضها ببعض، بحيث تشكل وقاء لخيمة الملك، التي لايمكن الووصل إليها إلا عبر بعض الممرات. وفي خارج المحلة مساكن البغالين والجزارين وباعة المؤن ودكاكين التجار، وفي كل الجهات، على بعد قريب من هناك، معسكرات العمال والقواد، محاطة بجنودهم من كل جانب.

وتقام الحراسة حول خيمة الملك طول الليل، لكن بدون سلاح، ولا يسمح بحمله الا لقائد الحرس وبعض الأعيان المفضلين الذين يصحبونه في دوريته. كما تقام الحراسة أيضاً حول الاصطبلات، وطوال الليل تقوم كتائب خارج المعسكر بأعمال الدورية، لكن بنظام غير محكم حتى إنها تصطدم أحياناً بفرسان الملك فيتسلل القتلة حتى إلى داخل الخيمة.

ومن عادة هؤلاء الملوك أن يتنقلوا في معظم السنة، سواء لتفقد شؤون الدولة، أو لإرهاب رعاياهم من الأعراب. ويقضون جل أوقاتهم في الصيد ولعب الشطرنج. حقاً إن الملك الحالي لا يخرج إلا قليلاً جداً، وينعزل شهرين أو ثلاثة أشهر داخل قصره، إما بفاس أو مراكش، بحيث لا يظهر إلا يوم الجمعة عندما يذهب إلى المسجد، وحتى هذا لا يحدث دائماً. لذلك فإنه ينجز أعماله بواسطة أبنائه أو قواده، ويعطيهم أوامره من قصره لشدة احترامهم له. وبما أنه يملك جميع أموال رعاياه، فمهما كانت الضريبة التي يفرضها دفعوها بدون احتجاج ولا تهويل. كما كان ذلك في القديم. والضريبة العادية هي العشر، ونصف العشر، لدى أول طلائع الحرث، وأول نتاج القطعان[84] ويؤدى الكل بأتمه، ما عدا المقدمات التي لايؤخذ عنها الا ابتداء من واحد وعشرين. وإذا فاق العدد المائة لم يؤخذ منها سوى اثنين. بالإضافة إلى أنه ياخذ عن كل مساحة (أربّانت) حرثت مثقالاً وربعاً[85]، ومثلها عن كل كانون وكل فرد من كلا الجنسين تجاوز خمس

---

(84) خروف واحد عن عشرين.
[لا حاجة الى التعليق على هذا الخلط، فأنصبة الزكاة ومقاديرها معروفة مفصلة في كتب الفقه] (مترجم).

(85) حوالي مائة وخمسة عشر فلساً من العملة الحالية.

عشرة سنة من عمره، دون الجبايات الاستثنائية التي يطالب فيها دائماً بزيادة أكثر من نصف ما يريده حتى يسمح في الباقي. لكن هناك جبال منيعة يسكنها برير لا يؤدون أكثر من العشر، وإن كان ذلك عن أرض يحرثوها في السهل. أضف الى هذا المداخيل والجمرك والواجبات الاخرى التي تفرض على سكان المدن، مع ضريبة الطواحين، وعدة موارد اخرى يطول ذكرها.

اللباس في فاس

إن أهل فاس، وخاصة منهم النبلاء، طيبون متحضرون جدا، والتجار ثقات مخلصون. يرتدون ملابس سوداء أو زرقاء، أو ملونة بلون آخر، طويلة من نسج الصوف، تصل إلى منتصف الساق، بأكام نصفية ضيقة جدا. يلبس بعضهم قمصاناً من الصوف أو الحرير، وبدلا من المعاطف يستعملون أردية (سلاهم) من صوف أو من حرير وصوف ممتزجين معاً. وأما الصناع وعامة الناس، خاصة الراجلين ورماة الأسلحة النارية الذين يمتطون صهوات الخيل فإنهم يلبسون اردية قصيرة ذات أربعة أذيال، تصل الى الركبة، وفوقها سترات من الجوخ الأزرق، أو من لون آخر. ويلبسون جميعاً سراويل طويلة من قماش ضيقة الأسفل تصل إلى العرقوب، وقمصاناً كبيرة فوقها لا تدخل في السراويل(86). ولباس النبلاء والأكابر اكثر تحضراً إذ يلبسون قمصاناً من قماش (كامبري)، من الحرير، أو الجوخ الرفيع، قرمزية أو من لون آخر بضفائر وأزرار ذهبية، وأكام عريضة مفتوحة من الأسفل، ومبطنة بقطيفة قرمزية(87) أو دمشقية أو بالأطلس الملون. وإن لم يكن لديهم (مارلوط) فإن لهم سترات من صوف، أو أردية قصيرة من صوف أيضاً، مع أقمصة وسراويل من قماش (كامبري) الرفيع. يضعون على رؤوسهم قلانس أرجوانية ياتي بها اليهم تجار اسبانيا، ولبعضهم عمامات بيضاء رفيعة محببة إليهم كثيراً، يديرونها على رؤوسهم ست أو سبع مرات. وينتعلون في فصل الشتاء أحذية أو أخفافاً من جلد الماعز قرمزية أو برتقالية. وإذا كانوا راجلين لبسوا أحذية وقائية مرصعة ومتقنة الصنع لوجود الوحل دائماً في الطريق،

(86) ليس لهم، ولا للاتراك كذلك، سراويل فوقية (تدخل فيها الثياب).
(87) أو ساتان احمر.

وينتعلون في الصيف أخفافاً رقيقة دقيقة من نفس الجلد وأحذية مبطنة قرمزية أو برتقالية، ويرتدي العامة نفس اللباس، لكنه ليس من حرير ولا جوخ رفيع، ويضعون كمعطف سترات من صوف رقيق يميل لونه قليلاً الى الزرقة. والذين لا يملكون ما يشترون به سترات يتدثرون بعباءة، أو يضعون سترات شبيهة بالمسوح، ويحتذون بأحذية نصفية سوداء ذات أزرار أو خيوط، وسراويل من قماش أو جوخ بنفس الشكل، إذ لا يلبسون السراويل الفوقية إطلاقاً في بلاد البربر كلها، ما عدا بعض الغلمان الذين يلبسون جوارب من جوخ بربطات الساق، ليمشوا مرتاحين.

يرتدي النساء لباساً ملائماً مناسباً، وهن في غاية الحسن، لكنهن قليلات العفة، لأنهن شهوانيات شبقات، وإذا خرجن لبسن فساتين بيضاء فاخرة ثمينة، منسوجة بالذهب والحرير، وفوقها خمار أو عباءة من قماش رفيع مطرز الجوانب بحرير قرمزي، وطويلة بقدر غطاء لكنها أقل عرضاً، مع شريط من حرير أبيض أو ملون حولها، منسوج في الخمار بنفس الشكل. ويطوينها إلى صدورهن، حيث تربط بحلقات سميكة من ذهب أو فضة. ذلك هو الزي العادي للسيدات ذوات النسب والحسب في الصيف، لكنهن يلبسن في الشتاء قمصاناً من حرير أو جوخ ملون[88] مطرزة حول العنق، وأطراف الأكمام بالذهب والحرير والجوهر، تثبت فيها أزرار صغيرة وعروات[89] بنفس الشكل. ويضعن على رؤوسهن زينات فاخرة من الذهب والجوهر، مرصعة بالأحجار الكريمة، مسدولة على الشعر، يحرصن دلالا على أن يكون حالك السواد، كشيء جميل ومُوات جداً. ويستعملن كأقراط أنصاف دوائر دقيقة الصنع من الذهب أو الفضة، بخيوط منتظمة بالجوهر، والأحجار الكريمة في حجم البيض، واحترازاً من أن تتمزق الأذن بثقلها، يربطنها في أعلى الرأس بشريط من حرير. ولا يغطين شعر رأسهن الا بمنديل رفيع مطرز دون زينة أخرى، لكن يروقهن أن يتخذن ضفائر طويلة، تدور ثلاث أو أربع مرات حول رؤوسهن. وإذا لزمن البيت لم يلبسن سوى قميص طويل عريض مع أخفاف أو أحذية واطئة جداً، بينما يكون باقي الساق عارياً، لكن إذا خرجن، وخاصة منهن الاندلسيات، لبسن سراويل طويلة متموجة جداً، تبدو معها الساق جميلة، لأن لباسهن لا يصل إلا إلى منتصف الساق. وينتعلن بأحذية من الجلد الناعم جداً،

---

٤) أو أحمر.

٤) أو ثقب (عيون).

المطرز بالحرير الملون، ويتخذن أساور كبيرة من ذهب أو فضة، وهي ثقيلة بحيث إن الذهبية منها تساوي مائة مثقال، والفضية عشرة مثاقيل أو اثني عشر مثقالاً، لذلك ليس لهن إلا سوار واحد في كل يد. ويتخذن أنواعاً اخرى من الأساور في أرجلهن فوق العقب (خلاخل) وهي مستديرة أغلظ بكثير من أساور اليد. وتتمنطق الأعرابيات وبعض الفاسيات وجميع البربريات بنطاقات القصر التي ذكرناها، لا عندما يرتدين فستانات بل قمصانا لربطها. ويخضبن عادة أظفار الارجل والأيدي بنوع من العقار يسمى الحناء ويجدن أناقة كبيرة في ذلك. كما أنهن يدهنَّ بها رؤوسهن مرتين أو ثلاث مرات في الاسبوع، معتقدات أن ذلك يصلح شعر الرأس ويجعله أسود لامعاً براقاً. هذا ما يمكننا أن نقول عن زي النساء الفاسيات الذي يكاد يكون نفس زي موريسكيات غرناطة.

طريقة عيشة ملوك فاس والأطعمة التي يتناولها السكان

من عادة ملوك فاس أن يامروا بنقل طعامهم علانية الى قاعة الاستقبالات، وإن كانوا يتناولون غذاءهم على انفراد في مقاصير النساء، ويحضرون هناك كل صباح ليتلقوا تحيات الامراء الأقارب وأكابر رجال الحاشية. وحينذاك يقدم اليهم الطعام العادي في قصع كبيرة عالية لامعة مليئة بطعام شهي لذيذ، مصنوع من خالص الدقيق المدهون بالسمن وهي على شكل حبات تشبه الدخن[90] تطهى في آنية مثقوبة، توضع على قدر يطبخ فيها اللحم، ويساعد البخار على طهيه. وإذا صار دافئاً ناضجاً دهن بالسمن، وبعد أن يدهن جيداً يطرح في القصعة ويصب عليه مرق القدر مع اللحم والخضر، ثم يترك قليلاً إلى أن يمتص المرق كله. ذلك هو الغذاء العادي لهذا الأمير مرتين في اليوم. ويقدم اليهم، علاوة على ذلك، لحم الضأن والدجاج المحمر المقطع قطعاً صغيرة بالسمن والتوابل، فياكلون هذه القطع المحمرة ساخنة بالخبز الرطب أو الحلويات[91] في الآنية الكبيرة التي طبخت فيها كما نقدم اليهم كمية من العسل والزبد الطري، وفي الختام سلال كبيرة من التمر أو الفواكه. لكن لا يقدم اليهم كشراب سوى الماء أو اللبن الحامض، لأنهم لا

(90) الكسكسو.
(91) حلويات تنضج على النار فوق مربعات من طين.

يشربون الخمر قطعاً جهاراً، وإذا شربوها فلأجل العربدة والفجور أكثر من قصد التقوّي بها.

وباختصار إنهم يطعمون بطريقة يرثى لها بالمقارنة مع أمثالهم في أوربا. فليس لهم صوان سفرة ولا موائد حسنة الترتيب، مليئة بآنية ذهبية وفضية، لأن دينهم يحرم عليهم الشراب أو الأكل في غير الأوعية من الخشب أو الطين، ولا يستعملون سوى أباريق من نحاس لغسل أيديهم بعد الأكل. ياكل المغاربة دائماً على الأرض متربعين[92] على أسرتهم، ويفرشون بساطاً من جلد طبعت عليه رسوم، مثلما يصنع في القصر كما أسلفنا، ويتخذونه كخوان. ويقدم اليهم لمسح يدهم اليمنى التي ياكلون بها، ثوب أو فوطة من الصوف الأحمر، ولا شيء غير ذلك، لا يستعملون في الأكل الا اليد اليمنى التي يقطعون بها اللحوم، ويخصصون اليسرى للاستنجاء عند إرادة الصلاة. وبعد أن يتناول الملك لقمتين أو ثلاث لقم، لأنه لاياكل أكثر من ذلك أمام الناس، تبعد عنه القصعة، أو الآنية الأخرى التي قدم اليه فيها الأطعمة، فيقترب منها أبناؤه أو إخوانه، إن كانوا حاضرين، ويتناول كل واحد منهم لقمه، ثم يعودون الى مجالسهم ويفعل مثلهم الأكابر والأعيان الحاضرون، متقدمين كل حسب منزلته، مرتبة مرتبة إلى البوابين والحراس، لأن على كل من حضر بالقاعة، صغيراً كان أم كبيراً، أن يذوق منه قليلاً أو كثيرا، لاعتقادهم أنه يحرم على المرء أن ياكل وحده دون أن يشارك معه من يشاهده، ويقتدي بهم في ذلك الأمراء والسادة وعمال الأقاليم في منازلهم. وأما سائر السكان فلا ياكلون اللحم إلا مرتين في الاسبوع، لكنهم يتناولون الطعام عادة ثلاث مرات في اليوم، فيفطرون في الصباح بالخبز وثمار رطبة أو يابسة حسب الفصل، أو بالعصيدة، ولا سيما في الصيف، حيث من عادتهم أن ياكلوا في الصباح دقيق الشعير المطبوخ بقطع من اللحم المملح المقلي بالسمن. وياكلون في منتصف النهار، اللحم، والجبن، والزيتون، وذلك الطعام الذي قلت انه يقدم الى الملك[93] ويتناولون عشاء خفيفاً جداً، كالبطيخ، أو العنب، أو الزبيب بالخبز. لكن جميع الذين يطبخون ياكلون الكسكسو مرة واحدة في اليوم، لأنه رخيص الثمن ومغذ جدا. ذلك هو الطعام المعتاد للصناع وعامة الشعب، وبصفة عامة في جميع مدن بلاد البربر، وهذه نهاية وصف فاس.

---

(92) اي جالسين على اعقابهم وسيقانهم ملتفة مثل الخياطين.

(93) الكسكسو

الفصل الثالث والعشرون

المَقْرْمَدَة

تلوح على بعد سبعة فراسخ من فاس الى جهة الشرق آثار مدينة قديمة أسسها الأفارقة من قبيلة صنهاجة[1] في سهل بهيج جداً، على ضفة نهر صغير. وما زالت أسوارها قائمة. وقد دمرت أثناء حروب سعيد، ولم يُعَد تعميرها قط منذ ذلك العهد، مع جودة البقعة ووفرة قمحها ومراعيها، لأن الأعراب الذين يملكونها لا يحبون أن يحبسوا أنفسهم في المدن. يقول بعض المؤرخين إن مؤسس هذه المدينة هو نفس الأمير الذي أسس مراكش[2]، لكنه يبدو من خلال سمة الأسوار أن العمل أقدم من ذلك وأنه من صنع الأفارقة، لأن لجميع غزاة افريقيا تقريباً طريقة مختلفة في البناء. وفي نظري انها هي التي بدعوها بطليموس إبربيد ويجعلها في الدرجة العاشرة والدقيقة العشرين طولا، وفي الدرجة الثالثة والثلاثين والدقيقة الخامسة والأربعين عرضاً.

الفصل الرابع والعشرون

العُبّاد[3]

تقع على بعد فرسخين من فاس، في اتجاه الشرق، بلدة مشيدة على منحدر جبل شاهق، لا تبصر من أعلاه مدينة فاس فحسب، ولكن البلاد المجاورة كلها أيضاً. ويرجع تأسيسها إلى مرابط من هذه النواحي، كان أكبر فقهاء الجامع الكبير، لكنها دمرت أثناء حروب سعيد، بحيث لم يبق منها إلا الأسوار والمساجد. منطقتها صغيرة، ويؤجر أراضيها كل سنة فقيه الجامع الكبير الذي يملكها شخصياً.

الفصل الخامس والعشرون

الزاويـــة

وما زالت تشاهد آثار بلدة أخرى على بعد أربعة فراسخ ونصف من فاس في اتجاه الشرق، أسسها ثاني ملوك بني مرين. كانت صغيرة جدا، لكن يوجد فيها

---

(1) عند الوزان : أسسها ملوك زناتة (مترجم)

(2) يوسف بن تاشفين.

(3) كتبت في الأصل «العبر» بتصحيف الدال راء وعند الوزان قصر العباد (مترجم)

قصر كبير كان يستعمل قديماً كمستشفى، أقام فيه هذا الامير ضريحه، وإن لم يقبر فيه على ما يبدو، لأنه اغتاله أحد رجاله في تلمسان. ولم يبق من المدينة سوى الأسوار والقصر المذكور، بينما دمر الباقي أثناء حروب سعيد. الأراضي المحاوره في ملك الجامع الكبير بفاس، وإن كان يستغلها بعض الأعراب. يسميها بطليموس الجديد في خرائط ليبيا بوبريص، ويجعلها في الدرجة التاسعة والدقيقة العشرين طولا، والدرجة الرابعة والثلاثين والدقيقة الخامسة عشرة عرضاً، لكن المؤرخ العربي الشريف ينسب تأسيسها الى الامير المذكور. وأرى أن بوبريص كانت في المكان الذي توجد فيه الآن العنبرة التي هي في نفس الاقليم وعلى نفس الارتفاع.

الفصل السادس والعشرون

خــــولان[4]

توجد على بعد ثلاثة فراسخ من فاس، في جهة الحنوب، مدينة على ضفاف نهر سبو، أسسها حسب ما يقول أهل البلاد أحد ملوك زناتة لكن ملكاً آخر من بني مرين[5] شيد قربها مباشرة قصراً جميلاً في حمام طبيعي اشتهرت به المدينة وعرفت. لأن سكان فاس يذهبون كل شهر أبريل ليستحموا فيه. ويقيمون هناك للتسلية سبعة أو ثمانية أيام. السكان قرويون همج، يعيشون في فاقة من أراض يكترونها من فقيه الجامع الكبير بفاس. ولا وجود أصلا لمدينة أخرى ولا قرية مسورة في هذا الاقليم، ما عدا في الجبال التي يسكنها البربر، لكن هناك أعراب فقراء يجوبون في السهول.

الفصل السابع والعشرون

الجبال وسكانها

زَ لَا غْ

يبدأ هذا الجبل عند نهر سبو، ويمتد من الغرب إلى الشرق على مسافة خمسة فراسخ، وتطل قمته على الشمال، وينتهي على بعد فرسخ واحد من فاس.

---

(4) كتبت في الاصل «حلوة».

(5) هو أبو الحسن رابع الملوك.

إن جميع تلاله من جهة الجنوب خالية، لكن التي تطل على الشمال آهلة بالسكان مليئة بالكروم التي تنتج أجود عنب افريقيا كلها(6). الاشجار المثمرة منتشرة في كل مكان بأعداد كثيرة بسبب خصوبة الارض وتعطي فواكه في غاية الجودة، ومن جملتها الزيتون، لأن البلاد جافة شيئاً ما. يملك أعيان فاس أكبر حصة من تراثهم في هذا الجبل الذي يضم سكاناً أغنياء، لأن الأراضي الواقعة في السفح مليئة بالبساتين والحقول الصالحة للفلاحة المسقية من ماء النهر بواسطة الناعورات التي ذكرناها آنفاً. وأهم سكن هي مدينة لمطة، الواقعة على منحدر الجبل، تحت أنقاض مدينة عتيقة من بناء الرومان على ما يبدو، وهي في نظري بوبريص بطليموس، التي يجعلها في الدرجة التاسعة والدقيقة العشرين طولا، وفي الدرجة الرابعة والثلاثين والدقيقة الخامسة عشرة عرضاً، لأنها ليست هي الزاوية التي ذكرناها في الفصل الخامس والعشرين.

جميع سكان هذا الجبل فلاحون بستانيون يملكون قطعاناً من الماشية. وأهم متاجرتهم مع فاس، لذلك فهم تابعون لها وخاضعون لنفس المصير.

الفصل الثامن والعشرون

زرهون (أو زراهانون)

جبل كبير جميل بهيج، يقطنه زواغة الذين هم أغنياء شرسون كثيرو العدد، وإن كان أقدم السكان من البربر(6 م)، لكن ليس لهم الآن شهرة تذكر. يبدأ هذا الجبل في سهل سايس، على بعد ثلاثة فراسخ ونصف من مدينة فاس، ويمتد على مسافة عشرة فراسخ شطر الغرب، بينما يبلغ عرضه في بعض الأماكن ثلاثة فراسخ ونصف. يبدو من بعيد كأنه غابة كثيفة من أشجار البلوط والمران الباسقة، مع أنها ليست سوى أشجار الزيتون. وزرهون من ملحقات مكناس، يضم اكثر من اربعين بلدة وقرية أو ضيعة منتثرة بين هذه الأشجار. وكانت هناك في القديم بعض المدن، التي سنتحدث عنها فيما بعد. وأهل البلاد أقوياء أشداء، يشتغلون كثيراً بالحرث، حتى إنه لا يوجد شبر واحد من الأرض غير مزروع. وهم شديدو البياض، تفتخر نساؤهم بجمالهن وزينتهن، ويتحَلَّيْنَ بأساور وأقراط من ذهب وفضة. لباسهم من صوف غير رقيق جدا، وتجارتهم الرئيسية هي الزيت

(6) لأنهم ياكلون العنب في هذه البلاد دون أن يصنعوا منه خمرا.

(6م) هم صنهاجة، وكمية، ولواتة.

الذي يحملونه قصد بيعه الى فاس، ومكناس، وغيرهما من المدن. وهم متمرسون في قنص الأسد التي ياخذونها حية، ويذهبون بها الى فاس، حيث يصارعونها مثل ما يفعل بالثيران في اسبانيا.

الفصل التاسع والعشرون

المـــدن

وليلي (أو تيوليت)

مدينة قديمة أسسها الرومان على قمة الجبل الذي تحدثنا عنه منذ قليل. وهي محصنة بأسوار متينة من الحجر المنحوت تربو دائرتها على فرسخين. دمرها أولاً المكناسيون، ثم أعاد بناءها إدريس والد مؤسس فاس الأول، فجعلها عاصمة الاقليم كله. كانت تدعى آنذاك (بوليبيل) لكن منذ أن شيدت فاس وأفل نجم هؤلاء الأمراء، فقدت كثيراً من ازدهارها الاول، ودمرها اخيرا الملك المرابطي يوسف، فلم يعد لها عمران بعد. ذلك، لأن السكان(7)، انتشروا في أنحاء الجبل، وأقاموا في شتى الأماكن. فلم يبق سوى خمس عشرة أو عشرين دارا حول المسجد، يسكنها بعض الفقهاء تشريفاً لضريح يتمتع بتقديس كبير بين هؤلاء البربر ويحجون اليه من جميع أطراف موريطانيا. وفي وسط المدينة عينان نضاختان، ينحدر ماؤهما الى الشعاب، حيث توجد مساكن زواغة وممتلكاتهم.

الفصل الثلاثون

قصر فرعون

توجد على إحدى قمم هذا الجبل، على بعد ثلاثة فراسخ من وليلى، مدينة أخرى صغيرة، أسسها القوط — على ما يقال — مع أن السكان ينسبون تأسيسها الى فرعون ملك مصر، ومنه اتخذت اسمها، معمدين في ذلك على صحة مؤرخ عربي(8)، يجعل من هذا أحد الفاتحين الاربعة. لكننا لا نجد بتاتا في التاريخ أن فرعون(9) ولا المصريين ملكوا افريقية، ويسميها أشهر المؤرخين قصر زرهون لا

(7) أي زواغة.
(8) هو الكلبي.
(9) فرعون موسى

قصر فرعون. وما زالت تشاهد في أماكن من الأسوار نقوش بالحروف القوطية، تبين أن مؤسسيها هم القوط(10). ويمر قرب المدينة نهران صغيران ينبعان في أعلى الجبل، وجميع التلال والشعاب المحيطة بالمدينة مكسوة بشجر الزيتون. وهناك عدد من الضيعات الصغيرة لزواغة والبربر. وقد دمرت هي ووليلي في آن واحد. وحيث إن هؤلاء القوم يفضلون أن يعيشوا متفرقين عبر الجبال على أن يقيموا في المدن، فإنها لم تعمر بعد ذلك، ويقام سوق(11) كل يوم أربعاء على ربوة قريبة من هناك، ياتون اليه من فاس ومكناس وسائر البلاد المجاورة. لكن الذين يريدون أن يقضوا فيه الليل عليهم أن يحترزوا جيدا على أنفسهم، بسبب كثرة الأسد التي تهاجم الناس والقطعان.

الفصل الواحد والثلاثون

الدار الحمراء (11م)

هي «الإبتيسيان» التي يجعلها بطليموس في الدرجة التاسعة طولاً، والدرجة الرابعة والثلاثين والدقيقة العشرين عرضاً. شيدها الرومان، ووقع تدميرها مع معظم مدن البلدان الاخرى. تقع على منحدر الربوة التي يقام فيها السوق الذي ذكرناه آنفاً، وهي محاطة بأسوار عالية من حجر منحوت، تهدمت في عدة أماكن، وليست الدور حسنة التنسيق. يتجر السكان بالزيت، ونظرا لقربهم من سهول إقليم أزغار التي تنتج الكثير من القمح، فإنهم أثرياء. وتكثر السباع في البلاد، حتى إنهم لم يعودوا يخشونها لكثرة ما يرونها وهي تجول دائماً حول الزرائب بحثا عن قوتها. وعندما كنت هناك اختطف أسد طفلة صغيرة من أحد المنازل، لكن لما كان ذاهباً بها اسرعت اليه أخت لها لم يتجاوز سنها اثنتي عشرة سنة، فأمسكته من رجله وأنزلت عليه ضربات العصا وهي تصيح به حتى ترك الطفلة، وقد شاهدناها فيما بعد وهي تحمل جروحاً في الأماكن التي أمسكها منها. ومع ذلك فإنه لم يعضها. وأمام اندهاشنا لهذا الحادث قال لنا السكان إن ذلك شيء عادي في

---

(10) القوطيون، باللغة العربية.

(11) هو أربعاء خيبر.

(11م) يسميها الوزان «الحجر الاحمر». انظره والهامش 86. ص. 296. (مترجم).

البلاد، وإنه اتفق مرة أن أسداً دخل بيتاً كان فيه زوجان نائمين مع أولادهما، فاختطف واحداً من بينهم، لكنهما انتزعاه منه بضربات عصا وهما يتبعانه جرياً. وقد بلغت العادة بهؤلاء السكان أن يصبحوا جريئين ضد حيوانات بهذا القدر من الشراسة.

الفصل الثاني والثلاثون

مْغِيلَة

في قمة هذا الجبل المطل من جهة الشرق على فاس، مدينة صغيرة اسسها الرومان، لها مساحة كبيرة مغروسة بشجر الزيتون على الجبل، وسهل جميل في الأسفل، يسقى من عدة عيون تنبع في النواحي بحيث إنها تنتج الكثير من القمح، والقنب، والبابونج، والكرويا، والحناء، والكبّار، التي تحمل إلى فاس لبيعها، وذلك ما يجعل السكان أغنياء، لكن ليس لهم سوى دور حقيرة، وأسوار المدينة متهدمة في مواضع شتى.

الفصل الثالث والثلاثون

الجمعة[12]

توجد في سفح هذا الجبل، على المحجة المؤدية من فاس إلى مكناس مدينة صغيرة يجعلها بطليموس في الدرجة السابعة والدقيقة الاربعين طولا، وفي الدرجة الرابعة والثلاثين، وثلاثين دقيقة عرضاً، ويسميها «كونتيان». بناها الأفارقة القدامى على ربوة شديدة الارتفاع، بحيث إنها محصنة صناعياً وطبيعيا. ونظرا لكون السكان قطاع طرق كبار، أعداء أزليين لكل فضيلة، فإن الملك المريني قبل الاخير دمرها، ولم يُعَد تعميرها منذئذ. ويسكن البلاد المجاورة اعراب فقراء، يعيشون هم الآخرون على اللصوصية.

ولنتحدث عن غيرهم من الذين يعيشون بكيفية أخرى، وعلى طريقة البربر.

---

(12) هي «قصر بلاحيا» عند الوزان (مترجم).

الفصل الرابع والثلاثون

الجبال وسكانها

مساكن سايس

توجد على بعد سبعة فراسخ من فاس في اتجاه الغرب، مساكن تمتد إلى حدود جبل كَريكَرة المطلة على الشمال. إنها بلاد منبسطة كانت فيها قديماً عدة مدن وقصور للبربر، لكن لم يبق لها اي أثر. طول هذه البلاد ستة فراسخ من الشرق إلى الغرب، وعرضها سبعة، تستخرج منها كمية وافرة من القمح، لكنه دقيق أسود. وهناك رهط من الأعراب[13] يتنقلون عبر هذه الحبال في دواوير، لكن لا يفوتهم أن يعيشوا على طريقة البربر، ويعوزهم الماء كثيرا، لقلته في هذه السهول. ويمنح الملك عادة دخل هذه البلاد إلى عامل مدينة فاس.

الفصل الخامس والثلاثون

بني وارثين[14]

وهناك مسكن آخر للأعراب[14م] على بعد سبعة فراسخ من فاس من ناحية الشرق، يقطنون في ديار مثل البربر، لا في خيام مثل غيرهم. تنيف قراهم عن مائتين، ويجمعون كمية من القمح : ذلك لأن البلاد، وإن كانت كثيرة الجبال والشعاب، ممتازة للحرث ورعي قطعان الماشية، ويمكن ان تغرس فيها كمية هائلة من الكرم والزيتون والأشجار المثمرة. لكنهم يتجرون في القمح والمواشي، مع كمية من الارز، يحملون ذلك الى فاس وغيرها من الاماكن قصد البيع. هم قوم غلاظ يشتغلون دائماً بشؤون منازلهم دون أن يعتزوا بالتمدن ولا بالقوة، ولذلك لا يتخذون فرساناً أصلا. كما أن هناك قبائل اخرى يحملون نفس الاسم[15] يمتزجون بالأعراب والبربر، ويتنقلون عبر هذه المناطق دون أن يكون لهم سكن قارّ محقق، ولهم مع ذلك ثروة طائلة من القمح والماشية ومرابط كبيرة للخيل والابل. ويقطع ملوك فاس عادة هذه البلاد إلى إخوانهم وأبناء إخوانهم عندما يكونون صغار السن، لقربها من المدينة.

---

(13) بني مسيل.

(14) وردت عند الوزان قبل عنوان «ناحية السايس». (مترجم).

(14م) أولاد مطاع وأولاد أهشة.

(15) بني وارثين.

الفصل السادس والثلاثون

تغات

جبل طويل جدا وضيق، يقع على بعد فرسخين من فاس في ناحية الغرب، ويمتد نحو الشرق الى نهر بونصر، عبر مسافة فرسخين. كل الواجهة المطلة على مدينة فاس مكسوة بالكروم، لكن الجانب الآخر وكذا القمة يشكلان اراضي صالحة للحرث[16]. معظم هذه الكروم في ملك أهل فاس، لكن عنبها وما تنتج من الفواكه الاخرى ليس لها طعم طيب، ولذا فإنها تنضج باكرةً قبل غيرها.

يقطن السكان في ضيعات صغيرة، وكلهم عاملون، يذهبون دائماً الى الحقول، بحيث لا توجد بلدة ولا قصر. وفي كل فصل شتاء ياتي الى هذه الجبال سكان فقراء[17] من فاس للبحث عن كنوز يزعمون أن الرومان تركوها لدى انصرافهم. يقولون إن لهم تقاييد مثبتاً فيها الأماكن التي تحتوي عليها، ولا يمكن علاجهم من هذه الفكرة التي ورثوها خلفاً عن سلف، فيضيعون وقتهم ومالهم في حفر الجبل كله. يقولون إن هذه الكنوز مسحورة وإنها لا تكتشف ما دام لم يبطل السحر. ومع ذلك فإنهم منصرفون الى هذا البحث الذي لا طائل وراءه منذ أزيد من خمسمائة سنة، ويقول الكثير منهم إنهم اكتشفوا بعضها، لكنهم لا يستطيعون أخذها للسبب الذي ذكرناه ولشدة رسوخ هذه الخرافة في ذهن هؤلاء القوم الشرسين الذين يولون اهتماما كبيرا للكتب التي تتحدث عنها.

الفصل السابع والثلاثون

كَريكَرة

جبل آهل بالسكان، ينبع منه نهر أغبال الذي يسيل الى بهت نحو الغرب. وهو قريب من الاطلس الكبير، على بعد ثلاثة عشر فرسخاً من فاس، مفصول عنها بسهول سايس، لكن هناك ايضاً سهول أكثر امتداداً فيما وراء ذلك بينه وبين الاطلس الكبير يقطنها أعراب مقيمون كالبربر. كما انه ياتي كل سنة من

---

(16) يطل هذا الجانب على نهر مكناس.

(17) هم الباحثون عن الكنوز.

نوميديا[18] بمواشيهم أعراب[19]، يتحاربون مع هؤلاء باستمرار، ويرسل ملوك فاس كل سنة جنوداً من الفرسان والراجلين لمقاتلتهم، لأنهم غير خاضعين له كغيرهم[20]. حقاً إنهم اليوم خاضعون للشريف الذي يحكم حالياً، لذلك فإنه يدعهم يرعون هناك بمواشيهم، مدعياً أن البلاد ملك له لا للأعراب[21] الذين يحتلونها ثم يعودون إلى صحرائهم في فصل الشتاء.

تنبع في هذه السهول عدة عيون، وتجري فيها بعض الانهار التي تنحدر من جبال الاطلس. لذلك فإن هناك غابات كبيرة كثيفة مليئة بالأسد والفهود، وهي عادية أو وديعة لدرجة أن النساء يطردنها بالعصي كالكلاب. يحمل السكان اسم جبلهم[22]، وهم في غاية الغنى والشجاعة، يحصدون الكثير من القمح والشعير، ويملكون كمية من قطعان الماشية الكبيرة والصغيرة. قراهم متعددة عامرة، لكن ليس هناك مدينة، ولا قصر، ولا بلدة مسورة، لأن وعورة المسالك تصلح لهم كوسائل للدفاع.

الفصل الثامن والثلاثون

إقليم أزغار

يبدأ هذا الإقليم عند نهر ابي رقراق غرباً، ويمتد في الجانب الآخر إلى أحد جبال الريف، منتهياً في بعض المواضع الى جبلي زرهون وزلاغ. يحده المحيط شمالا، ونهر بونصر جنوبياً ويدعى أزغار، أو البحر المتباعد، لما يقال إنه كان مغموراً في القديم بالبحر الذي كان يصل حتى مدينة انزار، على مسافة اربعين فرسخا داخل البلاد، ثم تراجع بعد ذلك، تاركاً جميع هذه السهول مكشوفة، وهي غنية بالمحاصيل الزراعية. كان يسكنها في قديم الزمان شعب غني قوي، وله فيها عدة مدن وقرى دمرت ودكت دكا، لكن بعضها يقطنها البربر منذ القديم.

طول أزغار سبعة وعشرون فرسخاً من الشرق الى الغرب، وعرضه عشرون من الشمال الى الجنوب. يخترقه من طرف الى طرف وادي سبو الكبير، وتملكه

(18) من سهول أذازن.
(19) هم اولاد زيد.
(20) هم اولاد حسن وأولاد أزمور.
(21) أولاد زيد.
(22) كَرايكَرة.

قبيلتان[23] من أقوى أعراب موريطانيا الطنجية، وهم يخضعون لملك فاس وبانون لخدمته بعدد كبير من الفرسان لأنهم في غاية الشجاعة، لكنهم إذا طالت الحرب عادوا الى ديارهم في أول فرصة تتاح لهم، ولا سيما إذا لم يجدوا ما ينهبون. وهذا أغنى إقليم بإفريقيا قمحاً، وماشية، وصوفاً وسمناً، وجلداً، يُمدّ بذلك مدينة فاس وجميع جبال اقليم الريف التابعة لبادس وغمارة.

الفصل التاسع والثلاثون

المـدن

جمعة القرواش

هي مدينة صغيرة أسسها يعقوب المريني، على ضفة واد [24]، في سهل على الطريق الكبير المؤدي من فاس إلى العرائش. كانت غنية آهلة بالسكان في حياة هذا الامير ومَن خلفه الى أن دمرت أثناء حروب سعيد، ثم لم يُعد تعميرها منذ ذلك العهد. يملك الأعراب[25] الأراضي المجاورة، ويدخرون حبوبهم في مطامير المدينة التي سقطت أسوارها الآن إلى الأرض، ويطحنونها في طاحونتين قائمتين على النهر. يصب هذا النهر في نهر آخر[26] يصب بدوره في أم الربيع (كذا)، وكلها تصب في المحيط قرب مدينة أزمور.

الفصل الاربعون

العرائش[27]

مدينة قديمة أسسها أهل البلاد على الساحل، عند مصب وادي ليس[28] في المحيط. يحدها البحر من جهة، والنهر من جهة اخرى، وكانت عامرة قبل أن تؤول أصيلا الى المسيحيين، لكن السكان هجروها إذ ذاك خيفة، إلى أن حصنها مولاي ناصر وعمرها من جديد[29] لتكون حاجزاً ضد مسيحيي طنجة وأصيلا، وإن

(23) بني مالك سفيان، والخلط.
(24) واد الرّكِيلة.
(25) بني مالك سفيان.
(26) هو كَركَور.
27) عرائش بني عروس، بلغة البلاد.
28) أو لكوس.
29) بعد 20 سنة.

كان يخشى دائماً أن ياتوا للاستيلاء عليها، لذلك كانت مزودة دوماً بالمدفعية والعدد والمؤن. إن مدخل النهر خطير جدا على السفن، وقد شيد مولاي ناصر قصراً قريباً من هناك. المدينة محاطة بأسوار، تكتنفها سهول كبيرة ومستنقعات يكثر فيها سمك الانقليس (النون) والعديد من الطيور النهرية، وعلى ضفاف النهر غابات كثيفة مليئة بالأسد وغيرها من الوحوش. جل السكان فحامون، وأهم تجارتهم الفحم الذي كانوا ينقلونه على زوارق صغيرة ليبيعوه في مدينتي طنجة وأصيلا عندما كانتا للمغاربة، ثم أصبحوا يبيعونه للمسيحيين في عهد السلم. تجنى كمية وافرة من القطن في الحقول المجاورة، ويصطاد العديد من الشابل في النهر. وهناك ميناء صالح للسفن الصغيرة، حيث ينزل التجار المسيحيون بسلعهم الاوربية التي يحملونها الى فاس أو الى مكان آخر. وهم الآن في أمان اكثر مما كانوا عليه قبل أن يتخلى ملك البرتغال عن أصيلا، وليس للشريف الذي يحكم اليوم سوى عامل واحد للمدن الثلاث : أصيلا، والقصر الكبير، والعرائش، ومعه خمسمائة فارس وأكثر من ألف من رماة البنادق لشن الغارات على طنجة، ويقيم عادة بالقصر، وإن كان يذهب مرة بعد أخرى لتفقد الحدود كلها.

كيف أحرق دُم يوحنا دي منيسيس، عامل أصيلا سفناً مغربية في نهر العرائش

على بعد خمسة فراسخ من العرائش تقع أصيلا التي كانت تقلق راحة المغاربة دائماً، لأن المسيحيين كانوا يشنون منها الغارات على البلاد. وعندما كانت السفن الحربية لتطوان أو غيرها من الثغور تلتجىء إلى ميناء العرائش، كان المغاربة يستعملونها للهجوم على الشواطىء المسيحية. وفي سنة 1504 خرجوا من هذا الميناء بسفينة حربية في ملك عامل تطوان، وخمس غليوطات احتياطية، فاستولوا على اربع سفن برتغالية من نوع كرافيل كانت تحمل المؤن على الحدود، ثم سحبوا جميع سفنهم الى البر لما رجعوا بهذه الغنيمة. ولما بلغ الخبر دُم يوحنا دي منيسيس، وهو يومئذ عامل أصيلا، أمر على الفور بإبحار جنود أشداء في أربع كرافيلات كانت في الشاطىء، واتجه بهم نحو العرائش، بعدما ارسل خمسة فرسان في البر، وزورقاً يسير محاذياً لطول الشاطىء للتعرف على المكان الذي سحبت فيه السفن الى اليابسة. وعندما بلغه الخبر اليقين عن كل شيء انطلق فجرا مع كرافيلاته الأربع الى مصب النهر. كانت سفينة العامل على اليابسة قرب حصن، ولما علم المغاربة

الذين كانوا يقومون بالحراسة أنها مراكب مسيحية، أعلنوا الإنذار على الفور، وبدأوا يقصفون بالمدفعية. لكن دُم يوحنا دي منيسيس أمر بحشو جانب احدى كرفيلاته بِفُرُش وأكياس من الصوف، وأرسل الربان ليستقر أمام الحصن ، حتى تتمكن السفن الثلاث الاخرى من الدخول. وبعد أن نُفذ هذا الامر اجتازت بسهولة، لأن المدَّ كان مرتفعاً، وكذلك الأخريات دون أن يلحقها أي ضرر، وإن كانت تُقذف بعنف سواء من الحصن أو من السفينة الحربية التي كانت على اليابسة. عند ذلك نزل المسيحيون وقاتلوا بشجاعة المغاربة الذين خرجوا مسرعين من المدينة للتصدي، وبعد أن هزموهم أحرقوا السفينة الحربية، وسحبوا الى البحر الغليوطات الخمس مع سفينة شراعية وإحدى الكرافيلات التي اخذها المغاربة وساقوها الى اصيلا، بعدما احرقوا السفينة الحربية والكرافيلات الاخرى لعدم تمكنهم من سحبها من المكان الذي كانت فيه دون التعرض للخطر. وقد كان بإمكانهم أن ينهبوا العرائش لو خططوا لذلك لشدة ما أنجزت به العملية من جرأة ونجاح.

الفصل الواحد والاربعون

القصر الكبير(30)

هذه المدينة التي معناها باللغة العربية القصر العظيم أسسها رابع ملوك الموحدين(31). ذلك أنه(32)، عندما كان يصطاد في هذا المكان ضل طريقه في المساء بين عدة بحيرات ومستنقعات، ففاجأته عاصفة ونزل قرب شجرة لا يعلم اين يلتجىء، فأمسك فرسه من اللجام، ومكث هناك قسطاً كبيراً من الليل، حتى ابصر على ضوء مصباح صغير صياداً يصطاد سمك الأنقليس، فاندهش هذا الأخير لرؤيته وسأله ماذا يفعل هناك، ومَن هو. فأجابه قائلا إنه أحد حاملي سلاح الملك، وطلب منه أن يقوده إلى المحلة التي ضل عنها. فاعتذر الصياد عن ذلك، بسبب رداءة الطقس، وطول الطريق التي كانت تمتد على ثلاثة فراسخ، قائلا إنه يخشى الهلاك في هذه المستنقعات. وعندما ألح الملك وهو يقدم له وعوداً كبيرة، أجاب بأنه لا يفعل ذلك ولو كان هو الملك الذي يحبه من صميم قلبه، خوفاً من أن يوقعه في الهلاك. قال له الامير : «وماذا يهمك منه؟» فأجاب قائلا : «لأنه

(30) أو قصر عبد الكريم.

(31) هو يعقوب المنصور.

(32) رواه ليون أو عبد الرحمن [يقصد الحسن الوزان، ويدعوه غالبا : عبد الملك] (مترجم).

يمتعنا بما نملك في أمان، ويضمن العدل للشعب». ثم صحبه الى كوخه، وأطعمه لحم جدي ذبحه له. وفي الغد ذهب به ليلتحق بقومه الذين كانوا يبحثون عنه في جميع الجهات عبر هذه المستنقعات، وأثناء مسيرهما أخبره الملك بجلية أمره وسأله عن الجزاء الذي يريده عن الخدمة التي أداها اليه. فطلب منه الصياد أن يبني له داراً في ذلك المكان يقضي فيها بقية أيامه مع أسرته، فشيد قصرا فخما كان يذهب اليه أحياناً للتسلية، وجعل الصياد بوابا له، ثم حصنه ومنح إعفاءات لمن يسكن الدور التي بناها بجواره، حتى أصبح عدد السكان يربو على ستمائة في أقل من لمح البصر، لان البلاد بهيجة حسنة، يقصدها الملوك للتسلية بالصيد طوال الصيف. وأطلق اسم هذا الصياد(33) على القصر، وإن سمي فيما بعد القصر الكبير، لتمييزه عن القصر الصغير.

يمر نهر اللكوس قرب المدينة حتى إنه يدخلها عندما يفيض، ويجرف منها الدور أحياناً. المدينة آهلة بالتجار والصناع، وفيها عدد من المساجد ومستشفى شيده يعقوب المنصور. لكن ليس فيها ابار ولا عين ماء عذب، وإنما هناك خزانات في كل مكان تتلقى مياه المطر التي يستعملها السكان، لان ماء النهر غير صالح، وهو حار في الصيف مثل ماء الحمام. إنهم قوم مستقيمون، قليلو المكر، يتزينون جيدا، ويملكون بساتين خارج المدينة، يجنون منها جميع أنواع الثمار، فضلا عن كرومهم التي لا طعم لعنبها إطلاقا، لوجودها في مرج. يقام سوق قرب المدينة كل يوم اثنين، يقصدة الأعراب والبربر من المنطقة المجاورة بالقمح، والمواشي، والتمر، والسمن، والصوف، والجلود، وغيرها من البضائع. ومنذ أن تخلى ملك البرتغال عن أصيلا، أصبحوا أغنياء وأكثر اطمئنانا من ذي قبل.

غارة شنها البرتغاليون حتى أبواب القصر الكبير

ولنتحدث الآن عن غارة شنها البرتغاليون على هذه المناطق.

ففي سنة ألف وخمسمائة وثلاث عزم العجوز دم يوحنا دى منيسيس، الذي كان رئيس دير أوكراط، مع ابن أخيه الذي كان سميَّه، أن يشنا غارة على

(33) اي عبد الكريم (؟)

أبواب القصر الكبير، وذلك عندما علما بأن الحرس غادروا المدينة مع العامل، وأن السكان ليسوا محترسين. فانطلقا في منتصف الليل بأربعمائة فارس، لكن العامل الذي كان قد غادر في العشي، حمل عليهم مع أعراب هذه المناطق[34] الذين كانوا بصحبته، فانحدروا من ربوة وجعلوا يقاتلون بشجاعة، فاذا برئيسي المسيحيين يخفضان رمحيهما ويتَّقِيان بترسيهما، حاملين عليهم بشدة، إلى أن هزماهم، وطارداهم إلى الأبواب، حيث قتلا منهم أكثر من مائتين، ولم يُرد السكان أن يفتحوا الأبواب، بل بالعكس، كانوا يصيحون على قومهم من أعلى البرج أن يولوا وجوههم ليحملوا على النصارى الذين كانوا في اضطراب، الشيء الذي أرْغمهم على أن يولوا وجوههم شطرهم، فوجدوا المسيحيين متفرقين، فقتلوا وجرحوا منهم الكثير، والتحق الرئيسان بباقي الجنود بأقصى ما امكنهما من جهد، وعادا الى أصيلا منكسرين شيئا ما بسبب خسارتهما.

الفصل الثاني والأربعون

ناحية الهبط

يبدأ هذا الاقليم الذي هو رابع أقاليم المملكة حسب الترتيب الذي اتبعناه، عند مستنقعات إقليم أزعار من جة الغرب، ويمتد نحو الشرق الى جبال الريف، مشتملا على الجبال الأخرى الواقعة في مضيق جبل طارق. يحده نهر ورغة جنوبا، والمحيط شمالا. وطوله سبعة وعشرون فرسخا من الغرب الى الشرق، وأكثر من خمسة وثلاثين فرسخا من الجنوب الى الشمال. هذا الاقليم عبارة عن سهل تكثر فيه الحبوب والقطعان، وترويه عدة أنهار كبار تنحدر من الجبال وتصب في هذا البحر. يتحدث مؤرخو افريقيا بإسهاب عن هذا الاقليم، لكونه أشهر أقاليم البلاد بأسرها، وهو الذي كان يسمى الطنجي، وفيه كانت أكثر المدن التي بناها الرومان والقوط. لكن عندما تأسست مدينة فاس، ذهب أفضل السكان إليها ليقطنوها، اجتنابا لاضطرابات الحرب، وخاصة منذ أن غزا البرتغاليون أهم مدن الساحل، التي ما زالوا يحتلون بعضها حتى اليوم.

(34) الخلط وبني مالك سفيان.

الفصل الثالث والأربعون
المدن
إزاجن (أو أَزْجَن)

على بعد ثلاثة فراسخ من نهر أركَيل (35) في منحدر جبل توجد مدينة قديمة من بناء أهل البلاد، يقع سهل جميل بينها وبين النهر، حيث البساتين الكثيرة، وحيث يحصد القمح بوفرة هناك وفي الجبل الجيد التربة. تبعد إزاجن عن فاس بثلاثة وعشرين فرسخا، ويقطنها نحو سبعمائة نسمة في ضيعات عديدة متفرقة حولها وتابعة لحكمها، فضلا عن أخرى ذات نفس النظام. لكن العامل مضطر إلى اتخاذ خمسمائة فارس لحراسة الاقليم، بسبب البرتغاليين الموجودين في عمق مسافة عشرة أو عشرين فرسخا. لهذه المدينة أسوار جيدة حسنة المنظر، والسكان أغنياء يتعامل معظمهم مثل أهل فاس، وإن كان لباس بعضهم شبيها بزي البربر. يسمح لهم الملك بعصر الخمر وبشربها، فيصنعوها ممتازة، ولهم كروم عظيمة. وفي المدينة عدة عيون، تخرج منها فتسقي الأراضي الفلاحية، حيث يجنى من أجل ذلك كثير من الكتان والقنب. ويقام هناك سوق كل يوم ثلاثاء، يقصده أعراب المنطقة وبربرها، بسلع البلاد وبالمؤن.

الفصل الرابع والأربعون
بني تَوْدِي، (أو تَوْدَة) في نفس الإقليم

تقع هذه المنطقة على ضفتي النهر (35 م) الذي ذكرناه منذ قليل، ويطلق اسمها على البربر المقيمين في الأراضي المجاورة. أسسها الأفارقة القدامى، وكانت تدعى بَابَا، أو جوليا كامبِّيستري حسب بطليموس الجديد، الذي يجعلها في الدرجة الثامنة والدقيقة العاشرة طولا، وفي الدرجة الرابعة والثلاثين والدقيقة العشرين عرضا. توجد في سهل جميل، على بعد ثمانية عشر فرسخا من فاس إلى جهة الشمال، وكانت تضم ــ على ما يبدو ــ ستة آلاف دار. لكن الخليفة الشيعي القائم دمرها أثناء حربه ضد الأدارسة، عندما غزا هذا الاقليم، بحيث لم يبق منها سوى الأسوار، وبقايا بعض المباني القديمة الرائعة. فيها ثلاث سقايات ذات

(35) نهر ورغة عند الوزان (مترجم).
(35م) هو ورغة.

أحواض كبيرة من الرخام والمرمر، وبعض الأضرحة كذلك، تدل على أنها قبور شخصيات مرموقة. وتمتد على مسافة خمسة فراسخ من هذه الأنقاض الى أوائل جبال غمارة، وهذه البلاد خصبة يملكها البربر المذكورون، لكنهم خاضعون لبعض الأعراب، الذين هم أقوى منهم وأكثر حبوبا ومواشي.

الفصل الخامس والأربعون
أَمَرْكَي (أو أَمَرْكَو)

توجد على بعد ثلاثة فراسخ من المدينة السابقة، على قمة جبل شاهق، مدينة أخرى كانت تسمى قديما طوكولوزي، حسب بطليموس الذي يجعلها في الدرجة السابعة والدقيقة العاشرة طولا، وفي الدرجة الثالثة والثلاثين والدقيقة الثلاثين عرضا. خربها نفس الخليفة، كما خرب جميع المدن الأخرى المجاورة، لكن الأسوار ما زالت قائمة، وتشاهد عليها بعض النقوش بالأحرف اللاتينية التي تبين أنها من تأسيس الرومان منذ زمن طويل. ومنذ تخريبها أنشئت مساكن كبيرة على منحدر هذا الجبل، تحمل اسم المدينة، ويقطنها نساجون، والسهل الواقع في الأسفل أرضه جيدة خصبة. وينبع في هذا الجبل من الجانبين نهران كبيران، يبعد أحدهما عن الآخر بأربعة فراسخ، وهما سبو وورغة، الواحد في الجنوب، والآخر في الشمال. ويقطن هنا وهناك بربر [36] يدعون أنهم أشرف سكان افريقيا قاطبة. وهم في غاية الشجاعة، لهذا فإنهم متكبرون أشرار.

الفصل السادس والأربعون
تَـنْزَرْت [37]

هذه المدينة، التي يسميها المؤرخون العرب تهرت، والتي يجعلها بطليموس في الدرجة التاسعة طولا، وفي الدرجة الثالثة والثلاثين والدقيقة العاشرة عرضا، تحت إسم «تريزيد»، أسسها الرومان على تل، ويسكنها زهاء سبعمائة نسمة، لا يشتغلون الا بالحرث ورعي المواشي، والبلاد صالحة جدا لذلك. يقول ابن الجزار في جغرافيته إنها من بناء العمالقة، وإنه عُثر في عهده على قبور تضم رؤوسا طول

(36) غمارة وصنهاجة.
(37) سماها الوزان «تَنْصُر» (مترجم).

جماجمها قدمان في كل اتجاه. وقد دمر الخليفة المذكور هذه المدينة، لكن قوما من البربر عمروا من جديد بعض أحيائها، وبقي سائرها خاليا.

الفصل السابع والأربعون
أكلا

يشاهد على ضفاف ورغة آثار مدينة قديمة أسسها أهل البلاد، ودمرها خليفة القيروان الشيعي. لم يبق فيها قائما سوى الأسوار. يقام بالقرب من هنالك سوق كل يوم سبت يقصده الأعراب والبربر من المنطقة، وعدة تجار من فاس وغيرها، لبيع بضائع البلاد وشرائها. والأرض الزراعية حولها جميلة جدا، يقطنها أعراب وبربر، يعيشون في الخيام. وهناك عدد من الأسد، لكنها جبانة لدرجة أن طفلا يطردها. ويقولون بفاس، إذا أرادوا أن يرموا أحدا بالجبن بانه مثل أسد أكلا، التي تأكل العجول أذنابها. وقد بقيت بعض الآبار داخل المباني، يرتوي من مائها الذاهبون الى السوق، لعدم وجود الماء في هذه النواحي كلها.

الفصل الثامن والأربعون
فريكسة (38)

تشاهد على بعد ثلاثة فراسخ من إزاجن، على جبل صغير يكتنفه نهر اللكوس، آثار مدينة صغيرة أسسها الأفارقة القدامى، تحيط بها حقول جيدة، رغم كون البلاد مرتفعة منحدرة مليئة بمجاري السيول. لكن توجد غابات كثيفة على طول النهر، تكثر فيها الوحوش. وقد نهبها برتغاليو طنجة وأصيلا سنة ألف وأربعمائة واحدى وثمانين(38م) وأضرموا فيها النار، بحيث لم تعمر منذ ذلك العهد.

الفصل التاسع والأربعون
جزيرة (39)

توجد في وسط نهر اللكوس على بعد ثلاثة فراسخ من المحيط، في اتجاه مضيق جبل طارق، وعلى مسافة ثلاثين فرسخا من فاس، جزيرة يسميها

(38) سماها الوزان «نارنجة» (مترجم).
(38م) 895 ه.
(39) انظر الحسن الوزان، ص. 309. الهامش 99. (مترجم).

البرتغاليون «المليحة»، تشاهد فيها آثار مدينة قديمة أسسها الأفارقة. وعندما بدأ البرتغاليون يقيمون بافريقيا، لم يكن هناك سوى صيادين وقوم مساكين ، لكن ملك البرتغال لما رأى من المناسب أن يحصنها لسهولة إمدادها من جهة البحر، أرسل إليها أسطولا كبيرا صعد إليها عبر النهر، وشرع في بناء قلعة فيها(39م) . وفي هذه الأثناء حشد ملك فاس كل ما أمكنه من المقاتلة للحيلولة دون هذا المشروع، على أنه توقف على مسافة نصف فرسخ من الجزيرة، ولم يجرؤ على متابعة سيره، بسبب المدفعية البرتغالية التي كانت تقصف جميع السهل المحيط بها. وبينما كان هذا الأمير متحيرا في إيجاد وسيلة لايقاف العمل الذي قد يسبب خراب الاقليم، اقترح عليه أحد الاسلاميين اختراعا من شأنه أن يدمر أسطول المسيحيين برمته دون فقدان أي رجل. فأمر بقطع كمية وافرة من خشب الغابات الواقعة على ضفتي النهر، وأغلق ممر النهر بسد أو حاجز أمر بجره مستعرضا على مسافة نصف فرسخ أسفل المكان الذي يوجد فيه البرتغاليون. لكن ملك فاس ترك لهم حرية المرور تفاديا لوقوع قتال خطير، في مقابل أسرى من ذوي الحيثيات أطلق البرتغاليون سراحهم. وقيل انه فعل ذلك جزاء لحسن المعاملة التي عامل بها ملك البرتغال(40) أبناءه عندما أُسِروا. فتركت القلعة ولم تسكن منذ ذلك العهد، وكذلك المدينة.

الفصل الخمسون
البصرة (41)

على بعد سبعة فراسخ من القصر الكبير شيدت هذه المدينة على نهر اللكوس في سهل واقع بين جبلين، من قبل ابن مؤسس فاس(41م) بعيدة عنها بأربعة وعشرين فرسخا. وسماها البصرة، تذكيرا بمدينة أخرى تحمل نفس الاسم وتوجد في اليمن من الجزيرة العربية(42)، حيث يتمتع عليّ(43) أحد أسلافه بتقدير كبير، وحيث مات حسب قول بعضهم. في البصرة ما يزيد على ألفي دار، وكان

(39م) سنة 1477=894 هـ.
(40) الملك ألفونس.
(41) كتبت في الأصل : بيزار أو بيصرة. (مترجم).
(41م) محمد (بن ادريس).
(42) البصرة معروفة في العراق شمالي الجزيرة العربية لا جنوبها (مترحم).
(43) صهر محمد (عليه السلام).

سكانها في غاية الغنى قمحا وماشية، والبلاد صالحة جدا لذلك. ومن عادة ملوك فاس أن يذهبوا اليها لقضاء الصيف، بسبب برودة المياه والغابات، ولأنها من أحسن أماكن الصيد. لكن دمرها الخليفة المذكور(44)هي وسائر مدن الاقليم، ولم يقبل الأعراب أن تعمر من جديد منذ ذلك العهد، ليتمتعوا بالمنطقة في أمان. وما زالت تشاهد الأسوار مثلومة في بعض الجهات وخرائب القصور والمساجد، وتحولت البساتين المحيطة بها إلى غابة لتعطّل الفلاحة.

الفصل الواحد والخمسون
الحُمَّـر

توجد بين أصيلا والقصر الكبير، على بعد خمسة فراسخ من كل منهما، مدينة صغيرة أسسها ــ على ما يقال ــ ابن مؤسس المدينة السابقة(45). وموقعها حصين، لأنها مبنية فوق ربوة، على ضفة نهر صغير (46)يروق منظر أسوارها من بعيد. وعندما استولى البرتغاليون على مدينتي طنجة وأصيلا، غادرها السكان ولم يعودوا إليها منذ ذلك العهد(47)، لكنها أخذت تعمر من جديد بالبربر عندما أخلى (المسيحيون) أصيلا، لأن البلاد جميلة منبسطة، غنية بالقمح والمراعي. وتوجد في الضواحي عدة أشجار مثمرة وبعض الكروم، ويجنى الكثير من الكتان في البادية بسبب النهر الذي تسقى به. لكن السكان فيها مضايقون من طرف الأعراب، لدرجة أنهم فقراء مدقعون، يشتغل معظمهم بالنسيج.

الفصل الثاني والخمسون
أصيـلا (48)

مدينة أزليّة، على بعد سبعة وأربعين فرسخا من فاس، وسبعة فراسخ من مضيق جبل طارق، من جهة الغرب. يجعلها بطليموس في الدرجة السادسة والدقيقة الثلاثين طولا، وفي الدرجة الخامسة والثلاثين والدقيقة العاشرة عرضا،

(44) القائم (الشيعي).
(45) علي بن محمد (بن ادريس).
(46) وادي الريحان.
(47) سنة 1471.
(48) كتب في الأصل : أرزيلا.

ويسميها «زيلي». تعد في الخرائط الجديدة من جملة المدن الواقعة داخل البلاد، لأن المحيط يشكل هناك رصيفاً رمليا سميكا، ويتوغل كثيرا في الأراضي. يسميها المؤلفون الأفارقة أصيلا، ويقولون إنها من تأسيس الرومان، وإنها كانت من ملحقات سبتة. ثم احتلها القوط بعد ذلك التاريخ، وأقاموا فيها حامية دامت إلى عام أربعة وتسعين للهجرة حيث استولى عليها العرب بعد سنتين من فتح اسبانيا،(48م)، وذلك حسب رأي الذين يجعلونه عام اثنين وتسعين، لا بعد عشر سنوات من هذا التاريخ. لقد سقطت أصيلا إذن في يد القوط بعد سنتين من احتلال سبتة، ثم اضطرت الى الاستسلام لحرمانها من كل إغاثة. فجملها العرب كثيرا، وصارت من أشهر المدن، سواء من حيث البضائع أو من حيث الآداب والأسلحة، لكن الانجليز هاجموها بعد مائتين وعشرين سنة(49) انتقاما من العرب الذين كانوا يجتاحون شواطىء اكوصيا وانجلترا، جاءوها بأسطول قوي وأخذوها عنوة غير أنهم فقدوا كثيرا من الرجال، فاغتاظوا لذلك وأمعنوا فيها قتلا وإحراقاً، وبقيت خربة إلى أن عمرها ملوك قرطبة،(50) بعد عشرين سنة وأسكنها التجار والمحاربين وحصنها، وكانوا يجهزون من هناك سفنا حربية يجتاحون بها الشواطىء المسيحية، الأمر الدي تسبب مرة أخرى في دمارها، كما سنذكر ذلك فيما بعد.

موقع أصيلا ممتاز وأسوارها متينة معززة ببروج، وفيها قصر حصين، لكن قوتها الرئيسية تأتي من صعوبة الدخول الى مينائها بسبب وجود الرصيف الرملي(51)

لذلك أخلاها البرتغاليون الذين كانت تصعب عليهم إغاثتها من البحر. البلاد المحيطة بها صالحة جدا للحبوب والمواشي، ولجميع أنواع الفواكه، وكان ريعها كبيرا لولا الغارات التي يشنها عليها مسيحيو طنجة فيجتاحونها في كل وقت.

كيف انتزع ملك البرتغال أصيلا من المغاربة

عزم ألفونس، خامس ملوك البرتغال، عندما أدرك أهمية هذه المدينة، سواء بالنسبة لغزو إفريقيا أو بالنسبة لتأمين المؤن والعدد المحمولة الى سبتة، عزم على

(48م) سنة 703.
(49) سنة 936.
(50) عبد الرحمن بن علي.
(51) أوسد.

مهاجمتها، بينما كانت الحرب مستعرة في مملكة فاس. ذلك لأن مولاي الوطاسي، أي سعيد، الذي كان مقيما بأصيلا، تزعم ثورة هذا الاقليم. وان أحد سكان فاس المسمى الشريف[52] وكان معظما محترما من طرف الشعب، قتل آخر بني مرين، وتلقب بملك فاس، ولذلك شهر بعض رؤساء هذه الأسرة (المرينية) السلاح ضده. وتوجه سعيد على الخصوص فورا إلى فاس، آملا أن يستولي عليها، لكنه هُزم واضطر الى الفرار. غير أنه لما علم بعد ذلك أن قائد جيوش الشريف الذي كان محل ثقته نظرا لشجاعته قد ذهب ليخمد اضطرابات في إقليم تامسنا، أعاد الكرة على فاس وانقض عليها بثمانية آلاف من الأعراب، فحاصر فاسا الحديد سنة كاملة، إلى أن أسلمها السكان، ففر الشريف مع ذويه إلى مملكة تونس. وفي أثناء هذا الحصار حشد الملك ألفونس أسطولاً من مائتي سفينة كبيرة وصغيرة وانطلق بها من لشبونة مع عشرين ألف مقاتل وبصحبة ابنه، فوصل إلى أصيلا ليلا وأرسى على طول الرصيف. وفي غداة الغد أمر بالنزول إلى الأرض كلّا من دم الفاري دي كاسترو ودم يوحنا كوتينيو[53] مع جنودهما، وذلك لاستطلاع مكان يمكن أن توضع فيه المدفعية، والمؤن، والعدد، والجيش كله، بقصد مهاجمة المدينة. فأبحر هذان الاميران ذلك اليوم مع جميع رجالهما في زوارق وسفن صغيرة أخرى لينزلا إلى الأرض[54] لكنهما عانيا مشقة كبيرة للتغلب على الأمواج بالتجذيف بسبب هيجان البحر، وصعب النزول من جراء الكتل الرملية المتكونة في مدخل الحاجز. ولما تأخر في النزول إلى الأرض، ركب الملك مع ابنه في زوارق الانقاذ التي كانت جاهزة، ووصل إلى المكان الذي كانا فيه. فتسارع جميع الذين تركاهما في السفن متنافسين في اقتفاء أثرهما فنزلوا إلى الأرض أخيرا بالرغم على الرياح والأمواج، لكن ذلك لم يتم بدون فقدان بعض السفن، وهلاك أكثر من مائتي شخص. وحينما نزل الملك مع جنوده، لم ينتظر أن يُسحب من الماء السياجُ[55] الذي حملوه للوقاية من الفرسان ، وأقام معسكره وحصنه بسرعة، حسبما تقتضيه خاصية المكان وموقعه. إلا أن المدينة لم يخرج منها أحد ولو أنه كان فيها عدد من الحنود الكفاة. ومن شدة

(52) ليس هذا هو الشريف الشهير

(53) كونت دي مونسانطي ودي ماتيالفا.

(54) كان ذلك في 14 غشت.

(55) أو الحاجز.

هيجان البحر لم يستطيعوا أن يسحبوا الّا مدفعين من السفن، جعلوا يقصفون بهما المدينة، فأسقطوا شِقّين كبيرَيْن من السور في ظرف ثلاثة أيام. وفي فجر اليوم الرابع(56) أبصر رجالُ معسكر دم ألفاري الذين كانوا في جهة القصر راية بيضاء في أعلى أحد البروج. وفي الحين أشعر المحاصرون بأنه يمكنهم الخروج بكامل أمان. وإذ ذاك خرج مغربي، وأخبر الكنت بأن العامل يريد أن يستسلم، فأبلغ الكنت هذا النبأ إلى الملك، الذي أمر بأن تمنح له جميع الضمانات الضرورية. لكن بعض الجنود والضباط الذين غضبوا من حرمانهم من ثمرة غزوهم، صعدوا جماعة إلى الثلمة التي كانت مكشوفة بسبب المعاهدة. فأسرع المغاربة فورا للتصدي لهم لكن المهاجمين دحروهم بشدة، ممهِّدين السبيل لمن أرادوا أن يتبعوهم ولو أنه هلك العديد منهم. وهكذا فإنهم دخلوا الى المدينة بدون علم من الملك. فأخذ خوذته، لأنه كان مسلحا دائما، وتوجه إلى الثلمة مع ابنه، لكنها كانت صغيرة جدا بالنسبة لمثل هذا العدد من القوم فأمر بنصب سلالم تسلقها كثيرون منهم وفتحوا الأبواب في وجهه. فحضر في الوقت المناسب لانقاذ جنوده الذين كانوا يتقاتلون مع الأعداء في الأزقة، وردهم إلى القصر والى الجامع الكبير، حيث كانت توجد وسائل الدفاع. ثم إنه أمر دم الفاري بأن يحرص على ألا يفر المغاربة عبر الباب السري للقصر، فحطم باب الجامع بضربات من آلة قوية(57). وبالرغم على أن المغاربة قتلوا بعض المسيحيين وجرحوا العديد منهم فإنهم اضطروا أخيرا إلى التقهقر والانسحاب إلى داخل المسجد، حيث قاوموا بعزيمة أكثر مما يتسلح بها المغلوبون عادة، وقتلوا كلهم تقريبا. وهلك الكنت دي ماريا لفي(58) في هذه الوقعة، وأسِف عليه الملك وابنه شديد الأسف، لكونه أحد الأمراء الشجعان في البلاط. وبعد الاحتواء على الجامع بما فيه من النساء والأطفال، لم يبق إلا القصر الذي التجأ إليه أعيان المدينة، وكان محصنا جدا ومزودا كما ينبغي بالمؤن والعدد. وعندما علم الملك بذلك من طرف بعض الأسرى المسيحيين الذين فكوهم، أمر بنصب السلالم، فتسلقوها من كل جانب بشدة حتى إن المغاربة تركوا السور والتجأوا إلى الأبراج، ظانين أنهم سيكونون في مأمن أكثر، لكنهم اقتفوا أثرهم عن

(56) وهو يوم سانت بارطيليمي.
(57) أو غيرها بقطع كبيرة من الخشب كانوا يحركونها بأذرعهم.
(58) هو دم يوحنا كوتينيو.

قرب ولم يتركوا لهم فرصة، فتبعوهم في درج القصر إلى أن وصلوا إلى الفناء حيث تجمعوا لبذل مجهود أخير. وكانت المعركة دامية من كل جانب، حتى إنه لم يبق موقع خطوة واحدة الا في الدم أو على جثث الاموات، وعندئذ فتح بعضهم الأبواب، فدخل الملك لحسن حظ رجاله، وقد فقد العديد منهم الحياة أمامه، وهو أشرف شيء في القتال. ومات دم الفاري في ذلك المكان، بمكيدة دبرها له معربي، صاح به من أعلى برج بأنه إذا أراد أن ينقذه فعليه أن يدفع إليه فدية كبيرة، لكنه عندما صعد علاه المغربي بذراعه وقطع رأسه بضربة واحدة. وكانت هذه الخسارة بالغة لدرجة أنهم لم يصفحوا عن أحد منذ ذلك الحين. يقول بعضهم إنه قتل برمية نبل عندما كان في أعلى البرج. وأزال خوذته ليتبرد. ومهما يكن من أمر فإنه مات ذلك اليوم في خدمة ملكه ودينه. وبعد هذه المعركة التي أبلى فيها الأمير كجندي أكثر منه كولي عهد الامبراطورية، استسلم أصحاب البرج الرئيسي. وأخذ في ذلك اليوم خمسة آلاف أسير، من بينهم امرأتان، وابن وابنة لمولاي الشريف الوطاسي، الذي رد له الملك ابنته التي كان عمرها تتراوح بين سبع سنوات وثمان، في مقابل جثة الأمير دم فرناند الذي مات وهو أسير، لكنه قبض فدية، وكان سببا في مجاملته حيال أسطوله البحري عندما أصبح ملكا لفاس، كما أسلفنا(59). ومات أكثر من ألفي مغربي في القصر والجامع، ولم تكن خسارة البرتغاليين قليلة من جراء ذلك، وإن لم يذكر مؤرخوهم هذا العدد للزيادة في قيمة انتصارهم. لكن معركة لا تدوم طويلا تكلف المنتصر كثيرا من الدماء. فاسترجع خمسون أسيرا مسيحيا كانوا في المدينة حريتهم، وتجاوزت الغنيمة ثمانمائة آلاف مثقال، تبرع بها على الجنود.

كيف رسّم ملكُ البرتغال ابنه دم يوحنا فارسا

بعد احتلال أصيلا، توجه الملك الى الجامع الكبير، حيث كان ينتظره كهنته مع الرهبان ومرشدي الجيش الدينيين، ليشكر الله على هذا الانتصار. وما أن دخل حتى أمر أن تقام الصلاة أمام صليب كان موضوعا على جثمان الكونت دي ماريا

(59) كان ذلك سنة 1470.

لفي. ولما رأى الملك الفرصة سانحة لجعل ابنه فارسا، أمره أن يجثو هناك على ركبتيه مع الاحتفالات المعتادة، وسل سيفه من غمده وقال له : «يا بني، لقد أصابتنا اليوم نعمة كبرى من الله الذي مكّننا من هذه المدينة، وأتاح للجميع الفرصة الملائمة لترسيمك فارساً، وتسليحك بيدي. لكن حتى أخبرك قبل ذلك
الفرصة الملائمة لترسيمك فارسا، وتسليحكْ بيدي. لكن حتى أخبرك قبل ذلك
بماهية درجة فارس، اعلم يا بني أنها مُركّبة من القوة والفضيلة لوضع السّلم بين الناس، عندما يكدر الطموح أو الشّح أو الطغيان صفاء الدول، أو يزعج الخواص. ذلك لأن الفرسان ملزمون بسل السيف في هذه المناسبة لخلع الطغاة عن عروشهم ووضع الخيّرين مكانهم. لكنهم ملتزمون كذلك بأن يبقوا أوفياء لعاهلهم، مطيعين أيضا لرؤسائهم، وممدين لهم بنصائح غالية، لأن الفارس الذي لا يقوم بواجبه شبيه بمن يَتَحلّى بالعقل ولا يريد أن يستعمله. فلا بد أن يكون صريحا سخيا، وأن يكون ما يكسبه للجميع، باستثناء فرسه وسلاحه اللذين يجب أن يحتفظ بهما لنيل الشرف. لأن عليه أن يستعمل حياته للدفاع عن دينه وبلاده، وحماية الذين لا يستطيعون أن يدافعوا عن أنفسهم. فكما أن الكهنوت وُضع للخدمة الالهية فإن الفروسية وضعت كذلك للاحتفاظ بالدين والعدل. فيجب أن يكون الفارس زوج الأرامل، وأب اليتامى، وحامي المساكين، وسندَ منْ لا سند لهم، والذين لا يعملون بهذه الأشياء لا يستحقون هذا اللقب. هذا يا بني ما تلزمه درجة الفروسية، فانظر هل ترغب فيها بهذا الثمن» وعندما أجاب الأمير بأن ليس له غرض آخر، تابع الملك قائلا : «تتعهد إذن بأن تحافظ وتعمل بكل ما قلته آنفا. وبأنْ تحرص على إنجازه وتحافظ عليه مع سائر حقوق رتبة الفروسية وواجباتها؟» فاستجاب الأمير لذلك، وقال الملك : «إذا كان الأمر هكذا، فإنني أرسمك وأسلحك فارسا باسم الله، الأب، والابن، والروح القدس، ثلاثة أشخاص في واحد والاله الحق، وقال له، وهو يضرب بالسيف على الخوذة عند كل اسم من هذه الأسماء المقدسة: «جعلك الله فارسا فاضلا مثل الذي تراه أمامك، وهو مثخن بالجراح في مواضع شتى في سبيل الله وأميره!» ثم قبّل وجهه ورفعه من الأرض بيده، لكن الأمير الذي جثا مرة ثانية على ركبتيه قبلها باحترام كبير، ورسم معه عدة فرسان شجعان ذلك اليوم. وبعد ذلك أمر بإقبار الموتى في الجامع، الذي كرسوه من قبل لكفالة السيدة العذراء، وعين دم انريكيس دي منسيس حاكما للمدينة.

كيف سارع ملك فاس إلى إنقاذ أصيلا

وفي هذه الأثناء، فإن مولاي الشيخ الذي كان مشتغلا في حرب فاس كما أسلفنا، انطلق لحينه عندما بلغه الحصار، وما بلغ القصر حتى علم أن المدينة قد احتلت، وأن نساءه وأولاده أسروا، لكنه خشي أن يكبده ملك البرتغال الذي كان هناك بنفسه مع جيشه أضرارا أخرى يمكن أن تمنعه من أن يصبح ملكا على فاس، فأرسل إليه مبعوثا لمقابلته، وتوصل منه بجواز مرور ليلتحق به في أمان تام،وعندما وصل قرب أصيلا مصحوبا بثلاثمائة فارس، لم يرد الدخول إليها، وأبرم معه هدنة لمدة عشرين سنة بواسطة بعض الأشخاص، شريطة أن يبقى ملك البرتغال آمنا فيما يحتله من سبتة، والقصر الصغير وأصيلا، بنواحيها وحكمها، وأن يتلقى الاتاوات من جميع القرى التي حددت فيما بعد. وقد أكدت هذه الهدنة وأدي اليمين عنها مع هذه الخاصية وهي أنها لا تهم المعاقل التي يحتفظ كل واحد منهما بحق الاستيلاء عليها متى شاء، وحيازتها دون نقض الهدنة. وبعد إبرام هذا الاتفاق والمعاهدة من الجانبين، عاد المغربي لمتابعة حرب فاس، فاحتلها واستولى عليها أخيرا وعلى الحكم، ورجع الملك دم الفونس الى البرتغال، بعد أن احتل طنجة، كما سنذكره في محله.

وسنتكلم الآن عما حدث من أشهر الوقائع لِحكام هذه الحدود الذين كانوا باتصال دائم مع المغاربة.

انتصار حاكم أصيلا على قائدين مغربيين

كان رجال حامية أصيلا الشجعان يشنون دائما غارات شعواء على المغاربة، ويناوشون أهل فاس المرة بعد الأخرى منتصرين عليهم في غالب الأحيان. وسأحكي هنا بعضها تاركا الأخريات للأماكن التي وقعت فيها، حتى تكون الرواية أوضح وأكثر تنوعا. فبعد وفاة الفونس ملك البرتغال خلفه ابنه دم يوحنا على العرش، وجاء مغربيان قويان(60) كانا أميرين على شفشاون وتطوان لم تشملهما المعاهدة فحشدا أكثر ما أمكنهما من الرجال، واجتاحا ناحة أصيلا التي كان قائدا فيها دم رودريكس كوتينيو، ابن أخي الحاكم الذي يحمل نفس الاسم(61) وكان قد ذهب إلى البرتغال وحينما سمع ناقوس الانذار، خرج فقتل على الفور

(60) هما علي بن راشد والمنظري.
(61) هو فاسكو كوتينيو.

وانهزمت جنوده. وعندما بلغ هذا النبأ إلى لشبونة، أرسل الملك دم يوحنا إلى هذه الحدود دم يوحنا دي منيسيس، الملقب بيكاسان، فعلم لدى مجيئه بثورة مركز صغير[62]، كان يؤدي الأتاوة الى ملك البرتغال. وبينما كان يبحث عن مناسبة للخروج، أشعر فورا عامل طنجة[63] بأن يمده في الوقت المناسب ببعض الفرسان لقمع هذه الثورة، وبعدما التحق بخليفته[64] في خمسين فارسا، هاجم الثوار عند بزوغ الشمس. وفي هذه الأثناء علم أن المغاربة المذكورين دخلوا في منطقة حكمه بألفي فارس وثمانمائة راجل لاجتياحها، فأرسل على الفور بعض المغاربة من أنصاره يتجسسون على أعدائه فساقوا إليه ثلاثة أسرى، اطلع مِن قِبلهم على عددهم والمكان الذي يوجدون فيه، فعزم على مهاجمتهم بالمائتي فارس الذين معه، خلافا لرأي بعضهم. فكوَّن ثلاث كتائب، أسند إحداها إلى قائد طنجة، وهي مؤلفة من الخمسين فارسا الذين أحضرهم، والأخرى مؤلفة من ثلاثين فارسا جعلها تحت إمرة أحد أبناء أخيه[65]، سميِّه، وترأس هو نفسه الثالثة، وهي مؤلفة من مائة وعشرين رجلا. ثم توجه والحالة هذه لملاقاة الأعداء الذين كانوا يرحفون في ثلاث كتائب بدون كبير نظام، وهم معجبون بعددهم وانتصارهم. لكنهم عندما اقتربوا انضموا الى بعضهم، وهاجموا جميعا فرسان طنجة، الذين عانوا مشقة في التصدي لهم، غير أن الكتيبة الصغيرة التي هرعت لاغاثتهم، هاجمت الأعداء من الجناح، والتحقت بهم قبل أن يتم كسرهم. وعندما كان الجميع مشتبكا، أقبل دم يوحنا دي منيسيس برجاله، وفتح الطريق في صفوف المغاربة، وقد أبلى بلاء حسنا هو والآخرون، لدرجة أن العدو لاذ بالفرار. فتبعهم المسيحيون في نظام حسن وقتلوا منهم أكثر من أربعمائة فارس وأربعمائة راجل، وغنموا خمسة وثمانين جوادا، بجميع الرايات والطبول. وبعد هذا الانتصار، عرج دم يوحنا في الحين على المغاربة الثائرين[66] الذين لم يتأخروا عن أداء ما كان عليهم من إتاوات، معتذرين بعنف الأمراء المغاربة الذين هزموا منذ قليل. وبعد ذلك عاد دم يوحنا منتصرا إلى أصيلا محملا بالغنيمة. حدث ذلك حين فتح غرناطة[67] فردناند وايزابيلا، وبمناسبة هذا الانتصار تنشد الأغنية التي عنوانها : «يهرول المغاربة إلى أصيلا»، الخ...

(62) هو بنو مراس.
(63) هو الاميرال البرتغالي لوبي فايزدي ازيفيدو.
(64) هو بيدرو ليطون.
(65) هو دم يوحنا دي منيسيس الملقب «الحائن» ابن كونت دي كانطانيد.
(66) بني مراس.
(67) سنة 1495، في 15 سبتمبر.

حصار ملك فاس لأصيلا

وبما أن الشغل الشاغل للمغاربة كان هو استرداد هذه المدينة، وخاصة منهم ملك فاس[68] الذي ولد فيها ونشأ، فما أن بويع ملكا حتى حشد جيشا من عشرين ألف فارس، ومائة وعشرين ألف راجل، وأتى ليضرب الحصار على أصيلا بعدد من قطع المدفعية. وشوهدت المدينة منذ يوم الغد[69] وهي محاطة من جميع الجوانب بجمهور غفير من الناس، وعلى طول الشاطىء مكامن منصوبة ببراميل مملوءة بالتراب لوقاية المدفعية، حتى يمنع الدخول الى الميناء. كما اقتلع في نفس الليلة ركائز غرست في الارض لبيان مدخل الحاجز، ثم شرع في قصف المدينة ابتداء من ذلك اليوم واصطف رماة البنادق المختلفة، وكان عددهم اثني عشر ألفا من جميع الجهات لابعاد المحاصرين عن السور عندما يقومون بهدمه. وبعد ذلك دحرجوا أربع عربات وقاء نقالة من خشب، وشرعوا في العمل. ولم يكن آنذاك في المدينة سوى أربعمائة مقاتل، لذلك لم يخرج الحاكم بحيث إن العدو كان لديه متسع من الوقت لتقريب عربات وقائه، ففعل ذلك بسرعة، وفي شتى المواضع، حتى إنه هدم في نفس اليوم شقا من السور، تسلل منه بعضهم وقاتلوا بشجاعة حتى أرغموا المسيحيين على الانسحاب الى القصر، بعد أن أصابوا الحاكم[70] بجراح. غير أن عدد النساء والأطفال المتسارعين إلى الدخول كان كبيرا حتى إن الحاكم أمر باغلاق الأبواب خوفا من أن يدخل العدو مختلطا بهم، بحيث إنه قتل العديد منهم دون رحمة لا للسن ولا للجنس. ولو هاجم المغاربة القصر ذلك اليوم لربما أخذوه لشدة الاضطراب الذي كان سائدا. لكن الله شاء أن يشتغلوا بالنهب غير مهتمين بما هو أهم. وفي هذه الأثناء، ذهب بعض البرتغاليين الذين نجوا على سفينة كرافيل ليخبروا دم يوحنا دى منيسيس[71]، فأسرع لاغاثة المدينة بجنود الأسطول. لأنه عندما بدأت الاشاعة تتردد عن قدوم ملك فاس، أرسل إلى قائد الأسطول يُخبره بذلك وهو يومئذ بالقصر الصغير، ويطلب منه المجيء بالأسطول إلى طنجة، فوصل إليها في نفس الوقت الذي بلغهم فيه نبأ الحصار. ولما وصل دم يوحنا أمام أصيلا كان المغاربة يحتلون المدينة منذ ثلاثة أيام بحيث إن

(68) مولاي محمد بن مولاي الشيخ.
(69) في 19 أكتوبر 1508.
(70) هو فاسكو كوتينكو، كونت دي بورية.
(71) صهر الحاكم.

الأسطول اضطر إلى الارساء خارج الحاجز[72] خوفا من مدفعيتهم، ومكث هناك ثلاثة أيام، لا بسبب ذلك فحسب، ولكن أيضا لأن البحر كان هائجا جدا، وللتأكد من أن القصر ما زال صامدا. وقبل الدخول إلى الميناء، أرسل زورقا مسلحا جدا مع جنديين وفيين، ليرى بالاشارة أو بالصياح ما عسى أن يكتشف عنه. فلقيا صعوبة كبيرة في المرور، إذ كانا يُرميان من المدفعية التي كانت بأحد الأبواب، لكنهما اقتربا أخيراً حتى أبصرا نافذة مفتوحة في منزل الكونت، مع راية منقوش عليها شعارات البرتغال، وامرأة شعثاء أخرجت رأسها وبين ذراعيها صبي وهي تصيح : يا للبرتغال، يا للبرتغال! فعادا إذ ذاك، وعلى الفور أجاز دم يوحنا جميع جنود المراكب الكبيرة في مراكب صغيرة للنزول بأقل خطر. ووصل في هذه الأثناء رجلان يسبحان حاملين رسائل للكونت ملفوفة في كرات من شمع داخل أنابيب، وتبعهما ثالث يحمل الأمر الذي يجب الاحتفاظ به للدخول بأكثر ما يمكن من الأمان، ثم أمر دم يوحنا السفن برفع الأشرعة، وقصف مدفعية المغاربة التي كانت في الشاطيء بجميع مدفعيته، ودخل بالرغم عنهم إلى الميناء، وأرسى على طول الحاجز. فأمر الحاكم حينا بفتح باب القصر المقابل لباب الميناء[73]، وبخروج ثلاثين فارسا ومائتي راجل. وعندما رأى دم يوحنا أن الوقت قد حان للنزول، حسب الأمر الذي كان قد توصل به، والاشارة التي كانت تعطى له من القصر، صوب كل مدفعيته ضد الساحل، وعندما كانت جميع السفن مستعدة، نزل في نفس الوقت مستترا بالدخان، وأثبت مقدم السفينة في الأرض. فأسرع المغاربة في الحين للحيلولة دون النزول، وجرت معركة دامية، قتل أو جرح فيها العديد من الجانبين، لكن البرتغاليين وصلوا في النهاية الى الحاجز الذي نصبه الأعداء، وتحت حماية أصحاب القصر الذين هجموا من الجانب الآخر، استولوا على ست قطع من المدفعية، وألقوا في المدينة مائتين من رماة البنادق المختلفة، مع بعض المؤن والعدد، دون أن يستطيع العدو منعهم من ذلك. وبفضل هذا المدد احتُفظ بالمدينة التي كانت محفورة في عدة أماكن لدرجة أنهم كانوا يتقاتلون تحت الأرض، وكان المحاصرون سيستسلمون بعد يومين، لولا هذا المدد، من شدة ما اعتراهم من تعب. وامتنع العدو، رغم ذلك، من رفع الحصار وأقام هناك ثمانية أيام، وهو يشن غارتين كل يوم، غارة في المساء وأخرى في الصباح، الى أن جاء أسطول قشتالة. ذلك أن دم يوحنا عندما انطلق من طنجة، أرسل سفينتي كرافيل، إحداهما إلى

(72) سبق أن قال إنه كان مصطفا على طول الساحل.

(73) هو باب البحر.

ملك البرتغال، والأخرى إلى مدن الأندلس، وقائد أسطول قشتالة بجبل طارق. وكان قاضي المدينة، وهو إذ ذاك بخيريس دي لافرونتيرا، أول من وصل بسفينة كرافيل من الأسطول محملة بالمؤن، وثلاثمائة من رماة البنادق المختلفة، فأزعج الأعداء كثيرا، لأنه لما خرج من الخليج وحاذى شاطىء المدينة جعل يرمي من الجانب الأعداء الذين كانوا محميين من مدفعية القصر، وقتل عددا كثيرا منهم، حتى إن الملك الذي كان هنالك اضطر إلى نقل خيامه إلى مكان آخر. وفي هذه الأثناء، وصل قائد الأسطول[74] ومعه ثلاثة آلاف قشتالي، وأراد حينا أن يقاتل إلى جانب أسطول البرتغال، لكن دم يوحنا طلب منه أن ينتظر إلى يوم الغد. ولما رأى ملك فاس الامداد الكبير الذي وصل، وهيجان المدفعية أضرم النار في المدينة ورفع الحصار، قافلا الى فاس. دخل المسيحيون إلى المدينة يوم الغد، واقتُبلوا اقتبالا حسنا من طرف المحاصَرين الذين حمدوا الله على خلاصهم. وفي نفس السنة اقتسم ملكا قشتالة والبرتغال غزو افريقيا، فصار من نصيب البرتغال المنطقة الممتدة من سبتة الى جهة الغرب، وللقشتاليين من تطوان الى جهة الشرق. وعاد ملك فاس بعد سنتين لمحاصرة أصيلا، لكنه رفع الحصار لحينه بدون القيام بشيء يذكر[75]. ومنذ ذلك العهد، فان ابن الحاكم[76] هزم بمائة وخمسين فارسا ثمانمائة من الأعداء، فقتل منهم مائتين وأسر واحدا وأربعين، من جملتهم بعض الأعيان المغاربة،[77]، وغنم ستة وتسعين فرسا مجهزا.

حصار آخر لأصيلا

لم يقدر ملك فاس على أن يتحمل بقاء المسيحيين مستولين على مسقط رأسه، يشنون منه دائما غارات على رعاياه، فجاء لمحاصرة أصيلا بمائة ألف مقاتل، منهم ثلاثون ألف فارس، وطوَّقها من البحر إلى البحر[78] بخندق كبير على شكل استحكام المحاصرين ونصب مدفعيته خلفه[79]. كانت المدفعية تزعج المحاصَرين كثيرا وكذلك رماة البنادق المختلفة الذين كانوا يطلقون النار وهم تحت وقاية الاستحكام الذي لم يكن واقعا إلا على بعد رمية نبل. وبمجرد ما شرع ملك فاس

(74) هو دم بيدري دي نافار.
(75) سنة 1514.
(76) هو دم يوحنا كوتينيو.
(77) أحد أبناء عم عامل لاروز، وشيخان أعرابيان، وخلفاء أخي ملك فاس والقصر الكبير.
(78) يقصد من جميع جهات البر الممتدة من طرف البحر الذي يماسها شمالا الى الطرف الآخر جنوبا. أو بعبارة أخرى من جهات الشمال والشرق والجنوب (مترجم).
(79) في أواخر أبريل 1516.
(80) دم يوحنا كوتينيو.

في هذه العملية، أخبر الحاكم(80) ملك البرتغال بذلك، وكتب الى عميله الموجود بمالقة، ليرسل إليه ما هو في حاجة إليه. وعندما رأى أن المغاربة يتأهبون للهجوم، وزع المعسكرات على الضباط والجنود، وأوقد نيرانا عظيمة على الأسوار، وأمر بالنفخ في الأبواق وقرع الطبول إعلانا عن الابتهاج، حتى يظهر عدم اكثراته بالعدو. ولما بدأ قصف المدينة، جاء نونيو ماسكارينياس من الأسطول على سفينتي كرافيل بمائة وعشرين فارسا، وبعض الراجلين، وحينما دخل إلى المدينة، أرسل الحاكم إحدى السفينتين إلى عميله، والأخرى إلى ملك البرتغال، طالبا منهما الاسراع بالامداد. فأرسل العميل بعد ثلاثة أيام بعض المؤن، وأربع فرق من المشاة القشتاليين استنفرهم بسرعة من الأندلس، واقتُبلوا اقتبالا حسنا(81). وكان المحاصَرون في غاية الحرج من المدفعية ونيران الأعداء، لأن المدفعية لم تفتر لحظة طوال الخمسة عشر يوما التي دام فيها الحصار. لكنهم لم يستطيعوا هدم السور، لانه كان محصنا بخندق مزدوج من العوارض، ولأن الحاكم كان قد أحكم وسائل الدفاع في متسع من الوقت. ووصلت بعد ذلك اثنتا عشرة سفينة كرافيل تحمل عددا من النبلاء مع جنود أشداء، أبدى لها المحاصَرون أفراحا كبيرة، وعزموا على الخروج. وقد أراد ملك فاس، بعد أن أطلعه أحد المغاربة الذي ارتمى تحت الأسوار على ما حدث أن يرفع الحصار، لولا أن أخاه منعه من ذلك، لكنه توجه إلى فاس عندما قدمت ثلاثون سفينة من البرتغال(82)فهاجم الحاكم مؤخرة الجيش المغربي وأصاب شيئا من الغنيمة، وقتل عددا من الأعداء، ثم عاد منتصرا إلى أصيلا. وقد أحرزت الحامية عدة انتصارات أخرى على هذه الحدود، إلى أن أمر ملك البرتغال بسحبها من المدينة للأسباب التي شرحناها.

الفصل الثالث والخمسون
مدينة طنجة(83)

أسس الرومان هذه المدينة عندما كانوا مستولين على الأندلس ومملكة غرناطة، وان كانت الخرافات الأهلية تعزو تأسيسها إلى أمير قوي(84) كان يملك

(81) كان يرأسهم اثنان من أبناء بطرس دي شارل حاكم قصر ميناء سانت ماري، وبارطيليمي رويس، واكونيا، وهم برتغاليون.

(82) في 3 يوليوز.

(83) يسميها الرومان طنجيد.

(84) هو شداد بن عاد.

ـــ على ما يقولون ـــ أوربا كلها، وافريقيا كلها، وبعض أقاليم آسيا، وشيد مدينة أسوارها من البرنز، ومنازلها مغشاة بالذهب والفضة، لكن التاريخ يفند هذه الأسطورة. يجعل ابن الجزار منها، في كتابه «نوادر المدن» مكة ثانية من حيث الجمال والقوة، ويقول إنها أزلية. وموقعها جيد على شاطىء المحيط في مدخل البوغاز، وعلى بعد خمسين فرسخا من فاس في جهة الشمال، تحيط بها أسوار متينة محصنة بخنادق وحصون، شيدها ملوك البرتغال. وأقاموا فيها حامية عظيمة سواء من الفرسان أو من الراجلين، مع كمية من المدفعية والعدد. وعندما أخذ القوط هذه المدينة من الرومان ضموها إلى حكم سبتة التي كانت تحت سلطتهم ولم يفقدوها إلّا بفقد أصيلا. وطوال ذلك العهد، كانت طنجة مزدهرة، تحتوي على جامعة وعدد من النبلاء المحنكين في الحروب. كانت الدور حسنة البناء، يسكنها عدد من أعيان موريطانيا الطنجية، ولو أن البلاد المجاورة غير جيدة، باستثناء بعض السهول والشعاب، حيث المراعي الخصبة التي كانت في القديم مزدانة بعدة بساتين وكروم ومنتزهات بسبب وجود المياه فيها. وحيث إن السكان أنفسهم شجعان، فإنهم كانوا يغزون الشواطىء على متن سفن حربية، لكن ملك البرتغال[85] أرسل، سنة 1407، ابنه[86] ليهاجم هذه المدينة، فأمدها ملك فاس على الفور بعدد من الفرسان والمشاة، إلّا أنه، بعد عدة معارك قتل فيها كثير من النبلاء البرتغاليين، أبرم الأمير والملك المغربي معاهدة، وعد بموجبها هذا الأخير أن يطلق سراح جميع الأسرى المسيحيين، ووعد الآخر أن يرجع سبتة. ولما لم يستطع إنجاز شيء آخر، بقي رهينة هذا الاتفاق إلى أن صادق عليه ملك البرتغال ونفذه، لكن يقال إنه هو نفسه حذر من الوفاء به، مفضلا أن يموت في الأسر على أن يرى المسيحية تفقد مفتاح المضيق. وقد تسبب له ذلك في أن يعامله ملك فاس معاملة سيئة، إذ سجنه في مطبق وألزمه بخدمة خيله، حتى مرض ومات. فوضعه المغاربة في تابوت أدخلوه في سور فاس قرب حي اليهود، حيث بقي إلى أن أرسل ملك آخر من ملوك فاس[87] رفاته إلى أصيلا، ونقل من هناك إلى لشبونة ودفن في الدير[88] الذي أقبر فيه ملوك البرتغال. وما زال يشاهد التابوت والكتابة على سور

(85) ادوارد.
(86) دم فرناند.
(87) مولاي الشيخ.
(88) هو دير معركة نوتردام دي بيلين.

فاس تحت عنوان «قبر الأمير المسيحي». وذهب منذ ذلك العهد الملك ألفونس شخصيا ليحاصر هذه المدينة[89]، حيث فقد عدة جنود سواء في البحر أو في الهجوم، وكذا في عملية عسكرية قام بها داخل البلاد، قتل أثناءها الكونت دي فيان، وبعد ذلك عاد بخفي حنين[90].

طنجة واحتلالها من قبل ملك البرتغال

عندما كان الملك ألفونس بأصيلا، كما ذكرنا ذلك عند وصف هذه المدينة، وعلم سكان طنجة أن المدن المسورة لم تدرج في المعاهدة التي أبرمها مع ملك فاس، خشوا أن تسول له نفسه الانتقام منهم، كما كان عازما على ذلك، على ما أصاب البرتغاليين بواسطتهم من الخسائر، والقتلى، والأسرى، فضلا عن هلاك الأمير الذي كان عمه، لاحظوا أن مولاي الشيخ، وهو أملهم الوحيد قد رجع الى حرب فاس، بحيث أصبحوا محرومين من أي سند، فعزموا على هجر المدينة وأخذوا كل ما أمكنهم أن يأخذوه وكسروا الباقي لئلا يستعمله العدو، ثم انسحبوا دون أن يقدموا على إضرام النار في المدينة، خوفا من أن ينكشف أمرهم. لكن الملك ألفونس بعد ما تأكد من عزمهم الذي لم يرد أن يثق به أولا، أرسل ابن درة، دي براكانس للاستيلاء عليها[91] ثم انتقل إليها بعد ذلك ليشاهد فتحه الجديد، وقد كان أكثر ارتياحا لو أحرزه بالسيف انتقاما لجميع الاهانات التي ذكرناها، لكن شاء الله أن يتحقق في لحظة واحدة لحسن طالع هذا الأمير ما لم يمكن تحقيقه طوال سنين وبذلك القدر من الكد والعناء، وأسند حكمها فورا إلى روي دي ميلو الذي أصبح منذئذ كونت دوليفينسا، وتلقب ملوك البرتغال من ذلك العهد ملوك ما دون البحر وما وراءه. وكتب ألفونس حتى الى البابا، والملوك المسيحيين، وكذا إلى جميع مدن مملكته بنبإ النصر الذي منحه الله، ثم عاد إلى أصيلا، ومنها أبحر إلى بلاد البرتغال حيث وصل بعد خمسة وثلاثين يوما من مغادرته إياها. ونظمت

(89) في ديسمبر 1463.

(90) في 20 يناير 1464..

(91) في 28 غشت 1471، بعد أربعة أيام من احتلال أصيلا.

مواكب بمناسبة هذا الغزو عبر الأندلس كلها ومملكة غرناطة في سائر أرجاء قشتالة والبرتغال.

حصار ملك فاس لطنجة
مع ذكر بعض خاصيات أصيلا

كان دم يوحنا دي منيسيس مهتما طوال إقامته بإفريقيا بشن الغارات على المغاربة، فأخذ منهم أسرى ومغانم كثيرة. وقد اشتبك أحيانا حتى مع علي ابن راشد والمنظري فهزمهما وكبدهما خسائر كبيرة في الأرواح، لكن عندما كان عائدا من بعض القرى التي نهبها قرب القصر الكبير، اعترض طريقه حاكم القصر في ألف ومائتي مقاتل بالرماح ليسترد منه الغنيمة، فهزمه يوحنا[92]، لكنه علم أن ملك فاس زاحف باثني عشر ألف فارس وعدد كثير من المشاة لاستطلاع أحوال طنجة والهجوم من هناك على أصيلا. ولما كان الجيش قريبا جدا من طنجة بحيث لم يستطع إشعار الحاكم[93] بذلك، فإنه أمر بإخراج طلقات قوية من المدفعية إعلانا بالخطر، وأمسك كلبة لأحد السكان كانت قد مكثت بأصيلا منذ بضعة أيام، وربط في عنقها بطاقة وجاء بها إلى الشاطىء وأخذ يطاردها بضربات سوط قوية في بداية الليل، بحيث إنها رجعت بسرعة إلى طنجة، وأخبر العامل بزحف ملك فاس في مطلع النهار، فخرج لحينه وتناوش طويلا مع طلائع الجيش. إن سكان الحدود بإفريقيا يتخذون خنادق أو حواجز حول مدنهم، حيث تسد المسالك بأخشاب ضخمة، حتى لا يمكن الوصول أفواجا الى أبوابهم وهناك تقيم الحامية عند إعلان الخطر، ومن هناك يبعدون فرسان الأعداء بطلقات البنادق والقذافات. لكن الحاكم عندما خرج من طنجة مع فرسانه، حوصر من طرف المغاربة بعد صمود دام ساعتين، قتل أثناءه ابنه مع ثمانية من الفرسان، وأصيب هو أيضا بطعنة رمح في وجهه مع عدد آخر من المقاتلين، وتبعه المغاربة الذين دخلوا مختلطين بهم من الأبواب بشدة قوية حتى أرغم على أن يكر عليهم ليمنعهم من الدخول إلى المدينة. فأوقفهم لحظة ببسالة ومؤازرة بعض أتباعه، لكن السرعة العظيمة جعلتهم لا

(92) سنة 1502 = 917 هـ.
(93) دم رودريك دي كاسترو.

يستطيعون إغلاق الباب، فاكتفوا بإغلاقه جزئيا، بحيث إنه عندما وصل العدو قام أحد رؤسائهم بضربة دبوس قوية في الوسط آملا أن يمر لكنه انسحب مع جميع الآخرين أمام استماتة الذين كانوا في الداخل، وتوجه ملك فاس إثر ذلك إلى أصيلا، حيث وصل بعد أربعة أيام. وكان الحاكم(94) على حذر فخرج للاستطلاع حتى وصل إلى الماء العذب مع عشرين فارسا، وقد أمر الذين كانوا في المدينة أن يمكثوا في المدينة القديمة(95) ليخرجوا لامداده عند الحاجة. ولما وصل إلى النهر، رأى البادية كلها مغطاة بالأعلام والرايات، فانسحب خطوة خطوة، متصديا ما أمكنه لطلائع الجيش الذين هجموا عليه وأخنوا بخناقه حتى اضطر إلى الرجوع بأربعة فرسان، ثم خرج نحو خمسين فارسا طردوا المغاربة من جديد إلى خندق كان تحت الحاجز المائي(96) فقتلوا وجرحوا منهم الكثير. لكن لمّا كان فرسان فاس يحملون من جميع الجوانب، رأى أهل المدينة أنه تباعد كثيرا، فخرجوا لانقاذه، إلا أنهم لم يستطيعوا ذلك لأن المغاربة حطموا الحاجز(97) وقطعوا عليهم الطريق فاضطر الحاكم، وهو يظن أنه سيتبع ويريد تجاوز المكان، إلى الالتحاق بالمدينة، وقد قتل أو جرح الكثير من رجاله، ولم يصل إلى الأبواب إلا بمشقة. وبعد أن التحق هناك بقومه كر على الأعداء وطردهم ثانيا خارج الحاجز مكبدا إياهم خسائر كبيرة في الأرواح، ثم دخل المدينة ببعض الأسرى، وحدثت هناك مهزلة من طرف مغربي سمع أن ملك فاس ذهب ليحتل أصيلا، فوصل بعد المعركة وقد هدأ كل شيء، فظن أن المدينة احتُلت فاقتحمها، لكنه سرعان ما ندم على ذلك، إذ سُلب منه فرسه وسلاحه ولباسه، وعومل بالمجاملة التي تخص للأسرى.

كيف قتل المغاربة حاكمين لطنجة

منذ هذه الوقائع، قتل المغاربة للأسف في إحدي المعارك دم بيدرودي منيسيس حاكم طنجة، بينما كان يجمع جنوده وهو عائد إلى المدينة، فعين مكانه لويس دي لوريرو الذي كان حاكما لمازاكان، ولكنه بعدما كان قد أرسل كتيبة من مائة فارس ضد المغاربة، خرج في خمسين آخرين لتعزيزهم لدى عودتهم، فضل

(94) دم يوحنادي منيسيس

(95) بباب فاس.

(96) قريبا جدا من المدينة.

(97) هو الذي ذكرو آنفا.

الطريق وصادف للأسف عاملي العرائش وتطوان[98] قادمين لشن غارات على طنجة في ستمائة فارس. ولما رأى نفسه محاصرا فجأة قال لفرسانه إنه يفضل أن يموت والسيف في يده على أن يهلك في السجن، ونصحهم بالاقتداء به، فقتلوا جميعا معه، وقطع المغاربة أيديهم اليمنى وحملوها إلى الشريف[99] الذي كان في مراكش. وهكذا مات هذا القائد الشجاع بعد ان كان سبب ذعر افريقيا. ولما حل لويس دي سيلفا محله، جاء إليه أحد أعيان بلاط الشريف[100] بثلاثمائة فارس كانوا كلهم أبناءه، وأحفاده، أو أبناء أحفاده، وعبر من هناك إلى البرتغال ملتمسا من الملك أن يساعده ضد الشريف. لكن جنوده الذين مكثوا بطنجة أقنعوا الحاكم ليقوم بعملية ضد المغاربة، فتوغل في البلاد في مائة فارس، وثلاثمائة من رماة البنادق، وأربعة وعشرين من أولئك الجنود. وعندما كان في موضع بكامل الاطمئنان هجم عليه نفس العاملين الذين هزما سلفه وقتلاه. وقتل أو أسر معظم المسيحيين الذين كانوا معه، ومن جملتهم ابن أخيه. ومات في القتال أربعة من المغاربة الأربعة والعشرين الذين تبعوه، وفر العشرون الآخرون مع نحو هذا العدد من المسيحيين. وجاء المنتصر وهو يشن الغارات حتى أبواب سبتة، دون أن يفقد أي رجل.

الفصل الرابع والخمسون
القصر الصغير[1]

مدينة صغيرة أسسها يعقوب المنصور على شاطىء المحيط[2]، على نفس المسافة تقريبا بين سبتة وطنجة، في أضيق مكان بالبوغاز، لا يبعد عن طريفة المقابلة له إلا بخمسة أميال. وكان هذا الأمير مغرما بالقتال (الجهاد) فكان يذهب كل سنة ليحارب في إسبانيا. وحيث إن السبيل إلى سبتة، التي كان يبحر منها عادة، لم يكن ملائما لمرور الجيش، فإنه شيد هذه المدينة في مكان أكثر ملاءمة لا يبعد عن ساحل إسبانيا إلا بثلاثة فراسخ في أوفق محل

(98) رحو بن تودة وحسان.
(99) عبد الله.
(100) هو الشيخ مومن الدريدي.

(1) أو قصر مصمودة.
(2) كذا. وهي طبعا في المضيق الذي يصل البحر المتوسط بالمحيط (مترجم).

بالمضيق يوجد فيه ميناء جيد المسفن. فكان يرسل من هناك جيشه وسفنه بأقل مشقة وخطر من سبتة، وسماها القصر الصغير، لأنه لم يشيد بها أولاً سوى سكن صغير بالنسبة للقصر الكبير وغيره. لكن سرعان ما بنى فيها عدة منازل ومساجد، وعمرها بكثير من التجار والصناع والبحارة. وزاد نموها منذ ذلك العهد. إلا أنه بسبب تجهيز السفن الحربية بها لغزو الشواطىء المسيحية لملاءمة الغابات المحيطة بها، والازعاج الكبير للسفن المارة عبر المضيق، هاجمها ألفونس ملك البرتغال بعدما احتل أصيلا، ومعه 17.000 محارب وكان على استعداد لغزو الأرض المقدسة بطلب من البابا الذي أعلن حربا صليبية[3]، لكنه عندما رأى العملية العسكرية ضائعة بسبب اختلاف الأمراء المسيحيين، وجه أسلحته ضد افريقيا حتى لا يعطل جيشا بهذا القدر من القوة، مع ما بذل من عناء ونفقة في تجهيزه. فأبحر ألفونسو مع أخيه دم هنري، وحفيد دم بيدري، وسار في طريق القصر الصغير بمائة وثمانين سفينة شراعية. ولما وصل إلى شاطىء طنجة، انتظر هناك مجيء بعض السفن يوما واحدا، ونظرا لعدم مساعدة الرياح أراد أن يغير خطته ويهاجم طنجة، لكنه توجه إلى القصر الصغير، لأن الأمير والقواد لم يتفقوا معه، فاحتلها، كما سنذكر ذلك فيما بعد. يُسمِّي بطليموس النهر الذي يصب في البحر قريبا من هنالك فالون، ويجعل مصبه في الدرجة السابعة طولا، والدرجة الخامسة والثلاثين وخمسين دقيقة عرضا.

احتلال القصر الصغير

حينما وصل الملك أمام المدينة، أمر بإعداد جميع الزوارق والقوارب للقيام بعملية النزول، وسرعان ما طلعوا على متنها، لكثرة السفن الصغيرة، ورغبة كل واحد في القتال. لكن النزول لم يتم بالسهولة المتوقعة، لأن خمسمائة فارس تصدوا له، مع عدد من المشاة، بحيث إنه قتل وجرح العديد من المسيحيين. لكن المغاربة تقهقروا في الأخير، والتحق بعضهم بالمدينة، والآخرون بالجبل. وعندما أرخى الليل سدوله، نقل الملك من الأسطول كل ما كان ضروريا لمهاجمة المدينة. إلا أن السكان لما رأوا أنفسهم معرضين للخطر، سواء أموالهم وأرواحهم وحريتهم، بدأوا يتحصنون بأحسن ما يمكن ويصلحون ثلماتهم. لكن المسيحيين لم يتركوا لهم الوقت الكافىء لذلك، لأنه عندما كان كل شيء جاهزا ومنظما تنظيما حسنا، أمر

(3) سنة 1458.

الملك بإعلان الهجوم وضرب الظواهر من جميع الجوانب، فتم ذلك بقوة شديدة، حتى إن المغاربة، وإن كانوا يدافعون عن أنفسهم دفاعا جيدا تحت وقاية المدفعية والاسهم النيرانية أرغموا على الانسحاب إلى المدينة، فتبعهم المسيحيون إلى الأبواب، وحاولوا عبثا أن يحطموها ويحرقوها، لأنها كانت مصفحة بصفائح من حديد ومحمية جيدا من أعلى، فاضطروا إلى الانسحاب تاركين بعض موتاهم في الميدان. وكان اغتياظ الملك كبيرا أمام صمود المحاصرين، والخسارة التي تكبدها، فأمر على الفور بتقريب عربات الوقاء النقالة لِنقب السور، وأمر الأمير دم هنري بأن ينصب السلالم للهجوم. فكانت المعركة حامية، والملك نفسه ينتقل في كل مكان مع حرسه لتشجيع رجاله وإعطاء الأوامر حتى لا ينقص شيء مما هو ضروري، بينما يقاوم المغاربة بشجاعة، ويسقطون المتسلقين في السلالم إلى الأسفل. واستمر الحال على ذلك بدون انقطاع الى منتصف الليل، مع خسائر كبيرة في الأرواح والجراح من كلا الجانبين. وعندئذ قام الأمير الذي كان مطاعا ومحنكا في الحرب، بتصويب مدفع كبير إلى أوْهَى مكان في السور، وبعد أن حطم طرفا منه بالقصفة الأولى، أشار السكان الذين لحقهم التعب ويئسوا من أية نجدة، ولوحوا بقلنسوة من أعلى أحد البروج أنهم يريدون التفاوض. وعندما أمر الأمير بإيقاف القتال ليسمع ما يقولون، اقترحوا أن يسلموا المدينة غداة الغد، شريطة أن يؤمنوهم على أرواحهم وأمتعتهم، فأعطوا ما طلبوا على أن يردوا الأسرى المسيحيين، وأن يسلموا رهائن، فطلبوا إيقاف الهجوم، لينقلوا أمتعتهم الصغيرة، فلم يقبل منهم ذلك إلا بشرط أن يسلموا الرهائن في الحين، فقبلوا ذلك وقادهم الأمير إلى الملك الذي أذن له بالمفاوضة. فتوقفت المعركة بعد خسائر كبيرة في الأرواح من الطرفين(4)، وانسحب السكان يوم الغد إلى الجيل بنسائهم وأطفالهم وكل ما أمكنهم نقله من الامتعة دون أن يُمسوا بسوء. دخل الملك الى المدينة راجلا وسار في موكبه الى المسجد الذي حوله الى كنيسة باسم العذراء شاكرا الله بكل ضروري لحمايتها، وأسند حكمها إلى إبن كنت دي فيلا ريال(5)، قبل أن يتوجه إلى سبتة. لكن ملك فاس أتى لحصارها في شهر ديسمبر الموالي بجيش عرمرم ومعه أشجع قواد افريقيا كلها(6). وبعد بضعة أيام غادر الملك ألفونسو سبتة بأسطوله راجعا إلى البرتغال، دون أن يستطع إنزال الجنود إلى البر لانقاذ المدينة، لأن

(4) سنة 1458.
(5) دم إدوارد دي منيسيس.
(6) هو مولاي بويا.

الشاطىء كله كان محاطا بالمسلمين لكن الحامية دافعت عن نفسها بشدة، لدرجة أن المحاصرين اضطروا إلى الانسحاب بعد ذلك بقليل[7] دون أن ينجزوا أي عمل يذكر. ومع ذلك فإنهم عادوا إليها بعد ستة أشهر بجيش متركب من مائة ألف محارب، وكمية من المدفعية، وبعد أن أقاموا الحصار ثلاثة وخمسين يوما انسحبوا مثل المرة الأولى بنتائج قليلة وخسائر كثيرة، ثم أُخلي القصر الصغير منذئذ، كما أُخليت أصيلا، لقلة النتيجة وكثرة النفقة، ولم يُحتفظ إلا بسبتة وطنجة ومازيغن.

الفصل الخامس والخمسون
سبتة

سبتة من أقدم وأشهر مدن موريطانيا، تقع في شرقي القصر على مستوى الجزيرة الخضراء. كان الرومان يترددون عليها كثيرا، لموقعها في حلق المضيق، حيث لا يتجاوز عرضه فرسخين، بالاضافة إلى أن لها ميناء جيدا ملائما ترسو فيه سفنهم، ولا تبعد إسبانيا من هناك إلا بخمسة فراسخ[8] في أطول طريق. حتى يقال إنهم شيدوها وسموها مدينة الرومان ولو أن مؤرخا افريقيا شهيرا[9] يقول إنها أسست من طرف أحد أبناء نوح، بعد الطوفان بمائتين وثلاثين سنة. ويسميها آخرون السِّلسة، ويجعلها بطليموس في الدرجة السابعة والدقيقة الثلاثين طولا، والدرجة الخامسة والثلاثين والدقيقة السادسة والخمسين عرضا. وبالتالي فإنها كانت دائما مدينة عظيمة، تتمتع في عهد الرومان بتقدير كبير، سواء من حيث عظمتها أو من حيث ثرواتها وما لها من مزايا أخرى، حتى أصبحت عاصمة موريطانيا الطنجية بأسرها. ولما فتحها القوط احتفظت بنفس الشهرة التي كانت لها، إلى أن سلمها ألكونت يوليان إلى العرب عقب انتصارهم، فزادوها شهرة، إذ يقيم بها أهم نبلائهم، مع عدد من التجار والصناع الذين كانوا يستعملون الذهب، والفضة، والنحاس، والصفر وغيرها من المعادن في صناعة متقنة، حتى إن مصنوعاتهم كانت تفوق مصنوعات دمشق، سواء من حيث الفن، أو من حيث المادة.

(7) في ثاني يناير.
(8) الفرسخ الاسباني : أربعة أميال.
(9) أبو العباس.

وفضلا عن ذلك، كانت تصنع فيها زرابي فاخرة، وجميع أنواع المنسوجات من الصوف والكتان، فكانت من أجود منسوجات ذلك العهد، وتتزود بها أقاليم افريقيا وأوربا بواسطة تجار كانوا يأتون إليها من كل جهة. ويقع على بعد فرسخ ونصف من هناك جبل أبينا[10] الذي يسميه العرب الكدية. وتوجد المدينة في مكان بارد طيب الهواء لدرجة أنها تعتبر أصح دار مقام في افريقيا كلها، الشيء الذى كان يجلب اليها سكانا أغنياء من جميع الجهات، حسب ما يقوله المؤرخون. ويوجد في إتجاه القصر الصغير واد جميل، يقال انه كان مليئا، في أيام إزدهاره، بعدد من الحيطان الكبيرة والبساتين والمنتزهات التي يروق منظرها جيدا، إذ لم تكن سوى أشجار مثمرة، وكروم معروشات وغير معروشات، ولذلك دُعي وادي الكروم. أما الجوانب الأخرى للمدينة فكلها وعرة لكنها قريبة جدا من إسبانيا بحيث إنه ترى منها الشموع الموقدة في مدينة جبل طارق. ويشاهد من أعلى أسوارها شاطىء الأندلس، مع جزء من مملكة غرناطة. يقول عبد الملك إن عبد المومن ملك مراكش حاصرها في بداية ملكه لوجود حرس مرابطي بها، ثم دمرها لأنها قاومته ونفى سكانها إلى أماكن شتى، ولم يقبل أن يعاد تعميرها. فبقيت لذلك خالية إلى عهد يعقوب المنصور الذي عمرها من جديد[11] وجعلها مدينة عظيمة، لأنها كانت محطة العبور إلى اسبانيا. غير أن أحد ملوك غرناطة[12] أرسل إليها بعد ذلك (فاراكس) عامل مالقة ليحاصرها، ولما حدث انشقاق في مملكة فاس[13] اقتحمها وتركها خالية بعد أن أخذ معه جميع سكانها، فلم تسترجع إطلاقا ازدهارها الأول، رغم أنها عمرت مرة أخرى منذ ذلك العهد. وأخيرا في دولة ملك آخر من ملوك فاس، وتحت حكم صالح بن صالح، غزاها يوحنا الأول، ملك البرتغال، عام ألف وأربعمائة وتسعة [14]، ولو أن العرب ينقصون سنتين من هذا التاريخ، ويزيد آخرون ست سنوات على هذا الحساب. لكن ينبغي أن نقول كيف غزاها هذا الأمير وما دفعه إلى القيام بهذه العملية.

(10) جبل الوهم.
(11) سنة 1303.
(12) هو محمد بن الأحمر.
(13) وذلك إثر وفاة سعيد، ثالث ملوك بني مرين.
(14) 818 هـ.

استلاب سبتة من المغاربة

كان لدم يوحنا ملك البرتغال خمسة أبناء[15]، وعندما أصبح الأكبرون منهم قادرين على حمل السلاح، أبى إلا أن يرسمهم فرسانا بيده، فبعد أن أعلن عقد جمع حافل بلشبونة، قال له أمين خزائنه، وقد اندهش من النفقات الباهضة، إن احتلال مدينة مغربية سيكلفه أقل من تلك النفقات وإنه لمن الامانة والشرف أن يرسمهم فرسانا بعد ذلك الاحتلال، فاستحسن الملك هذا الرأى هو وأهل مجلسه، وقر العزم على غزو سبتة، واتخاذ الاستعدادات الكافية لعملية حربية عظيمة كهذه. وأول ما قاموا به هو إرساء سفينتين حربيتين لاستطلاع المكان، بدعوى أنهما تحملان سفارة الى صقلية، مع إعطاء.أمر للمشاهدين أن يحاولا الدخول إلى المدينة والى القصر، وأن يفحصا المواقع الداخلية والخارجية ليحملا الى الملك رواية مدققة. وقد تم ذلك بسهولة، لأن المغاربة سمحوا بالدخول للسفراء الذين أطلعوا[16] الملك لدى عودتهما على كل شيء. ولإزالة كل تشكك أعلن الملك الحرب ضد دوق دي بريطاني، بعد أن أسرَّ إليه أنه لا ينوي مهاجمته، ولكن محاربة المسلمين، فحشد جيشا عرمرما[17] بلشبونة نشر فيها الطاعون وماتت به الملكة، وحدث أثناء جنازتها كسوف كلّي للشمس وبعض الآيات المفزعة. لم يتوان الملك في الابحار بسرعة، والارساء في مكان بالغرب[18] مع ثلاثة من أبنائه، بينما مكث الآخران الصغيران مع أختهم التي أصبحت منذئذ دوقة بوركوني. وبينما هو في ذلك المكان، بعد أن استمع الى القداس، أعلن جهرا عن قصده، فاندهش له الجميع لأنهم كانوا يعتقدون أنهم زاحفون ضد دوق دي بروطاني، ثم أبحروا بابتهاج كبير، بعد طلوعهم في المراكب. ووصلوا بعد أيام قلائل إلى سبتة التي لم تكن تبعد من هناك إلا بخمسين فرسخا. وأرسوا بميناء بارباسوط الواقع الى جهة الغرب، حيث ثارت فيه عاصفة هوجاء عندما استدعي القواد لعقد مجلس، فاضطروا إلى امتطاء السفن والابحار الى الجزيرة الخضراء، وهناك تناولوا كل أنواع المرطبات. ونصح بعضهم الملك بالرجوع الى البرتغال، أو مهاجمة مكان آخر من بلاد البربر، بسبب الصعوبة التي قد تعترضه في احتلال هذا الموقع الذي هو في غاية المناعة

(15) هم : ادوارد، وبطرس، وهانري، ويوحنا، وفرناند.
(16) عبر عنهم كذلك بالكفار.
(17) من 50 ألف رجل.
(18) هو بَرُّ الفرس.

ويحميه مثل هذا العدد من الرجال الذين بصروا بهم، فضلًا عن الذين يقبلون من الجبال والثغور البحرية. لكن ذلك الأمير الشجاع المتوكل على الله أبى أن يغير رأيه. وبعد أن هدأت العاصفة أبحر من جديد ليلًا، وحاذى سبتة عند فجر ليلة صعود العذراء، وأرسى سفنه من جهة جبل طارق. وكلما وصلت مراكب، كانت ترسى هناك وتخرج قوارب الانقاذ، فيركبون فيها وهم يتظاهرون بالنزول إلى الأرض من جهة القصر، حتى إذا هرع المغاربة إليه أمكنهم النزول بكل سهولة في الميناء. وقد حدث ذلك فعلا : لأنه بينما كان المغاربة يسرعون إلى القصر، طلع باقي جنود الأسطول إلى الزوارق والقوارب، وأخذوا في النزول بسرعة كبيرة.وقد ارتمى عدد من الجنود الشجعان حتى في الماء، ونزلوا أينما استطاعوا في البر والأسلحة بأيديهم، بالرغم على العدو وجميع الذين كانوا يسرعون لامداده حتى يمنعوا النزول. لكن الله شاء أن يقاتلوهم ويطاردوهم إلى أبواب المدينة، فدخلوا مختلطين بهم دون أن يستطيعوا إغلاقها. وحدثث إذ ذاك معركة شديدة في الساحات والأزقة حتى قرابة المساء، ولما رأى العامل أن المسيحيين يتقوون، والمغاربة يتخاذلون، انسحب إلى القصر، والسكان إلى بيت متهدم بجانب باب فاس، فتحصنوا به، لكن الملك وأبناءه ضيقوا عليهم الخناق، حتى استولوا على هذا وذاك. وقد قتل جل المغاربة، أو أخذوا أسرى باستثناء الذين فروا الى الجبل مع العامل. ونهبت الدور التي وجد فيها العشاء جاهزا. وحصلوا على غنيمة كبيرة دون أن يفقدوا أحداً إلا رجلا قتل برمية حجر وهو ذاهب لانقاذ الأمير دم هانري الذي كان يحارب المغاربة أمام باب منزل[19]. يقول بعضهم إن الملك وأبناءه صاموا ذلك النهار على الخبز والماء، ولم يفطروا إلا بعد احتلال المدينة. وقد ترك الملك في سبتة كحاكم لها دم بيدرو دي منيسيس[20]، الذى خدمه خدمة جلى في هذه العملية العسكرية، ثم أبحر راجعا الى بلاده. وبقيت المدينة منذ ذلك العهد دائما تابعة لملك البرتغال، وما زالت كذلك حتى الآن.

يقول مؤرخو افريقيا إن أبا سعيد كان منهمكا في ملذاته وهو يعلم أن أسطول المسيحيين كان يبحر ضد سبتة، فلم يحاول إنقاذها، ولم يغتمَّ لاحتلالها.

(19) هذه المبالغة السافرة لا تحتاج الى تعليق. خصوصا وأن المعارك كانت ضارية ــ باعترافه ــ طوال النهار، خارج المدينة وداخلها (مترجم).

(20) الذي أصبح منذئذ كونت دي فيلاريال.

فصار مقيتا من أجل ذلك إلى حد أن رعاياه تآمروا ضده وأن وزيره[21] الذي كان قد أسبغ عليه نعمه وكان قويا جدا قتله مع أبنائه الستة. وتلت هذا الموت حروب طاحنة من أجل العرش بين سعيد ويعقوب، لم تترك وقتا لاسترجاع هذه المدينة، ولو أن أحد أبناء ملك غرناطة[22] ألحَّ كثيرا في ذلك، وحاصرها أخيرا بحرا وبرا، لكن بدون جدوى، لأن أحد أبناء ملك البرتغال هاجمه بجنوده وأرغمه على الرجوع إلى إسبانيا ملوما مدحورا[23]. وبعد أن بقي أهل فاس بدون ملك طوال ثماني سنوات، بايع الشعب بحماس أحد أبناء الراحل[24] من زوجة مسيحية، كانت قد أنقذته وفرت به إلى تونس، فتبوأ العرش لعدة سنوات، لكنه تجبر وانغمس في الفواحش، فتآمر الأعيان أيضا ضده، وطعنه أحد السكان بخنجر، كما ذكرنا في الفصل السابع والأربعين من هذا الكتاب[25].

تقدم حامية سبتة وموت الكونت ليناريس وابن أخيه

أتاحت الحروب الأهلية بفاس الفرصة للبرتغاليين ليستقروا في افريقيا، لكونهم غير منشغلين في مكان آخر. وشن دم بيدرو دي منيسيس عدة غارات على المغاربة، حتى وصل إلى أبواب تطوان وأفزع السكان لدرجة أن أكثرهم غِنىً غادروا بيوتهم ليقيموا في مكان آخر. وفر بعضهم إلى سبتة، ومن جملتهم أبناء لعلي برَّاش، وآخر من بيت الموحدين، فوعدوا ملك البرتغال، إذا أراد العبور الى افريقيا، أن يناصروه، ويجعلوا جميع هذه المناطق تحت حكمه. لكن شيئا من ذلك لم يتم، وصار ملك فاس يأمر من حين إلى آخر بشن غارات على سبتة، حتى يحتفظ بالثقة الموضوعة فيه ولا يظهر بمظهر إهمال رعاياه. وأخيرا أقبل اثنان من إخوان الملك[26] في عشرة آلاف فارس، وعدد من المشاة، بحرا وبرا، لنصب كمينين، بعد أن أبعدا زوارقهما من الشاطىء، حتى إذا خرج المسيحيون على الطلائع طوقوهم ومزقوهم كل ممزق. ولما هجم الحاكم البرتغالي على الطلائع بمائة وثلاثين فارسا، فصل منهم خمسة عشر للمطاردة، لكنهم بعدما اكتشفوا الكمين، انقلبوا مسرعين

(21) أبو بابا (كذا).
(22) مولاي .... بن أبي الحجاج الثالث عشر من ملوك عرناطة من دولة بني الأحمر.
(23) سنة 1419.
(24) عبد الحق.
(25) بصدد احتلال أصيلا.
(26) سنة 1514.

إلى عظيم جيشهم الذي أراد أن يقتدي بهم، بعد تأكده من عدد الأعداء، فضيَّقوا عليه الخناق إلى ان دخل مائتان وخمسون فارسا مغربيا مختلطين معهم إلى المكان المسور المحيط بالساحة. وقتل منهم مائتان بعد أن أبلوا البلاء الحسن، ولم يمت ولو برتغالي واحد،[27] لكن جرح منهم ثلاثون. وفي هذه الأثناء وصل أخوا الملك مع باقي الجنود، وعدد كبير من الرواد لتمهيد الخندق، وإزالة السياج. وعندما اقتربوا من الحاكم، اضطر إلى الانسحاب في معظم الجيش المتراصّ نحو المدينة، بينما كان ستة وعشرون زورقا للأعداء تحاذي الشاطىء، وتنزل الجنود لقطع طريقه. لكن البرتغاليين داسوهم، وأرغموهم على حمل موتاهم في الزوارق، ومن بينهم بعض وجهاء فاس. ولما فشلت هذه الحركة هاجم المغاربة مغتاظين قطعان أصيلا، وأخذوا منها سبعمائة رأس تأسيا عن خسارتهم. لكنهم قتلوا منذئذ لويس دي سيلفا بطنجة، كما ذكرنا ذلك عند الكلام على هذه المدينة، ثم شنوا غارات على سبتة التي خرج منها ابن الكونت دي ليناريس[28] لملاقاتهم بعد أن قدم أمامه خليفته في عشرين فارسا، وواجههم بسفينتين شراعيتين، أمرهما بمحاذاة الشاطىء. وحمل المغاربة بشدة على خليفته فقتلوه قبل أن يستطيع الالتحاق به. وبدأت السفينتان في إطلاق النار من بعض المدافع الصغيرة، لكنها لم تكن تصيب الأهداف، فأساءت إلى المسيحيين أكثر مما أساءت إلى المغاربة، وقُتل الكونت دى ليناريس على إثر موت خليفته. ثم هلك ابن أخيه[29] الذي أتى لنجدته، وأرسلت رؤوسهم مع بعض رؤوس رجالهم إلى الشريف، ولم ينج منهم أحد. وتوجد دائما في المدينة حامية قوية لكونها من أهم مدن الحدود التي يمكن أن تُهاجَم منها شواطىء إسبانيا.

(27) هكذا حتى في حالة الانهزام والفرار ! (مترجم).

(28) دم بيدري دي منيسيس

(29) أنطونيو دي نوروكرا، أو نوروبيا.

الفصل السادس والخمسون

تطوان (30)

تقع هذه المدينة، التي أسسها أهل البلاد، على ضفة نهر قوس،(31) الذي ينحدر من الأطلس الكبير(32) ويصب في المحيط(33) على بعد سبعة فراسخ من سبتة، في اتجاه الشرق، في المكان المسمى مصب تطوان. تبعد تطوان بفرسخ واحد عن الشاطىء في عالية النهر، في سهل جميل، تكتنفه الحدائق. وقد احتلها القوط بعد الرومان، ثم العرب، الذين كانوا يجهزون فيها سفن القرصنة لغزو الشواطىء المسيحية(34). كانت آنذاك آهلة جدا بالسكان، لكنها دمرت من طرف أسطول قشتالة، وأسر جميع سكانها تقريبا، ثم بقيت خربة طوال تسعين سنة، حتى تسلمها المنظري، الذي عبر إلى إفريقيا عقب احتلال غرناطة، من ملك فاس، ليزعج منها المسيحيين. فعمرها من جديد، ورمم أسوارها، وشيد حصنا أحاطه بخندق جيد، كان يلتجىء إليه ويشن منه غارات على حدود سبتة والقصر وطنجة، بأربعمائة فارس جاؤوا معه من الأندلس، ومغاربة آخرين من هذه الجبال، وصار يهاجم الاسبانيين بحرا وبرا، إذ كانت له بعض السفن الصغيرة في النهر، يستعملها لاجتياح شواطىء إسبانيا بنجاح كبير، حتى إنه أخذ منهم ثلاثة آلاف أسير كان يرغمهم على أن يشتغلوا طوال النهار لبناء أسواره، ويسجنهم ليلا في زنزانات كبيرة مقيدين في الأصفاد. وخلف حفيدا لم يكن أقل منه شجاعة، ثم أعقابا أصبحوا كلهم أمراء تطوان، لكن كانت هناك فرقتان(35) في المدينة، طردت إحداهما الأخرى سنة ألف وخمسمائة وسبع وستين(36) إلا أن قائد المنفيين دخل المدينة في غياب الحاكم وحرضها على الثورة، بعد أن قتل جميع أتباع الفرقة المضادة.

(30) تعني تطوان باللغة الافريقية العين الحارية. بل العين هي تيط، ويجمع على تطاوين وقد ورد اسم هذه المدينة عند مارمول «تطوان» وعند الوزان «تطاوين» (مترجم).

(31) نهر تطوان له أسماء كثيرة بحسب أجزائه ذكر منها محمد داود عشرة ليس من بينها ما يشبه أن يكون «قوس». والأشهر : واد مرتيل. انظر م. داود تاريخ تطوان، 1 : 62، هامش 1. (مترجم).

(32) لاشك أن المراد جبال الريف. (مترجم).

(33) يعتبر المؤلف المضيق من المحيط كما رأينا (مترجم).

(34) سنة 1400.

(35) هما البوالس وبو حسان (؟)

(36) يوم القربان المقدس.

ولما وصل هذا النبأ إلى الشريف، أرسل إليها ألف فارس وألفين من المشاة، فدخلوا المدينة بهدوء وتمكنوا من الرئيس، فأرسلوه سجينا إلى فاس وطردوا باقي الفئة. ثم إن قائد الالف من الفرسان(37) مكث في المدينة وأرجع إلى مراكش قائد المشاة(37 م) ليحمل الخبر إلى الشريف الذي أصبح بهذه الوسيلة مالكا للمدينة.

ليست تطوان محصنة لا اصطناعيا ولا طبيعيا، وليس لها إلا أسوار منخفضة من طين، ومعظم خندقها مملوء بحيث يمكن ولوجها من جهتين(38) مشيا الى السور، وهي مشيدة على ربوة، وبجانبها حصن صغير(39) في الأعلى من جهة الشمال، لكن لا تحيط به سوى أسوار رديئة من طين. ويوجد خارج باب الحصن من المكان الذي ينزل الى الربض ركام فوق سطيح، عليه أربع من آلات الرمي المعروفة بالمنجنيق ومدفع، مع بعض القطع الحديدية الأخرى. وحول الحصن عشر قذافات ذات كلاليب(40) بين الشرفات تستعمل للتعليم أكثر منها للدفاع، لأنها غير مركبة كما يجب، ولا يوجد إلا عتاد حربي ردىء، علاوة على أنه قليل. لذلك فإن قوة المدينة تتكون من أربعمائة من أحسن الفرسان، وألف وخمسمائة راجل(41). وقد ازداد عددهم منذ ثورة الغرناطيين. وترسو فيها، إضافة إلى ذلك، عدة سفن حربية وأخرى شراعية لقراصنة الجزائر، يتزودون بالماء والخبز،ويلتحقون بخمسة عشر مركبا صغيرا في ملك السكان يغزون بها شواطىء البلاد المسيحية. وقد أثاروا منذ قليل سكان بعض مناطق غرناطة في تلك الجهة. وتلافيا لهذا الخطر، أمر فيليب الثاني(42) قائد أسطول قنصلية إشبيلية(43) الذي كان يخفر الشاطىء، بأن يأخذ معه أربع سفن من إسبانيا الى سفنه، ويذهب إلى مصب نهر تطوان، فيمنع أن يخرج منه أو يدخل إليه أي قرصان. فانطلق إلى هناك عند مطلع الفجر جاداً في السير حتى إنه عند الزوال كان قد أقحم في الجرف الرملي(44) بعض الزوارق المحملة بصخور ضخمة جاء بها من جبل طارق، تلك الزوارق التي كانت على سطح الماء عند الجزر، ثم اختفت تماما. وأغرق أيضا قريبا

(37) ابن خليفة.
(37م) الدكالي.
(38) من الباب الحديد، ومن باب المقابر.
(39) كاسطيل داديف.
(40) قطع صغيرة من المدفعية.
(41) قربيبيون أو قذافون.
(42) سنة 1564.
(43) هو ألفاري باصان.
(44) مصب النهر.

من هنالك سفينتين شراعيتين مثقلتين بالحجر، مما ظهر كافيا للحيلولة دون الدخول إلى النهر. وقد أنجز كل ذلك دون أن يستطيع السكان منعه، مع أن النزول تصدى له عدد من المشاة والفرسان كانوا قد أتوا مسرعين من جميع الجهات، وقتل جَنود من الجانبين. ذلك لأن المغاربة كانوا يحاربون وهم يائسون، وأزالوا السفينتين الشراعيتين فورا عقب ذهاب الاسبانيين. وبعد ذلك فتح التيار ممرا آخر قرب الزوارق من جهة الشمال، بحيث كانت تمر بسهولة سفينة ناقلة بالمجاديف من ضفة إلى أخرى.

هناك اثنان وعشرون فرسخا من تطوان إلى بادس غمارة، ويمتد هذا الاقليم حتى مدينة ترغة، لكن لا توجد إطلاقا مدن أخرى غير التي ذكرناها.[45] ولنتحدث الآن على الجبال.

الفصل السابع والخمسون
الجبال وسكانها
رهونة [46]

توجد في هذا الاقليم عدة جبال يسكنها البربر، وعدد مواطنهم الرئيسية ثمانية. ينتسبون إلى قبيلة غمارة، ويعيشون كغيرهم تقريبا، ماعدا أنهم يشربون الخمر ولو أنها محرمة في الدين الاسلامي. إنهم أقوياء يصبرون في مكابدة العمل، لكنهم فقراء بسبب إثقال كاهلكم بالضرائب، بحيث إن التعامل معهم سيء جدا. وهم أعداء للمسيحيين، يشكلون أفضل الجيوش التي كانت لملوك غرناطة في حروب اسبانيا. وأول جبل، حسب ترتيبنا[47]، هو جبل أرهون (رهونة) قرب ازاجن، طوله عشرة فراسخ من الشرق الى الغرب،وعرضه أربعة يستخرج سكانه الكثير من الزيت، والعسل، والخمر سواء منها البيضاء والصهباء، لكنهم لا يأكلون إلا الشعير لندَرة القمح عندهم. وأهم تجارتهم في االصابون، وهو سائل، لا يصنع غيره أطلاقا في افريقيا كلها. وتستعمل جميع المواد لمعاشهمً ولتأدية الضرائب إلى ملك فاس، إلا أنهم يحتفظون بالخمر لشربها طوال السنة. وهم تابعون لحاكم ازاجن الذي يُموِّل جنده من جبايا القبائل الخاضعة له، ويستعملها عند الحاجة، لأن

(45) الهبط.
(46) في الأصل : ارهون أو أراهون.
(47) انطلاقا من الغرب إلى الشرق.

عددهم عشرة آلاف محارب، ولكن مهما كانوا مجدين في العمل، فانهم لا يستعملون إلا في خدمة المعسكر، إذ ليس لهم خيل ولا يملكون إلا القليل التافه من السلاح، بحيث إنهم يزودون بالسلاح عند الاحتياج إليهم، ويسترجع منهم عند انتهاء العملية العسكرية، لاسيما البنادق والقذافات.

الفصل الثامن والخمسون
بني زكّار الذين يسميهم بعضهم ــ خطأ ــ بني فنزكار

يبدأ هذا الجبل عند الجبل السابق، وطوله ثمانية فراسخ من الغرب إلى الشرق، وعرضه ثلاثة. سكانه أغنى من سكان الجبل السابق، ويوجد من بينهم عدد من دبّاغي الجلود ومن النساجين، فضلا عن أنهم يجنون عسلا كثيرا، ويبيعون كمية من الشمع كل يوم سبت، في سوق يقيمونه ويقصده تجار فاس وغيرها من المدن، ولاسيما المسيحيين الذين يتجرون في بلاد البربر، سواء لشراء الشمع أو الجلود. لا يحصد هؤلاء القوم إلا شعيرا رديئا، وقليلا من القمح، غير أنهم يملكون قطعانا وافرة، ويعيشون في سعة أكثر من سكان الجبل السابق، لأن ملوك فاس لا يزعجونهم مثل ما يزعجون الآخرين. إنهم يكوّنون خمسة عسر ألف محارب، وهم متعجرفون متوحشون سيئو الطباع، غالبا ما يقتتلون بسبب الغيرة، ويسمون بني زكّار وهم من غِمارة.

الفصل التاسع والخمسون
بني عروس

جبل قريب من القصر الكبير، طوله سبعة فراسخ من الشرق الى الغرب، وعرضه ثلاثة(48). كان السكان يؤدون الخراج الى ملك البرتغال عندما كان محتلا أصيلا، ويقطنه إذ ذاك قوم(49) شجعان من غمارة. تكثر في هذا الجبل جميع الأشياء، وكانت قصبته(50) بمثابة عاصمة، يقيم بها عدد من الأشراف، غير أنهم طغوا وتجبروا، فهاجر معظم السكان واستقروا في مكان آخر، بحيث إنه لم يبق إلا بعض المداشر في المرتفعات يقطنها برابرة، ولو أن بعض السكان رجع الى تلك

(48) عند الوزان : «يمتد على مسافة ثمانية أميال شمالا، وعشرين ميلا غربا، عرضه ستة أميال» (مترجم).
(49) بني عروس.
(50) بني محرز.

القصبة الكبيرة المذكورة منذ أن غادر البرتغاليون أصيلا. ومن ثم خرج العروسيون(51) الذين ساعدوا الشريف على فتح مملكة فاس، وهم أعيان البلاد. وهذا الجبل، الذي كان يسمى قديما (أبّطا ـــ ديلفي) يجعله بطليموس في الدرجة السابعة والدقيقة الأربعين طولا، وفي الدرجة الثالثة والثلاثين والدقيقة الخمسين عرضا.

الفصل الستون(52)
جبل حبيب(53)

هو جبل في داخل البلاد، على بعد ثمانية فراسخ من طنجة من ناحية الجنوب. كان هنالك في القديم سبعة قصور يعيش سكانها على غرارالمتحضرين في المدينة باستقامة كبيرة، لأنه عندما احتل البرتغاليون طنجة، انتقل عدد كثير من سكانها ليقيموا هناك، غير أن الحامية المسيحية كانت تزعجهم، فكانوا يؤدون الخراج تارة وينسحبون أخرى، لأن حاكمي القصر الكبير وتطوان لم يستطيعا إغاثتهم، لبعدهم الشاسع عنهم. وهم أكثر اطمئنانا في الساعة الراهنة، لأن حامية طنجة لم تعد تجرؤ على الابتعاد بسبب قوة الشريف. يملكون كثيرا من قطعان الماشية، وكانوا ينتجون في القديم كمية من الشعير، والقمح، والشمع، والعسل والخمر، بحيث كان بإمكانهم أن يعيشوا مرتاحين لولا هذه الحامية. وبالتالي فإنهم ينتسبون إلى غمارة(54) ويسمى الجبل باسمهم.

الفصل الحادي والستون
بني حسان

جبل شاهق مستقيم جدا صعب المسالك، يجعل سكانه في مأمن دون تحصين آخر. وهم أكبر المحاربين في جميع هذه الجبال(55). يقول مؤرخو البلاد

(51) كانوا عمالا لازاجي والقصر الكبير، والعرائش.

(52) كتب في الأصل: «الفصل العاشر والخمسون» حسب التعبير القديم، وكذلك الفصول التالية، فأثبتنا المستعمل وتركنا المهمل (مترجم)

(53) كتب في الأصل «بني تليت أو حبيت» وأثبتنا ما عد الوزان حيث إن مارمول استقى منه أهم المعلومات ـــ كعادته ـــ (مترجم).

(54) يسمون بني ثليت.

(55) ينتسبون أيضا إلى غمارة ويحملون اسم حبلهم.

إنهم كانوا في القديم خاضعين للنبلاء، لكنهم لم يتحملوا طغيانهم فثاروا ضدهم، وعندما غلبوهم فرضوا عليهم الخراج. لكن أحد النبلاء الشبان(56) لم يصبر على هذا العار، فاجتاز الى اسبانيا مع آخرين، وبعد أن أدى خدمات جُلى لملك غرناطة ضد المسيحيين(57) عاد الى بلاد البربر وقد أصبح محاربا محنكا، فأقام بجبل شفشاون(58)، حيث التجأ الى بعض أصحابه، وكوّن هناك سِرياً من الفرسان قاوم به البرتغاليين على الحدود بشجاعة كبيرة، حتى إن ملك فاس عززه ببعض الجنود من الفرسان والمشاة، فحارب بهم القوم الذين استعملوا النبلاء، وبعد ان خضد شوكتهم بويع أميرا لشفشاون ثم استولى على جميع موارد ملك فاس وثار عليه. ولما جاء الملك لمحاربته بجيش عرمرم، استعطفه وطلب منه أن يبقيه على المنطقة التي استولى عليها في مقابل شبه اعتراف، فقبل الملك ذلك اعتبارا لنسبه الشريف وكونه من سلالة مؤسس فاس(59).

سكان هذا الجبل رجال حرب أشداء يفوق عددهم خمسة عشر ألف مقاتل، لذلك عبروا الى اسبانيا عدة مرات لقتال المسيحيين. يملكون عددا وافرا من القطعان، وكمية من العسل والشمع والجلود، لكن ليس لهم كثير من القمح ولا الشعير، لأن البلاد وعرة صعبة لا تصلح للزراعة.

الفصل الثاني والستون
أنجرة(60)

يبعد هذا الجبل عن القصر الكبير بفرسخين ونصف في اتجاه الجنوب، طوله ثلاثة فراسخ من الغرب الى الشرق، وعرضه فرسخ واحد. توجد في كل مكان منه حِراج وخشب صالح لصنع السفن : لذلك كان ملوك فاس في القديم يأمرون بصنع السفن الحربية وغيرها بالقصر الكبير. لكن سكان هذا الجبل التجأوا الى الجبال الأخرى المتعمقة أكثر داخل البلاد، عندما احتل البرتغاليون

(56) علي براش أو علي بوراس.
كذا في الأصل، وهو تحريف برتغالي في النطق باسم علي بن راشد (مترجم).
(57) هذا هو الصواب. وانقلبت عبارة الحسن الوزان فصارت : «وعمل أجيرا في خدمة النصارى». وفاتنا التنبيه على ذلك هناك (مترجم).
(58) كتب في الأصل «شيشاون» (مترجم).
(59) ادريس.
(60) كتب في الأصل بالميم : أمجرة.

القصر الكبير ثم عادوا الى جبلهم عندما غادر البرتغاليون القصر، لأن الأرض جيدة تنتج الكثير من القمح والخمر، فضلا عن وفرة المراعي للماشية، لكنهم ليسوا فيها آمنين من حامية طنجة.

الفصل الثالث والستون
وَادْرَاس(61)

جبل شاهق بين سبتة وطنجة(62)، يسكنه قوم تميزوا في حروب اسبانيا، حيث كانوا يجندون ضد المسيحيين، فكانوا أفضل جنود ملوك غرناطة، ومحط الثقة الكبرى لديهم. وقد اعتادوا أن يتخذوا منهم حرسا قوامه خمسمائة رجل يقطنون في الزقاق الذي يسمى من أجلهم زقاق غمارة(63). يقول مؤرخوا افريقيا إن بهلولا الذي يشيد المغاربة بمآثره شعرا ونثرا، على غرار مآثر رونو ورولان، كان من هذه البلاد، وانه بعد أن أبلى البلاء الحسن في شتى الوقائع، مات في معركة طرطوشة،(64) وهو يقود جيش ملك مراكش.

الفصل الرابع والستون
بني كَرْفط(65)

جبل صغير قرب مدينة تطوان، لكنه آهل بالسكان، وهم محاربون أشداء كانوا دائما تابعين لأمراء هذه المدينة. وقد ضايقتهم حامية سبتة بعض الوقت، خاصة عند موت المنظري، بحيث وصلت حملاتها حتى أبواب تطوان، لذلك فإنهم معفون من الضرائب، وان كانوا يؤدون شيئا إلى عامل تطوان عن الأراضي التي يحرثونها والتي ليست من الجودة بمكان، لأن الأرض جدباء شيئا ما. يكثر فيها البقس الذي يشتريه أهل فاس وغيرها لصنع الأمشاط، وأدوات أخرى صغيرة.

هنا تنتهي مساكن هذا الاقليم : فلنتحدث الآن عن مساكن الريف، الذي هو الاقليم الخامس في مملكة فاس، ابتداء من جهة الغرب.

(61) في الأصل : واد ادريس وفي الهامش، أو وادريس أو كوادريس والصواب ما أثبتناه عن الوزان (مترجم).
(62) في كتاب الوزان : بين سبتة وتطوان (مترجم)
(63) في المكان الذي يسيرون فيه من الساحة إلى الحمراء
(64) سنة 1212 أو 1214 التي توافق، حسب العرب، العام الهجري 609
(65) كتب في الأصل . بني واد ـــ فلاح، وفي الهامش .أو بني كاد الفتوح. والتصحيح من كتاب الوزان، ص. 323. (مترجم).

الفصل الخامس والستون
إقليم الريف

يبتدىء هذا الاقليم عند منطقة تطوان غربا، ويمتد نحو الشرق إلى نهر النكور على طول سهل تنيف مساحته على خمسين فرسخا. يحده شمالا البحر المتوسط المواجه لغرب إسبانيا، ويمتد على مسافة خمسة وثلاثين فرسخا نحو الجنوب، إلى الجبال التي يحاذيها نهر أركيل (ورغة)على تخوم اقليم فاس. البلاد مليئة بشجر الزيتون وبالحدائق حيث تكثر الفواكه الطيبة، والسكان بربر يتباهون بالمروءة، ويملكون عددا كثيرا من الماعز، لكن المواشي الأخرى قليلة عندهم لأن البلاد غير صالحة لها. وهم قوم متوحشون غير ميسورين، يعيش جلهم في هذه الجبال داخل منازل من طين، مغطاة بأوراق الأشجارأو لحائها. وليس في الاقليم كله أكثر من ست مدن، والباقي انما هي قرى وقصبات مبعثرة هنا وهناك بين صخور وجبال شديدة البرودة الى درجة ان الرجال والنساء لهم أعناق ضخمة، بسبب برودة الماء. وبالتالي فإنهم يشبهون سكان الجبال السابقة في كل شيء، وجميعهم من قبيلة غمارة، احدى قبائل افريقيا الخمس الرئيسية.

الفصل السادس والستون
المدن
ترْغَة

مدينة صغيرة يُعزى تأسيسها إلى القوط عندما كانوا يملكون البلاد. وتقع على شاطىء البحر المتوسط، على بعد سبعة فراسخ من تطوان في اتجاه الشرق، في سهل ممتد بين جبلين. تحيط بها أسوار قديمة، وتقوم في جهة البحر قصبة غير محصنة كما يجب، ولو انها مشيدة فوق صخرة. كانت في القديم آهلة بالسكان، وبقيت مدة من الزمن حرة بسبب الحروب.وعندما احتل ملك البرتغال سبتة[1] فر معظم السكان وأشرافهم إلى الجبال الأخرى، ولم يبق فيها إلا نحو ستمائة دار للصيادين، يملحون سمكهم ليبيعوه الى البغالين الذين يفدون من جميع جهات المنطقة وحتى من أبعد من ثلاثين فرسخا.

(1) سنة 1409.

وصيد السمك جيد في ترغة، بقال إ ها تستطيع أن تزود بالسمك نصف مملكة فاس. وتكتنف المدينة كلها غابات كبيرة كثيفة مليئة بالقرود، والجبال المجاورة وعرة باردة جدا ولو أن هناك مكانا صغيرا يزرع فيه الشعير، بحيث إن جميع القمح الذي يستهلك فيه ياتي من خارج، يحمله الجبليون وسكان الغرب[2] الذين ياتون لشراء السمك. هؤلاء القوم خشنون سكيرون، يدعون الشجاعة ويغادرون المدينة لأدنى تشكك في وجود بعض السفن المسيحية مُلتجئين الى الغابات[3]. وقد نهبت هذه المدينة سنة ألف وخمسمائة وثلاث وثلاثين من قبل سفن شراعية حربية للعجوز دم ألفاري باصان، لكن الشريف الحالي حصَّنها الآن خوفا من أن يستولي عليها الأتراك، وشيد في أعلى المدينة من ناحية الجنوب قصبة هي الآن محصنة، وأقام فيها جنودا وحاكما مع خمسين قطعة من المدفعية، وأربع آلات منجنيق، وستة وأربعين مدفعا صغيرا، أو بندقيات ذات كلابات. ليس فيها ميناء، إذ ليس الشاطىء كله إلا مرسى مكشوفا. كانت هذه المدينة تسمى تاغات في القديم، حسب بطليموس الذي يجعلها في الدرجة الثامنة والدقيقة العشرين طولا، وفي الدرجة الخامسة والثلاثين والدقيقة السادسة عرضا، لكن المغاربة أبدلوا الفتحة كسرة وسموها ترغة (كذا).

الفصل السابع والستون
بادس غمارة[4]، والقلغة المسماة صخرة بادس

مدينة تضم سبعمائة كانون، على شاطىء البحر المتوسط، في مستوى مالقة، التي تبعد عنها بأربعين فرسخا. ينسب بعضهم تأسيسها إلى القوط، وآخرون يَنسبون ذلك إلى أهل البلاد. تقع بين جبلين شاهقين قرب شِعْب كبير، يخترقه جدول يفيض.بماء المطر فيحسبه الرائي نهرا. ولا توجد إطلاقا مياه أخرى في

(2) من بلاد ناحية فاس
(3) هذا مخالف لما عند الحسن الوزان (ص325) من انهم شجعان حقا (مترجم).
(4) كتبت في الأصل فيليز غمارة، وفي الهامش : دائرة بادس

• تسمى أيضا بادس فاس تمييزا لها عن باديس الجزائر. انظر الصديق بن العربي، كتاب المغرب (طبعة بيروت 1984) ص 74.

• أما صخرة بادس، فكانت هناك في العصور الوسطى جزيرة تعرف بجزيرة مرسى بادس، لعلها التي بنيت في مكانها قلعة الصخرة (مترجم).

تلك النواحي، باستثناء بئر خارج المدينة بالقرب من ضريح ولي[5] يزار كثيرا، لكن شرب هذا الماء ليلا خطير، لأنه مليء بالعلق. وتوجد في بادس ساحة تحتوي على عدة دكاكين، ومسجد كبير محاط بجدران قديمة، مع قصبة هي جميلة أكثر منها حصينة. فيها قصر العامل، ولو أن هناك قصرا آخر في الخارج تكتنفه بساتين جميلة.

كان السكان يستغنون من شيئين طوال أيام ازدهارهم، بعضهم من السردين الذي كانوا يبيعونه الى البربر الآتين من جميع الجبال المجاورة، لكثرة السمك في هذا الشاطىء، والآخرون بواسطة الميناء الذي يسع ثلاثين مركبا صغيرا، إذ كانوا يجهزون فيه أنواعا من السفن الحربية يغزون بها شواطىء المسيحية، فيجتاحونها ويلحقون بها أضرارا كثيرة. وكانت الجبال المحيطة ببادس مساعدة على ذلك، لكثرة ما فيها من أشجار البلوط والفلين والأرز. بحيث إنها تحمل إلى أقاليم أخرى. والأرض جدباء لحد أنه لا يحصد بها الا قليل من شعير، وأقل منه قمحا، اذ ما هي إلا صخور، ولا يأكل السكان سوى الشعير. ينتسبون إلى قبيلة غمارة، ويعاقرون الخمر، إذ كان في بادس قديما أكثر من مائة منزل لليهود، تباع فيها أجود الخمور، وكان كل تسلية المدينة هو الخروج الى البحر في الزوارق لشرب الخمر وتناول الطعام. وتوجد على شاطىء البحر دار صناعة، كانت تصنع فيها عادة السفن التي يجهزها العامل والسكان. وتكمن قوة المدينة في جبليي المنطقة الذين هم كلهم شجعان يقاتلون إلى آخر نفس. لذلك كان سكان بادس يلتجئون إليهم بمجرد ما يبصرون أسطولا مسيحيا، ويجدون أنفسهم في مأمن أكثر من المدينة. وبادس أقرب ميناء في البحر المتوسط الى فاس، فلما وصل إليه[6] دم بيدري دي نافار، أمير البحر للملك الكاتوليكي، وهو يغزو شواطىء بلاد البربر ليضع حدا لغارات القراصنة، عزم على أن يحرمهم من هذا المأوى وذلك بتشييد قلعة[7] على صخرة مقابلة لبادس، على بعد مسافة سبعمائة قدم، يحيط بها البحر من جميع الجوانب على شكل جزيرة. ذلك أنها وعرة من كل جهة، فضلا عن ارتفاعها، ولا يمكن الصعود إليها إلا من ممرّ ضيق، لا يكاد يستطيع أن يتسلقه الا رجل واحد، والميناء في أسفلها، لكن الصخرة محاطة من كل جهة بالمياه

(5) سيدي أبو عرة (كذا).

والصحيح انه أبو يعقوب البادسي المعراوي المتوفى عام 1333/734، انظر كتاب الحسن الوزان ص. 325، الهامش 129 (مترجم)

(6) سنة 1508

(7) بيبون دي بادس

العميقة، حتى إنه ليمكن أن يقال ما هو إلا ميناء لمثل هذه المراكب. فبنى فوق قمة الصخرة، باذن من الملك، شبه برج بالجير والرمل، وبعد أن حصنه، ركز فوقه خمسة مدافع ضخمة، كما كانت تقام انذاك، وجعل فيها ثلاثين جنديا تحت قيادة فيلالوبوس، مزودين بالمؤن والذخيرة الحربية الضرورية. وأمر فورا بحفر خزان في منتصف المنحدر لجمع مياه المطر. ولما تحصن ما أمكنه التحصن أخذ يطلق النار على المنازل وأزقة المدينة، ان لم يرسلوا اليه ما طلبه. وعندما التمس أمير بادس[8] الاغاثة من ملك فاس ليخلصه من هذا الضيق، أرسل إليه ألفين من رماة البنادق المختلفة، حاصر بهم الصخرة، وأخذ يقصفها من جبلين مجاورين[9]، بقطع من المدفعية. لكن المحاصرين قاوموا جيدا فقتلوا أو جرحوا عددا كبيرا من المغاربة بطلقات المدافع والبنادق، حتى أرغموهم على رفع الحصار. وهكذا بقيت قلعة بادس للملك قشتالة طوال أربع عشرة سنة، بقيادة نفس الرئيس، لكن عندما مات قائد بادس، جعل ملك فاس مكانه ابن عمه مولاي محمد، الذي استولى على هذه القلعة خدعة، كما سنذكر ذلك.

استيلاء المغاربة على قلعة بادس

يروي شيوخ فاس وبادس أن الاسبانيين الذين في القلعة كانوا يسيطرون على المدينة سيطرة مطلقة، ويحدثون ضجة مروعة بقصف الدور والأزقة والمساجد بالمدافع إن لم يحمل إليهم على الفور ما كانوا يطلبون. فلم يكن السكان يفكرون إلا في وسائل التخلص من هذا الضيق، حتى يستطيعوا تجهيز السفن الحربية، وسحب سفن القراصنة الذين كانوا يشنون الغارات من جميع الجهات. لكن أمير بادس لجأ إلى الخُدعة علما منه أنه يستحيل أخذ القلعة عنوة : ولما كان قد أخبر بأن حاكم القلعة يحب المال حبا جما، فإنه أرسل إليه كيمياويين اقترحا عليه أن يصنعا له نقودا مزيفة تروج في المنطقة، شريطة أن ينصرف عنهما، فوافق على ذلك، بعد أن عاين التجربة، وجعلهما في مسكنه، في أخفى مكان بالبرج، حيث قضيا زمنا طويلا وهما يشتغلان، إلا أنهما كانا يترددان على بادس بدعوى ترويج نقودهما المزورة، فينقلان أخبار كل ما يجري فيها. وفي هذه الأثناء، اطلعا على غيرة

8) مولاي المنصور
9) القنديل وبابا.

الجنود الذي كان يعلم أو يشك في علاقة فيلّالوبوس بزوجته، فتقربا إليه بالمودة، وتآمروا جميعا على قتله، وأسروا بذلك إلى أمير بادس، لينجدهم في الوقت المناسب. وبينما كان فيلالوبوس منحنيا في إحدى شرفات البرج، عانقه أحد هذين المغربيين من خلف وطعنه الآخر بخنجر[10]، بينما كان الجندي يفتك بآخرين في الأسفل بباب الحجرة. ثم نزل المغربيان وأخرجا الباقين، وبعد أن أغلقا الباب استحوذا على البرج، وجميع المدفعية والذخيرة الحربية التي كانت فيه. ثم أعطيا الاشارة إلى سكان بادس الذين أتوا مسرعين واستولوا على المكان، دون أن يستطيع المسيحيون منعهم من ذلك، لأن البرج، الذي هو القلعة الرئيسية، كان محتلا من طرفهم، وقُتل الاسبانيون عن آخرهم، ولم ينج منهم أحد. وعندما رأى أمير بادس أنه أصبح سيد القلعة، أقام فيها على الفور قائدا وجنودا، وشيد بعد ذلك برجا ثانيا في مكان منخفض قليلا عن الآخر، وحصَّن الباب بخندق كبير منحوت في الصخرة غير تارك سوى سبيل ضيق لمرور رجل واحد، وأقام عليه حراسة دقيقة خوفا من أن يقوم المسيحيون بمحاولات ضده.

محاولة مركيز دي مندخار استرجاع هذه القلعة

تأثر الاسبانيون جدا بفقدان هذه القلعة من أجل السهولة التي كان يتيحها للأعداء في استئناف غاراتهم على البلاد المسيحية. ورغم رغبة كل واحد في استرجاعها، لم ينجز أي شيء إلى أن أسرَّ مدفعي مسيحي كان أسيرا هناك إلى مركيز دي مندخار[11]، بواسطة تاجر كان يتردد على بادس، أن يأتي ليلا ببعض السفن لمداهمة المعقل، واعدا بأن طلقات المدافع ستصوب إلى اعلى حتى لا ينزعج منها المهاجمون، بحيث يمكن الاستيلاء على القلعة تسلقا قبل أن تتلقى المدد من بادس. أخبر المركيز بذلك شارل الخامس وأمه الملكة التي كانت تحكم اسبانيا، وتلقى الأمر بإنجاز العملية. فجمع أكثر ما أمكنه من المراكب وأبحر من مالقة مع ما أخذ معه من رجال الساحل ومَن حشدهم من عدة جهات من الأندلس[12]، متبوعا بعدد كبير من النبلاء. وعندما وصل مساء وكان على مدى الرؤية من القلعة، رجع إلى البحر في انتظار الليل ليحاذي الشاطىء، كما اتفق مع المدفعي،

(10) في 10 ديسمبر 1522.
(11) حاكم غرناطة
(12) أوبيدة، وبياسة، وغرناطة، الخ ..

لكنه اكتُشف من أعلى البرج، فأوقدت النيران للاعلام به، الأمر الذي كان من أجله على وشك العدول عن العملية، لكن، بعد أن بين له النبلاء ما سليحقم من عار، وأن القضية غير مؤكدة جيدا، اتجه نحو البر، وأرسى صباح الغد في الساعة الثامنة صباحا قرب برج يبعد عن القلعة بفرسخين برا، ولا يبعد عنها بحرا إلا بفرسخ واحد. ونظرا لتأكده من أن المدفعي سيصوب طلقاته عالية جدا، أنزل جنوده إلى البر، لكن المدفعي لم يستطع تنفيذ مخططه نهارا بمحضر المغاربة الذين ينظرون إليه، فقصف مؤخر السفينة التي كان فيها المركيز ومراكب أخرى، محدثا ضجة كبيرة إلى أن أمر المركيز بالرجوع الى البحر، مشيرا الى الذين نزلوا الى الأرض أن يطلعوا بسرعة الى السفن، وذلك ما لم يمكن تنفيذه في الحين، لأنهم كانوا قد تقدموا كثيرا. وبالعكس أخذوا يصيحون على أصحاب الأسطول أن ينزلوا بسرعة، لكن المركيز لم يرد أن يخاطر بنفسه، فبدأوا ينسحبون، عندما رأوا أنهم لن يغيثوهم قطعا، وقد داهمهم عدد كبير من الأعداء، حتى اضطروا إلى التقهقر، فاقتفى المغاربة أثرهم وقتلوا وأسروا كثيرا منهم. فان يوحنا هورتا دو دي مندوسة، وغرسية دي كسمان، وكونزالي دي مِدْران، وعددا من النبلاء الآخرين من ذوي الحيثيات لقوا حتفهم هناك، كما أسر فرانسيسكو فيرودوكو، وصانشو دي بَيادْمة، الذي كان يقود جنود موتْريل، ودم جيرونيمودي لاكويفا، ابن أمير أدْرادي، مع آخرين كثيرين أدوا فدية ضخمة. وعاد الباقي إلى مالقة بخيبة كبيرة، تاركين عدوهم يزهو بانتصاره، وبذلك بقيت القلعة بأيدي المغاربة إلى ان استولى عليها الأتراك، عندما احتل صالح رايس عامل الجزائر فاسا، وسلّمها إلى مولاي أبي حسون، أمير بادس، كما ذكرنا ذلك في تاريخ الشرفاء.

محاولة صانشي دي ليفي الإغارة على نفس المكان

لمّا كان حسن باشا، عامل الجزائر، قد انسحب من أمام وهران، ورفع الحصار على المرسى الكبير، كما سنذكر ذلك في مكان آخر. وكان فيليبّ الثاني قد جمع أساطيل إسبانيا وإيطاليا لانقاذ هذين الموقعين، وعلم أن القلعة ضعيفة، وأن حاكمها ذهب لشن غارات على البلاد المسيحية آخذا معه جميع الجنود. فإنه أمر فرانسيسكو دي مندوزا، قائد الأسطول الاسباني أن يهاجم القلعة بأسرع ما يمكن وأكثر ما يستطيع من السرية، حتى لا يدع الأسطول بدون فائدة، ويفرج هذا القلق عن الاسبان.

وعندما كتب إليه حاكم مليلية[13] يخبره بأن علجين مسلمين من بادس أتياه وعرضا عليه أن يسهلا له الدخول اليها، أمر المركيز بأن يبلغ مشروعه إلى هذا الحاكم، وأن يصحب معه هذين العلجين، ويستعمل القوة إذا لم تنجح الخدعة. ولما وصل هذا الأمر إلى المركيز وكان مصابا بالمرض الذي مات منه، فإنه عهد بتنفيذه إلى دم صانشي دي ليبفي، قائد أسطول نابل، بموافقة أهم الضباط، وذلك حتى لا تؤخر عملية بهذه الأهمية، مع أنه لم يكشف عن حقيقتها. وبعد أن قبل ليبفي المهمة، وأركب جميع الجنود[14]، غادر مرسى مالقة، وأرسى يوم الغد بجزيرة أربُلان، على بعد ثلاثين فرسخا من هناك، حيث صرح للرؤساء بالمشروع، وعجل بإرسال سفينة حربية إلى عامل مليلية ليحمل اليه المسلمين. ويطلعه على ما كتبه إلى صاحب الجلالة. ولما وصل تبين إليه أن تقريرهما غير ثابت[15]، ورغم ذلك لم يتخلوا عن تنفيذ العملية وفق أمر الملك، وإرسال عامل مليلية معهما، على متن أسطول دم ألفاري باصَّان، لمحاذاة رأس بابا ليلا. وهناك تسلم اليهم الجنود والأشياء الضرورية لتسلق القلعة. ولما نزلوا إلى البر، سلم دم ألفاري الى هذا العامل ثلاثين من النبلاء، فسار معهم ومع الجنود الذين أتى بهم من مدينته، بقيادة العلجين المسلمين، لكنه، بعد أن تقدم قليلا، رأى النهار يقترب، فعاد لذلك أو لسبب آخر دون أن ينجز أدنى شيء. إلا أن سيره لم يكن من الخفاء بمكان فاكتُشف من أعلى القلعة حيث دق جرسُ الانذار على الفور وأُطلق عيار مدفع لاشعار أهل بادس بحمل السلاح، فاضطر إلى الابحار من جديد. لكن دم صانشي دي ليبفي، الذي رأى فشل الحيلة، لجأ الى القوة، فتلقى طلقات مدفعية الحصن، لدى مروره قرب الصخرة، ونزل إلى برج القلعة. وكان أول من وطئت قدمه الأرض هم فرسان مالطة، مع جنود أسطول صافوْاوفلورانس، أي بمجموع خمسة آلاف رجل. وبعد أن صفوهم للقتال، توجهوا نحو بادس، لتسهيل عملية القلعة باحتلال هذا الموقع. فأخذ دم صانشي المقدمة، مع بعض النبلاء والضباط، محاولا استطلاع القلعة. وبينما كان الجيش يسير عبر مسالك وعرة صعبة، حمل المغاربة، الذين كانوا قد تجمعوا من الجبال، على فرقة من الجنود ترافق الطعام الذي كان خدام دم صانشي قد أخذوه من السفن ليحملوه إلى بادس، فهاجموهم فجأة بعنف شديد، ولو أن عددهم لم يبلغ الخمسين، إلى درجة أن الخفير المؤلف من

(13) بيدرو فايكاص.

(14) في 24 يوليو.

(15) كانا يقولان انهما يعرفان مكانا يمكن التسلق منه دون أن يشعر بذلك أحد.

أزيد من ثلاثمائة جندي لاذ بالفرار، فنُهبت جميع الأواني الفضية، وأُخذت المؤن، وقتل أو جرح بعض جنود وخدام دم صانشي، مع بعض جنود السفن الذين كانوا يحملون الغذاء على أكتافهم. وقد تم كل ذلك في وقت قصير، حتى إذا أسرعوا للانقاذ كان العدو قد انسحب. فتابعوا طريقهم الذي كان على مسافة فرسخين، ودخلوا المدينة فلم يجدوا فيها أحدا، لأن السكان كانوا قد انسحبوا عند رؤية الأسطول، والتحقوا بالجبال مع نسائهم وأولادهم وكل ما أمكنهم نقله. وليست هذه أول نكبة أصابتهم في هذه العملية. ذلك أن دم صانشي، وهو مقيم في المدينة مع جنوده، وقد قلت عنده المؤن والذخيرة الحربية التي استهلكت في المناوشات، أمر قائد[16] أسطول صافوا بالسير مع مائتين من جنوده، وسرية من الاسبان، كي يعززوا السفن التي تركها مكشوفة، آمرا إياهم أن يرسلوا إليه المؤن والعدد. فهاجم هذه الجماعة الصغيرة من الجنود وهي تسير في نظام حسن مغاربة هذه الجبال، واشتبكوا معهم في القتال من الساعة الثالثة مساء إلى الليل، دون أن تتكبد أية خيبة، لأنها كانت تسير في صفوف متراصة، وتقاوم جيدا، لكن لما أرخى الليل سدوله، وتضاعف الهجوم، مع صراخ البربر، والحجر المقذوف من أعلى الصخور، فزع الجنود وقتل منهم مائة وخمسون وجرح أزيد من ثمانين. وعندما بلغ الضجيج المعسكر، أتى إليه دم صانشي مع سائر جنوده، بحيث إن الأعداء لاذوا بالفرار، وهرب باقي المنهزمين حسب استطاعتهم بواسطة الزوارق والقوارب التي أرسلتها اليهم السفن الحربية. ولما عاد دم صانشي إلى بادس، بعد ثلاثة أيام، وقد تعرف على الصخرة من جهة البر[17]، إذ لم يمكن استطلاعها من الجهة الأخرى، قدَّر أن العملية مستحيلة، إضافة إلى أنهم كانوا بحاجة إلى عدد أكثر من الجنود، بسبب كثرة المغاربة الهارعين من جميع الجهات. فعزم على الانسحاب. وبعد أن أمر السفن الشراعية الحربية بمحاذاة الشاطىء ليتأتى إركاب الجنود، وإطلاق عيارات مدفعية لاقصاء الأعداء، انصرف مع غروب الشمس. وكانت الأمتعة تسير في الأمام، مخفورة بفرقتين من رماة البنادق، يتبعهما المشاة مرتبين ترتيب القتال. بينما بقي القائد في المؤخرة مع فرسان مالطا، وجنود فيلق صافوا، فسار على طول الشاطىء محاذيا الصخرة، وطلع إلى السفينة مع جميع جنوده في نظام محكم. وتوجه من هناك إلى مليلة لاستطلاع هذا المستنقع، لكنه عاد إلى مالقة التي انطلق

(16) كوت دي سوياسك

(17) في اتجاه المنار

منها، بسبب الرياح المعاكسة. وفي هذه الأثناء، رجع حاكم الصخرة إلى حصنه، وسكان بادس إلى ديارهم، ولم يدم فرحهم إلا قليلا، كما سنذكر ذلك فيما بعد.

انتزاع الصخرة من أيدي الأتراك على يد
دم غرسية دي طوليدي

كان لاخفاق هذه العملية تأثير عميق في قشتالة، بحيث إن ملك إسبانيا، في السنة الموالية[18]، بعد أن جمع (حكام) الولايات في مونصون، بدعوة من ممثلي أراكون وبلنسية وقطلونية، عزم على أن يحاصر مرة ثانية هذا المكان الذي كان يستعمل كمجمع لكل أعراب بلاد البربر، ويزعج كثيرا التجارة. ومن جهة أخرى، أخبر بأن الأسطول البحري الذي كان الأتراك قد خصصوه لعملية وهران، والذي كان الملك اتخذ ضده استعدادات كبرى، لن يسير تلك السنة، فعين كقائد عام له دم غرسية دي طوليدي نائب ملك قطلونية، وأمره أن يجمع كل السفن الحربية بإيطاليا، بما فيها سفنه وسفن الملوك الآخرين، الذين راسلهم بهذا الصدد، وأن يُركبوا فيها خمس عشرة فرقة اسبانية من الفيالق القديمة، وثلاثة آلاف ألماني، كان كونت حنبال قد جاء بهم من بيي مونط، ليسير إلى بحار الغرب[19]. وأمر بإعداد سفن اسبانيا في الجهة الأخرى، واستنفر ستة آلاف جندي من قشتالة، واستريمادور، والأندلس، وقام باستعدادات كبرى في المدفعية، والذخيرة الحربية، وكل ما هو لازم لهذه العملية. ولم يخف هذا الأمر فوصل الى علم الاتراك الذين لم يدروا أين كانت ستنزل هذه الصاعقة، فجهزوا جميع حصون الشاطىء، وعززوا حرس الصخرة بمائة تركي إضافة الى الخمسين الذين كانوا فيها. ثم إن قارا مصطفى، الذي كان حاكم الصخرة بعد أن زوّدها جيدا بالعدد والمؤن وأقام بها كتائب، عيَّن أحد العلوج المسلمين[20] كان يضع فيه ثقة كبيرة، فسار الى مضيق جبل طارق في مركبين شراعيين يتسقط أخبار مخططنا. ولما اجتمعت كل الأساطيل الحربية في مالقة، أرسل دم غرسية دي طليدي أسطول البرتغال ومالقة لترسى قرب الصخرة مع الغليونة وكرافيلات البرتغال التي كانت في ماربيلا، ثم

(18) سنة 1564.

(19) 7 من نابل، و 14 من صقلية، ونفس العدد من بيي مونط.

(20) فيتيدا رايس

توجه[21] الى بلاد البربر مع باقي الأسطول. كان هناك سبع وسبعون سفينة ملكية[22] أي اثنتا عشرة من نابل بقيادة دم صانشي دي ليفي، واثنتا عشرة لأندري دوري، واثنتا عشرة لألفاري بَصّان، والسبع التي تحرس المضيق، وواحدة للقس لوبيان، وأربع لرهبان إسبانيا، وعشر من صقلية بقيادة دم فادريك دي كرنجال، وخمس لمالطا، وست لفلورانسا، وأربع لصافوا، وأربع لمارك انطوان كولون، وثلاث للوميلينس جنوة، واثنتان لبنديال، وثمان للبرتغال كان دم سيبستيان قد أرسلها مع غليونته وأربع كرافيلات من أسطوله، وألف وخمسمائة جندي من بينهم ثلاثمائة من النبلاء جاءوا ليشاركوا في هذه العملية، مع الأمر أن ينفذوا كل ما سيطلبه منهم الملك فيليب. وكانت هناك بالاضافة الى ذلك خمسة عشر زورقا وسفينة نقل، محملة كلها بالعدد والمؤن، فكان الجيش في آخر غشت على مرأى من الصخرة. وعندما ابصر الأتراك هذا الجيش الجرار، عرفوا حينا مقصده، واستعدوا للدفاع. فبدأوا بإحراق ثلاث سفن كانوا قد أخذوها منذ قليل خوفا من أن يستعمل المسيحيون خشبها في العملية. وفي هذه الأثناء، أصدر دم غرسية أمرا إلى مارك سانتوريون بالتقدم مع أسطوله، وكذلك إلى الأمير دي ليفي بأسطوله، لاستطلاع الساحل مع برج القلعة، وبستيون كان المغاربة قد شيدوه على جانب البحر لينظروا هل هناك حامية، ومن أين يمكن مهاجمتها إذا ما استعدت للدفاع. وعندما رأى أصحاب الصخرة الأسطول يقترب، استعملوا المدفعية، فأرغمتهم على إرخاء القلوع، والتوجه إلى البرج. ولما رأى المغاربة الذين كانوا في القلعة أو بستيون البحرية الأسطول يقترب منهم، غادروه تاركين فيه أربع قطع من المدفعية، وفروا الى المدينة، ومن هناك الى الجبال، مع جميع السكان. وبما أن سفن الأسطول حاذت الشاطىء بدون مقاومة، أرست في الميناء حيث كان دم صانشي قد أقبل في السنة الماضية، وتوقف دم غرسية في نفس المكان، وهو يشير إلى الجنود أن يستعدوا، فألقى بالزوارق الصغيرة في الماء، جاعلا في كل زورق مدفعين صغيرين، وأنزل المشاة والأسلحة في أيديهم. وعند ذلك ظهر على الشاطىء بعض المغاربة، منهم مشاة وفرسان، منعوا من مناوشتهم تحت طائلة الموت حتى لا يتفرق الجنود. شرع الرواد أولا في تشييد معقل على الشاطىء وأحاطوه بخندق جيد، لخزن المؤن والعدد التي يريدون إنزالها، ثم نصبوا فيه أربع قطع من المدفعية، وحفروا بعض الآبار، حتى

(21) في 29 غشت.

(22) 90 في المجموع، دون غليونة البرتغال و 4 كرفيلات، و15 زورقا وهوركة واحدة

لا يبتعدوا في البحث عن الماء ويتعرضوا لخطر الأسر أو القتل. إن أمير سان ـــ جورج، وفرانسيسكي دي مولينا الذي كان يقود المدفعية، اجتهدا في بناء المعقل الذي أنهي في ساعات قلائل، واذخرت حينا فيه المؤن والمدفعية والعدد. وبعد ذلك أُمِّن الشاطىء كله بالحرس، سواء في برج القلعة أو في أي مكان يستطيع الأعداء أن ينزلوا منه، واحتُلت تلال أعلى الجبال المحيطة ببعض فرق رماة البنادق، الذين منحوا الزاد لثلاثة أيام، حتى لا يتعبوا في المجيء لاخذه يوميا، أو في إرساله إليهم. وفي هذه الأثناء، ذهب دم غرسية، وشابين فيطيلو، وآخرون من الأمراء الحاضرين، على متن سفينة حربية لاستطلاع الصخرة، ومعاينة المكان الذي يمكن قصفه بمدفعية السفن. وفعل مثلهم دم ألفاري بَصّان، ونبلاء آخرون من جانبهم، وعادوا بعد أن لاحظوا جونا صغيرا ملائما لذلك. وفي يوم السبت ثاني شتنبر، عُقد مجلس تقرر فيه أن ينطلق الجيش بكامله إلى بادس، إذ بالاستيلاء على المدينة وقمة جبل مجاور،(23) يستطيعون بضمان أكثر أن يهاجموا المكان. وفي المساء أعطي الجنود ظروفا وسلالا فيها مؤن وذخيرة تكفي لبضعة أيام. وبعد أن تركوا حرسا قويا في الحصن وبرج القلعة، انصرفوا صباح الأحد، متوجهين مع باقي الجيش الى المدينة. كان هناك أربعة آلاف رجل من أجناس مختلفة وزعوا إلى ثلاثة فيالق، كان دم صانشي دي ليبفي يقود المقدمة مع الراهب يوحنا ديشي وجنود مالطة، وكان أخوه دم ألفونس يقود سرايا فوج نابلي، وأربعمائة جندي من أسطول دم ألفاري بصّان. وكان من بينهم عدة نبلاء ومتطوعين، وأربع قطع من المدفعية، يجرها الرواد بشيء من العناء، بسبب صعوبة المسالك، والى جانبهم فرقتان من فرسان الملك حاملي البنادق يسيرون في كل جهة، على طول الجبال والتلال(24). وتأتي بعد ذلك الأمتعة وهي محزومة كما ينبغي، يتلوها فرانسيسكي بارِّيطي، الذي كان قد قدم منذ اليوم السابق بالغليونة وكرافيلات البرتغال، وهو يسير المعركة التي كان فيها جنود البرتغاليين وأفواج لومباردي وصقلية، مع الجنود الذين استقروا باسبانيا، وفرقتين من جنود الملك أمروا بالانتشار عند الحاجة لحماية الأمتعة. وكانت فرقة الميسرة قد أبعدت قليلا لتلتحق بقمة الجبال والأماكن الخطيرة. وكان في هذا الفيلق النبلاء البرتغاليون الذين أتوا بأمر من أميرهم لأداء الخدمة بهذه المناسبة. وفي مؤخرة الجيش الكونت حنبال مع الجنود الألمانيين، وفرقتين من رماة

(23) حىل ىاىا.

(24) خوفا من أن يحتل العدو المرتفعات المجاورة.

البنادق الآخرين، إحداهما مكونة من جنود فوج لومباردي، بقيادة القبطان يوحنا ديسبوش، والثانية مكونة من البرتغاليين تحت إمرة يوحنا دي سيكيرا الضابط في الأسطول البرتغالي، وعلى رأسها بعض قطع المدفعية. وكان دم يوحنا دي فيلا رويل، برفقة الدركيين، لمدينة غرناطة[25] يطوفَ هنا وهناك للاستطلاع. وسار شابين فيتيلو الذي كان يقوم بمهمة رقيب المعسكر في المقدمة، مع بعض الدركيين والجنود المنقطعين، لاستطلاع المكان الذي يجب أن يقام فيه المعسكر. كان دم غرسية يتنقل في كل مكان، بصفته رئيسا حازما، مشجعا جنوده الذين اعتراهم بعض العياء، سواء من جراء صعوبة المسير أو من شدة الحر ونقصان الماء. وعندما وصلت مقدمة الجيش الى أعلى الجبل الذي يتحكم في بادس، قام الحاكم وبعض قادة البربر المجتمعين بهجوم عنيف، وقتلوا وجرحوا البعض، لكن رماة البنادق من الفرقتين، والجنود المنقطعين، حملوا عليهم وأرغموهم على الانسحاب. ولما اجتازت المقدمة بالأمتعة والجيش، حمل أزيد من ألفي مغربي من بينهم نحو مائة فارس وعدد من رماة البنادق على المؤخرة بشدة بالغة، حتى إنّ القائدين ديسبوش وسيكيرا اضطرا إلى الاسراع إليها برماتهما، كما أسرع المغاربة لامداد ذويهم، وسقط الكثير من الموتى والجرحى من الجانبين، واضطر المسيحيون إلى تصويب المدافع ضد عدوهم إلى أن ألجأوه إلى الانسجاب، وأخيرا وصل دم غرسية، وهو يتابع سيره بالجيش كله الى بادس، حيث كان شابان فيتيلو قد أعد المنازل دون أن يجد مقاومة، لأن السكان كانوا قد فروا إلى الجبال بأسرهم وما أمكنهم حمله. ولما أخذ الجيش مراكزه، قام دم غرسية بدورة حول الساحة من الداخل والخارج، مصحوبا ببعض النبلاء. وعندما علم أن بعض المغاربة التجأوا إلى بريج[26] في أعلى الجبل متصل بالمدينة بشقة جدار، أمر سرية بالذهاب إليهم لاخراجهم من هناك، فتَمَّ الأمر بسهولة. ونصبوا في الحين حرسا حول الساحة، وحفروا خندقا في أعلى الجبل المطل على الصخرة، حيث ركزت خمس قطع من المدفعية، وبعض الجنود لحراسة هذا المركز. فظلت الصخرة محاصرة من هناك، بحيث لا يمكن إمدادها من جهة البر، وكان المعسكر في مأمن من محاولة الأعداء. ثم أُعطي الأمر لِقَنْبَلَة الساحة، وأقيم حصن في المرسى الصغير الذي استطلعه القائدان على جانب الماء من جهة الغرب، وضع فيه استحكام بارز ونصبت فيه مدفعية غُطيت ببعض الأشجار

(25) كانوا يسمون «ليجيي».

(26) يسمى رباطا، أو منسكا، من أحل ولي أقبر فيه، ويزوره كثيرا سكان هذه المناطق، ويقيمون فيه الصلاة كل يوم جمعة

المقطوعة. وفي هذه الأثناء، وبينما كان جانتان دوريا يعطي الأوامر لانزال المدفعية، قصف دم غرسية الصخرة من جهة البحر، بواسطة غليونة البرتغال وأسطول مالطة، كل منهما في مكانه. ووقع الرد على ذلك بقصف شديد من القلعة لكن دون كبير ضرر. وبمجرد ما أنزلت المدفعية إلى البر توقف الأسطول عن القصف وابتعد. ولما أنهيت عملية إقامة الاستحكام ركز فوقه ستة مدافع ضخمة لقصف أبراج الصخرة. وعندما تم كل شيء قام دم غرسية الذي كان يريد احتلال المركز بدون إراقة دم، فأنذر المحاصرين بواسطة القبطان اسبيجو، متعهدا بأن يدعهم يذهبون حيث شاءوا بأسلحتهم. فصعد وبيده راية بيضاء للأمان، لكن القائد[27] أجاب في عجرفة بأن القلعة بيد الله[28]، وأن الحامية لا تهاب المسيحيين، وعليه أن يعود بسرعة من حيث أتى إن لم يرد أن يطلق عليه النار. وعقب هذا الجواب أمر دم غرسية بإطلاق المدفعية بشدة بالغة إلى أن هدمت ثلاثمائة طلقة كل الجزء الذي كان يمكن مشاهدته من البرج والجدار، وحُطمت ثلاث قطع من المدفعية كانت فيه. وفي ذلك اليوم، قام ثلاثمائة مغربي، من بينهم بعض الفرسان، بهجوم مباغت على سرية[29] كانت تحرس في أعلى تل وأخرجوها، غير أنها أنقذت في الوقت المناسب من طرف مائة من رماة البنادق، الأمر الذي جعل المعركة أكثر ضراوة، ومات فيها تسعة مسيحيين فضلا عن خمسة وعشرين جريحا، لكن المغاربة هزموا في الأخير، ومات منهم ثلاثون، وجرح أكثر من مائة، وطلعوا إلى المرتفعات. ولما أقبل الليل أمر دم غرسية بنقل المدفعية من الاستحكام إلى فوق صخرة ملتصقة بمضيق القلعة، حيث كان الأتراك يسحبون مراكبهم، وذلك لتكون أكثر فعالية وقربا. فلم يتم ذلك دون كبير خطر على الرواد، لأن الأعداء انتبهوا إلى ذلك بسبب القرب، فقتلوا البعض منهم تحت نور القمر. لكنهم فقدوا الأمل في حماية الصخرة بنجاح عندما رأوا أن دفاعهم غير مُجد، وأن المسيحيين يتقدمون خطوة خطوة، فطلبوا من قائدهم أن ينقذهم قبل أن يمزقوا إربا إربا فحاول عبثا أن يطمئنهم. ولما رآهم مصرين على ذلك خرج معهم دون أن يفوه بشيء لمن كانوا يحرسون من جهة المدفعية، فانحدر إلى البحر وأخذ زورقا صغيرا كان قد أخفاه، وهو من زوارق أحد المراكب التي أحرقت، فركب متنه مع من استطاع أن يسعهم،

(27) فيتيد رايس.

(28) تحتمل عبارة القائد أيضا ان القلعة ملك للامير الكبير أو السلطان

(29) هي سرية فرانسيسكو دي مندوسة

حاملا معه ما أمكنه من الأسلحة والمعدات، بينما لم يستطع الباقون الصعود إلى الزورق فأخذوا يسبحون، بحيث إنه لم يبق في القلعة سوى ثلاثين رجلا. وقال الذين أُسروا من بينهم فيما بعد إن ذلك القائد كان قد أوهمهم بأنه سيجمع الجبليين ليحملوا على معسكر المسيحيين، ثم يعود فورا. لكن، مِن بين الثلاثين الذين بقوا عندما رأوا أن وعوده كاذبة، ارتمى الذين كانوا يحسنون السباحة فورا في الماء، وعزم الآخرون، ولم يكن عددهم سوى ثلاثة عشر، على التفاوض ليلا قبل أن يكتشف ملجأ أصحابهم. لكن أحد العلوج المسلمين خرج وأخبر أندري دوري بذلك، فأرسله إلى دم غرسية. وليتأكد من حقيقة قوله، صعد مع بعضهم إلى الجدار، ولما أبصره الذين كانوا في الداخل، جعلوا راية في رأس شقة رمح. وإذ ذاك خرج مغربي اقترح تسليم الساحة شريطة أن يوفى لهم بما وعدوا به من قبل. فأرسل أندري دوري هذا المغربي إلى دم غرسية الذي أخبره بأن العلج قد أطلعه على وضعية القلعة، وألقى عليه القبض دون أن يلبي رغبته في أي شيء، وأرسل ضابطاً مع بعض الجنود للهجوم على القلعة، فصعدوا إلى الأعلى، وقبل طلوع النهار وقفوا أمام الباب، ففتحه الأتراك، ودخلوا مع أندري دوري. وأسر جميع الأتراك، ونهب الجنود عدة أثاث ومؤن كانت في البرج. وفي نفس اليوم[30] دخل دم غرسية إلى المركز مع جميع النبلاء، وعندما شاهد القلعة حمد الله على هذا الانتصار السعيد. وترك فيها حامية من ثلاثمائة إسباني مع عدد من المهندسين والبنائين والرواد ليعملوا في التحصينات، كما ترك عددا كبيرا من المدفعية، والعدد، والمؤن. وأسند حكمها إلى يوحنا بيريس دارنالطي، ثم عاد إلى المدينة وفتح فيها أبوابا في شتى الأماكن، وبعد ذلك أبحر مع سائر الجنود. إلا أن المغاربة الذين كانوا قد فروا إلى الجبال، حملوا على ثلاثمائة من الجنود أثناء انسحابهم، محدثين صراخا وجلبة، فهزموهم، لأنهم أكثر من ألفين، وقتلوا وجرحوا بعضهم، رغم أنهم قاوموا باستماتة، لكن دم بوبي دي فِيكْوِيرُووَا أسرع إليهم بمائتي جندي وبعض المتطوعين، فردوهم على أعقابهم وسهلوا انسحاب الآخرين. وعندما أقبل حاكم بادس بمعظم الجيش ليساند رجاله، أشار دم لويس اوزوريو، رقيب المعسكر، الى دي لوبي بالانسحاب. غير أن بعض النبلاء الشبان[31] الذين كانوا

(30) 4 سبتمبر

(31) هم دم يوحنا دي كرمان، اس مركير دارداليس، وكنت دي سانكتيستيفان، ودم هرناندو هاريكر، ودم كرستوفال دي بيا فيديس، الخ.

معه ناشدوه ألّا يفعل شيئا من ذلك حتى لا تمنح هذه المزية للأعداء. فقاوموا المغاربة بعض الوقت، إلا أنهم انسحبوا وهم يناوشون عندما لاحظوا أن عددهم في تزايد مستمر. وفي هذه الأثناء أقبل دم غرسية مع المؤخرة، فأرسل دم دييكو دي كرودي مع مائتين من رماة البنادق ليحمي انسحابهم. ومن جهة أخرى، كان دم لويس اوزوريو قد أرسل منهم مائة لاغاثتهم مع راية دم لوبي. وبينما كانوا ينسحبون جميعا وهم يقاتلون، أقبل دم دييكو في الوقت المناسب، فتركهم يمرون وبقي مع بعض النبلاء وجنود المؤخرة، لكن مركيز دارداليس وكنت دي سانتيستيفان كانا يقاتلان بضراوة شديدة، حتي إن دم لويس أوزوريو، الذي ذهب لتخليصهما مع بعض جنود الملك، قتل للاسف بطلقة نارية، وانسحب الباقون وهم يقاتلون نحو الشاطىء، إلى أن وصلوا إلى جانب الماء. وقتل في ذلك النهار أربعون إسبانيا، فضلا عن عدد كبير من الجرحى، ومن بينهم بيدرودي كيفارا. وفقد المغاربة أكثر من ذلك العدد، والتحقوا ببادس، عندما رأوا أن جهودهم غير مجدية، وأنهم يُقصفون من البرج، وعاد دم غرسية إلى مالقة، حيث خصصت له استقبالات حارة، وحمد الله على هذا النصر. وبقيت هذه القلعة منذ ذلك العهد لملك اسبانيا يقيم فيها حامية قوية مع كمية من المدفعية والذخيرة الحربية.

الفصل الثامن والستون

يلّيش[32]

مدينة صغيرة واقعة على الساحل[33]، أسسها القوط ــ حسب ما يقال ــ على مسافة فرسخين من بادس في اتجاه الشرق. لها ميناء صغير تلتجىء اليه السفن الكبيرة الذاهبة الي بادس عندما يهيج البحر ولا يسكنها سوى صيادين يعيشون دائما على تخوّف من المسيحيين، ولا يكادون يكتشفون وجود باخرة في البحر الّا فروا إلى الجبل، أو إلى غابة قريبة مكسوة بالصنوبر العالي. هم تابعون لبادس، ويقيمون في أكواخ من الأغصان على جانب البحر، أو في منازل رديئة من طين، بحيث إن لمساكنهم شكلا مغايرا تماما لشكل المدينة ولو أنها تعتبر كذلك.

(32) كتبت في الأصل بالسين المهملة

(33) البحر المتوسط

الفصل التاسع والستون
تَغَسَّة

هذه مدينة صغيرة أخرى تضمُّ نحو ستمائة نسمة، أسسها الأفارقة القدامى بعيدة عن الشاطىء بنصف فرسخ على ضفة نهر تغسة الذي يجعل بطيموس مصبه في الدرجة الثامنة والدقيقة الثلاثين طولا وفي الدرجة الخامسة والثلاثين عرضا تحت اسم تالود. الأرض المحيطة بالمدينة وعرة كثيرة الصخور، بحيث إن السكان يحملون بحراً كل ما يحتاجون إليه. يتكسبون بصيد السمك وبعض الكروم الصغيرة والبساتين الواقعة على ضفة النهر. غداؤهم العادي خبز الشعير والسردين مع بعض البقول، لأنهم يفتقدون اللحم تماما. عوائدهم وتصرفاتهم خشنة، لذلك فهم أعداء ألداء للنصارى كسائر سكان الاقليم.

الفصل السبعون
جَبْهَة

مدينة صغيرة ذات أسوار متينة، أسسها الأفارقة القدامي مسامتة للشاطىء[34]، على مسافة ثمانية فراسخ من بادس في اتجاه الشرق. وهي خربة تماما، ولو أن بعض البربر يأوون إليها لوجود بعض البساتين والكروم، وفيها المياه المتدفقة من الغابات المجاورة، والجزء الباقي من البلاد كله جاف قاحل لا ينتج أي شيء من الحبوب. يقيمون هناك إذا كانت بعض الجنود تحرسهم، وإلا التجأوا إلى الجبال، حيث يكونون آمنين أكثر مما يكونون عليه داخل الأسوار. وهناك رأس قريب جدا كان القدامى يسمونه رأس الزيتون، لكثرة الزيتون البري فيه. يجعله بطليموس في الدرجة التاسعة طولا والدرجة الرابعة والثلاثين والدقيقة السادسة والخمسين عرضا.

الفصل الواحد والسبعون
المزَّمة[35]

مدينة قديمة أسسها الأفارقة على جبل شاهق يطل على الساحل[36]، يفصل بين إقليم الريف وإقليم كرت. تدل آثار المزمة على أنها كانت في القديم قوية وآهلة بالسكان، ويقول المؤرخون إنها كانت حاضرة أمراء البلاد إلى أن خربها

(34) بحر اسابيا.
(35) في الأصل المحمة أو المرمة انظر الحسن الوزان، وصف افريقيا، ص. 328، الهامش 130 (مترجم)
(36) بحر اسابيا.

خليفة القيروان الشيعي[37] لامتناع حاكمها من الاعتراف به، فحز رأسه بعد احتلالها، وأرسله إلى القيروان على رأس رمح[38]. وبقيت هكذا مدة خمس عشرة سنة، إلى أن رضي أن يعمرها من جديد بعض رعاياه، لكن ذلك لم يدم طويلا : لأن عبد الرحمن ثالث ملوك قرطبة، أرسل إلى حاكم المزمة بعد انصراف الخليفة منها يرغمه على الاعتراف به، إذ كان من الأهمية بمكان بالنسبة إليه اتخاذ هذا الميناء لعبور المحاربين إلى إسبانيا، نظراً لشجاعة هؤلاء القوم. وقد وعده أن يبقى من أجل ذلك سيداً على الاقليم كله، لكن الحاكم شكره على ما أراد أن يمنحه مما ليس له، وأجابه بأنه سيد المدينة، لأن الخليفة قد منحه إياها. فأرسل اليه عبد الرحمن الذي كان آنذاك في غاية القوة سواء في افريقيا أو في اسبانيا مَنْ أخذها منه عنوة، وحمل الحاكم إلى قرطبة حيث مات سجينا. ولم يعد تعميرها منذ ذلك العهد، لأن الأعراب لم يريدوا ذلك، حتى يتمتعوا في سلام بسهل جميل ممتد في أسفلها، طوله عشرة فراسخ وعرضه أربعة، حيث يجري نهر النكور الذي يحد هذا الاقليم. هؤلاء الأعراب تابعون لأمير بادس، وهم أغنياء بما يملكون من زروع ومواش. وعندما هاجم دم صانشي دي ليبفي صخرة بادس، تسربت بعض الفرق إلى هذا السهل لاختطاف بعض القطعان، فحمل عليهم المغاربة وقتلوا اثني عشر ومائة جندي.

يجعل بطليموس هذه المدينة في الدرجة التاسعة طولا، والدرجة الرابعة والثلاثين والدقيقة السادسة والخمسين عرضا، تحت اسم أكراط. وليس بهذا الاقليم مدن أخرى، قديمة أو حديثة، لأن سائر المساكن الأخرى واقعة في جبال غمارة.

الفصل الثاني والسبعون

الجبال وما فيها من مساكن

بني وَرْيَاكَل[39]

هو جبل قريب من ترغة، طوله ثلاثة فراسخ وعرضه فرسخ ونصف، وهو مغروس بالكروم وشجر الزيتون. لكن لا ينتج إلا القيل من الشعير، وليس فيه

(37) الموحدون (كذا).

يقصد ولا شك عبيد الله المهدي الفاطمي (297 ـــ 322 ـــ 909 ـــ 934) الذي قوي تدخله في المغرب الأقصى وصارع عليه طويلا كلًّا من الأدارسة وأمويي الأندلس. انظر حسن. ح. ابراهيم، **تاريخ الدولة الفاطمية** ص 83 ـــ 89 (مترجم).

(38) سنة 922

(39) يحمل السكان اسم الجبل، وهم من غمارة كسائر السكان الآخرين الذين سيذكرون فيما بعد، وذلك احتماما للتكرار في كل مكان. هذا وقد كتب في الأصل بالنون ـــ مصحجا ـــ (بني ورياكن) وسمى الحسن الوزان هذا الجبل «بني كرير» ص. 329. (مترجم)

ماشية، لذلك فإن السكان فقراء، ولو أنهم بالمقابل يشربون الخمر ويبيعونها بكثرة. إنهم قوم متعجرفون وغيورون جدا بسبب خلاعة النساء، مع أنهن غير نظيفات كأزواجهن. وشجر الأرز كثير هناك وفي سائر الجبال الأخرى بهذا الاقليم، وهو خشب عطر، صالح جدا لصنع السفن الكبيرة، لأنه صلب وخفيف، وتصنع منه أشياء جميلة يُعِزُّها سكان البلاد. وهذا الجبل هو أول جبل في الاقليم الغربي وملحقات ترغة، ويسميه بعضهم بني كَرير.

الفصل الثالث والسبعون

بني منصور

يقع هذا الجبل شرقي الجبل السابق، ويمتد في محاذاة الشاطىء على مسافة خمسة فراسخ، ولا يتجاوز عرضه فرسخين، وفيه غابات كبيرة مليئة بعدة عيون ثرة. وسكانه أقوياء رشيقون، لكنهم فقراء لا يقتاتون إلا بقليل من الشعير وشيء من الدخن والزيت، غير أنهم يشربون الخمر المستخرجة من بعض الكروم الواقعة على التلال،ويكسبون بعض الماعز. يقام في هذا الجبل سوق كل أسبوع، لا تباع فيه سوى الأطعمة، ويُكوِّن سكانه ثلاثة آلاف محارب، وهم تابعون لأمراء بادس، لكن ليس لهم سلاح غير السهام، والخناجر، والمقاليع. والحقيقة أنهم منذ أمد قريب أصبحت لهم بندقيات أو قذافات لا يحسنون استعمالها.

الفصل الرابع والسبعون

بَطُّويَة(40)

يقع هذا الجبل أيضا شرقيَّ الجبل السابق، وسكانه شجعان من فرقة غمارية تدعى بني بطوية. طوله خمسة فراسخ من الشرق الى الغرب، وعرضه ثلاثة من الجنوب إلى الشمال: وفي سفحه واد ينتج قمحا كثيرا، وكذلك التلال، لأن الجبل على وعورته كثير القمح والماشية، وفيه عدد من الكروم والبساتين. لذلك كان سكانه أغنى بربر الاقليم، علاوة على أنهم لا يؤدون إتاوة ولا ضريبة، رعيا لولي المكان المدفون قرب بئر خارج مدينة بادس، كما ذكرنا ذلك عند وصفها.

يسير هؤلاء القوم مجهزين تجهيزا جيدا، وهم محاربون حاذقون في استعمال الأسلحة، يملكون عددا من الخيول والبنادق والقذافات، لكنهم مع ذلك

(40) ويقال له أيضا بَطُّيوَه. وعند الحسن الوزان (ص 330) بقُّوية، (مترجم)

متوحشون لدرجة أنهم ينهبون كل من يصادفون في طريقهم، ويكرهون المسيحيين كراهية شديدة، ويكوِنون أزيد من ألف محارب، يساوون فعلا ثلاثين ألفا في جبالهم. لكنهم غير صالحين في غيرها.

الفصل الخامس والسبعون
بني خالد[41]

هو جبل صغير في الطريق المؤدية من بادس إلى فاس، وسكانه تابعون لأمراء بادس. وهو شديد البرودة مكسوٌّ بغابة كثيفة من الشجر العالي فيها كثير من الأرز والعيون، لكن الأرض جدباء لا تنبت القمح إطلاقا. وهناك كروم يستخرج منها الخمر والزبيب. ويكوّن سكان هذا الجبل ثلاثة آلاف محارب، يسرقون في الطريق الكبرى، ليؤدوا ضرائبهم من شدة فقرهم.

الفصل السادس والسبعون
بني منصور، جبل آخر

يقع جنوبي جبل بطوية. طوله ثلاثة فراسخ من الشرق إلى الغرب، وعرضه يزيد قليلا على فرسخ واحد. يسكنه قوم أشداء شجعان، لكنهم كُسالى لا شغل لهم طول النهار سوى شرب الخمر، لذا فإن لهم قليلا من القمح وكثيرا من الخمر. وهم شرسون غيورون لدرجة أنهم يقتلون من أجل نسائهم اللواتي يسرن دائما وراء قطعانهن، وليست خلاعتهن بأقل من عربدة أزواجهن، حتى إن أهل فاس إذا أرادوا نعت امرأة بعدم العفة قالوا إن طبعها كطبع نساء بني منصور اللائي يَسِحْنَ بينما يعاقر أزواجهن الخمر. يخشى جيران بني منصور هؤلاء الرجال لعجرفتهم وحدة طبعهم، ويكوِّنون فعلا ثلاثة آلاف وخمسمائة محارب، لكنهم لا يحاربون إلّا راجلين.

الفصل السابع والسبعون
بني يوسف

يوجد جبل بني يوسف شرقيَّ الجبل السابق، طوله أربعة فراسخ من الشرق إلى الغرب، وعرضه ثلاثة. يسكنه قوم بؤساء حالتهم أسوأ من حالة سائر سكان

(41) في الأصل سي قيلب أو سي حليب (مترجم)

الاقليم. ذلك لأن الأرض جدباء قاحلة لا تعطيهم إلا قليلا من الدخن، يطحنونه مع بزر العنب، فيجعلون منه خبزا أسود مثل الفحم، بحيث إنهم إذا أكلوا غيره اعتبروا ذلك طعاما شهيا لذيذا. يملكون شيئا من الماعز والأراضي الموروثة التي يسقونها من ماء العيون، فيقتاتون منها مع بعض البقول. كما أن لهم بعض الكروم النابتة بين الصخور، ولا يفوتهم، على ما هم فيه من بؤس، أن يؤدوا الخراج إلى أمراء بادس. ويكوِّنون أكثر من ثلاثة آلاف محارب، كلهم مشاة.

الفصل الثامن والسبعون
بني زروال

هذا الجبل أفضل من الجبال السابقة، ينتج كمية وافرة من العنب والزيتون، بحيث إن السكان أغنياء بما لهم من قمح وماشية لو أن أمراء شفشاون، الذين هم تابعون لهم، لا يثقلون كاهلهم بالضرائب. يقام في هذا الجبل كل أسبوع سوق للطعام يقصده الجبليون الآخرون. والسكان بسطاء منهمكون دائما في أعمالهم. يُكوِّنون ألفي محارب، من بينهم رماة البنادق وفرسان، وذلك منذ أن آلت شفشاون إلى علي بن راشد، إذ كانوا لا يعرفون ذلك من قبل.

الفصل التاسع والسبعون
بني رزين[42]

هذا الجبل بعيد عن الشاطىء[43]، ممتد نحو مدينة ترغة، وسكانه أغنياء متغطرسون لا يؤدون الضرائب سوى عشر قطعانهم وزروعهم. يستخرجون كمية من القمح والزيت والخمر، ويملكون عددا كبيرا من المواشي، ولا تزعجهم الحروب الأجنبية بسبب وعورة المسالك. إن أمراء بادس لمغتبطون بصداقة هؤلاء القوم، لأنهم شجعان يكوِّنون أزيد من أربعة آلاف محارب، مجهزين أحسن تجهيز، بأنواع البندقيات والقذافات. يتركون لزوجاتهم شؤون المنزل والحرث والرعي، ليتفرغوا للصيد بسبب كثرة طيور الغدران.

(42) في الأصل بني حسين أو بني رزين (مترجم)

(43) عند الوزان (ص 331) . يكاد يكون هذا الجبل ملاصقا للبحر المتوسط (مترجم).

الفصل الثمانون

(جبل) شفشاون[44] والمدينة التي تحمل نفس الاسم

هذا الجبل من ألطف جبال إفريقيا كلها، فيه مدينة صغيرة تحمل نفس الاسم، ويسكنها تجار وصناع موسرون، لكن الجبلين بربر من نفس قبيلة سائر برابرة الاقليم[45]. وقد شهر بعلي بن راشد الذي ملكه ببسالته، كما ملك الجبال المجاورة، وتلقب بملك وأمير شفشاون، لأنه كان يحمل إلى هذه المدينة جميع غنائمه، إذ كان في حرب دائمة مع البرتغاليين المقيمين في حصون الحدود، وأحرز عدة انتصارات، سواء في البر أو في البحر، برفقة المنظري أمير تطوان، وغيره من القواد الأبطال. وقد احتفظ بهذه الدويلة وبلقب ملكها منذ أن أقره فيها أبو سعيد[46] ملك فاس، إلى ان انتزعها عبد الله[47] من يد أحفاده، وأعطاها منذ أمد قريب لحفيد مومن العلج (كذا)، وهو الذي ما زال يحكمها باسم الشريف، وأُبعِد آل علي بن راشد إلى مراكش، حيث يعيشون عيشة الفقراء. أهل شفشاون رجال حرب، سواء منهم الراجلون أو الفرسان، يتباهون بالشجاعة. لذلك فإن علي ابن راشد قد أعفاهم من كل ضريبة، لكنهم اليوم يؤدونها. وهم مجهزون أحسن تجهيز. وتوجد حول المدينة عدة عيون، تسقى منها الأراضي التي تنتج كمية كبيرة من القمح، والشعير والقنب، والكتان. كما أن هناك عدة بساتين وحدائق للبقول والفواكه، وكثيرا من قطعان الماشية. ويكونون أزيد من خمسة آلاف محارب، من بينهم عدد من رماة مختلف البنادق، وبعض كتائب الفرسان، فضلا عن حامية الموقع المتركبة من ثلاثمائة فارس.

الفصل الواحد والثمانون

بني جْبارة

جبل وعرّ شاهق، واقع على الطريق المؤدية من تطوان إلى شفشاون، تنبع منه ومن الجبال المحيطة به عيون تكوِّن نهرا يسمى «حْلَف وْكَوزْ» إذ لا بد من اجتيازه أكثر من أربعين مرة للمرور من مدينة الى أخرى. ويوجد عبر الجبل كله

(44) في الأصل : شيشوان أو شيشاون. والاسم الأول ورد كذلك عند الوزان وما أثبتناه هو المشهور المعروف حتى اليوم، انظر كتاب الوزان، ص. 331، والهامش 133 (مترجم).

(45) عمارة

(46) وهمٌ من المؤلف. لأن شفشاون لم تؤسس إلا بعد مقتل عبد الحق آخر ملوك بني مرين بنحو عشر سنين (مترجم)

(47) لعله يقصد عبد الله الغالب وليس هو الذي خلع آل راشد، بل أبوه محمد الشيخ (مترجم)

كثير من الكروم وأشجار التين، لكن لا يحصد فيه قمح ولا شعير. تشاهد قطعان من الماعز بين هذه النباتات الخلنجية وبقرات صغيرات لدرجة أنها تبدو كعِجْلات. يسكنه قوم يحملون نفس الاسم، وهم فقراء متكبرون، يؤدون الخراج إلى أمير شفشاون. ويكونون أزيد من ألفي محارب، من بينهم بعض رماة البنادق، لكن ليس فيهم فارس.

الفصل الثاني والثمانون
بني يَرْزُو

هذا الجبل ألطف من السابق، وكان يقطنه عدة أشخاص ذوي حسب ونسب قبل أن يسود علي ابن راشد، إذ كان فيه علماء في الشريعة الاسلامية، وجامعة تلقن فيها الآداب والعلوم مثلما هو الحال بفاس. لذلك كانوا معفين من الضرائب، وكان يفد إليها كثير من الناس قصد الدراسة، لكن طاغية استولى على الجبل، بمساعدة ملك فاس، فأغلق الجامعة، وباع كتبها التي يزيد ثمنها على أربعة آلاف مثقال. توجد في هذا الجبل عدة عيون، ماؤها بارد جدا، لكن لا يُحصد فيه إلا قليل من القمح. كما أن هناك أشجار الزيتون والكروم، وغابات كبيرة من الأشجار المثمرة، مع قطعان كثيرة من الماشية الكبيرة والصغيرة. السكان ألطف وأقل كبرياء من سكان الجبال الأخرى، ويكونون أزيد من خمسة آلاف محارب.

الفصل الثالث والثمانون
بني تِيزِيرَان(48)

هذا الجبل المتصل بالجبل السابق والآهل بقوم متوحشين، كان فيه قديما قصور ومدن تدل من خلال أنقاضها على أن مؤسسيها هم الرومان. وأولائك المساكين الذين قلنا إنهم يبحثون عن الكنوز بجبل تغات(48م) يأتون أيضا إلى هنا للبحث عنها، وقد حفروا في كل مكان تقريبا، ومع ذلك لم يساعدهم الحظ في هذا المكان أكثر من غيره. توجد به كروم كثيرة وغابات كبيرة من الأشجار المثمرة، وتنبع فيه عدة عيون، ماؤها بارد جدا. ولا يحصد فيه إلا قليل من الشعير،

(48) عند الوزان · تيزرن (مترجم)

(48م) بإقليم فاس.

والماشية الكبيرة نادرة، لكن الماعز كثير، لأن البلاد مؤاتية له. السكان فقراء يؤدون الخراج إلى أمراء شفشاون، ويُكَوِّنون حوالي ألف محارب، لكنهم غير مجهزين كما ينبغي، وكلهم راجلون.

الفصل الرابع والثمانون
بني بوشيبت(49)

هذا الجبل في غاية البرودة والوعورة بحيث لا يزرع فيه قمح ولا تربى فيه ماشية، لكن هناك غابات جوز كبيرة تُموِّن منها مدينة فاس وسائر مدن المنطقة. السكان جِذْمٌ من غمارة، يُسمَّون بني شيبت، وهم أشرس سكان البلاد كلها. يلبسون مباشرة على جلدهم منسوجات من صوف على شكل معطف صغير، مع أحذية نصفية(50) في أرجلهم، وأشرطة من الصوف ملفوفة حول رؤوسهم يقاومون بها ثلوج هذه الجبال. أسلحتهم هي المقاليع والحراب، وطعامهم خبز الشعير والدبس، مع الفول وبعض السردين المملح، والثوم أو الثوم القصبي. وهم سكيرون يملكون كمية من الكروم تستخرج منها صهباء جيدة، ويصنعون كثيرا من الدبس، وأجود زبيب بإفريقيا كلها. يتباهون بالشجاعة، وهم أقوياء أشداء مجدون في العمل، يؤدون الخرج الى ملك فاس، ويُكوِّنون ثلاثة آلاف محارب، ليس من بينهم أي فارس، لكن فيهم عدد قليل من رماة البنادق.

الفصل الخامس والثمانون
بني وليد(51)

جبل شاهق وعر جدا يشِقُّ فيه السفر، وسكانه(52) أغنياء يرتدون لباسا حسنا، ولا يثقلون بالضرائب. فيه عدة كروم تنتج عنبا أسود ممتازا، يُجفف ويصنع منه الخمر أيضا، فضلا عن عدد كبير من الأشجار المثمرة(53). وقد منحهم ملك فاس هذا الامتياز، الذي يجدِّدونه كلما تغير ملك، هو أنه لا يمكن أخذُ أيِّ مجرم التجأ إليهم. ولا يريدون أن ينزعوا منهم هذا الحق، لأنه من صالحهم أن يُرضوهم.

(49) في الأصل : بني بوسيبت ــ بالسين المهملة أو بالزاي ــ وأثبتنا ما عند الوزان (مترجم)

(50) حذاء العلاج

(51) الأصل : وليد.

(52) بني وليد.

(53) من زيتون، وتين، ولوز.

ذلك أنهم إذا ثاروا صعب عليهم جدا إخضاعهم بسبب وعورة مسالك جبلهم الذي يضم ستين قرية حسنة، ويكوِّنون أزيد من ستة آلاف محارب، وتنتج الأرض كل ما هو ضروري لاعالتها، دونما حاجة الى البحث عنه في مكان آخر. وإذا أصابهم سوء، وهم يتجرون بفاس أو بمكان آخر، فإنهم لا يضيعون وقتهم في المطالبة بحقوقهم ، وإنما يختطفون أحد أقارب مَن أساء إليهم، ولا يطلقون سراحه ما لم يُرضَوا. وإذا امتنعوا من الذهاب إلى فاس، لم يؤدوا أية ضريبة، ولا يؤدون سوى ثلاثة ريالات في السنة عن كل كانون.

الفصل السادس والثمانون
مرنيسة(54)

يتصل هذا الجبل بالجبل السابق، وسكانهما من نفس الجنس،(55) لكنهم لا يتفقون أبدا مع بعضهم البعض، لأن النساء، لأدنى معاملة سيئة يهربن من أحد الجبلين إلى الآخر، حيث يتزوجن من جديد، فيتسبب ذلك في الغيرة والنكاية بينهم. ويتحاربون لاسترجاعهن. وإذا تصالحوا أحيانا اشترط في ذلك أن يفارق الزوج الجديد زوجته، أو يسدد مصاريف الزفاف التي هي مرتفعة عند المغاربة. ويقوم بعض الفقهاء بتسوية القضية، لكنهم يحرصون أكثر على أن يستغنوا من أن يحافظوا على الحق. هذا الشعب غني بالمواشي والكروم التي تنتج عنبا أسود، تعصر منه الخمر، ويصنع منه الزبيب والدبس. كما أن لهم العديد من شجر التين والزيتون الذي يعطي كَمية من الفاكهة والزيت، يحملونها إلى فاس أو إلى مكان آخر لبيعها ولا يؤدون كبير خراج، ويكوِّنون فعلا خمسة آلاف محارب مسلحين على طريقة البلاد، لكن ليس لهم فرسان، وفيهم قليل من رماة البنادق.

الفصل السابع والثمانون
آيشْتُوم(56)

جبل شاهق بارد تنبع فيه عدة عيون، ومنحدره مكسو بشجر التين، ينتج أجود تين البلاد كلها، وفي أسفل السهل حدائق تحمل دوما فواكه(57) جميلة ممتازة،

(54) في الأصل · نتي مرا أو بريرة، وأثبتنا ما عند الوزان (مترجم).

(55) عمارة

(56) في الأصل آكستان. انطر كتاب الوزان، ص. 334 والهامش 138 (مترجم).

(57) من تفاح، واجاص، وسفرجل، وخوخ، الخ...

وتوجد بين الكروم أشجار الزيتون التي تعطي الكثير من الزيت. وحيث إن السكان لا يؤدون إلى ملك فاس إلا شبه اعتراف، فإنهم أغنياء، لهم قصبة كبيرة مفتوحة تماما، يقيم فيها عدة صناع وتجار يتجرون بفاس فيأتون منها بالكتان، والصوف، والقماش، وما ينقصهم من أشياء أخرى. ويكوّنون ثلاثة آلاف محارب مجهزين أحسن تجهيز، من بينهم بعض رماة البنادق، إذ هناك العديد من النبلاء والتجار الأغنياء.

الفصل الثامن والثمانون
بني يَدْرْ[58]

جبل كبير يضم أكثر من خمسين قرية وستة آلاف محارب، كلهم مشاة، لكن السكان فقراء ولصوص كبار يسلبون المارة، وهم في خصام دائم مع جيرانهم بسبب لصوصيتهم. كانوا محررين في القديم، لكن أمراء بادس الذين غضبوا من سوء سلوكهم، أخضعوهم بمساعدة ملوك فاس، وألزموهم بأداء الخراج[59]. لهم كثير من الكروم التي تعطي عنبا أسود تعصر منه الخمر، ويصنع منه الزبيب، لكن ليس لهم قمح ولا شعير بسبب وعورة الجبل، وإنما لهم عدد قليل من المواشي.

الفصل التاسع والثمانون
لُوكَايْ[60]

جبل وعر شاهق، فيه عدة كروم تعصر منها خمر وردية، ويستخرج منها الزبيب. كما أن هناك بساتين كبيرة لأشجار التين والزيتون وغيرها تعطي كمية من الزيت والفواكه الممتازة كالتي في أوربا، مع الليمون الحامض والحلو والرمان. السكان أغنياء أثرياء يدعون الشرف أكثر من سائر سكان الاقليم، لكونهم معفين من الخراج، ولو أنهم لا يبعدون عن فاس إلا باثني عشر فرسخا، وذلك بسبب صعوبة مسالك جبلهم وكثرة عددهم. ومن جهة أخرى لا يمكن تجويعهم لوجود كل ما هو ضروري عندهم : يحصدون كثيرا من الشعير والدخن، ويملكون كمية من الماشية الكبيرة والصغيرة. ويجيرون عندهم مجرمي مدينة فاس إن لم يتعلق الأمر

(58) في الأصل : بني يدي

(59) سنة 1510

(60) كتب في الاصل : الكاي. انظر كتاب الوزان، ص 335. الهامش 139

بسرقة أو زنى، لأنهم غيورون جدا على نسائهم وأموالهم. وهم الآن تابعون أو بالأحرى متحالفون مع الشريف الذي يعاملهم معاملة حسنة جدا لوجود كثير من الشرفاء بينهم، ولأنهم يكوِّنون أزيد من مائة ألف محارب، من جملتهم عدد من رماة البنادق والفرسان.

الفصل التسعون

بني وَزْوال أو بني زَرْوال

هي ثلاثة جبال لا تكوِّن إلا كتلة واحدة تشكل الحدود بينها وبين الجبلين السابقين الذين يفصلهما عنها نهران صغيران ينبعان منها. سكان هذا الجبل أحرار شجعان، إلَّا أنهم لا يتمتعون بحرية الآخرين، لأن أمراء بادس يزعجونهم ويلزمونهم بأداء الخراج. هناك عدد من الكروم وأشجار الزيتون والتين الطيب الكثير الثمار، مع كمية وافرة من الكتان الذي يصنع منه القماش ومن الشعير والدخن. وفيه أزيد من مائة وعشرين قرية تضم كل منها ما بين مائة ومائتي كانون. وفي المكان الأكثر خصبا مدينة مسورة آهلة بالسكان تكتنفها غابات كثيرة وأشجار ذات ثمار جيدة[62] تباع في فاس وغيرها، لأنها أجود من التي بفاس نفسها. في هذه المدينة أكثر من مائة دار للتجار والصناع اليهود، لكن السكان متغطرسون بحيث يقتتلون لأدنى سبب. ويكوِّنون أكثر من خمسة وعشرين ألف محارب، من بينهم بعض رماة البنادق والفرسان، وهم في حرب دائمة مع جيرانهم. ولمّا كانت بلادهم غير محصنة، وبها عدة مسالك، فإنهم يعرضون أنفسهم طوعا لخدمة أمراء بادس وملوك فاس إذا ما احتاجوهم. وفي أعلى الجبل[63] فوهة يخرج منها لهب عظيم من الكبريت، مثل فوهة ليباري أو صقلية، وتقول العامة إنها فم جهنم. طول هذه الجبال الثلاثة مجتمعة عشرة فراسخ وعرضها ثلاثة[64] ويؤدي سكانها أكثر من خمسة وعشرين ألف أوقية سنويا إلى ملك فاس. وتقام في المدينة سوق كبيرة، يقصدها جميع الجبليين.

(62) من خوخ، وسفرجل، وتفاح، وإجاص، الخ...

(63) عند الوزان، ص 337 «وتوجد بهذا الجبل في مطل واد فرجة تشبه باب كهف يخرج منها لهب عظيم » والملاحظ أن الوزان شاهد ذلك بنفسه (مترجم)

(64) من الشرق الى الغرب.

الفصل الواحد والتسعون
بني ورياكَل أو بني ورياجل[65]

جبل كبير مجاور للجبال السابقة، يضم أكثر من سبعين قرية، يسكنها قوم شجعان في غاية الرشاقة، إذ من هناك يأتي أكبر المجرمين والفجار في بلاد البربر كلها. ويكوِّنون حقا اثني عشر ألف محارب، كلهم مشاة، ومن بينهم بعض رماة البنادق المختلفة. تمتد في سفح هذا الجبل سهول شاسعة إلى إقليم فاس، ويسقيها نهر اركَيل الذي هو سبب خصبها، بحيث يستخرج منها الكثير من القمح، والشعير والزيت والكتان، وبذلك يكون السكان في غاية الغنى لو لم يثقل أمراء بادس وملوك فاس كاهلهم بهذا القدر من الضرائب التي تكون دائما متأخرة، لأن البلاد ليست محصنة، فيضطرون إلى تحمل الارهاق، ويتخاصمون دوما مع جيرانهم من أجل الأراضي التي يزرعونها.

الفصل الثاني والتسعون
بني حامد أو بني أحمد

هذا الجبل وعر غير مستو، طوله ستة فراسخ من الشرق الى الغرب وعرضه فرسخان، ومع ذلك فإنه مكسو بالكروم وأشجار الزيتون والتين، وبغابات كبيرة من الأشجار المثمرة، لكن لا يحصد فيه القمح البتة. وماء العيون مرٌّ عكِر، ولو/أن التراب كلون الجير. السكان سكيرون، يطبخون الخمر لحفظها، بحيث تصبر لمدة خمس عشرة أو عشرين سنة. يصنعون منها قدرا كبيرا، وكذلك الدبس، بحيث تبقى لديهم طوال السنة، ويبيعون منها إلى جيرانهم الذين ياتون كل أسبوع الى سوق للطعام تقام هناك، ويقصدها تجار فاس ليشتروا الدبس، والزبيب، والتين، والزيت.

يكوِّن سكان هذا الجبل أربعة آلاف محارب، كلهم مشاة، وَهم فقراء مفسدون متعجرفون حتى إنهم يتشاجرون دوما مع جيرانهم . لكن ملوك فاس من جهة وأمراء بادس من جهة أخرى يضايقونهم بكيفية تجعلهم بؤساء، لا يستطيعون تحرير أنفسهم بسبب ضعفهم، بالاضافة إلى أنهم في خصام دائم فيما بينهم من أجل مختلف المسائل الموجودة هناك على الدوام.

(65) انظر كتاب الحسن الوزان، ص. 337، الهامش 141، (مترجم)

الفصل الثالث والتسعون
بني جَنْفَن أو بني زَنْطَن

جبل صغير طوله ثلاثة فراسخ ونصف وعرضه يزيد قليلا عن فرسخ، يفصله عن الجبل السابق جدول كبير، ينبع من العيون المجاورة. فيه عدة كروم يصنع منها الزبيب وتعصر الخمر، لذا فإن السكان سكيرون. لا يحصدون القمح إطلاقا، لأن التربة غير صالحة، لكنَّ لهم قطعاناكبيرة من الماعز الذي هو سندهم الأساسي، إضافة إلى أن الجبل مغطى بالحدائق. إنهم فقراء، لكنهم شجعان غالبون، يتحاربون دائمامع الجبليين الآخرين، ويكوِّنون ثلاثة آلاف محارب، كلهم مشاة، ويؤدون الخراج إلى أمراء بادس وملوك فاس.

الفصل الرابع والتسعون
بني مَزْكَلْدَة

هذا الجبل كبير مجاور للجبل السابق ولنهر أرجيل، تحيط به من كل جهة مساحات شاسعة من شجر الزيتون تعطي الكثير من الزيت. يتجر السكان بالصابون الذي يبيعونه بفاس وغيرها، وهم في حرب دائمة مع الأعراب الذين يجوبون البوادي المجاورة، ويكوِّنون أكثر من أثني عشر ألف محارب، من بينهم بعض رماة مختلف البنادق. وكان يدرس عندهم قديما علم السحر علانية، واعتاد الفقهاء والطلبة إفساد الكروم وحصائد جيرانهم بسحرهم، لكن الشريف محمدا حرَّم هذا العلم، مع أنه ما زال يلقن سريا، وزاد في الضرائب التي كانت قليلة جدا، لأن السكان كانوا يعولون الفقهاء والطلبة.

يذهب أعراب هذه البوادي إلى بادس عندما يلوح أسطول مسيحي في الساحل، وكذلك بعض بربر الجبال. يشربون كلهم الخمر، ولا يفوت فقهاءهم الذين يحرمونها أن يشربونها أيضا سرا إلى حد العربدة.

الفصل الخامس والتسعون
بني وَمُود

يقع هذا الجبل بالضبط في المكان الذي يلتقي فيه هذا الاقليم بإقليم فاس، ولا يفصله عنه سوى النهر. وهناك خمسٌ وعشرون قرية آهلة بالسكان الذين يؤدون

كل عام أزيد من ستة آلاف مثقال إلى الملك. ورغم قلة العيون، فإنه توجد على التلال كمية من الكروم وأشجار الزيتون. يُحصد فيه القمح، ويربى عدد كبير من الماشية الكبيرة والصغيرة. تجارتهم الأساسية هي الصابون. ونظرا لقرب مدينة فاس، إذ لا تبعد إلا بثلاثة فراسخ، فإن السكان أغنياء، لأنهم يذهبون إليها لبيع بضائعهم كل أسبوع. وبالتالي فإن الأرض خصبة ولو لم تسق، لدرجة أنه لا توجد قطعة من الأرض لا تزرع. والسكان متحضرون أكثر من سكان الجبال الأخرى، ويكوِّنون أربعة آلاف محارب من بينهم بعض الفرسان. وأخيرا فإن جميع سكان هذه الجبال من قبيلة غمارة، وكل واحد منهم يحمل اسم المكان الذي يقطنه، ويتشابهون في اللباس، والعوائد، والدين، وبخاصة في الحقد الذي يكنونه للمسيحيين. ولا يوجد جبل آخر في هذا الاقليم يستحق الذكر. ولنتحدث الآن عن إقليم كَرْت الذي هو سادس أقاليم مملكة فاس، إبتداء من الغرب.

الفصل السادس والتسعون

إقليم كَرْتْ [1]

هذا الإقليم الذي هو سادس أقاليم فاس، يحده غربا إقليم الريف ونهر ملولو[2] الذي ينحدر من الأطلس الكبير بين تازا ودبدو، ثم يسير ليصب في نهر ملوية، ويحده شرقا مملكة تلمسان ونفس النهر الفاصل بين هذه المملكة ومملكة فاس، وبالتالي بين موريطانيا القيصرية وموريطانيا الطنجية، ويحده شمالا البحر المتوسط، وجنوبا قسم من جبال تقع في المفازات المتاخمة لنوميديا. ويَنتهي كذلك في هذا المكان إلى نهر ملوية، ممتدا أحيانا نحو الغرب إلى جبال الحوز [3]، ومنحدرا دائما على وادي نكور حتى البحر. بحيث إنه يشمل جميع الساحل الواقع بين هذا النهر وملوية الذي يصب في البحر قرب مدينة غساسة.

هذه البلاد كلها وعرة جافة، تشبه صحراء ليبيا الداخلية. ويقسم المؤلفون الأفارقة هذا الإقليم إلى ثلاثة أقسام: قسم يشمل المدن وضواحيها، وقسم يشمل

(1) ويكتب أيضا بالطاء : كرط (مترجم)

(2) هو كذلك (ملولو) عند الحسن الوزان (ص 340) وصحح هناك بأن الحد هو نهر نكور، (الهامش 144) (مترجم).

(3) كتب في الأصل كور «يعني المرتفعات الجبلية شرق تازا» ــ كتاب الوزان، ص. 340. الهامش 146 ــ (مترجم).

الجبال التي يسكنها برابرة في غاية الشجاعة(4)، وقسم ثالث يشمل المفازات. تقع المدن على الساحل، وهي قليلة العدد، والجبال كثيرة السكان بينما تبدأ المفازات عند ساحل البحر، وتمتد نحو الجنوب إلى المفازات التي تحد إقليم الحوز. ويحد هذه المفازات من جهة الغرب الجبال السالفة الذكر، ومن الشرق، حيث تمتد على مسافة أكثر من ستة عشر فرسخا، نهر ملوية. طولها من الشمال إلى الجنوب عشرة فراسخ، لكن يوجد بها قليل من الماء في كل مكان، وخاصة في اتجاه البحر، علاوة على نهر ملوية، وكلها مليئة بالحيات والوحوش المفترسة، الشيء الذي لم يمنع البلاد من أن تكون كثيرة السكان. وفي الصيف يتنقّل أعراب كثيرون على طول النهر، وكذلك جماعات كثيرة من البربر الأفارقة(5) الشجعان الذين يملكون كمية من الخيل والإبل، وعددا كثيرا من الماشية الكبيرة والصغيرة. وهم في نزاع مستمر مع الأعراب بخصوص امتلاك السهول. وسنشرع في وصف البلاد مبتدئين بوصف المدن، وعددها أربع.

الفصل السابع والتسعون

مليليـــة

التي يسميها الأفارقة كرت ــ مليلة

مدينة أزلية يسميها بطليموس روسدير، ويجعلها في الدرجة العاشرة والدقيقة العاشرة طولا، والدرجة الرابعة والثلاثين والدقيقة الخامسة والأربعين عرضا. أسسها الأفارقة في داخل خليج، يبعد رأسه الذي يسميه البحارة رأس أنطريفولكوص، بخمسة وعشرين فرسخا(6) عن (طرف القصيص) الواقع على شاطىء مملكة غرناطة، على مسافة فرسخين من موطريل. تقع مليلية في سهل، ويشرف عليها جبل من جهة الغرب. كانت في القديم في غاية الغنى والعمران حتى إن مؤرخي البلاد يقولون إنها كانت تضم أكثر من عشرة آلاف منزل، وإنها كانت فيما مضى عاصمة الإقليم، ودار مقام حاكم المنطقة. ضواحيها شاسعة جدا تكنّ مناجم عظيمة من حديد كانوا يتجرون به كثيرا. كما كان فيها كمية من العسل والشمع، ومنه سميت المدينة، لأن معنى مليلية المعسولة بلغة البلاد(7).

(4) هم أولاد بطوية.

(5) من بطالسة

(6) عرض البحر في هذا المكان عند الوزان (ص 341) مائة ميل (مترجم)

(7) تبع في هذا ما عند الحسن الوزان. وقد صحح هناك في الهامش 148، ص 341 (مترجم).

وكان اللؤلؤ أيضا يستخرج من الخليج، وما زال فيه حتى الآن قليل منه. وبالإمكان أن يوجد أكثر لو تعاطى المسيحيون المقيمون هناك صيد الصدف الذي يحمله. لقد جعل الرومان من مليلية مدينة جميلة شهيرة، عندما كانوا يملكون موريطانيا الطنجية. ثم استولى عليها القوط منذ ذلك العهد، إلى أن جاء العرب فدخلوها أثناء فتوح أفريقيا، وجعلوها أكثر شهرة بما جلبوا إليها من أعداد كثيرة من التجار والصناع الذين استقروا فيها. بعد مدة طويلة، حاصرها خليفة القيروان الشيعي، ودخلها صلحا[8]، وترك فيها حامية من الجند. ومنذ ذلك العهد اشتغل سكان مليلية بالملاحة، وأخذوا يغيرون على الشواطىء المسيحية بالسفن الحربية المختلفة. لذلك أرسل الملكان الكاثوليكيان إليها جيشا[9] بقيادة دوق مدينة سيدونية. ولما علم السكان بهذا النبأ استنجدوا بملك فاس الذي بعث إليهم بخمسمائة رجل للحراسة، لأنه كان مشتغلا في حرب أخرى، فلم يستطع أن يحضر بنفسه. غير أن السكان انسحبوا إلى الجبال علماً منهم أن هذا الإمداد قليل تافه، فقام الجنود بإضرام النار في المنازل، بعد أن ثقبوا الأسوار في شتى الأماكن، ليمنعوا المسيحيين من الإقامة فيها. ثم عادوا إلى فاس. ووصل دوق المدينة في هذه الأثناء فأمر باصلاح الثُّلم، وبعد أن حصن المدينة في نطاق أصغر، شيد فيها قلعة جهزها بكل ما يلزم لحراستها. وبقيت منذ ذلك التاريخ، تحت تصرف هذه الأسرة إلى أن سلمتها في أيامنا هذه إلى الملك.

توجد في جهة الشرق من مليلية بحيرة[10] تزيد دائرتها على سبعة فراسخ، ويمكنها أن تسع ألف سفينة بدون خطر، وتقترب من المدينة إلى مسافة نصف فرسخ. وقبل ثماني عشرة سنة أحدث فيها مدخل إلى البحر، على بعد خمسة فراسخ من مليلية، في سفح صخرة تكون ممرا مرتفعا يصل عرضه في بعض الأماكن إلى مسافة رمية قذافة. وعند الجزر تستطيع السفن أن تدخل إلى البحيرة واحدة تلو الأخرى على طول الصخرة. لكن يجب أن يكون الربان ماهراً حتى يتجنب الرأس. وعند المد، تتكون أجراف رملية من ناحية الغرب، فتسمح بالدخول لعـدد من السفن المجتمعة، وعندما تهب الريح بقوة من جهة الشرق أو الشمال، يرتفع البحر على الرصيف، فتتجمع المياه في بعض الأماكن في المجوفات

(8) سنة 922

(9)سنة 1496.

(10) هي المسماة اليوم «البحر الصغير»

الموجودة بأعلى الصخرة التي كانت تستعمل كملاحات، يأتي إليها مغاربة المنطقة عندما كانت المدينة بأيديهم ليأخذوا منها الملح. لكن المسيحيين يتمتعون الآن بهذه الفائدة، ولا يستطيع المغاربة أن يأخذوا منه إلا بحد السلاح، أو بإذن من الحاكم. تقع هذه الملاحات على بعد أربعة فراسخ من المدينة في اتجاه الشرق، لكن يوجد على بعد نصف فرسخ من البحيرة حصن منيع[11] قد ركز فيه الشريف الحالي ثلاثة أو أربعة آلاف من رماة البنادق للحفاظ على أمن الأعراب الذين يرعون مواشيهم على طول البحيرة، ضد قرصنة المسيحيين والأتراك الذين يختبئون هناك. ذلك كل ما أمكن أن يقال باختصار عن هذه المدينة، وسنتحدث الآن عن أهم ما جرى بين المسيحيين والمغاربة.

انتصار أحد حكام مليلية على المغاربة

كان الفونس دُورِّيا، حاكم هذه المدينة، يتحارب في غالب الأحيان مع مغاربة المدن والجبال المجاورة،[12] وتغلب عليهم عدة مرات حتى إنهم لم يعودوا يجسرون على لقائه ما لم يكونوا أقوى منه بكثير. وذات يوم، عندما علم أنهم يتجمعون ليشنوا غارة على ولايته، وأنهم بدون قائد ولا كثير من الفرسان، ذهب ينتظرهم في خمسة وعشرين فارسا، ومائة وخمسين من رماة البنادق، ولما رأى أنهم يغطون البادية بكثرتهم، أمر كل فارس أن يردف معه راميا، ثم هاجمهم هجوما عاما، فأطلقوا النار من بعيد دون أن يصيبوا أحدا، لأنهم كانوا يرمون عاليا جدا، بالإضافة إلى أنه تراجع قليلا في مجال ضيق ليتعرض لطلقاتهم، كأنه لائذ بالفرار، ثم أنزل الخمسة والعشرين راميا إلى الأرض، وتجاوز إلى ما وراء ذلك، ولما أطلق هؤلاء نيران بنادقهم، وأقبل الأعداء في اضطراب، ظانين أنه هارب، كرَّ عليهم بفرسانه ومعظم الرماة، حتى لاذوا بالفرار. فقتل منهم أكثر من مائتين، وجرح ما يزيد عن ذلك وأسر خمسة وعشرين شخصا. وفي ذلك اليوم خرق فارس إسباني[13] بطعنة رمح ترس فارس مغربي في مكان الحلقة والوُسَيْدة لامسا ذراعه، ثم خرق كمه الزردي في مكانين، واخترق جسمه فأرداه قتيلا. وقد حوصر الحاكم من جهته في مضيق من طرف المغاربة الذين قتلوا فرسه وأسقطوه وبقيت ساقه محبوسة من تحته. وتلقى ضربات رمح في ترسه وسلاحه، وهو على هذه الحال،

(11) هو زنكراد.
(12) هي تروطة، ومزاية، وبني بطوية.
(13) هو بارطيليمي دي سوطو.

لكنه أنقذ في الوقت المناسب من طرف المشاة، وعاد إلى المدينة دون أن يفقدوا ولو رجلا واحداً. وفي الحين أرسل المغاربة يطلبون الإذن لدفن موتاهم، فمنحهم ذلك.

انتصـار آخـر

وبعد ما تولى بيدرو فنكّاص القرطبي حكم هذه المدينة، دارت بين الحامية والمغاربة معارك شتى، قتل وأسر فيها عدد كبير من هؤلاء. وكان اذ ذاك بتازوطا حاكم[14] من أشجع الناس، فكان غالبا ما يشن الغارات على ولاية دي فنكّاص، مصحوبا بعدد وافر من الفرسان والمشاة. وذات يوم، انطلقت الحامية ضدهم، كعادتهم، فاشتبك الحاكمان معا، وعندما التحما ليُسقط أحدهما الآخر عن المطية، أقبل فارس اسباني[15] على المغربي جِناباً، وطعنه برمحه فأرداه قتيلا. فانهزم المغاربة على الفور، واقتفى الاسبانيون أثرهم، فقتلوا العديد منهم، ومن جملتهم بعض الأعيان الذين جاؤوا مع هذا العامل.

ومنذ ذلك العهد، قام أحد المرابطين[16] في هذه الجبال ممن يُكن له هؤلاء البرابرة إجلالًا كبيرا، فأغراهم[17] بأنه سيسحر المسيحيين ومدفعيتهم، حتى إنهم سيحتلون المدينة دون خطر، فجمعهم على هذا الأمل، وتوجه نحو مليلية. وقد أُخبر الحاكم بذلك من طرف مغربي كان يتجسس له، فتأهب لملاقاتهم أحسن تأهب ممكن نظراً لضيق الوقت الذي عنده. وفي هذه الأثناء حضروا في الساعةالمعينة، وعلى رأسهم المرابط ومن معه من الأعيان وهم يذكرون الله تعالى. أخذوا طريق أحد أبواب المدينة القديمة، وقد ترك مفتوحا عمدا، لكن أُقيم فوقه خمسة عشر جنديا في برج، ومعهم براميل البارود وكمية من المتفجرات والأسهم النارية. ولما لم ير المغاربة أحداً ظنوا أن كلام المرابط صحيح، فتقدم منهم نحو مائة وخمسين ودخلوا من الباب الآخر، فشاهدوا به جنودا مسلحين، وحملوا عليهم متوهمين أنهم مسحورون. لكنهم قاوموهم فجأة حتى إنهم حين أرادوا الخروج من حيث دخلوا كان جنود البرج قطعوا عليهم الطريق فهاجموهم بأسهمهم النارية وقتلوا جلهم. فهرب المرابط بعد أن أصيب بثلاثة جراح[18]، وهو يصيح قائلا: إن

(14) هو بوعلو.
(15) هو جبل دريس.
(16) هو الشيخ محمد الكزناتي.
(17) سنة 1563.
(18) كان قد دخل من باب أبعد من هناك.

المدينة كانت ستحتل بدون خطر لو أن المغاربة لم يهاجموا المسيحيين الذين كانوا مسحورين في الباب الآخر. وكان يفتخر بأنه أصيب في رأسه بعدة طلقات نارية، لم تسبب له أي أذى، حتى إنه أقنع مرة أخرى هؤلاء البرابرة بالرجوع إلى المدينة. ولما وصل هذا النبأ أشاع الحاكم بأن المسيحيين قد سُحروا فعلا، وأنهم لم يكونوا يفكرون في استعمال مدفعيتهم لولا أن العدو أيقظهم. وحتى يعرب عن مزيد من الخوف كتب إلى عامل مغربي من أصحابه يطلب منه أن يصرف المرابط عما عزم عليه في مقابل مال كثير. ومر أكثر من شهر في هذه المفاوضات، قام خلاله بتعديل طفيف لسور المدينة القديمة، ونصب بابا محرفا في مدخل البرج حتى لا يتمكن الداخلون إليه من الخروج. ثم وارى جميع جنوده في البروج، والحصن والوُهَيد، وفي الأماكن الأخرى الضرورية، في الساعة التي أخبر بها، ومنع تحت طائلة الموت إطلاق النار أو البروز بدون إذنه. وفي هذه الأثناء أقبل المرابط في أزيد من خمسة وعشرين ألف رجل، كان قد أتى بهم من جميع الجهات[19] فزحفوا بنفس الثبات كالمرة الأولى، وهم يذكرون الله كذلك، ولما وجدوا باب المدينة القديمة مفتوحا دخلوا أفواجا. فأمر الحاكم حينا بإغلاق المُحَرب وقد دخل منهم أكثر من ستمائة، فأمر بإطلاق النار، وأخرج مائة وخمسين جنديا من باب خفيّ ليدوروا خلف السور ولا يتركوا أحدا يهرب. وقتل منهم أكثر من مائة وأسر أزيد من أربعمائة. وعندما رأى الآخرون أن الباب مغلق، وسمعوا دوي المدفعية والبندقيات، لاذوا بالفرار، ولم يظهر للمرابط أثر منذ ذلك الوقت خوفا من أن ينزلوا به عقاب خديعته[20]

الفصل الثامن والتسعون

غِسَاسَه

تقع هذه المدينة على بعد سبعة فراسخ من المدينة السابقة بحرا، وعلى بعد فرسخين فقط براً. أسسها أهل البلاد على رأس يحمل اسمها، ويجعلها بطليموس في الدرجة الثالثة عشرة والدقيقة الثلاثين طولا، وفي الدرجة الرابعة والثلاثين والدقيقة السادسة والخمسين عرضا، وتسمى ميتاكونيت. تقع مدينة غساسة

(19) كبني بطوية، وقلعة كرناية، وبني رنيتن، وبني وليد، وبني منصور

(20) أورد هذه القصة بأوسع مما هنا حسن الفكيكي في رسالته الجامعية **قلعية ومشكل الوجود الاسباني بمليلية**، ص. 169 وما بعدها، (مترجم).

بعيدة عن البحر بأقل من فرسخ قليلا، وعلى رمية حجر من نهر مُلُكان الذي يسميه بطليموس مُلُكات. كانت سفن البندقية تأتي إلى هذا الميناء، وهو مناسب إلى حد ما، وينشط فيه التجار كثيرا، بحيث إن ملك فاس كان يستفيد كثيرا من دخل الحمرك. وحيث إن هذا الملك كان منهمكا في حرب[21] ضد أحد أقاربه، فإن الملكين الكاثوليكيين أرسلا إلى غساسة دوق المدبنة، فتمكن منها بعد أن احتل مليلية، لأن السكان حين يئسوا من النجدة لم يجرؤوا على انتظار مجيئه، فالتجؤوا إلى فاس أو غيرها من الأماكن. وحصَّن الدوق القصر وترك فيه حامية، وبقي في كفالته إلى سنة ألف وخمسمائة وأربع وثلاثين، حيث إن الحاكم[22] الذي عين هناك مع أربعين جنديا قد أساء إلى ثلاثة مسيحيين، فتفاوضوا مع عامل تزوطة، وبعد أن اغتالوا الحاكم في سريره ليلا، سلموا القلعة إلى المغاربة، دون أن يطلع الجنود الآخرون على شيء من ذلك. فقُتلوا كلّهم أو أُسروا، باستثناء واحد مهم ارتمى إلى أسفل السور وذهب ليخبر أصحاب مليلية عوما في البحر.

بادر حاكم مليلية بإرسال سفينة شراعية إليها وأخريين من نوع الكرافيل بعد أن شحنها كلها بالجنود. وعندما شاهدهم المغاربة قادمين أخذوا ملابس وأسلحة الذين قتلوهم، وجاؤوا إليهم والبنادق القاذفة على أكتافهم، فظنوا أنهم من جنودنا وأن المدينة لم تؤخذ، فنزلوا إلى الأرض وقُتلوا أو أُسروا عن آخرهم. وقد قصّ عليَّ أحدُ هؤلاء الخونة بنفسه هذه الحكاية بفاس، حيث كان في حالة يرثى لها، يبغضه الجميع ويموت جوعا. وقد أسلم وسُمِّي سليمان.

خربت الآن هذه المدينة ودُمرت ولم يبق إلا القصر، وهو حصين مشيد على صخرة لا يمكن نسفها باللغم. وعندما يأتي مغاربة المنطقة ليحرثوا الأراضي المجاورة، يجعلون فيها حرسا، ليكتشفوا إن كان لا يوجد هناك كمين نصبه المسيحيون، لأنهم غالبا ما يأتون من مليلية وشاطىء اسبانيا ليأخذوا هناك بعض الأسرى. ولما سألت لماذا لم يُعد ملوك فاس بناء هذه المدينة، قيل لي بأن السكان لن يكونوا في أمان بسبب جوار مليلية، وإنهم إذا أقاموا بها حامية فإن المصاريف تكون أكثر من المداخيل.

(21) أي حرب تلمسان.
(22) هو لويس دي تشابيس.

الفصل التاسع والتسعون

تزوطـــة

مدينة صغيرة في داخل البلاد مشيدة على رأس صخرة، بعيدة عن مليلية بثلاثة فراسخ وعن غساسة بخمسة فراسخ. يقول المؤلفون الأفارقة إنها أسست منذ أمد قريب من طرف بني مرين قبل أن يصبحوا ملوك فاس، وإنهم كانوا يخزنون فيها حبوبهم وأمتعتهم، عندما كانوا يرعون مواشيهم عبر مفازات كرت التي لم يكن فيها آنذاك أحد من الأعراب، فكانت قلعتهم الرئيسية، لكنهم عندما عظم شأنهم بانحلال أمر الموحدين، استقروا بفاس وغيرها من المدن المهمة، وتركوا هذه إلى بربر[23] كانوا حلفاءهم ومن نفس القبيلة[24]. ولا يمكن الصعود إلى تزوطة إلّا بالدوران في مسلك صعب، وليس في داخلها بئر ولا عين، ولكن صهريج كبير يمتلىء بمياه المطر التي تسيل إليه عبر ميزابات. وقد دمرها ابن ثاني ملوك بني مرين[25] بسبب ثورة العامل، وبقيت خالية من السكان إلى احتلال مليلية، حيث إن أحد الغرناطيين الفارين إلى افريقيا، بعد أن طلبها من ملك فاس، عمَّرها من جديد ببعض الاندلسيين، وأخذ يشنُّ منها غارات على مسيحي غساسة ومليلية. ويقيم بها الشريف[26] الحالي عاملا تحت إمرته ستون فارسا وثلاثمائة من رماة البنادق القذافة، وهم آخذون حِذْرَهم باستمرار، إذ لو استولى عليها الترك لملكوا الاقليم، لأنهم يرغبون فيها كثيرا، نظرا لملاءمتها لمملكة تلمسان، ولتلك البحيرة الكبيرة التي لا تبعد عنها إلا بثلاثة فراسخ، بحيث إن هذه المدينة الآن هي عاصمة إقليم كَرتْ.

الفصل المائـــة

أمَجَّــاوْ[27]

مدينة صغيرة على بعد فرسخين من البحر، وأربعة فراسخ من المدينة السابقة، شيَّدها أهل البلاد على جبل شاهق يمتد عند قدمه سهل جميل ذو غلة وافرة، وحولها تلال مليئة بمناجم الحديد، وعدة قرى ومداشر يقطنها العمال الذين

(23) المطالسة.
(24) من بين زناتة.
(25) هو يوسف بن يعقوب.
(26) هو عبد الله.
(27) كتب في الأصل محيو.

يشتغلون هناك، وسكانها رجال حرب يفتخرون ويتباهون بالنبل والمروءة. المدينة حصينة بالطبيعة وبعمل الانسان، وكانت كسابقتها بأيدي بني مرين، إلى أن قام شاب أهلي من سلالة الموحدين، ابن حائك فقير، وقد اغتاظ من دناءة حاله، فانخرط في سلك جند بادس، وأصبح بكفايته الحربية قائدا لثلاثمائة فارس أخذ يشن بهم الغارات على أراضي غساسة ومليلية. فاكتسب بذلك شهرة حتى إنه حرض هذة المدينة على الثورة. ولمَّا رأى أنه لم يُجاز عن خدماته، قام باحتلال القصر بمساعدة عدد من الجبليين وأعراب كَرت. ولما دخلها مع خمسين فارسا من أصحابه أرسل أمير بادس لمحاربته ثلاثمائة فارس وألفا من رماة البنادق فهزمهم، وبعد أن سلح رجاله من أسلابهم أصبح قويا للدرجة أن ملك فا س الذي كان منشغلا في جهة أخرى، تفاوض معه وأقره على هذه الولاية، وأقطعه قرى وموارد للقيام بنفقة أربعمائة فاس، حتى يكون حاجزا ضد غارات المسيحيين وعاش هكذا إلى أن وافته المنية، وكان جنده أجود جنود البلاد. وخلفه الآن أحد أحفاده في الحكم، لكنه ليس مثله تماما، إذ يسيطر الشريف الحالي على جميع عماله.

الفصل الواحد بعد المائة
مساكن الجبال
كبدانة(28)

جبل كبير يطل من جهة على نهر مُلُكان، حيث يشكل شبه رأس ويسميه المسيحيون في هذا المكان جبل الدَّرق، أو الترس، ومن الجهة الأخرى المطلة على البحر يساند جبل قرمون، حيث كانت مدينة مشوشة(29) العتيقة، التي تبدو مبانيها كأنها من صنع الرومان. وقد خربها خليفة القيروان الشيعي، ولم ترم منذ ذلك العهد، ويقطن بعض البربر في أعلاها بمكان يدعى مشوشة الجديدة.

يمتد هذا الجبل من غساسة نحو الشرق إلى نهر ملوية، ومن البحر إلى مفازات كرت. يقول المؤرخون ان سكانها في القديم كانوا أغنياء شجعانا، وتجارتها رابحة. يوجد فيها الشعير والعسل بكثرة، وكذا الماشية الكبيرة والصغيرة. لكن

(28) كتب في الأصل بما يشبه «مكيوان» وهي عند الحسن الوزان : جبل كبدانة. وتتطابق معلومات الوزان مع ما نقله مارمول هنا ــ كعادته ــ باستثناء السطور الأربعة الأولى، والسطرين الأخيرين (مترجم)

(29) علق حسن الفكيكي في رسالته **قلعية** (ص. 14) على انه «لا يمكن مقارنة هذا الاسم الا بمروحة، لكن هذا لا تدل عليه الآثار» (مترجم).

أهلها اضطروا إلى مغادرتها ليقيموا في مكان آخر من شدة ما عانوا من المسيحيين على إثر احتلال مليلية، لأن تباعد القرى لم يمكنهم من إغاثة بعضهم بعضا. ثم عادوا إليها بعد استرجاع غساسة من يد المسيحيين، لكنهم ليسوا مرتاحين كذي قبل. ويسمّون بني سعيد وهم تابعون لتزوطة يؤدون الاتاوة إلى عاملها إسهاماً في نفقة الفرسان حماة الاقليم.

الفصل الثاني بعد المائة
بني سعيد

جبل كبير جدا، يمتد الى مدينة غساسة، ويتاخم إقليم الريف، حيث يفصل بينه وبين اقليم كرت نهر نكور. وهو منقسم إلى ثلاثة فروع : بني سعيد، وبني منصور، وبني وليد، وكلهم أغنياء أبطال من قبيلة غمارة. تنتج الأرض كثيرا من الشعير، وهي في غاية الصلاحية للماشية بسبب مراعي الأودية. كما أن في الجبل مناجم الحديد، وتنبع منه عدة عيون، وللذين يشتغلون فيه مصاهرهم ودورهم القريبة. يقصد الناس هذا الجبل من فاس لشراء حديد المحاريث(30)، وأدوات أخرى للحرث، وكور حديدية أيضا، إذ لا يسبك الحديد قضبانا في تلك البلاد مثلما يفعل في أوربا. وليس لديهم فولاذ، بل يستوردونه من مكان آخر.

في هذا الجبل قصر يسمى القلعة، وهو حصن البلاد. يخضع السكان لملك فاس، ويؤدون له الخراج، وان كان عددهم يفوق ثمانية آلاف محارب، منهم أكثر من خمسمائة من رماة البنادق المختلفة، مع بعض الفرسان، فإنهم غير قادرين على الحفاظ على حريتهم، لأن البلاد ليست قوية، وكانوا في حالة رعب دائم عندما سقطت غساسة في يد المسيحيين، لكنهم لم يتخلوا عن موطنهم.

الفصل الثالث بعد المائة
أَزْغَنْغَنْ

يمتد هذا الجبل من غساسة جنوبا، الى مفازات كَرت، وهو كثير العسل والشعير والماشية. يتجر فيه جميع أعراب الصحراء وبربرها أكثر من أي مكان آخر، لأنهم يفعلون ذلك بسهولة. وأكثر سكان الحبل أغنياء، لكن منطقتي الشمال

(30) وما إلى ذلك من الشكات الحديدية، والمعارف، والمعاول، الخ

والغرب خلتا عندما كانت غساسة بأيدي المسيحيين، ثم أعيد تعميرهما بعد ذلك. يخضع السكان لملك فاس، ويكوِّنون أربعة آلاف محارب، من بينهم عدد من الفرسان ورماة البنادق، يقدمون الخدمة لعامل تازوطة إذا ما احتاج اليهم. ويسمى هؤلاء القوم بني منصور.

الفصل الرابع بعد المائة
بني تُوزِينْ[31]

يتماس هذا الجبل بالسابق من جهة الجنوب، ويمتد من صحراء كرت الى نهر نكور عبر مسافة تزيد على أربعة فراسخ. السكان أغنياء شجعان، ولهم من جهة سهول كبيرة، يجنون منها كمية من الشعير، ويربُّون المواشي ولا يؤدون شيئا عن الأراضي التي يحرثونها، لأنهم أكثر بسالة ولهم عدد من الفرسان أكثر مما عند عمال تزوطة وبادس وأمجاو ثلاثتهم مجتمعين. إنهم يحبون جدا سكان هذه المدينة الأخيرة، لأنهم ساعدوا على ثورة ذلك الشاب الموحدي الذي تحدثنا عنها آنفا. وعندما كان بنو مرين ملوكا بفاس عاملوهم معاملة حسنة، لأنهم مثلهم من زناتة. وكانت أم سعيد، ثالث ملوك فاس من هذه الدولة، من هذا الجبل ابنة أحد النبلاء المرموقين فيه. إن الشريف الحالي يوليهم اهتماما كبيرا، ويتركهم أحرارا، لأنه محتاج إليهم في حروب تلمسان.

الفصل الخامس بعد المائة
وَرْدَان، في نفس الاقليم

يتماس هذا الجبل والسابق من جهة الشمال، ويمتد مسافة أربعة فراسخ على طول شاطىء البحر المتوسط، وثلاثة فراسخ نحو نهر النكور. والسكان أيضاً من زناتة، وهم قوم أغنياء شجعان أمجاد. يقيمون سوقا كل يوم سبت قرب نهر صغير، يفد إليه تجار فاس مع بربر الجبال وأعراب الصحراء لشراء الشمع، والزيت، والجلود وما يلزم الخيل من عدد وجهاز. لا يملك هؤلاء البربر كروما مطلقا، ولا يشربون الخمر كما يفعل أهل الريف، ولا يؤدون الخراج، وانما يقدِّمون في كل سنة هدية إلى ملك فاس، نقودا وخيلا أو عبيدا، محتفظين هكذا بحريتهم. وكانوا فيما مضى

(31) كتب في الأصل : «توزين أو ويزنة».

خاضعين لأمراء بادس، لكن فقيها شهيرا منهم قام بمحاولات مع ملك فاس إلى أن أدمجهم في مملكته مقابل هذه الهدية التي يمكن أن تتجاوز قيمتها ما قد يؤدونه كإتاوة. لكن هذه الهدية حرة ومنوطة بالشكل الذي يشاءون أن يقدموها عليه. يكوِّنون سبعة آلاف محارب، من بينهم أكثر من خمسمائة فارس، وعدد من رماة البنادق، كلهم في نظام حسن. ولا توجد مساكن هامة أخرى بهذا الاقليم. لقد تحدثنا أولا عن المفازات، فلْنتحدث الآن عن الاقليم السابع والأخير لمملكة فاس.

الفصل السادس بعد المائة
إقليم الحوز(32)

هذا آخر أقاليم مملكة فاس، يقع في أقصى الشرق، ويشمل عدداً من البلدان يفوق ما يشمله إقليمان من أكبر الأقاليم الأخرى. ولعل اسمه آتٍ من ذلك(33). طوله ثمانون فرسخا من نهر تِكريكرة الى نهر زا، ويحاذي(34) جميع جبال الأطلس الكبير الممتدة بين هذين النهرين، مع قسم كبير من سهول نوميديا، والجبال المحاذية لليبيا الداخلية. يقول مؤرخو إفريقيا إن أول أمير(35) لدولة بني مرين قسم أقاليم مملكة فاس عشرة أقسام، كما فعل قبله أول ملك لفاس(36) وإنه جعل منها ثلاثة في هذا الاقليم أعطاها إلى ثلاثة فروع من المرينيين المتحالفين معه، الذين أسسوا منذ ذلك العهد مدينة دبدو، ورفعوا من شأن تازا، وقاوموا الترك وسلطة الشرفاء. حقا إنهم تحالفوا منذ قليل أو بالأحرى خضعوا لملك فاس، الذي أولاهم اهتماما كبيرا، لأنهم نبلاء شجعان دافعوا دائما عن الاقليم ضد أمراء تلمسان. وهذه المنطقة كلها واقعة بين الجبال، ولا تمتد أصلا الى البحر، وإن قال بعضهم إن المحيط كان يغطي في غابر الأزمان كل إقليم أزغار، وإن المراكب كانت تصل حتى مدينة تازا. جميع جبال هذا الاقليم يسكنها زناتة، وهم في حرب دائمة مع أتراك تلمسان. وهناك عدة مدن وقرى.

(32) كتب في الأصل بما يشبه «كوزت» (مترجم).

(33) معنى الحوز «الكثير» بلغة البلاد (؟)

(34) في الأصل : «ويضم» وهو في الواقع يسامت ويحاذي (مترجم).

(35) هو عبد الحق

(36) هو ادريس.

الفصل السابع بعد المائة

المـدن

تَوْرِيرْتْ

مدينة عتيقة بناها الأفارقة القدامى في أعلى جبل على ضفاف نهر زا. تحيط بها عدة أراضي غنية بالقمح والماشية، وتفضي من كل الجهات الى مفازات وعرة قاحلة. ذلك أن مفازة كَرت تحدها شمالا، والظهرة جنوبا، وأنكَاد شرقا وغربا ممتدة إلى مملكة تلمسان، ومفازة تفراطة المنتهية كذلك الى مدينة تازا.

كانت توريرت في القديم من أهم مدن موريطانيا، وكان أميرها يجبي الخراج من جميع أعراب هذه المفازات وبربرها. وكان بها عدة مساجد وقصور كلها مشيدة بالحجر المنحوت. وهي مسورة بأسوار متينة، لكنها تضررت كثيرا منذ أن تولى المرينيون الحكم، بحروب تلمسان، وذلك بسبب مطامع شتى لهؤلاء الأمراء الذين أرادوا إخضاعها ليستحوذوا على الأعراب الموجودين بينهم. أقام بها الشريف الحالي حامية من الفرسان والمشاة خوفا من أن يحتلها الأتراك، وجعل المدفعية في القصر : لكنها ليست آهلة كذي قبل، لأن السكان ذهبوا ليقيموا بتازا وغيرها من الأماكن ابتعادا من الحدود.

الفصل الثامن بعد المائة

هدَّاجِيَّة

مدينة كبيرة أسسها الأفارقة القدامى في جزيرة يُكوِّنها نهران[37] يلتقيان بعد ذلك، وهي محاطة بأسوار متينة مزينة ببروج، وكانت في القديم عامرة آهلة ببربر من قبيلة زناتة، لكن العرب المسلمين عندما فتحوا أقاليم الغرب وانتشروا عبر الصحاري، أساءوا إلى السكان كثيرا. كما كان هؤلاء أيضا مضايقين من قبل جيوش فاس وتلمسان، حتى إنهم غادروا المدينة إلى مكان آخر، حيث إن جميع منازلها خربت، ولم يبق سوى الأسوار، وأما الحقول فإنها في مُلك الأعراب.

(37) هما نهر ملول ونهر ملوية.

الفصل التاسع بعدالمائة
كَرْسِيف[38]

مدينة صغيرة قرب نهر ملوية على بعد خمسة فراسخ من توريرت. أسسها الأفارقة القدامى من جذم بني مرين ليتخذوها مخزنا لحبوبهم وحصنا لهم عندما كانوا يقيمون في الصحاري. ولذا فإنها مشيدة على صخرة. وقد تركوها لذويهم منذ أن تولوا الحكم، ولما ثار السكان في عهد خامس ملوكهم[39]، أخذها هذا الأمير عنوة، واستولى على كل شيء، وخربها وهدم أجزاء من السور في أماكن مختلفة. وبعد ذلك سكنها قوم فقراء، لأنه توجد عند قدم المدينة أراض صالحة للزراعة، وبعض البساتين المليئة بكروم معروشات وغير معروشات، وبالفواكه والثمار التي يولونها إهتماما كبيرا في هذه المفازات. ولذا فإن السكان لا يقومون بتجارة أخرى، ويخزنون حبوب حماتهم الأعراب في مطامير، إذ لا يوجد بالمدينة أي منزل له سقف، وما هي إلا اصطبلات حقيرة مغطاة بالتبن والعروش وفوقها التراب. وكرسيف مثبتة في خرائط ليبيا لبطليموس في الدرجة الحادية عشرة طولا، والثانية والثلاثين وأربعين دقيقة عرضا، تحت إسم كَلافة.

الفصل العاشر بعد المائة
دَبْدُو

مدينة كبيرة على منحدر جبل شاهق، وعلى بعد عشرين فرسخا من مليلية في اتجاه الجنوب، أسسها أحد أمراء بني مرين عندما حكموا موريطانيا الطنجية. وتوجد في الأعلى عدة عيون تنحدر إلى المدينة. وهي تبدو من بعيد كأنها في سفح الجبل، ولو أنها تبعد عنه بأزيد من فرسخ، ويصعد إليها بالدوران في مسلك وعر صعب. كل الأراضي جدباء غير منتجة، ما عدا على ضفة النهر، حيث توجد بعض البساتين والحدائق. يملك السكان أراضيهم في الأعلى، لكنهم لا يستخرجون من القمح إلا ما يكفي لأربعة أشهر في السنة، ويكتالون القمح والشعير من تازا.

كانت هذه المدينة في الأصل حصنا لبني مرين، إذ أن عبد الحق لما فرق أقاليم مملكة فاس — كما أسلفنا — منح هذه المنطقة إلى بعض أقاربه[40]، الذين

(38) گرسيس أو گلافة

(39) أبو هارون (يعني يعقوب المنصور).

(40) بني ورطيناس. (كذا) ولعل الصواب ما عند الوزان : بني ورتاجن (مترجم).

شيدوا هذه المدينة لخزن حبوبهم، لكنها نمت منذئذ إلى أن أصبحت اليوم إحدى مدن افريقيا الممتازة. ولما حل الوطاسيون محل بني مرين، أراد أعراب المنطقة أن يخربوها ويطردوا منها السكان لكن هؤلاء دافعوا عن أنفسهم بشجاعة بفضل بسالة قائدهم[41] الذي تفاوض معهم منذ ذلك العهد وبقي أميرا على دبدو، حيث عاش عدة سنين. وخلفه ابنه أحمد، الذي كان بطلا شجاعا، فاحتفظ بهذه الامارة الى مماته، وخلفه ابنه محمد الذي كان أيضا من أكبر شجعان زمانه. وقد تمكّن في حياة أبيه من السيطرة على عدة مدن في منحدر جبل الأطلس المطل على نوميديا، كان قد استولى عليها عدد من الخواص عند انحطاط الدولة. فزيَّنها هذا الأخير بعدة مبان، وأقام بها تجارة كبيرة بفضل ما كان يعامل به الأجانب من ملاطفة ومساعدة، فسارت بذكره الركبان في كل مكان، ولُقِب ملك دبدو. وقد أراد أن يستولي على تازا بطلب من بعض رعاياه، لكن أول ملوك بني وطاس[42] علم بذلك فحاصر دبدبو، وعندما أراد الصعود إليها تظاهر السكان بالفرار، وكان عددهم يربو على ستة آلاف، فتركوه يتسلق قسما من الطريق، ثم انْهَالُوا عليه برمي الحجر والحراب بشدة إلى درجة أنه لم يستطع تحمل هذه العاصفة، فلاذ أصحابه بالفرار وقلب بعضهم بعضا في المضايق، وقتل منهم أهل دبدو ما يزيد على ثلاثة آلاف دون من سقطو أو تدحرجوا عبر هذه الصخور. ولم يمنعه ذلك من متابعة خطئه، فأحضر ثلاثمائة من رماة البنادق القديمة[43] وخمسمائة من رماة القذافات للامداد، فتقدموا خطوة خطوة، مصممين على عدم ترك المدينة ما لم تُحتل. ولما رأى محمد أنه غير قادر على مقاومة قوة بهذا القدر لجأ إلى الحيلة التالية : تظاهر بأنه مبعوث جاء من عند أمير دبدو ودخل إلى رواق الملك وسلَّمه رسالته. وبعد أن أمر الملك كاتبه بقراءتها واطلع على فحواها، أجاب : «قل لأميرك إن الأولى له والأحسن أن يستسلم دون أن يحاول مقاومة غير مجدية، فرد عليه قائلا إن ذلك هو رأيه، وهل سيعفو عنه الملك إذا أتى وارتمى بين رجليه، ولما أجاب الملك بنعم، وبأنه سيحسن إليه، بعدما اعترف بمروءته، طلب منه أن يؤكد ذلك بأداء اليمين أمام أكابر معسكره. وعندئذ ارتمى بين رجليه وقال له وعيناه مغرورقتان بالدموع إن مَن يمثل أمامه هو الذي أساء إليه : فانهضه الملك وعانقه ولاطفه ورافقه إلى

(41) هو موسى بن حمو.
(42) سعيد أو مولاي الشيخ (كذا)
والصواب أنه محمد الشيخ بن أبي زكرياء (مترجم).
(43) عند الوران 800 بدل 300.

المدينة، حيث زوج ابنتيه بابني محمد، وجعل الامارة له ولبنيه من بعده، ثم عاد إلى فاس البعيدة من هناك بخمسة وعشرين فرسخا. ومند ذلك التاريخ تلقب أمراء دبدو بلقب الملوك(44). ومع ذلك فمنذ إقامة دولة الشرفاء أصبح أمراء دبدو كأنهم خاضعون لهم، واضطروا إلى خدمتهم في حروبهم إلى أن مات مولاي أحمد أمير دبدو بفاس(45)، فاستولى الشريف الحالي على إمارته، ونصب بها عاملا وجنودا للدفاع عن المنطقة ضد الأتراك. وعلاوة على ذلك ظل يرسل كل ثلاثة أشهر إلى الحصن خمسين راميا من حرسه الخاص.

الفصل الحادي عشر بعد المائة
تازا(46) (أو تيزا باللغة الافريقية)

مدينة كبيرة(47) فيها عدد من الأعيان لأنها عاصمة الاقليم. لذا فأسوارها متينة محصنة ببروج، وهي في سهل خصيب يكثر فيه القمح والماشية. بعيدة بستة عشر فرسخا من فاس، وباثني عشر من دبدو، وبخمسة وعشرين من مليلية، عبر مفازة كرت، وبفرسخين من جبل مطغرة، حيث يقطن قوم شجعان من زناتة، حاربوا كثيرا ملك فاس. وفي تازا ما ينيف على خمسة آلاف دار مسكونة لكنها ليست سوى منازل حقيرة من طين، ماعدا المدارس والمساجد المشيدة بالحجر المنحوت.

يخترق المدينة نهر ينحدر من جبل مطغرة، بحيث إن البربر يحولون مجراه إذا كان لهم نزاع من السكان، فيكون هؤلاء مرغمين على أن يسالموهم على الدوام، وأن يقفوا بجانبهم. يتعاطى تجار فاس، وتلمسان وغيرهما تجارة كبرى في هذه المدينة. وهي تزود بالقمح جميع سكان السهول والجبال المجاورة، على مسافة تفوق ثلاثين فرسخا. أزقتها وساحاتها منظمة كما هو الحال بفاس، ويوجد في وسطها جامع أكبر من جامع فاس وثلاثة مدارس. معظم السكان أغنياء، يدعون المروءة. وفي الأودية الصغيرة المحيطة بها عدة بساتين تسقى بمياه العيون المنحدرة من الجبال، وتُعْطي ثمارا أجود من ثمار فاس. كما أن فيها كروما كبيرة في حدور الجبال يصنع

(44) كان ذلك سنة 904/1490 هـ.
(45) سنة 1563.
(46) كتبت في الأصل بكسر التاء وزيادة الراء في الأخير «تيزار» (مترجم).
(47) أسسها الأفارقة القدامى.

منها اليهود أحسن خمر في موريطانيا كلها. ذلك لأن فيها جالية يهودية تنيف مساكنها على خمسمائة دار. وبالقرب منها قلعة جميلة فيها قصر الأمير(48). ومنذ أن وزع أول ملوك بني مرين هذا الاقليم بين أقاربه، كانت مدينة تازا دائما من نصيب ثاني أبناء ملك فاس إقطاعا له يتخذها دار مُقامة لطيفة شتاءً وصيفاً، ويمكن أن تكون إقامةً للملك لشدة صحة هوائها وخصب أرضها. من أجل ذلك كان ملوك بني مرين يقضون فيها أكبر قسط من الصيف، بسبب البرودة والظلال، فضلا عن وجودها في الطريق الكبير المؤدي من فاس الى تلمسان، وعلى حدود إمارة كانت تثير فيهم الغيرة.

يقيم فيها الشريف (اليوم) حامية بسبب الأعراب الذين ياتون إليها كل سنة من صحاري نوميديا لشراء القمح أو استبداله بالتمر، فيزعجون السكان كثيرا، إضافة إلى أنه من الخطر أن يحتلها الأتراك وهي واقعة في طريق فاس. وفي تازا انتظر الشريف محمد (الشيخ) أبا حسون (الوطاسي) وصالح رايس، عندما علم أنهما يستعدان لمهاجمته، ومن هناك تراجع، كما ذكرنا في تاريخ الشرفاء. ويجعل بطليموس هذه المدينة في الدرجة التاسعة طولا، وفي الدرجة الثالثة والثلاثين وعشر دقائق عرضا تحت اسم طيفور.

الفصل الثاني عشر بعد المائة
صفرو(49)

مدينة صغيرة تضم أكثر من خمسمائة نسمة، وتحيط بها أسوار عالية عتيقة، وهي مشيدة على ربوة تبعد عن فاس بخمسة فراسخ، عند قدم أحد جبال الأطلس الكبير الذي يدعى أيضا صفرو. يحاذيها نهران من كلا الجانبين، وتقع في ممر الجبال الى نوميديا. ومن أجل ذلك أسسها الأفارقة القدامى لأمن هذا الممر، وتمتد على طول هذين النهرين مسافةٌ تنيف على فرسخين مكسوة بالأشجار المثمرة، من زيتون وكروم. وسائر البلاد المحيط بها أراض خفيفة رملية تنتج القمح والقنب والشعير، لكن قمحها قليل. المدينة غنية بالزيت التي تروجها بفاس وفي بعض قرى الجبل التابعة لها. وكانت صفرو في دولة مولاي محمد(50)، ملك فاس،

(48) هو عبد الحق.
(49) خالف مارمول هنا التسلسل المتبع من طرف الحسن الوزان، فأخر الكلام على جبال منطقة تازا الى ما بعد ذكر المدن (مترجم).
(50) يقصد محمد البرتغالي الوطاسي (مترجم).

تابعة لأحد إخوة هذا الأمير، لكنها خلت من السكان بسبب تعسفهم، ثم عمرها من جديد فيما بعد مسلمو إسبانيا والبربر، وآلت الى الشريف. وفي وسطها جامع جميل، يخترقه جدول ماء، وفي بابه سقاية كبيرة قديمة البناء. والغابات المحيطة بالمدينة مليئة بالاسد، لكنها لا تؤذي أحدا، وتفر حينما يتراءى لها إنسان

الفصل الثالث عشر بعدالمائة
مَزْدَغَة

مدينة كبيرة(51)، ذات أسوار جميلة عتيقة لكن ليس فيها سوى دور حقيرة، وإن كانت كل الأفنية تحتوي على أحواض وسقايات، لذلك فإن تأسيسها قديم، وهي في سفح جبل الأطلس، على بعد ثلاثة فراسخ من السابقة في اتجاه الغرب. السكان فقراء، وجلهم فخارون، يبيعون أوانيهم في فاس البعيدة من هناك بأربعة فراسخ في اتجاه الشمال. وهم دائما وسخون ملطخون بالزيت التي يتجرون بها، ومن جهة أخرى فإن كاهلهم مثقل بالضرائب، لدرجة أنهم يعيشون في بؤس.

تنتج المنطقة كثيراً من الشعير، والقنب والكتان، وقليلاً من القمح. وهناك بساتين كبيرة مسورة من الزيتون، وأشجار مثمرة أخرى من جميع الأصناف. وفي الأماكن غير المزروعة غابات كبيرة عالية مليئة بالأسد. يجعل بطليموس هذه المدينة في الدرجة العاشرة وعشر دقائق طولا، والثالثة والثلاثين عرضا، ويسمسها ملوكات، كما يسمسها بلين موليليكة.

الفصل الرابع عشر بعد المائة
بني بهلول(52)

هذه المدينة بعيدة عن فاس بأربعة فراسخ(53)، على منحدر أحد جبال الأطلس الكبير. أسسها الأفارقة القدامى لتأمين ممرات نوميديا. يسميها بطليموس سَنْتَة، ويجعلها في الدرجة التاسعة وثلاثين دقيقة طولا، والثانية والثلاثين وخمسين دقيقة عرضا. وهي محصنة بأسوار قديمة، لكن السكان في درجة من الفقر بحيث

(51) هي عند الوزان : صفروة (مترجم).
(52) عند الوزان : البهاليل. وهو الشائع حتى الآن (مترجم).
(53) لعل هذا تصحيف، والأصل 24 فرسخا. والمسافة عند الوزان . نحو 72 ميلا (مترجم).

إنهم يكسبون قوتهم بحمل الحطب الى فاس من الغابات المجاورة الواقعة في الجهة الجنوبية، لأن في الأماكن الأخرى حدائق كبيرة مسورة من بساتين وأشجار الزيتون، وأرض صالحة للشعير، والقنب، والكتان، لكن لا قمح هناك بتاتا، لأن البلاد لا تصلح له.

الفصل الخامس عشر بعد المائة
عين الجنون، أو عين الأصنام

مدينة كبيرة عتيقة، أسسها أهل البلاد في سهل بين جبال الأطلس الكبير، على الطريق المؤدية من صفرو إلى نوميديا. يقول المؤلفون الأفارقة إنه كان هناك معبد كبير يجتمع فيه الوثنيون في بعض الأوقات، رجالا ونساء عند مجيء الليل، وبعد أن يقدموا القرابين المعتادة، يطفئون القناديل ويختلطون عفويا إلى الصباح، فيعود كل واحد الى منزله. ومنذ خروجهم مِن ثَمَّ يحرم على النساء أن يضطجعن مع أزواجهن ما لم يعرف حملهن، وكان هؤلاء الأطفال الذين يأتين بهم يُعدُّون لخدمة المعبد. لكن خلفاء(54) محمد دمروا هذه المدينة رأسا على عقب لدى دخولهم الى موريطانيا، واستولوا على سكانها. ولم يبق إلا سقاية كانت في باب المعبد ـــ حسبما يقال ـــ وتُكوِّن الآن بحيرة كبيرة مستديرة، تخرج منها جداول تُـمِـدُّ بدورها جداول أخرى في الشعاب، وتسمى اليوم عين الأصنام.

الفصل السادس عشر بعد المائة
مهدية

توجد هذه المدينة بين جبال الأطلس الكبير، على قمة جبل أردن، في وسط غابة من الأشجار المثمرة، تسقيها عدة عيون. ويرجع تأسيسها إلى إفريقي من هذا الجبل يسمى المهدي، اشتهر كثيرا في موريطانيا، كإمام كبير للملة المحمدية. وقد استولى على هذا الاقليم وعدة أقاليم أخرى عند انحطاط إمارة مغراوة من قبيلة زناتة، وتولى أحفاده الحكم بعده إلى عهد المرابطين. لكن عليّ بن يوسف، ملك لمتونة، أسر السكان بعد أن أخذ هذه المدينة عنوة، وخربها تخريبا تاما(55) غير تارك سوى الجامع، نظرا لجماله وعظمته. ثم أعاد بناءها أحد ملوك

(54) هم العرب المسلمون.
(55) سنة 515/1.113 هـ.

الموحدين(56) بعد مدة طويلة، لكن ليس كذي قبل، إذ لم يُعد إقامة الأسوار، ولم يسكنها سوى مزارعين وعاملين في الحقول، يحرثون بعض الأراضي المجاورة فيستخرجون منها الشعير والكتان والقنب، ولهم بساتين مسورة من شجر الزيتون والأشجار المثمرة التي يسقونها بماء هذه العيون، لكنهم فقراء مثقلون بالضرائب من طرف ملوك فاس الذين هم خاضعون لهم.

الفصل السابع عشر بعد المائة
أمّ جُنيبَة

مدينة أسسها الأفارقة القدامى على بعد أربعة فراسخ من تَزَرْغَة إلى جهة الجنوب، وذلك لتأمين الطريق المؤدية من فاس إلى نوميديا. وكانت في القديم في غاية الغنى بسبب تجارة النوميديين، لكن الأعراب خربوها لينتفعوا باطمئنان من مواردها، والسكان الباقون فيها ليسوا إلا عبيدا لهم. ويعتقد الناس عامة أن ربوة غير بعيدة عن المدينة مَنْ طَلع اليها ولم يسر فيها وهو يرقص باستمرار تعرَّض للحمى بحيث إن جميع المارين بها يُشاهَدون وهم يرقصون ويقفزون، مثلما يفعل في «البّوى» أولئك الذين هم شديدو الهياج.

الفصل الثامن عشر بعد المائة
كَرْسَلْوِين

توجد في سفح الجبال التي ذكرناها آنفا مدينة في جهة الجنوب، أسسها الأفارقة القدامى على ضفة نهر زيز. وقد خربها الموحدون عندما أزاحوا المرابطين عن الحكم، ثم أعاد بناءها بنو مرين، فعمروها من جديد وزينوها بمبان ممتازة، لكنها انحطت بعد ذلك العهد شيئا فشيئا، حتى لم يبق منها إلّا الأسوار التي هي متينة تشاهد من بعيد، لْانها غير قديمة، وكذا بعض المنازل الحقيرة القليلة السكان، ذلك لأنه بعدما أصبحت البلاد بدون ملك بعض الوقت على إثر وفاة آخر بني مرين(57)، خربها الأعراب الذين كانت لهم بمثابة لجام. فلم يسكنها بعد ذلك سوى أناس مساكين، يملكون القليل من الماشية، ويفلحون بعض الأراضي في جهة الشمال، بينما الباقي ما هو إلا صخور وأراض قاحلة. وتوجد على ضفتي النهر عدة

(56) هو أبو محمد عبد المومن بن علي، أمير المومنين.
(57) هو عبد الحق.

طاحونات وبساتين. يكثر فيه صيد السمك، حتى إنهم يجففونه ويحفظونه طوال السنة. وقد حاصر مغراوة القدامى من قبيلة زناتة هذه المدينة، وبعد أن احتلوها حصنوها لحماية الممر من لمتونة، لكن ذلك كان عبثا، لأنهم دخلوا من جانب آخر،[58] وخلعوهم. وفي سنة ألف وخمسمائة وأربع وثلاثين انتزع الشريف[59] هذه المدينة من ملك فاس الذي استرجعها فيما بعد، ثم احتلها الشريف مرة ثانية وأقام فيها حامية ما تزال موجودة في دولة الأمير الحالي[60].

الفصل التاسع عشر بعد المائة
الجبال ومساكنها
زيز

هي سلسلة من خمسة عشر جبلا باردة وعرة، سميت باسم نهر زيز[61] الذي يخرج منها، وتحاذي إقليم فاس من جهة جبل الأطلس. تبتدىء في جهة الغرب بإقليم تادلا من مملكة مراكش، حيث يفصلها جبل دادس عن إقليم فاس، وتمتد حتى تخوم مسطاسة. ويحدها جنوبا إقليم سجلماسة[62] وشمالا سهول أَدَخْسان وتِكَرِيكَرة، بحيث إن طولها خمسة وثلاثون فرسخا من الشرق الى الغرب، وعرضها أربعة عشر. سكانها زناتة، وهم شجعان متوحشون، يتحملون البرد لدرجة أنهم ولو كانوا في ثلوج وجليد بهذا القدر لا يرتدون ملابس أكثر دفئا من البربر الآخرين اللهم إلا أنهم يلبسون نعالا من جلد، ويلفون خرقا حول سيقانهم، مشدودة بحبال، لكنهم يمشون مكشوفي الرأسِ طوال السنة. وهم لصوص كبار، يتحاربون دوما مع الأعراب الذين يسلبونهم ليلا قطعانهم في السهل. لذلك فإن مَن صادفوه منهم يؤدي عن الجميع، ثم يمزَّق حينا إرباً إرباً. جبالهم كلها مكسوة بالكلأ، لكن الأشجار فيها قليلة، والحيات كثيرة، حتى إنها تزحف في الديار كالكلاب والقطط، وتقترب عند تناول الطعام منتظرة أن يرمى لها بشيء منه، ولا تؤذي إن لم تُهاجَم. وهناك عدة قرى، مساكنها مصنوعة من خشب أو من حيطان مملطة بالطين والجبس ومسقفة بالتبن، لكن الأغنياء منهم لهم أكواخ من

(58) من أغمات
(59) مولاي أحمد
(60) ابن أخيه عبد الله.
(61) من المحتمل أكثر أن يكون هذا النهر هو الذي أطلق عليه اسم هذه الجبال لأنه يخرج منها.
(62) اقليم نوميديا.

حصير الأسل. ويربون كمية من الماشية الصغيرة، ويتجرون في فاس وسجلماسة بالصوف والسمن، وحتى بالحمير والبغال، إلا أنهم لا يذهبون إلى هذه المدينة الأخيرة ما لم يتراجع الأعراب إلى الصحاري، لأنهم قد يفتكون بهم. ويقدمون أحيانا خيامهم وقطعانهم، متربصين بهم لدى مرورهم لينتقموا مهم لأجل سرقاتهم. وهم غلاظ شداد بحيث لا يطلبون ولا يمنحون الحياة في المعركة، يقذفون بالحراب التي هم متمكنون منها تمكّنهم من القذافات، ويحصلون على نفس النتيجة، بالاضافة إلى آن لهم بعض البنادق. ويُكوِّنون ما يزيد على ثلاثة آلاف محارب، كلهم مشاة، ويغلبون دائما الأعراب في الجبال، كما أن هؤلاء يغلبونهم في السهل بسبب فرسانهم، لكن التجارة ترغمهم أحيانا على إبرام هدنة. إن جميع القوافل التي تمر بهذه الجبال تؤدي لهم الخراج عن كل حِمْلِ بَعير، وكلُّ مَن مر بدون جواز نُهب، ولو أنهم أصبحوا منذ زمن قليل خاضعين للشريف. إن اثنين[63] من هذه الجبال يكنان مناجم الفضة لكنهم قليلا ما ينتفعون بها، وما زالت تُشاهد فيها آثار مدينة[64]، جدرانُها من الخشب المملط بالجبص، وسكانها من المساكين.

الفصل العشرون والمائة
بني مْرَاسَن[65]

جبل شاهق شديد البرودة، سكانه بربر، يعيشون في أكواخ من عروش الأشجار، أو تحت حصر من الأسل منصوبة على أوتاد، لذلك فليس لهم مسكن قار، ولا يقيمون في مكان إلا بقدر ما يوجد فيه الكلأ لمواشيهم. يملكون مرابط كبيرة للحمير والابل، ويُنزون الخيل على الأُتُن فتنتج بغالا يبيعونها بفاس، ولهم منها عدد كثير. وهم أغنياء لا يؤدون الخراج لأي أحد، ونظرا لوعورة مسالك جبلهم، فإنهم يعيشون فيه بأمان لكن لا يفوتهم أن يقدِّموا كل عام هدية إلى ملك فاس، اعتباراً لاتجارهم مع رعاياه، ونظرا لأنهم شجعان، فإنهم يخدمونه أحيانا في حروبه. ويكونون أزيد من أربعة آلاف محارب في نظام حسن، ومن بينهم رماة لمختلف البنادق. يسيرون كلهم مجتمعين أعرابا وبربرا. لا يستعملون الخيل إطلاقا بسبب وعورة الجبل، ولو أن جلهم يملكونها. لا قضاة عندهم ولا فقهاء بل يعيشون مثل الوحوش بين هذه الصخور.

6) عدد وأركابر
6) هي قلعة ابن طوية.
6) كتبت في الأصل : مارسيان.

الفصل الواحد والعشرون والمائة
مسطاسة(66)

طول جذا الجبل نحو عشرة فراسخ وعرضه أربعة، وهو أدفأ من السابق، يتاخم من جهة الغرب منطقة أَدَخْسان التي تمتد من هذا الجانب حتى إقليم تامسنا. البلاد صعبة وعرة، يسكنها بربر من نفس قبيلة بني بريزان (كذا) لكنهم أكثر غنى لامتلاكهم كمية من الخيل والبغال. وعلاوة على ذلك، فإنهم أكثر نبلاً، يرتدون ملابس مثل مُتْرفي المدن، لأن جلهم فقهاء، يحسنون كتابة اللغة العربية ويشتغلون بنسخ الكتب، لأن المغاربة ليست لهم مطبعة أصلا. يحملون هذه الكتب إلى فاس لبيعها، ويقدِّرهم الملك كثيراً فلا يستخلص منهم إلا مداخيل يسيرة. ويكونون ثمانية آلاف محارب من بينهم خمسمائة فارس وعدد من رماة النبال ومختلف البنادق.

الفصل الثاني والعشرون بعد المائة
خَنْكُ الغِرْبان، حيث توجد مدينة تَزَرْغَة(67)

هذا الجبل، الذي يعني اسمه ممر الغربان، لكثرة ما يوجد منها ومن طيور أبي زريق فيه، وهو من ملحقات الأطلس الكبير، قريب من جبل مائة بير. إنه شاهق جدا مكسو بغابات عظيمة مليئة بالسباع، يجعله البرد غير صالح للسكن، خاصة في فصل الشتاء، وان كان على المحجة الكبيرة المؤدية من فاس إلى نوميديا. تهبّ فيه أحيانا ريح شمالية بقوة كبيرة فتغطي المارة بالثلج، لكن الرعاة يسوقون إليه قطعانهم في الصيف ببعض الأماكن، وخاصة منهم أعراب بني حسن، من أجل برودة المياه والغابات، ولو أنه يجب الاحتراس فيه دائما من السباع، والتراجع منه قبل شهر شتنبر خوفا من الثلوج.

وهناك عين ينبع منها نهر صغير، يسيل ليصب في نهر سبو، وعلى ضفتيه مدينة حصينة(68) قد شيدت من طرف الأفارقة القدامى لتحمي هذا الممر حسب قول أهل البلاد. تقع في واد صغير، ويسكنها قوم متوحشون يعيشون مثل الحيوانات بدون نظام ولا انتظام، يستخرجون الشعير من بعض الأراضي المجاورة،

(66) كتب في الأصل مسطالسة (مترجم).
(67) في الأصل : تغارة.
(68) هي تَزَرْغَة.

ولهم حدائق مسورة تحتوي على شجر الخوخ. كانت هذه المدينة مثل قلعة الأعراب[69] التي ذكرناها، يخزنون فيها حبوبهم عند ذهابهم إلى الصحاري، لكن ملك فاس يسيطر الآن عليها. وهناك أيضا مدينة أخرى[70] أسسها الأفارقة القدامى على نهر صغير يمر في سفح هذا الجبل، لكن لا يقيم فيها سوى فقراء البلاد الذين يحرثون بعض الأراضي، فيستخرجون منها الشعير ويخضعون للأعراب[71]

الفصل الثالث والعشرون والمائة

مائـة بيـر

هذا الجبل جزء من الأطلس الكبير، ما زالت تلوح في قمته آثار مبان عظيمة يبدو أنها من صنع الرومان، وقريبا جدا من هناك توجد بئر شديدة العمق، يأتي إليها رعاع فاس بحثا عن الكنوز مثل الأماكن الأخرى التي تحدثنا عنها، وينزلون فيها بالحبال وبأيديهم مشاعل مغلقة باحكام. وفي البئر عدة طبقات، يمرون من إحداها إلى الأخرى. ويوجد في الطبق الأخير مكان فسيح منحوت في الصخر بالمعول ومسدود من كل جهة بجدار سميك، وفيه أربعة مداخل منخفضة جدا تفضي إلى أماكن أخرى صغيرة، فيها آبار مياهها جارية، لكن في هذا التجويف دوائر ومنعطفات كثيرة لدرجة أنه هلك فيها العديد منهم من شدة البرد، بالاضافة إلى أن سربا كبيرا من الخفاش لا يزال يحوم حولهم حتى تنطفىء الشموع، فلا يعرفون حينئذ أين هم، ولا يستطيعون الاهتداء إلى المكان الذي دخلوا منه. وقبل هذا بزمن يسير، ضلّ أحد هؤلاء الباحثين عن الكنوز في هذا الجُب، وبعد ذهاب وإياب كثير من مكان إلى مكان، صادف واحداً من تلك الحيوانات التي تسمى بالضبع، يظهر أنها كانت وضعت أولادها فيه، فاقتفى أثرها خطوة خطوة حتى وصلت إلى شق صخرة قائمة في غابة كثيفة عند قدم جبل، ولما اكتشفت هذه الفتحة، سارع إليها كثيرون قصد التنقيب فيها، حتى امتلا الكل بالماء، من شدة الخنادق التي حفرت، ومن أجل ذلك سمي هذا الجبل بمائة بير، ولا يوجد فيه أي سكن.

(69) بني حسن.
(70) هي تزرجيل (كذا).
(71) أولاد حسين

الفصل الرابع والعشرون والمائة
أَزْغَارْ إيكْمـارَنْ(72)

تمتدُّ بين جبال الأطلس الكبير سهول فسيحة تحيط بها غابات من أشجار البلوط والمرّان وغيرها، مليئة بمراعٍ خصبة للماشية، لكن لا بد من الاحتراس جيدا من السباع وحَبْسِ الماشية ليلا في زرائب كبيرة مغلقة بالشوك. يسمّي بعضهم هذه الأماكن سهول أُنْزار، وآخرون يدعونها سهول جوفت أو موسان، لكن الاسم الأكثر تداولا هو الذي أثبتناه في عنوان هذا الفصل.

الفصل الخامس والعشرون والمائة
سَهْب المَرْجة أو منجار

توجد هذه السهول كذلك بين جبال الأطلس الكبير، وتمتد من الشرق إلى الغرب على طول أربعة عشر فرسخا وعرض عشرة. جميع التلال المحيطة بها مليئة بغابات صغيرة كثيفة تتزود منها مدينة فاس بالحطب والفحم، وهذه السهول مكسوة بالأردواز الأسود الصقيل الذي لا ينبت حتى الكلأ. لا يوجد سكن هناك أصلًا وإنما توجد بعض الأكواخ المتكونة من عروش الأشجار للحطابين والفحامين.

الفصل السادس والعشرون والمائة
أزْكَـانْ

هذا الجبل شاهق بارد لحد أنه لا يُسْكَن منه إلا الجانب المطل على بلاد فاس. يحده جبل سيليلكو شرقا، وجبل صفرو غربا، وجنوبا الجبال المطلة على نهر ملوية، وشمالا سهول فاس. طول هذا الجبل أربعة عشر فرسخا من الشرق إلى الغرب، وعرضه خمسة. وتوجد عدة عيون في الحي المأهول، ومناطق مكسوة بأشجار الزيتون، والحدائق والكروم. السهل ممتاز جدا، يقيم فيه السكان أكبر قسم من فصل الشتاء، ويستخرجون منه كمية من القمح والشعير والكتان والقنب، ومنذ زمن قليل غرس فيه الأندلسيون النازحون من إسبانيا حدائق من شجر التوت لتربية دود القز. وماء العيون المتفجرة من هذه الصخور بارد، لدرجة أن الأجانب

(72) في الأصل : همران دازاغار.

يحْذرون من شربه ما لم يَطُل، لأنه يسبب ضروبا من المغص تقتل الانسان في ظرف ثلاث أو أربع ساعات. والسكان بربر يعيش بينهم بعض مسلمي غرناطة. وهم شجعان يكوِّنون أزيد من ستة آلاف محارب، من بينهم بعض الفرسان ورماة البنادق المختلفة. وهم خاضعون لملك فاس وللملحقات تازا.

الفصل السابع والعشرون والمائة

بني يازْغَــة

هذا الجبل ألطف من الجبال السابقة، يسكنه قوم أغنياء محترمون، يعيشون عيشة المدن، وهم جنود ممتازون. تمتد في كل جهات الجبل أراض خصبة تنبت القمح والكروم والزيتون، وترعى فيها قطعان من الماشية الكبيرة والصغيرة. صوفها في غاية الرقة والنعومة بحيث تصنع منه النساء معاطف فاخرة وأكسية رفيعة كأنها من حرير. هؤلاء البربر(73) خاضعون لملك فاس الذي كان يخصص ضرائبهم لعامل قصر المدينة القديمة التي كانت تتطلب منه خمسة عشر ألف مثقال (بستول) من الربع، وعندما فتح الشريف فاسا للمرة الأخيرة امتنعوا من الدخول في طاعته فأرسل إليهم ستة الاف مقاتل من بينهم ألفان من رماة البنادق، لكنهم دافعوا عن أنفسهم جيدا حتى ردوهم على أعقابهم إلى فاس، بعد أن قتلوا منهم أكثر من ألف، من بينهم عم وأخ لقائد الجيش. أراد الشريف الحالي(74) أن يثأر لهذا العار بقوات عظيمة(75) لكن الفقهاء تدخلوا وحصلو على موافقة اليازغيين أن يؤدوا سنويا عن كل كانون ست أواق من الفضة الخالصة.

يمر بالقرب من هذا الحبل نهر سبو بين صخرتين ضيقتين مرتفعتين جدا حتى إنهم يستعملون الحيلة التالية لعبوره. فقد أثبتت في الصخرتين ركيزتان غليظتان في كلا الجانبين، فيهما بَكرتان كبيرتان يمر خلالهما حبل غليظ من الأسل يدور مرتين، وأوثق في أحد الجانبين سلة كبيرة من الأسل كذلك تسع أكثر من عشرة أشخاص، فإذا أرادوا العبور طلعوا فيها وسحبوا إلى الضفة الأخرى بواسطة الحبل الثاني. وقد اتّفق مرة أن انهار قاع السلة فسقطوا في النهر من علو يزيد على ألف وخمسمائة ذراع(76) وفي النهاية نجا الذين تشبثوا بالحبال بمشقة عظيمة،

(73) الزناتيون الصنهاجيون (كذا)

(74) مولاي عبد الله (الغالب).

(75) عام 1960.

(76) يظهر أن هنا خطأ في الأرقام، لأن الارتفاع عند الحسن الوزان المنقول عنه (ص 361) 150 ذراعا (مترجم).

وهلك الآخرون قبل أن يسقطوا في الماء. يضم هذا الجبل ثمانية وثلاثين قرية آهلة بالسكان، ويكوِّنون ستة آلاف محارب، من بينهم بعض الفرسان.

الفصل الثامن والعشرون والمائة

سِيلِيلْكُو

جبل شاهق بارد، فيه غابات من الأشجار الشائكة(77) ، وهي غليظة عالية، وفيه عيون كبيرة تكوِّن بعض الأنهار، ويسيل ماء إحدى هذه العيون بسرعة بين صخرتين، حتى إنهم شاهدوه وهو يدحرج من منبعه حجرة تزن مائة رطل ويجرفها كأنها نبتة تبن. ومن هذه العيون ينبع سبو أكبر نهر في موريطانيا كلها.

هذا الجبل مُجدب لا يستخرج منه أي نوع من الحبوب، وسكانه بربر من صنهاجة، كل ما يملكون نعاج وماعز. لذلك فإنهم لا يقيمون بتاتا في ديار، ولكن في أكواخ من قصب، مغطاة بعروش الأشجار، ويرحلون من مكان إلى آخر بحثا عن الكلإ، ويقيمون في فصل الشتاء بالسهول عندما يذهب الأعراب إلى الصحاري لوجود حرارة أكثر لأبلهم. هذا الجبل مليء بالأسود والقرود والخنازير الوحشية، والسكان تابعون لملك فاس، وهم قوم بدائيون يتحملون أعباء الضرائب بصبر. رأيت بعض المؤلفين العرب يسمون الجبل الذي ينبع منه سبو كَيافة، ويقولون إن هناك العيون الرئيسية لهذا النهر، وكذا في جبل زرهون.

الفصل التاسع والعشرون والمائة

بني يَسْتِيتَــنْ(78)

سكان هذا الجبل خاضعون لأمراء دبدو، ولا يستخرجون سوى الدخن الذي يقتاتون به. أعلى الجبل كله جاف مجدب، لكن توجد في المنحدر معادن حديد يستثمرونها، لذلك فإن جلهم حدادون، غير أنهم فقراء لدرجة أنهم لا يُروِّجون إلا عملة حديدية، والحلقاتُ والأقراط والأساور للنساء من نفس المعدن. وفي سفح هذا الجبل بساتين كبيرة مليئة بالتين والنخيل والكروم، ويكثر فيه الخوخ حتى إنهم يحتفظون به جافا طوال السنة، ولا يمنع ذلك من أن يكونوا أفقر سكان الإقليم. يسيرون عراة حفاة، ومنازلهم عبارة عن أكواخ مغطاة بحصر صغيرة من

(77) عند الوزان (ص 360) أشجار الصنوبر (مترجم).
(78) كتب في الأصل بما يشبه بني يشتيتن.

الأسل، ومنه يصنعون حتى الأحذية التي يربطونها بأغصان الصفصاف اللينة، ولباس النساء أسوأ من لباس الرجال، يَسِرْنَ بدون أحذية عبر الأدغال، ويحملن الحطب على ظهورهن. ولا يوجد في الجبل كله تاجر ولا أحد يحسن القراءة. يعيشون كالوحوش، ويؤدون الإتاوة إلى أمراء دبدو، ولو أنهم تابعون لتازا.

الفصل الثلاثون والمائة

بُويَبْلَان[79]

يُكوِّن هذا الجبل جزءاً من جبال تازا، وهو شاهق بارد جدا، طوله عشرون فرسخا وعرضه خمسة فراسخ، بعيدٌ عن المدينة بثمانية عشر فرسخا جنوبا. يَحُدّه شرقا جبال دبدو، وغرباً جبال بني يازغة، وتكون قمة هذه الجبال مكسوة بالثلوج طوال السنة. كان يقطنه قوم أغنياء محاربون محتفظون بحريتهم، لكن لصوصيتهم وطغيانهم أثارت حقد جيرانهم عليهم، فتحالفوا جميعا ودخلوا عنوة إلى هذا الجبل، فأحرقوا وقتلوا كل شيء فيه ولم يعمر بعد ذلك قط. ولم يبق فيه سوى ساكنة صغيرة في القمة وسط الثلوج، لم تشارك بتاتا في سرقاتهم فتركوا لأنهم كانوا يعيشون كنساك[80] وما زال الباقون منهم يعيشون عيشة راضية ولا يسيؤون إلى أحد، بحيث إن كل الناس يحترمونهم، حتى ملك فاس يساعدهم، لأنه يتخرج منهم فقهاء ماهرون.

الفصل الواحد والثلاثون والمائة

بني وَرْطَنَاج

جبل شاهق مكسوّ بغابة مليئة بالمستنقعات والصخور الوعرة، لا يخلو من أراض صالحة للحرث والرعي، مع كمية من الكرم والزيتون وبساتين جميلة مليئة بالليمون الحامض والحلو، والسفرجل وسائر أنواع الفواكه الجيدة. كما أن هناك عددا كثيرا من الماشية الصغيرة، أما الماشية الكبيرة فلا يناسبها المكان بسبب وعورة الجبل . السكان بربر من قبيلة زناتة، وهم متحضرون محترمون، يرتدون لباسا كلباس الحضريين، ويعيشون في خمس وثلاثين قرية كبيرة. ويكوِّنون خمسة آلاف محارب مجهزين تجهيزا حسنا، من بينهم عدد قليل من الفرسان، لأن الجبل كثير

(79) في الأصل ما يشبه : حيوبلاين، انظر كتاب الوزان، ص 358 والهامش 159.
(80) فقهاء

الحجارة. وقد خرج بنو مرين من هذا الجبل، لذلك فإن سكانه يُعتبرون أشرف قبيل زناتة، وكانوا دائما محترمين معفين من كل التكاليف، وهم الآن خاضعون للشريف[81] .

الفصل الثاني والثلاثون بعد المائة

البرانس

جبل كثير الحجارة، لكنه أقل وعورة من الجبال السالفة. وهو على بُعد خمسة فراسخ من تازا إلى جهة الشمال. تستخرج منه كمية من القمح، وفيه عدد من أشجار الزيتون والكروم التي يصنع منها الزبيب، وتوجد فيه بساتين كثيرة تسقى من ماء العيون المنحدرة من الجبل. يملك زناتة وهوارة الذين يسكنونه كمية من الخيل والبنادق، وهم معفون من كل ضريبة. بِيضُ البشرة، ولباسهم أحسن من لباس سائر الجبليين. نسائهم جميلات ناعمات، يتحلين بعدة حُلِي من الذهب والفضة كالحضريات. لكن الرجال جريئون متغطرسون يجيرون المجرمين الذين يحتمون بهم من البلدان الأخرى، وهم على أهبة للقيام بكل مغامرة والقتل من أجل الغيرة. وقد استجلبهم الشريف الحالي[81] وجعلهم من شيعته ليستعملهم عند الاقتضاء ضد الأتراك، لأنهم جنود ممتازون. ويكوِّنون ستة آلاف محارب مجهزين أحسن تجهيز. ولهم ما يربو على خمسة وثلاثين مركزاً سكنيا عامراً، وهم ملحقون بتازا.

الفصل الثالث والثلاثون والمائة

مكاصّة[82]

هو جبل من نفس الملحقة كالجبال السابقة في الارتفاع والوعورة وفيه غابات كثيفة عالية الأشجار. سكان هذا الجبل هم أيضا من زناتة، يتمتعون بالحرية بفضل شجاعتهم، ويتحاربون دائما مع ملوك فاس ولا يؤدون لهم أية إتاوة. يوجد القليل من الأراضي الصالحة للحرث على الجبل، لكن فيه الكثير من شجر الزيتون والكرم، وبعض الأراضي التي تسقى بواسطة قنوات وتنتج كمية وافرة من الكتان، بحيث إن جلهم نساجون. هذا الجبل أكثر برودة من غيره في نفس المنطقة،

(81) عبد الله (الغالب).

(82) في الأصل منشاصة (مترجم)

وبَشَرَةُ سكانه أكثر بياضا. وقد منحهم ملوك فاس حرمة فلا يمكن أخذ مجرم احتمي بهم. وهناك أربعون قرية كبيرة آهلة بالسكان، لكنها غير مسوّرة. ويكوِّنون سبعة آلاف محارب، من بينهم بعض رماة البنادق والفرسان. وهم في سلم مع الشريف الحالي دون أن يؤدوا إليه إتاوة ولا أن يقبلوا أية حامية.

الفصل الرابع والثلاثون والمائة

بني جبارة(83)

جبل شاهق وعر جدا كسابقه، يقطنه قوم من خيار زناتة يحتفظون باستقلالهم عن جميع ملوك أفريقيا، ولو أن جبلهم لا يمتد سوى خمسة فراسخ طولا وثلاثة عرضا، فإنه كثير السكان صعب المسالك جدا. لا يتجرون في السهل، ويشنقون متى عثر عليهم فيه بأمر من ملك فاس وأمير تزارون (كذا) لذلك فإنهم مقيمون دوما في جبلهم، حيث يملكون كمية من القمح والقطعان، مع كثير من الكروم والبساتين وأشجار الزيتون، وعدد من العيون. وبذلك يعيشون أحرارا، ويمكن أن يُحاصَروا عشر سنوات دون أن يخشوا الموت جوعا. عندهم عينان تكوِّنان نهرين يصبان في وادي سبو. لم يستطع الشريف(84) أن يخضعهم بتاتا: ثم تحالف معهم اليوم الشريف الحالي، لكنهم لا يؤدون إليه أية إتاوة، ولو أنهم غير معفين من واجب يقبضه من سوق تقام في السهل، لأنه يترك لهم حرية الاتجار مع سكان المنطقة. يكوِّنون سبعة آلاف محارب راجل مجهز على نمط البلاد أحسن تجهيز، ويملكون بندقيات قديمة وقذافات. وليس لهم حصن ولا أي موضع مسور، لكن الأماكن كلها مكسوة بغابات وأشجار، تكثر فيها الأسود وطيور الغدران. وهم تابعون لإمارة تازا.

الفصل الاخير

مطغرة

هذه الجبال شاهقة وعرة بحيث لا يمكن الصعود إليها إلاعبر مسالك خَطَّتها أقدام المارة في حرج شديد، ومضايق الصخور في غاية الصعوبة بحيث يستطيع رجل واحد مسلّح بالحجر فقط أن يمنع عشرة آلاف من المرور. تبعد بفرسخين

(83) هو عند الوزان: جبل غياثة (مترجم)

(84) محمد (الشيخ).

عن تازا، ويسكنها بربر من قبيلة زناتة. إنها بلاد الغابات والأدغال، تكثر فيها الأسود، وفي أعلاها عدة عيون. وهناك كثير من الأراضي الصالحة للحرث تسقى بالسواقي، وتستخرج منها كمية من القمح والكتان. علاوة على عدد من شجر الزيتون والكروم، وكثير من قطعان الماشية الكبيرة والصغيرة. يُستخرج من الداخل ومن أشد هذه الجبال وعورة مقادير من القمح، والزيت، والكتان والعنب والفواكه تكفي للمؤونة، ويبقى منه أيضا ما يباع لسكان المنطقة. لذا فإن أهل هذه الجبال أمجاد غيورون على حريتهم، لا يؤدون أية إتاوة لملوك فاس، ولا لعمال تازا، غير أن كل دار تعطيهم إذا كانوا مجموعين قدرا معينا من الزبيب كل سنة تذهب امرأة لاستلامه، لأنهم لا يقبلون أن يصعد إليهم أي أجنبي حتى لا يطلع على الممرات والمسالك. ويكادون يكونون دائما في حرب مع ملوك فاس، فيقطعون الماء فوراً عن تازا بتحويل مجرى النهر، ويُحدثون أضرارا جسيمة في السهل، لأن عددهم يفوق خمسة عشر ألف مسلح، ومهارتهم كبيرة في القتال بالجبال، بحيث إن فئة قليلة منهم تهزم الكثير من أهل فاس.

كان سعيد في حرب دائمة تقريبا معهم، وذهب ليهاجمهم(85) في خمسين ألف رجل، ولكن عندما عسكر عند قدم الجبال، في انتظار تسلقها يوم الغد، هاجموه ليلا بشدة قوية، وقتلوا من جنده ثلاثة آلاف، وهزموا الباقي. بعد ذلك صعدوا إلى أعلى الجبل ومزقوا إرباً إرباً وزير دولة كانوا قد أسروه، وَرموا به إلى الأسفل قطعة قطعة، دون أن يقبلوا التفاوض مع هذا الأمير ما دام حيا، وتفاوضوا مع ابنه(86) على أن يدفعوا إليه سلة كبيرة من العنب عن كل كانون. لكن الشريف محمداً(87) لما رأى امتناعهم عن الاعتراف به، أرسل لمحاربتهم جميع الأتراك والإسلاميين من رجال حرسه، بقيادة فارسي(88) مع عدد من مغاربة فاس، وتازا، والأماكن المجاورة. وما كاد يصل حتى أمر رجاله بالصعود إلى الجبل، وتركهم البربر يفعلون إلى أن وصلوا إلى تل صغير. ولما أراد أن يعسكر عند المساء، ليرتاح جنوده، انقضوا عليهم من كل جهة ودحرجوا قطعا كبيرة من الصخور، حتى أحدثوا ممراً لهم عبر كتيبة الأتراك على إثر هجمات عديدة، فهزموهم وكسر رأس الفارسي برمية من حجر. ولم يقبلوا منذئذ أن يعترفوا بالشريف، لكن الشريف

(85) سنة 1490.
(86) مولاي محمد.
(87) سنة 1546.
(88) ماريان

الحالي(89) عاملهم بلين إلى أن تحالفوا معه، دون أن يرغموا مع ذلك على أن يعطوه شيئا إلا عن طيب خاطر. توجد في هذه الجبال خمسون قرية كبيرة، لكن ليس فيها قلعة ولا أي مكان محصن. تلك هي كل مساكن مملكة فاس، وبالتالي موريطانيا الطنجية. وسنتحدث الآن عن موريطانيا القيصرية التي هي مملكة تلمسان.

-انتهى الكتاب الرابع -

(89) مولاي عبد الله..

الكتاب الخامس

مملكة تلمسـان
والأشياء البارزة التي حدثت فيها

الفصل الأول
حدود هذه المملكة

إن مملكة تلمسان هي ثالثة ممالك بلاد البربر، وقد سماها القدامى موريطانيا القيصرية. يحدها غرباً مملكة فاس، إذ يفصل بينهما نهران، أحدهما يسمى زيز، وينبع من جبال زناكَة، وبعد مروره بالقرب من مدينة كرسيلوين، وعبر إمارات كنانة (كذا)، ومطغرة والرتب، يذهب إلى سجلماسة، ومن هناك إلى الصحاري حيث يتحول إلى بحيرة. ويسمى النهر الآخر ملوية، وينحدر من الأطلس الكبير، وبعد مسيله نحو الشمال، يذهب ليصب في البحر المتوسط قرب مدينة أون (كذا). يحد هذه المملكة شرقاً الإقليم الذي يسمى خصوصاً افريقية، وتمتد على طول الساحل من مصب هذا النهر الأخير إلى مصب نهر آخر يفصل هذه الإمارة عن جيجل، وهي آخر مدينة بحريةِ الإقليم بجاية(1) وكول التي هي أول مدينة طويلة ضيقة، إذ يزيد طولها على مائة وخمسين فرسخا من الشرق إلى الغرب، ولا يجاوز عرضها عشرين فرسخا في بعض الأماكن من جبل الأطلس إلى البحر، غير أنه يبلغ في أماكن أخرى خمسين فرسخا وتمتد إلى نوميديا. تتميز هناك أربعة أقاليم. أولها وأهمها الذي يحمل اسم المملكة، ويحمل الثاني اسم تَنَس، والثالث اسم الجزائر، وهو موريطانيا القيصرية بالضبط، والأخير اسم بجاية التي يجعلها بعضهم في مملكة تونس. كانت هذه الأقاليم دائماتحت رحمة أعراب الصحاري وملوك تونس وفاس، وهي الآن تقريبا في يد الأتراك، كما سنعلم ذلك من خلال هذا التاريخ.

الفصل الثاني
صفة البلاد

جل الأرض هنا جافة محدبة جبلية. وتحيط بمدينة تلمسان أراض شاسعة مَحْلَة،لكن التي توجد شمالا بين المدينة والبحر غنية بالقمح والمراغي تنتج فواكه كثيرة. وهناك عدد كبير من شجعان الأعراب يسمون ظرفاء مليانة، وهم منقسمون إلى خمس قبائل(2) يخضع لهم البربر. توجد عدة جبال في جهة الغرب

(1) سوفجمار، أمراكا قديما.

(2) هم أولاد عبد الله، وأولاد موسى، وأولاد هسيكس، وأولاد سليمان، وأولاد عمرو.

بجميع الأقاليم الأربعة، وهذه الجبال كثيرة الحبوب والقطعان، آهلة بأقوام شجعان. المدن قليلة في هذه المملكة، لقلة الأراضي الجيدة، لكن ما يوجد منها حسن الموقع وعيشة سكانه مشرفة. يتعاملون معاملة حسنة وفق عادة البلاد، ويتجرون كثيرا سواء في غينيا أو في نوميديا أو غيرهما. أعراب الصحاري كثيرون ولا يكترثون إلا قليلا جدا بملوك تلمسان، لأنهم يتراجعون كلما أرادوا إلى صحاري نوميديا حيث لا يمكن متابعتهم، لذلك فإنهم غير تابعين لأحد في الغالب، ويتقاضون من الملوك رواتب ليحافظوا على أمن البلاد، وإذا شاؤوا ثاروا وانضموا إلى من يؤدي لهم أحسن ثمن. سكان الجبال من بربر زناتة، وهوارة، وصنهاجة، وزواغة، وكلهم شجعان، سلاحهم ولباسهم ومعاملاتهم أحسن مما عند سكان موريطانيا الطنجية، واستعمالهم للبندقيات القديمة أكثر، وليست لهم عداوة كبيرة ضد المسيحيين، لأنهم يتجرون معهم أكثر، وليسوا عنيدين ولا حقودين بقدر ما هم عليه أهل مملكة مراكش.

الفصل الثالث

أنگـاد(3)

أرض فسيحة خالية يابسة لا شجر فيها ولا ماء، خاصة في الطريق المؤدية من تلمسان إلى فاس. وهي أوغل قسم بهذا الاقليم في الغرب، يبلغ طوله ثمانية وعشرين فرسخا وعرضه ثمانية عشر فرسخا، وتكثر فيه طيور الغدران. وهناك العديد من الأعراب المتنقلين المتسكعين، مهنتهم السلب والنهب في المسالك الكبرى، ومن أجل ذلك يلزم (المسافر) أن يؤدي مبلغا من المال لأول رئيس جماعة يصادفه فيسلم إليه راية صغيرة على رأس رمح، حتى لا ينهب عبر منطقته كلها، ويفعل نفس الشيء لدى الوصول إلى آخر، فيتم المرور بدون خطر. وقد اعتاد ملوك تلمسان، للحفاظ على أمن المسالك، أن يستأجروا بعض الأعراب بحيث يمكن المرور مدة الصيف كله بأمان. لكنهم يضطرون في فصل الشتاء، إلى سوق قطعانهم إلى نوميديا والتقاط التمر في الصحراء، فيبقى الآخرون الذين يعيشون في المفازة يتنقلون في كل مكان كما يشاؤون، بحيث يكون من الخطر اجتياز هذه

(3) يسير مارمول هنا ــ كعادته في معظم الكتاب ــ على ما عند الحسن الوزان حذو النعل بالنعل، وقد نبهنا هناك (2 : 11 هامش 9) على ان في المناطق التي ذكرها في قسم تلمسان وراء ملوية شرقا وشمالا مدنا وقرى وصحاري مغربية وبينا سبب هذا الخلط (مترجم).

المنطقة في فصل الشتاء، وازداد ذلك الآن أكثر فأكثر، لأن الأعراب كانوا دائما ثائرين منذ أن أقام الأتراك بالبلاد.

يخترق نهر ملوية هذه المفازة، ويقيم على ضفتيه باستمرار ثلاث سلالات[4] من الأعراب الأشداء الأقوياء، يتحاربون دائما من أجل حزازات قديمة. يتنقل هؤلاء بحرية، ولا يعترفون بأحد أو يؤدون أية إتاوة. وتوجد على ضفتي هذا النهر عدة سباع تفترس الناس والحيوانات. تنتج المنطقة قليلا من القمح، لكن الأعراب يقتاتون جل السنة بالتمر واللبن واللحم، لأن لهم كمية من الابل والماشية، إضافة إلى أنهم يحصدون الشعير.

الفصل الرابع
تمزيز دكَت[5]

قصر في أعلى صخرة على الطريق المؤدية من فاس إلى تلمسان، بين صحراء أنكَاد وإقليم هذه المدينة. يقول المؤرخون إنه أسس من طرف سكان البلاد لحماية هذه المدينة. ويمر في السفح نهر[6] ينحدر من جبل الاطلس، ويصب في نهر أرشكَول. البلاد المحيطة صالحة جدا للقمح، وفيها مراع كبيرة يجوب فيها أعراب كثيرون. كان ملوك تلمسان يقيمون حرسا قويا بهذه المدينة نظراً لأهميتها، لكن الأعراب استحوذوا عليها عند مجيء الأتراك وتركوها مدة طويلة خالية من السكان، لا يستعملونها إلا لخزن حبوبهم عند ذهابهم إلى الصحراء، ثم حصنها الأتراك منذ ذلك العهد وأقاموا بها حامية.

الفصل الخامس
إيسْلِي[7]

حصن تحيط به الأسوار في سهل ويقع مثل السابق بين مفازة أنكَاد وإقليم تلمسان. يؤكد المؤرخون أنه من تأسيس الأفارقة القدامى، ليكون بمثابة حدود لهذه المملكة. كان آهلا جدا بالسكان في دولة بني عبد الواد الذين كانوا يقيمون

(4) هم أولاد طلحة، وأولاد حراش، وأولاد منصور.
(5) في الأصل : تنزيكرت، انظر كتاب الحسن الوزان، 2 : 11، الهامش 10 (مترجم).
(6) هو تافنة.
(7) في الأصل : ريزل أو إيزلي، انظر عن هذا الموقع كتاب الحسن الوزان، 2 : 12، الهامش 11 (مترجم).

به حامية قوية ضد أعراب الصحراء، لكن الأمير المريني يوسف خربه، وبقي خاليا مدة طويلة إلى أن جاء بعض النساك وسكنوا فيه. ذلك لأن ملوك تلمسان والأعراب أنفسهم يعاملون هذه المدينة معاملة حسنة، ولا يلزمونها بأداء أي شيء اعتباراً لهؤلاء السكان الجدد، لكن المعيشة فيها لا تخلو من أن تكون ضَنْكاً بسبب مَحْلِ المنطقة: فالديار فيها ليست مبنية إلا بالطين، ومغطاة بالتبن أو بعروش الأشجار. تنبع بالقرب من المدينة عين جارية تروي الأراضي المجاورة، ولولا ذلك ما أنتجت أي ثمر لشدة الحرارة. يقول بعضهم إن هذه المدينة من تأسيس الرومان. ويظهر ذلك من أسوارها المبنية بالحجر المنحوت، وهي شاهقة وأحسن صنعا من أسوار أهل البلاد. كانت تدعى قديما جيفا، ويجعلها بطليموس في الدرجة الرابعة عشرة وثلاثين دقيقة طولا، والدرجة الثانية والثلاثين وثلاثين دقيقة عرضا.

الفصل السادس

وجـدة

مدينة قديمة أسسها أهل البلاد في سهل جميل على بعد أربعة عشر فرسخا من البحر في اتجاه الجنوب، وعلى نفس البعد من تلمسان. تحادي في هذين الجانبين غربا مفازة أنكاد، وتكثر في الاقليم الحبوب والمراعي. والمدينة كلها محاطة بالبساتين والحدائق التي تسقى بجداول تتكون من عين كبيرة في أسفل المدينة، تخترقها ثم تسيل نحو البساتين، ومنها إلى نهر ملوية لتصب فيه. تحيط بوجدة أسوار عالية مشيدة على طراز أهل البلاد. أما المساجد والمنازل فمبنية بالطوب الموثق بالجير، ويروي مؤرخوهم أنها كانت في القديم مدينة مكونة من خمسة آلاف نسمة، وخربها أحد ملوك فاس[8] من بني مرين أثناء حربه ضد ملك تلمسان، لأنهاامتنعت عليه، ثم أعيد تعميرها بعد ذلك[9]. ولما احتل عروج مدينة تلمسان أرسل الاسكندر إلى وجدة لأنها امتنعت من الاعتراف به. وعندما بلغ إلى المدينة خبر مجيئه كسروا قنطرة كانت فوق النهر[10] ، معتقدين أن ذلك كان كافيا لحمايتهم. لكنه أمر بقطع عدد من أشجار الزيتون، وهي كثيرة في هذه الجهات، واتخذ منها قنطرة بعد أن ضمَّ بعضها إلى بعض، ثم عبرها هو وجنوده واحتل المدينة

(8) يوسف.
(9) سنة 1515.
(10) ملويــة

وساق منها عدة أسرى إلى تلمسان. وقد عَمَّرها بعد ذلك زهاء ألفين وخمسمائة من البربر، وما بقي منها ظل كله ساحات أو منتزهات. ويُقض مضاجعَ سكان وجدة الأتراكُ وأعراب الصحراء أحيانا. وفيهاأجمل البغلات في افريقيا كلها، ومنها تساق إلى تلمسان وغيرها قصد بيعها. زي السكان كزي البربر، لكنهم أنظف من الجبليين، ولهجتهم لهجة البلاد، لكنهم يسرعون في كلامهم حتى لا يكاد يفهمهم غيرهم. يجعل بطليموس هذه المدينة في الدرجة الثانية عشرة طولا، والثالثة والثلاثين عرضا، ويسميها لانكَار.

الفصل السابع
نَدْرومَة

مدينة قديمة أسسها الرومان في سهل فسيح على بعد فرسخين ونصف فرسخ من جبل الأطلس، وأربعة فراسخ من البحر. موقعها شبيه بموقع رومة، ومنها اتخذت اسمها(11). يقول بطليموس الجديد إنها سليمة القديمة، ويجعلها في الدرجة الثانية عشرة وعشر دقائق طولا، والثالثة والثلاثين وعشرين دقيقة عرضا. وما زالت أسوار ندرومة قائمة، وهي مبنية بالطوب الغليظ الموثق بالجير، على نمط الرومان، وقد خربت الدور أثناء الحروب التي دارت بين ملوك تلمسان وملوك تونس وفاس، وما بقي منها الآن مبني على الشكل المحلي. وما زالت تشاهد خارج الاسوار آثار مبان واسعة للرومان، فيها لوحات كبيرة، وأعمدة من المرمر مع أضرحة من الحجر نقشت عليها كتابات لاتينية. وفي الجبال المجاورة أشجار تدعى الخروب، ثمارها حلوة لدرجة أن السكان يصنعون منها عسلا يأكلونه طوال السنة مع اللحوم. ومن المؤلم أن تشاهد مدينة بهذا القدر من الجمال واقعة في أجمل مكان بأفريقيا، وفي بلد في غاية الروعة، وهي في حالة من التخريب بحيث يخيل لمن دخل إليها أنها فناء للدواجن، لشدة رداءة مساكنها. يحصد السكان كمية من القنح والشعير، ويملكون عدداً كبيراً من القطعان، ويصنعون أجمل ما في بلاد البربر كلها من أقمشة القطن. جلهم تجار، يتجرون في الجزائر وتلمسان، ويقدمون بعض الهدايا الى الملك من أجل حرية هذه التجارة، وان كانوا يستطيعون أن يتخلوا عنها، لأنهم

(11) انظر كتاب الحسن الوزان، 2 :14، الهامش 14 (مترجم)
(12) بناتها هم الأفارقة عند الحسن الوزان (2 : 14).

يصادقون زناتة الجبل الذين هم أشجع الناس جميعا في أفريقيا، ويكونون خمسة وعشرين ألف محارب مجهزين أحسن تجهيز، ويملك جلهم بنادق قديمة.

الفصل الثامن
تَبَحْرِيت

مدينة أسسها الرومان، وكأنها قلعة عند قدم صخور كبيرة وعرة، تفضي إلى مدينة هنين على شاطىء البحر. سكانها فقراء، لا يقتاتون إلا الشعير والدخن، ولهم بعض الكتان يصنعون منه قماشا غليظا. يقطن هذه الجبال برابرة كانوا يعيشون في خوف دائم عندما احتل الاسبانيون هنين، لكنهم أصبحوا أكثر راحة منذ أن غادروها. في أسوار المدينة ثلم كبيرة في شتى المواضع، لذلك لا يرغب الناس كثيرا في الاقامة بها.

الفصل التاسع
هُنين(13)

مدينة واقعة على الشاطىء في مستوى المرية، شرقي المدينة السابقة. أسسها الأفارقة القدامى، وكان لها أسوار متينة، وميناء صغير محصن من كلا الجانبين ببرجين قويين. كانت المساجد فيها حسنة البناء، والدور آهلة بالتجار والصناع، إذ كانت سفن البندقية تنحدر إليها كل سنة عند ذهابها إلى تلمسان، خاصة منذ أن احتل الكردينال خيمينيس وهران والمرسى الكبير، فكان تجار تلمسان يذهبون اليها ليتعاملوا مع تجار البندقية، فكانت لذلك آهلة بالسكان. تصنع فيها أقمشة جميلة وأنسجة أخرى من القطن. وفضلا عن ذلك هنالك بقع مختلفة من شجر الزيتون، وحدائق وأراض صالحة للحرث، سواء حوالي المدينة أو على طول نهر بجانبها. وبالرغم على أنها بدأت تخلو من السكان عند احتلال وهران، فإن ملك تلمسان أرسل إليها حامية لتأمين التجارة، وكانت تصبح في حالة حسنة جدا لولا أن طمع السكان تسبب في تلفها، لأنهم لم يكتفوا بتجارتهم، بل آووا القراصنة وخرجوا معهم لشن الغارات على شواطىء إسبانيا، فاضطر شارل الخامس إلى أن يبعث إليها دُم الفاري بسَّان، قائد أسطوله، الذي أخذها وأقام بها حامية بعد أن

(13) في الأصل : هون. وعلق عليها في الهامش بان الأفارقة يدعونها دائرة هنين (مترجم).

نهبها[14]، لكن الأمبراطور أمر بتدميرها لتلافي النفقات، وذهب إليها قائد الأسطول نفسه لتحطيم الأسوار والبروج وحرق الديار وتخريبها، فلم يُعد ترميمها منذئذ. يحرث الأرض بربر من جبل مجاور[15]، ما زالت توجد فيه معادن كثيرة للحديد والفولاذ. يسمي بطليموس رأس هذا الجبل «الرأس الكبير»، ويجعله في الدرجة الحادية عشرة وثلاثين دقيقة طولا، والخامسة والثلاثين عرضا : ويسمى الآن «رأس هنين».

الفصل العاشر
أرشكول[16]

مدينة قديمة تشاهد اليوم آثارها على الشاطىء، شرقي المدينة التي تحدثنا عنها آنفا. يجعلها بطليموس في الدرجة الثانية عشرة طولا والرابعة والثلاثين وأربعين دقيقة عرضا، ويسميها سيكًا كولونيا. وهنا نهر يحمل نفس الاسم ويصب قريبا منها، يسمى الآن تفتين أو نهر أرشكُول. هذه المدينة عريقة في القدم بحيث لا يعرف مؤسسها، لكننا نعلم أنها كانت عاصمة الاقليم ومملكة تلمسان كلها، ومن الأكيد أنها سيرتة القديمة ذات الشهرة الكبيرة في التاريخ الروماني، لاسيما أنها تكاد تكون في مستوى قرطاجنة التي انطلق منها سيبيون ليصل إليها في ظرف ليلة واحدة، حسب قول تيت ليف.

كانت أرشكَول مشيدة فوق صخرة عالية يُحيط بها البحر من كل جانب، وليس لها سوى ممر صغير من جهة اليابسة في مسلك يدور حول الصخرة. وكانت هناك في القديم تجارة كبيرة، وخاصة في دولة المولى ادريس وأعقابه الذين سادوا مدة تنيف على مائة سنة : لكنها خُربت وجُعل عاليها سافلها مع عدة مندن أخرى من طرف خليفة القيروان الشيعي، لأجل الحقد الذي كان يكنه لهذه الأسرة، كما مُزق السكان شر ممزق. وهكذا فإنها بقيت مأوى للوحوش أكثر من مائة وعشرين سنة، إلى أن عبر المنصور (بن أبي عامر) الشجاع إلى افريقيا : فبعد أن فتح هذه الامارة أعاد المدينة إلى حالها وأقام بها حامية، لوقوعها في مكان ملائم لمرور الجيوش، وظل يرعاها إلى أن قتل في معركة قلعة النسور سنة تسعمائة وخمس وتسعين. ولما أخذت شوكة بني عبد الرحمن (الأمويين) تضعف باستمرار منذ ذلك العهد، بدأ

(14) سنة 1533.
(15) ترارة.
(16) في الأصل : أرسكول، بالسين المهملة (مترجم).

المرابطون يرتقون في افريقيا ثم في اسبانيا، وبعد ان استولى أحد ملوكهم[17]على هذه المدينة عنوة بعد حصار طويل، قبض على جميع من كان فيها من المحاربين، وهدم جوانب من السور. ثم إن الموحدين أعادوها إلى حالتها الأولى، فجاء المرينيون وخربوها كما هي عليه الآن. وقد التجأ السكان إلى تلمسان التي نمت بأنقاضها، إذ لم يكن فيها قبل ذلك إلا شيء قليل.

الفصل الحادي عشر
تلمسان عاصمة الاقليم

إن هذه المدينة التي يسميها القدامى تيميسي، ويجعلها بطليموس في الدرجة الثالثة عشرة وخمسين دقيقة طولا، والثالثة والثلاثين وعشر دقائق عرضا، كبيرة جدا، وتسمى تلمسان[18] بلغة البلاد. تقع على بعد سبعة فراسخ من البحر المتوسط في جهة الجنوب. ويرجع تأسيسها إلى مغراوة من قبيلة زناتة، لكنها لم تكن إذ ذاك إلا مدينة صغيرة بمثابة قلعة ضد أفارقة الصحاري، ثم اتسعت بعد ذلك بأنقاض أرشكول، وأخذت تشتهر باستمرار بسبب إقامة ملوك تلمسان فيها واتخاذها عاصمة لهم، نظرا لموقعها الحسن في سهل جميل. وقد نظمت ساحاتها وأزقتها على نسق جميل جدا، ودكاكين صناعها وتجارها مرتبة على غرار ما هو بفاس، لكن الدور ليست مبنية بنفس القدر من الجودة ولا النفقات. ويوجد عبر المدينة كلها عدد كثير من المساجد الفخمة ذات الموارد الكبيرة، وهي مجهزة بجميع ما يلزم، علاوة على خمس مدارس رئيسية مزخرفة من إنشاء بعض ملوك زناتة، ولها دخل للانفاق على عدد من الطلبة الذين يقيمون بها، ويدرسون على أساتيذ جميع العلوم الطبيعية والأشياء المتعلقة بدينهم. كما توجد بالمدينة عدة حمامات، لكنها غير مجهزة بوسائل الراحة مثلما هي عليه حمامات فاس، ولا بنفس القدر من الماء.أضف إلى هذا فنادق عديدة على طراز البلاد، يقيم في أهمها التجار الحاصلون على جواز الاتجار. إن الحي الأكثر سكانا هو الذي يقيم فيه اليهود الذين كانوا في القديم أغنياء مترفين، لكنهم نهبوا مرة من طرف بربروس، ومرة أخرى من طرف الكونت دالكاوديت. فبقوا فقراء، وان كان الاتراك والأهالي يعاملونهم

(17) يوسف اللمتوني.

(18) يسميها مارمول دائما برطانة . ترمسان (مترجم)

أحسن مما يعامل الشريف يهود فاس، ويَسمحون لهم بالاشتغال بأشياء أكثر مما يسمح لهم به في فاس.

المدينة مزدانة بعدة سقايات تستمد ماءها من عين واحدة[19] مجلوب من نوميديا عبر قنوات تحت الأرض على مسافة تنيف على ثلاثين فرسخا. وقد أعطى ملوك تلمسان دائما الأمر بعدم الكشف عن هذه القنوات خوفا من تحويلها إذا ما حوصرت المدينة. لكنه حدث في زمن غير بعيد أن أعرابيا كان مضطجعا في إحدى الطاحونات[20] الموجودة وراء جبل قرب المدينة في ناحية الجنوب، وقال للطحان وهو يشرب الماء، إنه يعرف جيدا من أين يأتي وإنه يميزه بطعمه. ولما علم الملك بهذا الخبر، أمر بقذف جرة زيت في العين، وشوهدت وهي تخرج من الطاحونات في المكان الذي كان يظن أنه العين، الأمر الذي أكد مقالة الأعرابي.

أسوار المدينة جميلة شاهقة محصنة تحصينا جيدا ببروج، لها خمسة أبواب رئيسية، في كل واحد منها مراكز حراسة ودور لمزارعي المداخل. ويوجد خارج المدينة في ناحية الجنوب قصر الملك، وهو مشيد على شكل حصن يشتمل على مختلف الأقسام الرئيسية للمنزل بحدائقها وسقاياتها، ولهذا القصر بابان : أحدهما[21] للخروج إلى البادية، والآخر[22] للدخول إلى المدينة، حيث يقيم قائد الحرس الملكي على الدوام. وتحيط بالمدينة بساتين جميلة ومنتزهات يتوجه إليها، أيام السلم، الموسرون من السكان ليقيموا فيها صيفا، لأنها فضلا عن كونها أماكن شيقة تضمّ عيونا جارية بمياه باردة. أضف إلى هذا مناطق كبيرة من الحدائق وأشجار الزيتون، تستخرج منها كميات من الزيت، والجوز وجميع أنواع الفواكه مثلما هو الحال بأوربا، وكروم كبيرة تحمل عنبا حلوا لذيذ الطعم جدا، يجفف في الشمس ويحفظ السنة كلها. وتوجد على بعد فرسخ من المدينة عدة طاحونات للحبوب على ضفة النهر[23] وفي مكان أبعد الطاحونات[24] التي ذكرناها آنفا.

تساس هذه المدينة مثلما تساس مدينة فاس، فهناك قضاة، وشرطة، وعدول، ومحامون ووكلاء بالنسبة للقضايا المدنية والجنائية التي يقضى فيها حسب

(19) تسمى فوارة.
(20) يسمى المكان الموجودة فيه هذه الطاحونات «قلعة».
(21) يسمى باب الجياد.
(22) يسمى باب العدير.
(23) نهر صفصف.
(24) وهي طاحونات القلعة.

قانون فاس، كما أن هناك عدة أساتذة في مختلف المدارس، يقومون بالتدريس كل يوم ويؤجَّرون من أوقاف هذه المؤسسات.

السكان منقسمون إلى ثلاث طوائف : طائفة التجار، وطائفة الصناع، وطائفة النبلاء التي تضم الصناع(24م) والمحاربين : الأولون أناس طيبون، أوفياء في تجاراتهم، معتزون بالنظام والحضارة وحسن التدبير، مهذّبون مع الأجانب. وأهم تجارتهم في غينيا، حيث يحملون بضائعهم كل سنة، وياتون منها بالتبر، والعنبر، والمسك، وسنور الزباد، ورقيق السود، وأشياء أخرى من بضائع البلد. ويتجرون بالتبادل محققين كثيرا من الربح حتى لتكفي رحلتان أو ثلاث ليستغنى التاجر، الأمر الذي يحملهم على أن يخترقوا رمال ليبيا متعرضين لأخطار عدة. والصناع أناس بسطاء لطفاء، يعتزون بأنهم يعملون بأدب ويصنعون أشياء متقنة. يعملون هناك أقمصة، وزرابي فاخرة، ومعاطف صغيرة وكبيرة رفيعة جدا حتى إنه يوجد منها ما لا يزن حتى عشر أواقٍ، فضلا عن طقوم فاخرة للخيل مع ركابات جميلة، ولُجُم، ومهاميز، وأجود ما يصنع من رؤوس اللجم في افريقيا. يعيش العمال عيشة راضية من كسبهم قوتا وتسلية.

اما النبلاء والمحاربون فيعتزون كثيرا بما لهم من وجاهة وشجاعة لأنهم هم الذين يرافقون الملك : لذلك فإن لهم عدة امتيازات واعفاءات مع رواتب حسنة تمكنهم من أن يعيشوا عيشة راضية. يقسم الملك بين العمال وأهم القواد جميع رعاياه ومدنه كولايات، ويوليهم المهام الرئيسية في قصره وبلاطه. ذلك هو النظام الذي كان يتبعه ملوك تلمسان، والذي لا يعمل به الأتراك الآن، لأن الحاكم الذي يرسله عامل الجزائر إلى منطقة ليس له جهاز ملكي، وبما أنه عديم الثقة بالسكان، فكل حرسه من الترك والاسلاميين بحيث إنهم مستبعدون أكثر مما كانوا عليه سابقا.

لباس التلمسانيين أكثر أناقة مما هو عليه الحال بفاس، وهو من نسيج الصوف والكتان والحرير، إنهم محترمون أكثر وحديثهم أمتع. النساء جميلات وزيهن كزي نساء مراكش. ومنذ قليل أخذ العسكريون والصناع يرتدون لباسا على نمط الأتراك افتخارا، لكن العرب ينفرون منه. تنظم الأعياد، والأعراس، والفرش والولائم على نحو

(24م) هكذا بالأصل. ولعل كلمة الصناع أقحمت أو حلّت — خطأ — محل كلمة النبلاء. كما يفهم من السياق التالي (مترجم).

ما يوجد بفاس، ولو أنها بتلمسان أقل بهجة وأناقة مما هي عليه بفاس. كان ملوك تلمسان فيما مضى يعيشون بأبهة كبيرة، وكانوا أقدم وأعظم الأمراء بافريقيا، لا يظهرون إلا يوم الجمعة للتوجه إلى الجامع، ولا يستقبلون سوى أعضاء مجلسهم وضباط بلاطهم الذين تمر جميع القضايا بأيديهم. وكانت أهم وظائف الدولة هي وظيفة المزوار، الذي كان كنائب ملك أو قائد عام يُجنِّد الجنود ويؤدي لهم الأجور، ويعفيهم عند الاقتضاء، ويمنح وظائف بلاط الملك، وكان يعتبر كأنه الأمير نفسه. وكان الشخص الثاني هو المستشار، أو كاتب الدولة المؤمن على الخاتم الذي يصرف الشؤون مع الملك. والثالث هو الخازن العام، أو ناظر المالية المكلف بجميع الموارد وبيت المال. وبتوكيل موقع من جلالة الملك كان الخازن يمد أمين الصندوق أو الأمين العام الذي هو رابع كبار رجال الدولة بكل ما يلزم للنفقة، سواء العادية أو الاستثنائية. وكان خامس الضباط هو عامل القصر الملكي، المكلف بحراسة الملك، ثم كبير حملة السلاح والمكلفين بالخدم المسلحين، والابل والأخبية، وما شابهها من الأعمال التي يلزم القيام بها بصفة شخصية. كان تحت أوامر هؤلاء القوم ضباط وما يتبعهم من كتائب الفرسان فكانوا يتصرفون بأبهة، ويعتزون بما يملكون من طقوم فاخرة لخيولهم. وعندما كان ملك تلمسان يمتطي صهوة جواده، لم يكن احتفاله لذلك بقدر احتفال ملوك فاس، إذ لم يكن لديه سوى ألف ومائتين أو ألف وثلاثمائة فارس لحرسه العادي. وإذا كان ركوبه للقيام بعملية عسكرية، دعا رؤساء الأعراب والجماعات البربرية، وبعض المرافقين من السكان، ولا ينفق على الجنود إلا ما دامت الحرب. لذلك فإنه لا يصحب معه كثيرا من العربات والأخبية عندما يسير عبر البادية، لأنه يعتبر نفسه كمجرد قائد، فهؤلاء الأمراء كانوا فقراء، لا تكفي موارد ثلاث سنوات لسنة واحدة من الحرب، ولهذا كانوا يسكون عملة من الذهب الردىء، لا تزن سوى ريال وربع[25]. وحتى إذا راجت بين هؤلاء السكان، لم تكن تزن سوى تسع ريالات ونصف ذهبا (كذا). كما أنهم كانوا يزيفون العملة الفضية، ويخلطونها بالنحاس. وكانوا أيضا يقبضون مكوسا كبيرة من التجار، وإتاوات ضخمة من السكان، وهو محرم في دينهم. ذلك لأن الخلفاء الأولين لم يقتطعوا لرعاياهم سوى اثنين ونصف في المائة من جميع البضائع، أو المال الناتج عنها، وعشرة في المائة إن كانوا يهودا أو نصارى. لكن ذلك لم يعد معمولا به، إذ يزعم الأمراء أنهم فقراء، وأنهم في حاجة إلى المساعدة

(25) في الأصل : خمسة أرباع الريال.

للمحافظة على الجهاد ضد المسيحيين، الأمر الذي يسمح لهم بجباية الضرائب وواجبات الجمرك في الدخول والخروج، إلى غير ذلك من التكاليف المالية. كان لهم مركز جمرك بوهران تستخلص فيه هذه الواجبات، لأن سفن البندقية كانت ترسو فيها كل سنة قصد الاتجار، ولم يكن إيراد الأمير آنذاك سوى ستمائة ألف ريال، يخصص نصفه لنفقة الجنود، والنصف الآخر لنفقة قصره، ويُدَّخر الباقي لضروريات الحرب. وقد تكاثر الايراد جدا منذ ذلك العهد، لأنه بالرغم على فقدان جمرك وهران، فإن جمرك الجزائر قد تضاعف حتى إنه لَيَفُوقُ إيراد الدولة بكاملها. ولا تملك افريقيا ولا أوربا أبوابا غنية كبابي الجزائر، باب البحر وباب البر، لأن الميناء يكون عادة غاصا بالسفن المسيحية التي يسوقها القراصنة محملة بالناس والبضائع. وتدخل من باب البر باستمرار أعداد كثيرة من الجمال المحملة بكل ما هو نفيس في بلاد البربر، ونوميديا، وليبيا وبلاد السوس، وإيراد هذا الباب وحده يساوي ما يزيد على مليون (مثقال) من الذهب في السنة.

يقول أحد المؤلفين إن مدينة تلمسان أصبحت، في عهد أبي تاشفين، من العظمة بمكان، حتى إنها كانت تضم ستة عشر ألف دار مسكونة وتقام فيها أغنى تجارة بافريقيا. وحاصرها إذاك ثاني ملوك بني مرين[26] الذي شيد في معسكره مدينة لأمنه وسكناه، لأن الحصار دام سبع سنوات، وضيَّق الخناق عليها، حتى إن السكان كانوا يقتاتون بجذور الأشجار وأوراقها. ونظرا لهذه الحالة ناشدوا أميرهم[27] أن يستسلم في مقابل شروط مشرفة. لكنه عزم على شن المعركة، مؤثرا الموت على أن يضع نفسه بين أيدي أعدائه. وفي الليلة التي كان يستعد فيها للقتال، قتل الأمير[28] المحاصِر له في مضجعه من طرف مغربي[29]. وإثر ذلك تفرق جميع رجاله، فخرج إليهم المحاصَرون وقتلوا منهم عددا كبيرا، ونهبوا معسكرهم. واستمر أعقاب الأمير المقتول في محاربة ملوك تلمسان من أجل الاستيلاء على هذه الامارة. فحاصر رابع ملوكهم[30] هذه المدينة مدة سنتين

(26) هو يوسف.
(27) أبا تاشفين.
(28) يوسف.
(29) الفتريان
كذا في هامش الأصل الفرنسي، ولعله تحريف لكلمة «الفتيان» لأن الذين تولوا قتل الملك كانوا فتيانه وخصيانه. (مترجم).
(30) أبو الحسن.

ونصف. وشيد مثل الآخر مدينة على بعد نصف فرسخ من هناك في جهة الغرب، اتخذها مأمنا له يقيم فيها. وفي الأخير استولى على المدينة عنوة، فقتل جميع من كان فيها من المحاربين وقطع رأس الملك ورمى بجثته في مزبلة. ولما استولى بنو مرين على هذه الامارة، أو على أكبر قسم منها، كانت لهم حرب دائمة مع أمراء هذه الدولة الذين التجأوا إلى نوميديا ثم عادوا منها عند انحطاط الأمبراطورية المرينية. ومنذ رجوعهم الى الحكم، زادوا في إثراء عاصمتهم بتجارات جديدة، بحيث إنها كادت تسترجع ازدهارها الأول، لولا أنها تضررت من حرب مستمرة أهلية أو خارجية.

تحقيقات مختلفة عن مملكة تلمسان وأصل ملوكها

تملَّك هذه الامارة، بعد الرومان، أمراء أجانب مختلفون، فكانت فيما قبلُ بيد بني عبد الواد، وهم فرع من زناتة الآتين من مغراوة، الذين سادوا افريقيا كلها. فطردهم الرومان واسترجعوا الأمبراطورية منذ ذلك العهد بمساعدة القوط الذين كانوا يؤدون لهم بعض الخراج، إلى أن فتح المسلمون افريقيا، لأن جميع أقاليمها على إثر فتح اسبانيا أصبحت خاضعة لخلفاء الجزيرة العربية[31] ثم بدأ الأفارقة المغاوير الذين التجأوا إلى صحاري ليبيا يقتربون عندما ضعفت قوة العرب بسبب اختلافهم، لأن بني عبد الواد الذين كانوا يتحينون الفرصة رجعوا إلى مملكة تلمسان ، فاقتُبلوا فيها برضى، وحكموها أكثر من ثلاثمائة سنة إلى أن أخضعهم المرابطون والموحدون الذين كانوا يطردونهم تارة، ويكتفون بأن يؤدوا لهم الخراج تارة أخرى، إلى أن ثار يغمراسين بن زيان عند انحلال امبراطورية الموحدين، فأورث المملكةَ أعقابَه باسم بني زيان، واتخذ هذا اللقب جميع خلفائه من بعده تاركين نسبة بني عبد الواد. وبعد ذلك دارت حروب طاحنة بين هؤلاء الملوك وملوك فاس الذين استولوا على هذه الامارة، وأسروا عددا من ملوكها وطردوا آخرين أو زجوا بهم في السجن. بل حتى ملوك تونس خلعوا بعض ملوك بني زيان. لكن هذه الدولة الزيانية، رغم كل ذلك، استعادت دائما سلطتها وحكمت أزيد من مائة وعشرين سنة دون أن يكدر الأجانب صفوها ما عدا أحد ملوك تونس[31م] وابنه[32] اللذين

(31) بل فتح العرب افريقيا قبل الأندلس بثلاثين سنة كما هو معروف (مترجم).
(31م) هو أبو فارس.
(32) عثمان.

ألزماهم بأداء الخراج، وأخيرا بربروس الذي استولى على تلمسان، حيث كانوا يحكمون خلفا عن سلف منذ مائة وثمانين سنة، ولو أنهم لم يكونا أقوياء كذي قبل. حقا إن بعض ملوك تلمسان حاربوا المسيحيين، عند انحطاط الدولة المرينية، ووسّعوا نفوذهم عدة مرات. ولما احتل الكاردينال خيمينيس وهران، خضع أحد[33] أمراء هذا البيت إلى ملك اسبانيا، لينجده ضد ابن أخيه[34]، فقبضه وسجنه إلى أن أفرج عنه بربروس. وسنتحدث الآن عن هذا الغاصب، والأشياء التي حدثت منذئذ، قبل أن نتعرض للوصف الخاص بهذه الامارة.

بربروس، وكيف استولى على الجزائر

كان عرّوج الملقب بربروس بسبب لحيته الشقراء صقليا، ولو أن بعضهم يزعم أنه ينتمي إلى جزيرة ليسبوص. كان أبوه مسيحيا أصلا ثم اعتنق الاسلام واشتغل بالقرصنة في بحار الشرق مدة طويلة، وكانت أمه على ما يقال إسبانية من مدينة مارشينة بالأندلس، اختطفها هذا القرصان في البحر. كان لبربروس أخ يدعى خير الدين، فخلفه واتخذ اسمه وتاجه، وانتشرت سمعته منذ ذلك العهد في الأرض. وأخيرا فإن الأخوين معا كانا شجاعين بطلين، أديا خدمات لبايزيد في حروبه ضد سليم. ثم إنهما أرسلا في دولة سليمان من طرف الأسكندر، وهو إسلامي كورسيكي، ليؤديا رواتب حامية قورون ومودون، فجهزا بذلك المال سفينة شراعية وفرقاطة، وقاما بالقرصنة في الأرخبيل ملحقين أضرارا جسيمة بالأتراك والمغاربة والمسيحيين. وفي هذه الأثناء استوليا على سفينة قرصان صقلي من ستة عشر جَنحا، فتركا الفرقاطة وجهزا هذه السفينة وجعلا يجتاحان بها وبالسفينة الشراعية شواطىء إيطاليا التي كانت آنذاك سالمة من القراصنة. وبعد أن غنما بعض السفن والفرقاطات، وحصلا على عدد كبير من العبيد، صادفا سفينتين عظيمتين للبابا، فاكتشفهما القائدان وتعقبهما أحد القائدين دون أن ينتظر الآخر. لكن بربروس عندما رأى سفينة واحدة رجع فورا لمهاجمتها بسفينتيه اللتين كانتا مجهزتين أحسن تجهيز، وبعد معركة طويلة اضطر إلى الاستسلام، ووضَعه الربان[35] في سفينته ليصفده بالحديد. لكن عندما جعله في الممر مع الآخرين، خاطب بربروس

(33) أبو حمُّ عبد الله
(34) هو أبو ريان.
(35) بول فيكتور.

أصحابه بلغته طالبا منهم أن يفعلوا مثله. فاستل خنجرا كان قد أخفاه وقتل الحارس ثم قفز فوق مؤخرة السفينة وأخذ أحد السيوف التي كانت في مستودع الأسلحة الواقع تحت سطح السفينة، وأعطى السيوف الأخرى لرفاقه، فأخذوا يقاتلون المسيحيين بشجاعة نادرة. وفي الحين أسرع إليهم الأتراك والمغاربة، وشاركوا في المعركة بما عثروا عليه من أسلحة، وبالعصي التي تدعم الاخبية، فقضوا على المسيحيين الباقين في السفينة في وقت وجيز، لأن غالبهم كانوا قد عبروا إلى سفنهم لينهبوها، فألقوا بعضهم في البحر، وقتلوا الآخرين، وأسروا الربان. ثم إنهم لم يقفوا عند هذا الحد، بل أصلحوا السفينة بنفس السرعة التي استولوا بها عليها، وفكوا الأسرى وسلموا اليهم أسلحة المسيحيين، وانتظروا السفينة الأخرى فهاجموها واستولوا عليها بسهولة لأنها لم تكن مستعدة للقتال ولم يخامرها أي شك. وبهاتين السفينتين أبحر الأخوان بربروس إلى تونس[36]، وهما يحرران الأسرى ويأسران الأحرار، وبعد أن باعا غنيمتهما، اقتسما ما حصلا عليه من مال. تلك هي بداية هذين القرصانين الشهيرين اللذين انضم إليهما عدد آخر من القراصنة عندما بلغتهم أصداؤهما. فعينوا بربروس قائدا لهم، واجتازوا إلى بحار الشمال، فألحقوا أضرارا جسيمة بالمسيحية. وفي أيام فرديناند الذي حكم قشتالة بعد موت إيزابيلا، كان بربروس على رأس ست وعشرين سفينة تركية أو مغربية، ياتي بها من موانىء بلاد البربر لاجتياح شواطىء اسبانيا. وأخيرا عندما شجعته انتصاراته، عزم على امتلاك ميناء يكون فيه آمنا، فوقع اختياره على بجاية التى كانت بأيدي المسيحين، فهاجمها برا وبحرا[37] بجيش من أصدقائه الأعراب والبربر. لم يحالفه النجاح في هذه العملية، لأن الحامية الاسبانية دافعت عن نفسها ببسالة، وبعد شن غارات متعددة طارت ذراعه بطاقة مدفع، فاضطر إلى رفع الحصار والانسحاب، وحمل منذ ذلك العهد ذراعا ويدا من فضة إلى أن مات. وكان حاكم هذه المدينة إذاك إفيريقيا يدعى سالما، يملكها بمساعدة أعراب، ولا يعترف كثيرا بملك تلمسان ولو أن المدينة لم تكن محصنة. ولما علم في هذه الأثناء بأن بربروس أراد أن يقتله جزاء على الملجأ الذي وفّره له، هرب مع أعضاء فئته إلى بلاد متّجه ونزل عند بعض الأعراب من أصدقائه[38] كانوا أشداء أقوياء. فستر بربروس خطته، وكتب إليه أنه

(36) كان ملكها هو محمد في ذلك الوقت.

(37) في سنة 1514

(38) كانوا يسمون صقالبة

يستغرب من القرار الذي اتخذه، طالبا منه أن يرجع إلى غزو بحار المسيحيين، لأنه لا يعرف ماذا سيحدث له، ويكون مرتاحا إذا تركه آمنا في إمارته جزاءً على ما أسداه إليه من جميل. وأكد له أنه سينمي سلطته، وأنه لم يجيء من بحار الشمال، ليحارب المسلمين، بل المسيحيين، لرغبته في انتزاع بعض الأماكن منهم. وأرسل فقيها يحمل هذه الرسالة الى سالم، ليقنعه بأنه لن يخشى أي شيء مِن قِبله. فأعاده إلى الجزائر، وما أن وصلها حتى أمر بربروس بشنقه وتعليقه في باب المدينة(39) بقماش عماته. ثم احتل الحصن على الفور، واستولى على المدينة باسم الخليفة الكبير.(40).

حصار الجزائر من طرف ديگودي فيرا وانهزامه

يتخوف ملوك افريقيا كثيرا من الالتجاء إلى الأمراء المسيحيين ليمدوهم في حروبهم ضد المسلمين، لأنهم يصيرون بذلك مكروهين من رعاياهم ويتيحون الفرص للمشوشين في العمل على اغتيالهم، وإحداث إنقلابات. وقد اغتنم بربروس هذه الفرصة لينتزع مملكة تلمسان من أبي حمو الذي كان يقدم للملك الكاثوليكي(41)شبه اعتراف وخضوع في مقابل مساعدة جنود اسبانيا إياه ضد ابن أخيه(42)، فكان رعاياه يكرهونه لذلك ولاسيما الفقهاء الذين كانوا يتمنون أن يعتلي العرش ابن أخيه الذي زج به في السجن. واعتبارا لما كان يمتاز به بربروس من انتصارات على المسيحيين، فإنهم سُرُّوا لكونه أصبح مسيطراً على الجزائر دونأن يتطاول إلى أبعد منها، وتمنوا أن يروه بتلمسان ليطلق سراح الأمير الشاب. فاضطر أبو حمو من أجل هذا إلى أن يلتمس من الكاردينال خيمينيس(43) حاكم إسبانيا آنذاك، أن يجند أسطولا ضد بربروس، واعدا إياه بأنه حينما تهاجم الجزائر سيرسل جنوده برا لاحتلال البلاد المجاورة والحيلولة دون وصول الامداد أثناء الحصار. وبيَّن له أن حرمان بربروس من هذا الملجأ سوف يؤمن شواطىء اسبانيا ضد القراصنة، وأنه يفضل أن يتمكن المسيحيون الذين كانوا يحتلون وهران والمرسى الكبير وميناء بادس من هذه المنطقة بدلا من القراصنة الذين يريدون خلق التشويش في كل

(39) باب عرو.
(40) سنة 1515.
(41) فيردناند.
(42) أبو رباد.
(43) كاردينال طليطلة.

مكان. فأرسل إليها الكاردينال، وهو يقدر مدى فائدة هذا الغزو بالنسبة للمسيحية، أسطولا يضم عشرة آلاف محارب، بقيادة دييكَو دي فيرا. لكن هذه الاستعدادات لم يمكن أن تتم بسرية حتى لا يطلع عليها بربروس. فتأهب لملاقاته جيدا وأدخل إلى مدينته أزيد من ثلاثين ألفا من الأعراب والبربر، سواء من الفرسان أو الراجلين. ولما أقبل دييكَودي فيرا، وأنزل نحو سبعة آلاف جندي، تصدى له بربروس من جهة، بينما هجم عليه الأعراب والبربر من الجهة الأخرى، فهزمه وقتل أو أسر معظم رجاله، وطارد الباقي إلى سفنهم. ولم تنته المصيبة عند هذا الحد، لأنهم ما أن ركبوا سفنهم حتى شتت الزوبعة الأسطول كله. وفقدت بعض السفن، بحيث إنهم بدلا من أن يحطوا من قدر بربروس، كما كان في نيتهم، رفعوه إلى أعلى من ذلك، كما سنرى فيما بعد.

احتلال بربروس لتلمسان

أكسب انهزام الجيش الاسباني بربروس شهرة كبيرة، فطمح إلى أكثر من ذلك وكتب إلى أهل تلمسان ــ الذين كان يعرف نواياهم ــ قائلا : انه يستغرب من كونهم مسلمين خاضعين لأمير(44) تابع للمسيحيين يستغلهم لبسط استبداده. ويعرض نفسه لارجاع الحرية لأميرهم الشرعي(45) وإعادة تنصيبه على العرش. لكنه كان ينوي أن يستولي على هذه الامارة تحت هذا الشعار. فأجابوه بأنه يمكنه التأكد من مساعدة السكان، وأن ليس عليه إلا أن يزحف للقيام بعملية بهذا القدر من المشروعية. فلما وصله هذ الجواب تأهب للحرب، وترك بعض الأتراك في الجزائر بقيادة أخيه، وتوجه إلى تلمسان(46) يساعده ذلك الكورسيكي(47) الذي ذكرناه آنفا وكان يتبعه دائما. وانضم إليه في طريقه عدد من الأعراب والبربر بقصد طرد العم وتمكين ابن أخيه من الملك. وعندما وصل أمام المدينة أغلق السكان الذين لم يكونوا مطلعين على المشروع الأبواب وحملوا السلاح، ولاسيما رجال الحاشية، وأتباع الملك(48). لكن الآخرين الذين استقدموه أسرعوا في الحين وأثاروا الشعب باسم الأمير الشاب(49) الذي يسعون في تخليصه،

(44) أبو حمو.
(45) أبو ريان.
(46) سنة 1516.
(47) الاسكندر.
(48) أبو حمو.
(49) أبو زيان.

وأدخلوا بربروس الى المدينة بعد أن طالبوه بأن يحلف بالقرآن أنه لن يضرّ ولن يسمح بأن يلحق أي ضرر بأهل المدينة، وأنه سيطلق سراح الأمير الشاب ويعيدإليه تاجه. وفي أثناء ذلك كان الملك قد فر من باب سري في قصره متجه إلى الجبل، وسار إلى نوميديا معه نساؤه وأطفاله وكل ما لديه من نفيس الأشياء، مصحوبا بمن أرادوا أن يتبعوه. وبعد أن تمكن بربروس من المدينة أفرج حينا عن الأمير الشاب الذي كان مسجونا في القلعة. وبعد بضعة أيام تظاهر بالذهاب إلى الأمير ليودعه ويعود إلى الجزائر، لكنه قبض عليه وعلقه في نفس اليوم مع أبنائه السبعة على أعمدة الرواق، حيث شنقوا بقماش عماماتهم. ولم يكتف بهذا، بل أعطى أوامره بإحضار كل من يمكن العثور عليه من هذه الأسرة، ورمى هو نفسه بهم في غدير حيث غرقوا، وهو مغتبط بحالتهم المفجعة. ثم تخلص من أهم أنصار الأمير الشاب الذين استقدموه مخافة أن يتآمروا ضده، وأعلن نفسه ملكا لتلمسان تحت سلطة الخليفة الكبير (العثماني). ثم ذهب يستولي على باقي المدن، وتفرغ لذلك بعض الوقت إلى أن طُرِدَ من تلمسان، وقتله مارتين أركوط.

احتلال القلعة ومجيء جيش لمساعدة الأمير المخلوع

بعد ان استولى بربروس على تلمسان وارتكب فيها الأعمال الوحشية التي ذكرناها، أرسل صديقه الكورسيكي(50)مع خمسمائة من الأتراك بعدد من الأعراب والبربر الموالين له لقتال الآخرين الذين ثاروا عندما وصلهم خبر استبداده. وقد أحدث هذا الكورسيكي أضرارا كبيرة، لدرجة أن أهل تلمسان ندموا على إدخال قوم بهذا القدر من القساوة والوحشية إلى مدينتهم، وتحالف الذين استقدموهم مع غيرهم من السكان لطردهم، واستقدام الأمير المعزول(50م) لكن مؤامرتهم أكتشفت بالاضافة إلى ضعفهم، فقتل العديد من المتآمرين. وفي هذه الأثناء كان الأمير الذي أفلت من يد أعدائه قد التجأ مع بعض أنصاره إلى وهران، فأشعر حاكمها دييكو دي قرطبة فورا شارل الخامس الذي لم يكن بعد امبراطورا، مبينا له أن هذا الأمير كان تابعا لأبيه(51)، وأنه يلتمس إمداده ضد الأتراك الذين غصبوه إمارته. فأمر شارل الخامس بأن يُمَدَّ بألفي رجل مع بعض

(50) الاسكندر.
(50م) أبو حمو.
(51) دم فرديناند.

الفرسان الذين كانوا بوهران، على أن يأخذوا رهائن من أبناء وإخوان قواد الأعراب الذين اتبعوه. ثم إن حاكم وهران عهد بقيادة جميع هؤلاء الجنود إلى مارتين أركوط، من مواليد قرطبة، وأمره بما كان عليه أن يقوم به. وانضم إليه عدد من الأعراب والأفارقة أنصار الأمير(51م) وأجمعوا على مهاجمة الحصن الذي التجأ إليه خمسمائة تركي بقيادة الكورسيكي(52) الآنف الذكر. وهو حصن هام، بين الجزائر وتلمسان، كان لا بد من الاستيلاء عليه للحيلولة دون إمداد الجزائر. وبالتالي فإنهم كانوا يعتبرون أن بربروس إذا خرج للنجدة أعطى الفرصة لأهل تلمسان ليثوروا في غيبته، وأنه إن لم يجيء فهم متيقنون من احتلال الحصن. وعندما وصل الجيش متقدما قام بحصار الحصن من كل الجهات، وبعد توزيع المعسكرات، حصنوا بالخنادق والحظائر الأماكن التي قد يخرج منها العدو لشن الغارات. فدافع الأتراك عن أنفسهم بشجاعة، مبعدين المغاربة والمسيحيين عن أسوارهم بطلقات البندقيات. وفي ذات ليلة، كان المعسكر قد أضنته سهرات مستمرة، فحملوا عند الفجر على ثلاثمائة إسباني كانوا يحرسون قرب عين، ففاجؤوهم وذبحوهم دون أن يفلت أحد منهم. وبعد ذلك بقليل شنوا غارة أخرى على نفس المعسكر، لكنهم وجدوا الجنود محترسين فدحروا بعد أن لحقت بهم خسارة وأصيب الكورسيكي في ساقه بطلقة من بندقية. وفي هذه الأثناء جاء معظم المغاربة الذين كانوا في خدمة بربروس إلى المعسكر يستسلمون، فاضطرت الحامية إلى تسليم الحصن شريطة أن تتمكن من الانسحاب حيث شاءت، لكنهم لم يوف لهم بالوعد لأنهم عندما كانوا خارجين عرف أحد أبناء قواد الأعراب الكورسيكي بترس كان قد نزعه لأبيه واغتصب نساءه، فانتزعه من يديه، وبمساعدة ثلاثين من إخوته الذين أسرعوا إليه مزقوا الأتراك كل ممزق، ولم ينج منهم سوى ستة عشر لثموا ركابات الملك والقائد الاسباني. ودخل المسيحيون فورا إلى المدينة، ونهبوها ثم سلموها للأمير(53) الذي أقام بها حامية، وعادوا إلى وهران ليزحفوا من ثم إلى تلمسان.

احتلال تلمسان وموت بربروس

وبعد العودة إلى وهران، أبحر القائد الاسباني مع نفس الجيش، ونزل في أرشكول التي جاء إليها معظم جنود الملك برا. فزحف في أحسن نظام نحو

(51م) أبو حمو.
(52) الاسكندر.
(53) أبو حمو.

تلمسان التي لا تبعد من هناك إلا بسبعة فراسخ، دون أن يعترضه أحد في الطريق، نظرا للكراهية التي يكنها الناس للأتراك. وحينما وصلوا إلى المدينة فتح السكان الأبواب لعاهلهم[54]، وتحصن بربروس في القصر، حيث حوصر. فدافع عن نفسه بشجاعة وقام بشن غارات ناجحة، حتى اضطر إلى التفكير في الانسحاب بسبب انعدام المؤن، والفرار مع الأتراك عبر ممر كان قد حفره تحت الأرض ــ أو من باب سري حسب قول بعضهم ــ حاملا معه كل ما استطاع من ذهب وفضة. لكنه اكتشف وتبعه المسيحيون، فكان ينثر لهم من وقت لآخر شيئا من الذهب والفضة ليوقفهم أثناء مسيره. كانت هذه الحيلة بدون جدوى، لأن القائد الاسباني[55] الذي اقتفى أثره بنفسه أدركه قرب ربوة حيث تمركز جيدا عند أنقاض معقل قديم، كانت المعركة دامية، وتطلبت هزيمة هذا الجبار الذي قُتل هو وجميع رجاله من القائد الاسباني ثمنا غاليا. ورجع من هناك إلى تلمسان حيث استقبل بهتافات كبيرة، لكونه خلص البلاد من هذا الوباء، وأرسل إلى عامل وهران رأس بربروس مع السترة التي كانت عليه من قطيفة حمراء مطرزة بالذهب، فأهداها هذا الحاكم إلى أحد أديرة قرطبة[56] حيث دفن، وصنعت منها غفارة ما زالت تسمى بربروس. ثم ان الأمير المسلم خرج من وهران ليتسلم التاج واقتبل في تلمسان بحفاوة. فجازى جميع الضباط والجنود بسخاء كبير، وعرض نفسه كتابع دائم لملك إسبانيا، يرسل إليه كل سنة اثني عشر ألف قطعة ذهبية (بستول)، واثني عشر فرسا وستة صقور إناث، فوفى بذلك إلى أن مات.

وعقب هذا الانتصار عاد مارتين داركوط إلى وهران، وأبحر على متن أسطول إسبانيا الذي وجد بالمرسى الكبير. ولما بلغ أتراك الجزائر نبأ هذا الموت، نصبوا خير الدين مكان أخيه. فاتخذ اسمه وهو الذي أحرز انتصارات عظيمة على المسيحيين المغاربة برا وبحرا، وأصبح منذئذ أمير البحر وملك تونس في دولة سليمان (القانوني). فحصن مدينة الجزائر، وانتزع صخرة بادس من يد المسيحيين، وبنى رصيفا كبيرا في البحر لحماية سفنه. واستولى بعد ذلك على عدة حصون، واستحوذ أخيرا على مملكة تلمسان. ولما تحطمت أساطيل اسبانيا، جعل من مدينة

(54) ابو حمو.
(55) مارتين اركوط.
(56) يسمى دير سان جروم.

الجزائر مدينة غنية بغنائم المسيحيين، وشهيرة بعدد لا يحصى من أسرى النصارى الذين يحملون إليها كل يوم.

هزيمة أوكَودي مونكاضي قرب الجزائر

عندما وصل مارتين داركَوط إلى وهران، وجد بميناء المرسى الكبير دم أوكَودي مونكاضي وهو يبحر ضد هذه المدينة مع الأسطول الاسباني، لأن أبا حمو وعامل تلمسان كانا قد عزما على محاصرتها برا، ليخرجا هؤلاء القراصنة الذين كانوا يزعجون مملكة تلمسان من مخبئهم ويحدثون خللا كبيرا في شاطىء إسبانيا. كان مونكاضي على رأس عدد من الكتائب القوية، وقبل خروجه من الميناء قرر مع القواد أن يختطفوا الماشية في سهول سفين، وهي مجموعة سكنية كبيرة قرب وهران، توجد فيها عدة دواوير للأعراب والبربر. فتوجهوا نحو ازريو القديمة لمغالطة جواسيس المغاربة الذين كانوا على أبواب وهران، ثم عادوا فورا إلى هذه المساكن في منتصف الليل، لكنهم لم يستطيعوا الوصول قبل طلوع الشمس ، لأن دليلهم قادهم إلى مسيل ضيق عانوا الكثير للخروج منه. فحملوا على خمس وثلاثين قرية لأعراب كانوا في تلك الأكواخ. ففاجؤوهم، لأن فرسانهم كانوا قد ذهبوا بعيدا نحو ارزيو، واختطفوا خمسة عشر ألف رأس من الماشية الكبيرة والصغيرة التي كانت في الجبال المجاورة، ولم يأسروا سوى مائة وستين من هؤلاء البرابرة الذين قد لاذوا بالفرار، وعادوا إلى وهران بهذه الغنائم. وفي نفس الوقت، فإن الجنود الذين ركبوا السفن وصلوا بسبب الريح المواتية الي شاطىء الجزائر، حيث نزلوا غربي نهر مطافوس، ثم زحفوا في أحسن نظام توًا إلى المدينة التي لم يكن فيها بربروس في مأمن تام، لأنه لم يكن معه من الأتراك إلا القليل، ولاحتراسه من المغاربة، خاصة إذا قدم عامل تَنَس برّا، كما كان الخبر شائعا. ولما رأى أن سكان الجزائر كانوا يخفون مالهم ومجوهراتهم، وبعضهم يُبعدون نساءهم وأولادهم، منع الناس من الخروج تحت طائلة الموت، آخذا على عاتقه أن يحميهم هو ورجاله. وفي هذه الأثناء وصل أنصاره من الأعراب والبربر فناوشوا المسيحيين بعض الوقت ووقعت خسائر محدودة في الطرفين. ولما رأى مونكاضي أن أي إمداد لم يصله من تلمسان ولا تونس، وأن عدد الأعداء يتزايد كل يوم، خشي أن تكون هناك خديعة وأطلع جميع رجاله إلى السفن ليلا. غير أنه بلغه يوم الغد خبر من عامل تنس، يفيده أن عددا كبيرا من الجنود آت لاغاثته. فأخره ذلك خمسة أيام أخرى، ولما انتهت

ورأى أن جنوده غير كافين لمهاجمة المدينة وحماية المعسكر، أمر بالتزود بالماء استعدادا للرحيل. لكن في العشي عندما أشرفت الشمس على الغروب، هبت ريح شرقية بقوة شديدة حتى إن جميع الفلك الصغيرة وبعض السفن الكبيرة تحطمت على الشاطىء، بينما انطلق الباقي في عرض البحر ونجا بمشقة كبيرة. وكان من جملة السفن التي غرقت سفينة كان على متنها قسم من جنود كتيبة نابلي وعدد من النبلاء والضباط، لأنها كانت ضخمة جدا ومحملة بكثير من المدفعية والذخائر الحربية والمؤن. فدافعوا عن أنفسهم بشجاعة ضد المغاربة، وكانوا سينجون كلهم لو انتظروا يومين، لأن السفن رجعت بعد الزوبعة لالتقاط بقايا الغرقى. لكن بربروس خرج قبل ذلك من المدينة، وأوفد إليهم مغربيا يحمل راية السلام، واعدا إياهم بأنه سيطلق سراحهم ويعطيهم سفنا تنقلهم إلى إسبانيا، شريطة أن يسلموا له الأسلحة والمدفعية. فقبلوا ولو أنه كانت لهم القوة الكافية للتصدي لهم بعض الوقت في السفينة. وبمجرد ما نزلوا إلى البر، همَّ الأعراب بالسطو عليهم، لكن بربروس أرسل مائتين من الأتراك لمرافقتهم، ولما مثلوا بين يديه، سأل الضباط عما إذا كان على النبلاء أن يفوا بوعدهم في الحرب، فقالوا : نعم، فقال : «إن مارتين داركوط وعد الأتراك الذين كانوا في القلعة أن يتركهم يذهبون إلى حال سبيلهم ثم قتلهم عن آخرهم، لذلك سأثار بكم منه، لكنني لن أقتلكم، مكتفيا بالاحتفاظ بكم كعبيد». وقد أكسب هذا الانتصار بربروس الخير والشهرة. حدث ذلك سنة ألف وخمسمائة وسبع عشرة، حين قُتل مارتين أركوط مع أخيه في حصار تلمسان.

المَدد الذي أرسل إلى ملك تلمسان

إن ملك تلمسان(57) الذي أعاده الاسبانيون إلى عرشه أدى طوال حياته ما وعد به ملك قشتالة من إتاوة. وبعد موته نقض أخوه عبد الله العهد رافضا أن يؤدي أي شيء، وذلك بضغط من بعض الفقهاء ومن بربروس الذي أمَّن له حماية الخليفة الأعظم (العثماني) فعاش هكذا وحكم بضع سنين، لكنه لما مات لم يخلفه ابنه البكر كما كان المعتاد، وإنما نصب بربروس مكانه الابن الأصغر(58) الذي كان إذ ذاك بالجزائر، حتى يفتح بذلك مجال التدخل في شؤون البلاد. فلجأ الابن الأكبر عبد الله الى الأمبراطور شارل الخامس ليسترجع ملكه، ملتزما بأن يكون تابعا له

(57) أبو حمو.
(58) أحمد بوريان.

بنفس شروط جده(59) فأمر شارل الخامس كونت دالكودتييي حاكم وهران، أن يمده بستمائة جندي إسباني يصحبونه إلى تلمسان. وانطلق هذا الجند من وهران بقيادة ألفونس مارتينيس، مع أربعمائة فارس مغربي كانوا إلى جانب عبد الله، وأربع قطع من المدفعية، آملا أن ينضم إلى جنوده أثناء المسير أنصار آخرون، إلّا أن الأخ الأصغر الذي كان يحكم بعث مزواره(60) الذي كان عاملا لبني عرَّاش، لمنع الأعراب والبربر من إمداد أخيه. فعمل ذلك جاهدا حتى لم يلتحق به إلا القليل. وعندما وصل الاسبانيون إلى نهر زيز، الذي يخترق بلاد سيرت ويقع على بعد ستة فراسخ من وهران، ورأوا أن الامداد المنتظر لم يات منه شيء اقترح بعضهم على مارتينيس ألا يصرف النظر عن توقع خديعة محتملة، لكنه أجاب بأن قومه لا يُوَلّون الأدبار أبدا. فتابع سيره ووصل إلى نهر سنان، حيث تحصن لقضاء الليل. ويوم الغد وصل إلى تبده(61) والحامات التي تحمل اسم هذا النهر وتبعد عن تلمسان بخمسة فراسخ دون أن يلتحق به في الطريق ولو مغربي واحد، لأن المزوار كان يحول دون ذلك، وعندما علم بوصول الاسبانيين إلى هناك، أرسل الأعراب وأهل المدينة ليناوشوهم. فأقبل جمهور غفير من المغاربة، اضطر مارتينيس من أجله إلى أن يلتجيء إلى بعض الخرائب ليحتمي من الفرسان. ثم إن المغاربة الذين كانوا معه لم يرتاحوا لكونهم حُبسوا، فجعلوا يفرون شيئا فشيئا، وكان انهزامهم يكون لفائدة الاسبانيين لو أراد قائدهم أن يلتجؤوا الى تبدة التي كانت في ملك عبد الله، ريثما يصل المدد من وهران. ذلك لأنها مدينة محصنة بالأسوار، وفيها ما يكفي من الزاد إذا ما تأخر المدد بضعة أيام، لكنه لم يقبل أية نصيحة وركب رأسه، فأرسل يهوديا يطلب من المزوار أن يُخلي له الممر. ولما تحقق المغربي من ضعف مارتينيس جاء فورا إلى تبدة مع جميع الأعراب والبربر بدعوى التفاوض، وبينما كانوا يتفاوضون دخل المغاربة جماعة إلى تحصينات المسيحيين، فقبضوهم أو قتلوهم جميعا، ثم سحبوا المدفعية. وهلك هناك القبطان بالبووا مع جميع جنده الذين لم يرضوا بالاستسلام وحاربوا بشجاعة حتى الموت. وأخذ مارتينيس إلى تلمسان مع ثلاثة عشر أسيرا فقط. وأخيرا لم ينج من مجموع الاسبانيين سوى عشرين انسحبوا قبل مجيء المزوار، بقيادة بعض الأدلاء وعادوا إلى وهران.

(59) أبو حمو.
(60) المنصور.
(61) أو اشت.

احتلال تلمسان وإرجاع عبد الله على يد الكونت دالكوديتي

بعد هذه الهزيمة، ذهب عبد الله مرة ثانية عند الامبراطور راغبا في أن يُمده بقوات أكثر عددا ليرجع إلى تلمسان. فحصل على مراده بواسطة الكونت دالكوديتي، الذي أمره الامبراطور بأن يقوم شخصيا بهذه العملية وأن يسلّم المدينة بعد احتلالها إلى عبد الله الذي أصبح من أتباعه. وبعد أن جمع كمية من الذخيرة والمؤن وسائر الأشياء الضرورية، وحشر عددا كبيرا من مشاة الأندلس وفرسانها، انطلق من وهران(62) في تسعة آلاف راجل وأربعمائة فارس، مصحوبا بأبنائه الثلاثة(63) وتوجه إلى تلمسان. حشد أحمد بوزيان من جهته أنصاره من الأعراب والبربر، وأرسلهم مع جنود المدينة ليشنوا الغارة ضد الكونت بقيادة صهره المزوار، الذي عسكر لهذا الغرض على بعد فرسخين من هناك. ولما كان الكونت على مرأى من الأعداء كوَّن مجموعتين من مشاته تضم كل واحدة منهما أربعة آلاف رجل، إحداهما في الأمام، والأخرى في الخلف، والأمتعة في الوسط. وأضاف الفرسان إلى أحد الجناحين مع بعض المتطوعين، وبجانب الكتائب فرقتان من الفرسان الملكيين رماة البنادق، تضم كل واحدة خمسمائة رجل، على مسافة قريبة من الكتائب. وانتظر الكونت الأعداء في هذا النظام وأعطى أوامره لجميع الجنود ألا يبرحوا صفوفهم تحت طائلة القتل. فأقبل المزوار مع جميع رجاله مجتمعين على عادة المغاربة، ولما دنا من العدو، هجم على الكونت من جميع الجهات بقصد تشتيت جنوده، لكنهم صمدوا للصدمة بشجاعة، وأبعدوا الأعداء، بطلقات متكررة، وقتلوا العديد منهم. وساروا طوال ذلك العشي وهم يحاربون، إلى أن وصلوا إلى حصن مشيد من حزم الأغصان ومتارس كبيرة، وضع فيه المزوار الماء والمؤن لاراحة جنده. وكان الكونت يعاقب بصرامة من أراد التشتت، فلم يجرؤ أحد على أن يبرح صفه. وبعد أن احتل المسيحيون الحصن، قضوا فيه الليل، وفي صباح الغد زحف الجيش في أحسن نظام إلى أبواب تلمسان، فعلموا أن الملك غادرها، بعد أن سمم الآبار، وخرج منها كذلك معظم جنوده لِيَنْضَمُّوا إلى عدوه. إذ ذاك دخلوا إلى المدينة فنهبوها من أقصاها إلى أقصاها، وهم يقتلون أو يأسرون كل من يصادفونه فيها. فأقام عبد الله في الحصن، وليتمركز أحسن تزوج بنات أهم القواد

(62) سنة 1544.

(63) هم : دم الونصو، ودم مارتين، ودم فرانسيسكو.

والعمال، وبخاصة ابنة إسلامي[64] من بيسكاي كان في غاية الغنى والشجاعة، وقد انضمَّ إليه مع العديد من جنوده، وبقي الاسبانيون هناك أربعين يوما، شنوا خلالها عدة غارات على البلاد وعادوا بكمية من القطعان والغنائم، لكنهم فقدوا أزيد من ألف جندي. وذات يوم هاجم المغاربة سريتين كانتا تحرسان في الطاحونات[65]، فقتلوا أكثر من مائتي رجل وغنموا الرايات فحملوها وساروا بها في كل مكان، ليرغموا أهل المنطقة على حمل السلاح. ولما بلغ الكونت أن العدو[66] قد حشد بربر الجبال وأعراب الصحاري، وأنه يطلب المدد من الجزائر، عزم على الانصراف بعد أن نفذ أوامر مولاه وسلَّم المدينة والقصر الى عبد الله ، وفعلا توجه فورا إلى وهران بتسع قطع حربية كان قد أخرجها من مستودع أسلحة الملك، من بينها أربع كانت قد أخذت من الاسبانيين أثناء هزيمتهم الأخيرة. ولم يستطع أن يخرج بنفس السهولة التي دخل بها، إذ وجد نفسه محاطا بما يزيد عن مائة ألف مغربي حملوا على مؤخرة جيشه بعد أن تركوه يمر، فدارت المعركة حتى الساعة الواحدة ليلا، مع خسائر كبيرة للأعداء. وأخيرا أرغمت الطلقات المتكررة للمدفعية والبندقيات المغاربة على الانسحاب، وتابع الجيش سيره، فوصل إلى وهران، حيث اقتُبل بابتهاج كبير.

الأحداث التي وقعت منذ ذلك العهد في تلمسان إلى أن استولى عليها الأتراك

بعد ذلك بقليل، حشد الملك المخلوع[67] أعراب الصحاري وبربر بني عراش وتوجه نحو تلمسان، فخرج عبد الله لملاقاته وحاربه وهزمه شر هزيمة. لكن عندما أراد الدخول إلى المدينة أغلق السكان الأبواب في وجهه، إذ كانوا مستائين من نهب المدينة وما قام به الاسبانيون من تعسفات في البلاد كلها، قائلين إنهم لن يقبلوا كملك رجلا يسلم شعبه إلى أعدائه. فاقترب من الأسوار محاولا تهدئتهم، ولما رأى أنهم تصامموا عنه. وأن رجاله أنفسهم أخذوا يتخلون عنه توجه إلى الصحراء مع ستين فارسا، ليؤثر على أعراب حزبه إذا ما استطاع ذلك، وهم

(64) حسان.
(65) تسمى القلعة.
(66) احمد.
(67) احمد.

الذين قتلوه غيلة فيما بعد. وما أن انسحب حتى أرسل السكان إلى أخيه(68) ليعود، وكان قد التجأ الى حصن مجاور، فأقبل مسرعا، واقتُبل بحفاوة كبيرة. وقد استولى أتراك الجزائر على هذه الامارة منذئذ، واضطر الملك أن يطلب المدد من الأمبراطور. وفي سنة ألف وخمسمائة وست وأربعين، أخذ المزوار معه ابنيه كرهينين إلى وهران، حيث أبرمت المعاهدة مع الكونت دالكوديتي. ثم جاز هذا الكونت إلى اسبانيا وجنَّد الفي رجل بالأندلس بأمر من الأمبراطور ليقودهم إلى تلمسان. فركب البحر مع النصف وترك النصف الآخر في مالقة، لينقلهم على ثلاث سفن متعددة السطوح، وبعض الغليونات. ولما وصل الكونت إلى وهران استنفر فيها ثمانمائة رجل من الفرسان والمشاة، وضمهم إلى الألف الذين كانوا معه، فقصد حصنا(69) للأحلاف، حيث قبض على أكثر من مائتين من السكان وجدهم منحرفين لأنهم بصفتهم حلفاء تزودوا بالسلاح في وهران ليتصلوا للأتراك، لكنهم اقتبلوهم بالمدينة وثاروا معهم، بعد أن أعطوهم الأسلحة التي كانوا قد أرادوها. وعندما عاد الكونت إلى وهران، أمر بشنق ثلاثة من الأعيان، واتخذ الباقين كعبيد، فأمنت البلاد بذلك فترة من الزمان. وخرج من وهران فيما بعد، وعسكر على بعد نصف فرسخ منها فقط مع جميع الجنود، وعشر قطع من المدفعية. وفي يوم الغد توجه إلى أكويبل، وهي مدينة خربة، ولما اقترب منها جاءه عدد من المغاربة الحلفاء يعرضون عليه الخدمة : كانوا يفدون أسراً أو مجموعات أسر، كما هي عادتهم، كل واحدة بحسب رتبتها. وعند إقبال الأولى، كان الأكابر يعانقون الكونت ويتحدثون معه، وبعد القيام بمناورات فروسية، يتركون الآخرين يتقدمون ويحيون الكونت بدورهم. وقد جاء ما يزيد عن خمسين أسرة أو سلالة من بينها مائة فارس، دون المشاة، وأقلها عددا كانت تنيف على الخمسين، كلهم بالرماح والتروس، وخيولهم مسرجة بفخامة(70). فسار الكونت هكذا قرابة ثلاثة فراسخ حتى وصل إلى المكان الذي يوجد فيه المزوار عم الملك وصهره، الذي حضر من أجله لطرد الأتراك من إمارته المغتصبة. وكانت معه خمسة آلاف فارس أرادوا أن يهنئوا الكونت بسلامة الوصول فشخَّصوا أمامه معركة كانوا قد انتصروا فيها منذ قليل ضد الأتراك الذين قدموا لتعزيز تلمسان، وقد دارت كما يلي : كان نحو ثلاثمائة من رماة البنادق

(68) احمد.
(69) كاناسطيل.
(70) أو مزينة فقط بعدة زخارف.

الأتراك يسيرون في السهل، إذا بأعرابي[71] من بين أعدائهم طلب من رفاقه أن يهاجموهم على أن يحمل هو الأول عليهم، ولما امتنعوا من القيام بأي شيء، وضع حبلا في عنقه، وحلف ألا ينزعه ما لم يهزمهم. وعندما تحقق أن كل ذلك غير مجد، وأنه لا يستطيع التغلب على تخوفهم، اختطف ستا من أجمل فتيات دواويرهم، فوضعهن على إبل وساقهن نحو الترك، ثم قال : «سأرى الآن هل الشباب العاشق يرضى أن يترك ما هو أعز عنده بين أيدي القراصنة». وبعد أن حركهم من هذا الجانب، ساق إلى الأمام قطيعا من الجمال العارية، من بين الجمال التي يروّضونها لتصدم جماعة الأعداء بقصد تشتيتهم، فجعلوا يقاتلون بشدة قوية حتى كان يخال أنهم لم يكسروا كتيبة فحسب بل حطموا جدارا. وعندما أطلق الأتراك عليهم النيران لابعادهم، انقض عليهم الأعراب وكسروهم، بحيث إنهم هزموهم بالسيوف. وقد شخص المغاربة هذه المعركة أمام الكونت بأكثر من خمسة عشر سربا من خمسمائة بعير، كل واحد منها تتقدمه اثنتا عشرة امرأة راكبات فوق اثني عشر بعيرا، ويصحبهن بدورهن أجمل من في عائلتهن. فيقتربن من الكونت ويقلن له : «مرحبا بمصلح الامارة، وحامي اليتامى، الفارس البطل المحترم الذي يُتحدث عنه كثيرا، أترضون يا سيدي أن يكون غيركم سيدا للبلاد التي أنتم فيها ؟» ويخاطبنه بعبارات مجاملة أخرى باللغة العربية، كان يفسرها له مترجم شيئا فشيئا، وكان المغاربة في كل مرة يهتفون بصرخات عالية من الابتهاج. ثم جاء المزوار، فعانق الكونت، وبعد محادثة قصيرة عاد إلى ذويه، وأمر رماته الخمسة آلاف بالقيام بمناوشات دامت طويلا دون أن يكدره أحد من هذا العدد الكبير. وأقام الكونت معسكره في مدينة اكَويبل، ونصب خباءه قرب عين تنبع من جبل مجاور، وتدفق الماء بغزارة. ومكث هناك ثلاثة أيام في انتظار سفن إسبانيا التي تقل على متنها الألف رجل الذين تركهم بمالقة، وعندما أرى أنهم لن ياتوا، وأن الوقت يضيع، توجه نحو تلمسان، وتوقف كذلك عشرة ايام في إحدى المدن ينتظرهم. وأثناء تلك المدة كان الجنود يتدربون جيدا على القفز، والمصارعة، والعدو راجلين وراكبين على الخيل، وقذف القضيب الحديدي، وما أشبه ذلك من التمارين الرياضية، بعضهم ضد البعض. وقد صارع مسيحي مغربيا، وضمه بشدة إلى أن سال الدم من فمه بغزارة، لكن المغربي أسقطه تحته بشغربية فتفوق عليه ووضع

(71) جيرّف (كذا).

ركبته على معدته، وتابع المسيحيون والمغاربة سيرهم معا، فوصلوا إلى زاوية[72] أقبر فيها مرابط ذو احترام كبير، ومكثوا هنالك ستة عشر يوما، حتى بلغهم أن الجنود المنتظرين يوجدون على بعد أربعة فراسخ من هناك[73]، ولم يستطيعوا النزول بسبب الريح المعاكسة. وفي الحين أخذ الكونت معه نصف الجنود،وتوجه اليهم ثم عاد بهم إلى المعسكر قبل أن يتابع سيره.ولدى وصوله إلى أنقاض سنان بلغه أن حاكم الجزائر[74] مقبل في ألف ومائتي تركي لفتح تلمسان أو لمحاربته، فاضطر إلى الرجوع على أعقابه لملاقاته. ولكي يطمئن على نفسه ألزم جميع القواد المغاربة بأداء اليمين على أن يخدموه بوفاء، وألا يخذلوه حتى يعيد الملك[75] إلى عرشه، فتم ذلك على هذه الحال : علقوا مصحفا من القرآن في عمامة أمسكها فارسان من كلا الجانبين، رافعين ذراعيهماإلى السماء، فمر جميع القواد والأعيان المغاربة من تحتها، واعدين بإنجاز كل ما يريده الكونت، وهم يضعون أيديهم على الكتاب ثم يخفضونها، ودام هذا الحفل طوال العشية. وكان أهل تلمسان قد أخبروا المزوار بأنهم سيطردون الأتراك شريطة ألا يصحبوا معهم الاسبانيين، وأنهم سيسلمون قواتهم لمن شاؤوا. لكنه أجابهم بأن الذين خدعوا أميرهم لا يستحقون الحياة، وأنه يصحب معه الاسبانيين ليذبحهم.

ولنرجع إلى تاريخنا. فعندما كان الكونت زاحفا لملاقاة عامل الجزائر، وصل إلى نهر زيز، فأخذوا يتسلون بالصيد والتداريب العسكرية مع المغاربة، وانطلق من هناك إلى أربعاء مليانة ليقضي بها الليل، وفي ثالث يوم إلى أكَويبل، ثم عبر نهر فريلت، وعسكر على بعد فرسخ ونصف من الأتراك، ظانا أنهم أبعد من ذلك. وما إن علم هؤلاء به حتى توجهوا من جديد نحو الجزائر، فأوفد عاملها ضابطا[76] ومرابطا من جملة أصحابه كان يتمتع بتقدير كبير، طالبا من المزوار أن يسمح للحامية التركية في تلمسان بالخروج، وأن يمدها بخفير متعهدا بأن يسلم إليه المدينة. فوافق المزوار على ذلك، وبعد تحرير بنود المعاهدة،أقبلت حامية تلمسان إلى معسكره. فاستأذن بعض الاسبانيين الكونت لمشاهدته، وسرهم أن حضروا جنازة ذلك الأعرابي الذي ذكرنا آنفا، والذي هاجم الأتراك ببسالة نادرة ومات بضربة

(72) رابطة زيز.
(73) في رأس فيجل.
(74) حسن أغا.
(75) مولاي احمد.
(76) هو جعفر.

أصيب بها في المعركة. وقد جرى الحفل كما يلي : كانت مغربية واقفة، وأمامها طبول كبيرة غير مُدَوْزنة، وهي تضربها بقوة كبيرة وبجانبها أربع فتيات. وبعيدا من هناك عدد كبير منهن في ذهاب وجيئة نحو الطبول، ويدرن أحيانا حولها. كانت الأولى تغني ما توقعه على الطبول، وترد عليها الأربع الأخريات، ثم جميعهن، وشَعَرهن مشعث، وهن يصرخن بأعلى أصواتهن، ويخدشن وجوههنّ بعنف شديد لدرجة أن الدم يسيل إلى الأرض، فيقبضن قبضات من التراب ويرمين بها على وجوههن، فيختلط ذلك التراب بالدم والعرق، حتى يعدن بالأحرى أشبه بالجنيات منهن بالنساء. فعلن ذلك طوال النهار إلى أن سقطن على الأرض بعد أن خارت قواهن. هذه العادة جارية عند الأعراب عندما يموت أمير أو شخصية مرموقة، وتدوم أحيانا ثلاثة أشهر، وأحيانا أخرى سنة وأكثر، حسب عظمة الشخص الهالك. ويروين في هذه الأناشيد الجنائزية كل ما فعله الراحل منذ طفولته، دون أن يغفلن أدنى شيء.

ولنعد إلى حديثنا. عندما رأى الاسبانيون الذين ذهبوا قصد التسلية إلى معسكر المغاربة أن الأتراك رفعوا رايتهم، وهم يرون أنها يجب أن تطوى أمام راية الأمبراطور أخبروا الكونت بذلك، فأرسل هذا الأخير غداة الغد جنودا ليعترضوا طريقهم ويحطموا رايتهم. فاشتكى الأتراك من ذلك لأنه عنف، وطلبوا أن يحضر المزوار الذي همس في أذن سوطو قائد الاسبان بأنها راية ملك تلمسان يبعث بها إلى صاحب الجزائر. لكن القائد أجاب بأن التركي الذي يحملها يجب عليه أن يسقطها ويطويها أمام راية الأمبراطور. فتناولها المزوار ليفعل ذلك، لكن سوطو لم يقتنع بذلك قائلا إن ذلك راجع للتركي نفسه الذي عليه أن ينزعها من العصا. وأخيرا اضطر التركي إلى الامتثال، على مضض كبير، وعاد سوطو إلى المعسكر مع أربعة جنود فقط كان قد صحبهم معه. وعندما رأى الكونت أن الأتراك خرجوا من تلمسان التي كانت سبب مجيئه عزم على مهاجمة مستغانم، لكن المزوار رفض الذهاب معه، لأن وجوده بتلمسان في هذا الظرف كان ضروريا، فصرفه قائلا إنه يستغني عن خدمته، وأنه سيحتل مستغانم وحده وبدون إعانته، وافترقا على هذه الحال. لكن الكونت كان قد ذهب قبل ذلك مع بعض الجنود إلى وهران التي لا تبعد من هناك إلا بسبعة فراسخ، وحمل منها بعض قطع المدفعية، بحيث إنه زحف فورا ضد مستغانم، وكل قطعة من المدفعية تجرها أربع بغلات مصطفات إثنتين إثنتين. وانطلاقا من نهر فريلت حيث كان معسكرا، وصل في أول يوم إلى نهر سقناقي، وما وراءه إلى واد هبرة، ونهر قسناق، ثم إلى

مجموعة سكنية فيها بعض الآبار، وهو يدور في مسافة تزيد على خمسة فراسخ ليعسكر في نفس المكان الذي كان فيه الأتراك عندما احتلوا هذه المدينة. فقضى اليوم الواحد والعشرين من شهر غشت بمزغران، حيث ارتاح الجنود في حدائق مليئة بجميع أصناف الفواكه، ووصل الجيش في نفس اليوم إلى مستغانم، فعسكروا على ربوة أطلقت منها في الحين أزيد من مائة طلقة مدفعية ضد المدينة. لم يكن عند الأتراك سوى مدفعين صغيرين، فككا على الفور. ورغم ذلك أمر الكونت بان يطوف أهل وهران حول المدينة لاستطلاع أحسن، وقتل اثنان بسبب غارة، وجرح خمسة وعلموا في الغد من مغاربة أسروا أنها أغنى مدينة في بلاد البربر، لأنهم جلبوا إليها جميع ثروات البلاد المجاورة، وأن الأتراك خزنوا فيها كل غنائم المملكة، وأن عددهم لا يعدو اثنين وأربعين رجلا يرغمون سكان المدينة على الدفاع عن أنفسهم ولو أنهم أكثر من اثني عشر ألفا، ويمنعونهم من الاستسلام إلى الاسبانيين. ولما وصل هذا الخبر إلى الكونت أمر بقصف المدينة طوال ثلاثة أيام وحين رأى امتناعهم القاطع من المفاوضات، حمل مدفعيته، وعسكر في جانب آخر بدا له أضعف ومن الأسهل أن يشن منه الهجوم. وفي هذه الأثناء، بدأ البارود ينقص، بحيث إنهم لم يستطيعوا أن يزودوا به الجنود، وأن يتابعوا القصف. فأرسل سفينة شراعية إلى وهران لم تعد إلا بعد يومين، الأمر الذي أتاح الفرصة لعدد من الأتراك أن يحتلوا المدينة. كانوا هم رجال الحامية الذين خرجوا منذ قليل من تلمسان، وأخذوا هذه الطريق لما علموا أن الاسبانيين زاحفون ضد مستغانم، ومعهم أكثر من خمسة وعشرين ألف مغربي، سواء منهم الراجلون والفرسان. ولما أحدث المدفع ثلمة مناسبة (في السور) أمر الكونت بأن يصعد اليها خمسة عشر لواء، غير تارك سوى ثلاثة لحراسة المعسكر. فطلع الجنود بشجاعة إلى الثلمة، حيث تصدى لهم الأتراك بعزيمة قوية، بحيث كان يبدو أن واحدا منهم كاف لحمايتها، وما أن كان يسقط منها واحد حتى يخلفه آخر. فصعد أربعون إسبانيا الى الثلمة، وركزوا خمس رايات فوق السور لكنها انتزعت بمجرد ما وصلوا إليه. ودام القتال أزيد من ساعة، وقتل الكثير من الطرفين، ولكن من جانب المسيحيين أكثر، لأنهم كانوا يحاربون مكشوفين، فتقهقروا في اضطراب، واقتفى أثرهم الأتراك والمغاربة إلى معسكرهم وهلك مائتا مسيحي في هذا اللقاء، وجرح عدد أكبر(77). فجمع الكونت أكثر ما أمكنه من الرجال، وكر على الأتراك وطردهم من المعسكر.

(77) 250 جريح.

فنصحه بعضهم أن يفسد المدفعية، ويعرقب الخيول، ثم ينسحب ليلا على متن سفن كانت راسية هناك، لكنه أجاب بأنه يفضل الموت على أن يتبع نصيحة بهذا القدر من الجبن. وبالغ المجهود حتى كانوا عند بزوغ النهار قرب البحر مع جميع الجنود والأمتعة. وأفسدوا مدفعا واحدا فقط كان مفككا. وطلع جميع الجرحى، وكل من لم يكن قادراً على القتال ليلا إلى إحدى السفن الشراعية، إلا أن خائنين أخبرا مستغانم بالتقهقر، منذ الشروع فيه، فخرج الأتراك صباحاً في أحسن نظام، متبوعين بأكثر من خمسة عشر ألفاً من المغاربة الراجلين، وثلاثة آلاف فارس، عازمين على القتال. وقد اعترى الخوف والفزع الجنود، حتى إنهم فكروا في الفرار أكثر من القتال. لكن ابن الكونت(78) الذي أصبح منذئذ مركيز دي كورطيس، أخذ حربة بيده، وبفضل عزيمته التي كانت أقوى من العار، أدار رؤوس بعض الجنود الذين كانوا قد دخلوا في الماء، وأخذ يصفهم للقتال. ومن جهة أخرى، فإن لويس دي رويدة، قائد الفرسان الشجاع لما رأى أن الأعداء أتوا مسرعين لينقضوا على المسيحيين، ضم إليه نحو ستين فارسا، ثم استغاث بسان جاك ولي اسبانيا، وحمل في قلب المعركة حيث كان الأتراك، وأرغمهم على الفرار. وعندما شاهد المشاة ذلك تبعه فوج مؤلف من خمسمائة جندي، فحمل على الأعداء وكسرهم وأرغمهم على العودة بسرعة أكثر من التي أقبلوا بها. ولما تراجع المغاربة، جمع الكونت جنوده بقدر ما استطاع، وسار في طريق وهران عند العشي دون أن يهاجمه أحد في باقي النهار، بحيث إن جنوده قطعوا ليلا ستة فراسخ. وفي يوم الغد صادف بعض الأتراك والمغاربة عند عبور نهر، لكنهم لم يستطيعوا أن يمنعوه من العبور، فوصل في ذلك اليوم إلى أزريو، حيث شاهد أطلال هذه المدينة الشهيرة. وفي يوم الغد وصل إلى وهران التي كان قد غادرها قبل سبعة وخمسين يوما. وقد مكث مولاي أحمد ملكا بتلمسان وحكم في أمان إلى أن مات، محافظا دائما على الصداقة مع حسن أغا حاكم الجزائر، ثم مع صالح رايس الذي خلفه. وبعد موته نصب مكانه أخوه مولاى حسن، من طرف صالح رايس، الذي كان يكن له مودة كبيرة، شريطة أن يسلم له حصون الامارة. لكن مولاي حسن ندم على ذلك بعد أربع سنوات، بسبب فظاظة الأتراك، وتعاهد مع الكونت دالكوديت لطردهم، غير أن الأتراك حين علموا بذلك أثاروا ضده الأعراب والسكان، وأرغموه على الفرار مع حاشيته وأسرته إلى وهران، حيث

(78) دم مارتين دي قرطبة.

هلك بالطاعون بعد ثلاث سنوات، وهو يحاول أن يسترجع ملكه، وترك ابنا عمره ست سنوات تنصر وسمي دم كارلوس، وقد منحه فيليب الثاني فيما بعد إقطاعا بقشتالة. ومنذ ذلك العهد، حين استولى الشريف محمد على مملكة فاس، أرسل ابنيه(79) لاحتلال تلمسان، لكن الأتراك طردوهما، وقتلوا في إحدى المعارك ابنا آخر(80) للشريف، وقد جرح مولاي عبد الله، وهو الحاكم الحالي. وأخيرا بقيت هذه الامارة بين أيدي الأتراك الذين ما يزالون يملكونها أو معظمها على الأقل حتى اليوم.

(79) مولاي احمد الحران، ومولاي عبد الله.
(80) مولاي عبد القادر.

الفصل الثاني عشر

• العُبَّاد

هذه المدينة بمثابة ربض لتلمسان، ولا تبعد عنها إلا بنصف فرسخ من جهة الجنوب. وموقعها فوق جبل. يذكر المؤرخون أن الرومان هم بُناتها. وإسمها عندهم ايمينياريا. وموقعها عند بطليموس على اثنتي عشرة درجة وخمسين دقيقة طولا واثنتين وثلاثين درجة وعشر دقائق عرضا. فيها ضريح مشهور يقال إن مرابطا(1) يحظى بتعظيم كبير مدفون فيه. قبره في المسجد الاعظم، والنزول اليه بدرجات. وعلى مقربة من هذا المسجد توجد مدرسة ومستشفى يقصدهما المعوزون من الغرباء. وكلاهما من بناء رابع خلفاء فاس(2) ذلك ما يشاهد مكتوبا بخط مزخرف على لوحة من مرمر فوق الباب الرئيس. لا تختلف أحوال سكان العباد عن أحوال أهل تلمسان في عوائدهم ومعاشهم. يتعاملون مع أهل الجبل ويحترف عدد منهم الصباغة وغيرها من الأمور المعتبرة.

الفصل الثالث عشر

تفسرة

مدينة كبيرة بناها سكان البلد الأصليون حسبما يذكره بعض الكتاب. تقع في السهل على بعد خمسة فراسخ من تلمسان من جهة الشرق، وكانت تدعى قديما تسله. وهي عند بطليموس على ثلاث عشرة درجة وعشرين دقيقة طولا ،على ثلاث وثلاثين درجة وعشر دقائق عرضا. يكاد كل سكانها يشتغلون بالحدادة، ويتوفرون على عدد من المناجم يستخرجون منها مادة عملهم. وفي الأراضي المجاورة لها يصلح القمح وتجود المراعي، ولكن معظم تجارة أهلها في الحديد الذي يحمل قصد البيع الى تلمسان وغيرها. تحيط بها أسوار عالية منيعة. ولا زائد فيها على ما ذكرته مما يستحق أن يشار إليه.

1) سيدي بومدين

2) أبو الحسن

الفصل الرابع عشر

بني راشد

إقليم أو إمارة خاصة تمتد طولا على مسافة سبعة عشر فرسخا وعرضا على تسعة فراسخ. وطرفها الجنوبي سهل وشمالها تلال يصلح بها الزرع وتجود المراعي. سكانها بربر من قبيلة مقاطع من سلالة بني راشد. وهم على فرقتين، أهل الجبال ويسكنون القرى[3] ويشتغلون بزراعة الحقول والكروم، أما غيرهم فيجوبون الآفاق كما يفعل الأعراب، وهؤلاء أعظم غنى وشهرة وأكثر خيلا وجمالا. وفي هذا الأقليم ثلاث مدن رئيسية وهي بنو راشد التي تسمت باسمها الامارة وهي عاصمتها ويزيد سكانها على الألف وهي أقدم المدن الثلاث، يسكنها عدد من أشراف الناس وأثريائهم وإن كانت غير محصنة بسور. وهي عند بطليموس تسمى فيلبورك؛ وقد جعلها على اثنتي عشرة درجة وأربعين دقيقة طولا وعلى اثنتين وثلاثين درجة عرضا. أما المدينة الثانية فهي القلعة، وهي أكثر امتناعاً من سابقتها. بنيت على سفح تل بين جبلين عاليين. تحيط بها أسوار ذات أبراج على هيئة القلاع الحصينة. يسكنها تجار وصناع مياسير. فهي التي استولى عليها مارتين دراكوط لما زحف ضد أبي حمو، وهنالك قتل العرب هذا القائد الكورسيكي[4]الذي استسلم لهم. كانت تسمى ألطاو في القديم. جعل بطليموس موقعها على اثنتي عشرة درجة وثلاثين دقيقة طولا وعلى إحدى وثلاثين درجة وعشر دقائق عرضا. أما المدينة الثالثة فتدعى معسكر وهى عبارة عن قرية كبرى بها قلعة بدأ بناءها المنصور وأتمه الأتراك، إذ كان من العادة أن يقام بها عامل وفرقة من الفرسان. ويتوفر فيها الفرسان على ثلاث قطع من المدفعية وعلى عدد من المقاتلين تحت إمرة قائد يعينه حاكم مدينة الجزائر من أجل كبح جماح الأعراب العائثين في تلك الجهات ممن لا يسلمون القياد. وتنعقد في هذه المدينة سوق يوم الاثنين يقصدها البربر والأعراب لبيع ماشيتهم وزرعهم وغلاتهم من الزبيب والعسل والشمع والزيت وما شابه ذلك. ويأتي إليها التجار من تلمسان وغيرها بالمنسوجات والبرانس والعباءات والسروج المضربة ذات المهامز والأعنة وغيرها من عدة الفرس وكثير من البضائع الأخرى التي يتزود بها أهل تلك النواحي. ويظن البعض انها نفس المدينة التي سبق أن تحدثنا عنها في الفصل السابق يسميها بطليموس قيلبورك. ومهما يكن الأمر فإن

3) وأماكن معلقة

4) إسكندر

سكانها ميسورون، ويجبي منها أمراء تلمسان ألف بيسطلوليس في العام، ويستنفرون منها عشرين ألف مقاتل عند الاقتضاء. ما بين فارس وراجل، وكلهم من الرجال الأشداء في الحرب المتوفرين على عدة جيدة. وهي اليوم تحت إمرة الترك كما سبقت الاشارة إلى ذلك.

الفصل الخامس عشر

تسلة

مدينة قديمة بناها سكان البلد الأصليون في سهل فسيح عرضه سبعة فراسخ. وهي على ستة فراسخ من وهران. حربها رابع خلفاء بني مرين(5) عند قتاله لأهل تلمسان، ولم تعمر بعد ذلك. يعيش البربر المالكون لهذه المناطق متنقلين بخيامهم كما يفعل العرب، وأرضهم خصبة بحيث تستطيع أن تمد مدينة تلمسان بالقمح والشعير إذا ما زرعت بأكملها دون مشقة لأنها لا تتكون الا من الخيام. لم يبق من هذه المدينة سوى حصن به نطفية تتمجع بها مياه الأمطار. ولكن المسلمين لا يجرؤون على سكنى هذا الحصن خوفا من المسيحيين. وقد وصل ابن الشريف(6) الى هذه الناحية عندما استولى على تلمسان. وكان يقوم انطلاقا من هذا الموقع بغارات كل يوم على أراضي وهران. كانت تسلة تسمى قديما أريان، وهي التي جعل بطليموس موقعها عند ثلاث عشرة درجة وعشرين دقيقة طولا وثلاثين درجة وخمسين دقيقة عرضا.

الفصل السادس عشر

أغبال

مدينة قديمة ترى أنقاضها بين تسلة ووهران. كانت لها أسوار جيدة ربما كانت من بناء الرومان. وكانت في القديم كثيرة السكان. وعلى بعد أربعة فراسخ منها يمر نهر سيرات الذي يسمى باسم المنطقة التي ترتوي من مياهه. ويتكون من نهرين(7)ينبع أحدهما من جبال بني راشد قرب مدينة معسكر وينبع الآخر من الأطلس الكبير ويلتقيان في هذا البسيط حيث يسميه العرب باسم آخر(8) بينما

5) أبو الحسن

6) محمد الحران

7) واد زيز

8) غمارة

يسمى فى المجرى الأسفل بنهر سيرات نسبة الى هذا السهل الذي ينتقل فيه أعراب(9) أشداء من أشراف مليانة(10) يفرضون المغارم على برابرة هذه الجهات. تخريب هذه المدينة على يد ملك من ملوك فاس ولم تعمر بعد ذلك، وما تزال جدرانها قائمة. والأراضي المحاورة في ملك من ذكرتهم من الأعراب، وهم أغنياء بأراضيهم ومواشيهم ولا يتنقلون الا وهم مسلحون، خوفا من حامية وهران التي لا تبعد سوى بأربعة فراسخ. كانت تسمى في القديم بمدية النصر (فيكتوار) وهي حسب قول بطليموس عند أربع عشرة درجة وثلاثين دقيقة طولا وعند اثنتين وثلاثين درجة وعشرين دقيقة عرضا..

الفصل السابع عشر

• البطحاء

مدينة عتيقة بناها سكان البلاد الأصليون في بسيط جميل على ثلاثة فراسخ من وهران داخل البلاد. خربها الزناتيون من قبيلة مغراوة وهم بنو عمومة أمراء تلمسان، موطنهم في جبال ونشريس. كانت لهم حروب سابقة مع أبي تاشفين، وقد قاموا لحساب الملك يوسف المريني باحتلال جزء كبير من مملكة تلمسان وخربوا جميع المدن التي لم يستطيعوا الاحتفاظ بها بما فيها مدينة البطحاء التي لم تعمر بعد ذلك. ولكن أحد المرابطين(11) جاء إلى هذه المنطقة واستقربها وزرعها نظرا لخصوبتها وجودة مرعاها. وقد جاء الناس ليستقروا في حماية هذا الرجل الذي كان يحظى بتوقير ملوك فاس واحترام الأعراب على السواء، ولكنهم لم يعيدوا عمارة المدينة. ما زالت أنقاضها شاهدة على عظمتها. وهي تقع على ضفة نهر(12) في مكان مشرف على حقول فيحاء، بطل حرثها حتى صارت كالغابة. ومنذ أن استقر هذا المرابط بهذه السهول صارت تسمى بلاد سنا، وكذلك يسمى النهر الى غاية اتصاله بالساورة. كانت البطحاء تعرف قديما باسم بونوبور، وجعلها بطليموس عند أربع عشرة درجة وثلاثين دقيقة طولا وعند اثنتين وثلاثين درجة وثلاثين دقيقة عرضا.

9) اولاد سليمان وأولاد موسى وأولاد هاجر وأولاد عبد الله

10) أبو الخميس

11) سيدي سياء

12) وادي مينا

الفصل الثامن عشر

المرسى الكبير

بناها الرومان على هيئة قلعة محصنة على ساحل البحر المتوسط على فرسخ واحد مس وهران من جهة الغرب. مرساها أجمل من مراسي إفريقيا وأعظمها. يتسع لعدد كبير من القوادس والسفن، لا تناله الرياح والعواصف من أي جهة من الجهات. كانت ترسو به كل عام السفن الضخمة القادمة من البندقية وغيرها من بلاد أوربا حاملة البضائع التي تنقل بعد ذلك على قوارب الى وهران حيث تنفق تجارتها. والظاهر أن هذه المدينة لم تشيد إلا لحراسة هذا المرسى الكبير. وهي عند بطليموس على اثنتي عشرة درجة وأربعين دقيقة طولا وعلى أربع وثلاثين درجة وثلاثين دقيقة عرضا. وهي على صخرة يتعذر تحطيمها، يحيط بها جبل عال شديد الانحدار والوعورة بحيث لا يمكن الارتقاء منه الى المدينة إلا بصعوبة شديدة ما عدا من طريق وهران حيث ممر ضيق غير مستو يسمى الكرسي. أما من جهة الشمال حيث تضربها أمواج البحر، فيوجد برجان مربعان يدعمان المرسى، وعلى بعد امتداد السور السميك المبني بالطابية نجد برجا مستديرا يسمى بالناقوس. ومن ينطلق منه ليدور حول المدينة يجد رصيفا. وقبل نهايته يوجد في ركن جداري السور برج مربع آخر يعمد كل هذه الجهة، كما يوجد برج ثان في الركن الآخر الذي بعد هذا، وذلك في أسفل باب المدينة في المكان الذي يعرف بالبحر الهائج. أما مدخل المدينة فيحميه برجان مربعان كبيران بهما سكنى العامل. وعلى الداخل إلى المدينة أن يجتاز ثلاثة أبواب. ويحمي المدينة حصن من جهة البحر، ويخترق جداره شق قديم، ولهذا الحصن أربعة أبراج مربعة تتكسر عليها أمواج البحر. ولم تمض سوى مدة يسيرة من وقوعها تحت حكم مارتين القرطبي وهو كونت ألكاودبت، حتى شرع في بناء حصن في هذه الجهة فوق جبل عال على بعد ستمائة خطوة من المدينة من ناحية الغرب. ولم يكن قد كمل عندما جاء الأتراك يهاجمون المدينة كما سنرى فيما بعد. ولما صارت هذه المدينة بأيدي المسلمين عام ألف وخمسمائة وواحد أعطى دُم مانويل ملك البرتغال الأمر لقواد أسطول بعث به إلى المشرق لحساب البنادقة، وذلك بقصد اقتحام هذه المدينة وأخذها في طريقهم وإقامة حامية فيها. ولما وصل الأسطول إلى تلك المدينة عاكسته الرياح ومرت عليه ثلاثة أيام وسفنه تدور حول نفسها قبل أن ترسو. وكان السكان قد تمكنوا في هذه المدة من اكتشاف الخطر القادم إليهم واستقدموا من وهران ثلاثمائة فارس وعددا

من المشاة بقصد الدفاع عن المدينة. ولم يتزحزح المسلمون عن مواقعهم إلى أن نزل البرتغاليون، ولما رأوا أنهم قد ابتعدوا عن الشاطىء وأن بعضهم قد صعدوا فوق الجبل ليتعرفوا على المدينة خرجوا إليهم جملة واحدة وأحاطوا بهم وأوقعوا بهم الهزيمة. وكان منهم عدد من القتلى والأسرى. وتمكن بعضهم من الفرار، واقلعوا توا بسفنهم تاركين المسلمين فرحين بنصرهم.

الدون دييكَو القرطبي يهاجم المسلمين

وفي عام ألف وخمسمائة وستة، وذلك بعد مرور خمس سنين على هزيمة البرتغاليين، قام الدون دييكَو القرطبي عامل الدونزيليين بمهاجمة المرسى الكبير بواسطة أسطول شارك فيه عدد من النبلاء. وقد حاصر المدينة وقاتلها بشدة، ودافع المسلمون عنها وردوا عن النصارى بمدفع من الحديد. ولكن هؤلاء سددوا في اتجاهه مدفعا آخر أصابه في الصميم وحطمه وقتل المدفعي المكلف به. وأدى ذلك بالمسلمين الى قبول الاستسلام فخرجوا بنسائهم وأولادهم تاركين المدينة مفتوحة للمسيحيين. ولما انتصب الغالب عاملا على المدينة بلغه بواسطة جواسيسه أن عددا من الأعراب نازلون ببسيط(13) لا يبعد سوى بفرسخين اثنين، وأطمعه غزوهم في غنيمة عظيمة. وأخرج اليهم ليلا بمجموع عساكره بعد ان ترك حامية كافية في المدينة. وقد فوجىء العرب بالانقضاض عليهم واقتحام خيامهم واسر عدد من رجالهم وغنم متاعهم، ولكن القدر حكم عليه بأن يؤدي ثمن هذا النصر بهزيمة كبرى. وذلك أن رجاله أرادوا في طريق عودتهم أن يتحرشوا بأهل وهران. فخرج اليهم حماتها وعددهم ثمانمائة من الرماة، ولما رأوا النصارى مثقلين بغنائمهم هاجموهم من كل جهة واضطروهم الى الاعتصام بتل هنالك وناجزوهم في قتال سالت فيه كثير من الدماء. وقاتل دُم دييكَو شخصيا الى ان قتل جواده وكاد يهلك لولا ان تداركه أحد غلمانه بفرسه وذاق الموت في مكانه. كانت هزيمة فظيعة مات فيها عدد من النبلاء، وقد استعاد المسلمون كل ما سلب منهم ورجعوا منتصرين إلى وهران. وأما العامل دييكَو فقد وصل الى المرسى الكبير في حالة سيئة، وبعد أن ترك مارتين داركَوت نائبا عنه في حكم المدينة جاز الى إسبانيا، ثم عاد منها الى عمالته.

13) مرسى حريين

الفصل التاسع عشر

وهــران

مدينة قديمة بناها السكان الأصليون على الساحل، تفصلها مسافة فرسخ واحد عن المرسى الكبير جهة الغرب. كانت تسمى على عهد الرومان أونيكاكولونيا. ويسميها البعض باسم آخر. تقع على اثنتي عشرة درجة وثلاثين دقيقة في خطوط الطول وعلى أربع وثلاثين درجة من خطوط العرض، وعلى بعد عشرين فرسخا من تلمسان. كانت من أغنى مدن موريطانيا القيصرية. كانت بها التجارات الواسعة والمساجد والمدارس والمستشفيات ومحلات النزول والدور المعتبرة. كل مرافقها رائقة البناء وأزقتها وساحاتها جيدة الترتيب. لا تبعد عن البحر إلا بقدر مرمى الحجر، نصفها من السهل ونصفها على جبل وعر. توجد قلعة حصينة فوق الجبل، وتوجد قلعة أخرى أقدم منها ذات حواجز موازية للسور الذي دعمه النصارى بأبراج وخنادق عميقة محاذية لأساساته. وعلى الضفة الأخرى لنهر يبعد بحوالى ألف خطوة يوجد حصن(14) آخر فوق جبل يشرف على المدينة، وبإمكان الناظر من أعلاه أن يستكشف الوادي كله الى منبع النهر. ولهذا الحصن خندقان عميقان، وسور الخندقين مبلط تبليطا جيدا يتسع لأن تسير عليه عربات المدافع. وباني هذا الحصن هو الدون بيدري دي نابارو عندما تم له غزو المدينة. للمدينة بابان اثنان : باب تلمسان في جهة الجنوب وباب قسطيلية في جهة الشرق. لا تحيط الخنادق بأسوارها من جميع الجهات لأنها واقعة على منحدر. كان سكانها فيما مضى من الزراع والرعاة والتجار وكان بها كثير من النساجين، ولما كانت أرضها لا تصلح فيها الحنطة فإنها تتلقى كميات وافرة من قمح المناطق المجاورة(15) ومدينة وهران معدودة على الدوام في مملكة تلمسان، وقد ظلت حرة مدة حروب فاس، كان بها لأمير تلمسان قائمون على الجمارك يحصلون الرسوم، ولكن لم يكن بها عامل من لدن هذا الأمير مما جعل سكانها يعينون كل عام أحد أعيانهم ينظر في خصوماتهم ويحكم في جرائمهم، وهذه كانت الحال عندما وقع غزوها.

وكان هذا الرخاء الذي عرفته وكذا جودة الميناء المجاور من العوامل التي أغرت بعض السكان بتجهيز غزوات بحرية ضد سواحل البلاد النصرانية ولاسيما

14) رجل القفار

15) مليانة وسفينة وأكويل

سواحل بلاد الأندلس والمدن المجاورة، وهذا ما استدعى القيام بعملية المرسى الكبير ثم عملية غزو وهران التي سنقوم بوصفها.

كيف هاجم الكاردينال خيمينيث وهران

بعد مرور ثلاثة أعوام على أخذ المرسى الكبير توجه الكاردينال خيمينيث أسقف طليطلة لغزو وهران بجيش بحري عظيم يقوده اللون بيدري دي نابار، وكان في هذا الجيش عدد من نبلاء قشتالة. واقتحم هذا الجيش مدينة المرسى الكبير عام ألف وخمسمائة وتسعة، وهو العام التاسع لحكم جان تحت وصاية والده المالك فردينانلو بعد وفاة صهره[16] وهو ابن الامبراطور ماكسيميليان. وكانت عملية الغزو أسهل مما كان متوقعا. ذلك لأن غامل المرسى الكبير كان قد اتفق مع يهودي[17] ومسلمين[18] وكانوا قائمين على تحصيل واجبات الأبواب لحساب أمير تلمسان، على أن يسلموا له المدينة في موعد مضروب. وبينما كانوا يدبرون ذلك الاتفاق إذ وصل الجيش، وكان لكثرة عدده قد وصل الى البر في غير ترتيب. وتقدم الى وهران على الطريق الجبلية. ولما رأى المسلمون نزول تلك الحشود الكثيرة خرجوا دفعة واحدة لقتالهم، ولم يخلفوا داخل المدينة سوى عدد قليل من الناس. وعندئذ سنحت الفرصة للمتآمرين فغلقوا الأبواب ونصبوا على أحد الأبراج صليبا أحمر كان عامل المرسى الكبير قد أرسله إليهم خفية ليتخذوه شارة يستحثون بها النصارى إذا وصلوا أمام المدينة. وكان العامل المذكور قد أزعج قاربا من المرسى الكبير ليحمل إليه مفاتيح وهران والأعلام بنجاح خطة تسليمها. وقد بادر الكاردينال بقيادة عدد من الجنود ومعهم السلالم لتسلق أسوار المدينة من الطرف الآخر بينما كان سكانها المسلمون يوجدون خارجها. ودخلها النصارى بدون مقاومة كبيرة، وهاجموا المسلمين من الخلف وهم يقاتلون النصارى فكانت مذبحة عظيمة في المسلمين. ونجا منهم من نجا، ففروا متشتتين في الحقول بعد أن رأوا سقوط مدينتهم وهزيمة جيوشهم، تاركين النساء والأطفال والمتاع لمشيئة أعدائهم. وهكذا تم أخذ هذه المدينة، وإن كان بعض المسلمين قد صمدوا خمسة أيام في دار الفقيه، وكانت محاذية للجامع، ولكنهم في النهاية لم يستطيعوا النجاة من الفتك

16) فيليب
17) اشتورة
18) عيسى العُتيبي واس قاش

أو الأسر. ولم يهلك من النصارى سوى ثلاثين من الرجال وفيهم كونت ألتمير الذي قتل، أسفا، على يد أحد رجاله، وكان يتقدمه حاملا فوق كتفه بارودة ملفوفة. وكان عدد من قتلوا أو أسروا من المسلمين في هذا القتال أربعة آلاف. وبعد هذا النصر عاد الكاردينال إلى إسبانيا تاركا الدون دييكو القرطبي عاملا على وهران ومعه حامية جيدة. وكان المالك فرناند يرغب في أن يدفع بفتوحاته في هذه الجهات إلى أبعد حد ممكن لولا أن صرفته عن ذلك حروب البابا[19] مع مالك فرنسا والبنادقة. وكان أمير[20] تلمسان يؤدي له المغرم، ووعده أحد الزعماء[21] الأفارقة بدفع المغرم ويتسلم مدن ساحلية من مملكة فاس إذا هو أعانه على غزو المملكة المذكورة. وما أن أعد العدة لهذا الأمر حتى وصلته رسالة من البابا يحثه على إنجاده كما أنجده الامبراطور[22] وأمراء مسيحيون آخرون. كان ذلك سببا في عدم مواصلة تلك المساعي، ولم يتمكن من استئنافها بسبب ما حدث من الفتن بين المسيحيين بعد معركة رافين. ومات وهو ينوي تحقيق غرض نبيل دون أن يتمكن من إنجازه.

استيلاء الأتراك على وهران

وبعد أن استعاد صالح رايس مدينة تلمسان وهزم ثلاثة من أبناء[23] الشريف غزا مدينة فاس ونصب لملكها من شاء، وأدركه العجب بكثرة انتصاراته بعد أن صار واليا على مدينة الجزائر فتطلع الى فتح مدينة وهران. ذلك ما حمله على أن يبعث ولده[24] محملا بالهدايا إلى السلطان الأعظم[25] طالبا منه إمداده ببعض السفن الحربية (القاليرات). وفي تلك الأثناء خرج بقصد غزو بجاية كما سنذكر ذلك في موضعه. وقد رحب الملك الأعظم بابن والي الجزائر وبعث معه بأربعين سفينة كانت عند ذاك بالأرخبيل. وبلغ الخبر الى الوالي في طريق عودته من غزو بجاية. فذهب لتوه إلى عنابة ليكون هنالك في الانتظار، وعندما وصل إلى

19) جول الثاني

20) بوحمو

21) علي براز

22) مكسيمليان

23) عبد القادر وعبد الله وعبد الرحمان

24) [illegible] باتي

25) [illegible]سليمان

رأس متفوس أخذه مرض الطاعون واعترته حماه مما جعله يرجع إلى مدينة الجزائر حيث مات بعد ذلك بثلاثة أيام. وقبل أن يلفظ أنفاسه عين عاملا أحد الاسلاميين،(26) كان أسيراً عنده، ولكن حسان قورش الذي كان قائد القلعة قد استبد بالحكم إلى أن أقره عليه السلطان الأعظم. وعندما وصلت السفن جمع حسان كل سفنه وانطلق قاصدا غزو وهران، فحاصرها من جهة البحر ومن جهة البر بثلاثة آلاف من الأتراك وأربعة عشر ألفا من مسلمي مدينة الجزائر وولايتها وبما يزيد عن ثلاثين ألفا ما بين عرب وبربر جاءوا معززين جيوشه. وبوصول أخبار هذه الحشود الى عامل وهران(27) قام بتطيير الاعلام الى الملكة يان وكان لها الأمر في غياب زوجها(28) طالبا منها أن ترسل الجنود والعدة والأقوات، ثم قام بترتيب متطلبات الدفاع وعين لكل مكان رباطه تربصا بالأعداء. ونصب آلتين للمدفع إحداهما مصوبة الى جهة باب تلمسان والأخرى على سفح الجبل مصوبة في اتجاه ركن السور حيث يلتقي جدار القلعة بجدار المدينة. ولما بلغ حسن الى برج الصالحين الواقع خارج المدينة بقصد التحكم في العين التي تأتي منها المياه الى وهران وتمكن بذلك من تشديد الخناق على هذه المدينة وصله أمر السلطان الأعظم بإعادة السفن، إذ احتاج اليها لمواجهة أندريا دوريا الذي كان بعيث فسادا في كل جهات الأرخبيل. وكان قد نشأ خلاف بين رؤساء العساكر حول الهجوم، وأدى ذلك كله إلى رفع الحصار وعودة العساكر إلى السفن، وترتب عن هذه العملية هلاك بعض الرجال وضياع بعض قطع المدفعية بسبب الانزعاج أمام القوات المرابطة في وهران.

كيف هجم حاكم وهران على مستغانم وكيف هلك في الهجوم

ولما انسحب الأتراك، جاز عامل وهران الى إسبانيا، وذهب الى بلد الوليد حيث حظي باستقبال أفراد البلاط، وبعد أن قبل يدي الملكة بان التي كانت تحكم قشتالة حينئذ، طلب من مجلس الحرب أن يمده بستة آلاف محارب نغزو بهم مستغانم لأن أخذها يسهل الاستيلاء على مدينة الجزائر، وكان الشريف وعرب

26) يحيى
27) مارتين القرطبي
28) د. فيليب

مليانة قد وعدوا أهلها بالامداد بالحراس والأقوات. وكان من دعائم المشروع الذي اقترحه حاكم وهران ما كان بين المسلمين الأفارقة والأتراك من عداوة، وقد وافقه عليه رئيس(29) مجلس الحرب وماركي أندوجار بينما عارضه الأعضاء الآخرون محتجين بما هو مرجح من كون الشريف والأعراب لم يعطوا وعدا قاطعا بمساندة الغزو، فلن يلبثوا أن يتراجعوا، وأن الأتراك سيحبطون كل تآمر باستعمال الفقهاء، وسيعملون ما في وسعهم لإثارة الناس بقصد منع العرب من الوفاء بوعدهم، يضاف الى ذلك أنهم إذا ما سمعوا بخبر نزول جيش النصارى سيدفعون بكل قواتهم في مستغانم ويزعحون للحاق بها ما لديهم من قوات مدينة الجزائر وتلمسان بحيث تتعذر مواجهتها. ومع ذلك فقد أعطى العامل ما طلب في نهاية الأمر فاستطاع أن يعبيء عددا من الناس فأقلع من مالقا ومعه عدد من نبلاء الأندلس ومملكة غرناطة. كان خروجه من وهران يوم السادس والعشرين من شهر غشت ومعه ستة آلاف وخمسمائة من نخبة الرجال وعدد من آلات المدافع تجرها العساكر. وتوجه على طريق الملاحات وعلى امتداد ساقية تَرّهال متظاهرا بأنه قاصد سهول سيرات. وفي اليوم الرابع انحرف متجها إلى بادية قيقناق فوصل الى مزغران حيث دخل في مناوشة كبيرة مع المسلمين في تلك الجهة، وتمكن من هزمهم، فوالت عساكره طريقها حتى وصلوا أمام أسوار مستغانم حيث قتلوا ما يزيد على ثلاثمائة من الأتراك والمسلمين المغاربة. وبعد هذا الانتصار أباح الكونت مزغران لجنوده الذين لم يحملوا معهم الأقوات، إذ كان من المنتظر أن تصلهم عن طريق البحر، ولكن سكان مزغران كانوا قد فروا إلى المدينة وحملوا معهم كل ما في البوادي من خيرات، فما أن علموا برجوع الكونت بجنوده حتى ساورهم الشك حول مقاصده، ولذلك دخلوا مستغانم بقصد الاحتماء بأسوارها ومعهم أمتعتهم وسلاحهم، وكانوا قد أعلموا حاكم مدينة الجزائر(30) طالبين منه إنجادهم. وبينما كان الجنود فارغي الأيدي من الأقوات مترقبين وصول السفن التي كانت تحملها اليهم، إذا بهم يشاهدون مرور أربع سفن ملكية نصرانية وقد جرتها أسيرة خمسة مراكب صغيرة في ملك مدينة الجزار. وكان ذلك نتيجة واقعة تسعة، إذ أن تلك السفن التركية كانت راجعة بعد نهب مدينة أندلسية صغيرة(31) فلقيت القواديس

29) حوان الميكَي

30) حساں باشا ابں باربروس

31) سال مسنيل

النصرانية في طريقها إلى مستغانم فاستولت عليها بما فيها من عدة وأقوات. ومن جهة أخرى قام عامل(32) تلمسان بإصدار أوامره الصارمة بألا يحمل عربي أقواتا الى معسكر النصارى. وكان ذلك بمثابة ضربة قاسية للأسبان. وقد جمع القائد مجلس الحرب على عجل، وكان من رأي بعض أعضائه الرجوع الى وهران والعسكرة عند أسوارهاللتربص بالأعداء والتمكن من قضاء الحوائج الضرورية، بيما يقوم الجنود ببعض عمليات القرصنة للترويح عن أنفسهم. أما الاخرون فكان من رأيهم التعجيل بقتال مستغانم والاستيلاء على ما فيها من الأقوات التي تكفي حاجة الحند في انتظار وصول إمدادات وهران. وكان القائد من الشجاعة بحيث تحمس لهذا الرأي الأخير. ولما تبين ان كرات المنجنيق غير متوفرة أمر بإقلاع باب مدينة مزغران ونفذ ذلك جنود ماهرون في البناء، وصنعوا منها ثلاث عشرة كرة صالحة لمنجنيق كان الجنود يجرونه، وفي الغد أمر فرسان وهران بحمل تلك الكرات على قرابس سروج خيلهم وحمل ما توفر من البارود واتجه نحو مستغانم بصحبة مجموع الجنود وخرج من كان داخل المدينة من الأتراك ومسلمي المغرب لمواجهة طليعة جيش النصارى، وما لبثوا أن اضطروا الى التراجع، واستمر الحنود في تقدمهم، وتسلق بعضهم فوق الجدار، وكان من بين المهاجمين حامل الراية. ويقال ان المدينة كانت على وشك الاستسلام ذلك اليوم لولا أن القائد أمر بالانسحاب حتى يتسنى له معاقبة حامل الراية لأنه هاجم دون أن يصدر إليه أمر بذلك. ولما وصلت جميع الكتائب وعسكرت أمام المدينة أمر القائد بأن يقام حاجز من أغصان أشجار التين والعنب المجاورة اتقاء لهجمات فرسان العدو. وأثناء تلك الليلة قام الجنود بحفر خندق محيط بمحالهم ونصبوا آليتين للمدافع لضرب الحصن من جهته الجنوبية. وفي الغد وجهت سبع ضربات أو ثمان الى ركنين من أركان سور الحصن، ولم يكن لها تأثير كبير لأن آلات القذف أعلى مما ينبغي بحيث كانت تمر فوق السور وتسقط في البحر. وفي ذات اليوم أمر القائد(33) بعض مساعدبه من رؤساء المشاة(34) بمهاجمة ربض محاذ لأسوار المدينة لأن الأتراك كانوا يقتلون انطلاقا منه عددا من الأشخاص بواسطة بنادقهم. وقد استولى النصارى على ذلك الربض بعد استماتة مشهودة للأعداء، وقد كانوا ينتقلون من دار إلى دار

32) أولج علي العراشي

33) كونت القاوديت

34) الدون ديكو دي كابرا وفراسيسكو دي ميرا وحوان دي ألبير وفيرناندو دي سييسا

عن طريق ثقوب يحدثوها في الجدران. كما أحدثوا ثقوبا ليضربوا منها. وبعد أن تم للقائد(35) الاستيلاء على الربض ترك فيه ست كتائب. وفي صباح الغد كان يرتب هجوما جديدا عندما بلغه الخبر بأن أتراك مدينة الجزائر قادمون لإنجاد المدينة وهم يستحثون الخطى، وهم على وشك الوصول وقد شوهدت في كتائبهم أعلام حمراء متعددة علامة على أن عامل(36) مدينة الجزائر كان بشخصه في ذلك الزحف. ولكن الكونت لم يصدق تلك الحقيقة واستبعد أن يكون تقدم الأتراك على تلك الهيئة، وظن أن تلك الحشود مكونة من سكان تلك الجهات وإنما رفعوا الأعلام عن قصد حتى ينخدع النصارى ويفكوا عنهم الحصار. وهكذا أمر ولده(37) بأن يذهب بصحبة بعض الرجال حتى يقترب من أولئك المتقدمين ويكشف حقيقتهم ولما وقف الولد على حقيقة الأمر عاد أدراجه الى والده وطلب منه أن يمده بأربعة آلاف من الرجال لكي يهاجمهم ليلا، أملا في هزمهم، وقد استبد بهم التعب، وبذلك يتسنى له الاستيلاء على أقواتهم وعدتهم لأن كتائب النصارى كانت في حاجة إليها ولا تنتظر الحصول عليها من جهة أخرى، وبعد ذلك ستتمكن من العودة الى إقامة الحصار. ولم يقتنع القائد بأن تلك الخطة أنجع خطة في قتال الأعداء. ولكن ولده ومعه بعض الضباط أصروا على أنهم سيقومون بالزحف في غد ذلك اليوم إذا هم لم يتلقوا الأمر بالهجوم. وأجابهم بأن ذلك لن يتأتى لهم. ولم يحدث أحدا بما بيته من تدبير، ذلك أنه أعطى في تلك الليلة نفسها لكل صاحب بندقية باعين من الفتائل ورطلا من البارود، وبعد منتصف الليل رحل بجيشه سرا واتجه الى مزغران عاجلا حتى إنه ترك عددا من الجنود الجرحى أو المرضى في الاخصاص، وما لبثت صيحاتهم أن ارتفعت لأن الأتراك ومسلمي البلد قد خرجوا اليهم وأجهزوا عليهم. ولم يتمكن من قطع المسافة في المدة التي قدرها لأن عجلة أحد المدافع قد عطبت واضطر الجيش الى التوقف الى قرب الإصباح لأن القائد رفض التخلي عن تلك القطعة الحربية وإن كان بعض الضباط قد نصحوه بدفنها في الرمال والجواز بالجنود فوقها حتى تنطمس كل المعالم التي قد تؤدي بالأعداء إلى إكتشافها. ولو كان استمع الى تلك النصيحة لوصل الجيش الى مزغران في الوقت المناسب ولكانت الأمور قد جرت على غير الكيفية التي وقعت عليها بسبب التأخر في الطريق. فما أن رحل الاسبانيون حتى بادر سكان

(35)

36) حسن باشا

37) اللون مارتين القرطبي

المدينة الى إعلام حسن باشا الذي تعقبهم دن توقف وأدرك مؤخرتهم عند بداية النهار على مقربة من مزغران. وقد خشي الجنرال من استيلاء الأتراك على منبع قريب من المدينة هو المصدر الوحيد لماء المدينة، ولذلك أصدر أمره للجنود بالاستيلاء عليه وبإقامة بعض الحاميات في المدينة. ولما وصل الجنود الى قريب من المنبع تسابقوا في غير انضباط لأوامر ضباطهم لأن العطش قد استبد بهم، وفي تلك الحال من التشتت جاءهم الأتراك مهاجمين من ناحية وجاء العرب من ناحية أخرى فصاروا في غاية الارتباك وأفلت الزمام من يد قائدهم الذي كان في المقدمة بحيث لم يستطع أن يوقفه، كما لم يستطع ابنه الذي كان في الخلف أن يمسكهم لكي يقلب وجهتهم ويرتدوا لمواجهة العدو، وساروا على ما هم عليه من الفوضى إلى قريب من مزغران، وكان الأتراك والعرب لا يكفون عن تقتيلهم وضربهم. وفي تلك الأثناء وصل الأتراك الذين جاءوا على متن سفن صغيرة(38) فنزلوا الى البر، ووصل الذين قدموا من تلمسان فهاجموا جيوش النصارى من جميع الجهات وهم مرتبكون لا يقدرون على المقاومة بسبب ما نالهم من الجوع والعطش والاعياء. واستمر الأمر كذلك الى آخر النهار، فكان مما زاد في تعاسة النصارى أن اشتعلت النار في ما تبقى من براميل البارود واحترق بتلك النار أكثر من خمسمائة جندي كانوا حراسا بقرب الأسوار. وعندما شاهد القائد ما آلت اليه الأمور حيث إن الجنود يجرون وسط المدينة فزعين على غير هدى ولا ينضبطون في صفوف صالحة لترتيب القتال، أراد أن يقوم بهجمة قوية على العدو لكي يتمكن من إبعاده وكسب الوقت اللازم لتنظيم جيوشه. وحرض فرسه بكل ما يملك منطلقا في اتجاه العدو وهو ينادي : بالقديس جاك النصر لنا. فعل ذلك مرتين أو ثلاثا دون أن يتبعه أحد. بل إن الجنود لم يفتأوا يتدافعون برعونة للاحتماء داخل المدينة. وعندئذ دخل القائد الى القلعة من باب سرية عازما على إخراجهم وسوقهم الى القتال، ولكنه لم يقدر على اختراق الحشد المندفع فرارا الى الداخل، بل إن فرسه قد حرن به وثار ملقيا بركابه من فوق ردفه فداسه جمهور الجنود الذي كان مهتما بخلاصه أكثر من إهتمامه بواجبه، وذلك فرارا أمام الأتراك الذين يطاردونه، وحيث إنه متقدم في السن فسرعان ما اختنقت أنفاسه ومات مداسا بأقدام جنوده، وكانت كارثة ضاعت فيها هذه المدينة من النصارى بعد أن هلك منهم ذلك العدد الكبير من الرجال. وقام الفارون الذين دخلوا المدينة بدفن جثته في المسجد، ولم يمض سوى وقت وجيز

38) تحت قيادة أولج علي الفتاسي

حتى استولى الأتراك على المدينة وقبضوا على ولده الذي حاول أن يدافع عن نفسه، كما قبضوا على جميع الجنود الذين لاذوا بها. وفي تلك الليلة نفسها قام حسان باشا بوضع الحراس على الأبواب حتى يمنعوا العرب من الدخول الى المدينة بقصد قتل النصارى الذين استسلموا. ولكن رؤساءهم جاءوا في الغد يطلبون نصيبهم من الأسرى جزاء على ما واجهوا من المخاطر ولأنهم إنما ناصروه على حساب النصارى. وأمر بأن يسلم اليهم ثمانمائة من النصارى، ولما تمكنوا منهم قتلوهم طعنا بالمزارق. وبعد ذلك أمر الباشا بأن يقع البحث عن قائد جيش النصارى، ولما أخبر بأنه مات ودفن بالمسجد أمر بالنبش عليه لكي ينظره إعجابا بشجاعته، ثم سلم جثته لولده مقابل ألفي دوقا، وأقيمت له جنازة في وهران. وعاد الباشا منتصرا إلى مدينة الجزائر واستقبله أهلها بحفاوة كبرى.

هجوم حاكم الجزائر على وهران وعلى المرسى الكبير

بعد الاستيلاء على مزغران رأى عامل مدينة الجزائر أن الفرصة سانحة لغزو وهران التي طالما تشوق الى فتحها، فجعل يعد ما يلزم للحصار من علة ويصلح السفن، وأمر من كان إلى نظره من العمال بأن يكونوا على أهبة الزحف. وعندما تم كل شيء على ما يرام كتب الى صاحب كوكو(39) وصاحب جبل بني عباس بأن يقدما عليه بعساكرهما فواعده بذلك على شرط أن لا يكون الزحف ضد الشريف(40) كما هو شائع في مدينة الجزائر. ومن جهة أخرى أصدر الباشا أمره الى عامل تلمسان بأن يقيم رجاله في حراسة ممر سيرت لكي يمنع الأعراب من إيصال الأقوات الى وهران، ثم أمر أمير البحر(41) أن يتوجه بأسطوله بعد حمل المدافع والذخائر والأقوات الى مرسى أرزيو حيث سيجد هنالك أمرا بما يتوجب عليه أن يفعله، وبعد أن نصب عاملا(42) على مدينة الجزائر غادرها في الخامس عشر من شهر ماي عام ألف وخمسمائة وثلاثة وستين قاصدا مدينة مستغانم، وهنالك انضم اليه ستة آلاف من رجال زواوة بعث بهم لتعزيز صفوفه صاحب بني عباس

39) ابن القاضي
40) عبد الله
41) قورس نار
42) علي الشتيوي

وانضم اليه مثل ذلك العدد ممن أرسلهم صاحب كوكو مع ولده كما انضم اليه عدد من العرب والبربر، وتوجه الى مزغران ومنها الى ممر سيرت الذي كان يحرسه صاحب تلمسان. وبعد ان اجتمعت له كل الحشود هنالك مر الى آبار دييكو بيريز، ومنها أرسل فرسانه منطلقة الى إن بلغت أبواب وهران وقصده أن يتأكد من جرأة حاميتها على الخروج للمناوشة. كان عاملها حينئذ الدون الفونسو القرطبي كنت الكاوديت، وكان قد خلف أباه(43) في تلك العمالة، وقد حظر الخروج من المدينة مما حمل العدو على الانسحاب والنزول على بعد فرسخ من وهران في مكان لا توجد به آبار. ومن هنالك كان حسين باشا يرسل كل يوم رجاله لشن الغارات، وكان حاكم وهران مشغولا عن ردهم بإقامة التحصينات. ومع ذلك فقد أرسل على عجل غنصالو هيرنانديز الى إسبانيا ليخبر بمجيء الأتراك ويلتمس من الملك فيليب التعجيل بإرسال ما هم بأمس الحاجة اليه من الأقوات وعدة القتال. وفي تلك الأثناء أبلغ الباشا لقواده الكبار خبر ما هو عازم عليه، واستقر رأيهم على أن يبدأوا بالهجوم على المرسى الكبير حتى يكون ملجأ للأسطول عند الاقتضاء سيما وأن التغلب على هذه المدينة كان أيسر في نظرهم من التغلب على وهران حيث كان الكونت متربصا لهم بجيشه البحري. وفي نفس اليوم قام الباشا باستطلاع لمدينة وهران من جهة الجبل وبمعيته مهندس وعدد مر الضباط، ودخل هنالك في مناوشات مع النصارى دامت عدة ساعات، ولم يحل ، لك دون قيام الأعداء باستطلاع أحوال المدينة من هذه الجهة. وبعد ذلك انسحبوا وقاموا باستطلاع أحوال المرسى الكبير وحصن القديس ميشيل الذي كان الكونت قد بناه للدفاع عنها. وذهب الباشا ليعسكر على مقربة من المنبع الأعلى الأقرب من وهران ر بعيد عن حصن الصلحاء وظل ينتظر هنالك وصول سفنه الحربية ولكنه كان معرضا للقصف انطلاقا من المدينة. وكان الجنود الذين أقامهم الكونت هنالك يسددون ضرباتهم لكل من ابتعد عن المعسكر، فغضب الباشا وأمر بالهجوم، وكان الجنود النصارى قادرين على مدافعة الهجوم لولا أن أحد الخونة خرج قاصدا الباشا ورجع موعدا بأنه سيخلي سبيل الجنود لكي يلتحقوا بوهران بأسلحتهم إذا ما سلموا إليه المدينة. وهكذا استسلموا على أساس ذلك الاتفاق. وتأثر الكونت لضياع تلك المدينة تأثرا عميقا، وطير الاعلام الى إسبانيا يستعجل النجدة، ولكن النجدة لم تصل اليه بالسرعة المطلوبة لأن السفن لم تكن متوفرة حيث إن سفن

43) الدون مارتين

إسبانيا قد ضاعت منذ وقت قريب، وكان القائد(44) قد غرق وغرق معه عدد من جنوده في طريقه لتدارك الموقف في افريقيا. ولم يكن في وسع المحاصرين، والحالة هذه. سوى انتظار سفن إيطاليا وسفن أخرى كان تجهيزها جاريا في برشلونة. وفي تلك الأثناء أعطى الأمر للدون ألبار باسان لكي يجهز أربعا من السفن السريعة كانت تابعة له، وكان يتعهدها صاحب الدير والقناصل، وأمر بأن يحملها بأكثر ما يمكن من الأقوات ويحاول إيصالها الى وهران. كما أعطى الأمر للقس لوبيان لكي يبحر بسفينته ومعه أربعمائة من جنود قارطاخنة ويحاول إيصالهم إلى المدينة، وأمر المتعهدين في مالقا وقارطاخنة بأن يرسلوا في قوارب وسفن صغيرة أكثر ما يمكن من الأقوات والذخائر. وتم تنفيذ تلك الأوامر بسرعة فائقة. أما الباشا فقد قرر بعد استيلائه على برج الصالحين أن يهاجم حصن القديس ميشيل الذي يتحكم في مدينة المرسى الكبير. ودفع بعدد من جنوده لحصار المدينة وعسكر بالباقين وراء تل(45) يحميه من الضرب إنطلاقا من المدينة، وعمر أبراج روي دياز. وبعد ذلك أرسل بعض الأتراك بقصد استطلاع الخندق المحيط بالمدينة، وأرسل مرتدا الى النصارى يقول لهم إنهم يستطيعون الخروج أحرارا من المدينة بأسلحتهم وأمتعتهم وأنه سيمدهم بسفن تنقلهم الى إسبانيا إذا هم فضلوا الجلاء. ولكن ضباط النصارى سددوا ضرباتهم نحو ذلك المرتد الذي جاء بذلك الاقتراح. وغضب الباشا لذلك التصرف ولم ينتظر وصول المدافع، بل أمر بالشروع في ردم الخندق بحزم من الأغصان وأمر بالهجوم معتقدا أنه سيأخذ الحصن على الفور. ولكن آمال الأتراك سرعان ما خابت، حيث قتل منهم عدد كبير بضربات المدفع وبنادق النار وألقيت الشهب على حزم الأغصان التي وضعها الأتراك على الخندق لكي يمروا عليها، وتسبب ذلك في تصاعد دخان كثيف تعذرت معه الرؤية، ولم تتوقف المعركة مع ذلك، بل استمرت الى أن قام الباشا يسحب جنوده لكي يعوضهم بجنود آخرين وقاتلوا بضراوة وأرغموا النصارى الذين كانوا يقاتلون تحت الأسوار على التراجع إلى داخل المدينة. ونصب الأتراك السلاليم ظانين أنهم قادرون على اقتحام المدينة على الفور. وبعد صراع عنيد من الطرفين رد الأعداء على أعقابهم بفضل شجاعة المدافعين. وفي تلك الأثناء بعث الدون مارتان القرطبي، وكان في مدينة المرسى الكبير، بنجدة إلى من بداخل

44) الدون خوان دي ميندوسا

45) كوردو

الحصن قوامها أربعمائة من الجنود، واستؤنف القتال بضراوة، ولم يتوقف إلا عند الساعة الثانية ليلا. ولما رأى الأعداء أن محاولاتهم غير مجدية سحبوا رجالهم بعد أن خلفوا في الميدان عامل قسطنطينة وأزيد من خمسمائة من الجنود الانكشارية أو الأتراك الشجعان بينما لم تفقد الحامية سوى عشرين من القتلى ومثل ذلك العدد من الجرحى. وقرر الباشا عندئذ أن ينتظر وصول المدفعية، وأمر قائد(46) أسطوله بأن يبذل ما في وسعه لكي يلحق بمدينة المرسى الكبير، حتى ولو أدى الأمر الى خسارة بعض السفن لأن وصوله كان ضرورة قصوى. وفي ذات الوقت بعث بأحد المرتدين(47) ليستطلع أمر المعتصمين بالحصن من النصارى ظانا أن الحصار سيرعبهم. وعندما وصل ومعه علم أبيض لطلب الأمان التمس أن يكلم اللون مارتان القرطبي وكانت تجمعه به مودة عندما كان اللون أسيرا بمدينة الجزائر. وحمل من المدينة الى الحصن ليتحدث اليه. وبعد لقاء بينهما رده اللون مارتان وأمره أن يقول لحسين باشا إنه إن كان يسعى لأخذ تلك المدينة لحساب أميره فإنه من جهته مطالب بالدفاع عنها، وفيما عدا ذلك فهو على استعداد لأية خدمة أخرى يطلبها منه. وفي تلك الأثناء تقدم جيش البحر التابع لمدينة الجزائر، وكان قوامه ستا وعشرين سفينة وقادوسين سريعين وسفينتين أخريين من عمل فرنسا. وكانت كلها محملة بالذخائر والآلات. دخل في يومه الأول بالمكان الذي يدعى بالمياه، وهنالك أفرغت السفن حمولتها من الذخائر وعم أهل المعسكر بسبب ذلك فزع عظيم، ولم يلبثوا أن حاصروا مدينة المرسى الكبير برا وبحرا. وأمر الباشا بأن توضع القواديس الحربية في حراسة المرسى وفرضتها حتى لا تتسرب اليها أية سفينة من سفن النصارى. وبعد ذلك نصب سرية مدفعية في أعلى تل من جهة البر. وبدأ يوم الرابع من شهر ماي في ضرب الحصن بواسطة مدفعين كبيرين وبعض القطع الصغيرة. ولما رأى انعدام جلوى تلك الوسائل دعم مدفعيته بأربعة مدافع كبرى استطاع بها في غد ذلك اليوم أن يدمر كامل الجدار الأوسط للسور. وبذلك تمكن من إعطاء إشارة الهجوم في ذلك المساء ولكن رجاله واجهوا مقاومة مستبسلة وإن كان المحاصرون الذين يقاتلون بلدون تغطية .يعانون معاناة أعنف وأقوى من ضربات المدفعية التى كانت تنهال عليهم من الخلف. ومن جهة أخرى كان اللون مارتين يضرب بمدافع المرسى الكبير في الجهة التي كان فيها الأعداء

46) قورش بار

47) مصطفى

بدون غطية، وكانت النتيجة هي استمرار المعركة إلى أن أظلم الليل حيث انسحب الأتراك وقد لحقت بهم بعض الخسائر. وفي تلك الليلة نفسها أرسل الدون مارتان خمسة وعشرين من رجاله مزودين ببعض القنابل والحراقيات لكي يلتحقوا بالحصن، ووقع الشروع في إصلاح الثلمات حتى يتأتى الدفاع بأحسن ما يمكن في يوم الغد. وقام الباشا بمعاودة الهجوم في بداية الصباح، وفي وقت قصير تمكن من تحطيم التحصينات الحديدة التي أقامها جنود النصارى. وبعد ذلك هاجم من المكان نفسه واحتدم القتال إلى حد كبير، واضطر من هم بالداخل الى إظهار كل ما يملكون من قوة، وشاء الله أن يستبسلوا في القتال حتى اضطر الأعداء الى الانسحاب بعد ان تكبدوا خسارة عظمى. وعاد الباشا إلى الضرب بالمدفع لتوسيع ثلمة السور، وبعد ذلك بحوالي ساعة ونصف هاجم من جديد ووجد مقاومة لا تقل عما وجده من قبل. وانسحب الأتراك في مثل حال انسحابهم السابق. وأدى الغضب بالباشا الى الضرب قصد الهجوم، وواجههم النصارى بالنار والحديد حتى أجبروهم على الانسحاب بأسرع ما يمكن تاركين الخندق وقد امتلأ بجثث الأتراك والمغاربة المسلمين. ولم يفت كل ذلك من عزيمة الباشا، وأيقن أن المحاصرين قد تعبوا في القتال إلى حد يجعلهم غير قادرين على الاستمرار في المقاومة، ولذلك أمر بأن يباشر الضرب بالمدفع في نفس ذلك اليوم. وأمر بأن يباشر الهجوم الخامس والشمس مائلة إلى الغروب. ومع ذلك لم يكن حظه أسعد من ذي قبل، ذلك لأن الجنود والضباط قد استبسلوا في الدفاع وظل الخندق مكتظا بالقتلى. وفقد المحاصرون أكثر من ثلاثين جنديا. وأصيب منهم زهاء الخمسين بجروح. وأرسل عامل وهران استجابة لطلب الدون مارتان سفينة صغيرة وبضعة قوارب وعلى متنها قبطان(49) ومائة وثلاثون من الجنود، وتمكن لحسن الحظ من الوصول الى المرسى الكبير لأن العاصفة كانت قد أبعدت سفن العدو. وما أن وصلوا حتى قام الدون مارتان بإرسال رجال يخففون عمن بداخل الحصن، وشرع بواسطة هذه النجدة في إصلاح الثلم في جدران الحصن. وفي يوم الاثنين الذي هو السابع من شهر ماي عزم الباشا على أن يشارك بنفسه في الهجوم. وبعد أن أمر باستعمال جميع مدافعه لتحطيم حواجز الدفاع انطلقت عساكره دفعة واحدة في هجوم عارم وهم يصرخون بأصوات عالية. وتبين أن الامدادات وصلت إلى النصارى في الوقت المناسب ولذلك كانت المعركة عنيدة حامية الوطيس. وكانت

49) بيدرو دي ميلوسا

الثلم في الجدران كبيرة تتسع لدخول الفرس. وقد تسلق اليها عدد من أفراد العدو. ولكن الاسبان قاتلوا كالأسود، وقد انكشفوا من خلال الثلم وهم يجهزون على كل من يحاول التسرب منها، يطيحون بالسلاليم التي ينصبها العدو في الأماكن التي فيها ثلم مرتفعة، ويلقون بالقنابل والحراقيات وبراميل القير، يحرقون بها المهاجمين. وبينما هم كذلك إذ استطاع بعض الجنود من الترك أن يتقدم ويرفع علم الباشا فوق السور، ولم يزد على ذلك لأنه قتل في الحين، واضطر الأعداء الى التراجع تاركين من القتلى عددا من شجعانهم الانكشارية المشارقة الذين أرادوا الظهور أمام قائدهم. وسرعان ما استأنفت المدفعية ضرباتها بأمر من الباشا ظنا منه أن المحاصرين قد استبد بهم التعب ولم يعودوا قادرين على تحمل أي حهوم. وقد أعاد الكرة عليهم من جهة الجنوب بضراوة وحماسة، حتى إن بعض الأتراك والانكاشريين صعدوا فوق السور ومن ورائهم ثلة من الجنود وهم يصرخون، ونصبوا فوق السور علمين من أعلامهم، ولكنهم تعرضوا للضرب الشديد من المحاصرين الذين ضاعفوا من قوتهم حتى إنهم استطاعوا بضربات السيوف والحجارة والرماح والاطبار قتل أكثر من ألف من الأتراك والمغاربة وجرحوا منهم عددا كبيرا كذلك. وفي نفس الوقت قتل بضربات مدافع القصر الكبير اثنان من كبار القواد وهما بجانب الباشا الذي كان يحرض جنوده ويحمسهم بوجوده. وقد جرح هو بحجرارتطم بالأرض وارتد الى وجهه. ولكن تلك الاصابة قد شجعته بدل أن تثبط عزيمته، فكان أن تقدم بالمهاجمين نحو مكان الخرق الواقع بالسور وهيج حماسة رجاله في الهجوم، ولكن استماتة المحاصرين جعلت أعداءهم يرتدون عن السور والخندق ويلوذون بملاجئهم، وفي أثناء الليل لم يزد عدد الامداد من جنود وهران عن خمسين جنديا لأن التعب قد بلغ غايته من الجميع. ولما رأى المحاصرون أنهم لن يتمكنوا من الدفاع عن ذلك الموقع إلى النهاية وأن الوهن قد بدأ يتسرب اليهم سيما بعد تكاثر جرحاهم قرروا الانسحاب، ومن أجل ذلك أرسل قواد العساكر ثمانية من الجنود الى اللدون مارتين لكي يلتمسوا منه إخراج بعض الكتائب لتساعد على حمايتهم عند الانسحاب، ولكن الباشا أراد منعهم من ذلك ووضع الحرس في طريقهم وكان أن قتل أربعة من اولئك الجنود وأسر ثلاثة واستطاع ثامنهم أن يتسرب من بين صخور الشاطيء ووصل الى البحر واجتاز سابحا الى المرسى الكبير وقام بمهمته. وعلى إثر ذلك أرسل اللدون مارتين قائده فيرناند كاركام وبمعيته مائة من الفرسان لكي يساعد على انسحاب الحامية من الحصن. وكانت قد بدأت في الخروج والنزول من جهة الجبل تاركة الجرحى بداخل الحصن، وقد اعترضها جنود

العدو وخلصها منهم القائد فيرناند، وتمكن من الجواز الى الحصن وإخراج الجرحى وقدمهم أمامه وقاتل الى ان تمكن من الوصول الى المدينة تحت غطاء ضربات المدافع، ولم يفقد من جنوده سوى ضابطين وعشرة أو اثنى عشر من الجنود. ولما أخلى النصارى الحصن إستولى عليه الأتراك معتقدين أن أمورهم على ما يرام. وقاموا بنصب مدفعين ومدفع ثالث محنش على سفح الجبل، وشرعوا من هنالك في ضرب المدينة ما بين الشعب وبرج الغدر لأنها الجهة الضعيفة التحصين. أما اللدون مارتين فقد قام بتوزيع المحلات على القواد والجنود وعين لكل واحد مهامه ومجاله ووجد في تعداد الكتائب أربعمائة وخمسين من المقاتلين، ثم أمر بإقامة أسوار وأبراج في الممرات وفي أماكن أخرى تقتضي ذلك، ونصب المدافع بحيث يستطيع إحكام ضرب العدو، وسار في كل أمره سيرة القائد الماهر النبيه. وقد استمر الأتراك في الضرب بالمدافع، ولما كانت ضرباتها من بعيد قليلة الجدوى فقد عملوا الى نصب ستة مدافع أخرى على بعد حوالي ثلاثمائة قدم فوق ربوة أخذوا يسددون منها لضرب السور ما بين برج الغدر والشعاب، وبينما هم كذلك كانت مدافع المدينة ترد عليهم بضرباتها وتقتل عددا من المشغلين للمدافع التركية ومن المعتصمين بالخنادق ومن الموجودين في المعسكر، واستطاعت أن تحطم مدفعين من مدافع العدو. ومن جهة أخرى كان الأتراك يزحفون نحو المدينة بواسطة الخنادق، وقد توصلوا الى نصب مدفعية ثالثة مركبة من ثلاث قطع يريدون بها إحداث ثلمة في السور من هذه الجهة وتحطيم آليات الدفاع. وما لبثوا أن أقاموا بطارية رابعة من أربع قطع يضربون بها من جهة البحر بقصد تحطيم الجدار الواقع بين البرجين، ثم مدفعية خامسة لتحقيق نفس الغرض من جهة البر وقد تمكنوا بواسطة هذه الأدوات المدفعية من أن يحطموا في مدة يومين شطر الجدار الواقع بين الشعب وبين برج الغدر حتى صار بإمكان الفارس أن يدخل منه، كما حطموا الجدار الواقع بين البرجين. وعندئذ أرسل الباشا من قبله من يقف على تلك الثلم المحدثة في الأسوار وينذر الحامية التي بالداخل بوجوب تسليم الحصن على أن يعاملوا معاملة لينة. ولكن أفرادها أجابوا بالرفض مظهرين تعجبهم من كون الباشا يتردد في الهجوم بعد أن أحدث من التغرات في السور مما يسمح له بذلك. ولما رأى الباشا أن الأمل في التوصل الى إتفاق، جمع رؤساء عساكره وأمرهم بالهجوم في غد ذلك اليوم وأرسل كل واحد منهم الى محلته لكي يأخذ ما يجب من الاستعداد. وفي صباح يوم الهجوم استعمل الأتراك مجموع قطع مدفعيتهم حتى يتمكنوا تحت غطاء دخانها من الزحف نحو الثلم الواقعة في السور دون أن يتعرضوا لخسارة

كبرى. وفي البداية تقدم اثنا عشر ألفا من عساكر مسلمي افريقيا ما بين عرب وبربر لكي تفرغ فيهم نيران مدافع النصارى وبنادقهم. وبعد ذلك دخل المعركة عساكر الانكشارية والأتراك ومن انحاش اليهم من النصارى المرتدين. وفي الأخير خرج الباشا ومعه معظم جيوش مدينة الجزائر وكذا حرسه الخاص وكلهم قصدوا الثلمة الواقعة بين الشعاب وبرج الغدر. أما من جهة البحر الهائج فقد زحف الأتراك وأهل قسطنطينة وعنابة وتنس ومستغانم ومعهم عدد من العرب يعملون السلاليم لأن الثغرة في هذه الجهة كانت على قدر من العلو، أما غير هؤلاء من العساكر فقد وقفوا على استعداد لخوض المعركة متأهبين للالتحاق بالمكان الذي يدعون إليه، وعندما اقترب الأعداء من السور حمي وطيس المعركة وصمد الجانبان، وبادر القادمون من جهة البحر الى تركيب السلاليم، ثم شرعوا في تسلقها بشجاعة حتى توصلوا الى وضع علم فوق السور. ولكن المحاصرين أسرعوا اليهم وقلبوا السلاليم الى الأسفل وقتلوا عددا من المقتحمين وجرحوا آخرين وانتزعوا ذلك العلم المنصوب وقتلوا التركي الذي كان يحمله. وكان الباشا يجدد رجاله باستمرار ويلحق بواسطة المدافع أضرارا بالغة بتحصينات العلو. وكان المحاصرون يستعملون أنواعا من نيران المفرقعات والحراقيات لقتل الأتراك ومسلمي المغرب الذين يحاولون التسلق حتى امتلأت الثغرات بجثث القتلى. ودام الجهوم أكثر من أربع ساعات، وتوغل الأعداء الى حصن الجنويين، ولكن إعصارا عنيفا منعهم من التقدم الى أبعد من ذلك، بل اضطرهم الى الانسحاب الى خنادقهم وكانت غير مأمونة بسبب ما انحدر اليها من سيول الأمطار من الجبال. وفي هذا اليوم مات محمد شيبالي والي القلعة ومامي الرايس الذي أصله من نابولي مع عدد من رؤساء الخمسمائة من عساكر الأتراك الذين من بينهم عدد من الانكشارية والمشارقة والبربر وبعض من العساكر الشجعان، كما جرح منهم عدد آخر. ولما انسحب الأعداء التحق بهم جذاف إحدى القوارب وأعرب للأتراك أنه يريد أن يكون منهم وأخبر الباشا بأن المحاصرين يتحصنون من الجهة التي سددت اليها المدافع ولا يتيسر الاستيلاء على الحصن ما لم تحول المدافع الى جهة أخرى، وبين له جهة الضعف التي يتعين ضربها لأنها الجهة التي يتخوف النصارى من أن يهاجموا منها، ونبهه هذا المرتد من جهة أخرى الى ما يتعين من الاحتراس من جهة وهران لأن النصارى يتلقون منها كل ليلة الرجال والعدة، وعندما يتعذر مرور الزوارق يأتي رجل سابحا وهو حامل رسائل في وسط قصب مجوف مغطاة بالشمع وبتلك الوسلة لا ينقطع الاتصال بين الكونت وبين الدون مارتين. وبهذا الصدد أمر الباشا قواربه بالاستيلاء على

صخرة واقعة بين المرسى الكبير وبين وهران وجعل بها حراسة من ثلاثمائة من الأتراك يتعرضون بالأسر أو القتل لكل من رام المرور برا أو بحرا، ونصب مدافع في اتجاه الشعاب عند الموقع الذي عين له. وكان الكونت من جهته على علم بكل شيء. فقد كان في جيش العدو عدد من المرتدين، وكان من بينهم من لا يرضى بمصائب النصارى فلا يتردد في إيصال الخبر الى وهران بما يجري عند الأتراك. وقد وقع أحدهم في قبضة الأتراك المتربصين فوق الصخرة وجيء به الى الباشا فتولى قتله بضربة سهم. ولما تم نصب المدافع من جديد يوم التاسع والعشرين من مايو وجه الأتراك ضرباتهم الى الشعاب بواسطة ثماني قطع مدفعية. وفي أثناء ذلك اليوم وخلال غده الى غاية الساعة الثالثة بعد الظهر تمكن الدون مارتين من إقامة حاجز من الداخل يتكون من البطاريتين، ثم تحصن ببعض الخنادق والمتارس ونصب فيها منجنيقين وبعض قطع المدفعية ووقف والسيف في يده ينتظر بداية الهجوم، ولكن الهجوم لم يقع، إذ حدث أن مدفعيا من الأتراك نسي سدادة من الكتان اليابس في فوهة مدفع فاشتعلت في الهواء عند الضرب به ووقعت على قاعدة المدافع وعلى ركائزها وأحرقتها وامتدت النار الى الخنادق، وكانت كلها من الأغصان ومن أشياء يابسة أخرى، ولم يستطع الأتراك إطفاءها. ولما رأى الباشا أن النصارى قد تمكنوا من تجديد تحصيناتهم في هذه المدة أمر بالشروع في الضرب بالمدافع. وفي ذلك اليوم وصلت الى وهران تحت ضباب كثيف فرقاطتان كان في إحداهما كاتب(50) العامل وكانت الثانية محملة بالذخائر المجلوبة من مالقة. وجاء مع الفرقاطتين الخبر بأن السفن الحربية تتأهب للالتحاق بأسرع ما يمكن لنجدة ذلك الحصن المحاصر، ولما وصل الخبر الى العامل أسرع بإعلام أخيه بواسطة رجل جاز اليه سابحا بالليل، وتلقى الجميع تلك البشرى بابتهاج عظيم، وبلغ الخبر الى الباشا هو أيضا، جاءت به سفينة كانت تقوم بالمطاردة في سواحل إسبانيا، فتأهب للقيام بمجهود أخير، ولمَّ لذلك جميع عساكره الموجودين عند أسوار وهران. وما أن رفع الحصار حتى خرج العامل وتعقب العدو ببعض الفرسان والمشاة بقصد التعرف على الوجهة التي يقصدونها، ولما رأوا أنهم ذاهبون للالتحاق بإخوانهم الذين يحاصرون المرسى الكبير توقف بعض الوقت عندما رأى القلعة وقد رفعت أعلامها لتشجيع المحاصرين، وانطلق من هنالك قاصدا إطفاء النار التي أشعلها الأتراك في برج القديس ثم عاد الى وهران. ولما اجتمعت عساكر الأتراك اختلف قوادهم.

50) نوفلو كارسيا

وكان منهم من رأى أن يرجعوا قبل أن يدركهم الجيش البحري القادم من إسبانيا وأن يرجئوا فتح المدينة الى وقت مناسب. ولكن أصحاب هذا الرأي لم يثنوا الباشا عن عزمه، فهيأ جيوشه استعدادا للهجوم، وجعل في مقدمتها العساكرَ التي جاءت من وهران. ووقع القتال من جهة برج الغدر ومن جهة البحر. وسرعان ما تم تجهيز ثمان عشرة سفينة طويلة ركبها ألفان من المشارقة الحاملين للبنادق وتوجهوا بقصد الهجوم على هذه الجهة. ودافع عنها من كانوا مكلفين بحراستها من عساكر النصارى واستبسلوا في القتال واستطاعوا بواسطة المدفعية والبنادق إلحاق أضرار بمن كان على متن السفن من المهاجرين. ولكن المشارقة استطاعوا بمشقة أن ينزلوا الى البر، ثم تقدموا نحو الأسوار عازمين على نصب سلاليمهم، وفي الجهة الأخرى قام الجنود من أهل البلد بالضرب الكثيف بالمدافع ثم تبعهم الأتراكُ والانكشارية، ولم يفلحوا كما كانوا يتوقعون بل اضطروا الى الانسحاب بعد معركة دامت خمس ساعات فقدوا فيها صناديد جيش مدينة الجزائر وعددا من الجنود الأخرين. وقد حقق النصارى أعمالا بطولية في ذلك اليوم، وفيه جرح الدون فرناندي كاركام في ذراعه بضربة بندقية كما أصيب بضربة حجر في فمه. وجرح عدد آخرون من الجنود الشجعان ولقي آخرون حتفهم تحت ضربات المدافع والبنادق وقد ترك الأتراك أربعة وعشرين سلما على الجدار وفقدوا أكثر من ألف وخمسمائة من الرجال كان من بينهم ستمائة من الأتراك من النصارى الاسلاميين أو من الانكشارية؛ وعندما كان الأعداء ينسحبون وقعوا في طريقهم على عامل تلمسان، ولما علم الباشا أن العامل المذكور مجروح لا يقوى على الخروج من خندقه بعث إلى الدون مارتين يلتمس منه السماح بسحب تركي جرح بضربة مدفع ولم يذكر هويته. ولم يسمح للباشا بما د، وأمر بسحب العامل مع اثنين من رجاله المجروحين على مقربة منه. ولما رأى امل ما كان من لطف الدون مارتين جاهر بالدعاء له بالنصر، ولما جيء به أمام الباشا تلقاه بمجاملة كبيرة وعناية فائقة تقديرا لاستبساله في الحرب، لكن حمية الباشا لم تخف بتأثير تلك المجاملة بل إنه شدد الهجوم على الكيفية السابقة وبمزيد من العنف والشراسة. ولكن النصارى لم يفاجأوا بذلك القتال ولذلك لم يحقق نجاحا أكبر مما فعل من قبل، بل إنه اضطر الى الانسحاب بعد أن فقد ثلاثمائة من بين الأتراك والانكشارية في معركة جرح فيها عامل مستغانم وعامل أفراغه. ولم يرض الباشا بتحمل تلك المهانة فتقدم في ذلك اليوم نحو الثلمة المفتوحة في السور وألقى بعمامته من الغضب وتدحرجت الى غاية الخندق، وصرخ في المسلمين : يا للعار، أربعة من الأنذال يصمدون لكم في وسط خربة ! ولما رأى أن ذلك الصراخ

لا يجدي، قبل درقته وسل سيفه وصعد الى الترعة التي في السور مدعيا أنه يريد أن يموت وهو يقاتل بدل أن يشاركهم في ما لحق بهم من العار الذي لا يزول. ولكن الرؤساء الذين كانوا هنالك ردوه عن مراده وإذ ذاك عاد الأتراك الى القتال بحماس قليل. وما لبثوا أن انسحبوا مرة أخرى تاركين النصارى وهم معتزون بنصرهم. وغداة ذلك اليوم أعادوا الضرب بالمدافع. وجاء عامل وهران بفرسانه يعزز المحاصرين ويحثهم على الصمود. وفي نفس اليوم وصلت سفينتان تركيتان وبأثرهما فرقاطة من مالقة وثمان أخريات محملات بالمؤن والذخيرة من مدينة الجزائر. وأفاد العدو من ذلك إفادة عظمى لأن مؤنه وذخيرته كانت على وشك النفاذ. ولم ينقطع الضرب بالمدافع، وفي الخامس من شهر يونيه قام الأتراك بهجوم جديد على الترتيب السابق. وخرج عامل وهران بمن استطاع جمعهم من العساكر وتقدم الى الصخرة التي تحدثت عنها آنفا وذلك ليصرف العدو عن مركز القتال، وأدى ذلك الى فتور في الهجوم، ولكن السفن الصغيرة تقدمت الى هذه الجهة وضربت بمدافعها فاضطر عامل وهران الى الانسحاب، ووالى الأتراك هجومهم الى غروب الشمس، وأعلن الباشا بالانسحاب بعد أن تبين له أن جهوده لم تجد شيئا.

وبينما كانت تجري تلك الحوادث في افريقيا خرج أندري دوري على عجل من إيطاليا ومعه السفن التابعة له، والتحق في برشلونة بثمان وعشرين من سفن الملك، وكان بتلك المدينة عدد من قدماء جنود فلاندرة وكذا فيلق جيش نابولي يقوده الدون بيدرو دوباديا. وفي تلك المدة وصل الدون فرانسيسكو دو ميندوزا الى قرطاخنة ومعه مجموع السفن التي كان برأسها، وقد تلقى الأمر بأن ينجد المدينة. والدون بيدرو هذا هو الذي جعله ملك اسبانيا رئيسا على أسطوله بعد وفاة نبيل آخر يحمل نفس الاسم. وفي قرطاخنة وجد الدون بيدرو سفن الدون ألبارو الأربع وسفينة القس لوبيان وانضمت هذه السفن الثلاث والثلاثون الى سفن أندريا دوريا الاثنتي عشرة وتوجهت جميعها الى وهران ومعها عدد من نبلاء قشتالة وأرغون وبلنسية وكاطالونيا وعدد من كتائب نابولي وفلاندرا وقشتالة. وفي أثناء الرحلة وقعت المذاكرة في الكيفية التي يمكن التوصل بها الى منع جيش البحر التركي من الانسحاب، واختلفت الآراء في ذلك وذهبت الجهود سدى بسبب معاكسة الرياح. ومع ذلك فقد أصروا على إنجاد المدينة مهما كان الثمن، وأفرغوا جهدهم في التجذيف ولكنهم لم يصلوا الى خليج بيان الا بعد أن أصبح الصباح. وانكشفوا لسفينة تركية صغيرة كانت تقوم بالحراسة. فأرسلت طلقة مدفع إنذارا

للآخرين والتحقت بهم في رأس فالكون، ومن هنالك فرت جميعها في اتجاه مدينة الجزائر. ولما رأى قائد أسطول النصارى أن سفن الأتراك آخذة في الابتعاد وأن في مطاردتها مضيعة للوقت أرسل إشارة الى سفن المقدمة بقصد أن تلتحق بالتي خلفها، وعاد الكل الى وهران. وفي الطريق أسروا خمس سفن صغيرة تركها الأتراك، كما أسروا أربع سفن فرنسية كانت قد حملت المؤن الى مدينة الجزائر. واصل الأسطول طريقه الى المرسى الكبير، واستعملت الزوارق في انزال الجنود وليس بأيديهم سوى أسلحتهم. وكانت الظروف قد تغيرت. فقد أسرع الباشا الى فك حصاره للمدينة عندما رأى أن سفن النصارى وقد وصلت، واتجه الى مستغانم في نظام تام تحرس مؤخرته عساكر الأتراك والانكشارية، وأراد الدون بيدرو دي باديا أن يتعقبهم هو وبعض النبلاء، ولكنه تراجع بعد أن رأى أنهم قد ابتعدوا. وعاد بعساكره الى السفن وأقلع تاركا بعض الكتائب في المرسى الكبير. وتوجه من هنالك الى وهران حيث استقبل في جو من الفرحة والحبور. وبعد أن أنزلت السفن الأقوات والذخائر التي جاءت بها تابعت سيرها الى إسبانيا، بينما دخل الأتراك الى مدينة الجزائر وهم على حال شديدة من الارتباك.

الفصل العشرون

قسطيلية

عمارة قديمة وسط بساتين وأجنة على ثلاثة فراسخ شرقي وهران، قلعتها فوق صخرة. يقال أن بناتها هم أهل البلد الأصليون. كانت في الماضي مدينة غنية، يدعي بعضهم أنها مسقط رأس القديس أوغسطينوس. اعتاد سكانها على آداء الجزية للاسبان منذ أن تم لهؤلاء فتح وهران ولاسيما تحت حكم كونت الكاوديت[51]. وعندما جاء محمد باي ومامي رايس لضرب وهران انحاش هؤلاء السكان الى جانب الأتراك. وكان ذلك الانحياش هو السبب في خروج الكونت اليهم ونهبهم بعد أن فك عنها الحصار. وقد استعبدهم جميعا، ولكنهم ادعوا أنهم أكرهوا على فعلهم، ولم يجدهم ذلك الادعاء، فلم يستعيدوا حريتهم. وتوجد في بساتين هذا الحي واجنته أشجار يتجر السكان في أخشابها الحمراء[52] وهي أهم تجارتهم، ويتوقف استمرارها على حفظ العلاقات الطيبة مع وهران.

51) مارتين القرطبي

52) أليبا

الفصل الواحد والعشرون

أرزيــو[53]

تقع شرق فانسطل، فبعد تجاوز ما يسمى بإبرة وهران تبدو أطلال أرزيو القديمة، وهي من بناء الرومان، جعلها بطليموس عند ثلاث عشرة درجة وخمسين دقيقة من خطوط الطول وثلاث وثلاثين درجة وخمسين دقيقة من خطوط العرض. كانت مدينة كبيرة جديدة كثيرة السكان، وكانت بها بنايات رائقة عديدة ولكنها تعرضت للخراب عندما دخل العرب بلاد إفريقيا ولم تعد اليها العمارة بعد ذلك. ولم يكن بها سوى مخزن لامراء تلمسا يخزنون فيه الملح المجلوب من ملاحات عإ بعد سبعة فراسخ من هناك الى أن يأتي التجار من إسبانيا أو غيرها لحمله، وكا يساعد على ذلك وجود مرسى آمنة من رياح الشرق ورياح الشمال وكذا آبار جار المياه تقصدها سفن القراصنة بغرض الاستسقاء. وعلى مقربة من هذه الأطلال يوجد مصب نهر سيرت[54] وقبالة هذا المرسى توجد مرسى أخرى تدعى أرزيو الجديدة كان يرسو بها عدد من سفن النصارى محملة ببضائع أروبا على عهد بني زيان[55]. وكان أمراء هذه الأسرة قد عزموا على أن يبنوا فيها مدينة، وبعد أن شرعوا في وضع أساس البناء صرفهم ما هو أعظم من المشاغل.

الفصل الثاني والعشرون

ـ مزغران من عمل تلمسان

مدينة صغيرة موغلة في القدم، تقع على بعد نصف فرسخ من البحر وعلى بعد ثلاثة عشر فرسخا شرقي وهران، يقال إن تأسيسها كان على يد سكان البلاد الأصليين. كان القدماء يسمون مرساها بمرسى الآلهة، وهو الذي جعله بطليموس عند ثلاث عشرة درجة وثلاثين دقيقة من خطوط الطول وثلاث وثلاثين درجة وأربع وخمسين دقيقة من خطوط العرض. تحيط به أسوار عالية وبها قلعة غير محصنة بأبراج. كانت في الماضي عامرة بالتجارة والصناع المياسير ولكنهم كانوا خبثاء ماجنين.

53) كانت تسمى قديماً : أرسيناريا كولونا

54) أوسيرات

55) ملوك تلمسان

بدأ انحطاط هذه المدينة بعد سقوط مدينة وهران بيد النصارى وتوالي غارات العرب المجاورين عليها. ولذلك مال أهلها الى الوفاق مع النصارى حيث يقدمون بعض رموز العرفان للحاكم النصراني في صورة جزية. ومن عادتهم التوجه الى سوق وهران. وعندما تنقض الهدنة يكونون غير آمنين، لكن حامية وهران تقوم بغارات تمتد الى أبواب مدينتهم، وكانوا في هذه الحالات يلجأون الى مستغانم التي لا تبعد عنهم سوى بمسافة فرسخ كبير. تصلح الأراضي المجاورة لها لزراعة الشعير ولكنها لا تصلح بتاتا للقمح. عندما قام كونت ألكاوديت بغارته الأخيرة على مستغانم لجأ اليها أهل مزغران بنسائهم وأطفالهم وجميع أموالهم وبقوا هنالك الى أن رفع الحصار الذي تعرضنا له عند وصف مدينة وهران.

الفصل الثالث والعشرون

• مستغانم

مدينة موغلة في القدم بناها سكان البلاد الأصليون على سفح جبل مطل على ساحل البحر. وفي الطرف الأعلى من المدينة، حيث توجد ربوة مشرفة، يقوم حصن جهة الجنوب. توجد مستغانم على أربعة عشر فرسخا شرقي وهران. لها مرسى[56] جيد لكنه بعيد قليلاً عن المدينة، يجعله بطليموس على أربع عشرة درجة وثلاثين دقيقة من خطوط الطول وعلى ثلاث وثلاثين درجة وأربعين دقيقة من خطوط العرض. بيوت هذه المدينة جيدة البناء لا يكاد بيت منها يخلو من ينبوع ماء. في الطرف الجنوبي للمدينة مسجد رائق البناء وفي شرقها نهر الشليف الذي وجد على ضفتيه عدد من الأرحاء وحدائق بها أشجار التين والكروم. أهلها أباة إن لم يكونوا في معظمهم سوى نساجين. عندما دخل النصارى الى وهران كان أهل مستغانم يخضعون للعرب وكانوا يسومون أهلها أشد العذاب، فغادرها بسبب ذلك كثير منهم الى أن استولى الأتراك على مدينة الجزائر ثم استولوا على مستغانم، وهي مفتاح هذه البلاد. وقد تفطن لهذه الحقيقة كونت ألكاوديت فحاول فتحها ثلاث مرات الى ان لقي حتفه في المرة الأخيرة. لا توجد في هذه الناحية مدن ذات أهمية غير تلك التي ذكرناها. أما مدينة تنس فهي مما وراء الشليف. ولنذكر الآن من هم في الجبال من السكان.

56) كانت تسمى : كاتينا

الفصل الرابع والعشرون

بنو زناتة

جبل عظيم يحمل اسم سكانه من بربر زناتة. يقع على بعد ثمانية عشر فرسخا شرقي تلمسان، يمتد طرفه الى صحراء كارت والطرف الآخر الى صحراء أنكاد. طوله عشرة فراسخ وعرضه خمسة فراسخ، تغطيه غابات أشجار الخروب. وهو جبل عال وعر شديد الانحدار. لا يطيب القمح في تربته، ولذلك فأكثر غذاء سكانها من الخروب ولحوم الأغنام التي يملكونها بأعداد كثيرة. يعيشون في قرى مفتوحة، وهم شجعان شرفاء. وفي أعلى الجبل مكان حصين بطبيعته وبما أقيم فيه من وسائل الدفاع، وفيه يسكن الحاكم. وله من المقاتلين عدد من الفرسان ومن حملة البنادق، وبإمكانه أن يجمع للحرب عشرين ألفا من أقوياء الرجال الذين تمرسوا بالحرب في ما خاضوه من القتال ضد ملوك اسبانيا وضد العرب. ولهم اليوم من القوة ما جعلهم في قتال مستمر ضد الأتراك وضد الشريف وضد عرب الصحراء، يعتزون على هؤلاء بمنعة جبلهم. ومن عادة هؤلاء البرابرة الدخول في خصومات ونزاعات حول السلطة مما سبب التقاتل الشديد بينهم عندما لا يتهددهم عدو من الخارج، وإذا طرق بابهم عدو من غير أهلهم اجتمع شملهم واتحدوا لمقاومته. يحملون العداء الشديد للأتراك، ولم يتوصل هؤلاء الى إخضاعهم في يوم من الأيام لا باللين ولا بالاكراه. وهذا الجبل وسائر جبال هذه الناحية فروع من الأطلس الكبير.

الفصل الخامس والعشرون

مطغرة

جبل طقسه بارد، عال شديد الانحدار، على فرسخين ونصف من ندرومة الجنوب. سكانه من بربر زناتة، ناس شجعان أشداء في الحرب، فقراء، لأن جبالهم لا تنبت سوى الشعير والخروب، ألا أنهم يكسبون قطعانا كثيرة من الماشية وغابات من أشجار الخروب يصنعون منها الفحم يبيعونه للمدن ولمناطق أخرى. لهم مودة مع أهل ندرومة الذين من جذمهم، فتجدهم يدا واحدة في الحرب ضد ملوك تلمسان وضد العرب.

الفصل السادس والعشرون

بنوورنيد

جبل ممتد الى قرابة تلمسان بفرسخ واحد، كثير القرى والمداشر. سكانه ناس بسطاء. وجبلهم طقسه بارد، به غابات من الأجنة ذات الأشجار التي تعطي ثمارا كثمار أوربا تحمل قصد البيع في المدينة. وزيادة على ذلك توجد في ذلك الجبل أشجار يصنع منها الفحم، ولهم حرث جيد في تربة يطيب فيها القمح والشعير وتكثر القطعان. وهذا الجبل من عمل تلمسان يصيبه ما يصيبها وسكانه اليوم من رعايا الأتراك.

الفصل السابع والعشرون

تـرارة(57)

جبل عال وعر قريب من مدينة هنين يسكنه البربر الغلاظ الأجلاف، وهم في صراع دائم مع سكان المدينة. وقد عاثوا فيها فسادا غير ما مرة قبل خرابها. وهم فقراء، قمحهم قليل ولهم بعض القطعان. أهم تجارتهم الفحم. وفي بلدهم كذلك بعض مناجم الحديد، ومنذ خراب مدينة هنين وهم يزرعون الأراضي التي من جهة البحر. ولهم حراسة دائمة في برج الحصن مخافة التعرض لهجومات النصارى الموجودين في تلك النواحي إذ اعتادوا المجيء اليهم على متن سفن ذات صاريين فينصبون لهم الكمائن ويأسرون منهم رجالا ويذرون الآخرين تحت وطأة الخوف.

الفصل الثامن والعشرون

أغبـال(58)

جبل في عمل وهران يسكنه بربر أنذال غلاظ يأتون بالحطب الى المدينة ويعملون بها طيلة اليوم عندما كانت بيد حكام من أهل البلد. بهذا الجبل محلات معمورة أكبرها اثنتان قرب وهران، في واحدة(59) منهما عين جارية وبساتين بها

57) أو ولهاصة

58) أو غيوبل

59) تسمى كريستيلا

أشجار الليمون الحلو والحامض والبرتقال، ويطيب بها القمح بكمية. كانت بهذه الناحية محلة(60) يبلغ عدد سكانها اثنتى عشرة مائة كانون، كما كانت بها محلة تسمى قويدسة، وقد كانت تلك الفتن ومثيلاتها سببا في خلاء هذا الجبل من السكان، والباقون فيه فقراء يعيشون في رُغْب دائم.

الفصل التاسع والعشرون

مغراوة

جبل ممتد على طول أربعة عشرة فرسخا على الساحل. به مدينتان مبنيتان على السفح هما مزغران ومستغانم، نسبة الى سكانه من البربر. وفيهما رجال شجعان معظمهم أغنياء بزروعهم وقطعان ماشيتهم ولكنهم ينتجعون مثلما يفعل العرب ولا يستقرون في محلة معلومة. يتكلمون عربية فاسدة فيتوهم من لا علم له أنهم من العرب وما هم بعرب وإنما هم برابر من قبيل زناتة ينتسبون الى مغراوة منهم، لهم علائق بمستغانم. يمتد هذا الجبل الى نهر الشليف الذي يفصل هذه الجهة عن جهة تنس.

الفصل الثلاثون

عمل تنس من إمارة تلمسان

هذه هي العمالة الثانية من هذه الإمارة، بحسب الترتيب الذي اتبعناه. يحدها من جهة الغرب عمل تلمسان ومن جهة الشرق عمل مدينة الجزائر، وتمتدها جنوبا الأطلس وشمالا البحر المتوسط بين مصب نهر الشليف أو مصب كارطينا ومصب نهر الزعفران(61). بلاد يكثر بها الزرع والماشية. بها خمس مدن منها عاصمتها التي تتسمى العمالة باسمها(62) وهي خاضعة على الدوام لأمراء تلمسان. عندما مات محمد بن زيان ترك ثلاثة أولاد تولى أكبرهم وهو أبو عبد اللي الإمارة وتآمر ضده الآخرون. وانكشفت المؤامرة فأودع أكبرهما وهو أبو زيان السجن مدة طويلة الى أن حرره بارباروس. ثم أمر بعد ذلك بشنقه كما سبق أن ذكرنا. أما الثالث وهو أبو يحيى فقد فر الى فاس وأعانه أحمد الوطاسي على الوصول الى

60) أغبال

61) كانت تسمى كيبا لاف وهي اليوم واد الشلف

62) تنس

حكم المدينة التي نحن بصدد الكلام عنها، وقد بقي في حكمها سنين عديدة وتلقب بأمير تنس. وبعد وفاته خلفه في حكم المدينة ولده أبو عبد اللي. وقد اضطهده بارباروس حتى اضطره الى الانتقال الى قشتالة ومعه عياله وأحد إخوته، طالبا نجدة شار لكانت. ولما طال انتظاره قبل ارضائه عاد الى وهران وفي اعتقاده أن نبيل قمارش يدافع عنه لدى الملك المسيحي. وفي تلك الأثناء ألهمه الله الى اعتناق الدين المسيحي، واتبعه أخوه في التنصر. وعادا الى قشتالة حيث تم تعميدهما ودخلت إمارتهما في حكم الأتراك الى يومنا هذا. فهي من الايالات التابعة لمدينة الجزائر ومن أكثرها جباية.

الفصل الواحد والثلاثون

تنــس

مدينة عتيقة بناها سكان البلد الأصليون على سفح جبل، على نصف فرسخ من البحر، جعلها بطليموس عند إحدى عشرة درجة من خطوط الطول وثلاث وثلاثين درجة وثلاثين دقيقة من خطوط العرض ويسميها لقونت. وهي في منتصف الطريق بين مدينة وهران ومدينة الجزائر. تبعد عن كل منهما بثلاثين فرسخا. وهي عاصمة هذه المنطقة منذ القديم. تحصنها أسوار وقلعة، كان بها قصر الامير، وبه يقيم اليوم حاكم مبعوث من مدينة الجزائر ومعه حامية مهمة، وذلك لان أعراب هذه الجهة مقاتلون أشاوس، لهم إباء وحمية، ولطالما أعانوا سكان المدينة على التخلص من الحكام الاتراك الطغاة الذين يرسلون للتولية عليهم. وسكان هذه المدينة يتميزون بالغلظة والفظاظة، مع أن لهم تجارة واسعة مع الاجانب الذين يجلبون من هذه الناحية القمح والشعير وغيرها من السلع الأخرى فيحملونها إلى الجزائر وإلى غيرها من الآفاق، ذلك لان هذه البلاد كثيرة الزروع والخصب والمرعى والعسل والشمع. وتوجد قبالة المدينة جزيرة صغيرة تحتمي عندها السفن إبان هبوب العواصف إذا تعذر عليها البقاء في المرسى. استولى بارباروس الأصغر على هذه المدينة بعدما توفي أخوه الأكبر، وظلت منذئذ بيد الأتراك.

الفصل الثاني والثلاثون

بريشكار

تقع على بعد ثمانية فراسخ من المدينة السابقة من جهة الشرق على ساحل البحر المتوسط. وهي من بناء الرومان. جعلها بطليموس عند خمس عشرة درجة وخمسين دقيقة من خطوط الطول وثلاث وثلاثين درجة وست دقائق من خطوط العرض ويسميها كامبي جيرماني. ويسميها بعض المؤلفين العرب بئر شاق. تحيط بها أسوار وفيها عدد من البنايات والآثار الرومانية. سكانها غلاظ الطباع يشتغل معظمهم بصناعة النسيج من النوع الخشن، وهم من سكان زواوة الذين ذكرناهم في الكتاب الأول، وقد تمكنوا بفضل نجدة أصدقائهم من برابر الجبال المجاورة(63) من أن يصمدوا أزيد من قرن في وجه حكام مدينة تنس إلى أن استطاع باربا روس الاستيلاء على مدينتهم. ولم تزل منذئذ تحت حكم الأتراك. وتجود في أرضهم الزروع من قمح وشعير وكتان كما تكثر عندهم الماشية. وعندهم أجود ثمار التين في افريقيا، وتحمل الى تنس والجزائر وقسنطينة، وإذا كانت يابسة فإنها تحمل الى جميع مدن بلاد البربر الى حدود تنس.

الفصل الثالث والثلاثون

شرشال

مدينة كبيرة عتيقة بناها الرومان يسميها بطليموس كانوشر ويجعلها عند ست عشرة درجة وعشر دقائق من خطوط الطول وثلاث وثلاثين درجة وثلاثين دقيقة من خطوط العرض. ويذهب بعضهم الى أنها كارشينا كولونيا التي تعرضنا لذكرها أعلاه. وهي بين مدينة تنس وبين مدينة الجزائر، تفصلها عن كل منهما مسافة خمسة عشر فرسخا في البحر، أما عن طريق البحر فلا تصل المسافة بينهما الى عشرة فراسخ، فهي على الساحل. وقد كانت تحيط بها في الماضي أسوار جيدة من الحجارة المنحوتة يبلغ محيطها أكثر من ثلاثة فراسخ، كما كانت بها قلعة رائقة،

63) زائمة

وما زال بها من بقايا ذلك العهد معبد كبير مشيد بالرخام والمرمر. استطاع القوط الذين مروا الى إسبانيا الاستيلاء على هذه المدينة أيام رخائها وأبقوها على التبعية لهم مدة طويلة، وبعد ذلك عادت الى العرب فأعادوا إليهاسالف ازدهارها. ولكن الخليفة الشيعي(64)الذي قام بالقيرون دمرها ولم يبق منها إلا الأطلال. وظلت على تلك الحال مدة من ثلاثة قرون الى أن جاز عدد من الاندلسيين إلى افريقيا بعد أن استعادها فرديناند فقام بعضهم يعيد بناء القلعة والدور التي رأوا فائدة في إصلاحها. وشيئا فشيئا قام العمران بهذا السحهل على أيدي المدجنين وأهل تاكَارت ومسلمي الأندلس المتصفين بالشهامة والحذق، حتى صارت لهم الأراضي المزروعة الممتدة وأشجار كثيرة من الكروم والزيتون في عرصات تقع داحل الأسوار القديمة، كما قاموا بغرس عدد من أشجار التوت تقتات منها دودة القز، وصار الحرير أهم مواردهم لأن البلد طيب لمثل هذا النشاط حتى إنك تجد اليوم بهذه المدينة أكثر من خمسة آلاف دار تستطيع أن تعبىء وتجهز عند الحاجة أزيد من ألف مقاتل من حملة القذافات والبنادق، وما تزال تظهر في البحر عند هدوئه دور عديدة غمرتها المياه، وبعض هذه الدور ما يزال قائما برمته الا ما كان من سقوفها المنهارة. وليست هذه المدينة في وقتنا الحاضر محاطة بأسوار، وضمانة حمايتها في عدد سكانها وشجاعتهم. وعلى فرسخين منها على ساحل البحر من جهة الشرق يوجد جبل شرشال(65) وهو من العلو بحيث يستطيع الناظر من فوقه أن يرى سفينة في البحر على بعد أكثر من عشرين فرسخا. سكان شرشال أذكياء، على وفاق مع الأتراك لأنهم احسنوا لقاء باربروس عندما نزل بها وعرضوا عليه المرسى لاقامة رصيف حاجز يحمي سفنه من الرياح، ولكنه لم يبن ذلك الرصيف لأنه أقلع في اتجاه الجزائر. وعلى مقربة من المدينة، من جهة الشرق، يوجد نهر تدير مياهه عددا من أرجاء الزرع. وفي وسط المدينة فسقية جيء بها من بعيد. عندما كنا بهذه المدينة شاهدنا بها عددا من أعمدة المرمر ومن التماثيل الحجرية التي تحمل كتابات لاتينية وكذا عدد آخر من الأشياء القديمة، ويذكر سكان البلد أنهم عثروا عليها عند الحفر في رباعهم الموروثة، ولم يكن قد مضى في ذلك الحين إلا مدة قليلة على اكتشاف عمود ضخم من المرمر مزين من جميع جوانبه بالساعات مرفوع على

64) القائم

65) يسميها الاتراك قاربولا ويسميها أهل البلد جيرافلومار

أسدين في حجم ثورين كبيرين. كما شاهدنا بها تمثالين كبيرين يمثلان حوريتين من المرمر، ويظهر أنهما صنمان من أصنام الوثنيين، وحول رأس أحدهما هذه الحروف
D. D.
D. S. R. I. D. D.

أندريا دوريا يستولي على شرشال ويستولي على أسطول الترك

لما علم شارلكانت أن باربروس أخذ في جمع قراصنة الجزائر استعدادا للتوجه الى مضيق جبل طارق أعطى الأوامر لقائد إسطوله أندريا دوريا بالتوجه بسفنه الحربية وسفن نابولي وسفن صقلية الى بحار المشرق لمواجهة هذا القرصان. وهكذا قطع البحر في مواجهة سواحل بلاد البربر. ولما علم أن قطعا من أسطول باربروس توجد في شرشال قام بهجوم مباغث عليها، وذهل الأتراك لذلك. وفروا الى داخل المدينة والى القلعة، وتمكن أندري دوريا من إحراق سفن الأتراك وأنزل عساكره واقتحم المدينة وحرر ثمانمائة من السجناء المسيحيين الذين كانوا يقومون بالأشغال الشاقة، وتوزع الجنود المهاجمون على دور المدينة ينهبونها. وعندئذ نزل اليهم الأتراك الذين لاذوا بالقلعة وأجهزوا عليهم صفا واحدا فقلتوا منهم أزيد من أربعمائة وأجبروا الآخرين على الفرار. ولما رأى أندريا ما أصاب جنوده من الاضطراب وأنهم قذ تقهقروا لائذين بالسفن قام بإبعادها من الشاطىء حتى يضطرهم الى الرجوع الى القتال. ويذهب بعضهم الى أنه فعل ذلك نكاية، وليس على ذلك الرأي دليل ظاهر، ذلك أن القائد ما لبث أن أمر بإلقاء رواسي سفنه ليصعد اليها الجنود بعد أن تبين له أن ذلك التدبير لا فائدة فيه. وهكذا أدى جشع الجنود الى قلب ذلك النصر هزيمة. ومع ذلك فإن جميع سفن الأتراك وأهل البلد قد دمرت وأحبط تخطيط باربروس.

الفصل الرابع والثلاثون

قيصرية

يسميها الأفارقة تَقْدِمْتْ أي المدينة القديمة. اشتهرت في تاريخ الرومان باسم قيصرية. تشاهد أطلالها شرقي مدينة شرشال، في خليج يتوغل فيه البحر بين المرسى المسمى مرسى الجبل وبين المرسى المسمى مرسى الأخصاص، بناها الأفارقة القدماء وزينها أباطرة الرومان. ويذكر ابن الرقيق أنها كانت من أعظم مدن افريقيا وأكثرها سكانا. وتمتد آثار أسوارها الدائرة على أكثر من ثلاثة فراسخ، وما تزال بادية بعض الشواهد على ما كان لها من مجد عندما كان العرب يجوبون بلاد إفريقيا فاتحين. كانت هذه المدينة عظيمة بثرواتها ومدارسها التي تخرج منها كبار الشعراء وحذاق الفلاسفة. دخلت قيصرية منذ ذلك العهد تحت حكم الأدارسة وكانت لهم أزيد من قرن ونصف الى أن دمرت مبانيها وأسوارها ومعابدها في حرب الخليفة الفاطمي بالقيروان وذلك سنة تسعمائة وخمسين الموافقة لسنة ثلاثمائة وستين للهجرة، وكان ذلك على يد عبد الله بن محيي الدين الذي أمر بتقتيل السكان المتشيعين للأدارسة. وقد تبقى من البنايات القديمة معبدان كانت تقدم فيهما القرابين للأصنام وتعلو أحدهما قبة جد مرتفعة يسميها أهل البلد من المسلمين بالقبة الرومية يزعمون أن بها مدفن الكنت يوليان. ويمكن لمن كان فوق تلك القبة أن يرى سفينة تبعد عشرين فرسخا عن الشاطىء، كما يستطيع أن يرى في جهة البر بوادي متيدجة على امتداد يزيد عن ستة عشر فرسخا. وهي مبنية بالصخور العظيمة، تامة الاغلاق من جميع الجهات. وقد أراد صالح رايس أن يخربها عام ألف وخمسمائة وخمسة وخمسين أملا في أن يعثر فيها على بعض الكنوز، ولما شرع الأسرى في اقتلاع الحجارة خرجت منها أنواع من الزنابير السامة السوداء لا تلسع أحدا إلا أردته قتيلا، وكان ذلك سببا في العدول عن ذلك القصد. وتوجد شرقي هذه المدينة غابة تدعى غابة الموس وفيها أشجار عظيمة مثل أشجار الأرز والصفصاف والفلين والرند ومنها تقطع الأخشاب التي تحمل الى مدينة الجزائر بقصد صنع السفن. وعلى مقربة من هذه الغابة جبل داخل البحر يسميه البحارون بادية تنس. ولا يجوز لأحد أن يقطع الأخشاب من هذا الجبل إذا لم يرخص له بذلك عامل الجزائر الذي جعل عليها حراسة دائمة. لم تتأت إعادة بناء هذه المدينة منذ أن خربها الخليفة(66) الذي سبق لنا ذكره، ثم إن العرب لا

66) القائم

يسعفون في ذلك لأنهم يستثمرون أراضي تلك الناحية فوق ربوة تمتد الى داخل البحر ولم تكن بهذه الجهة مدينة بحرية غيرها. ولم نجد ذكر الاسم قيصرية الا عند ابن الرقيق.

الفصل الخامس والثلاثون

مـزونـة

مدينة عتيقة بين مستغانم وتنس، في داخل البلاد، جعلها بطليموس عند ست عشرة درجة من خطوط الطول وثلاث وعشرين درجة وأربعين دقيقة من خطوط العرض واسمها عنده : مستعمرة الحصن الجديد، أسوارها عالية حصينة. بها قلعة فيها قصر رائق. منطقتها شاسعة، ترى بها أنقاض عدة مدن خربت منذ عهد الرومان، حيث تشاهد بها لحد الآن لوحات كبيرة من المرمر وتماثيل من الحجر وعليها كتابات لاتينية منقوشة. كانت بها منازل جيلة دمرتها الحروب ولاسيما تلك الحروب التي ذكرنا أنها كانت بين أقارب ملك تلمسان الذين عاثوا فسادا في عدد من مدن هذه الايالة، أما البنايات القائمة فهي حديثة ولا تساوي شيئا. ويستثنى من ذلك معبد رائع في المدينة يظهر أنه من بناء الرومان. كان سكانها في الماضي على درجة كبيرة من الغنى لأن بلادهم كثيرة القمح والماشية، ولكن العرب الذين يكنون لهم العداء أذاقوا الويل لأهلها منذ المرة الأخيرة التي تحطمت فيها المدينة، حتى لم يبق فيها سوى عدد من فقراء النساجين يصنعون المنسوجات القطنية والصوفية، ومع هؤولاء عدد من العمال لا يربحون ما يساوي المقادير التي يجبرون على دفعها لحكام مدينة الجزائر وللعرب مقابل السماح لهم بفلاحة الأرض.

الفصل السادس والثلاثون

مـليـانـة(67)

مدينة كبيرة بناها الرومان فوق جبل مرتفع جدا على بعد أربعة عشر فرسخا من شرشال في داخل البلاد، وعلى بعد خمسة عشر فرسخا غربي مدينة الجزائر. جعل بطليموس موقعها عند خمس عشرة درجة وخمسين دقيقة من خطوط الطول وثمان وعشرين درجة وخمسين دقيقة من خطوط العرض. جبالها كثيرة الينابيع والجداول، وفي كل مكان منها أشجار جوز باسقة تثمر من الجوز كميات

67) مغنانة قديما

كبيرة لا يتوصل السكان الى قطفها كلية فيضيع جزء منها. تحيط بالمدينة أسوار قديمة عالية حصينة جيدة البناء تجاورها من إحدى الجهات صخرة عالية شديدة الانحدار يوجد في أسفلها واد عميق. وفي الجهة المقابلة تمتد المدينة على سفح الجبل. وبها قلعة كبيرة تشرف عليها. دورها معتبرة تتوفر على عدد من الينابيع. ولكن سكانها معروفون بغلظتهم، ومعظمهم من صناع الجوخ والسروج على طريقة المغاربة. ومن سكانها خراطون يصنعون أوعية خشبية للشراب يقبل الناس على اقتنائها. وتحيط بالمدينة بساتين شاسعة بها أحسن ما في بلاد البربر من أشجار الليمون. تنمو بها أيضا أشجار البرتقال التي تعطي ثمارا جيدة تحمل لبيعها في تنس وغيرها من المدن. وقد عرفت مليانة عندما ضعف حكم المرينيين عهدا من الحرية حيث استطاعت أن تدافع عن نفسها ضد هؤلاء الملوك من جهة وضد العرب من جهة أخرى ذلك لأن معظم سكانها من زواوة ولهم عدد من الملاجىء في الجبال. أما بعد سقوط تلمسان بيد الأتراك، فإن قائدهم بارباروس قد استولى على مليانة وهي الى يومنا هذا بيد الأتراك. ولا توجد بهذه النواحي مدن أخرى تستحق الذكر، وإن كانت تشاهد بها أنقاض عدد من المدن لم تعد تعرف حتى أسماؤها، ولنذكر الآن سكان الجبال.

الفصل السابع والثلاثون
زاتمة

جبل يعرف اليوم عند الناس بجبل أبي سعيد من آسم سكانه. وهو على مقربة من تنس يسكنه البربر وزواوة الغلاظ الأفظاظ المعروفون مع ذلك بشجاعتهم وبسالتهم في القتال. يكثر عندهم الشعير والمعز والعسل والشمع. يحملون منتجاتهم هذه الى تنس حيث يبيعونها لتجار أروبا. ويعتبر هذا الجبل من عمل تنس وسكانه يدينون بالطاعة لأتراك الجزائر.

الفصل الثامن والثلاثون
ونشريس

جبل عال شديد الانحدار، سكانه أشداء في الحرب، وهم على قتال دائم لملوك تلمسان، حاربوهم ستين من الأعوام المتوالية منحاشين لملوك فاس. أما

أراضي أعلى الجبل فلا ينمو بها الا الرتم الذي تصنع منه السلال والحصر. وتوجد في السفح وفي الأماكن المستوية ينابيع عديدة ماؤها بارد، وكذا أراض صالحة للزراعة. سكان هذه الجبال معروفون بإقدامهم، قادرون على تجهيز خمسة آلاف من المقاتلين من بينهم ألفان وخمسمائة من الفرسان. كان سكانه موالين لمولاي يحيى عندما كان أميرا على تلمسان، ومنذ أن صارت هذه الامارة الى حكم غيره، تخلص أهل ونشريس من كل تبعية وبقوا أحرارا يجوبون البلاد طولا وعرضا كما يفعلون الى اليوم.

الفصل التاسع والثلاثون
من إيالة الجزائر الى مملكة تلمسان

ثالثة المناطق في مملكة تلمسان حسب الترتيب الذي اتبعناه. تحدها من الغرب منطقة تنس ومن الشرق منطقة بجاية ومن الجنوب جبال الأطلس الكبير التي هي حدود بلاد النوميديين ويحدها من الشمال البحر المتوسط، من مصب نهر الزعفران[1] الى بلاد بجاية. أرض هذه المنطقة بأسرها كثيرة الزرع والماشية. يسكن سهولها عرب أشداء مياسير، ويسكن جبالها بربر من حملة البنادق وعدد من الفرسان. وهذه الجهات معدودة منذ القديم ضمن إمارة تلمسان، وقد جرت العادة بإقطاعها للابن الثاني للملك، ومنذ أن تم للملك[2] تونس غزو مملكة تلمسان أعطي عرش بجاية لأحد أبنائه[3]. ولما رأى أهل الجزائر أن مجد أمرائهم في أفول تحيزوا لأمير بجاية، وصار أقوام كثيرون في تلك الجهات يدينون له بالتبعية، وبذلك بقوا طلقاء في أمرهم يؤدون للأمير قدرا من الجزية. ولما ضعفت هذه الامارة تحرر أهل مدينة الجزائر من طاعتها، وبمرور الزمن استطاع الأعيان ممن لبثوا فيها أن يغدوا سادتها بتأييد من العرب. ولما نزل بها باربروس قتل الحاكم الذي كان بها واسمه سليم. وقد سبق أن تعرضنا لذكر هذا الأمر عند وصف تلمسان. ولا توجد في هذه الجهات الا مدن قليلة تستحق الذكر، إذ أن مدنها القديمة قد دارت في حروب العرب وحروب بعض الأمراء. وتشاهد بها أطلال تلك المدن في جهات مختلفة، ولا تعرف حتى أسماؤها.

1) أوكينالاف
2) أبو فارس
3) المسمى عبد العزيز

الفصل الأربعون
القل مدينة المهاجرين الأندلسيين

مدينة بناها حسان باشا من زمن قريب على بعد حوالي خمسة فراسخ من واد الزعفران(4) وعلى فرسخين في عمق البلاد. وعلى جانبي النهر في هذه الجهة غابات شاسعة من الأشجار المثمرة ومن أشجار التوت. وفي المدينة أكثر من ثلاثمائة من سكانها من المسلمين الذين هاجروا من قشتالة والأندلس ومن أهل الثغور من مملكة بلنسية، وتزداد هذه المستوطنة يوما بعد يوم لأن البلد خصب كثير القمح والماشية وبه جميع أنواع الفواكه كما في أوربا، منها أشجار الليمون وأشجار البرتقال الوافرة. ويضاف الى ما ذكر أن السكان يكسبون ثروات عظيمة من تربية دودة القز. وبين هذه المدينة ومدينة الجزائر توجد مرسى تدعى مرسى الاخصاص تأتي اليها السفن عندما تكون الفرضة غير مأمونة. وقد لجأ اليها بيرنار مينلوتشي بعمارة إسبانيا من سفن الحرب عندما ضلت جيوش شارلكانت في سواحل افريقيا. وكانت بهذه المرسى في الزمن القديم مدينة(5) ما تزال أطلالها ظاهرة في بعض الأماكن. وعلى بعد ثلاثة فراسخ الى جهة الشرق توجد مرسى(6) تقصد جهاتها سائمة أهل الجزائر قصد المرعى إذ لا يبعد عن هذه المدينة سوى بمسافة فرسخ ونصف وذلك نظرا لجودة الكلأ في تلك الأراضي.

الفصل الواحد والأربعون
الجزائر عاصمة الاقليم

يسمي المسلمون هذه المدينة جزائر بني مزغانة، وهي من بناء البربر المعروفين بهذا الاسم، حتى إنها عرفت عند قدماء المؤرخين بمزغانة، ويذهب البعض ـــ الى القول بأن الرومان كانوا يسمونها يوليا قيصرية على شرف يوليوس قيصر، وحرف اسمها فصارت تدعى اليوم : الجزائر، جمع جزيرة بالعربية. وهي مدينة شهيرة منذ القدم، أبدع الرومان في تزيينها، وزادها الأتراك إغناء بفضل ما وقع في أيديهم من غنائم سلبوها من النصارى. ويؤكد بول دياكر أن أحد الطغاة

4) آوكينالاف

5) يهور

6) مرسى دوبن

قد استولى على حكمها في عهد الوندال، فخربها ولكنها ما لبثت أن استعادت نشاطها. وموقعها على سفح جبل عال : لها أسوار مرتفعة حصينة مبنية بالحجارة، ويحيط بها خندق عميق وحواجز من جميع الجهات. ولها أربعة أبواب رئيسية، أحدها من جهة الشمال حيث توجد المرسى، وكذا إحدى الجزر التي كانت بها قديما قلعة بنيون، والمرسى اليوم آمن وأكبر مما كان، وذلك بعد أن قام صلاح رايس بربط الجزيرة بالبر بواسطة رصيف حاجز استعمل في بنائه الحجارة المختلفة من بعض البنايات القديمة لمدينة تمانتفوست. وترتفع أسوارها شيئا فشيئا فوق التلال، ثم تتجه نحو الجنوب مكونة رأس مثلث مرتفع يظهر من بعيد، وفي قمته قلعة ترى من مسافة بعيدة في البحر، ومن هنالك يصعد على التل الى حصن[7] بناه الأتراك على بعد ربع فرسخ من القلعة، وقد جعلوا فيه أربعة مواقع محصنة وثكنة تتسع لألف من الجنود وخزانا كبيرا للمياه يُستعمل عند الضرورة، إذ العادة في الأيام العادية أن يكون الاستسقاء من بئر على بعد اثنتي عشرة أو خمس عشرة خطوة من باب الحصن. وتوجد فوق البستيونات الحصينة مدافع مصنوعة من البرونز. وفي المدينة حامية دائمة تتكون من الحاكم ومن ثلاثمائة من الجنود الأتراك. وبين القلعة والمدينة حصن آخر فيه حامية أخرى. وتبدأ بنايات المدينة من الأسفل عند شاطىء البحر، ثم ترتفع بشكل متدرج على سفح الجبل، وتتخذ بذلك منظرا جميلا لأنها جميعها ذات نوافذ ومماش، ولا تحجب بعضها بعضا، وهي على العموم جيدة البناء، ومن بينها عدة قصور مبنية على هيئة عصرية بذل في رونقها جهد كبير، شيدها رؤساء البحر من الأتراك ومن النصارى المرتدين الذين سكنوا مدينة الجزائر، وساحات المدينة وأزقتها مرتبة منظمة : لكل أصحاب حرفة حي خاص بهم. وعلى ساحل البحر مسجد شامخ رائق يوجد في واجهته رواق ينظر الى البحر. وجداره الموالي للبحر جزء ممتد على سور المدينة، وتتحطم على أسفله الأمواج. وعلى طول الأسوار تمتد بساتين فيحاء. وعلى بعد فرسخين منها الى جهة الشرق يجري نهر[8] ينبع من الأطلس الكبير ويخترق بوادي متيجة قبل أن يصب في البحر بين تلال تقع خلف مدينة الجزائر، وهنالك توجد الارحاء التي يطحن فيها السكان زروعهم. ويجعل بطليموس مصب[9] هذا النهر عند ثماني عشرة درجة وعشرين

7) بورش
8) واد الحراش أو غنساية
9) سافو قديما

دقيقة من خطوط الطول وثلاث وثلاثين درجة وعشرين دقيقة من خطوط العرض. ويشرب أهل الجزائر من عين كبيرة تصل اليهم مياهها بقنوات ممدودة تتوزع على مختلف الجهات. وبالاضافة الى ما ذكر تتوفر داخل المدينة آبار وخزانات للمياه. والمدينة محصنة من جهة البر بصخور وعرة يوجد عند قدمها من جهة الجنوب سهول شاسعة كثيرة الخصب ينمو بها القمح ويكثر الكلأ، ولاسيما في بوادي متيجة الممتدة على ستة عشر فرسخا طولا وعلى عشرة فراسخ عرضا، والشاطىء بين مدينة الجزائر وتمانتفوست ضيق أجرد لأنه يرتفع شيئا فشيئا على شكل تلال إلى أن يتصل بجبال تمتد بعيدا وتجاور المدينة والشاطىء على هيئة مدرج نصف دائري. تعتبر هذه المدينة اليوم أغنى مدن افريقيا قاطبة، ومقدار الجباية على تجارتها يعادل مقدار مداخيل مجموع المملكة. استولى عليها باربروس وزاد من شأنها أخوه حتى انها صارت تزداد كل يوم شهرة وذلك بما سلب من أموال من جنود البحر الاسبان الذين غرقت سفنهم بشواطئها أو من القتلى المسيحيين. وسنذكر في الفصل الذي بعد هذا خبر استيلاء باربروس على صخرة الجزائر وخسارة الجيش الامبراطوري. وقد سبق أن تعرضنا لذكر الجيشين الآخرين عند وصف تلمسان.

باربروس يستولي على صخرة الجزائر

ثارت ثائرة الملك فيرناند بسبب ما كان يقوم به القراصنة من عمليات على سواحل إسبانيا وسواحل الجزر المجاورة(10)، ولذلك أمر ببناء حصن في جزيرة صغيرة قبالة المرسى المعروف باسم بينيون (صخرة الجزائر). ومن هنالك كانت توجه الضربات الى منازل المدينة حتى إن سالم بن التومي أمير الجزائر قد اضطر الى عقد هدنة مع ملك اسبانيا تدوم عشر سنوات، والى قبول أداء جزية له، ولكن باربروس قتل هذا الأمير واستولى على الجزائر وأماكن أخرى من هذا الاقليم، ثم قام بهجوم على ذلك الحصن دون أن يتوصل الى الاستيلاء عليه لا هو ولا أخوه من بعد. غير ان الأقوات قد نفذت من أيدي من كانوا بالحصن من الجنود إذ لم تعد الازواد تصل اليهم كما كان الشأن في عهد سليم، وعندئذ قام مارتين فاركاس الذي كان الحاكم فيه والمدافع عنه ببسالة باعلام الملك بتلك الحال. وبينما كان ينتظر

10) ويقا ومايورقا ومينورقا

الانجاد من إسبانيا تمكن خائن من جنوده من الفرار والالتحاق بالمدينة سباحة فأخبر بارباروس بحال الاحتياج التي كان عليها المدافعون عن الحصن. فأسرع بارباروس بتوجيه طلب الى مارتين فاركاس بالاستسلام حيث إن يده فارغة من القوت، وحيث إن كل الممرات محجوزة ولا يرجى وصول نجدة اليه، ووعده خيرا إن هو بادر بالاستسلام. وكان جواب الحاكم الشجاع أن ليس من عادة ملك إسبانيا أن يتخلى عن موقع لقرصان، وأن ما بلغ بارباروس من الأخبار غير مطابق للحقيقة. وعندئذ قام بارباروس بمهاجمة الحصن بواسطة سفنه الحربية، وبعد جولات من القتال مات فيها عدد من الأتراك ومن مسلمي البلد، ضيق الحصار على الحصن، وكان الجنود بداخله قد فرغت أيديهم من القوت والعدة، وقد نال منهم الجوع والتعب كل منال، وفي ذلك اليوم دافع الحاكم وحيدا عن ثلمة في السور، بيمناه سيف وبيسراه سيف آخر، ولم يكف عن القتال الا بعد أن أصيب بعدد من الجروح، وصار من المتعذر عليه استعمال يده اليمنى. وعندئذ انقض عليه أربعة من الجنود وطعنوه لأن باربارس أمر بعدم الاجهاز عليه، بل إنه أمر بإحضاره أمامه، وشجعه ثم ذكر له بأنه سيعامل بالحسنى إذا هو إصغى لما سيطلب منه. وعبر الحاكم عن شكره، ووعد الاذعان واشترط أن يشهد قبل كل شيء عقاب الجندي الذي خانه. وعند ذلك أراد بارباروس أن يسترضيه فأمر بإحضار ذلك الاسلامي وأمر بجلده بقساوة، ثم أمر بقطع رأسه بمحضر الحاكم. وبعد ذلك طلب منا جزاء على إرضائه أن يدخل الاسلام وأقسم له بأن سيجعله قائدا لحرسه إذا اعتنق الاسلام. وأجابه الحاكم أن ليس من المعقول أن يرتكب المروق من الدين بعد أن طلب إنزال العقاب بمارق من دينه وبأنه سيطيع في ماعدا ذلك من المطالب. واغتاظ بارباروس لما رأى من الحاكم وأمر بقتله بعد أن أنزل به أشد العذاب. وهكذا قضى ذلك الحاكم الشجاع وفيا لايمانه بربه وبملكه كما هو واجب على جميع الأخيار.

سوء خاتمة هجوم شارلكانت على مدينة الجزائر

بعد أن تم لشارلكانت الاستيلاء على مدينة تونس الشهيرة، وبعد أن طرد منها بارباروس ونصب فيها الأمير الشرعي، عزم على تطهير الساحل الافريقي كله من القراصنة الأتراك، ولاسيما أتراك مدينة الجزائر الذين كانوا يلحقون أعظم الأضرار بالمسيحية، تملكته كراهية مقدسة لأن يرى ذلك العدد الكبير من المسيحيين الذين كانوا في أسر أولئك الكفار، وأراد أن يحضر قتالهم بنفسه حتى لا

تفشل الحملة كما فشلت سابقاتها. ولهذا السبب حرص على تجهيز جيش بحري عظيم فيه السفن الحربية الضخمة والقاليرات السريعة، ملأها كلها بعدد وافر من الجنود المحنكين الاسبانيين والالمانيين والايطاليين وكذا بالذخيرة والمدافع وبجميع ما يلزم لمثل تلك الحملة الكبرى. وكان اللحاق بطائفة من ذلك الجيش البحري في مرسى إبيكا. ولما كان الدون بيرنادين دي مينلوسا قد تأخر على رأس جيش إسبانيا فإن الامبراطور قد خرج من تلك الجزيرة وأرسى سفنه بفرضة الجزائر يوم سادس وعشري اكتوبر من عام ألف وخمسمائة وواحد وأربعين، ثم وصل مينلوسا الى رأس الاخصاص أو رأس أبولون ومعه مائة وخمسون سفينة كبيرة وسفن أخر صغار. وشارك في الحملة أيضا دوق ألب، وكان كبير سادة البيت الامبراطوري، ويعتبر، بعد الامبراطور قائدا لجميع الجيوش، وقد تقدم في هذا القتال عددا من النبلاء والعظماء المرموقين، جاء كل منهم على نفقته للمشاركة في هذه الحملة.

وقبل وصولهم بيومين هبت زوبعة شديدة على الساحل، ولم يكن هيجان البحر قد سكن وإن كانت الرياح قد نقصت قوتها، وكان ذلك سببا في عدم التمكن من النزول الى البر على الفور، إذ لو وقع الشروع في النزول لوجب نزول الجيوش في الماء، يضاف الى ذلك أن الجيش البحري الاسباني لم يكن قد وصل بعد. وكان هذا التأخير، وإن بيومين، سببا في فشل هذا الهجوم الذي كان مضمون النجاح لولا ذلك الواقع، ذلك بأن الامبراطور قد أرسل رجلا(11) من صناديده الى حاكم الجزائر يحمل لواء أبيض علامة سلام، فاستقبل استقبالا حسنا من طرف هذا الحاكم الاسلامي الذي أصله مسيحي من جزيرة سردينيا. وقد أبلغه رسول الامبراطور أن أمة المسيح قد هبت بأجمعها تمحو العار الذي لحقها من القراصنة ومن سكان مدينة الجزائر وسيكون ذلك بارتكاب أعمال فظيعة إذا لم يبادر بمحض إرادته الى تسليم المدينة الى الامبراطور سيما وأن الامبراطور يعتبر أن بارباروس قد استولى عليها غدرا وبغير حق، وبأن أخاه ما فتىء يزيد من تحصينها لتكون منطلق الغارات ضد المسيحيين، ثم وعده الامبراطر بأن يخلي سبيل الحامية وسائر سكان المدينة إذا اختار التي هي أحسن وسلم المدينة، وذكر الرسول لحاكم الجزائر بأنه ولد وفي رقبته تبعية للامبراطور وسيكون له ممنونا إذا استجاب لما عرض عليه، وما أجدره بذلك وقد ولد على دين المسيح، وها هي الفرصة قد سنحت لكي يقوم بواجبه وينتقم من ذلك القرصان الكافر الذي أوقعه في الأسر. وفي

11) حسان أغا

ذلك إرضاء لملك عظيم يعرف كيف يقدر ما يؤدى اليه من خدمات، ولا مصلحة له في انتظار الهجوم على المدينة لأنه سيكون شرسا عنيفا يسفر عن نصر محقق مثلما وقع في الهجوم على مدينة تونس. وزاد رسول الامبراطور في مخاطبته للحاكم بأن تقدم اليه بوعود اندهش لها، وقد أظهر الحاكم ما يدل على ميله الى إرضاء الامبراطور لولا أن منعه مرتد إسباني(12) من جنس يهود صارت اليه من ذلك الوقت إمارة تاجورة. فعندما رأى هذا المرتد أن الحاكم بدأ ينحرف، حضر اليه بمعية أتراك ومرتدين آخرين وقال له : انهم علموا باتصالاته بالامبراطور، وما عليه الا أن يتخلى عن فكرة تسليم المدينة لما في ذلك من خيانته لملكه ومن إلحاق وصمة عار خالدة بجبينه. وعندئذ التفت الحاكم(13) الى الرسول وقال له مبتسما : من الحمق أن يشرك المرء عدوا في تدبيره، وأقبح من ذلك أن يركن لما يقدم اليه العدو من نصائح، فباي حق يريد الامبراطور أن يأخذ هذه المدينة ؟ فأجاب الرسول قائلاً : بمشيئة هذا الجيش الذي لا يُهزم والذي تشهدون بأنه قد انتزع من سيدكم مدينتي تونس وحلق الوادي. وأجاب الحاكم مؤكداً بأنه سيدافع عن مدينته أحسن مما دافع الآخرون، ولا يستبعد أن يهلك جيش إسبانيا هذه المرة ما دام قد انهزم أمام الجزائر مرتين فيما مضى. وبعد ذلك أمر الرسول بالانصراف. وقد انتشرت بين أهل الجزائر إشاعة تقول إن ساحرة عجوزا تنبأت بهزيمة فيرا، وغرق مونكاد، وانهزام شنيع يلحق بأمير مسيحي ثالث، وصدق الناس هذه النبوءة لأن الحالتين الأوليين قد صحتا فعلا في الماضي. واستعملها الأتراك والمرتدون لتحريض المسلمين وتثبيط النصارى، وكان هؤلاء يرون أنفسهم قد أرسوا بسفنهم بفرضة غير مأمونة في بداية فصل الشتاء. كان بمدينة الجزائر ثمانمائة من الأتراك، معظمهم من الفرسان، وكان منهم عدد يزيدون عن ثلاثمائة قد انسحبوا منها مع قائد(14) سبق أن ذكرناه في معرض الكلام عن قصة الشريف. وقد أمر حاكم الجزائر بأن تعطى الذين بتلك الجهات هدايا تكثر بها جموعهم حتى ينكد بهم عساكر النصارى. وما أن صرف مبعوث الامبراطور حتى أطلق الإعلام بالمدينة بمنع مغادرتها على أي كان، ومن خالف فيعاقب بالاعدام. وأمر الجنود بملازمة ثكناتهم، ورتب ما يلزم من الاستعداد

12) القائد محمد

13) حسان أغا

14) القائد مرشان

للدفاع. أما الجيش المسيحي الذي كان في سفنه الراسية غربي المدينة فقد انتقل الى شرقيها بعد أن تم له التعرف على السواحل وتبين أن النزول الى البر أسهل في هذه الجهات. وجاءت القاليرات وأخذت تنقل الجنود من السفن الضخام وتوصلهم الى البر بواسطة القوارب، وليس بأيديهم سوى أسلحتهم. ولم يواجه الأعداء ذلك النزول الا بمقاومة ضعيفة. وبعد إنزال جيش الفرسان رتب في ثلاث فيالق في مقدمة كل منها ثلاث آليات حربية بقصد إبعاد العرب إذا جاءوا للمناوشة، وتقدم الجيش على ذلك الترتيب مقدار ربع فرسخ، وحل بين شعبين يشقهما جدولان، وهما في الحقيقة عميقان لا يتأتى اجتيازهما الا بنصب جسر فوقهما. وفي الصباح الباكر قام الأتراك ومسلمو البلد بغارة مفاجئة، وعندئذ أمرت كتيبتان يقودهما الدون البار دي ساندي ولويس بيريز دي فاركاس بإبعادهم، إذ كانوا يستطيعون مضايقة الجيش الذي كان عليه أن يتقدم راجلا عند المرور بممرات قدم الجبل في طريقه الى مدينة الجزائر. وصمد الأعداء حتى أعمل فيهم السيف فردّوا على أعقابهم، والجأوا الى أكمة في الجهة اليسرى، وتعقبهم الجيش المسيحي من هنالك الى جبل صغير مشرف على مدينة الجزائر به موقع(15) القلعة التي سبق ذكرها. وتابع الجيش سيره الى أن بلغ أسوار المدينة، ونزل الامبراطور في زاوية تدعى سيدي يعقوب، وجعل الجيش في ثلاث معسكرات على حسب الأمم الثلاث المشاركة فيه، فجعل الفرسان الاسبان في الموقع الأعلى قرب قلعة جبل القلعة، وجعل جيش الالمانيين قريبا منه فوق التلال، والايطاليين في السهل عند شاطىء البحر واصلا الى أبواب المدينة. وفي غده شن حاكم(16) الجزائر هجوما على محلة الايطاليين، ولم يلق سوى مقاومة ضعيفة لأن الجنود جمدت أوصالهم بتأثير البرد القارس، وكان بارود معظم بنادقهم قد تبلل بالماء، وفتائلهم قد انطفأت، وهكذا استطاع الأتراك التوغل الى وسط معسكر المسيحيين. وما لبث هؤلاء أن سووا صفوفهم وردوا الهاجمين على أعقابهم، ثم طردوهم الى أن بلغوا أبواب المدينة وقيل إنهم كانوا سيدخلونها متدافعين لولا أنها أغلقت دونهم، ولذلك انسحبوا في غير ترتيب هاربين من نيران الأسوار. وقد برز فرسان مالطا في تلك المناسبة، إذ استطاعوا أن يتقدموا بألويتهم الى أن وصلوا أبواب المدينة، بل إن أحدهم تمكن من غرس مديته في إحدى تلك الأبواب، وبعد ذلك رجعوا في

15) القائد بورش
16) حسان أغا

انتظام وتتابع، وبعد ان ظهروا بشجاعتهم وقمصانهم بلونها الأحمر القاني وصلبان بيض، ارتد عليهم الجنود الأتراك الذين كانوا متنحين على مسافة قليلة من المدينة فطاردوهم بشجاعة وقتلوا صاحب اللواء وعددا قليلا من الفرسان، وكانت همة الجنود المسيحيين في نقصان بسبب الإعصار الذي بدأ في منتصف الليل والعواصف الهوجاء التي كانت تقوى ساعة بعد ساعة، وقام الامبراطور بإرسال ثلاث فرق من جيش الالمانيين لكي تساعد الآخرين على الانسحاب، ولكن كثرة مياه الأمطار والأوحال أذهلت الجنود مما اضطر الامبراطور الى الذهاب اليهم بنفسه، فأجبر الأعداء على التراجع مرة ثانية. وبينما كانت تلك الحوادث جارية في السهل قريبا من البحر وأمام أبواب مدينة الجزائر كانت الأمواج القوية تهز السفن هزا فتقطع حبالهافيرتطم بعضها ببعض فتهوي الى قعر البحر غارقة على مرأى من الجيش بكامله. ولم ينج جيش إسبانيا هو أيضا من تلك الزوبعة، وحتى الذين تعلوا رأس أبولون فإن كل سفنهم جنحت واصطدمت بالشاطىء، فما لبثت جنباته أن امتلأت بسفن محطمة صارت جثثا هامدة. وما أن رأى العرب تلك الكارثة حتى تجاروا إلى الساحل وأخذوا يقتلون بلا شفقة كل من حاول الفرار من جنود النصارى. فقد تحطمت في ذلك اليوم مائة وأربعون سفينة شراعية أما القاليرات فقد بقيت طيلة الليل ثابتة في أنجارها، ولكنها في الصباح لم تعد قادرة على الصمود فجنحت إلى الشاطيء أملا في نجاة من كانوا على ظهرها، ولكن العرب لم يتركوا لهم فرصة لجمع أمرهم، بل فاجأوهم في حال من الذهول والفوضى لم تعرفها جيوش الامبراطور من قبل، فالأقوات التي وقع إنزالها إلى البر استهلكت في ثلاثة أيام، وفرغت من الزاد أيدي الجنود فصاروا يقاسون ويلات البرد والجوع في فضاء عار لم تكن فيه خيام ولا أخصاص يتقون بها. وقد أظهر الامبراطور في هذا الموقف الرهيب شجاعة لا تقهر، يتفقد الاحوال متنقلا من جهة إلى جهة ومعه دوق ألبة ودوق سيس وماركي دي لفالي واللدون فيرناندي كونزاك وغيرهم من السادة والصناديد وهو يستنهض همم الجنود ويقضي لهم الحاجات، وقد أمر بأن يسحب حطام السفن إلى جهة رأس إيمي نتفوست ويقتل الخيل، وكان هو أول من قتل فرسه. وفي اليوم الرابع، وكان يوم جمعة، نهض من محلته ومضى بجيشه في ثلاثة فيالق متوجها إلى رأس إيمي نتفوست. ووصلوا في نفس اليوم إلى نهر(17) يبعد عن الجزائر بفرسخين واقع جهة الشرق. وكانت مياه النهر مرتفعة يتعذر

17) واد الحراش أو غفساية

قطعها مخاضة أو مشيا أو ركوبا على فرس، فتعين والحال تلك النزول بالجيش في مكان واقع بين البحر والنهر على شكل مثلث كان الفرسان يحمون قمته من هجوم الاتراك والعرب وزواوة الذين لم ينفكوا يناوشون مؤخرة الجيش المسيحي. وتأتى لهم في النهاية إقامة جسر على النهر بواسطة حطام السفن، وجاز عليه الجنود الالمانيون والايطاليون، أما الاسبانيون فقد حاذوا النهر وساروا في عكس اتجاه جريانه حتى عثروا على مخاضة لا تتعدى مياهها الركبة فجازوا من هنالك. أما الامبراطور وبمعيته دوقات من ألبه ومن سيس وماركي دي لفالي واللدون فيرناندي كَونزك وآخرون من الشجعان المرموقين فقد جاز عند مصب النهر بين سدين تكونا باصطفاف عدد من الفرسان الملكيين الاسبان بلغت مياه النهر آباطهم. وبعد أن تم مرور الجنود إلى الضفة الأخرى تراجع عنهم الأعداء إلا ما كان من العرب الذين تعقبوهم وقتلوا بعض المرضى في مؤخرة الجيش. وفي غد ذلك اليوم، وكان يوم السبت، اجتازت الجيوش نهرا (18) آخر عميقا كثير الوحل حتى إن الجنود والخيل كانت تهلك فيه قبل أن يتمكن أحد من إنجادها، فترتب عن ذلك إقامة جسر من الزوارق والسواري جاز فوقه المشاة. وعلى تلك الحال وصلت الجيوش إلى إيمي نتفوست حيث كان في انتظارها أندريادوريا ومعه ما بقي من الأسطول، وسكنوا في خرائب تلك المدينة لعلهم يتقون ما يتوجسونه من غارات العرب. والتمس ماركي دي لفالي من الامبراطور أن يأذن له في أن يعود إلى الهجوم على الجزائر واثقا من أنه سيتمكن منها باستعمال الجيش وما بقي على ظهر السفن من الاقوات. ولكن مجلس المشاورين اعترض على ذلك الطلب لعدة أسباب، ثم رحل الامبراطور ومن معه بعد أن عقد العزم على العودة في العام المقبل، وكان جيش الايطاليين أول من ركب البحر، ثم تبعهم الالمانيون فالاسبانيون، واتجه الجميع دون توان إلى بجاية، وكانت في ذلك العهد متعلقة بالامبراطور. واستطاع مينلوزا في ذلك اليوم أن ينقذ جميع القاليرات ويرسو بها في مرسى الاخصاص لأن الزوبعة أدركته قبل أن يتجاوز الرأس المعروف بنفس الاسم، وكان في ذلك خير للجيش الذي تمكن من ركوبها. وعندما وصل الامبراطور إلى مايوركا أرسل أندريادوريا وفيرناندي كونزاك إلى إيطاليا وأمرهما باقامة الاستعداد للقيام بحملة في ربيع السنة المقبلة، وبعد ذلك واصل طريقه إلى قرطاجنة.

18) واد الحامز

الفصل الثاني والأربعون
ساسا [19]

مدينة ترى أنقاضها بين مدينة الجزائر وبين تمانتفوست على ساحل البحر المتوسط. كان عدد سكانها في القديم يزيد عن ثلاثة آلاف. تقع على ضفة أحد الأنهار [20] ويحكي بعضهم أن الافارقة القدماء أسسوها قبل تأسيس الجزائر. وبعد ذلك خربها قوم مزغان، وكان لون بشرتهم مائلا إلى السمرة، وكانت أحياؤهم العظمى بأرض ليبيا، وجاءوا منها إلى هذه الجهات فأدركوا مجدا وسيادة قبل مجيء الرومان، وهم بربر يتكلمون لغة مزغان وهي لغة مختلفة عن لغات الآخرين، والمدينة التي نتكلم عنها خالية اليوم، وقد ورد في الكتب تأكيد بأنها أقدم من مدينة الجزائر وأن الجزائر إنما بنيت بأنقاضها.

الفصل الثالث والأربعون
تمانتفوست

مدينة قديمة بناها الرومان على الساحل شرقي المدينة السابقة، لها مرسى جيلة ترسو بها سفن الجزائر لأن الساحل معرض للرياح الهوجاء وما فيه من الخلجان الكبيرة على درجة كبيرة من الخطورة. يسمى الأفارقة هذه المدينة تمانتفوس، وقد جعلها بطليموس عند ثماني عشرة درجة وثلاثين دقيقة طولا ونتين وثلاثين درجة وخمس وأربعين دقيقة عرضا، وإسمها عنده روسطون. كانت مزدهرة في عهد الرومان فدمرها القوط، واتسعت مدينة الجزائر بما حمل منها من الانقاض. وفي هذه الجهة نهر[21] يصب في البحر من جهة الشرق، وعلى مقربة منه مدينة تدعى بني عبد الله نسبة إلى قوم يسكنونها، وكانت تسمى قديما باسم سيسلي، وبها ما يزيد عن خمسمائة من الدور، منها ما هو بناء متصل ومنها ما هو منقسم إلى أحياء، وكلها عديمة القيمة.

19) تيباسو قديما.

20) واد الحراش

21) واد يسر

الفصل الرابع والأربعون
تدلس (22)

آخر مدينة في إقليم الجزائر من جهة الشرق. بناها السكان الأصليون على ساحل البحر المتوسط على بعد عشرة فراسخ من مدينة الجزائر. جعلها بطليموس عند اثنتين وعشرين درجة طولا واثنتين وثلاثين درجة وخمسين دقيقة عرضا. تحيط بها أسوار جيدة، ودورها رديئة، سكانها ما بين صباغ وصياد، ولكثير منهم ولع بالعزف على العود أو القيتارة. وبهذه الجهة أراض واسعة يجود بها القمح وتكثر الماشية. يلقي البحر إلى ساحلها أسماكا كثيرة، فيلتقط السكان منها كفايتهم، ثم يعيلون ما فاض عن حاجتهم إلى البحر إذا لم يتقدم أحد لشرائه. وفي المدينة ما يزيد عن ألف كانون وحصن يسكنه الحاكم المعين من قبل حاكم الجزائر التي تعد هذه المدينة من ولايتها.

الفصل الخامس والأربعون
• المهدية

مدينة عتيقة بناها الرومان في بسيط أفيح فوق جبل عال على بعد خمسة عشر فرسخا من مدينة الجزائر جهة الجنوب في عمق البلاد. كانت في القديمة مكتظة بالسكان، ثم خربها أحد الخلفاء المنشقين (الفاطميين)، ثم بنى بها قلعة سميت باسمه ومنها تسمية مدينة المهدية : أما إسمها القديم فهو ألفرا. وهي اليوم عامرة بما يزيد عن ألفين من السكان. وهي من أعظم القلاع التي بأيدي الأتراك في هذا الاقليم. ومن عادة صاحب الجزائر أن يعين بها حاكما على رأس حامية مكونة من ثمانمائة جندي من الأتراك يقومون بحماية تلك الجهات من عيث قبائل الأعراب، وتحيط بالمدينة أسوار قديمة جيدة وتحيط بها غابات من أشجار البلوط تمتد على مسافات بعيدة. ويوجد بجهاتها عدد من القرى سكانها من البربر ومن زواوة، وهم شجعان أقوياء الأجسام، تغلب عليهم الخشونة. يجمعون حصيلة وافرة من القمح والشعير وكثيرا من ثمار البلوط والتين، وبعد تجفيفها تحمل للبيع في عدد من الجهات. كانت هذه المدينة في القديم مستعمرة رومانية كما تشهد على ذلك

(22) أدير قديما

كثير من الوجائد القديمة والنقوش التي يعثر عليها في تلك الأنقاض، وبها فسقية من المرمر نقشت عليها هذه الحروف:

D.D.L.S.V

الفصل السادس والأربعون
المدية

مدينة كبيرة عتيقة جدا بناها سكان البلدان الأصليون في سهل خصيب على حدود جيتوليا على بعد خمسين فرسخا من مدينة الجزائر وعلى ستين فرسخا شرقي تلمسان.

وكان ملوك تلمسان يحرصون على تبعيتها لهم وإن وقعت خارج ولايتهم لأنها ممرهم إلى نوميديا. أرضها كثيرة الحدائق والبساتين ومنابع المياه، غنية، يجود بها الزرع وتكثر الماشية. أهلها متميزون بلطف المعاملة، لهم دور أنيقة ومسجد رائق البناء. ولما ضعف ملوك تلمسان ذاقوا الأمرين من غارات الجيتوليين والعرب وأهل نوميديا، إذ كان يتعذر إنجادهم من تلمسان ما لم يتوفر الجيش العظيم نظرا لبعدهم عنها ومجاورتهم لأولئك الأعداء، وكان أمراء تلمسان في عهد عزهم يتخذون بهذه المدينة حامية تشن الغارات وتدافع عن المدينة، وبذلك ظل جيرانها مساكين، جانحين للطاعة. ولما قل إنجادهم مال أهل المدية إلى أمراء مدينة تنس الذين يستطيعون انجادهم عند الاقتضاء بسبب قربهم منهم، فعلى تلك الحال وجدها عروج وفتحها. ومنذ ذلك الفتح وهي تابعة لأتراك الجزائر، وحاميتهم لا تغادرها. ويحتلون إضافة إليها مدنا أخرى في هذه الجهات وفي نوميديا وجيتوليا، وسنعرض لذكرها عند وصف هذه الأقاليم.

الفصل السابع والأربعون
مدينة كوكو وجبلها

توجد عند حدود سهول الجزائر التي تسمى بسهول متيجة، من جهات الجنوب والشرق سلسلة جبال يسكنها أقوام من البربر وزواوة لا يفترون عن الحرب،

قلما دانوا بالطاعة لأمير أو أدوا مغرما لأحد، أغنياء بزروعهم ومواشيهم وبما يملكون من الخيل المعدة للقتال. يتقاتلون فيها بينهم على الدوام، ولهم أسواق حرة للتجارة يتبادلون فيها مبيعاتهم في أمان تام. ومن بين هذه الجبال المتصلة كلها بالأطلس الكبير جبل يدعى جبل كوكو نسبة إلى مدينة واقعة فيه، أما إسمه الخاص فهو أيوك لانداس، وهو جبال عال شديد الوعورة يبعد عن مدينة الجزائر بمسافة ثمانية عشر فرسخا، بين الشرق والجنوب، ويبعد عن بجاية بخمسة عشر فرسخا من جهة الشرق وبأربعة فراسخ عن جبل صاحب لا بث، ولا يفصل بينهما سوى واد بجاية. وبهذه المدينة أزيد من ست عشرة مائة من السكان. موقعها حصين يحيط به جبل وعر، ولها سور في الجهة التي فيها الجبل المذكور. وبها منابع ماء وأجنة تحتوي على مختلف الثمار، وتغل زيتا كثيرا. وفي السهول التي بأسفل الجبل يحصد قمح كثير، وفي الأرض التي بأعالي الجبال يأتي الشعير بوفرة، وفي هذه الجهات مختلف أنواع المواشي وكثير من أجباح النحل التي تعطي العسل. وأهل البلد أغنياء بكل ما ذكرنا، وهم بالاضافة إلى ذلك يصنعون أجود المنسوجات ببلاد البربر، وفي مختلف جهات الجبل دور عالية كبيرة يتعذر الوصول إليها بسبب وعورة الجبل، فالمسلك إليه وحيد غير متعدد، وقد يدفع عنه جيش كامل بمجرد رمية بالحجارة، وفي السفح الذي ينظر إلى الجنوب بلدة[23] يقدر سكانها بخمسمائة كانون، وهم عدة أحياء تقام عندهم سوق كبيرة كل يوم جمعة. وسكان هذه الاحياء فروع من نسب واحد، لكل بيت حيه ولكل حي رئيس مطاع، ومنذ وقت قريب سمى[24] أحدهم نفسه أميركوكو. وهو من بيت عريق من سلالة صاحب [25] الجزائر الذي قتله باربروس. ولذلك فهو يكن عداء للأتراك كما هو الشأن بالنسبة لغيره من سكان هذه الجبال الذين لم يكفوا عن قتالهم إلى أن تزوج باربروس من إحدى بنات هذا الامير كما سيذكر عند وصف جبل بني عباس. ثم إن صاحب كوكو يستطيع أن يتحرك إلى القتال بخمسة آلاف من المشاة حملة البنادق وألف وخمسمائة من الفرسان،دون، ذكر عدد آخر من المشاة يحملون مختلف الأسلحة المحلية، وكلهم من الشجعان المتمرسين بالحرب، وهم يلبسون ثيابا رثة إلا إذا خرجوا إلى الحرب فهم يلبسون ثيابا من الصوف والكتان ويتجهزون على قدر المستطاع. ويوجد من بين هؤلاء البربر عدد ممن يحسنون صناعة البارود حيث

23) جمعة الصهريج

24) ابن القاضي

25) سليم بن سومي

تتوفر جهاتهم على معادن ملح البارود. ويأتيهم التجار بالكبريت من فرنسا. كما تتوفر عندهم معادن الحديد، وفيهم صناع مهرة يجيدون صنع السيوف والخناجر والرماح، ولكنهم لا يتوفرون على الفولاذ حالهم في ذلك كحال غيرهم من سكان بلاد البربر، وإنما يستعيضون عنه بالحديد، يجعلونه على هيئة قضبان طوال يضعونها في قدور من طين أو غدران أو يسقونها بالغطس في الماء والرمال والاعشاب، ثم يعيدون إنضاجها فتكون لها صلابة الحديد، ومع ذلك فهو أقل جودة من الذي يجلب إليهم من أوربا، واليهود في هذا الجبل قلة، يعاملهم السكان معاملة سيئة ويكنون لهم العداء. وقد صار لصاحب كوكو نفوذ وقوة بعد أن عقد الصلح مع الأتراك، حتى إنه أعانهم في قتال صاحب جبل لابث سيما وأن جباله أعظم وأكثر سكانا وخصبا من جبال هذا الأخير. وقد اشتهرت مدينة كوكو في عهد هذا الأمير، وبها قصوره الكبرى. وفي هذا الجبل عدد من إناث القرود تعيش على ما تلتقطه في الغابة. وليست بهذه الجهة عمارة غير هذه تستحق الذكر.

الفصل الثامن والأربعون
إقليم بجاية من مملكة تلمسان

هذا آخر إقليم في موريطانيا القيصرية من جهة الشرق يحده من الغرب إقليم الجزائر حيث موقع مدينة تنس ومن الشرق إقليم إفريقيا جهة مدينة القل ويحده من الشمال البحر المتوسط وتحده من الجنوب نوميديا أو جيتوليا. جعل بعضهم هذا الاقليم معدودا في مملكة تونس، ولكنه عند حيرة الكتاب معدود في مملكة تلمسان وهي موريطانية القيصرية، وهم متبعون في هذا الرأي لبطليموس. والواقع أن هذا الاقليم كان تابعا مدة من الزمن لمملكة تونس عندما استطاع أحد[26] أمرائها فرض الاتاوة على تلمسان، وكان عند رجوعه قد ترك أحد [27] أبنائه أميرا على بجاية، وقد كان ترك ثلاثة [28] أبناء، تولى أكبرهم سنا إمارة تونس ودام عليها أربعين عاما. وترك لابنه الثاني إمارة الزاب في نوميديا أو جيتوليا، ولكنه انتفض ضد أخيه الاخير بعد وفاة أبيه وانتزع منه علة مدن، وساعده على ذلك أهل نوميديا

26) أبو فارس
27) عبد العزيز
28) عثمان وعمر وعبد العزيز

والعرب، ولكنه انهزم آخر الأمر فوقع في أسر أخيه، وخيره بين الموت أو العمى، فاختار العمى، ونفذه في نفسه بدخول صهريج به نحاس حار، وعاش طويلا على تلك الحال. وبعد ذلك أعطى الأمير عثمان لأخيه الثالث وهو عبد العزيز مملكة بجاية. وملكتها بعده سلالته إلى أن استولى عليها الدون بيدري بابار. وهذا هو السبب في تسمية هذا الاقليم بـ «مملكة» ولذلك ألحقت بمملكة تونس. ليس في هذه الجهات سوى جبال وعرة تنبع منها الجداول والانهار، وفيها عديد من مساكن زواوة والبربر الاشداء الممتلئين عزة ونبلا، وهم أغنياء بمختلف أنواع الماشية، وفيهم عدد من المحاربين حملة البنادق، ومن الفرسان. وجبالهم موحشة صعبة المساكن. لذلك فمعظم سكانها قبائل طليقة لا تقيم وزنا لسطوة الملوك. وتسكن السهول جماعات من العرب ومن زواوة، عيشهم على نمط واحد هو نمط النجعة، وإذا رحلوا سكنوا في الخيام. وهم متصفون بالشجاعة، بأيديهم كثير من أسلحة النار، وإن كان جلهم من صناع الأقمشة والفرشات والزرابي على الطراز المغربي الاندلسي. يعيشون على دقيق الشعير واللحم والتين والجوز، وهم يجففون ما يحتاجونه من هذه المأكولات لسنة كاملة. وفي أرضهم عدد من مكامن الحديد الذي يصنعون منه في بعض محلاتهم قطعا صغيرة يستعملونها نقودا يتعاملون بها، وإن كانوا يستعملون أيضا نقودا من الذهب والفضة. وفي أرضهم كميات من الكتان والقنب يصنعون منها ثيابهم. نساؤهم حسناوات يغار عليهن الرجال غيرة شديدة. أما لرجال فهم أقوياء الاجسام نشيطون ولكنهم غير متعودين على النظام، لا يكفون عن التقاتل فيما بينهم، وهم يغلون كميات وافرة من القمح التي تنبتها سهولهم. وسنعرض لذكر صفات أخرى من صفات بلادهم عندما نفرد الجبال بوصف خاص، أما الآن فلنقتصر على ذكر المدن.

الفصل التاسع والأربعون
مدينة بجاية، عاصمة هذا الاقليم

مدينة عظيمة كانت في عهد إزدهارها تحتوي أكثر من عشرين ألفا من الدور العامرة. بناها الرومان على سفح جبل كبير ينظر إلى البحر، على بعد ثلاثين ميلا شرقي الجزائر وعلى بعد اثنى عشر فرسخا من جيجل في الجهة الاخرى على عرض دنسى أودنيي. وقد جعلها بطليموس عند اثنتين وعشرين درجة طولا وعند

اثنتين وثلاثين درجة وثلاثين دقيقة عرضا. كانت محصنة بأسوار عالية عندما دخلها الخليفة الشيعي صاحب[29] القيروان وأخضعها ودمر بعضها. وقد عاد إليها العمران بعد ذلك دون أن تبلغ مقدار ازدهارها السابق. وهي مبنية على تلال تمتد فوقها إلى أن تبلغ أعلى الجبل حيث يوجد حصن حصين وقصور على النمط الموريسكي ليس لها من المنعة قدر مالها من الرونق والجمال. ويوجد في الجهة الموالية للبحر حصن آخر له ثلاثة بروج. ودور المدينة جيدة البناء. وبها عدد من المساجد وعدد من المدارس العتيقة تدرس بها العلوم. وتحيط بها البساتين ولا سيما من جهة الشرق، وتوجد على مسافة منها غابات متكاثفة الاشجار بها كثير من الاسود والقرود. ولا تأتي أرض هذه الجهات بقمح كثير، ومع ذلك فالسكان في سعة من عيشهم بفضل ما لهم من التجارة مع أوربا. كان عبد العزيز أمير بجاية لينا يلقي المودة إلى جميع الناس، ولذلك عاش أهلها في السلم المديد إلى أن دفعهم الطمع في الاثراء إلى تجهيز سفن حربية صغيرة للقيام بالقرصنة في سواحل البلاد المسيحية، فأدى ذلك إلى قيام الملك فيرديناند بالرد على ما يقومون به من الافساد، فأرسل الدون بيدري نافار فاستولى على مدينتهم وأخذها على نحو ما سنذكره.

خبر استيلاء الدون بيدري نابارو على بجاية

في عام ألف وخمسمائة وعشرة أبحر الكونت بيدري نابارو في اتجاه بجاية ومعه أربع عشرة سفينة كبيرة محملة بالجنود ولم يشعر به أحد ولا استعد له في مدينة بجاية. لذلك فوجيء أهلها بهجومه ففروا إلى الجبال، ولم يثبت سكانها، وعددهم ثمانية آلاف، للدفاع عنها. وكانوا يتصورون أن الدون بيدري لن يلبث أن ينسحب بعد نهب المدينة، إلا أنه لم يفعل، بل إنه قام ببناء حصن على الشاطىء في مكان به فرضة جيدة وجعل حامية بالحصن القديم الذي كان بشاطيء البحر. وقد جاء بيدري بخمسة عشر ألف مقاتل استعملهم في تحصين المدينة. وكان يفكر في استعمالهم في فتوح جديدة. وحدث أن اميرا مسلما من أهل البلد، وهو قريب من الأمير الذي خرج فارا من المدينة، قد جاء مسالما يريد مقابلة

29) القائم

الكونت، وصادف مجيئه يوم عيد الفصح، وقد سبق لهذا الأمير أن استولى على بجاية وتأمر عليها غصبا، وقصة ذلك أن الأمير القائم بالمدينة وهو من أقاربه تركه ذات مرة ينوب عنه وهو متغيب في جمع إتاوات بعض القرى المتمردة، فصار مؤيدا من سكان المدينة على حساب ذلك المتغيب، وعندما عاد تقبض عليه وأعماه على الطريقة التي وصفناها من قبل، وأودعه السجن وظل فيه إلى أن جاء الكونت النصراني. ولما فر جميع من في المدينة فك بعضهم قيد هذا السجين ففر في جملة أهلها، ولكنه عاد بعد أيام قليلة ومعه ثمانية أو عشرة من الفرسان ومثل ذلك العدد من الراجلين واستصحب معه صديقا له من أبناء الشيوخ عمره ثمان عشرة سنة. جاء هذا المستجير إلى المدينة حاملا لواء أبيض، ولقي من الكونت قبولا حسنا، ولما عرف قصته وأن عينه لم تسمل، وضعه بين أيدي الجراحين المختصين بالاسطول ففتحوا لحم جفنيه الملتصقين بفعل حرارة النار فاستعاد بصره، وعرفانا منه بهذا الجميل البين أخبر بمكان نسيبه الأمير الذي تخلى عن المدينة وخبر ذكر من فر معه من السكان ذاكرا أنهم يوجدون في مخابىء بين الجبال، ثم عرض على الكونت معونته ليكون دليلا للجيش اذا قر العزم على مباغتتهم. وبادر الكونت وهو في غاية الابتهاج، بارسال اثنين من رجاله ومعهما اثنان من المسلمين القادمين عليه قصد التعرف على المكان الذي يوجد فيه الفارون. وفعلوا ما أمروا، وأخبروا بأن مكانهم لا يبعد إلا بسبعة فراسخ والطريق إليهم مروج شاسعة بين الجبال وقفوا عليها وتيقنوا من إمكان السير فيها. وعلى إثر ذلك خرج الكونت ليلا بخمس عشرة مائة من الجنود، يصحبه الأمير المستجير ومن كان معه من الاتباع، وفي بداية الصباح وصل إلى تلك المروج دون أن يعترض طريقة أحد، وقد رأى العساكر الذين هم(30) في مقدمة الجيش أشجارا فحسبوها خيام العرب فأعطوا إشارة الانذار للمعسكر، لكن الكونت تبين خطأهم، فصرخ مبتهلا وجرى بكل قوة فرسه قاصدا مكان الخيام على بعد نصف فرسخ من ذلك المكان. وكان المسلمون قد رأوا الانذار وبدأوا في الفرار، وطاردهم المسيحيون داخل الجبال وتمكنوا من القبض على عدد منهم ومن قتل آخرين، وبعد أن جمع المسيحيون المواشي وغيرهما من الغنائم أشعلوا النار في تلك المخلة، وكان ما أخذوه تسعمائة من الجمال ومثلها من البقر وعددا من الخيل والبغال والغنم والمعز وقدرا كبيرا من الذهب والفضة ولباس الحرير ومجموع جهاز الملك وأحجاره الكريمة، وعاد الكونت بتلك الغنائم في

30) الكولونيل ديگو دي بيرا وسامانييگو

هيئة مرتبة حيث لم يلحق به ضرر من المسلمين مع أنهم لم يكفوا عن مناوشته من كل الجهات، بل إنه تمكن من قتل عدد منهم، ولم يفقد سوى جندي واحد وقع له أن خرج من صفه. ولما اقترب من المدينة وجد في استقباله القس الجديد مع جميع أعضاء هيئته ينشدون صلاة : أنت الرب. وأقيمت المسرات، ولم يحل دون ذلك ما نال الجنود من التعب لأنهم تجشموا مشقة اجتياز نهرين عميقين كانت مياه أحدهما (31) تبلغ ارتفاعا عظيما بسبب ذوبان الثلوج في ذلك الابان، كما أنهم ذاقوا الامرين من كثرة اشواك العوسج وغيرها في جنبات السهل الذي كانت به محلة المسلمين. وقد أقر من أسروا من المسلمين بأنهم كانوا يظنون أن تلك العوائق كافية لصد المسيحيين حتى لا يصلوا إليهم. ومنذ تلك الواقعة لم يفتأ المسلمون يناوشون النصارى حيث يصلون إلى بجاية وينصبون الكمائن، فسقط فيها قتلى وجرحى من الطرفين دون أن يحدث شيء يستحق الذكر. وفي تلك الاثناء ظهر الطاعون في المدينة واشتد وباله حتى كان يموت في بعض الايام مائة رجل. فما كان من الكونت الا أن أسرع بمغادرة المدينة قاصدا غزو طرابلس، وكان ذلك مطمحه الاكبر، وكان باربروس قد غزاها بعد الاستيلاء على بجاية وحاصرها بألف من الفرسان الاتراك وعشرين ألفا من أهل الجبال، وبعد اقتحام أحد الحصنين هاجم الحصن الآخر، وفي ذلك الهجوم أصابته ضربة مدفع بترت دراعه، واضطر إلى الانسحاب بعد أن هلك من جنوده مائة من صناديد الاتراك وأزيد من ألف من أهل البلد المسلمين. ومن ثمة توجه إلى جيجل، ثم سار إلى غزو مدينة الجزائر فاستولى عليها وقتل صاحبها سليما التركي.

كيف استولى الأتراك على بجاية

بقيت بجاية تحت حكم ملوك قشتالة مدة خمس وثلاثين سنة وكانت لهم بها حامية من خمسمائة جندي في ثلاث قلاع ينطلقون منها للقيام بغارات في الجهات المجاورة، ثم يعودون بأسرى يسترقونهم وبقطعان من الماشية، إلا أن هذه الغارات لم تكن ممكنة إلا في حالات نادرة لأن للقبائل التي تسكن تلك الجهات دربة على القتال لا يكف رجالها عن الطواف بتلك الجهات مسلحين بالبنادق. ولما كان عام ألف وخمسمائة وخمسة وخمسين جاء صالح رايس الذي كان حاكما على مدينة الجزائر يحاصر بجاية من جهة البر بأربعين ألفا من المقاتلين كان من

31) الواد الكبير

بينهم عشرة آلاف من الفرسان المسلحين بالبنادق والقذافات، ومن جهة البحر باثنتين وعشرين من السفن الحربية الصغيرة والقاليرات. وبعد أن اقتحم الحصن الامبراطوري الذي غادره الاسبانيون لتعذر الدفاع عنه، حاصر حصن البحر ولم يكن بداخله سوى أربعين من الجنود، وبعد أن رماه بالضربات المتوالية مدة خمسة أيام تمكن من أخذه عنوة. وبعد ذلك قام بحصار الحصن الاعظم وقد لاذبه اللدون ألفونس دي بيرالتي مع من بقي من الجنود، وبعد ضربه مدة اثنين وعشرين يوما تعذر الصمود على من بداخله فصالح عليه الحاكم المسيحي أملا في إنقاذ حياة النساء والاطفال واستسلم بعد أن اخذ العهد باخلاء سبيله هو وجميع من كانوا معه بداخل الحصن، وبتمكينه من سفن يجوز بها إلى اسبانيا. ولكن التركي لم يوف بوعده، بل إنه استرق جميع من كانوا بالحصن ما عدا اللدون الفونس وعشرين من الاشخاص وقع عليهم اختياره. ولما عاد اللدون الفونس إلى إسبانيا سجنه الامبراطور شارلكانت هو والذين نصحوه بالاستسلام، وقد صدر عليه الحكم وقطع رأسه أمام الملأ في ساحة مدينة بلد الوليد. ومنذ ذلك العهد ومدينة بجاية تحت حكم الاتراك، وقد جددوا تحصينها وجعلوا بها حاكما وحامية كافية. في شرقي هذه المدينة يمر(32) نهر صغير يرتفع مستوى مياهه بشكل غير عادي إبان ذوبان الثلوج، وموقعه عند اثنتين وعشرين درجة طولا واثنتين وثلاثين درجة وثلاثين دقيقة عرضا واسمه نزاوا عند بطليموس ونابار عند بلين. وفيه كثير من الاسماك، وقلما يبالي بها الصيادون لكثرة الاسماك على الساحل. لما كانت المدينة تحت حكم المسيحيين لم تكن السفن تدخل إلى هذا الوادي بسبب الرمال المعترضة عند مدخله. ومنذ أن أخذها صالح رايس سقطت الامطار بمقادير كبيرة حتى إنها حملت تلك الرمال إلى البحر وصارت تدخل الوادي سفن كبيرة وقاليرات وقوادس وتتمكن بذلك من اتقاء العواصف الهوجاء ولا تنالها بداخل الوادي غير رياح الشمال، وهذا النهر يمر بين جبال كوكو في الشمال وجبال بني عباس من الجنوب.

الفصل الخمسون

مدينة جيجل

تقع على بعد اثني عشر فرسخا من بجاية. بناها الأفارقة الأقدمون على ساحل البحر المتوسط على مرتفع عند مدخل خليج نوميديا. كانت تسمى جلجيل ويسميها بعضهم جيجل، ويسميها آخرون جيرجي، ويجعلون موقعها عند

32) الواد الكبير أو سينكان

أربع وعشرين درجة من خطوط الطول وعندَ إحدى وثلاثين درجة وأربعين دقيقة من خطوط العرض. ولها موقع ممتاز بيد أن كل تحصينها أسوار قديمة. أهلها طيبون. غالبيتهم من الصناع الذين يسكنون دورا رديئة البناء. والجهات المحيطة بمدينة جيجل شديدة الجفاف الا ما يسقى بالجداول. ويأتي بها الشعير والكتان والقنب، وما عدا ذلك فأرض خصيبة. وعلى جنبات السواقي وعيون المياه أجنة بها أشجار التين والجوز تجفف ثمارها وتحمل قصد البيع من أماكن على امتداد الساحل إلى غاية مدينة تنس. وبها ما يزيد عن ستمائة من السكان. لم يخضعوا لملوك تونس وبجاية،وهم الآن يقدمون خدمات جليلة لباربروس، ولذلك فإن أتراك الجزائر يعاملونهم بالحسنى. وفي هذا الخليج نهر يدعى سوس يمارق، مصبه في البحر شرقي جيجل ومنبعه من جبال متصلة بالأطلس الكبير، ومنها يتحدر الى سهول جافة وخصبة، ثم يمر بجهات قسنطينة وقريبا منها يصب فيه رافده نهر بومرزوك، ثم يجري متجها الى الشمال مخترقا بعض الجبال قبل أن يصب في البحر بين مدينة جيجل ومدينة القل، وهو الحد بين موريطانية القيصرية وبين افريقيا الصغرى. وإسم هذا النهر عند بطليموس أمساو ويجعل موقعه عند ست وعشرين درجة في خطوط الطول وعند إحدى وثلاثين درجة وخمس وأربعين دقيقة على خطوط العرض.

الفصل الواحد والخمسون

مسيلة

مدينة عتيقة في طرف نوميديا. تحيط بها أسوار جيدة عتيقة من بناء الرومان. كانت هذه المدينة في قديم عهدها غنية زاهرة، ولكن العرب خربوها عند بداية عهدهم وعمرها بعد ذلك سكان فقراء، لا يتخلصون من ذل أعراب تلك الجهات وعسفهم، يغصبون زروعهم ومواشيهم ويتركونهم على حال من البؤس الشديد. وهي اليوم تحت حكم الأتراك، بنى بها صالح رايس قلعة بها حامية مكونة من بعض الفرسان يحرسونها. وتحيط بها جبال بني عباس وتبعد عن مجانة بعشرة فراسخ. وقد سلمها حسان باشا الى صاحب بني عباس وسلم له معها ثلاثة مدافع كان صالح رايس قد تركها عندما جاء من يوم توكور. ومنذئذ أمر حسان بنقل هذه المدافع الى حصن مدينة القلعة حيث ما يزالون الى الآن، وبين هاتين المدينتين خمسة عشر فرسخا. فالقلعة تقع بين الجنوب والشرق وكانت تسمى في الماضي : ميري، وقد جعلها بطليموس عند ست وعشرين درجة وخمسين دقيقة طولا وإحدى وثلاثين درجة وعشرين دقيقة عرضا.

الفصل الثاني والخمسون

مجانة

مدينة عتيقة على أربعة فراسخ من جبل بني عباس جهة الجنوب. يظهر أن بناءها كان على يد الرومان، فهي محاطة بأسوار قديمة وبها عدد من السقايات. ويحيط بها بسيط يكثر به القمح ولكنه معرض لغارات عرب أشداء يعرفون بأولاد سليمان يعيثون فيها فسادا ويضايقون أهلها مضايقة شديدة. عندما دخل أتباع محمد الى افريقيا خربوا هذه المدينة لأنها قاومتهم بمن كان فيها من جنود الحامية الرومانية. وقد ساد عليها من حكم المسلمين في تلك الجهات. أما الذين عادوا لتعميرها فقد دخلوا تبعية هؤلاء الأسياد يؤدون الجزية لحكام تلك الجبال. ومنذ استيلاء الأتراك على مملكة تلمسان ومدينة مجانة تقاسي الأمرين سواء من غارات الأتراك وغارات العرب أو من عسف أهل جبل بني عباس. وفي الأخير، وبعد انهزام الاسبانيين في مزغران، أمر حسان باشا(33) بأن يستخدم السجناء في حصن ترك به عددا من الجنود لحراسة هذه المدينة وسكانها وحمايتهم من غارات صاحب جبل بني عباس الذي كان حينذاك على جانب من العتو والقوة. ومع ذلك فقد جاء هذا الأمير فهاجم المدينة ودورها ورجع بستة مدافع كان الترك قد غنموها من الإسبان. ويجعل بطليوس موقع هذه المدينة عند سبع عشرة درجة وثلاثين دقية طولا وعند ثلاثين درجة وأربعين دقيقة عرضا، واسمها عنده لار.

الفصل الثالث والخمسون

تستاسة

مدينة عتيقة بناها الرومان في سهل خصيب بين جبل بني عباس وبجاية، وتبعد عن بجاية بعشرين فرسخا من جهة الجنوب وتحيط بها أسوار عالية من الحجر، وكانت في القديم على درجة كبيرة من الغنى والعمران بفضل التجارة، ولكنها انحطت كثيرا منذ استولى عليها أتباع محمد، فقد اعملوا فيها يد النهب

33) في عام 1559

والتدمير وسادوا على جهاتها الى حد الآن. وسكان هذه المدينة اليوم على حال مزرية من الفقر يعاملهم الأتراك بعنف وقساوة. وتستاسة واقعة على الطريق من مدينة فاس الى مدينة تونس. وتشهد بقايا جدرانها على ما عرفته من مجد سالف.

الفصل الرابع والخمسون

زمـورة

مدينة شهيرة بمجدها القديم، بناها الرمان قريبا من مجانة. عدد سكانها ألفان، متفرقون الى أحياء مختلفة. وتوجد على مقربة منها ساقية عظيمة تجري من جهة المشرق. وفي جهة الجنوب يوجد حصن بناه منذ عهد قريب حاكم(34) الجزائر، وهذه المدينة أكثر بلاد البربر حنطة وماشية، تقام بها سوق أسبوعية يوم الاثنين يقصدها العرب والبربر من سكان تلك الجهات لتصريف بضائعهم، وموقع هذه المدينة عند بطليموس سبع عشرة درجة في خطوط الطول وسبع وعشرون درجة وخمسون دقيقة من خطوط العرض. ويسميها أزما.

الفصل الخامس والخمسون

نـقـاوس

مدينة عتيقة جدا تحيط بها أسوار عالية من الحجر، بناها الرومان على بعد عشرين فرسخا من تستاسة من جهة الجنوب، يمر على مقربة منها نهر تغطي جوانبه أجنة وبساتين كثيرة أشجار الثمار، منها أشجار الجوز والتين المعتبرة ثمارها بأحجامها وجمال منظرها. وثمار هذه الجهات أحسن ما في افريقيا، تجفف وتحمل قصد البيع الى قسنطينة التي تبعد عن هذه الجهة بما يزيد عن خمسين فرسخا بين جهة المشرق وجهة الشمال. ويحيط بالمدينة بسيط تجود فيه الحنطة، مما جعل أهل تلك الجهات أغنياء مياسير، يتوادون بحسب عوائدهم. وفي داخل المدينة مسجد متقن البناء يعمره عدد كبير من الفقهاء، وبجواره مدينة يتم فيها تعليم الشبان مختلف العلوم وديانة محمد، ومن بين طلبتها عدد ممن تجري عليهم منح من واردات المدرسة. ونساء هذه المدينة يتميزن بشدة بياض بشرتهن وسواد شعرهن. ورجالها معروفون بحسن المعشر ومجاملة الغرباء. وفي المدينة عدد من الحمامات والدور فيها رائقة، وإن كان عدد منها لا يتوفر على سقف إضافي، وتتزين دور كثيرة بسقايات

34) حسان باشا

وحدائق بها ياسمين وورد وقرنفل وآس ورند وغير ذلك من الأزهار، كما تنبت بها كروم معترشات وأشجار البرتقال والليمون وغيرها من أشجار هذا الصنف، وهذا يجعل منها واحدة من أجمل مدن بلاد البربر لولا أن الترك الذين يعتبرون طغاة مستبدين أكثر مما هم سادة مالكون قد أثقلوا كاهل سكانها بالضرائب وأخضعوهم لمعاملة الظلم والعدوان. وليس بهذه الجهة مدن أخرى تستحق أن نذكرها. فمدينة نقاوس آخر مدن المملكة من جهة المشرق. وقد كانت تسمى في القديم واجا، وقد جعل بطليموس موقعها عند ثماني عشرة درجة طولا واحدى وثلاثين درجة عرضا بزيادة أربعين دقيقة.

الفصل السادس والخمسون

جبل بني جبير

تمتد جبال اقليم بجاية على الساحل مسافة خمسين فرسخا ولا يزيد عرضها عن عشرة فراسخ أو اثنى عشر فرسخا في بعض الأحيان، وكلها متصلة بالأطلس الصغير. معمورة بقوم ميالين الى الحرب متمرسين بالقتال، وأعظم جبل في هذه السلسلة معروف بجبل بني جبير، ويبعد عن بجاية بثمانية فراسخ، عرضه عشرة فراسخ وطوله يزيد عن هذا القدر. وهو جبل عال وعر تنبع منه عدة أنهار تنبت في جنباتها أشجار الجوز والتين. وفي أعالي الجبال يأتي كثير من الشعير وترعى أعداد من قطعان الماشية. ويمر نهر بجاية من سفح هذا الجبل، وسكانه زواوة من الذين ينقشون وشم الصلبان في أيديهم، وهم قوم متميزون بالإقدام، ولكن تبلغ بهم الشراسة الى حد التقاتل لأتفه الأسباب. وجبالهم الوعرة مانعة لمن يريدهم بعسف أو ضرر، فلا تجدهم يدينون بالطاعة لغير رئيس يتفقون على تقديمه. وفي هؤلاء البربر كثير من الفرسان الذين يتقنون القتال ببنادق البارود، وهم لا يعلفون الا عددا قليلا من الخيل لأن أرضهم محجرة قليلة الخصب، وما عندهم منها أجود الخيل. وخصامهم كثير مع قبائل بني عباس وغيرهم من زواوة المنتجعين كالأعراب. ولهم قتال مع الأتراك، وتجدهم يستجيبون لذلك كله بما لهم من كتائب الحرب المدججة بالسلاح، معتزين بما في طريق جبلهم من صعوبة مانعة لمن يريدهم بسوء. حاولت حامية بجاية يوم كانت هذه المدينة بأيدي المسيحيين

أن تطرق ديارهم، ولنكها لم تكن تتعدى الساحل والبسيط المجاور حيث توجد بعض القرى المتيسر نهبها. وكانت الحامية تشن غاراتها بسرعة خاطفة وتعود قبل أن يبلغ الخبر الى أهل الجبال، وكان هؤلاء قادرين على تعبئة خمسة آلاف من المقاتلين في مدة لا تزيد عن أربع ساعات. وقد اضطر المسيحيون في بعض الأحيان الى التعجيل بالانسحاب لأن أهل الجبل أدركوهم بأسرع مما كانوا يحسبون. وخلال تلك الجبال توجد قرى كثيرة ينسب هذا الموطن الى أهلها.

الفصل السابع والخمسون

جبل بني عباس

جبل عال وعر شديد الانحدار متصل بالأطلس الكبير يقع على بعد خمسة عشر فرسخا من بجاية من جهة الغرب والجنوب، ويبعد عن مدينة كوكو بأربعة فراسخ. ينتج قليلا من الحنطة ولا زيت به على الاطلاق، وأشجار الثمار قليلة لا توجد الا على السفح الذي ينظر الى نهر بجاية، وبه كثير من نبات الأسل ومنه الاسم الذي يعرف به هذا النهر. وفي المكان المنيع منه توجد قلعة يسكن بها رئيس هؤلاء القوم. وهم ينتسبون الى زواوة الشرسين، وهم بربر اعتادوا العيش الطليق، لم يؤدوا منذ زمن بعيد ضريبة لسلطان أو أمير. وكان رئيسهم عام ألف وخمسمائة وخمسين هو عبد العزيز من بني عباس، وكان من أعظم المقاتلين الشجعان في افريقيا. وكان بينه وبين صاحب[35] كوكو عداء بسبب نفرة استحكمت بين القبيلتين منذ عهد قديم. وقد عرف عبد العزيز أن الأتراك لا يحبون أهل كوكو منذ مات سليم في قتالهم ولذلك تقرب منهم وعقد المودة مع حسان باشا[36] حاكم الجزائر حتى إن الأتراك تمكنوا بمساعدة بني عباس من تحقيق أمور عظيمة ولاسيما في تلك المعركة التي توفي فيها مولاي عبد القادر ابن الشريف عندما استولى على تلمسان. فقد سار عبد العزيز وجنوده في جيش الأتراك الذي كان يقوده القرصان حسان، وكان محجما عن مناجزة الأشراف، واستنكف عبد العزيز من تردده فخاطبه غاضبا : أيها السيد حسان! أبهذا تشكر الأمير على ما يعطيه اليك من أجر جزيل لكونك قد ابتعدت عن الجزائر حيث اعتدت أن تختال في كسوة من

35) ابن القاضي

36) ابن خير الدين باربروس.

الذيباج المحلى بالذهب ؟ ولما تبين له أن ذلك العتاب لا يؤثر فيه بتاتا حرض رجاله وهاجم الشريف وهزمه وقتل ولد الشريف بيده وحز رأسه وعاد به الى الجزائر حيث دفن تحت قبة عند باب[37] من أبواب المدينة : وبذلك تمكن الأتراك من امتلاك تلمسان الى يومنا هذا. ومع ذلك فقد نشأت عن هذا النصر حزازات بين حسان باشا وبين عبد العزيز. وبينما الأمر كذلك ذهب حسان باشا الى تركيا وجاء صالح رايس في مكانه وعرف ما لعبد العزيز من قيمة فوثق التحالف معه، وقد اشتركا معا في حرب توقرت ووارگلا وهما من مدن نوميديا الثائرة. فقد كان في معسكر صلاح رايس ثلاثة آلاف من الجنود المشاة المجهزين بالبنادق ما بين تركي ومسيحي مرتد، وألف من الفرسان وثمانية آلاف من العرب. وكان بنو عباس مائة وثمانين من المشاة الحاملين للبنادق وست عشرة مائة من الفرسان. وقد استصحبوا معهم ثلاثة من المدافع وكثيرا من المؤمن والذخائر المحمولة على الجمال. وعندما وصلوا الى توقرت وتيقنوا من امتناع أهلها عن الاستسلام ضربوها بالمدافع واقتحموها عنوة واستباحوها للنهب وقتلوا جميع من كان فيها. أما وارگلا فقد استسلمت. وعادالأتراك الى الجزائر محملين بالغنائم بعد ان تركوا حاميات في حصون هاتين المدينتين العتيقتين اللتين لا تستطيعان الدفاع بوسائلهما الخاصة. وقد رجع صالح رايس بخمسة عشر جملا محملا بالتبر وبأكثر من خمسة آلاف من العبيد السود ذكورا واناثا. أما سكان وارگلا فعددهم مقدر بستة آلاف. وقد دخلت هاتان المدينتان تحت حماية للأتراك دفعا لضرر الأعراب، وكانتا تدفعان للأتراك إتاوة سنوية برسم الولاء، ولكنهما انتفضتا بسبب المعاملة القاسية ظنا من السكان أن الأتراك لا يستطيعون التوغل في داخل البلاد بقصد غزوهم، والحق أنهم ما كانوا يجرؤون على القيام بتلك الحملة لولا معونة قبائل بني عباس. وقد جوزي هؤوء على خدماتهم بما يجازى به من يقدمون خدمات للحكام الطغاة. فقد عاد القرصان حسان الى مدينة الجزائر وكان معه بها في غياب صالح رايس بعض العرب من أتباع الترك، وقد كتب حسان باشا الى صلاح رايس يخبو بأن صاحب جبل بني عباس يضمر العصيان وإثارة البلاد وأنه تلقى الخبر بذلك من العرب الموالين للأتراك. وكان سيد بني عباس ذات يوم مع صالح رايس في محلته، وهنالك أسر اليه بعضهم أن التدبير جار للقبض عليه، فما كان الا ان فر على متن فرس متجها الى جبالة، وبدأ هنالك في اقامة الحواجز والتحصينات، ثم أعلن الحرب على

37) يدعى باب عزوز

الأتراك. وعندما علم بذلك صالح رايس أخذ في الاستعداد والاحتياط مخافة أن يؤودي انتفاض هؤلاء الافارقة المشهورين بقدراتهم القتالية الى ثورة عارمة في جميع اللاد. وفي بداية فصل الشتاء تحرك الى مكان يقع في سفح جبل بوني، وجرت بين الفريقين معارك مات فيها سيدي فضال أخو عبد العزيز، ولكن سقوط ثلوج كثيرة منع الأتراك من نصر أعظم من ذلك الذي تأتى لهم. وبعد انسحابهم فكر صاحب جبل بني عباس في تحصين الطرق وفي إعادة يناء قلعة بني عباس، وكان ينطلق منها باستمرار للاغارة على الموالين للأتراك. وعظمت بذلك شهرته، فخطبت وده بعض القبائل المجاورة لما أنست منه من قدرة على مقاومة الأتراك، فأرسل عليه صالح رايس جيشا قوامه ألف من المقاتلين بالبنادق من الأتراك وخمسمائة من الفرسان ومعهم ستة آلاف من فرسان العرب، وكان على رأس هذا الجيش ابنه محمد باي. وكان قصده مهاجمة قلعة بني عباس، ولذلك عسكر في بوني التي تبعد عنها بما يزيد قليلا عن فرسخ واحد. وأراد صاحب الجبل استدراجه حتى يتمكن من احتوائه، وعلم التركي بذلك الأمر المبيت فانسحب ليلا الى السهل، فخرج اليه صاحب الجبل والتحم الجيشان في قتال مات فيه عدد من جنود الطرفين. ولولا نجدة العرب لحاقت بالأتراك هزيمة منكرة، ولانسحبوا بعد ضياع سمعتهم وعدد من رجالهم. وبينما كانت تجري تلك الحوادث وصل الى الجزائر مولاي أبو حسون صاحب حجرة بادس وطلب من صالح رايس أن يعيده الى عرش فاس مقابل أداء أجر العساكر. فاستجيب لطلبه، وخرج معه من الجزائر أربعة آلاف من مشاة الأتراك. وترك جيشا آخر يستعد لمقاتلة صاحب جبل بني عباس قوامه أربعمائة من المشاة ومائة وخمسون من الفرسان وألفان وخمسمائة من العرب يقودهم سنان رايس وهو قرصان نصراني أسلم، من أصل كورسيكي ومعه قبطان من أصل إغريقي يدعي رابدون. وكان الأتراك قد علموا أن أقواما في تلك الجهات يؤدون ضرائب لصاحب جبل بني عباس، فخرجوا اليهم عن طريق مسيلة بقصد دفع الغارة عن هذه الامارة. وقام الافريقي من جهته بجمع عساكره، ولقي الأتراك عند ضفة أحد الأنهار(38) فهزمهم، ولم يعط أمانا لأحد، بل قتل الجميع ولم ينج سوى رئيسين فرا بأقصى ما يمكن من السرعة حتى وصلا الى مسيلة. أما العرب فقد أمسك الافريقي عن قتلهم بل اكتفى بتجريدهم من متاعهم. وفي تلك الاثناء رجع صالح رايس الى الجزائر بعد أن أرجع أبا حسون الى العرش، فبادر

38) حمان أو همان

الى تجهيز الحملة على بجاية. ولما رأى صاحب جبل بني عباس النصر الذي أحرزه التركي تخوف من قوته فجمع ما استطاع من الرجال وتحصن في جباله توقعا لطلب الأتراك، وحدث أن مات صالح رايس في تلك الاثناء، وتبددت مخاوف صاحب الجبل بعد أن تولى حسان باشا خلفا له وكانت بين الرجلين صداقة قديمة، لذلك بادر صاحب الجبل بأن بعث اليه هدايا ثمينة سعيا الى تجديد الصداقة التي كانت بينهما. ولكنه لم يجرؤ على القدوم الى الجزائر. ودام الوفاق بين الرجلين عاما كاملا رد فيه التركي جميل صاحب الجبل وأعطاه جباية مسيلة وثلاثة من المدافع كان صالح رايس قد خلفها في تلك المدينة. وما أن تملكها الجبلي حتى بادر الى جمع أكثر من ستة آلاف من عرب القبائل المجاورة يريد بهم استخلاص الجبايات من أماكن تابعة للأتراك، وغضب التركي لذلك الفعل وخرج لحرب الجبلي في ثلاثة آلاف من الأتراك ليس فيهم من الفرسان الا خمسمائة، وكان يتبعه عدد من العرب. وعسكر بمجانة(39) لبناء حصن بها لأن سكانها امتنعوا عن أداء الضريبة ما لم يترك فيهم حامية تدافع عنهم ضد صاحب قلعة بني عباس، وبنى لهم حصنا بالحجر والطوب، وقد تعجل الفراغ منه وترك به حامية من الأتراك قوامها مائتا رجل، ثم مضى الى بناء حصن أخر بزمور ومنه عاد الى الجزائر بعد أن فقد ثلاثمائة من الاتراك قتلهم سيد بني عباس في عدد من المناوشات. وترك مع العرب القرصان حسان وهو أخو الذي كان قتله غدرا الشريف محمد، وأمد بأربعمائة من الأتراك لحماية أراضي قبائل العرب. وما أن انصرف القائد التركي حتى نزل صاحب القلعة من الجبل وأباد في لقاء واحد أولئك الجنود الأتراك الأربعمائة بمن فيهم القائد الذي كان يتقدمهم، ودخل الباشا الى الجزائر مخبرا بهلاك رجاله. وفي نفس الوقت قام رجال الحامية الذين تركهم بمدينة مجانة بالتخلي عن التركي بعد أن بلغهم خبر تلك الهزيمة وانصرفوا الى مكان ما، وجاءها صاحب قلعة بني عباس وهدمها هدما وأخذ منها مدافع كان حسان باشا قد تركها هنالك في يوم هزيمة الكونت دا الكاوديت، واستمرت الحرب بين صاحب الجبل وبين الأتراك حتى توصلا الى هدنة بينهما، وخطب التركي ابنة صاحب الجبل يريد أن يصهر اليه بها وكانت ذات جمال فائق، ولم يوافق والدها على الزواج، وإثر ذلك تزوج التركي ابنة

*) أولاد مهدي وأولاد سليمان وأولاد سعدي

39) بمسيلة

40) ابن القاضي

صاحب كوكو(40) وهو العدو الألد لصاحب قلعة الجبل. وجمع هذان المتحالفان قواتهما وسارا بمحاذاة نهر بجاية في الاتجاه المعاكس لجريانه وأخذا يفسدان أراضي صاحب الجبل، وما لبث أن نزل اليهما وعسكر برجاله عند بداية السهل ومعه أربعة آلاف من المشاة المقاتلين بالقنابل وخمسة آلاف من الفرسان، وحل بموقع(41) من أرضه وأمر ببناء حصن وحفر خندق يقطع الطريق. وكان الباشا في جيش قوامه ثلاثة آلاف من مشاة الأتراك الحاملين للبنادق وخمسمائة من الفرسان ومعهم ثلاثة آلاف من الفرسان العرب، ووصلوا الى الحصن الذي بناه الجبلي ومعهم مدفعان، وبعد إحداث ثلمة في السور تصدر صاحب كوكو في حركة مقدامة وبيده اليسرى أعلام منشورة، فلما رأه الذين هم بداخل الحصن خشوا فل صفوفهم وانحاشوا لمحلة مجاورة يريدون الاعتصام بها، فما أمهلهم الأتراك لتحقيق مرادهم، بل ضيقوا عليهم الى أن أبعدوهم عن معسكرهم، ولما رأى صاحب الجبل ارتباك رجاله أمرهم أن يلتحقوا بالجبل حتى يستجمعوا قواتهم ويجمعوا صفوفهم، وآوى مع بعض رجاله الى أكمة صغيرة لاعتراض طريق أعدائه. وقاتل بنفسه قتالا شجاعا. وكان صاحب كوكو آنئذ بداخل الحصن، وظهر للباشا أن الأتراك قد توغلوا أكثر مما ينبغي لهم في داخل الجبل، وبعث من يحمل اليهم الأمر بالانطواء والرجوع لأن الكتائب الأخرى قد دخلت الى معسكرها ولا تستطيع إنجادهم ان اقتضى الحال. وما ان أناخوا بقصد الانسحاب حتى هجم زعيم بني عباس على مؤخرتهم وضيق عليهم حتى اضطر معظمهم الى التخلص من الأسلحة للهروب خفافا بأقصى ما يمكن من السرعة، وبعد أن قتل منهم ستين نفرا استطاع الرجوع الى حصنه ومحلته. وعندما أسدل الليل ستاره كان كل فريق قد انسحب الى جهته. وبعد ذلك توجه الباشا برجاله الى مكان من الجبل(42) به مدفن أولئك الشيوخ، وقاتل هنالك صاحب الجبل من الصباح الى وقت الزوال، واستطاع زعيم بني عباس أن ينتزع منهم أعلى الجبل، وقد ثبت الجبلي في القتال ولم يبق معه سوى كتيبتين وقليل من الفرسان، وصمد للأتراك وقدر على دفعهم غير ما مرة، وتقدم في النهاية يريد أن يثخن بحربته في صفوفهم فأصابوه وفرسه إصابات قاتلة ثم هجموا على رجاله قصد منعهم من أخذ جثمانه لكن الأتراك تمكنوا منه وحزوا

41) تسلي
42) ثلاثاء كوكو

رأسه. كان هذا الافريقي الشجاع متقلدا قوسين مصنوعين من المعدن أحدهما فوق الآخر وحربة ودرعا ومدية، وكان يتمتع بكامل صحته، طافح الحيوية، قوي الجسم. وبعد مقتله تابع الأتراك تحقيق انتصارهم وصعدوا الجبل الى أن أرسل اليهم زواوة يعرضون عليهم أن يمكنوهم من مفاتيح قلعتهم بشروط، سعيا الى إيقافهم عن ذلك الزحف، وفي أثناء ذلك اتفق الجبليون على تقديم أخي الهالك زعيما(43) لهم، واستأنفوا القتال. ولما رأى الأتراك أنهم لم يحققوا شيئا بعد ثمانية أيام من المكوث في ذلك الجبل وأن قوتهم لا تجدي في درء الخطر عنهم حيث كانوا يفقدون كل يوم عددا من الجنود، أخذوا طريقهم في اتجاه الجزائر، وعادوا حاملين معهم رأس عدوهم المقتول. أما الشخص الذي تولى زعامة قبائل الجبل خلفا للهالك فهو الآن يجوب هذه الجهات طولا وعرضا يجبر الأعراب على الاذعان لسلطته ويجمع الاتاوات من قبائل هذا الجزء من الصحراء ولا بعبأ بالأتراك ولا بصاحب كوكو، بل إنه في حرب لا تنقطع مع هذا الأخير.

الفصل الأخير من هذا الكتاب

أوراس

جبل عال وعر على مسافة ثلاثين فرسخا من بجاية وعلى مسافة خمسة وعشرين فرسخا من قسنطينة في عمق البلاد. طوله ثلاثون فرسخا وهو غير متصل بالجبال الأخرى بالرغم من كونه جزءا من الأطلس الكبير. في جنوبه صحراء نوميديا وفي شماله إمارات مختلفة. سكانه متوحشون، لا يسعدهم غير قطع الطرق وقتل المارة. وفي أعلاه تجري مياه بعض الجداول وتنتهي الى سبخات تجففها الشمس ويترسب فيها الملح. والقوم الذين يسكنون هذا الجبل غيورون على حريتهم، لذلك تجدهم لا يطيقون أن يروا الأجانب في أرضهم حتى لا يعرف أحد ممراتهم وطرقهم، فهم لا يرضون بالخضوع لأحد، وهذا هو السبب في حروبهم المستمرة مع العرب الذين يسكنون الجهات المجاورة لهم. أما في هذا العهد، فقد عقدوا حلفا مع قبائل عربية يترأسها إسباني مرتد كان صاحب اللواء يوم ضاعت بجاية من المسيحيين. فقد انتزع إعجابهم بما أظهره من إستبسال في الدفاع ضد عدوهم، حتى كسب محبتهم وصاروا يعاملونه بمثابة أمير لهم. وقوام مقاتليهم ألفان من الفرسان وما يزيد عن ثلاثين ألفا من المشاة.

43) مقران

فهرس الموضوعات

الكتاب الثالث

مملكة مراكش

صفحة

الكتاب الرابع

مملكة فاس

الكتاب الخامس

مملكة تلمسان



تمّ الطبع بمطابع المعارف الجديدة،

ثمن البيع 60،00 درهم

مطبعة المعارف الجديدة
☎ 38 15 09 08 70-707 الرباط

الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر

إفريقيا

لمارمول كربخال

الجزء الثالث



ترجمه عن الفرنسية

محمد حجي محمد زنيبر محمد الأخضر

أحمد التوفيق أحمد بنجلون



الرباط

L'AFRIQVE DE MARMOL, DE LA TRADVCTION de NICOLA[illegible] PERRO[illegible] [illegible] D'A[illegible]COVRT. DIVISÉE E[illegible] TR[illegible] VOL[illegible]MES, Et enrichie des Ca[illegible] [illegible] M. Sanson, Geographe ordinaire du Roy. Avec l'Histoire des Chérifs, traduite de l'Espagnol de DIEGO TORRES, par le Duc d'Angoulesme le Pere. Reveuë & [illegible] R. A.

A PARIS, Chez LOVIS BILLAINE, en la grand' Salle du Palais, à la P[illegible] & au Grand Cesar. M. DC. [illegible]XVII. AVEC PRIVILEGE DV ROY.



الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر



الجزء الثالث

ترجمة عن الفرنسية

محمد حجي محمد زنيبر محمد الأخضر
أحمد التوفيق أحمد بنجلون



1408 ـ 1409 هـ

1988 ـ 1989 م

رقم الايداع القانوني 117 ـ 1984

الكتاب السادس

مملكة تونس

الفصل الأول

ذكر حدود هذه الايالة

مملكة تونس هي رابعة ممالك البربر وهي في أقصاها من جهة الشرق. تحدها من جهة الغرب موريطانية القيصرية واقليم بجاية عند نهر أمساية(1) وتحدها من جهة الشرق مصر ومن جهة الشمال البحر المتوسط ومن جهة الجنوب جبال الأطلس الكبير الى طرفه الشرقي الذي يسميه المحدثون مياس. وتمتد هذه المملكة الى ايالة الزاب التي تشمل جزءا مهما من ليبيا ونوميديا الشرقية. وتنقسم الى أربعة أقاليم هي قسنطينة وتونس وطرابلس بلاد البربر والزاب الذي يضم طرفا مما كان يسمى في القديم بنوميديا. ومعظمها بواد تتنقل فيها تجمعات قوية من العرب والبربر. وملوك هذه الأقاليم وحكامها دائبون على مخاطبة ود تلك الجماعات بالتنازل لها عن جزء من إيراداتهم، ولطالما أعنتهم كسب رضاها. ولنذكر الآن الاقليم الأول من جهة الغرب وهو اقليم قسنطينة.

الفصل الثاني

قسنطينة

إسم إقليم قسنطينة عند بطليموس نوميديا الجديدة، ويحده من جهة الغرب إقليم بجاية عند موقع جيجرى، وتحده من الشرق البلاد التي اختصت باسم افريقيا. وفي الجنوب تشمل الجزء الذي يمر بها من جبل الأطلس وتمتد ما وراءه الى نوميديا وجيتوليا، ويحدها من الشمال البحر المتوسط وخليج نوميديا ما بين جيجري ومصب مجردة(2) عند بنزرت. ولنذكر ما في هذا الاقليم من أماكن العمارة.

1) سوفكمار.

2) أوبراكاس.

الفصل الثالث

القـل

مدينة عتيقة يقال إنها من بناء الرومان. جعلها بطليموس عند سبع وعشرين درجة طولا وإحدي وثلاثين درجة عرضا وزيادة خمس وأربعين دقيقة، ويسميها مدينة القل العظمى. وموقعها عند قدم جبل يمتد على ساحل البحر في خليج نوميديا. كانت في الماضي كثيرة السكان. وكانت لها أسوار عالية، هدمها القوط عندما انتزعوا المدينة من الرومان، ولم يقع تجديد بناء تلك الأسوار بالرغم من كون المدينة مركزا لتجارة مهمة ومقرا لعدد كبير من التجار والصناع. أهلها طيبون متمدنون بفضل التعامل التجاري مع أوربا، إذ هي مقصودة لشراء الشمع والجلود وغيرها من البضائع. وفي الأراضي المجاورة لها من جهة الجبل تكثر الحنطة والمواشي ومختلف أنواع الفواكه. كان سكانها في الماضي يعيشون أحرارا طلقاء وكانوا قادرين على مدافعة ملوك تونس وحكام قسنطينة الذين تفصلهم عنهم جبال شديدة الارتفاع تمتد الى أبعد من أربعين فرسخا، يضاف الى ذلك أن معظم بلادهم جبال يسكنها برابر وزواوة متميزون بشجاعتهم وإقدامهم، ولذلك لم تكن مدينة أغنى من مدينتهم هذه، إذ كانت تستطيع تجنيد عشرة آلاف من المقاتلين. وقد استسلمت فيما بعد للأتراك، ولهم فيها حامية دائمة، ويقوم الحاكم في الجزائر بتعيين وال عليها يكون تابعا لحاكم قسنطينة، وهو الذي يتولى استخلاص جباية الاقليم بكامله، وله حرص على الرفق بالسكان وإبعاد العسف عنهم.

الفصل الرابع

اشتورة

مدينة قديمة على مسافة أربعة عشر فرسخا من القل الى جهة الشرق في خليج اشتورة، أو خليج نوميديا وفيها يوجد مرسى قسنطينة. ويجعلها بطليموس عند سبع وعشرين درجة وأربعين دقيقة طولا واثنتين وثلاثين درجة عرضا. واسمها عنده روسيكاد. وهي غير حصينة لأن أسوارها مهدمة. وعدد ما فيها من الدور المسكونة لا يتعدى مائتين. ويوجد بين هذا المرسى والمرسى السابق ثالث تعرف بمرسى الجنويين، ومن عادة السفن أن ترسو به إذا قويت الزوابع لأنه مستور من رياح الشمال ومن الرياح التي تهب من الشرق وتعرف بريح الاغريق. ولا توجد فيه

عمارة الا ما كان من مساكن قوم من البربر توجد داخل البلاد. وتوجد عندهم الحنطة ويمتلكون عددا من الخيل والماشية.

الفصل الخامس
سكيكدة

مدينة عتيقة بناها الرومان فوق جبل عال يمتد طرفه الى البحر عند خليج نوميديا. تقع شمالي قسنطينة على بعد اثني عشر ميلا منها. جعلها بطليموس عند تسع وعشرين درجة طولا واثنتين وثلاثين درجة وثلاثين دقيقة عرضا، واسمها عنده طاكاسي. كان القوط قد دمروها، ولكن وجود مرسى جيد بها جعل عامل قسنطينة يبني على ساحل البحر بعض المخازن والملاجي للتجار الاوربيين الذين يقصدون هذه المدينة للتجارة. كما أمر ببناء حصن بأعلى جبل مجاور به حراسة دائمة، ويقايض سكانه مع الاوربيين في عدد من البضائع مقابل ما عندهم من حنطة وأغطية ومنسوجات، وتربط هذه المدينة بقسنطينة طريق الالتواء فيها، مبلطة بحجارة كبيرة سوداء مماثلة لتلك الطرق التي عبدها الرومان في كل من إيطاليا وإسبانيا، إلا أن المياه قد أفسدت أماكن من هذه الطريق.

الفصل السادس
عنابة

كان الرومان قد بنوها شرقي المكان الذي توجد فيه اليوم بعيدا عنه بمسافة فرسخ واحد على نهر يلوغ. كانت تسمى في القديم هيبون وموقعها على ساحل البحر المتوسط في خليج نوميديا على بعد أربعين فرسخا من مدينة تونس. وهي المدينة التي كان أسقفها القديس أوغسطين في أيام الأمبراطور غراسيان(3). وقد نالت شهرة في عهد القوط، لكن الخليفة الثالث(4) هدمها ولم تقم لها قائمة بعد ذلك. وما زالت تشاهد على ضفة النهر أطلال معبد وقصر كبير، وذلك على مسافة فرسخ ونصف من ساحل البحر في المكان المعروف بعنابة القديمة. وبعد مضي مدة على خرابها قام أتباع محمد ببناء مدينة أخرى شرقي الموقع القديم على

3) سنة 1532 من تأسيس روما.

4) عثمان.

بعد فرسخ واحد وسميت عنابة الجديدة، ويسميها العرب بلد العناب لكثرة ما فيها من هذه الثمار. أما المسيحيون فيسمونها بون أي الجيدة وهي تسمية أقرب الى الصواب لأن بها أجود أراضي بلاد البربر وأكثرها خصبا وأنقاها هواء. تحيط بها أسوار حصينة، ولها بابان رئيسيان يفضي أحدهما الى البحر ويفضي الثاني الى جهة الحصن الذي لا يبعد عنه الا بمقدار نصف رمية قوس قذافة. وموقعه فوق ربوة مشرفة على الباب. وملوك تونس هم الذين بنوا هذا الحصن حديثا وجعلوه مسكنا للعامل والحامية، ذلك بأن سكان هذه المدينة كانوا قبل أن يدخلها شارلكانت وان يستعيدها منه الأتراك، أغنياء معتزين بأنفسهم لا يترددون عن قتل عمالهم وعن التهديد بتسليم مدينة عنابة للنصارى إذا لم يول عليهم من يرضون حكمه من العمال الشرفاء. ودور هذه المدينة متقنة البناء، وبها مسجد فخم، وبجانبه مدرسة يتعلم فيها شرع محمد، وليس بالمدينة ولا بالحصن بئر ولا ساقية وإنما بها خزانات تجرى اليها مياه الأمطار من سطوح المنازل، وهي ذات سقوف مستوية مغطاة بطبقة من الجير والرمل والاسمنت. وتوجد جنوبي الحصن قريبا من جداره بساتين ومنتزهات وأجنة كثيرة بها اللذيذ الطيب من الثمار. ولعنابة مرسى صغير غير مستور من ريح الشمال، وتقصده سفن التجارة لشراء الجلد والصوف والسمن والتمر وغيرها من البضائع الوفيرة في هذه الجهات. فهي تتكون من سهول[5] طولها أربعة عشرة فرسخا وعرضها ثمانية فراسخ، تظعن فيها جماعات كبيرة من البربر[6] يش في دواوير مثل العرب، ورجالها أغنياء بما يملكون من الأراضي والخيل المواشي. وفي كل يوم جمعة يهرعون الى سوق تقام عند أبواب المدينة يأتي اليها التجار من تونس وجلفة وطرابلس، بل وحتى من جنوة، ولهم في الاتجار بها أرباح كثيرة. ويوجد شرقي المدينة شاطىء منعرج يصطاد به المرجان، وكان من عادة أمراء تونس إكراء ذلك الصيد للجنويين، ولما أضرَّ بهم القراصنة أذن لهم الأمير ببناء قلعة فوق صخرة، ولكن السكان منعوهم من ذلك وذكروا للسلطان أن المسيحيين استولوا فيما مضى على عنابة باستعمال حيلة مماثلة. وهكذا لم يتوصل الجنويون في ذلك الحين الى مبتغاهم وإن كانوا قد نجحوا بعد ذلك. أما من جهتي الجنوب والشرق فتجاور عنابة جبال يطيب فيها المقام ويلذ العيش تتصل بجبال قسنطينة، وبها كثير من المجاري والجداول وأنواع الفواكه والصيد والطرائد. أما في

5) السيايرة.
6) شريس وبني مرديس وبني جريد وبني علوان وبني منصور.

جهة الشرق فتمتد تلال خصبة تجود بها الحنطة، وكانت بها فيما مضى مدن وقرى قديمة من بناء الرومان. ولكن العرب دمروها حتى انطمست معالمها ونسيت أسماؤها. تمتد هذه التلال على مساحة طولها ثمانية وعشرون فرسخا وعرضها عشرة فراسخ، وليس بها مدينة ولا قرية وإنما هي مجال لنجعة العرب والبرابر(7) وبها منابع ماء تجري منها جداول تخترق تلك الجهات وتصب في البحر. وقد استولى باربروس(8) على عنابة بعد أن امتلك مدينة تونس وأقام حامية في الحصن وجعل على رأسها حاكما من الأتراك. ولما استولى شارلكانت على تونس(9) أرسل أندريا دوريا بجيش قوامه ثلاثون سفينة حربية وألفان من المقاتلين بقصد احتلال عنابة، ولما وصل هذا الجيش وجدها مهجورة من أهلها حيث إنهم انسحبوا مع باربروس بعضهم عن طريق البحر وآخرون عن طريق البر، وعاد أندريا دوريا إلى حلق الواد بعد أن استولى على سفن كانت راسية هنالك، ولم يترك حامية لا بالمدينة ولا بالحصن. ولما كان الامبراطور عائدا إلى إيطاليا أعطى أوامره للجيش البحري الذي كان متجها إلى إسبانيا بأن يترك حامية بعنابة عند المرور بها، وتم تنفيذ تلك الأوامر، وكان أول حاكم بها هو ألبار قوميز زغل وكان معه ألف من المشاة وخمسة وعشرون من الفرسان، وقد عاثوا في تلك الجهات فسادا يغيرون على أهلها من العرب والبربر ويغنمون منهم عددا من المواشي والعبيد وغير ذلك، وقد انتصروا عليهم وعلى أتراك قسنطينة غير ما مرة، وكان هؤلاء الأتراك يقومون هم أيضا بأعمال قرصنة، كانوا يأتون مع الاعراب فينصبون كمائن حتى عند أبواب عنابة، ولكن محاولاتهم كانت تذهب سدى لأنهم لم يقدروا على هزم المسيحيين في يوم من الأيام. وقد قام هذا الحاكم بأعمال عظيمة تليق بمقام قائد عظيم لولا ما شانها من تصرفاته الطائشة وخاتمته المفجعة. وبعد موته أصدر الامبراطور أمره بالتخلي عن ذلك الثغر وبإحداث خروق في الجدران وبهدم الأبراج التي في المدينة وفي الحصن، ولكنهم ما لبثوا أن أصلحوها بسبب ما في هذا البلد من خيرات، ولما عجز ملوك تونس عن الدفاع عن هذه المدينة استولى عليها الأتراك وعمروها وقاموا بتحصينها.

7) شريس.
8) خير الدين.
9) سنة 1535

الفصـــل السابـــع

ذكر بنزرت في إقليم قسنطينـــة

إسم هذه المدينة عند الأفارقة بنزرت بناها أهل البلد الأصليون على الساحل على بعد سبعة عشرة فرسخا من مدينة تونس، يسميها بطليموس أوتيكا، ويجعلها عند أربع وثلاثين درجة وأربعين دقيقة طولا وثلاث وثلاثين درجة وخمس وأربعين دقيقة عرضا، وقريبا منها يتوغل البحر عبر قنال ضيق يتسع شيئا فشيئا عند امتداده نحو الجنوب مكونا بحيرة(10) كبيرة تنقسم إلى شطرين، وفي جنباتها مساكن أناس من فقراء الصيادين والزراع، ولكنهم كغيرهم من سكان عنابة متصفون بالكبرياء والشراسة. وفي غربي هذه البحيرة يوجد سهل شاسع(11) تكثر به الحنطة والمراعي، ولكن سكانه يعيشون في فقر دائم بسبب عبء الضرائب ومضايقة العرب، ويصلح في هذه البحيرة سمك الشابل لأنها تصير حلوة لما يصب فيها من مياه الأمطار ويدوم صيده أوائل شهر نونبر إلى نهاية شهر أبريل، كما تُصاد بها أسماك المرجان، وقد يبلغ وزن السمكة منها خمسة أرطال أو ستة وكذا عدد من أنواع الأسماك تباع في تلك الجهات. ويعد بعضهم هذه المدينة من إقليم تونس، إلا أن الكتاب الثقات يجعلونها من نوميديا الجديدة. لا يتعدى عدد من في المدينة والجهات التابعة لها أربعة آلاف من السكان ولكنهم ثاروا عدة مرات ضد ملوك تونس وولاة قسنطينة، وكان ذلك سببا في خرابها مرات عديدة، وكان مولاي الحسن يقول إن أهل عنابة سببوا له من العنت ما لم يسببه له غيرهم، ولم يكسب رضاهم أبدا لا خوفا ولا طمعا. وعندما استولى باربروس(12) على تونس كانوا أول من اعترف به، ولما أخرج منها قتلوا الحاكم الذي نصبه فيها مولاي الحسن على رأس حامية، وقد انحازوا إلى باربروس ورحبوا بحامية تركية جاءت إلى حصن مدينتهم. ولكن اميرهم غضب لذلك واستغاث بشارلكانت الذي أمر أندريا دوريا بمهاجمتهم من جهة البحر، بينما كان هذا الأمير يهاجمهم من جهة البر، ووقع أخذ المدينة عنوة، ولما أراد المهاجمون ضرب الحصن استسلم من كان به من الأتراك ومن أهل البلد وأنزل الملك عقابه بالسكان الذين ثاروا ثلاث مرات، ولا يشتمل هذا الاقليم على مدن ساحلية أخرى، فلنذكر الآن تلك التي توجد داخل البلاد.

10) كانت تسمى في القديم أيبوديا تيتوس.

11) مطهر.

12) خير الدين.

الفصـــل الثامـــن

قسنطينـــة

مدينة عتيقة جدا كبيرة ممتدة، يقدر المسلمون مرقعها بثمانية وعشرين درجة وثلاثين دقيقة طولا وبإحدى وثلاثين درجة وخمس عشرة دقيقة عرضا. وهي عاصمة إقليم نوميديا الجديدة، لأن العرب عندما دخلوا موريطانية جعلوها موقعهم الحصين ومقر قوتهم العظمى ودام ذلك مدة طويلة. وهي من بناء الرومان كما تشهد على ذلك جدرانها المبنية بحجارة منحوتة ضخمة سميكة. وقسنطينة ذات موقع ممتاز فوق جبل عال تجاورها من جهة الجنوب صخرة شديدة الانحدار ينبع منها نهر(13) شق في الأرض مجرى عميقا واسعا في هذه الجهة. وأسوارها صالحة جدا في جانبها الشرقي وجانبها الشمالي، والصعود إلى هذا الموقع وعر حتى إن الوصول إلى المدينة لا يتأتى إلا من ممرين ضيقين. ولمدينة قسنطينة باب رئيس مبني بالحجارة المنحوتة المزخرفة يعد من زينة المدينة، وعدد دورها المسكونة ثمانية آلاف وبها مسجد كبير رائق. ومدرستان تدرس بهما مختلف العلوم، وبناياتها منتظمة غي متصل بعضها ببعض، وتمتاز أزقتها وساحاتها بتخطيط بديع، وهي مدينة غنية بها عدد من التجار والصناع ولكن موردها الأعظم وتجارتها الأكثر ربحا في إرسال القوافل إلى نوميديا وإلى ليبيا محملة بالمنسوجات الصوفية والكتانية والحريرية وبالزيت، وتعود منها بالتبر والتمر والعبيد السود، فهي أكثر بلاد البربر اتجارا في هذه الأشياء. فعندما كان الاسبانيون مستولين على عنابة كانت تأتيهم منها بضائع يحتاجون إليها في تموينهم ولا سيما التمر الذي كان بأربعة دراهم مرابطية للرطل الواحد أو ستة أرطال بريال واحد، وقد رأيناه يباع في غالب الأحيان بهذا الثمن. وفي شمالي المدينة يوجد حصن حصين عظيم يغلب على الظن أنه من بناء الرومان، جدد ترميمه وتحصينه مرتد من خدام ملك تونس(14)، وكان يحكم انطلاقا منه سكان المدينة والعرب الذين هم سادة الجهات المجاورة لقسنطينة وهم أشهر من ببلاد إفريقية(15) من العرب وأشجعهم، ويتوصل إلى التحكم فيهم بحمل رئيسهم على تقديم ثلاثة من أولاده رهائن لملك تونس الذي كان يشهر عليه الحرب. وكان هذا المرتد فخورا بانتصاراته حتى إنه تلقب بملك قسنطينة وضرب

13) سوفكمار أوبومرزوك.

14) جد مولاي الحسن.

15) يعرفون بأولاد الحنشة.

النقود وأتى بأمور أخرى مهينة للأمير، وكرهه السكان بسبب ذلك وثاروا عليه وهو غائب في حرب مدينة بسكرة، ولما رجع أغلقوا الأبواب دونه، فلجأ إلى الملك، وحبسه في السجن أياما حتى تبرأ مما نسب إليه وأعطى مائة ألف ريال من الذهب، فأمر له الملك بما طلب من العساكر، فرجع إلى قسنطينة ودخلها وقطع رؤوس معظم أولئك الذين تسببوا في الثورة عليه، وما لبث سكان المدينة أن انتفضوا وحاصروه في القلعة إلى أن مات بها أسفاوغما. وبعد ذلك نال المدينة عفو الملك وظلت مدة من الزمن لاتقبل متوليا عليها إلى أن أرسل أحد أمراء(16)) تونس ولده (17) عاملا عليها ولكنه قتل في أول خروج له إلى زواوة، وبادر الأمير بإرسال ولدثان(18)) ولكنه قتل على يد أحد أعوانه، ثم بعد ذلك أرسل الأمير ولدا ثالثا(19)) ولكن الناس هموا بقتله بسبب ما كان عليه من عهر ورذيلة فاضطر والده إلى التقبض عليه وولى مكانه عاملا من النصارى((20)) الذين ارتدوا عن دينهم، وكان خبيرا محنكا ابتهج الشعب لتعيينه عاملا على المدينة. وبعد وفاته على عهد مولاي الحسن استسلمنت المدينة للاتراك فأقاموا بها حامية تليق بمقامها بين أهم مدن هذه المملكة، ولكنهم اظهروا في حكمها رعونة كبيرة، وهم السكان بالثورة عليهم غير ما مرة، إلى أن كان ألف وخمسمائة وثمانية وستين حيث أقدموا على قتل العامل وإبادة الحامية واسترجاع حرية المدينة. ولكن عامل(21) الجزائر جاء يحاصرها، ولما اقتحمها عنوة نهب ما بأيدي سكانها وأجبر أثرياءهم على تحصين القلعة بأموالهم الخاصة وحملهم على أن يؤدوا له خمسين أو ستين ألف ريال، وبعد ذلك جردهم من السلاح وزادت عبوديتهم عن ذي قبل — وإذا عدنا إلى ذكر وصف هذه المدينة نقول إنها في بلد طيب كثيرة الخصب حتى إن الصاع الواحد من البذور يعطي ثلاثين صاعا من الغلة. وفي أرجائها عدد من المراعي الجيدة. وتوجد على جنبات النهر عند جريانه في السهل أجنبة لا تغل كثيرا وليست ثمارها من أجود الثمار ذلك لأن السكان لا يحسنون فلاحتها. وفي ظاهر المدينة توجد آثار قديمة رائقة وأطلال بنايات عظيمة وقوس نصر على بعد نصف فرسخ شبيه

16) مولاي محمد ولد مولاي الحسن.
17) مولاي الناصر.
18) عبد الرحمان.
19) مولاي عبد المومن.
20) علي بن فرش.
21) قولج علي الفراسي

بأقواس النصر التي توجد في روما على مقربة من وسط المدينة (الكابيتول). ويدعي جهلة العامة أن تلك الأطلال من بقايا قصر كانت تسكنه الارواح الشريرة في عهد الوثنيين إلى أن طردها أتباع محمد عندما دخلوا قسنطينة، بيد أنه واضح للعيان أن الأمر يتعلق ببناية شيدت تخليدا لأحد الانتصارات الرومانية. ويوجد بناء آخر يعد من مشاهد المدينة، ألا وهو سرداب مبني تحت الأرض تتخذه النساء اليوم طريقا عند ذهابهن إلى النهر، وهو سرداب مدرج منحوت في الصخر، وفي أسفله توجد قبة كبيرة نحتت جدرانها وأعمدتها وأرضيتها وسقفها في الصخر بواسطة فؤوس حادة من الصلب. وعلى بعد ثلاث قذفات بالحجارة من المدينة يوجد حمام كبير تنبعث منه عين من المياه الحارة وتنصب تلك المياه على صخرة عظيمة فتكون حوضا تنمو به سلاحف قد تبلغ في حجمها مثل الدرقات المستديرة، يأتي إليها المستحمون بقوت لأن الناس يعتقدون أنها من الأرواح الشريرة التي بقيت هنالك منذ عهد الرومان. وعلى مسافة منها إلى جهة الشرق توجد عين مياه باردة توجد بجانبها بناية قديمة من المرمر شيدت بأسطوانات عظيمة وحجارة كبيرة نحتت عليها وجوه آدمية عديدة من الرجال والنساء والاطفال، ويزعم الناس أن تلك البناية كانت مدرسة مسخ أساتيذها وتلاميذها حجارة بسبب ما كانوا عليه من الرذيلة. ويوجد في هذه الجهات عدد آخر من المعالم القديمة الدالة على أنها كانت مستعمرة(22) للرومان.

الفصل التاسع

ميلة

مدينة عتيقة واقعة على مسافة أربعة فراسخ من قسنطينة، تحيط بها أسوار عالية مبنية على النمط القديم كان بها في سالف عهدها ثلاثة آلاف من دور السكنى. وكان أهلها على درجة كبيرة من الغنى لأن بلدهم طيب كثير الزرع والماشية والثمار ولاسيما التفاح، ويظهر أن هذا هو أصل تسميتها. وقد خربها خليفة القيروان، ولكنها استطاعت أن تستعيد عمرانها بعد ذلك التخريب، لكن حكام قسنطينة ضيقوا بأهلها حتى لم يبق بتلك الجهة سوى ألف من السكان يشتغل معظمهم بصنع العباءات القصيرة في المسجد وبصنع الزرابي التركية، ومنهم مشتغلون بفلح الأرض متميزون بغلظتهم إلا أنهم ذوو أنفة وعزة إذ لم يترددوا في

22) كانت تدعى فولكا كولونيا.

بعض الأحيان عن قتل الحكام المعينين عليهم من قسنطينة لأنهم لم يرضوا بظلمهم ولم يتحملوا استبدادهم. ومدينة ميلة اليوم بيد الاتراك الذين أصبحوا سادة البلاد.

الفصل العاشر
تيفـــش

مدينة عتيقة بناها الرومان عند طرف نوميديا على بعد خمسة وثلاثين فرسخا من قسنطينة من جهة الجنوب. وموقعها على سفح جبل، تحيط بها أسوار وأبراج عاليه. كانت في سالف عهدها كبيرة عامرة بالسكان ذات بنايات رائقة، بها قصور وكنائس ومدارس. وعندما دخل أتباع محمد(23) إلى إفريقيا تعلقت بالرومان مدة طويلة، ولكن العرب أخذوها عنوة، ثم نهبوا أهلها ودمروا عمرانها، وقد انتعشت من مصيبتها تلك إلى أن قام العرب بغزوهم الثاني حيث نهبوها مرة ثانية تحت قيادة موسى بن نصير. وبعد ذلك سكنها الافارقة(24) المترحلون في البوادي كالأعراب. ولم يكونوا يستعملونها إلا لخزن زروعهم ولاخذ بعض الاتاوات من سكان الجهات المجاورة، وقد تمكنوا من امتلاكها مدة طويلة وامتلاك نواحيها، ولم يستطع العرب أن ينازعوهم فيها، وذلك بفضل قائد من قواد زواوة كان يجوب تلك الجهات، وقد تمكن في إحدى المعارك من قتل ولد(25) ملك من ملوك تونس كان عاملا لأبيه على قسنطينة. وقد اغتاظ هذا الامير لقتل ولده وزحف بجيشه لقتالهم، ولما هزمهم أعمل يد التخريب في ما بقي من عمران المدينة(26) ولم يعبأ العرب بعد ذلك بإعادة تعميرها. وكل ما بقي منها اليوم ربض يسكنه بعض البرابر وذلك بسبب سوق تقام هنالك كل أسبوع يقصدها العرب والبربر لشراء ما هم بحاجة إليه من البضاعة.

23) العرب السابقون اليها.

24) أولاد حرور.

25) مولاي الناصر.

26) عام 1057.

الفصل الحادي عشر

تبسة

مدينة عتيقة بناها الرومان على طرف نوميديا داخل البلاد بينها وبين البحر مسافة خمسة وخمسين فرسخا تحيط بها أسوار عالية مبنية بحجارة ضخمة شبيهة بالتي شيد بها الكوليزي في روما. وعلى مقربة من هذه المدينة يمر نهر ينحدر من الجبل، وبعد أن يشكل النهر عدة التواءات يخترق جانبا من المدينة. وتوجد في تبسة عيون غزيرة من المياه الجارية ومعالم بنايات ترجع إلى الزمن القديم، وتماثيل من الرخام نقشت عليها كتابات لاتينية على غرار ما يشاهد في روما وفي عدد من الاماكن في أوربا. وتحيط بالمدينة غابات من الأشجار المثمرة وأشجار جوز ضخمة تعطي غلة وافرة، ولكن بقية جهاتها عديمة الخصب، وجوها وخيم، وعلى مسافة من المدينة تزيد قليلا عن نصف فرسخ يوجد جبل كثير الكهوف والمغارات، ويعتقد العامة أنها مساكن للجن، بيد أنه واضح للعيان أنها محاجر اقتلعت منها الحجارة التي استخدمت في بناء المدينة، وقد قام خلفاء محمد مرات عديدة بنهب المدينة وسكنها فيما بعد أناس من البربر يتميزون بالبخل والقظاظة ومعاداة الاجانب ولطالما انتقضوا ضد ملوك تونس وحكام قسنطينة. وقد تجرأوا غير ما مرة على قتل الحكام الذين يعينون عليهم. ولما كان عام ألف (وخمسمائة) وخمسين مر مولاي محمد قريبا منهم وهو في طريقه لقتال هوارة، فلم يبادروا باستقباله، فأرسل يسألهم عمن هم إليه يدينون بالولاء فأجابوه مزهوين بأنهم لا يعترفون بالولاء لغير أسوارهم، فغضب لذلك الجواب، وناجزهم بالهجوم ودخل بلدتهم عنوة وسنق منهم من لم يلقوا حتفهم في القتال، وهدم المدينة، ولكن عددا من فقراء الناس سكنوها بعد ذلك. وتتميز تبيسة عن غيرها من مدن بلاد البربر بثلاثة أشياء لها أهميتها وهي أسوارها وما بها من أشجار الجوز وما بها من عيون المياه والمجاري، وما عدا هذه فليس فيها شيء معتبر. وليس في هذا الاقليم، على حد علمنا، مدينة أخرى. ولنعرض الآن لذكر الجبال.

الفصل الثاني عشر

ذكر جبال إقليم قسنطينة

تغطي مجموع الجهات الغربية والشمالية لهذا الاقليم إلى غاية ضواحي قسنطينة جبال تبدأ من حدود بجاية وتمتد على طول الساحل إلى غاية عنابة على

مسافة تزيد عن خمسة وأربعين فرسخا، فهي إذا جبال كثيرة العدد ولكنها تحمل كلها أسماء القبائل التي تسكنها من برابرة وزواوة، وأرضها طيبة رائقة كثيرة الزرع والمواشي، وسهول أوديتها كثيرة الخصب تغل كثيرا من الزيت والتين وغير ذلك من الثمار التي تتزود منها جميع المدن المجاورة(27) كما يتزود منها عرب البوادي. وسكان هذه الجبال من البربر أكثر ذكاء من بربر جبال بجاية، ويوجد من بينهم كثير ممن يعدون في قبائل زواوة المشتهرين بجودة ما يصنعونه من المنسوجات، ولكنهم لا يكادون يكفون عن المقاتلة بسبب النساء اللائي يتطلقن في جبل من الجبال ليتزوجن من جديد في جبل آخر حسبما ما تسمح بذلك ديانتهن. وهم أناس مياسير لهم حرص شديد على حريتهم، لا يؤدون الاتاوة الا إذا خرج اليهم عسكر الملك في طلبها، وهم يعطون فيها عددا من المنسوجات والخيول لانهم لا يروجون الا قليلا من النقود، وهم على خلاف مستمر مع العرب، وهذا هو السبب في قلة متاجرتهم في السهول وندرة تعاملهم مع المدن، وتقام عندهم أسواق أسبوعية في عدة أماكن يقصدها تجار عنابة والقل وقسنطينة، ولا بد لهم إذا أرادوا التردد على تلك الاسواق من اكتساب صداقة أحد سكان الجبل الذي به السوق يصاحبهم ويحميهم، وإذا لم يعتلوا بهذا الحامي لم يأمنوا الضرر ولم يطمعوا في الانصاف، إذ ليس من بينهم عارف بالدين ولا قاض ولا من هو على قدر محمود من التعليم. ومجموع من تعبئهم هذه الجبال من المقاتلين أربعون ألف رجل من بينهم أربعة آلاف من الفرسان، وقد صاروا منذ مدة يسيرة يجهزون عددا من حملة البنادق والقذافات، وهم معروفون بشجاعتهم في القتال، ولو أنهم اتفقوا في يوم من الأيام لكانوا قادرين على غزو جزء عظيم من إفريقيا.

الفصل الثالث عشر

ذكر إقليم تونس

كان إقليم تونس يسمى إفريقية(28) وبه كانت في القديم مدينة قرطاجة، وهو الاقليم الثاني من هذه المملكة حسب الترتيب الذي اتبعاه. ويحده من جهة الغرب إقليم قسنطينة، ومن جهة الشرق إقليم طرابلس، ومن الجنوب جبال الأطلس وإقليم الزاب وجزء من نوميديا وليبيا الشرقية، أما من الشمال فيحده البحر

27) القل وجيجري وعنابة.

28) افريقية الصغرى والقرطاجنية.

المتوسط ما بين مصب نهر مجردة(29) عند بنزرت ومصب نهر قابس الذي كان يسمى في القديم تريتون. فهذا الاقليم إذا، إقليم مترامي الأطراف يحتوي عددا من المدن والقرى تعرض معظمها للتدمير على أيدي العرب عندما دخلوا إفريقيا، ولم يتحملوا عناء إعادة تعميرها بعد ذلك لأنهم يعيشون متنقلين في حرية بقطعان مواشيهم مستمتعين في سلام بخيرات البوادي حتى إن ذكر تلك الامصار قد تنوسي بمرور الزمن. وسنعرض في الفصول اللاحقة لذكر المدن الباقية ولبعض المدن المندثرة التي بقيت ذكرياتها محفوظة، وسنبدأ بذكر التي توجد على مقربة من البحر.

الفصل الرابع عشر
بورتو فارينا أو أوتيقا

يوجد بين مدينة بنزرت وبين رأس قرطاجة مرسى مهجور يسمى عادة بورتو فارينا(30) ترى في جانب منه أطلال مدينة قديمة يقال إنها هي مدينة أوتيقا التي ارتبطت شهرتها بموت كاطون. هدم هذه المدينة خلفاء محمد ولم تعمر بعد ذلك وإن كانت تحيط بها قرى عديدة يسكنها أقوام من البربر يتكلمون عربية فاسدة ويدينون بالتبعية لمالك تونس، وتأوي إلى هذا المرسى السفن التي تتقدم على طول الساحل، وفيه نزلت(31) من البحر جيوش شارلكانت عندما جاء لغزو تونس.

الفصل الخامس عشر
قرطاجة

مدينة قرطاجة مذكورة عند عدد من الكتاب الاغريق واللاتينيين والعرب، وموقعها على ساحل البحر في بسيط من الأرض وإن كانت في وسط أسوارها المترامية تضم جبلا كانت فوقه قلعتها الرئيسية، ويوجد فيه اليوم برج يسميه المسيحيون لاروكدي مايتناس ويسميها الافارقة المنار. وينسب بعضهم تأسيس هذه المدينة إلى رجل فنيقي من صور(32) يسمى كاركدون ومعناه قرطاج بلغة الافريق

29) أوراكادة.

30) أوغار الملحة.

31) عام 1535.

32) عام 1268 قبل المسيح.

ويذهبون إلى القول بأن الاميرة ديلون أعادت بناءها بعد مرور مائتين وثلاثين أو مائتين وأربعين عاما على تأسيسها، ويؤكد آخرون القول بأن هذه الاميرة قد خرجت من صور حوالي عام ثلاثة آلاف وثمانين من خلق العالم، وهي التي بنت قرطاجة وسمتها بيرسة ومعناه في لسان الاغريق الزنار لانها طلبت من أهل البلاد أرضا تؤسس بها المدينة مساحتها مقدار ما يغطيه جلد بقرة واحدة، ولكنها قطعت ذلك الجلد فصنعت منه زنارات شديدة الرقة فامتدت على ما اتسع لمدينة عظيمة. ويذكر سيرفيوس أنها تسمت بقرطاج(33) من إسم مدينة ليبية أخرى كانت تسمى قارتا. ويرى آخرون أن قرطاجة بناها الفينيقيون الذين طردهم يشوع بن نون. وهكذا تضاربت الاقوال في هذا الموضوع بين الكتاب الاغريق واللاتينيين. وكذلك الشأن بالنسبة لأهل البلد فآراؤهم مختلفة في هذا الباب، فبعضهم يذكروه أن قرطاجة من بناء روماني إسمه إدريس(34) كان قد ملك إفريقيا. ويرى الآخرون أن بانيتها ملكة سوريا أو ملكة ليبيا. ولكن كبير مؤرخي البلد يذكر أن مؤسسها هو شعب برسة الذي فر من طغيان ملوك مصر. ولكن أيا من هؤلاء الرواة لم يذكر خبر قرطاجة قبل زمن انحطاط الامبراطورية الرومانية، وكل ما ذكرون هو أن حكام المدن كانوا مستولين على قرطاجنة حتى جاء القوط وطردوهم منها. وقد دمرها سيبيون الافريقي القائد الرومالي الشهير، وذلك حوالي عام ألف وسبعمائة من تأسيسها عندما كان صاحبها هوها ــ ميلكار. وبعد ذلك خربها جنسيريك ملك الوندال، إلى أن جاء خلفاء محمد فدمروها على النحو الذي سنذكره. فبعد أن دخلوا طرابلس وقابس خرج جميع من كان بهما من السكان الى قرطاجة حيث تجمع نبلاء القوط والرومان للدفاع ضد عدوهم المشترك، وبعد معارك عدة لم تفد في زحزحة سيادة الرومان على قرطاجة بعث خليفة(37) دمشق جيشا قويا الى إفريقية، وبعد أن استولى على عدد من المدن دخل مدينة قرطاجة فنهبها وحمل ما كان بها من الاموال والثورات إلى دمشق، وظلت على تلك الحال إلى أن قام بالقيروان خليفة(38) خارج عن الخليفة السني، فعمر من قرطاجة ما يقدر

33) لأن معنى قرطاج في اللغة الفيفيقية : المدينة.

34) انظر الكتاب الأول. الفصل الثاني والعشرين.

35) على قول ابن الرقيق.

36) عبد الملك بن مروان.

37) المهدي.

38) المنصور ؟

بنصف عشرها، ولكن العرب خربوا هذا الذي عمره بعد ذلك في حروبهم عندما كانوا يقاتلون أمراء تونس. وبعد ذلك أعاد إليها العمران بقدر ما أحد[39] هؤلاء الامراء وأنفق في ذلك أموالا باهظة، إلا أن قبائل الاعراب ما لبثت أن خرجت قرطاجة من جديد حتى لم يبق منها سوى قرية صغيرة تسمى المرسى بها ما يقارب خمسمائة من المساكن ومسجد رائق ومدرسة بناها أحد ملوك تونس[40]، إلا أن هذه البقية من السكان لا تنقصها العزة والانفة، وإن كانوا لا يشتغلون بغير بساتينهم الممتدة على الاطراف المجاورة ولا سيما في اتجاه الغرب والجنوب، وفيها أنواع من جيد الثمار الفائقة الاحجام، فعندما قام شارلكانت بغزو تونس، نزل بهذه الفرضة، وكانت ما تزال تشاهد منها أطلال بنايات شامخة عظيمة وقصور من المرمر الابيض قد استحالت الى خراب وكذا خزان ماء كبير متسع عميق، والاقواس والحنايا التي كانت تحمل قنوات تأتي فيها المياه من مسافة عشرة فراسخ، وتمتاز الاراضي المجاورة بالخصب ولكنها قليلة الاتساع لانها محصورة من جهة الشمال بالجبل والبحر والبحيرة، ومن جهة الشرق والجنوب تجاورها سهول بنزرت وهي في ملك قوم آخرين. وعلى مقربة من قرية المرسى التي ذكرناها توجد قصور وأجنة يأتي إليها ملوك تونس صيفا بقصد الاستجمام. وكل ذلك تركه السكان عندما جاء يغزوهم الامبراطور، الا أن السكان رجعوا بعد ذلك، غير أنهم لا يعرفون الطمأنينة عندما تشب نار الحرب بين تونس وبين حلق الوادي لان الاسبان يصلون في غاراتهم إلى هذه الجهة، وكانوا يحملون من أنقاض قرطاجة مادة يغطون بها تحصيناتهم، وعلاوة على ذلك فإنهم قاموا بقطع جميع أشجار الزيتون وغيرها من أشجار الثمار وذلك في الأراضي الواقعة بين قرطاجة وتونس، وترتب عن ذلك هجرة سكان بعض القرى الفقيرة التي كانت بهذه الاحياء حيث لجأ أهلها إلى مدينة تونس ومدينة بنزرت.

الفصل السادس عشر

ذكر تونس عاصمة الاقليم وذكر حصن حلق الوادي

تونس مدينة عظيمة قديمة بناها العرب الأولون الذين جاءوا إلى إفريقية من بلاد العرب السعيدة تحت حكم أميرهم صاحب إفريقية. كانت في أول أمرها

39) مولاي محمد.

عمارة قليلة، ثم توسعت بما حمل إليها من أنقاض قرطاجة، ذلك لأن العرب أتباع محمد الذين جاءوا في جيش عقبة لما رأوا أنهم غير آمنين في قرطاجة لما يحتمل من انجاد أوربا لمن وقع غزوها عليهم من النصارى تركوها واستقروا في تونس ومكثوا بها عدة أيام. وفي أثناء ذلك شيدوا بها عددا من المباني وزينوها بالعمران، ولكنهم ما لبثوا أن غادروها فأقاموا بمكان يبعد عنها بنحو ثلاثين فرسخا جهة الشرق حيث بنوا القيروان بعيدا عن البحر بأربعة فراسخ على ضفة بحيرة حلق الوادي، وهي واقعة في بسيط من الأرض، وفوق مرتفع مشرق على هذه الجهات من جهة الغرب توجد قلعة غير محصنة ومسجد وبرج عال رائق البناء. ويوجد ربضان كبيران يضم أحدهما(40) أزيد من ألفي دار يوجد عند الباب الشمالي، وبذلك فهو أكبر من المدينة، أما الربض الاخر(41) فيقع جهة الجنوب، وبه ما يقدر بألف دار، وكان به عندما استولى شارلكانت على هذه المدينة مسكن النصارى المرابطين منذ عهد يعقوب المنصور ملك مراكش وخليفتها من نسب الموحدين. وكانوا من هؤلاء النصارى المستعربين الذين ذكرناهم عند وصف مراكش، وكان المسلمون يسمونهم بالربضيين لانهم كانوا يسكنون الربض. ويرجع أصلهم إلى العهد الذي مر فيه يعقوب المنصور بتونس، وكان قد أتى بعدد منهم وترك جماعة منهم لعامل المدينة لكي يتخذهم حراسا له. ولا بد من التنبيه إلى أنهم كانوا على صنفين عندما استولى شارلكانت على هذه المدينة : المنحدرون من هؤلاء المستعربين القدماء وكانوا من السادة، لهم حكامهم الخاصون وأحياؤهم التي لا يزاحمهم فيها أحد، وكانوا على قدر من النبل والغنى يعتد بهم الملوك لأنهم طالما اعترضوا هجمات الاعراب، أما الآخرون فهم أخلاط من جميع آفاق النصرانية استقروا في هذه الجهة وهم من الخمارين والبزازين وليس من بينهم سوى عدد قليل من التجار. أما الآخرون فلا يشتغلون الا بالحرب، ولذلك عادوا إلى أوربا بصحبة الامبراطور وانتشروا في عدة أماكن حيث رتب لهم معاشات. ويوجد ربض ثالث خارج باب البحر على مسافة من البحيرة مقدار ما تبلغه رمية البندقية. وفي هذا المكان توجد المخازن ودور التجار المسيحيين الذين يقصدون تونس للتجارة ولا يزيد عدد دور هذا الربض عن الثلاثمائة، ثم إنها من الدور الصغيرة، غير أن مجموع ما في تونس وأرباضها من الدور المسكونة يزيد عن العشرين ألفا. والازقة والساحات في غير

40) باب الصوى.

41) باب المنارة.

انتظام، وقد كان سكان المدينة عند مجيء بارباروس عددا عظيما، وحيث إن اقتحامها متيسر من عدة جهات فإن قوتها لا تكمن إلا في كثرة سكانها. ومعظم هؤلاء السكان من المشتغلين بالحرف اليدوية، ومن بينهم عدد من الجباكين الذين يصنعون أجود منسوجات افريقيا لان خيوطها أدق وأحسن برما مما في البلاد الاخرى، وفي تونس تصنع تلك العمامات الرفيعة المسماة بالعمامات التونسية وهي تحظى بشهرة واعتبار عند مسلمي إفريقيا جمعاء. وفي وسط المدينة توجد ساحة كبرى تحيط بها المتاجر لذلك تجد فيها الناس بكثرة في جميع الاوقات. وتبقى حوانيت العطارين مفتوحة إلى ما بعد منتصف الليل، والسبب في ذلك أن النساء إنما يذهبن إلى الحمام ليلا. ويتميز سكان تونس بلطفهم ورقيهم، وهم يحدثون طرائف من الاشياء مقبولة لدى الكبراء الا أن اغنياءهم قلة قليلة، وذلك بسبب غلاء القمح الذي يجلب إليهم من بعيد (42) ولا يجود في أرضهم بسبب كسل السكان وقلة نشاطهم لاعمال الفلاحة. ثم إنهم زيادة على ذلك لا يزرعون الا ما جاورهم من الارض ولا يبعلون عنها خوفا من الاعراب. ولا يستثمرون بضواحي المدينة غير حدائق يسقونها بالنواعير التي سبق لي أن تحدثت عنها. ولا يكاد أصحابها يغلون منها عولة أربعة أشهر في السنة. والخبز الذي يؤكل في تونس أبيض جيد لأنه مصنوع من لباب الدقيق. فبعد الزرع في أرجاء تدار باليد، يعاد طحينه مرة ثانية، وبذلك يأتي منه خبز غاية في الجودة(43) يعتبر الاكل العادي لكل من هو على درجة من اليسر. أما عامة الناس فأكلهم من دقيق الشعير، يعجن ويطبخ في الماء ويعمل فيه قدر من الملح ويتناولونه بعد غمسه في الزيت أو السمن. أما فقراء الناس فأكلهم دقيق الشعير دون طبخ يغمسونه في الماء أو الزيت ويمرسونه، ثم يتناولونه مع شيء من عصير البرتقال أو الليمون، وهم يحرصون على حفظ هذا الغذاء وصيانته. وتوجد في تونس ساحة لا يباع فيها غير دقيق الشعير الذي يصنع منه الاكل المذكور. ولا توجد في المدينة ولا في الجهات المجاورة لها رحى تدور بالرياح أو بالماء(44) ولا توجد بها عيون ماء ولا آبار ولا سوق، وإنما توجد بها خزانات تسيل إليها مياه الامطار وهي التي يستعملها الناس سواء لشربهم أو لحاجتهم في المنازل. بيد أن بظاهر المدينة بئرا(45) تجري بها المياه. يأتي بمائها

42) من مدن لوربوس ويكجي وعنابة.
43) نوع من الشعيرية.
44) لا توجد هنا أرحاء تدار باليد.
45) ظبيان.

السقاءون ويبيعونه في الازقة لان الناس يرونه أقل تلوثا من مياه الخزانات. وتوجد آبار أخرى في الجهات المجاورة ولكنها مخصوصة لدار المالك وقواده. والجامع الاعظم بتونس مسجد واسع، له موارد وفيرة، وله صومعة عالية توجد في أعلاها ثلاث رمانات من النحاس المموه بالذهب شبيهة بالتي في مراكش، وقد سألت بعض الفقهاء عن علة وضع تلك الرمانات فوق الصومعة قد ذكر لي جوابا عن سؤالي أسطورة يقتنع بها الناس كما لو كانت واقعة حقيقة، قال : لما خرج يعقوب المنصور مالك مراكش مستخفيا لا يعلم بسيرته أحد من الناس، خرجت امرأة من أزواجه تحبه حبا شديدا وهي تريد البحث عنه، وكانت حاملا بمولود، وبعد أن جابت مجموع بلاد إفريقيا وجدته بمدينة الاسكندرية، وأقامت معه هنالك إلى أن مات ولم يتعرف عليه أحد. وبعد وفاته أخذت تلك المرأة طريق العودة إلى مراكش وأقامت في تونس للاستراحة، وهنالك تعلق ولد الملك بابنتها وضايقها إلى حد أن أمها اضطرت إلى التظلم لدى السلطان، وقال لها : من يا ترى يستحق ابنتك خيرا من ابني؟ واشترطت المرأة أن يتزوجها وأن يقدم إليها مهرا لا يقل عن المهر الذي قدمه والد البنت إلى أمها، وذكرت أن بنتها أكرم محتدا من ولد الامير. وقد دهش الامير لما سمع كلامهما، ولما وعد المرأة بتحقيق كل مطالبها أظهرت إليه عقد زواجها وعرفت بنفسها وذكرت إليه أن كل ما أهداه إياها المنصور في صداقها قد استعملته في صنع التفاحات الذهبية المنصوبة فوق منار جامع مراكش. وعندئذ وافق الامير على الزواج، ولما كان لا يتوفر على القدر الكافي لصنع تفاحات المسجد من الذهب، اكتفى بصنعها من النحاس المذهب. وكل الافارقة مقتنعون بهذه الاسطورة اقتناعا شديدا. ثم إن أهل الاسكندرية يحيون ذكرى وفاة يعقوب المنصور. ولكنني وقفت على محل دفنه في مدينة المنزلة في مملكة فاس، الا أن يكون أميرا آخر يحمل نفس الاسم من نسب بني مرين كان هو أيضا شهيرا بخصاله ومزاياه، وقد يكون يعقوب المنصور دفن أول الأمر في الاسكندرية، ثم نقل جثمانه منها رجع الى ما نحن بصدده من وصف تونس. يوجد بهذه المدينة عدد آخر من المساجد أصغر من الذي ذكرناه، كما توجد بها مدارس عتيقة معظمها متهدم. الا أن بعض المدارس ما يزال قائما يدرس به الدين المحمدي وينفق عليها من الصدقات، ومعظم دور المدينة مبني بالحجارة أو الأجر والجير وهي في غاية المواتاة مع ظروف هذا البلد إذ أنها ذات سطوح متدرجة بحيث تمكن من تصريف مياه الامطار الى الخزانات، أما السقوف فهي من الجبس المزخرف بالذهب وبالعديد من الالوان، إذ لا توجد في هذه الجهات الاخشاب الكافية لصنع ألواح

السقوف. أما أرضية الغرف فهي معمولة من مربعات صغيرة من الاسمنت أو تبليط مرصع، وليس في الدور على العادة غير طابق واحد، وأبهاؤها باردة نظيفة لأن الرجال يقضون فيها معظم أوقاتهم وهم يتحدثون ويجرون معاملاتهم، وبذلك يتجنبون إدخال أصدقائهم ومستخدميهم إلى داخل الدار حيث توجد نساؤهم. وفي المدينة عدد من الحمامات اكثر راحة من حمامات فاس وإن كانت أقل منها رونقا واتساعا، وليست بها مياه جارية كما هو الشأن في فاس. وبجوار المدينة أجنة واسعة تغل كثيرا من لذيذ الفواكه والثمار، وعدد من ثمار البرتغال والليمون، ويعظم ذلك على الخصوص، في حدائق الامير التي يتعهدها الزراع بالعناية الفائقة. وتحيط بالمدينة على قطر مقداره فرسخان مساحة مغروسة بأشجار الزيتون، تغل ما يكفي السكان من الزيت ويفيض عن حاجتهم ما يحمل منه للبيع في جهات قد تبلغ إلى أبواب مصر، كما يأتي من هذه الاشجار الحطب الذي يصنع منه الفحم لان الحطب نادر في تونس. ونساء تونس متميزات بالحسن والجمال، ولما كان معظمهن من غير ذوات الاحساب فالوصول إليهن غير ممتنع. وهن معتنيات بزينتهن، يضعن براقع وجوههن عند الخروج كما تفعل نساء فاس، ولكنهن يبالغن في التخضيب والزينة. أما الأزواج فليست لهم عليهن غيرة شديدة. وهم يتناولون مستحضرا من الاعشاب(46) باهظ الثمن يلتذ به من تناوله ويثير عنده شهوة النساء، فمن أكل منه أوقية واحدة قضى يومه جذلان فرحان دون أن يخشى عاقبة ما. ويقال إن أهل تونس أخذوا سر هذا العقار من الاتراك. وتبلغ السذاجة بهذه الشعوب إلى حد أنهم ينسبون الى الصلاح كل معتوه تائه في الأزقة والاسواق، فتراهم لا يكتفون بإكرام هؤلاء المعتوهين بل يتعدون ذلك إلى الاحسان لذويهم، ومدينة تونس غير حصينة ولا تحيط بها الا أسوار قصيرة جدا، ولا سيما من جهتي الغرب والجنوب. وتوجد على مقربة من البحيرة دار لصناعة السفن يوجد بها ما يكفي لبناء أربع عشرة سفينة حربية سريعة. في الجانب الآخر من البحيرة، عند ساحل البحر، توجد قلعة حلق الوادي والقنال الذي يتسرب عبره الماء إلى البحيرة.

(46) حشيش.

ذكـر أصـل ملـوك تونـس

ذكرنا في الكتاب الثاني من هذا التاريخ كيف أن أحد الأفارقة(48) قاد ثورة القيروان في عهد الخليفة القائم، وذكرنا أن الخليفة أرسل عليه جيشا من بلاد العرب وأن هذا الافريقي انهزم ولقى حتفه. وقد نجا ولداه من بطش العرب، وفر أحدهما الى تونس، بينما فر الثاني الى بجاية. وقد خرج لحربهما يوسف بن تاشفين مالك المرابطين، وبعد أن استولى على أقاليم المغرب، وتبين للرجلين أنهما لن يقدرا على الصمود له، قدما له الطاعة، وقد أقرهما على تلك الايالات مقابل فرض يستمر به الولاء، وبذلك دامت لهما ولأعقابهما الامارة ما بقيت دولة المرابطين. ولما ملك بعدهم الموحدون، زحف يعقوب المنصور الى جهات افريقية وانتزع ملك تونس وبجاية من أحفاد أولئك المتولين. وكان جده(48) قد انتزع في الماضي مدينة افريقيا من النصارى، وكانوا يملكونها منذ وقت طويل. ولما مال نجم أمبراطورية الموحدين الى الافول انتفض أعراب مملكة تونس وحاصروا مرات عديدة العامل الذي عينه عليها ملك المغرب الأقصى وضيقوا عليه الى أن طلب الغوث والانجاد. ومن ذلك أن ملك الغرب أرسل في تلك النجدة عشرين سفينة من السفن العظمى تحمل المقاتلين تحت قيادة عبد الهادي، وكان من كبار قواد إشبيلية ونسبه في المصامدة. وقد انطلق بهذا الجيش من مدينة قرطاجنة ونزل بساحل مدينة تونس، ووجد المدينة، وقد أتى عيث الأعراب على نصف عمرانها، واستطاع بحكمته أن يفض ما بينهم من نزاع وخصص جزءا من مداخيل الامارة لألئك الأعراب عندما تعهدوا بترك الحرية للمدن، ولم ينتقض هذا العهد منذ ذلك الحين. وقد توفي هذا القائد وخلفه ولده(49) لا يقل حكمة أو تبصرا عن أبيه. وقد خلص له أمر هذه الامارة في مدة اضطراب الأحوال بين الموحدين والمرينيين، واغتنم تلك الفرصة فبنى قلعة بأعلى مكان من المدينة، بل انه استطاع أن يوسع حكمه الى طرابلس. وبعد الطواف بنوميديا وليبيا أخضع للتغريم هذه البلاد الى ما جاور السودان، وعندما أدركته الوفاة ترك لابنه كنزا عظيما. وقد اطمأن هذا الأمير(50) الى قوته وماله فتشوق الى امتلاك جميع بلاد افريقيا، وأطمعه في ذلك ما كانت عليه هذه البلاد

47) أبو الغيث.

48) عبد المومن بن علي.

49) أبو زكريا.

50) أبو فارس.

من حال التقاتل والخلاف بين الشيع والأحزاب، فقد استولى بنو مرين على مملكة فاس، ودانت لبني زيان مملكة تلمسان، ولم يبق بأيدي الموحدين سوى مملكة مراكش التي كان يتطلع اليها هؤلاء واولئيك وهكذا تهيأت الظروف لهذا الأمير لكي يحقق بعض عظائم الأعمال، فما أن تم له ملك تونس حتى زحف الى تلمسان، وأرغم أميرها على الاقرار له بالطاعة والعطاء، وكان من وقع ذلك النجاح أن ملك فاس، وكان حينئذ يحاصر مراكش، قد بادر بأن أرسل إليه هدايا عظيمة، وزاد على ذلك بأن اعترف بولائه لاتقاء شره وإثنائه عن مرامه. وبذلك رجع لى تونس بعد أن حاز رسوم النصر واعترف بسلطانه على افريقيا، وقد تقلد ذلك الرسم عن جذارة واستحقاق إذ لم يكن في أمراء هذه البلاد من هو أعظم منه قدرا. وبعد أن عاد الى تونس رتب مراسيم بلاطه ووظائفه على مثال ما عند ملوك مراكش وخلفائها من التقاليد والشارات . فكان أول من تلقب بلقب ملك تونس. وبعد وفاته ترك ولدا(51) لا يقل عنه إقداما وشجاعة. زاد من ممالك أبيه ووسعها. وبعد وفاته صار لملوك فاس من القوة والنفوذ ما جعلهم يحرزون الاقرار بسلطانهم من لدن جميع أتباع محمد في افريقيا. وقد وسعوا امبراطوريتهم الى حدود رأس مسراتة حيث اشتهر ضريح التمنومتين في الطرف الشرقي من بلاد البربر، وتوسعوا جنوبا الى حدود بلاد السودان، وكانت لهم حروب عظيمة مع الذين تولوا بعد عثمان. وبعد ذلك قام أحد ملوك فاس(52) بمحاصرة تونس، فما كان من أميرها إلا أن فر إلى اصحراء بالأعراب، فساد عليها ملك فاس. ولكن أمير تونس ما لبت أن رجع اليه وقاتله حتى تمكن من هزمه ومن إستعادة إمارته. وبينما الأمر كذلك إذ ثارت عليه مدينة طرابلس وظلت على عصيانها خمس سنين، وبعد ذلك جاء أحد ملوك(53) فاس يقاتل الأمير(54) الذي خلف صاحب تونس، وقد تمكن من هزمه وتعقبه فارا الى قسنطينة وحاصره بها حتى اضطره الى الاستسلام وبعث به ليسجن في قلعة سبتة وكانت حينئذ للمغاربة. وفي هذه الظروف قام أهل جنوة بالهجوم على طرابلس بعشرين سفينة كبرى واثنتي عشرة سفينة حربية سريعة، وبعد أن أخذوها عنوة استرقوا سكانها. ولما بلغ الخبر الى ملك فاس أعطى الجنويين خمسين الف ريال ذهبا مقابل الجلاء عن المدينة وتحرير سكانها من ربقة الاستعباد،

(51) عثمان .
(52) أبو الحسن.
(53) أبو عنان.
(54) مولاي أبو العباس.

إلا أنه أدى نصف ذلك المبلغ بعملة زائفة ظنوها من السكة الطيبة. وبعد وفاة ملك[55] فاس، قام خلفه[56] بتسريح أمير[57] تونس الذي كان والده قد سجنه، وذلك بسبب مصاهرة انعقدت بينهما. وبعد أن عاد صاحب تونس الى إمارته أعاد طرابلس الى الطاعة، كما استعاد ما كان مواليا له من الأقاليم. وأمضى بقية أيامه في سلام. وكذلك فعل من جاء بعد من المتولين من أسرته، الى ان كان عهد المتسمى منهم باسم أبي بكر الذي اغتيل هو وأحد أبنائه عندما كان خارجا الى طرابلس. وكان الذي دبر ذلك الاغتيال هو قريب من عمومته يدعى يحيى، أثار عليه إيالته، لكن ابن عم لح له قام ضد يحيى وغلبه وقتله وساد على تلك الامارة في دعة وأمان. وقد خلفه أحد أبناء[58] يحيى لكنه مات بالطاعون بعد مدة قصيرة. واتفق كبراء الدولة على تقديم أحد أقارب[59] الهالك. وقد قهر الناس بظلمه، وتسبب سلوكه في انتقاض عدد من المدن وقيامها بخلع طاعته واتخاذ حكام يتولون أمورها. وبعد أن توفي هذا الأمير المتعسف خلفه في حكم تونس مولاي محمد والد مولاي الحسن الذي أعاده الأمبراطور (شالكانت) الى إمارته، وبقي فيها الى أن طرده منها باربارُوس. وكان مولاي الحسن هذا يزعم بأنه المالك الخامس والثلاثون ممن حكموا تونس من هذه الأسرة خلفا عن سلف في مدة أربعة قرون ونصف قرن وأنه ينحدر مباشرة من نسب أحد ملوك المجوس الثلاثة، وكان يتقلد رمحا بين سيفين، لكل سيف رأس من ذهب، وعلى السيف ثلاثة أهلة، وفوق الأهلة تاج، وعلى التاج نجمة. وقد أطلعني على ذلك ولده[60] في مدينة باليوم وشاهدته على سيف من سيوفه. ويذكر الكتاب من أهل افريقيا فيما أطلعت عليه من كتبهم أن ملوك تونس هؤلاء من نسب هنتاتة وهم فرع من أصل مصمودة واحدة من خمس قبائل كبرى في افريقيا، ويتسمون بالحفصيين. ويذهب آخرون الى القول بأن هؤلاء الملوك ينتسبون الى الخليفة الثاني عمر ولذلك يتلقب الواحد منهم بالأمير، ويدعون أنهم الخلفاء الشرعيون لمحمد. وقد حكم هؤلاء الأمراء مدة طويلة في صقلية إلا أنهم صاروا بعد ذلك يعطون الاتاوة للنورمان بعد أن بدأت أمبراطورية العرب تميل الى

55) أبو عنان.
56) أبو سالم.
57) أبو العباس.
58) أبو زكرياء.
59) أبو سالم.
60) مولاي محمد.

الانحطاط، وصار حكم صقلية الى روجير الثالث، وذلك حوالي عام (ألف) وخمسمائة وخمسة وأربعين. وبعد ذلك صار ملوك تونس يعطون الاتاوة لملوك فرنسا في عام ألف ومائتين وستة وسبعين، وذلك أن سان لويس قام بمحاصرة تونس كما سبق أن ذكرنا، ولما مات في الحصار بادر أخوه شارل ملك صقلية، بإنجاد المسيحيين، واضطر مالك تونس، وهو إما مولاي المستنصر أو أمير آخر إسمه عمر، إذ كان أحدهما على العرش، الى أداء الاتاوة، وبعد ذلك رجع الى بلده، ورجع الفرنسيون كذلك الى بلدهم. وهذا ما أمكن ذكره فيما يخص هؤلاء الأمراء وأصل نسبهم.

ذكر بلاط ملوك تونس وما فيه من الوظائف وما يتبع فيه من المراسيم والتقاليد

الملك في تونس وراثي. يعين الملك منْ سيخلفه في الملك دون مراعاة حق البكورية. ولكنه يقوم بالعهد اليه في حياته، ويأخذ المواثيق على طاعته من كبراء الدولة، حتى إذا توفي والده نصبوه على العرش. ويفعلون مثل ذلك حتى ولو كان الذي سيخلف الملك من إخوانه أو أبناء إخوانه أو أخواته أو من أبناء عمومته، إذ المطلوب أن يكون من نسبه. وأهم الوظائف في البلاط إحدى عشرة وظيفة. أولها وظيفة المنفذ وهو الذي تصدر عنه جميع الأوامر، فهو بمثابة نائب للملك فهو يطلع الملك على كل ما يفعله وينوب عنه في التجهيز للحرب وتسيير شئون الحكم بصفة عامة. والوظيفة الثانية هي وظيفة المزوار والى نظره رجال الحرب على اختلاف مستوياتهم وكذا القائمون بحراسة الملك، وعنه تصدر الأوامر باستخلاص الجبايات. أما الوظيف الثالث فهو وظيف العامل أو السيد الأكبر، وعليه المعول في حراسة قصر الملك وفي ترتيب كل ما يعتزم الملك إنجازه من أعمال، كما ترفع إليه المظالم المتعلقة بالمنازعات والجرائم، فينظر فيها نيابة عن المالك. وصاحب الوظيف الرابع يسمى صاحب تونس، والى نظره الشرطة والقضاء، وإذا أفسد الأعراب في جهة من الجهات خرج لزجرهم في سرايا الجيش، وهو مشرف على حراسة شوارع المدينة وأزقتها ليلا، يسخر في ذلك حراسا من حملة القسي والسهام يزيد عددهم عن مائتين، وإذا تقبض على أحد الجناة أنزل به العقاب. أما صاحب الوظيف الخامس فهو كاتب الدولة الذي يكتب ويجيب عن أمر الملك، وله التفويض في نص ما يرد من الرسائل المستعجلة ما لم تكن صادرة عن المزوار أو المنفذ.

وصاحب الوظيف السادس هو الحاجب الكبير الذي يحضر بجانب الملك المخصص له ويرسل كل واحد من البوابين الى حيث تدعوا الحاجة اليه. ولا يتولى هذا الوظيف الا من لديه الحظوة العظمى عند الملك إذ يباح له الدخول عليه ومكالمته في جميع الأوقات. وصاحب الوظيف السابع هو أمين المال ويسمى صاحب الحرثة وهو الذي يتولى حفظ الواردات بأكملها، ويوزعها بأمر ملكي يوقع عليه المنفذ المزوار. وصاحب الوظيف الثامن هو بمثابة أمين دخل بيت المال، يستخلص جميع الضرائب على الواردات سواء عن طريق البر أو عن طريق البحر، ومقدار الواجب فيها اثنان ونصف في المائة على سلع المسلمين وعشرة في المائة على سلع النصارى. ويوجد عديد من القائمين بضبط الرسوم وقمع الغش في أدائها، إذ يفترض على الأجانب الذين يدخلون أموالا الى المدينة أن يؤدوا عنها ربع عشرها، وإذا هم تأخروا في التصريح بتلك الأموال تعرضوا لتجريدهم منها بأكملها. أما صاحب الوظيف التاسع فهو كبير محصلي الرسوم المفروضة على السلع التي تخرج بحرا من المملكة. أما الموظف العاشر فهو الممون الأكبر الذي يسهر على تزويد دار الملك بكل ما تحتاج اليه، وهو بمثابة رئيس الخدم. أما الموظف الحادي عشر فهو الخازن الأكبر، واليه تقدم البيانات عن الأمور كلها، ومما يجعل لوظيفته أهمية كبرى اشتراكه في ضبط الحسابات الى جانب المنفذ والمزوار. ولم يتخذ الأمراء الحفصيون حجابا لأن الخدمة داخل قصورهم موكولة الى الجواري والخصيان. وتوجد وظائف أخرى عندهم أقل خطورة من هذه ذكرناها مثل وظائف العناية بالخيل أو بالدواب الحاملة للأثقال أو صيانة ثياب الملك أو تربية أولاده أو العناية بمصلاه أو الاشراف على خدم داره. وقد كان عدد الفرسان العاملين في حراسة الأمير يبلغ في الماضي ألفا وخمسمائة كان معظمهم من النصارى المستعربين أو من النصارى الذين ارتدوا، وكان الأمراء يركنون اليهم ويغدقون عليهم الرواتب العظيمة والصلات. وكان لرئيس هؤلاء الحرس، وهو نصراني مستعرب، نفوذ كبير في الدولة فكان يشارك غيره من كبار القواد كلما أرادوا اختيار الأمير الذي سيتولى الحكم، لأنهم أركان الدولة وأعيانها. وكان للملك مجلس يشاوره في أمور الحرب والسياسة، ويتكون من شيوخ عارفين بالأمور والأحوال، يبلغ عددهم مائة وخمسين، وهم في الجيش قواد للجملات. وكان للأمير حراس شخصيون، وهم مائة من النصارى المرتدين المسلحين ببنادق النار. وكانوا يرافقون الملك في حله وترحاله، إلا أن الفرسان من النصارى المستعربين أقرب إلى الملك من غيرهم، وكان للملك حرس من غير هؤلاء

يتقدمون مشيا على الأقدام، وكانوا من الأتراك المسلحين بالبنادق النارية أو القسي، وإذا سار موكب الملك كان بجانبه كبير الخدم حاملا بيده مزراقا مستقيما ولا يبتعد عن ركاب الملك، وفي الجانب الآخر حارس ثان من كبار الخدم وهو حامل بيده درقة، ووراء الملك حارس ثالث راكب متن فرس حامل قذافة للسهام. وكل هؤلاء على أفراسهم، والى جانبهم قواد آخرون ومكلفون بالمراسيم. كان سير الأمراء على هذه الهيئة المرتبة، وهي شبيهة بما عليه ملوك فاس، سواء في سير المواكب أو طريقة أكلهم أو معاملتهم للرعاية وجميع الأجانب، وكانت سكتهم المضروبة قطعا ذهبية تساوي الواحدة منها خمسة من أرباع ريالنا (إيكو) وقطعا صغيرة من فضة قيمة تساوي الواحدة منها ستة دراهم مرابطية. واثنان وثلاثون منها تساوي واحدا من ريالاتنا. وقد ذهب كل هذا المجد الذي بناه أمراء تونس عندما استولى باربارس على دولتهم، فبالرغم من كون الأمير الحفصي مولاي الحسن قد انحاش للأتراك ودخل في امبراطوريتهم هو وولده[61] فإن أمراء تونس لم يستعيدوا ما عرفته دولتهم في سالف عهدها من العظمة والرونق والازدهار، بل إنهم انشغلوا بمعاناة شغب قبائل الأعراب وبمحاولة استرداد المدن التي أخذها منهم الأتراك. ثم إن الأتراك وسعوا مناطق نفوذهم حتى دخلت فيها مدينة تونس فاضطروا الملك[61] عندئذ الى الالتجاء الى حلق الوادي حيث تقرب من فيليب الثاني ملتمسا منه بالحاح أن ينصره حتى يستعيد ملكه مثلما سبق أن فعل شارلكانت مع والده[62].

إستيلاء باربارس على مدينة تونس

حكم مولاي محمد والد مولاي الحسن في تونس مدة ثلاثين عاما. وقد ولد عددا من الأبناء من عدة نساء. وكان أبرزهم عم الناصر وعبد الرحمان والمامون والرشيد وعبد الهادي وحُسين. وقد مات الأول والثاني في قسنطينة، وحبس المامون في القلعة حتى لا يثور على أبيه، وكان الآخرون على حال من الفسوق والعهر أقنعت والدهم بعدم التفكير في اختيار خلف له في الحكم، إلى أن كانت أواخر أيامه فعزم على أن يعين وليا للعهد بصفة سرية أصغر أولاده وهو حسين، وأمه عربية[63] هي ابنة الشيخ إسماعيل وأخت الشيخ ضرار، وقد اختاره اعتقادا بأنه أكثر نباهة من إخوانه الآخرين وبأنه سيحظى بنصرة قبائل

(61) حميدة.

(62) مولاي الحسن.

(63) غزية.

العرب[64] وشيوخها الذين كانوا أشد باسا من غيرهم في هذه المملكة. وبعد موت مولاي محمد أراد ابنه البكر وهو المامون أن يتولى الملك بعد أن وافق سجانه على تسريحه، ولكن أخاه الحسن سبقه إلى تكوين عصبة تنصره وسارع الى قتل أخيه بطلقة بندقية. وقد جمع عليه الزمرة الذين أعطوا العهد على نصرته في حياة أبيه وحمل لقب الملك وهتف الناس باسمه، وكان أخوه الرشيد خارج القلعة، ولما علم الخبر لاذ بالفرار حتى لايتعرض للقتل مثل ما جرى لأخيه الأكبر. وما لبث الحسن أن أمر بالقبض على جميع أخواته وإخوانه وأبنائهم وزوجاتهم فأمر بقتل بعض الذكور وسمل عيون آخرين وأمر بسجن الاناث في أحد الحمامات، أما الرشيد فقد أفلت من متعقبيه ولجأ الى مدينة[65] في نوميديا لقى الترحاب من أهلها وما لبث حاكمها وهو الشيخ عبد الله أن أصهر اليه بإحدى بناته. وقد جمع جيشا قويا من الأعراب وزحف يريد قتل الحسين، وخرج اليه هذا الأخير ومعه الأتراك والنصارى المستعربون في حرس الملك، والتقى الجمعان على مقربة من مدينة تونس. وانهزم الحسن، ولكن رجاله استماتوا في الدفاع عن المدينة ومنعوا الأعراب من دخولها. ولما تبين للرشيد أن مكوثه في الحصار لا يجدي، إذ لم تكن لديه المدافع لضرب المدينة، ولا مطمع فيها بغير ذلك، أمر بإشعال النار في الارباض وفي الأشجار المحيطة بالمدينة، وسرح الأعراب وأخذ طريقه الى مدينة الجزائر عازما على طلب الامداد من بربروس. وتم له ما أراد حيث رحب به القائد المذكور ووعده بعطاء عظيم وإن كان فعل ذلك وهو يبيت أمر آخر. ولما كان الإقدام على مثل ذلك الشأن يقتضي إبلاغ السلطان الأعظم، فقد استصحبه معه الى القسطنطينية. ولما وصلا اليه صدر الاذن للرشيد بمقابلة السلطان. و لاشك أن مساعي الرشيد كانت ستنجح لولا أنه مر عن طريق بربروس الذي كان يتطلع الى إلحاق إمارة تونس بأمبراطورية العثمانيين. ومن أجل تحقيق ذلك خرج قاصدا تونس وهو يدعي انه أراد اللحاق بالأسطول تاركا الرشيد في وضعية مسجون بالقسطنطينية. وما أن ظهر الجيش العثماني البحري على سواحل بلاد البربر حتى قرر مولاي الحسين الخروج من تونس وتركها ظنا منه أن أخاه كان في ذلك الجيش لأنه ذهب يطلب العون من القسطنطينية، وقد قيل له إن الثورة لن تلبث أن تقوم في المدينة، ولذلك فر منها ولجأ الى بعض

(64) أولاد يحيى.

(65) بشارة.

أصدقائه من الأعراب مترقبا ما سيفضي اليه سعي الأتراك. أما بارباروس فإنه وصل الى بنزرت فاسلمت اليه قيادها لأن أهلها كانوا في شقاق مع الحسين، ومن ثمة مر الى مرسى فارين ومنه الى رأس قرطاج، ثم وقف مترصدا بإسطوله قبالة برج حلق الوادي، وضرب بمدافعه في الهواء طلقات متوالية دون ذخيرة إعلاما بالتضامن، ورد من كانوا في البرج بالمثل. ولما سألهم عمن هو محل ولائهم، أجابوا بأنهم يؤيدون الذي يرجع اليه ملك تونس، وكان سكانها قد عرفوا بوصول الجيش البحري، واعتراهم التأثر والحماس في انتظار وصول الرشيد، وكانوا يمقتون أخاه الحسين بسبب ما عانوه من قسوته وطغيانه. وقد نزل الحسن من الحصن وتوجه اليهم ليكلمهم، ولكنهم تنكروا اليه ونهروه، فعظم إستغرابه لذلك الموقف حتى إنه أسرع بمغادرة المدينة دون أن يحمل معه أي شيء، بل إنه لم يتمكن من العودة الى قصره حيث توجد أمواله وأحجاره الكريمة وغير ذلك من جهازه. فعندما كان جيش شارلكانت بإفريقيا حكى لنا هذا الأمير أنه في عجالة خروجه من القصر وضع في صرة من الملف الأحمر مائتين من الخواتم النفيسة التي لا تقدر بثمن ولكنه نسيها عندما قام من منصته وذلك من شدة الذعر والذهول. وكانت ثروة عظيمة لمن وجدوا وما أن خرج الحسن من المدينة حتى بادر المنفذ وعامل القلعة بتسريح زوجة الرشيد وأبنائه وتمكينهم من صلة ملكية ومعاملتهم معاملة الأمراء، كما قاما بتحرير بعض القراصنة الأتراك رجاء ادراك عفو الملك الجديد وهما يحسبان انه قادم في الجيش البحري. وعلى إثر ذلك بعثوا الى حلق الوادي خيولا مزينة بأسرجة فاخرة أعدوها لركوب الرشيد وبارباروس وغيرهما من قواد الجيش، وأوصوا الذين ذهبوا بها أن يطمئنوا القادمين بان المدينة تقدم اليهم ولاءها. ولما نزل بارباروس ذهب توا الى تونس ومعه تسعة آلاف من الأتراك جاء بهم على متن ستين سفينة حربية ملكية. وقد دخل تونس من باب عليوة واخترق الربض ووصل الى باب المدينة(66) ومنه الى الجامع ثم الى القلعة. وقد استقبله أهل المدينة بابتهاج كبير وعبروا له عن امتنانهم له بالمجيء، ولما تبين لهم أن كل الكلام يدور حول سليمان وبارباروس وان لا ذكر للرشيد بدأوا يظهرون الاستنكار، وزاد غضبهم عندما علموا أن الرشيد قد بقي حبيسا في القسطنطينة. ولما انكشفت الخديعة تجمع سكان المدينة في الساحة، يتقدمهم المزوار، وهم عازمون على محاصرة القلعة، وقد أرسلوا على وجه السرعة في طلب مولاي الحسن، ثم حملوا السلاح وبدأوا يقاتلون الأتراك ويعاملونهم معاملة

66) باب الجزيرة.

العدو، ولما رأى باربароس أنهم بصدد التضييق عليه أمر الفرسان من حملة البنادق بشن الغارة عليهم، وما لبثوا أن اضطروا الى الاستسلام والى قبول الملك الأعظم أميرا عليهم، وقد بادر باربароس الى تهدئة الناس والى التحالف مع من بتلك الجهات من الأعراب، ثم استعمل هؤلاء في الاستيلاء على بعض المدن، وجعل حاميات تركية بالقيروان وغيرها، ثم ظهر له أن يقوم بتوسيع ميناء مدينة تونس، فاستخدم الأرقاء من النصارى في شق قنال حلق الوادي الذي يمتد من البحر الى البحيرة، أما مولاي الحسن فقد فر الى قوم من أصدقائه الأعراب ومكث عندهم الى ان أرجعه شارلكانت الى مركزه في الحكم.

حملة شارلكانت على تونس

كان لمولاي الحسن صاحب من مرتدي النصارى الجنويين(67)، وكان هذا الشخص محل ثقته. ولما رأى أن سيده مغموم بما حل به من النكبة وإبعاده عن الحكم وهو لا يملك حولا ولا قوة من أجل الرجوع اليه، نصحه باللجوء الى شارلكانت على فرض انه سيرحب بتلك الفرصة السانحة لينتقم من قرصان يقض مضجع المسيحية جمعاء. وقد ظهر لمولاي الحسن صواب ذلك الرأي ولم يلتفت الى حاشيته من الفقهاء الذين بينوا له انه لن ينال رضا رعاياه في يوم من الأيام إذا عاد الى بلده يعززه جيش من النصارى. وهكذا بعث ذلك المرتد الى الأمبراطور يدعوه الى القيام بتلك الحملة ويتعهد له بأن يكون ممن يقرون له بالولاء والتبعية وبأن يلتحق به هو وعدد من أفراد أسرته ومن أصدقائه عندما يصل الى بلاد البربر، كما التزم له بتزويد جيشه بالأقوات وأداء بعض المال لجنوة. وقد قام هذا المرتد بتلك السفارة أحسن قيام، فقد استطاع أن يعظم في عين الامبراطور وأمام مجلس مستشاريه الأهمية التي يكتسيها طرد القرصان باربароس من مكان قد يدبر انطلاقا منه أعمالا فيها خراب المسيحيين. وهكذا اعتقد الامبراطور بعد اعتبار نجاح باربароس، ان الله أقحمه هو وأصحابه في مكان سيكون من الصعب الخروج منه. وأصابت الامبراطور حمية الدين المسيحي، وأدركته الشفقة على الأمير الذي غصب ملكه وجاء يتطارح عليه وهو المجبول بطبعه على الرحمة، فقرر أن يخرج بنفسه الى هذه الحملة المقدسة، وأعطى أوامره سرا بأن تعد للحرب سفنه

67) يدعى هماء

(القاليرات) في موانىء إسبانيا وجنوة ونابولي وصقلية وأن تعد مع سفن الحرب سفن أخرى للنقل ضخام وأن تشترى الأقوات والذخائر وغيرها من جميع لوازم الحرب، وكتب الأمبراطور الى الدون يان ملك إسبانيا بأن يبعث اليه غليونه أي سفينته الشراعية الحربية الكبرى وكذا عددا من قطع أسطوله الحربي، ثم أمر باستكمال ما بقي من الاستعدادلمثل هذه الحملة العظيمة، ولكن الامبراطور لم يتمكن من إجراء أموره في سرية تامة كما كان يريد، بل إن باربلروس علم بتلك الاستعدادات، ولكنه لم يتأكد منها بصفة تامة الا عندما حل بحلق الوادي، في سفينتين حربيتين، راهب فلورانسي مبعوث من ملك فرنسا الى امبراطور الترك (السيد الأعظم) في شأن بعض أغراضه فأخبرو باربروس بجميع ما يتعلق بالاستعداد للحملة مؤكدا له أن الامبراطور سيشارك في الحملة بنفسه، وعندئذ بادر باربروس بإرسال مركبين صغيرين الى القسطنطينية أحدهما تلو الآخر بقصد إطلاع السيد الأعظم والباشوات على الحالة التي توجد عليها شئون افريقية وإبلاغهم بضرورة التعجيل بالأنجاد وإلا ضاع جيش البحر وضاعت معه ولايات الترك في بلاد البربر. وكان سليمان في ذلك الحين مشغولا بالحرب في آسيا، وقد القى فيها بمعظم قواته، ولم يكن باشوات القسطنطينية يملكون من الوسائل ما ينجدون به باربروس حتى ولو رغبوا في ذلك، إذ لم يكونوا يتوفرون لا على السفن ولا على الرجال. ولما كان باربروس قائدا متصفا بالشجاعة والشهامة فقد عزم على أن يفرغ ما تبقى له من الوقت في تحصين حلق الوادي وان يمتنع به مدافعا بمن كان معه من كتائب الجند. وأخذ في إعداد السلاح والذخائر والمؤن، واستنفر جميع قراصنة الشرق وكذا جميع من له دراية بالحرب من أهل الجزائر وغيرها من قلاع بلاد البربر، وطير الاعلام الى جميع أمراء افريقيا طالبا نجدتهم ضد عدوهم المشترك، وصور لهم أن ضياع مدينة تونس سيترتب عنه لا محالة ضياع بلاد البربر جمعاء. ولما بلغه ما أبرم مولاي الحسن من العهود مع ألامبراطور اجتهد في الظفر به حيا أو ميتا. وقام بتوسيع حلق الوادي حتى يحتوي كتائب العسكر التي أراد انزالها به. وأمر بأن يقف بالقنال الذي يؤدي الى البحيرة جميع الجيش البحري ما عدا اثنتي عشرة من سفن الحرب السريعة (القاليرات) أحسن تجهيزها وتركها خارج القنال وما عدا أخريات مثلها في العدد والعدة كان يملكها راسية في نهر عنابة. ولما أكمل ما يلزم للدفاع من الاستعداد ظل يترقب في صبر وأناة ظهور عدوه في الأفق. أما الامبراطور فقد انتقل الى برشلونة حيث أمضى شهر ماي

بأكمله، ولما علم أن جيش المشاة القديم المتكون من كتائب الاسبانيين والالمانيين والايطاليين سيصل الى جزيرة سردينية في بداية شهر يونيه ركب البحر في اليوم الثلاثين من شهر ماي على متن سفينة حربية ذات أربعة مجاذيف على كل جهة، وكان اندريا دوريا قد أمر بأن تصنع تلك السفينة خصيصا له في جنوة، وقد ركب مع الامبراطور الإنفانت الدون لويس أخي الامبراطور، وكان قد وصل برا ليشارك في هذه الحملة، كما ركب معه عدد من السادة ونبلاء القوم وعليتهم من الاسبانيين ومن الأمم الأخرى. وفي غضون يومين تم إقلاع مجموع الجيش، وكان شارلكانت يتوفر على أربع وخمسن سينة حربية خاصة به، وعلى سبعين سفينة من السفن الضخام كان من بينها عدد من سفن النقل جاءت من فلاندرا، وهي التي تحمل الخيل والمشاة والذخائر والمؤن، وزيادة على ما ذكر شاركت في هذه الحملة أربع وعشرون من السفن الحربية (الكرافيلات) التابعة لجيش البحر، وشاركت فيها أيضا سفينة شراعية قوية ضخمة (غليون) كان قد أرسلها اليه أخو زوجته ملك البرتغال، ولم يمض على إبحار الجيش سوى وقت يسير حتى هبت رياح عكسية وأبعدت السفن بعضها عن بعض فاضطرها الى الرسو في أماكن مختلفة، أما القاليرات فقد مالت الى ميورقة وبقيت هنالك الى ان اجتمع مجمل الجيش البحري في مرسى ماون في جزيرة مينورقة، ولما هدأ البحر أخذ هذا الجيش طريقه الى ساردينيا وأرسى في كَياري وفي غيره من مراسي الجزيرة. وعندما حل بها الامبراطور وصل اليه ماركي دوكَوات ومعه ثمان وعشرون سفينة نقل وست وثلاثون من القاليرات الملكية وعدد كثير من أنواع السفن الصغرى، وقد أدخل بذلك سرورا عظيما على شارلكانت، وبينما كان يجري الاستعداد للانطلاق وكانت تشحن على السفن كميات من الفطائر ومن اللحوم المملحة التي تم اعدادها في الجزيرة إذ وصل عبى نصارى فروا من تونس على ظهر قارب، وأخبروا بأن باربروس منهمك في تحصين حلق الوادي وأنه يسخر جميع من عنده من النصارى بقصد إحكام منعتها وضمان صمودها، وكان ذلك الخبر سببا في تعجيل الذهاب في غد ذلك اليوم. سارت مقدمة الأسطول تنفخ رياحا مواتية، وكانت في الصدارة سفينة أندريا دوريا بمناراتها الثلاث، وما ان افلت الصباح حتى ظهرت قبالة مرسى فارين على بعد ستين ميلا من مرسى كَاياري الذي كان منه الانطلاق. وكان ذلك النجاح مبعث التوجه بالشكر الى الله الذي اشفق على تلك السفن الكثيرة الجميلة التي كانت تظهر وكأنها غابة تتقدم فوق الماء، فقد كان عددها أربعمائة، منها تسعون من القاليرات الملكية وعدد من القوارب والحوازيق التي أتى بها متطوعون من اسبانيا

وايطاليا ومن بلدان أخرى، وكان الى جانب جنود البحر أربعة وعشرون الفا من الفرسان، أربعة آلاف منهم من الاسبانيين وأربعة آلاف من الايطاليين وسبعة آلاف من الالمانيين كلهم من المقاتلين الأشداء المحنكين، وكان في أسطول اسبانيا ثمانية الاف معظمهم حديثو العهد بالتجنيد وقليل منهم سبق لهم ان جربوا الخدمة في الجيش، وهنالك بالاضافة الى من ذكر ألف من البرتغاليين وقع استئجارهم لكي يطلب منه النزول عند الحاجة، وألف آخرون مكلفون بحراسة السفن، أضف الى كل ما ذكر خمس عشرة مائة من الخيل، منها الف يملكها سادة ونبلاء من مختلف الأمم ومنها خمسمائة من مهور إسبانيا. كان المشاة الاسبانيون الذين قدموا من ايطاليا تحت قيادة الماركي دوگوات، وكان الايطاليون تحت قيادة امير صاليون. أما دوق الب فكان يقود المشاة الذين قدموا من اسانيا، وكان الالمانيون الى نظر ماكسيميليان ببيلر بوينا، بينما كان ماركي مونديشار يقود المهور. ولما وصل الجيش البحري الى مرسى قارين، وهو مرسى كبير غير مأمون، ارتطمت السفينة الامبراطورية بحافة من الرمال. ولكن وقع إجلاؤها بما ينبغي من السرعة وذلك بإعمال قوة الأشرعة من جانب وباعمال التجذيف من الجانب الموالي للبر، وقد توجه الأمبراطور من هنالك ودار على رأس قرطاجة وجميع ساحل المرسى الذي تظهر منه أطلال هذه المدينة الشهيرة وكذا حدائق ملك تونس، ثم أعطى أوامر لماركي دوگوات بالذهاب مصحوبا ببعض القاليرات قصد التعرف على ما يجري في حلق الوادي وساحل برج الماء الواقع بين قرطاجة وحلق الوادي على بعد ما يزيد قليلا عن ربع فرسخ منها، وقد توغل في رحلته بقدر مكنه من الرجوع بمعلومات جديدة عن البرج وعن تحصينات حلق الوادي. وفي غد ذلك اليوم تجاوز الأمبراطور منطقة الرأس ووقع الشروع في إنزال الجنود على أحسن ترتيب. وكان الذين نزلوا الى البر قبل غيرهم هم الجنود المحنكون من فيلق فرانسيسكو سارميينتو، وأنزلوا معهم بعض آلات الحرب وعددا محدودا من الأفراس، وبعد ذلك نزل شارلكانت ونزل معه الإنفانت الدون لويس وكذا جميع النبلاء، وقد وقع ذلك دون أن يعترض الأتراك أو الأفارقة على نزولهم، وكل ما شاهدوه هم بعض العرب الذين كانوا يجرون على طول الساحل يصرخون كما هي عادتهم. وبعد مناوشات قليلة انسحبوا واختفوا بين أطلال قرطاجة وفي جهة برج الماء، وبعد ذلك نزل جميع المشاة الايطاليين، والزم الضباط جنودهم بأن يظلوا في صفوف متراصة حول العلم، وقضوا ليلتهم مجندين متأهبين في ملاجىء على طول الساحل، وفي الغد وصلت

الجيوش القادمة من اسبانيا ووصل فرسان المدفعيين وجميع عدة الحرب وذخيرته، وقام أندريا دوريا بالاستيلاء على برج الماء حيث كانت سبعة آبار أو ثمانية لم تكن مياهها على ما يرام من العذوبة. وقام الجنود بالاستيلاء على قرية صغيرة قريبة من قرطاج كان سكانها قد هاجروها فوجدوا فيها قمحا وزيتا، ومن هذه القرى واحدة في أعلى الجبل وهي برج المنارة وقد أمر الأمبراطور بأن يحتلها ثلاثمائة من الاسبانيين لأنها تشرف على مجموع البلدة، ولم يمض سوى حين حتى نصبت خيام الامبراطور والافانت اللدون لويس فوق ربوة صغيرة واقعة بين قرطاج وبرج الماء، وعسكرت حولها جميع فرق الفرسان والمشاة. وفي هذا المكان بالذات عسكر القديس لويس عندما حاصر تونس. ويتداول أهل المدينة نبوءة مفادها ان ملكا قويا سينزل هنالك وينصب خيامه ويدخل تونس، ولما سمع بها سحرتهم ذبحوا خمسة أطفال وصنعوا من دمائهم عددا من الرقى يبغون بها دفع ذلك البأس المرتقب، إلا ان ذلك كله لم يجد مع امبراطور عميق الايمان بالمسيحية.

تحصين حلق الوادي وما فعله بارباروس بعد نزول النصارى

لما رأى بارباروس ان جميع جيش النصارى قد نزل الى البر أظهر الارتياح وان كان يخفي ذعره من هذه القوة العظمية، وقد أخذ العهود على شيوخ العرب، وأرسلهم لمناوشة النصارى، ولم يكن من قبل قد احتاج الى استدعائهم للمجيء الى تونس، وانما كان يشغلهم بقتال مولاي الحسن وقتال غيرهم من العرب أنصار جده اسماعيل. وقد دخل الكثير منها في خدمته لأنه كان يجزل لهم العطاء حتى يصرفهم عن مولاي الحسن. وكان عدد من الى نظره منهم حينئذ خمسة عشر الفا كلهم من الفرسان، وكان يزيدهم عن أجورهم ما يطيب به خواطرهم. واجه بارباروس بهؤلاء العرب جيش الامبراطور الذي كانت تنضم اليه كل يوم عناصر من الفرسان والمشاة من تونس. وفي اليوم الاول من مناوشتهم جاءوا بعدد من المزامير والطبول وكانوا يصيحون فتهتز لأصواتهم جنبات المعسكر، ولما وقع الصدام لم يسمح الامبراطور لجنوده بالخروج عن صفوفهم لأن الأعداء كانوا يقاتلون وهم مختبئون وسط الأشجار والبساتين ولا يبتعدون عن أطلال قرطاج، وهذا هو السبب في قلة عدد القتلى، إذ لم يهلك في هذا اللقاء سوى بعض الجنود وبعض أفراد الجيش البحري الذين ابتعدوا عن أماكنهم بحثا عن ثمار الأشجار. كان حلق

الوادي قبل أن يحصنه بارباروس عبارة عن برج مربع شبيه بمقر الجمارك، عند مدخل القنال الذي تتسرب عبره مياه البحر الى المستنقع الواقع قبالة مدينة تونس، وطول هذا القنال مقدار رمية قذافة، ولكنه ضيق حتى إن سفينة حربية (قاليرة) لا تستطيع المرور به بإعمال التجذيف. أما المستنقع فطوله ثلاثة فراسخ وعرضه فرسخان، وفي غير ما مكان توجد أرصفة رملية لا يمكن تجاوزها الا بواسطة القوارب على امتداد القنوات التى وقع شقها في اتجاه تيار الماء. وعلى يمين المستنقع، بالنسبة لمن هو متجه الى تونس، شاطىء مستو رملي، وبين الماء والبساتين لا توجد سوى مسافة قليلة، مقدار رمية بالحجر، أو يمتد هذا الوضع الى الجهات المجاورة للمدينة. أما على يسار المستنقع فالطريق وعر شاق ما عدا في الجهة المحاذية لحلق الوادي حيث يوجد بسيط صغير. وقد ارتأى باربروس أن تحصين تونس أمر متعذر إذ تشرف عليها عدة مرتفعات من جهة الغرب، ولو أريد تحصينها لاحتيج الى هدم الأرباض وهي كل زينة المدينة ولا يقبل هدمها السكان، ولهذا جمع أمره على تحصين حلق الوادي ولاسيما من جهة قرطاج، وهي الجهة التي يمكن للنصارى النزول بها إذ لا تتوفر في الجهة الأخرى إمكانيات الماء والأغصان المستعملة لتحويل المجاري وامكانيات الحطب، ويضاف الى الاعتبارات المذكورة أن هذه الجهة غير مأمونة بالنسبة للسفن، ثم ان تقسيم الجيش بين الجهتين أمر غير محمود، وهكذا فما ان علم من الراهب الفلورانسي أن جيوش الامبراطور تتأهب للقدوم حتى أمر ببناء جدار سميك يمتد من البحر الى برج الماء ثم الى المستنقع، ثم أمر بان يبنى في الطرف الأقصى لهذا الجدار حصن مستدير على شكل بستيون بعوارض وبشرفات تنظر الى جميع الجهات، ولما ضاق عليه الوقت لإتمام هذا الجدار ومده الى المستنقع، أمر باقامة سور في المكان الفارغ يصنع من تجاذيف السفن تغرس في الأرض وتربط بأغصان الشجر وتردم بالتراب، وهذا السور أقوى صمودا للمدفعية من الجدار، وبعد ذلك استعمل أكياسا من شعث القنب أخذت من سفن راسية هنالك أصلها من الإسكندرية وأكياسا أخرى من الصوف جيء بها من تونس، لكي يقيم سورا جعل فيه كوات منخفضة جدا يمكن أن تتحرك فيها المدافع، ثم حمى السور من الخارج بخندق ملىء بمياه البحر، وأعطى أمره ببذل الجهد في تحصين الجهة الشرقية لحلق الوادي وذلك باستعمال الأخشاب والتراب وغير ذلك من الأشياء، وعلاوة على ما ذكر أمر باربروس ببناء جسر جد متسع فوق القنال داخل هذه الأسوار وفي مساحة من الأرض بين البحر وبرج حلق الوادي أمر ببناء سور يطل على الشاطىء يتأتى منه الدفاع عن السفن الحربية

الاثنتى عشرة التي له خارج القنال. وفي جهة الغرب كانت عدة سفن صغيرة وقع سحبها الى البر ونصبت بينها عدة مدافع مصوبة الى الأسطول المسيحي، أما السفن الحربية التي في المستنقع فكانت تصوب مدافعها من وراء الأسوار في الأماكن التي تتأتى منها الرؤية. وفي داخل هذه التحصينات جمع باربروس سبعة آلاف من المقاتلين، منهم أربعة آلاف من الأتراك والنصارى المرتدين وألف من الانكشارية وألفان من أهل تونس، ومع هؤلاء جميعا عدد من قواد الجيش وأعيان الناس، وقد زود الجميع بما يلزم من المؤن والمدافع والذخيرة، وكانت القوارب ما بين ذاهبة الى تونس وآتية منها عبر المستنقع، وقد حظر عليه ألا تتعداه وأن تصل الى تونس عبر حواجز الرمال، لأن باربروس كان يحرص على حماية رجاله أكثر مما يحرص على الاحتفاظ بحلق الوادي.

كيف زحف الأمبراطور نحو المدينة
وما كان من لقائه مع العدو

كان الرأي منقسما في مجلس شارلكانت حول ما إذا كان يتعين الذهاب الى تونس قبل مهاجمة حلق الوادي. ولكن العزم استقر في الأخير على عدم ترك هذا الحصن القوي الى الخلف، وبالرغم من أن الاقتحام قد تبينت صعوبته لأن المكان المناسب للهجوم ضيق ومرمل، وبالرغم من أن الاقتناع بان أخذه عنوة لن يتأتى الا بهلاك عدد كبير من الرجال، فقد تقرر ضربه من الخارج والبقاء هنالك عدة أيام. وعلى هذه النية تحركت الجيوش، واتخذ كل مكانه على الساحل تحت برج الماء بعد توزيع المواقع على ما تم الاتفاق عليه. وكان في الصدارة قدماء عساكر الاسبان، وكان وراءهم الالمانيون جهة المستنقع، وظل الاسبانيون الحديثو العهد بالجندية فوق الربوة التي نصبت عليها خيام الأمبراطور ومعهم بعض آليات القتال. أما المشاة الايطاليون فقد وقع توزيعهم على ثلاث فرق، فرقة بقيت في محلة الجيش وفرقة عاملة تحت قيادة الماركي دو فورال كانت على ميمنة قدماء العساكر الاسبانيين فوق قنال كبير كان باربروس قد شرع في تشييده لادخال مياه البحر الى المستنقع وذلك تسهيلا لمرور القوارب التي تأتي من تونس فيتأتى لها أن تصل الى البحر دونما حاجة الى المرور بحلق الوادي. وكان من المتعين تعهد ماء المستنقع حتى يبقى على امتلائه الا ان الوقت لم يسمح باتمام العمل في ذلك. أقدم الماركي على اجتياز القنال وأقام حاجزا من البراميل المملوءة بالرمال، نصبها قبالته بيمنا

يحمى المستنقع ميمنته ويحمي قدماء الجنود الاسبانيون ميسرته، ويحميه القنال من جهة الخلف، وفي الليلة الموالية قام كونت سارنة بالجواز ومعه جنوده من المشاة الايطاليين، وتقدم حتى لم يبق بينه وبين الأعداء سوى خمسمائة خطوة وذلك في موقف بين البحر والمستنقع اتخذ فيه ما يلزم من التحصين. أما ما عدا هؤلاء من الجنود الايطاليين فقد أخذوا مواقعهم فوق القنال الذي سبق أن وصفناه. وفي أثناء ذلك كان ماركي گوات وكان الى نظره قدماء المحاربين الاسبانيين، يتقدم شيئا فشيئا فى حفر الخنادق ويقترب من مواقع العدو، ولما كان هؤلاء واولئك يحصنون مواقعهم بالليل تجنبا لمخاطر النهار، فقد وقع ذات صباح على تبديل حراس محلة كونت سارنة. وبينما كان الجنود يأخذون قسطا من الراحة بعد تعب الليلة الماضية، إذ خرج نفر من الأتراك فجأة من حلق الوادي فقاموا بهجوم عنيف ولم يعودوا الى مواقعهم إلا وقد استولوا على أحد الحصون بعد أن أفنوا من جنوده أربعين

ولما رأى القونت الشجاع ما وقع من الفوضى في صفوف رجاله بادر إلى جمع من استطاع فهاجم الاتراك بشجاعة وتوصل إلى استرداد الحصن وطرد من كان من أعدائه في الخنادق، ولو أنه وقف عند ذلك الحد لأحسن صنعا، ولكنه لما رأى الأعداء قد لا ذوا بالفرار تعقبهم إلى مسافة بعيدة، ولم يكن معه سوى ثلة من الرجال، ولكن الأتراك وقع عليهم الصراخ من القلعة فانقلبوا على الكونت وقتلوه وطاردوا الآخرين إلى أن وصلوا بهم إلى خنادقهم، و لما رأى كل الجيش على أهبة الزحف عادوا إلى مواقعهم ولم يخلفوا غير خسائر قليلة، وبعد ثلاثة أيام خرج الاتراك وهم ثلاثة آلاف من المقاتلين واقتحموا من جهتين محلة الاسبانيين واظهروا شراسة كبرى وتمكنوا من قتل من كانوا نائمين من جنود المحلة كما استطاعوا انتزاع لواءين، ولكن الجنود الآخرين تمكنوا من اخذ السلاح والدفاع بشجاعة حتى جاءتهم الاغاثة من رفاقهم، وعندئذ ردوا الاتراك على أعقابهم وطاردوهم ببسالة حتى إن بعضهم تعقبوا الاتراك في جهة المستنقع وتوغلوا إلى وسط خنادق العدو وهم يهتفون بمجد إسبانيا ويطلبون السلالم، ولو توفرت لهم وتبعهم خلق اكثر عددا لتمكنوا من اخذ حلق الوادي في هذا اليوم، ولما كانوا غير معززين بمعظم الجنود المشاة فان الذين توغلوا بين الأعداء قد وقع الاجهاز عليهم بعد أن دافعوا عن أنفسهم بشهامة. أما الآخرون فقد تراجعوا تاركين خمسين قتيلا في تلك الساحة عدا ثلاثمائة من الجرحى، وقد هلك في هذا القتال ثمانون من الاتراك ظلت جثثهم على الرمال ولم يتمكن رفاقهم من سحبها، وفي الليلة الموالية قام

الأعداء بسد الممر الذي دخل منه الاسبانيون وذلك بإقامة سياج من الدعامات المغروزة في التراب محمية بخندق صغير ذي عوارض وواقيات، وبينما كان ذلك يجري في حلق الوادي، وكل طرف يقترب بخنادقه من الآخر في واضحة النهار، قرر باربروس، وهو الذي لا يخفى عليه شيء مما يجري في الساحة، أن يكبد النصارى خسائر بأخذهم من كل جانب، وأعطى أوامره، تحقيقا لذلك الهدف، لجميع فرسان قبائل العرب وفرسان أهل تونس أن ينقضوا عليهم مصحوبين بعدد من المشاة معززين بست قطع من سلاح المدفعية وأوصاهم بأن يأتوا عدوهم من جهة حدائق الزيتون، وأمر الذين كانوا بحلق الوادي بأن يخرجوا بستة آلاف من المقاتلين عندما يلتحم الفريقان في القتال، وبأن يتولوا الهجوم على الخنادق، ولكن خبر كل ذلك بلغ الى الامبراطور بواسطة بعض عيونه في مدينة تونس، فأمر بأن تقترب منازل الجنود من وسط المحلة وان يبقى الجنود متأهبين للقتال طيلة الليل وأن تصوب المدافع الى الجهة التي يتوقع أن يكون منها الهجوم، ولما طلع النهار ولم يطرأ أي شيء جديد، أمر الجنود بالرجوع إلى محلاتهم ليأخذوا بها قسطا من الراحة. وما أن شرعوا في التحرك حتى خرج اليهم العرب الذين قضوا الليل متربصين تحت أشجار الزيتون، فهاجموا بجمعهم وضربوا بالمدافع الجنود الذي كانوا بصدد الانكفاء نحو منازلهم، وفي ذات الحين جاءت من جهة المستنقع مراكب محملة بالمدافع فهاجمت النصارى، وتقدم هؤلاء المتوحشون وهم يصرخون، وتوغلوا داخل محلة النصارى بجرأة أزعجت الامبراطور فأمر بالهجوم خفتا، حيث أعاد الجيش إلى حالة تأهب وعزز حراس الخنادق وأمر الدون لويس هورتادو، وهو ماركي مونديشار، بأن يزحف لقتال المهاجمين ومعه مائتان وخمسون من الفرسان الاسبانيين المدججين بالسلاح يحمل كل واحد منهم بندقية فتيلة، وكان وراء هؤلاء الفرسان ستة آلاف من المشاة، الفان من كل أمة، لا يتميز هذا عن ذلك، تقدموا جميعا في فيلقين اثنين، وقد أمرهم الامبراطور بالتقرب من العدو حتى يطلوا على مقدرة الاعداء وطريقتهم في القتال، وكان معظم هؤلاء يرتدون سترات معدة للحرب ويحملون رماحا طول الواحد منها ما بين اربعين وخمسة وأربعين شبرا، في طرفي كل رمح قطعة من حديد، وكانوا يطلقون صيحات تصم لها الآذان، وإذا انقضوا في هجومهم روعوا من لا عهد له بقتالهم. أما شارلكانت فقد سار في إثر الفيلقين ومعه بقية جيشه وقصده أن يشد أزر أولئك المقاتلين، وقد ترك ماركي مونديشار من كانوا معه من حملة البنادق على مبعدة منه، فهاجم العدو بالفرسان

وحدهم، وناوش ببسالة فرسان الاتراك ومن معهم من الأهليين، ومات في تلك المناوشات جماعة من النصارى، وقتل الماركي بيده القائد ساسي وهو من شجعان المرتدين، وكان قائد فرسان العدو، ولكن الماركي تعرض للجرح بالحربة مرتين، وكاد يهلك لولا أن عجل أصحابه بنجدته، وكان منهم من وهب حياته في سبيل انقاده، وقد كان لمرافقه قائد بيدمار(68) دورعظيم في افلاته من هلاك محقق، وكان الامبراطور قد رأى ما حاق بالماركي من المخاطر فبادر إلى نجدته بنفسه ومعه اربعمائة من الفرسان. ولما رآه المسلمون يتقدم بالعساكر من حملة البنادق اخذوا في الفرار وخلفوا وراءهم ثلاثة مدافع، وعندئذ أمر الأمير جيوشه بالرجوع إلى معسكراتها، ولما رأت حامية الحصن ما كانت عليه الخنادق من حسن الترتيب لم تجرؤ على الخروج مكتفية بالضرب بالمدافع من الجهات التي رأت أن تلحق منها أعظم الاضرار، وكان من عادة الاتراك اطلاق رشقات من بنادقهم في آن واحد مرتين في كل يوم، مرة عندما يريدون اقامة الحراسة في بداية الليل ومرة ثانية عندما يريدون تغيير الحراس في بداية النهار. وكانوا يضربون كذلك بمدافعهم لتحدث دويا عظيما. ولكنهم لم يكونوا يحدثون ضررا كبيرا لأن النصارى يعملون على اتقائها، وبعد ذلك يقومون بالرد عليها. لقد كان بحق مشهدا رائعا، وكان في سماع هذه الطلقات متعة قد تدوم ساعتين، وفي تلك الاثناء كان شارلكانت يترقب من يوم لآخر وصول امير تونس، وكان هذا الامير يعلم بقدومه دون أن يتمكن من التقدم في طريقه لأن باربروس قد تمكن من الممرات، ولكنه وصل في آخر المطاف، ولم يصطحب معه سوى مائة وخمسين من الافراس، ومع ذلك فقد استقبله الامبراطور استقبالا حسنا، حيث أقام له خيمة فاخرة بجانب خيمته الخاصة، وفي الغد، امر بأن يعرض عليه مجموع الجيش، وكان منظره بحق جديرا بالاعجاب، ومن ذلك ان مجموع الشاطيء ما بين برج الماء إلى مقربة من حلق الوادي كان مليئا بمحلات الصناع والتجار ممن تبتاع عندهم جميع أنواع البضائع وبوفرة لا توجد الا في أكبر المدن عمرانا في العالم، فقد اتى الماركي دولافالي من نابولي بعدد من سفن التجار المليئة بالاقوات والذخائر. وجاءت سفن مثلها من اسبانيا، ففي كل يوم كانت تنطلق من مايوركا وساردينيا وصقيلة ومملكة نابولي زوارق وسفن شراعية صغيرة محملة بالخبز الطري والخمر واللحوم المملحة وبجميع انواع الثمار والبضائع، يضاف إلى ذلك أن الشاطيء كله صالح لاستنباط مياه للشرب بمجرد حفر ثلاثة أقدام أو

68) ألفونسو دي لاكويفا.

أربعة، أما محلات الجيش ومساكنه فكانت كلها في أنسب مكان، محصنة باتقان من كل الجهات، وقد وقف الملك المسلم مما رآه متعجبا، ولم يداخله شك بعد ذلك في امكان استعادة ملكه، ومع ذلك فقد باح بتخوفه من نكث الامبراطور لانه لم يوف له هو بعهده، إذ لم يكن عاجزا على أن يقدم له المال أجرا لجيوشه فحسب، بل إنه تلقى منه قدرا من المال اعطاه لأشخاص امتنعوا عن اتباعه معتذرين بكونهم لا يليق بشرفهم ان يحملوا السلاح في جانب النصارى ضد اخوانهم في الدين، ولكن الامبراطور كان مقتنعا بأن ذلك الامير غير مسئول عما وقع فيه، بل إنه تعرض لعدد من المخاطر، ونجا مما نصب له من الكمائن، وقد استطاع ان يفلت من أيدي اعدائه بسرعة فائقة ممتطيا صهوة جواد بربري، ثم ان باربروس قد استعمل الوعود والهدايا لتشتيت جميع أصدقائه وصرفهم عنه. وبعد هذا كله فقد قاسى الشدائد في سبيل اللحاق بجيش الامبراطور، والواقع أنه كان يثير الشفقة، ثم إنه كان أبيا شجاعا قويا من أعظم فرسان زمانه في افريقيا. وبالإضافة إلى ذلك فقد كان ودودا مرحا، وإذا ما غضضت الطرف عن بعض الرذائل المعتادة في جو البلاطات وجدته واحدا من أعظم أمراء عصره. ولنعد الآن إلى ما كنا بصدده، منذ الصدمة الكبرى التي جرح فيها الماركي دوموند يشار.
فقد اكثر العرب من مناوشاتهم لأن الامبراطور أمن الجيش من الجهة التي بها اشجار الزيتون وامر ببناء جدار أو سترة على امتداد المعسكر ما بين قنال باربروس واطلال قرطاجة، وقد عهد بحراسته للاسبانيين والالمانيين، وبهذا صارت هجومات هؤلاء البرابرة واستفزازاتهم لرجالنا بدون جدوى، وقد مات عدد من الجنود من الجانبين في هذه المناوشات بسبب وجود عدد من الاتراك المنبثين بين السكان الاصليين والأعراب. وقد جرح في احداها الماركي دوفورال بطلقة بندقية ومات بصقلية بعد ان ذهب اليها بقصد العلاج. ثم إن الأتراك المتحصنين في حلق الوادي كانوا يقومون بهجومات ليلا ونهارا تضييقا على النصارى وتنكيدا لهم، وقد قاموا ذات ليلة بهجوم شارك فيه ما يزيد عن أربعة آلاف مجتمعين، قصدوا خنادق الاسبانيين الذين اقتربوا من أسوار باربروس. وكانت تهب عاصفة قوية عندما هاجموا تلك الأسوار فكانت الرياح تعصف بزوابع من الرمال والغبار وتضرب بها أعين النصارى فلا يرون أمامهم، وذلك في ليل شديد الظلمة يتعذر فيه على أحد أن يعرف من بجانبه. ولما جاءت الرياح مواتية للأتراك قدموا أمامهم رجالا يحملون مجارف يزيحون بها الرمال والغبار، وكان في ذلك ازعاج للجنود المسيحيين، ولكنهم

كانوا محنكين بالتجارب، لا يلبثون أن يتجمعوا حول رايتهم فيلتحقون بخنادقهم ليصمدوا في وجه أعدائهم وسلاحهم بأيديهم، وهكذا لم يجرؤ العلو على الدنو منهم بأقل من مسافة رمية قوس، بل اضطر في الأخير الى الانسحاب نحو حلق الوادي وقد فقد عددا من الرجال.

كيف هاجم الأمبراطور قلعة حلق الوادي وكيف أخذها عنوة

وبينما كانت تجرى هذه الوقائع، كان الامبراطور يتنقل من جة الى أخرى وهو يحض على الدفع بالخنادق الى الأمام، ولما كانت تتهدم لأنها تحفر في الرمال أمر بارسال السفن السريعة لجلب حزم الأغصان من الموقع على بعد سبعة فراسخ الى جهة الشرق، وبعد احضارها تولى البحريون والجنود نقلها على أكتافهم الى السور، ولما رأى الامبراطور أن جنوده قد صاروا على مسافة قريبة تمكنهم بسهول من ضرب عرض الحائط الذى كان قد بناه باربروس وان كل شيء قد بات جاهزا لهذا الغرض أمر بأن تصوب الى حصن حلق الوادي ثلاث مجموعات من المدافع، كانت المجموعة الرئيسية مكونة من عشرين مدفعا حنشيا وقد استعملها الجنود الاسبان لضرب حصن الجنود البحريين الواقع بين البحر وبين برج حلق الوادي، وكذا لضرب هذا البرج نفسه وضرب البرج الركني الجديد، وعلى بعد مائة خطوة من هذه المجموعة أمر بنصب ستة مدافع تتولى استعمالها بعض الكتائب من ذات الفيلق وذلك لضرب الجدار الجديد، وعلى الجهة اليمنى من خنادق الايطاليين، أمر بنصب ستة عشر مدفعا أخرى لضرب السور الذي أقامه الأعداء ما بين الجدار وبين المستنقع، وبعد ذلك قام الامبراطور بزيارة الخنادق والمدفعية، ولما هدأ البحر قام بإصدار الأوامر الضرورية للسفن والزوارق التابعة للجيش. وبعد أن حرض الجنود والضباط على القتال انطلق القصف المدفعي بعنف وتتابع يفوق مداهما رجة زلزال. وبالاضافة الى المدافع الموجودة في البر فإن مدافع السفن الحربية التي كانت الى نظر القائد أندريا دوريا قد أخذت هي أيضا تقصف من البحر فتصيب ما بين جهات برج حلق الوادي وركن الجدار وحصن الجيش البحري، أما مدافع السفن التي كانت في ملك الكونت دانكويلار والبابا وتلك القادمة من مالطة وكذلك السفن الأخرى بمختلف أنواعها، فكانت تسدد ضربات مباشرة للسفن الحربية الست التي كان الأتراك قد أرسوها خارج القنال، كما كانت تضرب جميع

أنواع التحصينات الموضوعة على جهة البحر. أما أندريا دوريا فقد قام بواسطة أسطول آخر من القاليرات والسفن الضخام والسفن السريعة بتسديد ضربات جانبيـة للسـفن الست الـواقعة جهة الشرق، وكذا لجميع التحصينات التي من هذه الجهة الى غاية المستنقع، أما الكراكة التي من جزيرة روديس، وهي سفينة مستطيلة مرتفعة فوق الماء، فقد كانت تصوب ضرباتها من أعلى لتنال من الداخل جزءا من الجدار الجديد. أما السفينة الشراعية الرتغالية التي من نوع الغليون، فقد كانت تسدد ضرباتها من مكان رسوها فتمر طلقاتها فوق مجموع جيش البحر، أما السفن البرتغالية، وهى سفن ضخام وكراكات لم تتمكن من الاقتراب فقد كانت تضرب حيث تسنى لها أن تفعل. وفي أول الأمر قام الأتراك بإخلاء سفنهم الست، ولما جاءهم الضرب من كل جهة لم يدروا أين يتوجهون، وكان اللون البار باصان ومعه سفن اسبانيا الست والعشرون عند رأس قرطاج على أهبة لأن يهاجم بكيفية جانبية العرب وأهل تونس من المسلمين إذا هم حاولوا مهاجمة المعسكر المسيحي من خلف، وزيادة على ما ذكر كان الجنود الفرسان على أهبة الاستعداد بين السور وأشجار الزيتون، وكانت فرقة منهم برأس قرطاجة، وهذا ما أرهب العرب حتى إنهم لم يستطيعوا أن يحركوا ساكنا طيلة النهار. وفي هذا الجو وقع الهجوم على حلق الوادي بأكثر ما يمكن من الثقة والاطمئنان. وبعد ان استمرت المدفعية في الضرب بلا انقطاع من الصباح الى الزوال تم تحطيم تحصينات واجهة الجدار الجديد، وتهدم جزء من الممشى المستدير ومن برج حلق الوادي، ووقعت تلك الأنقاض على بعض القطع المدفعيُة الموجودة في أصل الجدار ومات من جراء ذلك جنود مدفعيون، ولما رأى الامبراطور أن الثلم التي أحدثت في الجدار تمكن من الدخول دون كبير عناء أمر بأن تعطى ستة سلاليم لكل فرقة من فرق الجنود الاسبانيين المحنكين، وبين لهم أن أمر هذا الغزو يعود بالنفع على أمتهم خاصة، وبأنها الأمة المطالبةأكثر من غيرها باظهار ما لها من المزايا الحميدة، وبعد ان دعا لهم الله والقديس جاك، وكان ذلك اليوم يوم عيد هذا القديس، أقام بعد ربع ساعة بإعطائهم إشارة القتال. وفي بداية الأمر وقع الضرب بمدفع حنشي قصد إتمام الاستعداد، وبعد ذلك نفخ في البوق إيذانا بالهجوم، فاما قدماء الجنود الاسبانيون ومعهم بعض المقاتلين الشجعان الذين هبوا للخنادق ليكونوا السباقين الى الهجوم فتند اقتحموا الحصن بشدة. أما الايطاليون فقد اقتحموه من جهة المستنقع، ولما لم يجدوا هنالك ثغرة مناسبة تسربوا على امتداد الجدار الجديد ليدخلوا من حيث

دخل الاسبانيون، ولكنهم فشلوا في بعض ذلك أثناء مرورهم، ولما وصل الاسبانيون الى الثلمة المحدثة في الجدار قتلوا الأتراك الذين كانوا يدافعون عنها، ولما رأى الآخرون المتأهبون للقتال في وسط الحصن أن دفاعهم لم يجد شيئا رموا أسلحتهم من بعيد وارتموا في المستنقع، وكانوا ما يقرب من أربعة آلاف يسيرون على طول الرصيف في طريق معلومة بأوتاد، ثم داروا جهة اليمين ولجأوا الى مدينة تونس. أما الفان آخران منهم فقد جازوا القنال وكسروا جسره واتجهوا الى عرّاض، ولم يبق مدافعا عن الحصن الا مائة وخمسون منهم لإشعال الغام كانوا قد وضعوها تحت الأسوار يهلك بها النصارى عند دخولهم، وبقي منهم نحو أربعين نفرا في برج حلق الوادي ثم قتلهم عن آخرهم. وقد استطاع الاسبانيون اقتحام الحصن والاستيلاء عليه بسرعة فائقة قبل انفجار الألغام، ثم أخذوا في ضرب الأتراك وهم يفرون عبر المستنقع فقتلوا منهم عددا وجرحوا عددا آخر، وبعد ان تخلصوا ممن كانوا بداخل الحصن قاموا بتعقب الفارين نحو عراض، وبعد أن قتلوا منهم حوالي ثلاثمائة اضطروا الآخرين الى الالقاء بأنفسهم في المستنقع. وفي أثناء ذلك وصل عدد من جنود النصارى راكبين الزوارق ليطاردوا الأعداء من جميع الجهات، وعندما وصل بعض الشجعان الاسبانيين الى برج حلق الوادي قام أحد الأتراك باشعال النار في برميلين من البارود موجودين في ذلك البرج فأدى الانفجار الى تحطيم الطابق الأعلى واحداث شقوق في عدة جهات، ولكن الدون دييكو دي ماندوسا وهو أخو الماركي، وكذا مارتين الفونسو دي لوس ريوس الذي صار منذئذ القائد الأعلى لعسكر حلق الوادي، قد دخلا عبر الدخان الذي أحدثه الانفجار، ودخل بعض آخرون من الباب التي كانت مفتوحة، وما ان دخلوا وهم ثمانية عشر أو عشرون حتى أشعلت النار في برميل آخر من البارود فأصيب الدون دييكو، احترقت يده وجنبه وجرح بفعل ذلك آخرون، ولم يمنعهم ذلك من المرور فقتلوا من بقوا هنالك من الأتراك ووصلوا الى البرج وقام أحد الجنود الشجعان بوضع علم في إعلاه، وقد هلك في هذا اليوم ألف وخمسمائة من الأتراك أو المسلمين من أهل البلد في حلق الوادي وفي طريق عراض، عدا آخرين قتلوا أو جرحوا في المستنقع، ولم يفقد من النصارى سوى خمسين كان معظمهم من الايطاليين، وقد غنم من الأتراك ثلاثمائة قطعة مدفعية من البرونز، وعدد آخر من القطع المصنوعة من الحديد، وغنم منهم أيضا سبع وثمانون سفينة ذات مجاذف منها إثنتان وأربعون من السفن الحربية السريعة (القاليرات الملكية) من بينها السفينة الرئيسية التي من بروتوند واثنتا عشرة أخريات كان الكفار قد أخذوها من النصارى في مناسبات مختلفة. وما ان

دخل الامبراطور الى حلق الوادي ومعه الانفانت اللون لويس وملك تونس ونبلاء آخرون حتى التفت الى ملك المسلمين قائلا له وهو يبادر بالدخول : هذه هي الباب التي تمكنك من الدخول الى إيالتك. وعندما سمع هذا الأمير قول الامبراطور أطرق برأسه شاكرا له ذلك الفضل العظيم.

كيف زحف الامبراطور لأخذ تونس وكيف هزم جيوش باربروس

لما استولى الامبراطول على حلق الوادي بكل ما فيه اختلفت الآراء بشأن ما يمكن عمله فيما بعد. فرأى بعضهم أن الغاية المنشودة قد تحققت بالاستيلاء على سفن القراصنة الذين كانوا يضايقون النصرانية ولا ينبغي المضي الى أكثر من ذلك، وإنما المناسب هو الاقلاع والرجوع بعد تحصين حلق الوادي، لأن باربروس الذي خسر سفنه صار في حكم المفلس ولن يلبث أن يضطر الى التخلي عن مدينة تونس والاعتصام بمدينة الجزائر. وزعم أصحاب هذا الرأي أن المسلمين من الأهالي ومن العرب لن يلبثوا أن يوالوا الأمير الحسن، ولما كان باربروس مضطرا الى المرور ببلادهم فإنهم سيمنعونه من غير شك، وقد أضافوا حججا أخرى الى هذه بقصد تحويل الامبراطور عن متابعة حملته. وكان الماركي دوكَوات من بين القائلين بهذا الرأي. ولكن الانفانت اللون لويس ودوق ألب وآخرون من السادة النبلاء كانوا يرون انه لا يجوز للأمبراطور الرجوع قبل انهاء فتوحه، وذلك لما فيه عزه الشخصي ومصلحة الأمم التابعة له. وقد قضى الدوق ليله وهو يناشد هؤلاء وأولئك ألا يحاولوا اقناع شارلكانت بذلك التصرف المنطوي على الجبن. وقد اغتم مولاي الحسن لذلك النقاش والاختلاف حتى إنه قضى ليله دون أن يذوق طعم الأكل أو النوم، ولما جاء الماركي دي كَوات لزيارته في الغد ووجده على تلك الحالة من الحزن والكمد، أبلغه أن ترجمانه(69) قد أبلغه أن الامبراطور عازم على الذهاب دون أخذ مدينة تونس، لكن الماركي طمأنه مؤكدا ان ما تقرر عكس ذلك، وقد وبخ الترجمان على ما صدر منه، فكان في ذلك الخبر مواساة للأمير، وطلب منه ألا يكلم الامبراطور في هذا الموضوع. ولما علم شارلكانت بتلك الآراء المختلفة أمر بجمع السادة النبلاء والقواد في خيمته، فخاطب بلطف أولئك الذين يرون ضرورة

(69) ألباركوميس زغل.

الرجوع، فبين لهم أنه لم يأت لمجرد أخذ حلق الوادي وسفن القراصنة، بل انه جاء وفاء بالوعد الذي أعطاه بأن يرجع الى عرشه أميرا غصب حقه وكذا ليفك من الأسر ثمانية عشر ألفا أو عشرين ألفا من الأسرى يتطلعون اليه لتحريرهم. وختم بقوله : إما تحقيق هذا المرام الشريف واما الموت دونه. وخضع الجميع لارادته، وعرض عليه ما يتعين من خدمته. وبعد ذلك تهيأ ما هو مطلوب من لوازم الاستعداد للقيام بحملة تونس، وبعد ان أنهى الأمبراطور حصر أرض قلعة حلق الوادي في مجال أضيق مما كان، وترك بها حامية تتكون من ألف جندي، عهد الى اندريا دوريا بالسهر على جميع ما يتعلق بالأسطول بإعمال الاستعداد للزحف وان يحمل كل جندي في زاده الذي معه ما يكفي لمؤونة ثلاثة أيام، وفي الغد وهو اليوم الرابع منذ الاستيلاء على الحصن، رحل الجيش بأكمله وأخذ في السير على هيئة الزحف للقتال. وكان منظر تلك الفرق الكثيرة وهي تتقدم بذلك النظام البديع رائعا جدا، فعدد الجيش اثنان وعشرون ألفا من المشاة ما عدا الفرسان. وبعد مسيرة قرابة نصف فرسخ أمر الامبراطور بأن ينقلب الجيش كله ويعود الى محلاته. ولبث هنالك ثلاثة أيام أخرى، وبعدها وقع التزود من جديد بالذخائر والمؤن وشحنت كميات منها على زوارق كبيرة تم نقلها من البحر الى المستنقع بدفعها في البر فوق أسطوانات، إذ كان المرور عن طريق القنال متعذرا لأن الأتراك حشروا في قعره عددا من السفن لمنع النصارى من استعماله، وبعد هذا كله أعطي أمر جديد بالانطلاق، ولما وقع استطلاع الطريق التي بين أشجار الزيتون وبين المستنقع وقع الزحف على هيئة الاهبة للقتال ابتداء من صبيحة اليوم العسرين من شهر يوليوز، وكان في الصدارة فيلقان يضم كل منهما أربعة آلاف من المقاتلين، يسيران جنبا إلى جنب، وفي الميمنة الى جهة أشجار الزيتون، كان قدماء الجنود الاسبانيين وعلى رأسهم القائد الماركي دي كوات، وفي الميسرة كان امبراطور سالين على رأس الايطاليين. وقد اقتضى ضيق ذلك النهج أن تكون الصفوف في غاية ما يمكن من الازدحام، أما آليات القذف ومستعملوها فكانت على الجانبين مثل ذراعي فيلق. وفي وسط الكتائب كانت الأعلام والطبول، وحول المجموع كان الجنود حملة الدراق والحراب. وبين الفيلقين كانت فرق من الجنود الالمانيين ومن جنود البحرية يجرون اثنتي عشرة قطعة من قطع المدفعية، وفي مقدمة فيلق الايطاليين كان

مائة من فرسان الملك يسيرون من جهة المستنقع لمنع العرب من التسرب من جهة الجرف الرملي قصد مناوشة المشاة. وعلى مسافة قليلة من ذلك، في وسط الفيلقين، كانت تسير كوكبة متكونة من حوالي أربعمائة من السادة والنبلاء الأعيان وهم مسلحون بأكمل عدة، يحملون الراية الأمبراطورية وعلى رأسهم الامبراطور. وعلى بعد مائة خطوة أو مائة وعشرين منها يأتي فيلق آخر متكون من ستة آلاف من الالمانيين يتقدم بهم قائدهم(70)، وهو على عكس الفيلقين الآخرين يمتد على جبهة واسعة غير ممتد الا على عمق قليل، ولذلك كان يحتل وحده ما يقرب من المساحة التي يحتلانها معا، ويأتي بعد ذلك الركب الحامل للأمتعة سائرا على طول المستنقع، يحميه من جهة اليمين من جانب أشجار الزيتون المركي دوموندبشار، وكان قد عوفي من جراحه، وكان يتقدم ثلاثمائة من الدركيين كانت توجد بينهم وبين ركب الأمتعة بعض قطع المدفعية يجرها رجال بسواعدهم. وكان دوق ألب يقوم بحراسة المؤخرة ومعه بقية المشاة الاسبانيين الذين هم الى نظره، وفرقتان من الدركيين، واحدة تتقدم في جهة أشجار الزيتون والأخرى في جهة البحر. سار الجيش على هذه الهيئة خلال تلك الرمال التي سببت له كثيرا من التعب والإزعاج. وما أن خرج منها حتى عثر على بئر، وكان الجنود قد أخذ منهم العطش والتعب، فلم يتمالكوا حتى تشتتوا وخرجوا من ترتيبهم لكي يرووا غلتهم، وكان ذلك في وقت بدأ فيه ظهور الأعداء بين أشجار الزيتون. ولكن الامبراطور تدخل لكي يحملهم على الالتزام بأماكنهم، ولم يتأت ذلك الا بعد جهد جهيد وبتأثير شخص الأمبراطور نفسه. ولما بلغه أن بلربروس قد يخرج من مدينة تونس لقتاله، سار خطوة خطوة في نظام بديع دون أن يسمح لأي كان بالخروج من صفه لمناوشة العرب الذين ظهروا للعيان، الا ان بلربروس، بعدما وقع له من تضييع حلق الوادي وفناء جيشه البحري، ولما رأى نفسه لا يتوفر على موارد أخرى، كان يطمح، كما هو شأن كبار الشجعان، الى انقاذ ما بقي له والدفاع عن مدينة تونس عاقدا الأمل على ما قد يقع من تقلبات غير منتظرة. ولما علم من جواسيسه بحال قوات عدوه، أمر بجمع قواد عساكره من أتراك وعرب وكذا كبراء المدينة فقلل في أعينهم من قوات الامبراطورية بالنسبة لقواته وحرضهم بخطب رنانة على الاستبسال في القتال دفاعا عن أموالهم وأميرهم ووطنهم، وأطنب في مدحهم وفي ذم النصارى، وفي الأخير حملهم على تجديد الأيمان والعهود بأن يظلوا على الوفاء له،

70) ماكسيميليان دي بييدرا نويبا.

وما ان أنهى كلامه حتى شاع بين المجتمعين أن النصر على الأعداء أمر لا ريب فيه، وتعززت تلك الاشاعة بتقديرات حول المعركة ونتائجها، وما يتوقع إثرها من تجديد البيعة للأمير. لكن بلربروس، وهو الحريص على أن يأخذ لكل أمر عدته، إن خيرا وإن شرا، قد أمر بجمع الرؤساء الأتراك في الحصن ليلا وكشف لهم الخطر الذي يحدق بهم بين علوين، وحذرهم من الوثوق سواء بأهل تونس أو بالعرب وقال لهم كيف يمكنهم الفرار جميعا اذا اقتضى الأمر، وقدم لهم خطته القاضية بقتل جميع العبيد النصارى المسجونين في مخابىء الحصن، غير انه قد تصدى لمعارضته في هذا الرأي فتيان[71] من شجعان القراصنة مستنكرين ذلك العمل الظلماني الذي سيجر عليهم المقت من الجميع وسيدفع بهم الى الفقر لأن اولئك العبيد هم كل غنيمتهم. وقالوا بأنه ما يزال أمامهم متسع من الوقت قبل اتخاذ مثل هذا القرار الذي قد لا يلجأ اليه الا في آخر مراحل اليأس والاحباط. ووافق بلربروس على ذلك ثم أمرهم بأن يدبروا شئون أمن أنفسهم وقضى بقية ليله في ترتيب ما ينبغي القيام به في الغد، وبعد ان جند كل الرجال خرج في بداية الصباح بتسعين ألفا من المقاتلين من الأتراك والأهالي عربا وبرابر ومعهم عدد من قطع المدفعية وعسكر في محلة على بعد فرسخ ونصف من مدينة تونس في سهل[72] كثير البساتين وآبار جارية المياه، هنالك رتب جيوشه على أهبة القتال وجعل في مقدمتها تسعة آلاف من الأتراك منقسمين الى فيلقين لا تفصل بينهما سوى أخصاص مهجورة، وكانت مجهزة باثنتي عشرة قطعة مدفعية، وجعل ذلك في مواجهة الفيلق المتكون من قدماء الجنود الاسبانيين، ثم انه جعل في مواجهة الايطاليين الذين كانوا من جهة المستنقع، ألفا من الفرسان العرب الأهالي، وذلك من أجل الدخول في الماء وأخذهم من الجنب. وعلى يمين الفيالق جعل اثني عشر ألفا من الفرسان العرب يكتنف جمعهم عدد من المشاة كلهم من حملة البنادق والقنافات والقسي وذلك من أجل إحتواء الجنود النصارى. وفي المؤخرة جعل بقية من عنده من الجنود الأتراك والأهالي ومن المشاة. وظل على هذه الهيئة يترقب وصول جنود النصارى، ولديه من العزم أكثر مما لديه من الأمل في تحقيق النصر. وكان مولاي الحسن قد بعث برجال من الأهالي الى مدينة تونس ليلقوا هنالك مناشير مكتوب عليها : **اتركوا الأتراك الطغاة عليكم وأقبلوا على ملككم الذي**

71) شيفوت سنان وسنان باي.

72) يدعى قصر عشوي.

يحبكم ويحسن اليكم. وما ان ألقيت تلك المناشير حتى انفعل لها السكان، وأدى ذلك الى تطاولهم بكلام لم يرق بارباروس، وهم بأن يخرج بجنوده شاكي السلاح ليتصدى لكل أمر حادث. وفي هذه الظروف علم شارلكانت بخروج بارباروس وبما عقد عليه نيته، وعلم بالمكان الذي كان نازلا فيه بمحلته، وعلى إثر ذلك ترك الدون لويس في قيادة كتيبته، وانطلق في بعض من رجاله ومعه العلم الأحمر الذي يعرف به حتى أمكنه الاطلاع على واقع عدوه والتعرف عليه، فعاد الى جنوده يحضهم ويحرضهم ويبشرهم أن قد جاء اليوم الذي وعد الله فيه بالانتقام من الكافرين الذين طالما آذوا النصارى وألحقوا بهم الأضرار؛ وبعد أن ألح عليهم في ضرورة التزام الصفوف، أمر باستئناف السير على تلك الهيأة وذلك الترتيب. ولما رأى بارباروس أن جيش العدو آخذ في الاقتراب، أمر العرب بمهاجمته من كل جانب ونفذوا أمره في جو من الفورة والضجيج، وكان من شأن ذلك أن يسبب الذعر والهلع لجيش غير هذا الجيش. ولكن حملة البنادق الحاملين للأجنحة، قاموا بالرد على الهجوم في الوقت المناسب فردهم ذلك على أعقابهم بمثل ما أقبلوا به من السرعة، ولم يجرؤا بعد ذلك على الدنو مرة أخرى، ولما رأى الأمبراطور أنه قد كفىء هجوماتهم الفاشلة، ورأى أن الأتراك لا يتزحزحون عن الموقع الذي به الماء، والحالة أن رجاله قد استبد بهم العطش حتى كان عدد منهم يدخلون المستنقع ويغسلون أفواههم بالماء الملح فيزيدهم ذلك ظمأ وغلة، أمر بأن تتقدم المدفعية، وأعطى كلمة السر، **يسوع المسيح**، فزحف الفيلقان ومقدمة الجيش ضد العدد، وشرعت المدافع في الضرب من الجهتين، ولم يترتب على ذلك سوى أثر ضئيل. وأطلق حملة البنادق الأتراك رميتهم من بعيد، بينما رد عليهم النصارى من مسافة قريبة، وبعد ذلك أخذ رجال الدراعين من حملة البنادق سيوفهم بأيديهم، وتقدموا متبوعين بفيلق حملة الرماح، ولكن الأتراك ولوا الأدبار وتركوا محلتهم مخلفين سبعة من قطع المدفعية، واتخذوا طريقهم في اتجاه مدينة تونس، وأخذ بارباروس ومن معه من القواد يذهبون ويجيئون محاولين عبثا رد أولئك الجنود عن الفرار، ولكنهم اضطروا في الأخير الى اتباعهم، ولما استولى الامبراطور على منابع المياه وعلى ما خلفه الفارون من المدافع، أمر جيوشه بالوقوف، لأن العطش قد قهرهم والتعب قد أنهك قواهم، ولكن الجنود أخذوا في التشتت بحثا عن آبار الماء. ولكن شارلكانت، وهو الرقيب على كل شيء قد رأى العرب يجرون وسط أشجار الزيتون وهم يحاولون القيام بشيء ما، أمر بأن يزحف لقتالهم فيلق الجنود الألمانيين، مخافة

ما قد يقع من الغدر، وهكذا وقع إبعاد أولئك العرب وتشتيت جميع جيش بلربروس، وبعد ذلك كان رؤساء العرب يذكرون لملك تونس على سبيل التزلف اليه، أنهم لم يكونوا عاقدين العزم على الهجوم، ويدعون أنهم منعوا المسلمين الأهالي من القتال. ولكن هذا الملك، وقد كان حاضرا وشاهدا على كل ما وقع وما بذلوه من جهد في إحراز النصر، كان يسخر من أقوالهم. وقد حرص بلربروس على إنقاذ شرفه فأعلن بالتراجع وسار بجيوشه نحو المدينة دون أن يختل نظام جيوشه، وأمر بالوقوف عند أسوارها يرقب المنتصرين ويتعرف على مجموع قواتهم، ولكن العطش وقيظ النهار قد تسببا في انحلال نظام النصارى والأتراك على السواء فكان الجنود يحومون حول الآبار يشربون الماء والدم معا، لأن الأعداء قد ألقوا فيها دما وجثث القتلى، وقد خشي الامبراطور أن يصاب جنوده بالتسمم، فكان يجوب أطراف تلك الجهات ويلقي في الماء بقطعة من قرن حريش البحر وكان يحملها معه معقودة بمجدول أخضر. وقد مات في ذلك اليوم ثلاثمائة من بين الاتراك والسكان الأهليين، بينما لم يمت من النصارى سوى ثمانية عشرة من الجنود. ولما جن الليل، تخوف شارلكانت من قيام هذا العدو الغادر ببعض الهجومات، سيما وأن جنوده لم ينسحبوا انسحابا كاملا. ولذلك أمر بأن تجتمع كل فرقة في مكانها المعهود لها وأن تكون على أهبة القتال، وقد أمر بالابتعاد قليلا عن المستنقع ونصب حراسة شديدة طول الليل.

أخــذ تــونــس

أما بلربروس فقد قضى الليل بجنوده تحت أسوار المدينة وهم على أهبة القتال، ولما رأى أن الجنود من الأهالي أخذوا يفرون شيئا فشيئا حيث كانوا يذهبون لتفقد أشغالهم وأحوال أولادهم أمر الأتراك والعرب بأن يستعدوا للقتال في غده وأمرهم بدخول المدينة، ولما كان في الحصن جاءه الخبر بأن معظم السكان قد انسحبوا والتحقوا بالجبال والجهات المجاورة وأن الجميع أخذوا في جمع أمتعتهم قصد الرحيل، استوى في ذلك العرب والسكان الأصليين. وقد أراد أن يمنع ذلك الانحلال، فركب صهوة جواده، ولما وصل الى المكان الذي كان قد ترك به الأتراك والعرب أمر بجمع سائر قواده، وبينما كان يتفاوض معهم حول ما إذا كان الأنسب هو الخروج الى القتال أو الاعتصام بالمدينة والدفاع عنها، وأبرموا أمرهم على هذا الحل الأخير، إذا هو بالأتراك الذين كان قد تركهم بالحصن يصلون اليه؛ ذلك

بأنهم قد رأوه أمر رجاله بشحن ما في بيت المال وفي غيره من النفائس، وبأن يكونوا على أتم الاستعداد، وبأن يضعوا براميل من البارود تحت أقباء التي حبس فيها العبيد النصارى حتى يتسنى هلكهم، ظنوا أنه يستعد للرحيل فجاءوا يتبعونه. وما أن رآهم قد وصلوا اليه حتى صاح بالويل والتبور، نادبا ما حسب أنه قد وقع من ضياع حصنه وبيت ماله ومن تحرير الأرقاء النصارى. فلم يتوان في الانصراف مع بعض أصحابه دون إعلام أحد بشيء. ولما وصل الى باب الحصن كان قد طلع النهار ووجده مغلقا، فبدأ يتسرب اليه اليأس وينتف لحيته، وكان الغضب يتطاير من عينيه وهو ينادي بأسماء مرتدين من النصارى من أصدقائه، وذلك من أجل حملهم على فتح الأبواب، ولكن حظه كان قد انعكس، فما أن خرج الأتراك من الحصن حتى بادر المرتدون الذين تركهم لإشعال البارود وإحراق الأسرى الى فك قيود النصارى وكسر أغلالهم، فعلوا ذلك بدافع الشفقة أو بدافع الطمع، وتحمس له منهم اثنان بصفة خاصة(73) كانوا من المقربين الى بلربروس، وكان أحدهما إسبانيا. وحينما كان يجري ذلك سمع مرتد اخر(74) من الاسبانيين وكان حاكم الحصن، ما أحدثه الأسرى من الضوضاء وهم يبحثون عن السلاح بقصد الدفاع عن أنفسهم، فقصد اليهم في قلة ممن كان معه من الرجال، وقتل منهم. ولما رأى أنه لا يستطيع إعادة وضعهم في القيود والأغلال لأن عدوهم كان يقارب سبعة آلاف، أخذ بعض الافراس والمال الذي وجده مشحونا وخرج من الحصن ومعه زوجته وبنته الوحيدة. وكان في ذلك سبب هلاكه. وذلك أن بلربروس قد واخذه بكونه فرط في زوجاته وأراد النجاة بزوجته هو، فأمر بقطع رأسه على مقربة من مدينة عنابة، وبعد خروج الحاكم، أقدم الأسرى على إغلاق أبواب الحصن، ولما كان بلربروس يصرخ بهم ويطلب فتح الباب أمامه أخذوا يرمونه بالحجارة، بل إنهم صعدوا الى الشرفات وأقاموا علامات للنصارى بإشعال بارود المدافع وبرفع علم كان الأتراك قد غنموه من الاسبانيين قبل سقوط حلق الوادي، وذلك ليتقدموا بجيشهم، بل إنهم أقدموا حتى على إحداث بعض طلقات المدافع، وعندئذ زحف الأمبراطور في اتجاه المدينة، غير أنه كان يأخذ بالحذر، إذ كانت تظهر للناظر فرسان على الجبال التي من وراء المدينة، ويرتفع هنا وهناك غبار كثيف فلا يعلم هل آثاره أشخاص قادمون أم أشخاص ذاهبون، ومع ذلك كان

73) يافراغا ومامي.

74) رمضان.

يشاهد الدخان فوق الحصن ورجال يلوحون بأرديتهم وعلم مرفوع، وكانت تسمع طلقات مدافع وبنادق، ولكن أحدا لم يتصور معنى ذلك كله، وقد أكدت سرية الفرسان التي أرسلت قصد الاستكشاف علم ظهور شيء يلفت النظر، وهكذا تقدم الامبراطور الى أن بلغ أحد أبواب المدينة[75]، وكان بمعيته بعض النبلاء، ولكنهم لم يعلموا بشيء، وقد توجه بالكلام الى قواد المشاة، ومنع عليهم السماح لأي كان بالخروج من الصفوف، ووعدهم بأن يبيح لهم نهب المدينة، وفي تلك الأثناء وصل بعض المسلمين من الأهالى الى سلطان تونس فأخبروه بأن المسيحيين انفلتوا من السجن واستبدوا بالحصن وبأن الأتراك يوجدون تحت أسوار هذه المدينة يهددونهم، وزادوا في الإخبار بأن نصف سكان المدينة قد هاجرها، وأن باربروس قد غادرها عندما رأى ذلك ومعه الأتراك والعرب وأنه عسكر في الجهة المقابلة وهو ينتظر دخول المسيحيين الى المدينة فيتأتى له الانسحاب في أمن وأمان. ولما علم الأمبراطور بهذه الوقائع بادر بأمر الماركي دي غوات لكي يزحف توا في اتجاه الحصن ومعه حملة البنادق من الجنود الاسبانيين الذين في فيلقه، بينما اكتفى الأمبراطور بالاقتراب من الأسوار هو ومن معه من بقية الجيش. أما باربروس فقد تأرجح حينا من الزمن، ولما شاهد المسيحيين يقتربون ورأى أنه غير مطمئن في المحلة التي هو فيها أخذ ينسحب منها وهو في حيق شديدة، ثم تبعه جيشه في ذلك. ولما وصل الماركي ذي غوات الى الحصن استقبل هنالك بابتهاج كبير وأرسل الخبر بذلك الى الأمبراطور، وأعلمه بأن باربروس قد انسحب بخطى حثيثة ولما حل الماركي بالمدينة جاءه بعض كبراء سكانها بمفاتيح أبوابها. وتوسلوا اليه بواسطة الملك طالبين أن يفعل بهم وبأموالهم ما يشاء وألا يُبيح المدينة لجيوشه. وأراد الأمبراطور أن يجامل ذلك الأمير فأمر بجمع قواد الجيش لكي يبحث معهم عن حل يرضيه ولا يغضب الجنود الذين تلقوا الوعد من الأمبراطور بان يستبيح لهم المدينة، ولما لم يظهر لهم حل من هذا القبيل وبدأت تلوح عليهم علامات التذمر أرسل الأمبراطور إلى الأمير بأن ينظر ما إذا كان يريد أن توفر بعض البيوت أو الأحياء، وأن يستباح غيرها لنهب الجنود. وأجابه الأمير بأنه لا يرى موجبا للاكتفاء بحماية أحد من السكان دون غيره، أما الجنود النصارى فانهم لما رأوا أن الحصن قد سقط، وأن الأعداء قد انسحبوا، بدأوا يتسلقون الأسوار في عدة أماكن دون انتظار صدور الأمر بذلك، ولما دخلوا الحصن فتحوا الأبواب لرفاقهم

75) باب درب الحضرة.

فوقع اقتحام المدينة وارتكب في نهبها ما هو معهود في مثل هذه الصدمات من القساوة والانتهاك. ولما رأى ملك تونس ذلك العبث والفساد توسل الى الأمبراطور في أن يأمر بعدم أسر أي واحد من سكان المدينة. ولما أشيع ذلك الأمر بين الجنود أخذ كل واحد منهم في قتل من يلقاه من السكان، وبالغ في ذلك الجنود الالمانيونم، إذ لا يتسامحون مع أي كان، وهكذا اضطر أمير تونس الى التوسل بقصد حمل الجنود على تصرف مخالف لما ذكر، وطلب أن يكتفوا بالغنائم وأسر الرجال دون قتلهم. وقد صدر الأمر بتنفيذ ذلك. ولم يمت من النصارى على أيدي الأعداء سوى عدد قليل، ولكن عددا منهم مات أثناء التنازع فيما بينهم على الغنائم. وقتل عدد من الأسرى النصارى الذين تمردوا في الحصن، وقد هلكوا على أيدي إخوانهم في الدين بهدف انتزاع ما كان معهم من الثروات. وبينما كانت تجرى تلك الوقائع توجه الأمبراطور الى الحصن ومعه الاينفانت الدون لويس وملك تونس وآخرون من السادة ونبلاء الحاشية. وقد وقف هنالك على عدد من المدافع والذخائر والمؤن، وأباح ذلك كله للنهب والغنيمة. وفي أثناء ذلك كان الحرس الأسبانيون ومعهم بعض الفرسان يعيثون في الجهة الأخرى من المدينة على مساحة تزيد عن فرسخين فيقتلون وينهبون ويأخذون كل ما وصلوا اليه، فكنت ترى هنا وهناك أكواما ضخمة من جثث النساء والأطفال وقد اختنقوا أو ماتوا بالعطش. وقد أكد لنا ملك تونس أن من ماتوا في ذلك اليوم، وهم يفرون خلال الأجنة والبساتين، يزيد عددهم عن سبعين ألفا من الأشخاص، عدا من قتلهم النصارى، وأن عدد من وقع أسرهم من الرجال والنساء والأطفال يزيد عن أربعين ألفا. وبعد استباحة المدينة للنهب ثلاثة أيام، أخذ الجنود يهدمون الدور وهم يبحثون في أسسها عن الكنوز، ولما شوهد منهم ذلك، صدر لهم الأمر بالخروج لحضور صلاة الملك. فخرج الجنود الى الأرباض والبساتين وهم محملون بالغنائم ومعهم من استرقوهم من الأسرى.

كيف ترك الأمبراطور المدينة لملك تونس وكيف استولى اندريا دوريا على بجاية وبقية ما جرى الى غاية انتهاء الحملة

بينما كانت تجرى تلك الوقائع إذ علم الأمبراطور أن بربروس اتجه الى عنابة، وكان قد أدخل في النهر بعض السفن الحربية السريعة، فبادر الأمبراطور الى

مكاتبة اندريا دوريا وأرسل اليه عدد من السفن الحربية اللازمة وأعطى الأمر لقائدها بعمل ما في وسعه للقبض عليه، وبعد ذلك سلم أمر المدينة الى الملك واشترط عليه تحرير جميع الأرقاء من أية أمة نصرانية كانوا إذا ما وصلوا الى بلده دون مطالبتهم بفدية، وتمكين النصارى من الاتجار بحرية في مجموع مملكته وتمكينهم من الاقامة بها ومن بناء الكنائس والمعابد ليمارسوا شعائر دينهم، وألا يقبل حلول القراصنة في تونس سواء كانوا من الأتراك أو من المسلمين الأهالي، وألا يسمح بتزودهم بالأقوات وألا تقدم لهم أية معونة كانت، وأن يبقى حلق الوادي ملكا للأمبراطور ولخلفائه الى الأبد، وأن يؤدي الملك وذووه اثنى عشر الف قطعة ذهبية في كل عام للحامية التي بالحصن لأنها تقوم على أمن الدولة، وأن تكون حصيلة جمع أصداف البحر للأمبراطور الى الأبد. وشرط بهذا كله أن يتعهد ملوك تونس، برسم الامتنان بما أسدي اليهم من الجميل والاحسان وبرسم العرفان بالتبعية، بأن يبعثوا في كل عام الى ملك إسبانيا بسبعة أفراس وإثني عشر من الصقور؛ وفي مقابل ذلك يكون الأمبراطور ملزما بحمايتهم وبالدفاع عنهم ضد أعدائهم. وبعد تقديم الايمان على تلك التعهدات وتوقيعها من الطرفين أمر الأمبراطور بوضع المدينة تحت تصرف مولاي حسين. ترك له مائتين من الجنود يحمون شخصه ويحمون الحصن الى أن يعود الأمن والهدوء للبلاد. ثم رحل ومعه بقية الجيش وسلك الطريق التي على الضفة الأخرى للمستنقع فقضى ليله في عراض غير بعيد من حلق الوادي، ولبث هنك الى أن تم شحن جميع معدات جيش الفرسان وجيش المدفعية وجميع الذخيرة ثم توجه الى مكان محلته الأولى بين أطلال قرطاجة. وهنالك وصل اليه الشخص(76) الذي أرسله أندريا دوريا لمطاردة بربروس، فأخبر بأن هذا القرصان قد استطاع في ظرف يومين اثنين أن يستخرج عشر سفن حربية سريعة كان قد أغرقها في النهر، وأن يجهزها مع ثلاث أخريات وزورقين بمن اتبعه من الأتراك ومن السكان الأصليين، ولم يتمكن من مناجزته في المعركة لأن النصر لم يكن مضمونا، وغضب السلطان لهذا الخبر وبادر بإرسال أندريا دوريا في أسطول مكون من ثلاثين سفينة سريعة والفين من الجنود الاسبانيين الى عنابة في الوقت الذي بعث فيه بربروس في اتجاه مدينة الجزائر ومعه جيشه من الفرسان، وقد وجد أندريا دوريا المدينة مهجورة حيث لجأ سكانها الى الجبال، فاستولى على حصنها وعلى سفن متعددة السطوح كانت راسية هنالك. ولما فكر في الذي خلفه

(76) آدم.

وراءه ورأى أنه سيسأل عما فعله لتحقيق هذه الحملة توقف ولم يذهب أبعد من ذلك، وانما عاد الى تونس ولقي هنالك الامبراطور وقد ركب في الأسطول بمجموع جيشه وأمر بأن يحصن حلق الوادي وأن تجلب لذلك الغرض الحجارة والآجر والجير من صقلية لتبنى بها الحصون، وترك عاملا عليها الدون بيرناردان دي ماندوش ومعه ألف من الجنود الاسبان، وترك فيها أنطوان دوريا قائدا على أسطول مكون من اثنتي عشرة سفينة سريعة، وبعد ذلك بعث بجيش إسبانيا البحري وعلى رأسه أخو زوجته الإنفانت الدون لويس، ثم أبحر هو ومعه السفن الأخرى، في اتجاه مهدية التي يسميها المسيحيون افريقيا، وفي أثناء الليل ثارت عاصفة قوية أبعدت السفن بعضها عن بعض وشتتتها في جهات تلك البحار، وقد أرسى الامبراطور ومعه أسطول السفن الحربية السريعة (القاليرات) في ميناء دريبانو بصقلية ثم التحق به الآخرون هنالك، ولما كان فصل الصيف قد ولى فإن الأمبراطور قرر العدول عما كان اعتزمه من متابعة تلك الحملة، واكتفى بتكليف كل من أندريا دوريا وفرناند دوكونزاك بالمضي فيها. وقد انطلقا على الفور على رأس أسطول متكون من ثلاثين سفينة حربية سريعة وخمس عشرة سفينة نقل كان على متنها خمسة آلاف من الجنود الاسبانيين والإيطاليين. ولكن الرياح عاكستهم فلم يتعدوا جزيرة فابيين واضطروا الى الرجوع الى صقلية بعد ان استنفدوا أرزاقهم، وكان ذلك سببا في اجهاض بقية الحملة، ثم ان جيش اسبانيا البحرى قد استولى في طريقه على مدينة بنزرت وعلى مدينة عنابة التي دخل اليها بعض المسلمين الأهالي إثر ذهاب اندريا دوريا، وقد تركوا هنالك حاكما[78] ومعه ألف من الاسبانيين، ستمائة منهم في الميناء وأربعمائة في الحصن. وتابع الأسطول طريقه فوصل الى اسبانيا دون أن يلقى سوءا في طريقه.

ما جرى في مدينة تونس بعد ذهاب الأمبراطور

وقعت تطورات في تونس بعد ذهاب الأمبراطور، ذلك أن باربروس عجل بعد وصوله الى مدينة الجزائر بأعمال أراد أن يحسن بها سمعته فجهز جميع السفن التي استنقذها من عنابة وأخرى استطاع جمعها فانطلق الى منورقة وأخذ مدينة ملون على حين غرة ولم يتأت لها الدفاع عن نفسها، فقد كان الامبراطور أصدر

78) البارو كوميس زغل.

أمو الى حاكم عنابة(79) بأن يرسل أربعمائة من جنوده الى هذه الجزيرة، ولكن هذا الحاكم اعتذر بأنه تلقى خبرا بأن حاكم قسنطينة(80) قادم لمهاجمته وبأن مدينته تتطلب دفاعا قويا لا يتأتى معه إفراغها من الجنود. وبعد ضياع مدينة ملون قام باربروس بإفساد كثير في جميع سواحل البلاد النصرانية وغنم عددا من المتاع والعبيد بدون مانع ولا رادع. وقد ذاع خبري هذه الانتصارات فانتفضت عدد من مدن تونس التي كانت قد اسلمت أمرها لمولاي الحسن، واستبد بعضها بشئونها بينما رحبت مدن أخرى بحاميات تركية. فقد ثار في القيرون فقيه(81) يحظى بتقدير الأهالي وتبجيلهم، ولم يقنع بهذه المدينة بل تشوف الى الاستيلاء على مجموع امبراطورية تونس، وهكذا لم يستتب الأمر لملك تونس ولم يعم السلم أرضه بالرغم من كون أندريا دوريا قد أغاثه مؤ بالأسطول الامبراطوري من السفن الحربية السرعة وأعاد الى حكمه مدنا انتزعها من الأتراك الذين احتلوها، وسنذكر ذلك عند وصف هذه المدن. وفي أواخر عام ألف وخمسمائة وأربعة وأربعين أدرك ملك تونس، بعد ان أرسل ابنه(82) لقتال محلات ثائرة في جهة عنابة، الأهمية الكبرى التي يكتسيها طرد الأتراك من مدينة الجزائر ومن جميع شواطىء بلاد البربر، وان تحقيق ذلك يتطلب تكوين جيش بحري مثل الجيش الذي تجهز لحملة حلق الوادي. وقد قرر أن يقدم على الأمبراطور ليخاطبه في هذا الموضوع وليقدم له الدليل على احترامه لما يجب عليه إزاءه من الالتزام. وبعد أن عين حاكما(83) على تونس وآخر(84) على الحصن، ترك أحجاره الكريمة في حلق الوادي وكذا جزءا من ماله، ذهب الى صقلية وانتقل منها الى نابولي ومعه حرس متكون من خمسمائة من الأهالي، وقد استقبل استقبالا حسنا حيثما حل وارتحل، بيد أن هذه الرحلة كانت مشئومة عليه. فما أن غادر تونس حتى دخل اليها إبنه(85) وهو يطمح الى الحكم مدفوعا من بعض أعداء (86) أبيه، ولكن العامل ذكّو واجبه وبين له من الأسباب

79) ألبارو گوميس زغل.

80) حسان أغا.

81) سيدي عرفة.

82) مولاي حميدة.

83) ممتان.

84) القائد فرح.

85) مولاي حميدة.

86) أبو عمر ومحمد.

ما يثنيه عن مراده ثم طرده تحت طائلة التهديد. ثم احتجب داخل القصور ودور اللهو الواقعة خارج المدينة وهو يحلم بتحقيق ما كان شرع فيه. وقد أشاع بين الناس أن أباه الذي ذهب الى اوربا ليعتنق دين النصارى قد أسره الأتراك وأن حاكم تونس قد ذهب للتفاوض مع حاكم[87] حلق الوادي بقصد اختيار ملك يوافق هواهما وحرمانه هو من خلافة أبيه. ولما انتشرت هذه الاشاعات وما يشبهها في مدينة تونس صدقها الناس لجهلهم، وبدأت تنعقد تجمعات سرية، واتصل بعضهم سرا بابن الملك، فبادر بالقدوم، ولما رأى ميل الناس إليه قصد الى الحاكم يريد التخلص منه. ولما لم يجده هنك قتل بعضا من رجاله، وطاف ببيوت أنصار أبيه لارتكاب مثل ذلك. وتوجه في الأخير الى الحصن وقتل في بابه قائد الحرس ولم يكن قد ارتاب في شيء، ولما تم له الاستيلاء على المدينة قتل حاكمها وبقية الحزب المضاد واتخذ لقب ملك تونس واقتحم القصر منتهكا حرمة نساء أبيه وجواريه، ولما علم أبوه بهذه الحوادث وهو في نابولي استبد به الغضب وطلب من نائب[88] الملك أن يمده بجيوش تعينه على الانتقام من هذا الغدر. وهكذا ابحر ومعه حرسه من الأهليين وكذا ألفان من الايطاليين يقودهم جان باتيستا دو لوفريدو، وبعد أن وصل الى حلق الوادي اتجه الى تونس دون أن يخبر بذلك لا الحاكم ولا الجنود، الجنود، وكان يظن أن ولده لم يكن يتوقع وصوله وأن السكان لن يقاوموه، وبالفعل، فإنهم عندما رأوه قادما بتلك الجيوش، طلع أعيانهم الى الحصن وهم يخشون أن تتكرر مأساة ثانية، فطلبوا من ولده أن يتخلى عن الحكم وألا يقاتل أباه وأن يجنب المدينة ويلات النهب والإفساد. وقد بينوا له أنهم لن يكونوا بجانبه ضد ملكهم وانه لا يليق به أن يغضب الملك الذي لا بد مدركه في يوم من الايام. وقد أجابهم الشاب المعتد المستبد بأنهم مخطئون في ظنهم بأن أباه قد جاء اليهم يضمر الخير في حين انه جاء بأمير نصراني يريد هلاكهم وحرمانه من العرش. فأجابوه : إذا جاء أبوك بالنصراني فنحن على استعداد للموت دفاعا عن أنفسنا، وإذا هو جاء وليس معه سوى المسلمين من الأهالي فإننا لن نحمل السلاح في وجهه، وانسحبوا على نيتهم تلك تاركين الأمير الشاب في حيرة من أمره. وبينما كانت تجري تلك لوقائع كان مولاي الحسن يحث السير في اتجاه تونس تتصدر ركبه كتيبة من خمسمائة جندي من الأهالي الذين كان قد ذهب بهم الى نابولي، ويسير وراءه فيلق

87) الدون فرانسيسكو دي طوار.

88) الدون بيدرو دي طوليدو.

الايطاليين الذين سلروا بمحاذاة المستنقع سالكين الطريق الذي كان قد سلكه الأمبراطور. وفي تلك الأثناء أرسل ولده تجريدة من الجنود لمناوشة أولئك القادمين. اما السكان فقد كانوا يرقبون، وأسلحتهم بأيديهم، أن تسفر المعركة عن انتصار أحد الطرفين. وبعد مناوشات بين المقاتلين الأهليين من الطرفين، تراجع أنصار الأمير الشاب نحو المدينة ولم يتقدم من بداخلها لأغاثتهم وان كانوا قد التحقوا بهم. وبينما كانوا يدخلون المدينة جميعهم نظر اليهم أحد رؤساء(89) الفريق المؤيد للملك فرأى انهم مختلطون بعضهم ببعض وأن أهل تونس لم يقاتلوا قط، فظن أن جنود الملك قد انضموا الى الأعداء فعجل بإخبار الأمير بذلك، فأمره بأن يذهب اليهم بقصد ارجاعهم واستمالتهم اليه. وكان في ذلك سبب هلاكه. فما أن رأى السكان فيلقالجنود النصارى يتقدم اليهم والجنود الأهالي من أنصار الملك ينسحبون حتى صدقوا ما زعمه الأمير الشاب بشأن مقاصد أبيه، فهاجموا جميعهم وأعانهم العرب الذين كانوا بالمرصاد، فلما سنحت الفرصة حملوا حملة شعواء وهم يصرخون كعادتهم فأحدثوا ارتباكا فر صفوف فيلق الايطاليين وأثخنوا فيهم في علة جهات، فقضوا على معظمهم بالقتل أو الأسر، وفي من بقي منهم الى حلق الوادي في اسوإ حال. أما قائد(90) المحلة ورؤساء الفرق فقد مات جميعهم في المعركة، أما الملك فقد أسر في المستنقع وجيء به الى تونس وأدخل السجن. وبعد يومين عرض عليه ولده أن يختار الموت أو العمى. واختار العمى فأطفأوا عينيه بوضع طست من المياه المحرقة أمام وجهه. ولما سكنت الأحوال بالمدينة خرج الأمير متوجها الى بنزرت وكانت قد وصلت الى حصنها حامية من الجنود الأتراك. وفي أثناء ذلك وصلت الى حلق الوادي كتيبة قوامها خمس عشرة مائة من الاسبانيين وقائد محلتهم الفونصو بيفاس بعثه نائب(91) الملك في نابولي بعد ما سمع خبر تلك الهزيمة، وكان مع تلك الفرق بعض المحالفين وبعض المستعربين. وقام حاكم(92) حلق الوادي بنصرة عبد الملك أخي مولاي الحسن، وأدخله الى تونس في يوم عيد، وكان أهلها في غفلة من أمرهم، وقد دخل الى المدينة متنكرا لا يعرفه أحد، وساعده أشياعه المنبثون في أماكن عديدة على

89) حميد.
90) يان باتيست دي لوفريلو.
91) الدون بيدرو دي طوليدو.
92) فرانسيسكو دي طوار.

الدخول فجأة الى الحصن، واستولى عليه بعد ان قتل حرس الباب فقبض على الابن البكر(93) حميدة وكف بصره، وحمل لقب ملك تونس ولم يدم ملك عبد الملك هذا سوى ست وثلاثين يوما، إذ أصابته علة في اليوم الثاني والعشرين وهلك بعد ذلك بخمسة عشر يوما، وفي ذلك الوقت القصير قام باداء الجزية للامبراطور وقدم ستة آلاف دوكا لحامية حلق الوادي، وقام أيضا باطلاق سرح أخيه مولاي الحسن وأعاد اليه جهازه ونساءه، ولكنه سرحهن الى آبائهن ولم يرد لمس إحداهن لأن ولده فعل بهن كل ما سولت له نفسه. وكان مولاي الحسن يقول، وهو يحكي مغامراته، إن خدم أخيه نهبوا الدار عندما كان طريح الفراش لمدة خمسة عشرة يوما، وانهم جعلوه شبه المحبوس، وكلما دخلوا عليه ظن أنهم سيذبحونه. وبعد وفاة عبد الملك طلب أهل تونس أن يتولى عليهم أحد أبناء مولاي الحسن وكان مقيما بحلق الوادي، ولكن الحاكم رفض مطلبهم ونصب على العرش أحد أبناء عبد الملك واسمه محمد(94)، وقد استقبله الشعب بابتهاج كبير، ولكن مدة حكمه لم تتجاوز أربعة أشهر. وفي أثناء ذلك وصل مولاي الحسن الى حلق الوادي واقتيد منه الى جزيرة صغيرة تسمى طبرقة تقع بين عنابة وقرطاجة، وكان الجنويون قد بنوا فيها حصنا بقصد صيد المرجان، ورحل منها الى سردينيا ثم الى نابولي ثم الى روما ومنها الى اوكسبورك حيث نظر اليه الأمبراطور بشفقة كبيرة وقد رآه محروما من بصره ومن ملكه ومن أمواله، وكان من جملة تعاسته أنه كان يشكو أن حاكم حلق الوادي قد سرق أمواله وأحجاره الكريمة التي تركها وديعة عنده لما ذهب الى نابولي، وقد أمده الأمبراطور بكل ما كان في حاجة اليه وواساه باحياء أمله في مصير أفضل مما كان عليه. أما ولده(95) فقد طرد من المدينة ومن معظم أرض المملكة وصار ينتقل من مكان الى آخر يطلب النجدة من العرب وغيرهم من الأمم، ولما كان في جلفة استدعاه بعض سكان تونس وهم متذمرون من الحاكم، فابحر اليهم على متن زورق من النوع الذي يستعمله القراصنة ونزل في مدينة الموناستير والتحق به بعض العرب من أشياعه وتوجه الى تونس بمن استطاع جمعهم حوله من الرجال، فدخلها فجأة حتى إن الأمير الشاب قد وجد عناء شديدا في فراره الى حلق الوادي فاستولى على المدينة وعلى الحصن وأجهز بقسوة على جميع من كانوا مخالفين له حتى انه ألقى ببعض كبرائهم وهم أحياء الى القناجر لتفتك بهم. فبات بعد ذلك

93) سعيد.
94) مولاي محمد.
95) حميدة.

في هلوء وهو يملك تونس، ودام له أمرها الى عام ألف وخمسمائة وسبعين، فانتزعها منه حاكم[96] الجزائر غدرا بتواطؤ مع بعض سكانها، وهي ما تزال الى اليوم في ملك الأتراك.

الفصل السابع عشر
قمارت

مدينة قديمة تقع على ثلاثة فراسخ من تونس الى جهة الشمال، قريبا من أطلال قرطاج. يذكر مؤرخو هذا البلد أنها كانت تسكنها الرومان. وهي محاطة بأسوار عالية كثيرة السكان، يشتغل أكثر أهلها برعاية الأجنة والبساتين يحملون ثمارها وما تنبت من خضروات وبقول الى مدينة تونس لبيعها. وتكثر في هذه الجهات حقول مزروعة بقصب السكر ويبيعه منتجوه مقسطا الى أهل تونس ولا يصنعون منه السكر كما يفعل غيرهم في جهات أخرى. فعندما أخذ الأمبراطور مدينة تونس نهب الاسبانيون هذه البلدة وفر أهلها عند نزول الجيش، وكان اسمها في القديم فلاشيا حسبما يذكره ابن رشيد وهو كاتب افريقي.

الفصل الثامن عشر
المرسى

مدينة صغيرة في المحل الذي كان به مرسى قرطاجة، بناها أحد خلفاء[97] القيروان بعدما هدم أتباع محمد مدينة قرطاج، ولكنها تعرضت للخراب بعد ذلك على أيدي عرب آخرين في حروبهم مع ملوك تونس. وكان سكانها في وقت نزول شارلكانت في تلك الجهات أناس مساكين من الفلاحين والصيادين والصباغين، وقد كانت بضواحي المدينة بعض البساتين وبعض دور الاستجمام كان ملوك تونس يخرجون اليها للاستمتاع بلطف هواء الصيف. وقد وجدها جنود الأمبراطور خاوية فنهبوا ما فيها، ثم عادت اليها العمارة فيما بعد وإن كان سكانها في غير مأمن وثيق إذا ما وقعت الحرب مع أهل حلق الوادي. ويوجد بين أطلال قرطاجة وبين أطراف البلدة سكان لا نرى داعيا للتعرض لذكرهم.

96) أولج علي.
97) المهدي.

الفصل التاسع عشر

أريـــان(98)

مدينة صغيرة، بناها الرومان على بعد فرسخ واحد من تونس، من جهة الشمال ما تزال جدرانها قائمة. وتشاهد في عدة جهات منها تماثيل وعاديات أخرى. ويوجد خارج المدينة عدد من أشجار الخروب وأشجار أخرى تؤتي ثمارا جيدة جدا. وسكانها من فقراء الفلاحين والبستانيين، فروا من بلدهم أيضا عند قدوم الأمبراطور، وقد تم نهب مدينتهم ولكنهم عادوا اليها فيما بعد.

الفصل العشرون

عــراض

مدينة صغيرة هي أيضا، تقع على الطريق التي تؤدي من حلق الوادي الى تونس شرقي المستنقع. بناها الرومان. وهي وان كانت صغيرة قد اشتهرت بحمامات جارية المياه. كانت مستعمرة(99) رومانية عندما دخل أتباع محمد الى افريقيا ففتحوها ونهبوها ودمروا جانبا من أسوارها قبل أن يهجروها. وقد أعاد ملوك تونس بعد ذلك بناء أسوار القلعة وعاد اليها السكان ولكنها لم تصل في العمران الى سابق عهدها. ولما أخذ الأمبراطور مدينة تونس جاء الى هذه البلدة وعسكر بها، ولكن سكانها قد هجروها، ثم عادوا اليها ولكنهم ليسوا في أمن تام من عساكر حلق الوادي، وكلما وقع قتال وجدوا أنفسهم عاجزين عن مواجهتهم حتى ولو في داخل الحصن، وهي لا تبعد عن تونس الا بفرسخين اثنين.

الفصل الواحد والعشرون

نبلــه(100)

مدينة صغيرة بناها الرومان على ساحل البحر على بعد أربعة فراسخ من تونس من جهة الشرق وكانت تسمى في القديم نيابوليس أو المدينة الجديدة حسب

98) كانت تسمى أبيديرانا.

99) كوبانا.

100) أونابس.

زعم سكانها، خربها خلفاء محمد عندما دمروا قرطاج وغيرها من مدن هذه الجهة، وظلت مهجورة زمنا طويلا الى ان سكنها ناس من الفقراء، ثم هجروها عند مجيء الامبراطور. وقد عادوا اليها الآن لأن الأراضي المجاورة تغل كثيرا من الكتان لأنها تسقى بعدد من الجداول الجارية، وهم يعيشون على هذه الغلة وعلى صيد السمك ولكنهم على حال لا تخفى من الفاقة. وقد وضع بطليومس هذه المدينة عند خمس وثلاثين درجة وخمس وأربعين دقيقة طولا وثلاث وثلاثين درجة عرضا.

الفصل الثاني والعشرون
الحمامات

مدينة بناها ملوك تونس منذ وقت غير بعيد في خليج يحمل اسمها، وإن كان اسم محمد ينطق تحريفا حمامات. وهي على بعد سبعة عشرة فرسخا من تونس بطريق البر، الى جهة الشرق، أما عن طريق البحر فهنالك ما يزيد عن ستين فرسخا من حلق الوادي : فمنه الى رأس أبولون حيث يدور شاطىء البحر على هيأة هلال ثم يمتد بعيدا جهة الشرق على خليج قرطاجة الى رأس عطارد(101)، وهنالك قلعة، وبعدها يشكل البحر خليجا تقع عليه هذه المدينة، وهذا ما جعلها بعيدة من تونس عن طريق البحر وقريبة منها عن طريق البر. وسكانها ناس فقراء من صيادين وغسالين وفحامين يرمقون العيش وينوؤن بثقل الضرائب المفروضة عليهم.

الفصل الثالث والعشرون
القليبية

قلعة مبنية على الساحل بين تونس والحمامات، فوق صخرة تدعى رأس عطارد.(102). يوجد بها ميناء لائق بالسفن الحربية. سكانها شجعان أعداء ألداء لأهل تونس نظرا لما لحقهم منهم من الشرور العظيمة، وقد نهبها لاسبان ثلاث مرات إبان حرب مولاي الحسن لأن أهلها كانوا موالين للأتراك، ومع ذلك فانهم لا يترددون في التمرد كلما سنحت لهم الفرصة، وهذه المدينة حصينة بموقعها الطبيعي

101) أورأس الزعفران.

102) أورأس بوكرو.

يضاف الى ذلك أن أسوارها مدعمة بالتراب. وفي أول مرة دخلها الاسبانيون بقصد نهبها دافع عنها أهلها ببسالة فقتلوا أو جرحوا رجالا من أشجع المهاجمين، ولكنها أخذت عنوة في آخر الأمر، ومات في ذلك القتال أربعمائة من الأتراك ووقع في الأسر عدد من الناس. أما في المرتين الأخريين فلم يظهروا مقاومة لأن المقاتلين من أتراك وغيرهم علموا بما سيحدث فخرجوا من الحصن وتركوا الأهالي دون مدافع، وقد وضع بطليموس هذه المدينة عند ثلاث وثلاثين درجة وثلاثين دقيقة طولا وثلاث وثلاثين درجة وعشر دقائق عرضا واسمها عنده كوروني. ويزعم آخرون انها كلوبي وهي الآن في حوزة الأتراك

الفصل الرابع والعشرون

إهريقلية

مدينة صغيرة مهدمة، تقع على بعد عشرين فرسخا من تونس، وهي على الساحل فوق أكمة. ويذكر مؤرخو البلد انها من بناء الرومان، كانت مستعمرة لهم فلما جاء خلفاء محمد خربوها، وقد استمات أهلها في الدفاع عدة أيام، ولكنهم تغلبوا عليها في آخر الأمر ودمروها بعد ان أبادوا سكانها، ولم تعمر بعد ذلك. وما زالت أطلالها تظهر للعيان بين تونس وسوسة، ويزعم بعضهم أنها كانت تسمى اسبى، وهي التي جعلها بطليموس عند خمس وثلاثين درجة وعشرين دقيقة طولا وثلاث وثلاثين دقيقة وعشرين دقيقة عرضا.

الفصل الخامس والعشرون

سوسة

مدينة يزيد عدد سكانها عن خمس عشرة مائة. تقع على الساحل في مكان جميل مرتفع قليلا من جهة البر مما يجعل جميع دورها تشاهد البحر. وهي محصنة بأسوار جيدة، وفي أعلى مكان بها مشرف على البر يوجد حصن يحيط به خندق وساحة. وينسب أهل البلد بناءها للرومان، ويزعمون أنها كانت في ماضيها مزدهرة كثيرة السكان وانها سياكول التي جعلها بطليموس عند ست وثلاثين درجة طولا واثنتين وثلاثين درجة وعشرين دقيقة عرضا. ولما دخل خلفاء محمد الى افريقية وأسس عقبة مدينة القيروان ظلت سوسة مقر سكناه، وهي تبعد عنها باثنى عشر فرسخا على طول الساحل، وما يزال قصره بها قائما ومعه عدد من الدور المعتبرة

وجامع فخم رائق كان قد أقام بناءه، وأرض سوسة غنية بزيوتها وتمورها وتينها وغير ذلك من الغلل والثمار، ولكن تربتها قليلة الخصب لا تعطي من الحبوب غير الشعير، أضف الى ذلك أن العرب في هذه البوادي يغيرون على سكانها فيجدون مشقة في فلح تلك الأراضي، وهذا هو السبب في كون معظمهم يشتغلون بالملاحة ويذهبون للاتجار في الإسكندرية وغيرها. ومنذ وصل اليهم القراصنة الأتراك واحتكوا بهم أخذوا يشتغلون بالقرصنة فيجوبون سواحل إيطاليا بزوارق وسفن شراعية صغيرة، وعندما استولى باربروس على القيروان وتونس وهي لاتبعد عنها سوى بخمسة وثلاثين فرسخا على طريق البر أسلموا اليه قيادهم بغضا لأهل تونس من جهة وبدافع ما اشتهروا به من النزق وحب التقلب من جهة أخرى. ولما طرد الأمبراطور باربروس من تونس، بعث من صقلية بجيش بحري عظيم لغزو هذه المدينة لأنها امتنعت عن الخضوع لمولاي الحسن.

حملة الماركي دوطيرنوف على سوسة

ما أن عاد الأمبراطور من غزو تونس حتى بادر الأتراك الى الاستحواذ على جزء عظيم من المواقع الموجودة على الساحل. ولما كان ملك تونس عاجزا عن طردهم منها فقد استنجد بالأمبراطور، وقام هذا الأخير بإصدار أوامره الى نائب الملك في صقلية فبادر بانجاد ملك تونس بالجنود والسفن اللازمة للقيام بذلك الغرض. وقد عهد بتنفيذ تلك الحملة الى ماركي دو طيرنوف وهو من نبلاء صقلية، فقام بتكوين أسطول من أربع عشرة سفينة بحرية، عشر منها من صقلية وأربع من مالطة، ومعها أربع سفن ضخمة كان على متنها ألفان من الجنود الاسبانيين وبعض الجنود الصقليين، واتجه الجميع الى سوسة. وقام ملك تونس من جهته بارسال جيش عن طريق البر قوامه سبعة آلاف فارس من الأهالي أو من العرب وجعل ولده على رأسهم. ولما وصل الجيش البحري قبالة مدينة سوسة أنزلت السفن الحربية من كان على متنها من الجنود المشاة في مكان بعيد قليلا عن المدينة، في فرضة من جهة المغرب يكونون فيها آمنين من ضربات مدافع العدو، أما السفن الضخمة فقد ظلت بعيدة من الشاطىء بسبب الأرصفة الرملية الموجودة على طول هذا الساحل. ولما تأهب الجيش للمعركة في طمأنينة، ودون أن يزعجه أحد، انطلاقا من المدينة، تقدم وعسكر في سهل واقع جهة الحصن، وهنالك أخذ الجيش الحليف في ترتيب المعركة، وبعد نصب متارس ودروع، جعلوا فوقها أربعة من المدافع وأخذوا يضربون بها واجهة السور الملاصق للبرج الرئيسي

ولكن ذلك القصف لم يكن له تأثير يذكر. وكان بإمكانهم أن يهاجموا المدينة وأن يقتحموها، وبعد ذلك يقومون بمهاجمة الحصن الذي لاذ به بعض الأتراك والمرتدين، ولكنهم تجنبوا ذلك لأن الجنود لو دخلوا المدينة لانشغلوا بالنهب فيخرج اليهم الأتراك والأهالي من الحصن فيذبحونهم في الدور كما فعلوا في شرشل، ومع ذلك فقد أعطي الأمر باقتحام المدينة حتى قبل أن تكون الثلمات المحدثة في السور كبيرة بما فيه الكفاية، وكان جنود الجيش المتكون من الأهالي قد انتشروا حول المدينة ووضعوا فوق رؤوسهم أغصان زيتون حتى يتمكن النصارى من تمييزهم عن غيرهم، ودام الحصار مدة طويلة دافع أثناءها الأتراك والمرتدون عن الثلمة المحدثة في السور دفاعا شديدا وذلك برمي الحصى وكتل الحجارة من فوق البرج، وقتلوا بذلك اللون دييكو دو كاستيليا قائد المعسكر ولوب دوميلو قائد احدى السفن الحربية المالطية وعددا من النبلاء والجنود، فاضطر النصارى الى الانسحاب والاقرار بالنصر للأعداء، وكانوا قد استنفدوا ما حملوا معهم من ذخيرة الحرب، ولم يبق معهم من الأقوات ما يكفي الى حين وصول زاد جديد، فقرروا ركوب البحر والعودة الى صقلية. ولما وصل الخبر الى الأمبراطور قرر أن يكلف اندريا دوريا بتلك الحملة، فضم الى سفنه الحربية السريعة سفن نابولي ومالطه وصقلية فتجمع له منها ثلاث وأربعون، وحمل عليها الجنود الاسبانيين المشاة، ولما نزل بساحل مدينة تونس انتزع حصن القليبية من الأتراك وأخذ مدينة سوسة ومدينة المنستير ومدينة صفاقس، واستسلمت مدينة افريقية لملك تونس، فجعل فيها حامية من قبله. وسرعان ما عادت كل من القليبية وسوسة والمنستير الى التمرد والعصيان ورحبت بالأتراك. أما افريقية وصفاقس فقد استبدت كل منهما بأمرها وطردت الموالين للملك واستقبلت الأتراك. وظل الأمر على ذلك الى عام ألف وخمسمائة وتسعة وأربعين، وفيه خرج ملك تونس للغزو بسواحل تونس ومعه ثلاث وأربعون سفينة حربية سريعة والجنود الاسبانيون المشاة التابعون لمملكة نابولي، وقد تمكن من اخضاع المدن المذكورة وإعادتها الى طاعته. وما ان عاد اندريا دوريا حتى تمردت كل من سوسة والمنستير فطردتا ابن الملك واستسلمتا للدارغوت، ولكن اندريا دوريا عاد في العام الموالي فدخل المنستير عنوة كما سنذكر فيما بعد، ولما رأى أهل سوسة ذلك قاموا بطرد الأتراك الموجودين في حصنهم، واسلموا قيادهم ولكنهم سمحوا فيما بعد للأتراك بالعودة، وما تزال تابعة لهم الى يومنا هذا.

الفصل السادس والعشرون

المنستير

مدينة قديمة بناها الرومان على الساحل على بعد أربعة فراسخ من سوسة الى جهة المشرق. تحيط بها أسوار منيعة عالية، ودورها رائقة البناء، وموقعها موقع ممتاز. تتكسر عندها أمواج البحر وتحيط بها أجنة وبساتين بها أعداد وفيرة من أشجار الزيتون، ولذلك فأهلها يغلون كميات كثيرة من الزيت والفواكه. تربتها قليلة الخصب لا تصلح لزراعة القمح ولذلك فأهلها لا يأكلون سوى خبز الشعير. وهم اليوم في فقر مدقع لكثرة ما قهرهم إخوانهم من الأهليين أو الأتراك أو من المسيحيين منذ استيلاء بربروس على تونس، وذلك لأنهم تمردوا على الملك غير ما مرة ونهبتهم جيوش البحر التي جاء بها شارلكانت، وقد استولى عليها اندريا دوريا أول مرة عام ألف وخمسمائة وتسعة وثلاثين، وترك بها فرقة من الجنود الاسبانيين بأمر من الأمبراطور، بقصد تعزيز شيعة ملك تونس، وعندئذ جمع هذا الملك ما أمكنه من الرجال وزحف بهم يريد القيروان، وآصطحب معه تلك الفرقة من الجنود الاسبانيين وعددا من قطع المدفعية، ولما كان على بعد ثلاثة فراسخ من المنستير تركه جميع الرجال الذين أصطحبهم من الأهالى ووالوا أعداءه ولم يبق معه سوى النصارى، فاضطر الى الالتحاق بهؤلاء وانسحبوا بشجاعة وذكاء عبر سهل مرمل، وان كانوا قد واجهوا أكثر من مائة ألف رجل ولم يكن عددهم يتعدى ألفين. وعلى إثر ذلك ركبوا البحر في اتجاه ايطاليا بينما استعاد الأتراك مدينة المنستير.

كيف استولى دارغوث على سوسة والمنستير وكيف طرده منها اندريا دوريا

وفي عام ألف وخمسمائة وتسعة وأربعين قضى أندريا دوريا فصل الصيف وهو يبحث عن دارغوث الذي كان يلحق أضرارا عظيمة بالنصارى بواسطة أسطول مكون من أربع وعشرين سفينة قرصنية، ولكن هذا القرصان الشهير كان يتحرك بذكاء جعل ادراكه صعب المنال، بيد أن أندريا دوريا كان يجوب بأسطوله المتكون من ثلاث وثلاثين سفينة حربية سريعة مجموع سواحل تونس حيث أجبر سوسة والمنستير وافريقية وصفاقس وحصن القليبية على الدخول في طاعة الملك

وأسلم زمامها لابنه[103] ثم عاد لقضاء فصل الشتاء في بلاد النصرانية، وعند بداية الربيع خرج لمطاردة دارغوت ومعه السفن الحربية السريعة التي في ملك البابا ودوق فلورانسا وبعض فرق الجنود الاسبانيين من جيوش نابولي ولومبارديا وصقلية. وكان دارغوت قد استعاد أثناء فصل الشتاء كلا من سوسة والمنستير وصفاقس بعد ان أغرى سكانها بطرد ملك تونس وأخذ على حين غرة مدينة افريقية وترك فيها أحد أقاربه (ابن أخيه أو ابن أخته) ومعه أربعمائة من الجنود وخرج هو للقيام بأعمال القرصنة في البحر بأسطول قوامه ستة وثلاثون سفينة شراعية، ولما انطلق اندريا دوريا من صقلية مع جميع السفن الحربية نزل برأس عطارد ونهب حصن القليبية، ثم انطلق من هنالك قاصدا مدينة افريقية، ومر بالقرب منها وهو على متن سفينته القيادية بقصد التعرف عليها واستكشافها وعندئذ أطلق عليه الأتراك طلقة مدفعية فقتلوا خمسة من رجاله كانوا في مؤخرة السفينة. وعلى إثر ذلك ابتعد حتى صار أبعد من مرمى المدافع وعقد اجتماعا مع قواد السفن فتقرر في ذلك الاجتماع أن يتم الاستيلاء على تلك المدينة قبل أن يزداد فيها دارغوت تحصنا، مع الحرص على ألا يؤدي ذلك الى قطع العلائق مع السلطان الأعظم، لأن عملهم إنما هو موجه ضد قرصان لا يحفظ السلام ولا يحترم الهدنة ويحدث فسادا كثيرا. ولما كانت هذه الحملة تتطلب عددا أكبر من الجنود وكان القيام بها يستدعي إعلام نائب الملك في نابولي وصقلية، فقد تقرر أن يتم التوجه الى حلق الوادي وأن يقع الاستيلاء أثناء المرور على مدينة المنستير، وكان دارغوت قد ترك بها أتراكا لحمايتها، ولما كان الوصول اليها لقي الجنود صعوبة في النزول لأن الأتراك والأهالي وعربا معينين لهم قاوموا ذلك النزول وكانت بين الفريقين مناوشة عنيفة. ولكن الجنود الذين بادروا بالنزول في أول الأمر تلقوا دعما خفف عنهم من الآخرين بواسطة الزوارق، وصاروا يتقدمون شيئا فشيئا، ولما تم نزول جميع الجنود اضطر الأعداء الى الانسحاب من الميدان. ولما تأهب المشاة للقتال على فرقتين وقع الشروع في انزال المدفعية والتهيؤ لضرب المدينة، ولكن سكانها بادروا برفع علم أبيض، وطلبوا التفاوض معهم، ولكن تعذر الوصول الى أي اتفاق إذ رفض المهاجمون منحهم أي شيء ما عدا الحياة. وتوبع في ذات الوقت الضرب بالمدافع. وقد توقف أحد الفيلقين ليعترض طريق العرب، ولما أحدثت ثلمة في السور دخل الآخرون الى المدينة ولم يلقوا مقاومة شديدة بينما انسحب النساء والأطفال على مرأى من جيش البحر ولاذ الآخرون

103) مولاي بوبكر.

بالحصن. وبينما كان الجنود يعملون يد النهب في المدينة قام قوادها(104) تحسبا لأي غدر أو مؤامرة، باحتلال ممرات الحصن وأنذروا الذين بداخله بضرورة الاستسلام إذا أرادوا النجاة بأرواحهم، ولما رفضوا الاستسلام شرع في ضربهم من جهة البر بواسطة مدفعين بينما كانت السفن الحربية السريعة تضرب من جهة البحر. ولما أحدثت ثلمة في سور الحصن، ولو أنها كانت ثلمة غير مواتية، شرع في الصعود اليها بالسلالم ومن فوق دعامة الحائط الممتد من المدينة الى الحصن، وقد دافع الأعداء عن أنفسهم دفاعا مستميتا، ولما قتل الحاكم والأتراك وعدد من الأهالي يزيد عن الأربعين انسحب الآخرون الى البرج الرئيسي، واستسلموا هنالك ووقع استرقاقهم، وفي أثناء ذلك بعث أهل سوسة من ينوب عنهم لدى اندريا دوريا وطردوا الحامية التركية ووقع معهم الصلح وصاروا من شيعة ملك تونس، وسنذكر بقية هذه الحوادث عند وصف مدينة افريقية. وعلى كل حال فقد استعاد الأتراك في آخر الأمر هذه المدينة وجميع المدن الأخرى الواقعة على الساحل، وتوجد فيها اليوم حاميات تابعة لهم.

الفصل السابع والعشرون

طبلبة

مدينة بها سبعة من الكوانيين، بناها الرومان على الساحل، على بعد أربعة فراسخ من المنستير من جهة الشرق. كانت فيما مضى غنية كثيرة السكان نظرا لاتساع الأراضي المجاورة لها ووجود عدد كثير من أشجار الزيتون بها تعطي كميات وفيرة من الزيت، وهي تجاري في ثروتها كلا من سوسة والمنستير ومدينة افريقية. وقد ألحقت بها الحروب أضرارا عظيمة حتى انها صارت مهجورة من السكان بسبب غارات العرب عليها. ولا يسكنها اليوم الا بعض الزهاد يستمملون كل شيء من الغرباء الذين يقصدونها حيث يقدمون اليهم في مأوى كبير ما هم بحاجة اليه، وذلك ما يجعلهم في مأمن من العرب وملوك تونس والأتراك، فهم عندهم محل قبول ومعاملة سواء. وقد جعل بطليموس هذه المدينة عند ست وثلاثين درجة وخمس وخمسين دقيقة طولا واثنتين وثلاثين درجة وأربعين درجة عرضا، واسمها عنده افروديزيا.

104) الدون گارسيا دي طوليدو والدون ألبارو دي بيكا.

الفصل الثامن والعشرون

مدينة افريقية

مدينة كبيرة دمرها في عصرنا هذا شارلكانت، كما سنذكر فيما بعد. وكان الرومان يسمونها ادروميت، وجعلها بطليموس عند ثلاثين درجة وأربعين دقيقة طولا واثنتين وثلاثين درجة وأربعين دقيقة عرضا، ولما جاء الخليفة الفاطمي[105] الذي كان بالقيروان حصنها وسماها المهدية، وهي في بنائها كجزيرة على رأس طرف من الأرض داخل في البحر وذلك على بعد أربعة فراسخ من طلبلبة الى جهة المشرق. وكانت تحيط بها أسوار من الجهة المتصلة بالبر، وكان في هذه الجهة حصن مبني في جدارها وهو سميك الى حد الشريط الناتىءالذي في أعلاه، سمكه أربعون قدما، تحيط به ستة أبراج متباعدة بعضها عن بعض، سميكة هي أيضا، بارزة خارج السور بأربعين قدما الى حد مرمى السهام من الجزء المقوس. وكان في أعلى الحصن جداران ينظر أحدهما الى المدينة وينظر الآخر الى خارجها، وبين هذين الجدارين وبين خواء الأبراج كانت غرف الحاكم وغرف الجنود. وكانت الأبراج الأربعة التي في الوسط مربعة الشكل وكان البرجان المواليان للبحر مستديرين عاليين. ولها جميعها أبواب صغيرة مغطاة بصفائح من الحديد، وهي قليلة الارتفاع حتى أن من يريد الدخول اليها يتوجب عليه أن ينحني، وهذا ما جعل كل برج بمثابة حصن قائم بذاته. وفي البرج المربع الثاني من جهة المشرق كان الباب الرئيس، ولا يوجد قط غيره باب من جهة البر، وكانت تعلو هذا الباب قبة معتمة تقع تحت البرج، فيها ستة أبواب متتابعة مغطاة بصفائح من الحديد، والأبواب الثانية بالنسبة للداخل من الخارج مصنوعة من صفائح سميكة من الحديد بعضها في بعض بلا أدنى قطعة من الخشب، وعلى تلك الصفائح صورت بالبرونز الناتىء أسود رابضة متقابلة اثنتين اثنتين، ولم تكن تلك الأبواب مسطحة بل كانت منحنية من الخارج، وكانت تخريماتها من حديد وفضاء ارتفاع كل منها يبلغ من العلو حوالي ثمانية أقدام تحت البرج على قدر علو هذا الجدار، وثمة جدار اخر أقل علوا كان بمثابة نطاق زائد، سمكه اثنا عشر قدما، وفيه تسعة أبراج مصممة بدقة كبيرة بحيث تماثل كل ثلاثة منها اثنين من أبراج الحصن، وفي أوسطها باب جانبي ينظر الى جهة المشرق، كان محيط المدينة خمسة آلاف وثلاثمائة قدم، وعلى مسافة ثلاثين

105) المهدي.

قدما يوجد برج من الأبراج، وتوجد دار صناعة السفن في شرقيها وقرب جامع كبير رائق البناء لصيق بالسور. وفي أقصى شماليها مرتفع فوقه برج على البحر يتأتى منه رصد كل شيء فيه، وفي داخل المدينة مرسى مغلق يكون الدخول اليه من بوابة مفتوحة في السور، وفي داخله كانت تحفظ القاليرات وغيرها من السفن الصغيرة، أما السفن الكبرى فكانت ترسو في مرفأ أمين، وفي قبالة المدينة الى جهة الجنوب تلال عامرة بالأجنة والبساتين ودار الاستجمام، أما من جهة الشرق فكانت بساتين وأجنة تسقى من بعض الآبار، والأراضي المزروعة يحدها جبل ممتد من الشرق الى الغرب من ورائه أرياف شاسعة يسرح فيها العرب شتاء نظرا لما كان يتوفر فيها من مراع صالحة لقطعان المواشي حول مستنقعات تتكون هنالك، وكانت هذه المدينة على قدر كبير من الأزهار لما كانت تحت حكم الرومان، ولما استولى عليها وعلى قرطاجة خلفاء محمد جعلوها دكا، ثم أعاد المهدي بناءها وبنى السور الذي تحدثنا عنه، فجعلها مقر عرشه وكان على يديه تعميرها وازدهارها، وبعد موته قامت بافريقية ثورات عظيمة، ولما انحطت امبراطورية خلفاء القيروان، قام بعض قراصنة صقلية بالاستيلاء على هذه المدينة وأطلقوا عليها اسم افريقية، واستولى عليها النصارى بعد ذلك الى ان غزاها ملك من المغرب الأقصى من سلالة الموحدين، ولم تخرج منذئذ من حكم أتباع محمد الا عندما وقع انتزاعهما من دارغوت. وكان الكونت بيدرو نافار قد هاجمها قبل ذلك ولكن المسلمين الأهالي دافعوا عنها ببسالة وردوه على أعقابه خاسرا. كان سكان هذه المدينة متصفين بالخفة وعدم الاستقرار، وقد ثاروا غير ما مرة على ملوك تونس، واستبدوا بأمرهم فترة من الزمن الى أن جاء دارغوت فأخذ مدينتهم. وسنأتي لذكر ذلك.

من هو دارغوت وكيف استولى على مدينة افريقية

أصله من حصن صغير بآسيا يقع قبالة جزيرة رودس في الاقليم الذي يسميه الأتراك اليوم مانطيشا، كان أهله أتراكا من أتباع محمد، فقراء من البدو، ولذلك دخل في خدمة خير الدين باربروس منذ طفولته. وقد اعتاد على ركوب البحار عدة سنين حتى صار من أعظم رؤساء السفن في بحر المشرق واكتسب خبرة في معرفة الجزر والمراسي والفرضات الموجودة في البحر المتوسط، ولما صار باربروس بعد سقوط تونس قائد أسطول السلطان الأعظم عين دارغوت رئيسا للقراصنة، وقد استطاع بسفن لا يتعدى عددها اثنتي عشرة أن يلحق أضرارا جسيمة بالنصارى، إذ كان يجوب مياه السواحل الايطالية حيث نهب عددا من

المدن مما جعل الأمبراطور يأمر أندريا دوريا بمطاردته بجميع السفن السريعة التي كانت الى نظره، وقد عهد بهذه المهمة لقريبة يانتان دوريا فتمكن من اللحاق به في جزيرة كورسيكا، وكان يظن أنه آمن هنالك من كل شر، وكان دوريا قد أبحر في اتجاه معاكس لاتجاه الرياح فلقيه وغنم منه ثلاثة عشر زورقا وهي مجموع أسطوله، وقبض عليه ووضعه في القيد داخل سفينة أندريا دوريا محبوسا أربعة أعوام، وقد تألم هذا القرصان للإهانة الشديدة التي ألحقت به، واغتاض على الخصوص لكون الذي قبض عليه فتى شابا أمرد، وقد فاه في سورته بكلمات نابية سمعها يانتان فكاله من اللكم واللطم ما يكاد يهلكه به لولا تدخل بعض قرابته، وقد وصل بلربروس الى تولون ومعه الجيش البحري للملك الأعظم، فأرسل من يكلم اندريا دوريا في أمر افتداء دارغوت من الأسر مقابل ثلاثة آلاف دوكا. وما أن فكه حتى زوده بسفينة ذات اثنين وعشرين مقعدا، وعينه قائد على جميع القراصنة. ولما رجع جيش البحر الى القسطنطينية جمع دارغوت عشرة سفن قرصنية من جلفة ومن صفاقس وأخذ في طرق سواحل البلاد النصرانية ودخل خليج نابولي فأخذ مدينة كاستيلماري ونهبها واستولى على سفينة سريعة من جزيرة رودس وذلك في قنال ميلين على مسافة أربعة فراسخ من جزيرة نابولي، وقد تمكن معظم من كانوا بهذه السفينة من الفرار. واستمر طيلة السنة يجوب مياه هذه السواحل ولم يلق في طريقه عائقا، حتى طلب الأمبراطور من أندريا دوريا أن يحاول القبض عليه بجميع الوسائل. فقام في السنة الموالية بجمع ثلاث وأربعين من سفن الأسطول الملكي الحربي السريع، وانطلق يبحث عن دارغوت في سواحل بلاد البربر كما سبق أن ذكرنا عند وصف مدينة المنستير، وقد قضى دارغوت فصل الشتاء في جلفة، ولما أحس بأنه غير مأمون في مينائه اختار أن يأوى الى مدينة المهدية، واهتم بالاستيلاء عليها، وكانت حينذاك مستبدة بأمرها، وقد خلع أهلها طاعة ملك تونس ورفضوا الاعتراف بالتبعية لصاحب القيروان، وقد قاموا بطرد قرصان نزل بها باسم السلطان الأعظم وأخذ في إقامة حصن يتخذه مقرا لحكمه عليها، وقد صمم دارغوت على ذلك القصد وخرج في شهر فبراير ومعه ست وثلاثون سفينة ذات مجاذيف، نزل بمدن من هذا الساحل وأثار السكان ضد ولد ملك تونس المقيم بها حتى طردوه منها، وبعد ان تمكن من حصون هذه المدن اتفق مع صديق له من أهل مدينة افريقية على أن يدبر استقباله في هذه المدينة عندما يقدم عليها بسفنه ووعده الاغتناء مما سيغنمونه من النصارى، وقد توصل هذا الشخص الى تهيىء مقابلة بين كبراء تونس وبين دارغوت، وجاء اليه في وفد مكون من اثني

عشر رجلا، ولكن دارغوت لم يتمكن من اقناعهم بكل ما يريد حيث وافقوا على استقباله بصفته صديقا لا غير، يقدمون اليه كل ما يحتاجه دون أن يجوزوا دخول المدينة لشخصه أو لأي أحد من الأتراك... رجع الى صفاقس، ولما رأى أن الاستيلاء على المدينة من هذه الجهة أمر مستبعد، ألح على صديقه في أن يدبر له الدخول من فتحات المدافع التي بالسور من جهة البحر بين جهة الجنوب وجهة الشرق. وبعد ثلاثة أيام جعل ذلك الموالي رجالا من حزبه في الأبراج الموالية لتلك الجهة، وجاء دارغوت من صفاقس عند بداية الصباح للتعرف على الموقع الذي يكون منه الدخول، وأنزل ستمائة من الأتراك ارتقوا من هنالك الى المدينة، ثم اتبعهم ببقية جيشه، فأخذوا سكان المدينة على حين غرة، واستولى على الأبراج المجاورة ونَفَخَ في الأبواق معلنا النصر، وأطلقت مدافع السفن وتقدم برجاله الى ان وصل ورش صناعة السفن، ولما سمع السكان تلك الضجة، أخذوا أسلحتهم وقاتلوا ببسالة دفاعا عن حريتهم، وأسفر القتال عن هلاك أربعين من الجانبين، وفي النهاية تبين للسكان أنهم كانوا ضحية غدر وخديعة وان عدد الأتراك يزداد ساعة بعد ساعة، وأذعنوا لقبول دارغوت أميرا عليهم لا كمواطن وحسب. وبادر دارغوت الى الاستيلاء على القلعة، وبعد ان مكث هنالك بضعة أيام في التهيىء لغزو جديدج وترك ابن أخيه (أو أخته) ومعه أربعمائة من الأتراك، وأمره يقتل الشخص الذي دبر دخوله الى المدينة مخافة أن يدبر خيانة أخرى، أما هو فقد انصرف بسفنه للقيام بأعمال قرصنة في سواحل البلاد النصرانية وأخذ معه بعض كبراء السكان ليكونوا لديه بمثابة رهائن.

كيف استولى قواد الأمبراطور على مدينة افريقية

ولما بلغ خبر ذلك الى أندريا دوريا خرج باحثا عن دارغوت بالأسطول الذي خرج به في السنة الماضية وعلى متنه قدماء الجنود الاسبانيين فمر بسواحل بلاد البربر وتعرف على أحوال الحصون والقلاع وأجرى اتصالات بالعرب الذين وعدوه بتقديم المعونة من أجل طرد القراصنة من ملاجئهم وبأن يقاتلوا ضد الأتراك، ثم ذهب الى حلق الوادي ليكلم الحاكم(106) هنالك، واستولى في طريقه على مدينة المونستير وأجبر مدينة سوسة على الاستلام، كما سبق أن ذكرنا. ولما وصل أندريا دوريا الى حلق الوادي أرسل على وجه الاستعجال واحدا من قدماء قواد ملك

106) بيريس دي فيركاس.

تونس ليجس نبض صاحب القيروان، فعاد اليه بتعهد هذا الأمير بأن يضمن الامداد بالأقوات ويشارك في القتال إذا قر العزم على طرد ذلك القرصان من محلته، ورجع أندريا دوريا الى دريباتو بتلك المواثيق وأخبر بها نائبي الملك[107] في نابولي وصقلية، فقدم اليه نائب الملك في نابولي جميع ما يحتاج اليه في هذه الحملة من الرجال والمدافع والذخائر. أما نائب الملك في صقلية فقد أراد أن يشارك في هذه العملية نظرا لأهميتها بالنسبة لمجموع صقلية، ولذلك التحق بمرسى دريبانو حيث كان موعد لقاء الجيوش البحرية، ولما وقع الاستعداد وقع الانطلاق في اليوم السابق لعيد القديس يوحنا، ثم أرسلوا في جزيرة لافابيان. ومن هنالك أرسل نائب الملك[108]، وكان قد كلف والده بالقيادة في محله، سفينة حربية سريعة الى حاكم حلق الوادي لإجباره على اللحاق به في وجهته. وفي يوم عيد القديس يوحنا انطلق الجيش البحري من جزيرة لافابيان، وفي يوم الجمعة الموالي له أرسل بسواحل بلاد البربر شرقي مدينة افريقية. وفي غد ذلك اليوم بدأت فرق المدفعيين تنزل بواسطة الزوارق الصغيرة والفرقاطات وبدأت في التأهب للقتال على الساحل لحماية إنزال الأقوات والذخائر، ثم وقع حفظها في محرز بني على هيئة حصن. ولما تم تنفيذ كل شيء دون تعرض لعرقلة من جانب العدو، تشكل فيلقان، قوام أولهما كتائب جنود نابولي، وقوام ثانيهما كتائب من جنود ملبين وصقلية ومالطة، كما تشكل ذراعان واقيان من حملة البنادق وقفوا في جهة البر، وبعد ذلك أخذ الجميع في ا لزحف نحو التل الذي ذكرنا انه مغطى بالكروم واقع على مسافة ستمائة قدم من المدينة، وقد تركوا بيرنار صولير ومعه فرق من جنود صقلية بقصد حراسة محرز المؤن والذخيرة وحماية نزول ما بقي من العدة والجنود، وعند اقتراب الفيلقين من التل شرع حملة البنادق من الجنود الداعيين في مناوشة بعض الأتراك وبعض الأهالي الذين كانوا يضربون من وراء سياجات أجنة الكروم، لكن الجنود قاموا بهجوم شديد ضدهم وطردوهم الى غاية وصولهم الى المدينة، ثم وصل معظم الجيش ووقف وراء التل ليتقي ضربات مدافع الأعداء، وأخذ قواد الجيش في إصدار الأوامر بحفر الخنادق ونصب المدافع وعمل كل ما يلزم للقتال، وفي تلك الأثناء وصل حاكم حلق الوادي، وتم نصب بطارية في اتجاه الحزام المصطنع وصوب جانب الجدار الذي يسد المضيق الذي ذكرنه أعلاه، وبذلك تأتى ضرب المدافعين عن الأبراج، ولما تم إحداث ثلمة كافية في الجدار أرسل

107) الدون بيدرو دي طوليدو وخوان دي بيكا.

108) الدون خوان دي بيكا.

خمسة من الجنود للتحقق منها ما بين ساعة الزوال وبين الساعة الواحدة بعده. وقد ظن أن ذلك هو وقت قيلولة العدو بسبب شدة حرارة الصيف. ولما وصلوا الى جدار الحزام المصطنع وأرادوا الصعود فوقه رآهم الحراس، فاضطروا الى التراجع، ولكن واحدا من بينهم كان قد تسلق عاليا وتدلى الى الداخل حتى تمكن من الاطلاع على الثلمة فرأى أنها واسعة يستطيع الجنود أن يتسللوا منها من حراسة الى أخرى الى أن يبلغوا الباب حيث توجد قبة يمكن الاعتصام بها، وحيث يتأتى، انطلاقا منها، إلغام السور الثاني، الا ان مرتدين خرجا من المدينة في تلك الأثناء وذكرا لنائب الملك(109) أنه لا ينبغي اتباع ذلك الرأي لأن الأتراك تحصنوا من هذه الجهة بخنادق كبيرة وأسوار جيدة وان الجنود الذين يتسللون اليهم من هنالك مصيرهم الهلاك. وقد رأى قواد جيش النصارى أن بإمكانهم الاستيلاء على بعض أبراج الحزام الأمامي الذي من جهة الغرب ليتسنى لهم القيام انطلاقا منها بضرب جدار الحصن، ولذلك قرروا القيام ليلا باقتحام السور الأمامي من جهة الثلمة التي أحدثت ومن الجهات الأخرى باستعمال السلاليم، وعينت لذلك الهجوم فرق من جنود المدفعية وجنود من البحرية وعهد لبعض الصناديد بالتصدر عند الزحف، وفي صبيحة يوم الجمعة بدأ الهجوم، قبل شروق الشمس بساعتين، وكابد المتصدرون قتالا طاحنا عند السور وفي ثلمة الحزام الأمامي، وجرح عدد من الرجال من الجهتين، ولما كانوا يحاولون التسلل من جميع الجهات واجهوا عددا من الحواجز والعوارض والخنادق على امتداد السور، فتعذر عليهم بسببها الجواز، ووقع أن سقط بعضهم في الخندق الواقع بين الحزام الأمامي وبين الحصن فهلكوا، ووقع أحدهم في الأسر. وبينما كان جنود هذه التجريدة يقاتلون وسط تلك المحن إذ التحقت بهم الكتائب الأخرى لتعزيزهم، فنصب جنودها السلاليم وبدأوا يصعدون عليها في الوقت الذي دخل فيه جميع الأتراك والأهالي في صفوف الدفاع، فكابد المهاجمون عناء بما قوبلوا به من ضربات المدافع والقنافات، بل وحتى باستعمال الحجارة، وزاد في الطين بلة أن السلاليم كانت أقل طولا مما ينبغي أن تكون. فكان الجنود فوقها معرضين لضربات الأعداء دون أن يستطيعوا القيام بشيء يذكر. ولما رأى قواد الجيش تلك الحال أمروا بسحب السلاليم، وظن الجنود أنهم مأمورون بالانسحاب هم كذلك، فعادوا الى الاحتماء بالخنادق وتبعهم في ذلك كل الآخرين الذين كانوا يقاتلون عند الثلمة المحدثة في

109) خوان دي بيگا.

السور. ولا شك أن الخسارة كانت ستكون أعظم لو انهم لم يبادروا بالانسحاب، بيد أنهم، والحالة هذه، قد فقدوا أربعة عشر جنديا من المشاة وجنديا من البحرية إضافة الى ثمانين جريحا والى الجندي الذي ذكرنا أنه وقع في الأسر لأن الأتراك لم يقتلوه لأنهم أرادوا أن يستنطقوه، وبعد هذا الفشل رأى الرؤساء أن من الأنسب مهاجمة المدينة من جهة أخرى، ولما كان قد وقع استهلاك قسط من الذخيرة فقد أرسل على عجل الى نابولي وصقلية وحلق الوادي في طلبها وفي الاستزادة من المدافع والأنجاد، وأرسل المرضى والجرحى مع المبعوثين لجلبها، ولما وصل الخبر بأن دارغوت آخذ في تجنيد الناس من جلفة وصفاقس وغيرهما وانه يحاول استمالة العرب، جمعت المحلة في حيز محدود وقع تحصينه من الجهة الموالية للبادية بخندق عظيم وحواجز من الطين والاخصاص نصبت خلالها مدافع حنشية ومدافع صغيرة أخرى. وقد جيء عند ذلك من حلق الوادي بمدفعين حنشيين ومدفع ثعباني ومدفعين كبيرين وكميات من البارود والذخيرة مما ارسل لجلبه القبطان سيكال وسفينتاه الحربيتان، وأما انطوان دوريا فقد جلب من صقلية مدافع وذخائر وأتى بالجنود الاسبانيين الذين كانوا هنالك في حراسة حصون الجزيرة، ووقعت المبادرة بنصب مدافع على بعد مائتي خطوة وراء المدافع الأولى وحفرت خنادق جديدة على مسافة مائتي خطوة أمام الخندق الذي يمتد من بحر الى آخر، وحفرت في جنباتها خنادق صغرى يتسنى منها الضرب في حماية تامة، وأمر كبير المهندسين بحفر خندق مغطى على هيئة نفق منجم حتى يتسنى منه الوصول الى السور الأمامي تحت سقف مزدوج، وقد قصد بذلك نسف السور أو تفجيره بالألغام، ولكن ذلك كان بدون جدوى لأن الأتراك كانوا يضربون الجهة التي يأتي منها الضجيج واستطاعوا احداث ثقوب في تلك الألواح بضربات البنادق والمدافع الصغيرة، فتمكنوا بذلك من قتل بعض الجنود، وقتل المهندس نفسه قبل أن يتمكن من اتمام عمله، وعملت أيضا وقاءات نقالة من الخشب غشيت بالجلودووضعت بمهارة ودقة على عجلة يديرها من بداخلها من الجنود دون أن ينكشفوا للعيان، وعندما اقتربت من السور رماها الأتراك بشهب نارية فأحرقتها بعد قتل أفراد كانوا بداخلها. وفي هذه الأثناء مات مولاي الحسن ملك تونس بالمحلة . وكان قد حرص بالرغم من فقدان البصر على أن يكون بجانب نائب الملك في صقلية، واصطحب معه في هذه الرحلة ولديه(110). مات من الحمى

110) مولاي محمد ومولاي أبو بكر.

وعمره ستة وستون عاما وذلك في كوخ متواضع مبني فوق التل. وكان هذا الملك شديد السمرة ولكنه كان جميل الهيئة، حكيما شجاعا ذا انتقام من الذين شايعوه. وبعد موته حمل الى القيروان ودفن هنالك حيث مدافن الملوك من جسنه. وفي أثناء ذلك وصلت الى محلة الجيش إنجادات متنوعة من كل الآفاق، فيها مدافع ودخائر ومقاتلون، وقد أسهم فيها كل من جمهورية جنوة ودوق فلورانسا ونائب الملك في نابولي إضافة الى ما كان يبعث به من الانجادات في أوقات متوالية فيرناند فيكا ابن نائب الملك في صقلية، وبهذا لم تشك المحلة من نقص شيء احتاجت اليه. وبينما كان العمل جاريا في حفر الخنادق ونصب المدافع، كان العدو يغتنم فرصة استراحته فيخرج من حين لآخر لمضايقة العمال وإزعاجهم، وكان في كل مرة يضطر الى الانسحاب. وذلك ما فت في عزم السكان الذين ندموا على عدم مغادرة المدينة كما فعل بعضهم عندما رأى الجيش يتقدم نحوها، وكان الحاكم(111) يعللهم بالأمل في وصول الانجاد ويذكر لهم أن دارغوت لن يترك المدينة تضيع مع ما لها من الأهمية، وكان يحملهم على العمل ونساءهم وأولادهم ليلا ونهارا، ولم يكن ما منّاهم به عبثا. ذلك أن دارغوت لما سمع باستيلاء النصارى على سوسة والمنستير ومحاصرتهم لهذه المدينة، شرع في تجييش الجيوش وجمع المقاتلين من كل الآفاق، فأرسلهم برا واخذ هو يقترب من المدينة بسفنه عن طريق البحر، وقام ليلا بإنزال ثمانمائة من الجنود الأتراك ثم أمر سفنه بالعودة، والتحق بجيشه الذي كان في طريقه الى المدينة وذلك بعد أن أرسل تحت ستار الظلام سباحين ماهرين يخبران حاكم المدينة بأنه عازم على مهاجمة المحلة في يوم عيد القديس جاك وذلك ليكون مستعدا للهجوم من جهته. وقد اطمأن سكان المدينة لذلك الخبر، وقبل الموعد المضروب بيوم واحد تقدم دارغوت ليلا بجميع جيوشه وكمن بها وراء جبل يقصده النصارى عادة لجلب أغصان الأشجار التي يبنون بها الخنادق. وقضى ليله قرب برج هنالك حيث كانت فيما مضى دار كان المهدي يخرج اليها للاستجمام. وكان قوام جيش دارغوت ثمانمائة من حملة البنادق الأتراك وثلاثة آلاف من المقاتلين الاهالي، وعند بداية الصبح أمر أهل جلفة بأن يكمنوا في الجهة الأخرى من الجبل المقابلة للمدينة بين أشجار الزيتون في شعب بأسفل الجبل، فانبطحوا على بطونهم لكي لا يظهروا للعيان، أما غيرهم من المقاتلين الذي أصلهم من تلك الجهات، وكان من بينهم بعض حملة البنادق، فقد أمرهم بالمناوشة المعتادة للعدو حتى أبواب محلته، وكانوا يحاولون استدراج النصارى للوقوع في كمين. وعند طلوع

(111) حاج رايس.

الشمس خرج النصارى الذين يجلبون أغصان الشجر من الغابة تحرسهم على ما جرت به العادة فرقة من المشاة، فبدأ المقاتلون المسلمون من الأهالي المختبئين وسط أشجار الزيتون يضربونهم. وكان مع النصارى مسلم من حاشية ملك تونس كان يقترب مرارا من اخوانه المسلمين الذين في الحزب الآخر دون أن يمسوه بأذى، وقد اقترب منهم هذه المرة ليرى ما إذا كان قد جد عندهم جديد، فرآهم متوثبين ممتلئين ثقة وحماسا، فداخله الشك في أمرهم، فأشار للاسبانيين بالتوقف، وجاء الى نائب الملك فأخبره بتوجساته وأبلغه أن من رأيه العدول ذلك اليوم عن الخروج لجلب أغصان الشجر قبل التأكد مما إذا كانت النجدات لم تصل بعد الى المحاصرين، وهو أمر لن يلبث أن ينكشف، ولكن قواد الجيش رأوا أن من الضعف أمر الجنود بالانكفاء والدخول بناء على مجرد تلك التخوفات. وهكذا ترك نائب الملك في صقلية أمر حراسة المحلة والخنادق لابن نائب الملك في نابولي، وخرج بنفسه ومعه ثلاث فرق من المشاة وعدد أكبر من الرواد والجنود الذين لا يحملون السلاح، وذلك بقصد جلب أغصان الشجر، واتخذ الطريق التي تمر وسط أشجار الزيتون، كان معه ولده واثنان من أولاد ملك تونس والرجل الذي تحدثنا عنه من أهل البلد المسلمين وكذا بعض الفرسان. وبعد أن رتب فيلقين في شكل مربع ضم جميع المشاة وذراعين من حملة البنادق على الجناحين، دخل بين أشجار الزيتون ثم شرع المكلفون بقطع الأغصان في انجاز عملهم. وكان للدارغوت حراس مترصدون في مبنى بأعلى الجبل، وكانوا يرقبون انطلاقا منه حركات النصارى وسكناتهم، ولما رأى دارغوت النصارى يقتربون ابتهج لذلك وأمر جنوده بالتأهب للقتال وحظر عليهم الظهور للعدو قبل صدور الأمر لهم منه بذلك. ولم يكن يظهر كما سبق أن قلت سوى مقاتلين من سكان هذه الجهة يناوشون بالضرب من خلال أشجار الزيتون ثم ينسحبون نحو الكمين. وقد لاحظ نائب الملك أنهم كانوا على حال غير معهودة من الإقدام والجرأة، فلم يستكن الى كثرة جنوده، بل أراد أن يطلع بنفسه على جميع الجهات التي توجد بها أشجار الزيتون، فقاد حملة البنادق من ذراع المسيرة وتعقب الفارين الى ان وصل الى الكمين. وهنالك خرج للانقضاض عليه أهل جلفة بكثرة، ولكن الجنود النصارى الحاملين للقذافات هجموا عليهم وتمكنوا من ابعادهم بضربات القذائف وحملهم على التراجع والانحياش الى فيلقهم. ولكن حملة القذافات من الذراع الثانية الذين طاردوهم من الجهة الأخرى توغلوا في الهجوم حتى تعذر عليهم الانسحاب. وذلك

لأن كتيبة أخرى من المقاتلين الأهليين قد انقضوا عليهم حتى اشتبك بعضهم ببعض وهم يحملون السلاح، وكان المسيحيون في تراجع مستمر نحو محل وقوف جموع فيلقهم. وفي تلك الأثناء أشهر الذين كلفوا بقطع الأغصان أسلحتهم وهاجموا المسلمين ببسالة تسهيلا لانسحاب مقاتليهم الذين بلغ عدد الهالكين منهم أربعة عشر جنديا من المشاة وملازما من البحرية. وما أن شاهد دارغوت رجاله وقد خرجوا من مكمنهم حتى تقدم بسرعة مقتحما سفح الجبل ومعه رجاله من الأتراك في هجمة قوية شديدة، وفي نفس الآن بادر الفرسان الستون باطلاق أعنة أفراسهم نازلين في هجمة على النصارى. وعندئذ أمر نائب الملك بتجريد كتيبة من حملة القذافات لتقوم بمناوشة الأتراك، وقد أفلحوا في ذلك أول الأمر لأنهم كانوا يضربون من أسفل الى أعلى فيرون أعداءهم منكشفين أمامهم بينما كان الأعداء يضربون من أعلى الى أسفل فلا يتأتى لهم مثل ذلك الامتياز. وقد قتل حاكم(112) حلق الوادي في هذا الصدام بضربة قذافة تحت ثديه أصابته وهو يمر أمام الفيلق يريد انجاد ذراع الجناح الأيمن من الجيش. وقد قام الأتراك بهجوم على هذا الذراع فصدهم النصارى صدا كبيرا تمكنوا بفضله من سحب جثة الحاكم فوضعوه مستعرضا على متن فرس وغطوه بسترة رمادية حتى لا يعلم الجنود بمقتله فيصيبهم الهلع والذعر. وقد قام جنود الدراعين من حملة البنادق بأعمال قتالية مدهشة، وقد استطاعوا بفضلها منع العدو من التقدم والاقتراب من محلة جيش النصارى. ولما فرغ نائب الملك من تحميل ما قطع من أغصان الشجر للذين كلفوا بحملها أخذ في الخروج بجيشه الى فضاء مكشوف مبتعدا عن أشعار الزيتون جاعلا حملة الأغصان في وسط الجيش وحملة البنادق في حراسة المؤخرة، وسار على هذه الهيئة المتميزة بحسن الترتيب متجها الى معسكره. وبينما كانت تجري هذه الوقائع في الريف خرج حاكم المدينة حسبما صدر اليه من الأوامر، بمجرد ما ظهرت له أعلام الأتراك. وبالرغم من كون المدافع المنصوبة في هذه الجهة قد أحدثت مقتلة فظيعة في العدو، فقد تجرأ مائتان منهم على التقدم وتثبيت أعلامهم بقرب الخندق. ولما تبين لهم أن عدد الحراس قد صار ضعف ما كان عليه، ورأوا بعض الضباط والجنود ساقطين على الأرض أسرعوا الخطى في الرجوع الى المدينة. وعندئذ بادر ولد نائب الملك في نابولي، وكان له الاشراف على أمر الخنادق، باللحاق بنائب الملك في صقلية قصد تسهيل انسحابه. وبعد فترة من مناوشة العدو دخلوا جميعا

112) لوبيس ايطاليس دي بيركاس.

الى المعسكر، وقد تعقبهم الأتراك الى هنالك، وتمكنوا من اقامة علم من أعلامهم فوق برج صغير كان في حقل مغروس بالكروم وبدأوا يضربون منه الجنود النصارى الذين في الخنادق، وقد تمكنوا من جرح جنود كانوا بأحد الحصون حيث كان مدفعان. وأغاظ ذلك جنود النصارى فخرجوا من خنادقهم وتوجهوا توا الى التل الذي وقف فوقه الأتراك بقصد طردهم منه، وقد تم لهم ذلك بعد أن قتلوا من الأتراك ما يزيد عن خمسين وجرحوا آخرين. ولما رأى دارغوت أن حملته قد فشلت، جمع رجاله وعسكر في مكان يرقب منه محلة النصارى وذلك في عقبة جبل الزيتون. ولكنه تضايق بضربات المدافع الخنشية المصوبة اليه من وراء التحصينات، وأصابه اليأس من القدرة على إنجاد المدينة فرحل في اتجاه صفاقس. وقد هلك في هذا اليوم مائة وثمانون من الأتراك والمسلمين الأهالي وجرح عدد منهم يزيد عن ثلاثمائة، أما القتلى من النصارى فكان عددهم ستة وسبعين من بينهم حاكم حلق الوادي ومقدم الرواد وملازم من جنود البحر. وأما الجرحى فعددهم أربعة وثمانون أصيبوا بضربات بنادق ولقي معظمهم حتفه متأثرا بجروحه. وبعد انسحاب دارغوت عقد قواد الجيش اجتماعا، ولما تبين لهم أن الثلمة التي أحدثوها في السور يصعب الصعود منها للمدينة لأن الأتراك اغتنموا بفرصة الوقت الذي سنح لهم فاصلحوا وعززوا تحصيناتهم من تلك الجهة، أمر بنصب بطارية أخرى على بعد مائتي خطوة من الأولى ونصب فوقها اثنين وعشرين من المدافع الفخام وبدأوا باستعمالها في ضرب الجدار الأمامي والبرجين وواجهة السور بينهما من جهة الشرق، ولما أحدثت فيها ثغرة صغيرة خرج من المدينة مسلم من أصل أندلسي وأخبر النصارى بأن جدران برج الجهة المنصوبة اليها المدافع سميكة ما عدا في أعلاها حيث يتصل بالجدار الواقع بين التحصينين إذ كان هنالك سلم يرقى به الى مواقع الدفاع، فإذا دمر جانب منها في هذا المكان سهل تحطيمها أو تحطيم السلم المؤدي اليها على أقل تقدير، وعلى إثر التوصل بهذا الخبر صدر الأمر بتنصيب بطارية أخرى في تلك الليلة، ونصب فوقها مدفعان وشرع ابتداء من الصبيحة في ضرب البرج من الجهة التي نصح بها ذلك المسلم، ولم يمض سوى وقت قليل حتى وقع خرقه وتحطيم جزء كبير منه وكشف داخله والسلم الذي يصعد به الى الأعلى. وكان مما أخبر به أنه يوجد في أسفل السور من الداخل حفرة يزيد عمقها عن عنزتين وأن الأتراك يظنون أن النصارى قد يدخلون من جهتها، ولذلك وضعوا فيها عدة سياجات شائكة من الحديد وثبتوا في الأرض أوتادا طويلة حادة الرؤوس محروقة الأطراف، وأخبروا أيضا بخندق طويل واسع عميق على مسافة من السور عليه ممر

وحواجز لمنع من دخل اليه من الخروج، وانه قد وقع تدمير عدد من البنايات حول هذا الخندق لتكون ساحة كبرى تنتهي اليها جميع الطرق المؤدية الى الأبراج أو الى غيرها من الأماكن، وأنه وقع إحداث خروق في جدران الدور المحيطة بها حتى يتسنى المرور من دار الى أخرى من غير انكشاف للعدو. وكانت كل هذه الأخبار صحيحة. وقد اتفق قواد الجيش، بعد عدة مشاورات واعتبارات، على نصب بطارية أخرى لضرب جهة من السور تتكسر عندها أمواج البحر على مقربة من البرج الركني الذي ينظر الى الشرق، لأن ذلك المسلم أخبر بأن السور في هذه الجهة أقل علوا ومتانة يسهل إحداث ثلمة فيه والصعود منها نظرا لما يحاذيها من الأرداف الرملية إذ لا مخاطرة في الدخول من جهته. وبعد إبلاغ هذا القرار الى أندريا دوريا الذي وافق عليه بسهولة، أزيلت التجهيزات الموجودة على ظهر السفينتين الحربيتين الأقدمين ونصبت فوقهما بطارية ومتارس فتحت فيها كوات للمدافع. وبعد ذلك جعلت عليها فرقة من حملة البنادق بقصد حراستها، وتم جرهما وجر فرقاطتين معهما ليلا الى المكان الذي أريد أن يقع الضرب منه، ووقع إحكام تثبيتها بمرساتين من جهة البحر وأخريين من جهة السور، وبعد ذلك شرع في ضرب طرف السور الذي تحدث عنه المسلم المخبر، وكان الضرب من المدافع التي وضعت على مصطبة في البر ومن التي وضعت على القاليرات ولكن الجنود البحريين الذين كانوا قائمين على الضرب بالمدافع من الجهتين تضايقوا تضايقا شديدا بالهجوم المضاد من قبل الأعداء، حيث وقع في صفوفهم عدد من القتلى والجرحى. ومع ذلك فقد واصلوا الضرب بضراوة كبيرة حتى انهم استطاعوا في وقت وجيز تدمير جزء كبير من السور وما اتصل به الأبراج، وأما الأتراك فقد ضيق عليهم الخناق، ولم يتمكنوا من انتزاع إي خندق من هذه الجهة. وكان العلاج الفوري الذي عولوا عليه هو إقامة متراس من السياجات السميكة يمتد من الثلمة التي أحدثتها بطارية البر الى الثلمة التي أحدثتها بطارية البحر، وذلك لكي يستطيعوا التنقل من طرف آخر، وذلك بنية إزالته عند الاقتضاء، ولكنهم لم يستطيعوا تنفيذ ذلك المشروع، وكان العجز عنه سبب خسرانهم، فقد تبين للضباط والجنود النصارى أن المدافع أحدثت في السور فتحة كافية، ومع ذلك لم تتوقف المدافع عن الضرب بل استمرت بقصد منع العدو من إقامة تحصينات جديدة. وفي الصباح الباكر من اليوم العاشر من شهر شتنبر التحقت الفرق المكلفة باقتحام المدينة بخنادقها سرا منكسة أعلامها حتى لا تثير شكوك الأعداء، وذلك بعد أن تركت فرقا أخرى في حراسة المعسكر واحتلال الخنادق التي من

جهة البر. وفيما بعد الزوال بدأ أندريا دوريا في تطويق المدينة من جهة البر مستعملا جميع سفنه الحربية السريعة، وأقبل الجنود على صلوات الاعتراف وتناول القربان ليفوزوا بالغفران العظيم الذي بعث به اليهم قداسته في هذا اليوم، وبعد أن تضرعوا لربنا ولأمه السعيدة جعلوا كلمة السر بينهم اسم الداعية وهو القديس الأكبر في اسبانيا، وعند سماع البوق وانطلاق ضربة مدفع حنشي إشارة لبداية الهجوم اقتحم الجنود المدينة من ثلاث جهات بقصد ارباك العدو، فقد اقتحمها فرسان مالطا ومعهم بعض فرق الجنود من جهة البطارية القديمة الواقعة في ناحية الغرب، واقتحم آخرون من جهة البطارية الجديدة المقابلة لها، واقتحم آخرون من جهة البحر متسللين على طول جدار البرج، داخلين في الماء، أما الذين لم يتمكنوا من المرور في الطريق المحدثة بتحطيم البرج فقد دخلوا من الثلمة المحدثة من جهة البحر. وقد بادر الأعداء الى الدفاع عن أسوارهم، وكان دوي المدافع قد أحدث ذعرا شديدا عند الطرفين حتى ان أحدا لم يعد يأبه لصوت الرعد أو للرعب الذي توحي به العواصف، فقد تعرض النصارى لوابل من ضربات النبال والقذائق التي كانت تقع على الرمال فتثير غبارا يحجب رؤية كل شيء، فكان ذلك سببا في سقوط أكثر من ثلاثمائة من الجنود في صفوف النصارى قبل أن يصلوا الى الترعة، وأصيب أحد كبار الضباط بضربتين من قذافة في فخذه، ولكن بسالة الجنود الاسبان تغلبت على نيران الأعداء وقصفهم، حتى انهم كانوا يمرون فوق جثث رفاقهم وهم يصعدون الى الترعة، وبعد مواجهة مقاومة عنيدة تمكنوا من بلوغ برج الركن الشرقي ومن اقتلاع العلم التركي وتثبيت علمهم، وقد تعذر الدخول من الجهة الأخرى بسبب الحفرة السحيقة الموجودة بجانب السور، وكان قد اخبر بها المسلم الذي ذكرناه، وقد وصل بعض الجنود النصارى الى المتراس الذي أقامه الأتراك وقتلوا هنالك تركيا حاول منعهم من الدخول، ومروا فوقه والتحقوا بالآخرين الذين دخلوا من باب البحر، وكان بعضهم قد مروا منها من قبل وتمكن حامل لواء من تثبيت رايته فوق أحد الأبراج. واستطاع جنود من المشاة ومن البحريين أن يبلغوا الى السور بواسطة زوارق صغيرة وأن يتسللوا من خلال كوات المدافع وفتحات الأبراج. وقام الأعداء بدفاع يائس لا عن المدينة والأسوار فحسب بل حتى عن الأزقة والدور، ولما رأى الأتراك أن المدينة قد سقطت بأيدي النصارى اعتصموا بالحصن وببناية الجمارك قبالة الباب، وكانوا يضربون من ملاجئهم بالبنادق والسهام فيلحقون أضرارا بالنصارى الذين كانوا يقاتلون في الأزقة، وقد أصابوا نقيبا إسبانيا بضربة بندقية في رأسه فأردوه قتيلا. ولما رأى الملك أنه قد حمي

وطيس المعركة بداخل المدينة أمر بدخول حملة القنافات من الفرق التي كانت خارج المدينة، سيما وان أحدا لم يحرك ساكنا من جهة البادية، وبذلك تمت هزيمة الأعداء. وفي هذا اليوم قتل سبعمائة من الجنود المسلمين من أتراك وأهليين وقد ظهر هؤلاء في القتال أكثر من أولئك. ووقع في الأسر عشرة آلاف من مختلف الأعمار رجالا ونساء، وكانت الغنائم كثيرة جدا من أثاث وأموال وأحجار نفيسة. وهلك من النصارى أربعمائة وجرح منهم أكثر من خمسمائة. وكان من أعيانهم الدون فيرناندو دي طوليد قائد كتيبة نابولي، وقد جرح بضربة قذافة في فخذه الأيمن، وذلك بعد ان اجتاز المتراس الذي نصبه الأتراك، ومات فيرناندو لوبو قائد كتيبة لومبارديا، وقد هلك بضربتين من بندقية، وكانت اصابته في فخذيه. ومات كل من القبطان موري رويلا والقبطان نتوماراكا، وقد أصيب كل منهما بضربة بندقية، وهلك صنديدان من فرسان مالطة هما اولوا ومونروا، مات أولهما بسبع عشرة تخنة ووجد الآخر ميتا دون أن يصاب بجروح، ومات في المعركة أيضا سيد يكنو رقيب الدون جان دي مينلوسا وأخو القبطان موري رويلا، وكان أحدهما حامل لوائه والآخر رقيبه، ورقيب الفونسو بيمانتيل، وحملة أعلام كتائب كل من أمادور ودو كناماريا وبريسيكنو وفرسان مالطة وكذا عدد آخر من الرقباء والضباط، ومات فيها أعيان من الأتراك وأهل افريقية ومنهم القائد علي. أما عامل المدينة والقائد محمد فقد وقعا في الأسر، ولما تحقق النصر في هذه المعركة أمر ابن نائب الملك في نابولي بدفن جميع النصارى الذين لقوا حتفهم في أحد الخنادق فلا يراهم الأعداء ولا تشفى منهم صدورهم. وأمر بأن يحمل الجرحى الى الدور التي كانت في المعسكر، وبعد ذلك تم تكريس المسجد الجامع باقامة صلوات كبرى تشريفا للعذراء، وقدمت آيات الشكر للرب على هذا النصر العظيم.

ما وقع في هذه المدينة منذ احتلالها وكيف أمر الأمبراطور بتدميرها

بعد احتلال هذه المدينة أظهر نائب الملك في صقلية عناية كبرى بتنظيف الترعة المحيطة بها وبترميم أسوارها، ثم ترك فيها ولده الدون ألباريا حاكما عليها، وترك له ست فرق من الجنود المشاة الاسبانيين وعددا من المدافع والذخائر، ثم أبحر هو ببقية العدة والجند متوجها الى صقلية ووصلها سليما سعيدا بنصره بعد ان خرج بعشرين من سفنه البحرية السريعة باحثا عن جيش دارغوت البحري، وبعد ان تلقى مغرم جربة وصفاقس وقرقنة، ذلك أن صاحب جربة بعدما علم بانهزام

دارغوت الممس حماية الاسبانيين ومعونتهم لطرد ذلك القرصان من بلده، ووعد مقابل ذلك بأن يفك أسر عدد من النصارى الذين كانوا بتلك الجزيرة وبأن يؤدي مغرما للأمبراطور. وزاد في وعده أن يقدم ما يلزم من المواد لبناء حصن أو حصنين حيث يتعين نزول الحامية الاسبانية، وأبدى استعداده أن يقدم في الضمان أحد أبنائه رهينة وأن يقدم معه لذلك الغرض بعض أعيان السكان. ولكن لم يتحقق شيء من ذلك. وقد أرسل الأمبراطور حاكما على المدينة التي فتحها مؤخرا الدون سانشي دي ليب، ودخلها في أواخر شهر يوليوز. ولما شاع أن السلطان الأعظم قد نقض الهدنة التي كانت بينه وبين الأمبراطور وأنه مرسل جيشا بحريا لاستعادة هذه المدينة، بقي فيها فيرناندوفيكا ابن نائب الملك في صقلية بمعية الدون سانشي حيث رأى ان الانسحاب لا يشرفه مع وجود هذه الشائعات. ولكن الجيش البحري الذي بعث به السلطان الأعظم إنما أعطي له الأمر باحتلال جزيرة مالطة وبأن يعيث فسادا في بوكيا بايطاليا وفي صقلية، وكان أول قدومه على كوطرون حيث أنزل بعض الكتائب وقام بمناوشات ضد جنود الحاكم هنالك، ثم واصل طريقه في اتجاه صقلية فأخذ عنوة حصن اكوستا وأضرم فيه النار ثم سار حتى نزل في جزيرة مالطة، ولما عجز عن القيام بشيء يستحق الذكر بسبب مقاومة فرسان هذه الجزيرة المشهورين بشجاعتهم احتل جزيرة قوصرة فدمر حصنها وعشرين من مدافعها، وبعد أن قتل حاكمها دخلها عنوة فقضى على جميع من كان بها ما بين قتيل وأسير، وأقلع من هنالك قاصدا طرابلس من بلاد البربر فاستولى عليها حسبما سنذكر ذلك عند وصفها، وفي أثناء تلك الأحداث لم يغادر ابن نائب الملك في صقلية المدينة المفتوحة مؤخرا، ولما علم بأن الجيش البحري للسلطان الأعظم قد عاد الى الشرق، عاد هو الى صقلية تاركا الدون شانسي حاكما عليها، وقد قام هذا لسيد بعدة حملات على سكان الجهات التي توالي ملك القيروان، وعاد من معظمها محملا بالغنائم، فوزعها على الجنود لتكون بمثابة أجر لهم إذ مضى عليهم وقت طويل دون أن يبعث اليهم بشيء، وربما ساورهم الشك في كون الحاكم يحتجن ذلك الأجر لنفسه، وقد تجرأ بعض رؤوس الفتنة على حمل السلاح وتحريض غيرهم من الجنود على الانتفاض، فطردوا الضباط وهموا بقتل الحاكم لولا أن عجل بركوب سفينة ابتعد بها عن المرسى. وعندئذ قدموا قائد سرية مكان الحاكم وقدموا قوادا آخرين ليخلفوا رؤساء السفن، وقدموا مأمورا(113) أعلى ليتولى تنفيذ كل ما قد

113) أنطونيو دي أبونتي.

يصدرون اليه من الأوامر. وفي إثناء ذلك أرسل الدون سانشي بعض رجاله على متن زورقه ليعتذروا ويبلغوا للمنتفضين انه مستعد لبيع كل ما يملك لؤدي لهم أجورهم في انتظار أوامر الأمبراطور. ولما لم يجد فيهم ذلك نفعا رحل متوجها الى صقلية ثم توجه من هنالك الى بروكسيل للقاء الأمبراطور. وفي غيابه حاول نائب الملك في صقلية اقناع الجنود بالجنوح الى السلم، وكتب الى الأمبراطور بأنه إذا لم يستطع إخضاعهم بالإقناع فسيضطر الى اخضاعهم بالإكراه، وذلك بأن يمنع أن تحمل اليهم الأقوات. الا أن ذلك لم يمكن بما كان يتصوره من السهولة، لأن قائد الجنود كان يفضل الموت على أن يسلم نفسه اليه، وقد أرسل جنديا الى الأمبراطور ليخبره بكل ما كان يرتكب في حقهم طالبا منه أن يرسل اليهم حاكما آخر يتولى عليهم غير نائب الملك في صقلية والدون سانشي اللذين يتعذر التفاهم معهما. وعندما تلقى الأمبراطور تلك البعوث لبث وقتا من الزمن قبل ان يجيب، لأنه كان منشغلا بما هو أهم من ذلك من جلائل الأمور ولأنه يظن أن نائبه في صقلية سيجد حلا لذلك المشكل لا محالة. غير ان نائب الملك في صقلية قد أنذر بنفسه بأنه ينبغي التصدي لذلك الأمر في أقرب الآجال حتى لا يترتب عنه ما لا تحمد عقباه. وفي أثناء ذلك كانت الحامية تعمل كل ما في وسعها للحصول على الأقوات لَمَّا رأت أنها لم تعد تصل اليها من صقلية، وكان تدبير أمرها في شئون الادارة والعدل والتسيير يتم على يد حاكمها على أحسن ما يرام، فمن ذلك أنه قام بتجهيز سفينة كانت راسية بالميناء وبعث بها الى صقلية وعلى متنها خمسون من الجنود، وقد استطاعوا أن يأسروا في سواحلها سفنا محملة بالقمح وجاءوا بها الى المدينة من غير إساءة الى أصحابها، ثم ان هذا الحاكم بعث أيضا الى كبير[114] سادة مالطة بأن يرسل اليه الأقوات مقابل ثمنها فاستجاب لطلبه، وفعل مثل ذلك مع ملوك القيروان، وكان بالاضافة الى ما ذكر يخرج في خمسين من أصحابه المسلحين بالبنادق فينهب قرى المسلمين من أهل البلد وكذا دواوير العرب فيعود بعدد من العبيد والماشية، فنشر الرعب في كل مكان، ومن أراد أن يأمن شره أدى اليه المغارم، فكان يؤتى اليه كل أسبوع بالأقوات الى السوق التي كانت تقام خارج المدينة، وبذلك صار من المستبعد إخضاع أولئك المتمردين تحت وطأة الجوع، وقد قام ليون ستروسي امام كابوي وقائد أسطول ملك فرنسا بمراودته سرا على أن يسلم المدينة مقابل وعود عريضة، وقد رد عليه بقوله : إنها ملك

114) يان أوميديس.

للأمبراطور وإن الاسبانيين القائمين بحراستها لن يرتكبوا ما يخالف خدمة أميرهم، وكان هذا القائد أخا لبيير ستروسي الذي كان يقاتل باسم ملك فرنسا الى جانب أهل مدينة سيان ضد دوق فلورانسا وحزب الأمبراطور، وكان يتمنى أن يستولي على تلك المدينة ليقوم انطلاقا منها بأعمال قرصنة. وكذلك كان الشأن عندما قام نائب الملك بإرسال من يعيد الطمأنينة الى نفوس أولئك الجنود إتقاء لجميع الأخطار، ولما رأى الأمبراطور أن الدون سانشي لن يصلح لتلك المهمة حتى لو حمل اليهم المال نظرا لما فرط منهم من إهانته، عينه قائدا لقاليرات نابولي، وعين في مكانه الدون فيرناند داكونيا وكان حينئذ في أنفيرس، وقد عجل بالرحيل وهو مأمور من الامبراطور بأن يدخل إلى المدينة بأي طريقة ممكنة، وأن ينزل بالمتمردين عقابا شديدا يجعلهم عبرة لغيرهم جزاء على وقاحتهم وأن يراعي في ذلك ما يقتضيه المقام حتى لا ينفر الجنود نفورا لا رجعة فيه وهو يريد إصلاحهم، وقد عهد اليه بأن يقوم، بعد إعادة الطمأنينة إلى القلوب، بتدمير ذلك الحصن وبأن يعود إثر ذلك مصحوبا بجميع كتائب الجيش ومعداتها من مدافع وذخائر الى صقلية. وسبب ذلك أن بقاء الحامية في تلك المدينة كان يكلف نفقات باهظة والحال أن مشاغل الامبراطورية متعددة في جهات أخرى، فكان من المناسب تدميرها حتى لا يعود إليها الاعداء، وقد أعطيت للدون فيرناند سلطة خاصة تخوله العفو عن الجنود إذا بدا له ما يقتضي ذلك، كما منح تخويلا آخر موقعا من الامبراطور يستطيع بمقتضاه أن ينزل العقاب إذا اقتضت الضرورة. ثم إن الامبراطور قد كتب لكل من حاكم نابولي وحاكم صقلية[115] واندريا دوريا بأن يتشاوروا جميعهم في هذا الأمر، وبأن يمدوا الدون فيرناند بجميع ما قد يحتاج إليه، بيد أن نائب الملك في صقلية، وكان مهتما بهذا الأمر أشد الاهتمام، قد تفاوض مع بعض الجنود من حامية المدينة على أن يقوموا بالقبض على مرتكبي العصيان أو أن يقتلوهم، ووعدهم مقابل ذلك بجوائز عظيمة من قبل الامبراطور، وقد وجد هؤلاء الفرصة سانحة، إذ سئمو طول الاستمرار في عصيان الامير، وقد حملوا السلاح وارتكبوا ما لم يرتكبه غيرهم لا بالوعد ولا بالوعيد، وكادت أن تنجم عن ذلك فضيحة كبرى لولا لطف خاص من السماء. فقد وصل الخبر إلى زعيمهم[116] بما بيتوه وبادر بإرسال مأموره الأكبر ليتحقق جلية أمرهم، وقد أشهروا السلاح

115) الكاردينال باتشيكو ولوان دي بيگا.

116) أنطونيو دي أبونتي.

ورفعوا العقيرة بالقول : وليحي الامبراطور، وليمت الخونة، وفي تلك الاثناء هبت ريح حارة لافحة محرقة أجبرت الجنود على ترك صفوفهم وتغطية رؤوسهم واللجوء إلى مساكنهم وإلى خزانات المياه، وفي ليلة ذلك اليوم نفسه قام اثنان من كبرائهم، وهما اللذان استمالهما نائب الملك في صقلية، بقتل المأمور الأكبر المحرض على العصيان وقتل رؤوس الفتنة من المتمردين، وبذلك عاد السلم واستتبت السكينة، وقد أخبروا نائب الملك في صقلية،(117)، فبادر بإرسال قائد(118) حرسه بهدف الدخول إلى المدينة والتظاهر بإعمال الحساب مع الجنود لمعرفة ما يجب لهم من الاجور تمديدا لآمالهم في انتظار وصول الحاكم الدون فيرناند داكوكنا، ولم يفته إنزال العقاب بالجناة، فأمر بأن يرسل اليه انطونيو ابونتي وغيره ممن تم القبض عليهم، ولكي يضمن وصولهم في أمان امر قائد السفينة الحربية التي ستجيء بهم بأن يسلمهم لحاكم اول مدينة ينزل عندها في صقلية، وكان من حسن حظهم أنهم عندما وصلوا إلى حصن علقمة وسُلموا لحاكمه، جاء الاتراك بجيشهم البحري وهاجموا الحصن في تلك الليلة، وطلب المساجين من الحاكم أن يمكنهم من السلاح لكي يعينوه في الدفاع عن المدينة، ولم يستجب لهم، ووقع الاستيلاء على المدينة واسترق جميع سكانها ومن بينهم أنطونيو ابونتي الذي مرض في القسطنطينية ومات بها، ولما علم نائب الملك في صقلية بما وقع لم يتوجه إلى المدينة، وإنما أمر الموالين له بأن ياتوا إليه بكبار الجناة ممن بقي هنالك من المتمردين، ولما وصلوا إليه أمر بشنقهم في باليرمو وفي غيرها من مدن صقلية.

ولنعد إلى خبر فيرناند داكوكنا، فبعدما وصل إلى نابولي واجتمع بالكاردينال باشيكو ومع اندريا دوريا الذي كان هنالك بسفنه الحربية السريعة، واصل طريقه إلى صقلية ووجد ما ذكرناه قد تم، وبينما كان على أهبة الجواز إلى إفريقيا توصل برسالة من قائد حرس نائب الملك في صقلية الذي كان يحكم في المدينة يحثه فيها بالتعجيل بالمجيء إذا حمل معه ما يكفي من المال لأداء أجور الجنود وبذلك يصلح كل شيء، وإذا لم يكن معه ما يكفي من المال، فإن وصوله قد يؤدي إلى أسوأ العواقب، سيما وأن المدينة لا تتوفر على ما يكفي من الذخائر أو المؤمن لتستطيع الدفاع عن نفسها. وبعث له مع حامل الرسالة قائمة بما يفتقده من الحاجات منذرا بأن الجنود ليسوا على ما يرام من السكينة وانهم لن

117) خوان أوسوريو إيفيگا.

118) خوان أوسيريو دي كينونيس.

يتورعوا عن إثارة الشعب إذا لم تتم الاستجابة لمطالبهم، ولما بلغ الحاكم هذه الرسالة إلى نائب[119] الملك في صقلية، لم يكن معه من المال ما يكفي لارضاء الجنود أو لشراء ما يلزم من الحاجات، ولذلك استقر الرأي على تقديم النصح للأمبراطور بأن يسلم تلك المدينة لفرسان مالطة يعوضهم بها عن طرابلس التي استعادها منهم الأتراك، إذ لا داعي لتدميرها، وعندئذ بعثوا برسالة في هذا الشأن إلى الامبراطور وبقي الحاكم بصقلية ينتظر الجواب، وجاء رد الامبراطور وفيه، بناء على انعدام الإعداد لحماية ذلك الموقع وعلى أن الشروع في تدميره ينطوي على مخاطر حيث ان الجيوش البحرية التابعة لفرنسا ولمدينة الجزائر توجهت لكورسيكا ومنها كانت قادرة على الوصول إلى تلك المدينة في مدة يوم ونصف يوم، وأن تلك الجيوش تترقب في كل يوم وصول جيوش الشرق والحالة ان قوات الامبراطور عاجزة عن مقاومتها، صدر الأمر للحاكم بأن يتوجه إلى مالطة ويفاوض تنظيم فرسانها على أن يسلم إليهم هذه المدينة وإن يتعهد باعطائهم أربعا وعشرين ألف دوكا سنويا لتغطية مصاريف الحامية بها، وأن يتنازل لهم عن جزء من الاسلحة المدفعية والذخائر الموجودة بها، وكان رئيس[120] هذا التنظيم وهو من جنس الاسبان قد مات في ذلك التاريخ، وقد قدم خلفا له شخصا فرنسيا إسمه كلود دولا سينكل وهو سفير في روما، وكانت السفن الحربية المالطية قد توجهت لنقله من أوستي، وكانت في طريق رجوعها بمسينا، وقد ذهب الحاكم[121] للقائه وتسليمه رسالة الامبراطور، وكلمه في تلك القضية بحضور بعض الفرسان، ولكنه طلب من الحاكم أن يرحل معه إلى مالطة ليعرض المسألة على مجلس تنظيم الفرسان، وركب الحاكم في اتجاه مالطة، وعرضت القضية هنالك على المجلس عدة مرات، ووقع الاتفاق على أن يتوجه الفارس ستروسي ومعه فرسان من مختلف الالسن للوقوف على تلك المدينة والتعرف في عين المكان على ما قد تكلفه حمايتها والاحتفاظ بها كل عام، وكان ستروسي قد تخلى عن قيادة السفن الحربية الفرنسية لخلاف وقع بينه وبين القائد العام للجيش، وصار الآن قائدا لسفن تنظيم فرسان مالطة، وقد كتب الحاكم إلى قائد[122] الحامية في المدينة يامره بأن يطلع ستروسي على كل شيء، وبأن يخفي

119) خوان دي بيگا.

120) خوان أوميديس.

121) إلدون فيرناندو.

122) خوان أوسوريو دي كينونيس.

عليه مع ذلك ما كانت تعانيه من نقص في المؤن وعدة الحرب. ولما تعرف ستروسي على حالة ذلك الموقع وعاد إلى مالطة انقسم اعضاء مجلس الفرسان فريقين، فريق الموالين للأمبراطور، وكان يرى أن التنظيم الديني ينبغي أن يأخذ على عاتقه الاحتفاظ بتلك المدينة، وفريق المناوئين له، وكان يرى إلا يخفف عبئها على الامبراطور، وذلك حتى لا تسوء علاقات التنظيم بفرنسا، وربما قدر هذا الفريق أن تحمل تلك المهمة لن يفيد الملة في شيء وبالتالي لن يفيد تنظيمهم، ولذلك عارضوا فكرة الحماية، وكانت لهم الغلبة على الفريق الآخر، فكان الجواب أن تنظيم فرسان مالطة لا يستطيع الاحتفاظ بمدينة بهذه الاهمية. وقد بين لهم الحاكم[123] ردا على جوابهم بأن للامبراطور حقا على التنظيم، فهو الذي أقامه حيث هو قائم ولولاه ما استطاع أن يبقى في الوجود، وعلى ذلك فلا يجوز إغضاب مثل هذا الامير العظيم، وبعد مناقشات واعتراضات وقع الاتفاق على أن يبعث الى الامبراطور من يشرح له اسباب الرفض، وقد رأى الحاكم نفسه مجبرا على الاذعان لقرارهم. وهكذا أرسل فارسان : إسباني[124] وفرنسي[125]، وأمرا ببذل الجهد في الاعتذار للامبراطور، وبأن يطلبا منه، إن إقتضى الامر، أن يتعهد بمزيد من المال للقيام بحماية المدينة، ولما علم الامبراطور بأنهم كانوا على استعداد لقبول اقتراحه. في آخر المطاف نزولا عند رغبته، أبدى شهامته بعدم اكراههم واعطى أوامره بتدمير ذلك الموقع. كان الفارس ستروسي يفاوض الامبراطور بواسطة نائب الملك في صقلية، وقد كان له ميل إلى هذا الأمير في تلك المفاوضات، غير أنه رأى ما آل إليه امرها من الطول والتشعب، فعاد إلى التصالح مع ملك فرنسا بطلب من الملكة ومن القائد العام للجيش، وبهذا الصدد عوم، بلا علم من الآخرين، سفينة كان قد أمر بصنعها في مالطة وجهزها بمجذفين من سفينتيه الاخريين واقلع بثلاثها متوجها إلى مدينة المرسى متظاهرا بالبحث عن غنائم ينفق منها حيث لم يعد ينتظر رفده من أي أمير. وفي ميناء هذه المدينة التحق به فيرناند داكوكنا وقدم إليه رسالة من نائب الملك في صقلية يطلب منه فيها الالتزام بما وقع عليه الاتفاق من القيام بحملة لأخذ جربة بسفنه البحرية وسفن التنظيم الديني وسفن صقلية والكتائب التي سيأتي بها الدون فيرناند، وذلك لأن أشياخ تلك الجزيرة عرضوا تسليمها للامبراطور، ولكن

123) الدون فيرناندو.

124) ألفونسو دي صوليس من مدينة سالامنكا.

125) تيسسير.

الفارس ستروسي كان قد بدّل ولاءه، واجاب بأنه لما لم يتمكن من الدخول في خدمة الامبراطور فإنه أراد الخروج للبحث عن نفقته. ولما رأى الدون فيرناند أن لا فائدة ترجى بعد ذلك عاد إلى مالطة، وهنالك علم بمقاصد ستروسي، وما لبث أمره أن انكشف للجميع، فقد وصل في تلك الليلة نفسها الى غرب جزيرة مالطة من جهة حصن شانت إيلم، وأرسل من هنالك رسالتين إلى الحاكم(126) احداهما موجهة إلى نائب الملك في صقلية والاخرى موجهة إلى الدون فيرناند، وقد منّى هذا الاخير بكلام وخاطبه بمجاملات ولكنه أكد عزمه على الخروج للبحث عن العروة حيث لم يتسنَّ له أن ينضم الى خدمة الامبراطور، ولما تلقى الدون فيرناند تلك الرسائل بادر باخبار نائب الملك في صقلية برحيل ستروسي وبأنه ذهب إلى بعض أقاربه في ميناء هرقل، وأنه سلك طريق الجزر بثلاث سفن رديئة بحيث يسهل اللحاق به سيما وأنه قد صرح بعدائه. ولم يعد أمره خفيا على أحد. غير أنهم لم يتمكنوا من العثور عليه، واستطاع أن يصل إلى أخيه، لكنه لقي حتفه بعد أيام قليلة وهو يحاول استكشاف جزيرة تدعى السقرلين، وبذلك انتهت آماله ومراميه.
رجع إلى خب افريقية. لما رأى الدون فيرناند الاخطار المحدقة بالمدينة بسبب تذمر الجنود، وقدر أن ستروسي لا بد أن يكون أدرك جوانب النقص في حمايتها عندما جاء لتفقدها وأنه لذلك طمع في الاستيلاء عليها، ولذلك قال لنائب الملك في صقلية بعد رجوعه إليها : لما كان الامبراطور قد كلفه بأن يمده بالمال وغيره من الاشياء التي تحتاج إليها المدينة فالمرتجى منه أن ينفذ ذلك الأمر لأنه يرغب هو أيضا في الذهاب إليها ليستجيب بدوره لرغبة الامبراطور. وكان قدر ما تأخر أداؤه للجنود واحدا وثلاثين راتبا، ومجمل ما تحصل فيها ست عشرينات ألف دوكا لم يعط منها سوى سبعة وعشرين ألفا، من مال وأقمشة. ومع ذلك فقد ذهب بها على متن خمس قاليرات في ملك صقلية جيدة التجهيز تحسبا للقاء العدو، وقد توجه إلى افريقية وذهب من مرسى دريبانو بأربع سفن ضخام ليشحن فيها المدافع وعدة الحرب والجنود اذا ما تمت تسوية تلك النازلة، واصطحب معه جميع الضباط الذين كان الجنود قد طردوهم ليعيدهم الى مناصبهم ويستخدمهم اذا اقتضى الامر، وقد استقبله الجنود باحسن مما كان يتوقع أملا في الحصول على المال والفوز بعفو الامبراطور، وحيث لم يكن يتوفر على كل ما كان يلزم من المال فقد كان عليه أن يتصرف تصرفا ذكيا حتى لا يطلع الجنود على حقيقة أمره. وقد عمل في

126) كريسطوفل داكونه.

أول الأمر على كسب ثقة ذوي النفوذ من بينهم، وأعطى الامر للضباط ليقتلوا بسلوكه، كل في فرقته. ثم أمر بأن يلتحق كل بمحلته، وبدأ بالتوجه الى فرقة الدون سانشي التي يفترض فيها أن تكون فرقته هو، فبين للجنود شدة احتياج الامبراطور الى المال للقيام بالحروب العظيمة التي دخل فيها، وانهم سيرضونه ويفرحونه اذا هم قنعوا بنصف ما لهم بذمته وأنه سيؤدي لهم بالمال الناض بعد خصم المستحق في قيمة ما تلقوه من الاقوات. وقد فوجئوا بكلامه قليلا في أول الأم، ولما كانوا حريصين على نيل عفو الامبراطور وضمان الامان لانفسهم فقد قبلوا عرضه في النهاية. وهكذا تكلم مع الفرق واحدة تلو الأخرى، وبعد ذلك ذكر لهم أنهم مطالبون، تنفيذا لامر الامبراطور، بتدمير ذلك الحصن، وعليه فسيكون من المخاطرة المحققة أن يضيعوا وقتهم في حسابات طويلة لما لكل واحد وما عليه، والحال أن جيوش البحر التابعة لملك فرنسا ولسلطان الترك قريبة منهم تستطيع ان تباغثهم في تلك المدينة وقد بدأوا تحطيم تحصيناتها. ولما كانوا قد حصلوا على عفو الامبراطور بالتخلي عن نصف ما كان لهم بذمته فقد أبوا إلا أن يوافقوا على هذا الاقتراح الأخير واشترطوا أن ينجز لهم الأداء في أول مرسى يصلون إليه بصقلية، وكان قبول هذا العرض شاقا على النفس، إذ بعد كل التنازلات التي قدموها طلب منهم أن يخاطروا بالباقي، ومع ذلك فقد اذعنوا لقبوله في الاخير. وبعد أن تلقى كل واحد منهم دوكا واحدة على وجه التسبيق تابعوا عملهم الذي كانوا بدأوه قبل مجيئه بوضع الالغام، وقد أمر بتنفيذه ليلا ونهارا رجال البحرية والجنود، ولما تم العمل أمر الجنود بالصعود إلى السفن وشحنت المدافع والمؤن والذخائر وترك ضابطا موثوقا به وزمرتين من الجنود بقصد إشعال النار في تلك الالغام والحرص على الا يبطل فعل أي منها، وأخذت السفن تغادر مرساها، وكان عدد الالغام التي وضعت تحت الاسوار والابراج الرئيسية أربعة وعشرين، وكان لكل لغم فروع عدة تمتد تحت أساسات البناء، ومن أجل تفجيرها جميعا عمل ما سأذكره هنا :

عين جندي عند مدخل كل حفرة لغم وأمد بباع ونصف من الفتائل كلها من سمك واحد وطلب من الجنود أن يقوموا بإشعال نارها عند سماع أول طلقة مدفع، وعند سماع الطلقة الثانية ينحدرون جميعا ويدخلونها في الجعاب الكبيرة المعدة لذلك الغرض ويحملونها الى مداخل حفر الالغام بحيث يتم إدخال شبرين من الفتيلة في البارود، ويبقى مقدار اثنين آخرين في الخارج ورأسهما مشتعل، والغاية من هذا الترتيب أن يتم الانفجار في آن واحد، وقد أمر كل جندي من هؤلاء أن يتفقد فتيلة صاحبه بعد أن يضع هو فتيلته في محلها. وأمر رئيسهم بأن

يسهر على تنفيذ كل تلك المراحل بأقصى ما يمكن من الدقة، إذ لو وقع بالصدفة ان انفجر لغم قبل الالغام الاخرى لادى على أرجح تقدير إلى ردم بقية الالغام ولبطل مفعولها، ولتعذر تحقيق ما هو مطلوب من تدمير تلك الحصون تدميرا كاملا لا يقوم صرحها بعده. وبعد أن نفذ الجنود ما طلب منهم ركبوا الزوارق وابتعدت السفن عن الساحل تجنبا للاخطار. وأول الالغام التي انفجرت تلك التي من جهة الغرب وما لبثت ان شوهدت الابراج التي من جهة البر وهي تتطاير في الهواء واحدا بعد الآخر انتهاء بالتي في جهة الشرق. هذه الابراج التي بناها المهدي وأبدى فيها براعة الصنعة والاتقان وانفق في بناءها المال العظيم وقد قيل عنها لشدة متانتها إنها بنيت بالحديد، وقد عظم الخراب في كل جهة في لحظة واحدة حتى بدا وكأن أطراف ذلك الصرح يدك بعضها بعضا. واندرست معالم تلك المدينة حتى أنكرهاأهلها، وكان ذلك الميناء خسارة على عدد من السفن التي جاءت اليه فيما بعد وقد انفجرت كل الالغام ما عدا التي تحت برج قرب باب البر وقد نزل الحاكم من سفينة الى البر لاجل تفجيره، فما لبث ان انفجر وتطاير بمفعوله في الهواء البرجان اللذان عند مدخل الميناء وانكشفت تحتهما اسطوانات ضخمة من المرمر وضعت تحتهما، إذ لو عمل أساس هذان البرجان من عناصر متنوعة لتآكل الاسمنت بتأثير الامواج، اما عمق الاساس فقد بلط بصفائح كبيرة من المرمر، ولما وقع تدمير هذه المدينة على نحو ما ذكر كره الحاكم أن يترك فيها رفات عدد من الصناديد والشجعان والضباط الذين ماتوا في القتال عندما أريد الاستيلاء عليها، وكانوا قد دفعوا بمسجدها الأعظم، فاستخرج رفاتهم، ووضع في صندوقين كبيرين، واحد فيه رفات الموتى من تنظيم فرسان مالطة والآخر به رفات الموتى من الآخرين. وبعد ذلك رحل متجها إلى صقلية، ولم يقض في هذه المدينة سوى ثلاثة عشر يوما، وفي أول ميناء حل به أدى أجور الجنود. وبهذه الوسيلة تخلص الامبراطور من العناء الذي كان فيه، إذ لو تركت تلك المدينة لوقعت في أيدي الكفار، ولو داوم على حمايتها لكلفته نفقات مرهقة. فقد تحولت إلى انقاض عندما أرسل الجيش الفرنسي من يأتيه بخبر حالها، ولم يعد بإمكان دارغوت ولا الاتراك استعمالها كما كانوا يتمنون، للاعتداء على المسيحيين في سواحل نابولي وصقلية. وقد تم بعد ذلك دفن رفات اولئك الشجعان والضباط في كنيسة جبل ريال الموجودة على مقربة من باليرمو، وأمر نائب الملك أن يوضع فيها هذا النصب التذكاري الذي أنشأه الدون فيرناند بنفسه وأرسله إليه :

قضى الموت بنهاية حياة من يضمهم هذا القبر، لكنه لم يقض على قيمتهم الخالدة، فقد أدرك هؤلاء الابطال بإيمانهم مقاما في السماء، وملأوا رحاب الارض بشجاعتهم، فالدم الذي نزف من جراحهم ليموتوا موتة واحدة قد خول لهم حياتين في مقام الخلود.

تلك كانت نهاية مدينة كانت من الشهرة بمكان، ولقد أطلنا في ذكرها بما زاد عن المعتاد لان حوادثها وقعت في عصرنا هذا وكان لنا فيها نصيب،فإضافة إلى ما تعرضنا له من ذكر تأسيسها فقد تيسر لنا أن نكتب أخبار نهايتها كذلك.

الفصل التاسع والعشرون

صفاقس

إن ما يقرب من ستمائة كانون، تتساكن في هذه البلدة الواقعة على الشاطىء والتي تبعد عن العاصمة بنحو ستة وعشرين فرسخاً جنوب شرقي البلاد ويذهب بعض المؤرخين الى أن الرومان هم الذين أسسوها، لكنه بات من الأرجح أن فضل التأسيس يرجع إلى القرطاجيين.

كانت صفاقس مدينة مزدهرة إلا أن سكانها هجروها بمجرد ما دخلت إليها الجيوش العربية، فأصابها الإفلاس والدمار، لكنها سرعان ما استعادت نشاطها وحيويتها، ورجع إليها أهلها وأعيد تعميرها. كانت تسمى قديماً تباروراً، وقد حدد بطليموس موقعها في ثمانية وثلاثين درجة طولاً واثنتين وثلاثين درجة وعشرين عرضاً.

يكاد نشاط أهل المدينة يكون مقصوراً على صيد الأسماك، إلا أن بعضهم يشتغلون بالنسيج، وآخرون منهم يضربون في البحار. ليس السكان أغنياء، ومع ذلك فإنهم قانعون بما لديهم، معتزون بأنفسهم، غذاؤهم من الشعير، يصنعون منه خبزهم وحساءهم.

مضى البحّارة من الأهالي يشاركون، إلى جانب الأتراك، في عمليات القرصنة ونهب شواطىء البلدان المسيحية، كما أن بعض الصفاقسيين رحلوا الى مصر وتركيا لممارسة التجارة، إلا أن الأهالي يعانون اليوم أشد المحن من طرف السلطات الحاكمة بتونس، ويتعرضون لسوء المعاملة من طرف السكان العرب.

ويرجع ما يلاقونه إلى تمرُّدهم المزمن على النظام وإلى تواطئهم مع القراصنة، لأنهم يوفرون لهم الملجأ ويمدونهم بالمساعدة كلما دعوهم إليها.

بعد احتلال تونس من طرف الإمبراطور كارلوس الخامس، رفض أهل صفاقس الخضوع لأية سلطة، لكنهم التمسوا حماية مولاي محمد ابن ملك تونس، عندما دخلت إلى مينائهم عشرون سفينة حربية، موفدة من طرف ملك صقلية، لاستخلاص الجبايات من قائد جربة. لكن حماية الأمير لهم لم تدم الا قليلاً، حيث استولى الأتراك على المنطقة ولا زال سلطانهم مبسوطاً عليها.

الفصل الثلاثون

الأُرْبَسْ

حسب الأخبار المتواترة لدى أهل البلاد، فإن الرومان بنوا مدينة الأربس الواقعة في سهل جميل، على مسافة ستين فرسخاً، جنوب تونس في اتجاه نوميديا وليبيا. المناطق المجاورة لها خصبة للغاية، وتموّن تونس ونوميديا بزروعها وبها يوجد أجود ما في افريقيا من أراض رعوية.

عندما حلت جيوش الوندال بهذه المنطقة، حاصروا المدينة، وقد تحصَّن فيها النبلاء من الرومان، لكن الاربس سقطت بأيدي الغزاة، فنهبوها ونشروا فيها الفساد والخراب، وظلت فترة كبيرة من الزمان، خاوية على عروشها، لا يشهد على سالف مجدها الا ما صمد من أطلال أبنيتها العتيقة، المشيدة من الحجر والمرمر، والتي نقشت عليها كتابات بالأحرف اللاتينية. وأذكر من بين أطلالها، أسوارها وقلعتها.

أعيد تعمير المدينة، وترابط بها الآن قوات تابعة لملك تونس، للحفاظ على الأمن، ولحماية المنطقة من أعراب نوميديا الذين تجلبهم المراعي لأنعامهم، ثم يبرحونها في الشتاء، محمَّلين بكميات هامّة من القمح.

ويلفت نظر الزائر، قنال من المرمر، يمرُّ بين قصر الوالي وحارتين آهلتين بالسكان، وتنساب فيه مياه تحرك عددا من المطاحن، وتنبع من عين دانية من المدينة.

يقوم اقتصاد الأربس على الفلاحة والنسيج، ويدفع السكان ضرائب هامة إلى ملك تونس، إلا أنهم يتكاسلون ويتطلعون إلى تقلب الأحوال السياسية.

إن هواء المنطقة ممتاز، وهذا ما يجعلها صحّياً أجود من غيرها.

الفصل الواحد والثلاثون

باجـــة

باجة مدينة عتيقة. أسسها الرومان على منحدر جبل في الطريق الرئيسية المؤدية إلى قسطنطينة، وعلى مسافة ثمانية فراسخ من البحر وثلاثة وأربعين فرسخاً غرب تونس. يقول أحد المؤرخين العرب في شأنها، إنها بنيت على أنقاض مدينة سابقة.

تحيط بباجة أسوار عالية، وبداخلها توجد قلعة محصَّنة عززها ملك تونس منذ سنوات قليلة، بقلعة أخرى مزودة بأربعة عشر مدفعاً، تأوي عناصر الحامية التي يترأسها وال، وقد كلِّفت بالحفاظ على النظام، لأن سكان باجة متهورون، يتحينون الفرص للاندفاع وراء العصيان.

تقع باجة في منطقة فلاحية جيدة، تموّن تونس وما حولها بالمنتجات الزراعية، ويذهب أهل تونس إلى القول إنه لو كانت ببلادهم منطقة أخرى مثلها، لكانت كميات الثروات الفلاحية أكثر وزنا من الرمال الموجودة في البلاد.

ومع ذلك، يلاحظ أن أهل باجة في الفقر يتخبطون، لأن حكام تونس يثقلون كاهلهم بالضرائب، والأعراب يشنون عليهم غارات متتالية لنهب محصولاتهم الزراعية وأموالهم، دون أن تتمكن السلطة الحاكمة من ردهم عن غيهم أو القضاء عليهم. من أجل ذلك، فقد الفلاحون حماسهم ومضوا يهملون أعمالهم، فتقلص إنتاجهم واضمحلت مداخيلهم.

الفصل الثاني والثلاثون

عين زمـيـت

تقع هذه البلدة على مسافة اثني عشر فرسخاً من العاصمة التونسية وعلى بعد عشرين فرسخاً من باجة، بناها ملوك تونس واختاروا موقعها بمنطقة لم تكن مزروعة ولا اهلة، قصد تعميرها، لكن الأعراب تذمروا من هذا الاختيار وخافوا على حرية الرعي بالمنطقة. كان الملك مولاي محمد يخشى تمردهم، فوعدهم بتدمير المدينة، غير أن أسوارها وأبراجها لا زالت قائمة، ولا ينقص منازلها إلا سقوفها.

هذا وتملك قبائل أولاد بلبيل، جل أراضي المنطقة.

الفصل الثالث والثلاثون

القصبة

شيد الرومان هذا الموقع في أرض عراء، على بعد ثمانية فراسخ جنوب تونس. هاجمتها القوات الإسلامية عدة مرات وألحقت بها أضراراً جسيمة، وقضى عليها الأعراب بصفة نهائية، لكن أسوارها المبنية من الحجر لا زالت ثابتة.

تحيط بالقصبة من كل جهة، أراضي فلاحية شاسعة، وتزدهر بها تربية المواشي، لكن الحقول غير محروثة، لأن العاهل التونسي لا يتوفر على القوة اللازمة ليقصي عنها الدخلاء من الأعراب الذين استوطنوها وأخذوا يفرضون سلطانهم على المنطقة بأكملها. وحتى لو فرضنا أنهم سمحوا للاهالي بزرع حقولهم، فإن التونسيين لن يقدموا على ما ينبغي من جهود لأنهم متكاسلون ويرفضون العمل الشاق، ذلك ما جعلهم يهملون الأرض، فتركوها ومشايتهم عرضة للاعراب.

الفصل الرابع والثلاثون

القيروان

القيروان مدينة كبيرة، أسسها عام 52 هـ، عقبة بن نافع، في عهد الخليفة الثالث عثمان بن عفان. تقع في سهل شاسع الأطراف ويؤكد المؤرخون العرب، أنها أجمل المدن التي بناها المسلمون بإفريقيا. تحيط بها أسوار من اللبن، وبها عدة أبراج. إنها تبعد عن سوسة باثني عشر فرسخاً وعن تونس بثلاثة وأربعين فرسخاً.

أذكر من بين آثارها، مسجدها الجامع الذي بناه عقبة، يُلَقِّن فيه أصناف المعرفة، نخبة من كبار العلماء والشيوخ، واتخذه ملوك تونس مقبرة لهم، لأن القيروان كانت أولى حاضرة إسلامية بنيت بإفريقيا. هذا وقد بناها عقبة لأسباب استراتيجة واتخذها المسلمون قاعدة عسكرية تنطلق منها عملياتهم الحربية، كما استخدموها مكانا لتأمين كنائزهم وغنائمهم الحاصلة من غزواتهم المتكررة في بلاد البربر ونوميديا، وما انتهى الى أيديهم من ثروات قرطاج.

المناطق المجاورة للقيروان قاحلة، لا تنبت فيها زروع ولا غلل، ويضطر أهاليها الى جلب حاجياتهم الضرورية للعيش، من المدن الشاطئية التي توجد أقربها الى القيروان، على مسافة أربعة عشر فرسخاً.

يشرف على المدينة جبل يبعد عنها بأربعة فراسخ، كان آهلاً بالسكان في عهد الرومان، ويشهد على ذلك ما بقي في جنباته من آثار منازلهم. تكسوه غابات من الخُروب وتنبع فيه مياه كثيرة، في حين، ليس في القيروان عين ولا بئر ولا يخترقها نهر، وليس بها سوى صهاريج لتجميع مياه الأمطار، يوجد بعضها خارج الأسوار، تورد منها الأنعام، ويتقاطر عليها أعداد هائلة من الناس، فتجف قبل شهر يوليوز، لا سيما وأن أعراب نوميديا يقصدونها بدورهم، فيتفاقم القحط والعطش بالمنطقة.

يتوافد طلاب المعرفة على القيروان من كل مناطق إفريقيا، مثلهم كمثل الطلاب الفرنسيين الذين يحجون الى باريس أو الطلاب الاسبان الذين يقصدون جامعة سلامانْكَا، وكل فريق من هؤلاء وأولئك، يعتز باغترافه العلم من هنا أو هناك. إلا أن الأعراب لم يقلعوا عن شن غاراتهم المتتالية عليها، فالحقوا بها وباقتصادها أضراراً جسيمة، كانت عاملاً أساسياً في نقص المواد الغذائية ونشر المخمصة، كما تسببت في أفول نجمها حيناً من الدهر. أما الذين لا يزالون يقطنون بها، فإنهم صناع يعانون داعية الفقر، يقتاتون بريع دباغة جلود الغنم التي يصنعون منها ملابس للوجهاء ورؤساء القبائل.

ظلت الضرائب في عهد الملك مولاي الحسن[1] تثقل كاهل الأهالي، ولعل سخطهم على أحوالهم هو الذي دفعهم للترحيب بالحامية التركية التي حلت بالمدينة، على إثر استيلاء خير الدين بربروس على مدينة تونس. ولما تمكنت قوات الامبراطور الاسباني من إقصاء خير الدين عن المدينة، بايع السكان إمام مسجد عقبة، وطلبوا منه أن يكون عليهم ملكاً، حتى لا يقعوا تحت نفوذ أمراء تونس. عندها، قام الامام ببسط سلطانه على المناطق المجاورة للمدينة، وتعزز ملكه بمناصره القبائل له، فأصبح يحمل لقب ملك القيروان.

وسعى ملك تونس الى التحالف معه وتوحيد صفوفهما لمحاربة القوات المسيحية الغازية، فتصاهر معه، إذ زوج أحد أبنائه بإحدى بنات الإمام.

---

(1) مولاي الحسن، أحد ملوك (عهد) انحطاط الدولة الحفصية. تولى الملك عام 1525. في عهده، تم احتلال تونس من طرف قوات الامبراطور كارلوس الخامس (1534/6/15) وأبرم مع النصارى معاهدة صلح ووافق على اتخاذهم أولياءه. وفي عام 1535 استولى خير الدين بربروش على تونس، وأجلاه النصارى عنها، وراح مولاي الحسن يتعاون معهم ضد الاتراك، ثم نبذوه. فأخذ يستنجد بهم ويستنصرهم. لم يرض ابنه أحمد سلطان بسياسته، فهجم عليه وفقأ له عينيه وبقي مولاي الحسن مع ذلك يناصر المسيحيين الى أن مات ، وهم يضربون الحصار على مدينة مهدية، عام 1551 (المترجم).

إلا أن ملك القيروان، رغبة منه في صيانة ملكه وضمان أمن البوادي، راح يتعاون مع الجنود العاملين تحت لواء الامبراطور المسيحي، ويمدهم بالمواد الغذائية ويعزز صفوفهم بالجنود، ليساعدوه على طرد درغوت الحاكم التركي، الذي كان محاصرا بالعاصمة التونسية. من أجل ذلك، أخذ درغوت يحيك الدسائس ضده وألّبَ عليه فئة من الفقهاء وجماعة من السكان، وتسلل إلى القيروان ليلا، فاغتال ملكها، ثم أعلن عن ضم المدينة إلى السلطات التركية(2).

وتجدر الاشارة إلى أن عبد الله الثاني، آخر ملك في دولة بني الأغلب(3)، شيد على مقربة من القيروان، بلدة لإسكان الفائض من النازحين إليها، وقد كثروا بعد استيلاء العرب على صقلية.

وبهذا يتم الحديث عن حواضر الإقليم الداخلية.

الفصل الخامس والثلاثـون

زَغْـوَان

زَغْوَان إسم يطلق اليوم على جبل قفر يوجد على بعد فرسخ واحد(4) من مدينة تونس، بين جنوبها وشرقها. رغم علوّ هذا الجبل وطقسه البارد، فإنه كان في الماضي آهلاً بالسكان، إذ لا زالت آثار البنايات فيه قائمة، وهي تحمل كتابات لاتينية منقوشة على الحجر. ومن بين الآثار الباقية، أذكر القصور وخلايا النحل المبثوتة في كل جهة، ومطمورات لاختزان الشعير.

كان القرطاجيون يجلبون منه الماء إلى مدينتهم بواسطة قناة مرفوعة. إنه الجبل البارز والوحيد الذي يتقدم نحو البحر في هذه المنطقة. أما ما بقي من إقليم تونس، فإنه أراضي شاسعة، إذ تنفرج هناك سلسلة الأطلس وتفتح المرور بدون صعوبة، نحو إقليمي الزّاب ونوميديا.

---

(2) وقع هذا عام 1557، يوم 27 دجنبر، وبذلك وضع درغوت حداً لهيمنة الطريقة الشابية. (المترجم).

(3) آخر ملك في دولة بني الأغلب، هو ابن عبد الله الثاني وقاتله هو أبو مضر زيادة الله الثالث، بإجماع العديد من المصادر العربية. (المترجم).

(4) المسافة بينهما أكثر من ذلك.

الفصل السادس والثلاثون

الــــزّاب

يقع إقليم الزاب جنوب إقليم تونس ويمتد إلى إقليم نوميديا. توجد به عدة مدن وقرى، أكبرها مدينة المزاب، وهي عاصمته. وبما أني سأتطرق إلى هذا الإقليم في سياق الحديث عن نوميديا، فإني أرجئ التعرض إليه بتفصيل في هذا المقام، وألاحظ أن رغم خضوع الزّاب إلى نفوذ ملك تونس، فإنه ينتمي إلى بلاد البربر التي تتشكل منها ربع بلاد إفريقيا.

الفصل السابع والثلاثون

إقليم طرابلس

يحد هذا الاقليم غرباً، إقليم تونس، ويحده البحر جنوباً، انطلاقاً من مصب نهر تريتون[5]، ذلك المصب الذي توجد به مدينة تسمى الآن قابس، ويمتد من هناك إلى حدود مسلاتة، ويدخل فيه سيرث الصغير، وتحده في أقصى جنوبه، نوميديا وليبيا، وهما منطقتان صحراويتان. أما من جهة الشرق، فإنه يمتدّ إلى حدود إقليم بنتابوليس كما يسميه اليوم أهل البلد.

إن معظم جهات هذا الإقليم صحراوية قافرة، لكن فيها بعض القرى يقطنها البرابر، وسياتي الحديث عنها وعن غيرها من المواقع الشاطئية، في أحد الفصول اللاحقة.

الفصل الثامن والثلاثون

قــابــس

كاباي، التي يسميها أهل البلد قابس، مدينة كبيرة وعريقة في القدم، إذ أنها من بين المدن الأولى التي شيدها الرومان بإفريقيا. تقع هذه المدينة على شاطىء خليج يمتد من صفاقس إلى جربة، وتؤمن سلامتها أسوار عظيمة تحرسها قلعة جميلة مشيدة على مقربة من مجرى جدول ماؤه حارّ. أما موقعها الجغرافي، فإن بطليموس حدده على خط عرض من ثمانية وثلاثين درجة وأربعين دقيقة.

(5) يسميه العرب وادي قابس. (المترجم).

ازدهرت قابس في عهد الرومان، ولما سقطت في أيدي جيوش القوط أقاموا بها حامية، ولما دخلها المسلمون، أصابها الدمار، ولا سيما بعد أن أصبحت تابعة لنفوذ مملكة القيروان، ولم تسترجع مجدها السالف رغم إعادة تعميرها، لأن الأعراب كانوا يوالون عليها غاراتهم وينهبونها، فباتت خالية مهملة ردحاً من الزمن.

يتألف معظم سكانها حالياً من السود الذين يتعاطون إلى صيد الأسماك والفلاحة، إذ توجد بالمنطقة واحات عديدة، أثمارها تجف قبل الأوان ولا تحتمل التصبير كأثمار نخيل نوميديا. أما بقية الأراضي، فإنها رملية، ولا تنتج إلا قليلاً من الشعير، حتى أن الأهالي يتغذون بجذور حلوة[6] يستخرجونها من الأرض ويأكلونها بعد طهيها، كما يفعل الهنود بالبطاطيس.

أما اليوم، فإن قابس صارت تابعة لحكم الأتراك، شأنها شأن مدن الإقليم قاطبة، وكل المدن الشاطئية، وترابط بها حامية تابعة لسلطة والي طرابلس.

الفصل التاسع والثلاثون

محـــرس

إنها قلعة شيدها منذ عهد قريب ملوك تونس بمدخل خليج قابس، لحمايته من غارات القراصنة المسيحيين الذين تعودوا نهب مدن وقرى الشاطىء. سكانها فقراء، لا يملكون أرضا ولا أنعاما، يشتغلون مع القراصنة الأتراك أو يمارسون الصيد، وبعضهم نسّاجون أو يصنعون الطرابيش. لغتهم هي البربرية، مثلهم مثل سكان جزيرة جربة، ولا يتعاملون سوى مع أهل جربة، التي لا تبعد عن محرس الا بثمانية عشر فرسخاً.

الـفـصـل الأربـعــون

حديث عن أهالي جزيرة قَرْقَنَّة المرتبطة باليابسة

تقع هذه الجزيرة أمام صفاقس، وبها عدة قرى صغيرة يقطنها برابر فقراء ولكنهم أشرار. أرض الجزيرة كلها صلداء، تتكسر عليها الامواج بشدة حتى انه

(6) تلك الجذور هي البطاطا الحلوة الشائع إنتاجها في كثير من بلدان افريقيا وآسيا وأميريكا اللاتينية وحتى في جنوب بعض أقطار أوربا الواقعة بجانب البحر المتوسط. أما عن الهنود، فإن المؤلف يقصد بهم الهنود الحمر. (المترجم).

يصعب على السفن أن تدنو منها. إنها تابعة لجربة، وتشاركها مصيرها.بعض البرابر من سكان قَرْقَنَّة، بحارة، تربطهم بالأتراك صداقة كبرى ويرافقونهم في عمليات القرصنة.

ظلت قَرْقَنّة زمناً طويلاً خاضعة لسلطة المسيحيين. وفي عام 1510، بعد أن هزم الكونت بيدرو النفاري سلطات جربة، عاد إلى طرابلس، ثم غادرها على رأس أسطول يتألف من ستين وحدة، ويحمل ثمانية آلاف جندي، وقد أقسم بأنه سيلحق بالعرب أشد الأضرار، إلا أن عاصفة هوجاء هبّت في البحر، وأتلفت معظم وحداته وكادت سفينته تغرق بدورها، فولى عائدا إلى طرابلس، وجهز ثلاثين مركباً، حمل على ظهرها خمسة آلاف رجل وأبحر مرة أخرى لنفس الغاية، فداهمته عاصفة أخرى وأغرقت عشر سفن وعدداً كبيراً من الجنود. أما الذين نجوا من الهلاك، فأصابهم الجوع والعطش، ونزلوا بجزيرة قرقَنة التي كانت وقتها خالية، لأن أهلها قادوا أنعامهم لمراعي داخل البلاد. لم يجد النصارى ما يتزودون به من مؤن، فشرعوا يبحثون عن الماء الصالح للشرب، إلى أن عثروا على ثلاثة آبار، فسقوا منها ثم رحلوا.

وفي يوم 21 فبراير، استأذن أحد كبار الضباط الكونت في النزول من جديد بالجزيرة، لتنظيف الآبار والتزود منها بالماء، فأذن له بذلك. واصطحب الضابط معه أربعمائة وخمسين من خيرة الجنود، وشرعوا ينظفون الآبار، وأقاموا حولها بعض المنشآت العسكرية، لتحميهم من أي هجوم مفاجىء. وفي المساء، قام الكونت بزيارة تفقدية إليهم، ثم سمح لهم بالمبيت في عين المكان، بإلحاح منهم.

أثناء عمليات تنظيف الآبار، تعرض أحد الجنود للتوبيخ، ولم يكتف الضابط بالكلام، بل اقتلع شعر لحيته، فغضب الجندي، والتحق تحت ستار الليل، بجماعة من العرب كانوا قد لجأوا إلى جانب من الجزيرة، وأطلعهم على رغبته في اعتناق الاسلام، وتسليمهم كل المسيحيين الذين يحرسون الآبار.

رحب أولئك العرب بالجندي، فقادهم إلى الآبار، وهناك قتلوا الحراس الذين كانوا نائمين، ثم تسللوا إلى المنشآت التي تحصن فيها بقية الجنود، وأبادوهم جميعاً إلا ثلاثة منهم، أرسلوا أحدهم أسيرا إلى ملك تونس، والثاني الى حاكم جربة، وبقي الثالث يعاني من آلام الجراح، وسط جثث رفقائه. وفي هذه الأثناء، وصل الى عين المكان، عشرون جندياً من الوحدة المرابطة، كانوا قد ذهبوا من قبل، نحو

الأسطول البحري، ليأتوا بالمؤونة لرفقائهم، لكنهم اختبأوا عندما سمعوا أصواتاً مشكوكاً فيها.

بعدما فتك العرب بالجنود المسيحيين، أطلقوا النار للتعبير عن فرحتهم ثم انسحبوا. أما الجريح، فإنه التحق بأصحابه وأخبرهم بما حدث. عندها، نزل إلى الأرض بقية الجنود، وكان معهم الكونت بيدرو النفاري الذي وقف متحسراً على جثث النصارى، ثم أمر بالإبحار فوراً وتوجه إلى جزيرة كابري التي تبعد عن مدينة نابولي بثلاثين فرسخاً فلم يصلها إلا بعد أن قاسى المحن، وتبعثر أسطوله، ولم يبق له أثر يذكر.

الفصل الواحد والأربعون

جزيرة جربة(7)

كان القدامى يسمون هذه الجزيرة، منيسة، وهو اسم كان يطلق أيضاً على مدينة بها. تناول بطليموس الحديث عنها، فقال إنها تقع في نقطة التقاء خطي الطول والعرض، بتسع وثلاثين درجة بالنسبة للأول، وإحدى وثلاثين درجة بالنسبة للثاني، وكان يسميها لطفجنة(8).

ترتبط جزيرة جربة باليابسة، وأراضيها رملية ينبت فيها التمر والزيتون والعنب وغير ذلك من الفواكه، ولا يتجاوز محيطها ستة فراسخ. أما من الناحية العمرانية، فلا يوجد بها، في هذا العهد، سوى مداشر صغيرة وقليل من القرى. تربة حقولها خفيفة، لا يمكنها أن تنتج سوى قليل من الشعير، على أساس سقيه، وهو عمل لا يتأتى إلا بصعوبة لأن الآبار عميقة جداً، وهذا سبب قلة الخبز بها، وقلة وجود المواشي في ربوعها.

بنى ملك قطالونية في جربة عندما كانت الجزيرة في تعداد ممتلكاته، قلعة محصنة توجد على الشاطيء، وهي مقر الحاكم، وعلى مقربة من هذه القلعة، توجد بناية ينزل بها التجار الأتراك والأعراب والنصارى بمناسبة سوق أسبوعي يقام هناك، يأتيه السكان من ربوع الجزيرة، والعرب المقيمون بالشواطئ. تباع فيه

---

(7) مرمول يسمي جربة وقَرْقَنّة وجزرا صغيرة حولها، جزر الاجلاف. (المترجم).

(8) تسمية غريبة عند بطليموس، إذ أنها مؤلفة من اسمين عربيين. (المترجم).

المنتجات المختلفة، وتنقل منه إلى تونس والأسكندرية، جلود الأبقار والأصواف والزبيب وغير ذلك.

ولا أخفي أن المسلمين ألحقوا بجربة أضراراً جسيمة كما فعلوا بطرابلس وقابس اللتين كانتا في ملك الرومان، وقد كان بالجزيرة مدينتان كبيرتان، هما منيسة وغيرة، لا زالت أطلالهما صامدة، وفي سنة 1284م، احتلتها قوات مسيحية تابعة لمملكة أراغون، بقيادة الأميرال روجي اللوري، وظلت سنين طويلة تحت لواء النصارى.

لما وصل اليها روجي اللوري، في اليوم الثاني عشر من شهر شتنبر 1284م، أرسى سفنه بجانب البرزخ الذي يربطها بالبر، وذلك لمنع العرب القاطنين بها من مغادرتها، وللحيلولة دون توصلهم بالإمدادات من خارجها، ثم انزل بها جنوده ليلا، في غفلة عن سكانها، ونهب العديد من مداشرها. وعندما أصبح النهار، أذهل العرب بما شاهدوه، فلاذوا بالفرار عبر الحقول، ظانين أنهم سينجون بأنفسهم. وهكذا تمكن النصارى من احتلال الجزيرة بدون معركة، وقتلوا الكثير من أهاليها ثم أسروا فريقاً آخر ودان لهم الباقي من السكان، بالولاء والطاعة. بعد ذلك، شيد روجي قلعة على البرزخ وترك فيها حامية، ثم رجع إلى صقلية.

بينما كان النصارى عاكفين على بناء القلعة، بلغ إلى علم روجي أن أحد قواد البرابر القاطنين بجبال إقليم طرابلس، يحشد الجنود لمهاجمته، فأوقعه في كمين، ثم أسره ونقله إلى مدينة ميسين بصقلية حيث وضعه رهن الاعتقال، وظلت الجزيرة عهداً طويلاً تحت سيادة روجي، الذي خلف عليها قبل وفاته، ابناً له يحمل نفس الاسم.

في عهد روجي الثاني، أوفد ملك تونس جيشاً يقوده أحد العلماء ويتألف من النصارى الذين اعتنقوا الأسلام بتونس، ومن العرب، للهجوم على القوات المسيحية المستولية على الجزيرة، فقام ذلك الشيخ بتحريض سكان الجزيرة على النصارى، فحاصروا القلعة مدة ثمانية أشهر. إلا أن روجي المسيحي استنجد بملك صقلية، فأمدّه بستة بوارج وبعض السفن، فكت الحصار عنه. فر الشيخ بعد ذلك، وأنزل روجي عقابا شديدا بكل من تواطأ مع ملك تونس، ثم استرجع السيادة على جميع أطراف الجزيرة. لكن، بعد وفاته، قام أهل جربة بالتمرد على أخيه دون كارل، الذي تولى شؤون الجزيرة، وعمره أربعة عشر عاما.

كان ولا زال يستوطن جربة قبيلتان، إحداهما تدعى قبيلة أولاد معاوية والثانية تدعى قبيلة أولاد مستونة، لهجتهما بربرية، ممزوجة بكلمات عربية. إن وجهاء[9] قبيلة أولاد معاوية كانوا طيبين، يتعاملون مع النصارى ويبادلونهم الصداقة. أما باقي أفراد القبيلة، المعروفين ببني الدرقي، فإنهم يختلفون عنهم في كل شيء، وقد تحالفوا مع أولاد مستونة لمحاربة النصارى في عدة مناسبات.

ذات مرة، حاصروا القلعة، وساعدهم على ذلك ملك تونس الذي أوفد إليهم بعض المحاربين، إلا أن دون كارل مضى يطلب الإسعافات من ملك صقلية[10] ومن ملك نابولي[11] فأرسلا إليه خمس بوارج محملة بالجنود، تمكنوا من فكّ الحصار المضروب عليه. بعد ذلك، رحل كارل إلى صقلية وقد عيّن شمعون دومنتلان حاكماً على الجزيرة.

مات كارل وانتقلت الى أخيه روجي الثالث، ممارسة السيادة على جربة، فدشن عمله بإشعال نار الحرب بين القبيلتين المتساكنتين بها، معلناً تأييده وتحيزه إلى بني مومن. وتلقى من ملك صقلية تعزيزات من الجنود والعتاد، يقودها جايم كستلار الذي لم يكد يطأ أرض جربة حتى شرع يهاجم العناصر التي كانت تقاوم تواجد بني مومن، إلا أنه لقي حتفه، وانهزمت قواته، وفقدت خمسمائة جندي.

أيقظت هذه المعركة همم أولاد مستونة، وألهبت دماءهم، فأبلوا البلاء الحسن في حربهم ضد النصارى وضد بني مومن، وأمام تفاقم الحالة، استنجد روجي بالبابا وبملك نابولي، لكنهما لم يهتما بطلبه. عندها، توجه الى ملك صقلية، فقبل مده بما يحتاج اليه، على شرط أن تموّل العمليات الحربية من موارد جزر خليج قابس[12]. وافق روجي على هذه الشروط، وتنازل عن جزيرة قرقنة وقصرها الى ملك صقلية، كبرهان على صدقه وضمانة مسبقة.

تنفيذا لهذه المعاهدة، أمر ملك صقلية بتجهيز أسطول يتألف من ثماني عشرة سفينة، وعين على رأسه أحد[13] نبلاء مدينة مسينة. بعدما نزل الغزاة بجربة التي

---

(9) يدعون بني مومن، حسب مترجم النص الاسباني. (المترجم)

(10) المدعو فردريك الثاني.

(11) المدعو روبير.

(12) هي جربة وقرقنة وما يجاورهما.

(13) يدعى بلغيرو ديباتي، حسب مترجم النص الاسباني. (المترجم).

أصبح النصارى يسمونها «جزيرة الاميرال» رغبوا في قسط من الراحة، لما تحملوه، هم وخيول فرسانهم، من متاعب، خلال عبور البحر.

رابطت هذه الجيوش في غير نظام، ولما علم العرب بأحوالهم، اجتمعوا وحشدوا قواتهم ــ ولم يشاركهم في ذلك رؤساء بني مومن الذين التجأوا إلى القلعة ــ ثم انقضّوا عليهم وأبادوهم ولم ينج منهم سوى عشرة فرسان. أما نبيل مسين، فإنه وقع أسيراً وهلك من النصارى يومئذ، ما يزيد عن ألفين وخمسمائة من الجنود المشاة وأكثر من ستين فارساً.

عندما استرجع العرب السيادة على جربة، التمسوا من ملك تونس أن يرسل اليهم تعزيزات لضرب الحصار على القلعة. إلا أن نبيل ميسين افتدى، فأرسل السفن فارغة إلى ملك صقلية، الذي هاله الأمر، وهبّ إلى إرسال قواته البحرية بقيادة الأميرال رامون مونتانير لفكّ الحصار عن القلعة التي مكث بها شمعون مونتلان.

كان الأميرال رامون ذا خبرة واسعة، فاستطاع إخماد الثورة بالجزيرة، وأطلق على العصاة مائتي فارس من قوات بني مومن، وشرع يحارب قوات الشيخ التي كانت تتألف من أربعمائة فارس وثمانية آلاف من المشاة، وحالفه النصر في عدة مواقع، فلم يجد الشيخ بداً من الجلاء عن الجزيرة. ولم يغب الشيخ الا أياماً قليلة حتى عاد إلى ميدان الوغى، على رأس ثمانمائة فارس زوده بهم ملك تونس، إلا أنه لم يستطع عبور البرزخ الرابط بين اليابسة والجزيرة، لأن الأميرال أقام حصارا حولها، واستولى على ست من بين السفن العشرين التي تألف منها أسطول الشيخ.

أمام هذه التطورات، أبرم الأهالي مع النصارى هدنة، للرحيل إلى اليابسة، ولبث الشيخ منعزلا، فسعى إلى التصالح مع أعدائه والإنضواء تحت ولايتهم، لكن النصارى رفضوا طلبه نظرا لما تسببه لهم فيه من خسائر. وعندما استتب الهدوء بالجزيرة، أرسل ملك صقلية إليها عشرين سفينة حربية، محملة بمائتي فارس وألفين من المشاة، تحت قيادة كرّادو لانسا. وما أن حل هذا القائد بالجزيرة، حتى استسلم إليه الشيخ، وعلى إثر ذلك، قاد كرّادو حملة ضد المستونيين الذين كانوا يتوفرون على عشرة آلاف من المشاة، وبعض الفرسان، وقد حشدوا النساء والأطفال في قلعة عتيقة تقع بالمكان الذي كانت فيه قديماً مدينة غرّة. أما القوات التي خرج بها كرّادو إلى القتال، فإنها كانت تتألف من مائتين وعشرين دركيّا،

وثلاثين فارساً وألفين من المشاة، فهزموا القوات العربية كاملة، ثم اقتحموا قلعة غرّة وأسروا ما يقرب من اثني عشر ألف نسمة، من نساء وأطفال.

عاد كرادو بعد هذه المعركة إلى صقلية وقد ترك بالجزيرة حاكمها مونتانير، ليرعاها باسم ملك صقلية. لكن أهل جزر خليج قابس الذين نجوا من المعركة السابقة، انضموا إلى قوات عربية وذهبوا لغزو صقلية.

في هذه الأثناء، اندرجت دفة الحكم في تونس إلى أمير عربي[14] ظل يدعي أنه من سلالة الخليفة عمر بن الخطاب، ولكن لسوء حظه، تآلب عليه سكان بعض الأقاليم، فاضطر إلى إبرام هدنة مع مونتانير، لمدة أربع عشرة سنة، على أن يدفع كل عام، ضريبة قدرها خمسة آلاف دبلون من الذهب، إلى ملك الأراغون الذي كلف مونتانير بمهمة التفاوض، نيابة عنه وعن ملك صقلية؛ وراح مونتانير ينفق ريع الاتفاقية في تمويل العمليات الحربية لصد هجمات العرب عن القلعة.

كان الأمير العربي يتوفر على جيش مُكَوَّن من المرتزقة النصارى، فيهم الفرسان والمشاة، ويؤطرهم في القيادة العليا ضابطان، أحدهما يسمى برنادان دوفونس وهو يحمل فريقه علم الأراغون، والثاني يسمى ريمون دومنتكاد، ويحمل فريقه علم مملكة صقلية.

لم تكد تنتهي مدة الهدنة المبرمة بين الطرفين، حتى جاهر الجنود المسلمون، من قوات الأمير، بما ظلوا يعانونه من طغيان وإهانة من طرف الضابطين المسيحيين، وتضامن معهم سكان جربة وصفاقس وقرقنّة للتنديد بقوات الاحتلال وأعربوا عن استعدادهم لاستئناف القتال ضد الغزاة، في ظل نظام ملك تونس، فأمدّهم العاهل التونسي بتعزيزات حربية، فضربوا الحصار على القلعة وحاميتها.

تناهى إلى علم ملك صقلية، ما أصبحت عليه الأحوال بالمنطقة، فقرر أن يرسل إليها، رغم الاضطرابات السائدة في مملكته، أسطولاً يتألف من عدة وحدات حربية، أسند قيادتها إلى الأميرال دون ريمون دوبيرالدي، ثم أمره بتزويد الحامية بالعتاد الحربي والمواد الغذائية.

عندما نزلت قوات صقلية بالجزيرة، دخل فريق من جنودها إلى القلعة، وشرع فريق آخر يحارب العرب الذين اضطروا الى الجلاء عن مواقعهم. وفي خضمّ هذه الأحداث، أطلت على جربة وحدات حربية تابعة لمملكة جنوى ومملكة

(14) يسمى ابن يحيى، حسب رواية مترجم النص الاسباني.

نابولي، واستولى جنودها على سفن مملكة صقلية وغنموا عتادها الحربي وباعوه الى القوات العربية[15]، الأمر الذي أرغم الأميرال دون ريمون الى الفرار الى صقلية، وقد كلف بيدرو السرقسطي بالدفاع عن القلعة.

استأنف العرب القتال، وحاصروا القلعة وهم يوالون عليها هجماتهم العنيفة حتى استسلمت لهم حاميتها. إذ ذاك، دخلوا إليها وفتكوا بكل نزلائها، ثم رجموا بالحجارة حتى الموت الحاكم بيدرو السرقسطي وابنه.

منذ ذلك الحين، أخذ سكان جزيرتي جربة وقرقنة يعيشون تحت لواء الاسلام ولبثوا خاضعين للمملكة التونسية إلى أن أعلنوا عن استقلالهم وانفصالهم، وحطموا البرزخ الذي كان يربط جربة بالبرّ.

بذلك استيقظت نعرة النزاعات القبائلية بين السكان، وغاصوا في سالف خلافاتهم، ومضوا يتقاتلون من أجل الحكم والزعامة، وشاعت فيهم موجة من الاغتيالات، وأخذ أعيانهم يسقطون صرعى، وبعث في أوساطهم أكثر من عشرة أمراء في وقت وجيز، يتنافسون على القيادة في الجزيرة التي انعدم فيها الأمن والاستقرار.

بينما كانت الأمور تجري على غير هدى في هذه المنطقة، كانت رياح الخلافات تهب على مملكة نابولي، حيث نشبت نزاعات حادة بين الملكة جان وملك الأراغون الذي دعته الملكة المذكورة للإشراف على شؤون مملكتها، فلم يحصل بينهما اتفاق أو تفاهم، ذلك ما حمل ملك الاراغون على صرف اهتمامه وعنايته إلى المغامرات الحربية، وداعبته من جديد، فكرة احتلال جربة مهما كان الثمن.

لذلك، بنى قاعدة بحرية في موقع غير بعيد من الجزيرة، لمراقبتها عن كثب، ولمنع توصل أهلها بالإمدادات الخارجية. وبعد أن فرغ من بناء القاعدة، حصنها وضرب حصاراً على جربة. تحركت مرة اخرى مشاعر ملك تونس، فهبّ إلى إغاثة أهلها، بإرسال جيش قوي لمحاربة النصارى. إلا أن الجيش التونسي تكبّد خسائر جسيمة في الأرواح والعتاد، وتمكنت القوات المسيحية من احتلال الجزيرة التي رابطت فيها فترة طويلة، إلى أن انتفض السكان انتفاضة كبرى، فأرغموا المسيحيين على الجلاء.

(15) حدثت قبل ذلك انشقاقات في صفوف المسيحيين، خصوصا بين المملكات الثلاث، صقلية، نابولي وجنوة (المترجم)

رجع الفونسو قائد النصارى إلى صقلية، وأعاد تنظيم القوات البحرية، ثم شن غارة خاطفة على ميناء تونس، واستولى على بعض السفن التي كانت راسية به، ثم ولى عائداً بغنيمته الى صقلية، مع فكرة القيام بهجوم واسع على المملكة التونسية في وقت لاحق، غير أن الاضطرابات التي هزت أركان مملكة نابولي، دفعته إلى العدول وقتها عن ذلك الهجوم.

هذا وسنرى في الفصول القادمة، ما هي الأحداث التي وقعت بجربة، فيما بعد.

سبق لنا القول إن الكونت بيدرو النفاري استولى على مدينة طرابلس، ورغب في بسط نفوذه على جربة التي لا تبعد عن طرابلس الا بخمسة وثلاثين فرسخاً، وظن أن العملية سهلة للغاية، فتوجه إلى مضيق القنطرة[16] بأسطول يتشكل من ثلاث عشرة وحدة بحرية، ثم أوفد إلى القنطرة ثلاثة رجال حاملين علما أبيض ويتحدثون بالعربية، ليعرضوا على الأعراب الأمن والسلام. لكن الأهالي الذين كانوا على علم باحتلال طرابلس، ظلوا على جانب كبير من اليقظة والاستنفار. ولما تراءت لهم السفن المسيحية في عرض البحر، وهي تتجه نحو الجزيرة، ازدادوا حذرا. وعندما دنت سفينة الرسل الثلاثة منهم، أطلقوا عليها النار، فمات أحدهم، وفر الآخران، وأعلن السكان كافة أنهم لن يسمحوا للعدو بالنزول في الجزيرة وأنهم مستعدون للموت، دفاعا عن أرضهم، هم ونساؤهم وأطفالهم، لكن الكونت لم يحفل بإنذارهم، وتابع طريقه لمشاهدة البرزخ[17]، فلم يعثر له على أثر، لان أهل الجزيرة حطموه من قبل. خاب أمل الكونت، فأرجأ عملية الغزو الى وقت آخر، ثم ولى عائدا الى طرابلس وهو يعض أنامله من الغيظ، تحدوه رغبة الإنتقام من البرابر.

وصل الكونت الى طرابلس في اليوم التاسع من شهر غشت، فاستعرض قواته التي كانت تتألف من خمسة عشر ألف جندي، وترك بالمدينة ثلاثة آلاف تحت قيادة الضابطين سمانييغا وبالامينو. أما الآخرون، وهم اثنا عشر ألف جندي، فإنهم ركبوا السفن وبقوا على ظهرها في الميناء، مدة ثلاثة وعشرين يوما، لأن البحر كان هائجا.

(16) القنطرة مدينة تقع جنوب جربة، على شاطئها. (المترجم)

(17) كان هذا البرزخ كالجسر، يربط الجزيرة بالبرّ، ويسميه مرمول جسراً. (المترجم)

في هذه الاثناء، ظهر في عرض البحر، خمس عشرة سفينة حربية كبرى مسيحية، كان من بين ركّابها، دون كارسيا الطليطيلي وأحد إخوته، وهما من أنجال دوق الألب، يرافقهما عدد كبير من النبلاء الإسبان، وقد قدموا لمشاهدة غزو جربة، وكان على متن تلك السفن أيضاً، الضابط دييكو دو فيرا، قائد فرقة المدفعية، على رأس ثلاثة آلاف جندي أخذهم من الوحدات الإسبانية التي كانت ترابط بمدينة بجاية. إلا أن هؤلاء النبلاء الذين أصابهم العياء والملل من جراء رداءة أحوال البحر، رغبوا في النزول الى البرّ، ليستريحوا ويسترجعوا نشاط أجسامهم، فمكثوا في طرابلس الى اليوم السابع والعشرين من الشهر، حيث أبحرت في نفس اليوم نحو جربة، كل الوحدات المجتمعة.

وصلت السفينة الاستطلاعية الى الجزيرة قبل الأخريات، لأنها كانت خفيفة وسريعة، وكانت ترافقها سفينتان أخريان، ودنت الوحدات الثلاث من الجهة التي كان فيها البرزخ، ثم انتقلت الى موقع آخر، على مقربة من برج قديم، واختفت وراء الصخور.

وعندما جن الليل، نزل بهذا المكان، جنود بعض السفن الأخرى، قادمين على متن زوارق مجدافية، لأن السفن الكبرى كانت تخشى أن تصاب برصاص العرب، وقد تحتم على الغزاة أن ينزلوا بمكان بعيد ما عن اليابسة، فأخذوا يمشون في الماء ولا يحملون معهم إلا أسلحتهم.

أصابهم العياء، وتبللت ملابسهم، فأقاموا على مقربة من البرج المذكور حفلا دينيا. وعندما طلع النهار، نزل الى البرّ، دون كارسيا الطليطلي، على فرس رمادي اللون، يرافقه خادمان كان أحدهما يمشي على يمينه، والثاني على شماله، وكان عمّه المعتوه يرافقه، فدعا له وطلب من مساعديه أن يزيداه سلاحا آخر. لكن دون كارسيا رفض تدخل عمه في ما لا يعنيه، مؤكدا أنه أتى الى الجزيرة الى خوض المعارك وأنه قادر على كل المجابهات، ثم نزل عن فرسه ومضى يرتب الجنود، واستغرقت هذه الترتيبات وقتا طويلا، تحت شمس محرقة، وقد أصاب العساكر الظمأ وراحوا يفضلون كوب ماء على التفاح الذي وزع عليهم قبل النزول الى البرّ.

انتصف النهار، وبدأت جحافل الجنود تتحرك مشيا على الأقدام، وعددهم خمسة عشر ألفا، تتقدمهم فرقة المدفعية ويحمل عضوان من أفرادها، صقرين وبلزين. كانت المسيرة شاقة والرمال حارّة، لقطع مسافة فرسخ ونصف. اشتد بهم العطش وأصابهم العياء، خصوصا منهم أولئك الذين كانوا يجرّون المدافع أو

يحملون على أكتافهم، براميل البارود، فمنهم من سقط ميتا، ومنهم من غادر صفّه، تحت بصر قوادهم العاجزين. أمّا الضابط السامي، المدعو فيونيلو الذي كان يقود الطليعة، فإنه لمس عدم قدرته على حل هذا المشكل، وكان أول من تقاعس، وتبعه في ذلك، دون دييغو باشيكو الذي كان في الخلف، فعمت الفوضى صفوف الجيش وامتلأت الأرض بجثث الأموات منه.

هنالك، عكف دون كارسيا على إثارة حماس الذين وهنوا، قائلا بأن الماء موجود تحت النخيل القريب. وواصل الجيش بمشقة الأنفس تقدمه فوق الرمال حتى دخل منطقة كثيفة النخيل، كان يهيمن عليها صمت رهيب، لأن النصارى لم يصادفوا في الطريق لا عربيا ولا صديقا ولا عدوا. عندها، أحس قادة الجيش بالخوف، رغم حنكتهم، ومع ذلك، مضوا يمشون وهم مذعورين فلم يجدوا إلا آبارا بين حطام بنايات عتيقة، وقد ترك الأعراب حول الآبار، لغاية في نفس يعقوب، أحبالا وجرّات لاغتراف الماء، ثم اختبئوا غير بعيدين من المكان، وهم يتشكلون من ثلاثة آلاف فارس.

بلغ العطش بالنصارى درجة قصوى، فلما رأوا الآبار، تزايدت البلبلة في صفوفهم وتقاطروا عليها، يتسابقون نحو الماء، يريد كل واحد أن يرتوي قبل صاحبه. في هذه الاثناء، خرج فرسان الأعراب من مخابئهم، وانقضّوا على النصارى الذين لم يحفلوا بالخطر الذي داهمهم، لأن العطش فعل فيهم ما فعل. وما كنت تسمع أثناء الهجوم عليهم إلا صراخ الأعراب كعادتهم وقد كانت نبالهم تصيب أهدافها بدقة. أثناء المعركة، كان دون كارسيا يتنقل من مكان الى آخر، يخطب في الجنود ويلهب حماسهم ويحرضهم على الصبر، فالتف حوله العديد منهم، ثم قام بهجوم منسّق على الأعراب الذين اضطروا إلى التقهقر حينا، لكنهم سرعان ما استجمعوا، وأعادوا الكرّة، فسقط العديد من النصارى قتلى أو جرحى، ولقي دون كارسيا مصرعه وقد اخترقت جسده عدة نبال، في حين أخذ الجنود الآخرون يفرّون في اتجاهات مختلفة.

حاول الكونت بيدرو النفاري جمع شتات ما بقي حيّا من الجنود، لكنهم رفضوا متابعة القتال، فتخلى هو عنهم أيضا وأخذوا كلهم وقتها يبحثون عن الملجأ، في جوّ من البلبلة لا مثيل له، إذ أن حتى الحراسة الخلفية التي كان من واجبها أن تؤمن لهم سلامة الرجوع الى سفنهم، أصابها الذعر وعكف كل واحد من عناصرها يقول يومئذ أين المفرّ. ومن حسن حظ هؤلاء الجنود، فإن الأعراب لم يطاردوهم، إذ

لو تعقبوهم، لكانت الخسائر أكثر جسامة في صفوف النصارى. وربّ قائل من ادعى أنهم شاهدوا أعرابيا على فرس، يرتدي خوذة لمّاعة، يخاطب الجنود المسيحيين باللغة الإسبانية، ويشجعهم على الثبات، لأن الأعراب في نظره لا يتقنون الفنون الحربية. لعل ذلك الأعرابي هو أحد الثلاثة الذين انسلخوا عن عقيدتهم المسيحية.

عندما بلغ الجنود الفارُّون الى الشاطىء، كانوا على سوء الاحوال، جسميا ومعنويا، متأثرين بالعياء والعطش، حتى إن كثيرا منهم أصيبوا بالجنون.

فقد النصارى ذلك اليوم، ما يزيد عن ألف وخمسمائة جندي، مات منهم الثلثان بالعطش، علما أن الأعراب أسروا عددا منهم. والاعتقاد السائد هو أن الذين قتلوا بكثرة، كانوا من بين الجنود الاولين الذين تهافتوا على الآبار.

أشرف الكونت بيدرو بنفسه على إجلاء الجنود الباقين، على متن زوارق مجدافية حتى وصلوا الى السفن الكبرى التي كانت راسية بعيدا من موقع الانزال، وترك في البر ثلاثة آلاف جندي على أن يبحروا بدورهم غداة ذلك اليوم. وراح فريق منهم يبحث عن دون كارسيا، وهم لا يعلمون أنه لقي حتفه.

لما طلع الجنود الى سفنهم، لم يجدوا ماءا صالحا للشرب، لأن النساء استعملنه لغسل الملابس، وتناوله الخدم لمآرب أخرى، وقد أمسى النصارى قبل ذلك، يعتقدون أن الجزيرة ستندرج تحت نفوذهم.

عاد الأسطول الى طرابلس وعلائم الحزن العميق والخيبة العارمة تهيمن على الكونت وجنوده. وهناك تشتّت شمل الأساطيل المسيحية ورجعت كل وحدة الى قاعدتها.

بعدما احتلت جيوش الامبراطور كارلوس الخامس مدينة تونس، لجأ حاكمها التركي درغوت[18] الى جربة، وأخذ يضايق النصارى ويذيقهم من المحن ألوانا، حيث ضرب حصارا شديدا، في انتظار وصول قوات تركية، ليشن عليهم هجوما واسعا. عندما علم الامبراطور بأحوالهم، أمر أندري دوري بالتوجه نحو صقلية، وأن ينزل بجربة الجنود والعتاد والمؤونة، وأن لا يدّخر جهدا لأسر درغوت.

---

(18) عندما نزلت جيوش كارلوس الخامس بتونس واحتلت القلعة الواقعة بحلق الواد، عام 1535، يوم 15 يونيو، كان حاكم تونس هو خير الدين بربروس، أما درغوت فإنه كان يهيمن على المنطقة الواقعة بين القيروان وجربة وطرابلس. (المترجم)

أبحر أندري دوري إلى جينوى ومنها رحل إلى نابولي، على رأس أسطول يتشكل من إحدى عشرة وحدة محملة بالجنود، ثم عرج على صقلية، وأضاف إلى أسطوله إحدى عشرة سفينة أخرى محمَّلة بالمؤونة والعتاد الحربي، وغادر باليرمو يوم فاتح أبريل، وأنزل بجربة الجنود والمؤونة والعتاد. هنالك علم أن درغوت يوجد في البرّ، فذهب إلى صفاقس سعيا وراءه، إلا أن أعرابيين أطلعاه أن التركي يوجد على رأس أسطول صغير، بحوض القنطرة. ابتهج المسيحيون بالنبأ، إذ أن حوض القنطرة يشكل أجود مكان لمحاصرة درغوت والقضاء على قواته. من أجل ذلك عاد أندري دوري إلى شواطىء القنطرة.

صادف الضابط النصراني في طريقه سفينتين تركيتين محلّتين بالبضائع، فاستولى عليهما وركابهما. ولما أطلّ على ممر القنطرة، تراءت له سفن درغوت، التي كان بعضها مسلحاً، والبعض الآخر غير مسلح. حين رأى درغوت أسطول النصارى أمر بشحذ الجنود الأتراك والأعراب، وهو يجهل خطورة الحالة بدقة، ثم تقدم للدفاع عن حوض القنطرة، وأطلق بعض الطلقات المدفعية على وحدات أندري دوري الذي أمر سفنه في الحين بالاحتماء وراء الصخور. أما درغوت وجنوده، فإنهم مضوا بعد ذلك يقيمون الحواجز على الشاطىء، وشيدوا سدودا من الحجر الكبير ودعموها بالمدافع.

أمام هذه التطورات السريعة، بعث أندري دوري الى كل من ملكي صقلية ونابولي يطلب منهما تعزيزات عسكرية، وبعث رسولا لنفس الغاية، الى الدوق بيدرو الطليطلي الذي كان مرابطا بنابولي والى خليفة الملك بصقلية. وبعد أيام من ذلك، أبحرت الامدادات المطلوبة، وكان من بين الجنود، مولاي أبو بكر، ابن ملك تونس[19]، الذي أوفده أبوه لاطلاع أندري دوري على رغبة أبيه في القضاء على درغوت وتعاونه مع الامبراطور، وليطلب منه كذلك ربط الاتصال بشيخ الجزيرة.

كان أندري دوري شديد اليقظة، شديد الحرص على ألا ينفلت درغوت، فراح يجوب شواطىء الجزيرة ليل نهار، ويحجز السفن التجارية التركية التي تقترب منها، ثم أرسل سفينة لاستكشاف عمق البحر بالقرب من القنطرة واختيار المكان الأفضل لإنزال الجنود، ووضع العلامات الضرورية لإرشاد قواد السفن.

(19) الحسن. ا

كان درغوت يرقب هذه التحركات، وأدرك مقاصد أندري دوري. من أجل ذلك، أمر مائة من رماته بالابحار والقيام بمناورات لاشغال القوات المسيحية، في حين، أناط بركاب زورق صغير بمهمة الذهاب لاقتلاع العلامات التي غرسها كشافة النصارى على الرمال، وحشد الأتراك والأعراب من سكان الجزيرة، ودعاهم لحفر وتهييء ممر للسفن، لتنفذ عبره الى عرض البحر، في كتمان تام.

ونجحت حيلة درغوت، فبرح الجزيرة على سفنه المحمّلة بأكثر من ألفي جندي، في حين لم تصل بعد الإمدادات التي طلبها أندري دوري. وفي عرض البحر، صادف درغوت بعض القطع التابعة لبحرية مملكة صقلية، فحجزها، وسقط بين يديه ابن ملك تونس، فأرسله أسيرا الى السلطان، وبقي الامير التونسي معتقلا بتركيا الى أن مات.

تلقى أندري دوري الخبر غداة فرار درغوت، بخيبة كبرى، فقام بجولة حول الجزيرة، ثم استولى على بعض السفن التجارية التركية والعربية، وأرسل مبعوثا الى نابولي وصقلية، ليخبر ملكها بعدم حاجاته الى المساعدات. وبقي درغوت ذائع الصّيت في الأوساط التركية والمسيحية على السواء. إلا أن عاهل إسبانيا أمر الدوق ميدينة ـــ سيلي، خليفة الملك بصقلية، بالهجوم على طرابلس، للاقتصاص من العرب الذين يعرّضون المسيحيين إلى أشدّ المحن، انطلاقا من تلك المدينة.

الدوق ميدينة ـــ سيلي برح صقلية على رأس البحرية الايطالية، خلال شهر يناير عام 1560، ورابط بمالطا في انتظار تحسن أحوال البحر، ثم أبحر يوم 10 فبراير، ووصل الى جزيرة قرقنّة. إلا أن الرياح غيرت اتجاهها وبدا لقائد القوات البحرية أن السفن لم تستطيع الابحار إلى الجنوب، عندها دنا شيئاً ما من شواطىء جربة ورسّى سفينته في موقع آمن، وطلب من بقية الوحدات أن تحدو حدوه لكن كان للسفن الصغرى خصاص بالماء، واعتبر المسيحيون أنه من السهل بمكان، أن يتوجهوا إلى خليج بوغرارة، جنوب القنطرة للتزود به. كانت الأحوال الجوية رديئة، واضطر الدوق ميدينة ـــ سيلي وبعض مرافقيه، إلى قضاء الليل في برج قريب من القنطرة. وفي الغد، رجع الدوق إلى خليج بوغرارة، وأنزل جميع الجنود الى البر للتزود بالماء، غير أن بعض الضباط أعربوا عن تخوفاتهم من هجوم مفاجىء عليهم. وتفادياً لكل خطر من هذا القبيل، تشكل فيلقا منهم وحط بمرتفعات تبعد بمائة خطوة عن البحر.

توجه نحو الآبار ما يقرب من ثلاثة آلاف جندي، لان عناصر الجيش الآخرين لم يصلوا بعد الى عين المكان. ولم تمرّ إلا دقائق حتى بعث من النخيل أعراب مسلحون، وهم يهللون ويكبرون كعادتهم، وقد أمر الدوق بعدم إطلاق النار، قبل التزود بالماء. إلا أن الاعراب اقتربوا جدا من المسيحيين، فأضحى من الضروري إطلاق النار عليهم، فردّوا بالمثل، واضطربت الكتائب المسيحية، فسحب أحد قواد النصارى وحداته، في حين، مضى الدوق يحث جنوده على التشبث بالنظام، وعاد الهدوء الى نصابه.

لكن في المساء، رأى المسيحيون أعدادا هامة من الرماة العرب تتوجه نحوهم، وعلموا أن القرصان درغوت كان مرابطا بالجزيرة بجيش يتألف من مائتي فارس تركي ومن ثمانمائة من المشاة، علاوة على عشرة آلاف أعرابي.

بدأ الهجوم على جناحي النصارى، لكنهم صمدوا وتوقف القتال بعد سبع ساعات على إثر انسحاب المهاجمين، وتمكن النصارى إذاك، من التزود بالماء، وأمست كتائب الطليعة خلفية، وكتائب الخلف تحتل مواقع الطليعة.

بلغ عدد الضحايا من بين النصارى سبعة قتلى وثلاثين جريحا، أما ضحايا العرب، فكان عددهم مائة وخمسين، بين جريح وقتيل. وفي الليل، انسحبت القوات المسيحية في نظام وتوجهت الى جربة.

غداة ذلك اليوم، أطلت على مشارف القنطرة، ثمانية سفن حربية، منها أربعة لدوق فلورانسا، واثنتان لإمارة موناكو، وواحدة لمملكة صقلي، والثامنة لأندري دوري، ونزل بالبرّ بعض الضباط وجنودهم، وأخذوا يتناقشون بشدة في موضوع لمن ستكون باكورة الشرف في القتال، فعمّت الفوضى صفوفهم. بينما هم على هذه الحال، إذا بالمسلمين يباغتونهم بهجوم مفاجىء وعنيف، فقتلوا منهم وأسروا أكثر من ثمانين جندياً، من بينهم خمسة ضباط إسبانيين.

انتاب الدوق حزن عميق بسبب فقدان جنوده، وتألم لوقوع الضباط الاسبانيين في الأسر فأرسل عيونا استطلاعية الى جربة لينقلوا له أخبارها، فعلم أن درغوت كان هناك، وأنه ترك بعض الاتراك بالقلعة، قبل أن يتوجه إلى طرابلس، لقطع الطريق على السفن المسيحية التي تموّن النصارى بما يحتاجون إليه بالمنطقة، وقد استولى على بعض المراكب المسيحية وأسر ركابها.

كان الجو رديئاً، ومضت رياح قوية تهب في البحر، وأضحى أندري دوري على أسوء حال، وتفشت الامراض في صفوف الجنود، فرأى الدوق أن الحكمة

تقتضي عدم مواصلة الطريق الى طرابلس، وإرجاء العملية الى وقت مناسب، لا سيما وأن أمير القيروان الذي وعد النصارى بتعزيز صفوفهم، لم يظهر لحد ذلك الوقت. كل هذه العوامل تظافرت لاقناع الدوق بالعدول عن غزو طرابلس، وبضرورة احتلال جربة غير البعيدة من قواعده.

والجدير بالذكر أن أمير القيروان انتظر مدة طويلة قدوم الجيوش المسيحية بشواطيء إقليمه، لكنه ملّ الانتظار وانسحب الى القيروان.

وجد الدوق بعد العملاء العرب الذين عرضوا عليه خدماتهم المتمثلة في تجنيد أربعمائة فارس لحراسة الممرّات المؤدية الى جربة، مقابل مكافأة مالية. وهكذا أبحرت القوات المسيحية باكرا صباح اليوم العاشر من شهر مارس، ووصلت ليلا إلى عرض القلعة، وبقيت راسية أمامها أربعة أيام لم تستطع خلالها أن تدنو من البرّ، نظرا لهيجان البحر.

عندما هدأت العاصفة، نزل الجنود في مكان يسمى جيغري، واعتبارا لكثرة البحيرات بعين المكان، أقاموا جسرا خشبيا ونزلوا الى البرّ، ثم تكتلوا حسب جنسياتهم، وتمت الترتيبات في السابع من شهر مارس.

لم يظهر للمسيحيين أي عربي بالمنطقة، لكن وفد عليهم في نفس اليوم رسولان من شيخ الجزيرة، المدعو مسعود، ليطلعاهم أن الشيخ قدم يومه من تونس، وأن أهالي الجزيرة بايعوه ليكون ملكاً عليهم، وأن الأتراك تنازلوا له عن القصر الواقع بالقلعة، وأنه يدين بالولاء لملك إسبانيا، ويلتمس من الجيوش المسيحية أن تبرح الجزيرة وأن تتوجه الى خليج القنطرة ومنه الى طرابلس وأنه مستعد لتزويدهم بالمؤونة.

استمع الدوق باهتمام الى كلام المبعوثين، لكنه أعرب لهما عن عدم رضاه لانه لو تلقى هذه المعلومات قبل إنزال الجنود، لاستجاب لطلب الشيخ وبما أن الجنود يوجدون بالبرّ، فإنهم سيواصلون زحفهم حتى يصلوا مكانا فيه الماء الصالح للشرب، وعندها، يمكن الدخول في محادثات مع ملك الجزيرة.

بعد يوم من ذلك، زحفت الجيوش المسيحية نحو مكان يسمى أسدروم، يبعد عن القلعة بأقل من فرسخين، وبه أربع عشرة بئرا. قام بعض عناصر الجيش باستكشاف الآبار، فوجدوها مهدمة، فأصلحوها.

عاد المبعوثان لدى الدوق، وأخبراه بأن الشيخ يرغب في اللقاء به على عجل، لكن الدوق أخبرهما بأنه يجب تنصيب الخيم قبل ذلك، وتهييء خيمة لائقة بمقام الشيخ. نقل المبعوثان الخبر إلى الشيخ، ثم عادا مرة أخرى وقالا للدوق إن الشيخ يريده في أمر هام وأن عليه أن يتقدم نصف المسافة بفارسين، وسيفعل الشيخ مثله للقاء به، فرد الدوق المبعوثين قائلا بأنه ينبغي للشيخ أن يزوره متى شاء، مادام معلنا عن ولاءه لعاهل إسبانيا.

لم يكد المبعوثان يختفيان وراء النخيل الذي كان على بعد ميل من هناك، حتى طفقا يصرخان كعادة العرب، وانبثقت أعداد هائلة من الأعراب كانوا مختبئين في عين المكان واصطفوا في شكل هلال للقتال. عندها، قام الدوق بترتيب جنوده وأعدهم للمعركة، ثم أخذوا يزحفون في اتجاه الشرق، في أرض عراء، البحر على يسارهم، والنخيل على يمينهم.

كانت كتائب «فرسان مالطا»[20] في مقدمة الجيش، يقودهم ضابط سام بدرجة لواء، ومعهم بعض قطع المدفعية، ويأتي من خلفهم الجنود الألمان، تتبعهم فرقتان فرنسيتان كانتا في خدمة ملك إسبانيا، ومن ورائهما، كانت الوحدات الإيطالية بمدافعها، بينما كان الإسبان يشكلون الكتائب الخلفية ببنادقها ومدافعها. وكان يتقدم هذا الجيش كله، فرق يقودها على اليمين الضابط برونا، وعلى اليسار، الضابط دون لويس أزوريو.

أمر الدوق هذه القوات بالتوقف، فوقف «فرسان مالطا» بنجانب الآبار، ودنا الإطاليون على اليسار، والإسبان على اليمين. كانت تمتد على يسار هذه القوات، سلسلة من الصخور غير عالية، تتوغل في البحر وكانت بعض التلال المتفرقة تحادي القلعة.

انتصب دون لويس اوزوريو بفرقته على إحدى التلال، وعلى عدة أمتار منه، انتصب أربعون رماة على تل آخر. وما هي إلا لحظات حتى بدأ الأعراب يطلقون عليهم النار وهم يصرخون، لكن الدوق أمر جنوده بعدم الرد عليهم، مبينا لقواته أن هدفه هو إجلاء الاتراك عن المنطقة، دون إصابة أهلها بالأذى. احتدمت المعركة، واشتد دوي الرصاص. كان الأعراب يعدون بعشرة آلاف جندي، فأرغموا الرماة

(20) «فرسان مالطا» طائفة دينية مسيحية، تعرف كذلك بطائفة القديس يحيى القدسي، تأسست عام 1070، ولجأت إلى جزيرة رودس عام 1309، بعد استيلاء الاتراك على مالطا، ثم عادوا الى مالطا عام 1530 بمساعدة من الاتراك، وعلى إثر انهزام المسيحيين في طرابلس (المترجم).

المسيحيين على الانسحاب، وقد مات منهم بعض العناصر، مقابل عدد أكثر في صفوف الأعراب. إلا أن الأعراب واصلوا القتال إلى معسكر النصارى، فازدادت المعركة ضراوة، وكانت الغلبة للنصارى، وتراجع الأعراب، وقرر دون لويس عدم مطاردتهم، ثم أعاد ترتيب قواته التي فقدت بعض القتلى والجرحى، ورمم تحصينات المعسكر، وتوقفت العمليات الحربية عشرة أيام، تمكن المسيحيون خلالها من التزود بالماء وتنظيف سفنهم.

بينما كان الجنود المسيحيون متجمعين في معسكرهم، أقبل عليهم مبعوث من شيخ الجزيرة، وأخبرهم بأنهم لن يعتبروا أعداء إذا رغبوا في الاستمرار بموقعهم دون التحرك، أما إذا كانت رغبتهم هي الاستيلاء على القلعة، فإن الشيخ يستسمحهم إعطاءه مهلة يوم، حتى يتمكن من إجلاء النساء والأطفال الموجودين بالقصر. وافق الدوق على طلب الشيخ، وأرسل بعد يومين من ذلك، فرقة من الجنود لتطلع على حالة القصر ثم توجه إليه بنفسه، ولما عاد الى المعسكر، أمر بضرب الحصار على الميناء لمنع الأتراك المقيمين بالجزيرة من الفرار. وتقاسمت مختلف الوحدات المسيحية مهام تشييد تحصينات على مقربة من القلعة والميناء.

أثناء انشغال النصارى بهذه الأعمال، أبحرت من تركيا وحدات حربية يقودها بيالي باشا، بطلب من درغوت. عرّجت هذه الوحدات على مالطا وقرقنة وصفاقس حيث استقت آخر المعلومات الواردة من جربة.

بعث الأتراك سفينتين استطلاعيتين الى المنطقة وبعدما نقلتا إليهم أن كل الجيوش المسيحية توجد بخليج القنطرة للتزود بالماء، تركوا السفن المسيحية تمرّ، وهم مستترون في جهات أخرى، ثم رسّوا سفنهم في الموقع الذي برحه المسيحيون وقضوا فيه الليل. ولما طلعت شمس اليوم الموالي رأوا جيمع الوحدات المسيحية في عرض البحر، وقد علم النصارى أن الأتراك يتأهبون لمهاجمتهم بالجزيرة. أما الداعي الى ابتعاد السفن عن جربة، فهو أن قواد الجيش لم يرغبوا في قتال الأتراك برّا، لكنهم تركوا في الجزيرة، الكتائب الإسبانية مع قائدها دون الفارو، وأبحروا في جو من الفوضى. ثم شعروا بالذعر وعمتهم البلبلة عندما تراأت لهم المراكب التركية التي دنت منهم بسهولة واستولت على سبعة وثلاثين قطعة بحرية بجنودها وركّابها، وعلى التحصينات الخارجية التي أقيمت حول القلعة. بعد ذلك، استقطب اهتمامهم، تسع سفن احتمت وراء الصخور، وارتبطت كل واحدة بأخرى بالسلاسل، وشكلت حاجزا عاق حرية تنقل السفن التركية، وبدأ الجانبان يتراشقان بنار

المدفعية والرماية، وفقد الطرفان عددا كبيرا من الضباط السامين، والمراكب الصغيرة، وألفا من الجنود، وعددا من الشخصيات البارزة.

تمكن المسيحيون المحاصرون في القلعة، من إحداث ثغرة في القوات التركية، وتسربوا الى أحد معسكراتها فغنموا ذخائر هامة، بعدما قتلوا عددا من الأتراك. إلا أن العدو أعاد السيطرة على مواقعه وشدّد الحصار على بقية جنود الوحدات النصرانية حتى لمسهم النصب واللغوب، والجوع والعطش، وراحوا يشربون ماء البحر بعد تقتيره، وهمّ الكثيرون منهم بالاستسلام الى الأتراك. إلا أن دون الفارو قررّ أن يموت بطلا أو أن ينتصر، فخرج الى المعركة، وانهزمت كتائبه ووقع هو في قبضة الأتراك.

غداة ذلك اليوم، استسلم النصارى كلهم للباشا، فأسرهم وحطم جميع التحصينات باستثناء البرج، وأشرف على ترتيبات إقامة درغوت وجنوده بالجزيرة، ثم أبحر الى إسطامبول، معرجا على طرابلس التي لقي فيها استقبالا رائعا، فعرض على أهلها من كان في موكبه من أبرز الأسرى، مثل دون الفارو، دون سانشي، دون برانغيل وجماعة هامة من نبلاء فرنسا وإسبانيا وإيطاليا ومن لفّ لفّهم.

الفصل الثاني والأربعون
عن مدينة زوارة الواقعة بإقليم طرابلس

إنها مدينة شاطئية تقع على مسافة سبعة عشر فرسخا جنوب جزيرة جربة، تحيط بها أسوار قبيحة المنظر، يسكنها أناس فقراء، حرفتهم إنتاج الجير والجبس اللذين يبيعونهما بطرابلس، أو يمارسون الصيد البحري أو يشاركون في عمليات القرصنة التي يقوم بها الأتراك.

أسس الأفارقة قديما بلدة زوارة وظلت مزدهرة بفضل مينائها الذي كانت تتوافد عليه السفن التجارية من كل مكان. وحسب بطليموس، فإنها تقع على اثنين وأربعين درجة وخمس عشرة دقيقة من خط الطول، وإحدى وثلاثين درجة وثلاثين دقيقة من خط العرض ويسميها بوزيدون. أصبحت هذه المدينة خرابا لأول مرة في تاريخها، على أيدي جنود عقبة بن نافع، وتعرضت بعد ذلك لكثير من عمليات الدمار. يسيطر عليها الأتراك اليوم، لكنهم أثقلوا كاهل سكانها بالضرائب حتى أصبحوا بؤساء وتحولت هي الى بلدة قبيحة.

الفصل الثالث والأربعون

لبــدة

تحيط أسوار عالية متينة مبنية من الحجر الضخم بمدينة لبدة التي يعطيها الناس أسماء مختلفة ويوقعها بطليموس على إحدى وأربعين درجة وثلاثين دقيقة من خط الطول، وإحدى وثلاثين درجة وأربعين دقيقة من خط العرض. بناها الرومان ويروي المؤرخون أنها كانت قديماً جد آهلة بالسكان وأن السفن الأوربية كانت تقيم بها رواجا تجارياً هاماً، فأصابها الخراب بعد دخول جيوش عقبة إلى افريقيا لاول مرة. وقد أعيد تعميرها بعد ذلك، وظلت تابعة لنفوذ أمير القيروان، إلى أن أتى الى افريقيا، جيش عربي آخر لاخماد نار الفتنة التي أشعلها أحد المتمردين بالمدينة، فدمرها عن آخرها، وعلى أنقاضها، بنى مدينة طرابلس الحالية، ولا زالت بعض آثار لبدة قائمة.

الفصل الرابع والأربعون

طرابلس

يذهب بعض المؤرخين إلى أن بناء طرابلس القديمة يرجع إلى الرومان، في حين يزعم آخرون أن الفنيقيين هم الذين بنوها، تخليدا لذكرى مدينة تحمل نفس الاسم، كانت توجد بالشام.

ظلت طرابلس العتيقة خاضعة للوندال حتى جاء العرب في عهد الخليفة عمر بن الخطاب، وضربوا حولها حصارا شديدا طال ستة أشهر، فاضط أهلها الى هجرها والنزوح إلى قرطاج، فدخلها العرب بجهالة ونهبوها. وبهذا الصدد، يؤكد المؤرخ الافرقي ابن الرقيق، أن أغلبية السكان لقوا حتفهم في معاركهم ضد العرب، وأن الذين نجوا من الموت نقلوا أسرى أو عبيدا، الى مصر والجزيرة العربي.

بعد حين من الدهر، اختار الافريقيون سهلا رمليا وبنوا فيه مدينة جديدة أطلقوا عليها اسم طرابلس، وأحاطوها بأسوار عالية وجميلة ولكنها هشة. يوجد بأرباض المدينة الجديدة، واحات وافرة النخيل، إلا أن تربتها لا تنتج شعيرا ولا قمحا، فظل الخبز بسبب ذلك، يباع بثمن غال، وكثيرا ما كان يفتقد في الاسواق.

يروي المؤرخون أن البراري الواقعة جنوب طرابلس، كانت قديما خصبة، تنتج القمح والشعير، إلا أن مياه البحر غمرتها كما غمرت غيرها من أراضي الساحل التونسي، لان سطحها كان منخفضا بالنسبة لمستوى البحر. ويضيف هؤلاء المؤرخون قائلين إن الاراضي الرملية الموجودة حاليا بجوار طرابلس، ظلت فلاحية خلال حقبات من الدهر، وأن طرابلس القديمة كانت تقع شمال طرابلس الحديثة، غير أن البحر مضى ينقصها من أطرافها مع تعاقب الأيام، ولا غرابة أن نشاهد اليوم بقايا أبنيتها تحت مياه البحر.

باتت طرابلس تتسم في الماضي، برواج تجاري هام، ترجع عوامله الى متاخمتها لنوميديا وبلاد تونس، كما أنها تنفرد فيما كانت عليه من ازدهار، بين جميع المواقع الحضرية الموجودة على الشواطىء الممتدة بينها وبين مدينة الاسكندرية. كانت طرابلس أهم قبلة يتوجه اليها التجار القادمون من مالطا والبندقية وصقلية. مساجدها الجميلة ومعاهدها العلمية وفنادقها العديدة وساحاتها العمومية وأزقتها وشوارعها، جعلت منها مدينة منسقة التعمير، تفوق مدينة تونس بهجة ورونقا. غير انها كانت عديمة الآبار والعيون، وكان أهاليها يسقون من ماء الأمطار التي أمست تتجمع في الصهاريج.

من الوجهة السياسية، كانت طرابلس تنضوي تحت عرش ملك تونس، ثم انتقلت الى عرش ملك فاس، ولبثت على هذه الحال، الى أن تنطع أميرها، وطغى، فتمرد عليه السكان وأطاحوا به، ثم بايعوا مكانه أحد أشراف المدينة[21]، وأناطوا به مهمة تدبير أموالها وتأمين سلامة كنوزها، فحكم المدينة بنزاهة وتواضع وحكمة. إلا أن الأمير المخلوع، أوفد إليه جيشا يقوده أحد ثقاته، فتآمر أهل المدينة على هذا القائد العسكري، ودسوا له السم في طعامه، فلقي مصرعه، ورجع الجيش يجرّ ذيول الفشل والخيبة. إلا أن ملك فاس أبى أن يتّعظ، فعين على طرابلس أميرا آخر، غير أن السكان دبروا إليه مؤامرة على يدي أحد أصهاره، فقتله، وأجمع السكان على مبايعة أحد الضباط كان قد انعزل عن الدنيا قبل ذلك، وعكف على العبادة والتصوف، يسمى أبا بكر. ومضى هذا الاخير قابضا بمقاليد الحكم بطرابلس الى أن هوت في أيادي النصارى بقيادة الكونت بيدرو النفاري.

---

(21) يسمى أبا كامن.

في سياق وصفنا لمدينة باجة، قلنا إن الكونت بيدرو قرّر أن يجلي جيشه الذي كان يرابط بها، بسبب وباء الطاعون الذي انتشر بها، وبعدما برحها، ذهب لضرب الحصار على طرابلس، وأوفد في نفس الوقت، الضابط دييغو دوفلانسيا الى مملكة نابولي لجمع المواد الغذائية والعتاد الحربي. وكانت الجيوش التي يقودها الكونت تتألف من أكثر من ستة عشر ألف جندي، رابطت كلها بضعة أيام في جزيرة غوزة القريبة من صقلية، في انتظار دييغو دوفلانسيا. وما أن عاد هذا الأخير من مهمته، حتى أمر الكونت بالإبحار نحو طرابلس.

تألف أسطول النصارى من خمسين مركبا شراعيا ومرّ بمالطا، ومن هناك، شاهد الكونت، كوكبا سيارا يتجه من الغرب الى الجنوب، فتفاءل به وواصل الطريق ثم أوقف السفن على أربعة فراسخ من سواحل إفريقيا. وبما أن البحر لم يكن عميقا بتلك المنطقة، بعث ضابطا بندقيا يدعى فيونيلو، في مهمة استطلاعية، قرب الميناء والشواطىء.

اجتاز الضابط البندقي مشارف المدينة بحرا، ودنا كثيرا من الميناء، فعرف السكان أنها سفينةلأعدائهم، وقد علموا قبل ذلك، ما مضى يبيّته الكونت لغزو مدينتهم، فانطلقوا يحشدون الجنود في جهات مختلفة ويقيمون الحواجز ويدعّمون التحصينات ويستعدّون للطوارئ، خصوصا وأن بعض التجار الجنويين نقلوا اليهم أنباء الاستعدادات الجارية في إيطاليا وفرنسا وإسبانيا وصقلية لاحتلال المدينة

لم يمض يوم حتى بدأت القوات المسيحية تنزل بالميناء، فواجهها المسلمون بطلقات نيرانهم، لكن المدمّرات البحرية اقتربت من المدينة وأخذت تقصفها بشدة حتى أخمدت أجهزة دفاعها. على إثر ذلك استولى الخوف على المسلمين وصاروا يفرون في كل اتجاه، غير أن الرماة المسيحين تصدوا لهم في عدة أماكن.

ثم قسّم الكونت القوات الى أربع فرق تتألف الواحدة منها من آلفين جندي، ووعد قواد وجنود كل فرقة بأنهم سينالون نصيبهم من الأسرى والعبيد والغنائم الأخرى.

وبدأ الهجوم على المدينة حوالي الساعة التاسعة صباحا، شارك فيه من جانب النصارى ما يزيد عن أحد عشر ألف جندي، غير أن السكان استبسلوا في الدفاع عن المدينة، فكان الجرحى والقتلى يتساقطون بكثرة من الجانبين. في خضمّ المعركة، تسلّقت أفواج من المسيحيين أسوار المدينة، لكن الأهالي كانوا هم

بالمرصاد، فذهبوا يحصدونهم حصدا، وقتلوا منهم عددا هامّا من الشخصيات وكبار الجنود.

طال القتال، وأصاب العياء هؤلاء وأولائك، وأخذت المعارك تتوقف وحدها. كان الجو حارّا، والعطش شديدا، فتمكن أصحابنا من إطفاء عطشهم بماء الصهاريج التي كانت خارج الأسوار. وفجأة، استطاع الجنود أن يفتحوا أحد أبواب المدينة، فدخل إليها المسيحيون، والتجأ الأمير المتصوف الى القصر، بمعية أهله وحاشيته، واعتصم آخرون بالمساجد، وتحصن بعض المدافعين في الأبراج حيث واصلوا المقاومة بشجاعة كبرى. خلال الليل، اقتحم المسيحيون المساجد، وقتلوا أكثر من ألفين من المسلمين، واستسلم حماة الأبراج.

غنم النصارى العديد من الأسرى، وكميات هائلة من الذهب والفضة والأحجار الكريمة، واستسلم الأمير وحاشيته مع الحصول على الوعد بالحفاظ على حياته. لكن عندما دخل الكونت بيدرو الى القصر، أسر الشيخ وأسرته، واستولى على ما فيه من كنوز.

في هذه المعارك، فتك النصارى بأكثر من ستة آلاف مسلم، ثم رموا بعض جثتهم في آبار المساجد، وبعضها في البحر، وأحرقوا البعض الآخر، ثم أسروا أكثر من خمس عشرة ألف نسمة، وحرروا مائة وثمانين إيطاليا، ووجدوا في المدينة خيرات هامة، مع العلم أن الأعراب نقلوا الى جهات أخرى، حمولة ما يزيد عن خمسة آلاف رأس من الإبل.

أصاب المدينة الدمار والخراب، ولم يبق منها قائما، سوى القصر الذي حصّنه المسيحيون، كما رمّموا قصرا صغيرا آخر كان على مقربة من الميناء، وتركوا فيه جالية هامة مع فرقة من الرماة وفرقة من مدفعية الميدان.

وفي عام 1528، أمر الأمير كارلوس بإطلاق سراح الشيخ الذي كان يسير الحكم بالمدينة، ثم دعاه الى العودة اليها، وتعميرها بسكان من الدول المسيحية المتحالفة معه، ولا سيما من أفراد طائفة القديس يوحنا، المعروفة «بفرسان مالطا»، والذين انتزع منهم الأتراك جزيرة رودس، عام 1523. بعد ذلك، أصبح أمر طرابلس مسندا الى أفراد هذه الطائفة المسيحية، فاستأجروا جيشا من المرتزقة للدفاع عنها لكي تبقى تحت سيادتهم.

كانت طرابلس برونقها وذخائرها تنافس مدينة تونس. ويؤكد المراقبون أن تونس كانت تضاهي طرابلس بعمرانها وسكانها، في حين، كانت طرابلس تتباهى

بكنوزها، وذهبها وفضتها وأحجارها، التي تجمعت لدى سكانها بفضل الرواج التجاري الذي كان ينعشها. كان بطرابلس أكثر من مائة وخمسين معملا للنسيج، تصنع فيها الثياب الحريرية وملابس البحارة، وأقمشة مختلفة، وكانت تباع في المدينة مختلف أنواع التوابل والعطور. كانت أحواضها البحرية مجهزة لاصلاح السفن وصناعتها. وفي عرض بحرها، كان الكونت يحجز عدة سفن تجارية تركية محملة بأنفس البضائع وأغناها. وفي طرابلس، خطر ببال الكونت، أن يقوم بغزو جربة، ذلك الغزو الذي انقلب الى كارثة شنيعة بالنسبة للمسيحين.

على إثر استيلاء الامبراطور على مدينة تونس، جهز السلطان سليمان عام 1551 أسطولا وأسند قيادته الى سنان باشا. ومضت هذه القوات البحرية تقوم بعمليات النهب على الشواطىء الإيطالية، انتقاما من المسيحين الذين نقضوا معاهدة الهدنة باحتلالهم تونس.

كان درغوت وصالح الرايس يوجدان ضمن هذه القوات، فأمرا بإحراق قصر بصقلية ونهب الجزيرة غوزة، ثم توجها إلى طرابلس. وفي يوم 4 غشت 1551، نزلت القوات التركية برأس أنجيل قرب الميناء وبما أن طرابلس كانت تحت سيادة فرسان مالطا، وكان حاكمها فرنسيا تابعا لنفس الطائفة، يسمى كامباري، وقد زوده الامبراطور بالجيش والعتاد، فبعث اليه سنان باشا يطلب منه الاستسلام مقابل سلامة حياته وحياة المسيحيين الآخرين. لكن كامبري ردّ على التركي بالرفض، بدعوى أن الرئيس الأكبر[22] للطائفة هو الذي نصّبه قائدا وحاكما على المدينة.

أمام تصلب كامباري، بدأ سنان باشا يقصف المواقع المسيحية، وألحق بها أضرارا جسيمة بعد يومين. وفكر كامباري في الاستسلام، لكن رفقاءه منعوه من ذلك، مادامت في نظرهم، أسوار المدينة ثابتة، والنصارى يتوفرون على مدخرات هامة من العتاد الحربي والمواد الغذائية، وجنودهم في حالة جسمية ومعنوية جيدة. لكن كامباري لم يسايرهم رأيهم أمام ضغط الأتراك على المدينة وأصر على التفاوض معهم. ويروي بعض النقّاد أن أحد النبلاء الفرنسيين إسمه أرامون، كان يوجد ضمن حاشية سنان باشا، وكان وسيطا سريا بين قائد القوات التركي وكامباري،

(22) يعني كارلوس الخامس، إمبراطور إسبانيا (المترجم).

وأقنعه بالتفاوض من أجل تسليم المدينة، فحدد معه شروط الاستسلام، وتم كل ذلك في ظل الكتمان.

عندما دخل الأتراك الى المدينة التي استسلمت لهم، لم يقتلوا أحدا من النصارى، لكنهم جردوهم من ممتلكاتهم وأمتعتهم، ولم يمسوا بأذى الفرنسيين التابعين لطائفة القديس يوحنا، وعاملوهم بالحسنى، وسهروا على تنظيم نقلهم الى مالطا على متن سفينتين من أسطولهم، ومعهم كامباري، ثم رافقوهم حتى وصلوا الى الجزيرة.

بعد ذلك، وجه سنان باشا نداء الى أعضاء الطائفة الذين لبثوا معتصمين بالقصر الثاني، يدعوهم الى الجلاء عنه، لكنهم ردوا عليه قائلين إنهم إسبان، يفضلون الموت على الحياة في ظل العبودية، وأنهم لن يسلموا له القصر إلا إذا وعدهم أمام جميع قواد الجيش، بأنه سيسهر على نقلهم الى مالطا، بأسلحتهم وأمتعتهم. فاستجاب سنان لطلبهم، ورحل أولئك المسيحيون الى مالطا، دون أن يصابوا بأي سوء.

تسلم أمير[23] تاجورة مفاتيح القصرين من سنان باشا وتعهد بالحفاظ على أمن وسلامة طرابلس، باسم السلطان سليمان الأعظم، الخليفة العثماني، كما تعهد بإسناد أمرها الى خلفه الذي قد يعين لهذه المهمة. وبعد ذلك، برح سنان باشا المدينة.

وهكذا تسلم العرب مدينة طرابلس التي باتت في ملك المسيحيين أربعين سنة وعدة أيام، أي منذ احتلالها من طرف الكونت بيدرو النفاري. وزاد رغـوت[24] في تعزيز تحصيناتها، إذ بنى بُرجا منيعا بالقرب من الميناء، وبرجا آخر بداخلها ودعم الأسوار. منذ ذلك العهد، والأتراك يرابطون بها، والأعراب يستوطنونها.

يسمى بتوليموس مدينة طرابلس «لبيدة الكبيرة» وحدد موقعها على خط الطول بإحدى وأربعين درجة وخمس وعشرين دقيقة، وعلى خط العرض بإحدى وثلاثين درجة وأربعين دقيقة.

---

(23) أمير تاجورة، هوالعثماني مرتجى الذي تولى ولاية طرابلس بعد إجلاء النصارى عنها. (المترجم)

(24) أسندت ولاية طرابلس الى درغوت، بعد وفاة مرتجى، من عام 1353 الى عام 1555، وهي السنة التي توفي فيها درغوت، أثناء عملية إنزال القوات التركية بمالطا. يوجد ضريح درغوت بطرابلس، وقد شيد حوله الوالي العثماني اسكندر باشا، مسجدا يعرف باسم «جامع سيدي درغوت». وكان ذلك عام 1602. (المترجم)

الفصل الخامس والاربعون
قصر أحمد

إنها مدينة صغيرة بناها على الشاطىء عربي يسمى أحمد، وتقع شرق طرابلس، على مسافة فرسخ واحد منها. تم بناء هذا الموقع بعد تدمير طرابلس القديمة. كانت آهلية بالسكان، لكن الأعراب خرّبوها، ولم يبق منها إلا بعض آثار أسوارها وبيوتها. تسمى اليوم الصهريج

الفصل السادس والأربعون
سديقة

بناها المسلمون الاولون الذين حطوا بإفريقيا. كانت قديما آهلة بالسكان، لكن الأعراب ألحقوا بها أضرارا جسيمة، ولم يقطن بها اليوم إلا نفر من الصيادين الفقراء، وقد أعلنوا عن ولائهم لحكام طرابلس. وتقع هذه المدينة شرق قصر أحمد، ويقول بتوليموس أنها توجد على خط الطول بثلاث وأربعين درجة وخمس وعشرين ثانية، وعلى خط العرض بإحدى وثلاثين درجة ويطلق عليها إسم تريري.

الفصل السابع والأربعون
قصر حسان

لم يبق من هذه المدينة الواقعة على جانب البحر، شرق طرابلس، إلا بعض الآثار، يقول بطليموس إنها تقع على خط الطول بأربعين درجة وأربعين دقيقة، وعلى خط العرض بإحدى وثلاثين درجة، وكان يعرف باسم براسي. بنى هذا القصر، جيش عقبة، بعدما قام بتحطيم طرابلس القديمة، وذلك لأن المسلمين، بعد غزوهم لهذه البلاد التي مضى الرومان والوندال ينازعونهم ملكيتها، اهتموا بتأمين سلامتها فشيدوا على سواحلها عدة مواقع محصنة للدفاع عنها. لكن العرب الذين قدموا من بعدهم، في غزوة ثانية، نهبوها. أما اليوم، فإننا نشاهد آثار منازلها القديمة وبقايا أسوارها، ولا يسكنها إلا نفر من الفقراء، يتعاطون الى الأعمال الفلاحية، في الحقول المجاورة.

الفصل الثامن والأربعون
سرمان

لا تحيط أسوار بهذه المدينة الكبيرة التي تعج بالسكان، والتي تقع على مقربة من طرابلس القديمة. سكانها برابر، ينتمون الى قبائل هوارة. ويوجد بها عدد كبير من النخل الجيد، لكن لا ينبت حولها قمح ولا شعير، لانها تقع في أرض رملية. إنها تابعة لولاية طرابلس.

الفصل التاسع والأربعون
الغار

إنها قرية شاطئية مفتوحة، توجد قريبا من طرابلس. وتقع حسب بتوليموس، على خط الطول بثلاث وأربعين درجة وخمس وعشرين ثانية، وعلى خط العرض، بإحدى وثلاثين درجة وعشرين ثانية. سكانها برابر كانوا قديما تابعين لحاكم تاجورة، عندما كانت طرابلس في ملك النصارى. يوجد بجوارها، عدد كبير من النخل ذي التمر الجيد، وحقول تنتج الشعير، ويعيش سكانها بالصيد وبما تنتجه الارض.

الفصل الخمسون
زاوية بني يربوع

توجد هذه المدينة أيضا على مقربة من طرابلس، وبدون أسوار، يسكن فيها نفر من المرابطين النساك، يحيط بها كثير من النخل، ولا ينبت فيها إلا قليل من الشعير لأن تربتها ليست صالحة للفلاحة. كانت تحظى باحترام الجيوش الاسلامية، اعتبارا لسكانها المتدينين.

الفصل الواحد والخمسون
زنزور

مدينة ساحلية كبيرة توجد شرق طرابلس، على بعد أربعة فراسخ منها، ليس بها أسوار وتتميز بمعاملها المتخصصة في النسيج وبضواحيها الغنية بالتمر والرمان والسفرجل وفواكه أخرى، لكنها لا تنتج إلا قليلا من القمح والشعير. وعندما كان المسيحيون يملكون طرابلس، كان أهل زنزور يبيعون لهم منتوجاتهم، خصوصا يوم السوق.

الفصل الثاني والخمسون

عمروس

مدشر مفتوح يقع على مسافة فرسخين من طرابلس، داخل الأراضي، ويوجد به عدد كبير من النخل وينتج فواكه مختلفة كثيرة، وشيئا قليلا من الحبوب. كان سكانه يبيعون منتوجاتهم الى نصارى طرابلس.

الفصل الثالث والخمسون

تاجورة.

بادية شاسعة الأطراف، تبعد عن طرابلس شرقا بنحو أربعة فراسخ، فيها عدة قرى، وبساتين خضراء، ونخيل متمر. في جوف هذه البادية، يوجد مسجد كبير وقلعة محصنة بناها الأتراك في عهد حديث، وبها أيضا عدد من المنازل. ليست هذه البادية كلها صحراء قاحلة، ولكن يوجد في بعض ربوعها، نخيل جيد وأشجار مثمرة، ويتم سقيها بالماء المستخرج من الآبار بواسطة الناعورات.

عندما سقطت طرابلس في أيدي النصارى، لجأ العديد من سكانها المدنيين الى تاجورة ، ولما تمكن ضابط تركي، اسمه مرتجى، من بسط نفوذه على البادية، أصبح يطلق على نفسه لقب الملك، ومضى يشن هجمات، بين الفينة والأخرى، على غزاة طرابلس. لذلك، عندما انتزع سنان باشا طرابلس من النصارى، نصبه عليها واليًا مدى الحياة.

إن أهل تاجورة شداد غلاظ، اللصوصية حرفتهم الأساسية، يسكنون في أكواخ تحت النخيل، ويقتاتون بدقيق الشعير والبازين، وباتوا تابعين لوالي طرابلس منذ وفاة مرتجى، ويسكن أيضا بقرى المنطقة، عدد هام من الفرسان والرماة البواسل الذين ظهرت شجاعتهم، في الغارات العنيفة التي كانوا يشنونها على غزاة طرابلس. لكنهم ثاروا على مرتجى عام 1567[25]، لأنهم رفضوا مواصلة دفع الجبايات التي أثقلت كواهلهم. وعلى إثر تمرّدهم، قام مرتجى بحملة لردعهم، فاستسلموا، وحكم عليهم بإتاوة هامة، أعادتهم إلى احترام سلطته.

---

(25) وقع خطأ في التاريخ عند مرمول، لأن مرتجى توفي قبل ذلك. (المترجم)

الفصل الرابع والخمسون

مسلاتة

إقليم يقع على شاطىء البحر، يبعد عن طرابلس شرقا باثني عشر فرسخا. كان الأولون يسمونه السيرت الكبرى، وحسب بطليموس، فإن أهم مدينة فيه، كانت هي كالوم مكولة، التي تقع على خط الطول بثلاث وأربعين درجة، وعلى خط العرض بثلاثين درجة وخمس وأربعين دقيقة، والتي تسمى اليوم مسلة، وهي تابعة إداريا لطرابلس وخاضعة سياسيا الى ملك تونس، كانت مسلاتة تستقل بذاتها كلما تضعضعت سلطة ملوك تونس.

أهل هذا الإقليم أغنياء، لكثرة ما لديهم من النخيل وشجر الزيتون، وقراه(26) آهلة بالسكان، يوجد من بينهم أكثر من ستة آلاف مقاتل. كان يحكمهم شيخ فقيه، يقرر السلم والحرب، لكنهم أصبحوا اليوم خاضعين لنفوذ حاكم تركي. وبعد أن يمرّ الانسان بعسراتة، وهي آخر قرية في الاقليم، يجد على جانب البحر قرية السباق التي كان لها إسم آخر عند القدامى، ويجد كذلك قرية نون التي كان القرطاجيون يقيمون فيها حفلا دينيا.

يتساكن بشواطىء هذا الإقليم العرب والبرابر، وفي قلبه، توجد قرى ومنازل على حدود نوميديا.

الفصل الخامس والخمسون

مسراتة

رغم أن هذا الإقليم يعد من ملحقات طرابلس، وبالتالي تابعا لمملكة تونس، فإنه في الواقع قلما كان يدين بالطاعة لملوك تونس، الذين كانوا مرغمين على استعمال القوة لاستخلاص الخراج، زد على هذا أن الاقليم يبعد عن طرابلس شرقا بنحو ثلاث وثلاثين فرسخا، ويسكنه قوم ميالون إلى الشغب والقتال.

كان القدامى يسمون هذا الاقليم سيرنايك(27)، ويطلقون عليه أيضاً لقب بنتابوليس، أي ذوالمدن الخمس(28). تمتد مصراتة على طول شاطىءالبحرالمتوسط الذي

(26) حسب مترجم النص من الاسبانية الى الفرنسية، فإن القرى هي : اللرد، والسديق، وعسراته، وسكازمة وبئر غو.

(27) ويسمى اليوم عند الجغرافيين العرب : «برقة» (المترجم)

(28) وهي حسب المترجم الفرنسي : سيرنية، أبولونية، أبرولومايدة، أرسيونة. وأخيرا بيرنيس.

يسمى الشاطىء الليبي. توجد على الشاطىء، كل مراكزه الحضرية، وإذا انطلقنا من الغرب، نجد بلدة السودي التي يقول عنها بتوليموس أنها توجد على خط العرض بسبع وأربعين درجة وكانت تسمّى أنتوملاس، ثم تليها بلدة قنطرة الصابي أو الملاليح، ثم زانار أو ميناء ديارتي، ويلي بعده برج هيرقل، وقلعة كركور، ورأس تيجون، ثم أرض بريهي التي حددها بتوليموس على خط الطول بسبع وأربعين درجة وعلى خط العرض بإحدى وثلاثين درجة. أما إذا ابتعدنا عن هذا المركز ومشينا طوال الساحل الذي يسمى بنتابلوس، فسنجد بلدة البريقة أو بيرينيس التي سماها الأولون إسبيريد، ثم يأتي مصب نهر اللاطون الذي يسمى اليوم مليل، ثم توكرى، ثم بتوليموس، وتأتي بعدها زدرة، ثم لونغيفاري، ثم قصر أعراس، وأبولونية، وميناء بوناندر، وفورسيلي، وفاثار ورأس الزفير ثم درني التي تقع شرقا على حدود ليبيا المرمرية التي يسميها العرب صراط البريقة.

سكان هذا الاقليم كلهم أثرياء، ويتجرون مع النصارى، إذ يشترون منهم المنتوجات الأرورية ويروجونها عبر أقطار السودان مقايضة بالعبيد والمسك وسنور الزباد(29) التي يأخذها النصارى ويعرضونها في الأسواق التركية وتدر عليهم أرباحا هامة.

أهل مصراتة يمتازون بخشونتهم، ولديهم أكثر من عشرة آلاف مقاتل، بما فيهم برابر الجبل، ويعيشون باستمرار في حالة حرب مع جيرانهم العرب. لذلك ظلوا يحملون أسلحتهم على الدوام، تحسبا للطوارئ أو لتكريس استقلالهم عن سيطرة ملوك تونس وحكام طرابلس لكي لا يدفعوا إليهم الجبايات. وفي يومنا هذا، يدخلون في عداد رعايا الأتراك الذين يحتلون الشاطىء كلّه. في المناطق الداخلية، نجد مدنا مثل سيرين وأركيد وكيريدة ونابولي وعددا من المداشر.

الفصل السادس والخمسون

الطوارق

يستوطن هذا القوم من البرابر منطقة كبيرة يتجاوز محيطها عشرين فرسخا، وتقع في جوف البلاد، على تخوم نوميديا، وتتميز تربتها بخصوبة نسبية، ولئن كانت الأراضي رملية في معظمها. أما إنتاجها الفلاحي، فإنه يقتصر على القمح والتمر.

(29) حيوان وحشي يستعمل جلده فروا (المترجم).

الطوارق أناس معروفون بخشونتهم وغلظتهم، يقطنون أكواخا من الجريد أو مصنوعة من أغصان الأشجار، وينتسبون الى الفدرالية القبائلية التي ينتمي إليها أهل مسلاتة. سياسيا، ظلوا تابعين لسلطة الحاكم التركي مرتجى، ويجب الإشارة الى أن تمردهم على السلطة المتحكمة فيهم، تزامنت مع ثورة أهل تاجورة، عام 1567، حتى أن كلا من محمد باي والي الاسكندرية وشالوك والي طرابلس، حاربا في آن واحد، هؤلاء وأولئك العصاة، لصدهم عن غيّهم. إلا أن العمليات الحربية استغرقت أكثر من أربعين يوما، لعدم معرفة الجنود بتضاريس المنطقة، وانتهت باستسلام الطوارق مع قبولهم أداء إتاوة قدرها ثلاثة آلاف مثقال. يعتبر هذا الاجراء عقوبة قاسية نظرا لأحوالهم الإقتصادية المزرية وظروفهم الرديئة.

الفصل السابع والخمسون

جبل بني يفرن وجبل نفوسة

هذان جبلان كبيران، يتاخمان إقليم صفاقس وجربة، داخل البلاد بعشرة فراسخ، من جهة الجنوب، ويوجد فاصل بينهما وبين صحراء نوميدياه قمتاهما عاليتان، والجو السائد فيهما بارد، جوانبهما صلداء والمنطقة المجاورة لهما قاحلة لا تنتج إلا قليلا من الحبوب. سكان الجبلين، برابر مجبولون على حب العمليات الحربية ويتسمون بالشجاعة وباستعدادهم للقيام بأي شيء، يشايعون المذهب الحنبلي، مثلهم كمثل سكان جربة، ويتعاطفون مع الدولة الصفوية الحاكمة ببلاد فارس لأنها على مذهبهم، وذلك ما جعل بعض فقهاء الإسلام يرمونهم بالبدعة، إذ أن المذهب الحنبلي يدين بالشيعة المناوئة لابي بكر وعمر. والجدير بالذكر، أن جميع الشعوب الافريقية كانت في عهدها الاول بالاسلام، متحزبة لعلي بن أبي طالب، ولبثت على مذهب الشيعة الى أن استطاع بعض الفقهاء والشيوخ نشر مذهب السنة المتعصب لأبي بكر وعمر، في ربوع إفريقيا، غير أن أهالي صفاقس وجربة والجبلين المذكورين أعلاه، رفضوا الانسلاخ عن مذهبهم، ومضوا يكتمون عقيدتهم، وذلك خوفا من تعرضهم للعقاب من طرف الفقهاء، كلما ذهبوا الى تونس أو غيرها، بحثا عن العمل.

من مميزات سكان الجبلين، أنهم متمسكون بحريتهم الخاصة، ومتشبثون باستقلالهم الذي يستبسلون في الدفاع عنه، كلما ظهرت لهم في البلاد نزعات انفصالية، وتلك هي طبائعهم اليوم، ولئن رضوا بأن يقدموا الاتاوة الى الاتراك في

عهدنا هذا، فلانهم يسمحون لهم بالاتجار في جربة وغيرها من المواقع الساحلية المنضوية تحت نفوذهم.

الفصل الثامن والخمسون

إقليم جريان

إنه عبارة عن سلسلة من الجبال الشديدة البرد، تمتد على طول أربعة عشر فرسخا، من شرقها الى غربها، وعلى خمسة فراسخ. تقع هذه الجبال جنوب الاطلس تفصلها عن طرابلس سهول كبيرة رملية، طولها ستة عشر فرسخا، تتخللها واحات غنية بأثمارها، وتنتج كميات هامة من الشعير، وفي بعض السهول والهضاب، ينبت كثير من شجر الزيتون ينتج كميات هامة من الزيوت، تسوّق في الاسكندرية وغيرها. علاوة على ذلك، فإن المنطقة تنتج أجود ما في العالم من زعفران ينقل الى أسواق اليونان وتركيا ومصر.

يخضع سكان هذه المنطقة الى حكام طرابلس، ويدفعون لهم سنويا جبايات يفوق مبلغها أربعة وعشرين ألف مثقال، لأن مداخليها من الزعفران هامة، وليس فيها مدن ولا حصون، ولكن يوجد بها مائة وثلاثون قرية بربرية، يسكن أهلها في بيوت رديئة، ذلك ما جعلهم لا يطيقون التواجد مع العرب، ولا يتحملون الانضواء تحت لواء ملوك تونس، إلا أنهم اليوم يعدون من رعايا الأتراك ويعترفون بمشروعية والي طرابلس.

الفصل التاسع والخمسون

جبل بني وليد

إنه جبل من جبال الاطلس الكبير، يسكنه برابر أشداء، حريصون على الحفاظ على حريتهم حتى أنهم لايعترفون بأي حاكم من حكام البلاد، وقد تحالفوا مع برابر المناطق الجبلية المجاورة، لتدعيم دفاعهم وتقوية صفوفهم. توجد بأراضيهم وحات تعطي أثمارا جيدة وحقولا تعطي إنتاجا هاما من الشعير. يقام عندهم مرة في الاسبوع سوق كبير يتوافد عليه مختلف قبائل المنطقة، ويؤمه الأعراب كذلك، فيبيعون للبرابر، الأنعام والأصواف والسمن، ويشترون منهم منتوجاتهم الفلاحية.

يتواجد بمنطقة جبل بني وليد، زهاء مائة وخمسين قرية، يسكن فيها أهل بني جريد في جوّ يسوده الأمن، وهم لا يخشون أي أعتداء عليهم من الخارج، لأن

الممرات والمسالك صعبة للغاية، ولأن فيهم ما يزيد عن عشرين ألف رجل يحملون السلاح ويحسنون الرماية. اصطدموا مع الأتراك في معارك عديدة، وانتصروا عليهم في كثير من المناسبات. ومع ذلك، فإنهم لا يمانعون في دفع إتاوة إلى ولاة طرابلس، لأنهم في حاجة الى التعامل معهم قصد التجارة، غير أنهم لا يسمحون لأي كان إن يلاحقهم داخل أراضيهم.

بهذا الحديث، نكون قد أنهينا عرضنا عن جبال المنطقة ولا يبقى لنا سوى صحراء برقة، الواقعة في أقصى شرق بلاد البربر.

الفصل الأخير
صحراء برقة

على حدود إقليم مصراتة، تبتدىء صحراء كبرى يسميها العرب صحراء برقة، أو صحراء العاصفة، ولو كان بعضهم من الذين تعزب عنهم حقيقتها، يسمونها صحراء البركة، لكنهم يخطئون، إذ بإبدال الكاف قافا، تصبح الكلمة تعني عاصفة رعدية مصحوبة بالبرق، ويؤوّل آخرون هذه اللفظة، فيعبرون أنها تعني الممر، كما يقال ممر سيرت، ولكن في ذلك أيضا، تحريفا للمعنى، لأن عرب إفريقيا يسمون هذا الممر، صراط برقة، أو ممر العاصفة، وهو الطريق الواصل بين بلاد البربر ومصر.

تمتد صحراء برقة من رأس رشالتين الى رأس جلوق الواقع على الحدود القديمة للاسكندرية، وهي مسافة تقدر بأربعمائة فرسخ، كما أن عرض برقة، من شاطىء بحر ليبيا إلى حدود نوميديا، يقدر بستين فرسخا. برقة بلاد قاحلة جافة، وليس فيها أرض تزرع، وتتعرض من حين لآخر الى عواصف هوجاء. كانت خالية من السكان قبل مجيء العرب إليها، ولكن عندما استولى أقوياؤهم على المناطق الخصبة، بقي في صحراء برقة بؤساؤهم، حفاة عراة، يتضورون جوعا وعطشا ويحترقون بقيض اللظى، لعدم وجود أي منطقة مسكونة هناك، ولا ينبت فيها ما يصلح للعيش. وكان الصقليون يبيعون إليهم المواد الضرورية للحياة، كالقمح وغيره، وكلما تعذر على هؤلاء الأعراب أن يدفعوا الثمن نقدا، اضطروا الى رهن أولادهم، ثم ينطلقون الى عمليات النهب في نوميديا للحصول على المال وغيره، قصد افتداء أولادهم. إنهم أكبر اللصوص في الدنيا وأكثرهم خدعا ومكرا، إذ ظلوا يجردون المسافرين من أمتعتهم ومن ثيابهم، ثم يعلقونهم من أرجلهم الى أن

يأخذوا يتقيؤون وحتى يكادوا يلفظون أحشاءهم، عسى نقود نكون فيما يتقيؤونه. كانوا في بعض الأحياء ينسلخون عن دينهم ويعتنقون المسيحية لاسترجاع أولادهم، وقد رأينا بصقلية، بعض من تنصّر من هؤلاء الأعراب.

وبهذا الفصل الخاص بصحراء برقة، ننهي الكلام عن جميع أقاليم وبلدان البرابر. وفي الكتب المقبلة، سنتحدث عن نوميديا، وليبيا، وبلاد السودان، وعن الحبشة العليا والحبشة السفلى وعن مصر.

نهاية الكتاب السادس

الكتاب السابع

نوميديا

الفصـل الأول

نوميـديـا

كانت هذه المنطقة من القارة الافريقية، تسمى قديما نوميديا، وذاع صيتها عبر التاريخ، وأصبحت اليوم تسمى بلاد الجريد، أي بلاد التمر والنخيل، وقد سبق لنا أن ذكرنا في الجزء الاول من هذا الكتاب، أن نوميديا لم تكن تحظى بما كانت تحظى به بلاد البربر من شهرة، وتحدثنا عنها بصفة إجمالية وركزنا على ما يستحق الذكر، وها نحن في هذا الفصل، نتطرق الى أقاليمها ومدنها وسكانها.

تمتد نوميديا من السوس الاقصى الى آخر جهة من صحراء الظهرة شرقا وجنوبا وتحادي جبال الأطلس في الشمال الغربي. تعيش في هذه المنطقة أمم مختلفة، منها الزناتة والبربر في الأقاليم المطلة على المحيط الأطلسي، وتمتد قبائلهم آلى الحدود المصرية. كان الاغريق يطلقون على شعوب هذه المنطقة، إسم البونيقيين، ثم أصبحوا يسمون النوميديين، وأكثرهم عددا، يقطنون اليوم غرب نوميديا، ومنهم أمم أخرى، مثل المصامدة والهلاليين والصنهاجيين، الذين يعيش أفرادها في شكل تجمعات وتكتلات. وإذا ما انتقلنا نحو التخوم الشرقية، نجد أقوامها يسكنون البيوت مثل البرابر، ونجد كذلك الأعراب الرحل الذين يسكنون الخيم. ويوجد في جنبات المنطقة كلها، أقوام من البربر الرحالة، وهم أولو بأس شديد ولهم شهرة كبرى. تتألف ثروة أهالي نوميديا، من التمر والأنعام وليست لهم أرض فلاحية، إلا أن التمر يغنيهم عن الحبوب، إذ يجنون منه كميات هائلة، ومن أجود ما في إفريقيا من تمر. ويلاحظ أن جودة هذا التمر، هي أعلى من غيرها إذا كان من نخيل الجهات الشرقية مع بلاد نوميديا، ولعل هومروس قصد هذا التمر، عندما ذكر أن في هذه المنطقة شجرة اللوط، لا يأكل المرء من ثمرها حتى يفقد ذاكرته ومعرفة أصله، ولا يفلح أحد في استذكاره ماضيه إلا بمشقة الأنفس، كما حدث لرفاق الليس[1].

يجوب الاعراب صحراء الظهرة طولا وعرضا ويقومون بغزوات في بلاد البربر، كلما سولت لهم أنفسهم ذلك، ويستخلصون موارد عيشهم من غنائم اللصوصية والنهب، الأمر الذي حمل ملوك مراكش وفاس وتلمسان وتونس، على تشييد قلع محصنة ترابط فيها حاميات، على الممرات والمسالك التي يعبرها الأعراب، وتُشكل حزاما أمنيا ضد تحركاتهم.

---

(1) الليس (Ulysse) أحد أبطال أسطورة الالياذة، التي ألفها هومروس، وإليه تنسب حيلة «فرس طروادة». (مترجم)

توجد في نوميديا نباتات غريبة، أذكر أهمها وهي بالتتالي : الفربيون، القطران، الترفاس، شجرة الطلح، أداد والشرناك. الفربيون[2] شجر ينتنج فاكهة حباتها خضراء وضخمة أشبه ما تكون بالمنّ، وقد يتجاوز طول الحبة الواحدة ذراعا، ويمكن لعرش واحد من الشجرة أن يحمل أكثر من عشرين حبة. عندما تنضج هذه الفاكهة ويشقها الانسان، يخرج منها سائل أبيض كاللبن، لازج كاللصاق، ويتحول الى صمغ. بعدما تجف الحبات، يقطعها أهالي المنطقة ويحتفظون بها في أقربة من الجلد.

أما القطران، فإنه يوجد على نوعين بجبال الأطلس الكبير، وخصوصا في الجهات المطلة على نوميديا. النوع الأول منه، يوجد ملتصقا بالحجر، في أعماق المستنقعات التي تفوح منها رائحة كريهة كرائحة القطران. أما النوع الثاني، فإنه يصنع من شجر الصنوبر الذي يقطع البربر أغصانه إربا إربا، ثم يضعون ما يقطعونه، في فرن عميق ومستدير، في أسفله يوجد ثقب مفتوح على حفرة كالوعاء. بعد ذلك، توقد نار طفيفة وتغلق فوهة الفرن، وتشرع الحرارة في تقطير قطائع الصنوبر، ويتحول سائلها الى قطران يتسرب الى الحفرة منها يستخرج ويصب في أقربة من الجلد.

الترفاس جذور تشبه الكمء، لكنه أضخم حجما منه. ينبت الترفاس في رمال البلدان الحارة وله قشرة بيضاء، ويعثر عليه في المواضع التي تنتفخ فيها قشرة الارض وتتشقق. قد يبلغ حجم الواحدة من الترفاس، حجم برتقالة كبيرة. يقول بعض الاطباء في شأنه، إنه يطفىء العطش. توجد منه كميات هامة في نوميديا، والاعراب يأكلونه بكثرة، إذ يشوونه على مشواة أو يصنعون منه حساء. طعمه لذيذ، ونجده كذلك في رمال غابة معمورة بالمغرب.

ينبت كذلك في نوميديا وليبيا وبلاد الزنوج، شجر ضخم شائك يسمى الطلح، يشبه الصنوبر في ورقه ويسيل منه صمغ كالملاط. لذلك، يقوم بعضهم فيشوب الصمغ بالملاط، لأن لهما لونا واحدا، ورائحة واحدة.

(2) الفربيون شجرة تعد من النباتات اليتوعية التي تفرز لبنا حادا، وتعرف هذه الشجرة عند العوام، باسم أم اللبينة، ويسميها المصريون : «اللبانية المغربية»، وذلك حسب ما ورد في كتاب « تحفة الاحباب في ماهية النبات والاعشاب»، مؤلفه مجهول، وقد قام بتحقيقه، رونو وكولان.
ولعل هذا الاسم يرجع الى العالم والطبيب أفورب الذي اكتشف النبات خلال جولته بالمغرب، رفقة الامبراطور جوبا الثاني في مستهل القرن الأول الميلادي. (المترجم)

يتميز طلح نوميديا بما تحمله أوراقه من خطوط بيضاء كأوراق الزيتون الوحشي وما يدخل في فصيلته من أشجار. أما أوراق طلح ليبيا، فإنها تحمل خطوطا بنفسجية، في حين يتميز طلح افريقيا السوداء بخطوط سوداء، ويسمي الزنوج هذا الطلح، بالعلق، ويستخدمون خشبه في صناعة بعض الأدوات.

يباع خشب طلح ليبيا في مختلف بلاد الزنوج، ويصلح لعلاج مرض نابولي.

الشرناك[3] ينبت بالأطلس الكبير، وخاصة في مناطقه الغربية المطلة على نوميديا. ويبدو أن جذور الشرناك تهيج الغريزة الجنسية عند الرجال. فإن الكبار والفساق يتناولونها، ويدعون أنه إذا بال أحد عليها انعظ لحينه. ويقول الجهال من سكان الأطلس، أن الفتيات إذا بلن عليها، فقدن بكارتهن وانتفخ بطنهن، وهذا أمر غريب يصعب تصديقه.

في ختام الحديث عن النباتات، بقي أن نقول شيئا ما عن نبات مر للغاية، يسميه العرب : أداد. إنه نبات سام الى درجة أن ثلاثين أو أربعين نقطة من مائة المقطر، تكفي لقتل إنسان في ظرف ساعة.

الفصل الثاني

السوس الأقصى ــ بلاد إدا وْنْتُوت، وبلدان أخرى متاخمة لنوميديا

تبتدئ الجهات المسكونة في غرب نوميديا، على شواطىء المحيط الأطلسي، من رأس أغير (قرب أكَدير) وتمتد الى رأس نون. وتسمى هذه الجهة من نوميديا، السوس الأقصى، الذي يحده المحيط غربا، ورمال ليبيا جنوبا[4] إقليم درعة شرقا، وسوس البربري شمالا. وأهم المناطق المسكونة، بربرية.

يعيش البربر تحت نظام القبائل أو التكتلات البربرية. أول هذه القبائل تسمى إدا وزكري، التي توجد بجانب صحراء الظهرة[5]. وتسمى دولتهم، دولة هلالة التي يوجد بها كثير من المدن والقرى. يملك سكان الظهرة عددا كبيرا من

---

(3) الشرناك، يسمى كذلك البيش، ويسميه أهل البادية من العرب البلعلع وبالبربرية إكَنطر. ورد هذا في كتاب «تحفة الاحباب في ماهية النبات والاعشاب». (مترجم).

(4) مرمول يسمي الصحاري الممتدة من المحيط الى البحر الاحمر، صحراء ليبية، وكان قدماء اليونان يطلقون إسم ليبيا، على جل المناطق الافريقية التي تقع شمال السودان، (مترجم)

(5) حسب الخرائط الحالية، فإن قبيلة إدا وزكري لا تنتمي الى تكتل هلالة البرابر. (المترجم)

الخيول والأغنام، لأن المنطقة جيدة وتنتج كميات هامة من الحبوب، وتنتج في بعض جهاتها، الحوامض وفواكه أخرى مثل فواكه أوربا.

تتخلل هذه المنطقة قصور منغلقة ــ يستحيل معرفة عدد سكانها، وكلهم بربر ــ وقلع محصنة يوجد أهمها بإدا ونضيف على بعد عشرين فرسخا من تارودانت، وفي الظهرة وبإدا وكنسوس وأركان. يتشكل سكان هذه المواقع من تجمع كبير يسمى القسيمة(6). كل هؤلاء البرابر يحاربون الى جانب أهل هلالة، ويملكون خمسة آلاف فرس ولهم ثلاثون ألف جندي من المشاة وهم من أجود المحاربين بإفرقيا كلها.

الفصل الثالث
اشتوكة

اشتوكة منطقة يوجد بها عدد من المدن والقصور، من بينها أربعون مجموعة سكنية بربرية، أهمها تسمى تاركز، يشرف عليها قصر مشيد على هضبة يسكن به شيخ القبيلة. تتخلل الصخور هذه المنطقة الخصبة التي تنتج الشعير على الخصوص، ويملك سكانها قطائع هامة من المعز الذي يشكل أهم مورد لثروتهم. وينتمي برابر المنطقة الى قبائل مصمودة، ويسكنون كلهم بالقصور، وأهم المدن والقصور توجد لدى إيدونزال، وإدا وبعقيل، والرمسوكة وهلالة وهي أقوى قبائل المنطقة.

الفصل الرابع
قرى وادي نون

شيدت هذه القرى عبر وادي نون، في اتجاه المحيط، وتوجد على مقربة السواحل الأطلنتية. سكانها برابر ينتمون إلى قبائل إدا وزل(7)، التي يوجد عدد من أفرادها في المناطق الواقعة بين بلاد الجريد والظهرة، وأكثرهم نزحوا من الضهرة ليستوطنوا وادي نون، فرارا من عمليات النهب التي يمارسها برابر يلقبهم القوم

---

(6) اختلط الامر على مرمول في أسماء التجمعات البربرية، إذ أن قسيمة قبيلة جنوب أكدير وشماله، وتتاخم حدود شوكة (مترجم).

(7) إدا وزل تقع شمال نون، وشمال واد سوس. أما القبائل المحادية لضفاف نون، فهي : اسبوعية، آيت أحمد، آيت النوس، ازوافيت، ايت لحسن، اولاد بوعيطية. (المترجم)

بالبرابش لأنهم جمَّالة، ويقولون إنهم من الأوداية وصنهاجة. إن المنطقة هذه، قاحلة، لا ينبت فيها إلا قليل من الشعير وشيء من التمر الرديء لا يسمن و لا يغني من جوع. لذلك، ترى السكان غير مرتبطين بنظام و لا يعرفون داعي الاستقرار، فيرحلون إلى جهات أخرى، سعيا وراء أقواتهم، فيمارسون التجارة مع مملكة ولاتة التي يوجد بها رأس نون، الذي أطلق عليه البرتغاليون «رأس لا»، يعنون بذلك، ألا خير فيه، وهم يتشاءمون منه لأن السفن التجارية التي ترسوا بجواره، فلما تعود سالمة. أما الأعراب الذين يضربون في هذه المنطقة، فيسمون الرحَّالة، وينشرون الرعب أينما حلّوا، حتى أن البرابر لا يتجرَّؤون كثيرا على مصادفتهم، ويفضّلون البقاء في قراهم ومداشرهم، والإعتصام بجبالهم.

الفصل الخامس

تيسّت(8)

تقع هذه المدينة العتيقة بغرب الظهرة وقد بناها البرابر في المنطقة التي يوجد فيها البرابيش والأودية وصنهاجة. منازلهما مبنية من الحجر ويقطن بها ما يقرب من خمسمائة كانون، لكنها خالية من كل رواج تجاري وليست فيها شرطة. والجدير بالذكر، أن الأعراب وغيرهم من المستوطنين بهذه المنطقة، يدينون بالولاء إلى الملوك الشرفاء.

تحيط بتيسّت، مساحات رملية، باستثناء بعض الواحات التي تنتج التمر والزيتون والذرة، وبذلك يقتات الأهالي، وتيسّت هي كذلك مقر الوالي الذي عينه ملك مراكش، ووضع تحت تصرفه، حامية للسهر على سلامة السكان وحمايتهم من هجمات الأعراب الذين كانوا من قبل، يفرضون عليهم إتاوة هامة. أما في هذا العهد، فإنهم أخذوا يمارسون التجارة مع أهل منطقة جزولة والأوداية، ولم يعودوا يخشون التنقل نحو زبنائهم في موطنهم. لكنهم أميّون، غير أن النساء اشتهرن هناك بحفظ القرآن وبإلمام بشؤون الدين، فيعلّمن الأطفال الكتابة والقراءة ويقمن بتلقينهم مبادىء دينهم. وعندما يبلغ الأولاد الذكور سنّ الرشد، يتخلّون عن الدراسة ويقبلون على التجارة أو على الأعمال اليدوية.

---

(8) ربما يقصد بها قرية أسّا، وهي على مقربة من واد درعة وتابعة لإقليم كَلميمن. (المترجم)

إلى جانب القيام بالتدريس، تنكب النساء هناك على غزل الصوف والأوبار، لكن النساء الأخريات لا يشتغلن، لذلك، ترى الفقر يعمّ البيوت، و لا يتوفر القوت إلا للقليل من السكّان، ولو كان بعضهم يملك قطيعا من الشياه أو المعز أما الفلاحون، فإنهم يربطون الحصان مع الجمل لحرث الأرض، لأنهم لا يملكون البقر.

وأخيرا، نقول إن بشرة الرجال سمراء، وبشرة النساء بيضاء، ونشير إلى أن منطقة نون توجد بين تيسّت والبحر.

الفصل السادس
وَدّان

وَدّان بلدة كبيرة ليست لها أسوار، تقع على حدود صنهاجة، سكانها فقراء، لكنهم يتميزون بخشونتهم وعنفهم، لا يملكون ما يقتاتون به سوى قليل من التمر، يكادون يخرجون عراة من جراء الفاقة، و لا يبرحون بيوتهم إلا قليلا، نظرا لما بينهم وبين جيرانهم من عداوة وبغضاء، فيخشون أن يتعرضوا لبطشهم. يتدرّبون على عمليات الصيد، يقنصون النعامة واللمت فيأكلون لحومهما، ويتعاطون إلى تربية الأمعاز، لأنهم يتغذون بألبانها. لونهم إلى السواد أقرب منه إلى السمرة، ولا محيد لهم عن الولاء لأعراب الأوداية، المهيمنين على الصحراء التي تشمل البلدة وتمتد إلى تخوم مملكة ولاتة التي يخضع أميرها الزنجي نفسه إلى نفوذ هؤلاء الأعراب، فيدفع لهم إتاوة سنوية. وبالمناسبة، نشير إلى أن هؤلاء الأعراب يتوفرون على جيش من ثمانين ألف مقاتل.

يتوفّر بعض سكان وَدّان على خيول ولو كان عددها قليلا، والغريب أن تلك الخيول تشرب لبن الإبل بدلا من الماء، وأخذت تتبع النوق لترضعها كلما أحسّت بالعطش.

كنا في هذه البلدة مع الشريف محمد، ملك سوس، الذي كان يتأهب لشنّ هجوم، مع الأعراب، على الزنوج وغيرهم من أقوام الصحراء. وفي تلك الأثناء، علمنا أن الملك البرتغالي، خوان الثاني، تعاقد مع حاكم البلدة، ليشتركا في عمليات التجارة بمدينة أرغوين، الموجودة غربا، على مسافة ستين فرسخا من ودان.

الفصل السابع
إفــــران

إفران عبارة عن مجموعة عمرانية تتألف من أربع مدن مسوّرة، يرجع بناؤها إلى قدامى النوميديين، بين المدينة والأخرى مسافة فرسخ على وجه التقريب. أقيمت المدن الأربع على إحدى ضفتي جدول صغير، تنساب مياهه في الشتاء، وتنضب في الصيف. وتتجه المدن كلها نحو الجنوب، في اتجاه مدينة تاغوست الواقعة بالظهرة، وتتناثر المداشر والواحات خلال المسافات الفاصلة بين المدن.

يوجد بإفران وحدات للشرطة، بسبب توافد النصارى إليها في مهمات تجارية، كما يتوافدون على مينائها كارفيس لاقتناء المنسوجات وغيرها من البضائع التي يبيعونها في ولاتة وتنبكتو وغيرهما من المواقع في بلاد السودان، ويأتون منها إلى إفران لعرض الجلود والشموع والأرز والسكر.

يتقن بعض سكان إفران، صناعة الأواني النحاسية، إذ يستخرجون نحاسا رفيعا من أحد جبال الأطلس الصغير المطل على الجنوب، وهو جبل إيسين. ونظرا لأهمية المنطقة، اتخذ فيها ملك سوس قصرا يقيم فيه الوالي، الذي يستلم النحاس المستخرج، ويسمّى الصيني، ثم يوزعه بالقسط على الصناع. وألفت نظر القارىء إلى أن سكان المنطقة، برابر اعتنقوا الطريقة الجزولية.

يقام بإفران سوق أسبوعي يحج إليه الناس من قبيلة هلالة، وأعراب زناكة، للتزوّد بما يحتاجون إليه، فتعرف المنطقة رواجا اقتصاديا يستدري منه سكانها أموالا تمكّنهم من العيش حسب أذواقهم، وتكون موردهم الوحيد لأنهم لا يملكون أراضي فلاحية. بشرتهم سوداء، مثلهم كمثل أهل ودّان وتاغوست.

يوجد مسجد جميل بأحد مدن إفران، وبه قضاة وعلماء، لأن السكان أقاموا بأنفسهم نظاما وقوانين لحياتهم الخاصة والعمومية.

الفصل الثامن
أقّـــا

تتشكل مجموعة أقّا من ثلاث قرى منغلقة على نفسها، متقاربة بينها، تقع في صحراء نوميديا، على تخوم ليبيا، في منطقة يمتلكها بنو هلال، الذين دخلوا

إفريقيا في عهد القائم بالله، أحد خلفاء القيروان. ولما استقرّ هؤلاء الأعراب بإفريقيا، تأثر بعضهم بأسلوب حياة أهلها، فراحوا يشيدون المنازل على نمط بيوت البرابر، واندمجوا في أوساطهم، إلا أن البعض الآخر من بني هلال، آثروا حياة البداوة والترحال على حياة التمدّن والاستقرار، وصمّموا على مواصلة نعت إخوانهم بأنهم أعراب لا غير، لكن هؤلاء وأولئك، ذهبوا يعتقدون ويشيعون أنهم من أصل إفريقي، متجاهلين أنهم أقبلوا من صحاري الجزيرة العربية، وأنهم قوم أميّون لا يفقهون.

لبثت أقّا حينا من الدهر، دار غنى وازدهار، يرفل أهاليها في رغد العيش، لكنها انقلبت إلى دار فقر وكساد، بسبب الفتن الداخلية والاقتتال بين السكان، فتدخّل رجل صالح من المرابطين، واستطاع أن يضع حدّا للتطاحن بين الاخوة، وعاد إلى أقّا كل الذين هاجروها من قبل، وبايعوا ذلكم المرابط بالإمارة عليهم، فتوارث أبناؤه الحكم فيها، تحت رعاية الملوك الشرفاء.

يعاني اليوم أهالي أقّا كثيرا من داهية الفقر التي تطغى على سكان القرى بالخصوص، الذين لا يملكون فتيلا و لا قطميرا، اللهم إذا استثنينا كميات ضئيلة من التمر الذي يجنونه من نخيلهم الضعيف، فيبادلونه بقليل من القمح أو الشعير الذي يأتي به البرابر من المغرب.

كان أعراب أولاد أرتامينة يتحركون في الصحراء المحادية لأقّا، ويتوغّلون في تخوم تيسّت ويفرضون الإتاوات على الأهالي، لكن معظمهم لقوا حتفهم في المعارك التي شنّتها قوات السلطان أبي حسون.

الفصل التاسع
درعة

تشكل درعة إقليما هامّا من أقاليم نوميديا، وترجع تسميته بدرعة، إلى النهر الكبير الذي تتفجر عيونه بين جبال الأطلس الكبير، وتتدفّق مياهه في اتجاه الجنوب نحو هسكورة، ومنها يسير نحو ليبيا،(9) حيث يشكّل عدة بحيرات يقصدها الأعراب بإبلهم.

(9) راجع تعليقنا رقم 4، . (المترجم)

يبلغ طول نهر درعة زهاء تسعين فرسخا(10)، لكن عرضه قصير. توجد على ضفاف هذا النهر عدة قرى ومدن، في الجهات المرتفعة عن مجراه، لأنه يفيض في فصل الشتاء، ويقل ماؤه في الصيف، إلى درجة يمكن عبوره على الأقدام في عدّة جهات. أما إذا اشتد الحرّ، فإن الماء يتبخر، وما يتبقى منه في المواضع العميقة، يصبح مُرّا.

في شهر أبريل من كل سنة، ترتفع مياه النهر وتغمر الأراضي الفلاحية فتخصبها، ويحرث الناس ويحصدون، أما إذا انعدم فيضان درعة، فاعلم أن القحط سيضرب المنطقة لا محالة، لأن الأرض لا تنتج شيئا. ويغص إقليم درعة بالقرى والقصور المبنية من الحجر أو الطوب. أما السقوف، فإنها من جذوع النخل التي يصنع منها خشب غير متين.

توجد واحات هامّة على جانبي النهر يتوارث السكان الانتفاع بها ويقتسمون غلالها، وتأتي بأتمار جيدة وسميكة تصبر أكثر من غيرها في جهات أخرى، وتشكل أهمّ مورد لدى السكان. يوجد كل ذكر من النخل بجانب أنثى منه، والنخلة الذكر لا تعطي إلا الأزهار والأغصان، في حين أن النخلة الأنثى هي التي تعطي التمر لذلك، عندما تتفتح الأزهار، يجب أخذ عريش من الأزهار المذكرة وتلقيح الأزهار الأنثى، وإلا، فإن الغلة ستكون هزيلة، والنواة غليظة. أما بعد التلقيح، فيأتي التمر جيدا، سميكا ونواته صغيرة، وطعمه لذيذ، ويكوّن الغذاء الأساسي لأهل المنطقة، خلال شطر هام من السنة.

تختلف أثمان التمر باختلاف أصنافه، لكن أردء الأتمار تستعمل علفا للخيول والإبل، بدلا من الشعير. وعلى الإجمال، فإن الناس يتغذون كذلك بدقيق الشعير الذي يصنعون منه أطعمة مختلفة، و لا يأكلون خبز القمح إلا بمناسبة الأعياد والأفراح. ليست لهم شرطة، ويتساكن معهم عدد هام من اليهود التجار والصياغين. إن أهم المحاور التجارية مع أقاليم درعة، تمر بالطرق المؤدية من فاس إلى تمبكتو ومريتانيا، ويذهب التجار إلى المدن الرئيسية للإتصال بوكلائهم، إذ توجد بهذه المدن متاجرهم ومستودعاتهم ومزاراتهم. يصنع تجار درعة كميات كبيرة من النيلة، يشتريها منهم تجار فاس وغيرهم من تجار المغرب، بالمقايضة مع بضائع أخرى. ويلاحظ أن ثمن القمح في درعة غال، لأن الأعراب يجلبونه من مملكة فاس ومملكة مراكش، وبعدما يبيعونه في أسواق درعة، يشترون كميات هامة من التمر.

(10) طول درعة، زهاء ألف كيلومتر، أي 250 فرسخا. (المترجم)

لا يتوفّر أهل درعة إلا على قليل من الخيول التي يغذونها بأردإ الأثمار مع قليل من العشب، كما يملكون قليلا من الأمعاز التي تتغذى بنوايات التمر المطحونة، فتسمن الشيات وتكثر ألبانها. أما الناس فإنهم يتناولون لحوم المعز والجمال الهرمة، لكنهم يربّون قطائع من النعام كما يفعل ـــ القشتاليون بالبطّ ـــ إلا أن لحم النعام كريه الرائحة، عسير الهضم ولازج، وخصوصا منه لحم الفخذ.

والجدير بالذكر، أن نساء درعة، على جانب كبير من الجمال، لا تُقلل بدانة أجسامهن منه شيئا. زد على هذا، أنهن يتحلين بالطيبوبة والاستقامة، ويتقبلن بصدر رحب، ما يفرض عليهن من معاناة من طرف الرجال.

يوجد هناك، في ملك أيمان العديد من السكان، إيماء وعبيد، تم استقدامهم من المناطق النائية، أو ولدوا في عين المكان، هذا علاوة على الخدم من بيت الحراثين. أمّا بشرتهم جميعا، فإنها سمراء، وقلما يوجد البيض من بينهم.

تحد منطقة درعة غربا، منطقة سوس وجزولة، وتحدها شرقا، منطقة سجلماسة، وجنوبا، بلاد السود وصحراء ليبيا، وشمالا، تتاخم جبال الأطلس الكبير التي تطل على مملكة مراكش.

كانت هذه المنطقة إلى عهد قريب، موزّعة بين قائدين كبيرين، كل منهما مزوار، يتصرف وكأنه أمير. ولما تولّى الشرفاء السعديون الملك، عيّنوا عليها واليين، أحدهما يقيم بفم زكيد، في الجهات العليا، والثاني يقيم بتينزلين، في الجهات المنحدرة. يتوفّر كل وال على جيش من الفرسان لاستتباب الأمن في المنطقة وللدفاع عنها ضد غزوات وهجمات أعراب أولاد سليم، الأقوياء والمترفين، والذين يقصدون تمبكتو مرّة في السنة من أجل التجارة. أمّا الأعراب الذين كانوا يفرضون وجودهم على الدرعيين ويسلبون منهم الإتاوات، فإنهم ينتسبون إلى أولاد عمران، وهم احد تكتلات أولاد منصور؛ كما كانت قبائل معقيل، تفرض عليهم الإتاوة، وهي تعد من القبائل المهابة، إذ لها عدة مداشر وجيش عرمرم قوي، وكان قواد هؤلاء وأولئك، يعيشون كالأمراء ويحظون باحترام كبير لدى الأفارقة، لأنهم يمتلكون الأراضي الشاسعة ويستخلصون الإتاوات من سكان نوميديا.

يقوم هؤلاء الأعراب برحلتين، فتراهم في الشتاء يجوبون الصحراء، وتراهم في الربيع، يتنقلون عبر نوميديا وتدفعهم أقدامهم حتى مملكة فاس. في بعض الأحيان، يستخدمهم الشرفاء، وفي حين آخر، يتصرفون حسب أهوائهم.

بعد هذا العرض عن درعة، بصفة إجمالية، سنتطرق فيما بعد، إلى مدن الإقليم.

الفصل العاشر

تيسّنت

كانت مدينة تيسّنت عاصمة لإقليم درعة، ويرجع الفضل في تشييدها إلى البرابر النوميديين. كان اقتصادها مزدهرا وقد شهدت رواجا تجاريا هامّا مع السودان والأقاليم البربرية المجاورة وغيرها من المناطق. كانت تصدّر إلى أوربا معادن النحاس الأحمر والنحاس الأصفر والرصاص والتبر الذي كانوا يأتون به من السودان، كما كانوا يصدرون العبيد. وكان هذا الذهب يسمّى عند أهل البلد بالنقناقي ونشير إلى أن ذهبا آخر أجود منه كان ينقل من تغزة إلى مراكش، وتستغرق مدة رحلة القوافل، زهاء ستة أشهر.

كان سكانها على مذهب السنة، فتسلط عليهم الأعراب المتشيعون إلى مذهب آخر، وحاربوهم عدة مرات، فألحقوا بتيسنت الخراب والدمار، ولم يبق منها اليوم قائما إلا بعض آثار مبانيها.

الفصل الحادي عشر

بني صبيح

تعتبر بني صبيح أهم مدينة بالاقليم، وتقع على جانب نهر بمنطقة رملية، يحيط بها سور بسيط وتنقسم إلى شطرين، لأن سكانها انقسموا إلى طائفتين متنافرتين، كانوا يشهرون السلاح فيما بينهم، خصوصا وقت عمليات السقي التي كانت تثير بينهما خلافات دموية. ومع ذلك، كان أهلها يتصفون بالشجاعة والأمانة والتسامح الديني، يكرمون الغريب ويستضيفونه دون مقابل، ويرضون بما يقدمه لهم من نقود عند مغادرته المدينة. كانوا كذلك على مذهب مخالف لمذهب الأعراب، وكان كل واحد منهم يحاول إقناع الأعراب باعتناق مذهب المدينة، فيغريهم بالمال، وكانت هذه العملية تتجدد كل يوم، مادام الاختلاف الديني قائما.

عندما أصبحت هذه المدينة خاضعة إلى الملوك الشرفاء، انتهت فيها الاختلافات الدينية. ويسهر اليوم على الأمن فيها، حامية تتألف من الجنود

المسلحين بالبنادق ومن الرماة، تحت قياد الوالي المقيم بها، باسم ملك مراكش. وتسهر تلك الحمية كذلك، على حماية المدينة من غارات أعراب بني سليم الذين تعودّوا من قبل، بسط سلطانهم عليها.

الفصل الثاني عشر
كيتصوة

تقع هذه المدينة الكبيرة على أقل من فرسخ من نهر درعة، وقد شيدها منذ زمن بعيد، برابر نوميديا، ويوجد بجوارها، قصر بني على هضبة صغيرة. سكانها برابر، لكنهم يتحدثون برطن افريقي، ويعرفون بأنهم «دراوة»، وعددهم يشكل ما يزيد عن ثلاثة آلاف أسرة، متفرقين على عدة طوائف، تحمل كل طائفة لقبا خاصا، وكثيرا ما يكون هذا اللقب، لقب إحدى الأسر المنضوية تحت الطائفة، أو لقب الجهة التي يترحّل فيها أفراد الطائفة.

كان أعراب أولاد سليم يسلّطون سيوفهم على أهل المدينة ويفرضون عليهم الاتاوات السنوية، لكن ملك مرّاكش بسط نفوذه على المنطقة، وأقام بالمدينة حامية تتألف من مأتي فارس وثلاثمائة من الرماة وبعض جنود المدفعية.

تنتج هذه المدينة وما حولها، كميات هامة من التمر والنيلة وعرق اللؤلؤ الذي يصنع منه الأهالي مادة تصلح لغسل الصوف، فتزيدها بياضا ولمعانا وتعطيها لونا شبيها بلون الصدف.

الفصل الثالث عشر
تيزرين

تقع هذه المدينة بجانب نهر درعة، وتختفي بناياتها تحت النخل الكثيف والباسق. يبلغ عدد سكانها زهاء أربعة آلاف نسمة، يقطنون كلهم في القصور، وتشملهم حماية ملك مراكش، إذ ترابط بالمدينة قوات تتألف من مائة فارس ومأتين من الرماة بالبنادق والنبال.

تنتج المدينة التمر والشعير، ويتوفّر أهاليها على قطائع هامة من الأمعاز.

الفصل الرابع عشر
تكَمْادَّرتْ

تقع هذه المدينة على مسافة قريبة من الحدود الليبية، وعلى بعد عشرين فرسخا من اكتاوة. يقدر عدد سكانها بألف وخمسمائة نسمة وكلهم دراوة.

تحيط بالمدينة أسوار قبيحة المنظر، ويوجد بجوارها قصر مشيد بقمة جبل. يتميز أهلها بالكبرياء والأنفة، لأن فيهم الأدباء والعلماء، وهي مسقط رأس الشرفاء الذين يحكم اليوم بفاس ومراكش ملوك من سلالتهم. اما المنطقة، فإنها غنية بجودة تربتها، وتنتج القمح والشعير والتمر، وفيها مراع لمختلف الأنعام. تسهر على الأمن فيها ضد الأعراب حامية ترابط بالقصر، وتتألف من جنود من مختلف الأسلحة. تخضع كل من تكَمادرت وتانجموست إلى والي تيمزكيت لأن هذه المدينة هي قاعدة الاقليم.

الفصل الخامس عشر
تنجداد

تقع هذه المدينة على جانب نهر، بين النخيل، من منطقة فلاحية خصبة، تنتج التمر والقمح والشعير، زيادة على النيلة وعرق اللؤلؤ، اللذان يوجدان بكثرة هناك ومن نوع جيد، يتهافت عليهما التجار من كل جهة. ويوجد بالمدينة سوق كبير توجد فيها مختلف المنتوجات، يأتيه التجار من افريقيا ومن أوربا، لبيع الثياب الصوفية، والأقمشة القطنية وبضائع أخرى. ونشير إلى أن عددا من التجار النصارى والبرابر، استوطنوا المدينة، وقد مكثنا نحن فيها يومين رفقة والي مكناس، وشاهدنا ازدهارها، ولاحظنا أن الأمن سائد بها، أكثر مما هو عليه الحال في غيرها من المدن والأقاليم.

الفصل السادس عشر
ترغالة

تعتبر هذه المدينة من أهم مدن الاقليم. وبها يوجد زهاء أربعة آلاف كانون وملاح تسكن فيه أربعمائة أسرة يهودية. تقع ترغالة بجانب نهر درعة، على مقربة من قصر يقيم فيه الوالي الذي يمثل ملك مراكش، على رأس قوات تتألف من أربعمائة

فارس وخمسمائة رام، أنيطت بهم مهمة حراسة القوافل التي تنقل التبر من تغازة إلى ترغالة حيث يصهر ويوزن ويوضع عليه الطابع، ومن تم يرسل إلى مراكش عبر كتيوة.

توجد ترغالة بين النخيل، أرضها خصبة، تنتج كثيرا من القمح، وفيها المراعي لانواع الأنعام، ذلك ما جعل مستوى معيشة السكان جيدا.

كان هنا وال من سلالة الشرفاء المزواريين الذين لبثوا يتمتعون بحظوة كبرى لدى السكان، اسمه حمّو بن علي، جاهد إلى جانب الشرفاء السعديين، ومهّد لهم السبيل إلى بسط نفوذهم على المنطقة، فحظي بعنايتهم وتقديرهم ومنحوه صداقتهم.

الفصل السابع عشر
تنزلين

إنها أكبر مدن اقليم درعة، وتقع على بعد عشرة فراسخ من تيسرغات، شمالا. تحيط بها أسوار متينة ويسكن بها أكثر من ستة آلاف نسمة، وتتميز بقصبتها الهائلة التي تأوي الوالي وكبار شخصيات المدينة. أما الحامية المرابطة بها، فإنها تتألف من مائة فارس ومائتين من الرماة. تستنتج هذه المدينة كثيرا من القمح والشعير والتمر ويملك سكانها الاغنام والابقار، ويرفلون في رغد العيش، ولئن كانوا يخشون غارات الجبليين.

كان يسكنها أحد المزواريين الدرعيين قبل أن تصبح خاضعة إلى الشرفاء.

الفصل الثامن عشر
تَمْكَروت

تقع تمكَروت على بعد عشرة فراسخ من تكَمادرت، وعلى جانب نهر درعة. يوجد بها قصر في حالة جيدة، يسكنه الوالي، ويرابط بالمدينة جيش يتألف من أصحاب الرماية والمدفعية وبعض المشاة.

تعتبر تمكَروت أهم مدن دراوة وأقدم مدينة بالاقليم. إنتاجها من التمر لا يستهان به.

الفصل التاسع عشر

تبرنوست

يطلق اسم تبرنوست على قلعة توجد بالقرب من الحدود مع ليبيا، لمراقبة تحركات أعراب الصحراء وحماية المنطقة من غاراتهم عليها. لا يسكن في هذه القلعة إلا العساكر الذين يسمون بالمخازنية.

بنى الشرفاء السعديون هذه القلعة في السنوات الأخيرة، وتوجد حولها بعض الحقول التي تنتج القمح والشعير، ونخل مثمر، ويملك أصحاب الحقول عدة رؤوس من المعز.

الفصل العشرون

أسّـا

انه كذلك اسم يطلق على قلعة تقع في منطقة متاخمة لصحراء الضهرة، وقد شيدها الشريف محمد عندما كان ملكا على سوس. ترابط بها وحدات عسكرية تتألف من الفرسان والمشاة، مهمتها التصدّي إلى أعراب الصحراء المعروفين باسم الزرقان، ونشير إلى أن هذه المنطقة هي باب الدخول إلى نوميديا من هته الجهة.

تتألف موارد أسّا من التمر والمعز وقليلاً من الشعير.

الفصل الواحد والعشرون

فم ازكيد

تعد فم ازكّيد إحدى المدن الهامّة بإقليم درعة، وتعتبر حصنا منيعا في وجه جزولة. يسكن بها ما يقرب من ألفين من الأشخاص، ويوجد في أرباضها أربعمائة منزل.

فم ازكَيد مدينة عتيقة، يقيم بها وال على رأس جيش هام من الرماة والفرسان، لمواجهة برابر جزولة الذين يشنون عليها غاراتهم، ولحمل السكان على دفع الضرائب المستخلصة عن أرباحهم من التمر والقمح والشعير والأغنام.

الفصل الثاني والعشرون

إقليم سجلماسة

يحمل هذا الاقليم اسم عاصمته، يخترقه نهر زيز الذي ينصب من بين جبال الأطلس الكبير، فيمر بغرس العيون، وكنانة والمداغرة والرتب، ومن هنا إلى إقليم سجلماسة، يتخلل النخل وينتهي في صحراء الضهرة، حيث يصب في بحيرة كبرى.

يمتد إقليم سجلماسة على مسافة طولها أربعون فرسخاً ونيِّف، وأهله برابر ينتمون إلى قبائل زناتة وزناكَة وهوارة المتاخمين لبلاد المرابطين.

كان هذا الاقليم قديماً يتمتع بحكم ذاتي، ولم استتبّ الأمر إلى المرابطين، ضمّوه إلى سيادتهم. واستولى عليه الموحّدون من بعدهم. ولما أصبح الملك بأيدي بني مرين، استولوا عليه، لكن الأهالي ثاروا عليهم، وقتلوا الوالي المريني الذي نُصِّب عليها فانتقم المرينيون منهم بقتل أمير سجلماسة، المسمى يوسف، وهدّموا المدينة عن آخرها كما خرّبوا ما كان في الاقليم من قرى هامة. إلا أن سكان الاقليم تراجعوا عن موقفهم، وأعلنوا عن ولائهم الى المرينيين، فسمحوا لهم بإعادة بناء بعض القرى والقصور المحصنة.

وعلى العموم، يوجد بإقليم سجلماسة، ثلاثة مواقع حضرية هامّة، زيادة على قاعدة الاقليم، وتلك المواقغ هي بالتتالي : تنكنت[11] التي يبلغ عدد سكانها خمسمائة نسمة يوجد من بينهم بعض الصناع والتجار، وهي أقرب المواقع لمدينة سجلماسة، ثم تبوعصامت التي تقع جنوب تنكنت وتبعد عنها بثلاثة فراسخ وهي أكبر القرى، وأكثرها سكاناً، وأهاليها أدباء ومتحضرون، يقطنها عدد هام من التجار، المواطنين والاجانب، كما يسكنها اليهود وأكثرهم صناع.

أما البلدة الثالثة، فتسمى مامون، تكتظّ بالسكان، منهم عدد هام من التجار اليهود والعرب، ولذا، فإن لها أهمية كبرى.

في كل من المدن الثلاث، يوجد حاكم، لأن السكان متغطرسون، لا يحترمون الجار، ولا يخشون الا القوة، وكثيرا ما يندفعون الى العصيان، ويقومون بأعمال تخريبية، فيتلفون قنوات الماء، وآلات السقي، ويقطعون الاشجار، ينهبون بعضهم البعض بمساعدة الأعراب، ويضربون النقود الخاصة بهم، فيسبكوا الدبلون من

---

11) (لعل هذه المدينة هي الرساني حاليا) (المترجم).

الذهب الرديء/ويسكّون/ كذلك النقود من الفضّة الخالصة. كان قسط من الموارد يذهب/ الى صناديق الحاكم، مثل الخراج المفروض على اليهود أو مداخيل ضرب السكة. لكن الأعراب كانوا يستخلصون من التجار، الرسوم الجمركية، ويتنقّلون من أجلها إلى غرس العيون، وكان عددهم أكثر من ستة آلاف فارس وخمسين ألف من المشاة.

أما اليوم، فإن إقليم سجلماسة خلص للشرفاء السعديين. أهل الأقليم أناس أفظاظ، ولا يستثنى فيهم من هذه الصفة إلا القليل، الذين يتاجرون مع السودان، فيأتون منه بالذهب والعبيد، مقابل بضائع مغربية يبيعونها هناك. غذاؤهم الأساسي هو التمر وقليل من القمح.

تزخر المنطقة بالعقارب التي لا تخلو منها المدن والقرى، ولا يوجد فيها أثر للبرغوث. تكون الحرارة مفرطة في الصيف، فتلهب أعين الناس وتنتفخ بسببها. عندما تنضب مياه النهر، يضطر القوم الر شرب مياه الآبار المالحة.

يهدد أعراب الصحاري مواقع الأقاليم بغاراتهم، فاتفق الأهالي على تشييد سياج واق حوله، يتجاوز طوله ثلاثين فرسخا، ويتّحدون لدفع الخطر عنهم، لكن سرعان ما يرجعون الى خلافاتهم بمجرّد ما يأمنون من الأعراب، ولا يبالون بصيانة السياج، فيندثر في كثير من الجهات، ويتسرّب اليهم الأعراب من جديد، فيسودون في البلاد.

يتاخم إقليم سجلماسة غربا، إقليم درعة، وشرقا، إقليم الرطم المحاذي لنهر زيز، وجنوبا، اقليم الضهرة وشمالا، جبال الأطلس الكبير المطلة على غرس العيون، بمملكة فاس.

الفصل الثالث والعشرون

سجلماسة: عاصمة الاقليم

سجلماسة مدينة قديمة، ترجع بعض الروايات بناءها إلى أحد الضباط الرومان، الذي قدم من موريتانيا واستولى على نوميديا بأكملها وزحف بجنوده حتىَ وصل الى المكان الذي يعتبر مدخل نهر زيز الى هذا الاقليم، وبنى مدينة ماسة، ثم سماها «سجلّو ماسة»، التي تعني في اللغة اللاتينية «خاتم النصر». والى جانب ذلك، تُردّد روايات أخرى ليست قابلة للتصديق، أن الأسكندر ذا القرنين هو

الذي شيدها لاستشفاء المرضى والمعطوبين من جنوده، ونحن نعلم ان الاسكندر لم يقدم إلى افريقيا البربرية.

تقع مدينة سجلماسة في سهل بجانب زيز، ولها أسوار عالية وجميلة ما زالت آثارها قائمة. كانت هذه المدينة زناتية، قبل أن يستولي عليها يوسف بن تاشفين وكانت غنية، تمرّ بها القوافل الرّاحلة الى السودان أو القادمة منه، وكان يوجد بها كثير من المساجد والمدارس، وفي كل حي كانت تتدفق المياه في النافورات والسقايات، وكان الماء يجلب إليها من النهر بواسطة ناعورات خشبية تدور، فتمتلىء أوعيتها بالماء، ثم تصبّه في قنوات تفرغه بدورها في مستودعات مرتفعة، ومنها يصبّ في قنوات أخرى تمرّ عبر المدينة.

إن الهواء هنا يبقى طيبا وصحياً، رغم الحرارة المفرطة التي تجتاح المنطقة في الصيف، ورغم الرطوبة العالية التي تنجم عنها، ورغم المرض الذي ينفخ العيون والحمى التي تصيب بعض الناس والتي يتم الشفاء منها بالحمية في بضعة أيام.

ان الحكام المرينيين الذي توالوا على المدينة كانوا طغاة، ولم يصبر السكان على ما ظلوا يعانونه من شدّة وقسوة، فثاروا على أحد الولاة وقتلوه، وكان ردّ فعل المرينيين عنيفا، إذ دكّوا المدينة دكّا، بعد أن أرغموا أهلها على الجلاء عنها، فهاجروا الى المواقع الثلاثة التي ذكرناها في الفصل السابق.

الفصل الرابع والعشرون

اقليم الرتب أو الرطم

يحاذي هذا الاقليم نهر زيز، ويتاخم اقليم المداغرة جنوبا واقليم سجلماسة شمالا، طوله عشرون فرسخا، وتوجد به عدّة قرى ومداشر يسكنها قوم من البرابر ينتمون الى قبائل آيت غريس، لكنهم لا يتحدثون بلهجة الغريسيين، وعلاوة على ذلك، يتصفون بالبخل والخوف والجبن، حتى لو اجتمع مائة رجل منهم، لا يستطيعون أن يغلبوا عشرة رجال من الأعراب، وهذا ما شجّع الأعراب على استعبادهم واستخدامهم بالمجّان، في الأشغال الفلاحية وغيرها.

يطل هذا الاقليم من ناحيته الشرقية، على جبل جذْب، أما في غربه، فلا توجد الا منطقة رملية يحط فيها أعراب أولاد المنبهي البالغ عددهم ألفي نسمة كلما عادوا من ليبيا، فينصبون الخيم، ويتحينون الفرص لابتزاز أهالي الاقليم، اذا ما تبيّن لهم ان السلطات الحاكمة غير قادرة على منعهم من ذلك.

الفصل الخامس والعشرون
اقليم مدغرة

يوجد هذا الاقليم طوال زيز، شمال الاقليم السابق ذكره، ويتاخم اقليم كنانة شمالا، في المنطقة المؤدية الى مملكة فاس. تقع معظم قراه ومداشره بجانب النهر، وأهمها بلدة هلالة مقرّ الحاكم العربي المنتمي الى قبائل المداغرة.

ونشير في هذا الصدد الى ان هذه القبائل انقسمت الى شطرين، شطر منها يحمل السلاح ويحرس التخوم ويحمي القرى والمداشر، والشطر الآخر آثر الحياة في البوادي وقد تناثرت خيمهم عبر الاقليم لمراقبة القافل والراحل، وليس بوسع أي أحد لا ينتمي الى الاقليم، أن يدخله دون رخصة. لذلك، يتعرّض المدغريون الى المسافرين والى القوافل، واذا ما لاحظوا أن قافلة لا تحمل اذنا بالمرور، جرّدوها من أمتعتها.

لكن السلطات المركزية بعثت بحامية الى الاقليم، لحماية المواطنين من الأعراب المنبهيين ولضمان أمن الطرق والقوافل.

الفصل السادس والعشرون
كنانة

تشكل كنانة إقليما آخر من أقاليم نوميديا، يخترقه نهر زيز، ويحده الأطلس الكبير شمالا، واقليم المداغرة جنوبا، توجد به عدة قرى ومداشر، كان أهلها قديما خاضعين للأعراب ولحكام غرس العيون، أما غيرهم من الأهالي، الذين كانوا يقطنون شمال الاقليم، فكانوا يتمتعون بحريتهم ويبسطون سيطرتهم على الطريق الرابطة بين فاس وسجلماسة، يستخلصون مكوس المرور من التجار والقوافل.

يوجد بشمال كنانة ثلاثة قصور محصّنة هامّة، أحدها صرح هائل يقع في قمّة جبل، يشرف على الطريق، حرّاسه يتداومون على مراقبة المرور في الأسفل، ويتقاضى كل واحد منهم ربع مثقال على كل حمل من أحمال القوافل. أما الحصن الثاني، فانه يبعد عن الأول بأربعة فراسخ، جنوبا، ويقع على منحدر جبل سكانه أغنى من سكان الحصن الأول وأكثرهم نبلا وأفضل منهم أخلاقا، في حين أن الحصن الثالث يقع على مسافة بضعة فراسخ من الثاني، ووسط الطريق الرئيسية،

غير بعيد عن مجرى النهر. أما ما عدا ذلك من القرى والقصور، فان أهلها غلاظ لا أخلاق لهم.

كنانة فقيرة من الناحية الفلاحية، وقلما تجد فيها حبّا ونباتا، لكن أهلها يملكون قطائع من الأمعاز، لا تخرج من كهوفها في فصل الشتاء، لأن القوم يسكنون بالمناطق الجبلية التي تكثر فيها الصخور، والمسالك الصعبة والضيقة والملتوية، حتى انه يمكن لرجلين فقط أن يعرقلا مرور جيش بأكمله. ويمتدّ الممر الرئيسي الخطير، عبر الأطلس، على مسافة طولها خمسة عشر فرسخا.

الفصل السابع والعشرون

السويهلة

السويهلة مدينة صغيرة محصنة على مقربة من الحدود الموريتانية وعلى مسافة أربعة فراسخ من اقليم سجلماسة، وقد بناها الأعراب وجعلوها مستودعا لادخار أمتعتهم ومؤنهم ولتأمينها أثناء غيابهم. يمرّ نهر زيز قرب هذه المدينة قبل أن يصب في صحراء الضهرة، وحولها لا يوجد أي نبات، ولا أي مصدر لموارد العيش، بل المنطقة كلها حجارة ورمال سوداء، تزيد المكان حزنا وغبنا.

الفصل الثامن والعشرون

مدينة تفلالت(12)

عندما شيّد البرابر هذه المدينة في سهل من الرمال، بنوا داخلها قصرا كبيرا وأحاطوها بالأسوار. يسكن فيها اليوم ما يزيد عن ألفي نسمة، سوادهم الأعظم من البرابر، وينسبون كلهم الى المدينة، فيطلق عليهم اسم فلالة.

أهل هذه المدينة أثرياء ومؤدّبون، ينتج نخيلهم أجود ما في نوميديا من التمار، ويملكون العديد من رؤوس الابل وغيرها من الأنعام. ويجد المرء في أسواقها أجود الجلود المستوردة من ليبيا وغيرها من جلود الجاموس كما يجد الثياب الزاهية المصنوعة من الحرير والصوف، والزرابي والأغطية الرفيعة وبضائع أخرى. يتوارد عليها التجار من شتّى الآفاق وحتى من أوربا. الا ان البضائع المستوردة لا تدخل المدينة

(12) أصبحت تفلالت فيما بعد تسمى قصر السوق ثم صارت في السنوات القليلة الماضية، تسمى الرشيدية. (مترج

الا بعدما يؤدي أصحابها رسوما جمركية تذهب الى صناديق الملك. وأشير الى أن تمر تفلالت هو الذي يباع في المتاجر الاسبانية، لان الملك السعدي كان يحرص الا يصدر الى الخارج إلا تمر هذه المدينة.

تتاخم تفلالت صحراء الظهرة، أما الطريق الرابطة بينها وبين فاس، فانها تمّر عبر جبال الأطلس الكبير. كان كل من أعراب أولاد سليم والأعراب الزرق يتقاسمون سيطرتهم عليها فيما مضى حتى أنهم تمكنوا من تنصيب حاكم عليها من جانبهم، غير أن أوضاع المدينة تغيّرت بعدما أقصى عنها الملك السعدي أولئك الأعراب، ودخل اليها مظفّرا بعد أن قصفها بالمدفعية، وقد تقدم لنا ذكر هذه الأحداث في الفصل الرابع من الجزء الثاني من كتابنا هذا.

الفصل التاسع والعشرون

اقليم طاطا

يسمى هذا الاقليم باسم أهم حاضرة فيه وهي طاطا. تكاد مساحته تعادل مساحة اقليم درعة، ويتاخم ليبيا واقليم تفلالت. أما الأهالي فانهم يسمّون طاطا، ويرطنون لهجة تتألف من مزيج من الكلمات العربية والبربرية لكنهم يتصفون بسمو الأخلاق والشجاعة، يملكون كثيرا من الخيول التي يغذونها بالتمر بدلا من الشعير.

تقع مدينة طاطا وسط النخيل وتحيط بها قبائل سكتانة وقبائل آيت واوزكيت [12]وكل عناصرها يدينون بالولاء لملك مراكش.

الفصل الثلاثون

فرْكَلة

فركلة منطقة يعمّرها قوم من أجلاف البرابر، لا يعرفون للأخلاق معنى ولا للانسانية مدلولا، ينتسبون الى قبيلة آيت غريس، وقد شيدوا قراهم طوال نهر صغير، يمرّ على مسافة قريبة من الأطلس الكبير، تقدّر بأربعة وثلاثين فرسخا جنوبا، وتبعد عن اقليم سجلماسة، بعشرين فرسخا.

(13) طاطا تقع بالسوس الأقصى، تحيط بها قبائل فيجا، وإينداوزل وسكتانة شمالا، وآيت أوبلال وآيت مريبط جنوبا. أما تجمع قبائل واوزكيت فانها بعيدة عنها، وتقع شمالها. هنا أيضا لا نعرف لماذا اختلط الأمر على مرمول، حيث وضع إقليم طاطا بسجلماسة، أو جعله متاخما لها. (المترجم)

أراضي هذه المنطقة لا تصلح للفلاحة، ولئن كانت تنتج أصنافا من الفواكه. تسقى أشجارها من ماء النهر، ولا يملك الأهالى الا قليلا من الأغنام والأمعاز.

تمسي هذه المنطقة، بين الفينة والأخرى، مسرحا لغارات أولاد الروقي، اولئك الأعراب الذين يهاجمون أيضا منطقة دادس.

ومع ذلك، فان أهل فركالة اشتهروا بشجاعتهم، ويوجد من بينهم فرسان برهنوا عدة مرّات على أعمالهم البطولية التي تكون الداعي الى كبريائهم وأنانيتهم والدافع الى اعتزازهم بأنفسهم.

الفصل الواحد والثلاثون

تِيزْرَايْن

يعني لفظ تيزْرَايْن، باللهجة البربرية المحلية، المدينتين، ويطلق هذا اللفظ على أجمل منطقة في نوميديا. ويوجد بها ست مدن وخمس عشرة قرية تتوالى مواقعها على طول نهر صغير ينصب من الأطلس الكبير ويتجه نحو الجنوب.

تبعد هذه المنطقة عن الجبال بعشرين فرسخا وعن فركالة بعشرة فراسخ. عندما اجتازتها وحدات من جيش المسلمين وهم على مذهب ديني يخالف مذهب الأهالي، انتقموا منهم بتخريب اثنتين من مدنهم، لا زالت آثارهما قائمة ولئن كنا نجهل اسميهما.

ان برابر تيزراين أكثر غنى من برابر فركالة، وأحسنهم خلقا وأدبا، وأكثرهم وداعة واحسانا؛ أراضيهم خصبة، حقولهم تنتج الحبوب، ونخيلهم يعطي كثيرا من التمر، ولا يتعرضون لغارات أعراب الصحراء، مع أنهم تفرعوا عن نفس الاصل الذي تفرّع عنه أهل فركالة.

الفصل الثاني والثلاثون

تُدغة(14)

تدغة منطقة تقع على بعد عشرين فرسخا من الأطلس الكبير وخمسة عشر فرسخا من اقليم سجلماسة غربا. توجد بها أربعة مدن وعشر قرى. أهالي

(14) تدغة نهر مفتوح عن واد غريس (المترجم)

تدغة لصوص وقطاع الطرق، ينتمون الى قبائل آيت غريس، أراضيهم غنية تنتج التمور والخوخ والأعناب والتين والرمان وفواكه أخرى يوجد مثلها فى أوربا. ورغم ذلك، فان الأهالي يتخبّطون في الفقر، بعضهم فلاحون، وبعضهم رعاة.

يجوب هذه المنطقة طوال السنة، أعراب أولاد حمرون الذين قويت شوكتهم، فراحوا يحتلون الصحاري المتاخمة لتدغة وقد تعوّدوا منذ عهد قديم، على إخضاع هذه المناطق الى نفوذهم وفرض الاتاوات على أهاليها، ولكن المنطقة أصبحت اليوم تابعة للسعديين.

الفصل الثالث والثلاثون

تبلبالت(15)

تقع هذه المدينة في جوف صحراء نوميديا، تبعد عن الأطلس بسبعين فرسخا، وعن اقليم سجلماسة بأربعة وثلاثين فرسخا من جهة الجنوب. وغير بعيد من تبلبالت، توجد ثلاث قرى، يحيط بها النخيل ذي التمر الجيد، لكن المنطقة تعاني من قلّة الماء ولا تعيش بها حيوانات أهلية. أما السكان، فانهم يصطادون النعام ويتغذون بلحومها أو يبيعونها الى السودانيين.

أهل تبلبالت فقراء ويخضعون لأعراب أولاد حمرون الذين يحتلون الصحاري المجاورة، يقيمون بها في الشتاء، ويبارحونها في الصيف، حيث يذهبون الى بلاد الجريد التابع لمملكة فاس.

الفصل الرابع والثلاثون

أمّ العفن

أم العفن تسمية لقصر منيع قبيح المنظر بناه الأعراب في منطقة خالية جرداء، في الطريق الرئيسية الرابطة بين درعة وسجلماسة. بُنِي القصر بأحجار سوداء كالفحم، يقيم فيه حرّاس يستخلصون باسم ملك مراكش، ضريبة المرور المحددة بربع مثقال لحمل جمل، ويجب على كل يهودي يمرّ من هناك، أن يدفع ضريبة ربع مثقال، كما كان الأمر في عهد الحاكم الأعرابي قبل احتلال الموقع من طرف قوات تابعة للسعديين.

(15) أصبحت اليوم تسمى تبلبالة، وتقع في الصحراء الجزائرية. (المترجم)

الفصل الخامس والثلاثون
أم الحدج

انه اسم لقصبة بناها الأعراب في صحراء نوميديا، يحفظون فيها مدّخراتهم من المؤن والأمتعة المختلفة، وتقع هذه القصبة على مسافة يوم من سجلماسة. ان المنطقة المحيطة بها جرداء، ليس فيها إلا الحجارة والتراب، قاسيّة جافّة، مستوحشة على الدوام.

الفصل السادس والثلاثون
بني كُومي

بني كُومي منطقة شاسعة من بين المناطق القاحلة التي تتميز بها صحراء نوميديا. وتشتمل هذه المنطقة على بعض جبال الأطلس ووادي كير وتنتهي ببحيرة يسميها بطوليموس، بحيرة كيلونيديا، ويحدد موقعها بثلاث وأربعين درجة وعشرين دقيقة على خط الطول.

تنتج بني كُومي كميات هامة من التمر، لكن أهاليها يعانون الفقر، ذلك ما يرغمهم على النزوح الى جهات أخرى، وخاصة مملكة فاس، حيث يعرضون خدماتهم على أهل البلاد، ويوّفرون الكثير من رواتبهم، فيشترون الخيول من الأسواق، ثم يبيعونها بدورهم الى التّجار الذين يذهبون الى السودان.

توجد بهذه المنطقة، ثمانية قصور وخمس عشرة قرية، تقع كلها على مسافة خمسة عشر فرسخا من سجلماسة، وتوجد في اتجاه واحد، من الجنوب الى الشرق.

تجوب هذه الديار الخالية، جحافل أعراب اشتهروا باللصوصية والمكر والخداع، ولا عجب أن تكون تسميتهم بأولاد السّراق، اسم يحمل مسماه، لأنهم ينشرون الرعب والفساد في الأرض بأعدادهم الهائلة التي تتضمّن أربعة آلاف فارس أو يزيدون، فاستأثروا بنفوذهم على البلاد. ولئن كانوا يقضون الشتاء في الصحراء، فانهم يرحلون في الصيف في اتجاه الشمال، قاصدين الاسترزاق لدى ملوك تلمسان، فيضمّوهم بصفة مؤقتة الى جيشهم. مقابل أجور معينة، للمشاركة في العمليات الحربية. وعلمنا أنهم في هذه الأثناء، يحاربون الى جانب الأتراك، وفي بعض الأجيان، يثورون عليهم، ويشهرون السلاح في وجوههم.

الفصل السابع والثلاثون
مزالق بوعنان

تطلق عبارة «مزالق بوعنان» على قصرين في صحراء نوميديا، يقعان على جانب نهر كَير، ويبعدان عن سجلماسة بمسافة يومين، تقطنهما جماعة من العرب الفقراء، ليس لهم قمح ولا شعير، ويتغذّون بقسط يسير من التمر أو مما يسرقونه على الحدود.

الفصل الثامن والثلاثون
القُصَيْر

انها مدينة صغيرة، بناها البرابرة قديما في صحراء نوميديا، جنوب سلسلة الأطلس الكبير التي تبعد عنها بسبعة فراسخ. يوجد بهذه المدينة منجم للرصاص، يستغلّه الأهالي، إذ يستخرجون الرصاص، ثم يصفونه من الكبريت، ويصنعون منه الكحل الذي يبيعونه بفاس، وذاك موردهم الوحيد لسدّ حاجياتهم.

وتجدر الاشارة الى ان منطقة القصّير غنية بمناجم مماثلة، كما هو الأمر بغيرها من المناطق التي تشابهها.

الفصل التاسع والثلاثون
بني بصري

هذه مدينة أخرى تقع على مسافة غير بعيدة من جنوب الأطلس الكبير. وقد شيد بها البرابر ثلاثة قصور، تنبع بجوارها عدّة عيون تسقى منها الحقول التي تنتج الفواكه ومختلف الخضر، لكن لا ينبت فيها قمح ولا شعير وليس فيها نخيل. ان أهم مورد السكان هو ما يدرّه عليهم استغلال منجم للحديد.

لا يوجد بهذه المدينة إلا قليل من المداشر، ويخضع أهاليها إلى حكّام دبدو والى الأعراب المتواجدين بذلك الاقليم.

الفصل الأربعون
كَبِّيض

تقع كَبِّيض على بعد ثلاثة أيام من اقليم سجلماسة جنوبا، وهي عبارة عن ثلاث مدن وعدد من المداشر، توجد كلها على ضفاف نهر كير، أهلها برابر خاضعون لنفوذ الأعراب، وليست لهم حقول للحبوب، وإنما يملكون شيئا من التمر.

الفصل الواحد والأربعون

فكّيك

تتألف فكّيك من ثلاثة قصور متقاربة، تقع وسط صحراء نوميديا، غرْب سجلماسة التي لا تبعد عنها الا بنحو مائة وخمسين فرسخا. يعيش أهلها في رخاء نسبي، إذ يملكون تمرا جيّدا وتصنع نساؤهم نسيجا من الصوف الناعم، يشبه الأغطية التي توضع على الأسرّة، ولكنها دقيقة وجيّدة الصنع، حتى يخالها المرء مصنوعة من حرير. وينقل هذا النسيج الى أسواق فاس وتلمسان حيث يلقى اقبالا كبيرا، ويباع بأثمان مرتفعة.

أما شبان فكّيك، فان العديد منهم يتعطّشون الى المعرفة وأصناف العلوم، فيتوجّهون الى مدارس فاس، وعندما يتخرّجون منها، يعودون الى مسقط رأسهم، وهم يحظون بعناية السكان، فيسندون الى بعضهم مهام تعليم أبنائهم، في حين، يصبح آخرون أئمة وخطباء في المساجد، ومنهم من يفضّل ممارسة التجارة مع أهل السودان.

بقي أن نقول ان أهل فكّيك يخضعون الى هيمنة أعراب أولاد السرّاق.

الفصل الثاني والأربعون

تسبين

يطلق هذا الاسم على إقليم صحراوي في نوميديا، يبعد عن سجلماسة بمسافة تسعة أيام وعن الأطلس بأربعة وثلاثين فرسخا ولا يسكنه سوى البرابر الذين تجمّعوا في أربعة قصور وفي عدد من المداشر تقع كلها في المنطقة المتاخمة لصحراء ليبيا من جهة، والمتاخمة لمملكة أكدز في بلاد السودان من جهة أخرى.

وللمزيد من التدقيق، نقول انها كذلك، في الطريق الرابطة بين فاس ومملكة تلمسان.

يتخبّط أهالي تسبين في الفقر، إذ لا يحصدون الا قليلا من الحبوب ويجنون كميات ضئيلة من التمر. بشرة أغلبيتهم شديدة الاسمرار، لكن نسائهم جميلات.

الفصل الثالث والأربعون

تيكَورارين(16)

تقع هذه المنطقة بصحراء نوميديا، وتبعد عن تسبين بنحو أربعين فرسخا، يسكن أهلها بخمسين قصرا متفرّعة وبأكثر من مائة مدشر وسط النخيل الفسيح. أهل تيكورارين أغنياء، ويتنقلون كثيرا الى السودان من أجل التجارة التي تدرّ عليهم أرباحا طائلة.

وتشكل هذه المنطقة نقطة التقاء وتجمّع بالنسبة للقوافل التي تعبر صحاري ليبيا، إذ يتجَمَّع هناك التجار الوافدون من بلاد البربر وغيرها، فيرحلوا معا الى السودان.

ان التربة الموجودة بهذه المنطقة رديئة للغاية، وقلما يجد السكان ما يصلح من الأرض للفلاحة، واذا وجدوا ما يبتغون، فتكون الفلاحة عسيرة، إذ ينبغي عليهم جلب الماء من الآبار لسقي الأراضي المحروثة وتسميدها بالفضلات الحيوانية. لذلك، مضى السكان يعرضون المأوى بالمجّان على الغرباء الذين يردون إلى المنطقة، سعيهم وراء ذلك، تحصيل روث البهائم والأنعام، لذرّه على الحقول.

من بين انعكاسات الجفاف على العيش بالمنطقة، غلاء اللحوم لأن تيكورارين لا تتوفر على أغنام أو أبقار، فيضطر الناس لأكل لحوم الخيول أو لحوم الجمال الهرمة التي يشترونها من الأعراب الذين يتوافدون على السوق الأسبوعي، كما يتغذون بالشحم المملّح الذي يأتي به التجار من فاس أو تلمسان.

كان يقطن بالمنطقة عدد من التجار اليهود الذين نزحوا من الأندلس بعدما طردوا منها(17)، الا ان أحد فقهاء(18) تلمسان أفتى في القوم بإباحة نهب أموالهم، فلم يكتف الناس بذلك، بل قتلوا السواد الأعظم من أولئك اليهود.

عندما كنا مقيمين بإفريقيا، كانت امبراطورية الشرفاء(19) تمتدّ من نوميديا الى اقليم نون، على شاطىء المحيط. وكان الحكّام المحليّون يسيّرون شؤون الأهالي

(16) تعني لفظة تيكورارين بالبربرية، الثكنات العسكرية، وتسمى اليوم كورارة وتقع شمال توات. (المترجم)

(17) تم طرد اليهود من اسبانيا عام 1492م، بأمر من الملكين الكثوليكيين فرناند وايزابيل. (المترجم)

(18) يسمى محمد المغيلي، الذي استقر أولا في واحات التوات، ثم لجأ الى تقدَّ، بصحراء الأير، وبعدها استوطن كتسينة ثم كانو، وكانت هذه المدن تابعة لمملكة كاو وبرنو. (المترجم)

(19) الشرفاء السعديون. (المترجم)

ويتمتعون باستقلال ذاتي، وكان الغرباء المقيمون في مختلف الأقاليم، ينعمون بالأمن والاطمئنان على أنفسهم وأموالهم، رغم الفتن التي كانت تندلع نيرانها بين الحين والحين، هنا وهناك، بسبب الحسد والنزاعات الداخلية بين القواد والحكّام الذين كان أكثرهم بأسا، أولئك الذين يستعينون بأعراب بني عمير، الذين كانوا يترَحلّون في الصحاري الواقعة بين تخوم مملكة تلمسان وديار بني هلال، ذوي الثروة الهائلة والشوكة القوية إذ كانوا يتوفرون على قوات عسكرية هامة ويملكون أكثر من عشرة آلاف حصان.

ولا يخفى ان بني هلال مضوا يعتزون بأنفسهم،ويدّعون أنهم أحفاد اسماعيل ومن أبناء صحراء الجزيرة العربية، ويتنافسون في الشرف مع بني معقيل المنحدرين من أهل سباء والنازحين من اليمن. لذلك، راح المسلمون يخصّون بني هلال بالاحترام ويعتبرونهم أمجد الأعراب وأرفعهم مقاما.

الفصل الرابع والأربعون

المِزاب

تبعد منطقة المِزاب بنحو مائة فرسخ من تيكورارين غربا، وتبعد بنفس المسافة عن سواحل البحر المتوسط شمالا. يقطن سكانها في ستة قصور وعدد من القرى.

اشتهر أهل المزاب بما حباهم به الله من ذكاء في التجارة، ومهارة في المعاملات مع أهل السودان، ذلك ما أهّلهم للقيام بدور الوساطة بين تجار مملكة بجاية والجزائر من جهة، وتجّار السودان من جهة أخرى، وتتبوأ المزاب مكانة هامّة إذ ان موقعها جعل منها ممرّا للقوافل التجارية في الاتجاهين، فيقف بها أصحاب البضائع ويؤدون المكوس الجمركية عمّا تحمله جمالهم، فتضاف هذه المداخيل الى موارد الأهالي وتزيد في ثرائهم.

ونشير بالمناسبة الى أن صحاري دولة طرابلس، تكون مسرحا لتحركات وتنقّلات أعراب أولاد سميت وأعراب أولاد يحيى الذين يعدّون بالآلاف ويحسبون في صفوفهم ما يزيد عن ثمانين ألف مقاتل، معظمهم من المشاة، رغم امتلاكهم العديد من الجمال.

الفصل الخامس والأربعون

تُقُّورْت[20]

بنى النوميديون هذه المدينة العتيقة على جبل يمّر بسفحه نهر صغير، وضع الأهالي فوقه جسرا متحركا، ثم سوّروا المدينة بسور من الحجر، ما عدا ما يقع منها على مقربة صخور عظيمة تقوم بحمايتها.

تقع هذه المدينة على مسافة مائة فرسخ من تيكورارين وتبعد عن البحر المتوسط جنوبا، بنحو مائة وخمسين فرسخا، ويعمّرها ألفان وخمسمائة منزل مبنية بالحجر وبالآجور. سكانها نبلاء وأغنياء، يملكون نخيلا مثمرا، لكن المنطقة لا تنتج من القمح الا النزر اليسير، فيجلب أهلها الحبوب من قستنطينية. مقابل الثمر. يحب أهل هذه المدينة الغرباء، وإذا استضافوهم، أكرموهم، ويأوونهم دون مقابل، ويفضّلون أن يزوجوهم بنَاتهم، بدلا من ان يزوجوهن أهل البلد، ومن عادة الآباء أن يقدّموا مهورا الى الأصهار، وذلك باشراكهم في الارث، كما هو الشأن بأهل أوربا وإذا ما تبيّن لهم أن الغرباء لم يزوروهم بنيّة الزواج، وانهم لن يطيلوا الاقامة بين ظهرانيهم، قدّموا اليهم هدايا هامّة، قبل أن يرحلوا.

كانت المدينة في أول الأمر خاضعة لملوك مرّاكش ثم صارت تابعة لسيادة مملكة تلمسان، لكنها في أيامنا هذه، خاضعة لملك تونس الذي يستخلص من السكان اتاوة قدرها خمسين ألف مثقال في السنة، على شرط أن يتقدم بنفسه لهذه الغاية.

تتراوح مساحة هذا الاقليم، ما بين ثلاثين وأربعين فرسخا مربّعا، وتوجد به عدة قرى وبعض القصور، ويؤدي السكان قاطبة الى الحاكم، خراجا سنويا يقدّر بمأتي ألف مثقال. اما الحاكم الحالي، فهو عبد الله[21]، القائد الشجاع والبطل الشهم الذي يحرص على سلامة السكان وأمن الاقليم، بحرس يتألف من الفرسان ورماة القذائف والبنادق ومن المشاة، وقد استأجر عناصر حرسه من بين المقاتلين الأتراك. لكن ذلك الحاكم لم يكن يعلم ما يبيّته الأتراك الذين أوفى لهم الأجر والعطاء، ومنحهم من الامتيازات ما لم يحلموا به، فدبّروا المكائد، وحاكوا المؤامرات، وشنوها عليه حربا غاذرة فأطاحوا به واستولوا على تقّورت واقليمها، وسلموها لقمة سائغة الى السلطات التركية الحاكمة بالجزائر.

(20) تقع تقورت على الطريق المؤدية من بيسكرة الى ورغلة، بالجزائر. (المترجم)

(21) هو عبد الله بن محمد الشيخ. (المترجم)

لكن الاهالي لم يتحمّلوا استبداد الأتراك، فانتفضوا لمقاومة المحتلّين، وأبادوا العديد من جنودهم، فأرسل صلاح الدين الرايس، الحاكم التركي بالجزائر، جيشا يتألّف من الأتراك والمرتزقة الأعراب، وضربوا على تقورت حصارا شديدا آل الى استسلامها، ولما دخلوها نهبوها نهبا، الا أن محمداً ملك مراكش، انتزع المدينة منهم، وأخذ يسوسها، فوجد السكان أن ظروفهم أصبحت مع الشرفاء. أفضل مما كانت عليه مع الأتراك.

أعراب أولاد صُبْيرَ يضربون في الصحاري المتاخمة لاقليم تقّورت، فيستأجرهم الأتراك كلّما احتاجوا الى تعزيز قواتهم، لكن هذا لم يمنع حدوث مناوشات وحروب بين هؤلاء وأولئك من حين لآخر، خصوصا وأن أولاد صبير يتوفرون على جيش يوجد ضمنه أكثر من ثلاثة آلاف فارس، يحملون أجود الأسلحة.

الفصل السادس والأربعون

ورغلـة

بنى البرابر هذه المدينة العتيقة في صحراء نوميديا، وأحاطوها بأسوار من الآجر، وشيّدوا فيها منازل جميلة. يوجد بضواحيها كثير من النخل، تتخلله القصور المنيعة والقرى المحصنة.

نزل بهذه المدينة أول أمير لمتوني[22]، فقضى بترتيبها وتنظيم تعميرها. يسكنها حاليا تجار صنهاجيون أغنياء، تكوّنت ثروتهم من التجارة التي يمارسونها مع السودان، كما يسكنها عدد من الصناع، ويتوافد عليها تجّار من قسنطينية وتونس وغيرهما، يعرضون البضائع التي يأتون بها من بلاد البربر، ويستبدلونها ببضائع واردة من السودان، لكن المدينة تنقص قمحا وأنعاما، فيتغذّى الناس بلحم الجمل وبلحم النعامة. ان معظم السكان سود، لا لأن الطقس أثّر على بشرتهم، بل لأنهم يضطجعون الى فراش جواريهم السوداوات، فتلد لهم أولادا يشبهون أمهاتهم.

يتميز أهل ورغلة بما فيهم من أدب ولباقة، ويحسنون التعامل مع الغرباء، لأنهم لا يملكون الا ما يأتي به الغرباء، ويشرّفون أميرهم ويقيمونه مقام الملك،

(22) يوسف بن تاشفين. (المترجم)

لذلك، نراه يتوفر على حرس يتألف من ألف فارس، ويؤدي له السكان جبايات يتجاوز قدرها مأتي ألف مثقال، زيادة على ما يجبيه من القبائل العربية.

تحد مملكة ورغلة شمالا مملكة القيروان وصحراء ايغيدي بليبيا، وتحدها شرقا صحاري برقة، وغربا، تحدّها صحاري نفيفة ونفريس. ويجوب بمقربة هذه المنطقة أعراب أولاد حمرون، وأولاد السيّد وأولاد يحيى الذين يسيطرون على صحراء ليبيا من هذه الجهة. ويملكون الأنعام والمواشي وكثيرا من الجمال، وكلهم أغنياء؛ يقضون الصيف في الصحاري، وينتقلون في الشتاء الى المملكات المجاورة لبيع أنعامهم واستخلاص الاتاوات. يتوفر أولاد حمرون وأولاد السيد على أكثر من خمسين ألف جندي، من بينهم ستة آلاف فارس أو يزيدون.

ان قبائل اللمتونيين تسكن بهذه المدينة وبالاقاليم الواقعة بينها وبين صحاري ليبيا، ومن هذه المدينة أيضا انطلقت جحافلهم الذين يسميهم مؤرخونا بالمرابطين، وعلى رأسهم يوسف بن تاشفين، لغزو المغرب واسبانيا، وكانت هذه الأقاليم تشكل في القديم مملكة جوبا، ذلكم الملك البربري الذي تحالف مع بومبي ضد قيصر[23] والذي انتحر، لكيلا يقع أسيرا بيد الامبراطور الروماني.

الفصل السابع والأربعون

الـزاب

الزاب أحد أقاليم صحراء نوميديا، وقد تعرضنا له باختصار بصدد حديثنا عن مملكة تونس لأنه ظل حينا من الدهر تابعا لسيادتها. يبتدىء هذا الاقليم غربا بتخوم صحراء مسيلة التي يجوبها أعراب أقوياء، وتحده شمالا جبال بجاية، وغربا، اقليم بلاد الجريد التابعة لمملكة تونس، وجنوبا، يتاخم الصحاري التي تمرّ بها الطريق الكبرى الرابطة بين تقّورت وورغلة. كانت عاصمة الاقليم تسمى المِزاب، التي بناها العرب، وجعلها عرب آخرون حصيدا بسبب الخلافات الدينية.

منطقة الزاب صحراء ذات رمال حارّة، تعجّ بالعقارب والأفاعي السامّة، وتنساب عَبرها جداول هامّة في كثير من الواحات، لكن لا توجد بها أرض

(23) كان بومبي وقيصر يتقاسمان الحكم في روما، ابتداء من عام 53 قبل الميلاد. لكن خلافات حادة نشبت بينهما وتسببت في حرب ضارية بين الجانبين، وكان النصر حليف قيصر (52 ق. م). عندها، فرّ مومبي إلى مصر، لكن قيصر أوفد بعض الجواسيس فقتلوه وانهزمت بعد ذلك القوات الافريقية التي تحالفت معه، بزعامة جوبا الأول (43 ق. م.) بمدينة راس الديماس (تابسوس) الواقعة بتونس، غير بعيد من صفاقس. (المترجم)

صالحة للفلاحة. أما من الناحية العمرانية، فلا زالت توجد بها خمس مدن قديمة سيأتي الحديث عنها في الفصول القادمة.

يجوب صحراء الزاب أعراب أغنياء يحظون بشهرة فائقة، وهم أعراب سُمَيت وأعراب السّيّد، وقلما تمرّ مناسبة دون أن يستنجد بهم ملوك تونس أو ملوك تلمسان لتعزيز قواتهم في الحروب، لأن فيهم أكثر من تسعين ألف مقاتل، أغلبهم من المشاة.

الفصل الثامن والأربعون
بسكرة

انها مدينة عريقة في القدم، بناها الرومان يوم كانوا يحتلون بعض المراكز في افريقيا، لكن بعض معالمها تعرّضت للدمار بسبب الحروب، وأعاد العرب بناءها مرّة ثانية، وأحاطوها بأسوار من الآجور. يسكنها اليوم قليل من الناس، يعمّ الفقر أوساطهم لأن أرضهم لا تنتج سوى التمر.

تعاقب على حكم هذه المدينة حكام عديدون، فقد ظلت مدة من الزمن خاضعة للسيادة التونسية. ولمّا توفي الملك عثمان[24]، دعا إمامُها السكانَ الى التمرّد على السلطة التونسية، فبايعوه للامارة عليهم، وخلفه أبناؤه على الحكم بالمدينة. ولم يفلح ملوك تونس في استرجاع سيادتهم عليها بعد وفاة عثمان.

يتولّد ببيوت بسكرة، العديد من العقارب والأفاعي السامّة القاتلة، حتى ان السكان يهجرونها في الصيف، ولا يعودون اليها الا خلال شهر نونبر. توجد المدينة اليوم تحت نفوذ الأتراك الذين احتلوها في عهد الحسن آغا، حاكم الجزائر. كانت بسكرة قديما هي مدينة زَامَة التي أمّن فيها الملك جوبا الأول كنوزه، قبل أن يعلن عن تحالفه مع بومبي، ضد الامبراطور قيصر.

الفصل التاسع والأربعون
البرج

تقع هذه المدينة غرْب بيسكرة، وتبعد عنها بمسافة خمسة فراسخ، لكنها أكثر منها سكانا، وذلك راجع الى ما حولها من أراضي صالحة للفلاحة، والى عدد

(24) هو السلطان أبو عثمان الحفصي الذي تولّى الملك في تونس من عام 1434 حتى وفاته عام 1488.(المترجم)

الصنّاع الذين جلبتهم. ومع ذلك، فان المنطقة جافة، ولا تسقى الحقول الا من المياه التي تمرّ في قنال. ويوزّع الماء حسب الساعات وبالتناوب ذلك ما يتسبب في خلافات حادّة بين الفلاحين.

الفصل الخمسون

نفطة(25)

تتميز هذه المدينة بكونها مقسّمة الى ثلاثة أحياء كبرى، يفصل كل حي عن الآخر أسوار عالية، وتوجد قصبة بأحد الأحياء الثلاثة، يظهر من أسلوب بنائها وهندستها أنها قصبة رومانية.

نفطة مأهولة جدّا ولا أثر لوجود شرطة بها. كان سكانها قديما يرفلون في الثراء، لأن المدينة كانت تتاخم صحراء ليبيا وتوجد في الطريق المؤدية من بلاد البرابر الى السودان، غير أنهم ثاروا عدّة مرّات على ملوك تونس، فتعرّضوا بسبب ذلك الى عمليات قمعية من طرفهم، نتج عنها نهب المدينة وافلاس سكّانها، وقد مضى على ذلك ما يزيد عن مأتي سنة، الا أن الملك محمدا أبا الحسن، ملك تونس، والذي أعاده الأمبراطور كارلوس الخامس الى العرش، استولى على المدينة بالقوّة وفتك بعدد كبير من مترفيها ووجهائها ودمّر جزءا من أسوارها ومعالمها.

يمرّ نهر صغير قرب مدينة نفطة، يشرب منه السكّان ويسقون منه حقولهم، ولو أن ماءه حار.

الفصل الواحد والخمسون

دوقّـة

انها مدينة قديمة شيّدها البرابر على جانب نهر صغير ماؤه حارّ، تحيط بها أسوار قبيحة المنظر. منطقة هذه المدينة جافة، لا ينبت فيها قمح ولا شعير، لكن أهلها يملكون عددا هامّا من النخل يجود عليهم بكميات وافرة من التمر. ومع ذلك، يعاني سكانها من الفقر، ويثقلهم حكّام تونس بالضرائب، والأعراب بالاتاوات، ونشير الى أنهم يتّصفون بالبخل والغطرسة وكراهية الغرباء.

(25) تقع نفطة قريبا من توزر، غير بعيدة من الحدود الوسطى بين الجزائر وتونس. (المترجم)

الفصل الثاني والخمسون

دوسَّنْ

دوسَّنْ مدينة قديمة بناها الرومان بالحدود المتاخمة لمملكة بجاية. لما دخلت الجيوش الاسلامية الى افريقيا، ضربت عليها حصارا استغرق سنة كاملة، وعندما استولى عليها المسلمون عنوة بعد انهزام الحامية الرومانية، قتلوا جميع رجالها وسبوا نساءها وأطفالها وخرّبوا جدران منازلها ولم يبقوا الا على أسوارها نظرا لمتانتها. هذا ولئن أصيب بعض هذه الأسوار بالخراب، فلا أحد يعرف هل كان ذلك نتيجة لزلزال ما أو لسبب آخر.

وتوجد على مقربة من المدينة أطلال لبعض الأبْنية، ومن بينها بعض القبور. ويعثر الناس، من حين لآخر، في الحقول، بعد تهاطل الأمطار وانجراف التربة، على ميداليات من الذهب والفضّة والنحاس، نقش عليها رأس انسان وحروف لاتينية، كما يعثرون على بعض نماذج الصناعة اليدوية.

يطوف على منطقة دوسّن، أعراب أولاد مسلم الذين يقيمون باستمرار في صحراء مسيلة.

الفصل الثالث والخمسون

بلاد الجريد

تمتدّ بلاد الجريد من تخوم بسكرة الى جزيرَة جربة. ومن مناطق هذه البلاد، نذكر المنطقة التي توجد بها مدينتا توزر وقفصة والتي تبعد كثيرا عن البحر المتوسط. وهذه البلاد شديدة الحرارة وقلّما ينزل فيها المطر، ولا تنبت فيها الحبوب. ومع ذلك فانها تنتج كميات وافرة من التمر الجيد، ولهذا يسمّى الاقليم كله بالجريد، أي بلاد التمر الذي يتم تسويقه في مدن وقرى الشواطىء التونسية وفي كثير من بلاد البرابر.

سنصف بالترتيب مدن بلاد الجريد وقراه، ونشير هنا الى أن هذا الاقليم كان يشكّل مملكة القرطاجيين الذين يطلق عليهم كذلك لقب «النفزاويين» وتحمل أحد المدن القديمة اسمهم. يحدّ هذا الاقليم غربا، اقليم فزّان الذي يخضع أهله الى حكام طرابلس الغرب.

الفصل الرابع والخمسون

تـوزر

بنى الرومان هذه المدينة بصحراء نوميديا، على ضفاف نهر صغير يصبّ من جبال تقع جنوب البلاد. كان يعمّرها زهاء خمسة آلاف كانون. لكن، اذا نظرنا الى مساحتها ومحيط أسوارها الجميلة التي لا زالت آثارها قائمة، تبيّن لنا ان عدد الأسر كان أكثر من ذلك.

لما دخل المسلون الى افريقيا، حاربوا الحامية الرومانية التي كانت تدافع عن توزر، ولما استولوا على المدينة، خرّبوا عدة منازلها الجميلة، ولم يبق منها اليوم الا أطلال موحشة.

سكان توزر أغنياء، عندهم أموال طائلة، وكميات وافرة من التمر، ويرجع ثراؤهم الى تجارتهم الرابحة، إذ تشهد المدينة أسواقا هامّة يقصدها الناس من مختلف القبائل.

يخترق المدينة نهر فيقسمها الى شطرين، شطر يسكنه الأغنياء والوجهاء وشطر استوطنه قوم من الأعراب منذ دخول المسلمين الى افريقيا، ويعيش الشطران في عداء، ولا يعترف سكان توزر بملوك تونس الذين يضطرّون الى التنقّل شخصيا الى المدينة لانزال أشد العقوبات بأهلها، كما فعل مولاي محمد والد السلطان الحالي مولاي حسن، قبل وفاته بقليل، وكما يفعل الأتراك اليوم، كلما حان موعد استخلاص الجبايات.

الفصل الخامس والخمسون

قفصة

بنيت قفصة في عهد الرومان وصمدت مدّة طويلة في وجه العرب بعد دخولهم افريقيا، لكنها استسلمت لجيوش عقبة بعدما ضرب عليها حصارا شديدا. ولما دخل اليها عقبة، هدّم أسوارها، لكن قلعتها لا زالت قائمة، لأن جدرانها كانت مبنية بالحجر الكبير كما هو الأمر بمسرح روما العتيق، ويبلغ علو جدران القلعة خمسة وعشرين ذراعا، وعرضها خمسة أذرع.

قام السكان بعد الغزو الاسلامي بترميم الأسوار، لكن يعقوب المنصور أمر بتهديمها مرّة أخرى، بعد مقتل حاكمها وأبنائه أثناء احدى المعارك، وعيّن عليها واليا آخر كما عيّن ولاة جددا على جميع الأقاليم، ونشر جيوشه في كل مكان.

أصبحت اليوم المدينة آهلة بالسكان، وتوجد بها بعض المساجد الضخمة ومعبد، لكن هندسة منازلها رديئة، شوارعها عريضة ومبلّطة بالحجر الأسود، وتشبه في ذلك، مدن ايطاليا. الا أن السكان يعانون من الفاقة بسبب ما يجب عليهم أن يدفعوه من ضرائب هامّة الى ملوك تونس. في وسط المدينة توجد نافورات أحواضها عميقة ومربّعة وتحيط بها جدارات بينها وبين كل نافورة بقعة للاستحمام، لأن ماءها حار، غير أن الناس يشربون منه بعدما يتركوه يبرد ساعة أو ساعتين.

هواء قفصة واخم، لذلك ، فان السكان يصابون دائما بالحمى. انهم قوم أشرار الى أقصى حدّ، ويشعرون بالبغضاء نحو الغرباء، ولهذا السبب، فإن أهل البلاد يكرهونهم قاطبة. يوجد في ضواحي المدينة عدد كبير من النخيل وشجر الزيتون والبرتقال والليمون. أما تمر هذه المنطقة، فانه غليظ ولا أجود منه في الاقليم كله، وكذلك الأمر بالزيتون الذي تفوح منه رائحة طيبة. وعلى الجملة، فاننا نجد في المدينة أربعة أشياء ليس لها مثيل في الجودة، وهي : النسيج، الأواني الفخّارية، والتمر والزيتون. يرتدي هناك الرجال والنساء ملابس ملائمة، متطابقة مع أذواقهم، لكن أحذيتهم خشنة، وقد تعمّدوا شكلها وصنعها من جلود الوحوش، لكي تبقى صالحة للاستعمال مدة طويلة.

الفصل السادس والخمسون

نفزاوة

نفزاوة عبارة عن ثلاث قصبات متقاربة آهلة بالسكان، لكن أسوارها ومنازلها رديئة ليست لها قيمة فنّية. تنتج منطقة نفزاوة تمرا جيدا للغاية ولكن الأرض لا تنبت فيها حبوب، وذلك سبب فقر السكان الذين تتضاعف فاقتهم بالجبايات التي تثقل كواهلهم، ويبعدون عن شاطىء البحر، بثمانية عشر فرسخا(26).

(26) المسافة الحقيقية بين نفزاوة والبحر المتوسط، هي 150 كيلومتر. (المترجم)

وصَفنا من مملكة تونس، قابس وجزيرة جربة، ولا يبقى لنا أن نقول الا أن أهل البلاد يسمون النبصامونيين، ولعلهم يكونون هم الشّاميين الذين تحدث عنهم التاريخ.

الفصل السابع والخمسون
تاورغة

تاورغة منطقة آهلة بالسكان تقع في تخوم دولة طرابلس على حدودها مع صحراء برقة، ويوجد بها ثلاث مدن وعدة قرى وعدد كبير من النخل، ويشكّل التمر أهم مادة غذائية لدى السكان، لأن البلاد لا تنتج حبوبا. فيبقى الأهالي منزوين في صحرائهم، لا يمارسون التجارة الا نادرا، وهم محرومون من كل شيء، معرّضون على الدوام لِلَسعات الزواحف السامة القاتلة.

الفصل الثامن والخمسون
يزليط

توجد منطقة يزليط(27) على شاطىء البحر المتوسط، حيث القرى العديدة والنخيل الفسيح. يتمتع السكان برخاء لا بأس به نظرا لموقعهم بجانب البحر والذي يمكنهم من مزاولة التجارة مع المصريين والصقّليين، ويستبدلون تمرهم بما يحتاجون اليه من بضائع.

الفصل التاسع والخمسون
غدامس

غدامس منطقة شاسعة مأهولة، يوجد بها عدد كبير من القصور والقرى الكبيرة. تبعد جنوبا عن البحر المتوسط بنحو مائة فرسخ، وتتشكل ثروات الأهالي من التمر والأموال لأنهم يتّجرون مع بلاد السودان. ويدبّر شؤونهم حاكم من أنفسهم، مع العلم أنهم كانوا يؤدّون في الماضي الاتاوة الى الأعراب، غير ان

(27) تسمى اليوم زليطن. (المترجم)

الأتراك أصبحوا اليوم يستخلصونها منهم، لكن في بعض الأحيان، يتضامن الأهالي مع الأعراب، ويُلحقون بالاتراك إصابات هامّة، فيردّونهم من حيث أتوا، خاسرين.

لا ينبت في هذه البلاد إلا القليل من الحبوب، وتكاد اللحوم تنعدم بها، وحتى إذا ما وجد الناس ما يشترونه منها، فان أسعارها تكون باهضة.

الفصل الستون

فـزان

انها منطقة صحراوية تتاخم صحراء ليبيا ومملكة أكّدز وبلاد السودان ومصر، وبها توجد آثار تلك المدينة التاريخية العظمى والتي تسمى الكفرة، البعيدة عن القاهرة بمسافة ستين يوما، في مكان كله رمال وكثبان، خال من أي أثر للحضارة، لا توجد به سوى مدينة أوري.

لكن فزّان دولة غنية تتشكل ثرواتها من التمر والأموال التي يربحها أهلها من التجارة مع السودان. تتمتع هذه المنطقة بحكم ذاتي، وتصرف مداخيلها لفائدة السكان، وهم يؤدون اتاوة الى الأعراب. لكن الخبز واللحم نادران هناك، ولا يجد الناس لحم ما يقتاتون به عادة، سوى لحم الجمل، وثمنه مرتفع ليس في متناولهم قاطبة.

الكتاب الثامن

ليبيا أو الصحراء

الفصل الأول
ليبيا الداخلية أو ما يسمى بالصحراء

تشكل الصحراء القسم الثالث من افريقيا، حسب الترتيب الذي وضعناه لكتابنا، لكنها تقل أهمية عن نوميديا(1)، لأنها لا تتضمن إلا صحاري شاسعة قفرة، لا ينبت فيها شجر وليس فيها نخل.

تبتدىء الصحراء، عند المحيط غربا، وتتاخم مصر قبلة، وتحدها نوميديا شمالا، وبلاد السودان جنوبا، بالاضافة الى نهر النيجر الذي جعلته الطبيعة حدا فاصلا بين الصحراء وبين ما بعدها. ان الصحراء التي نحن بصددها، تمتدّ من المحيط الى ضفاف النيل الذي يحاذي بدوره البحر الأحمر ويصب في البحر المتوسط. ويكاد عرض الضهرة يبلغ مائة فرسخ(2). أغلبية مناطق هذه الصحراء مهجورة، وبعضها يسكنه أقوام من الفقراء والبؤساء، يعيشون في الخلاء كالوحوش، بين جبال صلداء وأراضي جدباء، لا ينبت فيها الا شجر مشوك لا نفع فيه، وتعج بالحيوانات الوحشية والعقارب ومختلف الزواحف السامّة. يبلغ القحط فيها درجته القصوى، حتى أن أهاليها لا يجدون ما يقتاتون به سوى الجراد الذي يأكلونه مشويا أو مجفّفا بالشمس.

والواقع، ان الجراد آفة من الآفات التي تضرب نوميديا بين الفينة والأخرى، حيث يأتيها في شكل أسراب كثيفة كالسحاب، تحجب الشمس عن الأرض، ولا تمر هذه الأسراب الجرادية على بقعة خضراء إلا وتركتها صعيدا جُرُزا، ولا تقلع عنها الا بعدما تكون قد غرست فيها كميات لا تحصى من البيض الذي لا يلبث الا قليلا حتى يفقص، ويبعث منه جراد قصير بدون أجنحة، فيتسلط بدوره على الأشجار والأغصان، فيجرّدها بدون هوادة، من قشورها التي يأكلها، ويتسبّب بذلك، في المجاعة التي تصيب أهل البلاد، وخاصة شمال القارة.

(1) تبقى نوميديا، في اصطلاح المؤلف، مجموع الأراضي الصالحة للفلاحة، في شمال افريقيا. (المترجم)

(2) اذا كنا نعلم أن الفرسخ يكاد يعادل أربعة كيلومترات، فان المؤلف أخطأ في قياس المسافة الفاصلة بين المحيط والنيل، والتي تقدّر بستة آلاف كيلومتر، أو ألف وخمسمائة فرسخ. (المترجم)

نشير بالمناسبة الى ان أمل ليبيا وأهل الجزيرة العربية الذين تتشكل بلادهم من أراض قاحلة، يعتبرون الجراد نعمة تنزل عليهم من السماء، فيأكلون منه ويدّخرون.

عندما يبرح الجراد الجزيرة العربية، يجتاح بلاد مصر ونوميديا وبلاد البربر، وينتهي به المطاف باسبانيا حيث يَحُطُّ الرِّحَال بحقولها النضرة، فتصبح حصيداً كأن لم تَغْنَ بالأمس.

الأراضي الليبية في مجملها، ليست صالحة للفلاحة، باستثناء القليل منها جداً، والذي يقع على ضفاف الأنهار والبحيرات، ولاسيما في الأقاليم التي يسكنها الحبشيون. وما عدا ذلك من الفيافي والقفار، فان الأعراب اتخذوه مرتعا لحلّهم وترحالهم، ويطلقون عليه بصماتهم باعطاء مختلف مناطقه، أسماء عربية. وهكذا، فان لفظة الساحل تعني عندهم الأراضي الرملية القاحلة. ولفظة الاصكّر تدلّ على الأراضي الرملية التي تنبت فيها بعض الأعشاب أو شجر قصير. أما الصحراء، في اصطلاحهم، فانها تدلّ على الأراضي التي لا يوجد فيها سوى الرمل والحجر، دون غيرهما.

أهم المناطق المأهولة في ليبيا تقع على مقربة من نهر النيجر(3)، وسبب ذلك يرجع الى الرواج التجاري الذي يعرفه حوض النيجر الذي يستقطب التجار السودانيين المتواجدين في المدن الواقعة قربه، وأهمها مدينة تمبوكتو، وهي المدينة التي يقصدها التجار من بلاد البربر ومن مصر، لاقتناء التبر المستخرج من مناجم مندنيكا. وبهذه المناسبة، نشير الى أن الذهب كان يباع قبل اليوم، في مدينة جيني، بمالي، وكان ينقله أصحابه الى هناك، لتقريب سُوقه من التجار الأوربيين الذين كانوا يحملونه من جيني الى لشبونة.

كان سكان ليبيا الأولون يسمون السّباتيين، نسبة الى سَبَاتة بن كوش بن نوح، وقد تحدث عنهم المؤرخ اليوناني اسطرابون، فسماهم الحبشيين؛ وينقسم هؤلاء السكان الى خمس مجموعات قبائلية كبرى(4)، السواد الأعظم من أفرادها أقلع عن الترحّل وركن الى الاستقرار، في حين أن الآخرين منهم، وهم الأعراب، راحوا يضربون في الأرض، سعيا وراء مواقع المياه والمراعي.

(3) كان مرمول يعتبر أرض النيجر من الأراضي الليبية. (المترجم)
(4) تلك المجموعات هي : صنهاجة، الذين كانوا يسمون السنكيين، وَنْزيكة، تاركة، اللمطة وأخيرا برداوة.

الفصل الثاني

أقاليم نون المأهولة، الواقعة بليبيا

سبق لنا أن تحدثنا عن اقليم نون الواقع بالسوس الأقصى، أما غيره من الأقاليم، فانها ليبية. ويقطن نون وليبيا أناس أشقياء بسبب ما يتعرّضون اليه من المعانات والمحن من طرف الأعراب وغيرهم من الأقوام الرّحل الذين يضربون في الصحراء.

هذا ويطل نون على المحيط غربا، ويوجد بشواطئه رأس نون، وتحدّه من الجنوب والشرق، صحراء صنهاجة، ويتاخم شمالا، اقليم سوس.

الفصل الثالث

صنهاجة

تشكل صنهاجة أول اقليم مأهول غرب صحاري ليبيا، لأنه يبتدىء عند شواطىء المحيط ويشمل كل المساحة الممتدة بين رأس نون ونهر النيجر، الذي يسميه أهل البلد سنيديك، ويسميه العرب واد النجّار، ويسمّيه البرتغاليون، نهر السِّنِكا، ويفصل هذا النهر بين البيض والسود، أي بين مناطق الأعراب ومناطق الزنوج.

تتاخم صحراء صنهاجة شرقا، صحراء تغزّة ويحدها غربا، اقليما نون ودرعة، وتمتدّ جنوبا الى حدود بني ايس وجلوف وممالك ولّاتة ومالي وتمبوكتو. أما الشعوب التي تقطن بهذه الديار، فهم البرابر الذين يمتطون الجمال والأودابة وأولاد دليم والصنهاجيون، وبعض الأعراب الذين يعيش أغلبهم على حساب غيرهم، لأنهم يسرقون الأنعام ويستبدلونها بالتمر في أسواق درعة وغيرها. يجوب صنهاجة، في بعض الأحيان، أعراب بني عمير، ولكنهم يقيمون بالأساس في المنطقة الممتدة بين رأس نون وأوداغوست.

ان هذه الصحراء شديدة الجفاف ولا يوجد فيها الماء الا على مسافة كل ثلاثين فرسخا، زيادة على أنه ماء مالح ومرّ، متجمع في آبار عميقة، أهمها يقع في الطريق المؤدية من سجلماسة الى تمبوكتو، حيث يجب على المرء أن يقطع مسافة سبعين فرسخا عبر الصحراء ليجد بئرا واحدة، هي بئر زَعْوَاتْ، ثم بئر عرْوان

التي تفصلها عن تنبكتو مسافة سبعين فرسخا. لذلك، فلا غنى للمسافرين عن التزود بكميات هامّة من الماء قبل الرحيل، إذا أرادوا ألا يموتوا عطشا، هم وجمالهم.

يعتز الصنهاجيون بأنهم أقدم سكان هذه البلاد وأكثرهم نبلا وشرفا، وربما يرجع شعورهم هذا الى ما لهم من قوّات هائلة مكّنتهم من بسط هيمنتهم على كل المناطق المحاذية لضفاف نهر النيجر. وعلاوة على ذلك، يذهب بهم الظن الى أنّ ملوك تمبوكتو منحدرون من أجدادهم. إلا أن هذه الصحاري القاحلة تتميز بضنك العيش ولا تجود على سكانها بما يضمن لهم القوت اليومي، فيقنعون بألبان الابل والأنعام ويتغذون بلحوم ما يصطادونه من حيوانات كالغزلان وغيرها، وتكون الأعياد والأفراح مناسبة لنحر بعض الجمال. أما الشمس، فانها تقسو عليهم، إذ تلفح أجسامهم، وجعلت بشرتهم سوداء أو سمراء. لكن الصنهاجيين الذين يقطنون بشواطىء المحيط، يأكلون الأسماك الطرية أو المجففة، ولا يتناولون الملح.

بعدما شيد البرتغاليون برج أرغوين[5] أخذوا يزودون أهالي صنهاجة بالحبوب، لكن هؤلاء الصحراويين شرعوا يأكلونها كما يأكل الناس الحمص. ينبت النخيل في بعض الجهات الصحراوية، ولكنه نادر، كما ينبت فيه نوع من الشجر، هزيل الأغصان والأوراق، وكثير الشبه بشجر نجده في إسبانياه ويسميه الاسبان «تين جهنم».

تتميز صحاري صنهاجة بكونها تتشكل من أراض منبسطة لا تتوفّر على المعالم التي تمكّن من التعرّف على الأمكنة وتحديد مواقعها، كالغاب مثلا، أو الجبال أو الأودية والأنهار أو غير ذلك من المنشآت العمرانية، لذلك، فلا غرابة أن يتعرّض المسافر في ربوعها، الى التيه، فيضل طريقه بكل سهولة. لكن الانسان يستطيع أن يذلل هذه الصعاب، ويمكنه أثناء تنقله في هذه البلاد الوعرة، أن يسترشد بالنجوم ويستفيد من اتجاه الرياح والطيور كالغربان والصقور التي لا تخلو منها جوار الجهات المأهولة، بسبب ما قد يوجد بها من جثث الأنعام، كما أنها تطير نحو البراري والمراعي.

يوجد جنوب رأس نون وعلى بعد سبعين فرسخا منه، رأس بوجدور الذي رسّت السفن البرتغالية في عرضه مدة طويلة قبل مواصلة طريقها

(5) يقع هذا البرج باحدى الجزر غير البعيدة من شواطىء موريتانيا. (المترجم)

لاستكشاف شواطىء القارّة. ونشير الى أن اليابسة هناك تنعرج في اتجاه الشمال، طوال مسافة تفوق أربعين فرسخا، بالمقارنة مع الشاطىء الذي يبقى خلفها، ولهذا سمي الموقع، رأس بوجدور.

كانت هذه الظاهرة الجغرافية غير معروفة لدى البحّارة، فكانوا يبتعدون عن الطريق، فتردّهم التيارات البحرية نحو الرأس، عبر مسافة عشرة فراسخ. وكانت أرصفة الرمال المتكاثرة طوال الشواطىء تعرقل الملاحة بقربها، ويأخذ الماء يقفز هنا وهناك وكأنه يغلي في إناء، فيشعر الملاحون بالخوف ويستولي عليهم الرعب، فلا يتجرّؤون على الاقتراب منها، وقد أصابهم الهلع خصوصا بعدما اكتشفوا رصيف الرمال.

كان البحارة قبل ذلك اليوم، متعوّدين على الاهتداء بالشواطىء، فيتتبّعونها، في اتجاههم من الشرق الى الغرب، وكلّما أحسوا بصعوبة وتعذّر عليهم الانزال بأحد هذه الشواطىء، ذهبوا إلى أن البحر هناك ليس قابلا للملاحة ولا يمكن مواصلة الطريق. زد على هذا، ان الذين باتوا يتبجّحون بمعرفتهم لأسرار الطبيعة وأحوالها، كانوا يقولون بأن البحر في هذه الجهة من القارة، والتي تغلي فيها المياه من جراء الشمس، ليس عميقا كما هو الشأن بالمناطق الباردة، وأن عدم عمق البحر، مردّه الى الحرارة التي تسخن الماء وتبخّر المياه العذبة التي تخرج من جوف الأرض؛ ويدّعون كذلك، أن المياه الملحة تأتي من الشمال.

ومضى البحارة يعتقدون علاوة على ذلك، أن منطقة رأس بوجدور كلها أرصفة رملية تحول دون استقبال السفن، وان البرّ المجاور ليس سوى امتداد لصحاري ليبيا. ومن أجل هذه العوامل، ليس بالامكان مواصلة الطريق، وان رأس بوجدور يشكل أقصى ما يمكن أن تصله السفن.

لكن عيوب هذه النظرية انكشفت للعموم، يوم كان خوان كونزليس ورفيقه تريستان البرتغالي، على متن سفينة، فدفعتهما عاصفة نحو جزيرة بوسانتو. وسنتطرق لهذه الجزيرة وكذلك لجزيرة مضير — التي اكتشفت فيما بعد — عندما يأتي الحديث عن الجزر الواقعة عرض شواطىء القارة.

على إثر هذا الحدث، قام جيل يانييس، خادم الأمير دون هانري، بجواز هذا الموقع، وسمّاه رأس بوجدور، وهو أحد أسماء بطليموس، وشكّلت هذه

المأثورة حدثا هامّا بين الأحداث العظمى التي ردّدتها الألسنة في ذلك العهد، خصوصا وأن فضل إكتشاف جزيرة مضير، يرجع الى شجاعة جيل يانييس.

على بعد ثلاثين فرسخا من رأس بوجدور، توجد منطقة تدعى لوس ريفيوس بسبب وفرة الأسماك الحمراء الموجودة بها، وعلى بعد اثني عشر فرسخا من هذا الموقع الأخير، يوجد مكان يسمى «الفَرَسان» نسبة الى فرسين تم انزالهما به، ويوجد كذلك، على بعد اثني عشر فرسخا من «الفرسين»، موقع يسمّى وادي الذهب، لأن عملية افتداء عدد من العرب كان البرتغاليون قد سبوهم، تمت هناك، مقابل كمية من التبر، وكان ذلك أول ذهب جلبه البرتغال من هذه الأقاليم. ثم توجد على بعد اثني عشر فرسخا جنوب وادي الذهب، خليج غنسال دو سينترا، وغنسال دو سنترا هذا، ضابط برتغالي لقي مصرعه مع اثنين من رفاقه، بهذا المكان على أيدي الصنهاجيين. ويشكل هذا الخليج مرحلة في طريق ميناء الفارس، الذي تتقدّمه في البحر، صخرة شامخة كالصرح، سمّاها أنطوان غنسال، «الصخرة المسَنّنة». ولما نزل غنسال بالشاطىء المواجه لتلك الصخرة، لم يعثر فيه على ما يدل أن به حياة بشرية، لكنه رمق على الشاطىء شِباكا للصيد، مصنوعة من خيوط الجريد.

وفي ذلك العهد، أي في سنة 1439، كان أنطوان غنسال يقيم بميناء الفارس، فلحق به أحد النبلاء البرتغاليين يسمى تريستان، وقد أوفده أمير البرتغال لمعاينة هذا الاكتشاف وتقدير أهميّته، فرسى بالميناء، وتوغّل رفقة غنسال، فوجدا جماعة من العرب، فقتلا منهم ثلاثة وسبيا عشرة آخرين، ثم عادا الى الميناء بغنائمهم وأسراهم.

عندها، قام تريستان بتوشيح صدر غنسال بوشاح من درجة فارس، فأصبح الميناء يسمّى ميناء الفارس، وعلى جنوبه بنحو ثمانية وعشرين فرسخا، يوجد الرأس الأبيض(6)، انه رأس من الرمل يظهر من بعيد أنه أبيض، وعند هذا المكان، أخذ الشاطىء اتجاها اخر وشكل خليجا يجتذب التيار المائي. وعلى مسافة اثني عشر فرسخا من هنا، تقع جزر قريبة من الشاطىء، وهي سبعة صخور تضربها الرياح والأمواج، كان لكل صخرة منها إسم خاص، لكنها أصبحت

(6) الذي يسمى اليوم «رأس نواديبو». (المترجم)

اليوم كلها تسمى صخور أرغوَان، نسبة الى برج يحمل هذا الاسم، بناه مؤخرا ملك البرتغال على إحدى هذه الصخور.

وفي عام 1443، اكتشف تريستان جزيرة أخرى أبعد من تلك الصخور، وسماها جزيرة مالك الحزين، لأنها كانت مأهولة بهذا النوع من الطير. ولما مضى عام على هذا الاكتشاف، توجّه الى جزيرة مالك الحزين الضابط البرتغالي لانسولودولاك على رأس أسطول يتألف من ستة مراكب، وبعدما أقام فيها مدة قصيرة، قصد جزيرة غير بعيدة منها كان يقطنها الزنوج آنذاك، فنهب ما فيها وسبى مائة وخمسين من أهاليها، ثم رحل الى جزيرة تدرة، فوجدها خاوية على عروشها، لكنه اكتشف بعد ذلك، عدداً آخر من الجزر، قريبة من تدارت، الا انه استعصى على مراكبه أن ترسوَ بها، نظرا لما كان حولها من أرصفة رملية تجعل البحر هناك لا يسمح بالملاحة.

خلال عام 1445، اكتشف ضابط برتغالي آخر إسمه فرنان، مصب النيجر الذي يقوم أحد روافده بفصل افريقيا البيضاء عن افريقيا السوداء، ويُسمى هذا الرافد، نهر سينكا، وهو إسم حاكم محلي كان البرتغاليون يقيمون معه علاقات تجارية هامّة.

وتجدر الاشارة الى أن لنهر السّينكا، أسماء متعددة، تختلف باختلاف القبائل التي تسكن على ضفافه، الا ان البحارة البرتغاليين اتفقوا على تسميته بنهر السنكال، وذلك من النقطة التي سيلتقي فيها بالنيجر[7]، الى مصبّه بالمحيط. أما الصنهاجيون فيسمّونه السنيديك، وتسميه عشائر الولوف، دَنْكَة. أما أهل تركرون، الذين يقطنون داخل البلاد، فيسمّونه مَايْ، ويسميه أهل شرق الاقليم، زَمْيَالْ، في حين، يُسَمَّى إيساً، عند أهل مملكة تمبوكتو.

والأمر الذي يدعو الى الاعجاب هو أن النيجر نهر طويل جدّا، ويصب في مكان بعيد بالنسبة لصنهاجة، وذهب بطوليموس الى أنه يتدفّق من بحيرة كيلونيدا وبحيرة نوبا[8]، ولئن كانت الميّاه المتدفّقة منها قليلة، والمدّ فيها ليس بقوي الّا في أحد الأنهار المتشعبة منه، وهو نهر كامْبِيرْ الذي تتخلّله حجارة كبيرة وتتوسّطه بعض الجزر التي تسكنها الطيور وترتع فيها أصناف مختلفة من الزواحف.

(7) أخطأ المؤلف حينما جعل نهر السينغال متفرعا عن نهر النيجر، لأن الأول يصب من جبال فوتاجالون وطوله 1700 كيلومتر، ويصب الثاني من جبل لوم، وطوله 4200 كيلومتر (المترجم)

(8) نوبا منطقة تعد اليوم من التراب السوداني، وتعني باللهجة المحلية «بلاد الذهب». (المترجم)

ان النيجر، ولئن كان عظيما، فانه لا يسمح بالملاحة الا في بعض أجزائه، لأنه يحتوي على صخور في مجراه، ولا سيما في الجهة التي تكثر فيها الشلالات، وهي الجهة التي تمتدّ على مسافة مائة وخمسين فرسخا قبل مصبّه، يسمي السكان هذا الشطر من النهر، هُويَايَا، وهذا تعبير محلّي لتدفق المياه بسرعة قويّة من صخور عالية، إذ يمكن للانسان أن يمرّ بجانبها دون أن يتبلّل، وعلى شرط أن تهبّ الريح من الأعلى لا من الأسفل، حيث انها عندما تهبّ من الأسفل، تدفع الماء نحو الصخرة، ويسمّي الزنوج هذه الشلالة، بالقوس.

يتلقّى النيجر عدة روافد كبرى، ضفافها خالية من أي عمران، بسبب ما تغصّ به من وحوش. وبقيت هذه الروافد بدون اسم، باستثناء رافد واحد يأتي من الجنوب يسميه العرب النهر الأحمر، لأن ماءه أحمر، بالمقارنة مع نهر السنغال ذي الماء الأبيض، ويسمى مكان التقاء النهرين، الواقع باقليم سراكولا، بوفيطابو، أي أبيض وأحمر حسب اللهجة المحلية. يقول الزنوج انهم إذا مزجوا ماء النهر الأحمر بماء نهر السنغال وشربوا الخليط، مالوا الى التقيء، في حين أنهم لا يحسون بأي اضطراب إذا شربوا من كل ماء على حدة.

الفصل الرابع
تغزة ومناجم الملح

تشكّل تغزة المنطقة الكبرى الثانية لصحاري ليبيا، وتقع شرق الأقاليم الصنهاجية. لا يوجد فيها عمران، وكل ما تحتويه، هو منجم للملح الحجري. ويروي هيرودوت أن تغزة تقع بين مدينة طيبس(9) المصرية، وبين موقع أعمدة هرقل.

ان أغلبية الأفراد الذين يشتغلون باستغلال مناجم الملح، أجانب عن المنطقة، ويقطنون بخيام ينصبونها قرب المناجم. أما أهالي المنطقة، فانهم لا يبالون بمكامنهم ويفضلون الترحّل بأنعامهم. ومما يذكر، ان مكامن الملح توجد بمناطق قافرة خالية.

عندما تقبل القوافل لحمل الملح، يتخلّف بعض السواق عن الرحيل معها، إذ يفضلون البقاء هناك، سعيا وراء ربح أهم، ويشرعون في استخراج الملح الذي

(9) كانت مدينة كبيرة في جنوب مصر. بنيت على أنقاضها مدينتا الاقصور والكرنك. (المترجم)

يحتفظون به لبيعه الى القوافل التي ترد من ايسّا[10] وتنبكتو، ويستطيع كل جمل، أن يحمل أربعة صخور يقدر وزنها بثلاثين خرّوبة[11]. وبما أن المنطقة لا توفر الغذاء لأحد، فيتعيّن على الوافدين اليها أن يتزوّدوا بما ينبغي من الماء والطعام، لهم ولجمالهم، وان لم يفعلوا، فانهم سيموتون جوعا لا محالة. وتعرّج على تغزة، في طريقها الى مراكش، القوافل المحملة بالذهب الوارد من السودان.

يعاني مستغلو مناجم الملح من شظف العيش، الى درجة تحاذي البؤس، رغم ما يدرّه عليهم عملهم من أرباح، وذلك لأنهم لا يجدون منفذاً لأموالهم ولا مناسبة للانفاق، ويبقوا مدينين بقوتهم الى ما يأتيهم من بعض المواد الغذائية مع القوافل القادمة من تمبوكتو ودرعة. اما إذا تأخّرت عنهم هذه القوافل، فلن تجد إلا جثثهم أو عظامهم.

علاوة على ذلك، تهبّ ريّاح سخنة على المنطقة، تذهب أحيانا بأبصار قومها، وتتسبب لهم في داء النقرس، فتنتفخ ركبهم ويبدأون يعرجون، أضف الى هذا، أن آبار الماء هناك كلها مالحة. ورغم هذه الأحوال والظروف الصعبة، فان تغزة تستجلب كثيرا من الناس الطامعين في ربح المال.

الفصل الخامس
ونزيكة

نطلق إسم ونزيكة على الجزء الثالث للصحاري الليبية والذي تحدّه تغزّة غربا، وصحراء الأير شرقا، ومنطقة سجلماسة وتبلبالة وبني كُومي شمالا، ويتاخم في الجنوب، صحراء كير التي تقابل مملكة جُوبر ببلاد السودان. ان صحراء ونزيكة تفوق في قيضها وجدبها كل الصحاري التي تقدم لنا وصفها. ورغم هذه الظروف القاسية، فان فلولا من قوم يدعون الجنازير يضربون في ربوعها غير عابئين بشدتها. ولا يخفى على التجار المتجهين من تلمسان الى مملكة تمبوكتو وبلاد إيسّا، ما ينتظرهم في الطريق وهم مرغمون على المرور بفيافي تغزة، إذ يعرّضون أنفسهم الى التهلكة، بسبب الظمأ والجفاف، لاسيما عندما يكونون في منطقة كوكدن، وهي التي تمشي فيها القوافل عشرة أيام دون أن تعثر على أثر للماء، باستثناء تلك

(10) قبائل ايسّا متفرّقة عبر السودان ودجيبوتي. (المترجم)
(11) أي ما يعادل أربعمائة كيلو. (المترجم)

الغدران التي تتكون بفضل مياه الأمطار العاصفية والتي لم تلبث الا قليلا حتى تتبخّر.

يوجد أعراب من بين القبائل البربرية التي تسكن ونزيكة، فيفرضون الخراج على أهالي سجلماسة لأنهم يحرثون بعض الأراضي، ثم يتنقلّون عبر الصحراء ويتوقفون عند ايكيدي، وبالمراعي التي يصادفونها، وهي ضرورية لأنعامهم الوافرة، كما انهم يتوفرون على مدّخرات هامة من التمر الذي يأخذونه من الواحات المتاخمة لبلاد الجريد، والتي يبسطون عليها هيمنتهم، دون أن تنازعهم أية سلطة، ما لهم هناك من نفوذ.

ويضاف الى هؤلاء القوم، أعراب آخرون مثل أعراب غرسة وأعراب السقي، وكلهم ذوو حسب ونسب، يدين لهم ملوك بلاد البربر بالاحترام ويتودّدون اليهم ويتزوّجون ببنات رؤسائهم، ويتجرون بالخصوص مع أهل البوادي، ويبيعون لهم العبيد الذين يأتون بهم من بلاد السودان، وهذا ما جعل الزنوج يكرهونهم ويبغضونهم، وإذا ما تمكنوا من أسر بعضهم، فإنهم يسومونهم سوء العذاب.

الفصل السادس

الأيــر

هذا اسم المنطقة الرابعة من الصحاري الليبيّة، تحدها على التوالي من ناحية الغرب ونزيكة، وشرقا، ايكيدي، وشمالا، توات وتيكورارين والمزاب، وجنوبا، مملكة أكدز في بلاد السودان، هذا ويسكن هذه المنطقة قوم من الافريقيين، يدعون تركة.

تختلف الأير عن الصحاري السالفة الذكر، بكونها أقل منها جفافا وخلاء، اذ توجد بها آبار، ولئن كانت عميقة، فان مياهها عذبة، وبها بعض المراعي، وتنتج المنّ أو عسل الندى، الذي تنقل منه كميات هامّة الى أكدز، في القرع المجوّف، ويمزجه الزنوج بالماء، فيشربونه، أو يضعون منه على اللحم الذي يأكلونه، ويقولون إن المن يخفف من حدة العطش ويجعل الأجانب القاطنين بأكدز يتمتعون بصحة جيدة، خلافا لما يوجد عليه الغرباء الذين يوجدون بتنبكتو ذات الهواء الوخيم.

تمتد صحراء الأير عبر مسافة عرضها مائة فرسخ من تخومها مع نوميديا الى أكدز. ويجوب الأعراب ربوعها خلال الشتاء، ثم يحطون رحالهم في الصيف،

على مقربة من جبال الأطلس الواقعة بين فاس وسجلماسة، وكان أميرهم من أهل غرسعيون التي أصبحت اليوم خاضعة للشريف.[12] ولكن هؤلاء الأعراب يبسطون كذلك سلطانهم على برابر الجبال فيفرضون عليهم الاتاوات، ثم يتحالفون في بعض الأحيان مع ملوك فاس، فيقدمون لهم الامدادات أثناء حروبهم، كما أنهم يدخلون معهم أحيانا أخرى في نزاعات مسلحة، إذ تتألف قواتهم من العديد من المشاة، ومن ستة آلاف فارس، وكلما تبيّن لهم أن قوات الملك تتفوّق عليهم، لاذوا بالفرار الى الصحاري.

كان هؤلاء الأعراب يعتمدون على مساندة المرينيين الذين تعاونوا معهم، وتنازلوا لهم عن عدّة مناطق، فاستنزفوا أهلها بالاتاوات. ونشير بالمناسبة، الى أنهم استحوذوا على قبائل عربية أقل منهم بطشا وثراء، فأخضعوها لنفوذهم، ومنهم من استقر بالواحات الخصبة، وتوارثوا الأراضي الجماعية، وتبنّوا أسلوب حياة البرابر، إلا أن أهم نشاط تجاري عندهم، يقتصر على سبي العبيد من بلاد السودان وبيعهم في مدن بلاد البربر، ومن هناك، يرسلون الى اسبانيا.

(12) محمد الشيخ السعدي (المترجم)

الفصل السابع
ايكيدي

تشكل ايكيدي الاقليم الخامس من الصحاري التي نحن بصددها، وتقع حدوده الغربية بتخوم الاير، وتمتدّ شرقا الى برداوة، وشمالا تحاذي صحراء توقّورت وورغلة وغدميس. أما في الجنوب، فإن تخومها هي صحاري كانم، ببلاد الزنوج[13].

ايكيدي صحراء جافة ووعرة، تشكل كثيرا من الأخطار والأهوال على التجار الذين يبرحون قستنطينية وغيرها من المدن الشمالية والوسطى، ويذهبون إلى اقليم كانم والبلاد الزنجية الأخرى، إذ يسكنها قوم غلاظ أشدّاء، يسمّون اللمطه، والذين ظلّوا يطمحون في السيطرة على دولة ورغلّة. وهم دائما في حرب مع النظام القائم فيها، وينهبون أموال وأمتعة التجار الذين يمرّون بهذه الجهة ثم يقتلون بعضهم كما يقتلون بعض أهل ورغلة. ونشير بالمناسبة الى أن كاطون[14] قضى هناك فصل الشتاء بعد رحلته الطويلة.

ما يزال أعراب أولاد حمرون وأولاد السيد وأولاد يحيى يجوبون هذه الأماكن وقد اختلطوا باللمطيين. هذا ويسكن المرابطون بين صحراء ايكيدي وسجلماسة، ولا يخفى على أحد ما بلغوه من القوة والسلطان في افريقيا وفي اسبانيا.

الفصل الثامن
برداوة[15]

انها الشطر السادس للصحاري الليبية، وتحدها غربا صحراء ايكيدي، وشرقا صحراء أوجلة، صحاري فزّان وبرقة في الشمال، تقابلها جنوبا صحراء مملكة بورنو في السودان[16].

ان هذه المنطقة كثيرة الحرّ والجفاف وقليلة الأمن بالنسبة لكل من لا صلة له بالشعوب التي تتساكن بها. ويجب على القوافل الراغبة في عبور هذه المنطقة، أن تتزوّد بالماء والغذاء باقليم فزّان.

(13) تقع اليوم كانم وسط قطر النيجر (المترجم).

(14) هو القائد الروماني الذي تعقّب جوبا لمحاربته. (المترجم).

(15) برداوة : أهل واحة برداي، الواقعة بشمال تشاد، بمنطقة تبيسي وتبعد عن واحة أوزو التي تقع شمالها بنحو مائة كيلومتر. (المترجم).

(16) تقع بورنو اليوم بالقطر النيجري.

برداوة مجموعة سكنية تتألف من ثلاث مدن وست قرى، تحيط بها واحات غنية بتمارها الجيدة الوافرة، تبعد عن مجرى النيل بنحو مائة وثمانين فرسخا. ويقول ليون الافريقي[17] ان هذه المنطقة اكتشفت قبل سبعين عاما، من طرف مرشد يسمى عمر، وهو في طريقه الى مصر على رأس قافلة. وقد فقد عمر البصر في الطريق. ولم يكن مع القافلة من يرشدها، وكان عمر يأخذ من مرافقيه حفنة من الرمل بعد قطع كل ربع فرسخ وهو على جمله، فيشم ذلك الرمل، ولما كان على مسافة أربعة عشر أو خمسة عشر فرسخا من المنطقة هذه، أكد للمسافرين الذين كانوا معه، أنهم اقتربوا من مكان مأهول، لكنهم لم يصدّقوه وهم على يقين بأن مسافة مائتي فرسخ تفصلهم عن مصر. غير أنهم وصلوا بعد ثلاثة أيام الى واحة مأهولة، فأرادوا أن يتزوّدوا منها بالماء، فمنعهم أهلها، فشنّوا عليهم هجوما واستولوا على المكان، ولما قضوا فيه ما شاؤوا، واصلوا طريقهم.

الفصل التاسع
أوجلة[18]

هي سادس اقليم هذه الصحاري، تحده برداوة غربا، وبرقة شمالا، ويمتدّ كالخط الى شواطىء البحر المتوسط بخليج سيرته. والجدير بالذّكر، ان كاطون مرّ بهذه الصحراء على رأس جنوده، بعد مقتل بومبي، وهو في طريقه لمحاربة الملك جوبا.

تسكن قبائل البرابرة بالمنطقة الممتدة من هذه الصحراء الى تخوم النيل، وتنتمي هذه القبائل الى بني لبيد، كما يسكنها أيضا أقوام من الأعراب. وتخص أوجلة منطقة توجد بها ثلاث مدن وعدد من القرى تقع على بعد ما يزيد عن مائتي فرسخ من الطريق المؤدية من مصر الى موريتانيا. ويروي هيرودوت ان مكامن الملح الثانية توجد بهذه المنطقة، وذلك لأنه يعتقد ان المكامن الملحية الأولى توجد بمعبد جوبتير آمّون الذي يبعد بمسافة عشرة أيام عن مدينة طيبس (الاقصور حاليا)، في حين تبعد عنها المكامن الثانية بمسافة عشرين يوما.

(17) هو ابو علي الحسن الوزان الفاسي، صاحب كتاب «وصف افريقيا».
(18) هو ما يسمى اليوم بصحراء سيرت.

يوجد الجريد بكثرة في هذه البلاد، لكن القمح ينقصها، فيستورده الأعراب ويستبدلون به التمر، وكان النساميون (19) يذهبون الى هذه الصحاري لاقتنائه. ونذكر بالمناسبة، أنهم كانوا يشكلون امّة كبيرة منتشرة في العديد من أقاليم افريقيا، وتتنقل عبر البوادي سعيا وراء المراعي، ثم تتوجه نحو الواحات، كلما حان وقت جني التمار، مثلهم كمثل الأعراب وغيرهم من أهل البلاد.

تعجّ هذه المنطقة بالأفاعي، ويوجد من بين اللبيديين أشخاص يقتلون هذه الأفاعي ببصاقهم، وهكذا نرى أن الله وضع الدواء بجانب الداء. وتجدر الاشارة الى أن أسماء جميع الأقاليم الليبية التي ذكرها المؤرخون اليونان تغيّرت، باستثناء صحراء أوجلة التي احتفظت باسمها، ويضعها بطوليمي في الدرجة الثانية والخمسين من خط الطول وفي الدرجة الثامنة والعشرين من خط العرض، ويسميها أوجيل، بين شعوب هذه الصحاري والنّاميين الذين يضعهم في ليبيا.

الفصل العاشر

بلاد سيرت التي كانت بها مدينة سيرنيا ومدن أخرى

في اتجاه الحدود المصرية، وشمال الاقليم السابق ذكره، يمتدّ على جزء من شاطىء البحر، اقليم سيرنيا الذي يسمى كذلك اقليم بنتابوليس، الا أن الدمار ضرب جميع مدن هذا الاقليم، باستثناء مدينة بطوليمايدة. أما تسمية الاقليم، فيما بعد، بسيرينايكا، فإنها ترجع إلى اشتقاق من كلمة سيرينا، وهي المدينة التي بناها شعب من أصل يوناني كان يحمل نفس الاسم. وكيف تم ذلك ؟

استوطن هذا الشعب اليوناني جزيرة بلاتيرا حينا من الدهر، ثم نزح الى افريقيا وشيّد مدينة تقابل تلك الجزيرة. تقع بين جبلين يحيط بهما نهران. ولما مضى ردح من الزمان، نزل قرطاجيون بالمنطقة وأمروا أولئك اليونانيين ببناء مدينة زواه، على مقربة من عين ماء، تعرف بعين أبولون، وأقاموا عليها باتوس ملكا. وبعد وفاة باتوس، خلفه ابنه أرسيفلاس، فقام ببناء سيرينا ووقف على تعميرها وتمكّن من توسيع رقعة مملكته. الا أن سياسته التوسعية لم ترض القرطاجيين، فراحوا يتآمرون عليه بمساعدة المصريين لتنحيته من الملك، فشهر الحرب على ملك من

(19) قوم سكنوا هذه المنطقة قديما.

عملائهم يسمّى أديكران، وهزمه، ثم أخضع القرطاجيين الى سلطانه. بعد ذلك قام أحد أبناء ارسيفلاس، المسمى بيتومن السعيد، ببناء مدينة برقة، لكن الخراب أصابها كما أصاب سيرينا، من جرّاء الحروب الباطنية.

يجوب اليوم هذه البلاد قوم من الأعراب يوجد في صفوفهم أكثر من ثلاثين ألف فارس وعدد لا يحصى من المشاة. انهم يكرهون الاستقرار ولا ينفكّون عن الترحّل عبر البوادي، يحملون خيمهم أثناء حلّهم وترحالهم، وهم الذين دمّروا جميع ما كان في الاقليم من مدن وقرى وخرّبوا سيرينا وساعدوا البربر على تدمير معالم برقة. الا أننا نشاهد بقايا مدينة كبيرة على تخوم أوجلة، تسمى سيرت والتي يظهر ان البرابر هم الذين بنوها قديما، وقد أعاد الرومان بناءها بعد ما دكّوا أطلالها البربرية، لكن المسلمين خرّبوها تخريبا تامّا ومنعوا اعادة بنائها مرّة أخرى، وما زالت بعض أطلالها قائمة اليوم.

كانت سيرينا أول مدينة أغار عليها كاطون بعد وفاة بطوليموس، ولما استولى عليها بالقوة، لم يلحق بها أذى، ثم انطلق منها لتعقّب آثار الملك جوبا.

جنوب سيرت، في منطقة صحراوية وعلى بعد زهاء أربعين فرسخا من الحدود المصرية، توجد واحة شاسعة الأطراف، تسمى واحة الكيشت، وتتضمّن ثلاث مدن وبعض القرى يسكن بها أفارقة سود، مكرة وبخلاء رغم ثرائهم. وربما يرجع طبعهم هذا الى تواجدهم بين مصر ومملكة كاو، يسوسهم حاكم يدينون له بالطاعة وينزّلونه منزلة الملك، لكنهم يخضعون للأعراب، أصحاب السيادة على البوادي ويدفعون لهم الخراج.

الكتـاب التـاسـع

ويتناول اثيوبيا العليا والسفلى

الفصل الأول

وصف اجمالي للبلاد

اثيوبيا تشمل عدة أمصار وأقطار تفوق بقية المناطق الافريقية، سواء من حيث مساحات الأقاليم التي تشملها أو من حيث عدد الشعوب التي تسكنها، زيادة على ما يرتع في ربوعها من دوابّ، وما تحتوي عليه من ذهب. ولزيادة الايضاح، نخبر القارىء أن مجموع الأقاليم التي تتألف منها اثيوبيا، تشغل كل المساحة الموجودة بين مداري الاستواء، وتتجاوزهما لتشمل أيضا المناطق الساحقة التي تصل إلى رأس الرجاء الصالح الذي اكتشفه البرتغاليين والموجود في المنطقة المعتدلة.

أهل أثيوبيا ليسوا أولئك الرجال الغلاظ والمخشوشنين الذين خصّهم سلف الجغرافيين بمثل هذه الأوصاف التي لا تنطبق عليهم، اللهم إذا كانوا يقصدون بالمزاج المتوحّش، أجسامهم ولا عقولهم. فضلا عن هذا، فانهم قسّموا أثيوبيا الى شطرين، اثيوبيا العليا واثيوبيا السفلى.

كان العبريون يسمّون اثيوبيا «بلاد الكوش». والأرجح، أن اسم اثيوبيا راجع الى سواد بشرة أهلها، ولا الى اسم احدى بنات فُلْكايَنْ، حسب الأسطورة التي تناقلها الشعراء(1).

يجوز لنا أن نقسّم اثيوبيا الى ثلاثة أجزاء رئيسية، اثيوبيا العليا، اثيوبيا السفلى وبلاد الكَفْر(2) وتمتدّ من مصب النيجر الى رأس كواردافو(3). أما الجغرافيون الأفارقة(4)، فإنهم لم يتحدثوا إلا عن مملكة كانم ومملكة كـاو في سياق وصفهم لبلاد السودان، وأهملوا باقي الأقاليم الزنجية، وقد يعزى ذلك الى عدم معرفتهم بالموضوع.

ان كل الأقاليم المتاخمة للصحراء تدين اليوم بالاسلام، لأن الفقهاء والدعاة المسلمين مضوا في عهد المرابطين، عام 380 هـ (4 م) يبثون الدعوة الاسلامية بين

(1) كان قدماء اليونان يعبدون إلهاً سموه فُلْكايَنْ، وهو إله النار والشغل عندهم، وكانت له بنت تسمى اثيوب. (الاسطورة). (المترجم)

(2) ان الجغرافيين العرب اطلقوا اسم بلاد الكَفْر، بفتح الكاف وجزم الفاء، على المناطق الافريقية الواقعة جنوب خط الاستواء. (المترجم)

(3) يقع رأس كواردافو بالقرن الافريقي ويقابل خليج عدن. أما مصب النيجر هنا، فهو مصب السنغال. (المترجم)

(4) الجغرافيون الافارقة الذين أشار اليهم مرمول، هم : المسعودي، البكري وابن الجزّار. (مترجم)

(4م) = 980م. [وهذا خطأ لأن حركة المرابطين لم تبدأ الا بعد نحو 50 سنة من هذا التاريخ].

السكان الأفارقة. وبهذا الصدد، نشير إلى أن عبد الملك[1] راح يعلمهم فرائض الدين وقواعده، كما ان علي بن أبي بكر[2] واصل عمل سلفه بين الزنوج الغلاظ الذين كانوا لا يخشون أحدا ولا يخافون شيئا، وليس لهم ايمان ولا ملك يسوسهم، ولا سلطة تنظمهم.

كان هؤلاء الزنوج يلبسون جلود النعاج، يشتغلون نهارا في البوادي، ويأوون ليلا الى أكواخ مصنوعة من أغصان الشجر، ويختلط رجالهم بنسائهم، دون أن تكون بينهم علاقة زوجية، وكانوا يفترشون جلود الحيوانات، لا يحاربون أحدا، ولا يشهر عليهم أحد الحرب. كانت لهم جميعا آلهة متعددة، فمنهم من كان يعبد الشمس، ومنهم من كان يعبد النار، ومنهم عبدة الأشجار والأصنام والأحجار، ومنهم من كان يعبد أول شيء يصادفه صباحا في طريقه، وبذلك، كانوا يعيشون كالوحوش ولا كحيوانات عاقلة.

لا غرو ان أهل مملكة كاو كانوا ملمّين بمبادىء المسيحية، نظرا لعلاقتهم التجارية بالمصريين وأهل السيد، ولما استولى الأمير يوسف اللمتوني[3] على هذه البلاد، قسّمها الى خمسة ولايات ووهبها الى الشعوب الخمسة التي كانت تسكن ليبيا[4] وتدين له بالولاء، رغم وجود خمسة عشر شعبا على طول ضفاف نهر النيجر وفي تخوم نوبا إن الزنوج الذين كانوا يتجرون مع العرب، تعلّموا لغتهم، ثم أصبحوا خاضعين لنفوذ يوسف ومن خلفه من بعده، وداموا على هذه الحال الى أن مات عام 1500[5] سنّي علي، ملك كاو وتنبكتو، فثار أحد الضباط[6] الذي كان قائدا للجيش، وعظمت شوكته، وفي ظرف خمس عشرة سنة، أسس امبراطورية تتألف من عدة أقاليم وقضى على نفوذ البرابر بالمنطقة.

(1) عبد الله بن ياسين. (المترجم)

(2) مؤسس رباط بموريتانيا. (المترجم)

(3) يوسف بن تاشفين. (المترجم)

(4) تلك الشعوب، هي قبائل صنهاجة، ونزيكة، التوارق، اللمثة وبرداوة. (المترجم)

(5) مات صونى علي عام 1493. (المترجم)

(6) تدخل مملكة كاو فيما يسمى بدولة مالي التي كانت متصلة فيما بين غانة جنوب موريتانيا حاليا وأرض التكرور في شمال السينيغال، ومن هذه الدولة، كان السلطان منسا موسى ابن أبي بكر وأخوه منسا سليمان اللذان كان بينهما وبين السلطان أبي الحسن المريني علاقة ودّية. وكان مع السلطان منسا موسى، المهندس والشاعر محمد أبو اسحاق الأندلسي الساحلي الذي بنى له بتمبوكتو قبّة مربّعة عجيبة الصنع، على الطراز الأندلسي، وكان منها أيضا، السلطان منسازاطة الذي أهدى للسلطان أبي سالم المريني زرافة، وكان زاطة مسرفا مبذرا.

إلا ان مملكة كاو انفصلت عن دولة مالي في أواخر القرن الرابع عشر وأخذ ملوكها يحملون لقب سوني عوض

بفضل التوغلات داخل الأمصار التي يخترقها النيجر وروافده المتعدّدة التي تنساب بين مفازتين كبيرتين.ولكنهماأمّهراتسان.تم اكتشاف مناطق باتت مجهولة لحد الآن، لأن مسالكها طويلة ووعرة، وشعوبها يختلف بعضها عن بعض من حيث اللغات والعوائد والمعتقدات الدينية، ولم تكن أي علاقة أو صلات بين هذه الشعوب والأمم القاطنة على ضفاف النيجر، اللهم ما كان لهم من روابط مع سكان شواطىء البحر، الذين يشترون منهم الملح الذي لا يوجد منه في أسواق المنطقة، الا ما كان يأتي من ليبيا، وبلاد البربر أو من جزر الرأس الأخضر التي يتوفّر على ملاحات يوجد مثلها في أوربا مع هذا، فان ملح ليبيا يبقى هو الأجود لأنه يستخرج في شكل صخور من الأرض، وثمنه نصف مثقال للرطل. ويقبل أهل هذه البلاد كذلك، على نبات طيب الرائحة، يأتى من بلاد البربر وليبيا ونوميديا ويسمّى تاسرغينت. وأشير الى أن حمولة جمل من هذا النبات، تباع في موطنها بدرهم واحد، ولكن ثمنها يصبح مائة درهم أو أكثر في بلاد السودان، وتفوح رائحته الطيبة دون أن يحتاج المرء الى وضعه في النّار.

ولنترك شعوب هذه البلاد، لنتحدث عن الأقاليم الواقعة طوال نهر النيجر، من المحيط الى مصر، ثم سنعود الى موضوع الشواطىء، مشيرين من الآن الى أن

منسا، وأصبحت هذه المملكة تسمى امبراطورية سونغاي، نسبة الى أهلها الذين يحملون هذا اللقب، ولكن أصلهم بقي غامضا الى يومنا هذا.

ويعد سنّي علي، الملك الثامن عشر من دولة السونغاي، الذي تربّع على كرسي الحكم، عام 1464. وكان يتصف بالشجاعة في الحرب، والأخلاق السيئة في معاملته لرعاياه، حتى ان المؤلفين، مثل محمود كعتي، صاحب كتاب **تاريخ الفتّاش**، وحفيده السعدي الذي أتمّ كتاب جدّه وسمّاه **تاريخ السّودان**، وغيرهما، اتفقوا على وصفه بانه الطاغية الذي استبدّ بالحكم وعبث بالأرواح وبرع في السحر. وفي عام 1493، قام أحد ضباط أبيه، يدعى محمدالطوْرى، بجزم الواو — وأصله من فوتاطورو بالسنغال، الواقع في أرض التكرور — بالإطاحة بابن صوني علي، وأسس دولة جديدة، هي دولة الأسكية. وكان محمد أسكية مؤمنا، محبّا للعلماء والفقهاء، وحارب عبادة الأوثان التي كانت شائعة في مملكته. وأدى فريضة الحج عام 1497، واتصل بأمير مكة، فعيّنه إماما، كما عينه حاكم مصر، خليفته بالسودان. أما المؤرخ السعدي، فيسميه أمير المؤمنين وخليفة المسلمين.

وفي عهد هذا الملك، أصبحت تنبكتو وجنينة مدينتين مزدهرتين، اقتصاديا وحضاريا وثقافيا، وأخذت امبراطورية مالي تمتدّ من سلسلة الاير (الواقعة حاليا شمال بلاد النيجر) الى جنوب السنغال، ومن مدينة سيكو الواقعة على ضفاف نهر النيجر بمالي، الى تخوم الصحراء الوسطى.

وبقي محمد اسكية يمارس الحكم بتطبيق الشريعة الاسلامية، ومبادىء السنة، وتجدر الاشارة الى أن الامام السيوطي كان شيخه، ولم يزل على سيرته الى أن مات عام1529، فخلفه ولده داود بن محمد، فتبع طريقة أبيه الى أن وافاه الأجل، ثم خلفه ابنه اسحاق بن داود، فعدل عن بعض سيرة أبيه، وبقي على هذه الحال الى أن غزت جيوش المنصور مملكة مالي، فانقرض أمر آل أسكيا. (المترجم)

هذا الجزء من اثيوبيا، يوجد بين خط الاستواء ومدار السرطان، وهو في نفس الوضعية التي توجد عليها بلاد الهند.

الفصل الثاني
ولّاته

ولاتة(7)، مملكة بربرية صحراوية، تتخام غينيا جنوبا وتقابل صنهاجة شمالا. أما القبائل التي تتواجد في ربوع هذه المملكة، فانها تسمى بني آيس، ويوجد بعض عناصر هذه القبائل بجنوب ليبيا، وتتميز بشرتهم بكونها أقل اسودادا من بشرة العناصر الذين يقطنون شمال النيجر.

الجدير بالذكر، ان هذه القبائل، في مجملها، تختلف من حيث أخلاقها وسلوكياتها، من ذلك، ان القبائل المتواجدة وسط المملكة، تتميز بنوع من الخشونة الخلقية، ولئن كانت لا تخلو من بعض الشيم الحسنة. يتلتّم رجال ونساء هذه القبائل، ولا يوجد من بينهم قضاة، وليس لهم شعراء وأدباء، أغلبهم يعانون من شظف العيش، ويحصدون النزر اليسير من الذرة، ويجنون قليلا من التمر ولا يملكون الا تليلا من الأنعام.

7 عاصمة ولاته كانت هي أودغوست (المترجم)

لا يوجد في المملكة الا ثلاث قرى، تقع على مسافة مائة فرسخ من التخوم الجنوبية، وعلى مسافة مائة وستين فرسخا من تمبوكتو، ولا تبعد عن المحيط الا بنحو ثلاثين فرسخا. عندما كان الصنهاجيون يسوسون هذه المملكة وما يجاورها من الأمصار، كانت عاصمة مملكة ولاته، احدى هذه القرى، وهذا هو السبب الذي جعل شطر نهر النيجر الذي يمرّ بهذه المنطقة يسمى نهر صنهاجة، وكان برابر الشمال يتجرون مع أهل المنطقة، بمصب هذا النهر.

وفي عهد الملك صوني علي، تحوّل محور المعاملات التجارية إلى كاو وتمبوكتو، حيث وجد التجار مجالا لغزو أسواق عديدة وأصبحت مملكة ولاته أكثر فقرا مما كانت عليه.

يتحدث شعوب ولاته بلغة تسمى الزكاي. ولما استولى ملك تمبوكتو على هذه الديار، فرّ أميرها إلى أعماق الصحراء، ولكن صوني علي آمنه وردّ إليه شؤون مملكته، مقابل إتاوة تدفع سنويا.

لا تختلف حياة هؤلاء الشعوب عن حياة الشعوب الصحراوية الذين ينقصهم كل شيء ضروري لحياة كريمة.

الفصل الثالث

غينيا

تأتي غينيا،[8] بعد الاقليم أو المملكة التي وصفناها في الفصل السابق، ولو كانت تفصل بينهما مفازة عرضها مائتان وستون فرسخا، وتقع ولاته شمالها، ومملكة تمبوكتو غربها، ومالي جنوبها. وتمتدّ غينيا طوال النيجر[9]، عبر مسافة تزيد عن ثمانين فرسخا، وجزء منها يقع عند مصب هذا النهر، ويشكل منطقة فلاحية غنية، تنتج القطن والشعير والأرز، ولها أنعام كثيرة وأسماك وفيرة في شواطئها. ويستبدل الصناع النسيج القطني بمختلف أنواع الثياب المستوردة من أوربا عن

8 غينيا لفظ مبهم ولا يتضمن أي مفهوم محدد جغرافيا، ويعني بالخصوص : «أرض السود» وفي الخريطة التي وضعها عام 1339، آنجيلينو دوليستر جاء ما يلي : «غينوا أرض يسكنها السود». وكان العرب يسمون غينيا، غينو. ويقول محمد الوزان، في «كتابه **وصف افريقيا** : كناوة تعني في بلاد المغرب، السود ووطنهم». وفي عام 1450، كتب البرتغالي زورارا يقول : «غينيوس تعني الانسان ذا البشرة السوداء». ويسمى جزء منها : بلاد التكرور.

9 نذكّر أن الأمر يتعلق بنهر السنغال. اعتقد الجغرافيون العرب أن نهر السنغال متفرّع عن نهر النيجر. وسايرهم في ذلك محمد الوزّان، والجغرافيون، قبل منتصف القرن الثامن عشر. (المترجم)

طريق بلاد البربر، والنحاس والزنك والأسلحة النارية وغيرها من الأشياء التي يحتاجون إليها.

إن العملة الرسمية في البلاد مصنوعة من الذهب الخام إلّا أن الأهالي يتداولون فيما بينهم نقودا من الحديد، يزن بعضها رطلا، ومنها كذلك، قطع وزنها أربع أوقيات.

لا يوجد في غينيا مدينة ولا قصر، وليس فيها فواكه ولكن بعض التجار يبيعون تمر ولاته ونوميديا. ويسكن ملك البلاد، في قرية كبيرة(10) وسط جمهور التجار والفقهاء والوجهاء. أما المنازل، فإن جدرانها مبنية من التراب ومسقّفة بالقصب والتبن. يرتدي السكان ما يلائم أذواقهم من الملابس المصنوعة من القطن، وكلها سوداء أو زرقاء، ويصنعون منها قبّعاتهم، لكن فقهاءهم يرتدون ملابس بيضاء.

يتزامن فيضان النيجر مع فيضان النيل، فتصبح القرية التي يسكنها الملك، معزولة عن اليابسة، وتغدو جزيرة مدة ثلاثة أشهر في السنة، وهي يوليوز، غشت وشتنبر. عندها يحمل تجار تمبوكتو بضائعهم في زوارق طويلة وقليلة العرض، مصنوعة من جذوع الأشجار الطويلة التي يربطونها من الوسط ويغوّرونها. يستعملون هذه الزوارق خلال النهار، ويربطونها كل مساء، بأوتدة مغروسة في الضفاف.

كانت بلاد غينيا خاضعة لنفوذ اللمتونيين، وكانت تؤدي لهم الاتاوة في عهد ملكها سنّي علي. ولما تولّى أمر البلاد بعده اسكية، تمرّد عليه الأهالي، فقمعهم وهزم متزعّم العصيان، ثم نفاه إلى مدينة كاو، حيث مات وهو في السجن.

على إثر هذه الأحداث، غيّر الملك نظام غينيا وجعلها ولاية لا غير، ونصّب عليها حاكما ثم انتقل إلى تنبكتو، فاقيمت الحفلات والمهرجانات بالمناسبة.

الفصل الرابع

اقليم مالي

يمتدّ هذا الاقليم بمسافة نحو مائة فرسخ، طوال شطر من نهر النيجر، وتجاوره غينيا جنوبا، والصحراء مع سلسلة من الجبال شمالا، وإقليم كاو قبلة،

(10) لعل هذه القرية هي تومبي الواقعة في منطقة فوتاجالون الجبلية، وينصب نهر السنغال غير بعيد منها. (المترجم)

والمحيط غربا، لا يوجد في الاقليم إلا قرية كبيرة تسمّى مالي، مفتوحة، يكاد عدد سكانها يبلغ ست آلاف نسمة، وهي التي اتخذها الحاكم مقرا لاقامته.(11)

يوجد بقرية مالي كثير من الصناع والتجار والمستوطنون الأجانب. الذين يحظون بعناية خاصّة ويتمتعون بامتيازات لا يتمتّع بها غيرهم. أما من الناحية الفلاحية، فإن الاقليم يتوفّر على أراضي خصبة تنتج الوفير من الحبوب والقطن، وترعى فوق مراعيها، قطائع هامّة من الأغنام، وكل هذه الخيرات، تضاف إلى التجارة، فتجعل الأهالي يرفلون في الثراء والرخاء.

لم تكن هذه النعم لتنسيهم أمور دينهم، إذ يعمّرون المساجد، ولهم علماؤهم وفقاؤهم الذين يعلمونهم اللغة العربية ويلقّنونهم العلوم الدينية وغيرها. ونشير إلى أن هؤلاء الزنوج يتصنفون أكثر من إخوانهم المتواجدين معهم في أثيوبيا السفلى، بالذكاء والحذاقة، وهم الذين تلقّوا قبل غيرهم، تعاليم الاسلام.

بات أهل مالي خاضعين لسلطة اللمتونيين إلى آخر عهد صوني علي، الذي خلفه محمد اسكينة، ثم أصبحوا خاضعين لملك كاو.

الفصل الخامس

اقليم تنبكتو

يسمى هذا الاقليم باسم عاصمته تنبكتو التي بناها الملك منسا سليمان حوالي عام 610 الهجري الموافق لعام 1200 الميلادي، ولا تبعد هذه المدينة عن ضفاف نهر النيجر إلا بنحو أربعة فراسخ.

(11) أصبح من المؤكّد أن إفريقيا الغربية شهدت عدة أمبراطوريات مالية متتالية، وأضحى من المؤكد أيضا أن أهم أمبراطورية مالية هي التي أسسها آل اسكية والتي لم تعمّر إلا زهاء ستين عاما، قبل أن تدخل الجيوش المغربية بقيادة المنصور، الى السودان، فتفتّت الأمبراطورية المالية بعد ذلك الى دويلات. (المترجم)

أما المنازل فإنها مبنية من الخشب ومطلية بالتراب الممزوج بالتبن. ويوجد في المدينة، مسجد وقصر مبنيان من الحجر الضخم، وقد بناهما بنّاء عبقري من غرناطة، في عهد السلطان موسى سليمان.

تزخر تمبوكتو بكثير من الدكاكين للتجارة والصناع، أهم تجارتهم الثياب القطنية التي يستبدلونها بثياب مصنوعة في أوربا يأتي بها تجّار من بلاد البربر. وهؤلاء التجار وأصحاب الحرف، كلهم أغنياء، ولا سيما منهم الغرباء الذين يستوطنون البلاد حتى أن السلطان يزوّج بعضهم ببنات البلد. تخرج النساء هناك ملثمات، والايماء يبعن الموادّ الغذائية.

زيادة على مياه النيجر التي تجري في قنوات عبر المدينة، يوجد في تمبوكتو العديد من الآبار. أما الأراضي الفلاحية المحيطة بها، فإنها خصبة وتنتج كمّيات وافرة من القمح والذرة والشعير، ويملك الفلاحون كثيرا من الانعام، ولا تنقص المواطنين الألبان والزبدة، لكن الملح قليل في الأسواق، ويتحتّم استيراده من مقالع تغزة التي تبعد بنحو مائة وسبعين فرسخا.

أصبح سلطان تمبوكتو يسمى اليوم امبراطور مالي، ويملك كميات هامّة من التبر نشير إلى أن بلاطه يمتاز بتنظيم جيد، سواء من الجانب الدنيوي أو من الجانب الروحي ولا يقل في ذلك من شيء، عن نظام بلاطات ملوك البلاد البربرية.

سعى الشريف محمد، عندما بلغ أوج مجده، إلى امبراطورية مالي وغيرها من بلاد السودان، استجابة لشعوب الصحراء، كدأب الاسلاف اللمتونيين لذلك، جهّز جيشا يتألف من ألف وثمانمائة من الفرسان وعدد لا يحصى من الجمّالة وكميات هائلة من المؤمن والدخائر، وسار به عن طريق الساقية الحمراء، لكنه لما علم أن امبراطور مالي خرج لمحاربته في الطريق، ولّى عائدا إلى ترودانت.

كان عدد من الأسرى النصارى يقومون بخدمات في بلاط الشريف، ورافقوه في رحلته، وكان صغار الزنوج وكبارهم، يتهافتون على رؤيتهم والتحدث معهم، معتقدين أنهم أعجوبة الخلائق البشرية. وعلمنا أن بعض رجال حاشية الشريف أذاعوا في أواسط القوم، بغية بث الخوف في قلوب الاسرى المسيحيين، إن هؤلاء النصارى يأكلون اللحم البشري ويمزقون أجساد ضحاياهم بمخالبهم وأسنانهم.

عندما يخرج امبراطور مالي من تمبوكتو، يتبعه رجال حاشيته وهم يمتطون الجمال، لكنهم يركبون الخيول إذا خرجوا للقتال ورغم شجاعتهم، فانهم لا يتقنون

شؤون الحرب، ويدخلون المعارك في جو لا يخلو من فوضى. أما الأهالي، فإنهم يدينون لملكهم ببالغ الاحترام والتقدير، حتى أن كل من يمثل أمامه لأول مرّة، يسجد له، ويأتي من يدرّ شيئا من التراب على رأسه وعلى كتفيه، قبل أن يسمح له بالكلام. وللملك حرس يتألف من سبعة آلاف فارس وعدد لا يحصى من جنود الرماية بالنبال، يمشون على الأقدام ويحملون أقواسا كبيرة مصنوعة من جذوع البسباس البرّي، ولا يستعملون إلا السهام المسمّمة. ويشهر الملك الحرب عادة على جيرانه الذين يرفضون الخضوع إلى نفوذه، ويبيع أسراه رجالا ونساء وأطفالا، في سوق العبيد.

لا توجد في أثيوبيا خيول جيدة، ولكن فيها أحصنة قصيرة يمتطيها الوجهاء للذهاب إلى المدن. أما الخيول الجيدة، فإنها تستقدم من بلاد البربر ويأخذ الملك ما يروقه منها.

إشتهر ملوك تمبوكتو بعدائهم لليهود، ولا يسمحون لأي واحد منهم أن يقيم بأمبراطوريتهم، وإذا ما علموا أن تاجرا يراسلهم، حجزوا بضائعه وأمتعته. وعلاوة على ذلك، فإن للملوك قضاة وفقهاء وعلماء مختصون في الشؤون الاسلامية، فيكرمونهم وينزّلونهم منزلة التقدير والتبجيل. اما الكتبيون، فإنهم يقدّمون لهؤلاء الملوك مخطوطات مستوردة من بلاد البربر، فتحظى باقبالهم عليها وعنايتهم بها، وهي البضاعة المربحة أكثر من غيرها.

أهم النقود المتداولة وأرفعها تضرب في امبراطورية مالي ،وتتشكّل من قطع صغيرة من الذهب الخالص الناعم، ولكن المعاملات العادية، تتم بواسطة نقود معدنية حلزونية الشكل، مضروبة في بلاد الفرس، تعادل أربعمائة قطعة منها مثقالا من الذهب، كما أن ستّة مثقالات وثلثي مثقال، تعادل أوقية رومية واحدة.

أهل السودان أشخاص يتصفون بالليونة والظرافة وحسن المعاملة والبشاشة، يغنون ويرقصون على نغمات طبول صغيرة ومزامير، ويشبهون في ذلك، أهالي بعض الأقاليم في البرتغال، ويُشغّلون كثيرا من العبيد، إناثا وذكورا. لا يوجد أي بستان في هذه البلاد، كما لا توجد فيها شجرة واحدة مثمرة. وبما أن البيوت مصنوعة من الخشب، فإن مدينة تومبوكتو تتعرّض للحرائق، وكم من مرّة التهمت النيران بعض منازلها.

الفصل السادس

كبرة

تقع هذه المدينة على ضفاف النيجر، على بعد زهاء أربعة فراسخ من تمبوكتو، لا يوجد بها أي بناء من الحجر ولا أي قصر، وبها ترسّي السفن المحمّلة بالبضائع الواردة من المناطق الداخلية، وفيها يلتقي ممثلو العديد من الأمم، الراغبين في الذهاب إلى غينيا[12] ومالي وغيرهما، وذلك لأن النهر يتفرّع هناك إلى شعبتين، قبل أن يصبّ في المحيط، بالسنغامبيا[13]

تشبه منازل كبرة منازل تنبكتو، وقد عيّن الملك أحد أقربائه وليا على كبرة ليقوم بالعدل بين الناس. ويلاحظ أن الكثير من الأمراض تضرب المدينة بسبب الرطوبة المرتفعة التي يرجع سببها إلى مياه النهر والحرارة، ولأن الناس آنذاك، يخلطون في أكلهم الحليب واللحم والسمك، وهي أطعمة إذا تناولها المرء في وجبة واحدة، يصاب بالجذام وأمراض أخرى.

الفصل السابع

كاو

يبعد إقليم كاو عن تنبكتو بنحو مائة وخمسين فرسخا، ويقع في شرقها الجنوبي ويسمى الاقليم باسم عاصمة كاو التي تشبه مدينة كبيرة، وليس فيها جدران ولا قلعة، ولكن فيها من المنازل ما يستحق الذكر، على خلاف كبرة، ويوجد بها قصر الملك وقصور أخرى مبنية على الطراز العربي الاندلسي.

ينعم أهل كاو بثراء نسبي، ويشتغلون بالتجارة في كثير من الجهات الافريقية وكثير من تجارهم يأتون من المناطق الداخلية، بالذهب الذي يستبدلونه بالبضائع المستوردة من أوربا وبلاد البربر، لكنهم لا يجدون وفرة البضائع لانفاق كل أموالهم. ونشير في هذا الصدد، أن أهالي مدينة كاو يتميزون عن باقي أهل المملكة، بأدبهم وأخلاقهم وفضائلهم.

يزخر الاقليم بالاراضي الخصبة والمراعي الخضراء والانعام الكثيرة، وينتج البطيخ والفقّوس والبصل والقرع وكثيرا من الخضر التي يوجد مثلها في بلاد البربر

(12) نذكّر بأن غينيا تعني السودان الغربي، أي ما يشمل حاليا السنغال وكامبيا وجزءا من مالي والنيجر.
(13) نُذكّر كذلك بأن النيجر يصب في بلاد نيجريا.

وكميات هامّة من الأرز الجيد، لكن لا ينبت فيه عنب ولا يوجد فيه خمر ولا فاكهة، إلا التمر الذي يأتي من الواحات الصحراوية.

في المدينة، حفرت آبار لتلبية حاجيات الناس من الماء، وتوجد في وسطها ساحة كبرى يعقد فيها سوق مرّة في الأسبوع، يباع فيه العبيد بأثمان بخسة، لا يتجاوز ثمن عبد شاب أو أمة شابة، ستة عشر درهما، ولا غرو أن تجارة العبيد تزدهر مع الحروب.

يوجد قصر الأمير خارج المدينة بقليل، مساحته كبيرة، ويتضمن أجنحة مختلفة، منها ما هو خاص بالحريم وما هو خاص بالجواري، كما توجد به أماكن خاصّة بالعبيد والخصية، كما هو الحال في بلاد البرابر. للملك حرس يتألف من الفرسان والمشاة والرماة، يقفون على حراسة أبواب القصر، وبعضهم يرافقه في تنقلاته. داخل القصر توجد ساحة كبرى بين البوابتين الرئيسيتين تطل عليها القاعات التي يستقبل فيها الملك زواره أو رعاياه كل يوم، ويقوم الملك بنفسه بتنظيم الاستقبالات والجلسات وتحديد مواقيتها، ويساعده في ذلك، ضباط من الجيش والشرطة، يعملون تحت أوامره. يستخلص الملك أرباحا هامّة في صيغة رسوم مفروضة على العمليات التجارية . التجارة حرّة، خصوصا منها تجارة الخيول المستقدمة من بلاد البربر ونوميديا، وتجارة الأنسجة الأوربية، ولا سيما منها الثياب الحريرية الحمراء أو الزرقاء التي يبلغ ثمن الذراع منها عشرين مثقالا، في حين، أن غيرها من الثياب لا يتجاوز ثمن الذراع منها ستة مثاقيل. علاوة على ذلك، يبيع التجار الاجانب في أسواق كاو، الأسرجة ولواحقها، وعددا من الأشياء النفيسة، ويحققون أرباحا أكثر أهمية في بيع التوابل والملح، وفيما يستخلصونه من بيع الذهب، بعد عودتهم إلى أوطانهم.

باستثناء كاو، لا يوجد في بقية المملكة سوى مداشر يسكنها الفلاحون وأهل البوادي الذين يعيشون في حالة بدائية كالوحوش، يكتسون في الشتاء بجلود الحيوانات، ويظلون عراة حفاة في الصيف، نساء ورجالا، لا يسترون عورتهم إلا بقطعة صغيرة من الثوب. إن الشعب جاهل وكل من له إلمام بالكتابة والقراءة يظهر وكأنه وليّ مقدّس، وقلّما يوجد فيهم من يكتب أو يقرأ. لذلك، لم يجد الفقهاء العرب صعوبة كبرى في حملهم على اعتناق الاسلام، ولو أنهم أمسوا لا يعرفون شيئا عن دينهم، اللهم قولهم الشهادة.

الفصل الثامن

جوبر

يقع إقليم جوبر(14) غرب مملكة كاو التي يبعد عنها بنحو مائة فرسخ، وتفصله عنها مفازة مُقفِرة صعبة، وهي على مسافة أربعة عشر فرسخا من نهر النيجر. ويحمل هذا الاقليم الذي تتخلله الجبال، إسم عاصمته التي يسكنها ما يقرب من عشرة آلاف أسرة.

يوجد بالمدينة رجال أمن نظرا لوفرة التجار والصناع القاطنين بها، وأكثرهم يروّجون المنتوجات القطنية والنعال الأوربية التي تشبه نعال الرومان التي يباع مثلها في كاو وتنبكتو. ونشير إلى أن عددا هاما من التجار، غرباء، يقدمون إلى جوبر من البلاد الأوربية وبلاد البربر، لتسويق بضائعهم. هناك في الاقليم عدة قرى يوجد بها بعض الحيوانات كالجمال والاغنام، لكن الأبقار قليلة، وما يوجد منها، قصير القوائم، لا يتجاوز علوه علو العجول.

كان يحكم الاقليم قديما أمير قوي، أحبته رعيته، فاعتزّ باستقلاله ورفض أن يدين بالولاء والطاعة إلى امبراطورية مالي العظمى، فوجّه إليه ملك تمبوكتو، وهو من آل أسكية، قوات عسكرية ضخمة، فانهزم الأمير، وحمل أسيرا رفقة أبنائه الثلاثة إلى تمبوكتو، وهناك لقي مصرعه أمام أبنائه، فأصبحوا عبيدا في خدمة قصر تمبوكتو. بعد ذلك، عين ملك مالي واليا على جوبر، واثقل كاهل السكان بالضرائب، فاستنكر أعيان الاقليم سياسته، فنقلهم بدورهم إلى ربوع مملكته وباعهم في أسواق النخاسة.

كانت هذه الأحداث وخيمة على الاقليم، ففقد ثراءه وازدهاره، وأصبح يتخبّط في الفقر. ينتج جوبر كثيرا من الذرة وكمية من الأرز الجيد، ويستفيد الفلاحون من فيضان النهر.

الفصل التاسع

أكْدز

يقع إقليم أكْدز غرب اقليم جوبر وبتخوم البلاد الليبية، وتوجد به مدينة أكْدز التي مضى على بنائها 160 سنة(15)وهي أقرب مدن السودان من المناطق

(14) ان التقسيمات السياسية الاستعمارية التي فُرضت على القارّة الافريقية، جعلت إقليم جوبر، يقع بين جنوب بلاد النيجر وشمال بلاد نيجريا. (المترجم)

(15) الواقع أن أكدز بنيت خلال القرن الحادي عشر الميلادي. أما الاقليم، فإنه يقع في الشمال الشرقي من جوبر. (المترجم)

الافريقية المأهولة بالبيض، مثل موقعها في ذلك، مثل مدينة ولاته. بنيت منازل المدينة حسب الهندسة العربية، ويكاد أهل البلد يكونون كلهم تجار وأغلبهم أجانب. أما الذين لا يمارسون التجارة، فإنهم يمارسون الصناعات اليدويّة أو يشكلون جنود الأمير.

لكن يتعين على التجار أن يضمنوا أمنهم في تنقلاتهم عبر الطرق المؤدية من كانم إلى برنو، والتي يكثر فيها اللصوص القادمين من مصر. لذلك، نراهم يملكون عبيدا يسلحونهم لتأمين سلامة البضائع وأصحابها خلال تنقلهم. أما إذا رحل هؤلاء التجار لاستيراد البضائع، فانهم يتركون العبيد ليخدموا غيرهم في انتظار رجوعهم.

يمتلك الأمير قصرا جميلا وسط المدينة، يُقيم عليه حراسة شديدة، وله جنود من مواطنيه أو من صحراء ليبيا، لأن الأمير إفريقي من قبيلة ونزيكة، وقد عينه رؤساؤها على رأس الاقليم، ولهم الحق في عزله إذا خرج عن الخط المرسوم للامارة. أما باقية الأهالي فإنهم يشتغلون بتربية المواشي ويسكنون بالبوادي، في بيوت مصنوعة من القصب أو من الاغصان، ويترحّلون كالأعراب.

يستخلص الأمير مبالغ مالية هامّة من الضرائب على البضائع المستوردة، ويدفع لملك تمبوكتو إتاوة تقدر بمائة وخمسين مثقالا في السنة. هذا وينتج الاقليم، كميات هامّة من عسل المن، تدخر في القرع المفرغ وتباع للتجار الذين يقبلون إلى أكْدز قصد اشتراءه.

الفصل العاشر

كانو

كانو إقليم شاسع الأطراف يتاخم نهر النيجر واقليم أكْدز غربا، وتوجد به عدة مدن وقرى غير مسورة، ويشتغل أهل البلاد برعي المواشي أو بالفلاحة، لأن الأرض تنتج كميات هامّة من الحبوب والأرز والقطن. وتوجد بالاقليم، مناطق جبلية تكسوها الأشجار، وتنبع فيها عدة عيون، يسقى منها شجر البرتقال والقرص الوحشي، والتي لا تختلف فواكهها كثيرا عن فواكه البلدان الأخرى التي تنتج مثلها.

تقع مدينة كانو وسط الاقليم وتحيط بها أسوار من الخشب والطين، وهما المادتان اللتان تبنى بهما المنازل عند أهل البلاد. وتسهر عناصر من الشرطة على أمن

السكان وعلى سلامة ممتلكاتهم وأمتعتهم، لوجود عدد كبير من التجار والصنّاع يعيشون في رعاية حاكم قوي، له بلاط جميل، وجيش يتألف من آلاف الفرسان والمشاة، استطاع أن يفرض به نفوذه على أهالي كستينة وزكزاك، وارغامهم على تقديم الاتاوة.

إلا أن كلا من أمير كستينة وأمير زكزاك استاءا من سياسة أمير كانو، فاستنجدا بأحد ملوك آل سكية لتخليصهما من نفوذه. وبالفعل، شنّ ملك مالي حربا دِعائية ضد ملك كانوا، واستغرقت الاشتباكات بينهما زهاء ثلاثة أعوام، أدّت إلى القطيعة بينهما ثم قامت قوات تابعة لآل سكية بحصار شديد على مدينة كانو دام عدة شهور، انتهى باستسلام المدينة. على إثر ذلك، انتهت الحرب بين المملكتين بشرط أن يسلّم ملك كانو ثلث مداخيله إلى ملك مالي، وأن يزوّجه إحدى بناته ثم عاد الملك المنتصر إلى تمبوكتو، وقد كلف بعض ضباطه بالبقاء في كانو من أجل السّهر على تنفيذ شروط الاستسلام.

الفصل الحادي عشر
كستينة

يقع إقليم كستينة شرق اقليم كانو ويتألف من مناطق جبلية وسهول تنتج كميات وافرة من الشعير والذرة. أما الأهالي، فإن بشرتهم شديدة الأسوداد، أنوفهم فطساء وعريضة وشفاههم سميكة.

مناطق الأقليم المأهولة، كلها مفتوحة مثلها مثل القرى، وبيوتها غير جميلة، ولا يوجد أي تجمّع سكني يتألف من أكثر من ثلاثمائة كانون.

يعاني كافّة السكان من الفقر، ولما قَتَلَ أحد ملوك آل سكية أميرهم، فرض عليهم أداء الخراج إلى خزائنه.

الفصل الثاني عشر
زكْزاك

إقليم زكْزاك يتاخم الاقليم السابق من جهة الجنوب الشرقي، ويرفل في رخاء نسبي نظرا للنشاط التجاري الذي يجري فيه، وينقسم إلى جزئين، جزء كله سهول حارّة، وجزء كله جبال باردة، إلى درجة أن سكان المناطق الجبلية يضطرون إلى وضع أفران تحت أسرّتهم في فصل الشتاء لكي لا يتأثروا بشدة البرد.

توجد بالبلاد مياه كثيرة وأراضي خصبة تنتج كميات هامّة من الحبوب، إلا أن المنازل كلها أكواخ.

كان يحكم هذا الاقليم قديما، أمير، لكن الملك الزنجي قتله واستولى على البلاد التي سكانها كلهم زنوج ويتميزون بذمامتهم، مثل أهالي كستين، وتوجد به مدينة زازّو (16)

الفصـل الثالـث عـشر

اقليـم زمفـارة

يقع اقليم زمفارة غرب الاقليم السابق وينتج كثيرا من الحبوب والأرز. أما السكان، فانهم يتميزون بالطباع البدوية، والفظاظة في الكـلام ورشاقة الجسم، لكن بشرتهم شديدة الاسوداد، ووجوههم عريضة وبشيعة، أقرب منها الى وجوه الحيوان من وجوه بني آدم، وقد قام ملك من ملوك آل سكية بتسميم حاكم زمفارة واستولى على أراضي الاقليم عنوة ثم أمر بتقتيل السواد الأعظم من الأهالي.

الفصـل الرابـع عشـر

ونكّـارة

تشكل ونكّارة اقليما شاسع الأطراف، عديد السكان، يقع بين شرق وجنوب زمفارة، ويحتشد سكانه السود خصوصا في جنوبه ويجلبون إليه التبر. أمير البلاد يتوفّر على جيوش قوية تتألف عادة من عشرة آلاف من النبّالة المشاة، ومن ستمائة من الفرسان الاجانب، ويستخلص رسوما هامّة من البضائع المجلوبة من بلاد البربر.

في هذه البلاد، مدينة مسورة تحمل إسم الاقليم، وما عداها، فلا يوجد إلا قرى منازلها قبيحة الهيئة، وشبيهة بالأكواخ. يمارس السكان التجارة الداخلية والمبادلات مع البلدان الاخرى، ذلك ما يرجع عليهم بأرباح طائلة تفسّر ما لهم من ثروات. ونشير إلى أنهم خاضوا حربين مع ملكين عظيمين، أحدهما هو ملك تنبكتو في ناحية الغرب، والثاني هو ملك برنو في ناحية الشرق. لكن عندما كان الملك يسير في اتجاه ونكّارة تصدّى له ملك كاو الذي كان حليفهم فأرغمـه على التراجع. عندها، صمدوا في وجه ملك تنبكتو ولم ينهزموا، وبذلك حافظوا على حريتهم.

(16). أصبحت هذه المدينة تسمى زاريا، منذ عهد الاستعمار، وكانت عاصمة اقليم زكزاك.

عندما يرحل تجار ونكارة إلى البلدان التي تنتج الذهب، يضطرون إلى عبور مسالك جبلية وعرة، لا تقدر الدواب على السير فيها، وهكذا لجؤوا إلى استخدام العبيد، فيحمّلونهم البضائع والمؤن المحفوظة في صناديق خشبية يضعونها فوق رؤوسهم، يحمل منها كل واحد من هؤلاء العبيد ما يقرب من مائة رطل، فيتسبب لهم ذلك في الصلعة ويمشي إلى جانب العبيد، حرّاس مسلحون لحمايتهم من اللصوص السود.

الفصل الخامس عشر

برنو

برنو إسم لاقليم شاسع شرق ونكّارة، ويمتد طوال مسافة تقدّر بنحو مائة وستين فرسخا ويبعد عن النيجر بنحو خمسين فرسخا، ويتاخم جنوبا، مفازة ساو كما يتاخم شمالا مفازات أخرى تشبه صحراء برقة.

تتألف تضاريسه من الجبال والسهول الآهلة بسكان طبائعهم حسنة وأخلاقهم طيبة، ولعلّ هذا هو السبب الذي يشجّع التجار الأجانب، البيض والسود، على الاقامة بالمنطقة.

ينتج إقليم برنو كميات كبيرة من الحبوب ويتوفّر على أنعام كثيرة. أما الحاكم فإنه اتخذ قرية كبيرة قاعدة لملكه. وله حرس يتشكّل من العناصر الأجنبية وجيش من الرماة. أما المناطق الجبلية، فإنها هي الأخرى تزخر بالانعام الكبيرة والمتوسطة وتنتج الذرة وحبوبا أخرى غريبة، زيادة على القطن. ويلاحظ أن الرعاة يكادون يخرجون عراة في الصيف لا يستترون إلا بقطعة صغيرة من الجلد، أما في الشتاء، فإنهم يرتدون جلود الخرفان ولا ينسلخون عنها أثناء نومهم.

ليس لشعوب برنو تشريع خاصّ وليس لهم دين وليس فيهم يهودي أو مسيحي أو مسلم، ويعيشون على شاكلة الحيوان، نساؤهم مشتركة بينهم، والأطفال ينسبون إلى الجميع ليست لأهل برنو أسماء شخصية، وإنما يتعرّف بعضهم على البعض بعلامات خاصّة، ويعطون القابا، كالطويل، والأعرج، والأصدف، وغير ذلك.(17)

(17) نستغرب ما كتبه مرمول عن برنو، وكأنه جهل أو تجاهل المصادر التاريخية التي تطرّقت لمملكة برنو وكانم، التي بدأ الحديث عنها في المراجع العربية منذ القرن الثاني الهجري، (التاسع الميلادي). ونشير بالمناسبة، ان دولة سيفاوة، التي أصلها من تيدا، بتيبستي (شمال التشاد ــ جنوب ليبيا) كانت تحكم إقليم كانم شمال تشاد، وبرنو، غربه، وان أحد ملوك هذه الدولة، اعتنق الاسلام، أواخر القرن الثاني الهجري، وتعزّز هذا الحدث، باسلام مملكة غانة الصحراوية، على يد المرابطين.

يحكم البلاد، افريقي من برداوة، له جيش عظيم يتألف من ثلاثة آلاف فارس وأكثر من ذلك من المشاة، وتتألف موارد الحاكم، من الزكاة المفروضة على الأنعام والمنتوجات الزراعية، يضاف إليها ما يسرقه عمّاله للأجانب، إذ يرسلهم إلى الأقاليم المجاورة لنهب الأموال، وكأنه سعى إلى الانتقام من الشعوب المتاخمة التي كانت قديماً تتحرك نحو برنو للاستيلاء على خيراتها.

عندما أخذ ملك برنو يشتري الخيول من بلاد البربر، كان يدفع لمستورديها عشرين عبداً مقابل فرس واحد، وقد تمكن بذلك، من استنزاف أوساط اللصوص والتقليل من عددهم وإغراق بلاد البربر بالعبيد.

كان ملك برنو يقضي الصيف في برداوة والشتاء في برنو، ويتباهى بثروته ويملك سروجاً مزركشة بالخيوط الذهبية وأواني منزلية رفيعة وأدوات الصيد، علاوة على الأقاليم الأخرى التي صارت تحت نفوذه في ليبيا وحول ضفاف النيجر.

وفي موضوع نهر النيجر، نشير إلى أنه يجري تحت الأرض، طوال مسافة تزيد على عشرة فراسخ، ثم ينبعث من مجراه الباطني ويتضخّم بروافده ثم يصب بعيدا في المحيط.

الفصل السادس عشر

كَاوكَاو

يتعلق الأمر هنا بالأقليم الواقع شرق برنو الذي يمتد إلى تخوم نوبا عبر مسافة مائة وستين فرسخا، وعرضه لا يقل عن طوله إلا بقليل، ويخترقه نهر (18) يصب في النيل، كما توجد بجنوبه مفازة يحدها النهر ذاته لأنه ينعرج ويشكل شبه قوس. أما شمالا، فتحده صحاري سيرت ومصر.

= ويشير صاحب الاستقصا، الجزء الخامس ص 103، إلى ما يلي : «ومن أهل بورنو، الشيخ العارف بالله تعالى، أبو محمد عبد الله البرنوي، شيخ الولي العارف بالله تعالى أبي فارس عبد العزيز الدباغ، الموضوع في مناقبه كتاب «الذهب الابريز». ـــ انتهى ـــ

وخلال القرن الثاني عشر الميلادي، أدى أحد ملوك برنو، فريضة الحج مرتين، وكان ملك برنو يسوس كذلك إمارة كانم. وأشار المقريزي إلى أن أهل كانم، اعتنقوا المذهب السنيّ في منتصف القرن السادس الهجري. أما الحسن الوزان، فقد جزم أن أهل كانم وبرنو لبثوا في أغلبهم يعبدون الأوثان.

وكتب الراوي أحمد فرطاوي، في نهاية القرن السادس عشر الميلادي، عن مملكة برنو ـــ كانم، يقول ان أعيان المملكة كانوا مسلمين، والمساجد صارت تشيد في ربوع المملكة، وان السنة كانت المذهب الوحيد في البلاد، وكان هناك قضاة يقضون بين الناس، مع العلم أن عبادة الأوثان كانت لا تزال قائمة عند بعض القبائل، منها قبيلة بولالة وقبيلة صو، وقد حارب ادريس علومة، ملك برنو ـــ كانم قبيلة صو لتواطئها ضده مع أعداء عرشه. وقد عمل عليّ دوناما قبل إدريس علومة، على نشر الشريعة، وتوحيد اللهجات، وكان القوم يتكلمون لغة تسمى الكنوري، وهي مزيج من لغة برنو ولغة كانم.

مع هذا نستغرب الا يكون بين القبائل غير المسلمة، مسيحيون، والمنطقة تتاخم الأقاليم التي كانت المسيحية القبطية منتشرة فيها. (المترجم)

(18) النهر المقصود هو بحر الغزال الواقع يومه جنوب السودان ولا ينبغي خلطه بنهر صغير آخر، يسمى كذلك بحر الغزالي، والذي يصب في بحيرة تشاد. (المترجم).

لا يوجد في هذا الاقليم، أدبـاء ولا من يعرف الكتابة، وليس فيه رواج تجاري، ولا شرطة ولا نظام. اما الأهالي، فكلهم مخشوشنون، أفظاظ غلاظ، ليس لهم وعي ولا ضمير ولا يدركون معنى للخير، خصوصا منهم سكان المناطق الجبلية، وهم إلى الوحوش أقرب منهم الى الانسان. يخرجون عراة لا يستترون الا بقطعة صغيرة من الجلد، أكواخهم مصنوعة من الأغصان. ولهم عدد كبير من رؤوس الأنعام المختلفة، تشكل شغلهم الشاغل.

كان هذا القوم قديما يتمتّع بحريته المطلقة، ولكن قبل مائة وثمانين سنة، مرّ بهذه البلاد عبد زنجي مع سيده، فقتل سيده واقتسم بضائعه وأمتعته وأسلحته مع عناصر القافلة الذين كانوا يرافقونه، واقتنى خيولا من بلاد أخرى، وأخذ ينهب المواقع المأهولة المتاخمة للأقليم، فيحصل على غنائم كثيرة وهامّة، فتضاعفت ثروته، ومضى يشتري خيولا أخرى وأسلحة ثم ألف جيشا وفرض نفسه على الأهالي، فاعترفوا له بالامارة عليهم.

ولما توفّى هذا الأمير، خلفه ابنه ولبث في الحكم أربعين سنة، قاد خلالها شؤون الاقليم بمهارة. ولما هلك، خلفه ابنه المسمى موسى ابراهيم. وتولّى الحكم بعده أحد أحفاده. يسمى عمر، الذي ذاع صيته وقويت شوكته، وحظي بعناية كبرى لدى حكام السودان الذين زوّدوه بالأسلحة والخيول وكل ما كان متوقّفا عليه، لأنه كان يدفع الثمن ضعفين، ويحسن الأداء، الى درجة أنّ أغنياء تجار مصر كانوا يقصدونه فيرجعوا راضين بالتعامل معه.

اتخذ الأهالي الاسلام دينا ويبجّلون العلماء.

الفصل السابع عشر

نوبا

تقع نوبا شرق الاقليم السابق ذكره، الا أن صحاري شاسعة تفصلها عنه. يخترقها النيل، وتتاخم جنوبا، مفازة الجرحان، تحدها مصر شمالا.

ان الجزء النوبي من النيل ليس قابلا للملاحة، وذلك لأن مياه هذا النهر العظيم تنتشر هنا عبر سهول كبيرة، فيكون مجراها غير عميق، حتى ان الناس

يجتازونها مشيا أو على الخيول. أما أهم مدينة بنوبا فهي دنجالة الآهلة بالسكان، حيث فيها ما يقرب من عشرة آلاف منزل، مبنية من الخشب المغطى بالتراب.

يتوفّر السكان على ثراء نسبي، يرجع إلى أرباح تجارتهم مع أهل القاهرة وغيرها من المدن المصرية، التي يجلبون منها الأسلحة والأقمشة والثياب ومنتوجات أخرى. وما عدا دنجالة، فلا ترى في هذا الاقليم الا مداشر متناثرة على ضفاف النيل، يقطنها الفلاحون والزّراع، فيحصدون كميات هامّة من القمح والشعير والذرة وقصب السكر، لكنهم لا يعرفون طرق عصره وتكريره. من بين المواد التي تباع في دنجالة، نذكر المسك والعود والعاج لوفرة الأفيال في البلاد، وتباع أيضا مادة سامّة للغاية، حيث تكفي حبة منها لتؤذي بحياة عشرة أشخاص في ظرف ربع ساعة. وثمن الأوقية من هذه المادة مائة مثقال، ولا تباع الا للأجانب على أساس التزامهم بعدم استعمالها داخل البلاد. وبهذا الصدد، تجدر الاشارة الى أن حقوق الملك في ترويجها، تبلغ مائة مثقال للأوقية، وبيعها سريا محظور، ومن خالف ذلك يقطع رأسه.

كان ملك نوبا في حالة حرب مستمرة، فتارة يقاتل رهطا من المصريين الذين يجوبون صحراء الجرحان وهم يرطنون رطنا خاصّا، وتارة يحارب الشعوب القاطنة شرق النيل، في الصحراء الممتدة في اتجاه البحر الأحمر، نحو بلدة السواكن، وتتألف لهجتهم من العربية والكلدانية، والمصرية والحبشية، إلا انهم شعوب فقراء عزّل، يقتاتون باللبن ولحم الابل والوحوش. وفي بعض الأحيان يقومون بغزوات في ضواحي دنجالة، وكان لهم في الماضي ميناء بالبحر الأحمر، يقابل ميناء السودان، والذي لا يبعد عن مكة الا بنحو أربعة عشر فرسخا.

يروي التاريخ أن هؤلاء الشعوب هاجموا قبل اليوم، بثمانية أعوام راحلة حجّاج برحوا القاهرة في طريقهم إلى مكّة، ونهبوها، فاغتاظ حاكم السودان المصري لهذا الحدث، وأرسل اليهم قوات بحرية استولت على مينائهم وأسرت منهم عددا، بينما تمكّن البعض منهم من الفرار الى دنجالة والسّواكَنْ، ومضوا يمارسون كل ما أمكنهم من أعمال الشرّ، وداموا على ذلك الى عهدنا هذا، فانتفض الملك الحاكم حاليا، واستعان بجنود أتراك، وقضى على نشاطهم السيء، فقتل منهم أكثر من أربعة آلاف، وأسر منهم ألفين بعثهم الى السّواكَنْ. وهناك هجمت عليهم النساء ومزّقن أجسامهم تمزيقا.

بعد هذا العرض، سنرجع إلى موضوع شعوب اثيوبيا السفلى، المتساكنين في الأمصار المطلة على المحيط غربا، لنتحدث عن الاكتشاف الذي حققه البرتغاليون بالمنطقة، ونترك وصف مصر الى مقام آخر.

الفصل الثامن عشر
إقليم الولوف

انه إقليم شاسع الأرجاء، ويحدّه نهران[19] متفرعان عن نهر النيجر، ويتوغّل في عمق القارّة ويوجد به عدد من المدن والقرى يفوق بكثير ما قاله عنه بطليموس.

استأجرت شعوب الاقليم مرتزقة للسهر على سلامتها وشؤونها، وتُعْرَفُ تلك الشعوب بأنها شعوب الولوف أهمها وأكثرها عددا تقطن قريبا من نهر السنغال، وهي التي تتشكل منها شعوب التكرور والسرخول.

هذا ويمكن للسفن أن تطلع عبر الفرع الثاني للنيجر حتى تصل مدينة كوانتور، وكانت السفن البرتغالية هي الأولى التي استطاعت ذلك، عبر مسافة ثمانين فرسخا لاقتناء الذهب، إلا أن المسافة كانت في الواقع أطول من ذلك، نظرا لانعراجات النهر الذي يسميه السود نهر كامبيا وهو يفوق نهر السنغال عرضا وعمقا، من كوانتور إلى البحر، لأن عددا من الأنهار والروافد تصب فيه.

وتجدر الاشارة إلى أن أنهاراً أخرى تنساب في هذا الاقليم، منها ما ينبع من ربوع صحراء المنطقة، ومنها ما يتفرّع عن نهر النيجر، ونشير أيضا إلى أن نهر كامبيا يجري ببطء نظرا لانعراجاته الوعرة التي تعرقل وصول السفن الكبيرة إلى كوانتور، وأن جزيرة في وسطه، تفاجىء الملاحين وتضايقهم، يسميها البرتغاليون جزيرة الأفيال، لأنها تغصّ بهذه الحيوانات. وبعد كوانتور بقليل، توجد صخرة عظيمة تقطع الطريق في وجه السفن. ولما علم بها ملك البرتغال، أرسل بعثة من المهندسين والعمال لتكسيرها، إلا أنهم عدلوا عن هذه العملية بعدما تأكدوا من صعوبة إنجازها وجسامة تكاليفها.

(19) كان القدامى يظنون أن نهر السنغال ونهر كامبيا متفرعان عن نهر النيجر. (المترجم).

يعيش في هذه الأنهار، كميات وافرة من الأسماك المختلفة الأحجام والألوان، وحيوانات مائية غريبة، كفرسان البحر والزواحف والثعابين ذات الأجنحة، ولكنها صغيرة جدّا ولا تشكل أي خطر على الانسان، خلافا لما صرّح به الأولون. لكن الحيوانات البرية التي ترتوي في هذه الأنهار تثير الاندهاش بأشكالها العجيبة وباعدادها الهائلة، وكل ذلك، يبين ما تزخر به الطبيعة هناك، من حيوانات فريدة النوع وغريبة الخلق.

تشكل اليابسة الواقعة بين نهر السنغال ونهر كامبيا، رأسا كبيرا يتوغّل في البحر، ويسمّى الرأس الأخضر، يضعه البرتغاليون في عرض أربع عشرة وثلث درجة، بينما يقول بطليموس إنه يقع على عشر درجات وثلثي درجة، أما الجزر المجاورة له، والتي تسمى جزر الرأس الأخضر، فيسميها بطليموس جزر الإسبيريد، وهذا يعني أنها تقع عند مصبّ النهرين، ولئن قال الرحالة البرتغالي كداموستو، إن الرأس الأخضر يقع على خط اثنتي عشر درجة، وأكد أن هذا الرأس هو الذي يسمّيه بطليموس الرأس الأثيوبي.

إن أهمّ القبائل المتساكنة حول ضفاف نهر كامبيا هي قبائل الفولان وقبائل منياكة، أهم حاضرة هناك هي مدينة صونكو المتوغلة داخل البلاد بنحو أربعين فرسخا، ويسمّى السكان الموص، نسبة لاقليم موصالة الذي ينتمون اليه. ونقول عنهم، إنهم زنوج أقوياء، لم يستطع ملوك تنبكتو قهرهم ولا تطويعهم.

لا غرو أن بطليموس لم يعرف جيّدا مجرى النهرين لأنه جعلهما يصبان من عينين متقاربتين ولم يحدّد لهما مصبّا، وهما ينبعان بالتأكيد[20] من الجهات التي ذكرناها في مقام آخر. وعليه، فإن الاقليم كله، الموجود بين النهرين، من الغرب إلى الشرق، مأهول بالولوف، ويسمى الولوف، ولو كانت شعوبه تنتمي إلى أمم مختلفة[21].

التربة هناك خصبة، ولاسيما في الجهات التي تنساب عبرها الأنهار وتفيض، ولكن حرارة الصيف تؤثر على الأرض، فتهوى التربة في العديد من الأماكن وتشكل حفرات تتسع الواحدة منها لفرس. وعندما يرمي الفلاحون بذور

(20) كان مرمول نفسه مخطئا، إذ ظن أن نهر السنغال ونهر كامبيا يتفرّعان عن نهر النيجر. (المترجم)

(21) الأمم القاطنة في الاقليم الموصوف أعلاه، هي التكرور، الولوف، الفولان الباندو والسرير، وبمبارة وغيرها، ولكل قبيلة لهجتها، لكن أهم لغة محلية في المنطقة هي الولوف التي تكاد تكون اللغة الشائعة في أوساط جميع المواطنين، غير ان اللغة الرسمية اليوم، هي اللغة الفرنسية. (المترجم)

الذرة في الأرض ـــ والذرة تشكل أهم مادة غذائية عندهم ـــ يغطونها بشيء من الرمل حتى لا تقبر في الصيف، حيث تتكوّن قشرة صلدة فوق الأرض من جرّاء فرط الحرارة. ويغتنم الفلاحون بذلك ندى الليل الذي يسقط على الرمل فينبت البذور.

نظرا لما تعرفه المنطقة من رطوبة فائقة، فإن الأرض لا تنتج قمحا ولا شعيرا، ولكن كميات ضئيلة منهما، تنتج في الجهات النائية عن ضفاف النهرين، كما هو الحال عند السراخوليين في السهول القريبة من الصحاري، وحبّات القمح هناك أضخم من حبات القمح الأوربي.

الفصل التاسع عشر
عن ملوك الولوف، وكيف اعتنق أحدهم الديانة المسيحية

عندما أخذ البرتغاليون يقومون بالملاحة طوال شواطيء الاقليم السابق وصفه، كان يسوس الولوف ملك عظيم يسمى بوربرام، وهو من أصل نبيل ومن أعيان الإثيوبيين، وقد اعتنق الاسلام على يد فقهاء صنهاجيين. ولما توفى هذا الملك خلف ثلاثة أبناء، اثنان منهما شقيقان، واسم الأول سبيتا، وإسم الثاني كامبا أما الابن الثالث، فيسمى بيرام، وقد أنجبته امرأة أخرى، سبق لها أن كانت متزوجة وأنجبت ولدا يسمى بيموي.

كان من عوائد الولوف أن يختاروا خلفا لملكهم، بعد وفاته، أحد أبنائه الذي يرتضونه، فاتفقوا على تعيين بيرام. ولما تولى هذا الأمير الملك أخذ يناوش على أخويه من أبيه وقرّب منه بيموي أخاه من أمه وأناط به مسؤوليات هامة من شؤون الحكم، حتى صار بيموي هو صاحب السلطة بالفعل، وأمسى بيرام يحمل اللقب لا غير.

كان بيموي، هذا الزنجي الذي يمارس الحكم، ذكيا، حاذقا، ومتبصّرا، وفنطن للفوائد التي يمكن جنيها من التعامل مع البرتغاليين الذين كانوا يجلبون إلى الاقليم الخيول وبضائع أخرى تضاعف ثروات البلاد وتجعلها قوية. غادر بيموي منزله القديم الواقع وسط القطر، وصار يتردّد على الموانيء ومضى يشتري بأثمان باهضة الخيول التي يأتي بها التجار البرتغاليون، فكان ذلك حافزا لهم على

مضاعفة العروض من الخيول، وحتى إذا مات فرس في البحر، قدّم البرتغاليون إلى بيموي عرين الجثة وذنبها، فيؤدى لهم ثمن الفرس، ولو ميّتا.

هذا من جهة، ومن جهة أخرى، كان بيموي معجبا بالملك دون خوان البرتغالي ويأمل أن يقدّم له مساعدة، إذا اقتضى الأمر، فيضع رهن اشارته، جنوده وسفنه. من أجل ذلك، كان الزنجي لا يطيل مُقـام السفن في موانىء كامبيا ويرسل إلى الملك البرتغالي هدايا نفيسة. فكان لهذه المعاملة حسن الأثر في نفس الملك دون خوان، فأخذ يعطف عليه، وأوفد إليه السفراء وأمر ضباط البحرية بتلقينه الديانة المسيحية، وتقديم الهدايا والخدمات المغرية، فصاروا على هذا النهج، حتى أمسى الزنجي يشعر بميل نحو المسيحية، وأعرب عن استعداده لاعتناقها.

وعى الشقيقان سبيتا وكامبا الأخطار المحدقة ببلدهما من جرّاء سلوك أخيهما برام، الملك الخائن، فتآمرا عليه وقتلاه، ثم شهرا الحرب على أخيه بيموي. عندها، أوفد بيموي إلى ملك البرتغال بعثة يرأسها أحد أبناء أخ له، للحصول على الخيول والجنود والأسلحة. لكن دون خوان أجاب المبعوث بأنه إذا تنصّر عمه، فستكون مساعدته أمرا واجبا على ملك البرتغال، اعتبارا للأخوة الدينية التي قد تجمعهما. ومع ذلك، أرسل إلى بيموي خمسة أحصنة بأسرجتها ولواحقها، وبعض رجال الدين ليفقّهوه في النصرانية.

كلّف الملك أحد أعوانه يدعى غنسال كوبيبو، لتقديم الهدايا إلى بيموي، رفقة رئيس البعثة الولوفية. ومن ذلك الحين، والسفن البرتغالية تتاجر باطمئنان في المنطقة، ويتنقل التجار البرتغاليون داخل البلاد لبيع بضائعهم، لأن الحرب الداخلية لم تسمح للمحليين بالتنقل إلى الموانىء. واستمر البرتغاليون في معاملاتهم مع بيموي، يبيعون له الخيول وبضائع لم يتوفقوا في تسويقها في الموانىء، وكان هو يشتريها منهم بأثمان تفوق سعرها.

واعتبارا للمعاهدة المبرمة بين بيموي والبرتغاليين، أقام عنده غنسـان أكثر من سنة، يعلّمه الدين المسيحي ويرجو إقناعه باعتناقه. لكن بيموي كان مماطلا، زيادة على أنّه لم يستطع أن يؤدّي ديونه للتجار البرتغاليين، ورأى غنسـان أن هؤلاء التجار سيفلسون لا محالة إذا تمادوا في التساهل في الأداء مع بيموي، فأطلع ملك البرتغال على الأوضاع السائدة هناك، مبرزا تخوفاته من ضياع الوقت وضياع المال في عملية مشكوكة. عنا ها، تلقى من الملك أمراً بالعودة إلى البرتغال دون

إثارة قلق بيموي، مع إشعار التجار البرتغاليين بضرورة العودة إلى وطنهم، وإنهم، إن خالفوا، فسيعاقبون.

استاء بيموي لقرار غنسال بالرحيل، لأنه كان يرشده في شؤون الحرب، ورأى أن المحافظة على المصداقية تحتّم عليه الوفاء بالتزاماته التجارية نحو البرتغاليين. من أجل ذلك، أدّى إلى غنسال حقوقه حسب الاستطاعة، ثم أوفد ابن أخيه إلى الملك بهدايا مختلفة، منها مائة عبد ذوي صحّة جيدة، وأسورة من الذهب الخالص، كعربون لصداقته وإخلاصه، معتذرا عن عدم الاحتفال باعتناقه المسيحية، اعتبارا للحرب الداخلية التي كان يواجهها، وان تبنيه شريعة جديدة، يعني موافقة الشعب عليها، الأمر الذي يستحيل تحقيقه في الظروف التي تعيشها البلاد.

وبالفعل، فإن انسلاخ سكان تلك المنطقة عما ألفوا عليه آباءهم من معتقدات وعوائد، يتطلب وقتا طويلا وصبرا كبيرا، وليس من الغريب إذا دعوا إلى دين جديد باستعجال، أن يفضلوا التخلي عن بيموي، بدل نبذ ما شبّوا عليه.

بعد مرور أشهر قلائل، انهزم بيموي وتقاعست جنوده فاضطرّ إلى الهروب، ولجأ إلى جزيرة أركوان رفقة عدد من أنصاره ومن تم أبحر إلى البرتغال. وعندما وصل إلى لشبونة، كان الملك وقتئذ بعيدا عن العاصمة، ولما علم بقدومه، أعطى التعليمات لإيوائه بأحد القصور، ومعاملته بما يليق بملك مسيحي.

يوم استقبال بيموي من طرف الملك، توجّه إليه الكونت مريالفا رفقة نفر من النبلاء. أما الملك والملكة، فإنهما استعدّا لاستقبال ضيفهما. وجلس الملك في قاعة كبيرة على مقعد مرتفع شيئا ما، تحت سرادق من الحرير الأحمر، رفقة دوق بيخا صهره وبعض الخواص من بين النبلاء ورجالات الدين، وكانت الملكة من جهتها مرفوقة ببعض خواصّها من الأمراء والنبلاء.

كان الملك البرتغالي يكّن عطفا كبيراً لبيموي، فاستحسن رغبته اعتناق الديانة المسيحية. وعندما دخل عليه بيموي، عاري الرأس، وقبعته بيده، نهض الملك ومشى نحوه. ولما دنا بيموي منه وارتمى هو ورفاقه على قدمي الملك، وقبلوا الأرض ثم قاموا بحركات تحاكي من يأخذ التراب منها(1) إحتراما وتقديسا له،

(22) كانت عادة بعض القبائل الافريقية، ان يتناولوا التراب ويدرونه على رؤوسهم أمام ملوكهم، وذلك للتعبير عن طاعتهم وولائهم.

فاستنهضه الملك بيده ثم عاد إلى مقعده وهو ينظر إليه : كان بيموي جميلا وأنيقا، لا يظهر في مظهر الزنجي، بل في هيئة ملك. كان يتكلم مع الملك، ويقوم أحد البرتغاليين بالترجمة، فراح يعرض وضعيته، مستعملا عبارات وأسلوبا للتأثير على العاهل، معربا عن آماله في عطفه ورضاه، فأدرك الملك قصده، وأخبره بأن طلباته ستدرس. بعدئذ، تقدم بيموي نحو الملك وقبّل يديه، ثم قبّل يدي الملكة والأمراء، وطلب منهم أن يشفعوا له لدى الملك، وانسحب، ثم التحق بمكان إقامته حسب البروتوكول المألوف.

توالت لقاءات الملك بالزنجي، وكان العاهل البرتغالي يصغي باهتمام بالغ إلى ما يرويه بيموي من أنباء عن أمم منطقته وعن كبار ملوكها، ويخصّ بالذكر منهم، ملك شعب الموص الذي كانت مملكته تتاخم مملكة تمبوكتو، والذي لم يكن مسلما ولم يكن وثنيا، وإنما كان يشبه النصارى في كثير من مظاهر حياته الخاصّة والعامة، ذلك ما جعل القس جيان يعرب عن رغبته في التعرّف عليه. اهتمّ الملك بيموي وأمر رجال الدين بفتح بصيرته على المسيحية وإعداده لاعتناقها في حفل رسمي.

وفعلا، تم الحفل ليلة ثالث نونبر من سنة 1491 في إحدى قاعات القصر، من الجناح الخاص بالملكة، وحضره ملك البرتغال. والأمير ضون الفونش، ودوق بيشا وأحد قساوسة طنجة، وقسّ سبتة الذي حضر لتمثيل البابا. وأطلق عليه العاهل البرتغالي إسم جيان، وتنصّر كذلك في تلك الليلة، إثنان من خواصه، ثم وشحه الملك، وسماه فارسا وأهداه صليبا من الذهب، فشكره على الحفاوة والاكرام، ووعد بأنه سيضع تحت رعايته كل الأقاليم التي يغزوها. وبعد ذلك بأيام، أعلن عشرون من بين حاشيته، عن اعتناقهم المسيحية.

أقيمت حفلات رسمية وشعبية بهذه المناسبة في لشبونة، وشارك فيها بيموي ورفاقه، فأدهشوا الناس بإتقانهم ألعاب الفروسية المرافقة بالألعاب البهلوانية العجيبة التي يعجزون هم عن أدائها، والتي قاموا بها أحسن من الأعراب.

على إثر انتهاء الحفلات، قرّرت السلطات البرتغالية تزويد بيموي بما يكفي من العتاد الحربي والمؤن لاسترجاع سلطته على إقليمه، لكن بعد التفكير والتخمين، تم الاجماع على أرجاعه إلى وطنه مع تزويده بعشرين سفينة حربية لمساعدته على بناء برج وقلعة عند مصب نهر السنغال، يستخدمان لفائدة المراكب البرتغالية كمحطة للتوقف أو كملجإ.

كان الملك يرى أنه من الأفضل أن يقوم بيموي بغزو إقليم الولوف وأن ينشر المسيحية بين سكانه وأن يعمل على تنظيم شبكة تجارية برتغالية في عين المكان. لذلك، أوفد الملك أسطولا بحريا تحت قيادة بيدرو نافي، الذي لم يكد يرسّي بمصبّ نهر السينغال حتّى شرع في بناء برج، لكن الموقع لم يكن ملائما نظرا لشدة التّيار وقوة المدّ والجزر ولعدم صلاحيته من الناحية الصحية، إذ أن الموت أخذ يفتك بالبرتغاليين في كل ساعة، فاستاء بيدرو نافي لهذه الأحوال السيئة وانعكاساتها الوخيمة على افراد البعثة البرتغالية، واتّهم بيموي بالخيانة، ثم طعنه بخنجر في سفينته.

شاعت الأخبار بأن بيدرو نافي لم يقم بفعلته إلا خشية من أن تسند إليه مهمة السهر على سلامة البرج بعد انتهاء بنائه وهو يقع في مكان رديء. لكن ملك البرتغال لم يخف استياءه من فشل المشروع الذي لا زالت آثاره متواجدة بمصب النهر.

الفصل العشرون

في اهتمام ملك البرتغال بالتجارة واستكشاف الأمصار الاثيوبية

خلفت وفاة بيموي أثرا عميقا في نفس ملك البرتغال، إلا أنها لم تؤثر على أهدافه الرامية الى مواصلة استكشاف المنطقة الواقعة بين نهر السنغال ونهر كامبيا، خصوصا وأنه مضى يتوصل بتقارير حول ما تتركه في نفوس الأهالي القوات البحرية البرتغالية بنظامها الرائع، وقد شاع في المنطقة أن أحد ملوك أممها تحالف مع البرتغاليين.

كانت هذه الأمصار مسرحا لحروب داخلية، ذلك ما دفع بالبرتغاليين الى كسب صداقة الملك الزنجي، فأخذوا يرسلون اليه الهدايا والبعثات الدبلوماسية.

ظل ملك البرتغال غير مرتاح من الاضطرابات السائدة في المنطقة، فلم ير ما يحول دون تدخّله للتأثير عليها، وطفق المتحاربون يولون اهتماما بالجنود البرتغاليين كما أن ملك البرتغال قام من جهته بربط علاقات مع كل من ملك التكرور وملك تمبوكتو وملك منيانكة، وهم الملوك الذين عظمت شوكتهم بالمنطقة.

في خضمّ هذه الأحداث، اشتدّت الخلافات بين ملكي تمبوكتو ومنيانكة، وملك الفولان الذي كان يتوفّر على جيش قوي ينتسب أغلب عناصره الى قبائل

جنوب اقليم فوتا المتاخم لمملكة منيانكة قبلة، فراح يهاجم الملوك الذين أعربوا عن صداقتهم الى البرتغال.

وكان ملك الموص من جانبه يحارب الملك منيونس صديق البرتغال، فكتب اليه الملك دون جيان يطلب منه ايقاف عملياته الحربية ضد صديقه، وبعث وفدا الى محمد بن منزيكل، حفيد ملك منيانكة، فاندهش هذا الأمير قائلا إن آباءه لم يحصل لهم شرف مماثل، وإنه لم يكن يعرف من الملوك العظام إلا ملك ألمانيا، وملك التكرور وملك القاهرة.

بات ملك البرتغال يعمل على جمع أكثر ما يمكن من المعلومات عن بلاد السود التي كانت تشكل جانبا من جوانب مجاهل القارّة، وكانت له رغبة شديدة في استقاء الأخبار المتعلقة بملك الأحباش الذي كان اسمه يتردد في المحافل الأوربية وغيرها.

وخلال عام 1481، أوفد ملك البرتغال سفارة الى ملك الحبشة المسمّى الاسكندر، فأكرمها وأحسن وفادتها، ولم تمض إلا أيام قلائل حتى توفي هذا الملك وخلفه أخوه، فلم يعر البعثة البرتغالية اهتماما، بل حبس أفرادها ومنعهم من مغادرة البلاد، فلبثوا هناك عدة أعوام ولما مات هذا الملك، خلفه أمير يدعى داود، فبعث إليه ملك البرتغال سفارة أخرى، وهكذا تضخّم رصيد دون جيان من المعلومات عن الأمصار الاثيوبية.

الفصل الواحد والعشرون
مواصلة استكشاف الأمصار الاثيوبية

قلنا إن المنطقة المتواجدة بين نهر السنغال ونهر كامبيا، تتقدم في البحر، في جهة تسمى الرأس الأخضر اعتباراً لما بها من غاب، وقد اكتشفه فرناندو عام 1444. أما جزر الرأس الأخضر الموجودة على نفس العرض، فقد اكتشفها انطوان نول جينوا عام 1445، وعددها عشر.

تسمى الجزيرة الاولى جزيرة ماي، والثانية جزيرة سان جاك، والثالثة جزيرة سان فليبس، أما السبع الأخريات، فإنها اكتشفت من طرف أحد خدّام الأمير دون هانري، وتوجد في احداها مواقع استخراج الملح.

تقع جزيرة سان جاك على خمس عشرة درجة من خط الاستواء، وسنتحدّث عنها في الفصل المتعلّق بالجزر. وعلى نفس مستوى الرأس الأخضر،

يوجد داخل البلاد اقليم كامبيا الذي سمّي باسم نهر كامبيا الذي يتخلله والذي كان بتوليموس يسمّيه التكيري، ويقول إنه ينصبّ من جبل قريب من مصبه ويشكّل بحيرة.

بعد الرأس الأخضر من ناحية الجنوب، يوجد رأس الصواري، وقد سمّاه القبطان لا نسولو كذلك، لأنه وجد به عدداً من النخيل الباسق والجاف. ويحجّ السود من كل الجهات قصد التجارة، إلى المنطقة الممتدّة من الرأس الأخضر إلى حوض نهر كامبيا. وعلى بعد عشرين فرسخا جنوب كامبيا، يوجد نهر آخر يسمى را، يجري في إقليم كزامانس ويمكن للسفن أن تعبره، ويسكن السود بضفافه، ثم يأتي نهر سان دومنيكوس، ويمكن للمراكب أن تعبر شطراً كبيراً منه.

بعد ذلك، يأتي نهر الجزُيرات الذي ينساب عبر اقليم الباباي والذي يصبّ أمام جزيرتين يسكنهما السود، وعلى بعد قليل منهما، يوجد أرخبيل البخاهوس، ولكل جزيرة من الأرخبيل، أمير حاكم، وكل الامراء المتواجدون به يدينون بالولاء لملك جزيرة يو التي اكتشفها فرناندو يو.

ثم نجد إقليم البيافار الذي يتميز بنهره الهائل المسمى الواد الكبير، لأنه أكبر الأنهار بالمنطقة التي تبعد عن الرأس الأخضر جنوبا بنحو سبعين فرسخا. وبعد هذا النهر، يأتي نهر دونالوي الذي ينصب في القطر الذي يسميه الأهالي بلاد الكوكولي، ويصب في نهر نينيو تريستان على مسافة عشرين فرسخا من الوادي الكبير، حيث قتل السود القبطان البرتغالي نينيو تريستان الذي كان يقاتل هناك ضد ثلاثة عشر مركبا للسود.

إن قوة المد والجزر في شواطيء هذه المنطقة قوية للغاية، ولا يخلو الاقتراب منها من خطورة، تضاف إلى خطر الموت الذي يحدق بالبحّارة الأجانب غير المرغوب فيهم، على أيدي الأهالي الذين يتحكمون في استعمال النبال المسمومة ويقذفون بها أعدائهم بسرعة فائقة.

جنوب نهر نينيو تريستان يوجد نهر يسمى التابت، يمر عبر اقليم الأمواج، كما يسميه بعضهم. ثم يلي اقليم صابا الذي يجري فيه نهران كبيران، أحدهما يسمّى كالوس، والآخر يسمى كاسيريس. ثم يأتي اقليم سيرا ليونى الذي يسمّيه بتوليموس عربة الآلة و الذي اكتشفه بترس سنترا. وبعد ذلك يوجد نهر سويرو الذي اكتشفه ضابط برتغالي يسمي سويرو والذي يقع بين رأس النخيل ورأس

الصخور الثلاث قرب دار أشيم، وهو الموقع الذي شيد فيه البرتغاليون منطقة تجارية لتسويق البضائع والذهب الذي اكتشف منجمه البرتغالي فرناندو كوميز والبرتغالي جيان سنتارين عام 1471. وكان يسكن بالمنطقة خمسمائة من السود، نقلوا بعد أيام الى قلعة أمر ملك البرتغال ببنائها، وسنتحدث عن ذلك، لتسلية القارىء ولاطلاعه على عوائد وأعراف شعوب المنطقة.

الفصل الثاني عشر

بناء قلعة سان جورج دولامين

لقد أمر العاهل البرتغالي ببناء قلعة على شواطيء اثيوبيا السفلى بالموقع الذي يسمى لامين، والذي اكتشفه عام 1471، سنتارين وزميله اسكبار، وكان الهدف من بناء القلعة، توجيه الحركة التجارية نحو مرسى المراكب البرتغالية.

من أجل ذلك، جهّز الملك اسطولا يتألف من أربع عشرة سفينة وحمّله بالجنود والعتاد الحربي والتقنيين والعمال وموادّ البناء الضرورية وأرسله إلى المكان المعين، تحت قيادة الضابط ديبكو أزبنوشا.

ولما وصل الأسطول إلى عين المكان، اتصل القائد البرتغالي بكزامانسي، ملك الاقليم وأطلعه على نواياه وطلب مساعدته، فقبل الملك، ثم شرع البرتغاليون في تهيئة معسكرهم وربطوا رايتهم بشجرة عالية ثم أقاموا حفلا دينيا بالمناسبة. ولما فرغوا من ترتيباتهم الأولية، دعا دييغو الملك كزامانسي للقيام بزيارة للمعسكر، فقبل الدعوة.

استعد البرتغاليون لاستقبال الملك الزنجي المتعاون معهم، إلا أنهم اخفوا أسلحتهم تحت ملابسهم تحسّبا لكل مفاجأة، وجلس دييغو على مقعد فاخر وزيّن صدره بعقد من الذهب والألماس، وارتدى الضبّاط والنبلاء الملابس الحريرية الخاصّة بالمناسبات الرسمية، واصطف الجنود صفّين متوازين، لدى الزنجي من بعيد مظاهر الزينة.

استعدّ كزامانسي بدوره لمقابلة دييغو، وراقه أن يبين هو كذلك ما له من معالم الزينة، فتقدم نحو دييغو محفوفا بجنوده المستعدين للقتال، وكلهم عراة. تتقدمهم فرقة من أصحاب الطبول والمزامير كان صخبا يصمّ الآذان، وقد دهنوا أجسامهم بزيت ممزوج بمادة خاصّة، فازدادوا اسودادا على ما كانوا، وهذه عادة خاصة بالرسميات. ولوحظ أن بعضهم ستروا عورتهم بجلود القردة التي كانت تصل

إلى ركبهم. إلا أن نبلاءهم وكبارهم، كانوا يرتدون ملابس من الحرير اشتروها من البرتغاليين. كانوا يحملون أسلحتهم المختلفة، وقد غطوا رؤوسهم بجلود جماجم القدرة التي احتفظوا لها بأسنانها، وكان مظهرهم يبعث على الضحك وقلّما يثير الخوف في النفوس. وكان كل واحد من كبار حاشية الملك مرفوقا بعونين، أحدهما يحمل كرسيا قصيرا يجلس عليه سيده، والثاني يحمل أريكة صغيرة، وكانت لحاهم مزيّنة بحلي من ذهب.

كان الملك الزنجي يتوسط أعضاء حاشيته ويتميّز عنهم بالأساور الذهبية التي تخلّلتها يداه، والخلاخل التي وضعها حول ساقيه. أما عنقه، فقد كان مسورا بعقد من الذهب تتدلّى منه أجراس صغيرة، في حين، كان شعر لحيته مظفورا بخيوط ذهبية يتدلّى بعضها على صدره. كان يمشي وكأنه يعد خطواته ولا يدير الرأس. ولما وصل إلى منتصف الصّفين المكونين من الجنود البرتغاليين، نهض دييغو وتقدّم نحوه، وعندما دنا منه، صافحه الزنجي وهو يردد بير بير، أي سلام سلام.

بعد ذلك، انسحب كزامانسي حتى يتسنّى لمرافقيه أن يحيوا دييغو، فشرع كل واحد منهم يبلّل سبّابته ويمسحها ببطنه قبل التحية، وهذه إحدى عبارات التشريف عندهم، تستعمل لتحية شخص عظيم.

عندما انتهت مراسيم التقديم والتحية، تناول دييغو الكلمة، فأطلع الملك على العطف والتقدير اللذين يكنّهما له ملك البرتغال. وشكره على تعاونه ومساعدته للتجار البرتغاليين، ثم أكّد أن الأهم في حب ملك البرتغال له، أنه يدعوه إلى الايمان بأن الذي خلقه هو الله، فاطر السموات والأرض والذي له ملكوت كل شيء، وأنه هو الذي جعل الليل والنهار وسخّر الأمطار، وهو ربّ الرعد والبرق، وهو خالق النباتات وكل ما ينفع الانسان في طعامه، وان ملوك النصارى يعبدونه، وإليه ترجع الروح بعد انفصالها عن الجسد، ليحاسبها ويجازيها على أعمالها في الدنيا، فيعاقب بنار جهنّم كل من كان يفسد في الأرض، ويورث الجنة للمتقين الذين تغلّبوا على الشياطين. وأنه لا يمكن لأحد أن يدرك هذه الامور ما لم يطهّر نفسه بالتعمّد الديني كما أن الجسد لا يتطهّر إلا بالماء الجاري.

وأضاف دييغو بأن ملك البرتغال سيكون مبتهجا للغاية عندما يعلم أن صديقه كزامانسي آمن بالله وأنه سيعيش وسيموت مفعما بالتقوى، لذلك يتعين عليه قبول التعمّد الديني ليعتبره الملك البرتغالي أخا له، وأنه سوف يستجيب

لطلبه إذا رغب في مساعدته، وأن السفن الراسية ستتحرك لخدمته على أساس ألا يحيد عن خدمة الله، وبما أن المراكب تحمل بضائع ثمينة وأشياء نفيسة، فقد بدا من الضروري بناء قلعة للحفاظ عليها وبناء منازل لشخصيات المملكة الذين يقترحهم لذلك ولبعض البرتغاليين، وأن في هذه العملية ما سيجعل المملكة أقوى من جاراتها بل ستفرض عليها هيمنتها، ولن يستطيع أي بلد أن يهاجمها لأن أصحاب القلعة سيدافعون عنها.

كان كزامانسي رغم جهله، على جانب كبير من الذكاء والوعي، فصغى إلى خطاب دييغو وهو يعلم ما ينفعه وما لا ينفعه. أما أعضاء حاشيته، فإنهم كانوا مهذّبيىء ولزموا الصمت التام تاركا الأمر بين يدي ملكهم. ولما أنهى دييغو خطابه، رفع كزامانسي هامته وقال بأنه يشكر العاهل البرتغالي على اهتمامه به، ويشكره على رغبته في انقاذ روحه من الضلال، وأن ذلك واجب عليه، اعتبارا للمعاملة الحسنة التي لقيها تجّاره، ولكنه اعرب عن استغرابه لأنه لم يسمع كلاما مماثلا من قبل، وأن البحّارة الذين كانوا يقدمون إلى البلاد كانوا على سوء الأحوال، يعرضون بضائعهم ويأخذون بضائع أخرى ويستعجلون الرجوع إلى وطنهم. دون ابداء أي رغبة للبقاء أو الاقامة في عين المكان، أما وقد أرسل الملك أشخاصا أنيقين يرتدون ملابس زاهية ومزينين بالذهب والأحجار الكريمة، فلاشك أنه لا يقصد التجارة وحدها، بل يرمي إلى عمل أهم منها وجدير بملك له اله عظيم، لكن رجاله لن يتكيفوا بالبيئة المحلية، وأن مظاهر الثراء عندهم قد تنعكس سلبيا على الأهالي وينتج ما لا تحمد عقباه عن تساكن هؤلاء وأولئك. لذا فإن كزامانسي يدعو البرتغاليين إلى مواصلة تعاملهم مع رعاياه دون الاقامة بجانبهم، وأن الخير سيكون في ذهابهم وإيابهم، وليس في ذلك اخلال بالاحترام لملك البرتغال، وانما فيه ما سيحافظ على السلم والوئام بينهما، وما سيدفع القوم إلى تفهّم الدين المقترح عليهم.

بعد ذلك، تناول دييغو الكلام من جديد، مركّزا على الاهمية التجارية للقلعة التي ستحتوي بضائع هامّة، تعتبر ضمانا للصداقة ورهانا للمودة وقاعدة للدفاع عن أمن المنطقة، وأن ملك البرتغال عادل يحب العدل، فأحبه من أجل ذلك رعاياه، وأنه ليس من أقاربه، وإنما هو واحد من أفراد شعبه.

عندها، أعرب كزامانسي عن موافقته للمشروع، وبعدما ذكّر البرتغاليين بتعهّداتهم ووعودهم وهددهم بالانتقام إذا ما خالفوا التزاماتهم، ولّى عائدا إلى منزله.

غداة ذلك اليوم، شرع المهندسون يدرسون مكان بناء القلعة، وجعل العمال يكسّرون الصخور، لكن السود لم يتحمّلوا ذلك، إما لسبب ديني وإما لسبب آخر، فتناولوا أسلحتهم وهاجموا العمال البرتغاليين، وقتها، تدخّل دييغو وقدّم الاعتذارات، كما قدّم إلى السود هدايا عديدة، من أساور وخواتم وأواني منزلية نحاسية، فتقبّلوها مسرورين. وبذلك، عاد الهدوء إلى نصابه، واستأنف العمّال بناء القلعة، الذي فرغوا منه في ظرف عشرين يوما، وتناهى الخبر إلى ملك البرتغال، فأمر بأن يسمّى الموقع قلعة سان جورج. ولم يغب عن المسؤولين الاهتمام بدينهم، فبنوا داخل القلعة كنيسة أخذ يصلي فيها الأوربيون والزنوج الذين اعتنقوا المسيحية وأعطيت التسهيلات للبرتغاليين الذين يرغبون في الاقامة بجوار القلعة، حيث بنيت مدينة أخرى سمّيت كذلك سان جورج. وهكذا أصبح دون جيان يحمل لقب عاهل غينيا(23) ثم أمر المستكشفين بوضع أنصاب في المواقع التي يكتشفونها، وينقشون عليها باللغتين البرتغالية واللاتينية تاريخ اكتشافها، بأمر من الملك المشفوع باسم الضابط الذي يقود العملية، وأن يغرسوا في كل نصب، صليبا من الحجر.

الفصل الثالث والعشرون

مواصلة استكشاف الشواطىء الافريقية

تبتدئ اثيوبيا السفلى بعد القلعة جنوبا وأول قطر أمامنا هو بينان الذي كان يتوجّه إليه تجّار بلاد البربر عن طريق البر للحصول على مادة تقوم مقام البزر، فيقطعون الصحاري، ثم ما يسمى بغينيا، وعندما يعودون إلى أوطانهم، يصدّرون هذا النوع من البزر إلى أوربا وإلى إيطاليا خاصّة، فيسمّيه الأوربيون حبة الجنّة لأنهم كانوا لا يعرفون مصدره.

إن زنوج بلاد بينان قساة ويأكلون لحم البشر، يحمل كل واحد منهم علامة مستديرة طبعت على جبهته بالكي.

يتّجر هؤلاء الزنوج مع البرتغاليين المقيمين بقلعة سان جورج لامين، ولهم ميناء يسمى كاتو. وقد سبق لملكهم أن أرسل بعثة إلى البرتغال، يطالب ايفاد من يلقّن الزنوج مبادىء النصرانية، فاستجاب لهم العاهل البرتغالي، إلا أن الدعاة أقاموا حينا من الدهر في بينان ثم رجعوا إلى موطنهم بدون نتيجة لأنهم كانوا يصرفون الوقت في وصف البرتغال.

(23) نذكر أن غينيا تعني عند المؤلف المناطق الافريقية الواقعة جنوب الصحراء مباشرة ويليها ما يسمى اثيوبيا (المترجم).

يوجد شرق بينان قطر يسوسه ملك عظيم يسمى أوغان يبجّله شعوب المنطقة كما يبجّل النصارى البابا. ونشير إلى أن منذ القدم، وملوك الأمم المجاورة يبعثون إلى ملك هذا القطر سفراءهم كلما توالوا على عرش أممهم، ويرسلون له الهدايا متلمسين منه تزكيته لهم، فيرسل لهم مقابل ذلك خودة من النحاس، وصليبا من الحديد، علامة عن رضاه وعن اعترافه بهم، وبذلك تتمّ لهم المشروعية. ومن غرائب الأمور، أن هذا الملك الذي يعظمه ملوك المنطقة لا يظهر لزواره، إذ يقف السفراء لديه أمام غرفة اسدل عليها ستار، فيقدم لهم الملك ساقه من تحت الستار. وعلمنا فيما بعد، أن هذا الملك هو امبراطور الحبشيين.

بعد هذا، نعود إلى وصف الشاطيء الواقع جنوب بينان. نجد رأس لوبيز كونزاليس ونهر زايير، الذي وضع لوبيز كونزاليس عند مصبّه علامة تعبّر عن امتلاكه لما يوجد بعده وأصبح النهر يسمى الكونكو، نسبة للقطر الذي ينساب خلاله. إنه نهر عظيم، تصبّ فيه ستة أنهار تأتي من مختلف الأمصار، ويتدفّق في البحر بقوّة خارقة، حتى أن الانسان ليجد الماء العذب داخل البحر بمسافة عشرين فرسخا.

اكتشف دييغو كام هذا النهر عام 1484، ولما رأى ضخامته فكّر في التعرف على سكان البلاد، فتوغّل شيئا ما في الأرض، فرأى زنوجا عاديين مسالمين، فحاورهم بالاشارات، فعلم أن لهم ملكا عظيما، فأرسل إليه هدايا مع بعثة تتألف من برتغاليين إثنين، وتعهد الزنوج بإرجاعهما إلى قاعدتهما. لكنهما لم يعودا، وطال غيابهما. عندها، ألقى قائد السفينة القبض على ثلاثة من الزنوج ونقلهم إلى البرتغال ثم عاد بهم بعد خمسة عشر شهرا، وقد كلّفه ملك البرتغال بتقديم هدايا إلى ملك الكونكو ودعوته إلى اعتناق المسيحية.

ولما حلّ القائد المذكور بالكونغو، رأى الزنوج أن إخوانهم عادوا سالمين، وبعثهم دييغو إلى ملكهم بهدية، وطلب منهم أن يرجعوا بالبعثة البرتغالية، وأن لهم هدايا أخرى، كما كلفهم بتبليغ ملكهم أن له أمورا هامّة يريد أن يعرضها عليه، وله فيها مصالح ومنافع.

بعد أيام، رجعت البعثة البرتغالية سالمة، وواصلت السفينة تعرّفها واستكشافها للشواطىء الافريقية،ووضع قائدها نصبين آخرين، أحدهما في موقع أطلق عليه إسم سان أوغاستان، والثاني أطلق عليه إسم رأس الرئيس، يقع على بعد اربعمائة فرسخ من رأس لوبيز كونزاليس.

الفصل الرابع والعشرون
في المحادثات مع ملك الكونغو ومواصلة استكشاف السواحل الافريقية

لما عاد مرّة أخرى الربّان دييغو كام إلى الكونغو، استقبله ملك البلاد المسمى نيكونغو بحفاوة وتكريم واعرب له عن تشكراته على الهدايا التي بعثها له العاهل البرتغالي ثم طلب تيسير مهمة سفارة كونغولية لدى البرتغال لاستقدام قساوس أو من يقوم مقامهم لتفقيه أهل الكونغو في شؤون المسيحية.

وبالفعل، بمجرد ما وصل أعضاء البعثة الكونغولية إلى لشبونة، سيقوا إلى الكنيسة حيث تلقّو التعمد الديني، ومكثوا هناك زهاء عامين تلقّوا خلالهما تكوينا دينيا ولغويا أهّلهم لتسهيل تمسيح مواطنيهم. ثم عادوا إلى الكونغو رفقة جماعة من رجال الدين.

في طريق العودة نزلوا عند الأمير سونغو عم ملك الكونغو، فرحّب بهم وطلب منهم أن يساعدوه على اعتناق المسيحية، فلبوا رغبته. وبالمناسبة أقيم حفل ديني في البرّية وخطب الأمير سونغو في الحاضرين معربا عن ارتياحه للمناسبة التي أتيحت له للخروج من الضلال واعتذر لكونه سيتلقى التعمّد قبل الملك لأنه طعن في السن ولا يريد أن يموت وهو على الوثنية، ثم التمس من القساوس أن يدعوا لابنه الصغير. وفي ختام الحفل أعلن للجمهور أنه أصبح يسمى مانويل. أما الصبي، فانه أخذ يسمى انطونيو، وكان ذلك عام 1459.

تناهى الخبر إلى عاهل الكونغو، فهنأ ابن أخيه على اعتناقه المسيحية ثم تنازل له عن مساحة طولها ثلاثين فرسخا، فأخذ الأمير يحطّم الأصنام والأوثان دون أن يخشى شيئا. واعرب ملك الكنغو عن ايمانه وعن ابتهاجه، وأخذ يحضر كل يوم الحفل الديني الذي كان يقام في كوخ كبير في مدينة امبانزة وهي قاعدة الملك، تقع داخل البلاد على مسافة خمسين فرسخا من البحر.

كان ملك الكونغو كثير الاهتمام بشؤون الدين، وكان يخصص شطرا هاما من أوقاته للتفقّه في النصرانية ويبدي رغبته في التكفير عن عبادة الأوثان التي عكف عليها عدة سنوات. استدعى سفير البرتغاليين، فأقبل عليه ما يزيد عن مائتين من خيرة الشباب الذين اعتنقوا المسيحية وقد وهبهم إليه الأمير ما نويل،

فاستقبلهم في الساحة العمومية، أمام جمهور غفير دُعِيَ لمشاهدة الحفل الديني الذي سيتم خلاله الاعلان عن اعتناق الملك الديانة المسيحية.

لما وصل وفد الرهبان إلى عين المكان، حياهم الملك، إذ تناول كمشة من التراب وذرّها على بطنه، وتلك علامة تكريم الزوار وتعظيمهم. وقدم إليه دييغو كام الهدايا التي أرسلها اليه العاهل البرتغالي، فتناولها ودخل إلى غرفة كانت توجد بها زوجته رفقة أبنائها.

غداة ذلك اليوم، استقبل الملك رجال الدين البرتغاليين وطلب منهم اختيار الموقع المناسب لبناء كنيسة، فتم ذلك حسب ارادة الملك الذي أصبح يسمى يوحنى وقبل أن يبرح السفير مكان الحفل، قدم لملك الكونغو علما هدية من ملك البرتغال كان البابا يوحنى الثالث أهداه إليه وهو أحد الاعلام التي كان يحملها الصليبيون.

بعد ذلك، اعتنقت الملكة المسيحية بدورها وأخذت تسمى ليونور، ولما رجع ولدها المسمى نزينكا بامبا من محاربة القبائل الثائرة ببحيرة زامبيز، تنصّر هو الآخر، وصار يسمى الفونسو وتنصر معه عدد من حاشية الملك وغيرهم، وأقيمت الحفلات الشعبية بهذه المناسبة.

الفصل الخامس والعشرون

من ارتداد ملك الكونغو وتشبث ابنه بالمسيحية

كان لملك الكونغو ولد ثان يسمى أكيتيمو اتبع سبيل الشيطان ورفض التخلي عن عبادة الأوثان، فبرح قصر أبيه رفقة جماعة من الرفاق. ولم يهتد الملك من جانبه لتتبع مبادىء المسيحية والرضوخ إلى شريعتها، فأبى أن ينفصل عن زوجاته، وعاد إلى ما كان عليه من قبل.

لكن ابنه الفونسو حاول إقناعه بالعدول عن الوثنية فلم يفلح، في حين، تمكن أكيتيمو وجماعة من المتملقين من التأثير على الملك، فانساق إلى نبذ المسيحية والسماح للشعب بالعودة إلى التدين بالخرافات والأساطير.

ونظرا لما أبداه الفونسو من موقف حازم ضد الوثنية، ذهبت شرمذمة من السحرة إلى الوشاية به لدى الملك قائلين بأن الفونسو الموجود فعليا في الأقاليم النائية، يحضر كل ليلة إلى القصر ويضطجع في فراش زوجات أبيه ويستغل ماله

من علم لتبخير مياه الأنهار، قصد تقليص الانتاج الزراعي ودفع القبائل إلى إشعال نار الفتنة.

أراد الملك أن يختبر صحّة هذه الأنباء فهيّأ هدايا تضمّنت أشياء غريبة، وأرسلها إلى زوجاته، مدّعيا أنها أتت الدهن من ابنه الفونسو، فاستفظعن هذه الصنيعة وعبّرن للملك عن تهور ابنه ومسّه بعرضهن، فتبيّن للملك أن أخبار الوشاة كلها كذب وبهتان. لذلك، استدعى نفرا من وجهاء المدينة، وأُلقِي القبض على الذين تورطوا في الوشاية بابنه، وخطب الملك في الحاضرين وأمر بتعذيب وتقتيل أولئك الذين أساؤوا لسمعته وسمعة ابنه.

ولما رجع الفونسو إلى الأقاليم التي أسند إليه تدبير شؤونها، مضى يأمر السكان بالعدول عن عباداتهم وهدّدهم بالموت إن عادوا إلى ممارستها، وحثّهم على اعتناق المسيحية، فرفضوا الاذعان إلى أوامره وتمرّدوا عليه.

تناهى الخبر إلى الملك، فاستدعى ابنه الفونسو، لكنه رفض أن يمتثل لأمر أبيه. عندها، غضب الملك لتنطّع ابنه وهمّ بقتله، لكن أقارب الأمير وأصدقاءه أرشدوه إلى التسويف، حتى أصيب الملك بمرض هلك على إثره، فأحسّ السود المتنصّرون بالاطمئنان، وواصل الفونسو دعايته لفائدة المسيحية إلى أن اعتنقها العديد من رعاياه، إلا أنه كان يصطدم بمعارضة الذين ارتدوا عن المسيحية أو الذين تشبثوا بعبادة الأوثان.

لما علم الفونسو بوفاة أبيه توجه إلى امبانزة لاستلام مقالد الحكم، وتم ذلك وسط الطبول والمزامير والحفلات الشعبية، لكن أخاه اكيتيمو نازعه الملك، فنشبت بينهما اشتباكات دموية، كان النصر بعدها حليف الفونسو. وعندما ألقي القبض على أكيتيمو، حكم عليه أخوه بالاعدام. أما قائد أركانه، فإنه أعرب عن رغبته في اعتناق المسيحية قبل موته، قائلا بأنه رأى في السماء خيولا تحلق فوق جيش الفونسو. عفا عنه الملك الفونسو، وأسند إليه تسيير أحد الأقاليم.

وهكذا لبث الفونسو يسوس البلاد مدة خمس وأربعين سنة، ووافاه الأجل عن عمر يناهز الخامسة والثمانين، وقد انتشرت المسيحية بفضله عبر أرجاء المملكة، وقد كان مسيحيا مثاليا، وكان يراسل الفاتيكان وأعلن عن ولائه للبابا، وتعلّم البرتغالية واللاتينية وكان يعكف على قراءة الانجيل وشرحه لقومه.

إن الكونغو بلد كبير، يحده شمالا قطر البينان، وتحدّه شرقا جزيرة الأزينك الواقعة وسط بحيرة زمبيز، وتقع جنوبه، جبال القَمَر التي تفصل هذه المنطقة عن

اثيوبيا العليا وعن امبراطورية الحبشة وبلاد الكَفْر. تتفرّع عن زمبيز عدة أنهار تصب في زايير، حتى أنها جعلت منه أضخم نهر في افريقيا.

توجد في الأمصار التي يتخلّلها نهر زايير ثروة حيوانية هامّة تتألف من مختلف الأنعام الكبيرة منها والصغيرة، أما البلاد التي تقع في اثيوبيا العليا، فانها غنية بالذهب ويرتع فيها ما لا يحصى من الأفيال، وتخضع لحاكم يدعى بينموطابا، الذي لقبّه البرتغاليون بأمبراطور الذهب، ويتحكّم كذلك في امبراطورية صوفالة.

الفصل السادس والعشرون

بلاد الزنوج وشاطىء زنجبار

أصبح من المؤكد ان بطليموس بات يجهل شطرا هامّا من القارّة الافريقية توجد ضمنه المنطقة التي تشمل الشعوب السوداء والممتدّة من مملكة الكونغو الى بلاد المزنبيق، ويرجع خطأه الى أنه حدّ افريقيا جنوبا عند الدرجة الخامسة عشر، أي ببلاد أثيوبيا الداخلية، جنوب مصر، وعند راس براس. هذا ويوجد بين الشرق والغرب رأس الرجاء الصالح الذي لبث مجهولاً خلال قرون عديدة، الى أن اكتشفه البرتغاليون وهم يبحثون عن الطريق المؤدية الى الهند.

لذلك ظلت المنطقة مجهولة رغم عدد شعوبها وأممها التي تختلف عوائدها ومعتقداتها الدينية، وقد كان العرب يسمونها زنجبار بتسمية أحد أنهارها، ويطلق هذا الاسم على الشواطىء الممتدّة من رأس الرجاء الصالح، الى رأس غردافيو بالقرن الافريقي، والذي قال عنه بطليموس أنه يقع على خط العرض بخمس درجات، مع العلم انه يقع على اثنتي عشرة درجة، حسب ما لاحظه البرتغاليون في عصرنا هذا(24).

أما عرض القارة، فانه يتقلّص ابتداء من الكونغو الى رأس الرجاء الصالح الذي يتقدم نحو البحر في اتجاه الغرب. وغير بعيد منه يوجد سهل أخضر جميل المنظر يسمّيه البحّارة طاولة الرأس. وبين رأس الرجاء الأخضر ورأس الإبَر، يوجد خليج يتوغل في القارة طوله يفوق اثني عشر فرسخا. وفي عمق الخليج، توجد سِلسلة من الصخور رؤوسها حادّة، سماها البرتغاليون، «المناقر الحادة»، ويتخللها نهر جارف.

(24) يعني المؤلف بذلك أواسط القرن السادس عشر. (المترجم).

ويظهر أن الشاطىء يرتفع عبر مسافة ثلاثمائة وخمسين فرسخا، من رأس الابر الى رأس التيارات، ويسير نحو المزنبيق، عبر مسافة أخرى تقدر بمائة وستين فرسخا.

ويشكل الشاطىء، خليجا آخر، من المزنبيق الى رأس غردافيو طوله خمسمائة وخمسين فرسخا، ويشبه ضلع حيوان، ولا يبلغ من العمق ما تذكره خرائط بتوليموس.

يشكل الشاطىء الممتد من رأس غردافيو الى رأس فرطاق بالجزيرة العربية مضيقا يؤدي إلى البحر الأحمر، وهناك ترسّى القوات البحرية البرتغالية لمراقبة الحركة الملاحية بالمنطقة.

الفصل السابع والعشرون

الأقاليم الواقعة على شواطىء زنجبار
وصف المنطقة وكيف تمكن العرب من الهيمنة عليها

يبتدىء شاطىء زنجبار شرقا عند أحد كبار الأنهار الافريقية التي تصبّ جنوب المحيط[25]، ويسميه بطليموس الربط، ولو أنه أخطأ في تحديد موقعه، إذ قال انه يقع على خط الطول بست درجات في اتجاه الجنوب بدلا من ثلاث درجات وهي الموقع الصحيح. ينبع هذا النهر في الحبشة ويسميه أهالي هذه البلاد أوبير، ويوجد بمصبه موقع يسميه العرب بولمانسي. ومن هناك الى رأس غردافيو يوجد اقليم يسميه العرب أشام، يسيطرون عليه ولا يسكن فيه سواهم، ولو كان بداخله قوم من السود يعبدون الأوثان.

إذا اندرجنا نحو الغرب انطلاقا من هذا النهر الى رأس التيارات، نجد أن العرب يتواجدون طوال الشاطىء وحتى رأس الرجاء الصالح التي كانت تصله سفنهم. أما البلاد الممتدة من رأس التيارات الى بولمانسي، فانها كلها سهول ولا توجد بها جبال، ولكنها تحتوي على كثير من البحيرات والغاب الكثيفة التي يصعب المرور خلالها، بالاضافة الى ما فيها من أنهار عديدة متقاربة، تعرقل التنقل عبرها، هذا ما يجعل التنفس فيها صعبا، لارتفاع الحرارة والرطوبة، مثلها كمثل غينيا. والجدير بالذكر، ان شعوب المنطقتين تتشابه كذلك في لونها وأوصافها،

(25) بحر العرب الذي أصبح يسمى بالمحيط الهندي. (المترجم)

ومعتقداتها وعباداتها. اما النباتات والحيوانات والطيور، فانها تناسب هذه البيئة المتوحشة.

تغص المنطقة بالحيوانات الوحشية والأنعام، من موغاديشيو الى رأس غردافيو، لكن الغذاء قليل جدّا، والانتاج الزراعي لا يكفي لسد حاجيات السكان، فيضطرون الى أكل الفواكه الغابوية أوما يصطادونه في البرّ والبحر ويشربون لبن المعز الذي يشترونه من العرب المقيمين داخل البلاد والذين يسميهم سكان الشواطىء، بالبدويين.

ان هؤلاء البدويين يقيمون علاقات تجارية وغيرها مع الكُفْر المقيمين بالداخل؛ ونشير الى أن الطبيعة انعمت على هذه المنطقة بكنز ثمين ألا وهو مكامن الذهب الذي يشقى شعب البلاد في استخراجه. الا أن البرتغاليين أضحوا أكثر طمعا من غيرهم، فراحوا يبحثون عن الذهب في كل مكان، معرّضين أنفسهم للأخطار والمهالك والأهوال، فيعرضوا بضائعهم لاستبدالها بالمعدن النفيس.

لا مرية أن العرب هم الأجانب الأولون الذين نزلوا بهذه البلاد في فجر الاسلام. ويقول بعض المؤرخين انهم لجأوا الى افريقيا خوفا من الاضطهاد لأنهم تشيعوا لأحد أحفاد علي(25)، الذي قيل عنه انه تخرج عن القرآن والسنة، وحكم عليهم بأنهم أهل بدعة، وهكذا، سمي أتباعه «الزيديين».

عندما استقرّ هؤلاء المهاجرون بهذا البلد، لم يشيدوا أية مدينة هامّة، وانما اكتفوا بوجود ملجأ يقيهم من شر الكُفْر، الا أنهم لم يلبثوا الا قليلا حتى أخذوا ينتشرون طوال الشاطىء. ولحقت بهم أفواج أخرى من العرب على متن ثلاثة مراكب قادمة من الخليج الفارسي، ونزلت بأقرب موقع من الجزيرة العربية مدّعين أن ملك مدينة لاقة، الواقعة على بعد أربعين فرسخا من جزيرة البحرين، كان يضطهدهم؛ والى هذه الأفواج التي ذكرتها يرجع الفضل في تأسيس مدينتي موقاديشيو وبرافا. وتطورت موقاديشيو، وارتفع عدد سكانها وازدهر عمرانها الى أن أصبحت أم القرى بالنسبة لمجموع المسلمين القاطنين بهذا الشاطىء.

وبهذا الصدد، نقول ان الزيديين انفصلوا عن المسلمين الذين يختلفون عن مذهبهم، وفضلوا الاستيطان داخل البلاد، فامتزجوا بالسود وتصاهروا معهم وتبنوا

(25) زيد بن علي بن الحسن بن علي، والمكنّى «بزين العابدين». (المترجم)

عوائدهم، لكنهم حافظوا على دينهم. وكان الزيديون هم الأولون الذين بدأوا يتّجرون مع صوفالة، وقد حدث ذلك صُدفة عندما دفعت العاصفة احدى السفن العربية من موقاديشيو الى هذا الموقع.

ولعل المانع الذي حال في بداية الأمر دون انتشار العرب جنوب رأس التيارات، هو العرقلة التي كانت تشكلها جزيرة مدغشقر والتي تمتد طوال هذا الشاطىء عبر مسافة مائتي فرسخ، ثم تشكل زاوية مقابل رأس الموزنبيق، حيث يوجد شبه قنال تصعب فيه الملاحة[26]، اعتبارا للرياح العاتية التي تهب فيه بدون انقطاع وبسرعة كبيرة، لاسيما على مقربة من تلك الجزيرة.

كان سكان الشاطىء الشرقي للقارة الافريقية لا يتوفرون الا على سفن مخاطة لا تصمد إلا نادرا أمام العواصف، وكانوا على علم بعدد المراكب التي غرقت في هذا البحر الهائج على الدوام، لذلك عدلوا عن استكشاف مجاهل البحر، ولئن تمكن بعضهم من الوصول الى مدَغشقر، كما هو الشأن بأهل سلطنة كيلوة الذين اكتشفوا كثيرا من المواقع وعمّروا شطرا من القارّة، واستوطنوا الجزر المجاورة، وهم الذين اكتشفوا موقع صوفالة وهيمنوا على الموزنبيق وعلى منطقة ميلاندة وغيرهما من الجهات وأصبحوا يتحكّمون في تجارة الذهب، الا أنهم تقاعسوا بسبب الحروب الداخلية والفتن التي شتتت كلمتهم. ولما أطل البرتغاليون على هذه الجهة من افريقيا، كان العرب قد فقدوا هيمنتهم عليها وتلاشت قواهم بسبب تنافسهم على الحكم.

الفصل الثامن والعشرون

مواصلة استكشاف شواطىء زنجبار

كلما اكتشفت سفن البرتغال موقعا في شواطىءإفريقيا الا وألحّ عاهل البرتغال على البحّارة بالمضي قدما للمزيد من الاكتشافات، فكانوا يضعون الأنصاب في المواقع التي لم يسبقهم اليها أحد ويعطونها أسماء تلائمها من حيث طبيعتها أو أسماء الأيام التي يتمّ فيها اكتشافها، وغالبا ما كان الربّان دييغوكام هو الذي يقود هذه العمليات، فاكتشف مرة جزيرة صغيرة تقع على خط العرض

(26) قنال الموزنبيق (المترجم).

بواحد وثلاثين درجة جنوبا، نصب فيها صليبا وسمّاها جزيرة الصليب، وتبعد عن اليابسة بنحو نصف فرسخ.

كانت العواصف تهب كثيرا جنوب القارة حتى إن البحّارة البرتغاليين أطلقوا على الرأس البارز هناك، «رأس العواصف»، الا ان عاهل البرتغال استبدل هذه التسمية «برأس الرجاء الصالح» بعد اكتشاف ممرّ آمن بالمنطقة يؤدّي الى الهند، وكان ذلك الهدف الرئيسي من مواصلة استكشاف الشواطىء الافريقية.

ان الموقع الذي يمكن فيه التزود بماء الشرب يسمّى سان ابليز ويبعد عن رأس الرجاء الصالح بنحو سبعين فرسخا، ونزل به فاسكو دوكاما، وهو في طريقه الى الهند، بأمر من الملك دون مانويل. تقدم الزنوج المحليون نحو السفن، فأعطاهم البرتغاليون أشياء تافهة، ففرحوا بها، ثم قدّموا لهم مقابلها عددا من الخرفان.

شاهد البرتغاليون نساء المنطقة يمتطين بقرا ضخما[27]وهن يحملن الرماح، ولاحظوا أن الأهالي طيبون مسالمون يحبّون المرح والرقص والغناء على أنغام موسيقى هادئة وعذبة.

أطلق فاسكو دوكاما على هذا المكان إسم شاطىء الميلاد لأنه قام باستكشافه يوم ميلاد عيسى ثم توغل في البلاد وهو آمن مطمئن، واشترى من الزنوج أساور من النحاس والعاج، وتزود بالماء والمواد الغذائية.

مرّ فاسكو دوكاما برأس التيارات ليلا، وابتعد كثيرا عن الشاطىء خوفا من الاصطدام بالصخور الساحلية، ولم يتعرّف على صوفالة، ثم رسّى قرب مصب نهر يبعد عن الرأس بنحو خمسة فراسخ وسمّى المكان سان رفائيل، فلاحظ ان السكان ليسوا سودا وانما لونهم أسمر، وأغلبهم يتحدثون باللغة العربية، ويرتدون ملابس فضفاضة لونها أزرق، ويضعون على رؤوسهم قبعات حمراء. أما سفنهم، فانها لم تكن مطلية بالقطران ولم تكن أجزاؤها ملتحمة بالمسامير بينما كانت شراعها مصنوعة من نسيج القنّب. وعلم فاسكو دوكاما أن شعوبا بشرتهم بيضاء يوجدون شرق ذلك الموقع، وأنهم يملكون سفنا عظيمة وسريعة، ثم لاحظ أن لأهالي المناطق الساحلية ولأهالي الجزر المجاورة، شعرا قطّا يختلفون به عن العرب الذين يتواجدون معهم، وذلك رغم اعتدال طقس المنطقة. وشاهد من بين المستوطنين جالية صينية قدم عناصرها الى هذه البلاد، يوم كان الصينيون يمخرون عباب البحار كشأن البرتغاليين حاليا.

(27) الجاموس (المترجم)

يتجلى من خلال هذه الملاحظات أن اسوداد بشرة الاثيوبيين لا يرجع إلى درجة الحرارة العالية، ولا الى الجفاف المفرط ولا الى غيرهما من العوامل، خلافا لما بات يدعيه المنجمون، إذ لو كانت مزاعمهم صائبة، لتحول لون كل زنجي الى بياض، بعد جيل أو ثلاثة، على إقامته في بيئة معتدلة، ولأصبح كل ذي لون أبيض زنجيا بعد إقامته في اثيوبيا.

وهنا نقول إنه بما أن التجربة كشفت عن الحقيقة، فلا بد أن يكون سبب اللون الأسود للبشرة مرتبطا بالعرق، ولربما يرجع تفسير هذا اللون الى غضب الله على قابل. والأجناس تختلف كما تختلف الألسن، وكما تأكد اختلاف لغة النمرود عن لغة العمالقة الذين بنوا برج بابل، ولا ينبغي أن ننسى أن زخرف الكون ناتج عن العدالة الربانية، واننا لا نرى في عالمنا الصغير الا صورا لما يجري في العالم الكبير.

بعد هذا الحديث، سنتطرق الى اكتشاف الجزر الخالدات، ثم سنعود الى موضوع منطقة صوفالة.

الفصل التاسع والعشرون

في الخلافات التي قامت بين ملك قشتالة وعاهل البرتغال حول غزو الجزر الخالدات واتفاقهما على اقتسامها بينهما

خلال عام 1344، استأذن البحار لويس دولاسيرد، ملك الاراغون وقشتالة لغزو الجزر الخالدات التي وهبها البابا اليه، وهذا يدل على أنها كانت معروفة وموقعها محددا، ويقال بهذا الصدد، ان بحارا انجليزيا يدعى ماشان هو الذي اكتشف جزيرة مادير، وقد كان ينوي اللجوء الى إسبانيا، فرارا من عدالة بلاده، على إثر اختطافه امرأة، لكن عاصفة بحرية دفعت الى الجزيرة السفينة التي كانت تقلهما. وبما أن الغادة المختطفة عانت من الرحلة، طلبت من ربان السفينة أن ينزلها بالجزيرة لتستريح، فكان لها ما شاءت ورافقها مختطفها، إلا أن السفينة أبحرت دون العشيقين وأصدقائهما.

ماتت الغادة المختطفة بالغم، فدفنها ذلك الانجليزي ثم صنع مع رفاقه زورقا من جذوع الأشجار وأبحروا على متنه بدون شراع، فقادتهم الرياح نحو أحد البلدان الافريقية. فسلّموا أنفسهم إلى سلطاتها التي أرسلتهم الى ملك قشتالة.

في عهد هنري الثالث ملك قشتالة، قام عدد من الاسبانيين والفرنسيين يتقدمهم الانجليزي، بغزو الخالدات، وسبوا مائة وخمسين من رجالها. لكن في

عهد جيان الثاني وحكومة أمه كاثرين، تدخّل ضابط سامي في البحرية الفرنسية، يدعى براكمونت، وطلب من الأميرة أن تسمح له بغزو الخالدات لحساب أحد أقاربه يسمى بتانكور، فاستجابت لرغبته، وأعطته لقب الملك وزوّدته بالجنود والسفن. وأبحرت هذه القوات من شبيلية متوجّهة نحو الخالدات. ورافق الجنود، بأمر من البابا، القس الاسباني ماندو.

وما أن نزلت القوات الغازية بالخالدات حتى استولت بسرعة على أربع جزر منها، وسبت عددا من الأسرى تم ارسالهم عبيدا الى اسبانيا، واستولوا على كميات هامّة من العسل والشمع والكافور والجلود ومنتوجات أخرى أرسلوها الى أم الملك، ثم بنوا قلعة منيعة للدفاع عن مواقعهم. ولما قتل بتانكور، خلفه أحد أقاربه يدعى منانت، فباع الخالدات الى أحد الاسبان، لكن هناك اشاعات مفادها ان منانت ذهب الى فرنسا للاستجمام، فاغتنم حفيده غيابه، فباع الخالدات الى ولي عهد ملك البرتغال المسمى هنري، الذي تنازل له عن جزء من جزيرة مادير.

جهّز الأمير البرتغالي أسطولا وأبحر نحو الخالدات الا أنه لم يكد ينزل بشواطئها حتى افتطن الى التكاليف الباهظة التي تتطلبها العملية، فولى عائدا الى بلده، وتنازل عن أمر الخالدات الى ملك قشتالة، جيان الثاني. أما البابا أوجين الرابع، فانه زكى هذا التنازل وأعلن ان الخالدات أصبحت ملكا لقشتالة، وهكذا، حسم النزاع بين الملك والأمير.

يقع أرخبيل الخالدات على بعد مأتي فرسخ من اسبانيا وعلى مسافة سبعة عشر فرسخا من افريقيا، وهو على ثمانية وعشرين درجة من خط الاعتدال، ذلك ما يجعل أطول نهار وأطول ليل فيه، لا يتجاوز كلاهما ثلاثة عشرة ساعة.

ان أهالي الخالدات يأكلون اللحم نيئا لأنهم يجهلون النار، ويحرثون الأرض بواسطة قرون الامعاز لأنهم لا يملكون آلة سواها، وكان لكل رجل منهم عدد كبير من النساء، كما ان حاكم كل جزيرة كان يتمتع بحق الاضطجاع الى فراش كل زوجة يوم زفافها، قبل أن يأوي اليها زوجها.

لما غزا الاسبان الجزر الخالدات، حملوا أهلها على اعتناق المسيحية ثم أخذوا يزودونهم بالسكر والقمح والشعير والخمر وغير ذلك. ومن الملاحظ، أن هناك جزيرة تسمى جزيرة الحديد، لا يوجد فيها ماء عذب وإنما يشرب الناس من قطرات الندى الذي يتساقط بكثرة على الأشجار.

بعد هذا الوصف الوجيز، نخوض الآن في موضوع اكتشاف كريستوف كولومب للعالم الجديد، بتشجيع من الملكين الكثوليكيين الاسبانيين، فردنان وايزابيلا سبق لكريستوف أن عرض مشروعه على جيان عاهل البرتغال، الا أنه لم يعره اهتماما. وعندما قدمه إلى الملكين الاسبانيين، حظي بتشجيعهما، ثم وضعا تحت تصرفه ثلاثة مراكب وزهاء ثلاثين خادما، فأبحر كريستوف من ميناء بالوس يوم 3 غشت عام 1492.

وصلت القافلة الى جزر الآنتيي يوم 10 أكتوبر، وبعد أيام وصل كريستوف الى كوبا التي أطلق عليها اسم فرناندين، ومنها قاده الأهالي الى جزيرة هايتي، فسماها ايزابيلا، الا ان أحد المراكب تهشّم، فصنع البحارة من خشبه كوخا للمأوى، أقام به زهاء أربعين شخصا، أسندت لهم مهمة ربط اتصالات مع الأهالي وتعلّم لغتهم وعوائدهم عاد كريستوف بعد ذلك الى إسبانيا، مرفوقا بعشرة هنود تنصّروا، وقد حمل معه بعض غرائب المنطقة، من عصافير ونباتات وغير ذلك، فدخل لشبونة يوم 4 ماي 1493.

بعد ذلك بأيام، رحل كريستوف الى اسبانيا وأطلع الملكين الاسبانيين على نتائج رحلته وطلب منهما المزيد من الرجال، لكن عاهل البرتغال أبدى إهتمامه بالأمر، ورغب في امتلاك ما اكتشفه كريستوف، وتوترت العلاقات بين المملكتين، فأوفد الملكان الإسبانيان بعثة الى البابا، ليزكي مواصلة استكشاف العالم الجديد لحسابهما، فآزرهما. عندها زوّدا كريستوف بما يحتاج اليه من رجال ودخائر وسفن، وأمراه بانتشال الهنود من الوثنية وارغامهم على اعتناق المسيحية.

غادر كريستوف كولومب ميناء وادي آش على أرس أسطول يحمل ألفا وخمسمائة جندي، ويتألف من سبعة عشر مركبا، وكان يرافقه عدد من وجهاء المملكة ورجال الدين الذين حملوا معهم ما يلزم لترتيبات تنصير سكان الأماكن المكتشفة.

عرّج الاسبان على الخالدات، ثم أطلوا على العالم الجديد، بعد ثمانية وثلاثين يوما، وأول جزيرة نزلوا بها، سموها «المرجوة» ثم ذهبوا الى جزر الكرايبي للتكيّف بالهنود الذين كانوا يتقنون الرماية ويستعملون نبالا مسمّمة، لا يصاب بها أحد الا ومات في حينه؛ ثم أخذوا يتنقّلون من جزيرة الى أخرى الى أن وصلوا هايتي حيث علموا أن الهنود قتلوا كل العناصر الذين تركهم كريستوف مرابطين هناك، وذلك لأنهم بالغوا في استفزازهم.

أمر كريستوف بانزال عدد من الرجال قصد تعمير هايتي، ووضعهم تحت قيادة أخوين له كانا من بين أعضاء البعثة، ثم انصرف الى كوبا قصد التعرّف عليها. لكن أثناء غيابه، تمرّد المرابطون بالجزيرة على أخويه. وبعدما فرغ كريستوف من رحلته الاستطلاعية لبعض الجزر، رجع الى اسبانيا لتقديم تقرير آخر الى الملكين الكاثوليكيين.

في شهر يناير من السنة الموالية، اتفق الملكان الاسبانيان وملك البرتغال على حسم خلافهما حول ملكية الاكتشافات الجديدة، وقضت لجنة التحكيم بتقسيم الكرة الأرضية الى شطرين، شطر يمتدّ من الجنوب الى الشمال، على مسافة ثلاثمائة وعشرة فراسخ من جزر الرأس الأخضر غربا، فكان الشطر الغربي من نصيب ملك قشتالة والشطر الشرقي من نصيب ملك البرتغال، مع اقرار حرية التنقل للجميع عبر الأراضي والبحار.

ولنترك الآن هذا الموضوع لنعود إلى موضوع افريقيا.

الفصل الثلاثون

في موضوع بلاد صوفالة ومملكة بيناموطابا المعروفة بأمبراطورية الذهب

صوفالة بلاد شاسعة الأطراف، يسوس شعبها ملك أسود اسمه بيناموطابا، وقد أطلق عليه البرتغاليون لقب امبراطور الذهب، نظرا لما يوجد في ملكه من مناجم من المعدن النفيس.

تتاخم صوفالة بلاد الكونغو وتتضمن أقاليم كبيرة يقطنها قوم من السود يتميّز شعر رؤوسهم بأنه قط، ويتواجدون خصوصا بين جبال البطح والبحر الذي توجد على مقربة منه، ولاسيما في اقليم صوفالة، مناجم الذهب.

صوفالة كالجزيرة، إذ يحيط بها ذراعان متفرّعنان عن نهر كبير[28] يتدفق من بحيرة الزمبيز باثيوبيا العليا والذي يتخلل مساحات كبرى قبل هذا التفرّع. تسمّى الشعبة الشمالية نهر البحيرة أو نهر الروح القدس[29] بينما تسمّى الشعبة الجنوبية

(28) هو نهر الزمبيز ذاته.

(29) الواقع هو عكس ما يقوله المؤلف، إذ ان الزمبيز يمرّ شمال صوفالة، ويمر جنوبها نهر الروح القدس الذي يسمى حسب الخرائط الحالية نهر السابي، وهو امتداد لنهر لاندي.

نهر الزمبيز الذي يصب في البحر على بعد خمسة وعشرين فرسخا من مدينة صوفالة، ويسمّى مصبّه كوآمة، حسب الاصطلاح المحلّي، لأنه يجرف مياها كثيرة، يمكن للسفن أن تسير فيه داخل البلاد، طوال مائتين وخمسين فرسخاً.

يتلقى نهر الزمبيز عدة روافد، يسمى كل واحد منها باسم الاقليم الذي يمرّ به وتجرف هذه الروافد الذهب الذي يوجد بالمناطق الجبلية. ولهذا فان دولة صوفالة تشبه الجزيرة، ومحيطها يتجاوز سبعمائة وخمسين فرسخا. أما طبيعتها فانها تشبه طبيعة زنجبار[30] ونذكّر بأن صوفالة تابعة لزنجبار.

يتسم داخل المملكة بطقس معتدل وبإنتاج زراعي هام. أما الاقليم الممتد من رأس التيارات الى نهر الروح القدس فانه يتضمّن العديد من السهول ترتع فيها الأنعام الكبرى والصغرى، وتهب عليها رياح قارسة. لكن الجهات الموجودة بين مصب الزمبيز وأقصى الداخل تتضمّن جبالا تكسوها الغابات الكثيفة، وهي جميلة المناظر بما يتخللها من أنهار.

أهم كثافة سكانية توجد في هذه المنطقة الخضراء، وبها يقيم الملك في غالب الأحيان، ولهذا فإن قطعان الأفيال هاجرت إلى داخل البلاد، ويروي السكان أنهم يصطادون ما يقترب من خمسة آلاف فيل في السنة، الأمر الذي يمكن تصديقه باعتبار الكميّات الضخمة من العاج، التي تصدّر الى الهند.

كان الملك بيناموطابا مجوسيا، إلا أنه اعتنق المسيحية.

(30) كانت مملكة صوفالة تشمل أجزاء هامة مما يعرف بالمزنبيق وتانزانيا وزمبابوي (أي روديسيا الجنوبية، سابقاً). (مترجم).

الفصل الواحد والثلاثون

حديث عن مناجم الذهب ببلاد صوفالة

توجد عدة مناجم للذهب بهذه البلاد، لكن أقربها الى مكان تسويقها تقع ببرية بطحاء تحيط بها الجبال، وتسمى مانيكا، يكاد محيطها يقرب من ثلاثين فرسخا. اتفق ان الذهب لا يوجد الا في الأماكن الجافة والقفرة. أما الشعوب التي تحفر الأرض هناك للتنقيب عنه، فانهم ينتمون إلى البلاد الواقعة بين خط الاستواء ومدار الجدي، وهي بلاد يكاد المرء يموت فيها بردا في الشتاء، نظرا لما يتساقط فيها من ثلوج، لكن هواءها نقي في الصيف وطقسها معتدل.

تقع مناجم الذهب بصوفالة على بعد خمسين فرسخاً غرب مكان تسويقها، الا أن الكَفْر يشقون في جمعه لأنه يوجد في شكل مسحوق، وبما أن هذه الجهات قاحلة، فان القوم يحملون الذهب الى أماكن أخرى لتصفيته، في حفر أعدّت للاحتفاظ بمياه الأمطار.

يتطلّب استخراج الذهب حفر عدة آبار، وهي عملية شاقّة لأن العمال يصادفون الأحجار والصخور تحت التراب. توجد مكامن أخرى للذهب في مناطق تبعد عن صوفالة بنحو مائتي فرسخ. كما أنه يوجد في أعماق الأنهار، في شكل فهيرات كما يوجد داخل الصخور ذاتها.

لو كان السود نشيطين، لاستخرجوا من الذهب أكثر مما يستخرجون، ولكنهم جدّ كسلاء ولا يقبلون على العمل الا لكي لا يموتوا جوعا. إلا أن العرب كانوا يدفعونهم الى المزيد من العمل ومضاعفة الجهود لأنهم كانوا يبيعون اليهم بضائعهم بكثرة مع تأجيل الأداء، وبذلك استدان السود، ولم يجدوا هروبا من العمل بالجدّ، لأنهم يحرصون على شرفهم.

الى جانب ذلك، توجد مناجم أخرى في بلد يسوسه أمير يسمى بوما، ويخضع لنفوذ بيناموطابا ويقع في سهل كبير، بنيت فيه قلعة عظيمة من الحجر الضخم، ونقشت على بعض جدرانها حروف هيروغليفية، ذلك ما يبعث على الظن أنها من صنع قدماء سكان جزيرة ميروي، لأن سوسطرات أحد الفراعنة، قام

قديما بغزو اثيوبيا السفلى وكل الأقاليم المطلّة على البحر الأحمر، وهو الذي اخترع الهندسة والرموز التي اعتبرها قدماء المصريين مقدّمة وراحوا ينقشونها على تماثيلهم وجدران معابدهم، حسب ما قاله هيرودوت.

حول هذه القلعة، توجد تلال شيّدت فوقها بنايات متشابهة يطلق عليها نفس المصطلح الذي يطلق على كل القصور التي يملكها بيناموطابا. والغريب أنه لا يعرف أحد من بنى هذه البنايات، وبما أن سكان المنطقة كلهم جهّال، فيدّعون أن الجنّ هم الذين بنوها. وتبعد هذه البنايات عن صوفالة بنحو مائة وسبعين فرسخا من ناحية الغرب، ولا يوجد مثلها في البلاد لأن الأهالي لا يقطنون الا في أكواخ رديئة.

أما العرب، فانهم ينفون أن تكون لهم يد في ذلك، فيبقى إذن احتمال انتسابها إلى إقليم أجيزيمبا الذي أشار اليه بتوليموس والذي يبدو أن له تقاربا مع لفظة زمبابوي، وان البناءات من صنع أحد الملوك القدامى الذي اجتذبه الى المنطقة ما فيها من ذهب، ويكون قد هجرها من بعد، نظرا لقصوها عن مملكته. ويذهب البرتغاليون الى أنها تشبه طراز ما شاهدوه في الحبشة، ولربما كان ملك الحبشة هو صاحب هذه المعادن، وقد يكون هو الذي أمر ببناء القصور المذكورة. أما عاصمة الحبشة، فإنها كانت تسمى أشومة وبها كانت تقطن ملكة سبأ، وكانت مشهورة لما فيها من ذهب، وأشومة في نظر بتوليموس، هي حدّ العالم المأهول، جنوبا.

الفلصل الثاني والثلاثون
في وصف البلاد وسكانها

يتميّز أهالي صوفالة السود عن إخوانهم الموجودين بالموزنبيق وكيلوة وميلانئة بما أوتوا من ذكاء فائق ومهارة بالغة، لكن من بينهم من يأكلون لحم البشر

ويشربون دم الحيوان. إن تنصيرهم لا يكتسي أي صعوبة لأنهم يعبدون إلاها واحدا يسمونه زيمو أو كويكيمو، ولا يعبدون الأوثان، ويكرهون ممارسة السحر ويعاقبون عليها عقابا شديدا كل من تلبّس بها، خلافا لما نشاهده في باقي الأمصار الافريقية، من وثنية متفاحشة وسحر رائج بإفراط وكأنه أحد التقاليد والممارسات الدينية. زد على هذا، فإن سكان صوفالة لا يتهاونون في إنزال عقوبة صارمة في حق السارق والزاني، إذ يساق الزاني والزانية إلى ساحة عمومية ويسلط عليهما العذاب حتى الموت. يجوز للرجل هناك أن ينكح من النساء ما يمكنه الانفاق عليهن، لكن الزوجة الأولى تحظى عندهم بالمفاضلة وتنزّل الاخريات بمنزلة الخادمات، ويتمتع الأبناء بحق البكورية، ويعتبر الحيض تأهيلا للزواج ليتأكد الرجل من استعداد المرأة للنسل، وتقام الأفراح بمناسبة الأعراس.

ليست لسكان البلاد مراسيم دينية، غير أنهم يحتفلون بذكرى موتاهم، ويعدون الزمن انطلاقا من طلوع الهلال، إلى اليوم الثامن والعشرين ثم يبدؤون العدّ من جديد.

كلما ذهب لحم موتاهم في بطونهم أو في التراب، احتفظوا بعظام الجثث، سواء كانت لأبنائهم أو لآبائهم أو لزوجاتهم اللائي أنجبن لهم كثيرا من الأطفال، وذلك للتعرف على أصولهم وفروعهم، ومرّة في الأسبوع، يطلقون حصيرا في بيوتهم، ثم يرتبون العظام حوله، ويقدّمون لها الطعام وكأن أصحابها لا زالوا على قيد الحياة، ثم يصلون عليها، وخلال صلواتهم، يطلبون منها أن تعمل على تحقيق سعادة الملك. وعلى إثر ذلك، يجلس ربّ الأسرة وعياله حول الحصير ويأكلون الأطعمة التي قدّموها للعظام.

يرتدي أهالي صوفالة ملابس قطنية مصنوعة محليا أو مجلوبة من الهند، لكن أعيانهم ونسائهم يلبسون ثيابا حريرية، غير أن الملك وزوجاته لا يكتسون بالمنسوجات الأجنبية خوفا مما قد يكون بها من مواد سامّة. نشير إلى أن عظمة الملك لا تقاس بأثاث فاخر ولا بزخارف القصر، وإنما يتباهى بما لديه من منسوجات قطنية مصنوعة في البلاد خصّيصا له، وتزينها الرسوم، على شاكلة الزرابي التي تصنع في الخارج.

عندما يتقدم الخدّام إلى الملك، يقفون أمامه على ركبهم. أما إذا قدّموا له أطعمة، فإنهم يجرّبون سلامتها بعدما يردّ إليهم ما فضل عنه، وكلما تناول شرابا أو أخذه سعال، طفق الحاضرون من حاشيته يصرخون ليعبّروا عن فرحهم وهم يحيونه،

ويجب على كل من تناهى إليه صراخهم، أن يصرخ هو أيضا، ولو كان خارج القصر، حتى أنك لترى المدينة كلها تردّد الصراخ بهذه المناسبة، تعظيما للملك.

إذا كان الملك يخاطب زواره، فعليهم أن يمكثوا قائمين إلى أن يأذن لهم بالانسحاب، لكن العرب والبرتغاليين وخواصه لا يخضعون لهذا العرف، ويعدّ ذلك من علائم التكريم والتشريف الواجبة في حقّهم. أما الشرف الثاني الذي يحظى به المرء عندهم، هو الجلوس على زربية في بيته، في حين أن الشرف الثالث الذي يحصل للمرء، يتجسّم في وضع باب للمنزل، ولا يتأتّى هذا عندهم إلا لكبار رجال المملكة، لأن بيوت الشعب تتمتع برعاية الملك ولا تحتاج إلى أبواب تقيها.

كل المنازل تصنع في البلاد من الخشب، اما التي تضاف إليها أغصان فوقها وتغشى بالطين، فإنها تعدّ من المنازل الفاخرة، وتلك أيضا إحدى علامات النبل والشرف.

يرافق الملك في حلّه وترحاله، في يقظته ونومه، جوق يردد انغاما موسيقية ومستملحات فكاهية. شعار المملكة، معزفة لها قبضة من العاج يحملها الملك في حزامه خلال السلم، ورمح يقبضه باستمرار خلال الحرب. يوجد بعض الأمراء من بين رعايا الملك، لكنهم يتحيزون في بعض الأحيان إلى جانب الذين يحاربونه من بين جيرانه من الملوك، غير أن الملك صار يحتفظ في قصره بأبنائهم وورثتهم ويضعهم موضع الرهائن.

رعايا الملك كلهم أحرار ولا يؤدون الضرائب، باستثناء بعض الهدايا التي يقدمها له الذين يلتمسون مقابلته، إذ ليس من اللياقة أن يتقدم المرء بيد فارغة إلى شخصية سامية، والهدية عند هؤلاء القوم تعد علامة للشرف والاحترام. لكن يتعين على الاعيان والخواص والرعايا والجنود والضباط بدون استثناء، أن يخصّصوا للملك سبعة أيام في الشهر لخدمة أراضيه أو عمل آخر. أما إذا رغب الملك في خدمات هامّة، فإنه يهدي بقرة إلى كل عامل من عمال مناجم الذهب، وعندها، يجب على كل واحد منهم أن يهديه ما عنده. أما التجار، فإنهم يقدمون له بدورهم بعض الهدايا بمناسبة الأعياد، لكنهم ليسوا مجبرين على ذلك. أما الذي لا يهدي شيئا فإنه يتجرؤ على المثول بين يديه، وهذا يعتبر عندهم وصمة عار.

يتقاضى الناس لدى الملك، وله الحق في تأكيد الأحكام أو نقضها. لا توجد في البلاد سجون وينظر الحكام في الخلافات بعد الاستماع إلى شكاوي

الأطراف المتنازعة التي يمكنها أن تعزّز دفاعها بالشهود. وإذا ما أراد أحد المدعين أن يطعن في دفاع خصمه، يتناول قشرة شجرة ويمضغها ثم يرمي بها في قدح من الماء، ثم يقدمه لخصمه، فإذا شرب منه، فإنه لن ينال عقابا، وإن رفض، يعتبر ذلك إدانة له ويحكم عليه، ويبقى حق العفو للملك، إلا أن العفو لا يتم بدون مقابل، ويضاف إليه واجب الوساطة لدى الملك.

لا توجد خيول في البلاد، ولهذا فإن الجنود كلهم مشاة، وأسلحتهم تتألف من الأقواس والنبال والرماح والخناجر وسواطير صغيرة جدّ حادة. لكن الحرس الخاص بالملك يتألف من مائتي كلب، ثقته بها تفوق ثقته بالجنود، ويستعملها في الحرب والصيد. أما غنائم الحرب، فإنها توزّع إلى ثلاثة أنصبة متساوية، نصيب الملك، ونصيب الضباط، ونصيب الجنود، ويتعين على المقاتلين أن يتزوّدوا على حسابهم بمؤونتهم الغذائية، مع العلم أن الملك لا يبخل عليهم من حين لآخر ببعض الذبائح.

يلاحظ أن الرجال يحترمون النساء، وإذا ما صادف ابن الملك إحداهن في الطريق، انحنى احتراما لها. أما الملكة ونساء وجهاء المملكة، فإنهم يخرجن جميعا إلى الحقول للسهر على عمليات الحرث أو الحصاد. هذا وقد يطول الحديث عن مناقب هؤلاء الجمال الذين يتصفون ببعض جوانب التعقّل وخصائص الضمير

الفصل الثالث والثلاثون

في أن عرب كيلدة هم الذين بنوا مدينة صوفالة

أقبل العرب على بناء مدينة صوفالة بعد حصولهم على موافقة ملك المنطقة الذي أدرك ما يكتسيه ذلك من أهمية بالنسبة للتجارة، خصوصا وأن العرب هم الذين ظلوا يهيمنون على التجارة عبر البحار في تلك الجهة، فكانوا يجلبون إليها المنسوجات الهندية وغيرها من البضائع، ويستبدلونها بالعاج والذهب ولم يكن أحد سواهم، يتقدم لطلبها من السود.

روى جيان دو باررّوس، أحد المؤرخين، أن العرب الأولين الذين استوطنوا صوفالة، قدموا من موقاديشيو، ثم انتقلت التجارة بعدهم إلى أهل كيلوة الذين بسطوا نفوذهم على المنطقة بأكملها، لأن ملك كيلوة عيّن واليا للاشراف على الشؤون التجارية.

أما كيف تم اكتشاف وجود الذهب بصوفالة، فإن ما لدينا من معلومات يفيد أن أحد أهالي كليوة كان يصطاد السمك على متن سفينته الصغيرة، قرب جزيرة ميزة، فوقعت سمكة ضخمة في سنارته، لكنه لم يستطع رفعها ولم يرد التخلي عنها بالتخلص من قصبته، وفرّت السمكة وهو يمسك بالقصبة، فاجتذبته بعيدا جدّا عن الجزيرة حتى وصل شواطىء صوفالة، وهناك التقطه بحّارة كانوا على ظهر مركب تجاري قدم من موقاديسيو، ورجع الصياد إلى كيلوة مع تجار السفينة، وروى ما شاهده من رواج تجاري على الشاطىء يتميز بما يتداوله السود وأصحاب السفينة من بضائع، من بينها كمّيات وافرة من الذهب، كما أخبر قومه أن أهل موقاديشيو كانوا ملزمين بتسليم مائة شاب من مواطنيهم، مرّة في السنة، إلى قوم صوفالة ليجامعوا بناتهم وليكون لهم أطفال من عرق أهل موقاديشيو.

عندما تلقى ملك كيلوة هذه الأخبار، بادر إلى إرسال مركب إلى صوفالة وأقام مع جهّالها علاقات تجارية، وبدلا من أن يرسل إليهم مائة شاب، أهدى إلى ركّاب السفينة ثيابا وأشياء أخرى، وقال لهم بأنهم إذا رغبوا في أن يكون لهم أطفال من فصيلة عرق أهل موقاديشيو، فإنه مستعدّ ليرسل إليهم تجّارا من العرق المرغوب فيه، ليستوطنوا صوفالة ويتزوّجوا ببنات قومها.

ونذكر من بين هؤلاء العرب تاجرا يسمى داود الذي أقام مدة طويلة بصوفالة ثم هاجر إلى كيلوة. وكان ملوك كيلوة يعينون الولاة على صوفالة، وكان من

بين اختصاصات هؤلاء الولاة الاشراف على الحركة التجارية وتنظيمها. ولما حل البرتغاليون بصوفالة عام 1505، كانّ واليها آنذاك يسمى يوسُف.

الفصل الرابع والثلاثون

بناء قلعة برتغالية بصوفالة

في عام 1505، برح لشبونة بأمر من مانويل ملك البرتغال، النبيل بيدرو أناية الذي حارب إلىٰ جانب الفونس الخامس في عدة معارك، وقد تلقى تعليمات للتعرف على مصادر الذهب بصوفالة، وتشييد قلعة لتأمين النشاط التجاري البرتغالي بالمنطقة وإيواء التجار البرتغاليين وتخزين البضائع الواردة من بومباي وتأمين الذهب المستخلص من تسويقها. هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن البرتغاليين أمسوا متفائلين بربط الصلة بين هذه القلعة وكل من القلعة التي خططوا لبنائها بكيلوة والقلعة التي اعتزموا تشييدها بمدينة الموزنبيق خلال نفس السنة.

أبحر بيدرو أناية على رأس أسطول يتألف من ستة مراكب وصلت منها ثلاثة إلى مقصدُها، في حين أتلفت العواصف الثلاثة الباقية.

رسّت السفن الثلاث على مقربة من مصب نهر، فرمق أناية مجموعات سكنية يقطنها العرب على ضفاف النهر الذي ينساب خلال غابة كثيفة. وتقدم إلى الأسطول وفد عن المدينة أرسله الوالي، الذي لا شك أنه كان على علم بما قام به فرانسيسكو الميدي من أعمال في كيلوة ومونباسة كما لم يغرب عنه هدف البرتغال الذي اطلعه عليه ركاب سفينة برتغالية تم احتجازهم بعدما انحبست سفينتهم في الشاطيء وقال أناية للوفد العربي أنه أقبل لمقابلة الحاكم ومفاوضته في أمور فيها منافع للوالي ولملك البلاد.

لم يستحسن العرب مجيء البرتغاليين، فردّوا على أناية بأن الوالي شيخ هرم مصاب بالعمى ولا يستطيع أن يخرج من بيته، ولا فائدة في مقابلته وأنه يسكن مكانا قصيا، وأن السفن لم تستطيع المرور عبر الأشجار. لكن أناية الحّ عليهم بشدّة لتسهيل مهمته، فقبلوا.

ركب الوفد العربي وبعثة من البرتغاليين زوارق وطلعوا النهر عبر مسافة نصف فرسخ. وكان كل واحد من البرتغاليين مستعدا للطوارىء.

كان الوالي يوسف يسكن في مدينة تقدّر بيوتها بنحو ألف كانون، وهي مصنوعة من الألواح في حين كان منزله متين البناء، فسيح الأرجاء ويتضمن غرفا كبيرة يتوسطها بهو على شكل صليب وكأنه كنيسة، وفي مؤخرته يوجد مخدع كان فيه سرير الوالي.

كانت الغرف مفروشة بأثواب حريرية مزركشة تزينها رسوم هندية. ولما رأى الحرس والخواص وفد البرتغاليين، تقدم إليه أحدهم وقاده إلى الوالي الذي كان ممتدا على فراشه ولم يظهر على الحال التي وصف بها من قبل.

تبادل الوالي وزواره التحيات، ثم أطلعه أناية على المهمة التي أناطه بها عاهل البرتغال، مؤكدا بأن بناء قلعة في صوفالة سيرجع بالخير العميم على الوالي وشعب المدينة، كما سيؤمن سلامة التجار البرتغاليين والبضائع، زيادة على ما سيترتّب عنها من مزايا أخرى.

كان له تأثير على نفس الوالي، فوافق على طلبه، لكنه أضاف بأن سفينة برتغالية انحبست في الشاطىء منذ أيام قلائل، وأنه استضاف عنده ركابها البالغ عددهم عشرين نسمة خوفا عليهم من القبائل الزنجية.

استقدم الوالي حينا هؤلاء الغرباء وسلّمهم إلى القائد البرتغالي ثم أمر بعض رؤساء الجالية العربية بمرافقة قائد الاسطول البرتغالي الى المكان الذي يريد أن يشيد فيه قلعته وتزويده بما قد يحتاج إليه، فشكره أناية على مساعدته وأشاد بكرمه ومحاسنه، ثم قدم إليه وإلى ذوية هدايا وذهب لبناء قلعة على ضفة النهر في مكان مأهول، يبعد بنصف فرسخ من مقر الوالي.

كان ليوسف صهر ذكي شجاع، فأعرب عن معارضته للرخصة التي منحت للبرتغاليين، مبديا تخوفاته مما قد يترتب من عواقب وخيمة على البلاد من جرّاء بناء تلك القلعة، مُؤكدا أن البرتغاليين إذا رغبوا في التعامل مع الأهالي، فينبغي لهم أن يتجروا معهم انطلاقا من سفنهم دون الحاجة إلى الإقامة في عين المكان، وأن الحكمة تقتضي منعهم من الاستيطان في البلاد. لكن الوالي كان له رأي مخالف، فطمأن صهره بقوله إن الزمان سيلقّن البرتغاليين دروسا أهمّ من الكلام، وإنهم سيضطرون إلى الجلاء عن موقعهم عندما تشرع الامراض في الفتك بهم، وأن أمر القلعة سيؤول للأهالي وأن حفاوة الاستقبال التي خصصت لهم ترمي إلى تضليلهم وابعاد التشكك عن أدمغتهم.

اقتنع الصهر بكلام يوسف وشيّد البرتغاليون قلعتهم التي مكّنتهم من احتلال البلاد والسيطرة على تجارة الذهب، رغم إرادة الوالي.

الفصـل الخامـس والثـلاثـون

في مقتل الوالي على إثر محاولته الاستيلاء على القلعة، بتواطىء مع أحد ملوك البلدان المجاورة

أضحت المبادلات التجارية مع البرتغاليين هزيلة في البداية، ذلك لأن هؤلاء الغرباء مضوا يدفقون في سوق صوفالة منتوجات برتغالية لم يكن عليها اقبال، لأن الأهالي ظلوا يفضّلون البضائع الهندية ولا سيما الواردة من بومباي. لكن البرتغاليين تداركوا الأمر وأخذوا يهيمنون على الأسواق المحلية، ملحقين أضراراً جسيمة بمصالح التجار العرب. فاشتكى هؤلاء من سياسة الوالي ومن صهره مصاف، مؤكدين أن القلعة تشكل خطرا محققا على البلاد وتعرض العرب للأفلاس.

احتج العرب لدى الوالي على الممارسات البرتغالية فانفعل لشكواهم. لكنه قال لهم ما قاله لصهره من قبل ولما علم يوسف أن المرض أقعد عددا من نزلاء القلعة، حسب الظرف ملائما للاستيلاء عليها. لذلك اتصل بأحد الملوك المجاورين لصوفالة وأشعره بأن القلعة تأوي عددا من القراصنة البرتغاليين في حوزتهم كنوز نفيسة، من ضمنها منسوجات فاخرة صنعت خصّيصا لبيناموطابا، وأن الأمراض انتشرت في القلعة المحاصرة، وأنه يدعوه إلى المشاركة في عملية السطو عليها ليكون له نصيب من الغنائم.

لم يكبح الملك الأسود جماح طمعه، فاجتاز النهر على رأس قواته، فرمقه بعض العرب من الذين حصلوا على حماية برتغالية لكيلا تطبق عليهم العدالة المحلية، وأشعروا قائد الحمّية البرتغالية بتحركات الزنوج.

كان من بين هؤلاء العرب شاب مسلم يسمى ياقوت، أصله حبشي، وقع في الأسر وهو طفل، فربّاه الحبشيون على عوائدهم ودينهم، فاتصل بأناية طالبا اللجوء إلى القلعة، فكان له ما شاء، وجرّ معه عددا من أخلّائه، فانضمّوا إلى عناصر الحامية البرتغالية.

أقبلت جحافل الزنوج وهم واثقون من تحقيق فوز عظيم، وكان عددهم ستة آلاف أو يزيدون، فاحتشدوا حول القلعة وشرعوا يتلفون معالم حدود أرضيتها كالأوتدة التي نصبت حولها، لكن البرتغاليين تصدّوا لهم بنيران بنادقهم، فأصابوا منهم عددا كبيرا ولاذ الآخرون بالفرار، غير أن قائد الحامية تعقّبهم على رأس وحدة تتألف من خمسة وثلاثين جنديا وعشرين عربيا من بينهم الحبشي ياقوت.

غضب أولئك السود، واتهموا الوالي والعرب بدفعهم إلى الهجوم على القلعة ليتخلّصوا من النصارى، معتبرين الأسلحة النارية معجزة شيطانية، ثم أغاروا على البلدة ونهبوها نهبا، وهاجموا مقرّ الوالي وحاشيته، ولولا فراره لتعرّض إلى موت محقق.

لم يكن يومئذ بالقلعة إلا خمسة وثلاثون جنديا، وما عداهم من نزلائها. فإنهم أمسوا غير قادرين على حمل السلاح لأن الأمراض أقعدتهم فعلا.

عندما غادر الزنوج البلدة، فكّر أناية بدوره في الانتقام من حاكمها، لذلك خرج إليه ليلا متسترا وتسلّل إلى القصر، لكن الحاكم أحس بشيء غير عاد، فتناول سيفه وتربّص خلف باب غرفته. ولما دخل عليه أناية، وجّه إليه ضربة أصابته في ذراعه، فصاح. إذ ذاك، أسرع نحوه اثنان من رفاقه وقتلا الحاكم.

هم العرب في أخذ الثأر من البرتغاليين فحاصروا القلعة خلال ثلاثة أيام، لكنهم تنازعوا فيما بينهم وأخذوا يقتتلون إلى أن التمس أحدهم يسمى سليمان، من ياقوت. أن يطلب من أناية التدخل لحسم الخلاف، فقام القائد البرتغالي بالدور المطلوب، ونصّب سليمان حاكما.

مات أناية وعدد من نزلاء القلعة من جرّاء المرض، وأوشك الحصن أن يسقط في أيدي العرب، لولا أن سفينتين برتغاليتين أنزلتا الامدادات التي خيبت آمالهم

توجد داخل البلاد، وعلى الضفة الشرقية من بحيرة زمبيز، عدة أقاليم، منها إقليم تسوسه النساء، ويجبرن الرجال على القيام بالأعمال التي نعدّها من اختصاص المرأة، كما أنهن في حالة حرب مستمرة مع أهل الحبشة، فيبارزنهم بكفاءة واقتدار.

الفصل السادس والثلاثون

الموزنبيق

الموزنبيق(27) مدينة تقع بشاطيء زنجبار، في الشمال الشرقي لمدينة صوفالة، واكتشفها فاسكو دوكاما عام 1497، فاعتبرها منفذا لاكتشاف الهند.

أغلب سكان المدينة عرب مسلمون، يسوسهم حاكم يدينون له بالولاء وينزّلونه منزلة الملك، وتشكل المدينة موقعا تجاريا هاما، إذ يمكن للمراكب أن ترسي بمينائها وتقع هي بين صوفالة وكيلوة.

إلا أن التجارة كانت راكدة، وذلك لأن سكان المنطقة الخلفية للمدينة قوم من السود البدائيين، منطوين على أنفسهم، لا يبرحون مداشرهم ويكتفون بالتعامل فيما بينهم.

تغيّرت أحوال مدينة الموزنبيق مع تردد البرتغاليين عليها، وازدهر فيها الرواج، ولم تمض سنة دون أن ترسي بها القوات البحرية البرتغالية، التي كانت في بعض الأحيان تلجأ إلى مينائها وتقيم به عدّة أسابيع حتى تهدأ العواصف البحرية والرياح العاتية التي كانت تقلّب قنال الموزنبيق.

وجد البرتغاليون أن منازل المدينة بسيطة ومصنوعة من التبن والقصب، ماعدا منزل الحاكم والمسجد اللذين شيدا من الآجور.

بنيت المدينة فوق جرف عظيم كالصرح وتكاد تكون كالجزيرة تثير انتباه البحارة من بعيد. وفي عام 1508، أمر عاهل البرتغال ببناء قلعة ومستودع للبضائع ومستشفى.

الفصل السابع والثلاثون

عن كيلوة وما حدث فيها قبل مجيء الميدي

يرجع الفضل إلى العرب في إنشاء هذه المدينة الشاطئية التي توجد في منطقة فلاحية خصبة، غنية بفواكهها المختلفة، المألوفة لدينا وغير المألوفة، وبإنتاجها الزراعي وأنعامها ودواجنها، كالدجاج والحمام وغيرهما من الطيور التي لم يمكن لنا علم بها، لكن مياهها ليست جيدة، بسبب كثرة البحيرات المالحة. منازلها تشبه

(27) يدل هذا الاسم على المدينة، وأطلق البرتغاليون على البلاد الخلفية وعلى الاقليم الذي استعمروه، نفس الاسم، وكانت العاصمة تسمى في عهد الاستعمار لورانسو مركيس، وتسمى اليوم مابوتو (المترجم)

منازل البرابر، أزقتها ضيقة، ويسكن الحاكم في قصر تحرسه الأبراج ويحيط به خندق مليء بالماء، وله بابان، أحدهما يطل على البحر، والثاني يطل على الخليج الذي ترسي به المراكب.

في غضون سنة 1500 دخل إلى الخليج، ألفارو كابرال على رأس أسطول برتغالي، وأجرى محادثات مع الحاكم المسمى ابراهيم، في موضوع التجارة، لكنه لم يحصل على ما كان يريد. وسنتان بعد ذلك، نزل فاسكو دوكاما بالمدينة، ولما تبيّن له أن الحاكم لم ينصع لمطالبه، شن على المدينة هجوما عنيفا، أدى إلى إستسلام الحاكم وقبوله أداء إتاوة سنوية قدرها خمسمائة قطعة ذهبية. لكن الحاكم نقض المعاهدة. وبعد ثلاثة أعوام، تقدم الميدي على رأس أسطول برتغالي، وطالب مقابلة الحاكم، لكنه تماطل في الردّ. وأطلع القائد البرتغالي رجاله بما لديه من تعليمات من ملك البرتغال للفصل في الحرب أو السلم مع ملوك المناطق التي يريد أن يجعلها محطات في طريق الهند، وأنه يرى وجوب بناء قلعة على شاطىء كيلوة لتأمين رحلات الأساطيل المسيحية.

غداة ذلك اليوم، شنّ البرتغاليون هجوما واسعا على المدينة، فسقط منهم بعض الجرحى نظرا لضيق أزقتها، لكنهم انتفضوا وتمكنوا من الاستيلاء على البيوت كلها، ثم توجّهوا إلى القصر وحاصروه. عندها، طلب الحاكم ايقاف العمليات، معلنا عن ولائه لملك البرتغال. ثم رفع راية برتغالية فوق أحد الأبراج. لكنه كان يرمي من وراء ذلك، مخادعة البرتغاليين، إذ تركهم ينتظرون، بينما لاذ بالفرار من باب سرّي، ولما اكتشفوا الحيلة، أغاروا على القصر ونهبوا ما وجدوا فيه، كما نهبوا المدينة.

الفصل الثامن والثلاثون

بناء كيلوة

بنى المسلمون مدينة كيلوة، سبعين سنة بعد بنائهم موقاديشيو، وفيما يلي، الظروف التي تم فيها ذلك.

كان للسلطان الفارسي حسن، عند وفاته، سبعة أولاد من بينهم أحد اسمه علي، كانت والدته أمة حبشية الأصل. ولهذا السبب لم ينج علي من ازدراء اخوته له، وكان يسمع ما يحكى عن افريقا من ثراء، فهجر إليها رُفقة عدد من أصدقائه.

فكّر في الاقامة في بعض المواقع بشاطىء زنجبار، لكنه لاحظ أنها مأهولة، فواصل طريقه إلى أن نزل بمكان خال، لا عمران فيه، فوقع عليه اختياره، وهو موقع كليوة حاليا، ثم فاوض الزنوج الذين ساروا نحوه، فسمحوا له بما أراد، وأعطاهم بعض الهدايا مقابل ذلك، وما هي إلا أيام حتى شرع يشيّد المنازل لحاشيته وأخذ يبسط سلطانه على الأماكن المجاورة، مثل شانكة وصونكو، وهكذا خرجت كليوة من العدم وأصبح علي ملكها.

ولما مات علي، خلفه ابنه أبو المال الذي حكم زهاء أربعين سنة، ولم يكن لهذا الأمير ولد، فخلفه ابن أخيه، علي أبو الفلك الذي ما كاد يتربع على كرسي الحكم أربعة أعوام حتى انتزعه منه ابنه داود، ففرّ الى مونباسة حيث وافاه الأجل. عندها، عيّن داود واليا على المدينة يسمى علي بن أبي بكر، لكن الأهالي أطاحوا به بعد عامين ونصّبوا مكانه حسين سليمان، ابن أخ الأمير المخلوع. ولما توفي هذا السلطان، خلفه حسن بن داود الذي سير دفة الحكم مدة ستين سنة، وبعد وفاته، خلفه أحد أحفاده يسمى حسن، غير أن السكان خرجوا عن طاعته بسبب طغيانه، ونصبوا مكانه سليمان الذي طغى بدوره على الأهالي، فأطاحوا به وقطعوا رأسه، وعينوا خلفا له، ابنه داود، فبقي يسوسهم أربعين سنة، وعندما هلك، خلفه ابنه سليمان حسن، الذي كان على جانب كبير من الذكاء، فازدهرت كليوة في عهده. واتسعت رقعة مملكته، وغزا جزر زنجبار وفونبا ومونسيا، واستولى على مناجم الذهب الواقعة بصوفالة وبنى قلعة بكليوة واستبدل بيوت الخشب منازل مبنية من الحجر وتم كل ذلك في ظرف عشرة أعوام.

لما مات هذا الامبراطور العظيم، خلفه ابنه داود، مدة عامين، ثم بعده ابنه طالوت لمدة عام واحد، وجاء بعدهما أخوهما الحسن الذي حكم مدة خمسة وعشرين عاما، فخلفه أخ له يسمى بني سليمان الذي دام ملكه عشرة أعوام، فأتم ما بداه أبوه وما شرع اخوته في تشييده.

واعتلى العرش بعده ابن أخيه علي داود، الذي حكم أربعين سنة. وهكذا تعاقب الابناء والأحفاد وغيرهم على ملك كيلوة وصوفالة التي آلت إلى أحدهم يسمى يوسف، وفي عهده، قدم الضابط البرتغالي إلى صوفالة وبنى فيها قلعة. وبعد مقتل يوسف عيّن السكان مكانه ملكا آخر يسمى عبد الله.

وتوالت الخلافة في فروع هذه الأسرة الشيرازية وكان الوزير الوزير الأول يلعب فيها دورا كبيرا، وهكذا إلى عهد أبي الفضائل الذي لم يعمّر كثيرا. وبعد وفاته، قرر الوزير الأول المسمّى الأمير ابراهيم الانفراد بالحكم.

كان لأبي الفضائل إبن أنجبته له أمة، يحكم منذ سقوط كيلوة في أيدي البرتغاليين، ولئن كان ابراهيم صاحب السلطة الفعلية فإنه لم يحظ من طرف شعب المدينة بلقب الملك، وكان يعتبر واليا لا غير، ويرجع بقاؤه في الحكم إلى المشاكل التي كانت تعانيها المدينة مع البرتغال، وهو الذي فقد الحكم وجلا عن المدينة أمام قوات الميدى الذي لم يكن يعرف شيئاً عن تاريخ الأسرة الحاكمة لولا المعلومات التي زوده بها عربي اسمه محمد أنكونيي الذي كانت له صداقة متينة بالبرتغاليين، دون أن يتساءلوا هل انحدر من سلالة الملوك أم لا.

علم الميدي أن الأهالي يريدون ملكا تعاقب آباؤه على الملك، فاقترح عليهم محمد أنكونيي، فقبلوه، ثم اجتمع الميدي بضباطه وقال لهم بأن الضرورة تقتضي أن يعتلي عرش البلاد شخص يحظى باحترام السكان وبثقتهم.

استدعى القائد البرتغالي محمدا أنكونيي وأخبره بأن ملك البرتغال اختاره لاعتلاء عرش مملكة كيلوة، وأنه سيساعده ليصبح أقوى شخصية في البلاد إذا ما استمر في خدمة البرتغال، ثم ألبسه عباءة حمراء من الحرير، ووضع على رأسه تاجا، واستدعى سكان المدينة وأخبرهم بأن الجيش البرتغالي الذي أقصى الوالي ابراهيم بسبب خيانته، سيقوم باسم ملك البرتغال، بتتويج أنكونيي ملكا على البلاد.

بعد ذلك، قام محمد أنكونيي على فرسه، بجولة عبر المدينة، تتقدمه فرقة موسيقية من الجوق البرتغالي، والناس خلفه ينادون بحياته. وقبل أن ينسحب الميدي، طلب منه محمد أنكونيي أن يطلق سراح العرب الذين احتجزهم فاستجاب لطلبه، وكان لذلك أثر حميد في النفوس، إذ استعادت المدينة جوها الطبيعي، وعاد إليها كل الذين هاجروها على إثر غزوها من طرف البرتغاليين.

عندما فرغ الميدي من ترتيبات تنصيب محمد انكونيي شرع البرتغاليون في بناء القلعة وتحصيناتها، ولما فرغوا من العمل أطلقوا على القلعة اسم سان جاك تخليدا لذكرى القديس الاسباني، ثم عينوا بها حاكما عسكريا له حامية تحت تصرفه مع سفينة حربية. وبعد ذلك، أبحر الميدي وأسطوله قاصدا مومباسة.

الفصل التاسع والثلاثون

مقتل محمد أنكونيي واختيار ابنه خلفاً له

بعدما صارت صوفالة خاضعة للسيادة البرتغالية قضى الملك مانويل بأن يحتكر البرتغال نقل البضائع من كيلوة إلى صوفالة لاستبدالها بالذهب، فكانت هذه السياسة سبباً في اضمحلال مدينة كيلوة وتقاعسها.

كانت سفينة حربية برتغالية تقيم الحصار على المنطقة وتحجز البضائع التي ترد على متن سفن تجارية. ذات يوم، استولت القوات البرتغالية على إحدى هذه السفن، ولما قامت بتفتيشها، وجدت من بين ركابها، ابن ملك تيراندیكونت الذي كان يقطن كيلوة، فألقت القبض عليه وعلى أفراد أسرته، لأنه كان بصفته أحد أقارب الوالي السابق ابراهيم، يناوىء تدخّل البرتغال في المنطقة ويضايق التجار العرب. لكن الملك محمدا أنكونيي افتداه وأفراد أسرته بثلاثة آلاف قطعة ذهبية، وأكرمه ثم أرجعه إلى والده الذي كان يسود بلاداً مجاورة لكيلوة، كما طلب منه أن يحمل إلى أبيه رغبته في مقابلته، لإجراء محادثات تتعلق بمصالحهما المشتركة. ولاسترداد ما دفعه من مال فدية لابنه.

عندما علم البرتغاليون بنواياه، نصحوه بالعدول عن فكرة التعاون مع أقرباء الوالي السابق فلم يحفل برأيهم، وسار محمد أنكونيي بعد ذلك، لمقابلة ملك تيراندیكونت.

وذات ليلة، بينما كان الملك محمد انكونيي في مخدعه بالسفينة نائما، تسرّب الأمير الذي افتداه إلى مخدعه واغتاله بطعنة سكين، فاشتعلت نار الفتنة في كيلوة بعدما نعي إليها مقتل ملكها، وانقسم الناس حول ترشيح خلف له.

أمام هذه الأحداث، أمسك البرتغاليون والعرب بزمام الأمور، واتفقوا على ترشيح الحسين، ابن الملك الراحل، اعتبارا للخدمات التي اسداها أبوه للعرش

البرتغالي. وتنفيذا لما ورد في المعاهدة المبرمة بين الجانبين. لكن والي المدينة وبعض وجهائها وطائفة من أعيان الزنوج، عارضوا ترشيح الحسين، بدعوى أنه لا ينبغي أن يعتلي العرش، شخص لا ينتسب إلى أسرة عريقة في النبل.

اتسعت رقعة الاضطرابات في المدينة، حتى إن أهاليها طفقوا يهجرونها أفواجا أفواجا قاصدين ميلاندة ومونباسة وغيرهما، وازداد التوتر بالمنطقة بسبب الأعمال الاستفزازية والاستنزافية التي مضى يمارسها البرتغاليون، والمتمثلة في القرصنة البحرية التي لم تكن تعرف من قبل، في هذا الركن من المعمور، وغني عن البيان أن البرتغاليين أرادوا أن يصبحوا أثرياء، بكل الوسائل، وفي وقت وجيز، بقطع النظر عن أي اعتبار.

على إثر هذه الأحداث، تدخل فرانسيسكو الميدي شخصياً لإعادة الهدوء إلى نصابه، فأوفد مبعوثا عنه الى البرتغاليين وحملهم على الاقلاع عن نهب السفن التجارية، وأعلن في كيلوة أنه بوسع القوم أن يطمئنوا على مصالحهم، ويمكنهم أن يزاولوا نشاطهم التجاري بكامل الحرية، كما كان ذلك في عهد ابراهيم، ورد إلى ثلاثة أو أربعة تجار من كيلوة بضائعهم التي استولى عليها سابقا القراصنة البرتغاليون. بعد ذلك، ولى عائداً إلى صوفالة.

رجع بعض المهاجرين إلى كيلوة، وأفلح البرتغاليون في اقناع الأهالي بقبول الحسين خلفا لأبيه ابراهيم. لم تمض إلا أسابيع قليلة، حتى رغب الوالي الجديد في الانتقام من الذين فتكوا بأبيه، ولتحقيق هدفه، أوحى إلى أحد الملوك المجاورين، اسمه ماني مانسي، بأن يقوم بشن هجوم على مملكة أعدائه قصد الاستيلاء على ما فيها من ثياب ثمينة، وكنوز نفيسة.

قبل الملك الزنجي العرض المغري، وتظافرت جهود الجانبين وزحف الملك الزنجي براً نحو مملكة نيراندبكونت، وسار إليها الحسين بحرا، ودخلا إليها منتصرين، ونهبا مافيها، وأمام ذلك، فر الأمير وأبوه وتم سبي عدد كبير من رعاياهما.

كان هذا النصر سببا في القضاء على الحسين، لأنه انتشى بفوزه وسرى فيه الكبرياء وسعى إلى محاربة ملوك ميلاندة وزنجبار والأمراء العرب، وقد نسي أن لكل

واحد منهم كرامة. أما انعكاس حروبه على كيلوة، فكان سيئاً حيث لم يكن من يغفر له ما فرضه عليهم من جهود من أجل الحرب، خصوصاً وأنه استنجد ببعض التجار الذين لقوا حتفهم في المعارك، فأخذ رعاياه يضمرون له الكراهية والبغضاء.

انتفض السكان واتفقوا مع الملوك المجاورين، وطلبوا من خليفة الملك البرتغالي المقيم بالهند خلع الحسين، وإسناد أمور المملكة إلى إبراهيم أو إلى أحد أقربائه المسمى نيكانت. الذي رشحه السكان سابقاً لاعتلاء العرش بدلا من الحسين، استجاب خليفة الملك لمطلبهم، لكن إبراهيم اعتقدها خدعة. وهكذا أصبح نيكانت ملكا على كيلوة. أما الحسين، فإنه أبى أن يكون مواطناً عادياً في البلاد التي كان فيها ملكا، وقد انفق أموالا طائلة في تحقيق الانتقام لابيه، ولجأ إلى مونباسة حيث أقام إلى أن مات.

كان نيكانت في البداية ملكا محبوباً، إذ كان يدبّر شؤون المملكة بحكمة وتبصّر، ويعدل بين الناس بالحق، إلا أنه زلت قدماه بعد عامين، حيث مال إلى ممارسات استبدادية، فكرهه القوم بقدر ما سبق لهم أن أحبوه. ومما زاد في الطين بلة، أن الوالي البرتغالي رحل عن المنطقة بعد أن أنهى مدة خدمته بها، ولم تكن بينه وبين خلفه علاقات طيبة. وبما أن ابراهيم لم يرَ بعين الرضى نيكانت يحكم الجزيرة، فإنه أشهر عليه حرباً شارك فيها النصارى — وهم أربعون فقط — ضده، فقتلوا العديد من جنوده، معرضين أنفسهم للخطر. في هذه المغامرة.

استبدل البرتغاليون حاكم القلعة بآخر بعدما قضى فيها عامين، ولم تكن بين نيكانت وبين خلفه علاقات ودية، فنشبت بينهما الحرب وأراق المسيحيون كثيرا من دماء الأهالي، معرضين أنفسهم للأخطار، فاغتنمها ابراهيم فرصة. ودخل إلى كيلوة مع عدد هام من الزنوج يقودهم أخوه، وحارب النصارى، وأسر حاكم القلعة وحاميتها، في حين استبسل نيكانت وهو يحارب إلى جانب البرتغاليين.

على إثر هذه الأحداث شجب البرتغال الأسباب التي أدت إلى تشييد هذه القلعة، وأعطيت الأوامر لتدميرها ونقل حاميتها وعتادها إلى جزيرة سكوتورة

التي استولى عليها تريستان داكونيا، لكن قبل أن يتوصل الوالي البرتغالي بهذه التعليمات كان قد خلع نيكانت وبعث إلى إبراهيم يطلب منه المثول أمامه، وحتى يقنعه بأنه لا يسعى إلى الخداع من وراء ذلك، أوفد إليه ابن أخيه ضمانة.

نزح نيكانت إلى جزيرة كيرامبا حيث قضى ما بقي من حياته فقيرا بئيسا، واعتلى إبراهيم أريكة العرش وصار هادئاً وديعاً، ودبر أمور مملكته أحسن من ذي قبل، لأنه أخذ العبرة من الأحداث السابقة، وأوصى أبناءه بالوفاء إلى خليفة ملك البرتغال وعدم التهاون في تنفيذ أوامره.

وهكذا انتهت الأحداث المأسوية بما تطمئن إليه القلوب، وفتحت صفحات جديدة، غير أن كلاً من الملك محمد والحسين ونيكانت قاموا بأدوار لم تكن في صالحهم. وهذا ما أوردناه ليكون عبرة وعظة للأجيال القادمة.

الكتاب العـاشر

اثيوبيـا العليـا أو بلاد الاحبـاش

الفصل الأول

ميـلانـدة

المدينة الأولى في إثيوبيا العليا على ساحل زنجبار

توجد مدينة ميلاندة دون مدينة كيلوا، وسكانها مسلمون. وفيها أرسى فاسكودي كاما اثر مغادرته لمومباسا، والتقى بالأمير الطيب. الذي تفاهم معه، ومنها أخذ الدليل الذي ساعده على مواصلة طريقه. وترك افريقيا على يده اليسرىٰ وقطع خليجا يبلغ سبعمائة فرسخ ويبتدئ على ثمانية فراسخ من ميلاندة، واليكم ما عرفته عن تاريخ البلاد القديم.

قبل البعثة المحمدية، برغم كون العرب كانوا يجتازون المضيق البحري ويدخلون بلادهم، فانهم كانوا ياتون كأجانب ويكتفون بالبيع والشراء، ويعودون الى ديارهم ولكن منذ ان دخلوا الاسلام بحد السيف، فانهم أصبحوا على جانب كبير من الاقدام وانتشروا في كل مكان. واذا لم يستطيعوا فرض دينهم بالقوة، فإنهم كانوا ينشرونه بالحيلة عن طريق التجارة وغيرها من الوسائل. وهذا ما فعلوه في ذلك الساحل، وفي سائر شواطىء الهند التي كانت تقطنها شعوب همجية ووثنية، واستوطنوا الأرض سلميا الى جانبهم وعمروا الجزر والمراكز على طول الشواطىء ليصبحوا سادة البحار. وما ان استقروا بمكان حتى اتخذوا اما لقب شيخ أو ملك البلد، وأصبحت لهم سطوة على مقدار جاليتهم.

فكانت هناك قرى تافهة، ولكنها واقعة بمكان صالح للتجارة، واذا وجد مكان فيه نظام وشرطة، فهو من عمل يدهم. وفيما يخص البناءات القديمة فهي كبيرة وفخمة وتتجاوز في بعض الاماكن مآثر اليونان والرومان. وهكذا عمر العرب ذلك الساحل، وليسيطروا عليه ويستقلوا به تحلوا كلهم اما بلقب شيخ. أو ملك، وباستثناء أميري كيلوا وزنجبار، فلا يعتبر الآخرون كأمراء بل كشيوخ، واما حاكم مومباسا، فيعتبر طاغية لأنه كان واليا عن ملك زنجبار، ثم ثار عليه. واما حاكم ميلاندة، فانه يفاخر أقدم الحكام في البلاد، ويقول انه ينتسب لملوك كيتاو، التي هي مدينة واقعة على بعد ثمانية عشر فرسخا من الاولى، وقد هيمنت على ذلك الصقع بأسره، وان كانت لم تبق الا كقرية تافهة، ومن خلال بعض الابراج الباقية وبعض الازقة يظهر انها كانت على جانب من الكبر. ويعتقد آخرون ان مدينة لوسين القريبة كانت عاصمة تلك الأقليم وان الاماكن الأخرى كانت تابعة لها،

ومهما يكن، فلا توجد قرية في تلك الجهات لا تنوه بأصلها ولا تدعي بالأسبقية على جارتها.

ويريد ملك ميلاندة أن تكون مدينتا كيون وكيليف داخلتين في حوزته. ولهذا السبب فهو في نزاع مع أميرها، وله أطماع في أاماكن أخرى تابعة لأوكا. وأخيرا، ان كل الملوك والشيوخ العرب يطمعون في بعضهم البعض. ولا يملكون شيئا داخل الصقع، لأن الكفريين الذي يخافون منهم لا يتحملونهم، ولهذا السبب يقفلون مدنهم بأسوار من الحجر أو الطين حسب البلد. ويقص أهل ميلاندة للتدليل على مجدهم القديم أن سيد ميلاندة كان، قبل وصول البرتغاليين منذ خمسين سنة، وجه بعض العرب مع مائة من الكفر لاكتشاف البلد الواقع على نهر ياڤي مصبه على بعد فرسخ من ميلاندة، وهناك يوجد، على ما أظن، شناخ ربط، وإن لم يوجد في العلو الذي ذكره بطليموس. وسار القوم في محاذاة النهر طوال ثلاثين يوما ولما رأوا انه يتسع كلما تقدموا في مسايرته(1)، وانه ملىء بالخيول البحرية، ولا يمكن قطعه الى الضفة الأخرى حيث شاهدوا أرضا عارية وبعض القطع المحروثة للسكان، رجعوا الى أدراجهم بعد ان استنفدوا زادهم، دون أن يجدوا أحدا يزودهم من جديد، لأن الأماكن التي كانوا يمرون بها كانت محجرة ومغطاة بالأشجار. ولكن بعد ذلك بزمان، وقع تحرك من سكان البلد اما لأن تلك البعثة أيقظتهم أو لسبب آخر فجاءت قافلة من الزنوج ذوي الشعر الجعد محملة بالذهب والعاج لمبادلتها مع بضاعة يحتاجون اليها، فخيموا خارج مكان كيلمانصي حيث يوجد آنذاك ملك ميلاندة. ولكن بما أنهم لا يستطيعوا التفاهم معه لأنه كان يطلب منهم حقوقا ثقيلة، قرروا الذهاب الى ميناء آخر، لكن الملك أمر بالهجوم عليهم ليلا، وانتزع منهم كل ما كانوا يملكونه، وكان هذا سببا في عدم رجوع أي واحد منهم. وهذا النهر ينزل من بلاد الأحباش ويسيح في اقليم الأمازون حيث يوجد ذهب كثير. وأول أجنبي علم بذلك كان قائد أسطول برتغالي(2) كان يتجول قرب تلك السواحل مع آخرين لكسب الثراء، فدخل في مصب ذلك النهر وتوغل مسافة خمسة أيام. ولكنه لم يجرؤ على النزول، خوفا من نفاذ الزاد. ولما رأى أن الزنوج لم يريدوا التبادل معه، عاد الى البحر، وحكى ان النهر كبير كما يلوح من كثرة الخيول التي كانت تعوم به، وأضاف نفس المعلومات التي كان العرب يروونها عن الحالة بالبلاد. وقد عرف بعد ذلك أن النهر ينبع من بحيرة زايير ويدخل في بلد الأحباش حيث ينقسم الى فرعين كلاهما صالح للملاحة، ويكونان جزيرة دائرتها

(1) هنا شيء غير صحيح لأن النهر لا يتسع عند صعوده.

(2) جورج فونيطيكا.

ستمائة فرسخ، تشتمل على عدة أقاليم ويقطن بها شعوب كوتيكويس. وفي ذلك المكان توجد عدة مناجم(3).

حظي فاسكودي كاما باستقبال حسن من لدن ملك ميلاندة، ووصل في ظرف اثنين وعشرين يوما الى كاليكوت، تاركا هذا الملك راضيا عنه وملتزما بالوفاء للبرتغاليين الذين كان يستعين بهم في حروبه، وبعد الخروج من ميلاندة وقطع نهر كيلمانصى، تمتد البلاد داخل مملكة الأحباش التي تسمى أيضا، اثيوبيا العليا. وكل هذا الحيز من الأرض مثل الجيب داخل بلاد الكفر، ويتصل، من جهة، بالبحر الأحمر، ومن جعة بمصر، ومن جهة ثالثة باثيوبيا السفلى. والجو بها معتدل تقريبا في كل مكان، والأرض تغطيها أصناف من السهول والوديان والجبال. والى جانب النيل، هنالك أنهار أخرى متعددة، وهي منطقة غنية بالحنطة والخضروات وبحب أسود صغير يصنعون منه خبزا جيدا حتى انه ليغني عن خبز القمح، والماشية كثيرة وكذلك الوحش. وبها من الذهب ما لا يوجد بغيرها، والعمارة في البلاد عبارة عن مداشر أو قرى منتشرة في كل مكان. ولكن هنالك بعض المدن على ساحل البحر الأحمر في حوزة العرب المسلمين.

الفصل الثاني

مومباسا، على ساحل زنجبار وهجوم الميدة عليها

هي مدينة مبنية في شبه جزيرة يبلغ محيط دائرتها أربعة فراسخ. ولكن مدت اليها قناة على شاكلة كيلوا مما جعلها مطوقة بالماء. وتقع بزاوية في مدخل القناة بحيث لا ترى الا عند الحلول بالميناء. وبناؤها جيد وأبراجها وبيوتها وساحاتها تخلف منظرا جميلا لمن يشاهدها. ويشكل البحر أمام فنائها قوقعة يمكن أن يدخل اليها المراكب الكبرى، وتبلغ قناتها في الداخل من الاتساع ما يسهل تحرك السفن الشراعية عند محاولتها للدوران مع الرياح. وفي وسط هذا النطاق، يمتد نحو الأرض رصيف من الحجر يمكن من الجواز من جهة الى أخرى عند انحسار المياه مع الجزر، وبالاضافة الى القناة المجاورة للمدينة هنالك قنوات أخرى تخترق الارض وتصلح للملاحة. والقناة التي تستعملها المدينة لا يتجاوز عرضها في بعض الأماكن رمية المنجنيق. وقبل الوصول الى الفوهة التي ترسو عندها السفن، يوجد شارع من جهة الشرق، وضعه السكان منذ وصول كاما. والبيوت مشيدة

(3) زمبور، بورو، بالوكَاتا، آلوكَاوا.

بالحجر والجير ولها نوافذ ومباحات على الطريقة الاسبانية. ويقطن بها عرب مسلمون يحكمهم ملك هو الذي يتصل به الأحباش والهنود من أجل التجارة وقد وصل الى هناك فاسكودي كاما في سنة الف وأربعمائة وسبع وتسعين، وذخل الى الميناء بعدما حصل على كل التأمينات، لكن صادف نية في الغدر به. وما ان علم بذلك حتى ابتعد من ذلك المكان الخطير وركب فلكين صنحبة ثلاثة عشر رجلا أخبروه بانه سيجد أمامه مدينة ميرندة حيث يوجد بها أمير يتعامل بمجاملة كبيرة مع الاجانب.

وبما انه كان يحمل الأمر بالاتصال مع أمبراطور الحبشة، فقد صار الى جهته، ومنذ ذلك الحين، جاء فرانسوا دالميد بصفته نائب ملك في الهند في سنة الف وخمسمائة على رأس احدى عشرة سفينة كبيرة وثلاث صغيرة. وكان وصوله متأخرا مما جعله يرسو أمام الميناء، وفي الغد جرب اختراق النهر بواسطة ضابطين بحريين ليرى هل يمكن الدخول بالمراكب الكبرى، ورغم ان الادلاء الذين أتى بهم من كيلوا طمئنوه على ذلك، فقد أراد أن يتحقق بنفسه ويقوم بتجربته الخاصة.

وكان السكان قد وضعوا سبعة أو ثمانية مدافع، كانوا قد غنموها من سفينة برتغالية رست في رمال الشاطىء وهي آتية من الهند، فأحدثوا ثغرة في أحدها لم يحصل منها كبير ضرر. ولكن رجالنا بادروا باطلاق النيران من مدفع كبير على الرصيف الذي لم يكن مبلطا فأحدثوا فيه شقا وأشعلوا النار في مخزن للبارود. وكان لانفجاره دوي هائل أثار الرعب في السكان الذين ولوا الأدبار تاركين المدافع والرصيف وبرجين مشيدين بالحجر كانا واقعين في الأمام، مما مكن من التعرف ، النهر. وفي الغد دخلت السفن الى المرسى ووقف البعض منها في المدخل، عض الآخر وراء ذراع من الأرض. وقسم فرانسوا دالميد أسطوله الى فرقتين من ئل القيام بهجومين. فترك ولده لوران أمام المدينة، بينما سار هو وراء ذراع الأرض فوجه من هنالك قاربين مسلحين ليدورا حول الجزيرة ويمنعا السكان من الهروب الى القارة، كما فعل سكان كيلوا، ووضعا سفينتين في مكان يمكن للسكان أن يفروا منه. وعاد القاربان بأسير عربي، فعرفوا منه عزم المدينة على الدفاع عن نفسها وتجنيد ملكها لألف وخمسمائة من الرماة الكافرين للذوذ عنها، وتهديده بالقتل لكل من حاول أن يخرج منها، وما ان سمع فرانسوا دالميد الخبر وفحص الأماكن التي يمكن أن يكون منها الهجوم ورأى ان السكان لم يوجهوا له أي رسول، حتى وجه أحد رجاله صحبة ربان أتى به من كيلوا ليتحدث مع الملك. ولكن هذا الأخير لم يشأ

أن يستمع لهما وتلقيا جوابا لا يخلو من احتقار معناه انهم لا يكترثون لدوي الرصاص مثل أهل كيلوا الذين نكسوا ذراعهم، سائرين في أسلوب التفاخر والاعتداد. ولما علم فرانسوا دالميد بالجواب، أمر باطلاق نيران المدفع، وذهب ضابطان تحت تغطية تلك العملية في القوارب لاشعال النار في سفن كامباي التي تسترت وراء الجزيرة. ولكن المكان كان وعرا وقذفوا بمائة سهم فرجعوا خائبين دون القيام بأي عمل ومات منهم البعض الذين جرحوا بسهام مسمومة، وقدر دالميد أن السكان قد رجع لهم الاطمئنان، فجمع الرؤساء للتشاور وبدرت منهم آراء مختلفة، ولكنه قرر أن يكون الهجوم غدا الذي يعد من الايام المسيحية المقدسة، وركب في قارب وولده في آخر وذهبا وراء ذراع الأرض ليبحثا عن المكان الذي يمكن أن يكون منه الدخول بسهولة، ورغم أن الضفة كانت عالية في ذلك المكان، فقد وجهوا بعض السفن الصغيرة لتلتصق بحد الارض ومن هناك وقع الصعود بواسطة الألواح وتقرر أن يذهب الميد بنفسه فوق مومباسا ليهاجم قصر الملك الذي كان واقعا في أعلى مكان، وأن يذهب ولده من الطريق الكبرى التي تقطع المدينة ليلتحق به، وأن يذهب في نفس الوقت ضابطان لاحراق السفن الراسية بكامباي بقصد الهاء السكان، وأن يقع الهجوم الكبير بعد ان يسمع المهاجمون طلقتين من المدفع.

ولم يكن السكان يتصورون أن الهجوم سياتيهم من مجاري السبيل، وغدت نيتهم أن يحصنوا المدينة من جهة المرسى التي كان يوجد بها معظم الأسطول بحيث وضعوا الحواجز من تلك الجهة في الطرق التي كانت ضيقة، بالاضافة الى الدور المواجهة للمرسى التي كانت تشكل سورا يحمي المدينة بجدرانها، كل هذا جعلهم يظلون في اطمئنان. وأمر الجنرال ولده بالنزول الى الشاطىء مع بعض الرجال ليقوموا باحراق البيوت وما بجانبها من حواجز، فإذا هب أصحاب النجدة فعليهم أن ينسحبوا بدون نظام وكأنهم خائفون. وهذا ما أنجز، لكن الأعداء أطفأوا النيران في الحين، فانسحب من المكان.

وفي الغد وقع الهجوم على المدينة من جهتين، وصعد الجنرال مع رجاله في أعلى الشلطىء حيث كان يوجد قصر الملك، ولم يجد صعوبة في الصعود الى البيوت، لأن الطريق كان واسعا ودون دفاع، ولكن لما وصل الى الأزقة الضيقة، هب السكان للهجوم عليه، دون أن يمنعوه من الوصول الى قصر الملك. ولكن الأعداء كانوا موجودين بكثرة في المكان فرشقوا البرتغاليين بوابل من الأحجار

والنبال من أعلى البيوت والنوافذ. ووجه ألميد عددا من الفرسان وأصحاب القذائف ليضربوا السطوح والنوافذ التي يمكن أن تعترض طريقه. وبفضل ذلك استطاع أن يرد العرب الذين كانوا يقاومونه وأن يدفع بهم الى كدية كانت تصل اليها جملة من الطرق، ومن هنالك أمكنهم أن ينسحبوا.

ولما رأى البرتغاليون أنه لم يبق أحد في الخارج للدفاع عن قصر الملك، أخذوا في كسر الأبواب ودخلوا جموعا، فاستولوا عليه بعد أن قتلوا وجرحوا بعض العرب الذين حاولوا أن يدافعوا عن أنفسهم. وفي أثناء ذلك فر الملك ونساؤه وكل من استطاع أن يتبعه من باب خفي وساروا نحو نخيل لم يكن بعيدا.

ومن جهة أخرى حاول ابن الميد الذي أتى من أسفل المدينة مع بقية الجنود أن يلتحق بوالده، كما كان مقررا، لكنه صادف مقاومة شديدة حالت بينه وبين تحقيق غرضه، لأن الطريق الكبيرة التي أراد أن يمر منها كانت عقبة كأداء لا يصعد اليها الا بأدراج، فسهل على السكان أن يدحرجوا أحجارا كبيرة فيها يسحقون بها المهاجمين، بالاضافة الى ما كانوا يقذفون به من النوافذ. لكنهم يئسوا حينما علموا بفرار الملك واحتلال القصر. وبدأوا ينقبون حيطان البيوت للفرار الى البراري، وتبع ابن الميد شخصا سمينا كان صاعدا الى ان وصل أبيه. وظهر أنه لم يبق أحد يريد أن يدافع عن نفسه. فاعتقد البرتغاليون أن العملية انتهت. فذهبوا أمام قصر الملك حيث رفعت راية البرتغال والصليب. وورد عليهم نبأ احراق سفن كامباي، حسب الأمر الذي صدر بهذا الشأن.

لم يمت من هذه العملية الا أربعة من البرتغاليين، من بينهم فرناند دوسا، ولكن كان هنالك أيضا، ستون من الجرحى، وأما الأعداء، فقد مات منهم ألف وخمسمائة، وأسر منهم مائتان، وأزيد من ألف عند نهب المدينة. وقبل أن ينصرف البرتغاليون للاستراحة، ورد الخبر على الجنرال بوجود عربي في النخيل يلوح براية بيضاء، فوجه يبحث عن جلية الخبر، فقيل له ان الملك يريد أن يكون تابعا لملك البرتغال، على شرط أن لا يقع تخريب المدينة وطلب مقابلة من أجل ذلك.

ورحب الميد بهذا العرض، فوجه قفازه المرصع كضمان لكلمته، ثم خودته ليزيل كل اعتراض من جانبه، لكن الجندي صاح لما رأى أن الملك لم يات وقال البعض بوجوب تخريب المدينة، وقال آخرون بضرورة الهجوم على الملك داخل النخيل. ولكن الجنرال رأى في ذلك خطرا، نظرا لتكاثف الأشجار التي تساعد العدو على الدفاع عن نفسه واعتبر كنتيجة حسنة كونه استطاع أن يستولي على

تلك المدينة الكبيرة، فأذن بنهبها، بعد ان وزع أحياء على الجنود تجنبا لوقوع الفوضى[1]، وكانت الغنائم جد وفيرة حتى أن الجنرال اضطر لترك جزء كبير منها في الأرض حتى لا يثقل السفن بها. ولم يحتفظ من الأسرى الا بمائتين وزعهم على الضباط بينما سرح الباقين. وفي اليوم الثالث، قبل أن يقلع بسفنه من المدينة، وضع النار في ثلاثة من أحيائها. بحيث لم يبق من المدينة الا حي واحد، هو الذي عمرها من جديد كما كانت من قبل.

الفصل الثالث

زنجبار

على بعد عشرين فرسخا من مومباسا، توجد جزيرة مرتبطة بالقارة، وفيها تقع من جهة البحر مدينة زنجبار. ولها أمير خاص بها ومرفأ جيد حيث تتوقف السفن الذاهبة الى الهند. ففي وقت الهدوء لا يمكن المرور في القنال الضيق الذي يفصل بين الجزيرة والقارة دون أن يشعر بذلك المشاهدون من العدوتين. وصل القبطان لورنسو البرتغالي الى الجزيرة في سنة ألف وخمسمائة وثلاثة، بعد ان انقطع عن الأسطول الذي كان ذاهبا الى الهند. ونزل الى الارض وهجم على السكان وألجاهم الى الفرار، وفرض على أمير البلاد أداء اتاوة من مائة قطعة ذهبية الى الملك في كل سنة وثلاثين خروفا لمن يتسلمها منه.

الفصل الرابع

أوكا التي على ساحل ايكس والتي استولى عليها قبطان برتغالي

توجد أوكا على بعد سبعة عشر فرسخا من ميلاندة، وهي مدينة متجهة الى الشرق على ساحل بحر برافا، وهي مبنية على نمط مومباسا، ولكن موقعها يختلف، وهكذا فإن مومباسا توجد على القنال، بينما تقع اوكا على البحر. وهي محصنة من جهة الأرض بسور ومن جهة البحر بحاجز من الصخور يجعل من العسير النزول من تلك الجهة. كان لملك ميلاندة نزاع مع سيد تلك المدينة الذي كان يحسده على ما كان يتلقاه من مساعدة برتغالية، وهذا ما جعل ذلك الملك يقترح على تريستان داكونيا، حينما رسا بالأسطول على ميلاندة، أن يذهب الى اوكا ويستولي عليها بسبب كراهية سكانها له، وكذلك سكان مومباسا، فذهب القائد البرتغالسي بالسفن، وما ان وصل الى الميناء حتى وجه الى الشيخ يدعوه الى

(1) ذلك أن الجنود كانوا كثيرا ما يتقاتلون فيما بينهم على الغنائم.

مقابلته ليتحادث معه في قضية تدخل في خدمة ملك البرتغال. فأجابه بانه تابع لملك مصر، وانه من أحفاد النبي وخليفته، وانه بدون الحصول على الاذن منه لا يستطيع أن يتعامل ولا أن يتفاوض مع أناس يضطهدون رعاياه، وبخاصة أهل مصر الذين يتاجرون في الهند. وبالاضافة الى ذلك، فقد علمته التجربة ان لا يضع ثقته في القواد البحريين النصارى الذين يرتادون تلك السواحل، وزاد قائلا بانهم اختطفوا منه سفينتين مشحونتين بالبضائع، وانهم لا هم لهم الا التشويش على التجارة.

كان الشيخ قد أعد نفسه منذ زمان للدفاع عن نفسه اذا ما حدث هجوم عليه، وأتى بعدد من الكفر من القارة. ولم يكن يظن أن الأسطول سيظل هنالك يومين أو ثلاثة، حيث كان النزول الى البر صعبا. وفي صباح الغد سار في الزوارق جنب الأرض بجنوده. وصنع زورقين كبيرين قاد أحدهما بنفسه، وسلم الآخر الى الفونسو ألبوكيرك. ورغم هيجان البحر وصعوبة النزول، فقد تمكن من النزول على الأعداء في عقر دارهم وطاردهم نحو المدينة فدخلها معهم واختلط الحابل بالنابل. وفر الشيخ من الجهة الأخرى نحو النخيل، ولكن تبعته طائفة من الشبان الشجعان فهزموه وأردوه قتيلا. وكان الفونسو دونورونيا هو الذي أصابه بأول ضربة برغم المقاومة الشديدة التي أظهرتها حاشيته. وأثناء الانسحاب لقى جورج دوسيلفيرا عربيا يظهر عليه من هيئته أنه من علية القوم، وأمامه سيدة ذات ملامح جميلة. وشعر العربي بأن البرتغالي يتبعه، فاستدار نحوه وسل سيفه ليوقفه، بينما تفر المرأة، الا انها لم تفر وقالت انها تموت معه أو تفر برفقته. وأمام هذا المشهد المؤثر لم يسع سيلفيرا الا أن يسمح لها بالفرار.

ووجد تريستان دا كونيا والفونسو البوكريك، في تلك الاثناء ما يشغلهما في المدينة، فلم يستطيعا السير بعيدا داخل المدينة. وبعد ان قاما بنهبها أمر بأشعال النار فيها من ثلاث جهات، حتى لا يطول بهم الوقوف في ذلك المكان الخطير، وذهب بعض الجنود الذين انهمكوا في النهب ضحية النيران، بينما صعد الباقون الى السفن وذهبوا اللاستيلاء على مدينة مجاورة.

الفصل الخامس

لامو

مدينة على بعد خمسة عشر فرسخا شرقي أوكا، كانت تحت سيطرة أحد العرب، هجم عليها «تريستان دا كونيا» في سنة ألف وخمسمائة وستة، لكن الشيخ، وقد علم المصيبة التي حلت بجاره، جاء يستقبله في موكب سلام. فاستسلم اليه وأعلن نفسه تابعا لملك البرتغال، مع اداء جزية مبلغها ستمائة قطعة

ذهبية، وسدد منها سنة «لتريستان داكونيا». وسلمه هذا الأخير رسائل مع شارات الملك لينعم بالأمن،ثم انتقل الى برافا.

الفصل السادس

برافا

توجد هاته المدينة في شرق السابقة وعلى نفس الساحل. ولكنها أهم منها، سواء من حيث عدد السكان أو ضخامة البناءات. وكان يسودها نظام حكم جمهوري. وحدث في سنة ألف وخمسمائة وثلاثة أن القبطان «لورانسو» البرتغالي لما كان يجوب في عرض شاطىء آبيكس على ظهر سفينة من الأسطول استولى على مركب مشحون بالبضائع وعلى ظهره بعض الناس من مدينة برافا. فعرض عليه هؤلاء أن يجعلوا المدينة تابعة لملك البرتغال اذا أطلق سراحهم. ولكن الآخرين رفضوا وانتزعوا الحكم من يدهم وحلوا محلهم وتعهدوا بأن يدافعوا عن المكان بالقوة وباستعمال الحواجز الطبيعية الموجودة بالميناء الذي كانت تكثر فيه تلال الرمال والحفر. لكن تريستان داكونيا توجه في سنة الف وخمسمائة وستة نحو مدينة برافا محاذيا الساحل الى ان وقف قبالتها، ووجه يطالب بالجزية ومراسيم الطاعة لسيده.

وتلقى جوابا لا يخلو من كبرياء مضمنه أن روساء المدينة لم يكونوا يعرفونه لا هو ولا ملك البرتغال. ثم انهم قاموا باستعراض السكان لكي يرعبوه وكان عددهم ستمائة فكانوا يخرجونهم من باب الميناء ويدخلونهم من باب آخر في حسن نظام. وقرر «تريستان داكونيا» أن يهجم عليهم بعدما تلقى هذا الجواب، وقضى الليل في تهييء كل ما هو ضروري. فأنزل الجنود في القوارب المحمولة في السفن الكبيرة، وهجم من جهة، بينما كان ألبوكيرك يهجم، من جهة أخرى.

وحاول أهل البلد أن يقاوموا برمي الأحجار والسهام والنبال، ولكن البرتغاليين تمكنوا، في الأخير، من النزول الى الأرض بعدما قتلوا عددا كبيرا من الأعداء، وبادروا الى الأسوار التي كانت منخفضة، فدخلوا الى المدينة من أماكن ثلاثة، وكانت المدينة أعمر بالسكان من الجهة الأخرى فبدأوا يتسحبون، تاركين رؤساءهم الذين ماتوا، كل في مكانه الذي كان يقاتل فيه، دفاعا عن وطنه وحريته، طبقا للقسم الذي أداه. وأخيرا، بعد ان وقع الهجوم على المدينة بقوة وجرى الدفاع عنها بقوة الى درجة ان أي أحد لا يستطيع أن يروي ما وقع بالضبط لانشغاله في المعركة، اضطر السكان الى التخلي عن إبائهم، ففقدوا حريتهم مع صفتهم كشجعان التي طالما نعتوا بها من قبل. ومات عدد كبير منهم. ولم يصب من البرتغاليين الا اثنان وأربعون من المقتلى وسبعون من الجرحى. ووقع نهب المدينة

فكانت الغنيمة كبيرة الى درجة عجز السفن عن حملها. واستمر السلب والنهب ثلاثة أيام وبعد ذلك أضرمت فيها النار واحترقت حتى صارت رمادا.

ومن ثم توجه «تريستان داكونيا» الى رأس «كَواردفو» وجزيرة «سقطرة» حيث استولى على حصن للعرب والتي خضعت وأعلنت تبعيتها لملك البرتغال مع سكان الجزيرة الذين كانوا من النصارى اليعقوبيين. ورمم الحصن بعد ذلك وترك فيه حاكما هو «انطونيو دو نرونيا» مع حامية كبيرة وذهب الى الهند.

من جهة أخرى، كانت مدينة برافا في شاطىء «ايان» حيث كان يقطن سكان الكهوف القدماء، ولم تكن إلا هاته الجمهورية في تلك المناطق وتأتي مدينة موقاديشو بعدها، وكذلك رأس «كَواردفو» حيث تتعرض السفن للتلف لأن الريح يتقلب في ذلك المكان. ويتسمى سكان برافا وغيرهم من سكان الساحل المسلمين. وفي مكان أبعد يقطن الايموسيد أو البدو الذين يعيشون في الخيام وينظر اليهم كأناس منحرفين عن الدين. وهم مختلطون بزنوج البلاد حتى انهم شبه لهم. ومن وراء رأس «كواردافو» توجد المدينة الصغيرة «ميطا» و «زيلع» مع خليجها.

الفصل السابع

زيلـــع

مدينة واقعة في خليج في مخرج مضيق البحر الأحمر وحسب موقعها يظهر أنها هي التي أشار اليها بطليموس وسماها «افارلت». وتشاهد فيها آثار قديمة، والأبنية فيها مشيدة بالحجارة والجير، كما هو الشأن في عدن التي توجد في نفس ارتفاعها. وهي من مملكة عادل وحرار عاصمتها وتوجد في قلب البلاد في مدخل اقليم يسميه بطليموس تيكا.

والأراضي حول زيلع خصبة، ومن هنالك تمر معظم البضائع الموجهة الى بلاد الأحباش وكل ما يستهلك في بلاد عادل. وبسبب أرباح هاته التجارة نشأت العداوة بين ملكي عادل وعدن، ولذلك كانت توجد بها حامية كبيرة. وكان هذا الميناء في القديم أشهر ميناء عدن، وكان هو المرفأ الرئيسي الذي تاتي اليه السلع الموجهة للمضيف، لكن منذ قدوم البرتغاليين انتقل ذلك الى عدن. وملك عادل قوي في منطقته، وقد اعتاد أن يحارب امبراطور الحبشة.

وقد لحق الخراب بالمدينة على اثر هجوم قام به البرتغال[1]. وهنالك تجارة في العبيد الزنوج المجلوبين من الحبشة، الذين يختطفهم العرب وياتون بهم لبيعهم

(1) 1517.

للتجار الأجانب كما يبيعونهم العاج والصبر والذهب لتوفر هذه المواد في البلاد، ومن هنالك يكون الوصول الى المدينة الملكية عادل، التي كان صاحبها يحارب امبراطور الأحباش وألحق به الهزيمة في بعض الأحيان. وهو مسلم، وخيله مدرعة مثل خيول الفرس. ومن وراء ذلك توجد المدن الرئيسية(2)، ثم الزنوج الذين يسكنون بالكهوف.

الفصل الثامن

بربارا وبلاد اثيوبيا العليا التابعة لامبراطورية الحبشة

توجد هذه المدينة على ثمانية عشر فرسخا من «زيلع» في اتجاه لشمال. وهي مملكة «عادل»، المشهورة في تلك الأصقاع وتشبه «زيلع» فيما يخص التجارة والسكان والبناءات، ولو كانت غير معروفة ومن موقعها يظهر انها هي «ملكة» التي أشار اليها «بطليموس»، داكرا أن التجارة كانت تجري في ذلك الشاطىء كما هي الآن في «زيلع». وتقابل هاته المدينة «عدن» وقد هجم عليها أسطول ملك البرتغال سنة ألف وخمسمائة وثمانية عشرة فأحرقها ونهبها. ولم تكن الغنيمة كبيرة، نظرا لكون السكان انسحبوا وأخذوا معهم ما استطاعوا حمله ولم يكن وقوف السفن البرتغالية الا من أجل التزود بالماء لتساير من بعد ساحل الجزيرة العربية وتذهب الى الهند.

وتوجد هاته المدينة بجزيرة على مقربة من القارة ومنها توسق أغذية كثيرة إلى فارس وبلاد العرب. وبالقرب من رأس «كواردفو» توجد جزيرة «سقطرة» الوعرة الفظيعة التي لولا الماشية الموجودة بها وتجارة الصابرة ودم الضباب، ما كان السكان ليحلو لهم العيش بها، لأنها جرداء مقفرة. وبالقرب من سقطرة يوجد المرفآن «كوكوس» و «كلانسى» حيث تستطيع السفن أن ترسو بسهولة. وأبناء البلد، ان كانوا أحباشا، لا يختتنون، ويرتكبون أخطاء ديوسكور، فهم لا يتبعون مطران أبيكس، بل مطران موصال ويتعبدون باللغة الكلدانية، ولا يتكلمون لا بالحبشية ولا بالعربية، وكان نساء الجزيرة في القديم ساحرات قديرات، تثرن العواصف والزوابع. ولذلك كان الناس يخشون من الوقوف بشواطئهم. ولا يختلطن بالرجال الا في وقت معين من أجل الحمل ولذلك سمين «امازونيات».

(2) بالى، مطرة، دوارة، كوميزلرة، نوفوكارة، سوسيلى.

وغير بعيد من هنالك، من جهة الجنوب في وجهة ايبكس، يوجد «زبيط» و «الكراجيون» وهم شعب متوحش يعبد الأوثان، و «كاموا» و «سميز» و «كانسى» و «سيمن» و«عادي» وملكها تابع لأمبراطور الحبشة. وكل هذه البلاد ملأى بالغابات الكثيفة الى الدرجة التي يصعب اختراقها في بعض الأماكن. وأبقارها عظيمة الخلقة كأنها جمال بدون قرون. وبالقرب منها بحيرة «زفلان» حيث توجد جزر يعمرها رهبان الأحباش، الذين اختاروا حياة الزهد بعيدا عن مخالطة الناس. وبعدها توجد «فونجي» و «كوارة» وبالقرب منها قمم القمور و «جط» الوعرة والمتصلبة بحيث لم يستطع أحد أن يصل إليها.

ويوجد عدد كبير من اليهود في تلك الجهات، ويظهر انهم ينحدرون من اليهود الذين كان سفاك ملك مصر والحبشة نفاهم الى هنالك. ولم يبق لهم الا اسم اليهود والختان. وفي بعض الأحيان يمتثلون لأمبراطور الحبشة، وفي أحيان أخرى يتمردون عليه ويلتجئون الى جبالهم. وتاتي بعد ذلك عمارات كبيرة هي عواصم الأقاليم. وبعد ذلك تكون مملكة «كوجيام» التي تسقيها بحيرة «زفلان»، من جهة، وبحيرة «زمبير»، من جهة أخرى. واذا تركنا البحيرة على اليسار، نجد «امبيان» و «شوا» و «سرلة» و «قيداس» و «زفلان» و «فانك» وبحيرة «سو» التي ينبع منها نهر النيجر ويختفي قبل أن يصل الى بورنو. وبعد ذلك تأتي أقاليم «أمازن» و «امبيان» و «كانتين» و «بكميدرى» و «عمارة» وهنالك تشاهد فوق الجبال المضايق التي تسمى أبواب «بكاديس»، إذ لا يوجد أي ممر غيرها للانتقال الى الجهة الأخرى من أمبراطورية الأحباش. وبعد مدينة «سوا» وهي عاصمة قريبة من ذلك الجبل الوعر، الذي يسجن فيه أبناء الأمير، لاتقاء الحرب المدنية. وبعد ذلك توجد «سيفا» و «أمبادور» و «ميدة» و «بليكانس» وبحيرة «برزين» و «أولابي» وشعوب «بلوى» و «دوار» و «فاتيكار» و «انكور»، ومن هنالك «تكريماون» و «فاكى» و «بلكَادة» وشعوب « ياثمويس» و «كوبرية» و «سبئين» و «كازومور» حيث توجد فوق الصخور معابد تستلفت الأنظار بشكلها. وقرب البحر الأحمر توجد «عمامر» و «ميناء ارقيق» الذي هو الوحيد في امبراطورية الحبشة ويوجد على بعد فرسخين من جزيرة «مصوع».

الفصل التاسع

جزيرة ومدينة «مصوع» ودولة امبراطور الحبشة

هي مدينة في جزيرة لا تبعد عن القارة الا بمسافة رميتين من القوس يخترقها قنال. وهي قبالة حصن «اركويكو» الخاص بامبراطور الحبشة، والمكان الوحيد بهذا الساحل الذي يقطن به النصارى، وأمير «مصوع» يسيطر على جزيرة مجاورة يصاد بها اللؤلؤ وعلى جزر أخرى حواليها، وبالرغم من كونه عربيا ومسلما، فهو يحافظ على السلم مع الأحباش لما يجنيه من فوائد من وراء ذلك ولكون الأقوات تاتي من ذلك المرفأ الى شواطىء جزيرة العرب.

ومن «مصوع» الى منفذ المضيق خمسة وثمانون فرسخا، ولا يوجد بعد المرور من «دهلك» أي ميناء ولا مرفأ للسفن في كل هذا الساحل، لأنه كله كثبان من الرمال وحواجز وجزر صغيرة، وفي داخل البلاد لا توجد الا الصخور والفيافي التي لا تسكن. والجزيرة لا تتعدى دائرتها اثنتى عشرة مائة قامة(1)، وهي على شكل هلال وبها ميناء أجود من «ماون» و «قرطاجنة» وتستطيع أن تستقبل عدة سفن. وتنتشر البيوت عبر البحر. وأهمها مبنية بالحجارة الملتئمة بالجير ومغطاة بسطوح سميكة من الطين الدسم على الطريقة الافريقية. واما الأخرى فهي مبنية من التراب ومغطاة بفروع الأشجار. وفي وسط المدينة مسجد كان «دييكولوبيز دو سيكيرا» يتخذه أحيانا لتلاوة القداس لما كان هنالك وسماها «سيدتنا صاحبة الحمل». ولا يوجد في الجزيرة لا عين ولا نهر والناس يجمعون مياه الأمطار في الأحواض. والأرض المجاورة غليظة وملأى بالأبخرة. وهنالك عدد من الأبقار والماعز. وهي مزودة بأحسن طريقة من بلاد الحبشة، ويوجد بداخل البلد داران عظيمتان، يسكن بهما أمير حبشي اسمه برنكاس أو سيد البحرية، وهو من رعايا امبراطورية الحبشة الذي يستطيع أن يبدله متى شاء.

وبالقرب من هنالك، يوجد اقليم دنفيلة المتاخم لمصر، والذي توجد به خيول جيدة، واذا صعدنا الى الشمال، نجد جزيرة «امارا» أو «ميرو» وهي أكبر جزر النيل وأجملها، وتقف هنالك الملاحة النهرية، انطلاقا من البحر المتوسط. وفي

(1) من الممكن أن يكون خطأ في الرقم.

ذلك المكان كان يقطن قدماء «الجيمنوسوفيسيطيين» الذين كانوا ابتكروا الحروف الهيروغليفية، وكانوا يقضون أوقاتهم في النظر الى الأشياء الطبيعية، دون أن يهتموا لا بلباسهم ولا بطريقة أكلهم. وفي الجزيرة ينبت قصب غليظ يصنع منه السكان مراكب، وهم مسلمون ويتحالفون مع أتراك مصر وملوك النوبة ضدا على امبراطور الحبشة الذي له حروب أخرى مع أمراء «عادل» و «برساكة» و «الكونكو» و «الامازون» والأتراك من جهة مصر و «سواكن»، فإذا تركنا على اليمين الشعوب التي تعيش بالبادية مثل العرب، دخلنا في مملكة النوبة حيث تقع «سرفاكس» و «دنقلة» وهما مدينتان غنينان بفضل التجارة في خشب الصندل والمسك الذي يوجد فيها بكثرة، وبعد ذلك يكون الرجوع الى اقليمي «كاوكا» و «كانوا» الذي يتمم الدوران حول إثيوبيا العليا.

الفصل العاشر
البحر الأحمر

يشبه المحدثون مضيق البحر الأحمر بوزغة ومصبه بعنقها، والبقية بما يسبقه. وهكذا يمتد الجسد الى شمال الشمال الشرقي على مسافة ثلاثمائة وخمسين فرسخا من المصب الى الجنوب، والعرب يمرون من ذلك البحر يقسمونه من حيث العرض الى اثنتى عشرة قطعة أوسعها تمتد الى ست وثلاثين فرسخا. وكل قطعة فيها ثلاث ساعات من الطريق أو ثلاثة فراسخ بنسبة فرسخ للساعة، والفرسخ قياس قديم عند الفرس حوله اليونان الى «برسنج».

والعرب، أيضا، يقسمون هاته القطع الاثنتي عشر الى ثلاثة أقسام على الطول، بحيث يطل البحر مقسما الى ثلاث حواش أو شرائط. والوسطى منها التي هي بمثابة الظهر أو الصلب عند الوزغة تدعى البحر الطويل لأنها صافية ويمكن التحرك بها ليلا أو نهارا. فمن مصب المضيق الى نهاية الخليج تقريبا يوجد لا أقل من خمسة وعشرين باعا ولا أكثر من خمسين. وهذا لا يوجد في الشريطين الآخرين المحاذيين لساحل جزيرة العرب أو لساحل افريقيا، حيث البحر وسخ، مليء بالأوحال، تخترقه الجزر وأكوام الرمال، ولا يمكن التحرك فيه الا عن طريق منعرجات لا تخلو من أخطار تتراوح بين ثمانية الى خمسة عشر باعا من العلو. ولا بد من الرسو ليلا في أي مكان يوجد به المركب.

وفي مصب المضيق، يوجد عادة بعض الربابنة كما يسمونهم بالعربية ويتقاضون خمسة وعشرين أو ثلاثين دوكا من مكان سكناهم الى مدينة جدة. ويهب على البحر ريحان، شرقية وغربية واذا قلت قوتهما ياتي ريح من جهة الأرض وهذا قليل. ولا يصب في البحر الأحمر نهر ذو أهمية لأن الشاطيء يغلب عليه الجفاف والجدب. ولا يوجد عليه الا نهر برديو المتكون من جدولين أحدهما من ماء أبيض والآخر من ماء أسود. ويصب هذا النهر في البحر على بعد عشرة فراسخ من جدة وأربعة من بهاور. ويبلغ التيار من الضعف والضآلة ما يجعل الملوحة تغلب عليه قبل انصبابه في البحر، واما الأنهار التي تنحدر الى الشاطىء المواجه لافريقيا بعد نبعها من الجبال، فانها تنحدر طبيعيا نحو نهر تكازي الذي يصب بدوره في نهر آخر اسمه ابو حي وكلاهما يصبان في النيل. ولا يبقى الا السفن الذاهبة الى البحر الأحمر، ونظرا ليبوسة الأرض وامتلائها بالأحجار، فانها تتلف في الأرض طيلة الصيف، ولكن البحارة يعرفون فرشته لأنهم في الشتاء يقطعونه بسرعة، فيحفرون فيه ويجدون الماء بدون صعوبة كبيرة. ويسمي العرب البحر الأحر البحر المسدود[1] وإن كانوا يطلقون هذا الاسم على بحر قزوين الذي لا منفد له. وآخرون يسمونها بحر مكة، على اسم مدينة توجد على الشاطىء. وسماها اللاتين البحر الأحمر لما يظهر فيها من نقط حمراء هنا وهناك نابعة من العمق وليست من الماء، حسب بعض الروايات. وان أحد النبلاء البرتغاليين السيد جان دوكاسترو الذي تجول في ذلك البحر وفحص كل الموانىء مع كل الارتفاعات وغيرها من الأشياء التي تخص الملاحة، يقص في الكتاب الذي ألفه عن رحلته انه وهو يساير شاطىء ابيكس، وجد من حين لآخر الماء مليئا بتلك البقع، وفي بعض الأماكن يقترب من القعر الى درجة ان السكان يحتك بالأرض مما يضطر السفينة الى التوقف. وأخذ الماء في كأس فوجده أصفى مما هو خارج المضيق، وان كان يظهر أحمر في البحر، ومع ذلك لم يقتنع بما رأى، فأنزل بعض البحارة الى الأرض، فاستخرجوا من العمق مادة حمراء وكأنها فروع شجر المرجان مغلفة بجلد ليموني، وفي جهات أخرى حيث تلوح بقع حمراء، يستخرج نوع من المرجان الأبيض، مغلف في شيء اخضر، وحيثما ظهر البحر أبيض يكون في عمقه الرمل الأبيض. وهذا لا يرى فقط في الأماكن التي يكون فيها القعر قريبا، بل حتى في الأماكن التي يكون بعيدا، لأن الماء يتلون بلون العمق. ويضيف ان القسم الذي تكثر فيه تلك البقع

(1) بحر القلزم.

الحمراء يذهب من سواكن الى القصير أي ما يتجاوز مائة وثلاثين فرسخا، وابتداء من طور في اتجاه الانحدار جنب مصر يتقارب الشاطئان ويخرج منهما رأسان لا يبعد أحدهما عن الآخر الا بمقدار ثلاثة فراسخ وبعد ذلك يبتعدان نحو السويس في نهاية الخليج. ولا تظهر في هاته المنطقة بقعة حمراء، ولكن الماء يظهر فيها وكأنه في غليان. وذلك راجع لما يحيط بالبحر من الصخور والى هبوب الريح بقوة من جهة الشمال، فيتعالى البحر بسبب ضيق المكان. وأخيرا، إذا اتخذنا قاعدتنا من التجربة، دون الرجوع الى رأي القدماء، فإن اسم الأحمر أعطي لهذا البحر للسبب الذي ذكرنا، لا من ملك اريتيريا. ويصاد اللؤلؤ في هذا المضيق على طول ساحل ابيكس حوالي جزيرة دهلك لكن اللؤلؤ يحمل الى جزيرة مجاورة لتفتح في عين الشمس لأنها تنفتح من عنديتها تحت أشعة الشمس، ويصاد اللؤلؤ في جزيرة أخرى على شاطىء جزيرة العرب، ويسمي العرب مصب المضيق باب المندب الذي يوجد على 12 درجة وربع من الخط، وان كان بطليموس يضعه في الدرجة العاشرة منذ الحربة الخارجة من جزيرة العرب والتي تسمى الرض بيزيديان الى شاطىء افريقيا حيث يضع مدينة دير، توجد سبع جزر تحتل حيز ستة فراسخ وتغلق الممر، وبخاصة منها الست التي توجد أقرب الى افريقيا. وحينما يصل البحارة الى هنالك، تختلط عليهم الرؤيا البصرية حتى يظنوا أن المرور مستحيل عليهم، وحينما يقتربون يكون الدخول خطيرا حتى يعتقدوا انهم ليسوا أمام ممر، بل أمام عقبة. ولكن مع المزيد من الاقتراب، يلوح قنال جميل وواسع.

وأهم هاته الجزر توجد من جهة جزيرة العرب، وهي المقصودة بالذات حينما يجري الحديث عن جزيرة المضيق، وان كان لها اسم آخر(2)، وتمتد على طول فرسخ ونصف على جنب تيار المياه التي تدخل الى المضيق وتخرج منه. وهي عالية ووعرة من جهتها الشرقية ومتأثرة من الرياح التي تمر من حلق المضيق. لكنها من الجهة الافريقية تشكل مأوى آمنا لأسطول كبير. ولا يفصلها عن جزيرة العرب الا قنال يبلغ فرسخا في اتساعه والذي هو الممر الرئيسي للدخول في المضيق. ومن جهة القارة يوجد صخر عال يلوح من بعيد كقلعة ويحيط به الماء حينما يعلو البحر. وفي هذا المكان يقطن الربابنة الذين سبق الحديث عنهم. وتوجد مراس جيدة داخل أو خارج المضيق وملاجىء في عرض الشاطىء، حيث يقع تجنب الرياح الآتية من الشرق والغرب.

وابتداء من المصب فان الشاطىء العربي كله حتى قمران اي مسافة أربعة وأربعين فرسخا، هو في مِلْك ملكعدن. ولا يوجد في هذا البحر لا مدينة ولا أي مكان متميز على طول البحر. ولكن السكان يقطنون كلهم داخل الأراضي. ولا يوجد الا ميناء مكة وموانىء أخرى غير معروفة. فمن قمران، وهي جزيرة متصلة بالأرض الى جيزان، مكان مشهور تحت امرة شريف، مسافة ستين فرسخا، وفيها عدة موانىء، ومن جيزان الى مدينة الينبوع مائة وثلاثون فرسخا من الشواطىء، كلها تحت سيطرة أمير مكة. وبعد قطع مسافة اثنين وأربعين فرسخا يوجد زيدان، وهو مكان مشهور وعدة موانىء في الطريق، وبعد ستة وثلاثين فرسخا من زيدان تقع جدة المشهورة بما يقف فيها من السفن الآتية من الهند، وأعظم مدينة في شاطىء جزيرة العرب من مصب المضيق الى آخر الخليج. ومن جدة الى مكة التي توجد بداخل الأرض خمسة عشر فرسخا.

توجد مرافىء بدى وقرون بين جدة وزيدان ومن جدة الى ينبع خمسون فرسخا وبينهما مرافىء بهور ورابغ وهشار، ومن ينبع الى طور كما يسميه البرتغاليون سبعون فرسخا من الشواطىء وهو بلد خصب لا يملكه أحد. ولكن هنالك قطاع الطريق من العرب يتجولون بتلك الفيافي فيستلبون الذهبين الى مكة أو الى المدينة. ولكن في هذا الحيز يوجد مرفأ يسمى ملاى. ومن طور الى السويس أربعون فرسخا وبينهما يوجد كروندولو وآبار موسى. ومدينة طور هي الحد بين جزيرة العرب ومصر. ومن السويس الى قوصر خمسة وأربعون فرسخا ومن قوصر الى سواكن مائة وثلاثون وفي السواحل عدة مراسي غير مسكونة ولكنها صالحة كملاجىء للسفن. ومرفأ سواكن هو أحسنها في البحر الأحمر بأسره وبينه وبين مصوع ستون فرسخا وفي الوسط مرسى شفق وغيره. ومن مصوع التي هي جزيرة متصلة بالبر تجاه اركيك الى المصب الذي بدأنا منه هذا الوصف مسافة خمسة وعشرين فرسخا. وفي هذا الحيز من وراء جزيرة لك، لا يوجد لا مرسى ولا ملجا، لأن البحر في هذا الساحل مليء بالوحل والصخور وأرصفة الرمال بالاضافة الى كون الشاطىء على كل عقبة. وسكان المنطقة، باستثناء بعض الأماكن، متوحشون ويعيشون من النهب وقطع الطريق. ووراء الجبال التي تعيش فيها تلك الشعوب توجد اثيوبيا العليا والتي ليست أقرب الى مصر منها الى سواكن. وذلك هو ما يمكن ذكره عن البحر الأحمر فلنتحدث الآن عن بعض المغامرات التي جرت في ربوعها لأساطيلنا.

الفصل الحادي عشر

ملوك الهند الذين استنجدوا بملك مصر

البرتغاليون والسفارة التي وجهها هذا العاهل الى ملكي قشتالة والبرتغال

نظرا لما توصل اليه النصارى من سيطرة على تلك البحار، فقد وجد المسلمون أنفسهم معرضين للهجوم من كل جهة فاستصرخوا ملك مصر الذي كان آنذاك قويا. ووجه اليه ملك كلكتا وعدن وغيرهما يقولون له انه ما دام هو أقوى ملوك المسلمين فمن واجبه أن يحميهم من النصارى المعتدين عليهم والمضطهدين لهم في بلاد الهند. وهو مطوق بذلك سواء بوازع الدفاع عن الشرف أو بوازع الدفاع عن المصلحة. ذلك ان العدوان المسيحي كان يقف حجر عثرة أمام تجارة التوابل التي كانت تباشر عن طريق موانئه، إذ كانت تحمل التوابل من الهند الى البحر الأحمر الى غاية طور والسويس ومن هنالك كانت تحمل الى الظهر الى القاهرة ومنها كانت تنقل عن طريق النيل الى الاسكندرية حيث كان ياتي تجار اروبا لاخذها. وتأثر الملك لهذا الصراخ ولشكاوي السكان والتجار، واعتبر كذلك مصلحته الخاصة، فقرر أن يشهر الحرب على البرتغاليين القائمين بالتجارة في تلك البحار، وهو يظن انه يمكن القضاء عليهم بسهولة، لأنه لم يجرب قوتهم ولا عرف تقلبات الدهر. ولكنه أراد من قبل أن يتخذ من البابا وسيطا ليحاول صرف ملك البرتغال عن مشروعه التوسعي، وملك قشتالة عن قراره في تنصير مسلمي غرناطة. وقام يهدد ويتوعد وينشر الاشاعة بانه إذا أكرههم على التنصر، كما بدا في ذلك، فانه سيخرب معبد القدس وكنيسة سانتا كاترينا بسيناء مع كل مخلفات القديسة. ويمنع على النصارى الدخول الى مملكته، ويكره النصارى الموجودين بها على الدخول في الاسلام. وما ان انتشرت الاشاعة حتى هب اليه رئيس دير سينا[1] الذي كان اسبانيا وتوسل اليه بأن يتوقف عن تنفيذ تهديده حتى يذهب الى روما ليخبر البابا بذلك، ويحول دون ضياع عدد كبير من النصارى كانوا موجودين بالقاهرة وبالاسكندرية وحلب ودمشق وبيروت وغيرها من المدن الخاضعة للسلطان. ولكن السلطان، لكي يعطي لقراراته كل الوزن سلمه أوراق اعتماد لدى الملك، هذا نصها :

(1) الأب مور (أي العربي).

«من الملك العظيم، سلطان السلاطين، الذي طبقت شهرته الآفاق، الحكيم، العادل، المنصور، سيد الملوك، وسيف الدنيا، وحامي الشريعة والمومنين بها، وحامي العدل والمحافظة عليه في العالم بأسره، ووارث الامبراطوريات، وملك جزيرة العرب وغينيا والفرس وتركيا، وظل الله في أرضه الذي يصنع كل شيء، سواء منها التي أمر بها أو غيرها، والاسكندر الثاني الذي يصدر عنه كل خير، ملك الجالسين على العرش والحاملين للتاج، المتكرم باسناد الولايات على الأقاليم والنواحي والمدن، قاهر الثوار، وقامع الكافرين، حامي المدينة ومكة. والخليفة على الأماكن المقدسة الموجودة في ايالته، والتي تحتضن دين محمد. مركز كل عدل وخير وكل فوز للايمان، ابى النصر قونصو الغورى، خلد الله ملكه وجعل عرشه في أعلى عليين. الى بابا روما الطيب الروحاني الذي يخشى الله ويفعل كل خير مع المومنين بدين المسيح، ملك ملوك النصارى، حامي البحار وسواحلها أبي البطارقة والقسيسين، مفسر الاناجيل، العالم بدينه وبكل شيء يتعلق به، البشوش في وجه الملوك والأمراء، مالك الامبراطورية الرومانية، زاد الله في مجده الخ...»

تأثر رئيس الدير لتهديدات السلطان، وكان غيورا على مصير النصرانية، لكن لم يكن عارفا بدهاء الأمراء وحيلهم، مما جعله يهول الأمر للبابا[2] الذي قرر في مجلس الكرادلة أن يوجهه الى اسبانيا مزودا برسائل مع نسخة من كتاب السلطان ليطلع ملكي قتشالة والبرتغال[3] على جلية الخبر ويبين لهم أسباب النزاع إلا ان رئيس الدير حينما وصل الى اسبانيا[4]، كان البابا قد مات، وكان ملك اسبانيا قد وجه سفيره[5] الى السلطان لمعالجة تلك القضية والى ملك الفرس وكانت السفارة ناجحة مما جعل ذلك الاب الطيب يفاجأ بكونه لم يستطع أن يحرك ساكن أولئك الملوك ولا أن يفهمهم تخوفاته.

وواصل الملك الكاثوليكي تنصيره للمسلمين، وحربه في بلاد المغرب بينما قوى ملك البرتغال الجيش البحري الذي وجهه للهند وزاد فيه، ليظهر قوته لذلك الراهب ولينتزع الخوف من قلبه. ويبن له من أجل تطمينه بان السلطان لم يتحرك كما يدعي لفائدة الأمراء المسلمين، كما يتحرك لفائدته الشخصية، بسبب النقصان

(2) الأسكندر
(3) دون فرناند، ودون مانويل.
(4) 1504
(5) بيير ماتير.

الحاصل في مداخيله من جراء افلاس تجارة التوابل. وأكد له بانه لم يعد هنالك محل للخوف على المسيحيين الذين يتاجرون في بلاده ولا على الأماكن المقدسة، لأن من مصلحته أن يحافظ عليها، بسبب الفوائد التي يجنيها من ذلك والتي كانت من مجموع تجارة التوابل.

وأجاب البرتغال، من جهته، البابا[6]، فقال انه يترك جانبا رغبة ملك قشتالة في تنصير المسلمين التي هي قضية عادلة ومقدسة، ويتحدث عما يهمه بالذات وهو انه لم يات بشيء يثير تشكيات السلطان، وانه يامل من عناية الله، ملك الملوك والعالمين أن يوجه جيوشه البحرية الى البحر الأحمر وأن يتوغل حتى يصل الى مكة التي كان يقدس فيها محمد، على مرأى ومسمع من النصرانية، وان هذا يفرض على قداسته أن يجمع المسيحية لمحاربة الكفار ولتحرير قبر المسيح. والأمر ليس بصعب إذا ما تدبره كل ذي عقل سليم. ففتح طريق الهند وحده يخوف السلطان، فماذا سيكون شأنه إذا شاهد أساطيل النصرانية في موانئه تهاجم مدينة جدة، التي منها يكون الدخول الى مكة حيث يأمل ملك البرتغال أن يغرس الصليب ويبني الكنائس للمسيح ؟! وانه، كولد خاضع ومطيع للكنيسة، غيور على شرفها ومجدها، يتعهد بتنصير كفار الهند وانه عند دخوله للبحر الأحمر سيمد فتوحه الى البلاد التي نشأت فيها نحلة محمد وسيلحق تراثا جديدا بالكنيسة بمباركة المسيح. ويختم رسالته بقوله انه لا يريد أن يكون خديما عديم الجدوى وان يعطل ما منحه الله من موهبة، حتى يزيده منها. كان ذلك هو القرار الذي ذهب به الراهب الطيب الى السلطان، الذي لما رأى أن سفارته لم تات بنتيجة، جهز أسطولا كبيرا لمحاربة البرتغاليين في البحر الأحمر[7].

الفصل الثاني عشر

أسطول السلطان في محاربة البرتغال بالبحر الأحمر

برغم كون الراهب الاسباني لم يرجع بما كان ينتظره من أجوبة من البابا ومن ملك البرتغال، فانه لم يتخل عن الذهاب الى السلطان، وان يكون مرتاحا لما حصل عليه من صدقات كثيرة لفائدة ديره. ولم ينفذ السلطان تهديداته وانحصر

(6) يوليوس الثاني.
(7) عربنا هذا الفصل كما ورد عند المؤلف دون التغافل عما فيه من تعصب ديني وتحامل على الاسلام (المترجم).

غضبه في توجيه أسطول الى البحر الأحمر لاعتراض طريق الهند. الا أن مصر كانت تعوزها أشياء كثيرة لبناء الأسطول. فوجهت في طلب الخشب والحديد والقطران وكل ما كان ضروريا لتجهيز السفن والقوارب في البحر الأحمر. وأخذ الخشب مس جبال اسكندرون ورغم ان المكان في ملك الاتراك الذين كانوا في سوء تفاهم مع سلطان مصر، فإن هذا الأخير، على ما قيل اتخذ من البندقية واسطة. وفي الوقت الذي كان يحمل فيه الخشب على ظهر خمسة وعشرين سفينة، تحت حراسة ثمانية من المماليك. وخرج حاكم البرتغال(1)، رئيس رهبنة القديس يوحنا بالقدس، الذي كان مقيما برودس، وجاء لملاقاتهم بست سفن وأربع قوارب محملة بستمائة محارب. فأغرق في عمق اليم خمس سفن للسلطان وأخذ ستمائة أسير وفر الباقي. وغرقت خمس سفن من جراء العاصفة، بحيث لم يصل منها الا عشر الى الاسكندرية. وهناك أفرغت شحنة الخشب وأصعد به في النيل الى القاهرة. وهنالك وقع نشره، ثم حمل الى السويس، حيث صنع منه اثنا عشر مركبا ضخما، محملة بألف وخمسمائة من رجال الحرب، بالاضافة الى الملاحين الذين كانوا من نصارى المشرق. وكان البعض منهم يشتغل عن طواعية، بينما الآخرون بالاكراه. وكان يقود هذا الأسطول أمين حسين، الكردي الأصل، الذي لم يكن من المماليك، ولكنه كان شجاعا مغوارا. وقد تبين ذلك من خلال سلوكه ومن الطريق التي سار فيها ومن الأعمال التي قام بها أثناء سفره والتي كانت تدل على شيء آخر، غير الذي كان يقال عنه.

ذلك انه لما وصل الى ينبع على ساحل جزيرة العرب، وكان الحاكم فيها أحد شيوخ العرب، استولى على المدينة بالقوة وبعد أن نهبها قتل الشيخ بسبب كونه كان يفرض اتاوات على الحجاج الذين يجتازون من ايالته نحو مكة، وكان العربان يتذرعون بذلك ليقوموا بسلبهم ولكي يمنعه السلطان من ذلك، اتفق معه على أن يعطيه 12 000 دينار في السنة حتى يترك القوافل تمر، فكان يتظاهر بأنه يتصدق عليهم، لكنه في الواقع كان يستدر الربح من ذلك اذ كان يفرض الضعف على الحجاج وياخذ منهم أموالا كثيرة. فأظهر السلطان في تلك المناسبة انه حريص على الصالح العام وانه، كخليفة وعاهل ديني ساهر على دين محمد، لا بد له من أن يمنع كل اعتداء يلحق بأولئك الذين ياتون لزيارة قبره. فأمر قائده العسكري بأن يمنع تلك الاتاوة، وإذا لم يتمكن من ذلك أن يحتل الميناء حيث

(1) مارك دامارال.

كانت القوافل تدخل وتخرج كل سنة. وبعد ذلك وجه عامر حسين الى السلطان يطلب منه أن يوجه امدادات ليعوض الجنود المتروكين كحامية. ولم ينتظر حتى سار في اتجاه الهند ووصل الى جدة التي كانت تؤدي للسلطان الثلث من الحقوق المفروضة على البضائع الا انها مر عليها سنوات دون أن تؤدي شيئا بدعوى أن البرتغاليين كانوا يعرقلون التجارة، وان القليل الذي كان يجبى كان يستعمل للدفاع عن المدينة. وأراد حسين أن يتقاضى كل الملحقات، لكنه فقد كثيرا من الجنود في العملية مما اضطره الى انتظار النجدات وفي تلك الأثناء قامت فتنة سببها أن حسين كان يأخذ أكبر قسط من الغنائم لنفسه ويحرم الرؤساء الآخرين بدعوى انهم يتقاضون رواتب من السلطان. وأول من ثار كان هم الأتراك الذين كانوا على ظهر سفينة مصطفى الكبيرة، إذ ساقوها الى ديبل ونهبوها. وبعد ذلك بمدة وجه السلطان قانصو امدادا ومالا لمكافأة الجنود على ظهر السفينتين اللتين أتيتاه بالهدايا. وسار الجنرال في طريق الهند وتوقف أربعة أيام في عدن وسار محاذيا لشاطىء كلاياط، وهي مركز كان في حوزة البرتغال. ولم يشأ السكان أن يستقبلوه وقالوا له إن كان يبحث عن البرتغاليين، فعليه أن يذهب الى هرمز لملاقاة أحد قوادهم، وهم يشيرون بكلامهم الى الفونس البوكيرك الذي كان مر من هناك منذ زمن قريب، ولما رأى حسين انه عاجز عن طرد البرتغاليين من الهند، بدون مساعدة ملك كامباي وحاكم ديو[2] اللذين كانا قدما خدماتهما بالحاح الى السلطان. فسار نحو ديو دون أن يتباطأ في كلاياط ولا أن يبحث عن البوكيرك، لأن أوامر السلطان كانت تقضي عليه بالاتصال بذلك الحاكم والأخذ برأيه وبرأي ملك كامباي. وصادف استقبالا حافلا سواء لدى الحاكم أو لدى السكان الذين كانوا ينتظرونه يوما بعد يوم.

الفصل الثالث عشر

معركة بحرية بين البرتغال ومصر ومصرع د. لورانت الميدي

على إثر ذلك، كان ولد «فرانسوا دالميدي»، «دلورانت دالميدي» نائبا عن الملك في «كوا» فانفصل عن الأسطول الذي كان يقوده والده وكان في موسى «شول» مع ثماني سفن حيث كان يوجه مركبين من «كوشيم» مشحونين بالتوابل.

(2) ملك العز.

وكذلك علم بأن السلطان كان متجها في تلك الطريق وتأكد الخبر يوما بعد يوم فوجه يطلب من المركبين أن يسرعا في شحن حمولتهما وأن يكونا على استعداد لمواجهة الأحداث. ولما حل موعد سفرهما عشية يوم السبت، وكان هو يقوم بتدريبات على الشاطىء مع بعض القادة، وكانت السفن تركت ركابها في الأرض، أتاه النبأ بظهور سفن في أعالي البحر على مصب النهر وقيل له إنها تتجه الى مرفأ آخر في مكان أبعد. وظن في البداية أن الأمر يتعلق بسفن البوكيرك. لكنه لما شاهد كاليرات مختلطة مع بعضها لم يشك في انها سفن السلطان.

عندئذ، عاد كل واحد الى مركبه ليستعد لملاقاته. وأمر الكَاليرين أن تظل على حالها كما كانت بسكانها صوب الأرض، وجعل المراكب الصغيرة حولها. وذهب الى عرض البحر وترك بيير باريط في وسط النهر وكان بينهما من البعد ما يمكن تسرب أسطول السلطان فيما بينهما وما يحول من منعه من الرسو أمام المدينة إن شاء ذلك.

ودخل أسطول السلطان الى النهر رافعا عددا من البنود والأعلام الحريرية الملونة، والهتافات تتصاعد الى السماء كأن الناس في يوم عيد. وكان يحتوي على أربع سفن كبيرة وكاليون وستة كَاليرات، مع مركب كان يحمل على ظهره سفير ملك كامباي، الذي كان قد ذهب يستنجد بالسلطان ضد البرتغاليين، وكان الأمير حسين في الطليعة على ظهر سفينة من شحنة أربعمائة برميل، وقصده تطويق مركب القائد الأعلى، ووراءه بقية الأسطول، سفينة في اثر سفينة في أحسن نظام لمداهمة سفن العدو، وكانوا قد علموا من جواسيسهم بأن البرتغاليين غير محترزين.

كانت الكَاليرات مختلطة بالسفن، بينما مركب السفير كان خلف المركب الرئيس. وكانت قد طوت أشرعتها وتعرضت بأشرعتها العليا لريح بارد ومر العدو في هذا الترتيب بين السفينتين كما ذكرت وعمد الى مهاجمة سفينة «دم لورانت» التي كانت أكثر استعدادا للملاقاة مما كان يتصور. ذلك ان السفينة صمدت أمام طلقات المدفع وشهب النار والقنابل وغيرها من نيران الحرب، مما جعل حسين لا يجرؤ على القرب منها، برغم كون سفينته أعلى وأكبر. وتقدم الى الأمام فوصل أمام المدينة متبوعا بالآخرين الذين اقتفوا رئيسهم. وكان آخرهم يدفع فلكه من بعيد. فدفعه الموج على أحد جبال مركب باريط حيث وحلت. مما جعل سفينتي باريط ودوم لورانت تحاولان جرها بواسطة مرساتها وجعلها في وسطهما. لكن الأعداء

شاهدوا ذلك فقطعوا الحبل الذي كان يمسكها وتركوها تذهب إلى البحر. وراموا البرتغاليين بالسهام والنبال والنيران حتى أزعجوهم كثيرا. وجاء الليل على إثر ذلك فبدأ التهيؤ لمعركة الغد.

استشار الأمير حسين ربابنته والسفير، وقد لاحظ أن سفنه كانت أكبر من سفن البرتغاليين، لكنها لم تكن في أكبر احتياج الى الماء للابحار، لأنها كانت أوطأ، بينما كانت الكاليرات تدير كوثلها نحو المدينة وسكانها على صفحة الماء تجاه السفن البرتغالية وقريبة منها مما يجعل الانتقال بينهما ممكنا بواسطة ألواح طويلة كان حسين قد وضعها في جنب الكاليرات. ووقف بسفينته تجاه دوم لورانت ليكون درعا واقيا لأصحابه ويكون أول من يقوم بالهجوم وفي تلك الأثناء قرر دوم لورانت مع قادته أن يهاجموا العدو بمجرد ان يبدأ البحر في المد لأن أبناء البلد كانوا قد أنذروه انهم لا يفكرون في الهجوم بقدر ما يفكرون في الدفاع وان غرضهم هو انتظار «ملك عز» الذي سيأتي بأربعين سفينة مجذافية كما وقع الاتفاق على ذلك من قبل وكانت خطة البرتغاليين في المعركة هي أن يحاصر «دوم لورانت» مركب الأمير حسين بينما يحاصر باريط السفينة التالية. بينما يهاجم «كونزال بيريرا» و «انطونيو لوبو» وهما قائدا المركبين الآخرين. وتذهب أفلاكهم الى الخارج للقيام بالنجدة في أي مكان وقع الاحتياج الى ذلك، ويتصدى الكاليران لسفن الأعداء الست، من جانب، بينما يهاجمها القائدان من الجانب الآخر.

وفي الغد كان المد مساعدا، فهجم دوم لورانت بقوة على الأعداء، وأتى الكاليران بفضل التجديف الى حيث مراكب الأعداء الستة، وانقضا عليها بشراسة حتى طردا من كان فيها وصارا يتبعانهم من مركب الى آخر مما أثار في نفوسهم الفزع فصار البعض منهم يرتمي الى البحر والبعض الآخر يفر الى البر. أما دوم لورانت وبيير باريط فوجه مركبيهما الى الأعداء فوحلا في الرمال. وذلك أن الأمير حسين كان يستعمل حبالا طويلة، فربط سفنه بالحبال ليتمكن من جرها والانزواء نحو مصاطب الرمل، حيث لا يمكن للأعداء أن يتبعوهم، إذ بسبب تناقص الماء يستحيل عليهم أن يحاذوه. واتضح لدوم لورانت أن المعركة لا يمكن حسمها الا بالمدفع، فأمر باطلاق المدافع، فأتاه الرد بدوي قوي. وقتل عدد من شجعان الرجال دون أن تتاح لهم الفرصة لاظهار قيمتهم، ومن بينهم شقيق بيير باريت[1]،

وسفير ملك كامباي وهو يؤدي صلاته في مؤخر مركبه، وفيما بعد الزوال سمعت هتافات الفرح في سفن الأعداء وظهر ملك العز بقواربه على طول النهر.

فوجه دوم لورانت، في الحين مراكبه المدورة وكاليراته ليحول دونهم ودون الرسو في الساحل والاتصال بحسين. وتقدم ملك بعزم يدل على انه لم يكن يعرف شراسة المدفع البرتغالي وصار يهجم بصياح عال ويرمي السهام والنبال ويضرب ببعض الأسلحة النارية الصغيرة التي كانت في حوزته. وبما انها كانت قوارب غير مسلحة وكانت تمخر عباب البحر في ازدحام، فقد تمكن المدفع البرتغالي من الفتك بها بحيث انكسرت المجاديف لدى العديد منها ولم يبق في امكان الأخرى أن تتحرك. ولما رأى ملك العز نفسه في تلك الحال، وان الأمير حسين لم يخف لنجدته وكان محاصرا من الأعداء أكثر مما كان يحاصرهم، أمر قواربه بالانحدار الى أسفل نحو مكان البرتغاليين، في الوقت الذي جاء حسين يبحث عنهم. وكانت نيته أن ينتظر وصول الليل ليتصل بهم من الجهة الأخرى من النهر بعيدا عن أنظار البرتغاليين، الا انه أراد أن يعرف الحالة التي كانوا عليها، فوجه اليهم قاربين يسيران بحذاء الشاطىء المسكون لياخذ معلومات عن سفن السلطان، لكنهما تعرضا لمضايقة المدفعية البرتغالية، فاضطر للتوقف جنب الأرض قبل الوصول الى الهدف، حتى يدافعا عن نفسهما بفضل مساعدة بعض الجنود الذين جاءوا لنجدتهم، بحيث لم يستطيعا أن يواصلا سيرهما ولم يتمكن البرتغاليون من مهاجمتها.

ومرت بقية اليوم في اسعاف الجرحى ودفن الأموات في البحر ليلا لاخفاء الخسائر. وأصيب دوم لورانت بسهمين تركا فيه جرحين أحدهما في وجهه كان خطيرا. وبعد العلاج أحس بشيء من الراحة فعقد مجلسه مع القادة لتدبير معركة الغد. وبعد مناقشات طويلة، تقرر انه لا يمكن التظاهر بالدخول في حرب مع عدد كبير من السفن في مكان ضيق، بالاضافة الى كثرة الجرحى والقدر القليل الذي بقي من العتاد. ووجه الأمر الى سفن كوشيم التي كانت في مكان أعلى كي تكون عند الفجر خارج مصب النهر، وكذلك سيفعل القادة لمرافقتهم. فإذا أراد العدو أن يقوم بمطاردتهم فسيكو ن أمامهم حيز أوسع لمواجهته وللاستعانة بأشرعته. الا ان دوم لورانت الذي كان شابا وشجاعا، لم يرض بفضيحة الذهاب ليلا، التي كان يراها كهزيمة مقنعة ووافق فقط على خروج سفن كوشيم الى البحر. وفيما عدا ذلك ترك التدبير عند حلول الوقت. وكان بير باريط وديبكوكام على هذا الرأي.

فأمر بايو دوسوزا ودييكَو بيريز بالذهاب الى تلك السفن وتولى قيادتها لاخراجها من مصب النهر. واستوليا في الطريق على كاليرين للعدو كان أصحابها نائمين فأتيا بهما فرحين الى دوم لورانت. ورفعت سفن كوشيم أشرعتها وكان الريح يهب من الأرض وقبل ساعة من طلوع النهار كانت قد خرجت من النهر وأخذت طريق كوشيم وهي تعتقد ان لورانت سيأتي على اثرها. ولكن الأمر لم يجر على ذلك. فما ان رآهم يذهبون حتى بدأت الشمس تشرق، فأمر المراكب الصغرى بأن ترفع أشرعتها وان تتبعها وأمر بيير باريط بان يخفرهم وبقي هو في المؤخرة مع المركب الرئيس لينظم الانسحاب بأشرعة أقل من الآخرين. وظن ملك العز حينئذ بانه يفر فأطلق الانذار بالصياح في الشواطىء وجاء ليطوقه بما بقي له من قوارب. ولما تقارب العدوان انطلقت المدافع من الجهتين بدوي مختلط بصياح يخلق الذهول. وأول شيء فلته القوارب حينما اقتربت من ألميدي هو أنها أطلقت من مدافعها وابلا من السهام اغتم الجو بسببه، ورغم ان الرد كان قويا وان بعض القوارب حطمت وأخرى عطلت، فان الأعداء كانوا متحمسين الى درجة لم يبالوا بمن يموت من ذويهم. وكان السكان قد وضعوا ثلاث حواجز من الأوتاد في النهر لسد معظمه بغية الاحتفاظ له للصيد. وكان من بينها أوتاد مستقيمة أثبتت في ثقب من نوع حجر الطاحونة وكانت مصطفة في خط متواصل وكانت طويلة حتى ان الماء سواء في المد والجزر كان يثنيها. واذا مرت فوقها سفينة كانت تنثني دون أن تنكسر ودون أن تعوقها عن المرور، ثم تعود فتستقيم من جديد.

كان دوم لورانت يواجه هجوم قوارب الأعداء، تارة من قريب، وطورا من بعيد. ولما رأى كثرة الجرحى في سفينته وفي كالير «سوزا» الذي كان يرشده لأن الريح كان قد هدأ فأراد أن يبتعد واصطدم بأحد الحواجز. وبما ان سفينته وقع فيها ثقب من جراء طلقة مدفعية، قريبا من المقود فإنها وهي تجتاز الحاجز دخل في الثقب أحد الأوتاد عند رجوعه ومن جراء ذلك تسرب الماء الى السفينة وأثقلها فانقلبت على الحاجز ولم يعد في امكان الكَالير انقادها. ونزل الربان في الحين ليرى ما الذي يوقفه فرأى نفسه ينزل الى عمق اليم ويمتلىء من الماء الى درجة لم يعد من الممكن افراغه، فأخبر دوم لورانت بالأمر. الا ان هذا الأخير سرعان ما أصابته ضربة مدفع وانتزعت نصف فخذه. وأتي له بشيء لحمله الى سفينة بيير باريت، لا من أجل انقاذه لأن الضربة كانت قاتلة، ولكن للحيلولة دون وقوع جسده في يد الأعداء. ولم يظهر أي تألم وقال بان جرحه لا يؤلمه بقدر ما يؤلمه رثاء المحيطين به

له، وانه سيعود الى المعركة. وطلب منهم أن يتركوا معه أحدا يمسح جرحه وان يسنده الى صاري السفينة.

ولما استقر هناك في حالة نصف جلوس وكأنه راكع، رفع يده الى السماء وتوسل الى الله أن يقويه على مساعدة رجاله بالصوت، إذ لم يعد قادرا على اسعافهم باليد. وفيما كان يشجع ذويه وهو يتضرع الى الله بكلمات مشحونة بالتقوى وحب الله، أتت طلقة مدفع فأطارت نصفه الأيمن وبذلك انتهت حياته وأسلم روحه لخالقه. وخشية من أن يؤثر المنظر على أصحابه ويقضي على شجاعتهم، فقد ستر في الحين تحت الخشب المركب وكانت السفينة في تلك الأثناء تزيد في النزول داخل الماء. وتسارع الأعداء اليه وأرجعوا على أعقابهم ثلاث مرات وغرق في الأعماق دون أن يمكن انقاده. ولم يبق من رجاله الذين كان عددهم مائة وثلاثين الا تسعة عشر أخذوا في الحين كأسرى. وأخيرا، إذ اعتبرنا مجموع الأسطول، فانه لم يمت الا مائة وأربعون يضاف اليهم مائة وأربعة وعشرون من الجرحى. لكن عدد الخسائر كان أكبر من جهة الأعداء. وتوقف الأعداء هنالك لبضعة أيام بقصد معالجة الجرحى، وبنوا تابوتا لسفير ملك كامباي، وبعد ذلك انسحبوا دون أن يتمكنوا من العثور على جسم الميد.

الفصل الرابع عشر

كيف ذهب دوم فرنسوا دالميد لمهاجمة الأعداء لما علم بموته

لما علم دوم فرانسوا دالميد الذي كان بكوشيم بخبر الحادث، دون أن يتأكد من وفاة ابنه أو بقائه على قيد الحياة وجه برهمان (وهو أحد الكهنة عند الوثنيين) الى مملكة كامباي ليستعلم من أولئك الذين وقعوا في أسر الأعداء. والتقى بهم البرهمان بين ديو وكامبانيل التي هي عاصمة مملكة كامباي، حيث وجههم ملك غز الى ملكه. ولما علم بجلية الخبر رجع الى كوشيم وهو يحمل النبأ المفزع. لكن ملك عز كان قد سبق للكتابة الى دوم فرانسوا إذ وجه له رسالة تهنئة على ما أصابه من ثكل، بحيث وجه كل أفكاره الى الانتقام تجاوبا مع الحب الأبوي الذي يحرك كثيرا من العواطف في النفوس. فقرر في أجل ذلك أن يذهب للبحث عن جيش للسلطان البحري الذي تعزز بقوات جديدة انضافت الى الأعداء. وبينما كان يتهيأ لهذا المشروع إذا بالنبأ يأتيه بوجود الأسطول البرتغالي في الموزمبيق حيث قضى فصل الشتاء، الشيء الذي بعث في نفسه الأمل بتحقيق الانتصار، إذ صار

في امكانه الحصول على عدد أكبر من الجنود. إلا ان الأمر أتاه بالتخلي لالبوكيرك عن ولاية الهند وبالعودة الى البرتغال. ومع ذلك، فإنه عندما قدمت له الوثائق، ارجأ عملية الاستعفاء الى العودة للبرتغال، وكان مستعدا لمشروع ديو، وطلب من الفونسو البوكيرك أن يستريح فترة من الزمان في كنانور أو أن يذهب الى كوشيم، لأن الفصل كان متقدما بالنسبة لبضاعة السفن، وبمجرد احرازه النصر على أعدائه الذين قتلوا ابنه، سيرجع لتنفيد ما أمره صاحب الجلالة القيام به. وجرى كلام بين القائدين في هاته المناسبة ودون أن يعتبر ما قاله البوكريك من كونه سيذهب شخصيا لطرد الأعداء من الهند، فإنه صمم أن يقوم هو بنفسه بهذا العمل، وان لا يترك أخذ تاره في ولده لغيره، وكان السيف في يده وهو يتحدث. وفارقة الفونسو البوكيرك إثر ذلك وذهب الى كوشيم. وترك دوم فرانسوا ما يكفي من الحراسة في حصن «كنانور» وعقد الصلح مع ملك نارفينك الذي كان وثنيا وعدوا للمسلمين، ثم ذهب في طريق ديو(1) بحثا عن أسطول السلطان.

والتحق به «بيير باريط دو موكَاليان» و «فرانسوا دوطافورا» الذي قدم من هرمز. فكان لديه تسع عشرة سفينة شراعية منها ست ضخام وست مدورة وخمسة اعربة وكَاليران ملكيان وسفينة ذات صاريين يحمل اثنى عشر مائة من البحارة والمحاربين وأربعمائة من الرجال الأشداء.

وذهب الى جزيرة «انشديف» حيث أنزل جنوده وضباطه ليحدثهم عن مشروعه. وبعد ان صففهم بطريقة تجعلهم يسمعونه كلهم قال لهم :

«شيئان يشغلان قلبي منذ مقتل ولدي، كلاهما يشاركني فيهما كل ذي الفضل من الناس. أولهما انني عما قريب سألتحق به، وثانيهما اني سأسترجع شرفي الذي اغتصب مني بفقده. فيما يتعلق بالشيء الأول، أنا على استعداد للموت، ان كانت تلك مشيئة الله، وان اقتدي بمثاله فاموت من أجل ديني وملكي ووطني، وهو مطمح كل من يتسم بالفضيلة. فبالأول نحصل على المجد الخالد، وبالثاني على الشرف والمتاع .وبالثالث على طيب الذكر، لأنّ بلادنا ستحتفي بمجدنا الى نهاية العالم. ولكي أقول الحق، فأنا لست مطالبا باسترجاع شرفي لأني لم أضيعه. بالعكس، ان لي نصيبا كريسكم في الشرف الذي حصلتم عليه في هاته الديار والسيف في يدكم. ولكن إذا اعتبرنا واجبنا نحو منقذنا الذي تتبع تعاليمه، ونحو التاج البرتغالي الذي نحن من رعاياه، فنحن ملزمون بالانتقام مما لحقهم من اعتداء، وأنا

(1) 1508

خجلان من الوقت الذي أضعته دون الهجوم على أولئك الكفار، الخاضعين لسلطة السلطان والطامعين في الوعود التي بذلت لهم من النبي نادى عليهم والذين يتجرأون على نشر هلالهم تجاه صليبنا وذكر اسم محمد أمام اسم عيسى. لقد نال وطننا شهوة في العالم بحبه للدين الذي قام يدافع عنه، وبخدمة أميو كما يدل على ذلك ما قمنا به في اوروبا وافريقيا وآسيا، حيث حصلنا على انتصارات عظيمة. وهكذا، فرغم أن الكفار يفتخرون بمقتل ولدي، فليس ذلك راجعا الى بطولاتهم ولكن الى المصيبة التي تعرفونها كلكم، أو بالأحرى، الى ذنوبي وما دامت ذنوبي هي سبب موته، فإن شجاعتي هي التي ستأخذ بثأره. فما أسعده من خطا كان سببا في جمع هذا العدد الكبير من الفضلاء لمحوه. فأنا أقرأ في عيونكم الرغبة النبيلة من أجل الذهاب للحرب تعظيما لله ودفاعا عن شرف الملك تجاه هؤلاء الكفار، ولإراقة دماء اولئك الذين أراقوا دمكم ودم أقاربكم وأصدقائكم. والله يشهد انني لم أتأخر للقيام بهذا العمل الا مخافة أن يقال ان حزني على ولدي هو الدي دفعني الى حب الانتقام الأعمى، واني لم آخذ كل الاستعدادت اللازمة لمثل هذا الأمر العظيم، واني أريد أن أضحي في سبيل لوعتي الشخصية

«ولكي أتجنب سمعة الأب المبالغ في الحزن، صارت لي سمعة القائد المتهاون. وبما أن الأمر يعني الشرف، فقد اتخذت كل الاحتياطات وانتظرت الجنود من البرتغال وكذلك السفن والأسلحة والعتاد ورغم ان عناية الله كافية كسلاح لمن يتبع أمو، فان ضعفنا البشري يخشى العار حينما يكون الأمر متعلقا بالشرف. وقد تركت الأمر سريا الى هاته الساعة بالنسبة للمشروع الذي سنقوم بانجازه، والذي بالاضافة الى عون السماء، سنجد رهن اشارتنا سفنا وعتادا، ونجد بمعيتنا هذا الجمع من النبلاء الذي ترون والذي قدم علينا مؤخرا من البرتغال، والذي يظهر حماسا كبيرا في محو اسم «الرومي» من الهند، ذلك الاسم الذي يسبنا به المسلمين والوثنيون. وأول شيء سنقوم به هو الهجوم على مدينة ديبل التي تسبب سيدها في خراب الحصن الذي كان لدينا هاهنا، واستقلم جنود السلطان وأسكنهم في مراسيه. وفي هذا المكان أريد من هؤلاء الشبان الشجعان أن يظهروا بسالتهم وان يغمسوا سيوفهم في دم كفار آسيا، بعد ان أتموا تعليمهم في دماء كفار افريقيا. وإود كثيرا أن نهجم على كوا التي ليست بعيدة من ها هنا، ولكنها توجد داخل البلاد، والنهر ليس قريبا من سفننا، ولذلك فان ديبل أسهل في الهجوم، وقربها من الأعداء يجعلهم يحسون بمرارة انتصارنا عليهم أكثر فأكثر، وحينما

نأخذ ثأرنا من الأجانب الذي سنذهب للبحث عنهم، حينذاك يتيسر لنا أن ننتقم من أبناء البلد».

وقوبلت الخطبة بالهتاف الكثير، مما جعل الأمل يعظم في نفس دوم فرانسوا دالميدي في الحصول على نصر كبير. وبعد ذلكساير الشاطىء الى ديبل. ورغم ان الموضوع لا يدخل في اهتمامنا، فمن الضروري ان نرى انتصاره على جيش السلطان، بالاضافة الى كون ذلك سيكون بمثابة زخرفة لتاريخنا.

الفصل الخامس عشر
استيلاء دوم فرانسوا دالميدي على مدينة ديبل

كانت مدينة ديبل احدى كبريات المدن في الهند، سواء من حيث التجارة أو الحضارة أو جمال العمران. توجد على نهر قابل للملاحة على بعد فرسخين من البحر. ويقطن بها الوثنيون والمسلمون. وتمتد إيالتها الى قريب من دكان، وكانت منتجعا رئيسيا للتجار سواء منهم القادمون من البحر أو من البر. وكان ملك دكان[1] هو المسيطر عليها في الغالب فيضع فيها حامية كبيرة.

ولما أتاه النبأ بسير الأسطول البرتغالي على طول ذلك الساحل، وضع فيها ستة آلاف من الجنود وحصنها من الأعمدة المدعمة من الوراء بتراب الخندق، وهو أحسن من سور الحجر للوقاية من ضربات المدفعية. ومن الجهة الأخرى من النهر التي تنظر الى الجنوب، لأن المدينة في الشمال، كان هنالك طريق واسع من منعطف من الأرض وضعت فيه بعض قطع المدفعية. وأمر الأمير باخلاء كل البيوت الواقعة في واجهة البحر حتى تتصرف المدفعية بكامل حريتها. وحينما علم بأن الأسطول البرتغالي كان على وشك الدخول في النهر، صفف سفنه قرب الشاطىء في نظام محكم حتى صارت كأنها طريق متصل إذ كان من السهل الانتقال من واحدة الى أخرى. وقرر أن يتخذ منها سورا آخر إذا وقع الاستيلاء على الطريق الواسع.

وكان واثقا من نفسه الى درجة أنه منع بعض التجار المتخوفين من نقل بضائعهم من المخازن وهددهم بالقتل. وليظهر اطمئنانه دعا امرأته من البيت الذي كانت فيه وأمر نساء الأعيان أن يأتين مثلها قائلا لهم بانه دعاهن ليتفرجن على

(1) صباي.

نساء الأفرنج، وهو الاسم الذي كان يطلق هنالك على النصارى، وهكذا جاء كل النسوان مسرعات وكأنهن في احتفال.

لم يكن الميد علي علم بذلك، إذ وصل الى مصب النهر، دون أن يدخل اليه لأن الوقت كان متأخرا. وفي الغد أصدر الأمر الى بيير باريط، وكان الريح والمد مواتيا مع الصباح، أن يذهب بالسفن التي كانت تحت قيادته ليقف جنب سفن الأعداء الموجودة بالمرسى، وتبعه مع بقية الأسطول بعد ان أمر قادة السفن بأن لا يتركوا فيها عند الوصول أما المرسى، الا البحارة، وأن يركبوا الآخرين في القوارب والأفلاك وأن يتبعوا سفينته الحاملة للعلم الأكبر ولا ينزلوا الى الأرض الا بعد نزوله. وكانت قد وصلته معلومات عن وجود عمق كاف في المرسى للنزول الى الأرض وعن سهولة الرسو جنب الأرض. وبعد ان قطع ممر النهر دون ما كان يتصور من خطر، ولم تكن السفن قد أنهت رسوها بعد أمام المدينة، كانت القوارب ملأى من رجال الحرب الذين كانوا يتعاركون فيما بينهم على من يكون أسبق للنزول، دون مراعاة الأوامر الصادرة اليهم.

وكان أول الذين خرجوا من مركب الجنرال هما «فرناندو بيريز داندراد» و «فرناندو كوميز شيدينيور». وبعد أن تقدموا في الأرض الفاصلة بين الشور والبحر، وصلوا الى السور، دون أن يتضرروا من المدفعية التي كانت قذائفها تمر فوق رؤوسهم، وحاولوا أن يدخلوا من ثلاث فتحات تركها الأعداء للخروج الى الشط، فاستقبلتهم فيالق وجرت معركة ضارية، لأن مكان القتال كان ضيقا.

ولما رأى الميدى ان كل واحد كان يريد ان يسبق الآخر، وجه فريقا منهم للهجوم من جهة أخرى، الشيء الذي ترك حرية كبيرة للمحاربين في ذلك المكان، حيث كان الأعداء يتقوون ساعة بعد ساعة، وكان بيير باريط آنئاك في جهة أخرى من المدينة حيث كان في عراك مع المكلفين بحراسة السفن. ولكن النصارى قاموا، في الأخير بهجوم قوي اضطر الأعداء للتراجع نحو مسجد كان يوجد وسط المدينة، وكان النصارى أحرزو النصر فصاروا يجرون في الطرق واستولوا على المدينة بعد ان قتلوا أزيد من ألف وخمسمائة رجل، أكثرهم كانوا من السكان. ذلك أن المحاربين الذين كانوا بها فروا الى الجبال، ولم يمت الا ستة عشر من البرتغاليين، لكن هنالك أكثر من مائتي جريح واستمرت المعركة من العاشق صباحا الى الثالثة بعد الزوال، وبعد حصول الانتصار دخل نائب الملك الى المسجد ونام كل واحد في الخارج.

وفي صباح الغد، بدأ نهب المدينة واحراقها في نفس الوقت وكان الحريق مهولا حتى أتى على كل شيء في بضع ساعات. بحيث لم تكن هنالك غنائم كثيرة باستثناء مخزنين على جنب البحر كان فيهما أكثر من مائة وخمسين الف دوكا من البضائع. وهنالك من يعتقد أن نائب الملك هو الذي تعمد اضرام النار في المدينة حتى يحول دون انشغال الجنود بجمع الغنائم ويغتنم الأعداء الفرصة فينقضوا عليهم من أعالي الجبال وأضرمت النار كذلك في السفن التي احترقت في لمح البصر، وكانت مخاطرة بالنسبة للبرتغاليين المشتتين في البيوت وسفنهم التي كانت قريبة من الأرض.

الفصل السادس عشر

الهجوم على مدينة ديو وما جرى في الطريق اليها

لم يفكر البرتغاليون في العواقب وهم يضرمون النار في مدينة ديبل قبل أن يحتاطوا في جمع الأقوات التي كانت موجودة فيها بكثرة والتي كانت السفن في حاجة اليها. وعبثا حاول دوم فرانسوا أن يجد شيئا وهو يساير النهر لأن الجراد كان قد أتى على كل الحبوب وكل المحصولات، في هاته السنة. وهو شيء مألوف في تلك البلاد، ولما رأى خلاء المكان، ذهب نحو «بسام» في خليج كامباي حيث بنى البرتغاليون منذ ذلك العهد حصنا، وبينما هم يواصلون طريقهم نحو الشرق لاحظ قبطان(1) احدى الكاليرات وهو يساير الشط في مصب الوادي قطعانا ترعى في الجنبات، فنزل وأخذ معه بعض الجنود ليستولي عليها. فسقط البعض من رجاله قتلى وكأن أناسا كانوا في مكمن يترقبونهم. فاضطر القبطان والباقي من رجاله أن ينسحبوا بسرعة، ولما تقدم الكالير في طريقه، تحت قيادة دييك مانديز صادفت حظاً أحسن وهي تلوى مع أحد الرؤوس. فقد التقت بمركب لملك عز كان ذاهبا من ديو الى ديبل وعلى ظهره أحد أعيان الأتراك كان ذاهبا لزيارة ملك كامباي، أحد أقاربه ومعه سبعة وعشرون من الأتراك كلهم شجعان ومنظمون أحسن تنظيم.

ولما رأى هؤلاء أن لا مفر من القتال، انبطحوا على بطونهم بحيث لم يكن يظهر الا الجذافون، وانتظروا ما سيحدث وهم في تلك الحال. ووصل دوم دييكو مانديز في تلك الآونة وكان حرف الكالير قد مر من فوق، واذا بالأتراك يقومون بغتة ويرفعون صيحات كبيرة على عاداتهم ويبادرون للدخول الى الكاليرة وتقدموا

(1) بايودوسوزا.

الى الصاري وكادوا يسيطرون عليه لأنهم فاجأوا البرتغاليين. ولكن هؤلاء استرجعوا هدوءهم فردوهم بقوة وبعد ان هزموهم كلهم أخذوا مركبهم. وجرح الكثير منهم في تلك المعركة ومن بينهم قائد جذافي الكاليرة الذي فقد عينه. وأحسن غنيمة كانت هي هنغارية جميلة جدا قدمت لنائب الملك الذي أعطاها لأحد رجاله ومنه انتقلت الى دييكو بيرايرا الذي تزوجها بعد ان ولدت له أولاداً.

ولنعد الى ما كنا بصدده. فقد دخل الجيش البحري في نهر[2] على بعد اثني عشر فرسخا من بسام، وفي ظنه أنه سيصادف الزاد هنالك. وفي المصب وقع الاستيلاء على فلك كان يحمل أربعة وعشرين من الوثنيين الكجراتيين الذي أخبروا نائب الملك بأنه يستطيع أن يحصل على التموين من حاكم بومباي مقابل المال. ويوجد على ضفة نهر يحمل نفس الاسم. وهكذا وجه في طلب ذلك على يد مبعوثين فيهم ثلاثة ضباط بسفن صغيرة للحصول على الأقوات دون الحاق الضرر بالبلاد الخاضعة لملك كامباي فجمعوا بعض القطعان، وقبل أن يعودوا الى الأسطول، وجه اليهم الحاكم اثنى عشر حملا من الأرز وما يعادل ذلك من الخرفان معتذرا بأنه لا يستطيع أن يعطي أكثر نظرا لبؤس المنطقة التي كانت معرضة لغارات الجزاد. وشكره نائب الملك وواصل طريقه الى أن بلغ «مايم» حيث كانت توجد قلعة مهجورة. ولكنهم وجدوا فيها قدرا من الأرز كان السكان أخفوه في اقباء. فوزعوه على السفن.

ووصلوا الى ديو في اليوم الثالث عشر من خروجهم من ديبل، وأرسوا ذات صباح بعيدا من المرفأ بسبب غيم كان يغطي النهر.

الفصل السابع عشر

هزيمة أسطول الأعداء في ديو ووصف المكان

توجد مدينة ديو على مرتفع نجد مجاور للشاطىء، وهي محاطة بأسوار تتخللها أبراج. وبناؤها من الحجر المكسو بالجير على طريقة أوربا مما يجعل منظرها جميلا ويذكر البرتغاليين ببلادهم لأنهم لم يروا ما يشبهها على ساحل ملابار ولم يكن ملك العز آنذاك في المدينة لأنه كان في حرب على بعد عشرين ميلا من هنالك. ولكن كانت له ستة قوارب في البحر ورقاصون في البر كانوا يخبرونه كل يوم بانباء

(2) بومبايم.

الأسطول بحيث رجع الى المدينة في نفس اليوم الذي وصل اليها النصارى. وعند وصوله وجد أمير حسين يحاول جر سفينة من ستمائة برميل، بعيدا من دكة صخرية كانت في مدخل المدينة. ويعمل على وضع أخرى قريبا منها لتحمى مراكبه وكاليراته وقواربه وغيرها من سفن ملك قاليقوت التي جاءت لنجدته وإقفال مدخل المرسى أمام العدو.

وكانت سفينة ملك العز هذه مزودة بمقدار كبير من المدفعية وبدرابيز وجسور من الجبال. كما كانت مغطاة بجلود البقر النيئة في أماكن مختلفة ومبللة ضد النيران. وكانت أرباع الكوثل والجؤجؤ موزعة على فرق ومشحونة بعدد كبير من الرماة. وكل واحد منهم يحمل جرابا مملوءا بالسهام كافية له ولجاره. ذلك أن أمير حسين كان رجلا شجاعا وملك العز أميرا مطاعا. بحيث انهما هيئا كل ما كان ضروريا للدفاع عن المدينة وعن الأسطول. وعلى فرض دخول أسطول البرتغاليين الى النهر، فما كان انتصارهم ليتم بسهولة. الا ان ملك العز، الذي لم يكن يريد أن يستعمل مركبه كحاجز أمام المراكب الأخرى، لم يشأ أن يبقى هنالك وقال انه ليس من الضروري وضع مراكب في مصب النهر، لأن الربابنة البرتغاليين لا يعرفون شيئا عن المرسى وسفنهم كبيرة، فلن يجرؤوا على الدخول. وهذا ما عرفه من الاسارى.

فقرروا حينئذ أن يقفوا جنب البر، محتمين بالمدافع التي تستصلح كوقاية للمرسى، وجعلوا الى جنب كل مركب كبير قاربا أو كاليرة، متخذين عمارة من كل الغربان وأخرى من مراكب ملك قاليقوت لتدور حول الأسطول وتهاجمه من كل جهة حينما صل الى المدخل ورغم ان آلميدى كان يعرف تصميم المدينة نظريا وكذلك مدخل المرسى بالاستناد الى ما سمعه من روايات أخذها عن أهل البلد ووضع على أساسها خطة الهجوم، فقد غير كثيرا مما تراءى له في الأول بعد ان عرف المكان بنفسه، فلم تكن في المدينة آنذاك إلا الاستحكامات والتحصينات التي أقامها ملك العز، ومن جاء بعده. ومع ذلك فقد ظل مهتما من التأكد من طبيعة المكان ومن مراقبة الأوامر التي أصدرها من أجل الدفاع. ذلك أن النهر الذي يحيط بالمكان الذي بنيت فيه المدينة يوجد به صخرة في المدخل، حيث تنقسم الى شطرين. والقنال الموجود، من جهة الشمال، المحاذى للمدينة والذي تدخل منه، عادة، المراكب الكبرى، كان عميقا، ولكن كان أخطرها لوجود صخرة وعرة به.

لكن جهة الجنوب كانت ملأى بمصاطب من الرمل، بحيث لم تكن نصلح الا للسفن المجذافية، وفي هذا المكان بالذات حشد ملك العز المماليك لأنه كان يثق بهم كثيرا، ولما عرف نائب الملك شكل الموقع ومدخل النهر وتعبئة الأعداء الذين كانوا في انتظاره بأكثر من مائتي سفينة ما بين كبيرة وصغيرة، عقد مجلسه، برغم كونه سبق أن أصدر الأوامر ووزع عماراته وفي هذا المجلس تقرر أن لا يدخل مركبه هو الأول. ووضع في الطليعة «فاس بيريرا» وهو قبطان، قائد لسفينة من حمولة ثلاثمائة برميل وكان معه عدد من النبلاء. وتتلو سفينته سفينة «جورج ميلو» مع مائة وعشرين من المقاتلين، وهاته السفينة كانت مصحوبة بسفينة لنقل الخيول وياتي بعده «فرانسوا دو طافورا» في سفينة كبيرة ثم «صوفا» على ظهر مركب صغير لحمل الخيل متبوعا ببقية الأسطول. وكل هاته السفن كانت مزودة أحسن تزويد بالجنود والعتاد والأسلحة، وكان النبلاء موجودين في كل مكان. والجنود يؤدون صلواتهم ودعواتهم ويضعون أرواحهم في مشيئة الله ولو كانوا عازمين على الموت وكان لهم أمل محقق في الحصول على النصر.

وفي هذا الترتيب دخل المركب الأول بمساعدة دليل كجراتي كان عارفا معرفة جيذة بالمدخل حينما كان يقع المد بين الساعة التاسعة والعاشرة من الصباح، ولم يكن يلوح عليها من الأشرعة الا العليا و «الميزين» مع الرايات المنشورة يصحبها دوي كبير من الأبواق والطبول والآلات العسكرية مما جعل الشعور يسود بأن الهواء يشق وأن أكثر الناس جبنا أصبحوا شديدي الرغبة في الانتقام من الكفار وأجابت الغربان ومراكب ملك قاليقوت على ذلك بصيحات عالية على طريقتهم ودلوا مجاذيفهم وصاروا يتقدمون نحو سفينة فاس وهم يظنون أنهم سيعترضون طريقه في مدخل النهر ويقذفونه بواسطة آلة تجاه السفينة وتجاه كاليرة كانت ترشقها بقدر كبير من السهام حتى ان الجو تلبد بكثرتها. وهذا السيل الوابل من السهام قتل عشرة رجال كانوا في الكاليرة وجرح منهم عددا مماثلا مما جعلها عاجزة عن ارشاد السفينة.

الا ان «فاس» لم يحفل بذلك ولم يعر التفاتا لأولئك الناجحين الصغار وتقدم نحو سفينة كبيرة لأمير حسين الذي كان هنالك مع سفينة أخرى لملك العز لكي يقوم كحاجز لحماية الآخرين ودخل بين الاثنين ووجه ضربة مدفع لأحدهما فأحدث فيه ثقبا في ملتقى الماء. ولم يفطن الأعداء لذلك بسبب دهشتهم من دوي المدفعية وبعد ذلك غرقت السفينة الى الأعماق.

وأما مركب «ميلو» الذي كان هو الثاني، فقد ظل وراء سفينة «بيير باريت» بسبب خطإٍ من الربان الذي لم يقده قيادة حسنة. وتقدم باريت لنجدة فاس انه أصبح مطوقا من سفينتين ومن المركب الرئيس للسلطان الذي استعمل العقاقيف والكلاليب إما ليقترب منه أو يتأخر عنه حسب ما تدعو اليه الحاجة.

وأصبحوا متصلين اتصالا وثيقا مع سفينة «فاس» حتى إن «باريت» لم يستطع أن يصل اليها وهجم على أقرب مركب اليه ولكن بسبب إهمال ربانه أو غفلته، وجد نفسه بعيدا عن مكانه ومجردا من العتاد، لأن الأعداء حينما شعروا باقترابه وانه يلقي بعقاقيفه دافعوه. وفي هاته الأثناء استطاعت سفينة «جورج دوميلو» أن تتخلص وتتقدم نحو احدى السفن الرئيسية التي كانت في جهة كوثل «فاس» وبما ان ميلو كان مغتاظا من خطإ ربانه، رفع عددا كبيرا من الأشرعة حتى ان قوة الريح قلبت السفينة التي كان يهاجمها على سفينة فاس ودخل أحدهما في الآخر.

وعندئذ تدخل سبستيان دوميراندا الذي كان يقود في ذلك الموقع فهجم على سفينة العدو وصعد اليها واستولى عليها، ولما رأى جورج دوميلو انه لم يفعل شيئا أكثر من تسليم هاته السفينة لصديقه، تقدم نحو أخرى كانت قريبة من هنالك، وتبعته السفن الأخرى في رتل حتى وقع التقاء الجميع. وكانت المعركة غير واضحة ودامية. وحتى لا يحصل نائب الملك في مؤخرة السفن المحاربة فانه دخل بين غربان ملك العز التي انسحبت نحو البر لأن مدفعيتنا أغرقت البعض منها. ولكنها لم تتوقف عن القتال ورمته بوابل من السهام لتغطية الآخرين وقتلت له أو جرحت عددا من الجنود. ولما رأت سفن قاليقوت عادت خاسرة، لم تشأن أن تنتظر نهاية المعركة واتجهت نحو البحر ووجهت أشرعتها نحو قاليقوت ونشرت في كل مكان الاشاعة بأن جيش البرتغال البحري وقعت هزيمته.

ورأى أمير حسين بأن سفينته مهاجمة من كل مكان وان ملك العز منهمك في إحصاء الضربات، بينما ظلت عربانه منزوية، وبما انه أصيب بجرح بالاضافة الى ذلك ومات أكثر رجاله، اختفى في سفينة صغيرة كانت معدة هنالك، ونزل الى البر وركب فرسا وانسحب الى «كامباي» حيث كان يوجد الملك، دون أن يقول شيئا لملك العز... ومع ذلك ظل رجاله يحاربون بشجاعة الى ان هاجمهم «سافورا» و «صوفا» وقتلوا كل المماليك الذين كانوا موجودين هنالك وحاول «مارتين كوسيلو» مرارا أن يهجم على سفينة ملك العز. ولكن، بما انها

كانت عبارة عن برج بالقياس الى سفينته فقد خرج من المحاولة في حالة سيئة هو وغيره ممن قاموا بنفس المحاولة ذلك أن سفينة العدو كانت مشحونة بعدد كبير من الجنود وبقدر مهم من الأسلحة النارية، فاستقر العزم على اغراقه بقذف المدفعية. وتحول صوفا الى أحد جنبيه وتمكن من أن يقضي عليه، في النهاية بواسطة قطعة كانوا يلقبونها الجمل بعد ان أفرغ عليها كل ما لديه من رصاص.

وسر انطوان دو كامبو غاية السرور حتى انه استولى على غليون دون أن يتكبد في العملية الا خمسة من الجرحى. ولما وصل «سواريس» الذي كان هو الأخير الى النهر، مر أمام الآخرين كلهم وذهب ليقف أمام المدينة بكل ثقة في النفس، وما ان قام بجولتين حتى استولى على كاليرتين للعدو بعد ان فر كل من فيهما الى البر، وأخيرا، برهن الجميع على شجاعتهم في المعركة التي كللت بالانتصار.

ولما رأى نائب الملك بان لم يبق ما يصنع من جهة البحر، غادر مكانه الذي لم يكن مريحا بسبب مدفعية الشاطىء وانسحب الى سفنه. ومات ستة وثلاثون برتغاليين في المعركة على إثر جروحهم، ومن بينهم : «نونيو فاس بيريرا»، الذي أصابه سهم في حلقه وأرداه قتيلا، دون أن يفوته شرف القيام بواجبه كجندي وكقبطان، و «بيرو كام»، قائد سفينة خفيفة، و «وفرانسوا دو نارفييس» و «ماشادو» مع ولدين لمانويل بيفانيا وعدد من النبلاء الذين كان أكثرهم بسفينة فاس. وكان هنالك، أيضا، ثلاثمائة من الجرحى.

لكن الأعداء فقدوا من جهتهم ألفا وخمسمائة رجل من بينهم أربعمائة من المماليك. وبعد القيام بنهب السفن واحراقها، باستثناء أربع منها وكاليرتين، وقع التعرف على الغنيمة التي كانت كبيرة، وكان الشيء الذي سر له نائب الملك أكثر هو أعلام السلطان وأعلام الامير حسين التي كان فيها شعاره وحملت الى البرتغال ووضعت في دير طومار الدي هو تابع لرهبانية المسيح، حيث ستظل شهادة خالدة عن ذلك الانتصار. وكان لهذا الفوز أثره في تأمين الملاحة بالهند واخذ فيه الثأر من مصرع دوم_لورانت دالميدي، وأجبر ملك العز على تسليم قبطانين الى المنتصر، وكان قد أسرهما إثر هزيمة ديبل. وأصبح لا مناص له من الخضوع. وبعد ذلك، غادر دوم فرانسوا دالميدي الى كوشيم حيث استقبل بمظاهر الابتهاج والفرح. ولكن، بما أننا تحدثنا كثيرا عن مغامراته، فالقارىء سيسر بمعرفة خاتمته المحزنة.

مقتل فرانسوا دالميدي وعدد من القبطانات البرتغاليين على يد الزنوج في الساحل الافريقي

ما ان عاد آلميدي الى كوشيم، إثر هذا الانتصار، حتى ترك حكومة الهند في يد ألفونسو دالبوكيرك، حسب تعاليم الملك وعاد الى البرتغال على ثلاث سفن مع عدد من النبلاء من أقاربه وأصدقائه وغيرهم من الذين أنهوا مدة خدمتهم. وبعد ان مر من الموزمبيق ومن هنالك الى رأس الرجاء الصالح في طقس جيد، أراد أن يتزود بالماء في حوض سالضينيو لأن السفن كانت قد استنفدت ماءها وكان لا بد من اطفاء عطش الجنود. فأذن لهم بالنزول الى البر وبالتبادل مع الزنوج الذين تهافتوا نحو الشاطىء. وبما أن هؤلاء المتوحشين بينوا في البداية كثيرا من الصدق، فقد ذهب معهم عشرة أو إثنا عشر من البرتغاليين الى قريتهم. ولكن، يا ليتهم ما صاروا معهم، لأن الزنوج أخذوا منهم بعض الخناجر وكل ما رأوه صالحا لهم. وحاول أحد رجال نائب الملك أن يجذب منهم اثنين الى الشاطىء ويتخذ منهما عبدين، ففطنا لحيلته ولم يريدوا أن يصعدوا الى السفن. ولكن، بما أنه حاول أن يستعمل معهم العنف، نزع أولئك الزنوج أطمارهم ونزلوا عليه بلكمات حتى هشموا أسنانه وكسروا أنفه، وطردوه على تلك الحالة وما ان تقدم أمام نائب الملك على تلك الصورة حتى عادت الى هذا الأخير نخوة الشباب فقرر أن ينتقم له وعزم على النزول الى البر برغم تحذير العقلاء من دائرته، وعدم اقتناعه هو نفسه بما يعمل. وكان مسكن الزنوج بعيدا من المكان الذي كانت فيه السفن راسية، مما جعل نائب الملك يركب في زوارق سريعة مع مائة وخمسين من الرجال مختارين من أفضل من كان هنالك. وسار محاذيا للشاطىء الى أن وصل الى مكان أنزل فيه الجنود، وترك الزوارق تحت حراسة ربانه مع الأمر أن لا يذهب الا بعد أن يعود إليه، وعندما وصل الى مسكن الزنوج، قتل فرناند بيريرا في المدخل. وقام الجنود بنهب القرية، وجمعوا الأبقار مع الأطفال بينما فر الآخرون، ثم بدأ البرتغاليون يتراجعون. ولكن الزنوج الذين كانوا يرونهم من أعلى الجبل، وهم يذهبون بأولادهم وقطعانهم، انقضوا عليهم بكل قوة لانقاذهم. مما جعل لوران دوبريت يدلي برأيه الذي هو أن يترك الأولاد يرجعون اليهم، وهذا ما فعله البعض. ولكن الزنوج كانوا قد وصلوا الى حالة من الغضب حتى تجاوزوا الحد، وعلى طريقتهم المعهودة، بدأوا

يطلقون صفيرهم ليجتذبوا البهائهم للمكان الذي كانوا يريدون. ووقفوا وسط دوابهم وكأنهم داخل حصن وبدأوا يقذفون من هنالك قضبانا حددت رؤوسها بالنار. فجرحوا البعض بذلك. وداسوا بطون آخرين بواسطة دوابهم.

وبما ان البرتغاليين لم يكونوا حملوا معهم أسلحة دفاعية ولم يكن لديهم للهجوم الا رمح وسيف، لم يكن في مستطاعهم أن يضايقوا الزنوج كثيرا. بينما كان هؤلاء من وراء بهائمهم يقذفون بقذائف من حين لآخر كانت تطيح بهم الى الأرض. ومما زاد في الطين بلة أن البرتغاليين لما وصلوا الى المكان الذي تركوا فيه الزوارق وجدوا انها غادرت المكان بسبب عاصفة طارئة، بحيث ظهر الهلاك في الوقت الذي كان الأمل يحدوهم بالنجاة. فقد كانوا يكسرون أرجلهم وهم يسيرون على طول الشاطىء ويوحلون في الرمال الرقيقة، بحيث لم يكونوا يتقدمون، بينما العدو، بالعكس، كان يطير حواليهم ويقتل أشرافهم الذين كانوا يوجدون بالمؤخرة مع نائب الملك، وذلك أن الجنود العاديين تقدموا هم الأولون. ولما وصلوا الى البحر، كان عدد كبير منهم مصابا بجروح، ولا يقدر على المشي في اليابسة، فألقوا بنفسهم الى الماء لتجد أرجلهم الراحة دون أن يستطيعوا القيام بنجدة بعضهم البعض.

وحينئذ تقدم جورج دوميلو نحو نائب الملك ورآه متروكا من الجميع ومتعبا وسأله أين أصحابه الذين كانوا يحيطون به في قصره، في حين ان هذا هو المكان والوقت الذي كان ينبغي أن يظهروا له ما يجب عليهم من اخلاص في خدمته. لكن أجاب أن الذي كان لهم عليه دين ظلوا في الخلف وان الوقت لا يسمح بتوجيه اللوم وان كان همه في تلك الساعة هو أن ينقذ راية الملك التي كانت في خطر وأنه فيما يخصه قد بلغ من الكبر عتيا وارتكب من الذنوب ما يجعله يقبل الموت هنالك إذا كانت تلك إرادة الله.

والواقع ان جورج دوميلو قال ذلك لأنه لم يكن راضيا عن نائب الملك لأسباب ترجع الى وقت وجودهم بالهند. وقد مات أشجع وأفضل من كان معه[3] ورافق جورج دوميلو أكثر ما يمكن الراية الملكية ونائب الملك إلى ان قتل هذا الأخير من ضربة رمح قطعت حلقومه. وكان قد أصيب بعلة جراح من جراء الأحجار والقضبان الملتهبة التي قذفت بها. وما ان قتل نائب الملك حتى عاد

(3) بيير باريت، مانويل تليز، لورانت دوريت، كاسباردالميدي الخ...

ديبجوا بيريز الذي كان مربيا لولده[4] وهو يقول : لا سمح الله أن أعيش بعد الأب بعد ان عشت بعد الابن. وقدم نفسه للموت بجانبه. وهاته الواقعة كانت من أشأم الوقائع التي حدثت بعد فتح الهند. ذلك أن الزنوج لم يكن عددهم يتجاوز مائة وسبعين، بينما البرتغاليون كانوا مائة وخمسين من الشجعان المعروفين الذين شاركوا في هذا الفتح. وقتل أكثر من ثلثهم، ومن بينهم اثنا عشر قبطانا ماتوا بضرب العصى والأحجار المقذوفة، لا من لدن أناس محترمين أو شجعان، ولكن من لدن زنوج من أثقل خلق الله وأدناهم اعتبارا في الشاطىء. وفي ذلك عبرة الأحفاد تبين أن الانسان ما دام على قيد الحياة، فهو تحت رحمة القدر. ولا يمكن أن يعد نفسه سعيدا الا بعد الموت.

والذين عاشوا بعد الهزيمة كانوا كلهم من الجرحى. وبعد أن جمع جورج دوميلو شتاتهم وانسحب الزنوج الى مساكنهم وجه للبحث عن جثث الموتى، ووجدت جثة نائب الملك عارية، وبعد ان كفن بما ينبغي من التشريف الممكن في تلك الظروف، دفن في الشاطىء الذي مات فيه، وهو ينطلق في حركته المتهورة، وكذلك كفن غيره من القتلى بما ينبغي من التشريف.

ولنعد الآن الى ما كان يجري في البحر الأحمر. كان الفونس دالبوكيرك نائب الملك في الهند بجوا بأمر من الملك وذلك ليهاجم مدينة عدن، على ظهر عشرين سفينة، ولكنه لم يتمكن من الاستيلاء عليها، لأن المدينة وقع الدفاع عنها بحزم. فتخلى عنها ودخل الى مضيق البحر الأحمر وقضى الشتاء في جزيرة قمران. ويقال ان الجيش البرتغالي شاهد أثناء هذه الحملة صليبا في السماء، فقام بعبادته، وهو أول قائد برتغالي، على ما يقال، وجه تقريره من البحر الأحمر وبحر فارس المشهورين، ولكنهما لم يكونا معروفين. ومن مدينة هرمز، وجه في سنة 1515 فرناند كوميز دو ليموس كسفير الى إسماعيل ملك البرتغال، وكان هذا السفير يقول انه اجتاز ثلاثمائة فرسخ داخل فارس وان تلك البلاد جميلة وغنية من كل شيء، وبالخصوص، من النساء الجميلات اللواتي كان الاسكندر يسميهن بسبب ذلك محنة العيون.

الفصل التاسع عشر
الجيش الآخر للسلطان في البحر الأحمر

لما علم السلطان بهزيمة أسطوله، عزم على ان يبني أسطولا آخر يكون أقوى ليدافع عن حرمته ويؤمن التجارة في البحر الأحمر. ومن أجل ذلك استورد من

(4) دوم لورانت ذالميد.

القاهرة الخشب وكل المواد الضرورية وأخذها الى ميناء السويس. وما ان شاع هذا الخبر حتى قام قرصان من جزيرة ناتالين اسمه الرئيس سليمان والذي كان من الصناع وتحول الى قاطع طريق في البحر، حتى جاء اليه على ظهر غراب يعرض عليه خدمته. وكان يملك ثماني سفن واثنتين احتياطيتين ففر بها من الجزر خوفا من السلطان الأكبر، الذي كان راغبا فيه ويسعى لاخذه.

وكان قد استولى على خمسمائة كاليو مسيحية التي كانت تحت قيادة فيلماران. وهذا ما جعل شهرته تكبر. جاء بعد ذلك الى الاسكندرية وتفاهم مع السلطان الذي عينه قائدا للأسطول بحسث انه أتى اليه في القاهرة ومعه خمسون من أسرى المسيحيين وكاليراتان احتفظ بهما بعد ان تخلى عن بقية سفنه للصوص البحر. وبعد ان قبل يده ذهب الى السويس ليتولى أمر الأسطول الذي كان يشتمل على سبع وعشرين سفينة كبيرة فيها كاليرات وغربان. واتجه الى الهند وكان لديه ثلاثة آلاف من المقاتلين أكثرهم مماليك، كان أبناء البلد يسمونهم الروم. واما الآخرون، فكانوا من العرب مع بعض المرتدين من المسيحيين الذين كلفوا بالمدفعية. وذهب الى جدة حيث أبحر امير حسين بأمر من الملك ليساعده في هذا المشروع. ومن هنالك اتجه الى مدينة عدن بقصد الاستيلاء عليها. وبعد ان وجه المدفعية صوبها هجم عليها وهدم جزءا كبيرا من السور. ولكن أحد الأمراء العرب الذي كان حاكما على المدينة ردهما بشجاعة على أعقابهما بحيث انهما انسحبا على غير نظام الى جزيرة قمران حيث كان لديهما الأمر ببناء حصن إذا لم يستطيعا الاستيلاء على عدن، وذلك من أجل حرب الهند، ريثما يتم لهما الاستيلاء على مركز مهم يجدان فيه الأمن من مضايقات الأسطول البرتغالي. وفي الوقت الذي كانت الأعمال جارية فيه لبناء الحصن توغل سليمان في البلد مع فريق من المماليك، واستولى على زبيد التي كانت على بعد اثني عشر فرسخا داخل البلاد. فظل فيها بعض الأيام لأن المنطقة خصبة وجميلة.

لكن الأمير حسين الذي لم يكن مرتاحا لمرتبته كنائب بعد ان كان قائدا أعلى، حرك الأسطول لما جاءه خبر غير مؤكد بان السلطان الأكبر قتل السلطان وحرك المماليك ضد سليمان الذي كان متغيبا وقال لهم : انه لا شيء يضمن في هذا الظرف أن تكون الثقة الموضوعة في القائد التركي في محلها، لأنه سيقف الى جانب سيده كي يحصل على رضاه. ورأيه هو انه في الوقت الذي كان فيه مقيما بزبيد يجمع الأموال والغنائم أن يذهب بالأسطول الى جدة للمحافظة على مركز

ذي أهمية كبرى لصالح سيده، وانتظار أنباء أكثر صحة من الاشاعات الرائجة.

وترك في الجزيرة بعض السفن لنقل المماليك الذين كانوا في زبيد وذهب مع البقية الى جدة حيث جاء سليمان للقائه بعد ان ترك حامية في المكان الذي استولى عليه. ولكنه لم يشأ استقباله حتى يتأكد من الخبر الشائع. وبعد ان ثار الخلاف بينهما تحاكما الى السلاح. ولكين شريف مكة الذي لم يكن الا على بعد اثني عشر فرسخا جاء بسرعة كأمير ديني وأعاد الاتفاق بينهما على أساس هذه الشروط وهو أن سليمان يدخل المدينة وان كل واحد منهما يظل على رأس جنوده حتى تأتي أخبار من السلطان وأوامر منه بما يجيب القيام به. ورضخ سليمان لهذا الاتفاق ووجه في الحين الى القاهرة وقبض على امير حسين ولم يجرؤ على قتله ولا على الاحتفاظ به كأسير. وتظاهر بانه يوجهه الى السلطان وقذف به الى البحر على يد من كان يقوده، ثم انه تأكد من هزيمة السلطان، فرفع العلم التركي، برغم كون امبراطورية المماليك لم تنته كليا لأن طومان باي خلف قانصو كان قريبا من نهايته.

الفصل العشرون

كيف وجه ملك البرتغال يستخير من امبراطور الحبشة ويسعى للتحالف معه وما حدث للوبى سواريس دالبريكيرا في البحر الأحمر مع الأسطول الخاص بالهند

في سنة 1515، وجه ملك البرتغال الى الهند ثلاث عشر سفينة محملة بألف وخمسمائة جندي، دون البحارة تحت قيادة لوبى سواريس دالبريكيرا ومعه الأمر بالدخول الى البحر الأحمر وأن ينزل في مرسى الرقيق الموجود في مدخل المضيق والذي هو تحت سلطة ملك الأحباش سفيرا لهذا الملك، كان الفونس البوكيرك، نائب الملك في الهند ووجهه من قبل الى البرتغال. وأمر في نفس الوقت بأن ينزل «ادوارد كالفاو» الذي سيذهب معه للحصول على ملف مع ذلك الامبراطور وللتوجه اليه ببعض القساوسة وبعض الزخارف لفائدة الكنيسة الرومانية وذلك لتفقيه تلك الشعوب وتقديم المثل اليهم.

ووصل «لوبى سواريس» الى الموزمبيق. وبسبب حادث طرأ عليه في الطريق ذهب توا الى الهند دون أن يقف في المضيق. وفي السنة التالية وصله خبر محقق عن أسطول السلطان وتلقى الأمر من سيده ليذهب لملاقاته ولبناء حصن في جزيرة قمران. فغادر كوا على رأس أسطول مركب من سبع وثلاثين مركبا شراعيا

على ظهرها ألف ومائتا برتغالي وثمانمائة مالابريين دون العاملين فيها والذين كان عددهم مماثلا. وفي ظرف عشرين يوما، وصل الى جزيرة سقطرة حيث تزود بالماء ومن هنالك الى عدن حيث استقبل أحسن استقبال من لدن الأمير مرشان الذي كان أميرا عليها والذي قدم له المفاتيح وعرض نفسه عليه كتابع لملك البرتغال، معتذرا عما جرى في السابق مما طرأ عليه من إساءات البوكيرك. وعرف بعد ذلك أن هذا الكلام لم يكن الا خدعة للتخلص، لأن الثغرات التي أحدثها سليمان لم يقع اصلاحها لكن سواريس لم يرد أن يستولي على المدينة الى أن يعود اليها وذلك حتى لا يترك فيه حامية وينقص من عدد رجاله وهو مقدم على معركة.

وحتى لا يعلم العدو بوصوله لم يبق هنالك الا الوقت الضروري للحصول على الماء وعلى أربعة ربابنة للسير في المضيق. وسار في تلك الطريق بعد ان وجه في طليعته بعض السفن المجذافية حتى يستولى على كل السفن التي تصادفها في المصب، فاستولى على ثلاث منها مشحونة بالبضائع التي أنزلوها الى غراب تحت قيادة «الفاري دى كاسترو». وهذا ما جعلها تغرق الى العمق مع كل الذين كانوا فوقها ومن بينهم السفير الموجه الى الحبشة. وبعد المرور من العاصفة، وصل الى جزيرة قمران التي كان يظن انه سيلاقي فيها الأعداء ولم يجد فيها الا بداية حصن. وعلم بان جيش السلطان تراجع الى جدة، فأخذ يترسم خطاه. وصادف أخطارا في هذه الطريق بسبب الرياح المعاكسة ومصاطب الرمل الموجودة في عمق المياه وبينما كان يتحرك هنا وهنالك بحثا عن المراسي، صادف قاربا يحمل بعض النصارى المشارقة كانوا قد فروا من أسطول السلطان وعلموا منهم أين يوجد وكيف كانت أحوال مصر. وارتاح الجيش لذلك، وما ان عاد الصحو حتى واصلوا طريقهم والعمل من أجل مشروعهم.

توجد مدينة جدة على شاطىء الجزيرة العربية السعيدة على بعد واحد وعشرين درجة من خط شاطئها. وبنيت بالخصوص من أجل المرسى الذي يساعد التجارة كثيرا، تجارة البحر الأحمر. ولم يكن طيب البلد هو الذي دفع الى بنائها لأنها عبارة عن أرض جرداء قاحلة لا يظهر فيها أثر لأي خضرة. ويقول السكان ويؤكدون انه كان هنالك في نفس المكان مدينة جميلة. مما جعل بعض الجغرافيين يدعون ان الاشارة تعني البادية الملكية لبطليموس. وأما الشعب الجاهل فيقول ان آدم وحواء مدفونان في بناء يوجد خارج المدينة. ولكن البرتغاليين الذين تمرسوا بهذا الشاطىء يقولون بان تلك المدينة كانت أخفض بموقعها بعلو عشرين درجة

وهي التي ينسبها اليها بطليموس، حيث ما زال يشاهد هنالك برجان يدلان على انها كانت شيئا عظيما. وأبعد منها توجد قنفدة، وهي مركز قديم حيث ما زالت تشاهد على الأبنية حروف لا يستطيع أحد ان يقرأها وهي مشهورة في الجزيرة العربية إذ منها تبتدىء مساكن الصحراء.

ولنعد الى موضوعنا، فنقول ان مرسى جدة خطير والوصول اليه صعب إذ يفصل عنه فرسخ من الحدبات والرمال المتحركة، وعند الجزر، تضطر السفن للدخول في قناة ذات شكل حلزوني، فتتقدم وتتأخر، والمدينة مبنية من طرف المدخل الى طرفه الآخر، حيث لا توجد هنالك الا مصاطب الرمل، وكان امير حسين حصنها فأحاطها بأسوار بعد هزيمة ديو، ولما وصل اليها سواريس، كان الخصام بين سليمان وحسين قد انتهى، فظهر خارج مصب القنال ووقف في مواجهة المدينة. ومنها صوبت نحوه بعض طلقات المدفعية، وكانت قذائفها تصل اليه، رغم انه كان على بعد فرسخ. وبعد يومين، جاء اليه أحد المرتدين حاملا اليه تحديا جريئا من سليمان، وهو تحد اعتاد الأتراك أن يقوموا به، فذكر له انه يخيره بين المعركة في البحر أو في البر اما على شكل براز بين اثنين أو بين عددين متساويين كما يشاء، ولتجنب قتل عدد كبير من الرجال، فهو يعرض عليه أن يتبارز معه، وقبل بعض البنبلاء البرتغاليين التحدي، ولكن سواريس لم يسمح بذلك وقال للمرتد أن يقول لسيده بان اللقاء سيكون في المكان الذي يقدم له فيه الجواب.

وفي صباح الغد، حمل قبطانين على ظهر كاليرة لسبر القنال، بينما كان آخرون على ظهر بعض القوارب ليقوموا بإحراق السفن التي كانت موجودة بالوسط. وكان اللهب المرتفع منها كبيرا جدا، وخاصة من الغليون الذي كان هنالك، حتى ان السكان أرادوا اخلاء المدينة وكأنها أصبحت رمادا. ولكن سليمان طمأنهم وألزمهم بالخروج الى المعركة من إحدى الأبواب حتى يلهمهم عزيمة أقوى، وهم حاملون للراية منشورة وعدد من آلات الموسيقى، طبقا لتقاليدهم وبالدخول من باب آخر. ومن حين لآخر يصوبون طلقة من المدافع نحو الأسطول. وكان الذين ذهبوا لسبر القنال، رجعوا وهم يقولون ان الدخول لا يمكن دون التعرض لخطر بين، المنعرجات الحلزونية التي كان لا بد من الاجتياز منها تحت رحمة مدفعية العدو.

واقترح الذهاب لارسائها لأنها كانت على الساحل واحراق الكاليرات التي تركت في اليابس. ولكن لم يجر تنفيذ أي أحد من الأمرين بسبب ما كان وراء

ذلك من أخطار. بل لم يرد أحد أن يضع رجله على الأرض ليعرف هل سينزل الرعب بالعدو، لكن سواريس بعد ان تأمل التعاليم السرية التي تلقاها من ملك البرتغال، اعتبر ان جيش السلطان في حكم المهزوم وانه لا يستطيع لا هو ولا السلطان الأكبر أن يجهز جيشا آخر. وحتى لا يغامر بالهند كلها في معركة واحدة، تخلى عن هذا المشروع بعد ان بقي في المرسى أحد عشر يوما، ورجع الى جزيرة قمران لاتمام الحصن الذي كان العدو قد بدا في بنائه، ومن هنالك وجه كرافيلتين الى شاطىء افريقيا ومعها الأمر بان تذهب الى جزيرة مصوع أو الى مرسى الرقيق لتستعلم عن امبراطور الأحبلش وتتأكد من كون السفير الذي جاء يتحدث باسمه لم يكن جاسوسا للسلطان.

ولما وصلت الكرافيلتان الى دهلك، قبض سيد الجزيرة الذي كان عربيا على لوران كوسم القبطان وقطع رأسه ورؤوس كل الذين نزلوا الى الأرض معه. فإذا أضفنا ذلك الى موت ادوارد كالفان الذي وجه كسفير، كان ذلك معناه القضاء على هذا المشروع، وقضى سواريس الشتاء في قمران وتضرر كثيرا بسبب انعدام الأقوات، وأشياء أخرى وقرر أن يهدم بداية الحصن الذي كان سليمان شرع فيه وان يتخلى في تلك الآونة عن مشروع المضيق، وما ظهر الصحو حتى جاء الى مدينة زيلع وتوقف أمامها وفي نيته أن يستولي عليها ويهدمها بسبب المساعدة التي قدمتها لسليمان عند تراجعه إثر هزيمة عدن.

وكان أميرا عدن وزيلع عدوين لدودين بسبب التنافس على التجارة التي كانت تقوم عليها امارتهما داخل البلاد حيث كانت لديهما حاميات عسكرية، ولكن لما وصل سواريس لم يجد أحدا لأن الحاكم كان قد ذهب بأمر من سيده ليحارب امبراطور الأحباش، ولما علم السكان بوصول الجيش انسحبوا مع عائلاتهم ولم يبق الا قليل من الناس بحيث انهم دخلوا من الجهتين دون أن يصادفوا أية مقاومة، ولقوا هنالك ثلاثة تجار قطلانيين جاءوا بقصد بيع السلاح للكفار. ووجد من الغنائم لفائف من السيوف السوداء فأخذوها وفي نفس اليوم الذي دخل فيه لوبي الى المدينة، كان امبراطور الأحباش قد هزم ملك عدن. وهذا ما يجعلنا نقوم هنا باستطراد بقصد افادة القارىء. ملك عدن قوي في هاته الجهات وهو عادة في حرب مع امبراطور الأحباش. وأراد أن يدخل الى بلاده، فاستنفر جيشا كبيرا، فعلم بذلك الامبراطور الذي كان ما يزال صغيرا في سن سبع عشرة سنة، فسار نحوه بأسرع ما يمكن، ولما علم بانه مخيم في سهل محاط بالجبال، تقدم

لاقفال كل الثنايا، وجاء فانقض عليه بكل قواه، فتراجع ملك عدن باشارة من محمد، حاكم زيلع، تاركا له الأمر بالشروع في المعركة، ولما تقابل الجمعان، تقدم الحاكم في الصف الأول ودعا الأعداء للبراز، فتقدم اليه قسيس اسمه كابريال اندري فتقاتل معه بشجاعة وقتله وقطع رأسه وحملها الى الأمبراطور الذي جازاه أكبر الجزاء على ذلك، بحيث ان ذلك تكبد في يوم واحد خسارتين من لدن جيشين مسيحيين أولاهما في المعركة وثانيهما في المدينة.

ولنرجع الى ما كنا بصدده. فبعد ان استولى سواريس على زيلع ساير شاطىء جزيرة العرب لكي يتزود من الماء والأقوات في عدن ويجعل هاته المدينة تابعة لملك البرتغال. لكن ميرامار شان الذي كان قد أصلح الثغرات وشاهد أن جنود البرتغاليين نقص عددهم وان الأسطول عند عودته كان في حالة أسوأ مما كان عند ذهابه، حدث سواريس بكلام معسول دون أن يفعل أي شيء، مما اضطره أن ينتقل الى الجهة الأخرى ليهاجم مدينة بربارة التي كانت تقابل راس كواردافو، ولكن، بما ان الوقت كان هو آخر غشت وان تلك الجهات كانت خاضعة آنذاك للرياح الشرقية التي لها تأثير قوي على الأمواج، بقي الجيش مدة طويلة في البحر دون أن ينزل الى أرض افريقيا. وتاه في الطريق بحيث انه عدم الماء والأقوات وتفرق الأسطول بسبب الضرورة ومما زاد في الطين بلة حدوث عاصفة حتى ذهب كل واحد الى الجهة التي أراد. واضطر سواريس الى ان يصل الى قالاياظ على رأس عشر سفن ومن هنالك الى هرمز، وهكذا تفرق الجيش البحري دون أن يقوم بأي قتال. ويكاد يكون كل من كانوا في الأسطول قد ماتوا بسبب المصائب التي تكبدوها.

الفصل الواحد والعشرون

جيش برتغالي آخر في المضيق
التعرف الكامل على امبراطور الأحباش في أركيك

في سنة 1520، تلقى لوبيز سكيرا، حاكم الهند باسم ملك البرتغال، الأمر بالدخول في البحر الأحمر وانطلق من كوشيم في يوم 2 يناير وذهب لينتظر في كوا، غليونات كان يصنعها في كاليكوت، وفي الثالث عشر من فبراير، ذهب في طريق المضيق على رأس ثماني وعشرين سفينة شراعية تحمل على ظهرها 800 1 برتغالي و 200 1 مالا باري أو كناري. ولما وصل الى رأس كواردافو، وصله

الخبر من كرافيلا برتغالية أن السلطان الأكبر وجه جيشا بحريا الى تلك الجهات. ومع هذا الخبر أمر الملك بالتوجه لملاقاة ذلك الجيش مع أكبر ما يمكن من القوة والدخول الى البحر الأحمر مع سفير الأحباش، وذلك طبقا للأوامر التي صدرت سابقا لسواريس.

وبما انه لم يكن هنالك أي مكان للتزود بالماء في كل ذلك المدخل، فقد أسرع نحو ميناء ميت الذي هو قرية عربية صغيرة موجودة على طول ذلك الساحل. ولما وصل اليها، فر السكان ولم يبق منهم الا عجوز بينت لهم الوسيلة للحصول على الماء بالحفر في واد جاف، حيث كان الماء مخبوءا في عمق الرمال. وجازاها «سكيرا» باعطائها لباسا وتمليكها مدينتها ولم يشأ أن يترك المدينة تذهب ضحية الاحراق، خصوصا وان انطوان دوصالدان كان قد الحق بها علة أضرار. وذهب الجيش البحري من هنالك واجتاز من جهة عدن وسار في اتجاه الجزيرة العربية حيث وصل في الثالث عشر من مارس واجتاز من المضيق في السابع عشر، وتلقى النبأ بأن ألفا ومائتين من الرجال قد وصلوا كحامية الى جدة وان ست كاليرات تركية جاءت لتنزل الجنود في زبيد ليذهبوا من بعد الى عدن. وحينذ تهيأ لاستقبالهم.

ولكن الآخرين كانوا قد علموا بذلك، فاجتنبوا المرور من الشاطىء وتركوا له البحر حرا. ولما تبين له صعوبة الوصول الى ميناء جلة حيث كان يوجد الجيش البحري التركي وان الطقس لم يكن مساعدا، انسحب الى جزيرة صيبان ليلتحق من هنالك بشاطىء افريقيا ورسا في جزيرة مصوع وأحاطها في الغد بالسفن الصغيرة ليمنع السكان من الفرار الى البر، لأن القنال جد ضيق، ولكن كان قد مضى على ذهابهم خمسة أيام، لأن المراكب الصغيرة التي تصطاد اللؤلؤ كانت قد اكتشفت النبات، فإذن، لم يجدوا الا بعض المراكب الصغيرة التي استولوا عليها وسفينتين للكجراتيين الذين رفعوا شعارهم، ولكن كاليرة استولت على واحدة منهما وأحرقت الأخرى التي فر رجالها الى اركيك والى دكان الموجودتين كلتيهما في امبراطورية اثيوبيا.

وقد عرف من بعد ذلك أن أهل مصوع وان كانوا عربا، دون أن يعلموا هل الجيش البحري للأتراك أم للنصارى، كانوا يخافون منهم كلهم، ذلك أن الاولين كان قد سبق لهم أن أساءوا اليهم، ودنت شراعية من الشاطىء فجاء اليها ثلاثة رجال على ظهر طوف وأظهروا سرورا كبيرا لما علموا بأنها تنتمي للجيش البرتغالي، ودخل اثنان منهم الى الشراعية ليقدم اثنان منهم الى الجنرال رسالة من

حاكم اركيك، وكان أحدهما حبشيا والثاني عربيا. وحينما مثلوا أمامه تراموا على رجله إجلالا له، ولكنه أوقفهما في الحين وتلطف معهما، ما داما قد أظهرا تبعيتهما لملك مسيحي ويبحثان عن محالفته. وكانت الرسالة تتضمن عبارات الحمد لله لمجيء النصارى الذين كانت تنتظر منهم نجلة كبيق، وبلاضافة الى ذلك تضمنت الرسالة رجاء بالمحافظة على سكان مصوع كأتباع للملك، وكانت مصحوبة بخاتم من الفضة كان الملك وجهه عربونا على انضمامه وتضامنه وعلى رغبته في استقبال البرتغاليين واكرامهم بمختلف المرطبات، وطلب المبعوثان من الجنرال أن يعطيهما علامة تكون بمثابة تطمين لسكان مصوع.

وعلم هنالك أن السفير لم يكن جاسوسا كما سبق الظن بذلك، وتأكد الجنرال بأن المبعوثين رجلان يمكن الثقة بهما فأحسن اليهما وسلمهما راية بيضاء يتوسطها صليب، شبيهة بالتي تكون لطريقة يسوع، فكتبا كجواب على الخاتم انه قد مضى زمان طويل والملك سيده كان قد أعطى الأوامر لجنرالاته في الهند من أجل محاولة الوصول الى ذلك الميناء وعقد حلف مع امبراطور اثيوبيا، وكعربون على ذلك، وكعوض عن الخاتم الذي وجه له، فإنه من جهته يوجه هذه الراية للتأكيد على سلامة اتباع الملك وكرمز عن السلم التي يدل عليها الصليب. ولما أوصلت الشراعية المبعوثين للشاطىء، نزل الحاكم ومعه أكثر من ألفي رجل فتسلم الراية راكعا وذهب بها في موكب حافل الى المدينة ورفعها على بيته.

وفيما كان الجنرال منهمكا في التعرف على الجزيرة ليبني فيها حصنا وليرى لـ المكان أسهل من قمران، شوهد عند الاقتراب من الشاطىء فارس وهو ينزل من المدينة ومعه أربعة ثيران كان يقودها رجلان أمامه، وحينما وصلوا الى الشراعية، ر. أ تناول الجنرال تلك الصور بيده وحسر رأسه فعبدها وقبلها بخشوع كبير. وكل هذا طمأن أولئك الاثيوبيين الذين قدموا له تلك الثيران الأربعة كهدية من الحاكم ومعها رسالة يشكو فيها على الراية التي وجهها ويخبو بأنه سيعلم بوصوله برناكس الذي كان حاكما للبلاد وديرا قريبا كان رهبانه يتحدثون دائما عن وصول البرتغاليين ويقومون بتنبؤات في هذا الشأن، وسر الجنرال من مقابلة اولئك الناس الذين كانوا يحملون كلهم صليبا خشبيا للدلالة على تدينهم وعلى اخلاصهم في أقوالهم، وسألوه أيضا هل لم يكن على علم بسفير كان قد توجه منذ تسع أو عشر سنوات، وكان في الأصل تاجرا اسمه ماتيو ويقوم بتجارته في القاهرة وكان الامبراطور والملكة والدته يستعملونه في القضايا المهمة. وأضافوا انهم كانوا وجهوه الى الهند

ليذهب من هنالك في سفارة الى ملك الغرب النصراني الذي كانت جيوشه البرية تقوم بفتوح هنالك وتطارد أتباع محمد.

وفي الحين أتى به، فقبلوا يده ودعوه أبا، الذي يعني أبي وأظهروا له كثيرا من الاحترام لما يكسو رأسه من بياض ولما قام به من دور. الشيء الذي جعل الدموع تنهمر من عينيه فقبلهم على أكتافهم ورؤوسهم، إشارة إلى التصالح. ثم التفت الى الجنرال وقال له بصوت يتقطع بالزفرات انه يحمد الله على ان آظهر براءته وان أتاح الفرصة لملكين عظيمين[1] كي يتحدا على أعداء الدين. والتفت في الحين الى الأحباش فطلب منهم أن يذهبوا لاعلام الحاكم واعطاء أخباره لبرنا كاس وللدير. وتأثر الجنرال ومن كانوا معه لمشاهدتهم هذا الشيخ وحاولوا أن يصبروه على المصائب التي عانى منها وعلى ما تعرض له من شك في كونه سفيرا حقيقيا.

وما ان عاد الأحباش الى المدينة التي كانت على بعد فرسخين من هنالك، وفي رفقتهم مبعوث من الجنرال حاملا هدية الى الحاكم، حتى جاء هذا الأخير في الغد الى الشاطىء وتحادث مع الجنرال عن الفوائد التي ستجنيها النصرانية من اتحاد الملكين. وفي اليوم الثالث جاء رهبان الدير فذهبت اليهم الشراعية لتحملهم الى الأرض. ولما صعدوا الى الغليون استقبلوا بصليب من الفضة المذهبة وبنشيد اجتمع عليه كل رهبان الأسطول في المناسبة وتصحبهم موسيقى الجنرال. وكان هذا اللقاء سببا في كون تلك الشعوب التي لم تكن تعرف الكنيسة الرومانية فيما سبق من الأيام، وجهوا بيعتهم للبابا، وان كان لهم بطريك خاص بهم. ونورد هنا ما ذكره جان دوباروس في تاريخه عما يخص عراقة الدين والدولة لدى هذا الملك الذي يسمى خطأ الراهب يوحنا، ثم نعود الى موضوعنا.

الفصل الثاني والعشرون

إمبراطور الأحباش وما يوجد من عجائب في بلاده

قبل أن يكتشف البرتغاليون الهند من جهة المحيط، اجتهد ملك البرتغال «دون جان» اجتهادا كبيرا لاكتشاف الأحباش، ولما أتى بعده الملك «دون مانويل» ووجه «فاسكو دوكاما» للقيام بالاكتشافات كانت التعليمات التي أصدرها إليه تتخلخص في ما يلي : ألا وهو أن يتعرف على أحوال هذا الأمير المسيحي. وفي كل

(1) داود، ملك إثيوبيا، ودوم مانويل، ملك البرتغال.

الجيوش البحرية التي وجهها فيما بعد كان يدس عددا من المحكوم عليهم بالنفي حتى يلقى بهم في شاطىء «ميلاندة» و «رأس كواردافو» لهذا القصد وحده.

ذلك أن اسم الراهب يوحنا الهندي كان مشهورا باوربا. وكان بعض الرهبان من اثيوبيا يحدث التلاقي بهم. لكن كانت المعرفة بتلك الأصقاع ضئيلة الى حد الاعتقاد بان الراهب يوحنا كان هو ملك الهند، وهكذا عمل البرتغاليون على التعرف عليه، وفي الأخير، اكتشفوا انهم مخطئون وان الراهب يوحنا كان في بلاد التتار وان فيما بين التتار الزكاريين القاطنين في قطاي بعيدا عن جبل ايماوس، كان يوجد بعض الأمراء المسيحيين التسطوريين الأقوياء. وكان التتار الآخرون من الوثنيين يدعونهم «فنشا» وأتباعه «بوان»، وهو اسم كان يتناقل من جهة الى أخرى وكأنه اسم يدل على منزلة، في حين ان شعوب الغرب التابعين للكنيسة الرومانية كانوا يسمونهم «البريت يوحنا الهندي» لأن بلادهم كانت توجد بالشرق، وقد سمي هذا الأمير الراهب لأنه كان يحمل أمامه كراية صليبا في أيام السلم وصليبين اثنين في أيام الحرب، أحدهما مصنوع من الذهب وثانيهما من الأحجار الكريمة وذلك لكي يظهر بانه يفوق كل ملوك الدنيا من حيث الثروة.

وحتى يظهر بانه من حماة الدين كان يدعى «البريت» وهو اسم مدغم عن كلمة «البريتر» أي الراهب. وكان من القوة على جانب كبير حتى انه كان في تبعيته سبعون ملكا. ولكن حدث ان داود الذي كان هو الحاكم آنذاك دخل في حرب مع التتار الذين تمردوا عليه وأضاع مملكته وحياته لكونه عمل برأي القبطان سنجي أو تشنجي الذي خدمه في منصبه، والذي تزوج بنته فتخلى حينئذ عن لقبه الراهب يوحنا ليتسمى «فلاركام دوكاطي» والسبب الذي جعل سنجي يشير على داود بهذا الرأي السيىء في المعركة الأخيرة يرجع لما أظهره له من ازدراء لما تقدم له بخطبة بنته، وان كان التتار جعلوا منه ملكهم منذ ذلك الحين. وابتداء من هذا الامبراطور سنجي الذي تولى امبراطورية التتار في سنة ألف ومائة وسبعة وثمانين ينطلق ماركو بولو في تعداد شجرة ملوك التتار الى ـ كوبلاي، الذي وجد في بلاطه في سنة ألف ومائتين وتسعة وثمانين، ولكن ما أورده غير مطابق لما ذكره انطوان الارمني عن أصل امبراطورية التتار. ولا يبعد أن يكون كلاهما مخطئين، لأنهما أجنبيان.

بيد اننا نقرأ في تاريخ ملوك التتار الى تيمور باي في كتابة بالفارسية لأحد العرب انه بقي ملك أو خلف للراهب يوحنا سماه «فنشا» وقال عنه انه لم يكن

قويا عنه وانه استطاع أن يجمع ما بقي من المسيحيين النسطوريين ولما أخذ العرب يضايقون هذا الأخير، فانه استنجد بالبابا اينوصانت الرابع الذي وجه[1] بعض الرهبان الدومينيكيين لملك التتار ليتوسل اليه بان لا يلطخ يده من دماء النصارى وأن يعتنق الدين المسيحي. وبما ان هؤلاء الملوك عرفوا في اروبا باسم «الراهب يوحنا الهندي»، فقد بقي اسمهم يتناقل لدى الشعوب الذين أطلقوه خطأ على امبراطور اثيوبيا الذي هو موضوعنا.

ونظرا لكون عدد من الرهبان كانوا ياتون من تلك البقاع الى اسبانيا وان الأمر اشتهر بانهم رعايا ملك نصراني يحمل صليبا كمدافع عن الدين، فقد شاع الوهم بانه الراهب يوحنا المشهور، وحتى أتباعه لما سمعوا بهذه التسمية، اعتقدوا انه هو الاسم الحقيقي، واكد «داميان دو كوز» الذي كتب عن ديانة الأحباش وتقاليدهم نقلا عن سفير جاء من بلدهم الى البرتغال ان «بيبل» أو «انكون» تعني في لغتهم يوحنا الفريد. وقال راهب حبشي لمارك انطوان سابليك «ان كام تعني في لغتهم قوى. اما بيك دولامبراندول الذي لم يكن متحريا في أخباره، فانه يسميه «بريسطام» ملك الهند، وهذا الخطأ في حق شخصية كبيرة آت من كون ما نعرف عن هذا الملك في وقته إنما نقل عن بعض الرهبان قدموا من تلك الأصقاع ورووا أشياء أخرى غريبة بالنسبة لما نشاهده اليوم، سيما بعد ما توارد من أخبار عن السفير الذي وجهه لويز سكيرا للملك داود. ومنذ ان اجتاز «استيفان دوكاما» حاكم الهند، مضيق البحر الأحمر، ترك لدى هذا الأمير أربعمائة برتغالي تحت قيادة أخيه[2] ليساعده على استرجاع دولته التي كان المسلمون قد استولوا عليها منذ ثلاثة عشرة سنة. وهكذا تجولوا في تلك البلادبرمتها وعلمنا من الذين عادوا ومن روايات فرانسوا الفاريز وغيره من الذين كانوا يجولون في تلك البلاد بان نصرانيا يعقوبيا هو الذي خلع عليه لقب سيد الأحباش. ولكنه اتخذ لقب امبراطور إثيوبيا الكبرى والعليا، وان كان لا يعرف الا اسم بعض البلاد التي تنتمي اليها والتي لا تخضع له الا عندما تشاء ذلك، وخاصة منهم الوثنيون أو المسلمون.

لذلك، فهو دائما في حركة، وبما انه أمير عظيم، فليس له مدينة ولا أي مكان له اعتبار خاص وهذا هو الذي يثير الدهشة، ففي نفس اثيوبيا، زيادة على

(1) 1246.

(2) 1541 والقائد هو بول دوكاما.

البلاد التابعة له، توجد عند المتوحشين أماكن عظيمة، سواء من حيث البناءات، أو من حيث التحصينات، أو من حيث التجارة وكثير منها مطوقة بأسوار من الحجر أو من الآجر وتمتلك ماجّل ملأى بالمياه واسعة وعميقة. ويمكنها أن تدافع عن نفسها من كل هجوم، ولما رأى البرتغاليون أن العدو، كلما دخل الى البلاد، كان يحدث فيها تخريبات كبيرة، سألوا المسؤولين لماذ لا يبنون حصونا كما هو الشأن بأروبا، فكانوا يجيبون بانهم لا يضعون قوتهم في الأحجار، ولكن في الأذرع والاسلحة وانهم يظلون على الدوام، في البراري كي يزدادوا ضراوة على الحرب، وانهم يستعملون الأحجار لبناء المعابد والاديرة. وانها لعادة قديمة لدى هذه الشعوب أن لا يكون عندها حصون، ولذلك، نرى بطليموس لا يذكر الا ثلاث أو أربع مدن داخل منطقة جزيرة ميروى، التي لم يبق منها الا اكسيم التي يسميها أهل البلد كمرة، وكأنها عاصمة مملكة سبأ. وليس يوجد الا هي كأطلال من الأبنية القديمة وأحجار على شكل أهرام لم تصمد للزمان بسبب ضخامتها، وهذا المكان يسمى اليوم «اكاشومو» ولتوزيع واحصاء البلاد والأقاليم، فإن الامبراطور من عادته أن يكون له بيت من الحجر في نفس البناية الصالحة للجمرك أو المستعملة للولاية أو بيت العامل ذاته. وحينما يكون بعيدا عن كل ذلك أو خارج المملكة فان تلك البيوت تظل مفتوحة، ولا أحد يجرؤ على الدخول اليها، خوفا من العقاب، وكأنه بمثابة عمل تمرد، ولذلك، فإن ذلك البيت بمثابة مركز في كل اقليم.

وتخترق بلاد هذا الأمبراطور ثلاثة أنهار[3] أوسطها هو أكبرها وياتي من بحيرة برصيل، وهو وسط امبراطورية الأحباش، ويحيط بمماليك وأقاليم يدعي هذا الأمير تبعيتها له، ومن جهة البحر الأحمر، بين البحر وامبراطوريته، توجد سلسلة من الجبال على طول الشاطىء كلها مسكونة من لدن عرب مسلمين في يدهم كل الموانىء، باستثناء ميناء اركيكى، وفي اقليمه الواقع جهة الغرب، توجد مناجم ذهب في أرض يقطن بها وثنيون تابعون له، وهاته المناجم توجد بالجبال على طول مجرى النيل الذي لا يعرفه هؤلاء الزنوج الا بالاسم دون أن يروه، لانهم معزولون عنه بجبال أخرى[4] تكتنز مناجم من الذهب، ومن ثم جاءت عادتهم في تسمية نهر آخر أبا المياه[5] لأنهم لا يعرفون هذا الأخير. ويقولون بان هنالك جيلين هم

(3) النيل، أفطابورة، أفطابوس، وهي بلغة البلاد طاكوى أبانهى، طاكاسى.

(4) دامود، سيناشي.

(5) أبانهي.

الذين يشربون ماء النيل، أحدهما من العبرانيين من المغرب حيث يحكم ملك قوي يسمونه ملك اليهود(6)، والآخر في الشرق حيث يلتقي هذان النهران مع النيل. وهنالك توجد مملكة الامازون التي يدعونها مملكة النساء ذاكرين بانهن ينحدرن من الملكة «كاوا» أو أن هاته الملكة تنحدر منهن، لأن دولتها مواجهة لبلاد الامازون من جهة الشرق بين نهري «ابنهى» و «طاكاسي» تقريبا في المكان الذي يلتقيان به ويواصلان طريقهما نحو النيل، في اتجاه محاذاة جبال مكّاصة، حيث توجد مناجم أخرى من الذهب.

فإذ خططنا خطا وهميا مند سواكن التي توجد على تسع عشرة درجة وثلث من الخط الى نهاية جزيرة ميروى(7)، حيث تلتقي تلك الأنهار الثلاثة، فإن القسم الشمالي الذي يفصل ممالك هذا الأمبراطور من ممالك العرب المسلمين، تمتد على مائة واثنين وعشرين فرسخا، وإذ دهبنا من ذلك المكان في النيل الى الغرب الذي اكتشفه البرتغاليون بمد قوس ينتهي في آخر الجنوب حيث مملكة «آديا» التي هي أبعدا لممالك في جنوب الأحباش، نجد جبالا ينشأ فيها نهر «اوبىي» الذي يسميه بطليموس «رابط» والذي يذهب الى المحيط في تيلمانصى قرب ميلاندة، وهذا الحيز الذي يشمل مائتين وخمسين فرسخا في خط منحن كما وصفناه، يقطن به وثنيون سود ومحاربون، وخاصة منهم الذين يقعون في حدود مملكة «آدي»، وإذا ذهبنا من هاته المملكة الواقعة على ست درجات من الخط بالذهاب الى الشرق، نقع في مملكة آدل التي يسكن بها العرب والتي تسمى مدينتهم الرئيسية عرار، على مستوى تسع درجات. وهذا الحيز يمكن أن يكون طوله مائة وخمسة وعشرين فرسخا، بحيث اننا إذا جمعنا الكل، فإن مملكة هذا الأمبراطور يمكن ان يكون محيط دائرتها سبعمائة فرسخ وهاته الانهار الثلاثة التي ذكرنا ليست كبيرة عند خروجها من بحيرتها، ولكنها تجد روافد كثيرة هي التي تزيد في حجم مياه النيل، فنهر «أباني» يتلقى ثمانية روافد و «طاكوى» أربعة، كلها تاتي من جبال «دامود» و «بيزاد» و «سيناشى» زيادة على تلك التي كان تلقاها من قبل عند وصوله الى ذلك المكان.

(6) النجاشي تيدوروس.

(7) بلغة البلد : نول باب.

الفصل الثالث والعشرون

عن أصل ملوك الأحباش، وعن ديانتهم وعادات بلادهم

يفتخر الأحباش كثيرا بكون ملوكهم ينحدرون من سليمان والملكة سبأ التي سمعت بعظمة هذا الملك وعلمه رغبت كثيرا في معرفته وركبت في مرسى على البحر الأحمر حيث بنت مدينة[1] حملت اسمها. ويضع بطليموس موقعها على اثنتى عشرة درجة ونصف من الخط. ولكن لم يبق منها أي أثر. فالبعض يجعلون منها مدينة مقابلة لجزيرة سربو، التي لها بعض التقارب مع هذا الاسم، والتي هي أدنى من غيرها الى الموقع الذي نسب اليه بطليموس.

ويقال ان هذه الملكة لما اجتازت من شاطىء جزيرة العرب وقطعت الصحراء في طريقها إلى القدس، وجدت أخشابا متعارضة فوق بحيرة على شكل جسر. ولكنها لم تشأ أن تمر عليه، لأن منقذ الدنيا كان سيتألم من الموت على الصليب، ولما وصلت رجت من سليمان أن يزيلها من ذلك المكان. ويضيفون انه استقبلها أعظم استقبال اعتبارا لمكانتها ومرتبتها، وأنها قدمت هدايا كبيرة له وكذلك للمعبد. وظلت معه حتى تعلمت كل ما يتعلق بالدين. ولما رجعت ولدت ولدا سمي مالكا فوجهته إلى سليمان بمجرد أن كبر ليعين ملكا في المعبد ويخلفها في الملك على بلادها التي لم تكن محكومة من قبل إلا من طرف النساء.

وقد استقبل الأمير استقبالا حسنا من لدن الملك سليمان، فجعل منه ملكا وغير اسمه باسم داود. وبعد أن علمه شريعة الالاه. جعل ضباطا من القبائل لاثنتى عشرة. ونظم بيته على نسق بيته. وجعل معه ملكا دينيا. في شخص أزارياس ابن صادوق الذي كان آنذاك سيد القدس. وقبل أن يذهب قام هذا الملك الديني بسرقة ألواح الشريعة بعد أن حصل على الاذن من سليمان، بواسطة أمير إثيوبيا، ليقوم بصلاته في المعبد، وجعل مكانها ألواحا أخرى. واحتفظ بهذا السر الى ان وصل الى حدود إثيوبيا. وعندئذ أفشاه للأمير الشاب الذي سر كثيرا بالنبإ ولما رأى تلك الألواح، بدأ يرقص لمشاهدتها وينشد مع كل أصحابه وينطق بالحمد لله. ولما وصل للبلاد، وضعت أمه في يده سيف القيادة.

ومنه ينحدر كل الملوك من رجل الى رجل دون أن يترك الملك لأي امرأة. وبقيت كل مهام بيته بين يدي أحفاده وهي التي كان سليمان أعطاها إياه دون

(1) دوم رودريكيردولما.

أن يوضع مكانها غيره. وقد شاء الله أن يعلموا شريعته على يدي ملكتين، ملكة سبأ وملكة كانداس، إذ علمتهم الأولى الشريعة القديمة، والثانية الشريعة الجديدة. ولكن لما قلنا في الكتاب الأول بأن ملكة كانداس كانت ملكة إثيوبيا بسبب زواجها لا بسبب إرثها وأنها استحقت هذا اللقب تكريما لفضيلتها، نقول زيادة في التوضيح، أن اسم إثيوبيا لا يذكر فقط بالنسبة للشرقية أو الغربية أو العليا أو الواطئة، ولكنه يطلق، أيضا، على مدينة قريبة من جزيرة ميروى في اتجاه الشرق، مع الانكفاء نحو الجنوب.

وهذه المدينة التي يسميها الأحباش «تيكرى» وسترابون «تنيس» كان يحكمها النساء بلقب ملكات. وعلى ما يظهر، يتسمين ملكات إثيوبيا أي ملكات المدينة التي كانت عاصمة لدولتهم لا لكل إثيوبيا التي هي فوق مصر، إذ كان هناك أمراء آخرون كانوا يحملون نفس الاسم معا. وعندما تحدث سترابون عن هذا الاقليم، قال بأن صيد الأفيال يبدأ من ميناء سبأ وأن ما يوجد داخلها يسمى تنفيس حيث يسكن المنفيون الذين انسحبوا هنالك في عهد الملك صامريك ملك مصر. ويسمونهم «الصبريين» وهي كلمة تعني الأجانب. وأنهم تحت حكم ملكة جزيرة ميروى التي هي غير بعيدة.

وفي مكان آخر، عندما تحدث عن انتصارات القائدة الروماني «بترونيوس» في تلك الأصقاع، يقول عن البلاد بأن منها كان قادة الملكة كانداس التي كانت في ايامه حاكمة إثيوبيا والتي كانت تتصف بشجاعة الرجال، ولم يكن لها الا عين واحدة. وواصل كلامه عن انتصارات القائد الروماني. فأشار إلى السفراء الذين وجهتهم ملكة كانداس اليه. ولكن، بما أنه لم يكن يريد مساعدتها في ما طلبته منه، أخذ لها مدينة «لاباطا» التي فر منها أحد أولادها. فإذ اعتبرنا قياس الزمان، فإن هذه الملكة هي ملكة كانداس التي عمد طواشيها من لدن القديس فيليب. ولذلك، فإن الأحباش يقولون بأنهم تلقوا الانجيل بواسطته بطلب من القديس متى. ولكنهم لا يحتفلون كثيرا بحياة هذا القديس الذي كان سببا في انتقالهم الى دين النصرانية. والأسطورة التي يحملونها عنه ليست مطابقة لما هو عند الكنيسة الرومانية. فيقولون بأن القديس متى كان في بلادهم طوال اثنتين وثلاثين سنة، وانه دخل أولا الى مدينة تبطا، حيث أقام مع الطواشي الذي أوصله إلى ملك مصر الذي تنصر على يديه مع كل أسرته، بعد أن أعاد إلى الحياة أحد أولاده.

وجاء بعد هذا الملك كخلف له ايطارك الذي قتل القديس متى ولكن بعد ممات هذا الطاغية، انتخب الشعب ولدا لملك مصر عاش ستين سنة وترك خلفا

له ولده الذي كان من كبار الأولياء. ويظهر، إذن، أنه كان في نفس الوقت ملوك وملكات في هذه البلاد من إثيوبيا. ويعلمنا التاريخ بأن ملكات إثيوبيا كن يحملن إسم كانداص كلقب له إمتياز، على غرار أباطرة الرومان الذين كانوا يتسمون القياصرة وملوك مصر الذين كانوا يحملون اسم الفراعنة. ولم يكن هذا يمنع من كونهم كان لهم أسماء خاصة بهم. ويقول الأحباش بأن اسم الطواشي كان هو «انديت» ونشاهد، اليوم، بأنه في تلك البلاد أو، على مقربة منها، توجد ملكة تسمى كَاف أو كَاوا، ولكنها لا تحمل اسم كانداص. ونشاهد، أيضا، بأن البرتغاليين الذين مروا من مملكتها التي هي كبيرة من جهة النوبة، وجدوا فيها عددا من المعابد التي بناها المسيحيون والتي هدمها المسلون.

وما زالت هنالك صور للقديسين مرسومة على الجدران ويعزو أبناء البلد تخريب تلك المعابد إلى تخلي الكنيسة الرومانية عنها. وذلك بسبب كثرة الكفار التي كانت تحيط بها. ويروي فرانسوا ألفاريس أن سفيرا لملك البرتغال[1] كان يوجد بقصر ملك إثيوبيا، فوجهت الملكة كاو أوكاوا تطلب من هذل الأمير بعض القسيسين ورجال الدين لتعليم شعبها الانجيل وكان شعبها محروما من التعلم منذ قدوم العرب، بسبب أنه لم يوجه لهم أي بطارقة من روما كما جرت العادة وأجاب ملك إثيوبيا بأنه غير قادر على القيام بذلك وأنه هو نفسه يأخذ بطريقه من بطريق الاسكندرية الذي كان يعيش بين الكفار، بحيث إنه رد مبعوثي تلك الملكة دون أن يسعفها في طلبها. ولكي نبين بان الملكات اللائي نتحدث عنهن لسن ملكات لاثيوبيا بكاملها، ولكن فقط للمدينة الحاملة لهذا الاسم، نرجع الى يوسف الذي تحدث عن تلك التي ذهبت الى سليمان فقالت بأنها ملكة إثيوبيا ومصر، وإن كان في نفس الوقت يوجد ملك بمصر ما كانت لتذهب إلى أورشليم عن طريق البحر الأحمر ولا عن طريق الصحاري العربية ولذلك يسميها الكتاب المقدس ملكة القبلة.

ويرغب البعض في أن تسمى هكذا لأنها كانت ملكة سبأ الموجودة في العربية السعيدة وفي جنوب بلاد اليهود وما دام يوسف يخلع عليها اسم ملكة مصر لسيطرتها على جزء منها، فيمكننا أن نقرر. بأنها لم تكن ملكة لمجموع إثيوبيا، ولكن فقط للمدينة التي ذكرنا وأرضها لم تكن تسمى سبأ، ولكن «ماكيدة»

(2) داود.

كما يقول الأحباش. وسميت سبأ باسم العاصمة التي لم يبق منها أي أثر، وإنما تركت اسمها لاقليم سبأ. وقد بنيت هذه المدينة منذ زمان طويل، قبل أن تتولى ملكة كانداص الملك. وعلى ما يقص يوسف، فالظاهر أنها كانت هي التي حاصرها موسى واستولى عليها بمساعدة ابنة الملك، حينما كان يقود جيش فرعون في تلك الجهات. وبعد أربعمائة سنة تقريبا استولى قمبيز ملك مصر على إثيوبيا، فغير اسم هذه المدينة وسماها «ميروى» باسم أخته أو أمه، وهو الاسم الذي أصبحت تعرف به. من بعد، الجزيرة.

والظاهرة أن هؤلاء المؤرخون حينما تكلموا عن هاته الملكات خلطوا بين الجزء والكل فسموهن بهذا الاسم أو ذاك ولأحباش الذين يعتزون بذلك يشيرون الى أماكن إقامتهم، فيقولون بأن ملكة سبأ كان لها كنز في مدينة أكاشوما التي ما زالت تشاهد فيها بنايات كبيرة وأهرام تناهز في عظمتها كنيسة القديس بطرس بروما وحسب شهادتهم فإن هذه المدينة بلغت من العظمة يومئذ ما جعلت بطليموس يذكرها فيسميها «أشوما» ويضع موقعها على عشر درجات من جهة الشمال. ويذكرون بأن «كانداس» ازدادت في مكان قريب يقطن به اليوم الحدادون، وأن مقر ملكها كان في «أكاشوما» وإن كانت مملكتها وجدت ببلد مجاور يسمى اليوم بور. ويذكرون أيضا أن طواشي ملكة كانداس أدخل إلى النصرانية مملكة تيكرى وبعض الأقاليم المجاورة وذكروا، في الأخير أن ابن ملكة سبأ[2] توج ملكا على إثيوبيا في مدينة «إكاشوما» ومن ثم أصبحت العادة جارية بتتويج كل الملوك بها. وكل من لم يحترم العادة يعتبر مغتصبا للملك. وتبعا لذلك، فإن كل أخلاق هذا الملك حافظوا على دولهم أو نموها ويعهدون بها كمتاع خاص بهم إلى من يشاؤون وبالطريقة التي يبتغون. فليس توجد إلا مملكة «دامبى» التي لم يتصرفوا فيها. وبرغم كون ملكها تابعا لملك إثيوبيا، فإن الملك لديهم يتعاقب عليه أبا عن جد لكون ملك تلك البلاد، على ما يقال، كان قد خضع، عن طواغية. حينما قام ملكة سبأ بفتوحة في البلاد المجاورة والتي كان أولها هو ممكلة تيكرى.

فيتبين من ذلك أن إثيوبيا عرفت، في نفس الوقت، ملوكا وملكات لامعين. ولكن الأحباش، دفاعا عن أنسابهم يخفون ملوكا آخرين كانوا يحكمون في تلك الجهات وما يستنتج من تعاقب الأزمان ومن الملكات اللواتي حكمن، سواء أكانت ملكة سبأ عهدت بجزء من مملكتها خاصة إلى ولدها الذي زاد فيها من بعد بفضل ما قام به من فتوح وما بقي في يدها انتقل إلى يد ملكة أخرى إلى أن وصل إلى

يد ملكة كانداص. ثم من بعد ذلك عن طريقة التوارث إلى ملكة كَاوا. ومما يزيد في غموض هذه الأشياء أن الأحباش لا يكتبون تاريخ ملوكهم مثل الرومان واليونان. والذي جعلهم يتحدثون عن ملكة سبأ وعن شريعة موسى هو أن ذلك كان أول شيء دخل في أذهانهم. ولذلك، فإنهم يحتفلون بالسبت وبيوم الأحد معا ويختتنون مثل البارم ويعمدون الذكور في يوم الأربعين والاناث في يوم الستين ولكن في يوم الأحد أو السبت لأنهم يحتفلون بذلك اليوم، أيضا، بذكر القداس. ويقوم الرهبان بتسليمهم القربان المقدس يومئذ. وإثر ذلك ترضعهم أمهم لتبلغهم ذلك الجزء الصغير من القربان.

وفيما يخص علامة النار التي يحملونها على أنوفهم والتي يقول عنها البعض إنها تعميد لما قيل عن المسيح أنه سيعمدنا بروح القدس وبالنار، فإنه ليس بتعميد ولكنه عادة تركها لهم الملوك الكاثوليكيون ليميزوهم عن الوثنيين. وهي عادة يحترمونها بكل دقة حتى إن الذين لا يطبقونها يصبحون عبيدا للملك. وأما الختان، فإنه يجري في اليوم الثامن في بيت أحد القسيسين. ولكنهم يختنون، أيضا، البنات، خلافا لعادة العبرانيين ويقومون بتشريح في مكان يسميه اللاتينيون «نامفا» ويقولون إن ملكة سبأ هي التي أمرت بذلك وزيادة على الختان الذي لا يعملون به كفريضة مقدسة، فإنهم يتابعون، أيضا، الشريعة القديمة في كونهم لا يأكلون الخنزير ولا غيره من الأشياء غير الطاهرة. ولهم بدع أخرى أخذوها، على ما يقولون، بأمر من بطريقهم الذي هو يعقوبي وبأمر من ملكهم. ويقولون إن البطريق هو الذي يشرف على الفروض الدينية ويعين القساوسة بينما الملك يحكم في الباقي ويجازي متى شاء ويعاقب رجال الدين وغيرهم ويتسلم كل الضرائب ولا يترك للكنائس الا بعض المبرات الملكية. ولكنه، في هذا القسم يبرهن على إخلاص كبير، ففي كل دولتهم لا يوجد أي قصر للملك ولا بيت كبير، في حين يوجد عدد لا يحصى من الأديرة المنتمية للقديس انطونيوس والصوامع والكنائس للكهان القانونيين المعتادين الذين يبنون كاتدرائيات وخورنيات، والكل قائم ومجهز بما يجب من تنميق. ويستفيد القساوسة والرهبان العاديون من إرث مخصص لهم في المكان الذي يسكنون به ويكفيهم للقيام بمعيشتهم. وإن مرتبات الاديرة والكنائس الجماعية مغرية حتى إنه لا يوجد شيء يرغب فيه بهذا البلد مثل الوصول الى درجة راهب لضمان عيش الانسان، بحيث إن هنالك عددا لا يحصى منهم. وهو سبب في المحافظة على الدين.

فيما يخص العلوم، فإن هذا الشعب همجي. وباستثناء ما يعرفه الرهبان عن الدين والذي هو ليس واضحا، فليس لهم معرفة بغير ذلك ولا يرغبون فيها. وليسو ماهرين حتى في الفنون وإذا جاءهم أجنبي له بعض المعرفة فإنهم يحتفظون به ليقوم بتنميق معابدهم، لأنهم لا يتوفرون لا على بنائين ولا على سقافين. وكل الاثواب والزخارف التي لديهم للخدمة المدنية، والتي توجد لديهم بكثرة، خلافا لما يعتقد بالنسبة لشعب همجي، فإنها من الحرير ومن الثوب المذهب الذي يأتيهم من الهند ومن القاهرة ومن أماكن أخرى التي يشترون منها ثيابهم ويصنعون منها خيام الملك وكل ما تزدان به قصورهم. ومن النادر أن يشاهد بين هاته الشعوب صانع لقلة النظام حتى إنهم يعتقدون أن الأماكن التي يصنع فيها الحديد من صنع الشيطان ولذلك فإن الحدادين ينظر إليهم عندهم كأشخاص ملعونين وفي حالة تنحية عن العلاقة مع بقية الناس وغير مسموح لهم بالدخول إلى الكنائس. وأخيرا، إنهم بلغوا درجة من الهمجية حتى إن العديد من جيرانهم الزنوج أكثر معرفة منهم باستعمال الآلات. بالاصافة الى ذلك، إنهم جد كسالى فلديهم بلد خصب ترعى فيه عدد من القطعان. والكثير من الأراضي الصالحة لزراعة القطن لا يزرعون شيئا منها بسبب كسلهم. ويتزيون بجلود لا يبدلونها، إذ يعتبر من الترف أن يكون هنالك ألبسة أخرى. ولباسهم قصير وسيء التفصيلة الى حد أنه من المخجل أن يشاهد الانسان كيف يلبس رهبانهم وقساوستهم وراهباتهم، سيما وهم أنفسهم لا يخجلون من ذلك. إلا أن الرهبان والكهان المنصبين يلبسون ثيابا قطنية ويرتدون كسي طويلة كما هو شأن جميع الأشراف، ولكن هذه الألبسة لا تصنع في البلاد. بل تأتي من الهند ومن غيرها. ومما يدعو الى العجب أنهم، على جهلهم وهمجيتهم، أذكى لصوص الدنيا. ولذلك، فهم لا يتدربون إلا على هذه الحرفة وعلى الأسلحة، ويتجولون دائما في البراري مثل العرب. والشيء الذي يخرجون فيه عن طبيعتهم بعض الشيء هو أنهم شجعان. ويوجد من بينهم عدد من القادة الكبار وقد أعطوا الدليل على ذلك للبرتغاليين في غير ما مناسبة.

الفصل الرابع والعشرون

المقابلة بين برناكاس وسكيرا في أركيك حيث أقاما حفلا بين أمرائهم. ورجوع هذا الأخير

أراد دييكو لوبي دوسيكرا أن يأخذ معلومات خاصة عن دير فيسلم وعن الأشياء التي كانت موجودة به، لأنه أهم ما يوجد ببلد الأحباش. فوجه اليه

فرنانلودياس، الذي كان يحسن العربية وهي اللغة التي يتكلم، على العموم، بها في تلك الجهات وكان ينتظر من هذا المبعوث أن يسجل له كل ما يراه من ملاحظات مهمة ويعود إليه قبل وصول الرهبان، حتى يتحقق هل كلامهم يتطابق مع كلامه في شأن طريقته وأسلوبه في الحياة.

وغاب أياما في سفرته تلك. وفي أثنائها وصل الرهبان إلى السفن فأراد الأب كوميز دوطيشيرا، أمين الجيش، أن يذهب معهم ليرى ديرهم. فحصل على الاذن بذلك من الجنرال ورافقهم إلى أركيك، حيث وجه عامل البلد أحد إخوته ليرافقهم إلى المكان. وفي الايأم الأولى التقوا هنالك مع رجال برناكاس الذين جاءوا للاتصال مع الجنرال سكيرا. ولما تقابلوا مع رجال برناكاس نزل العامل إلى الأرض، احتراما لهم ليحدثهم. وقضوا وقتا طويلا في ذلك وفي الأخير، تقابلوا مع العامل نفسه. وكانت أمامه أربع بغال جيدة تقاد باليد وأربع جياد تشبه خيول إسبانيا. والباقون كانوا يركبون البغال. وما أن وقعت عين أخيه عليه حتى نزل الى الأرض على بعد قذفة بندقية وألزم الأمين أن يفعل مثل ذلك.

وبعد ذلك ذهب كلاهما للحديث معه. ولما صارا قريبين توقف الحبشي بعض الوقت تشريفا للأجنبي وقبل كلاهما ثوب العامل في مكان ركبته. وهي عادة عندهم في تعظيم الأشخاص ذوي القيمة. ولما عرف برناكاص من هو كوميز وما هو مشروعه وأن الجنرال كان ينتظره، أجاب كرجل عاقل يأن ديرفيسام قريب وأن كوميز الذي كان يتحرق رغبة في الاطلاع على ذلك الطريق، قبل أن يصل إلى أركيك، يمكنه أن يذهب إليه ثم يعود ليلتحق بهم في أركيك. بل إنه رجا منه أن يتبع هذه الخطة لأنه سيكون مسرورا بالتحدث معه قبل أن يلتقي بالجنرال.

تابع الأمين سفره واطلع على ما كان يرغب فيه وعاد إلى أركيك وفي يده كتاب كان الرهبان أهدوه إياه ويحتوي على الأناجيل والرسائل ومزامير داود التي كانوا ينشدونها مع صلوات أخرى طبقا لما هو جار به العمل في الكنيسة الرومانية وأشياء أخرى كانوا يتداولونها. وما ان وصل العامل الى أركيك حتى كان هنالك تردد بواسطة الأمين فيما يخص المكان الذي يلتقي فيه هو والجنرال فالأول كان يريد أن يكون ذلك المكان هو أركيك والثاني كان بقترح السفن. وكان العرب هم الذين يثيرون تشككات ليمنعوا هذا اللقاء الذي لم يكن يعجبهم.

وذهب أنطوان دوصالدان وبعد جملة من الكلام رفض أن يكون هنالك تبادل رهائن بين النصارى ورأى أن تكون الكلمة فيما بينهم هي الضمان وأبرز

أحد الرهبان كان موجودا هنالك صليبا فضيا كان يحمله تحت معطفه وأراد أن يقدمه للعامل كضمان، ولكنه وقف بعجل ولم يشأ أن يستل منه لأن الأشياء التي يجري عنها التفاوض لم تكن من الاهمية حتى يستعمل فيها ذلك الرمز المقدس الذي تتعلق به المسيحية. ودون أن يضع أية صعوبة قال بأنه سيذهب إلى الشاطىء نحو الأسطول وأنه ما دامت السفن الكبيرة لا يمكنها أن تدنو كثيرا بسبب مصاطب الرمل، فإن الجنرال سيأتي على ظهر مركب صغير. وعلى أساس هذا الاتفاق، نزل نحو الشاطىء مع مائتين من الفرسان وألفين من الرجالة، وبعد ان أسند قيادتهم لعامل أركيك، تقدم مع ستة أشخاص فقط نحو بعض الكراسي التي كانت موضوعة على الشط.

وكان يحمل زيا على طريقة العرب يتكون من طليسان من الكتان الأسود يغطي ثيابه ومعطفا أسود فوقه، في حين كان يعتجر بطاقية من ثوب أبيض. وقد علم فيما بعد من رجاله بأنه كان يحمل ثياب الحديد، بسبب حملة كان قام بها في اتجاه مصر وفقد فيها أحد أولاده مع أربعمائة من الفرسان. وتقدم لوبي دوسكيرا مع ستمائة رجل من الأسطول في هيئة حسنة. ولما رأى النظام الذي كان عليه جند العامل، ترك هو أيضا عساكره مصطفين على طول الشاطىء واقترب مصحوبا فقط بعشرة رجال. ووضع مقعدان، واحد له والثاني للسفير ومقعد مغطى بالحرير للعامل، ذلك كان هو أعظم تشريف يقدم له. وقد وصل ثلاثتهم في نفس الوقت وأخذ كل واحد مكانه وبعد عبارات المجاملة والحمد لله الدي سهل في هدا اللقاء، أخذ جنرال البرتغاليين يتحدث بايجاز عن المشاق والأخطار التي تحملها لأجل اكتشاف الهند وحرص ملك البرتغال على التعرف على امبراطور الأحباش، المشهور في عالم المسيحية. وتحدث عن شك جنيرالات الهند في كون الذي جاء باسمه ربما كان أحد جواسيس السلطان. ولكن منذ وصوله الى البرتغال استقبل كسفير، وإن كان لم يكن من الممكن التعجيل باستقباله لعدة اعتبارات.

وفي الأخير، وجه الملك دون مانويل سواريس إلى حكومة الهند وأمره بأن يرده ويضعه بين يدي حاكم أركيك. إلا أن السفير الذي كان مقررا توجيهه معه توفي. وما دام الظرف معاكسا، فلم يكن من الممكن إنجاز هذا المشروع. وأنه لم يبق له الا أمران لتنفيذ أوامر سيده بأخذ شهادته حينما سلمه السفير ماتيو وأنه ترك لديه سفيرا آخر كان ملك البرتغال وجهه الى أميره عوضا عن الأول الذي كان

قد مات. والثاني هو أن يبني حصنا في جزيرة عمر أو في مصوع حيث سيسهل عليه أكثر من هنالك محاربة الكفار(1) في البحر الأحمر، وذلك بفضل الحصول على موافقة امبراطور الأحباش، وأنه كان عليه، بالاضافة الى ذلك، أن يأخذ الثأر من ملك دهلك الذي كان قد قتل قائدا برتغاليا، وجه هنالك لنفس الغرض، كما يعلم ذلك السفير نفسه، إذ هو الذي تنبأ له بأن ذلك العربي الذي كان غدارا سيقتله. وأنه جاء ليضع بين يديه الآن ماتيو وأنه بالنسبة لمن يوجهه سيده سيتأخر بعض الوقت وصوله لأن الأشخاص الذين سيصحبونه ليسوا بعد مستعدين لهذا السفر، وكذلك بعض الهدايا التي كان الملك يريد توجيهها للامبراطور.

وفيما يخص الحصن، فإنه يرى، أيضا، أنه لا يمكنه بناؤه في هذه السنة، لأنه ملزم بالانسحاب قبل الشتاء، وذلك لكونه أضاع جزءا من عتاده، ولأنه ينتظر موافقة الامبراطور. فلم يبق له، إذن، إلا أن يقوم بحركة نحو دهلك للتربص بالفرصة التي ستساعده على تحقيق مبتغاه.

وأجاب العامل في الصواب كرجل عاقل على كل ما قيل له. وفيما يخص الامير، ترك الأمر لارادته. ولتأكيد السلم والحلف الذي يتعهدان بهما باسم عاهليهما، أخرج راهب صليبا من الفضة المذهبة، فأمسكها العامل من الأسفل وجثا على ركبتيه وقال : «الوحدة والسلم التي أرادها يسوع بين أتباعه، فلتكن بيننا، نحن الذين نحمل نفس العقيدة. والذي أتعهد باسم الملك سيدي أقسم عليه على هذا الرمز لسلامتنا» ونطق البرتغالي بنفس القسم وعاد إلى مقعده. وبعد أن تحادثا طويلا عن الحرب التي كان امبراطور الحبشة يقوم بها ضدا على الوثنيين والمسلمين، افترقا.

وأهدى البرتغالي بعض الأسلحة للحبشي من بينها أسلحة كاملة كان الحبشي يريد أن يعرضها على بعض الحاضرين كشيء جديد في بلده، ووجه الحاكم في الحين إلى الجنرال فرسا وبغلا مع خمسين بقرة وزعت على السفن. وفي فترة الأيام الثلاثة التي قضاها الحاكم بأركيك تبودلت عدة مراسلات وهدايا بين الجانبين تاركا أمره لعامل أركيك أن يأخذ معه السفير ليذهبا بقصد رؤية الملك داود. وفي الحين وجه الجنرال البرتغالي دون روديك دوليما مع هدية سلاح وزخارف للكنيسة

(1) المؤلف ينعت المسلمين بالكفار، نظرا لتعصبه الديني الذي يبرهن عليه باستمرار في عدد من تعابيره. ونحن فضلنا، في الغالب، أن نحافظ له على تعابيره، كما تقتضيه أصول الترجمة (مترجم).

وغيرها من الأشياء الضرورية للعبادة حسب الطقوس المرعية بروما. ووضع الهدية بين يدي عامل أركيك كما أشار عليه بذلك حاكم الاقليم. فأصحب دون رودريك بفرانسوا ألفاريس، الذي كان راهبا، وبرتغاليين آخرين.

وبعد ذلك بزمان توفي سفير الحبشة الذي كان رجع من البرتغال في دير فيسام الذي كان يتشوق للوصول إليه. وانتقل رودريك إلى قصر الامبراطور داود حيث ظل هنالك ست سنوات وفي أثناء ذلك، ذهب الجنرال من مصوع وعرج على جزيرة دهلك التي توجد على ثلاثين فرسخا في موازاة شاطىء أبيكس. وجزيرة دهلك مقطعة بصخور ولا توجد بها الا مدينة واحدة اسمها دهلك والبقية ما هي إلا قرى. ولكنه لم يجد أحدا في الجزيرة، لأن سكانها تخلوا عنها لما سمعوا بمجيئه. فلم يغنم، إذن، الا بعض الدواب والجمال. وترك أثر إنتقامه على بعض الدور المبنية بالحجر إذ أمر بهدمها وبعد ذلك أشعل النار في المدينة وسار من الجهة الأخرى نحو جزيرة العرب، لأن الجهة الأولى كانت خطيرة لكثرة ما يوجد بها من مصاطب الرمل، ولم تكن معروفة بالكفاية من لدن الربابنة البرتغاليين.

فلم يشأ، إذن، أن يخرج من المضيق على طول شاطىء افريقيا. ووصل إلى مرسى عدن حيث أمكنه أن يستلذ بعدد من المرطبات. لكنه اصطدم بعاصفة في مدخلها تسببت في غرق كالبرة وفي رسوب عدد من القوارب وزوارق الانقاذ. وفي الأخير، رسا في كالاياطا. ومن هنالك وجه الأنباء الى البرتغال بما قام به في إثيوبيا. وإثر ذلك نظمت عدة مواكب واحتفالات مع التعبير عن الأمل بالحصول على أكبر فائدة من التحالف مع ذلك الملك. وواصل دون رودريك دوليما طريقة في أقاليم برناكاس وتيكرماون، وهي الأولى في تلك الامبراطورية. وممالك دانكور ودمارا وشوا حيث وجد الملك داود الذي استقبله ببرودة خلافا لما كان يأمله ولكنه تراجع عن هذه الانطباعات السيئة التي أوحى إليه بها أصحابه وسمح له بأن يرجع الى الهند بعد أن تفضل عليه بهدايا كبيرة، بل إنه سلم إليه رسائل للملك دون مانويل ولولده الملك دون جان، وفيها يعرض عليه حلفا سرمديا كما يرى ذلك من نسخة تلك الرسائل التي عرضناها فيما بعد.

الفصل الخامس والعشرون

كيف ذهب دون لويس دومينيزيس إلى مرسى مصوع للبحث عن دون رودريك وما حدث له في هذا السفر وكيف أتى به آخرون مع سفير الأمير

في سنة ألف وخمسمائة واثنين وعشرين، ذهب دون لويس دومينيزيس أخو حاكم الهند إلى مضيق البحر الأحمر ومعه تسع سفن شراعية، وزار في الطريق أماكن من شواطىء الجزيرة العربية. وكانت له مشاكل مع سكان شاير[1]، بحيث إنه استولى على مدينتهم ونهبها، ثم أبحر في ظروف لم تكن تخلو من خطر، بسبب الرياح المعاكسة وجاء إلى مرسى فرما الذي كان تابعا لسيادة أمير شاير. فأحرق ثلاث سفن للمسلمين كانت موجودة هنالك وجاز إلى مدينة عدن التي كانت في حالة ثورة واجتاز إلى موخا التي توجد على مضيق المصب وحاذى شاطىء أبيكس، ووصل الى مدينة مصوع مدفوعا بريح طيبة، وذلك لكي يحمل معه سفير البرتغال الذي كان موجودا بقصر الامبراطور الحبشي.

لكنه لم يجده في مصوع فوجه في البحث عنه، لكنه لم يصل في الوقت المناسب. فعاد إلى البحر لأنه لم يكن في إمكانه أن يظل في المضيق طويلا، بسبب الرياح المعاكسة. فسار في طريق الهند بعد أن أعلمه بانصرافه وطلب منه أن يكون مستعدا في السنة الموالية. ولما خرج من مصوع، مر بشاطىء جزيرة العرب ونهب مدينة الفار التي توجد في الجهة الأخرى من رأس فرطك. في طريق هرمز. وبعد أربع سنوات، وجه هنرى دومينيزيس حاكم الهند هيكتور سلفيرا مع ست سفن ليحمل ذلك السفير إلى مرسى أركيك. وفي هذا السفر جاء إلى مدينة ألفار على شاطىء الجزيرة العربية وهزم العرب الذين كانوا يقفون في طريق نزوله ومن هنالك ذهب الى مدخل المضيق وجاز إلى مصوع. ولكن السكان كانوا فروا داخل القارة لما حصل من خلاف بينهم وبين دون لويس دومينيزيس، بحيث إنه نهب الجزيرة وأخذ بعض الأسرى.

وقبل فيما بعد، بتدخل من حاكم أركيك، أن يتصالح معهم مقابل ثلاثة آلاف برداوس تعهدوا بأدائها كل سنة لملك البرتغال وأدوا له أول حصة منها. وقام بكل هنا في اثني عشر يوما وهو ينتظر السفير الذي جاء مع رجل من أهل البلد

(1) لعلها هي التي يسميها «الروض المعطار» شيرة (مترجم).

ولما وضعه الحاكم الاقليمي بين يديه رجع إلى هرمز حيث وجد حاكما جديدا للهند. وإليه دفعت رسالة امبراطور الأحباش الموجهة إلى لوبى سكيرا وهذا نصها.

الفصل السادس والعشرون

رسالة امبراطور الأحباش إلى لوبى سكيرا، نائب ملك الهند(1)

باسم الأب الاله، الذي هو ازلي ولا بداية له، وباسم الابن الوحيد الذي كان لا يرى مثل الاب ويشغل الكواكب أمام تأسيس العالم والذي صور فيما بعد، في رحم العذراء بدون نطفة بشرية وبحكمته التي لا نهاية لها. وباسم روح القدس مفرج الكروب وروح القداسة التي هي أساس كل الأسرار والتي كانت في البداية في أعلى عليين بالسماء. والذي رفع بدون عمد ولا قناطر الأرض من الشرق الى الغرب ومن الجنوب الى الشمال دون أن تكون موجودة من قبل ولا معروفة ولا مخلوقة وهذا ليس هو الأول ولا الثاني، ولكنهم جميعا يكونون الثالوث والخالق الواحد الذي يعمل كل شيء من قديم الزمان. وصية واحدة وكلمة واحدة لقرون القرون. آمين.

هذه الرسالة وهذه السفارة هما من ملك إثيوبيا الكبرى والعليا، المسمى باسم التعميد أنسيانسيو العذراء، والمدعو الآن داود منذ أن صعد الى الملك، رئيس بلاده المحبوب من الله وسند الدين وسليل قبيلة يهودا ابن داود بن سليمان ابن سلسلة صهيون المنحدر من نطفة يعقوب، ابن يد مريم، وابن ناحوم من الدم. إليك دييكولوبيزدوسيكيرا جنرال الهند.

سمعت بانك خديم لملك(2) منتصر في كل أعماله لا يخاف الكفار لأنه مسلح بالايمان وبحقيقة الانجيل، ولأنك متكىء على عصا الصليب. فالحمد لله على الدوام على نعمة الدين المقدس، إذ إننا غمرنا بالسرور في محبة سيدنا المسيح بسبب قدومك لأنك جئت تحمل سفارة السلم، والهدية التي بعد أتعاب ومشاق أتيت بها عن طريق البحر والبر وأنت تقوم برحلة طويلة ضدا على الكفار. وقد عجبنا من سماعنا أن أسطولكم وهو يذهب حيث يشاء، يقوم منذ سنتين بالحرب

(1) هنا، أيضا، نثبت الرسالة كما وردت في النص الأصلي، وإن كان فيها ما يخالف عقائدنا كمسلمين. فنحن نترجم ولا نتصرف في النص (مترجم).

(2) دون مانويل.

في البحر وأنتم متعرضون للأخطار دون راحة لا في ليل ولا في نهار كما هو الشأن بالنسبة لبني الانسان ذلك أن النهار جعل للشغل والسفر والليل للنوم والراحة كما يقول الانجيل. النهار منح للانسان للعمل من الصباح إلى المساء ولكن الليل يهبش الأسد الأرض برجليه ويخرج للبحث عن أكله، ولكنه يدخل إلى عرينه عند طلوع الشمس. والناس مثلهم مثل الحيوان، والحيوانات موجودة منذ بدء الخليقة. ولا بالنسبة لكم لا رقاد الليل يتعبكم ولا الشمس تضايقكم في النهار بسبب محبة السيد المسيح كما يقول القديس بولس. فلا الألم ولا الخوف ولا الجوع ولا القساوة ولا السيف ولا الرمح ولا الشغل ولا الاضطهاد ولا أي شيء في مستطاعه أن يبعدكم عن دين المسيح الذي نؤمن به في الحياة وفي الممات ويقول الحواري المرضى عنه، أيضا، أن المسكين الذي يتحمل الشر كما يتحمل الخير جدير بتاج الحياة والله واعده بكل ما يحب الحصول عليه.

وهنالك رجال يريدون ويعتقدون أنهم يسعون إلى شيء في حين أن الله يريد شيئا آخر. والله لم يخلق الانسان لغاية سيئة، حقق الله إرادتكم وأوصلكم سالمين أنتم وجنودكم إلى الملك دون مانويل سيدكم، وانتم تسوقون أمامكم أولئك الذين علبتم مع سلبهم، لأنهم لا يؤمنون بالمسيح، وهذا ما أهنئكم عليه وأطلب من الله أن يبارك في جنودكم وفيكم لأنهم شهداء المسيح، حينما يموتون على اسمه المقدس ويتحملون البرد والحر والمشاق والأتعاب. وقد علمت أنكم وصلتم الى بلادنا وفرحت كثيرا لهذا النبأ، وكأنني حصلت على غنيمة كبيرة. ولما علمت أنكم رجعتم إلى الهند تأثرت بذلك كثيرا. ولكن لما قيل لي إن سفيركم سيقدم لزيارتي، وأخبرت بنيتكم الحسنة، فرحت بذلك حتى استمر السرور لدي إلى هذا اليوم.

فالحمد لله وللأب الذي هو إلهنا الواحد، ولسيدنا المسيح منقذ العالم. وقد استقبلت سفيركم وسمعت من بعيد شهرتكم جعلكم اله مواصلين لمحبتنا وحقق إرادتكم. وأود، أن توجهوا لي بعض الصناع الذين يحسنون خدمة الذهب والفضة والذين يصنعون بعض الأسلحة، وبنائين لتشييد بعض البنايات وفلاحين في الكروم وبستانيين، ومختصين في تغطية الكنائس بالرصاص وفي بناء السطوح وتغطيتها بالطين الغليظ عوض ما نستعمل نحن من التبن وجذوع الشجر وقد بنيت كنيسة كبيرة تمجيدا للثالوث الأقدس حيث دفن والدي، أي مع الله. وسيقول لكم سفيركم كيف أن جدرانها جيدة. وأريد أن أغطيها عما قريب، لأنها غير مسقفة إلا بالحشائس. وأرجوكم، باسم الله، أن توجهوا لي عشرة معلمين في كل هذه الحرف،

وأضمن لك أنه لن يخصهم أي شيء، وأنهم سيكونون راضين طوال الوقت الذي سيكونون فيه عندنا، ولما يرغبون في الرجوع سنؤدى لهم ثمنا جيدا، ونتركهم يرجعون في أحسن حال. وأوجه لك بعض الفرنج الذين كانوا ههنا والذين كانوا يريدون أن يذهبوا كمسلمين إلى معسكر سلطان القاهرة. وقد حولتهم الى المسيحية وسيرشدونكم الى طريق زيلغ وعدن ومصوع ومكة، لأنهم يعرفون ذلك.

وليطمئن قلبك فرحا على هذا وهو انني سأكون عند رغبتك واستجابة للطلب الذي قدمته لي بالاذن لك ببناء كنيسة وحصن بجزيرة مصوع، فأنا آذن لك بذلك وبنفس العمل في دلاكًا وأن تعين الرهبان في الكنائس وأن تضع الحاميات في المراكز ضد العرب فاشرع منذ الآن في العمل قبل الرجوع الى الهند ودون أن تضيع الوقت ولا ترجع حتى يكون ذلك قد تم وسنشكرك على ذلك كما نشكر الملك دون مانويل سيدك. وحيث أن الله شاء أن يتم الحلف فيما بيننا، فافتحوا أسواقا تباع وتشترى فيها السلع، دون الاذن للعرب بالمجيء اليها. وإذا لم تكن تلك هي رغبتكم، فلتجر الأمور كما تشاءون وبإذنكم.

ولما تعملون ما قلت لكم في مصوع الذي هو مرسى تذهب منه كثير من الأقوات لعدن ولمجموع الجزيرة العربية ولعدد من الأقطار الأخرى التي لا يمكن أن تزود إلا من هذاالمكان. فسيكون في يدك كل هذه البلاد دون أن تحمل السيف في يدك، لأنك ستمسك في يدك طعامهم وإذا أردت أن تشهر الحرب على الكفار، ما عليك إلا أن تعلمني بذلك، وسأوجه لك الخيالة والرماة الذين سيساعدونك على إلحاق الهزيمة بهم. وإذا أردت أن تذهب إلى الهند، فاترك دون رودريك حاكما على مصوع، وحافظ على الاتصال به عن طريق المراسلة إذا حصل تخوف من أي شيء.

وإن السفراء الذين أرد إليك هم الأولون الذين جاءوا لمقابلتي فعاملهم أحسن معاملة، وبالأخص دون رودريك الذي هو رجل شريف. ويستحق ذلك لوفائه ورزانته، والأب فرانسوا دالفاريز الذي يستحق مكافأة مزدوجة، لأنه رجل أمان ويحب الله. وقد اعترفت باستحقاقه ومنحته الصليب والعصا. وكلاهما علامتان على علو المكانة في بلادنا. فضاعف له هذا التشريف، وأجعله سيدا على مصوع وزيلع وكل جزر البحر الأحمر، لأنه مقتدر وجدير بهذا التشريف بسبب خدماته وأحسن كذلك للكاتب الذي هو صاحب فضيلة وخديم مخلص للملك. وأحسن، أيضل، إلى بقية رجال السفارة من أصغرهم إلى أكبرهم. حسب

استحقاقهم سلمك الله وغمرك وغمر بفضله كل أولئك الذين هم معك. أحسن إليهم أيضا. وأنارك الله وهم بهديه وأعان إخواننا الذين يتحابون وكل أولئك الذين يلجأون إليك. كان معك ومعهم وأمدكم بعونه. ولتجتمع رجلاكم على الطريق وليحفظكم من العين الشريرة وسفنكم من الأمواج العاتية والعاصفة. ولينعم عليكم بقضاء بقية أيامكم بدون مرض. وليحفظكم في كل ساعات النهار والليل، والشتاء والصيف على الدوام.

إني أوجه لكم مباركتي، لا لأنني أكتب إليك ولأن من عادتي أن أفعل ذلك في كل رسائلي، ولأن الأمر جار بذلك في كل الكنائس والمعابد التي أسسها أسلافنا، ولكن لأني أحبك. واحتفظ بك في ذكراي. إننا نتوسل إلى الله مولانا وولده يسوع من أجل اخواننا الذين قطعوا بحارا وأنهارا وبحيرات وطرقا مجهولة ليصلوا إلينا. فليكن معهم أينما حلوا وليقدهم بكل أمان على صفحات البحار وليحفظهم ويزك عمرهم. وذلك ما يجيب به الشمامسة في خطابهم للرهبان الذين يقولون لهم، أيضا : كان الله معكم وأعطاكم ما يريد. وهم إخوان في الخطر، كما هم كذلك عند ذهابهم للحج.

وليكن الصراط المستقيم معهم، وهو الطريق الذي يرغبون فيه يمنحهم الله ما يتمنون. ويقول الشماس والشعب : ربنا الله ارحمنا. ويجيب الراهب : قادكم الله دون خطر في بسائط البحار وأبلغكم إلى والديكم كما تشاؤون. وجعلكم سعداء بفضل ولده يسوع، الذي يكون معكم كما تكونون معه ومع روح القدس الذي هو المجد الخالد الآن والى الأبد. آمين.

وعلى هذا الأساس، تتلى الصلوات في كل الكنائس وفي كل الساحات، وفي القداس الاحتفالي يكون ذلك باحراق البخور لا من أجلك أنت، ولكن من أجلكم كلكم فليكن معكم في هذا الحج بحرا وبرا. وسنقوم بهذا القداس حتى يحفظكم الله ويجنبكم كل فكرة سيئة في صلواتكم. وحينما تأتون لمحاربة الكفار، سأعينكم بالجنود والمال والأقوات، ليس فقط ضد أولئك الذين هم في مصوع وزيلع وعدن، ولكن ضدا على كل الأشرار والجاحدين من أبناء محمد. فحاربوهم بعون مولاتنا المنعمة العذراء مريم. ومن جانبي سأقوم بذلك وأحاربهم وأغلبهم في البر كما تهزمونهم في البحر، باتفاق مشترك فيما بيننا وبفضل الثالوث المقدس.

الفصل السابع والعشرون

رسالة امبراطور الأحباش الى الملك دون مانويل، ملك البرتغال

باسم الالاه الذي هو منذ الأزل لا بداية له وسيبقى كذلك الى الأبد. إن الذي كتب هاته الرسالة، ملك شواوسفط وفاتيكار وأنكور وبارو، وبالكانسى، وعادى وفاك، وتيكريماون وسبين، التي أتت منها ملكة سبأ، وبركاس الذي يمتد ملكه إلى مصر.

إلى الملك العظيم والجليل دون مانويل المنتصر دائما والمحبوب من الله، والمتمسك بالدين الكاثوليكي، ابن بيير وبول ملك البرتغال، صديق النصارى وعدو الوثنيين والمسلمين، سيد افريقيا وغينيا وجبال القمر والجزيرة التي تحمل اسمه في البحر الأحمر وجزيرة العرب والفرس وهرمز[1]، والهند الكبرى وكل الجزر والمدن الموجودة بها. حاكم على الوثنية وفاتح لها. سيد على الكفار والأراضي القصية.

سلام عليكم يا دون مانويل، القوي في الايمان، وخديم سيدنا يسوع لالحاق الهزيمة بالمسلمين والذي يلقي بهم خارج البلاد بدون رمح ولا سيف. السلام على زوجتكم، صديقة يسوع، وخديمة سيدتنا العذراء مريم، أم منقذ العالم. السلام على أولادكم جعلهم الله يتفتحون حول مائدتكم كالآس في البستان. السلام على بناتكم أضفى الله عليهن من الزينة ما هو موجود في القصور الجميلة. السلام على أقاربكم بذور الأولياء وكما يقول الكتاب المقدس : بارك الله في أبناء القديسين. وملأهم غنى ونعمة من الداخل. السلام على رجال شوراكم وعلى ضباطكم ومن يقوم مقامهم، وعلى قضاتكم. السلام على كيراء دولتكم وعلى قادة جيوشكم وحكام ثغوركم. السلام على شعوبكم الذين ليسوا الا واحدا في شخص يسوع. سلام على مدنكم وسكانها إذا كانوا غير مسلمين ولا يهود[2]، وإنما نصارى فقط، سلام على كل خورنيات يسوع وأتباعه الأوفياء. آمين.

(1) هذا افتراء من المؤلف، إذ ما كان لملك البرتغال أي سيطرة على جزيرة العرب ولا على الفرس، وانما احتك البرتغاليون ببعض النقاط في الساحل، لكن سرعان ما طردوا منه (مترجم).

(2) مثال آخر من تعصب المؤلف (المترجم).

سمعت، أيها العاهل الكبير، والذي أنت أب لي، أنك لما تعرفت على عن طريق التقرير الذي قدمه سفيرك، جمعت أساقفتك ورؤساءهم، وهذا ما أدخل على سرورا كبيرا وحمدت الله عليه ولست وحدي في ذلك بل شعوبي، أيضا، وحين علمت أن هذا السفير توفي في دير فيسام تأثرت لذلك كثيرا، وإن كنت لم أوجهه، وانما أمي هي التي كانت تحكم آنذاك في بلادي لأن سني لم يكن يتجاوز آنذاك اثنى عشرة عاما حين توفى والدي. وكان السفير تاجرا ويتسمى أبراهام، الا أنه غير اسمه باسم ماتيو، لما اجتاز ببلاد الكفار وهو يحمل بضائع ليعد كتاجر. ولكن لما وصل الى ديبل، وعلم المسلمون أنه نصراني، أخذوه وسجنوه في مطبق ومن هنالك وجه الى جنرالكم في الهند يتشكى مما حصل فيه من أسر وذكر بأنه كان سفيرا لي وأنني كنت وجهته الى ملك البرتغال حتى يمكنكم أن تأتوا لفكاكه من الأسر. وإثر هذا الاعلام، وجه جنرالكم، وقد حركته الغيرة الدينية، سفنا وجنودا لتحريره وللانتقام من الكفار.

ولما قابله وعلم من هو وما هو هدفه، وجهه إلى البرتغال حيث كان، كما قال، يحمل صليبا وأعطاه إياه وبعد محادثة معه، أحسنتم اليه وشرفتموه. إلا انه مات عند عودته. والبرتغاليون الذين كانوا راجعين معه أبلغوني رسالته. ولذلك فأنا أشكر الله وأعبر عن سروري بالاطلاع على أخباركم وأخبار شعوبكم. ولكني فرحت بالخصوص لما رأيت الصلبان على رؤوسهم وفوق بطنهم وأياديهم. ولما سألتهم عن أمور الدين وسمعت منهم بأنك نصراني وبأن أناسا جاءوا الى مملكتي لم يكونوا معروفين بها من قبل. قالوا لي بأن الله هداهم في طريق جديد ليصلوا الي هذه البلاد. ذلك أنهم، في الوقت الذي كانوا يبحثون فيه عن طريقهم دون أن يهتدوا إليه، وكانوا مستعدين للرجوع الى الهند، معرضين أمتعتهم وحياتهم للخطر، شاهدوا فوق هذه الديار صليبا أحمر في السماء كان يعبده الجميع، وهذا ما أثار إعجابي، إذ هو علامة على أن الله هو الذي قادهم حتى تصل الي سفارتكم. وقد وقع التنبؤ بذلك في حياة ومحنة القديس فيكتور، حيث يقول بأن أحد ملوك الفرنج سيلتقي مع أحد ملوك إثيوبيا وسيتم الحلف بينهما. ولم أكن أعلم أن ذلك سيحدث في زماني، ولكن الله كان يعلم ذلك.

فليقدس اسمه وليحمد على ما أتاح من وصول سفارتكم حتى أوجه لكم سفارتي، وكأنها لأبي وصديقي المنتمي لنفس الدين ولم يحدث أن رأيت من قبل

سفيرا بجانبي في حين كان من قبل لا يوجد إلا أولاد محمد الشريرون(3) والزنوج الذين منهم من يعبد الخشب، ومن يعبد النار، ومن يعبد الشمس أو الحيات وما أشبه دلك. ولم أكن أشعر بأمن ولا راحة لأنهم لم يكونوا يريدون الاعتقاد في الدين الذي كنت أعلمهم. ولكن اليوم جعلني الله في راحة ولم أعد أخشى أي شيء من أعدائي فاذا ذهبت لمحاربة المسلمين على الحدود، فانهم لا يجرؤون على انتظاري. وإذا وجهت لهم جيوشي، فإني انتصر عليهم انتصارا كاملا. وكما يقول المزمار : «الملك يسر بقوتك والكثير فرحون لسلامك، فستعطيهم ما يطلبون، حينما يكون طلبهم عادلا» وكل واحد يقول في نفسه نفس الشيء في أمداحه، ولكن من الواجب الحمد لله لمنحه إياك السلم فيما وراء البحر ابتداء من بلادك إلى إثيوبيا ولكونه وضع في يدي عدة عوالم. أعبر له عن امتناني الذي لا ينتهي في حقها.وهذه العوالم قوية جدا وأنا متيقن بأن أبناء الكفار سيأتون لمعرفة الحقيقة وانتم وأنا سنفرح بذلك لأنه سيكون أعطانا إياها لنا جميعا.

فلا تنته من الصلاة حتى يسلمك الله البيت المقدس في أورشليم التي هي في يد الكفار. وإذا ما تم ذلك، فلن يشتهر اسم كاسمك فاعمل لذلك، إذن كراع واجعل عليه رعاة مخلصين ووزراء في خدمة السيد المسيح.. وعلمت أنك وجهت سفراء مع سفيري وأنه مات منهم ثلاثة في الطريق. وجاء جنرال الهند الى مصوع وتحادث مع برناكاس الذي هو ملك تابع لنا. ومن هنالك وجه لي سفراءكم. وهذا ما فرحت له. فمن بين كنوز الدنيا، اسمك هو الأنفس عندي واعتز به أكثر من كل الثروات والجواهر. ولذلك فقد انصت اليهم بكامل الانتباه.

ولنترك الآن هذا لننتقل إلى ما هو أمس بنا. إني أضع مائتي مليون من الذهب في حلفنا إذا أنت قبلت أن تقوم بما أريد. وبرغم كوني لم اعتد توجيه سفراء لمثل هده الفضايا، كونوا على يقين أنني سأفي بوعدي لأنك كنت أول من وجه لي من أجل اعتناق النصرانية وللقيام بما أمرنا به يسوع وأتباع سنة الحواريين الذين لم يكونوا كلهم إلا قلبا واحدا وروحا واحدة.

أيها الملك دون مانويل، أبي، حفظكم الله، الله الواحد الذي هو في السماء والذي لا يتغير ولا يكون صغيرا ولا شيخا. فالسفارة التي وجه الي

(3) تحامل المؤلف بهذه الصورة يدل على الصعوبات الكثيرة التي صادفها البرتغاليون مع المسلمين وهم يحتكون ببلادهم، أثناء اتجاههم الى بلاد المحيط الهندي (المترجم).

جنرالكم، بأمر منكم، سفارة صالحة والذين شاركوا فيها كانوا من أهل الخير. استقبلتها بكل احتفال وأحسنت إلى دون رودريك الذي كان في صدارتها. وقابلني الأب فرانسوا دالفاريز. وبينت له كثيرا من المحبة لأنه رجل عادل وصادف في أقواله وفي كل الأشياء التي تتعلق بالدين. فزد في رتبته وامنحه الأمانة في تنصير أهل مصوع ودهلك وزيلع وكل جزر البحر الأحمر الواقعة على حدودنا، لأنني منحته إياها ووضعت الصليب والعصا في يده وهما علامتا هاته السلطة. فاعمل على أن يحصل على الاسقفية في هاته الجهات لأنه يستحقها ويقدر عليها رفع الله قدركم وزادكم قوة لمحاربة أعدائك حتى يأتوا وينحنوا على رجلكم. وأطال عمركم ومنحكم مكانا في السماء، كما أطلب ذلك لنفسي.

كنت أسمع أشياء جميلة بأذني، ولكن لم أكن أراها بعيني والآن، أشاهد ما لم أكن أتصور حدوثه. فليزد الله في ذلك. آمين. وسيقول لكم سفيري ما انتظر منكم. وقد وجهت فرانسوا ألفاريز إلى البابا بتكليف مني. وهذا ما كنت أرغب فيه. وسأعيده لكم كولد مطيع لأبيه، حينما توجهون لي سفراءكم. فاكتبوا الي دائما حتى نتعاون فيما بيننا. وسأستقبل أحسن استقبال أولئك الذين يردون منذ الآن الى مصوع ودهلك والمراسي الأخرى وما تطلبونه مني سيكون منجزا لأن نيتي أن نجمع بين قواتنا. ولما يصل رجالكم الى هذه الديار، سأذهب لاستقبالهم لأن البلاد لي، ولأنه لا يوجد بها نصارى، وانما وثنيون ومسلمون. فأنا مسرور باستقرارهم في هاته الأماكن وليتم ما بدىء به.

وجه لي صناعا يحسنون تصوير الوجوه بالذهب والفضة والنحاس والحديد والقصدير والرصاص، ومعهم الرصاص لتغطية الكنائس وطباعين لطبع الكتب بلغتنا وأناس يحسنون صنع أوراق التذهب والتذهيب. والكل في العاجل ليظلوا معي هاهنا وإذا رغبوا في العودة، فإني لن أمسكهم، وأقسم بالسيد المسيح، ابن الله الحي على ذلك، ولم أؤد لك أي خدمة على مقابل ذلك ولكن ما أطلبه منك إنما بإسم الصداقة التي تكن لي، بسبب الخير الذي أسديته إلى سفيسري محبة في. فلا استوحش من ذلك، فإنه سيكون على حسابي، لأن الأب لا يرفض مطالب والده. وأنا ولدك وانت أبي. فنحن كلانا متحدان في سيدنا عيسى، كما هم كل المؤمنين.

ولم يتلق ملك البرتغال هاته الرسالة لأنه مات قبل ذلك. فكتب الامبراطور رسالة الى دون جان الذي خلفه ونوردها فيما يلي.

الفصل الثامن والعشرون

رسالة ملك إثيوبيا إلى دون جان ملك البرتغال

باسم الله ذي القوة وخالق السماوات والأرض وكل شيء مما يرى ولا يرى. وباسم الله الابن، الارادة والنصيحة ونبي الاب وباسم الالاه روح القدس، باركليس، الالاه الحي المساوي للأب والابن والذي نطق بفم الانبياء والذي انتشر على الحواريين حتى يؤدوا الحمد ويشكروا الثالوث في السماء والأرض وفي البحر على الدوام. آمين(1).

هذه الرسالة موجهة اليكم من لدن أنسيانكوا العذراء ملك إثيوبيا، ولد ناحوم ابن الملك من يد مريم، ابن الملك من ذرية يعقوب الذين خرجوا من بيت داود وسليمان ملكي أورشليم إلى الملك دون جان ملك البرتغال ابن الملك دون مانويل. السلام عليكم ومجد مولانا يسوع دائما لنبإ قوة الملك والدى الكبري، الذي كان ينتصر على قوات العرب، أبناء محمد. وإني أشكر الله وأحمده على أن أسبغ عظمته وأسس تاجا للسلام في ملة النصرانية وأفرح غاية الفرح لكونه وجه في طلب الحلف معي للقضاء على المسلمين واليهود والوثنيين، الموجودة بين مملكته ومملكتنا.

ولما علمت بأنه توفي قبل أن أوجه سفرائي، تحول فرحي إلى حداد، وأسف عليه كبراء دولتي، وانتحب عليه رجال الدين في أديارهم، لما دخل عليهم من الحزن للنبأ، بقدر ما كانت الأنباء الأولى تسرهم.

أيها السيد الأخ منذ بداية أمبراطورية إثيوبيا إلى الساعة الراهنة، لم نشاهد أي سفارة قادمة من ملك البرتغال، وإنما كنا نسمع بعض الأصداء من الحجاج الذين كانوا يذهبون إلى روما وإلى القدس إلى أن وجه الملك أبوكم إلى قصري الضباط مع عدد من الرجال والرهبان والشمامسة الذين كانوا يأتون للأشياء الضرورية لأداء الصلاة. وقد سررت كثيرا لمجيئهم واستقبلتهم، وجعلت الناس يستقبلونهم بكل تشريف ووجهتهم في أمان وسرور. ولكن، لما وصلوا الى مرسى تابع لي في البحر الأحمر، لم يجدوا الجنرال الذي كان والدكم وجهه لأنه لم ينتظرهم

(1) نتقل كلام المؤلف، حسب عقيدته دون تغيير. ونحن في غنى عن التذكير بأن ذلك يختلف مع عقائد الاسلام. (مترجم)

كما طلب منه. والسبب هو أنه، نظرا لعادتكم لتغييرهم من ثلاث سنوات إلى ثلاث سنوات، كان لا بد له من الانصراف لأنه جاء آخر ليحل محله.

وهذا هو نفس الموضوع الذي دعا سفراء الملك والدكم الى التأخر. وأنا أوجههم اليكم الآن وسفرائي معهم، ليروكم كما سيرون البابا.

أيها السيد والاخ. حافظوا على الصداقة والحلف الذي كان والدكم أسس معنا ووجهوا إلى سفراءكم بكثرة. وأتمنى أن تكون سفارات أخوية. ومن الواجب، إذا شئتم ذلك أن ندعوا بعضنا البعض بالأخ مادمنا نصارى وما دام المسلمون يتحدون فيما بينهم في كل مسائل الدين. ومنذ الآن لست أرغب في سفارات آتية من ملوك مصر وغيرهم من الملوك الذين اعتادوا أن يوجهوا لي سفاراتهم. وإنما رغبتي في سفاراتكم فقط. ذلك أن أولئك الملوك لا يبحثون عن صداقتي الا من أجل الاستفادة منها في التجارة أو في كميات الذهب التي يحصلون عليها منها. ولكن العلاقة مع الكفار لا تعجبني. ولا أتحملها إلا من باب العادة. وإذا تخليت عن محاربتهم، فذلك خوفا من أن يقوموا بتحطيم القدس حيث يوجد قبر المسيح الذي وضعه الله في قبضة المسلمين وكذلك كنائس مصر وسوريا.

ومع ذلك، فالذي يحزنني في هذا، بسبب كوني ليس لي جار نصراني قادر على أن يساعدني في هذا المشروع. وإنه ليضايقني، أيها السيد الأخ، أن يكون ملوك الفرنج، وهم نصارى، لا يتحدون ويظلون في انقسام دائم. فلو كان لدى كجار أمير نصراني لما افترقت منه ولو ساعة واحدة. وليس لي ما أقوله في هذا الشأن لأن هذه أشياء جاءت بقضاء من الله.

أيها السيد والأخ، اكتبوا إلي، لأنه يخيل الي أنني أراكم كلما قرأت رسائلكم. والمحبة هي أقوى بين الغائبين منها بين الحاضرين لما يحدوهم من الرغبة في رؤية بعضهم البعض. فالانسان إذا كان بعيدا عن كنزه فإنه يبقى حاضرا في ذهنه دائما، كما يقول ربنا في الانجيل، فليكن قلبنا حيث يوجد كنزنا. وهكذا فقلبي معك لأنك انت هو كنزي فكن أنت كذلك معي ولنجمع بين قلوبنا، أيها السيد الأخ. فإنك متبصر وحكيم. واجرؤ على القول بأنك أكثر علما من والدك، لأن هذا قد علمته من الغير، وهو شيء أحمد الله عليه. وقد حول حزني الى فرح. فقلت : بارك الله في العاقل والرزين بن الملك دون مانويل.

أيها السيد، لا تملوا مطلقا من محاربة المسلمين فستغلبونهم بمعونة الله. لا تعبروا بأنكم لا تملكون القوات الكافية. إن قواتكم كبيرة وسيكون الله في

عونكم. ولدي من الرجال والأموال والأقوات مقادير تساوي رمال البحر ونجوم السماء. فإذا اتحدنا، فسنحطم كل الكفار. ولا أريد منكم الا رجالاً ينظمون رجالنا ويسلحونهم فأنت رجل مكتمل. وقد كان الملك سليمان وهو ابن اثنتى عشرة سنة قويا جدا وأشد حكما من والده.

وفيما يخصني فإنه لما توفي والدي كنت جد صغير، ولكن الله أمدني بقوة كبيرة أكثر مما كانت عنده وأنا ممسك بزمام كل شعوبي وأقاليمي الخاضعة لسلطتي وأحكم في منتهى الراحة. فلنحمد الله على ما غمرنا به من أفضاله. والذي أرغب فيه منك، أيها السيد والأخ، هو أن توجه لي صناعا يحسنون التصوير وأرطالا مقولبة وسيوفا وكل أنواع السلاح وبنائين وسقافين وأطباء وجراحين وصيدليين وسكاكين لقطع الذهب والفضة وأناسا يحسنون استخراج الذهب والفضة والنحاس من المناجم وتغطية السقوف بالرصاص وصناعة السطوح والبنادق، وبالاجمال، كل أنواع الصناع الضروريين في المملكة.

فأعني إعانة الأخ لأخيه فيما أطلبه منك أعانك الله وخلصك من كل بلاء، وتقبل الله خطبك، كما يتقبل الضحايا المقدسة، كل واحد في وقته. أولا، هابيل، ثم نوح في السفينة، ثم إبراهيم في بلاد مدين، ثم إسحاق حينما غادر بئر القسم، ثم يعقوب في بيت لحم، ثم موسى في مصر، ثم هارون في الجبل، ثم يوشع بن هو ثم كَلكَادا، ثم جديون على الشاطىء، ثم مانوهي وامرأته، ثم شمشون حينما أصابه العطش في الصحراء، ثم يفتي وديبورة، حينما قاما ضدسيسيرا في جبل طابور، ثم النبي السمؤال في راما، ثم داود في البيدر، ثم ربعام وسليمان في مدينة كَباون، ثم هيلي في حبل الكرمل، حينما بعثه ولد الأرملة، وريكا في البئر، ويوشفاط في المعركة، ومناصى منذ أن حارب وعاد إلى الله، ويوسياس منذ عودته، ودانيال في حفرة السباع ويونس في بطن الحوت، والأطفال الثلاثة في التنور وحنا داخل المعبد، ونهيمي التي أعادت بناء أسوار أورشليم مع زروبابل، ومراسياس وأولاده على ربع العالم، وايساو من أجل المباركة.

تقبل الله تضحياتكم ودعواتكم وأعانكم على أعدائكم الشريرين. صحبكم السلام وأقبلكم قبل التقديس وكذلك كل من يدخل في شوراكم المقدس لما فيهم من كبار الاساقفة والاساقفة والرهبان والشمامسة وكل النصارى، وستر الله وبركة سيدتنا تكون معكم ومعهم امين.

ذلك هو المحتوى الحرفي للرسالة. ولننظر الآن كيف وجه السلطان الأعظم جيشا إلى مرسى سويس ضد البرتغاليين. وبعد ذلك ننتقل إلى وصف مصر.

الفصل التاسع والعشرون

كيف حشد الباب العالي جيشا بحريا في مرسى السويس ضد البرتغاليين وما نتج عن ذلك

تأثر سليمان بنداءات العرب، سواء منهم عرب الجزيرة أو مسلمي الهند، وبالخصوص، القاطنين بشواطىء افريقيا التي كانت متضايقة من البرتغاليين، اعتبارا للمصلحة الخاصة، الناتجة عن تجارة التوابل، فعزم على أن يوجه جيشا بحريا قويا إلى البحر الأحمر. ومن أجل ذلك حجز كل السفن المسيحية التي كانت موجودة بالاسكندرية، وبالخصوص منها سفن جمهورية البندقية التي كان قد قطع معها العلاقات في تلك السنة(1). وجند فيها كل البحارة الدين كانوا موجودين بها والطبجية وقادهم إلى القاهرة. ومن هالك إلى مرسى السويس، حيث كان من المقرر تجهيز الأسطول. وأمر بأن يجلب من سيطابي الخشب وكل التجهيز الضروري والاتيان به الى الاسكندرية ومن هنالك يحمل عن طريق النهر إلى القاهرة ومن القاهرة الى السويس على ظهر الجمال.

فصنع من ذلك سبع عشرة كاليرة خفيفة وست ماهونيات مهجنة وسبعة وعشرون غرابا جديدا وغليونان وأربع سفن وعدة مراكب أخرى صغيرة. وكان الكل جاهزا لليوم الخامس عشر من مارس في سنة ألف وخمسمائة وثمانية وثلاثين وجاء سليمان باشا بنفسه لقيادة الجيش وفي ظرف ثمانية أيام، قام بتهييء كل شيء. وبعد أن أدى للجنود أرزاقهم، خرج من المرسى على كاليرته، وأمر أن يقاد الى رأس فرعون الموجود على بعد فرسخ من مرسى السويس وأربعة باعات من الماء. وهذا الرأس واقع على ثلاثة فراسخ من آبار موسى السبعة بين الشرق والجنوب. والتحق به كل الجيش هنالك.

وأخذ في طريق الهند، بحثا عن الجيش البحري لملك البرتغال، أو، كما كان يقول، لاسترجاع حصن ديو، الذي كان البرتغاليون استولوا عليه قبل ذلك ببعض الوقت. وبعد أن نزل من مصب السويس في اتجاه الشرق، وعرج شيئا ما من جهة

(1) 1537.

الجنوب، جاء وتوقف قبل الليل في كراندالو، حيث يقال بأن بني اسرائيل قطعوا هنالك البحر الأحمر بمعجزة. ومن هنالك ذهب الى طور الذي هو آهل بالنصارى المدعوين نصارى الحزام والموجودين على بعد يوم ونصف من قمة سيناء. ونزل للتزود بالماء وأخذ بعض المرطبات في صيدا، فواصل طريقه، وبعد أن أضاع بعض السفن بسبب العاصفة، جاء الى جزيرة قمران. ومن هنالك وجه غرابين، أحدهما الى ملك زبيد، والآخر الى ملك عدن ليهيئا له الأقوات للجيش مع أمر الأول بأن يؤدي الفريضة التي كان مدينا بها للسلطان الأعظم وأن يقدم له فروض الطاعة باسمه.

وبعد أن انتظر عشرة أيام وصول الجواب، وجه له ملك زبيد هدية وهنأه بذهابه لمحاربة البرتغاليين وواعده بأن يؤدي له الفريضة عند عودته. بوصفه تابعا للسلطان الأعظم وبهذا الجواب غادر قمران وذهب ليرسو في صخرة لونكتراشين على شاطىء أبيكس. وفي الغد خرج من مصب المضيق وجاء الى مدينة عدن، حيث أتاه أربعة من الكبراء ببعض المرطبات، فاستقبلهم أحسن استقبال، وأعطى كل واحد منهم، حاكيته من المخمل فيها أزهار مزخرفة، مع أمر الملك بأن يأتي لزيارته في كاليرته دون أي خوف. ولكنه لم يستمع لذلك وأجاب بأنه يعطي كل ما يستطيع بحرية، إلا أنه لا يقبل أن يخضع لسلطة الغير. وفي الغد، أنزل الانكشلرية بأسلحتهم، ووجه يطلب منهم مرة ثانية أن يأتي لتقديم الطاعة للسلطان الأعظم. وقبل، في الأخير، بإقناع من الشخص الذي وجه اليه والذي قدمه الباشا بثوب ملتو على عنقه، ولكنه استقبله استقبالا حسنا، وأهداه طليسانين من المخمل المزخرف بأوراق الذهب، ووجه إلى حال سبيله ولكنه قبل أن يصل الى الأرض، قتل هو ومن كان معه. ووجه في الحين سنجق مع الانكشارية للاستيلاء على القصر والمدينة حيث ترك سليمان ثلاث سفن لحراسة المرسى، وتوجه في طريقه.

وفي الثالث من شتنبر، بلغه من زورق أنه كان بقصر ديو سبعمائة برتغالي وست كاليرات مجهزة في المرسى. وبعد ذلك جاء غراب وعلى ظهره يهودي وقع في الأسر. ومنه أخذت كل المعلومات المطلوبة. وجاء الأسطول ليرسو على بعد فرسخ من ديو، ووراءه ريح طيبة. وهناك جاءه مرتد من كلابريا(2)، وكان قد تاه في أسطول آخر. وهو صاحب كاليرة. وكان في خدمة مالك كامباي الذي أسند اليه قيادة جنوده ومنحه بعض الأراضي. وكان هذا الشخص قد عقد الصداقة مع

(2) كتسازفير.

البرتغاليين، وتعامل معهم برفق ولكنه لما علم بأن الجيش البحرى للسلطان الأعظم آت في الطريق، جمع قواته، واستولى على مدينة ديو وقام بحصارهم في القصر. وكان مصحوبا بجنرال آخر لملك كامباي، ومعه ثمانية آلاف رجل كان يخرج إليهم المحاصرون كل يوم.

ولما دخلا كلاهما الى الكاليرة الملكية، استقبلهما الباشا استقبالا حسنا وعلم منهما بأن القصر كان يحتوي على ثمانمائة نصراني لا يوجد من بينهم إلا خمسمائة جندي وأضاف بأنه مضت عليهما ستة وعشرون يوما وهم يحاصرون المكان، وأنه إذا أعطاهما مدفعا مع العتاد، يضمنان الاستيلاء عليهم بقواتهما وحدها وأهداهما الباشا جاكيتتين حسب العادة. وفي الوقت الذي كان يجري فيه هذا الحديث معهما، قام الأتراك بنهب المدينة وبيت الجنرال، وانتهاك حرمات السكان. وبعد ذلك، دخلوا في مناوشة المسيحيين ورجعوا بدون خسارة ، ولما شاهد الكلابرى ذلك، صمم على الدفاع عن نفسه عند عودته فترك ألفي رجل لأخيه وعاد ببقية الجيش الى ملك كامباي. وفي الغد، وجه الباشا عن طريق البر إلى الجنرال وإلى ملك كامباي وإلى قائد الانكشارية بالهجوم على المحاصرين بجنودهم والانصراف من هناك للرسو في مرسى موندا بوراتو، وأنزل المدفعية، وسدد ثلاثة مدافع نحو قصر صغير كان قريبا من مكان التزود بالماء، يمكن إصابته بالمدفع الطويل من القصر الكبير. وكان جيدا وبداخله ضابط[3] مع مائة جندي مع أربع قطع من البرونز ولكن، لم يكن به أي خندق. فضربه من جهة البحر ومن جهة البر يوم 30 شتنبر 1930. فلما رأى المحاصرون بأنه لم يعد في مستطاعهم المقاومة وبأن قذائف المدفع كانت تخرق الجدار من الجهة إلى الأخرى، طلبوا الاستسلام. ووجه لهم الباشا بعد أن استقبل رسولهم رخصة بالانسحاب في أمان بما يملكون.

ولما عاد اليهم الرسول وأخبر قائد القصر بذلك ذهب هذا الأخير إلى الباشا مع رفيقين له، فاهداه الباشا طليسانا من الحرير الأحمر وأكد الرخصة على شرط أن لا تذهب الحامية الى القصر الكبير. ولكنه لما استولى على المكان سجنهم كلهم في دار بعد تجريدهم من السلاح ثم جعلهم يشتغلون في الكاليرات وإثر ذلك، ظهرت ثلاث كاليرات برتغالية دخلت دون عرقلة الى المرسى. وفي الغد

(3) جان فرانسوا دوبادوان.

انسحب الباشا من المكان الذي كان يوجد به، وجاء ليرسو من جهة الشرق. فأغرق له المحاصرون كاليرتين بالمدافع وكسروا علم واحدة أخرى. وبعد ذلك، بلغه الخبر بأن الجيش البحري البرتغالي قادم لنجدة المحاصرين فتخلى عن المركب الذي كان يوجد به، ودخل إلى كاليرة مهجنة، ووضع كل المسيحيين المشتغلين بالأسطول في السلاسل، وغير شراع كاليرته الذي كان من ألوان مختلفة، وأقام محرسا من الأشرعة والحبال على ظهر الكوثل ليدافع عنها إذا ما اقتضى الأمر ذلك، وفي يوم 22 أكتوبر، وجه قذافته الى القصر من ثلاث جهات. وفي مركز للمدفعية، كان يوجد مدفع طويل وزنه مائة وخمسون رطلا من الحديد المنوب ومقذف للحجر زنته مائتا رطل، ومدفع مزور من ستة عشر رطلا من الرصاص، ومقذف آخر للحجر وزنه ثلاثمائة رطل. وفي المركز الثاني للمدفعية، كان هنالك مدفع مزور، وصقر يزن مائتى رطل ومدفع صغير من ستة عشر رطلا مع مهراس كان يقذف أحجارا وزنها أربعمائة رطل وفي المركز الثالث، لم يكن الا مدفع طويل من مائة رطل.

وبعد أن حطم الأتراك برجا، وأحدثوا ثغرة واسعة، اتخذ البرتغاليون من التراب، ومن الأكوام، وقاية، وقد رأوا كل وسائل دفاعهم تحطمت أي الشرفات العالية في حصنهم، إذ لم يكن هنالك أي عارضة ولا سرداب، لأن الحصن كان مبنيا فوق صخرة. فكانوا يخرجون خلسة، وعددهم خمسة عشرة أو عشرون ويقتلون عددا، مما كان يحدث خوفا في المعسكر، حتى إن الذين كانوا في الحراسة، كانوا ما يرونهم قد انصرفوا حتى يشاهدونهم رجعوا فارين. وكان أحد المدفعيين من بين الهاجمين نصرانيا، فأسقط بضربة مدفع الراية التي كان البرتغاليون رفعوها فوق البرج، الشيء الذي أثار الابتهاج بين الأتراك. ومنحه الباشا كجائزة ألف درهم وطليسانا.

وفي الغد أتى بأكياس من الجلد مملوءة بالقطن ومربوطة بالحبال ليملأ بها الخندق، وألقاها في نصف الليل بأعداد كبيرة حتى صارت كارتفاع الجدار. ولكن المحاصرين خرجوا صباحا قبل طلوع الشمس وعددهم ستون. فدخل ثلثهم في الخندق. بينما بقي الآخرون يقاتلون. وجاء كل واحد منهم بفتيلة مشتعلة وأدخلوها في أكياس القطن التي كانت داخل الخندق. ودامت النار مشتعلة حوالي يومين. وقاتل أصحابهم، في أثناء ذلك، حوالي ساعتين، ثم انسحبوا ولم يفقدوا إلا رجلين، بعد إن قتلوا مائة وخمسين من الأعداء، وجرحوا أكثر من ذلك. وفي يوم ستة

وعشرين أكتوبر، وصلت خمس سفن برتغالية، فاستولت أثناء مرورها على كاليرة تركية، وقدمت النجدة لذلك المكان. ولكنهم لم يستطيعوا أن يدخلوها إلى المرسى. وفي الغد، وجه الباشا أربعين قاربا للهجوم على القصر مع بعض القطع الصغيرة من المدفعية للهجوم على القصر الصغير الذي كان على حافة البحر بين القصر الكبير والمدينة. وقد كان ضربه قديما وكان محطما للنصف، بحيث لم يكن يسير إليه الا ستة جنود ويعود منه، على ظهر مركب للحصن الكبير الذي لم يكن بعيدا منه إلا بقدر قذفة مدفع صغير.

واقترب الأتراك من أسفل الجدار، قبل أن يظهر النصارى. وما بدأوا يصعدون من أحد أطراف الجدار المهدم، حتى استقبلهم البرتغاليون بقاذفتين للنار وأرسلت النيران من الحصن على القوارب بشدة حتى فر الأترك، وانقلب بعضها، وغرق البعض الآخر. واشتولى أهل الحصن على البعض منها وقد خرجوا في زورق. وكل ما أمكنهم الاستيلاء عليه، علقوه في شرفات القصر على مرأى من معسكر العدو وثارت ثائرة الباشا فهيأ جنوده لهجوم عام، وفي الغد وضع كل واحد في مكانه. فأمر البعض بأن يضعوا السلالم في جهة المرسى. وأمر آخرين بأن يتسربوا من الثغرات. ولما حان الوقت، أعطى الاشارة فوقع الهجوم على القصر من جهتين. ولكن الأتراك جاءوا من جهة الأرض من الثغرة العليا دون أن يتجرأوا على الدخول وهذا ما لاحظه البرتغاليون، فوجهوا نيرانهم عليهم وقتلوا أربعمائة مما ألزم الآخرين بالانسحاب دون أن يقوموا بأي شيء. وفي الغد جاء الباشا في إحدى عشرة كاليرة ليضرب القصر الصغير. ولكنه لم يتمكن من الوصول اليه، نظرا لشدة ضربات المدفعية الآتية من الحصن الكبير. وفيما كانت الأمور تجري على هذا المنوال، بلغ الباشا الخبر بأن الجيش البرتغالي قادم لمنازلته. وفي 2 نوفمبر، أركب السنجق وأغا الانكشارية كل جنودهم، تاركين المدفعية الثقيلة.

وبعد ثلاثة أيام، لاح عشرون مركبا مسيحيا جاءت للرسو هنالك، على بعد سبعة فراسخ، فبقيت الليل كله متوقفة. وفي الصباح، ظهر منها ثلاثة في البحر، بينما كان الباشا يبتعد من الشاطيء. وعند غروب الشمس شوهدت عدة شراعات وسمعت ضربات المدفع، ولكن لم يمكن التعرف على السفن التي صدرت عنها، لأن الأحداث كانت جارية على البعد. وأمر الأبواق بالنفير وبدأت المجاذيف تتحرك في الواحدة ليلا وليس لها من شراع إلا قلاع الصاري. وبعد ثلاث ساعات، رفع الثاني، وأخذ الطريق الذاهبة بين الغرب والجنوب فحاذي شاطيء الجزيرة العربية

يرافقه ريح طيبة ووصل الى فمران يوم 23 من الشهر، حيث قضى يوما في التزود من الماء، وبعد ذلك ذهب نحو طريق عسير، حبث كان أربعون برتغاليا يتجرون في التوابل وغيرها مقابل الجياد العربية التي تؤتي بها والتي هي ذات ثمن مرتفع. واحتفظ سيد المكان بالبرتغاليين الأربعين عند ما سمع بمجيء الباشا وقدمهم له ووضعهم في السلاسل. وأشاع الأتراك بأنهم هاجموا البرتغاليين واستولوا على الهند. ومن هنالك سايروا الشاطىء بسرعة.

وفي ظرف ستة أيام، وصل الباشا إلى مرسى عدن، حيث ترك سنجقا مع حاميتين. وبعد ذلك، دخل الى البحر الأحمر ونزل بحصن موتشا[4]، ووجه يقول إلى ملك زبيد الذي كان يتجول داخل البلاد ثلاثة أيام بأن يأتي لتقديم الطاعة للصلطان الأعظم. فأجابه بأنه مستعد لاداء الاتاوة، ولكنه لموانع طارئة لا يمكنه أن يقدم عليه. فغضب الباشا ووجه اليه الكاهية مع بعض الانكشارية ليقنعه بالقدوم. ولكنه لم يقبل بذلك رغم كونهما، من الجهتين، تبادلا هدايا مهمة، وكون التركي هدده بمجيء الباشا وفي اليوم الثالث والعشرين من يناير[5]، رجع الجيش البحري الى قمران وأمر الباشا بأداء الأرزاق للانكشارية الذين كان يريد أن يأخذهم معه. ونزل الى البر، فوصل إلى شبيكاريف[6]، حيث جاء تركي كان في خدمة ملك زبيد ومعه خمسون فرسا مجهزة، فاستقبله استقبالا حسنا. وبعد ذلك نزل الباشا الى الأرض وأنزل بعض القطع الحربية مع الأقوات والعتاد وتقدم لمحاربة ذلك الأمير.

فوجد في الطريق تركيا آخر جاء ليسلم نفسه إليه مع خمسين فرسا. ولما قرب من المدينة، خيم تحت أسوارها. فوجه في طلب الملك. ورأى هذا الأخير نفسه متروكا من ذويه، فجاء إليه، فقطعت رأسه في الحين. فانسحب السكان من توهم الى الجبال. فوجه إليهم الباشا يطلب منهم العودة، مؤكدا لهم بأن لن يصيبهم بسوء. ولكن ما ان رجع بعض المحاربين الواثقين بكلامه حتى جردهم من السلاح وأمر الانكشارية بقتلهم. وكان من بينهم بعض الضباط من قيمة عالية ووضع حامية في المكان، وهي عبارة عن سنجق يضم ألفا من الأتراك، وترك أربعة

(4) بحثت عن هذا الاسم في المعاجم العربية، فلم أجده. فهل يقصد مسقط، ولكنها في الخليج لا في البحر الأحمر (مترجم).

(5) 1539.

(6) لا وجود لهذا الاسم في المراجع العربية (مترجم).

أغربة لحراسة الشاطيء وانصرف مع بقية الأسطول بعد ان قطع رأس مائة وأربعين برتغاليا كانوا أسارى لديه. وأمر بسلخ وتمليح جثث المهمين من بينهم وملأهم بالتبن ووجههم إلى الملك مع أنوف وآذان الآخرين وبعد ذلك سار في طريق السويس. وجاء ليزور مكة في طريق مروره، ليخبر نبيه بجرائمه(7). ولما وصل إلى مرسى السويس، سحب سفنه إلى اليابسة. وفي هذا القدر كفاية لافادة القاريء بأخبار شواطيء البحر الأحمر. ولننتقل الآن الى مصر.

ـــ نهاية الكتاب العاشر ـــ

(7) مثال آخر من تعصب المؤلف وتحامله (مترجم).

الكتاب الحادي عشر
مصر وما بها مما يستحق الذكر

الفصل الأول
وصف البلاد

يريد البعض أن تكون مصر قسما من آسيا، وبالخصوص ما يوجد فيها ابتداء من النيل في اتجاه الشرق. ويجمع بطليموس بين مرماريكا ومصر داخل افريقيا، في حين أن بعض الجغرافيين وضعوا كحد بين هذين الجزئين من العالم نهر النيل. ونضع كحد الصحاري الموجودة بالشرق على تخوم غزة وسوريا. وبقية مصر تحد غربا بصحاري برقة ومرماريكا وليبيا الداخلية، وشمالا بالبحر المتوسط، وجنوبا بمملكة نوبيا واثيوبيا التي توجد أعلى مصر. وهيرودوت الذي يتحدث عن هذا الاقليم ويتكلم باسهاب عن عاداته ومعالمه وحفلاته يدعي أن مصر في عهد الملك مينس لم يكن إلا بحيرة منزوية داخل عزلة كبيرة ويضيف انه لم يكن هنالك شيء قبل هذا الامتلاء الترابي الموجود حاليا فوق بحيرة ميروس أوميريدة. وأن مسايرة النيل الى البحر تدوم سبعة أيام، وأن ما يشاهد فيه أرض أتى بها النيل من أعلى الى تحت، وهو شيء قابل للاحتمال.

ذلك أن أرض مصر تختلف عن الأقاليم المجاورة. فأرض افريقيا حمراء وخفيفة، وأرض الجزيرة العربية متحجرة ومبيضة. وتراب سوريا هش ومليء بالغبار. وتراب مصر أسود ودسم وثقيل. ويذكر هذا المؤلف أن رهبان فولكان أخبروه بأن البلاد في عهد الملك ميريس، حينما كان النيل يصعد بثمانمائة أذرع، كانت كلها يغطي عليها السيل، في حين أن ذلك يتطلب الآن أكثر من سبعة عشر ذراعا من الارتفاع. مما يدل على أن الطمى الذي بقي من الفيضانات رفع مستوى القطر شيئا فشيئا(1). وطول مصر مائة وخمسون فرسخا من مساكن بوجية الى البحر المتوسط وليس لها من الاتساع إلا ما يحيط بالنهر من الجهتين ويمتد على بضعة فراسخ بين جبال متحجرة وجدبة ومتصلة بالصحاري. ولا يوجد سكان ولا نبات الا فيما بين النهر والجبال.

وأكثر أراضيها اتساعا توجد في البحر المتوسط، ابتداء من المكان الذي يتفرع فيه النيل ويشكل دلتا، على بعد ستة وعشرين فرسخا فوق القاهرة إلى

(1) وهو شيء يشاهد كل يوم في قنوات الأنهار التي تمتلىء شيئا فشيئا.

البحر. ومن هيلو بوليس صعودا مع النهر تكون مصر ضيقة وتحدها جبال العرب التي تحاذيها، ولكنها من جهة الشرق تمتد الى البحر الأحمر. ومن محاجر تلك الجبال العربية، استخرجت الصخور التي بنيت بها الأهرام. وهاته الجبال تمتد على طول ستين يوما. ومن الجهة التي تطل فيها مصر على الجزيرة العربية، تنبت الأشجار التي تمتاز بعطرها. ومن الجهة التي تطل فيها مصر على الغرب، توجد جبال محجرة أو بالأحرى، سلسلة من الجبال الموازية للأخرى. وتمتد هي أيضا، نحو الجنوب وقد سماها القدماء الجبال البونيقية أو الافريقية. وكل ما يوجد بين الاثنين هو مصر الذي يظهر أن البحر كان قد ملأها قديما وأن الحيز الواقع أسفل من منفيس كان يجر مياه البحر المتوسط. كما أن ما كان يوجد في خليج العرب كان يمتلىء من البحر الأحمر. بحيث لم يكن هنالك أرض كثيرة بين هذين البحرين. وأخيرا، فإن النهر يسيل بين هاتين السلسلتين من الجبال. على طول عشرين فرسخا من كل جهة حسب امتداد الفيضان. وعلى قمة أعلى تلك الجبال المقابلة للقاهرة تشاهد قواقع مجار مملوءة بالرمل بين الصخور وأصداف ناتئة من نفس الاحجار تدل على أن البحر كان هنالك في أزمنة قديمة. ولهذا فإن سكان البلاد يقولون بأن المياه المالحة لما انسحبت، مكنت مياه النيل من الانتشار في مكانها عبر السهول بقدر ما استطاعت أن تصل إليها.

الفصل الثاني

أصل المصريين

كان المصريون القدماء يعتقدون أنهم هم أول البشر. ولكن في عهد الملك «بساميتيك» تبين أن الفريجيين كانوا أقدم منهم. فقد أورد هيرودوت بأن هذا الملك لما أراد أن يعرف قدم أصلهم أخذ بعد بحث طويل ولدين، إثر وضعهما بقليل، ورباهما بين القطعان في مكان خال حيث لم يكن لهما اتصال بالناس. وأوصى الراعي الذي كان مكلفا بتربيتهما أن ينتبه لأول كلمة ينطقان بها. ولما وقع فطامهما وبدا يأكلان أشياء أكثر صربة، أمسكا بيده ذات يوم، وهو داخل الى البيت وقالا له : «بيتشو» وتكرر ذلك عدة مرات فذهب الراعي ليخبر الأمير بذلك. فسأل عن معنى ما سمع فاكتشف بأن الفريجيين كانوا يسمون الخبز بهذا الاسم، فكان هذا سببا في كون المصريين تخلوا لهم عن مجد الأقدمية.

ويقص الاغريق هذه الرواية بطريقة أخرى، فيقولون ان «بساميتيك» ربى الولدين في برج وقطع لسان مرضعتهما وان أول كلمة نطقا بها كانت هي بيتشو.

وأخيرا كان المصريون هم أول من قسم السنة الى اثنتي عشر شهرا، تبعا لحركة الكواكب، وبهذا الحساب تفوقوا على الاغريق الدين كانوا يضيفون شهرا في كل ثلاث سنوات، وأعطوا لكل شهر ثلاثين يوما، مضيفين خمسة أيام لاتمام السنة. وقد كانوا شعبا شديد الفطنة ومغاليا في الاعتقادات وعابدا للأوثان، وعنهم أخد الاغريق أسماء الآلهة الاثنى عشر وأنشأوا الأصنام والمعابد وما يتعلق بعبادة الآلهة، واحتفظوا بذكر الأشياء، ونقشوا الحيوانات على الأحجار. وكانوا يحبون الحفلات والمواكب الفخمة، ويحيون أعياد آلهتهم في عدة أماكن. ومن مدينة بوبسط كان لهم معبد ديانا، وفي بوصي معبد ايزيس أو سيريس، وفي ساموس معبد ميرنفا، وفي هليو بوليس معبد الشمس، وفي بوتو معبد نارون، وفي مدينة أخرى معبد ماوس، وفي ممفيس معبد فولكان. كانوا مهتمين بالعقيدة الى أن أصبحوا يقدسون الطيور والبهائم ذات الأربع ويبنون لها قبورا خاصة بكل جنس من الحيوان. ويروي موسى بأن المصريين ينتمون بأصلهم لمصرائم ابن كوش، وحفيد سام الذي كان أحد أولاد نوح. ومن ثم دعا العبرانيون هذا البلد باسم مصر والسكان مصرايت كما يسميهم العرب اليوم. وأبناء البلد قبط باسم أحد الملوك الذي خلف بساميتيك، وكان أول من بنى البيوت بمصر. ويتسمون فيما بينهم الأقباط.

ولك لم يبق مصريون حقيقيون ما عدا بعض المسيحيين الذين يتسترون على أصولهم بتعاطيهم للحفلات والمعتقدات القديمة. أما الآخرون، فقد دخلوا في دين محمد واختلطوا مع الأفارقة وأمم أخرى حكمت، من حين لآخر، بمصر.

الفصل الثالث

ملوك مصر القدماء ومآثرهم الكبرى

حكمت مصر، خلال مدة طويلة، من لدن الفراعنة الذين كانوا هم ملوك البلاد الأقوياء، والذين كان أولهم هو مينيس وهو الذي، بفضل اختراع عجيب، أوصل النيل الى مدينة ممفيس، لأن النيل كان يقذف بمياهه الى جبل بساميتيك، من جهة افريقيا. وحمل هذا الملك التراب من جهة الجنوب الى تيار الماء وفتح طريقا،

(1) ملاحظة عامة تتعلق بهذا الفصل والفصول التالية المتعلقة بعهد الفراعنة : إنها تحتوي على معلومات لا علاقة لها بما نعرفه الآن عن تاريخ تلك الفترة استنادا الى المعلومات التي نتوفر عليها بفضل الحفريات الآثارية وقراءة الخطوط الهيروغليفية. وقد آثرنا مع ذلك أن نترجمها وفاء للنص كما كتبه المؤلف (مترجم).

اتساعها مائة غلوة أوقفت النهر، وجعلته يمر من بين الجبال، حيث يتدفق في الساعة الراهنة. وقد حظيت هذه الطريق برعاية كبيرة من لدن ملوك مصر، مخافة أن يحطمها الماء أو أن يحدث فيه حفرا. وكانوا يضعون حولها حراسا لمنع الأمم الأخرى من تخريبها، وارجاع الماء الى الانصباب من جهة لفريقيا.

وبنى منيس مفيس في المضيق ذاته في اتجاه الغرب ومن الشمال الى الغرب، أحدث بحيرة كبيرة تحيط بها من تلك الجهة، بينما النيل يحميها من جهة الشرق. وبنى أيضا في تلك المدينة معبد «فولكان» الذي كان من أعجب البناءات الموجودة في ذلك الزمان. ومنذ منيس الى ميريس حكم في مصر ثلاثمائة وثلاثون ملكا، كان منهم ثمانية عشر من الاثيوبينن، ومن بينهم ملكة أجنبية اسمها نيكوطيس، ملكة بابل. أما الباقون، فهم من أبناء البلد، وحفر ميريس البحيرة التي تحمل اسمه، وبنى الهرمين الموجودين فوقه. وكانت تلك البحيرة من أعاجيب الدنيا، لأن دائرتها كانت من ثلاثة آلاف وستمائة غلوة، وهو امتداد الشاطىء المصري بكامله على ساحل البحر المتوسط، وكان يمتد من الجنوب الى الشمال ويبلغ خمسين خطوة من العمق، وفي الوسط على علو خمسين خطوة فوق الماء. وعلى كل هرم كان يوجد عملاق من الحجر، بحيث إن كل واحدة كان لها مائة خطوة من العلو، وهو باضافة وجه العملاق يبلغ غلوة بكاملها. وكل واحدة كانت تبلغ مائة وأربعة وأربعين شبرا. وماء البحيرة كان يبين بأنه لم يكن آتيا من عين، لكن من النيل، الذي كان ينفذ اليه ستة أشهر وينفذ منه بعد ستة أخرى.

ولا شك أن الأهرام بنيت هي الأولى، ثم وضع فيها الماء بعد ذلك ولكن، كل التراب الذي أخرج من حفر تلك البحيرة قذف به في تيار النهر الذي حمله الى الأماكن المنخفضة. وجاء بعد الملك ميريس، سيسوستريس بعد مرور تسعمائة سنة أو ما يقاربها على الطوفان، وكان هو أول من استعمل المراكب لاخضاع سكان البحر الأحمر وكل الأقاليم المحيطة به ولكنه أكرم أولئك الذين قاوموه ودافعوا عن حريتهم، وبعد أن غلبهم، رفع أعمدة من المرمر في الأماكن المختارة حيث نقش اسمه، ووصفت الطريقة التي غلبهم بها. ولكن في الأماكن التي استسلمت اليه بلون قتال، نقش على الاعمدة عورات النساء، اشارة الى الدناءة. وقهر كل الأمم حتى بلغ الى السيتيين، ولما غلبهم، انتقل الى أروبا وأخضع تراقيا، ثم رجع أدراجه واجتاز نهر فاز. وكان يصنع تماثيله وهو حامل لسهم في اليد اليمنى وقوس في اليسرى. وكان نصفها شبيها بأقواس المصرينن، ونصفها الآخر بأقواس

الاثيوبيين مع حروف مكتوبة من الكتف الى الآخر وكانت تسمى مقدسة. وتشير الى أنه تحمل عبء تلك الامبراطورية ورجع من فتوحه بعدد كبير من الرقيق شغلهم منذ ذلك الحين في استخراج أحجار كبيرة وضعها أمام معبد فولكان وفي حفر قنوات كانت تقطع كل أرض مصر وتعوق السير على الخيل أو على العربات. وأمر بصنع تلك القنوات لايصال ماء النيل الى المدن التي كانت بعيدة منهم. وكان أول من قسم الأراضي الصالحة للزراعة بمصر، وحدد ما كان يجب على كل واحد اداءه في السنة. وحينما كان النيل يذهب في فيضانه ببعض الأدوات، كان يخفف على المالك بنسبة تقارب الضياع.

وكان هو مكتشف الهندسة التي ازدهرت فيما بعد باليونان وهو الملك المصري الوحيد الذي حكم بإثيوبيا، وشيد له كمعلمة للذكرى تمثال علوه ثلاثون ذراعا مصريا أمام باب معبد فولكان، وآخر مماثل لزوجته، وأربعة من عشرين لأولاده الأربعة.

وحينما استولى داريوس على مصر، لم يشأ الكاهن أن يضع تمثاله أمام تمثال سيسوستريس. الشيء الذي قبله ذلك الملك لأن سيسوستريس كان هو الوحيد الذي غلب أمة السيتيين التي لم تعرف الهزيمة. وخلف سيسوستريس ولده فيرون الذي أصيب بالعمى في بداية عهده، ثم استرجع البصر ورفع بهليوبوليس في معبد الشمس حجرتين مربعتين متشابهتين، كل واحدة طولها مائة قدم على ثمانية وسميت مسلة.

الفصل الرابع
مواصلة الموضوع بالحديث عن اختطاف هيلانة

خلف بروتي فيرون وبنى معبدا عظيما في مدينة ممفيس قريبا من باب معبد فولكان الذي كان يواجه الجنوب. وفي عهده وقع اختطاف هيلانة، ذلك أن باريس كان يمخر عباب بحر ايجي، فقذفت به الرياح المعاكسة الى شاطىء مصر. ووقف عند مصب كانوب. ويقص هيرودوت على انه في زمانه كان يوجد معبد مهدي لهرقل وانه اكراما لهذا البطل، كل من فقد حريته يسترجعها إذا دخل اليه.

وعلم عبيد باريس بهذا الأمر. ففروا اليه عند وقوفهم وزادوا في الطين بلة حينما أعلموا الحاكم باختطافه. فأخبر في الحين ملكه الذي أمر بأن توجه اليه المرأة

ومختطفها مع أمتعتهما وطاقمهما. وأضاف انه لما وصل الى ممفيس تلقى باريس لوامرا من ذلك الملك الذي أخذ له خليلته. وكل ما كانت تملك وأمره بالخروج من مملكته في ظرف ثلاثة أيام، والا قتله. ويقص هيرودوت بعد ذلك كيف أن مينلوس مع ملوك اليونان قام بعملية طراودة وطالب بهيلانة فأجيبوا بأنها لم تكن هنالك وأنها في مصر مع خليلها. وهذا ما لم يصدقوا به فقاموا بحصار المدينة واستولوا عليها بعد أن طوقوها مدة طويلة.

ثم طالب بها منيلوس ملك مصر مع كل ما انتزع منه. وكان ذلك أكثر احتمالا من القول بأنها كانت في طراودة لأنه كان من المعقول أن ترد تجنبا لخراب البلاد، خصوصا بعد موت هكتور واخوته، ولكن كفانا من هذا الاستطراد، فلنعد الى ملوك مصر.

الفصل الخامس

مواصلة الحديث عن ملوك مصر

وتولى ربسنيت مكان الملك بروتي وترك بعد وفاته بعض المآثر من إنشائه منها تمثال من خمسة وعشرين ذراعا طولا أمام معبد فولكان. كل واحد منها من حجر واحد، وكان الأول يمثل الصيف ويوجد في اتجاه الشمال، والثاني الشتاء وكان من جهة الجنوب. وقد ملك هذا الملك كنوزا كبيرة وأنفق على العدل وعلى الشرطة في مملكته أكثر مما فعل أسلافه.

وخلفه شيوب الذي كان مولعا بالبناء أكثر مما كان مهتما بالعدل. ومن أجل ذلك، قام باغلاق كل المعابد حتى يشتغل الناس في بناءاته أكثر مما ينصرفون لخدمة الأصنام، وقيل انه شغل مليونا من البشر في استخراج الحجر من جبال جزيرة العرب لينقلها الى أهل افريقيا الموجودين بالجهة الأخرى وانه كان يستبدلهم بغيرهم كل ثلاثة شهور. واستعمل تلك الأحجار في بناء هرم اتخذه ضريحا له، وكان أعظم انجازا من الأول ونقش عليه حيوانات وجعل اقباء تحت الأهرام حيث حفر قبره وأحاطه بماء النيل على شكل جزيرة، وكان هرمه يعلو بخمس غلوات على عشر خطوات عرضا، ولكن في الأعلى لم يكن يتجاوز ثمانية، وبنى هرما آخر قريبا منه وكان مربعا وطوله ثمانية أشبار ومثل ذلك في علوه وعليه نقوش متعددة. وكان هذا الهرم على شكل كرتين، واحدة فوق الأخرى مع أدراج للصعود اليها.

وكان هنالك هرم ثالث يحمل كتابات تبين اسم مؤسسه وما كلفه بناؤه من نفقة وكيف أنه أنفقت ستمائة طالانت من الأعشاب والبصل لتغذية العمال. الشيء الذي يبن أن بقية النفقة صعدت الى قدر يتجاوز المعقول. ذلك أن ثلاثمائة ألف من الرجال اشتغلوا فيه طوال عشر سنوات. وكانوا مقسمين الى ثلاث فئات. واحدة منها تشتغل بجر الحجر، والثانية بحملها، والثالثة ببنائها. وقامت احدى بنات هذا الأمير ببناء الأهرام الثلاثة السابقة. وكان مربعا، وكل صفحة منه تزن نصف أربنت عرضا. وخارجه كان عبارة عن قشرة ذات ألوان مختلفة ولامعة ومصقولة. ودام عهد هذا الملك خمسين سنة ومات مكروها من لدن رعاياه، لأنه شغلهم طوال حياته في بناءاته.

وخلفه أخوه الذي بنى هو، أيضا، هرما أصغر من السابق. ولم يكن النيل يدخل اليه. ولكنه كان يحيطه كليا بواسطة بحيرة غلفت كلها بمرمر إثيوبيا مع قصر في نهايته يعادل الهرم في علوه. وطال عهد هذا الملك ستا وخمسين سنة في أعمال شاقة. وأقفلت المعابد طوال تلك المدة. ولكي ينتقموا من هذين الملكين بعد موتهما، لم يعودوا يستعملون اسميهما ونسبوا منجزاتهما لملك آخر. ولما مات هذا الملك، آلت الى ولده الذي كان اسمه شيوب، وقد أعاد فتح المعابد، وترك المصريين في حريتهم لكي يشتغلوا بشؤونهم. ولهذا فقد كان يحظى بالتقدير زيادة على كونه كان لطيفا ومتسامحا ومحبا للعدل الى درجة أنه كان يراجع أحكامه بطلب من أحد الخصمين، وقد استراخ رعاياه في عهده من أشغالهم وأخذوا حقهم في التمتع وقضوا أوقاتهم في الأعياد والأفراح داخل الحدائق ليل نهار أو على ضفاف البحيرات وغيرها من أماكن اللهو.

ولكي يسخر هذا الملك بأسلافه، أمر ببناء هرم لا يبلغ من العلو الا عشرين قدما نصفها من المرمر الأسود الذي لم يعد تعديلا رقيقا، والنصف الآخر من المرمر الأبيض المصقول. وينسب البعض هذا العمل لعشيقة اسمها رودوب، ولكنها كانت موجودة في عهد أماسيس وخادمة ليادمون أستاذ إيزوب الذي انتزعت منه لتساق الى مصر حيث اعتقت، وبسبب جمالها اكتسبت ثروات كبيرة، قيل إن منها بنت هذا الهرم.

وجاء بعد ذلك الملك أفيشين الذي منع القرض بالربا، إذا لم يدفع المدين جثمان أبيه كرهينة للدائن، وإذا لم يسترجعه في الوقت المعهود يحرم من الدفن وكذلك أحفاده معه. واتخذ هاته التدابير بمنع الاقتراض وليكون شخص واحد من

العائلة هو المأذون له بذلك. فبنى هرما من الآجر وعليه هاته الكتابة : لا تقارني بغيري من أهرام الحجر التي أنا أكبر منها على غرار جوبيتر الذي يتفوق على الآلهة الأخرى. ولم أصنع الا من الطين الذي كان ملتصقا بقعر البحيرة. وخلف هذا الملك انيفيمو الذي فقد البصر منذ صباه وطرده سباشو ملك اثيوبيا الذي حكم خمسين سنة في مصر دون أن يحكم على أحد بالاعدام طوال ملكه. واكتفي بأن ألزم المتهمين كعقاب لهم بحمل التراب الى الأماكن المجاورة ليرفعوا مستواها حتى تسلم من الضرر وتجنب فيضانات النيل. وقد بدأ هذا العمل في عهد سيزوستريس، لما حفر خنادق المدن وأتم العمل هذا الملك.

واهتم بالخصوص برفع مدينة بوبسط التي كان فيها معبد ديانا الموجود كله وسط النيل والمغشى بقطع كبيرة من المرمر مع نقوش مختلفة ذات فن رفيع ويحيط بها عدد من الأشجار التي كانت تمنحها طراوة. وبعد خمسين عام، رجع هذا الملك الى إثيوبيا، فخرج الأعمى الذي اختفى هذا الزمن وصعد الى العرش. وبعده آل التاج الى سيتون الذي كان كاهنا لفولكان. وبما أن هذا الأخير لم يكن ذا ميول حربية، لم يهتم برجال الحرب واسترجع منهم الاقطاعات التي كان أسلافه منحها اياهم، ففي عهده أغار سنجاريب، ملك آشور، على مصر بجيش كبير. وبما أن الجنود كانوا مستائين. فلم يقبلوا حمل السلاح واضطر أن يذهب للقائه مع الشعب الى بيلو التي كانت تفصل مصر عن فلسطين وهناك أخذ يبكي أمام إلاهه. وقيل انه جاء عدد من الفئران الى معسكر الآشوريين، فقطعوا أوتار القسى ولجم الخيل، بحيث اضطروا الى الانسحاب. ولهذا السبب صنع المصريون تمثال هذا الملك وفي يده فأر. وعليه هاته الكتابة : فلتأخذوا مني مثالكم في التقوى.

الفصل السادس
تغيير الحكومة

وبعد موت سيتون، غير المصريون حكومتهم. وبما أنهم لم يكونوا قابلين أن يعيشوا بدون ملك ولا في حرية، فقد عينوا اثنى عشر رئيسا كحكام على الأقاليم. وهكذا حددوا لكل واحد إقليمه حتى لا يتدخل في إقليم جاره ولا أن يمتلك من الأرض أكثر مما أسند اليه في البداية واعتقدوا أنهم سيعيشون في أمن بهاته الطريقة، وليحتفلوا بهذا التغيير أقاموا بناء لتخليده هو عبارة عن سرداب في بحيرة مينوس قريب من مدينة التماسيح، وهذا البناء كان أعظم من البناءات الأخرى المعاصرة،

فكان فيه اثنا عشر مشورا أو فناء محاطة بعمارات للسكنى ذات هندسة عجيبة وكل واحدة كان فيها اثنا عشر بابا، ستة منها في اتجاه الشمال، وستة في اتجاه الجنوب ويقع الانتقال من الأولى الى الثانية بجهاز عجيب. وكان سور واحد يحوطهما جميعا. وتتلقي الضوء من نوافذ كانت بين الأعمدة وكان فيها ثلاثة آلاف شقة مزدوجة كلها. ألف وخمسمائة في الأعلى وألف وخمسمائة في الأسفل مع قباب تحت الأرض حيث كانوا يدفنون الملوك والتماسيح.

ومن هاته الافنية الاثنى عشر يقع الخروج من الأبواب نحو اثني عشر مشورا كبيرا ومن هنالك الى أخرى. وكل القباب كانت من المرمر وكذلك الجدران مع وجوه منقوشة، والبلاط مغشى برخام من الهيصم واليشب بألوان مختلفة. وكانت الفناءات محاطة بأروقة مقببة ومدعمة بقناطر من المرمر الأبيض. وفي كل ركن من السرداب، كان يوجد برج أو هرم يعلو البناء بأربعين خطوة ومنقوش بحيوانات عظيمة الجرم، وهنالك كان يوجد السلم، ورغم أن هذا البناء كان عجيبا، فلم يكن يساوي بناء البحيرة التي كان مدارها ثلاثة آلاف وستمائة غلوة.

ولنعد الى موضوعنا، فقد أراد بساميتيكو وهو أحد الرؤساء الاثنى عشر أو الملوك أن يصير سيدا على الدولة. وهذا ما اكتشفه الآخرون فحكموا عليه بالعزل من منصبه وحبسوه في جزيرة بالنيل، وسبق له أن طرد من لدن الباشا الذي كان قتل نكار أبا إبساميتيكو، ولكن والديه استرجعاه من سوريا حيث انسحب ليسندا إليه القسمة الثانية عشرة من الدولة. وبماأنه كان يرغب دائما في سلب أصحابه فقد اغتنم فرصة وصول بعض القراصنة الى جزيرة النيل حيث كان محبوسا فأطمعهم بوعود كبيرة وضمهم الى إعوانه. وتمكن من هزم أصحابه في عدة معارك. واستولى على مجموع الامبراطورية، ومكن الفراعنة من حقوق البورجوزية لأنهم تبعوه مع قسم من نواحي بيلوز ونقلهم منذ ذلك الحين الى ممفيس لحراسته الشخصية وحراسة المدينة. فكان أولئك هم الأجانب الأولون الذين استوطنوا مصر، وخلطهم الملك بالمصريين حتى يتعلموا منهم اللغة الاغريقية.

ومن هؤلاء الناس انحدر الأشخاص الذين كانوا يستعملون كتراجمة. وقام الاغريق من بعد بالتبادل التجاري مع المصريين. وحكم هذا الملك مدة أربعة وخمسين سنة قضى منها تسعا وعشرين في حصار مدينة آزوط بفلسطين وهو أكبر وأشهر حصار ذكر في التاريخ الى اليوم، وتولى بعده ولده نياك الذي حفر قنالا من

النيل الى البحر الأحمر. وهو الذي واصل فيه العمل الملك داريوس ملك الفرس. وكان طوله أربعة أيام وعرضه لا يتجاوز مقدارا يسمح لكاليرتين بالمرور وهما متحاذيتان، وكان مبدأه فوق مدينة بوبسط ونهايته في البحر الأحمر. وكان من الممكن أن يكون أقل لو انطلق من ممفيس أو أقصر من ذلك لو ذهب من البحر الأحمر أسفل جبل قاسيوس الذي يفصل سوريا عن مصر. ولكن المكان الذي أختير له جعله يفيد التجارة مع كل تلك الشعوب. ويقول المؤرخون بأن حفره تسبب في موت ستة وعشرين ألف مصري، مع أنهم لم يتموا منه الا نصفه. وفي الأخير تخلى هذا الملك عن هذا الانجاز ليتفرغ للحرب. وسلح أسطولين، أحدهما في البحر الأحمر والآخر في البحر المتوسط وبفضلهما استولى على أقاليم كبيرة وهزم الآشوريين في البر قرب مكدالة وأحرق قادس عاصمة سوريا. ومات بعد ان حكم سبع عشرة سنة، وقام ولده ابسامو بالحرب في اثيوبيا، حيث أصابه الموت بعد ست سنوات من الملك وترك ولده آبريس كخلف له.

الفصل السابع

متابعة هاته المادة

وصادف آبريوس حظا سعيدا في بداية ملكه واستولى على مدينتي صور وصيدا، ولكنه أضاعهما فيما بعد مع أشراف مصر إثر معركة، فثار عليه رعاياه تحت قيادة واحد منهم اسمه أماسيس، الذي استولى عليه أثناء المعركة وقتله، وكان المصريون مقسمين آنذاك الى طبقات. الأولى : الكهان، الثانية، رجال الحرب، الثالثة والرابعة : المكلفون بتربية القطعان من البقر والغنم، كل واحد منهم له عصبيته، على حدة، والخامسة تضم الصناع والتجار. والسادسة : المترجمين، نظرا لكثرة الأجانب القاذمين للتجارة، السابعة : تخص رجال البحرية، وكل طبقة كان لها اسمها ونظامها المطابق لمهنتها، وكان رجال الحرب مقسمين الى فريقين للدفاع عن مصر العليا ومصر السفلى، فالسفلى كانت تشمل خمسة أقاليم وحراستها كانت تقتضي تجنيد مائة وستين ألف رجل من الشبان والشيوخ. وكانت العليا تضم أحد عشر اقليما والدفاع عنها كان يتطلب مائتين وخمسين ألف رجل، ولم يكن في مستطاع أي واحد من المجندين ولا أولادهم أن يقوموا بأي عمل ما عدا استعمال السلاح.

وهزم اماسيس آبريوز بهذه الجنود، برغم كون آبريوس أتى بقوة أكبر من اينونيا ومن كاريا. ولما غلبه واستولى عليه، أمر بشنقه لأنه كان يريد أن يتحرك ضده

من جديد. ودفن في معبد مينرفا بين مسلتين كبيرتين كانتا وسط بحيرة مدورة ومغطاة بالمرمر. وكانت من أجمل ما صنع في الدنيا، ولم يكن اماسيس منذ البداية يحظى باحترام رعاياه لأنه كان ينحدر من الشعب، ولكنه استطاع أن يجلبهم، في الأخير باللين وغلب عليهم في الأخير بالألعاب والحفلات وغيرها من الأفراح لأنه كان يكره الحرب والمغامرة الكبرى، وبنى في الصعيد دهليزا للدخول الى معبد مينرفا وتجاوز كل بناءات البلد من حيث العظمة والشكل، وكان مزخرفا بعدد من التماثيل الضخمة كأبي الهول وغيرها من الوجوه ومبنيا بحجارة تبلغ حجما خارقا للعادة، وأمر باستقدام أخرى أكبر منها من مدينة الفانتين لانجاز عمل كان يريد أن يقوم به فوق ممفيس. ومن بين هاته الحجارة كانت واحدة يبلغ طولها واحدا وعشرين ذراعا مصريا وعلوها ثمانية وعرضها أربعة عشر مع تجويف داخلي يبلغ ثمانية عشر ذراعا على خمسة علوا. ويقال إن ألف مهندس اشتغلوا ثلاث سنوات في نقلها. وأقام أمام معبد فولكان تمثالا عظيما كان من قطعة واحدة ويبلغ طوله خمسة وستين قدما وكان من المرمر الأسود، وعلى البلاط الذي مد عليه، كان بجانبه تمثالان عظيمان قائمين، يبلغ علوهما عشرين قدما، وينسب اليه تمثال ضخم آخر على نفس الشاكلة موجود بمعبد مدينة الصعيد.

وأخيرا، كانت مصر سعيدة تحت حكم هذا الملك، وآهلة بالسكان. وأمر بأن يقدم كل واحد الى القاضي الحساب عما يعيش به، ومن أبى يكون عقابه الموت، وهذا ما تبناه صولون فيما بعد بأثينا، لكنه أراد أن يجلب الاغريق من أجل التجارة، فسمح لهم ببناء مدينة بمعابد في أقاليم مختلفة، الا أن تجارتهم الأساسية كانت من المدينة التي أسسوها والتي اسمها نفارار. وكل السفن الآتية من اليونان لا بد لها من المرور من مصب كانوب وإذا منعوا من ذلك بسبب الرياح المعاكسة، كانوا يحطون بضاعتهم في قوارب ويصعدون في النهر على طوله حتى يصلوا الى أعلى الدلتا. وينتقلون الى الذراع الآخر المتصل بنفارار.

وعقد الحلف مع السيرينيين وتزوج ببنت باطو أحد أمرائهم، واستولى على جزيرة قبرص وجعلها تابعة لمصر، وأشهر قمبيز ملك الفرس الحرب عليه، على رأس جيش عظيم، ولكي يدخل الى مصر وجه الى ملك العرب يطلب منه السماح بالمرور، لأنه لم تكن له أي طريق أخرى من جهة الشرق، ثم ان اقليم فينيفيا يمتد الى جبل كاديت، وهي مدينة فلسطينية حيث تجري تجارة خاصة بتلك المنطقة. ومن هنالك الى مدينة هينيس وبحيرة سربونيد حيث تقص الخرافة أن

العملاق تيفون اختبأ، والكل كان في ملك العرب. وجبل قاسيوس الذي هو من مملكة مصر يصل الى هذه البحيرة. والحيز الموجود بين الجبل ومدينة هينيس يبلغ طوله ثلاثة أيام في أرض صعبة قاحلة، حيث لا يمكن المرور التزود بالماء، وينقل على ظهر العربات الى مساكن تلك الصحاري، وعقد هذا الملك بعد ذلك، الحلف مع قمبيز ووجه إليه كل الابل الموجودة في مملكته تحمل الماء الى جيشه، وعلى إثر ذلك مات أماسيس وتولى مكانه ولده بسامينيت.

الفصل الثامن

قمبيز يفتح مصر

اقترب جيش قمبيز، ورتب المصريون جنودهم في جهة بلوز، على طول أتيل، ليدافعوا عن المدخل، وكان أكثرهم من الايونيين والكافيين، فلما رأوا جيش العدو يقترب ذبحوا أولاد فانيس بمحضره، وصبوا الماء والخمر والعشب في طشت كبير وشربوا كلهم منه للانتقام من رئيسهم الذي انحاز الى جهة الفرس وجاء ليحاربهم، ثم شرعوا في المعركة، ولكن، بما أنهم كانوا أضعف من الأعداء، فقد وقع استئصالهم، وأما المصريون، فقد هربوا جبنا وانسحبوا الى ممنفيس مع ملكهم.

وبعد هذا الانتصار، وجه قمبيز سفيرا على ظهر سفينة الى السكان يطلب منهم الاستسلام دون حرب، ولكنهم غضبوا لوقاحته وكسروا السفينة وقتلوا السفير ومن معه شر قتلة، وثارت الحمية في نفس قمبيز، فحاصر المدينة واستولى عليها صلحاً وأسر الملك بسامينيت، فأخذ الثأر من قتل السفير والميثلاينين الذين رافقوه، وقتل بكل واحد منهم عشرة من أشراف الشبان المصريين، وبعد ذلك مد سيطرته على كل البلاد وعلى مدن برقة وسيرانة واحتفظ قمبيز مدة طويلة ببسامينيت في قصره وكأنه يتمتع بالحرية، وعامله بتعظيم وتشريف كملك، وتركه يأمل بأنه سيضع التاج، من جديد على رأسه، طبقاً لعادة الفرس القديمة، ولكنه أخطر بأنه يدبر للقيام بتمرد، فأمر بقتله بسقيه دم الثور. وفي الحين، جاء الى مدينة صعيد فأمر بإخراج عظام الملك أماسيس من قبره الفخم وإحراقه وإلحاق كل الاهانات به.

وبعد الاستيلاء على مصر، قام بثلاث حروب في نفس الوقت، ذلك أنه وجه سطولا لمحاربة القرطاجيين، وجيشا بريا لمحاربة المكروبيين الذين بقوا في شاطىء

افريقيا الواقع من جهة الجنوب وجيشاً آخر ضد الامونيين، ولكنه لم يحصل على نفس النصر الذي كان له على المصريين. ذلك أن الفنيقين رفضوا المشاركة في حرب القرطاجنيين الذين كانوا قرابة لهم، كما أن قمبيز الذي ذهب بنفسه لقتال المكروبيين بإثيوبيا، أجبره النقص في الاقوات على التخلي عن مشروعه والانسحاب مع ضياع جزء كبير من جيوشه. وأما الذين وجههم الى الأمونيين، فقد وصلوا مدينة أواز وسط رمل رقيق على بعد سبعة أيام من طيبة، فقد صادفوا عاصفة آتية من الجنوب غطتهم كلهم بالرمال وأهلكتهم.

وكان قمبيز بمفيس، اثر عودته من حرب إثيوبيا، فأخذ يرتكب أعمالا وحشية دون اي احترام، ولما أمر بقتل اخوته لتهمة بسيطة، ثار عليه احد الكهنة اسمه «اورباسطين» وكان يشبه احد إخوته «سمرديس»، وأشهر عليه الحرب ومات في الطريق من جراء جرح ألحقه هو ونفسه وبعد موته تولى الملك بالفرس ذلك الكاهن، وهو يحمل اسم «ميمرديس» ابن سيروس واعترفت به «فديمة» امرأته وهي ابنة «أوسطانس» احد أشراف الفرس، واتفق عليه ستة من كبراء الفرس وقتلوه مع «باكيت» اخيه، الذي اعانه على بهتانه، وكان احد أولئك الكبراء هو «داريوس» الذي اختاره الفرس كملك عليهم، لانهم يفضلون الطاعة لواحد على الطاعة لجماعة.

الفصل التاسع

الفرس الذين حكموا مصر والاسكندر الاكبر

وخضعت مصر لداريوس وكذلك سيرينا وبرقة، وكانت تؤدي له سبعمائة طلانط دون حساب مردود الصيد الذي كان يجري في بحيرة ميريوس الكبيرة، بالاضافة الى ذلك كانت المملكة تنفق على ستة وعشرين الف فارسي كانوا يخيمون جميعا في «مورو» البيضاء قرب «ممفيس» لحراسة الدولة وضمان أمنها، وأراد «داريوس» أن يتم القناة التي كان قد بدأها «نيكاو»، ولكنه مات قبل ذلك وحالت دون مشروعه ثورة مصر، وجاء بعده ولده «كسرسيس» فصار الى مصر وأعاد الامن اليها وأسند حكومتها الى «هيمين» احد إخوته، الذي مات في حرب بأفريقيا، وقتل «كسريس» غدرا من لدن «ارابنوس» أحد قادته. وكسرسيس هذا هو الذي اشتهر بحروبه مع الاتينيين، وجاء بعده ولده «ارطاكسيرسيس» ولكن المصريين ثاروا عليه وانتخبوا «هرمبسيمون» ملكا عليهم، الذي استقر في منصبه

بفضل اللاسيديمونيين وجاء بعد «أرطاكسرسيس» ولده «أكوس» الذي بسبب حربه مع الارمينين أسند قيادة جيشه الى كوبرمان وهو شخص كان ذا مزايا حتى إن الفرس أختاروه ملكا عليهم وخلعوا عليه اسم «داريوس» إحياء لذكرى سميه السابق الذي كان أبا لكسرسيس. وهو الذي غلبه الاسكندر في عدة معارك، والذي قتله رعاياه في الاخير.

وبعد مقتله أصبح الاسكندر هو سيد الفرس ومصر، ولكنه لم يعش طويلا، فقسمت مملكته بعد ذلك، لانه لم يعين وليا لعده، وترك التاج، على ما يحكى، للذي يكون اقدر الناس على استعمال السيف، ورفع اخوه الى العرش الى ان ولدت «روكسان» وتقاسم القواد فيما بينهم، وكانوا يسلبون بعضهم البعض، لكن بطليموس ظل حاكما هادئا على مصر. ويقول البعض انه أخ للاسكندر، ولكنه ابن زنا، ويقولون بأن هذا الملك وعدهم بها وهو حي وبنى بإشارة منه مدينة الاسكندرية، وهكذا تولى هاته المملكة في إطار القسمة مع قسم من آسيا وافريقيا، ولحسن تصرفه احتفظ بها وأضاف اليها فتوحا أخرى، وكان مهيبا سواء من اصدقائه أو من اعدائه.

الفصل العاشر

عهد البطالسة ملوك مصر وكيف وقعت هاته البلاد في قبضة الرومان(1)

اختار بطليموس، الملقب الأكبر، مركز حكومته في الأسكندرية، وفي عهده كان السبعون ترجمانا في حالة ازدهار، وكل من تولى بعده حمل اسمه. فالأول كان هو «فيلاديلف» والثاني « إفرجيطيس» والثالث « فيليباتر»، والرابع «فيليماتر»، والخامس «اسكندر»، والسادس «افرجيطس» الثاني والسابع فيفيون» والثامن «ليتور» والتاسع «آولايس» والعاشر «اولاريس» الثاني، وهذا الأخير هو الذي عمل على قتل «بومبيوس» الأكبر. وكان أخا لكيلوبلطرة التي كان في حرب معها، حينما وصل قيصر الى مصر، وسبب هذه الحرب هو ان

(1) لم يعتبر السيد دابلانكور هذا الفصل جديرا بالترجمة، لأن مارمول أورد فيه أشياء مخالفة للتاريخ.

بطليموس كان يرفض الزواج من أخته، رغم أن أباه أمره هو وأخته بذلك. وهذا أمر كان عاديا لدى هؤلاء الملوك المصريين الذين كانوا كفارا.

فاشتكت «كليوباطرة» لقيصر وطلبت منه الانصاف من أخيها الذي سلبها مملكتها، ومن هنالك نشأ العراك بينهما، وبعد عدة أحداث غرق بطليموس وأصبح قيصر سيدا على المملكة فأعطاها للتي سحره جمالها. وهاته الملكة لم يكن خطرها على روما أقل من خطر «هيلانة» على طروادة، فقد كان كل اولئك الملوك الأحد عشر الحاملين للقب بطليموس متساوين في الرذيلة وقتلة لوالديهم وأمهاتهم وأخواتهم وأقاربهم. وكانت لهم حروب مع ملوك الفرس وسوريا وافريقيا. ووجدوا نجدة في الرومان وحدث بعد ذلك أن أنطونيوس كان على وشك الدخول في الحرب مع البارتيين، فوجه يطلب منها النجدة، لكن هاته الأميرة اعتذرت بكون الوباء والمجاعة تعصفان بمصر، وغضب من هذا الجواب، فوجه لها الأمر بأن تحضر الى كيليكيا لتفسر سبب رفضها.

واستطاعت أن تدافع عن نفسها بكل قوة حتى ان أنطونيوس وقع في حبل الغرام بها ونسي كل أمجاده، فتبعها الى مصر ثم انه انهزم أمام «أغسطس»، فانتهى الحكم الثلاثي، ولم تشأ تلك الملكة أن تعيش بعد أغسطس، فعملت على أن تعضها حية مسمومة، وماتت هكذا في سن التاسعة والثلاثين بعد امضاء اثنتين وعشرين سنة في الملك، واستولى الامبراطور في الحال على مصر وحولها الى اقليم خاضع للرومان الى أن استولى عليها خلفاء محمد. ويقص «فيلون» اليهودي انه في عهد الامبراطور فيسباسيان وبابوية «لينوس» ذهب القديس «مرقس» الى مصر بالهام من روح القدس، وبعد ان علم الانجيل في مواعظه وكتابته، أسس كنيسة الاسكندرية ومات في السنة الثامنة من عهد «دومسيانوس».

الفصل الحادي عشر
كيف وقعت مصر في قبضة العرب

ظلت مصر تحت حكم الرومان الى عهد عمر الخليفة الثاني لمحمد، ففتحها على يد عمرو أحد قادته وسمح للسكان بأن يعيشوا على دين النصرانية، وبنى حصنا(1) على نهر النيل في المكان الذي خيم فيه مدة طويلة وقرية بجوارها

(1) الفسطاط.

تسمى المدينة القديمة(2) لأنها تسمى القاهرة التي ليست هي ممفيس القديمة، وممفيس توجد من جهة افريقيا بالقرب من الأهرام. وهي على ما يظهر، مدينة «أفروم» التي بناها فرعون في عهد موسى على ذراع من جهة افريقيا على بعد سبعة عشر فرسخا من القاهرة في اتجاه الجنوب، ويرى بناء في المكان الذي يلتقي فيه ذراعا النيل والذي يدعى ضريح يوسف، حيث يقال انه دفن قبل أن يحمل العبرانيون جثته للأرض الموعودة.

فالقاهرة، إذن، وما يحيط بها من أماكن لا علاقة لها بالفراعنة القدماء الذين كانوا يقطنون في اتجاه الصعيد فوق القاهرة بممفيس ومنفلوط وإخميم وغيرها من المدن التي كانت مشهورة في ذلك الوقت.

ولكن منذ أن أخضع الأسكندر الأكبر مصر، كل من فيها كان ذا أهمية نزل نحو شاطىء البحر المتوسط، لأن البطالسة أقاموا حاضرتهم الملكية بالأسكندرية، واستمر الأمر على ذلك في عهد الرومان حتى بعد انتقال الأمبراطور الى اليونان، ولكن خلفاء محمد استقروا بوسط المملكة في المكان الذي بنيت فيه القاهرة، وذلك سواء للمحافظة على أمن البلد الذي قسم الى جهتين، أو للدفاع عنها صدا على الأمراء المسيحيين الذين كانوا يتمتعون بتفوق في البحر، لما أخذت الدولة في الانهيار أقام صلاح الدين امبراطورية المالك في مصر، واتفق خلفاؤه على أساس أن تمتد سيطرتهم في عهد فانصو أو الغورى على طول البحر المتوسط في مسافة تمتد على ثلاثمائة فرسخ منذ رأس «أراز أوزن» الذي يسميه بطليموس جسر موريا الى خليج «اراز» الذي هو «سريبلويس» القديمة، على ما يظهر.

وعلى طول هاته السواحل توجد عدة موانىء مشهورة. وإذا صعدنا في النيل خلال اقليم الصعيد، نجده يصل الى «بطليمايد» وينزل الى البحر الأحمر، ثم يصل من هنالك إلى الشريف بركات، الذي هو شريف مكة مع أمير عدن الذي كان يحكم الى مصب المضيق ويملك بلاد القصيم التي تقابل جزيرة قمران، ومن هنالك يقطع الصحاري وياتي الى مدينة بير الموجودة على الفرات، ثم يتجه شرقا من طريق أخرى فيعود الى خليج لاراس، وهذه الدائرة تشمل قسما كبيرا من صحراء جزيرة العرب وكل البتراء وبلاد يهودا وقسما كبيرا من سوريا وافريقيا. والاسم الذي كان

(2) مصر العتيقة.

يحمل هذا السلطان هو قانصو، ولكنه كان يضيف إليه اسم الغورى، لأنه كان انتصر على ملك الفرس في بحيرة الغور التي توجد على الفرات بين مدينتي «إيناس» و «وبغداد».

الفصل الثاني عشر

فتح مصر من لدن السلطان الأعظم

سبق أن قلنا في الفصل الأربعين من الكتاب الثاني أن سليم وجه سلاحه ضد سلطان مصر وغلبه. ونقدم هنا تفاصيل ذلك الفتح لا لأنه جد مهم ووضع في قبضة السلطان الأعظم مصر وسوريا والأقاليم المجاورة فحسب، ولكنه أيضا لكونه قضى على دولة المماليك التي هم موضوعنا الذي نعالجه وحاول الصفوى «طهماسب» الذي حل محل والده اسماعيل على رأس مملكة فارس أن يتقوى بحلف جيرانه ضدا على السلطان الأعظم ووجه الى السلطان الغورى يخبره بنوايا السلطان سليم، إذ سينتقل الى مصر بمجرد ما يستولى على فارس، ويدعوه الى جمع قواتهما ليقاوما معا عدوهما المشترك. فاستطاع سليم، في تلك الأثناء، أن يحصن حدوده من جهة البلاد المسيحية، فقرر أن يواصل مشاريعه في آسيا وترك ولده سليمان في أدرنة مع حامية كبيرة والباشا بيرى في القسطنطينية، وأصله من «كرمانيا» وجهز أسطولا متكونا من عدة سفن أسند قيادته للجنرال ظافرو، وهو مرتد من هنغاريا. وكان خصيا وانتقل الى الأناضول بجيش قوي وترك الباشا «شرشوغلو» الذي كان صقلبيا مع مجموعة من الجنود لضمان أمن ذلك الاقليم. وصار في طريق الفرات وغرضه أن يدخل الى فارس، لكنه علم بالا صالات الجارية بين السلطان والصفوى، فتوقف في اقليم «أكونيا» ووجه الى السلطان يرجوه أن لا يمنعه من محاربة الصفوى الذي أدخل بدعا في الدين ونسبب لآسيا في مصائب.

وكان السلطان، بوصفه رئيسا لدين محمد رجلا متكبرا ويرغب في القضاء على عظمة سليم، بسبب شدته وطموحه.، حيث لم يتم الوصول إلى إي اتفاق معه، بل أعاد السفير(1) مع بعض الأمل في السلم، تبعا لأحد قادته «ينبوردو غزال» الذي أشار عليه بأن لا يتخاصم مع التركي، وأن يدع باب الأمل مفتوحا، لأن جيشه سيتشتت من عنديته بسبب كثرته، وكان السلطان يتوفر على ثمانية

(1) قاضي الشرع.

وعشرين ألف محارب، كلهم مسلحون تسليحا جيدا وماهرون في عملهم الى حد أنهم كانوا يحتقرون الأتراك وتابع سليم طريقه الى قيصرية ومن هنالك أمكن أن يسير نحو الفرات ويتقدم إلى جهة الصفويين، كما وقع الاعلان عن ذلك، أو يدخل الى سوريا عن طريق جبل امانوس، وبينما كان هنالك، قدم عقد للصلح من الجهتين، ولكن بدون الرغبة في الامضاء، وانما ليتعرف كل جانب على قوات الآخر.

ولاحظ سليم ان السلطان كان ينتظر الاتصال بالعاهل الصفوي ليدخل في المعركة، فقرر أن يسبقه، وبينما كان السلطان يسير نحو حلب ليحتمي تلك المدينة التي كان حاكمها متصلا بالعدو، غادر سليم طريق الفرس ودخل إلى سوريا عن طريق جبل «أمانو» التي كان القدماء يسمونها «أباميا» فلما علم بمقدم التركي، ذهب، في الحين، للقائه. وأصدر أمره في الحين لقايتباي، حاكم حلب، الذي جاء اليه مع كل قواه الى خمسة فراسخ من المدينة على ضفة نهر سنجا. كما فعل هو، لا بقصد خدمته. ولما تقارب العدوان، وجه السلطان أمامه «سيبيو بلفانو» أمير دمشق مع جيش كبير من المماليك، ثم تقدم حاكم حلب مع جنوده. وفعل ذلك دون أن يتلقى الأمر من سيده، وكان مخطئا، وبدأ يدور حول العدو، وكأنه يريد أن يستولي على متاعه.

وأسندت قيادة الجيش الثالث من المماليك الى غزال وتبعه السلطان مع بقية الجيش، على نضف فرسخ، وقسم سليم جيشه، اقتداء به، على أربعة فرق : الأول جعله تحت قيادة مصطفى، حاكم الأناضول، والثاني تحت قيادة امبراكور باشا والثالث تحت قيادة سنان باشا واحتفظ لنفسه بقيادة الرابع الذي كان يضم معظم الجيش.

وهجم الأتراك هم الأولون على المماليك الذين كان يقودهم حاكم دمشق، ولما صادفوا شيئا من المقاومة تراجعوا قليلا. وفي تلك الأثناء، كان غزال يهاجم سنان باشا، الذي فتح له الطريق ليمر، ثم أطلقت عليه النيران من المدفعية ومن بنادق الانكشارية، الشيء الذي هيج الخيل، حتى انها فرت بركابها الى البعيد، وهاته الهزيمة اضطرت السلطان الذي كان يتبعهم الى الدوران، ولكن بما انه كان عجوزا من سن ستين سنة، فإن فرسه أوقع به على الأرض أثناء الفرار وداس جنوده بطنه، ومات في الواقعة حاكم دمشق وحاكم طرابلس، ولكن غزال أفلت وجمع كل من يستطسع من المماليك وذهب الى دمشق، ومات عدد كبير من الخيل الجيدة

لشدة الخدمة والحرارة، ولم يشأ سليم أن يتابع الأعداء، بل بقي كل ليله مسلحا. وفي الصباح، قام بتخريب معسكرهم حيث وجد غنائم كبيرة، ومن هنالك، سار نحو حلب، وبعد أن قام بحفلة عظيمة، تلطف كثيرا مع الحاكم جزاء على الخدمة التي أداها له، أثناء المعركة، وبعد أن ترك جيشه يأخذ قسطا من الراحة، سار في طريق دمشق حتى لا يترك لأعدائه الوقت الكافي لترميم قولتهم.

ولكن بإشارة من غزال، استدعى المماليك من كل جهة الى القاهرة العظمى وانتخبوا كسلطان عليهم طومان باي، حاكم الاسكندرية الذي كان من جيشهم ويحظى بتقديرهم، وجمع كل المماليك الذين تمكن من جمعهم ووجه يطلب من حاكم رودوس الكبير المدفعية وغيرها من الاستعدادات ليقاوم الأتراك. ووصل سليم في تلك الأثناء الى مدينة أمانو واستقبل استقبال الفاتحين، ولما اقترب من دمشق، فتح له السكان الأبواب، بحيث لم يدخل الا مخفورا من حرسه الانكشارية خوفا من أن يقع النهب في المكان، وكان بعض المماليك يوجدون في القصر، فتهيأوا للدفاع، ولكنهم استسلموا في الأخير، وهكذا وقع لمدن أخرى، بحيث ان سليم وجد نفسه في أمد قصير سيدا على سوريا، ثم استقدم كاليرات الى يافا التي هي في مقابلة القدس، ودعا كل نواب فلسطين الى دمشق وحاول بخطاب طويل أن يجتذبهم إلى خدمته، وترك قسما من المراكز الى ولاتها الذين كانوا عليها منذ عهد السلطان، ولم يشأ أن يعين فيها على الفور أتراكا، خوفا من ازعاج البلد، ولكن لكي يحافظ على زمام الأمر، وضع حامية في كل الحصون، وقام بإصدار أحكام ليضرب المثل للسكان، وألغى بعض الجبايا التي كان السلطان يتقاضاها والتي كان الشعب يتذمر منها، وأدخل اصلاحات جديدة وغير عادات سابقة، وبعد ان استراح بضعة أيام، أخذ في طريق مصر، لكي يستولى على بقية تلك المملكة.

وعرج في طريقه على القدس كي يزور البقاع المقدسة التي كان الأتراك يعظمونها، ودفع أمامه سنان باشا على رأس خمسة عشر آلاف من الفرسان ليفتح له مسالك الصحراء، وجرت للباشا بعض المناوشات مع العرب في تلك الطريق، ولما تخلص من مشاكلهم ذهب ينتظر سليم في غزة التي هي مدينة كبيرة على بعد ثلاثة أرباع فرسخ من البحر، وهي آخر مدينة في سوريا، وهنا، بكت شمسون الفيلستيين، على ما يقال، وذلك بقلبه لأعمدة المكان الذي كانوا مجتمعين به للسخرية منه، وهي في محاذاة البحر من جهة الغرب والفرات من الجهة الأخرى.

وتوجد كيليكيا وكبادوسيا في الشمال، وصحراء جزيرة العرب في الجنوب، وتقسم سوريا على أربعة أقسام : اقليم دمشق وفلسطين وأنطاكية وكيليكيا.

ولنرجع الى ما كنا بصدده، كان السلطان آنذاك في القاهرة، حيث كانت تصله أنباء الأتراك على رأس كل ساعة. وبما أنه كان محبوبا في غزة فقد اعتقد أنه كان في مستطاعه أن يحرك سكانها للثورة، فوجه غزال مع ستتة آلاف من المماليك وعددا كبيرا من العرب ليلزم المدينة بالاعلان عن موقفها. وعلم سنان باشا بذلك، فخرج منها وخيم على بعد خمسة فراسخ من غزة. ولما علم باقتراب العدو، عبأ رجاله للحرب. وهاجم المماليك طليعته بقوة، وبعد قتال قوي، مات فيه كثير من الجانبين وجرح فيه غزال وقتل بعض الضباط الكبار في جيشه، تراجعوا بفوضى وقد رأوا أن المدينة لم تتخذ أى موقف، خلافا لما كانت واعدت به السلطان، وأمر الباشا بقطع رؤوس المماليك الذين قتلوا وعلقها في جذوع النخيل حتى يعرفوا من لحاهم الطويلة، ووصل سليم بعد ذلك بقليل الى غزة، وبعد أن تلطف مع سنان أمر بذبح كل من شك فيهم، وبما أنه كان عليه أن يجتازا ثمانين فرسخا وسط الصحراء قبل أن يصل الى القاهرة، جمع عددا كبيرا من القرب لحمل الماء على ظهر الجمال، وبعد أن هيأ كل ما كان ضروريا لتلك المسيرة الطويلة، تقدم بجيشه تسمه الى فرقتين جعل سنان على رأس طليعته وفيها جنود من أروبا. وتبعه ببقية لجيش يوما بعد آخر.

ووصل بهاته التعبئة الى مطير على فرسخين من القاهرة وفيها يوجد ذلك البستان الجميل الذي يوجد به شجر البلسم وهو شجيرة تبلغ ثلاثة أقدام علوا، وأغصانها تشبه تعرشات الكرم، ولها نفس اللون، واوراقها شبيهة بأوراق الفيجن. إلا أنها أكثر بياضا، وهي مخضرة طوال السنة ولا يصيبها سقوط، وحبتها حمراء. والذين يزرعون هاته الشجرة، يشرحون أغصانها في وقت معين بسكين من العاج أو الزجاج، لأن الحديد قد يتسبب في يبسها، ويسيل الدواء الموجود بها في أوان موضوعة من تحت، وهذا السائل صاف كزيت الزيتون الأصيل. وتنبعث منه رائحة قوية، ولكنها طيبة، حتى انها تدوخ من يقترب منها، وأجود المحصول يترك للسلطان الأعظم، والباقي يروج في التجارة. ويقال انه لا يوجد مثلها في مكان آخر. ولكن من المؤكد أن الذوات الكبار يمتلكون هاته الأشجار في القاهرة.

وكان السلطان على علم بقرار العاهل التركي في الهجوم وبكون الملك الصفوي ظل واقفا على حدود الفرس دون أن يتقدم للالتحاق به. فجمع اثني

عشر ألفا من المماليك ومعهم عدد كبير من العرب. وجاء ينتظر العدو في مطيرة التي حصنها وصوب بعض المدافع الحديدية الرديئة نحو الجهة التي كان من المنتظر أن يأتي منها الأتراك وأمر بحفر خنادق كبيرة مغطاة بالعشب وحفائر في الممرات وغير ذلك من الحيل. وكان سليم قد بلغه العلم بذلك من لدن الجنود الفارين، بحيث انه جاء من مكان آخر. ورأى السلطان ان كل هاته الوسائل باتت باطلة. فقرر أن يدخل في المعركة. وقسم جيشه الى ثلاثة فيالق فجعل منها واحدا تحت قيادة سنان باشا وآخر تحت قيادة ديودور الكبير لمواجهة حاكم الأناضول وتوجه بقوة مع بقية الجيش لمحاربة السلطان الأعظم.

وجرت المعركة في سنة ألف وخمسمائة وسبعة عشر في يوم رابع يناير. وكانت دامية جدا. وقتل فيها سنان باشا مع عدة من الأتراك الشجعان. وكان الحظ يسير مع المماليك لولا أن سليم شجع الانكشارية ودفعهم الى القيام بقذفات جاءت في وقتها وتكررت، مما جعل الكثير من الأعداء يقتلون والبقية منهم لاذوا بالفرار في الوقت الذي كادوا فيه أن يهتفوا بانتصارهم. وأخذ ديودور وبيلو من الرؤساء المجروحين أثناء تبادل النيران. وأمر سليم بذبحهما، انتقاما لصاحبه سنان باشا. وانكفأ السلطان وغزال نحو القاهرة مع فلول الهزيمة، وخيموا بين المدينة والنيل ليجمعوا كل قواهما، وجاء اليه الجنود الذين كانوا في المدينة وفي الحصن. فحرر ستة آلاف من المماليك ليشجعهم على الدفاع. ووضع الحواجز في الأزقة ودعم جدران البيوت بالتراب. وأمر السكان بالهروب خوفا من النهب، ثم وجه الى الملك الصفوي ليلزمه بالتقدم وتطويق العدو. ولم يشأ أن يغامر وحده في القتال، ولذلك اختار ليلا حالكا ليهاجم معسكر الأتراك، ولكن هؤلاء علموا بالخبر من بعض المخبرين، كما يجري عادة في مثل هذه اللقاءات، وبعد أن هيأوا مدفعيتهم وكل ما كان ضروريا للدفاع عن المعسكر، أشعلوا كثيرا من النيران حتى أصبح كل شيء يرى كما لو كان النهار.

ووصل المماليك في الوقت الذي عولوا عليه. ولما رأوا الأعداء على احتراز منهم، رجعوا الى القاهرة حيث أقفلوا عليهم وكأنهم في آخر ملجأ لهم. وفهم سليمان بأن العدو يتهرب من القتال، فقرر أن يسيطر عليه بالقوة، وبعد أربعة أيام، دفع بالباشا يونس ومعه الخيالة والمشاة وعشرون قطعة من المدفعية ليضرب احدى الأبواب، فوجد دفاعا ضعيفا لأنها لم تكن محمية الا من لدن السكان، ولما وصلوا الى الأزقة والبيوت حيث اختبأ المماليك، استمر القتال طوال يومين

وليلتين، برغم كون سليم حضر مع بقية الجيس. ولما سيطر الأتراك على معظم المدينة، اضطر بعض المماليك كانوا قد التجأوا الى الجامع الأعظم، أن يستسلموا لنفاذ الأقوات لديهم، ولكنه أمر بذبحهم بعد ذلك. ولما رأى السلطان أن الأتراك أصبحوا سادة على المكان، اجتاز النيل مع من استطاع أن يتبعه ليرم جيشه ويحاول مرة ثالثة أن ينشد الحظ، وجمع حوله كل المماليك والعرب في منطقة الجيزة حيث توجد الأهرام المشهورة التي بناها الفراعنة لتكون قبورا لهم، ومنها واحد مربع ويزن الفا ومائتي خطوة في دائرته. ويضيف شيئا فشيئا في اتجاهه الى القمة.

وفي الوقت الذي كان فيه السلطان يرم قواته ليطرد السلطان من عاصمته كان غزال الذي ذهب بأمر منه الى مصر العليا ليستنفر الجنود هنالك، قد رجع بعدد من الفرسان والمشاة. ولما وجد الأتراك مسيطرين على المدينة والسلطان ملتجئا الى الضفة الأخرى من النهر وهو عاجز عن استرجاعها، انقلب مع تقلب الزمان باشارة من ضباطه وجنوده وجاء يعرض خدمته على سليم ويقبل رجله ويده. واستقبله سليم بترحاب، ووعده بأن يستخدمه هو وأصحابه الذين منحهم أجورا جيدة وجعل من غزال أحد قواد جيشه وبينما كان سليم بالقاهرة، حشد السلطان أكثر ما يمكن من الجنود، وقرر أن يهاجمه بقصد الانتصار عليه ولكن أحد رجاله غدر به، وأعلم بذلك السلطان الأعظم. فوضع عدة سفن في احدى الضواحي ليذهب للقائه، وأمر بحبس كل السكان المشبوه في اخلاصهم، ولما تأكد من كل ما ترك وراءه، أمر مصطفي باشا باجتياز النهر على رأس جنود آسيا وعدد من المدافع.

وعلم السلطان بذلك، فأراد أن يضع حدا لتلك الحرب بسبب عدم اطمئنانه الى ما لديه من قوات، فخرج من معسكره في بداية الليل ومعه أربعة آلاف من الفرسان ومثلها من المشاة واقترب من معسكر الباشا دون أن يرى. فباغث الأتراك بهجوم قوي، فلم يستطيعوا أن يدافعوا عن أنفسهم، و+ان أن يتم الهزيمة عليهم لولا أن الباشا أعلم بذلك السلطان الأعظم الذي وجه اليه الانكشارية. ولكن هؤلاء لم يستطيعوا أن يردوا الخطر لازدحامهم عند المرور فوق الجسر، ولكن كانوغلي وهو أحد أبناء ملوك التتار وصهر لسليم ارتمى في ماء النهر مع خيالته واجتازه سابحا وأنجد الباشا. ومنح الفرصة للأتراك كي يسترجعوا مركزهم، ورأى السلطان أنه عاجز عن الصمود طويلا أمام قوات خصمه، وبعد أن أظهر شخصيا أفانين من الشجاعة في المعركة الأخيرة، انسحب مع الذين

أرادوا اتباعه وسار في طريق افريقيا وابتعد بمسافة ثلاثة أيام وجاء الى قرية سكوفة حيث اعتقد أنه سيظل آمنا، ولكن سليم كان على يقين انه لم يحصل على شيء ما دام خصمه على قيد الحياة، فأمر كوكبة من الفرسان باقتفاء أثره والرجوع به حيا أو ميتا، وبما أن كثيرا من رجاله قتلوا أو أسروا، فقد فر داخل سبخة وهو متنكر في ثوب رث، ولكن السكان أمروا بالبحث عنه وتلقوا وعودا بالمكافأة.

فألقي عليه القبض وهو مختف في الماء الى العنق وأخذه قايتباي، حاكم حلب وأتى به الى سليم. وألحقت به صنوف العذاب ليبين أين أقبرت كنوز الغورى سلفه، ولكنه لم يقل شيئا ولم يشتك مما لحق به من تعذيب. وفي الغد، حمل على ظهر بغل مع حبل في عنقه وطيف به في القاهرة وعلقت رأسه في الباب التي وقع منها الدخول. وتذمر كثير من الناس من سليم لما صدر منه من معاملة جد قاسية. ولكنه أجاب على ذلك بأنه أراد أن ينتقم لسفرائه الذين قتلهم المماليك لما وجههم في سبيل الحصول على تفاهم. وكان مصرع طومان باي نهاية لعهد المماليك وتلاه مقتل كل الأسارى، وفي الحين، قام الاسكندريون بذبح حاميتهم ووجه لهم الانكشارية الذين أصبحوا سادة في كل البلاد الواقعة بين النيل وليبيا، وأصبح الأمراء المجاورون الذين كانوا خاضعين للسلطان من أتباع السلطان الأعظم، وهكذا أصبح الأتراك بفضل ذلك سادة على بحر مصر من سوريا وكرمانيا الى القسطنطينية. وهي مسافة جد طويلة حيث توجد عدة موانىء وعدة مدن جميلة.

وبعد أن أصدر سليم الأمر بالقيام بكل ما هو ضروري لضمان الأمن في المنطقة الجديدة التي قام بفتحها، أخذ على ظهر السفن خمسمائة من أعيان سكان القاهرة ووجههم الى القسطنطينية مع أكبر عدد من نساء المماليك وأولادهم، وترك حكومة القاهرة في يد حاكم حلب الذي خان سيده وحكومة دمشق، غزال، ووضع جيشه في مواجهة الصفويين بكرمانيا، قريبا من جبل طوروس. واجتاز بامفيليا والأناضول وأبحر مع جنود اروبا وانتقل الى القسطنطينية حيث استقبل بأفراح كبيرة.

ولننتقل الآن الى وصف مدن مصر (2)

(2) هنالك في هذا الفصل بعض أسماء الأعلام التي لم نتمكن من التعرف على أصلها العربي، فأوردناها كما قدمها المؤلف. (مترجم)

الفصل الثالث عشر

بوصير

انها مدينة قديمة جدا على الساحل. وهي بعيدة من الاسكندرية في اتجاه الشرق بمسافة سبعة فراسخ. وهي الأولى التي يصادفها المتجول عند خروجه من صحاري برقة، والظاهر عليها انها بنيت وحصنت بأسوار جيدة. وكانت محاطة بكثل من النخيل ولكنها الآن مهجورة، ذلك انه لما انتزع «المريك» ملك القدس، الأسكندرية من يد الأتراك ومعه سلطان مصر، فإن السكان هجروا المدينة وفروا نحو بحيرة البحيرة، ورغم أن البعض منهم رجعوا منذ ذلك الحين، فانهم لم يمكثوا بها طويلا.

الفصل الرابع عشر

الاسكندرية

إنها مدينة بنيت في عهد الأسكندر على يد بطليموس ابن لاكوس، حاكم مصر. وقد بنيت في عهد هذا الملك الكبير ثلاث مدن تحمل نفس الاسم. احداهل على ضفة تنابس[1]، والأخرى بالهند، والثالثة، بمصر. وكلها بنيت بأمر منه.

ولكن هذه هي أشهرها. وحدد موقعها من لدن الرياضي ديموقريط. ومن ثم استنتج أن عددا من كبار المهندسين شاركوا في بنائها. وهي واقعة في سهل جميل على حد من الأرض داخل في البحر في غرب وادي النيل. وما زالت أطلال البناية الكبرى تشاهد، لأنها كانت هي عاصمة ملوك مصر في عهد البطالسة. ولهذا، فقد أدركت سمعة كبيرة كمدينة، سواء بسبب حصانتها أو جمالها أو تجارتها. واحتفظت بتلك السمعة حتى بعد انحطاطها حينما استولى عليها خلفاء محمد[2]. ومنذ ذلك العهد عرفت تراجعا لأن تجارتها مع أوروبا نقصت ونقص عدد سكانها ولكن أحد هؤلاء الخلفاء أظهر تسامحا كبيرا. فأعاد اليها السكان في ظرف وجيز، لأن الناس كلهم جاءوا اليها بقصد الربح. فأمر ببناء دور في أبراج أسوار المدينة

(1) ليست هي تنايس الحقيقية.

(2) مثال من تحامل المترجم (مترجم).

لايواء الحجاج مع عدد من المدارس والزوايا لرجال الدين أو للطلبة القاصدين الدراسة.

وهي مربعة الشكل وذات أربعة أبواب احداها تجاه الشرق نحو النيل، والأخرى تجاه الجنوب نحو البحيرة، والثالثة في الغرب تنظر الى صحاري برقة، والرابعة من جهة البحر حيث يوجد الميناء. وهنالك يقوم الحرس ورجال الجمرك. لأنه لا بد من أداء نسبة مئوية على البضاعة وعلى المالك نفسه الذي يأتي عن طريق البحر. وما زالت هنالك بابان آخران من جهة البحر وهما منفصلان عن المدينة بطرف من السور وبرج نحو ميناء مرفأ حيث تصل المراكب الكبرى المشحونة بالبضائع الثقيلة من البندقية وجنوة وإسبانيا وانجلترا وحتى من اليونان وتركيا لأنه ميناء جيد. ولكن ما يأتي من ايطاليا هو أكثر من غيره. وهنالك مرسى آخر يسمى مرفأ السلسلة الذي تأتي اليه مراكب تونس وكل ما يأتي من شواطىء المغرب. وتؤدي بضائع النصارى عشرة في المائة عند الدخول أو عند الخروج. أما بضائع المسلمين فإنها لا تؤدي الا النصف وأما التي يؤتي بها برا من الاسكندرية الى القاهرة، فلا تؤدي شيئا.

وبين هذين المرفأين، يوجد حيز لا يتعدى مائة خطوة هو على شكل مون. وهنالك جرت معركة بين قيصر والسكان. ولما رأى نفسه مستعجلا، لرتمى في أحد القوارب ومن هنالك نحو البحر إذ رأى أنها على وشك الغرق في العمق فسبح مائتي خطوة، وهو يحمل ألواحه في احدى يديه، خوفا من أن يصيبها البلل وفي نهاية هذا المون أقام بطليموس فيلادلف برج المنار الذي كان في أعلاه منارة تضيء ليلا للسفن الواصلة، لأن مدخل الميناء صعب جدا. وبما أن التجارة قد انتهت، فإن الأسكندرية لم تعد الآن شيئا كبيرا. فلا يوجد فيها الا شارع طويل وجميل يقطعها من طرف الشرق الى طرف الغرب، وحي قريب من البحر، حيث توجد المتاجر والدكاكين وعدد من اليهود الذين يقطنون خارج الأسوار. أما بقية المدينة فهي مهجورة. فقد وقع تخريبها بعد فكاك الملك سان لويس من لدن ملك قبرص والبندقيين مصحوبين ببعض المراكب الفرنسية. فاستولوا على المدينة ونهبوها ولما رأوا أنهم لا يستطيعون الاحتفاظ بها، خربوا تحصيناتها وأوقدوا فيها النيران.

وبنى بعد ذلك السلطان الأسوار بقدر المستطاع وشيد حصنا في الميناء مجتهدا في بنائه بالتدريج. ويوجد في المدينة ربوة عالية شبيهة بربوة تسطاس في روما، تشاهد فيها عدة جرار قديمة. ويظهر أنها ليست من صنع الطبيعة. بل من نتاج

الفن وفي الأعلى يوجد برج صغير للحراسة لمشاهدة السفن القادمة من بعيد وهذه الحراسة لها حقوق على كل السفن التي تكشف عنها. ولكنها تتعرض للعقاب إذا لم تقم بذلك الواجب وكأن المدينة مجوفة كلها ومبنية على أحواض غير مقوسة. وماء النيل يدخل اليه، إذ على بعد أربعة فراسخ من هنالك، في جهة الشرق يمر الذراع الهرقلي أو ذراع رشيد. وإذا ارتفع النيل، يدخل الماء بواسطة قنطرة الى المدينة من تحت الأسوار. وتفتح تلك القنطرة في اليوم الأول من أغسطس وتقام أفراح كبيرة وتطلق المدافع، ومن هنالك يوزع الماء في صهاريج الخواص التي هي كبيرة ومتعددة، بحيث أنها لما تمتلىء يكون فيها من الماء ما يكفي للشرب طول السنة بأكملها وكذلك لخدمة البيت. لكن بما أن تلك الصهاريج قديمة وملأى بالوحل، فإن ماءها نتن ويتسبب في أمراض بالصيف وتأتي القنطرة بالماء من فوق رشيد ولا تسيل بالماء الا مدة ثمانية أيام في السنة حينما تصعد المياه ويكون الفيضان في منتهاه. فإذا انحسرت المياه فإن القنطرة تجف.

إن موقع الاسكندرية جميل فوق رمل رقيق. وهي محاطة بأسوار جميلة تتخللها أبراج فيها بيوت جيدة وفي غربها توجد صحراء برقة الجافة القاحلة لأن ماء النيل لا يمكن أن يصعد اليها. وفي الشرق، توجد قناة الرشيد. وفي الجنوب بحيرة مريوط التي لا تبعد عنها الا بفرسخ. ولا يوجد حواليها لا شجر ولا كرم ولا أرض صالحة للحراثة. ويحمل اليها الزرع من أربعة عشرة فرسخا، وتوجد حديقة محاذية للقنطرة، ولكن فاكهتها غير صالحة وتتسبب في المرض. وعلى فرسخين من الأسكندرية في جهة الغرب تشاهدأبنية قديمة وفيها عمود شاهق بصورة تتجاوز المعتاد. ويقول العرب إن البطالسة هم الذين بنوه لحماية المدينة ويضيفون انه كانت توجد به مرآة سحرية من الفولاذ، وأنها كانت من القوة ما يجعلها إذا كشف عنها تحرق كل السفن المارة ولكن لما استولى العرب على تلك الديار، كسروها ورفعوا العمود من هنالك. وهي خرافة اختلقوها مع غيرها من الخرافات ليشهروا فتحهم لتلك البلاد. فالعمود يشبه مسلة القديس بطرس بروما وهو عال الى درجة انه يترك ذيلا من سبعة وأربعين خطوة عند الزوال ويسميها اليونان مسلة «بومبيوس»! وفي أعلاها برميل كبير على شكل كرة مدورة، يظهر أنها كانت مدفنا لأحد الرومانيين. وأما برج المنار الذي بناه بطليموس، فهو الذي يوجد في الميناء ويوجد في المدينة السجن والقديسة كاترينا والعمودان اللذان كانت فيهما عجلة المحالق والسجن صغير جدا ومفتاحه يوجد لدى أحد المسيحيين. ويفتحه لمن شاء مقابل

صدقة تقدم له، وأن جدران هذا السجن ملأى بأسماء الذين دخلوا اليه وسيكتب فيه اسمي. وفي وسط الطريق، توجد حجرة مدورة ومرصعة باليشب وفي وسطها ثقب كما يوجد بالضبط في حجر الرحى ويزن قطرها أربعة أشبار. وقد قال لي السكان لما كنت هناك[3] أن رأس القديس ماركوس قطع في ذلك المكان، لأنه أقام بالاسكندرية وزاول فيها تعليم الانجيل، ولذلك وضعت هنالك بطراريكية ومنذ ذاك العهد تكاثر رجال الدين حتى إن الرهبان والشهداء والزهاد يتجارز عددهم عدد السكان واستقرت هنالك هرطقة البطريك يعقوب وم ثم سمي أتباعه اليعقوبيين ونصارى الحزام لأنهم كانوا يختنون. ولم تكن لهم الا كنيسة واحدة، وهي التي كان بها جثمان القديس مرقس الذي أخذه البندقيون سرا وحملوه الى البندقية واتخذوا منه قديسهم.
وأكثر هؤلاء اليعاقبة صناع أو تجار. وهم متعصبون لهرطقتهم. وفي وسط المدينة بين أطلالها يوجد بيت شبيه بالمصلى يوجد به قبر يعظمه المسلمون إذ يقولون ان الأسكندر الأكبر مدفون به. وهم يعظمونه كملك ونبي ويوجد عندهم مذكور في القرآن ويأتي اليه الناس متبركين من جهات بعيدة.

ويوجد كذلك بطرف المدينة فرن مات فيه، على ما يقال، يعقوب المنصور وهو يقوم بصنع الخبز. ويتهافت الناس عليه بكثرة من كل جهة.. وأطلعنا أحد الرهبان المصريين على المكان الذي كان فيه أثناء ازدهار الأسكندرية تعليم العلوم التي طالما حفلت بها تلك المدينة عند ما كانت مركزا لتعليم الآداب الاغريقية فكانت تدرس بها الفلسفة وعلم الفلك. وكان بها علماء كبار. وإذا كان التعليم في البداية يجري بحروف هيروغليفية أخذت عن الاثيوبيين الذين حكموا مصر، فإن السبب في ذلك كان هو أنهم لم يكونوا يرغبون في أن تكون تلك العلوم مشاعة بين سائر الناس كما هو شأن القابلين مع العبرانيين والمجوس مع الفرس والكلدانيين في أشوريا والبرهمانيين في الهند والجيمنوفستيين بإثيوبيا والفلاسفة الأولين باليونان، والدرويديين في غالبا، إذ كانوا كلهم يعلمون مذهبهم بالرموز.

وهنالك تعلم هوميورس وأورفيوس وهينوبيدوس وفيثاغوراس وديموقريطوس وأفلاطون الذين حملوا الفلسفة الى اليونان. وتوجد الأسكندرية على بعد أربعة أيام من القاهرة واليها كانت تأتي التوابل من الهند والبضائع النفيسة من جزيرة العرب

(3) 1546.

السعيدة، حيث كانت تنزل في مرسى عيذاب على البحر الأحمر وتحمل على ظهر الجمال الى القاهرة. وعن طريق النيل تصل الى الأسكندرية التي كان يتوافد عليها التجار من كل جهة ولكن منذ أن اكتشف البرتغاليون طريق الهند عبر المحيط، عرفت التجارة النقصان بها. وللسلطان الأعظم بعض الكاليرات في هذا المرسى لحماية الشاطىء. وتوجد حامية تركية بالمدينة التي توجد في بعد ستين درجة وثلاثمائة دقيقة وعرض درجة وثماني دقائق، حسب بطليموس.

الفصل الخامس عشر

أبو قير في أراضي الريف

إنها مدينة قديمة على شاطىء البحر وتبعد بثلاثة فراسخ عن الأسكندرية من جهة الشرق. وهي الآن خراب ولم يبق منها الا الحيطان في بعض الأماكن شاهدة على أنها لم تكن مدينة كبيرة. وأظن أنها هي التي يسميها بطليموس كانوب، ويجعلها في طول ستين درجة وخمس وخمسين دقيقة، وعرض احدى وثلاثين درجة وست دقائق.

ويشاهد حواليها بعض الأراضي التي يزرعها أناس فقراء يسكنون في أخصاص بين النخيل والشاطىء وعرجدا. وتنكسر عليه عدد من السفن ليلا وهي قادمة من سوريا. ويوجد هنالك برج يتخذ منه الأتراك مخزنا لهم وبعض الجنود كحامية. وأما ما يحيط بها من اراض فليس الا صحراء من الرمال متصلة الى النيل.

الفصل السادس عشر

رشيد

انها على ذراع من النيل من جهة الشرق وتبعد عن البحر بفرسخ وكذلك عن مصب النهر الذي يسمى هيراكليوتيك. والبعض يسمونه رشيد. وآخرون يظنون بأنه كانوب وعن طريق ذلك المصب، تدخل مراكب من سبعين الى ثمانين برميل محملة بالبضائع التي تقاد من هنالك على متن القوارب الى القاهرة التي لا توجد الا على بعد عشرين فرسخا، ويذكر المؤرخون العرب أنها من بناء رشيد وهو أحد قواد خليفة مصر الذي سماها باسمه. ولم تكن من قبل الا مسكنا صغيرا تسمى القبط. وتوجد بها ثلاثة آلاف دار مبنية بأحسن بناء وفيها قصور على طول النهر وساحة محاطة بالدكاكين وصناع وتجار مع مسجد جميل واقع بين الساحة والنهر.

وأمام أبواب المسجد، يوجد ميناء تقف فيه الزوارق وغيرها من المراكب التي تحمل البضائع الى القاهرة. وينزل اليها من أبراج كبيرة وهي غير مسدودة بجدران وحواليها عدد من الأهراء يبدو فيها الأرز بأدوات من الخشب. وتوجد بهذا البلد كميات كبيرة منه حتى أنه يمكن أن يدرس منها في الشهر الواحد ثلاثة آلاف صاع. وفي جهة من المدينة، توجد قرية تستأجر فيها الدواب لحمل الأثقال الى الأسكندرية لأنه لا توجد أي تجارة أخرى بذلك المكان. ويمكن السير على جانب الشاطىء بسرعة كبيرة حتى إن أربعة عشر فرسخا ليست مسافة كبيرة، ولو كان الانسان يمر أحيانا فوق الماء.

وموارد المنطقة تتكون من الأرز والتمر مع عدد من البساتين والحقول حيث تنبت هنالك أجود أنواع الرمان التي تباع بالاسكندرية وبغيرها والسكان مؤدبون، ولكنهم أصحاب ملذات. ولهم حمام كبير يتلاعبون فيه وهو أجمل ما يوجد بمصر. وتوجد المدينة على بعد سبعة فراسخ من الأسكندرية وهى في كل تلك الطريق ذات رمل ولا يوجد بها ماء صالح للشرب. ولا يصادف فيها الا ملاحات وتشاهد من وقت لآخر قباب فيها جرار ملأى بالماء تحمل في العربات لخدمة المسافرين، إذ توجد أوقات مخصصة لذلك وأموال رصدت لذلك بوصية، تبعا لتقاليد العرب، الذين يسمون ذلك صدقة. وعلى البعد من رشيد على طول الساحل توجد بعض المراكز سنتحدث عنها بعد أن نساير الشاطىء(1).

الفصل السابع عشر
أنشيوس

هذه المدينة التي كانت تسمى أنتلون فيما سبق، جميلة جدا. وقد بناها الرومان على ضفاف النيل من جهة الشرق. وتشاهد بها طاولات من الجبص وعليها نقوش لاتينية ويوجد بها عدد من التجار والصناع من أصناف أبناء الشعب ويجرى بها نشاط تجاري كبير. ويجنى من ضواحيها مقادير كبيرة من الخضر والأرز والقمح والشعير. ويملك السكان حقولا من النخيل وهم يتصفون باللين والوداعة ويعيشون من كد يدهم دون أن يسيئوا لأحد ويذهبون لبيع أرزهم الى القاهرة.

(1) دمياط، منية، بلطين.

وتلك هي تجارتهم الكبيرة. وتقع هاته المدينة، حسب بطليموس، على بعد أربعة وستين درجة وخمسين دقيقة طولا، وعلى احدى وثلاثين درجة وأربعين دقيقة عرضا.

الفصل الثامن عشر
فرنفال

إنها مدينة قديمة على ضفاف النيل في الشرق. وقد أسست في بداية عهد المسيحية بمصر. والكان جميل جدا والمنطقة غنية بالقمح والأرز الذي يكون موردها الأساسي. وبالمدينة أكثر من أربعمائة بيت يدرس فيها الأرز. وأكثر سكانها أجانب عن الأقليم. وأصلهم من بلاد المغرب. وهم أصحاب رذيلة وفجور الا أن حديثهم لا يخلو من حلاوة.

الفصل التاسع عشر
طيبة

انها مدينة قديمة جدا على ضفاف النيل من جهة الغرب. ولكن ليس هنالك اتفاق فيما يخص تأسيسها فالبعض يقولون انها من بناء اليونان، وآخرون يذكرون الرومان الذين لم يظهروا الا بعد زمان طويل، بحيث ان الرأي الأصوب هو نسبة بنائها للمصريين. الا أننا نشاهد فيها، في أطلالها، كتابات باللغات الثلاث. كانت المدينة كبيرة جدا لكن معظمها أصابه التخريب، وما بقي من بيوتها جميلة والأرض المحيطة بها منتجة للقمح والشعير والأرز والسكر وغيرها من المزوعات ولكنها تنتج بالخصوص فاكهة تسمى الموز. ويوجد بها عدد من التجار والصناع. أما الآخرون، فهم فلاحون ورعاة وفي الغالب، هم أناس وادعون ومؤدبون. ونساؤهم ذوات كلام طيب.

وهي محاطة بنخيل كثيف، بحيث لا يمكن اكتشلفها الا بعد الدخول اليها. وهي مزانة بعدد من الحدائق فيها عرائش الكروم والتين والخوخ وغيرها من للأشجار ذوات الثمار التي تباع غلتها بالقاهرة. وتشاهد في كل مكان أطلال شامخة وأعمدة من الحجر مع أطراف من الجدران دالة على ما عرفته المدينة من صعود. وها هوميروس يتحدث عنها في الالياذة ويذكر أنها كانت تشتمل على مائة باب

ويخرج من كل واحدة منها مائتان من الحرس. وكانت في الزمان القديم عاصمة ملوك مصر. وهو الذي انتقل بعد ذلك الى ممفيس، وأخيرا الى الأسكندرية وهذه البلدة هي أحد الاقليمين المنسوبين لطيبة أحدهما هو الذي يسميه بطليموس «ليكوبولى» وعاصمته أخذت اسم الاقليم ويضع بطليموس مدينة ليكوبولى على مسافة واحد وستين درجة وستة وأربعين دقيقة طولا، وثماني وعشرين درجة عرضا، على ضفة النيل الغربية والاقليم الآخر المنسوب لطيبة يوجد في الضفة الأخرى للنهر ويسمي بطليموس عاصمته «ديوسبوليس»، أو مدينة (جوبيتر) ويجعل موقعها على طول اثنتين وستين درجة وعرض خمسة وعشرين ولكنها، على ما يترأى لي تعني موقع سيينا.

الفصل العشرون

فـوة

انها مدينة قديمة بناها المصريون أنفسهم على ضفة النيل على بعد خمسة عشر فرسخا من القاهرة واثنى عشر من رشيد مع الاتجاه نحو الجنوب. انها آهلة جدا بالسكان. وتضم عددا من البيوت الجميلة من جهة النهر، التي تبرز منها الشرفات التي تطل عليه. وكذلك السطوح وشبابيك الحديد. وسكانها مسلمون حضريون أو فلاحون. وهم أناس أغنياء يتوفرون على كثير من الخيرات المتنوعة ومن بينهم عدد من التجار والصناع من كل الأصناف. وهم أناس وادعون ومؤدبون يميلون الى الراحة ولا يسيئون لأحد. ولكنهم أصحاب ملذات ويبالغون في ذلك. والنساء يتمتعن بكثير من الحرية حتى انهن يتجولن طوال النهار أين شئن ويرجعن في الليل الى بيوتهن دون أن يغضب رجالهن لذلك. وأما النساء المومسات فلهن حي خاص بهن في الضاحية ولكن الأخريات لا يعطين هن أيضا، المثال الحسن، وتوجد عدة حقول من النخيل حول المدينة ومزارع من قصب السكر ومنها تحمل الى كل جهات مصر بقصد البيع إذ لا يوجد بها كثير من العسل. وتجاه المدينة في وسط النهر جزيرة يسميها العرب جزيرة الذهب. وهنالك يملكون بيوتا للنزهة وفيها حدائق مشتملة على عدد من أشجار الفواكه والنخيل وقصب السكر والأرز الذي يحمل الى القاهرة بقصد البيع.

الفصل الواحد والعشرون

المحلة

انها مدينة بناها خلفاء محمد على ضفة النيل من جهة الشرق وسورها غير جيد ولكنها آهلة بالسكان. وفيها عدد من النساجين والفلاحين. والبلاد المجاورة خصبة بالزرع والشعير والكتان وفي المنطقة يوجد عدد كبير من الأرز الذي يحمل حيًّا أو مملحا الى القاهرة. ولا يوجد بها تجار. ولذلك لا يزورها الأجانب.

الفصل الثاني والعشرون

ديروط

انها مدينة غنية مشهورة وغنية بناها أحد القناصل الرومان على ضفة النيل في اتجاه الغرب وهي آهلة ومشتملة على عدد من البيوت المبنية بإحكام والمرتبة بأحسن وضع. ولم يبق تقريبا شيء من أسوارها وهلا ضواح كبيرة يوجد بها عدد من التجار. وسكانها من أغنى سكان مصر بسبب الاتجار في السكر الذي يجرى بطريقة مكثفة، حتى ان السلطان يجلب من جبايتها كل سنة مائة ألف من دنانير الذهب. وبها طاحونة مبنية على شكل قلعة حيث يعالج ويكرر. وهنالك عدد من ناس يشتغلون بزراعة القصب وتكرير السكر. ويجنى بالاضافة الى ذلك. في نفس المكان، مقادير كبيرة من القمح والشعير وتوجد به كثرة من الفواكه والدواب. مما يجعل المدينة مزودة بكل الأشياء.

الفصل الثالث والعشرون

محلة قيس

انها مدينة بناها خلفاء محمد على ربوة عالية واقعة على ضفة النيل من جهة الغرب. وبما أن فيضانات النهر لا تصل الى ذلك المكان فهو مغروس بالكرم الذي يزود القاهرة بالعنب الطري في فصل من السنة. وهذا هو، تقريبا، كل ما يشتغل به السكان، الذين ليست لهم أرض يتوسعون فيها. وأكثرهم أصحاب مراكب يتحركون على طول النهر.

الفصل الرابع والعشرون

ممفيس القديمة

هذه المدينة التي كانت عاصمة للفراعنة هي اليوم خراب. كانت تقع على قنال النيل المتجه الى الغرب على بعد سبعة عشر فرسخا من القاهرة في اتجاه الجنوب. ويشاهد قرب أطلالها الأهرام من الجهة المقابلة لافريقيا. وفيها كان مقر الفراعنة في عصر موسى وأسر بني إسرائيل. ويوجد بناء قديم في المكان الذي يلتقي فيه ذراعا النيل ويسمى ضريح يوسف. ولكنني أظن أنه معبد لفولكان. وأما قبر بومبيوس سالم فهو على بعد فرسخين من الأسكندرية من جهة الغرب، حيث تشاهد هنالك مسلة عالية جدا شبيهة بتلك التي توجد في كنيسة القديس بطرس بروما. ويؤكد اليونان أن الأمبراطور أدريان هو الدي زخرف ذلك القبر الذي توجد حوله أطلال كبيرة يقال عنها انها من بقايا معبد جوبيتر وأن مدينة ممفيس بنيت في عهد يوسف من لدن أحد الفراعنة.

الفصل الخامس والعشرون

القاهرة العظمى وما فيها مما يستحق الذكر

ان القاهرة من أعظم مدن الدنيا وسنخصص لها وصفا خاصا حتى نصحح ما يروج عنها من أساطير. فقد بناها أحد المرتدين من الصقالبة(1) الذي كان في خدمة الخليفة القائم. فبدأ بقلعة وحي ممتد على شكل قرية كبيرة(2) على ضفاف النيل. وهذا أقدم ما يوجد بالقاهرة ويشتمل على ستة آلاف بيت مبنية بناء حسنا، مع قصور فخمة مطلة على النهر ومسجد عظيم بهندسته وجماله وضخامته وقوته. وهو مسجد مشهور جدا عند المسلمين بسبب أقدميته وضريح السيدة نفيسة بنت زين العابدين الموجود به. ويذكر العرب أن هذه السيدة حفيدة لمحمد وكانت تسكن بمدينة الكوفة في جزيرة العرب السعيدة(3) وأنها لما قام النزاع

(1) يعني القائد جوهر الصقلي. ولكن المصادر لا تذكر انه كان مسيحيا ثم أسلم. ونسبته الى صقلية هي كنسبة عدد من المسلمين الذين استوطنوا هذا البلد. ونحن نشعر بأن المؤلف يريد بهاته الاشارة أن ينتقص، مرة أخرى، من قيمة المسلمين. فكأنه يريد أن يقول إن فتح مصر ما كان ليتم لولا تدخل أحد المرتدين من النصرانية !(مترجم)

(2) مصر العتيقة.

(3) بين القصرين.

الكبير بين الخلفاء ورأت أسرتها مبعدة من السلطان، جاءت يائسة الى القاهرة حيث استقبلت أحسن استقبال ولقيت من التبجيل كولية، لأنها كانت مشهورة بصدقها وأمانتها وترتفع بنسبها الى محمد. ويذكرون انه بعد موتها في عهد الخلفاء الشيعيين من بيت علي، بني لها هذا الضريح الذي نال من الشهرة ما يجعله أكثر شيء تقديسا لدى المسلمين. فهم يضعون فيه دائما قناديل الفضة وزرابي الحرير مع عدد كبير من الهدايا التي يقدمها التجار والزوار الذين يأتون اليه. ويؤكد فقهاء المسجد لأبناء الشعب بأن جثمان نفيسة يحدث المعجزات وهكذا يملأون الأفكار بعدد من الخرافات ليدفعوا بالناس الى المزيد من التدين حتى ينالوا من ذلك صدقات أكبر. وتبلغ تلك الصدقات بهذا المكان من الكثرة حتى تبلغ في بعض الأحيان مائة ألف دوكا. وهي تستعمل لمكافأة الفقهاء والاحسان لآل بيت محمد ولما استولى سليم على ذلك البلد، قام الانكشارية من حراسه الذين لم يكونوا يحفلون بالدين، قاموا بنهب ذلك الضريح وأخذوا منه خمسمائة ألف دينار من الذهب مع كمية من المجوهرات وأواني الفضة ولكن سليم أعاد أكثرها الى مكانه. وفي هذه المدينة من جهة النهر، يوجد ديوان كبير توضع فيه البضائع الآتية من مصر العليا، وفي الخارج من جهة حدائق المطرية توجد قبور السلاطين الجميلة مع القباب والأقواس الكبيرة. ومن بين بيوت المدينة يمكن السير في طريق مغطاة تحت رواق يصل الى برجين ضخمين كان قونصو الغورى قد بناهما. وأمام القاهرة في وسط النيل توجد جزيرة مقياس. ومن جهة القاهرة تجاه البيوت الواقعة بضاحية باب زويلة الذي هو أحد الأبواب المهمة في المدينة توجد قلعة مهمة للسلطان حيث يستقر الحكام المعينون من لدن البابا العالي. وتوجد في سفح جبل المقطم محاطة بأسوار كبيرة وحولها قصور كبيرة وجميلة تثير اعجاب كل من يراها. وكل الأعتاب والأقواس والأعمدة والقنوات والقباب من اليشب والجبص والمرمر من مختلف الألوان وكل التلبيسات والسقوف مطلية بالذهب والأزرق.

وفي بعض هاته القصور كان يسكن السلاطين مع حاشيتهم وفي أخرى نساؤهم، وفي أخرى جواريهم، وفي أخرى الطواشيون القائمون على خدمتهم، وفي أخرى حرسهم. ومن بين تلك القصور قصور لا تستعمل الا للولائم والحفلات أو استقبال السفراء، حينما كان أولئك الأمراء يريدون أن يظهروا بمظهر الفخفخة والزينة حتى يبينوا عظمتهم وكان هنالك قصور يجتمع بها الولاة والقضاة لتداول القضايا المهمة. ولكن كل هذا أبطله سليم بعد استيلائه على المكان.

أما المدينة الأخرى التي تسمى القاهرة حسب العرب، فتشتمل على أزيد من ثمانية آلاف دار يسكن بهل أناس ذو شأن وهي مسورة بجدار متين من الحجر المنجور، فهنالك توجد التجارة الرفيعة ويتوارد التجار المسيحيون والمسلمون والترك واليهود الى ثلاثة متاجر قادرة على أكثر من خمسمائة دار للواحد منها. وأكبر مسجد بالمدبنة هو الذي يسمى جامع الأزهر ويحمل اسم الذي بناه. وأخيرا، فإن المدينة توجد في سهل كبير تحت اشراف جبل المقطم على بعد نصف فرسخ من النيل وأسوارها قوية وأبوابها مغطاة بصفائح كبيرة من الحديد وهي ثلاث أبواب رئيسية، باب النصر من جهة الشرق في اتجاه صحراء البحر الأحمر الثانية باب زويلة من جهة النيل والمدينة القديمة والثالثة باب الفتوح التي يذهب منها للبحيرة. وتوجد طريق كبيرة من باب زويلة الى باب النصر حيث يقطن هنالك أكثر الأسر الشريفة وتوجد المدارس الكبرى المبنية بكل اتقان وعدد من المساجد الجميلة التي تستحق اعجابنا لجمالها.

ومنها المسجد الذي بناه الحاكم، الخليفة الفاطمي الثالث، وهو الذي يتميز عن الجميع، وهنالك مساجد أخرى جميلة جدا في كل أحياء المدينة، ولكن بناء الحمامات الموجودة بكثرة تتفوق على غيرها في كثير من الأشياء على أجمل الحمامات الموجودة بالمغرب. ولكن لنبدأ من باب النصر ففي هذا الشارع يوجد جانب كله متصل من الدكاكين الشبيهة بالمطاعم، حيث يأكل المارة على قدر ماالهم وتوجد هنالك كل أصناف اللحم والسمك المطبوخ في طناجير كبيرة مطلية بالقصدير الذي يلمع مثل الفضة. وقريبا من هنالك، توجد الدكاكين التي يباع فيها العصير المستخرج من كل أصناف الفواكه والذي يختزن في الزجاج أو القصدير المصقول صقلا جيدا، والذي يشرب منه ذووا الحيثيلت وفي دكاكين أخرى، توجد أصناف من المربيات واللاعوق المصنوع بالسكر أو بالعسل، ولكنه مختلف عما يوجد بأروبا.

وبعد هذا تصادف دكاكين ملأى بالفواكه المجلوبة من سوريا مثا الكمثري والتفاح والرمان وغيرها مما لا يوجد بمصر ودكاكين أخرى يباع فيها الطحين المقلى بالزيت والبيض مع الجبن. وإذا تقدمنا أبعد من ذلك نصادف شارعا متقاطعا يوجد في جانب منه عدد من الصناع المشهورين وهو قريب من مدرسة كبرى بناها قانصو الغورى وأمام هاته المدرسة يوجد السوق وفي البداية توجد تجارة

القماش القطني الرقيق المجلوب من البلاد الأجنبية وأخرى أقل حبكا ولكنها متينة لصنع العمائم وأقمصة السادة الكبار، وفي جهة ثانية، نصادف أقمشة ثمينة مذهبة أو من الحرير مثل الأطلس والدمشقي والطافطا والديباج والمخمل وغيرها وهي منسوجة أحسن نسيج، بحيث لا يمكن أن يوجد مثلها في مكان آخر الا بصعوبة وفي سوق آخر، يوجد تجار البندقية وفلورنسا واسبانيا وغيرها من البلدان الذين يبيعون ملف أروبا.

وفي دكاكين أخرى، باعة العباءات وثياب السرجة وغيرها من الأشياء المماثلة. الى أن نصل الى باب زويلة حيث يوجد ديوان كبير وفخم حتى أنه ليشبه أحد قصور السلطان الأعظم. وهناك يقطن تجار الفرس حيث يقومون بتجارتهم ولا يوجد هنالك الا كبار الأغنياء يتجرون في التوابل والأحجار الكريمة وثياب الهند وغيرها من الأشياء التي يستوردونها من الشرق.

وهاته الطريق تقطعها طريق أخرى يوجد بها العطارون الذيب يبيعون المسك والعنبر والغالية وغيرهما من العطور بكثرة كبيرة حتى انك إذا طلبت رطلا يقدمون لك مائة رطل. ومن الجهة الأخرى من الطريق يباع الورق المصقول. والذين يبيعونه يملكون أحجارا كريمة جيدة من التي تباع بالمزاد على يد دلال يتجول بها من دكان الى آخر الى ان يتم بيعها. وتتقاطع نفس الطريق مع أخرى يوجد بها الصياغون اليهود الذين تمر على يدهم ثروات كبيرة. وهنالك أزقة أخرى يوجد بها تجار الملابس الذين يبيعون الأثواب الجاهزة وأدوات الزينة الفاخرة للأشخاص ذوي الاعتبار.

وبنفس المدينة يوجد بيمارستان دخله مائتا ألف دينار. وقد بناه أحد السلاطين ويعالج به الجرحى وكل أصناف المرضى ويوجد به أطباء وجراحون موظفون لهذه الغاية. ولا يحتاج المريض لأي شيء ولكن البيمرستان يرث من كل المرضى الذين يموتون به هذا ما يمكن قوله عن المدينة ولنتحدث الآن عن الارباض أو القرى المجاورة. فأمام باب زويلة ربض يشتمل على أربعة عشر ألف كانون تمتد الى نصف فرسخ في اتجاه الشرق، ومن جهة الجنوب تصل الى قصر السلطان. ومن جهة الشمال تمتد على ربع فرسخ الى حي آخر. ويوجد به من ذوي الحيثيات مثل ما يوجد بالمدينة. وأكثر التجار لهم دكاكينهم في أحد هذه الأرباض وبيتهم في ربض آخر. وتوجد هنالك عدة مساجد وأديرة ومدارس. واحداها بالخصوص كلها مقببة كان السلطان حسن هو الذي بناها. فهي عالية وفخمة حتى إنه، مهما وقع من

ثورات داخل القاهرة، فإن الانسان يأمن على نفسه فيها وكأنه يوجد في القلعة التي لا توجد بعيدا منها الا بنصف قذفة من المنجنيق.

وهنالك ربض آخر يسمي جامع ابن طولون الذي يماشي باب زويلة في اتجاه الشرق ويصل الى الغرب في أطلال البنايات القديمة الموجودة بالمدينة. وهنالك ستة آلاف كانون. وأبناء البلد يؤكدون بأن المكان كان مسكونا قبل القاهرة وأن ابن طولون هو الذي بناه، وهو أحد مماليك خليفة بغداد الذي عمره بالسكان وكان واليا على مصر. ذلك أنه ترك المدينة القديمة التي كان يقطن بها وجاء ليسكن بقصر فخم أمر ببنائه في تلك الجهة مع مسجد كبير وجميل، وهنالك يوجد عدد من التجار والصناع من كل الأصناف وأكثرهم من المغرب.

وباب اللوح هو أيضا، ربض كبير يشتمل على أربعة آلاف كانون ولا يبعد عن القاهرة الا بربع فرسخ. وهنالك أصناف مختلفة من التجار والصناع وساحة كبيرة أمام قصر جميل جدا، ومدرسة رائعة كان بناها يزبك المملوك الذي كان وزير دولة لسلطان قديم. وما زال المكان يحمل اسمه. وكل جمعة بعد الصلاة يأتي أبناء القاهرة الى هنالك حيث يوجد عدد كبير من الحانات وكثير من بيوت المومسات وكثير من السحرة والبهلوانيين يرقصون الكلاب والجمل والحمير ويقدمون طيورا في الأقفاص، يأخذون المال من يد الذي يريد أن يعرف شيئا عن مستقبله : وحينما يضعه في القفص يخرج منه ورقة فيها الجواب، وآخرون يتبارزون بالعصي والسيوف وآخرون يتعاطون للمصارعة، وآخرون يصعدون على كراسي عالية ويتغنون بحروب المسلمين والعرب حينما استولى عمرو على تلك البلاد : ولكنهم يضيفون اليها كثيرا من الخرافات والأكاذيب.

وبولاق قرية كبيرة على بعد ثلاثة أرباع فرسخ من المدينة ولا يوجد بينهما الا طواحين تديرها البهائم لطحن الحبوب. وهذه الضاحية قديمة وتوجد بها خمسة آلاف بيت يوجد بها عدد كبير من التجار والصناع الذين يبيعون القمح والشعير والزيت والسكر وبها مساجد ومدارس للشباب. والبيوت التي تطل على النيل مبنية بناء جيدا ومرتبة ترتيبا حسنا وبها عدة نوافذ وشرفات تشاهد منها المراكب عند مرورها لأن القرية توجدأمام ميناء القاهرة الذي تصل اليه في اليوم الواحد ألف زورق، وخصوصا في موسم الحصاد وهنالك الديوان الذي يستقبل فيه التجار القادمون من الأسكندرية ومن دمياط فيه تقتطع حقوق السلطان. ولا يؤدون مثلما

يؤدي المصريون لأنهم حينما يصلون هنالك يكونون قد أدوا حقوق الجمرك في ميناء البحر.

والقرافة هي بمثابة مدينة صغيرة توجد على بعد قذفة حجر من جبل المقطع وثلاثة أرباع فرسخ من القاهرة وأكثر من ذلك بالنسبة للنهر. وفيها ثلاثة آلاف بيت. ولكنها في حالة خراب تقريبا، وتشاهد فيها عدة أضرحة تنسب للأولياء ويقدم لها من مراسيم التقديس مثلما يقدم قدماء المصريين لآلهتهم التي كانوا يسمونها (أنديجيت). وهي في أبنية عالية جدا قبابها مصنوعة كلها من الذهب ومن عدة ألوان بينما أرضها مغطاة بزرابي جميلة وفي كل يوم جمعة يأتي هناك صباحا عدد من سكان القاهرة وأرباضها حيث يزورونها ضريحا ضريحا ويتصدقون على الفقراء تعبدا.

هذا ما يمكن أن نقوله بحق وحقيق عن بناءات تلك المدينة التي يقصدها كل سنة الأتراك والعرب الذاهبون للحج الى مكة والمدينة حيث يوجد قبر محمد. فمحطتهم الأولى تبدأ بالسيدة نفيسة وفي بداية الربيع يذهبون مع عدد كبير من قوافل الجمال والنياق التي تحمل الماء والأقوات لاجتياز صحاري مصر والجزيرة العربية مخفورين بأربعمائة أو خمسمائة من الانكشاريين الذين يؤدى لهم الحجاج أرزاقهم، وذلك خوفا من أن يغير عليهم العرب وينهبونهم ويقضون خمسين يوما في الذهاب ومثلها في الاياب لأنهم يحسبون الأيام. ومما يزيد في شهرة القاهرة التقاء عدد من الشعوب بها وشراء الهدايا منها. ويوجه البابا العالي في كل سنة كسوة من الحرير المذهب لبيت ابراهيم، حيث يقال ان هاجر ولدت اسماعيل. ذلك أنه من عادة خلفاء مصر أن يجددوا كسوة الكعبة كل سنة.

وأول شيء يقوم به الحاج حينما يصل الى مكة هو الاغتسال من ماء بئر توجد قرب باب المسجد. ويقال ان ابراهيم هو الذي احتفره، ويعتقدون بأنهم إذا اغتسلوا منها، فإنهم يجتنبون عذاب جهنم. واحياء لتضحية اسحاق(4)، فإنهم يحملون أكباشا يذبحونها في حفلات معلومة. ومن هنالك يذهبون الى المدينة لزيارة قبر محمد ويتوقفون في مزارات أخرى يأتون منها فيما بعد بحكايات خيالية حتى أنهم يملأون الدنيا بالخرافات. ان شعب القاهرة ذو أدب مع الناس، ويعد أكثر مما

4) بل هو إسماعيل، حسب الرواية الاسلامية (مترجم).

يفي، ويشتغل بالفنون والتجارة. ولكنه لا يبتعد من بلاده حيث تمسكه عدة مغريات.

وكثير من المصريين يشتغلون بالفقه، ولكن قليل منهم بالعلوم ومع أن المدارس ملأى دائما بالطلبة. فقليل منهم من يستفيد. وهم يلبسون جيدا في الشتاء بثوب المخمل أو القطن المضلع. وفي الصيف يلبسون أقمصة رقيقة مع جبة فوقها من ثوب مخطط بالحرير والخيط وعمائم من قماش رقيق يجلب من الهند. والنساء يلبسن لباسا ثمينا ويحملن مجوهرات على جبينهن وفوق صدورهن وخيوط من الذهب مركب فيها أحجار كريمة ومن أعلاها يخرج أنبوب في طول الشبر يتدلى منه اللؤلؤ ويلبسن تنورة، أو بالأحرى، فستانا تركيا يتدلى الى القدمين وهو مصنوع من الحرير وخيوط الذهب. ولهن أجواخ ذات أكمام ضيقة مطرزة بالذهب والحرير. ولهن أخواخ بيضاء من القطن الممتاز في صنعه وهو من عدة أشكال ويسميه المصريون «ليسيا»، وعلى وجوههن لثام أسود مصنوع من الهلب أو من الشعر، وهو رقيق بحيث يسمح للمرأة أن ترى ما حولها دون أن يرى وجهها. وهن ينتعلن أخفافا صغيرة أو أحذية على النمط التركي نظيفة المنظر. وهن جميلات ولطيفات ومترفعات الى حد انهن لا يقبلن أن يشتغلن بالغزل ولا بأي شغل ولا بالطهي. فاللحوم تشترى مطبوخة عند أصحاب المطاعم والطباخين المنتشرين في كل المدينة والذين لا شغل لهم الا تلك التجارة، وقليل هن النساء اللواتي يصنعن الخبز في بيتهن إذا لم تكن أسرتهن كبيرة جدا. ولهن حرية كبيرة، فإذا ذهب أزواجهن الى دكاكينهم خرجن مزينات ومعطرات ليقمنن بزياراتهن ويتجولن. ومن عاداتهن أن يركبن الحمير المجهزة خصيصا للنساء برواحل ثمينة.، وفي الغالب هنالك تجار يكرونها لهن كما هي العادة، ويتبعهن بعض الغلمان، وهن غير متعودات على المشي بحيث لا يستطعن أن يسرن ربع فرسخ على أرجلهن.

وكل أناس القاهرة، ذكورا كانوا أم إناثا، غيرأوفياء بالعهد، والنساء يذهبن لرفع قضاياهن الى القضاة إذا لم يجامعهن رجالهن في كل ليلة بحيث هنالك قدر كبير من حالات الطلاق، كما هو مسموح به فى شريعة محمد، والتجار والصناع يغلقون دكاكينهم ساعة قبل نزول الليل ويذهبون للتلهي في الأرباض، وإذا قام إحد الصناع بإنجاز رائع يلبسونه لباسا من الحرير الدمشقي ينزل الى قدميه، ويحمل حمل الاشهار والتنويه من دكان الى دكان، وكل واحد يقدم له هدية.

والمصريون غير معروفين بالشجاعة، ويحتقرهم الأتراك الى درجة أنهم لا يسمحون لهم بحمل الأسلحة ولا حتى بامتلاكها في بيوتهم، بحيث إنهم يملكون بشق الأنفس ما يقطعون به اللحم. وإذا حدث شجار بينهم، فباللكمات حيث يتجمع الناس حول المتشاجرين ولا يتركونهم حتى يجعلونهم يتبادلون القبل. واللحم المعتاد أكله في القاهرة هو لحم الجاموس، ولكن يوجد بها كثير من الخضر كما هو الشأن بأروبا. وهنالك أناس يقضون يومهم في الشارع يبيعون الفاكهة والجبن واللحم النيىء أو المطبوخ وغير ذلك من المأكولات. ويبيعون كذلك الماء في قرب محمولة على ظهر الجمال لأن النهر يبعد بثلاثة أرباع فرسخ، والبعض يحملون تلك القرب على أكتافهم مع أنبوب من الصفر في فمها وطاسات مزخرفة في اليد. ولبيع الماء في الشارع، فإنهم يتقاضون عن كل شربة دوبلين. وآخرون يبيعون الدجاج بالمدينة، يبيعونه بالوزن لا بالواحدة.

ويفرخون ألفا أو الفين من البيض في أفران ذات سراديب محيطة بها وثقب في آخرها حيث توضع نار معتدلة، ويفقس ذلك البيض في سبعة أيام وتباع كتاكيته بالمدينة في مكاييل لها قعر توضع في قفة المشتري، وحينما يملأ الكيال وتبقى الكتاكيت في السلة، والذين يشترون تلك الكتاكيت يضعونها تحت ديوك مخصية فتتعامل معها كالدجاجات ويغذونها الى أن تنمو وتصبح صالحة للأكل. وينتف بطن الديك ويحك بالحريق، بحيث انه يشعر بلذة عندما يحضن على تلك الكتاكيت. وحينما تكبر تباع في المدينة. وأكثر الذين يقومون بهذا التفقيس من العرب الذين يؤدون ضريبة كبيرة عن ذلك للباب العالي.

وهنالك طائفة من العرب بمصر يأكلون لحم الفرس، تعبدا. بحيث إنه كلما أصيب حصان بآفة، فإن الجزارين يشترونه ويعلفونه من أجل ذبحه، وتلك قضية ترجع الى المذهب المسمى الحنفية التي ينتمي اليها المماليك والآسيويون وكذلك الأتراك. ولكن هؤلاء لا يأكلون من ذلك اللحم ولو كان حلالا عليهم، وفي القاهرة أربعة مذاهب رئيسية، في مصر بكاملها، وهي مختلفة جدا مع بعضها، سواء بالنسبة لقوانينها وأعيادها، وإن كانت ترتكز كلها على آساس شريعة محمد، وكل منها له قاضيه الذي يتبع أحد القرآنات الأربعة، ويفسر التنزيل حسب طريقته.

ورغم أن الآراء مختلفة، فلا يسمح بالانتقال من رأي الى آخر إذا لم يكن الشخص المعني بذلك عالما من العلماء، وقادرا على أن يدلي بالحجة على ذلك التغيير[5].

وهؤلاء الفقهاء الأربعة يقررون في المسائل المهمة، وبالنسبة للقضايا الصغيرة، فالذين يبتون فيها قضاة صغار يوجد عدد منهم بالمدينة وإذا كان هنالك شخصان من مذهبين مختلفين في نزاع بينهما، فالمدعى عليه يلزم عليه أن يحضر أمام قاضي المدعى، لكن إذا كان الحكم في غير صالحه، يمكنه أن يستأنف لدى قاضي أعلى يكون حكمه باتا في مذهب الشافعي، الذي له السيطرة على أولئك القضاة الأربة، وإذا صدرت عن شخص أفعال منافية لمذهبه، فإنه ينال عقابا شديدا من قاضيه، ونفس الاختلاف يوجد بين قضاة المذاهب الأربعة، سواء فيما يخص العبادات أو غيرها، ولكن ذلك لا يتسبب في عداوة بين أنصارى هذا المذهب وذاك، وبخاصة فى أوساط الشعب.

والأدباء لا يتنازعون فيما بينهم، خصوصا فيما يتعلق بالدفاع عن آرائهم أو محاربة آراء غيرهم، ولا يمكنهم أن يذكروهم بسوء ولا حتي أصحاب ذلك الرأي، وإلا نالوا عقابا جسديا، وأخيرا، انهم يحترمون كلهم الشرع ويحافظون على مذهب الأشعري الذي هو القاعدة للعقيدة الاسلامية، سواء بافريقيا أو بمصر أو بآسيا، باستثناء بلاد الصفويين التي لا يقبل فيها الا تأويل علي، ويعاقب المجرمون في القاهرة ويشنق الصوص بدون هوادة. فيمسك رجلان بالقتلة في الهواء من أرجلهم ومن رأسهم أمام القاضي ويأتي الجلاد فيقطعهم من وسطهم بسيف ذي قبضتين الى شطرين. ويضع شطره الأعلى من الحزام الى الرأس على حرارة الجير الحامي ويسأله بعض الوقت ويجيبه المجرم ويسلخ اللصوص والثوار من جلدهم وهم أحياء وكذلك المتمردون ولكن قبل أن يسلخ جلدهم بكامله يحشى بالتبن ويخاط ثم يقع الطواف بالشقي على جمل وتشهد جريمته في كل مكان، وهذا التعذيب قاس جدا لأن المجرم لا يموت قبل أن يسلخ الجلاد سرته، وهذا ما لا يمكن أن يعمله بدون اذن القاضي.

(5) معلومات معظمها خطأ. فالمؤلف يخلط بين المذاهب والقرآن. فلذلك يجعلها أربعة قرآنات، في حين أنها أربعة مذاهب. وكل هذا يدل على عدم تثبت المؤلف فيما يعرفه عن الدين الاسلامي شأن الكثير من المسيحيين الذين كتبوا عنه في ذلك العصر (مترجم).

وأما السجناء من أجل الدين والعاجزون عن أدائه، فإن السجان يؤدي عنهم ويوجههم كل يوم مسلسلين من العنق ومعهم حارس ليطلبوا الصدقة حتى يتخلصوا من دينهم ولا يتركهم بنصرفون الا إذا تمت براءته من الدين. ولعل القارىء المتطلع يجد ما يرضيه في ذلك، ولننتقل الآن الى ذكر مدن أخرى.

الفصل السادس والعشرون

الجيزة

إنها مدينة قديمة على ضفة النيل تنظر الى الغرب، بالنسبة للقاهرة القديمة، وهي آهلة جدا بالسكان، وفيها تجرى تجارة الأنعام التي ياتي اليها بها العرب من صحراء برقة وغيرها لتموين القاهرة، وحتى لا يكونوا مضطرين لاجتياز النيل، فإنهم يقيمون سوقهم في ذلك المكان، حيث ياتي الناس للشراء ويحملون البهائم على ظهر الأفلاك ليبيعوها بالجملة أو بالتقسيط.

وتوجد بالمدينة قصور جميلة وبيوت للفسحة بناها المماليك حتى يتخلصوا من ازدحام القاهرة، ويقطن بها أيضا، عدد من التجار والصناع. وعلى حافة النهر يقع الجامع الأعظم محاطا بحدائق جميلة وبكمية كبيرة من النخيل، وسكان القاهرة ياتون كل يوم الى الجيزة لشراء الأقوات ويرجعون بالليل. وأقصر طريق الى الأهرام حيث توجد قبور الفراعنة القدماء جنب ممفيس يمر من الجيزة، لكن لا يوجد بعدها الا صحاري من الرمال الرقيقة، ولكن بما أن النيل يترك في طريقه عددا من الآبار والبرك عندما ينسحب، فيستطيع الناس أن يسلكوا من هنالك بدون صعوبة إذا كان معهم دليل.

الفصل السابع والعشرون

المحلقة

انها مدينة قديمة بناها المصريون على حافة النيل. وهنالك بيوت جيدة وبنايات قديمة مع مسجد جميل على جنب النهر. وكل الضواحي ملأى بالنخيل وأشجار التين المصري، والمدينة صغيرة ويعيش فيها الناس كما في القاهرة.

الفصل الثامن والعشرون

الخانقاه(1).

هي مدينة كبيرة بناها المصريون على بعد فرسخين من القاهرة، في مدخل الصحراء على طريق سيناء. هنالك بيوت جيدة جدا مع مساجد ومدارس، وفي الحيز الفاصل بينها وبين القاهرة يوجد النخيل، ومن الخانقاه الى ميناء سيناء، لا توجد مساكن على مسافة خمسة وأربعين فرسخا، وعند الخروج من المدينة يوجد طريقان. أحدهما يتجه الى جزيرة العرب والآخر الى سوريا.

السكان أغنياء لأن قوافل سوريا تجتمع هنالك وتشترى كل ما تحتاج اليه، ولا يوجد في النواحي الا أرض ملأى بالنخيل. ولا يوجد من الماء الا ما يفضل عن فيضان النيل.

الفصل التاسع والعشرون

المعيصرة(1)

إنها مدينة صغيرة على حافة النيل بنيت انطلاقا من القاهرة، وتبعد عنها بعشرة فراسخ، ويجنى منها قدر كبير من السمسم الذي يستخرج منه الزيت، وتوجد هنالك مطاحن لهذه الغاية، وأكثر السكان فلاحون ورجال حقول ومن بينهم بعض الصناع وبعض البزازين.

الفصل الثلاثون

بني سويد.

إنها مدينة على ضفة النيل على بعد عشرين فرسخا من القاهرة، صعودا مع النهر. وتقع في وسط برية واسعة يجنى فيها كثير من الكتان والقنب، والكتان جيد ويدعى الأسكندري. ويصدر الى المغرب وغيره لأنهم يصنعون منه قماشا رفيعا ومتينا. وهذه المدينة تزود مصر كلها بالكتان والقنب، والنيل يقتلع في بعض الأحيان أشجار النخيل من هاته المنطقة حينما يفيض. ولولا هذه الآفة لكانت المدينة من أغنى مدن مصر. وإذا صعدنا في النيل الى أعلى من هناك، صادفنا التماسيح التي تأكل البشر.

(1) في الأصل شنشاه.

(1) في الاصل : المحيفرة

الفصل الواحد والثلاثون

المنية

إنها مدينة جميلة على ضفة النيل، من جهة الغرب، وفي مركز مرتفع وقد أعاد بناءها ابن الخصيب الوالي العربي في عهذ خلفاء بابل، وهي محاطة بحدائق وأجنة الكروم التي تباع غلتها في القاهرة لأنها جيدة جدا، وإن كان يصلها في حالة الطراوة لأن المدينة تبعد عنها بستين فرسخا. وتوجد في كل مكان مساجد جميلة وقصور فخمة. وتشاهد في بعض الأماكن أطلال بناءات قديمة يظهر أنها للمصريين. ويلوح انها في الموقع الذي كانت فيه نيقوبوليس. ولعلها بنيت فوق أنقاضها، والسكان أغنياء لأنهم يذهبون في كل سنة للتجارة في بلاد الزنوج.

الفصر الثاني والثلاثون

الفيوم

إنها مدينة عتيقة على مرتفع واقع في أحد أذرع النيل، ويقول العرب انها بنيت من لدن أحد الفراعنة في عهد بني اسرائيل وان هؤلاء اشتغلوا في بنائها. وهو بلد خصب بكل أنواع الفواكه والزيتون ولكن يؤكل الزيتون دون أن يستخرج الزيت، ويشاهد داخلها وخارجها أطلال لبنايات قديمة، وقرب المكان الذي يتميز فيه ذرع النيل عن النهر، توجد آثار قديمة، ويقال بأن قبر يوسف هنالك وأنه وقع نقل عظامه من هنالك الى بلاد يهودا، والمدينة ملأى بالسكان وتروج هنالك تجارة كبيرة. ويصادف فيها عدد من التجار والصناع وفي كل مكان عدد من الأكواخ.

الفصل الثالث والثلاثون

منفلوط

كانت مدينة عظيمة في عهد الفراعنة. ولكن الرومان خربوها. ثم جاء العرب، فأعادوا بناءها، لكن دون أن يبلغوا بها فخامتها القديمة، وتشاهد في جملة من الأماكن عدد من الاعمدة والقطع والطاولات من المرمر وعليها نقوش باللغة المصرية، ويوجد قرب النيل معبد، ويقول مؤرخ عربي بأن خلفاء بابل(1)لما حفروا

(1) كثيرا ما يستعمل المؤلف عبارة «خلفاء بابل» وهو يعني بذلك خلفاء بغداد أي الخلفاء العباسيين، وكما بينا في الجزء الأول، فهو لديه معلومات مخلوطة ومشوشة عن تاريخ الاسلام في تلك الفترة (مترجم).

في اسس ذلك المعبد وجدوا تمساحا من الرصاص ومعه رسائل مصرية، وكآن هذا التمثال صنع تحت بعض الأفلاك ليمنع هذا الحيوان من أكل البشر كما حدث ذلك منذ أن وقع كسره، ولهذا فإن المؤلف يعطي اسم التمساح لهاته المدينة. ويوجد فيها عدد من المداليات من الذهب والفضة والنحاس حيث توجد حروف، من جهة، وصور قديمة للملوك، من جهة أخرى. وقد وضع بطليموس المدينة الحاملة لهذا الاسم في إقليم أفروديت، على طول واحد وستين درجة وعشرين دقيقة، وعرض سبع وعشرين درجة وعشرين دقيقة. والبلد غني بالقمح والماشية من كل نوع. ولكنه حارّ جدا وتحدث فيه التماسيح عدة إتلافات على طول النهر، ويقال بأن هذا هو السبب الذي جعل الرومان يخربونها. وأكثر السكان يقومون الآن بتجارتهم في بلاد الزنوج.

الفصل الرابع والثلاثون

أسيـوط

هاته المدينة التي كانت تسمى فيما قبل بوبسط، قديمة جدا، بناها المصريون على ضفة النيل، على بعد ثلاثة وثمانين فرسخا من القاهرة. وكانت فيما قبل كبيرة جدا وآهلة بالسكان. وما زالت تشاهد فيها أطلال البناءات القديمة، مع عدد من الكتابات المصرية فوق الأعمدة وعلى الأحجار وقد وقع إتلافها على عهد العرب. ومن السهل أن نعرف بأن هاته المدينة كانت محكومة من قبل من لدن أناس ذوي حيثيات كبيرة بسبب ما فيها من حضارة ومن جمال البيوت. وما زال فيها الى اليوم عدد من الأشراف ومن الناس المترفين. ويوجد فيها من جهة أكثر من مائة بيت للنصارى وثلاث أو أربع كنائس قديمة، وخارج أسوارهايوجد دير للرهبان المصريين الذين لا يأكلون لا لحما ولا سمكا وانما يتقوتون بالخبز والأعشاب والخضروات وغيرها من المأكولات التي لا تثقل البطن، وبعض الطواجين التي يصنعونها بأنفسهم، والتي لا يدخلون فيها أي شيء مما يحسب من الأحياء. وكانوا سابقا جد كرماء ويستقبلون الغرباء الذين يمرون من هنالك ثلاثة أيام. ولاطعامهم كانوا يسمنون الحمام والدجاج وغير ذلك من الحيوانات.

الفصل الخامس والثلاثون

إخميم

إنها أقدم مدينة في مصر وهي التي بناها حفيد كوس على ضفة النيل من جهة الشرق، على بعد ألف فرسخ من القاهرة. وقد خربها العرب عندما فتحوا مصر بحيث لم يعد يرى في مكانها لا أسس الأسوار التي انتزعت منها الأحجار والأعمدة لبناء المنشية التي هي على الجانب الآخر من النهر.

الفصل السادس والثلاثون

المنشية

هاته المدينة بناها خلفاء محمد على ضفة النيل في اتجاه الشرق وعلى مستوى «بردوا» الموجودة بليبيا. والفضل في بنائها يرجع لحاكم الاقليم الذي بناها على نمط افريقيا. وأزقتها ضيقة ومعوجة ويكثر فيها الغبار بالصيف بحيث يصعب التجول فيها. والبلد غني بكل أنواع القمح والماشية، وكانت من قبل تحت سيطرة افريقي اسمه هوارة كان سلفه تسلمها من الخليفة الفاطمي المنشق القائم، وذلك ليساعد مولاه جوهر، قائد الجيش في مصر. لكن سليمان انتزعها من هوارة، وعلى بعد فرسخ من هنالك كان يوجد دير القديس جرجس الذي كان غنيا ويمتلك عدة أراض في الناحية. وفي العادة، كان هنالك أكثر من مائتي راهب يؤون الغرباء ويوجهون البقية الى بطراريكية الاكسندرية حيث كانت تجري الصدقة على الفقراء، ولكنهم ماتوا كلهم من العدوى مع رجالهم منذ مائة وستين سنة، وبقي الحاكم هنالك بسبب جمال المكان بعد أن حصنه وأسكن فيه التجار والصناع إذ كان هنالك أجنة وبساتين حواليها، وهي التي كان رجال الدين قاموا بزراعتها فوق بعض الربوات. واشتكى اليعاقبة الى السلطان، فأسس ديرا لثلاثين راهبا في المكان الذي كانت فيه المدينة سابقا.

الفصل السابع والثلاثون

الخيام

هي مدينة صغيرة من إنشاء خلفاء محمد وهي آهلة باليعاقبة الذين يشتغلون بالحرث ويربون عددا كبير من الدجاج والحمام والأرز التي يبيعونها بثمن بخس.

وهنالك أديرة فيها بعض الرهبان ويأوى اليها الغرباء عند مرورهم. ولا يدخل اليها لا تركي ولا عربي ما عدا الحاكم وأسرته.

الفصل الثامن والثلاثون

بربنـــدة

إنها مدينة قديمة بناها المصريون على ضفة النيل، على بعد مائة وأربعة وثلاثين فرسخا من القاهرة، وليس يشاهد فيها الا أطلال الأسوار والمعابد. ذلك أن العرب أخذوا الأعمدة والحجارة الكبيرة الى مدينة إسنا[1]. وما زالت تكتشف في تلك الجهة مسكوكات من الذهب والفضة، وقع نفيسة من الزمرد تدعى العبيدية.

الفصل التاسع والثلاثون

قـنـــة

إنها مدينة قديمة بناها المصريون على النيل مقابل مدينة بربندة، وهي محاطة بأسوار. ويقطن بها زراع وفلاحون لهم محاصيل كبيرة من القمح وعدد كبير من الماشية، والقدوم إليها عند الذهاب من القاهرة الى مكة عن طريق النيل، ومن ثم الى البحر الأحمر أربعون فرسخا تقطع داخل الصحراء حيث لا يشاهد الماء الا عند الوصول الى البحر: وهنالك يكون الوصول الى مرسى صغير[1] توجد به عدد من الأكواخ حيث تستودع البضائع. وكل مساكن الناس هنالك هي من حصر الجريد. وتصاد مقادير كبيرة من السمك في ذلك المرسى، ويوجد أمامه مرسى[2] بجزيرة العرب حيث ينقل هنالك قدر كبير من القمح من قنة الى المدينة ومكة إذ كثيرا ما يحصل هنالك الحاجة اليه.

الفصل الأربعون

سـيانـا

هاته المدينة التي يسميها الاثيوبيون كَاكَير قديمة جدا. وقد تغنى بها الشعراء، لأنه لا يوجد بها ظل فى الزوال حينما تكون الشمس في برج السرطان، وكانت تسمى

(1) قصير.

(2) الينبع.

(1) في الأصل : سيانا (م.).

أسنا إلا أن العرب لما فتحوا مصر استبدلوا اسمها باسم زينة أي الجميلة لأنها في الواقع رائقة سواء في بناياتها أو في موقعها على ضفة النيل من جهة افريقيا.

وكان الرومان قد خربوها تقريبا لكن العرب أعادوا بناءها وزينوها، وسكانها أغنياء ومتوفرون على كميات كبيرة من القمح والماشية. وهم يقومون بالتجارة على طول النيل، وهم يصعدون الى مملكة النوبة أو بواسطة القوافل عن طريق الصحراء. وكان لهاته المدينة فيما مضى من الأيام دائرة كبيرة ما زالت تشاهد فيها بنايات فخمة وقبور عجيبة للوثنيين مع كتابات باللغة المصرية وكتابات أخرى باللغة اللاتينية منقوشة في أحجار كبيرة. ويجعل بطليموس موقعها على اثنتين وستين درجة طولا وخمس وعشرين درجة وخمسين دقيقة عرضا. وهي مجاورة لبوجوهيوس في النوبة وليست مفصولة عنها الا بخمسة أيام تقطع في الصحراء.

الفصل الواحد والأربعون
أســـوان

إنها مدينة كبيرة على بعد ستة وعشرين فرسخا من المدينة السابقة كان المصريون القدماء بنوها على ضفة النيل في اتجاه الشرق. وهي غنية بالقمح ويقطن بها تجار أغنياء يتاجرون ببلاد النوبة. ولا يمكن الملاحة في النيل الا عند حدها، إذ بعد تجاوزها يسيح النهر في السهول حيث يكون بحيرات كبيرة. وهذا المكان يقع في حدود النوبة والصحراء التي تذهب الى سواكن في البحر الأحمر أو الى بلاد القس يوحنا. والسكان سود أكثر منهم حمر. وهذا بسبب حرارة الصيف وكذلك بسبب الاختلاط مع الاثيوبيين.

ويشاهد في عدة أماكن أبنية مصرية قديمة مصحوبة بأبراج عالية تدعى باربا وهنالك تنتهي مصر مع الصعود على طول النيل. وكل المدن التي تحدثنا عنها توجد في هاته الضفة أو في الضفة الأخرى من ذراع النيل الكبير المتجه الى الشرق، وبعدها لا توجد أي مدينة ذات أهمية، وإنما بعض الأماكن التي يقطن بها أناس فقراء يتكلمون لغة نصف عربية ونصف مصرية أو حبشية وهم تحت امرة شعب يعيش تحت الخيام مثل العرب، ولم يتمكن لا السلطان ولا الباب العالي أن يتصل بهم، ولننتقل الآن بحديثنا الى المدن الواقعة على البحر الأحمر.

الفصل الثاني والأربعون

سواكن

إنها آخر مدينة بإثيوبيا وأولها بمصر على شاطىء البحر الأحمر، وهي على بعد ستين فرسخا من جزيرة مصوع نحو الشرق وبينها وبين القوصر، الواقعة على مائة وثلاثين فرسخا منها في نفس الجهة، توجد عدة موانىء[1] لا يعرفها الا الربابنة من أجل الحصول على الماء. وهذا أحسنها في البحر الأحمر، لأن البحر يدخل اليها عن مضيق صغير وينتشر بعد ذلك في بحيرة كبيرة توجد بها جزيرة صغيرة ليست أكبر من المدينة القائمة بها، وكل البيوت مبنية بالحجر والجير، على شكل البناء الأروبي، وهنا يبتدىء شاطىء الكافر، ولهذا منح هذا الاسم[2]، وكان هنالك، فيما سبق، ملك. ولكن الأتراك استولوا على بلاده وعينوا حاكما مع حامية تحت قيادة باشا القاهرة.

الفصل الثالث والأربعون

قصير، أي القصر الصغير بالعربية

إنها مدينة صغيرة على البحر الأحمر وليست مشهورة لا بحضارتها ولا ببناياتها التي تدل على بؤس العرب الذين يسكنونها، ولكن بسبب كون المكان تنفتح فيه الجبال التي تحاذي ذلك البحر. ومن هنالك ينقل القمح من مصر الى جزيرة العرب، فأكثر المسلمين الذين يأتون من المغرب بقصد الحج الى مكة والمدينة يتجرون من قصير حتى لا ينزلوا الى القاهرة. وعلى بعد فرسخين منها تلوح أطلال مدينة قديمة تحمل نفس الاسم. ولكنها هجرت لأنها كما يقول أبناء البلد كانت مدينة مثقلة بضرائب كثيرة. والظاهر ان «فيلاتير» كان هنالك. وتوجد المدينة على بعد ستة عشر فرسخا من النيل في الجبال الواسعة بينها وبين السويس. ويوجد هنالك ديران أحدهما للقديس أنطونيوس في مستوى كرونلة والآخر

(1) طونه، كَوالبو، كسوانا، كساكو، صومول، كسام، كلاكل، فركوسة، داردانت. حاولنا أن نجد هاته الأسماء في المعاجم العربية، فلم نصل لنتيجة (مترجم)

(2) سواكن القفار. هكذا ورد في الهامش. وهنا التباس. فهل يريد المؤلف ان يشير الى انها بلد القفار أو بلد الكفار؟ الظاهر أن المعنى الأول أرجح، لأن سكانها مسلمون. (مترجم)

للقديس باولوس مقابل للطور، وهذا الأخير أقرب الى البحر من الأول وان كان بعيدا من الشاطىء وقائما في أعلى الجبل. وهما مملتئان بالرهبان من عدة أمم، أتوا بقصد التوبة ولهم اتصال مع أديرة أخرى من نفس الطريقة موجودة بمصر. ومن السويس الى قصير ستون فرسخا.

الفصل الرابع والأربعون

السويس

هاته المدينة مبنية بين الرمال الرطبة التي لا توجد فيها أية خضرة، ويقص أبناء البلد بأنها كانت كبيرة فيما مضى ولكن المسلمين خربوها مع مدن أخرى في الاقليم. ولا يوجد في هاته الجهة لا سقاية ولا نهر. ولكن السكان لهم نطفيات تملأ بماء النيل، عن طريق قنال كان العرب أغلقوه، بحيث ان الماء الذي يشرب في المدينة حاليا يحمل على ظهر الجمال من بعض الآبار المالحة الواقعة على فرسخين من هنالك. وهذه المدينة تقع في آخر خليج البحر الأحمر. وما زالت تشاهد فيها بقايا من الأسوار القديمة وبقايا من القصر القديم التي يحتمى فيها الأتراك الذين يحرسون الأسطول والمكان.

والظاهر أن هذه هي مدينة الأبطال التي جعلها بطليموس بعيدة عن البحر. ولا يوجد الآن في السويس الا صناع وعمال لصنع مراكب الأسطول الذي يحافظ عليه الباب العالي في ذلك المكان ويؤتى بالخشب من تركيا وكذلك بالملاحين، ولا زالت تشاهد هنالك بيوت كبيرة مغطاة بتلك الرمال الرطبة وعدد من النطفيات التي لا تصلح لشيء لأن قناة النيل مغلقة، ويوجد هذا الميناء على بعد فرسخين من القاهرة في اتجاه الشرق وعلى بعد فرسخ من هنالك توجد شوكة فرعون، وسبعة فراسخ آبار موسى، وعشرين فرسخا كورونلولو، حيث يقال ان أبناء اسرائيل مروا من هنالك. ويوجد الطور في الجهة الأخرى من الخليج في نفس الطريق نحو جبل سيناء، وفي هذا المكان تنتهي مصر.

الفصل الأخير

الطـور

مدينة صغيرة على البحر الأحمر تبعد عن السويس بأربعين فرسخا، وتعد حدا لمصر من جهة الجزيرة العربية، سواء كانت تابعة لهذا الاقليم أو ذاك. وهي أشهر من أية مدينة أخرى في هذا الساحل سواء من حيث التجارة أو هيئة المنازل أو تحضر السكان. يسكنها اليعاقبة، ويوجد بعض رجال الدين في دير القديسة كاترين لربط الاتصال مع دير سيناء الذي يوجد به ضريح هذه القديسة ويبعد عنه بنحو ثمانية عشر فرسخا. ويحكى في هذه المنطقة أن موسى (عليه السلام) مر من هنالك عندما فر من فرعون. ويوجد الحد بين الجزيرة العربية ومصر على بعد ثلاثة فراسخ من ثمة. ويعتقد بعضهم أن الطور هو عليم الذي تحدث عنه جميع الجغرافيين القدامى، لأن الخليج الذ يوجد أمام هذه المدينة يدعى عيلمي، ولو أن بطليموس يجعل الطور على تسع وعشرين درجة وربع من الخط، والبرتغاليين يجعلونها على ثمان وعشرين درجة وسدس. وفيما بين موقع هذه المدينة ومدينة السويس لا توجد عمارة في المكان الذي رسمه بطليموس ولا حتى اثر يدل على انه كان معمورا في قديم الزمان، لأنه قفر قاحل لا ماء فيه. وعلى بعد ثلاثة فراسخ من السويس توجد الآبار التي تنسب لموسى. ويؤكد أنه حفرها بعد أن قطع البحر الأحمر، ويجلها العرب اجلالا عظيما، غير انهم ليسوا متفقين على انه اجتاز من ثم أو من كوروندول التي تبعد عن السويس بخمسة عشر فرسخا، وعن الطور بخمسة وعشرين فرسخا.

هنا تنتهي مصر في هذه الجهة، ومنها ترجع عبر الصحراء الى البحر المتوسط في دمياط، ولها على امتداد الساحل في اتجاه الغرب مدن بيلتن، وجاليزين وميكي ورشيد.

انتهى كتاب افريقيا لمارمول

فهرس الموضوعات
الكتاب السادس
مملكة تونس

الكتاب السابع

نوميديا

الكتاب الثامن

ليبيا أو الصحراء

الكتاب التاسع

ويتناول أثيوبيا العليا والسفلى

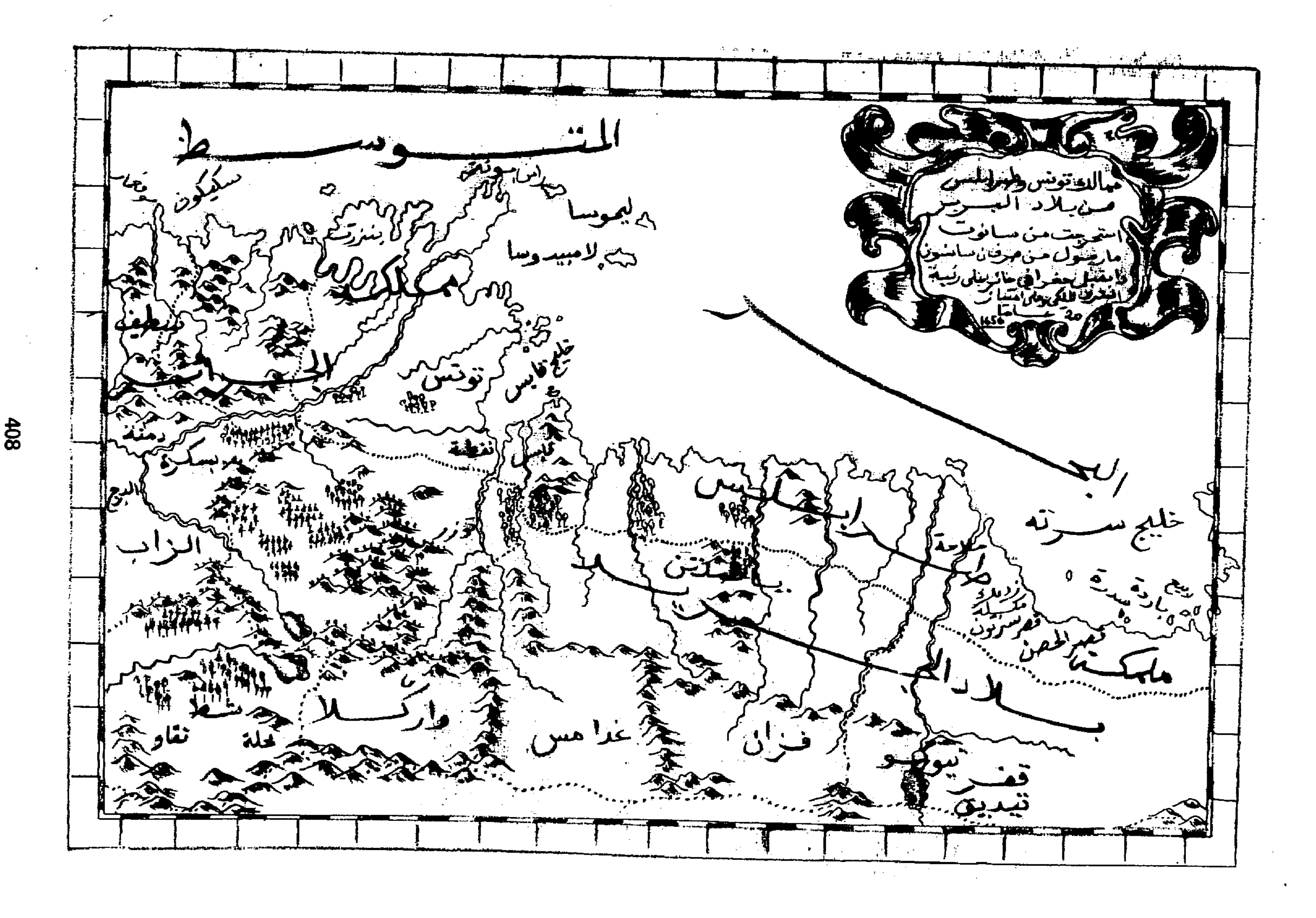
الكتاب العاشر

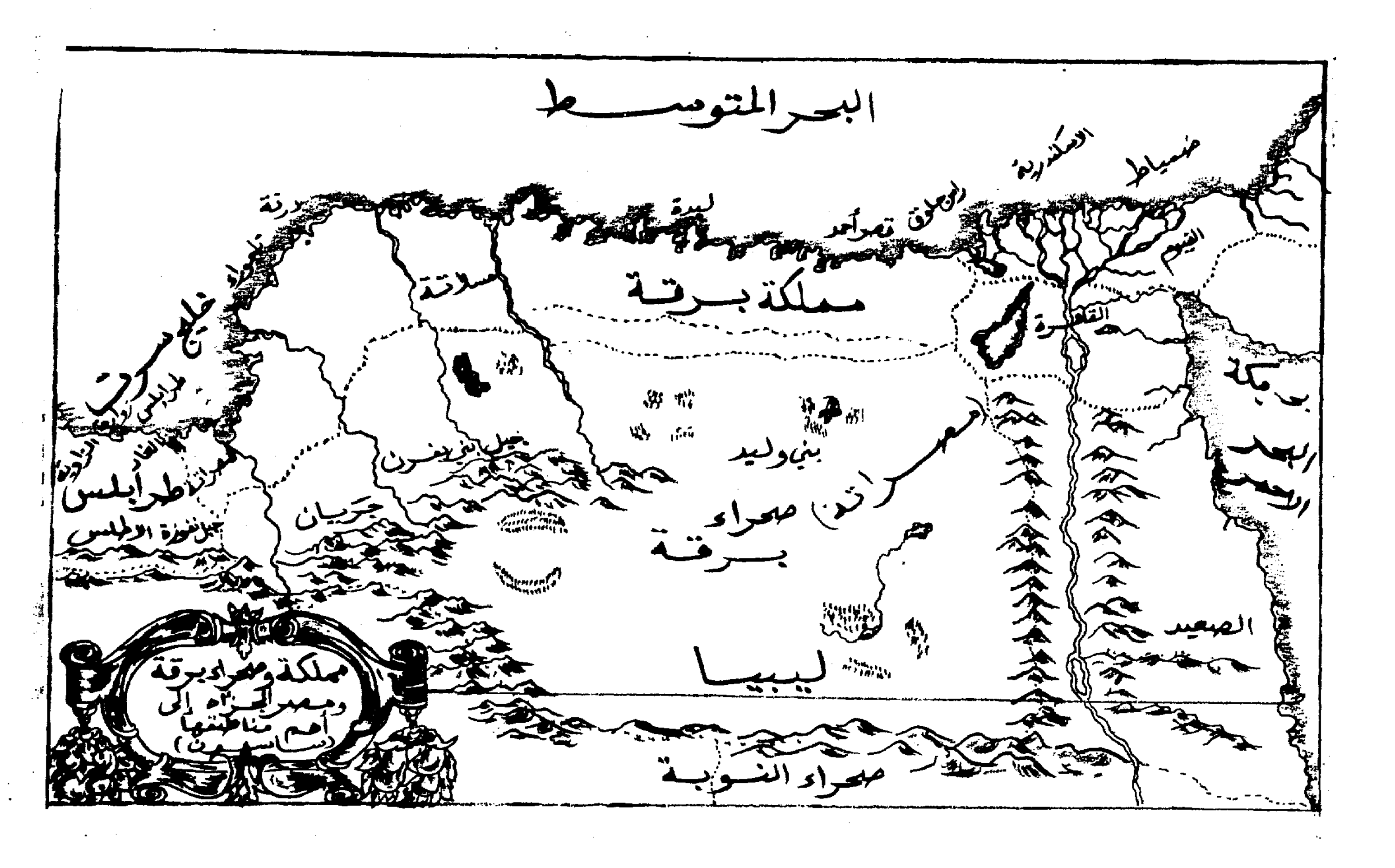
إثيوبيا العليا أو بلاد الاحباش

الكتاب الحادي عشر

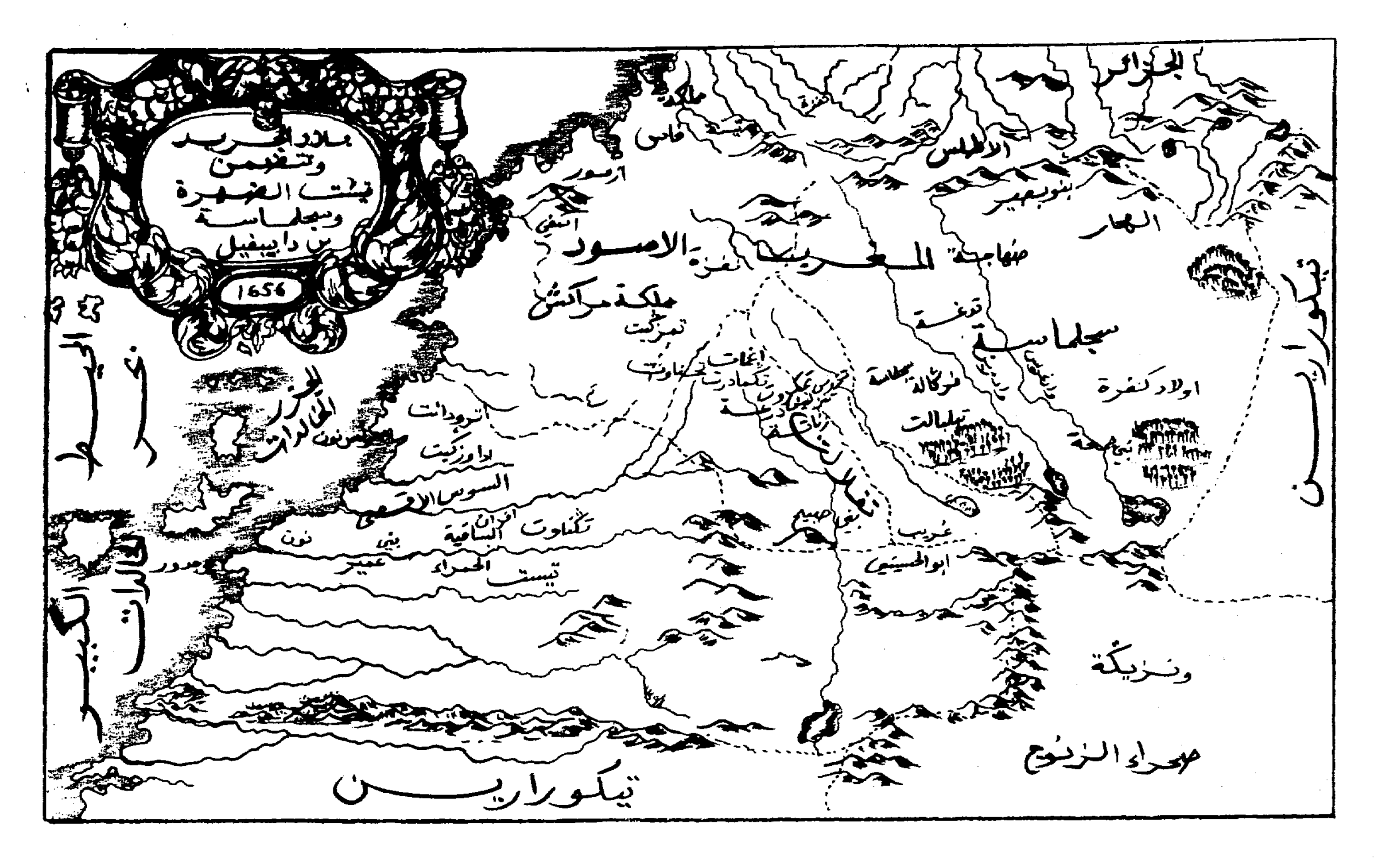
مصر وما بها مما يستحق الذكر

الخرائط :

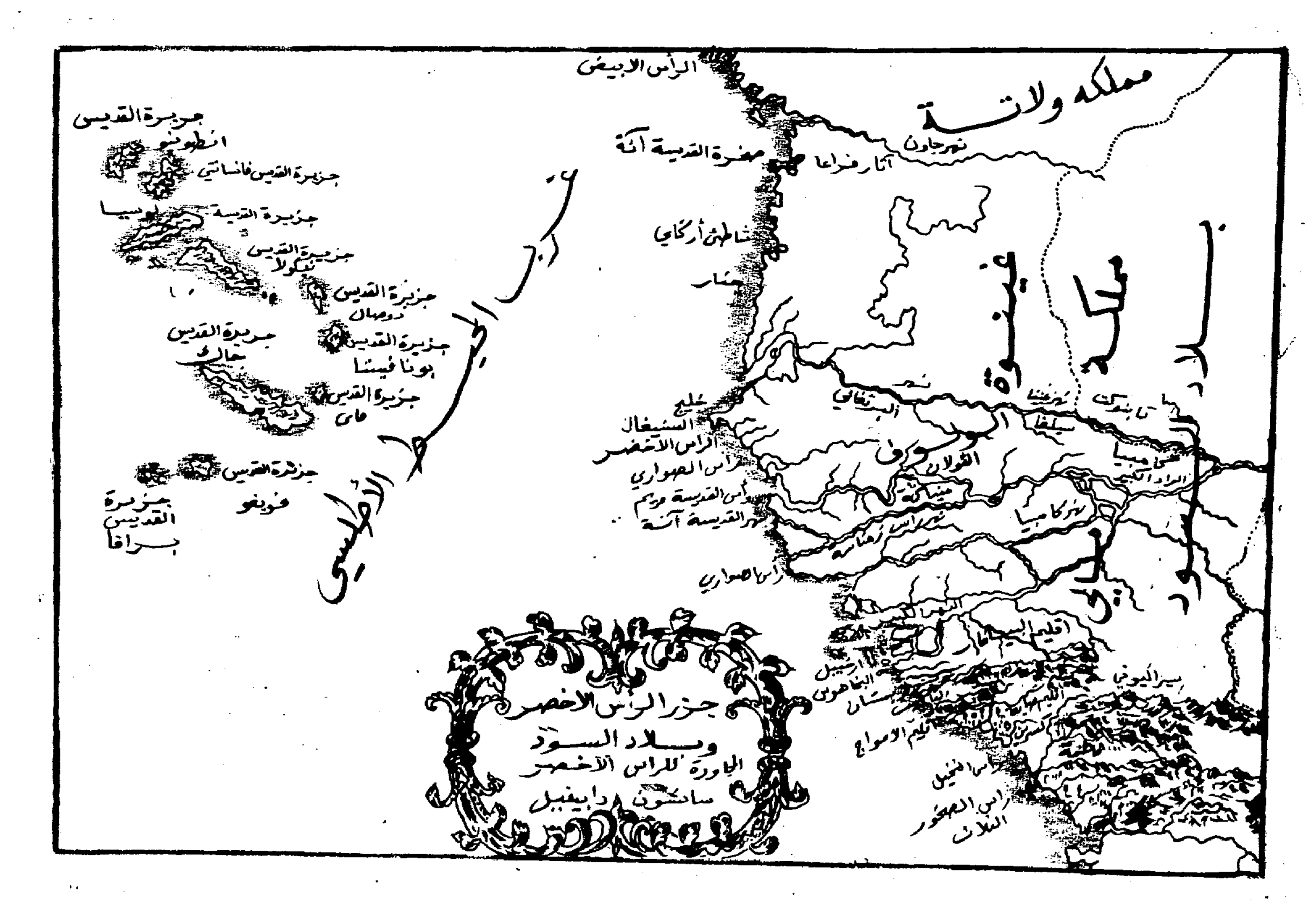

ممالك تونس وطرابلس
من بلاد البربر
المتوسط
ليموسا
لامبيدوسا
تونس
قابس
خليج سرته
الزاب
غدامس
فزان

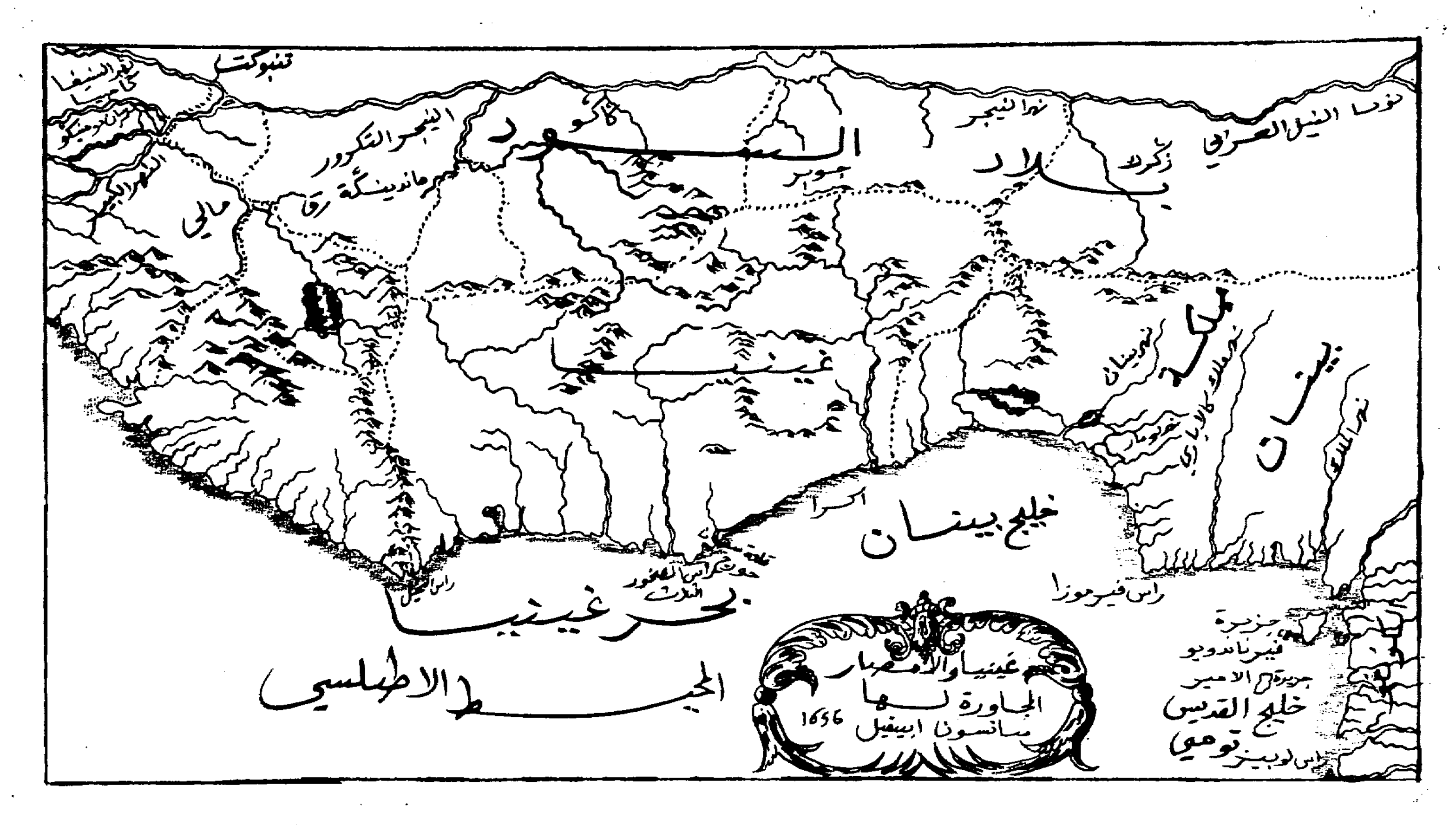


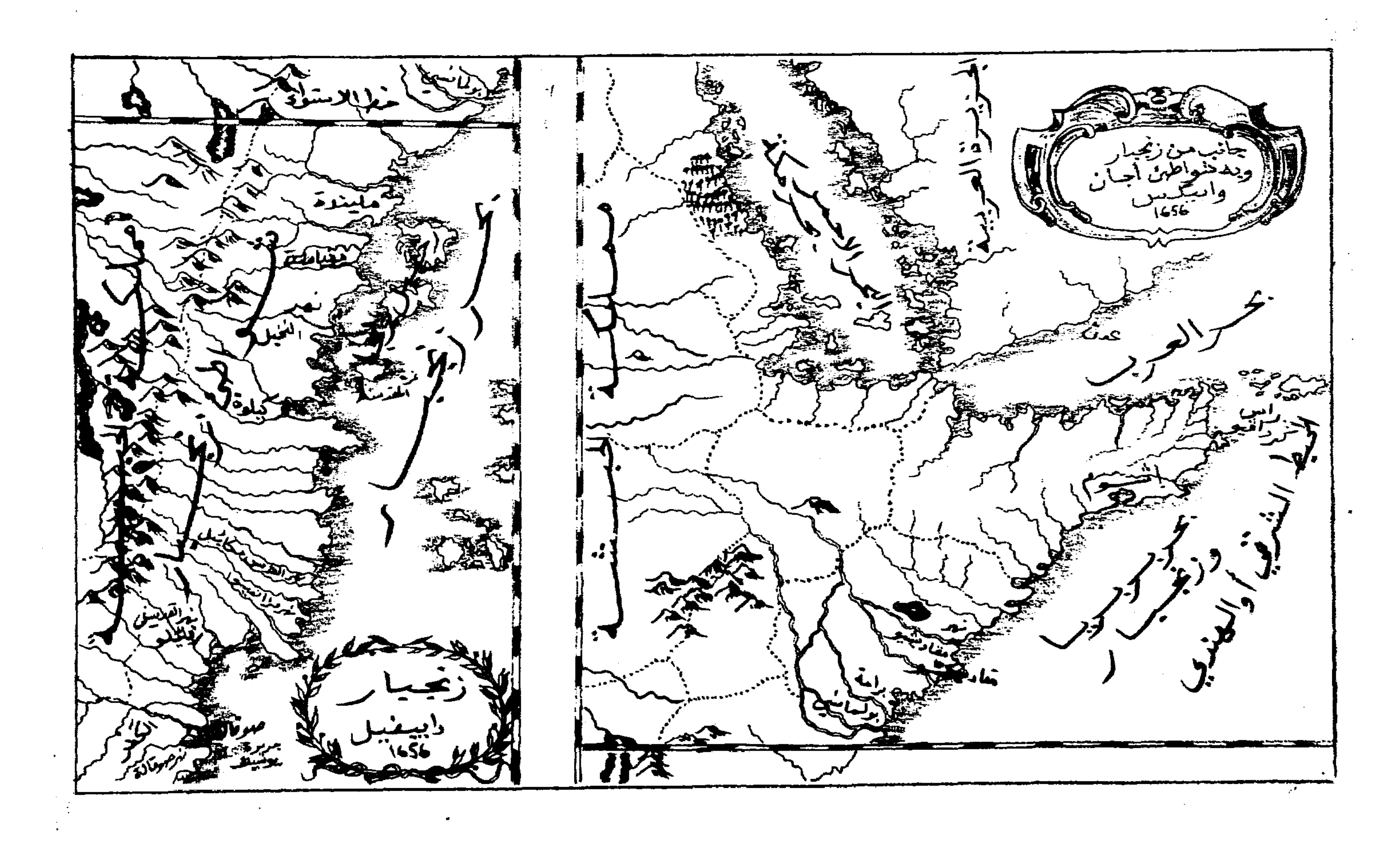
البحر المتوسط
مملكة برقة
صحراء برقة
ليبيا
بني وليد
صحراء النوبة
الصعيد
القاهرة
الإسكندرية
دمياط
الفيوم
طرابلس



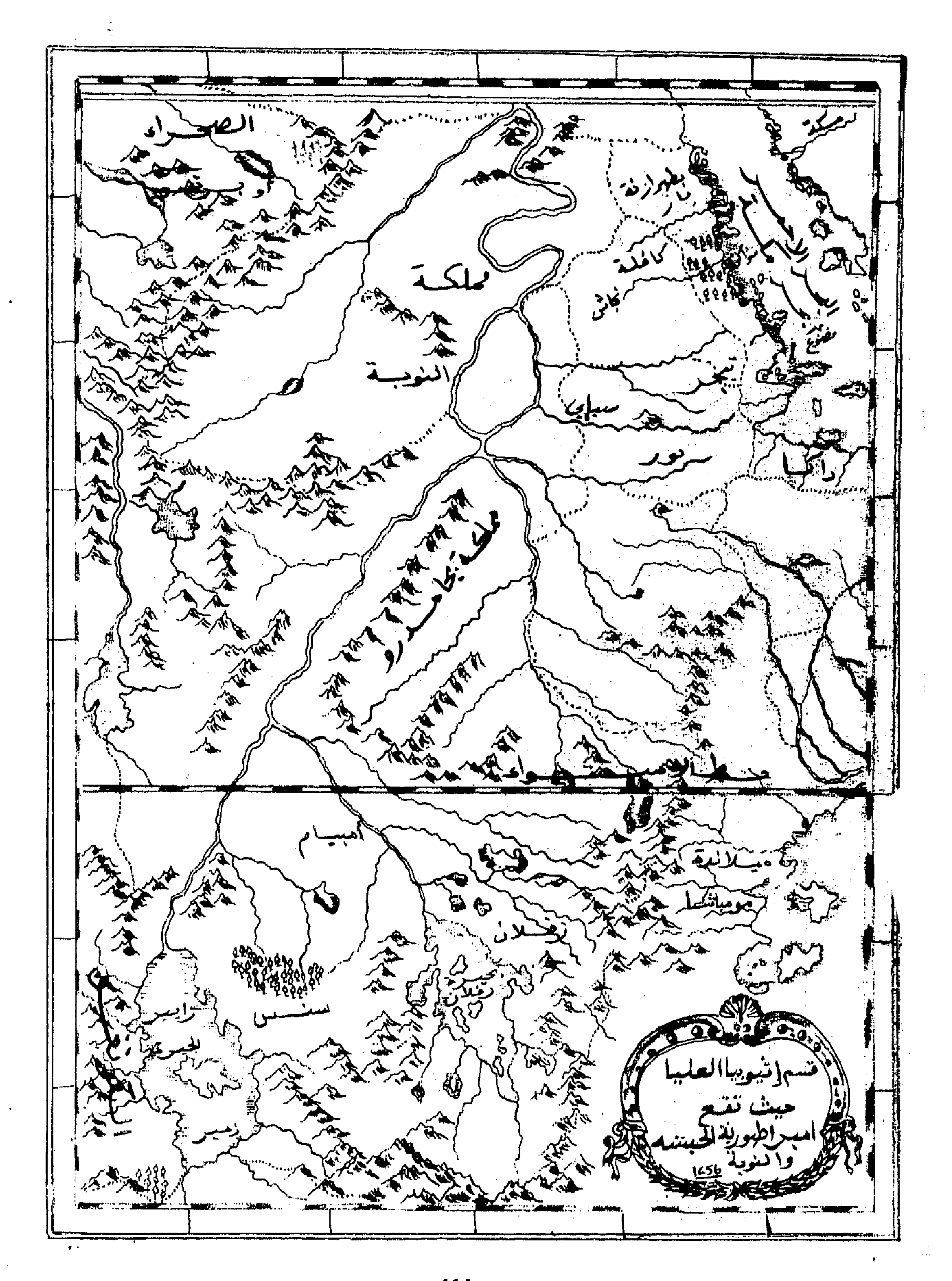
1656
الجزائر
فاس
الأطلس
ملكة مراكش
سجلماسة
السوس الأقصى
الساقية
الحمراء
نون
تيكورارين
صحراء الزنوج


جزر الرأس الأخضر
وبلاد السود
المجاورة للرأس الأخضر
مملكه ولاتة
غينوة
مملكة مالي
بلاد السود
غرب البحر الأطلسي
الرأس الأبيض
جزيرة القديس أنطونو
جزيرة القديس فانسانتي
جزيرة القديسة لوسيا
جزيرة القديس نيكولا
جزيرة القديس دومبال
جزيرة القديس بونا فيستا
جزيرة القديس جاك
جزيرة القديس ماي
جزيرة القديس فوينو
جزيرة القديس براقا
جزيرة القديسة آنة
شاطئ أركاني
خليج السنيغال
الرأس الأخضر
رأس الصواري
إقليم الأمواج
رأس الصخور

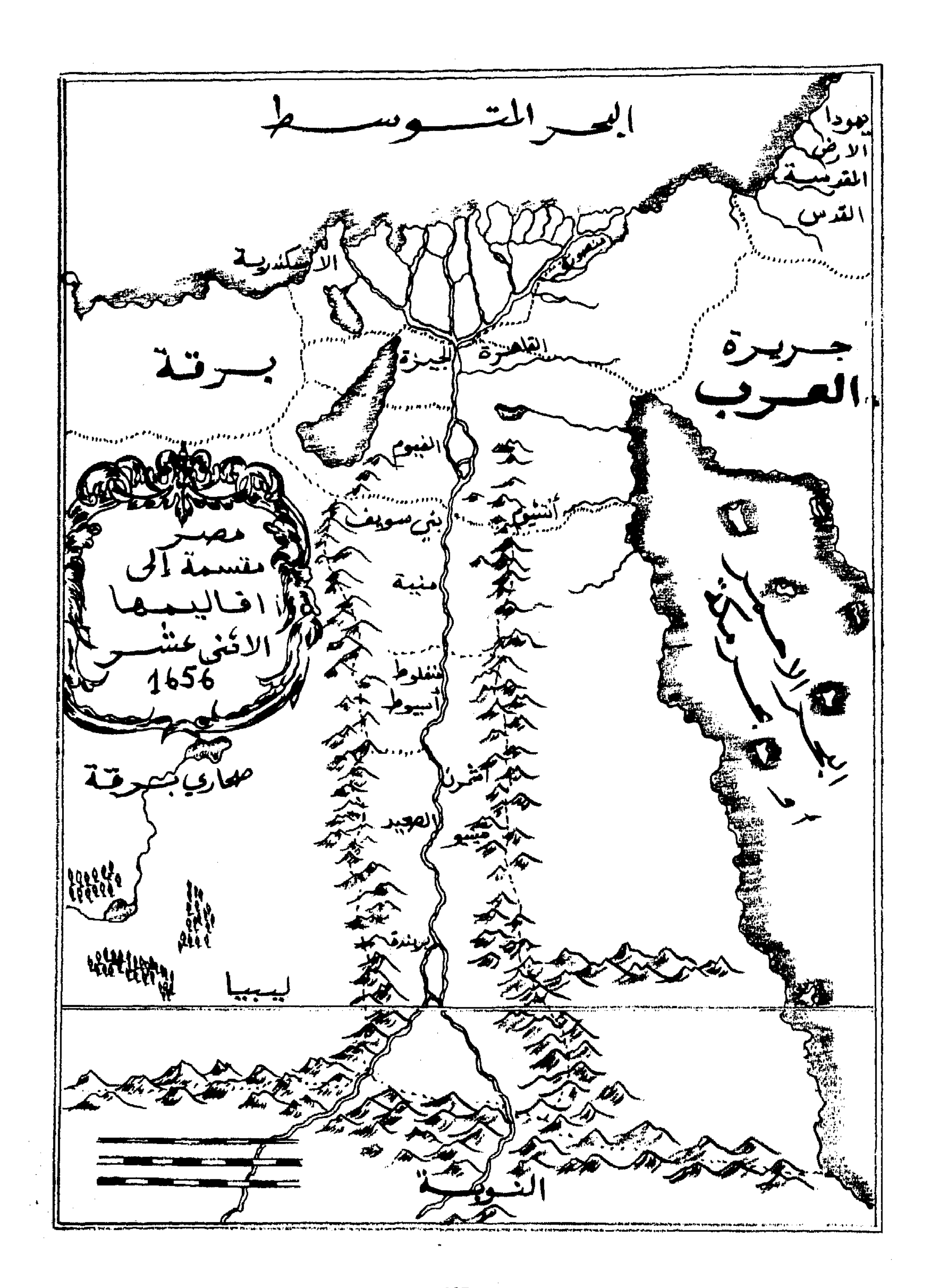

غينيا والأمصار
المجاورة لها
سانسونا ابيفيل 1656
بلاد السودان
غينيا
مملكة بينان
خليج بينان
بحر غينيا
المحيط الاطلسي
مالي
تنبوكت
نهر النيجر
راس فيرموزا
جزيرة فيرناندو بو
جزيرة الامير
خليج القديس
تومي



مملكة الحبشة
الجزيرة العربية
بحر العرب
عدن
خط الاستواء
زنجبار
1656



الصحراء
مملكة
النوبة
قسم اثيوبيا العليا
حيث تقع
امبراطورية الحبشة
والنوبة



البحر المتوسط
يهودا
الارض
المقدسة
القدس
الاسكندرية
برقة
جزيرة
العرب
القاهرة
الجيزة
الفيوم
بني سويف
منية
منفلوط
أسيوط
الصعيد
مصر
مقسمة الى
اقاليمها
الاثنى عشر
1656
صحاري برقة
ليبيا
النوبة

تمّ الطبع بمطابع المعارف الجديدة،
الرباط، المملكة المغربية

ثمن البيع 60،00 درهم

...Hecha en el Pardo a ... del mes de Março de mil y quinientos y setenta y dos años.

YO EL REY.

Por mandado de su Magestad

Antonio de Erasso.

رقم الايداع القانوني 117 — 1984

مطبعة المعارف الجديدة

الرباط 947 08/09/15/38